



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمران
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

بحوث

في الممل و النحل

الحنابلة

الجزء ٨-١

جعفر السبحاني التبريزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بحوث فى الممل و النحل

كاتب:

جعفر سبحانى

نشرت فى الطباعة:

موسسة النشر الاسلامى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٨	بحوث فى الملل و النحل
١٨	اشارة
١٨	الجزء الأول (الحنابلة)
١٨	مقدمه الطبعة الأولى
١٩	مقدمه الطبعة الثانية
٢٤	الملل والنحل فى المؤلفات الإسلامية
٢٥	الفصل الأول افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة
٣٣	الفصل الثانى بدايات الاختلاف فى عصر الرسالة
٣٥	الفصل الثالث علل تكوّن الفرق الإسلامية
٣٧	العامل الأول الاتجاهات الحزبية والتعضبات القبلية
٣٨	العامل الثانى سوء الفهم واللجاج فى تحديد
٤٠	العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل
٤٨	العامل الرابع فسح المجال للأخبار والرهبان
٦٠	العامل الخامس الاحتكاك الثقافى واللقاء الحضارى
٦١	العامل السادس الاجتهاد فى مقابل النص
٦١	الفصل الرابع فى معنى القدرية والمعتزلة
٦٨	الفصل الخامس نظرة فى كتب أهل الحديث
٨٣	الفصل السادس عسارات مدونة من عقائد أهل
٩٠	الموضوعات الهامة فى عقائد أهل الحديث
٩٠	إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة
٩٨	عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان
١١١	الإيمان بالقدر خيره و شره

- ١٢٤ ١. خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام -
- ١٢٦ ٢. كتاب الحسن السبط - عليه السلام -
- ١٢٦ ٣. رسالة عمر بن عبد العزيز -
- ١٣١ ٤. رسالة الحسن البصرى فى الدفاع -
- ١٣٧ هل الإيمان بخلافة الخلفاء من صميم الدين؟
- ١٤٤ خاتمة المطاف
- ١٦٢ الجزء الثانى (اسماعيلية)
- ١٦٢ التعارف و التآخى فى ظل البحث الموضوعى
- ١٦٣ حياة الإمام الأشعري
- ١٦٥ حياة الإمام أبى الحسن الأشعري
- ١٨٥ استدلاله على وجود الصانع سبحانه
- ١٨٦ البارئ لا يشبه المخلوقات
- ١٨٦ استدلاله على وحدانية الصانع
- ١٨٧ إعادة الخلق المعدوم جائز
- ١٨٨ الله سبحانه ليس بجسم
- ١٨٩ صفاته الذاتية
- ١٩٠ صفاته قديمة لا حادثه
- ١٩١ صفاته زائدة على ذاته
- ١٩٥ رأيه فى الصفات الخبرية
- ٢٠٢ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه
- ٢٢٤ الاستطاعة مع الفعل لا قبله
- ٢٣٣ رؤية الله بالأبصار
- ٢٥٢ كلام الله سبحانه هو الكلام النفسى
- ٢٥٧ كلام الله غير مخلوق أو قديم

- ٢٦٤ عموم إرادته لكلّ شيء
- ٢٦٦ التحسين والتقبيح العقليان
- ٢٧٣ خاتمة المطاف
- ٢٧٨ حياة أبطال الأشاعرة وعباقرتهم
- ٢٧٨ القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ)
- ٢٨٠ أبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى ٤٢٩هـ)
- ٢٨٢ إمام الحرمين عبد الملك بن عبدالله
- ٢٨٤ حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)
- ٢٨٩ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني
- ٢٩٢ الفخر الرازي (٥٤٣-٦٠٦هـ)
- ٢٩٥ سيف الدين الأمدى (٥٥٦-٦٢١هـ)
- ٢٩٧ عبدالرحمن عضد الدين الإيجى (٧٠٠-٧٥٦هـ) (١)
- ٢٩٨ مسعود بن عمر التفتازانى (٧١٢-٧٩١هـ) (٦)
- ٣٠٠ السيد الشريف الجرجاني الأستر آبادى (٧٤٠-٨١٦هـ)
- ٣٠٠ علاء الدين على بن محمد القوشجى مؤلف
- ٣٠٣ فتوى شاذة عن الكتاب والسنة
- ٣٠٤ الجزء الثالث (الماتريديّة، والمرجئيّة)
- ٣٠٤ اشاره
- ٣٠٤ مقدمة
- ٣٠٥ الماتريديّة
- ٣٠٥ اشاره
- ٣٠٥ الماتريديّة
- ٣٠٥ الداعيان إلى منهج أهل الحديث متعاصران
- ٣٠٦ منهج الماتريدى موروث من أبي حنيفة

- ٣٠٧ لمحمة عن حياة الماتريدي
- ٣١٣ ١ - استيلاؤه على العرش:
- ٣١٤ ٢- معرفته سبحانه واجبه عقلاً:
- ٣١٤ ٣- الاعتراف بالتحسين والتقبيح العقليين:
- ٣١٥ ٤- التكليف بما لا يطاق غير جائز:
- ٣١٦ ٥- أفعال الله سبحانه معللة بالغايات:
- ٣١٩ ٦ - الماتريدي والصفات الخبرية:
- ٣٢٢ ٧- الاستطاعة قبل الفعل أو بعده:
- ٣٢٢ ٨- القدرة سالحة للضدين:
- ٣٢٣ ٩- الماتريدي وأفعال العباد:
- ٣٢٥ ١٠- صفاته عين ذاته:
- ٣٢٧ أنصاره وأتباعه في الأجيل المتأخرة:
- ٣٣٢ المرجنة
- ٣٤٧ القدرية
- ٣٥٩ الجهمية
- ٣٦٢ الكرامية
- ٣٦٣ الظاهرية (١)
- ٣٦٧ المعتزلة
- ٣٦٧ اشاره
- ٣٦٧ المعتزلة
- ٣٧١ الفصل الأول
- ٣٧٦ الفصل الثاني
- ٣٧٨ الفصل الثالث
- ٣٨٩ الفصل الرابع

٤١٠	الفصل الخامس
٤١٨	الفصل السادس
٤١٩	الفصل السابع
٤٢٤	الأصل الأول التوحيد
٤٣٦	الأصل الثاني العدل
٤٣٦	العدل
٤٣٩	المسألة الأولى: قدرته سبحانه على القبيح
٤٤٠	المسألة الثانية: في أن أفعال العباد، ليست
٤٤٧	المسألة الثالثة: في تقدم الاستطاعة على الفعل
٤٤٨	المسألة الرابعة: في قبح التكليف بما لا يطاق
٤٤٨	المسألة الخامسة: في أن الله لا يريد المعاصي
٤٥٠	المسألة السادسة: في وجوب اللطف
٤٥٣	المسألة السابعة: في حدوث كلامه تعالى
٤٥٨	المسألة الثامنة: ما تتعلق بالنبوات و الشرائع و
٤٥٩	الأصل الثالث الوعد والوعيد
٤٧٠	الأصل الرابع المنزلة بين المنزلتين
٤٧٢	الأصل الخامس الأمر بالمعروف و التهي عن
٤٧٥	خاتمة المطاف
٤٨٩	الجزء الرابع (يتناول حياة ابن تيمية)
٤٨٩	اشاره
٤٩٠	مقدمة
٤٩٠	كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة
٥٠٠	ابن تيمية: حياته والرأى العام فيه
٥١٤	الإتهام بالشرك والبدعة

- ٥١٤ ابن تيمية
- ٥٢٥ البدعة في الدين وما هو حدها
- ٥٣١ التبرك بأثار النبي الأكرم والصالحين
- ٥٣٤ عقائد ابن تيمية
- ٥٣٤ عقائد ابن تيمية
- ٥٣٤ ابن تيمية ورأيه في الصفات الخبرية (١)
- ٥٤٤ ابن تيمية وشد الرحال إلى زيارة النبي - صَلَّى اللهُ
- ٥٤٩ ابن تيمية ورأيه في زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عليه
- ٥٥٩ ابن تيمية والبناء على القبور
- ٥٧٢ ابن تيمية وبناء المساجد على القبور
- ٥٧٧ ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء
- ٥٧٩ ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين
- ٥٨١ اقسام التوسل:
- ٥٨١ التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم
- ٥٩١ التوسل إلى الله بحق النبي وحرمة ومنزلته
- ٥٩٤ التوسل بدعاء النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم -
- ٥٩٩ ابن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيحاً
- ٦٠٤ ابن تيمية والنذر لأهل القبور
- ٦٠٧ ابن تيمية والحلف بغير الله تعالى
- ٦١١ ابن تيمية والحلف على الله بحق الأولياء
- ٦١٤ ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم
- ٦١٩ تاريخ الوهابية
- ٦٣١ تاريخ الإمارة القبلية السعودية
- ٦٣١ الفترة الأولى

- ٦٣٢ الفترة الأولى لحياة العائلة
- ٦٤١ الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية
- ٦٥٤ الجزء الخامس (يتناول تاريخ الخوارج)
- ٦٥٤ اشاره
- ٦٥٤ المقدمة
- ٦٥٥ الفصل الأول بداية الاختلاف بعد رحلة الرسول
- ٦٦٠ الفصل الثاني حوادث وطوارئ مريرة في عصر
- ٦٧٤ الفصل الثالث نشوء الخوارج عند مخالفتهم لمبدأ
- ٦٧٩ الفصل الرابع تحركاتهم السياسية بعد مبدأ
- ٦٨١ الفصل الخامس موقف الإمام من رأى الحكمين
- ٦٨٧ الفصل السادس تحركاتهم العسكرية بعد صدور
- ٦٩٣ الفصل السابع انتفاضات الخوارج بعد حرب
- ٧٠١ الفصل الثامن الخوارج في عصر معاوية بن أبى
- ٧٠٩ الفصل التاسع ألقاب الخوارج وفرقهم
- ٧٣٣ الفصل العاشر عقائد الاباضية وأصولهم الثمانية
- ٧٥٣ الفصل الحادى عشر مؤسس المذهب الاباضى
- ٧٧١ الفصل الثانى عشر فى عقائد فرق الخوارج
- ٨٢١ الجزء السادس (يتناول تاريخ الشيعة)
- ٨٢١ اشاره
- ٨٢١ مقدمة المؤلف
- ٨٢٢ الشيعة لغةً و اصطلاحاً
- ٨٢٤ الفصل الأول بيان متطلبات الظروف فى عصر
- ٨٣١ الفصل الثانى ماهو المرتكز فى أمر القيادة فى
- ٨٣٢ الفصل الثالث ماهو مقتضى الكتاب والسنة

٨٤٥	الفصل الرابع ما هو السرّ
٨٥٢	الفصل الخامس مبدأ التشيع و تاريخ تكونه
٨٥٧	الفصل السادس افتراضات وهمية حول تاريخ
٨٧٤	الفصل السابع صيغة الحكومه عند أهل السنّة
٨٨٣	الفصل الثامن نصوص الخلافة والركون إلى الأمر
٨٩٠	الفصل التاسع الشيعة في العصرين الأموي
٨٩٩	الفصل العاشر في عقائد الشيعة الإمامية
٩٤٤	الفصل الحادي عشر في الأئمة الإثنى عشر
٩٩٥	الفصل الثاني عشر دور الشيعة في بناء الحضارة
١٠٢٥	الفصل الثالث عشر في بلدان الشيعة وجامعاتهم
١٠٣٧	الفصل الرابع عشر مصادر الأصول والفروع عند
١٠٤٣	فهرس مصادر الكتاب
١٠٤٨	الجزء السابع (الزيدية)
١٠٤٨	مقدمة
١٠٤٩	القسم الأول : فهرس إجمالي لفصول القسم
١٠٤٩	اشاره
١٠٤٩	الفصل الأول فرق الشيعة بين الحقائق والأوهام
١٠٧٣	الفصل الثاني حياة زيد في عصر الأئمة الثلاثة
١٠٨٢	الفصل الثالث في خطبه، وكلماته
١٠٩٤	الفصل الرابع مشايخه وتلاميذه
١١٠٣	الفصل الخامس الآثار العلمية الباقية عن زيد
١١٠٧	الفصل السادس دراسة مسند الإمام زيد
١١٢١	الفصل السابع هل كان زيد معتزلي المبدأ والفكرة
١١٢٤	الفصل الثامن هل كان زيد إماماً

- ١١٣٣----- الفصل التاسع هل دعا إلى نفسه
- ١١٤٠----- الفصل العاشر موقف أئمة أهل البيت
- ١١٤٣----- الفصل الحادى عشر الخط الثورى
- ١١٤٩----- الفصل الثانى عشر موقف علماء الشيعة
- ١١٥٣----- الفصل الثالث عشر الثورات الناجمة عن ثورة
- ١١٧٦----- القسم الثانى : فهرس إجمالى لفصول القسم
- ١١٧٦----- اشاره
- ١١٧٦----- الفصل الأول عرض إجمالى للتأثرين بعد الإمام زيد
- ١١٧٩----- الفصل الثانى أصحاب الانتفاضة
- ١١٩٢----- الفصل الثالث أئمة الزيدية ودولتهم فى اليمن
- ١١٩٧----- الفصل الرابع أئمة الزيدية ودولتهم فى طبرستان
- ١١٩٨----- الفصل الخامس الدولة الزيدية فى المغرب
- ١٢٠٠----- الفصل السادس الأعلام المجتهدون من الزيدية
- ١٢٢٠----- الفصل السابع شخصيات زيدية ذات اتجاهات خاصة
- ١٢٢٩----- الفصل الثامن فرق الزيدية فى كتب تاريخ العقائد
- ١٢٣٤----- الفصل التاسع فى عقائد الزيدية
- ١٢٥٠----- الفصل العاشر فى أمور متفرقة
- ١٢٦٢----- الجزء الثامن (اسماعيلية)
- ١٢٦٢----- تمهيد
- ١٢٦٣----- الفصل الأول
- ١٢٦٩----- الفصل الثانى
- ١٢٧٢----- الفصل الثالث
- ١٢٧٨----- الفصل الرابع : عبد الله بن ميمون القداح
- ١٢٧٨----- اشاره

- ١٢٧٨ عبد الله بن ميمون القداح إسماعيلي أو اثنا
- ١٢٧٨ عبد الله بن ميمون الإمامي في كتب الرجال
- ١٢٨٠ عبد الله بن ميمون الإسماعيلي
- ١٢٨٢ ما روى عن عبد الله بن ميمون الإمامي في
- ١٢٨٩ الفصل الخامس : في الأئمة المستورين
- ١٢٨٩ الفصل الخامس في الأئمة المستورين
- ١٢٩٠ الإمام الأول (١)
- ١٢٩٧ الإمام الثاني محمد بن إسماعيل
- ١٣٠١ الإمام الثالث عبد الله بن محمد بن إسماعيل
- ١٣٠٢ الإمام الرابع أحمد بن عبد الله
- ١٣٠٣ الإمام الخامس الحسين بن أحمد
- ١٣٠٦ الفصل السادس : في الأئمة الظاهرين
- ١٣٠٧ الإمام السادس عبيد الله المهدي
- ١٣١١ الإمام السابع القائم بأمر الله
- ١٣١٢ الإمام الثامن الإمام المنصور بالله
- ١٣١٣ الإمام التاسع المعز لدين الله
- ١٣١٦ الإمام العاشر العزيز بالله
- ١٣١٧ الإمام الحادي عشر الحاكم بأمر الله
- ١٣١٨ انشقاق الإسماعيلية
- ١٣١٩ الإمام الثاني عشر
- ١٣٢٠ الإمام الثالث عشر
- ١٣٢١ الفصل السابع : في أئمة المستعليه
- ١٣٢١ الإمام الأول
- ١٣٢١ الإمام الثاني

- الإمام الثالث ١٣٢٣
- الإمام الرابع ١٣٢٣
- الإمام الخامس ١٣٢٤
- الإمام السادس ١٣٢٤
- الفصل الثامن : فى أئمة النزارية المؤمنية ١٣٢٤
- اشاره ١٣٢٤
- قائمة الأئمة النزارية المؤمنية: ١٣٢٤
- قائمة الأئمة النزارية القاسمية - الأغانية: ١٣٢٧
- الإمام الأول ١٣٢٨
- الإمام الثانى ١٣٣١
- الإمام الثالث ١٣٣١
- الإمام الرابع ١٣٣٢
- الإمام الخامس ١٣٣٢
- الإمام السادس ١٣٣٢
- الإمام السابع ١٣٣٣
- الإمام الثامن ١٣٣٣
- الإمام التاسع ١٣٣٣
- الفصل التاسع ١٣٣٤
- الفصل العاشر : فى الإسماعيلية والأصول ١٣٣٩
- اشاره ١٣٣٩
- عقيدتهم فى التوحيد ١٣٣٩
١. عقيدتهم فى توحيدة سبحانه، أنه واحد لا مثل ١٣٣٩
٢. أنه سبحانه ليس أيضا: ١٣٣٩
٣. فى نفى التسمية عنه: ١٣٤١

- ١٣٤٢ ٤. نفى الصفات عنه:
- ١٣٤٣ ٥. الصادر الأول هو الموصوف بالصفات العليا:
- ١٣٤٤ عقيدتهم فى العدل
- ١٣٤٤ عقيدتهم فى العدل
- ١٣٤٤ ١. الإنسان مختير لا مسير
- ١٣٤٤ ٢. القضاء والقدر لا يسلبان الاختيار
- ١٣٤٤ عقيدتهم فى النبوة
- ١٣٤٥ ١. النبوة أعلى درجات البشر
- ١٣٤٥ ٢. الرسالة الخاصة والعامه
- ١٣٤٥ ٣. الوحي
- ١٣٤٦ ٤. فى أنالأنبياء لا يولدون من سفاح
- ١٣٤٦ ٥. فى صفات الأنبياء
- ١٣٤٦ ٦. الرسول الناطق
- ١٣٤٧ ٧. فى المعجزات التى يأتى بها الرسل
- ١٣٤٨ ٨. فى أن الرسول الخاتم أفضل الرسل
- ١٣٤٨ ٩. فى أن الشريعة موافقة للحكمة
- ١٣٤٨ ١٠. فى أنالشريعة لها ظاهر وباطن
- ١٣٤٩ عقيدتهم فى الإمامة
- ١٣٤٩ عقيدتهم فى الإمامة
- ١٣٤٩ المقام الأول: الإمامة المطلقة
- ١٣٥٠ المقام الثانى: فى الإمامة الخاصة
- ١٣٥٧ عقيدتهم فى المعاد وما يرتبط به
- ١٣٥٧ عقيدتهم فى المعاد وما يرتبط به
- ١٣٥٧ ١. فى أن المعاد روحانى لا جسمانى

١٣٥٨	٢. فى التناسخ
١٣٥٩	٣. فى الحساب
١٣٥٩	٤. فى الجنة
١٣٥٩	٥. فى الملائكة
١٣٦٠	٦. فى الجن
١٣٦٠	الفصل الحادى عشر
١٣٧٥	الفصل الثانى عشر
١٣٨٧	الفصل الثالث عشر
١٤٠٣	الفصل الرابع عشر
١٤٠٤	الفصل الخامس عشر
١٤١١	الفصل السادس عشر
١٤٢٠	الفصل السابع عشر
١٤٢٦	الفصل الثامن عشر
١٤٣٦	خاتمة المطاف
١٤٤٩	تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

عصرنا الحاضر طلبت منى «لجنة إدارة الحوزة العلمية» في قم المقدسة، إلقاء سلسلة محاضرات في آراء ومعتقدات الطوائف المختلفة التي شهدتها الساحة الفكرية الإسلامية في العصور اللاحقة لوفاء النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -، وذلك في إطار من التحليل، والمقارنة والدراسة والتقييم، فليت هذا الطلب وتم بتوفيق الله تعالى إلقاء مجموعة من المحاضرات في هذا المجال، ليكون مقدّمة للمرحلة التخصصية. ثم حذت لجنة الإدارة طبع ونشر هذه المحاضرات حتى يستفيد منه عامة

١. البقرة: ١١١.

٢. الزمر: ١٨. (٦)

طلّاب الدراسات الإسلامية، فأخرجتها في عدة أجزاء، وهذا هو الجزء الأوّل الذي يقدّم للقراء. فشكراً لهذه اللجنة على اهتمامها بهذه العلوم، ووفّقها الله للمزيد من تقديم الخدمات الثقافية المفيدة إنّه سميع مجيب الدعاء. هذا، والرجاء من القراء الكرام تزويدنا بنقدهم البناء حتى تكتمل هذه المباحث بإذنه تعالى. جعفر السبحاني

قم - الحوزة العلمية

يوم ميلاد فاطمة الزهراء - عليها السلام -

٢٠ جمادى الأولى / ١٤٠٨ هـ - (٧)

مقدّمة الطبعة الثانية

مقدّمة الطبعة الثانية مؤرّخ العقائد ومسؤوليته الخطيرة

التاريخ من العلوم الإنسانية التي اهتم بها البشر منذ فجر الحضارة، وقد قام إنسان كلّ عصر وجيل بضبط الحوادث التي عاصرها وعاشها أو تقدّمت عليه، بمختلف الوسائل من أبسطها إلى أعقدها حيث كان يسجل الحوادث، يوماً بالنقش على الأحجار والجدران، ويوماً بالكتابة على الجلود والعظام وجريد النخل، ويوماً بالتحريير على القراطيس والأوراق حتى وصل إلى ما وصل إليه في العصر الحاضر من وسائل الإعلام والنشر. وقد قدّم بعمله هذا إلى الأجيال المتأخّرة كنزاً ثميناً، ورصيداً فكرياً غالياً وغنياً وتجارب ملؤها العبر والدروس، والمواعظ والنصائح التي لا يوجد نظيرها في أيّ مختبر من مختبرات العالم سوى في هذا المختبر (التاريخ). (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب). (١)

وربما يتصوّر متصوّر أنّ تسجيل التاريخ وضبط الحوادث أمر سهل لا يستدعى سوى الشعور بالوقائع، ومعرفة اللغة والكتابة، ولكنني أعتقد - ككثير ممّن لهم إمام بالمسائل التاريخية - أنّ كتابة التاريخ الحقيقي الصحيح الذي يمكن أن يكون مساقط العبر والاعتبار، ومهابط الوعظ والنصح، أمر مشكل جداً، لأنّ الهدف من تسجيل الحوادث، هو: إراءتها للأجيال المتأخّرة على ما هي عليه سواء أكانت الحوادث بعامة خصوصياتها موافقة مع ميوله

١. يوسف: ١١١. (٨)

ونزعاته أم لا، وسواء أكانت لصالح المؤرّخ وقومه أم لا. ومن المعلوم أنّ القيام بذلك، يتوقّف على كون المؤرّخ رجلاً موضوعياً متبنيّاً للحقيقة، ومحبّاً لها أكثر من حبه لنفسه ونفيسه و مصالحه، ولكن هذا النمط نادر بين المؤرّخين ولا يقوم به منهم إلاّ الأمثل فالأمثل ولا- يأتي بمثله الزمان إلاّ في الفينة بعد الأخرى ولأجل ذلك قلّ المؤرّخون الموضوعيون المنصفون، فإنّ أكثرهم يركّزون على ما يروقهم وما يلائم أهواءهم والمذهب الذي يعتقونه، ويتركون ما سوى ذلك، وليس هذا شيئاً محتاجاً إلى البرهنة والاستدلال، بل يتّضح بالرجوع إلى ما أُلّف من التواريخ أيام الدولتين: الأموية والعباسية، فكلّ يخدم الحكومة التي كانت تعاصره وتدر عليه الرزق، ومن ثمّ صارت التواريخ علبه المتناقضات، وما ذاك إلاّ- لأنّ الكاتب لم يراع واجبه الأخلاقي والاجتماعي وقبل كلّ شيء مسؤوليته الدينية. تاريخ العقائد وتسجيل الفرق

هذا فيما يرجع إلى مطلق التاريخ والوقائع التي يواجهها المؤرخ في كل عصر ومصر سواء أكانت راجعة إلى الملوك والساسة، أو السوقة والشعوب، وأما تبيين عقائد الأمم ومذاهبها التي كانت تدين أو تتمذهب بها على ما هي عليه، فذاك أمر صعب مستصعب، وأشكل من القيام بالرسالة المتقدمة في مجال تسجيل الحوادث وضبط الوقائع، وما هذا إلا لأن المؤلف في هاتيكت المجالات - إلا ما شد - مشدود إلى نزعات دينية وعقائد قومية ترسخت في ذهنه ونفسه وروحه، والفكرة الدينية صحيحة كانت أو باطله من أحب الأشياء عند الإنسان وربما يضحي في سبيلها بأثمن الأشياء وأغلاها. هذا من جهة ومن جهة أخرى: إن القيام بهذه المهمة في مجال تاريخ العقائد يتوقف على تحلي المؤرخ بالشجاعة الأدبية والعلمية حتى يتمكن بهما من البحث الموضوعي حول عقائد الشعوب وعرضها على ما هي عليه، والقيام بهذا الواجب عند فقدان هذين العاملين مشكل جداً، ومن ثم يتحمل مؤرخ العقائد مسؤولية جسيمة أمام الله أولاً، وأمام وجدانه ثانياً، وأمام الأجيال القادمة والتاريخ ثالثاً. (٩)

ومن المؤسف أن أكثر من قام بتدوين عقائد الملل لم يتجرد عن أهوائه وميوله ومصالحه الشخصية وغلبت نزعاته وعواطفه الدينية وتعصباته الباطلة على تبنى الواقع وإراءة الحقيقة، فترى أن أكثرهم يكتب عقيدة نحلته بشكل مرغوب منمق ويحاول أن يصحح ما لا يصح ولو بتحريف التاريخ وإنكار المسلمات، وأما إذا أراد الكتابة عن عقائد الآخرين فلا يستطيع أن يكن عداء لها، ولهذا يحاول أن يعرضها بصورة مشوهة، فيأتي في غضون كلامه بنسب مفتعلة وآراء مختلفة وأكاذيب جمّة نزولاً على حكم العاطفة الدينية الكاذبة، أو اعتماداً على الكتب التي لا يصح الاعتماد عليها، أو تساهلاً في ضبط العقائد والمذاهب، إلى غير ذلك من العوامل التي صارت سبباً لحيرة الأجيال المتأخرة في مجال التعرف على عقائد الأقوام والملل، وضلالها وإساءة الظن فيها. وأخص من تلك العوامل، الاكتفاء في تبيين عقائد قوم بالرجوع إلى كتب خصومهم وأعدائهم، وهذا داء عم أكثر مؤرخي العقائد والنحل، نظير من ألف من الأشاعرة في ضبط عقائد المعتزلة، فهم يكتبون عن المعتزلة في ضوء ما وجدوه في كتاب إمام الحنابلة (أحمد بن حنبل) أو إمامهم (أبو الحسن الأشعري) فينسبون إليهم أموراً لا تجد لها أثراً في كتبهم، بل تجد نقيضه فيها، ولأجل ذلك صارت المعتزلة مهزومة الحق. وليست المعتزلة هي الفرقة الوحيدة التي تعرضت لمثل هذا الهضم، بل قد تحملت الشيعة الإمامية القسط الأوفر من الاضطهاد والهضم، وكان أصحاب المقالات والفرق اتفقت كلمتهم على الكتابة عنهم من دون مراجعة ولو عابرة - إلى مصادرهم ومؤلفاتهم، وكان عرض الشيعة حلال ينهبه كل من استولى عليه بقلمه وبيانه، والقوم يكتبون عن الشيعة كل شيء وليس عندهم من الشيعة شيء سوى كتب أعدائهم وخصمائهم ومن لا يحتج به في باب القضاء والحجاج. وما نحن نقدم نموذجاً في هذا الباب ونشير إلى كتابين أحدهما لبعض المتقدمين والآخر لبعض المعاصرين، فترى كيف أنهما تساهلا في عرض عقائد الشيعة ونزلا على حكم العاطفة، ورمياها بكل فرية، وكان الصدور مملوءة بالحق والعداء، وإليك البيان: (١٠) الشهرستاني وكتابه «الملل والنحل»

إن كتاب «الملل والنحل» للمتكلم الأشعري «أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني» (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) من الكتب المشهورة في هذا الباب وأكثرها تداولاً بين أتباعه، ولعل كثيراً من أهل العلم لا يعرفون كتاباً في هذا الموضوع سواه. ومع هذه الشهرة ترى في طيات الكتاب نسباً مفتعلة وآراء مختلفة عندما يعرف الشيعة، مما يندى له الجبين، ويخجل القلم من تحريره وتسطيره، وإليك بعض ما نسبه إليهم: ١. من خصائص الشيعة القول بالتناسخ والحلول والتشبيه. (١) ٢. إن الإمام الهادي - عليه السلام - - عشر الأئمة الاثني عشر - توفي بقم ومشهده هناك. (٢) ٣. إن هشام بن الحكم كان يقول: إن لله جسماً ذا أبعاض في سبعة أشبار بشبر نفسه في مكان مخصوص وجهه مخصوصة. (٣) ٤. إن علياً إله واجب الطاعة (٤)!! إلى غير ذلك من النسب الكاذبة التي نسبها إلى متكلم الشيعة ريب بيت الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - «هشام بن الحكم» وإلى نظرائه كهشام بن سالم وزرارة ابن أعين ومحمد بن النعمان ويونس بن عبد الرحمن. هذا مع العلم بأن هؤلاء - أعظم الشيعة - كانوا يقفون أثر أئمتهم ولم يكونوا يعتقدون مبدأ إلا بعد عرضه عليهم، ومن المعلوم أن أئمة أهل البيت

٢ . نفس المصدر.

٣ . الملل والنحل: ١/١٨٤، وهو في هذا الافتعال تبع عبد القاهر البغدادي في «الفرق بين الفرق» ص ٦٥، والشيخ الأشعري في «مقالات الإسلاميين»: ١/١٠٢... والأخير هو الأساس لأكثر من كتب في الملل والنحل.

٤ . الملل والنحل: ١/١٨٥. (١١)

وهم دعاء التنزيه كانوا يكافحون البدع اليهودية والمسيحية والمجوسية التي كانت تدور بين أندية أهل الحديث حتى قيل: «التوحيد والعدل علويان والتجسيم والجبر أمويان». فمن راجع كتب الشيعة وأحاديث أئمتهم يجد أنهم حكموا بكفر القائلين بالتناسخ والحلول والتشبيه و ألوهية غيره سبحانه، فكيف ينسب هذا الكاتب - بصلف ووقاحة - هذه الأمور إلى تلاميذ قرناء الكتاب وأعدائه؟! وأعجب من ذلك أنه يخلط للشيعة فرقاً لم تسمع بها أذن الدهر وإنما توجد في كتب أعدائهم، فمن هشامية إلى زرارية إلى يونسية إلى... من الفرق التي لا- توجد لا- في كتب القصاصين المحترفين للكذب، ولا في علب العطارين. والشيعة وعلمائهم - وفي مقدمتهم السيد الشريف المرتضى - يكذبون هذه الفرق، وقد شطبوا على وجودها بقلم عريض وهم لا يعرفونها وإنما اختلقتها الأوهام لإسقاط الشيعة من عيون الناس. هذا بعض ما يوجد في هذا الكتاب وأعجب منه أنه يعرف الإمام الهادي عليه السلام - الإمام العاشر للشيعة - بأنه مدفون بقم مع أنه دفن بسامراء يزوره القريب والبعيد، وقد دفن إلى جنبه ولده الزكي «الحسن بن علي»، والتواريخ والمعاجم طافحة بذكرهما وموضع قبرهما. (١) هذا نموذج من زلات هذا المؤرخ وهو من القداماء. وهلمّ معي إلى نموذج آخر وهو من متأخري القوم ومتنوّريهم، العائشين في عصر النور والأمانة التاريخية والعلمية. النشار وكتابه «نشأة الفكر الفلسفي»

الكتاب للدكتور «علي سامي النشار» يقع في ثلاثة أجزاء أو أزيد، وقد

١ . راجع وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/٢٧٢- ٢٧٣ وغيره. (١٢)

خص الجزء الثاني من كتابه ببيان عقائد الشيعة وهو يحاول في مقدمته أن يكتب عن عقائد الفرق بصورة محايدة، وهو يقول في مقدمته الطبعة السادسة: ولكنني ما زلت أرى أنّ التفسير الموضوعي المحايد هو أهمّ تفسير في دراسة الفكر عامة والفكر الإسلامي خاصة. (١) وربما يتصوّر الإنسان أنّ لما ذكره مسحة من الحق أو لمسة من الصدق، ولكنه عندما يسبر الكتاب ويلاحظ ما في غضونه من النسب إلى الشيعة يقف على أنّ ما ذكره في المقدمة واجهه ستر بها كلّ ما في الكتاب من العداوة المستكن وأنه لا يريد إلاّ إبطال عقائد الشيعة ولو بالنسب الباطلة، والحق أنّ الدكتور النشار وضع منشاره على حياة الشيعة تاريخاً وعقيدة، ولا يرسم عن تلك الطائفة إلاّ أموراً مشوهة وعقائد باطلة، والكتاب يحتاج جداً إلى نظارة التنقيب، وإليك نموذجاً من نسبه المفتعلة: ١. يقول عند البحث عن الإيمان: ونلاحظ أنّ في رأي «جهم» عنصراً شيعياً، فالإيمان عند الشيعة هو معرفة بالقلب فقط. (٢) ٢. إنّ الرجل يصر على إنكار كون علي - عليه السلام - رائد الفكر الفلسفي في الإسلام حتى جر عداؤه لعلي - عليه السلام - إلى إنكار النص الذي صدر عنه في منصرفه عن «صفيين» حول القضاء والقدر وذهب إلى أنّ النص موضوع، قائلاً بأنّ الذين أرادوا أن يحاربوا أهل السنة في الروايات التي رووها عن علي - عليه السلام - حول القدر، التجأوا إلى وضع هذا النص، وقد زعم أنّ جاعل هذا النص هو المعتزلة. (٣) أمّا كون علي - عليه السلام - رائد الفكر العقلي فنترك البحث فيه إلى آونة أخرى ويكفيينا في ذلك تراثه الوحيد: «نهج البلاغة» وأمّا كون النص مجعولاً من جانب المعتزلة فهذا ناجم من جهله بمصادر نهج البلاغة فقد رواها علماء الشيعة

١ . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: ١/١٧.

٢ . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: ١/٣٤٥ الطبعة السابعة، وستوافيك عقيدة الشيعة في حقيقة الإيمان عند البحث عن عقائد المرجئة، فلاحظ الجزء الثالث.

٣ . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: ١/٤١٢. (١٣)

أنفسهم بلا توسيط أحد من المعتزلة، وسيوافيك بيانه في هذا الجزء عند البحث عن الرسائل الثلاث حول القدر. والذي أوقعه في هذا

الخط والخلط لدى عرض تاريخ الشيعة وعقائدهم هو أنه اعتمد في دراسته على كتب خصمائهم وأعدائهم من دون أن يعتمد على مصادر الشيعة المتوفرة، إلا قليلاً لا يكفي. فاعتمد أولاً على كتاب «أبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملقب» (المتوفى عام ٣٧٧هـ) باسم «التبني والرد على أهل الأهواء والبدع» نشر عام ١٣٩٩هـ، والكاتب حنبلي حشوي قد حشد في كتابه شيئاً كثيراً من الأكاذيب ونسب أصولاً إلى الصحابة والتابعين بسند مزور كما سيوافيك بيانه في هذا الجزء. أفصح في ميزان النصفه الكتابه عن أمه كبيرة يعدون ربع المسلمين بالنقل عن كاتب حشوي وكتاب حشوي؟! والعجب أن الدكتور عرفه بأنه أول من كتب حول الشيعة من أهل السنة مع أن الإمام الأشعري سبق منه، فقد كتب عن الشيعة في «مقالات الإسلاميين» شيئاً كثيراً، وقد توفي الإمام عام ٣٢٤هـ وعلى احتمال ضعيف ٣٣٠هـ فكيف يكون الملقب أول من كتب حول الشيعة من أهل السنة؟! واعتمد ثانياً على كتاب «الفرق بين الفرق» لأبي منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى عام ٤٢٩هـ) ومن راجع هذا الكتاب لمس منه - مضافاً إلى البذاءة في اللسان - تعصباً في بيان عقائد الفرق ونوقفك على نموذج من هذا، فقد قال في خلال بيان أصناف فرق السنة والجماعة: ولم يكن بحمد الله ومته في الروافض و... إمام في الفقه ولا إمام في رواية الحديث ولا إمام في اللغة والنحو، ولا موثوق به في نقل المغازي والسير والتواريخ ولا إمام في الوعظ والتذكير ولا - إمام في التأويل والتفسير، وإنما كان أئمة هذه العلوم على الخصوص والعموم من أهل السنة والجماعة. (١) وقال في موضع آخر: _____

١. الفرق بين الفرق للبغدادي: ص ٢٣٢ طبع دار المعرفة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. (١٤)

يا أيها الرافضة المبطله * دعاكم من أصلها مبطله (١) هذا أدب الرجل وسيرته في الكتاب كله، ونحن نمر عليه مرور الكرام ونقول: الدعوى الأولى دعوى بلا بينة وبرهان وإنكار وجود الأئمة في مجالات هذه العلوم بين الشيعة وإنكار البديهيات، ولا نطيل الكلام في ردّه بذكر أسماء أئمتهم في مختلف المجالات والأمور، وكفانا في ذلك كتاب «تأسيس الشيعة الكرام لفنون الإسلام» تأليف السيد حسن الصدر (المتوفى عام ١٣٥٤هـ). غير أنني أتعجب من هذه الفرية القارصة، وكيف نفى وجود شخصيات علمية عند الشيعة مع أنه كان معاصراً للشيخ المفيد (المتوفى عام ٤١٣هـ) الذي يقول في حقه اليافعي: كان عالم الشيعة وإمام الرافضة صاحب التصانيف الكثيرة، شيخهم المعروف بالمفيد وبابن المعلم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية. (٢) ويعرفه ابن كثير في تاريخه بقوله: كان مجلسه يحضره كثير من العلماء من سائر الطوائف. (٣) كيف يقول ذلك وبيته بغداد تجمع بينه وبين الشريف المرتضى (المتوفى عام ٤٣٦هـ) الذي يعرفه ابن خلكان في تاريخه ويقول: كان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر. (٤) وقال الثعالبي: قد انتهت الرئاسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل. (٥) واعتمد ثالثاً على كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» تأليف «ابن حزم» الأندلسي الظاهري (المتوفى ٤٥٦هـ) وكفى في التعرف على نفسه _____

١. نفس المصدر: ٧١.

٢. مرآة الجنان: ٣/٢٨.

٣. تاريخ ابن كثير: ١٢/١٥.

٤. وفيات الأعيان: ٣/٣١٣.

٥. تتميم يتيمة الدهر: ١/٥٣. (١٥)

هذا الرجل وشدوذه أنه صوب فعل قاتل الإمام أمير المؤمنين بحجة أنه كان مجتهداً متأولاً مثاباً في عمله هذا، وإليك نص عبارته: «إن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل علياً (رضى الله عنه) إلا متأولاً مجتهداً مقدراً أنه على صواب، وفي ذلك يقول «عمران بن حطان» شاعر الصفرية: يا ضربة من تقى ما أراد بها * إلا يبلغ من ذى العرش رضواناً» (١) والقارئ الكريم جد عليم بأنه لا قيمة لهذا الاجتهاد الذي يؤدي إلى قتل الإمام المفترض طاعته بالنص أولاً، وبإجماع الأمة ثانياً، ولنعم ما أجاب به معاصره القاضي أبو الطيب طاهر بن

عبد الله الشافعي فقال: يا ضربة من شقى ما أراد بها * إلا ليهدم للإسلام أركاناً (٢) فإذا كان هذا حال المؤلف ونفسيته ونزعاته، فكيف يكون حال من استند إلى مثله غير أن الجنس إلى الجنس يميل!! منهجنا في دراسة المذاهب فلأجل هذا الخبط والتخليط في أكثر كتب الملل والنحل خصوصاً في كتاب إمام الأشاعرة «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» ولا سيما في ما يرجع إلى المعتزلة والشيعة فإنه الأساس لكل من كتب بعده، كـ«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي و«الملل والنحل» للشهرستاني وغيرهما من المتأخرين، فقد توخينا أن لا نعزو إلى مذهب شيئاً إلا بعد الوقوف عليه في كتبهم المؤلفه بأيدى أساطينهم وأقلام علمائهم، ولا نكتب عن طائفة إلا بعد توفير المصادر واستحضار المنابع والرجوع إليها بدقة وإمعان. إن منهجنا في دراسة المذاهب وعقائد الفرق يبتنى على دعامتين: الأولى: تبني الواقع في عزو مقال إلى قوم، وذلك لما عرفت. _____

١. المحلي: ١/٤٨٥.

٢. مروج الذهب: ٢/٤٣، ولنا مع ابن حزم بحث ضاف سيوافيك في الجزء الثالث عند البحث عن الحركات الرجعية في القرون الأولى. (١٦)

الثانية: العناية بتحليل عقائد الأمم ونقدها، فإن الغالب على كتاب «الملل والنحل» هو سرد العقائد من دون نقد أو تحليل، وكأنهم زعموا أن واجب المؤرخ لا يتعدى بيان الحوادث في التاريخ، وعرض العقائد في مجال الملل والنحل، وكأن إحقاق الحق واجب المتكلم فقط، ونحن ضربنا عن هذا صفحاً وتوخينا بيان الحق على وجه يناسب كتاب «الملل والنحل»، وهذا هو المنهج الذي مشينا عليه في أجزاء الكتاب كلها، وهو تحقيق الموضوع الذي طرح للبحث من جانب كل فرقة وملء. ولأجل ذلك أصبح الكتاب: كتاباً كلامياً أولاً، وتاريخياً للعقائد والمذاهب ثانياً، وموسوعة لبيان حالات رجالهم وشخصياتهم وتاريخ نشوئهم ثالثاً. وأرجو منه سبحانه أن يوفقنا لما فيه رضاه وأن يصوننا من الزلّة في الرأي والقول والفعل والعمل. وأمّا الفرق التي دار حولها البحث والنقد فهي على سبيل الفهرس: ١. «أهل الحديث والحنبلة» الذين يعبر عنهم في عصرنا هذا بـ«السلفية» حتى صارت هذه الكلمة شعاراً لهم، وكأن «السلف» معصوم من الزلّة متحرر من الخطأ. ٢. «الأشاعرة» آراؤهم وأفكارهم وترجمه مفكرهم ومحققهم، وإنما قدمنا هذه الفرقة على «المعتزلة» مع أن الشيخ الأشعري مؤسس هذا المذهب كان معتزلياً ثم تاب عن الاعتزال ورجع إلى مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» وأسّس مذهباً معتدلاً بين المذهبيين - وإنما قدمناه - لأجل الصلة القويمة بين المذهبيين: «أهل الحديث» و«الأشاعرة». ٣. الحركات الرجعية في القرون الأولى كالمرجئة والجهمية والكرامية والظاهرية، وسيوافيك أن آراءهم وأفكارهم في هذه القرون كانت رجعية بحتة تخالف منطق العقل الذي تعتمد عليه المعتزلة، ومنطق الكتاب والسنة الذي يعرج عليهما الحنبلة، وأمّا الذي تولى كبرها فسوف يظهر لك في ذلك الفصل. (١٧)

٤. «القدرية» أسلاف المعتزلة كمعبد بن عبد الله الجهنى (المتوفى عام ٨٠هـ) وغيلان الدمشقي المقتول بدمشق بأمر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام ١٠٥، وقد اتهم هؤلاء بنفى القدر الوارد في الكتاب والسنة، وقد قلنا إن الاتهام في غير محله، وهؤلاء كانوا دعاة الحرية والاختيار لا نفاة القدر الذي جاء في الآثار الصحيحة. نعم كانوا يرفضون القدر السالب للاختيار الحاكم على حرية الإنسان و اختياره، بل حتى على الله سبحانه، وكأن القدر إله ثان مسلط على كل شيء حتى إرادة الله وفي الوقت نفسه حنق على الإنسان، فهو يدخل من يشاء الجنة، ويدخل من يشاء الجحيم بلا ملاك ولا مبرر. ٥. «الماتريديّة» آراؤهم ورجالهم، وهؤلاء والأشاعرة صنوان أو رضيعان يرتضعان من ثدى واحد، ولكن «الماتريديّة» أقرب إلى المعتزلة من الأشاعرة، وقد وافقوا في كثير من المسائل، المعتزلة. ٦. «المعتزلة» منهجهم وآراؤهم ورجالهم. ٧. «الخوارج» تاريخهم وعقائدهم. ٨. «الوهابية» نشوؤها ومؤسسها ومعتقداتها. ٩. «الشيعة الزيدية والإسماعيلية»، ونبحت عن الباطنية في هذا الفصل. ١٠. «الشيعة الإمامية» الاثنا عشرية. تلك عشرة كاملة. وأقدم كتابي هذا لكل طالب للحق والحقيقة، ولكل متعطف للتعرف على الواقع بين منعرجات الأهواء النفسية والانتماءات الجاهلية والتعصبات الباطلة، ولا أشك في أن لفيها من الأمة سيقدرون عملي هذا غير أن المتطرفين من الطوائف الإسلامية يعدونه تفريقاً للأمة وشقاً

لعصاها، وكأنهم يرون التقارب الظاهري والتصفيق في المجامع والمجالس هو روح الوحدة وسنادها، وهم في غفلة عن أن التعرف على المذاهب على ما هي عليه، من عوامل التقريب (١٨)

وتوحيد الكلمة وعود الأخوة الإسلامية إلى المجتمع الديني، وعلى كل تقدير فلا أطلب رضا هؤلاء، ولا أعتد عليه ولا أخشى سخط الآخرين ولا- أخافه، ورائدي هو رضوانه تعالى لا غير. (قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُونَ). (١) جعفر السبحاني قم المقدسة - الحوزة العلمية ١٤١٠هـ

١ . سبأ: ٤٦. (١٩)

الملل والنحل في المؤلفات الإسلامية

الملل والنحل في المؤلفات الإسلامية

لقد قام ثلثة من علماء المسلمين بتدوين كتب مفصّلة أو مختصرة في هذا المضمار، فكشفوا عن مصادر الآراء ومواردها، وجمعوا واردها وشاردها، وما ألقوه حول تبين العقائد والنحل على أصناف نشير إليها: أ. ما يتناول جميع الشرائع والمذاهب العالمية، إسلامية كانت أو غيرها، ومن هذا القسم: ١. «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لإمام المذهب الظاهري، أبي محمد علي بن حزم الظاهري (المتوفى ٤٥٦هـ). ٢. «الملل والنحل» لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ). ب. ما يتناول خصوص الفرق الإسلامية، ومن هذا القسم: ١. «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» تأليف شيخ الأشاعرة أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (المتوفى عام ٣٢٤هـ). ٢. «التنبيه والرد» لأبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي (المتوفى سنة ٣٧٧هـ). ٣. «الفرق بين الفرق» تأليف الشيخ عبد القاهر بن طاهر بن محمد (٢٠)

البغدادي الإسفرائيني التيمي (المتوفى ٤٢٩هـ). ٤. «التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية عن الفرق الهالكة» لطاهر بن محمد الإسفرائيني (المتوفى ٤٧١هـ) المطبوع بمصر عام ١٣٧٤هـ. ٥. «الفرق الإسلامية» ذيل كتاب «شرح المواقف» للكرمانى (المتوفى ٧٨٦هـ) وقد طبع في بغداد عام ١٩٧٣م. ج. ما يتناول خصوص مذهب من المذاهب الإسلامية، ومن هذا القسم: ١. «فرق الشيعة»، تأليف أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث للهجرة، وقد بين فيه فرق أهل الإمامة. ٢. «فرق الشيعة» (١) للشيخ أبي القاسم سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي (المتوفى ٢٩٩ أو ٣٠١هـ). وقد طبعت هذه الكتب ووزعت في العالم، وهي متاحة لكل من أراد معرفة هذه المذاهب والمقالات والآراء والأفكار، ولتقدم قبل الورود في البحث أموراً تفيد القراء الكرام وطلاب هذه المعرفة: ١. الملة والنحلة في اللغة

الملة بمعنى الطريقة، والمراد هنا السنن المأخوذة والمقتبسة من الآخرين، ولأجل ذلك يضيفها القرآن إلى الرسل والأقوام إذ يقول مثلاً: (بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) (٢)، وقوله: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (٣) ولا تستعمل مضافه إلى الله ولا إلى آحاد أمّة نبي بل إلى نفس النبي، ويقال ملة إبراهيم وملة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ولا يقال: ملة الله. وأما النحلة فهي على ما في «لسان العرب» بمعنى الدعوى، والنسبة بينها وبين الدين أنها تستعمل في الباطل كثيراً، مثل كلمة «انتحال المبطلين».

١ . كما عبر عنه النجاشي في ترجمته وربما يعبر عنه بالمقالات والفرق.

٢ . البقرة: ١٣٥.

٣ . يوسف: ٣٧. (٢١)

والمقصود من الكلمتين في هذا العلم هو الطرق والمناهج العقائدية سواء أكانت حقاً أم باطلاً. ٢. الصلة بين علم العقائد وعلم الملل والنحل

وهناك اتصال وثيق بين علم الكلام وعلم الملل والنحل، ووزان علم الملل والنحل بالنسبة إلى علم العقائد والكلام، وزان تاريخ العلم

بالنسبة إلى العلم نفسه، نظير الفلسفة وتاريخها، فالفلسفة تطرح الموضوعات الفلسفية على بساط البحث، فتقيم برهاناً على ما تتبناه بينما يشرح تاريخ الفلسفة المناهج الفكرية التي نجمت في فترات مختلفة، من دون تركيز على رأى أو تبني عقيدة خاصة في كثير من الأحيان. ومثله علم الكلام بالنسبة إلى الملل والنحل، فالأول يبحث عن المسائل العقائدية التي ترجع إلى المبدأ والمعاد وما يلحقهما من المباحث ويوجه عنايته إلى إثبات فكرة خاصة في موضوع معين ونقد الآراء المضادة له، ولكن الثاني يطرح المناهج الكلامية المؤسسة طيلة قرون من دون أن يتحيز إلى منهج دون منهج غالباً، وهمة هو عرض هذه الأسس الفكرية على رواد الفكر والمعرفة. وإن شئت قلت: إن علم الملل والنحل يتعرض للموضوعات الكلامية المبحوث عنها في علم الكلام ويشرحها ويعرض الآراء المختلفة حولها من دون القضاء بينها، وأما علم الكلام فهو يتخذ موضوعات خاصة للبحث ويبدى المؤلف نظره الخاص فيها ويركز على رأيه بإقامة البرهان. ٣. قيمة الكتب المؤلفة في هذا المضمار

لا شك أن للكتب المؤلفة في هذا المضمار، مكانة في الأوساط العلمية وأن المؤلفين في الملل والنحل قد تحمّلوا جهوداً كثيرة في الإحاطة بالمناهج الفكرية الرائجة في الملأ العلمي خصوصاً الأوائل منهم، غير أنه لا يمكن الاعتماد على هذه الكتب بصورة مطلقة، وذلك لأننا نرى أنهم يذكرون فرقاً للشيعة الإمامية لم يسمع الدهر بأسمائها كما لم يسمع بآراء أصحابها قط. (٢٢)

فهذا إمام الأشاعرة يذكر للشيعة الغالية خمس عشرة فرقة، وللشيعة الإمامية أربعاً وعشرين فرقة، وينسب إليهم القول بالتجسيم، وغير ذلك من الآراء والعقائد السخيفة، ويقسم الزيدية إلى ست فرق، وقد أخذ عنه من جاء بعده ممن ألف في هذا المجال. فإذا كان حاله وحال من نسج على منواله - كالبغدادي في «الفرق بين الفرق» والشهرستاني في «الملل والنحل» في تلك المواضع التي نحن أعرف منهم بها - بهذا المنوال، فكيف حالهم فيما ينقلونه عن سائر أصحاب الشرائع من اليهود والنصارى والمجوس والبراهمة والبوذيين وغيرهم؟! ولأجل ذلك يجب أن تكون نسبة القول إلى أصحابها مقرونة بالاحتياط والتثبت والرجوع إلى مؤلفات نفس الفرق. يقول المحقق المعاصر الشيخ محمد زاهد الكوثري في تقديمه لكتاب «التبصير في الدين»: «والعالم المحتاط لدينه لا ينسب إلى فرقة من الفرق ما لم يره في الكتب المردودة عليهم، الثابتة عنهم أو في كتب الثقات من أهل العلم المتشبهين في عزو الأقاويل، ولا يلزمهم إلا ما هو لازم قولهم لزوماً بيناً لم يصرح قائله بالتبزي من ذلك اللازم. (١) وقد تصفّحنا أكثر ما كتبه أحمد بن تيمية في «المسائل الكبرى» عن الشيعة وغيرهم وفي كتابه «منهاج السنّة» عن خصوص الشيعة، فوجدناهما مليئين بالأخطاء، لو لم نقل بالكذب والوضع. إذا عرفت ذلك، فاعلم أنه يقع الكلام في فصول: _____

١. التبصير في الدين: ٧. (٢٣)

الفصل الأول افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة

الفصل الأول افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة

روى أصحاب الصحاح والمسانيد ومؤلفو الملل والنحل عن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: «إن أمتي تفترق على ثلاث وسبعين فرقة» وقد اشتهر هذا الحديث بين المتكلمين وغيرهم حتى الشعراء والأدباء. وتحقيق الحديث يتوقف على البحث في جهات أربع: ١. هل الحديث نقل بسند صحيح قابل للاحتجاج به، أو لا؟ ٢. ما هو النص الصادر عن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في هذا المجال، فإن نصوص الحديث في ذلك المجال مختلفة؟ ٣. ما هي الفرقة الناجية من هذه الفرق المختلفة، فإن النبي قد نص على نجاه فرقة واحدة، كما سيأتيك نصه؟ ٤. ما هي الفرق الاثنتان والسبعون التي أخبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بنشوتها من بعده؟ وهل بلغ عدد الفرق والطوائف الإسلامية إلى هذا الحد؟ فإليك البحث في هذه الجهات الأربع: أ. سند الحديث

روى الحديث المذكور في الصحاح والمسانيد بأسانيد مختلفة، وقد قام (٢٤)

الحافظ «عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلقي المصري» (المتوفى ٧٦٢هـ) بجمع أسانيد ومتونه في كتابه: «تخریج أحاديث الكشاف»

وقد اهتم فيه بهذا الحديث سنداً و متنأً، إهتماماً بالغاً، لم يسبقه إليه غيره.... غير أن القضاء فيما جمعه من الأسانيد خارج عن مجال هذه الرسالة، ولأجل ذلك نبحت فيه على وجه الإجمال، فنقول: إن هاهنا من لا يعتقد بصحة الحديث منهم: ابن حزم، في كتابه: «الفصل في الأهواء والملل» قال: ذكروا حديثاً عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - «أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة» وحديث آخر «فتفرق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة» (ثم قال: هذان حديثان لا يصحان أصلاً من طريق الأسناد، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد، فكيف من لا يقول به. (١) وهناك من يعتقد بصحة الاستدلال لأجل تضافر أسناده، يقول محمد محيي الدين محقق كتاب «الفرق بين الفرق»: اعلم أن العلماء يختلفون في صحة هذا الحديث، فمنهم من يقول إنه لا- يصح من جهة الأسناد أصلاً، لأنه ما من إسناد روى به إلا- وفيه ضعف، وكل حديث هذا شأنه لا يجوز الاستدلال به ومنهم من اكتفى بتعدد طرقه، وتعدد الصحابة الذين رووا هذا المعنى عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -.... (٢) وقد قام الحاكم النيشابوري برواية الحديث عن سند صحيح يرتضيه الشيخان قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سلمة العنزي (ثنا) عثمان بن سعيد الدارمي (ثنا) عمرو بن عون ووهب بن بقيه الواسطيان (ثنا) خالد بن عبد الله، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «افتترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة وافتترقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي —————

١ . الفصل في الأهواء والملل: ١/٢٤٨.

٢ . الفرق بين الفرق: ٧-٨ التعليق. (٢٥)

على ثلاث وسبعين فرقة». وهذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. (١) وقد استدرك عليه الذهبي بأن في سنده «محمد بن عمرو» ولا- يحتج به منفرداً ولكن مقروناً بغيره. (٢) فإذا كان هذا حال السند الذي بذل الحاكم جهده لتصحيحه، فكيف حال سائر الأسانيد؟! وقد رواه الحاكم بأسانيد مختلفة، وقال: قد روى هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، و عمرو بن عوف المزني بإسنادين تفرد بأحدهما عبد الرحمن بن زياد الأفريقي، والآخر كثير بن عبد الله المزني، ولا تقوم بهما الحجة. (٣) هذا حال ما نقله الحاكم في مستدركه. وأما ما رواه أبو داود في سننه والترمذي في سننه، وابن ماجه في صحيحه فقد قال في حقه الشيخ محمد زاهد الكوثري: أميا ما ورد بمعناه في صحيح ابن ماجه، وسنن البيهقي، وغيرهما ففي بعض أسانيد «عبد الرحمن بن زياد بن أنعم» وفي بعضها «كثير بن عبد الله» وفي بعضها «عباد بن يوسف» و «راشد بن سعد» و في بعضها «الوليد بن مسلم» و في بعضها مجاهيل كما يظهر من كتب الحديث و من تخريج الحافظ الزيلقي لأحاديث الكشاف، وهو أوسع من تكلم في طرق هذا الحديث فيما أعلم. (٤) هذا بعض ما قيل حول سند الحديث، والذي يجبر ضعف السند هو تضافر نقله واستفاضه روايته في كتب الفريقين: الشيعة والسنة بأسانيد مختلفة، ربما تجلب الاعتماد، وتوجب ثقة الإنسان به. —————

١ . المستدرک علی الصحيحين: ١/١٢٨، وقد رواه بسند آخر أيضاً يشمل على محمد بن عمرو الذي لا يحتج بمفرداته، وبسند آخر أيضاً مشتمل على ضعف، وقد جعلهما الحاكم شاهدين لما صحح من السند.

٢ . التبصير في الدين: ٩، المقدمة.

٣ . المستدرک علی الصحيحين: ١/١٢٨، كتاب العلم.

٤ . التبصير: ٩، المقدمة. (٢٤)

وقد رواه من الشيعة، الصدوق في خصاله في باب السبعين وما فوق. (١) والعلامة المجلسي في بحاره (٢)، ولعل هذا المقدار من النقل يكفي في صحة الاحتجاج بالحديث. ب. اختلاف نصوص الحديث

هذه هي الجهة الثانية التي أشرنا إليها في مطلع البحث، فنقول: إن مشكلة اختلاف نصوص الحديث لا تقل إعضالاً عن مشكلة سنده، فقد تطرق إليه الاختلاف من جهات شتى، لا- يمكن معه الاعتماد على واحد منها، وإليك الإشارة إلى الاختلافات المذكورة: ١.

الاختلاف في عدد الفرق

روى الحاكم عدد فرق اليهود والنصارى مردداً بين إحدى وسبعين واثنين وسبعين، بينما رواه عبد القاهر البغدادي بأسانيده عن أبي هريرة على وجه الجزم والقطع، وأن اليهود افتقرت إلى إحدى وسبعين فرقة، وافتقرت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة. وفي الوقت نفسه روى بسند آخر افتراق بني إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وقال: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة». ونقل بعده بسند آخر افتراق بني إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة. (٣) ويمكن الجمع بين النقلين الأخيرين بأن المراد من بني إسرائيل هو الأعم من اليهود والنصارى فيصح عد الفرق اثنتين وسبعين.

١. الخصال: ٢/٥٨٤، أبواب السبعين وما فوق، الحديث العاشر والحادي عشر.

٢. البحار: ٢/٢٨-٣٦.

٣. الفرق بين الفرق: ٥. (٢٧)

نعم يحمل الأخير على خصوص اليهود من بني إسرائيل. ٢. الاختلاف في عدد الهالكين والناجين

إن أكثر الروايات تصرّح بنجاة واحدة وهلاك الباقيين. فعن البغدادي بسنده عن رسول الله أنه قال: كلهم في النار إلا ملة واحدة. (١) وروى الترمذي وابن ماجه مثل ذلك. (٢) بينما رواه شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري السياح المعروف (المتوفى ٣٨٠هـ) في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» بصورة تضاده إذ قال: إن حديث «اثنتان وسبعون في الجنة وواحدة في النار» أصح إسناداً، وحديث «اثنتان وسبعون في النار وواحدة ناجية» أشهر. (٣) ٣. الاختلاف في تعيين الفرقة الناجية

فقد اختلف النقل في تعيين سمة الفرقة الناجية أخذاً بما يقول بأن جميعها في النار إلا واحدة. روى الحاكم (٤) و عبد القاهر البغدادي (٥) وأبو داود (٦) وابن ماجه (٧) بأن النبي قال: إلا واحدة وهي الجماعة، أو قال: الإسلام وجماعتهم. وروى الترمذي (٨) والشهرستاني (٩) أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عرف الفرقة الناجية بقوله: ما أنا عليه اليوم وأصحابي.

١. المصدر نفسه: ٧٦.

٢. سنن الترمذي: ٥/٢٦، كتاب الإيمان، الحديث ٢٦٤١، سنن ابن ماجه: ٢/٤٧٩، باب افتراق الأمم.

٣. طبع الكتاب في ليدن، عام ١٣٢٤ هـ الموافق لـ ١٩٠٦ م.

٤. المستدرک على الصحيحين: ١/١٢٨.

٥. الفرق بين الفرق: ٧.

٦. سنن أبي داود: ٤/١٩٨، كتاب السنه.

٧. سنن ابن ماجه: ٢/٤٧٩، باب افتراق الأمم.

٨. سنن الترمذي: ٥/٢٦، كتاب الإيمان، الحديث ٢٦٤١.

٩. الملل والنحل: ١٣. (٢٨)

وروى الحاكم أيضاً أن النبي حدّد أعظم الفرق هلاكاً بقوله: «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فرقة، قوم يقيسون الأمور برأيهم، فيحرّمون الحلال ويحلّلون الحرام» وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. (١) وروى صاحب روضات الجنات عن كتاب «الجمع بين التفاسير» أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عرف الفرقة الناجية بقوله: «هم أنا وشيعتي». (٢) هذه الوجوه تعكس مدى الاختلاف في تحديد ملامح الفرقة الناجية. وأما تحقيق القول في ذلك فسوفيفيك عند البحث عن الجهة الثالثة، وهي التالية: ج. من هي الفرقة الناجية؟

هذه هي الجهة الثالثة التي ينبغي الاهتمام بها حتى يستطيع الباحث من تعيين الفرقة الناجية، بها. قال الشيخ محمد عبده: أما تعيين أي

فرقة هي الناجية، أى التي تكون على ما كان النبي عليه وأصحابه، فلم يتعين إلى الآن، فإن كل طائفة ممن يدعن لنا بالرسالة تجعل نفسها على ما كان عليه النبي وأصحابه. (إلى أن قال:) ومما يسرنى ما جاء فى حديث آخر أن الهالك منهم واحدة. (٣) أقول: ما ورد من السمات فى تحديد الفرقة الناجية لا يتجاوز أهمها عن سمتين: أولاهما: «الجماعة» وهى تارة جاءت رمزاً للنجاة، وأخرى للهلاك، فلا يمكن الاعتماد عليها، وإليك بيان ذلك: _____

١ . المستدرک على الصحيحين: ٤/٤٣٠.

٢ . روضات الجنات: ٥٠٨، الطبعة القديمة.

٣ . تفسير المنار : ٢٢١-٢٢٢. (٢٩)

روى ابن ماجه عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : افتقرت اليهود... والذى نفس محمد بيده لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة، وثلثان وسبعون فى النار. قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة. (١) بينما نقل أنه قال: «وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة، وهى الجماعة» (٢)، فإن الإتيان بضمير الجمع فى الحديث الأول، وبضمير المفرد فى الحديث الثانى يؤيد رجوع الضمير فى الأول إلى: «ثنتان وسبعون»، ورجوع الضمير المفرد إلى «الواحدة» فتكون الجماعة تارة آية الهلاك وأخرى آية النجاة. أضف إلى ذلك أن قسماً كبيراً من النصوص لا يشمل على هذه اللفظة، ولا يصح أن يقال إن الراوى ترك نقلها، أو نسيها، وذلك لأن ذكر سمه الناجى أو الهالك من الأمور الجوهرية فى هذا الحديث، فلا يمكن أن يتجاهله أو ينساه. ومن ذلك تعلم حال ما اشتمل على لفظ «الإسلام» مع الجماعة، فإنه لا يزيد فى مقام التعريف شيئاً على المجرى منه، لوضوح أن الإسلام حق إنما المهم معرفة المسلم الواقعى عن غيره. ثانيها: «ما أنا عليه وأصحابى»، أو «ما أنا عليه اليوم وأصحابى»، كون هذا آية النجاة لا يخلو عن خفاء. أولاً: إن هذه الزيادة غير موجودة فى بعض نصوص الرواية، ولا يصح أن يقال إن الراوى ترك نقلها لعدم الأهمية. وثانياً: إن المعيار الوحيد للهلاك والنجاة هو شخص النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأما أصحابه فلا يمكن أن يكونوا معياراً للهداية والنجاة إلا بقدر اهتدائهم _____

١ . سنن ابن ماجه: ٢/٤٧٩، باب افتراق الأمم.

٢ . سنن أبى داود: ٤/١٩٨، كتاب السنه؛ المستدرک على الصحيحين: ١/١٢٨. (٣٠)

واقترانهم برسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، وإلا فلو تخلفوا عنه قليلاً أو كثيراً فلا يكون الاقتداء بهم موجباً للنجاة. وعلى ذلك فعطف (وأصحابى) على النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يخلو من غرابة. وثالثاً: إن المراد إما صحابته كلهم، أو الأكثرية الساحقة. فالأول: مفروض العدم لاختلاف الصحابة فى مسالكهم ومشاربهم السياسية والدينية بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، وأدل دليل على ذلك ما وقع من الخلاف فى السقيفة وبعدها. والثانى: مما لا يلتزم به أهل السنه، فإن الأكثرية الساحقة من الصحابة خالفوا الخليفة الثالث، وقد قتله المصريون والكوفيون فى مرأى ومسمع من بقيه الصحابة، الذين كانوا بين مؤلّب، أو مهاجم، أو ساكت. على أن حمل أصحابى على الأكثرية خلاف الظاهر، ويظن أن هذه الزيادة من رواة الحديث لدعم موقف الصحابة، وجعلهم المحور الوحيد الذى يدور عليه فلك الهداية بعد النبى الأعظم، والمتوقع من رسول الهداية هو أن يحدد الفرقة الناجية بسمات واضحة تستفيد منها الأجيال الآتية، فإن كل الفرق يدعون أنهم على ما عليه النبى بل على ما عليه أصحابه أيضاً: وكل يدعى وصلاً بليلى * وليلى لا تقر لهم بذاكا وأخيراً نقلنا عن الحاكم أنه روى عن النبى قوله: «أعظمها فرقة قوم يقيسون الأمور برأيهم» و يظن أن هذه الزيادة طرأت على الحديث من بعض الطوائف الإسلامية بين أهل السنه، طعناً فى أصحاب القياس، على حين أن القياس بمفهومه الأصولى لم يكن أمراً معهوداً لأصحاب النبى حتى يكتفى النبى فى تعيين الفرقة الهالكة بهذا الوصف غير المعروف فى عصر صدور حديث الافتراق. أحاديث حول مستقبل الصحابة

إن الأحاديث المتضافرة عن النبى الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن مستقبل الصحابة (٣١)

تصدنا عن الأخذ بمسالكتهم ومشاربهم وتمنعنا عن تصحيح ما ورد في ذيل بعض الروايات الماضية، أعنى قوله: «ما أنا عليه وأصحابي» وذلك لأن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يخبر عن أحوالهم بعد رحلته، وأنهم سيحدثون في الدين أموراً منكراً، وبدعاً محرمة وأنهم يرتدون عن الدين ولأجل ذلك يحلأون عن الحوض ويذاذون عنه، وقد روى هذه الأحاديث الشيخان (البخارى ومسلم) وغيرهما. وجمعها ابن الأثير في «جامع الأصول» في الفصل الرابع عند البحث عن الحوض والصرط والميزان. وإليك بعض تلك الأحاديث: ١. أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني، فأقول: أى رب، أصحابي فيقال: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك». ٢. أخرج الشيخان أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يرد علىّ يوم القيامة رهط من أصحابي، أو قال من أمتي، فيحلأون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أديبارهم الفهقري». إلى غير ذلك من الروايات البالغ عددها إلى عشرة أحاديث وفي ضوء هذه الروايات لا يمكن الحكم بعدالة كل صحابي لمجرد الصحبة، للعلم بوجود الفسق والارتداد وإحداث البدع فيهم، وهذا العلم الإجمالي يصدنا عن تعديل كل صحابي وتصديقه. كما يصدنا عن القول بأن الأكثرية الساحقة من الصحابة إذا اتفقت على شيء يكون دليلاً على صدقه وصحته، على أن هذا لا يدل على أن جميع الصحابة كانوا على هذا المنوال بل كان في الصحابة الثقات العدول، والأخبار المتقون. وقد أشبعنا الكلام حول الصحابة من حيث العدالة. (١)

١. سيوافيك البحث عن عدالة الصحابة عند تحليل عقائد أهل الحديث في هذا الجزء. الفرقة الناجية في ضوء النصوص الأخرى لو أن شيخ الأزهر رجع إلى النصوص الأخرى للنبي الأكرم لتبين له الفرقة الناجية في كلام النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، فإن لنبي الرحمة كلمات في مواضع أخر يشد بعضها بعضاً، ويفسر بعضها البعض الآخر، وإليك ما أثر عنه في تلك المجالات مما تعد قرائن منفصلة موضحة للحديث الحاضر. ١. حديث الثقلين

قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «يا أيها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي». (١) روى إمام الحنابلة عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: «إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض». (٢) روى الحاكم في مستدركه عن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: «إنّي أوشك أن أدعى فأجيب، وإنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عزّ وجلّ، وعترتي وعترتي وعترتي وعترتي؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». (٣) والاختلاف الموجود بين نصوص الحديث غير مضر أبداً، لأنّ النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نطق بهذا الحديث في مواضع مختلفة، إذ في بعض الطرق أنه قال ذلك في حجة الوداع بعرفة، وفي أخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي ثالثة أنه قال ذلك بغدير خم، وفي رابعة أنه

١. رواه الترمذى والنسائي في صحيحهما راجع كنز العمال: ١/٤٤٤ باب الاعتصام بالكتاب والسنة.

٢. مسند أحمد بن حنبل: ١٨٢/٥-١٨٩.

٣. مستدرك الحاكم: ٣/١٤٨، وقال هذا صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (٣٣)

قال ذلك لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف، فقد كرر ذلك في تلك المواطن اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترّة الطاهرة. (١) والإمعان في هذا الحديث الذي بلغ من التواتر حدّاً لا يدانيه حديث، إلا حديث الغدير، يقود الإنسان إلى الحكم بضلال من لم يستمسك بهما معاً، فالتمسكون بهما هم الفرقة الناجية، والمتخلفون عنهما، أو المتقدمون عليهما هم الهالكه. وقد نقل الطبراني قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في ذيل الحديث: «فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم». (٢)

٢. حديث السفينة

وهذا الحديث كالحديث السابق يعين على رفع الإبهام عن حديث «الافتراق». روى الحاكم بسنده عن أبي ذر رضى الله عنه يقول، وهو آخذ بباب الكعبة: «من عرفنى فأنا من عرفنى، ومن أنكرنى فأنا أبوذر، سمعت النبي يقول: ألا إن مثل أهل بيتي فيكم، مثل سفينة نوح في قومه، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق». (٣) والمراد بتشبيهم - عليهم السلام - بسفينة نوح هو أن من لجأ إليهم في الدين فأخذ فروعه وأصوله عن أئمتهم، نجا من عذاب النار، ومن تخلف عنهم كمن آوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر الله، غير أن هذا غرق في الماء، وهذا في الحميم. قال ابن حجر: ووجه تشبيهم بالسفينة أن من أحبهم وعظّمهم شكراً لنعمة مشرفهم، وأخذ بهدى علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم، وهلك في مفاوز الطغيان. (٤)

١ . راجع المراجعات، المراجعة ٨ فقد نقله عن مواضع مختلفة.

٢ . الصواعق المحرقة: ١٣٥ باب وصية النبي بهم.

٣ . المستدرک على الصحيحين: ٣/١٥١.

٤ . لقد علّق السيد شرف الدين في مراجعاته على هذه العبارة تعليقاً لطيفاً وهو: قل لي لماذا لم يأخذ بهدى أئمتهم في شيء من فروع الدين وعقائده إلى أن قال:- ولماذا تخلف عنهم فأغرق نفسه في بحار كفر النعم وأهلكها في مفاوز الطغيان؟! (٣٤) ٣. حديث أهل بيتي أمان لأمتي

روى الحاكم عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» (ثم قال): هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. (١) هذه الأحاديث تلقى الضوء على حديث الافتراق، وتحدد الفرقة الناجية وتعينها. وهناك حديث آخر ورد في ذيل حديث الافتراق نقله أحد علماء أهل السنة وهو الإمام الحافظ حسن بن محمد الصغانى (المتوفى ٦٥٠هـ) في كتابه «الشمس المنيرة» عن النبي الأكرم - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «افتترقت أمة أخى عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها هالكة إلا فرقة واحدة». فلما سمع ذلك منه ضاق المسلمون ذرعاً وضجوا بالبكاء، وأقبلوا عليه، وقالوا: يا رسول الله كيف لنا بعدك بطريق النجاة؟ وكيف لنا بمعرفة الفرقة الناجية حتى نعتمد عليها؟ فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبداً: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير يئاني أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض». (٢) ولا أظن المنصف إذا رجع إلى ما ورد حول العترة من الأحاديث الحاثّة على الرجوع إليهم، يخفى عليه مراد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من الفرقة الناجية في حديث الافتراق، مضافاً إلى أن آية التطهير دالّة على عصمتهم، فالمتمسك بالمعصوم مصون وبالخاطى غير مصون بل يقع عرضه للانحراف والهلاك، وللشافعي أبيات تعرب عن عرفانه الفرقة الناجية ذكرها الشريف الحضرمي في

١ . المستدرک على الصحيحين: ٣/١٤٩.

٢ . الشمس المنيرة، النسخة المخطوطة في مكتبة المشهد الرضوى بالرقم ١٧٠٦. (٣٥)

«رشفة الصادى». (١) د. الفرق التي أخبر النبي بنسئها

هذه هي الجهة الرابعة التي يليق البحث عنها، فإن النبي قد أخبر عن أن الأمة الإسلامية ستبلغ في تفرّقها إلى هذا العدد الهائل، ولكن المشكلة عدم بلوغ رؤوس الفرق الإسلامية إلى هذا العدد، فإن كبار فرقها لا تتجاوز الأربع: الأولى: القدرية (المعتزلة وأسلافهم). الثانية: الصفاتية (أهل الحديث والأشاعرة). الثالثة: الخوارج. الرابعة: الشيعة. وهذه الفرق الأصلية، وإن تشعبت إلى شعب وفروع من مرجئة وكرامية بفرقها، ولكن لا يبلغ المجموع إلى هذا الحد، وإن أصرّ الشهرستاني على تصحيح البلوغ إليه، فقال: ثم يتركب بعضها مع بعض، ويتشعب عن كلّ فرقة أصناف، فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة. (٢) يلاحظ عليه: أن المراد من أمتي هي الفرق الإسلامية المؤمنة

برساله النبي الأعظم، وكتاب الله سبحانه، وبلوغ تلك الأمة بهذه الصفة إلى هذا الحد الهائل أول الكلام، لأن المراد هو الاختلاف في العقيدة التي يدور عليها فلك الهلاك والنجاة. وأما الاختلاف في الأصول والمعارف التي ليست مداراً للهداية والضلالة، بل لا تعد من صميم العقائد الإسلامية، فهو خارج عن إطار الحديث، فاختلاف الأشاعرة والمعتزلة، في وجود الواسطة بين الوجود

١. رشفة الصادي: ٢٥.

٢. الملل والنحل: ١/١٥. (٣٦)

والعدم، وحقيقة الجسم والأكوان والألوان، والجزء الذي لا يتجزأ، والطفرة، الذي أوجد فرقاً كلامية، فلا يوجب دخول النار، وإن كان الحق واحداً، ولا يصح عدّ المعتقدين بها من الفرق المنصوص عليها في كلام النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . وبعبارة واضحة: إن الفرق المذمومة في الإسلام هي أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية، في مواضع تعد من صميم الدين كالوحيد بأقسامه والعدل والقضاء والقدر، والتجسيم والتنزيه، والجبر والاختيار، والهداية والضلالة و رؤيه الله سبحانه وإدراك البشر له تعالى، والإمامة والخلافه، ونظائرها. وأما الاختلاف في سائر المسائل التي لا تمت إلى الدين بصله ولا تمثل العقيدة الإسلامية فلا يكون المخالف والموافق فيها داخلياً. في الحديث، والحال أن كثيراً من الفرق الإسلامية يرجع اختلافهم إلى أمور عقلية أو كونية، مما لا يرتبط بالدين أو ما لا يسأل عنه الإنسان في حياته وبعدها ولا يجب الاعتقاد به. محاولات لتصحيح العدد

إن هناك محاولات لتصحيح مفاد الحديث من حيث العدد المذكور فيه، نشير إليها فيما يلي: ١. هذا العدد الهائل كناية عن المبالغة في الكثرة، كما في قوله سبحانه وتعالى: (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ). (١) يلاحظ عليه: أن هذه المحاولة فاشلة، لأنها إنما تصح إذا ورد الحديث بصورة السبعين أو غيرها من العقود العديدة، فإن هذا هو المتعارف في مقام الكناية ولكن الوارد في الحديث هو غير ذلك.

١. التوبة: ٨٠. (٣٧)

تري أن النبي يركز في حقّ المجوس على عدد السبعين، وفي حقّ اليهود على عدد الإحدى والسبعين وفي حقّ النصارى على اثنتين وسبعين، وفي حقّ الأمة الإسلامية على ثلاث وسبعين. وهذا التدرج يعرب بسهولة عن أن المراد هو بلوغ الفرق إلى هذا الحد، بشكل حقيقي لا بشكل مبالغى. ٢. إن أصول الفرق وإن كانت لا تصل إلى هذا العدد بل لا تبلغ نصفه ولا ربعه، وإن فروع الفرق يختلف العلماء في تفريغها، وإن الإنسان في حيرة حين يأخذ في العدد، بأن يعتبر - في عدد الفرق - أصولها أو فروعها، وإذا استقر رأيه على اعتبار الفروع، فعلى أي حد من التفريع يأخذه مقياساً، إلا أن الحديث لا يختص بالعصور الماضية، فإن حديث الترمذي يتحدث عن افتراق أمة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وأُمَّته مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فيجب أن يتحدث في كل عصر عن الفرق التي نجمت في هذه الأمة من أول أمرها إلى الوقت الذي يتحدث فيه المتحدث، ولا عليه إن كان العدد قد بلغ ما جاء في الحديث أو لم يبلغ، فمن الممكن بل المقطوع - لو صحّ الحديث - وقوع الأمر في واقع الناس على وفق ما أخبر به. (١) وهناك محاولة ثالثة غير صحيحة جداً وهي الاهتمام بتكثير الفرق، فترى أن الإمام الأشعري يجعل للشيعة الغالية خمس عشرة فرقة، وللشيعة الإمامية أربعاً وعشرين فرقة، كما أن الشهرستاني يعدّ للمعتزلة اثنتي عشرة فرقة، ويعدّ للخوارج الفرق التالية: المحكمة، الأزارقة، النجدات، البيهسية، العجاردة، الثعالبية، الأباضية، الصفريه. وذلك لأن الجميع من أصناف الشيعة والمعتزلة والخوارج يلتقون تحت أصول خاصة معلومة في محلها، مثلاً أصناف الخوارج يجتمعون تحت أصول أشهرها تخطئه عثمان والإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - في مسألة التحكيم، وتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار. فلا يصحّ عدّ كل صنف فرقة، وإن اختلف كل مع شقيقه في أمر جزئي، ومثل ذلك أصناف الآخرين.

١. مقدّمه الفرق بين الفرق: ٧. (٣٨)

ثم إن الكاتب المعاصر عبد الرحمن بدوي، ذهب إلى عدم صحة الحديث للأسباب التالية: أولاً: إن ذكر هذه الأعداد المحددة المتواليه: ٧١، ٧٢، ٧٣ أمر مفتعل لا يمكن تصديقه فضلاً عن أن يصدر مثله عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . ثانياً: إنه ليس في وسع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يتنبأ مقدماً بعدد الفرق التي سيفترق إليها المسلمون. ثالثاً: لا نجد لهذا الحديث ذكراً فيما ورد لنا من مؤلفات من القرن الثاني بل ولا- الثالث الهجري ولو كان صحيحاً لورد في عهد متقدم. رابعاً: أعطت كل فرقة لختام الحديث، الرواية التي تناسبها، فأهل السنة جعلوا الفرقة الناجية هي أهل السنة، والمعتزلة جعلوها فرقة المعتزلة، وهكذا وقال: وقد ظهر التعسف البالغ لدى مؤرخي الفرق في وضعهم فروقاً وأصنافاً داخل التيارات الرئيسية حتى يستطيعوا الوصول إلى ٧٣ فرقة، وفاتهم أن افتراق المسلمين لم ينته عند عصرهم، وأنه لا بد ستتشأ فرق جديدة باستمرار مما يجعل حصرهم هذا خطأ تماماً، إذ لا يحسب حساباً لما سينشأ بعد ذلك من فرق إسلامية جديدة. (١) ولا يخفى أن ما ذكره من الأسباب غير صحيح عدا ما ذكره من السبب الرابع وما ذيله به. أما دليله الأول، فلأن ما جاء فيه هو نفس المدعى ولم يبين وجهاً لافتعال الحديث. وأما دليله الثاني، فلأن المتبادر منه أنه ليس في وسع النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - التنبؤ بالأحداث الآتية، ولكنه باطل بشهادة الصحاح والسنن على تنبؤه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بإذن الله عن كثير من الحوادث الواقعة في أمته، وقد جمعنا

١ . مذاهب الإسلاميين: ١/٣٤. (٣٩)

عدة من تنبؤه في موسوعتنا: مفاهيم القرآن. (١) وربما يريد الكاتب من عبارته معنى آخر، وهو أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لا يصح له أن يقدم على مثل هذا التنبؤ، لأنه إقدام غير مرغوب فيه، لما يحتوي على الإضرار بالأمة، ولكن هذا الرأي منقوض أيضاً بتنبؤات أخرى تضاهي المورد هذا، فهذا هو النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يتنبأ بالمستقبل المظلم الذي يواجهه ذو الخويصرة من وجوه الخوارج الذي أتى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهو يقسم الغنائم بعد منصرفهم من حنين فقال للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: يا رسول الله اعدل، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «ويلك من يعدل إن لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أعدل»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فيه أن أضرب عنقه؟ قال: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يرمق السهم من الرمية، ينظر إلى نضله فلا يوجد فيه شيء». (٢) فأى فرق بين هذا التنبؤ ونظائره الواردة في أحاديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، والتنبؤ بافتراق أمته إلى الفرق المعدودة؟ وأما دليله الثالث، فعجيب جداً، فقد رواه أبو داود (٢٠٢-٢٧٥هـ) في سننه، والترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ) في صحيحه، وابن ماجه (٢١٨-٢٧٦هـ) في سننه، وأحمد بن حنبل (٢٤١هـ) في مسنده، والجميع من أعيان أصحاب الحديث في القرن الثالث، فكيف يقول هذا الكاتب: «بل ولا الثالث الهجري»؟! وإليك بعض ما أسندوه: ١. روى أبو داود في كتاب السنة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: افتترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». ثم روى عن معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قام فينا فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين مله،

١ . مفاهيم القرآن: ٣/٥٠٣-٥٠٨.

٢ . التاج: ٥/٢٨٦، كتاب الفتن. (٤٠)

وإن هذه الملّة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة». (١) ٢. روى الترمذي في باب ما جاء في افتراق هذه الأمة مثله، عن أبي هريرة. و روى عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية، لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين مله، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين مله كلهم في النار إلا مله واحدة» قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». (٢) ٣. روى ابن ماجه في باب افتراق الأمم عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

وسلم - : تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وروى عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله: «افترت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار؛ وافترت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فأحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة؛ والذي نفس محمد بيده لتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وثلثان وسبعون في النار» قيل: يا رسول الله: من هم؟ قال: «الجماعة». وروى عن أنس بن مالك ما يقرب من ذلك. (٣) ٤. وروى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة ما نقلناه عنه آنفاً. (٤) كما روى أيضاً عن أنس بن مالك ما روينا عنه سابقاً. (٥) وعلى كل تقدير فلا يهمننا البحث حول عدد الفرق وكثرتها وقتها، بل

١. سنن أبي داود: ٤/١٩٨، كتاب السنة.

٢. سنن الترمذي: ٥/٢٦، كتاب الإيمان، الحديث ٢٦٤١.

٣. سنن ابن ماجه: ٢/٤٧٩، باب افتراق الأمم.

٤. مسند أحمد: ٢/٣٣٢.

٥. مسند أحمد: ٣/١٢٠. (٤١)

الذي نتوخاه في هذه الصحائف هو البحث عن الفرق الموجودة في الأوساط الإسلامية وهي عبارة عن هذه الفرق: أهل السنة (١) بأصنافهم: أهل الحديث والأشاعرة والمعتزلة والخوارج، والشيعة بفرقها الثلاث: الإمامية الاثني عشرية، الزيدية، الإسماعيلية. وأما الفرق التي بادت واندثرت، وقد أكل الدهر عليها وشرب، فهي غير مطروحة لنا بل البحث عنها مفصلاً ضياع للوقت إلا على وجه الإشارة. *** (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ). (٢)

١. أهل السنة لا يعتبرون الخوارج منهم، بل لا يعتبرون المعتزلة منهم أيضاً، ولكن المراد من أهل السنة هنا هو المعنى الأعم، أي غير الشيعة، أي من يقول بكون الخلافة بالبيعة والشورى، فكل من يقول بكون الإمامة مقاماً تنصيبياً يعد من الشيعة، ومن يقول بكونها مقاماً انتخابياً فهو معدود من أهل السنة، فالملاك في التقسيم هو هذا لا المصطلح المعروف بين أهل الحديث والأشاعرة، فلو خضعنا لمصطلح الأولين، فهم ربما لا يعدون الأشاعرة أيضاً منهم، هذا ابن تيمية يكن العداوة للأشاعرة ولا يعدهم منهم.

٢. الأنعام: ٦٥. (٤٢) (٤٣)

الفصل الثاني بدايات الاختلاف في عصر الرسالة

الفصل الثاني بدايات الاختلاف في عصر الرسالة

لا شك في أن المسلمين قد اختلفوا بعد لحوق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى إلى فرق مختلفة، وسنين جذور هذه الخلافات وحوافزها في الأبحاث الآتية. إنما الكلام في وضع المسلمين أيام النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -، فهل كانوا محتفظين بوحدة كلمتهم ومستسلمين لأمر نبيهم جميعاً كما أمر الله به سبحانه، أم كان هناك بعض الاختلاف بينهم في جملة من المسائل؟ لا شك أن المسلم الحقيقي هو من يستسلم لأوامر الله ورسوله ولا يخالفه قيد شعرة آخذاً بقوله سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١). وقد فسر المفسرون قوله سبحانه: (لا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) بقولهم: أي لا تتقدموا على الله ورسوله في كل ما يأمر وينهى، ويؤيده قوله سبحانه في نفس السورة: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ). (٢) وقال عز من قائل: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). (٣)

١. الحجرات: ١.

٢ . الحجرات:٧.

٣ . النساء:٦٥. (٤٤)

ومع ذلك كله فقد نجمت بين الصحابة والنبي الأعظم مشاجرات ومنازعات بين آونة وأخرى قد ضبطها التاريخ وأصحاب السير. غير أن الشهرستاني يصر على أن أكثر الخلافات كان من جانب المنافقين و قال: «إن شبهات أمته في آخر زمانه، ناشئة من شبهات خصماء أول زمانه من الكفار والملحدين، وأكثرها من المنافقين، وإن خفي علينا ذلك في الأمم السالفة لتمادي الزمان، فلم يخف في هذه الأمة أن شبهاتها نشأت كلها من شبهات منافقي زمن النبي، إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى وسألوا عما منعوا من الخوض فيه والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل في ما لا يجوز الجدل فيه». ثم ذكر الشهرستاني حديث ذي الخويصرة التميمي في تقسيم الغنائم إذ قال: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إن لم أعدل فمن يعدل». (١) إن ما ذكره الشهرستاني صحيح لا- غبار عليه غير أن الاعتراض والخلاف لم يكن منحصرًا بالكفار والمنافقين بل كان هناك رجال من المهاجرين والأنصار، يعترضون على النبي في بعض الأمور التي لا تروقهم، وكان الشهرستاني نسي قصة الحديبية حيث آثر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الصلح يوم الحديبية على الحرب وأمر به، عملاً بما أوصى الله إليه، وكانت المصلحة في الواقع وفي نفس الأمر توجه لكنها خفيت على أصحابه فطفق بعضهم ينكره والآخر يعارضه علانية بكل ما لديه من قوة. هذا هو عمر بن الخطاب فإنه بعد ما تقرر الصلح بين الفريقين على الشروط الخاصة وقد أدركته الحمية، فأتى أبا بكر وقد استشاط غضباً فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا... الحديث. (٢) وكان الشهرستاني غفل أيضاً عن الجدل الشديد بين النبي وبعض

١ . الملل والنحل: ١/٢١.

٢ . السيرة النبوية لابن هشام: ٣/٣١٧. (٤٥)

أصحابه في متعة الحج. قال الإمام القرطبي: «لا خلاف بين العلماء أن التمتع المراد بقوله تعالى: (فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ) (١) هو الاعتمار في أشهر الحج قبل الحج، قلت: وهو فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلاً من كل جانب على الأصح، وإنما أضيف الحج بهذه الكيفية إلى التمتع أو قيل عنه: التمتع بالحج، لما فيه من المتعة، أي اللذة بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخللة بين الإحرامين، وهذا ما كرهه عمر وبعض أتباعه فقال قائلهم: أنطلق و ذكورنا تقطر؟! وفي «مجمع البيان» أن رجلاً قال: أنخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر؟ وأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال له: «إنك لن تؤمن بها أبداً». (٢) ولأجل هذه المكافحة التي نجمت في حياة النبي خطب عمر بن الخطاب في خلافته وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما. (٣) وهذه الأمور تسهل لنا التصديق بما رواه البخاري في إسناد عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجعه قال: ايتوني بكتاب لكم كتاباً لا تضلوا بعده». قال عمر: إن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط. قال: «قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع». فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبين كتابه». (٤) كما تسهل لنا التصديق بخلافهم في حال حياته عندما أمرهم بقوله: «جهزوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه»، فقال قوم: يجب علينا

١ . البقرة: ١٩٦.

٢ . النص والاجتهاد: ١٢٠، وقد نقل مصادر كلامه.

٣ . مفاتيح الغيب للرازي: ٣/٢٠١ في تفسير آية ٢٤ من سورة النساء شرح التجريد للفاضل القوشجي: ٤٨٤.

٤ . صحيح البخاري: ١/٣٠. (٤٦)

أمره، وأسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: قد اشتد مرض النبي عليه الصلاة والسلام فلا تسع قلوبنا مفارقتة والحالة هذه، فنصبر حتى نبصر أى شىء يكون من أمره. (١) نعم كانت هناك هناث ومشاجرات فى أمور لا تروق سليقة بعض النفوس وميولهم، غير أن هذه الخلافات لم تكن على حد تنشق بها عصا الوحدة وتنقسم بها عرى الأخوة، وأعظم خلاف بين الأمة هو الخلاف الذى نجم بعد لحوقه بالرفيق الأعلى، وهو الخلاف فى الإمامة وقد لمست الأمة ضرره وخسارته حتى أن الشهرستانى أعرب عن عظم هذه الخسارة بقوله: «ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان». (٢) وإليك بيان أساس هذا الاختلاف: لما التحق النبى الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرفيق الأعلى صارت الأمة فرقتين باقيتين إلى الآن: الأولى: القائلون بأن منصب الإمامة منصب إلهى وأن الإمام يقوم بالوظائف التى كانت قد أُلقيت على عاتق النبى من تبيين الأحكام الشرعية وتفسير كتاب الله وصيانة الدين عن النقص والزيادة والإجابة على الأسئلة الواردة والاعتراضات المتوجهة إلى الدين مضافاً إلى إدارة المجتمع البشرى وسياسته التى يعبر عنها بالحكومة الإسلامية. الثانية: القائلون بأن منصب الإمامة منصب عادى يجب أن يقوم بها واحد من آحاد الأمة لتبرير أمر المجتمع سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وغير ذلك، وأنه لم يرد فى أمر الخلافة نص على شخص ما وهؤلاء هم الموسومون بأهل السنة. *** (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا). (٣)

١. الملل والنحل: ١/٢٣ - ٢٤.

٢. الملل والنحل: ١/٢٣ - ٢٤.

٣. آل عمران: ١٠٣. (٤٧)

الفصل الثالث علل تكوّن الفرق الإسلامية

الفصل الثالث علل تكوّن الفرق الإسلامية

إنّ الوقوف على تاريخ الفرق الإسلامية، وكيفية تكوّنهما والعلل الباعثة على نشأتها، من الأبحاث المهمة التى تعين الباحث فى تقييم المذاهب الإسلامية ومدى إخلاص أصحابها فى نشرها وبثها بين الأمة، وهذه النقطة الحساسة من علم الملل والنحل، قد أهملت فى كثير من كتب الفرق والنحل إلا شيئاً قليلاً لا يشبع نهمه الطالب، ونحن نأتى فى هذه العجالة بإجمال ما وقفنا عليه فى تاريخ تكوّنهما والبواعث الموجدة لها، وأما الإسهاب فى البحث فموكول إلى آونة أخرى. لئبى النبى الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - دعوة ربّه وانتقل إلى جواره وترك لأُمَّته ديناً قيماً عليه سمات من أبرزها «بساطة العقيدة ويسر التكليف» وأخذ المسلمون يفتحون البلاد بقوة المنطق أولاً وحدّ السلاح ثانياً، وأخذت قوى الكفر والشرك تنسحب أمام دعاة الإسلام وجنوده البواسل، وتتصاع لهداه البلاد إثر البلاد. ارتحل الرسول الصادع بالحق، وترك بين أُمَّته كتاب الله العزيز الذى فيه تبيان كل شىء (١)، وسنّته الوضاعة المقتبسة من الوحي (٢) السليم من الخطأ،

١. (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) (النحل: ٨٩).

٢. (إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم: ٤). (٤٨)

المصون من الوهن وعترته الطيبين الذين هم فى لسان نبيهم قرناء الكتاب. (١) فالمسلمون الأوّلون فى ضوء بساطة العقيدة وسهولة التشريع وفى ظل هذه الحجج والأدلة القويمة، كانوا فى غنى عن الخوض فى أقوال المدارس العقلية والمناهج الكلامية التى كانت دراجة بين الأمم المتحضّرة آنذاك، فهم بدل الغور فيها، كانوا يخوضون غمار المنايا ويرتادون ميادين الحروب فى أقطار العالم وأرجاء الدنيا لنشر الدين والتوحيد ومكافحة شتى ألوان الشرك والثنية ومحو العدوان والظلم عن المجتمع البشرى. نعم كان هذا وصفهم وحالهم إلا شذاً منهم من الانتهازين، عبدة المقام وعشاق المال ممن لم تهّمهم إلا أنفسهم وإلّا علفهم وماؤهم، وقد قلنا إنّ بساطة التكليف كانت إحدى العوامل التى صرفت المسلمين عن التوجه والتعرض للمناهج الفلسفية الدارجة فى الحضارات القائمة

آنذاك، فلأجل ذلك كانوا يكتفون مثلاً في معرفة الله سبحانه بقوله عز من قائل: (أَفِي اللَّهِ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (٢)، وقوله عز وجل: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ). (٣) وفي نفي الشرك والثنوية كانوا يكتفون بقوله سبحانه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا). (٤) وفي التعرف على صفاته وأفعاله بقوله سبحانه: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (٥)، إلى آخر سورة الحشر. وفي تنزيهه عن التشبيه والتجسيم بقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (٦)،

١. لقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض. والتثليث في كلامنا لا يعارض الثنية في كلام الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، لأن مرجع كلام العترة إلى سنة الرسول التي أودعها في قلوبهم بإذن الله عز وجل.

٢. إبراهيم: ١٠.

٣. الطور: ٣٥.

٤. الأنبياء: ٢٢.

٥. الحشر: ٢٢.

٦. الشورى: ١١. (٤٩)

وبقوله: (لا- تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ). (١) وفي سعة قدرته: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ). (٢) إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول المبدأ والمعاد وما يرجع إليهما من الأبحاث الكلامية الغامضة، فلكل واحدة من هذه المسائل نصوص في الكتاب والسنة وهي أغنتهم عن الرجوع إلى غيرهم. نعم إن مفاهيم هذه الآيات على بساطتها تهدف إلى معان بعيدة الأغوار، عالية المضامين، فالكمل يستفيد منها حسب مقدرته واستعداده فهي هادية لكل البشر ومفيدة لجميع الطبقات من ساذجها إلى متعلمها، إلى معلمها.... وهذه الميزة يختص بها القرآن الكريم ويتميز فيها عن غيره، فهو مع كونه هدى للناس عامة، خير دليل للمفكرين صغارهم وكبارهم. هذا هو الكتاب، وأما السنة فهي عبارة عما ينسب إلى النبي من قول أو فعل أو تقرير، نازلة منزلة التفسير والتبيين لمعاني الكتاب الحكيم، مينة لمجمله، شارحة لمعانيه كما يعرب عنه قوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٣)، أي لا لتقرأ فقط، بل لتبين وتشرح ما نزل، بقولك وفعلك وتقريرك. وأما العترة فيكفي في عصمتهم وحجية أقوالهم، حديث الثقلين الذي تواتر نقله، وقام بنقله أكابر المحدّثين في العصور الإسلامية كلها. وكان اللائق بالمسلمين والواجب عليهم مع الحجج الإلهية، التمسك بالعروة الوثقى ورفض الاختلاف، ولكن يا للأسف تفرقوا إلى فرق وفرق لعل نشير إليها. إن لتكون المذاهب الإسلامية - أصولاً وفروعاً - عللاً وأسباباً ومعدات وممهدات ولا يقوم بحق بيانها الباحث إلا بإفراد كتاب خاص في هذا الموضوع،

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. الأنعام: ٩١.

٣. النحل: ٤٤. (٥٠)

ولكن نشير في هذه العجالة إلى العوامل الرئيسية في تكوّن الفرق ونشوتها في المجتمع الإسلامي وهي أمور: ١. الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية. ٢. سوء الفهم واعوجاجه في تحديد الحقائق الدينية. ٣. المنع عن كتابة حديث رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ونقله والتحدّث به كما سيجيء. ٤. فسح المجال للأخبار والرهبان للتحدّث عن قصص الأوّلين والآخريين. ٥. الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري بين المسلمين وغيرهم من الفرس والروم والهنود. ٦. الاجتهاد في مقابل النصّ. وإليك البحث في كل واحد من هذه العوامل حسب ما يقتضيه المجال. *** (ولو أنّهم فعلوا ما يؤعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ ثبوتاً) (١).

١ . النساء: ٦٦ . (٥١)

العامل الأول الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية

العامل الأول الاتجاهات الحزبية والتعصبات القبلية

إن أعظم خلاف بين الأمة هو الخلاف في قضية الإمامة، إذ ما سل سيف قط في الإسلام وفي كل الأزمنة على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة، وقد كان الشقاق بين المسلمين في تلك المسألة أول شقاق نجم بينهم وجعلهم فرقاً أو فرقتين. فمن جانب نرى علماً صلوات الله عليه ورجال البيت الهاشمي ركنا إلى النص وقالوا: إن الإمامة شأنها شأن النبوة لا تكون إلا بالنص. وإن هذا النص قد صدر عن النبي في موطن شتى، آخرها واقعة الغدير المشهورة بين كافة الناس حينما قام النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في محشد عظيم وقال: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه...» (١) ومن جانب آخر نرى الأنصار تجتمع في سقيفة بني ساعدة قبل تجهيز النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومواراته، يبحثون عن قضية الإمامة أو الخلافة، فيرى سيدهم أن القيادة حقّ للأنصار رافعاً عقيرته بقوله: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست في العرب، إن محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وقلع الأنداد

١ . راجع في تواتره وكثرة رواته في جميع العصور الإسلامية من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا، ودلالته على الولاية الكبرى للإمام أمير المؤمنين، كتاب الغدير: الجزء الأول، ولأجل ذلك طوينا الكلام عن نقل مصادره. (٥٢)

والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصيكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به ورسوله والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً - إلى أن قال - : استبدوا بهذا الأمر دون الناس. فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر فإتتك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى. (١) هذا منطلق الأنصار ورئيس جبهتهم ترى أنه يجر النار إلى قرصه وحزبه بحجة أنهم آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ونصروه وآووه، إلى غير ذلك من الحجج التي ذكرها سعد بن عباد، رئيس الخزرج في جبهة الأنصار. ومن جهة ثالثة نرى بعض المهاجرين الذين أطلعوا على اجتماع الأنصار في السقيفة، يتركون تجهيز النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومواراته ويسرعون إلى السقيفة ويحضرهم في جمعهم ويناشدونهم ويعارضون منطلقهم بقولهم: إن المهاجرين أول من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبرسوله، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم في ذلك إلا الظالم - إلى أن قال - من ذا ينازعهم في سلطان محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وإمارته وهم أولياؤه وعشيرته، إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة. (٢) وهذا منطلق بعض المهاجرين لا يقصر في الصلابة أو الوهن عن منطلق الأنصار، والكل يدعى أن الحق له ولحزبه، من دون أن يتفكروا في مصالح الإسلام والمسلمين، ومن دون أن يتفكروا في اللياقة والكفاءة في القائد، ومن دون أن يرجعوا إلى الكتاب والسنة وإحراز المعايير التي يجب وجودها في القائد، فيشبه منطلق هؤلاء منطلق المرشحين من سرد الثناء على أنفسهم وحزبهم لرئاسة الجمهورية أو عضوية المجلس الوطني.

١ . تاريخ الطبري: ٢/٤٥٦، حوادث سنة ١١هـ

٢ . تاريخ الطبري: ٢/٤٥٧، حوادث سنة ١١هـ (٥٣)

وكل يدعى وصلاً بليلى * وليلى لا تقر لهم بذا كما نعم كان هذا التشاجر قائماً بينهم على قدم وساق إلى أن تغلب جناح هذا الصنف من المهاجرين على جبهة الأنصار بإعانة بعض الأنصار وهو «بشير بن سعد» وهو ابن عم «سعد بن عباد»، فبايع أبا بكر حتى يكسر على

سعد بن عباد وعلی الخزرج ما كانوا أجمعوا أمرهم، ولما رأَت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عباد، قال بعضهم لبعض - وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء - والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه وبايعوه. (١) وهناك كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين في تقييم احتجاج الأنصار والمهاجرين نقلها الشريف الرضى في نهج البلاغة، قال: لما انتهت إلى أمير المؤمنين - عليه السلام - أنباء السقيفة، بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، قال عليه السلام - : «ما قالت الأنصار؟» قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير. قال - عليه السلام - : «فهلأ احتجاجتم عليهم بأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن سيئهم!» قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ . فقال - عليه السلام - : «لو كانت الإمارة فيهم، لم تكن الوصية بهم». ثم قال - عليه السلام - : «فماذا قالت قريش؟». قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - . فقال - عليه السلام - : «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة». (٢)

١ . تاريخ الطبري: ٢/٤٥٨، حوادث سنة ١١هـ

٢ . نهج البلاغة: الخطبة ٦٤. (٥٤)

وفي كلمة قصيرة عن الإمام - عليه السلام -، قال: «واعجابه تكون الخلافة بالصحابة، ولا تكون بالصحابة والقراة». قال الرضى، وقد روى له شعر قريب من هذا المعنى وهو: فإن كنت بالشورى ملكتأمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب وإن كنت بالقربى حجت خصيمهم فغيرك أولى بالنبى وأقرب (١) وتلك المعايير والمبررات تمت البيعة للخليفة، والكل أشبه بالمكافحات الحزبية أو القبلية التي لا تمت إلى الإسلام وأهله بصله. فعند ذلك أخذ هؤلاء المهاجرون بزمام الحكم واحداً بعد واحد إلى أن ترعّج ثالث القوم عثمان بن عفان على منصة الحكم فحدثت في زمانه حوادث مؤلمة وبدع كثيرة أدت إلى الفتك به والإجهاد عليه. غير أن علياً صلوات الله عليه وبنى هاشم وعدة من المهاجرين والبدريين وعدة من أكابر الأنصار تمسكوا بالنص النبوي وبقوا على ما فارقهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليه، كما أن رئيس الأنصار الخزرجيين وداعميه لم يبايعوا أبا بكر ولا علياً. هذا تحليل تكوّن أول تفرق حدث في الإسلام فجعل الأئمة فرقتين: فرقة تشايح الخلفاء، وفرقة تشايح علياً - عليه السلام - إلى اليوم الحاضر. والذين شايعوا علياً - عليه السلام - وتابعوه لم يكن ذلك منهم إلا تمسكاً بالدين مذعنين بأن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قد نصّ عليه من دون أن يكون هناك اندفاع حزبي أو علاقة شخصية أو قبلية، بل تسليماً لقوله سبحانه: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ). (٢) وأما غيرهم فقد عرفت المعايير التي استندوا إليها في تقديمهم على غيرهم، فالكل معايير قبلية أو شخصية.

١ . نهج البلاغة، طبعه عبده، قسم الحكم، الرقم ١٩٠. وفي المطبوع تحريف، والصحيح ما أثبتناه في المتن.

٢ . الأحزاب: ٣٦. (٥٥)

العامل الثاني سوء الفهم واللجاج في تحديد

العامل الثاني سوء الفهم واللجاج في تحديد الحقائق

إذا كانت الدعايات الحزبية أول عامل لتكوّن الفرق، فهناك عامل ثان لتفريق المسلمين وتبديدهم إلى فرق متباعدة، وهو سوء الفهم عن تقصير - في تحديد العقائد الدينية من بعضهم، وقلّة العقل وخفته في بعض آخر منهم، وقد كان هذا عاملاً قوياً لتكوّن الخوارج التي كانت من أخطر الفرق على الإسلام والمسلمين، لولا أن الإمام علياً - عليه السلام - استأصلهم وبدد شملهم، ومع ذلك بقيت منهم حشاشات تنجم تارة وتخفق أخرى في الأجيال والقرون، وإليك شرحه: لقد ثار أهل العراق والحجاز ومصر على عثمان نتيجة الأحداث المؤلمة التي ارتكبها عماله في هذه البلاد وانتهى الأمر إلى قتله وتنصيب على - عليه السلام - مكانه لما عرفت الأمة من علمه

وفضله وسابقته وجهاده المنقطع النظير، وقام على - عليه السّلام - بعزل الولاة والعمال الذين نصبهم عثمان على رقاب الناس، وقد انتهت أعمالهم الإضرارية من جانب، وإصرار الخليفة على إبقائهم من جانب آخر، إلى قتله. قام على - عليه السّلام - بعزل الولاة آنذاك، ونصب العمال الأتقياء الزهاد الكفأه مكانهم، وعند ذلك طمع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في العراقين، وطلبا منه أن يولى أحدهما على الكوفة والآخر على البصرة، والمألوف من طريقة علي عليه السّلام - في تنصيب العمال اشتراط شروط، تخالف ما كان عليه (٥٦)

الرجلان وقد قال في حقهما كلمة: «وإني أخاف شرهما على الأمة وهما معي، فكيف إذا فرقتهم في البلاد». (١) فعند ذلك ثارا على الإمام علي - عليه السّلام - وخرجا عليه واتهما لتبرير موقفهما - بقتل عثمان أو إيواء قتلته، وكانت نتيجة ذلك اشتعال نار الحرب بين الإمام والرجلين في نواحي البصرة «حرب الجمل» وقتل الرجلين بعد أن أريقت دماء الأبرياء. ثم إن معاوية قد عرف موقف علي - عليه السّلام - بالنسبة إلى عمال الخليفة «عثمان»، ومع هذا طلب من الإمام إبقاءه والياً على الشام، فرفض الإمام ذلك لما يعرف من نفسية معاوية وانحرافه، ونشبت من ذلك «حرب صفين» ولما ظهرت بوادر الفتح المبين لعلي وجيشه، التجأ معاوية وحزبه إلى خديعة رفع المصاحف والدعوة إلى تحكيم القرآن بين الطرفين، فصار ذلك نواة لحدوث الاختلاف في جبهة علي - عليه السّلام - . فمن قائل: نستمر في الحرب وهذه خدعة ومكر، ومن قائل: نجيبهم إلى ما دعونا إليه. وقد أمر الإمام بمواصلة الحرب، وقام بتبيين الخدعة، غير أن الظروف الحاكمة السائدة على جيش الإمام ألجأته إلى قبول وقف الحرب وإدلاء الأمر إلى الحكيمين وإعلان الهدنة، وكتب هناك كتاباً حول هذا. ومن العجيب أن الذين كانوا يصرون على إيقاف الحرب ندموا على ما فعلوا فجاءوا إلى الإمام يصرون على نقض العهد، والهجوم على جيش معاوية من جديد، غير أن الإمام وقف في وجههم بصمود لما يتضمن من نقض العهد (وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَشْهُوْلًا). (٢) وعند ذلك نجمت فرقة باسم الإسلام من جيش علي - عليه السّلام - وطلع قرن الشيطان، فعادت تلك الجماعة خارجة عن إطاعة إمامهم، رافضة لحكومته، وبمغضة إياه كما أبغضت عثمان وعماله، وهذه الفرقة هي فرقة الخوارج وما زالوا

١ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١١/١٦.

٢ . الأحزاب: ١٥. (٥٧)

مبدأ أحداث وعقائد في التاريخ. وكان الحافظ القوي على تكوّن هذه الفرقة هو سوء الفهم واعوجاج السليقة، وقد عرّفهم الإمام بقوله - عندما شهروا سيوفهم عليه في النهروان - : «فأنا نذيركم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر وبأهضام هذا الغائط على غير بينة من ربكم ولا - سلطان مبين معكم، قد طوّحت بكم الدار واحتبلكم المقدار، وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فأبيتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيي إلى هواكم وأتمت معاشر أخفاء الهام، سفهاء الأحلام». (١) وللإمام كلمة أخرى يشير فيها إلى السبب الذي فارقوا به عن الحقّ قال صلوات الله عليه: «لا تقتلوا الخوارج بعدى، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» (يعني معاوية وأصحابه). قال الإمام عبده: والخوارج من بعده وإن كانوا قد ضلّوا بسوء عقيدتهم فيه إلا أنّ ضلّتهم لشبهه تمكّنت في نفوسهم، فاعتقدوا أنّ الخروج عن طاعة الإمام ممّا يوجهه الدين عليهم، فقد طلبوا حقاً وأرادوا تقريره شرعاً، فأخطأوا الصواب فيه. (٢) وقد زعموا أنّ مسألة التحكيم تخالف قوله سبحانه: (إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ). (٣) وسياوفايك مفاد الآية ومقاله المحتجين بها - عند البحث عن عقائد تلك الفرقة - كى يظهر مدى اعوجاج فهم القوم. ظهور المرجئة

قد كان لظهور الخوارج أثر بارز في حدوث الفتن وظهور الحوادث الأخرى في المجتمع الإسلامي، وقد نجمت المرجئة من تلك

الناحية حيث إنّ الإرجاء

١ . نهج البلاغة شرح محمد عبده: ١/٨٢، الخطبة ٣٥.

٢ . نهج البلاغة شرح محمد عبده: ١/١٠٣ الخطبة ٥٨.

٣. يوسف: ٤٠. (٥٨)

بمعنى التأخير قال سبحانه: (أُرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ). (١) ولهذه الفرقة (المرجئة) آراء خاصة نشير إليها في محلها، غير أن اللبنة الأولى لظهورها هي اختلافهم في أمر علي وعثمان، فهؤلاء (الخوارج) كانوا يحترمون الخليفين أبا بكر وعمر ويغضون علياً وعثمان، على خلاف أكثرية المسلمين، ولكن المرجئة الأولى لما لم يوفقوا لحل هذه المشكلة التجأوا إلى القول بالإرجاء فقالوا: نحن نقدم أمر أبي بكر وعمر، ونؤخر أمر الآخرين إلى يوم القيامة، فصارت المرجئة فرقة نابتة من خلاف الخوارج في أمر الخليفين، مع فوارق بينهم وبين المرجئة التي تأتي في محلها، والعامل لتكوّنها كأصلها، هو سوء الفهم واعوجاج التفكير. هذا هو أصل الإرجاء، ولبنته الأولى، ولكنه قد نسي في الآونة الأخيرة، وأخذ الأصل الآخر مكانه، وهو كون العمل داخلياً في الإيمان أو لا؟ وبعبارة أخرى: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو لا؟ ذهبت الخوارج إلى دخول العمل في صميم الإيمان، فصار مرتكب الكبيرة كافراً. واختارت المعتزلة كون مرتكب الكبيرة غير مؤمن ولكنه ليس بكافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين. وذهبت المرجئة الأولى إلى خروج العمل من الإيمان، وأن إيمان مرتكب الكبيرة، كإيمان الملائكة والأنبياء بحجة عدم دخالة العمل في الإيمان. فاشتهروا بالقول: «قدموا الإيمان وأخروا العمل» فصار هذا أصلاً وأساساً ثانوياً للمرجئة. فكلما أطلقت المرجئة لا يتبادر منها إلا هؤلاء. إن الاكتفاء في تفسير الإيمان بالشهادة اللفظية أو المعرفة القلبية، وأن عصاة المؤمنين لا يعذبون أصلاً، وأن النار للكافرين (٢) واقتحام الكبائر لا يضر أبداً،

١. الأعراف: ١١١.

٢. شرح المقاصد للتفتازاني: ٢/٢٢٩، ولاحظ أيضاً ص ٢٣٨. (٥٩)

فكرة خاطئة تسير بالمجتمع وخصوصاً الشباب فيه إلى الخلاعة والانحلال الأخلاقي وترك القيم. وعلى كل تقدير إن نظرية الإرجاء في كلا-الموضعين نظرية باطلية نشأت من الاعوجاج في فهم المعارف والانحراف في تفسير الذكر الحكيم، والحديث المأثور عن النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . ولما كان مذهب الإرجاء لصالح السلطة الأموية أخذت تروجه وتسانده حتى لم يلبث أن فشا في الإرجاء، ولم تبق كورة إلا وفيها مرجئي، كما سيوافيك ذلك عند البحث عن عقائد هذه الفرقة. وليس ظهور الخوارج أو المرجئة وحدهما نتاج الإعوجاج الفكري، بل هناك مذاهب أخرى نجمت من هذا المنشأ. عصمنا الله جميعاً من الزلل في القول والعمل. *** (ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (١). _____

١. النحل: ١٢٥.

العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل

العامل الثالث المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدث عنه

إن هنا عاملاً ثالثاً لتكوّن الفرق ونشوء الفوضى في العقائد والأصول، وهو المنع عن كتابة الحديث وتدوينه بل التحدث عنه بعد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى عهد المنصور العباسي. توضيحه: الحديث عبارة عما ينسب إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من قول أو فعل أو تقرير نازل منزلة التفسير لمعاني الكتاب الحكيم، مبيّن لمجمله، شارح لمعانيه، كما يعرب عنه قوله سبحانه: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). (١) أي لا لتقرأ فقط، بل تبين وتشرح ما نزل، بقولك وفعلك وتقريرك. إذا كانت السنة هي في الدرجة الثانية من الدين بعد القرآن الكريم في الحجية والاعتبار، حتى إنك لا تجد فيها شيئاً إلا وفي القرآن أصوله وجذوره، ولا-إسهاباً إلا- وفيه مجمله وعناوينه. وإذا كان الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لا يصدر في قوله وكلامه إلا بإحسان من الله سبحانه كما يصرح بذلك قوله سبحانه: (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا- وَحْيٌ يُوحى). (٢). _____

١ . النحل: ٤٤.

٢ . النجم: ٢ - ٤. (٦١)

فهل يصحّ للرسول أن يمنع عن تدوينه وكتابته أو مدارسته ومذاكرته؟! وإذا كان الرسول منع دراسة الحديث ونقله ونشره وتدوينه، فما معنى قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في خطبته في منى عام حجة الوداع: «نصر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» (١)؟! وما معنى قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «نصر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما يسمع، فرب مبلغ أوعى من سامع» (٢)؟! أو قوله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «اللهم ارحم خلفائي، اللهم ارحم خلفائي، اللهم ارحم خلفائي» قيل: يا رسول الله ومن خلفائك؟ قال: «الذين يأتون من بعدى يروون حديثي وسنتي» (٣)؟! كيف تصحّ نسبة المنع إلى الرسول الأعظم، مع أن المستفيض منه خلافه؟! وإليك بعض ما ورد عنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . أمر الرسول بكتابه حديثه

١ . روى البخارى عن أبي هريرة أن خزاعة قتلوا رجلاً من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فركب راحلته فخطب، فقال: «إن الله حبس عن مكة القتلى أو الفيل (شك أبو عبد الله) وسلط عليهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، والمؤمنين. ألا- وإنها لم تحل لأحد قبلى ولم تحل لأحد بعدى- إلى أن قال - : فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لى يا رسول الله؟ فقال: «اكتبوا لأبى فلان - إلى أن قال - : كتب له هذه الخطبة». (٤) ٢ . وروى أن رجلاً من الأنصار كان يجلس إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فيسمع من النبي الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا رسول الله إنى أسمع منك الحديث

١ . سنن الترمذى: ٥/٣٤ ح ٢٦٥٧، ٢٦٥٨.

٢ . سنن الترمذى: ٥/٣٤ ح ٢٦٥٨.

٣ . كنز العمال: ١٠/٢٢١، رقم الحديث ٢٩١٦٧، زو بحار الأنوار: ٢/١٤٥ ح ٧.

٤ . صحيح البخارى: ٢٩-٣٠، باب كتابه العلم، الحديث ٢. (٦٢)

فيعجبني ولا أحفظه، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «استعن بيمينك» وأوماً بيده للخط. (١) ٣ . وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم». قلت: فى الرضا والسخط؟ قال: «نعم فإنه لا ينبغي لى أن أقول فى ذلك إلا حقاً». (٢) ٤ . وعن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شىء أسمع من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أريد حفظه، فنهتنى قريش وقالوا: تكتب كل شىء سمعته من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وآله وسلم - بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فأوماً بإصبعه إلى فيه وقال: «اكتب، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق». (٣) ٥ . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، قال: قلت: يا رسول الله إننا نسمع منك أحاديث لا نحفظها أفلا نكتبها؟ قال: «بلى فاكتبوها». (٤) أضف إلى ذلك أن الذكر الحكيم يحث المسلمين على كتابه ما يتدانيون بينهم. قال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا- يآب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ولتملّل الذى عليه الحق... ثم يعود ويؤكد على المؤمنين أن لا يسأوا من الكتابة فقال سبحانه: (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله...)). (٥)

١ . سنن الترمذى: ٥/٣٩، كتاب العلم، باب ما جاء فى الرخصة فيه، ح ٢٦٦٦.

٢ . مسند أحمد: ٢/٢٠٧.

٣ . سنن الدارمى: ١/١٢٥، باب من رخص فى كتابه العلم، سنن أبى داود: ٢/٣١٨، باب فى كتابه العلم، مسند أحمد: ٣/١٦٢.

٤ . مسند أحمد: ٢/٢١٥.

٥ . البقرة: ٢٨٢. (٦٣)

فإذا كان المال الذي هو زينة الحياة الدنيا من الأهمية بهذه المنزلة، فكيف بأقوال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأفعاله وتقاريره التي تعتبر تالي القرآن الكريم حجية وبرهاناً؟ وهناك كلمة قيمة للخطيب البغدادي نأتى بها برمتها: وقد أدب الله سبحانه عباده بمثل ذلك في الدين، فقال عز وجل: (وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تُكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا) (١). فلما أمر الله تعالى بكتابة الدين حفظاً له، واحتياطاً عليه وإشفاقاً من دخول الريب فيه، كان العلم الذي حفظه أصعب من حفظ الدين، أحرى أن تباح كتابته خوفاً من دخول الريب والشك فيه. بل كتابة العلم في هذا الزمان، مع طول الاسناد، واختلاف أسباب الرواية، أحج من الحفاظ، ألا ترى أن الله عز وجل جعل كتب الشهادة فيما يتعاطاه الناس من الحقوق بينهم، عوناً عند الجحود، وتذكراً عند النسيان، وجعل في عدمها عند الممّوهين بها أو كد الحجج بطلان ما ادّعوه فيها، فمن ذلك أن المشركين لما ادّعوا بهتاً اتخذ الله سبحانه بنات من الملائكة، أمر الله نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يقول لهم: (فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (٢) ولما قالت اليهود: (ما أنزل الله على بشر من شيء) (٣)، وقد استفاض عنهم قبل ذلك للإيمان بالتوراة، قال الله تعالى لنبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - قل لهم: (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) (٤)، فلم يأتوا على ذلك ببرهان، فأطلع الله على عجزهم عن ذلك بقوله: (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ). (٥)

١ . البقرة: ٢٨٢.

٢ . الصافات: ١٥٧.

٣ . الأنعام: ٩١.

٤ . الأنعام: ٩١.

٥ . الأنعام: ٩١. (٦٤)

وقال تعالى - راداً على متخذى الأصنام آلهة من دونه - : (أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبيل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين). (١) والآثارة والآثرة، راجعان في المعنى إلى شيء واحد، وهو ما أثر من كتب الأولين. وكذلك سبيل من ادعى علماً أو حقاً من حقوق الأملاك، أن يقيم دون الإقرار برهاناً، إما شهادة ذوى عدل أو كتاباً غير ممّوه، وإلّا فلا- سبيل إلى تصديقه. والكتاب شاهد عند التنازع... إلى آخر ما ذكره. (٢) نرى أنه سبحانه قد شرح دساتير وحيه وآى قرآنه بالأمر بالقراءة مبيناً أهمية القلم في التعليم والتعلم حيث قال عز من قائل: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ). (٣) بل وعظم سبحانه القلم والكتابة تعظيماً، حتى جعلها بمرتبة استحقاق القسم بها فهو جلّ وعلا يقول: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ). (٤) أفهل يعقل معه أن ينهى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عن كتابة ما هو قرين القرآن وتاليه في الحجية، أعنى: السنة الشريفة؟! كلاً. أسطورة المنع عن كتابة الحديث

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ما نسب إليه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من النهى عن كتابة الحديث، يخالف منطق الوحي والحديث والعقل، وما هو إلا وليد الأوهام والسياسات التي أخذت تمنع نشر حديث الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وتدوينه لغايات سياسية لا تخفى على ذى

١ . الأحقاف: ٤.

٢ . تقييد العلم: ٧٠-٧١.

٣ . العلق: ١-٤.

٤ . القلم: ١. (٦٥)

لب. فمثلاً روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه». (١) وفي رواية: إنهم استأذنوا النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يكتبوا عنه فلم يأذنهم. (٢) وفي مسند أحمد أن

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نهى أن نكتب شيئاً من حديثه (٣). وأيضاً ورد في مسند أحمد عن أبي هريرة أنه قال: «كنا قعوداً نكتب ما نسمع من النبي، فخرج علينا فقال: «ما هذا تكتبون؟» فقلنا: ما نسمع منك، فقال: «أكتب مع كتاب الله؟» فقلنا: ما نسمع. فقال: «اكتبوا كتاب الله، امحضوا كتاب الله، أكتب غير كتاب الله، امحضوا أو خلصوه». قال: فجعلنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقتنا بالنار». (٤) ثم إن القوم لم يكتفوا بما نسبوه إلى النبي في مجال كتابة الحديث، بل ذكروا هناك أحاديث موقوفة على الصحابة والتابعين تنتهي إلى الشخصيات البارزة: كأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وعبيدة، وإدريس بن أبي إدريس، ومغيرة بن إبراهيم، إلى غير ذلك. (٥) وروى عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوها عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء _____

١ . سنن الدارمي: ١/١١٩، مسند أحمد: ٣/١٢.

٢ . سنن الدارمي: ١/١١٩.

٣ . مسند أحمد: ٥/١٨٢.

٤ . مسند أحمد: ٣/١٢.

٥ . جمع الخطيب في «تقييد العلم»: ٢٩-٢٨، الروايات المنسوبة إلى النبي والموقوفة على الصحابة والتابعين. (٦٦)

أبداً. (١) وروى ابن جرير أن الخليفة عمر بن الخطاب كان كلما أرسل حاكماً أو والياً إلى قطر أو بلد، يوصيه في جملة ما يوصيه: جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد وأنا شريككم. (٢) وكان عمر قد شيع قرظ بن كعب الأنصاري ومن معه إلى «صرار» على ثلاثة أميال من المدينة، وأظهر لهم أن مشايخته لهم إنما كانت لأجل الوصية بهذا الأمر، وقال لهم ذلك القول. قال قرظ بن كعب الأنصاري: أردنا الكوفة، فشيّعنا عمر إلى «صرار» فتوضأ فغسل مرتين، وقال: تدرن لم شيعتكم؟ فقلنا: نعم، نحن أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، فقال: إنكم تأتون أهل قريه لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله، وامضوا وأنا شريككم. (٣) وقد حفظ التاريخ أن الخليفة قال لأبي ذر، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء: ما هذا الحديث الذي تفشون عن محمد؟! (٤) وذكر الخطيب في «تقييد العلم» عن القاسم بن محمد: أن عمر بن الخطاب بلغه أن في أيدي الناس كتباً، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيها الناس إنّه قد بلغني أنّه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله، أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتاني به فأرى فيه رأيي. قال فظنوا أنّه يريد ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنار ثم قال: أمنيّة كأمنيّة أهل الكتاب. (٥) _____

١ . تقييد العلم: ٤٩.

٢ . تاريخ الطبري: ٣/٢٧٣، طبعة الأعلمي بالأفست.

٣ . طبقات ابن سعد: ٦/٧، المستدرک للحاكم: ١/١٠٢.

٤ . كنز العمال: ١٠/٢٩٣ ح ٢٩٤٧٩.

٥ . تقييد العلم: ٥٢. (٦٧)

وقد صار عمل الخليفين سنّه، فمشى عثمان مشيها، ولكن بصورة محدودة وقال على المنبر: لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر. (١) كما أن معاوية أتبع طريقة الخلفاء الثلاث فخطب وقال: يا ناس أقلوا الرواية عن رسول الله وإن كنتم تتحدّثون فتحدّثوا بما كان يتحدّث به في عهد عمر. (٢) حتى أن عبيد الله بن زياد عامل يزيد بن معاوية على الكوفة، نهى زيد بن أرقم الصحابي عن التحدّث بأحاديث رسول الله. (٣) وبذلك أصبح ترك كتابة الحديث سنّه إسلامية، وعدت الكتابة شيئاً منكراً

مخالفاً لها. هذه هي بعض الأقاويل التي رواها أصحاب الصحاح والسنن، وفي نفس الوقت نقلوا أحاديث تناقضها وتأمراً بكتابة الحديث والسنة كما ستوافيك. العقل والمنع عن كتابة الحديث

كيف يسمح العقل والمنطق أن يحكم بصحة الأحاديث الناهية عن الكتابة، مع أن الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أمر في أخريات حياته أن يحضروا له قلماً ودواة ليكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً! وما كان المكتوب (على فرض كتابته) إلا حديثاً من أحاديثه، فقد روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ وَجَعُهُ قَالَ: ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوْا بَعْدَهُ، قَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا. فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ قَالَ: «قَوْمُوا عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ» فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: الرَّزِيَّةُ كُلُّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ كِتَابِهِ. (٤) _____

١. كثر العمال: ١٠/٢٩٥، ح ٢٩٤٩٠.

٢. كثر العمال: ١٠/٢٩١، ح ٢٩٤٧٣.

٣. فرقة السلفية، ص ١٤، نقلاً عن مسند الإمام أحمد.

٤. صحيح البخاري: ١/٣٠ كتاب العلم، باب كتابة العلم. (٦٨)

أفهل يجتمع هذا الأمر مع النهي عن تدوينه؟! ثم إننا نرى أن الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعث كتب إلى الملوك والساسة والأمراء والسلاطين وشيوخ القبائل ورؤسائها ناهز عددها ثلاثمائة كتاب في طريق الدعوة والتبليغ أو حول العهود والمواثيق وقد حفظ التاريخ متون هذه الرسائل التي جمع بعضها نخبة مع المحققين في كتب خاصة. (١) والتاريخ يصرح بأن الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان يملئ والكاتب يكتب، فلما ازدادت الحاجة وكثرت العلاقات الاجتماعية أصبحت الحاجة إلى كتاب يمارسون عملهم، فأدى ذلك إلى كثرة الكتيبات فجعل لكل عمل كاتباً، ولكل كاتب راتباً معيناً. وقد كان أكثرهم كتابه، على بن أبي طالب صلوات وسلامه عليه، فقد كان يكتب الوحي وغيره من العهود والمصالحات، وقد أنهى المؤرخون كتابه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى سبعة عشر كتاباً. فهل يجوز أن يكتب الرسول الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - هذه المكاتبات والعهود والمصالحات إلى بطون القبائل ورؤساء العشائر وهو يعلم أنهم يحتفظون بهذه المكاتبات بحجة أنها من أوثق الوثائق السياسية والدينية، ثم ينهي عن تسطير كلامه وحديثه؟! فما هذان إلا نقيضان لا يجتمعان. الغايات السياسية والأهداف الدينية

ومع ذلك كله فقد غلبت الغايات السياسية على الأهداف الدينية وقامت بكل قوة أمام حديث النبي ونشره وكتابه، حتى إن الخليفة أبا بكر أحرق في خلافته خمسمائة حديث كتبه عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - (٢). ولما قام عمر بعده بالخلافة نهى عن كتابة الحديث وكتب إلى الآفاق: أن من كتب حديثاً فليمحاه. (٣) ثم نهى عن التحدث، فتركت عدة من الصحابة الحديث

١. «الوثائق السياسية» لمحمد حميد الله، و «مكاتيب الرسول» للعلامة الأحمدي.

٢. كثر العمال: ١٠/٢٣٧ و ٢٣٩.

٣. مسند أحمد: ٣/١٢ و ١٤. (٦٩)

عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - (١) فلم يكتب الحديث ولم يدون إلا في عهد المنصور عام ١٤٣ هـ كما سيوافيك بيانه. وقد بلغت جسارة قريش على ساحة النبي الأقدس أن منعوا عبد الله بن عمرو عن الاهتمام بحديث النبي وكتابه مدعين بأنه بشر يغضب (٢). أي والله إنه بشر يرضى ويغضب، ولكن لا يرضى ولا يغضب إلا من حق ولا يصدر إلا عنه. إن الرزية الكبرى هي أن يمنع التحدث بحديث رسوله وكتابه وتدوينه ويحل محله التحدث عن العهد القديم والجديد وعن الأحاديث الإسرائيلية والمسيحية والمجوسية (٣) فتمتلئ الأذهان والصدور بالقصص الخرافية التي لا تمت إلى الإسلام بصلة ولا يصدقها العقل والمنطق كما سيمر عليك شرح تلك الفاجعة العظمى التي أمت بالإسلام والمسلمين. فلو صح ما نقل عن أبي هريرة من جمع ما كتبه الصحابة عن النبي

- صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في مكان واحد وحرقة بالنار، لوجب على المسلمين كافة أن يجمعوا كل مصادر أحاديث الرسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وعلى رأسها صحيح البخارى وصحيح مسلم وحرقة في مكان واحد وذلك اقتداء بالسلف الصالح!!، وإذا صح فهل يبقى من الإسلام ما يرجع إليه في فهم القرآن الكريم وتمييز الحلال عن الحرام؟! والذي أظنه (وظن الألعى صواب) أن الذي منع من تدوين الحديث ونشره ومدارسته وكتابته بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، هو الذي منع كتابة الصحيفة يوم الخميس عند احتضار النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ،

١ . مستدرک الحاكم: ١/١٠٢ و ١٠٤ .

٢ . المصدر نفسه .

٣ . وقد أذن عمر بن الخطاب لتميم الدارى النصرانى الذى استسلم عام ٩ من الهجرة أن يقص كما فى كنز العمال: ١/٢٨١، فالتحدث بحديث رسول الله يكون ممنوعاً و «الدارى» وأمثاله يكونون أحراراً فى بث الأساطير والقصص المحرّفة؟! (٧٠)

فالغاية بداية ونهاية وقبل رحلته - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وبعدها واحدة لم تتغير، وأما حقيقة تلك الغاية فتفصيلها موكول إلى آونة أخرى ونأتى بمجملها: كان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - منذ أن صدع بالدعوة، وأجهر بها، ينص على فضائل على ومناقبه فى مناسبات شتى، فقد عرّفه فى يوم الدار الذى ضم فيه أكابر بنى هاشم وشيوخهم، بقوله: «إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». وفى يوم الأ-حزاب بقوله: «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين». وفى اليوم الذى غادر فيه المدينة متوجهاً إلى تبوك، وقد ترك علياً خليفته على المدينة، عرّفه بقوله: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى». إلى أن عرّفه فى حجة الوداع فى غدير خم بقوله: «من كنت مولاه، فهذا علىّ مولاه». (١) وغير ذلك من المناقب والفضائل المتواترة، وقد سمعها كثير من الصحابة فوعوها. فكتابة حديث رسول الله بمعناها الحقيقى، لا تنفك عن ضبط ما أثر عنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فى حق أول المؤمنين به، وأخلص المناصرين له فى المواقف الحاسمة، وليس هذا شيئاً يلائم شؤون الخلافة التى تقلدها المانع عن الكتابة. وهناك وجه آخر للمنع عنها، هو أن علياً كان أحد المهتمين بكتابة حديث رسول الله وضبطه كما كان مولعاً بضبط الوحي وكتابته. وقد كتب من أحاديث رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما أملى عليه فصار له أذناً واعية، وهو - عليه السّلام -

١ . سيوافيك مصادر هذه الأحاديث عند البحث عن عقيدة الشيعة، و من أراد الوقوف فليرجع إلى كتب المناقب للإمام عليه عليه السلام - (٧١)

بالنسبة إلى رسول الله كما قال هو نفسه: «إنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكتُ ابتدأنى» (١) . وهو أول من ألف أحاديث رسول الله وكتب، وهذه منقبة عالية لأمر المؤمنين دون غيره، إلا أقلّ القليل. فاهتم مخالفيه بإخفاء هذه الفضيلة، باختلاق حديث منع الكتابة، فروى مسلم وغيره عنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لا- تكتبوا عنى سوى القرآن، ومن كتب فليمح» (٢) وكانت الغاية من تلك المقالة، الطمس على ما كتبه على - عليه السلام - من الأحاديث. على أنهم لم يكتفوا بذلك، فرووا عن على أنه قال: «ليس عندنا كتاب سوى ما فى قراب السيف». (٣) وروى البخارى عن أبى جحيفة، قال: قلت لعلى: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة، قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر. (٤) مع أن الكتاب الذى كتبه على بإملاء رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، كتاب كبير رآه أئمة الشيعة، وهو من موارث النبوة وكان مشتملاً على أحاديث فقهية، وغيرها. وقد نقل عنه مشايخنا المحدّثون الأول فى جوامعهم، ولو صحّ وجود كتاب فى قراب سيفه، فهو لا يمت إلى هذا الكتاب بصلة. وقد قام زميلنا العلامة الحجّة الشيخ على الأحمدي، بجمع ما روى الأئمة عن هذا الكتاب من الأحاديث فى موسوعته، وأخرجها من الكتب الأربعة، والجامع الأخير وسائل الشيعة. (٥) إنّ الخسارات التى منى الإسلام والمسلمون بها من جراء مثل هذا المنع،

١. تاريخ الخلفاء: ١١٥.
٢. سنن الدارمي: ١/١١٩.
٣. مسند أحمد: ١/١١٩.
٤. صحيح البخاري: ١/ ٢٩، باب كتابة العلم، الحديث ١.
٥. لاحظ مكاتيب الرسول: ١/٧٢-٨٩. (٧٢)

كائنًا ما كان سببه، كانت وما تزال عظيمة ووخيمة، وسنشير إلى بعضها في محلها إن شاء الله تعالى. أعذار مفتعلة إذا كان المنع من كتابة السنّة أمرًا عجيبًا، فتبرير هذا المنع بأنّه كان لصيانته اختلاط الحديث بالقرآن الكريم أعجب منه، وذلك لأنّ التبرير هذا أشبه بالاعتذار الأقبح من الذنب، لأنّ القرآن الكريم في أسلوبه وبلاغته يغيّر أسلوب الحديث وبلاغته، فلا يخاف عليه من الاختلاط بالقرآن مهما بلغ من الفصاحة، فقبول هذا التبرير يلازم إبطال إعجاز القرآن الكريم وهدم أصوله من القواعد. ومثله، الأعذار المنحوتة الأخرى لتبرير هذا المنع، كخوف الانكباب على دراسة غير القرآن، الذي نسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب على ما مرّ، غير أنّ مرور الزمان أثبت خلاف تلك الفكرة، لأنّ كتابة الحديث من عصر المنصور لم تؤثر في دراسة القرآن وحفظه وتعليمه وتعلّمه. وهناك أعذار منحوتة أخرى لا تقصر في البطلان عن سابقها ولم تخطر ببال المانع أو المانعين أبدًا، وإنما هي وليدة «حبّ الشيء الذي يعنى ويصم» بعد لأى من الدهر، والهدف منه هو إسدال العذر على العمل السيء، أعاذنا الله منه. وقد نحت الخطيب البغدادي مثل هذه الأعذار، وقال: قد ثبت أنّ كراهة من كره الكتابة من الصدر الأوّل، إنّما هي لثلا يضاهاى بكتاب الله تعالى غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه. ونهى عن الكتب القديمة أن تتخذ، لأنّه لا يعرف حقّها من باطلها، وصحيحها من فاسدها. مع أنّ القرآن كفى منها، وصار مهيمناً عليها، ونهى عن كتب العلم في صدر الإسلام وجدته، لقلمه الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره، لأنّ أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا- جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن. ويعتقدوا أنّ ما اشتملت عليه كلام الرحمن. (١)

١. تقييد العلم: ٥٧. (٧٣)

وقد استمر المنع من تدوين الحديث إلى عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) فأحسن بضرورة تدوين الحديث، فكتب إلى أبي بكر بن حزم في المدينة: انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه، فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلاّ أحاديث النبي، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا- يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتى يكون سرًا. (١) ومع هذا الإصرار المؤكّد من الخليفة، صارت روايت الحظر السابق المؤكّد من قبل الخلفاء الماضين حائلة دون القيام بما أمر به الخليفة، فلم يكتب شيء من أحاديث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد صدور الأمر منه، إلاّ صحائف غير منظمّة ولا مرتبة، إلى أن دالت دولة الأمويين وقامت دولة العباسيين، وأخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم، فقام المحدّثون في سنه مائة وثلاثة وأربعين بتدوين الحديث، وفي ذلك قال الذهبي: وفي سنه مائة وثلاثة وأربعين شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقّه والتفسير، فصنّف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما في البصرة، ومعر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف أبو حنيفة الفقّه والرأى إلى أن قال: وقبل هذا العصر كان الأئمّة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة. (٢) ومعنى هذا، أنّ العالم الإسلامي اندفع فجأة بعد مضي ١٤٣ سنة من هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نحو هذا الأمر، فاشتغل العلماء بجمع الأحاديث والفقّه وتدوينهما، وألّفت كتب كثيرة في هذا المجال، واستمرت تلك الحركة إلى حدود سنه ٢٥٠، فجمعت أحاديث كثيرة، ودوّنت العقائد على طبق الأحاديث المضبوطة، فإذا كان هذا هو تاريخ الحديث وتدوينه وانتشاره، يتبين للقارئ بسهولة أنّ حديثًا لم يكتب طوال قرن ونصفه كيف تكون حاله مع أعدائه الذين كانوا له بالمرصاد، وكانوا يكذبون عليه بما يقدرّون، وينشرون

١ . صحيح البخارى: ١/٢٧.

٢ . تاريخ الخلفاء للسيوطى: ٢٦١. (٧٤)

كل غث وسمين باسم الدين وباسم الرسول، كما سيوافيك بيانه، وما قيمة العقائد التي دوت على أساس تلك الأحاديث؟! نحن لا ننكر أن العلماء والمحدثين قاموا بوظيفتهم وواجههم الدينى تجاه السنّة النبوية، وكابدوا وتحملوا المشاق فى استخراج الصحيح من السقيم، لكن العثور على الصحيح بعد هذه الحيلولة الطويلة، من أشقّ المشاكل وأصعب الأمور. وبسبب هذه الحيلولة كلّما بعد الناس عن عصر الرسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ازداد عدد الأحاديث، حتى أخرج محمد بن إسماعيل البخارى صحيحه عن ستمائة ألف (٦٠٠، ٠٠٠) حديث ولأجل ذلك نرى أن هرم الأحاديث يتصل بزمن النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، وقاعدة ذلك الهرم تنتهى إلى القرون المتأخرة، فكلّما قربنا من زمن النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نجد الحديث قليلاً، والعكس بالعكس. وهذا يدلّ على أن الأحاديث عالت حسب وضع الوضّاعين وكذب الكذّابين. كلمتان قيمتان

١. هناك كلمة للدكتور محمد حسين هيكل أمارت الستر عن وجه الأحاديث المنسوبة إلى النبى الأكرم وقال: وسبب آخر يوجب تمحيص ما ورد فى كتب السلف، ونقده نقداً دقيقاً على الطريقة العلمية، أن أقدمها، كتب بعد وفاة النبى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بمائة سنة أو أكثر، وبعد أن فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية. كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب، فما بالك بالتأخر ممّا كتب فى أشدّ أزمان التقلقل والاضطراب؟ وقد كانت المنازعات السياسية سبباً فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه و دونوا ما اعتقدوه صحيحاً منه، من جهد وعنت أدى إليهما حرص هؤلاء الجامعين على الدقة فى التمحيص حرصاً لا يتطرق إليه ريب. ويكفى أن يذكر الإنسان ما كابدته البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع (٧٥)

الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تربي على ستمائة ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف. وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كلّ مائة وخمسين حديثاً إلاّ حديث واحد. أمّا أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة، وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث. وكثير من هذه الأحاديث التي صحت عندهم كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء، انتهى بهم إلى نفي كثير منها، كما كان الشأن فى مسألة الغرائق. فإذا كان ذلك شأن الحديث، وقد جهد فيه جامعوه الأولون ما جهدوا، فما بالك بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة؟ وكيف يستطيع الأخذ به دون التدقيق العلمى فى تمحيصه. والواقع أن المنازعات السياسية التي حدثت بعد الصدر الأوّل من الإسلام أدت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها. فلم يكن الحديث قد دون إلى عهد متأخر من عصر الأمويين. وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه، ثم لم يجمع إلاّ فى عهد المأمون، بعد أن أصبح «الحديث الصحيح فى الحديث الكذب، كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود» على قول الدارقطنى. (١) ٢. وهناك كلمة أخرى للعلامة الأمينى قال: «ويعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمة الحديث أخبار تأليفهم الصحاح والمسانيد من أحاديث كثيرة هائلة، والصفح عن ذلك الهوش الهائش. قد أتى أبو داود فى سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديث وقال: انتخبته من خمسمائة ألف حديث. (٢) ويحتوى صحيح البخارى من الخالص بلا تكرار ألفى حديث وسبعمائة وواحداً وستين حديثاً اختارها من زهاء ستمائة ألف حديث. (٣) وفى صحيح مسلم أربعة

١ . «حياة محمد» تأليف محمد حسين هيكل : ٤٩ - ٥٠ من الطبعة الثالثة عشر.

٢ . طبقات الحفاظ للذهبي: ٢/١٥٤، تاريخ بغداد: ٢/٥٧، المنتظم لابن الجوزى: ٥/٩٧.

٣ . إرشاد السارى: ١/٢٨ و صفة الصفوة: ٤/١٤٣. (٧٦)

آلاف حديث أصول، دون المكررات صنفها من ثلاثمائة ألف. (١) وذكر أحمد بن حنبل فى مسنده ثلاثين ألف حديث، وقد انتخبها من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث، وكان يحفظ ألف ألف حديث. (٢) وكتب أحمد بن الفرات (المتوفى ٢٥٨هـ) ألف ألف

وخمسمائة ألف حديث، فأخذ من ذلك ثلاثمائة ألف في التفسير والأحكام والفوائد وغيرها. (٣) هذا كلام إجمالي عن الحديث، والتفصيل في تاريخ الحديث وتطوره يترك إلى الكتب المختصة بذلك، غير أن الذي نركز القول عليه هو الآثار السلبية التي خلفها هذا المنع في المجتمع الإسلامي يوم ذاك، حتى يقف القارئ على علل تكوّن المذاهب وتشعب الفرق، وإن من الآثار المهمة حرمان الأمة عن السنّة النبوية الصحيحة قرابة قرن ونصف، وعول الأحاديث حسب جعل الوضّاعين والكذّابين، وبالتالي تكوّن العقائد والمذاهب حسبها. —————

١. المنتظم: ٥/٣٢، طبقات الحفاظ: ٢/١٥١-١٥٧.

٢. ترجمة أحمد المنقولة من طبقات ابن السبكي المطبوعة في آخر الجزء الأول من مسنده، طبقات الذهبي: ٢/١٧.

٣. خلاصة التهذيب: ٩، ولاحظ الغدير: ٥/٢٩٢-٢٩٣. (٧٧)

العامل الرابع فسح المجال للأخبار والرهبان

العامل الرابع فسح المجال للأخبار والرهبان للتحديث عن العهدين

لقد خسر الإسلام والمسلمون من جرّاء حظر تدوين الحديث ونشره، خسارة عظيمة لا يمكن تحديدها بالأرقام والأعداد. كيف؟! وقد انتشرت الفوضى في العقائد، والأعمال، والأخلاق، والآداب، وصميم الدين، ولباب الأصول، كنتيجة لهذا المنع، لأنّ الفراغ الذي خلفه هذا العمل، أوجد أرضية مناسبة لظهور بدع يهودية، وسخافات مسيحية، وأساطير مجوسية، خاصة من ناحية كهنة اليهود، ورهبان النصارى، الذين افتعلوا أحاديث كثيرة ونسبوا إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كما افتعلوا على لسان النبي الأكرم -صلى الله عليه وآله وسلم- لأساطير، وقد وقف على ذلك عدة من الأجلة. ١. يقول الشهرستاني: وضع كثير من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، أحاديث متعددة في مسائل التجسيم والتشبيه، وهي كلّها مستمدة من التوراة. (١) ٢. ويظهر من المقدسي وجود تلك العقائد في العرب الجاهليين، يقول في «البدء والتاريخ» عند الكلام عن شرائع أهل الجاهلية: كان فيهم من كلّ ملة ودين، وكانت الزنادقة والتعطيل في قريش والمزدكية والمجوسية في تميم —————

١. الملل والنحل: ١/١١٧. (٧٨)

واليهودية والنصرانية في غسان والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم. (١) ٣. نعم كان لليهود المتظاهرين بالإسلام دور كبير في بثّ هذه العقائد، يقول الكوثري: إنّ عدّة من أخبار اليهود ورهبان النصارى ومؤابذة المجوس أظهروا الإسلام في عهد الراشدين ثم أخذوا بعدهم في بثّ ما عندهم من الأساطير. (٢) ٤. قال ابن خلدون، عندما تكلم عن التفسير النقلي وأنه كان يشتمل على الغث والسمين والمردود: والسبب في ذلك أنّ العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأمية. وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء ممّا تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، ... مثل كعب الأخبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلت التفاسير من المنقولات عندهم وتساهل المفسرون في مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات، وأصلها كلها كما قلنا من التوراة أو مميّا كانوا يفترون. (٣) ٥. قال الإمام محمد عبده: قد وضع الزنادقة اللابسون لباس الإسلام غشاً ونفاقاً وقصدتهم بذلك إفساد الدين، وإيقاع الخلاف والافتراق في المسلمين. وقال حماد بن زيد: وضعت الزنادقة أربعة عشر ألف حديث وهذا بحسب ما وصل إليه علمه واختباره في كشف كذبها، وإلّا فقد نقل المحدثون أنّ زنديقاً واحداً وضع هذا المقدار. قالوا: لما أخذ ابن أبي العوجاء ليضرب عنقه، قال وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلّ الحرام. (٤) وابن أبي العوجاء هو ربيب حماد بن سلمة المحدث الشهير الذي ينقل الذهبي عن ابن الثلجي قال: سمعت عباد بن صهيب —————

١. البدء والتاريخ: ٤/٣١.

٢ . مقدّمة تبين كذب المفتري: ١٠.

٣ . مقدّمة ابن خلدون: ٤٣٩.

٤ . تفسير المنار: ٣/٥٤٥، ونقله في الأضواء: ١١٥ ولعل في قوله «هذا المقدار» تصحيحاً. (٧٩)

يقول: إن حماداً كان لا يحفظ وكانوا يقولون إنَّها دسّت في كتبه. وقد قيل: إنَّ ابن أبي العوجاء كان ربيبه فكان يدسّ في كتبه. (١) ٦. قال السيد المرتضى: لما قبض محمد بن سليمان، وهو والي الكوفة من قبل المنصور، عبد الكريم بن أبي العوجاء وأحضره للقتل وأيقن بمفارقة الحياة قال: لئن قتلتموني فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة. (٢) ٧. يقول ابن الجوزي: إنَّ عبد الكريم كان ربيباً لحماد بن سلمة وقد دسّ في كتب حماد بن سلمة. (٣) نرى أنَّ المحدثين يروون باسنادهم عن حماد، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، مرفوعاً: رأيت ربي جعداً أمرد عليه حلّة خضراء. وفي رواية أخرى: إنَّ محمداً رأى ربه في صورة شاب أمرد، دونه ستر من لؤلؤ قدميه أو رجله في خضرة. (٤) ٨. وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري المصري في تقديمه على كتاب «الأسماء والصفات» للحافظ أبي بكر البيهقي: إنَّ مرويات حماد بن سلمة في الصفات، تجدها تحتوى على كثير من الأخبار النافهة تتناقلها الرواة طبقه عن طبقه، مع أنَّه قد تزوج نحو مائة امرأة، من غير أن يولد له ولد منهن، وقد فعل هذا الزواج والنكاح فعله، بحيث أصبح في غير حديث «ثابت البناني» لا يميز بين مروياته الأصليّة وبين ما دسّه في كتبه ربيبه ابن أبي العوجاء، وربيه الآخر زيد المدعو بـ«ابن حماد»، فضل بمروياته الباطلة كثير من البسطاء. ويجد المطالع الكريم نماذج شتى من أخباره الواهية في باب التوحيد من كتب الموضوعات المبسوطة وفي كتب الرجال، وفعلت مرويات نعيم بن

١ . ميزان الاعتدال: ١/٥٩٣، ومات حماد عام ١٦٧هـ.

٢ . أمالي المرتضى: ١/١٢٧-١٢٨.

٣ . الموضوعات: ٣٧ طبع المدينة، ولاحظ تهذيب التهذيب: ٣/١١-١٦.

٤ . ميزان الاعتدال: ١/٥٩٣-٥٩٤، وهذه الأساطير المزخرفة من مفتعلات الزنادقة نظراء: ابن أبي العوجاء دسّوها في كتب المحدثين الإسلاميين، تعالى الله عما يقول الظالمون. (٨٠)

حماد مثل ذلك، بل تحمسه البالغ أدّى به إلى التجسيم، كما وقع ذلك لشيخ شيخه مقاتل بن سليمان، وتجد آثار الضرر الويل في مروياتهما في كتب الرواة الذين كانوا يتقلّدونها من غير معرفة منهم لما في هذه الكتب ككتاب «الاستقامة» لخشيش بن أصرم، والكتب التي تسمّى بـ«السنة» لعبد الله (ابن أحمد بن حنبل) وللخلال، و«التوحيد» لابن خزيمة وغيرهم ممّا تجد فيها ما ينبذ الشرع والعقل، ولا سيما كتاب «النقض» لعثمان بن سعيد الدارمي السجزيّ المجسم فإنّه أوّل من اجترأ بالقول «إنَّ الله لو شاء لاستقرّ على ظهر بعوضة فاستقلّت به بقدرته فكيف على عرش عظيم» هذا بعض ما لعب به أعداء الإسلام في أصول الدين. (١) ولا يقصر عنها كتاب «العلو» للذهبي. ٩. وقال الدكتور أحمد أمين: اتصل بعض الصحابة بوهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، واتصل التابعون بابن جريج، وهؤلاء كانت لهم معلومات رويوا عن التوراة والإنجيل وشروحها وحواشيه، فلم ير المسلمون بأساً من أن يقصوها بجانب آيات القرآن، فكانت منبعاً من منابع التضخيم. (٢) ١٠. قال أبو رية: لما قويت شوكة الدعوة المحمدية، واشتد ساعدها، وتحطمت أمامها كل قوة تنازعها، لم ير من كانوا يقفون أمامها، ويصدون عن سبيلها، إلّا أن يكيدوا لها عن طريق الحيلة والخداع، بعد أن عجزوا عن النيل منها بعدد القوة والنزاع. ولما كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود، لم يجدوا بداً من أن يستعينوا بالمكر، ويتوسّلوا بالدهاء، لكي يصلوا إلى ما يبتغون، فهداهم المكر اليهودي إلى أن يتظاهروا بالإسلام، ويطووا نفوسهم على دينهم، حتى يخفى كيدهم، ويجوز على المسلمين مكرهم. (٣) أو ليس ذلك الاستغلال والسيطرة على عقول المسلمين، هو نتيجة

١ . نظرة في كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي مقدّمة الشيخ محمد زاهد الكوثري: ص ٥، وقال بمقالة السجزي ابن تيمية في كتابه

«غوث العباد» المطبوع بمصر مطبعة الحلبي عام ١٣٥١هـ

٢. ضحى الإسلام: ٢/١٣٩.

٣. أضواء على السنة المحمدية: ١٣٧. (٨١)

أمور، منها: المنع من التحدث عن الرسول، وفسح المجال لأبناء أهل الكتاب، حتى يتمكنوا من نشر الكلم الباطل، ويمزقوا أصول الإسلام وفروعه؟ والعجب أن التفاسير إلى يومنا هذا مكتظة بأقوالهم وأحاديثهم، ولها من القيمة عند قرائها مكان. ١١. قال العلامة الشيخ جواد البلاغي: الرجوع في التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمة، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، كما ملئت كتب التفاسير بأقوالهم المرسله، مما لا يعذر فيه المسلم في أمر دينه، لأن هؤلاء الرجال غير ثقات في أنفسهم، ومجتمعون على موائد أهل الكتاب من الأبحار والرهبان. قيل للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو شيء نحوه قال: أخذه من أهل الكتاب ويكفي في ذلك أن مجاهداً الآخذ منهم فسر قوله تعالى: (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) قال: يجلسه معه على العرش. وأما عطاء، فقد قال أحمد: ليس في المراسيل أضعف من مراسيل الحسن وعطاء، كانا يأخذان عن كل أحد. وقال النسائي: وأما مقاتل بن سليمان كان يكذب، وعن يحيى قال: حديثه ليس بشيء، وقال ابن حبان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم. (١) وأما الخرافات والأساطير في تفسير الكون وبدء الخليقة وأحوال الأمم الماضية فحدث عنها ولا حرج، فقد ملأوا الصدور والطوامير وتأثرت بهم طبقات من المسلمين، ممن كتبوا حول المواضيع السالفة. يقول الدكتور على سامي النشار: إن الحديث كان معتركا متلاحماً وبحراً خضماً لا يعرف السالك فيه موطن الأمان ولذلك قام أهل الحديث بمجهود رائع في محض الأحاديث وتوضيح الصادق والكاذب منها عن طريق الرواية وفيها السند، وعن طريق الدراية وفيها النقد الباطني للنصوص، ولذلك أنشأوا

١. آلاء الرحمن: ١/٤٦، نقلاً عن الذهبي. (٨٢)

علم مصطلح الحديث. (١) يلاحظ عليه: أن جهود أهل الحديث غير منكرة، ولكنها لم تكن على وجه تقلع الموضوعات عن كتب الحديث وموسوعاتهم لأن القائمين بهذا الأمر كانوا متأثرين بها، ولأجل ذلك تجد أحاديث التشبيه والتجسيم والجبر والرؤية وعصيان الأنبياء مبثوثة في الصحاح والمسانيد، وسمير عليك بعضها في هذا الجزء. ولعل القارئ الكريم يحسب أن هذه الكلمات الصادرة من أساتذة الفن، ورجال التحقيق في الملل والنحل، صدرت من غير تحقيق وتدقيق، إلا أن المراجع للكتب الرجالية، يقف على صدق المقال، ويكتشف أنه كان هناك رجال يتظاهرون بالإسلام - و في الوقت نفسه - يبتون ما لديهم من الإسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات، تحت غطاء هذا التظاهر، وإليك نزرًا من تاريخ بعض هؤلاء الرجال: ١. كعب الأبحار

هو كعب بن ماتع الحميري، قالوا: هو من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر، وقدم من اليمن في خلافة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، وتوفي في خلافة عثمان، وروى عنه جماعة من التابعين، وله شيء في صحيح البخاري وغيره. قال الذهبي: العلامة الحبر الذي كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر، فجالس أصحاب محمد فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية ويحفظ عجائب. إلى أن قال: حدث عنه أبو هريرة ومعاوية وابن عباس، وذلك من قبيل

١. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: ١/٢٨٦، الطبعة السابعة. (٨٣)

رواية الصحابي عن التابعي وهو نادر عزيز، وحدث عنه أيضاً أسلم مولى عمر وتبع الحميري ابن امرأة كعب. وروى عنه عدده من التابعين كعطاء بن يسار وغيره مرسلاً. وقع له رواية في سنن أبي داود والترمذي والنسائي. (١) ترى الذهبي أيضاً في كتابه «تذكرة الحفاظ» يعرفه بأنه من أوعية العلم. (٢) ومعنى ذلك أن الصحابة كانوا يعتقدون أنه من محال العلم والفضل، ولهذا السبب أخذ عنه الصحابة وغيرهم. وعندئذ يسأل: إذا أخذ عنه الصحابة وغيرهم على أنه من أوعية العلم، فما هو ذاك الذي أخذوه عنه؟ هل أخذوا عنه سوى الإسرائيليات المحرّفة والكاذبة؟ فإنه لم يكن عنده - على فرض كونه صادقاً - سوى تلك الأساطير والقصص الموهومة. فهل

تسعد أمة أخذت معالم دينها عن المحدث اليهودي، المعتمد على الكتب المحرفة بنص القرآن الكريم؟! ولكن كما قلنا، هذا الفرض مبنى على كونه صادقاً، أمراً إذا كان كاذباً فالخطب أفدح وأجل، ولا يقارن بشيء. والمطالع الكريم في مروياته يقف على أنه يركز على القول بأمرين: التجسيم والرؤية، وقد اتخذهما أهل الحديث والحنابلة من الآثار الصحيحة، فبنوا عليهما العقائد الإسلامية وكفروا المخالف، وإليك كلا الأمرين: _____

١ . سير أعلام النبلاء: ٣/٤٨٩ ولاحظ تفسير ابن كثير: ٣/٣٣٩ سورة النمل حيث قال: - بعد ما أورد طائفة من الأخبار في قصة ملكة سبأ مع سليمان -: والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب، سامحهما الله تعالى في ما نقلناه إلى هذه الأئمة، من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن، ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ.

٢ . تذكرة الحفاظ: ١/٥٢. (٨٤) الأول: تركيزه على التجسيم
إن الأحاديث المنقولة عن ذلك الحبر اليهودي، تعرب بوضوح عن أنه نشر بين الأمة الإسلامية فكرة التجسيم، التي هي من عقائد اليهود. قال: إن الله تعالى نظر إلى الأرض فقال: إني واطى على بعضك، فاستعلت إليه الجبال وتضعضت له الصخرة، فشكر لها ذلك فوضع عليها قدمه، فقال: هذا مقامي، ومحشر خلقي، وهذه جنتي وهذه نارى، وهذا موضع ميزاني، وأنا ديان الدين. (١) ففي هذه الكلمة من هذا الحبر، تصريح بتجسيمه سبحانه أولاً: وقد شاعت هذه النظرية بين أبناء الحديث والحشوية منهم ثوثانياً: التركيز على الصخرة التي هي مركز بيت المقدس ثوثالثاً: أن الجنة والنار والميزان ستكون على هذه الأرض، ومركز سلطاتها سيكون على الصخرة، وهذا من صميم الدين اليهودي المحرف. الثاني: تركيزه على رؤية الله

ومن كلامه أيضاً: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - . (٢) وقد صار هذا النص وأمثاله مصدراً لتجويد فكرة رؤية الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، وبالأخص في الآخرة، وقد صارت هذه العقيدة اليهودية المحضة، إحدى الأصول التي بنى عليها مذهب أهل الحديث والأشاعرة. ومن أعظم الدواهي، أن الرجل خدع عقول المسلمين وخلفائهم، فاتخذوه واعظاً ومعلماً ومفتياً يفتيهم. وهنالک شواهد على ذلك: منها: التزلف إلى الخليفة الثاني

قال ابن كثير: أسلم كعب في الدولة العمرية، وجعل يحدث عمر عن _____
١ . حلية الأولياء: ٦/٢٠.

٢ . الشرح الحديدي: ٣/٢٣٧. (٨٥)
كتبه قديماً، فربما استمع له عمر، فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها. وليس لهذه الأمة - و الله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده. (١) إن لهذا الرجل أساليب عجيبة في اللعب بعقول المسلمين وخلفائهم، وإليك نماذج منها: أ. قال كعب، لعمر بن الخطاب: إنا نجدك شهيداً وإنا نجدك إماماً عادلاً، ونجدك لا تخاف في الله لومة لائم. قال: هذا لا أخاف في الله لومة لائم فأنى لى بالشهادة. (٢) ترى أنه كيف يتزلف إلى الخليفة، ويتبأ بشهادته وقتله في سبيل الله. ب. نقل أبو نعيم أيضاً: أن كعباً مر بعمر، وهو يضرب رجلاً بالدره. فقال كعب: على رسلك يا عمر، فوالذي نفسى بيده إنه لمكتوب في التوراة، ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء، ويل لحاكم الأرض من حاكم السماء، فقال عمر: إلا من حاسب نفسه، فقال كعب: والذي نفسى بيده إنها لفى كتاب الله المنزل، ما بينهما حرف: إلا من حاسب نفسه. (٣) وهذه الجملة تعرب عن أن كعباً كان يتزلف إلى عمر، حتى إنه يقرأ عليه نص التوراة المحرف لتصديق كلامه. ج. وروى أيضاً: أن عمر جلد رجلاً يوماً وعنده كعب، فقال الرجل حين وقع به السوط: سبحان الله، فقال عمر للجلاد: دعه فضحك كعب، فقال له: وما يضحكك، فقال: والذي نفسى بيده إن سبحان الله تخفيف من العذاب. (٤)

٢ . حلية الأولياء: ٣٨٨/٥ - ٣٨٩.

٣ . المصدر السابق.

٤ . حلية الأولياء: ٣٨٩/٥ - ٣٩٠. (٨٦)

والكلمة هذه محاولة من الحبر اليهودي، لتوجيه عمل عمر، عندما أمر الجلاّد بترك المجلود. وهذه الأمور صارت سبباً لجلب عطف الخليفة، ففسح له التحدّث في عاصمة الوحي، وأوساط المسلمين. ومنها: تزلفه إلى عثمان ومن الخطب الفادح، أنّه صار بأفانين مكره، موضع ثقة لعثمان ومفتياً له في الأحكام، يصدر الخليفة عن فتياه، ويعمل بقوله، وإليك ما يلي: أ. ذكر المسعودي أنّه حضر أبو ذر، مجلس عثمان ذات يوم، فقال عثمان: أرايتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين، فدفع أبو ذر في صدر كعب، وقال له: كذبت يا ابن اليهودي، ثم تلا: (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهديهم إذا عاهدوا). (١) فقال عثمان: أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننقله في ما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟ فقال كعب: لا بأس بذلك، فرجع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب وقال: يا ابن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا، فقال له عثمان: ما أكثر أذاك لي، غيب وجهك عنى فقد آذيتنا. (٢) ب. ونقل أيضاً: أتى عثمان بتركه عبد الرحمن بن عوف الزهري من المال، فنضد البدري، حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائل، فقال عثمان: إننى لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنّه كان يتصدّق، ويقرى الضيف، وترك ما ترون، فقال كعب الأخبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم، وقال: يا ابن اليهودي

١ . البقرة: ١٧٧.

٢ . مروج الذهب: ٣٣٩/٢ - ٣٤٠. (٨٧)

تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - يقول: «ما يسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً» فقال له عثمان: وار عنى وجهك. (١) ومنها: تزلفه إلى معاوية نرى أن كعباً يتتبا بمولد النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وهجرته وملكه، فيقول: مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام. (٢) فماذا يريد كعب بقوله: وملكه بالشام؟ هل هو إلا تزلف إلى معاوية، وأنّه يريد أن يقول: إن ملك النبي لن يستقر إلا فيها؟ وقد كان معاوية يمهد وسائل الملك لنفسه بالشام. وقال أيضاً: إن أول هذه الأمة نبوة ورحمة، ثم خلافة ورحمة، ثم سلطان ورحمة، ثم ملك وجبرية، فإذا كان ذلك، فإن بطن الأرض يومئذ خير من ظهرها. (٣) فترى أنّه يتتبا بالسلطنة ويعدها رحمة، وهذا المضمون انتشر في الصحاح والمسانيد بكثرة، وقد روى الترمذى، قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - : «الخلافة فى أمّتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك». (٤) وروى أبو داود قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - : «الخلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله الملك من يشاء». (٥) وسياوفيك أنّه أخذ منه أبو هريرة، ولأجل ذلك نرى تلك الفكرة - فكرة الملك - جاءت فى روايات أبى هريرة، قال: الخلافة بالمدينة والملك بالشام. (٦)

١ . مروج الذهب: ٣٤٠/٢.

٢ . سنن الدارمى: ١/٥.

٣ . حلية الأولياء: ٢٥/٦.

٤ . سنن الترمذى: ٤/٥٠٣، كتاب الفتن، باب ما جاء فى الخلافة، رقم ٢٢٢٦.

٥ . سنن أبى داود: ٤/٢١١.

٦ . كنز العمال: ٦/٨٨. (٨٨)

وقد أخذ عن ذلك الحبر الماكر عدة من الصحابة كابن عباس وأبي هريرة، ومعاوية وغيرهم. (١) قال الذهبي: توفي في خلافة عثمان (٢). وقال أبو نعيم في حلية الأولياء إنه توفي كعب قبل مقتل عثمان بسنة (٣). وعلى ذلك توفي عام ٣٤. وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٤: ففي هذه السنة توفي كعب الأحبار. (٤) نعم توفي في ذاك العام، لكن بعد ما ملأ المجتمع الإسلامي بأساطير، وقصص، وعقائد إسرائيلية، حسبها السذج من المحدثين أنها حقائق راهنة، فنقلوها ناسبين لها إلى كعب تارة، وإلى النبي الأعظم أخرى، وعليها بنيت العقائد وانتظمت الأصول، ومن تفحص في كتب الحديث والتفسير والتاريخ، يقف بوضوح على أن كثيراً من المحدثين والمفسرين والمؤرخين، اعتمدوا على أقواله ومروياته من دون أي غمز وطعن أو تردد وشك، وهذا من عجائب الأمور وغرائبها. هذا غيظ من فيض، وقليل من كثير من روايات ذلك الرجل وتسويلاته. فمن أراد الوقوف على أحواله وأقواله وما بث بين المسلمين من أساطير وقصص إسرائيلية، فليرجع إلى المصادر التالية. (٥) هذا وإن صاحب الثقافة المنحرفة يبت فكرته بين المجتمع في ظل دعامتين مؤثرتين: _____

١ . سير أعلام النبلاء: ٣/٤٩٠.

٢ . تذكرة الحفاظ: ١/٥٢.

٣ . حلية الأولياء: ٦/٤٥.

٤ . الكامل في التاريخ: ٣/٧٧.

٥ . الأعلام للزركلي: ٥/٢٢٨؛ تذكرة الحفاظ: ١/٥٢؛ سير أعلام النبلاء: ٣/٤٨٩-٤٩٤؛ حلية الأولياء: ٥/٣٦٤ و ٤٨٦/١؛ الإصابة: ١/١٨٦؛ النجوم الزاهرة: ١/٩؛ الكامل: ٣/١٧٧؛ شرح ابن أبي الحديد في أجزاءه المختلفة: ٣/٥٤ و ٤/٧٧-١٤٧ و ٨/٢٦٥ و ١٠/٢٢ و ١٢/٨١ و ١٩١ و ١٨/٣٦ (٨٩).

الأولى: يحاول الاتسام بالعلم، ويعرف نفسه للمجتمع بأنه عالم كبير، ومفكر اجتماعي بلا منازع، حتى يتخذ لنفسه من هذا الطريق مكاناً في القلوب تنعطف إليه النفوس وترتاح به. الثانية: يحاول الاتصال بأصحاب السلطة، حتى يتخذهم سنداً وعماداً في مقابل العواصف القارعة التي يثيرها صلحاء الأئمة ومفكروها الواقعيون. فإذا تهيات لأصحاب الفكرة المنحرفة هاتان الدعامتان، سهل لهم النفوذ في عقول بسطاء الأئمة، وتمكنوا من نث أفكارهم المسمومة في نفوسها، ولا تمر الأيام حتى تصبح أفكارهم حقيقة راهنة لا يمكن تجاوزها، ولا الدعوة على خلافها، بل تصير المخالفة لها ارتداداً عن الدين، وتشبثاً بالباطل. ومن عجائب الأمور أن الأحبار والرهبان عندما تظاهروا بالإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، هيمنوا على عقول المسلمين من خلال الأمرين المذكورين. فمن جانب عرفوا بأنهم من أوعية العلم، وأن عندهم علوم الأولين والآخرين بتفصيلاتها، وأنهم حفظة التوراة والإنجيل والزيور وغيرها من الكتب السماوية. ومن جانب آخر استعانوا بالحكم السائد، بحيث صاروا موضع ثقة عنده، يسمع لكلامهم ويصدر عن رأيهم. عند ذلك أخذت الإسرائيليات والمسيحيات، مكان السنة النبوية وصار نقلتها مصادر الحكم والفتيا، فأصبحت آراؤهم وأقوالهم مدارك الفقه وسناد التاريخ، ومعياراً للحق والباطل في العقائد، فيا لها من رزية عظمت، ويا لها من مصيبة كبرت. هذا هو كعب الأحبار فقد استعان في بث ثقافته (الثقافة اليهودية) بهاتين الدعامتين، فهلم معي ندرس حياة بعض زملائه، وسوف نقف على أن الخط الذي مشى عليه كعب، قد مشى عليه زملاؤه، وإليك البيان: (٩٠) ٢. وهب بن منبه اليماني

وقد ابتلى المسلمون بعد كعب الأحبار بكتابي آخر قد بلغ الغاية في بث الإسرائيليات بين المسلمين حول تاريخ الأنبياء والأمم السالفة، وهو وهب بن منبه. قال الذهبي: ولد في آخر خلافة عثمان، كثير النقل عن كتب الإسرائيليات، توفي سنة ١١٤هـ وقد ضعفه الفلاس. (١) وقال في تذكرة الحفاظ: عالم أهل اليمن، ولد سنة أربع وثلاثين وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، فإنه صرف عنايته إلى ذلك وبالغ، وحديثه في الصحيحين عن أخيه همام. (٢) وترجمه أبو نعيم في حلية الأولياء ترجمه مفصلة استغرقت قرابة ستين صفحة، وبسط الكلام في نقل أقواله وكلماته القصار. (٣) وقد خدع عقول الصحابة بأفانين المكر، حيث صار يعرف نفسه بأنه

أعلم ممن قبله ومن عاصره بقوله لبعض حصار مجلسه: يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ يعني نفسه.(٤) وقد تسنم الرجل، منبر التحدث عن الأنبياء والأمم السالفة يوم كان نقل الحديث عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ممنوعاً وأخذ بمجامع القلوب فأخذ عنه من أخذ، وكانت نتيجة ذلك التحدث، انتشار الإسرائيليات حول حياة الأنبياء في العواصم الإسلامية، وقد دون ما ألقاه في مجلد واحد، أسماه في كشف الظنون «قصص الأبرار وقصص الأخيار». (٥)

١ . ميزان الاعتدال: ٤/٣٥٢ - ٣٥٣.

٢ . تذكرة الحفاظ: ١/١٠٠ - ١٠١.

٣ . حلية الأولياء: ١/٢٣ - ٨١.

٤ . تذكرة الحفاظ: ١/١٠١.

٥ . كشف الظنون: ٢/٢٢٣، مادة قصص. (٩١) وهب بن منبه والتركيز على القدر

وليته اكتفى بهذا المقدار ولم يلعب بعقيدة المسلمين ولم ينشر نظرية الجبر التي لو ثبتت لما بقيت للشرائع دعامة، ويظهر من تاريخ حياته أنه أحد المصادر لانتشار نظرية نفي الاختيار والمشيئة عن الإنسان، حتى المشيئة الظلية التي لولاها لبطل التكليف ولغت الشريعة. روى حماد بن سلمة عن أبي سنان قال: سمعنا وهب بن منبه قال: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها: من جعل لنفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر، فتركت قولي. (١) والمراد من القدر في قوله: «كنت أقول بالقدر» ليس القول بتقدير الله سبحانه وقضائه، بل المراد هو القول بالاختيار والمشيئة للعبد كما يظهر من ذيل كلامه، وهذا النقل يعطى أن القول بنفي القدر والمشيئة للإنسان، قد تسرب إلى الأوساط الإسلامية، عن طريق هذه الجماعة وعن الكتب الإسرائيلية. أفيصح بعد هذا أن نعد القول بنفي المشيئة عقيدة جاء بها القرآن والسنة النبوية، ونكفر من قال بالمشيئة للإنسان ولو مشيئة ظلية تابعة لمشيئته سبحانه، ونقاتل في سبيل هذه العقيدة؟! ٣. تميم بن أوس الداري من رواة الأساطير

الإسرائيليات الموثقة في كتب التفسير والحديث والتاريخ ترجع أصولها إلى رجال الكنائس والبيع، وقد تعرّفت على اثنين منهم وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه، وثالثهم هو تميم الداري وله دور كبير في بثها حيث إنه أول من تولى نشر هذه الأساطير، وقد حدّث عنه علماء الرجال والتراجم وأطبقوا على أنه كان نصرانياً قدم المدينة فأسلم في سنة ٩ هجرية، وله من الأوليات أمران:

١ . ميزان الاعتدال: ٤/٣٥٣. (٩٢)

١. كان أول من أسرج في المسجد. ٢. أول من قص بين المسلمين، واستأذن عمر أن يقص على الناس قائماً، فأذن له. (١) وكان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان. (٢) هذا ما اتفقت عليه الكتب الرجالية، ويستنتج منها ما يلي: إن الرجل كان قصاصاً في المدينة يوم لم يكن هناك من يعارضه ويكافئه، وبما أن الرجل كان قد قضى شطراً من عمره بين الأحبار والرهبان، فمن الطبيعي أن يقوم بقص كل ما تعلمه من أساتذته من الإسرائيليات والأساطير المسيحية وبثها بين المسلمين وهم يأخذونها منه زاعماً أنها حقائق راهنة. ومن المؤسف أن السياسة الحاكمة سمحت لهذا الكتابي الذي أسلم في أخريات حياة الرسول بأن يتحدث عن الأمم السالفة والأنبياء السابقين. وفي الوقت نفسه منعت عن التحدث عن رسول الله ونشر كلامه وتدوينه، بحجة واهية قد تعرّفت عليها. أو ليس النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» على ما رواه أبو هريرة حيث إنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إليكم». (٣) وإذا كان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمرنا بعدم تصديق هؤلاء القصاصين من أهل الكتاب، فما فائدة نقل هذه القصص وبثها بين المسلمين وإتلاف عمر الشباب والكهول بالاستماع إليها؟! —————

١ . كثر العمال: ١/٢٨١ الرقم ٢٩٤٤٨.

٢ . الإصابة: ١/١٨٩؛ الاستيعاب في هامش الإصابة؛ أسد الغابة: ١/٢١٥ وغيرها من المصادر.

٣ . صحيح البخارى: ٩/ ١١١، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. (٩٣)

ولكن ابن عباس يقول أشد مما نقله أبو هريرة: كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء؟ وكتابكم الذى أنزل على رسول الله أحدث الكتب تقرأونه محضاً لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟! ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل إليكم. (١) إن ابن عباس الذى هو وليد البيت النبوى أعرف بسنة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - من أبى هريرة، فهو ينهى عن السؤال والاستماع إلى كلماتهم بالمرّة. وبذلك يعلم أن ما أسند إلى النبى فى المسانيد من القول: «حدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج». (٢) إمّا موضوع، أو مؤؤل محمول على ما علم من صدق الكلام. طعن الشيطان لكل بنى آدم إلا عيسى

إذا كان كعب الأخبار و زميله وهب بن منبه والمتقدّم عليهما تميم الدارى، هم القصاصون فى المجتمع الإسلامى والمتحدّثون عن التوراة والإنجيل، وكانت الصحابة ممنوعة عن التحدث عن النبى فمن الطبيعى أن ينتشر فى العواصم الإسلاميه الأساطير الخرافية حتى ما يمس بكرامة الأنبياء وكرامة النبى الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - . وهذا البخارى ينقل فى صحيحه عن أبى هريرة، قال: قال النبى: كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب. (٣)

١ . أضواء على السنة المحمدية: ١٥٤-١٥٥، نقلاً عن البخارى من حديث الزهرى.

٢ . مسند أحمد: ٣/٤٦.

٣ . صحيح البخارى: ٤/١٢٥، باب صفة إبليس وجنوده، ٤/١٦٤، كتاب بدء الخلق. (٩٤)

وقد نقله أحمد فى مسنده باختلاف سير. ومعنى هذا الحديث الذى ينقله عن ذلك الصحابى عن الرسول: أن الشيطان يطعن كل ابن آدم إلا واحداً منه وهو عيسى بن مريم، وأمّا الأنبياء كموسى ونوح وإبراهيم وحتى خاتمهم، لم يسلموا من طعن الشيطان. أو ليس ذلك الحديث يخالف كتاباً لله حيث يقول: (إنّ عبادى ليس لك عليهم سيّطان، إلاّ من أتبعك من الغاوين) (١)؟! فإذن، كيف يمكن أن يقول النبى ذلك وقد أوحى إليه أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين (٢) وخيرهم الأنبياء والمرسلون وفى مقدّمهم نبى العظمة؟! ومن المحتمل جداً أن هذا الخبر وصل إلى أبى هريرة من رواة عصره، نظراء كعب الأخبار أو زميله تميم الدارى وأضرابهما وقد نسبوه إلى النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - . إن هذا الحديث ونظائره أوجد مشاكل فى الدين وأعطى حججاً بأيدي المخالفين حتى يهاجموا الرسول الأكرم والأنبياء، ويزعموا بأنهم سقطوا فى الخطيئة واقترفوا الآثام، إلاّ عيسى بن مريم فإنه أرفع من طبقة البشر وإنه وحده قد استحقّ العصمة والصون من الآثام. فهؤلاء المحدّثون لو فرض أنهم صادقون فى نياتهم، لكنهم كالصديق الجاهل أضروا بالإسلام بنقل هذه القصص والأساطير وأيدوا العدو بها وأتبعوا المسلمين من بعدهم. تميم الدارى وقصة الجساسة إن لتميم الدارى حديثاً معروفاً باسم حديث الجساسة، نقله مسلم فى الجزء الثامن من صحيحه تجد فيه من الغرائب ما تندهش منها العقول. روى عن فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأولى - : سمعت نداء المنادى (منادى رسول الله) ينادى:

١ . الحجر: ٤٢.

٢ . النحل: ٩٩؛ والحجر: ٤٢. (٩٥)

الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله، فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم فلما قضى رسول الله صلواته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه. ثم قال: أتدرون لم جمعتمكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إني والله ما

جمعتمكم لرغبة ولا لرهبه، ولكن جمعتمكم لأن تميم الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجماد فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفنوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهدب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سممت لنا رجلاً فرعنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأينا قط خلقاً وأشدّه وثاقاً، مجموعته يدها إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهدب كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفرعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر. قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد (٩٦)

خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه وإني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرّمتان عليّ كلتاها، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : وطعن بمخصرته في المنبر هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة، يعني: المدينة، ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنه أعجبنى حديث تميم إنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هو. وأوماً بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . (١) وقد علق المحقق المصري أبو رية على هذا الحديث وقال: لعل علماء الجغرافية يبحثون عن هذه الجزيرة ويعرفون أين مكانها من الأرض، ثم يخبروننا حتى نرى ما فيها من الغرائب التي حدثنا بها سيدنا تميم الداري؟! (٢) وأعجب منه أن يحدث نبي العظمة الذي يقول سبحانه في حقه: (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا). (٣) عن تميم الداري ويستشهد بكلام نصراني دخل في الإسلام حديثاً، ونعم ما قال شاعر المعرة: فيا موت زر إن الحياة ذميمة.

١. صحيح مسلم: ٢٠٥٨/٢٠٣، باب في الدجال.

٢. أضواء على السنة النبوية: ١٧١.

٣. النساء: ١١٣. (٩٧) ٤. ابن جريج الرومي ورواية الموضوعات

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي، ولاؤه لآل خالد بن أسيد الأموي، ولد سنة ٨٠ وتوفي عام ١٥٠، قال أحمد بن حنبل: كان من أوعية العلم وهو وابن أبي عروبة أول من صنف الكتب، وقال عبد الرزاق: كان ابن جريج ثباتاً لكنه يدس. (١) ونقل الذهبي أيضاً عن عبد الله بن حنبل قال: «إن بعض هذه الأحاديث الذي يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعه كان ابن جريج لا يبالي من أين يأخذها». (٢) نعم، روى الكليني بسنده عن الفضل الهاشمي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام - عن المتعة فقال: «اللق عبد الملك

ابن جريج، فسله عنها، فإنّ عنده منها علماً، فلقبته، فأملى على شيئاً كثيراً في استحلالها، وكان فيما روى لي فيها ابن جريج أنه ليس فيها وقت ولا عدد، وإنما هي بمنزلة الإماء، يتزوج منهن كم شاء، وصاحب الأربع نسوة يتزوج منهن ما شاء، بغير ولي ولا شهود، فإذا انقضى الأجل، بانت منه بغير طلاق، ويعطيها الشيء اليسير، وعدتها حيضتان، وإن كانت لا تحيض فخمسة وأربعون يوماً. قال: فأنت بالكتاب أبا عبد الله - عليه السلام -، فقال: «صدق». وأقر به. (٣) ولعلّ إرجاع الإمام - عليه السلام - سائله إليه، لأجل اعترافه بالحق في تلك المسألة، وليس هذا دليلاً على وثاقته مطلقاً. حصيلة البحث

إنّ هذه العصابة التي أتينا بأسمائهم وذكرنا عنهم شيئاً، كانوا هم الأسس في تسرب القصص الخرافية لليهود والمسيحيين إلى متون كتب المسلمين وصارت _____

١ . تذكرة الحفاظ: ١/١٦٩ - ١٧١.

٢ . ميزان الاعتدال: ٢/٦٥٩.

٣ . الوسائل: ١٤، كتاب النكاح، الباب ٤ من أبواب المتعة، الحديث ٨. (٩٨)

نواة لكثير من القصاصين والوضّاعين الذين نسجوا على منوالهم ونقلوا كلّ ما سمعوه من غث وسمين باسم الدين، ولأجل ذلك نجد كثيراً من كتب التفسير والتاريخ والحديث حتى ما يسمّى بالصحاح والمسانيد، مملوءة بالإسرائيليات والمسيحيات بل والمجوسيات. يقول «جولد تسيهر» في هذا المضمار في كتابه «العقيدة والشريعة»: هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال للربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعه وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كلّ ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث - إلى أن قال -: ومن هذا الطريق تسرب كثر كبير من القصص الدينية حتى إذا ما نظرنا إلى الرواة المعدودة من الحديث ونظرنا إلى الأدب الديني اليهودي، فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الإسلامي من هذه المصادر اليهودية. (١) نحن لا نصدق هذا المستشرق الحاقده على الإسلام في كلّ ما يقول ويقضى، إلا أننا نوافق في أنّ ما يؤثر عن أمثال كعب الأبحار، ووهب بن منبه، وتميم الداري، وعبد الملك بن جريج وغيرهم، من الإسرائيليات، ليس من صلب الإسلام وحديثه. والعجب أنّ هذه الجماعة لم تتمكن من إخفاء نواياها السيئة، فترى أنّ اليهودي منهم ينقل فضائل موسى ويرفعه فوق جميع الأنبياء، كما أنّ النصراني منهم أخذ يرفع مقام المسيح - عليه السلام - على جميعهم ويصفه بالعصمة وحده دون غيرهم. نعم ليس كلّ ما ورد في الشريعة الإسلامية ووافق التعاليم اليهودية والنصرانية، مأخوذاً من كتبهم لأنّ الشرائع السماوية واحدة في جوهرها متحدة في أصولها، وبينها مشتركات كثيرة والاختلاف إنّما هو في الشرعة والمنهاج لا في الجوهر واللباب، قال سبحانه: (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا). (٢) _____

١ . العقيدة والشريعة في الإسلام تأليف المستشرق «جولد تسيهر» ترجمه الأساتذة الثلاثة.

٢ . المائدة: ٤٨. (٩٩)

فالاختلاف إنّما هو في الطرق الموصلة إلى ماء الحياة، أعني: الأصول والتعاليم السماوية النازلة من مصدر الوحي. فلو كان هناك اختلاف فإنّما هو في القشور والأثواب، لا في الجوهر واللباب. وقد فصلنا الكلام في ذلك في «مفاهيم القرآن». (١) خاتمة المطاف وأخيراً نقول: إنّ المتظاهرين بالإسلام من الأبحار والرهبان الذين كان لهم دور كبير في بثّ الإسرائيليات وتكوين المذاهب، ليسوا منحصرين في من ذكرناهم، بل هناك جماعة منهم لعبوا دوراً في هذا المضمار يجد المتتبع أسماءهم ويقف على أقوالهم في كتب الرجال والتراجم والروايات والأحاديث، كعبد الله بن سلام الذي أسلم في حياة النبي، وطاووس بن كيسان الخولاني، الحمداني بالولاء من التابعين، ولد عام ٣٣ وتوفّي عام ١٠٦، وغيرهم ممّن تركنا البحث عنهم اختصاراً. ولاتمام البحث نأتى بنص بعض المحققين في ذاك المجال وهي كلمة للدكتور «رمزي نعاة» حول الإسرائيليات، قال: تسرب كثير من الإسرائيليات عن طريق نفر من المسلمين أنفسهم أمثال: عبد الله بن عمرو بن العاص، فقد روى أنّه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب يوم اليرموك، فكان يحدث الناس

بعض ما فيها اعتماداً على حديث مروى. (٢) وعن هؤلاء المفسرين الذين لا يتورعون عن تفسير القرآن بمثل هذه الخيالات والأوهام يقول النظام: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية من أساس، وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر

١ . مفاهيم القرآن: ٣/١١٩-١٢٤.

٢ . وهو قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : حدثوا عني...، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج . مسند أحمد: ٣/٤٦. (١٠٠)

الأصم في سبيل واحدة فكيف أتق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم. (١) وقال أيضاً حول قصة آدم وحواء: ونقرأ تفسير الطبري وتفسير مقاتل بن سليمان في هذه القصة فيتجلى لنا بوضوح أنهما أخذتا ما جاء في التوراة وشروحها من تفصيل لهذه القصة، ووضعوه تفسيراً لآيات القرآن الكريم وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة، وعن إسرائيل عن أسباط عن السدي تارة أخرى. (٢) ومثلاً نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت في الإنجيل كقصة ولادة عيسى بن مريم ومعجزاته، فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحا لهذه الآيات. (٣) وقال أيضاً: ولم يقتصر تأثير الإسرائيليات على كتب التفسير، بل تعداها إلى العلوم الإسلامية الأخرى، فقد عني بعض المسلمين بنقل تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم كما فعل أبو إسحاق والطبري في تاريخيهما وكما فعل ابن قتيبة في كتاب المعارف... كذلك كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الكلامية، فابن الأثير يروي عند الكلام على «أحمد بن أبي دؤاد» أنه كان داعية إلى القول بخلق القرآن، وأخذ ذلك عن بشر المريسي وأخذ بشر من الجهم بن صفوان، وأخذ الجهم من الجعد بن أدهم، وأخذ الجعد عن أبان بن سماعيل، وأخذ أبان عن طلوت ابن أخت لبيد الأعصم وختنه، وأخذ طلوت من لبيد بن الأعصم اليهودي وكان لبيد يقول: خلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طلوت وكان زنديقاً فأفشى الزندقة. (٤) وسيافاً أن القول بقدم القرآن وكونه غير مخلوق، أيضاً تسربت من اليهود حينما قالوا بقدم التوراة، أو من النصرانية حينما قالوا بقدم «الكلمة» التي هي المسيح. فلأخبار والرهبان دور راسخ في خلق هذه

- ١ . الحيوان للجاحظ: ١/٣٤٣-٣٤٦.
- ٢ . تفسير مقاتل: ١/١٨، وتفسير الطبري: ١/١٨٦ وما بعده.
- ٣ . تفسير الطبري: ٣/١٩٠ و ص ١١٢.
- ٤ . الكامل لابن الأثير: ٥/٢٩٤ حوادث سنة ٢٤٠، ولا حظ الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير للدكتور رمزي نعناعة: ١١٠-١١١. (١٠١)

العقائد وطرح قدم القرآن خاصة على بساط البحث مع أنه لم يرد في ذلك نص عن النبي والصحابة. قال «زهدي حسن» - عند البحث عن تأثير الديانات - في تكون العقائد: فمن أهل تلك الأديان من تركوا أديانهم ودخلوا في الإسلام. لكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عقائدهم القديمة ولم يتسن لهم أن يتجردوا من سلطانها، لأن للمعتقدات الدينية على نفوس الناس قوة نافذة وهيمنة عظيمة فلا تزول بسهولة ولا تنسى بسرعة، ولهذا فإنهم نقلوا إلى الإسلام - عن غير عمد أو سوء قصد - بعض تلك المعتقدات ونشروها بين أهله. ومنهم - وهذا يصح عن الفرس كما سنرى - من اعتنق الإسلام لا عن إيمان به أو تحمس له وإنما لغايات في نفوسهم فعل بعضهم ذلك طمعاً في مال يجنيه أو جاه يناله، وأقدم البعض الآخر عليه بدافع الحقد على المسلمين الذين هزموا دينهم وهدموا ملكهم، فأظهروا الإسلام وأبطنوا عداوته ودأبوا على محاربهته والكيد له، فكانوا خطراً عليه كبيراً، وشرراً مستطيراً، لأنهم ما انفكوا ينفثون فيه ما في صدورهم من الغل والغيط، ويروجون بين أبنائه من الأفكار والآراء ما لا تقره العقيدة الإسلامية حياً في تشويه تلك العقيدة ورغبة في إفسادها. وكثيرون من غير المسلمين تمسكوا بأديانهم الأصلية، لأن الإسلام منحهم حرية العبادة، ولم يتدخل في شؤونهم الخاصة ما داموا يدفعون الجزية، ولما توطدت أركان الدولة الإسلامية وتوسعت أعمالها في عهد بني أمية، ولما لم تكن للعرب الخبرة الكافية في أمور الإدارة، فإنهم اضطروا إلى أن يعتمدوا في تصريف شؤون البلاد على أهل الأمصار المتعلمين الذين اقتبسوا مدينة الفرس

وحضارة البيزنطيين، فأسندوا إليهم أعمال الدواوين. وهكذا كانوا يحيون بين ظهرائي المسلمين، ويحتكون دوماً بهم... والاحتكاك يؤدي إلى تبادل الرأي، والآراء سريعة الانتقال شديدة العدوى. وقال أيضاً: إنَّ الأمويين قربوهم (المسيحيين) إليهم، واستعانوا بهم، وأسندوا إليهم بعض المناصب العالية، فقد جعل معاوية بن أبي سفيان (١٠٢)

«سرجون بن منصور» الرومي المسيحي كاتبه وصاحب أمره (١) وبعد أن قضى معاوية بقيت لسرجون مكانته فكان يزيد يستشير في الملّمات ويسأله الرأي. (٢) ثم ورث تلك المكانة ولده يحيى الدمشقي (٣) الذي خدم الأمويين زمناً ثم اعتزل العمل سنة (١١٢هـ/ ٧٣٠م) والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس حيث قضى بقيه حياته يشتغل في الأبحاث الدينية ويصنف الكتب اللاهوتية، وليس من يجهل الأخطل الشاعر المسيحي الذي قدمه الأمويون وأغدقوا عليه العطايا وجعلوه شاعر بلاطهم. وكيف كان يزيد بن معاوية يعتمد عليه في الرد على أعداء بني أمية وهجوهم. (٤) إنَّ احتكاك المسلمين بأولئك المسيحيين لا يمكن أن يكون قد مضى دون أن يترك فيهم أثراً، ولا سيما برجل ممتاز كيحيى الدمشقي الذي كان آخر علماء اللاهوت الكبار في الكنيسة الشرقية وأعظم علماء الكلام في الشرق المسيحي. (٥)***

وقال أحمد أمين عند البحث عن مصادر القصص في العصر الأول: ولا بد أن نشير هنا إلى منبعين كبيرين لهؤلاء القصص وأمثالهم (٦)، تجد ذكرهما كثيراً في رواية القصص وفي التاريخ وفي الحديث وفي التفسير، هما: وهب بن منبه، وكعب الأحبار. فأما وهب بن منبه فيمنى من أصل فارسي، وكان من أهل الكتاب الذين

١. تاريخ الطبري: ٦/١٨٣؛ وابن الأثير: ٤/٧.

٢. الطبري: ٤/١٩٤ - ١٩٩؛ وابن الأثير: ٤/١٧.

٣. هو القديس يحيى الدمشقي (٨١ - ١٣٧هـ = ٧٠٠ - ٧٥٤م) واسمه العربي منصور. كان يحيى الدمشقي عالماً كبير القدر من علماء الدين وقديساً محترماً في الكنيستين: الشرقية والغربية .

٤. الأغاني: ١٤/١١٧.

٥. لاحظ كتاب «المعتزلة»: ٢٣ - ٢٤ تأليف زهدى حسن جار الله.

٦. كذا في المصدر. (١٠٣)

أسلموا، وله أخبار كثيرة وقصص تتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم وقصص الأنبياء، وكان يقول: قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً وقد توفي حوالي سنة (١١٠هـ) بصنعاء. وأمّا كعب الأحبار أو كعب بن ماتع فيهودى من اليمن كذلك، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المسلمين، أسلم في خلافة أبي بكر وعمر - على خلاف في ذلك - وانتقل بعد إسلامه إلى المدينة ثم إلى الشام، وقد أخذ عنه اثنان، هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس - وهذا يعلل ما في تفسيره من إسرائيليات - وأبو هريرة ولم يؤثر عنه أنه ألف كما أثر عن وهب بن منبه، ولكن كلّ تعاليمه - على ما وصل إلينا - كانت شفوية، وما نقل عنه يدلّ على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها. جاء في «الطبقات الكبرى» حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن القيس جالس إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ. (١) وقد لاحظ بعض الباحثين أنّ بعض الثقات كابن قتيبة والنووى ما روي عنه أبداً. وابن جرير الطبري يروي عنه قليلاً، ولكن غيرهم كالثعلبي والكسائي ينقل عنه كثيراً من قصص الأنبياء كقصّة يوسف والوليد بن الريان وأشبه ذلك. ويروي «ابن جرير» أنّه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له: اعهد، فإنك ميت في ثلاثة أيام. قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله عزّ وجلّ في التوراة. قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكن أجده صفتك وحليتك وأنه قد فني أجلك. وهذه القصة إن صحت، دلّت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو في هذه الصبغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل. وعلى الجملة: فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم في عقيدتهم وعلمهم كثير كان له

فيهم أثر غير صالح. (٢)***

١ . طبقات ابن سعد: ٧/٧٩.

٢ . فجر الإسلام: طبع دار الكتاب العربي: ١٦٠- ١٦١. (١٠٤) (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضَتُّ لُونُكُمْ وَمَا يُضَتُّ لُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ). (١).

١ . آل عمران: ٦٩. (١٠٥)

العامل الخامس الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري

العامل الخامس الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري

مضى النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى جوار ربِّه وقام المسلمون بعده بفتح البلاد ومكافحة الأمم المخالفة للإسلام والسيطرة على أقطارها، وكانت تلك الأمم ذات حضارة وثقافة في المعارف والعلوم والآداب، وكان بين المسلمين رجال ذوو دراية ورغبة في كسب العلوم وتعلم ما في تلك الحضارات من آداب وفنون فأدَّت هذه الرغبة إلى المذاكرة والمحاورة أولاً، ونقل كتبهم إلى اللغة العربية ثانياً. يقول بعض المؤرخين في هذا الصدد: ولم تلبث كتب أرسطو، وأنبذقليس، وهرقليوس، وسقراط، وأبيقور، وجميع أساتذة مدرسه الإسكندرية من الفلاسفة، أن ترجمت إلى اللغة العربية وكان هناك ما جعل أمر تلك الترجمة سهلاً، فقد كانت معارف اليونان والرومان منتشرة في بلاد الفرس وسوريا منذ أن وجد العرب في بلاد فارس وسوريا، فلما استولى المسلمون على ما فيها من خزائن العلوم اليونانية قاموا بنقل ما هو باللغة السريانية إلى اللغة العربية. وأعان على أمر الترجمة أنه نقل عدَّة من الأسرى إلى العواصم الإسلامية، فصار ذلك سبباً لانتقال كثير من آراء الرومان والفرس إلى المجتمع الإسلامي (١٠٦)

وانتشارها بينهم ولا شك أن بين تلك المعارف ما كان يضاد مبادئ الإسلام وأسسها وكان بين المسلمين من لم يتدرع في مقابلها ومنهم من لم يتورع في أخذ الفاسد منها. فأصبحوا مغمورين في هذه التيارات، نظراء: ابن أبي العوجاء، وحماد بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أبياس، وعبد الله بن المقفع، فهؤلاء وأمثالهم بين غير متدرع وغير متورع، اهتموا بنشر الإلحاد بين المسلمين وترجمته كتب الملاحدة والثوية من الروم والفرس إلى أن عاد بعض المتفكرين غير مسلمين للإسلام إلا بالقواعد الأساسية كالتوحيد والنبوة والمعاد وكانوا ينشرون آراءهم علناً ويهاجمون بها عقائد المؤمنين. نحن نرى في التراث اليوناني بفضل التراجم التي وصلت إلينا أبحاثاً حول علمه سبحانه وإرادته وقدرته وأفعاله حتى مسألة الجبر والاختيار، وقد كان لتلك الآراء تأثير عميق على عقول المسلمين وهم بين متدرع بالحضارة الإسلامية يكافح الشبه ويميز الصحيح من الفاسد، وبين ضعيف في التعقل والتفكير ليس له من الشأن إلا الأخذ، فصارت تلك الآراء من مبادئ تكوّن الفرق واختلاق النحل. دور أهل البيت في عصر الترجمة

وفي هذا الجو المشحون بالآراء والعقائد الصحيحة وغير الصحيحة، قام أهل البيت بتربية جموع غفيرة من ذوى الاستعداد على المبادئ الأصلية والمفاهيم الإسلامية وتعريفهم بالأصول الدينية المستقاة من الكتاب والسنة والعقل، وصاروا يناظرون كل فرقة ونحلة بما فيهم الملاحدة والثوية بأمتن البراهين وأسلمها. وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة منهم، كهشام بن الحكم، وأبي جعفر مؤمن الطاق، وجابر بن يزيد، وأبان بن تغلب البكري، ويونس بن (١٠٧)

عبد الرحمن، وفضال بن الحسن بن فضال، ومحمد بن خليل السكاك، وأبي مالك الضحاك، وآل نوبخت جميعاً، إلى غير ذلك ممن برع في علم الكلام، وناظر الفرق، بين من تتلمذ على الأئمة، أو من تتلمذ على خريجي مذهبهم، وتواصلت حلقات مناظراتهم حتى القرون المتأخرة وألفت كتب في العقائد والكلام والملل والنحل، يقف القارئ على تاريخهم في كتب الرجال والتراجم وقد حفظ الكثير من نصوص هذه المناظرات والاحتجاجات لحد الآن. كما قامت المعتزلة بمقاومة هذه التيارات الإلحادية والثوية، وبإزالة الشبه بفضل الأصول القرآنية والعقلية، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً وإن لم يكونوا ناجحين في كل ما هو الحق من الأصول والفروع الإسلامية. وبما أن أهل الحديث لا يحسنون طريقة المعتزلة في الاحتجاج والبرهنة، لذا كانوا يعادونهم، كما أن الملاحدة

والثنوية كانوا يعادونهم أيضاً، لما يجدون فيهم من قوة التفكير والقدرة على الاحتجاج والمناظرة. وعلى ذلك فقد وقعت المعتزلة بين عدوين: أحدهما من الداخل، وهم أهل الحديث، والآخر من الخارج، وهم الملاحدة والثنوية. نعم كان بين المسلمين من يأبى الخوض في المسائل العقلية ويكتفى بما وصل إليه من الصحابة، ويقتصر على ما حصل عليه من الدين بالضرورة وهم الحشوية من أهل الحديث وأكثر الحنابلة ولما التحق الشيخ أبو الحسن الأشعري بالحنابلة لم يجد محيصاً في الدفاع عن عقائدهم عن الخوض في المسائل الكلامية، فألف رسالة أسماها «في استحسان الخوض في الكلام». (١٠٨)

العامل السادس الاجتهاد في مقابل النص

العامل السادس الاجتهاد في مقابل النص

إذا كانت العوامل الخمسة الماضية من عوامل تكون المذاهب الكلامية فالاجتهاد في مقابل النص مما يتكون به المذاهب الكلامية والفقهية. روى الفريقان أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان مسحى على فراش الموت والحجرة غاصه بأصحابه فقال: «يا أيها الناس يوشك أن أقبض سريعاً فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا أني مخلف فيكم كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي». (١) فجعل العترة أعدل كتاب الله وقرناه كما أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - جعلهم أمان الأمة من الاختلاف وسفينتها من الهلاك، إلى غير ذلك من الأحاديث التي ستمر عليك عند البحث عن الشيعة. ومع ذلك استأثر القوم بالأمر يوم السقيفة وأولوا نصوصه لا يلوون على شيء وقد قضوا أمرهم بينهم دون أن يؤذنوا به أحداً من بنى هاشم وأهل بيت النبوة وكأنه عناهم الشاعر في المثل السائر حيث قال: ويقضى الأمر حين تغيب تيم * ولا يستأذنون وهم شهود نرى أن الأمة بعد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - رجعوا إلى كل صحابي وتابعي وإلى

١. لاحظ ص ٣٦ من كتابنا هذا. (١٠٩)

من أدرك صحبة النبي شهراً أو أقل ومع ذلك أعرضوا عن أهل بيته وعترته وهم أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي والتنزيل، وما هذا إلا اجتهاد في مقابل النص. وأما المذاهب الفقهية التي أسست في ظل هذا العامل فحدث عنها ولا حرج، ويكفي في ذلك المراجعة إلى الكتب الفقهية في المسائل التالية: ١. إسقاط سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة مع النص عليه في محكم الذكر. ٢. إسقاط سهم ذوى القربى من الخمس بوفاء رسول الله مع النص عليه في محكمات الفرقان وصحاح السنن. ٣. الحكم بعدم توريث الأنبياء مع ما في الذكر الحكيم من النصوص الصريحة في توريثهم. ٤. النهي عن متعة الحج مع النص الوارد عليها في الآية (١٩٦) من سورة البقرة. ٥. النهي عن متعة النساء مع النص عليه في محكم الذكر وصحاح الروايات. ٦. إسقاط «حى على خير العمل» من الأذان والإقامة مع كونه جزءاً من كل منهما. إلى غير ذلك من الموارد التي جمعها العلامة الأكبر السيد شرف الدين العاملي (المتوفى ١٣٧٧هـ) في كتابه «النص والاجتهاد» وهو من الكتب الممتعة في ذلك الموضوع وفي آخر الكتاب فصل جمع فيه نصوص الإمامة المتواليه من مبدأ أمر الرسول إلى انتهاء عمره الشريف. *** (ثم أوردنا الكتاب الذين اضبطنا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) (١). —————

١. فاطر: ٣٢. (١١٠) (١١١)

الفصل الرابع في معنى القدرية والمعتزلة

الفصل الرابع في معنى القدرية والمعتزلة والرافضة والحشوية

إن كتب الملل والنحل مشحونة باصطلاحات يستخدمونها في التعبير عن الفرق ويعبرون عن أكثرهم بإدخال ياء النسبة إلى أصحاب الرأي، غير أن هناك اصطلاحات اختلفوا في معناها أو وقع لهم الاشتباه في تفسيرها، فلندكر هاهنا القسم الأخير:

١. القدرية قد تداول استعمال لفظ القدرية في علمي الملل والكلام، فأصحاب الحديث كإمام الحنابلة ومتكلمي الأشاعرة يطلقونها ويريدون منها «نفاة القدر ومنكره» بينما تستعملها المعتزلة في مثبتى القدر والمقرين به، وكل من الطائفتين ينزجر من الوصمة بها ويفر منها فرار المزكوم من المسك، وذلك لما رواه أبو داود في سننه، والترمذى في صحيحه، من روايات في ذم القدرية والقدر فيهم. وإليك بيانها: ١. عبد الله بن عمر: إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم. ٢. عبد الله بن عباس: إن النبي قال: لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم. (١)

١. أى لا تحاكموهم وتناظروهم ولا تجادلوهم. وفي المصدر عمر بن الخطاب مكان «عبد الله بن عباس». (١١٢)
٣. عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله: صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية. (١) ولأجل هذه الروايات يتهم كل من الطائفتين، الأخرى بالقدرية لئنه نفسه من ذلك العار والشنار. ولا يخفى أن متون الأحاديث تعرب عن كونها موضوعة على النبي الأكرم، خصوصاً الحديث الأخير فقد جاء فيه: المرجئة والقدرية معاً، إذ إن هذين المصطلحين برزا بين المسلمين في النصف الثاني من القرن الأول عندما اتهم معبد الجهنى وتلميذه غيلان الدمشقى بالقدر والإرجاء، و ذاع هذان الاصطلاحان بين المسلمين إلى الآن ومن البعيد وجودهما في زمن الرسول الأعظم وشيوعهما في ذلك العصر، وعند ذلك كيف يتكلم الرسول بكلمات بعيدة عن أذهان أصحابه، وغريبه على مخاطبيه، كل ذلك يثير الشك أو سوء الظن بوضع هذه الأحاديث ودسها بين المسلمين، حتى يتسنى لكل من الطائفتين، تعبير الأخرى بها والنيل من كرامتها، وما ذكرناه من التشكيك وإن كان لا يخرج عن دائرة الاستحسان، غير أن وقوع الضعاف في أسنادها يؤيد ذلك التشكيك ويقويه. أما الحديث الأول، فقد رواه أبو داود في سننه بالسند التالي: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم، قال: حدثني بمنى عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي. (٢) ويكفى في ضعف الحديث، أن أبا حازم سلمه بن دينار، لم يدرك عبد الله بن عمر، وقد روى عنه في مواضع بوسائط، لا يثبت منها شيء. (٣) وأما الحديث الثاني، فقد رواه أيضاً بالسند التالي: _____

١. جامع الأصول: ١٠/٥٢٦. راجع سنن أبي داود: ٤/٢٢٢، باب في القدر، الحديث ٦٤٩١ و ٦٤٩٢، سنن الترمذى: ج ٤، كتاب القدر باب ١٣، الحديث ٢١٤٩.

٢. سنن أبي داود: ٤/٢٢٢، الباب في القدر، الحديث ٤٦٩١.

٣. جامع الأصول: ١٠/٥٢٦ قسم التعليق، واللالى المصنوعة: ١/٢٥٨. (١١٣)

حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ أبو عبد الرحمن، قال حدثني سعيد بن أبي أيوب، قال حدثني عطاء بن دينار، عن حكيم بن شريك الهذلى، عن يحيى بن ميمون الحضرمى، عن ربيعة الجرشى، عن أبي هريرة، عن عمر بن الخطاب. (١) ويكفى في ضعف الحديث أن في أسناده، حكيم بن شريك الهذلى البصرى الذى هو مجهول. (٢) وأما الحديث الثالث، فقد رواه الترمذى في سننه بالسند التالي: حدثنا واصل بن عبد الأعلى الكوفى، حدثنا محمد بن فضيل، عن القاسم بن حبيب، وعلى بن نزار، عن نزار عن عكرمة. (٣) ويكفى في ضعف الحديث أن قاسم بن حبيب ضعيف، ونزار وابنه على، من المجاهيل. أفصح الاحتجاج بأحاديث هذه أسنادها؟ هذه حال الأحاديث الواردة في الصحاح. غير أن هناك أحاديث وردت في غيرها تختلف مع ما ورد فيها سنداً، وإن كانت تتحد لفظاً. وقد جمعها السيوطى في كتابه «اللالى المصنوعة في الأحاديث الموضوعة». (٤) مثلاً: روى ابن عدى، بسند عن مكحول عن أبي هريرة مرفوعاً: إن لكل أمة مجوساً، وإن مجوس هذه الأمة القدرية، فلا تعودوهم إذا مرضوا، ولا تصلوا عليهم إذا ماتوا. وفي سننه جعفر بن الحارث، قال عنه السيوطى: ليس بشيء. ورواه خيثمة بسند عن أبي هريرة، وفي سننه غسان، قال عنه السيوطى: مجهول. _____

١. سنن أبي داود: ٤/٢٢٨، باب في القدر، الحديث ٤٧١٠.

٢. جامع الأصول: ١/٥٢٦، قسم التعليق.

٣. سنن الترمذى: ٤/٤٥٤، باب ما جاء في القدرية، رقم الحديث ٢١٤٩.

٤. لاحظ ج ١، ص ٢٥٤ - ٢٥٦. (١١٤)

ورواه الدارقطني، بسند عن أبي هريرة، وفيه مجاهيل، حتى قال النسائي: هذا الحديث باطل كذب. (١) ونكتفى بهذا المقدار في البحث عن سند الروايات. هذا حال رجال الأحاديث المذكورة، ومن المعلوم أنه لا يمكن الاحتجاج بأحاديث هذا شأنها، وعلى فرض صحتها فالصحيح تفسير القدرية بمعنى مثبتى القدر والحاكمين به، لا نفاته. فإن تلك الكلمة كأشباهها من العديلة وغيرها تطلق ويراد منها مثبتو مبادئها، أعنى: العدل، لا- نفاتها. وإطلاق تلك الكلمة وإرادة النفي منها من غرائب الاستعمالات. نعم أخرج أبو داود في سننه (٢)، عن حذيفة بن اليمان قال: «قال رسول الله: لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر». وهذا الحديث على فرض صحته يمكن أن يكون قرينة على تفسير القدرية في هذا المورد، ويكشف عن أن ذلك الاستعمال البعيد عن الأذهان، كان مقروناً بالقرينة. ولكن الاحتجاج بالحديث غير تام، إذ في سننه عمر مولى غفرة، عن رجل من الأنصار، عن حذيفة، فالراوى والمروى عنه مجهولان. (٣) فقه الحديث

وبعد ذلك كله، ففقه الحديث يقتضى أن نقول: إن المراد من القدرية هم مثبتو القدر، لا- نفاته، بقرينة تشبيهم بالمجوس، فإن المجوس معروفة بالثنوية، وإن خالق الخير غير خالق الشر، ومبدع النور غير مبدع الظلمة، وإن هناك إلهين خالقين في عالم واحد، يستقل كل في مجاله الخاص، حسب ما يناسب ذاته. والقائل بالقدر يحكم القدر على أفعاله سبحانه وأفعال عباده، فكأن

١. اللآلى المصنوعة: ١/٢٥٨.

٢. سنن أبي داود: ٤/٢٢٢ ح ٤٦٩٢.

٣. الجرح والتعديل: ٦/١٤٣. (١١٥)

التقدير إله حاكم على أفعال الله وأفعالهم، فإذا قدر شيئاً وقضى لا يمكن له نقض قضائه وقدره، بل يجب عليهما أن يصيرا حسب ما قدر، فالقواعل على هذا المعنى - سواء أكانت شاعرة عالمة بذاتها وأفعالها أو غير شاعرة وعالمة - مسيرة لا مخيرة، لأجل حكومة القدر وسيادته على الله وأفعاله وعلى حرية عبده، فأى إله أعلى وأسمى من القدر بهذا المعنى. فصح تشبيه القدرية - بهذا المعنى - بالمجوس القائلين بالثنوية وتعدد الإله. وأمياً نفاة القدر الذين يقولون لا قدر ولا قضاء بل لله الحكم في أوله وآخره، وأن عباده مخيرون في أعمالهم وأفعالهم، فهم أشبه بالموحدين من القائلين بالمعنى السابق الذكر. نعم يمكن تقريب كون النفاة بحكم المجوس ببيان آخر وهو: أن تلك الفرقة يعتقدون بالتفويض، وأن الإنسان مفوض إليه في فعله، مستقل في عمله وكل ما يقوم به. فعند ذلك يكون الإنسان فاعلاً غير محتاج في فعله إلى خالقه وبارئه، ويصير ندأ له سبحانه وتعالى فكما هو مستقل في خلقه فذاك أيضاً مستقل في عمله. وهذا الاعتقاد يشبه قول الثنوية، من الاعتقاد بخالقين مستقلين: خالق النور وخالق الظلمة. وفي مورد البحث يعتقد نفاة القدر بخالقين: الله سبحانه بالنسبة إلى ما سواه غير أفعال الإنسان، والإنسان في مجال أفعاله وأعماله، فلكل مجال خاص، وهذا الاعتقاد يخالف التوحيد في الخالقية والفاعلية، وأنه ليس هناك إلا خالق واحد، كما أنه ليس هناك فاعل مستقل. فكل ما في الوجود من الآثار مع استناده إلى مبادئها ومؤثراتها، مستند إلى الله سبحانه، وسيوافيك توضيحه عند البحث في القضاء والقدر. ولا يخفى ما في هذا الوجه من الوهن، لأن الحديث يركز على كونهم بمنزلة المجوس، لأجل كونهم نافرين للقدر، لا- لأجل كونهم قائلين بالتفويض، وأن الإنسان بعد الوجود، مفوض إليه فعله وعمله، ولا صلة لفعله إلى الله سبحانه بوجه من الوجوه. وقولهم بالتفويض وإن كان يصح ذلك، لكنّه (١١٦)

ليس مذكوراً في الحديث فالحق تفسير الحديث بالقائلين بالقدر والمثبتين له على الوجه الذى عرفته، لا بنفاته. هذا، والقاضى عبد الجبار نقل حديثاً يوضح لنا مفاد هذا الحديث حيث قال: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً، قيل له: ومن القدرية يا رسول

اللّه؟ قال: «قوم يزعمون أنّ الله قدّر عليهم المعاصي وعذبهم عليها. والمرجئة قوم يزعمون أنّ الإيمان بلا عمل». (١) ونقل أيضاً قول الرسول: «لعن الله القدريّة على لسان سبعين نبياً، قيل: من القدريّة يا رسول الله؟ قال: «الذين يعصون الله تعالى ويقولون كان ذلك بقضاء الله وقدره... وهم خصماء الرحمن وشهود الزور وجنود إبليس». (٢) وقد رواه بعض المفسرين أيضاً، كالزمخشري في كشفه (٣)، والرازي في مفاتيحه. (٤) وهذا وإنّ تتبؤ النبي الأكرم عن طائفة باسمهم دون أن يذكر وصفهم بعيد جداً. وهنا نكتة يجب التنبيه عليها وهي أنّه لا شك أنّ لله سبحانه قضاء وقدرًا، وأنّه لا يمكن للمؤمن العارف بالكتاب والسنة إنكار ذلك، وقد قال سبحانه: (ما أصاب من مُصيبته في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير) (٥) وقال سبحانه: (إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّنا كنّا مُنذرين* فيها يُفرق كلُّ أمر حكيم). (٦) _____

١. المغنى: ٨/٣٢٦ (المخلوق).

٢. شرح الأصول الخمسة: ٧٧٥، الطبعة الأولى.

٣. الكشف: ١/١٠٣.

٤. المفاتيح: ١٣/١٨٤.

٥. الحديد: ٢٢.

٦. الدخان: ٣ و ٤ (١١٧).

وهذه الآيات والأحاديث المتضاربة التي نقلها أصحاب الحديث لا تترك متدحاً لمسلم أن ينكر القضاء والقدر، نعم الكلام في تفسيرهما وتحديد معانها على نحو لا يضاد ولا يخالف حاكمية الله واختياره أولاً، ولا يزاحم حرية الإنسان وإرادته ثانياً، إذ كما أنّ القدر والقضاء من الأمور اليقينية، فكذا حاكميته سبحانه واختياره، وحرية العبد وإرادته من الأمور اليقينية أيضاً وسوف يوافيك أنّ معنى القضاء والقدر الثابتين في الشرع، ليس كما تصوّره أصحاب الحديث والأشاعرة: من تحكيم القدر على اختياره سبحانه، وإرادة عباده. بل تقديره وقضاؤه لا يعنى إبطال حرية الإنسان واختياره، ولأجل كون المقام من مزال الأقدام، نهى الإمام أمير المؤمنين البسطاء عن الخوض في القضاء والقدر، فقال في جواب من سأله عن القدر: «طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه». (١) ولكن كلامه - عليه السّلام - متوجه إلى البسطاء من الأئمة الذين لا يتحملون المعارف العليا، لا إلى أهل المعرفة والنظر. ولأجل ذلك وردت جمل شافية في القضاء والقدر عن أئمة أهل البيت - عليهم السّلام - وسيوافيك شرط منها عند عرض مذهب أهل الحديث في هذا الموقف. ٢. الاعتزال والمعتزلة

المعتزلة طائفة من العدلية نشأت في أوائل القرن الثاني الهجري، ويرجع أصلها إلى «واصل بن عطاء» تلميذ الحسن البصري، ولهم منهج كلامي خاص وأصول معينة اتفقوا عليها، وسوف نرجع إلى دراسة مذهبهم بعد الفراغ من دراسة مذهب أهل الحديث أولاً، والأشاعرة ثانياً، غير أنّ الذي نركز عليه هنا هو الوقوف على وجه تسميتهم بالمعتزلة تارة، ووصف مدرستهم بالاعتزال أخرى، وهناك آراء ستة نشير إلى بعضها: أ. دخل رجل على الحسن البصري (المتوفى عام ١١٠هـ) فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم _____

١. شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده: قسم الحكم، الرقم ٢٨٧. (١١٨)

كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل ليس - على مذهبهم - ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكّم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء (تلميذه): أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا - مؤمن ولا كافر. ثمّ قام واعتزل إلى أسطوانة من اسطوانات المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا واصل، فسّمى هو وأصحابه معتزلة. (١) وقد كان لمسألة مرتكب الكبائر دوى

عظيم في تلك العصور، وهو أمر أحدثه الخوارج في البيئات الإسلامية تعبيراً لعلی - عليه السّلام - حيث إنّه بزعمهم ارتكب الكبيرة لَمَّا حَكَّم الرجال في أمر الدين، وليس للرجال شأن في هذا المجال، فعادوا يكفرونه حسب معاييرهم الباطلة. ولأجل ذلك انتشر السؤال عن حكم مرتكب الكبيرة، هل هو كافر أو مؤمن فاسق؟ فالتجأ واصل بن عطاء إلى القول بالمنزلة بين المنزلتين. وظاهر الرواية، أنّ واصل بن عطاء أجاب عن السؤال ارتجالاً وبلا تروء، غير أنّا نرى أنّ المعتزلة اتّخذوه أصلاً من الأصول الخمسة التي لا يختلف فيها أحد منهم، فيبدو أنّه انتهى إلى تلك النظرية عن تحقيق وتفكير وتبعه أصحابه طوال قرون من دون أن يكون هناك حافز سياسى أو داع غير إراءة الحق وإصابة الواقع. ومع ذلك كلّه نرى عبد الرحمن بدوى يعتبر تلك الفكرة منهم فكرة سياسية اتّخذوها ذريعة على الألب. ينصروا أحد الفريقين المتنازعين (أهل السنّة والخوارج) حيث قال: وإنّما اختار المعتزلة الأولون هذا الاسم، أو على الأقل

١. الفرق بين الفرق : ١١٨؛ الملل والنحل للشهرستاني: ١/٤٨. (١١٩)

تقبلوه، بمعنى المحايدين أو الذين لا ينصرون أحد الفريقين المتنازعين (أهل السنّة والخوارج) على الآخر في المسألة السياسيّة الدينيّة الخطيرة: مسألة الفاسق ما هو حكمه؟ هل هو كافر مخلد في النار كما يقول الخوارج، أو هو مؤمن يعاقب على الكبيرة بقدرها كما يقول أهل السنّة، أو هو في منزلة بين المنزلتين وهو ما يقول به المعتزلة. (١) ب. وهناك رأى ثان في وجه تسميتهم بها، يظهر ممّا ذكره أبو الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي (المتوفى عام ٣٧٧هـ) حيث يقول: وهم سمّوا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن علي - عليه السّلام - معاوية وسلم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس، وقد كانوا من أصحاب علي، ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا: نشغل بالعلم والعبادة فسمّوا بذلك معتزلة. (٢) وهذا الرأى قريب من جهة أنّ المعتزلة أخذوا تعاليمهم في التوحيد والعدل، عن الإمام علي بن أبي طالب - عليه السّلام - لأنهم يقرون بأنّ مذهبهم يصل إلى واصل بن عطاء، وأنّ واصلاً يستند إلى محمد بن علي بن أبي طالب - عليه السّلام - المعروف بابن الحنفية بواسطة ابنه أبي هاشم وأنّ محمداً أخذ عن أبيه، وأنّ علياً أخذ عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (٣) وعلى ذلك فليس بعيد أن يرجع وجه التسمية إلى زمن تصالح الإمام الحسن - عليه السّلام - مع معاوية. والذي يبعد ذلك أنّ من الأصول الاعتقاديّة للمعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى هذا الأصل خرجت أوائلهم على الوليد الفاسق بن يزيد ابن عبد الملك ونصروا يزيد الناقص بن الوليد بن عبد الملك الذي كان على

خط

١. مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوى: ١/٣٧.

٢. التنبيه والرد: ٣٦.

٣. رسائل الجاحظ تحقيق عمر أبي النصر: ٢٢٨، وغيره ممّا كتب في تاريخ المعتزلة كطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، والمنية والأمل لأحمد بن يحيى بن المرتضى. (١٢٠)

الاعتزال، وقد فضّل الكلام فيه المسعودي في تاريخه (١)، وعلى ذلك فلا يصح أن يقال إنهم لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشغل بالعلم والعبادة. والحق أن يقال: إنّ هناك طائفتين سمّيتا بالمعتزلة، لا صلة بينهما سوى الاشتراك في الاسم، ظهرت إحداهما بعد تصالح الإمام الحسن بن علي - عليهما السّلام - مع معاوية، وهؤلاء طائفة سياسية بحثه. وطلعت الأخرى في زمن الحسن البصري بعد اعتزال واصل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد، وهؤلاء طائفة كلامية عقائدية. هذا وإنّ المعروف في وجه التسمية هو الوجه الأوّل دون الثاني ودون سائر الوجوه البالغه ستة أوجه. وسيافيك بيان تلك الأوجه الستة عند بيان عقائد المعتزلة في الجزء الثالث من هذه الموسوعة. ٣. الرفض والرافضة ووجه التسمية

الرفض: بمعنى الترك. قال ابن منظور في اللسان: «الرفض تركك الشيء تقول: رفضني فرفضته، رفضت الشيء أرفضه رفضاً. تركته ورفقته، والرفض، الشيء المتفرق والجمع: أرفض». هذا هو المعنى اللغوي وأما حسب الاصطلاح في الأعصار المتأخرة فهو يطلق على

مطلق محبى أهل البيت تارة، أو على شيعتهم جميعاً أخرى، أو على طائفة خاصة منهم ثالثة. وعلى كل تقدير فهذا الاصطلاح اصطلاح سياسى أطلق على هذه الطائفة وهو موضوع لا كلام فيه، إنما الكلام فى وجه التسمية ومبدأ نشوئها، فإننا نرى ابن منظور يقول فى وجه التسمية «الروافض: جنود تركوا قائدهم وانصرفوا، فكل طائفة منهم رافضة، والنسبة إليهم رافضى، والروافض قوم من الشيعة سموا بذلك لأنهم تركوا زيد بن على، قال الأصمعى: كانوا

١. مروج الذهب: ٣/٢١٢-٢٢٦. (١٢١)

قد بايعوا زيد بن على ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معك فأبى وقال: كانا وزيرى جدى فلا أبرأ منهما، فرفضوه ورفضوا عنه، فسموا رافضة، وقالوا الروافض ولم يقولوا: الرفاض لأنهم عنوا الجماعات. (١) غير أن ابن منظور، وإن أصاب الحق فى صدر كلامه وجعل للفظ معنى وسيعاً يطلق على المسلم والكافر، والمسلم شيعته و سببه لكن استشهد على وجه تسمية قسم من شيعة على - عليه السلام - بها بقول الأصمعى، وهو منحرف عن على وشيعته، فكيف يمكن الاعتماد على قوله، خصوصاً إذا تضمن تنقيصاً وازدراء بهم، وليس ذلك بدعاً من ابن منظور وأضرابه، بل هو مطرد فى كل مورد يستشهدون بشيء فيه وقية للشيعة، فترى هناك أثراً من مطعون إلى منحرف إلى ناصبى إلى خارجى و«فى كلواد أثر من ثعلبة» وعلى أى تقدير هذه الفكرة هى المعروفة بين أرباب الملل فى تسمية شيعة الإمام بالرافضة، ونداء محبيه بالرفضة. يقول البغدادي فى «الفرق بينالفرق» عند البحث عن الزيدية: وكان زيد بن على قد بايعه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة وخرج بهم على والى العراق وهو يوسف بن عمر الثقفى عامل هشام بن عبد الملك، فلما استمر القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفى قالوا له: إننا نصررك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر، بعد أن ظلما جدك على بن أبى طالب. فقال زيد بن على: لا أقول فيهم إلا خيراً، وما سمعت من أبى فيهم إلا خيراً. وإنما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم وقعة الحرة، ثم رموا بيت الله بالمنجنق والنار. ففارقوه عند ذلك، حتى قال لهم رفضتمونى، ومن يومئذ سموا رافضة. (٢) قال البزدوى أحد المؤلفين فى الفرق عند البحث عن مذهب الروافض: «وإنما سموا روافض، لأنهم وقعوا فى أبى بكر وعمر فزجرهم زيد فرفضوه

١. لسان العرب: ٧/١٥٧، مادة رفض.

٢. الفرق بين الفرق: ٣٥. (١٢٢)

وتركوه فسموا روافض». (١) هذا ما لدى القوم من أولهم وآخرهم، فقد أخذوا بقول الأصمعى الناصبى فى التسمية ومن لف لفه وحذا حذوه. نظرنا فى الموضوع

لا أظن الأصمعى وهو خير فى اللغة يجهل بحقيقته الحال ولكن عداه قد جزه إلى هذا التفسير، فإن الحق أن الرافضة كلمة سياسيه كانت تستعمل قبل أن يولد زيد بن على ومن بايعه من أهل الكوفة، فالكلمة تطلق على كل جماعة لم تقبل الحكومة القائمه، سواء أكانت حقاً أو باطلاً. هذا هو معاوية بن أبى سفيان يصف شيعة عثمان - الذين لم يخضعوا لحكومة على بن أبى طالب - عليه السلام - وسلطته - بالرافضة ويكتب فى كتابه إلى «عمرو بن العاص» وهو فى البيع فى فلسطين أما بعد: فإنه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا (٢) مروان ابن الحكم فى رافضة أهل البصرة وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعه على، وقد حبست نفسى عليك حتى تأتيني، أقبل أذاكرك أمراً. (٣) ترى أن معاوية يصف من جاء مع مروان بن الحكم بالرافضة وهؤلاء كانوا أعداء على ومخالفه، وما هذا إلا لأن هؤلاء الجماعة كانوا غير خاضعين للحكومة القائمه آنذاك. وعلى ذلك فتلك لفظه سياسيه تطلق على القاعدين عن نصره الحكومة والالتفاف حولها، وبما أنه كان من واجب هذه الجماعة البيعة للحكومة والمعاملة معاملة الحكومة الحقه، ولكنهم لم يقوموا بواجبهم فتركوه ففرقوا عنها، فسموا رافضة. فقد خرجنا بهذه النتيجة: إن كلمة الرافض والرافضة ليستا من

٢ . سقط إلينا: نزل إلينا.

٣ . وقعة صفيين : ٢٩ . (١٢٣)

خصائص الشيعة، بل هي لغة عامة تستعمل في كل جماعة غير خاضعة للحكومة القائمة، وبما أن الشيعة منذ تكونها لم تخضع للحكومات القائمة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فكانت رافضة حسب الاصطلاح الذي عرفت، ولم يكن ذلك الاصطلاح موهوباً من زيد بن علي لشيعة جده. كيف وقد ورد ذلك المصطلح على لسان أخيه محمد الباقر - عليه السلام - الذي توفي قبل زيد بن علي وثورته بست سنوات؟! روى أبو الجارود عن أبي جعفر - عليه السلام - : «إن رجلاً يقول إن فلاناً سمناً باسم، قال: وما ذاك الاسم؟ قال: سمناً الرافضة. فقال أبو جعفر - مشيراً بيده إلى صدره - وأنا من الرافضة وهو مني، قالها ثلاثاً. (١) وروى أبو بصير فقال: «قلت لأبي جعفر - عليه السلام - : جعلت فداك اسم سمي بنا به، استحلته به الولاة دماءنا وأموالنا وعذابنا، قال: «وما هو؟» قال: الرافضة، فقال أبو جعفر - عليه السلام - : «إن سبعين رجلاً من عسكر فرعون رفضوا فرعون، فأتوا موسى - عليه السلام - فلم يكن في قوم موسى أحد أشد اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم، فسماهم قوم موسى الرافضة». (٢) وهذه التعابير عن أبي جعفر باقر العلوم - عليه السلام - أصدق شاهد على أن مصطلح الرافضة ليس وليد فكرة زيد، وأجله عن هذه النسبة والفكرة، بل كان مصطلحاً سائداً في أقوام، فكل من لم يخضع للحاكم القائم، والحكومة السائدة وصار يعيش بلا إمام ولا حاكم سمي رافضياً والجماعة رافضة أو رفضة. وبهذا الملاك أطلق لفظ الرافضي على من لم يعتقد بشرعية حكومة الخلفاء حتى شاع وذاع قبل مقتل زيد كما عرفت وبعده. فعن معاذ بن سعيد الحميري قال: «شهد السيد إسماعيل بن محمد الحميري رحمه الله ، عند «سوار» القاضي بشهادة فقال له: أأنت

١ . بحار الأنوار: ٦٥/٩٧ الحديث ٢ نقلاً عن المحاسن للبرقي، المتوفى عام ٢٧٤هـ

٢ . بحار الأنوار: ٦٥/٩٧ الحديث ٣ . (١٢٤)

إسماعيل بن محمد الذي يعرف بالسيد؟ فقال: نعم. فقال له: كيف أقدمت على الشهادة عندي، وأنا أعرف عداوتك للسلف؟ فقال السيد: قد أعاذني الله من عداوة أولياء الله، وإنما هو شيء لزمني. ثم نهض فقال له: قم يا رافضي فوالله ما شهدت بحق، فخرج السيد رحمه الله وهو يقول: أبوك ابن سارق عنز النبي * وأنت ابن بنت أبي جحدر ونحن على زعمك الرافضو * ن لأهل الضلالة والمنكر (١) وروى أنه كان عبد الملك بن مروان لما سمع من الفرزدق قصيدته المعروفة في مدح الإمام علي بن الحسين قال له: أو رافضي أيضاً أنت؟ فقال الفرزدق: إن كان حب آل محمد رفضاً فأنا هذاك، فقال عبد الملك: قل في مثل ما قلته فيه وعلى أن أضعف عطاءك.... (٢) ٤. الحشوية

لقد كثر الكلام حول تفسير الحشوية و ما هو المراد منها؟ ونحن نأتي هنا بمجمل القول من أوثق المصادر.. قال الجرجاني: وسميت الحشوية حشوية، لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه، وتوصيفه تعالى بالنفس واليد والسمع والبصر، وقالوا: إن كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أياً كانت الوساطة. (٣) وقد ذكر الصفدي: أن الغالب في الحنفية معتزلة. والغالب في الشافعية أشاعرة، والغالب في المالكية قدرية (لعله يعني جبرية) والغالب في الحنابلة حشوية. (٤) ونقل الشيخ محمد زاهد الكوثري في تقديمه على كتاب «تبيين كذب

١ . الغدير: ٢/٢٥٦ طبع بيروت.

٢ . أمالي السيد المرتضى: ١/٦٨ في التعليق.

٣ . التعريفات: ٣٤١، الحور العين: ٢٠٤، معرفة المذاهب: ١٥.

٤ . الغيث المنسجم للصفدي: ٢/٤٧، وراجع ضحى الإسلام لأحمد أمين: ٣/٧١. (١٢٥)

المفتري» وجهاً آخر، وقال: وكان الحسن البصرى من جلة التابعين، ومن استمر سنين ينشر العلم في البصرة، ويلتزم مجلسه نبلاء أهل العلم، وقد حضر مجلسه يوماً أناس من رعاي الرواة، ولما تكلموا بالسقط عنده قال ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أى جانبها- فسموا الحشوية، ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة. (١) *** قال الصادق - عليه السلام - : «العامل على غير بصيرة كالسائر على سراب ببيعة، لا يزيده سرعة السير إلا بعداً». (٢) _____

١ . تبين كذب المفتري: ١١.

٢ . الوسائل: الباب ١٨ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٣٦.

الفصل الخامس نظرة في كتب أهل الحديث

الفصل الخامس نظرة في كتب أهل الحديث (الحنابلة والحشوية)

لا- نقاش في أن الحديث النبوي حجة إلهية كالقرآن الكريم ولا يعدل المسلم المؤمن عنهما إلى غيرهما، فالكتاب معجزة خالدة واللفظ والمعنى منه سبحانه، وأما السنة فلفظها للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والمفاد والمضمون منه سبحانه. فلا فرق بين قوله تعالى: (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (١) وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «الصلح جائز بين المسلمين». (٢) كما لا- فرق بين قوله سبحانه: (فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً) (٣) وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «التراب أحد الطهورين يكفيك عشر سنين». (٤) فالمسلم المؤمن بالله وكتابه ورساله نبيه لا- يفرق بين كتابه تعالى وكلامه - صلى الله عليه وآله وسلم - ، كما لا يفرق بين قوله وفعله، بين إشارته وتقريره، فكل حجة إلهية يجب العمل على وفقه ولا يكون المسلم مسلماً إلا إذا استسلم في هذه المجالات كلها. قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا _____

١ . الحجرات: ١٠.

٢ . التاج الجامع للأصول: ٢/٢٠٢، رواه الترمذى وأبو داود والبخارى.

٣ . المائدة: ٦.

٤ . سنن الترمذى: ١/٢١٢ باب ما جاء في التيمم للجنب. (١٢٨) تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. (١)

إنّ للحديث النبوي من جلاله الشأن وعلو القدر ما لا- يختلف فيه اثنان، ولا يحتاج في إثباته إلى برهان. إذ هي الدعامة الثانية - بعد الذكر الحكيم - للدين والأخلاق، والحكم والآداب، ممّا يتمتع به المسلمون في دينهم وديانهم. وهذه المكانة الجليلة والمنزلة الرفيعة، تقتضى مزيد العناية بها ودراستها بأحسن الأساليب العلمية والمنطقية، حتى يتميّز الصحيح من الزائف ولا ينسب إليه كل ما يحمل اسم الحديث والسنة، أو كل ما يوجد في بطون الكتب وضمائر الأسفار، معقولاً كان أو غير معقول، مخالفاً كان للقرآن أو لا. إنّ قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» إخطار أكيد للواعين بأنّ أعداء الدين لبالمرصاد وسوف ينسبون إليه كل مغسول من البلاغة، وعار عن الفصاحة وينقلون منه كل معنى ثقيل على الفطرة، أو مضاد للعقل السليم، الذى به عرفناه سبحانه وعرفنا براهين رسالة رسوله. وقد دق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بكلامه هذا جرس الإنذار للأمة لا سيما للوعاء منهم وحفاظ أحاديثه حتى لا- يظنوا أنّ كل ما يصل إليهم باسم الحديث هو الحديث النبوي على حقيقته، بألفاظه ومعانيه، وليس قبول كل حديث - ولو كان فيه ما فيه - آية التسليم لله وللرسول، وآية عدم التقدّم عليهما فى ميادين الأصول والفروع. ويتضح ذلك أشد الوضوح إذا وقفت على ما تلوناه عليك من أنّ الحديث النبوي رزىء بالموضوعات التى تولّى كبرها أعداء الدين والإسلام أولاً، وتجرة الحديث ثانياً، يضعون الأحاديث ترفلاً إلى الحكام وتقرباً منهم. هذا هو أبو هريرة أكثر الصحابة رواية عن رسول الله مع أنّه لم يصاحب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا سنتين أو أقلّ منهما جاء بروايات فيها _____

١ . الحجرات: ١. (١٢٩)

طامات وغرائب بقيت على مر الدهر، وقد أتعب شراح الصحاح والمسانيد أنفسهم الزكية لحلها وتوجيهها. غير أن المتحرى للحقيقة ومن يرى أن الحق أولى من الصحابة والصحابي يرى في أحاديثه آثار الوضع والادس والاختلاق بما لا مجال في المقام لذكرها. (١) وقد أتينا في بعض الفصول السابقة بالممامة توففكك على مأساة نقل الحديث والتحدث به وكتابته ونشره بين الأمة، وعرفت أن ترك الكتابة بل ترك التحدث كان فضيلاً، وخلافه بدعة. ولكن الظروف والأحوال ألجأت المسلمين إلى الكتابة والتدوين ونشره في أواخر النصف الأول من القرن الثاني. ولأجل ذلك صار العثور على الحديث الصحيح الذي حدث به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمراً صعباً لما مر من دس الدسائسين ووضع الوضّاعين تزلّفاً إلى أصحاب السلطة والعروش، وغير ذلك من دواعي الجعل. غير أن الأحاديث والمأثورات المروية في كتب الحديث، أخذت لنفسها بعد التدوين مقاماً عالياً، وأضيفت إليها آراء الصحابة وأقوال التابعين فصار الجميع هو الأصل الأصيل في تنظيم العقائد وتشريع الأحكام سواء أكان موافقاً للقرآن أم مخالفاً، وسواء أكان موافقاً للعقل السليم أم مخالفاً له، وقد بلغ التحجّر بهم إلى حدّ أن قالوا: ١. إن السنّة لا تنسخ بالقرآن، ولكن السنّة تنسخ القرآن وتقضى عليه، والقرآن لا ينسخ السنّة ولا يقضى عليها. (٢) ٢. إن القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن. (٣) ٣. إن القول بعرض الأحاديث على الكتاب قول وضعه الزنادقة. (٤)

١. لاحظ في الوقوف على قيمة أحاديث أبي هريرة كتاب «أبوهريرة شيخ المضيرة» للعلامة المصري الشيخ محمود أبو رية.

٢. مقالات الإسلاميين: ٢/٢٥١.

٣. جامع بيان العلم: ٢/٢٣٤.

٤. عون المعبود في شرح سنن أبي داود: ٤/٤٢٩. (١٣٠)

فبلغ بهم التقليد إلى حدّ صاروا يأخذون بظواهر كلّ ما رواه الرواة من الأخبار والآثار الموقوفة والمرفوعة، والموضوعة والمصنوعة وإن كانت شاذة أو منكرة أو غريبة المتن أو من الإسرائيليات مثل ما روى عن كعب وهب... أو معارضة بالقطعيات التي تعد من نصوص الشرع ومدركات الحس ويقينيات العقل ويكفّرون من أنكرها ويفسّدون من خالفها... (١) فإذا كان هذا مصير الحديث مع كونه مصدراً للعقائد والأصول فلا محالة تنجم عنه مناهج ومذاهب لا تفرق عن معتقدات اليهودية والنصرانية والمجوسية بكثير. فظهرت بينهم مذاهب التجسيم والتشبيه والرؤية والجبر وقدم كلام الله وغيره ممّا سبقهم إليه أهل الكتاب في عهودهم القديمة والحديثة. وما هذا إلا لأجل أن الأحاديث المروية صارت حجّة في مفادها ودليلاً في مضامينها على إطلاقها من دون نظر في إسنادها، أو دقة في معانيها، ومن دون عرضها على الكتاب والعقل. فإذا كان الحديث بهذا المعنى مصدراً للأصول والعقائد، فلا محالة تكون العقيدة الإسلامية أسيرة ما حدث عنه أصحاب الحديث في القرون الثلاثة الأولى، فيوجد فيها ما أوعزنا إليه من مسألة التجسيم وأخواتها. إن التجسيم والتشبيه والجبر وخلق الأعمال، التي ابتلى بها المسلمون في القرون الأولى، وبقيت آثارها إلى العصور الأخيرة، كلّها من نتائج غفلة عدّة من المحدّثين وتقصيرهم في هذا المجال. فرووا مناكير الروايات، واغترتوا بها، وبالتالي تورطوا في جهالات متراكمة، وظلمات متكاثفة، نأتى بأسماء عدّة من هؤلاء وآثارهم الباقية، وإلا فالمحدّثون المشبهون أكثر من هؤلاء بكثير، إلا أن الدهر أكل على آثارهم وشرب: ١. عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمي الدارمي السجستاني، صاحب المسند، ولد قبل المائتين بيسير، وتوفى عام ٢٨٠هـ له كتاب

١. من كلام السيد رشيد رضا تلميذ الإمام عبده، لاحظ الأضواء: ص ٢٣. (١٣١)

«النقض»، يقول فيه: «اتفق المسلمون على أن الله تعالى فوق عرشه و سماواته». ولما كان الذهبي، شديد الميل إلى الحنابلة، كثير الازدراء بأهل التنزيه، أخذته العصبية فحاول إصلاح عبارته، فقال: أوضح شيء في هذا الباب قول الله عز وجل: (الرّحمن على العرش استوى) (١) فليتمّر كما جاء، كما هو معلوم من مذهب السلف، وينهى الشخص عن المراقبة والجدال وتأويلات المعتزلة. (٢) يلاحظ عليه: أن كتاب الله ليس كتاب لغز، بل هو كتاب هداية، فما معنى إثبات شيء لله تعالى وإمراره عليه، من دون التعرف على مفهومه

ومعناه، وما أحسن قول تلميذه تاج الدين عبد الوهاب السبكي (٧٢٨-٧٧٨هـ) في طبقات الشافعية الكبرى في حقه: «إنّ الذهبي غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه، حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات، فإذا ترجم لواحد من أهل الإثبات، يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن ويبالغ في حقه، ويتغافل عن غلطاته، ويتأول له ما أمكن زوأمًا إذا ترجم أحداً من الطرف الآخر، كما قام الحرمين، والغزالي ونحوهما، لا يبالغ في وصفه، ويكثر في قول من طعن فيه، ويعيد ذلك، ويبيده، ويعتقده ديناً، وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطافحة، فلا يستوعبها، فإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها، وكذلك فعله في أهل عصرنا، إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول في ترجمته: «والله يصلحه»، وسببه المخالفة في العقائد. (٣) ٢. خشيش بن أصرم، مصنف كتاب «الاستقامة» يعزفه الذهبي بأنه يرد فيه على أهل البدع (٤)، ويريد منه أهل التنزيه الذين لا يثبتون لله سبحانه

١. طه: ٥.

٢. سير أعلام النبلاء: ١٣/٣٢٥.

٣. طبقات الشافعية الكبرى: ٢/١٣.

٤. تذكرة الحفاظ: ٢/٥٥١. (١٣٢)

خصائص الموجود الإمكانى، ويتزهونه عن الجسم والجسمانيات. توفى في شهر رمضان سنة ٢٥٣هـ (١) ٣. أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريث السجستاني السجزي. نقل الذهبي في «ميزان الاعتدال» عن السلمى قال: سألت الدارقطنى عن الأزهرى، فقال هو أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريث، سجستاني، منكر الحديث، لكن بلغنى أنّ ابن خزيمة حسن الرأى فيه وكفى بهذا فخراً. (٢) توفى سنة ٣١٢هـ (٣) يلاحظ عليه: أنّه كفى بهذا ضعفاً، لأنّ ابن خزيمة هذا رئيس المجسمه والمشبهه، ومنه يعلم حال السجستاني، والجنس إلى الجنس يميل ٤. محمد بن إسحاق بن خزيمة. ولد عام ٣١١هـ وقد ألف «التوحيد وإثبات صفات الرب»، وكتابه هذا مصدر المشبهه والمجسمه في العصور الأخيرة. وقد اهتمت به الحنابلة، وخصوصاً الوهابية، فقاموا بنشره على نطاق واسع. وسيوافيك بعض أحاديثه. ٥. عبد الله بن أحمد بن حنبل، (ولد عام ٢١٣، وتوفى عام ٢٩٠، يروى أحاديث أبيه (الإمام أحمد بن حنبل). وكتابه «السنة» المطبوع لأول مرة بالمطبعة السلفية ومكتبتها عام ١٣٤٩هـ مشحون بروايات التجسيم والتشبيه، يروى فيه ضحك الرب، وتكلمه، وأصبعه، ويده، ورجله، وذراعيه، وصدرة، وغير ذلك ممّا سيمر عليك بعضه. وهذه الكتب الحديثية الطافحة بالإسرائيليات والمسيحيات جرّت الويل على الأمة وخذع بها المغفلون من الحنابلة والحشوية وهم يظنون أنّهم يحسنون صنعاً.

١. سير أعلام النبلاء: ٢/٢٥٠-٢٥١.

٢. ميزان الاعتدال: ١/١٣٢.

٣. سير أعلام النبلاء: ١٤/٣٩٦. (١٣٣)

ولأجل أن يقف القارئ على بعض ما فى هذه الكتب من الأحاديث المزورة التى تخالف الذكر الحكيم وتناقض العقل والفطرة، نأتى بنماذج مما ورد فى الكتابين التاليين: ١. «السنة» لأحمد بن حنبل الذى رواه عنه ابنه عبد الله. ٢. التوحيد لابن خزيمة. وهؤلاء وإن كانوا يتلون قوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولكنهم يروون أحاديث تثبت للرب سبحانه آلاف الأمثال والأشباه. نعم، يقول ابن خزيمة: إنّنا ثبت لله ما أثبتته الله لنفسه ونقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد المخلوقين، وعز ربنا عن أن نشبهه بالمخلوقين. (١) لكن هذه العبارة اتخذها واجهه لتبرير نقل الروايات الصريحة فى التجسيم والجهه، ولا- تتحمل تلك الروايات هذا التأويل الذى لهج به ابن خزيمة وأبناء جلدته. وهذا كتاب السنة لإمام الحنابلة وقد رواه عنه ابنه تجد فيه أحاديث تعرب عن أنّ لله سبحانه ضحكاً وأصبعاً ويدا وذراعين ووجهاً، التى يتبادر منها البدع اليهودية والمسيحية. وما نذكره هنا إنّما هو نماذج ممّا ورد فى الكتابين المذكورين، والسابر فيهما يجد أضعاف أمثاله، وأكثر هذه الأحاديث قد أخرجت فى الصحاح والسنن. إنّ كتاب

«التوحيد» لابن خزيمة قد وقع مورد القبول عند أهل الحديث والحنابلة، كيف، وقد جمع الأحاديث من هنا وهناك وحشاها في كتابه من غير فحص ولا تنقيب، وهذه كانت المنية الكبرى للحنابلة في تلك العصور. ولأجل ذلك صار الكتاب يقرأ على العلماء والفضلاء حتى يتخذوه ميزاناً لتمييز الحق عن الباطل، ولا يتخلف أحد عن الاعتراف بما جاء فيه. _____

١ . التوحيد لابن خزيمة: ١١. (١٣٤)

قال ابن كثير في حوادث سنة ٤٦٠هـ وفي يوم النصف من جمادى الآخرة قرأ «الاعتقاد القادري» الذي فيه مذهب أهل السنة والإنكار على أهل البدع. وقرأ أبو مسلم الكجي البخاري المحدث كتاب «التوحيد» لابن خزيمة على الجماعة الحاضرين، وذكر بمحضر من الوزير ابن جهير وجماعة الفقهاء وأهل الكلام، واعترفوا بالموافقة. (١) هذا، وبمرور الزمن وعلى أثر تفتح العقول أفلت شمس كتاب التوحيد وشطب المفكرون من الأشاعرة على ما فيه. يقول الرازي في هذا الصدد عند تفسير قوله سبحانه (ليس كمثله شيء): «واعلم أنّ محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بـ«التوحيد» وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها. وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات، لأنه كان رجلاً مضطرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل. (٢) هذا، ولو أنّ الرازي وقف على ما في تعاليم الأشاعرة من الجبر الملتوى في مقابل الجبر الصريح كما سيبين، والتجسيم والتشبيه الخفيين، لما اتخذ المذهب الأشعري - الذي هو أحد وجهي العملة والوجه الآخر هو عقيدة أهل الحديث - لنفسه شعاراً، ولما حماهم بحماس. يقول الدكتور أحمد أمين: وفي رأبي لو سادت تعاليم المعتزلة إلى اليوم لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي وقد أعجزهم التسليم وشلّهم الجبر، وقعد بهم التواكل. (٣) والصحيح أن يقال: لو سادتهم الحرية في البحث والاستماع واتباع الأحسن لكان موقفهم غير هذا. _____

١ . البداية والنهاية: ١٢/٩٦.

٢ . تفسير الإمام الرازي: ٢٧/١٥٠.

٣ . ضحى الإسلام: ٣/٧٠. (١٣٥) في أنّ الله يضحك

١. روى ابن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن يعلى ابن عطاء، عن وكيع بن حدس، عن عمه أبي رزين قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره قال: قلت: يا رسول الله أو يضحك الرب؟ قال: نعم. قلت: لن نعدم من ربّ يضحك خيراً. (١) رواه ابن خزيمة لكن بدل قوله نعم، قال: إى والذى نفسى بيده إنه ليضحك. (٢) ٢. روى عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن إسماعيل بن أبي معمر، حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : ضحك ربنا من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثم يصيران إلى الجنة. (٣) ورواه ابن خزيمة بأسانيد مختلفة. (٤) ٣. وجاء في خبر طويل رواه عن إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة الحرائى أبو أحمد قال: أملاه علينا إملاء في دار كعب: قال حدثني محمد بن سلمة، عن أبي عبد الرحمن خالد بن أبي يزيد، حدثني زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله، عن مسروق بن الأجدع، حدثنا عبد الله بن مسعود، عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: ... فيقول الله له - أى لمن أدخله الجنة ثم لم يزل يطلب منزلة أرفع من أخرى - : لن ترضى أن أعطيك مثل الدنيا مذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيها وعشرة أضعافها؟ فيقول: أنتهزئ بى وأنت رب العالمين؟! _____

١ . السنة لعبد الله بن حنبل: ٥٤.

٢ . التوحيد وإثبات صفات الرب: ٢٣٥.

٣ . السنة: ١٦٦.

٤ . التوحيد: ٢٣٤. (١٣٦)

قال: فضحك الرب من قوله. قال: فرأيت ابن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحكك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن قد

سمعتك تحدت هذا الحديث مراراً كلما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت. فقال ابن مسعود: إني سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يحدث بهذا الحديث مراراً، كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو آخر أضراسه. الحديث. (١) ورواه ابن خزيمة عن ابن مسعود (٢) وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي. ٤. وروى ابن خزيمة بأسانيد متعددة عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «يتجلى لنا ربنا عز وجل يوم القيامة ضاحكاً». (٣) قال ابن خزيمة في «باب ذكر إثبات ضحك ربنا عز وجل»: بلا صفة تصف ضحكه - جل ثناؤه - لا ولا يشبه ضحكه بضحك المخلوقين وضحكهم كذلك. بل تؤمن بأنه يضحك كما أعلم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونسكت عن صفة ضحكه جلّ وعلا، إذ الله عز وجل استأثر بصفه ضحكه لم يطلعنا على ذلك، فنحن قائلون بما قال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مصدقون بذلك بقلوبنا، منصتون عما لم يبين لنا، مما استأثر الله تعالى بعلمه. (٤) وقد عرفت ما في تأويله من الوهن وأن هذه الأحاديث لو صحت لوجب حملها على ظواهرها من الضحك الملازم لبدو الأسنان والفم، والقول بأنه يضحك ولا نعلم حقيقته، تأويل سخيف، بل الأمر دائر بين القبول تماماً أو الرد كذلك.

١ . السنة: ٢٠٦-٢٠٨.

٢ . التوحيد: ٢٣١.

٣ . التوحيد: ٢٣٦.

٤ . التوحيد: ٢٣٠-٢٣١ . (١٣٧) في أن لله يداً

١. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قرأت على أبي إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثني أبي، عن عكرمة قال: إن الله لم يمسه بيده شيئاً إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس الجنة بيده، وكتب التوراة بيده. (١) ٢. وقال: قرأت على أبي، حدثنا إسحاق بن سليمان، حدثنا أبو الجنيد - شيخ كان عندنا - عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير: أنهم يقولون إن الألواح من ياقوته لا أدري قال حمراء أو لا؟ وأنا أقول: سعيد بن جبير يقول: إنها كانت من زمردة وكتابتها الذهب، وكتبها الرحمن بيده، ويسمع أهل السماوات صرير القلم. (٢) ٣. وقال: حدثني أبي، حدثنا يزيد بن هارون، أنا الجرير، عن أبي عطف قال: كتب الله التوراة لموسى بيده وهو مسند ظهره إلى الصخرة في الألواح من در، يسمع صرير القلم، ليس بينه وبينه إلا الحجاب. (٣) ٤. وقد أفرد ابن خزيمة لإثبات اليد لله صفحات كثيرة ومما رواه عن أبي هريرة، عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: لَمَّا خلق الله الخلق كتب كتاباً وجعله تحت العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. (٤) ٥. ومنها عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «إن الله يفتح أبواب السماء في ثلث الليل فيسقط يديه فيقول: ألا عبد يسألني فأعطه». (٥) ٦. ومنها: عن أبي هريرة، عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الله

١ . السنة: ٢٠٩.

٢ . السنة: ٧٦.

٣ . السنة: ٧٦.

٤ . التوحيد: ٥٨.

٥ . التوحيد: ٥٨، وروى ابن خزيمة أحاديث كثيرة جداً في نزول الله إلى السماء الدنيا كل ليلة: ١٢٥-١٣٦ ووصفها بأنها أخبار ثابتة السند صحيحة القوام. (١٣٨)

بيمينه، وإن كانت مثل تمر، فتربو له من كف الرحمن». الحديث. (١) في أن لله عينين

استدل ابن خزيمة بما ورد من أن الله بصير، على أن له عينين، قال: نحن نقول: لربنا الخالق عيان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت الأرض السابعة السفلى وما في السماوات العلى وما بينهما من صغير وكبير... إلى أن قال: كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه. وبنو آدم وإن كانت لهم عيون يبصرون بها فإنهم إنما يرون ما قرب من أبصارهم مما لا حجب ولا ستر بين المرئي وبين أبصارهم... واستطراد

في ذكر نواقص عيون بني آدم ثم قال: فما الذي يشبه - يا ذوى الحجا - عين الله الموصوفة بما ذكرنا، عيون بني آدم التي وصفناها بعد. (٢) في أن لله أصبعاً

١. روى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: حدثنا يحيى بن سعيد بحديث سفيان، عن الأعمش ومنصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله، عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إن الله يمسك السماوات على أصبع. قال أبي: وجعل يحيى يشير بأصابعه، وأراني كيف جعل يحيى يشير بأصابعه يضع أصبعاً أصبعاً حتى أتى على آخرها. (٣) ٢. أما حديث سفيان المشار إليه فهو ما رواه بإسناده عن عبد الله: أن يهودياً أتى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والثرى على أصبع والجبال على أصبع والخلائق على أصبع ثم يقول: أنا الملك. فضحك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حتى بدت نواجذه. ثم قال: «وما قدروا الله حق قدره». _____

١. التوحيد: ٦١.

٢. التوحيد: ٥٠-٥١.

٣. السنة: ٦٣. (١٣٩)

ثم أضاف عبد الله بن أحمد: قال أبي، قال يحيى، قال فضيل بن عياض، فضحك رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تعجباً وتصديقاً له. وروى هذا الخبر وما في معناه بأسانيد مختلفة عن ابن مسعود تارة، وعن ابن عباس أخرى. (١) ٣. وقال حدثني أحمد بن إبراهيم سمعت وكيعاً يقول: نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا، ولا لم كذا، يعنى مثل حديث ابن مسعود «إن الله يحمل السماوات على أصبع والجبال على أصبع وحديث أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن» ونحوها من الأحاديث. (٢) وأورد أخباراً مفادها أن الله تعالى حيث تجلّى للجبل فجعله دكاً إنما تجلّى بأصبعه، ضربه على رأس الجبل فاندك. ٤. منها: حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا هريم، حدثنا محمد بن سواء، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «فلما تجلّى ربّه للجبل» قال هكذا، وأشار بطرف الخنصر يحكيه. (٣) ٥. ومنها ما ذكره ابن خزيمة قال: حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد، قال حدثنا حماد بن سلمة، قال: حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لما تجلّى ربّه للجبل» رفع خنصره وقبض على مفصل منها، فانساخ الجبل، فقال له حميد: أتحدث بهذا؟! فقال: حدثنا أنس عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتقول: لا تحدث به؟ (٤) _____

١. السنة: ٦٢-٦٤.

٢. السنة: ٦٤.

٣. السنة: ٦٥.

٤. التوحيد: ١١٣. (١٤٠) في أن لله كلاماً وصوتاً

١. قال عبد الله بن أحمد، حدثني أبو معمر، حدثنا جرير، عن الأعمش، قال: وحدثنا ابن نمير وأبو معاوية كلهم عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبد الله قال: إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء صلصلة كصلصلة الحديد على الصفا. (١) وأخرج ابن خزيمة أخباراً كثيرة في ذلك. (٢) في أن لله ذراعين وصدراً

١. قال عبد الله بن أحمد، حدثني سريج بن يونس، حدثنا سليمان بن حيان أبو خالد الأحمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: ليس شيء أكثر من الملائكة، إن الله خلق الملائكة من نور، فذكره وأشار سريج بيده إلى صدره، قال: وأشار خالد إلى صدره فيقول: كن ألف ألف ألفين فيكونون. (٣) ٢. وقال: حدثني أبي، حدثنا أبو أسامة حماد بن أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: خلقت الملائكة من نور الذراعين والصدر. (٤) ٣. وقال: حدثني أبو خيثمة زهر بن حرب، حدثنا عبيد الله بن موسى، حدثنا شيبان، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: إن غلظ جلد الكافر اثنان

وسبعون ذراعاً بذراع الجبار وخرسه مثل ذلك. (٥) _____

١ . السنة: ٧١.

٢ . التوحيد: ١٤٥-١٤٧.

٣ . السنة: ١٩٠.

٤ . السنة: ١٩٠.

٥ . السنة: ١٩٠. (١٤١) في أن لله نفساً

١. قال عبد الله بن أحمد، حدّثني أبو معمر، حدّثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن زر، عن سعيد بن عبد الرحمن بن بزى، عن أبيه، عن أبي بن كعب قال: لا تسبوا الريح فإنّها من نفس الرحمن. (١) في أن لله رجلاً

١. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدّثني عبيد الله بن عمر القواريري، حدّثني حرمي بن عماره، حدّثنا شعبه، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه أو رجله عليها فتقول قط قط». (٢) وبهذا فسروا آية (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ). (٣) وأخرج ابن خزيمة نحوه، عن أبي هريرة. (٤) (٢) وروى ابن خزيمة، عن أبي هريرة، عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله رجله فيها فتقول قط قط، فهنالك تمتلئ». الحديث. وهو حديث اختصاص الجنة والنار، وأشار إلى أنه مستفيض (٥) والأخبار في وضع الله رجله في النار كثيرة جداً. ٣. روى عبد الله بن أحمد في حديث طويل تقدّمت الإشارة إليه في مسألة الضحك، عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال:

«يتمثل الرب _____

١ . السنة: ١٩٠.

٢ . السنة: ١٨٤.

٣ . ص: ١٦.

٤ . التوحيد: ٩٢.

٥ . التوحيد: ٩٣-٩٥. (١٤٢)

فيأتيهم، فيقول لهم ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا إلهاً (ما رأيناها) فيقول: وهل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه، فيقول: ما هي؟ فيقولون: يكشف عن ساقه، قال: فعند ذاك يكشف الله عن ساقه. قال: فيخر كل من كان نظره، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يدعون إلى السجود فلا يستطيعون وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون». (١) وأما موضع الرجلين فقد استفاضت الأخبار في أنه على الكرسي. ٤. فمن ذلك ما رواه عبد الله بن أحمد، بإسناده عن عمر قال: إذا جلس على الكرسي سمع له أطيظ (٢) كأطيظ الرجل الجديد. (٣) ٥. وإسناده إلى ابن عباس قال: الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يقدر أحد قدره. (٤) ٦. وقال: كتب إلى عباس بن عبد العظيم، حدّثنا أبو أحمد الزبيرى، حدّثنا إسرائيل، عن ابن إسحاق، عن عبد الله بن خليفة قال: جاءت امرأة إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: فعظم الرب وقال وسع كرسيه السماوات والأرض. إنّه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قيد أربع أصابع، وإنّ له أطيظاً كأطيظ الرجل إذ ركب. (٥) ورواه ابن خزيمة بزيادة «من ثقله» في آخره. (٦) وقال المعلق في ذلك الحديث: «مسألة أطيظ العرش به سبحانه كأطيظ الرجل وردت في عدة أحاديث، فمن العلماء من ينكر ذلك ويقول: إن الأطيظ صفة للعرش لا مدخل له في الصفات، كالحافظ الذهبي والحق الذي يجب اتّباعه في

ذلك أن تؤمن بما _____

١ . السنة: ٢٠٦.

٢ . أي ليصوت بالله كصوت الرجل - وهو كور الناقه - بالراكب الثقيل.

٣ . السنّة: ٧٩.

٤ . السنّة: ٧٩.

٥ . السنّة: ٨٠.

٦ . التوحيد: ١٠٦. (١٤٣)

ورد به النص من غير تشبيه ولا- تكييف، وأن نعتقد أنّ ربنا ليس محمولاً على العرش ولا محتاجاً إليه بل العرش وما تحته كلّه محمول بقدرته. (١) وذكر في الكتابين أنّ العرش حملته أربعة ملائكة أحدهم على صورة إنسان والثاني على صورة ثور، والثالث على صورة نسر، والرابع على صورة أسد. (٢) وعلّق عليه في الحاشية بأنّ هذا لم يرد في حديث صحيح، ولعلّ الراوي أخذه من كعب الأخبار أو غيره من مسلمة أهل الكتاب. (٣) ومع ذلك ورد في الكتابين وأخرجه ابن حنبل في مسنده (٤) بالإسناد إلى عكرمة مولى ابن عباس: أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنشد قول أمية بن أبي الصلت الثقفي: رجل وثور تحت رجل يمينه * والنسر للأخرى وليث مرصد (٥) ورواه في كتاب السنّة (٦) بزيادة: فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : صدق صدق. في أنّ لله وجهاً

١. روى عبد الله بن أحمد: حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن سعيد، حدّثنا ابن عجلان، حدّثني سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : _____

١ . التوحيد: ١٠٦، لاحظ التناقض في كلامه، ولاحظ أنّ الأخبار تارة فصلت بين العرش والكرسي فجعلته جالساً على العرش واضعاً قدميه على الكرسي، وأخرى جعلت جلوسه على الكرسي.

٢ . السنّة: ١٦١، التوحيد: ٩٢.

٣ . التوحيد: ٩٢.

٤ . مسند أحمد: ١/٢٥٦.

٥ . التوحيد: ٩٠ مع أبيات أخر. قالوا: إنّ أمية تنصّر في الجاهلية هو وورقه بن نوفل وكان ينشد الأشعار في تمجيد الله، ونسبوا إلى الرسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنّه قال في حقّه: آمن شعره وكفر قلبه.

٦ . السنّة: ١٨٧. (١٤٤)

إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه، ولا- يقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإنّ الله خلق آدم على صورته. (١) ٢. وقال حدّثني أبو معمر، حدّثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لا تقبحوا الوجه، فإنّ الله خلق آدم على صورة الرحمن». (٢) ٣. نقل ابن خزيمة أخباراً كثيرة في ذلك (٣)، ثمّ قال: هذا باب طويل لو استخرج في هذا الكتاب أخبار النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي فيها ذكر وجه ربنا عزّ وجلّ لطلال الكتاب، وقد خرجنا كلّ صنف من هذه الأخبار في مواضعها في كتب مصنفة (٤) ثمّ استطرد في كلام طويل محاولاً من جهة إثبات ما تقدّم لله تعالى ومن جهة أخرى نفى التشبيه. (٥) في أنّ الله يُرى

لقد تضافرت الأخبار في الكتابين على أنّ الله يُرى يوم القيامة كالبدر المنير. وأنّه تعالى لا يُرى في الدنيا، غير أنّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رآه عندما عرج به إلى السماء (٦)، ونحن نكتفي بهذين الخبرين. ١. روى ابن خزيمة، عن معاذ بن هشام، قال: حدّثني أبي، عن قتادة، عن أبي قلابه، عن خالد بن اللجلاج، عن عبد الله بن عباس: أنّ النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد! قلت: لبيك وسعديك، قال: فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قلت: يا _____

١ . السنّة: ١٦٩ ورواه أيضاً بسند آخر في ص ٦٤.

٢ . السنّة: ٦٤.

٣ . التوحيد: ١٠-١٨.

٤ . التوحيد: ١٨.

٥ . التوحيد: ٢١-٢٤.

٦ . راجع التوحيد: ١٦٧-٢٣٠. (١٤٥)

رب لا أدري. قال: فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب». الحديث (١). وقد رواه بأسانيد وطرق مختلفة. ٢. وقال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلْمَةُ بْنُ الْفَضْلِ، قَالَ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَرِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلْمَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ بَعَثَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - رَبَّهُ؟ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَنْ نَعَمْ. فَرَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو رَسُولَهُ أَنْ كَيْفَ رَأَاهُ؟ قَالَ: فَأَرْسَلَ أَنَّهُ رَأَاهُ فِي رَوْضَةِ خَضْرَاءَ دُونَهُ فَرَأَاهُ مِنْ ذَهَبٍ عَلَى كُرْسِيِّ مِنْ ذَهَبٍ يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: مَلِكٌ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، وَمَلِكٌ فِي صُورَةِ ثَوْرٍ، وَمَلِكٌ فِي صُورَةِ نَسْرٍ، وَمَلِكٌ فِي صُورَةِ أَسَدٍ. (٢) وَنَخْتَمُ الْمَقَالَ بِمَا ذَكَرَهُ ابْنُ خَزِيمَةَ قَالَ: إِنَّا لَا نَصِفُ مَعْبُودَنَا إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، إِمَّا فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِنَقْلِ الْعَدْلِ مَوْصُولًا إِلَيْهِ، لَا نَحْتَجُّ بِالْمَرَايِلِ وَلَا بِالْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ وَلَا نَحْتَجُّ أَيْضًا فِي صِفَاتِ مَعْبُودِنَا بِالْأَرَاءِ وَالْمَقَائِيسِ. (٣) فِي الْجَبْرِ وَالْقَدْرِ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ أَبِيهِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، فِي كِتَابِ «السُّنَّةِ» الرَّوَايَاتِ التَّالِيَةَ: ١. رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ يَحْيَى الدَّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ صَيْحِ الْمَرِيِّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ أُمَّ الدَّرْدَاءِ تَحَدَّثُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «فَرَّغَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ مِنْ خَمْسٍ: مِنْ أَجَلِهِ وَرِزْقِهِ وَأَثَرِهِ،

١ . التوحيد: ٢١٧.

٢ . التوحيد: ١٩٨.

٣ . التوحيد: ٥٩. (١٤٦)

وشقى أم سعيد». (١) ٢. حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا هَشِيمٌ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ زَيْدٍ، سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحَدِّثُ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ النُّظْفَةَ تَكُونُ فِي الرَّحْمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى حَالِهَا لَا تَغْيِرُ، فَإِذَا مَضَتْ الْأَرْبَعُونَ صَارَ عِلْقَةً وَمَضْغَةً كَذَلِكَ، ثُمَّ عِظَامًا كَذَلِكَ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسْوِيَ خَلْقَهُ بَعَثَ إِلَيْهَا مَلَكًا يَقُولُ الْمَلِكُ الَّذِي يَلِيهِ: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى؟، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ قَصِيرٌ أَمْ طَوِيلٌ؟ أُنَاقِصٌ أَمْ زَائِدٌ، قُوَّتُهُ وَأَجَلُهُ؟، أَصَحِيحٌ أَمْ سَقِيمٌ؟، قَالَ: فَيَكْتُبُ ذَلِكَ كُلَّهُ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: فِيمَ الْعَمَلُ إِذَا وَقَدَ فَرَّغَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ؟ فَقَالَ: اعْمَلُوا فَكُلَّ سَيُؤْخَذُ لِمَا خَلَقَ لَهُ». (٢) ٣. حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا بَهْزُ بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ الْمَفْضَلِ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، عَنْ أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: طَلَبْتُ عَلِيًّا فِي مَنْزِلِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ خَوْفُهُ قَالَ: فَقَالَ: إِيَّاهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَمَعَهُ مَلِكٌ يَدْفَعُ عَنْهُ مَا لَمْ يَنْزِلِ الْقَدْرُ فَإِذَا نَزَلَ الْقَدْرُ لَمْ يَغْنُ شَيْئًا. (٣) ٤. حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا مَعَاذُ بْنُ مَعَاذٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ، قَالَ: حَدَّثَ رَجُلٌ مُحَمَّدًا عَنْ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا فِي الْقَدْرِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَرَأَيْتَ الزَّنَى بِقَدْرِ هُوَ؟ قَالَ الْآخَرُ: نَعَمْ، قَالَ مُحَمَّدٌ: آيُّ وَاقِفٍ رَجُلٌ حَيًّا. (٤) ٥. حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ الْمَخْزُومِيُّ، حَدَّثَنَا شَبْلُ بْنُ عَبَّادٍ - مَوْلَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ -، عَنْ ابْنِ نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلَ اللَّهِ: (إِنِّي

١ . السُّنَّةُ: ١٢٥.

٢ . السُّنَّةُ: ١٢٦.

٣ . السُّنَّةُ: ١٣٢.

٤ . السُّنَّةُ: ١٣٤-١٣٥. (١٤٧) (أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١) قَالَ: عَلِمَ مِنْ إِبْلِيسَ الْمَعْصِيَةَ وَخَلَقَهُ لَهَا. (٢)

٦. حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَصَامُ بْنُ خَالِدِ الْحَضْرَمِيُّ، حَدَّثَنَا الْعَطَافُ بْنُ خُلْدٍ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، حَدَّثَنِي طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ

الرحمن بن أبي بكر الصديق، حدّثني أبي، عن جدّي أنّه قال لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : يا رسول الله: العمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف؟ قال: بل على أمر قد فرغ منه. قال: قلت: يا رسول الله فقيم العمل؟ قال: «إِنْ كَلَّا ميسر لما خلق له». (٣) ٧. حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس في قوله تعالى: (يَمْخُجُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّتُ) (٤) قال: إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت. (٥) ٨. حدّثني أبي، حدّثنا إسحاق بن عيسى، أخبرني مالك، عن زياد بن سعد، عن عمرو بن مسلم، عن طاووس اليماني، قال: «أدركت ناساً من أصحاب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يقولون كلّ شيء بقدر، قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «كلّ شيء بقدر حتى العجز والكيس». (٦) ٩. حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن سعيد بن حيّان، عن يحيى بن يعمر، قال: «قلت لابن عمر: إنّ ناساً عندنا يقولون: الخير والشر بقدر، وناس عندنا يقولون: الخير بقدر والشر ليس بقدر. فقال ابن عمر: إذا رجعت إليهم فقل لهم: إنّ ابن عمر يقول إنّ منكم برىء وأنتم منه براء». (٧) _____

١ . البقرة: ٣٠.

٢ . السنة: ١٣٤-١٣٥.

٣ . السنة: ١٣٤-١٣٥.

٤ . الرعد: ٣٩.

٥ . السنة: ١٣٤-١٣٥.

٦ . السنة: ١٣٩.

٧ . السنة: ١٤١. (١٤٨)

١٠. حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدّثنا سفيان، عن عمرو ابن محمد، قال: كنت عند سالم بن عبد الله فجاءه رجل فقال: الزنى بقدر؟ فقال: نعم. قال: كتبه على؟! قال: نعم، قال: كتبه على؟ قال: نعم. ويعذبنى عليه؟ قال: فأخذ له الحصى. (١) ١١. حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة: أما بعد، فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان كان من الخطايا التي قدر الله عليك، وقد أن تبلى بها. (٢) ١٢. حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا العلاء بن عبد الكريم سمعت مجاهداً يقول: (لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) قال: أعمال لا بدّ لهم من أن يعملوها. (٣) ١٣. حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، وابن بشر قالوا: حدّثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَرِيئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (٤) وأنا قدرتها عليك. (٥) ١٤. حدّثني أبي، حدّثنا عبد الصمد، حدّثنا حماد، حدّثنا حميد، قال قدم الحسن مكة، فقال لي فقهاء مكة: الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد لو كلمت الحسن فأخلاقاً يوماً، فكلمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً، قال: نعم ونعمه عين، فواعدهم يوماً فجاءوا واجتمعوا وتكلّم الحسن وما رأيت قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم، فسألوه عن صحيفه طويله فلم يخطئ فيها شيئاً إلا في مسألة. فقال له رجل: يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال: سبحانه الله، سبحانه الله، وهل من خالق غير الله! ثم قال: إنّ الله خلق الشيطان وخلق الشر وخلق الخير، فقال _____

١ . السنة: ١٤٣.

٢ . السنة: ١٤٣-١٤٤.

٣ . السنة: ١٤٣-١٤٤.

٤ . النساء: ٧٩.

٥ . السنة: ١٤٤. (١٤٩)

رجل منهم: قاتلهم الله يكذبون على الشيخ. (١) ١٥. حدّثني أبي، حدّثنا إسماعيل - يعني ابن عليه - ، حدّثنا خالد الحذاء قال: قلت

للحسن: أرأيت آدم، أألجنة خلق أم للأرض؟ قال: للأرض. قال: قلت: أرأيت لو اعتصم؟ قال: لم يكن بدمن أن يأتي على الخطيئة. (٢) التدرج باللا كيفية

إن دلالة الأحاديث المتقدمة على التشبيه والتجسيم ممّا لا كلام فيه غير أنّ جماعة منهم - لأجل الفرار عنهما - يتدرون بلفظة «بلا كيف ولا تشبيه» أو غيرهما من العبارات المشابهة. فيقولون تارة: إن لله يداً ورجلاً ووجهاً وقدماً بلا كيف ولا تشبيه، وأخرى: إن لله يداً لا - كالأيدي، ووجهاً لا - كالوجه، وقدماً لا - كالأقدام، وثالثة: إن له يداً تناسب ذاته وهكذا سائر الأعضاء. يقول الإمام الخطابي: وليست اليد عندنا الجارحة وإنما هي صفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاء ولا نكيفها وهذا مذهب أهل السنة والجماعة. (٣) ويقول ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بهذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة ولم يكيفوا شيئاً فيها. (٤) إلى غير ذلك من الكلمات التي اتخذتها الأشاعرة وقبلهم بعض الحنابلة درعاً يتقون به عار التشبيه والتمثيل. وسيافاً عند البحث عن عقائد الأشاعرة أنّ هذه الألفاظ لا تفيد شيئاً، وإليك إجمال ذلك: _____

١. السنة: ١٤٤.

٢. السنة: ١٤٥.

٣. فتح الباري: ١٣/٤١٧.

٤. فتح الباري: ١٣/٤٠٧. (١٥٠)

أولاً: إذا كان المصدر للاعتقاد بأنّ لله سبحانه أعضاء هي هذه الأحاديث - أو بعض الآيات على ما زعموا - فليس فيها شيء يدل على هذه الكلمة: «بلا- كيف»، بل هي إضافة منهم بلا دليل. فليس لأهل الحديث الذين يفرون من التأويل، وحتى يسمون الحمل على المجاز والكنائية تأويلاً، إلاّ الأخذ بحرفية هذه الأحاديث بتمامها، لا التصرف فيها. وثانياً: إنّ اليد وأضرابها، موضوعه حسب اللغة للأعضاء المحسوسة التي يعرفها كلّ من عرف اللغة، فإجراء هذه الصفات عليه سبحانه يمكن بإحدى صورتين: ١. أن يجري عليه بما هو المتبادر عند أهل اللغة بلا تصرف فيه. وهذا ما عليه المشبه والمجسم. ٢. أن يجري عليه بما أنّها كناية عن معان كالبخل في قول اليهود (يُدُّ اللَّهُ مَغْلُوبَةً) (١) والإحسان والوجود في قوله سبحانه: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) (٢) وهذا ما عليه أهل التنزيه، وليس ذلك تأويلاً للقرآن أبداً ولا - أتباعاً لخلاف الظاهر، إذ لهذه الألفاظ عند الإفراء ظهور تصوّري ويراد منها الأعضاء، وعند التركيب مع سائرهما والوقوف في طي الجمل ظهور آخر، فربما يتحد الظهوران، مثل قولك لولدك: اغسل يدك قبل الغداء. وربما يختلفان كما في الجملتين المتقدمتين، وليس هنا وجه ثالث حتى يتدرج به أهل الحديث والحنابلة، دعاء التنزيه لفظاً لا معنى. وما يتفوّه به هؤلاء من أنّ لله يداً لا - كالأيدي، فإن رجع إلى أحد هذين المعنيين فنعم الوفاق إمّا مع أهل التشبيه أو مع أهل التنزيه، وإلاّ فيكون أشبه بقلقة اللسان. وباختصار: إنّ القائل بأنّ له يداً لا يخلو في إجراء اللفظ عليه سبحانه أن يريد أحد وجهين: إمّا أن يريد المعنى الحقيقي وهو العضو المحسوس فيكون مجسماً ومشبهاً، أو يريد المعنى المجازي وهو البخل أو الجود فيكون مؤولاً، وهو _____

١. المائدة: ٦٤.

٢. المائدة: ٦٤. (١٥١)

يتحرز عن كلتا الطائفتين، فليس هنا وجه ثالث يلتجئ إليه أهل الحديث والحنابلة والأشاعرة. فظهر أنّ قولهم بأنّ لله يداً كالأيدي، لا مفاد صحيح له. وبعبارة ثالثة: إنّ لفظة اليد إمّا مشترك معنوي يطلق على جميع مصاديقه وأفراده من الواجب والممكن بوضع ومعنى واحد. أو مشترك لفظي يجري على كلّ من الواجب والممكن بمعنى ووضع خاص. فعلى الأوّل يجب أن يكون بين يد الإنسان ويد الواجب وجه مشترك وهو عين القول بالتشبيه. وعلى الثاني يجب أن يكون المعنى الذي يجري على الإنسان مباناً لما يجري على الله سبحانه فهل هو البخل والوجود؟ فهذا هو التأويل بزعمكم، أو غيرهما فينبه لنا ما هو؟ الصحاح والمسانيد ومسألة التشبيه والتجسيم ربما يتصوّر القارئ أنّ أمثال كتاب «السنة» لابن حنبل وكتاب «التوحيد» لابن خزيمة، تشتمل على أحاديث التشبيه والتجسيم، وأمّا

الصحاح فهي خالية عن هذه الأساطير. ولكنه إذا سبرها سرعان ما يرجع عن هذه الفكرة ويرى أن الصحاح كلها وعلى رأسها الصحيحان قد زخرت بها، حتى مع غض النظر عن رؤية الله بهذه العيون المادية على ما رواوا عن رسول الله من أنه قال: «إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر» فالصحاح أيضاً تزخر بأحاديث التشبيه والتجسيم والجبر وما أشبه ذلك التي ورثها الرواة المسلمون من اليهود المجسمة والمجبرة... وإليك نماذج من ذلك: ١. إنَّ لله مكاناً

قد احتل تحيَّز الله سبحانه بمكان معين في الصحاح مكانة عظيمة فتارة ترى أن مكانه حيال المصلَّى وأمام وجهه، وأخرى بأنه فوق العرش وهو يئط (١٥٢)

تحتة أطيح الرجل بالراكب، وثالثة بين السحب الكثيفة، وإليك بعض ما روى في ذلك المجال: ١. روى عبد الله بن عمر أن رسول الله رأى بصاقاً في جدار القبلة فحكه بيده ثم أقبل على الناس فقال: «إذا كان أحدكم يصلى لا يبصق قبل وجهه فإنَّ الله قبل وجهه إذا صلَّى». (١) ٢. روى جبير بن محمد عن جدّه قال: أتى رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - أعرابي فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس، وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - : ويحك أتدرى ما تقول؟ وسبح رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك إنَّه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدرى ما الله: إنَّ عرشه على سماواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبعة عليه وإنَّه ليئط به أطيح الرجل بالراكب. قال ابن بشار: إنَّ الله فوق عرشه وعرشه فوق سماواته. (٢) ٣. روى أبو رزين قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عمام، ما تحتة هواء و ما فوقه هواء و ماء ثم خلق عرشه على الماء». (٣) قال ابن منظور: العمام (ممدودة): السحاب المرتفع وقيل الكثيف. قال أبو زيد هو شبه الدخان يركب رؤوس الجبال وقال ابن سيده: العمام: الغيم الكثيف الممطر. _____

١. صحيح البخارى: ١، كتاب الصلاة باب «حك البزاق باليد في المسجد» ولاحظ أيضاً كتاب الصلاة باب «هل يلتفت لأمر ينزل» و صحيح مسلم: ٢، باب «النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة».

٢. سنن أبي داود: ٢٣٣٢/٤، رقم الحديث ٤٧٢٦، باب في الجهمية.

٣. سنن ابن ماجه: ١/٧٨، باب فيما أنكرت الجهمية. (١٥٣)

وعلى هذه الأحاديث نسجت عقيدة أهل الحديث والسلفية، وقال ابن تيمية محيي طريقتهم في القرن الثامن بعد اندراسها: إنَّه سبحانه فوق سماواته على عرشه، على خلقه. (١) إنَّ هذه الروايات ونظائرها التي اكتفينا بالقليل منها أوجدت حجاباً غليظاً أمام الحقائق، فلم يقدر أحد حتى المتحررون من أهل السنَّة كالشيخ محمد عبده وأتباع منهجه وتلامذة مدرسته على رفض تلك النصوص المخالفة للعقل الذي به عرف سبحانه وصدق نبيه وإعجاز كتابه. حتى التجأ الإمام أحمد - لأجل هذه الأحاديث - إلى تأويل الآيات الدالة على كونه سبحانه محيطاً بالعالم كله، أعنى قوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (٢) وقال: إنَّ المراد هو إحاطة علمه سبحانه لا معيته وجوداً. (٣) نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا

لم يقتنع أصحاب الحديث بما وصفوا به سبحانه من نسبة التحيز والمكان إليه حتى أثبتوا له الهبوط إلى السماء الدنيا. روى أبو هريرة أن رسول الله قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فاستجب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟». (٤) بل لم يقتنعوا بهذا وأثبتوا له الضحك. وهذا البخارى روى في حديث: فلما أصبح غدا إلى رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما. (٥) _____

١. مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، والعقيدة الواسطية ص ٤٠١.

٢. الحديد: ٤.

٣. السنَّة: ٣٦.

٤ . صحيح البخارى: ٢/٥٣ باب «الدعاء والصلاة من آخر الليل».

٥ . صحيح البخارى: ٥/٣٤ باب (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) من كتاب مناقب الأنصار. (١٥٤)

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يضحك الله لرجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة». قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «يقتل هذا فيلج الجنة ثم يتوب الله على الآخر فيهديه إلى الإسلام ثم يجاهد في سبيل الله فيستشهد». (١) له سبحانه أعضاء، كأعضاء الإنسان

وذهب أصحاب الصحاح في المجال إلى أكثر من ذلك ولم يقفوا عند ما ذكرناه من الصفات حتى أخذوا يصورونه كإنسان له أعضاء كالوجه واليد والأصابع والحقو، والساق والقدم، والقلم يخجل من نشر هذه الأساطير التي أدرجت - مع الأسف - باسم الحديث عن النبي الخاتم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في الكتب وزخرت بها الصحاح، ونسجت على منوالها العقائد والأصول، وعدت من خالفها مرتدًا كافرًا يضرب عنقه وتقسّم أمواله على الورثة. ولأجل إيقاف القارئ على صدق ما ادّعيته في حق أصحاب الصحاح نأتى من كل مورد بنموذج أو نموذجين: ١. الوجه

عن أبي هريرة، عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً...». (٢) عن أبي هريرة عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته». (٣) وقد أخذ أبو هريرة عن الأخبار وعلى رأسهم كعب الأخبار أستاذة في

١ . صحيح مسلم: ٦/٤٠، باب «بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر ويدخلان الجنة» من كتاب الإمارة.

٢ . صحيح البخارى: ٨/٥٠ كتاب الاستئذان باب «بدو السلام».

٣ . صحيح مسلم: ٨/٣٢ باب «النهى عن ضرب الوجه» من كتاب البر والصلوة والآداب. (١٥٥)

الأساطير والقصص. فهذه هي التوراة قد جاء فيها في الإصحاح الخامس من سفر التكوين: لما خلق الله آدم، خلقه على صورة الله وكان على أبي هريرة أن يبين عرض وجه آدم بعد أن بين أن طوله كان ستين ذراعاً، والله يعلم طول وجهه وعرضه وهو القائل (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ). (١) ٢. له سبحانه يدان

روى أبو هريرة عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْآخِرَى الْفَيْضُ أَوْ الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ». (٢) ٣. له سبحانه أصابع

روى عن عبد الله قال: جاء خبر من الأخبار إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقال: يا محمد إن الله يجعل السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلائق على أصبع فيقول أنا الملك. فضحك النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (٣) ٤. له سبحانه حقو (٤)!

عن أبي هريرة، عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «خلق الله الخلق»

١ . التين: ٤.

٢ . صحيح البخارى: ٩/١٢٤، باب «وكان عرشه على الماء» من كتاب التوحيد.

٣ . صحيح البخارى: ٦/١٢٦ تفسير سورة الزمر. والآية ٦٧ من سورة الزمر. ٤ . الحقو: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف.

(١٥٦)

فلمّا فرغ قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب قال: فذاك». (١) ٥. الله سبحانه وساقه!

روى عن أبي سعيد قال: سمعت النبي يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رثاء وسمعته، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً». (٢) ٦. الله سبحانه وقدمه!

روى عن أنس، عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول: قط قط». (٣) هذه نماذج مما ورد في الصحاح من أحاديث التشبيه والتجسيم اكتفينا من كل مورد بحديث واحد. وقد تركت هذه الأحاديث آثاراً سلبية في معتقدات المسلمين فمن شبهه يقول: اعفوني من الفرج واللحية وسلوني عما وراء ذلك (٤)، إلى متمسك بظواهرها لكن بلا تكليف، إلى مؤول يحملها على معان بعيدة عن ظواهرها ليتخلص عن مغبة التجسيم. ولو أنهم رجعوا إلى الذكر الحكيم وعرضوا هذه الأحاديث عليه لميزوا الصحيح عن الزائف، والمقبول عن المردود. (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ). (٥)

١. صحيح البخارى: ٦/١٣٤.

٢. صحيح البخارى: ٦/١٥٩ تفسير سورة ن والقلم.

٣. صحيح البخارى: ٦/١٣٨ تفسير سورة ق.

٤. الملل والنحل للشهرستاني: ص ١٠٥ فصل المشبهة.

٥. النساء: ٦٦. (١٥٧) الجبر في ثوب الإيمان بالقدر

ذلك بعض ما ورد في الصحاح حول التجسيم والتشبيه وإنا نجل النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وصحابته الأخيار عن أن ينسوا بشيء منها بنت شفه، وإنما هي أساطير وأوهام أخذها الضعاف من الرواة عن الأخبار والرهبان من دون اكتراث ولا مبالاة. وأما أحاديث الجبر ونفى الاختيار وأن الإنسان في الحياة كالريشة في مهب الرياح فحدث عنها ولا حرج. فالصحاح تزخر بها في باب الإيمان بالقدر، وسياويك بعضها عند البحث عنه، ولو صحت هذه الأحاديث لما بقي لبعث الأنبياء وتكليف العباد بالواجبات والمحرمات وغيرها معنى معقول. ونذكر هنا ما لا نذكره هناك: ١. روى الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: خرج علينا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا. فقال للذى بيده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً، وقال للذى في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. قال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سدّدوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أى عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أى عمل، ثم قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بيده فبئذ هما ثم قال: فرغ ربكم من عمل العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير. (١)

١. جامع الأصول: ١٠/٥١٣، رقم الحديث ٧٥٥٥. (١٥٨)

ولا يخفى أن السؤال الوارد في الحديث موجه جداً، والجواب عنه غير مقنع، فما معنى قوله: «سدّدوا وقاربوا»؟ لأنه إذا كان الأمر قد فرغ منه فما معنى التسديد والتقارب؟! وما معنى الحث على التوبة والإنابة؟! ولماذا جعل فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير مع كونه رحماناً على الكل، لا قسياً ولا متعتاً؟! ٢. روى البخارى ومسلم والترمذى عن على بن أبى طالب - عليه السلام - قال: «كنا في جنازة فى بقيق الغرقد، فأتانا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، ففعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة. وأما من كان من أهل الشقاء، فسيصير لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) (١). أخرجه البخارى ومسلم. (٢) وفى رواية الترمذى قال: كنا فى جنازة فى بقيق الغرقد، فأتى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ففعد وقعدنا ومعه مخصرة فجعل ينكت بها ثم قال: ما منكم من

أحد أو من نفس منقوسة، إلا- وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقيته أو سعيدة فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة ليكون إلى أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكون إلى أهل الشقاوة. فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: بل اعملوا فكل ميسر، فأما أهل السعادة، فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) (٣) . (٤) _____

١ . الليل: ٧٥.

٢ . جامع الأصول: ١٠/٥١٣، رقم الحديث ٧٥٥٥.

٣ . الليل: ١٠٥.

٤ . جامع الأصول: ١٠/٥١٥-٥١٦، رقم الحديث ٧٥٥٧ وذيله. (١٥٩)

٣. وفي أخرى للترمذي: قال: بينما نحن مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهو ينكت في الأرض إذ رفع رأسه إلى السماء ثم قال: ما منكم من أحد إلا قد علم - وفي روايته إلا قد كتب - مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: أفلا تتكل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا، فكل ميسر لما خلق له. وأخرج أبو داود الرواية الأولى من روايتي الترمذي. (١) وهذه الروايات لا- تصف العبد فقط بأنه مكتوف اليد بل تصف الله أيضاً مكتوف اليد ومغلولها فلا يخضع القدر لقدرته، فلا يقدر على تغييره وتبديله. وهذا بنفسه نفس عقيدة اليهود التي نقلها القرآن عنهم (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) (٢) كلام أحمد حول القدر

السابر في كتب أهل الحديث يرى أنهم يهتمون بأمر التقدير أكثر من اهتمامهم بسائر المسائل العقائدية، وكأن الاعتقاد بالتقدير عندهم أهم من الاعتقاد بالمبدأ والمعاد. ولأجل ذلك لا- ترى تشاجراً ولا- بحثاً مبسوطاً حول إمكان المعاد، ورفع شبهاته وتبيين خصوصياته. ولكن التقدير قد احتل مكانه مرموقه في مجال العقيدة. وهذا القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى قد أخرج في كتابه ما أملاه أحمد ابن محمد بن حنبل أو كتبه باسم «عقيدة أهل السنة» ومما جاء فيه (٣): قال: والقدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومره، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره، من الله، قضاء وقضاء، وقدر قدره عليهم، لا يعدو واحد منهم مشيئة الله عز وجل، ولا يجاوز قضاءه، بل _____

١ . المصدر السابق.

٢ . المائة: ٦٤.

٣ . طبقات الحنابلة: ١/٢٥-٢٧. (١٦٠)

هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقفون فيما قدر عليهم لأفعاله، وهو عدل منه عز ربنا وجل، والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر، من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة، بل لله الحجة البالغة على خلقه، (لا- يُشَأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَأَلُونَ) (١) وعلم الله عز وجل ما مضى في خلقه بمشيئته منه، قد علم من إبليس ومن غيره ممن عصاه - من لدن أن عصى تبارك و تعالى إلى أن تقوم الساعة - المعصية، وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها. وكل يعمل لما خلق له، وصائر لما قضى عليه وعلم منه، لا يعدو واحد منهم قدر الله ومشيئته. والله الفاعل لما يريد، الفاعل لما يشاء. ومن زعم أن الله شاء لعباده الذين عصوه الخير والطاعة وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية، فعملوا على مشيئتهم، فقد زعم أن مشيئة العباد أعظم من مشيئة الله تبارك و تعالى، فأى افتراء أكثر على الله عز وجل من هذا؟ ومن زعم أن الزنى ليس بقدر، قيل له: رأيت هذه المرأة، حملت من الزنى وجاءت بولد، هل شاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى في سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أن مع الله خالفاً وهذا هو الشرك صراحاً. ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء وقدر، فقد

زعم أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره، وهذا صراح قول المجوسية. بل أكل رزقه وقضى الله أن يأكله من الوجه الذي أكله. ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل، وأن ذلك (ليس) بمشيئته في خلقه، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله. وأى كفر أوضح من هذا. بل ذلك بقضاء الله عز وجل وذلك بمشيئته في خلقه، وتدبيره فيهم، وما جرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد، ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة على الصغر والقضاء. (٢) _____

١. الأنبياء: ٢٣.

٢. طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلى: ١/٢٥-٢٦. (١٦١)

وسيوافيك تمام الرسالة في الفصل القادم. ومما يوجب الأسف أن الوهابية أخذت تروج عقائد التجسيم والتشبيه، وإليك قصيدة في ذلك الباب نشرت في عاصمة التوحيد مكة المكرمة: لله وجه لا يحد بصورة * ولربنا عينان ناظرتان وله يدان كما يقول إلها * ويمينه جلت عن الأيمان كلتا يديه يمين وصفها * فهما على الثقلان منفقتان (١) كرسية وسع السماوات العلى * والأرض وهو يعمه القدمان والله يضحك لا كضحك عبده * والكيف ممتنع على الرحمن والله ينزل كل آخر ليله * لسماؤه الدنيا بلا كتمان فيقول: هل من سائل فأجيبه * فأنا القريب أجيب من ناداني من قصيدة عبد الله بن محمد الأندلسي المالكي نشرت في «أربح البضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة» ص ٣٢ جمع على بن سليمان آل يوسف، منشور مكة المكرمة سنة ١٣٩٣هـ كما في التمهيد، الجزء الثالث ص ٩٠ لشيخنا الحجة محمد هادي معرفة - دام ظله - _____

١. هكذا ورد. (١٦٢) (١٦٣)

الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل

الفصل السادس عصارات مدونة من عقائد أهل الحديث

إن هذه الروايات التي سبقت تمثل عقائد أهل الحديث في العصور الأولى الإسلامية حيث نسجت العقائد عليها وحيكت على نولها، وقد بلغت بشاعة الأمر إلى حدّ أوجبت سقوط عقيدة أهل الحديث عن مقامها في نفوس الناس بعد ما انتشرت في أرجاء البلاد، ولولا ثورة الإمام الأشعري على عقيدة أهل الحديث لكانت البشاعة أكثر. ونحن نأتي في هذا المجال ببعض الرسائل المدونة لبيان عقيدة أهل الحديث والحنابلة: ١. عقيدة الحنابلة على لسان إمامهم

إنّ إمام الحنابلة كتب رسالته صغيرة حول عقيدة أهل الحديث والسنة وهي أخف وطأة مما ورد في كتب الحديث، وإليك نصّ تلك الرسالة. قال: هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة، المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى يومنا هذا. وأدركت من أدركت - من علماء الحجاز والشام وغيرها - عليها. فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، (١٦٤)

فهو مخالف مبتدع، وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة، وسبيل الحق. فكان قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية، وتمسكك بالسنة. والإيمان يزيد وينقص. ويستثنى في الإيمان، من غير أن يكون لشك. إنّما هو سنة ماضية عن العلماء. فإذا سئل الرجل: مؤمن أنت؟ فإنه يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. ومؤمن أرجو، أو يقول: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله. ومن زعم أن الإيمان قول بلا عمل، فهو مرجئ. ومن زعم أن الإيمان هو القول، والأعمال فشرائع: فهو مرجئ. ومن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد قال بقول المرجئة. ومن أنكر الاستثناء في الإيمان، فهو مرجئ. ومن زعم أن إيمانه كإيمان جبريل والملائكة فهو جهمي. والقدر خيره وشره، وقليله وكثيره، وظاهره وباطنه، وحلوه ومرّه، ومحبوبه ومكروهه، وحسنه وسيئه، وأوله وآخره. والله عز وجلّ قضى قضاءه على عباده، لا يجاوزون قضاءه، بل هم كلّهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم لا محالة، وهو عدل منه عز وجلّ. والزنى والسرقة، وشرب الخمر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والشرك بالله عز وجلّ، والذنوب والمعاصي، كلّها بقضاء وقدر من الله عز وجلّ، من

غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة، بل لله عز وجل الحجة البالغة على خلقه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون). وعلم الله عز وجل ماض في خلقه بمشيئته منه، قد علم من إبليس ومن غيره ممن عصاه - من لدن أن عصاه إبليس إلى أن تقوم الساعة - المعصية، وخلقهم لها، وعلم الطاعة من أهل الطاعة وخلقهم لها، فكل يعمل بما خلق (١٦٥)

له، وصائر إلى ما قضى الله عليه منه، لم يعد أحد منهم قدر الله عز وجل ومشيئته، والله الفاعل لما يريد. ومن زعم أن الله عز وجل شاء لعباده الذين عصوا، الخير والطاعة وأن العباد شاءوا لأنفسهم الشر والمعصية، يعملون على مشيئتهم، فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئة الله عز وجل. فأى افتراء على الله أكبر من هذا؟! ومن زعم أن الزنى ليس بقدر، قيل له: رأيت هذه المرأة حملت من الزنى، وجاءت بولد، هل شاء الله عز وجل أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى هذا في سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أن مع الله تعالى خالقاً وهذا هو الشرك صريحاً. ومن زعم أن السرقة وشرب الخمر وأكل المال الحرام، ليس بقضاء فقد زعم أن هذا الإنسان قادر على أن يأكل رزق غيره. وهذا يضارع قول المجوسية. بل كل رزقه الله، وقضى الله عز وجل أن يأكله من الوجه الذي أكله. ومن زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله عز وجل، فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله، وأى كفر أوضح من هذا؟ بل كان ذلك بقضاء الله عز وجل وقدره وكل ذلك بمشيئته في خلقه، وتدييره فيهم، وما جرى من سابق علمه فيهم. وهو العدل الحق الذي يفعل ما يريد. ومن أقر بالعلم لزمه الإقرار بالقدر والمشيئة. ولا نشهد على أحد من أهل القبلة أنه في النار لذنوب عمله ولا بكبيرة أتاه، إلا أن يكون في ذلك حديث، فنروي الحديث كما جاء على ما روى. نصدق به. ونعلم أنه كما جاء. ولا تنقض الشهادة. والخلافه في قريش ما بقي من الناس اثنان، ليس لأحد من الناس أن ينازعهم فيها، ولا يخرج عليهم، ولا نقر لغيرهم بها إلى قيام الساعة. والجهاد ماض، قائم مع الإمام، بزاً أو فاجراً. ولا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل. (١٦٦)

والجمعة والحج والعيدين مع الأئمة، وإن لم يكونوا بررة عدولاً أتقياء. ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفيء، والغنائم إلى الأمراء، عدلوا فيها أو جاروا. والانقياد لمن ولّاه الله عز وجل أمرهم لا - تنزع يداً من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك، يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً، ولا تخرج على السلطان، بل تسمع وتطيع فإن أمرك السلطان بأمر، هو لله عز وجل معصية، فليس لك أن تطيعه وليس لك أن تخرج عليه، ولا تمنعه حقه، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان، بل كف يدك ولسانك، وهواك. والله عز وجل المعين. والكف عن أهل القبلة. ولا تكفر أحداً منهم بذنوب، ولا نخرجهم عن الإسلام بعمل، إلا أن يكون في ذلك حديث فيروي كما جاء، وكما روى، ونصدقه ونقبله ونعلم أنه كما روى نحو ترك الصلاة وشرب الخمر، وما أشبه ذلك أو يبتدع بدعة ينسب صاحبها إلى الكفر والخروج عن الإسلام فاتبع الأثر في ذلك ولا تجاوزه. ولا أحب الصلاة خلف أهل البدع، ولا الصلاة على من مات منهم. والأعور الدجال خارج لا شك في ذلك ولا ارتياب. وهو أكذب الكذابين. وعذاب القبر حق. يسأل العبد عن دينه، وعن ربه، ويرى مقعده من النار والجنة. ومنكر ونكير حق وهما فتانا القبور، نسأل الله عز وجل الثبات. وحوض النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حق، ترده أمته، وله آنية يشربون بها منه. الصراط حق يوضع على شفير جهنم ويمر الناس عليه، والجنة من وراء ذلك، نسأل الله عز وجل السلامة في الجواز. والميزان حق، توزن به الحسنات والسيئات، كما شاء أن توزن. والصور حق، ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - فيموت الخلق، ثم ينفخ (١٦٧)

فيه أخرى فيقومون لرب العالمين عز وجل للحساب والقصاص والثواب والعقاب. والجنة والنار واللوح المحفوظ حق، تستنسخ منه أعمال العباد ممّا سبقت فيه من المقادير والقضاء. والقلم حق، كتب الله به مقادير كل شيء وأحصاه في الذكر تبارك وتعالى. والشفاعة حق يوم القيامة، يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار، ويخرج قوم من النار بعدما دخلوها بشفاعة الشافعين، ويخرج قوم من النار برحمة الله عز وجل بعدما لبثوا فيها ما شاء الله عز وجل، وقوم يخلدون فيها أبداً، وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر بالله عز وجل. ويذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار. وقد خلقت النار وما فيها، وخلقت الجنة وما فيها، خلقهما الله عز وجل، ثم خلق الخلق لهما، لا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبداً. فإن احتج مبتدع بقوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) (١) ونحو هذا من متشابه

القرآن. قيل له: كل شيء ممياً كتب الله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا. والحوار العين، لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة أبداً لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء، لا للفناء، ولم يكتب عليهن الفناء ولا الموت، فمن قال خلاف ذلك فهو مبتدع. وخلق الله سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها

١. القصص: ٨٨. (١٦٨)

أسفل من بعض. وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام. والماء فوق السماء السابعة، وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق الماء. والله عز وجل على العرش. وهو يعلم ما في السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، وما في قعر البحار ومنبت كل شجرة، وكل زرع، وكل نبت، ومسقط كل ورقة، وعدد ذلك وعدد الحصى والرمل والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم، وكلامهم وأنفاسهم ويعلم كل شيء لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو على العرش، فوق السماء السابعة وعنده حجب من نار ونور وظلمة وماء، وهو أعلم بها. فإن احتج مبتدع أو مخالف بقوله تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (١)، أو بقوله عز وجل: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (٢)، أو بقوله تعالى: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ) (٣) ونحو هذا من مشابهة القرآن. قيل: إنما يعنى بذلك العلم. لأن الله تبارك وتعالى على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كله، وهو تعالى بائن من خلقه لا يخلو من علمه مكان، والله تعالى على العرش. وللعرش حملة يحملونه. والله عز وجل على عرشه. والله تعالى سميع لا يشك، بصير لا يرتاب، عليم لا يجهل، جواد لا يبخل، حلیم لا يعجل، حفيظ لا ينسى، يقظان (٤) لا يسهو، قريب لا يغفل، يتكلم ويسمع وينظر، ويبصر ويضحك، ويفرح ويحب، ويكره ويغضب، ويرضى ويغضب ويسخط، ويرحم ويعفو ويعطى ويمنع، وينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف يشاء (ليس كمثله شيء وهو

١. ق: ١٦.

٢. الحديد: ٤.

٣. المجادلة: ٧.

٤. لم ترد هذه الكلمة في الكتاب ولا السنة. ولعل الأولى أن يقال: (لا تأخذهُ سنَةٌ ولا نوم). (١٦٩) السميع البصير (١) وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرب عز وجل، يقلبها كيف يشاء ويوعياها ما أراد.

وخلق الله عز وجل آدم - عليه السلام - بيده والسماوات والأرض يوم القيامة في كفه. ويخرج قوماً من النار بيده، وينظر أهل الجنة إلى وجهه. ويرونه فيكرمهم ويتجلى لهم فيعطهم. ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين، ويتولى حسابهم بنفسه، لا يولى ذلك غيره عز وجل. والقرآن كلام الله، ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر. ومن زعم أن القرآن كلام الله عز وجل ووقف، ولم يقل: مخلوق ولا غير مخلوق، فهو أحب من الأول. ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله فهو جهمي. ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم. وكلم الله موسى تكليماً، من الله سمع موسى يقيناً، وناوله التوراة من يده، ولم يزل الله متكلماً عالماً، تبارك الله أحسن الخالقين. والرؤيا من الله عز وجل حق، إذا رأى صاحبها شيئاً في منامه يقصها على عالم، وقد كانت الرؤيا من الأنبياء وحياً. ومن السنة: ذكر محاسن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلهم أجمعين والكف عن الذي شجر بينهم. فمن سب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، أو واحداً منهم، فهو مبتدع رافضي، جهم سنة، الدعاء لهم قربة، والافتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة. وخير هذه الأمة - بعد نبيها - صلى الله عليه وآله وسلم - أبو بكر، وخيرهم - بعد أبي بكر - عمر، وخيرهم - بعد عمر - عثمان، وخيرهم - بعد عثمان -

١. الشورى: ١١. (١٧٠)

على، رضوان الله عليهم، خلفاء راشدون مهديون. ثم أصحاب محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد هؤلاء الأربعة، لا يجوز لأحد أن

يذكر شيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتيبه، فإن تاب قبل منه. وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة. وجلده في المجلس حتى يتوب ويراجع. (١) ثم إن الشيخ أبا جعفر المعروف بالطحاوي المصري (المتوفى عام ٣٢١هـ) كتب رسالة حول عقيدة أهل السنة تشتمل على مائة وخمسة أصول، زعم أنها عقيدة الجماعة والسنة على مذهب فقهاء الملة: أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني والرسالة صغيرة كتب عليها تعاليق وشروح كثيرة. ولما ثار الإمام الأشعري على المعتزلة وانخرط في سلك أهل الحديث، جاء في الباب الثاني من كتاب «الإبانة» بعقيدة أهل السنة والجماعة في واحد وخمسين أصلاً، وإليك هذه الرسالة. ٢. رسالة الأشعري في عقيدة أهل الحديث

قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتمدون. وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نصر الله وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع

١. السنة: ٤٤-٥٠. (١٧١)

الزائغين وشك الشاكين، فرحمه الله عليه من إمام مقدم، وجيل معظم، وكبير مفخم، وعلى جميع أئمة المسلمين. وجملة قولنا: ١. أنا نقر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لا نرد من ذلك شيئاً. ٢. وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً. ٣. وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق. ٤. وأن الجنة والنار حق. ٥. وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. ٦. وأن الله استوى على عرشه كما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). (١) ٧. وأن له وجهاً بلا - كيف كما قال: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ). (٢) ٨. وأن له يدين بلا كيف كما قال: (خَلَقْتُ يَدَيَّ). (٣)، وكما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ). (٤) ٩. وأن له عيناً بلا - كيف كما قال: (تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا). (٥) ١٠. وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً.

١. طه: ٥.

٢. الرحمن: ٢٧.

٣. ص: ٧٥.

٤. المائدة: ٦٤.

٥. القمر: ١٤. (١٧٢)

١١. وأن لله علماً كما قال: (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) (١)، وكما قال: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ). (٢) ١٢. ونسبت لله السمع والبصر ولا نفى ذلك، كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج. ١٣. وثبت أن لله قوة كما قال: (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) (٣) ١٤. ونقول: إن كلام الله غير مخلوق، وإنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له: كن فيكون، كما قال: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). (٤) ١٥. وإنه لا يكون في الأرض شيء من خير وشر إلا ما شاء الله، وإن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل. وإن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله. ١٦. ولا نستغنى عن الله، ولا نقدر على الخروج من علم الله عز وجل. ١٧. وإنه لا خالق إلا الله، وإن أعمال العبد مخلوقة لله مقدورة، كما قال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ). (٥) وإن العباد لا يقدر أن يخلقوا شيئاً وهم يخلقون، كما قال: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ) (٦)، وكما قال: (لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (٧) وكما

١. النساء: ١٦٦.

٢. فاطر: ١١.

٣. فصلت: ١٥.

٤. النحل: ٤٠.

٥. الصافات: ٩٦.

٦. فاطر: ٣.

٧. النحل: ٢٠. (١٧٣)

قال: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) (١)، وكما قال: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (٢) وهذا في كتاب الله كثير. ١٨. وإن الله وفق المؤمنين لطاعته، ولطف بهم، ونظر إليهم، وأصلحهم وهداهم، وأضل الكافرين ولم يهدهم، ولم يلفظ بهم بالإيمان، كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين. ولو هداهم لكانوا مهتدين، كما قال تبارك و تعالى: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ بَدَالٌ) (٣). وإن الله يقدر أن يصلح الكافرين، ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وإنه خذلهم وطبع على قلوبهم. ١٩. وإن الخير والشر بقضاء الله وقدره. وإنا نؤمن بقضاء الله وقدره، خيره وشره، حلوه ومره، ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيننا، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله كما قال عز وجل: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (٤) وإنا نلجأ في أمورنا إلى الله، ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه. ٢٠. ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر. ٢١. وندين بأن الله تعالى يرى في الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . ونقول: إن الكافرين محبوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة، كما قال

١. النحل: ١٧.

٢. الطور: ٣٥.

٣. الأعراف: ١٧٨.

٤. الأعراف: ١٨٨. (١٧٤)

الله عز وجل: (كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) (١) وإن موسى - عليه السلام - سأل الله عز وجل الرؤية في الدنيا، وإن الله تعالى تجلّى للجبل، فجعله دكاً، فاعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا. ٢٢. وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنوبه كالزنى والسرقه وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كفرون. ونقول: إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنى والسرقه وما أشبههما مستحلاً لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً. ٢٣. ونقول: إن الإسلام أوسع من الإيمان، وليس كل إسلام إيماناً. ٢٤. وندين بأن الله تعالى يقلب القلوب «وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢)، وأنه سبحانه «يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع» (٣) كما جاءت الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من غير تكييف. ٢٥. وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والتمسكين بالإيمان جنه

١. المطففين: ١٥.

٢. رواه مسلم رقم (٢٦٥٤) في القدر: باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء. وأحمد ٢/١٦٨ و ١٧٣ من حديث عبد الله عمرو. وابن ماجه برقم (٣٨٣٤) في الدعاء: باب دعاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والترمذي رقم (٢١٤١) في القدر: باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن من حديث أنس بن مالك وأحمد: ٦/٣٠٢ و ٣١٥ والترمذي رقم (٣٥١٧) في الدعوات باب رقم ٨٩ من حديث أم سلمة وأحمد: ٦/٢٥١ من حديث عائشة ٣٠٢، ٣١٥.

٣. أخرجه البخاري: ١٣/٣٣٥، ٣٣٦ و ٣٦٩ و ٣٩٧ في التوحيد: باب قوله تعالى: (لما خلقت بيدي) وباب قوله تعالى: (إن الله يمسك السموات والأرض) وباب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء. ٨/٤٢٣ وفي التفسير: باب قوله تعالى: (والأرض جميعاً قبضته يوم

القيامة) و مسلم رقم (٢٧٨٦)(٢١) في المنافقين: باب صفة القيامة والجنة والنار والترمذي رقم (٣٢٣٦) و (٣٢٣٨) في التفسير: باب و من سورة الزمر كلهم من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه. (١٧٥)

ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين. ونقول: إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا بشفاعه محمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (١) ٢٦. ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض، وأن الميزان حق، والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف ويحاسب المؤمنين. ٢٧. وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلم الروايات الصحيحة في ذلك عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - التي رواها الثقة عدل عن عدل حتى تنتهي الرواية إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . ٢٨. وندين بحب السلف، الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، ونثنى عليهم بما أثنى الله به عليهم، ونتولاهم أجمعين. ٢٩. ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، وإن الله عز به الدين وأظهره على المرتدين، وقدمه المسلمون للإمامة، كما قدمه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عليه وآله وسلم - للصلاة، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - . ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، وإن الذين قتلوه، قتلوه ظلماً وعدواناً، ثم على بن أبي طالب رضى الله عنه،

١ . خروجهم من النار بعد أن امتحشوا وحديث الشفاعه، رواه البخارى: ١٣/٣٩٥- ٣٩٧ في التوحيد: باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. و ١٣/٣٣٢ باب قوله تعالى (لما خلقت بيدي). و ١٣/٣٩٨ باب قوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليماً) و ٨/١٢٢ في تفسير سورة البقرة: باب (علم آدم الأسماء كلها) ومسلم رقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك والبخارى ٦/٢٤٤ و ٢٤٥ ومسلم (١٩٤) في الإيمان: باب أدنى أهل الجنة منزله فيها من حديث أبي هريرة والبخارى: ١١/٣٦٧ و ٣٧١ من حديث جابر. (١٧٦)

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وخلافتهم خلافة النبوة. ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بها، وتولى سائر أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ونكف عما شجر بينهم، وندين الله بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء لا يوازيهم في الفضل غيرهم. ٣٠. ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول: «هل من سائل، هل من مستغفر» (١) وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتضليل. ٣١. ونقول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا تبارك وتعالى وسنة نبينا - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ، وإجماع المسلمين، وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله بدعة لم يأذن الله بها، ولا نقول على الله ما لا نعلم. ٣٢. ونقول: إن الله عز وجل يجيء يوم القيامة كما قال: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) (٢)، وإن الله عز وجل يقرب من عباده كيف شاء، كما قال: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (٣) وكما قال: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى). (٤) ٣٣. ومن ديننا أن نصلى الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات

١ . رواه مسلم (٧٥٨) (١٧٠) (١٧٢) في صلاة المسافرين: باب الترغيب والدعاء والذكر في آخر الليل. وللحديث صيغ أخرى رواها البخارى في التهجد: باب الدعاء والصلاة من آخر الليل وفي الدعوات: باب الدعاء نصف الليل وفي التوحيد: باب قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) ومسلم (٧٥٨) (١٦٨) (١٦٩) وأبو داود رقم (٤٧٣٣) في السنة. والترمذي رقم (٣٤٩٣) في الدعوات وأحمد ٢/٢٥٨ و ٢٦٧ و ٢٨٢ و ٤١٩ و ٤٨٧ و ٥٠٤ و ٥٢١ من حديث أبي هريرة.

٢ . الفجر: ٢٢.

٣ . ق: ١٦.

٤ . النجم: ٩٨. (١٧٧)

خلف كل بز وفاجر، كما روى عن عبد الله بن عمر أنه كان يصلى خلف الحجراج. ٣٤. وأن المسح على الخفين سنة في الحضرة

والسفر خلافاً لقول من أنكر ذلك. ٣٥. ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بإمامتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم، إذا ظهر منهم ترك الاستقامة، ونددين بإنكار الخروج عليهم بالسيف، وترك القتال في الفتنة. ٣٦. ونقرّ بخروج الدجال، كما جاءت به الرواية عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - (١) ٣٧. وتؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير ومسألتها المدفونين في قبورهم. ٣٨. ونصدق بحديث المعراج. (٢) ٣٩. ونصحح كثيراً من الرؤيا في المنام ونقرّ أن لذلك تفسيراً. ٤٠. ونرى الصدقة عن موتى المسلمين، والدعاء لهم وتؤمن بأن الله ينفعهم بذلك. _____

١ . صحيح البخارى: ١٣/٨٧ فى الفتن: باب ذكر الدجال وفى الأنبياء: باب ما ذكر عن بنى إسرائيل، و ١٣/٨٩ - ٩١، وفى فضائل المدينة: باب لا يدخل الدجال المدينة. ومسلم (٢٩٣٣) فى الفتن: باب ذكر الدجال وصفته ومن معه ولغاية (٢٩٤٧)، و الترمذى (٢٢٣٥) لغاية (٢٢٤٦) فى الفتن، وأبو داود (٤٣١٥) فى الملاحم ولغاية (٤٣٢٨) وأحمد فى «المسند»: ١/٤، ٧، ٢/٣٣، ٣٧، ٤٧، ١٠٤، ١٠٨، ١٢٤، ١٣١، ٢٣٧، ٣٤٩، ٤٢٩، ٤٥٧، ٥٣٠، ٥٣٠، ٣/٤٢، ٥/٣٢، ٥/٣٨، ٤٣، ٤٧. وابن ماجه من (٤٠٧١) ولغاية (٤٩٨٨) فى الفتن باب فتنة الدجال.

٢ . رواه البخارى: ١٣/٣٩٩ - ٤٠٦ فى التوحيد: باب ما جاء فى قوله عزّ وجلّ: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) وفى الأنبياء: باب صفة النبى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، ومسلم رقم (١٤٢) فى الإيمان: باب الإسراء برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى السماوات، والنسائى: ١/٢٢١ فى الصلاة: باب فرض الصلاة، و الترمذى رقم (٣١٣٠) فى التفسير: باب و من سورة بنى إسرائيل. (١٧٨)

٤١. ونصدق بأن فى الدنيا سحراً وسحرة، وأنّ السحر كائن موجود فى الدنيا. ٤٢. ونددين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برّهم وفاجرهم وتوارثهم. ٤٣. ونقرّ أن الجنة والنار مخلوقتان. ٤٤. وأنّ من مات أو قتل فبأجله مات أو قتل. ٤٥. وأنّ الأرزاق من قبل الله عزّ وجلّ يرزقها عباده حلالاً وحراماً. ٤٦. وأنّ الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويتخبّطه خلافاً لقول المعتزلة والجهمية، كما قال الله عزّ وجلّ: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (١)، وكما قال: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ). (٢) ٤٧. ونقول: إنّ الصالحين يجوز أن يخصّهم الله عزّ وجلّ بآيات يظهرها عليهم. ٤٨. وقولنا فى أطفال المشركين: إنّ الله يؤخّج لهم فى الآخرة نارا، ثمّ يقول لهم اقتحموها، كما جاءت بذلك الروايات. (٣)

١ . البقرة: ٢٧٥.

٢ . الناس: ٣٠٤. ٣. اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى أولاد المشركين على أقوال، منها القول الذى ذكره المصنّف رحمه الله أنّهم يمتحنون فى الآخرة بأن ترفع لهم نار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، و من أبى عذب. رواه البزاز من حديث أنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما، ورواه الطبرانى من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه.

قال الحافظ فى «الفتح»: ٣/١٩٥ وقد صحّت مسألة الامتحان فى حقّ المجنون و من مات فى الفترة من طرق صحيحه. ومن الأقوال أنّهم فى الجنة. قال النووى: وهو المذهب الصحيح الذى صار إليه المحققون لقوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مَعْدِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا). وانظر «الفتح»: ٣/١٩٥ - ١٩٦. (١٧٩)

٤٩. ونددين الله عزّ وجلّ بأنّه يعلم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون، وما كان وما يكون، وما لا يكون إن لو كان كيف كان يكون. ٥٠. وبطاعة الأئمة ونصيحة المسلمين. ٥١. ونرى مفارقة كلّ داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الأهواء، وسنحتج لما ذكرناه من قولنا وما بقى منه ممّا لم نذكره باباً باباً وشيئاً شيئاً، إن شاء الله تعالى. ***

وما طرح من الأصول فى كتاب «الإبانه» هو الذى جاء به فى كتاب «مقالات الإسلاميين» عند البحث عن قول أصحاب الحديث وأهل السنّة ولو كان بينهما اختلاف فإنّما هو فى العرض لا فى الأصل والجوهر. ويقول بعد عرضها «فهذه جملة ما يأمر به، ويستعملونه، ويرونه وبكلّ ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب». (١) لقد شهد التاريخ الإسلامى صراعاً عنيفاً بين الحنابلة والأشاعرة، وستوافيك صورة من ذلك فى آخر هذا الجزء. ولكن الحقّ أنّه لو كانت عقيدة الأشاعرة هى ما جاء فى مقدمة رسالته «الإبانه» أو ما جاء فى كتنا

ب«مقالات الإسلاميين» لما كان بين الفريقين أى اختلاف أبداً، وهذا ممّا يقضى منه العجب. ولأجل ذلك - ربما - تخيل بعضهم (٢) أنّ الرسالة المطبوعة موضوعه على لسان الأشعرى. ٣. أصول عقيدة أهل الحديث عند الملطى ثمّ تتابع بعده تبيين عقيدة أهل السنّة، فكتب أبو الحسين محمد بن أحمد —————

١. مقالات الإسلاميين: ٣٢٠-٣٢٥.

٢. كالشيخ محمد زاهد الكوثرى فى بعض تعاليقه على الكتب. (١٨٠)

ابن عبد الرحمن الملطى الشافعى (المتوفى عام ٣٧٧هـ) كتابه المعروف «التنبيه والرد» وذكر عقيدة أهل السنّة تحت أصول نذكرها: والذي ثبت عن محمد بن عكاشة أنّ أصول السنّة ممّا اجتمع عليه الفقهاء والعلماء منهم: على بن عاصم، وسفيان بن عيينة، وسفيان بن يوسف الفريابى، وشعيب، ومحمّد بن عمر الواقدى، وشابّة بن ثور، والفضل بن دكين الكوفى، وعبد العزيز بن أبان الكوفى، وعبد الله بن داود، ويعلى بن قبيصة، وسعيد بن عثمان، وأزهر، وأبو عبد الرحمن المقرى، وزهير بن نعيم، والنضر بن شميل، وأحمد ابن خالد الدمشقى، والوليد بن مسلم القرشى، والرواد بن الجراح العسقلانى، ويحيى بن يحيى، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبو معاوية الضرير كلّهم يقولون: رأينا أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - كانوا يقولون: ١. الرضا بقضاء الله و التسلیم لأمر الله والصبر على حكم الله. ٢. الأخذ بما أمر الله، والنهي عمّا نهى الله عنه. ٣. الإخلاص بالعمل لله. ٤. الإيمان بالقدر، خيره وشره من الله. ٥. ترك المرء والجدال والخصومات فى الدين. ٦. المسح على الخفين. ٧. الجهاد مع أهل القبلة. ٨. الصلاة على من مات من أهل القبلة سنّة. ٩. الإيمان يزيد وينقص قول وعمل. ١٠. القرآن كلام الله. ١١. الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منهم، من عدل أو جور، (١٨١)

ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا. ١٢. لا ينزل أحد من أهل التوحيد جنّة ولا ناراً. ١٣. لا يكفر أحد من أهل التوحيد بذنب، وإن عملوا الكبائر. ١٤. الكف عن أصحاب محمد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - . ١٥. أفضل الناس بعد رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ على. (١) وهذا النصّ يجمع السنّة التى يدين بها أهل الحديث وقد اقتدى بهم الأشعرى فى أكثرها، وقد تقدم الأصول التى نسبها الأشعرى إلى أهل السنّة. وهذه الأصول التى جاء بها محمّد بن عكاشة ملفقة من أصول اتفق على صحتها أهل القبلة وأصول مختلف فيها، وأصول مزورة ومختلقة ومكذوبة على الإسلام أساساً. غير أنّنا نبحت عن بعض الأصول التى زعمها أهل الحديث أصولاً صحيحة وهى عندنا مفتعلة على الإسلام ومختلقة، ونختار منها المواضيع التالية: ١. إطاعة السلطان الجائر والصبر تحت لوائه. ٢. عدالة الصحابة جميعاً. ٣. الإيمان بالقدر خيره وشره. ٤. الإيمان بخلافه الخلفاء. —————

١. التنبيه والرد لأبى الحسين الملطى: ص ١٤-١٥ وممّا يجب التعليق عليه: أنّ محمد بن عكاشة مرمى بالكذب ووضع الحديث، فقد قال الرازى فى كتاب «الجرح والتعديل»: محمد بن عكاشة الكرمانى، روى عبد الرزاق: حدّثنا عبد الرحمن قال: سئل أبو زرعة عنه؟ فقال: قد رأيتاه وكتبت عنه وكان كذاباً، قدم علينا مع محمد بن رافع النيسابورى وكان رفيقه، فأول ما أملى حديث كذب على الله عزّوجلّ وعلى رسوله. (لاحظ الجرح والتعديل للحافظ أبى حاتم الرازى: ٨/٥٢ ط الهند). (١٨٢)

وممّا يعجب القارئ فى مثل هذه الكلمة قوله: «إنّ هؤلاء كلّهم يقولون: رأينا أصحاب رسول الله كانوا يقولون»، مع أنّه ليس بين هؤلاء العلماء تابعى واحد حتى تصح منهم رؤية أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلّم - ، وهذا من أغرب الغرائب!!

الموضوعات الهامة فى عقائد أهل الحديث

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إطاعة السلطان بين الوجوب والحرمة

إطاعة الحاكم العادل من صميم الدين، قال سبحانه: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ). (١) وليس المراد منه إطاعة مطلق ولاية الأمر، بل المراد خصوص العدول منهم بقريته النهي عن إطاعة المسرفين والغافلين عن ذكر الله سبحانه والمكذبين والآثمين وغيرهم. قال سبحانه: (وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا). (٢) وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ). (٣) وقال سبحانه: (فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ). (٤) وقال تعالى: (وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينٍ). (٥)

١ . النساء: ٥٩.

٢ . الكهف: ٢٨.

٣ . الأحزاب: ١.

٤ . القلم: ٨.

٥ . القلم: ١٠. (١٨٥)

وقال سبحانه: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا). (١) وقال تعالى: (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ). (٢) إلى غير ذلك من الآيات الناهية عن طاعة الطغاة العصاة. فقريته هذه الآيات الناهية يصح أن يقال: إن المراد من الأمر بإطاعة أولى الأمر، هو إطاعة العدول منهم. وقد تضافرت الروايات على وجوب إطاعة السلطان العادل المعربة عن عدم وجوب إطاعة السلطان الجائر أو حرمتها. قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «السلطان العادل المتواضع، ظل الله ورمحه في الأرض ويرفع له عمل سبعين صديقاً». (٣) وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «ما من أحد أفضل منزلة من إمام، إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن استرحم رحم». (٤) وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم مجلساً، إمام عادل زو أبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه، إمام جائر». (٥) وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «السلطان ظلّ الله في الأرض، يأوى إليه الضعيف وبه ينصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة». (٦) وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «ثلاثة من كنّ فيه من الأئمة صلح أن يكون إماماً اضطلع بأمانته: إذا عدل في حكمه، ولم يحتجب دون رعيته، وأقام كتاب الله تعالى في القريب والبعيد» (٧) ... إلى غير ذلك من الروايات

١ . الإنسان: ٢٤.

٢ . الشعراء: ١٥١.

٣ . كنز العمال: ٦/٦٠٦، الحديث ١٤٥٨٩.

٤ . المصدر السابق: الحديث ١٤٥٩٣، ١٤٦٠٤، ١٤٥٧٢.

٥ . المصدر السابق: الحديث ١٤٥٩٣، ١٤٦٠٤، ١٤٥٧٢.

٦ . المصدر السابق: الحديث ١٤٥٩٣، ١٤٦٠٤، ١٤٥٧٢.

٧ . المصدر السابق: ٥، الحديث ١٤٣١٥. (١٨٦)

التي يقف عليها المتتبع في الجوامع الحديثية. هذا من طريق أهل السنة وأما من طريق الشيعة فحدث عنه ولا حرج. روى عمر بن حنظلة عن الصادق - عليه السلام - في لزوم طاعة الحاكم العادل: «من روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرماننا، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكماً، فإنني جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردّ، والرادّ علينا، الرادّ على الله وهو على حدّ الشرك بالله». (١) ونكتفي - هنا - بقول الإمام الحسين بن علي - عليهما السلام - في كتابه إلى أهل الكوفة حيث قال - عليه السلام -: «فلعمري ما الإمام إلاّ الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدائن بدين الحقّ، الحابس نفسه على ذات الله». (٢) إذاً فوجوب إطاعة السلطان العادل ممّا لا شكّ فيه، ولا يحتاج إلى إسهاب الكلام فيه، ولكن الحنابلة ذهبوا إلى غير ذلك، وإليك البيان. إطاعة السلطان الجائر

فلقد اتفقت كلمة الحنابلة ومن لف لفهم على وجوب إطاعة السلطان الجائر وإليك نصوصهم: قال أحمد بن حنبل في إحدى رسائله: السمع والطاعة للأئمة وأمر المؤمنين البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فأجمع الناس ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف وسمى أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأعمى إلى يوم القيامة، البر والفاجر، وإقامة الحدود إلى الأئمة وليس لأحد أن يطعن عليهم وينازعهم، ودفع الصدقات إليهم جائز، من دفعها إليهم أجزأت عنهم، برأ كان أو

١. الوسائل: الجزء ١٨، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، الحديث ١.

٢. بحار الأنوار: ١٥/١١٦، تاريخ الطبري: ٤/٢٦٢، أحداث سنة ٦٠. (١٨٧)

فاجراً، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولي، جائزة إقامته، ومن أعادها فهو مبتدع تارك للآثار مخالف للسنة. ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وكان الناس قد اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه، أكان بالرضا أو بالغلبة فقد شق الخارج عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله، فإن مات الخارج عليه، مات ميتة جاهلية. (١) هذا الرأى المنقول عن إمام الحنابلة لا يمكن إنكار صحته نسبه إليه، ولأجل ذلك قال الأستاذ أبو زهرة: ولأحمد رأى يتلاقى فيه مع سائر الفقهاء، وهو جواز إمامة من تغلب ورضيه الناس وأقام الحكم الصالح بينهم، بل إنه يرى أكثر من ذلك، إن من تغلب وإن كان فاجراً تجب إطاعته حتى لا تكون الفتن. (٢) والعبارة التى نقلناها عن إمام الحنابلة تكاد تعرب عن وجوب إطاعة الجائر ولو أمر بمعصية الخالق وهو أمر عجيب منه جداً مع أن أكثر الأشاعرة الذين يحزمون الخروج عليه، لا يوجبون طاعته فى هذا الحال كما يوافقك نصوصهم، ولغرابة رأى ابن حنبل هذا، ذيله أبو زهرة بقوله: ولكنه ينظر فى هذه القضية إلى مصلحة المسلمين وأنه لا بد من نظام مستقر ثابت، وأن الخروج على هذا النظام يحل قوة الأمة ويفك عراها، ولأنه رأى من أخبار الخوارج وفتنتهم ما جعله يقرر أن النظام الثابت أولى وأن الخروج عليه يرتكب فيه من المظالم أضعاف ما يرتكبه الحاكم الظالم. ثم إنه ينظر فى القضية نظرة اتباع فإن التابعين الذين عاشوا فى العصر الأموى إلى أكثر من ثلثى زمانه قد رأوا مظالم كثيرة، ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين، وكانوا ينصحون الخلفاء والولاء إن وجدوا آذاناً تسمع، وقلوباً تفقه، وفى كل حال لا يخرجون ولا يؤيدون خارجه. (٣)

١. تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة: ٢/٣٢٢.

٢. المصدر السابق: ص ٣٢١، ولاحظ كتاب السنة لابن حنبل: ٤٦.

٣. تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢/٣٢٢. (١٨٨)

وهذا التوجيه من الأستاذ غريب جداً. أما أولاً: فلأن الخروج على الظالم إذا كان موجباً لحل قوة الأمة وفك عراها، يكون الصبر تشويقاً لتماديته فى الظلم وإكثار الضغط على الأمة وبالنتيجة: تحويل الدين وتحريفه عما هو عليه من الحق... فأى فائدة تكمن فى حفظ قوة أمة، انحرفت عن صراطها وتبدلت سننها وتغيرت أصولها، فإن الظالم لا يرى لظلمه حداً ولتعديه ضوابط، فلو رأى أن الإسلام بواقعه يضاد آراءه الشخصية وميوله الخبيثة، عمد إلى تغييره وتحويره فليس يقتصر ظلم الظالم على التعدي على النفوس والأموال، بل الراكب على أعناق الناس يغير كل شىء كيفما يريد، وحيثما يرى أنه لصالح شخصه، والتاريخ شاهدنا الأصدق على ذلك. وأما ثانياً: فإن الأستاذ أبا زهرة نسب إلى التابعين الذين عاشوا فى العصر الأموى إلى أكثر من ثلثى زمانه بأنهم رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين... ولكنه غفل عن قضية الحرية الدائمة حيث كان الخارجون فيها على الحكومة الغاشمة هم الصحابة والتابعين.... وهذا المسعودى صاحب «مروج الذهب» ينقل إلينا لمحة عما جرى هناك ويقول: ولما انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحره وعليهم «مسرف» خرج إلى حره أهلها، عليهم عبد الله بن مطيع العدوى وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى، وكانت وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من بنى هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم من سائر (١٨٩)

الناس، فقد قتل من آل أبى طالب اثنان: عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وجعفر بن محمد بن على بن أبى طالب ومن بنى هاشم من غير آل أبى طالب: الفضل بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب

والعباس ابن عتبة ابن أبي لهب بن عبد المطلب، وبضع وتسعون رجلاً من سائر قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممن أدركه الإحصاء دون من لم يعرف. (١) هل نسي أبو زهرة (أو لعله تناسى) قضية دير الجماجم حيث قام ابن الأشعث التابعي في وجه الحجّاج السفاك بالموضع المعروف بدير الجماجم فكان بينهم نيف وثمانون وقعة تفانى فيها خلق وذلك في سنة اثنتين وثمانين. (٢) وعلى كل تقدير فقد اقتفى أثر أحمد بن حنبل جماعة من متكلمي الأشاعرة وغيرهم وأدعوا بأن هذه عقيدة إسلامية كان الصحابة والتابعون يدينون بها وأنه يجب الصبر على الطغاة الظلمة إذا تصدروا منصّة الحكم، نعم غاية ما يقولونه هو: إنّه لا تجب إطاعتهم إذا أمروا بالحرام والفساد جاعلين قولهم هذا منعطفهم الوحيد عن قول ابن حنبل وبقية أهل الحديث، وإليك نبذة من أقوال القوم: ١. قال الإمام الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي (المتوفى ٣٢١هـ) في رسالته المسماة ببيان السنّة والجماعة المشهور بالعقيدة الطحاوية: ونرى الصلاة خلف كل برّ وفاجر من أهل القبلة ولا نرى السيف على أحد من أمية محمّد إلاّ على من وجب عليه السيف (أي سفك الدم بالنصّ القاطع كالقاتل والزاني المحصن والمرتد) ولا نرى الخروج على أئمتنا ولا ولاه أمرنا وإن جاروا، ولا ندعو على أحد منهم ولا نتزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعات الله عزّ وجلّ فريضة علينا مالم يأمرنا بمعصية. (٣) ٢. قال الإمام الأشعري من جملة ما عليه أهل الحديث و السنّة: ويرون العيد والجمعة والجماعة خلف كل إمام برّ وفاجر... إلى أن قال: ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف، وأن لا يقاتلوا في الفتن. (٤)

١. مروج الذهب: ٣/٦٩-٧٠.

٢. نفس المصدر السابق: ٣/١٣٢.

٣. شرح العقيدة الطحاوية: ١١٠ و ١١١.

٤. مقالات الإسلاميين: ٣٢٣. (١٩٠)

٣. وقال الإمام أبو اليسر محمد بن عبد الكريم البردوي: الإمام إذا جار أو فسق لا ينزل عند أصحاب أبي حنيفة بأجمعهم وهو المذهب المرضي... ثم قال: وجه قول عامة أهل السنّة والجماعة إجماع الأئمة، فإنهم رأوا الفساق أئمة، فإن أكثر الصحابة كانوا يرون بنى أمية وهم بنو مروان أئمة حتى كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلفهم ويرون قضاياهم نافذة، وكذا الصحابة والتابعون، وكذا من بعدهم يرون خلافة بنى عباس وأكثرهم فساق، ولأنّ القول بانعزال الأئمة بالفسق، إيقاع الفساد في العالم، وإثبات المنازعات وقتل الأنفس، فإنّه إذا انزل يجب على الناس تقليد غيره، وفيه فساد كثير ثم قال: إذا فسق الإمام يجب الدعاء له بالتوبة ولا يجوز الخروج عليه، وهذا مروى عن أبي حنيفة، لأنّ الخروج إثارة الفتن والفساد في العالم. (١) ٤. وقال الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (المتوفى عام ٤٠٣هـ) في التمهيد: إن قال قائل: ما الذي يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أمور: منها: كفر بعد إيمان، ومنها: تركه الصلاة والدعاء إلى ذلك، ومنها: عند كثير من الناس فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبيار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، وقال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع بهذه الأمور ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويله وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله، إذ احتجوا في ذلك بأخبار كثيرة متضاربة عن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمة وإن جاروا واستأثروا بالأموال وأنه قال عليه السّلام -: واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشي، وصلوا وراء كل برّ وفاجر. وروى أنّه قال: وإن أكلوا مالكم وضربوا ظهركم وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة. (٢) ٥. وقال الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي (المتوفى عام ٥٣٧هـ) في العقائد النسفية: ولا ينزل الإمام بالفسق والجور... ويجوز

١. أصول الدين: ١٩٠-١٩٢.

٢. التمهيد: ١٨٦. (١٩١)

الصلاة خلف كل برّ وفاجر. وعلّله الشارح التفتازاني بقوله: لأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين،

والسلف كانوا يتقادون لهم، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنه، ولا يرون الخروج عليهم. (١) ما استدلوا به من روايات لإطاعة الجائر وقد أيدت تلك العقائد بروايات ربما يتصور القارئ أنّ لها نصيباً من الحقّ أو حظاً من الصدق لكن الحقّ أنّ أكثرها مفتعلة على لسان رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - قد أفرغها في قالب الحديث جمع من وعاظ السلاطين ومرتقتهم تحفظاً على عروشهم وحفظاً لمناصبهم، وإليك بعض تلك الروايات التي رواها مسلم في صحيحه: ١. روى مسلم، عن حذيفة بن اليمان، قلت: يا رسول الله... إلى أن قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - : يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهدای ولا يستنون بسنتي، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع. ٢. وروى عن أبي هريرة، عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - أنه قال: من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية... إلى أن قال: ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى لذي عهد عهده فليس مني ولست منه. ٣. روى عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - : من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنّه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتته جاهلية. ٤. روى عنه أيضاً، عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - قال: من

١. شرح العقائد النسفية: ١٨٥ و ١٨٦. (١٩٢)

رأى من أميره شيئاً فليصبر، فإنّه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية. ٥. روى عن عبد الله بن عمر، أنّه جاء إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية فقال: أخرجوا لأبي عبد الرحمن وسادة فقال: إنني لم آتكم لأجلس، أتيتكم لأحدثكم حديثاً سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - يقوله: من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. وقد فسر ابن عمر قول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - بلزوم بيعة يزيد وإطاعته حتى في مسألة الحرّة. ٦. روى عن أم سلمة، أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - قال: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برىء و من أنكر سلم ولكن من رضى وتابع». قالوا يا رسول الله: ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما صلوا». ٧. روى عن عوف بن مالك في حديث: قيل يا رسول الله أفلا ننازلكهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولا تكلم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعته. (١) وقد أورد ابن الأثير الجزري قسماً من هذه الأحاديث في «جامع الأصول». (٢) ٨. روى البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - : سيكون بعدى خلفاء يعملون بما يعلمون، ويفعلون بما يؤمرون وسيكون بعدهم خلفاء يعملون بما لا يعلمون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن أنكر عليهم برىء ومن أمسك يده سلم ولكن من رضى وتابع. (٣)

١. صحيح مسلم: ٢٠/٢٤، باب الأمر بلزوم الجماعة، وباب حكم من فارق أمر المسلمين.

٢. لاحظ جامع الأصول: ٤، الكتاب الرابع في الخلافة والأمارّة، الفصل الخامس ص ٤٥١ الخ.

٣. السنن الكبرى: ٨/١٥٨. (١٩٣)

٩. وروى ابن عبد ربه، عن عبد الله بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فإليه الوزر وعليك الصبر. (١) ١٠. وهذه الأحاديث تهدف إلى قول أحمد بن حنبل فقد عرفت ما في إحدى رسائله وهذا نصّه: السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن ولي الخلافة فاجتمع عليه الناس ورضوا به ومن غلبهم بالسيف وسمى أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة. (٢)

عرض أحاديث إطاعة الجائر على القرآن وقبل كلّ شيء يجب علينا أن نعرض تلك الروايات على كتاب الله سبحانه فإنّه المحكّ الأوّل لتشخيص الحديث الصحيح من السقيم. قال سبحانه حاكياً عن العصاة والكفار: (يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ) * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا. (٣) فهذا

القسم من الآيات يندد بقول من يرى وجوب طاعة السلطان الظالم التي توجب ضلالة المطيع له عن السبيل السوي، وثمة آيات تندد بعمل من يصبر على عمل الطاغية من دون أن يأمره بالمعروف أو ينهيه عن المنكر، وترى نفس السكوت والصبر على طغيان الطاغية جرماً وإثماً موجباً للهلاك، وهذه الآيات هي الواردة حول قوم بنى إسرائيل الذين كانوا يعيشون قرب ساحل من سواحل البحر فتقسّمهم إلى أصناف ثلاثة: الأول: الجماعة المعتدية العادية التي رفضت حكم الله سبحانه حيث حرم عليهم صيد البحر يوم السبت قال سبحانه: (إذ يعدون في السبت إذ _____

١ . العقد الفريد: ١/٨.

٢ . تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢/٣٢٢.

٣ . الأحزاب: ٦٦-٦٨. (١٩٤) تأتيهم حينئذ يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبئون لا تأتيهم... (١).

الثاني: الجماعة الساكنة التي أهملتهم أنفسهم لا يرتكبون ما حرم الله وفي الوقت نفسه لا ينهون الجماعة العادية عن عدوانها، بل كانوا يعترضون على الجماعة الثالثة التي كانت تقوم بواجبها الديني من إرشاد الجاهل والقيام في وجه العاصي والطاغي، بقولهم: (لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً). (٢) الثالث: الجماعة الآمرة بالمعروف والنهي عن المنكر معتبرين ذلك وظيفته دينية عريقة ونصيحة لازمة للإخوان وقد حكى الله سبحانه عن لسانهم في محكم كتابه العزيز حيث قال: (معيذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون). (٣) نرى أن الله سبحانه أباد الطائفتين الأوليين وأنجى الثالثة. قال سبحانه: (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون). (٤) فالآية الأخيرة صريحة في حصر النجاة في الناهين عن السوء فقط وهلاك العاديين والساكنين عن عدوانهم، فلو كان السكوت والصبر على عدوان العاديين أمراً جائزاً لماذا عمّ العذاب كلتا الطائفتين؟ أو ما كان في وسع هؤلاء أن يعتذروا للقائمين بالأمر بالمعروف، بأن في القيام والخروج وحتى في النصيحة بالقول، تضعيفاً لقوة الأمية وفكاً لعراها؟ فلو دلت الآية الأولى على حرمة طاعة الظالم في الحرام، ودلت الآية الثانية على حرمة السكوت في مقابل طغيان العاديين، فهناك آية ثالثة تدل على حرمة الركون إلى الظالم يقول سبحانه: (ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار). (٥)

١ . الأعراف: ١٦٣.

٢ . الأعراف: ١٦٤.

٣ . الأعراف: ١٦٤.

٤ . الأعراف: ١٦٥.

٥ . هود: ١١٣. (١٩٥)

أو ليس تأييد الحاكم الجائر والدعاء له في الجمعة والجماعات وإقامة الصلاة بأمره، وإدارة كل شأن خول منه إليه، يعد ركوناً إلى الظالم؟! فما هو جواب هؤلاء المرتزقة في ما يسمّى بالدول الإسلامية الذين يعترفون بجور حكاهم وانحرافهم عن الصراط السوي، ومع ذلك يدعون لهم عقب خطب الجمع بطول العمر ودوام السلامة ويديرون الشؤون الدينية حسب الخطط التي يرسمها ويصوّرها لهم أولئك الحكام، الذين يعدهم هؤلاء المرتزقة محاور ومراكز، ويعدون أنفسهم أقماراً تدور في أفلاكها، اللهم إلا أن يعتذر هؤلاء بعدم التمكن مما يجب عليهم من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على مراتبها المختلفة، ولكنه عذر لا يقبل في كثير من الأحيان، وعلى ذلك الأساس فما قيمة تلك الروايات المعارضة لنصوص الكتاب وصريح الذكر الحكيم؟! أحاديث معارضة لأحاديث طاعة الجائر

إنّ هناك روايات تنفي صحّة الروايات السابقة وتجعلها في مدرحة البطلان وقد نقلها أصحاب الصحاح والسنن أيضاً وعند المعارضة يؤخذ من السنّة الشريفة ما يوافق كتاب الله الحكيم. وإليك نزرّاً من تلك الروايات: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -:

«اسمعوا: سيكون بعدى أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس منّي ولست منه، وليس بوارد على الحوض». (١) هذا بعض ما لدى السنّة من الروايات، و أمّا ما لدى الشيعة فنأتى ببعضها: ١. عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - أنّه قال: «ألا ومن علق سوطاً بين يدي سلطان، جعل الله ذلك السوط يوم القيامة ثعباناً من النار طوله سبعون ذراعاً يسّطه الله عليه في نار جهنم وبئس المصير». —————

١. جامع الأصول: ٤/٧٥ نقلًا عن الترمذى والنسائي. (١٩٦)

٢. وعنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين أعوان الظلمة، ومن لاق لهم دواءً أو ربط لهم كيساً، أو مد لهم مدة قلم، فاحشروهم معهم». ٣. وعنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - أنّه قال: «من خفّ لسلطان جائر في حاجة كان قرينه في النار». ٤. وقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم -: «ما اقترب عبد من سلطان جائر إلاّ تباعد من الله». ٥. وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليهما السّلام - أنّه قال: «من أحبّ بقاء الظالمين، فقد أحبّ أن يعصى الله». ٦. وعنه - عليهما السّلام - أنّه قال: «من سوّد اسمه في ديوان الجبارين حشرها لله يوم القيامة حيراناً». ٧. وعنه - عليهما السّلام - أنّه قال: «من مشى إلى ظالم ليعينه وهو يعلم أنّه ظالم، فقد خرج عن الإسلام». ٨. وعن الإمام الصادق جعفر بن محمد - عليهما السّلام - أنّه قال: «ما أحبّ أتى عقدت لهم عقده، أو وكيت لهم وكاء وأنّ لى ما بين لابتيتها، لا، ولا مدة بقلم، إنّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يفرغ الله من الحساب». (١) وغيرها من عشرات الأحاديث والروايات الواردة من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - وأهل بيته المعصومين - عليهم السّلام - الناهية عن السكوت على الحاكم الجائر، والحائثة على زجره ودفعه، والإنكار عليه بكلّ الوسائل الممكنة، فهذه الأحاديث تدلّ على أنّ ما مرّ من الروايات الحائثة على السكوت عن الحاكم الظالم، والانصياع لحكمه والتسليم لظلمه، والرضا بجوره، جميعها —————

١. راجع لمعرفة هذه الأحاديث وسائل الشيعة: ١٢، الباب ٤٢ من أبواب ما يكتسب به، الأحاديث ٦، ١٠، ١١، ١٢، ١٤، ١٥، الباب ٤٤ الحديث ٥ و ٦. (١٩٧)

مما لّفقه رواة السوء والجور يبايعاز من السلطات الحاكمة في تلك العصور المظلمة، فنسبوه إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - وهو - روى فداه - منها براء لمعارضتها الصريحة لمبادئ الكتاب والسنّة الصحيحة. ولو لم يكن في المقام إلاّ قول على - عليه السّلام - في خطبته: «... وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظله ظالم ولا سغب مظلوم...» (١) لكفى في وهن تلك الروايات المفتعلة على لسان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - . ***

وفي ختام الكلام نلفت نظر القارئ الكريم إلى ما قاله الإمام أبو الشهداء الحسين بن على - عليهما السّلام - لأهل الكوفة حيث خطب أصحابه وأصحاب الحرّ (قائد جيش عبيد الله بن زياد آنذاك) فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيها الناس إنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلّم - قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا - وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري». (٢) وهذه النصوص الرائعة المؤيّدّة بالكتاب والسنّة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين قاموا في وجه الطغاة من بنى أمية وبنى العباس، تشهد بأنّ ما نسب إلى الصحابة والتابعين من الاستسلام والسكوت على ظلم الظالمين لكون ذلك من عقيدتهم الإسلامية ما هو إلاّ بعض مفتعلات أصحاب العروش وقد وضعها وعظّمها ومرترقتهم، وإلّا فالتّيبون من الصحابة والتابعين بريئون من هذه النسبة.

١. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

٢. تاريخ الطبري: ٤/٣٠٤، حوادث سنة ٦١. (١٩٨) صراع بين العقيدة والوجدان

نرى أنّ بعض الشباب المسلم في البلاد الإسلامية، قد انخرطوا في الأحزاب السياسية، ورفضوا الدين من أساسه، ولعلّ بعض السبب هو

أنهم وجدوا في أنفسهم صراعاً بين العقيدة والوجدان. فمن جانب، توحى إليهم فطرتهم وعقيدتهم الإنسانية السليمة، أنه تجب مكافحة الظالمين، والخروج عليهم، ونصرة المظلومين وانتزاع حقوقهم من أيدي الظالمين؛ ومن جانب آخر يسمعون من علماء الدين أو المتزين بلباسهم، أنه لا يجوز الخروج على السلطان، بل تجب طاعته وإن أمر بالظلم والعدوان. فحينئذ يقع الشاب في حيرة من أمره بين اتباع الفطرة والعقل السليم، واتباع كلام هؤلاء العلماء الذين ينطقون باسم الدين خصوصاً إذا كان المتكلم رجلاً يكيل له المجتمع الاحترام والإكبار، ويعرفه التاريخ بالخطيب الزاهد، كالحسن البصرى فإنه عندما سئل عن مقاتلة الحجاج - ذلك السيف المشهور على الأمة والإسلام - فأجاب: أرى أن لا تقاتلوه، فإنه إن يكن عقوبه من الله، فما أنتم برادّيها، وإن يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. فخرج السائلون من عنده وهم يقولون مستنكرين ما سمعوا منه: أنطع هذا العليج. ثم خرجوا مع ابن الأشعث إلى قتال الحجاج. (١) فإذا سمع الشاب الثورى هذه الكلمة من عميد الدين وخطيبه - كما يقال - عاد يصف جميع رجال الدين بما وصف به الحسن البصرى، وبالتالي يخرج من الدين ويتركه، ويصف الدين سناداً للظالم وملجأ له. وفي الختام توجه نظر الأعلام من السنة إلى خطورة الموقف في هذه الأيام، وأن أعداء الإسلام لبالمرصاد يصطادون الشباب بسهام الدعاية الكاذبة، ويعرفون الإسلام بأنه سند الظالمين وركن الجائرين بحجة أنه ينهى عن الخروج على السلطان الجائر. _____

١. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/١٦٤. (١٩٩)

والمسلم غير العارف بالدين وما ألصق به، لا يميز بين الحقيقة الناصعة وبين ما ألبس عليها من ثوب ردىء قاتم. وليس هذا أول ولا آخر مورد يجد الشاب الثورى صراعاً في نفسه بين العقلية الإنسانية والدعاية الكاذبة عن الإسلام، فيختار وحى الفطرة ويصبح ثائراً على القوى الطاغية، ويظن أنه ترك الإسلام بظن أن المتروك هو الدين الحقيقي الذي أنزله الله تعالى على النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، وهذه الجريمة متوجهة بالدرجة الأولى إلى هذا النمط من العلماء. فواجب علماء الدين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلامية الصحيحة في تشخيص ما هو من صميم الدين عما ألصق به، ولا يقتنعوا بما كتب باسم الدين عن السلف الصالح، وليس كل ما نسب إلى السلف الصالح، أو قالوا به من صميم الدين، كما أنه ليس كل سلف صالحاً، بل هم بين صالح وطالح، وسعيد وشقى، وعالم وجاهل، وليس كل سلف أفضل وأتقى وأعلم من كل خلف، فليذكروا المثل السائر: «كم ترك الأول للآخر»، فليدرسوا الأصول المسلمة من رأس، نعم لا- أنكر أن هناك أناساً واقفين على الحقيقة ولكنهم يكتمونها، لأن مصالحهم الشخصية لا تقتضى إظهارها، وقد نزل فيهم قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (١)، كما أن بينهم شخصيات لامعة جاهاروا بالحقيقة وأصحروا بها واشتروا رضا الرب بأثمان غالية وتضحيات ثمينة. فهذا إمام الحرمين يقول: إن الإمام إذا جار وظهر ظلمه وغشمه ولم يرفع لزاجر عن سوء صنيعه، فلاهل الحل والعقد، التواطؤ على رده، ولو بشهر السلاح ونصب الحروب. (٢) في الختام نعطف نظر القارئ الكريم إلى قوله سبحانه عندما يأمر

١. البقرة: ١٥٩.

٢. شرح المقاصد: ٢/٢٧٢. (٢٠٠)

المؤمنات بالبيعة مع النبي ويقول: (ولا- يعصينك في معروف) (١) فيقيد إطاعة النبي وحرمة مخالفته بما إذا أمر بالمعروف، ومن المعلوم أن النبي الأكرم معصوم لا يأمر بالمنكر أبداً وإنما هو لتعليم غيره، فهل يجوز لمسلم أن يقول بوجوب طاعة السلطان الجائر إذا أمر بالجور والمنكر؟! *** (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لغنا كبيراً. (٢)

١. الممتحنة: ١٢.

٢. الأحزاب: ٦٧-٦٨. (٢٠١)

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان

عدالة الصحابة كلهم بلا استثناء، ونزاهتهم من كل سوء هي أحد الأصول التي يتدين بها أهل الحديث، وقد راجت تلك العقيدة بينهم حتى اتخذها الإمام الأشعري أحد الأصول التي يبتني عليها مذهب أهل السنة جميعاً (١)، ونحن نعرض هذه العقيدة على الكتاب أولاً، وعلى السنة النبوية الصحيحة ثانياً، وعلى التاريخ ثالثاً حتى يتجلى الحق بأجلي مظهره إن شاء الله تعالى، ولكن قبل أن ندخل في صلب المسألة نقدّم تعريف الصحابي فنقول:

من هو الصحابي؟ إن هناك تعاريف مختلفة للصحابي تأتي ببعضها على وجه الإجمال: ١. قال سعيد بن المسيب: «الصحابي، ولا نعدّه إلّا- من أقام مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سنة أو سنتين وغزا معه غزوة أو غزوتين». ٢. قال الواقدي: رأينا أهل العلم يقولون: كل من رأى رسول الله وقد أدرك فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا من صحب رسول الله، ولو

١ . مقالات الإسلاميين: ١/٣٢٣ يقول: «ويعرفون حقّ السلف الذين اختارهم الله سبحانه بصحبة نبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يأخذون بفضائلهم ويمسكون عمّا شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم»؛ لاحظ أيضاً كتاب «السنة»: ٤٩. (٢٠٢) ساعة من نهار ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام. ٣. قال أحمد بن حنبل: أصحاب رسول الله كل من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه. ٤. قال البخاري: من صحب رسول الله أو رآه من المسلمين فهو أصحابه. ٥. وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب: لا خلاف بين أهل اللغة في أنّ الصحابي مشتق من الصحبة، قليلاً كان أو كثيراً، ثم قال: ومع هذا فقد تقرر للأمة عرف فإنهم لا يستعملون هذه التسمية إلاّ فيمن كثرت صحبته ولا يجوزون ذلك إلاّ فيمن كثرت صحبته لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطى، أو سمع منه حديثاً فوجب ذلك أن لا يجرى هذا الاسم على من هذه حاله، ومع هذا فإنّ خبر الثقة الأمين عنه مقبول و معمول به وإن لم تطل صحبته ولا سمع عنه إلاّ حديثاً واحداً». ٦. وقال صاحب الغوالي: لا يطلق اسم الصحبة إلاّ على من صحبه ثم يكفى في الاسم من حيث الوضع، الصحبة ولو ساعة ولكن العرف يخصه بمن كثرت صحبته. قال الجزري بعد ذكر هذه النقول، قلت: وأصحاب رسول الله على ما شرطوه كثيرون فإنّ رسول الله شهد حيناً ومعه اثنا عشر ألف سوى الأتباع والنساء، وجاء إليه «هوازن» مسلمين فاستنقذوا حريمهم وأولادهم، وترك مكة مملوءة ناساً وكذلك المدينة أيضاً، وكلّ من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين فهؤلاء كلهم لهم صحبة، وقد شهد معه تبوك من الخلق الكثير ما لا يحصيه ديوان، وكذلك حجة الوداع، وكلهم له صحبة. (١) ولا يخفى أنّ التوسع في مفهوم الصحابي على الوجه الذي عرفته في كلماتهم ممّا لا تساعد عليه اللغة والعرف العام، فإنّ صحابة الرجل عبارة عن

١ . أسد الغابة: ١/١١-١٢، طبع مصر. (٢٠٣)

جماعة تكون لهم خلطة ومعاشرة معه مدّة مديدة، فلا تصدق على من ليس له حظ إلاّ الرؤية عن بعيد أو سماع الكلام أو المكالمة أو المحادثة فترة يسيرة أو الإقامة معه زمناً قليلاً. وأظن أنّ في هذا التبسيط والتوسع غاية سياسية، لما سيوافيك أنّ النبي قد تتبأ بارتداد ثلثة من أصحابه بعد رحلته فأرادوا بهذا التبسيط، صرف هذه النصوص إلى الأعراب وأهل البوادي، الذين لم يكن لهم حظ من الصحبة إلاّ لقاء قصير وسيأتي أنّ هذه النصوص راجعة إلى الملتفين حوله الذين كانوا مع النبي ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً إلى حدّ كان النبي يعرفهم بأعيانهم وأشخاصهم وأسمائهم، فكيف يصحّ صرفها إلى أهل البوادي والصحاري من الأعراب، فتربص حتى تأتيك النصوص. وعلى كلّ تقدير فلسنا في هذا البحث بصدد تعريف الصحابة وتحقيق الحقّ بين هذه التعاريف غير أنّنا نركز الكلام على أنّ أهل السنة يقولون بعدالة هذا الجرم الغفير المدعويين باسم الصحابة، وإليك كلماتهم: عدالة جميع الصحابة

قال ابن عبد البر: ثبت عدالة جميعهم. (١) وقال ابن الأثير: إن السنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال الحرام إلى غير ذلك من أمور الدين، إنما تثبت بعد معرفة رجال أسانيدنا ورواتها. وأولهم والمقدم عليهم أصحاب رسول الله، فإذا جهلهم الإنسان كان غيرهم أشد جهلاً وأعظم إنكاراً، فينبغي أن يعرفوا بأَسابهم وأحوالهم، هم وغيرهم من الرواة حتى يصحّ العمل بما رواه الثقة منهم وتقوم به الحجّة، فإنّ المجهول لا تصحّ روايته ولا ينبغي العمل بما رواه. والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل، فإنّهم كلّهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح، لأنّ الله عزّ وجلّ ورسوله زكياهم وعدلاهم، وذلك مشهور

١. الاستيعاب في أسماء الأصحاب: ١/٢ في هامش «الإصابة». (٢٠٤)

لا نحتاج لذكره. (١) وقال الحافظ ابن حجر في الفصل الثالث من الإصابة: اتفق أهل السنّة على أنّ الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة. وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلاً نفيساً في ذلك فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم، ثمّ نقل عدّة آيات حاول بها إثبات عدالتهم وطهارتهم جميعاً إلى أن قال: روى الخطيب بسنده إلى أبي زرعة الرازي قال: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله فاعلم أنّه زنديق، وذلك أنّ الرسول حقّ، والقرآن حقّ، وما جاء به حقّ، وإنّما أدى إلينا ذلك كلّ الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة. (٢) هذه كلمات القوم وكم لها من نظائر نتركها طلباً للاختصار. تقييم نظرية عدالة جميع الصحابة

تقييم هذه النظرية يتم بتبيين أمور: ١. إنّ البحث عن عدالة الصحابي أو جرحه ليس لغاية إبطال الكتاب والسنّة ولا لإبطال شهود المسلمين، لما سيوافيك من أنّ الكتاب شهد على فضل عدّة منهم، وزبغ آخرين وهكذا السنّة، إنّما الغاية في هذا البحث هي الغاية في البحث عن عدالة التابعين ومن تلاهم من رواة القرون المختلفة، فالغاية في الجميع هي التعرّف على الصالحين والطالحين، حتى يتسنى لنا أخذ الدين عن الصلحاء والتجنب عن أخذهم عن غيرهم، فلو قام الرجل بهذا العمل وتحمل العبء الثقيل، لما كان عليه لوم فلو قال أبو زرعة - مكان قوله الآنف - هذا القول: «إذا رأيت الرجل يتفحص عن أحد من أصحاب الرسول لغاية العلم بصدقه أو كذبه، أو خيره أو شره، حتى يأخذ دينه عن _____

١. أسد الغابة: ٢/٣.

٢. الإصابة: ١/١٧. (٢٠٥)

الخيرة الصادقين، ويحترز عن الآخرين، فاعلم أنّه من جملة المحققين في الدين والمتحرين للحقيقة»، لكان أحسن وأولى بل هو الحسن والمتعين. ومن غير الصحيح أن يتهم العالم أحداً، يريد التثبت في أمور الدين، والتحقيق في مطالب الشريعة، بالزندقة وأنّه يريد جرح شهود المسلمين لإبطال الكتاب والسنّة، وما شهود المسلمين إلا الآلاف المؤلفة من أصحابه - صلّى الله عليه وآله وسلم - فلا يضر بالكتاب والسنّة جرح لغيرهم وتعديل قسم منهم، وليس الدين القيم قائماً بهذا الصنف من المجروحين. ما هكذا تورد يا سعد الإبل!! ٢. إنّ هذه النظرية تكوّنت ونشأت من العاطفة الدينية التي حملها المسلمون تجاه الرسول الأكرم - صلّى الله عليه وآله وسلم - وجرتهم إلى تبني تلك الفكرة وقد قيل: من عشق شيئاً، عشق لوازمه وآثاره. إنّ صحبة الصحابة لم تكن بأكثر ولا أقوى من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما أغنتهما عن الله شيئاً، قال سبحانه: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحَ وَامْرَأَةٌ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ). (١) إنّ التشرف بصحبة النبي لم يكن أكثر امتيازاً وتأثيراً من التشرف بالزواج من النبي، وقد قال سبحانه في شأن أزواجه: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا). (٢) ٣. إنّ أساتذة العلوم التربوية كشفوا عن قانون مجرب، وهو أنّ الإنسان الواقع في إطار التربية، إنّما يتأثر بعواملها إذا لم تكتمل شخصيته الروحية والفكرية، لأنّ النفوذ في النفوس المكتملة الشخصية، والتأثير عليها والثورة على أفكارها وروحياتها، يكون صعباً جداً (ولا أقول أمراً محالاً) بخلاف ما إذا كان الواقع في إطارها صبيّاً يافعاً أو شاباً في

عنفوان شبابه، إذ عندئذ يكون قلبه _____

١. التحريم: ١٠.

٢. الأحزاب: ٣٠. (٢٠٦)

وروحه كالأرض الخالية تنبت ما ألقى فيها، وعلى هذا الأساس لا يصح لنا أن نقول: إن الصحبة والمجالسة وسماع بعض الآيات والأحاديث، أو جدت ثورة عارمة في صحابه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأزالت شخصياتهم المكونة طيلة سنين في العصر الجاهلي، وكونت منهم شخصيات عالية تعد مثلاً للفضل والفضيلة. مع أنهم كانوا متفاوتين في السن ومقدار الصحبة، مختلفين في الاستعداد والتأثر، وحسبك أن بعضهم أسلم وهو صبي لم يبلغ الحلم، وبعضهم أسلم وهو في أوليات شبابه، كما أسلم بعضهم في الأربعينات والخمسينات من أعمارهم، إلى أن أسلم بعضهم وهو شيخ طاعن في السن يناهز الثمانين والتسعين. فكما أنهم كانوا مختلفين في السن عند الانقياد للإسلام، كذلك كانوا مختلفين أيضاً في مقدار الصحبة فبعضهم صحب النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من بدء البعثة إلى لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة وربما أدركوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أياماً أو ساعة، فهل يصح أن نقول: إن صحبة ما، قلعت ما في نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات رديئة وكونت منهم شخصيات ممتازة أعلى وأجل من أن يقعوا في إطار التعديل والجرح؟! إن تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلهم أشبه شيء بمادة كيميائية تستعمل في تحليل عنصر كالكحاح إلى عنصر آخر كالذهب، فكأن الصحبة قلبت كل مصاحب إلى إنسان مثالي يتحلّى بالعدالة، وهذا مما يردّه المنطق والبرهان، وذلك لأن الرسول الأعظم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يقيم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الإعجاز (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (١) بل قام بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الحق وصبهم في بوتقات الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والإمكانات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم، والنصيحة بكلماته النافذة، وسلوكه القويم وبعث رسله ودعاة دينه إلى الأقطار ونحو _____

١. الأنعام: ١٤٩. (٢٠٧)

ذلك، والدعوة القائمة على هذا الأساس يختلف أثرها في النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابليتها، فلا يصح لنا أن نرمي الجميع بسهم واحد. إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة وهي: أن الأصول التربوية تقضى بأن بعض الصحابة يمكن أن يصل في قوة الإيمان ورسوخ العقيدة إلى درجات عالية، كما يمكن أن يصل بعضهم في الكمال والفضيلة إلى درجات متوسطة، ومن الممكن أن لا يتأثر بعضهم بالصحبة وسائر العوامل المؤثرة إلا شيئاً طفيفاً لا يجعله في صفوف العدول وزمرة الصالحين. هذا هو مقتضى التحليل حسب الأصول النفسية والتربوية غير أن البحث لا يكتمل، ولا يصح القضاء البات إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم حتى نقف على نظره فيهم كما تجب علينا النظرة العابرة إلى كلمات الرسول في حقهم، وملاحظة سلوكهم وحياتهم في زمنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وبعده. الصحابة في الذكر الحكيم

نرى أن الذكر الحكيم يصنف صحابه النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ويمدحهم في ضمن أصناف تأتي ببعضها: ١. السابقون الأولون

يصف الذكر الحكيم السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإذن الله رضي عنهم وهم رضوا عنه، قال عز من قائل: (وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (١).

١. التوبة: ١٠٠.

٢. المبايعون تحت الشجرة (٢٠٨)

يصف سبحانه جماعة من الصحابة الذين بايعوه تحت الشجرة بنزول السكينة عليهم، ويقول في محكم كتابه: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ

الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا). (١) ٣. المهاجرون وهؤلاء هم الذين يصفهم تعالى ذكره بقوله: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ). (٢) ٤. أصحاب الفتح هؤلاء هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في آخر سورة الفتح بقوله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزِعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَمْوَى عَلَى سِوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا). (٣) الأصناف الأخر للصحابة

فالناظر المخلص المتجرد عن كل رأى مسبق، يجد في نفسه تكريماً لهؤلاء الصحابة غير أن القضاء البات في عامة الصحابة يستوجب النظر إلى كل الآيات

١. الفتح: ١٨.

٢. الحشر: ٨.

٣. الفتح: ٢٩. (٢٠٩)

القرآنية الواردة في حقهم فعندئذ يتبين لنا أن هناك أصنافاً أخرى من الصحابة غير ما سبق ذكرها، تمنعنا من أن نضرب الكل بسهم واحد، ونصف الكل بالرضا وبالرضوان. وهذا الصنف من الآيات يدل بوضوح على وجود مجموعات من الصحابة تضاد الأصناف السابقة في الخلقيات والملكات والسلوك والعمل، وإليك لفيماً منهم: ١. المنافقون المعروفون

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت في حقهم سورة المنافقين، قال سبحانه: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ...)(١) فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قوية من المنافقين بين الصحابة آنذاك وكان لهم شأن فنزلت سورة قرآنية كاملة في حقهم. ٢. المنافقون المختفون

تدل بعض الآيات على أنه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة، جماعة مردوا على النفاق وكان النبي الأعظم لا يعرف بعضهم، ومن تلك الآيات قوله سبحانه: (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ (٢) لا- تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ). (٣) لقد أعطى القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرب عن نواياهم وندد بهم في السور التالية: البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، محمد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، والمنافقين.

١. المنافقون: ١.

٢. مردوا على النفاق: تمرنوا عليه وتمارسوا عليه.

٣. التوبة: ١٠١. (٢١٠)

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المنافقين كانوا جماعة هائلة في المجتمع الإسلامي، بين معروف عرف بسمه النفاق ووصمه الكذب، وغير معروف بذلك، ولكن مقنع بقناع التظاهر بالإيمان والحب للنبي، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة في القرآن الكريم، وهناك ثلة من المحققين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات، وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليهم، فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم (١)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك في المجتمع الإسلامي، وعلى ذلك لا- يصح لنا الحكم بعدالة كل من صحب النبي مع غض النظر عن تلك العصاة المجرمة، المتظاهرة بالنفاق أو المختفية في أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ٣. مرضى القلوب

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يلونهم في الروحيات والملكات مع ضعف في الإيمان والثقة بالله ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال سبحانه في حقهم: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ

إِلَّاغْرُورًا). (٢) فَأَتَى لَنَا أَنْ نَصِفَ مَرْضَى الْقُلُوبِ الَّذِينَ يَنْسُبُونَ خَلْفَ الْوَعْدِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَى رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -
بِالتَّقْوَى وَالْعَدَالَةِ؟ ٤. السَّمَاعُونَ

تلك المجموعة كانت قلوبهم كالريشة في مهب الريح تتمايل تارة إلى هؤلاء وأخرى إلى أولئك بسبب ضعف إيمانهم، وقد حذر
البارى عز وجل المسلمين منهم حيث قال عز من قائل، واصفًا إياهم بـ«السَّمَاعُونَ» لأهل _____
١. النفاق والمنافقون: تأليف الأستاذ إبراهيم على سالم المصري.

٢. الأحزاب: ١٢. (٢١١)

الفتنة: (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً
وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا- وَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (١) وذيل الآية دليل على كون السماعين من الظالمين لا من العدول. ٥. خالطو العمل
الصالح بغيره

وهؤلاء هم الذين يقومون بالصالح والفلاح تارة، والفساد والعيث مرّة أخرى، فلأجل ذلك خلطوا عملاً- صالحاً بعمل سيء قال
سبحانه: (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا). (٢) ٦. المشرفون على الارتداد

إن بعض الآيات تدل على أن مجموعة من الصحابة كانت قد أشرفت على الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر، وكانت الحرب بينهم و
بين قريش طاحنة فأحسوا بضعفهم وقد أشرفوا على الارتداد، عزفهم الحق سبحانه بقوله: (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفَوْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا). (٣) ٧. الفاسق

إن القرآن الكريم يحث المؤمنين وفي مقدمتهم الصحابة الحضور، على التحرز من خبر الفاسق حتى يتبين، فمن هذا الفاسق الذي أمر
القرآن بالتحرز منه؟ اقرأ أنت ما نزل حول الآية من شأن النزول واحكم بما هو الحق. _____

١. التوبة: ٤٥-٤٧.

٢. التوبة: ١٠٢.

٣. آل عمران: ١٥٤. (٢١٢)

قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُكُمْ بِحُجُوعِ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ). (١) فإن من
المجمع عليه بين أهل العلم أنه نزل في حق الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وذكره المفسرون في تفسير الآية فلا- نحتاج إلى ذكر
المصادر. كما نزل في حقه قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) (٢)، نقل الطبري في تفسيره بإسناده أنه كان بين
الوليد وعلى كلام، فقال الوليد: أنا أبسط منك لساناً وأحد منك سناناً وأرد منك للكتيبة. فقال على: «اسكت فإنك فاسق» فأنزل الله
فيهما: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ). (٣) وقد نظم الحديث حسان بن ثابت (شاعر عصر الرسالة) وقال: أنزل الله
والكتاب عزيز * في على و في الوليد قرآناً فتبوا الوليد إذ ذاك فسقاً * وعلى مبوأ إيماناً ليس من كان مؤمناً عرف * الله كمن كان
فاسقاً خواناً سوف يدعى الوليد بعد قليل * وعلى إلى الحساب عياناً فعلى يجزى بذاك جناحاً * ووليد يجزى بذاك هواناً (٤) أفهل
يمكن لباحث حر، التصديق بما ذكره ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر، وفي مقدمتهم أبو زرعة الرازي الذي هاجم المتفحصين
المحققين في أحوال الصحابة وأتهمهم بالزندقة. _____

١. الحجرات: ٦.

٢. السجدة: ١٨.

٣. تفسير الطبري: ٢١/٦٢، و تفسير ابن كثير: ٣/٤٥٢.

٤. «تذكرة الخواص» سبط ابن الجوزي: ١١٥ «كفاية» الكنجي: ٥٥ «مطالب السؤل» لابن طلحة: ٢٠ «شرح النهج»، الطبعة القديمة: ٢/١٠٣ «جمهرة الخطب» لأحمد زكي: ٢/٢٣. لاحظ «الغدير»: ٢/٤٢. (٢١٣). ٨. المسلمون غير المؤمنين إن القرآن يعد جماعة من الأعراب الذين رأوا النبي وشاهدوه وتكلموا معه، مسلمين غير مؤمنين وأنهم بعد لم يدخل الإيمان في قلوبهم قال سبحانه: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). (١) أفهل يصح عد عصابة غير مؤمنين من العدول الأتقياء؟! ٩. المؤلفه قلوبهم اتفق الفقهاء على أن المؤلفه قلوبهم ممن تصرف عليهم الصدقات قال سبحانه: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ). (٢) والمراد من (المؤلفه قلوبهم): الذين كانوا في صدر الإسلام ممن يظهرون الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم، وهناك أقوال أخر فيهم متقاربة والكل يهدف إلى الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء. (٣) ١٠. المؤلفون أمم الكفار إن التولي عن الجهاد والفرار منه، من الكبائر الموبقة التي ندد بها سبحانه بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ* وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤمِدْ دُبْرَهُ الْإِمْتَحَرَفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ). (٤)

١. الحجرات: ١٤.

٢. التوبة: ٦٠.

٣. تفسير القرطبي: ٨/١٨٧. لاحظ: المغني لابن قدامة: ٢/٥٥٦.

٤. الأنفال: ١٥-١٦. (٢١٤)

إن التحذير من التولي والفرار من الزحف، والحث على الصمود أمام العدو، لم يصدر من مصدر الوحي إلا بعد فرار مجموعة كبيرة من صحابه النبي في غزوة «أحد» و «حنين». أما الأول: فيكفيك قول ابن هشام في تفسير الآيات النازلة في أحد: قال: ثم أنبهم على الفرار عن نبيهم وهم يدعون، لا يعطفون عليه لدعائه إياهم فقال: (إِذِ تَضَيَّعْدُونَ وَلَا تَلُوتُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ) (١) وأما الثاني: فقد قال ابن هشام فيه أيضاً فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من جفاه أهل مكة، الهزيمة تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبله ابن حنبل: ألا بطل السحر اليوم... (٢) أبعد هذا يصح أن يعد جميع الصحابه بحجه أنهم رأوا نور النبوة، عدولاً أتقياء؟! قال القرطبي في تفسيره: قد فر الناس يوم «أحد» وعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حنين: (ثم وليتم مديريين) ثم ذكر فرار عدده من أصحاب النبي من بعض السرايا. (٣) هذا الإمام الواقدي يرسم لنا تولى الصحابه منهزمين ويقول: فقالت أم الحارث: فمر بي عمر بن الخطاب فقلت له: يا عمر ما هذا؟ فقال عمر: أمر الله. وجعلت أم الحارث تقول: يا رسول الله من جاوز بعيري فأقتله. (٤)

١. آل عمران: ١٥٣.

٢. سيره ابن هشام: ٣/١١٤، و ٤/٤٤٤، ولاحظ التفاسير.

٣. تفسير القرطبي: ٧/٣٨٣.

٤. مغازي الواقدي: ٣/٩٠٤. إن تعلييل الفرار من الزحف بقضاء الله يشبه تعلييل عبادة الأوثان شركهم به كما في قوله سبحانه حاكياً عن المشركين: (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) (الأنعام: ١٤٨) وتلزم من ذلك تبرئه العصاة والكفار، لأن أعمالهم كلها بقضاء منه. (٢١٥)

هذه هي الأصناف العشرة من صحابه النبي ممن لا يمكن توصيفهم بالعدالة والتقوى، أتينا بها في هذه العجالة مضافاً إلى الأصناف المضادة لها، ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى الآيات الواردة في أوائل سورة البقرة وسورة النساء وغيرها من الآيات القرآنية فترى

فيها أن الإيمان بعدالة الصحابة مطلقاً خطأ في القول، وزلّة في الرأي، يضاد نصوص الذكر الحكيم ولم تكن الصحابة إلا كسائر الناس فيهم صالح تقى، بلغ القمة في التقى والنزاهة، وفيهم طالح شقى، سقط إلى هوة الشقاء والدناءة. ولكن الذي يميّز الصحابة عن غيرهم أنّهم رأوا نور النبوة وتشرفوا بصحبة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وشاهدوا معجزاته في حلبة المباراة بأَمِّ أعينهم، ولأجل ذلك تحمّلوا مسؤوليّة كبيرة أمام الله وأمام الأجيال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فإنّهم ليسوا كسائر الناس، فزيغهم وميلهم عن الحقّ أشدّ لا يعادل زيغ أكثر الناس وانحرافهم، وقد قال سبحانه في حقّ أزواج النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ...) (١) فلو انحرف هؤلاء فقد انحرفوا في حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة، وشتان الفرق بينهم وبين غيرهم. الصحابة في السنة النبوية

إذا راجعنا الصحاح والمسانيد نجد أنّ أصحابها أفردوا باباً بشأن فضائل الصحابة، إلا أنّهم لم يفردوا باباً في مثالبهم بل أقحموا ما يرجع إلى هذه الناحية في أبواب أخرى، سترًا لمثالبهم، وقد ذكرها البخاري في الجزء التاسع من صحيحه في باب الفتن، وأدرجها ابن الأثير في جامع في أبواب القيامة عند البحث عن الحوض، والوضع الطبيعي لجمع الأحاديث وترتيبها، كان يقتضى عقد باب مستقل للمثالب في جنب الفضائل حتى يطلع القارئ على قضاء السنّة حول صحابة النبي الأكرم. _____

١. الأحزاب: ٣٢. (٢١٦)

روى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «إني فرطكم على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم... قال أبو حازم: فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم بهذا الحديث فقال: هكذا سمعت سهلاً يقول؟ فقلت: نعم قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعتة يزيد فيقول: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحراً سحراً لمن بدل بعدى». أخرجه البخاري ومسلم. (١) وظاهر الحديث أنّ المراد بقريته «بذل بعدى» أصحابه الذي عاصروه وصحبوه وكانوا معه مدّة ثم مضوا. روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يرد على يوم القيامة رهط من أصحابي - أو قال من أمتي - فيحلّون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول: إنّه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري». (٢) ثم قال: وللبخاري: أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم فقال: هلم! فقلت: أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري ثم إذا زمرة أخرى، حتى إذا عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم فقال لهم: هلم، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا - أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم». (٣) وظاهر الحديث «حتى إذا عرفتهم» وقوله «ارتدوا على أدبارهم» _____

١. جامع الأصول لابن الأثير: ١١/١٢٠، كتاب الحوض في ورود الناس عليه، رقم الحديث ٧٩٧٢. و«الفرط»: المتقدّم قومه إلى الماء، ويستوى فيه الواحد والجمع، يقال رجل فرط وقوم فرط.

٢. جامع الأصول ١١/١٢٠، رقم الحديث ٧٩٧٣.

٣. جامع الأصول: ١١/١٢١، و«همل النعم» كناية عن أنّ الناجي عدد قليل، وقد اكتفينا من الكثير بالقليل، ومن أراد الوقوف على ما لم نذكره فليرجع إلى «جامع الأصول». (٢١٧)

القهقري» أنّ الذين أدركوا عصره وكانوا معه، هم الذين يرتدون بعده. الصحابة والتاريخ المتواتر كيف يمكن عدّ الصحابة جميعاً عدولاً والتاريخ بين أيدينا نرى أنّ بعضهم ظهر عليه الفسق في حياة النبي وبعده، كوليد بن عقبة. أمّا الأوّل فقد عرفت نزول الآية في حقه، وأمّا الثاني فروى أصحاب السير والتاريخ أنّ الوليد بن عقبة أيام ولايته بالكوفة شرب الخمر وقام ليصلي بالناس صلاة الفجر فصلّى أربع ركعات، وكان يقول في ركوعه وسجوده: اشربني واسقني، ثمّ قاء في المحراب ثمّ سلم، وقال: هل أزيدكم... إلى آخر ما ذكره. (١) وبعضهم ظهرت عليه سمة الارتداد عندما بدت علائم الهزيمة عند المسلمين فقال: لا تنتهي

هزيمتهم دون البحر (٢)، وقال الآخر: ألا بطل السحر. (٣) وهذا رسول الله يخاطب ذى الخويصرة عندما قال للنبي في تقسيم غنائم «حنين»: اعدل، بقوله: «ويحك إن لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟! ثم قال: فإنه يكون له شيعه يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية». (٤) وهذا أبو سفيان يضرب برجله قبر حمزة - عليه السلام - ويقول: ذق عقق إن الملك الذي كنا نتنازع عليه أصبح اليوم بيد صبيانا. (٥)

١ . الكامل لابن الأثير: ٢/٥٢؛ أسد الغابة: ٥/٩١ وغيرهما. وقد أقام الإمام أمير المؤمنين على - عليه السلام - عليه الحد في خلافة عثمان بإصرار من الناس وإلحاح منهم لئلا تتعطل الحدود.

٢ . سيرة ابن هشام: ٤/٤٤٣ والقائل أبو سفيان.

٣ . سيرة ابن هشام: ٤/٤٤٤ والقائل كلدة بن الحنبل فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك.

٤ . سيرة ابن هشام: ٤/٤٩٦.

٥ . قاموس الرجال: ١٠/٨٩ نقلاً عن الشرح الحديدي. (٢١٨)

وهذا أبو سفيان عندما بويح عثمان، دخل إليه بنو أبيه حتى امتلأت بهم الدار ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا جنه ولا نار ولا بعث ولا قيامة. (١) أهمل بعد هذه الكلمات الكاشفة عن الردة الخبيثة يصح لمسلم أن يعد هؤلاء وأمثالهم من صنف العدول وطبقة الصالحين ويعد جرحهم إبطالاً للكتاب والسنة و تضعيفاً لشهود المسلمين؟! آراء الصحابة بعضهم حول البعض

إن النظر العابرة لتاريخ الصحابة تقتضى بأن بعضهم كان يتهم الآخر بالنفاق والكذب، كما أن بعضهم كان يقاتل بعضاً، ويقود جيشاً لمحاربتهم، فقتل بين ذلك جماعة كثيرة، أهمل يمكن تبرير أعمالهم من الشاتم والمشتوم، والقاتل والمقتول وعدوهم عدولاً ومثلاً للفضل والفضيلة؟! وإليك نزراً سيراً من تاريخهم مما حفظته يد النقل غفلة عن المبادئ العامة لأصحاب الحديث: ١. روى البخارى مشاجرة سعد بن معاذ مع سعد بن عباد - سيد الخزرج - فى قضية الإفك قال: قام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى وهو على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى، والله ما علمت على أهلى إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلى إلا معى». فقام سعد بن معاذ، أخو بنى عبد الأشهل فقال: أنا يا رسول الله أعذرك فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرك. فقام رجل من الخزرج: وهو سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل. فقام أسيد بن حضير

١ . الشرح الحديدي: ٩/٥٣ نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري. (٢١٩)

وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عباد: كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فنار الحيات: الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتلوا رسول الله قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت. (١) اقرأ فاقض، فإن هؤلاء يتهم بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق، ونحن نعتبرهم عدولاً صلحاء، والإنسان على نفسه بصيرة. ٢. إن الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم والثورة التى أقامها أصحاب النبى ومن اتبعهم على عثمان بن عفان حتى جرت إلى قتله، أفضل دليل على أنه لا- يصح تعريف الصحابة وتوصيفهم بالعدالة والتقوى، إذ كيف يصح أن يكون القاتل والمقتول كلاهما على الحق والعدالة؟! وهذا هو طلحة وهذا الزبير قد جهزا جيشاً جراراً لحرب الإمام على - عليه السلام - وأعانتها أم المؤمنين فقتلت جماعة كثيرة بين ذلك، فهل يمكن تعديل كل هذه الجماعة حتى الباغين على الإمام المفترض الطاعة بالنص أولاً، وبيعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً؟! وهذا معاوية بن أبى سفيان يعد من الصحابة وقد صنع بالإسلام والمسلمين ما قد صنع مما هو مشهور فى التاريخ، و من ذلك أنه حارب الإمام علياً عليه الصلاة والسلام فى حرب صفين، وكان على مع كل من بقى من البدرين وهم قريب من مائة شخص، فهل من حارب هؤلاء

الصحابة جميعاً بما فيهم سيد الصحابة على - عليه السلام - يعدّ من أهل الفضل والصلاح والعدالة؟! فاقض ما أنت قاض. لقد نقل صاحب المنار: أنه قال أحد علماء الألمان في «الآستانة» لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغي لنا أن نقيم تمثلاً من الذهب لمعاوية ابن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا «برلين». قيل له: لماذا؟! قال: _____

١. صحيح البخارى: ١١٨/٥/١١٩ فى تفسير سورة النور. (٢٢٠)

لأنه هو الذى حول نظام الحكم الإسلامى عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب (الملك لمن غلب) ولولا ذلك لعمّ الإسلام العالم كله، ولكننا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا عرباً مسلمين. (١) هذا خال المؤمنين و من يترحم عليه خطباء الجمعة والجماعة، فكيف حال غيره؟! أضف إليه ما له من الموبقات والمهلكات ممّا لا يمكن لأحد إنكاره. والاعتذار منه فى تبرير أعماله القاسية باجتهاده فى ما ناء به وباء بإثمته من حروب دامية وإزهاق نفوس بريئة تعد بالآلاف المؤلفة، ليس إلا ضلالة وخداعاً للعقل، فإنه اجتهاد على خلاف ما يريد الله وضدّ رسوله، وإلا يصحّ أن يعد جميع المناوئين للإسلام مجتهدين فى صدر الإسلام ومؤخّره. هذا مجمل القول فى هذا الأصل الذى اتّخذة أصحاب الحديث أصلاً من أصول الإسلام ثم أدخله الأشعري فى الأصول التى يتبناها أكثر أهل السنّة والجماعة. التعذير التافه أو أسطورة الاجتهاد

وما أتفه قول من يريد تبرير عمل هؤلاء بالاجتهاد، وأنهم كانوا مجتهدين فى أعمالهم وأفعالهم، أفهل يصحّ تبرير عمل القتل والفتك والخروج على الإمام المفترض طاعته، بالاجتهاد؟! ولو صحّ هذا الاجتهاد (ولن يصحّ أبداً) لصحّ عن كلّ من خالف الحقّ وحالف الباطل من اليهود والنصارى وغيرهم من الطعام اللثام. أى قيمة للاجتهاد فى قبال النص وصریح السنّة النبوية وإجماع الأمة؟! أى قيمة للاجتهاد الذى أباح دماء المسلمين ودمّر كيانهم وشقّ عصاهم وفكّ عرى وحدتهم، أى، وأى، وأى؟! إن القائلين بعدالة الصحابة يتمسّكون بما يروون عن النبى أنه قال: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». (٢) غير أن متن الحديث يكذب صدوره عن

١. تفسير المنار: ١١/٢٦٩ فى تفسير سورة يونس.

٢. جامع الأصول: ٩/٤١٠ رقم الحديث ٦٣٥٩، كتاب الفضائل. (٢٢١)

النبى إذ ليس كلّ نجم هادياً للإنسان فى البر والبحر، بل هناك نجوم خاصة موجبة للاهتداء، ولأجل ذلك قال سبحانه: (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ). (١) ولم يقل: وبالنجوم هم يهتدون، ولو كان كلّ نجم هادياً للضال لكان الأنسب الإتيان بصيغة الجمع. ولو افترضنا صحّة الاهتداء بكلّ نجم فى السماء، أفهل يمكن أن يكون كلّ صحابى نجماً لامعاً فى سماء الحياة، هادياً للأمة؟! هذا قدامة بن مظعون صحابى بدرى يعد من السابقين الأولين ومن المهاجرين هجرتين، روى أنه شرب الخمر وأقام عليه عمر الحد. (٢) كما أن المشهور أن عبد الرحمن الأصغر بن عمر بن الخطاب قد شرب الخمر. (٣) وقد ارتد طليحة بن خويلد عن الإسلام وادّعى النبوة، ومثله مسيلمة والنعسى الكذابان وأمرهما أشهر من أن يذكر. إن بعض الصحابة خضب وجه الأرض بالدماء، فقرأ تاريخ بسر بن أرطأة حتى إنه قتل طفلين لعبيد الله بن عباس!! وكم وكم بين الصحابة لده هؤلاء من رجال العيث والفساد قد حفل التاريخ بضبط مساوئهم، أبعد هذه البيئات يصح لأى ابن أنثى أن يتقول بعدالة الصحابة مطلقاً ويتخذها مذهباً ويرمى المخالف له، بما هو برىء منه؟! الموقف الصحيح من الصحابة

والنظرية القويمة المستقيمة هى نظرية الشيعة المنعكسة فى الدعاء المروى عن الإمام الطاهر على بن الحسين - عليهما السلام - ترى أن يدعو الله سبحانه فى حقّ أصحاب محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلّم - لا لكلّهم، بل للذين أحسنوا _____

١. النحل: ١٦.

٢. أسد الغابة: ٤/١٩٩ وسائر كتب التراجم.

٣. أسد الغابة: ٣/٣١٢. (٢٢٢)

الصحة، والذين ألبوا البلاء الحسن في نصره، والذين عاضدوه وأسرعوا إلى وفادته وإليك تلك الكلمة المباركة من الصحيفة السجادية: «اللهم وأصحاب محمد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين ألبوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القربات، إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك و بما حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك دعاء لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم، وخرجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم، اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا...» (١) خاتمة المطاف

إن لأبي المعالي الجويني كلاماً حول الصحابة دعا فيه إلى أن الواجب، الكف والإمساك عن الصحابة وعمّا شجر بينهم، نقله الشارح الحديدي في شرحه على نهج البلاغة كما نقل نقد بعض الزيدية له الذي سمعه من أستاذه النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري في سنة إحدى عشرة وستمئة ببغداد وعنده جماعة و ما نقله عن أستاذه رسالة مبسوطه في الموضوع فيها نكات بديعة لا يسعنا إيرادها في المقام، ولذلك نقتبس بعضها وقد نقل فيها قضايا تعرب عن جريان السيرة على النقد والرد والمشاجرة، وإليك بعضها: ١. هذه عائشة أم المؤمنين خرجت بقميص رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالت للناس: هذا قميص رسول الله لم يبل، وعثمان قد أبلى

١. الصحيفة السجادية: الدعاء الرابع مع شرحه، في ظلال الصحيفة السجادية ص ٥٥-٥٩. (٢٢٣)

سنته، ثم تقول: اقتلوا نعتلاً قتل الله نعتلاً، ثم لم ترض بذلك حتى قالت: أشهد أن عثمان جيفة على الصراط غداً. ٢. هذا المغيرة بن شعبة وهو من الصحابة، ادعى عليه الزنا وشهد عليه قوم بذلك، فلم ينكر ذلك عمر، ولا قال: هذا محال وباطل بحجة أن هذا صحابي من صحابة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا يجوز عليه الزنا، كما أن عمر لم ينكر على الشهود ولم يقل لهم: ويحكم هلا تغالتم عنه لما رأيتموه يفعل ذلك، فإن الله تعالى قد أوجب الإمساك عن مساوي أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأوجب الستر عليهم، وهلا تركتموه لرسول الله في قوله: «دعوا لي أصحابي» بل ما رأينا عمر إلا قد انتصب لسماح الدعوى وإقامة الشهادة، وأقبل يقول للمغيرة: يا مغيرة ذهب ربعك، يا مغيرة ذهب نصفك، يا مغيرة ذهب ثلاثة أرباعك، حتى اضطرب الرابع فجلد الثلاثة. وهلا قال المغيرة لعمر: كيف تسمع في قول هؤلاء وليسوا من الصحابة وأنا من الصحابة ورسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قد قال: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم! ما رأينا قال ذلك، بل استسلم لحكم الله تعالى. ٣. وهاننا، من هو أمثل من المغيرة وأفضل، كقدامة بن مظعون، لما شرب الخمر في أيام عمر، فأقام عليه الحد، وهو رجل من عليّة الصحابة، ومن أهل بدر المشهود لهم بالجنة فلم يرد عمر الشهادة ولا درأ عنه الحد بحجة أنه بدرى، ولا قال قد نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن ذكر مساوي الصحابة، وقد ضرب عمر أيضاً ابنه حداً فمات، وكان ممن عاصر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ولم تمنعه معاصرته له من إقامة الحد عليه. ٤. كيف يصح أن يقول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم؟! لأن هذا يوجب أن يكون أهل الشام في صفين على هدى، وأن يكون أهل العراق أيضاً على هدى، وأن يكون قاتل عمار بن ياسر مهتدياً، وقد صحّ الخبر الصحيح أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (٢٢٤)

قال له: «تقتلك الفئة الباغية». وقال الله سبحانه: (فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبَغُّوا حَتَّى تَبْغَى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) (١) فدلّ على أنها ما دامت موصوفة بالمقام على البغي فهي مفارقة لأمر الله، ومن يفارق أمر الله لا يكون مهتدياً. وكان يجب أن يكون بسر بن أبي أرطأة الذي ذبح ولدى عبيد الله بن عباس الصغيرين، مهتدياً، لأنّ بسرّاً من الصحابة أيضاً وكان يجب أن يكون عمرو بن العاص ومعاوية اللذان كانا يلعان علياً وولديه أ دبار الصلاة، مهتدين، وقد كان في الصحابة من يزني، ومن يشرب الخمر، كأبي محجن الثقفي، ومن ارتد عن الإسلام،

كطليحة بن خويلد، فيجب أن يكون كل من اقتدى بهؤلاء في أفعالهم مهتدياً. ٥. إن هذا الحديث «أصحابي كالنجوم» من موضوعات متعصبة الأموية، فإن لهم من ينصرهم بلسانه وبوضعه الأحاديث إذا عجز عن نصرهم بالسيف، وكذا القول في الحديث الآخر وهو قوله: «خير القرون القرن الذي أنا فيه» ومما يدل على بطلانه أن القرن الذي جاء بعده بخمسين سنة، هو شرّ قرون الدنيا، وهو أحد القرون التي ذكرها في النصّ وكان ذلك القرن هو القرن الذي قتل فيه الحسين، وأوقع بالمدينة، وحوصرت مكة، ونقضت الكعبة، وشربت خلفاؤه والقائمون مقامه المنتصبون في منصب النبوة، الخمر وارتكبوا الفجور، كما جرى ليزيد بن معاوية ولزيد بن عاتكة وللوليد بن يزيد، وأريق الدماء الحرام، وقتل المسلمون وسبى الحرير، واستعبد أبناء المهاجرين والأنصار ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدي الروم، وذلك في خلافة عبد الملك، وإمرة الحجاج، وإذا تأملت كتب التواريخ وجدت الخمسين الثانية، شراً كلها، لا خير فيها ولا في رؤسائها وأمرائها، والناس برؤسائهم وأمرائهم. والقرن خمسون سنة فكيف يصح هذا الخبر؟ ٦. فأما ما ورد في القرآن من قوله تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ) (٢)، وقوله: (مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ...) (٣) وقول

١. الحجرات: ٩.

٢. الفتح: ١٨.

٣. الفتح: ٢٩. (٢٢٥)

النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ» إن كان الخبر صحيحاً، فكله مشروط بسلامة العاقبة، ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلفاً غير معصوم، بأنه لا عقاب فيه فليفعل ما شاء. ٧. من الذي يجترئ على القول بأن أصحاب محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لا تجوز البراءة من أحد منهم وإن أساء وعصى بعد قول الله تعالى للذي شرفوا برويته: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ). (١) وبعد قوله: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ). (٢) وبعد قوله: (فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ). (٣) إلا من لا فهم له ولا نظر معه ولا تمييز عنده. ٨. والعجب من الحشوية وأصحاب الحديث إذ يجادلون في معاصي الأنبياء ويثبتون أنهم عصوا الله تعالى، وينكرون على من ينكر ذلك ويطعنون فيه، ويقولون: قدرى، معتزلى، وربما قالوا: ملحد مخالف لنصّ الكتاب، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يجادل في هذا الباب، فتارة يقولون: إن يوسف قعد من امرأة العزيز مقعد الرجل من المرأة، وتارة يقولون: إن داود قتل أوريا لينكح امرأته، وتارة يقولون: إن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان كافراً ضالاً- قبل النبوة وربما ذكروا زينب بنت جحش وقصة الفداء يوم بدر، فأما قدحهم في آدم - عليه السلام - وإثباتهم معصيته ومناظرتهم من ينكر ذلك، فهو رأيهم وديدنهم، فإذا تكلم واحد في عمرو بن العاص ومعاوية، وأمثالهما ونسبهم إلى المعصية وفعل القبيح احمزت وجوههم، وطالت أعناقهم وتخازرت أعينهم، وقالوا: مبتدع رافضى، يسب الصحابة ويشتم السلف، فإن قالوا: إنما اتبعنا في ذكر معاصي الأنبياء نصوص الكتاب. قيل لهم: فاتبعوا في البراءة من جميع العصاة نصوص الكتاب، فإنه تعالى قال: (لا تجد

١. الزمر: ٦٥.

٢. الأنعام: ١٥.

٣. ص: ٢٦. (٢٢٦) قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. (١)

وقال: (فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفْتَى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ). (٢) وقال: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (٣). (٤) قتل الخليفة

قد تصافق أهل السير والتاريخ أن عثمان بن عفان قد حوَصر ثم هوجم وقتل في عاصمة الإسلام، قد قتله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، حتى منعوا عن تجهيزه وتغسيله ودفنه والصلاة عليه، وهذا إمام المؤرخين يتلو علينا كيفية الإجهاز عليه والهجوم على داره بعد محاصرته قرابة أربعين يوماً: يقول الطبرى: دخل محمد بن أبي بكر على عثمان فأخذ بلحيته... ثم دخل الناس، فمنهم من يجأه بنعل

سيفه، وآخر يلكزه، وجاءه رجل بمشاقص معه فوجأه في ترقوته، ودخل آخرون فلمّا رأوه مغشياً عليه جرّوا برجله، وجاء التجيبي مخترباً سيفه ليضعه في بطنه فوقته نائلةً فقطع يدها، واتكأ بالسيف عليه في صدره، وقتل عثمان رضى الله عنه قبل غروب الشمس. وفي نص آخر يقول: طعن محمد بن أبي بكر جنيبه بمشقص في يده، وضرب كنانة بن بشر مقدم رأسه بعمود، وضربه سودان بن حمران المرادي بعد ما خرّ لجبينه، و وثب عمرو بن الحمق فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات إلى آخر ما ذكره. (٥) وقد وقعت الواقعة بمراى ومسمع من معظم الصحابة وليس لأحد أن يتفوه أنّهم لم يكونوا عالمين بها، فإنها ما كانت مباغته ولا غيلة حتى يكونوا في غفلة

١ . المجادلة: ٢٢.

٢ . الحجرات: ٩.

٣ . النساء: ٥٩.

٤ . الشرح الحديدي: ٢٠/١٢-٣٣، والرسالة مبسوطة مفصلة أخذنا المهم منها.

٥ . تاريخ الطبري: ٣/٤٢٣. (٢٢٧)

عنها، وقد استمر الحوار أكثر من شهرين والحصر حوالى أربعين يوماً، كلّ ذلك يعرب عن أنّهم كانوا راضين بهاتيكم الأحداث، لو لم نقل إنّهم كانوا بين مباشر لها، إلى خاذل للمودى به، إلى مؤلّب عليه، إلى راض بما فعلوا، إلى مجذّب لتلك الأحوال كما هو واضح لمن قرأ تاريخ الدار وقتل الخليفة، متجرداً عن أهواء وميول أموية. فعندئذ يدور الأمر بين أمرين، بأيّهما أخذنا يبطل الأصل المزعوم من عدالة الصحابة أجمع. فإن كان الخليفة قائماً على جادة الحقّ غير مائل عن الطريقة المثلى، فالمجهزون على قتله والناصرين لهم فساق إن لم نقل إنّهم مراق عن الدين لخروجهم على الإمام المفترضة طاعته. وإن كان مائلاً عن الحقّ، منحرفاً عن الطريقة، مستحقاً للقتل فما معنى القول بعدالة الصحابة كلّهم من إمامهم إلى مأمومهم. وأمّا تبرير عمل المجهزين عليه، المهاجمين على داره بأنهم كانوا عدولاً خاطئين في اجتهادهم، فهو خداع وضلال لا يصار إليه، ولا يركن إليه أى ذى مسكة من العقل إذ أى قيمة لاجتهادهم تجاه نصوص الكتاب؟ قال عزّ من قائل: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا). (١) كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين - عليه السّلام -

وهناك كلمة قيمة للإمام أمير المؤمنين - عليه السّلام - تمثل نظريته في حقّ الصحابة رواها نصر بن مزاحم المنقرى (المتوفى عام ٢١٢هـ) في حديث عمر بن سعد: دخل عبد الله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، والمغيرة بن شعبة مع

١ . المائدة: ٣٢. (٢٢٨)

أناس معهم وكانوا قد تخلّفوا عن علي. فدخلوا عليه فسألوه أن يعطيهم عطاءهم - وقد كانوا تخلّفوا عن علي حين خرج إلى صفين والجمل - فقال لهم علي: «ما خلفكم عنى؟» قالوا: قتل عثمان ولا ندرى أحلّ دمه أم لا؟ وقد كان أحدث أحداثاً ثم استتبتموه فتاب، ثم دخلتم في قتله حين قتل، فلسنا ندرى أصبتم أم أخطأتم؟ مع أنّا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين وسابقتك وهجرتك». فقال علي: «ألستم تعلمون أنّ الله عزّ وجلّ قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر» فقال: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) (١)؟ قال سعد: يا علي أعطني سيفاً يعرف الكافر من المؤمن، أخاف أن أقتل مؤمناً فأدخل النار؟ فقال لهم علي: «ألستم تعلمون أنّ عثمان كان إماماً بايعتموه على السمع والطاعة فعلام خذلتموه إن كان محسناً، وكيف لم تقاتلوه إذ كان مسيئاً. فإن كان عثمان أصاب بما صنع فقد ظلمتم، إذ لم تنصروا إمامكم وإن كان مسيئاً فقد ظلمتم، إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بما أمركم الله به، فإنه قال: (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) «فردّهم ولم يعطهم شيئاً. وكان علي - عليه السّلام - إذا صلياً الغداة والمغرب وفرغ من الصلاة يقول: «اللهم العن معاوية وعمراً وأبا موسى وحبيب بن مسلمة والضحاك بن قيس والوليد بن عقبة وعبد الرحمن بن خالد

بن الوليد»، فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا قنت لعن علياً وابن عباس وقيس بن سعد والحسن والحسين. (٢) وفي كلامه هذا دليل قاطع على أن هؤلاء الجائنين إلى على لأخذ عطائهم، خونه ظلمة لا يمكن الحكم بعدالتهم، لأنهم إما ظلموا إمامهم العادل، إذ لم ينصروه وإما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعينوا الإمام القائم بالعدل. _____

١. الحجرات: ٩.

٢. وقعه صفيين: ٥٥١-٥٥٢. (٢٢٩)

أضف إلى ذلك أن الملاعنة من الطرفين أقوى شاهد على فساد إحدى الطائفتين وليس الحق خافياً على مبتغيه، كما أن الصحيح لا يخفى على ذي عينين. وهناك كلام للشيخ التفتازاني في شرح مقاصده أخذته العصبية في الدعوة إلى ترك الكلام في حق البغاة والجائرين، ومع ذلك كله فقد أصرح بالحقيقة فقال: ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور في كتب التواريخ والمذكور على ألسنة الثقات يدل بظاهره على أن بعضهم قد حاد عن طريق الحق، وبلغ حد الظلم والفسق، وكان الباعث له الحقد والعناد والحسد واللداد وطلب الملك والرئاسة والميل إلى اللذات والشهوات، إذ ليس كل صحابي معصوماً، ولا كل من لقي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بالخير موسوماً، إلا أن العلماء لحسن ظنهم بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق، وذهبوا إلى أنهم محفوظون عما يوجب التضليل والتفسيق صوناً لعقائد المسلمين عن الزيغ والضلالة في حق كبار الصحابة سيما المهاجرين منهم، والأنصار، والمبشرين بالثواب في دار القرار. وأما ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء، ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، إذ تكاد تشهد به الجماد والعجماء، ويبكى له من في الأرض والسماء، وتهد منه الجبال وتنشق الصخور، ويبقى سوء عمله على كثر الشهور، ومر الدهور فلعنة الله على من باشر أو رضى أو سعى ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. فإن قيل: فمن علماء المذاهب من لم يجوز اللعن على يزيد مع علمهم بأنه يستحق ما يربو على ذلك ويزيد؟ قلنا: تحامياً عن أن يرتقى إلى الأعلى فالأعلى كما هو شعار الروافض على ما يروى في أدعيتهم ويجرى في أنديتهم، فرأى المعتنون بأمر الدين، إجماع العوام بالكلية طريقاً إلى الاقتصاد في الاعتقاد، بحيث لا تنزل الأقدام على السواء ولا- تضل الأفهام بالأهواء والأفمن يخفى عليه الجواز والاستحقاق وكيف لا يقع عليهما الاتفاق، وهذا هو السر فيما نقل عن السلف من المبالغة في مجانبة أهل الضلال وسد طريق لا يؤمن (٢٣٠)

أن يجر إلى الغواية في الم آل مع علمهم بحقيقة الحال، وجليه المقال، وقد انكشف لنا ذلك حين اضطربت الأحوال واشترأت الأحوال، وحيث لا- متسع ولا- مجال والمشتكى إلى عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. (١) إن بعض المنصفين من المصريين المعاصرين قد اعترف بالحق وأراد الجمع بين رأيي السنة والشيعه في حق الصحابة فقال: إن منهج أهل السنة في تعديل الصحابة أو ترك الكلام في حقهم، منهج أخلاقي وإن طريقة الشيعة في نقد الصحابة وتقسيمهم إلى عادل وجائر منهج علمي، فكل من المنهجين مكمل للآخر. وهذا هو ما أعربنا عنه في صدر البحث وقلنا: «عدالة الصحابة بين العاطفة والبرهان» أي بين الأخلاق والموضوعية، وإليك نص كلامه: «يرى أهل السنة: أن الصحابة كلهم عدول، وأنهم جميعاً مشتركون في العدالة وإن اختلفوا في درجاتها. وأن من كفر صحابياً فهو كافر، ومن فسقه فهو فاسق. وإن طعن في صحابي فكأنما طعن على رسول الله. وأن من طعن على حضرة الرسول - عليه السلام - فهو زنديق بل كافر. ويرى جهابذة أهل السنة أيضاً أنه لا يجوز الخوض فيما جرى بين على - رضى الله عنه - و معاوية من أحداث التاريخ. وأن من الصحابة من اجتهد وأصاب وهو «على» و من نحا نحوه. وأن منهم من اجتهد وأخطأ مثل معاوية وعائشة رضى الله عنها و من نحا نحوهما. وأنه ينبغي - في نظر أهل السنة - الوقوف والإمساك عند هذا الحكم دون التعرض لذكر المثالب. ونهوا عن سب معاوية باعتباره صحابياً، وشدّدوا النكير على من سب عائشة باعتبارها أم المؤمنين الثانية بعد خديجة وباعتبارها حب رسول الله. _____

١. شرح المقاصد: ٣٠٦-٣٠٧. (٢٣١)

وما زاد على ذلك فينبغي ترك الخوض فيه وإرجاء أمره إلى الله سبحانه. وفي ذلك يقول أبو الحسن البصري وسعيد بن المسيب: تلك أمور طهر الله منها أيدينا وسيوفنا، فلنظهر منها ألسنتنا. هذه آراء أهل السنة في عدالة الصحابة وفيما ينبغي أن نقف منهم. أما الشيعة فيرون أن الصحابة كغيرهم تماماً لا فرق بينهم وبين من جاء بعدهم من المسلمين إلى يوم القيامة. وذلك من حيث خضوعهم لميزان واحد هو ميزان العدالة، الذي توزن به أفعال الصحابة كما توزن أفعال من جاء من بعدهم من الأجيال. وإن الصحبة لا تعطى لصاحبها منقبة إلا إذا كان أهلاً لهذه المنقبة وكان لديه الاستعداد للقيام برسالة صاحب الشريعة - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . وإن منهم المعصومين كالأئمة الذين نعموا بصحبة الرسول - عليه السلام - كعلي وابنيه - عليهم السلام - . ومنهم العدول وهم: الذين أحسنوا الصحبة لعل بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى. ومنهم المجتهد المصيب، ومنهم المجتهد المخطئ. ومنهم الفاسق، ومنهم الزنديق - وهو أقبح من الفاسق وأشد نكالا - ويدخل في دائرة الزنديق المنافقون والذين يعبدون الله على حرف. كما أن منهم الكفار وهم الذين لم يتوبوا من نفاقهم والذين ارتدوا بعد الإسلام. ومعنى هذا أن الشيعة - وهم شطر عظيم من أهل القبلة - يضعون جميع المسلمين في ميزان واحد ولا يفرقون بين صحابي وتابعي ومتأخر. كما لا يفرقون بين مغرق في الإسلام وحديث عهد به إلا باعتبار درجة (٢٣٢)

الأخذ بما جاء به حضرة الرسول صلوات الله عليه والأئمة الاثنا عشر من بعده. وإن الصحبة في ذاتها ليست حصانه يتحصن بها من درجة الاعتقاد. وعلى هذا الأساس المتين أباحوا لأنفسهم - اجتهاداً - نقد الصحابة والبحث في درجة عدالتهم. كما أباحوا لأنفسهم الطعن في نفر من الصحابة أخلوا بشروط الصحبة وحادوا عن محبة آل محمّد - عليهم السلام - . كيف لا، وقد قال الرسول الأعظم: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي آل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما». وعلى أساس من هذا الحديث ونحوه يرون أن كثيراً من الصحابة خالفوا هذا الحديث باضطهادهم لآل محمد، ولعنهم لبعض أفراد هذه العترة. ومن ثم، فكيف يستقيم لهؤلاء المخالفين شرف الصحبة، وكيف يوسمون بسمه العدالة؟! ذلك هو خلاصة رأى الشيعة في نفي صفة العدالة عن بعض الصحابة وتلك هي الأسباب العلمية الواقعية التي بنوا عليها حججهم. والمتأمل يرى أن الفرق بين هذين الموقفين كالفرق بين المنهج الأخلاقي والمنهج العلمي، وأن كلا المنهجين مكمل لصاحبه. (١) هذا غيض من فيض، وقليل من كثير من تاريخ الصحابة وأحوالهم وهي مشحونة بالصواب والخطأ والهدى والضلال. ضعه أمام عقلك وفكرك فاقض ما أنت قاض ولا تتبع الهوى. (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنَّ

١ . الأستاذ حفنى داود المصرى: نظرات فى الكتب الخالدة: ١١١. (٢٣٣) الله يحبُّ المُقسّطين). (١) (ولكلِّ درجاتٍ ممَّا عملوا وما رَبِّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ). (٢)

*** (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم) (٣).

١ . المائدة: ٤٢.

٢ . الأنعام: ١٣٢.

٣ . الأنعام: ١٦٥.

الإيمان بالقدر خيره و شره

الإيمان بالقدر خيره و شره

هذا هو الأصل الثالث الذى اتفقت عليه كلمات أهل الحديث. القدر كما ذكره بعض أئمة اللغة. حد كل شىء ومقداره. والقضاء بمعنى الحكم البات، قال سبحانه: (إنا كل شىء خلقناه بقدر) (١) وقال تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه). (٢) وعلى هذا فالقدر

في الأشياء، هو تحديد وجود الشيء والقضاء هو إبرامه، ويؤيد ذلك ما روى عن بعض أئمة أهل البيت - عليهم السلام -: القدر هو الهندسة ووضع الحدود في البقاء والفناء، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين. (٣) القول بالقضاء والقدر على نحو الإجمال من العقائد الإسلامية التي لا يصح لمسلم إنكارها، ولو كان هناك اختلاف فإنما هو في تفسيرهما وأنه هل القضاء والقدر بمعنى التقدير والحتم على أفعال الإنسان وخلقها بلا إرادة واختيار منه، وأنه في مسرح الحياة مكتوف اليدين فيما كتب وقدر عليه حتى فيما يتعلق بالتكاليف (الحلال والحرام) أو أنه بمعنى علمه السابق، على وجود الأشياء وتقديره وتحديده والحكم بوجودها على وجه لا ينافي اختيار العبد وحرية من

١. القمر: ٤٩.

٢. الإسراء: ٢٣.

٣. الكافي: ١/١٥٨. (٢٣٥)

الأساس. وإن شئت قلت: ثبوت الأمر الجارى في العلم الأزلئ الإلهي مع إعطاء القدرة على الفعل والترك وتعريف الخير والشر، وبيان عاقبة الأول ومغبة الأخير، فهذا العلم السابق لا يستلزم جبراً، وعلمه سبحانه بمقادير ما يختاره العباد من النجدين وما يأتون به من العمل من خير أو شر لا ينافي التكليف، كما لا سبب له في اختيار المكلفين ولا يقبح معه عقلاً، العقاب على المعصية ولا يسقط معه الثواب على الطاعة. أما سبق علمه سبحانه على خصوصيات الفعل وتحققه وعدمه، فيكفى في ذلك قوله سبحانه: (ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفسِكُمْ إلا في كتابٍ من قبلِ أن نبرأها إن ذلك على الله يسير). (١) وقوله سبحانه: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ). (٢) وقال عز من قائل: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأِنَّهَا عَلَىٰ أَصُولِهَا بِبِإِذْنِ اللَّهِ). (٣) و أما كون القدر والقضاء لا ينافي التكليف، فيكفى قوله سبحانه: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (٤) وقوله سبحانه: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ). (٥) وقوله سبحانه: (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ). (٦) فالله سبحانه خلق الإنسان مزيجاً من العقل والنفس مع خلق الآيات التالية: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ). (٧) (فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ). (٨) (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

١. الحديد: ٢٢.

٢. القمر: ٥٢-٥٣.

٣. الحشر: ٥.

٤. الإنسان: ٣.

٥. البلد: ١٠.

٦. لقمان: ١٢.

٧. فاطر: ٣٢.

٨. يونس: ١٠٨. (٢٣٦) وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ. (١) (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا). (٢) (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا). (٣)

إلى غير ذلك من الآيات التي تنص على حرية الإنسان في اختياره خصوصاً فيما يرجع إلى الطاعة والمعصية. إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة: إنه سبحانه «يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير» (٤) وفي ضوء ذلك نعتقد بأنه سبحانه يعلم أعمارنا وأرزاقنا وما يجري في حياتنا من الأحداث، وما نقوم به من الأفعال كما يعلم مواعيد وفاتنا والكل موجود في (كتاب مبين). (٥) لكن علمه السابق بما يجري في صحيفة الكون لا- يجعل الإنسان مكتوف اليد أمام الملابس التي حوله ولا- يصيره

كالريشة في مهب الريح، بل هو في الكون محكوم من جهة ومختار من جهة أخرى، محكوم بالسنن العامة السائدة على الكون والحياة ولا يمكن الخروج عنها، مختار في ما تتعلق به إرادته وفي موقفه من الملابس التي حوله. فالنوازل والمصائب والحروب الطاحنة تنتابه، شاء أم لم يشأ والموت يدمر حياته وكيانه والسموم القتالة تهلكه والجرائم الضارية تنحرف بها صحته، ولكنه غير مسؤول أمام هذه الأمور الخارجة عن اختياره، ولكنه أمام نعمه سبحانه والإمكانات التي حوله أمام خيارين: فله أن يستفيد منها بما يمد حياته في الدنيا ويسعده في الآخرة كما أن له خلاف ذلك. فلو قلنا: الإنسان مخير لا مسير، فإنما _____

١ . الجاثية: ١٥.

٢ . الأنعام: ١٠٤.

٣ . الإسراء: ٧.

٤ . اقتباس من قوله سبحانه: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء...) (الحج: ٧٠).

٥ . إشارة إلى قوله سبحانه: (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (الأنعام: ٥٩). (٢٣٧)

نريد هذا الجانب الثاني، ولو قيل إنه مسير لا- مخير، فلا بد أن يراد منه الجانب الأول. ثم إن في الذكر الحكيم آيات ودلالات وتصريحات على كون الإنسان مخيراً، وهي على حدّ لا- يمكن جمعها في مقام واحد. يقول الله لكلّ بشر على ظهر الأرض: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ) (١)، فهل ربط الجزاء بالعمل هنا من قبيل المزاح أو الخديعة؟ وعندما يصف ربنا جزاء الكذبة والمكذبين وبيّن عقبي عملهم ويقول: (فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (٢) هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء؟ وهل هذه النعمة المحسوسة على المجرمين تومئ من قرب أو بعد إلى أن القوم كانوا أهل خير فلوى زمامهم قدر سابق أو كتاب لاحق؟ ما أقبح هذا الفهم! في يوم الحساب يحصد الناس ما زرعوا لأنفسهم. والقرآن حريص كل الحرص على إعلان هذه الحقيقة وهي أنك واجد ما قدمت لن تؤخذ أبداً بشيء لم تصنعه، لم تغلب على إرادتك يوماً فيحسب عليك ما لم تشأ. إن المغلوب على عقله أو قصده لا يؤخذ أبداً بل إن التكليف يسقط عنه. وتدبر قوله تعالى: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلَكِنْ كَانَتْ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (٣) ربنا سبحانه و تعالى ينفي الظلم عن نفسه ويقول إنه ما عذب إلا من فرط وأساء. (٤) _____

١ . الروم: ٤٣-٤٤.

٢ . فصلت: ٢٧-٢٨.

٣ . ق: ٢٤-٢٧.

٤ . السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ١٤٨-١٤٩، ولكلامه ذيل فراجع. (٢٣٨)

وعلى ذلك فهنا أمران مسلمان لا يصح لأحد إنكار واحد منهما: ١. إن لله سبحانه علماً سابقاً على كلّ شيء، ومنه أعمال العباد ويعبر عنه بالقدر والتقدير. ٢. الإنسان مخير في ما تتعلق به إرادته ومحكوم فيما هو خارج عن إطار إرادته. وللمسلم الواعي الجمع بينهما على وجه صحيح، وسوف يوافيك بيان هذا الجمع عند البحث عن عقيدة الأشاعرة في كون الإنسان مسيراً لا مخيراً. (١) وعلى ذلك فالاعتقاد بالتقدير والقضاء أمر لا يمكن لمسلم إنكاره كما أن حرية الإنسان في مجال التكليف مثله أيضاً، فإذا ما هو الذي وقع مثاراً للنقاش؟ في النصف الثاني من القرن الأول بل قبله بقليل أيضاً، انتشر القول بالقدر حتى فرق المسلمين إلى قولين: إلى قدرى وجبرى، ولكن قد عرفت أن القدرية مع أنها في اللغة بمعنى مثبتة القدر يراد منه في المصطلح النافون للقدر. لا بد من أن نقف ملياً للتأمل في

تشخيص النزاع بين الطرفين. فنقول: إن التأمل في عقائد بعض العرب في الجاهلية يوحى بأنهم كانوا قائلين بالقدر ومثبتين له بشكل يستنتجون منه سلب المسؤولية عن أنفسهم وإلقاءها على عاتق القدر. وهذا التفسير كان رائجاً بينهم وإن لم يعم الجميع، يقول سبحانه: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذُوقُوا بِأَسْنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ). (٢)

١. لاحظ الجزء الثاني من هذه الموسوعة، وسيوافيك إجماله في آخر هذا البحث عند القول بأن «القدر لا يلزم الجبر».

٢. الأنعام: ١٤٨. (٢٣٩)

ولعل قوله سبحانه: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَحَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءُنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١) يشير إلى أنهم كانوا يعتذرون بأن تقديره سبحانه يلزم الجبر ونفى الاختيار، والله سبحانه يرد على تلك المزعمة بهذا القول. فقد بقيت هذه العقيدة الموروثة من العصر الجاهلي في أذهان بعض الصحابة، فقد روى الواقدي في مغازيه عن أم الحارث الأنصارية وهي تحدث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت: مرّ بي عمر بن الخطاب (منهزماً) فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر الله. (٢) والعجب أن تلك العقيدة بقيت في أذهان بعض الصحابة حتى بعد رحلة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، فهذا السيوطي ينقل عن عبد الله بن عمر أنه جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرأيت الزنى بقدر؟ قال: نعم، قال: فإن الله قدره على ثم يعذبني؟! قال: نعم يابن اللخناء، أما والله لو كان عندى إنسان أمرته أن يجأ أنفك. (٣) لقد كان السائل في حيرة من أمر القدر، فسأل الخليفة عن كون الزنى مقدراً من الله أم لا؟ فلما أجاب الخليفة بنعم، استغرب من ذلك لأن العقل لا يسوغ تقديره سبحانه شيئاً بمعنى سلب الاختيار عن الإنسان في فعله أو تركه ثم تعذيبه عليه، ولذلك قال: فإن الله قدره على ثم يعذبني؟ فعند ذاك أقره الخليفة على ما استغربه وقال: نعم يابن اللخناء.

١. الأعراف: ٢٨.

٢. مغازى الواقدي: ٣/٩٠٤.

٣. تاريخ الخلفاء: ٩٥. (٢٤٠) استغلال الأمويين للقدر

لقد اتخذ الأمويون مسألة القدر أداة تبريرية لأعمالهم السيئة، وكانوا ينسبون وضعهم الراهن بما فيه من شتى ضروب العيث والفساد إلى القدر، قال أبو هلال العسكري: إن معاوية أول من زعم أن الله يريد أفعال العباد كلها. (١) ولأجل ذلك لما سألت أم المؤمنين عائشة، معاوية عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين فأجابها: إن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم. (٢) وبهذا أيضاً أجاب معاوية عبد الله بن عمر عندما استفسر من معاوية عن تنصيبه يزيد بقوله: إني أؤذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم. (٣) وقد كانت الحكومة الأموية الجائرة متحمسة على تثبيت هذه الفكرة في المجتمع الإسلامي، وكانت تواجه المخالف بالشتيم والضرب والإبعاد. قال الدكتور أحمد محمود صبحي في كتابه «نظرية الإمامة»: إن معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب، ولكن بآيدولوجية تمس العقيدة في الصميم، ولقد كان يعلن في الناس أن الخلافة بينه وبين علي - عليه السلام - قد احتكما فيها إلى الله ففضى الله له على علي، وكذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز أعلن أن اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة في أمرهم، وهكذا كاد أن يستقر في أذهان المسلمين، أن كل ما يأمر به الخليفة - حتى ولو كانت طاعة الله في خلافه - فهو قضاء من الله قد قدر على العباد. (٤)

١. الأوائل: ٢/١٢٥.

٢. الإمامة والسياسة: ١/١٦٧.

٣. الإمامة والسياسة: ١/١٧١.

٤ . نظرية الإمامة: ٣٣٤. (٢٤١)

وقد سرى هذا الاعتذار إلى غير الأمويين من الذين كانوا في خدمته خلفائهم وأمرائهم فهذا عمر بن سعد بن أبي وقاص قاتل الإمام الشهيد الحسين عليه السلام - لما اعترض عليه عبد الله بن مطيع العدو بقوله: اخترت همدان والرى على قتل ابن عمك فقال عمر: كانت أمور قضيت من السماء، وقد أعدرت إلى ابن عمي قبل الوقعة فأبى إلا ما أبى. (١) ويظهر أيضاً مما رواه الخطيب عن أبي قتادة عندما ذكر قصة الخوارج في النهروان لعائشة فقالت عائشة: ما يمنعني ما بيني وبين علي أن أقول الحق سمعت النبي يقول: تفترق أمتي على فرقتين، تمرق بينهما فرقة مخلقون رؤوسهم، مخفون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم، يقرأون القرآن لا- يتجاوز تراقيهم، يقتلهم أحبهم إلى، وأحبهم إلى الله. قال: فقلت: يا أم المؤمنين فأنت تعلمين هذا فلم كان الذي منك؟! قالت: يا قتادة وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وللقدر أسباب». (٢) وقد كان حماس الأمويين في هذه المسألة إلى حدّ قد كبح ألسن الخطباء عن الإصحاح بالحقيقة، فهذا الحسن البصري الذي كان من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين، وكان يسكت أمام أعمالهم الإجرامية ولكن كان يخالفهم في القول بالقدر بالمعنى الذي كانت تعتمد عليه السلطنة آنذاك. فلما خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، وعد أن لا يعود. روى ابن سعد في طبقاته عن أيوب قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة حتّى خوفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم. (٣) كيف وقد جلد محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة في مخالفته في القدر. قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: «إنّ محمد بن إسحاق اتّهم بالقدر، وقال الزبير عن الدراوردي: ووجد ابن إسحاق معنى في القدر. (٤)»

١ . طبقات ابن سعد: ٥/١٤٨.

٢ . تاريخ بغداد: ١/١٦٠.

٣ . طبقات ابن سعد: ٧/١٦٧.

٤ . تهذيب التهذيب: ٩/٣٨-٤٦. (٢٤٢) أحاديث مختلقة لا تفارق الجبر

وفي ظل هذا الإصرار على القضاء والقدر بهذا المعنى نسجت أحاديث لا تفارق الجبر قيد شعرة. وإليك أمثلة منها: ١. روى مسلم في صحيحه عن زيد بن وهب، عن عبد الله قال: حدّثنا رسول الله وهو الصادق أنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثمّ يكون في ذلك علقه مثل ذلك، ثمّ يكون في ذلك مضغاً مثل ذلك، ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. (١) ٢. وروى عنه أيضاً حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا ربّ أشقى أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي ربّ أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثمّ تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص. (٢) ٣. قال: جاء سراقه بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيما العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟ قال: لا- بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قال: فقيم العمل؟ قال: اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله. (٣) فبناء على الحديث الأوّل لا يقدر الإنسان على إضلال نفسه ولا هدايتها كما

١ . صحيح مسلم: ٨/٤٤ كتاب القدر.

٢ . صحيح مسلم: ٨/٤٥ كتاب القدر.

٣ . جامع الأصول: ١/٥١٦، صحيح مسلم: ٨/٤٨. (٢٤٣)

لا يقدر على أن يجعل نفسه من أهل الجنة أو النار، فكلّما أراد من شيء يكون الكتاب السابق حائلاً بينه وبين إرادته. والحديث الثاني يدلّ على أنّ الإنسان لا يقدر على تغيير مصيره بالأعمال الصالحة والأدعية والصدقات، وأنّ الكتاب الذي سبق، حاكم على الإنسان فلا

يزاد ولا ينقص وهو يخالف النصوص الثابتة في القرآن والسنة من تغيير المصير والزيادة والنقص على المكتوب، بالأعمال الصالحة أو الطالحة. إن تفسير القضاء والقدر بهذا الشكل الذي يجعل الإنسان مكتوف اليدين في بحر الحياة مما ترغب عنه الفطرة السليمة. إن هذه الأحاديث قد نسجت وفق المعتقدات السائدة للسلطة آنذاك حتى تبرر أن الوضع الاجتماعي آنذاك لا يمكن تغييره أبداً فإنه شيء قد فرغ منه. فالفقير يجب أن يبقى هكذا، والغنى كذلك يبقى غنياً، وهكذا المظلوم والظالم. ترى أنهم قد رويوا عن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع - أو مبتدأ - أو فيما قد فرغ منه؟ فقال: «بل فيما قد فرغ منه، يا ابن الخطاب وكل ميسر؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء». وفي رواية قال: لما نزلت (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (١) سألت رسول الله، فقلت: يا نبي الله فعلام نعمل، على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقدام يا عمر! ولكن كل ميسر لما خلق له». (٢) وهذا الحديث يعرب عن أنه قد تم القضاء على الناس في الأزل وجعلهم صنفين وكل ميسر لما خلق له، لا لما لم يخلق له، فأهل السعادة ميسرون _____

١. هود: ١٠٥.

٢. جامع الأصول: ١٠/٥١٦-٥١٧، وفيه أخرجه الترمذي. (٢٤٤)

للأعمال الصالحة فقط، وأهل الشقاء ميسرون للأعمال الطالحة فقط. وهذه المرويات في الصحاح والمسانيد - وقد تقدم بعضها - (١) لا تفتقر عن الجبر وهي تناقض الأصول المسلمة العقلية والنقلية وحاشا رسول الله وخيرة أصحابه أن ينسوا بها بنت شفة وإنما حيك على منوال عقيدة السلطة، وعند ذلك لا تعجب مما يقوله أحمد بن حنبل في رسائله: القدر خيره وشره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومزّه ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيئه وأوله وآخره من الله. قضاء قضاءه، وقدر قدره، لا يعدو أحد منهم مشيئة الله ولا يجاوز قضاءه، بل كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيما قدر عليهم لأفعالهم وهو عدل منه عز ربنا وجل. والزنى والسرقة وشرب الخمر وقتل النفس وأكل المال الحرام والشرك بالله والمعاصي كلها بقضاء وقدر. (٢) وقد سرى الجهل إلى أكثر المستشرقين فاستنتجوا من هذه النصوص أن الإسلام مبني على القول بالجبر وفي ذلك يقول «إيرفنج» - من أعلام الكتاب في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر-: القاعدة السادسة من قواعد العقيدة الإسلامية هي الجبرية، وقد أقام محمد جلّ اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شؤونه الحربية، وهذا المذهب الذي يقرر أن الناس غير قادرين بإرادتهم الحرة على اجتناب الخطيئة أو النجاة من العقاب، ويعتبره بعض المسلمين منافياً لعدل الله، فقد تكونت عدّة فرق جاهدت وهم لا يعتبرون من أهل السنة. (٣) هذا غيظ من فيض ميا يمكن أن يذكر حول القول بالقدر وسيوافيك توضيحه والمضاعفات الناجمة عنه عند البحث عن عقيدة الأشاعرة. إن هنا كلمة للشيخ «محمد الغزالي» المعاصر حول القدر والجبر يعرب _____

١. لاحظ ص ١٥٦-١٦١ من هذا الجزء.

٢. طبقات الحنابلة: ١/١٥ بتصرف يسير، وقد تقدم نص الرسالة.

٣. حياة محمد: ٥٤٩. (٢٤٥)

عن أن المحققين من أهل السنة بدأوا يدرسون الإسلام من جديد أو يدرسون الأصول الموروثة من أبناء الحنابلة وأهل الحديث من رأس وقد رد على القول بالقدر المستلزم للجبر رداً عنيفاً يعرب عن حرته في الرأي وشجاعته الأدبية في تحليل عقائد الإسلام نقبتس منه ما يلي: فمن الناس من يزعم أن الحياة رواية تمثيلية خادعة، وأن التكليف كذوبة وأن الناس مسوقون إلى مصائرهم المعروفة أزلاً طوعاً أو كرهاً وأن المرسلين لم يبعثوا لقطع أعذار الجهل بل المرسلون خدعة تتم بها فصول الرواية أو فصول المأساة والغريب أن جمهوراً كبيراً من المسلمين ينجح إلى هذه الفرية بل إن عامة المسلمين يطوون أنفسهم على ما يشبه عقيدة الجبر، ولكنهم حياءً من الله يسترون الجبر باختيار خافت موهوم، وقد أسهمت بعض المرويات في تكوين هذه الشبهة وتمكينها وكانت بالتالي سبباً في إفساد الفكر الإسلامي وانهايار الحضارة والمجتمع. إن العلم الإلهي المحيط بكل شيء وضياف كشاف يصف ما كان ويكشف ما يكون

والكتاب الدالّ عليه يسجل للواقع وحسب! لا يجعل السماء أرضاً ولا الجماد حيواناً إنّه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص ولا أثر لها في سلب أو إيجاب. إنّ هذه الأوهام (التقدير سالب للاختيار) تكذيب للقرآن والسنة، فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك والقول بأنّ كتاباً سبق علينا بذلك، وأنه لا حيلة لنا بإزاء ما كتب أولاً، هذا كلّه تضليل وإفك لقوله تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصِرْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) (١)، (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ). (٢) والواقع أنّ عقيدة الجبر تطويح بالوحي كلّه وتزييف للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة بل هي تكذيب لله والمرسلين قاطبةً ومن ثمّ فإنّنا

١. الأنعام: ١٠٤.

٢. الكهف: ٢٩. (٢٤٦)

نتناول بحذر شديد ما جاء في حديث مسلم وغيره: إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار... (١) ونظير ذلك ما رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب أنّه سئل عن قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (٢) قال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله يسأل عنها فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: خَلَقْتَ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ. ثُمَّ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ: هَؤُلَاءِ خَلَقْتَ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلِ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهُ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهُ النَّارَ». (٣) فإنّ هذا التفسير المنسوب لعمر يسير في اتجاه مضاو للتفسير البديهي المفهوم من الآيات البيّنات. على أنّه ليس هنا أثر من الجبر الإلهي في الآية التي ورد الحديث في تفسيرها ولا يفيد أنّ الله خلق ناساً للنار يساقون إليها راغمين، وخلق ناساً للجنة يساقون إليها محظوظين! وإنّ التعلق بالمرويات المعلولة إساءة بالغة للإسلام. كلّ ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس،

١. قد مرّ نصّ الحديث في ص ٢٦٤.

٢. الأعراف: ١٧٢.

٣. صحيح الترمذى: ٥١/٢٦٦، رقم الحديث ٣٠٧٥. (٢٤٧)

وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية ومن أثرها في حاضر المرء ومستقبله، وكأّتهم يقولون للناس: أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه، فاجهدوا جهدكم فلن تخرجوا من الخط المرسوم لكم مهما بذلتم! إنّ هذا الكلام الرديء ليس نضح قراءة واعية لكتاب ربّنا، ولا اقتداء دقيقاً بسنة نبينا إنّهُ تخليط قد جئنا منه المرء! وكلّ أثر مروى يشغب على حرية الإرادة البشرية في صنع المستقبل الأخرى يجب أن لا نلتفت إليه فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل لا يهددها حديث واهي السند أو معلول المتن، لكننا مهما توهنا بالإرادة الإنسانية فلا ننسى أنّنا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مد وجزر وصعود وهبوط والسفينة تحكمها الأمواج ولا تحكم الأمواج، ويعنى هذا أن نلزم موقفاً محدداً بإزاء الأوضاع المتغيرة التي تمر بنا هذا الموقف من صنعنا وبه نحاسب. أمّا الأوضاع التي تكتنفنا فليست من صنعنا ومنها يكون الاختيار الذي يبت في مصيرنا، إنّ تصوير القدر على النحو الذي جاءت به بعض المرويات غير صحيح، وينبغي أن لا ندع كتاب ربّنا لأوهام وشائعات تابها روح الكتاب ونصوصه. القرآن قاطع في أنّ أعمال الكافرين هي التي أردتهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (١) وقاطع في أنّ أعمال الصالحين هي التي تنجيهم (وَتُؤَدُّوا أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رَتَّبْتُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). (٢) فلا احتجاج بقدر ولا

مكان لجبر وعلى من يسيئون الفهم أو النقل أن لا يعكروا صفو الإسلام. جاءت في القدر أحاديث كثيرة نرى أنها بحاجة إلى دراسة جادة حتى يبرأ المسلمون من الهزائم النفسية والاجتماعية التي أصابتهم قديماً وحديثاً. (٣) _____

١. التحريم: ٧.

٢. الأعراف: ٤٣.

٣. السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ١٤٤ - ١٥٧ بتلخيص. (٢٤٨) تكوين القدرية كرد فعل

ولما كان القدر والقضاء بالمعنى الذي تروجه السلطة الأموية مخالفاً للفطرة والعقل قام رجال أحرار في وجه هذه العقيدة يركزون على القول بحرية الإنسان في إطار حياته فيما يرجع إلى سعادته وشقائه، وفيما عينت للثواب والعقاب، ولكن السلطة اتهمتهم بنفى القضاء والقدر ومخالفة الكتاب والسنة ثم وضعت السيوف على رقاب بعضهم، هذا هو معبد الجهني اتهموه بالقدر (نفى القدر) ذهب إلى الحسن البصري فقال له: إن بني أمية يسفكون الدماء ويقولون إننا تجري أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله. (١) ومعبد هذا قد اتهم بالقدرية وأنه أخذ هذه العقيدة عن رجل نصراني، ولكنه اتهم في غالب الظن قد ألصق به وهو منه براء وهذا الذهبي يعرفه بقوله: إنه صدوق في نفسه، وإنه خرج مع ابن الأشعث على الحجاج حتى قتل صبراً، ووثقه ابن معين ونقل عن جعفر بن سليمان أنه حدثه مالك بن دينار قال لقيت معبداً الجهني بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح وكان قاتل الحجاج في المواطن كلها. (٢) ولا أظن أن الرجل الذي ضحى بنفسه في طريق الجهاد ومكافحة الظالمين ينكر ما هو من أوصاف الأصول وأمتها، ولو أنكر فإنما أنكر المعنى الذي استغله النظام آنذاك ويشهد بذلك محاورته الحسن البصري الآنفه. ومثله غيلان الدمشقي فقد اتهم بنفس ما اتهم به أستاذه، فهذا الشهرستاني يقول: كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد. وقيل تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه فطلبه هشام بن عبد الملك وأحضر الأوزاعي لمناظرته، فأفتى بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق. (٣)

١. الخطط المقرزية: ٢/٣٥٦.

٢. ميزان الاعتدال: ٤/١٤١.

٣. الملل النحل للشهرستاني: ١/٤٧. (٢٤٩)

وقد صارت مكافحة هذا الاتجاه الظاهر عن معبد الجهني وغيلان الدمشقي ومحاربه سبباً لظهور المفوضة الذين كانوا يعتقدون بتفويض الأمور إلى العباد وأنه ليس لله سبحانه أي صنع في أفعالهم، فجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله، مستغنياً عن الله سبحانه فصار كإليه في مجال الأفعال كما كان القضاء والقدر حاكماً على كل شيء ولا يمكن تغييره بأي صورة أخرى من الصور. فالطرفان يحددان عن جادة التوحيد ويميلان إلى جانبي الإفراط والتفريط في الخلق وسيافيك تفصيل القول في محله. الاحتجاج بالقدر إن القدر بالمعنى الذي جاء في الأحاديث النبوية من شأنه أن يجعل الإنسان مسلوب الاختيار، مسيراً في حياته غير مختار في أفعاله فعند ذلك يصح للعبد أن يحتج على المولى في عصيانه ومخالفته. ومن العجيب أنه جاء في الصحيحين حديث عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبو البشر الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟» فقال له آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً وكتب لك التوراة فبكم تجد فيها مكتوباً «وعصى آدم ربه فغوى» قبل أن أخلق؟ قال: بأربعين سنة قال فحج آدم موسى. (١) وقد اضطرب القائلون بالقدر ومالوا يميناً وشمالاً في تفسير هذا الحديث وأمثاله إذ لو صح القدر بالمعنى الذي جاء في الأحاديث النبوية لكان باب العذر للعبد مفتوحاً على مصراعيه. والعجب من ابن تيمية حيث فسّر الحديث في رسالته أسماها _____

١. جامع الأصول: ١٠/٥٢٣ - ٥٢٥، صحيح البخاري: ٤/١٥٨ و ٦/٩٦ و ٨/١٢٦ و ٩/١٤٨. (٢٥٠)

بـ«الاحتجاج بالقدر» بأن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل لا لأجل أن تارك الأمر الإلهي مذنب

عاص، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة. ولم يقل: لماذا خالفت الأمر؟ ولماذا عصيت؟ والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم، بالتسليم للقدر وشهود الربوبية كما قال الله تبارك و تعالي: (ما أصاب من مُصيبةٍ إلا يَدِينُ اللهُ). (١) ووجه العجب: أن ابن تيمية قصر النظر على كلام موسى حيث اعترض على آدم بأنه لماذا أخرج نفسه وذريته من الجنة، ولم يلتفت إلى جواب آدم، فإنه صريح في الاحتجاج بالقدر في مورد العصيان وأن معصيته كانت أمراً مقدرًا قبل أن يخلق فلم يكن بد منها حيث قال لموسى: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً وكتب لك التوراة فبكم تجد فيها مكتوباً «وعصى آدم ربه فغوى» قبل أن أخلق، قال: بأربعين سنة قال: فحج آدم موسى. (٢) وعلى ذلك فموسى وإن لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل، لكن لما كانت المصيبة نتيجة المعصية، احتج آدم على موسى بأن المعصية لما كانت أمراً مقدرًا وهو بالنسبة إليها مسيراً، وكانت المصيبة نتيجة لها، فهو معذور في المصيبة التي عمته وذريته. فالكل من السبب والمسبب كانا خارجين عن قدرته واختياره فلا لوم على المصيبة لعدم صحه اللوم على المعصية المقدره قبل خلقته بأربعين سنة. ثم إن كثيراً من القائلين بالقدر بالمعنى الذي تفيده ظواهر الأحاديث لما رأوا في صميم عقولهم وأغوار فكرهم أنه لا يجتمع مع التكاليف، صاروا إلى الإجابة بأصل مبهم جداً، وهو أنه «لا يحتج بالقدر». وعندئذ يتوجه إليهم السؤال التالي: لو كان القدر بالمعنى الذي تفيده ظواهر الأحاديث أمراً صحيحاً يجب

١. التغابن: ١١.

٢. الاحتجاج بالقدر: ١٨. (٢٥١)

الإذعان به و بنتائجه ولوازمه وهو كون الإنسان مجبوراً مسيراً فلا محالة يصح الاحتجاج به أيضاً في مقام الاعتذار. وبالجملة: لا مناص عن اختيار أحد الأمرين: إما الإذعان بالقدر وتوائجه ولوازمه ومنها الاحتجاج على المولى سبحانه في مقام المخالفة، وإما رفض ذلك الاعتقاد والقول بكون الإنسان مخيراً مختاراً. فالجمع بين الإذعان بالقدر وعدم الاحتجاج به أشبه بالأخذ بالشجرة وإضاعة الثمرة. ثم إن ابن تيمية قد التجأ في حل العقدة إلى جواب آخر: وهو أن القدر لا يحتج به، قال: «وليس القدر حجة لابن آدم ولا عذراً بل القدر يؤمن به ولا يحتج به والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين فإن القدر إن كان حجة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن لأحد أن يفعله، وهو ممتنع طبعاً، محرم شرعاً، ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطرة الخلق وعقولهم، لم تذهب إليه أمة من الأمم، ولا هو مذهب أحد من العقلاء». (١) وكان على ابن تيمية أن يتنبه عندئذ فيجعل عدم احتجاج العقلاء بالقدر دليلاً على بطلان القدر بالمعنى الذي اختاره وتدين به، وإلا فلو صح القدر لا يصح أن يقال «لا يحتج به». وبالجملة: إما أن يؤمن بالقدر ويحتج به، وإما أن لا يؤمن به ولا يحتج به. وهناك أمر آخر، وهو: أن القائل بالقدر يصرح بوجود الإيمان بالقدر خيره وشره، وبما أن القدر فعل الله سبحانه، فتكون النتيجة كون الخير والشر من أفعاله سبحانه وتقديراته حسب ما سبق به علمه واقتضته حكمته. مع أن صريح الصحاح من الأحاديث خلافه وأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «والشر ليس إليك». (٢)

١. مجموعة الرسائل والمسائل: ١/٨٨-٩١.

٢. سنن النسائي: ٢/١٣٠، كتاب الصلاة، أبواب الافتتاح، باب «نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة». (٢٥٢)

وعلى ذلك فيجب تفسير الشر بشكل يناسب مقام الرب كالجذب و المرض والفقر والخوف. وإطلاق الشر عليها نوع مجاز وتأويل. محاولة للجمع بين القدر وصحة التكليف

إن بعض المتحذلقين في العصر الحاضر لما رأى أن القدر بالمعنى الذي تفيده ظواهر الروايات لا يجتمع مع الاختيار والحرية و يناقض صحه التكليف، صار بصدد الجمع بينهما فقال: «إن للقدر أربع مراتب: المرتبة الأولى: العلم: علمه الأزلي الأبدى، فلا يتجدد له علم بعد جهل ولا يلحقه نسيان بعد علم. المرتبة الثانية: الكتاب: فنؤمن بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة،

قال سبحانه: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ). (١) المرتبة الثالثة: المشيئة: فتؤمن بأن الله تعالى قد شاء كل ما في السموات والأرض لا يكون شيء إلا بمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. المرتبة الرابعة: الخلق: فتؤمن بأن (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل * له مقاليد السموات والأرض) (٢). وهذه المراتب الأربع شاملة لما يكون من الله نفسه ولما يكون من العباد. فكل ما يقوم به العباد من أقوال أو أفعال أو تروك، فهي معلومة لله تعالى مكتوبة عنده والله قد شاءها وخلقها. ثم يقول: ولكننا مع ذلك نؤمن بأن الله تعالى جعل للعبد اختياراً وقدرة، بهما يكون الفعل، والدليل على أن فعل العبد باختياره وقدرته أمور. ثم استدلت بآيات تثبت للعبد إتياناً بمشيئته وإعداداً بإرادته مثل قوله سبحانه: (فَأْتُوا حُرُوتَكُمْ أَنْتِي شِئْتُمْ) (٣) وقوله: (وَلَوْ _____

١ . الحج: ٧٠.

٢ . الزمر: ٦٢-٦٣.

٣ . البقرة: ٢٢٣. (٢٥٣) أرادوا الخروج لأعدوا له عدة (١). (٢).

انظر إلى التناقض الذي ارتكبه الكاتب المعاصر وهو بصدد بيان العقيدة الإسلامية، إذ لو كان فعل العبد معلوماً لله ومكتوباً في اللوح المحفوظ وقد شاء الله فعله وخلقها، فكيف يكون للعبد اختيار وقدرة بهما يوجد الفعل؟ وهل الفعل بعد علمه تعالى وكتابته، ومشيئته وخلقها يكون محتاجاً إلى شيء آخر حتى يكون لاختيار العبد وقدرته دور في ذلك المجال؟ «هل قرية وراء عبادان»؟؟! فكما أنه لا يكون للعبد دور في خلق السموات والأرض بعد ما تعلق به علمه سبحانه وكتبه في لوحه، وشاء وجوده، وخلقها، فهكذا أفعال عباده بعد ما وقعت في إطار هذه المجالات الأربعة. وبالجملة فعندما تحقق الخلق من الله لا تكون هناك أية حالة انتظرية في تكون الفعل ووجوده. فلا معنى لأن يكون للعبد بعد خلقه سبحانه دور أو تأثير. وأما مسألة «الكسب» الذي أضافه إمام الأشاعرة إلى «الخلق» فعده سبحانه خالقاً والعبد كاسباً، فسيوافيك أنه ليس للكسب مع معقول بعد تمامية الخلق، فتربص حتى حين. صراع بين الوجدان وظواهر الأحاديث

لا- شك أن كل إنسان يجد من صميم ذاته أن له قدرة واختياراً ولا يحتاج في إثباته إلى الاستدلال بالآيات والروايات كما ارتكبه الكاتب وهذا شيء لا يمكن لأحد إنكاره، ولذلك صح التكليف وحسن بعث الأنبياء وعليه يدور فلك الحياة في المجتمع الإنساني. والقدر بالمعنى الذي تصرح به الأحاديث لا يجتمع مع اختيار العبد وقدرته، فلو صح القدر بالمعنى المعروف بين أهل الحديث لم يكن مناص في _____

١ . التوبة: ٤٦.

٢ . «عقيدة أهل السنة والجماعة» بقلم محمد صالح العثيمين من منشورات الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة: ص ٢٧-٢٩. (٢٥٤) الصراع عن ارتكاب أحد أمرين: إما إنكار القدر والقضاء وهو لا يصح أن يصح أن يصدر من مسلم مؤمن بكتاب الله، وإما إنكار القدرة والاختيار وهو يخالف الوجدان والفتوة السليمة، وأما الجمع بينهما فهو أمر غير ممكن. والحق أن الاعتقاد بالقدر بالمعنى الوارد في الروايات السابقة لا ينفك عن الجبر قيد شعرة، وللعبد الاحتجاج على المولى بأن الفعل - بعد تنزله من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة ومنهما إلى درجة المشيئة فدرجة الخلق والإيجاد - يكون عندئذ مخلوقاً لله سبحانه وفعالاً له، وكل فاعل مسؤول عن فعل نفسه لا فعل غيره. (ولا تترز وازرة وزر أخرى) (١). ولا تكون حينئذ للفعل أية صلة بالعبد إلا كونه ظرفاً للصدر ومحللاً لإيجاده سبحانه. ولكن الإمامية مع اعترافهم بالمراتب الأربع للقدر لا يرون ملازماً للجبر، بل يرون للعبد بعدها اختياراً وحرية. ولأجل ذلك يجب تركيز الكلام في تفسير كون الفعل مورداً لمشيئته وكونه مخلوقاً له سبحانه، وإليك بيان هذين الأمرين: القول بالقدر لا يلازم الجبر

إن منشأ توهم الجبر وكون الإنسان مسيراً لا مخيراً أحد أمرين: ١. كون فعله متعلقاً لمشيئته سبحانه وما شاء الله يقع حتماً. ٢. كونه خالقاً لكل شيء حتى أفعال عباده وإلا بطل التوحيد في الخالقية. وبالبيان التالي يظهر بطلان التوهم المذكور، وأن واحداً من الأصلين

لا يقتضى الجبر، إذا فسر على الوجه الصحيح، لا على الوجه الذى يتبناه أهل الحديث وحتى الأشاعرة. فنقول: _____

١. الأنعام: ١٦٤. (٢٥٥) الأمر الأول: تعلق مشيئته بالأفعال

أما كون أفعال العباد متعلقة لمشيئته سبحانه، فهناك من ينكر ذلك ويقول: إن التقدير يختص بما يجرى فى الكون من حوادث كونية مِمَّا يتعلق به تدبيره سبحانه، وأمَّا أفعال العباد فليست متعلقة بالتقدير والمشيئة، بل هى خارجة عن إطارهما، والحافز إلى ذاك التخصيص هو التحفظ على الاختيار ونفى الجبر، فهذا القول يعترف بالقدر ولكن لا- فى أفعال العباد بل فى غيرها. يلاحظ عليه: أنَّ الظاهر من الآيات أن فعل العباد تتعلق به مشيئة الله، وأنه لولا مشيئته سبحانه لما تمكن من الفعل. يقول الراغب: لولا أن الأمور كلها موقوفة على مشيئة الله وأن أفعالنا معلقة بها وموقوفة عليها لما أجمع الناس على تعليق الاستثناء به فى جميع أفعالنا نحو (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)، (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا)، (يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ)، (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)، (وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا)، (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (١). وهناك آيات أخر لم يذكرها «الراغب»: ١. قوله سبحانه: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ). (٢) فالإذن هنا بمعنى المشيئة وما ذكر من القطع والإبقاء من باب المثال. ٢. قوله سبحانه: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَما تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). (٣) ٣. قوله سبحانه: (إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا * _____

١. المفردات: ٢٧١. والآيات كالتالى: الصافات: ١٠٢، الكهف: ٦٩، هود: ٣٣، يوسف: ٩٩، الأعراف: ١٨٨ و ٨٩، والكهف: ٢٣ - ٢٤.

٢. الحشر: ٥.

٣. التكويد: ٢٧-٢٩. (٢٥٦) وما تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا). (١)

٤. قال سبحانه: (كَلَّا- يَلْ لَّا يَخَافُونَ الآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَما يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ المَغْفِرَةِ). (٢) وجه الدلالة فى الآيات الثلاث واحدة ومفعول الفعل (وما تشاءون) فى الآية الأولى هو الاستقامة. معناه وما تشاءون الاستقامة على الحقّ إلا أن يشاء الله ذلك، كما أن المفعول فى الآية الثانية عبارة عن اتّخاذ الطريق والمعنى وما تشاءون اتّخاذ الطريق إلى مرضاة الله تعالى إلا أن يشاء الله تعالى، كما أن المفعول للفعل، (وما يذكرون) فى الآية الثالثة هو القرآن، أى وما يذكرون القرآن ولا- يتذكرون به إلا- أن يشاء الله. إذا عرفت ذلك ففى الآيات الثلاث الأخيرة احتمالان: الأول: المراد أنكم «لا- تشاءون الاستقامة أو اتّخاذ الطريق أو التذكّر بالقرآن إلا أن يشاء الله أن يجبركم عليه ويلجئكم إليه، ولكنّه لا يفعل، لأنّه يريد منكم أن تؤمنوا اختياراً لتستحقوا الثواب، ولا يريد أن يحملكم عليه» واختاره أبو مسلم كما نقله عنه «الطبرسى» وحاصله: وما تشاءون واحداً من هذه الأمور إلا أن يشاء الله إجباركم وإلجاءكم إليه، فحينئذ تشاءون ولا ينفعكم ذلك، والتكليف زائل، ولم يشأ الله هذه المشيئة، بل شاء أن تختاروا الإيمان لتستحقوا الثواب. (٣) وعلى هذا فالآيات خارجة عمّا نحن فيه، أعنى: كون أفعال البشر على وجه الإطلاق - اختيارية كانت أو جبرية - متعلقة لمشيئته سبحانه. الثانى: إن الآية بصدد بيان أن كلّ فعل من أفعال البشر ومنها الاستقامة واتّخاذ الطريق والتذكّر لا تتحقّق إلا بعد تعلق مشيئته سبحانه بصدورها غير أن _____

١. الإنسان: ٢٩-٣٠.

٢. المدثر: ٥٣-٥٤.

٣. مجمع البيان: ٥/٣٩ و ٤١٣ و ٤٤٦. (٢٥٧)

لتعلق مشيئته شرائط ومعدّات منها كون العبد متجرداً عن العناد واللجاج متهيئاً لقبول الصلاح والفلاح موقفاً نفسه فى مهب الهداية الإلهية، فعند ذلك تتعلّق مشيئته بهداية العبد، وبما أن الكفّار المخاطبين فى الآية لم يكونوا واجدين لهذا الشرط لم تتعلّق مشيئته باستقامتهم واتّخاذ الطريق والاتّعاظ بالقرآن. وليس هذا بكلام غريب وإنّه هو المحكمّ فى الآيات الراجعة إلى الهداية فإنّ له سبحانه

هدايتين: هداية عامة تفيض إلى عامة البشر: مؤمنهم وكافرهم وإليه يشير قوله سبحانه: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (١) وهناك هداية خاصة تفيض منه سبحانه إلى من جعل نفسه في مهب الرحمة واستفاد من الهداية الأولى، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (٢)، والظاهر من مجموع الآيات حول المشيئة هو الاحتمال الثاني دون الأول واختاره العلامة الطباطبائي فقال في تفسير سورة الإنسان. الاستثناء من النفي يفيد أن مشيئة العبد متوقفة في وجودها على مشيئة تعالى فلمشيئة تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلقها بمشيئة العبد وليست متعلقة بفعل العبد مستقلاً وبلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد وكون الفعل جبرياً ولا أن العبد مستقل في إرادة يفعل ما يشاءه، شاء الله أو لم يشأ، فالفعل اختياري لاستناده إلى اختيار العبد. (٣) هذا كله في الصغرى أي كون أفعال العباد متعلقة لمشيئته سبحانه. إنما الكلام في الكبرى وهو أن تعلق المشيئة بفعل العبد لا يستلزم الجبر، وهذه هي النقطة الحساسة في حل عقدة الجبر مع القول بكون أفعالنا متعلقة لمشيئته. بيان ذلك أن هناك فرضين: ١. تعلقت مشيئته سبحانه بصدور الفعل من العبد إيجاباً واضطراباً. ٢. تعلقت مشيئته سبحانه بصدوره منه عن إرادة واختيار.

١. الإنسان: ٣.

٢. الشورى: ١٣.

٣. الميزان: ٢٠/١٤٢. (٢٥٨)

فالقول بالجبر إنما هو نتيجة الفرض الأول دون الثاني. إن مشيئته سبحانه تعلقت بصدور كل فعل عن فاعله مع الخصوصية الموجودة فيه، كالصدور عن لا شعور في النار بالنسبة إلى الحرارة والصدور عن اختيار في الإنسان بالنسبة إلى التكلم والمشى. وعلى ذلك يجب أن تصدر الحرارة من النار عن اضطراب، ويصدر التكلم أو المشى عن الإنسان باختيار وإرادة. فلو صدر الأول عن النار بغير هذا الوضع، أو الثاني من الإنسان بغير هذه الكيفية لزم التخلف عن مشيئته سبحانه وهو محال، إذ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ومجرد كون الفعل متعلقاً لمشيئته وأن ما شاء يقع، لا يستلزم القول بالجبر، ولا يصير الإنسان بموجبه مسيراً إذا كان الفعل صادراً عن الفاعل بالخصوصية المكتنفة به. فالنار فاعل طبيعي تعلقت مشيئته سبحانه بصدور أثرها (أي الحرارة) عنها بلا شعور. والإنسان فاعل مدرك شاعر مريد، تعلقت مشيئته سبحانه بصدور فعله عنه مع الشعور والإرادة. فلو صدر الفعل في كلا الموردین لا مع هذه الخصوصيات لزم التخلف. فتزويه ساحته عن وصمة التخلف يتوقف على القول بأن كل معلول يصدر عن العلة. لكن بالخصوصية التي خلقت معها. فقد شاء الله سبحانه أن تكون النار فاعلاً موجباً، ويصدر عنها الفعل بالإيجاب، كما شاء أن يكون الإنسان فاعلاً مختاراً ويصدر الفعل عنه لكن بقيد الاختيار والحرية. ولقائل أن يقول: إن تعلق المشيئة المهيمنة من الله سبحانه على صدور الفعل من العبد عن اختيار موجب لكون صدور الفعل أمراً قطعياً وعدم المناص إلا عن إيجاده ومع هذا كيف يكون الفعل اختيارياً فإن معناه أن له أن يفعل وله أن لا يفعل وهذا لا يجتمع مع كون صدور الفعل قطعياً. والجواب: إن قطعة أحد الطرفين لا تنافي كون الفعل اختيارياً، وذلك بوجهين: (٢٥٩)

١. بالنقض بفعل الباري سبحانه، فإن الحسن قطعي الصدور، والقيح قطعي العدم، ومع ذلك فالفعل اختياري له والله سبحانه يعامل عباده بالعدل والقسط قطعاً ولا مناص عنه ولا يعاملهم ظلماً وجوراً قطعاً وبتاتاً، ومع ذلك ففعله سبحانه المتسم بالعدل، اختياري لا اضطرابي. ٢. إن تعلق مشيئته سبحانه بأفعال العباد، يرجع لبأ إلى تعلقها بحريتهم في الفعل والعمل، وعدم وجود موجب للجوئهم إلى أحد الطرفين حتماً فشاء الله سبحانه كونهم أحراراً غير مجبورين، مختارين غير مضطرين حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة. هذا كله حول المشيئة. الأمر الثاني: خلق الأفعال

وأما كون أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه فهذا أصل يجب الاعتراف به بحكم التوحيد في الخالقية، وبحكم أن (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ). (١) إلا أنه يجب تفسير التوحيد في الخالقية، وليس معناه انحصار الفاعلية والخالقية، أعني من المستقل وغير المستقل بالله سبحانه، بأن يكون هناك فاعل واحد يقوم مقام جميع العلل والفواعل المدركة وغير المدركة، كما هو الظاهر من

عبارات القوم في تفسير التوحيد في الخالقية، إذ معنى ذلك رفض مسألة العلية والمعلولية بين الأشياء. وهذا ما لا يوافق عليه العقل ولا الذكر الحكيم، بل معناه أنه ليس في صفحة الوجود خالق أصيل غير الله، ولا فاعل مستقل سواه سبحانه، وأن كل ما في الكون من كواكب وجبال، وبحار وعناصر، ومعادن وسحب، ورعود وبروق، وصواعق ونباتات، وأشجار وإنسان وحيوان وملك وجن، وعلى الجملة كل ما يطلق عليه عنوان الفاعل والسبب كلها علل وأسباب غير مستقلة

١. الزمر: ٦٢. (٢٦٠)

التأثير، وأن كل ما ينسب إلى تلك الفواعل من الآثار ليس لذوات هذه الأسباب بالاستقلال. وإنما ينتهي تأثير هذه المؤثرات إلى الله سبحانه، فجميع هذه الأسباب والمسببات رغم ارتباط بعضها ببعض مخلوقة لله، فإنه تنتهي العلية، وإليه تؤول السببية، وهو معطيها للأشياء، كما أن له تجريدها عنها إن شاء، فهو مسبب الأسباب وهو معطّلها. وهذا هو نتيجة الجمع بين الآيات الناصّة على حصر الخالقية بالله سبحانه، والآيات المثبتة لها لغيره، كما في قوله سبحانه حاكياً عن سيدنا المسيح - على نبينا وآله و- عليه السلام --: (أَنْتَى أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ) (١)، وقوله سبحانه: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). (٢) فهذا الصنف من الآيات الذي يسند الخلق إلى غيره سبحانه إذا قورن بالآيات الأخرى المصرحة بانحصار الخالقية بالله سبحانه، مثل قوله تعالى: (قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (٣) يستتج أن الخالقية المستقلة غير المستندة إلى شيء سوى ذات الخالق منحصرة بالله سبحانه، وفي الوقت نفسه الخالقية والفاعلية غير المستقلة المفاضة من الواهب سبحانه إلى الأسباب، تعم عباده وجميع الفواعل المدركة وغير المدركة. وعلى ذلك فكل فعل صادر عن فاعل طبيعي أو مدرك كما يعد فعله سبحانه كذلك يعدّ فعلاً للعبد، لكن بنسبتين. فالله سبحانه فاعل لها بالتسيب، وغيره فاعل لها بالمباشرة. فليست ذاته سبحانه مبدأ للحرارة بلا واسطة النار، أو للأكل والمشى بلا واسطة

١. آل عمران: ٤٩.

٢. المؤمنون: ١٤.

٣. الرعد: ١٦. (٢٦١)

الإنسان، بل الفاعل الذي تصدر عنه هذه الأمور هو النار والإنسان، ولكن فاعلية كل واحد بقدرته وإفاضة الوجود. وبذلك يتبين أن أفعال العباد في حال كونها مخلوقة لله، مخلوقة للإنسان أيضاً، فالكل خالق لا في عرض واحد، بل فاعلية الثاني في طول فاعلية الأول. والبيتان التاليان يلخصان هذه النظرية: وكيف فعلنا إيلنا فؤضا * وإنّ ذا تفويض ذاتنا اقتضى لكن كما الوجود منسوب لنا * فالفعل فعل الله وهو فعلنا وبذلك يتبين أن الاعتراف بالمرتبة الثالثة والرابعة من القدر لا يلازم الجبر، بشرط تفسيرهما على النحو الذي تقدّم. (١) *** ثم إن هناك رسائل ثلاثاً تعدّ من بدايات علم الكلام في القرن الأول تعرب عن آراء متضاربة في استلزام القول بالعلم الإلهي السابق، القول بالجبر وعدمه. فالأمويون على الأول وفي مقدّماتهم عمر بن عبد العزيز. وغيرهم على الثاني كالحسن البصري وأصحابه، نذكر نصّ الرسالتين إحداهما لعمر بن عبد العزيز والأخرى للحسن وهما يغنيان عن الرسالة الثالثة للحسن بن محمد بن الحنفية، كما سنذكره. عرف الأمويون منذ عصر معاوية إلى آخر دولتهم أن سلطتهم على الناس لا تبقى إلا مع إذاعة فكرة الجبر بين الأمة. وقد أشرنا إلى نماذج من أقوال معاوية فيما سبق، ونضيف في المقام ما نقله القاضي عبد الجبار عن الشيخ أبي على الجبائي أنه قال: إن أول من قال بالجبر وأظهره معاوية، وإنه أظهر أن ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنه مصيب فيه وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر وفشا ذلك في ملوك بني أمية. وعلى هذا القول قتل هشام بن عبد الملك غيلان رحمه الله، ثم نشأ بعدهم

١. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا: «مفاهيم القرآن»: ١/٢٩٩-٣٣٤. (٢٦٢)

يوسف السمنى فوضع لهم القول بتكليف مالا يطاق، وأخذ هذا القول عن ضرير (١) وكان بواسط زنديقاً نبوياً (٢) وقال جهم: إنّه لا

فعل للعبد. وتبعه ضرار في المعنى، وإن أضاف الفعل إلى العبد وجعله كسباً له وفعلاً وإن كان خلقاً لله عنده. (٣) الرسائل الثلاث إن الأُمّة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الأوّل ومجموع القرنين التاليين كانت تعيش في مأزق حرج بالنسبة إلى العقائد الإسلامية عامّة، والجبر والاختيار خاصّة، إذ لم تكن العقيدة الإسلامية مدوّنة ولا مضبوطة، وتكفيها في البرهنة على ذلك الرسائل الثلاث التي تعد من أقدم الوثائق التاريخية في مسائل علم الكلام: الرسالة الأولى: الرسالة المنسوبة إلى الحسن بن محمد بن الحنفية (المتوفى حوالي ١٠٠هـ) حفيد الإمام علي بن أبي طالب - عليه السّلام -، ويستظهر أنّها كتبت بإيحاء من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (المتوفى ٨٦هـ) وأن تاريخ تأليفها يرجع إلى سنة ٧٣هـ. (٤) الرسالة الثانية: ما كتبه الحسن البصري (المتوفى ١١٠هـ) إلى الخليفة نفسه. والرسالتان تقعان على جانبي النقيض، فالأولى تمثّل فكرة الجبر لكن بصورة ملائمة، والأخرى تبين عقيدة الاختيار والحرية. الرسالة الثالثة: رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز ردّاً على قدرى مجهول

١. كلمة ضرير وصف لا علم.

٢. كذا في المصدر ويحتمل أن تكون الكلمة تحريف: «ثنوياً».

٣. المغنى للقاضي عبد الجبار: ٨/٤.

٤. ترجمه ابن سعد في الطبقات الكبرى و قال: يكتنى أبا محمد، و كان من ظرفاء بني هاشم وأهل العقل منهم و كان يقدم على أخيه أبي هاشم في الفضل والهيئة، توفى في خلافة عمر بن عبد العزيز، ولم يكن له عقب. (الطبقات الكبرى: ٥/٣٢٨). (٢٦٣)

الهوية افترض أنه ينكر العلم الأزلي، ليستريح من عواقب الجبر، فردّ عليه مثبّثاً لعلمه القديم، وخرج بالجبر الشديد الذي ربما لا يقع موقع القبول حتى لدى بعض الطوائف الجبرية كالشاعرة. ولأجل إيقاف القارئ على الحالة الحرجة التي كان المسلمون يعانون منها، ننشر نص رسالة عمر بن عبد العزيز فإنها تغني عن الرسالة المنسوبة إلى حفيد الإمام، إذ هما تتحدان مآلاً ونهايةً، ونردفها بنشر رسالة الحسن البصري التي تقع منها على جانب النقيض. غير أنّنا نقدم في المقام الخطبة المروية عن الإمام علي - عليه السّلام - حول القضاء والقدر، ثم نردفها بكتاب لابنه الحسن - عليه السّلام - إلى الحسن البصري عند ما سأله عن القدر. وإليك الخطبة:

١. خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام -

١. خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام -

روى الكليني عن علي بن محمد، عن سهل بن زياد مرفوعاً قال: كان أمير المؤمنين - عليه السّلام - جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجتا بين يديه (١)، ثم قال له: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال أمير المؤمنين - عليه السّلام - : «أجل يا شيخ ما علوتم تلعث (٢) ولا هبطتم بطن واد الأبقضاء من الله وقدر. فقال له الشيخ: عند الله أحسب عنائي (٣) يا أمير المؤمنين؟ فقال له: «مه يا شيخ! فوالله لقد عظم الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالنا -تكم مكرهين ولا إليه مضطرين». فقال له الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالنا مكرهين ولا -إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟ فقال له: «وتظن أنه كان قضاء حتماً وقدرًا لازماً؟ إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة للمذنب، ولا

١. جثا يجثوا جثواً وجثياً بضمهما: جلس على ركبته وأقام على أطراف أصابعه.

٢. والتلعث ما ارتفع من الأرض.

٣. أي منه أطلب أجر مشقتي. (٢٦٥)

محمدة للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة

الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأئمة ومجوسها. إن الله تبارك وتعالى كلف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يملك مفوضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار». فأنشأ الشيخ يقول: أنت الإمام الذي نرجو بطاعته * يوم النجاة من الرحمن غفراناً أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً * جزاك ربك بالإحسان إحساناً (١) وقال الرضى: ومن كلام له - عليه السلام - للسائل الشامي لما سأله: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ بعد كلام طويل هذا مختاره: ويحك! لعلك ظننت قضاء لازماً، وقدرًا حاتماً! ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. وإن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً: (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ) (٢). (٣) روى هذا النص من الإمام مشايخ الحديث في القرن الثالث والرابع منهم: ١. ثقة الإسلام الكليني (حوالي ٢٥٠ - ٣٢٩هـ) في جامعه «الكافي» ج ١، ص ١٥٥ بسند مرفوع. ٢. الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١هـ) في توحيده ص ٢٧٣، وفي عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ١٣٨ بأسانيد ثلاثه.

١. الكافي: ١/١٥٥ - ١٥٦، كتاب التوحيد باب الجبر والقدر.

٢. ص: ٢٧.

٣. نهج البلاغة: قسم الحكم الرقم ٧٨. (٢٦٦)

٣. أبو محمد الحسن بن علي الحسيني بن شعبه الحراني الذي يروى عن أبي علي محمد بن الهمام الإسكافي الذي (توفي عام ٣٣٦هـ) فالرجل من أعلام أواسط القرن الرابع. ٤. الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣هـ) في كتابه «العيون والمحاسن» ص ٤٠. ٥. محمد الرضى جامع نهج البلاغة (٣٥٩ - ٤٠٦هـ). ٦. محمد بن علي الكراجكي (المتوفى ٤٤٩هـ) في كتابه «كنز الفوائد» ص ١٦٩. وهؤلاء أساتذة الحديث عند الشيعة لا- يمتون للاعتزال ولا للمعتزلة بصله، بل يصارعونهم في كثير من المسائل والمبادئ، ولبعضهم ردود على المعتزلة في بعض المجالات، كما ستوافيك أسماؤها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة، وبعد هذا لا يصح تقوّل بعض المتحذلقين كالدكتور علي سامي النشار حيث رأى أن هذا النصّ موضوع على لسان علي - عليه السلام - ببراعة نادرة يرى فيه محاكاة ممتازة بأسلوب علي - عليه السلام - بحجة أنه ورد فيه جميع المصطلحات المعتزلية. (١) يلاحظ عليه: أن الكاتب لم يتحمل جهد التتبع حتى يقف على مصادر الحديث في كتب الشيعة في القرن الثالث والرابع فألقى الكلام على عواهنه فحكم بوضع النصّ، وقد عرفت وجوده في كتب الشيعة الذين كانوا هم والمعتزلة متصارعين وأما ما تمسك به من وجود مصطلحات المعتزلة في الكلام فهو ناشئ عن عدم إمام الرجل بتاريخ تكون المعتزلة فإنهم أخذوا أكثر مبادئهم من خطب الإمام علي - عليه السلام - في التوحيد والعدل، مضافاً إلى أن «عطاء بن واصل» مؤسس المنهج تتلمذ على يد «أبي هاشم» ولد «محمد بن الحنفية»، وهو أخذ عقائده عن أبيه وهو عن علي - عليه السلام -، وهذا شيء قطعي في التاريخ، ولا ينكره إلا المتعصب وهو

١. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: ١/٤١٢. (٢٦٧)

مما تعترف به أئمة الاعتزال، كما سيوافيك نصوصهم في الجزء الثالث إن شاء الله. إن مسألة القضاء والقدر و كون الإنسان مخيراً أو مسيراً ليست من المسائل التي طرحها المعتزلة بل من المسائل القديمة التي كانت مطروحة عند جميع الأمم، وقد عرفت عقيدة المشركين المعاصرين للنبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - كما عرفت بعض الأحاديث المروية عن الخلفاء حول القدر والجبر، فلو كان وجود تلك المصطلحات شاهداً على وضع النص، فليكن ذلك شاهداً على كون أحاديث القدر بأجمعها موضوعاً لاشتمالها على مصطلحات لم تكن موجودة في عصر الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - . والعجب العجيب أن الدكتور ينكر النص ولكنه يصحح روايات أبي هريرة ويقول: وقد أكثر حقاً من روايات الحديث لكثرة ملازمة الرسول. (١) ولا- أظن أن من درس تاريخ

حياة أبي هريرة يوافق الدكتور في هذا الرأي، فإنه أسلم بعد خبير وما أدرك من حياة الرسول لإستين وبضعة أشهر، ومع ذلك فهو أكثر الصحابة حديثاً!! فيفوق عدد أحاديثه أحاديث عائشة وعلى - عليه السلام - مع أن علياً - عليه السلام - عاش في كنف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من لدن ولادته إلى أن لثي الرسول دعوة ربه، فمرويات الإمام في الصحاح والمسائيد حوالي خمسمائة حديثاً و مرويات أبي هريرة تناهز خمسة آلاف حديث!!

١. المصدر السابق: ١/٢٨٥. (٢٤٨)

٢. كتاب الحسن السبط - عليه السلام -

٢. كتاب الحسن السبط - عليه السلام - إلى الحسن البصري

كتب الحسن بن أبي الحسن البصري (١) إلى أبي محمد الحسن بن علي - عليهما السلام -: أما بعد فإنكم معشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة والأعلام النيرة الشاهرة أو كسفينه نوح - عليه السلام - التي نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يا بن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في الاستطاعة، فأخبرنا بالذي عليه رأيك ورأي آبائك - عليهم السلام - . فإن من علم الله علمكم وأنتم شهداء على الناس والله شاهد عليكم، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم. فأجابه الحسن - عليه السلام -: «بسم الله الرحمن الرحيم وصل إلى كتابك، ولولا - ما ذكرته من حيرتك وحيرة من مضى قبلك إذا ما أخبرتك، أما بعد: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، [وأن الله يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر، إن الله لم يطع مكرهاً ولم يعص مغلوباً ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخيراً، ونهاهم تحذيراً، فإن اتتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً، وإن انتهوا إلى معصية فشاء أن يمن عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل، وإن لم يفعل

١. هو الحسن بن يسار، مولى زيد بن ثابت، أخو سعيد وعمار، المعروف بالحسن البصري، مات سنة ١١٠ هـ وله تسع وثمانون سنة. (٢٤٩)

فليس هو الذي حملهم عليها جبراً ولا ألزموها كرهاً، بل من عليهم بأن يصبرهم وعرفهم وحذرهم وأمرهم ونهاهم لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكونوا كالملائكة، ولا - جبراً لهم على ما نهاهم عنه ولله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، والسلام على من أتبع الهدى». (١)

١. تحف العقول: ٢٣١، رَوَاهُ الْمَجْلِسِيُّ فِي الْبَحَارِ: ١٠/١٣٦ نقلًا عن كتاب العدد القوي لدفع المخاوف اليومية تأليف الشيخ الفقيه رضی الدین علی بن یوسف بن المطهر الحلّي رَوَاهُ أَيْضاً رَوَاهُ الْكِرَاجِكِيُّ فِي كَنْزِ الْفَوَائِدِ: ١٧٠ الطبعة الأولى، بأدنى اختلاف في اللفظ. (٢٧٠)

٣. رسالة عمر بن عبد العزيز

٣. رسالة عمر بن عبد العزيز في الرد على القدرية (١)

حدثنا أبو حامد بن جبلة، ثنا محمد بن إسحاق السراج، ثنا أبو الأشعث أحمد بن المقدم، ثنا محمد بن بكر البرساني، ثنا سليم بن نفع القرشي، عن خلف أبي الفضل القرشي، عن كتاب عمر بن عبد العزيز: ١. إلى النفر الذين كتبوا إلي بما لم يكن لهم بحق في رد كتاب الله، وتكذيبهم بأقداره النافذة في علمه السابق الذي لا حد له إلا الله وليس لشيء مخرج منه، وطعنهم في دين الله و سنه رسوله القائمة في أمته. ٢. أمياً بعد، فإنكم كتبتم إلي بما كنتم تستترون فيه قبل اليوم في رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتخوفه على أمته من التكذيب بالقدر. ٣. وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاه،

وسينقص العلم نقصاً سريعاً، وقول عمر بن الخطاب وهو يعظ الناس: «إنه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى، ولا في هدى تركه»

١ . نقلها أبو نعيم الإصبهاني في كتابه «حلية الأولياء»: ٣٤٦/٥-٣٥٣ في ترجمة عمر بن عبد العزيز. ونحن نقلها عما نشره «المعهد الألماني للأبحاث الشرقية» تحت عنوان «بدايات علم الكلام» عام النشر ١٩٧٧م. (٢٧١)

حسبه ضلالة. قد تبينت الأمور وثبتت الحجج وانقطع العذر» فمن رغب عن أبناء النبوة وما جاء به الكتاب تقطعت من يديه أسباب الهدى ولم يجد له عصمه ينجو بها من الردى. ٤. وإنكم ذكرتم أنه بلغكم أنني أقول: إن الله قد علم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون، فأنكرتم ذلك عليّ وقتلتم: إنه ليس يكون ذلك من الله في علم حتى يكون ذلك من الخلق عملاً. ٥. فكيف ذاك كما قتلتم؟! والله يقول: (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) (١) يعني العائدين في الكفر وقال: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). (٢) ٦. فرعتمم بجهلكم في قول الله: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (٣) أن المشيئة في أي ذلك أحببتم، إليكم من ضلالة أو هدى. ٧. والله يقول: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (٤)، فبمشيئة الله لهم شاءوا، لو لم يشأ لم ينالوا بمشيئتهم من طاعته شيئاً، قولاً ولا عملاً، لأن الله لم يملك العباد ما بيده و لم يفوض إليهم ما يمنعه من رسله. فقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً، فما اهتدى منهم إلا من هداه الله، ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعاً، فما ضل منهم إلا من كان في علم الله ضالاً. ٨. وزعتمم بجهلكم أن علم الله ليس بالذي يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته ولا بالذي يصدّهم عما تركوا من طاعته، ولكنه بزعمكم كما علم أنهم سيعملون بمعصيته، كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها. ٩. فجعلتم علم الله لغواً، تقولون: لو شاء العبد لعمل بطاعة الله وإن كان في علم الله أنه غير عامل بها، ولو شاء ترك معصيته وإن كان في علم

١ . الدخان: ١٥.

٢ . الأنعام: ٢٨.

٣ . الكهف: ٢٩.

٤ . التكوير: ٢٩. (٢٧٢)

الله أنه غير تارك لها، فأنتم إذا شئتم أصبتموه وكان علماً، وإذا شئتم رددتموه وكان جهلاً، وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علماً ليس في علم الله، وقطعتم به علم الله عنكم، وهذا ما كان ابن عباس يعده للتوحيد نقضاً، وكان يقول: «إن الله لم يجعل فضله ورحمته هملاً بغير قسم ولا احتظار، ولم يبعث رسله بإبطال ما كان في سابق علمه» فأنتم تقرّون بالعلم في أمر وتنقضونه في آخر، والله يقول: (...يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ...). (١) فالخلق صائرون إلى علم الله ونازلون عليه وليس بينه شيء هو كائن حجاب يحجبه عنه ولا يحول دونه، إنه عليم حكيم. ١٠. وقتلتم: لو شاء لم يعذب بعمل. ١١. بغير ما أخبر الله في كتابه عن قوم (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) (٢) وأنه سيمتعهم قليلاً (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٣)، فأخبر أنهم عاملون قبل أن يعملوا وأخبر أنه معذبهم قبل أن يخلقوا. ١٢. وتقولون أنتم إنهم لو شاءوا خرجوا من علم الله في عذابهم إلى ما لم يعلم من رحمته لهم. ١٣. ومن زعم ذلك فقد عادى كتاب الله بالرد. ولقد سمى الله رجالاً من الرسل بأسمائهم وأعمالهم في سابق علمه، فما استطاع آباؤهم لتلك الأسماء تغييراً، وما استطاع إبليس بما سبق لهم في علمه من الفضل تبديلاً، فقال: (وَإِذْ ذَكَرْنَا عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصَيْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ) (٤) فالله أعز في قدرته وأمنع من أن يملك أحداً إبطال علمه في شيء من ذلك، فهو المسمى لهم بوحيه الذي (لا يأتيه

١ . البقرة: ٢٥٥.

٢ . المؤمنون: ٦٣.

٣ . هود: ٤٨.

٤ . ص: ٤٥ - ٤٦. (٢٧٣) الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ(١) أو أن يشرك في خلقه أحداً، أو أن يدخل في رحمته من قد أخرجه منها، أو أن يخرج منها من قد أدخله فيها. ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق، بل لم يزل الله وحده بكل شيء عليمًا وعلى كل شيء شهيداً قبل أن يخلق شيئاً، وبعد ما خلق لم ينقص علمه في بدئهم ولم يزد بعد أعمالهم، ولا تغير بالجوائح التي قطع بها دابر ظلمهم، ولم يملك إبليس هدى نفسه ولا ضلاله غيره. وقد أردتم بقذف مقاتلكم إبطال علم الله في خلقه وإهمال عبادته، وكتاب الله قائم بنقض بدعتكم وإفراط قذفكم. ولقد علمتم أن الله بعث رسوله والناس يومئذ أهل الشرك، فمن أراد الله له الهدى لم تحل ضلالته التي كان فيها دون إرادة الله له، ومن لم يرد الله له الهدى تركه في الكفر ضالاً فكانت ضلالته أولى به من هداه.

١٤. فزعمتم أن الله أثبت في قلوبكم الطاعة والمعصية، فعملتم بقدرتكم بطاعته وتركتم بقدرتكم معصيته، وإن الله خلو من أن يكون يختص أحداً برحمته أو يحجز أحداً عن معصيته. ١٥. وزعمتم أن الشيء الذي يقدر إنما هو عندكم اليسر والرخاء والنعمة وأخرجتم منه الأعمال. ١٦. وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلاله أو هدى أو أنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله، وأنكم الذين حجزتموها عن المعصية بغير قوة من الله ولا إذن منه. ١٧. فمن زعم ذلك فقد غلا في القول، لأنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله وقدره لكان لله في ملكه شريك ينفذ مشيئته في الخلق من دون الله والله يقول: (حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (٢) وهم له قبل ذلك كارهون (وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) (٣) وهم له قبل ذلك محبوبون وما كانوا على شيء من ذلك لأنفسهم بقادرين. ثم أخبرنا بما سبق لمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم -

١ . فصلت: ٤٢.

٢ . الحجرات: ٧.

٣ . الحجرات: ٧. (٢٧٤)

من الصلاة عليه والمغفرة له ولأصحابه فقال: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (١) وقال: (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) (٢)، فكرماً غفرها الله له قبل أن يعملها ثم أخبرنا بما هم عاملون قبل أن يعملوا وقال: (تَرَاهُمْ رُكْعًا سَرِعًا سَرِعًا يَتَّبِعُونَ فَضلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) (٣). فضلاً سبق لهم من الله قبل أن يخلقوا ورضواناً عنهم قبل أن يؤمنوا. ١٨. وتقولون أنتم إنهم قد كانوا ملكوا رد ما أخبر الله عنهم أنهم عاملون وإن إليهم أن يقيموا على كفرهم مع قوله، فيكون الذي أرادوا لأنفسهم من الكفر مفعولاً ولا يكون لوحى الله فيما اختار تصديقاً. ١٩. بل (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) (٤) و (هى) فى قوله: ه (لولا كتاب من الله سبق لمسكتم فيما أخذتم عذاب عظيم) (٥)، فسبق لهم العفو من الله فيما أخذوا قبل أن يؤذن لهم. ٢٠. وقلتم: لو شاءوا خرجوا من علم الله فى عفوهم إلى ما لم يعلم من تركهم لما أخذوا. ٢١. فمن زعم ذلك فقد غلا- وكذب، ولقد ذكر بشراً كثيراً هم يومئذ فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فقال: (وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ) (٦)، (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) (٧)، فسبقت لهم الرحمة من الله قبل أن يخلقوا والدعاء لهم بالمغفرة ممن لم يسبقهم بالإيمان من قبل أن يدعوا.

١ . الفتح: ٢٩.

٢ . الفتح: ٢.

٣ . الفتح: ٢٩.

٤ . الأنعام: ١٤٩.

٥ . الأنفال: ٦٨.

٦ . الجمعة: ٣.

٧ . الحشر: ١٠. (٢٧٥)

٢٢. ولقد علم العالمون بالله أن الله لا يشاء أمراً فيحول مشيئته غيره دون بلاغ ما شاء، ولقد شاء لقوم الهدى فلم يضلهم أحد وشاء

إبليس لقوم الضلالة فاهتدوا. فقال لموسى وأخيه: (أذهبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (١)، وموسى فى سابق علمه أَنَّهُ يكون لفرعون عدواً وحزناً فقال: (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْزَنُونَ). (٢) ٢٣. فتقولون أنتم: لو شاء فرعون كان لموسى ولياً وناصرأ، والله يقول: (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) (٣). وقتلتم: لو شاء فرعون لامتنع من الغرق والله يقول: (إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ) (٤). فثبت ذلك عنده فى وحيه فى ذكر الأولين، كما قال فى سابق علمه لآدم قبل أن يخلقه: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٥) فصار إلى ذلك بالمعصية التى ابتلى بها، وكما كان إبليس فى سابق علمه أَنَّهُ سيكون (مَإْذُمًا مَّدْحُورًا) (٦) و صار إلى ذلك بما ابتلى به من السجود لآدم فأبى، فتلقى آدم بالتوبة فرحم وتلقى إبليس باللعنة فعوى، ثم أهبط آدم إلى ما خلق له من الأرض مرحوماً متوباً عليه، وأهبط إبليس بنظرته مدحوراً مسخوطاً عليه. ٢٤. وقتلتم أنتم: إن إبليس وأولياءه من الجن قد كانوا ملكوا رد علم الله والخروج من قسمه الذى أقسم به إذ قال: (فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) (٧) حتى لا ينفذ له علم إلا بعد مشيئتهم.

١. طه: ٤٣-٤٤.

٢. القصص: ٦.

٣. القصص: ٨.

٤. الدخان: ٢٤.

٥. البقرة: ٣٠.

٦. الإسراء: ١٨.

٧. ص: ٨٤-٨٥. (٢٧٦)

٢٥. فماذا تريدون بهلكة أنفسكم فى رد علم الله؟ فإن الله جلوعلا لم يشهدكم خلق أنفسكم، وكيف يحيط جهلكم بعلمه؟ وعلم الله ليس بمقصر عن شىء هو كائن، ولا يسبق علمه فى شىء فيقدر أحد على رده. ولو كنتم تنتقلون فى كل ساعة من شىء إلى شىء هو كائن، لكانت مواقعكم عنده. ولقد علمت الملائكة قبل خلق آدم ما هو كائن من العباد فى الأرض (من الفساد) وسفك الدماء فيها، وما كان لهم فى الغيب من علم، فكان فى علم الله الفساد وسفك الدماء، وما قالوه تخرصاً إلا بتعليم العليم الحكيم لهم فظن ذلك منهم، وأنطقهم به. ٢٦. فأنكرتم أن الله أزاع قوماً قبل أن يزيغوا وأضل قوماً قبل أن يضلوا. ٢٧. وهذا ممّا لا يشك فيه المؤمنون بالله: إن الله قد عرف قبل أن يخلق العباد مؤمنهم من كافرهم وبرهم من فاجرهم. وكيف يستطيع عبد هو عند الله مؤمن أن يكون كافراً أو هو عند الله كافر أن يكون مؤمناً؟ والله يقول: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (١). فهو فى الضلالة ليس بخارج منها أبداً إلا بإذن الله. ٢٨. ثم آخرون «اتخذوا» من بعد الهدى (عجلاً جسداً) (٢) فضلوا به، فعفا عنهم لعلهم يشكرون، فصاروا (مِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (٣) و صاروا إلى ما سبق لهم. ثم ضلت ثمود بعد الهدى فلم يعف عنهم ولم يرحموا، فصاروا فى علمه إلى (صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) (٤)، فنفذوا إلى ما سبق لهم، لأن صالحاً رسولهم وأن الناقة (فَتَنَّهُ لَهُمْ) (٥) وأنه مميتهم كفاراً، فعقروها.

١. لأنعام: ١٢٢.

٢. الأعراف: ١٤٨.

٣. الأعراف: ١٥٩.

٤. يس: ٢٩.

٥. القمر: ٢٧. (٢٧٧)

٢٩. وكان إبليس فيما كانت فيه الملائكة من التسبيح والعبادة فابتلى فعصى فلم يرحم، وابتلى آدم فعصى فرحم. وهم آدم بالخطيئة

فنسى، وهم يوسف بالخطيئة فعصم، فأين كانت الاستطاعة عند ذلك؟ هل كانت تغني شيئاً فيما كان من ذلك حتى لا يكون، أو تغني فيما لم يكن حتى يكون، فنعرف لكم بذلك حجة؟ بل الله أعزماً تصفون وأقدر. ٣٠. وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلاله أو هدى، وإنما علمه بزعمكم حافظ وإن المشيئة في الأعمال إليكم، إن شئتم أحببتم الإيمان فكنتم من أهل الجنة. ثم جعلتم بجهلكم حديث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي جاء به أهل السنة - وهو مصدق للكتاب المنزل - أنه من ذنب مُضاه ذنباً خبيثاً، في قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حين سأله عمر: «أرأيت ما نعمل أشيء قد فرغ منه أم شيء تأتفه؟ فقال - عليه السلام - : «بل شيء قد فرغ منه». فطعتمم بالتكذيب له، و تعليم من الله في علمه إذ قلتم: إن كنا لا نستطيع الخروج منه فهو الجبر. والجبر عندكم الحيف. ٣١. فسئتم نفاذ علم الله في الخلق حيفاً. ٣٢. وقد جاء الخبر أن الله خلق آدم فثر ذريته في يده فكتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون. وقال سهل بن حنيف يوم صفيين: أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، فوالذي نفسى بيده، لقد رأيتنا يوم أبي جندل ولو نستطيع رد أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لرددناه. والله ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلا أسهلت بنا على أمر نعرفه قبل أمركم هذا. ٣٣. ثم أنتم بجهلكم قد أظهرتم دعوة حق على تأويل باطل تدعون الناس إلى رد علم الله فقلتم: الحسنه من الله والسيئة من أنفسنا، وقال أئمتكم وهم أهل السنة: الحسنه من الله في قدر سبق، والسيئة من أنفسنا في علم قد سبق. ٣٤. فقلتم: لا يكون ذلك حتى يكون بدؤها من أنفسنا كما بدء السيئة من أنفسنا. (٢٧٨)

٣٥. وهذا رد الكتاب منكم ونقض الدين، وقد قال ابن عباس رضى الله عنه حين نجم القول في القدر: هذا أول شرك هذه الأمة، والله، ما ينتهى بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيراً كما أخرجوه من أن يكون قدر شراً. ٣٦. أنتم تزعمون بجهلكم أن من كان في علم الله ضالاً فاهتدى، فهو بما ملك ذلك حتى كان في هداه ما لم يكن الله علمه فيه، وأن من شرح صدره للإسلام فهو مما فوض إليه قبل أن يشرحه الله له، وأنه إن كان مؤمناً فكفر فهو مما شاء لنفسه وملك من ذلك لها وكانت مشيئته في كفره أنفذ من مشيئة الله في إيمانه. ٣٧. بل أشهد أنه من عمل حسنة فبغير معونة كانت من نفسه عليها، وأن من عمل سيئة فبغير حجة كانت له فيها وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وأن الله لو أراد أن يهدى الناس جميعاً لنفذ أمره فيمن ضل حتى يكون مهتدياً. ٣٨. فقلتم: بمشيئته شاء لكم تفويض الحسنه إليكم وتفويض السيئة، ألقى عنكم سابق علمه في أعمالكم وجعل مشيئته تبعاً لمشيئتكم. ٣٩. ويحكم، فوالله، ما أمضى لبنى إسرائيل مشيئتهم حين أبوا أن يأخذوا ما آتاهم بقوة حتى نتق (الجبل فوقهم كأنه ظل) (١). فهل رأيتموه أمضى مشيئته لمن كان قبلكم في ضلالته حين أراد هداه حتى صار إلى أن أدخله بالسيف في الإسلام كرهاً بموقع علمه بذلك فيه؟ أم هل أمضى لقوم يونس مشيئتهم حين أبوا أن يؤمنوا حتى أظلم العذاب ف آمنوا وقبل منهم، ورد على غيرهم الإيمان فلم يقبل منهم. وقال: (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلقت في عباده) (٢) أى علم الله الذى قد خلا فى خلقه (وخسر هنالك) _____

١. الأعراف: ١٧١.

٢. غافر: ٨٥، ٨٤. (٢٧٩) (الكافرون) (١) وذلك كان موقعهم عنده أن يهلكوا بغير قبول منهم، بل الهدى والضلالة والكفر والإيمان والخير والشر بيد الله يهدى من يشاء ويذر من يشاء (فى طغيانهم يعمهون) (٢). كذلك قال إبراهيم - عليه السلام - : (رب ... واجتنبني وبيئ أن نعبد الأصنام) (٣)، قال: (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) (٤)، أى إن الإيمان والإسلام بيدك وإن عبادة من عبد الأصنام بيدك، فأنكرتم ذلك وجعلتموه ملكاً بأيديكم دون مشيئة الله عز وجل.

٤٠. وقلتم فى القتل إنه بغير أجل. ٤١. وقد سمّاها الله لكم فى كتابه فقال ليحيى: (وسلاماً عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) (٥) فلم يمت يحيى إلا بالقتل، وهو موت كما مات من قتل شهيداً أو قتل خطأ كما مات بمرض أو بفجأة، كل ذلك موت بأجل استفواه ورزق استكملة وأثر بلغه ومضجع برز إليه، (و ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً) (٦) ولا تموت نفس ولها فى الدنيا عمر ساعة إلا بلغته ولا موضع قدم إلا وطنته ولا مثقال حبة من رزق إلا استكملته ولا مضجع حيث كان إلا برزت إليه، يصدق

ذلك قول الله عزوجل (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيِّئَاتٌ وَسَيُجَنَّبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ) (٧)، فأخبر الله بعذابهم بالقتل في الدنيا وفي الآخرة بالنار وهم أحياء بمكة. ٤٢. وتقولون أنتم: إنهم قد كانوا ملكوا رد علم الله في العذابين الذين أخبر الله ورسوله أنهما نازلان بهم.

١ . غافر: ٨٥.

٢ . الأعراف: ١٨٦.

٣ . إبراهيم: ٣٥.

٤ . البقرة: ١٢٨.

٥ . مريم: ١٥.

٦ . آل عمران: ١٤٥.

٧ . آل عمران: ١٢. (٢٨٠)

٤٣. فقال: (ثاني عطفه ليضلل عن سبيل الله له في الدنيا حزبي) (١) يعنى القتل يوم بدر (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) (٢) فانظروا إلى ما أرادكم فيه رأيكم كتاباً سبق في علمه بشقائقكم إن لم يرحمكم. ٤٤. ثم قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «بنى الإسلام على ثلاثة أعمال: الجهاد ماض منذ يوم بعث الله رسوله إلى يوم تقوم فيه عصابة من المؤمنين يقاتلون الدجال لا ينقض ذلك جور جائر ولا- عدل عادل، والثانية: أهل التوحيد لا تكفروهم بذنب ولا تشهدوا عليهم بشرك ولا تخرجوهم من الإسلام بعمل، والثالثة: المقادير كلها خيرها وشرها من قدر الله». فنقضتم من الإسلام جهاده، وجردتم شهادتكم على أمتكم بالكفر وبرئتم منهم ببدعتكم، وكذبتهم بالمقادير كلها والآجال والأعمال والأرزاق، فما بقيت في أيديكم خصلة بنى الإسلام عليها إلا نقضتموها وخرجتم منها. *** هذه رسالة عمر بن عبد العزيز إلى بعض القدرين مجهولى الهوية، وقد نسب إليهم إنكار علمه الأزلى في أفعال العباد، ومصائرهم، ونحن نتبرأ ممن ينكر علمه الواسع المحيط بكل شىء، ونؤمن بما قاله سبحانه: (وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ). (٣)

وقوله سبحانه: (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير). (٤) ولكن نتبرأ من كل من جعل علمه السابق ذريعة إلى نسبة الجبر إلى الله سبحانه، ونؤمن بأن علمه السابق المحيط لا يكون مصدراً لكون العباد مجبورين في مصائرهم وأنهم يعملون ويفعلون، ويختارون بمشيئتهم التى منحها الله لهم فى حياتهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن بينة.

١ . الحج: ٩.

٢ . الحج: ٩.

٣ . الأنعام: ٥٩.

٤ . الحديد: ٢٢. (٢٨١)

فمنكر علمه السابق المحيط بكل شىء ضالّ مضلّ، ومن استنتج منه الجبر مثله فى الضلالة والغواية، عصمنا الله جميعاً من الزلّة، والعرّة فى العلم والعمل. ولأجل أن يقف القارئ الكريم على أنه كان فى تلك العصور الحرجة رجال من أهل السنّة يذهبون إلى غير ما ذهب إليه أصحاب السلطنة الأمويون ننشر رسالة الحسن البصرى فى ذلك المجال، وهى رسالة قيمة. (١)

١ . الهدف هو نشر هذه الرسالة لما فيها من فائدة، ولا صلة له بتقييم الحسن البصرى فى كل ما يقول أو ما يروى عنه أو ينسب إليه، فإنّ لبيان ذلك مجالاً آخر. (٢٨٢)

٤. رسالة الحسن البصرى فى الدفاع عن نظرية الاختيار

قال القاضى عبد الجبار: المشهور أن عبد الملك بن مروان كاتبه بأنه قد بلغنا عنك من وصف القدر ما لم يبلغنا عن أحد من الصحابة، فكتب بقولك إلينا فى هذا الكتاب، فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك أما بعد: فإن الأمير أصبح فى قليل من كثير مضوا، والليل من أهل الخير مغفول عنهم، وقديماً قد أدركنا السلف الذين قاموا بأمر الله، واستنوا بسنة رسوله، فلم يبطلوا حقاً، ولا ألحقوا بالرب تعالى إلا ما ألحق بنفسه، ولا يحتجون إلا بما احتج الله تعالى به على خلقه بقوله الحق: (وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (١). ولم يخلقهم لأمر ثم حال بينهم وبينه، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد ولم يكن فى السلف من ينكر ذلك ولا يجادل فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد متسق. (٢) وإنما أحدثنا الكلام فيه، حيث أحدث الناس النكرة له، فلما أحدث المحدثون فى دينهم ما أحدثوه، أحدث المتمسكون بكتابه ما يبطلون به المحدثات، ويحذرون به من المهلكات. _____

١. الذاريات: ٥٦.

٢. فى مخطوطة أيا صوفيا: متفقين. (٢٨٣)

وذكر: إن الذى أوقعهم فيه تشتت الأهواء، وترك كتاب الله تعالى، ألم تر إلى قوله: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (١). فافهم أيها الأمير ما أقوله، فإن ما نهى الله عنه فليس منه، لأنه لا يرضى ما يسخط، وهو من العباد، فإنه تعالى يقول: (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ). (٢) فلو كان الكفر من قضائه وقدره، لرضى به ممن عمله، وقال تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) (٣)؟ وقال: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) (٤) ولم يقل والذى قدر فأضل، لقد أحكم الله آياته وسنة نبيه - عليه السلام - فقال: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي) (٥). وقال: (الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ) (٦). ولم يقل ثم أضل، وقال: (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) (٧)، ولم يقل إن علينا للضلال ولا يجوز أن ينهى العباد عن شىء فى العلانية، ويقدره عليهم فى السر، ربنا أكرم من ذلك وأرحم ولو كان الأمر كما يقول الجاهلون ما كان تعالى يقول: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (٨). ولقال: اعملوا ما قدرت عليكم، وقال: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) (٩). لأنه جعل فيهم من القوة ذلك لينظر كيف يعملون، ولو كان الأمر كما قاله المخطئون، لما كان إليهم أن يتقدموا ولا يتأخروا، ولا كان لمتقدم حمد فيما عمل، ولا على متأخر لوم، ولقال: جزاء بما عمل بهم، ولم يقل جزاء بما عملوا وبما كسبوا، وقال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا _____

١. النمل: ٦٤.

٢. الزمر: ٧.

٣. الإسراء: ٢٣.

٤. الأعلى: ٣.

٥. سبأ: ٥٠.

٦. طه: ٥٠.

٧. الليل: ١٢.

٨. فصلت: ٤٠.

٩. المدثر: ٣٧. (٢٨٤) وتقواها. (١) أى بين لها ما تأتى و ما تذر ثم قال: (فَدَأْفَلَحَ مِنْ زَكَاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). (٢) فلو كان هو الذى دسها ما كان ليخيب نفسه، تعالى عمياً يقول الظالمون علواً كبيراً، وقوله تعالى: (رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذَّةً عَذَاباً صِغْفَافاً فِي النَّارِ). (٣)

فلو كان الله هو الذى قدم لهم الشر، ما قال ذلك، وقال تعالى: (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا) (٤). فالكبراء أضلّوهم

دون الله تعالى، بل قال تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (٥) (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) (٦). وقال: (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى). (٧) وقال تعالى: (وما أضلنا إلا المجرمون) (٨). (وأضلهم السامري) (٩). (إن الشيطان ينزغ بينهم) (١٠). (فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ). (١١) وقال: (وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) (١٢) فكان بدو الهدى من الله واستجابهم العمى بأهوائهم وظلم آدم نفسه، ولم يظلمه ربه فقال: (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) (١٣). وقال موسى: (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) (١٤). فغواه أهل الجهل وقالوا: (فَإِنَّ) _____

١. الشمس: ٧ و ٨.

٢. الشمس: ٩ و ١٠.

٣. ص: ٦١.

٤. الأحزاب: ٦٧.

٥. الإنسان: ٣.

٦. لنمل: ٤٠.

٧. طه: ٧٩.

٨. الشعراء: ٩٩.

٩. طه: ٨٥.

١٠. الإسراء: ٥٣.

١١. النحل: ٦٣.

١٢. فصلت: ١٧.

١٣. الأعراف: ٢٣.

١٤. القصص: ١٥. (٢٨٥) (اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (١) وَلَمْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى مَا قَبْلَ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُضِلُّ إِلَّا بِتَقَدُّمِ الْكُفْرِ وَالْفُسْقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) (٢). وقوله: (فَلَتَمَّيَا زَاغُوا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) (٣). (وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (٤).

وبين الحسن في كلامه الوعيد، فقال: إنه تعالى قال: (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُتَّقِدُ مَنْ فِي النَّارِ) (٥). وقال: (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا). (٦) وقال تعالى: (أَدْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً) (٧). فكيف يدعوهم إلى ذلك وقد حال بينهم وبينه؟ وقال: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (٨). فكيف يجوز ذلك وقد منع خلقه من طاعته؟ قال: والقوم ينازعون في المشيئة وإنما شاء الله الخير بمشيئته قال: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ) (٩). وقال في ولد الزنى إنه من خلق الله، وإنما الزانى وضع نطفته في غير حقه، فتعدى أمر الله، والله يخلق من ذلك ما يشاء وكذلك صاحب البذر إذا وضعه في غير حقه. (١٠) وقال في الرسالة: إن الله تعالى أعدل وأرحم من أن يعمى عبداً، ثم يقول له: أبصر وإلا عذبتك، وإذا خلق الله الشقى شقياً، ولم يجعل له سبيلاً إلى السعادة فكيف يعذبه؟! وقد قال الله تعالى لآدم وحواء: (فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) (١١). فغلبهما الشيطان على هواه ثم قال: (يا بَنِي) _____

١. فاطر: ٨.

٢. إبراهيم: ٢٧.

٣. الصف: ٥.

٤. البقرة: ٢٦.

٥ . الزمر: ١٩.

٦ . يونس: ٣٣.

٧ . البقرة: ٢٠٨.

٨ . النساء: ٦٤.

٩ . البقرة: ١٨٥.

١٠ . كذا في النسخة والظاهر: حقله.

١١ . الأعراف: ١٩. (٢٨٦) آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ. (١) وليس للشيطان عليهم سلطان إلا يعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك. وبعث الله الرسول نوراً ورحمة فقال: (اشْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) (٢) وقال: (اشْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ) (٣) وقال: (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) (٤) (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) (٥) وقال: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (٦) فكيف يفعل ذلك ثم يعيهم عن القبول. وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) (٧) وينهى عما أمر به الشيطان قال في الشيطان: (يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (٨) فمن أجاب الشيطان كان من حزبه، فلو كان كما قال الجاهلون لكان إبليس أصوب من الأنبياء - عليهم السلام - إذ دعاؤه إلى إرادة الله تعالى وقضائه، ودعت الأنبياء إلى خلاف ذلك، وإلى ما علموا أن الله قد حال بينهم وبينه.

وقال القوم فيمن أسخط الله: إن الله جبلهم على إسقاطه، وكيف يسخط أن عملوا بقضائه عليهم وإرادته، والله يقول: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت يَدَاكَ) (٩) وهؤلاء الجهال يقولون: إن الله قدمه وما أضلهم سواه: (لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ) (١٠) فلو كان الأمر كما زعموا، لكان الدعاء والأمر لا تأثير له، لأن الأمر مفروغ منه، لكن التأويل على غير ما قالوه وقد قال تعالى: (ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ

١ . الأعراف: ٢٧.

٢ . الأنفال: ٢٤.

٣ . الشورى: ٤٧.

٤ . الأحقاف: ٣١.

٥ . الأنعام: ١٥٣.

٦ . الإسراء: ١٥.

٧ . النحل: ٩٠.

٨ . فاطر: ٦.

٩ . الحج: ١٠.

١٠ . الأنعام: ١٣٧. (٢٨٧) يَوْمَ مَشْهُودٍ (١)، والسعيد ذلك اليوم هو المتمسك بأمر الله والشقي هو المضيع.

وقال في الرسالة: واعلم أيها الأمير، أن المخالفين لكتاب الله تعالى وعدله يحيلون في أمر دينهم بزعمهم على القضاء والقدر ثم لا يرضون في أمر دنياهم إلا بالاجتهاد والتعب والطلب والأخذ بالحزم فيه. وذلك لثقل الحق عليهم، ولا يعولون في أمر دنياهم وفي سائر تصرفهم على القضاء والقدر، فلو قيل لأحدهم: لا تستوثق في أمورك، ولا تقفل حانوتك احترازاً لمالك و اتكل على القضاء والقدر، لم يقبل ذلك، ثم يعولون عليه في الذي قال: وما يحتجون به أن الله تعالى قبض قبضه فقال: «هذا في الجنة ولا أبالي». وقبض أخرى و قال: هذا في النار ولا أبالي». فإنهم يرون ربهم يصنع ذلك، كالمقارع بينهم المجازف، فتعالى الله عما يصفونه. فإن كان الحديث حقاً، فقد علم الله تعالى أهل الجنة وأهل النار، قبل القبضتين وقبل أن خلقهم، فإنما قبض الله أهل الجنة الذين في علمه أنهم يصيرون إليها، وإنما مرادهم أن يقرروا في نفوس الذين يقبلون ما روه، أن تكون أعمال الناس هباءً منثوراً، من حيث قد فرغ من الأمر،

وكيف يصح ذلك مع قوله: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرُنَ مِنْهُ وَ تَشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخْرُ الْجِبَالُ هَرْدًا* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) (٢) وهو الذي حملهم عليه. وما معنى قوله: (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (٣) وقد منعهم؟ وكيف يقول: (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) (٤) بل كان يجب أن يقول: ما كان لأهل المدينة أن يعملوا بما قضيت عليهم (٥)، ولما قال: (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي

١. هود: ١٠٣.

٢. مريم: ٩٠-٩١.

٣. الانشقاق: ٢٠.

٤. التوبة: ١٢٠.

٥. كذا في النسخة والظاهر: إلا بما قضيت عليهم. (٢٨٨) (الأرض) (١). وهو الذي حال بينهم وبين الطاعة.

وإذا كان الأمر مفروغاً منه، فكيف يقول: (لَيْسَ عَلَيَا أَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ) (٢) وكيف ابتلى العباد فعاقبهم على فعلهم؟ وكيف يقول: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (٣) وكيف يقول: (قَدَّرَ فَهَدَى) (٤) ولم يقل قَدَّرَ فأصل، وكيف يصح أنه خلقهم للرحمة والعبادة بقوله: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (٥) وقوله: (فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) (٦) وقوله: (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (٧) فإذا خلقهم لذلك، فكيف يصح أن لا يجعل لهم سبيلاً، ويقرهم على السعادة والشقاء على ما يذكرون. وكيف يتلى إبليس بالسجود لآدم، فإذا عصى يقول له (فَاهْبُطْ مِنْهَا) (٨) ويجعله شيطاناً رجيماً؟ وكيف يقول: (فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) (٩) وكيف يحذر آدم عداوته. إن كان الأمر مفروغاً منه على ما تقولون؟ وقال في الرسالة: واعلم أيها الأمير ما أقول: إن الله تعالى لم يخف عليه بقضائه شيء، ولم يزدد علماً بالتجربة، بل هو عالم بما هو كائن وما لم يكن، ولذلك قال: (وَلَوْ بَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا) (١٠)، (ولولا أن يكون الناس أمةً واحدةً) (١١) فعلم سبحانه أنه خلق خلقاً من ملائكة و جن وإنس، وأنه يتليهم قبل أن يخلقهم، وعلم ما يفعلون كما قدر أقاتهم، وقد ثواب أهل

١. هود: ١١٦.

٢. النور: ٦١.

٣. الإنسان: ٣.

٤. الأعلى: ٣.

٥. الروم: ٣٠.

٦. الإسراء: ٥١.

٧. هود: ١١٩.

٨. الأعراف: ١٣.

٩. الأعراف: ١٣.

١٠. الشورى: ٢٧.

١١. الزخرف: ٣٣. (٢٨٩)

الجنة وعقاب أهل النار قبل ذلك، ولو شاء إدخال العصاة النار لفاعل، لكنّه سهل سبيلهم لتكون الحجّة البالغة له على خلقه، والعلم ليس بدافع إلى معاصيه، لأنّ العلم غير العمل، (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). (١) وقال: في قولهم في الضلال والهدى، وقوله: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) (٢)، (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) (٣)، لأنّ المراد بذلك إظهار قدرته على ما يريد كما قال: (إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَشَقِّطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) (٤)، (ولو نشاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ) (٥)، (ولو نشاء

لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ (٦)، (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ نَذِيرًا) (٧)، وقال: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا) (٨)، حتى بلغ من قوله أن قال: (فَإِنْ اشْتِطَّعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سِيلًا فِي السَّمَاءِ) (٩)، فإنما يدل بذلك رسوله على قدرته، فكذلك غير الذي شاء منهم، ولذلك قال في حجتهم يوم القيامة رداً عليهم لقولهم: (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (١٠) ورد ذلك بقوله: (بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ) (١١) وقال تعالى بعد ما حكى عنهم قولهم: (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (١٢) وقال تعالى بعد ما حكى عنهم قولهم: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَزَمْنَا مِنْ

١ . المؤمنون: ١٤.

٢ . يونس: ٩٩.

٣ . الأنعام: ٣٥.

٤ . سبأ: ٩.

٥ . يس: ٦٧.

٦ . يس: ٦٦.

٧ . الفرقان: ٥١.

٨ . الكهف: ٦.

٩ . الأنعام: ٣٥.

١٠ . الزمر: ٥٧.

١١ . الزمر: ٥٩.

١٢ . الزخرف: ٢٠. (٢٩٠) شئء) (١) مكذباً لهم: (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا) (٢)، فنعوذ بالله ممن ألحق بالله الكذب. وجعلوا القضاء والقدر معذرة، وكيف يصح ذلك مع قوله: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (٣)؟! وكيف يصح أن يقول: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ) (٤)؟! أي العقوبة التي أصابتكم هي من قبل نفسك بعملك. ولو شاء تعالى أن يأخذهم بالعقوبة من دون معصية لقدر على ذلك، لكنه رؤوف رحيم. ولذلك أرسل موسى إلى فرعون وقد قال: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (٥) فقال: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) (٦) وقال: (أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) (٧) (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ) (٨) وقال: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مَتَنِ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (٩) فيتوبون، فلمّا لجوا في كفرهم بعد ذلك الأمر والترغيب إلى طاعته، أخذهم بما فعلوا.

قال: ثم انظر أيها الأمير، كيف صنيعه لمن أطاع فقال: (إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (١٠)، (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم) (١١)، (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) (١٢)، وقال موسى: (ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَوْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) (١٣)، وقال: (فَلَمَّا عَتَوْا عَنَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا

١ . الأنعام: ١٤٨.

٢ . الأنعام: ١٤٨.

٣ . الزخرف: ٧٦.

٤ . النساء: ٧٩.

٥ . القصص: ٣٨.

٦ . طه: ٤٤.

٧ . طه: ٢٤.

٨ . النازعات: ١٨.

٩ . الأعراف: ١٣٠.

١٠ . يونس: ٩٨.

١١ . الأعراف: ٩٦.

١٢ . المائدة: ٦٦.

١٣ . المائدة: ٢١. (٢٩١) لَهُمْ كُتُوبٌ قُرْءَةٌ خَاسِيَةٌ (١) ، فهذا صنيعه بأهل طاعته، وما قدّمناه صنيعه بأهل معاصيه عاجلاً، فإذا هم أتبعوا أهواءهم، عاقبهم بما يستحقون.

وقال في الرسالة: ولا يصحّ الجبر إلاّ بمعونة الله، ولذلك قال لمحمّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : (وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً) (٢) ، وقال يوسف - عليه السّلام - : (وَالْأَلْبَسُوا لِي زِينَةَ الْمَلِكِ وَالْجَبْرِ قَسْرًا لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ. هذا نصّ الرسالة نقلناها برمتها عن «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» للقاضي عبد الجبار ص ٢١٦-٢٢٣. قال المعلق على كتاب القاضي: رسالة الحسن إلى عبد الملك بن مروان مطبوعة في مجلة «دار الإسلام» طبعها رويتر عدد ٢١ سنة ١٩٣٣ م - وأضاف - منها نسخة من مكتبة أيا صوفيا استنبول برقم ٣٩٩٨. وهذه الرسالة تعترف بعلمه السابق ولكن تنكر كونه موجبا للجبر بمحكم آياته. ومن لطيف كلامه في الرسالة قوله: «والعلم ليس بدافع إلى معاصيه، لأنّ العلم غير العمل». كلام مؤلف كتاب المعتزلة

إنّ عامّة المسلمين في صدر الإسلام كانوا يؤمنون بالقدر خيره وشره من الله تعالى وأنّ الإنسان في هذه الدنيا مسير لا مخير وأنّ القلم قد جفّ على علم الله، وقد قال أحد رجاز ذلك الزمان معبراً عن تلك العقيدة: _____

١ . الأعراف: ١٦٦.

٢ . الإسراء: ٧٤.

٣ . يوسف: ٣٣. (٢٩٢)

يا أيها المضمّر همّا لاتهم * إنك إن تقدر لك الحمى تحم ولو علوت شاهقاً من العلم * كيف توفيك وقد جف القلم (١) يلاحظ عليه: أنّ نسبة كون الإنسان مسيراً لا مخيراً إلى عاميّة المسلمين خطأ جداً، وإتما هي عقيدة تسربت إلى المسلمين من بلاط الأمويين، وهم أخذوه من الأخبار والرهبان، وإلاّ فالطبقة المثلى من المسلمين كانوا يعتقدون بالاختيار في مقابل التسيير. وهذه خطب على - عليه السّلام - وأبناء بيته الرفيع جاهرة بالاختيار ونفى كون التقدير سالباً للحرية، وهذا هو الحسن البصري يسأل «الحسن بن علي» عن مكانة القدر في التشريع الإسلامي، وهو - عليه السّلام - يجيب بما عرفته. (٢) كيف وإنّ التكليف والوعد والوعيد يقوم على أساس الحرية ولا يجتمع مع الجبر كما أنّ إرسال الرسل لا يتم إلاّ بالقول بأنّ الإنسان مخير في اتباع الرسول ومخالفته مضافاً إلى أنّ تعذيب الإنسان المسير ظلم قبيح منفي عنه سبحانه عقلاً ونقلاً. وهذه الوجوه كافية في إثبات أنّ الرأى العام للمسلمين - لولا الضغط من البلاط الأموي - هو الاختيار. وما تقدم من رسالة عادل بنى أمية! لأصدق شاهد على أنّ مذهب الجبر أذيع من قبل الحكام الأمويين.

١ . كتاب المعتزلة: ٩١ نقلاً عن تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ٢٥.

٢ . لاحظ ص: ٢٩٢.

هل الإيمان بخلافة الخلفاء من صميم الدين؟

إذا كان الخلاف في الإمامة أعظم خلاف بين الأمة حسب نظر الشهرستاني إذ قال: «ما سلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلَّ على الإمامة في كلِّ زمان». فيجب على دعاة الوحدة الذين يبذلون سعيهم لتوحيد الصفوف معالجة هذه المسألة من وجهة علمية وفي جو هادئ. فإن حل هذه المسألة ونظائرها يوجب تقارب الخطى، بل يوحد الصفوف. فإنَّ الوحدة بشكلها السلبي الذي يدعو إلى تناسي الماضي، والتغافل عنه من أساسه، وإسدال الستار على كلِّ ما فيه من مفارقات، على ما يتبناه بعض دعواتها، لا تؤثر ولا تحقِّق أمميتهم، وإنَّما تحقِّق تلك الأمية لو أثبتت بصورة علمية أنَّ جملة كبيرة من صور الخلاف لا تستند على أساس، وإنَّما هي وليدة دعايات خلقتها بعض الظروف وغدَّها قسم من السلطات في عهود خاصة، ولأجل ذلك نطرح هذه المسألة على طاولة البحث حتى تتقارب الأفكار المتباعدة فإنَّ الصراع العلمي والجدال بالحق، مهما كان بصورة علمية، يكون من أفضل عوامل التقريب ورفع التباعد، فنقول: من راجع الكتب الكلامية لأصحاب الحديث، وبعدهم الأشاعرة وجد أنَّهم يعدُّون الإيمان بخلافة الخلفاء الأربعة وحتى تفاضلهم حسب زمن إمامتهم من صميم الإيمان، ولا بدَّ أن تأتي ببعض النصوص للقداامي منهم: (٢٩٤)

١. قال إمام الحنابلة (المتوفى عام ٢٤١هـ) في كتاب السنَّة: خير هذه الأمة بعد نبينا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أبو بكر، وخيرهم بعد أبي بكر، عمر، وخيرهم بعد عمر، عثمان، وخيرهم بعد عثمان، علي، رضوان الله عليهم خلفاء راشدون مهديون. (١) ٢. وقال أبو جعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة الطحاوية المسماة ببيان السنَّة والجماعة: وثبتت الخلافة بعد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لأبي بكر الصديق تفضيلاً وتقديماً على جميع الأمة ثم لعمر بن الخطاب ثم لعثمان بن عفان ثم لعلي بن أبي طالب عليه السَّلام. (٢) ٣. وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (المتوفى عام ٣٢٤هـ) عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السنَّة: ويقرون بأنَّهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلَّهم بعد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - (٣) وقال أيضاً بعد ما استعرض خلافة الأئمة الأربعة قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك». (٤) ٤. وقال عبد القاهر البغدادي في بيان الأصول التي اجتمع عليها أهل السنَّة: وقالوا بإمامة أبي بكر الصديق بعد النبي خلاف من أثبتت لعلي وحده من

١. كتاب «السنَّة» المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد الفقي، وهذا الكتاب ألفه لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنَّة ووصف من خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طغى فيها، أو عاب قائلها بأنَّه مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنَّة وسبيل الحق.

٢. «شرح العقيدة الطحاوية» للشيخ عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي: ٤٧١-٤٧٨. وقد توفى الطحاوي عام ٣٢١هـ

٣. مقالات الإسلاميين: ٣٢٣.

٤. «الإبانه عن أصول الديانة» الباب السادس عشر: ص ١٩٠ وما ذكره من الحديث رواه أحمد في مسنده: ٥/٢٢٠ ولاحظ العقائد النسفية: ١٧٧، ولمع الأدلة للإمام الأشعري: ١١٤. (٢٩٥)

الرافضة، وخلاف قول الراوندية الذين أثبتوا إمامة العباس وحده. (١) أقول: هذه هي عقيدة هؤلاء الأعلام وغيرهم ممن كتب في موضوع الإمامة عن أهل السنَّة، ولرفع الستار عن وجه الحقيقة، نبحت في نواح خاصة لها صلة وثيقة بالموضوع وهذه النواحي عبارة عن: ١. هل الإمامة والخلافة من أصول الدين أو من فروعها؟ ٢. هل هناك نص في القرآن أو السنَّة في مسألة الإمامة أو لا؟ ٣. مبدأ ظهور هذه العقيدة؟ ٤. هل هناك نص على أفضلية بعضهم على بعض وفق تسلسل زمانهم؟ فإذا تبين الحال في هذه المواضع يتبين الحال في المسألة التي بيناها آنفاً. أ. هل الإمامة من الأصول أو من الفروع؟

الشيعة الإمامية على بكرة أبيهم اتفقوا على كون الإمامة أصلاً من أصول الدين، وقد برهنوا على ذلك في كتبهم، ولأجل ذلك يعد الاعتقاد بإمامة الأئمة من لوازم الإيمان الصحيح عندهم، وأما أهل السنَّة فقد صرحوا في كتبهم الكلامية أنَّها ليست من الأصول،

وإليك بعض نصوصهم: ١. قال الغزالي (المتوفى عام ٥٠٥هـ): اعلم أن النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات، وليس أيضاً من فن المعقولات بل من الفهيات، ثم إنها مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها، وإن أصاب فكيف إذا أخطأ؟! ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإن فطام القلوب عن المنهج المخالف للمألوف، شديد النفار. ولكننا نوجز القول فيه. (٢) _____

١. الفرق بين الفرق: ٣٥٠.

٢. الاقتصاد في الاعتقاد: ٢٣٤، وفي العبارة صعوبة والظاهر زيادة كلمة «المخالف» وصححها «المنهج المألوف». (٢٩٦)

٢. قال الآمدي (٥٥١ - ٦٣١هـ): واعلم أن الكلام في الإمامة ليس من أصول الديانات ولا من الأمور اللابديات بحيث لا يسع المكلف الإعراض عنها، والجهل بها بل لعمري، إن المعرض عنها لأرجى حالاً من الواغل فيها، فإنها قلما تنفك عن التعصب والأهواء وإثارة الفتن والشحناء، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسلف بالإزراء، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق، فكيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق. لكن لما جرت العادة بذكرها في أواخر كتب المتكلمين والإبانة عن تحقيقها في عامة مصنفات الأصوليين لم نر من الصواب خرق العادة بترك ذكرها في هذا الكتاب. (١) ٣. قال السيد الشريف (المتوفى ٨١٦هـ) في شرح المواقف: المرصد الرابع في الإمامة ومباحثها وليست من أصول الديانات والعقائد خلافاً للشيعة بل هي عندنا من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين إذ نصب الإمامة عندنا واجب على الأمة سمعاً، وإنما ذكرناها في علم الكلام تأسيماً بمن قبلنا، إذ قد جرت العادة من المتكلمين بذكرها في أواخر كتبهم. (٢) ٤. قال الرازي: اتفقت الأئمة، إلا شذاذاً منهم، على وجوب الإمامة والقائلون بوجوبها، منهم من أوجبها عقلاً، ومنهم من أوجبها سمعاً، أما الموجبون عقلاً، فمنهم من أوجبها على الله تعالى، ومنهم من أوجبها على الخلق. (٣) وعلى كل تقدير فقد اعتبر أهل السنة هذا الوجوب حكماً شرعياً فرعياً كسائر الأحكام الفرعية الواردة في الكتاب والسنة والكتب الفقهية، وإذا تبين هذا المطلوب فلنبحث عن الموضوع الثاني. ب. هل هناك نص على الإمامة أم لا؟

اتفقت الشيعة الإمامية على أن المذاهب الحق في باب الإمامة هو القول _____

١. غاية المرام في علم الكلام: ٣٦٣.

٢. شرح المواقف: ٨/٣٤٤.

٣. المحصل للرازي: ٤٠٦، ط إيران. (٢٩٧)

بالتنصيب وأن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - نص في أيام حياته على الخليفة من بعده، وذلك في موارد ضبطها التاريخ أشهرها قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - في يوم الغدير، أي الثامن عشر من ذي الحجة الحرام في عام حجة الوداع في منصرفه من مكة عند بلوغه غدير خم رافعاً يد علي - عليه السلام - في محتشد كبير، وهو يقول: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قال الناس: نعم، فقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه». وقد قامت ثلثة كبيرة من علماء الفريقين بضبط طرق هذا الحديث وأسناده، فألفوا في ذلك مختصرات ومفصّلات، أجمعها وأعمها كتاب الغدير لآية الله الحجة الأميني - رضوان الله عليه - هذا ما عند الشيعة، وأما عند السنة، فالرأي السائد هو عدم التنصيب على أحد والزعم بأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مات ولم يستخلف. فهذا هو إمام الحرمين يقول: وما نص النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على إمامة أحد بعده وتوليته، إذ لو نص على ذلك لظهر وانتشر كما اشتهرت تولية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسائر ولاته، وكما اشتهر كل أمر خطير. (١) وقال الأشعري: ومما يبطل قول من قال بالنص على أبي بكر: أن أبا بكر قال لعمر: «أبسط يدك أبايعك» يوم السقيفة، فلو كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نص على إمامته لم يجوز أن يقول أبسط يدك أبايعك. (٢) وقد عقد ابن كثير الحنبلي في كتابه «البداية والنهاية» باباً مستقلاً في أن رسول الله لم يستخلف وتبعه السيوطي في «تاريخ الخلفاء». (٣) والمسألة - أي عدم وجود النص على المتقّمصين بالخلافة بعد النبي - من _____

١. لمع الأدلة: ١١٤.

٢. اللمع: ١٣٦.

٣. لاحظ البداية: ٥/٢٥٠؛ تاريخ الخلفاء: ٧، ط مصر. (٢٩٨)

الوضوح بمكان بحيث لا تحتاج إلى إقامة الدليل عليها، كيف و هذه قصة السقيفة لم نر أحداً فيها من الذين رشّحوا أنفسهم للخلافة، كسعد بن عباد من الأنصار، وأبي بكر من المهاجرين، استدلل على صحّة خلافته بنصّ النبي عليه. فهذا هو سعد بن عباد يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إنّ محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلاّ رجال قليل... إلى أن قال: حتّى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة، فزركم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه... إلى أن قال: وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قير عين، استبدّوا بهذا الأمر دون الناس. هذا منطق مرشّح الأنصار لا ترى فيه تلميحاً إلى وجود النصّ عليه وليس يقصر عنه منطق أبي بكر في هذا الموقف حين قال: فهم - أي المهاجرين - أول من عبد الله في الأرض، و آمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم في ذلك إلاّ ظالم... إلى أن قال: من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلاّ مدل بباطل أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة. (١) فهذان المنطقان من سعد بن عباد وأبي بكر يعربان عن عدم وجود النصّ على واحد منهما، وأمّا الخليفان الآخران فحدث عنهما ولا حرج، فقد رقى عمر بن الخطاب منصية الخلافة بأمر من أبي بكر عندما دعا عثمان بن عفان في حال مرضه فقال له: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم... هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين: أمّا بعد، ثمّ أغمى عليه، فكتب عثمان: قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم يكن خيراً منه، ثمّ أفاق وقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه

١. تاريخ الطبري: ٢/٤٥٦، حوادث السنّة ١١. (٢٩٩)

فكبر أبو بكر... إلى أن قال لعثمان: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأمره أبو بكر من هذا الموضوع. (١) وأمّا عثمان فقد انتخب عن طريق الشورى التي عين أعضاءها عمر بن الخطاب عندما طعنه أبو لؤلؤة - غلام المغيرة بن شعبه - و كان أعضاء الشورى ستّة أشخاص وهم: علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبد الله، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام. (٢) وقد ذكر التاريخ كيفية استلام عثمان للخلافة، فهذا هو التاريخ المسلّم به، يعرب بوضوح عن عدم وجود نصّ على واحد من الخلفاء الثلاث جميعاً، وإلاّ لم يحتج إلى تعيين أول الخلفاء لتانيهم وإلى تعيين الشورى وانتخاب الخليفة عن طريقها. وقد قام المحدثون القدامى منهم والمتأخرون، بجمع ما ورد من الأحاديث حول الخلافة والإمارة، منهم الإمام أبو السعادات الجزري في كتابه «جامع الأصول من أحاديث الرسول» فقد جمعها في الجزء الرابع من هذا الكتاب، ومنهم العلامة علاء الدين علي المتقي الهندي (المتوفى ٩٧٥هـ) فقد جمعها في كتابه «كنز العمال» الجزء الخامس، ولا يوجد فيه نصّ صريح على واحد من الخلفاء الثلاث. نعم في المقام روايات تشير إلى أنّ الخلافة من حقّ قريش، وهي أحاديث مشهورة موجودة في الكتاب الآنف ذكره. إذا وقفت على هذين الأمرين، تقف على أنّ ما ادّعيناه من عدم كون الاعتقاد بخلافة الخلفاء من صميم الدين نتيجة دينك الأمرين، وذلك لأنّه إذا كان أصل الإمامة والخلافة من الفروع لا من الأصول، من جانب، وثبت حسب نصوص القوم أنّ النبي لم ينص على خلافة واحد منهم من جانب آخر، غاية ما في الباب أنّ الأمة في صدر الإسلام قاموا بواجبهم الشرعي أو العقلي حيث كان

١. الإمامة والسياسة: ١٨ وص ٢٥، ط مصر، الشرح الحديدي: ١/١٦٥.

٢. تاريخ الطبري: ٣/٢٩٣. (٣٠٠)

نصب الإمام واجباً بأحد الوجهين، فإنّ أقصى ما يمكن أن يقال: إنّ خلافة هؤلاء كانت أمراً صحيحاً غير مخالف للأصول والقواعد، ولكن يجب أن يعلم أنّه ليس كلّ قضية صحيحة جزءاً من الدين، وعلى فرض كونها من الدين، فليس كلّ ما هو من الدين يجب أن

يعد من العقائد ووعلى فرض كونها من العقائد، فليس كل ما هو يعد من العقائد مائزاً بين الإيمان والكفر أو بين السنة والبدعة. وهذه مراحل ثلاث يجب أن يركز عليها النظر فنقول: إن غاية جهد الباحث حسب أصول أهل السنة هي إثبات كون خلافتهم أمراً صحيحاً، لأن نصب الإمام واجب على الأمة عقلاً أو شرعاً، فلاجل ذلك قاموا بواجبهم فصبوا هذا وذاك للإمامة، ونتيجة ذلك أن عملهم كان أمراً مشروعاً ولكن ليس كل أمر مشروع يعد جزءاً من الدين. فلو قام القاضي بفصل الخصومة بين المترافعين في ضوء الكتاب والسنة فحكم بأن هذا المال لزيد دون عمرو وكان قضاؤه صحيحاً لا يعد خصوص هذا القضاء (لا أصل القضاء بالصورة الكلية) من الدين، إذ ليس كل أمر صحيح جزءاً من الدين، ولا يصح أن يقال إنه يجب أن نعتقد أن هذا المال لزيد دون عمرو، ولو تنزلنا عن ذلك وقلنا إنه من الدين، ولكن ليس كل ما هو من الدين يعد من العقائد فكون الماء طاهراً ومطهراً حكم شرعي، ولكن ليس من العقائد، فأى فرق بينه وبين خلافة الخلفاء مع اشتراك الجميع في كونه حكماً فرعياً لا أصلاً من الأصول. ولو تنزلنا مرة ثانية وقلنا إنه من العقائد، ولكن ليس كل ما يجب الاعتقاد به مائزاً بين الإيمان والكفر، أو بين السنة والبدعة، إذ للمسائل العقائدية درجات ومراتب، فالشهادة بتوحيده سبحانه ونبوة نبيه وإحياء الناس يوم الدين، تعد مائزاً بين الكفر والإيمان، وليس كذلك الاعتقاد بعذاب القبر، أو سؤال منكر ونكير، أو كون مرتكب الكبيرة مؤمناً. وعلى هذا الأساس يجب على إخواننا أهل السنة تجديد النظر في هذا الأصل الذي ذهبوا إليه، وهو جعلهم الاعتقاد بخلافة الخلفاء المشار إليهم، آية السنة، ومخالفته آية البدعة. (٣٠١)

ولو توفى الرجل عن أولاد صغار بلا وصى ولا تعيين قيم لصغاره فعلى الحاكم الإسلامى تعيين القيم عليهم لئلا تضيع أموالهم، وعندئذ يسأل فهل الاعتقاد بالأصل الكلى من صميم الدين؟ وأنه يجب على المسلم أن يعتقد بأن من مات عن أولاد صغار يجب على الحاكم نصب من يلي أمورهم؟ وعلى فرض كونه بصورته الكلية من صميمه، فهل الاعتقاد بأن زيدا ولى الصغار عند نصب الحاكم له، من صميم الدين، أو أن المطلوب في الفروع هو العمل عند الابتلاء. وأما الاعتقاد التفصيلي بالكبريات والصغريات فغير لازم؟ ج. مبدأ ظهور هذه العقيدة

لم يكن في عصور الخلفاء الثلاث أى أثر من هذه العقيدة ولم يكن يخطر ببال أحد من المهاجرين والأنصار أنه يجب الاعتقاد بخلافة هذا أو ذاك أو ذلك، وأن من لم يكن معتقداً بخلافتهم يخرج عن صفوف المؤمنين ويلتحق بالمبدعين. وإنما وجدت تلك الفكرة يد السياسة بهدف الإزراء بعلى - عليه السلام -، وتصحيح خروج معاوية عليه لأخذ ثار الخليفة، ولعل عمرو بن العاص هو أول من بذر تلك الفكرة. ويدل على ذلك ما ذكره المسعودى في كتابه: قال: اجتمع عمرو بن العاص مع أبى موسى الأشعري في دومة الجندل، فجرى بينهما مناظرات وقد حضر «عمرو» غلامه لكتابه ما يتفقان عليه، فقال عمرو بن العاص - بعد الشهادة بتوحيده سبحانه نبوة نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - : ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمل بكتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه. قال أبو موسى: اكتب ثم قال فى عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: اكتب، ثم قال عمرو: واكتب: وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ورضاً منهم، وأنه كان مؤمناً. فقال أبو موسى الأشعري: ليس هذا ممّا قعدنا له. قال عمرو: والله لا بد من أن يكون مؤمناً أو كافراً. فقال أبو موسى: كان مؤمناً. (٣٠٢)

قال عمرو: فمره يكتب. قال أبو موسى: اكتب. قال عمرو: فظالمًا قتل عثمان أو مظلوماً؟ قال أبو موسى: بل قتل مظلوماً. قال عمرو: أو ليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطاناً يطلب بدمه؟ قال أبو موسى: نعم. قال عمرو: فهل تعلم لعثمان ولياً أولى من معاوية؟ قال أبو موسى: لا. قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى: بلى. قال عمرو للكاتب: اكتب، وأمره أبو موسى فكتب. قال عمرو: فإننا نقيم البينة على أن علياً قتل عثمان... (١) وهذا النص من حجة التاريخ وغيره يعرب عن أن الاعتقاد بخلافة الخلفاء إنما برز للوجود فى جو مشحون بالعداء والبغضاء والمنافسة والمغالبة، حتى جعل ذلك الداهية الماكر، الاعتقاد بخلافة الشيخين وسيلة لانتزاع الإقرار بخلافة الثالث من الخلفاء، ولم يكن الانتزاع مقصوداً بالذات، بل كان أخذه ذريعة

لانتزاع الاعترافات الأخرى من أنه قتل مظلوماً وأنه ليس له ولي يطلب بدمه أولى من معاوية وأن علياً هو القاتل... إلى آخره. ثم إن الأجواء السياسية المخالفة لأمير المؤمنين - عليه السلام - أخذت تروج تلك العقيدة من أجل الإطاحة به - عليه السلام - وإثبات صحة قيام معاوية وصحة أعماله وقيامه ونصبه فصار ذلك المستمسك السياسي بمرور الزمان، عقيدة دينية، سقته الأوضاع السياسية الأموية والعباسية، إلى أن ذكرت في الكتب والمؤلفات وعدت من صميم الدين. وقد استفحلت أهمية الإيمان بخلافه الخلفاء ولا سيما الثالث منهم في عهد معاوية عندما كتب إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلغون علياً ويرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من فيها من شيعة علي - عليه السلام -، فاستعمل معاوية عليهم زياد بن سمية وضم إليها البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم

١. مروج الذهب: ٣٩٦/٢-٣٩٧. (٣٠٣)

عارف، لأنه كان منهم أيام علي - عليه السلام - فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله و مناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم، واكتبوا إلى بكل ما يروى كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع ويفيضة في العرب منهم و الموالى، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقى إلى معلّمى الكتابات فعملوا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله. (١) كل ذلك يثبت أن الإيمان بخلافتهم ولا سيما الثالث منهم، كان وليد

١. الشرح الحديدي: ١١/٤٤-٤٥ نقله عن كتاب الأحداث لأبي الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني. (٣٠٤)

سياسات غاشمة انطلقت من البيت الأموي وأشياعه ضد البيت العلوي وأتباعه. وبذلك يسهل تصديق ما ذكره الكاتب الكبير محمود أبو رية في كتابه القيم «أضواء على السنة المحمدية»: إن الأهواء الشخصية والأغراض المذهبية كان لها أثر بعيد في وضع الحديث على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لكي يؤيد كل فريق رأيه، ويحقق مآربه بحق وبغير حق وبصدق وبغير صدق. (١) وفي الختام للقارئ الكريم أن يسأل: من جعل الاعتقاد بخلافه الخلفاء الأربع من صميم الدين دون سواهم؟! وأن يسأل عن وجه التفاضل والتمييز بينهم وبين سائر الخلفاء الذين تسلّموا دفعة الخلافة عن طريق الوراثة، أو تنصيب سابق منهم على اللاحق، أو بيعه عدّه من الشاميين وغيرهم. وهذا عمر بن عبد العزيز قد تسلّم دفعة الحكم بأحد هذه الطرق مع أنّهم لا يجعلون الإيمان بخلافته من صميم الإيمان، مع أنه من قريش وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «لا يزال هذا الأمر في قريش، ما بقى منهم اثنان». وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: «قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة». (٢) اللهم إلا أن يعتذروا عن هذا التخصيص بأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك». (٣) لكن في سنده سعيد بن جهمان، قال أبو حاتم الرازي: شيخ يكتب حديثه ولا يحتج به. (٤) ثم إن هنا نكتتين تبه عليهما العلامة الروحاني في كتابه «بحوث مع أهل السنة والسلفية»:

(ص ٢٤-٢٥) نأتى بهما معاً: _____

١ . أضواء على السنّة المحمديّة.

٢ . جامع الأصول: ٤/٤٣٧-٤٣٨.

٣ . المصدر السابق.

٤ . الجرح والتعديل: ٤/١٠. (٣٠٥)

١. الحقّ الذي يراه المتتبع في التاريخ هو أنّ عقيدة خلافة الخلفاء الثلاث وقداستهم البالغة، قد أقحمت في عقائد أهل السنّة إقحاماً، وإنّما كان ذلك رد فعل ومحاكاة لعقيدة الشيعة في علي - عليه السّلام - وأولاده الطاهرين، ولذا صيغت هذه العقيدة أوّلاً عند أهل السنّة في قالب الرد والمعارضة لعقيدة الشيعة فقط، ثمّ ألحقوا عليّاً - عليه السّلام - بهم في عصر متأخر. وبتفصيل أكثر نقول: إن جعل خلافة الشيخين من العقائد، لم يكن في القرن الأوّل. وغاية ما كان يقال فيهما هو أنّ خلافتهما كانت صحيحة. هذا فضلاً عن عقيدتهم في خلافة عثمان وعلي، بل إنّ عثمان لم يكن بذلك المرضى عند الناس. ثمّ إنّ المرجئة كانت تشك في عدالة عثمان وعلي، بل في إيمانها. (١) ونحلة الإرجاء كانت شائعة في عامة الناس آنذاك قبل غلبة أهل الحديث، بل لقد كان لهم القدح المعلّى حتى بعد وجود أهل الحديث والسنّة في كثير من البلاد. حتى قال الأمير نشوان الحميري: وليس كورة من كور الإسلام إلا والمرجة غالبون عليها إلا القليل. (٢) ٢. تقرر الأمر في نحلة أهل الحديث على قبول خلافة علي - عليه السّلام - بعد ما كانوا في الغالب من العثمانيّة ينكرون خلافة علي، و يظهر أنّ قبول خلافة علي - عليه السّلام - كان على يد الإمام أحمد بن حنبل، فقد ذكر ابن أبي يعلى بالإسناد عن وديزة الحمصي قال: دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل حين أظهر التبريع بعلي - رضى الله عنه - فقلت له: يا أبا عبد الله إنّ هذا طعن على طلحة والزبير، فقال: بئس ما قلت وما نحن و حرب القوم وذكرها، فقلت: أصلحك الله إنّما ذكرناها حين ربت بعلي وأوجبت له الخلافة وما يجب للأئمّة قبله، فقال لي: وما ينعني من ذلك، قال: قلت: حديث ابن _____

١ . طبقات النساء: ٦/١٥٤.

٢ . الحور العين: ٢٠٣. (٣٠٦)

عمر (١)، فقال لي: عمر خير من ابنه فقد رضى علياً للخلافة على المسلمين وأدخله في الشورى، وعلي بن أبي طالب رضى الله عنه قد سمى نفسه أمير المؤمنين فإقول أنا ليس للمؤمنين بأمر، فانصرفت عنه. (٢) وهذا يعرب عن أنّ مسألة التبريع كانت مسألة ثقيلة على هذا المحدث، وقد كان غير الكوفيين على هذا المذاق. وممّا يؤيد عدم كون خلافة الخلفاء من صميم الدين: أنّ أحمد بن حنبل في رسالته المؤلفة حول مذاهب أهل السنّة لم يذكرها في عداد العقائد الإسلاميّة، بل بعدما أكمل بيان العقائد قال: ومن السنّة ذكر محاسن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والكف عمّا شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله أو واحداً منهم فهو مبتدع رافضى، حبه سنّة، والدعاء لهم قرينة، والافتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة، وخير هذه الأئمّة - بعد نبيها - أبو بكر، وخيرهم بعد أبي بكر عمر، وخيرهم بعد عمر عثمان، وخيرهم بعد عثمان علي، رضوان الله عليهم خلفاء راشدون مهديون. (٣) وأمّا البحث عن الدليل الدالّ على أفضلية بعضهم على بعض وفق تسلسل زمانهم، فسيوافيك الكلام فيه في الجزء السادس. *** (ثمّ أورتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) (٤).

١ . الحديث المنسوب إلى ابن عمر هو «كنا نعد ورسول الله حيّ وأصحابه متوافرون: أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ نسكت».

٢ . طبقات الحنابلة: ١/٣٩٣.

٣ . كتاب السنّة: ٤٩.

٤ . فاطر: ٣٢. (٣٠٧)

خاتمة المطاف

خاتمة المطاف

فيها أمور: الأول: المذهب الحنبلي في مجال العقائد والفقہ

إن للمذهب السنّي على الإطلاق دعامين: ١. المذهب الفقهي

لم يكن لأهل السنّة والجماعة في القرون الأولى إلى القرن السابع مذهب فقهي خاص يقتفون أثره، بل كانت لهم مذاهب فقهية مختلفة متشعبة غير أنّ يد السياسة حصرت المذاهب الفقهية في الأربعة المعروفة وهي: الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي وألغت سائر المذاهب ولم تعترف بها. قال المقرئزي: استمرت ولاية القضاء الأربعة من سنة ٦٦٥ حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام غير هذه الأربعة، وعودى من تمذهب بغيرها وأنكر عليه، ولم يول قاض، ولا قبلت شهادة أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاؤهم في هذه الأمصار في طول هذه المدّة، بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها، والعمل على هذا إلى اليوم. (١)

١. الخطط المقرئزية: ٢/٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٤٤. (٣٠٨)

وهذه الكلمة الأخيرة، أعنى قوله: وتحريم ما عداها تكشف عن رزية فادحة أمت بالإسلام حيث إنّ المسلمين قد عاشوا قرابة سبعة قرون، ومات فيها على دين الإسلام ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم ولم يسمع أحد في القرنين الأولين اسم هذه المذاهب. ثمّ في ما بعدهما كان المسلمون بالنسبة إلى الأحكام الشرعية في غاية من السعة والحرية، وكان العامي يقلد من اعتمد من المجتهدين، وكان المجتهدون يستنبطون الأحكام من الكتاب والسنّة على موازينهم المقررة عندهم في العمل بالكتاب والسنّة ولم يعلم وجه لهذا الحصر وأنّه ليس لأحد من المقلّدين أو الفقيه المجتهد أن يخرج عن حدّ تقليد الأئمة الأربعة، فبأى دليل شرعي صار اتباع المذاهب الأربعة واجباً مخيراً والرجوع إلى غيرها حراماً باتاً مع أنّنا نعلم أنّ هذه المذاهب نشرت في ما نشرت من المناطق بالقهر والغلبة من الحكومات الإسلامية، فالحكومة التي كان يروقها الفقہ الحنفي كانت تباشر نشره وتكتب غيره وتسد الطريق أمامه، والحكومة التي كان يروقها غير الحنفي تعمل مثل عمل الحكومة الأولى، وقد أشعلت السياسات الخادعة نيران العدا بين أتباع المذاهب الأربعة طول القرون (١)، وعاد وعاظ السلاطين ينحتون لكلّ إمام من الأئمة الأربعة فضائل ومناقب صدرت عن النبي قبل ميلادهم وإمامتهم. (٢) هذا حال الدعامة الأولى ولا- نطيل البحث فيها، والذي يجب أن يستنتج ممّا ذكرناه هو أنّ من يحلم بخلود الدين وبقاء قوانينه ويرغب في غضاضة الدين وطراوته وصيانتة عن الانداس وغناء المسلمين عن موائد الأجانب، يجب عليه

١. لاحظ تاريخ حصر الاجتهاد لشيخنا العلامة الطهراني: ١٤٠ والحوادث الجامعة لابن الفوطي: ص ٢١٦ في حوادث سنة ٦٤٥ وقرأ فيها ملحمة النزاع بين أتباع الأئمة الأربعة، ولا تنس ما أنشده على بن الجرجاني عن بعضهم:

مثل الشافعي في العلماء * مثل البدر في نجوم السماء

قل لمن قاسه بنعمان جهلاً * أيقاس الضياء بالظلماء تاريخ بغداد: ٢/٦٩.

٢. لاحظ تاريخ بغداد: ١/٤١ «مناقب أبي حنيفة» و ج ٢/٦٩ «مناقب الشافعي» وقد نقل أحاديث في مناقبهما ولم يكن من الإمامين أثر إلا في عالم الذر. (٣٠٩)

السعي في فتح باب الاجتهاد، سواء أوافق رأى الأئمة الأربعة أم خالفها. (١) ٢. المذهب العقائدي

ونعني به الأصول التي يعتنقها أهل السنّة في هذا الجيل والأجيال المتقدّمة إلى زمن الإمام أحمد حول المبدأ والمعاد وأسمائه سبحانه وصفاته وما يرجع إلى الإنسان في عاجله وآجله. ولا شك أنّ هذه الأصول قد دونت ورتبت في الكتب الكلامية للحنابلة بصورة بسيطة، وفي كتب الأشاعرة بصورة علمية مبرهنه، وقد قدّمنا إليك عصارات مدوّنة من عقائدهم. والذي نركز عليه هو أنّ هذه الأصول

على اختلاف في عددها وإن صارت عقيدة لأهل السنة في هذه الأجيال ولكنها أصول اجتمعوا عليها منذ تصدّر أحمد ابن حنبل منصب الإمامة في العقائد والمعارف واستخرجها من السنة ودونها في رسائله، وذكر أنها عقائد أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي إلى يومنا هذا من علماء الحجاز والشام وغيرهم. ولكن الحقيقة غير ذلك بل كان المسلمون، أعني: بهم أصحاب الحديث، السنة قبل تصدّر أحمد لمنصب الإمامة في مجال العقائد على فرق وشيع ولم تكن هذه الأصول برمتها مقبولة عندهم، وإنما الإمام أحمد وحدهم على تلك الأصول وقضى على سائر المذاهب الدارجة بين أهل الحديث أنفسهم، فنسب هذه الأصول إلى إمام الحنابلة أقرب إلى الحقيقة من نسبتها إلى الصحابة والتابعين والتابعين. والغافل عن تاريخ حياة الإمام وتأثيره في نفوس المسلمين وما كسب بعد الإفراج من العطف والحنان يتخيل أن هذه الأصول مذهب أهل السنة مع أنه لم يكن لهذه الأصول بهذا النحو، أثر قبله، بل كان المحذون

١. لاحظ مفاهيم القرآن: ٣٠٥-٣/٢٩٠-٣٠٥ تجد فيها بغيتك. (٣١٠)

مختلفين في كثير من هذه الأصول. فصار الإجماع والاتفاق من جانب الإمام سبباً لتناسي ما كانوا عليه من العقائد. إن الإمام أحمد لما ظهر منه الصمود والثبات في طريق العقيدة (عدم خلق القرآن وقدمه) وتحمل المحنة (١) إلى أن أفرج عنه في أيام المتوكل وقربه الخليفة إلى بلاطه، صار ذلك سبباً لشهرته وإمامته في مجال العقائد، وقد جعلت المحنة من ذلك الرجل الصمود، بطلاً سامياً تهوى إليه الأفتدة، وتخضع له الأعناق، أضف إليه أنه جئد بلاط الخليفة جهوده لترويج أفكاره وآرائه، فعند ذلك صار أحمد إمام السنة وناصرها، فصارت السنة ما قاله أحمد، والبدعة ما هجره أحمد، وكأنهم نسوا أو تناسوا ما كان عليه أسلافهم من الفرق المختلفة. وعلى ضوء هذا فليس المذهب الحنبلي العقائدي، مذهباً لعامة أهل الحديث وأهل السنة وإنما هو مذهب الإمام أحمد، وقد أخذت هذه الأصول بالانتشار والشيوع عندما انقلب الوضع أيام المتوكل وبعده لصالحه، ولولا أن المحنة استبطلت الرجل وخلقت منه رجلاً مثالياً شجاعاً في طريق العقيدة، لكان المذهب السنّي في الناحية العقائدية غير مجمع على هذه الأصول التي يتخيل أنها أصول اتفق عليها أصحاب النبي والتابعون لهم بإحسان إلى زمن إمامة أحمد. وإن كنت في ريب مما ذكرنا - أي اختلاف آراء أهل الحديث وتشنت مذاهبهم في مجال العقائد - فاستمع لما يقوله السيوطي ويذكره في هذا المجال ونحن نأتي بملخص ما ذكره ذلك المحذون الخبير وهو يكشف عن وجود المسالك المختلفة والأهواء المتضادة عند أهل الحديث، وأنهم لم يكونوا قط على تيرة واحدة حسبما وحدهم إمام الحنابلة فهم كانوا بين: مرجئ يرى أن العمل ليس جزءاً من الإيمان وأنه لا تضر معه معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، ونقدم إليك بعض أسمائهم من الذين عاشوا قبل إمامة أحمد أو عاصروه، نظراء:

١. سيوافيك تفصيل ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد المعتزلة. (٣١١)

١. إبراهيم بن طهمان، ٢. أيوب بن عائذ الطائي، ٣. ذر بن عبد الله المرهبي، ٤. شيبان بن سوار، ٥. عبد الحميد بن عبد الرحمن، ٦. أبو يحيى الحماني، ٧. عبد المجيد بن عبد العزيز، ٨. ابن أبي راود، ٩. عثمان بن غياث البصري، ١٠. عمر بن ذر، ١١. عمر بن مرة، ١٢. محمد بن حازم، ١٣. أبو معاوية الضرير، ١٤. ورقاء بن عمر الشكري، ١٥. يحيى بن صالح الوحاظي، ١٦. يونس بن بكير. إلى ناصبي لعلى وأهل بيته الطاهرين - عليهم السلام -، نظراء: ١. إسحاق بن سويد العدوي، ٢. بهز بن أسد، ٣. حريز بن عثمان، ٤. حصين بن نمير الواسطي، ٥. خالد بن سلمة الفأفأ، ٦. عبد الله بن سالم الأشعري، ٧. قيس بن أبي حازم. إلى متشيع يحب علياً وأولاده ويرى الولاء فريضة نزل بها الكتاب ويرى الفضيلة لعلى في الإمامة والخلافة، نظراء: ١. إسماعيل بن أبان، ٢. إسماعيل بن زكريا الخلقاني، ٣. جرير بن عبد الحميد، ٤. أبان بن تغلب الكوفي، ٥. خالد بن محمد القطواني، ٦. سعيد بن فيروز، ٧. أبو البختری، ٨. سعيد بن أشوع، ٩. سعيد بن عفير، ١٠. عباد بن العوام، ١١. عباد بن يعقوب، ١٢. عبد الله بن عيسى، ١٣. ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى، ١٤. عبد الرزاق بن همام، ١٥. عبد الملك بن أعين، ١٦. عبيد الله بن موسى العبسي، ١٧. عدى بن ثابت الأنصاري، ١٨. علي بن الجعد، ١٩. علي بن هاشم بن البريد، ٢٠. الفضل بن دكين، ٢١. فضيل بن مرزوق الكوفي، ٢٢. فطر بن خليفة، ٢٣. محمد بن جحادة الكوفي، ٢٤. محمد

بن فضيل بن غزوان، ٢٥. مالك بن إسماعيل أبو غسان، ٢٦. يحيى بن الخراز. إلى قدرى ينسب محاسن العباد ومساويهم ومعاصيهم إلى أنفسهم ولا يسند فعلهم إلى الله سبحانه، نظراء: ١. ثور بن زيد المدني، ٢. ثور بن يزيد الحمصي، ٣. حسان بن عطية (٣١٢) المحاربي، ٤. الحسن بن ذكوان، ٥. داود بن الحصين، ٦. زكريا بن إسحاق، ٧. سالم بن عجلان، ٨. سلام بن مسكين، ٩. سيف بن سلمان المكي، ١٠. شبل بن عباد، ١١. شريك بن أبي نمر، ١٢. صالح بن كيسان، ١٣. عبد الله بن عمرو، ١٤. أبو معمر عبد الله بن أبي لييد، ١٥. عبد الله بن أبي نجیح، ١٦. عبد الأعلى ابن عبد الأعلى، ١٧. عبد الرحمن بن إسحاق المدني، ١٨. عبد الوارث بن سعيد الثوري، ١٩. عطاء بن أبي ميمونة، ٢٠. العلاء بن الحارث، ٢١. عمرو بن زائدة، ٢٢. عمران بن مسلم القصير، ٢٣. عمير بن هاني، ٢٤. عوف الأعرابي، ٢٥. كهمس بن المنهال، ٢٦. محمد بن سواء البصري، ٢٧. هارون بن موسى الأعور النحوي، ٢٨. هشام الدستوائي، ٢٩. وهب بن منبه، ٣٠. يحيى بن حمزة الحضرمي. إلى جهمي ينفي كل صفة لله سبحانه ويعتقد بخلق القرآن وحدوثه، نظير: بشر بن السري. إلى خارجي ينكر على أمير المؤمنين مسألة التحكيم ويتبرأ منه و من عثمان و من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ومعاوية وغيرهم، نظراء: ١. عكرمة مولى ابن عباس، ٢. الوليد بن كثير. إلى واقفي لا- يقول في التحكيم أو في القرآن بشيء من الحدوث والقدم وإنه مخلوق أو غير مخلوق، نظير: علي بن هشام. إلى متقاعد يرى لزوم الخروج على أئمة الجور ولا يباشره بنفسه، نظير: عمران ابن حطان (١) إلى غير ذلك من ذوى الأهواء والآراء الذين قضى عليهم الدهر وعلى آرائهم ومذاهبهم بعد ما وصل أحمد بن حنبل إلى قمة الإمامة في العقائد. فصار أهل الحديث مجتمعين تحت الأصول التي استخرجها أحمد وجعل الكل كتلة واحدة، بعد ما كانوا على سبل شتى.

١. تدريب الراوى للسيوطي: ١/٣٢٨. (٣١٣)

هذه ملحمة أهل الحديث وقصة مذهبهم الفقهي والعقائدي، والأسف أن المفكرين من أهل السنة يتخيلون أن هذه الأصول التي يدينون بها باسم عقيدة السلف الإسلامية قبل التحاق الأشعري به و باسم عقيدة الإمام الأشعري بعد التحاقه هي نفس الأصول التي كان عليها المسلمون الأول إلى زمن الإمام أحمد وزمن الملحق بهم الشيخ الأشعري. وهذا التاريخ الواضح يفرض على المفكرين المتعطشين لمعرفة الحق دراسة هذه الأصول من رأس حتى لا يعابوا بما جاء في هذه الكتب مما عليه ماركة «عقيدة السلف» أو «عقيدة الصحابة والتابعين» أو تابعي التابعين. والذي يوضح ذلك هو أن كل واحد من هذه الأصول ردّ لمذهب نجم في القرون الأولى، فلأجل التبري منه صار خلافه شعاراً لمذهب أهل السنة. إمامة أحمد في الفقه

لا شك أن الفقه المنسوب إلى أحمد هو أحد المذاهب الفقهية المعروفة وتقتفيه جماعة كثيرة في الحجاز ونجد والشامات، ولكن هذا الفقه المدون لا يمت إلى الفقه إلا بصله ضعيفه، وذلك لأن الإمام لم يكن إمام الفقه والاجتهاد بل كان إمام الحديث، فكان يعد أكبر محدث في عصره، وأعظم حافظ للسنة، وأما الاجتهاد بالمعنى المصطلح الذي كان يتمتع به سائر الأئمة الأربعة، فلم يكن متوفراً فيه إلا ببعض مراتبه الضئيلة التي لا يصح عدّه معها أحد الأئمة الفقهاء، فإن للاجتهاد مؤهلات وشرائط محررة في محلها، أعظمها وجود ملكة قدسية يقتدر معها الإنسان على استخراج الفروع عن الأصول، وأما الإفتاء بالحكم في ضوء النص الصريح الوارد فيه فليس إلا مرتبة ضعيفة من الاجتهاد، والاجتهاد المطلق يستدعى ذهنًا وقادراً، مشققاً للفروع، ومستخرجاً إياها من الأصول، إلى غير ذلك مما يقوم به أئمة الفقه، والمعروف من الإمام أحمد غير ذلك، فإن اجتهاده كان أشبه باجتهاد الأخباريين والمحدثين الذين يفتون بنص الحديث ويتوقفون في غير مورده. وأما المذهب الفقهي الحنبلي الدارج بين الحنابلة فقد جمع أصوله تلميذ (٣١٤)

الإمام «الخلال» من هنا وهناك، ومن الفتاوى المتشعبة الموجودة بين أيدي الناس حتى جعله مذهباً للإمام أحمد، وجاء من جاء بعده فاستثمرها واستغلها حتى صار مذهباً من المذاهب. كلام للذهبي

قال: وقد دون عنه كبار تلامذته مسائل وافرة في عدة مجلدات. ثم ذكر أسامي عدة من تلاميذه الذين جمعوا مسائل الإمام وفتاواه، وقال: جمع أبو بكر الخلال سائر ما عند هؤلاء من أقوال أحمد وفتاويه وكلامه في العلل والرجال والسند والفروع حتى حصل عنده من

ذلك ما لا يوصف كثرة ورحل إلى النواحي في تحصيله وكتب عن نحو من مائة نفس من أصحاب الإمام، ثم كتب كثيراً من ذلك عن أصحاب أصحابه، وبعضه عن رجل، عن آخر، عن آخر، عن الإمام، ثم أخذ في ترتيب ذلك وتهذيبه وتوبيهه، وعمل كتاب العلم وكتاب العلل وكتاب السنه، كل واحد من الثلاثة في ثلاثة مجلدات. (١) فلو صح ما ذكره الذهبي فهو يعرب عن أن الإمام أحمد لم يكن رجلاً متربعا على منصة دراسة الفقه وأصوله وقائماً بتربية الفقيه، وأقصى ما كان يتمتع به هو الإجابة عن الأسئلة التي كانت ترد عليه من العراق وخارجه في ضوء النصوص الموجودة عنده، فتفرقت الأجوبة طبق الأسئلة في البلاد وجمعها «الخلال» في كتاب خاص. هذا ما ذكره الذهبي ولكن الظاهر عن غير واحد ممن ترجم الإمام أنه كان يتحفظ عن الفتيا ويتزهد عنه، ولعله يرى مقام الإفتاء أرفع وأعلى من نفسه. روى الخطيب في تاريخه بالإسناد قال: كنت عند أحمد بن حنبل فسأله رجل عن الحلال والحرام، فقال له أحمد: سل عافاك الله غيرنا. قال الرجل: إنما نريد جوابك يا أبا عبد الله. قال: سل عافاك الله غيرنا، سل الفقهاء، سل أبا

١. سير أعلام النبلاء: ١١/٣٣٠. (٣١٥)

ثور. (١) وهذا يعرب عن أن ديدن الإمام في حياته هو التحفظ والتجنب عن الإفتاء إلا إذا قامت الضرورة أو كان هناك نصوص واضحة في الموضوع. وهذا لا يجتمع مع ما نسب إليه الذهبي من أن «الخلال» كتب عنه الكتب التي ذكرها. وهناك تحقيق بارع للشيخ أبي زهرة في كتابه حول حياة ابن حنبل نذكر خلاصة ما جاء فيه: إن أحمد لم يصنف كتاباً في الفقه يعد أصلاً يؤخذ منه مذهبه ويعد مرجعه ولم يكتب إلا الحديث، وقد ذكر العلماء أن له بعض كتابات في موضوعات فقهية، منها: المناسك الكبير، والمناسك الصغير، ورسالة صغيرة في الصلاة كتبها إلى إمام صلى هو وراءه فأساء في صلاته، وهذه الكتابات هي أبواب قد توافر فيها الأثر، وليس فيها رأى أو قياس أو استنباط فقهي بل اتباع لعمل، وفهم لنصوص. ورسالته في الصلاة والمناسك الكبير والصغير هي كتب حديث، وكتبه التي كتبها كلها في الحديث في الجملة، وهي المسند والتاريخ والناسخ والمنسوخ والمقدم والمؤخر في كتاب الله فضائل الصحابة والمناسك الكبير والصغير والزهد، وله رسائل يبين مذهبه في القرآن والرد على الجهمية والرد على الزنادقة. وإذا كان أحمد لم يدون في الفقه كتاباً ولم تنشر آراؤه ولم يملها على تلامذته كما كان يفعل أبو حنيفة، فإن الاعتماد في نقل فقهه إنما هو على عمل تلاميذه فقط، وهنا نجد أن الغبار يثار حول ذلك النقل من نواح متعددة. إن المروى عن ذلك الإمام الأثرى - الذي كان يتحفظ في الفتيا فيقيد نفسه بالأثر، ويتوقف حيث لا أثر ولا نص شاملاً عاماً، ولا يلجأ إلى الرأي إلا حين الضرورة القصوى التي تلجئه إلى الإفتاء - كثير جداً، والأقوال المروية عنه متضاربة، وذلك لا يتفق مع ما عرف عنه من عدم الفتوى إلا فيما يقع من المسائل ولا يفرض الفروض ولا يشقق الفروع ولا يطرد العلل، ولقد كان أكثر من قول: لا أدري، فهذه الكثرة لا تتفق مع المعروف منه من الإقلال في الفتيا والمعروف عنه من قول: لا أدري، ومع المشهور عنه من أنه لا يفتى بالرأي إلا للضرورة القصوى.

١. تاريخ بغداد: ٢/٦٦. (٣١٦)

إن الفقه المنقول من أحمد قد تضاربت أقواله فيه تضارباً يصعب على العقل أن يقبل نسبة كل هذه الأقوال إليه. وافتتح أي كتاب من كتب الحنابلة واعمد إلى باب من أبوابه تجده لا يخلو من عدة مسائل اختلفت فيها الرواية بين لا ونعم - أي بين النفي المجرد والإثبات المجرد - هذه نواح قد أثار غباراً حول الفقه الحنبلي وإذا أضيف إليها أن كثيراً من القدامى لم يعدوا «أحمد» من الفقهاء، فابن جرير الطبري لم يعده منهم، و«ابن قتيبة» الذي كان قريباً من عصره جداً لم يذكره في عصابة الفقهاء بل عدّه في جماعة المحدثين، ولو كانت تلك المجموعة الفقهية من أحمد ما ساع لأولئك أن يحذفوا أحمد عن سجل الفقهاء. (١) الثاني: شكوى تاريخية للأشاعرة ضد الحنابلة

لم يزل النزاع قائماً على قدم وساق بين الحشوية والحنابلة من أهل الحديث من جهة و متكلمي الأشاعرة من جهة أخرى - مع أن إمام

الأشاعرة كان قد أعلن اقتفاء أثر إمام الحنابلة - و نار الجدل مستعرة بين الفريقين، عبر العصور المختلفة، وذلك أن الطائفة الأولى كانت متمسكة بروايات التشبيه والتجسيم، ومثبتة لله سبحانه ما لا تصح نسبته إليه، وكانت الطائفة الثانية تتبرأ من هذه الأمور، ولقد بلغ السيل الزبي في عصر أبي نصر عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الكريم القشيري رئيس الأشاعرة في وقته، فقام فطاحل الأشاعرة في عصره، تعضيداً ومساندةً لشيخهم برفع الشكوى إلى الوزير نظام الملك مما تبثه الحنابلة من سموم التشبيه والتجسيم، وتمت الرسالة بتوقيع كثير من علمائهم التي تبين جوهر العقيدة الحنبلية في ذلك العصر. أمّا الوالد فهو أبو القاسم القشيري النيشابوري، وهو من أعظم الأشاعرة في عصره (ولد عام ٣٧٦هـ) من العرب الذين وردوا خراسان وسكنوا النواحي،

١. ابن حنبل، حياته وعصره: ١٦٨-١٧١. (٣١٧)

كان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفقهاء على مذهب الشافعي (توفي عام ٤٦٥هـ). (١) وأما الولد فهو أبو نصر عبد الرحيم بن أبي القاسم القشيري، ويعرفه ابن عساكر بأنه إمام الأئمة و حبر الأمة تخرج على إمام الحرمين حتى حصل طريقته في المذهب، وتوفي عديم النظير فريد الوقت سنة ٥١٤هـ. (٢) يقول ابن عساكر: وهذه الرسالة بخط بعض أصحاب الإمام أبي نصر عبد الرحيم ابن الأستاذ القشيري فيها خطوط الأئمة بتصحيح مقاله وموافقته في اعتقاده على الوجه الذي هو مذكور في هذا الكتاب، فأوقفنا عليه شيخنا أبو محمد القاسم وأسمعناه، وأمرنا بكتابتها، فاكتبناه على ما هو عليه، وأثبتناه في هذه الترجمة اللائقة به، وقد رفع الإمام أبو إسحاق الشيرازي وأصحابه هذا المحضر إلى نظام الملك منتصرين للشيخ أبي نصر بن القشيري، فعاد جواب نظام الملك إلى فخر الدولة وإلى الإمام أبي إسحاق بإنكار ما وقع، والتشديد على خصوم ابن القشيري، وذلك سنة ٤٦٩هـ، وإيكا للمحضر: شكوى الأشاعرة من المتوسمين بالحنبلية

بسم الله الرحمن الرحيم يشهد من ثبت اسمه ونسبه وصحّ نهجه ومذهبه واختبر دينه وأمانته من الأئمة الفقهاء والأمثال العلماء وأهل القرآن والمعدلين الأعيان وكتبوا خطوطهم المعروفة بعباراتهم المألوفة، مسارعين إلى أداء الأمانة، وتوخوا في ذلك ما تحظره الديانة مخافة قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ) إِنَّ جماعته من الحشوية والأوباش الرعاع المتوسمين بالحنبلية أظهروا ببغداد من البدع الفظيعة والمخازي الشنيعة ما لم يتسمح به ملحد فضلاً عن موحد، ولا تجوز به قاذح في أصل الشريعة، ولا معطل؛ ونسبوا كل من ينزه الباري تعالى وجلّ عن النقائص والآفات وينفي عنه الحدوث والتشبهات،

١. التبيين: ٢٧١-٢٧٦.

٢. المصدر السابق: ٣٠٨-٣١٠. (٣١٨)

ويقدسه عن الحلول والزوال، ويعظمه عن التغير من حال إلى حال، وعن حلوله في الحوادث وحدوث الحوادث فيه، إلى الكفر والطغيان ومنافاة أهل الحق والإيمان، وتناهوا في قذف الأئمة الماضين، وثلب أهل الحق وعصابة الدين، ولعنهم في الجوامع والمشاهد والمحافل والمساجد والأسواق والطرق والخلو، والجماعات. ثم غرهم الطمع والإهمال، ومدّهم في طغيانهم الغي والضلال إلى الطعن فيمن يعتضد به أئمة الهدى وهو للشريعة العروة الوثقى، وجعلوا أفعاله الدينية معاصي دنية، وترقوا من ذلك إلى القدح في الشافعي رحمه الله عليه وأصحابه، واتفق عود الشيخ الإمام الأوحاد أبي نصر ابن الأستاذ الإمام زين الإسلام أبي القاسم القشيري رحمه الله عليه من مكة حرسها الله، فدعا الناس إلى التوحيد وقدس الباري عن الحوادث والتحديد، فاستجاب له أهل التحقيق من الصدور الأفاضل السادة الأمثال، وتمادت الحشوية في ضلالتها والإصرار على جهالتها وأبوا إلا التصريح بأن المعبود ذو قدم وأضراس ولهوات وأنامل، وأنه ينزل بذاته ويتردّد على حمار في صورة شاب أمرد بشعر ققط وعليه تاج يلمع وفي رجليه نعلان من ذهب، وحفظ ذلك عنهم وعلّوه ودوّنوه في كتبهم، وإلى العوام ألقوه، وأنّ هذه الأخبار لا تأويل لها، وأنها تجرى على ظواهرها، وتعتقد كما ورد لفظها، وأنه تعالى يتكلم بصوت كالرعد و كصهيل الخيل، و ينقمون على أهلا لحق لقولهم إن الله تعالى موصوف بصفات الجلال، منعوت بالعلم والقدرة والسمع والبصر والحياء والإرادة والكلام، وهذه الصفات قديمة، وإنه يتعالى عن قبول الحوادث، ولا يجوز تشبيه ذاته

بذات المخلوقين ولا تشبيه كلامه بكلام المخلوقين. ومن المشهور المعلوم: أن الأئمة الفقهاء على اختلاف مذاهبهم في الفروع كانوا يصرحون بهذا الاعتقاد ويدرسونه ظاهراً مكشوفاً لأصحابهم ومن هاجر من البلاد إليهم ولم يتجاسر أحد على إنكاره ولا تجوز متجوز بالرد عليهم دون القدح والظعن فيهم، وإن هذه عقيدة أصحاب الشافعي رحمه الله عليه يدينون الله تعالى بها ويلقونه باعتقادها، ويرأون إليه من سواها من غير شك (٣١٩)

انحراف عنها، وما لهذه العصابة مستند، ولا للحق مغيب يعتمد إلا الله تعالى، ورأفة المجلس السامي الأجلى العالمي العادلي القوامي النظامي الرضوي أمتع الله بحياء يأمن خطوبها باسمه فلا يعرف قطوبها، فإن لم ينصر ما أظهره ويشيد ما أسسه وعمره بأمر جزم وعزم حتم يزجر أهل الغواية عن غيهم ويردع ذوى العناد عن بغيهم ويأمر بالمبالغة في تأديبهم، رجع الدين بعد تبسّمه قطوباً، وعاد الإسلام كما بدأ غريباً، وعيونهم ممتدة إلى الجواب نبيل المأمول والمراد، وقلوبهم متشوّفة إلى النصر والإمداد، فإن هو لم ينعم النظر في الحادث الذي طرقهم ويصرف معظم هممه العالية إلى الكارث الذي أزعجهم وأقلقهم ويكشف عن الشريعة هذه الغمة ويحسم نزغات الشيطان بين هذه الأمة، كان عن هذه الظلامه يوم القيامة مسؤولاً. إذ قد أدت إليه النصائح والأمانات من أهل المعارف والديانات، وبرئوا من عهده ما سمعوه بما أدوه إلى سمعه العالي وبلغوه، والحجة لله تعالى متوجهة نحوه بما مكّنه في شرق الأرض وغربها وبسط قدرته في عجمها وعربها، وجعل إليه القبض والإبرام واصطفاه من جميع الأنام، فما ترد نواهيته وأوامره ولا تعصى مراسمه زواجه، والله تعالى بكرمه يوفقه ويسدده ويؤيد مقاصده ويرشده ويقف فكرته وخواتمه على نصرته ملتة وتقوية دينه وشريعته بمنه ورأفته وفضله ورحمته. صورة الخطوط

١. الأمر على ما ذكر في هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحدي أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري أكثر الله في أئمة الدين مثله من عقد المجالس وذكر الله عزّوجلّ بما يليق به من توحيدته وصفاته ونفى التشبيه عنه، وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم أسمع منه غير مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة، وبه أدين الله عزّوجلّ وإياه اعتقد، وهو الذي أدركت أئمة أصحابنا عليه، واهتدى به خلق كثير من المجسمة وصاروا كلهم على مذهب أهل الحق، ولم يبق من المبتدعة إلا نفر يسير، فحملهم الحسد والغيط على سبه وسب الشافعي وأئمة أصحابه ونصار مذهب، وهذا أمر لا يجوز الصبر عليه (٣٢٠)

ويتعين على المولى أعز الله نصره التنكيل بهذا نفر اليسير الذين تولّوا كبر هذا الأمر وطعنوا في الشافعي وأصحابه، لأن الله عزّوجلّ أقدره، وهو الذي برأ في هذا البلد بإعزاز المذهب بما بنى فيه من المدرسة التي مات كل مبتدع من المجسمة والقدرية غيظاً منها وبما يرتفع فيها من الأصوات بالدعاء لأيامه، استجاب الله فيه صالح الأدعية، ومتى أهمل نصرهم لم يكن له عذر عند الله عزّوجلّ. وكتب إبراهيم بن علي الفيروز آبادي. ٢. الأمر على ما ذكر في هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحدي أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري جميل الله الإسلام به وكثر في أئمة الدين مثله من عقد المجالس وذكر الله عزّوجلّ بما وصف به نفسه من التنزيه ونفى التشبيه عنه وقمع المبتدعة من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم نسمع منه غير مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة وبه ندين الله عزّوجلّ، وهو الذي كان عليه أئمة أصحابنا واهتدى به خلق كثير من المجسمة واليهود والنصارى فصاروا أكثرهم على مذهب أهل الحق ولم يبق من المبتدعة إلا نفر يسير، فحملهم الحسد والغيط على سبه وسب الشافعي رضي الله عنه ونصار مذهب حتى ظهر ذلك بمدينة السلام، وهذا أمر لا يحل الصبر عليه ويتعين على من بيده قوام الدين والنظر في أمور المسلمين أن ينظر في هذا ويزيل هذا المنكر، فإن من يقدر على إزالته ويتوقف فيه يأثم، ولا نعلم اليوم من جعل الله سبحانه أمر عباده إليه إلا المولى أعز الله أنصاره، فيتعين عليه الإنكار على هذه الطائفة والتنكيل بهم، لأن الله سبحانه أقدره على ذلك، وهو المسؤول عنه غداً إن توقف فيه وصار قصد المبتدعة أكثره معاداة الفقهاء الذين هم سكان المدرسة الميمونة فإنهم يموتون غيظاً منهم لما هم عليه من مذاكرة علم الشافعي وإحياء مذهب. وكتب الحسين ابن محمد الطبري. ٣. الأمر على ما شرح في صدر هذا المحضر. وكتب عبيد الله بن سلامة الكرخي. ٤. الأمر على ما ذكر في هذا المحضر من حال الشيخ الإمام الأوحدي أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري أدام الله

حراسته من عقد المجالس (٣٢١)

للعظ والتذكير في المدرسة النظامية المعمورة والرباط، وأظن في توحيد الله عزوجل والثناء عليه بما يستوجه من صفات الكمال وتزيهه عن النقائص و نفى التشبيه عنه واستوفى في الاعتقاد ما هو معتقد أهل السنة بأوضح الحجج وأقوى البراهين، فوقع في النفوس كلامه، ومال إليه الخلق الكثير من العامة، ورجع جماعة كثيرة من اعتقاد التجسيم والتشبيه واعترفت بأنها الآن بان لها الحق، فحسده المبتدعة المجسمة وغيرهم فحملهم ذلك على بسط اللسان فيه غيظاً منه و سب الشافعي رحمه الله عليه وأئمة أصحابه ومن ينصرهم، وتظاهروا من ذلك بما لا يمكن الصبر معه، ويتعين على من جعل الله إليه أمر الرعية أن يتقدم في ذلك بما يحسم مادة الفساد، لأن سب ذلك فرط غيظهم من اجتماع شمل العصاة الشافعية في الاشتغال بالعلم بعمارة المدرسة الميمونة، وتوفرهم على الدعاء لأيام من به عزهم ولا عذر للتفريط في ذلك. وكتب محمد بن أحمد الشاشي. ٥. الأمر على ما ذكر فيه. وكتب سعد الله بن محمد الخاطب. ٦. الأمر على المشروح في هذا الصدر من حال الشيخ الإمام الأوحاد أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري أكثر الله في أئمة أهل العلم مثله من عقد المجالس ونشر العلم ووصف الله تعالى بما وصف به نفسه من توحيده وصفاته ونفى التشبيه عنه وقمع أهل البدع من المجسمة والقدرية وغيرهم، ولم أسمع منه عدولاً عن مذاهب أهل الحق والسنة والدين القويم والمنهج المستقيم الذي به يدان الله تعالى ويعبد ويعتقد، فاهتدى بهديه خلق من المخالفين وصار إلى قوله ومعتقده جمع كثير إلا من شقى به من الحاسدين، فأخلدوا إلى ذمه وسبه وسب أئمة الشافعيين، وقدحوا في الشافعي وأصحابه، وصرحوا بالظعن فيهم في الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد، وهذه غمة و ردة لا يرجى لكشفها بعد الله تعالى إلا المجلس السامي الأجلي النظامي القوامي العادلي الرضوي، أمتع الله الدنيا والدين ببقائه وحرس على الإسلام والمسلمين ظليل ظله ونعمائه، ويفعل الله ذلك بقدرته وطوله ومشيئته. وكتب الحسين بن أحمد البغدادي. ٧. حضرت المدرسة النظامية المنصورة المعمورة أدام الله سلطان إغزازها والرباط المقدس للصوفية أجاب الله صالح أديعتهم في المسلمين مجالس هذا (٣٢٢)

الشيخ الأجل الإمام ناصر الدين محيي الإسلام أبي نصر عبد الرحيم بن الأستاذ الإمام زين الإسلام أبي القاسم القشيري أحسن الله عن الشريعة جزاءه، فلم أسمع منه قط إلا ما يجب على كل مكلف علمه وتصحيح العقيدة به من علم الأصول وتزيه الحق سبحانه وتعالى ونفى التشبيه عنه، وإقحام الأباطيل والأضاليل وإظهار الحق والصدق، حتى أسلم على يديه بركة التوحيد والتزيه من أنواع أهل الذمة عشرات، ورجع إلى الحق وعلم الصدق من المبتدعة مئات، وتبعه خلق غير محصور بحيث لم يستطع أحد ممن تقدم أو علماء العصر أن يشقوا غباره في مثل ذلك فخامرهم الحسد وعداوة الجهل وحملهم على الطعن فيه عدواناً وبهتاناً، ثم تهادى بهم الجهل إلى اللعن الظاهر للإمام الشافعي قدس الله روحه وسائر أصحابه عجماً وعرباً. وقائلوا ذلك شذمة من ناشية أغبياء المجسمة، وطائفة من أرذال الحشوية، استغنوا من الإسلام بالاسم، ومن العلم بالرسم، وتبعهم سوقة لا نسب لهم ولا حسب، وتظاهرت هذه اللعنة منهم في الأسواق، ولم يستحسن أحد من أصحابه كثرة الله دفع السفاهة بالسفاهة والسيئة بالسيئة، ويجب على الناظر في أمور المسلمين من الذي قد انتشر في المشارق والمغرب علمه وعدله وأمره ونهيه، الذي لطاعته نبات صدور الأولياء والأعداء رغبة ورهبة، نصرته، ومدّ ضبعيه والشد على يديه وتقديم كلمته العليا وتدحيض كلمة أعدائه السفلى، فالصبر في الصدمة الأولى وهذه الصدمة التي كانت قلوب أصحاب الشافعي كثرة الله وغرة وغلة شغله بها منذ سنين، فانقشع ذلك وانكشف في هذه الأيام المؤيدة المنصورة المؤبدة النظامية القوامية العالمية العادلية نصرها الله وأعلاها، وقد وقف تمامه على الأمر الماضي المنصور منه فإن في شعبة من شعب عنايته ونصرته وكلمته للدين الذي مد أطراره كفاية وبلاغاً وعلى الغارس تعهد غراسه فضلاً وتعصباً في كل وقت. وكتب عزيزي بن عبد الملك في التاريخ حامداً لله ومصلياً على محمد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وصحبه وسلم وشرف وكرم. (١) _____

١. تبين كذب المفترى: ٣١٠-٣١٨. (٣٢٣)

وأصحاب الخطوط في هذا المحضر هم كبار أئمة المذهب الشافعي ببغداد في ذلك العهد، فقد ترجمهم محقق كتاب «تبين كذب

المفتري» في تعليقه على الكتاب، ثم أضاف: ولما طفح كيل فتن الحشوية الذين لا يكادون يفقهون حديثاً، اضطرب أكابر العلماء المعروفون بكمال الهدوء والثؤدة والأناة إلى قمع فتنهم بالسعى لدى ولي الأمر سعياً حثيثاً، ورفع الإمام أبو إسحاق الشيرازي وأصحابه هذا المحضر إلى نظام الملك منتصرين للشيخ أبي نصر ابن القشيري، فعاد جواب نظام الملك إلى فخر الدولة و إلى الإمام أبي إسحاق بإنكار ما وقع، والتشديد على خصوم ابن القشيري وذلك سنة تسع وستين وأربعمائة، فسكن الحال ثم أخذ الشريف أبو جعفر بن أبي موسى - وهو شيخ الحنابلة إذ ذاك - وجماعته يتكلمون في الشيخ أبي إسحاق ويبلغونه الأذى بألسنتهم، فأمر الخليفة بجمعهم والصلح بينهم بعد ما ثارت بينهم فتنة هائلة ذهب فيها نحو من عشرين قتيلاً، فلما وقع الصلح وسكن الأمر أخذ الحنابلة يشيعون أن الشيخ أبا إسحاق تبرأ من مذهب الأشعري، فغضب الشيخ لذلك غضباً لم يصل أحد إلى تسكينه حتى كتب إلى نظام الملك يشكو أهل الفتن، فعاد الجواب في سنة سبعين وأربعمائة إلى الشيخ باستجلاب خاطره وتعظيمه، والأمر بتأديب الذين أثاروا الفتنة وبأن يسجن الشريف أبو جعفر، فهدأ الحال وسكن جاش الشيخ وانقمت الحشوية، وتنفس أهل السنة الصعداء وإلى الله عاقبة الأمور.

الثالث: تطور الدعوة السلفية ومراحلها

قد تعرّف في البحوث السابقة على أنه كان لمنع تدوين الحديث في العصور الأولى الإسلامية تأثير خاص في تسرب عقائد اليهود والنصارى إلى أوساط المسلمين ولا سيما أهل الحديث منهم. ففي ظل ذلك المنع، ظهرت الفرق الباطلة من المجسّمة والمشبهة ودعاة القول بالجهة لله سبحانه وجلوسه على العرش ناظراً إلى ما دونه مما يتحاشى عنه أهل التنزيه. ولم يكن ظهور تلك العقائد أمراً غير مترقب، بل كان نتيجة حتمية للعوامل السائدة على تلك البيئة، إذ في الظروف التي يصلب فيها العقل (٣٢٤)

ويعدم، ويعاب فيها التفكير في العقائد والمعارف، ويكتفى عن التدبر في الذكر الحكيم، بالبحث عن القراءات السبع أو العشر، ويعرف الاستدلال والإمعان في الكتاب العزيز بأنه تأويل باطل، بل كفر وزندقة، ويفسح المجال للمتظاهرين بالإسلام من الأبحار والرهبان ليقوموا بنشر قصص الأولين وأساطير الآخرين - ففي تلك الظروف - لا تظهر على مسرح العقائد، إلا عقائد الطوائف المنحرفة، ولا غرو حينئذ في أن يصوّر إله العالم بصورة موجود مادي ذي جهات وأبعاد وأيد وأرجل، له تكلم وضحك وما يضاهاى هذه النظريات. وقد جاء بعض الخلف محاولاً تصحيح هذه المأثورات، بإضافة «بلا كيف» عقيب هذه الصفات، ولكن المحاولة فاشلة جداً، فإن مرجعها إلى أنه سبحانه جسم بلا- كيف، ولا يختلف التعبيران إلا في الصراحة والكناية. ومن العقائد الغريبة التي ظهرت في أواخر القرن الثاني، كون كلامه سبحانه قديماً غير مخلوق، وقد تلقاه أهل الحديث أمراً مسلماً، وكان اللائق بمنهجهم هو السكوت، لا اعترافهم بعدم ورود نص من رسول الله فيها، ولكنهم اعتنقوا هذه العقيدة اعتناقاً وثيقاً لم ير مثله في سائر المسائل، حتى استعدوا في طريقه لتقديم التضحيات الثمينه، من شتى أنواع الضرب والحبس والتقييد، وذلك عندما عزم المأمون على ردعهم عن القول بقدم القرآن، فاستتاب أهل الحديث منه، فاستجاب بعضهم دون بعض وممن أظهر الصمود والثبات على تلك العقيدة إمام الحنابلة أحمد بن حنبل. وقد ضرب في عصر الخليفة المعتصم فلم يرتدع، فصار ذلك سبباً لاشتهار الرجل بينهم، وبلوغه قمة الإمامة في العقائد والسنة، واكتسابه مكانة مرموقة بين الناس. فصارت السنة ما أمضاه الإمام والبدعة ما هجره، فراجت رسائله وكتبه التي ألفت باسم عقيدة أهل السنة، وكانت الرئاسة في باب العقائد منحصرة به إلى أن ظهر الإمام الأشعري تائباً عن الاعتزال، معلناً التحاقه في العقائد بالإمام أحمد، و عدّ نفسه مدافعاً عن عقائد أهل السنة تارة بالنصوص والأحاديث، وأخرى بالاستدلال والبرهنة: فألف في بداية الالتحاق كتاب «الإبانه» وهو تصوير خاص لرسائل إمام مذهبه، كما ألف في الفترة الأخرى كتاب «اللمع» وهو (٣٢٥)

تصوير لما يملكه من الفكر الذي ورثه عن المعتزلة حينما كان منتهجاً منهاجهم. وبما أن الإمام الأشعري قد قضى شطراً كبيراً من عمره بين أهل الفكر والتعقل، فلذا أخذ بالتعديل والتهديب في عقائد المذهب الأم - أهل الحديث - وما قام به من العملية العقلية وإن أغضبت ثلثه من الحنابلة وأهل الحديث، حتى إن كبير الحنابلة (البرهاري) في ذلك الوقت لم يقبل دفاع الشيخ الأشعري عن عقائد أهل السنة بالبرهنة والاستدلال، ولكن النفوس المستعدة المتنورة تأثرت بمنهج الإمام الأشعري، وزاد الإقبال عليه وتوفر الثناء على

فكرته. وعلى ضوء منهجه ألف الإمام البيهقي (١) صاحب السنن الكبرى كتاب «الأسماء والصفات» وعالج فيه كثيراً من روايات التشبيه والتجسيم، كما قام ابن فورك (٢) بتأليف كتاب «مشكل الحديث وبيانه»، كل ذلك على الخط الذي رسمه الأشعري في تنزيهه سبحانه.

١. هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (المتوفى عام ٤٥٨هـ) وطبع كتاب «الأسماء والصفات» في مصر بتصحيح الشيخ محمد زاهد الكوثري. ومن المأسوف عليه أن يد الخيانة أسقطت مقدمة الأستاذ الشيخ سلامة العزامي الشافعي عند إعادة الطبع بالأفست، وما هذا إلا لأن المقدمة كانت على ضد السلفية والوهابية.

٢. هو أبو بكر محمد بن حسن بن فورك (المتوفى عام ٤٠٦هـ) له ترجمة في تبين ابن عساكر: ٢٣٢-٢٣٣.

يقول المقرئ في خطه (ج ٢، ص ٣٥٨) في بيان حقيقة المذهب الأشعري: إنه سلك طريقاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال (نفي الصفات الخبرية كاليد والوجه)، وبين الإثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه فمال إليه جماعة وعولوا على رأيه، منهم: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المالكي، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفرائيني، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، والشيخ أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، والإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الرازي وغيرهم ممن يطول ذكره ونصروا مذهبهم وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له في مصنفات لا تكاد تحصر، فانتشر مذهب أبي الحسن الأشعري في العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه إلى الشام، إلى آخر ما ذكره. (٣٢٦) إبعاد أحمد عن الإمامة في العقائد قد كان لانتشار مذهب الأشعري تأثير خاص في إبعاد الإمام أحمد عن ساحة العقائد، وأقول إمامته في الأصول، وانزواته في كثير من البلدان وإقامة الأشعري مقامه. فصار الفرع الذي اشتق من الأصل المذهب الرسمي لأهل السنة. وبلغت إمامة الفرع إلى الحد الذي كلما أطلق مذهب أهل السنة لا يتبادر منه إلا ذلك المذهب أو ما يشابهه كالماتريدي. يقول المقرئ بعد الإشارة إلى أصول عقيدة الإمام الأشعري: هذه جملة من أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أريق دمه. (١) نعم، بلغ الإمام الأشعري قمة الإمامة في العقائد من دون أن يمس إمامة أحمد في الفروع ومرجعته في الفتيا، كيف وهو أحد المذاهب الأربعة الرسمية بين أهل السنة إلى الآن في العواصم الإسلامية، لكن لا في نطاق واسع بل في درجة محدودة تتلو إمامة أبي حنيفة والشافعي ومالك. تجديد الدعوة السلفية في القرن الثامن

لقد اهتم بعض الحنابلة - أعني: أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي (المتوفى عام ٧٢٨هـ) - بإحياء مذهب السلفية على المفهوم الذي كان رائجاً في عصر الإمام أحمد وقبله وبعده إلى ظهور الأشعري، فأصر على إبقاء أحاديث التشبيه والجهة بحالها من دون توجيه وتصرف، وهاجم التأويلات التي ذكرها بعض الأشاعرة في كتبهم حول تلك الأحاديث. ولكنه لم يكتف بمجرد الإحياء، بل أدخل في عقائد السلف أموراً لا ترى منها أثراً في كتبهم، فعد السفر لزيارة الرسول الأعمم بدعة وشركاً، كما عد التبرك بآثارهم والتوسل بهم شيئاً يضاد التوحيد في العبادة. وقد ضم إلى دينك الأمرين شيئاً ثالثاً وهو إنكار كثير من الفضائل الواردة في آل البيت، المروية في الصحاح و المسانيد حتى في مسند

١. الخط المقيزي: ٣٩٠/٢. (٣٢٧)

إمامه أحمد. وبذلك جدد الفكرة السلفية الخاصة المتبلورة في الفكرة العثمانية التي تعتمد على التنقيص من شأن علي وإشاعة بغضه وعناده. وبذلك نقض قواعد ما أرساه إمامه أحمد من مسألة التريب وجعل علي عليه السلام - رابع الخلفاء الراشدين، وأن علياً كان أولى وأحق من خصومه. ومن حسن الحظ إنه لم يتأثر بدعوته إلا القليل من تلامذته كابن القيم (المتوفى عام ٧٥١هـ) كيف وقد عصفت الرياح المدمرة على هذه البراعم التي أظهرها، حيث قابل منهجه المحققون بالظعن والردّ الشديدين، فأفرد بعضهم في الوقعة به تآليف حافلة، وجاء البعض الآخر يضيف آراءه ومعتقداته في طي كتبه، وقام ثالث يترجمه ويعرفه للملا بدعه وضلالاته. وكفى

في ذلك ما كتبه بعض معاصريه كالذهبي، فإنه كتب رسالته مبسوطة إليه ينصحه ويعرفه بأنه ممن يرى القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عينيه، وأنه لم تسلم أحاديث الصحيحين من جانبه ثم خاطبه بقوله: أما آن لك أن ترعوى؟ أما حان لك أن تتوب وتنب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ (١). وهناك كلام للمقرئزي يقول بعد الإشارة إلى اشتها مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام: إنه نسي غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه. إلا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل - رضى الله عنه - فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات، إلى أن كان بعد السبعمئة من سنى الهجرة، اشتهر بدمشق وأعمالها تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني، وتصدى للانتصار لمذهب السلف، وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة، وصعد بالنيكية عليهم وعلى الرفضة وعلى الصوفية، فافترق الناس فيه فريقان فريق يقتدى به

١ . تكملته السيف الصقيل: ١٩٠، ونقل قسماً من هذه الرسالة العزامي في الفرقان الذي طبع في مقدمه الأسماء والصفات للبيهقي ونقله العلامة الأميني في غديره: ٥/٨٧ - ٨٩. (٣٢٨)

ويعول على أقواله ويعمل برأيه ويرى أنه شيخ الإسلام وأجل حفاظ أهل الملة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضلله ويزرى عليه بإثباته الصفات وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع ولم يكن له فيه سلف، وكانت له ولهم خطوب كثيرة وحسابه وحسابهم على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وله إلى وقتنا هذا عدة أتباع بالشام وقليل بمصر. (١) الدعوة السلفية في القرن الثاني عشر

لم يتعظ الرجل من قوة ناصحه المشفق حتى أدركته المنية في سجن دمشق، ولكن كانت بذرة الضلال مدفونة في الكتب وزوايا المكتبات إلى أن ألقى الشر بجرانه، وجاء الدهر بمحمد بن عبد الوهاب النجدي في القرن الثاني عشر (١١١٥ - ١٢٠٦هـ) فحذا حذو ابن تيمية، وأخذ وتيرته واتبع طريقته، فأحيا ما دثره الدهر، ودعا إلى السلفية من جديد، غير أنه اتخذ ما أضافه ابن تيمية إلى عقائد السلف مما لا يرتبط بمسألة التوحيد والشرك، كالسفر إلى زيارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والتبرك بآثاره، والتوسل به، وبناء القبّة على قبره، قاعدة أساسية لدعوته، ولم يهتم في تآليفه بمسألة التشبيه وإثبات الجهة والرفق. نعم، لما استفحلت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد وقام أمراء المنطقة (آل سعود) بترويج منهجه واستغلوه للسيطرة على الجزيرة العربية، اهتتم الوهابية بنشر ما ألفه السلف حول البدع السابقة الموروثة من اليهود والنصارى، فصار إثبات الصفات الخيرية كاليد والوجه والاستواء بمفهومها اللغوي مذهباً رسمياً لدعاة الوهابية، لا يجترئ عالم على مخالفته في أوساطهم. (٢)

١ . الخطط المقرئزية: ٢/٣٥٨ - ٣٥٩.

٢ . وقد ألف رضا بن نعيان معطى في مكة المكرمة كتاباً حول الصفات الخيرية سماه «علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين» وقدم عليه عبد العزيز بن باز رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد وأصر فيه على أن عقيدة السلف في هذه الصفات إبقاؤها على مفاهيمها اللغوية بلا تغيير وتصرف. وغير خفي على النبيه أنه لا ينتج إلا التجسيم وإن كان الكاتب والمقرئ لا يعترفان به، ولكنه لا ينفك عن تلك النتيجة. (٣٢٩)

وبذلك وردت الدعوة السلفية في مراحلها التاريخية المرحلة الثالثة بعد الاندراست ولما تمت معاملته الدول الكبرى على الخلافة العثمانية المسيطرة على أكثر ربوع الإسلام - يوم ذاك - وأقصيت من ساحة البلاد العربية، حلت سيطرة آل سعود المتبنين للعقيدة الوهابية من لدن ميلادها، محلها في أرض الحجاز عموماً، والحرمين الشريفين خصوصاً. ومن جراء ذلك أخذت الدعوة الوهابية تنتشر في الأراضي المقدسة بالطابع السلفي، فصارت السلفية والوهابية وجهين لعملة واحدة، وقد استعانت السلطة السعودية بكل ما تملك من قوة وقدره إرهابية، ودرهم ودنانير ترغيبية، لنشر المنهج الوهابي، ولكل من ذينك الأمرين أهله ومحلّه. فاستعملت الأول في الأميين والرعاع من الناس، واشترت بالثاني أصحاب القلم وأرباب الجرائد والمجلات وسائر وسائل الإعلام. فصارت السلفية في هذه

الأماكن رمز الإسلام الأصيل، وآية الدين الصحيح، المجرد عن البدع اللصيقة به بعد لحوق النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بالرفيق الأعلى. وقد استعانت هذه السلطة في تسريع الحركة الوهابية في هذا الزمان بما ظهر في المناطق الشرقية من الجزيرة من الذهب الأسود، فاستولت على زبرج الدنيا وزينتها وتمادت في غيها وساقت كثيراً من الناس إلى معاسيف السبل ومعاميهها، حتى تأثر بتلك الحركة بعض الشبان وغيرهم خارج الجزيرة العربية. إن الدعايات الخادعة، أثرت في تفكير كثير من الناس إلى حدّ تخيل لهم أنّ تجديد مجد الإسلام وبلوغ المسلمين إلى ذروة السنام لا يتم إلا بإحياء ما كان عليه السلف في الأصول والفروع، ويريدون منه عهد الخلافة الراشدة والأمويين والعباسيين، فكأنّ حياتهم في تلك العصور كانت باقات زهور تفتحت في تلك القرون، فعم ريحها وريحانها أجواء الأقطار الإسلامية، (٣٣٠)

فلأجل ذلك يتطلعون إلى تلك العهود تطلع الصائم إلى الهلال، والظامئ إلى الماء. لكن الدعايات الخاطئة عاقتهم عن التعرف على ما في تلك العصور من النقاش والخلاف بين المسلمين وسفك الدماء وقتل الأولياء وحكومة الإرهاب والإرهاب، إلى غير ذلك من المصائب والطامات الكبرى. ولو درسوا تاريخ السلف - منذ فارق النبي الأعظم المسلمين وتسلم الأمويون منصّة الخلافة إلى أن انتكث فتلهم، وأجهز عليهم عملهم، وورثهم العباسيون ولم يكونوا في العمل والسيره بأحسن حال منهم - لوقفوا على أنّ حياة السلف لم تكن حياة مثالية راقية، بل كانت تسودها المجازر الطاحنة الدامية، والجنايات الفظيعة التي ارتكبتها الطغمة الأموية والعباسية في حقّ الأبرياء الأولياء والعلويين من العترة الطاهرة. فلو صحّ ما في التواريخ المتواترة، لدلّ قبل كلّ شيء على أنّ السلف لم يكن بأفضل من الخلف، وأنّ الخلف لم يكن بأسوأ من السلف، ففي كلتا الفئتين رجال صالحون مثليون كما فيهما رجال دجالون وأناس طالحون. المفكّرون الإسلاميون المعاصرون والسلفية

ومن المؤسف أنّ السلفية اتخذت لنفسها في الآونة الأخيرة طابعاً حاداً وسلوكاً في غاية الجمود والتجبر، وفي منتهى التقشف والتزمت حتى ذهب من ينحو هذا المنحى إلى تحريم كلّ ما يتصل بالحضارة ومعطياتها المباحة شرعاً، فإذا بهم يحرمون حتى التصوير الفوتوغرافي ويهاجمون الراديو والتلفزيون (١) عتواً وجهلاً. وقد كان هذا الموقف الجامد المتجبر، وهذا التزمت والجفاف الذي ما أنزل الله به من سلطان، والذي أسند - و للأسف - إلى الإسلام، وما رافقه من قوة على الآخرين ورميهم بالبدعة، والخروج على الدين بحجة عدم

١ . راجع مجلة الفرقان العدد الخامس من السنّة الأولى وتصدرها جماعة من السلفيين المتشدّدين. (٣٣١)

الانقياد لمواقف السلف، وآرائهم، وراء ابتعاد جماعات كبيرة من الشباب من أبناء المسلمين عن الإسلام السهل الحنيف، وإساءة الظن به وبمؤسساته. وهذا هو ما حدا ببعض الغيارى والمتحررين من المفكرين الإسلاميين إلى التصدّي لهذا الاتجاه الدخيل على الإسلام البعيد عن روحه النقية السمحة. وممن انبرى لإبطال هذا المذهب وإزالة الغبار عن وجه الحقيقة الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي». حيث عمد أولاً إلى تفنيد زعم السلفيين المعاصرين بأنّ على المسلم أن يجمد على ما ورد عن السلف وعلى منهجهم وكأنّه مذهب إسلامي مقدس لا يجوز أن تناله يد الجرح والتعديل، ولا أن يخضع للنقاش والنقد، بل لا يجوز أن يتخطى في مقام العمل والسلوك. حيث قال: إنّ أتباع السلف لا يكون بالانحباس في حرفية الكلمات التي نطقوا بها أو المواقف الجزئية التي اتخذوها، لأنّهم هم أنفسهم لم يفعلوا ذلك. (١) ثمّ قال: إنّ من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة (السلف) فنصوغ منها مصطلحاً جديداً طارئاً على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي ألا وهو (السلفية) فنجلعه عنواناً مميزاً تدرج تحته فئة معينة من المسلمين تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده، مفهوماً معيناً، وتعتمد فيه على فلسفة متميزة بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك، جماعة إسلامية جديدة في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسف في هذا العصر، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولها، بل تختلف عنهم حتى بمزاجها النفسي ومقاييسها الأخلاقية كما هو الواقع اليوم فعلاً. بل إنّنا لا نعدو الحقيقة إنّ قلنا: إنّ اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها بدعة طارئة في الدين لم يعرفها السلف الصالح

لهذا الأمة، ولا الخلف الملتزم بنهجه. (٢) _____

١. السلفية مرحلة زمنية: ١٢.

٢. المصدر نفسه: ١٣. (٣٣٢)

ويقول: إن السلف أنفسهم لم يكونوا ينظرون إلى ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال أو تصرفات، هذه النظرة القدسية الجامدة التي تقتضيهم أن يسرّوها بمسامير البقاء والخلود، بل ساروا وراء ذلك مع ما تقتضيه علل الأحكام وسنة التطور في الحياة، وعوامل التقدم العلمي، ومنطق التجاوز المستمر من الصالح إلى الأصح كما ساروا الأعراف المتطورة من عصر إلى آخر، أو المتبدلة ما بين بلدة وأخرى ما دام ذلك كله منتشرًا وراء أسوار النصوص الحاكمة والمهيمنة. (١) ثم أشار إلى نماذج من مواقف السلف التي تطورت مع تطور الأحوال والأوضاع في شتى مجالات العلم والسلوك. ثم قال: إن السلف أنفسهم لم يجمدوا عند حرفية أقوال صدرت منهم، كما لم يتشبثوا بصور أعمال أو عادات ثبتوا عندها ثم لم يتحولوا عنها، بل الذي رأيناه في هذه النماذج اليسيرة هو نقيض ذلك تمامًا، فكيف نقلدهم في شيء لم يفعله، بل ساروا في طريق معاكس له...؟ (٢) ثم ينتهي إلى القول: إن كل ما ذكرنا هنا تلخيص إجمالي للبرهان على أن السلفية لا تعنى على كل حال إلا مرحلة زمنية مرت... فإن قصدت بها جماعة إسلامية ذات منهج معين خاص بها، يتمسك به من شاء، ليصبح بذلك منتسباً إليها منضوياً تحت لوائها، فتلك إذن إحدى البدع المستحدثة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (٣) ثم لإبطال حجية مواقف السلف على من بعدهم ما لم يستند إلى برهان يشير إلى نماذج من خلافاتهم واختلافاتهم في المواقف والآراء (٤) ثم يقول: فلو كانت اتجاهات السلف واجتهاداتهم هذه حجة لذاتها، لا تحتاج هي بدورها إلى برهان أو مستند يدعمها، لأنها هي برهان نفسها، إذن لوجب أن تكون تلك _____

١. نفس المصدر: ١٤-١٥.

٢. نفس المصدر: ١٨.

٣. نفس المصدر: ٢٣.

٤. نفس المصدر: ٢٣. (٣٣٣)

النظرات المتباعدة بل المتناقضة كلها حقاً وصواباً، ولوجب المصير دون أي تردد إلى رأى المصوبه. وعن إمكانية طروء الخطأ على مواقف السلف يقول: إن اقتداءنا بالسلف لا يجوز أن يكون بواقعهم الذي عاشوه من حيث إنهم أشخاص من البشر يجوز عليهم كل أنواع الخطأ والسهو والنسيان، فإنهم من هذا الجانب بشر مثلنا لا يمتازون عن سائر المسلمين بشيء. (١) من هنا يرى أن على الأمة إذا أرادت أن تصل إلى الحقيقة الإسلامية في مجال العقيدة والسلوك أن تتبع منهجاً في هذا المجال لا أن تكتفي بمجرد اتباع السلف بشكل مطلق، فيقول في هذا الصدد: إن الإنسان لكي يمارس الإسلام يقيناً وسلوكاً لا بد أن يجتاز المراحل الثلاث التالية: أ. التأكد من صحة النصوص الواردة والمنقولة عن فم سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - قرآناً كانت هذه النصوص أم حديثاً، بحيث ينتهي إلى يقين بأنها موصولة النسب إليه، وليست متقولة عليه. ب. الوقوف بدقه على ما تتضمنه وتعيينه تلك النصوص بحيث يطمئن إلى ما يعنيه ويقصده صاحب تلك النصوص منها. ج. عرض حصيلة تلك المعاني والمقاصد التي وقف عليها وتأكد منها، على موازين المنطق والعقل (ونعني بالمنطق هنا قواعد الدراية والمعرفة عموماً) لتمحيصها ومعرفة موقف العقل منها. (٢) وعندما شرح البند الأول والعلمة الموجبة له يشير إلى ما تعرض له الحديث النبوي على يد الوضّاعين والزنادقة، ويشير إلى أقسام الحديث من متواتر وصحيح وضعيف، مما يجعلنا نتحفظ تجاه النصوص، ولا نقدم على الأخذ بها _____

١. السلفية مرحلة زمنية: ٥٤-٥٥.

٢. نفس المصدر: ٦٣. (٣٣٤)

لمجرد رواية السلف لها أو روايتها عن السلف، بل نأخذ بها بعد التمحيص والتحقيق حسب الميزان المذكور. فيقول: فمن التزم

بمقتضى هذا الميزان فهو متبع كتاب الله متقيد بسنة رسول الله، سواء أكان يعيش في عصر السلف أو جاء بعدهم، ومن لم يلتزم بمقتضاه فهو متنكب عن كتاب الله، تائه عن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام وإن كان من الرعيل الأول، ولم يكن يفارق مجلس رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - (١). وبعد أن يسهب في شرح تفاصيل هذا المنهج يقول: ولم نعلم أن في أهل هذه القرون الغابرة كلهم من قد استبدل بهذا المنهج الذي كان ولا يزال فيصل ما بين أهل الهداية والضلال، التمدد بذهب يسمى السلفية بحيث يكون الانتماء إليه هو عنوان الدخول في ساحة أهل الهداية والرشاد. وعدم الانتماء إليه هو عنوان الجنوح إلى الزيغ والضلالة والابتداع. ولقد أصغينا طويلاً ونقبتنا كثيراً فلم نسمع بهذا المذهب في أي عصر من عصور الإسلام الغابرة، ولم يأت من يحدثنا بأن المسلمين في عصر ما قد انقسموا إلى فئة تسمى نفسها السلفية وتحدد شخصيتها المذهبية هذه بآراء محددة تنادي بها، وأخلاقية معينة تصطبغ بها، وإلى فئة أخرى تسمى من وجهة نظر الأولى بدعية أو ضلالية أو خلفية أو نحو ذلك، كل الذي سمعناه وعرفناه أن ميزان استقامة المسلمين على الحق أو جنوحهم عنه إنما مردّه إلى اتباع المنهج المذكور. وهكذا، فقد مرّ التاريخ الإسلامي بقرونه الأربعة عشر دون أن نسمع عن أي من علماء وأئمة هذه القرون أن برهان استقامة المسلمين على الرشد يتمثل في انتسابهم إلى مذهب يسمى بالسلفية فإن هم لم ينتموا إليه ويصطبغوا بمميزاته وضوابطه، فأولئك هم البدعيون الضالون. _____

١. السلفية مرحلة زمنية: ٧٩. (٣٣٥)

إذن فمتى ظهرت هذه المذهبية التي نراها بأب أعيننا اليوم والتي تستثير الخصومات والجدل في كثير من أصقاع العالم الإسلامي، بل تستثير التنافس والهرج في كثير من بقاع أوروبا حيث يقبل كثير من الأوروبيين على فهم الإسلام ويبدون رغبة في الانتساب إليه؟ (١) وبعد أن يشير إلى مبدأ ظهور هذه الكلمة (السلفية) وسبب ذلك، وكيف أنها استخدمت في ذلك الوقت للدعوة إلى السير على خطا المسلمين الأول في الالتزام بأصل الإسلام في مواجهة المادية الغربية التي اجتاحت البلاد الإسلامية في أوائل القرن العشرين، ولكنها تحولت فيما بعد إلى لقب، لقب به الوهابيون مذهبهم، وهم يرون أنهم دون غيرهم من المسلمين على حق، وأنهم دون غيرهم الأئمة على عقيدة السلف، والمعبرون عن منهجهم في فهم الإسلام وتطبيقه، وأما الآخرون فكفرة ضالون. يقول بعد كل هذا تحت عنوان: «التمذهب بالسلفية بدعة لم يكن من قبل»: إذا عرف المسلم نفسه بأنه ينتمي إلى ذلك المذهب الذي يسمى اليوم بالسلفية، فلا ريب أنه مبتدع... فالسلفي اليوم، كل من تمسك بقائمة من الآراء الاجتهادية المعينة ودافع عنها وسقها الخارجين عليها ونسبهم إلى الابتداع، سواء منها ما يتعلق بالأمر الاعتقادي، أو الأحكام الفقهية والسلوكية. (٢) ثم أشار الأستاذ البوطي إلى الآثار الضارة اللاحقة بالأمة الإسلامية من جراء هذه البدعة، وما يلازمها من عصبية مقيتة ومواقف متصلبة وعنيفة. وما أوجدت من مشاكل في الأوساط الإسلامية... وأشار - فيما أشار - إلى تهجم السلفيين على جماعة من المسلمين المجاهدين في سبيل الله لا لشيء إلا لأن السلفيين لا يرتضون بعض أعمالهم المباحة شرعاً. _____

١. السلفية مرحلة زمنية: ٢٣٠-٢٣١.

٢. نفس المصدر: ٢٣٦-٢٣٧. (٣٣٦)

حيث قال: وفي إحدى الأصقاع النائية (١) حيث تدافع أمة من المسلمين الصادقين في إسلامهم عن وجودها الإسلامي وعن أوطانها وأراضيها المغتصبة، تصوب إليهم من الجماعات السلفية سهام الاتهام بالشرك والابتداع، لأنهم قبوريون توسيليون (٢) ثم تتبعها الفتاوى المؤكدة بحرمه إغاثتهم بأي دعم معنوي أو عون مادي، ويقف أحد علماء تلك الأمة المنكوبة المجاهدة ينادي في أصحاب تلك الفتاوى والاتهامات: يا عجباً لإخوة يرموننا بالشرك مع أننا نقف بين يدي الله كل يوم خمس مرات نقول: (إياك نعبد وإياك نستعين) (٣)... لكن النداء يضيع، ويتبدد في الجهات دون أي متدبر أو مجيب!! (٤) ثم يقول: إن استنكار هذه الرعونات الشنيعة لا يكون إلا بمعالجتها، ولا تكون معالجتها إلا بسد الباب الذي اقتحمت منه، وإنما الباب الذي اقتحمت منه هو الإقدام على اقتطاع جماعة من جسم الجماعة الإسلامية الواحدة، واختراع اسم مبتدع لها ثم تغذية روحها العصبية وأنايتها الجماعية بمقومات معينة

وأساليب وأخلاقيات متميزة تدافع بها عن كيانها الذاتي، بل تتخذ من هذا الاسم سلاحاً لمقاومة الآخرين وطعنهم دون هوادة إذا اقتضى الأمر. (٥) ثم يشير الأستاذ إلى استفادة أصحاب الفكر اليساري من هذه البدعة لصالح المادية الماركسية الجدلية حيث اعتبروا هذه البدعة دليلاً على صحة نظريتهم التاريخية في مجال التناقض والصورورة، في غفلة من أصحاب هذه البدعة. _____

١. والمراد هو إيران المسلمة وذلك عند دفاع أهلها عن وطنهم ومقدساتهم في الحرب المفروضة عليهم من جانب الاستكبار العالمي وعملائه.

٢. نعم هذا هو ما كان يفعله السعوديون الذين يتسترون تحت غطاء السلفية فكانوا يساعدون النظام الإلحادي البعثي العراقي بالمال والسلاح والدعاية مجاهرين بذلك. وحذا لو أن الأستاذ الشهم كشف عن اسم هذه الفرقة المتجنية على الإسلام والمسلمين، التي لم تكتف بتكفير المسلمين في إيران بل كفرت كل المسلمين وضللتهم.

٣. الفاتحة: ٥.

٤. السلفية مرحلة زمنية: ٢٤٥.

٥. المصدر نفسه: ٢٤٦. (٣٣٧) السلفية وتدمير الآثار الإسلامية

لقد قامت «الوهابية» المفروضة على الشعب المسلم في الجزيرة العربية باسم «السلفية» بتدمير الآثار الإسلامية وقد ركزت جهودها في هذه الأيام على محو آثار الإسلام ومعالمه وطمس كل أثر ديني حتى المساجد، مع أن مؤسس «الوهابية»، أعنى: «محمد بن عبد الوهاب»، كان يركز جهوده على هدم القبور فقط لا على هدم كل أثر ديني للرسول الأعظم وصحابته المنتجبين، لكن حلفاءه بدأوا في هذه الأيام بالقضاء على الآثار الدينية باسم تطوير البلدين: مكة والمدينة فترى كيف طمست حتى في هذه السنوات الأخيرة (١٣٩٦-١٤٠٨هـ) عشرات من الآثار الإسلامية ومحيت معالمها تحت غطاء توسعه المسجد النبوي، أو تطوير المدينة وإعمارها، وكأن التطوير يتوقف على التدمير ولا يجتمع مع حفظ تلك الآثار في مكانها، ولا نشك نحن وكل متحرق على الحق والحقيقة أنها مؤامرة شيطانية على الإسلام وأهله. والعجب أن «السعوديين» يقومون بهذا العمل باسم الاقتداء بالسلف مع أن السلف في القرون السابقة فرضوا على أنفسهم رعايتها، فإن الحكام - الذين تعاقبوا على مسند الحكم في الحجاز عدا يزيد - فرضوا على أنفسهم حفظها ورعايتها غير أنها في هذه الأيام، كأنها أصبحت ملكاً صرفاً لآل سعود، وكأنها ليست آثاراً إسلامية ولا تخص مليار مسلم فضلاً عن الأجيال اللاحقة، ولو نظر المسلم في تاريخ الآثار الإسلامية قبل استيلاء «السعوديين» عليها لوجد جميع الآثار تتمتع بأفضل عناية ورعاية من جانب السلف. فما معنى هذه السلفية التي تتبعض في مفهومها فيؤخذ منها شيء ويترك منها شيء؟! يقولون: «نؤمن ببعض ونكفر ببعض». وفي الوقت الذي تحرص فيه الدول المتحضرة على إحياء أمجادها وتراثها، وتعهد بإنشاء كليات ومعاهد ومؤسسات ومتاحف لحفظ الآثار وصيانتها - في هذا الوقت نفسه - تعمد السعودية إلى القضاء على أنفس الآثار الإسلامية وأعزها على كل مسلم. والعجب العجيب أن هؤلاء يدّمرون بيوت بنى هاشم وبيت الإمام (٣٣٨)

الصادق - عليه السلام -، وقبر والد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومشهد ذى النفس الزكية، وبيت أبي أيوب الأنصاري مضيف النبي، ولكنهم يعتنون بآثار اليهود في المدينة المنورة، فترى فيها حصن «كعب بن الأشرف» رأس اليهود الذي اغتاله بعض الصحابة بأمر النبي الأعظم محفوظاً، وقد وضعت أمامه لوحة تحمل مرسوماً ملكياً بحفظه تحت عنوان حفظ الآثار. وليس هذا التخطيط منحصرًا بحفظ تراث ذلك اليهودي بل حصون خبير بجميع شقوقها وفروعها سجلت في ديوان الآثار التي يجب حفظها عن الانداس، لأنها شارة خاصة لأسلاف الحافظين لها «فاعتبروا يا أولى الأبصار». فأين المسلمون الغياري، أعنى: الذين افتقدوا يوماً شعرة من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكانوا يحتفظون بها في مسجد من مساجد الهند فانتابتهم رجة عظيمة، وثار تآثرهم حتى اضطرت الدولة العلمانية الهندية إلى بذل الجهود للعثور على تلك الشعرة، حتى عثر عليها وأعيدت إلى مكانها. فأين أولئك الغياري حتى يروا بأعينهم أن الآثار النبوية تدمر، الواحد تلو الآخر وفي كل شهر ويوم على أيدي السلطات السعودية. ولن تنتهي الجريمة إلى هذا الحد،

بل ربما تتعدى إلى ما لا سمح الله به لهم. ومن الملفت للنظر أن المفكرين من علماء الإسلام عندما قام الوهابيون بهدم قبور أئمة أهل البيت في البقيع (١) أعلنوا للعالم الإسلامي بأن الجريمة لن تتوقف عند هذا الحد، بل إن هدم البقيع مقدمة لهدم ومحو جميع آثار الرسالة، وفي ذلك يقول المرجع الديني الراحل (٢) السيد صدر الدين العاملي: _____

١ . عام ١٣٤٤هـ .

٢ . لبي دعوة ربّه عام ١٣٧٣هـ (٣٣٩)

لعمري إن فاجعة البقيع * يشيب لهولها فود الرضيع وسوف تكون فاتحة الرزايا * إذا لم نصح من هذا الهجوع أما من مسلم لله يرضى * حقوق نبيه الهادي الشفيح (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) . الرابع: نصيحة لأعلام الحنابلة وقادتهم اتفق المسلمون تبعاً للذكر الحكيم على أن الرسالة المحمدية رسالة عالمية أولاً، وخاتمة ثانياً، قال سبحانه: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) (١)، وقد حملت الأئمة الإسلامية رسالة إبلاغ الإسلام على عواتقها بعد التحاق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى فنشروها في مشارق الأرض ومغاربها حسبما توفر لديهم من الإمكانيات، وقد وصلت النبوة في هذا العصر إلى قادة المسلمين وأئمتهم، فيجب عليهم بث الإسلام وتعاليمه بين الناس شرقيهم وغربيهم في حدود الإمكانيات والوسائل الموجودة في سبيل بسط الدعوة ونشرها حتى ينقذوا العالم من مخالب المادية ومن الحروب التي تهدد كيان الإنسانية. ومما لا شك فيه أن للتأثير في النفوس وجذب القلوب، عللاً وأسباباً مختلفة، أهمها كون الداعي مجهزاً بقوة المنطق والاستدلال القاطع الذي تخضع له العقول السليمة، فعند حسن الدعوة وأسلوبها، وقوة المادة ورسالتها، ترى القلوب تهوى إليها من كل صوب وجانب، والناس يدخلون في دين الله أفواجا، وأما إذا كانت الدعوة غير منسجمة مع الفطرة السليمة، فنفور الناس هو النتيجة الحتمية وتكون من قبيل «ما يفسده أكثر مما يصلحه». وفي ظل هذا العامل سيطرت الدعوة المحمدية - آن ظهورها - على قلوب العالم واكتسحت العراقيل الموجودة أمامها، وما ذاك إلا لكون الدعوة حائزة للشرائط الموافقة للطباع، وإلى هذا الانسجام يشير قوله سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ _____

١ . الأعراف: ١٥٨. (٣٤٠) الَّذِينَ قَاتَمُوا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. (١)

فالدعوة إلى التوحيد ورفض الأصنام، وبسط العدل والقسط بين الناس، والدعوة إلى الاعتدال في ما يرجع إلى أمور الدنيا والآخرة، وتأمين سبل الحياة، والحفاظ على الروابط العائلية و... كلها أصول إسلامية مطابقة للفطرة الإنسانية. فإذا كان هذا هو الأساس لنشر الإسلام في العالم وجذب النفوس إليه، فيجب على قادة المسلمين على الإطلاق والحنابلة وأهل الحديث بالخصوص، تجريد الدعوة عن الأمور التي تعارض الفطرة ومن التي تناطح العقل السليم، ثم عرض الإسلام بشكل يتجاوب مع العقول السليمة كما كانت عليه الدعوة المحمدية آن ظهورها وبعدها، وهذه الغاية المتوخاة لا تتحقق - بلا مجاملة - إلا بدراسة الأصول والعقائد التي نسجت على طبق الأحاديث الموجودة في الصحاح والمسانيد من رأس والعودة إليها من جديد حتى تصفو الدعوة من الأمور التي يشمئز منها شعور الإنسان الحر صاحب الفطرة السليمة التي بنى عليها دين الله في عامة الشرائع السماوية. هلّم معي نلاحظ نماذج من الأصول التي قامت عليها الدعوة الحنبلية المتسببة في هذه العصور بالدعوة السلفية، ثم نعرضها على محك الصحة ومقياسها «الفطرة الإنسانية»، فهل هي تتجاوب معها؟ ونحن لا نطيل الكلام بعرض عامة الأصول بل نأخذ - كما قلنا - نماذج ونجعلها على مرأى ومسمع من القارئ. أفهل يمكن دعوة شعوب العالم إلى الإسلام مع القول بأن الله سبحانه كإنسان له من الأعضاء ما للإنسان عدا اللحية والفرج، وأن له عينين ناظرتين وذراعين وصدراً ونفساً ورجلاً وحقواً ونزولاً وصعوداً إلى غير ذلك مما ملأ كتب الحنابلة وقليلاً من كتب الأشاعرة؟ وأقصى ما عندهم أن له سبحانه هذه _____

١ . الروم: ٣٠. (٣٤١)

الأعضاء ولكن بلا كيفية، وقد عرفت حال التدرج به وأنه مما لا يسمن ولا يغنى من جوع. أفيصح لنا دعوة أساتذة العلوم الإنسانية

والطبيعية من المخترعين والمكتشفين في عالمنا الراهن إلى الإله الذي استقرّ على عرشه فوق السماوات ينظر منه إلى العالم كلّ الذي هو تحت قدميه، والعرش يثبط تحته أطيح الرحل تحت الراكب؟! بالله عليك إذا كانت رسالتنا في العالم نشر ما جاء في قول هذا الشاعر الحنبلي: لله وجه لا- يحد بصورة * ولربنا عينان ناظرتان وله يدان كما يقول إلهنا * ويمينه جلت عن الأيمان! فهل يتصور لنا النجاح في ميدان الدعوة؟! أو يكون التراجع والفشل نتيجة حتمية للدعوة، وإننا سوف نقابل بالقول بأنّ المادية والإلحاد أولى وأرجح من الاعتقاد بهذا الإله الذي جلس على سرير كجلوس الملوك ينظر إلى ملكه بعيونه ويفعل بيده ويكتب ببنانه. أو ليس القول بالجبر وسلب الاختيار هي النتيجة الطبيعية للروايات الواردة في الصحاح والمسانيد حول القضاء والقدر، وقد مضى حديث مسلم: «فوالذي لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار...» (١)؟! أو ليس هذا تطويحاً بالوحي كلّ وتزييفاً للنشاط الإنساني من بدء الخلق إلى قيام الساعة وتكديماً لله والمرسلين قاطبة. قال سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) (٢). وقال سبحانه: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ) (٣).

١. راجع ص ٢٦٤ من هذا الجزء.

٢. الأنعام: ١٠٤.

٣. الكهف: ٢٩. (٣٤٢)

وهناك أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى وتعرف الإنسان بأنّه مسلوب المشيئة، وأنّه مقهور بكتاب سابق، وأنّ سعيه باطل، لأنّه لا يغير شيئاً ممّا خط عليه في الأزل مع أنّه سبحانه يقول: (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا سَعْيٌ * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى) (١). فهذه أحاديث واهية خلّفت تعاليم باطلة في أوساط المسلمين يجب تجريد الدعوة الإسلامية منها، فهي تعاكس منطق الفطرة أولاً، والعقل السليم ثانياً، ومنطق العقلاء ثالثاً، ومنطق الشرائع عامة رابعاً، فليس لهذه الروايات أن تطيح على المحفوظ من كتاب الله وسنّة رسوله، أو تنافح ما اجتمع عليه عقول العالمين، ولو صحت هذه الروايات، لكانت الحياة عملاً مسرحياً، والدعوة الإلهية دعوة خادعة، والناس محكومون بما جف عليه القلم وليس لهم التخطي عنه قدر أنملة. هذه بعض الأصول (٢) التي تناقض الفطرة، وهي أكثر ممّا حررناه هنا، فليكن منها شعار الحنابلة وبعدهم الأشاعرة بأنّه: يجوز التكليف بما لا- يستطاع ولا- يطاق. (٣) يجوز تعذيب أطفال المشركين يوم القيامة. (٤) يعذب الميت ببكاء أهله عليه. (٥) ليس للعقل الحكم بحسن شيء أو قبحه، و عليه : يصح له سبحانه إدخال المؤمن الجحيم، والعاصي الجنة. إنّ الإطاحة بحاكمية العقل في مجال التحسين والتقيح إماتة للمنطق وإحياء للخرافات، وفي الوقت نفسه ردّ لصميم الدعوة المحمدية المبنية على التدبّر

١. النجم: ٣٩- ٤١.

٢. قد تعرفت على مصادر هذه الأصول في الفصل الخامس من هذا الجزء: ص ١٣٨ - ١٧٥.

٣. اللمع: ١١٦.

٤. اللمع: ١١٦.

٥. صحيح البخاري: كتاب الجنائز، الباب ٥. (٣٤٣)

والتعقل والاحتكام إلى العقل في مجال الطاعة والمعصية، يقول سبحانه: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (١). وأقسم بالله صادقاً أنّ الدعوة الإسلامية لا تكون ناجحة في أقطار الغرب والشرق إذا كانت هذه الأصول هي اللحم والسدى لها. إنّ ملحمة الكنائس ومغادرة المثقفين من المسيحيين عن دينهم هي العبرة لقادة الحنابلة ومن يقتفي أثرهم، ولم يكن للهوة السحيفة بين أصحاب الكنائس والمثقفين سبب، سوى وجود الخرافات في تعاليم الكنائس، فلم تزل تدعو إلى التثليث أولاً، وإلى التجسيم ثانياً، وصلب المسيح لأجل إنقاذ البشرية ثالثاً، وبيع أوراق المغفرة رابعاً، ونوع خاص من الجبر وسلب الاختيار خامساً، هذا وذاك صار سبباً

لانسحاب الشباب والعلماء عن ساحة الكنائس والبيع واختصاص الأماكن المقدسة بالسذج من الناس الذين لا يعرفون من العلم والحياة سوى شىء طفيف. هذه نصيحتي لقادة الحنابلة، وفي الأخير نضيف إليها كلمة وهي أن الحنابلة وأهل الحديث عمدوا إلى احتكار اسم «أهل السنة» لأنفسهم ولا يصفون سائر الطوائف الإسلامية به، حتى إن ابن تيمية محيي الدعوة السلفية في القرن الثامن لا يبيح تسمية الأشاعرة باسم أهل السنة فضلاً عن المعتزلة والشيعة وغيرهم، ولكن في هذا الاحتكار بل في هذه التسمية نكتة لافتة: إن توصيف طائفة من المسلمين باسم أهل السنة من العناوين الطارئة الحديثة التي ظهرت في آخر القرن الأول أو في أوليات القرن الثاني، فإنك لا ترى أثراً من هذا الاسم ولا التوصيف به في زير الأولين إلا في رسالة عمر بن عبد العزيز في القدر التي مرت بنصها في ما سبق (٢)، وقد عرفت أن كتابة الحديث وتدوينه والتحدث به وإفشاءه كان من الأمور المنكرة، وهذا هو عمر بن الخطاب قال لأبي ذر و عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء: ما هذا الحديث الذي تفشون عن محمد؟ (٣) وكان يقول أيضاً: جرّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن

١ . القلم: ٣٥ و ٣٦.

٢ . قد مرّت الرسالة في ص ٢٩٢ من هذا الجزء.

٣ . كنز العمال: ١٠/٢٩٣، الحديث ٢٩٤٧٩. (٣٤٤)

رسول الله وامضوا وأنا شريككم. (١) وقد خلف هذا المنع في نفوس المسلمين أثراً خاصاً فعاد التحدث وكتابة الحديث وتدوينه أمراً منكراً لديهم وتركه أمراً مرغوباً فيه، حتى إنه بعد ما أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز الأمر الأكيد بضرورة تدوين الحديث، كانت روايب الحظر تحول دون القيام بما أمر به الخليفة فلم يكتب شىء من أحاديث النبي إلا صحائف غير منظمة ولا مرتبة إلى أن جاء عصر أبي جعفر المنصور فقام المحدثون بتدوينه سنة مائة وثلاثة وأربعين. فإذا كان التحدث بسنة الرسول أمراً منكراً في القرن الأول وأوليات القرن الثاني، فكيف يحتمل أن يعرف أناس ينكرون نقل الحديث وإفشاءه باسم «أهل السنة» وعلى ذلك فلا نحتمل وجود هذه التسمية في تلك العصور، وإنما حدثت تسمية أهل الحديث وتوصيفهم بأهل السنة بعدما شاع التحدث به وقام ثلة جليئة من المسلمين بجبر ما انكسر. فعلى ضوء ذلك، لا يصح احتكار هذا اللقب وتسمية طائفة خاصة به، بل كل من يحترم حديث رسول الله وسنته ويعمل بها فهو من أهل السنة فالمسلمون سنيهم وشيعتهم، أشعريتهم ومعتزليتهم، من غير استثناء طائفة واحدة كلهم أهل السنة، أى مقتفون سنة رسول الله وأثره من قوله وفعله وتقريره. والشيعة أولى بهذا الوصف من غيرهم، فإنهم لم يزالوا يحترمون سنة رسول الله منذ حياته إلى يومنا هذا، فقد قام الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - بتدوين أحاديثه كما قامت ثلة جليئة من خيار صحابة الإمام بتدوين الحديث إلى أن وصلت حلقات التأليف من عصر الإمام إلى عصر الأئمة الاثنى عشر وبعدهم إلى أعصارنا هذه، فدوّنوا سنة رسول الله المروية عن طرق أهل البيت وأئمتهم وما صحّ لديهم من طرق غيرهم. أفهل يصحّ بعد هذا احتكار الحنابلة لهذا اللقب وعدم السماح بإطلاقه على غيرهم والتقول بن نحن السنيون؟! —————

١ . طبقات ابن سعد: ٦/٧؛ والمستدرک: ١/١٠٢. (٣٤٥) موقف تاريخي لشيخ الأزهر من عقائد الحنابلة

إذا كبر على أعلام الحنابلة ما قدّمت إليهم من النصيحة الخالصة، فعليهم - على الأقل - الأخذ بما قاله الشيخ «سليم البشري» شيخ الجامع الأزهر الأسبق، فقد رفع إليه الشيخ «أحمد» شيخ معهد بلصفورة سؤالاً ما هذا حاصله: ما قولكم دام فضلكم في رجل من أهل العلم هنا تظاهر باعتقاد جهة فوقيه لله سبحانه وتعالى، ويدعى أن ذلك مذهب السلف وتبعه على ذلك البعض القليل من الناس، وجمهور أهل العلم ينكرون عليه، والسبب في تظاهره بهذا المعتقد - كما عرض على هو بنفسه ذلك - عثوره على كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاماً كثيراً عن ابن تيمية في إثبات الجهة للبارى سبحانه، وليكن معلوماً أنه يعتقد الفوقية الذاتية له جلّ ذكره، يعنى أن ذاته فوق العرش بمعنى ما قابل التحدث مع التنزيه، ويخطئ أبا البركات الدرديري، في قوله في خريدته: منزه عن الحلول والجهة * والاتصال والانفصال و السفه يخطئه في موضعين من البيت: قوله: «والجهة» وقوله: «والانفصال»، و يخطئ الشيخ «اللقاني»

في قوله: ويستحيل ضد ذي الصفات * في حقه كالكون في الجهات وبالجملة فهو مخطئ لكل من يقول بنفي الجهة مهما كان قدره - إلى أن قال -: إن قول فضيلتكم لا- سيما في مثل هذا الأمر هو الفصل. فوافاه الجواب بالنحو التالي: إلى حضرت الفاضل العلامة الشيخ أحمد على بدر خادم العلم الشريف ببلصفورة: قد أرسلتم بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٣٢٥ هـ مكتوباً مصحوباً بسؤال عن حكم من يعتقد ثبوت الجهة له تعالى، فحررنا لكم الجواب الآتي وفيه الكفاية (٣٤٦)

لمن اتبع الحق وأنصف، جزاكم الله عن المسلمين خيراً: اعلم أيديك الله بتوفيقه وسلك بنا وبك سواء طريقه، أن مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنيون: أن الله تعالى منزّه عن مشابهة الحوادث، مخالف لها في جميع سمات الحوادث، ومن ذلك تنزّهه عن الجهة والمكان، كما دلّت على ذلك البراهين القطعية، فإنّ كونه في جهة يستلزم قدم الجهة أو المكان وهما من العالم، وهو ما سوى الله تعالى، وقد قام البرهان القاطع على حدوث كل ما سوى الله تعالى بإجماع من أثبت الجهة و من نفاها، ولأنّ المتمكن يستحيل وجود ذاته بدون المكان مع أنّ المكان يمكن وجوده بدون المتمكن لجواز الخلاء، فيلزم إمكان الواجب ووجوب الممكن وكلاهما باطل، ولأنّه لو تحيز لكان جوهرًا لاستحالة كونه عرضاً، ولو كان جوهرًا فإمّا أن ينقسم وإمّا أن لا ينقسم، وكلاهما باطل، فإنّ غير المنقسم هو الجزء الذي لا- يتجزأ وهو أحقر الأشياء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والمنقسم جسم وهو مركّب والتركيب ينافي الوجوب الذاتي، فيكون المركّب ممكناً يحتاج إلى علمه مؤثراً، وقد ثبت بالبرهان أنّه تعالى واجب الوجود لذاته، غنى عن كلّ ما سواه، مفتقر إليه كلّ ما عداه، سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.... هذا وقد خذل الله أقواماً أغواهم الشيطان وأزلهم، اتبعوا أهواءهم وتمسّكوا بما لا يجدي فاعتقدوا ثبوت الجهة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، واتفقوا على أنّها جهة فوق، إلا أنّهم افرقوا، فمنهم من اعتقد أنّه جسم مماس للسطح الأعلى من العرش، وبه قال الكرامية واليهود، وهؤلاء لا نزاع في كفرهم ومنهم من أثبت الجهة مع التنزيه، وأنّ كونه فيها ليس ككون الأجسام، وهؤلاء ضلال فساق في عقيدتهم، وإطلاقهم على الله ما لم يأذن به الشارع، ولا مريّة أنّ فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بكثير سيما من كان داعية أو مقتدى به. وممن نسب إليه القول بالجهة من المتأخرين، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي من علماء القرن الثامن، في ضمن أمور نسبت إليه خالف الإجماع فيها عملاً برأيه، وشنّ عليه معاصروه، بل (٣٤٧)

البعض منهم كفروه، ولقى من الذل والهوان ما لقي، وقد انتدب بعض تلامذته للذب عنه وتبرئته ممّا نسب إليه وساق له عبارات أوضح معناها، وأبان غلط الناس في فهم مراده، واستشهد بعبارات له أخرى صريحة في دفع التهمة عنه، وأنّه لم يخرج عمياً عليه الإجماع، وذلك هو المظنون بالرجل لجلال قدره ورسوخ قدمه. وما تمسك به المخالفون بالقائلون بالجهة أمور واهية وهمية، لا تصلح أدلّة عقلية ولا نقلية، قد أبطلها العلماء بما لا مزيد عليه، وما تمسكوا به ظواهر آيات وأحاديث موهمة كقوله تعالى: (الرّحمنُ على العرشِ استوى)(١) وقوله: (إليه يَصِيدُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ) (٢) وقوله: (تَعْرُجُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ إليه)(٣) وقوله: (أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الأرضُ)(٤) وقوله: (وَهُوَ القَاهِرُ فوقَ عِبَادِهِ)(٥) وكحديث أنّه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كلّ ليلة، وفي رواية: في كلّ ليلة جمعة، فيقول هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ وكقوله للجارية الخرساء: أين الله؟ فأشارت إلى السماء، حيث سأل بأين التي للمكان ولم ينكر عليها الإشارة إلى السماء، بل قال إنّها مؤمنة. ومثل هذه يجاب عنها بأنّها ظواهر ظنية لا تعارض الأدلّة القطعية اليقينية الدالّة على انتفاء المكان والجهة، فيجب تأويلها وحملها على محامل صحيحة لا تأبأها الدلائل والنصوص الشرعية، إمّا تأويلاً- إجمالياً بلا- تعيين للمراد منها كما هو مذهب السلف، وإمّا تأويلاً تفصيلاً بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو رأى الخلف، كقولهم: «إنّ الاستواء بمعنى الاستيلاء» كما في قول القائل: قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق وصعود الكلم الطيب إليه قبوله إياه ورضاه به، لأنّ الكلم عرض يستحيل صعوده وقوله: «من في السماء» أي أمره وسلطانه أو ملك من ملائكته موكل بالعذاب، وعروج الملائكة والروح إليه صعودهم إلى مكان يتقرب إليه فيه. وقوله: (فوق عباده) أي بالقدرة والغلبة، فإنّ كلّ من قهر غيره وغلبه فهو فوقه أي عال عليه بالقهر والغلبة، كما يقال: أمر فلان فوق أمر فلان، أي أنّه أقدر منه وأغلب. ونزوله إلى السماء

محمول على لطفه ورحمته

١. طه: ٥.

٢. فاطر: ١٠.

٣. المعارج: ٤.

٤. الملك: ١٦.

٥. الأنعام: ١٨. (٣٤٨)

وعدم المعاملة بما يستدعيه علو رتبته وعظم شأنه على سبيل التمثيل، وخصّ الليل لأنه مظنة الخلو والخضوع وحضور القلب. وسؤاله للجارية «بأين» استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقد الوثنيون، فلما أشارت إلى السماء، فهم أنها أرادت خالق السماء فاستبان أنها ليس وثنية، وحكم بإيمانها. وقد بسط العلماء في مطولاتهم تأويل كل ما ورد من أمثال ذلك، عملاً بالقطعي وحماً للظني عليه، فجزاهم الله عن الدين وأهله خير الجزاء. ومن العجيب أن يدع مسلم قول جماعة المسلمين وأئمتهم ويتمشدد بترهات المبتدعين وضلاتهم. أما سمع قول الله تعالى (و[من] يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصِّرْ لَهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (١) فليتب إلى الله تعالى من تلطخ بشيء من هذه القاذورات ولا يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يحملنه العناد على التمداد والإصرار عليه، فإن الرجوع إلى الصواب عين الصواب والتمادي على الباطل يفضي إلى أشد العذاب (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا). (٢) نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أملاه الفقير إليه سبحانه «سليم البشري» خادم العلم والسادة المالكية بالأزهر عفا عنه أمين أمين. (٣) هذه هي قصة أهل الحديث والدعوة السلفية بأدوارها المختلفة.

١. النساء: ١١٥.

٢. الكهف: ١٧.

٣. الفرقان للعلامة الفضاى المصرى: ٧٢-٧٦، وقد طبع مع كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقى، وتوفى المجيب عام ١٣٣٥هـ وهو الذى قد جرت بينه وبين السيد شرف الدين مكاتبات طبعت باسم «المراجعات». (٣٤٩) (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ). (١) بلغ الكلام إلى هنا فى اليوم الثالث من شعبان المعظم ميلاد الإمام الطاهر سيد الشهداء - عليه السلام - من شهور عام ١٤٠٨هـ. ق قم المشرفة

١. يوسف: ١٠٨.

الجزء الثانى (اسماعيلية)

التعارف و التأخى فى ظل البحث الموضوعى

التعارف و التأخى فى ظل البحث الموضوعى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه، والخيرة من أهل بيته، وصحبه الطيبين. أميا بعد، فهذا هو الجزء الثانى من كتابنا «بحوث فى الملل والنحل» نقدّمه إلى القراء الكرام، راجين منهم غض الطرف عميا فيه من خلل أو زلل، وإيقاف المؤلف على ملاحظاتهم القيمة. ويختص هذا الجزء ببيان حياة الإمام الأشعري، وحياة أنصار مذهبه، واستعراض الأصول المهمة فى منهجه، وقد اعتمدنا فى بيانها على المصادر المعتمدة الموثوق بها عند الأشاعرة. وطبيعة البحث كانت تقتضى تقديم التحقيق عن المعتزلة، وتبيين

أصولها، وترجمته شخصياتها اللامعة، على الأشاعرة؛ ذلك أن منهج الاعتزال أقدم منهج فكري ظهر على الصعيد الإسلامي حين لم يكن عن الإمام الأشعري ومنهجه وأنصاره أثر ولا خبر. ولكن لما كان مذهب الأشعري مشتقاً من مذهب أهل الحديث وفرعاً منه، وقد خصصنا الجزء الأول لبيان عقائد أهل الحديث والسلفيين، صار ذلك سبباً لتقديم ما حقه التأخير، وسنقوم ببيان أصول المعتزلة وترجمته رجالها البارزين بعد تبين عقائد «الماتريديّة» (التي هي والمذهب الأشعري صنوان (٦)

نابتان من أصل واحد). في الجزء الثالث؛ كل ذلك بفضل وكرمه. وأما المناهج الرجعية التي نبتت في العصور الأولى، كالجهمية والكرامية والظاهرية، والتي أكل عليها الدهر وشرب، وذهبت أدراج الرياح، فترى الإيعاز إليها في ذاك الجزء أيضاً بإذنه سبحانه. إن البحث عن الملل والنحل - إذا كان قائماً على أساس علمي رصين - يكون وسيلة للتأخي والتألف، فإن الباحث يقف على أن كثيراً من الأصول في المذاهب مشتركة وموحدة، وإنما فرقت بينها عوامل أخرى لا تمت إلى المذهب بصله، وبذلك يصبح البحث عن «الملل والنحل» وسيلة للتأخي والتألف. نعم لو اعتمد الباحث على ما لا يصح الاعتماد عليه فربما شوّه سمعة المذهب، وصوّره على غير ما هو عليه، فيكون أداة للتباغض والتنافر. ونحن نرجو أن يوفقنا الله سبحانه لدراسة المذاهب، كل على ما هو عليه من دون بخس لحق، كما نرجو أن يوفقنا في سعينا لإصابة الحقيقة، وبيان الواقع، إنه قريب مجيب الدعاء. جعفر السبحاني قم المشرفة - الحوزة العلمية ٢٠ جمادى الآخرة، ١٤٠٨هـ (٧)

حياة الإمام الأشعري

حياة الإمام الأشعري ومنهجه في العقائد

افترق المسلمون (أهل البحث والجدل منهم) في النصف الأول من القرن الثاني إلى فرقتين: فرقة أهل الحديث: وهم الذين تعبدوا بظواهر الآيات والروايات من دون غور في مفاهيمها، أو دقة في أساندها، وكانوا يشكلون الأكتريّة الساحقة بين المسلمين، وكثرت فيهم المشبهة والمجسمة، والمثبتون لله سبحانه علواً وتنقلاً - وحركه وأعضاء، كاليد والرجل والوجه، إلى غير ذلك من البدع التي ظهرت بين المسلمين عن طريق الأحبار والرهبان المتستترين بالإسلام. وفرقة الاعتزال: وهم الذين كانوا يتمسكون بالعقل أكثر من النقل، ويؤولون النقل إذا وجدوه مخالفاً لفكرتهم وعقليتهم، وبقي التشاجر قائماً على قدم وساق بين الفرقتين طوال قرون. فتارة يتغلب أهل الحديث على أهل الاعتزال ويوزونهم، وأخرى يتغلب جناح التفكير والاعتزال على أهل الظواهر والحديث، وكانت غلبة كل فرقة على الأخرى في كثير من الأحيان تنشأ من ميول الحكومات آنذاك لأحد الجناحين المتصارعين، فنرى عصر الأمويين وأوائل عصر العباسيين، عصر ازدهار منهج أهل الحديث والتمسكين بظواهر النصوص؛ كما نرى الأمر على العكس في زمن المأمون وأخيه المعتصم والواقف بالله إلى عصر المتوكل، فكان الازدهار لمنهج الاعتزال حتى صار مذهباً رسمياً للحكومات السائدة، واعتقل بعض (٨)

مشايخ أهل الحديث مثل أحمد بن حنبل، حتى جُلبت ثلاثين سوطاً لأجل اعتقاده بقدم القرآن الذي يُعدّ من مبادئ أهل الحديث. وكان الأمر على هذا المنوال إلى أن تسلّم المتوكل مقاليد الحكم؛ فأمر بنشر منهج أهل الحديث بقوة وحماس، وتبعه غيره من العباسيين في دعم مقاليتهم، وتضييق الأمر على أهل الاعتزال، وقد كان الأمر على هذا المنوال إلى عصر أبي الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ) الذي كان معتزلياً ثم صار - بحسب الظاهر - من زمرة أهل الحديث، فكانت السلطة تسايروهم وتوافقهم. وسياويك القول في علل رجوعه عن مذهب الاعتزال إلى تيار أهل الحديث وفي مقدمتهم مذهب إمام الحنابلة أحمد بن حنبل. وقد كوّن الأشعري برجوعه عن الاعتزال إلى مذهب أهل الحديث منهجاً كلامياً، له أثره الخاص إلى يومنا هذا بين أهل السنة، فمذهبه الكلامي هو المذهب السائد بينهم في أكثر الأقطار. ولأجل ذلك يجب علينا أن نتعرف عليه وعلى آرائه، فنقول: نسب الإمام الأشعري هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري. يقول

ابن عساكر في ترجمته: إن أباه إسماعيل بن إسحاق كان سنياً جمعياً حديثاً، أوصى عند وفاته إلى زكريا بن يحيى الساجي، وهو إمام في الفقه والحديث، وقد روى عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتاب التفسير أحاديث كثيرة، وقد يكتنى أبوه بـ«أبي بشر» وربما يقال إنها كنية جدّه. (١) وهذا يعرب عن أن البيت الذي تربى فيه أبو الحسن كان بيت الحديث والرواية، مقابلاً للمنهج العقلي الراجح بين المعتزلة، ومن شأن الأبناء أن يرثوا _____ ١. «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» تأليف ابن عساكر الدمشقي (المتوفى عام ٥٧١هـ) وهو كتاب أفرد للبحث في حياته وسائر ما يتعلّق به، ونعبر عنه بالتبيين اختصاراً.

(٩)

ما للآباء من الأفكار، وعلى ذلك فعود الشيخ إلى منهج أهل الحديث، والإبانة عن الاعتزال كان رجوعاً موافقاً للأصل لا مخالفاً له؛ فهو رجع إلى الفكرة التي ورثها في خزائنه ذهنه من بيته. جدّه الأعلى: أبو موسى الأشعري اشتهر أبو الحسن بالأشعري، نسبة إلى جدّه الأعلى المشتهر بهذا العنوان أيضاً، وقد ورث جدّه أيضاً هذا اللقب عن أجداده الأعلى، وترجم في كتب الرجال. قال ابن سعد في طبقاته: قد أسلم بمكة قديماً ثم رجع إلى بلاد قومه، فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فوافق قدومهم قدوم أهل السفينتين: جعفر أصحابه من أرض الحبشة، فوافوا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بخير، فقالوا: قدم أبو موسى مع أهل السفينتين وكان الأمر على ما ذكرنا أنه وافق قدومه قدومهم. (١) وقال ابن الأثير: كان عامل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - علي زبيد و عدن، واستعمله عمر على البصرة، وشهد وفاة أبي عبيدة الجراح بالشام، وكان أبو موسى على البصرة لما قتل عمر، فأقره عثمان عليها ثم عزله، واستعمل بعده ابن عامر، فسار من البصرة إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص، وطلبوا من عثمان، أن يستعمله عليهم، فلم يزل على الكوفة حتى قتل عثمان، فعزله عليّ - عَلَيْهِ السَّلَام - عنها. (٢) لم يكن عزل عليّ إزياء عنها اعتباطاً، بل لأجل أنه كان يخذل الناس عن الإمام عند اشتباكه - عَلَيْهِ السَّلَام - مع الناكثين في أطراف البصرة، فقد ذكر _____ ١. طبقات ابن سعد: ٤/١٠٥. ٢. أسد الغابة: ٣/٢٤٦.

(١٠)

الطبري أن الإمام علياً كتب إلى أبي موسى: «إني وجهت هاشم بن عتبة لينهض من قبلك من المسلمين إلى، فأشخص الناس، فإني لم أولئك الذي أنت به إلا لتكون من أعوانى على الحق». فدعا أبو موسى، السائب بن مالك الأشعري، فقال له: ما ترى؟ قال: أرى أن تتبع ما كتب به إليك، قال: لكنني لا أرى ذلك، فكتب هاشم إلى عليّ - عَلَيْهِ السَّلَام - أنه قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الغل والشن آن. وبعث بالكتاب مع المحل بن خليفة الطائي، وعند ذاك بعث عليّ - عَلَيْهِ السَّلَام - الحسن بن عليّ عمار بن ياسر وهما يستنفران له الناس، وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميراً على الكوفة، وكتب معه إلى أبي موسى: «أما بعد: فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ لك منه نصيباً، سيمنعك من ردّ أمرى وقد بعث الحسن بن عليّ عمار بن ياسر يستنفران الناس، وبعث قرظة بن كعب والياً على مصر، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً». (١) هذا هو حال الجد الأعلى في أوائل خلافة الإمام عليّ - عَلَيْهِ السَّلَام -، حيث خذّل الناس عن نصرته عليّ - عَلَيْهِ السَّلَام - عندما قرب الاشتباك بينه وبين الناكثين، وأما أمره في أواسط خلافته فحدّث عنه ولا حرج. فقد عيّن من جانب عليّ - عَلَيْهِ السَّلَام - وشيعته بالعراق ممثلاً قاضياً وحاكماً، كما عيّن عمرو بن العاص من جانب معاوية حاكماً، ليقتضيا في أمر الفرقتين بما وجدا في كتاب الله، وإن لم يجدا في كتاب الله فليرجعا إلى السنّة. (٢) فكانت نتيجة ذلك - ويا للأسف - أنه خلع علياً عن الخلافة، وأثبت عمرو بن العاص معاوية في الخلافة، وكانّه وجد دليلاً في الكتاب والسنّة على عدم صلاحية الإمام للخلافة، وذاك وجد دليلاً حاسماً على صلاحية معاوية _____ ١. تاريخ الطبري: ٣/٥١٢. ٢. وقعة صفين: ٥٠٥.

(١١)

لها!! وماعشت أراك الدهر عجباً!! فقد عزل الإمام الذي اتفق المهاجرون والأنصار على إمامته اتفاقاً لم ير مثله لا قبله ولا بعده.

ونصب الآخر معاوية ابن آكلة الأكباد إماماً للناس وحافظاً لدينهم وديانهم، وما أحسن قول شاعر المعرة: فيا موت زر، إن الحياة ذميمة و يا نفس جودي إن دهرك هازل هذه سيرة الرجل على وجه الإجمال، ولم ير بعد مسألة التحكيم للرجل نشاط، وقد مات بمكة عام ٤٢هـ، وقيل ٤٤هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وقيل غير ذلك. (١) أبو موسى ونزول الآية في قومه إن أصحاب الحديث رووا عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في تفسير قوله سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢) رووا نزولها في حق أبي موسى وقومه.

روى السيوطي عن ابن جرير الطبري في الدر المنثور: لما أنزل الله (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) قال عمر: أنا وقومي هم يا رسول الله؟ قال: بل هذا وقومه، يعني أبا موسى الأشعري. (٣) ولكن حياة الرجل، وخصوصاً ما ارتكبه في أخريات عمره بعزل الإمام الطاهر - الذي بايع له المهاجرون والأنصار - عن الخلافة، لا ينطبق مع متن الرواية، أعنى قوله: «هذا وقومه»، و لذلك نرى أن السيوطي ينقل الحديث _____ ١. أسد الغابة: ٣/٢٤٦. ٢. المائدة: ٥٤. ٣. الدر المنثور: ٢/٢٩٢ وطبقات ابن سعد: ٤/١٠٧.

(١٢)

بصورة ثانية ويقول: قوم هذا (١) من دون أن يعد أبا موسى من تلك الزمرة، ومع ذلك فتصديق نزولها حتى في قوم «أبي موسى» لا يخلو من غموض. أمياً أولاً: فلأن الروايات تضافت على نزولها في حق علي - عليه السلام - وأصحابه، حيث حاربوا الناكثين والقاسطين والمارقين. ورواه من أعلام السنّة: الثعلبي في تفسيره، ونقله عنه ابن بطريق في عمدته (٢)، والإمام الرازي في مفاتيح الغيب (٣)، والعلامة النيسابوري في تفسيره (٤)، وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط. (٥) وأمياً ثانياً: فلأن النقل تضافر أيضاً على أن المراد هم الفرس، لأن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لما سئل عن هذه الآية، فضرب بيده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه»، ثم قال: «لو كان الدين معلّقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس». (٦) وأمياً ثالثاً: فلأنه روى في نزول الآية وجه آخر، وهو الجهاد مع أهل الردّة، بعد موت النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - (٧)، ولم يكن الجهاد معهم مختصاً بقوم أبي موسى، بل اشترك اليمينون وغيرهم من أصحاب الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في ذلك أيضاً. كلّ ذلك يعطى أن الآية تحمل مفهوماً كلياً ينطبق على الشخصيات البارزة في العصور المختلفة، الذين بذلوا أنفسهم ونفيسهم في سبيل الله. فعلى أمير المؤمنين - بمواقفه الحاسمة - من أوضح مصاديق الآية، خصوصاً إذا لاحظنا الصفة المذكورة في الآية، فإنها تنطبق على _____ ١. المصدر نفسه. ٢. العمدة: ٢٨٨، الطبعة الحديثة. ٣. مفاتيح الغيب: ٣/٤٢٧، ط مصر - ١٣٠٨هـ. ٤. تفسير النيسابوري بهامش الطبري: ٦/١٤٥. ٥. البحر المحيط: ١١/٥١١. ٦. تفسير الرازي: ٣/٤٢٧، و تفسير النيسابوري بهامش الطبري: ٦/١٤٥. ٧. المصدر نفسه.

(١٣) - عليه السلام - حيث قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في حقّه يوم خيبر عندما دفع الراية إليه: «لأدفعن الراية غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» وقد جاء في الآية قوله سبحانه: (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ).

نعم، الظاهر من الجهاد في الآية هو الجهاد بالنفس والنفس، وبالسيف والسنان، ومن العجيب أن ابن عساكر يريد تطبيق الآية على نفس أبي الحسن الأشعري حفيد أبي موسى ويقول: إن الله عزّ وجلّ أخرج من نسل أبي موسى إماماً قام بنصرة دين الله، وجاهد بلسانه وبيانه من صد عن سبيل الله. الخ. (١) هذا كلّه حول حياة الجد، وإليك الكلام عن حياة الحفيد. _____ ١. التبيين: ١٠٤.

(١٤) (١٥)

حياة الإمام أبي الحسن الأشعري

حياة الإمام أبي الحسن الأشعري ميلاده ووفاته

اختلف المترجمون له في عام ميلاده ووفاته، فقيل: وُلِدَ سنة سبعين ومائتين، وقيل: ستين ومائتين بالبصرة، وتوفى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثلاثين (١)، والظاهر من ابن عساكر في تبيينه عدم الخلاف في مولده، وأن مولده هو عام ستين بعد المائتين قال: ولد ابن أبي بشر سنة ستين ومائتين، ومات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة، لا أعلم لقائل هذا القول في تاريخ مولده مخالفاً، ولكن أراه في تاريخ وفاته - رحمه الله - مجازفاً، ولعله أراد سنة نيف وعشرين، فإن ذلك في وفاته على قول الأكثرين (٢). ولكن اتفقت كلمتهم على أنه تخرج في كلام المعتزلة على أبي علي الجبائي، وهو محمد بن عبد الوهاب بن سلام من معتزلة البصرة، ويعرف بأنه الذي ذلل الكلام وسهله، ويسر ما صعب منه، وإليه انتهت رئاسة البصريين في زمانه لا يدافع في ذلك، وقد ولد عام ٢٣٥، وتوفى سنة ٣٠٣ (٣) وقام مقامه ابنه أبو هاشم في التدريس والتقرير. _____ ١. وفيات الأعيان: ٣/٢٨٤ نقلاً عن ابن الهمداني في ذيل تاريخ الطبري. ٢. التبيين: ١٤٦. ٣. فهرست ابن النديم: ٢٥٦.

(١٦)

مناظرات الأشعري مع الجبائي قبل رجوعه عنه إن الأشعري هو خريج منهج المعتزلة وتلميذ شيخها أبي علي الجبائي، ومع ذلك ينقل ابن عساكر عن أحمد بن الحسين المتكلم أنه قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: إن الشيخ أبا لحسن - رحمه الله - لما تبخر في كلام الاعتزال وبلغ غايته، كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد جواباً شافياً، فيتحير في ذلك (١)، وقد حفظ التاريخ بعض مناظراته مع أستاذه أبي علي الجبائي، فنكتفي ببعضها: المناظرة الأولى - الأشعري: أتوجب على الله رعاية الصلاح أو الأصلح في عباده؟ - أبو علي: نعم. - الأشعري: ماتقول في ثلاثة إخوة: أحدهم كان مؤمناً براً تقياً، والثاني كان كافراً فاسقاً، والثالث كان صغيراً فماتوا، كيف حالهم؟ - الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدرجات، وأما الصغير ففي أهل السلامة. - الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد هل يؤذن له؟ - الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعته الكثيرة، وليس لك تلك الطاعات. - الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة. - الجبائي: يقول الباري جلّوعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت، وصرت مستحقاً للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك. _____ ١. التبيين: ٣٨.

(١٧)

- الأشعري: لو قال الأخ الكافر: يا إله العالمين، كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني؟ - الجبائي: إنك مجنون. - الأشعري: لا بل وقف حمار الشيخ في العقبة!! ثم إن ابن خلكان لما كان أشعرياً في الكلام، استغل هذه المناظرة لمذهبه وقال: هذه المناظرة دالة على أن الله تعالى خص من شاء برحمته، وخص آخر بعذابه، وأن أفعاله غير معللة بشيء من الأغراض (١). أقول: إن تنزيه أفعاله سبحانه عن اللغو والعبث مما دل عليه العقل والنقل. ولو اعتزل الأشعري عن إدراك ما يحكم به العقل السليم فليس له مناص عن سماع كلام رب العزة، قال سبحانه: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) (٢). وقال عز من قائل: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (٣)، إلى غير ذلك من الآيات النافية للعبث واللغو عن ساحتها. ومعنى القاعدة: أن أفعاله - على الإطلاق - غير منفكة عن الأغراض والمصالح التي ترجع إلى نفس العباد دون خالقهم. ثم إن قسماً كبيراً من الحكم والمصالح المرعية ظاهر غير خفي، يقف عليه الإنسان بالتأمل والتروي، وقسماً منها خفي غير بارز لا يكاد يقف عليه الإنسان لقلته علمه وضالته دركه، قال سبحانه: (وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٤)، وقال عز من _____ ١. وفيات الأعيان: ٤/٢٦٧-٢٦٨ رقم الترجمة ٦٠٧، ونقله السبكي في طبقات الشافعية: ٢/٢٥٠-٢٥١ مع اختلاف يسير، كما نقله في الروضات: ٥/٢٠٩ عن صلاح الدين الصفدي في كتابه: الوافي بالوفيات. ٢. السجدة: ٧. ٣. المؤمنون: ١١٥. ٤. الإسراء: ٨٥.

(١٨)

قائل: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) (١)، ومع ذلك نعلم أنه تعالى لا يفعل إلا الخير، ولا يعجز عن

الإيجاد على الوجه الأصح، ومن الخطأ أن يطلب الإنسان تحليل ما في الكون من دقائق الأمور وجلالها، بعقله الصغير ودركه البسيط، ويحكم بأنه كانت المصلحة في إبقاء هذا وإفناء ذاك، وكأن هذا هو المزلقة الكبرى للمعتزلة، حيث أرادوا إخضاع كل ما في الكون من الحوادث والأفعال لعقولهم. المناظرة الثانية دخل رجل على الجبائي فقال: هل تجوز تسمية الله عاقلاً؟ فقال الجبائي: لا، لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حقه سبحانه محال، فامتنع الإطلاق. فقال له الشيخ أبو الحسن: على قياسك لا تجوز تسميته حكيماً، لأن هذا الاسم مشتق من «حكمة اللجام» وهي الحديد المانع للدابة عن الخروج، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت: فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء وقول الآخر: أبني حنيفه حكماً سفهاءكم إنني أخاف عليكم أن أغضبا أي نمنع بالقوافي من هجانا، وامنعوا سفهاءكم؛ فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع، والمنع على الله محال، لزمك أن تمنع إطلاق «حكيم» عليه سبحانه. فقال الجبائي: فلم منعت هذا وأجزت ذاك؟ فقال الأشعري: إن طريقي في مأخذ أسماء الله، الإذن الشرعي دون القياس اللغوي، فأطلقت «حكيماً» لأن الشرع أطلقه ومنعت «عاقلاً» لأن الشرع منعه، ولو أطلقه الشرع لأطلقته. (٢) ويلاحظ على هذه الرواية: ١. الروم: ٧. ٢. طبقات الشافعية: ٢/٢٥١-٢٥٢ بتلخيص منّا.

(١٩)

أولاً: أن الروايات السابقة دلت على أن صلة الأشعري بالجبائي قد انقطعت بعد انسلاكه في مسلك المحدثين، والظاهر من هذه الرواية خلافها، وأن الأشعري كان يناظر أستاذه حتى بعد الإنابة عن الاعتزال، بشهادة قول الأستاذ: فلم منعت هذا وأجزت ذاك.... وثانياً: أنه من البعيد أن لا يقف الجبائي على عقيدة أهل الحديث، بل عقيدة المسلمين جميعاً في أسمائه سبحانه، وأنها توقيفية، وأنه لا تصح تسميته إلبما سمي به سبحانه نفسه. وذلك لصيانة ساحة الرب عما لا يليق بها، إذ لو لم تكن التسمية توقيفية، ربما يعرف سبحانه بأسماء وصفات غير لائقة بساحته، فإن السواد الأعظم من الناس غير واقفين على الحد الذي يجب تنزيهه سبحانه عنه. وثالثاً: لقائل أن ينصر الأستاذ (الجبائي) ويقول: إن «الحكم» مشترك بين معنيين، أحدهما المنع، والآخر معنى يلازم العلم والفقه والقضاء والإتيان؛ قال سبحانه: (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحاً) (١) وإرجاع المعنى الثاني إلى الأول تكلف. وإطلاق الحكيم على الله بالملاك الثاني دون الأول. (٢) المغالاة في الفضائل الغلو هو: تجاوز الحد والخروج عن الوسط، مائلاً إلى جانب الإفراط، قال سبحانه: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) (٣) كما أن البخس بالحقوق وإنكار الفضائل الثابتة بالدلائل الصحيحة، تفريط وتقصير؛ فكلا العملين مذمومان، ودين الله كما قال الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - هو ما بين المقصر والغالي: «فعلَيْكُمْ بالنمرقة فيها يلحق المقصر ويرجع إليها الغالي». (٤)

١. مريم: ١٢. ٢. لسان العرب: ١٢/١٤٠، ط بيروت، مادة حكم. ٣. النساء: ١٧١. ٤. ربيع الأبرار للزمخشري روفى نهج البلاغة قسم الحكم، الرقم ١٠٩، ما يماثله: «نحن النمرقة الوسطى (بضم النون وسكون الميم وضم الراء) بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي».

(٢٠)

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاه ولا تركب ذلولاً ولا صعباً وقد نقل المترجمون في حق الأشعري أموراً تعد من المغالاة في الفضائل واتخذوها تاريخاً صحيحاً من دون أي غمز وإنكار في السند، ونأتى بنموذجين من ذلك: ١. روى ابن عساكر عن أبي الحسين السروي، الفاضل في الكلام يقول: كان الشيخ أبو الحسن، يعني الأشعري، قريباً من عشرين سنة يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة، وكان لا يحكى عن اجتهاده شيئاً إلى أحد!! (١) ونحن لا نعلق على هذا الفضيلة المزعومة بشيء غير أنها تعد من خوارق العادات، إذ قلما يتفق لإنسان أن لا يكون مريضاً ولا مسافراً ولا معذوراً طيلة عشرين سنة، حتى يصلي فيها صلاة الصبح بوضوء العتمة، أضف إلى ذلك أن سهر الليالي في هذه المدة الطويلة لا يوافق عليه العقل، ولا يندب إليه الشرع، وما كان النبي ولا الخلفاء على هذا السلوك، وقد قال سبحانه: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً) (٢) ولازم القيام في الليل على النحو الذي جاء في تلك الرواية، هو كون النهار سكوناً والليل مبصراً. ولأجل عدم انطباق ظاهر الرواية على مقتضى العرف والشرع، عمد بعض المترجمين

إلى تحريف الرواية وقال: ويحكى أبو الحسين السروي (٣) عن عبادته في الليل واشتغاله ما يدل على حرصه وقوته في العبادة. (٤) ٢. روى ابن عساكر عن أبي عبد الله بن دانيال يقول: سمعت بندار بن الحسين، وكان خادماً أبي الحسن علي بن إسماعيل بالبصرة، قال: كان أبو الحسن يأكل من غلة ضيعته، وقفها جده بلال بن أبي بردة بن موسى الأشعري ————— ١. التبيين: ١٤١، تاريخ بغداد: ١١/٣٤٧. ٢. يونس: ٦٧. ٣. في المصدر: «الشروي» وهو لحن. ٤. مقدمة الإبانة: ١٦، بقلم أبي الحسن الندوي.

(٢١)

على عقبه، قال: وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهماً. (١) وهذا من غرائب الأمور، إذ مع أنه لا يكفي لنفقة إنسان طول السنة مهما بلغت قيمة العملة الفضية، كما هو معلوم لمن تتبع قيمة الدرهم والدينار في العصور الإسلامية، إنَّ الشيخ قام بتأليف كتب يناهز عددها المائة، وبعضها يقع في مجلدات ضخمة، وقد ذكر المقرئ أن تفسيره يقع في سبعين مجلداً. (٢) وهذا المبلغ لا يفي بقرطاس كتبه وحبها ويراعها، والعجب أن الكاتب المعاصر عبد الرحمن بدوي حسب الرواية حقيقة راهنه، وأخذ بالمحاسبة الدقيقة، وخرج بهذه النتيجة: أن الأشعري كان ينفق في السنة ١٧ درهماً، والدرهم (٩٥/٢) غراماً من الفضة فكان مقدار ما ينفقه في العام هو ما يساوي (١٥/٥٠) غراماً من الفضة، ثم قال: فما كان أرخص الحياة في تلك الأيام. (٣) ولأجل ما في هذا النقل من الغرابة، نقله ابن خلكان بصورة أخرى، وهي أن نفقته كل يوم كانت (١٧) درهماً. (٤) ولكن الحق ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية، من أن مغلَّه كان في كل سنة (١٧) ألف درهم (٥). فسقط الألف من نسخ القوم، وبذلك تجلَّى الأشعري بصورة أنه كان زاهداً متجافياً عن الدنيا. رجوعه عن الاعتزال

اتَّفَق المترجمون له على أنه أعلن البراءة من الاعتزال في جامع البصرة، ————— ١. التبيين: ١٤٢. ٢. الخطط المقرئية: ٢/٣٥٩. ٣. مذاهب الإسلاميين: ٥٠٣-٥٠٤. ٤. وفيات الأعيان: ٣/٣٨٢. ٥. البداية والنهاية: ١١/١٨٧ حوادث عام ٢٢٤هـ.

(٢٢)

وأقدم مصدر يذكر ذلك هو ابن النديم في (فهرسته) حيث يقول: أبو الحسن الأشعري من أهل البصرة، كان معتزلاً ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن، في المسجد الجامع بالبصرة، في يوم الجمعة رقى كرسيًا، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه نفسي، أنا فلان بن فلان، كنت قلت بخلق القرآن، وإنَّ الله لا يرى بالأبصار، وإنَّ أفعال الشر أنا أفعالها. وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، وخرج بفضائحهم ومعابيحهم. وكان فيه دعاية ومزح كبير. (١) وقد أوعز إلى إبانة الأشعري عن منهج الاعتزال كثير من علماء التراجع، غير أنهم لم يشيروا إلى الحوافز التي دعت الشيخ إلى هذا الانسلاخ، ولم يخطر ببالهم سبب له سوى انكشاف الخلاف عليه في المذهب الذي كان يتمذهب به من شبابه إلى أوائل كهولته، ولأجل ذلك يجب التوقف هنا إجمالاً، حتى نقف على بعض الحوافز الداعية له إلى الإبانة عن الاعتزال. سبب رجوعه عن الاعتزال

إنَّ رجوع الأشعري عن منهج الاعتزال كان ظاهرة روحية تطلب لنفسها علَّةً وسبباً، ولا يقف عليها مؤرخ العقائد إلا بالغور في حياته، وما كان يحيط به من عوامل اجتماعية أو سياسية أو خلقية. إلا أن قلم الخيال والوهم، أو قلم العاطفة، أعطى للموضوع مسرحية خاصة أقرب إلى الجعل والوضع منها إلى الحقيقة، فنقلوا منامات كثيرة أمر فيها رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أبا الحسن أن ينصر سنَّته، ويرجع عمياً كان فيه. غير أنني أضن بوقت القارئ أن أنقل كل ما جاء به ابن عساكر في «تبيينه» في ذلك المجال، وإنما أكتفي بنموذج بل نموذجين منه: ١. نقل بسنده عن أحمد بن الحسين المتكلم قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: إنَّ الشيخ أبا الحسن لما تبرَّح في كلام الاعتزال فبلغ غايته، ————— ١. فهرست ابن النديم: ٢٧١، ووفيات الأعيان: ٣/٢٨٥.

(٢٣)

كان يورد الأسئلة على أستاذه في الدرس ولا يجد لها جواباً شافياً، فيتحير في ذلك، فحكى أنه قال: وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد، فقامت وصليت ركعتين، وسألت الله تعالى أن يهديني الطريق المستقيم، ونمت فرأيت رسول الله - صَلَّى

الله عليه وآله وسلم - بالمنام فشكوت إليه بعض ما بي من الأمر، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : عليك بسنتي، فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار فأثبته، ونذت ما سواه ورائي ظهرياً. ٢. نقل أيضاً عن الأشعري أنه قال: بينا أنا نائم في العشر الأول من شهر رمضان، رأيت المصطفى - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا علي أنصر المذاهب المروية عنى فإنها الحق، فلما استيقظت دخل على أمر عظيم، ولم أزل مفكراً مهموماً لرؤيى، ولما أنا عليه من إيضاح الأدلة في خلاف ذلك، حتى كان العشر الأوسط فرأيت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المنام فقال لي: ما فعلت فيما أمرتك به؟ فقلت: يا رسول الله، وما عسى أن أفعل وقد خرجت للمذاهب المروية عنك وجوهاً يحتملها الكلام، واتبعت الأدلة الصحيحة التي يجوز إطلاقها على البارى عز وجل؟ فقال لي: أنصر المذاهب المروية عنى فإنها الحق، فاستيقظت وأنا شديد الأسف والحزن، فأجمعت على ترك الكلام واتبعت الحديث وتلاوة القرآن، إلى آخر ما ذكره من الرؤيا. (١) وكان الأولى للمحقق ترك نقل هذه المنامات، لأن العوام والسذج من الناس إذا أعوزتهم الحجة في اليقظة، يلجأون إلى النوم فيجدون ما يتطلبونه من الحجج في المنام، فيملأون كتبهم بالمنامات والرؤى. أضف إلى ذلك وجود التهافت بين المنامين، فإن الأول يعرب عن ظهور الشك في صحته معتقداته قبل المنام و تزايدته إلى أن أدى إلى التحول والبراءة بسبب الرؤيا، ولكن الثاني يعرب عن أن التحول كان فجائياً غير مسبوق بشيء _____ ١ . التبيين: ٣٨- ٤١.

(٢٤)

من الشك والتردد في صحته المنهج الذى عاش عليه فترة من عمره. وكما لا يمكن الاعتماد على هذه المنامات، لا يمكن الركون إلى النقل التالى أيضاً. ٣. إن الأشعري أقام على مذهب المعتزلة أربعين سنة وكان لها إماماً. ثم غاب عن الناس فى بيته خمسة عشر يوماً، ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر وقال: معاشر الناس إنما تغيبت عنكم فى هذه المدة، لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجح عندى حق على باطل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبارك و تعالى فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته فى كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبى هذا وانخلع من ثوب كان عليه، ورمى به. ودفع الكتب إلى الناس، فمنها كتاب «اللمع» وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة وسماه «كشف الأسرار وهتك الأسرار» وغيرهما، فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها، واعتقدوا تقدمه، واتخذوه إماماً حتى نسب إليه مذهبهم. (١) ولا يصح هذا النقل من وجوه: أما أولاً: فلأن ظاهر كلامه ذاك أنه قام بتأليف هذه الكتب فى أيام قلائل، وهو فى غاية البعد. وأما ثانياً: فلأن الناظر فى كتابه: - الإبانة واللمع - يجد الفرق الجوهرى بينهما فى عرض العقائد، فالأول منهما هو الذى ألفه بعد انخراطه فى مسلك أهل الحديث. ولأجل ذلك أتى فى مقدمه الكتاب بلب عقائد إمام الحنابلة، بتغيير يسير. وأما كتاب اللمع فهو كتاب كلامى لا يشبه كتب أهل الحديث، ولا يستحسنه طلابه وأتباعه. وسيوافيك الكلام فى ذلك عند عرض مذهب الأشعري من خلال كتبه. وأما ثالثاً: فكيف يمكن أن يقال إنه أقام على مذهب أستاذه أربعين سنة؟ فلو دخل منهج الأستاذ فى أوان التكليف للزم أن يكون عام الخروج _____ ١ . التبيين: ٣٩-

٤٠.

(٢٥)

موافقاً لكونه ابن خمس وخمسين سنة، وبما أنه من مواليد عام (٢٦٠هـ)، فيجب أن يكون عام الإبانة موافقاً لسنة (٣١٥هـ). هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه تبرأ من منهج الأستاذ وهو حى، وقد توفى أستاذه الجبائى عام (٣٠٣هـ)، وعندئذ كيف يمكن تصديق ذلك النقل؟! الحوافز الدافعة إلى ترك الاعتزال إن الأشعري قد مارس علم الكلام على مذهب الاعتزال مدة مديدة وبرع فيه إلى أوائل العقد الخامس من عمره، وعند ذاك تكون عقيدة الاعتزال صورة راسخة وملكئة متأصلة فى نفسه، فمن المشكل جداً أن ينخلع الرجل دفعة واحدة عن كل ما تعلم وعلم، وناظر وغلب أو غلب، وينخرط فى مسلك يصاد ذلك ويغيره بالكلية. نعم، نتيجة بروز الشك والتردد هو عدوله عن بعض المسائل وبقاؤه على مسائل أخرى، وأما العدول دفعة واحدة عن جميع ما مارسه وبرع فيه، والبراءة من كل ما يمت إلى منهج الاعتزال بصلته، فلا يمكن أن يكون أمراً حقيقياً جدياً من جميع الجهات. ولأجل ذلك لابد لمؤرخ العقائد

من السعى في تصحيح وتفسير هذه البراءة الكاملة من منهج الاعتزال من مثله. فنقول: أما السبب الحقيقي فأنه سبحانه هو العالم. ولكن يمكن أن يقال إن الضغط الذي مورس على بيته الاعتزال من جانب السلطة العباسية أوجد أرضية لفكرة العدول في ذهن الشيخ ونفسه، وإليك بيانه: ١. الضغط العباسي على المعتزلة إن الخلفاء العباسيين - من عصر المأمون إلى المعتصم، إلى الواثق بالله - كانوا يروجون لأهل التعقل والتفكير، فكان للاعتزال في تلك العصور رقي وازدهار. فلما توفى الواثق بالله عام ٢٣٢هـ وأخذ المتوكل بزمام السلطة بيده، انقلب الأمر وصارت القوة لأصحاب الحديث، ولم تزل السيرة على ذلك حتى هلك المتوكل وقام المنتصر بالله مقامه، فالمستعين بالله، فالمعتز بالله، (٢٦)

فالمهتدي، فالمعتمد، فالمعتضد، فالمكتفي، فالمقتدر، وقد أخذ المقتدر زمام الحكم من عام ٢٩٥هـ إلى ٣٢٠هـ وفي تلك الفترة أظهر أبو الحسن الأشعري التوبة والإنابة عن الاعتزال، والانخراط في سلك أهل الحديث. وقد ضيق أصحاب السلطة - في عصر المتوكل إلى عهد المقتدر - الأمر على منهج التعقل، فالضغط والضيق كانا يتزايدان ولا يتناقضان أبداً، وفي تلك الفترة، لا عتب على الشيخ ولا - عجب منه أن يخرج من الضغط والضيق بإعلان الرجوع عن الاعتزال، والانخراط في سلك أهل الحديث، الذين كانت السلطة تؤيدهم كما كانوا يؤيدونها. لا أقول: إن فكرة الخروج عن الضغط كانت العامل الوحيد لعدوله عن منهج الاعتزال، بل أقول: قد وجدت تلك الفكرة، أرضية صالحة للنسلاك في مسلك أهل الحديث، والثورة على المعتزلة، فإن تأثير البيئه وحماية السلطة ممّا لا يمكن إنكاره. ٢. فكرة الإصلاح في عقيدة أهل الحديث وهناك عامل آخر يمكن أن يكون مؤثراً في تحول الشيخ وانقلابه إلى منهج الحنابلة، وهو فكرة القيام بإصلاح عقيدة أهل الحديث التي كانت سائدة في أكثر البلاد. وما كان الإصلاح ممكناً إلا بالانحلال عن الاعتزال كلياً. توضيحه: إن الغالب على فكرة أهل الحديث كان يوم ذاك هو القول بالتجسيم والجهه والجبر، وغير ذلك من العقائد الموروثة عن اليهود والنصارى، الواردة على أوساط المسلمين عن طريق الأخبار والرهبان، فعندما رجع الأشعري عن عقيدة الاعتزال وأعلن انخراطه في أصحاب الحديث، وأنه يعتقد بما يعتقد به أصحابه، وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل، مكّنه ذلك من إصلاح عقيدة أهل الحديث وتنزيهها عما لا يناسب ساحة الرب، من التجسيم وغيره. فكان الرجوع عن مذهب الاعتزال، شبه واجهه لأن يتقبله أهل الحديث بعنوان أنه من أنصارهم وأعوانهم، حتى يمكنه أن يقوم بإصلاح عقائدهم. (٢٧)

وفي هذا المورد يقول بعض المحققين: إن الخرافات السائدة بين أهل الحديث أوجبت سقوط عقائدهم عن مقامها في نفوس الناس، بعد ما كانت قد طبقت العالم الإسلامي، وانتشرت في أرجاء البلاد، ولما قام الإمام الأشعري بالإصلاح، بإحلال التنزيه، مكان التجسيم، حلت محلها عقيدة الأشعريه بعد هدوء الجو، وبسرعه تتناسب معتغير العقائد في العاده. والعقيدة الأشعريه هي عقيدة حنبلية معدله، وقد تصرف في جميع ما كان غير معقول في العقيدة الأم، وهي الحنبلية. (١) وقد توفّق الرجل في عمليه الإصلاح في بعض المجالات، غير أنه أبقى مسائل أخرى على حالها، فممّا توفّق فيه مثلاً هو: القول بكون القرآن قديماً، أو الاعتقاد بالجبر والقدر، بحيث يكون الإنسان مسبراً لا مختيراً، أو إثبات الصفات الخبرية لمعانيها الحقيقيه على الله تعالى، كاليد والرجل والعين وسائر الأعضاء التي كانت الحنابلة وأهل الحديث يثبتونها بوضوح، وكان سبباً لسقوط هذه العقائد في نفوس العقلاء والمفكرين، فجاء الإمام الأشعري بإصلاح وتغيير في هذه الأفكار المشوهه، فجعل القديم من القرآن، هو الكلام النفسى القائم بالله تبارك وتعالى، لا القرآن المملفوظ والمكتوب والمسموع، كما أنه فسّر مسألة الجبر والقدر بأن الله سبحانه هو الخالق للأفعال خيرا وشرها، ولكن العبد كاسب لها، فللعبد دور في أفعاله باسم الكسب كما يأتي، ومع ذلك فقد أبقى رؤية الله تعالى في الآخرة بهذه الأبصار الظاهره على حالها، ولم يفسرها بشيء. يقول الشيخ الكوثري في تقديمه على كتاب التبيين، عن عصر المتوكل: ففي ذلك الزمان ارتفع شأن الحشويه والنواصب، وقمع أهل النظر والمعتزله، والحشويه يجرون على طيشهم وعمائتهم واستتباعهم الرعاع والغوغاء، ويتقولون في الله مالا يجوّزه الشرع ولا العقل، من إثبات الحركة له، والنقله، والحد، والجهه، والقعود والاقعاء والاستلقاء والاستقرار، إلى نحوها ممّا تلقوه بالقبول

١. بحوث مع أهل السنه: ١٥٧.

(٢٨)

من دجاله الملبسين من الثنوية وأهل الكتاب، ومما ورثوه من أمم قد خلت ويؤلفون في ذلك كتباً يملأونها بالوقية بالآخرين، متذرعين بالسنة ومعزين إلى السلف، يستغلون ما ينقل عن بعض السلف من الأقوال المجملة التي لا حجة فيها، وكانت المعتزلة تغلب على عقول المفكرين من العلماء، ويسعون في استعادة سلطانهم على الأمة، وأصناف الملاحدة والقرامطة الذين توغلو في الفساد، واحتلوا البلاد، ففي مثل هذه الظروف قام الإمام أبو الحسن الأشعري لنصرة السنة وقمع البدعة، فسعى أولاً للإصلاح بين الفريقين من الأمة بإرجاعهما عن تطرفهما إلى العدل، قائلاً للأولين: أنتم على الحق إذا كنتم تريدون بخلق القرآن، اللفظ والتلاوة والرسم، وللآخرين: أنتم مصيبون إذا كان مقصودكم بالقديم، الصفة القائمة بذات الباري غير البائنة منه، وأسماء بالكلام النفسى. وقام بمثل هذا الجمع في مسألة الرؤية فقال للأولين: نفى المحاذاة والصورة صواب، غير أنه يجب عليكم الاعتراف بالتجلى من غير كيف. وقال لأصحاب الحديث: إياكم من إثبات الصورة والمحاذاة، وكل ما يفيد الحدوث، وأنتم على صواب إن اقتصرتم على إثبات الرؤية للمؤمنين في الآخرة من غير كيف. (١) أقول: إن هذا الإصلاح لو صح فإتماً هو بفضل ما تمرن عليه بين أصحاب التفكير والتعقل، وعرف منهم التنزيه والتشبيه. ولولاه لما كان له هذا التوفيق البارز، وسيوافيك أنه وإن نجح في هذا الأمر، لكنه نجح نسبي لا نجاح على الإطلاق. فإن المذهب الأشعري عند التحليل يتفق مع أحد المنهجين، وإن كان يتظاهر بأنه على مذهب المحدثين، ولكنه تارة يوافقهم، وأخرى يخالفهم ويوافق المعتزلة في اللب والمعنى، وإن كان يخالفهم في القشر واللفظ كما سيظهر. ————— ١ .

مقدمه التبيين: ١٤-١٥. (٢٩) كلام لأبى زهرة

إنه تصدى للرد على المعتزلة ومهاجرتهم، فلا بد أن يلحن بمثل حججهم، وأن يتبع طريقتهم في الاستدلال، ليفلح عليهم، ويقطع سبائهم، ويفحهم بما بين أيديهم، ويرد حججهم عليهم. إنه تصدى للرد على الفلاسفة، والقرامطة، والباطنية، والحشوية والروافض وغيرهم من أهل الأهواء الفاسدة والنحل الباطلة، وكثير من هؤلاء لا يقنعه إلا أقيسة البرهان، ومنهم فلاسفة علماء لا يقطعهم إلا دليل العقل، ولا يرد كيدهم في نحورهم أثر أو نقل. ولقد نال الأشعري منزلة عظيمة، وصار له أنصار كثيرون، ولقى من الحكام تأييداً ونصراً، فتعقب خصومه من المعتزلة والكفار، وأهل الأهواء في كل مكان، وبث أنصاره في الأقاليم والجهات، يحاربون خصوم الجماعة ومخالفها، ولقبه أكثر العلماء بإمام أهل السنة أو الجماعة. ولكن مع ذلك بقي له من علماء الدين مخالفون منابذون، فابن حزم يعدّه من الجبرية، لرأيه في أفعال الإنسان (١)، ويعده من المرجئة لرأيه في مرتكب الكبيرة (٢)، وقد تعقبه في غير هاتين المسألتين، ولكن مع ذلك ذاب مخالفوه في لجة التاريخ الإسلامى، واشتد ساعد أنصاره جيلاً بعد جيل، وقويت كلمتهم وقد حذوا حذوه، وسلوكوا مسلكه، وقاموا بما كان يقوم به هو والماتريدى من محاربة المعتزلة والملحدين، ومنازلة لهم في كل ميدان من ميادين القول، وكل باب من أبواب الإيمان، ومذاهب اليقين. ومن أبرزهم وأقواهم شخصيه وأبينهم أثراً أبو بكر الباقلانى (٣)، فقد كان عالماً كبيراً، هدب بحوث الأشعري، وتكلم في مقدمات البراهين العقلية للتوحيد، فتكلم في الجوهر والعرض، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأن ————— ١ . الفصل فى الملل والنحل: ٣/٢٢. ٢ . الفصل فى الملل والنحل: ٤/٢٠٤. ٣ . مات الباقلانى سنة ٤٠٣هـ

(٣٠)

العرض لا يبقى زمانين، إلى آخر ما هنالك، ولم يقتصر في الدعوة لمذهب الأشعري على ما وصل إليه من نتائج، بل ذكر أنه لا يجوز الأخذ بغير ما أشار إليه من مقدمات لإثبات تلك النتائج، فكان ذلك مغالاة وشططاً في التأييد والنصرة، فإن المقدمات العقلية لم تذكر في كتاب أو سنة، وميادين العقل متسعة، وأبوابه مفتحة، وطرائقه مسلوكة، وعسى أن يصل الناس إلى دلائل وبيئات من قضايا العقول ونتائج الإفهام لم يصل إليها الأشعري، وليس من شر في الأخذ بها ما دامت لم تخالف ما وصل إليه من نتائج، وما اهتدى إليه من ثمرات فكرية. (١) وما أطرى به الشيخ الأشعري، على طرف النقيض مما جاء به نفسه في كتابه «الإبانة»، فإنه أيد فيه مقالة الحشوية بأحاديث مدسوسة من جانب الأخبار والرهبان. والحق أن الشيخ الأشعري خدم الحشوية خدمة جليلاً، فصار سبباً لديمومية أمد

أنفاسها، في الوقت الذي كانت قد شارفت فيه على الزوال والفناء، فالناظر في كتاب «الإبانة» يقف على أنه بصدد إثبات عقائد الحشوية بالنصوص والروايات، مع الإصرار على عدم الحيادة عنها قيد أنملة. والله سبحانه هو الواقف على سرائره، وإنه لماذا تاب عن الاعتزال وانضوى تحت لواء عقائد الحشوية، وما يذكر له من المبررات والأعذار لا محصل وراءها. وأما كتابه «اللمع» وهو وإن كان لم ينسجه على غرار كتاب الإبانة، بل أفرغه في قالب من البرهنة والاستدلال، ولكنه استعمل البرهان على إحياء عقائد أهل الحديث والحشوية، ونسف الاتجاه العقلي، فغفر الله له ولنا. مع ذلك، لم يقبل منه أهل الحديث ما أراد من التعديل، كالحسن بن علي بن خلف البربهاري، الذي كان أكبر أصحاب أبي بكر المروزي، وخليفته في القول بأن المقام المحمود هو أن يُقعد الله رسوله معه على العرش. _____ ١. ابن تيمية عصره وحياته: ١٩٢-١٩٣.

(٣١)

روى القاضي ابن أبي يعلى بسنده: أنه ما كان يجلس مجلساً إلا ويذكر فيه أن الله عز وجل - يقعد محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - معه على العرش، وليس هذا بغريب عن مثل البربهاري، إنما الغريب أن يتبعه من ينسب إلى العلم مثل ابن قيم وأستاذه ابن تيمية محيي البدع في القرن الثامن. قال الأئمة: المراد من المقام المحمود إقعاد الرسول على العرش. (١) وقال الثاني فيما رد به على «أساس التقديس» للرازي عند الكلام في الاستواء: ولو شاء الله لاستقر على ظهر بعوضة، فاستقلت بقدرته، فكيف على عرش عظيم (٢)؟ وقد حكى ابن أبي يعلى في طبقاته بطريق الأهوازي حيث قال: قرأت على علي القومسي عن الحسن الأهوازي قال: سمعت أبا عبد الله الحمزاني يقول: لما دخل الأشعري بغداد جاء إلى البربهاري فجعل يقول: رددت على الجبائي وعلي أبي هاشم، ونقضت عليهم وعلي اليهود والنصارى والمجوس، وقلت وقالوا، وأكثر الكلام، فلما سكت قال البربهاري: وما أدري مما قلت لا قليلاً ولا كثيراً، ولا نعرف إلا ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل. قال: فخرج من عنده وصنف كتاب «الإبانة» فلم يقبله منه، ولم يظهر ببغداد إلى أن خرج منها. (٣) والحق أن كتاب «الإبانة» لا يفترق عما كتبه أبناء الحنابلة في عقائدهم قدر شعرة، ففيه الجبر والتجسيم والتشبيه، إلى غير ذلك مما يعتقد المتطرفون من أهل الحديث، ولأجل ذلك شك بعض المحققين كالشيخ محمد زاهد الكوثري في صحته نسبة ما طبع من الإبانة إلى الشيخ الأشعري صيانة لمقامه عن بعض الأمور الشنيعة الواردة فيه مما لا يفترق عن التجسيم والجهة. _____ ١. بدائع الفوائد: ٤/٣٩. ٢. لاحظ تعليقه تبين كذب المفتري: ٣٩٣. ٣. تبين كذب المفتري، قسم التعليق: ٣٩١.

(٣٢) ملامح المذهب الأشعري

إن الأطلاع التفصيلي على ملامح وسمات مذهب الإمام الأشعري يتطلب سبر أغوار كتبه على الوجه التفصيلي، وعرض آرائه وأنظاره، غير أننا هنا نركز على أمرين رئيسيين يميزان ذلك المذهب عما تقدمه من مذهب المحدثين، وإليك بيانهما: ١. عدم عزل «العقل» في مجال العقائد كانت المعتزلة تعتمد على العقل في المسائل الكلامية، ويؤولون النصوص القرآنية عندما يجدونها مخالفة لآرائهم - بزعمهم - ولا يكادون يعتمدون على السنة، ولأجل ذلك نرى أنهم أولوا الآيات الكثيرة الواردة حول الشفاعة - الدالة على غفران الذنوب بشفاعة الشافعين - بأن المراد رفع درجات الصالحين بشفاعة الشفاعة، لا غفران ذنوب الفاسقين. وكان المحدثون يرون الكتاب والسنة مصدرًا للعقائد، وينكرون العقل ورسالته في مجالها، ولم يعدوه من أدوات المعرفة في الأصول، فكيف في الفروع، ولا شك أن هذا خسارة كبيرة لا تجبر. وقد جاء الإمام الأشعري بمنهج معتدل بين المنهجين، وقد أعلن أن المصدر الرئيسي للعقائد هو الكتاب والسنة، وفي الوقت نفسه خالف أهل الحديث بزكاء خاص عن طريق استغلال البراهين العقلية والكلامية على ما جاء في الكتاب والسنة. كان أهل الحديث يحرمون الخوض في الكلام، وإقامة الدلائل العقلية على العقائد الإسلامية، ويكتفون بظواهر النصوص والأحاديث، ولكن الأشعري بعد براءته من الاعتزال وجنوحه إلى منهج أهل الحديث، كتب رسالة خاصة في استحسان الخوض في الكلام (١). وبذلك جعل نفسه هدفاً لعتاب _____ ١. طبعت الرسالة لأول مرة مع اللمع في بيروت عام ١٩٥٣م، ومستقلة في حيدر آباد الدكن في الهند عام ١٣٤٤ هـ وسيوافيك نصها.

(٣٣)

الحنابلة المترمّتين الذين كانوا يرون الخوض في هذه المباحث نوعاً من الزيغ والضلال. ولأجل ذلك تفرق كتب الشيخ الأشعري وتلاميذ منهجه - ممن أتوا بعده كالقاضي أبي بكر الباقلاني، وعبد القاهر البغدادي، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني - عن كتب الحنابلة المتعبددين بظواهر النصوص. وقد عزلوا العقل عن الرسالة المودعة له، حتى في الكتاب والسنة. ولوجود هذا التفاوت ظل المذهب الأشعري غير مقبول عند الحنابلة في فترات من الزمن. ولأجل ذلك ترى أنّ الأشعري بحث عن كثير من العقليات والحسيات التي لا صلة لها بالعقيدة والديانة، لما وجد أنّ المعتزلة والفلاسفة بحثوا عنها بلسان ذلق وذكاء بارز، وترى أنّ الجزء الثاني من كتاب «مقالات الإسلاميين» يبحث عن الجسم والجواهر، والجواهر الفرد، والطفرة والحركة و السكون، إلى غير ذلك من المباحث التي يبحث عنها في الفلسفة في الأمور العامة، وفي قسم الطبيعيات. ومع أنّ الإمام الأشعري أعطى للعقل مجالاً خاصاً في باب العقائد أخذ ينكر التحسين والتقيح العقليين ولا يعترف بهما. وبذلك افرق عن منهج الاعتزال والعدلية بكثير، واقترب من منهج أهل الحديث، وقد سمعت أنّه رقى كرسياً في جامع البصرة ونادى بأعلى صوته أنّه كان يقول بالعدل وقد انخلع منه. والخسارة التي توجهت إلى المذهب الكلامي الأشعري من تلك الناحية لا تجبر أبداً، كما سيوافيك بيانه عند عرض آرائه. ٢. العقيدة الوسطى بين العقيدتين ربما يتخيل القارئ من إنابة الأشعري إلى مذهب أهل الحديث أنّه لجأ إلى عقيدة المحدثين (وفيهم أهل التنزيه والتفديس، وفيهم أهل التشبيه والتجسيم) وقبل ذلك المنهج بلا تغيير ولا تصرف، ويقوى ذلك التخيل إذا أطلع على ما ذكره في مقدمته كتاب «الإبانه»، حيث إنه يصرح فيها بأنّه على (٣٤)

مذهب أئمة الحديث، وفي مقدمتهم إمام الحنابلة، ويقول: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عزّ وجلّ وبسنة نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنّه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحقّ، ودفع به الضلال، وأفصح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشكّ الشاكين، فرحمه الله عليه من إمام مقدّم، وجليل معظم، وكبير مفخم، وعلى جميع أئمة المسلمين. (١) ويقرب من ذلك ما ذكره في مقالات الإسلاميين، حيث أنّه بعد ما سرد عقائد أهل الحديث قال: وبكلّ ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب. (٢) إلّا أنّ السابر في كتبه يقف على أنّ هذه التصاريح ليست على إطلاقها، وإنّما اتخذها واجهة لإيجاد المنهج الوسط بين المنهجين. فإذا كان بعض أهل الحديث يصرون على إثبات الصفات الخبرية لله تعالى، كالوجه واليد والرجل والاستواء على العرش، حتى اشتهروا بالصفاتية، كما اشتهرت المعتزلة بنفاه الصفات ومؤولّيها. فجاء إمام الأشاعرة بمنهج وسط، وزعم أنّه قد أقنع به كلا الطرفين، فاعترف بهذه الصفات كما ورد في الكتاب والسنة بلا تأويل وتصرف، ولما كان إثباتها على الله سبحانه بظواهرها يلازم التشبيه والتجسيم - وهما يخالفان العقل، ولا يرضى بهما أهل التنزيه من العدلية - أضاف كلمة خاصة أخرجته عن معبّة التشبيه ومزلة التجسيم، وهي أنّ الله سبحانه هذه الصفات لكن بلا تشبيه وتكييف. وهذا هو المميز الثاني لمنهج الأشعري، فقد تصرف في الجمع بين المنهجين في كلّ مورد بوجه خاص، وسيجيء الكل عند عرض آرائه ونظراته. وقد تطفّن إلى ما ذكرناه بعض من جاء بعده، منهم: ١. الإبانه: ٢. ١٧. مقالات الإسلاميين: ٣١٥.

(٣٥)

ابن عساكر في ترجمته عن الأشعري فقال: إنّهُ نظر في كتب المعتزلة، والجهمية والرافضة، فسلك طريقه بينهما. قال جهم بن صفوان: العبد لا يقدر على إحداث شيء ولا على كسب شيء، وقالت المعتزلة: هو قادر على الإحداث والكسب معاً. فسلك طريقه بينهما، فقال: العبد لا يقدر على الإحداث، ويقدر على الكسب. فنفي قدرة الإحداث وأثبت قدرة الكسب، وكذلك قالت الحشوية المشبهة: إنّ الله سبحانه يُرى مكيفاً محدوداً كسائر المراتب، وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية: إنّهُ سبحانه لا يرى بحال من الأحوال، فسلك

طريقة بينهما فقال: يرى من غير حلول، ولا حدود، ولا تكيف، فكما يرانا هو سبحانه وتعالى وهو غير محدود ولا مكيف، كذلك نراه وهو غير محدود ولا- مكيف. وكذلك قالت النجارية: إنَّ الباري سبحانه بكلِّ مكان من غير حلول ولا- جهة وقالت الحشوية والمجسّمة: إنَّه سبحانه حال في العرش وإنَّ العرش مكان له، وهو جالس عليه. فسلك طريقة بينهما فقال: كان ولا مكان فخلق العرش والكرسى ولم يحتج إلى مكان، وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه، وقالت المعتزلة: يده يد قدرة ونعمة، وجهه وجه وجود؛ وقالت الحشوية: يده يد جارح، ووجهه وجه صورة. فسلك طريقة بينهما فقال: يده يد صفة، ووجهه وجه صفة، كالسمع والبصر. وكذلك قالت المعتزلة: النزول: نزول بعض آياته و ملائكته، والاستواء بمعنى الاستيلاء. وقالت المشبهة والحشوية: النزول: نزول ذاته بحركة، وانتقال من مكان، إلى مكان، والاستواء: جلوس على العرش وحلول فيه. فسلك طريقة بينهما فقال: النزول صفة من صفاته، والاستواء صفة من صفاته وفعل من أفعاله في العرش يسمّى الاستواء. (١) إلى غير ذلك من الموارد التي تصرّف فيها في المذاهب والمناهج وكوّن منها مذهباً. _____ ١. التبيين: ١٤٩- ١٥٠.

(٣٦)

وقال «زهدي حسن جار الله» المصري: «لقد كان المستقبل، بعد الحركة الرجعية، يلوح شيئاً قاتماً، وكان يبدو أن العناصر الرجعية، ستدوس كل ماعداها، وأن كل حركة ترمي إلى التقدم العلمي، والتحرر الفكري، ستخمد أنفاسها... لولا- أن قام «أبو الحسن الأشعري» (المتوفى ٣٣٠هـ)، فأنقذ ما أمكن إنقاذه من الموقف... كان الأشعري معتزلاً صميماً، ولكنه أدرك بصره النافذ وعقله الراجح، حقيقة الوضع. رأى الهوة بين أهل السنّة وبين أهل الاعتزال في اتّساع وازدياد، ووجد الحركة الرجعية تقوى وتشدت، فعلم أن الاعتزال صائر لا محالة إلى زوال. فأزعجته هذه الحقيقة المروعة وأفضت مضجعه، ولذلك تقدم إلى العمل... فتنكر للمعتزلة، وأعلن انفصاله عنهم ورجوعه إلى حظيرة السنّة (١) غير أنه لم يرجع إليها فعلاً كما أعلن للملأ، بل اتخذ طريقاً وسطاً بينها وبين مذهب المعتزلة (٢)، وقد صادف هذا العمل قبولاً لدى الناس، ما عدا الحنابلة، ولاقى استحساناً، ولا عجب فإنّ الجمود على التقليد، ما كان ليروق للكثيرين بسبب تقدم الأئمة في الحضارة واقتباسها العلوم العقلية، وأطلاعها على فلسفة الأقدمين، وفي الوقت نفسه أصبح الناس لا يرتاحون إلى المعتزلة بعد أن تظرفوا في عقائدهم، وأساءوا التصرف مع غيرهم. فكانت الحاجة تدعو إلى من يؤلّف بين وجهتي نظر السنّة والاعتزال، وهذا هو ما بدأه الأشعري، وأكمله من بعده أتباعه الكثيرون الذين اعتنقوا مذهبه، وساروا على طريقه، وهم صفوة علماء الإسلام في وقتهم، وخيرة رجاله، كالقاضي أبي بكر الباقلاني (٣) (المتوفى ٤٠٣هـ)، وابن فورك (٤) (المتوفى ٤٠٦هـ)، وأبي إسحاق الإسفرائيني (المتوفى ٤١٨هـ) (٥)، و عبد القاهر البغدادي (المتوفى ٤٢٩هـ) (٦) والقاضي أبي الطيب _____ ١. الإبانة، ٨؛ والوفيات: ١/٤٦٤. ٢. مقدّمه ابن خلدون: ٤٠٦، الخطط: ٤/١٨٤. ٣. الوفيات: ١/٦٨٦. ٤. طبقات الشافعية: ٣/٥٢- ٥٤. ٥. طبقات الشافعية: ٣/١١١- ١١٤. ٦. طبقات الشافعية: ٣/٢٣٨.

(٣٧)

الطبري (المتوفى ٤٥٠هـ) (١)، وأبي بكر السبيهي (المتوفى ٤٥٨هـ) (٢)، وأبي القاسم القشيري (المتوفى ٤٦٥هـ) (٣)، وأبي إسحاق الشيرازي (المتوفى ٤٧٦هـ) رئيس المدرسة النظامية ببغداد (٤)، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (المتوفى ٤٧٨هـ) (٥) والإمام الغزالي (المتوفى ٥٠٥هـ) (٦)، الذي أصبحت الأشعرية بجهوده كلاماً مقبولاً في الإسلام، وابن تومرت (المتوفى ٥٢٤هـ) المغربي، تلميذ الغزالي الذي نشر الأشعرية في بلاد المغرب (٧)، والشهرستاني (المتوفى ٥٤٨هـ) (٨)، وغيرهم كثير، شرحوا عقائد الأشعري ونظموها وزادوا عليها ودافعوا عنها بالأدلة والبراهين العقلية، فكان لهم أكبر الفضل وأعظم الأثر في نجاح المذهب الأشعري وانتشاره. ومما يدلّ دلالة واضحة على أنّ هذه الحركة التي قام بها الأشعري كانت ضرورية، ويظهر لنا بجلاء أنّ الناس كانوا يشعرون بوجوب وضع حدّ لذلك النزاع المستحکم بين أهل السنّة وبين المعتزلة باتّباع طريق وسط بين قوليهما، أنّ اثنين من كبار علماء المسلمين المعاصرين للأشعري قاما - على بعدهما عنه - بنفس المحاولة التي قام الأشعري بها في البصرة، وهما أبو جعفر الطحاوي (المتوفى ٣٣١هـ) (٩)،

الحنفى فى مصر، وأبو منصور الماترىدى (المتوفى ٣٣٣هـ) الحنفى فى سمرقند. يلاحظ عليه: بالرغم مما ذكره هذا الكاتب المصرى، فإن الأشعرى لم يتخذ موقفاً محايداً، بل استعمل سلاح العقل ضد المعتزلة، فهو بدل أن _____ ١. طبقات الشافعية: ٣/١٧٦. ٢. طبقات الشافعية: ٣/٤. ٣. الوفيات: ١/٤٢٥. ٤. طبقات الشافعية: ٣/٨٩-٩٩. ٥. طبقات الشافعية: ٣/٢٥٠. ٦. الوفيات: ١/٦٦١؛ طبقات الشافعية: ٤/١٠٣. ٧. طبقات الشافعية: ٤/٧١-٧٤. ٨. الوفيات: ١/٦٨٨؛ طبقات الشافعية: ٤/٧٩. ٩. بل توفى عام ٣٢١هـ (٣٨)

يستعمله فى نصره الدين، استعمله فى هدم الاعتزال، ولأجل ذلك خدم الرجعية خدمة عظيمة وأنقذها من الهلاك و الدمار ترى أنه دعا إلى رؤية الله سبحانه يوم القيامة الذى لا ينفك عن القول بالتجسيم والتشبيه، وإن أضاف إليه بأن الرؤية بلا إثبات جهة وكيف وإلى القول بالخلق والقدر الذى يجعل الإنسان كالريشة فى مهب الرياح، وإن أضاف إليه بأن العبد كاسب والله خالق - ولم يفهم معنى الكسب إلى يومنا هذا، بل صار شيئاً معقداً فسره كل حسب ذوقه - و إلى إنكار التحسين والتقيح العقليين اللذين يبتنى عليهما لزوم تصديق الأنبياء عند التحدى بالمعجز، إلى غير ذلك من الأصول التى كانت عليها عقيدة أهل الحديث. والله سبحانه هو العالم بالضمان والمقاصد، وإن الشيخ الأشعرى لماذا استخدم سلاح المنطق ضد دعاة الحرية والاختيار، وهل كان هذا مجاراة للرأى العام وطمعاً فى كسب عواطف الحنابلة، أو كان هناك غاية أخرى لا نعرفها، ولكن الله من وراء القصد. وقد وقف الكاتب على سوء قضائه، فاستدركه فى موضع آخر من كلامه، وقال: استمرت الحركة الرجعية فى الدولة الإسلامية بعد ظهور الأشعرية قوية، وقد قلت: إن الأشعرية نفسها بالنسبة إلى الاعتزال، السابق لها، كانت حركة رجعية، وكانت رجعية أيضاً بمعنى آخر، وذلك أنها استخدمت سلاح العقل والمنطق الذى أخذته عن المعتزلة، لا فى نصره الدين فحسب، بل فى مقاومة الاعتزال وهدمه، وقد يكون الأشاعر فعلوا ذلك مجاراة للرأى العام، وطمعاً فى كسب عطفه وتأييده، ومهما يكن فجدير بنا أن نلاحظ أن الأشاعر خضعوا للقوى الرجعية إلى حد كبير، فإنهم وصلوا فى تقدمهم الفكرى إلى درجة لم يقدرُوا أن يتجاوزوها كما تجاوزها المعتزلة، ولذلك فقد استولى عليهم الجمود، وصاروا إلى ركود، ومن أدلة سيطرة الرجعية على الموقف ما يذكره «مسكويه»: أن عضد الدولة البويهى أفرد فى داره موضعاً خاصاً للحكماء والفلاسفة يجتمعون فيه للمفاوضة، آمنين من السفهاء ورعاع العامة. (١) ولهذا فإن الحركات الفكرية التى ظهرت بعد نكبة المعتزلة، كإخوان الصفا، لم تجسر أن تعلن عن نفسها خشية طغيان العامة عليها، فاضطرت إلى أن تعمل فى الخفاء، فكان من أسوأ النتائج التى ترتبت على ذلك، شيوع عادة تأليف الفرق والجمعيات السرية كالقراطة والحشاشين الذين كان لهم أثر كبير فى إضعاف الإسلام وتأخيرها، أما الذين وجدوا فى أنفسهم الجرأة ليتابعوا دروسهم وأبحاثهم على رؤوس الأَشهاد، وهم جماعة الفلاسفة كالفارابى، وابن سينا، وابن رشد، فقد كانوا مكروهين، وظلوا طوال الوقت يحيون فى جَوّ ناء منفصل عن الجو _____ ١. تجارب الأمم: ٦/٤٠٨.

(٣٩)

الذى تعيش فيه سائر الأمة. (١) ٣. انتشار المذهب الأشعرى فى البلاد ثم إن الظاهر ممن ترجموه هو أن المذهب الأشعرى انتشر من فوره، يقول الكوثرى: وفقه الله لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وقمع المعاندين وكسر تطرفهم، وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها، فطبق ذكره الآفاق، و ملأ العالم بكتبه وكتب أصحابه فى السنّة، والرد على أصناف المبتدعة والملاحدة وأهل الكتاب. وتفرقت أصحابه فى بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب، ومضى لسبيله، وبعد وفاته بيسير استعاد المعتزلة بعض قوتهم فى عهد بنى بويه، لكن الإمام ناصر السنّة أبا بكر بن الباقلانى قام فى وجههم، وقمعهم بحججه، ودان للسنّة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية. (٢) وقد جعله ابن عساكر أحد من يقضيه الله سبحانه فى رأس كل مائة سنّة، يعلم الناس دينهم، فيعدّ فى المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، وفى المائة _____ ١. المعتزلة: ٢٦٤. ٢. مقدّمه التبيين: ١٥.

(٤٠)

الثانية الشافعي، وفي المائة الثالثة أبا الحسن الأشعري، وعلى رأس المائة الرابعة ابن الباقلاني. (١) أقول: مضافاً إلى أن أصل الحديث غير ثابت، وأن جعل هؤلاء من مجددي المذهب - خصوصاً عمر بن عبد العزيز، مع كونه معاصراً للإمام الباقر - عليه السلام - الذي لا يشك في إمامته في العلوم من له إمام بالتاريخ - من الغرائب، إن ما ذكره ابن عساكر هنا يضاد ما ذكره في موضع آخر من أن عامة المسلمين وجمهورهم كانوا لا يأتون بمذهبه في عصر ابن عساكر، حيث قال: إن قيل: إن الجم الغفير في سائر الأزمان، وأكثر العامة في جميع البلدان، لا يقتدون بالأشعري ولا يقلدونه ولا يرون مذهبه ولا يعتقدونه، وهم السواد الأعظم، وسبيلهم السبيل الأقوم. قيل: لا عبرة بكثرة العوام ولا الالتفات إلى الجهال، وإنما الاعتبار بأرباب العلم، والافتداء بأصحاب البصيرة والفهم، وأولئك في أصحابه أكثر ممن سواهم، ولهم الفضل والتقدم على من عداهم، على أن الله عز وجل قال: (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ). (٢) على أن ابن النديم لا يذكر من أصحابه إلا شخصين: الدمياني وحمويه من أهل سيراف قال: وكان الأشعري يستعين بهما على المهاترة والمشاغبة، وقد كان فيهما علم بمذهبه، ولا كتاب لهما يعرف. (٣) ولأجل عدم انتشار مذهبه في عصره بل بعد مدة من وفاته، نجد الحنابلة لا يترجمونه في طبقاتهم، ولا يعدونه منهم، وتمتته الحشوية منهم فوق مقت المعتزلة، مع أنه صرح في بعض كلماته بأنه على مذهب أحمد. (٤) نعم، لا شك في انتشار مذهبه بعد القرن السادس إلى أن صار مذهباً _____ ١. التبيين: ٥٢. ٢. التبيين: ٣٣١. ٣. فهرست ابن النديم: ٢٧١. ٤. مقدمه التبيين بقلم الكوثري: ١٦.

(٤١)

رسمياً للسنة في جميع الأقطار، وقل من يتخلف عنه، وهو مستمر إلى العصر الحاضر. يقول تقي الدين أبو العباس المقرئ (المتوفى عام ٨٤٥هـ) بعد سرد عقائده إجمالاً: فهذه جملة في أصول عقيدته التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أريق دمه. (١) ولأجل هذه الشهرة نرى أصحاب المذاهب يتجاذبون إلى مذاهبهم. فالشافعية تقول: إنه كان شافعيًا، والمالكية تقول: إنه كان مالكيًا. وبما أنه نشأ في العراق فالظاهر أنه نشأ على مذهب أبي حنيفة، وإنما هو رجع عن الاعتزال الذي هو مذهب كلامي، ولم يرجع عن مذهب فقهي. ولكن الظاهر من مقدمته كتابه - الإبانة - أنه كان على مذهب إمام الحنابلة. وقال الكوثري: إن الغاية من هذه المظاهرة هو النفوذ في الحشوية ليتدرج بهم إلى معتقد أهل السنة. وعلى كل تقدير فلم يعلم مذهبه الفقهي على وجه التحقيق. هذا والخدمة التي قام بها الأشعري في مقابلة المجسمة والمشبهة وأصحاب البدع واليهودية والمسيحية خدمة نسيه لا تنكر، غير أن الذي يؤسف المسلم الغيور هو: أن نرى مترمته الوهابية وبعض رجال الإصلاح في هذا العصر داعين إلى مذهب الحشوية باسم السلفية مقلدين في كل ما يذكره شيخهم ابن تيمية الذي يقول عند الكلام في الاستواء: ولو شاء الله لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته فكيف على عرش عظيم (٢) وتلميذه المعروف بابن القيم الذي يفسر المقام المحمود في قوله تعالى: (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) (٣) بإقعاد الرسول على العرش. (٤) _____ ١. الخطط المقرئية: ٢/٣٦٠، ط مصر. ٢. لاحظ تعليقه التبيين: ٣٩٣. ٣. الإسراء: ٧٩. ٤. بدائع الفوائد: ٤/٣٩.

(٤٢)

٤. مؤلفاته وقد فهرس الشيخ نفسه كتبه في كتاب سماء «العمدة» كما فهرس غيره. فقد أخرج ابن عساكر أسماء كتبه التي صنّفها إلى سنة (٣٢٠هـ)، وبلغت أسماء كتبه إلى ثمانية وتسعين كتاباً، غير أن أكثر هذه الكتب عصفت بها عواصف الدهر فأهلكتها، فلم يصل إلينا منها إلا القليل. ولعل في مكتبات العالم المعمورة بالمخطوطات الشرقية، بعضاً منها. وإليك دراسة الكتب الموجودة المطبوعة: ١. «الإبانة عن أصول الديانة»: طبع كراراً، والطبعة الأخيرة طبعه مكتبة دار البيان بدمشق عام ١٤٠١هـ وعبر عنه ابن النديم في فهرسته بـ«التبيين عن أصول الدين». (١) يقول ابن عساكر: إن الحنابلة لم يقبلوا منه ما أظهره في كتاب «الإبانة» وهجره، ويضيف أيضاً: إن الشيخ إسماعيل الصابوني النيسابوري ما كان يخرج إلى مجلس درسه إلا ويده كتاب الإبانة. (٢) وقد نقل ابن عساكر الفصلين الأولين من الكتاب في «التبيين». وما جاء في مقدمتها فقد أورده في «مقالات الإسلاميين» عند البحث عن عقائد أهل الحديث باختلاف يسير،

وما جاء به الأشعري في ذينك الكتابين يوافق ما ذكره إمام الحنابلة في عقائد أهل الحديث في كتابه «السنة» غير أن تعبيرات الأشعري إلى التنزيه أقرب من كتاب «السنة»، وكلمات «الإمام» إلى التجسيم أميل. مثلاً: يقول إمام الحنابلة: والله تعالى سميع لا يشك، بصير لا يرتاب، عليم لا يجهل، يقظان لا يسهو، قريب لا يغفل، يتكلم ويسمع وينظر ويبصر، ويضحك ويفرح، ويحب ويكره ويبغض، ويرضى ويغضب، ويسخط ويرحم، ويعطي ويمنع، وينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء (ليس كمثل شئء وهو السميع البصير) و قلوب العباد بين أصبعين _____ ١. هرت ابن النديم: ٢٧١. ٢. التبيين: ٥٨٩.

(٤٣)

من أصابع الرب عز وجل، يقبلها كيف يشاء ويوعياها ما أراد. وخلق الله عز وجل آدم بيده، السماوات والأرض يوم القيامة في كفه، ويخرج قوماً من النار بيده، وينظر أهل الجنة إلى وجهه، ويرونه فيكرمهم، ويتجلى لهم فيعطهم، ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين، ويتولى حسابهم بنفسه لا- يولى ذلك غيره عز وجل. والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق، فهو جهمي كافر ومن زعم أن القرآن كلام الله عز وجل ووقف، فلم يقل مخلوق ولا- غير مخلوق، فهو أخبث من الأول ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم. (١) ٢. «مقالات الإسلاميين»، والكتاب يتناول البحث عن الفرق الإسلامية، وطبع في جزءين في مجلد واحد عام ١٣٦٩هـ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ٣. «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» طبع غير مرة، وهذا خاصة أنضج كتبه، تجد مستواه فوق كتاب «الإبانه»، وهو خير مصور لعرض آرائه ونظرياته الكلامية، ولأجل ذلك نعرض آراءه ونظرياته على ضوء هذا الكتاب. المقارنة بين الكتابين: «الإبانه» و «اللمع»

إن الناظر في أحوال الشيخ أبي الحسن الأشعري يظن بادئ ذي بدء، أنه أُلّف كلاً من الكتابين لنصرة السنة، والدفاع عن عقيدة أهل الحديث التي كانت تتمثل يوم ذاك - يوم أعلن انفصاله عن المعتزلة وانخراطه في سلك أهل السنة والحديث - في الآراء والعقائد الموروثة عن إمام الحنابلة، ولكنّه إذا قام بعمل المقايسة والمقارنة بين الكتابين سرعان ما يعدل عن تلك العقيدة، ويخرج _____ ١. كتاب السنة لإمام الحنابلة: ٤٩.

(٤٤)

من البحث بنتيجة تتباعد عنها بكثير، ويقضى بأن «الإبانه» أُلّف لنصرة عقيدة أهل الحديث وكسر صولة المعتزلة دون «اللمع»، لأنه في الثاني أعمق تفكيراً، وأشدّ عناية بالأدلة العقلية، ولا يظهر منه أية عناية بابن حنبل ومنهجه العقائدي، بل يظهر له جلياً أن الشيخ في الكتاب الأخير بصدد طرح أصول يعتقد بها هو، سواء أكانت موافقة لعقائد الحنابلة أم لا، وسواء أكان لهم فيها نفى أم لا، وسواء أوصلت إليها فكرتهم أم لا. وهذه النتيجة تنعكس على ذهنية القارئ عن طريق طرح الأصول الموجودة في الكتابين وإليك بيانها إجمالاً: ١. إن الشيخ في «الإبانه»: بعد ما طرح في الباب الأول عقيدة أهل الزيغ - وهم حسب عقيدته عبارة عن المعتزلة والقدرية والجهمية والمرجئة والحرورية والرافضة - طرح في الباب الثاني قول أهل الحق والسنة بادئاً كلامه بقوله: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نصر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل ثوبته - قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون. لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأفصح به المنهاج، فقمع به بدع المتدعين، وزيع الزانغين، وشك الشاكين، فرحمه الله عليه من إمام مقدّم، وجليل معظّم، وكبير مفخّم، وعلى جميع أئمة المسلمين. ترى أنه يجعل عقيدة إمام الحنابلة عدلاً لما روى عن الصحابة والتابعين، ويعرفه كإمام متمسك بالحق ومعتصم به، على وجه يبلغ به مقام العصمة في القول والرأي، ولكنّه في «اللمع» لا يتحدث عنه أبداً، ولا يذكر عنه شيئاً، بل يتفرد بطرح المسائل على ما يتبناه هو، وإقامة الدلائل العقلية عليها. ٢. إن الأشعري لا يتحدث في كتاب «الإبانه» عن تنزيه الحق جلّ (٤٥)

وعلا عن الجسم والجسمانية بحماس وأسلوب صريح، بل يحاول إثبات الصفات الخيرية، كالوجه واليدين له سبحانه، كما يحاول إثبات استوائه على عرشه تعالى و يقول: «وإن الله استوى على عرشه» كما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (١)، وإن له وجهاً بلا كيف كما قال: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (٢)، وإن له يدين بلا- كيف كما قال: (خَلَقْتُ يَدَيَّ) (٣)، و كما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) (٤) وإن له عيناً بلا- كيف كما قال: (تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا) (٥). (٦) ترى أنه اكتفى في التنزيه بلفظ مجمل و هو قوله: «بلا كيف» مع أن اللفظ المجمل لا يفيد الناظر شيئاً ولا يصونه من أن يقع في ورطة التشبيه والتجسيم. ولكنه في «اللمع» لم يتعرض للوجه واليدين والاستواء على العرش، بل أهمل ذلك إهمالاً تاماً، وزاد على ذلك التصريح القاطع بتنزيه الله عن الجسمية، وعلوه أن يكون مشابهاً للحوادث. ٣. ترى بوادر التجسيم في «الإبانه» بوضوح، ونأتى بنماذج من ذلك: أ. ما ذكره تأييداً لقوله: إن الله عزوجل مستو على عرشه، أنه روى نافع بن جبير عن أبيه: ينزل الله عزوجل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، حتى يطلع الفجر. (٧) ب. إنه يصر على بينونة التامة بين الخالق والمخلوق، ويقول: إنه ليس في خلقه، ولا خلقه فيه، وإنه مستو على عرشه بلا كيف ولا استقرار. (٨) _____ ١. طه: ٥. ٢. الرحمن: ٢٧. ٣. ص: ٧٥. ٤. المائدة: ٦٤. ٥. القمر: ١٤. ٦. الإبانه: ١٨ الأصول برقم ٦، ٧، ٨، ٩. ٧. الإبانه: ٨٨؛ أخرجه أحمد في المسند: ٤/٨١ من حديث جبير. ٨. الإبانه: ٩٢٢. (٤٦)

ومع ذلك لم يتفطن لظاهر قوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (١) وقوله: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) (٢) والآيتان تنافيان البينونة الكاملة التي يدعيها الأشعري. ج. ويستدل على أن الله في السماء بما روى عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه سأل جارية فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء. فقال: فمن أنا؟ قالت: أنت رسول الله. فقال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - للرجل الذي كان بصدد عتقها: أعتقها فإنها مؤمنة. (٣) د. ويقول: إنه سبحانه يضع السماوات على اصبع، والأرضين على إصبع، كما جاءت الرواية عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من غير تكييف (٤) ويكتفى في نفي التجسيم بكلمة مجملة، أعنى قوله: «من غير تكييف». ٤. إن الشيخ في «الإبانه» يصرح بأنه لا- خالق إلا- الله، وأن أعمال العبيد مخلوقة لله مقدورة، كما قال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (٥)، وأن العباد لا يقدر أن يخلقوا شيئاً وهم يُخْلَقُونَ. (٦) ومن المعلوم أن القول بأن فعل العبد مخلوق لله لا ينفك عن الجبر وسلب الاختيار عن الفاعل، لأن الفعل إذا كان مخلوقاً له سبحانه، وكان هو الموجد والمحقق، فما معنى كون العبد مسؤولاً عن فعله - خيره وشره -؟ ولما كان أهل الحديث معتقدين بهذا (مع كونه نفس الجبر) أبقاه بحاله، ولم يشر في كتاب «الإبانه» إلى شيء يعالج تلك المسألة العويصة. _____ ١. الحديد: ٤. ٢. المجادلة: ٧. ٣. الإبانه: ٩٣ والحديث أخرجه مسلم باب تحريم الكلام في الصلاة: ٢/٧١، ط مصر. ٤. الإبانه: ٢٢ أخرجه البخاري: ٩/١٢٣ في تفسير قوله: (لما خلقت بيدي). ٥. الصفات: ٩٦. ٦. الإبانه: ٢٠ الأصل ١٧. (٤٧)

وهذا بخلاف ما في «اللمع» فإنه أضاف فيه إلى خالقيته الرب، كاسبيته العبد وقال: «إن الله هو الخالق، و العبد هو الكاسب» وبذلك عالج مشكلة الجبر وخرج من مغبته، وصحح مسؤولية العبد لأجل الكسب. هذه مميزات كتاب «الإبانه» و خصوصياته، و ماجاء فيه من الأصول، وجميعها يؤيد أنه قد أُلْف لغاية نصره مذهب أحمد بن حنبل، والذي كان يمثل نظرية أهل الحديث والمحدثين جميعاً. وأما «اللمع» فقد طرح فيه مسائل، أهملها في «الإبانه» نشير إلى بعضها: ١. مسألة التعديل والتجوز إن تلك المسألة دوراً عظيماً في تمييز المنهج الأشعري عن المعتزلي، ولب المسألة يرجع إلى إثبات التحسين والتقيح العقليين وإنكارهما، فالمعتزلة على الأول والأشعري وأشياعه على الثاني، و- لأجل ذلك - أنكروا توصيفه سبحانه بالعدل بالمفهوم المحدد عند العقل، بل قالوا إن كل ما يفعله فهو عدل سواء أكان عند العقل عدلاً أم جوراً، وقد ركز على ذلك الأشعري في «اللمع» حتى قال: يصح لله سبحانه أن يؤلم الأطفال في الآخرة. وهو عادل إن فعله. وكذلك كل ما يفعله حتى تعذيب المؤمنين وإدخال الكافرين الجنان، وإنما نقول لا يفعل ذلك، لأنه أخبرنا أنه

يعاقب الكافرين. وهو لا يجوز عليه الكذب في خبره. (١) ولكنّه لم يُعلم إلى الآن أنّ الشيخ من أين علم أنّه لا يجوز عليه تعالى الكذب؟ فإن علم ذلك من إخباره سبحانه بأنّه لا يكذب، فنقل الكلام إلى إخباره هذا، فمن أين نعلم أنّه سبحانه لا يكذب في إخباره هذا (إنّه لا يكذب) فإنّه كما يحتمل الكذب في سائر إخباره، يحتمل حتى في نفس هذا الإخبار، وإن علم من حكم العقل بأنّ الكذب قبيح، والقبیح لا يجوز ————— ١ . اللمع: ١١٦.

(٤٨)

عليه، فهو عين الاعتراف بالتقبيح العقلي، ولو في مورد واحد. ولأجل ذلك قلنا في الأبحاث الكلامية إنّ إثبات الحسن والتقبيح الشرعيتين يتوقف على قبول حكم العقل بقبح الكذب على الشارع، حتى يثبت بقبوله سائر إخباره بالحسن والقبیح. وقبوله في مورد، يوجب انهدام القاعدة وبطلانها، أعنى كون التحسين والتقبيح شرعيين لا عقليين. ٢. مسألة الاستطاعة والقدرة لقد فصل الإمام الأشعري الكلام في الاستطاعة والقدرة وركّز على أنّها غير متقدمة على الفعل بل معه دائماً. ومع ذلك - اعترف بأنّ قدرة الله قديمة متقدمة على فعله، ولم يعلم وجه التفريق بينهما. هذا مع أنّ كون إحدى القدرتين واجبة والأخرى ممكنة، لا يكون فارقاً في وجوب تقدّم إحداها على الفعل، وتقران الأخرى معه. ومع أنّ رأيه هذا يخالف الفطرة الإنسانية، فإنّ كلّ إنسان يرى بالوجدان قدرته على القيام حال القعود، وعلى المشي حال القيام. ٣. ما هو حدّ الإيمان؟

بحث عن حدّ الإيمان فقال: الإيمان بمعنى التصديق، وإنّ مرتكب الكبيرة من أهل القبلة مؤمن بإيمانه، فاسق بفسقه وكبيرته، لا كافر كما عليه الخوارج، ولا هو برزخ بين الإيمان والكفر، كما عليه المعتزلة. ٤. الآيات الواردة حول الوعد والوعيد طرح الآيات الواردة حول الوعد والوعيد، وعالج التعارض المتوهم بينهما، حيث إنّ ظاهر بعض آيات الوعيد، هو تعذيب كلّ فاجر وإن كان موحداً مسلماً، مثل قوله: (وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي حَجِيمٍ) (١)، وظاهر بعض الآيات أنّ المسلم الجائي بالحسنه في الجنة، مثل قوله: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ) ————— ١ . الانفطار: ١٤.

(٤٩) خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَعٍ يَوْمئذٍ آمِنُونَ (١)، فعالج ذلك التعارض الابتدائي بوجه خاص.

والسير في الكتابين والمقارنة بين فصولهما والأصول المطروحة فيهما، وكيفية البرهنة عليها، يعرب للباحث أنّ هناك هوة سحيقة بين مذهب الأشعري في «الإبانه»، ومذهبه في «اللمع»، وأنّ تلامذه مدرسته استثمروا ماجاء به الشيخ في «اللمع»، دون ما في «الإبانه»، وجعلوه هو الأصل، وأشادوا بنيانه، وأكبووا على دراسته، ولأجل ذلك أصروا على التنزيه، وركّزوا على الكسب، وأسسوا منهجاً كلامياً، بين مذهب الحشوية من أهل الحديث والمعتزلة من المتكلمين. ما هو الداعي إلى التصويرين المختلفين؟

إنّ هنا سؤالاً يطرح نفسه: إذا كان ما يعتقده الأشعري من الأصول هو ما جاء به في «الإبانه»، فما هو الداعي للتصويرين المختلفين في مذهب الحق؟ والإجابة عن هذا السؤال مشكّلة جداً، وعلى ضوء ما ذكرناه حول الدوافع التي دعت الشيخ الأشعري إلى الانخراط في سلك أهل الحديث، يمكن أن يقال: إنّ الهدف الأسمى للشيخ كان هو تعديل عقائد الحشوية، من أهل الحديث الذين كانوا يتعبدون بكلّ حديث من دون معالجة أسناده، أو مضمونه، وتقييمه في سوق الاعتبار، وكان تحقّق ذلك الهدف رهن الانخراط في سلكهم، والرجوع عن أعدائهم ومخالفهم، ولذلك أعلن الشيخ التوبة عن الاعتزال ونصرة مذهب إمام الحديث ومقدمه. ولكن لما لم يكن ذلك كافياً في الأخذ بمجامع قلوبهم، وصرف نفوسهم وأهوائهم إلى نفسه، عمل كتاب «الإبانه» حتى يرضى قلوبهم ويملاً عيونهم مع إقحام بعض الكلمات التي تناسب التنزيه وتخالف التجسيم فيها. ولما ترجّع على سدة الحكم وآمنت أصناف من الحشوية به، أخذ بالتعديل ————— ١ . النمل: ٨٩.

(٥٠)

والإصلاح، وبين ما يعتقد به من المذهب الحقّ، الذي هو منهج وسط بين العقيدة الحنبلية والمعتزلة، فألف كتاب «اللمع»، وبذلك يمكن أن يقال إنّ «الإبانه» أسبق تأليفاً من «اللمع». إنّ ما بين الباحثين عن منهج الإمام الأشعري من يوافقنا في النتيجة، وقد وصل إليها

من طريق غير ما سلكناه، وإليك نصّه: «إنّ الصورة العقلية التي يصوّرها في «الإبانه» قد صوّرت أولاً، والصورة العقلية التي يصوّرها في «اللمع» قد صوّرت أخيراً، وإنّها كانت تجديداً لمذهب الأشعري في وضعه النهائي الذي مات صاحبه وهو يعتنقه، ويعتقد صحته، ويدافع عنه، ويرضاه لأتباعه، وأسباب هذا الترجيح - كون اللمع ألف بعد الإبانه - كثيرة، فمنها ما هو نفسي، ومنها ما هو علمي. ومما يعود إلى الأسباب النفسية أننا نرى الأشعري في كتاب «الإبانه» أشرق أسلوباً، وأكثر تحمّساً، وأعظم تحاملاً على المعتزلة، وأكثر بعداً عن آرائهم، وهذه مظاهر نفسية يجدها المرء في نفسه تجاه رأيه الذي يتركه إبان تركه أو بُعيد التنازل عنه، أمّا من الناحية العلمية فحسب القارئ أن يراجع باباً مشتركاً في الكتابين ليرى أنّ كتاب «اللمع» في ذلك الباب أحاط بمسائل، وأجاد في عرض أدلتها، وأفاض في بيان اعتراضات خصومه، وأحسن في الرد عليها، وذاك ممّا يدلّ على أنّ كتاب «اللمع» لم يكتب إلاّ في الوقت الذي نضج فيه المذهب في نفس صاحبه، وأنّه لم يصوّره في هذا الكتاب إلاّ بعد أن أصبح واضحاً عنده. (١) والفرق بين التحليلين واضح، فعلى ما ذكرناه نحن لم يكن للإمام الأشعري بعد الرجوع عن الاعتزال إلاّ مذهب واحد وفكرة خاصة، وقد عرضها بعد ما اصطنع الصورة الأولى ليكسب بها رضى الحنابلة أو يتجنب شرهم. وعلى ما ذكره ذلك الباحث تكون صورتان لمرحلتين مختلفتين في تطوره الأولى. مقدمة اللمع للدكتور «حمودة غرابه»: ٧ نقله عن الباحث الغربي «فنسك» وغيره.

(٥١)

الفكري بعد تحوله عن مذهب المعتزلة، فالصورة الأولى صورة غير ناضجة، وربما أعان عليها حنقه على الاعتزال وخصومته معهم، والصورة الثانية صورة ناضجة أبدتها فاكرته بعد ملاءمة الظروف ورجوع الهدوء إلى ذهنه وفكره. ثم إنّ بين الباحثين الغربيين من يريّج العكس، وأنّ الصورة العقلية عنده بعد الرجوع عن الاعتزال، يعطيها كتاب «اللمع»، لكنّه لما رحل من البصرة إلى بغداد في أخريات حياته ووقع تحت نفوذ الحنابلة ألف كتاب «الإبانه»، وأثبت الوجه واليدين لله سبحانه. والله أعلم. ٥. رسالته في استحسان الخوض في علم الكلام

قد أثبت في ذلك الكتاب استحسان الخوض في المسائل الكلامية واستدلّ بالآيات، وبذلك قضى على فكرة أهل الحديث الذين يحرمون الخوض في المباحث العقلية، ويستندون في عقائدهم بظواهر الكتاب والسنة، وقد طبع للمرة الثالثة في حيدر آباد الدكن - الهند -، عام ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م، وطبع أيضاً في ذيل كتاب «اللمع» الآنف ذكره، وهو بكتابه هذا خالف السنة المتبعة بين أهل الحديث، كما أثارهم على نفسه، وبما أنّ تلك الرسالة - على اختصارها - لا تخلو من نكات وتعرب عن مبلغ وروده بالكتاب وكيفية استنباطه منه، نأتى بنصّ الرسالة هنا تماماً. قال بعد التسمية والحمد والتسليم: أمّا بعد فإنّ طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين، ومالوا إلى التخفيف والتقليد، وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال، وزعموا أنّ الكلام في الحركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والطفرة وصفات الباري عزّوجلّ بدعة وضلالة، وقالوا: لو كان هدى ورشاداً لتكلّم فيه النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وخلفاؤه وأصحابه! قالوا: ولأنّ النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - لم يمت حتى تكلم في كلّ ما يحتاج إليه من أمور الدين، وبيّنه بياناً شافياً، ولم يترك بعده لأحد مقالاً فيما للمسلمين إليه حاجة من أمور دينهم، وما يقربهم إلى الله عزّوجلّ ويباعدهم عن سخطه فلما لم يروا عنه (٥٢)

الكلام في شيء ممّا ذكرناه، علمنا أنّ الكلام فيه بدعة، والبحث عنه ضلالة، لأنّه لو كان خيراً لما فات النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - ولتكلّموا فيه، قالوا: ولأنّه ليس يخلو ذلك من وجهين: إمّا أن يكونوا علموه فسكتوا عنه، أو لم يعلموه بل جهلوه فإن كانوا علموه ولم يتكلّموا فيه وسعنا أيضاً نحن السكوت عنه، كما وسعهم السكوت عنه، ووسعنا ترك الخوض كما وسعهم ترك الخوض فيه، ولأنّه لو كان من الدّين ما وسعهم السكوت عنه، وإن كانوا لم يعلموه وسعنا جهله كما وسع أولئك جهله، لأنّه لو كان من الدّين لم يجهلوه، فعلى كلا الوجهين الكلام فيه بدعة، والخوض فيه ضلالة فهذه جملة ما احتجّوا به في ترك النظر في الأصول. قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها قلب السؤال عليهم بأن يقال: النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - لم يقل أيضاً

إنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعاً ضالاً، فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعاً ضالاً إذ قد تكلمتم في شيء لم يتكلم فيه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وضممتم من لم يضلله النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . الجواب الثاني أن يقال لهم: إن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يجهل شيئاً مما ذكرتموه من الكلام في الجسم والعرض، والحركة والسكون، والجزء والطفرة، وإن لم يتكلم في كل واحد من ذلك معيناً، وكذلك الفقهاء والعلماء من الصحابة، غير أن هذه الأشياء التي ذكرتموها معيناً، أصولها موجودة في القرآن والسنة جملة غير منفصلة. فأما الحركة والسكون والكلام فيهما فأصلهما موجود في القرآن، وهما يدلان على التوحيد، وكذلك الاجتماع والافتراق، قال الله تعالى مخبراً عن خليته إبراهيم صلوات عليه وسلامه في قصة أفول الكوكب الشمس والقمر (١) وتحريكها من مكان إلى مكان، ما دل على أن ربه عزوجل لا يجوز _____ ١ . الأنعام: ٧٥-٧٦.

(٥٣)

عليه شيء من ذلك، وأن من جاز عليه الأفول والانتقال من مكان إلى مكان فليس بإله. وأما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضاً من الكتاب، قال الله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (١)، وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له، وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآيات، وقوله عزوجل: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) (٢) إلى قوله عزوجل: (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ). (٣) وكلام المتكلمين في الحجاج في توحيد الله إنما مرجعه إلى هذه الآيات التي ذكرناها، وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن، فكذلك الكلام في جواز البعث واستحالة الذي قد اختلف عقلاء العرب و من قبلهم من غيرهم فيه حتى تعجبوا من جواز ذلك فقالوا: (أ إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) (٤) وقولهم: (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) (٥)، وقولهم: (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (٦) وقوله تعالى: (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُم مُّخْرَجُونَ) (٧)، وفي نحو هذا الكلام منهم إنما ورد بالحجاج في جواز البعث بعد الموت في القرآن تأكيداً لجواز ذلك في العقول، وعلم نبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، ولقنه الحجاج عليهم في إنكارهم البعث من وجهين على طائفتين: منه طائفة أقرت بالخلق الأول وأنكرت الثاني، وطائفة جحدت ذلك بقدوم العالم فاحتج على المقر منها بالخلق _____ ١ . الأنبياء: ٢٢ . ٢ . المؤمنون: ٩١ . ٣ . الرعد: ١٦ . ٤ . ق: ٣ . ٥ . المؤمنون: ٣٦ . ٦ . يس: ٧٨ . ٧ . المؤمنون: ٣٥.

(٥٤)

الأول بقوله: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) (١) ، وبقوله: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) (٢) وبقوله: (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (٣)، فتبهم بهذه الآيات على أن من قدر أن يفعل فعلاً على غير مثال سابق فهو أقدر أن يفعل فعلاً محدثاً، فهو أهون عليه فيما بينكم وتعارفكم، وأما الباري جل ثناؤه وتقدست أسماؤه فليس خلق شيء بأهون عليه من الآخر، وقد قيل: إن الهاء في «عليه» إنما هي كناية للخلق بقدرته، إن البعث والإعادة أهون على أحدكم وأخف عليه من ابتداء خلقه، لأن ابتداء خلقه إنما يكون بالولادة والتربية وقطع السرة والقماط وخروج الأسنان، وغير ذلك من الآيات الموجعة المؤلمة، وإعادته إنما تكون دفعة واحدة ليس فيها من ذلك شيء، فهي أهون عليه من ابتدائه، فهذا ما احتج به على الطائفة المقررة بالخلق. وأما الطائفة التي أنكرت الخلق الأول والثاني، وقالت بقدوم العالم فإنما دخلت عليهم شبهة بأن قالوا: وجدنا الحياة رطبة حارة، والموت بارداً يابساً، وهو من طبع التراب، فكيف يجوز أن يجمع بين الحياة والتراب والعظام النخرة فيصير خلقاً سوياً، والضدان لا يجتمعان، فأنكروا البعث من هذه الجهة. ولعمري إن الضدين لا يجتمعان في محل واحد، ولا في جهة واحدة، ولا في الموجود في المحل، ولكنه يصح وجودهما في محلين على سبيل المجاورة، فاحتج الله تعالى عليهم بأن قال: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ) (٤)، فردهم الله عز وجل في ذلك إلى ما يعرفونه ويشاهدونه من خروج النار على حرها ويبسها من الشجر الأخضر على برده ورطوبته، فجعل جواز النشأة الأولى دليلاً على جواز النشأة الآخرة، لأنها دليل على جواز مجاورة الحياة التراب والعظام النخرة، فجعلها خلقاً سوياً وقال: (كَمَا

_____ ١ . يس: ٧٩. ٢ . الروم: ٢٧. ٣ . الأعراف: ٢٩. ٤ . يس: ٨٠.

(٥٥) بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ. (١)

وأَمَّا ما يتكلم به المتكلمون من أن الحوادث أولاً- (٢) و ردهم على الدهرية أنه لا- حركة إلا- وقبلها حركة، ولا يوم إلا وقبلها يوم، والكلام على من قال: ما من جزء إلا وله نصف لا إلى غاية، فقد وجدنا أصل ذلك في سنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حين قال: «لا- عدوى ولا- طيرة» فقال أعرابي: فما بال الإبل كأنها الظباء تدخل في الإبل الجربي فتجرب؟ فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : « فمن أعدى الأول؟ » فسكت الأعرابي لما أفحمه بالحجة المعقولة. وكذلك نقول لمن زعم أنه لا حركة إلا وقبلها حركة: لو كان الأمر هكذا لم تحدث منها واحدة، لأن ما لا نهاية له لا حدث له، وكذلك لما قال الرجل: يا نبي الله! إن امرأتى ولدت غلاماً أسود وعرض بنفيه، فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : هل لك من إبل؟ فقال: نعم! قال: فما ألوانها، قال: حمر، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «هل فيها من أورك؟» قال: نعم! إن فيها أورك، قال: «فأنتي ذلك؟» قال: لعل عرقاً نزعته، فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «ولعل ولدك نزعته عرق». فهذا ما علم الله نبيه من ردّ الشيء إلى شكله ونظيره، وهو أصل لنا في سائر ما نحكم به من الشبيه والنظير. وبذلك نحتج على من قال: إن الله تعالى و تقدس يشبه المخلوقات، وهو جسم، بأن نقول له: لو كان يشبه شيئاً من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبهه من كل جهاته، أو يشبهه من بعض جهاته فإن كان يشبهه من كل جهاته وجب أن يكون محدثاً من كل جهاته، وإن كان يشبهه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثاً مثله من حيث أشبهه، لأن كل مشتبهين حكمهما واحد فيما اشبهها له، ويستحيل أن يكون المحدث قديماً والقديم محدثاً، وقد _____ ١ . الأنبياء: ١٠٤. ٢ . بياض في الأصل.

(٥٦)

قال تعالى و تقدس: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (١) و قال تعالى و تقدس: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ). (٢) وأمَّا الأصل بأن للجسم نهاية وأن الجزء لا ينقسم فقوله عز وجل اسمه: (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) (٣) و محال إحصاء ما لا نهاية له، ومحال أن يكون الشيء الواحد ينقسم (٤)، لأن هذا يوجب أن يكونا شيئين، وقد أخبر أن العدد وقع عليهما. وأمّا الأصل في أن المحدث للعالم يجب أن يتأتى له الفعل نحو قصده واختياره وتنتفى عنه كراهيته، فقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) (٥)، فلم يستطيعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون مع تمنيهم الولد، فلا يكون مع كراهيته له، فتبهم أن الخالق هو من يتأتى منه المخلوقات على قصده. وأمّا أصلنا في المناقضة على الخصم في النظر فمأخوذ من سنة سيدنا محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، وذلك تعليم الله عز وجل إياه حين لقي الحبر السمين، فقال له: نشدتك بالله هل تجد فيما أنزل الله تعالى من التوراة أن الله تعالى يبغض الحبر السمين؟ فغضب الحبر حين عيره بذلك، فقال: «ما أنزل الله على بشر من شيء»، فقال الله تعالى: (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا) (٦). فناقضه عن قرب، لأن التوراة شيء، وموسى بشر، وقد كان الحبر مقرراً بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى. وكذلك ناقض الذين زعموا أن الله تعالى عهد إليهم أن لا- يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، فقال تعالى: (قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (٧) فناقضهم بذلك وحاجهم. _____ ١ . الشورى: ١١. ٢ . الإخلاص: ٤. ٣ . يس: ١٢. ٤ . بياض في الأصل. ٥ . الواقعة: ٥٨. ٥٩. ٦ . الأنعام: ٩١. ٧ . آل عمران: ١٨٣.

(٥٧)

وأما أصلنا في استدراكنا مغالطة الخصوم فمأخوذ من قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون - إلى قوله - لا يسمعون) (١) فإنها لما نزلت هذه الآية بلغ ذلك عبد الله بن الزبيرى - و كان جدلاً خصماً - فقال: خصمت محمداً ورب الكعبة، فجاء إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، فقال: يا محمد! ألسنت تزعم أن عيسى وعزيراً والملائكة عبدوا؟ فسكت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لا- سكوت عى ولا- منقطع، تعجباً من جهله، لأنه ليس في الآية ما يوجب دخول عيسى وعزير

والملائكة فيها، لأنه قال: (ما تعبدون) ولم يقل وكل ما تعبدون من دون الله، وإنما أراد ابن الزبيري مغالطة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ليوهم قومه أنه قد حاجه، فأنزل الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ) يعني من المعبودين (أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) (٢) ، فقرأ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ذلك، فضجوا عند ذلك لثلاثين انقطاعهم وغلطهم، فقالوا: (ءآلهتنا خير أم هو) يعنون عيسى، فأنزل الله تعالى: (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) إلى قوله (خصمون) (٣)، وكل ما ذكرناه من الآي أو لم نذكره أصل، وحجة لنا في الكلام فيما نذكره من تفصيل، وإن لم تكن مسألة معينة في الكتاب والسنة، لأن ما حدث تعيينها من المسائل العقلية في أيام النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والصحابة قد تكلموا فيه على نحو ما ذكرناه. والجواب الثالث: إن هذه المسائل التي سألوها عنها قد علمها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ولم يجهل منها شيئاً مفصلاً، غير أنها لم تحدث في أيام معينة فيتكلم فيها، أو لا يتكلم فيها، وإن كانت أصولها موجودة في القرآن والسنة، وما حدث من شيء فيما له تعلق بالدين من جهة الشريعة فقد تكلموا فيه وبحثوا عنه وناظروا فيه وجادلوا وحاجوا، كمسائل العول والجندات من مسائل الفرائض، وغير ذلك من الأحكام، وكالحرام والبائن والبتة وحبلك _____ ١ . الأنبياء: ٩٨- ١٠٠ . ٢ . الأنبياء: ١٠١ . ٣ . الزخرف: ٥٧- ٥٨ .

(٥٨)

على غاربيك. وكالمسائل في الحدود والطلاق مما يكثر ذكرها، مما قد حدثت في أيامهم، ولم يجئ في كل واحدة منها نص عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، لأنه لو نص على جميع ذلك ما اختلفوا فيها، وما بقى الخلاف إلى الآن. وهذه المسائل - وإن لم يكن في كل واحدة منها نص عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فإنهم ردوها وقاسوها على ما فيه نص من كتاب الله تعالى والسنة واجتهادهم، فهذه أحكام حوادث الفروع، ردوها إلى أحكام الشريعة التي هي فروع لا تستدرك أحكامها إلا من جهة السمع والرسول، فأما حوادث تحدث في الأصول في تعيين مسائل فينبغي لكل عاقل مسلم أن يرد حكمها إلى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل والحس والبدية وغير ذلك، لأن حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع الذي طريقه السمع، وحكم مسائل العقلية والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه، ولا يخلط العقلية بالسمعية ولا السمعية بالعقلية، فلو حدثت في أيام النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الكلام في خلق القرآن وفي الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلم فيه وبينه، كما بين سائر ما حدثت في أيامه من تعيين المسائل، وتكلم فيها. ثم يقال: النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يصح عنه حديث في أن القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق، فلم قلت: إنه غير مخلوق؟ فإن قالوا: قد قاله بعض الصحابة وبعض التابعين. قيل لهم: يلزم الصحابي والتابعي مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالاً إذ قال ما لم يقله الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . فإن قال قائل: فأنا أتوقف في ذلك فلا أقول: مخلوق ولا غير مخلوق. قيل له: فأنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال، لأن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يقل: إن حدثت هذه الحادثة بعدى توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً، ولا قال: ضللوا وكفروا من قال بخلقه أو من قال بنفى خلقه. وخبرونا، لو قال قائل: إن علم الله مخلوق، أكنتم تتوقفون فيه أم لا؟ (٥٩)

فإن قالوا: لا. قيل لهم: لم يقل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ولا أصحابه في ذلك شيئاً، وكذلك لو قال قائل: هذا ربكم شعبان أو ريان، أو مكتس أو عريان، أو مقرر أو صفراوي أو مرطوب، أو جسم أو عرض، أو يشم الريح أو لا يشمها، أو هل له أنف وقلب وكبد وطحال، وهل يحج في كل سنة، وهل يركب الخيل أو لا يركبها، وهل يغتم أم لا؟ ونحو ذلك من المسائل، لكان ينبغي أن تسكت عنه، لأن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يتكلم في شيء من ذلك ولا أصحابه، أو كنت لا تسكت، فكنت تبين بكلامك أن شيئاً من ذلك لا يجوز على الله عز وجل، وتقديس كذا وكذا بحجة كذا وكذا. فإن قال قائل: أسكت عنه ولا أجيبه بشيء، أو أهجره، أو أقوم عنه، أو لا أسلم عليه، أو لا أعوده إذا مرض، أو لا أشهد جنازته إذا مات. قيل له: فيلزمك أن تكون في جميع هذه الصيغ التي ذكرتها مبتدعاً ضالاً، لأن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يقل: من سأل عن شيء من ذلك فاسكتوا عنه، ولا قال: لا تسلموا عليه، ولا قوموا عنه، ولا قال شيئاً من ذلك، فأنتم مبتدعوا إذا فعلتم ذلك، ولم لم تسكتوا عن قال بخلق القرآن، ولم

كفرتموه، ولم يرد عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حديث صحيح في نفي خلقه، وتكفير من قال بخلقهم. فإن قالوا: إنَّ أحمد بن حنبل رضى الله عنه، قال بنفى خلقه، وتكفير من قال بخلقهم. قيل لهم: ولم لم يسكت أحمد عن ذلك بل تكلم فيه؟ فإن قالوا: لأنَّ العباس العبرى ووكيعاً وعبد الرحمن بن مهدي وفلاناً وفلاناً قالوا إنَّه غير مخلوق، ومن قال بأنَّه مخلوق فهو كافر. قيل لهم: ولم لم يسكت أولئك عمَّا سكت عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -؟ فإن قالوا: لأنَّ عمرو بن دينار وسفيان بن عيينة وجعفر بن محمد رضى الله عنهم و فلاناً وفلاناً قالوا: ليس بخالق ولا مخلوق. (٦٠)

قيل لهم: ولم لم يسكت أولئك عن هذه المقالة، ولم يقلها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -؟ فإن أحوالوا ذلك على الصحابة أو جماعة منهم كان ذلك مكابرة. فإنه يقال لهم: فلم لم يسكتوا عن ذلك، ولم يتكلم فيه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . ولا قال: كفروا قائله. وإن قالوا: لابدل للعلماء من الكلام في الحادثة ليعلم الجاهل حكمها. قيل لهم: هذا الذى أردناه منكم، فلم منعتم الكلام، فأنتم إن شئتم تكلمتم، حتى إذا انقطعتم قلتهم: نهينا عن الكلام زوان شئتم قلدتم من كان قبلكم بلا- حجة ولا بيان، وهذه شهوة وتحكم. ثم يقال لهم: فالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لم يتكلم في النذور والوصايا، ولا في العتق، ولا في حساب المناسخات، ولا صنف فيها كتاباً كما صنعه مالك والثورى والشافعى وأبو حنيفة، فيلزمكم أن يكونوا مبتدعة ضاللاً إذ فعلوا ما لم يفعله النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وقالوا ما لم يقله نصاً بعينه، وصنفوا ما لم يصنّفه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وقالوا بتكفير القائلين بخلق القرآن ولم يقله النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . وفيما ذكرنا كفاية لكل عاقل غير معاند. أنجز والحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وجه تسمية علم الكلام، بالكلام

قال في المواقف: إنما سمي كلاماً إما لأنه بازاء المنطق للفلاسفة، أو لأنَّ أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا، أو لأنَّ مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنَّه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم. (١) قد ذكر التفتازانى في «شرح العقائد النسفية» في وجه تسمية علم العقائد بعلم الكلام وجوهاً ستة، وكلها مرجوحه، وإليك نصه:

_____ ١. المواقف: ٩٨.

(٦١)

١. إنَّ عنوان مباحث ذلك العلم كان قولهم: الكلام في كذا. ٢. لأنَّه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم، كالمنطق للفلسفة. ٣. لأنَّه أوّل ما يجب من العلوم التي تُتعلّم بالكلام. ٤. لأنَّه إنَّما يتحقّق بالمباحثه وإدارة الكلام من الجانبين. ٥. لأنَّه أكثر العلوم خلافاً ونزاعاً، فيشتد افتقاره إلى الكلام. ٦. لأنَّه لقوّه أدلّته صار كأنَّه هو الكلام دون ما عداه. (١) إنَّ واحداً من هذه الوجوه لا يقبله الذوق، لأنَّ جميعها أو أكثرها مشترك بين علم العقائد وغيره من العلوم، فلماذا اختص ذاك العلم به ولم يطلق على سائر العلوم؟ والظاهر أن تسميته به لأحد وجهين تالين: ١. إنَّ أوّل خلاف وقع في الدين كان في كلام الله عزّوجلّ، وأنَّه أمخلوق هو أو غير مخلوق؟ فتكلم الناس فيه، فسُمي هذا النوع من العلم كلاماً واختص به. (٢) يلاحظ عليه: أن حدود القرآن وقدمه لم يكن أوّل خلاف وقع في الدين، بل سبقته عدة خلافات. منها: كون صيغة الخلافة هي التنصيب أو اختيار الأمة، وبعبارة أخرى: هل الخليفة بعد رسول الله أبو بكر أو عليّ؟ ومنها: أن مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن فاسق، أو لا مؤمن ولا كافر بل منزله بين المنزلتين، أو كافر؟ فقد أثار أمر التحكيم في (صفتين) هذه المسألة. طرحت هذه المسألة في الأوساط الإسلامية قبل أن يطرح قدم القرآن أو حدوده.

_____ ١. شرح العقائد النسفية: ١٥، طبع بغداد سنة ١٣٢٦هـ - ٢. الوفيات: ١/٦٧٧.

(٦٢)

ومنها: أن الإيمان إذعان وقول وعمل، أو إذعان فقط، أو إذعان بشرط الإظهار، إلى غير ذلك من الوجوه. ومنها: مسألة الجبر والاختيار، وسيادة القدر على حرية الإنسان بل على قدرة الرب فلا يغير ولا يبديل المقدر، أو غير ذلك. فهذه المسائل متقدمة على البحث عن قدم القرآن وحدوثه. وإنَّما طرحت هذه المسألة في أوائل الخلافة العباسية بين الأوساط. نعم، ينسب القول بالحدوث إلى

آخر الخلفاء من المروانيين، وأنه أخذ حدوث القرآن عن الجعد بن درهم، ولم يوجد القول بالقدم والحدوث في أواخر المروانيين دويماً بين الناس. ٢. إن تسمية علم العقائد بالكلام لأجل أن ذاك العلم بالصورة العقلية كان مهنة للمعتزلة وحرقة لهم، وبما أن هؤلاء كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة وكانوا يدافعون عن عقيدتهم بأفصح العبارات وأبلغها وأكدها، فلذلك اشتهروا بأصحاب الكلام، وسمي من لصق بذلك وتمهر فيه متكلماً، والله العالم.

استدلاله على وجود الصانع سبحانه

استدلاله على وجود الصانع سبحانه

قال: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفة، ثم علقه، ثم مضغه، ثم لحماً، ودمماً، وعظماً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، لأننا نراه - في حال كمال قوته وتمام عقله - لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعاً ولا بصرًا، ولا أن يخلق لنفسه جارحة، يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز، ورأيناه طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر والهرم، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردّها إلى حال الشباب لم يمكنه ذلك، فدل ما وصفناه على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأن له ناقلاً نقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلى حال بغير ناقل ولا مدبر. ثم مثل لذلك بتحوّل القطن إلى الغزل، إلى الفتل، إلى الثوب، فكما هو يحتاج إلى ناسج فكذلك الإنسان، فلو دل ذلك على وجوده، كان تحوّل النطفة علقه ثم مضغه ثم لحماً ودمماً وعظماً أعظم في الأعجوبة، وكان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلى حال، وقد قال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تُخْلِقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) (١). وقال سبحانه: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٢) فبين لهم عجزهم وفقيرهم إلى صانع ————— ١ . الواقعة: ٥٨-٥٩. ٢. الذاريات: ٢١.

(٦٦)

صنعهم ومدبر دبرهم. (١) يلاحظ على هذا الدليل: أولاً: أن الاستدلال المذكور استدلال عقلي بحت، ومعتمد على أصل فلسفي وهو حاجة الممكن إلى العلة، أو حاجة الحادث إلى السبب. وبعبارة أخرى: معتمد على قبول قانون العلية. وهذا النوع من التفكير يختص بالمتكلمين. ولا نرى مثله بين أهل الحديث. وهذا دليل على أن الشيخ يسير على ضوء العقل، والاستدلال به ما أمكن. ثانياً: أن صلب البرهان في البيان الأول يرجع إلى أن فاقد الكمال لا يعطيه، فالإنسان إذا عجز عن إحداث السمع والبصر في حال القدرة، فهو في حال العجز أولى. وقد أفرغ أمير المؤمنين هذا البرهان في بعض خطبه، في جمل في غاية الفصاحة فقال: «أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشغف الأستار، نطفة دهاقاً، وعلقه محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً ويقصر مزجراً». (٢) ثالثاً: أن ما استعرض الشيخ من الآيتين إنما هو من الشواهد الواضحة على أن القرآن يعتمد في بيان الأصول والمعارف على الأدلة العقلية والبراهين الواضحة، من أجل إقناع عامة البشر، مؤمناً كان أم كافراً، ولا يكتفى بالتعديد، فإن للتكلم مع البرهان مكاناً، وللتعديد مكاناً آخر، فما لم تستقر شجرة الإيمان في قلب الإنسان، لا تصح مشافهته إلا بما يوحيه إليه عقله وتقضى به فطرته، فإذا صار مؤمناً معتقداً بربه وبرسوله ورسالته ووحيه، يبلغ إلى مرحلة يصح معها التكلم معه بصورة التعديد وإلقاء الأصول والوظائف مجردة عن البرهنة. ثم إن الشيخ في أثناء تقرير البرهان جاء بأمر غير تام، فاستدل على أن ————— ١ . للمع: ١٨. ٢. نهج البلاغة: ١/١٤٠، الخطبة ٨٠، ط مصر.

(٦٧)

هناك ناقلاً ومدبراً غير الإنسان بقوله: «إن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر لم يمكنه ذلك» وجعل هذا دليلاً على أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلى حال الكبر، ولكن الملازمة غير ثابتة، إذ لمشكك أن يقول: إنه قادر على نقل نفسه من الشباب إلى الهرم،

ولكنه غير قادر على العكس، ولا ملازمه بين القدرة على القضية الأولى والقدرة على القضية الثانية، فالإنسان الضعيف قادر على قذف الجسم الثقيل من السطح إلى الأرض، وليس بقادر على رفعه منها إليه، وقس على ذلك الأمثلة الأخرى. (٦٨)

البارئ لا يشبه المخلوقات

البارئ لا يشبه المخلوقات

استدل على تنزيهه سبحانه عن مشابهة المخلوقات بأنه لو أشبهها لكان حكمه في الحدوث حكمها، ولو أشبهها لم يخل من أن يشبهها في جميع الجهات أو في بعضها فلو أشبهها في جميع الجهات، كان محدثاً مثلها من جميع الجهات، وإن أشبهها في بعضها كان محدثاً من حيث أشبهها، ويستحيل أن يكون المحدث لم يزل قديماً وقد قال الله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ). (١) وقال تعالى: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (٢). (٣) ويلاحظ على هذا الدليل: أن صلب البرهان عبارة عن كون المشابهة من جميع الجهات أو بعضها يلزم كونه محدثاً، وهذه الملازمة في مجال المشابهة في جميع الجهات أمر صحيح لا غبار عليه. ولكن المشابهة في بعض الجهات مع التحفظ على قدمه سبحانه لا تستلزم حدوثه. فلو قالت المشبهة: بأن الله قديم ولكن له يد وجارحة مثل يد الإنسان وجوارحه، فالمشابهة من بعض الجهات مع حفظ القدم لا ينتج كونه محدثاً. ————— ١. الشورى: ١١. ٢. الأَخْلَاصُ: ٤. ٣. اللَمْعُ: ٢٠.

(٦٩)

والحاصل أن المشابهة من بعض الجهات - مع القول بكونه قديماً - لا يستلزم الحدوث. نعم لو اعتمد الشيخ على أن المشابهة للمخلوق في أية جهة من الجهات، لا تنفك عن الحاجة، والحاجة آية الإمكان صح الاستدلال، لأن الممكن لا يكون واجب الوجود، وما ليس بواجب فهو حادث ذاتاً أو زماناً، والكل محتاج إلى علة واجبة. وفي مورد المثال: لو كان لذاته مكان كسائر الأجسام لكان لها حيز، فتكون محتاجة إلى الحيز، الحاجة لا- تجتمع مع وجوب الوجود وتناسب مع الإمكان، والموصوف به إمّا حادث ذاتي أو حادث زمني، فالأشياء الممكنة المجردة، لها الحدوث الذاتي، والأشياء الممكنة الواقعة في إطار الزمان، لها الحدوث الزماني. وباختصار: إن الاكتفاء بكون المشابهة مستلزماً للحدوث، لا يوجب كون البرهان منتجاً، وإنما ينتج البرهان إذا كانت المشابهة منجزة إلى الحاجة المضادة لوجوب الوجود حتى ينتهي الأمر إلى إمكانه وحدوثه. (٧٠)

استدلاله على وحدانية الصانع

استدلاله على وحدانية الصانع

استدل الشيخ الأشعري على وحدانية الصانع ببرهان التمانع، وقال: إن الصانعين المفترضين لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على أحكام، ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحداً منهما، لأن أحدهما إذا أراد أن يحيى إنساناً، وأراد الآخر أن يميت، لم يخل أن يتم مرادهما جميعاً، أو لا يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعاً، لأنه يستحيل أن يكون الجسم حياً وميتاً في حال واحدة. وإن لم يتم مرادهما جميعاً وجب عجزهما، والعاجز لا يكون إلهاً ولا قديماً. وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلهاً وقديماً، فدل ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد، وقد قال الله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (١). (٢) يلاحظ على ما أفاده: أولاً: أن ما ذكره هو برهان التمانع الوارد في الكتب الكلامية، ولكنه لم يستقص جميع شقوقه، إذ لقاتل أن يقول: إن الإلهين بما أنهما عالمان - بما لا ————— ١. الأنبياء: ٢٢. ٢. اللَمْعُ: ٢٠- ٢١.

(٧١)

نهاية لعلمهما - واقفان على المصالح والمفاسد، وما يصح فعله ممّا لا يصح، فيتفقان على ما فيه المصلحة والحكمة. ومن المعلوم أنه ليس إلاً امرأةً واحداً، فحينئذ تتحد إرادتهما على إيجاد ما اتفقا عليه، فإن الاختلاف في الإرادة إمّا ناشئ من حب الذات، فيقدم ما فيه

المنفعة الشخصية على غيره، أو ناشئ من الجهل بالمصالح والمفاسد، وكلا العاملين منفيان عن ساحة الإلهين المفروضين. ولأجل استيعاب جميع الشقوق تجب الإجابة عن هذا الشق أيضاً. وموجز الإجابة (والتفصيل يطلب من الأسفار الكلامية) أن تعدد الصانع في الخارج يدل على وجود تباين واختلاف بينهما في أمر من الأمور، فهما إما متباينان في جميع الذات، (كما هو الحال في الأجناس العالية، فإن الجوهر يباين العرض بتمام الذات) أو في بعضها كتباين نوع من نوع آخر (مثل الإنسان بالنسبة إلى الفرس) أو في الشخصيات والتعينات. وعلى كل تقدير يجب أن يكون هناك نوع من التباين والاختلاف ولو من جهة واحدة، وفي مرحلة من مراحل الوجود، وإلا فلو تساويا من جميع الجهات، لارتفع التعدد وصار المفروضان إلهاً واحداً وهو خلف. وعلى فرض وجود اختلاف بين الإلهين، يجب أن يختلف شعورهما وإدراكهما ولو في مورد أو موردين، إذ لا معنى لأن يتحد تشخيصهما وإدراكهما وعلمهما مع الاختلاف في الذات أو التعينات. وعندئذ، لا يمكن أن نقول إنهما يتفقان في جميع الموارد على شيء واحد وهو مقتضى الحكمة والمصلحة، لأن المفروض أن كل واحد يرى فعله موافقاً للحكمة والمصلحة، ولا دليل على انحصار المصلحة والحكمة في جهة واحدة، بل من الممكن أن يكون كلا الفعلين مقرونين بالصالح ولكل منهما فلاح. هذا هو التقرير الصحيح للبرهان. وثانياً: أن قوله سبحانه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ) ليس ناظراً إلى (٧٢)

وحدة الصانع والخالق، بل الآية تركز على وحدة التدبير في العالم، وأن مدبر العالم إله واحد لا غير. والبرهان القرآني على وحدة التدبير جاء ضمن آيتين تتكفل كل واحدة منهما ببيان بعض شقوق البرهان. وإليك الآيتان مع توضيح البرهان: ١. (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ). (١) ٢. (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) (٢) توضيح البرهان بجميع شقوقه إن تصوير تعدد المدبر للعالم يفترض على صور: ١. أن يتفرد كل واحد من الآلهة المفترضة بتدبير مجموع الكون باستقلاله بمعنى أن يعمل كل واحد ما يريد في الكون دون منازع، ففي هذه الصورة يلزم تعدد التدبير لأن المدبر متعدد ومختلف في الذات، ونتيجة تعدد التدبير طرء الفساد على العالم وذهاب الانسجام المشهود، وإليه يشير قوله سبحانه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...) ٢. أن يدبر كل واحد قسماً من الكون الذي خلقه، وعندئذ يجب أن يكون لكل جانب من الجانبين نظام مستقل خاص مغاير لنظام الجانب الآخر وغير مرتبط به، وهذا الفرض يستلزم انقطاع الارتباط وذهاب الانسجام من الكون، والحال أننا نرى في الكون نوعاً واحداً من النظام شاملاً لكل جوانب الكون من الذرة إلى المجرة، وإلى هذا القسم من البرهان يشير قوله سبحانه في الآية الأخرى (إِذَا لَمَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ) ٣. أن يتفوق أحد الآلهة المفترضة على البقية فيوحد جهودهم وأعمالهم، ١. الأنبياء: ٢٢. ٢. الأنبياء: ٩١.

(٧٣)

ويصبغها بصبغة الانسجام والاتحاد، وعندئذ يكون ذلك الإله المتفوق، هو الإله الحقيقي دون البقية، وإلى هذا الشق يشير قوله سبحانه: (وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ). وباختصار، أن ما ذكره الأشعري من البرهان على وحدانية الصانع، غير مستوعب لجميع الشقوق، وإن الآية التي استشهاد بها ليست راجعة إلى وحدانية الصانع، بل راجعة إلى وحدانية المدبر. والفرق بين التوحيد في الخلق والتوحيد في المدبرية غير خفي على العارف بالمسائل الكلامية. (٧٤)

إعادة الخلق المعدوم جائز

إعادة الخلق المعدوم جائز

استدل الشيخ الأشعري على جواز إعادة الخلق المعدوم بالبيان التالي: إن الله سبحانه خلقه أولاً، لا على مثال سبقه، فإذا خلقه أولاً لم يعيه أن يخلقه خلقاً آخر. ثم استشهاد بالآيات الواردة حول إمكان المعاد، التي منها قوله سبحانه: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). (١) يلاحظ على ما ذكره: أن هنا مسألتين يجب فصل

كَلَّ مِنْهُمَا عَنِ الْأُخْرَى: الأولى: إعادة الخلق الأول بعد فناءه بتلاشيه وتفرّق أجزائه، وهذا ما أخبرت عنه الشرائع السماوية، واستدلّ القرآن على إمكانه بطرق متعددة نشير إليها عن قريب، ومثل هذا ليس إعادة للخلق الأول بعد انعدامه من جميع الجهات، بل هو إحياء للمواد المبعثرة من الإنسان بإعادة الروح إليها. والحاكم بأنّ الإنسان المعاد هو الإنسان المبتدأ، هو وحدة الروح المجردة المتعلّقة في كلّ زمن ببدن خاص، والروح لا تفتنى بفناء المادة، ولا تنفك أجزاؤها. ١ . يس: ٧٨-٧٩. (٧٥)

وقد استدلّ القرآن على إمكان هذا النوع من الإعادة بطرق مختلفة نأتى بأصولها: ١. الاستدلال بعموم القدرة، مثل قوله سبحانه: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْصِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (١) . ٢. قياس الإعادة على الابتداء، كما في قوله سبحانه: (كَمَا يَدَانَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ). (٢) . ٣. الاستدلال على إمكان إحياء الموتى بإحياء الأرض بالمطر والنبات، كما في قوله سبحانه: (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ). (٣) . ٤. الاستدلال بالوقوع على الإمكان، فإنّ أدل دليل على إمكان الشيء وقوعه، ولأجل ذلك نقل سبحانه قصة بقره بنى إسرائيل (البقرة: ٤٧-٧٣) وحديث عزيز (البقرة: ٢٥٩) . ٥. الاستدلال ببعض المنامات الطويلة التي امتدت ثلاثمائة سنة وزيدت عليها تسع، فإنّ النوم أخو الموت، ولا سيّما الطويل منه. والقيام من هذا النوم يشبه تجدد الحياة وتطوّرها. ٦. قياس قدرة الإعادة على قدرة إخراج النار من الشجر الأخضر، كما في قوله سبحانه: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ). (٤) هذه هي البراهين المشرفة التي اعتمد عليها القرآن فيما يتبنّاه من إمكان المعاد ووقوعه، وهذه المسألة لا تمتّ إلى المسألة التالية بصله. الثانية: إعادة المعدوم من جميع الجهات، بعينه لا بمثله، وهذا هو الذي ١ . الأحقاف: ٣٣. ٢ . الأنبياء: ١٠٤. ٣ . الروم: ١٩. ٤ . يس: ٧٩-٨٠. (٧٦)

ادّعى الشيخ الرئيس ابن سينا الضرورة على امتناعه، وأقام البراهين عليه، ونذكر منها ما يناسب وضع كتابنا. إنّ إعادة الشيء المعدوم من جميع الجهات نوع إيجاد له، والمفروض أنّ هذا الإيجاد يغيّر الإبداع الذي تعلّق بإيجاده قبل أن يكون معدوماً. ومع تعدّد الإيجاد وتعدّد أعمال القدرة كيف يكون المعاد نفس المبتدأ من جميع الجهات. نعم، يكون المعاد مثل المبتدأ لا عينه، ولأجل الإيضاح نأتى بمثال: إذا قام الإنسان بخلق صورة الفرس بالشمعة اللينة، ثمّ محا الصورة التي أوجدها وأعادها ثانياً، فلا يصحّ لأحد أن يقول: إنّ الصورة الثانية عين الأولى، لأنّ الأولى تعلّقت بها قدرة وأوجدت بإيجاد خاص، والثانية تعلّقت بها قدرة أخرى في زمان آخر، وأوجدت بإيجاد ثان، والقدرتان مختلفتان، والإيجادان متعدّدان، فكيف يكون الموجدان واحداً بل لا مناص على القول باختلافهما. فإذا لم يصحّ إعادة المعدوم في المثال المذكور (الذي كانت المادة فيه محفوظة والصورة فقط منعدمة) فكيف يصحّ فيما كانت الصورة والمادة معدومتين غر باقتين؟ هذا هو الفرق البارز بين المسألتين، ولم يشر الشيخ الأشعري إلى الفرق بينهما. (٧٧)

الله سبحانه ليس بجسم

الله سبحانه ليس بجسم

لقد أكّد الشيخ الأشعري على تنزيه الله سبحانه عن الجسم والجسمانيات في كتاب «اللمع» بشكل واضح، وبذلك امتاز منهجه عن منهج كثير من أهل الحديث الذين لا يتورعون عن إسناد أمور إليه سبحانه تلازم تجسيمه وكونه ذا جهة. وقد أوضحنا حال هذه الطائفة عند البحث عن عقائد أهل الحديث والحنبلة في الجزء الأول. وأمّا البرهان الذي اعتمد عليه الشيخ في رسمه في العبارة التالية: فإنّ قال قائل: لم أنكرتم أن يكون الله تعالى جسماً؟ قيل له: أنكرنا ذلك لأنه لا يخلو أن يكون القائل بذلك أراد أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً، أو يكون أراد تسميته جسماً وإن لم يكن طويلاً عريضاً مجتمعاً عميقاً، فإنّ أراد الأول فهذا لا يجوز، لأنّ المجتمع لا

يكون شيئاً واحداً، لأنَّ أقلَّ قليل الاجتماع لا- يكون إلا من شئين، لأنَّ الشىء الواحد لا يكون لنفسه مجامعاً. وقد بينا آنفاً أن الله عزوجل شىء واحد، فبطل أن يكون مجتمعاً. وإن أردتم الثانى فالأسماء ليست إلينا، ولا يجوز أن يسمى الله تعالى باسم لم يسم به نفسه، ولا- سمّاه به رسوله، ولا أجمع المسلمون عليه ولا على معناه. (١) يلاحظ عليه: أن توحيد سبحانه على مراتب نذكر منها ماله صلة بالمقام: _____ ١. اللمع: ٢٤.

(٧٨)

١. توحيد سبحانه بمعنى أنه واحد لا نظير له ولا مثل. وهذا ما يعنى من قوله سبحانه: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (١)، وقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (٢)، وهذا القسم من التوحيد يهدف إلى أن واجب الوجوب بالذات واحد لا يشنى ولا يتكرر، ليس له نظير ولا مثل. ٢. توحيد سبحانه بمعنى بساطة ذاته وتنزهه عن أنواع التركيب والكثرة فى مقام الذات. ولعل «الأحدية» التى يخبر عنها القرآن فى الآيات الكريمة، عبارة عن هذا النوع من التوحيد، وهو بساطة الذات والتنزه عن التركيب والكثرة. قال سبحانه: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (٣). وفى ضوء هذين التوحيدين نخرج بالنتيجتين التاليتين: أ. الله سبحانه واحد لا نظير له ولا مثل. ب. الله سبحانه أحد، بسيط، لا جزء لذاته ولا- تركيب. وهناك قسم ثالث من التوحيد، وهو التوحيد فى الخالقية، وأنه ليس فى صفحة الوجود خالق إلا- هو، وخالقية الفواعل الأخر بالاعتماد عليه والاستمداد من خالقيته سبحانه. إذا عرفت ذلك، تعرف الخلط فى كلام الشيخ الأشعري بوضوح، لأن ما تقدّم منه فى البحث السابق هو وحدة صانع العالم، ولكن ما هو مقدمه برهانه هنا بساطة ذاته وعدم تركبه من شىء، ولم يسبق ذلك فى البحث السابق حتى يعتمد عليه فى إثبات ما يتبناه من: «أنه سبحانه ليس جسماً، لأن الجسمانية تستلزم كون الشىء عريضاً طويلاً مجتمعاً عميقاً. وهو يلازم الكثرة، والكثرة لا- تجتمع مع الوحدة». وعلى ذلك فلا يتم برهان الشيخ إلا إذا برهن على بساطة الذات ووحدتها _____ ١. الاخلاص: ٤. ٢. الشورى: ١١. ٣. الاخلاص: ١.

(٧٩)

وعدم تكثرها عقلاً- ولا- خارجاً، وإلا لا يكون برهانه موضوعياً معتمداً على شىء أثبتته من قبل. نعم، فى وسع الشيخ أن يبرهن على البساطة بأن الكثرة الخارجية أو الذهنية تستلزم احتياج الواجب إلى أجزائه، والمحتاج لا يكون واجباً، بل ممكناً. (٨٠)

صفاته الذاتية

صفاته الذاتية

اتفق الإلهيون على أنه سبحانه: عالم، قادر، حى، سميع، بصير، وهذه هى الصفات الذاتية حسب مصطلح المتكلمين، والصفات الثبوتية الكمالية حسب مصطلح متكلمى الإمامية. وهى فى مقابل صفات الفعل، أعنى: ما ينتزع لا من مقام الذات بل من مقام الفعل ككونه رازقاً، محياً، مميتاً وغيرها. وإليك نصوص استدلاله فى تلك المجالات: أ. الله سبحانه عالم استدلال الأشعري على كونه سبحانه عالماً: بأن الأفعال المحكمة لا- تنسق فى الحكمة إلا من عالم. وذلك أنه لا يجوز أن يحوك الديباج بالتصاوير ويصنع دقائق الصنعة من لا يحسن ذلك ولا يعلمه. (١) ما ذكره من البرهان قد ذكره قبله غيره ببيان رائق وتعبير بديع، فإن إتقان الفعل واستحكامه آية علم الفاعل بشؤون الفعل وما يقومه وما يفنيه. ب. الله سبحانه حى قادر استدلال على هذا بأنه لا تجوز الصنائع إلا من حى قادر، لأنه لو جاز _____ ١. اللمع: ٢٤.

(٨١)

حدوثها ممن ليس بقادر حى، لم ندر لعل سائر ما يظهر من الناس يظهر منهم وهم عجزه موتى، فلما استحال ذلك، دلت الصنائع على أن الله حى. (١) كان الأليق التفكيك بين الحياة والقدرة، وتقديم البحث فى القدرة على البحث فى الحياة، لأنه إذا ثبت كونه قادراً- و قد أثبت فعله كونه عالماً- ثبت كونه حياً بلا حاجة إلى الاستدلال الجديد، لأن الحى عبارة عن العالم القادر، أو الدراك الفعال. فمن

كان عالماً قادراً فهو حتى قطعاً. ج. الله سبحانه سميع بصير

قال الأشعري: إن الحى إذا لم يكن موصوفاً بآفة تمنعه من إدراك المسموعات والمبصرات إذا وجدت، فهو سميع بصير، والله تعالى منزّه عن الآفة من الصمم والعمى، إذ كانت الآفة تدل على حدوث من جارت عليه. (٢) يلاحظ عليه: أن الأبصار تتعلّق بالأضواء والألوان. والسمع يتعلّق بالأصوات والكلمات، فلو كان إبصاره سبحانه للمبصرات، وسماعه للمسموعات بالإدراك الحسى المادى، نظير الإنسان والحيوان، لاحتاج فى تحقّقهما إلى الآلة. وعند ذاك يأتى ما ورد فى كلام الشيخ من مسألة الصحّة والتنزّه عن الآفة، نظير الصمم والعمى، وأن الآفة آية الحدوث. وأمّا لو كان توصيفه بهذين الوصفين بالمعنى اللاتق بساحته، فحقيقته كونه سمياً بصيراً ترجع إلى حضور المسموعات والمبصرات لديه، وعدم غيابهما عنه سبحانه ولا يختص الحضور بهما، بل الموجودات على الإطلاق بهوياتها الخارجية حاضرة لديه، لأنها قائمة به سبحانه، قيام المعنى الحرفى بالمعنى الاسمى، فهى حاضرة لديه، غير غائبة عنه، من غير فرق بين المبصر والمسموع وغيرهما، وتخصيصهما بالذكر لكون الحس المتعلّق بهما فى الإنسان _____ ١. اللمع: ٢٥. ٢. اللمع: ٢٥.

(٨٢)

أشرف من غيره، فاقصر عليهما، وإلا فالله سبحانه أجل من أن يسمع ويرى بالآلة، ويباشر بذاته الأضواء والأصوات. وباختصار: إن واقع الإبصار والسمع ليس إلا حضور المبصرات والمسموعات لدى البصير والسميع. وأمّا الآلة وأعمالها والتأثير من الخارج فمقدّمات إعدادية. فلو تحقّق فى مورده الحضور، بلا حاجة إلى تلك المقدمات لكان أحقّ بكونه سمياً وبصيراً. ونضيف فى الختام أنه لم يعلم كنه قوله: «الآفة تدل على حدوث من جارت عليه» فإنّ كون المدرك (بالكسر) مادياً آية الحدوث لكونه ممكناً، والممكن حاجته إلى الواجب أزلياً، وأمّا الصحّة والآفة، فالكلّ بالنسبة إلى القدم والحدوث سواسية فلا الصحّة آية القدم، ولا الآفة آية الحدوث. بل كون الشىء (الإدراك) مادياً آية الحدوث للتلازم بين المادية والحدوث. (٨٣)

صفاته قديمة لا حادثة

صفاته قديمة لا حادثة

إنّ الحى إذا لم يكن عالماً كان موصوفاً بضد العلم، أى الجهل. ولو كان موصوفاً به لاستحال أن يعلم، لأنّ ضد العلم لو كان قديماً لاستحال أن يبطل، وإذا استحال أن يبطل لم يجز أن يصنع المصانع الحكيمه، فلما صنعها دلّت على أنّه عالم، وصحّ أنّه لم يزل عالماً. (١) يلاحظ عليه: أوّلاً: أنّ الحدوث والقدم من أوصاف الأمور الوجودية، وضد العلم ليس إلاّ أمراً عدمياً ومثله لا يوصف لا بالحدوث ولا بالقدم، فلا يصحّ قوله: «لأنّ ضد العلم لو كان قديماً لاستحال أن يبطل». وثانياً: أنّ كلّ موجود إمكاني مسبوق بعدم قديم، فلو كان قدم عدم مانعاً عن الانقلاب إلى الوجود، تلزم استحالة أن يبطل كلّ عدم وينقلب إلى الوجود. وكان له الاستدلال بشكل آخر: إن اتصافه بالعلم بعد ما كان جاهلاً، أو بالقدرة بعد ما كان عاجزاً، يستلزم كون ذاته محلاً للحوادث، وهو يلزم التغيير والانفعال فى ذاته، وهو آية الحدوث، والواجب منزّه عن ذلك كلّ. كما كان له الاستدلال بشكل ثان وهو: لو كان الذات الإلهية فاقدة _____ ١. اللمع: ٢٥-٢٦.

(٨٤)

لهذه الصفات منذ الأزل، لاستلزم ذلك كون صفاته «ممكناً» و «حادثة» وحيث إنّ كلّ ممكن مرتبط بعلة، ومحتاج إلى محدث، لزم أن نقف على محدثها، فهل وردت من قبل نفسها، أو من قبل الله سبحانه، أو من جانب علة أخرى؟ وكلّها باطلة. أمّا الأوّل: فلا يحتاج إلى مزيد بيان، إذ لا يعقل أن يكون الشىء علة لنفسه. وأمّا الثانى: فكسابقه، فإنّ فاقد الكمال «العلم والقدرة» لا يعطيه. أضف إليه - أنّه يلزم الخلف أى قدم الصفات. لأنّ المفروض أنّ العلة هى الذات وهى قديمة فيلزم قدم معلولها. وأمّا الثالث فكسابقه أيضاً إذ ليس

هنا عامل خارجي يكون مؤثراً في عروض صفاته على ذاته سبحانه - مضافاً إلى أنه يستلزم افتقار الواجب إليه. إلى غير ذلك من البراهين المشرقة التي جاءت في الكتب الكلامية والفلسفية؛ وكان الشيخ أبا الحسن - إبان الانفصال عن المعتزلة وخلع الاعتزال عن نفسه كخلع القميص - شق عليه الأخذ من علومهم وأفكارهم، وأراد الاعتماد على ما توحى إليه نفسه، فجاء بالبرهان الذي ترى وزنه وقيمته. (٨٥)

صفاته زائدة على ذاته

صفاته زائدة على ذاته

إن كيفية إجراء صفاته سبحانه على ذاته، أوجد هوةً سحيقة بين كلامي المعتزلة والأشاعرة، فمشايخ الاعتزال - لأجل حفظ التوحيد، ورفض تعدد القديم، والتنزه عن التشبيه - ذهبوا إلى أن ملاك إجراء هذه الصفات هو الذات، وليست هنا أية واقعية للصفات سوى ذاته. وقد استعرض القاضي عبد الجبار المعتزلي آراء مشايخه في شرح الأصول الخمسة (١) وقال: قال شيخنا أبو علي: إنه تعالى يستحق هذه الصفات الأربع: (القدرة، العلم، الحياة، الوجود) لذاته. وقال شيخنا أبو هاشم: يستحق هذه الصفات لما هو عليه في ذاته. ومفاد كلام الشيخين: أن الله سبحانه عالم، قادر حي، بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة. وهؤلاء هم المعروفون بنفاة الصفات، لحفظ التوحيد ورفض تعدد القدماء، وهم يعنون بقولهم: (لذاته) أن ذاته سبحانه - ببساطتها ووحدتها - نائبة عن الصفات، وتعبير أبي هاشم في إفادة ما يرومناه أدق من عبارة أبي علي، وقد اشتهر هذا القول عند المتأخرين من المتكلمين بالقول بالنيابة، _____ ١. شرح الأصول الخمسة: ١٨٢.

(٨٦)

ونسبه أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين» إلى كثير من المعتزلة والخوارج، وكثير من المرجئة وبعض الزيدية وقال: هؤلاء يقولون: إن الله عالم، قادر، حي، بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة. (١) وعندئذ تكون الذات نائبة عن الصفات والآثار المترتبة عن الصفات، مترتبة على الذات، وإن لم تكن الصفات موجودة فيها مثلاً: خاصية العلم اتقان الفعل، وهي تترتب على نفس ذاته، بلا وجود وصف العلم فيه، وقد اشتهر عندهم «خذ بالغايات واترك المبادئ» و إنما ذهبوا إلى هذا القول لأجل أمرين تالين: من جانب اتفقت الشرائع السماوية على أنه سبحانه عالم حي قادر، ويدل على ذلك إتقان أفعاله. ومن جانب آخر: واقعية الوصف لا تنفك عن القيام بالغير، فلو لم تكن قائمة به لم تصدق عليه الصفة. فعند ذلك يدور الأمر بين أحد الأمور الأربعة: ١. نفى العلم مثلاً عن ساحتها سبحانه على الإطلاق. وهذا تكذيب آثار فعله سبحانه، مضافاً إلى اتفاق الشرائع السماوية على عدّه من صفاته الذاتية. ٢. القول بأن علمه زائد، ومثله سائر صفاته، وهذا يستلزم تعدد القدماء. ٣. كون صفاته عين ذاته وهي متحدة معها، وهذا لا يجتمع مع واقعية الوصف، لأن واقعيته هو القيام بالغير، ولولاه لما صدق عليه الوصف. فعندئذ يتبين القول التالي: ٤. نيابة الذات مناب الصفات وإن لم تكن الذات موصوفة بنفس الصفات. وهذا القول هو المشهور بين المعتزلة، وإليه يشير الحكيم السبزواري في منظومته: _____ ١. مقالات الإسلاميين: ١/٢٢٤.

(٨٧)

والأشعرية بازدياد قائله * وقال بالنيابة المعتزلة وممن اختار هذا القول من المعتزلة وذبح عنه بصراحته، هو عباد بن سليمان المعتزلي (١) قال: هو عالم، قادر، حي، ولا - أثبت له علماً ولا - قدرة، ولا - حياة، ولا - أثبت سمعاً ولا أثبت بصراً. وأقول: هو عالم لا بعلم، وقادر لا بقدرة وحي لا بحياة، وسميع لا بسمع، وكذلك سائر ما يسمّى به من الأسماء التي يسمّى بها. (٢) رأى أبي الهذيل العلاف المعتزلي (٣)

يعترف أبو الهذيل - على خلاف ما يروى عن أبي علي وأبي هاشم الجبائين - بأنّ لله سبحانه علماً وقدرة وحياة حقيقة، ولكنها نفس

ذاته **وإليك نصّ عبارته:** هو عالم بعلم هو هو، هو قادر بقدره هي هو، هو حى بحياء هي هو - إلى أن قال - : إذا قلت: إن الله عالم أثبت له علماً هو الله، ونفيت عن الله جهلاً، ودلت على معلوم، كان أو يكون، وإذا قلت: قادر، نفيت عن الله عجزاً، وأثبت له قدرة هي الله سبحانه ودلت على مقدور. وإذا قلت: الله حى، أثبت له حياة وهي الله، ونفيت عن الله موتاً. (٤) والفرق بين الرأيين جوهرى جداً، فالرأى الأول يركز على أن الله عالم، قادر حى، بنفسه، لا بعلم ولا قدرة ولا حياة. وعلى حد تعبير أبى هاشم أن الله يستحقها لما هو عليه في ذاته. _____ ١. من أئمة الاعتزال في القرن الثالث، ودارت بينه وبين أبى كلاب (المتوفى بعد عام ٣٤٠هـ) مناظرات، لاحظ الانتصار لأبى الحسين الخياط: ٦١. ٢. مقالات الإسلاميين: ١/٢٢٥. ٣. محمد بن هذيل المعروف بالعلّاف، كان شيخ البصريين في الاعتزال، ولد عام ١٣٠هـ وتوفى في سامراء ٢٣٥هـ. لاحظ وفيات الأعيان: ٤/٢٦٥ برقم ٤٠٦. ٤. شرح الأصول الخمسة: ١٨٣، مقالات الإسلاميين: ٢٥.

(٨٨)

فهؤلاء يستحقون أن يسموا بنفاه الصفات ونيابة الذات عنها، وهذا بخلاف رأى أبى الهذيل فهو يركز على كونه سبحانه موصوفاً بهذه الصفات وعالماً بعلم وقادراً بقدره، ولكنها تتحد مع الذات في مقام الوجود والعيئية. ولأجل التفاوت البارز بين الرأيين أراد القاضى عبد الجبار المعتزلى إرجاع مقالة العلّاف إلى ما يفهم من عبارة أبى على وابنه أبى هاشم وقال: قال أبو هذيل: إنّه تعالى عالم بعلم هو هو، وأراد به ما ذكره الشيخ أبو على، إلا أنه لم تلخص له العبارة، ألا ترى أن من يقول: إن الله عالم بعلم، لا يقول إن ذلك العلم هو ذاته تعالى. ولكن الحق في باب الصفات هو ما ذهب إليه أبو الهذيل، وعليه مشايخنا الإمامية، أخذوا بالبراهين المشرقة في هذا المجال، واقتداءً بما ورد عن أئمة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين، وسيوافيك عند استعراض عقائد المعتزلة أن أصولهم مأخوذة من خطب الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام -، وهو إمام علم التوحيد، تُعرف آراؤه العالیه من خطبه وكلماته في نهج البلاغه، ونأتى منها بما يمس المقام: ١. «وكمال توحيد الإخلاص له...» الخطبة الأولى، ص ٨، ط مصر، أى تخلصه من كل جزء وتركيب. ٢. وقال - عليه السلام -: «لا تناله التجزئة والتبعيض» الخطبة ٨١، ط مصر، ج ١، ص ١٤٦. ٣. وقال - عليه السلام -: «ولا يجرى عليه السكون والحركة، وكيف يجرى عليه ما هو أجراه، ويعود فيه ما هو أبداه، ويحدث فيه ما هو أحدثه، إذاً لتفاوت ذاته، ولتجزأ كنهه» الخطبة ١٨١ ط مصر ج ٢ ص ١٤٤. ٤. وقال - عليه السلام -: «ولا يوصف بشيء من الأجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرض من الأعراض، ولا بالغيرية والإباض» الخطبة ١٨١. إلى غير ذلك من الكلمات التي لا مناص معها عن القول باتحاد الصفات مع الذات. يرى الغزالي والشهرستاني أن المعتزلة تبغوا الفلسفة اليونانية في وحدة (٨٩)

صفاته مع ذاته فقالوا: إن الله عالم بذاته، قادر بذاته، حى بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية. (١) يلاحظ عليه: أن المعتزلة تبغوا في ذلك إمام علم الكلام ومؤسسه على بن أبى طالب عليمها السلام، فهو رائد الموحدين وسيدهم، فقد استدلل في خطبته على وحدة صفاته مع الذات بشكل رائع. (٢) وهن نظرية النيابة

إنّ الشيخين (أبا على وأبا هاشم الجبائين) لو تأملا في واقعية الصفات الكمالية وأنها من شؤون الوجود لما أكدوا ولا أصروا على أن واقعية الصفة مطلقاً هي القيام بالغير، لأنه لا يمكن أن تكون الصفة عين الذات، وذلك لأنّ كلّ الكمالات من شؤون الوجود و ترجع حقائقها إليه، والوجود أمر مقول بالتشكيك، فله العرض العريض، فكما أن من الوجود ممكناً وواجباً وجوهراً وعرضاً، فهكذا إن مرتبة من العلم كيف نفسانى قائم بالغير، ومرتبته أخرى منه واجب قائم بنفسه، ومثله القدرة والحياة، والتفصيل يطلب من محلّه. تحليل نظرية الزيادة

قد تعرّف على نظرية الشيخين من أئمة الاعتزال، كما تعرّف على نظرية أبى الهذيل، وقد حان الآن وقت دراسة نظرية شيخ الأشاعرة، وهو يخالف كلتا النظريتين - النيابة والوحدة - ويقول بوجود صفات كمالية زائدة على ذاته مفهوماً ومصدقا، فلا تعدو

صفاته صفات المخلوق إلا في القدم والحدوث. ولأجل ذلك يهاجم النظريتين في «الإبانة» و «اللمع» فيقول في رد النظرية الأولى (النيابة): إن الزنادقة قالوا: إن الله ليس بعالم، ولا قادر، ولا حي، ولا _____ ١. الملل والنحل للشهرستاني: ١/٥١. ٢. لاحظ نهج البلاغة: الخطبة الأولى، وقد عرفت بعض كلامه في المقام. (٩٠)

سميع، ولا بصير. وقول من قال من المعتزلة: إن لا علم لله ولا قدرة له، معناه: إنه ليس بعالم ولا قادر. والتفاوت في الصراحة والكنائية، فنفي المبادئ حقيقة، يلزم نفي صفاته الثبوتية التي أجمع المسلمون على توصيفه سبحانه بها. وأما الثانية، فرد عليها بقوله: كيف يمكن أن يقال: إن علم الله هو الله. وإلا- يلزم أن يصح أن نقول: يا علم الله اغفر لي وارحمني. (١) يلاحظ عليه: أولاً: أن القول بزيادة الصفات ليس من مبتكرات الأشعرى، بل تبع هو في ذلك «الكلائية» والتفاوت بينهما بالكنائية والتصريح، قال القاضي عبد الجبار: عند الكلائية أنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان أزلية، وأراد بالأزلي: القديم، إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا قديم مع الله تعالى، لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك. ثم نبغ الأشعرى، وأطلق القول بأنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان قديمة. (٢) ثانياً: ما ناقش به النظرية الأولى غير كاف فيما ادّعاء - أعني: رجوع قولهم إلى نفي كونه سبحانه عالماً - لأن نفي المبادئ - أعني: العلم والقدرة - إنما يستلزم نفي كونه عالماً وقادراً إذا لم تقم الذات مقام الصفات في الأثر والغاية. فلنناقش أن يقول: إن ما يطلب من العلم والقدرة من إتقان الفعل والقدرة عليه، فالذات بنفسها كافية في تأمين الغاية المطلوبة منها. فإن ذاته سبحانه من الكمال على حد، تقوم بنفسها لتأمين كل ما يطلب من الصفات، فلا حاجة إليها. وأضعف منه ما ناقش به النظرية الثانية من أن القول بتوحيد صفاته مع ذاته يستلزم جواز أن نقول: يا علم الله اغفر لي، وذلك لأن القائل بالوحدة _____ ١. الإبانة: ١٠٨. ٢. الأصول الخمسة: ١٨٣. (٩١)

إنما يقول بها وجوداً لا مفهوماً، إذ لا شك أن المفهوم من «الله» غير المفهوم من «العلم» و «القدرة» ومشتقاتهما. وعلى ذلك فيما أن العلم غيره سبحانه مفهوماً، ولكن عينه مصداقاً، لا يصح التعبير عن مقام العين بـ «يا علم الله» بل يجب أن يقول: يا الله، فالتعبير بصورة الإضافة «إضافة العلم إلى الله» دليل على أن الداعي يسير في عالم المفاهيم، لا في عالم العين والخارج، وإلا كان عليه أن يقول: يا الله. استدلاله على المغايرة

ومما يدل على أن الله عالم بعلم، أنه سبحانه لا يخلو عن أحد صورتين: ١. أن يكون عالماً بنفسه، ٢. أو بعلم يستحيل أن يكون هو نفسه. ١. فإن كان عالماً بنفسه كانت نفسه علماً، ويستحيل أن يكون العلم عالماً أو العالم علماً، ومن المعلوم أن الله عالم ومن قال: إن علمه نفس ذاته لا يصح له أن يقول: إنه عالم فإذا بطل هذا الشق تعين الشق الثاني، وهو أنه يعلم بعلم يستحيل أن يكون هو نفسه. (١) لب البرهان هو: أن واقعية الصفة هي البينونة فيجب أن يكون هناك ذات وعرض، ينتزع من اتصاف الأولى بالثاني عنوان العالم والقادر، فالعالم: من له العلم، والقادر من له القدرة، لا من ذاته نفسهما، فيجب أن يفترض ذات غير الوصف. يلاحظ عليه: أن القائل بالوحدة لا يقول بالوحدة المفهومية، أي أن ما يفهم من لفظ «الجلالة» فهو نفس ما يفهم من لفظ «العالم» فإن ذلك باطل بالبدهة، بل يقصد منه اتحاد واقعية العلم مع واقعية ذاته، وأتوجدها واحداً ببساطته ووحدته مصداق لكلا المفهومين، وليس مصداق لفظ الجلالة في الخارج مغايراً لمصداق العلم، وأن ساحة الحق متزهة عن فقد أية صفة كمالية في مرتبة الذات، بل لوجود البحث البسيط نعوت وأوصاف، كلها موجودة _____ ١. اللمع: ٣٠. (٩٢)

بوجود واحد، فتلك الصفات الإلهية متكررة بالمعنى والمفهوم، واحدة بالهوية والوجود. ولا يعني أصحاب نظرية الوحدة تعطيل الذات عن الصفات وخلوها عن واقعتها، كما عليه القائل بالنيابة، بل يعنون أن وجوداً واحداً بوحدته وبساطته، من دون تكثر فيه، هو نفس العلم والقدرة وسائر الكمالات، ورب وجود يكون من الكمال على حد يكون نفس الكشف والعلم، ونفس القدرة والاستطاعة، وهو

في الكمال أكد من الوجود الذي يكون العلم والقدرة زائدين عليه. أضف إلى ذلك: أن الشيخ الأشعري لم يتأمل في مقالة القائل بالوحدة، ولأجله رمى القائل بها بأنه لا يصح له إجراء الصفات على الله، وليس له أن يقول: إنه عالم. فإن الفرق بين القول بالعينية والزيادة، كالفرق بين قولنا: زيد عدل وزيد عادل، فالأولى من القضيتين أكد في إثبات المبدأ من الآخر، والقول بالعينية أكد من القول بالزيادة، فلو استحق الإنسان الواقف على ذاته وماوراءها بعلم زائد، أن يوصف بكونه عالمًا، كان الموجود الواقف على الذات والأشياء بعلم هو نفسه وذاته، أولى بالاستحقاق بالتوصيف. وقد اغترّ الشيخ بظاهر لفظ «عالم» و«قادر» حيث إن المتبادر منه هو كون الذات شيئًا والوصف شيئًا آخر. فحكم بإجرائه عليه سبحانه بهذا النمط بلا تغيير ولا تحوير. ومعنى هذا هو أن المعارف العليا تقتنص من ظواهر الألفاظ وإن كانت الأدلة العقلية الواضحة تخالفها وتردّها، فإن الألفاظ العامة عاجزة عن تفسير ما هناك من المعارف والمعاني. مضاعفات القول بالزيادة

إذا كان في القول بعينية الصفات مع الذات نوع مخالفة لظاهر صيغة الفاعل - أعني: العالم والقادر- الظاهرة في الزيادة، كان في القول بالزيادة مضاعفات كبيرة لا يقبلها العقل السليم، ونشير إلى بعضها: ١. تعدّد القدمات بعدد الأوصاف الذاتية. وربما يتمحل في رفعه بأن (٩٣)

المراد من الزيادة هو أنها ليست ذاته ولا غير ذاته، ولكنّه كلام صوري ينتهي عند الدقة إلى ارتفاع النقيضين. والعجب أن الأشعري في موضع من كتابه «اللمع» ينفي غيرية الصفات للذات حتى لا يلزمه القول بتعدّد القدمات. لكنّه يفسر غيرية بالصفات المفارقة، ويقول: إن معنى غيرية جواز مفارقة أحد الشئيين للآخر على وجه من الوجوه، فليما دلّت الدلالة على قدم الباري تعالى وعلمه وقدرته، استحال أن يكونا غيرين. وغير خفي على القارئ النبيه أن الزيادة المستلزمة لتعدّد القدمات كما تتحقّق في مفارقة الصفات كذلك تتحقّق في ملازمتها، فالقول بعدم الوحدة يستلزم تعدّد القدمات، وإن كانت الصفات لازمة. إن القول بأن له سبحانه صفات زائدة على الذات قديمة مثله ممّا لا يجترئ عليه مسلم واع، ولم يكن أحد متفوّهاً بهذا الشرك من المسلمين غير الكلايين، وعنهم أخذ الأشعري. قال القاضي عبد الجبار: وعند الكلايين أنه تعالى يستحقّ هذه الصفات لمعان أزلية، وأراد بالأزلي: القديم؛ إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا-قديم مع الله تعالى لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك، ثم نبغ الأشعري وأطلق القول بأنه تعالى يستحقّ هذه الصفات لمعان قديمة، لوقاحتها وقلة مبالاته بالإسلام والمسلمين. (١) ٢. إن القول باتّحاد صفاته مع ذاته، يستلزم غناه في العلم بما وراء ذاته، عن غيره، فيعلم بذاته كلّ الأشياء من دون حاجة إلى الغير. وهذا بخلاف القول بالزيادة، إذ عليه: يعلم سبحانه بعلم سوى ذاته ويخلق بقدرة خارجة عن ذاته. وكون هذه الصفات أزلية لا يدفع الفقر والحاجة عن ساحته، مع أن وجود الوجود يقتضى الاستغناء عن كلّ شيء. وأما الاستدلال على الزيادة بظواهر بعض الآيات، كقوله سبحانه: ١. الأوصال الخمسة: ١٨٣. وقد تقدّم ملخصاً فلاحظ.

(٩٤) (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) (١)، وقوله سبحانه: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) (٢) فضعيف جدًّا، إذ لا دلالة لهما على الزيادة ولا على العينية، وإنما تدلّ على أن له سبحانه علماً.

وأما الكيفية فتطلب من مجال آخر. وفي الختام نقول: إن «الصفاتية» في علم الكلام وتاريخ العقائد هم الأشاعرة ومن لفّ لفهم في القول بالأوصاف الزائدة. كما أن المعطلّة هم نفاثتها، حيث عطّلوا الذات عن التوصيف بالأوصاف الكمالية، وقالوا بالنيابة. وقد عرفت الحقّ، وليس في القول بالوحدة (لا القول بالنيابة) أي تعطيل لتوصيف الذات بالصفات الكمالية. وعلى أيّ تقدير، فقد صارت زيادة الصفات مذهباً لأهل السنّة قاطبة، وصدر في بغداد كتاب سمي «الاعتقاد القادري» وذلك في ١٧ محرم سنة ٤٠٩هـ و قرئ في الدواوين وكتب الفقهاء فيه: «إنّ هذا اعتقاد المسلمين، ومن خالفهم فقد فسق وكفر» جاء في الكتاب: «وهو القادر بقدرة، والعالم بعلم أزلي غير مستفاد، وهو السميع بسمع، والمبصر ببصر، متكلم بكلام، لا يوصف إلا بما وصفه به نيّه - صلّى الله عليه وآله وسلّم - وكلّ صفة وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسول فهي صفة حقيقية لا مجازية، وإنّ كلام الله غير مخلوق، تكلم به تكليماً فهو غير مخلوق

بكل حال متلوّاً ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً، ومن قال: إنّه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر، حلال الدم بعد الاستتابة منه». (٣) وربما تطلق «الصفات» على من يصفه سبحانه بالأوصاف الخيرية (مع التشبيه أو مع التنزيه) في مقابل التفويض أو التأويل، وهذا هو الذي نبحت عنه في البحث التالي. _____ ١. النساء: ١٦٦. ٢. فاطر: ١١. ٣. المنتظم: ١٩٥-١٩٦؛ البداية والنهاية: ١٢/٦-٧؛ هامش تاريخ ابن الأثير: ٢٩٩/٧-٣٠٢.

رأيه في الصفات الخيرية

رأيه في الصفات الخيرية

قسّم الباحثون صفاته سبحانه إلى صفات ذاتية وصفات خيرية. فالعلم والقدرة والحياء والسمع والبصر، وكلّ ما يطلق عليه الصفات الكمالية «صفات ذاتية»، وما دلّت عليه ظواهر الآيات والأحاديث، كالعلو والوجه واليدين والرجل إلى غير ذلك ممّا ورد في المصدرين «صفات خيرية» وقد اختلفت كلمات المتكلمين في توصيفه سبحانه بالأخير على أقوال هي: أ. الإثبات مع التشبيه والتكليف وهو إجراؤها على الله سبحانه بنفس المعاني المرتكزة في أذهان الناس من دون أى تصرّف فيها، وهو قول المشبهة، فقد زعموا أنّ الله سبحانه عينيّن ويدين ورجلين مثل الإنسان. قال الشهرستاني: أمّا مشبهة الحشوية فقد أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأنّ المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حدّ الإخلاص والاتحاد المحض. وحكى الكعبى عن بعضهم أنّه كان يجوّز الرؤية في دار الدنيا، وأنهم يزورونه ويزورهم. وحكى عن داود الجواربى أنّه قال: اعفونى عن الفرج واللحية وأسألونى عمّا وراء ذلك. وقال: إنّ معبوده جسم ولحم ودم، وله جوارح (٩٦)

وأعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين وأذنين، ومع ذلك جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللحوم ودم لا كالدماء، وكذلك سائر الصفات، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء، وحكى عنه أنّه قال: هو أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ما سوى ذلك، وأنّ له فروة سوداء، وله شعر ققط!! وأمّا ما ورد في التنزيل من الاستواء، والوجه واليدين والجنب، والمجىء والإتيان والفوقية وغير ذلك، فأجروها على ظاهرها، أعنى: ما يفهم عند إطلاق هذه الألفاظ على الأجسام، وكذلك ما ورد في الأخبار من الصورة وغيرها في قوله عليه الصلاة والسلام: «خلق آدم على صورة الرحمن» وقوله: «حتى يضع الجبار قدمه في النار» وقوله: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» وقوله: «خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً» وقوله: «وضع يده أو كفّه على كتفى»، وقوله: «حتى وجدت برد أنامله على كتفى» إلى غير ذلك، أجروها على ما يتعارف في صفات الأجسام، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبها إلى النبى عليه الصلاة والسلام، وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإنّ التشبيه فيهم طباع، حتى قالوا: اشتكت عيناه (الله) فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وإنّ العرش لتثط من تحته كأطيط الرحل الحديد، وأنّه ليفضل من كلّ جانب أربع أصابع، وروى المشبهة عن النبى عليه الصلاة والسلام «لقينى ربي فصافحنى وكافحنى ووضع يده بين كتفى حتى وجدت برد أنامله». (١) هذه عقيدة المشبهة والمجسمة في الصفات الخيرية، وإليك دراسة سائر المذاهب. ب: الإثبات بلا تشبيه ولا تكليف

إنّ الشيخ الأشعرى يجريها على الله سبحانه بالمعنى المتبادر منها في العرف، لكن مع التنزيه عن التشبيه والتجيب عن التكييف، قال في الإبانة: _____ ١. الملل والنحل: ١٠٥/١-١٠٦.

(٩٧)

وإنّ الله استوى على عرشه كما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). (١) وأنّ له وجهاً بلا كيف كما قال: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ). (٢) وأنّ له يدين بلا- كيف كما قال: (خَلَقْتُ يَدَيَّ) (٣)، وكما قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ). (٤) وأنّ له عيناً بلا كيف كما قال: (تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا) (٥). (٦) وقال في الباب السابع من هذا الكتاب: إن قال: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول: إنّ الله عزّوجلّ يستوى على عرشه كما قال: يليق به من غير طول الاستقرار كما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى). ثم قال بعد عرض عدّة من

الآيات: كل ذلك يدل على أنه ليس في خلقه، ولا خلقه فيه، وأنه مستو على عرشه بلا كيف ولا استواء. (٧) وقال في الباب الثامن: قال الله تبارك و تعالی: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) (٨) وقال عزوجل: (وَيَقْبَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (٩)، فأخبر أن له وجهاً لا يفنى ولا يلحقه الهلاك، وقال عزوجل: (تَجْرَىٰ بِأَعْيُنِنَا) . وقال: (وَاصْبِرْ لِقَوْلِ الْكَلْبِ بِأَعْيُنِنَا وَوَعَيْنَا) ، فأخبر عز وجل أن له وجهاً وعيناً ولا يكيف ولا يحد. (١٠) وعلى ذلك فالأشعري من أهل الإثبات كالمشبهة والمجسمة، لا من أهل التفويض ولا من أهل التأويل، وسيوافيك بيانهما. والفرق بين المشبهة وما _____ ١ . طه: ٥. ٢ . الرحمن: ٢٧. ٣ . ص: ٧٥. ٤ . المائدة: ٦٤. ٥ . القمر: ١٤. ٦ . الإبانة: ١٨. ٧ . الإبانة: ٩٢. ٨ . القصص: ٨٨. ٩ . الرحمن: ٢٧. ١٠ . الإبانة: ٩٥.

(٩٨)

ذهب إليه الأشعري، هو أن الطائفة الأولى تجريها على الله سبحانه بحرفيتها من دون أي تصرف فيها، ولكن الأشعري ومن لف لفه يثبتونها على الله بنفس معانيها لكن متقيدة باللا كيفية واللا تشبيه، حتى يخرجوا من التجسيم والتشبيه وينسلخوا في أهل التنزيه. وليس هذا المعنى مختصاً به، بل هناك من يوافق من المتقدمين والمتأخرين، يطلق عليهم أهل الإثبات أو المثبتة، في مقابل المفوضة والمؤولة والنفاة بتاتاً، وإليك نقل ما أثر عن غيره في هذا المجال مما يوافق: قال أبو حنيفة: وما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف ولا يقال إن يده قدرته ونعمته، لأن فيه إبطال الصفة، وهذا قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف. وقال الشافعي: لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجّة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجّة، فإنه يعذر بالجهل؛ وثبتت هذه الصفات ونفى عنه التشبيه كما نفى عن نفسه، فقال بـ (ليس كمثل شيء). وقال ابن كثير: وأما قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، وإنما نسلك مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وليس كمثل شيء. (١) إثبات الأشعري بين التشبيه والتعقيد

يجب على كل مؤمن الإيمان بما وصف الله به نفسه، وليس أحد أعرف به منه (أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ) كما أنه ليس لأحد أن يصرف كلامه سبحانه، عما _____ ١ . راجع فيما نقلناه عن أبي حنيفة والشافعي وابن كثير «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤٦-٤٩.

(٩٩)

هو المتبادر من ظاهره، إذ التأويل بلا اعتماد على نص قطعي يفقد النصوص هيبتها، وإن المؤولة الذين يؤولون ظواهر الكتاب والسنة - بحجّة أن ظواهرهما لا توافق العقل - مردودون في منطوق الشرع، إذ لا يوجد في الكتاب والسنة الصحيحة ما ظاهره خلاف العقل، وإنما يتصورونه ظاهراً ثم يحملونه على خلافه، ليس مفاد الآية والمتبادر منها عند التدبر. هذا كله مما لا خلاف بين جمهور المسلمين فيه، ولكن الذي يجب إلفات النظر إليه، هو أن العقيدة الإسلامية المستقاة من الكتاب والسنة تتسم بالدقة والرصانة والسلامة من التعقيد والألغاز، وهي تبدو جليّة مطابقة للفطرة والعقل السليم للجماهير على كافة المستويات، وتتصف بالصفاء والنقاء. فهذه سمة العقيدة الإسلامية، وعلى ذلك فإبرازها بصورة التشبيه والتجسيم المأثورين من اليهودية والنصرانية، أو بصورة التعقيد والألغاز، لا يجتمع مع موقف الإسلام والقرآن في عرض العقائد على المجتمع الإسلامي، فلا محيص لمن يعرض العقائد الإسلامية عن رعايته أمرين: ١. التحرز عن سمة التشبيه والتجسيم. ٢. الاجتناب عن الجمود على اللفظ وجعل صفاته سبحانه ألفاظاً جوفاء، أو معاني معقدة لا يفهم منها شيء، بحجّة أن البحث عن الكيف ممنوع. إن إثبات الصفات له سبحانه لو انتهى إلى التكييف والتشبيه فهو كفر وزندقه، لقوله سبحانه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولا ينفذ الفرار عنه بكلمة مبهمه، أعني «الإمرار بلا كيف» كما هو المشاهد في كلمات أغلب المشبهين للصفات، إذ هو أشبه بالإنكار بعد الإقرار، ولا إنكار بعده. فالإصرار على الإثبات تبعاً للنصوص، والتهجم على النفاة، والذهاب في هذا السبيل إلى حدّ التجسيم، غواية وضلالة؛ والاعتماد في ذلك على كلمات السلف اعتماداً على قول من ليس بمعصوم ولا حجّة،

والعقائد تعرض على القرآن والسنة الصحيحة والعقل السليم الذي به عرف الله وثبت وجوده، لا على قول السلف الذين لم يخلوا من طالح، فحشد عبارات بعض السلف في مجال العقائد لا ينفع شيئاً. (١٠٠)

كما أن إثبات صفاته سبحانه، على نحو ينتهي إلى اللغز والتعقيد ويتسم بعدم المفهومية، مردود بنص القرآن الكريم حيث ندب إلى التدبر فيما أنزل إلى نبيه، قال عز من قائل: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) (١). وقال سبحانه: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ). (٢) ولكن مع الأسف إن إثبات الصفات الخيرية لله سبحانه وإمرارها عليه بين الأشاعرة وغيرهم لا يخرج عن أحد هذين الإطارين، فالكل إما يتكلمون عنها في إطار التشبيه والتكييف، ويسترسلون في هذا المضمار، أو يفسرونها في إطار من التعقيد والغموض إذا احتزوا عن البحث والتفصيل، والكل مردود، مرفوض. وهانحن نأتى ببعض نصوص القوم في هذا المجال، حتى نرى كيف أن العناية بالإثبات في مقابل «نفاة الصفات» أفضى بالقوم إما إلى حد التشبيه، أو إلى حد التعقيد. فمن كلمات الطائفة الأولى: ١. قيل لعبد الله بن مبارك: كيف يعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه. (٣) ٢. وقال الأوزاعي: إن الله على عرشه، وثؤمن بماوردت به السنة من صفاته. (٤) ٣. وقال الدارمي في مقدمته كتابه «الرد على الجهمية»: استوى على عرشه، فبان من خلقه، لا تخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط، وبصره فيهم نافذ. (٥) ٤. وقال المقدسي في كتابه «أقوال الثقات في الصفات»: ولم ينقل عن النبي أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر في كلامه في صفة ربه من الفوقية ————— ١. النساء: ٨٢، ٢. ص: ٢٩، ٣. راجع في الوقوف على مصادر هذه النصوص كتاب «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤٨، ٤١، ٤٨، ٤٦، ٤٨. راجع في الوقوف على مصادر هذه النصوص كتاب «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤٨، ٤١، ٤٨، ٤٦، ٤٨. راجع في الوقوف على مصادر هذه النصوص كتاب «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤٨، ٤١، ٤٨.

(١٠١)

واليدنين ونحو ذلك، ولا- نقل لهذه الصفات معاني أخر، باطنها غير ما يظهر من مدلولها، وكان يحضر في مجلسه العالم والجاهل والذكي والبليد والأعرابي الجافي، ثم لا تجد شيئاً يعقب تلك النصوص بما يصرفها عن حقائقها، لا نصاً ولا ظاهراً، ولما قال للجارية: أين الله؟ فقالت: في السماء، لم ينكر عليها بحضرة أصحابه كي لا يتوهما أن الأمر على خلاف ما هي عليه، بل أقرها وقال: أعتقها فإنها مؤمنة. (١) ٥. وقال القرطبي في تفسيره عند تفسير آية الأعراف (ثم استوى على العرش): وقد كان السلف الأول - رضى الله عنهم - لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنها لا تعلم حقيقته. (٢) إلى غير ذلك من الكلمات التي يتبادر منها أن القائل بها يريد إجلاله سبحانه على العرش إجلالاً حقيقياً حسيباً، وأن تلك هي العقيدة الإسلامية التي يشترك فيها العالم والأعرابي الجافي. وتصحيح ذلك بالجهل بالكيفية لا يفيد شيئاً، فإن تلك اللفظة المجملة شيء تلتجى إليه كل من المشبهة والمجسمة، ويقولون إن الله سبحانه جسماً لا كسائر الأجسام، ولحمًا لا كاللحوم، ودماً لا كالدماء، وكذلك سائر الصفات، وإنما استحيوا عن إثبات الفرج واللحية، وإذ قال قائلهم: اعفوني عن الفرج واللحية وأسألوني عما وراء ذلك. (٣) ليت شعري إذا كانت تلك اللفظة المبهمه مفيدة في مجال التوحيد والتنزيه والتجنب عن التشبيه فليقولوا: إن الله جسم لا- كالأجسام، عرض لا كسائر ————— ١. علاقة الإثبات والتفويض: ١١٥، ٢. علاقة الإثبات والتفويض: ١١٥، ٣. الملل والنحل: ١/١٥.

(١٠٢)

الأعراض، آكل وشارب لا كالإنسان والحيوان، فلماذا يستحيون عن حشد هذه الأوصاف مع أنها تفيدهم في التنزيه، «البلكفة» وتكرار بلا كيف ولا تشبيه بعد كل صفة خبرية. وبعد هذا لا تتعجب مما ذكره الزمخشري في كشفه عن هؤلاء القوم حيث يقول: ثم تعجب من المتسمين بالإسلام، المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة (أي قولهم بلا

كيف) فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العدلية فيهم: قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الوري فستروا بالبلكفة (١) ثم إننا نرى أن هؤلاء مع تحزهم عن تأويل الآيات يؤولون الآيات التي لا تناسب التجسيم بل تضاده، فما هو الهدف من هذا التأويل مع كونه على خلاف منهجهم، وإليك الآيات التي يصير القوم على تأويلها وحملها على خلاف ظاهرها، وما ذلك إلا بأن الأخذ بظاهرها لا يجتمع مع جلوسه سبحانه على العرش، وكونه في تلك الجهة، وكونه جسمًا متحيزًا في مكان خاص. ١. قوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). (٢) ٢. قوله سبحانه: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيَّمَا كَانُوا). (٣) ٣. قوله سبحانه: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ). (٤) فلو لم يكن هدف القوم من الجمود على الظواهر هو التجسيم والجهة فما هو الداعي إلى تأويل هذه الآيات بأن المراد منها هو إحاطة علمه سبحانه بالناس، لا إحاطة ذاته ووجوده، أليس ذلك يدل على أن القوم يبتغون _____ ١. الكشاف: ١/٥٧٦. ٢. الحديد: ٤. ٣. المجادلة: ٧. ٤. الزخرف: ٨٤.

(١٠٣)

العقيدة بجلوسه سبحانه في السماء على عرشه حقيقته، ولما شاهدوا أن ذلك لا يجتمع مع إحاطة وجوده لجميع العوالم الإمكانية، خرجوا عن منهجهم بتأويل هذه الآيات بحمل الإحاطة على الإحاطة العلمية لا الوجودية، والعجب أنهم من يقول بوجوده سبحانه في كل مكان بالقول بالطول والنفوذ في الأجسام، وهم لا يفرقون بين الإحاطة الجسمية المادية ولا الإحاطة القيومية، والآية ناطرة إلى الثانية لا الأولى. هذا حال الطائفة الأولى، وأما الطائفة الأخرى التي أفضى بهم القول بالإثبات إلى مهزلة الغموض والتعقيد، وكان الصفات الواردة في الذكر الحكيم لم ترد للتدبر فيها، فإليك نزرًا من كلماتهم: ١. قال سفيان بن عيينة: كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره، لا كيف ولا مثل. (١) ٢. قال ابن خزيمة: إنما ثبت لله ما أثبتة لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك في قلوبنا من غير أن نشبه وجهه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين. (٢) ٣. قال الخطيب: إنما وجب إثباتها، لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفى التشبيه عنها بقوله تعالى: (ليس كمثله شيء). (٣) ٤. قال ابن قدامة المقدسي: وعلى هذا درج السلف والخلف - رضى الله عنهم - متفقون على الإقرار والإقرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله. (٤) ٥. يقول ابن تيمية - مثير هذه النظرية بعد متروكيتها - «إن الله يدين مختصتين به ذاتيتين له كما يليق بجلاله، وإنه سبحانه خلق آدم بيده دون _____ ١. علاقة الإثبات والتفويض: ٤٤. ٢. نفس المصدر: ٥٨. ٣. علاقة الإثبات والتفويض: ٥٩. ٤. نفس المصدر: ٥٩.

٥٩

(١٠٤)

الملائكة وإبليس، وإنه سبحانه يقبض الأرض ويطوى السماوات بيده اليمنى. (١) ٦. يقول الخطابي: وليس اليد عندنا الجارحة، وإنما هي صفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاء ولا نكفيها. (٢) ٧. يقول الإلكائي: إن وكيعًا قال: إذا سُئِلْتُمْ عَنْ ضَحْكِ رَبِّنَا فَقُولُوا سَمِعْنَا بِهَا. (٣) هذه العبارة ونظائرها تصبغ صفات الله بصبغة التعقيد والإبهام، ولا تهدي الإنسان إلى معرفة. فإن اليد والوجه والرجل موضوعة للأعضاء الخاصة في الإنسان، ولا يتبادر منها إلا ما يتبادر عند أهل اللغة، وحينئذ فإن أريد منها المعنى الحقيقي يلزم التشبيه، وإن أريد غيره فذلك الغير إما معنى مجازي أريد منه بحسب القرينة فيلزم التأويل، وهم يفرون منه فرار المزكوم من المسك. وإما شيء لا هذا ولا ذاك، فما هو ذلك الغير؟ بينوه لنا حتى تتسم العقيدة بالوضوح والسهولة، ونبعد عن التعقيد والإبهام. وإلا فالقول بأن له وجهًا لا كالوجه، ويدًا لا كالأيدي ألفاظ جوفاء وشعارات خداعة لا يستفاد منها شيء سوى تخديش الأفكار وتضليلها عن جادة الصواب. وباختصار: إن المعنى الصحيح لا يخرج عن المعنى الحقيقي والمجازي، وإرادة أمر ثالث خارج عن إطار هذين المعنيين يعد غلطًا وباطلًا، وعلى هذا الأساس لو أريد المعنى الحقيقي لزم التشبيه بلا إشكال، ولو أريد المعنى المجازي لزم التأويل، والكل ممنوع عندهم، فما هو المراد من هذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة؟ إن ما يلهجون به ويكررونه من أن هذه الصفات تجرى

على الله سبحانه بنفس معانيها الحقيقية ولكن الكيفية مجهولة، أشبه بالمهزلة، إذ لو كان إمرارها _____ ١ . مجموعة الفتاوى: ٦/٣٦٢ . ٢ . فتح الباري: ١٣/٤١٧ . ٣ . علاقة الإثبات والتفويض: ٩٧ . (١٠٥)

على الله بنفس معانيها الحقيقية لوجب أن تكون الكيفية محفوظة حتى يكون الاستعمال حقيقياً، لأن الواضع إنما وضع هذه الألفاظ على تلك المعاني التي يكون قوامها بنفس كقيمتها، ويكون عمادها وسنادها بنفس هويتها الخارجية. فاستعمالها في المعاني، حقيقة بلا كيفية أشبه بالأسد بلا ذنب ولا مخلب ولا ولا... فقولهم: «المراد هو أن الله يداً حقيقة لكن لا كالأيدي» أشبه بالكلام الذي يناقض ذيله صدره. أضف إلى ذلك أنه ليس في النصوص من الكتاب والسنة من هذه «البلكفة» أثر ولا عين، وإنما هو شيء اخترعه الفاكهة، للتذرع به في مقام الرد على الخصم والنقص عليهم، بأن لازم إمرارها على الله بنفس معانيها، هو التجسيم والتشبيه. وقد ذكرنا ما يفيد في المقام عند تحليل عقائد الحنابلة حول الصفات، فراجع. ج: التفويض

إن هناك نظرية ثالثة حول الصفات الخيرية اختارها جمع من الأشاعرة وهي نظرية التفويض، وحاصلها الإيمان بكل ما جاء في القرآن والسنة من الصفات التي وصف الله سبحانه نفسه بها إجمالاً، وتفويض ما يراد منها إليه: ١. يقول الغزالي: وأقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما يترجمه قوله - لا- إله إلا الله، محمّد رسول الله - ثم إذا صدق الرسول فينبغي أن يصدق في صفات الله بأنه حي قادر، عالم متكلم مريد، ليس كمثل شيء وهو السميع العليم. وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الأعراب وعوام الخلق، إلا من وقع في بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل كقدم القرآن وحدوثه، ونفى الاستواء والنزول وغيره. (١) ٢. قال الشهرستاني: أعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله _____ ١ . علاقة الإثبات: ١٦٢ نقلاً عن الرسالة الواعظية. (١٠٦)

تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام... وكذلك يثبتون صفات خيرية مثل اليدين والوجه، ولا يؤولون ذلك، إلا أنهم يقولون هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسبها صفات خيرية، ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات، والسلف يثبتون، سمى السلف صفاتية، والمعتزلة معطلة (لتعطيل ذاته سبحانه عن التوصيف بمحامد الصفات) - إلى أن حكى عن بعض السلف - : عرفنا بمقتضى العقل أن الله ليس كمثل شيء. فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شيء منها وقطعنا بذلك، إلا أننا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله سبحانه: (الرحمن على العرش استوى)، ومثل قوله: (لما خلقت بيدي)، ومثل قوله: (وجاء ربك)، إلى غير ذلك، ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له وليس كمثل شيء، وذلك قد أثبتناه. (١) ٣. قال ابن الجوزي في «تلييس إبليس»: واعلم أن عموم المحدثين حملوا ظاهر ما تعلق من صفات الباري سبحانه على مقتضى الحس فشبها، لأنهم لا- يخالطون الفقهاء فيعرفوا حمل المتشابه على مقتضى المحكم. (٢) ٤. ويظهر ذلك من الرازي في أساس التقديس قال: إن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها، كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض في تفسيرها. (٣) وهنا كلمات للقائلين بالتفويض يشبه بعضها بعضاً. إن التفويض هو شعار من لا يتعرض للأبحاث الخطيرة، ولا- يقتحم المعارك المدلهمه، ويرى أنه يكفي في النجاة قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان» (٤)، وعند ذاك يرى _____ ١ . الملل والنحل: ١/٩٢-٩٣ . ٢ . تلييس إبليس: ١١٣، ط دار العلم. ٣ . أساس التقديم: ٢٢٣ كما في علاقة الإثبات: ١٠٢ . ٤ . صحيح البخاري: ١/٧، كتاب الإيمان.

(١٠٧)

أن التفويض أسلم من الإثبات الذي ربما ينتهي - عند الإفراط - إلى التشبيه والتجسيم المبعوض، أو إلى التعقيد واللغز الذي لا يجتمع مع سمة سهولة العقيدة. هذه حقيقة التفويض، غير أن ابن تيمية شنّ على هذه الطائفة بما ليس في شأنهم وقال: إن هؤلاء المبتدعة هم

الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف، من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث، من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها، واعتقدوا أنهم بمنزلة الأعميين الذين قال الله فيهم: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا) (١). (٢) وكأنه تأثر بما ذكره محيي الدين ابن العربي حيث رد على أهل التفويض وقال: «قالوا تؤمن بهذا اللفظ كما جاء من غير أن نعقل له معنى، حتى نكون في هذا الإيمان به في حكم من لم يسمع به، ونبقى على ما أعطانا دليل العقل من إحالة مفهوم هذا الظاهر. وهذا القول بهذا القسم متحكم أيضاً، فإنه رد على الله بأنهم جعلوا نفوسهم في حكم نفوس لم تسمع ذلك الخطاب. وقسم آخر قالوا: تؤمن بهذا اللفظ على حد علم الله فيه وعلم رسوله، فهؤلاء قد قالوا: إن الله خاطبنا عبثاً لأنه خاطبنا بما لا نفهم، والله يقول: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (٣). (٤) غير أننا نلفت نظر القارئ إلى أن ما عاب به ابن تيمية أهل التفويض مشترك بينهم وبين أهل الإثبات، فقد عرفت أن إثبات الصفات الخبرية مع حفظ التنزيه تجعل الصفات ألقاظاً بلا معان واضحة، لما سبق من أن الكيفية المادية هي المقومة للبدن والوجه والرجل، وإثبات مفاهيمها مع سلب كفياتها أشبه شيء بإثبات شيء في عين سلبه، فعندئذ تنقلب الآيات البيّنات الدالّة على _____ ١ . البقرة: ٧٨. ٢ . علاقة الإثبات والتفويض: ٣٠٦ . إبراهيم: ٤٠٤ . الفتوحات المكية: ٤/٩٢٨.

(١٠٨)

أشرف المعاني وأجلها، لدى القوم، إلى آيات غير مفهومه ولا معقولة. والعجب أن أحد المصّرّين على الإثبات بصورة النمط الأشعري يحسبه عقيدة سلفية، ويقول في كتابه: إن صفات الله يجب أن تكون لدى المسلم بديهيات ذهنية تتغلغل في قلبه، فيتحرر من أي ضغط خارجي، لما لها من انعكاسات تربوية هامة على النفس البشرية - إلى أن قال -: إن الجهل بالله أمر خطير، وضرره على المسلمين كبير، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون عرضه للزلاّت، وأن يكون قلبه مورداً للشبهات ومستقراً للأوهام. (١) إن السمة التي يثبتها الكاتب لصفات الله، هل هي موجودة في قولهم: إن لله يداً لا كالأيدي، أو وجهاً لا كالوجوه، أو أن هذا لا يزيد في صفاته تعالى إلا غموضاً وتعقيداً، وتصبح العقيدة الإسلامية عند الواصف كالعقائد المتخذة من الكنائس التي يدعى أصحابها أن الإيمان بها واجب، وإن لم يعلم كنهها، كما هو قولهم في التثليث ونظائره. قال حنبل بن إسحاق: سألت أحمد بن حنبل: ألم ترو عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن الله ينزل إلى سماء الدنيا؟ قال أحمد: تؤمن بها ونصدق ولا نرد شيئاً عنها إذا كانت الأسانيد صحاحاً - إلى أن قال -: قلت: أنزوله بعلمه أو بماذا؟ قال: اسكت عن هذا، مالك ولهذا، امض الحديث على ما روى بلا كيف ولا حد. (٢) إن سؤال ابن إسحاق أوضح دليل على أن الإثبات على النمط الذي يتبناه أهل الحديث لا يجعل العقيدة الإسلامية واضحة مفهومه، بل يجعلها مجهولة معقدة. ولكن يجب الإيمان بها مهما كانت غير مفهومه ولا معقولة، ولا تنس ما رمى به ابن تيمية أهل التفويض بأنهم اعتقدوا أنهم بمنزلة الأعميين الذين قال الله فيهم - إلخ. ولا تنس أيضاً ما شن به ابن العربي على تلك الطائفة بقوله: إنهم جعلوا نفوسهم في حكم نفوس لم تسمع ذلك الخطاب، إنهم قالوا: إن الله خاطبنا عبثاً بما لا نفهم. _____ ١ . علاقة الإثبات والتفويض: ٢٠١٥ . ٢ . شرح أصول السنة للألكائي كما في علاقة الإثبات والتفويض: ٩٨.

(١٠٩)

إن المنهجين يرتضعان من ثدى واحد، لا - فرق بينهما في المعنى واللب، وإنما يختلفان في التعبير، فأهل التفويض يعترفون بجهلهم بمعاني هذه الصفات، وللتوقى عن التورط في مغبة التشبيه أو التقول بغير العلم، يفوضون معانيها إلى الله. وأما أهل الإثبات، فلو أنهم صدقوا في قولهم بلا تشبيه ولا تكييف، فهم يعترفون بذلك مآلاً، وإن كانوا يجحدون بها ابتداءً. وإذا أردت أن تقف على أن نظرية الإثبات على النمط الثاني تجعل المعاني السامية والمعارف العليا الواردة في الذكر الحكيم في عداد الألباب والمبهمات و...، فانظر إلى ما يذكره عبدالقادر الجيلاني في «الغنية». يقول الجيلاني: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش، لا على معنى القعود والمماسه، كما قالت المجسمة والكرامية، ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشاعرة، ولا على معنى الاستيلاء

والغلبة كما قالت المعتزلة؛ لأنَّ الشرع لم يرد بذلك، ولا- نقل عن أحد من الصحابة، ولا نقل من السلف الصالح من أصحاب الحديث، بل المنقول عنهم حملة على الإطلاق، وقد روى عن أم سلمة زوج النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في قوله سبحانه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (١) قالت: كيف غير معقول والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب والجحود كفر. (٢) فعندئذ نسأل الجيلاني: إذا لم يكن هذا ولا ذاك ولا ذلك مراداً، فما هو المراد من تلك الآيه، والتي تكررت في الذكر الحكيم سبع مرات؟ وهل فهم الشيخ منها أمراً معقولاً أو أو كل الجميع إلى الله سبحانه؟ وكم للقوم من هذه الكلمات المفروغة في قوالب، وم آلهما إلى الجهل بمفاهيم الآيات ومضامين الذكر الحكيم، وكأنه سبحانه لم يخاطبهم بقوله: _____ ١ . طه: ٥. ٢ . الغنية: ٥٦.

(١١٠) (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ) . (١) التفويض أو تعطيل العقول عن التفكير

إنَّ أهل الإثبات بعامة فروعهم المعتبرة بالتعطيل، ويصفونهم بـ«المعطله» لتعطيلهم ذاته سبحانه عن التوصيف بمحامد الأوصاف وجلائل النعوت، غير أنه يجب إلفات نظرهم إلى أنَّ أهل التفويض من أهل الإثبات من المعطله أيضاً، لكن بملاك آخر، وهو تعطيل العقول عن التفكير في المعارف والأصول، كما عطلوها عن التدبر في الآيات والأحاديث، فكأنَّ القرآن أُلغز نزلت إلى البشر، وليس كتابه هداية وتعليم وإرشاد، قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) . (٢) فإذا كان القرآن مبيناً لكل شيء، فكيف لا يكون مبيناً لنفسه، وكيف يكون المطلوب نفس الاعتقاد من دون فهم معناه. إنَّ المنع عن التفكير والتدبر فيما نزل من الذكر الحكيم، وما يحكم به العقل السليم محجوج بنص القرآن لا- يقبل من أي إنسان، والاستدلال عليه بقول الشاعر أخذ بنغمه الشاعر، وترك لنص الباري: نهاية إقدام العقول محال وأكثر سعى العالمين ضلال ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا(٣) والعجب أن تعطيل العقول عن البحث والمعرفة أخذ في هذه الأعصار صبغة علمية مادية بحتة، بحجة أن مبادئها ومقدماتها ليست في متناول الباحثين، لأنها موضوعات وراء الحس والطبيعة، ولا تعمل فيها حواس الإنسان، فهذا هو السيد الندوي يتمسك بهذا الوجه، ويعد ترك البحث فضيلة، والبحث عن المعارف القرآنية كفراناً للنعمه. _____ ١ . النساء: ٨٢. ٢ . النحل: ٨٩. ٣ . منسوب إلى الرازي كما في شرح العقائد الطحاوية: ٢٢٧.

(١١١)

يقول: «وقد كان الأنبياء - عليهم السلام - أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله، وعن بداية هذا العالم ومصيره، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته، وآتوهم علم ذلك كله بواسطة عقولهم عفواً بدون تعب، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التي يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول، لأنَّ هذه العلوم وراء الحس والطبيعة، لا تعمل فيها حواسهم ولا يؤدي إليها نظرهم، وليست عندهم معلوماتها الأولية. لكن الناس لم يشكروا هذه النعمه وأعادوا الأمر جذعاً، وأبدوا البحث آنفاً وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خزيتاً. (١) إنَّ الكاتب حسب ما توحى عبارته متأثر بالفلسفة المادية التي تحصر أدوات المعرفة بالحس، ولا يقيم وزناً للعقل الذي هو إحدى أدواتها، وهذا من الكاتب أمر عجيب جداً، فإنَّ الله سبحانه كما دعا إلى الانتفاع بالحس ومطالعة الطبيعة، وكشف قوانينها وأنظمتها، دعا إلى التعقل والتفكير في كل ما ورد في القرآن الكريم حيث قال: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) . (٢) وليست الآيه ناظرة إلى التدبر في خصوص الأنظمة السائدة على النبات والحيوان والإنسان، بل التدبر في مجموع ما جاء في القرآن، فقد جاء في القرآن الكريم معارف دعا إلى التدبر فيها نظير: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (٣)، (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (٤)، (لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (٥)، (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) (٦)، (فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (٧)، (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ) _____ ١ . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٩٧. ٢ . محمد: ٢٤. ٣ . الشورى: ١١. ٤ . النحل: ٦٠. ٥ . طه: ٨. ٦ . الحشر: ٢٣. ٧ . البقرة: ١١٥.

(١١٢) (وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (١)، (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) (٢)، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) (٣)، (يُمَحِّوهُمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) . (٤)

إلى غير ذلك من المعارف العليا الواردة في القرآن الكريم، ولا يصل إليها الإنسان إلا بالتدبر والتعقل، ولا تكفى في التعرف عليها العلوم الحسية وإن بلغ القمة. د. التأويل

إن تأويل نصوص الآيات وظواهرها على الإطلاق في مورد الصفات الخيرية وغيرها بلا دليل وحجة شرعية ليس بأقل خطراً من الجمود، لو لم يكن أكثر، إذ ينتهي ذلك القسم من التأويل إلى الإلحاد وإنكار الشريعة. (٥) غير أننا نخص البحث بتأويل الصفات الخيرية حيث يفسر اليد بالنعمة والقدرة، والاستواء على العرش بالاستيلاء وإظهار القدرة. فنقول: إن كان التأويل لأجل أن ظاهر القرآن يخالف العقل الصريح ولذا يجب ترك النقل لأجل صريح العقل، فلا شك أنه مردود، إذ الكتاب العزيز والسنة الصحيحة منزهان عمياً يخالف صريح العقل. ولا أظن أن مسلماً واعياً يتفوه بذلك. وما ربما ينسب إلى بعض المؤوليه من أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر (٦)، أو أن التمسك في أصول العقائد بظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة هو أصل الضلالة، فقالوا بالتشبيه _____ ١. الحديد: ٣. ٢. الحجر: ٢١. ٣. الحديد: ٤. ٤. الرعد: ٣٩. ٥. قد أشبعنا الكلام في أقسام التأويل في مقدمة الجزء الخامس من موسوعتنا القرآنية - مفاهيم القرآن - ص ١٢-١٦. ٦. الصاوي على تفسير الجلالين: ٣/١٠، كما في علاقة الإثبات والتفويض: ٦٧.

(١١٣)

والتجسيم والجهة عملاً بظاهر قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (١)، فهو من هفوات القلم وزلاّت الفكر، بل الأخذ بظواهر الكتاب نفس الهداية والإعراض عنه واللجوء إلى غيره سبب الضلالة. غير أن الذي يجب التركيز عليه هو أن الكبرى الكلية (لزوم الأخذ بالكتاب والسنة الصحيحة) لا نقاش لمسلم فيها؛ فيجب على الكلّ اتباع الذكر الحكيم من دون أي تحوير وتحريف، ومن دون أي تصرف وتأويل. إنّما الكلام في الصغرى - أي تشخيص الظاهر عن غيره، وتعيين مرمى الآية - مثلاً: هل اليد في قوله سبحانه: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (٢) ظاهرة في الجارحة المخصوصة، أو كناية عن الجود والبذل (بسط اليد) أو البخل والتقتير (غلّ اليد). وهذا هو الذي يجب بذل الجهد في سبيل معرفته، بدل السب والشتيم، أو التفسيق والتكفير. ولو أن قادة الطوائف الإسلامية وأصحاب الفكر منهم، نبذوا الآراء المسبقة والأفكار الموروثة وركزوا البحث على تشخيص الظاهر عن غيره، حسب المقاييس الصحيحة؛ لارتفع جدال الناس ونقاشهم حول الصفات، الذي دام طوال مئات السنين. إن رؤساء الطوائف الإسلامية في هذه الأعصار، لو ابتعدوا عن العصبية والحزبية والآراء التي ورثوها من أناس غير معصومين، وأحسوا بضرورة توحيد الكلمة - إثر كلمة التوحيد - ورضّ الصفوف وتكاتف الجهود، لارتفع كثير من الخلافات النابعة من تقديم الهوى على الحق. وبما أن المعتزلة هم المعنيون بالمؤولة تارة، وبالمعتلة أخرى، نبحت عن هذا الموضوع (تعيين ما هو الظاهر المتبادر عند الذكي والأعرابي الحافي من الصفات الخيرية، الواردة في الذكر الحكيم) في الفصل الذي نخصّه لبيان _____ ١. شرح أمّ البراهين: ٨٢ كما في المصدر السابق. ٢. الإسراء: ٢٩.

(١١٤)

عقائد هذه الطائفة، عسى أن نتوفى لذلك بإذنه سبحانه. (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ). (١) _____ ١. النساء: ٦٤.

(١١٥)

أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه

أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه

قد وقفت عند ترجمة الشيخ الأشعري على أنه رقى كرسياً في جامع البصرة ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني - إلى أن قال -:

كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعالها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على لمعتلة. (١) وقد ذكر في «الإبانة» في الباب الثاني: أنه لا خالق إلا الله وأن أعمال العبد مخلوقة لله ومقدورة، كما قال: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (٢) وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يُخْلَقُونَ كما قال سبحانه: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ) (٣). (٤) وقال في «مقالات الإسلاميين» في حكاية جملة قول أهل الحديث وأهل السنة: وأقروا أنه لا خالق إلا الله، وأن سيئات العباد يخلقها الله، وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا منها شيئاً. (٥) ————— ١. وفيات الأعيان: ٣/٢٨٥، فهرست ابن النديم: ٢٥٧. ٢. الصفات: ٩٦. ٣. فاطر: ٣. ٤. الإبانة: ٢٠. ٥. مقالات الإسلاميين: ١/٣٢١.

(١١٦)

وقد استدلل الشيخ بالأدلة العقلية والنقلية فاكتفى من الأول بوجهين: الدليل الأول

ما ذكره في «اللمع» وحاصله: ١. الإيمان متصف بالحسن والكمال ولكنه متعب، والكفر متصف بالقبح، ولكنه ملائم للقوى الحيوانية. ٢. إذا أراد المؤمن أن لا يكون إيمانه متعباً مؤلماً لم يقدر على ذلك، ولو أراد الكافر أن يكون كفره على خلاف ما هو عليه، أي أن يكون مخالفاً للشهوات لم يقدر عليه. ٣. كل فعل كما يحتاج في أصل الوجود إلى موجد، فكذلك يحتاج إليه في الصفات والخصوصيات. ٤. لا يصح أن يكون المؤمن موجداً للإيمان، والكافر موجداً للكفر بما لهما من الخصوصيات، لأن كلاهما يقصدهما على غير حقيقتهما، فالكافر يقصد الكفر بما أنه أمر حسن، ولكنه في الحقيقة قبيح. كما أن المؤمن يقصد الإيمان بما أنه غير متعب، وهو ليس كذلك، فينتج: إذا لم يكن المحدث للكفر على ما له من الوصف شخص الكافر، ولا المحدث للإيمان على حقيقته شخص المؤمن، فوجب أن يكون المحدث هو الله تعالى سبحانه. (١) وباختصار: إن الإيمان في الحقيقة متعب لكونه مخالفاً للقوى النفسانية والشهوانية، والكفر قبيح باطل، ولو قصد المؤمن أن يقع الإيمان على خلاف ما وقع من كونه مؤلماً و متعباً، لم يكن له إلى ذلك من سبيل. ولو أراد الكافر أن يتحقق الكفر في الخارج حسناً صواباً لم يقدر عليه، هذا من جانب. ومن جانب آخر: إن المؤمن يجنح إلى الإيمان بما أنه غير مؤلم ولا متعب، والكافر يجنح إلى الكفر بما أنه حسن حق. ولما كان واقع الإيمان والكفر على غير ————— ١. عبارة اللمع غير خالية عن التعقيد والبسط الممل، وما ذكرناه في المتن ملخص مراده. راجع اللمع: ٧١-٧٢.

(١١٧)

الحقيقة التي يتصورها المؤمن والكافر، يستكشف أن الفاعل الحقيقي للإيمان والكفر، هو الله سبحانه. إذ لو كان الفاعل هو شخص المؤمن والكافر، وجب أن يتحقق الإيمان والكفر على النحو الذي يريدانه، لا على الحقيقة التي هما عليها من الأوصاف والخصوصيات. يلاحظ عليه: أولاً: أن توصيف الإيمان بالإنعاب والإيلام، والكفر على خلافه، إنما يصح إذا قيسا إلى الإنسان الذي تتحكم به القوى الحيوانية، فلا شك أن الإيمان يجعل الإنسان محدوداً مكبوحاً جماحه أمام الشهوات واللذات، والكفر يجعل الإنسان حراً غير محدود في حياته، فيكون الأول مؤلماً متعباً، والثاني ملذاً وموافقاً للطبع. ولكن إذا قيسا إلى الفطرة الإنسانية العلوية التي خمرت بالإيمان والتوحيد، فالأمر على العكس. فالإيمان نور و ضياء للروح، والكفر سواد وظلمة لها. ويشهد على ذلك ما ورد في الكتاب العزيز حول الإيمان والكفر والفطرة الإنسانية، ولا نطيل الكلام بذكرها، ويكفي في ذلك قوله سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ). (١) ثانياً: لو صح هذا الدليل لوجب القول بأن شارب الماء بتخيل أنه خمر لم يشرب شيئاً ولم يصدر منه عمل ولا فعل، لأنه قصد شربه بعنوان أنه خمر وكان الواقع في الحقيقة شرب الماء، فما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع. ثالثاً: أن ما ذكره خلط بين الصفات الواقعية الحقيقية والصفات الانتزاعية، فالأولى: كالبياض والسواد، والحرارة والبرودة، تحتاج إلى محدث كما يحتاج الموصوف بها إليه كذلك، والثانية: كالصغر والكبر المنتزعين من مقاييسه شيء إلى شيء، لا تحتاج إليه، لأن هذه الأوصاف من مصنوعات الذهن ومخترعاته. فالموجد يوجد نفس الجسم الكبير لا وصفه، كما أنه

يوجد _____ ١. الروم: ٣٠.

(١١٨)

ذات الصغير لا وصفه، وإنما الذهن يقوم بعمل الانتزاع عند المقايسة. فالجسم الذي هو بقدر ذراع، أكبر من الجسم الذي على نصفه، والثاني أصغر منه. فالذي أوجده الفاعل إنما هو ذات الجسمين لا وصفهما، فالموجد للجسم الكبير لا يقوم بعملين: إيجاد الجسم وإيجاد وصف الكبر فيه، وهكذا في الجسم الصغير، وإنما ينتقل الإنسان إلى ذينك الوصفين عند المقارنة، ولولاها لم يتبادر إلى الذهن أي من الوصفين. وعلى ذلك فالموجد للإيمان إنما يوجد ذات الإيمان، وهكذا الموجد للكفر يوجد ذات الكفر. وأما كون الأول مؤلماً متعباً، والثاني قبيحاً مخالفاً للواقع الحق الذي يضاد الكفر، فلا يحتاج إلى فاعل وعلة أبداً. وإن شئت قلت: إن الذي يوجد الإيمان لا يوجد إلا شيئاً واحداً، وهو ذاته لا شيتين: أحدهما ذاته والآخر وصفه. وهكذا الكفر لا يقوم الموجد له بعملين. وهذا أمر واضح لمن له إمام بالقضايا الاعتبارية والانتزاعية. وعندئذ لا يصح قوله: «إن الإيمان في نظر المؤمن حلو مع أنه في الواقع مر والكفر في نظر الكافر صواب حسن، مع أنه في الواقع باطل قبيح، فلا يصح عد المؤمن والكافر خالقيين لهما، لكونهما في نظريهما على غير الوجه الذي هما عليه حسب الواقع». والعجب أن الأشعري المنكر للحسن والقبح اعترف هنا بقبح الكفر وحسن الإيمان، مع أنه ليس في منهجه أثر من الحسن والقبح العقليين، بالكل عنده شرعيان. الدليل الثاني

إن الدليل على خلق الله تعالى حركة الاضطرار، قائم في خلق حركة الاكتساب، وذلك أن حركة الاضطرار إن كان الذي يدل على أن الله خلقها، حدوثها، فكذلك القصة في حركة الاكتساب، وإن كان الذي يدل على خلقها، حاجتها إلى مكان وزمان، فكذلك قصة حركة الاكتساب، فلما كان كل دليل يستدل به على حركة الاضطرار مخلوقه لله تعالى، يجب به القضاء على (١١٩)

أن حركة الاكتساب مخلوقه لله تعالى، وجب خلق حركة الاكتساب بمثل ما وجب به خلق حركة الاضطرار. (١) وحاصله: إذا كانت الحركة الاضطرارية مخلوقه لله تعالى سبحانه لأجل حدوثها واحتياجها إلى الزمان والمكان، فلذلك لملاك موجود في الحركة الاختيارية للإنسان فيجب أن تكونا مخلوقتين له تعالى. يلاحظ عليه: أن ما ذكر من القياس والمشابهة بين الحركتين لا ينتج إلا أن للحركة الاكتسابية أيضاً محدثاً وموجداً. وأما كون محدثه هو الله سبحانه فلا- يثبت القياس، لأن مشاركة الحركتين في الحدوث والحاجة إلى الزمان والمكان، تقضى بأن الثانية مثل الأولى في الحاجة إلى المحدث. وأما كون محدثهما شخصاً واحداً فهذا مما لا يعلم من القياس. وأما نسبة الحركة الاضطرارية إلى الله سبحانه على وجه القطع واليقين، فلأجل أنها ليست مستندة إلى الإنسان، وليست واقعة في إطار اختياره وإرادته، فيحكم باستنادها إلى الله، إذ الأمر دائر بين أن يكون الفاعل أحدهما. وأما الحركة الاكتسابية فلا وجه لنفي إستنادها إلى الإنسان، وتأكيد انتسابها إلى الله. نعم لو قال أحد بمقالة الأشعري من أن القدرة الحادثة في العبد غير مؤثرة في وجود الفعل، لكان له أن يسند الحركتين معاً إلى الله سبحانه. ولكنه أول الكلام، والاستناد إلى ذلك الأصل أشبه بكون المدعى نفس الدليل. إن المتأخرين من الأشاعرة كالرازي في محصله، و(الإيجي) في مواقفه، والتفتازاني في شرح مقاصده، والقوشجي في شرحه لتجريد الطوسي... حزرُوا المسألة بصورة واضحة، واعتمدوا في إقامة البرهان عليه على غير ما اعتمد عليه الشيخ الأشعري. أولاً: بحثوا عن المسألة تحت عنوان «أن الله قادر على كل المقدورات» _____ ١. للمع: ٧٤-٧٥.

(١٢٠)

أو «عموم قدرته لكل شيء» و أرادوا من «عموم القدرة» (١) أن كل موجود، واقع بقدرته ابتداء، وإن توقف تأثيره في البعض على شرط، كتوقف إيجاده للعرض على إيجاده لمحله، لامتناع قيامه بنفسه. (٢) وعلى ذلك فالمراد من عموم قدرته هو المؤثر بالفعل من القدرة، لا القدرة الشأنية، وإن لم يستعملها فلو قيل: إن قدرته سبحانه عامة، يراد أنه هو الفاعل الخالق لكل شيء موجود في الخارج بلا واسطة. ثانياً: اعتمدوا في إثبات المطلوب على الإمكان دون الحدوث، و بين الملاكين فرق واضح لا يخفى على من له أدنى إمام بالمسائل الكلامية. يقول الرازي: إن ما لأجله صح في البعض أن يكون مقدوراً لله تعالى هو الإمكان، لأن ما عداه إما الوجوب أو

الامتناع، وهما بخلاف المقدورية، ولكن الإمكان وصف مشترك بين الممكنات، فيكون الكلّ مشتركاً في صحّة مقدريته لله تعالى، ولو اختصت قدريته بالبعض دون البعض، افتقر إلى المخصص. (٣) يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره صحيح، ولكنه عاجز عن إثبات ما رامه، إذ لا شك أنّ جميع الموجودات الممكنة تنتهي إلى الواجب، ولا غنى لأى ممكن في ذاته وفعله عنه سبحانه، لكن فقر الممكنات وحاجتها إلى الواجب، لا يستلزم أن يكون الواجب هو السبب المباشر لكلّ ما دقّ وجلّ، ولكلّ حركة وسكون يعرضان على المادة. بل يكفى في رفع الحاجة إيجاد العوالم الإمكانية وفق نظام الأسباب والمسببات، فكلّ وجود، مسبب لما فوقه، وسبب لما دونه. وبذلك يجرى الفيض منه سبحانه على نمط الأسباب العالية إلى الأسباب المتوسطة، إلى السافلة، حتى ينتهي إلى عالم الهولى والطبيعة، فلكلّ حادث سبب، ولسببه سبب حتى ينتهي إلى الواجب عزّ اسمه، وسبب كلّ سبب وتأثير كلّ علّة _____ ١. وقد يراد من «عموم قدرته تعالى»، قدرته على القبيح خلافاً للنظام حيث قال: بعدم قدرته عليه، ولكن المراد منه في المقام هو الأوّل. ٢. هامش شرح المواقف لعبد الحكيم السالكوتى. ٣. المحصل: ٢٩٨؛ شرح المواقف: ٨/٦٠؛ شرح المقاصد: ٢/١٣٧.

(١٢١)

متوسطة، بإذنه سبحانه وإرادته ومشيتته، وهذا هو المراد من التوحيد في الخالقية فالخالق المستقل في خلقه، واحد. وخالقية غيره بإذنه وإقداره. وهذا المقدار من الاستناد يكفى في رفع حاجة الممكن من دون حاجة إلى أن يكون هناك استناد مباشر. وباختصار: إنّ الله سبحانه خلق الإنسان وأفاض عليه القدرة والاختيار، وهو بالقدرة المكتسبة يوجد فعله، وعليه يكون الفعل فعلاً لله سبحانه وفعلاً للعبد. أمّا الأوّل فلاّن ذاته وقدرته مخلوقتان لله سبحانه. وأمّا الثانى فلاّنّه باختياره وحرية النابعة من ذاته صرف القدرة المفاضة في مورد خاص، ولأجل ذلك يقول أهل الحقّ: إنّ لفعل العبد نسبة إلى الله ونسبة إلى العبد «والفعل فعل الله وهو فعل العبد». الحجج الأخرى للأشاعرة

احتج المتأخرون من الأشاعرة على كون أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه بوجوه أخرى نأتى ببعضها: الأوّل: لو كان العبد موجداً لأفعال نفسه لكان عالماً بتفصيل أفعال، وهذا معنى قوله سبحانه: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (١)، وبما أنّه غير لم بتفاصيل أفعاله، بشهادة أنّنا حال الحركة نفعل حركات جزئية لا نعقلها، وأننا نقصد الحركة من المبدأ إلى المنتهى، ولا نقصد جزئيات تلك الحركة، وجب القطع بأنّ العبد غير موجد لها. (٢) يلاحظ عليه: أنّ الإيجاد لا يستلزم العلم، فإنّ الفاعل قد يصدر عنه الفعل بمجرد الطبع، كالإحراق الصادر من النار من غير علم، فلا يلزم من نفي العلم نفي الإيجاد، والمثبتون لعلمه سبحانه لا يستدلون عليه بالإيجاد، بل بإتقان الفعل وإحكامه. نعم الإيجاد بالاختيار لكونه مقارناً للقصد، _____ ١. الملك: ١٤. ٢. الأربعون للرازي: ٢٣١ - ٢٣٢، شرح التجريد للقوشجى: ٤٤٧.

(١٢٢)

والقصد إلى الشىء لا يكون إلا بعد العلم به يستلزم العلم. ثمّ إنّ الفاعل لو كان قاصداً للفعل بالتفصيل، يوجد العلم التفصيلي، ولو كان قاصداً بالإجمال يوجد كذلك. فالفاعل للأكل والتكلم يقصد أصل الفعل على وجه التفصيل، فيستلزم علم الفاعل به كذلك - وفي الوقت نفسه - لا يقصد مضع كلّ حبة، أو التكلم بكلّ حرف وكلمة إلا إجمالاً، فيلزمه العلم بهما على وجه الإجمال. كما أنّ صانع شربة كيميائية من عدة عناصر مختلفه، يقصد إدخال كلّ عنصر فيها على وجه التفصيل، فيلزمه العلم به تفصيلاً، وعلى ذلك يكون أصل العلم وكيفيته من الإجمال والتفصيل، تابعين لأصل القصد وكيفيته. الثانى: لو كانت قدرة العبد صالحة للإيجاد فلو اختلفت القدرتان في المتعلق مثل ما إذا أراد الله تعالى تسكين جسم وأراد العبد تحريكه، فإمّا أن يقع المرادان وهو محال، أو لا يقع واحد منهما، وهو أيضاً محال، لأنّه يلزم منه ارتفاع النقيضين، لأنّ الجسم لا يخلو من الحركة والسكون، أو يقع أحدهما دون الآخر، وهو أيضاً محال، لأنّ وقوع أحدهما ليس أولى من وقوع أحدهما دون الآخر، وهو أيضاً محال، لأنّ وقوع أحدهما ليس أولى من وقوع الآخر. لأنّ الله تعالى وإن كان قادراً على ما لا نهاية له، والعبد ليس كذلك، إلا أنّ ذلك لا يوجب التفاوت بين قدرة الله تعالى

و قدرة العبد. (١) يلاحظ عليه: أن هذا الدليل إنما يجري فيما إذا كانت القدرتان متساويتين كما في البحث عن الإلهين المفروضين، فأراد أحدهما تحريك الجسم والآخر إيقافه وسكونه، لا في المقام؛ أعنى: إذا كان أحدهما أقوى والآخر أضعف كما في المقام، ففي مثله يقع مراد الله لكون قدرته أقوى، إذ المفروض استواءهما في الاستقلال بالتأثير، وهو لا ينافي التفاوت بالقوة والشدة. (٢) والأولى أن يقال: إن قدرة الله تعالى في الصورة المفروضة قدرة فعلية تامة في التأثير، وقدرة العبد قدرة شأنيّة غير تامة، وليست صالحة للتأثير، لأن من _____ ١. الأربعون للرازي: ٢٣٢. ٢. كشف المراد: ١٦ شرح التجريد للقوشجي: ٤٤٧.

(١٢٣)

شرائط القدرة الفعلية، أن لا تكون ممنوعة من ناحية بالغة كاملة، فتعلق قدرته وإرادته بتحريك الجسم تكون مانعة عن وصول قدرة العبد إلى درجة التأثير والإيجاد، فأحدى القدرتين مطلقة، والأخرى مشروطة. الثالث: إن نسبة ذاته سبحانه إلى جميع الممكنات على السوية، فيلزم أن يكون الله تعالى قادراً على جميع الممكنات، وأن يكون تعالى قادراً على جميع المقدورات، وعلى جميع مقدورات العباد. وعلى هذا - ففعل العبد: إما أن يقع بمجموع القدرتين - أعنى: قدرة الله وقدرة العبد - وإما أن لا يقع بواحدة منهما، وإما أن يقع بإحدى القدرتين دون الأخرى، وهذه الأقسام الثلاثة باطلة. فوجب أن لا يكون العبد قادراً على الإيجاد والتكوين. (١) يلاحظ عليه: أن الفعل يقع بمجموع القدرتين، ولا يلزم منه محال، لأن قدرة العبد في طول قدرة الله سبحانه، ومفاضة منه، ونسبة قدرته إلى قدرة الواجب، نسبة المعنى الحرفي إلى المعنى الاسمي، والشئ المتدلى إلى القائم بالذات. وصلب البرهان هو تفسير عموم قدرته لكل المقدورات، ومنها أفعال العباد، بتعلق قدرته الفعلية التامة بكل مقدور مباشرة وبلا واسطة، ومع هذا الفرض لا يبقى مجال لإعمال قدرة العبد، غير أن لعموم القدرة معنيين صحيحين: ١. إنه تعالى قادر على القبيح خلافاً للنظام، فإنه قال: لا يقدر على القبيح. ٢. إن كل ما في صفحة الوجود من الأ-كوان والأفعال، محققه بقدرة الله تعالى، وموجوده بحوله وقوته، لأن كل ما سواه ممكن، ولا غنى للممكن عن الواجب، لا- في الذات ولا- في الفعل، لكن تحقق الشئ بقدرته يتصور على وجهين: أ: أن يتحقق بقدرته سبحانه مباشرة وبلا واسطة، كما هو الحال في _____ ١. الأربعون للرازي: ٢٣٢.

(١٢٤)

الصادر الأول من العقول والنفوس والأنوار الملكوتية. ب: أن يتحقق بقدرة مفاضة منه سبحانه إلى العبد، قائمة بقدرته، وموجده بحوله وقوته، فالفعل مقدور للعبد بلا واسطة، ومقدور لله سبحانه عن طريق القدرة التي أعطاها له، وأقدر عبده بهاعلى الفعل، فيكون الفعل فعل الله من جهة، وفعل العبد من جهة أخرى. وباختصار: إن العوالم الممكنة من عاليها إلى سافلها متساوية النسبة إلى قدرته سبحانه، فالجليل والحقير، والثقل والخفيف عنده سواسية، لكن ليس معنى الاستواء هو قيامه تعالى بكل شئ مباشرة وخلع التأثير عن الأسباب والعلل، بل يعنى أن الله سبحانه يظهر قدرته وسلطانه عن طريق خلق الأسباب، وبعث العلل نحو المسببات والمعاليل، والكل مخلوق له، ومظاهر قدرته وحوله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فالأشعري، خلق الأسباب والعلل وهي جنود الله سبحانه عن مقام التأثير والإيجاد، كما أن المعتزلي عزل سلطانه عن ملكه وجعل بعضاً منه في سلطان غيره، أعنى: فعل العبد في سلطانه. والحق الذي عليه البرهان ويصدق الكتاب هو كون الفعل موجوداً بقدرتين، لكن لا- بقدرتين متساويتين، ولا بمنعى علتين تامتين، بل بمعنى كون الثانية من مظاهر القدرة الأولى وشؤونها وبنودها: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) (١) وقد جرت سنة الله تعالى على خلق الأشياء بأسبابها، فجعل لكل شئ سبباً، وللسبب سبباً، إلى أن ينتهي إليه سبحانه، والمجموع من الأسباب الطولية عليه واحدة تامة كافية لإيجاد الفعل، والتفصيل يطلب من محله، ونكتفي في المقام بكلمة عن الإمام الصادق - عليه السلام -: «أبى الله أن يجرى الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شئ سبباً، وجعل لكل سبب شرحاً». (٢) ثم إن للأشاعرة في مسألة «خلق الأفعال» حججاً وأدلة، أو شبهات وتشكيكات يقف عليها وعلى أجوبتها من سبر الكتب الكلامية للمحقق الطوسي وشرح التجريد، فراجع. _____ ١. المدثر: ٣١. ٢.

الكافي: ١/١٨٣، باب معرفة الإمام، الحديث ٧. (١٢٥) نظرية الكسب ومشكلة الجبر

ولما كان القول بأن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه مستلزماً للجبر، حاول الأشعري أن يعالجه بإضافة «الكسب» إلى «الخلق» قائلاً بأن الله هو الخالق، والعبد هو الكاسب، وملاك الطاعة والعصيان، والثواب والعقاب هو «الكسب» دون الخلق، فكل فعل صادر عن كل إنسان مريد، يشتمل على جهتين «جهة الخلق» و «جهة الكسب» فالخلق والإيجاد منه سبحانه، والكسب والاكْتساب من الإنسان. والظاهر أن بعض المتكلمين سبق الأشعري في القول بالكسب. قال القاضي عبد الجبار: إنَّ جهم بن صفوان ذهب إلى أن أفعال العباد لا تتعلق بنا. وقال: إنما نحن كالظروف لها حتى أن ما خلق فينا، كان، وإن لم يخلق لم يكن. وقال ضرار بن عمرو (١): إنها متعلّقة بنا ومحتاجة إلينا، ولكن جهة الحاجة إنما هي الكسب، فقد شارك جهماً في المذهب، وزاد عليه الإحالة. (٢) أقول: إنَّ نظرية الكسب التي انتشرت عن جانب الإمام الأشعري مأخوذة عن ذلك المتكلم المجبر، ونقلها العلامة الحلبي في «كشف المراد» عن _____ ١. ضرار: من رجال منتصف القرن الثالث وهو ضرار بن عمرو العيني قال القاضي في طبقاته: ص ١٣: كان يختلف إلى واصل، ثم صار مجبراً وعنه نشأ هذا المذهب. ٢. شرح الأصول الخمسة: ٣٦٣، وقد نقل الشيخ مقاله ضرار في كتابه مقالات الإسلاميين: ٣١٣ وقال: والذي فارق (ضرار بن عمرو) المعتزلة قوله: إنَّ أعمال العباد مخلوقة وإن فعلاً واحداً لفاعلين، أحدهما خلقه وهو الله، والآخر اكتسبه وهو العبد، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ فاعل لأفعال العباد في الحقيقة، وهم فاعلون لها في الحقيقة.... (١٢٤)

النجار و حفص الفرد أيضاً. (١) وأخذ عنهم الأشعري على الرغم من ادّعائه أنه يخالف المجبره ولا يوافقهم. غير أن الذي يجب التركيز عليه أمران: الأول: ما هو الداعي لإضافة الكسب إلى أفعال العباد؟ الثاني: ما هو المقصود من كون الإنسان كاسباً والله سبحانه خالقاً؟ أمّا الأول: فلأنَّ الأشعري من أهل التنزيه، وهو يناضل أهل التشبيه والتجسيم كما يخالف المجبره. ولما كان القول بأنَّ أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه لا غير، مستلزماً لوقوع الشيخ الأشعري و من لفَّ لفَّه في مشكله عويصه. إذ لقاتل أن يقول: إذا كان الخالق هو الله سبحانه فلا بد أن يكون هو المسؤول لا- غير، وحينئذ يبطل الأمر والنهي والوعد والوعيد، وكل ما جاءت به الشرائع السماوية - لجأ الأشعري وأضرابه لأجل الخروج عن ذلك المضيق إلى نظرية «ضرار» معتقدين بأنهم يقدرون بها على حل العقدة، وقالوا: إنَّ الله سبحانه هو الخالق، والإنسان هو الكاسب، فلو كان هناك مسؤولية متوجهة إلى الإنسان فهي لأجل كسبه وقيامه بهذا العمل. هذا هو الحافز والداعي لتبني نظرية الكسب لا غير. وأمّا الثاني: - أعني: ما هي حقيقة تلك النظرية - فقد اختلفت كلمات الأشاعرة في توضيح تلك النظرية اختلافاً عجبياً، فنحن ننقل ما ذكره باختصار: ١. نظرية الكسب والشيخ الأشعري قبل أن نقوم بنقل ما ذكره تلاميذه نأتى بنص عبارة الشيخ في «اللمع»، يقول عند إبداء الفرق بين الحركة الاضطرارية والحركة الاكتسابية: لما كانت القدرة موجودة في الحركة الثانية وجب أن يكون كسباً، لأنَّ حقيقة الكسب هي أن الشيء وقع من المكتسب له بقوة محدثة. (٢) _____ ١. كشف المراد: ١٨٩ الفصل الثالث من الإلهيات، ط لبنان. ٢. اللمع: ٧٦. (١٢٧)

وحاصله أن صدور الفعل من الإنسان في ظل قوة محدثة هو الكسب. يلاحظ عليه: أن ظاهر العبارة هو صدور الفعل بسبب قوة محدثة من الله في العبد، وعليه يكون الفعل مقدوراً للعبد ومخلوقاً له، ومعه: كيف يمكن أن يكون في عرضه مقدوراً لله ومخلوقاً له؟! وبعبارة ثانية: إما أن يكون للقوة المحدثة في العبد تأثير في تحقق الفعل أو لا؟ فعلى الأول يكون الفعل مخلوقاً للعبد، لا لله سبحانه، وهو ينافي الأصل المسلّم عند الأشعري ومن قبله من الحنابلة، من أن الخلق بتمام معنى الكلمة راجع إليه سبحانه، ولا تصح نسبة إلى غيره، وعلى الثاني: يكون الفعل مقدوراً مخلوقاً لله سبحانه، من دون أن يكون لقدرة العبد دور في الفعل والإيجاد. وعندئذ يعود الإشكال وهو: إذا كان الفعل مخلوقاً لله كيف يكون المسؤول هو العبد؟! وباختصار: إنَّ العبارة المذكورة عبارة مجمل، وهي على فرض القول بتأثير قوة العبد في عرض قدرة الله سبحانه أو طولها، يستلزم إما اجتماع القدرتين على مقدور واحد - إذا كانت القدرتان في عرض واحد - أو كون الفعل مقدوراً للقدرة الثانية، أعني: قدرة العبد - إذا كانت القدرتان طوليتين - و على فرض عدم تأثير قدرة العبد، و كون الفعل

متحققاً بقدرته سبحانه عند حدوث القدرة في العبد، يعود الإشكال بعينه، ولا تكون للكسب واقعيةً أبداً. والظاهر من المحقق التفتازاني ترجيح الشق الأول في تفسير كلام الأشعري، حيث قال في شرح العقائد النسفية: فإن قيل: لا معنى لكون العبد فاعلاً بالاختيار إلا كونه موجداً لأفعاله بالقصد الإرادة، وقد سبق أن الله تعالى مستقل بخلق الأفعال وإيجادها، ومعلوم أن المقدم الواحد لا يدخل تحت قدرتين مستقلتين، قلنا: لا- كلام في قوة هذا الكلام ومثانته، إلا أنه لما ثبت بالبرهان أن الخالق هو الله تعالى (هذا من جانب) و (من جانب آخر) ثبت بالضرورة أن لقدرة العبد وإرادته مدخلاً في بعض الأفعال، كحركة اليد، دون البعض كحركة الارتعاش، احتجنا في التقصى عن هذا المضيق إلى (١٢٨)

القول بأن الله تعالى خالق، والعبد كاسب. (١) ولا يخفى أن القول بتأثير قدرة العبد لا يجتمع مع ما ثبت بالبرهان عندهم من أن الخالق هو الله تعالى، فعلى مذهبه يقع التعارض بين ما ثبت بالبرهان وما اختاره من الأصل. ثم الظاهر من الفاضل القوشجي هو اختيار الشق الثالث. أي عدم تأثير قدرة العبد في الفعل حيث قال: والمراد بكسبه إياه مقارنته لقدرته وإرادته، من غير أن يكون هناك منه تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلاً لهو. (٢) وعلى ما ذكره ذلك الفاضل لا يكون هنا للعبد دور إلا كون الفعل صادراً من الله وموجداً بإيجاده، غاية الأمر كون الإصدار منه تقارن مع صفة من صفات العبد، وهما صيرورته ذا قدرة غير مؤثرة بل معطلة، عن إيجاد الله تعالى الفعل في الخارج. أنشدك بوجدانك الحر، هل يصح تعذيب العبد، بحديث المقارنة، ألا بعد ذلك من أظهر ألوان الظلم، المنزلة سبحانه عنه؟! قال القاضي عبد الجبار: إن أول من قال بالجبر وأظهره معاوية، وإنه أظهر أنما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه ليحمله عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنه مصيب فيه، وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر، ومشى ذلك في ملوك بني أمية. وعلى هذا القول قتل هشام بن عبد الملك غيلان - رحمه الله -، ثم نشأ بعدهم يوسف السمني فوضع لهم القول بتكليف ما لا يطاق. (٣) وقال الدكتور «مدكور» في تصديره للجزء الثامن لكتاب المغنى للقاضي عبد الجبار: إن هناك صلة وثيقة بين الحياة السياسية ونشأة الفرق والآراء الكلامية، ولكن الوشاية والدس هما اللذان قضيا على غيلان - فيما يظهر - أكثر _____ ١ . شرح العقائد النسفية: ١١٥ . ٢ . شرح التجريد للفاضل القوشجي: ٤٤٥ . ٣ . المغنى: ٨/٤.

(١٢٩)

من قوله بالاختيار، بدليل أن عمر بن عبد العزيز سبق له أن جادله ولم يوقع عليه عقاباً، ولعل من هذا أيضاً ما قيل عن معبد الجهني، وجهم بن صفوان، وأغلب الظن أنهما قتلا لأسباب سياسية لا صلة لها بالدين. (١) قال الراغب في محاضراته: خطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالى يقول: (وَمِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) فلم نلام نحن؟ فقام إليه الأحنف فقال: إنا لا نلومك على ما في خزائن الله، ولكن نلومك على ما أنزل الله علينا من خزائنه، فأغلقت بابك دونه يا معاوية. (٢) نظرية الباقلاني في تفسير الكسب

«تأثير قدرة الإنسان في ترتب العناوين على أفعاله». قد قام القاضي الباقلاني (٣) من أئمة الأشاعرة بتفسير نظرية صاحب المنهج بشكل آخر، وقال ما هذا حاصله: الدليل قد قام على أن القدرة الحادثة لا تصلح للإيجاد، لكن ليست الأفعال أو وجوها واعتباراتها تقتصر على وجهة الحدوث فقط، بل هاهنا وجوه أخرى وراء الحدوث. ثم ذكر عدة من الجهات والاعتبارات وقال: إن الإنسان يفرق فرقاً ضرورياً بين قولنا: أوجد، وبين قولنا: صلّى وصام وقعد وقام. وكما لا يجوز أن تضاف إلى البارئ تعالى جهة ما يضاف إلى العبد، فكذلك لا- يجوز أن تضاف إلى العبد، جهة ما يضاف إلى البارئ تعالى. فأثبت القاضي تأثيراً للقدرة الحادثة، وأثرها هو الحالة الخاصة، وهو جهات من جهة الفعل، حصلت نتيجة تعلق القدرة الحادثة بالفعل، وتلك الجهة هي المتعينة لأن تكون مقابلة بالشواهد والعقاب، فإن الوجود من حيث هو _____ ١ . المغنى: ٨/٨ . المقدمه. ٢ . الكشكول لبهاء الدين العاملي: ٤٢٩، ط عام ١٣٢١هـ - الحجرية. ٣ . القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفى عام ٤٠٣ هـ) من مشاهير أئمة الأشاعرة في بغداد، وله تأليفات، وقد طبع منها: ١. التمهيد، ٢. الإنصاف في أسباب الخلاف، ٣. إعجاز القرآن.

(١٣٠)

وجود لا- يُستحق عليه ثواب وعقاب، خصوصاً على أصل المعتزلة، فإنَّ جهة الحسن والقبح هي التي تقابل بالجزاء، والحسن والقبح صفتان ذاتيتان وراء الوجود، فالوجود من حيث هو وجود ليس بحسن ولا قبيح. قال: فإذا جاز لكم إثبات صفتين هما حالتان، جاز لي إثبات حالة هي متعلِّق القدرة الحادثة، ومن قال هي حالة مجهولة، فبينا بقدر الإمكان جهتها، وعرفنا أيَّ شيء هي، ومثلناها كيف هي. (١) وحاصل كلامه الذي قمنا بتلخيصه: هو أنَّ للقدرة الحادثة تأثيراً في حدوث العناوين والخصوصيات التي هي ملاك الثواب والعقاب، وهذه العناوين وليدة قدرة العبد، حادثة بها، وإن كان وجود الفعل حادثاً سبحانه. فوجود الفعل مخلوق لله سبحانه، لكن تعنونه بعنوان الصوم والصلاة والأكل والشرب راجع إلى العبد والقدرة الحادثة فيه. يلاحظ عليه: أنَّ هذه العناوين والجهات التي صارت ملاكاً للطاعة والعصيان لا تخلو من صورتين: إمَّا أن تكون من الأمور الوجودية، وعندئذ تكون مخلوقة لله سبحانه حسب الأصل المسلم. وإمَّا أن تكون من الأمور العدمية، فعندئذ لا- تكون للكسب واقعية خارجية، بل يكون أمراً ذهنياً غنياً عن الإيجاد والقدرة. ومثل ذلك كيف يكون ملاكاً للثواب والعقاب. وباختصار: إنَّ واقعية الكسب إمَّا واقعية خارجية موصوفة بالوجود، فحينئذ يكون مخلوقاً لله سبحانه، ولا يكون للعبد نصيب في الفعل، أو لا تكون له تلك الواقعية، بل يكون أمراً وهمياً ذهنياً، فحينئذ لا يكون العبد مصدرًا لشيء حتى يثابه أو يعاقب. ٣. نظرية الغزالي في تفسير الكسب

«صدور الفعل من الله عند حدوث القدرة في العبد». _____ ١. الملل والنحل: ١/٩٧-٩٨.

(١٣١)

إنَّ الغزالي من مشاهير الأشاعرة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس، وقد اختار في تفسير الكسب نظرية صاحب المنهج، وقام بتوضيحه بكلام مبسوط نذكره باختصار، قال: ذهبت المجبرة إلى إنكار قدرة العبد فلزمها إنكار ضرورة التفرقة بين حركة الرعدة، والحركة الاختيارية، ولزمها أيضاً استحالة تكاليف الشرع. وذهبت المعتزلة إلى إنكار تعلق قدرة الله تعالى بأفعال العباد والحيوانات والملائكة والجن والشياطين، وزعمت أنَّ جميع ما يصدر منها، من خلق العباد واختراعهم، لا بقدرة الله تعالى عليها بنفي ولا- إيجاد، فلزمها شناعتان عظيمتان: إحداهما: إنكار ما أطبق عليه السلف من أنَّه لا خالق إلاَّ الله، ولا مخترع سواه. والثانية: نسبة الاختراع والخلق إلى قدرة من لا- يعلم ما خلقه، كأعمال النحل والعنكبوت وغيرهما من الحيوانات التي تقوم بأعاجيب الأعمال وغرائبها، ثمَّ قال: وإنَّما الحقُّ إثبات القدرتين على فعل واحد، والقول بمقدور منسوب إلى قادرين، فلا- يبقى إلاَّ- استبعاد توارد القدرتين على فعل واحد. وهذا إنَّما يبعد إذا كان تعلق القدرتين على وجه واحد، فإنَّ اختلفت القدرتان واختلف وجه تعلقهما فتوارد المتعلقتين على شيء واحد غير محال، كما نبينه. ثمَّ إنَّه حاول بيان تغاير الجهتين، وحاصل ما أفاد هو: إنَّ الجهة الموجودة في تعلق قدرته سبحانه على الفعل غير الجهة الموجودة في تعلق قدرة العبد. والجهة في الأولى جهة إيجادية تكون نتيجتها وقوع الفعل في الخارج، وحصوله في العين. والجهة في القدرة الثانية جهة أخرى، وهي صدور الفعل من الله سبحانه عند حدوث القدرة في العبد. (١) فلأجل ذلك تُسمَّى الأولى خالقاً ومخترعاً، دون الثانية، فاستعير لها _____ ١. وأوضح التفاضل بين تلكما الجهتين في مقاصده وقال: لما بطل الجبر المحض بالضرورة، وكون العبد خالقاً لأفعاله بالدليل، وجب الاقتصاد في الاعتقاد. وهو أنَّها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه عندنا بالاكْتِسَاب. وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون على وجه الاختراع... شرح المقاصد: ١٢٧.

(١٣٢)

النمط من النسبة اسم الكسب تيمناً بكتاب الله تعالى. (١) ثمَّ اعترض على نفسه بما هذا حاصله: كيف تصحَّ تسمية القدرة المخلوقة في العبد قدرة، إذا لم يكن لها تعلق بالمقدور، فإنَّ تعلق القدرة بالمقدور ليس إلاَّ- من جهة التأثير والإيجاد وحصول المقدور بها. وأجاب عنه: بأنَّ التعلق ليس مقصوراً على الوقوع بها، بل هناك تعلق آخر غير الوقوع، نظير تعلق الإرادة بالمراد، والعلم بالمعلوم،

فإنهما يتعلقان بمتعلّقيهما بتعلّق غير الوقوع ضرورة أنّ العلم ليس علّة للمعلوم، فإذا لا بدّ من إثبات أمر آخر من التعلّق سوى الوقوع. (٢) يلاحظ عليه: أنّ الغزالي لم يأت في تفسير نظرية الكسب جديد وحاصله يتلخّص في كلمتين: ١. إنّ دور قدرة العبد ليس إلّا دور المقارنة، فعند حدوث القدرة في العبد يقوم سبحانه بخلق الفعل. ٢. إنّ للتعلّق أنواعاً ولا- تنحصر في الإيجاد والوجود، والإيقاع والوقوع، بل هناك جهة أخرى نعبر عنها بالكسب - فالعبد مصدر لهذه الجهة، وبذلك يسمّى كاسباً. - ومع هذا التّطويل فالإشكال باق بحاله، فإنّ وقوع الفعل مقارناً لقدرة العبد، لا يصحح نسبة الفعل إلى العبد، ومعه لا يتحمّل مسؤولية، فإنّ نسبة المقارن إلى المقارن كنسبة تكلم الإنسان إلى نزول المطر إلى الصحراء، فإذا لم يكن لقدرة العبد تأثير في وقوع الفعل، كيف يصحّ في منطق العقل التفكيك بين الحركة الاختيارية، والحركة الاضطرارية؟ والغزالي بكلامه هذا نقض ما ذكره في صدر البحث حيث رد على المجبرة بوجدان الفرق بين _____ ١. وإليك نصّ عبارة الغزالي: لما كانت القدرة (قدرة العبد) والمقدور جميعاً بقدرة الله تعالى: سُمّي خالقاً ومخترعاً، ولما لم يكن المقدور بقدرة العبد وإن كان معه، فلم يسم خالقاً ولا مخترعاً. الاقتصاد في الاعتقاد: ٩٢. ٢. الاقتصاد: ٩٢-٩٣.

(١٣٣)

الحركتين، وهذا الفرق لا يتعلّق إلاّ في ظلّ تأثير قدرة العبد على الوقوع والوجود. وأضعف من ذلك تنزيل تعلّق قدرة العبد بتعلّق العلم على المعلوم، مع أنّ واقعية العلم وماهيته هي الكشف التابع للمكشوف، فلا يصحّ أن يكون مؤثراً في المعلوم وموجداً له، ولكن واقعية القدرة والسلطة واقعية الإفاضة والإيجاد، فلا يتصور خلوعها عن التأثير مع فرضها قدرة كاملة وبصورة علّة تامّة. والمنشأ لهذه الاشتباهات والتناقضات هو العجز عن تفسير الأصل المسلم من أنّه لا خالق إلاّ الله تعالى، حيث إنّ الأشاعرة فسّروه بحصر الخلق والإيجاد والتأثير في ذاته سبحانه، ونفى أيّ تأثير ظليّ أو إيجاد حرفي لغيره. فسوّروه سبحانه وتعالى، الفاعل المباشر لكلّ ماجلّ ودقّ في عالم المجردات والماديات، فصارت ذاته قائمة مقام العلل الطبيعية والأسباب المادية، فعند ذلك وقعوا في ورطه الجبر ومشكلة إضطرار العبد. ولكن الحقّ في تفسير الأصل المذكور هو غير ذلك، وحاصله: إنّ قصر الخالقية المستقلة بالله سبحانه، لا ينافي قيام غيره بأمر الخلق والإيجاد بإذنه سبحانه وإقداره، وقد شهدت الدلائل العقلية بصحة هذا التفسير، كما نطقت الآيات في الذكر الحكيم بتأثير جملة من العلل الطبيعية في معاليلها، لكن بإذن منه سبحانه وإقداره له، فليس للتوحيد في الخالقية معنى غير ذلك، وسيوافيك تفسيره. ٤. نظرية التفاضل في تفسير الكسب

«توجه قدرة العبد على الفعل عند صدوره من الله». إنّ المحقّق التفاضل جرح في تفسيره إلى ما نقلناه عن الغزالي، ولخصّ كلامه على ما عرفت في التعليقة. ولكنّه في «العقائد النسفية» قام بتفسير الكسب بوجه واضح. وهو أنّ (١٣٤)

صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل كسب، وإيجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلق. والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين، لكن بجهتين مختلفتين. فالفعل مقدور الله تعالى بجهة الإيجاد، ومقدور العبد بجهة الكسب، وهذا القدر من المعنى ضروري وإن لم نقدر على أزيد من ذلك في تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله تعالى وإيجاده، مع ما فيه للعبد من القدرة والاختيار. (١) ومراده من الصرف هو توجه القدرة إلى الفعل وإن لم تكن مؤثرة في المقدور، فمجرد التوجيه من غير دخل في وجود الفعل، كسب. ويرد عليه ما أوردناه على الغزالي من أنّ القدرة غير المؤثرة لا تورث المسؤولية ولا تصحح العقاب والثواب، إلاّ أن يكون الجزاء على نفس العزم والإرادة، لا- على الفعل وهو كما ترى. ثمّ إنّ نظرية الكسب بلغت من الإبهام إلى حدّ أنّ القمّة من مشايخ الأشاعرة كالتفاضلاني يعترف بعجزه عن تفسيره حيث قال: «وإن لم نقدر على أزيد من ذلك في تلخيص العبارة المفصحة...».

٥. نظرية تخصيص ما دلّ على حصر الخلق بالله

إنّ هناك نظرية خامسة في حلّ مشكلة الجبر نقلها شارح العقيدة الطحاوية عن صاحب كتاب «المسايرة» (٢) وحاصلها: إنّ ما دلّ على حصر الخلق بالله يخصص بما سوى العزم، فكلّ شيء مخلوق لله سبحانه، وهو خالقه، إلاّ العزم على الطاعة والعصيان، فالخالق له هو

العبد. وقال في ذلك المجال ما هذا نصه: فإن قيل: لا شك أنه تعالى خلق للعبد قدرة على الأفعال، ولذا يدرك تفرقة ضرورية بين الحركة المقدورة _____ ١. شرح العقائد النسفية: ١١٧. ٢. تأليف الشيخ كمال الدين محمد بن همام الدين الشهير بابن الهمام (المتوفى م ٨٦١هـ) ولكتابه هذا شروح.

(١٣٥)

والرعدة الضرورية، والقدرة ليست خاصيتها إلا التأثير، فوجب تخصيص عمومات النصوص بما سوى أفعال العباد الاختيارية، فيكونون مستقلين بإيجاد أفعالهم بقدرتهم الحادثة بخلق الله تعالى إياها كما هو رأى المعتزلة والفلاسفة. وإلا كان جبراً محضاً يبطل الأمر والنهي. قلنا: إن براهين وجوب استناد كل الحوادث إلى القدرة القديمة بالإيجاد، إنما تلجئ إلى القول بتعلق القدرة بالفعل بلا تأثير، لو لم تكن عمومات تحتمل التخصيص. فأما إذا وجد ما يوجب التخصيص فلا. لكن الأمر كذلك. وذلك المخصص أمر عقلي، هو أن إرادة العموم فيها يستلزم الجبر المحض المستلزم لضياح التكليف وبطلان الأمر والنهي. ثم أوضح ذلك بقوله: لو عرف الله تعالى العبد العاقل أفعال الخير والشر، ثم خلق له قدرة أمكنه بها من الفعل والترك، ثم كلفه بالإتيان بالخير ووعده عليه. وترك الشر وأوعده عليه، بناء على ذلك الإقدار لم يوجب ذلك نقصاً في الألوهية. إذ غاية ما فيه أنه أقدره على بعض مقدراته لحكمة صحة التكليف واتجاه الأمر والنهي. غير أن السمع ورد بما يقتضى نسبة الكل إليه تعالى بالإيجاد وقطعها عن العباد. فلنقى الجبر المحض وصحة التكليف وجب التخصيص، وهو لا يتوقف على نسبة جميع أفعال العباد إليهم بالإيجاد، بل يكفي لنتيه أن يقال: جميع ما يتوقف عليه أفعال الجوارح من الحركات وكذا التروك التي هي أفعال النفس من الميل والداعية التي تدعو والاختيار، بخلق الله تعالى، لا تأثير لقدرة العبد فيه. وإنما محل قدرته، عزمه عقيب خلق الله تعالى هذه الأمور في باطنه عزمًا مصممًا بلا تردد، فإذا أوجد العبد ذلك العزم خلق الله تعالى له الفعل. فيكون منسوباً إليه تعالى من حيث هو حرّكه، وإلى العبد من حيث هو زنى ونحوه. فعن ذلك العزم الكائن بقدرة العبد المخلوقة لله تعالى، صحّ تكليفه وثوابه وعقابه. وكفى في التخصيص تصحيح التكليف هذا الأمر الواحد. أعنى: العزم المصمم، وما سواه مما لا يحصى من الأفعال الجزئية والتروك كلها مخلوقة لله تعالى و متأثرة عن قدرته ابتداءً بلا واسطة القدرة الحادثة. (١) _____ ١. شروح العقيدة الطحاوية: ١٢٢- ١٢٦ نقلاً عن «المسيرة» لاحظ شرحها ٩٨.

(١٣٦)

يلاحظ عليه: أن المجيب تصوّر أن القول بانحصار الخلق بالله سبحانه يستند إلى دليل سمعي قابل للتخصيص كسائر عمومات الكتاب والسنة. ولكن القول به يستند إلى برهان عقلي غير قابل للتخصيص، وهو أن الممكن في ذاته وفعله قائم بالله سبحانه، متدلّ به، وليس يملك لنفسه ذاتاً ولا -فعلاً- ولا فرق في ذلك بين الأفعال الخارجية والأفعال القلبية، أعنى: العزم والجزم، فالكل ممكن، والممكن يحتاج إلى واجب في وجوده وتحققه، فينتج أن العزم والجزم في وجوده وتحققه محتاج إلى الواجب ومعلول لوجوده. نعم، لو كان صاحب المسيرة وأساتذته وتلامذته ممن يفرّقون بين الخالق على وجه الاستقلال والخالق على الوجه التبعي لما صعب عليهم المقام.

٦. نظرية ابن الخطيب في تفسير الكسب

«قدرة الله مانعة عن قدرة العبد». وإليك نصّ عبارته: إن الطاعة والمعصية للعبد من حيث الكسب، ولا طاعة ولا معصية من حيث الخلق، والخلق لا يصحّ أن يضاف إلى العبد، لأنه إيجاد من عدم، والفعل موجود بالقدرة القديمة لعموم تعلق القدرة الحادثة بها. (١) فالقدرة الحادثة تتعلّق ولا تؤثر، وهي - أي القدرة الحادثة - تصلح للتأثير لولا المانع، وهو وجود القدرة القديمة، لأنهما إذا تواردتا لم يكن للقدرة الحادثة تأثير. (٢) _____ ١. العبارة لا تخلو من حزازة، والصحيح أن يقال: لعموم تعلق القدرة القديمة به، أي بالفعل. ٢. القضاء والقدر لعبد الكريم الخطيب: ١٨٧ نقلاً عن «الفلسفة والأخلاق» للسان الدين بن الخطيب قال: يرى لسان الدين بن الخطيب أن الكسب فعل يخلقه الله تعالى في العبد كما يخلق القدرة والإرادة والعلم، فيضاف الفعل إلى الله خلقاً لأنه خالقه، وإلى العبد كسباً لأنه محلّه الذي قام به، ثم نقل العبارة التي نقلناها في المتن.

ولا يخفى أنه لو كان الكسب أيضاً فعلاً مخلوقاً لله سبحانه، تكون المحاولة المذكورة فاشلة، إذ عندئذ يكون الخلق والكسب كلاهما من جانبه سبحانه، فلاحظ. (١٣٧)

وحاصل هذه النظرية أن لقدرة العبد شأناً في التأثير لولا المانع، ولكن وجود القدرة القديمة مانع عن تأثير قدرة العبد الحادثة. ولولا سبق القدرة القديمة لكان المجال للقدرة الحادثة مفتوحاً. يلاحظ عليه: أولاً: إذا كان دور الإنسان في مجال أفعاله دور الظرف والمحل، فلا معنى لإلقاء المسؤولية في الشرائع السماوية والأنظمة البشرية على عاتقه، لأن مكان الفعل لا يكون مسؤولاً عن الفعل المحقق فيه، وقد صرح صاحب النظرية بكون الإنسان محلاً لإعمال قدرته سبحانه. ثانياً: أن ما جاء في هذا البيان يغير ما عليه الأشعرى وأتباعه، فإنهم لا يقيمون لقدرة الإنسان وزناً ولا قيمة، ولكن ابن الخطيب يعتقد بكونها قابلة للتأثير لولا سبق المانع وهو القدرة القديمة، ومع ذلك ليس بتام. وذلك لأن فرض المانعية لإحدى القدرتين بالنسبة إلى الأخرى إنما يتم لو صحَّ فرض كونه سبحانه هو الفاعل المباشر لكل ما ظهر على صفحة الوجود الإمكانى، فعند ذاك يصحَّ جميع ما يتصور من أن القدرة في الإنسان مغلوبة لقدرة الخالق، وأنها عاطلة وباطلة خلقت عبثاً وسدى، ولكنه لم يثبت، بل الثابت خلافه، وأن النظام الإمكانى نظام مؤلف من أسباب ومسببات، وكل مسبب يستمد - بإذنه سبحانه - عما تقدمه من السبب تقدماً زمنياً أو تقدماً رتبياً وكماً. وعلى ذاك الأصل يسقط حديث مانعية إحدى القدرتين، بل تصبح قدرة العبد بالنسبة إلى قدرته تعالى، مجلى لإرادته ومظهراً لمشيئته، كيف وقد تعلقت مشيئته بصدور فعل كل فاعل عن مبادئه التي أفاضها عليه، حتى تكون النار مبدأً للحرارة عن إجبار واضطرار، والإنسان مصدراً لأفعاله عن قدرة واختيار، فلو قام كل بفعله فقد قام في الجهة الموافقة لإرادة الله لا المضادة والمخالفة، فقيام هؤلاء أشبه بقيام الجنود بأمر أمرهم: (وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (١)، (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا) ١ . الفتح: ٤.

(١٣٨) (هُوَ) (١).

ثالثاً: أن هذه المحاولات والتمحلات ناشئة عن تصوير القدرتين في عرض واحد، فلاجل ذلك يتصور تارة كون قدرته سبحانه مانعاً عن تأثير قدرة العبد، وأخرى بأنه لو تعلقت قدرة العبد على ما تعلقت به قدرته، يلزم توارد القدرتين على مقدور واحد. ولكن الحق كون فعل العبد مقدوراً ومتعلقاً بهما، ولا يلزم من ذلك أي واحد من المحذورين، لا محذور التزاحم والتمانع، ولا محذور اجتماع القدرتين التامتين على مقدور واحد، وذلك لأن قدرة العبد في طول قدرة الله سبحانه، فالله سبحانه بقدرته الواسعة أوجد العبد وأودع في كيانه القدرة، وأعطاه الإرادة والحرية والاختيار، فلو اختار أحد الجانبين فقد أوجده بقدرة مكتسبة من الله سبحانه، واختيار نابع عن ذاته، وحرية هي نفس واقعيته وشخصيته، فالفعل منتسب إلى الله لكون العبد مع قدرته وإرادته، وما يحف به من الخصوصيات قائمة بذاته سبحانه، متدلية بها، كما أنه منتسب إلى الإنسان لكونه باختياره الذاتى وحرية النابعة منها، اختار أحد الجانبين وصرف قدرته المكتسبة في تحققه، كما قال سبحانه: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (٢)، (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (٣) فنفي عنه الرمي بعد إثباته له، وأثبت له المشيئة في ظل المشيئة الإلهية. وما جاء في هذه الآيات من المعارف الإلهية لا يصل إليها إلا المتأمل في آى الذكر الحكيم، وما نشر عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - حولها، وعليه «الفعل فعل الله وهو فعلنا». (٤) ١ . المدثر: ٣١.

٢ . الأنفال: ١٧. ٣ . الإنسان: ٣٠. ٤ . شرح المنظومة للسبزواري: ص ١٧٥ اقتباس من قوله فيها:

لكن كما الوجود منسوب لنا والفعل فعل الله وهو فعلنا (١٣٩) حصيلة البحث

هذه هي النظريات المطروحة حول قدرة العبد على الكسب، وقد عرفت أن في الجميع إبهاماً وإجمالاً، ولا تسمن ولا تغنى من جوع، ولا تحل بها عقده الجبر. وقد بلغت نظرية الكسب من الإبهام إلى حدِّ عدت من إحدى المبهمات الثلاثة التي لم يقف أحد على حقيقتها. وفي ذلك يقول الشاعر: ممّا يقال ولا حقيقة عنده * معقولة تدنو إلى الأفهام الكسب عند الأشعرى والحال * عند البهشمى وطفرة النظام (١) فعد الشاعر نظرية الكسب في إحاطة الإبهام بها في عداد نظرية «الحال» عند المعتزلة و«الطفرة» عند النظام. وهذا دليل على قصور النظرية وعدم كفايتها لحل العقدة، وهناك كلام متين للقاضي عبد الجبار نأتى بنصه: قال: إن فساد المذهب

يعلم بأحد طرفين: أحدهما: بأن يتبين فساده بالدلالة. والثاني: بأن يتبين أنه غير معقول في نفسه، وإذا تبين أنه غير معقول في نفسه كفت نفسك مؤونه الكلام عليه، لأنّ الكلام على ما لا يعقل لا يمكن... والذي يبين لك صحه ما نقوله أنه لو كان معقولاً لكان يجب أن يعقله مخالف المجبره في ذلك، من الزيدية والمعتزلة والخوارج والإمامية. فإنّ دواعيهم متوفرة، وحرصهم شديد في البحث عن هذا المعنى، فلم في واحد من هذه الطوائف، على اختلاف مذاهبهم، وتنائى ديارهم، وتباعد أوطانهم، وطول مجادلتهم في هذه المسألة، من ادعى أنه عقل هذا المعنى أو ظنه أو توهمه، دلّ على أن ذلك ممّا لا يمكن اعتقاده والإخبار عنه ألبتة. ومما يدلّ على أنّ الكسب غير معقول، هو أنه لو كان معقولاً - لوجب - كما عقله أهل اللغة وعبروا عنه - أن يعقله غيرهم من أهل اللغات، وأن يعضوا له عبارة تنبئ عن معناه. فلما لم شيء من اللغات ما يفيد هذه الفائدة، _____ ١. القضاء والقدر لعبد الكريم الخطيب: ١٨٥.

(١٤٠)

دلّ على أنه غير معقول. (١) قال الشيخ المفيد: ثلاثة أشياء لا تعقل، وقد اجتهد المتكلمون في تحصيل معانيها من معتقديها بكلّ حيلة فلم يظفروا منهم إلا - بعبارات يتناقض المعنى فيها على مفهوم الكلام: ١. اتحاد النصرانية. ٢. كسب النجارية. ٣. أحوال البهشية. وقال الشيخ: ومن ارتاب فيما ذكرناه في هذا الباب فليتوصل إلى إيراد معنى - في واحد منها - معقول، والفرق [كذا] بينها في التناقض والفساد، ليعلم أنّ خلاف ما حكما به هو الصواب وهيئات. (٢) ٧. مالبرانس الفرنسي ونظرية الكسب (١٦٣١-١٧١٥م) ثم إنّ المنقول عن الفيلسوف الفرنسي «مالبرانس» يتحد مع نظرية الأشعري حرفاً بحرف و من المظنون أنه وقف على بعض الكتب الكلامية للأشاعرة، فأفرغ نظرية الكسب حسب ما تلقاه من تلك الكتب، وحاصل ما قال: إنّ كلّ فعل إنّما هو في الحقيقة لله، ولكن يظهر على نحو ما يظهر، إذا تحققت ظروف خاصة إنسانية أو غير إنسانية حتى لكأنها يخيل للإنسان أنّ الظروف هي التي أوجدته. فهذه النظرية أولى بأن تسمى بنظرية الاتفاقية، أو نظرية الظروف _____ ١. شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ٣٦٤-٣٦٦. ٢. حكايات الشيخ المفيد برواية الشريف المرتضى لاحظ مجلة «تراثنا» العدد ٣، من السنة الرابعة، ص ١١٨.

(١٤١)

والمناسبات، وهي نفس نظرية الأشعري حيث يرى أنه لا تأثير للقدرة الحادثة في الأحداث، وإنّما جرت سنّة الله بأن يلازم بين الفعل المحدث وبين القدرة المحدثه (بالكسر) له إذا أراد العبد وتجرد له، ويسمى هذا الفعل كسباً. فيكون خلقاً من الله، وكسباً من العبد، عندما يقع في متناول قدرته واستطاعته، من غير تعلّقه عليه. (١) وقد نقل ذكاء الملك نظرية ذلك الفيلسوف الفرنسي في موسوعته الفلسفية. وهي تبنتي على إنكار قانون العلية والمعلولية بين الأشياء، وأنّ كلّ ما يعدّ علّة لشيء فهو من باب المقارنة. فلو رأينا أنّ جسماً يحرك جسماً آخر، فذلك إدراك سطحي، والمحدث هو الله سبحانه، وتلاقي الجسمين ظرف لقيامه بالتحريك، ومثله تحريك النفس عضواً من أعضاء البدن، فالمحرك هو الله سبحانه وإرادة النفس ظرف ومحلّ لظهور فعله سبحانه. (٢) ولا نعلّق على هذه النظرية سوى القول بأنّها مخالفة للبراهين الفلسفية القائمة على وحدة حقيقة الوجود في جميع المراتب، واختلافها بالشدة والضعف، فعندئذ لا معنى لأن يختص التأثير ببعض المراتب دون آخر مع الوحدة في الحقيقة. إنّ إنكار التأثير على وجه الإطلاق بين الظواهر الطبيعية وما فوقها يخالف البرهان العقلي الفلسفي أولاً، وصريح الذكر الحكيم ثانياً، والفتوة السليمة الإنسانية ثالثاً، والتفصيل في الجهات الثلاث موكول إلى محله. ٨. نظرية إمام الحرمين

«الاعتراف بتأثير قدرة العبد في طول قدرة الله». إنّ الأشاعرة، وإنّ أصروا على نظريتهم في أفعال العباد طوال قرون، ولم يتجاوزوا ما رسمه لهم شيخهم في هذه المسألة إلاّ شيئاً يسيراً، كما عرفته عند _____ ١. القضاء والقدر للكاتب المصري عبد الكريم الخطيب: ١٨٢. ٢. سير الحكمة في أوروبا: ٢٠٢٤-٢٥.

(١٤٢)

البحث عن نظرية الباقلاني، غير أنه وجد فيهم من أدرك خطورة الموقف، وجفاف النظرية، ومضاعفاتها السيئة، وتخبّط القوم تخبّطاً واضحاً في المسألة، فنقض كل ما أبرموه وأجهر بالحقيقة، ونخص بالذكر هنا شخصيات جلييلة يعدّون من مشاهير العلم ورجال الفكر: أ. إمام الحرمين أبو المعالي الجويني، وهو من أعلام القرن الخامس. فقد صرح - كما يظهر من العبارة التالية - بتأثير قدرة العباد في أفعالهم، وأن قدرتهم ستنتهي إلى قدرة الله سبحانه وإقداره، وأنّ عالم الكون مجموعة من الأسباب والمسببات، وكلّ مسبب يستمد من سببه المقدم عليه، وفي الوقت نفسه، ذاك السبب يستمد من آخر، إلى أن يصل إلى الله سبحانه، وإليك نصّ عبارته: إن نفي هذه القدرة والاستطاعة ممّا يبابه العقل والحس، وأمّا إثبات قدرة لا أثر لها بوجه، فهو كنفي القدرة أصلاً. وأمّا إثبات تأثير في حالة لا يفعل، فهو كنفي التأثير، فلا بدّ إذاً من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق، فإنّ الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار، يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب، كنسبة الفعل إلى القدرة، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب، وهو الخالق للأسباب، ومسبباتها - المستغنى على الإطلاق - فإنّ كلّ سبب مهما استغنى من وجه، محتاج من وجه، والباري تعالى هو الغنى المطلق الذي لا حاجة له ولا فقر. (١) قال الشهرستاني بعد ما نقل كلامه هذا: وهذا الرأي إنّما أخذه من الحكماء الإلهيين، وأبرزه في معرض الكلام. وليس تختص نسبة السبب إلى المسبب - على أصله - بالفعل والقدرة (قدرة الإنسان من الحوادث فذلك حكمة، وحينئذ يلزم القول بالطبع وتأثير الأجسام في الأجسام إيجاداً، وتأثير الطبائع في الطبائع إحداثاً، وليس ذلك مذهب الإسلاميين، _____ ١. الملل والنحل: ١/٩٨ - ٩٩.

(١٤٣)

كيف، ورأى المحققين من العلماء أنّ الجسم لا- يؤثر في الجسم. (١) هذا هو ما علق به الشهرستاني على كلام إمام الحرمين وأخذه عليه، وهو غير صحيح. فإنّ المراد من العلية الطبيعية بين الأجسام والمظاهر المادية، ليس هو الإيجاد والإحداث من كتم العدل، بل المراد هو تفاعل الأجسام الطبائع، بعضها مع بعض بإذنه سبحانه، كانقلاب الماء إلى البخار، والمواد الأرضية إلى الأزهار والأشجار، وغير ذلك ممّا كشف عنه الحس والعلم. وأمّا الصور الطارئة على الطبائع عند التفاعل والانقلاب كصور الزهر والشجر، فليست مستندة إلى نفس الطبائع، بل الطبائع معدّات وممّهّدات لنزول هذه الصور من علل عليا، كشف عنها الذكر الحكيم عندما صرح بأنّ لعالم الكون مدبّرات يدبّرونه بإذنه سبحانه، قال: (فَالْمُدَبَّرَاتِ أَمْراً). (٢) إنّ كون العبد فاعلاً- لفعله، وعالم الطبائع مؤثراً في آثاره فإنّما هو بمعنى كونهما «ما به الوجود» لا «ما منه الوجود»، وكم من فرق بين التعبيرين. فمن اعترف بالتأثير فقد اعترف بالمعنى الأوّل والسببية الناقصة، لا بالمعنى الثاني، أعنى: إفاضة الوجود والخلق بالمعنى القائم بالله سبحانه، فإنّ الخلق فيض يبتدئ منه سبحانه، ويجرى في القوابل والقوالب فيتجلّى في كلّ مورد بصورة وشكل، والإنسان بما أنّه مجبول على الاختيار، يصرف باختياره ما أفيض عليه في مكان دون مكان وفي صورة دون صورة. نعم ليس لغيره من الطبائع إلاّ طريق واحد وتجلّ فارد. وأظن أنّ الشهرستاني لو وقف على الفرق بين الفاعلين، لما اعترض على كلام إمام الحرمين - بأنّه ليس من مذهب الإسلاميين - نعم هو ليس من مذاهب الحنابلة والأشاعرة، وأمّا العدالة بعامّة طوائفها فهم قائلون بذلك، وقد عرفت قضاء القرآن العقل في ذاك المجال. _____ ١. المصدر نفسه. ٢. النازعات: ٥.

(١٤٤) ٩. نظرية الشعراني

ب: إنّ الشيخ الشعراني - وهو من أقطاب الحديث والكلام في القرن العاشر - أحد من وقف على أنّ العقيدة بالكسب لا تفارق الجبر قدر شعرة، فلاجل ذلك يقول: «اعلم يا أخي أنّ هذه المسألة من أدق مسائل الأصول وأغمضها، ولا يزيل أشكالها إلاّ الكشف الصوفي، أمّا أرباب العقول من الفرق فهم تائهون في إدراكها، وآراؤهم فيها مضطربة. إذ كان أبو الحسن الأشعري يقول: ليس للقدرة الحادثة (قدرة العبد) أثر، وإنّما تعلّقها بالمقدور مثل تعلّق العلم بالمعلوم في عدم التأثير. وقد اعترض عليه بأنّ القدرة الحادثة إذا لم

يكن لها أثر فوجودها وعدمها سواء، فإن قدرة لا يقع بها المقذور، بمثابة العجز. ولقوة هذا الاعتراض لجأ أصحاب الأشعري إلى القول بالجبر. وقال آخرون: إن لها تأثيراً ما، وهو اختيار الباقلائي، لكنه لما سئل عن كيفية هذا التأثير في حين التزامه باستقلال القدرة القديمة في خلق الأفعال، لم يجد جواباً. وقال: إنا نلتزم بالكشف لأنه ثابت بالدليل، غير أنني لا يمكنني الإفصاح عنه بعبارة. وتمثل الشيخ أبو طاهر بقول الشاعر: إذا لم يكن إلا الأسنه * مركباً فلا - رأى للمضطر إلا - ركوبها ثم قال: ملخص الأمر: أن من زعم أنه لا عمل للعبد، فقد عاند، ومن زعم أنه مستبد بالعمل، فقد أشرك فلابد أنه مضطر على الاختيار. (١) هذا، وقد أحسن الشيخ في نقد الكسب. ولكن الاجالة إلى الكشف الصوفي إحالة إلى المجهول. أو إحالة إلى إدراك شخصي لا يكون حجة للغير. ١٠. نظرية مفتي الديار المصرية «الإنسان يقدر فعله ويصدرها بقدرته المتكسبة». ج. الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ) قد خالف الرأي العام عند الأشاعرة، وصرح بتأثير قدرة العبد في فعله، ولم يبال في ذلك بأحد من معاصريه، ولا بأحد من رجال الأزهر الذين كانوا يرددون في ألسنتهم قول القائل: ومن يقل بالطبع أو بالعلمة * فذاك كفر عند أهل الملة أقول: إن الشيخ الأزهرى «عبده» كان يعيش في عصر رفعت فيه المادية الغربية عقيرتها ضد الإلهيين عامة والإسلاميين خاصة، وشنت حملة شعواء على عقائدهم. وكانت أرض مصر أول نقطة من الأراضي الإسلامية عانت من بث سموم المادية القادمة من الغرب مع احتلال _____ ١. اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكاير: للشعراني: ١٣٩-١٤١.

(١٤٥)

الفرنسيين لها بقيادة نابليون. كانت العقيدة الإسلامية في مصر تتجلى في المذهب الأشعري، وكان إنكار العلية والمعلولية والرابطة الطبيعية بين الطبائع وآثارها من أبرز سمات ذاك المذهب، وكان التفوه بخلافه آية الإلحاد والكفر، وقد شن الماديون على هذه العقيدة أمور ملأوا بها صحفهم وكتبهم، منها: ١. أن الإلهيين لا - يعترفون بناموس العلية والمعلولية، وينكرون الروابط الطبيعية بين الأشياء وآثارها، مع أن العلم - بأساليبه التجريبية المختلفة - يثبت ذلك بوضوح. ٢. أن الإلهيين يعترفون بعلمة واحدة وهي الله تعالى، وهم يقيمونه مقام جميع العلل، وينسبون كل ظاهرة مادية إليه سبحانه، وأحياناً إلى العوالم العلوية التي يعبر عنها بالملك والجن والروح. ٣. أن الإلهيين - بسبب قولهم بأن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه - لا يعتقدون بدور للإنسان في حياته وعيشه، فهو مجبور في السير على الخط الذي يرسمه له خالقه، ومكتوف الأيدي أمام تلاطم أمواج الحوادث، فلأجل ذلك لا يؤثر في الإنسان شيء من الأساليب التربوية ولا يغيره إلى حال. إلى غير ذلك من الإشكالات والمضاعفات والتوالي الفاسدة، التي لا تقف عند حد. وقد وقف الشيخ على خطورة الموقف، وأنه مما يستحق أن يشتري بنفسه (١٤٦)

اللوم والذم، بل الأمر الأشد من ذلك، في سبيل إظهاره الحقيقة، حتى يدفع الهجمات الشعواء عن وجه الإسلام والمسلمين بقوة وحرصانه. نعم، قد أثر في تفكير الشيخ عبده وأوجد فيه هذا الحافز والاندفاع عاملان كبيران، كان لهما الأثر البالغ في بناء شخصيته الفكرية والفلسفية والاجتماعية والسياسية، وهما: ١. اطلاعه على نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - . ٢. اتصاله بالسيد المجاهد جمال الدين الأسد آبادي (١٢٥٤-١٣١٦هـ). فعلى ضوء هذين العاملين، خالف الرأي العام في كثير من الموارد، ومنها أفعال العباد، فقال في رسالة التوحيد التي كتبها عام ١٣٠٣هـ للتدريس في المدارس الإسلامية في بيروت سنة إقصائه من مصر إلى بيروت: «يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه، ولا معلم يرشده، كذلك يشهد أنه مدرَك لأعماله الاختيارية، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدرة ما فيه، ويعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده في مجافاته لبدهة العقل. كما يشهد ذلك في نفسه يشهده أيضاً في بني نوعه كافه، متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس... وعلى ذلك قامت الشرائع، وبه استقامت التكليف، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه. أما البحث في ما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته، وبين ما تشهد به البدهة من عمل المختار في ما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، والاشتغال بما لا تكاد تصل العقول

إليه. وقد خاض فيه الغالون من كل مله، خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدل وقوفاً حيث ابتدأوا، وغاية ما فعلوه أن فرّقوا وشتّوا، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله (١٤٧) واستقلاله المطلق، وهو غرور ظاهر (١)، ومنهم من قال بالجبر وصرح به. ومنهم من قال به و تبرأ من اسمه (٢). وهو هدم للشريعة، ومحو للتكاليف، وإبطال لحكم العقل البديهي، وهو عماد الإيمان. ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الإشراك بالله - وهو الظلم العظيم - دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة، فالإشراك اعتقاد أن غير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة، وأنّ لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به في ما لا يقدر العبد عليه... جاءت الشريعة لتقرير أمرين عظيمين، هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية: الأول: أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته. والثاني: أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات، وأنّ من آثارها ما يحول بين العبد وإنفاذ ما يريده، وأن لا شيء سوى الله يمكنه أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه. وقد كلفه سبحانه أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده، بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل. وهذا الذي قرناه قد اهتدى إليه سلف الأمة، فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم، وعوّل عليه من متأخري أهل النظر إمام الحرمين الجويني - رحمه الله -، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه (٣) ثم إن الركب بعد لم يقف، وإنّ هناك لفيماً من المفكرين أدركوا مرارة القول بالجبر، وأنّ القول بالكسب لا يسمن ولا يغني من جوع، فرجعوا إلى القول بالأمر بين الأمرين، وإن لم يصرحوا باسمه، ونأتى في المقام بنصّ عالمين كبيرين من شيوخ الأزهر وعلمائهم: ١. يريد المعتزلة. ٢. يريد الأشاعرة. ٣. رسالته التوحيد: ٥٩-٦٢ بتلخيص.

(١٤٨)

١١. الزرقاني وأفعال العباد د. وممن اعترف بالحق، الشيخ عبد العظيم الزرقاني قال: ولتقف برهه بجانب هذا المثال، مثال خلق الأفعال، ليتضح الحال، ولتقيس عليه النظائر والأشبهاء عند الاختلاف والاشتباه، ولنعلم أن المتخالفين في ذلك ما زالوا مع خلافهم، إخواناً مسلمين، تظلمهم رايه القرآن، ويضمهم لواء الإسلام. في القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شيء، وأن مرجع كل شيء إليه وحده، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه، مثل قوله عز وجل: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ * هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَزُولُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ * مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً * وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا - مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ * إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهْمًا - لا - يَبْصُرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ * فَمَنْ يردِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ * وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى

وكذلك يقول النبي: «إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل». ويقول: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». ويقول: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» إلى غير ذلك. (١٤٩)

هذه النصوص وأمثالها، إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يرد الأمور كلها إلى الله معتقداً أنه الواحد الأحد، لا شريك له في ملكه ولا في ناحية من ملكه، وهي أفعال التكليف من عباده، وكأن نسبة الأفعال إلى العباد هي الأخرى محض فضل من الله، على حد ما قال ابن عطاء الله: من فضله وكرمه عليك، أن خلق العمل ونسبه إليك. ويظهر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية، ناطقة بوحداية الله في كل شيء وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختاره من أفعاله، لأنه لو كان خالقاً لها لكان عالماً بتفاصيلها، ولكنه يشعر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جداً من عمله الاختياري دون أن يعرف تفاصيلها، كخطوات المشي وحرركات المضغ في الأكل ونحوها. وإذا

فليس العبد هو الخالق لها (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ)؟ بجانب هذا توجد نصوص كثيرة أيضاً من الكتاب والسنة، تنسب أعمال العباد إليهم، وتعلن رضوان الله وحبه للمحسنين فيها، كما تعلن غضبه وبغضه للمسيئين منهم من ذلك قوله سبحانه: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا * إِنَّ أَحْسَنَ تَنَمُّ أَحْسَنَ تَنَمُّ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ * وَإِنْ كَذَبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْرِحُونَ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

وكذلك نقرأ في السنة النبوية: «اعملوا فكلُّ مُيسَّر لما خلق له. بادروا (١٥٠)

بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، يا عباس بن عبد المطلب، اعمل لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، اعملي لا أغنى عنك من الله شيئاً، إلى غير ذلك. وهذه نصوص إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يرد أعمال العباد الاختيارية إليهم، معتقداً أنهم لا يستحقون ثوابها إن أحسنوا، وعقابها إن أساءوا. ويظهر هذه الأدلة العقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بعدالة الله وحكمته، لأن العبد لو لم يكن موجداً لما اختار من أعماله، لما كان ثمة وجه لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة. وكيف يثاب أو يعاقب على ما ليس له ولم يصدر منه. غيرى جنى وأنا المعذب فيكم * فكأننى سبابة المتندم أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التي بجانبها، فرجحوها وقالوا: إن العبد لا يخلق أفعال نفسه الاختيارية، إنما هي خلق الله وحده. وإذا قيل لهم: كيف يثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجد هو؟ وكيف يتفق هذا وما هو مقرر من عدالة الله وحكمته في تكليف خلقه؟ قالوا: إن العباد - وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم - كاسبون لها. وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب. وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع للمكلفين. وهكذا حملوا النصوص الأولى على الخلق، وحملوا الثانية على الكسب، جمعاً بين الأدلة. ثم إذا قيل لهم: ما هذا الكسب؟ اختلف الأشعري والماتريدي في تحديده، أهو مقارن القدرة القديمة للحادثة أم هو العزم المصمم؟ ولكل وجهة نظر، يطول شرحها وتوجيهها. أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما يظاهاها من برهان العقل، فرجحوها وقالوا: إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية. وإذا قيل لهم: أليس الله خالق كل شيء ومنها أعمال العباد؟ قالوا: بلى إنه خالق كل شيء حتى أعمال عباده (١٥١)

الاختيارية، بيد أنه خلق بعض الأشياء بلا واسطة وخلق بعضها الآخر بواسطة، وأعمال المكلفين من القبيل الثاني، خلقها الله بوساطة خلق آلتها فيه، وآلتها هي القدرة الكلية والإرادة الكلية الصالحتان للتعلم بكل من الطرفين. وليس لنا من حول ولا قوة سوى أننا استعملناها على أحد وجهيها، إما بحسن الاختيار وإما بسوء الاختيار. ثم لا مانع عندنا من القول بأنه سبحانه خالق لأفعال عباده، ولكن على سبيل المجاز، باعتبار أنه خالق أسبابها ووسائلها. وإذا قيل لهم: إن مذهبكم يستلزم أن يكون لله شركاء كثيرون في فعله، وهم عباده المكلفون، وهذا يناقض عقيدة التوحيد وبرهان الوجدانية. قالوا: لا نسلم هذا ولا نقول به، فإن الوجدانية ليس معناها نفى وجود ذوات أو صفات أو أفعال لغيره، إنما معناها نفى أن يكون لغيره شبهه في ذاته أو صفاته أو أفعاله. وأنتم يا أهل السنة لا تمنعون وجود ذوات لا تشبه ذاته، ولا تمنعون وجود صفات لا تشبه صفاته، فلم تمنعون وجود أفعال من العباد لا تشبه أفعاله؟ وهو ما نقول به في خلق العباد لأعمالهم، فإنها لا تشبه أفعال الله بحال. هكذا تجد لكلتا الطائفتين وجهة نظر قوية وتأويلاً سائغاً فيما تؤوله من النصوص المقابلة للنصوص التي بهرتها فرجحتها، ونجد أيضاً أن كلتا الطائفتين لا تلتزم المحذور التي تحاول الأخرى أن تلتزمها إياه في مقام الحجاج والجدال، بل توجه رأيها توجيهاً ينأى بها عن الوقوع في المحذور. ثم نجد كلتا الطائفتين يتلاقيان أخيراً بعد طول المطاف عند نقطة الاعتقاد السديد بوجدانية الله وحكمته، ولكن على الوجه الذي استبان لها وراج عندها. فكيف يرضى منصف إذا بتجريح

إحداهما ورميها بأشنع التهم من كفر أو شرك أو هوى؟ وماذا علينا أن نرجح ما نرجح من غير تسفيه للجانب الآخر؟ بل ماذا علينا أن نلوذ بالصمت ونعتصم بالسكوت فلا نخوض في أمثال هذه الدقائق العويصة، والمسالك الملتوية البعيدة؟ لا سيما أن الرحمن الرحيم لم يكلفنا بها ولم يفرضها علينا. (١٥٢)

وقد كان سلفنا الصالح يؤمنون بوحداية الله وعدله. ويؤمنون بقدره وأمره. ويؤمنون بهذه النصوص وتلك النصوص، ويؤمنون بأن العبد يعمل ما يعمل وأن الله خالق كل شيء، ويؤمنون بأنه تعالى تنزهه في قدره عن أن يكون مغلوباً أو عاجزاً، وتنزهه في أمره وتكليفه عن أن يكون ظالماً أو عابثاً. ثم بعد ذلك يصمتون فلا يخوضون في تحديد نصيب عمل الإنسان الاختياري من قدرة الله، ونصيبه من قدرة العبد. ولا يتعرضون لبيان مدى ما يبلغ فعل الله في قدره، ولا لبيان مدى ما يبلغ فعل العبد في أمثال أمره، ذلك ما لم يعلموه ولم يحاولوه، لأنهم لم يكلفوه، وكان سبحانه أرحم بعباده من أن يكلفهم إياه، لأنه من أسرار القدر أو يكاد، والعقل البشري محدود التفكير ضعيف الاستعداد. ومن شره العقول طلب ما لا سبيل لها إليه «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً». لم يمتحننا بما تعيا العقول به * حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم (١) ١٢. الشيخ شلتوت وأفعال العباد

هـ. إن الشيخ شلتوت أحد المجتهدين الأحرار في القرن الماضي، لا تأخذه في الله لومة لائم، فإذا شاهد الحق أجهر به، ولا يطلب رضى أحد، ولا يخاف غضب آخر، فهو ممن اعترف بحرية الإنسان في مجال العمل، قال: وقد تناول علماء الكلام في القديم والحديث هذه المسألة، وعرفت عندهم بمسألة الهدى والضلال، أو بمسألة الجبر والاختيار، أو بمسألة خلق الأفعال، وكان لهم فيها آراء فرقتهم بها كلمة المسلمين، وزلزلوا بها عقائد الموحدين العاملين، وصرفوا الناس بنقاشهم في المذاهب والآراء عن العمل الذي طلبه الله من عباده، وأخذوا يتقاذفون فيما بينهم بالإلحاد والزندقه، والتكفير والتفسيق، وما كان الله - و آيات بينات واضحات - ليقيم لهم وزناً فيما وقفوا عنده، وداروا حوله، ودفعوا الناس إليه. ١. مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني: ١/٥٠٦-٥١١، والشعر من قصيدة البوصيري في مدح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(١٥٣)

وهذا فريق منهم يرى: أن العبد لا اختيار له في فعل ما، وهو مجبور ظاهراً وباطناً، فالهداية تلحقه بخلق الله، والضلال يلحقه بخلق الله، دون أن يكون له دخل ما في هدايته أو ضلاله، لا ابتداءً ولا جزاءً. وهذا رأى يناقض صريح ما جاء في القرآن من نسبة الأعمال إلى العباد، ومن التصريح بأن الجزاء ثواباً أو عقاباً إنما يكون بالأعمال الصادرة من العباد، وهي أكثر من أن تحصى، وهو بعد ذلك يصادم الشعور والوجدان الذي يجده كل إنسان من نفسه حينما يفكر وحينما يتجه ويعزم، وحينما يفعل، وهو مع كل هذا، ينقض قاعدة التكليف، وهي اختبار المكلف، وقاعدة العدالة، وهي السِّيئة بالسِّيئة، والحسنة بالحسنة. وهذا فريق آخر يرى: أن الله يخلق الضلال في العبد ابتداءً واستمراراً، وليس للعبد قدرة على فعل ما، أو ليس لقدرة تأثير في فعل ما، وحينما رأوا نتائج الرأى السابق تلزمهم، انتحلوا للتخلص منها شيئاً سموه كسباً، وصححوا به في نظرهم قاعدة التكليف، وقاعدة العدالة، ونسبة الأفعال، وحاصل معنى هذا الكسب هو الاقتران العادي بين الفعل والقدرة الحادثة، أي إن الله يخلق الفعل عند قدرة العبد لا بها، كما يقولون، وبهذه المقارنة نسب الفعل إلى العبد، وكلف بالفعل، وسئل عنه، وجوزى عليه. ولا-ريب أن تفسير الكسب بهذا لا- يتفق واللغة، ولا- يتفق واستعمال القرآن لكلمة «كسب» على أنه بهذا المعنى الذي يريدون، لا يصحح قاعدة التكليف، ولا قاعدة العدالة والمسؤولية، لأن هذه المقارنة الحاصلة بخلق الله للفعل عند قدرة العبد، ليست من مقدور العبد ولا من فعله حتى ينسب الفعل بها إليه، ويجازى عليه، والفعل كما يقارن القدرة، يقارن السمع والبصر والعلم، فأى مزية للقدرة بهذه المقارنة في نسبة الأفعال إلى العبد؟ وبذلك يكون العبد في واقع أمره مجبوراً لا اختيار له، وقد قال بعض العلماء: إن كسب الأشعري وطرفة النظام، وأحوال أبي هاشم، ثلاثتها من محاولات الكلام. وهذا فريق ثالث يرى: أن العبد يفعل بإرادته وقدرته اللتين منحهما الله ابتداءً واستمراراً في دائرة ابتلائه وتكليفه، ويفصل آخرون بين الضلال ابتداءً

(١٥٤)

فينسبه إلى العبد، والضلال استمراراً فينسبه إلى الله إضلالاً منه للعبد، جزاءً على ضلاله، فهناك في رأيهم زيغ من العبد باختياره، ثم إزاغته من الله عقوبةً له على ذلك الزيغ، هناك انصراف من العبد عن الحق، ثم صرف من الله للعبد جزاء هذا الانصراف. والذي نراه كما قلنا أن للعبد قدرة وإرادة ولم يخلقهما الله فيه عبثاً، بل خلقهما ليكونا مناط التكليف ومناط الجزاء وأساس نسبة الأفعال إلى العبد نسبة حقيقية، والله يترك عبده وما يختار لنفسه، فإن اختار الخير تركه فيه يدعوه سابقه إلى لاحقه، ولا يمنعه بقدرته الإلهية عن استمراره فيه وإن اختار الشر، تركه فيه يدعوه سابقه إلى لاحقه، ولا يمنعه بقدرته الإلهية عن استمراره فيه، والعبد وقدرته واختياره كل ذلك بمشيئة الله وقدرته وتحت قهره، ولو شاء لسلب قوة الخير فكان العبد شراً بطبعه لا خير فيه، ولو شاء لسلبه قوة الشر فكان خيراً بطبعه لا شر فيه، ولكن حكمته الإلهية في التكليف والابتلاء، قضت بما رسم، وكان فضل الله على الناس عظيماً. ومن هنا يتبين أن العبد ليس مجبوراً، لا ظاهراً ولا باطناً، ولا مجزياً على ضلاله بإضلال الله إياه، فإن هذا أمر تأباه حكمة الحكيم وعدل العادل، وتمنع تصوّره. (١٥٥) القضاء والقدر ليس معناهما الإلزام

وبهذا يكون المؤمنون عمليين، لا- يعتذر الواحد منهم عن تقصير في واجب بالقضاء والقدر، فليس في القضاء والقدر إلا- العدل المطلق، والحكمة الشاملة العامة، ليس فيهما إلا الحكم والترتيب، وربط الأسباب بالمسببات على سنة دائمة مطردة، هي أصل الخلق كله، وهي أساس الشرائع كلها، وهي أساس الحساب والجزاء عند الله، وليس فيهما شيء من معاني الإكراه والإلزام. وإنما معناهما الحكم والترتيب، فقضى: حكم وأمر، وقدر: رتب ونظم، وعلم الله بما سيكون من العبد باختياره وطوعه - شأن المحيط علمه بكل شيء - ليس فيه معنى إلزام العبد بما علم الله أنه سيكون منه، وإنما هو العلم الكامل الذي لا يقصر عن شيء في الأرض ولا في السماء، ولا فيما كان وما يكون. (١) ثم إن القول بالقدر السالب للاختيار من الإنسان والسائد على قدرته ومشيئته سبحانه ممّا جعل ذريعة للطعن على الشريعة، وقد جاء الطعن لبعض المعتزلة في ما أنشأه وقال: أيا علماء الدين ذمّتي دينكم * تحيّر، دلّوه بأوضح حجة إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم * ولم يرض مني فما وجه حيلتي؟ دعاني و سد الباب عني فهل إلى * دخولي سبيل بينوا لي قضيتي قضى بضاللي ثم قال أرض بالقضا * فما أنا راض بالذي فيه شقوتي! فإن كنت بالمقضى يا قوم راضياً * فربي لا يرضى لشؤم بليتي وهل لي رضى ما ليس يرضاه سيدي؟ * وقد جرت دلّوني على كشف حيرتي إذا شاء ربي الكفر مني مشيئة * فما أنا راض باتباع المشيئة وهل لي اختيار أن أخالف حكمه * فبالله فاشفعوا بالبراهين حجّتي (٢) وقد مال يميناً وشمالاً كل من فسر القضاء والقدر بسلب الاختيار حتى يجيبوا عن شبهة هذا المتظاهر بالذمية، وقد أجاب عنه علماء الدين الباجي بنظمه وقال: فكن راضياً نفس القضاء ولا تكن * بمقضى كفر راضياً ذا خطيئة وحاصل هذا الجواب، أن الواجب الرضا بالتقدير لا بالمقدر، وكل تقدير يرضى به لكونه من قبيل الحق، ثم المقدر وينقسم إلى ما يجب الرضى به كالإيمان، وإلى ما يحرم الرضى به كالكفر، إلى غير ذلك. وأنت خير بأن هذا الجواب لا يسمن ولا يغنى من جوع، إذ أي معنى للتفريق بين القدر والمقدر؟! فإن التقدير لو كان سالباً للاختيار فالرضى بالتقدير رضى بالمقدر أيضاً. _____ ١. تفسير القرآن الكريم، للأستاذ الشيخ شلتوت: ٢٤٠-٢٤٢. ٢. طبقات الشافعية: ١٠/٣٥٢، والقائل أنشأ الشعر من جانب الذمّي لئلا يؤخذ به، ويقتل بسيف القضاء.

(١٥٦)

وقد كان الشيخ محمد عبده يعانى من القشريين المتعديدين بظواهر الكلم والجمل، الذين عطلوا عقولهم وفتحوا عيونهم على ظواهر الكتاب والسنة فهؤلاء كانوا ألد الأعداء لرجال الإصلاح والنهضة العلمية في مصر، وفيهم يقول الشيخ محمد عبده في أخريات عمره: ولست أبالى أن يقال محمّد * أبل أم التظت عليه الم آتم ولكنّ ديناً قد أردت صلاحه * أحاذر أن يقضى عليه العمائم فيا رب إن قدرت رجعي سريعاً * إلى عالم الأرواح وانفض خاتم فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً * رشيداً يضىء النهج والليل قاتم خاتمة المطاف

إنّ شيخ الشيعة الحسن بن المطهر المعروف بالعلامة الحلّي (٦٤٨-٧٢٦هـ) ردّ على القول بأن العبد لا تأثير له في أفعاله، بأنّه يستلزم

أشياء شنيعة، ولما وقف ابن تيمية على كتابه، ورأى إتقان الاستدلال، رد عليه بأن جمهور أهل السنة المثبتين للقدر، لا يقولون بما ذكره، بل جمهورهم يقولون بأن العبد فاعل حقيقة، وأن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية، وهم لا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقولون بما دل عليه العقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح، وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء، ولا يقولون بأن قوى الطباع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها، بل يقولون أن لها تأثيراً لفظاً ومعنى. ولكن هذا القول الذي حكاه هو (العلامة الحلبي) قول بعض المثبتة للقدر كالأشعري ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب مالک والشافعي وأحمد، حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى الطباع ويقولون: إن الله فعل عندها لا- بها، ويقولون: إن قدرة العبد لا- تأثير لها في الفعل، وأبلغ من ذلك قول الأشعري بأن الله فاعل فعل العبد، وأن عمل العبد ليس فعلاً للعبد، بل كسب له، وإنما هو فعل الله، وجمهور الناس من أهل السنة من جميع الطوائف على خلاف ذلك، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة. (١) _____ ١. منهاج السنة: ١/٢٦٦.

(١٥٧)

أقول: إن الإمام في العقائد لدى أهل السنة، وهو الإمام أحمد، وبعده الإمام الأشعري، والمفروض أنهم لا يقولون بعدم تأثير قدرة العبد في فعله، ومعه: كيف يمكن أن ينسب إلى أهل السنة غيره؟! والحق أن ابن تيمية من رماة القول على عواهنه فيقضى ويرم وينقض بلا مصدر صحيح، وسيوافيك نبذ من جزافاته في الجزء الرابع من هذه الموسوعة، عند البحث عن عقائد الوهابية. نظرية الكسب بين مراحل التفسير والتطور والإنكار

لقد وقفت على نصوص أعلام الأشاعرة حول نظرية الكسب، وحتى نص الأشعري فيها. والتدبير فيما نقلناه يعرب عن أن هذه النظرية - لأجل إحاطة الإبهام بها ووجود الغموض فيها - مضت عليها مراحل ثلاث: ١. مرحلة التبيين والتفسير. ٢. مرحلة التطور والتكامل. ٣. مرحلة الإنكار والإبطال. وهذه المراحل وإن لم تتكون حسب الترتيب الزمني، ولكنها تكونت طيلة قرون تنوف على عشرة. أما المرحلة الأولى فقد تكونت بفكرة الغزالي أولاً، والتفتازاني ثانياً. فقام الأول بتفسيرها بـ «صدور الفعل من الله عند إيجاد القدرة في العبد»، كما أن الثاني فسرها بـ «توجه قدرة العبد صوب الفعل عند صدوره من الله». فهذان التفسيران لم يزيدا في بناء النظرية شيئاً إلا إلقاء الضوء عليها، وتصويرها بشكل قابل للتصور. أما المرحلة الثانية - أعني: مرحلة التطور - فقد حصلت باعتراف القاضي الباقلاني بتأثير قدرة العبد في ترتب العناوين على الفعل، من الطاعة والعصيان (١٥٨)

وغيرهما، بعد ما لم يكن الأشعري ومن قبله أو بعده معترفين بأي تأثير لها في فعله. ولم يكن التطوير خاصاً به، بل يشار به فيه بنحو آخر ابن الهمام صاحب المسائرة، حيث قام بتخصيص القاعدة بخروج العزم عنها، وأنه مخلوق لقدرة العبد وليس مخلوقاً لله سبحانه. ولا يقصر عنه في التطوير، نظريته ابن الخطيب، حيث اعترف بشأنه قدرة العبد وقابليته للتأثير لولا قدرة الله سبحانه العليا، فلأجل ذلك صارت مغلوقة لقدرة. أما المرحلة الثالثة - أعني: مرحلة الإنكار والإبطال - فقد عرفتها من الفحل المقدم إمام الحرمين في القرن الخامس، والمصلح المصري الشيخ محمد عبده، والزرقاني، والشيخ شلتوت، ولعل هنا من جهر بالحق وأصح به ولم نقف عليه. القرآن وخلق الأفعال

استدل الشيخ الأشعري على ما يتبناه من كون أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه بالأدلة العقلية تارة، والنقلية أخرى. أما الأولى فقد مضت مع ما علقنا عليها من الملاحظات، وأما الثانية فقد استدلل عليها في كتاب «الإبانه» بآيتين: الأولى: قوله سبحانه: (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ). (١) الثانية: قوله سبحانه: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزِدُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ هُوَ فَاتَى تُؤَفَّكُونَ). (٢) _____ ١. الصافات: ٩٥-٩٦. ٢. فاطر: ٣.

(١٥٩)

يلاحظ على الاستدلال بالآية الأولى بأمور: أولاً: أن الاستدلال مبني على كون «ما» في قوله سبحانه (وما تعملون) مصدرية، وأن معنى الآية: والله خلقكم وعملكم، وليست بموصولة حتى يكون معنى الآية والله خلقكم وخلق الذي تعملونه من الأصنام، كقوله سبحانه: (بَلْ

رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ). (١) ولكن الظاهر من الآية هو الثاني لا الأول، بقريته قوله: (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) وهي فيها موصولة بلا إشكال، فتكون قريته على المراد في الآية الثانية، إذ ليس «ماتعملون» إلا ترجمة لقوله «ما تنحتون» ولا يصار إلى التفكيك إلا بدليل قاطع. وإنما ذهب من ذهب إلى أن «ما» مصدرية، وأن المراد «عملكم» لأجل رأى مسبق ومحاولة يطلب الدليل عليها، ولولاها لما قال به. فعلى المختار يكون معنى الآية: أتعبدون الأصنام التي تنحتونها والله خلقكم أيها العبد والأصنام التي تعملونها، وبذلك يكون الربط بين الآيتين محفوظاً، بخلافه على القول الآخر. إذ عليه تفقد الآية الثانية صلتها بالأولى، ويكون مفاد الآيتين: أتعبدون الأصنام التي تنحتون، والله خلقكم وأعمالكم وأفعالكم، وإن لم يكن للعمل صلة بعبادة ما ينحتونه. ثانياً: إن الخليل - عليه السلام - عندما أدلى بمفاد الآيتين كان في مقام الاحتجاج على عبدة الأصنام، ولا يصح الاحتجاج إلا باتخاذ «ما» موصولة كناية عن الأصنام المنحوتة، فكأنه قال: «إن العابد والمعبود مخلوقان لله، فكيف يعبد المخلوق مخلوقاً مثله؟» على أن العابد هو الذي عمل صورته وشكله، ولولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها. ولكن لو كان مفاد الآية: «والله خلقكم وخلق عملكم» لم يصح الاحتجاج به على العبد ولم ينطبق على المقام. _____ ١. الأنبياء: ٥٦.

(١٦٠)

ثالثاً: لو كانت مصدرية لتتم الحجة صالح الخليل ولانقلبت عليه. إذا عندئذ يفتح لهم باب العذر، بحجة أنه لو كان هو الخالق لأعمالنا فلا جهة للتوبيخ والتنديد. كل هذه الوجوه توضح أن المراد: أن الله خلق الإنسان وخلق الأصنام التي يعملها الإنسان، أي يصورها ويشكلها. وعندئذ لا صلة له بما يدعيه الأشعري. أما الآية الثانية فلا شك أنها صريحة في حصر الخالقية بالله سبحانه وكم لها من نظير في القرآن. قال سبحانه: (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (١) وقال عز من قائل: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (٢) وقال تعالى: (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (٣) إلى غير ذلك من الآيات الصريحة في قصر الخالقية على الله. (٤) غير أن الذي يهيم القارئ الكريم هو الوقوف على ما تهدف إليه الآيات، فإن لهذا القسم من الآيات احتمالين لا يتعين أي منهما إلا باعتضاده بالآيات الأخرى، ودونك الاحتمالين: الأول: حصر الخلق والإيجاد على الإطلاق بالله سبحانه، وأنه ليس في صفحة الوجود مؤثر وموجد وخالق إلا الله سبحانه، وأما غيره فليس بمؤثر ولا خالق، لا على وجه الاستقلال ولا على وجه التبعية، وعلى ذلك فما ترى من الآثار للظواهر الطبيعية فكُلها مفاضة منه سبحانه مباشرة، من دون أن يكون هناك رابطة بين الظاهرة المادية وآثارها، فالنار بمعنى أنه جرت سنّة الله سبحانه على أن يوجد الحرارة عند وجود النار مباشرة، من دون أن يكون هناك رابطة سببية ومسببية بينها وبين أثرها، وكذلك الشمس مضيئة والقمر منير، بمعنى أنه جرت عادة الله سبحانه على إيجاد الضوء والنور مباشرة، عقيب وجود الشمس _____ ١. الرعد: ١٦. ٢. الزمر: ٦٢. ٣. غافر: ٦٢. ٤. لاحظ: الأنعام ١٠١-١٠٢، الحشر: ٢٤، الأعراف: ٥٤.

(١٦١)

والقمر، من دون أن يكون هناك نظام وقانون تكويني باسم العلية والمعلولية، ويكون صلتها بالشمس والقمر كصلتهما بغيرهما. وعلى ذلك فليس في صفحة الكون إلا علّة واحدة ومؤثر فارد يؤثر بقدرته وسلطانه في كل الأشياء، من دون أن يجرى قدرته ويظهر سلطانه عن طريق الأسباب والمسببات. فهو سبحانه بنفسه، قائم مقام جميع العلل والأسباب التي كشف عنها العلم طيلة قرون. هذا ما يتبناه الأشعري وأتباعه ناسبين إياه إلى أهل السنّة والجماعة عامّة، وكانت الأكثرية الساحقة من المسلمين لا يقيمون للعلل الطبيعية والأبحاث العلمية وزناً. فعامل الحمى في المريض هو الله سبحانه، وليس للجراثيم دور في ظهورها فيه. ومثله سائر الظواهر الطبيعية من نمو الأشجار، وتفتح الأزهار، وغناء الطيور، وجريان السيول، وحركة الرياح، وهطول الأمطار، وغير ذلك. فالكُل مخلوق له سبحانه بلا واسطة وبلا تسيب من الأسباب. ولكن هذا المعنى محجوج بنفس القرآن الكريم، مضافاً إلى أن الأدلة العقلية والعلمية لا توافقه أبداً، ونكتفى بالقليل من الكثير من الآيات الكافية لإبطال هذه النظرية. إن الآيات القرآنية تعترف بوضوح بقانون العلية والمعلولية بين الظواهر الطبيعية، وتسند الآثار إلى موضوعاتها - وفي الوقت نفسه تسندها إلى الله سبحانه - حتى لا يعتر القارئ بأن آثار الموضوعات

متحققه من تلقاء نفسها. قال سبحانه: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ). (١) وقال عز من قائل: (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ). (٢) فالكتاب العزيز يصرح في هاتين الآيتين بجلاء بتأثير الماء في الزرع، إذ إن الباء في «به» في الموردين بمعنى السببية، وأوضح منهما قوله سبحانه: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ _____ ١ . البقرة: ٢٢ . ٢ . السجدة: ٢٧.

(١٦٢) وَغَيْرِ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضَ لُبَّهَا عَلَى بَعْضِ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١). فَإِنَّ جَمَلَهُ (يسقى بماء واحد) كاشفه عن دور الماء وتأثيره في إنبات النباتات ونمو الأشجار، ومع ذلك يتفضل بعض الثمار على بعض.

ومن أمعن النظر في القرآن الكريم يقف على أنه كيف يبين المقدمات الطبيعية لنزول الثلج والمطر من السماء، من قبل أن يعرفها العلم الحديث، ويطلع عليها بالوسائل التي يستخدمها لدراسة الظواهر الطبيعية واكتشاف عللها ومقدماتها، يتضح ذلك بدراسة الآيتين التاليتين: ١. (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ). (٢) فقله سبحانه: (فتثير سحاباً) صريح في أن الرياح تحرك السحاب وتسوقه من جانب إلى جانب آخر، والإمعان في مجموع جمل الآيه يهدينا إلى نظرية القرآن في تأثير العلة الطبيعية بإذن الله تعالى. فقد جاء في هذه الآيه الأمور التالية ناسباً لبعض الأمور إلى الظواهر الطبيعية، وبعضها الآخر إلى الله سبحانه: ١. تأثير الرياح في نزول المطر. ٢. تأثير الرياح في تحريك السحب. ٣. الله سبحانه ييسط السحاب في السماء. ٤. تجمع السحب بعد هذه الأمور على شكل قطع متراكمة مقدمة لنزول المطر من خلالها. فالناظر في هذه الآيه، والآيه الثانية يدعن بأن نزول المطر من السماء إلى _____ ١ . الرعد: ٤ . ٢ . الروم: ٤٨.

(١٦٣)

الأرض رهن بأسباب وعلل ومؤثرات بإذن الله سبحانه، فلهذه العلة دور في حدوث الظاهرة (المطر) كما أنه له سبحانه و تعالى دوراً وراء هذه الأسباب وهي جنوده والأسباب التي خلقها وأعطى لها السببية، مظاهر قدرته ومجالي إرادته. ٢. (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ). (١) فالآيه الأولى تسند حركة السحاب إلى الرياح وتقول: (فتثير سحاباً) وهذه الآيه تسندها إلى الله سبحانه وتقول: (أن الله يزجي سحاباً) وما هذا إلا لأن الرياح جند من جنوده، وسبب من أسبابه التي تعلقت مشيئته على إنزال الفيض عن طريقها، وفعلها فعله، والكل قائم به قيام الممكن بالواجب، كقيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي. وليست الآيات الدالة على توسيط الأسباب والعلل في تكون الأشياء وتحققها منحصرة بما ذكرناه. بل هناك آيات كثيرة تأتي بالنزر اليسير من الكثير المتوفر. ٣. (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ). (٢) فالآيه تصرح بتأثير الماء في اهتزاز الأرض وربوتها، ثم تصرح بأن الأرض تنبت من كل زوج بهيج. وبعبارة أخرى: الآيه تصرح بوجود الرابطة الطبيعية بين نزول الماء على الأرض واهتزازها وربوتها وانتفاخها، ولولا تلك الرابطة لما صح جعل الاهتزاز والربوة جزءاً لنزول الماء. وحمل قوله تعالى «وأنبتت» على المجاز، وجعل الأرض ظرفاً للإنبات فقط قائلاً بأن الله هو المنبت بلا توسيط الأسباب، تأويل بلا وجه ولا يساعده ظاهر اللفظ، بل هو ظاهر في أن الإنبات فعل للأرض _____ ١ . النور: ٤٣ . ٢ . الحج: ٥.

(١٦٤)

بضميمة عوامل وأسباب شتى، والكل يعمل لا استقلالاً بل بإذنه ومشيئته سبحانه. ٤. (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ). (١) فالآيه تسند إلى الحب، إنبات سبع سنابل، وحمله على المجاز - بتصور أن الحب ظرف، ومحل لفعله سبحانه - تأويل لأجل رأى مسبق من غير دليل. فالله سبحانه يسند الإنبات في هذه الآيات إلى الأرض والحب، ولكنه - في الوقت نفسه - يسند نفس ذلك الفعل إلى ذاته ويقول: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ). (٢)

ويقول سبحانه: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ). (٣) ولا- تعارض ولا- اختلاف بين الآيات في جميع هذه المجالات، إذ الفعل فعل الله سبحانه بما أنه منشيء الكون وموجده ومسبب الأسباب ومكونها، كما هو فعل السبب لصلته بينه وبين آثاره. والأسباب والعلل على مراتبها مخلوقات لله مؤثرات بإذنه. ٥. (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) (٤). أي جعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال لئلا تضطرب بكم. فقد نسب صيانة الإنسان عن الاضطراب إلى نفسه، حيث قال: (وَأَلْقَى) وإلى سببه حيث قال: (رواسي أن تميد) والكل يهدف إلى أمر واحد، وهو الذي ورد في الآية التالية ويقول: (هذا خلق الله فَأَرْوِنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ) _____ ١. البقرة: ٢٤١. ٢. النمل: ٦٠. ٣. لقمان: ١٠. ٤. لقمان: ١٠.

(١٦٥) (دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (١)، أي هذا الذي تشاهدونه في السماء والأرض وما بينهما من الأسباب والمسببات جميعه مخلوق لله، والأسباب جنوده، والآثار آثار للسبب والمسبب (بالكسر)، كل على جهة خاصة.

فمن وقف على مجموعة كبيرة من الآيات في هذا المجال لم يشك في أن القرآن يعترف بقانون السببية بين الأشياء وآثارها، وإنهاء كل الكون إلى ذاته تبارك و تعالي. فلا يصح عندئذ حصر الخالق والعلية المطلقة، الأعم من الأصلي والتبعي في الله سبحانه، وتصوير غيره من الأسباب أمورا عاطلة غير مفيدة لشيء يتوقع منها. إلى هنا تبين عدم صحة ما عليه الأشاعرة وأهل الحديث من حصر الخالق في الله بالمعنى الذي يتبونه. نعم هناك معنى آخر لحصر الخالق في الله سبحانه ونفيه عن غيره بالمعنى الذي يناسب شأنه، وهذا هو الذي يشبه العقل، ويصرح به القرآن، وتؤيده الأبحاث العلمية في جميع الحضارات، وهذا هو الذي نبينه في المعنى الثاني لحصر الخالق. الثاني (٢): إن الخالق المستقل النابعة من الذات، غير المعتمدة على شيء منحصرة بالله سبحانه، ولكن غيره يقوم بأمر الخلق والإيجاد بتقديره وقضائه، وتسيبه ومشيتته، ويعد الكل جنوداً لله سبحانه يعملون بأمره، وإليك توضيح ذلك: لا يشك المتأمل في الذكر الحكيم في أنه كثيراً ما يسند آثاراً إلى الموضوعات الخارجية والأشياء الواقعة في دار الوجود، كالسماوات وكواكبها ونجومها، والأرض وجبالها، وبحرها وبرها، وعناصرها ومعادنها، والسحب والرعد والبرق والصواعق، والماء والنجم والشجر، والحيوان والإنسان، إلى غير ذلك من الأشياء الواردة في القرآن الكريم. فمن أنكر _____ ١. لقمان: ١١. ٢. تقدم المعنى الأول في ص ١٦٠.

(١٦٦)

إسناد القرآن آثار هذه الأشياء إلى نفسها، فإنما ينكره باللسان وقلبه معتقد بخلافه، وقد ذكرنا نزرأ سيراً من هذه الآيات، خصوصاً ما يرجع منها إلى نزول المطر من السماء إلى الأرض، فلا يصح لأحد أن ينكر دور تفاعلات المادة وانفعالاتها في الجو في نزوله. هذا من جانب. ومن جانب آخر، إن القرآن يسند إلى الإنسان أفعالاً لا تقوم إلا به، ولا يصح إسناده إلى الله سبحانه بلا واسطة، وبلا مباشرة الإنسان، كأكله وشربه ومشيه وقعوده ونموه وفهمه، وشعوره وسروره. فهذه أفعال قائمة بالإنسان مستندة إليه، فهو الذي يأكل ويشرب، وينمو ويفهم. ومن جانب ثالث: إن الله سبحانه يأمره أمر إلزام، وينهاه نهى تحريم، فيجزيه بالطاعة، ويعاقبه بالمعصية، فلولا أن للإنسان دوراً في ذلك المجال وتأثيراً في الطاعة والعصيان، فما هي الغاية من الأمر والنهي، وما معنى الجزاء والعقوبة! فهذه الآيات إذا قورنت إلى قوله سبحانه: (قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (١) الذي يدل على بسط فاعليته وعليته على كل شيء، يستنتج منه أن النظام الإمكانى على اختلاف هوياته وأنواعه، فعلى بأفعاله، مؤثر في آثاره بتنفيذ من الله سبحانه، وتقدير منه، وهو القائل سبحانه: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (٢) وقال تعالى: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) (٣) وفي الوقت نفسه تنتهي وجودات هذه الأشياء وأعمالها وآثارها وحركاتها وسكناتها إلى قضائه وتقديره وهدايته. فعلى هذا، فالأشياء في جواهرها وذواتها، وحدود وجودها وخصوصياتها تنتهي إلى الخلق الإلهية، كما أن أفعالها التي تصدر عنها في ظل الخصوصيات، تنتهي إليه أيضاً، وليس العالم ومجموع الكون إلا مجموعة متوحدة يتصل بعضها ببعض، ويتلاءم بعضها مع بعض، ويؤثر بعضها في بعض، والله سبحانه وراء

_____ ١ . الرعد: ١٦ . ٢ . طه: ٥٠ . ٣ . الأعلى: ٣ .

(١٦٧)

هذا النظام ومعه وبعده، لا خالق ولا مدبر حقيقة وبالأصالة إلا هو، كما لا حول ولا قوة إلا بالله. اختلاف الأشياء في قبول الوجود يقول صدر المتألهين: «إن الأشياء في قبول الوجود من المبدأ متفاوتة، فبعضها لا يقبل الوجود إلا بعد وجود الآخر، كالعرض الذي لا يمكن وجوده إلا بعد وجود الجوهر، فقدرة على غاية الكمال، يفيض الوجود على الممكنات على ترتيب ونظام، بعضها صادرة عنه بلا سبب، وبعضها بسبب واحد أو أسباب كثيرة، فلا يدخل مثل ذلك في الوجود إلا بعد سبق أمور هي أسباب وجوده، وهو مسبب الأسباب من غير سبب، وليس ذلك لنقصان في القدرة، بل لنقصان في القابلية، وعدم قبوله الوجود إلا في طريق الأسباب، وإذا أردت التمثيل وتبيين نسبة أفعالنا إلى الله سبحانه فعليك بالكتاب النفسى، والتأمل في الأفعال الصادرة عن قواها، فقد خلقها الله تعالى مثلاً ذاتاً وصفة وفعلاً، لذاته وصفاته وأفعاله، واتل قوله تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (١) وقول رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في «من عرف نفسه فقد عرف ربه» فإن فعل كل حاسة وقوة من حيث هو فعل تلك القوة، هو فعل النفس أيضاً، إذ الإبصار مثلاً فعل الباصرة. لأنه إحضار الصورة المبصرة أو انفعال البصر بها، وكذلك السماع مثل السمع لأنه إحضار الهيئة المسموعة، أو انفعال السمع بها، فلا يمكن شىء منهما إلا بانفعال جسمانى، وفي الوقت نفسه هما فعل النفس بلا شك لأنها السميعة البصيرة بالحقيقة، وذلك لا بمعنى أن النفس تستخدم القوى كما يستخدم كاتب أو نقاش، فإن استخدم البناء لا يلزم أن يكون بناءً، ومستخدم الكاتب لا يلزم كونه كاتباً، مع أننا إذا راجعنا وجداننا نجد نفوسنا، هي بعينها المدركة والبصيرة والسميعة وهكذا الـ (٢) مر في سائر القوى».

_____ ١ . الذاريات: ٢١ . ٢ . الأسفار: ٣٧٧-٤-٣٧٨.

(١٦٨)

وإلى ذلك يشير في الحديث القدسى: «يا بن آدم بمشيئتي كنت أنت الذى تشاء لنفسك، وبقوتى أديت إلى فرائضى، وبنعمتى قويت على معصيتى، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً». (١) _____ ١ . البحار: ٥٧/٥.

(١٦٩)

الاستطاعة مع الفعل لا قبله

الاستطاعة مع الفعل لا قبله

الاستطاعة غير الإنسان أولاً، ويستحيل تقدمها على الفعل ثانياً، فله هاهنا دعويان يصرح بهما في العبارة التالية: إن قال قائل: لم قلت إن الإنسان يستطيع باستطاعته هي غيره؟ قيل له: لأنه يكون تارة مستطيعاً، وتارة عاجزاً، كما يكون تارة عالماً، وتارة غير عالم، وتارة متحركاً وتارة غير متحرك، فوجب أن يكون مستطيعاً بمعنى هو غيره، كما وجب أن يكون عالماً بمعنى هو غيره، وكما وجب أن يكون متحركاً بمعنى هو غيره، لأنه لو كان مستطيعاً بنفسه، أو بمعنى يستحيل مفارقتها له، لم يوجد إلا وهو مستطيع، فلما وجد مرة مستطيعاً، ومرة غير مستطيع، صح وثبت أن استطاعته غيره. فإن قال قائل: فإذا أثبت له استطاعته هي غيره، فلم زعمتم أنه يستحيل تقدمه للفعل؟ قيل له: زعمنا ذلك من قبل أن الفعل لا يخلو أن يكون حادثاً مع الاستطاعة في حال حدوثها أو بعدها، فإن كان حادثاً معها في حال حدوثها، فقد صح أنها مع الفعل للفعل، وإن كان حادثاً بعدها - وقد دللت الدلالة على أنها لا تبقى - وجب حدوث الفعل بقدرة معدومه، ولو جاز ذلك فجاز أن يحدث العجز بعدها، فيكون الفعل واقعاً بقدرة معدومه، ولو جاز أن يفعل في حال هو فيها عاجز بقدرة معدومه، فجاز أن يفعل مئة سنة، من حال حدوث (١٧٠)

القدرة، وإن كان عاجزاً في المائة سنة كلها، بقدرة عدمت من مائة سنة، وهذا فاسد، وأيضاً لو جاز حدوث الفعل مع عدم القدرة، ووقع الفعل بقدرة معدومه، لجاز وقوع الإحراق بحرارة نار معدومه، وقد قلب الله النار برداً والقطع بحد سيف معدوم، وقد قلب الله

السيف قصباً، والقطع (١) بجارحة معدومة وذلك معدوم، فإذا استحال ذلك وجب أن الفعل يحدث مع الاستطاعة في حال حدوثها. فإن قالوا: ولم زعمتم أن القدرة لا تبقى؟ قيل لهم: لأنها لو بقيت لكانت لا تخلو أن تبقى لنفسها أو لبقاء تقوم به، فإن كانت تبقى لنفسها وجب أن تكون نفسها بقاء لها وأن لا توجد إلا باقية، وفي هذا ما يوجب أن تكون باقية في حال حدوثها، وإن كانت تبقى بقاء يقوم بها والبقاء صفة، فقد قامت الصفة بالصفة، وذلك فاسد. ولو جاز أن تقوم الصفة بالصفة لجاز أن تقوم بالقدرة قدرة، وبالحياء حياة، وبالعلم علم، وذلك فاسد. (٢) أقول: إن الشيخ الأشعري قد تبني في العبارة المذكورة أموراً ثلاثة: الأول والثاني منها ضروريان، والثالث أمر نظري، لم يأت عليه بدليل مقنع، بل أجمل الكلام فيه إلى حد التعقيد. أما الأول: فلأن كون الاستطاعة مثل العلم غير الإنسان نفسه أمر بديهي لا يحتاج إلى البرهنة، لأن كل إنسان يحس من بداية حياته أنه تتجدد له القدرة والاستطاعة كسائر الكمالات النفسانية، وأنه ليس من أول يوم قادراً مستطاعاً على التكلم والمشى، والكتابة والقراءة، فلا يحتاج مثل هذا الأمر إلى التطويل. وأما الثاني: فإن الإنسان لا يقدر على الفعل بقدرة واستطاعة معدومة، وهذا أيضاً أمر بديهي مرجعه إلى أن الممكن «ذاتاً كان أو فعلاً» لا يتحقق إلا بعلته موجد له، من غير فرق بين القول بأن حاجة الممكن إلى العلة أمر بديهي ————— ١. قال المعلق على الكتاب: ولعل الأولى أن يقول: البطش. ٢. اللمع: ٩٣-٩٤.

(١٧١)

فطري، كما هو الحق، أو هو أمر تجريبي، كما عليه بعض المناهج الفلسفية. وإنما المهم في كلامه هو الأمر الثالث، وهو لزوم مقارنة الاستطاعة مع الفعل واستحالة تقدمها عليه، وإليك توضيح برهانه. إن القدرة المتقدمة على الفعل لا تخلو عن حالات ثلاث: ١. أن تكون القدرة المتقدمة عليه منعدمة عند حدوث الفعل، فيلزم عندئذ حدوث الفعل بلا قدرة، وهو محال. ٢. أن تكون القدرة المتقدمة باقية، وكان البقاء نفسها، فيلزم عندئذ محذوران: أ. بما أن البقاء نفس القدرة وذاتها، يلزم امتناع تطرق العدم إليها وهو خلف، وإليه يشير بقوله: «وأن لا توجد إلا باقية». ب. بما أن البقاء نفسها وذاتها، وقد افترضنا أيضاً حدوثها يلزم أن تتصف بالبقاء في الوقت الذي تتصف بالحدوث، وهو نظير اجتماع الضدين. ٣. أن لا يكون البقاء نفسها، بل تبقى بقاء يعرض لها، وبما أن البقاء صفة يلزم قيام الصفة بالصفة، ولو جاز لجاز أن تقوم القدرة بالقدرة والعلم بالعلم. أقول: إن القائل بالتقدم يقول بالشق الثالث، بتوضيح أن البقاء ليس نفس القدرة ولا ذاتها (١). بل هو أمر منتزع من استمرار وجود الشيء في الآنين والآتات وليس البقاء أمراً مغايراً لوجود القدرة بحيث يكون في القدرة - إذا بقيت بعد الحدوث - أمران: أحدهما: أصل القدرة، والآخر بقاؤها، وإنما الموجود في الخارج شيء واحد وهو القدرة، وينتزع منه باعتبارين أمران: الحدوث والبقاء. وإن شئت قلت: أصل القدرة ومفهومها الحدوث والبقاء وإن كانت ————— ١. المراد من الذاتى هنا ذاتى باب الإيساغوجى، أى أن يكون البقاء جنساً أو فصلاً للقدرة، لوضوح أن ما يفهم من القدرة والاستطاعة غير ما يفهم من البقاء والدوام.

(١٧٢)

مفاهيم مختلفة لكن ليس في الخارج بإزائها أمور ثلاثة، بل الموجود في الخارج شيء واحد وهو الاستطاعة، لكن باعتبار أنها تعطى للإنسان مقدرة تسمى قدرة واستطاعة، وباعتبار سبق العدم عليها ينتزع منها الحدوث، وباعتبار استمرار وجودها ينتزع منها البقاء، فلا يلزم - لو قلنا ببقاء القدرة بعد حدوثها - أن يكون للقدرة عرض ووصف باسم البقاء يغيرها في العين والتحقق. وبعبارة ثالثة: إن الأعراض على قسمين: قسم يعتبر في صحته حمله على الموضوع، اتصافه بصفة خارجية مصححة لحمل العرض على الموضوع، كحمل الأبيض على الجسم، حيث يعتبر فيها اتصاف الجسم بشيء كالبياض، وهذا ما يسمى «المحمول بالضميمة». وقسم لا يعتبر في صحته حمله على الشيء وجود حيثية خارجية في جانب الموضوع، لكن الموضوع يكون على نحو يصح معه انتزاع ذلك لمفهوم العرضى منه، كانتزاع الإمكان من الإنسان، فلا يعتبر في حمله عليه تحقق وصف وجودى، بل يكفي واقعية وجوده لحمله عليه. وهذا ما يسمى «الخارج المحمول» وانتزاع البقاء من القدرة الحادثة من هذا القبيل فلها طوران من الوجود: أ. وجود حادث غير مستمر ومنقطع. ب.

وجود حادث مستمر. فينتزع من الأول، الزوال والانقضاء، ومن الثاني البقاء والاستمرار، فليس لهما وراء وجود القدرة والاستطاعة، مطابق خارجي. والنتيجة هي: أن بقاء القدرة في الآن الثاني ليس متوقفاً على انضمام وصف إليه باسم البقاء عارض للقدرة حتى يلزم منه بقاء الوصف بالوصف والعرض بالعرض. وما ذكره من أن دليل امتناع قيام الوصف يستلزم جواز قيام القدرة بالقدرة موهون جداً، فإن عدم الصحة في تلك الموارد إنما هو لأجل أن قيام القدرة بالقدرة يستلزم اجتماع المثليين، وهو محال، سواء أقلنا بجواز قيام العرض بالعرض أم لا، فإن القدرتين وصفان متماثلان، والمتماثلان لا يجتمعان. (١٧٣)

إلى هنا تم ما يرومه الشيخ الأشعري في كتاب «اللمع». فهلم معنا ندرس ما ذكره تلاميذ مدرسته تأييداً لمؤسسها، لقد ذهب المحقق التفتازاني في شرح المقاصد، ونظام الدين القوشجي في شرح التجريد، إلى ما ذهب إليه مؤسس المنهج، واستدلاً على لزوم مقارنة القدرة مع الفعل بوجوه نشير إليها: ١. إن القدرة عرض، والعرض لا يبقى في زمانين، فلو كانت قبل الفعل لانعدمت حال الفعل، فيلزم وجود المقذور بدون القدرة، والمعلول بدون العلة، وهو محال (١). (٢). ولا يخفى أن هذا البرهان إن صح فهو غير ما ذكره الشيخ الأشعري في «اللمع»، والعجب أن الدكتور عبد الرحمن بدوي قد فسر عبارة «اللمع» بما جاء في «شرح المقاصد» (٣)، وهو غير صحيح. أقول: الظاهر أن المستدل لم يصل إلى كنه القول بعدم بقاء الأعراض، فزعم أن المقصود من تجدد الأمثال في الأعراض وتصرفها وعدم بقائها في آنين، هو أن العرض في الآن الثاني، غيره في الآن الأول ماهية ووجوداً وتشخيصاً، بحيث يرد على الثلج والقطن بياضات مفصولة وألوان متجزئة، حسب تصرف الآنات وتقضيها، ولكنه فاسد، فإن المراد أن البياض الموجود في الآن الأول، ليس أمراً ثابتاً وجامداً لا يتطرق إليه التغير والتبدل، بل هو مع حفظ وحدته وتشخصه واقع في إطار التغير والتبدل، ومثل ذلك يعني أن الشيء الواحد مع حفظ وحدته الشخصية، له وجود سيال في عمود الزمان، فالعرض باق في عين تغيره، ومحفوظ في عين تبدله، فلا يضر التغير بوحدته ولا الحركة بتشخصه. ١. شرح المقاصد: ١/٢٤٠، وقد عبر بنفس تلك العبارة الفاضل القوشجي. لاحظ شرح التجريد المطبوع قديماً: ٣٦٢. ٢. المسألة مبنية على كون القدرة عرضاً، وامتناع بقاء الأعراض، وكلاهما أمران نظريان يحتاجان إلى البرهنة، وقد افترضهما المستدل أمرين ثابتين. لاحظ نقد المحصل للمحقق الطوسي: ١٦٥. ٣. مذاهب الإسلاميين: ٥٦٣.

(١٧٤)

وبعبارة أخرى: إن هناك منهجين: منهج الكون والفساد، ومنهج الحركة والتكامل. فالأول يهدف إلى انقطاع صلة الموجود في الآن الثاني عن الموجود في الآن الأول، ويتخيل أن تبدل النار إلى الرماد والماء إلى البخار، من هذا القبيل، فيبطل كون ويحصل كون آخر، أو يفسد وجود ويصلح وجود ثان. والثاني يهدف إلى حفظ الصلة والرابطة بين الموجودين في جميع الآنات من غير فرق بين تبدل الأ-كوان وتجدد الأعراض، ويعني من تجدد الأمثال في الأعراض - بل سريان الحركة في جميع عوالم الموجود المادي - أن الأشياء بجوهرها وأعراضها مع حفظ وحدتها وتشخصها تنحو نحو التغير والتبدل مرة، وإلى الكمال مرة ثانية، وليس الموجود في الآن الثاني منقطع الرابطة والصلة عن الموجود في الآن الأول. وإن شئت قلت: إن للسواد باشتداده، والبياض عند اكتماله فرداً شخصياً زمانياً مستمراً متصلًا بين المبدأ والمنتهى، محتفظاً بوحدته الشخصية، ومثله سائر الحركات في الأعراض، وعلى ذلك فمع القول بتبادل الأعراض وتجدد أمثالها، يظهر أن للمتجددات والمتصّرات المتلاحقة، نحو وحدة ونحو بقاء، فلا يعدّ اللاحق مغايراً للسابق، بل صورة بقاء له، وكيفية وجود لما حدث أولاً. وعلى ذلك فالقدرة وإن كانت كيفية نفسانية قائمة بالنفس، لكن تغيرها وتبدلها وحركتها وتكاملها، لا- يوجب أن يكون الموجود منها في الآن الثاني مغايراً من جميع الجهات للموجود في الآن الأول. بل التغير والتبدل والحركة والتكامل تتحقق مع حفظ الوحدة الشخصية بين ما دثر وما بقي. وإن شئت فلاحظ وجود الحركة في المقولات العرضية، فإن في حركة التفاحة في كيفها وكمها لوناً سيالاً بعرضها العريض، وكمّاً سيالاً كذلك، فمجموع ما يتوارد عليها من الألوان والكميات شيء واحد سيال متفاوت الدرجات، باق في عين التغير ومحفوظ في عين التبدل. ٢. إن الفعل حال عدمه ممتنع لاستحالة اجتماع

الوجود والعدم، ولا (١٧٥)

شئ من الممتنع بمقدور. (١) والجواب عنه واضح فإن أريد من كون الفعل ممتنعاً حال العدم امتناعاً بالذات فهو باطل، إذ الممكنات في حال العدم ممكنات بالذات، كما أن الممتنعات بالذات كذلك. ولا يلزم من كون الشئ معدوماً كونه ممتنعاً بالذات، وإلا يلزم أن لا يصح الإيجاد والتكوين وإن أريد أنه ممتنع بالغير فنمنع عدم كونه مقدوراً بل الممتنعات بالغير مقدورات أيضاً بحجة أنه كلما تعلق بها إرادة الفاعل ومشيته تتحقق في الخارج. وقد استدلل أصحاب منهج الأشعري ببرهان ثالث وهو من الوهن بمكان لا يصح أن يذكر أو يسطر. (٢) حصيلة البحث ضمن أمور

١. البحث عن تقدم القدرة على الفعل أو مقارنتها معه، لا- يرجع إلى محصل، وهو بحث قليل الفائدة أو عديمها، ويشبه أن يكون البحث لفظياً، فهو يريد من القدرة أحد الأمرين: الأول: صحة الفعل والترك، وإن شئت قلت: كون الفاعل في ذاته بحيث إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، فلا شك أن القدرة بهذا المعنى مقدمة على الفعل فطرةً ووجداناً، فإن القاعد قادر على القيام حال القعود بهذا المعنى، والساكت قادر على التكلم في زمن سكوته لكن بالمعنى المزبور. الثاني: ما يكون الفعل معه ضروري الوجود (أي اجتماع جميع ما يتوقف وجود الفعل عليه) فالقدرة بهذا المعنى (لو صح إطلاق القدرة عليه، ولن يصح) مقارنة مع الفعل غير منفكة عنه، وهذا مفاد القاعدة التالية: «الشئ ما لم يجب لم يوجد» وعلى ذلك (٣) فلو أريد المعنى الأول فهذا ————— ١ . المقاصد: ١/٢٥٩، شرح التجريد للقوشجي: ٣٦٢. ٢. لاحظ المواضع: ٦/٨٨ قول الماتن: القدرة مع الفعل ولا توجد قبله إذ قبل الفعل لا يمكن الفعل، وإلا فلنفرض وجوده فيه - الخ. ٣. وقد صرح الأشعري بأن مراده من القدرة المعنى الثاني في «اللمع» عند الاستدلال ببعض الآيات القرآنية على مذهبه حيث قال: وهذا بيان أن ما لم تكن استطاعة لم يكن الفعل وأنها إذا كانت كان لا محالة، فهذا صريح في أن القدرة إذا تحققت تحقق الفعل لا محالة. اللمع: ١٥٥.

(١٧٦)

متقدم، ولو أريد المعنى الثاني فهو مقارن زماناً متقدماً رتبة. وسيوافيك ما يفيدك عن الإمام الرازي، في هذا المجال. ٢. إن الشيخ الأشعري مع تركيزه على مقارنة القدرة مع الفعل يعترف بتقدمها في واجب الوجود على الفعل، وإلا- فلو قلنا هناك بالمقارنة يلزم إحدوث قدرته سبحانه مقارناً لحدوث الأفعال، أو قدم فعله سبحانه، وكلاهما باطلان. وعندئذ يسأل صاحب المنهج: كيف فرق بين القدرتين مع أن الملا-ك واحد؟ وكيف اعترف بالتقدم في الخالق ونفى إمكانه في المخلوق، مع أن ما أقام من البرهان، أو أقامه أشياعه من البراهين على الامتناع، جار في الواجب سبحانه حرفاً بحرف. ثم إن أتباع الشيخ تصدوا للدفاع عن هذا النقد الصارم بوجوه موهونة جداً وقالوا: أ. منع الملازمة وإنما تتم هذه الملازمة لو كانت القدرة القديمة والحادثه متماثلتين، فلا يلزم من كون الثانية مع الفعل لا قبله، كون الأولى كذلك أيضاً. ب. إن قدرة الله تعالى قديمة، ولها تعلقات حادثه، مقارنة للأفعال الصادرة، والكلام في تعلق القدرة، والأزلي إنما هو نفس القدرة، وكونها سابقة قديمة لا ينافي كون تعلقها مقارناً حادثاً، فلا يلزم من كون تعلق القدرة القديمة مع الفعل، قدم الحادث أو حدوث القديم. (١) ولا- يخفى أن كلاً من هذين الجوابين غير مجد. أما الأول: فلأن كون قدرة الواجب قديمة وغير حادثه لا يكون فارقاً في المسألة، فإن البراهين التي أقيمت من جانب الأشاعرة على امتناع تقدم ————— ١ . المقاصد: ٢/٢٤١، وشرح التجريد للقوشجي: ٣٦٢.

(١٧٧)

القدرة على الفعل، مشتركة بين كلتا القدرتين. وإن شئت فلاحظ البرهان الثاني الذي نقلناه عن المقاصد وشرح التجريد. وقالوا: «إن الفعل حال عدمه ممتنع، لاستحالة اجتماع الوجود والعدم، ولا شئ من الممتنع بمقدور» فلو كان الشئ في حال العدم ممتنعاً فهو موصوف بالامتناع، تجاه القدرة الواجبة أو القدرة الممكنة معاً، من غير فرق بينهما. نعم، ما نقلناه عن «اللمع» الأشعري من البرهان على الامتناع ربما لا يجري فيه سبحانه، لأن صلب البرهان هنا كون القدرة عرضاً قائماً بالنفس وقدرته سبحانه ليست عرضاً ولا جوهرًا،

اللهم إلا أن تكون القدرة الواجبة عنده عرضاً قائماً بذاته، كما هو غير بعيد من قوله بالصفات القديمة الزائدة على الذات. أما الثاني: فمحصله أن نفس القدرة القديمة، والحادث أعمالها، ولكن لو صحَّ ذلك لصحَّ في الإنسان وغيره، بأن يقال أصل القدرة متقدمة والأعمال متأخرة. ٣. إنَّ من الأصول المسلمة عند الأشعري: حصر الخالق على الإطلاق في الله سبحانه وأنه لا خالق ولا مؤثر لا بالذات ولا بالطبع إلا هو، والأسباب والعلل كلها علامات وإشارات إلى تعلق إرادته سبحانه، بإيجاد الشيء بعدها، وعلى هذا الأصل أنكر مسألة العلية والمعلولية، والسببية والمسببية في عوالم الوجود، وحصرها في ذاته تعالى، وقد تواتر عن الأشاعرة قولهم: «جرت عادة الله على خلق هذا بعد ذلك» وعلى هذا الأصل قام سبحانه مكان جميع العلل المجردة والمادية. وقال شاعرهم نافعياً لأصل العلية بأى معنى فسرت في غيره سبحانه: ومن يقل بالطبع أو بالعلَّة * فذاك كفر عند أهل الملة أقول: لو صحَّ هذا الأصل (ولن يصحَّ أبداً لمخالفته لصريح الآيات، وضرورة العقل والفطرة) لكان البحث عن تقدُّم القدرة على الفعل أو مقارنته معها، فضولاً في الكلام وإضاعة للوقت، فإنه يسلم أن القدرة فيه سبحانه (١٧٨)

متقدمة على الفعل، وأما في غيره فليس هناك تأثير وسببية، ولا اقتدار، بل الفواعل كلها تكون كآلات النجار والحديد، بل أنزل من ذلك، لأنها مؤثرات غير اختيارية عندنا، وليس العباد عندهم حتى بمنزلتها. ولما كان القول بهذا الأصل ساقطاً عند العقل والعقلاء، ومضاداً للفطرة السليمة، حاول الأشعري تصحيحه بإضافة نظرية الكسب على خالقية الرب، قائلاً بأنَّ الله هو الخالق، والعبد هو الكاسب، وأنَّ الأفعال واقعة بقدرة الله وكسب العبد، بمعنى أنَّ الله أجرى عادته بأنَّ العبد إذ عقد العزم على الطاعة مثلاً، يخلق سبحانه فعل الطاعة، وربما يمثلون لتفهمه بمن يحمل شيئاً ثقيلاً على كاهله ويذهب به ويجعل شخص آخر يده تحت ذلك الحمل من غير أن يكون شيء من وزره وثقله على يده. ولا يخفى أنَّ إضافة الكسب لا تحلَّ المشكل، إذ على هذا الأصل أيضاً يكون الخالق والقادر هو الله سبحانه، وليس لعبد شأن في الفعل، وإنما شأن العبد ينحصر في عقد العزم على الطاعة أو المعصية، فعندئذ يجب أن يكون فعل العبد منحصراً في العزم على الطاعة والمعصية، وعندئذ يبحث هل القدرة على العزم مقترنة به أو متقدمة عليه؟ ومثل هذا لا يليق بهذا البحث المبسوط، ولا يشكُّ أحد في تقدُّم القدرة على العزم على نفسه. ونعم ما قال علامه الشيعة في «نهج الحق»: إنَّ القدرة حسب مذهب الأشاعرة غير مؤثرة ألبتة، لأنَّ المؤثر في الموجودات هو الله تعالى، فبحثهم عن القدرة حينئذ يكون من باب الفضول لأنه خلاف مذهبهم. (١) والعجب من الفضل بن روزهان الأشعري، حيث إنَّه مع تصحيحه بأنَّ قدرة العبد غير مؤثرة في الفعل، أجاب عن الإشكال بأنَّه لا يلزم من عدم كون القدرة مؤثرة فيه، الاستغناء عنها في جميع الوجوه كاتصاف الفعل باختيار، ولا يلزم أن يكون البحث عنها فضولاً. يلاحظ عليه: أنه لو كانت القدرة غير مؤثرة في فعل الإنسان يكون _____ ١. دلائل الصدق: ١/٣٢٤.

(١٧٩)

البحث عن تقدُّم القدرة أو تقارنها لغواً، وإن كانت لقدرة العبد عند خلق الأفعال من جانبه سبحانه فوائد وثمرات أخرى فهي لا تمت إلى المقام بصله. ٤. الحقُّ أن يقال: إنَّ المسألة بديهية للغاية، وما أثير حولها من الشبهات - خصوصاً ما ذكره في «اللمع» - أشبه بالشبهات السوفسطائية، إذ كلُّ إنسان يحس من فطرته أنه قادر على القيام قبل أن يقوم، فالخلط حصل بين القدرة بمعنى الاستعداد لصدور الفعل، والقدرة بمعنى ما لا ينفك عنه الفعل ويقترن به، وكفى في ثبوت المسألة، الفطرة الإنسانية أولاً، وتقدُّم قدرته سبحانه على فعله ثانياً. وبذلك يظهر أنَّ ما أقامه المعتزلة من البراهين على تقدُّمها على الفعل تنبيهات على المسألة، ولنعم ما قال المحقق اللاهيجي: إنَّ الدعوى ضرورية، وهذه الوجوه تنبيهات عليها، كيف والقطع حاصل بقدرة القاعد في وقت فعوده على القيام، والقائم في حال قيامه على القعود بالوجدان. (١) ٥. ثمَّ إنَّه ينبغي البحث عن الحافز أو الحوافز التي دعت الشيخ الأشعري إلى اختيار ذلك المذهب، فإنَّ القول بتقدُّم القدرة على الفعل أو مقارنتها له، لا يمس كرامة الدين والشريعة ولا النصوص الواردة فيها، فما هو الداعي إلى اختيار القول بالتقارن، بل التركيز عليه؟ ويحتمل أن يكون الداعي هو قوله: «إنَّ أفعال العبد مخلوقة لله سبحانه لا للعباد، لا أصالة

ولا- تبعاً». والمناسب لتلك العقيدة حينئذ رفض القدرة المتقدمة للبعد على الفعل، والاكتفاء بالمقارن لأجل تحقّق عنوان الطاعة والعصيان بالعزم عليهما. وإلى ما ذكرنا أشار القاضي عبد الجبار فقال: ولعلهم بنوا ذلك لله على أن أحدنا لا يجوز أن يكون محدثاً لتصرّفه، وأنهم لما أثبتوا أن الله تعالى محدث على الحقيقة، قالوا: إن قدرته متقدمة لمقدورها غير مقارنه له. (٢) —————

١. الشوارق: ٤٤١. ٢. شرح الأصول الخمسة: ٣٩٦.

(١٨٠)

وكان الشيخ يتصور أن القدرة المتقدمة للفعل تراحم قدرة الله عليه، فلأجل ذلك وجد في نفسه حافظاً نفسياً إلى البرهنة على بطلان التقدّم وإثبات التقارن. وما ذكرنا من الوجه يلائم عقيدة الشيخ في خلق الأعمال، ولكن القول ببطلان التقدّم و لزوم التقارن لا يختص بالشيخ، بل اختاره عدّة من المعتزلة، والمتقدمين على الشيخ عصرًا، يقول شارح المواقف: قد وافق الشيخ - في أن القدرة حادثة مع الفعل - كثير من المعتزلة كالنجمي ومحمد بن عيسى وابن الراوندي وابن عيسى الوراق وغيرهم. (١) القدرة صالحة للضدين ثم إن هناك مسألة تتفرّع على المسألة الأولى، وهي أن القدرة صالحة للضدين، وهذا ما يعطيه مفهوم القدرة، فالقادر هو الذي إذا شاء أن يفعل فعل، وإذا شاء أن يترك ترك، فلو فرضنا صلاحية القدرة لأحد الضدين فقط، لم يكن الآخر مقدوراً، فلا يصدق على الفاعل كونه قادراً ولا على عمله أعمال القدرة، وقد خالف في ذلك الأشاعرة فالقدرة الواحدة عندهم لا تتعلّق بالضدين، بل لا يتعلّق إلا بمقدور واحد، سواء أكان المقدور الآخر ضدّاً أم لا. و بما ذكرنا من التحقيق في المسألة الأولى، وأنّ النزاع هناك في أمر واضح يتضح حال هذه المسألة، فإنّه لو أُريد من القدرة قابلية الفاعل واستعداده لأن يفعل فلا شك أنّها تتعلّق بالضدين، كما تتعلّق بالمتماثلين والمتخالفين، وإن أُريد القوة الموجبة للفعل بحيث تجعل الفعل واجب التحقّق، والفاعل واجب الفاعلية فلا شك أنّها لا تتعلّق إلا بمقدور واحد. وإن شئت قلت: القدرة بمعنى العلة الناقصة لصدور الفعل متقدمة على الفعل صالحة للتعلّق بالضدين، وأما إذا كانت بمعنى العلة التامة غير المنفكة ————— ١. شرح المواقف: ٦/٩٢.

(١٨١)

عن الفعل فهي متقارنه مع الفعل، غير متعلّقة إلا بمقدور واحد. والأشاعرة لما اختارت تبعاً لمؤسس المنهج كون القدرة مع الفعل، نفت صلاحية تعلّقها بمقدورين، فضلاً عن الضدين، وبما أنّك عرفت أنّ النزاع في المسألة السابقة أشبه باللفظي، يكون النزاع هنا أيضاً مثله. قال الإمام الرازي: قد تطلق القدرة على القوة العضلية، التي هي مبدأ الآثار المختلفة في الحيوان، بحيث لو انضم إليها إرادة كلّ واحد من الضدين حصل دون الآخر، ولا شك أنّ نسبتها إلى الضدين على السواء. وقد تطلق على القوة المستجمعة لشرائط التأثير، ولا شك في امتناع تعلّقها بالضدين، وإلا اجتمعا في الوجود، بل هي بالنسبة إلى كلّ مقدور، غيرها بالنسبة إلى مقدور آخر، لاختلاف الظروف بحسب كلّ مقدور. فلعلّ الأشعري أراد بالقدرة، المعنى الثاني، فحكم بأنّها لا تتعلّق بالضدين، ولا هي قبل الفعل، والمعتزلة أرادت بها المعنى الأول، فذهبوا إلى أنّها تتعلّق بالضدين وأنّها قبل الفعل. (١) ثم إنّ أبا الحسن الأشعري لما اختار لزوم مقارنه القدرة مع الفعل وامتناع تقدّمها عليه، وقع في تكليف الكفّار بالإيمان في زمان كفرهم في حيرة، كما قام بتأويل كثير من الآيات الصريحة في تقدّم القدرة على الفعل، وإليك نماذج منها: ١. إنّ الكفّار مكلّفون بالإيمان كما هو صريح الكتاب، فلو كانت القدرة موجودة مع الفعل لكان تكليفهم بالإيمان في حال الكفر تكليفاً بالمحال، وهذا من النقوض الواضحة التي سعى الشيخ الأشعري وتلاميذ منهجه في حلّها ولم يأتوا بشيء مقنع. ٢. قال سبحانه: (أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٍ). (٢) اتّفق مشاهير المفسرين على أنّ الضمير في «يطيقونه» يرجع إلى الصيام، ————— ١. شرح المواقف: ٦/١٥٤. ٢. البقرة: ١٨٤.

(١٨٢)

والمراد أنّ الذين يقدرّون على الصيام لكن بعسر وشدة يجوز لهم الإفطار، والفدية لكلّ يوم بطعام مسكين. فالآية نصّ في تقدّم

الاستطاعة على العمل. قال في المنار: إن الذين لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة شديدة، عليهم فدية طعام مسكين في كل يوم يفطرون فيه. (١) والشيخ الأشعري تكلف بإرجاع الضمير إلى الإطعام، والمعنى: وعلى الذين يطيقون الإطعام ويعجزون عن الصيام، عليهم الفدية. يلاحظ عليه: أن مرجع الضمير غير مذكور على تفسيره أولاً، والعجز عن الصيام الذي هو المهم لم يذكر في الآية لا تصريحاً ولا- تلويحاً، الإطعام واجب مطلقاً للعاجز وغيره ثانياً. ٣. قال سبحانه: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) (٢) فالآية صريحة في أن المستطيع بالفعل يجب عليه الحج في المستقبل. وقد تكلف الشيخ في تفسير الاستطاعة بالمال، ويعني الزاد والراحلة وقال: ولم يرد استطاعة البدن التي في كونها كون مقدورها. يلاحظ عليه أولاً: أن تفسير الاستطاعة بخصوص ما ذكره لا دليل عليه، مع أن استطاعة البدن ركن مثل المال، وثانياً: أنه لو انضم إليه البدن لما كان في كونه، كون مقدوره، أعني: نفس عمل الحج، لأن للزمان وشهور الحج دخلاً في تحقق المقدور. ٤. قوله تعالى: (وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). (٣) ترى أن المنافقين يحلفون بعدم الاستطاعة على الخروج إلى الجهاد والله يكذبهم ويقول: إنهم مستطيعون ولا يريدون الخروج، قال سبحانه: (وَلَوْ) _____ ١. المنار: ٢/١٥٦. ٢. آل عمران: ٩٨. ٣. التوبة: ٤٢.

(١٨٣) (أَرَادُوا الْخُرُوجَ لِأَعْدُوَاهُ عُدَّةً). (١)

وقد فسر الشيخ الاستطاعة بالمال، وقال: إنهم كانوا يجدون المال، وكانت المحاورة بينهم وبين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في الجدة، وإذا كان كذلك فنحن لا ننكر تقدم المال للفعل، وإنما أنكرنا تقدم استطاعة السلوك للفعل. (٢) يلاحظ عليه: أن هؤلاء الواجدين للمال لم يكونوا خارجين عن حالتين: الصحة والسلامة، المرض والضعف.

فعلى الأول كانت الاستطاعة بعامه أجزائها موجودة قبل الفعل، أعني: الخروج إلى الجهاد، وعلى الثاني لم يكونوا مخاطبين بالخروج إلى الجهاد لقوله سبحانه: (وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ). (٣) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي هي ظاهرة في تقدم الاستطاعة على الفعل، وقد أتعب الشيخ نفسه في تأويل هذه الآيات بما لا يرضى به من له إمام بتفسير الآيات وتوضيحها. والعجب أن الشيخ يتجهج على المعتزلة تبعاً لأهل الحديث، لتأويلهم الآيات والروايات الظاهرة في أن الله يداً ووجهاً ورجلاً، مع أنه يتكلف التأويل في هذا الباب عند تفسير كثير من الآيات الظاهرة في خلاف ما تبناه. وإن كنت في شك مما ذكرنا فلاحظ تأويله قوله سبحانه، في قصة سليمان حكاية عن عفريت من الجن: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ). (٤) فانظر صراحة الآية في أن العفريت يصف نفسه بالقوة والاستطاعة قبل أن يفعل. _____ ١. التوبة: ٤٦. ٢. اللمع: ١٠٦. ٣. النور: ٦١. ٤. النمل: ٣٨-٣٩.

(١٨٤)

وبعد ذلك فانظر إلى تكلف الشيخ في تفسير الآية حيث يقول: عنى العفريت بقوله <<: وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) إن استطعت ذلك وتكلفته وأردته، أو عنى منه: إن شاء الله، أو عنى منه: إن قواني الله تعالى عليه. والعجب أنه يتتبعاً ويقول: «ولو لم يعلم سليمان أن العفريت أضمر شيئاً من ذلك لكذبه و رد عليه قوله» أو ليس هذا تخرصاً على الغير؟! ونحن لا نعلق على التأويل الذي أتى به الشيخ، ولا على التبتؤ الذي نسبه إلى سليمان شيئاً، بل نرجع القضاء في ذلك إلى وجدان القارئ الحر، ونقول: هكذا يتلاعب الإنسان بالآيات القرآنية بسبب أفكاره المسبقة. (١) _____ ١. راجع في ما نقلناه عن الشيخ الأشعري حول الآيات، اللمع: ٩٩-١٠٩.)

(١٨٥) التكليف بما لا يطاق

إن الوجدان السليم والعقل الفطري يحكم بامتناع تكليف ما لا- يطاق، أما إذا كان الأمر إنساناً فلائته بعد وقوفه على أن الأمور غير مستطوع لإيجاد الفعل، وغير قادر عليه، فلا تنقدح الإرادة في لوح نفسه وضمير روحه، ولا يبلغ تصوّر الفعل والتصديق بفائدته إلى مرحلة العزم والجزم بطلبه من المأمور، وبعثه من صميم القلب نحو الشيء المطلوب، إذ كيف يمكن أن يطلب شيئاً بطلب جدى ممن يعلم أنه عاجز، وهل يمكن لإنسان أن يطلب الثمرة من الشجرة اليابسة، أو المطر من الأحجار والأتربة الجامدة، ولأجل ذلك يقول

المحققون: إن مرجع التكليف بما لا يطاق إلى كون نفس التكليف محالاً، وإن الإرادة الجديدة لا تنقذ في ضمير الأمر هذا كله إذا كان الأمر إنساناً، وأما إذا كان الأمر هو الله سبحانه، فالأمر فيه واضح من جهتين: ١. إن التكليف بما لا يطاق أمر قبيح عقلاً، فيستحيل عليه سبحانه من حيث الحكمة أن يكلف العبد ما لا قدرة له عليه ولا طاقة له به، ويطلب منه فعل ما يعجز عنه ويمتنع منه، فلا يجوز له أن يكلف الزمن، الطيران إلى السماء، ولا- الجمع بين الضدين، ولا- إدخال الجمل في خرم الإبرة، إلى غير ذلك من المحالات الممتنعة. ٢. الآيات الصريحة في أنه سبحانه لا يكلف الإنسان إلا بمقدار قدرته وطاقته، قال سبحانه: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا). (١) وقال تعالى: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ). (٢) وقال عز من قائل: (وَلَا يُظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا). (٣) والظلم هو الإضرار بغير المستحق، وأى إضرار أعظم من هذا، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومع هذه البراهين المشرقة سلك الأشعرى غير هذا الصراط السوي، وجوز التكليف بما لا يطاق، واستدل عليه بالآيات التالية: ١. (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَشْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) (٤) وقد أمروا أن يسمعوا الحق وكلفوه، فدل ذلك على جواز تكليف ما لا يطاق، وأن من لم يقبل الحق ولم يسمعه على طريق القبول لم يكن مستطيعاً. ٢. (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (٥) قال: الآية تدل على جواز تكليف ما لا يطاق، فقد أمروا بإعلام وهم لا يعلمون ذلك ولا يقدرين عليه. ٣. (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ) (٦) قال: فإذا جاز تكليفه إيهاهم في الآخرة ما لا يطيقون، جاز ذلك في الدنيا.

١ . البقرة: ٢٨٦ . ٢ . فصلت: ٤٦ . ٣ . الكهف: ٤٩ . ٤ . هود: ٢٠ . ٥ . البقرة: ٣١ . ٦ . القلم: ٤٢-٤٣.

(١٨٦)

٤. (وَلَنْ يَشْتَطِعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِخْلَقَةِ وَإِنْ تُضِلُّوا وَتَنَقُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا). (١) قال: وقد أمر الله تعالى بالعدل، ومع ذلك أخبر عن عدم الاستطاعة على أن يعدل. (٢) يلاحظ عليه: أما الآية الأولى: فيظهر ضعف الاستدلال بها بتفسير مجموع جملها: (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ): إنهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه في حياتهم الأرضية وإن خرجوا عن زى العبودية وافتروا على الله الكذب، ولكن ماغلبت قدرتهم قدرة الله. (وما كان لهم من دون الله من أولياء): إنهم وإن اتخذوا أصنامهم أولياء ولكنها ليست أولياء حقيقة، وليس لهم من دون الله تعالى. (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ): يجازون بما أتوا به من الغي والظلم والأعمال السيئة. (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) هذه الجملة في مقام التعليل يريد أنهم لم يكفروا ولم يعصوا أمر الله، لأجل غلبة إرادتهم على إرادة الله، ولا لأن لهم أولياء من دون الله، بل لأنهم ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ما يأتيهم من إنذار وتبشير، أو يذكر لهم من البعث والزجر من قبله سبحانه، وما كانوا يبصرون آياته، حتى يؤمنوا بها، ولكن كل ذلك لا لأجل أنهم كانوا غير مستطيعين أن يسمعوا ويبصروا من بداية الأمر، بل لأنهم أنفسهم سلبوا هذه النعم بالذنوب فصارت وسيلة لكونهم ذوى قلوب لا يفقهون بها، وذوى أعين لا يبصرون بها، وذوى آذان لا يسمعون بها، فصاروا كالأنعام بل أضل منها. (٣)

١ . النساء: ١٢٩ . ٢ . لاحظ اللع: ٩٩، ١١٣، ١١٤ . ٣ . اقتباس من قوله سبحانه: (لهم قلوب لا يفقهون بها...)

الأعراف: ١٧٩.

(١٨٧)

إن الآيات الكريمة صريحة في أن عمل الإنسان وتماديه في الغي ينتهي إلى صيرورة الإنسان أعمى وأصم وأبكم، قال سبحانه: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ). (١) وقال سبحانه: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ). (٢) وعلى ذلك فالآية التي استدلل بها الشيخ، نظير قوله سبحانه: (حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) (٣) وقوله سبحانه: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً) (٤) ولكن كل ذلك في نهاية حياتهم بعد تماديتهم في الغي. وأما في ابتداء حياتهم فقد أعطى للجميع قدرة الإبصار والاستماع والتفكير والتعقل. قال سبحانه: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

(٥) ولكن الإنسان ربما يبلغ به الغي إلى درجة ينادى فيها ويقول: (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّ عَيْرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُيِّحَتْ لَهُمْ لَأَصْحَابِ السَّ عَيْرِ). (٦) وباختصار، الآية تحكى عن عدم استطاعتهم السمع، ولكن السبب في حصول هذه الحالة لهم، هو أنفسهم باختيارهم، وهذا لا ينافي وجود الاستطاعة قبل التمادى في الغي، وما يتوقف عليه التكليف هو القدرة الموجودة قبل سلبها عن أنفسهم. ومن القواعد المسلّمة في علم الكلام قولهم: «الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار». ١. الصف: ٥. ٢. البقرة: ٢٦. ٣. البقرة: ٧. ٤. الأنعام: ١١٠. ٥. النحل: ٧٨. ٦. الملك: ١٠-١١.

(١٨٨)

إلى هنا تعرفت على مفاد الآية، ووقفت على أنها لا تمت إلى ما يدعيه الشيخ بصله، وهلم معي ندرس الآيات الباقية: وأما الآية الثانية، أعنى قوله سبحانه: (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) فليس الأمر فيها للتكليف والبعث نحو المأمور به، بل للتعجيز، مثل قوله سبحانه: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (١) إن لصيغة الأمر معنى واحداً وهو إنشاء الطلب، لكن الغايات من الإنشاء تختلف حسب اختلاف المقامات، فتارة تكون الغاية من الإنشاء، هي بعث المكلف نحو الفعل جداً، وهذا هو الأمر الحقيقي الذي يثاب فاعله ويعاقب تاركه، ويشترط فيه القدرة الاستطاعة، وأخرى تكون الغاية أموراً غيره، وعند ذلك لا ينتزع منه التكليف الجدى، وذلك كالتعجيز في الآية السابقة، وكالتسخير في قوله سبحانه: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (٢) والإهانة، مثل قوله: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (٣)، أو التمنى، مثل قول امرئ القيس في معلقته: ألا- أيها الليل الطويل ألا انجلي * بصبح وما الإصباح منك بأمثل إلى غير ذلك من الغايات والحوافز التي تدعو المتكلم إلى التعبير عن مقاصده بصيغة الأمر، وذلك واضح لمن ألقى السمع وهو شهيد. وأما الآية الثالثة فليست الدعوة إلى السجود فيها عن جد وإرادة حقيقية، بل الغاية من الدعوة إيجاد الحسرة في المشركين التاركين للسجود حال استطاعتهم في الدنيا. والآية تريد أن تبين أنهم في أوقات السلامة رفضوا الإطاعة والامتثال، وعند العجز - بعد ما كشف الغطاء عن أعينهم ورأوا العذاب - هموا بالسجود، ولكن أتى لهم ذلك، وإليك تفسير جمل الآية. ١. البقرة: ٢٣. ٢. البقرة: ٦٥. ٣. الدخان: ٤٩.

(١٨٩) (يوم يكشف عن ساق) الجملة كناية عن اشتداد الأمر وتفاقمه، وإن لم يكن هناك كشف ولا ساق، وذلك لأن الإنسان عند الشدة يكشف عن ساقه، ويخوض غمار الحوادث. وهذا كما يقال للأقطع الشحيح: يده مغلوله، وإن لم يكن هناك يد ولا غل. (ويدعون إلى السجود): لا طلباً ولا تكليفاً جدياً، كما زعمه الشيخ أبو الحسن، بل لازدياد الحسرة على تركهم السجود في الدنيا مع سلامتهم. (فلا يستطيعون): لسلب السلامة منهم (١) أو لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم، واليوم تبلى السرائر. (٢) (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة): تكون أبصارهم خاشعة ويغشاهم في ذلك اليوم ذلّة. (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون): إنهم لما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا عنه مع صحتهم وصحة أبدانهم، يدعون إلى السجود في الآخرة ولكن لا يستطيعون، وذلك لتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمون أصحاء.

ومجموع جمل الآية تعرب بوضوح عن أن الدعوة فيها لا تكون عن تكليف جدى، بل لغايات أخرى لا يشترط فيها القدرة. وأما الآية الرابعة، فلا شك أن الله سبحانه أمر بالعدالة من يتزوج أكثر من واحدة قال سبحانه: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ) (٣) وفي الوقت نفسه أخبر في آية أخرى عن عدم استطاعة المتزوجين أكثر من واحدة على أن يعدلوا. ولكن نهى عن التعلق التام بالمحبوبة منهن، والإعراض عن الأخرى رأساً، حتى تصير كالمعلقة لا- متروجة ولا- مطلقة، قال سبحانه: (وَلَنْ يَرْضَىٰ عَنْهَا مَن يُرِيدُ إِثْمًا) (١). الكشاف: ٣/٢٦١. ٢. الميزان: ٢٠/٤٦٦، والمعنى الأول الذي قال به صاحب الكشاف أظهر لما في الآية التالية من قوله: (وهم سالمون). ٣. النساء: ٣.

(١٩٠) (تَسِيءُ يَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَأَنْ تُضِلُّوهَا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا). (١).

وبالتأمل في جمل الآيه، يظهر أن العدالة التي أمر بها، غير العدالة التي أخبر عن عدم استطاعة المتزوج القيام بها. فالمستطاع منها هو الذي يقدر عليه كل متزوج بأكثر من واحدة، وهو العدالة في الملبس و المأكل والمسكن، وغيرها من الحقوق الزوجية التي يقوم بها الزوج بجوارحه، ولا صلة لها بباطنه. وأما غير المستطاع منها فهو المساواة في إقبال النفس والبشاشة والأنس، لأن الباعث عليها الوجدان النفسى والميل القلبى، وهو ممّا لا يملكه المرء ولا يحيط به اختياره. والآيه بصدد التنبيه على أن العدل الكامل بين النساء غير مستطاع، ولا يتعلّق به التكليف، ومهما حرص الإنسان على أن يجعل المرأتين كالغراوتين المتساويتين في الوزن لا يستطيعه، وهذا هو العدل الحقيقى التام. (٢) وباختصار: إن المنفى هو العدل الحقيقى الواقعى من غير تطرف أصلاً، وهو ليس محلاً للتكليف، والمثبت المشروع الذى أمر به هو العدل التقريبى الذى هو فى وسع كل متزوج بأكثر من واحدة. (٣) _____ ١. النساء: ١٢٩. ٢. المنار: ٥/٤٤٨. ٣. الميزان: ٥/١٠٦.

(١٩١)

رؤية الله بالأبصار

رؤية الله بالأبصار

إن رؤية الله تعالى فى الآخرة ممّا اهتم الأشعرى بإثباته اهتماماً بالغاً فى كتابيه: «الإبانة» و «اللمع» وركز عليها فى الأوّل من ناحية السمع، وفى الثانى من ناحية العقل. قال فى «الإبانة»: و ندين بأنّ الله تعالى يُرى فى الآخرة بالأبصار كما يرى القمر ليله البدر، يراه المؤمنون، كما جاءت الروايات عن رسول الله. (١) وقال فى «اللمع»: إن قال قائل: لم قلت إن رؤية الله بالأبصار جائزة من باب القياس؟ قيل له: قلنا ذلك لأنّ ما لا يجوز أن يوصف به الله تعالى ويستحيل عليه، لا يلزم فى القول بجواز الرؤية. (٢) ولإيقاف القارئ على حقيقة الحال نبحت عن الأمور التالية: ١. سرد الأقوال وتعيين محلّ النزاع. ٢. دليل القائلين بجواز الرؤية من العقل. ٣. دليل القائلين بالجواز من القرآن. ٤. دليل القائلين بالجواز من السنّة. _____ ١. الإبانة: ٢١. ٢. اللمع: ٦١ بـتلخيص.

(١٩٢)

٥. استدلال المنكرين بالعقل. ٦. استدلال المنكرين بالسمع. الأمر الأوّل: فى نقل الآراء حول الرؤية المشهور بين أهل الحديث، وصرح به إمامهم أحمد بن حنبل، هو القول بجواز الرؤية فى الآخرة، قال: والأحاديث فى أيدي أهل العلم عن النبى: أن أهل الجنّة يرون ربّهم، لا يختلف فيها أهل العلم فينظرون إلى الله. (١) وقال الأشعرى فى بيان عقائد أهل الحديث والسنّة: يقولون إن الله سبحانه يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليله البدر، يراه المؤمنون، لا يراه الكافرون لأنّهم عن الله محجوبون، قال الله تعالى: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) وإنّ موسى سأل الله سبحانه الرؤية فى الدنيا، وإنّ الله سبحانه تجلّى للجبل فجعله دكاً، فأعلمه بذلك أنه لا يراه فى الدنيا، بل يراه فى الآخرة. (٢) ولكن الظاهر من الأمدى أن القائلين بالجواز لا يخصونه بالآخرة بل يقولون بجوازها فى الدنيا أيضاً، وإنّما اختلفوا فى أنّه هل ورد دليل سمعى على جوازها فى الدنيا أو لا، بعد ما اتفقوا على وروده فى الآخرة، قال: «اجتمعت الأئمة من أصحابنا على رؤية الله تعالى فى الدنيا والآخرة جائزة عقلاً، واختلفوا فى جوازها سمعاً، فأثبت بعضهم ونفاه آخرون». (٣) وعلى كلّ تقدير فقد نقل الأشعرى فى مقالات الإسلاميين أقوالاً كثيرة حول الرؤية لا يستحقّ أكثرها أن يذكر، ونشير إلى بعضها إجمالاً: إن جماعة يقولون: يجوز أن نرى الله بالأبصار فى الدنيا، ولسنا ننكر أن يكون بعض من تلقاه فى الطرقات. _____ ١. الرد على الزنادقة: ٢٩. ٢. مقالات الإسلاميين: ٣٢٢. ٣. شرح المواقف: ٨/١١٥.

(١٩٣)

وأجاز عليه بعضهم فى الأجسام، وأصحاب الحلول إذا رأوا إنساناً يستحسنونه لم يدروا لعلّ آلهتهم فيه. وأجاز كثير ممّن جوّز رؤيته فى الدنيا، مصافحته وملاسته ومزاورته إيّاه، وقالوا إنّ المخلصين يعانقونه فى الدنيا والآخرة إذا أرادوا ذلك، حكى ذلك عن بعض

أصحاب «مظهر» و «كهمس». وقال «ضرار» و «حفص الفرد»: إن الله لا يرى بالأبصار، ولكن يخلق لنا يوم القيامة حاسة سادسة، غير حواسنا فندرکه بها. (١) يقول ابن حزم: إن الرؤية السعيدة ليست بالقوة الموضوعه في العين، بل بقوة أخرى موهوبة من الله. (٢) هذه هي بعض الأقوال المطروحة في المسألة من جانب بعض أهل الحديث، وليس ذلك بعجيب من أهل التجسيم، وإنما العجب ممن يتجنب التجسيم ويعد نفسه من أهل التنزيه والبراءة من التشبيه، ويقول - مع ذلك - بالرؤية، كالأشاعرة عامة. ولأجل ذلك ذهب المعتزلة والإمامية والزيدية إلى امتناع رؤيته سبحانه في الدنيا والآخرة، وقالوا بأن القول لا يفارق التجسيم والتشبيه، كما ستقف عليه عند سرد براهينهم إن شاء الله. أهل الكتاب ومسألة الرؤية

وقد يدين بالرؤية أهل الكتاب قبل أهل الحديث والأشاعرة، ووردت رؤيته في العهد القديم، وإليك مقتطفات منها: ١. «رأيت السيد جالساً على كرسي عال. فقلت: ويل لي لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود» (أشعيا ج ٦ ص ١-٦). والمقصود من السيد هو الله جل ذكره. ١. مقالات الإسلاميين: ٢٦١-٢٦٥ و ٣١٤. ٢. الفصل: ٣/٢.

(١٩٤)

٢. «كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار» (دانيال ٧:٩). ٣. «أما أنا فبالبر أنظر وجهك» (مزامير داود: ١٧:١٥). ٤. «فقال منوح لامرأته: نموت موتاً لأننا قد رأينا الله» (القضاء: ٢٣:١٣). ٥. «فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال عن الرب، إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين» (الملوك الأول ٩:١١). ٦. «وقد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جند البحار وقوف لديه» (الملوك الأول ١٩:٢٢). ٧. «كان في سنة الثلاثين في الشهر الرابع في الخامس من الشهر وأنا بين المسييين عند نهر خابور، أن السماوات انفتحت فرأيت رؤى الله - إلى أن قال: - هذا منظر شبه مجد الرب، ولما رأيته خررت على وجهي وسمعت صوت متكلم» (حزقيال ١:١ و ٢٨). والقائلون بالرؤية من المسلمين، وإن استندوا إلى الكتاب والسنة ودليل العقل، لكن غالب الظن أن القول بالرؤية، تسرب إلى المسلمين من المتظاهرين بالإسلام كالأخبار والرهبان، وربما صاروا مصدرراً لبعض الأحاديث في المقام، وصار ذلك سبباً لجرأة طوائف من المسلمين على جوازها، واستدعاء الأدلة عليها من النقل والعقل. ما هو محل النزاع؟

إن محل النزاع هو رؤية الله سبحانه بالأبصار رؤية حقيقية، ولكن المجسمة يقولون بها بلا تنزيه، والأشاعرة يقولون بها مع التنزيه، أي بدون استلزام ما يمتنع عليه سبحانه، من المكان والجهة. وأما الرؤية القلبية، ومشاهدة الواجب من غير الطرق الحسية فخارج (١٩٥) عن مصب البحث، إذ لم يقل أحد بامتناعها. والقائلون بالرؤية مع التنزيه على فرقتين: فرقة تعتمد على الأدلة العقلية دون السمعية، وفرقة أخرى على العكس. فمن الأولى: سيف الدين الأمدى، أحد مشايخ الأشاعرة في القرن السابع (٥٥١-٦٣١هـ)، يقول: لسنا نعلم في هذه المسألة على غير المسلك العقلي الذي أوضحناه، إذ ما سواه لا يخرج عن الظواهر السمعية، وهي مما يتقاصر عن إفادة القطع واليقين، فلا يذكر إلا على سبيل التقريب. (١) ومن الثانية: الرازي في عديد من كتبه كمعالم الدين ص ٦٧ والأربعين ص ١٩٨، والمحصل ص ١٣٨، فقال: إن العمدة في جواز الرؤية ووقوعها هو السمع، وعليه الشهرستاني في «نهاية الأقدام» ص ٣٦٩. هذه هي الأقوال الدارجة حول الرؤية، وقد عرفت ما هو محل النزاع. الأمر الثاني: الأدلة العقلية على جواز الرؤية

قد عرفت أن طرف النزاع في المقام هو الأشاعرة، وفي مقدمهم الشيخ الأشعري، وهم من أهل التنزيه، فلأجل ذلك يطرحون المسألة بشكل يناسب مذهبهم. يقول التفتازاني: ذهب أهل السنة إلى أن الله تعالى يجوز أن يرى وأن المؤمنين في الجنة يرونه منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان. (٢) وهذه القيود التي ذكرها التفتازاني، وإن كانت غير واردة في كلام صاحب المنهج، ولكن الفكرة بهذه الصورة قد نضجت في طوال قرون متمادية، إنما الكلام في إمكان وقوع هذه الرؤية، أي أن تتحقق الرؤية بالأبصار، ولكن

١. غاية المرام في علم الكلام: ١٧٤. ٢. شرح المقاصد: ٢/١١١.

(١٩٤)

مجردة عن المقابلة والجهة والمكان، وهذا ما يصعب تصوّره للإنسان. فتحقق الرؤية - سواء قلنا بأنها تتحقق بانطباع صورة المرئي في العين كما عليه العلم الحديث، أو بخروج الشعاع كما عليه بعض القدماء - في غير هذه الظروف أشبه بترسيم أسد بلا رأس ولا ذنب على جسم بطل، ولأجل ذلك يحاول التفتازاني أن يصحح هذا النوع من الرؤية ويقول: إننا إذا عرفنا الشمس مثلاً بحدّ أو رسم، كان نوعاً من المعرفة، ثم إذا أبصرناها وغمضنا العين، كان نوعاً آخر فوق الأول، ثم إذا فتحنا العين حصل نوع آخر من الإدراك فوق الأولين نسميه الرؤية، ولا تتعلّق في الدنيا إلا بما هو في جهة ومكان، فمثل هذه الحالة الإدراكية، هل تصحّح أن تقع بدون المقابلة والجهة، وأن تتعلّق بذات الله تعالى منزهاً عن الجهة والمكان، أو لا؟ (١). يلاحظ عليه: أولاً: أنّ الرؤية الأولى أيضاً قبل الغمض، تصدق عليها الرؤية، وليس الاختلاف بين الرؤيتين إلاّ - في الوضوح والخفاء والقصر والطول، ولكنّه إنّما خصّ النزاع بالرؤية الثانية لأجل ما ورد في الروايات، من أنّ المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة كفلق البدر. ثانياً: أنّ الرؤية قائمة بأمر ثمانية: ١. سلامة الحاسة ٢. المقابلة أو حكمها كما في رؤية الصور المنطبعة في المرآة ٣. عدم القرب المفرط ٤. عدم البعد كذلك ٥. عدم الحجاب بين الرائي والمرئي ٦. عدم الشفافية، فإنّ ما لا لون له كالهواء لا يرى ٧. قصد الرؤية ٨. وقوع الضوء على المرئي وانعكاسه منه إلى العين. فلو قلنا بأنّ هذه الشروط ليست إلزامية بل هي تابعة لظروف خاصة، ولكن قسماً منها يعد مقوماً للرؤية بالأبصار، وهو كون المرئي في حيز خاص، ————— ١. شرح المقاصد: ٢/١١١.

(١٩٧)

وتحقّق نوع مقابلة بين الرائي والمرئي وعند ذلك كيف يمكن أن تتحقّق الرؤية بلا بعض هذه الشروط. ثم إنّ بعض المثقفين من الأشاعرة لما وقعوا في مخمصة إزاء هذه الإشكالات، التجأوا إلى أمر آخر، وهو القول بأنّ كلّ شيء في الآخرة غيره في الدنيا. وهذا الكلام وإن كانت عليه مسحة من الحق، لكن لا يعنى به أنّ حقيقة الأشياء في الآخرة تباين حقيقتها في الدنيا، وهذا مثل أن يقال: إنّ حقيقة المربع والمثلث في الآخرة غيرهما في الدنيا، أو إنّ نتيجة «٢*٢» تصير في الآخرة خمسة، بحجّة أنّ كلّ شيء في الآخرة غيره في الدنيا، وإنّما المراد من القاعدة هو أنّ كلّ ما يوجد من الأشياء في الآخرة يكون بأكمل الوجود وأمثله، لا أنّه يباينه على وجه الإطلاق. يقول سبحانه: (كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا). (١) ثم إنّ الأشعري وبعده تلاميذ منهجه استدّلوا على الجواز بوجهين: أحدهما يرجع إلى الجانب السلبي، وأنه لا يترتب على القول بالرؤية شيء محال، والآخر إلى الجانب الإيجابي، وأنّ مصحح الرؤية في الأشياء هو الوجود، وهو مشترك بين الخالق والمخلوق. ثمّ أكدوا الأدلّة العقلية بالأدلة السمعية، وعلى ذلك فيقع الكلام في تحرير أدلّتهم في مقامين: الأدلّة العقلية، والأدلة السمعية. ونقدّم العقلية: الدليل العقلي الأول لجواز الرؤية إنّ تجويز الرؤية لا يستلزم شيئاً ممّا يستحيل عليه سبحانه، فلا يلزم كونه حادثاً أو إثبات حدوث معنى فيه، أو تشبيهه أو تجنيسه، أو قلبه عن حقيقته، أو تجويره أو تظليمه، أو تكذيبه. ثمّ أخذ الأشعري في شرح نفى هذه اللوازم على وجه مبسوط، ونحن نقتطف منه جملتين: ١. «ليس في جواز الرؤية إثبات حدث، لأنّ المرئي لم يكن مرئياً لأنّه ————— ١. البقرة: ٢٥.

(١٩٨)

محدث، ولو كان مرئياً لذلك للزم أن يرى كلّ محدث، وذلك باطل». ٢. «ليس في إثبات الرؤية لله تعالى تشبيه». (١) يلاحظ على الفقرة الأولى: أنّ الملازمة ممنوعة، إذ لقائل أن يقول: إنّ الحدوث ليس شرطاً كافياً في الرؤية حتى يلزم رؤية كلّ محدث، بل هو شرط لازم يتوقف على انضمام سائر الشروط، وبما أنّ بعضها غير متوفّر في المجرّدات المحدثات، لا تقع عليه الرؤية. ويلاحظ على الفقرة الثانية: أنّه اكتفى بمجرد ذكر الدعوى، ولم يعزها بالدليل، مع أنّ مشكلة البحث هي التشبيه الذي أشار إليه، فإنّ حقيقة الرؤية قائمة بالمقابلة ولو بالمعنى الواسع، ولولاها لا تتحقّق، والمقابلة لا تنفك عن كون المرئي في جهة ومكان، وهذا يستلزم كونه سبحانه ذا جهة ومكان، وهو نفس التشبيه والتجسيم. وكيف يقول إنّ تجويز الرؤية لا يستلزم التشبيه؟! «ما هكذا تورّد يا سعد الإبل!» وهناك إشكال آخر التفت إليه الشيخ، فعرضه وأجاب عنه، ونحن نعرض الإشكال والجواب بنصّيهما، قال: فإن عارضونا بأنّ اللمس والذوق

والشم، ليس فيه إثبات الحدث، ولا- حدوث معنى في الباري تعالى، قيل لهم: قد قال بعض أصحابنا إنَّ اللمس ضرب من ضروب المماسات، وكذلك الذوق وهو اتصال اللسان و اللهوات بالجسم الذي له الطعم، وإنَّ الشَّم هو اتصال الخيشوم بالمشموم الذي يكون عنده الإدراك له، وإنَّ المتماسين إنَّما يتماسان بحدوث مماسين فيهما، وإنَّ في إثبات ذلك إثبات حدوث معنى في الباري. يلاحظ عليه: أنَّ التفريق بين الأبصار وسائر الإدراكات الحسية تفريق بلا جهة، وما ذكره من أنَّ المتماسين إنَّما يتماسان بحدوث مماسين فيهما... مجمل جداً، وذلك لأنه إنَّ أراد أنَّ اللمس يوجب حدوث نفس المماسين وذاتهما فهو ممنوع، لأنَّ ذاتهما كانتا موجودتين قبل تحقُّق اللمس، وإنَّ أراد حدوث _____ ١. اللمع: ٤١-٤٢.

(١٩٩)

وصف مادي ورابطة جسمانية، وهي التي عبر عنها بقوله: «إنَّ اللمس ضرب من ضروب المماسات» فتلك الحالة أيضاً حادثه عند الإبصار، غاية الأمر أنَّ اللمس ضرب من ضروب المماسات، والإبصار ضرب من ضروب المقابلات، وبإعمال كلِّ واحد من الحواس تتحقَّق إضافة بين الحاسة والمحسوس، وفي ظلها يتحقَّق الإبصار واللمس والشَّم والذوق. وأضف إلى ذلك ما نقله عن بعض أصحابه في نقد السؤال الماضي وحاصله: إنَّ لمسنا أو ذوقنا أو شمنا إياه سبحانه، يتصور على صورتين: ١. أن يحدث الله تعالى للذائق أو الشام أو اللامس إدراكاً من غير أن يحدث في الباري تعالى معنى. ٢. تلك الصورة لكن يحدث فيه سبحانه معنى، فالثاني غير جائز، والأوَّل جائز، ولكن الأمر في التسمية إلى الله، إنَّ أمرنا أن نسَمِّيه لمساً وذوقاً وشماً سَمِيناً، وإنَّ معنا امتنعنا. (١) يلاحظ عليه: أوَّلاً: أنَّ معنى ذلك أن يكون سبحانه مشموماً ملموساً، مذوقاً، إذا لم يحدث فيه معنى بشمنا، وذوقنا، ولمسنا، وهذا في نهاية الضعف لا تجتري عليه المجتسمة، فكيف بالمنزّهة؟! وثانياً: أنَّ إيجاده سبحانه في جوارحنا إدراكاً، حتى يتحقَّق في ظلله لمسسه وذوقه، وشمّه، بلا حدوث معنى فيه، أشبه بترسيم الأسد على عضد البطل، من غير رأس ولا ذنب، لأنَّ واقعية أعمال هذه الحواس لا تنفك عن تحقُّق إضافة ورابطة بينها وبين المحسوس من غير فرق بين الإبصار وغيره، وهذه الإضافة إضافة مقولية قائمة بالطرفين. وقد التزم المجيب بامتناع هذا القسم، وإنَّما سوغ قسماً آخر، غير معقول ولا متصوّر. _____ ١. اللمع: ٤٢.

(٢٠٠)

وباختصار: إنَّ الدليل السلي الذي اعتمد عليه الشيخ الأشعري غير كاف، لأنَّ الرؤية تستلزم التشبيه، أي ما يستحيل عليه سبحانه من كونه طرف الإضافة المقولية الحاصلة بينه وبين الحواس. الدليل العقلي الثاني لجواز الرؤية إنَّ الوجود هو المصحح للرؤية، وهو مشترك بين الواجب وغيره وقد نسبه في المواقف إلى الشيخ الأشعري والقاضي وأكثر أئمة الأشاعرة. (١) وحاصله: أنَّ الرؤية مشتركة بين الجوهر والعرض، ولا بدَّ للرؤية المشتركة من علَّة واحدة وهي إمَّا الوجود أو الحدث، والحدث لا يصلح للعلية، لأنه أمر عديمي، فتعيَّن الوجود، والوجود مشترك بين الواجب والممكن، فينتج أنَّ صحَّة الرؤية مشتركة بين الواجب والممكن. وقد اعترض على ذلك البرهان في الكتب الكلامية، حتى من جانب نفس الأشاعرة (٢)، بكثير ولكننا نعتد في نقض هذا البرهان على ما يبطله من أساسه، فنقول: إنَّ الحصر في كلامه غير حاصر، فمن أين علم أنَّ مصحِّح الرؤية هو الوجود؟ إذ من المحتمل أن يكون الوجود شرطاً لازماً، لا- شرطاً كافياً، ويكون الملاك هو الوجود الممكن، وليس المراد من الممكن في قولنا «الوجود الممكن» الإمكان الذاتي، الذي يقع وصفاً للماهية، حتى يقال بأنَّ الماهية ووصفها «الإمكان» من الأمور العدمية والاعتبارية لا تصلح أن تكون جزء العلة، بل المراد هو الإمكان الذي يقع وصفاً للوجود، ومعناه كون الوجود متعلقاً بالغير قائماً به، كقيام المعنى الحرفي بالمعنى الاسمي، وليس الإمكان بهذا المعنى شيئاً غير حقيقة الوجود الإمكانية، كما أنَّ الوجوب ليس وراء نفس حقيقة _____ ١. شرح المواقف: ٨/١١٥. ٢. تلخيص المحصل: ٣١٧، غاية المرام: ١٦٠، شرح التجريد للقوشجي: ٤٣١ وغيره.

(٢٠١)

الوجود في الواجب شيئاً طارئاً عليه، ومع قيام هذا الاحتمال لا- يصحَّ للمستدل أن يجعل مصحِّح الرؤية نفس الوجود، ثم يدعى

اشترائه بين الواجب وغيره. بل هناك احتمال ثالث، هو أن يكون الملاك ومصحح الرؤية هو الوجود الإمكانى المادى، الذى يقع فى إطار شرائط خاصة لتحققها، وهى عبارة عن المقابلة وكونه طرف الإضافة المقولية بين البصر والمبصر، بضميمة وجود الضوء بينهما، فادعاء كون الملاك أمراً وسيعاً (الوجود)، يحتاج إلى دليل. ولو أردنا أن نقف على ما هو الملاك - من زاوية العلوم الطبيعية - فإنّ الإبصار حسب هذه العلوم رهن ظروف خاصة، ولا تعدو عن كون المبصر موجوداً ممكناً مادياً، يقع فى أفق الحس حيث يوجد هناك ضوء، وادعاء إمكان الإبصار فى غير هذه الظروف يحتاج إلى دليل، وليس الاحتمال كافياً فى مقام البرهان. والعجب أنه يدعى أنّ مصحح الرؤية هو الوجود، وعليه أن يعترف بصحة رؤية الأفكار والعقائد، والروحيات والنفسانيات من القدرة والإرادة، إلى غير ذلك من الموجودات التى لا يشكّ أحد فى امتناع رؤيتها. ولكن الشيخ حسب نقل شارح المواقف أجاب عن هذا النقض بقوله: إنّنا لا نرى هذه الأشياء التى ذكرتموها لجريان العادة من الله بعدم الرؤية، فإنّه أجرى عادته بعدم خلق رؤيتها فينا، ولكن لا يمتنع أن يخلق فينا رؤيتها كما خلق رؤية غيرها. (١) ولا يخفى أنّ كلامه يتضمن المصادرة على المطلوب، إذ من أين وقف على إمكان رؤيتها حتى يصحّ تعليل عدم وقوعها بقوله: «أجرى عادته بعدم خلق رؤيتها فينا مع إمكانها» فإنّ الكلام فى نفس الإمكان، والخصم يدعى الامتناع وهو يدعى خلافه. أضف إلى ذلك أنّ اللجوء إلى عادة الله فى كلمات الشيخ الأشعري ————— ١ . شرح المواقف: ٨/١٢٣.

(٢٠٢)

وأتباعه، يرجع لبه إلى إنكار السببية والمسببية بين عوالم الوجود ودرجات العالم، وأنّ كلّ حادثه طارئه تستند إليه سبحانه مباشرة، وأنّه هو المحرق والمبرد، وما يتبادر إلى الأذهان والحواس من كون النار محرقة ليس إلاّ - جريان عادة الله على إيجاد الحرارة بعد وجود النار، ولا صلة بين النار والحرارة. وهذا الأصل الذى يعتمد عليه الأشاعرة فى كثير من المواضع يضاد الكتاب العزيز والبرهان القويم. كيف وقد صرح سبحانه فى الذكر الحكيم بتأثير العلة الطبيعية فى معلولاتها بإذن منه سبحانه، ونكتفى من الآيات الكثيرة بآية واحدة: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١). أنظر إلى قوله سبحانه (فأخرج به) أى بسبب الماء، فللماء سببية وتأثير فى خروج الثمرات. (٢) الأمر الثالث: دليل القائلين بالجواز من القرآن

استدل القائلون بجواز الرؤية بآيات كثيرة نذكر المهم منها: الآية الأولى قوله سبحانه: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَّةٍ * تَنْظُرُونَ * أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) (٣). تمسكت الأشاعرة لجواز رؤية الله بهذا الدليل السمعى، قائلين بأنّ النظر إذا كان بمعنى الانتظار، يستعمل بغير صلة، ويقال انتظرته، وإذا كان بمعنى التفكير يستعمل بلفظة «فى»، وإذا كان بمعنى الرأفة يستعمل باللام، وإذا كان بمعنى الرؤية يستعمل بـ«إلى» و«النظر فى الآية استعمل بلفظ «إلى»، فيحمل

١ . البقرة: ٢٢. ٢ . تقدّم الكلام فيه. لاحظ: ص ١٦١. ٣ . القيامة: ٢٠-٢٥.

(٢٠٣)

على الرؤية. (١) قال الشيخ أبو الحسن: والدليل على أنّ الله تعالى يرى بالأبصار قوله تعالى: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (٢) ولا يجوز أن يكون معنى قوله (إلى ربها ناظرة) معتبرة، كقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) (٣). لأنّ الآخرة ليست بدار اعتبار، ولا يجوز أن يعنى متعطفة راحمة كما قال: «ولا ينظر إليهم» أى لا يرحمهم ولا يتعطف عليهم، لأنّ البارى لا يجوز أن يتعطف عليه. (٤) ولا يجوز أن يعنى منتظرة، لأنّ النظر إذا قرن النظر بذكر القلب لم يكن معناه نظر العين، لأنّ القائل إذا قال: أنظر بقلبك فى هذا الأمر، كان معناه نظر القلب، وكذلك إذا قرن النظر بالوجه لم يكن معناه إلاّ نظر الوجه. والنظر بالوجه هو نظر الرؤية الذى يكون بالعين التى فى الوجه، فصحّ أنّ معنى قوله تعالى: (إلى ربها ناظرة) رائية. إذا لم يجز أن يعنى شيئاً من وجوه النظر الأخرى. (٥) قال أيضاً حول دلالة الآية على الرؤية: إنّ النظر فى هذه الآية لا يمكن أن يكون نظر الانتظار، لأنّ الانتظار معه تنقيص وتكدير، وذلك لا

يكون يوم القيامة، لأنَّ الجنَّة دار نعيم وليست دار ثواب أو عقاب، ولا يمكن أن يكون نظر الاعتبار، لأنَّ الآخرة ليست دار الاعتبار بل دار ثواب أو عقاب، ولا يمكن أن يكون نظر القلب، لأنَّ الله تعالى ذكر النظر مع الوجه، فاتضح أنَّه نظر العينين، وإذا بطلت هذه المعاني _____ ١. شرح التجريد للقوشجي: ٣٣٤. ٢. القيامة: ٢٢-٢٣. ٣. الغاشية: ١٧. ٤. هذا سهو من قلمه، لأنَّ الآية تتضمن نفى نظره سبحانه إليهم بالرحمة والعطف، لا- نظرهم إليه بالعطف والحنان حتى يصح قوله: «لأنَّ الباري لا يجوز أن يتعطف عليه» فلاحظ. ٥. الملح: ٦٤.

(٢٠٤)

للنظر لم يبق إلا حالة واحدة وهي نظر الرؤية. يلاحظ عليه: من أين وقف الشيخ الأشعري على أنَّ الآيات تحكى عن أحوال المؤمنين بعد دخول الجنَّة والكافرين بعد الاقتحام في النار؟ والظاهر بقريته قوله: (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) أنَّ الآيات تحكى عن أحوالهم قبل دخولهم في مستقرهم ومأواهم، فلا- مانع من أن يكون انتظار من دون أن يكون هناك تكدير وتقيص. قد شغلت هذه الآية بالاشاعرة والمعتزلة، فالفرقة الأولى تصرُّ على أنَّ النظر هنا بمعنى الرؤية، والثانية تصر على أنَّها بمعنى الانتظار لا الرؤية، ويقولون: إنَّ النظر إذا استعمل مع «إلى» يجيء بمعنى الانتظار أيضاً، يقول الشاعر: وجوه ناظرات يوم بدر * إلى الرحمن يأتي بالفلاح (١) أى منتظرة إتيانه تعالى بالنصرة والفلاح. إلى غير ذلك من الآيات والروايات والأشعار العربية، الواردة فيها تلك اللفظة بمعنى الانتظار، حتى فيما إذا كانت مقرونة بـ«إلى». غير أنَّ الحقَّ أنَّ الآية لا تدلُّ على نظرية الأشاعرة، حتى ولو قلنا إنَّ النظر في الآية بمعنى الرؤية، فإنَّ الآية على كلا المعنيين تهدف إلى أمر آخر، لا صلة له بمسألة الرؤية، ويعرف مفاد الآيات بمقارنة بعضها ببعض، وإليك بيانه: إنَّ الآية الثالثة تقابل الآية الأولى، كما أنَّ الرابعة تقابل الثانية، وعند المقابلة يرفع إبهام الثانية بالآية الرابعة، وإليك تنظيم الآيات حسب المقابلة: أ. (وجوه يومئذ ناضرة) - يقابلها قوله: (وجوه يومئذ باسرة) . ب. (إلى ربها ناظرة) - يقابلها قوله: (تظن أن يفعل بها فاقرة) . وبما أنَّ المقابل للآية الثانية واضح المعنى، فيكون قرينه على المراد منها، _____ ١. وفي رواية: تنتظر الخلاصا.

(٢٠٥)

فإذا كان المقصود من المقابل أنَّ الطائفة العاصية تظن وتتوقع أن ينزل بها عذاب يكسر فقارها، ويقصم ظهرها، يكون المراد من عدله وقرينه عكسه وضده، وليس هو إلا- أنَّ الطائفة المطيعة تكون مستبشرة برحمته، ومتوقعة لفضله وكرمه، لا- النظر إلى جماله وذاته وهويته، وإلا- لخرج المقابلان عن التقابل وهو خلف. وبعبارة أخرى: يجب أن يكون المقابلان - بحكم التقابل - متحدى المعنى والمفهوم، ولا- يكونا مختلفين في شيء سوى النفي والإثبات، فلو كان المراد من المقابل الأول، أعنى: (إلى ربها ناظرة)، هو رؤية جماله سبحانه وذاته، فيجب أن يكون الجزء في قرينه، أعنى: (تظن أن يفعل بها فاقرة) هو حرمان هؤلاء عن الرؤية، أخذاً بحكم التقابل. وبما أنَّ تلك الجملة - أعنى: القرين الثاني - لا تحتل ذلك المعنى، أعنى: الحرمان من الرؤية، بل صريحة في انتظار العذاب الفاقر، يكون ذلك قرينه على المراد من القرين الأول، هو رجاء رحمته وانتظار فرجه وكرمه. بيان آخر

إنَّ المراد من «ناظرة» سواء أفسرت بمعنى الانتظار أم النظر المرادف مع الرؤية، هو توقُّع المطيعين المتقين الرحمة الإلهية، في مقابل توقع العصاة عذابه الفاقر، فإذا كان هو المراد من الآية حسب التقابل، فلو قلنا بأنَّ لفظة «ناظرة» بمعنى الانتظار تسقط دلالة الآية على الرؤية - ولو كانت بمعنى النظر المرادف مع الرؤية - فهي كناية عن انتظار الرحمة، مثلاً يقال: فلان ينظر إلى يد فلان، يراد أنَّه رجل معدم محتاج ليس عنده شيء، وإنما يتوقع أن يعطيه ذلك الشخص، فما أعطاه ملكه، وما منعه حرم منه، وهذا ممَّا درج عليه الناس في محاوراتهم العرفية، إذ يقول إنسان في حقَّ آخر «فلان ينظر إلى الله ثمَّ إليك» فالنظر، وإن كان هنا بمعنى الرؤية بلا شك، لكنَّه كناية عن انتظار فضله سبحانه وكرمه، كانتظاره بعد الله فضل سيده، ويفسر في «أقرب الموارد» بقوله «يتوقع فضل الله ثمَّ كرمك» و الآية نظير قول القائل: إنِّي إليك لما وعدت لناظر * نظر الفقير إلى الغنى الموسر (٢٠٦)

فمحور البحث والمراد، في أمثال المورد، هو توقُّع الرحمة وحصولها، أو عدم توقُّعها وشمولها، فالطغاة يظنون شمول عذاب يفرهم

ويكسر ظهورهم، والصالحون يظنون عكسه وضده. وأمّا رؤية الله سبحانه ووقوع النظر إلى ذاته فخارج عن مدار البحث في هذه المواقع، والأشعرى وكل من استدلل بهذه الآية على الرؤية خلط المعنى المكّنّى به بالمعنى المكّنّى عنه. فقد كُنّي بالنظر إلى الله عن الانتظار لرحمته وشمول فضله وكرمه. ولذلك نطائر في الكتاب العزيز، يقول سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١). والمراد من قوله: «لا ينظر إليهم» هو المعنى المكّنّى عنه، وهو طردهم عن ساحته، وعدم شمول رحمته لهم، وعدم تعطفه عليهم، وتدلّ على ذلك الآية المتقدمة عليها، حيث قال عزّ من قائل: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (٢). فلو قمنا بالمقابلة يكون سياق الآيات بالشكل التالي: (مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى) يكون جزاؤه قوله: (يُحِبُّهُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

و(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا) يكون جزاؤه قوله: (لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). فالإبهام الموجود في الجزء الثاني يرتفع بالمعنى المتبادر من الجزء الأول، فبما أنّ المراد منه هو عموم رحمته وشمول فضله يكون المراد من الجزء الثاني هو قبض رحمته وعدم شموله لهم. وإن شئت قلت: إنّ المراد من «لا ينظر إليهم» ليس هو عدم رؤية الله وعدم مشاهدته إياهم، لأنّ رؤيتهم أو عدم رؤيته ليس أمراً مطلوباً لهم حتى _____ ١. آل عمران: ٧٧. ٢. آل عمران: ٧٦.

(٢٠٧)

يُهدّدوا بعدم النظر إليهم وإنّما النافع بحالهم هو وصول رحمته إليهم، والمضر بحالهم عدم شمول لطفه لهم، فيكون المراد عدم تعطفه إليهم. هذا هو مفتاح حل المشكل المتوهم في الآية، فتفسير الآية برؤية الله أخذاً بالمعنى المكّنّى به غفلة عن محور البحث فيها. وبدلّ على أنّ المراد من النظر - حتى ولو كان بمعنى الرؤية - ليس هو الرؤية البصرية، بل المقصود انتظار الرحمة، تقديم المفعول، أعنى: «إلى ربّها» على الفاعل وأعنى: «ناظرة»، فإنّ تقديمه يدلّ على معنى الاختصاص، والاختصاص صحيح لو قلنا بأنّ المراد هو انتظار رؤيته، لأنّ الإنسان في هذا الظرف الهائل لا يتوقع إلاّ رحمة الله وعنايته ولطفه فقط، ولا يتوقع شيئاً سواها حتى يتخلص من أهوال القيامة، وأمّا رؤية الله سبحانه فليست بهذه المنزلة في تلك الأحوال، فليس الناس بحال لا يطلبون فيها إلاّ النظر إليه وعدم النظر إلى غيره. وإن عمّهم العذاب بعد الرؤية ليصحّ وجه الحصر. لأنّ ما ينجيهم من الأهوال هو رحمته، لا رؤية وجهه. يقول صاحب الكشاف: إنّ المؤمنين ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد. فاختصاصه سبحانه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه، محال أو غير واقع، فوجب حمله على معنى يصحّ معه الاختصاص. والذي يصحّ معه أن يكون من قبيل قول الناس «أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي» يريد معنى التوقع والرجاء ومن هذا القبيل قوله: وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعماً (١) إنّ هنا كلمة أخرى للزمخشرى في كشافه، يقول: «وسمعت سروية مستجديّة بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم، تقول: «عينتي نويظرة إلى الله وإليكم». تقصد راجيةً ومتوقّعةً لإحسانهم إليها، كما هو معنى قولهم: «أنا أنظر إلى الله ثمّ إليك»: «أتوقع فضل الله ثمّ فضلك». (٢) _____ ١. الكشاف: ٤/٦٦٢. ٢. الكشاف: ٣/٢٩٤، في تفسير قوله سبحانه: (إلى ربّها ناظرة).

(٢٠٨)

فلو أنّ القوم تجرّدوا عن انتحال مسلك مسبق، ونظروا إلى القرآن بعين التفهّم والاستفادة، لما شكّ أحد في أنّ المراد من النظر إلى الله سبحانه في ذلك المشهد الرهيب هو رجاء رحمته وفضله وكرمه. ومما ذكرنا تعرف أنّ ما أتعّب به الشيخ نفسه لا يفيد شيئاً. فإنّ غاية ما أثبتته هو أنّ النظر هنا بقريته «وجوه» بمعنى الرؤية، ولكنّه لم يستدلّ على أنّ الرؤية هل هي المقصود بالذات، أو هي كناية عن معنى آخر وهو انتظار رحمته، واليقين بفضله وكرمه؟ مع أنّ هنا فرقاً واضحاً بين قولنا: «عيون يومئذ ناظرة» و (وجوه يومئذ ناظرة) فلو كان الأوّل ظاهراً في الرؤية فليس الثاني كذلك. فهو في الانتظار أوضح وأبين. وليس الفاعل في قوله سبحانه: (إلى ربّها ناظرة) هو العيون، بل الوجوه المذكورة في الآية المتقدمة، أعنى قوله: (وجوه يومئذ ناظرة) فالنظر منسوب إلى الوجوه لا إلى العيون، فافهم. وباختصار، إنّنا لا نقول بأنّ النظر هنا نظر القلب، حتى يستدلّ الشيخ على عدم صحّته بأنّ النظر إذا قرن بالوجوه لم يكن معناه نظر

القلب، الذي هو انتظاره، وإنما نقول بأن المراد منه هو النظر بالعين، ولكن هذا المعنى المطابق كناية عن معنى الترامي. والمقصود في الكنايات هو المعنى الثاني لا- المعنى الأول. فإذا قلت «فلان كثير الرماد» فصدقه يتوقف على كثرة ضيوفه ووفرة من ينزل في بيته، لا على وجود رماد في بيته. وعلى ذلك فالذي يجب التركيز عليه هو الوقوف على ما هو مقصود المتكلم من قوله: (إلى ربها ناظرة) فهل هو يريد أن جزاء المطيعين ذوى الوجوه الناظرة هو النظر إلى ذات الله ورؤيته؟ أو أنه كناية عن جزاء آخر، هو انتظار رحمته وفضله وكرمه، في مقابل الطغاة ذوى الوجوه الباسرة الظانين بنزول العذاب الفاجر. وهذه هي النكتة المهمة في فهم الآية وقد غفل عنها الأشعري ورواد منهجه. الآية الثانية قوله سبحانه: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ (٢٠٩) إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِن نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَيْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (١). (٢) احتجت الأشاعرة بهذه الآية بوجهين:

الوجه الأول: أن موسى سأل الرؤية ولو كانت ممتنعة لما سألها، لأنه إما يعلم امتناع الرؤية أو يجهلها، فإن علم فالعاقل لا يطلب المحال، وإن جهله فهو لا يجوز في حق موسى، فإن مثل هذا الشخص لا يستحق أن يكون نبياً. يلاحظ عليه: أن المستدل أخذ بآية واحدة، وترك التدبر في سائر الآيات الواردة حول الموضوع، وتصور أن الكلم ابتدأ بالسؤال وأجيب بالنفي، وعلى ذلك بنى استدلاله بأنه لو كان ممتنعاً لما سألته الكلم، ولكن الحقيقة غير ذلك، وإليك بيانه: إن الكلم لما أخبر قومه بأن الله كلمه وقربه وناجاه، قالوا لن نؤمن بك حتى نسمع كلامه كما سمعت، فاختر منهم سبعين رجلاً لميقات ربهم، فخرج بهم إلى طور سيناء وسأله سبحانه أن يكلمه، فلم يكلمه الله، وسمعوا كلامه، قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فعند ذلك أخذتهم الصاعقة بظلمهم وعتوهم واستكبارهم. وإلى هذه الواقعة تشير الآيات الثلاث التالية: ١. (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ). (٣). ٢. (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ). (٤). ٣. (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ _____ ١ . الأعراف: ١٤٣. ٢. وقد استدلت به الأشاعرة ولم يستدل به الشيخ أبو الحسن في لمعه وإنما ذكرناه تمييزاً للبحث. ٣. البقرة: ٥٥. ٤. النساء: ١٥٣.

(٢١٠) رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَنَحْنُ فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ). (١)

إلى هذه اللحظة الحساسة لم يحتم الكلم حول الرؤية، ولم ينسب فيها بنت شفه، ولم يطلب شيئاً، بل طلب منه سبحانه أن يحييهم، حتى يدفع اعتراض قومه عن نفسه إذا رجع إليهم، فربما قالوا إنك لما لم تكن صادقاً في قولك: إن الله يناجيك، ذهبت بهم فقتلتهم، فعند ذلك أحياهم الله وبعثهم معه. وهذا هو مقاله. يقول سبحانه عنه (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإني أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك). فلو كان هناك سؤال من موسى فإنما كان بعد هذه المرحلة، وبعد إصابة الصاعقة للسائلين وعودهم إلى الحياة بدعاء موسى. وعند ذلك يطرح السؤال الآتي: هل يصح أن ينسب إلى الكلم - بعد ما رأى بأمر عينه ما أصاب القوم من الصاعقة والدمار، إثر سؤالهم الرؤية - أنه قام بالسؤال لنفسه بلا داع وسبب مبرر أو بلا ضرورة؟ أو أنه ما قام بالسؤال ثانياً إلا بعد إصرار قومه وإلحاحهم عليه أن يسأل الرؤية لا لهم بل لنفسه، حتى تحصل رؤيته لله مكان رؤيتهم، فيؤمنوا به بعد إخباره بالرؤية؟ لا شك أن الأول بعيد جداً لا تصح نسبته إلى من يملك شيئاً من العقل والفكر، فضلاً عن نبي عظيم مثل الكلم. كيف وقد رأى جزاء من سأل الرؤية، فالثاني هو المتعين، وفي نفس الآية قرائن تدل على أن السؤال في المرة الثانية كان بإصرار القوم وإلحاحهم، وكفى في القرينة قوله (أتهلكنا بما فعل السفهاء) حيث يعد السؤال من فعل السفهاء، ومع ذلك يصح له الإقدام بلا ملزم ومبرر أو بلا ضرورة وإلحاح، وبما أن الله سبحانه يعلم بأنه لم يقدم إلى _____ ١ . الأعراف: ١٥٥.

السؤال إلا- بإصرار قومه حتى يكتب هؤلاء ويسكتهم، لم يوجه إلى الكليم أى مؤاخذه، بل خاطبه بقوله (لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى). وهناك كلام للإمام الطاهر على بن موسى الرضا - عليه السلام - يعرب عن صحته ما ذكرناه، وأن سؤال الكليم لم يكن من جانب نفسه، بل من جانب قومه. قال الإمام - عليه السلام - «إن كليم الله موسى بن عمران - عليه السلام - علم أن الله، تعالى عن أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه الله عزوجل وقربه نجياً، رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عزوجل كلمه وقربه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت. وكان القوم سبعمائه ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائه، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى - عليه السلام - إلى الطور وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلمه، ويسمعهم كلامه، فكلمه الله، تعالى ذكره، وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام. لأن الله عزوجل أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه فقالوا: لن نؤمن لك بأن هذا الذى سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهره، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عزوجل عليهم صاعقه فأخذتهم بظلمهم فماتوا. فقال موسى: يا رب ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنك ذهبت به فقتلتهم، لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم الله وبعثهم معه. فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابك، وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حق معرفته، فقال موسى - عليه السلام - : «يا قوم إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويُعلم بأعلامه. فقالوا لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى - عليه السلام - : يا رب قد سمعت مقالة بنى إسرائيل وأنت أعلم بصلاحتهم، فأوحى الله جل جلاله إليه: يا (٢١٢)

موسى اسألنى ما سألوك فلن أؤخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى - عليه السلام - : رب أرنى أنظر إليك. قال: لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه (وهو يهوى) فسوف ترانى، فلما تجلّى ربه للجبل (بآية من آياته) جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك (يقول: رجعت إلى معرفتى بك عن جهل قومى) وأنا أول المؤمنين (منهم بأنك لا- ترى)، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن. (١) ثم إن للعلامة الزمخشري كلاماً حول تفسير الآية هو فصل الخطاب، يقرب كلامه ممّا نقلناه عن الإمام الطاهر أبى الحسن الرضا - عليه السلام -، فى القارىء نصح: «فإن قلت: كيف طلب موسى - عليه السلام - ذلك وهو من أعلم الناس بالله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعالیه عن الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان فى جهة، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون فى جهة. قلت: ما كان طلب الرؤية إلا لبيك هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلّالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم، وأعلمهم الخطأ وتبهم على الحق، فلجوا وتمادوا فى لجاجهم، وقالوا: لا بد، ولن نؤمن حتى نرى الله جهره. فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: «لن ترانى» ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة، فلذلك قال: (رب أرنى أنظر إليك). فإن قلت: فهلا قال: أرهم ينظروا إليك؟ قلت: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى - عليه السلام - وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيصروه معه، كما أسمعهم كلامه فسمعوه معه، إرادة مبنية على قياس فاسد، فلذلك قال موسى: (أرنى أنظر إليك) ولأنه إذا زجر عمياً طلب وأنكر عليه فى نبوته واختصاصه وزلفته عند الله، وقيل له: لن يكون ذلك، كان غيره أولى بالإنكار، ولأن الرسول إمام أُمَّته فكان ما يخاطب به أو ما

_____ ١. توحيد الصدوق: ١٢١-١٢٢.

(٢١٣)

يخاطب، راجعاً إليهم، وقوله: (أنظر إليك) وما فيه من معنى المقابلة التى هى محض التشبيه والتجسيم، دليل على أنه ترجمه عن مقترحهم، وحكاية لقولهم، وجلّ صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرف فى معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبى الهذيل والشيخين وجميع المتكلمين. فإن قلت: ما معنى «لن»؟ قلت: تأكيد النفسى الذى تعطيه «لا» و ذلك أن «لا» تنفى المستقبل، تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً. والمعنى أن فعله ينافى

حالي، كقوله: (لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ)، فقوله: (لا تُدرکه الأبصار) نفى للرؤية فيما يستقبل و (لن تراني) تأكيد و بيان، لأنّ النفى مناف لصفاته. (١) ذلك كلام الإمام الطاهر على بن موسى الرضا - عليه السلام -، أحد قرناء الكتاب وأعداله حسب تنصيص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. (٢) وهذا تحليل علامة المعتزلة، ولو تأمل الإنسان المحاييد فيما ذكر، لعرف دلالة الآية على امتناع الرؤية. وبذلك يعلم أنّ الميقات الوارد في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرِ إِلَيْكَ) نفس الميقات الوارد في الآية الأخرى، أعنى قوله: (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) ولم يكن لموسى مع قومه أى ميقات غير هذا. غير أنّ الرجوع في سورة الأعراف إلى مسألة الميقات ثانياً بعد ذكره في بدء القصة، لأجل العناية بهذه القطعة من القصة، والقرآن ليس كتاب قصة، وإنما هو كتاب هداية يكرر من القصة ما يهّمه. وبعبارة أخرى: إنّ موضوع طلب الرؤية ذكر في ثنايا القصة مرّة ————— ١ . الكشاف: ١/٥٧٣ - ٥٧٤ ط مصر. كذا في المطبوع، والصحيح: أنّ الرؤية منافية، كما في جوامع الجامع. ٢ . في حديث الثقلين المتواتر عند الفريقين، قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللهِ وَعِترتي».

(٢١٤)

(الأعراف: ١٤٣) لأجل حفظ تسلسل فصول القصة، وذكر في نهايتها ثانياً (الأعراف: ١٥٥) لأجل إبراز العناية، وأنّه كان مسألة مهمة في حياة بني إسرائيل. لقاء أو لقاءان؟

قد استظهرنا أنّه لم يكن لموسى حول مسألة الرؤية إلاّ ميقات واحد، ولم يكن هنا إلاّ طلب واحد لأجل إصرار قومه. وربما يحتمل تعدد اللقاءين، وأنّ الأوّل منهما كان عند اصطفاة سبحانه لكلامه، وتشريفه بإعطاء التوراة، وإرساله إلى قومه، وكان الثاني بعد رجوعه من الميقات ومشاهدة اتخاذ قومه العجل إلهاً، فعند ذاك اختار من قومه سبعين رجلاً وذهب بهم إلى الميقات، فأصروا على أنّهم لا يؤمنون به إلاّ بعد رؤية الله جهره. فالآية الأولى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا) ناظرة إلى اللقاء الأوّل والآية الثانية (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ) إلى اللقاء الثاني. وكان في كلّ، طلب وسؤال خاص. هذا هو المفترض، ولكنّه بعيد جداً، وعلى فرض ثبوته لا- يدلّ على المطلوب المدعى ثانياً. أمّا الأوّل: فلائنه لو كان للكليم لقاءان، وقد سأل في الأولى منهما الرؤية لنفسه وحده وأجيب بالنفى، ولما شاهد اندكاك الجبل عند تجلّي الرب صعق ووقع على الأرض، كان عليه تذكير قومه بما وقع وتخويفهم من الطلب، مع أنّه لم يذكر منه شيء في الآية الثانية. ولو تبهم بذلك - و مع ذلك ألحوا على الرؤية - لأشار إليه الذكر الحكيم إيعازاً إلى لجاجهم وعنادهم. وكلّ ذلك يعرب عن وحدة اللقاء، وأنّ مجيئه لميقات ربّه لإخذ الألواح كان مع من اختارهم من قومه، ولم يكن إلاّ طلب واحد في حضرة القوم. تفسير الآية بوجه آخر

وعلى فرض التعدّد فالرؤية التي طلبها موسى لنفسه وقال: (أَرِنِي أَنظُرِ إِلَيْكَ) غير الرؤية التي طلبها قومه، فالمراد من الثانية هو الرؤية البصرية (٢١٥)

المستحيلة، وقد أعقب السؤال نزول الصاعقة وإهلاك القوم، ولكن المراد من الأوّل هو حصول العلم الضروري، وإنّما سمي بالرؤية للمبالغة في الظهور. وله نظائر في القرآن كقوله سبحانه: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (١) وقوله عزّ من قائل: (كَلَّا- لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ). (٢) فالكليم أجلّ من أن يجهل امتناع الرؤية الحسية بالأبصار، خصوصاً في الدنيا التي يسلم الخصم امتناعه فيها. فهذا قرينه على أنّ مقصوده منها هو العلم الضروري من دون استعمال آله حسيه أو فكرية. فالله سبحانه لما اصطفاه برسالته وتكليمه وهو العلم بالله من جهة السمع، رجا أن يزيده بالعلم من جهة الرؤية، وهو كمال العلم الضروري، فأجيب بالنفى، وأنّ الإنسان ما دام شاغلاً بتدبير بدنه، لا ينال ذاك العلم. هذا، والأصح هو الجواب الأوّل، وأنّه لم يكن هنا إلاّ طلب واحد بإصرار من قومه. إكمال

بقي الكلام في ارتباط قوله سبحانه: (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) بما قبله (لن تراني) وقد قيل في وجه ارتباطه وجهان، والثاني هو المتعين، وإليك بيانه: الأوّل ما ذكره صاحب الكشاف، وحاصله، أنّ اندكاك الجبل كان ردّ فعل لطلب

الرؤية حتى يقف موسى على استعظام ما أقدم عليه من السؤال، وإن كان يلاحق قومه وإصرارهم، وكأنه عز وجل حقق عند طلب الرؤية ما ذكره في مورد آخر، أعنى: نسبة الولد إليه، أعنى قوله: (وتخز الجبال هدأ* أن دعوا للرحمن ولداً). (٣) —————
١ . الأنعام: ٧٥ . ٢ . التكاثر: ٥-٦ . ٣ . الكشاف: ١/٥٧٥.

(٢١٦)

يلاحظ عليه: أن سياق الآية، سياق الهداية والبرهنة على أنه لا يرى، وعلى ما ذكره يكون الكلام وارداً موضع العتاب الخفيف على موسى، لأجل طلب الرؤية من جانب قومه، ليقف على استعظام عمله وعظم أثره، وهو اندكاك الجبل وانخاراه وصيرورته تراباً، وهذا لا ينطبق على ظاهر الآية وإن استحسنه الزمخشري وقال: «وهذا كلام وارد في أسلوب عجيب ونمط بديع، فقد تخلص من النظر إليه إلى النظر إلى الجبل بكلمة الاستدراك». الثاني: أن الاستدراك بمنزلة التعليل لقوله: «لن تراني» والمقصود بيان ضعف الإنسان وعدم طاقته لرؤيته سبحانه، وقد بين ذلك بتجليه على الجبل فصار دكاً، وهو أقوى من الإنسان وأرسخ منه، فإذا كان هذا حال الجبل فكيف حال الإنسان الذي يشاركه في كونه موجوداً مادياً خاضعاً للسنن الكونية، وقد (خلق الإنسان ضعيفاً)؟! وبذلك يحفظ على سياق الآية وارتباط أجزائها بعضها ببعض. وأما ما هو المقصود من تجليه سبحانه، فالتجلي هو الانكشاف والظهور بعد الخفاء، قال سبحانه: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) (١) فالليل يغشى النهار ويستتره، ثم يتجلى النهار ويظهر بالتدرج. والمقصود من تجليه سبحانه هو تجليه بآثاره وأفعاله. وبما أن نتيجة التجلي كانت اندكاك الجبل وصيرورته تراباً، كان التجلي بنزول الصاعقة على الجبل التي تقلع الأشجار، وتهدم البيوت وتذيب الحديد، وتحدث الحرائق، وتقتل من تصيبه من الناس، وليست هي إلا شرارة كهربائية تنتج من اتحاد كهربائية سحابة في الجو مع الكهرباء الأرضية، فتكون نتيجة الاتحاد هي الصاعقة وبروز الشرارة، وما يرى من نورها هو البرق، وما يسمع هو الرعد، وهو صوت الشرارة الكهربائية التي تخرق طبقات الهواء. فإذا كان الإنسان عاجزاً وفاقداً للطاقة في مقابل تجليه بفعله وأثره، فأولى ————— ١ . الليل: ١-٢. (٢١٧)

أن يكون عاجزاً في مقابل تجليه بذاته ونفسه. وبذلك تتبين دلالة الآية على عدم إمكان رؤيته، فضلاً عن دلالة على إمكانها. قد عرفت أن الأشاعرة استدلت بهذه الآية بوجهين، وقد ظهر مدى صحة الوجه الأول، وإليك بيان الوجه الثاني: الوجه الثاني قالوا: إنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل، وهو أمر ممكن في نفسه، والمعلق على الممكن ممكن، لأن معنى التعليق أن المعلق يقع على تقدير وقوع المعلق عليه. والمحال في نفسه لا يقع على شيء من التقادير. يلاحظ عليه: أن الاستدلال مبني على أن يكون المراد من قوله سبحانه (فإن استقر مكانه) هو إمكان الاستقرار. ولا شك أنه أمر ممكن، ولكن الظاهر أن المراد هو استقراره بعد تجليه، وهو بعد لم يستقر عليه، بدليل قوله سبحانه: (جعله دكاً) وهذا نظير قولك: «أنا أعطيك هذا الكتاب إن صليت» والمراد قيام المخاطب بها بالفعل لا إمكان قيامه. وبذلك يظهر أن ما حكاه صاحب الانتصاف عن أحمد بن حنبل لا يفيد القائلين بالرؤية، فقد نقل عنه أن من حيل القدرية في إحالة الرؤية ما يقولون إنه سبحانه علق الرؤية على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكته. والمعلق على المحال محال. وهذه حيلة باطلة، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وحينئذ نقول: استقرار الجبل ممكن وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن. (١) وغير خفى على النبيه أن المعلق عليه ليس ما حكى عن المعتزلة، وهو استقرار الجبل حال دكته، ولا ما ذهب إليه أحمد بن محمد الاسكندري المالكي بهامش الكشاف: ١/٥٧٥.

(٢١٨)

المعلق عليه وجود الاستقرار وبقاؤه بعد تجلي الرب سبحانه، ولم يكن هذا واقعاً. وباختصار، إن إمكان الرؤية، علق على وجود الاستقرار وتحققه بعد التجلي، وهو حسب الفرض لم يقع. وينتج أن الرؤية ليست أمراً ممكناً. الآية الثالثة قوله سبحانه: (إِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* كَلَّا- بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ* كَلَّا- إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ

لَمَحْجُوبُونَ* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ). (١) قال الرازي: «احتج أصحابنا بقوله سبحانه: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) على أن المؤمنين يرون سبحانه و تعالى. قال: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة، ثم قال: وفيه تقرير آخر، وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض التهديد والوعيد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن». (٢) والاستدلال مبنى على أن المراد هو كون الكفار محجوبين عن رؤيته سبحانه مع أن المناسب لظاهر الآية كونهم محجوبين عن رحمة ربهم بسبب الذنوب التي اقترفوها، وبأى دليل حملها الرازي على الحرمان من الرؤية؟ على أن المعرفة التامة به تعالى، التي هي فوق الرؤية الحسية بالأبصار الظاهرة، تكون حاصلة لكل الناس يوم القيامة، إذ عندئذ ترتفع الحجب المتوسطة بينه تعالى و بين خلقه، قال سبحانه: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ). (٣) وقال سبحانه: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ _____ ١. المطففين: ١٣-١٦. ٢. مفاتيح الغيب: ٨/٣٥٤، ط مصر. ٣. النور: ٢٥.

(٢١٩) (فَبَصَّرْكَ الْيَوْمَ حَدِيد). (١) الآية الرابعة

قوله سبحانه: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). (٢) قالوا: إن المراد من «الحسنى» هو الجنة و من «زيادة» هو رؤية الله. قال الرازي: إن الحسنى لفظ مفرد دخل عليه حرف التعريف، فانصرف إلى المعهود السابق وهو دار السلام المذكور في الآية المتقدمة: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ) وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من «زيادة» أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من المنافع والتعظيم، وإلا لزم التكرار، وكل من قال بذلك قال: إنما هي رؤية الله. (٣) يلاحظ عليه: أنه لا دليل على حمل اللام على العهد، بل المراد الجنس، والمراد أن الذين أحسنوا لهم المثوبة الحسنى مع زيادة على ما يستحقونه. قال سبحانه: (لِيُوقِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) ويؤيده ذيل الآية التي تليها (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَزَهُفُهُمْ ذَلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). (٤) وأنت إذا قارنت بين الآيتين تفضي بأن المراد: إن للذين أحسنوا في الدنيا، المثوبة الحسنى مع زيادة عما يستحقونه، والذين كسبوا السيئات لا يجزون إلا بمثلها، وليس في الآية إشعار برؤية الله، فضلاً عن الدلالة. وبذلك يتبين مفاد آية أخرى، أعنى قوله سبحانه: (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ _____ ١. ق: ٢٢. ٢. يونس: ٢٦. ٣. مفاتيح الغيب: ٨/٣٥٤. ٤. يونس: ٢٧.

(٢٢٠) (يَوْمَ الْخُلُودِ* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد) (١) فالآيتان تشيران إلى ما يفيد قوله: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا). (٢)

ولقد جرى الحق على قلم الرازي إذ قال: ويحتمل أن يكون المعنى: عندنا ما نزيده على ما يرجون وعلى ما يشتهون. الآية الخامسة قوله سبحانه: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ). (٣) قالوا: «إن الملاقاة تستلزم الرؤية بحكم العقل». (٤)! يلاحظ عليه: أولاً: أن لقاء الرب لو كان مستلزماً لرؤيته، فهو عام للمؤمن والكافر، قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ* فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا). (٥) مع أن الأشاعرة يخصون الرؤية بالمؤمن. وثانياً: أن المراد بلقاء الله وقوف العبد موقفاً لا حجاب بينه و بين ربه، كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق. قال الله تعالى: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ). (٦) وقال سبحانه: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ). (٧) وقال سبحانه: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ _____ ١. ق: ٣٤-٣٥. ٢. النساء: ١٧٣. ٣. البقرة: ٤٥، ٤٦. ٤. مفاتيح الغيب: ٢/٣٤٦، ط مصر. ٥. الإنشاق: ٨٦. ٦. النور: ٢٥. ٧. غافر: ١٦.

(٢٢١) (غِطَاءَكَ فَبَصَّرْكَ الْيَوْمَ حَدِيد). (١) والمراد من كشف الحجب هو وصول الإنسان في الإذعان والإيمان إلى حد لا يبقى معه أى شك وتردد.

إن الإنسان في المشهد الأخرى يبلغ مبلغاً من الكمال، يدرك حضوره عند خالقه وبارئه، وذلك نفس حقيقة وجود الممكن وواقعته، إذ لا حقيقة للوجود الإمكانى إلا قوامه بعلته، و تعلقه بموجده، تعلق المعنى الحرفى بالمعنى الاسمى، والإنسان في ذلك المشهد يجد

نفسه حاضرة عند بارئها حضوراً حقيقياً كما يجد ذاته حاضرة لدى ذاته، والعلم الحضورى لا يختص بالذات، بل يعم العلم بالموجد الذى هو قائم به. وباختصار: فرق بين أن يتصور الإنسان تعلقه ببارئه، وبين أن يجد تلك الواقعة التعلقية بوجودها الخارجى. فذلك الحضور والشهود، شهود بين القلب، وحضور بتمام الوجود، لا يصل الأوحى فى الدنيا، كما يصل إليه الإنسان فى المشهد الأخرى. وإلى ذلك يشير ما روى عن أمير المؤمنين على - عليه السلام - حين جاءه خبر وقال له: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك، ما كنت أعبد رباً لم أراه. قال: وكيف رأيت؟ قال: ويلك، لا تدركه العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. (٢) ونظيره ما روى عن أبى جعفر - عليه السلام - حيث سئل عن أى شىء يعبد؟ قال: «الله تعالى». فقيل له: رأيت؟ قال: «لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات، لا- يجور فى حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو». فخرج السائل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته. (٣) _____ ١ . ق: ٢٢ . ٢ . الكافي: ١، كتاب التوحيد، باب فى إبطال الرؤية، الحديث ٦ . ٣ . المصدر السابق، الحديث ٥.

(٢٢٢)

ويحتمل أن يكون المراد من لقاء الله هو يوم البعث، ويؤيده قوله سبحانه: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) (١) فكنتى بقاء الله عن يوم البعث، لأن الكافرين ما كانوا يكذبون إلا بيوم البعث، قال سبحانه: (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا). (٢) وقال تعالى: (يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا). (٣) وقال عزاسمه: (وَقِيلَ الْيَوْمَ نُنَسِّئُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا). (٤) وإنما كنتى عن لقاء يوم البعث بقاء الله، لأنه سبحانه يتجلى للإنسان بقدرته وسلطانه، ووعدته ووعدته، ولطفه وكرمه، وعزه وجلاله، وجنوده وملائكته، إلى غير ذلك من شؤونه. فيصح أن يقال: إن هذا اليوم يوم لقاء الرب، فإن لقاء الآثار والآيات الدالة على عظمة صاحبها، نوع لقاء له. ويرشدك إلى ما ذكرنا قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا...) (٥) فجعل عدم رجاء لقاء الرب فى مقابل الرضى بالحياة الدنيا، يدل على أن المراد من لقاء الرب هو الحياة الأخرى، الملازمة لشهود آياته وآثاره العظيمة. وما أوردناه من الآيات هى من أهم ما استدلل به الأشاعرة، وبقيت هناك آيات ربما تمسكوا بها ولكنها لا تمت إلى مقصودهم بصله. ولأجل ذلك تركنا التعرض لها. الاستدلال على الرؤية بالسنة

استدل القائلون بالرؤية بالأدلة السمعية، منها الكتاب، وقد عرفت المهم منها، ومنها السنة، ونكتفى بالمهم منها أيضاً: _____ ١ . لأنعام: ٣١ . ٢ . السجدة: ١٤ . ٣ . الزمر: ٧١ . ٤ . الجاثية: ٢٤ . ٥ . يونس: ٧.

(٢٢٣)

روى البخارى فى باب «الصراف جسر جهنم» بسنده عن أبى هريرة قال: قال أناس: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة، كذلك يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله فى غير الصورة التى يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتهم الله فى الصورة التى يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه ويضرب جسر جهنم... إلى أن يقول: وبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذكاًؤها، فاصرف وجهى عن النار، فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربنى إلى باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألنى غيره؟ ويلك ابن آدم ما أغدرك، فلا يزال يدعو فيقول: لعلك إن أعطيتك ذلك تسألنى غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، فيعطى الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة فإذا رأى ما فيها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: ربى أدخلنى

الجنة، ثم يقول: أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك يا ابن آدم ما أغدرتك، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك (الله)، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها... الحديث.(١) ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مع اختلاف يسير.(٢) _____ ١. البخارى: ٨/١١٧ باب الصراط جسر جهنم. ٢. صحيح مسلم: ١/١١٣، باب معرفة طريق الرؤية. (٢٢٤)

ورواه أيضاً عن أبي سعيد الخدرى باختلاف غير يسير في المتن وفيه: حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنتظرون تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً، مرتين أو ثلاثاً حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها، فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه، إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه... الحديث.(١) وقد نقل الحديث في مواضع من الصحيحين بتلخيص. ورواه أحمد في مسنده.(٢) تحليل الحديث إن هذا الحديث مهما كثرت رواته، وتعددت نقلته لا يصح الركون إليه في منطلق الشرع والعقل بوجوه: ١. إنه خبر واحد لا يفيد شيئاً في باب الأصول والعقائد، وإن كان مفيداً في باب الفروع والأحكام، إذ المطلوب في الفروع هو الفعل والعمل، وهو أمر ميسور سواء أذعن العامل بكونه مطابقاً للواقع أم لا، بل يكفي قيام الحجة على لزوم الإتيان به، ولكن المطلوب في العقائد هو الإذعان وعقد القلب ونفى الريب والشك عن وجه الشيء، وهو لا يحصل من خبر الواحد ولا من خبر الاثنين، إلا إذا بلغ إلى حد يورث العلم والإذعان، وهو غير حاصل بنقل شخص أو شخصين. _____ ١. صحيح مسلم: ١/١١٥، باب معرفة طريق الرؤية. ٢. مسند أحمد بن حنبل: ٢/٣٦٨.

(٢٢٥)

٢. إن الحديث مخالف للقرآن الكريم، حيث ثبت لله صفات الجسم ولوازم الجسمانية كما سيوافيك بيانه عن السيد الجليل شرف الدين - رحمه الله - . ٣. ماذا يريد الراوى في قوله: «فيأتى الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم»؟ فكأن الله سبحانه صوراً متعدّدة يعرفون بعضها، وينكرون البعض الآخر، وما ندرى متى عرفوا التي عرفوها، فهل كان ذلك منهم في الدنيا، أو كان في البرزخ أم في الآخرة؟ ٤. ماذا يريد الراوى من قوله: «فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه...»؟ فإن معناه أن المؤمنين والمنافقين يعرفونه سبحانه بساقه، فكانت هي الآية الدالة عليه. ٥. كفى في ضعف الحديث ما علق عليه العلامة السيد شرف الدين - رحمه الله - حيث قال: إن الحديث ظاهر في أن الله تعالى جسماً ذا صورة مركبة تعرض عليها الحوادث من التحول والتغير، وأنه سبحانه ذو حركة وانتقال، يأتى هذه الأمة يوم حشرها، وفيها مؤمنوها ومنافقوها، فيرونه بأجمعهم ماثلاً لهم في صورة غير الصورة التي كانوا يعرفونها من ذى قبل. فيقول لهم: أنا ربكم، فينكرونه متعوذين بالله منه، ثم يأتهم مرة ثانية في الصورة التي يعرفون. فيقول لهم: أنا ربكم، فيقول المؤمنون والمنافقون جميعاً: نعم، أنت ربنا وإنما عرفوه بالساق، إذ كشف لهم عنها، فكانت هي آيته الدالة عليه، فيتسنّى حينئذ السجود للمؤمنين منهم، دون المنافقين، وحين يرفعون رؤوسهم يرون الله ماثلاً فوقهم بصورته التي يعرفون لا يمارون فيه، كما كانوا في الدنيا لا يمارون في الشمس والقمر، ماثلين فوقهم بجرميتهما النيرين ليس دونهما سحب، وإذ به، بعد هذا يضحك ويعجب من غير معجب، كما هو يأتى ويذهب، إلى آخر ما اشتمل عليه الحديثان مِمَّا لا يجوز على الله تعالى، ولا على رسوله، بإجماع أهل التنزيه من أشاعرة وغيرهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.(١) _____ ١. كلمته حول الرؤية: ٦٥، وهي رسالة قيمة في تلك المسألة، وقد مشينا على ضوئها - رحم الله مؤلفها رحمة واسعة - .

(٢٢٦)

إن أحمد بن حنبل احتج في مجلس المعتصم بحديث جرير، فقال المعتصم للقاضي أحمد بن أبي داود: «ما تقول في هذا؟» فقال

القاضي: إنه يحتج بحديث جرير، وإنما رواه عنه قيس بن حازم، وهو أعرابي بوال على عقيبه. (١) استدلال المنكرين بالعقل استدلال المنكرون بوجوه عقلية: الأول: إن الرؤية البصرية لا تقع إلا أن يكون المرئي في جهة ومكان، ومسافة خاصة بينه وبين رأيه، أن يكون مقابلاً لعين الرائي، وكل ذلك ممتنع على الله سبحانه، والقول بحصول الرؤية بلا هذه الشرائط أشبه بتمنى المحال. الثاني: إن الرؤية إما أن تقع على الله كله فيكون مركباً محدوداً متناهياً محصوراً، وإما أن تقع على بعضه فيكون مبعصاً مركباً، وكل ذلك مملاً لا يلتزم به أهل التنزيه. الثالث: إن كل مرئي بجارحة العين يشار إليه بحدقتها، وأهل التنزيه كالأشاعرة وغيرهم ينزهونه سبحانه عن الإشارة إليه بإصبع أو غيره. الرابع: إن الرؤية بالعين الباصرة لا تتحقق إلا بوقوع النور على المرئي وانعكاسه منه إلى العين، والله سبحانه منزه عن كل ذلك. وإلى هذا الدليل يشير الإمام الهادي أبو الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام فيما رواه الكليني عن أحمد بن إدريس، عن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث - عليه السلام - أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس. فكتب: «لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية». (٢) _____ ١. مناقب أحمد: ١/٣٩١. ٢. الكافي: ١/٩٧، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية، الحديث ٤.

(٢٢٧)

ومراده من الهواء هو الأثير الحامل للنور ونحوه. الاستدلال بالكتاب

استدل على امتناع رؤيته سبحانه بآيات: الآية الأولى: قوله سبحانه: (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ). (١) الإدراك مفهوم عام لا يتعين في البصرى أو السمعى أو العقلى، لإيضافته إلى الحاسية التي يراد الإدراك بها، فالإدراك بالبصر يراد منه الرؤية بالعين، والإدراك بالسمع يراد منه السماع، ولأجل ذلك لو قال قائل: أدركته ببصرى وما رأيته، أو قال: رأيته وما أدركته ببصرى يعدّ متناقضاً، والآية بصدد بيان علوه، وأنه تعالى تفرّد بهذا الوصف، وهو أنه يرى ولا يرى، كما تفرّد سبحانه بأنه يطعم ويجير، ولا يطعم ولا يجار عليه، قال سبحانه: (قُلْ أَعْيَّرَ اللَّهُ أُمَّتِي وَأَنَا لَكَ مِنَ الْأَعْيَارِ وَكَانَ اللَّهُ جَاهِلًا بِمَا يُكْفَرُونَ). (٢) وقال سبحانه: (قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْ لِمَنْ يَشَاءُ رِزْقًا وَسَعَةً وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْ لِمَنْ يَشَاءُ رِزْقًا ضَعِيفًا). (٣) وإن شئت قلت: إن الأشياء في مقام التصور على أصناف: ١. ما يرى ويرى (بالضم) كالإنسان. ٢. ما لا يرى ولا يرى كالأعراض النسبية، أى: كيف والكم. ٣. ما يرى ولا يرى كالجمادات. _____ ١. الأنعام: ١٠٢، ١٠٣. ٢. الأنعام: ١٤. ٣. المؤمنون: ٨٨.

(٢٢٨)

٤. ما يرى ولا يُخرى، وهذا القسم تفرّد به سبحانه، وأنه تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وبعبارة أخرى: إنه سبحانه لما قال: (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) ربما يتبادر إلى بعض الأذهان أنه إذا صار وكيلاً على كل شيء، يكون جسمًا قائماً بتدبير الأمور الجسمانية، فدفعه بأنه سبحانه مع كونه وكيلاً لكل شيء (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) ولما يتبادر من ذلك الوصف، إلى بعض الأذهان أنه إذا تعالى عن تعلق الأبصار فقد خرج عن حیطة الحس، وبطل الاتصال الوجودى الذى هو مناط الإدراك والعلم بينه وبين مخلوقاته، دفعه بقوله: (وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) ثم علل بقوله: (وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)، واللطيف وهو الرقيق النافذ فى الشيء والخبير من له الخبرة الكاملة، فإذا كان تعالى محيطاً بكل شيء لرقته ونفوذه فى الأشياء، كان شاهداً على كل شيء، لا يفقده ظاهر كل شيء وباطنه، ومع ذلك فهو عالم بظواهر الأشياء وبواطنه، من غير أن يشغله شيء عن شيء، أو يحتجب عنه شيء بشيء. (١) ومن عجيب التأويل: قول الأشعري: إن قوله سبحانه: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ): تأويله الصحيح: إنما أن الأبصار لا تدركه تعالى فى الدنيا ولكن تدركه فى الآخرة. وإما أن أبصار الكافرين لا تدركه. (٢) ولا يخفى أنه تأويل لا- شاهد له، وهو يهاجم المعتزلة بنظير هذه التأويلات، وقد ارتكبه هو فى الذب عن مذهبه. وحسبك فى توضيح الآية ما ذكره الإمام الطاهر على بن موسى الرضا - عليه السلام - فى تفسير الآية، روى العياشى فى تفسيره عن الأشعث بن حاتم قال: قال ذو الرئاستين: قلت لأبى الحسن الرضا - عليه السلام - جعلت _____ ١.

الميزان: ٧/٣٠٨ بتلخيص. ٢. الإبانة: ١٧.

(٢٢٩)

فداك، أخبرني عما اختلف فيه الناس من الرؤية، فقال بعضهم: لا يرى. فقال: يا أبا العباس من وصف الله بخلاف ما وصف به نفسه، فقد أعظم الفرية على الله، قال الله: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير). (١) وهناك حديث آخر عن الإمام الطاهر على بن موسى الرضا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال أبو قره للإمام الرضا - عليه السلام - : إنا رؤينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى - عليه السلام - الكلام، ولمحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الرؤية؟ فقال أبو الحسن - عليه السلام - : فمن المبلغ عن الله عز وجل إلى الثقلين: الجن والإنس: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، و(ولا يحيطون به علماً)، و(ليس كمثله شيء) أليس محمداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -؟ قال: بلى. قال: فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)، و(ولا يحيطون به علماً)، و(ليس كمثله شيء) ثم يقول: أنا رأيت به بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر، أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا: أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر. (٢) كلام الرازي حول الآية

وإن تعجب فعجب قول الرازي: «إن أصحابنا (الأشاعرة) احتجوا بهذه الآية على أنه يجوز رؤيته، والمؤمنون يرونه في الآخرة» فإن الآية لو لم تدل على مقالة المنكر، لا تدل على مقالة المثبت، ولما كان موقف الرازي في المقام موقف المفسر الذي اتخذ لنفسه عقيدة وفكرة، حاول أن يثبت دلالة الآية على ما يرضيه بوجهه عليه، وإليك تلك الوجوه: ١. تفسير العياشي: ١/٣٧٣ الحديث ٧٩. ٢. التوحيد للصدوق: ١١٠-١١١، الحديث ٩، وقد استدلل الإمام عليه السلام بعدة آيات على امتناع رؤيته، وسيوافيك بيان دلالتها.

(٢٣٠)

(الأول): أن الآية في مقام المدح، فلو لم يكن جائز الرؤية لما حصل التمذح بقوله: (لا تدركه الأبصار) ألا ترى أن المعدوم لا تصح رؤيته، والعلوم والقدرة والإرادة والروائح والطعوم، لا تصح رؤية شيء منها، ولا مدح شيء منها في كونها لا تدركها الأبصار، فثبت أن قوله: (لا تدركه الأبصار) يفيد المدح، ولا يصح إلا إذا صحت الرؤية. يلاحظ عليه: أولاً: لو كان المدح دليلاً على إمكان الرؤية فليكن المدح في الآية التالية دليلاً على إمكان ما ذكر فيها، قال سبحانه: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا). (١) فلو دل سلب شيء عن شيء على إمكان ثبوته له، لدلت الآية على جواز اتخاذه الولد والشريك، مما يعد مستحيلًا في نفسه عليه تعالى. وثانياً: أن المدح ليس بالجزء الأول وهو (لا تدركه الأبصار) بل بمجموع الجزئين المذكورين في الآية، والله سبحانه جلت عظمتة - يدرك، ولكن لعلو شأنه، ومقامه لا يدرك. (الثاني): أن لفظ الأبصار، صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد الاستغراق بمعنى أنه لا يدركه جميع الأبصار، وهذا يفيد سلب العموم ولا يفيد عموم السلب. يلاحظ عليه: أن المتبادر في المقام هو الثاني لا الأول، وأى عبارة أصرح من الآية في الدلالة على أنه لا يدركه أحد من جميع ذوى الأبصار من مخلوقاته، وأنه تعالى يدركهم، وهذا هو المفهوم من نظائره. قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (٢)، و قال سبحانه: (فَإِنَّ) ١. الإسراء: ١١١. ٢. البقرة: ١٩٠.

(٢٣١) (اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) (١)، (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (٢).

قال الإمام علي - عليه السلام - : «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن». (٣) فهل يحتمل الرازي أن المراد من هذه الجمل سلب العموم وأن بعض القائلين والعادين والمجتهدين يبلغ مدحته، ويحصى نعماءه، ويؤدي حقه؟ (الثالث): أن الله تعالى لا يرى بالعين وإنما يرى بحاسة سادسة، يخلقها الله تعالى يوم القيامة لما دلت عليه الآية (لا تدركه الأبصار)، لتخصيص نفى إدراك الله، بالبصر، وتخصيص الحكم بالشئ

يدل على أن الحال في غيره بخلافه، فوجب أن يكون إدراك الله بغير البصر جائزاً، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك، ثبت أن الله تعالى يخلق حاسة سادسة فينا تحصل رؤية الله بها. يلاحظ عليه: أولاً: أن محور البحث رؤية الله بالعيون والأبصار لا بحاسة سادسة، فما ذكره خروج من محل البحث والأشاعرة تبعاً لإمامهم، يقولون برؤية الله سبحانه في الآخرة بهذه العيون كفلق القمر، وتفسير الرؤية بخلق حاسة سادسة، رجم بالغيب. ثانياً: كيف رضى الإمام بأن مفهوم قوله: (لا تدركه الأبصار) أنه يدرك بغير الأبصار، فحاول التفتيش عن الحاسة التي يدرك بها يوم القيامة، فهدها التدبر إلى القول بأنه يدرك بحاسة سادسة، فهل يقول به في نظائره؟ إذا قال قائل: «ما رأيت بعيني» و«ما سمعت بأذني»، فهل معناهما أنه رآه بغير عينه أو سمعه بغير أذنه؟ _____ ١. آل عمران: ٣٢. ٢. آل عمران: ٥٧. ٣. نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

(٢٣٢)

هذا ولو سمح لي أدب البحث والنقد، لقلت بأن ما ذكره الرازي أشبه بالمهزلة، وليست محاولته هذه إلا أنه بصدد إصلاح ما اتخذه من موقف مسبق في هذا المجال. وإلا فالرازي ينبغي أن يترفع عن مثل هذا الكلام. ولأجل ذلك ضربنا عن الوجه الرابع صفاً، لكونه في الوهن مثل الثالث (١)، بل أوهن منه. الآية الثانية: قوله سبحانه: (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا). (٢) إن الرؤية سواء أوقعت على الكل أم على الجزء، نوع إحاطة به سبحانه عنها. والآية في كيفية البيان نظير الآية السابقة، وتختلفان في تقدم الإيجاب وتأخر السلب هنا، عكس الآية السابقة. فقوله: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) نظير قوله: (وهو يدرك الأبصار). وقوله: (ولا يحيطون به علماً) نظير قوله: (لا تدركه الأبصار). والضمير في (ولا يحيطون به) يرجع إلى الله. واحتمل الرازي لأجل الفرار من دلالة الآية على امتناع رؤيته سبحانه رجوع الضمير إلى (ما بين أيديهم و ما خلفهم) أي لا يحيط العباد بما فيهما. وهو تأويل لأجل تثبيت موقف مسبق، لأن عدم علم العباد بما فيهما، أمر واضح لا حاجة لذكره هنا بلا موجب، وإنما المناسب هو ذكر إحاطته سبحانه بعباده، وعدم إحاطتهم به، فالآية تصف علمه تعالى بهم في موقف الآخرة، وهو (ما بين أيديهم)، وقبل أن يحضروا الموقف في الدنيا وهو (وما خلفهم)، فهم محاطون بعلمه، ولا يحيطون به علماً فيجزئهم بما فعلوا، وقد عرفت أن الرؤية نوع إحاطة. _____ ١. راجع للوقوف على هذه الوجوه تفسير الرازي: ١١٨/٤-١١٩. ٢. طه: ١٠٩-١١٠.

(٢٣٣)

الآية الثالثة: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارئِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّيْلَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ). (١) إذا كان جزاء اتخاذ العجل معبوداً هو قتل الأنفس، كان جزاء الطالبين رؤية الله تعالى جهرة هو الأخذ بالصاعقة. وهذا يدل على أن الجرمين من باب واحد. فكما أن عبدة العجل جسّدوا الإله في العجل فطلبه الرؤية والمصرّون عليها، صوّروه جسماً أو عرضاً قابلاً للرؤية، فكلتا الطائفتين ظلموا ربهم ونزلوا الإله المتعالى عن الكيف والتشبيه والتجسيم والتجسيد - حسب زعمهم - إلى حضيض الأجسام والماديات والصور والأعراض، فاستحقوا جزاءً واحداً، وهو أخذهم من أديم الأرض بقتل أنفسهم، أو حرقهم بالصاعقة. وإن شئت قلت: إن التماس الرؤية لو كان التماس أمر ممكن، لم يكن في سؤالهم بأس أبداً، فإما أن تجاب دعوتهم أو ترد، ولا يصح إحراقهم بالصاعقة كما في سؤالهم الآخر. (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِيْلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ). (٢) الآية الرابعة: إنه سبحانه ما ذكر سؤال الرؤية إلا استعظمه، وما نوه به إلا استفظعه، ولو كانت الرؤية أمراً جائزاً وشيئاً ممكناً، لما كان لهذا الاستعظام وجه، وكان سؤالهم لها مثل سؤال الأعم أنبياءهم بأنهم لا يؤمنون إلا - أن يحيى الموتى، أو غير ذلك، من دون الاستعظام والاستفظاع. وإليك هذه الآيات: ١. (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا _____ ١

البقرة: ٥٤-٥٥. ٢. البقرة: ٤١.

(٢٣٤) موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً. (١)

فسمى سبحانه نفس السؤال ظلماً وعدواناً، ويكفي في الاستعظام قوله (فقد سألو موسى أكبر من ذلك) وقوله (ثم اتخذوا العجل) فكان السؤال واتخاذ العجل من باب واحد. ٢. (وقال الذين لا يزجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً). (٢) ٣. (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون). (٣). (٤) فلو كانت الرؤية جائزة وهي عند مجوزيها من أعظم الجزاء، لم يكن التماسها عتواً، لأن من سأل تعالى نعمة في الدنيا لم يكن عاتياً، وجرى مجرى ما يقال: لن نؤمن لك حتى يحيى الله بدعائك هذا الميت. وباختصار: إن هذا الاستعظام والاستفظاع لا يناسب كونه أمراً ممكناً ونعمة من نعمه سبحانه يكرم عباده بها في الآخرة. الرازي والاستدلال بهذه الآيات

قد اتخذ الرازي في تفسير الآيات موقف المجادل الذي لا يهمله سوى الدفاع عن فكرته، أو موقف الغريق الذي يتشبث بكل حشيش وإن كان يعلم أنه لا يجديه. وإن كنت في ريب مما ذكرنا فاستمع لما نتلوه عليك منه وهو بصدد رد الاستدلال بهذه الآيات من عد السؤال أمراً منكرًا: ١. النساء: ١٥٣. ٢. الفرقان: ٢١. ٣. البقرة: ٥٥. ٤. وقد مرّت الآية في الحجة الثالثة، ولكن كيفية الاستدلال في المقام تختلف عن ما تقدم.

(٢٣٥)

١. إن رؤية الله لا تحصل إلا في الآخرة، فكان طلبها في الدنيا أمراً منكرًا. يلاحظ عليه: أنه سبحانه يصف طلب الرؤية في الآيات السابقة بالظلم تارة والاستكبار ثانية، والعتو الكبير ثالثة، وإيجابه العذاب ونزول الصاعقة رابعة. فهل هذا أنسب مع طلب الأمر المحال، أو أنسب مع طلب الأمر الممكن غير الواقع لمصلحة؟ فهل الظلم (التعدى عن الحدود) والاستكبار والعتو، يناسب تطّلعهم إلى أمر عظيم رفيع، وهؤلاء أقصر منه وتناسيهم أين التواب ورب الأرباب، أو أنه يناسب سؤالهم شيئاً ليس خارجاً عن مستواهم، غير أن المصلحة أوجبت حرمانهم، لا شك أن الأمور الأربعة التي تحكى عن تكون جرم كثير وعصيان فظيع، إنما هي تناسب الأمر الأوّل لا الثانى. والذى يكشف عن ذلك أنه سبحانه عدّ طلب الرؤية من موسى أكبر من سؤال أهل الكتاب من النبي الأكرم تنزيل كتاب عليهم من السماء وقال: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) (١). وليس وجه كون الثانى أكبر من الأوّل سوى كونه أمراً محالاً دون الآخر، وإن كان غير واقع. ٢. إن حكم الله تعالى أن يزيل التكليف عن العبد حال ما يرى الله، فكان طلب الرؤية طلباً لإزالة التكليف، والرؤية تتضمن العلم الضروري وهو ينافى التكليف. يلاحظ عليه: أنه من أين وقف الرازي على أن رؤية الله سبحانه في الدنيا لحظة أو لحظات توجب إزالة التكليف؟ فهل ورد ذلك في الكتاب أو السنة، أو أنه من نتاج ذهنه وفكرته؟ ثم إن مزيل التكليف هو حصول غايات التكليف وأهدافه. وليست ١. النساء: ١٥٣.

(٢٣٦)

الغاية من التكليف إلا التكامل الروحى، والانسلاخ من المادة والماديات، والانسلاخ في عداد الروحانيين وليس هذا ممّا يحصل بوقوع البصر على ذاته لحظة أو لحظات، إلا أن تحولهم الرؤية إلى إنسان مثالى قد أتم كمالته، وهل هذا يحصل بصرف الرؤية؟ لا أدرى، ولا المنجم يدرى، ولا الرازي يدرى. وأقصى ما يعطيه النظر بالأبصار، هو الإذعان وحصول العلم الضروري بوجوده سبحانه عن طريق الحس، وأين هذا من إنسان مثالى صار بالعبادة والطاعة مثلاً لأسمائه، ومجالى لصفاته، وترفع عن حضيض المادية، متوجهاً إلى عالم التجرد. ٣. إنه لما تمت الدلائل على صدق المدعى، كان طلب الدلائل الأخرى تعنتاً، والتعنت يستوجب التعنيف. يلاحظ عليه: أن بنى إسرائيل أمة معروفة بالجدل والعدا، وكانت حياتهم مملوءة بالتعنت. فلماذا لم تأخذهم الصاعقة إلا في هذا المورد؟ وهذا يكشف عن كون التعنت في المورد ذا خصوصية، وليست هي إلا لأجل إصرارهم على الرؤية عن طريق التكبر والعتو، على تحقّق أمر

مجال. ٤. لا- يمنع أن يعلم الله أن في منع الخلق عن رؤيته في الدنيا ضرباً من المصلحة المهمة، فلذلك استنكر طلب الرؤية في الدنيا. (١) يلاحظ عليه: إذا كانت الرؤية أمراً ممكناً وجزءاً للمؤمنين في الآخرة، وقد اقتضت المصلحة منعها عن الخلق في الدنيا، فما معنى هذا التفريع والاستنكار والاستفطاع؟ فهل طلب شيء خال عن المصلحة، يوجب نزول الصاعقة والإحراق بالنار؟ لم تكن هذه المحاولات الفاشلة صادرة عن الرازي لتبني الحق والبخوع ————— ١. راجع تفسير الرازي: ١/٣٦٩، ط مصر في ثمانية أجزاء.

(٢٣٧)

للحقيقة، وإنما هو نوع تعنت في مقابل أدلة المحققين في باب الرؤية. ونعم الحكم الله. الآية الخامسة: قوله سبحانه: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَيْحًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ). (١) وقد تعرفت على كيفية الاستدلال بالآية عند سرد أدلة المثبتين ونقدها، فلا- حاجة للتكرار. ولكن نشير إلى بعض الأهواء الساقطة للرازي في الاستدلال بها: ١. لو كانت الرؤية ممتعة فلماذا طلبها موسى؟ وقد تعرفت على الإجابة عنه فلا نعيد. ٢. لو كانت رؤيته مستحيلة لقال لا أرى (بصيغة المجهول). ألا ترى أنه لو كان في يد رجل حجر. فقال له إنسان: ناولني هذا لآكله، فإنه يقول له: هذا لا يؤكل، ولا يقول له لا تأكل، ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة، لقال له «لا تأكله» أي هذا مما يؤكل ولكن لا تأكله. فلما قال تعالى «لن تراني» ولم يقل لا أرى علمنا أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جازر الرؤية. يلاحظ عليه: أن الإجابة بـ«لن تراني» مكان «لا أرى» لأجل حفظ المطابقة بين السؤال والجواب، فلمّا كان السؤال بـ«أرني» وافاه الجواب بـ«لن تراني» وحين سمع القوم إنكاره سبحانه عليه مع نبوته، علموا أنهم أولى به. وأن رؤيته تعالى شيء غير ممكن، ولو جازت لبيته. فأى قصور في دلالة الآية على الامتناع حتى يبدل الجواب بـ«لا أرى». ————— ١ . الأعراف: ١٤٣.

(٢٣٨)

٣. إنه سبحانه علّق رؤيته على أمر ممكن جائز، والمعلّق على الجائز، جائز فينتج أن الرؤية في نفسها جائزة. وقد تعرفت على الإجابة عنه. ٤. إن تجلّيه سبحانه للجبل هو رؤية الجبل لله، وهو لما رآه سبحانه اندكت أجزاءه، فإذا كان الأمر كذلك، ثبت أنه تعالى جائز الرؤية. أقصى ما في الباب أن يقال: الجبل جماد، والجماد يمتنع أن يرى شيئاً، إلا أنا نقول: لا يمتنع أن يقال: إنه تعالى خلق في ذلك الجبل الحياة والعقل والفهم ثم خلق فيه الرؤية متعلقة بذات الله. (١) يلاحظ عليه: أن ما ذكره من رؤية الجبل إياه سبحانه، مع الحياة والعقل والفهم، شيء نسجته فكرته، وليس في نفس الآية أي دليل عليه، والحافز إلى هذه الحياكة، هو الدفاع عن الموقف المسبق والعقيدة التي ورثها، فإن ظاهر الآية أن الجبل لم يتحمل تجلّيه سبحانه فدك وذاب، وبطلت هويته، لا أنه رآه وشاهده، وقد عرفت أن التجلّي كما يكون بالذات، يكون بالفعل أيضاً، ولو كان الجبل لائقاً بهذه الفضيلة الراهية، فنبهه أولى بها، وفي قدرته سبحانه أن يريه ذاته، مع حفظه عمّا ترتّب على الجبل من الاندكاك، فالنتيجة أن العالم بأسره لا يتحمل تجلّيه سبحانه، بفعل أو بوصف من أوصافه، أو باسم من أسمائه. استدلال المنكرين بالسنة

لقد عرفت هدى القرآن وقضاه في الرؤية. وهناك روايات متضاربة عن طريق أهل البيت والعترة الطاهرة الذين جعلهم الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلّم - أعدال الكتاب وقرناءه، فقال - صلّى الله عليه وآله وسلّم - : «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله عزّ وجلّ حبل ممدود ————— ١. تفسير الرازي: ٤/٢٩٢-٢٩٥، ط مصر في ثمانية أجزاء، وقد جعل كلّ واحد من هذه الأمور حجّة على جواز الرؤية، وقد نقلناه ملخصاً.

(٢٣٩)

من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما». (١) ومن يرجع إلى

خطب الإمام - عليه السلام - في التوحيد، وما أثر من أئمة العترة الطاهرة، يقف على أن مذهبهم في ذلك هو امتناع الرؤية، وأنه لا تدركه أو هام القلوب، فكيف أبصار العيون. وإليك النزر اليسير في ذلك الباب: ١. قال الإمام في خطبة الأشباح: «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد، فيكون شيء بعده، والرادع أناسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه». (٢) ٢. وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال - عليه السلام - : «أعبد ما لا أرى؟!». فقال: وكيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملابس، بعيد عنها غير مباين». (٣) ٣. وقال - عليه السلام - : «الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر». (٤) إلى غير ذلك من خطبه - عليه السلام - الطافحة بتقديسه وتنزيهه عن إحاطة الأبصار والقلوب به. (٥) وأما المروى عن سائر أئمة أهل البيت فقد عقد ثقة الإسلام الكليني في _____ ١. مسند أحمد: ٣/٢٦، وقريب منه ما رواه غيره. ٢. نهج البلاغة: (الخطبة: ٨٧) ط مصر للإمام عبده. «أناسي»: جمع إنسان البصر: هو ما يرى وسط الحدقة ممتازاً عنها في لونها. ٣. نهج البلاغة: الخطبة: ١٧٤. ٤. نهج البلاغة: الخطبة: ١٨٠. ٥. لاحظ الخطب: ٤٨ و ٨١ و....

(٢٤٠)

كتاب «الكافي»، باباً خاصاً للموضوع روى فيه ثمانى روايات. (١) كما عقد الصدوق في كتاب التوحيد باباً لذلك روى فيه إحدى وعشرين رواية، فيها نور القلوب وشفاء الصدور. (٢) ومن أراد الوقوف فليرجع إلى تلك الجوامع الحديثية. _____ ١. الكافي: ١/٩٥، باب إبطال الرؤية. ٢. التوحيد: ١٠٧-١٢٢، الباب ٨.

(٢٤١)

كلام الله سبحانه هو الكلام النفسى

كلام الله سبحانه هو الكلام النفسى

أجمع المسلمون تبعاً للكتاب والسنة على كونه سبحانه متكلاً، ويبدو أن البحث في كلامه سبحانه أول مسألة طرحت على بساط المناقشات في تاريخ علم الكلام، وإن لم يكن ذلك أمراً قطعياً بل ثبت خلافه، وقد شغلت تلك المسألة بالعلماء والمفكرين الإسلاميين في عصر الخلفاء، وحدثت بسببه مشاجرات، بل مصادمات دامية ذكرها التاريخ وسجل تفاصيلها، وخاصة في قضية ما يسمى بـ«محنة خلق القرآن» وكان الخلفاء هم الذين يروجون البحث عن هذه المسألة ونظائرها حتى ينصرف المفكرون عن نقد أفعالهم وانحرافاتهم، هذا من جانب. ومن جانب آخر، إن الفتوحات الإسلامية أوجبت الاختلاط بين المسلمين وغيرهم، وصار ذلك مبدءاً لاحتكاك الثقافتين - الإسلامية والأجنبية - وفي هذا الجو المشحون بتضارب الأفكار، طرحت مسألة تكلمه سبحانه في الأوساط الإسلامية، وأوجدت ضجة كبيرة في المجامع العلمية، خصوصاً في عصر المأمون و من بعده، وأريققت في هذا السبيل دماء الأبرياء، ولما لم تكن هذه المسألة مطروحة في العصور السابقة بين المسلمين تضاربت الأقوال فيها إلى حد صارت بعض الأقوال والنظريات موهونة جداً كما سيوافيك. ثم إن الاختلاف في كلامه سبحانه واقع في موضعين: الأول: ما هو حقيقة كلامه سبحانه؟ وهل هو من صفات ذاته كالعلم (٢٤٢)

والقدرة والحياة، أو من صفات فعله كالإحياء والإماتة والخلق والرزق إلى غير ذلك من الصفات الفعلية؟ الثانى: هل هو قديم أو حادث، أو هل هو غير مخلوق أو مخلوق؟ والاختلاف في هذا المقام من نتائج الاختلاف في الموضوع الأول. ونحن نطرح رأى الأشاعرة في كلا المقامين. ما هو حقيقة كلامه؟

إنّ في حقيقة كلامه آراء مختلفة ذكرها إجمالاً أولاً، ونركز على البحث عن رأى الأشاعرة ثانياً. ١. نظرية المعتزلة قالت المعتزلة في تعريف كلامه تعالى: إنّ كلامه سبحانه أصوات وحروف ليست قائمة بذاته تعالى، بل يخلقها سبحانه في غيره،

كاللوح المحفوظ، أو جبرائيل، أو النبي، فمعنى كونه متكلماً كونه موجداً للكلام، وليس من شرط الفاعل أن يحل عليه الفعل. (١). ٢. نظرية الحكماء

إنّ كلامه سبحانه لا ينحصر فيما ذكره، بل مجموع العالم الإمكانى كلام الله سبحانه، يتكلم به، بإيجاده وإنشائه، فيظهر المكنون من كمال أسمائه وصفاته. (٢) فعلى تينك النظريتين، يكون تكلمه سبحانه من أوصاف فعله، لا من صفات ذاته، خلافاً للنظريتين الآتيتين. ٣. نظرية الحنابلة

كلامه حرف وصوت يقومان بذاته، وأنه قديم، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً: إنّ الجلد والغلاف قديمان. (٣) _____ ١. شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، المتوفى عام ٤١٥هـ. ٢. شرح المنظومة: ١٧٩، وللحكماء نظرية أخرى في كلامه سبحانه تطلب من محلها. ١. المواقف: ٢٩٣. (٢٤٣) ٤. نظرية الأشاعرة

إنّ مسلك الأشاعرة هو مسلك الحنابلة، لكن بصورة معدلة نزيهة عما لا يقبله العقل السليم. فذهب أبو الحسن الأشعري إلى كونه من صفات الذات، لا بالمعنى السخيف الذى تتبناه الحنابلة، بل بمعنى آخر، وهو القول بالكلام النفسى القائم بذات المتكلم. وهذه النظرية مع اشتهاؤها من الشيخ أبى الحسن الأشعري، لم نجد لها فى «الإبانه» و«اللمع» وإنما ركز فيهما على البحث عن المسألة الثانية، وهى أنّ كلامه سبحانه غير مخلوق، ولم يبحث عن حقيقة كلامه، ومع ذلك فقد نقلها عنه الشهرستاني وقال: وصار أبو الحسن الأشعري إلى أنّ الكلام معنى قائم بالنفس الإنسانية، وبذات المتكلم، وليس بحروف ولا- أصوات، وإنما هو القول الذى يجده القائل فى نفسه ويجيله فى خلدته، وفى تسمية الحروف التى فى اللسان كلاماً حقيقياً تردّد، أهو على سبيل الحقيقة أم على طريق المجاز؟ وإن كان على طريق الحقيقة فإطلاق اسم الكلام عليه وعلى النطق النفسى بالاشتراك. (١) وقال الأمدى: ذهب أهل الحقّ من الإسلاميين إلى كون البارئ تعالى متكلماً بكلام قديم أزلى نفسانى، أحدى الذات، ليس بحروف ولا- أصوات وهو - مع ذلك - ينقسم بانقسام المتعلقة، مغاير للعلم والإرادة وغير ذلك من الصفات. (٢) وقال العضدى: - بعد نقل نظرية المعتزلة - وهذا لا ننكره، لكننا ثبتت أمراً وراء ذلك، وهو المعنى القائم بالنفس، ونزعم أنّه غير العبارات، إذ قد _____ ١. نهاية الإقدام: ٣٢٠. ٢. غايه المرام: ٨٨. (٢٤٤)

تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام، بل قد يدلّ عليه بالإشارة والكتابة كما يدلّ عليه بالعبارة - إلى أن قال -: وإنّه غير العلم، إذ قد يخبر الرجل عمّا لا يعلمه بل هو يعلم خلافه أو يشكّ فيه، وغير الإرادة، لأنّه قد يأمر بما لا يريد كالمختبر لعبده هل يطيعه أم لا، فإذا هو صفة ثالثه غير العلم والإرادة، قائمة بالنفس، ثمّ نزع أنّه قديم لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى - إلى أن قال -: الأدلة الدالة على حدوث الألفاظ إنّما تفيدهم بالنسبة إلى الحنابلة، وأمّا بالنسبة إلينا فيكون نصّاً للدليل فى غير محلّ النزاع. وأمّا ما دلّ على حدوث القرآن مطلقاً، فحيث يمكن حمله على حدوث الألفاظ، لا يكون لهم فيه حجّة علينا، ولا يجدى عليهم إلاّ أن يبرهنوا على عدم المعنى الزائد على العلم والإرادة. (١) فقد أحسن العضدى وأنصف. وستوافيك البرهنة على أنّ ما يسمونه كلاماً نفسياً أمر صحيح، لكنّه ليس خارجاً عن إطار العلم والإرادة، وليس وصفاً ثالثاً وراءهما. ثمّ إنّ الشهرستاني قد قام بتبيين المقصود من الكلام النفسانى فى كلام مبسوط. وبما أنّ الكلام النفسى قد أحاط به الإجمال والإبهام، فأتى بنصّ كلامه، وإن كان لا يخلو عن تعقيد فى الإنشاء، حتّى يتبين المقصود منه قال: العاقل إذا راجع نفسه وطالع ذهنه وجد من نفسه كلاماً وقولاً يجول فى قلبه، تارة إخباراً عن أمور رآها على هيئة وجودها أو سمعها من مبتدأها إلى منتهاها على وفق ثبوتها، وتارة حديثاً مع نفسه بأمر ونهى ووعد ووعد لأشخاص على تقدير وجودهم ومشاهدتهم، ثمّ يعبر عن تلك الأحاديث وقت المشاهدة، وتارة نطقاً عقلياً إمّا بجزم القول أنّ الحقّ والصدق كذا، وإمّا بترديد الفكر أنّه هل يجوز أن يكون الشئ كذا أو استحيل أو يجب، إلى غير ذلك من الأفكار حتّى أن كلّ صانع يحدث نفسه أولاً بالعرض الذى توجهت _____ ١. المواقف: ٢٩٤.

إليه صنعه، ثم تنطق نفسه في حال الفعل محادثة مع الآلات والأدوات والمواد والعناصر، ومن أنكر أمثال هذه المعاني فقد جحد الضرورة، وباهت العقل، وأنكر الأوائل التي في ذهن الإنسان، وسبيله سبيل السوفسطائية، كيف وإنكاره ذلك مما لم يدر في قلبه ولا جال في ذهنه، ثم لم يعبر عنه بالإنكار ولا أشار إليه بالإقرار، فوجد أن المعنى معلوم بالضرورة وإنما الشك في أنه هو العلم بنفسه أو الإرادة والتقدير والتفكير والتصوير والتدبير، والتمييز بينه وبين العلم هين، إذ العلم تبين محض تابع للمعلوم على ما هو به، وليس فيه إخبار ولا اقتضاء وطلب، ولا استفهام ولا دعاء ولا نداء، وهي أقسام معلومة وقضايا معقولة وراء التبيين، والتمييز بينه وبين الإرادة أسهل وأهون، فإن الإرادة قصد إلى تخصيص الفعل ببعض الجائزات (الممكنات) ولا قصد في هذه القضايا ولا تخصيص، وأما التقدير والتفكير والتدبير فكل ذلك عبارات عن حديث النفس، وهو الذي يعني به من النطق النفساني، ومن العجب أن الإنسان يجوز أن يخلو ذهنه عن كل معنى ولا يجد نفسه قط خاليًا عن حديث النفس حتى في النوم فإنه في الحقيقة يرى في منامه أشياء وتحدث نفسه بالأشياء ولربما يطاوعه لسانه وهو في منامه حتى يتكلم وينطق متابعاً لنفسه فيما يحدث وينطق. (١) نرى أن ما ذكره الأمدى الذي نقلناه آنفاً في تفسير الكلام النفسي وارد في كلمات المتأخرين عنه، كالفاضل القوشجي والفضل بن روزبهان، وإليك نصوصهما: ١. قال الفاضل القوشجي في شرح التجريد: إن من يورد صيغة أمر أو نهى أو نداء أو إخبار أو استخبار أو غير ذلك، يجد في نفسه معاني يعبر عنها، نسميها بالكلام الحسي، والمعنى الذي يجده ويدور في خلده ولا يختلف باختلاف العبارات بحسب الأوضاع والاصطلاحات ويقصد المتكلم حصوله في نفس السامع على موجب، هو الذي نسميه الكلام. (٢) ————— ١. نهاية الإقدام: ٣٢١-٣٢٢. ٢. شرح التجريد للقوشجي: ٤٢٠.

(٢٤٤)

٢. وقال الفضل في نهج الحق: إن الكلام عندهم لفظ مشترك يطلقونه على المؤلف من الحروف المسموعة، وتارة يطلقونه على المعنى القائم بالنفس الذي يعبر عنه بالألفاظ، ويقولون هو الكلام حقيقة، وهو قديم قائم بذاته، ولا بد من إثبات هذا الكلام، فإن العرف لا يفهمون من الكلام إلا المؤلف من الحروف والأصوات فنقول: ليرجع الشخص إلى نفسه أنه إذا أراد التكلم بالكلام فهل يفهم من ذاته أنه يزور ويرتب معاني فيعزم على التكلم بها، كما أن من أراد الدخول على السلطان أو العالم فإنه يرتب في نفسه معاني وأشياء ويقول في نفسه سأتكلم بهذا. فالمنصف يجد من نفسه هذا البتة. فهذا هو الكلام النفسي. ثم نقول - على طريقة الدليل - إن الألفاظ التي نتكلم بها مدلولات قائمة بالنفس، فنقول لهذه المدلولات: هي الكلام النفسي. (١) حصيلة البحث دلت النصوص المذكورة عن أقطاب الأشاعرة على أن في مورد كل كلام صادر من أي متكلم - خالقاً كان أو مخلوقاً - وراء العلم في الجمل الخبرية، ووراء الإرادة والكرهية في الجمل الإنشائية، معاني قائمة بنفس المتكلم، وهو الكلام النفسي، يتبع حدوده وقدمه، حدوث المتكلم وقدمه. وما ذكروا في توضيحه حق لا ينكره أحد، إنما الكلام في إثبات مغايرته للعلم في الجمل الخبرية، وللإرادة في الجمل الإنشائية، وهو غير ثابت، بل الثابت خلافه، وإن المعاني التي تدور في خلد المتكلم ليست إلا تصور المعاني المفردة أو المركبة أو الإذعان بالنسبة، فيرجع ————— ١. نهج الحق المطبوع ضمن دلائل الصدق: ١/١٤٦، ط النجف.

(٢٤٧)

الكلام النفسي في الجمل الخبرية إلى التصورات والتصديقات، فأى شيء هنا وراء العلم حتى نسميه بالكلام النفسي، كما أنه عندما يرتب المتكلم المعاني الإنشائية، فلا يرتب إلا إرادته وكرهته أو ما يكون مقدمه لهما، كتصور الشيء والتصديق بالفائدة، فيرجع الكلام النفسي في الإنشاء إلى الإرادة والكرهية، فأى شيء هنا غيرهما حتى نسميه بالكلام النفسي، وعند ذلك لا يكون التكلم وصفاً وراء العلم في الإخبار، ووراءه مع الإرادة في الإنشاء، مع أن الأشاعرة يصرون على إثبات وصف ذاتي باسم التكلم وراء العلم والإرادة، ولأجل ذلك يقولون: كونه متكلماً بالذات، غير كونه عالماً ومريداً بالذات. والأولى أن نستعرض ما استدلوا به على أن الكلام النفسي وراء العلم، فإليك بيانه: الأول: أن الكلام النفسي غير العلم، لأن الرجل قد يخبر عما لا يعلمه بل يعلم خلافه أو يشك فيه، فالإخبار

عن الشيء غير العلم به. قال السيد الشريف في شرح المواقف: والكلام النفسى فى الإخبار معنى قائم بالنفس لا يتغير بتغير العبارات، وهو غير العلم، إذ قد يخبر الرجل عما لا يعلمه، بل يعلم خلافه، أو يشك فيه. (١) يلاحظ عليه: أن المراد من رجوع كل ما فى الذهن فى ظرف الإخبار إلى العلم، هو الرجوع إلى العلم الجامع بين التصور والتصديق. فالمخبر الشاك أو العالم بالخلاف يتصور الموضوع والمحمول والنسبة الحكيمية ثم يخبر، فما فى ذهنه من هذه التصورات الثلاثة لا يخرج عن إطار العلم، وهو التصور. نعم، ليس فى ذهنه الشك الآخر من العلم وهو التصديق. ومنشأ الاشتباه هو تفسير العلم بالتصديق فقط، فزعموا أنه غير موجود عند الإخبار فى ذهن المخبر الشاك أو العالم بالخلاف، والغفلة عن أن عدم وجود العلم بمعنى التصديق لا يدل على عدم وجود القسم الآخر من العلم وهو التصور. الثانى: ما استدلوا به فى مجال الإنشاء قائلين بأنه يوجد فى ظرف الإنشاء شىء غير الإرادة والكراهة، وهو الكلام النفسى، لأنه قد يأمر الرجل بما لا يريد كالمختبر لعبده هل يطيعه أو لا، فالمقصود هو الاختبار دون الإتيان. (٢) أولاً: إن الأوامر الاختبارية على قسمين: قسم تتعلق الإرادة فيه بنفس المقدمه ولا تتعلق بنفس الفعل، كما فى أمره سبحانه الخليل بذبح إسماعيل. ولأجل ذلك لما أتى الخليل بالمقدمات نودى (أن قد صدقت الرؤيا). _____ ١. شرح المواقف: ٢/٩٤. ٢. شرح المواقف: ٢/٩٤. (٢٤٨)

وقسم تتعلق الإرادة فيه بالمقدمه وذيلها، غاية الأمر، أن الداعى إلى الأمر مصلحه مرتبه على نفس القيام بالفعل، لا على ذات الفعل، كما إذا أمر الأمير أحد وزرائه فى الملأ العام بإحضار الماء لتفهيم الحاضرين بأنه مطيع غير متمرد. وفى هذه الحالة - كالحالة السابقة - لا يخلو المقام عن إرادة، غاية الأمر، أن القسم الأول تتعلق الإرادة فيه بالمقدمه فقط، وهنا بالمقدمه مع ذيلها. فما صح قولهم إنه لا توجد الإرادة فى الأوامر الاختبارية. وثانياً: الظاهر أن المستدل تصور أن إرادة الأمر تتعلق بفعل الغير، أى المأمور، فلأجل ذلك حكم بأنه لا إرادة متعلقه بفعل الغير فى الأوامر الامتحانية، ويستنتج أن فيها شيئاً غير الإرادة، ربما يسمى بالطلب (فى مقابل الإرادة) عندهم أو بالكلام النفسى، ولكن الحق غير ذلك، فإن إرادة الأمر لا تتعلق بفعل الغير مطلقاً، لأن فعله خارج عن إطار اختيار الأمر، وما هو كذلك لا يقع متعلقاً للإرادة، فلأجل ذلك ما اشتهر من «تعلق إرادة الأمر والناهى بفعل المأمور به» كلام صورى، إذ هى لا تتعلق إلا بالفعل الاختيارى، وليس فعل الغير من أفعال الأمر الاختيارية، فلا محيص من القول بأن إرادة الأمر متعلقه بفعل نفسه وهو الأمر والنهى. وإن شئت قلت: إنشاء البعث إلى الفعل أو الزجر عنه، والكلف واقع فى إطار اختيار الأمر ويعدان من أفعاله الاختيارية. نعم، الغايه من البعث والزجر هى انبعث المأمور إلى ما بعث إليه، أو انتهاؤه عما زجر عنه، لعلم المكلف المأمور بأن فى التخلف مضاعفات دنيويه أو أخرويه. وعلى ذلك يكون تعلق إرادة الأمر فى الأوامر الجديده والاختيارية على (٢٤٩)

وزان واحد، وهو تعلق إرادته ببعث المأمور وزجره، لا - فعل المأمور ولا - انزجاره، فإنه غاية للأمر لا مراد له، فالقائل خلط بين متعلق الإرادة، وما هو غاية الأمر والنهى. وباختصار: إن فعل الغير لما كان خارجاً عن اختيار الأمر لا تتعلق به الإرادة. وربما يبدو فى الذهن أن يعترض على ما ذكرنا بأن الأمر إذا كان إنساناً لا تتعلق إرادته بفعل الغير لخروجه عن اختياره، وأما الواجب سبحانه فهو أمر قاهر، وإرادته نافذة فى كل شىء: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا). (١) ولكن الإجابة عن هذا الاعتراض واضحة، فإن المقصود من الإرادة هنا هو الإرادة التشريعية، وأما الإرادة التكوينية القاهرة على العباد المخرجه لهم عن وصف الاختيار، الجاعلة لهم كآله بلا - إرادة، فهى خارجة عن مورد البحث، قال سبحانه: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا) (٢) فهذه الآية تعرب عن عدم تعلق مشيئته سبحانه بإيمان من فى الأرض، ولكن من جانب آخر تعلق مشيئته بإيمان كل مكلف واع، قال سبحانه: (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) (٣) فقوله «الحق» عام، كما أن هدايته السبيل عامه مثله لكل الناس. وقال سبحانه: (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (٤)، إلى غير ذلك من الآيات الناصه على عموم هدايته التشريعية. الثالث: إن العصاة والكفار مكلفون بما كلف به أهل الطاعة والإيمان بنص القرآن الكريم، والتكليف عليهم لا يكون ناشئاً من إرادة الله سبحانه _____ ١. مريم: ٩٣. ٢. يونس: ٩٩. ٣. الأحزاب: ٤. ٤. النساء: ٢٦.

(٢٥٠)

وإلا لزم تفكيك إرادته عن مراده، ولا بد أن يكون هناك منشأ آخر للتكليف وهو الذي نسميه بالكلام النفسى تارة، وبالطلب أخرى. فيستنتج من ذلك أنه يوجد فى الإنشاء شىء غير الإرادة. وقد أجابت عنه المعتزلة بأن إرادته سبحانه لو تعلقت بفعل نفسه فلا تنفك عن المراد، وأما إذا تعلقت بفعل الغير فيما أنها تعلقت بالفعل الاختيارى الصادر من العبد عن حرية واختيار، فلا محالة يكون الفعل مسبوقاً باختيار العبد، فإن أراد واختار العبد يتحقق الفعل، وإن لم يرد فلا يتحقق. والأولى فى الجواب أن يقول: إن المستدل خلط بين الإرادة التكوينية المتعلقة بالإيجاد مباشرة أو تسبباً، فإن إرادته فى ذلك المجال لا تنفك عن المراد، قال سبحانه (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). (١)، وبين الإرادة التشريعية المتجلية بصورة التقنين فى القرآن والحديث فإنها تتعلق بنفس إنشائه وبعثه، وجعله الداعى للانبعاث والانزجار، والمراد فيها (الإنشاء والبعث) غير متخلف عن الإرادة، وأما فعل الغير، أى انبعاث العبد وانتهاءه فهو من غايات الإرادة التقينية لا من متعلقاتها، فتخلفهما عن الإرادة التقينية لا يكون نقضاً للقاعدة، أى امتناع تخلف مراده سبحانه عن إرادته، لما عرفت من أن فعل الغير ليس متعلقاً لإرادته فى ذلك المجال. الرابع: ما ذكره «الفضل بن روزهان» من أن كل عاقل يعلم أن المتكلم من قامت به صفة التكلم، ولو كان معنى كونه سبحانه متكلماً هو خلقه الكلام فلا يقال لخالق الكلام متكلم، كما لا يقال لخالق الذوق إنه ذائق. (٢) يلاحظ عليه: أن قيام المبدأ بالفاعل ليس قسماً واحداً وهو القسم الحلولى، بل له أقسام، فإن القيام منه ما هو صدورى كالقتل والضرب فى القاتل والضارب، ومنه حلولى كالعلم والقدرة فى العالم والقادر، والتكلم ————— ١ .

يس: ٨٢. ٢. دلائل الصدق: ١/١٤٧، طبعه النجف الأشرف.

(٢٥١)

كالضرب ليس من المبادئ الحلولى فى الفاعل، بل من المبادئ الصدورية، فلأجل أنه سبحانه موجد الكلام يطلق عليه أنه متكلم وزان إطلاق الرزاق عليه سبحانه. بل ربما يصح الإطلاق وإن لم يكن المبدأ قائماً بالفاعل أبداً لا صدورياً ولا حلولياً، بل يكفى نوع ملابسة بالمبدأ، كالتمار واللبن والبائع التمر واللبن، وأما عدم إطلاق الذائق على خالق الذوق فلأجل أن صدق المشتقات ياحدى أنواع القيام ليس قياسياً حتى يطلق عليه سبحانه الذائق والشام بسبب إيجاده الذوق والشم، وربما احترز الإلهيون عن توصيفه بهما لأجل الابتعاد عما يوهم التجسيم ولوازمه. الخامس: أن لفظ الكلام كما يطلق على الكلام اللفظى، يطلق على الموجود فى النفس. قال سبحانه: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ). (١) يلاحظ عليه: أن إطلاق «القول» على الموجود فى الضمير من باب العناية المشاكلة، فإن «القول» من التقول باللسان، فلا يطلق على الموجود فى الذهن الذى لا واقعية له، إلا الصورة العلمية، إلا من باب العناية

حصيلة البحث

إن الأشاعرة زعموا أن فى ذهن المتكلم فى الجملة الخبرية والإنشائية وراء التصورات والتصديقات فى الأولى، ووراء الإرادة والكراهة فى الثانية، شيئاً يسمونه بالكلام النفسى، وربما خصوا لفظ «الطلب» بالكلام النفسى فى القسم الإنشائى وبذلك صححوا كونه سبحانه متكلماً، ككونه عالماً وقادراً، وأن الكل من الصفات الذاتية. ولكن البحث والتحليل - كما مر عليك - أوقفنا على خلاف ما ذهبوا إليه، لما عرفت من أنه ليس وراء العلم فى الجمل الخبرية، ولا وراء الإرادة ————— ١ . الملك: ١٣.

(٢٥٢)

والكراهة فى الجمل الإنشائية، شىء نسميه كلاماً نفسياً، كما عرفت أن الطلب أيضاً هو نفس الإرادة. وبذلك نقف على أن ما يقوله المحقق الطوسى من أن «النفسانية غير معقولة» (١) أمر متين لا - غبار عليه. إلى هنا تم بيان النظريات الثلاث للمعتزلة والحكماء والأشاعرة. وبه تم الكلام فى المقام الأول. وحن أوان البحث فى المقام الثانى وهو حدوث كلامه أو قدمه. ————— ١ .

كشف المراد: ١٧٨، ط صيدا.

(٢٥٣)

كلام الله غير مخلوق أو قديم

كلام الله غير مخلوق أو قديم

لقد شاع في أواخر القرن الثاني، كون كلام الله غير مخلوق وقد اعتنقه أهل الحديث وفي مقدمهم إمام الحنابلة، وتحمل في طريق عقيدته هذه ألوان التعذيب، وقد اعتنقوا هذه الفكرة مع الاعتراف بأنه لم يرد فيها نص من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، ولا جاء من الصحابة فيها كلام. وقد تسربت تلك العقيدة مثل القول بالتشبيه والتجسيم إلى المسلمين من اليهودية والنصرانية، حيث قال اليهود بقدم التوراة (١) والنصرانية بقدم الكلمة (المسيح). يقول أبو زهرة: كثر القول حول القرآن الكريم في كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، وقد عمل على إثارة هذه المسألة، النصارى الذين كانوا في حاشية البيت الأموي وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي، الذي كان يبيث بين علماء النصارى في البلاد الإسلامية طرق المناظرات التي تشكك المسلمين في دينهم، وينشر بين المسلمين الأكاذيب عن نبيهم، مثل زعمه عشق النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لزينب بنت جحش، فقد جاء في القرآن أن عيسى بن مريم كلمته ألقاها إلى مريم، فكان يبيث بين المسلمين أن كلمة الله قديمة، فيسألهم أكلمته قديمة أم لا؟ فإن قالوا: لا... فقد قالوا: إن كلامه مخلوق (٢)،

_____ ١. اليهودية: ص ٢٢٢ تأليف أحمد شلبي كما في بحوث مع السلفيين: ١٥٣. ٢. يراد أنه مختلق و مزور.

(٢٥٤)

وإن قالوا: قديمة... ادعى أن عيسى قديم (١) وعلى ذلك وجد من قال إن القرآن مخلوق، ليرد كيد هؤلاء، فقال ذلك الجعد بن درهم، وقاله الجهم بن صفوان، وقالته المعتزلة واعتنق ذلك الرأي المأمون. وقد أعلن في سنة ٢١٢، أن المذهب الحق هو أن القرآن مخلوق، وأخذ يدعو لذلك في مجلس مناظراته، وأدلى في ذلك بما يراه حججاً قاطعة في هذا الموضوع، وقد ترك المناقشة حره، والناس أحراراً فيما يقولون. ولكن في سنة ٢١٨ وهي السنة التي توفي فيها، بدا له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق هذه الفكرة، ومن الغريب أنه ابتداءً بهذا وهو خارج بغداد، وقد خرج مجاهداً فكتب هذه الكتب وهو بمدينة الرقة، وأخذ يرسل الكتب لحمل الناس على اعتناق عقيدة أن القرآن مخلوق، إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم، وقد جاء في بعض كتبه: وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيمن قلده واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه، وخلص توحيد و يقينه، فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك شهادة من لم يقر بأنه مخلوق محدث (٢) وقد سارع نائبه ببغداد إلى تنفيذ ما أمر به، لكنه تجاوز الحد السلبى إلى الحد الإيجابى فأحضر المحدثين والفقهاء فسألهم عن عقيدتهم حول القرآن، _____ ١. «ولا شك أن ذلك تليس، لأن معنى كلمة الله، أن الله خلقه بكلمة منه، كما نص على ذلك في آيات أخرى، لا أنه هو ذات كلمة الله». هذا ما أفاده أبو زهرة في تعليقه على كتابه. والحق أن المسيح كلمة الله نفسها، وليس المسيح وحده كذلك، بل الموجودات الإمكانية كلها كلامه تعالى. قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامَ وَالْبَحْرِ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) (لقمان: ٢٧). ٢. تاريخ الطبري: ٧/١٩٦، والرسالة مبسوطه.

(٢٥٥)

وأعلن الكل عن اعتناق ما كتبه المأمون سوى أربعة، فأصروا على عدم كون القرآن مخلوقاً وهم: «أحمد بن حنبل»، و«محمد بن نوح»، و«القواريري»، و«سجادة» فشدوا بالوثاق. لكن الكل رجعوا عن عقيدتهم إلا اثنان وهما: ابن نوح وأحمد بن حنبل، فسيقا إلى طرطوس ليلتقيا بالمأمون، ومات الأول في الطريق، وبقي أحمد، وبينما هم في الطريق مات المأمون وترك وصية بها من بعده أن يؤخذ بسيرته في خلق القرآن، وقد تولى الحكم المعتصم ثم الواثق فكانا على سيرة المأمون في مسألة خلق القرآن (١) ولما تولى المتوكل الحكم انقلب الأمر وصارت الظروف مناسبة لصالح المحدثين، وفي هذا الجو أعلن إمام الحنابلة عقيدته في القرآن بالقول بعدم كونه مخلوقاً.

وقال محقق كتاب «الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار: الحديث في القرآن وكلام الله من أهمّ المشاكل التي عرضت لمفكرى الإسلام. وقد أثارت ضجة كبيرة في صفوف العلماء والعامّة، وارتبطت بها محنة كبيرة تعرف بمحنة الإمام أحمد بن حنبل، وكان شعار النظريتين المتنازعتين «هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟». فترجم المعتزلة جهة المنادين بخلق القرآن واستجلبوا لصفهم خليفة من أعظم الخلفاء وهو المأمون، ووزيراً من أعظم وزراء بني العباس هو أحمد بن أبي دؤاد، وذهب ضحية الخلاف كثيرون، وثبت القائلون بأنه غير مخلوق على رأيهم وليس لهم من أمور الحكم بشيء. وتراجع القائلون بخلق القرآن تحت ضغط الناس، وخرج أحمد بن حنبل من المحنة ظافراً يضرب به المثل في الثبات على العقيدة، كما سجل المعتزلة بموقفهم ومحاولتهم أخذ الناس بالعنف على القول برأيهم أسوأ مثال على التدخل في الحرية الفكرية، مع أنهم رؤاها الأوائل. أقول: و(٢) ليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام، وكم في تاريخ خلفاء _____ ١. تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢٩٤-٢٩٦ بتلخيص. ٢. الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ٥٢٧.

(٢٥٦)

الإسلام من ضغط وعنف وتدخل في الحرية الفكرية!! هؤلاء هم شيعة أهل البيت عاشوا قروناً بين إخوانهم المسلمين تحت ستار التقية خوفاً على نفوسهم ودمائهم وأموالهم. وعلى أي تقدير فقد قال المحقق المزبور: إن أول من تفوه بقدم القرآن هو عبد الله بن كلاب، لأنّ السلف كانوا يتحرجون من وصف القرآن بأنه قديم وقالوا فقط غير مخلوق، لكن المعتزلة زادوا بأنّ كلام الله مخلوق محدث، وميز الأشعري متابعاً لابن كلاب بين الكلام النفسى الأزلى القديم، والكلام المتعلق بالأمر والنهي والخبر وهو حادث. (١) وأما ابن تيمية ففرّق بين كونه غير مخلوق وكونه قديماً وقال: وكما لم يقل أحد من السلف إنّه (أي كلام الله) مخلوق، لم يقل أحد منهم إنّه قديم، ولم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من الأئمة الأربعة ولا غيرهم... وأول من عرف أنّه قال هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب. (٢) والظاهر الواضح أنّ القول بأنّ السلف القائلين بعدم خلق القرآن، لا يقولون بقدم القرآن، والتفريق بين عدم الخلق والقدم لا يعدو عن أن يكون كذباً وغير صحيح. فأولاً: إنّ ابن الجوزي يصرّح بأنّ الأئمة المعتمد عليهم قالوا إنّ القرآن كلام الله قديم. (٣) وثانياً: إنّ معنى كون شيء غير مخلوق هو أنّه قديم، إذ لو فرض كونه غير قديم مع كونه غير مخلوق، فلا بدّ وأن يكون قد حدث ووجد من العدم بنفسه، وهو واضح البطلان، قال سبحانه: (أمّ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ كونه غير مخلوق، فلا بدّ وأن يكون قد حدث ووجد من العدم بنفسه، وهو واضح البطلان، قال سبحانه: (أمّ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ _____ ١. الأصول الخمسة: ٥٢٨. ٢. مجموعة الرسائل: ٣٠٢/٣. المنتظم في ترجمة الأشعري: ٦٠٣٣٢.

(٢٥٧) (شئ) (١). (٢)

ولأجل إيضاح الحال تأتي بما جاء به أحمد بن حنبل وأبو الحسن الأشعري في ذلك المجال. قال أحمد بن حنبل: والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أنّ القرآن كلام الله عزّوجلّ ووقف، ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق، فهو أخبث من الأوّل. ومن زعم أنّ ألفاظنا بالقرآن وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله، فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلّهم فهو مثلهم. وكلم الله موسى تكليماً، من الله، سمع موسى يقيناً، وناوله التوراة من يده، ولم يزل الله متكلماً عالماً، تبارك الله أحسن الخالقين. (٣) وقال أبو الحسن الأشعري: ونقول إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق وإنّ من قال بخلق القرآن فهو كافر. (٤) وقد نقل عن إمام الحنابلة أنّه قيل له: ها هنا قوم يقولون: القرآن لا- مخلوق ولا- غير مخلوق. فقال: هؤلاء أضر من الجهمية على الناس، ويلكم فإن لم تقولوا: ليس بمخلوق فقولوا مخلوق. فقال أحمد: هؤلاء قوم سوء، فقيل له: ما تقول؟ قال: الذي اعتقد وأذهب إليه ولا أشك فيه أنّ القرآن غير مخلوق. ثمّ قال: سبحان الله، ومن شكّ في هذا؟ (٥) هذا ما لدى المحدثين والحنابلة والأشاعرة. وأما المعتزلة: فيقول القاضي عبد الجبار: أما مذهبنا في ذلك: أنّ القرآن كلام الله تعالى ووحيه وهو _____ ١. الطور: ٣٥. ٢. بحوث مع أهل السنّة والسلفية: ١٥٨. ٣. كتاب السنّة: ٤٩. ٤. الإبانة: ٢١، ولاحظ مقالات الإسلاميين: ٣٢١. ٥. الإبانة: ٦٩، وقد ذكر في: ص ٧٦ أسماء المحدثين القائلين بأنّ القرآن غير مخلوق.

(٢٥٨)

مخلوق حدث، أنزله الله على نبيه ليكون علماً ودالاً على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام، لنرجع إليه في الحلال والحرام واستوجب منا بذلك الحمد والشكر، وإذاً هو الذي نسمعه اليوم و نتلوه، وإن لم يكن محدثاً من جهة الله تعالى فهو مضاف إليه على الحقيقة، كما يضاف ما نشده اليوم من قصيدة امرئ القيس على الحقيقة، وإن لم يكن امرؤ القيس محدثاً لها الآن. (١) وقبل الخوض في تحليل المسألة نقدم أموراً: ١. إذا كانت مسألة خلق القرآن أو قدمه بمثابة أوجدت طائفتين يكفر كل منهما عقيدة الآخر فإمام الحنابلة يقول: إن من زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر. وقالت المعتزلة: إن القول بكون القرآن غير مخلوق أو قديم، شرك بالله سبحانه، فيجب تحليلها على ضوء العقل والكتاب والسنة بعيداً عن كل هياج ولغظ. ومما لا شك فيه أن المسألة قد طرحت في أجواء خاصة، عز فيها التفاهم وساد عليها التناكر، وإلا فلا معنى لمسلم يؤمن بالله ورسوله، وكتابه وسنته، التنازع في أمر تزعم إحدى الطائفتين أنه ملاك الكفر وأن التوحيد في خلافه، وتزعم الطائفة الأخرى عكس ذلك. ولو كانت مسألة خلق القرآن بهذه المثابة لكان على الوحي، التصريح بأحد القولين، ورفع الستار عن وجه الحقيقة، مع أننا نرى أنه ليس في الشريعة الإسلامية نص في المسألة، وإنما طرحت في أوائل القرن الثاني. نعم، استدلت الأشاعرة ببعض الآيات، غير أن دلالتها خفية، لا يقف عليها - على فرض الدلالة - إلا الأوحدي. وما يعد ملاك التوحيد والشرك يجب أن يرد فيه نص لا يقبل التأويل، ويقف عليه كل حاضر وباد... ٢. قد عرفت أن بعض السلف كانوا يتحرجون من وصف القرآن بأنه قديم، وقالوا فقط إنه غير مخلوق. ثم إن القائلين بهذا القول تدرجوا فيه ووصفوا كلام الله بأنه قديم، ومن المعلوم أن توصيف شيء بأنه غير مخلوق أو قديم ممتا لا يتجزأ عليه العارف، لأن هذين الوصفين من خصائص ذاته _____ ١. شرح الأصول الخمسة: ٢٥٨.

(٢٥٩)

سبحانه، فلو كان كلامه سبحانه غير ذاته فكيف يمكن أن يتصف بكونه غير مخلوق، أو كونه قديماً. ولو فرضنا صحته تلك العقيدة التي لا ينالها إلا الأوحدي في علم الكلام، فكيف يمكن أن تكون هذه المسألة الغامضة مما يجب الاعتقاد به على كل مسلم، مع أن الإنسان البسيط بل الفاضل لا يقدر أن يحلل ويدرك كون شيء غير الله سبحانه، وفي الوقت نفسه غير مخلوق. إن سهولة العقيدة ويسر التكليف من سمات الشريعة الإسلامية وبهما تفارق سائر المذاهب السائدة على العالم، مع أن تصديق كون كلامه تعالى - وهو غير ذاته - غير مخلوق أو قديم، شيء يعسر فهمه على الخاصة، فكيف على العامة. ٣. إن الظاهر من أهل الحديث هو قدم القرآن المقروء، الأمر الذي تنكره البدهاء والعقل ونفس القرآن. وقد صارت تلك العقيدة بمنزلة من البطلان حتى تحامل عليها الشيخ محمد عبده إذ قال: «والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالاً وأصل اعتقاداً عن كل مله جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتها». (١) ولما رأى ابن تيمية الذي يظن نفسه مروجاً لعقيدة أهل الحديث، أنها عقيدة تافهة، صرح بحدوث القرآن المقروء وحدوث قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) و (يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) وقوله: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا)... إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حدوث النداء والسمع من حينه لا من الأزل. (٢) والعجب أنه استدللّ بدليل المعتزلة على حدوث القرآن المقروء، وقال: إن ترتيب حروف الكلمات الجمل يستلزم الحدوث آن تحقّق كلمة «بسم الله»، يتوقف على حدوث الباء وانعدامها، ثم حدوث السين كذلك إلى آخر _____ ١. رسالته التوحيد، الطبعة الأولى وقد حذف نحو صفحة من الرسالة في الطبعة اللاحقة لاحظ: ص ٤٩ من طبعة مكتبة الثقافة العربية. ٢. مجموعة الرسائل الكبرى: ٣/٩٧.

(٢٦٠)

الكلمة، فالحدوث والانعدام ذاتي لمفردات الحروف لا ينفك عنها، وذلك حتى يمكن أن توجد كلمة، فإذا كيف يمكن أن يكون مثل هذا قديماً أزلياً مع الله تعالى؟! ٤. لما كانت فكرة عدم خلق القرآن أو القول بقدمه شعار أهل الحديث وسمتهم، ومن جانب آخر كان القول بقدم القرآن المقروء والملفوظ شيئاً لا يقبله العقل السليم، جاءت الأشاعرة بنظرية جديدة أصلحوا بها القول بعدم خلق

القرآن وقدمه، والتجأوا إلى أن المراد من كلام الله ليس هو القرآن المقروء بل الكلام النفسى، وقد عرفت مدى صحّة القول بالكلام النفسى. وليس هذا أول مورد تقوم الأشاعرة فيه بإصلاح عقيدة أهل الحديث بشكل يقبله العقل، وعلى كل تقدير فالقول بقديم الكلام النفسى ليس بمنزلة القول بقديم القرآن المقروء. ٥. كيف يكون القول بخلق القرآن وحدوثه ملاكاً للكفر مع أنه سبحانه يصفه بأنه محدث أى أمر جديد. قال سبحانه: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ* مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتِمْعَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)(١). والمراد من الذكر هو القرآن الكريم لقوله سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(٢). وقال سبحانه: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَّ وَلِقَوْمِكَ). (٣) والمراد من «محدث» هو الجديد، وهو وصف للذكر، ومعنى كونه جديداً أنه أتاهم بعد الإنجيل. كما أن الإنجيل جديد لأنه أتاهم بعد التوراة. وكذلك بعض سور القرآن وآياته «ذكر جديد» أتاهم بعد بعض. وليس المراد كونه محدثاً من حيث نزوله، بل المراد كونه محدثاً بذاته بشهادة أنه وصف لـ«ذكر» فالذكر - بذاته وشؤونه - محدث، فلا معنى لإرجاع الوصف إلى النزول، بعد كونه محدثاً بالذات. _____ ١. الأنبياء: ١-٢. ٢. الحجر: ٩. ٣. الزخرف: ٤٤.

(٢٤١)

وكيف يمكن القول بقديم القرآن مع أنه سبحانه يقول في حقّه: (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا)(١). فهل يصحّ توصيف القديم بالإذهاب والإعدام؟ ٦. العجب أن محط النزاع لم يحدد بشكل واضح يقدر الإنسان معه على القضاء فيه، فها هنا احتمالات نطرحها على بساط البحث ونطلب حكمها من العقل والقرآن: أ. الألفاظ والجمل الفصيحة البليغة التي عجز الإنسان في جميع القرون عن الإتيان بمثلتها، وقد جاء بها أمين الوحي إلى النبي الأكرم وقرأها الرسول فتلقتهما الأسماع وحزرتها الأقلام على الصحف المطهرة. ب. المعانى السامية والمفاهيم الرفيعة في مجالات التكوين والتشريع والحوادث والأخلاق والأدب أو غيرها. ج. ذاته سبحانه وصفاته من العلم والقدرة والحياة التي بحث عنها القرآن وأشار إليها بألفاظه وجمله. د. علمه سبحانه بكل ما ورد في القرآن الكريم. هـ. الكلام النفسى القائم بذاته. و. كون القرآن ليس مخلوقاً للبشر «وما هو قول البشر». وهذه الاحتمالات لا تختص بالقرآن الكريم بل تطرد في جميع الصحف السماوية النازلة إلى أنبيائه ورسله، وإليك بيان حكمها من حيث الحدوث والقدم: أمّا الأول: فلا- أظن إنساناً يملك شيئاً من الدرك والعقل يعتقد بكونه غير مخلوق أو كونه قديماً، كيف وهو شىء من الأشياء، وموجود من الموجودات، ممكن غير واجب. فإذا كان غير مخلوق وجب أن يكون واجباً _____ ١. الإسراء: ٨٦.

(٢٤٢)

بالذات، وهو نفس الشرك بالله سبحانه. حتى لو فرض أنه سبحانه تكلم بهذه الألفاظ والجمل، فلا يخرج تكلمه عن كونه فعله، فهل يمكن أن يقال إن فعله غير مخلوق أو قديم؟ وأمّا الثانى: فهو قريب من الأول في البدايه، فإن القرآن يشتمل - وكذا سائر الصحف - على الحوادث المحققة في زمن النبي من محاجّة أهل الكتاب والمشركين وما جرى في غزواته وحروبه من الحوادث المؤلمة أوالمسرة، فها يمكن أن نقول بأنّ الحادثة التي يحكيها قوله سبحانه: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(١)، قديمه؟ وقد أخبر الله تبارك و تعالى في القرآن والصحف السماوية عمّا جرى على أنبيائه من الحوادث، وما جرى على سائر الأمم من ألوان العذاب، كما أخبر عمّا جرى في التكوين من الخلق والتدبير، فهذه الحقائق واردة في القرآن الكريم، حادثة بلا- شك لا قديمه. وأمّا الثالث: فلا شك أن ذاته وصفاته من العلم والقدرة والحياة وكل ما يرجع إليها كشهادته أنه لا إله إلا هو، قديم بلا إشكال، وليس بمخلوق بالبدايه، ولكنّه لا يختص بالقرآن، بل كلّما يتكلّم به البشر ويشير به إلى هذه الحقائق. فحقائقه المشار إليها بالألفاظ والأصوات قديمه، وفي الوقت نفسه ما يشير به من الكلام والجمل، حادث. وأمّا الرابع: أى علمه سبحانه بما جاء في هذه الكتب وما ليس فيها - فلا شك أنه قديم بنفس ذاته، ولم يقل أحد من المتكلمين الإلهيين - إلا من شدّ من الكرامة - بحدوث علمه. وأمّا الخامس: أعنى كونه سبحانه متكلماً بكلام قديم أزلى نفسانى ليس بحروف ولا أصوات، مغاير للعلم والإرادة - فقد عرفت أن ما أسماه الشيخ _____ ١. المجادلة: ١.

(٢٦٣)

الأشعري بكلام نفسى لا يخرج عن إطار العلم والإرادة، ولا شك أن علمه وإرادته البسيطة قديمان. وأما السادس: أعنى كون الهدف من نفي كونه غير مخلوق القرآن غير مخلوق للبشر، وفي الوقت نفسه هو مخلوق لله سبحانه، فهذا أمر لا ينكره مسلم، فإن القرآن مخلوق لله سبحانه، والناس بأجمعهم لا يقدرّون على مثله قال سبحانه: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا). (١) وقد نقل سبحانه عن بعض المشركين الألداء أن القرآن قول البشر وقال: (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) - ثم أوعده بقوله: - (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَا تُبْقَىٰ وَلَا تَذَرُ). (٢) وهذا التحليل يعرب عن أن المسألة كانت مطروحة في أجواء مشوشة اختلط فيها الحابل بالنابل، ولم يكن محط البحث محرراً على وجه الوضوح حتى يعرف المثبت عن المنفى، ويمخض الحق من الباطل، ومع هذا التشويش في تحرير محل النزاع، نرى أهل الحديث والأشاعرة يستدلون بآيات وغيرها على قدم كلامه، وكونه غير مخلوق، وإليك هذه الأدلة واحداً بعد واحد: أدلة الأشاعرة على كون القرآن غير مخلوق استدلال الأشعري على قدم القرآن بوجوه: الأول: قوله سبحانه: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٣) قال الأشعري: ومما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق قوله عز وجل: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب أن يكن مقولاً له: «كن فيكون». ولو كان الله عز وجل ————— ١ . الإسراء: ٨٨. ٢ . المدثر: ٢٤-٢٨. ٣ . النحل: ٤٠.

(٢٦٤)

قائلاً للقول «كن» لكان القول قولاً، وهذا يوجب أحد أمرين: إما أن يؤول الأمر إلى أن قول الله غير مخلوق. أو يكون كل قول واقعاً بقول لا إلى غاية، وذلك محال، وإذا استحال ذلك، صحّ وثبت أن الله عز وجل قولاً غير مخلوق. (١) يلاحظ عليه: أولاً: أن الاستدلال مبنى على كون الأمر بالكون في الآية ونظائرها أمراً لفظياً مؤلفاً من الحروف والأصوات، وأنه سبحانه كالسلطان الأمر، فكما أنه يتوسل عند أمر وزرائه وأعوانه باللفظ فهكذا سبحانه يتوسل عند خلق السماوات والأرض باللفظ والقول، فيخاطب المعدوم المطلق بلفظة «كن». ولا شك أن هذا الاحتمال باطل جداً، إذ لا معنى لخطاب المعدوم. وما يقال في تصحيحه بأن المعدوم معلوم لله تعالى - فهو يعلم الشيء قبل وجوده، وأنه سيوجد في وقت كذا - غير مفيد، لأن العلم بالشيء لا يصحح الخطاب الجدى، وإنما المراد من الأمر في الآية كما فهمه جمهور المسلمين، هو الأمر التكويني المعبر به عن تعلق الإرادة القطعية بإيجاد الشيء، والمقصود من الآية: إن تعلق إرادته سبحانه بشيء يستعقب وجوده، ولا يأبى عنه الشيء، وأن ما قضاها من الأمور وأراد كونه، فإنه يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كالمأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل، لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء. وبذلك تقف على الفرق بين الأمر التكليفي التشريعي الوارد في الكتاب والسنة، والأمر التكويني، فالأول يخاطب به الإنسان العاقل القابل للتكليف ولا يخاطب به غيره فضلاً عن المعدوم، وهذا بخلاف الأمر التكويني فإنه رمز إلى تعلق الإرادة القطعية بإيجاد المعدوم. وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - يفسر الأمر التكويني بقوله: «يقول لمن أراد كونه، كن، فيكون لا بصوت يقرع، ولا ببناء ————— ١ . الإبانة: ٥٢-٥٣.

(٢٦٥)

يسمع، وإنما كلامه سبحانه فعل منه، أنشأه ومثله، لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً. (١) وثانياً: نحن نختار الشق الثاني، ولا يلزم التسلسل، ولنلتزم بأن هنا قولاً سابقاً على القرآن هو غير مخلوق، أو وجد به سبحانه مجموع القرآن وأحدثه، حتى كلمه «كن» الواردة في تلك الآية ونظائرها، فتكون النتيجة حدوث القرآن وجميع الكتب السماوية وجميع كلمه وكلامه إلا قولاً واحداً سابقاً على الجميع، فينقطع التسلسل بالالتزام بعدم مخلوقية لفظ واحد، فتدبر. وثالثاً: كيف يمكن أن تكون كلمة «كن» الواردة في الآية وأمثالها قديمة، مع أنها إخبار عن المستقبل فتكون حادثه. يقول سبحانه مخبراً عن المستقبل: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ

نقول له كن فيكون) ولأجل ذلك التجأ المتأخرون من الأشاعرة إلى أن لفظ «كن» حادث، والقديم هو المعنى الأزلي النفساني. (٢)

الثاني: قوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتِّينَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). (٣) قال الأشعري: «فالخلق» جميع ما خلق داخل فيه، ولما قال «الأمر» ذكر أمراً غير جميع الخلق. فدل ما وصفناه على أن الله غير مخلوق. وأما أمر الله فهو كلامه. وباختصار: أنه سبحانه أبان الأمر من الخلق، وأمر الله كلامه، وهذا ————— ١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦. ٢. دلائل الصدق حاكياً عن ابن روزبهان الأشعري: ١/١٥٣. ٣. الأعراف: ٥٤.

(٢٦٦)

يوجب أن يكون كلام الله غير مخلوق. (١) يلاحظ عليه: أن الاستدلال مبنى على أن «الأمر» في الآية بمعنى كلام الله، وهو غير ثابت، بل القرينة تدل على أن المراد منه غير ذلك، كيف وقد قال سبحانه في نفس الآية: (وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) والمراد من اللفظين واحد، والأول قرينة على الثاني. وهدف الآية هو أن الخلق بمعنى الإيجاد وتدبير الموجد كلاهما من الله سبحانه، وليس شأنه سبحانه خلق العالم والأشياء ثم الانصراف عنها وتفويض تدبيره إلى غيره، حتى يكون الخلق منه، والتدبير على وجه الاستقلال من غيره، بل الكل من جانبه سبحانه. وباختصار: المراد من الخلق هو إيجاد ذوات الأشياء، والمراد من الأمر، النظام السائد عليها: فكأن الخلق يتعلّق بذواتها، والأمر بالأوضاع الحاصلة فيها والنظام الجارى بينها. وتدلل على ذلك بعض الآيات التي يذكر فيها «تدبير الأمر» بعد الخلق. يقول سبحانه: (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتِّينَ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ). (٢) وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ). (٣) فليس المراد من الأمر ما يقابل النهي، بل المراد الشؤون الراجعة إلى التكوين، فيكون المقصود إن الإيجاد أولاً، والتصرف والتدبير ثانياً، منه سبحانه، فهو الخالق المالك لا شريك له في الخلق والإيجاد، ولا في الإرادة والتدبير. ————— ١. الإبانة: ٥١-٥٢. ٢. يونس: ٣. ٣. الرعد: ٢.

(٢٦٧)

وفي الختام نضيف أنه سبحانه يصف الروح بكونه من مقوله الأمر ويقول: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (١) فهل الأشعري يسمح لمسلم أن يعتقد بكون الروح (بأى وجه فسر) المسؤول عنه في الآية غير مخلوق؟! ***

الثالث: قوله سبحانه: (إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) (٢) قال الأشعري: فمن زعم أن القرآن مخلوق فقد جعله قولاً للبشر، وهذا ما أنكره الله على المشركين. (٣) يلاحظ عليه: أن من يقول بأن القرآن مخلوق لا يريد إلا كونه مخلوقاً لله سبحانه. فالله سبحانه خلقه وأوحى به إلى النبي، ونزله عليه نجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة، وجعله فوق قدرة البشر، فلن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. نعم، كون القرآن مخلوقاً لله سبحانه لا ينافي أن يكون ما يقرأه الإنسان مخلوقاً له، لبداهة أن الحروف والأصوات التي ينطق بها الناس مخلوقة لهم، وهذا كمعلّقة امرئ القيس وغيرها، فأصلها مخلوق لنفس الشاعر، لكن المقروء مثال له، ومخلوق للقارئ. والعجب أن الأشعري ومن قبله ومن بعده لم ينقحوا موضع النزاع، فزعموا أنه إذا قيل «القرآن مخلوق» فإنما يراد منه كون القرآن مصنوعاً للبشر، مع أن الضرورة قاضية بخلافه، فكيف يمكن لمسلم يعتقد القرآن ويقرأه تتأف الباري سبحانه فيه: (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) (٤) أن يتفوه بأن القرآن مخلوق للبشر. بل المسلمون جميعاً يقولون في القرآن نفس ما قاله سبحانه في ————— ١. الإسراء: ٨٥. ٢. المدثر: ٢٥. ٣. الإبانة: ٥٦. ٤. آل عمران: ٣.

(٢٦٨)

حقه، غير أن المقروء على ألسنتهم مخلوق لأنفسهم، فيكون مثال ما نزله سبحانه مخلوقاً للإنسان. وكون المثال مخلوقاً ليس دليلاً على

أن الممثل مخلوق لهم. والناس بأجمعهم عاجزون عن إيجاد مثل القرآن، ولكنهم قادرون على إيجاد مثاله، فلاحظ وتدبر. وبذلك تقف على أن أكثر ما استدل به الأشعري في كتاب «الإبانة» غير تام من جهة الدلالة، ولا نطيل المقام بإيراده ونقده، وفيما ذكرنا كفاية. بقيت هنا نكتة نبه عليها وهي: أن المعروف من إمام الحنابلة أنه ما كان يرى الخوض في المسائل التي لم يخض فيها السلف الصالح، لأنه ما كان يرى علماً إلا علم السلف. فما يخوضون فيه يخوض فيه، وما لا يخوضون فيه من أمور الدين يراه ابتداءً يجب الإعراض عنه. وهذه مسألة لم يتكلم فيها السلف فلا يتكلم فيها. والمبتدعون هم الذين يتكلمون، وعلى هذا، كان عليه أن يسير وراءهم، وكان من واجبه حسب أصوله، التوقف وعدم النبس في هذا الموضوع بينت شفه. نعم، نقل عنه ما يوافق التوقف - رغم ما نقلناه عنه من خلافه - وأنه قال: من زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع. ويرى المحققون أن إمام الحنابلة كان في أوليات حياته يرى البحث حول القرآن - بأنه مخلوق أو غير مخلوق - بدعة، ولكنه بعد ما زالت المحنة وطلب منه الخليفة العباسي المتوكل، المؤيد له، الإدلاء برأيه، اختار كون القرآن ليس بمخلوق. ومع ذلك لم يؤثر عنه أنه قال إنه قديم. (١) موقف أهل البيت - عليهم السلام -

إن تاريخ البحث وما جرى على الفريقين من المحن، يشهد بأن التشدد فيه لم يكن بهدف إحقاق الحق وإزاحة الشكوك. بل استغلت كل طائفة تلك المسألة للتكبير بخصومها. فلأجل ذلك نرى أن أئمة أهل البيت _____ ١. تاريخ المذاهب الإسلامية: ٣٠٠.

(٢٦٩) - عليهم السلام - منعوا أصحابهم عن الخوض في تلك المسألة، فقد سأل الريان بن الصلت، الإمام الرضا - عليه السلام - وقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: «كلام الله لا تتجاوزوه ولا تطلبوا الهدى في غيره فتصلوا». وروى على بن سالم، عن أبيه قال: سألت الصادق جعفر بن محمد فقلت له: يا بن رسول الله ما تقول في القرآن؟ فقال: «هو كلام الله، وقول الله، وكتاب الله، ووحى الله، وتنزيله، وهو الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل حكيم حميد». وحدث سليمان بن جعفر الجعفرى قال: «قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر - عليهم السلام - : يا بن رسول الله، ما تقول في القرآن؟ فقد اختلف فيه من قبلنا، فقال قوم إنه مخلوق، وقال قوم إنه غير مخلوق؟ فقال - عليه السلام - : «أما إنى لا أقول في ذلك ما يقولون، ولكنى أقول إنه كلام الله». فإنا نرى أن الإمام - عليه السلام - يبتعد عن الخوض في تلك المسألة لما رأى أن الخوض فيها ليس لصالح الإسلام، وأن الاكتفاء بأنه كلام الله أحسن لمادة الخلاف. ولكنهم - عليهم السلام - عندما أحسوا بسلامة الموقف، وهدوء الأجواء أدلوا برأيهم في الموضوع، وصرّحوا بأن الخالق هو الله، وغيره مخلوق، والقرآن ليس نفسه سبحانه، وإلا يلزم اتحاد المنزل (بالكسر) والمنزل، فهو غيره، فيكون لا محالة مخلوقاً. فقد روى محمد بن عيسى بن عبيد اليقطينى قال: كتب على بن محمد بن على بن موسى الرضا - عليهم السلام - إلى بعض شيعته ببغداد: «بسم الله الرحمن الرحيم، عصمنا الله وإياك من الفتنة، فإن يفعل فقد أعظم بها نعمه، وإن لا يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أن الجدل في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلا الله عز وجل، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين، جعلنا الله وإياك من الذين (٢٧٠)

يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون». (١) في الروايات المروية إشارة إلى المحنة التي نقلها المؤرخون، فقد كان أحمد بن أبي دؤاد في عصر المأمون كتب إلى الولاة في العواصم الإسلامية أن يختبروا الفقهاء والمحدثين في مسألة خلق القرآن، وفرض عليهم أن يعاقبوا كل من لا يرى رأى المعتزلة في هذه المسألة. وجاء المعتصم والواثق فطبقا سيرته وسياسته مع خصوم المعتزلة، وبلغت المحنة أشدها على المحدثين، وبقي أحمد بن حنبل ثمانية عشر شهراً تحت العذاب فلم يتراجع عن رأيه. ولما جاء المتوكل العباسي نصر مذهب الحنابلة وأقصى خصومهم، فعند ذلك أحس المحدثون بالفرج، وأحاطت المحنة بأولئك الذين كانوا بالأمس القريب يفرضون آراءهم بقوة السلطان. فهل يمكن عد مثل هذا الجدل جداولاً إسلامياً، وقرانياً، لمعرفة الحقيقة وتبينها، أو أنه كان وراءه

شيء آخر. والله العالم بالحقائق وضمائر القلوب. ————— ١. توحيد الصدوق، باب القرآن ما هو، الأحاديث: ٢ و ٣ و ٤ و ٥.

(٢٧١)

عموم إرادته لكل شيء

عموم إرادته لكل شيء

إن من آرائه هو عموم إرادة الله سبحانه لكل شيء، ويعد ذلك من المسائل الرئيسية في مذهبه، وحاصله: أن كل ما في الكون من جواهر وأعراض حتى الإنسان وفعله، مراد الله سبحانه، تعلقت إرادته بوجوده، وليس شيء في صفحة الوجود خارجاً عن سلطان إرادته، ولا يقع شيء من صغير وكبير إلا بإرادة منه سبحانه. ويقابل ذلك مذهب المعتزلة حيث جعلوا أفعال العباد خارجة عن حريم إرادته، فإيمان العبد وكفره وعصيانه وإطاعته لم تتعلق بها إرادته سبحانه، وإنما خلقه وفوض إليه إرادته. وإنما اختلف المذهبان في عموم الإرادة وعدمه، لأجل التحفظ على عدله سبحانه والتخلص عن الجبر وعدمهما، فالأشعري ومن حذا حذوه لا يتحاشون عن الاعتقاد بالأصل أو الأصول التي تساند الجبر وتستلزمه، بناءً على ما أسيسه من كون الحسن ما حيينه الشرع، والقبح ما قبحه الشارع، وليس للعقل دور في تشخيص الحسن والقبح. وهذا بخلاف المعتزلة فإنّ للتحسين والتقييح دوراً عظيماً في تكييف مذهبهم، وعلى هذا الأساس ذهب الأشعري إلى عموم إرادته سبحانه لكل شيء من وجوده وفعله، من غير فرق بين الإنسان وفعله، سواء أوافق العدل أم خالفه، استلزم الجبر أم لا. وزعمت المعتزلة أن القول بعموم الإرادة يستلزم الجبر في أفعال البشر، وهو يناقض عدله سبحانه. ولا معنى لأن يريد سبحانه كفر العبد وهو يأمر بالإيمان به، ويعذبه على ما أراده منه، وسوا فيك الكلام في استلزام عموم (٢٧٢)

إرادته الجبر وعدمه. وعلى كل تقدير فقد استدلت الأشعري على مقاله بوجوده عقلية ونقلية، نشير إلى أمهاتها: الأدلة العقلية على عموم إرادته

١. إن الإرادة إذا كانت من صفات الذات بالدلالة التي ذكرناها وجب أن تكون عامة لكل ما يجوز أن يراد على حقيقته. (١) يلاحظ عليه: أنه لم يبين وجه الملازمة بين كون الإرادة من صفات الذات وعموميتها لجميع المحادثات، فكون الإرادة من صفات الذات لا يستلزم تعلقها بكل ما يجوز أن يراد. اللهم إلا أن يرجع إلى وجه آخر، وهو كون الإرادة من صفاته الذاتية، والذات علة تامة بلا واسطة لكل شيء، فيستنتج عموم إرادته لكل شيء من عموم علته ذاته لكل شيء كما سيذكره. ٢. دلت الدلالة على أن الله تعالى خالق كل شيء حادث، ولا يجوز أن يخلق ما لا يريد. (٢) ٣. قد دلت الدلالة على أن كل المحادثات مخلوقات لله تعالى، فلما استحال أن يفعل الباري تعالى ما لا يريد، استحال أن يقع من غيره ما لا يريد، إذ كان ذلك أجمع أفعالاً لله تعالى. (٣) ويلاحظ على الوجهين: أنهما مبنيان على أصل غير مسلم عند المعتزلة وهو أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، وأنه سبحانه علة تامة لها، وفاعل مباشر لكل شيء، وقائم مقام جميع العلل والأسباب. ٤. إنه لا يجوز أن يكون في سلطان الله تعالى ما لا يريد، لأنه لو كان في سلطان الله تعالى ما لا يريد لوجب أحد أمرين: إما إثبات سهو وغفلة، أو ————— ١. للمع: ٤٧. ٢. نفس المصدر. ٣. نفس المصدر.

(٢٧٣)

إثبات ضعف وعجز ووهن وتقصير عن بلوغ ما يريد، فلما لم يجز ذلك على الله تعالى استحال أن يكون في سلطانه ما لا يريد. (١) ٥. لو كان في العالم ما لا يريد الله تعالى لكان ما يكره كونه، ولو كان ما يكره كونه، لكان يأبى كونه. وهذا يوجب أن المعاصي كانت، شاء الله أم أبى. وهذه صفة الضعيف المقهور. وتعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً. (٢) يلاحظ على الوجهين: أن عدم تعلق إرادته ليس بمعنى تعلق إرادته بعدمه، فلا يكون صدور الفعل عن الغير دليلاً على سهوه أو عجزه كما زعم، كما لا يكون دليلاً على كونه مقهوراً، إذ عدم كراهية وجود المعاصي لا يلازم كراهية عدمه، حتى يستدل بوقوعها على المقهورية. وفي الختام، إن القول بعموم إرادته

سبحانه لكل ما لا يجوز أن يراد عند الأشاعرة، يتفرع على أصل آخر، وهو أنه سبحانه خالق لكل شيء مباشرة، وأنه لا سبب ولا علة في دار الوجود إلا هو، وليس لغيره أي سببية وتأثير استقلالاً وتبعاً. فلازم ذلك القول إنكار النظام السببي والمسببي، والاعتراف بعلّة واحدة قائمة مقام جميع العلل الطبيعية والمجردة، وهذا القول لا- ينفك عن عموم إرادته لكل شيء، فكان الأصل هو مسألة خلق الأعمال عندهم، ويترتب عليها القول بعموم إرادته. ويشهد لذلك بعض ما مرّ من أدلة الشيخ الأشعري كالدليل الثاني. قال الرازي في المحصل: «إنه تعالى مرید لجميع الكائنات خلافاً للمعتزلة». [وسبق] لنا أن بينا أنه تعالى خالقها، وقد تقدّم أن خالق الشيء مرید لوجوده». (٣) وقال القاضي عضد الدين الإيجي في المواقف: إنه تعالى مرید لجميع الكائنات، غير مرید لما لا يكون لنا، أما أنه مرید للكائنات فلاّنه خالق _____ ١. الملح: ٤٩. ٢. الملح: ٥٧-٥٨. ٣. تلخيص المحصل: ٣٣٤.

(٢٧٤)

الأشياء كلّها لما مرّ من استناد جميع الحوادث إلى قدرته تعالى ابتداءً، وخالق الشيء بلا إكراه مرید له بالضرورة. (١) ثم إن الأشاعرة زعمت أن في ذلك القول تعظيماً لقدرة الله تعالى وتقديساً لها عن شوائب النقصان والقصور في التأثير، ولكن غفلوا عن أن تفسير إرادته عن طريق خلق الأعمال مباشرة وبلا واسطة، وإنكار سلسلة العلل والمعاليل في دار الوجود، يستلزم نسبة كلّ عيب وشين إلى الله سبحانه، فكفر الكافر مراد الله سبحانه لأنّه خالقه، وإن كان المسؤول هو الكافر المجبور المكتوف الأيدي. نعم، تفسير عموم إرادته بهذا الوجه في جانب الإفراط، كما أن قول المعتزلة بإخراج أفعال العباد عن حريم إرادته في جانب التفريط، حيث زعموا أنه سبحانه أوجد العباد وأقدرهم على تلك الأفعال، ففوض إليهم الأمر، فهم مستقلون بإيجاد أفعالهم على طبق مشيئتهم وقدرتهم متمسكين بالقول المعروف: «سبحان من تنزه عن الفحشاء» ناسين القول الآخر: سبحان من لا يجرى في ملكه إلا ما يشاء» وقد ندد أئمّة الإمامية بكلام الرأيين فقد سأل محمد بن عجلان الصادق - عليه السلام - فقال له: فوض الله الأمر إلى العباد؟ فقال: «الله أكرم من أن يفوض إليهم». قلت: فأجر الله العباد على أفعالهم؟ فقال: «الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثمّ يعذبه عليه». (٢) وقال الإمام موسى الكاظم - عليه السلام - في ذم المفوضة: «مساكين القدرية أرادوا أن يصفوا الله عزّوجلّ بعدله، فأخرجوه من قدرته وسلطانه». (٣) وعلى ضوء ذلك فيجب تفسير عموم إرادته على وجه يليق بساحته، مع التحفظ على الأصول المسلّمة العقلية فنقول: _____ ١. شرح المواقف: ٨/١٧٤. ٢. التوحيد للصدوق: ٣٦١، الحديث ٦. ٣. بحار الأنوار: ٥/٥٤٤، الحديث ٩٣، ط طهران. (٢٧٥) التفسير الصحيح لعموم إرادته

لا شكّ أنّ مقتضى التوحيد في الخالقية بالمعنى الذي عرّفناك به عند البحث عن «خلق الأعمال» هو كون ما في الوجود مخلوقاً لله سبحانه، لكن لا- بمعنى إنكار العلل والأسباب، بل بمعنى انتهاء كلّ الأسباب والمسببات إليه سبحانه، كانهاء المعنى الحرفي إلى المعنى الاسمي، وقيام الممكن بالذات، بالواجب بالذات. هذا من جانب، ومن جانب آخر إن إرادته سبحانه من صفات ذاته، وإن لم نحقق كنهها، لأنّ الفاعل المرید أكمل من الفاعل غير المرید، غير أنّ الإرادة في الإنسان طارئه حادثه، وفيه سبحانه ليست كذلك. فإذا كانت إرادته نفس ذاته، والذات هي العلة العليا للكون فلا يكون هناك شيء خارج عن حريم إرادته، فكما تعلّقت قدرته بكلّ شيء، تعلّقت إرادته به، ولا- يكون في صفحة الوجود شيء خارج عن سلطان إرادته. ولكن وزان عمومية إرادته لكلّ شيء، وزان عمومية قدرته لكلّ شيء، فكما أنّ عمومية الثانية لا تسلّتم الجبر، فهكذا عمومية الإرادة، وذلك لأنّ إرادته لم تتعلّق بصدور فعل كلّ شيء عن فاعله على وجه الإلجاء والاضطرار، بل تعلّقت به على قسمين: قسم تعلّقت إرادته بصدور الفعل عن فاعله على نحو الاضطرار، ولكن لا عن شعور، كالحرارة بالنسبة إلى النار، أو عن شعور، ولكن لا عن إرادة واختيار، كحركة المرتعش. وقسم تعلّقت إرادته بصدور الفعل عن فاعله عن اختيار. فمعنى تعلّق إرادته بفعل الإنسان هو تعلّق إرادته بكونه فاعلاً مختاراً يفعل ما يشاء في ظلّ مشيئته سبحانه، فقد شاء أن يكون مختاراً، وفي وسعه سبحانه سلب اختياره وإلجاؤه إلى أحد الطرفين من الفعل والترك. وباختصار: إنه كما تعلّقت إرادته بصدور فعل كلّ فاعل عنه، كذلك تعلّقت إرادته بصدور فعله عن المبادئ الموجودة فيها. (٢٧٦)

فالفواعل الطبيعية غير المختارة تعلقت إرادته بصدور آثارها عنها بلا علم أو بلا اختيار، وأمّا غيرها فقد تعلقت بصدور أفعاله (الإنسان) عن المبادئ الموجودة فيه، ومن المبادئ كونه مختاراً في تعيين الفعل وترجيحه على الترك. وعموم الإرادة بهذا المعنى لا يستلزم الجبر بعد التأمل والإمعان. وأمّا النقل فيشهد على عمومية إرادته بعض الآيات، وإليك قسماً منها: ١. قال سبحانه: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). (١) وهو صريح في أن تعلق مشيئة الإنسان بعد تعلق مشيئة الله، لا قبله ولا معه. ٢. (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ). (٢) وهذا أصل عام في عالم الوجود وإتّما ذكر الإيمان من باب المثال. ٣. (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخِزِيَ الْفَاسِقِينَ). (٣) فقطع الأشجار أو إبقاؤها على أصولها من أفعال الإنسان كان مشمولاً لإذنه سبحانه ومتعلقاً به. هذا إجمال ما أوضحناه في الأبحاث الكلامية، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى مظانها. _____ ١. التكوير: ٢٩. ٢. يونس: ١٠٠. ٣. الحشر: ٥.

(٢٧٧)

التحسين والتقيح العقليان

التحسين والتقيح العقليان

قد عنون الشيخ الأشعري هذه المسألة باسم «التعديل والتجوير» وهذه المسألة، تعد الحجر الأساس لكلام الأشعري وعقيدة أهل الحديث والحنابلة. فالشيخ تبعاً لأبناء الحنابلة صور العقل أقل من أن يدرك ما هو الحسن وما هو القبيح، وما هو الأصلح وما هو غيره، قائلاً بأنّ تحكيم العقل في باب التحسين والتقيح يستلزم نفي حرية المشيئة الإلهية، وتقيداً بقيد وشرط، إذ على القول بهما يجب أن يفعل سبحانه ما هو الحسن عند العقل، كما عليه الاجتناب عما هو القبيح عنده. فلأجل التحفظ على إطلاق المشيئة الإلهية قالوا: لا حسن إلا ما حَسِنَهُ الشارع، ولا قبيح إلا ما قَبِحَهُ، فله سبحانه أن يؤلم الأطفال في الآخرة ويعدّ ذلك منه حسناً. أقول: الإنسان المتحرر عن كلّ عقيدة مسبقه - وعن كلّ عامل روى يمنعه عن الاعتناق بحكم العقل في ذلك المجال - يصعب عليه الإذعان بصحة عقوبه الطفل المعصوم، وتصويره حسناً وعدلاً. ولا تجد إنساناً على أديم الأرض ينكر قبح الإساءة إلى المحسن. فعند ذلك يتوارد السؤال عن العلة التي دفعت الأشعري إلى هذه العقيدة، ولم يكن ذلك إلا لمواجهة المعتزلة في تحكيمهم العقل على الشرع، وإخضاعهم الدين له، حتى صاروا يؤولون بعض ما لا ينطبق من الشرع على أصولهم العقلية. فصار ذلك الإفراط دافعاً للشيخ إلى التفريط والتورط في مغبة إعدام العقل ورفضه عن ساحة الإدراك على الإطلاق. (٢٧٨)

ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من تفكير الأشعري في هذا الباب نقل بعض عباراته من كتابه «اللمع»: يقول: فإن قال قائل: هل لله تعالى أن يؤلم الأطفال في الآخرة؟ قيل له: لله تعالى ذلك، وهو عادل إن فعله - إلى أن قال - ولا يقبح منه أن يعذب المؤمنين ويدخل الكافرين الجنان. وإنما نقول إنه لا يفعل ذلك، لأنه أخبرنا أنه يعاقب الكافرين، وهو لا يجوز عليه الكذب في خبره. (١) دليل الأشعري على نفي التحسين والتقيح العقليين

١. هو المالک القاهر استدلل الأشعري على مقالته، بقوله: والدليل على أن كلّ ما فعله، فله فعله، أنّه المالک، القاهر، الذي ليس بمملوك، ولا - فوّه مبيح، ولا - أمر ولا زاجر، ولا حاطر ولا من رسم له الرسوم، وحد له الحدود. فإذا كان هذا هكذا، لم يقبح منه شيء، إذ كان الشيء إنّما يقبح منّا، لأنّا تجاوزنا ما حدّ ورسم لنا وأتينا ما لم نملك إتيانه. فلمّا لم يكن البارئ [مملوكاً] ولا تحت أمر، لم يقبح منه شيء. فإن قال: فإنّما يقبح الكذب لأنّه قبحه، قيل له: أجل، ولو حَسِنَهُ لكان حسناً، ولو أمر به لم يكن عليه اعتراض. فإن قالوا: فجوزوا عليه أن يكذب، كما جوزتم أن يأمر بالكذب. قيل لهم: ليس كلّ ما جاز أن يأمر به، جاز أن يوصف به. (٢) يلاحظ عليه: أمّا أولاً: فإننا نسأل الشيخ الأشعري إنه سبحانه إذا ألم طفله في الآخرة وعذبه بألوان التعذيب، ورأى ذلك بأم عينه في الآخرة، هل يرى ذلك عين العدل، ونفس الحسن، أو أنّه يجد ذلك الفعل، من وجدانه، أمراً منكراً؟ ومثله ما لو فعل بالأشعري نفس ما فعل

بطفله، مع _____ ١ . اللع: ١١٦-١١٧ . ٢ . نفس المصدر.

(٢٧٩)

كونه مؤمناً، فهل يرضى بذلك في أعماق روحه، ويراه نفس العدل، غير متجاوز عنه، بحجة أن الله سبحانه مالك الملك يفعل في ملكه ما يشاء، أو أنه يقضى بخلاف ذلك؟ وأما ثانياً: فلا شك أنه سبحانه مالك الملك والملكوت، يقدر على كل أمر ممكن كما عرفت من غير فرق بين الحسن والقيح، فعموم قدرته لكل ممكن مما لا شبهة فيه، ولكن حكم العقل بأن الفعل الفلاني قبيح لا يصدر عن الحكيم، ليس تحديداً لملكه وقدرته. وهذا هو المهم في حلّ عقدة الأشاعرة الذين يزعمون أن قضاء العقل وحكمه في أفعاله سبحانه، نوع تدخل في شؤون رب العالمين، ولكن الحق غير ذلك. توضيحه: إن العقل بفضل التجربة، أو بفضل البراهين العقلية يكشف عن القوانين السائدة على الطبيعة، كما يكشف عن القوانين الرياضية، فلو قال العقل: إن كل زوج ينقسم إلى متساويين، فهل يحتمل أن العقل فرض حكمه على الطبيعة، أو يقال إن الطبيعة كانت تحمل ذلك القانون والعقل كشفه وبينه؟ فإذا كان هذا هو الفرق بين فرض الحكم وكشفه في عالم الطبيعة، فليكن هو الفارق بين إدراكه حسن الفعل وقبحه، وإن أي فعل يصدر منه تعالى وأي منه لا- يصدر، وبين فرضه الحكم على الله سبحانه فرضاً يحدد سعة قدرته وإرادته وفعله. فليس العقل هنا حاكماً وفارصاً على الله سبحانه بل هو - بالنظر إلى الله وصفاته التي منها الحكمة والغنى - يكشف عن أن الموصوف بمثل هذه الصفات وخاصة الحكمة، لا يصدر منه القبيح، ولا- الإخلال بما هو حسن. وبعبارة أخرى: إن العقل يكشف عن أن المتصف بكل الكمال، والغنى عن كل شيء، يتمتع أن يصدر منه الفعل القبيح، لتحقق الصارف عنه وعدم الداعي إليه، وهذا الامتناع ليس امتناعاً ذاتياً حتى لا يقدر على الخلاف، ولا ينافي كونه تعالى قادراً عليه بالذات، ولا ينافي اختياره في فعل الحسن وترك القبيح، فإن الفعل بالاختيار كما أن الترك به أيضاً. وهذا معنى ما ذهبت إليه العدلية من أنه يتمتع عليه القبائح، ولا تهدف به إلى تحديد فعله (٢٨٠)

من جانب العقل، بل الله، بحكم أنه حكيم، التزم وكتب على نفسه أن لا يخلّ بالحسن ولا يفعل القبيح، وليس دور العقل هنا إلا دور الكشف والتبيين بالنظر إلى صفاته وحكمته. وباختصار: إن فعله سبحانه - مع كون قدرته عامة - ليس فوضوياً، ومتحرراً عن كل سلب وإيجاب، وليس التحديد مفروضاً عليه سبحانه من ناحية العقل، وإنما هو واقعية وحقيقة يكشف عنها العقل، كما يكشف عن القوانين السائدة على الطبيعة والكون. فتصور أن فعله سبحانه متحرر من كل قيد وحد، بحجة حفظ شأن الله سبحانه وسعة قدرته، أشبه بالمغالطة، فإن حفظ شأنه سبحانه غير فرض انحلال فعله عن كل قيد وشرط. وبالتأمل فيما ذكرنا يظهر ضعف ما استدلل به القائلون بنفى التحسين والتقيح العقليين، ولا- بأس بالإشارة إلى بعض أدلتهم التي أقامها المتأخرون عن أبي الحسن الأشعري. ٢. لو كان التحسين والتقيح ضرورياً لما وقع الاختلاف قالوا: «لو كان العلم بحسن الإحسان وقبح العدوان ضرورياً لما وقع التفاوت بينه وبين العلم بأن الواحد نصف الاثنين، لكن التالي باطل بالوجدان». وأجاب عنه المحقق الطوسي بقوله: «ويجوز التفاوت في العلم لتفاوت التصور». (١) توضيحه: أنه قد تتفاوت العلوم الضرورية بسبب التفاوت في تصور أطرافها. وقد قرر في صناعة المنطق أن للبيدهيات مراتب، فالأوليات أبدية من المشاهدات بمراتب، والثانية أبدية من التجريبات، والثالثة أبدية من الحدسيات، والرابعة أبدية من المتواترات، والخامسة أبدية من الفطريات. _____ ١ . كشف المراد: ١٨٦-١٨٧، ط صيدا.

(٢٨١)

والضابط في ذلك أن ما لا يتوقف التصديق به على واسطة سوى تصور الطرفين فهو أبدية من غيره، وذلك مثل الأوليات، وهكذا. فلو صح ما ذكره الأشاعرة من الملازمة، لزم أن لا تكون الحدسيات من اليقينية. وباختصار: إن العلوم اليقينية، مع كثرتها، ليست على نمط واحد، بل لها مراتب ودرجات، وهذا شيء يلمسه الإنسان إذا مارس علومه ويقينياته. ٣. لو كان الحسن والقبح عقليين لما تغيرا إن الحسن والقبح لو كانا عقليين لَمَا اختلفا، أي لما حسن القبيح ولما قبح الحسن. والتالي باطل، فإن الكذب قد يحسن والصدق قد يقبح. وذلك فيما إذا تضمن الكذب إنقاذ نبي من الهلاك، والصدق إهلاكه. وباختصار: لو كان الكذب قبيحاً لذاته لما كان واجباً

ولا حسناً عندما توقفت عليه عصمه دم نبي عن ظالم يقصد قتله. وأجاب عنه المحقق الطوسي بقوله: «وارتكاب أقل القبيحين مع إمكان التخلص». (١) توضيحه: أن الكذب في الصورة الأولى على قبحه، وكذا الصدق على حسنه، إلا أن ترك إنقاذ النبي أقبح منه، فيحكم العقل بارتكاب أقل القبيحين تخلصاً من ارتكاب الأقيح. على أنه يمكن التخلص عن الكذب بالتعريض (أي التورية). وباختصار: إن تخلص النبي أرجح من حسن الصدق، فيكون تركه أقبح من الكذب، فيرجح ارتكاب أدنى القبيحين وهو الكذب لاشتماله على المصلحة العظيمة، على الصدق. _____ ١ . كشف المراد: ١٨٧.

(٢٨٢)

أضف إلى ذلك: أن الاستدلال مبني على كون قبح الكذب وحسن الصدق، كقبح الظلم وحسن العدل، ذاتيين لا يتغيران، لا على القول بأن الأفعال بالنسبة إلى الحسن والقبح على أقسام. منها ما يكون الفعل علة تامة لأحدهما، فلا يتغير حسنه ولا قبحه بعروض العوارض لحسن الإحسان وقبح الإساءة، ومنها ما يكون مقتضياً لأحدهما، فهو موجب للحسن لو لم يعرض عليه عنوان آخر، وهكذا في جانب القبح. وحسن الصدق وقبح الكذب من هذا القبيل. ومنها ما لا يكون علة ولا مقتضياً لأحدهما كالضرب، جزاءً أو إيذاءً. ثم إن لفساد الحسن والقبح العقليين دلالة واهية لا تليق أن تطرح على بساط البحث، فلنضرب صفحاً عنها. إلى هنا تم استعراض أدلة المنكرين للحسن والقبح العقليين، فيناسب - تكمياً للبحث - استعراض أدلة المثبتين وهو يتوقف على تبين ما هو الملاك عند العقل للحكم بأن الفعل الكذائي حسن أو قبيح، ولنقدم البحث في ذلك، ثم تتبعه بذكر براهين المثبتين. ما هو الملاك لدرك العقل في هذا المجال؟

إن الملاك لقضاء العقل هو أنه يجد بعض الأفعال موافقاً للجانب الأعلى من الإنسان والوجه المثالي في الوجود البشري، كما يجد بعضها الآخر غير موافق معه، وإن شئت قلت: إنه يدرك أن بعض الأفعال كمال للموجود الحي المختار، وبعضها الآخر نقص له، فيحكم بحسن الأول ولزوم الاتصاف به، وقبح الثاني ولزوم تركه. توضيح ذلك: أن الحكماء قسموا العقل إلى عقل نظري وعقل عملي، فقد قال المعلم الثاني: «إن النظرية هي التي بها يجوز الإنسان علم ما ليس من شأنه يعمل إنسان والعملي هي التي يعرف بها ما من شأنه أن يعمل الإنسان بإرادته». قال الحكيم السبزواري في توضيحه: إن العقل النظري والعقل (٢٨٣)

العملي من شأنهما التعقل، لكن النظري، شأنه العلوم الصرفة غير المتعلقة بالعمل، مثل: «الله موجود واحد»، و«أن صفاته عين ذاته» ونحو ذلك، والعملي شأنه العلوم المتعلقة بالعمل مثل: «التوكل حسن» و«الرضى والتسليم والصبر محمود». وهذا العقل هو المستعمل في علم الأخلاق، فليس العقلان كقوتين متباينتين أو كضميتين، بل هما كجهتين لشيء واحد وهو الناطقة. (١) ثم، كما أن في الحكمة النظرية قضايا نظرية تنتهي إلى قضايا بديهية، ولولا ذلك لعقدت القياسات وصارت غير منتجة، فهكذا في الحكمة العملية، قضايا غير معلومة لا تعرف إلا بالانتهاة إلى قضايا ضرورية، وإلا لما عرف الإنسان شيئاً من قضايا الحكمة العملية، فكما أن العقل يدرك القضايا البديهية في الحكمة النظرية من صميم ذاتها، فهكذا يدرك بديهيات القضايا في الحكمة العملية من صميم ذاتها بلا حاجة إلى تصور شيء آخر. مثلاً: إن كل القضايا النظرية يجب أن تنتهي إلى قضية امتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما، بحيث لو ارتفع التصديق بها لما أمكن التصديق بشيء من القضايا، ولذا تسمى بـ «أم القضايا»؛ مثلاً: لا يحصل اليقين بأن زوايا المثلث تساوي زاويتين، قائمتين، إلا إذا حصل قبله امتناع صدق نقيض تلك القضية، أي عدم مساواتها لهما، وإلا فلو احتمل صدق النقيض لما حصل اليقين بالنسبة. ولأجل ذلك اتفقت كلمة الحكماء على أن إقامة البرهان على المسائل النظرية إنما تتم إذا انتهى البرهان إلى أم القضايا التي قد عرفت، وعلى ضوء هذا البيان نقول: كما أن للقضايا النظرية في العقل النظري قضايا بديهية أو قضايا أولية تنتهي إليها، فهكذا القضايا غير الواضحة في العقل العملي يجب أن تنتهي إلى قضايا أولية وواضحة عند ذلك العقل، بحيث لو ارتفع التصديق بهذه القضايا في الحكمة العملية لما صح التصديق بقضية من القضايا فيها. فمن تلك القضايا البديهية في العقل العملي مسألة التحسين والتقبيح العقليين الثابتين لجملة من القضايا، مثل قولنا: «العدل حسن» و «الظلم _____ ١ . تعليقات الحكيم السبزواري على شرح المنظومة:

قبيح» و «جزاء الإحسان بالإحسان حسن وبالإساءة قبيح». فهذه القضايا قضايا أولية في الحكمة العملية، والعقل يدررها من ملاحظة القضية بنفسها، وفي ضوئها يحكم بما ورد في مجال العقل العملي من الأحكام المربوطة بالأخلاق أولاً، وتدير المنزل ثانياً، وسياسة المدن ثالثاً، التي يبحث عنها في العقل العملي. وليس استقلال العقل في تلك القضايا الأولية الراجعة إلى العقل العملي إلا لأجل أنه يجدها إما ملائمة للجانب العالي من الإنسانية، المشترك بين جميع أفراد الإنسان، أو منافرة له. وبذلك تصبح قضية التحسين والتقيح في قسم من الأفعال، قضية كلية لا تختص بزمان دون زمان، ولا جيل دون جيل. بل لا تختص - في كونها كملاً أو نقصاً - بالإنسان، بل تعم الموجود الحي المدرك المختار، لأنّ العقل يدررها بصورة قضية عامة شاملة لكل من يمكن أن يتصف بهذه الأفعال، كالعدل والظلم فهو يدرك أنّ الأول حسن عن الجميع ومن الجميع، والثاني قبيح كذلك، وليس للإنسان خصوصية في ذلك القضاء. وبذلك يصبح المدعى للتحسين والتقيح العقلين الذاتيين في غنى عن البرهنة لما يتبناه، كما أنّ المدعى لامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما كذلك. والعجب أنّ الحكماء والمتكلمين اتفقوا على أنه يجب انتهاء القضايا النظرية في العقل النظري إلى قضايا بديهية، وإلا - عقت الأقيسة ولزم التسلسل في مقام الاستنتاج، ولكنهم غفلوا عن إجراء ذلك الأصل في جانب العقل العملي، ولم يقسموا القضايا العملية إلى فكرية وبديهية، أو نظرية وضرورية، كيف والاستنتاج والجزم بالقضايا الواردة في مجال العقل العملي لا يتم إذا انتهى العقل إلى قضايا واضحة في ذلك المجال. فالمسائل المطروحة في الأخلاق، التي يجب الاتصاف بها والتنزه عنها، أو المطروحة في القضايا البيئية والعائلية التي يعبر عنها تدير المنزل، أو القضايا المبحوث عنها في علم السياسة وتدير المدن، ليست في الوضوح على نمط واحد، بل لها درجات ومراتب. فلا ينال العقل الجزم بكلّ القضايا العملية إلا إذا كانت هناك قضايا بديهية (٢٨٥)

واضحة تبني عليها القضايا المجهولة العملية، حتى يحصل الجزم بها، ويرتفع الإبهام عن وجهها. ولأجل ذلك فالقائل بالتحسين والتقيح العقلين في غنى عن التوسع في طرح أدلته القائلين بالتحسين والتقيح، ولا نذكر إلا النزر اليسير، وإليك بعض أدلتهم: أدلته القائلين بالتحسين والتقيح العقلين

الأول: ما أشار إليه المحقق الطوسي بقوله: «ولانتفائهما مطلقاً لو ثبتا شرعاً» (١) مفاده: إنّه لو قلنا بأنّ الحسن والقبح يثبتان شرعاً يلزم من ذلك عدم ثبوتهما بالشرع أيضاً. توضيحه: إنّ الحسن والقبح لو كانا بحكم العقل، بحيث كان العقل مستقلاً في إدراك حسن الصدق وقبح الكذب، فلا إشكال في أنّ ما أمر به الشارع يكون حسناً، وما نهى عنه يكون قبيحاً، لحكم العقل بأنّ الكذب قبيح، والشارع لا يرتكب القبيح، ولا يتصور في حقه ارتكابه. وأمّا لو لم يستقل العقل بذلك، فلو أمر بشيء أو نهى عنه أو أخبر بحسن الصدق وقبح الكذب فلا يحسن لنا الجزم بكونه صادقاً في كلامه، حتى نعتقد بمضمونه، لاحتمال عدم صدق الشارع في أمره أو إخباره، فإنّ الكذب حسب الفرض لم يثبت قبحه بعد، حتى لو قال الشارع بأنّه لا يكذب، لم يحصل لنا اليقين بصدقه حتى في هذا الإخبار، فيلزم على قول الأشعري أن لا يتمكن الإنسان من الحكم بحسن شيء لا عقلاً ولا شرعاً. وإن شئت قلت: لو لم يستقل العقل بحسن بعض الأفعال وقبح بعضها الآخر، كالصدق والكذب، فلا يستقل بقبح صدور الكذب من الله سبحانه. فإذا أخبرنا عن طريق أنبيائه بأنّ الفعل الفلاني حسن أو قبيح لم نجزم بصدق كلامه لتجوز الكذب عليه. ثمّ إنّ الفاضل القوشجي الأشعري أجاب عن هذا الاستدلال بقوله: ١ . كشف المراد: ١٨٦.

إنّا لا نجعل الأمر والنهي دليلي الحسن والقبح ليرد ما ذكر، بل نجعل الحسن عبارة عن كون الفعل متعلق الأمر والمدح، والقبح عبارة عن كونه متعلق النهي والذم. (١) يلاحظ عليه: أنّ البحث تارة يقع في التسمية والمصطلح، فيصحّ أن يقال: إنّ ما وقع متعلق الأمر والمدح حسن، وما وقع متعلق النهي والذم قبيح. والعلم بذلك لا يتوقف إلا على سماعهما من الشرع. وأخرى يقع في الوقوف على

الحسن أو القبح الواقعيين عند الشرع، فهذا ممّا لا يمكن استكشافه من مجرد سماع تعلق الأمر والنهي بشيء، إذ من المحتمل أن يكون الشارع عابثاً في أمره ونهيه. ولو قال إنه ليس بعابث، لا يثبت به نفى احتمال العابثية عن فعله وكلامه، لاحتمال كونه هازلاً أو كاذباً في كلامه، فلاجل ذلك يجب أن يكون بين الإدراكات العقلية شيء لا يتوقف درك حسنه وقبحه على شيء، وأن يكون العقل مستقلاً في دركه، وهو حسن الصدق وقبح الكذب حتى يستقل العقل بذلك، على أن كلّ ما حكم به الشرع فهو صادق في قوله، فيثبت عندئذ أن ما تعلق به الأمر حسن شرعاً، وما تعلق به النهي قبيح شرعاً. وهذا ما يهدف إليه المحقق الطوسي من أنه لولا استقلال العقل في بعض الأفعال ما ثبت حسن ولا قبح بتاتاً. الثاني: ما أشار إليه المحقق الطوسي أيضاً بقوله: «ولجاز التعاكس في الحسن والقبح». (٢) توضيحه: أن الشارع على القول بشرعية الحسن والقبح يجوز له أن يحسن ما قبحه العقل أو يقبح ما حسنه. وعلى هذا يلزم جواز تقييح الإحسان وتحسين الإساءة وهو باطل بالضرورة. فإنّ وجدان كلّ إنسان يقضى بأنه لا- يصحّ أن يذم المحسن أو يمدح

_____ ١. شرح التجريد للفاضل القوشجي: ٢٠٤٢. ٢. كشف المراد: ١٨٦.

(٢٨٧)

المسيء. قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : «ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء» (١). والإمام يهدف بكلمته هذه إلى إيقاظ وجدان عامله، ولا يطرحه بما أنه كلام جديد غفل عنه عامله. الثالث: لو كان الحسن والقبح شرعيين لما حكم بهما البراهمة والملاحدة الذين ينكرون الشرائع، ولكن يحكمون بذلك مستندين إلى العقل. وهؤلاء الماديون والملحدون في الشرق والغرب يرفضون الشرائع والدين من أساسه، ومع ذلك يعترفون بحسن أفعال وقبح بعضها الآخر. ولأجل ذلك يغرون شعوب العالم بطرح مفاهيم خداعة، بدعاياتهم الخبيثة، من قبيل دعم الصلح والسلام العالمي، وحفظ حقوق البشر والعناية بالأسرى والسجناء ونبد التمييز العنصري، إلى غير ذلك ممّا يستحسنه الذوق الإنساني والعقل البشري في جميع الأوساط، يطرحون ذلك ليصلوا من خلال هذه الدعايات الفارغة إلى أهدافهم ومصالحهم الشخصية. ولولا كون هذه المفاهيم مقبولة عند عامة البشر لما استخدمها دعاة المادية والإلحاد في العالم. والحاصل: أنّ هناك أفعالاً لا يشك أحد في حسنها سواء أورد حسنها من الشرع أم لم يرد، كما أنّ هناك أفعالاً قبيحة عند الكلّ، سواء أورد قبحها من الشرع أم لا. ولأجل ذلك لو خيّر العاقل الذي لم يسمع بالشرائع، ولا علم شيئاً من الأحكام، بل نشأ في البوادي خالي الذهن من العقائد كلّها، بين أن يصدق ويعطى ديناراً، أو يكذب ويعطى ديناراً، ولا ضرر عليه فيهما فإنه يرجح الصدق على الكذب، ولولا قضاء الفطرة بحسن الصدق وقبح الكذب لما فرق بينهما، ولما اختار الصدق دائماً. وهذا يعرب عن أنّ العقل له القدرة على الحكم والقضاء في أمور ترجع إلى الفرد والمجتمع، فيحكم بحسن إطاعة وليه المنعم، وقبح مخالفته، وأنّ المحسن والمسيء ليسا بمنزلة سواء، ونحو ذلك. الرابع: لو كان الحسن والقبح باعتبار السمع، لما قبح من الله تعالى

_____ ١. نهج البلاغة قسم الرسائل برقم: ٥٣.

(٢٨٨)

شيء ولو كان كذلك لما قبح منه إظهار المعجزات على أيدي الكاذبين، وتجويز ذلك سدّ لباب معرفة الأنبياء، فإنّ أي نبي أتى بالمعجزات عقيب الإدعاء، لا يمكن تصديقه مع تجويز إظهار المعجزة على يد الكاذب في دعواه. وباختصار: لو جاز منه سبحانه فعل القبيح أو الإخلال بالواجب - الذي يسميه العقل قبيحاً أو إخلالاً بالواجب - لارتفع الوثوق بنبوة مدّعيها وإن أظهر الإعجاز، لتسويغ إظهار الإعجاز على يد الكاذب على الله سبحانه، ولا ترتفع الوثوق بوعدته ووعيده، لإمكان تطرّق الكذب عليه، وذلك يفضي إلى الشكّ في صدق الأنبياء، والاستدلال بالإعجاز على صدق مدّعي النبوة. وهذه النتيجة الباطلة من أهم وأبرز ما يترتب على إنكار القاعدة وبذلك سدّوا باب معرفة النبوة. والعجب أنّ الفضل بن روزهان حاول الإجابة عن هذا الدليل بقوله: عدم إظهار المعجزة على يد الكذابين ليس لكونه أمراً قبيحاً عقلاً، بل لعدم جريان عادة الله، الجاري مجرى المحال العادي بذلك، فعند ذلك لا ينسد باب معرفة الأنبياء، لأنّ العلم العادي حكم باستحالة هذا الإظهار. (١) يلاحظ عليه أولاً: أنّه من أين وقف على تلك العادة، وأنّ الله لا- يجري

الإعجاز على يد الكاذب؟ وثانياً: أنه لو كان التصديق متوقفاً على إحرار تلك العادة، لزم أن يكون المكذّبون لنبوة نوح أو من قبله و من بعده، معذورين في إنكارهم لنبوة الأنبياء، إذ لم يثبت عندهم تلك العادة، لأن العلم بتلك العادة يحصل من تكرر رؤية المعجزة على يد الصادقين دون الكاذبين. وباختصار: انّ تحصيل جريان عادة الله على أن لا يظهر المعجزة على يد الكاذب يجب أن يستند إلى مصدر، فإن كان المصدر هو العقل فهو معزول عند الأشاعرة، وإن كان هو السمع فالمفروض أنه يحتمل أن يكون الشرع كاذباً في هذا الادّعاء. _____ ١. دلائل الصدق: ١/٣٦٩.

(٢٨٩)

وبعبارة أخرى: لا سمح قبل ثبوت نبوة النبي. وحصيلة البحث: إن منكر الحسن والقيح، منكر لما هو من البديهيّات، ولا يصحّ الكلام معه، لأنّ النزاع ينقطع إذا بلغ إلى مقدّمات ضرورية، وهؤلاء ينازعون في نفس المقدّمات الضرورية، وليت شعري، إذا لم يحكم العقل بامتناع التكليف بما لا يطاق وجوز أن ينهى الله سبحانه العبد عن الفعل ويخلق فيه اضطراراً ويعاقبه عليه، فقل: لو لم يدركه العقل فأى شيء يدركه؟ قيل: اجتمع النظام والنجار للمناظرة، فقال النجار: لم تدفع أن يكلف الله عبادة ما لا يطيقون؟ فسكت النظام، فقيل له: لم سكت؟ قال: كنت أريد بمناظرته أن ألزمه القول بتكليف ما لا يطاق، فإذا التزمه ولم يستح، فبم ألزمه؟ التحسين والتقيح في الكتاب العزيز

إنّ التدبر في آيات الذكر الحكيم يعطى أنه يسلم وجود التحسين والتقيح العقلين خارج إطار الوحي، ثم يأمر بالحسن وينهى عن القبيح: ١. قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (١). (٢). (٣). (٤). (٥). (٦). (٧). (٨). (٩). (١٠). (١١). (١٢). (١٣). (١٤). (١٥). (١٦). (١٧). (١٨). (١٩). (٢٠). (٢١). (٢٢). (٢٣). (٢٤). (٢٥). (٢٦). (٢٧). (٢٨). (٢٩). (٣٠). (٣١). (٣٢). (٣٣). (٣٤). (٣٥). (٣٦). (٣٧). (٣٨). (٣٩). (٤٠). (٤١). (٤٢). (٤٣). (٤٤). (٤٥). (٤٦). (٤٧). (٤٨). (٤٩). (٥٠). (٥١). (٥٢). (٥٣). (٥٤). (٥٥). (٥٦). (٥٧). (٥٨). (٥٩). (٦٠). (٦١). (٦٢). (٦٣). (٦٤). (٦٥). (٦٦). (٦٧). (٦٨). (٦٩). (٧٠). (٧١). (٧٢). (٧٣). (٧٤). (٧٥). (٧٦). (٧٧). (٧٨). (٧٩). (٨٠). (٨١). (٨٢). (٨٣). (٨٤). (٨٥). (٨٦). (٨٧). (٨٨). (٨٩). (٩٠). (٩١). (٩٢). (٩٣). (٩٤). (٩٥). (٩٦). (٩٧). (٩٨). (٩٩). (١٠٠). (١٠١). (١٠٢). (١٠٣). (١٠٤). (١٠٥). (١٠٦). (١٠٧). (١٠٨). (١٠٩). (١١٠). (١١١). (١١٢). (١١٣). (١١٤). (١١٥). (١١٦). (١١٧). (١١٨). (١١٩). (١٢٠). (١٢١). (١٢٢). (١٢٣). (١٢٤). (١٢٥). (١٢٦). (١٢٧). (١٢٨). (١٢٩). (١٣٠). (١٣١). (١٣٢). (١٣٣). (١٣٤). (١٣٥). (١٣٦). (١٣٧). (١٣٨). (١٣٩). (١٤٠). (١٤١). (١٤٢). (١٤٣). (١٤٤). (١٤٥). (١٤٦). (١٤٧). (١٤٨). (١٤٩). (١٥٠). (١٥١). (١٥٢). (١٥٣). (١٥٤). (١٥٥). (١٥٦). (١٥٧). (١٥٨). (١٥٩). (١٦٠). (١٦١). (١٦٢). (١٦٣). (١٦٤). (١٦٥). (١٦٦). (١٦٧). (١٦٨). (١٦٩). (١٧٠). (١٧١). (١٧٢). (١٧٣). (١٧٤). (١٧٥). (١٧٦). (١٧٧). (١٧٨). (١٧٩). (١٨٠). (١٨١). (١٨٢). (١٨٣). (١٨٤). (١٨٥). (١٨٦). (١٨٧). (١٨٨). (١٨٩). (١٩٠). (١٩١). (١٩٢). (١٩٣). (١٩٤). (١٩٥). (١٩٦). (١٩٧). (١٩٨). (١٩٩). (٢٠٠). (٢٠١). (٢٠٢). (٢٠٣). (٢٠٤). (٢٠٥). (٢٠٦). (٢٠٧). (٢٠٨). (٢٠٩). (٢١٠). (٢١١). (٢١٢). (٢١٣). (٢١٤). (٢١٥). (٢١٦). (٢١٧). (٢١٨). (٢١٩). (٢٢٠). (٢٢١). (٢٢٢). (٢٢٣). (٢٢٤). (٢٢٥). (٢٢٦). (٢٢٧). (٢٢٨). (٢٢٩). (٢٣٠). (٢٣١). (٢٣٢). (٢٣٣). (٢٣٤). (٢٣٥). (٢٣٦). (٢٣٧). (٢٣٨). (٢٣٩). (٢٤٠). (٢٤١). (٢٤٢). (٢٤٣). (٢٤٤). (٢٤٥). (٢٤٦). (٢٤٧). (٢٤٨). (٢٤٩). (٢٥٠). (٢٥١). (٢٥٢). (٢٥٣). (٢٥٤). (٢٥٥). (٢٥٦). (٢٥٧). (٢٥٨). (٢٥٩). (٢٦٠). (٢٦١). (٢٦٢). (٢٦٣). (٢٦٤). (٢٦٥). (٢٦٦). (٢٦٧). (٢٦٨). (٢٦٩). (٢٧٠). (٢٧١). (٢٧٢). (٢٧٣). (٢٧٤). (٢٧٥). (٢٧٦). (٢٧٧). (٢٧٨). (٢٧٩). (٢٨٠). (٢٨١). (٢٨٢). (٢٨٣). (٢٨٤). (٢٨٥). (٢٨٦). (٢٨٧). (٢٨٨). (٢٨٩). (٢٩٠). (٢٩١). (٢٩٢). (٢٩٣). (٢٩٤). (٢٩٥). (٢٩٦). (٢٩٧). (٢٩٨). (٢٩٩). (٣٠٠). (٣٠١). (٣٠٢). (٣٠٣). (٣٠٤). (٣٠٥). (٣٠٦). (٣٠٧). (٣٠٨). (٣٠٩). (٣١٠). (٣١١). (٣١٢). (٣١٣). (٣١٤). (٣١٥). (٣١٦). (٣١٧). (٣١٨). (٣١٩). (٣٢٠). (٣٢١). (٣٢٢). (٣٢٣). (٣٢٤). (٣٢٥). (٣٢٦). (٣٢٧). (٣٢٨). (٣٢٩). (٣٣٠). (٣٣١). (٣٣٢). (٣٣٣). (٣٣٤). (٣٣٥). (٣٣٦). (٣٣٧). (٣٣٨). (٣٣٩). (٣٤٠). (٣٤١). (٣٤٢). (٣٤٣). (٣٤٤). (٣٤٥). (٣٤٦). (٣٤٧). (٣٤٨). (٣٤٩). (٣٥٠). (٣٥١). (٣٥٢). (٣٥٣). (٣٥٤). (٣٥٥). (٣٥٦). (٣٥٧). (٣٥٨). (٣٥٩). (٣٦٠). (٣٦١). (٣٦٢). (٣٦٣). (٣٦٤). (٣٦٥). (٣٦٦). (٣٦٧). (٣٦٨). (٣٦٩). (٣٧٠). (٣٧١). (٣٧٢). (٣٧٣). (٣٧٤). (٣٧٥). (٣٧٦). (٣٧٧). (٣٧٨). (٣٧٩). (٣٨٠). (٣٨١). (٣٨٢). (٣٨٣). (٣٨٤). (٣٨٥). (٣٨٦). (٣٨٧). (٣٨٨). (٣٨٩). (٣٩٠). (٣٩١). (٣٩٢). (٣٩٣). (٣٩٤). (٣٩٥). (٣٩٦). (٣٩٧). (٣٩٨). (٣٩٩). (٤٠٠). (٤٠١). (٤٠٢). (٤٠٣). (٤٠٤). (٤٠٥). (٤٠٦). (٤٠٧). (٤٠٨). (٤٠٩). (٤١٠). (٤١١). (٤١٢). (٤١٣). (٤١٤). (٤١٥). (٤١٦). (٤١٧). (٤١٨). (٤١٩). (٤٢٠). (٤٢١). (٤٢٢). (٤٢٣). (٤٢٤). (٤٢٥). (٤٢٦). (٤٢٧). (٤٢٨). (٤٢٩). (٤٣٠). (٤٣١). (٤٣٢). (٤٣٣). (٤٣٤). (٤٣٥). (٤٣٦). (٤٣٧). (٤٣٨). (٤٣٩). (٤٤٠). (٤٤١). (٤٤٢). (٤٤٣). (٤٤٤). (٤٤٥). (٤٤٦). (٤٤٧). (٤٤٨). (٤٤٩). (٤٥٠). (٤٥١). (٤٥٢). (٤٥٣). (٤٥٤). (٤٥٥). (٤٥٦). (٤٥٧). (٤٥٨). (٤٥٩). (٤٦٠). (٤٦١). (٤٦٢). (٤٦٣). (٤٦٤). (٤٦٥). (٤٦٦). (٤٦٧). (٤٦٨). (٤٦٩). (٤٧٠). (٤٧١). (٤٧٢). (٤٧٣). (٤٧٤). (٤٧٥). (٤٧٦). (٤٧٧). (٤٧٨). (٤٧٩). (٤٨٠). (٤٨١). (٤٨٢). (٤٨٣). (٤٨٤). (٤٨٥). (٤٨٦). (٤٨٧). (٤٨٨). (٤٨٩). (٤٩٠). (٤٩١). (٤٩٢). (٤٩٣). (٤٩٤). (٤٩٥). (٤٩٦). (٤٩٧). (٤٩٨). (٤٩٩). (٥٠٠). (٥٠١). (٥٠٢). (٥٠٣). (٥٠٤). (٥٠٥). (٥٠٦). (٥٠٧). (٥٠٨). (٥٠٩). (٥١٠). (٥١١). (٥١٢). (٥١٣). (٥١٤). (٥١٥). (٥١٦). (٥١٧). (٥١٨). (٥١٩). (٥٢٠). (٥٢١). (٥٢٢). (٥٢٣). (٥٢٤). (٥٢٥). (٥٢٦). (٥٢٧). (٥٢٨). (٥٢٩). (٥٣٠). (٥٣١). (٥٣٢). (٥٣٣). (٥٣٤). (٥٣٥). (٥٣٦). (٥٣٧). (٥٣٨). (٥٣٩). (٥٤٠). (٥٤١). (٥٤٢). (٥٤٣). (٥٤٤). (٥٤٥). (٥٤٦). (٥٤٧). (٥٤٨). (٥٤٩). (٥٥٠). (٥٥١). (٥٥٢). (٥٥٣). (٥٥٤). (٥٥٥). (٥٥٦). (٥٥٧). (٥٥٨). (٥٥٩). (٥٦٠). (٥٦١). (٥٦٢). (٥٦٣). (٥٦٤). (٥٦٥). (٥٦٦). (٥٦٧). (٥٦٨). (٥٦٩). (٥٧٠). (٥٧١). (٥٧٢). (٥٧٣). (٥٧٤). (٥٧٥). (٥٧٦). (٥٧٧). (٥٧٨). (٥٧٩). (٥٨٠). (٥٨١). (٥٨٢). (٥٨٣). (٥٨٤). (٥٨٥). (٥٨٦). (٥٨٧). (٥٨٨). (٥٨٩). (٥٩٠). (٥٩١). (٥٩٢). (٥٩٣). (٥٩٤). (٥٩٥). (٥٩٦). (٥٩٧). (٥٩٨). (٥٩٩). (٦٠٠). (٦٠١). (٦٠٢). (٦٠٣). (٦٠٤). (٦٠٥). (٦٠٦). (٦٠٧). (٦٠٨). (٦٠٩). (٦١٠). (٦١١). (٦١٢). (٦١٣). (٦١٤). (٦١٥). (٦١٦). (٦١٧). (٦١٨). (٦١٩). (٦٢٠). (٦٢١). (٦٢٢). (٦٢٣). (٦٢٤). (٦٢٥). (٦٢٦). (٦٢٧). (٦٢٨). (٦٢٩). (٦٣٠). (٦٣١). (٦٣٢). (٦٣٣). (٦٣٤). (٦٣٥). (٦٣٦). (٦٣٧). (٦٣٨). (٦٣٩). (٦٤٠). (٦٤١). (٦٤٢). (٦٤٣). (٦٤٤). (٦٤٥). (٦٤٦). (٦٤٧). (٦٤٨). (٦٤٩). (٦٥٠). (٦٥١). (٦٥٢). (٦٥٣). (٦٥٤). (٦٥٥). (٦٥٦). (٦٥٧). (٦٥٨). (٦٥٩). (٦٦٠). (٦٦١). (٦٦٢). (٦٦٣). (٦٦٤). (٦٦٥). (٦٦٦). (٦٦٧). (٦٦٨). (٦٦٩). (٦٧٠). (٦٧١). (٦٧٢). (٦٧٣). (٦٧٤). (٦٧٥). (٦٧٦). (٦٧٧). (٦٧٨). (٦٧٩). (٦٨٠). (٦٨١). (٦٨٢). (٦٨٣). (٦٨٤). (٦٨٥). (٦٨٦). (٦٨٧). (٦٨٨). (٦٨٩). (٦٩٠). (٦٩١). (٦٩٢). (٦٩٣). (٦٩٤). (٦٩٥). (٦٩٦). (٦٩٧). (٦٩٨). (٦٩٩). (٧٠٠). (٧٠١). (٧٠٢). (٧٠٣). (٧٠٤). (٧٠٥). (٧٠٦). (٧٠٧). (٧٠٨). (٧٠٩). (٧١٠). (٧١١). (٧١٢). (٧١٣). (٧١٤). (٧١٥). (٧١٦). (٧١٧). (٧١٨). (٧١٩). (٧٢٠). (٧٢١). (٧٢٢). (٧٢٣). (٧٢٤). (٧٢٥). (٧٢٦). (٧٢٧). (٧٢٨). (٧٢٩). (٧٣٠). (٧٣١). (٧٣٢). (٧٣٣). (٧٣٤). (٧٣٥). (٧٣٦). (٧٣٧). (٧٣٨). (٧٣٩). (٧٤٠). (٧٤١). (٧٤٢). (٧٤٣). (٧٤٤). (٧٤٥). (٧٤٦). (٧٤٧). (٧٤٨). (٧٤٩). (٧٥٠). (٧٥١). (٧٥٢). (٧٥٣). (٧٥٤). (٧٥٥). (٧٥٦). (٧٥٧). (٧٥٨). (٧٥٩). (٧٦٠). (٧٦١). (٧٦٢). (٧٦٣). (٧٦٤). (٧٦٥). (٧٦٦). (٧٦٧). (٧٦٨). (٧٦٩). (٧٧٠). (٧٧١). (٧٧٢). (٧٧٣). (٧٧٤). (٧٧٥). (٧٧٦). (٧٧٧). (٧٧٨). (٧٧٩). (٧٨٠). (٧٨١). (٧٨٢). (٧٨٣). (٧٨٤). (٧٨٥). (٧٨٦). (٧٨٧). (٧٨٨). (٧٨٩). (٧٩٠). (٧٩١). (٧٩٢). (٧٩٣). (٧٩٤). (٧٩٥). (٧٩٦). (٧٩٧). (٧٩٨). (٧٩٩). (٨٠٠). (٨٠١). (٨٠٢). (٨٠٣). (٨٠٤). (٨٠٥). (٨٠٦). (٨٠٧). (٨٠٨). (٨٠٩). (٨١٠). (٨١١). (٨١٢). (٨١٣). (٨١٤). (٨١٥). (٨١٦). (٨١٧). (٨١٨). (٨١٩). (٨٢٠). (٨٢١). (٨٢٢). (٨٢٣). (٨٢٤). (٨٢٥). (٨٢٦). (٨٢٧). (٨٢٨). (٨٢٩). (٨٣٠). (٨٣١). (٨٣٢). (٨٣٣). (٨٣٤). (٨٣٥). (٨٣٦). (٨٣٧). (٨٣٨). (٨٣٩). (٨٤٠). (٨٤١). (٨٤٢). (٨٤٣). (٨٤٤). (٨٤٥). (٨٤٦). (٨٤٧). (٨٤٨). (٨٤٩). (٨٥٠). (٨٥١). (٨٥٢). (٨٥٣). (٨٥٤). (٨٥٥). (٨٥٦). (٨٥٧). (٨٥٨). (٨٥٩). (٨٦٠). (٨٦١). (٨٦٢). (٨٦٣). (٨٦٤). (٨٦٥). (٨٦٦). (٨٦٧). (٨٦٨). (٨٦٩). (٨٧٠). (٨٧١). (٨٧٢). (٨٧٣). (٨٧٤). (٨٧٥). (٨٧٦). (٨٧٧). (٨٧٨). (٨٧٩). (٨٨٠). (٨٨١). (٨٨٢). (٨٨٣). (٨٨٤). (٨٨٥). (٨٨٦). (٨٨٧). (٨٨٨). (٨٨٩). (٨٩٠). (٨٩١). (٨٩٢). (٨٩٣). (٨٩٤). (٨٩٥). (٨٩٦). (٨٩٧). (٨٩٨). (٨٩٩). (٩٠٠). (٩٠١). (٩٠٢). (٩٠٣). (٩٠٤). (٩٠٥). (٩٠٦). (٩٠٧). (٩٠٨). (٩٠٩). (٩١٠). (٩١١). (٩١٢). (٩١٣). (٩١٤). (٩١٥). (٩١٦). (٩١٧). (٩١٨). (٩١٩). (٩٢٠). (٩٢١). (٩٢٢). (٩٢٣). (٩٢٤). (٩٢٥). (٩٢٦). (٩٢٧). (٩٢٨). (٩٢٩). (٩٣٠). (٩٣١). (٩٣٢). (٩٣٣). (٩٣٤). (٩٣٥). (٩٣٦). (٩٣٧). (٩٣٨). (٩٣٩). (٩٤٠). (٩٤١). (٩٤٢). (٩٤٣). (٩٤٤). (٩٤٥). (٩٤٦). (٩٤٧). (٩٤٨). (٩٤٩). (٩٥٠). (٩٥١). (٩٥٢). (٩٥٣). (٩٥٤). (٩٥٥). (٩٥٦). (٩٥٧). (٩٥٨). (٩٥٩). (٩٦٠). (٩٦١). (٩٦٢). (٩٦٣). (٩٦٤). (٩٦٥). (٩٦٦). (٩٦٧). (٩٦٨). (٩٦٩). (٩٧٠). (٩٧١). (٩٧٢). (٩٧٣). (٩٧٤). (٩٧٥). (٩٧٦). (٩٧٧). (٩٧٨). (٩٧٩). (٩٨٠). (٩٨١). (٩٨٢). (٩٨٣). (٩٨٤). (٩٨٥). (٩٨٦). (٩٨٧). (٩٨٨). (٩٨٩). (٩٩٠). (٩٩١). (٩٩٢). (٩٩٣). (٩٩٤). (٩٩٥). (٩٩٦). (٩٩٧). (٩٩٨). (٩٩٩). (١٠٠٠). (١٠٠١). (١٠٠٢). (١٠٠٣). (١٠٠٤). (١٠٠٥). (١٠٠٦). (١٠٠٧). (١٠٠٨). (١٠٠٩). (١٠١٠). (١٠١١). (١٠١٢). (١٠١٣). (١٠١٤). (١٠١٥). (١٠١٦). (١٠١٧). (١٠١٨). (١٠١٩). (١٠٢٠). (١٠٢١). (١٠٢٢). (١٠٢٣). (١٠٢٤). (١٠٢٥). (١٠٢٦). (١٠٢٧). (١٠٢٨). (١٠٢٩). (١٠٣٠). (١٠٣١). (١٠٣٢). (١٠٣٣). (١٠٣٤). (١٠٣٥). (١٠٣٦). (١٠٣٧). (١٠٣٨). (١٠٣٩). (١٠٤٠). (١٠٤١). (١٠٤٢). (١٠٤٣). (١٠٤٤). (١٠٤٥). (١٠٤٦). (١٠٤٧). (١٠٤٨). (١٠٤٩). (١٠٥٠). (١٠٥١). (١٠٥٢). (١٠٥٣). (١٠٥٤). (١٠٥٥). (١٠٥٦). (١٠٥٧). (١٠٥٨). (١٠٥٩). (١٠٦٠). (١٠٦١). (١٠٦٢). (١٠٦٣). (١٠٦٤). (١٠٦٥). (١٠٦٦). (١٠٦٧). (١٠٦٨). (١٠٦٩). (١٠٧٠). (١٠٧١). (١٠٧٢). (١٠٧٣). (١٠٧٤). (١٠٧٥). (١٠٧٦). (١٠٧٧). (١٠٧٨). (١٠٧٩). (١٠٨٠). (١٠٨١). (١٠٨٢). (١٠٨٣). (١٠٨٤). (١٠٨٥). (١٠٨٦). (١٠٨٧). (١٠٨٨). (١٠٨٩). (١٠٩٠). (١٠٩١). (١٠٩٢). (١٠٩٣). (١٠٩٤). (١٠٩٥). (١٠٩٦). (١٠٩٧). (١٠٩٨). (١٠٩٩). (١١٠٠). (١١٠١). (١١٠٢). (١١٠٣). (١١٠٤). (١١٠٥). (١١٠٦). (١١٠٧). (١١٠٨). (١١٠٩). (١١١٠). (١١١١). (١١١٢). (١١١٣). (١١١٤). (١١١٥). (١١١٦). (١١١٧). (١١١٨). (١١١٩). (١١٢٠). (١١٢١). (١١٢٢). (١١٢٣). (١١٢٤). (١١٢٥). (١١٢٦). (١١٢٧). (١١٢٨). (١١٢٩). (١١٣٠). (١١٣١). (١١٣٢). (١١٣٣). (١١٣٤). (١١٣٥). (١١٣٦). (١١٣٧). (١١٣٨). (١١٣٩). (١١٤٠). (١١٤١). (١١٤٢). (١١٤٣). (١١٤٤). (١١٤٥). (١١٤٦). (١١٤٧). (١١٤٨). (١١٤٩). (١١٥٠). (١١٥١). (١١٥٢). (١١٥٣). (١١٥٤). (١١٥٥). (١١٥٦). (١١٥٧). (١١٥٨). (١١٥٩). (١١٦٠). (١١٦١). (١١٦٢). (١١٦٣). (١١٦٤). (١١٦٥). (١١٦٦). (١١٦٧). (١١٦٨). (١١٦٩). (١١٧٠). (١١٧١). (١١٧٢). (١١٧٣). (١١٧٤). (١١٧٥). (١١٧٦). (١١٧٧). (١١٧٨). (١١٧٩). (١١٨٠). (١١٨١). (١١٨٢). (١١٨٣). (١١٨٤). (١١٨٥). (١١٨٦). (١١٨٧). (١١٨٨). (١١٨٩). (١١٩٠). (١١٩١). (١١٩٢). (١١٩٣). (١١٩٤). (١١٩٥). (١١٩٦). (١١٩٧). (١١٩٨). (١١٩٩). (١٢٠٠). (١٢٠١). (١٢٠٢). (١٢٠٣). (١٢٠٤). (١٢٠٥). (١٢٠٦). (١٢٠٧). (١٢٠٨). (١٢٠٩). (١٢١٠). (١٢١١). (١٢١٢). (١٢١٣). (١٢١٤). (١٢١٥). (١٢١٦). (١٢١٧). (١٢١٨). (١٢١٩). (١٢٢٠). (١٢٢١). (١٢٢٢). (١٢٢٣). (١٢٢٤). (١٢٢٥). (١٢٢٦). (١٢٢٧). (١٢٢٨). (١٢٢٩). (١٢٣٠). (١٢٣١). (١٢٣٢). (١٢٣٣). (١٢٣٤). (١٢٣٥). (١٢٣٦). (١٢٣٧). (١٢٣٨). (١٢٣٩). (١٢٤٠). (١٢٤١). (١٢٤٢). (١٢٤٣). (١٢٤٤). (١٢٤٥). (١٢٤٦). (١٢٤٧). (١٢٤٨). (١٢٤٩). (١٢٥٠). (١٢٥١). (١٢٥٢). (١٢٥٣). (١٢٥٤). (١٢٥٥). (١٢٥٦). (١٢٥٧). (١٢٥٨). (١٢٥٩). (١٢٦٠). (١٢٦١). (١٢٦٢). (١٢٦٣). (١٢٦٤). (١٢٦٥). (١٢٦٦). (١٢٦٧). (١٢٦٨). (١٢٦٩). (١٢٧٠). (١٢٧١). (١٢٧٢). (١٢٧٣). (١٢٧٤). (١٢٧٥). (١٢٧٦). (١٢٧٧). (١٢٧٨). (١٢٧٩). (١٢٨٠). (١٢٨١). (١٢٨٢). (١٢٨٣). (١٢٨٤). (١٢٨٥). (١٢٨٦). (١٢٨٧). (١٢٨٨). (١٢٨٩). (١٢٩٠). (١٢٩١). (١٢٩٢). (١٢٩٣). (١٢٩٤). (١٢٩٥). (١٢٩٦). (١٢٩٧). (١٢٩٨). (١٢٩٩). (١٣٠٠). (١٣٠١). (١٣٠٢). (١٣٠٣). (١٣٠٤). (١٣٠٥). (١٣٠٦). (١٣٠٧). (١٣٠٨). (١٣٠٩). (١٣١٠). (١٣١١). (١٣١٢). (١٣١٣). (١٣١٤). (١٣١٥). (١٣١٦). (١٣١٧). (١٣١٨). (١٣١٩). (١٣٢٠). (١٣٢١). (١٣٢٢). (١٣٢٣). (١٣٢٤). (١٣٢٥). (١٣٢٦). (١٣٢٧). (١٣٢٨). (١٣٢٩). (١٣٣٠). (١٣٣١). (١٣٣٢). (١٣٣٣). (١٣٣٤). (١٣٣٥). (١٣٣٦). (١٣٣٧). (١٣٣٨). (١٣٣٩). (١٣٤٠). (١٣٤١). (١٣٤٢). (١٣٤٣). (١٣٤٤). (١٣٤٥). (١٣٤٦). (١٣٤٧). (١٣٤٨). (١٣٤٩). (١٣٥٠). (١٣٥١). (١٣٥٢). (١٣٥٣). (١٣٥٤). (١٣٥٥). (١٣٥٦). (١٣٥٧). (١٣٥٨). (١٣٥٩). (١٣٦٠). (١٣٦١). (١٣٦٢). (١٣٦٣). (١٣٦٤). (١٣٦٥). (١٣٦٦). (١٣٦٧). (١٣٦٨). (١٣٦٩). (١٣٧٠). (١٣٧١). (١٣٧٢). (١٣٧٣). (١٣٧٤). (١٣٧٥). (١٣٧٦). (١٣٧٧). (١٣٧٨). (١٣

على القول بعدمه فلا يجب ذلك لا عقلاً ولا شرعاً، كما عرفت في سابقه. ونتيجة ذلك إن التارك للنظر معذور، لأنه لم يطلع على حقيقة الأمر. ٣. العلم بصدق دعوى النبوة إذا اقترنت دعوة المتنبى بالمعجز والبيّنات الواضحة، فلو قلنا باستقلال العقل في مجال الحسن والقبح، حكمنا بصدقه، لقبح إعطاء البيّنات للمدّعى الكذاب، لما فيه من إضلال الناس. وأما إذا عزلنا العقل عن الحكم في المقام، فلا- دليل على كونه نبياً صادقاً، والشرع بعد لم يثبت حتى يحكم بصدقه. ٤. قبح العقاب بلا بيان اتفق الأصوليون على قبح العقاب بلا بيان، وعليه بنوا أصالة البراءة في الشبهات غير المقترنة بالعلم الإجمالي. وهذا يتم بالقول بالتحسين والتقيح العقليين. نعم هذا إنما يفيد إذا لم تثبت البراءة من الشرع، بواسطة الكتاب والسنة، والمفروض أن البحث فيها بعد ثبوت الشرع. (٢٩٢)

٥. الخاتمية إن استقلال العقل بالتحسين والتقيح، بالمعنى الذى عرفت من الملاءمة للفطرة العلوية أو المنافرة لها، أساس الخاتمية، وبقاء أحكام الإسلام وخلودها إلى يوم القيامة. فإن الحكم بالحسن والقبح - على ما عرفت - ليس إلا كون الشيء موافقاً للفطرة العلوية أو منافراً لها. وبما أن الفطرة مشتركة بين جميع الأفراد، فيصبح ما تستحسنه الفطرة أو تستقبحه خالداً إلى يوم القيامة. ولأجل ذلك لا يتطرق التبدل والتغير إلى أحكامه وإن تبدلت الحضارات وتطورت المدنيات، فإن تبدلها لا يمس فطرة الإنسان ولا يغير جبلته. ٦. لزوم بعث الأنبياء إن مسألة لزوم إرسال الرسل تبتنى على تلك المسألة، فالعقل يدرك بأن الإنسان لم يخلق سدى، بل خلق لغاية، ولا يصل إليها إلا بالهداية التشريعية الإلهية. فيستقل بلزوم بعث الدعاة من الله لهداية البشر دفعاً للغو. ٧. ثبات الأخلاق أو تطورها إن مسألة ثبات الأخلاق في جميع العصور والحضارات أو تبدلها تبعاً لاختلافها، ممّا طرح مؤخراً عند الغربيين، ودارت حولها مناقشات وأبدت فيها الآراء. فمن قائل بثبات أصولها، ومن قائل بتبدلها وتغيرها حسب الأنظمة والحضارات. ولكن المسألة لا تنحل إلا في ضوء التحسين والتقيح العقليين، الناشئين من قضاء الجبله الإنسانية العالية، فعند ذلك تتسم أصول الأخلاق بسمة الثبات والخلود، في ضوء ثبات الفطرة، وأما ما يتغير بتغير الحضارات، فإنما هو العادات والتقاليد العرفية. خذ على ذلك مثلاً «إكرام المحسن» فإنه أمر يستحسنه العقل ويضفي عليه سمة الخلود، وليس هذا الحكم متغيراً أبداً، وإنما المتغير وسائل الإكرام وكيافياته، فإذا الأصول ثابتة، والعادات والتقاليد متغيرة، وليست الأخيرة إلا ثوباً للأصول. (٢٩٣)

٨. عادل لا يجوز إن مقتضى التحسين والتقيح العقليين - على ما عرفت - هو أن العقل - بما هو هو - يدرك أن هذا الشيء - بما هو هو - حسن أو قبيح، وأن أحد هذين الوصفين ثابت للشيء - بما هو هو - من دون دخالة ظرف من الظروف أو قيد من القيود، ومن دون دخالة درك مدرك خاص، بل الشيء يتمتع بأحد الوصفين بما هو هو. وعلى ذلك فالعقل في تحسينه وتقيحه يدرك واقعية عامة، متساوية بالنسبة إلى جميع المدركين والفاعلين، من غير فرق بين الممكن والواجب. فالعدل حسن ويمدح فاعله عند الجميع، والظلم قبيح ويذم فاعله عند الجميع، وعلى هذا الأساس فالله سبحانه، المدرك للفعل ووصفه - أعنى: استحقاق الفاعل للمدح أو الذم من غير خصوصية للفاعل - كيف يقوم بفعل يحكم هو نفسه بأن فاعله مستحق للذم، أو يقوم بفعل يحكم هو بأنه يجب التتره عنه؟ وعلى ذلك فهو سبحانه عادل، لأن الظلم قبيح والعدل حسن، ولا يصدر القبيح من الحكيم. فالأصاف بالعدل من شؤون كونه حكيماً منزهاً عما لا ينبغي له. وإن شئت قلت: إن الإنسان يدرك أن القيام بالعدل كمال مطلق لكل أحد، وارتكاب الظلم نقص لكل أحد. وهو كذلك - حسب إدراك العقل - عنده سبحانه. ومعه: كيف يمكن أن يرتكب الواجب تعالى خلافاً للكمال ويقوم بما يجزى النقص إليه؟ دفع إشكال

ربما يقال إن كون الشيء حسناً عند الإنسان أو قبيحاً عنده، لا يدل على كونه كذلك عند الله سبحانه. فكيف يمكن استكشاف أنه لا يترك الواجب ولا يرتكب القبيح؟ (٢٩٤)

والإجابة عنه واضحة، لأن مغزى القاعدة السالفة هو أن الإنسان يدرك حسن العدل وقبح الظلم من كل مدرك شاعر، ولكل عاقل حكيم، من غير فرق بين الظروف والفواعل. وهذا نظير درك الزوجية للأربعة، فالعقل يدرك كونها زوجاً عند الجميع، لا- عند خصوص الممكن. فليس المقام من باب إسراء حكم الإنسان الممكن إلى الواجب تعالى. بل المقام من قبيل استكشاف قاعدة عامة

ضروريةً بديهيةً عند جميع المدركين، من غير فرق بين خالقهم ومخلوقهم. ولا يختص هذا الأمر بهذه القاعدة، بل جميع القواعد العامة في الحكمة النظرية كذلك. وعلى هذا يثبت تنزّهه سبحانه عن كل قبيح، واتّصافه بكلّ كمال في مقام الفعل، فيثبت كونه تعالى حكيمًا عادلاً لا يرتكب اللغو وما يجب التنزّه عنه، كما لا يرتكب الجور والعدوان. مكانة العدل في العقائد الإسلامية إنّ هذا البحث الضافي حول التحسين والتقييح العقليين، وما يترتب عليهما من الآثار، التي عرفت بعضها، يوقفنا على مكانة العدل في العقائد الإسلامية، إذ الاعتقاد بالعدل من شعب الاعتقاد بالتحسين والتقييح العقليين، وقد عرفت أنّه لولا القول به لارتفع الوثوق بوعدّه ووعيدّه، وامتنع حصول الوثوق بمعاجز مدعى النبوة، وعزل العقل في درك التحسين والتقييح في الأفعال يستلزم انخرام كثير من العقائد الإسلامية، ولأجل هذه الأهمية والمنزلة تضافرت الآيات والروايات مركزة على قيامه سبحانه بالقسط. العدل في الذكر الحكيم قال سبحانه: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ). (١) وكما شهد على ذاته بالقيام بالقسط، عرّف الغاية من بعثه الأنبياء بإقامة القسط بين الناس. قال سبحانه: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ). (٢) كما صرح بأنّ القسط هو الحجر الأساس في محاسبة العباد يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) (٣). إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول العدل والقسط. وهذه الآيات إرشادات إلى ما يدركه العقل من صميم ذاته، بأنّ العدل كمال لكلّ موجود ————— ١. آل عمران: ١٨. ٢. الحديد: ٢٥. ٣. الأنبياء: ٤٧.

(٢٩٥)

حي، مدرك مختار، وأنّه يجب أن يوصف الله به في أفعاله في الدنيا والآخرة، وأنّه يجب أن يقوم سفرأوه به. العدل في التشريع الإسلامي

وهذه المكانة التي يحتلها العدل هي التي جعلته سبحانه يعرف أحكامه ويصف تشريعاته بالعدل. وأنّه لا يشرع إلّا ما كان مطابقاً له. يقول سبحانه: (وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). (١) فالجزء الأول من الآية ناظر إلى عدله سبحانه بين العباد في تشريع الأحكام، كما أنّ الجزء الثاني ناظر إلى عدالته يوم الجزاء في مكافأته، وعلى كلّ تقدير فإنّ شعار الذكر الحكيم هو: (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). (٢) ————— ١. المؤمنون: ٦٢. ٢. النحل: ٣٣.

(٢٩٦)

وهذا يكشف عن عدالته في التشريع والجزاء، كما يكشف عن تعلّق إرادته بإقامة العدل ورعاية القسط. (١) ويتفرع على هذا الأصل مسألة نفى الجبر عن أفعال البشر، وبما أنّ تحقيق هذه المسألة يحتاج إلى إسهاب في أدلّة الطرفين نرجى البحث عنها إلى وقت تبين عقائد المعتزلة. ————— ١. إنّ توصيفه سبحانه بالعدل ربما يثير أسئلة حول عدله، وقد أخذتها الملاحدة ذريعةً للتشكيك:

١. إذا كان عادلاً فما معنى المصائب والبلايا التي تحلّ بالإنسان في حياته؟ ٢. ما هذا الاختلاف في المواهب والقابليات لدى الأفراد؟ ٣. ما هي الحكمة في خلق العاهات الجسمية أو العقلية؟ ٤. ما هي الحكمة في الفقر والشقاء والجوع التي تعاني منها مجموعات كبيرة من البشر؟ إلى غير ذلك ممّا يشابه هذه الأسئلة. وقد أجبنا عنها في كتاب «الله خالق الكون» فلاحظ: ص ٩٧-٩٩ و ص ٢٦٩، ٢٨١. (٢٩٧)

خاتمة المطاف

خاتمة المطاف

نذكر فيها أمرين هامّين: الأول: الإيعاز إلى المنافسة المستمرة بين الحنابلة والأشاعرة. الثاني: ترجمة عدّه من شخصيات الأشاعرة البارزة، الذين نضج بهم المذهب وكمّلت بهم أركانه، وإليك البيان: المنافسة والمنافرة بين الحنابلة والأشاعرة

إنّ المنافرة بين الطائفتين كانت قائمة على قدم وساق منذ ظهور مذهب الإمام الأشعري بين أهل السنّة واستقطب مجموعة كبيرة من العلماء، واشتهر مذهباً خاصاً بين أهل السنّة، ولكن الحنابلة منذ أن تاب الأشعري عن الاعتزال وادّعى أنّه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لم يقبلوا منه [ذلك]. وقد عرفت كلمة البرهاري عندما ذكر له الشيخ، ما نقلناه عنه سابقاً. (١) وقد تجلّت تلك المنافسة عبر الزمان بصور مختلفة من مرحلة ضعيفة إلى مرحلة قوية أدت إلى الضرب و الشتم وحبس مشايخ الأشاعرة ونفيهم من أوطانهم، ولأجل إيقاف القارئ على هذه المنافرة تأتي ببعض ما يدلّ على ذلك: _____ ١. لاحظ ص ٣٠ من هذا الكتاب.

(٢٩٨)

١. ترجمة الشيخ في كتب الذهبي إنّ الشيخ الذهبي لم يقم بترجمة الشيخ على وجه يتلقاه الأشاعرة بالقبول، بل اشتمل كلامه على لذع ولدغ، وفي هذا يقول السبكي: وأنت إذا نظرت في ترجمة هذا الشيخ الذي هو شيخ السنّة وإمام الطائفة في تاريخ شيخنا الذهبي، ورأيت كيف مزّقتها وحرار كيف يضع من قدره، ولم يمكنه البوح بالغض منه خوفاً من سيف أهل الحق، ولا الصبر عن السكون لما جبلت عليه طويته من بغضه، بحيث اختصر ما شاء الله أن يختصر في مدحه، ثمّ قال في آخر الترجمة: «من أراد أن يتبحر في معرفة الأشعري فعليه بكتاب «تبيين كذب المفتري» لأبي القاسم ابن عساكر. توفنا على السنّة، وأدخلنا الجنة، واجعل أنفسنا مطمئنّة، نجب فيها أولياءك، ونبغض فيها أعداءك، ونستغفر للعصاة من عبادك، ونعمل بمحكم كتابك، ونؤمن بمتشابهه ونصفاك بما وصفت به نفسك». فعند ذلك تقضى العجب من هذا الذهبي، وتعلم إلى ماذا يشير المسكين؟! فويحه، ثم ويحه! إنّ الذهبي أستاذي، وبه تخرّجت في علم الحديث، إلاّ أنّ الحقّ أحقّ أن يتبع ويجب عليّ تبيين الحقّ فأقول: أمّا حوالتك على «تبيين كذب المفتري» وتقصيرك في مدح الشيخ، فكيف يسعك ذلك مع كونك لم تترجم مجسماً يشبه الله بخلقه إلاّ واستوفيت ترجمته؟! حتى إنّ كتابك مشتمل على ذكر جماعة من أصاغر المتأخرين من الحنابلة، الذين لا يؤبه إليهم، وقد ترجمت كلّ واحد منهم بأوراق عديدة، فهل عجزت أن توتّي ترجمة هذا الشيخ حقّها وتترجمه كما ترجمت من هو دونه بألف ألف طبقة. فأى غرض وهوى نفس أبلغ من هذا؟! وأقسم بالله يميناً برّة ما بك إلاّ أنّك لا تحب شياع اسمه بالخير، ولا تقدر في بلاد المسلمين على أن تفصح فيه بما عندك من أمره، وما تضمّره من الغموض منه، فإنّك لو أظهرت ذلك لتناولتك سيوف الله. وأمّا دعاؤك بما دعوت به، فهل هذا مكانه يا مسكين؟! وأمّا إشارتك بقولك: «نبغض أعداءك» إلى أنّ الشيخ من أعداء الله (٢٩٩)

وأنّك تتبغضه فسوف تقف معه بين يدي الله يوم يأتي وبين يديه طوائف العلماء من المذاهب الأربعة، والصالحين من الصوفيّة والجهابذة الحفاظ من المحدّثين، وتأتي أنت تتكسّع في ظلم (١) التجسيم الذي تدعى أنّك برىء منه وأنت من أعظم الدعاء إليه، وتزعم أنّك تعرف هذا الفن وأنت لا تفهم فيه نقيراً ولا قطميراً، وليت شعري من الذي يصف الله بما وصف به نفسه؟! من شبهه بخلقه؟! أمّن قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)؟ والأولى بي على الخصوص إمساك عنان الكلام في هذا المقام، فقد أبلغت، ثمّ احفظ لشيخنا حقّه وأمسك. (٢) (٢). استفتاء يتعلّق بحال الشيخ وقد كتب استفتاء يتعلّق بحال الشيخ في زمان شيخ الأشاعرة أبي القاسم القشيري بخراسان عند وقوع الفتنة بين الحنابلة والأشاعرة عام ست و ثلاثين وأربعمائة، وإليك جواب القشيري وغيره عنه: بسم الله الرحمن الرحيم. اتّفق أصحاب الحديث إنّ أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعري كان إماماً من أئمّة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنّة، رد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين من الملة، سيفاً مسلولاً، ومن طعن فيه أو قدح أو لعنه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنّة. بذلنا خطوطنا طائعين بذلك في هذا الدرّج (٣) في ذى القعدة سنّة ست و ثلاثين وأربعمائة والأمر على هذه الجملة المذكورة في هذا الذكر وكتبه عبد الكريم بن هوازن القشيري. وكتب تحته الخبازي: كذلك يعرفه محمد بن على الخبازي وهذا خطه. _____ ١. جمع الظلمة. ٢. طبقات الشافعية: ٣/٣٤٧-٣٥٤. ٣. الدرّج: الذي يكتب فيه.

(٣٠٠)

والشيخ أبو محمد الجويني: الأمر على هذه الجملة المذكورة فيه، وكتبه عبد الله بن يوسف، وكتب نظير تلك الجملة المشايخ: أبو الفتح الشاشي، وعلى بن أحمد الجويني، وناصر العمري، وأحمد بن محمد الأيوبي، وأخوه علي، وأبو علي الصابوني، وأبو عثمان الصابوني، وابنه أبو نصر بن أبو عثمان، والشريف البكري، ومحمد بن الحسن الملقاباذي. (١) يظهر من كتاب «تبيين كذب المفتري وطبقات الشافعية» أن بعض هؤلاء كتبوا تحت الورقة عبارات فارسية، مثلاً كتب عبد الجبار الإسفرايني بالفارسية: «إن أبو الحسن الأشعري آن امام است كه خداوند عزوجل اين آيت در شأن وي فرستاد: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه...) (المائدة: ٥٤) (٢) و مصطفى - عليه السلام - در آن روايت، به جد وي اشارت كرد فقال: هم قوم هذا». (٣) (٣). الفتنة التي وقعت بمدينة نيسابور يظهر من كلام تاج الدين السبكي أن هذا الاستفتاء كان مقروناً بالفتنة التي وقعت بمدينة نيسابور قاعدة بلاد خراسان آنذاك، وقد آلت الفتنة إلى خروج إمام الحرمين، والحافظ البيهقي، وأبي القاسم القشيري من نيسابور، وكانت تلعب في ذلك يد الحنابلة تحت الستار، وإليك شرحه: قال السبكي: كان طغرل بك السلجوقي - وهو أول ملوك السلاجقة - رجلاً حنيفياً سيئاً، وكان له وزير يسمي ب: أبي نصر منصور بن محمد الكندري المعروف بعמיד الملك، والسبكي يتهمه بأنه كان معتزلياً، رافضياً، ومشبهاً لله سبحانه بخلقه مما هو شائع بين الكرامية والمجسمة (٤). فحسن عميد الملك _____ ١. ولعله تعريب ملك آباد. ٢. وقد عرفت حق المقال في ادعاء نزول هذه الآية في حق أبي موسى الأشعري جد الشيخ الأعلى، فراجع. ٣. طبقات الشافعية: ٣/٣٧٤ - ٣٧٥. ٤. نحن نشك في وجود هذه الصفات الثلاث في رجل مثقف مثل عميد الملك، كيف يمكن أن يكون معتزلي المبدأ، ورافضى العقيدة، وفي الوقت نفسه قائلاً بالتشبيه والتجسيم، وهل هذا إلا كالاقتقاد بالنقيضين؟! (٣٠١)

على السلطان لعن المبتدعة على المنابر، فصدر الأمر بذلك، واتخذ عميد الدين ذلك ذريعة إلى ذكر الأشعرية، وصار يقصدهم بالإهانة والأذى والمنع عن الوعظ والتدريس، وعزلهم عن خطابه الجامع، واستعان بطائفة من المعتزلة الذين زعموا أنهم يقلدون مذهب أبي حنيفة، فحببوا إلى السلطان الإزراء بمذهب الشافعي عموماً، وبالأشعرية خصوصاً، وهذه هي الفتنة التي طار شررها فملاً الآفاق، وطال ضررها فشمل خراسان والشام والحجاز والعراق، وعظم خطبها وبلاؤها، وقام في سب أهل السنة (الأشاعرة) خطيبها وسفهاؤها، إذ أدى هذا الأمر إلى التصريح بلعن أهل السنة في الجمع، وتوظيف سبهم على المنابر، وصار لأبي الحسن الأشعري بها أسوة لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه في زمن بعض بني أمية، حيث استولت النواصب على المناصب، واستعلى أولئك السفهاء في المجامع والمراتب. وكان في بلدة نيسابور رجلاً جواداً ذا أموال جزيلة وصدقات دارة وهبات هائلة يسمي أبا سهل الموفق، فشم عن ساعد الجد، و تردد إلى العسكر في دفع ذلك، وما أفاد شيء من التدبير، إذ كان الخصم الحاكم، والسلطان محجلاً إلا بواسطة ذلك الوزير، ثم جاء الأمر من قبل السلطان طغرل بك بالقبض على الرئيس الفراتي، والأستاذ أبي القاسم القشيري، وإمام الحرمين، وأبي سهل بن الموفق، ونفيهم ومنعهم عن المحافل، وكان أبو سهل غائباً إلى بعض النواحي ولما قرئ الكتاب بنفيهم، أغرى بهم الغاغة والأوباش، فأخذوا بالأستاذ أبي القاسم القشيري، والفراتي يجرونهما ويستخفون بهما، وحسباً بالقهنندر. وأما إمام الحرمين، فإنه كان أحسن بالأمر واختفى، وخرج على طريق كرمان إلى الحجاز، ومن ثم جاور وسمي إمام الحرمين، وبقي القشيري والفراتي مسجونين أكثر من شهر، فتهياً أبو سهل بن الموفق من ناحية باخرز وجمع من أعوانهم رجالاً - عارفين بالحرب، وأتى باب البلد وطلب إخراج الفراتي (٣٠٢)

والقشيري فما أجيب، بل هدد بالقبض عليه بمقتضى ما تقدم من مرسوم السلطان، فلم يلتفت وعزم على دخول البلد ليلاً وإخراجهما مجاهرة، وكان متولياً البلد قد تهيأ للحرب، وبعد مفاوضات واشتباكات عنيفة توفيق أبو سهل إلى إخراجهما من السجن، فلما تم له الانتصار، تشاور هو وأصحابه فيما بينهم وعلموا أن مخالفة السلطان لها تبعه، وأن الخصوم لا ينامون، فاتفقوا على مهاجرة البلد إلى ناحية استواء. (١) ثم يذهبون إلى الملك. وبقي بعض الأصحاب بالنواحي مفرقين، وذهب أبو نصر إلى المعسكر وكان على مدينة

الرى، وخرج خصمه من الجانب الآخر فتوافيا بالرى، وانتهى إلى السلطان ما جرى، وسعى بأصحاب الشافعى وبأبى سهل خصوصاً، فقبض على أبى سهل وأخذت أمواله وبيعت ضياعه، ثم فرج عنه وخرج وحج. وقد غادر كثير من علماء أهل السنة نيسابور ونواحيها، ومرو وما والاها، فمنهم أخرجوا ومنهم من جاء إلى العراق، ومنهم من جاء الحجاز. فممن حج: الحافظ أبو بكر البيهقى، وأبو القاسم القشيري، وإمام الحرمين أبو المعالى الجوينى وخلاتق. يقال: جمعت تلك السنة أربعمائة قاض من قضاء المسلمين من الشافعية والحنفية هجروا بلادهم بسبب هذه الواقعة، وتشنت فكرهم يوم رجوع الحاج، فمن عازم على المجاورة، ومن محير في أمره لا يدرى أين يذهب؟ ٤. كتاب البيهقى إلى يد الملك كتب البيهقى - وهو محدث زمانه و شيخ السنة في وقته - كتاباً إلى عميد الملك يصفه ويطريه فيه، ويذكر في تلك الرسالة فضائل الشيخ أبى الحسن ومناقبه، واندفع في آخر الرسالة إلى السؤال عن عميد الملك في إطفاء النائرة وترك السب وتأديب من يفعله. يقول السبكي: وقد ساق الحافظ (ابن عساكر) الكتاب بمجموعه، فإن أردت الوقوف عليه كلّه فعليك بكتاب _____ ١. كورة من نواحي نيسابور تشتمل على قرى كثيرة.

(٣٠٣)

التبيين. (١) ٥. رسالة القشيري إلى البلاد وكتب الأستاذ أبو القاسم القشيري رسالة مفتوحة إلى العلماء الأعلام بجميع بلاد الإسلام عام ست وأربعين وأربعمائة، يشكو فيها عمّا حلّ بأبى الحسن الأشعري والأشاعرة من المحنة. ابتدأ رسالته بقوله: الحمد لله المجل في بلائه، المجزل في عطائه، العدل في قضائه، والمكرم لأوليائه، المنتقم من أعدائه - إلى أن قال - هذه قصة سمينها «شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة» تخبر عن بثّة مكروب ونفته مغلوب... إلى أن قال: ومما ظهر ببلاد نيسابور من قضايا التقدير في مفتتح سنة خمس وأربعين وأربعمائة من الهجرة ما دعا أهل الدين إلى شق صدور صبرهم، وكشف قناع صيرهم، بل ظلت الملة الحنيفة تشكو غليلها، وتبدى عويلها، وتنصب عزالى رحمة الله على من يستمع شكوها، وتصغى ملائكة السماء حتى تندب شجوها. ذلك ممّا أحدث من لعن إمام الدين، وسراج ذوى اليقين، محيى السنة، وقامع البدعة، وناصر الحق، وناصح الخلق، الزكى الرضى، أبى الحسن الأشعري، قدس الله روحه وسقى بالرحمة ضريحه، وهو الذى ذب عن الدين بأوضح حجج، وسلك في قمع المعتزلة، وسائر أنواع المبتدعة أبين منهج. واستنفد عمره في النضح عن الحق، فأورث المسلمين وفاته كتبه الشاهدة بالصدق. (٢) ومن لطيف ما جاء في تلك الرسالة قوله: وما نعموا من الأشعري إلاّ أنّه قال بإثبات القدر لله، خيرته وشهره، ونفعه وضره، وإثبات صفات الجلال لله، من قدرته، وعلمه، وإرادته، وحياته، وبقائه، وسمعه، وبصره، _____ ١. طبقات الشافعية: ٣/٣٨٩-٣٩٩. ولكن الكتاب غير موجود فيما طبع من تبين كذب المفتري، وقد تفحصناه وما وجدناه فيه. ٢. طبقات الشافعية: ٣/١-٤، والرسالة طويلة أخذنا منها موضع الحاجة.

(٣٠٤)

وكلامه، ووجهه، ويده، وأنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنّه تعالى موجود تجوز رؤيته، وأنّ إرادته نافذة في مراداته، وما لا يخفى من مسائل الأصول التى تخالف (طريقه) طريق المعتزلة والمجسمة فيها، وإذا لم يكن في مسألة لأهل القبلة غير قول المعتزلة، وقول الأشعري قول زائد، فإذا بطل قول الأشعري، فهل يتعين بالصحة أقوال المعتزلة؟ وإذا بطل القولان فهل هذا إلاّ تصريح بأنّ الحق مع غير أهل القبلة؟ وإذا لعن المعتزلة والأشعري في مسألة لا- يخرج قول الأئمة عن قوليهما، فهل هذا إلاّ- لعن جميع أهل القبلة؟ معاشر المسلمين الغياث الغياث! سعوا في إبطال الدين، ورأوا هدم قواعد المسلمين، وهيئات هيئات! (يريدون أن يُطْفئوا نورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) (١) وقد وعد الله للحق نصره وظهوره وللباطل محقه وثوره، ألا- إنّ كتب الأشعري في الآفاق ماثولة، ومذاهبه عند أهل السنة من الفريقين معروفة مشهورة، فمن وصفه بالبدعة علم أنّه غير محق في دعواه، وجميع أهل السنة خصمه فيما افتراه. وقال في مختتم الرسالة: ولما ظهر ابتداء هذه الفتنة بنيسابور، وانتشر في الآفاق خبره، وعظم على قلوب كافة المسلمين، من أهل السنة والجماعة أثره، ولم يبعد أن يخامر قلوب بعض أهل السلامة [الوداعة] توهم في بعض هذه المسائل أنّ لعلّ أبا الحسن على بن إسماعيل الأشعري - رحمه الله - ، قال ببعض المقالات، في بعض كتبه ، ولقد قيل من يسمع يخل، أثبتنا هذه الفصول في شرح هذه

الحالة، وأوضحنا صورة الأمر، بذكر هذه الجملة، ليضرب كل [من] أهل السنة، إذا وقف عليها، بسهمه، في الانتصار لدين الله عز وجل، من دعاء يخلصه، واهتمام يصدقه، وكل عن قلوبنا بالاستماع إلى [شرح] هذه القصيدة يحمله، بل ثواب من الله سبحانه على التوجه بذلك يستوجه، والله غالب على أمره، وله الحمد على ما يمضيه من أحكامه، ويرمه ويقضيه في أفعاله، فيما يؤخره و يقدمه، وصلواته على سيدنا محمد المصطفى و على آله و سلم تسليماً. _____ ١ . التوبة: ٣٢.

(٣٠٥)

تمت الشكاية. (١) ٦. استمرار الفتنة إلى زمان و زرارة نظام الملك يظهر من السبكي أن فتيل الفتنة كان هو الوزير الكندري المعروف عميد الملك، ويظهر فيما ذكر من استفتاءات أخر بقاء الفتنة حتى بعد وفاة طغرل بك وقيام ولده ارسلان مقامه و قتل عميد الملك و تصدى نظام الملك للوزارة. (٢) إن وجود استفتاءات أخر حول أبي الحسن الأشعري يدل على دوام المنافرة بين الأشاعرة وغيرهم من الحنابلة والمعتزلة، وإليك استفتاءين آخرين، يتعلّق ثانيهما بعصر أبي نصر القشيري ولد أبي القاسم القشيري، وقد توفى الوالد عام ٤٦٥هـ كما توفى الولد عام ٥١٤هـ استفتاء آخر ببغداد ما قول السادة الأئمة الأجلّة في قوم اجتمعوا على لعن فرقة الأشعري وتكفيرهم؟ ما الذي يجب عليهم؟! فأجاب قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغانى الحنفى: قد ابتدع وارتكب ما لا يجوز، وعلى الناظر في الأمور - أعز الله أنصاره - الإنكار عليه وتأديبه بما يرتدع به هو وأمثاله عن ارتكاب مثله، وكتب محمد بن علي الدامغانى. وبعده كتب الشيخ أبو إسحاق الشيرازى - رحمه الله -: الأشعرية أعيان أهل السنة، ونصارى الشريعة. انتصبوا للرد على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم، فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنة، وإذا رفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر في أمر المسلمين، وجب عليه تأديبه بما يرتدع به كل أحد. وكتب إبراهيم بن علي الفيروز آبادى. وقد كتب مثله محمد بن أحمد الشاشى تلميذ الشيخ أبي إسحاق. _____ ١ . طبقات الشافعية: ٣/٣٩٩-٤٢٣. ٢ . طبقات الشافعية: ٣/٣٩٣. (٣٠٦) استفتاء ثالث في واقعة أبي نصر القشيري

بيغداد

وهذا الاستفتاء أوعز إليه السبكي في طبقات الشافعية، في ترجمه الشيخ أبي الحسن الأشعري، وقال: «سنحكي إن شاء الله هذا الاستفتاء والأجوبة عند انتهائنا إلى ترجمه الأستاذ أبي نصر ابن الأستاذ أبي القاسم فى الطبقة الخامسة»، ولكنّه لم يف بوعده. وحكى فى المقام خط الشيخ أبي إسحاق الشيرازى فى جواب الاستفتاء أنّه كتب: وأبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة، وعامة أصحاب الشافعى على مذهبه، و مذهبه مذهب أهل الحق، وكتب نظير تلك الجملة عدّة من أعلام العصر من حنابلة وأحناف لا حاجة لذكر أسمائهم، ويظهر من السبكي أنّ هذا الاستفتاء بقى زماناً بين يدي العلماء كلّما جاءت أمّة منهم كتبت بالموافقة. (١) ٧. شكوى تاريخية للأشاعرة ضدّ الحنابلة لقد بلغت المنافرة بين الأشاعرة والحنابلة إلى القمة فى عصر الشيخ أبي نصر عبد الرحيم ابن الشيخ أبي القاسم القشيري، وبلغ السيل الزبى فقام أعظم الأشاعرة لمساندة شيخهم أبي نصر برفع الشكوى إلى الوزير نظام الملك، وتمت الشكاية بتوقيع كثير من علمائهم، وكان ذلك سنة ٤٦٩هـ وقد نقلنا تلك الشكاية فى الجزء الأوّل من هذه الموسوعة فراجع. (٢) الأشاعرة وعقيدة أبي جعفر الطحاوى

إنّ الرسالة المعروفة بعقيدة الطحاوى يتبناها أهل السنة حتى الحنابلة فى هذه الأيام، وهى من الكتب الدراسيه فى جامعة المدينة المنورة يومنا هذا، والمؤلف ينسب كلّ ما جاء فيه إلى أبى حنيفه وأبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى، وقد ادّعى تاج الدين السبكي أنّ الأشاعرة لا - يخالفون عمّا ذكر فى _____ ١ . طبقات الشافعية: ٣/٣٧٥-٣٧٦. ٢ . لاحظ بحوث فى الملل والنحل: ١.

(٣٠٧)

هذه الرسالة إلّا فى ثلاث عشرة مسألة، والاختلاف فى بعضها معنوى، وبعضها الآخر لفظى، ثم قال: ولى قصيدة نونية جمعت فيها هذه المسائل، وضممت إليها مسائل اختلفت الأشاعرة فيها مع ما جاء فى كتاب العقيدة للطحاوى، وإليك مستهلها: الورد خطك، صيغ

من إنسان * أم في الحدود شقائق النعمان؟! والسيف لحظك سُلّ من أجفانه * فسطا كمثل مهند و سنان! إلى أن قال: كذب ابن فاعلة يقول لجهله * الله جسم ليس كالجسمان لو كان جسماً كان كالأجسام يا * مجنون فاضغ وعد عن البهتان واتبع صراط المصطفى في كل ما * يأتي وخلّ وسأوس الشيطان (١) والقصيدة طويلة والغرض إيراد نماذج منها. وأما الفرق بين الأشاعرة والماتريديّة فهو يتوقف على تبيين عقيدة الشيخ الماتريدي مؤسس المنهج، وسيوافيك [الحديث عن] حياته ومنهجه في الجزء الثالث من هذه الموسوعة بإذن الله سبحانه. (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون). (٢) _____

١. طبقات الشافعية: ٣/٣٧٩. ٢. الحجرات: ١٠.

(٣٠٨) (٣٠٩)

حياة أبطال الأشاعرة وعبقرتهم

حياة أبطال الأشاعرة وعبقرتهم

إنّ ما أتى به الشيخ الأشعري من المنهج الكلامي وأفرغه في قالب التأليف والتصنيف، أو طرحه على بساط البحث عن طريق التدريس والتعليم، لم يكن منهجاً فكرياً متكاملًا في جميع موضوعاته، فإنّ بعض أفكاره لم يكن مقترناً بالبراهين والأدلة الناضجة، كما أنّه لم يكن مستوعباً لجميع الأبواب، ولكن ساعده الحظ بأن اقتفى أثره على مدى الأعصار عدة من المفكرين الذين نسبوا أنفسهم إليه، فأضفوا على هذا المنهج ثوباً جديداً حتى جعلوه متكاملًا، ناضجاً قابلاً للبقاء، وبعيداً عن النقاش، وأساس عملهم يرجع إلى شيئين: الأول: تحليل الفكرة الأشعرية براهين جديدة أوحتها إليهم أنفسهم. الثاني: الذب عن الإشكالات التي أوردتها خصماء الأشعري على منهجه. ولأجل إكمال البحث عن ذلك المنهج نأتى بترجمة بعض أئمة الأشاعرة في العصور المختلفة، الذين كان لهم ذلك الدور في إكمال المنهج وتجديده، وهم المشايخ، التالية أسماؤهم: ١. أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ ق). ٢. أبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفى ٤٢٩هـ ق). ٣. إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤١٩-٤٧٨هـ ق). (٣١٠)

٤. حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ ق). ٥. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ ق). ٦. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ ق). ٧. أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم المعروف بسيف الدين الآمدي (٥٥١-٦٣١هـ ق). ٨. عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي مؤلف «المواقف» (٧٠٨-٧٥٦هـ ق). ٩. مسعود بن عمر بن عبد الله المعروف بسعد الدين التفتازاني (٧١٢-٧٩١هـ ق). ١٠. السيد علي بن محمد بن علي الحسيني المعروف بالسيد الشريف شارح «المواقف» (المتوفى عام ٨١٦هـ ق). ١١. علاء الدين علي بن محمد السمرقندي المعروف بالقوشجي شارح «التجريد» (المتوفى بالآستانه عام ٨٧٩هـ ق). هؤلاء أبرز أئمة الأشاعرة الذين بهم نضج وتكامل المذهب، وتمخضت الفكرة الأشعرية، ولولا- هؤلاء لأفل نجمها بعد طلوعها بسرعة، وهلمّ معي أيها القارئ لدراسة أحوالهم، وعرض بعض أفكارهم، والتعرف على تراثهم من الرسائل والكتب. نعم عقد ابن عساكر في كتابه: «تبيين كذب المفتري» باباً أسماه «باب ذكر جماعة من أعيان مشاهير أصحابه إذا كان فضل المقتدي يدل على فضل المقتدي به» وقد قسم المقتفين أثره على خمس طبقات يقرب عدد من جاء فيها من ثمانين شخصاً. غير أنّ من يعاب به في تكييف المنهج أقل منهم بكثير. (٣١١)

القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ)

القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفى ٤٠٣هـ)

هو أبو بكر محمد الطيب بن محمد القاضي المعروف بابن الباقلاني، وليد البصرة وساكن بغداد، يعرفه الخطيب البغدادي بقوله: محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني المتكلم على مذهب الأشعري، من أهل البصرة، سكن بغداد، وسمع بها

الحديث وكان ثقة. فأما الكلام فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحهم عبارة، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الرد على المخالفين من الراضية والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم. (١) وقال ابن خلكان: كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيداً اعتقاده وناصراً طريقته، وسكن بغداد وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرئاسة في مذهبه، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب. وسمع الحديث وكان كثير التطويل في المناظرة، مشهوراً بذلك عند الجماعة، وتوفي آخر يوم السبت ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد - رحمه الله - تعالى، و صلى عليه ابنه الحسن، ودفن في داره بدرج المجوس، ثم نقل بعد ذلك فدفن في مقبرة باب حرب. والباقلاني نسبة إلى الباقلان وبيعه!! (٢) ويظهر من فهرس تأليفه أنه كان غزير الإنتاج وكثير التأليف، فقد ذكر له ٥٢ كتاباً، غير أنه لم يصل إلينا من هذه إلا ما طبع، وهي ثلاثة: ١. «عجاز القرآن» طبع في القاهرة كراراً، وقد حققه أخيراً السيد أحمد صقر، طبع بمطابع دار المعارف بمصر عام ١٩٧٢م. _____ ١. تاريخ بغداد: ٥/٣٧٩-٣٨٣. ٢. وفيات الأعيان: ٤/٢٦٩ برقم ٦٠٨. (٣١٢)

٢. «التمهيد في الرد على الملاحدة» وهو كتاب كلامي يعرف منه آراؤه الكلامية في مختلف الأبواب. ٣. «الإنصاف في أسباب الخلاف» وقد نشره محمد زاهد الكوثري في القاهرة عن مخطوطة دار الكتب المصرية عام ١٣٦٩هـ. عشرة لا تقال ذكر الخطيب في ترجمة الباقلاني كلاماً وقال: «وحدث أن ابن المعلم شيخ الراضية ومتكلمها (يريد الشيخ المفيد) حضر بعض مجالس النظر مع أصحاب له، إذ أقبل القاضي، فالتفت ابن المعلم إلى أصحابه وقال لهم: قد جاءكم الشيطان، فسمع القاضي كلامه - وكان بعيداً من القوم - فلما جلس أقبل على ابن المعلم وأصحابه وقال لهم: قال الله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّؤُهُمْ أَزًّا) (١) أي إن كنت شيطاناً فأنتم كفار، وقد أرسلت عليكم. (٢) أقول: وأظن - و ظن الألمي صواب - أنه لو وقف الخطيب على مكانة ابن المعلم وشيخ الأئمة الشيخ المفيد، لتوقف في نقل هذه الأسطورة، وهذا اليافعي يعرفه في تاريخه ويقول: «كان عالم الشيعة وإمام الراضية، صاحب التصانيف الكثيرة شيخهم المعروف بالمفيد، وبابن المعلم، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة بالدولة البويهية». وقال ابن أبي طي: «كان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس». (٣) وقال ابن كثير في حوادث سنة ٤١٣: «شيخ الإمامية الروافض، والمصنف لهم، والمحامي عن حوزتهم. كانت له وجهة عند ملوك الأطراف لميل كثير من أهل ذاك الزمان إلى التشيع، وكان مجلسه يحضره خلق كثير من _____ ١. مريم: ٨٣. ٢. تاريخ بغداد: ٥/٣٧٩، ونقله ابن عساكر في تبيينه: ٢١٧. ٣. مرآة الجنان: ٣/٢٨. (٣١٣)

العلماء من سائر الطوائف، وكان من جملة تلاميذه الشريف الرضي والمرتضى». (١) وعلى ذلك فالرجل الذي يصف اليافعي في تاريخه بأنه يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة، أو يصفه ابن كثير بأنه يحضر مجلسه كثير من العلماء من سائر الطوائف، أجل من أن يتوسل في إفحام خصمه وإخضاعه للحق، بالإهانة والتكلم بما هو خارج عن أدب المناظرة. نعم، نقل بعض المترجمين للشيخ المفيد أنه جرت مناظرة بينه وبين أبي بكر الباقلاني، فلمّا ظهر تفوق المفيد على مناظرة، قال له أبو بكر: أيها الشيخ إن لك من كل قدر معرفة، فأجابه الشيخ ممازحاً: نعم ما تمثلت به أيها القاضي من أدوات (مهنة) أبيك. (٢) إن الخطيب لم يخف حقه على شيخ الأئمة في غير هذا المقام أيضاً، فقد قال في ترجمته: «و كان أحد أئمة الضلال، هلك به خلق من الناس، إلى أن أراح الله المسلمين منه. ومات في يوم الخميس ثاني شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وأربعمائة». (٣) أهكذا أدب العلم وأدب الدين؟! إن هذه شنشنة أعرفها من كل من يضم الحقد على أمثال الشيخ. لاحظ الكامل لابن الأثير الجزء السابع ص ٣١٣ تر أن ما ذكره الخطيب أخف وطأ مما ذكره المعلق على «الكامل» من السباب المقذع الخارج عن أدب الدين والتقوى. فكل من أراد أن يقف على أدب الشيخ المفيد في المناظرة واحتجاجه على الخصم، فليلاحظ مناظراته في الكلام والتفسير التي جمعها تلميذه الشريف المرتضى في كتاب «الفصول المختارة»

اختارها من كتابين لشيخه المفيد، _____ ١. البداية والنهاية: ١٢/١٥. ٢. روضات الجنات: ١٥٩/٦ مستمداً من تلقبه بالباقلاني، المنسوب إلى بائع الباقلاء. ٣. تاريخ بغداد: ٣/٢٣١ برقم ١٢٩٩. (٣١٤)

أحدهما: «المجالس المحفوظة في فنون الكلام» والثاني «العيون والمحاسن». ولأجل إعطاء نموذج من مناظرات الشيخ المفيد وقوة عارضته، تأتي بإحداها التي وقعت مع علي بن عيسى الرمانى (المتوفى عام ٣٨٥هـ). فقد دخل الشيخ عليه والمجلس غاص بأهله، فبعد حيث انتهى به المجلس، فلما خف الناس قرب من الرمانى، فدخل عليه داخل وقال: إنَّ بالباب إنساناً يؤثر الحضور، وهو من أهل البصرة، فأذن له فدخل فأكرمهم، و طال الحديث بينهما. فقال الرجل لعلى بن عيسى: ما تقول في يوم الغدير والغار؟ فقال: أما خبر الغار فدراية، وأما خبر الغدير فرواية، والرواية لا توجب ما توجه الدراية، وانصرف البصرى ولم يحر جواباً. فقال الشيخ للرمانى: أيها الشيخ مسألة؟ فقال: هات مسألتك؟ فقال: ما تقول فيمن قاتل الإمام العادل؟ فقال: كافر، ثم استدرك فقال: فاسق، وعندئذ قال المفيد: ما تقول في أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام -؟ قال: إمام. فقال: ما تقول في يوم الجمل وطلحة والزبير؟ فقال: تابا. فقال المفيد: أما خبر الجمل فدراية، وأما خبر التوبة، فرواية. فقال الرمانى: هل كنت حاضرًا وقد سألتنى البصرى؟ فقال: نعم، رواية برواية ودراية بدراية. (١) فمن كان هذه مقدرته العلمية وقوة إفحامه للخصم، فلا يتوسل بما يتوسل به العاجز عن المناظرة، فما ذكره الخطيب أشبه بالمهزلة منه بالجد. كما أن ما نقله ابن عساكر من المنامات بعد موت القاضى أبى بكر أمور لا يلتجئ إليها إلا من يفتقد الحقيقة في عالم الحس فيتطلبها بالمنامات.

أبو منصور عبد القاهر البغدادى (المتوفى ٤٢٩هـ)

أبو منصور عبد القاهر البغدادى (المتوفى ٤٢٩هـ)

أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى، أحد العلماء البارزين في معرفة الملل والنحل، وكتابه «الفرق بين الفرق» من الكتب المعروفة في هذا المجال، ويعد سندا وثيقاً لمعرفة المذاهب الإسلامية بعد كتاب _____ ١. مجموعة ورام: ٦١١. (٣١٥)

«مقالات الإسلاميين» للشيخ أبى الحسن الأشعري وكأنه حذا حذوه في النقل والتقرير، ويمتاز بحسن الضبط واستيعاب البحث، وإتقان التويب، ودقة العرض. يعرفه ابن خلكان بقوله: كان ماهراً في فنون عديدة خصوصاً علم الحساب، فإنه كان متقناً له، وكان له فيه تأليف نافعة منها كتاب «التكملة». وكان عارفاً بالفرائض والنحو، وله أشعار. ونقل عن الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسى في «سياق تاريخ نيسابور» أنه ورد مع أبيه نيسابور و كان ذا مال وثروة، تفقه على أهل العلم والحديث، ولم يكتسب بعلمه مالاً، وصنف في العلوم وأربى على أقرانه في الفنون، ودرس في سبعة عشر فناً، وكان قد تفقه على أبى إسحاق الإسفرائينى وجلس بعده للإمام فى مكانه بمسجد عقيل فأملئ سنين، واختلف إليه الأئمة فقرأوا عليه... وتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائه بمدينه «اسفرائين» و دفن إلى جانب شيخه أبى إسحاق. (١) وترجمه الزركلى فى الأعلام وقال: عالم متقن من أئمة الأصول، ولد ونشأ فى بغداد، ورحل إلى خراسان فاستقر بنيسابور، وفارقها على أثر فتنه التركمان، ومات فى اسفرائين. ثم ذكر تصانيفه المطبوعه والمخطوطه. (٢) وترجمه «عبد الرحمن بدوى» فذكر له تسعة عشر كتاباً، غير أن الواصل إلينا ما هو المطبوع وهو اثنان: ١. «الفرق بين الفرق» نشر لأول مره فى دار المعارف عام ١٩١٠م، مليئاً بالأخطاء، ثم نشر بتحقيق وإشراف الشيخ محمد زاهد الكوثرى، وأخيراً بتحقيق محمد محبى الدين. ٢. «أصول الدين» وقد طبع لأول مره فى استانبول عام ١٣٤٦م وطبع بالأفست أخيراً فى بيروت عام ١٤٠١هـ والكتاب يشتمل على خمس عشر أصلاً من أصول الدين، وشرح كل أصل بخمس عشرة مسألة، وعليه يكون _____ ١. وفيات الأعيان: ٣/٢٠٣ برقم ٣٩٢، تبين كذب المفترى: ٢٥٤. ٢. الأعلام للزركلى: ٤/١٧٣.

(٣١٦)

الكتاب مشتملاً على مائتين وخمس وعشرين مسألة. وإليك فهرس الأصول الخمسة عشر التي جعلها أساساً للدين. ذكر الأصول الخمسة عشر

الأصل الأول: في بيان الحقائق والعلوم على الخصوص والعموم. الأصل الثاني: في حدوث العالم على أقسامه من أعراضه وأجسامه. الأصل الثالث: في معرفة صانع العالم ونعوته في ذاته. الأصل الرابع: في معرفة صفاته القائمة بذاته. الأصل الخامس: في معرفة أسمائه وأوصافه. الأصل السادس: في معرفة عدله وحكمه. الأصل السابع: في معرفة رسله وأنبياؤه. الأصل الثامن: في معرفة معجزات أنبيائه وكرامات أوليائه. الأصل التاسع: في معرفة أركان شريعة الإسلام. الأصل العاشر: في معرفة أحكام التكليف في الأمر والنهي والخبر. الأصل الحادي عشر: في معرفة أحكام العباد في المعاد. الأصل الثاني عشر: في بيان أصول الإيمان. الأصل الثالث عشر: في بيان أحكام الإمامة وشروط الزعامة. الأصل الرابع عشر: في معرفة أحكام العلماء والأئمة. الأصل الخامس عشر: في بيان أحكام الكفر وأهل الأهواء الفجرة. وقد ذكر ما هو الوجه لأخذ الرقم (١٥)، أساساً للتقسيم فقال: وقد جاءت في الشريعة أحكام مرتبة على خمسة عشر من العدد، وأجمعت الأمة على بعضها واختلفوا في بعضها، فمنها على اختلاف سن البلوغ (٣١٧)

لأنها عند الشافعي في الذكور والإناث خمس عشرة سنة بسني العرب دون سني الروم والعجم. ومنها مدة أكثر الحيض عند الشافعي وفقهاء المدينة خمسة عشر يوماً بلياليها. ومنها أقل الطهر الفاصل بين الحيضتين، فإنه عند أكثر الأئمة خمسة عشر يوماً، وهذا كله على أصل الشافعي وموافقيه. فأما على أصل أبي حنيفة وأتباعه فإن كلمات الأذان عندهم خمس عشرة. ومقدار مدة الإقامة التي توجب عنده إتمام الصلاة خمسة عشر يوماً، وعند الشافعي أربعة أيام. (١) إلى غير ذلك من الأحكام الفقهية التي أكثرها محل خلاف بين فقهاء السنّة، فضلاً عن الشيعة، كأقل الطهر الفاصل بين الحيضتين، فإنه عند أكثر الأئمة، خمسة عشر يوماً، أو أن كلمات الأذان عندهم خمس عشرة إلى غير ذلك...، وعلى فرض صحة الأحكام الفرعية التي ذكرها لا صلة بين صحتها وكون أصول الدين الأساسية خمسة عشر أصلاً، وكل أصل مشتملاً على خمس عشرة مسألة، فإن ذلك كله أمور ذوقية استحسناها طبعه، وإلا ففى وسع القارئ أن يجعل الأصول أكثر أو أقل، والمسائل كذلك. ثم إن هذه الأصول التي اجتمع عليها أهل السنّة - حسب زعمه - جاءت في كتابه «الفرق بين الفرق» مع اختلاف يسير في التعبير والكلمات. (٢) الفرق بين الكتابين في العرض

إنّ السابر في كتاب «الفرق بين الفرق» يجد أنّ في قلمه حدة خاصة في عرض المذاهب، فلا يعرض المذاهب الإسلامية - عدا مذهب أهل السنّة - بصورة موضوعية هادئة، بل يعرضها بعنف وهجوم، وهذا بخلاف سيرته في كتاب «أصول الدين». ويكفى في هذا ما يقوله: ولم يكن بحمد الله ومثّه في الخوارج ولا في الروافض، ولا في الجهمية، ولا في القدرية، ولا في المجسمة ولا في سائر أهل الأهواء الضالّة إمام في الفقه، ولا إمام في رواية الحديث، ولا إمام في ————— ١ . أصول الدين: ١-٢. ٢. لاحظ الفصل الثالث من فصول الباب الخامس: ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٣١٨)

اللغة والنحو، ولا موثوق به في نقل المغازي والسير والتواريخ، ولا إمام في الوعظ والتذكير، ولا إمام في التأويل والتفسير، وإنّما كان أئمة هذه العلوم على الخصوص والعموم من أهل السنّة والجماعة، وأهل الأهواء الضالّة إذا ردّوا الروايات الواردة عن الصحابة في أحكامهم وسيرهم، لم يصح اقتدائهم بهم متى لم يشاهدوهم ولم يقبلوا رواية أهل الرواية عنهم. (١) أقول: ما ذكره في حق الروافض - إن أراد منه الشيعة ما عدا الغلاة - فقد ظلم العلم وجفا أهله، ولو قاله عن جد فقد قاله عن قصور باعه، (وإن كان مؤلفاً في الملل والنحل) في التعرف على جهودهم المتواصلة وآثارهم القيمة في العلوم الإسلامية، فقد شاركوا الطوائف الإسلامية في تدوين المعقول والمنقول، وجمع شذرات الحديث، وتأليف شوارد السير، ونظم جواهر الأدب، ونضد قواعد الفقه، وترصيف مباحث الكلام، وتنسيق طبقات الرجال، وضم حلقات التفسير، وترتيب دروس الأخلاق، كما فيهم الفلاسفة والعلماء والساسة والحكام والكتاب والمؤلفون،

تشهد بذلك آثارهم وحياتهم. وعلى أيّ تقدير، فمن لطيف شعره ما نقله ابن عساكر عنه: يا من عدا، ثمّ اعتدى ثم اقترف * ثمّ انتهى ثمّ ارعوى ثم اعترف أبشر بقول الله في آياته * «إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف» (٢)

_____ ١. الفرق بين الفرق: ٢٣٢. ٢. تبين كذب المفترى: ٢٥٤.

إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله

إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩-٤٧٨هـ)

هو عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب الجويني. أثنى عليه كلّ من ذكره، يقول ابن خلكان: أعلم المتأخرين من (٣١٩)

أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته، المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب، ورزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره، وكان يذكر دروساً يقع كلّ واحد منها في عدة أوراق ولا يتلثم في كلمة منها، وقد أقام بمكة أربع سنين، وبالمدينة يدرس ويفتي ويجمع طرق المذهب، ولقب بإمام الحرمين. (١) وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٦ الحوافر التي أُلجأت أبا المعالي إلى مغادرة موطنه والخروج إلى الحجاز، وما هي إلاّ - محنة الأشاعرة في عصر الوزير العميد الكندري وزير طغرل بك السلجوقي قال: كان شديد التعصب على الشافعية كثير الوقعة في الشافعي بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان، في لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن ذلك، فأمر بلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية، فأنف من ذلك أئمة خراسان، منهم الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو المعالي الجويني وغيرهما، ففارقوا خراسان، وأقام إمام الحرمين بمكة أربع سنين إلى أن انقضت دولته، يدرّس ويفتي، فلهذا لقب إمام الحرمين، فلما جاءت الدولة النظامية (نظام الملك) أحضر من انتزح منهم وأكرمهم وأحسن إليهم. (٢) أساتذته تخرّج على والده الشيخ عبد الله بن يوسف وكان عالماً فقيهاً شافعيّاً غزير الإنتاج توفي سنة ٤٣٨ وله من الآثار «الفروق» و «السلسلة» و «التبصرة» و «التذكرة» و غيرها، توفي والابن في سن التاسعة عشرة، فأتم دراسته بالاختلاف إلى مدرسه البيهقي، فتخرج على الشيخ أبي القاسم الإسفرائيني وغيره من الأساتذة الذين أخذ عنهم علمه. (٣) آثاره

ترك من الآثار العلمية ما يربو على عشرين كتاباً بين مطبوع منتشر، _____ ١. وفيات الأعيان: ٣/١٦٧-١٦٨ برقم ٣٧٨. ٢. الكامل في التاريخ: ١٠/٣١-٣٣. وقد مرّ بيان الحادثة في الأمر الأول من الخاتمة. ٣. تاريخ المذاهب الإسلامية: ١/٢٨١-٢٨٢.

(٣٢٠)

ومخطوط موجود في خزائن الكتب في مصر وباريس وبرلين، وإليك أسماء المطبوعة منها: ١. «الإرشاد في أصول الدين» وقد طبع في باريس وبرلين والقاهرة. ٢. «الرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية» وقد طبعت في القاهرة باسم «العقيدة النظامية» سنة ١٣٦٧ وقد ترجمت إلى الألمانية عام ١٩٥٨م. ٣. «الشامل في أصول الدين» وقد طبع الكتاب الأوّل (العلل) من الجزء الأوّل منه في القاهرة ١٩٦١م. ٤. «غياث الأمم في الإمامة» ويعده الباحثون أحسن منهجاً من كتاب «الأحكام السلطانية» للماوردي، نشرته دار الدعوة بالاسكندرية. ٥. «مغيث الخلق في اختيار الأحق» وللشيخ محمد زاهد الكوثري رسالة أسماها «إحقاق الحقّ بإبطال الباطل» في «مغيث الخلق» نشرت في القاهرة ١٩٤١م. ٦. «الورقات في أصول الفقه والأدلة». (١) ويظهر ممّا نشر في كتبه الكلامية أنه يستمد في آرائه عن المشايخ الثلاثة: ١. أبو الحسن الأشعري المتوفّى عام ٣٢٤ ويعبر عنه بـ «شيخنا». ٢. أبو بكر الباقلاني المتوفّى سنة ٤٠٣ ويعبر عنه بـ «القاضي». ٣. أبو إسحاق الإسفرائيني المتوفّى عام ٤١٣ ويعبر عنه بالأستاذ. آراؤه ونظرياته

يبدو أنّ أبا المعالي كان حراً في إبداء النظر ورفض الأفكار وقبولها، وإليك بعض آرائه: ١. أنكر مسألة خلق الأفعال، وأنّ الإنسان مسلوب الاختيار، وقد _____ ١. الأعلام للزركلي: ٤/١٦٠، سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٧٥-٤٧٦.

عرفت أن القول بكون أفعال العباد مخلوقة يعدّ إحدى دعائم العقيدة الأشعرية، وقد قال أبو المعالي بدور الإنسان في أعماله. ولو كان هذا مذهبه كما نسبته إليه الشهرستاني فما معنى المناظرة التي دارت بينه وبين «أبي القاسم بن برهان» في مسألة أفعال العباد؟ قال القاسم: هل للعباد أعمال؟ فقال أبو المعالي: إن وجدت آية تقتضي ذلك فالحجة لك، فتلا (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) (١) ومدّ بها صوته وكرر «هم لها عاملون» و قوله: (لَوْ اسْتِطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (٢) أى كانوا مستطيعين. فأخذ أبو المعالي يستروح إلى التأويل. فقال: والله إنك بارد وتتأول صريح كلام الله لتصحح بتأويلك كلام الأشعري وأكله ابن برهان بالحجة فبهت. (٣) ولعل هذه المناظرة ونظائرها دعت إلى العدول عن نظرية الأشعري في أفعال العباد، والانسلاك في خط القائمين بالاختيار للإنسان. ولأجل عدم قوله بالقدر الجبري ورفضه هذه الأحاديث ربما اتهموه بأنه من فرط ذكائه وإمامته في الورع، وأصول المذهب، وقوة مناظرته، لا يدري الحديث كما يليق به لا متناً ولا إسناداً. (٤) (٢). ما نقل عنه في كتاب البرهان قال: «إن الله يعلم الكليات لا الجزئيات» وهذه نظرية المعتزلة في علمه سبحانه لا الأشاعرة، وهي وإن كانت باطلة جداً لكن الإصحاح بها في تلك الظروف المليئة بالحق والتحامل على المعتزلة، يكشف عن أن الرجل كان يملك حرية خاصة في طرح المسائل. (٣). قد سلك في الصفات الخيرية مسلك الحزم والاحتياط، فأجرى الظواهر على مواردها وفوض معانيها إلى الرب. _____ ١ . المؤمنون: ٦٣. ٢. التوبة: ٤٢. ٣. سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٦٩ و «أكله»: أعياءه. ٤. نفس المصدر: ١٨/٤٧١.

(٣٢٢)

قال في «الرسالة النظامية»: (نشرها محمد زاهد الكوثري عام ١٣٦٧هـ) اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها، فرأى بعضهم تأويلها، والتزم ذلك في القرآن، وما يصحّ من السنن، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً، وندين الله به عقداً، أن أتباع سلف الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها وهم صفوة الإسلام المستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، فإذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحقّ على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب، فليجر آية الاستواء والمجىء وقوله: (لِما خَلَقْتُ يَدَيَّ) (١) و(وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ) (٢) و(تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا) (٣) وما صحّ من أخبار الرسول، كخبر النزول وغيره على ما ذكرناه. (٤) قصص الخرافة

إن من يصفه ابن عساكر (٥) وغيره بأنه إمام الأئمة على الإطلاق حبر الشريعة المجمع على إمامته شرقاً وغرباً، المقر بفضل السراة والحرارة، وعجماً وعربياً، من لم تر العيون مثله قبله ولا يرى بعده الخ، إلى غير ذلك من كلمات _____ ١ . ص: ٧٥. ٢. الرحمن: ٢٧. ٣. القمر: ١٤. ٤. سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٧٣-٤٧٤. ٥. التبيين: ٢٧٨.

(٣٢٣)

التبجيل وعظائم التكريم لا يصدر عنه ما يذكره الذهبي في ترجمته: ١. قرأت بخط أبي جعفر أيضاً: سمعت أبا المعالي يقول: قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بالإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق «عليكم بدين العجائز» فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز ويختم عاقبه أمرى عند الرحيل على كلمة الإخلاص، لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني. (١) (٢). قال الحافظ محمد بن طاهر: سمعت أبا الحسن القيرواني الأديب - و كان يختلف إلى درس الأستاذ أبي المعالي في الكلام - فقال: سمعت أبا المعالي اليوم يقول: يا أصحابنا لا تستغلوا بالكلام، فلو عرفت يبلغ بي ما

بلغ، ما اشتغلت به. (٢) ولو صحَّ ذلك، لما كان ينفعه مجرّد الندم، بل لكان عليه - وراء إبراز الندامة - أن يأمر بإحراق مسفوراته، إلّا ما كان منها مطابقاً للسنة، وكان عليه البراءة ممّا كان يقول، كما تبرأ شيخه الأشعري على صهوات المنابر، ولعلّ هذه النقول كلّها من موضوعات بعض الحنابلة الذين يروق لهم ترويج مذهبهم بعزوا الشخصيات البارزة إلى الانسلاخ في سلوكهم يوم هلاكهم وموتهم، يوم لا - ينفعهم الندم والانسلاخ. وكما لا - يصحّ ذلك، لا يصحّ ما نقل أيضاً: ١. قال محمد بن طاهر: حضر المحدث أبو جعفر الهمداني مجلس وعظ أبي المعالي، فقال: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه، فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها، ما قال عارف قط يا الله إلّا - وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو، لا - يلتفت يمنة ولا - يسرة، فكيف

_____ ١. سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٧١. ٢. نفس المصدر: ١٨/٤٧٤.

(٣٢٤)

ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا، أو قال: فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة التي نجدها؟ فقال: يا حبيبي ما ثم إلّا الخيرة، ولطم على رأسه ونزل، وبقي وقت عجيب. وقال فيما بعد: حيرني الهمداني. (١) ٢. قال أبو جعفر الحافظ: سمعت أبا المعالي وسئل عن قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (٢) فقال: كان الله ولا عرش. وجعل يتخبط، فقلت: هل عندك للضرورات من حيلة؟ فقال: ما معنى هذه الإشارة؟ قلت: ما قال عارف قط يا رباه إلّا قبل أن يتحرك لسانه قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة - يقصد الفوق - فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة فتنبئنا تتخلص من الفوق والتحت؟ وبكيت وبكى الخلق، فضرب بكفه على السرير وصاح بالخير، ومزق ما كان عليه، وصارت قيامه في المسجد، ونزل يقول يا حبيبي الخيرة والخيرة والدهشة الدهشة. (٣) يعز على الأشاعرة أن يجهل إمام الحرمين - الذي يصفه ابن عساكر بأنّه «لم تر العيون مثله قبله ولا ترى بعده» (٤) - بجواب هذا السؤال، حتى يتخذ السائل سنداً لحلولة سبحانه في العرش وكيونته فيه. وقد سئل الإمام الصادق - عليه السلام - عنه وقيل له: ما الفرق بين أن ترفعوا أيديكم إلى السماء وبين أن تخفضوها نحو الأرض؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: «ذلك في علمه وإحاطته وقدرته سواء، ولكنه عزّ وجلّ أمر أوليائه وعباده برفع أيديهم إلى السماء نحو العرش، لأنّه جعله معدن الرزق فثبتنا ما ثبته القرآن والأخبار عن الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلّم - حين قال: ارفعوا أيديكم إلى الله عزّ وجلّ». (٥) _____ ١. نفس المصدر: ١٨/٤٧٤ - ٤٧٥. طه: ٥. ٢. ٣. سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٧٦ - ٤٧٧. ٤. التبيين: ٢٧٨. ٥. التوحيد للصدوق: ٢٤٨.

(٣٢٥)

وفى الختام إنّ أبا المعالي أجاب دعوة ربّه في الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٧٨ ودفن في داره، ثمّ نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين فدفن بجانب والده، وغلقت الأسواق، ورثى بقصائد، وكان له نحو من أربعمئة تلميذ كسروا محابرههم وأقلامهم وأقاموا حولاً، ووضعت المناديل عن الرؤوس عاماً بحيث ما اجتراً أحد على ستر رأسه، وكان الطلبة يطوفون بالبلد نائحين عليه مبالغين في الصياح والجزع. (١) وممّا قيل في وفاته: قلوب العالمين على المقالي * وأيام الورى شبه الليالي أيثر غصن أهل الفضل يوماً * وقد مات الإمام أبو المعالي (٢) _____ ١. سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٧٦. ٢. تبيين كذب المفتري: ٢٨٥.

حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)

حجة الإسلام الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ)

الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، تلمذ لإمام الحرمين ثمّ ولّاه نظام الملك التدريس في مدرسته ببغداد، وخرج له أصحاب وصنف التصانيف مع التصوف والذكاء المفرط، وتوفى في الرابع عشر من جمادى الآخرة بالطيران، قصبة بلاد طوس، وله خمس وخمسون سنة. وقع للغزالي أمور تقتضى علو شأنه من ملاقات الأئمة، ومجاراة الخصوم، ومناظرة الفحول، فأقبل عليه نظام الملك وحل منه محلاً عظيماً، وطار اسمه في الآفاق وندب للتدريس بنظامية بغداد سنة

أربع وثمانين

(٣٢٦)

وأربعمائة فقدمها في تجمهر [تجمهر] كبير وتلقاه الناس، ونفذت كلمته وعظمت حشمته، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء، وضرب به المثل، وشدت إليه الرحال. وأقبل على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز في سنة ثمان وثمانين وأربعمائه، فحج ورجع إلى دمشق واستوطنها عشر سنين بمنارة الجامع، وصنّف فيها كتباً، ثم صار إلى القدس والاسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس مقبلاً على التصنيف والعبادة وملازمة التلاوة ونشر العلم وعدم مخالطة الناس، ثم إن الوزير فخر الدين نظام الملك حضر إليه وخطبه إلى نظامية نيسابور، وألح كل الإلحاح فأجاب إلى ذلك وأقام عليه مدة، ثم تركه وعاد إلى وطنه على ما كان عليه، وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين. تصانيفه

يذكر ابن قاضي شعبة تصانيفه، وإليك بعضها: ١. الوسيط، وهو كالمختصر للنهاية، والوسيط ملخص منه. ٢. الوجيز والخلاصة. ٣. كتاب الفتاوى مشتمل على مائة وتسعين مسألة. ٤. كتاب الإحياء وهو من أشهر تأليفه. ٥. المستصفي في أصول الفقه. ٦. بداية الهداية في التصوف. ٧. إلبام العوام عن علم الكلام. ٨. الرد على الباطنية. ٩. مقاصد الفلاسفة. ١٠. تهافت الفلاسفة. ١١. جواهر القرآن. ١٢. شرح الأسماء الحسنى. ١٣. مشكاة الأنوار. ١٤. المنقذ من الضلال. (٣٢٧)

١٥. الخلاصة. ١٦. قواعد العقائد. إلى غير ذلك من التأليف. (١) نماذج من آرائه والغزالي مع ما أوتى من مواهب كبيرة في الفلسفة والكلام والتصوف وغير ذلك، غير أنه يقتفى أثر إمامه الأشعري ويلتقى معه في كثير من الآراء والمباني، وإليك قسماً من آرائه في كتاب «قواعد العقائد»: ١. إنكار الحسن والقبح العقليين يقول في توصيف أفعاله سبحانه: عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، فكل ما سواه، من إنس وجن... اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً. (٢) ويقول أيضاً: إن لله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق... لأنه متصرف في ملكه، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وهو محال على الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً. (٣) يلاحظ عليه: أولاً: أن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في _____ ١. اقرأ ترجمته في المصادر التالية: طبقات السبكي: ٤/١٠١، تبين كذب المفترى: ٢٩١-٣٠٦، والمنتظم: ٩/١٦٨، مهرجان الغزالي في دمشق عام ١٩٦١، مؤلفات الغزالي لعبد الرحمن البدوي ط ١٩٩٠م. ٢. قواعد العقائد: ٦٠ و ٢٠٤. ٣. نفس المصدر: ٦٠ و ٢٠٤.

(٣٢٨)

ملك الغير فرع منه ولا ينحصر الظلم فيه. وثانياً: أن حكم العقل بالقبح لا يترتب على لفظ الظلم حتى يفسر بأنه تصرف في ملك الغير، والعالم كله ملكه سبحانه، بل العقل يستقل بقبح إيذاء الغير وتعذيبه من دون جرم ولا تعدد من أي فاعل صدر، سواء أكان خالقاً أم غيره، ولا يجوز التخصيص في الأحكام العقلية. ثم إن الغزالي يستدل على صدور القبيح منه بقوله: «فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال، إذ لا غرض له، فلا يتصور منه قبيح كما لا يتصور منه ظلم». فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلت: إن ذلك عليه محال؟ وهل هذا إلا مجرد تشبه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار. (١) يلاحظ عليه: أن تفسير القبيح بما لا يوافق الغرض ساقط جداً، وهو من التفسيرات الخاطئة التي وردت في كتب المتكلمين من الأشاعرة، وقليل من المعتزلة، بل المراد من القبيح ما يستقل العقل بداهةً بقبحه إذا لاحظته من دون أن يلاحظ الغرض، فقد قلنا إنه كما يوجد في الحكمة النظرية قضايا بديهية ونظرية فهكذا يوجد في الحكمة العملية قضايا يستقل العقل بحسنها وقبحها بالبدهة، وقضايا يتوقف فيها العقل في بدء الأمر حتى يرجع إلى القضايا الواضحة في الحكمة العملية، فلا الحسن يدور على موافقة الغرض ولا القبح على مخالفته، بل كلاهما يدوران على أحكام عقلية واضحة لدى العقل من دون تخصيصها بزمان دون زمان، أو مكان دون مكان، أو فاعل دون فاعل. ٢. معرفة

الله واجبة شرعاً لا عقلاً. وقد اقتفى الغزالي في هذه المسألة أثر شيخه أبي الحسن الأشعري وقال: _____ ١. قواعد العقائد: ٢٠٨، ويشير بقوله «من مخاصمه أهل النار» إلى المناظرة التي وقعت بين الأشعري وشيخه أبي علي الجبائي، وقد أوعزنا إليها في صدر الكتاب.

(٣٢٩)

إن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل، لأنّ العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال، فإنّ العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض، وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود، وذلك محال في حقّه تعالى، فإنه يتقدّس عن الأغراض والفوائد، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد، وهو أيضاً محال، لأنه لا غرض له في الحال، بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه. وليس في المآل إلا الثواب والعقاب ومن أين يعلم أنّ الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما؟ (١) يلاحظ عليه: أنّا نختار الشق الثاني، وهو أنّ الغرض عائد إلى العبد، وهو أنّه يعلم من صميم ذاته بأنّ له منعماً، وأنّ النعمات التي أحاطت به معطاة من غيره، وعندئذ يحتمل أن يكون لمنعمه أوامر وزواجر وتكاليف وإلزامات ربما يعاقب على تركها، فعندئذ يحكم العقل عليه بأنّه يجب التعرف على المنعم دفعا للضرر المحتمل. والغرض العائد للعبد في المقام ليس غرضاً دنيوياً حتى يقال: كيف يكون هناك غرض وهو يتعب بالمعرفة وينصرف عن الشهوات، بل غرض عقلي وهو دفع العقاب المحتمل في المآل. وما قال من أنّه من أين علم أنّ الله تعالى يعاقب على المعصية ويثيب على الطاعة ولا يعاقب عليهما؟ فهو ناشئ عن إنكار الحسن والقبح العقليين، أي إنكار أوضح القضايا العقلية وأبدها، يقول سبحانه دعماً لما تقضى به الفطرة الإنسانية: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ). (٢) _____ ١. قواعد العقائد: ٢٠٩، ولعلّ قوله: «يثيب على المعصية والطاعة» تصحيف «يعاقب على المعصية ويثيب على الطاعة». ٢. الجاثية: ٢١.

(٣٣٠)

٣. جواز التكليف بما لا يطاق وقد بنى على إنكار الحسن والقبح العقليين أنّه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه، خلافاً للمعتزلة، ولو لم يجز ذلك، لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا: (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ). (١) ولأنّه تعالى أخبر نبيه بأنّ أبا جهل لا يصدقه، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله، وكان من جملة أقواله أنّه لا يصدقه، فكيف في أنّه لا يصدقه. (٢) يلاحظ عليه: أنّ في كلا الاستدلاليين وهنا واضحاً: أمّا الأول: فهو عجيب جداً كيف يستدل بجزء من الآية ويترك صدرها، يقول سبحانه: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ). (٣)

فصدر الآية يبين شأنه سبحانه وأنّ حكمته مانعة عن أن يكلف نفساً شيئاً خارجاً عن وسعها، وإنما يكلفها ما في وسعها، فلها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. إنّ التكليف عبارة عن الإرادة الجديّة المتعلّقة بطلب شيء من الغير، ولا تتمشى تلك الإرادة إلا مع العلم بكون الفعل في وسع الغير، فلو وقف على كونه خارجاً عن وسعه، لما تعلّقت به الإرادة الجديّة، فكيف يمكن تكليف الغير بشيء خارج عن وسعه، مآل ذلك إلى التكليف المحال؟ _____ ١. البقرة: ٢٨٦. ٢. قواعد العقائد: ٢٠٣-٢٠٤. ٣. البقرة: ٢٨٦.

(٣٣١)

وأما قوله سبحانه: (وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) فالمراد هو التكاليف الشاقّة التي لا تتحمل عادة، وإن كانت تتحمل عقلاً. ويمكن أن يقال: إنّ المراد من الموصول في (ما لا- طاقه لنا به) هو العذاب النازل أو الرجس، كالمسخ وغيره، الذي عمّ الأمم السابقة. وأما الثاني: فالظاهر أنّ في كلامه تصحيفاً، وكان الأولى أن يقول أبا لهب مكان أبي جهل. نعم تصح العبارة لو ورد في الروايات بأنّ النبي أخبر أبا جهل بأنّه لا يؤمن. وعلى كلّ تقدير فالاستدلال في مورد أبي لهب أوضح بأن يقال إنّ الله كلّف أبا لهب الإيمان بالقرآن،

ومن جملة ما أنزل في القرآن أنه لا يؤمن فقال: (سيصلى ناراً ذات لهب) فكأنه كلفه الإيمان بأنه لا يؤمن. يلاحظ على الاستدلال بأن الآية إخبار عن عدم إيمانه، وأنه لا- يؤمن إلى يوم هلا-كه نظير قول نوح: (رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا). (١) ولم يؤمر أبو لهب أن يؤمن بأنه لا- يؤمن بالله ورسوله وكتابه، وأما ما نزل في حقه فإثماً هو إخبار عن علم جازم بأنه لا يؤمن فقط. وإن شئت قلت: سقط التكليف عنه بعصيانه القطعي المستمر في علم الله إلى يوم وفاته بعد نزول هذه السورة الكاشف عن ذلك العصيان، وكل من اتحد معه في هذا الوصف فهو كذلك. ٤. رأيه في كون فعل العباد مخلوقاً لله قد رأى الغزالي فعل العباد مخلوقاً لله سبحانه ومكسوباً لهم يقول - بعد التفريق بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية - إنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً، وبقدرة العبد على وجه آخر، يعبر عنه بالاكتساب، وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى في الأزل _____ ١. نوح: ٢٦-٢٧.

(٣٣٢)

قد كانت متعلقةً بالعالم، ولم يكن الاختراع حاصلًا بها، وهي عند الاختراع متعلقةً به نوعاً آخر من التعلق، فبه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها. (١) إن الغزالي: يريد أن يثبت تعلق قدرة العبد على الفعل ببيان أنه ليس معنى تعلق القدرة هو الاختراع، بل للتعلق أقسام بشهادة أن قدرته سبغته تعلقاً بالعالم أولاً ولم يكن الاختراع حاصلًا عنده فتعلق القدرة أعم من الاختراع، فعند ذلك فالاختراع أثر قدرته الأخيرة، والكسب أثر قدرة العبد. وأنت خير بأن ما ذكره لا محصل له، وإنما هو مجرد لفظ خال عن معنى، وذلك أنه إن أُريد بالقدرة العلة التامة التي يتحقق بعدها الفعل فتمنع تعلق قدرته سبحانه بكل أجزاء العالم أولاً وأبداً في الأزل وإنما تعلقت مشيئته على إيجاد كل جزء في ظرفه ومكانه، والقدرة بهذا المعنى خارجة عن إطار البحث، وإنما الكلام في القدرة المستدعية للفعل، فليس لها أثر إلا الإيجاد، وعندئذ فالفعل في وجوده لو استند إليه سبحانه لا يبقى شيء لأن يستند إلى قدرة العبد حتى نقول: الله سبحانه خالق، والعبد كاسب، وقد عرفت أن الكسب من المفاهيم التي لم يظهر لأحد واقع المراد منها. ٥. رأيه في استوائه سبحانه على العرش إن الظاهر من كلامه في استوائه سبحانه على العرش هو التفويض، أي تفويض معناه إلى الله سبحانه، لكنّه عندما يشرح معنى الاستواء ومفاد الآية يفترق عن شيخه أبي الحسن ويلتحق بالمعتزلة الذين يذهبون إلى التأويل في هذه المواضع، وإليك عبارته: وأنه مستو على الوجه الذي قال، وبالمعنى الذي أراد، استواء منزهاً عن المماسّة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق _____ ١. قواعد العقائد: ١٩٦.

(٣٣٣)

العرش والسماء، فوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقيه لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعداً على الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد. (١) ويقول في موضع آخر: العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء، وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء، ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء، وهو الذي أُريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) (٢). وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء، كما قال الشاعر: قد استوى بشراً على العراق من غير سيف ودم مهراق واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطل إلى تأويل قوله تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) إذ حمل ذلك بالانفاق على الإجابة والعلم. (٣) ٦. رأيه في تكلمه سبحانه قد ذهب الغزالي في تفسير تكلمه سبحانه إلى ما اختاره شيخه فقال: إنه تعالى متكلم، أمر، ناه، واعد، متوعد، بكلام أزلي، قديم، قائم بذاته، لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان. (٤) وقال في موضع آخر: _____ ١. قواعد العقائد: ٥٢. ٢. فصلت: ١١. ٣. قواعد العقائد: ١٦٥. ٤. قواعد العقائد: ١٦٥.

(٣٣٤)

إنه سبحانه و تعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته - إلى أن قال - : والكلام بالحقيقه كلام النفس، وإنما الأصوات قطعت حروفاً للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم: إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً (١) وقد أوضحنا حال الكلام النفسى، وأن نفى التكلم عنه سبحانه لرجوعه إلى العلم. ٧. رأيه في رؤية الله سبحانه إن الغزالي مع أنه من المصيرين على التنزيه فوق ما يوجد في كلام الأشاعرة، ولكنه لم يستطع تأويل ما دلّ على أنه سبحانه يرى يوم القيامة فقال: العلم بأنه تعالى مع كونه منزهاً عن الصورة والمقدار، مقدساً عن الجهات والأقطار، مرئى بالأعين والأبصار في الدار الآخرة. ثم قال: وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو غير مؤد إلى المحال، فإن الرؤية نوع كشف وعلم، إلا أنه أتم وأوضح من العلم، وإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة، جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة. (٢) يلاحظ عليه: إنه بأيّ دليل يقول: إذا جاز تعلق العلم به سبحانه، جاز تعلق الرؤية به؟ فهل هذا قضية كليه؟ مع أن الإرادة والحسد والبخل وسائر الصفات النفسانية يتعلق بها العلم، فهل تتعلق بها الرؤية؟ وهو يعترف بأنه سبحانه ليس جسماً ولا جسمانياً ولا صورة، والمغالطة في كلامه واضحة، فإن العلم بالشيء نوع تصور له، والتصور لا يستلزم الإشارة إلى الشيء ولا كونه في جهة أو كونه متحيزاً، بخلاف الرؤية بالأبصار فإنها لا تنفك عن _____ ١. قواعد العقائد: ٥٨ و ١٨٢، والشعر للأخطل وقوله:

لا يعجبنيك من أمير خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلاً ٢. قواعد العقائد: ١٦٩ - ١٧١.

(٣٣٥)

ذلك، ومن أنكر فإنما ينكر بلسانه، وهو يؤمن بقلبه وجنانه. ثم إن له استدلالاً آخر في المقام يقول: وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم، جاز أن يراه الخلق من غير مقابل و كما جاز أن يُعلم من غير كيفية وصورة، جاز أن يرى كذلك. يلاحظ عليه: أنه إنما يصح الاستدلال لو كانت الرؤية من الجانبين على نسق واحد: فالعباد ينظرون إليه بعيونهم والله سبحانه ينظر إلى عباده ويراهم بعيونه، وأما إذا قلنا بأن رؤيته سبحانه إحاطة وجوده بجميع الأشياء وقيامها به قياماً قيوماً فلا يصح القياس، فرؤيته سبحانه لا تتوقف على المقابلة، لأن الرؤية إنما تتوقف على المقابلة إذا لم يكن الرائي محيطاً بالمرئى فيحتاج إلى المقابلة، دونما لم يكن محتاجاً لها. وأظن أن عقلية الغزالي الشامخة كانت تصده عن تجويز الرؤية وإنما صدرت منه هذه الهفوة لاتفاق الأشاعرة وأهل الحديث على الرؤية. ٨. نظره في رعاية الأصلح لعباده يقول: إنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء، بل لا يعقل في حقه الوجوب، فإنه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. وعلق عليه محقق الكتاب وقال: فلو أدخل جميعهم الجنة من غير طاعة سابقة، كان له ذلك، ولو أورد الكل منهم النار من غير زلة منهم كان له ذلك، لأنه تصرف مالك الأعيان في ملكه، وليس عليه استحقاق، إن أناب فبفضله يثيب، وإن عذب فلعق ملكه يعذب. (١) يلاحظ عليه: أن القائل بالأصلح للعباد يريد بذلك إخراج فعله سبحانه عن العبث لأنه حكيم ولا سبيل للعبث إليه، قال سبحانه: _____ ١. قواعد العقائد: ٢٠٥.

(٣٣٦) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينَ). (١)

وقال سبحانه: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ). (٢) إلى غير ذلك من الآيات التي تنفي العبث عن فعله، وتصرح باقترانها بالحكمة والغرض، فمن قال بوجوب رعاية الأصلح فإنما قال بإخراج فعله عن العبث. وأما كون العمل الأصلح واجباً عليه، لا يراد منه تكليفه من جانب العبد بالقيام بالأصلح وإنما المراد استكشاف العقل الحكم الضروري من صفاته الكمالية، أعنى كونه حكيماً، وأن حكمته تقتضى - إيجاباً - أنه لا يفعل العبث والعمل الخالي عن الهدف، كما أنك تحكم بأن زوايا المثلث تساوى كذا وكذا حتماً وليس معناه حكمك على الخارج، بل معناه استكشاف العقل حكماً ضرورياً من ملاحظة نفس المثلث وزواياه. وأما تعذبه سبحانه البريء فلا شك أنه يقدر على ذلك، ولكن لا يفعل لأنه قبيح، والعقل يدرك قبح

ذلك العمل من أي مقام صدر وفي أي موضع وقع، وليس حكم العقل بإيجابه إلا الاستكشاف على ما مرّ. وأما القول بأنّ الحكم بلزوم اقتران فعله بالغرض، يستلزم استكمال به، فهو خلط بين كون الغرض للفاعل وكون الغرض للفعل، فالغاية غاية للفعل لا للفاعل. وقد حققنا ذلك في الجزء الثالث عند البحث عن عقائد المعتزلة، فتربص حتى حين. ٩. مناوأة معاوية لعلي - عليه السّلام - كانت عن اجتهاد الغزالي يرى مناوئي علي - عليه السّلام - في الجمل وصفين مجتهدين يقول: _____ ١. الدخان: ٣٨. ٢. ص: ٢٧. (٣٣٧)

وما جرى بين معاوية و علي - عليه السّلام - كان مبنياً على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة، إذ ظن علي رضي الله عنه أنّ تسليم قتله عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها، فرأى التأخير أصوب، وظن معاوية أنّ تأخير أمرهم مع عظم جنائيتهم يوجب الإغراء بالأئمة، ويعرض الدماء للسفك، وقد قال أفاضل العلماء: «كلّ مجتهد مصيب» وقال قائلون: «المصيب واحد» ولم يذهب إلى تخطئه على ذو تحصيل أصلاً. يلاحظ عليه: أنّ للاجتهاد مقومات، وللمجتهد مؤهلات مقررّة في محله، أوضحها هو الوقوف على الكتاب والسنة واستخراج الحكم الشرعي من مداركه، وأمّا الاجتهاد تجاه النص فهو اجتهاد خاطئ، بل تشريع في مقابل الحجّة. وعلى ضوء ذلك فهل يمكن لنا توصيف عمل معاوية وزميله عمرو بن العاص ومن لفّ لفهما في الجمل والنهروان بالاجتهاد؟ فما معنى هذا الاجتهاد الذي سفكت الدماء من أجله، وأبيحت وغضبت الفروج، وانتهكت المحارم؟ وما معنى الاجتهاد تجاه قول رسول الله مخاطباً لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»؟ فهذا الاجتهاد عذر ابن ملجم المرادي أشقى الآخرين بنص الرسول الأمين على قتل خليفته الحق والإمام المبين في محراب عبادة الله، حتى قبل إن ابن ملجم قيل عليه متأولاً - مجتهداً على أنّه صواب، وفي ذلك يقول عمران بن حطان: يا ضربة من تقى ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذي العرش رضواناً عجبا لهذا الاجتهاد يبيح سبّ علي أمير المؤمنين - عليه السّلام -، ويبيح سبّ كلّ صحابي احتذى مثاله، ويجوز لعنهم والوقيع فيهم والنيل منهم في خطب الصلوات والجمعات والجماعات وعلى رؤوس المنابر، ولا يلحق فاعل هذه الموبقات ذم ولا تبعه، بل له أجر واحد لاجتهاده خطأ، وإن كان المجتهد من بقايا الأحزاب. هذا عرض خاطف لنظريات «الإمام الغزالي» وقد عرفت موقفها من (٣٣٨)

الحقّ، ولنختم ترجمته بنقل أمرين من كتابه: ١. إنّ صفاته سبحانه تشتمل على عشرة أصول وهي: العلم بكونه حياً، عالماً، قادراً، مريداً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، منزهاً عن حلول الحوادث، وأنّه قديم الكلام والعلم والإرادة. (١) وهذه العبارة تتضمن أحد عشر وصفاً له سبحانه، ولأجل ذلك قال المعلق: قوله منزهاً عن حلول الحوادث غير معدود في هؤلاء ولم يعلم وجه استثناء خصوصه كما لا يعلم أنّه وصف العلم بالقدمه، مع أنّ القدرة مثله فليس قدرته حادثه. ٢. ومن لطائف كلامه في رد المجسّمه ما قاله: فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنّها قبله الدعاء، وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء، وتنبهياً بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء، فإنّه تعالى فوق كلّ موجود بالقهر والاستيلاء. (٢) وفي خاتمة المطاف: نأتى بكلام لأبي زهرة في حقّ الغزالي ثمّ نعقبه بما يليق به: إنّ الغزالي نظر في كلام أبي منصور الماتريدي، وأبي الحسن الأشعري نظرة حرة بصيرة فاحصة، لا نظرة تابع مقلد، فوافقهما في أكثر ما وصل إليه وخالفهما في بعض ما ارتآه ديناً واجب الاتّباع. (٣) ماذا يريد أبو زهرة من قوله «نظر في كلام الشيخين نظرة حرة»؟ فلو كان محور حكمه هو كتاب «قواعد العقائد» الذي نقلنا منه مجموعة من آرائه فهو لم يخالفهما إلا في أقلّ القليل، كيف وقد أنكر الحسن والقبح العقليين، كما أثبت الرؤية في الآخرة، وقال بقدم كلامه، وبذلك ترك عاراً على جبين أهل التوحيد، وإنّما خالف الأشعري في الصفات الخبرية حيث ذهب فيها إلى التفويض دون الحمل على معانيها اللغوية، ونظرية التفويض وإن كانت أقلّ شناعه من الحمل على معانيها اللغوية، لكنّها نظرية باطلة توجب أن يكون القرآن من المعنويات غير نازل للفهم والتدبر. _____ ١. قواعد العقائد: ١٤٥. ٢. قواعد العقائد: ١٦٥. ٣. ابن تيمية عصره وحياته: ١٩٣.

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩ أو ٤٦٧-٥٤٨هـ)

الشهرستاني، أحد المهتمين بدراسة المذاهب والشرائع، ويعدّ شخصيّة ثالثة بين الأشاعرة في معرفة الملل والنحل، بعد الشيخين: أبي الحسن الأشعري، وعبد القاهر البغدادي، وكتابه المعروف بالملل والنحل يعد من المصادر لهذا العلم، ويمتاز عن غيره من الكتب المتقدمة عليه كـ«مقالات الإسلاميين» للأشعري و«الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي بذكر كثير من الآراء الفلسفية المتعلقة بما وراء الطبيعة، التي كانت سائدة في عصر المؤلف، ولأجل ذلك حاز الكتاب إعجاب الناس وتقديرهم، ومع ذلك كله قد خلط بين الحقّ والباطل، خصوصاً في نقل آراء بعض الطوائف الإسلامية. ويعزفه ابن خلكان بقوله: كان مبرزاً فقيهاً متكلماً، تفقه على أحمد الخوافي وعلى أبي نصر القشيري وغيرهما، وبرع في الفقه وقرأ الكلام على أبي القاسم الأنصاري وتفرد فيه، وصنف كتباً منها: «نهاية الإقدام في علم الكلام» وكتاب «الملل والنحل» و«المناهج والبيئات» وكتاب «المضارعة» و«تلخيص الأقسام لمذاهب الأنام» و كان كثير المحفوظ (١)، حسن المحاوره، يعظ الناس، ودخل بغداد سنة ٥١٠ وأقام بها ثلاث سنين، وظهر، قبول كثير عند العوام، وسمع الحديث من علي بن أحمد المدني بـ«نيسابور» وغيره، وكتب عنه الحافظ أبو سعد عبد الكريم السمعاني، وذكره في كتاب _____ ١. كذا في المصدر والأصح: «كثير الحفظ».

(٣٤٠)

«الذيل»، و كانت ولادته سنة ٤٧٩ أو ٤٦٧، وتوفّي في أواخر شعبان سنة ٥٤٨هـ (١) ويصفه الذهبي بقوله: شيخ أهل الكلام والحكمة، وصاحب التصانيف، ونقل عن السمعاني أنّه كان يميل إلى أهل القلاع (القرامطة) والدعوة إليهم والنصرة لطاماتهم، كما ينقل عن صاحب «التحبير» بأنّه كان إماماً أصولياً عارفاً بالأدب وبالعلوم المهجورة. وقال ابن أرسلان في تاريخ خوارزم: عالم كيس متعفف. ولولا- ميله إلى الإلحاد وتخبطه في الاعتقاد، لكان هو الإمام، وكثيراً ما نتعجب من وفور فضله كيف مال إلى شيء لا أصل له، نعوذ بالله من الخذلان، وليس ذلك إلا لإعراضه عن علم الشرع، واشتغاله بظلمات الفلسفة. وقد كانت بيننا محاورات فكان يباليغ في نصره مذاهب الفلاسفة والذب عنهم. حضرت وعظه مرات فلم يكن في ذلك قال الله وقال رسوله. فسأله سائل يوماً فقال: سائر العلماء يذكرون في مجالسهم المسائل الشرعية ويجيبون عنها بقول أبي حنيفة والشافعي، وأنت لا تفعل ذلك؟ فقال: مثلي ومثلكم كمثل بنى إسرائيل يأتيهم المن والسلوى، فسألوا الثوم والبصل. ثم نقل عن ابن أرسلان أنّه حجّ في سنة ٥١٠هـ (٢) المطبوع من كتبه

١. «الملل والنحل» قد طبع كراراً، وأخيراً في القاهرة في جزئين بتحقيق محمد سيد كيلاني، طبع في ١٣٨١هـ. ٢. «نهاية الإقدام» وهو مطبوع حرره وصححه «الفرد جيوم» المستشرق ولم يذكر عام الطبع. ومجموع الكتاب يحتوي على عشرين قاعدة كلامية. قال في مقدمه الكتاب: وقد أوردت المسائل على تشعث خاطري وتشعب فكري، ممتثلاً أمره في معرض المباحثات ترتيباً وتمهيداً، سؤالاً _____ ١. وفيات الأعيان: ٤/٢٧٣ برقم ٦١١. ٢. سير أعلام النبلاء: ٢٠/٢٨٧-٢٨٨، ولاحظ الروضات: ٨/٢٦ برقم ٦٧٥.

(٣٤١)

وجواباً، وسميت الكتاب «نهاية الإقدام (بالكسر) في علم الكلام» (١) وإليك فهرس القواعد: ١. القاعدة الأولى: في حدوث العالم وبيان استحالة حوادث لا أول لها، واستحالة وجود أجسام لا تنهاى مكاناً. ٢. القاعدة الثانية: في حدوث الكائنات بأمرها بإحداث الله سبحانه. ٣. القاعدة الثالثة: في التوحيد. ٤. القاعدة الرابعة: في إبطال التشبيه. ٥. القاعدة الخامسة: في إبطال مذهب التعطيل وبيان وجوه التعطيل. ٦. القاعدة السادسة: في الأحوال. ٧. القاعدة السابعة: في المعدوم هل هو شيء أم لا، وفي الهيولى وفي الرد على من أثبت الهيولى بغير صورة الوجود. ٨. القاعدة الثامنة: في إثبات العلم بأحكام الصفات العلى. ٩. القاعدة التاسعة: في إثبات العلم بالصفات الأزلية. ١٠. القاعدة العاشرة: في العلم الأزلي خاصة، وأنه أزلي واحد. ١١. القاعدة الحادية عشرة: في الإرادة. ١٢. القاعدة الثانية عشرة: في كون الباري متكلماً بكلام أزلي. ١٣. القاعدة الثالثة عشرة: في أنّ كلام الباري واحد. ١٤. القاعدة الرابعة عشرة: في حقيقة الكلام الإنساني والنطق النفساني. ١٥. القاعدة الخامسة عشرة: في العلم بكون الباري تعالى سميعاً بصيراً. _____ ١. نهاية

الإقدام: ٤.

(٣٤٢)

١٦. القاعدة السادسة عشرة: في جواز رؤية البارئ تعالى عقلاً ووجوبها سمعاً. ١٧. القاعدة السابعة عشرة: في التحسين والتقيح، وبيان أنه لا يجب على الله تعالى شيء من قبل العقل، ولا يجب على العباد شيء قبل ورود الشرع. ١٨. القاعدة الثامنة عشرة: في إبطال الغرض والعلّة في أفعال الله تعالى، وإبطال القول بالصلاح والأصلح واللطف، ومعنى التوفيق والخذلان والشرح والختم والطبع، ومعنى النعمة والشكر، ومعنى الأجل والرزق. ١٩. القاعدة التاسعة عشرة: في إثبات النبوات. ٢٠. القاعدة العشرون: في إثبات نبوة نبيّنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - . وقد نسب إليه غير واحد هذين البيتين وجاء في أول كتاب «نهاية الإقدام» و هما: لقد طفت في تلك المعاهد كلها * وسيرت طرفي بين تلك المعالم فلم أر إلا واضعاً كف حائر * على ذقن أو قارعاً سن نادماً نكات

١. إن القول بميل الرجل إلى القرامطة، لا يصدقه كلامه في الملل والنحل، فإنه قد طرح في هذا الكتاب عقائد الإسماعيلية واستوفى الكلام فيها وختم كلامه بقوله: وكم ناظرت القوم على المقدمات المذكورة فلم يتخطوا عن قولهم - إلى أن قال - وقد سددتم (الطائفة الإسماعيلية) باب العلم وفتحتم باب التسليم والتقليد، وليس يرضى عاقل بأن يعتقد مذهباً على غير بصيرة، وأن يسلك طريقاً من غير بينة. (١) _____ ١. الملل والنحل: ١/١٩٧-١٩٨، ط دار المعرفة بيروت.

(٣٤٣)

٢. يروى الشهرستاني أن عقيدة السلف في إجراء الصفات الخيرية على الله سبحانه هو التفويض بقوله: بالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات، واقتصر بعضهم على صفات دلّت الأفعال عليها وما ورد به الخبر، فافترقوا فرقتين: فمنهم من أوله على وجه يحتمل اللفظ ذلك. ومنهم من توقّف في التأويل وقالوا: لسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها. (١) ٣. إن الرجل يتخطب حقاً في عرض عقائد الشيعة، وكأنه لم يرجع إلى مصدر شيعي معتبر، يقول في حق هذه الطائفة: إن الشيعة في هذه الشريعة وقعوا في غلو وتقصير. أمّا الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله تعالى وتقدس، وأما التقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق، ولما ظهرت المعتزلة والمتكلمون من السلف رجعت بعض الروافض عن الغلو والتقصير. (٢) يلاحظ عليه: أن الشيعة هم الذين يمثلون أصحاب الإمام علي والسبطين وعلي والسجاد والباقرين والكاظمين... - عليهم السّلام - وهؤلاء عن بكره أبيهم مبرأون عن هذه التهم الساقطة. كيف وهم مقتنون أثر عترته النبي الذين جعلهم الرسول الأعظم قرناء الكتاب في العصمة والهداية، وقد تواترت عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - رواية الثقلين، وأنه قال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». (٣) _____ ١. الملل والنحل: ١/٩٣، وقد عرفت ما في التفويض من الإشكال. ٢. الملل والنحل: ١/٩٣، وقد عرفت ما في التفويض من الإشكال. ٣. راجع في الوقوف على مصادره ونصوصه، كنز العمال: ١/١٧٢ باب الاعتصام بالكتاب والسنة.

وقد نشرت جماعة دار التقريب بالقاهرة رسالة مستقلة في هذا المجال أنهى فيها صور الحديث وأسناده. (٣٤٤)
أفهل يتصور أن يعتقد مقتنو آثارهم تأليه الأئمة، أو تشبيه إله العالم بواحد من الخلق؟! ٤. يقول أيضاً في حق الإمامية: صارت الإمامية متمسكين بالعدلية في الأصول وبالمشبهة في الصفات، متحيرين تائهين. (١) تمسك الإمامية بالعدل معروف لا شك فيه، وكفى ذلك الكتاب والعقل والسنة المروية عن طريق أهل البيت، وأما كونهم مشبهين في الصفات ففريه لا يجد الرجل دليلاً عليها في كتبهم، فهم من أشدّ المنزهين لله سبحانه عن الصفات الخيرية مثل اليمين والوجه بالمعاني الحقيقية، وكفى في ذلك خطب علي - عليه السّلام - في النهج، فقد نزّه البارئ سبحانه لا عن الصفات الخيرية وحدها، بل نزّهه عن كونه متصفاً بصفات ذاتية زائدة على ذاته، بل صفاته سبحانه عندهم نفس ذاته، لا - بمعنى النياية، بل بلوغ الذات في الكمال إلى حدّ صارت نفس العلم والقدرة، قال - عليه السّلام - : «لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن

ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، و من حدّه فقد عدّه، و من قال فيم فقد ضمنه، ومن قال علام فقد أخلى منه». (٢) ففي الكتاب نقول ضعيفه، وساقطه عن هذه الطائفة تحتاج إلى نظارة التنقيب جداً، فلنكتف بهذا المقدار. _____ ١. الملل والنحل: ١/١٧٢. ٢. نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

الفخر الرازي (٥٤٣-٦٠٦هـ)

الفخر الرازي (٥٤٣-٦٠٦هـ)

محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبه، ولد فيها عام ثلاث وأربعين وخمسائة

(٣٤٥)

أو سنة أربع وأربعين، وتوفّي في «هراة» عام ست و ستمائة. (١) قال ابن خلكان: فريد عصره، ونسيج وحده، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، وله التصانيف المفيدة في حقول عديدة، منها تفسير القرآن الكريم، جمع فيه كلّ غريب وغريبة، وهو كبير لكنّه لم يكمله، ثم ذكر تصانيفه وقال: وكل كتبه ممتعة، وانتشرت تصانيفه في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة، فإنّ الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين - إلى أن قال - : و كان له في الوعظ اليد البيضاء، ويعظ باللسانين: العربي والعجمي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء، وكان يحضر مجلسه بمدينة «هراة» أرباب المذاهب والمقالات ويسألونه، وهو يجب كلّ سائل بأحسن إجابة، وكان رجع بسببه خلق كثير من الطائفة الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنّة، وكان يلقب بهراة «شيخ الإسلام». وقد تخرج في المذهب على والده ضياء الدين عمر، ووالده على أبي القاسم سليمان بن ناصر الأنصاري، وهو على إمام الحرمين أبي المعالي، وهو على الأستاذ أبي إسحاق الإسفرائيني، وهو على الشيخ أبي الحسين الباهلي، وهو على شيخ السنّة أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. يقول أبو عبد الله الحسين الواسطي: «سمعت فخر الدين ينشد بهراة على المنبر عقيب كلام عاتب فيه أهل البلد: المرء مادام حياً يستهان به * ويعظم الرزء فيه حين يفتقد (٢) لا شك أنّ الرازي من أئمة الأشاعرة في عصره، وقد نصر المنهج الأشعري في تأليفه الكلامية وفي تفسيره خاصة، يقف عليه كلّ من لاحظ الآيات التي تختلف في تفسيرها المعتزلة والأشاعرة، وستقف على كلامه في تفسير قوله سبحانه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (٣) ولما كان يناظر الكرامية _____ ١. الكامل لابن الأثير: ١٢/٢٨٨، الوفيات: ٤/٢٥٢. ٢. وفيات الأعيان: ٤/٢٤٨-٢٥٢ برقم ٦٠٠. ٣. طه: ٥.

(٣٤٦)

من أهل التجسيم والتشبيه ويكتبهم في القول بهما صريحاً صار ذلك سبباً للطعن عليه ممن لا يروقه التخطى عن ظواهر النصوص. يقول الذهبي: وقد بدت في تأليفه بلايا وعظام وسحر وانحرافات عن السنّة، والله يعفو عنه، فإنّه توفّي على طريقه حميدة، والله يتولّى السرائر. (١) وأظن أنّ نسبة الانحراف عن السنّة إليه هو ما نقله صاحب «تاريخ روض المناظر» من ابن الأثير: أنّ السلطان غياث الدين قد أبلغ في إكرام الإمام فخر الدين، وبنى له المدرسة بهراة، فعظم ذلك على أهلها الكرامية من الحنفية والشافعية، فحضروا عند الأمير غياث الدين للمناظرة، وحضر فخر الدين الرازي والقاضي عبد المجيد بن القدوة وهو أكبر الكرامية وأعلمهم وأزهدهم، فتكلم الرازي فأعرض عنه ابن القدوة، وطال الكلام، وقام غياث الدين فاستطال الرازي على ابن القدوة وشمته، فأغضب ذلك الملك ضياء الدين ابن عم غياث الدين، وذم فخر الدين الرازي ونسبه إلى الزندقة والفلسفة عند غياث الدين، فلم يصنع إليه شيئاً، فلما كان الغد وعط ابن القدوة الناس من الغدوة بالجامع، فحمد الله وصلى على النبي وقال: (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) ، أيها الناس لا نقول إلا ما صحّ عندنا من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأما علم أرسطو وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا- نعلمها، فلاي (جهة) تسنم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه، فبكي وبكت

الكرامية، واستعانوا وثار الناس من كل جانب، وامتلاً الناس فتنة، وبلغ ذلك السلطان غياث الدين، فسكن الفتنة وأوعد الناس بإخراج فخر الدين. ثم أمره بالعود إلى هراء، فعاد إليها، ثم عاد إلى خراسان وحظى عند السلطان خوارزم شاه ابن محمد بن تكش. (٢) _____ ١. سير أعلام النبلاء: ١/٥٠١/٢١ برقم ٢٦١. ٢. روضات الجنات: ٨/٤٤٤ برقم ٦٨٢.

(٣٤٧)

ولأجل وجود هذا الجو المشحون بالعداء على أهل التنزيه لا يمكن أن يصدق ما نسبته إليه من الشعر الذي ينتقد فيه المنهج الفكري في العقائد، أعنى: نهاية إقدام العقول عقال * وأكثر سعى العالمين ضلال وأرواحنا في وحشة من جسمنا * وحاصل دنيانا أذى ووبال ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا وكم قد رأينا من رجال ودولة * فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا وكم من جبال قد علت شرفاتها * رجال فزالوا والجبال جبال (١) آثاره في العقائد والكلام إن الرازي كان كثير الإنتاج، وقد طبع قسم من آثاره نذكر منها ما له صلة بالموضوع: ١. «أسماء الله الحسنی» وهو المسمى «لوامع البينات» طبع بمصر عام ١٣٩٦ وهو كتاب قليل الزلزلة ويفسر الأسماء بين التشبيه والتعطيل. ٢. «مفاتيح الغيب» في ثمان مجلدات كبار في تفسير القرآن الكريم، وهو مشحون بالأبحاث الكلامية في مختلف الأبواب، ويناضل فيه المعتزلة، وينصر الأشاعرة، ويرد فيه على سائر الطوائف، وله من الشيعة الإمامية في الكتاب مواقف تحكى عن عناده ولجاجه، وأنه بصدد الرد سواء أصح أم لم يصح، وستوافيك وصيته عند الموت. ٣. «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين» وقد لخصه المحقق الطوسي وأسماه «تلخيص المحصل» ونقد منهجه في كثير من الموارد، وقد طبع أيضاً. ٤. «المباحث المشرقية» في جزئين جمع فيه آراء الحكماء والسالفين ونتائج أقوالهم وأجاب عنهم، طبع في حيدرآباد دكن، وأعيد طبعه بـ«الأوفست». ٥. «شرح الإشارات» لابن سينا على نمط النقد والرد على الشيخ _____ ١. وفيات الأعيان: ٤/٢٥٠ برقم ٦٠٠.

(٣٤٨)

الرئيس، يقول المحقق الطوسي في شرحه للإشارات: وقد شرحه فيمن شرحه الفاضل العلامة فخر الدين ملك المناظرين محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي - جزاه الله خيراً - فجهد في تفسير ما خفى منه بأوضح تفسير، واجتهد في تعبير ما التبس فيه بأحسن تعبير، وسلك في تتبع ما قصد نحوه طريقة الاقتفاء، وبلغ في التفتيش عمّا أودع فيه أقصى مدارج الاستقصاء، إلا أنه قد بالغ في الرد على صاحبه أثناء المقال، وجاوز في نقض قواعده حد الاعتدال، فهو بتلك المساعي لم يزد إلا قدحاً، ولذلك سمى بعض الظرفاء شرحه جرحاً، ومن شرط الشارحين أن يبذلوا النصرة لما قد التزموا شرحه بقدر الاستطاعة، وأن يذّبوا عمّا قد تكفلوا إيضاحه، بما يذب به صاحب تلك الصناعة، ليكونوا شارحين غير ناقضين، ومفسرين غير معترضين. اللهم إلا إذا عثروا على شيء لا يمكن حمله على وجه صحيح، فحينئذ ينبغي أن ينبهوا عليه بتعريض أو تصريح، متمسكين بذيل العدل والإنصاف، متجنبين عن البغي والاعتساف، فإن إلى الله الرجعى، وهو أحق بأن يخشى. (١) إلى غير ذلك من الآثار الفكرية العقيدية. تصلبه في المنهج الأشعري إن الرازي في تفسيره وأكثر كتبه متصلب في المنهج الأشعري، ويكفي في ذلك ما ذكره في تفسير قوله سبحانه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) عند الإجابة على كلام صاحب الكشاف. ينقل عن صاحب الكشاف قوله: «لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل إلا مع الملك، جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوى فلان على البلد يريدون «ملك» و إن لم يقعد على السرير البتة، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى في الدلالة من أن يقال فلان ملك. ونحوه قولك: «يد فلان مبسوطة» و «يد فلان مغلوله» بمعنى أنه جواد _____ ١. الإشارات والتنبيهات: ١/٢.

(٣٤٩)

وبخيل، لا- فرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى إن من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأساً، قيل فيه يده مبسوطة، لأنه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد. ومنه قوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ - أي هو بخيل - بل يَدَا مَبْسُوطَاتَانِ) أي هو جواد من غير تصوّر يد ولا غل ولا بسط. والتفسير بالنعمة والتمحل للتسمية من ضيق العطن. ويقول الرازي: وأقول: إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية، فإنهم يقولون: المراد من قوله: (فَأَخْلَعْنَا نَعْلَيْكَ): الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور نعل، وقوله: (يا نار كُونِي بَرْدًا وَسِيلًا مَاءً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) المراد منه: تخليص إبراهيم - عليه السّلام - من يد ذلك الظالم، من غير أن يكون هناك نار وخطاب ألبته. وكذا القول في كلّ ما ورد في كتاب الله تعالى، بل القانون أنه يجب حمل كلّ لفظ ورد في القرآن على حقيقته، إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئاً لم يخض فيه. (١) أظن أن الرازي يقول في لسانه ما ليس في قلبه، فإن الفرق بين المقيس والمقيس عليه واضح لا يخفى على مثل الرازي. فإن القرائن الحافّة بالكلام في مسألة الاستواء على العرش، قاضية بأن المراد هو الاستيلاء على القدرة لا جلوسه عليه، وقد ذكرنا القرائن الموجودة في نفس الآيات الدالة على ذلك المعنى عند البحث عن الصفات الخيرية (٢)، وهذا بخلاف الآيات التي تؤولها الباطنية فإنها تأويلات بلا دليل. نظرة في تفسير الرازي

إن تفسير تفسير الرازي مع كونه تفسيراً على الكتاب العزيز كموسوعة كلامية في مختلف الأبواب. فينقل آراء الطوائف الإسلامية في مجالات مختلفة، فيدافع _____ ١. مفاتيح الغيب: ٦/٦، طبع مصر. ٢. لاحظ بحث الصفات الخيرية من هذا الكتاب مضافاً إلى دلالة العقل على امتناع اتصافه سبحانه بأحكام المحدّثات والممكنات. (٣٥٠)

عن الأشاعرة ويهاجم المعتزلة بحماس بالغ، فمن أراد الوقوف على آرائه فعليه بفهارس الأجزاء التي جاءت الإشارة فيها إلى استدلال الأشاعرة أو المعتزلة أو الإمامية على ما يتبنونه من المذاهب، ونحن نترك ذلك المجال للقارئ الكريم. ولكن نركز هنا على نكتته، وهي أن الرازي يخالف الإمامية في غالب المجالات، خصوصاً فيما يرجع إلى مباحث الإمامة والآيات الواردة في حق الإمام علي - عليه السّلام -، فيورد التشكيك تلو الآخر في كثير من القضايا التاريخية والأحاديث المستفيضة، ومع ذلك كله فقد أصرح بالحقيقة في موارد نأتى بها أداءً لحقّه في المقام: ١. من اقتدى بعليّ فقد اهتدى اخترف الفقهاء في الجهر بالبسملة في الصلاة، واستدلّ الرازي على استحباب الجهر بها: بأنّ علياً كان يجهر بها، وقد ثبت ذلك بالتواتر، ومن اقتدى في دينه بعليّ بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «اللَّهُمَّ أدر الحق مع علي حيث دار». (١) ٢. الكوثر أولاد الرسول يفسر الرازي الكوثر بأولاد الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، ويقول في عداد الأقوال: «القول الرابع» الكوثر: أولاده، قالوا لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بعدم الأولاد، فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بنى أمية في الدنيا أحد يعبأ به. ثم انظر، كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا - عليهم السّلام - والنفس الزكية وأمثالهم. (٢) _____ ١. مفاتيح الغيب: ١/١١١، الحجة الخامسة. ٢. مفاتيح الغيب: ٨/٤٩٨.

(٣٥١)

٣. المسح على الرجلين استرسل الرازي في الكلام على وجوب المسح على الأرجل على وجهه، كأنّ المسح هو خيرته، وإليك كلامه: «اختلف الناس في مسح الرجلين وفي غسلهما، فنقل القفال في تفسيره عن ابن عباس وأنس بن مالك وعكرمة والشعبي وأبي جعفر محمد بن علي الباقر: أنّ الواجب فيهما المسح، وهو مذهب الإمامية من الشيعة. وقال جمهور الفقهاء والمفسرين: فرضهما الغسل. وقال ابن داود الإصفهاني: يجب الجمع بينهما، وهو قول الناصر للحق من أئمة الزيدية. وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري: المكلف مخير بين المسح والغسل». حجة من قال بوجوب المسح مبني على القراءتين المشهورتين في قوله: (وأرجلكم) فقراً ابن كثير

و حمزة و أبو عمرو و عاصم في رواية أبي بكر عنه بالجر. وقرأ نافع وابن عامر و عاصم في رواية حفص عنه بالنصب. فنقول: أما القراءة بالجر، فهي تقضى كون الأرجل معطوفة على الرؤوس، فكما وجب المسح في الرأس فكذلك في الأرجل. فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال هذا كسر على الجوار كما في قوله: «جر ضب خرب» و قوله: «كبير أناس في بجاد مزمل»؟ قلنا: هذا باطل من وجوه: الأول: إن الكسر على الجوار معدود في اللحن الذي قد يحتمل لأجل الضرورة في الشعر، وكلام الله يجب تنزيهه عنه. وثانيها: إن الكسر إنما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما في قوله: «جر ضب خرب» فإن من المعلوم بالضرورة أن الخرب لا يكون نعتاً للضب بل للجر. وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل. وثالثها: إن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب. وأما القراءة بالنصب فقالوا إنها أيضاً توجب المسح، وذلك لأن قوله (وامسحوا برؤوسكم) فرؤوسكم في محل النصب ولكنها مجرورة بالباء، فإذا عطفت الأرجل على الرؤوس، جاز في الأرجل النصب عطفاً على محل الرؤوس (٣٥٢)

والجر عطفاً على الظاهر. وهذا مذهب مشهور للنحاة. إذا ثبت هذا فنقول: ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب في قوله تعالى: (وأرجلكم) هو قوله: (وامسحوا) ويجوز أن يكون هو قوله: (واغسلوا) لكن العاملين إذا اجتمعا على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى، فجب أن يكون عامل النصب في قوله: (وأرجلكم) هو قوله (وامسحوا)، فثبت أن قراءة (وأرجلكم) بنصب اللام توجب المسح أيضاً، فهذا وجه الاستدلال بهذه الآية على وجوب المسح، ثم قالوا: ولا يجوز دفع ذلك بالأخبار لأنها بأسرها من باب الآحاد ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز. (١) وصية الرازي عند الموت

لما مرض الرازي وأيقن أنه ملاق ربّه، أملى على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الإصفهاني وصية في الحادي والعشرين من محرم سنة ٦٠٦هـ. ومما جاء في تلك الوصية: يقول العبد الراجي رحمه ربه الواثق بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي وهو في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة... فاعلموا أنني كنت رجلاً محباً للعلم، فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كميته وكيفيته، سواء أكان حقاً أم باطلاً أم غثاً أم سميناً... وأما الكتب العلمية التي صنفتها أو استكثرت من إيراد السؤال على المتقدمين فيها، فمن نظر في شيء منها، فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضيل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيء فإنني ما أردت إلا- تكثير البحث، وتشحيد خاطر والاعتماد في الكلّ على الله تعالى. (٢) وغير خفي على من سبر كتب الرازي في الكلام والفلسفة والتفسير وغيرها، أنه يشكك في كثير من المسائل المسلمة، وربما يبالغ بأنه لو اجتمع الثقلان على الإجابة عن هذا الإشكال لما قدروا. (٣) ولعل هذه الندامة الظاهرة _____ ١. مفاتيح الغيب: ٣/٣٨٠-٣٨١، طبع مصر. ٢. دائرة المعارف، القرن الرابع عشر، فريد وجدى: ٤/١٤٨-١٤٩. ٣. شرح المواقف: ٨/١٥٥.

(٣٥٣)

منه حين الموت تكون كفارة لبعض هذه التشكيكات، والله العالم.

سيف الدين الآمدي (٥٥٦-٦٢١هـ)

سيف الدين الآمدي (٥٥٦-٦٢١هـ)

أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الفقيه الأصولي الملقب بـ«سيف الدين الآمدي» كان حنبلي المذهب، وانحدر إلى بغداد وقرأ بها علي أبي الفتح نصر بن فتيان الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، ولما بلغ الدرجة الممتازة انتقل إلى الشام واشتغل بفنون المعقول، وحفظ منه الكثير وتمهر فيه، ولم يكن في زمانه أحفظ منه لهذه العلوم، ثم انتقل إلى الديار المصرية، ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصّبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة، وانحلال الطوية والتعطيل ومذهب الفلاسفة والحكماء، وكتبوا محضراً يتضمن ذلك ووضعوا فيه خطوطهم بما يستباح به الدم، وهذه شنشنة يعرفها التاريخ من الذين أعدموا العقل وصلبوه وشوهوا

صورة الشريعة، واعتمدوا في كل شيء حتى فيما يجب ثبوته قبل ثبوت الشرع، على الحديث، ورأوا الاشتغال بالعلوم العقلية كفضلاً وزندقة فابتلى الآمدي (١) بهؤلاء المترمّتين، وقبله الشهرستاني كما عرفت ذلك في ترجمته. ينقل ابن خلكان أن رجلاً منهم لما رأى التحامل وإفراط التعصب على الآمدي كتب في المحضر الذي أعدوه للسعاية عليه: حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه * فالقوم أعداء له وخصوم والله أعلم وكتب: فلان بن فلان. ولعل الحسد - في جميع العصور التي قام فيها هؤلاء بقمع أهل الفكر والعقل وطردهم عن الساحة الإسلامية - كان أحد العوامل الباعثة على التكفير والتفسيق، والقتل والصلب، وكان هناك عامل آخر أشد تأثيراً في هذه المجالات، وهو سوء الوعي وقلّة العمق في المخالفين، إذ لم يعرفوا أن الإسلام _____ ١. الآمدي: منسوب إلى آمد وهي مدينة في ديار بكر.

(٣٥٤)

يحارب الجمود والتقليد، ويتآخى فيه العقل والشرع، وتتحد فيه نتيجة البرهنة والتعبد. ومن جراء هذه القلاقل لم يجد الآمدي بدءاً من مغادرة مصر إلى دمشق، وعُيّن مدرساً بالمدرسة العزيبية، ثم عزل عنها لبعض التهم الفكرية، وأقام بطالاً في بيته. وتوفى على تلك الحال سنة ٥٨١ ودفن بسفح جبل قاسيون. (١) ويشهد لما ذكرنا من السبب ما نقله الذهبي عن سبط ابن الجوزي في حقه: لم يكن في زمانه من يجاريه في الأصولين وعلم الكلام، وكان أولاد «العادل» كلهم يكرهونه لما اشتهر عنه من علم الأوائل والمنطق، وكان يدخل على «المعظم» فلا يتحرك له، فقلت: قم له عوضاً عنى. فقال: ما يقبله قلبي. ومع ذلك ولّاه تدریس العزيبية. فلما مات «العادل» أخرج «الأشرف» سيف الدين ونادى في المدارس: من ذكر غير التفسير والفقہ أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيتة. فأقام السيف حاملاً في بيته إلى أن مات ودفن بقاسيون. ولم يكن عمل «العادل» ولا «الشريف» نسيجاً وحدهما - بل لم يزل أهل التعقل والتفكر الذين كانوا صفناً كالبنيان المرصوص مقابل الملاحدة والزنادقة - مضطهدين مقهورين بيد الحنابلة والمتسمين بأهل الحديث، وقد بلغ السيل الزبي في العصور السابقة على عصر الآمدي عندما تدخل الخليفة «القادر بالله» العباسي في اختلاف المعتزلة مع الحنابلة وأهل الحديث، وأصدر كتاباً ضد المعتزلة يأمرهم بترك الكلام والتدریس والمناظرة، وأنذرهم - إن خالفوا أمره - بحلول النكايه والعقوبة عليهم. وقد سلك السلطان «محمود» في غزنة مسلك الخليفة في بغداد، فصلب المخالفين ونفاهم وأمر بلعنهم، وقد اتخذ ذلك سنة في الإسلام. (٢) ففي الحقيقة ما صلبوا المعتزلة، بل صلبوا العقل وأعدموه، وأبعدوا الدين المبنية أصوله على الأسس العقلية عن أساسه. _____

١. وفيات الأعيان: ٣/٢٩٣-٢٩٤ برقم ٤٣٢. ٢. البداية والنهاية: ١٢/٦-٧.

(٣٥٥)

ولم يقتصر في النكايه على المعتزلة، بل عمّ التعذيب المفكرين من الأشاعرة، الذين كان منهجهم منزلة بين المنزلتين بين الحنابلة والمعتزلة. والعجب من الذهبي أنه كيف يصور شخصية علمية مثل السيف بأنه كان تارك الصلاة. قال: كان القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة يحكى عن شيخه ابن أبي عمر قال: كنا نتردد إلى السيف. فشككنا هل يصلى أم لا؟ فنام فعلمنا على رجله بالحبر. فبقيت العلامة يومين مكانها، فعلمنا أنه ما توضعاً، نسأل الله السلامة في الدين. أفي ميزان النصفه والعدل، القضاء بهذه الظنون واستباحة النفوس والأموال بها، بعد إمكان أنه تيمم مكان الوضوء، وصلى لعذر شرعي بالطهارة الترابية مكان الطهارة المائية وبقي الحبر في محله. هلم معي إلى سفسطه أخرى ينقلها الذهبي من شيخه ابن تيمية: يغلب على الآمدي الحيرة والوقف، حتى أنه أورد على نفسه سؤالاً - في تسلسل العلل، وزعم أنه لا - يعرف عنه جواباً، وبنى إثبات الصانع على ذلك، فلا يقرر في كتبه إثبات الصانع ولا حدوث العالم، ولا وحدانية الله، ولا النبوات، ولا شيئاً من الأصول الكبار. وما ذكره فريه محضه على السيف، ونحن نعرض فهرس الموضوعات التي أشبع السيف البحث عنها في كتابه «غاية المرام في علم الكلام» حتى نعرف مدى صدق قوله، فقد جاء فيها: القانون الأول: في إثبات الواجب بذاته. القانون الثالث: في وحدانية البارئ تعالى. (ج) القاعدة الثالثة: في حدوث المخلوقات وقطع تسلسل الكائنات. (١) الطرف الثاني: في إثبات الحدوث بعد العدم. القانون السابع في النبوات، والأفعال الخارقة للعادات. (٣٥٦)

(١) الطرف الأول: في بيان جوازها بالعقل. (١) إن تعطيل العقول من المعارف العقلية ليس بأقل خطراً من تعطيل ذاته سبحانه وتعالى عن الاتصاف بالصفات الخبرية، الذي صار حجة لدى الحنابلة على تكفير أو تفسيق المعطلين كيف، وهو سبحانه يقول: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً) (٢)، ويقول تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (٣)، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ). (٤) إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكر في الصنع والكون والنفس، ولم تكن الغاية من تأسيس علم الكلام إلا إقامة الحجة على العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة. إن احتكاك الثقافة الإسلامية مع ثقافات سائر الأمم أوجد موجة من الاضطراب الفكري والصراع العقيدى بين المسلمين، وكانت الوسيلة المنحصرة لحماية العقيدة الإسلامية ومحاربة الفرق والمذاهب الإلحادية، تأسيس علم كامل لإثبات ما يعتنقه المسلمون بالأدلة العقلية، وكان تأسيسه وليد الحاجة والضرورة، فلا عتب على قائل يصفه بصخرة النجاة وسلم السلام والأمان. مؤلفاته

إن ما وصل إلينا من تأليفه كلها يتسم بالطابع العقلي، إما عقلية صرفه، أو مزيجاً من العقل والنقل، فمن مؤلفاته في أصول الفقه: ١. «الإحكام في أصول الأحكام»، طبع كراراً وأخيراً بتحقيق السيد الجميلي في أربعة أجزاء في مجلدين، نشر دار الكتاب العربي ١٤٠٤هـ وهو أبسط _____ ١. لاحظ: ٣٩٥-٣٩٦ من غاية المرام. ٢. آل عمران: ١٩١. ٣. الذاريات: ٢١. ٤. الرعد: ٣. (٣٥٧)

كتاب في أصول الفقه، نظير الذريعة للسيد المرتضى بين الشيعة في القرن الخامس. ٢. «متهى السؤال في علم الأصول»، طبع بمصر، وكان مقراً للدراسة في الأزهر في الثلاثينات من هذا القرن. ٣. «غاية المرام في علم الكلام» ضمن فيه كتابه الآخر المسمى بأبكار الأفكار. (١) نعم يؤخذ عليه أنه يصف المعتزلة في المقدمة بالإلحاد، ويقول واصفاً لكتابه: «كاشفاً لظلمات تهويلات الملحدين كالمعتزلة وغيرهم من طوائف الإلهيين» (٢). كما يؤخذ عليه قصوره في عرض عقائد الشيعة، وكأنه لم يقف على كتاب لهم، ونقل ما نقل عنهم عن كتب خصومهم. ومن عجيب الكلام استدلاله على عدم اشتراط العصمة في الإمام بالاتفاق على عقد الإمامة للخلفاء الراشدين، واعترافهم بأنهم ليسوا بمعصومين. (٣). فلا أعلق عليه بكلمة إلا قولنا «يا للعجب ما أتقنه من برهنه!!» وفي آخر الكتاب «كان الفراغ من نسخة في الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وستمائة وذلك بثمر الاسكندرية بالمدرسة العادلية». (٤) وقد طبع الكتاب بتحقيق حسن محمود عبد اللطيف، وقام بتحقيقه باعتباره جزءاً من رسالته للحصول على درجة «الماجستير» في الفلسفة الإسلامية من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة. _____ ١. غاية المرام: ٥ من المطبوع. ٢. غاية المرام: ٥ من المقدمة. ٣. غاية المرام: ٣٨٤-٣٨٥. ٤. غاية المرام: ٣٩٢.

(٣٥٨)

عبدالرحمن عضد الدين الإيجي (٧٠٠-٧٥٦هـ) (١)

عبدالرحمن عضد الدين الإيجي (٧٠٠-٧٥٦هـ) (١)

كان إماماً في المعقول، عالماً بالأصول والمعاني والعربية، مشاركاً في الفنون، كريم النفس، كثير المال جداً، كثير الإنعام على الطلبة، ولد بعد السبعمائة وأخذ من مشايخ عصره، وأنجب تلامذة عظاماً اشتهروا في الآفاق، منهم الشيخ شمس الدين الكرمانى، والتفتازانى والضياء القرمي. (٢) ١. آثاره المعروفة

١. «المواقف في علم الكلام»، وهو المتن الكامل على المنهج الأشعري وشرحه السيد الشريف على بن محمد الجرجاني، والشيخ شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانى تلميذ المصنف، ولعله من شرحه. وطبع المتن والشرح للشريف في ثمانية أجزاء مع حواشى لعبد الحكيم السيالكويتى اللاهورى. وهو المرجع الوثيق لكثير من المتأخرين. وألفه الإيجي (٣) باسم الأمير الشيخ أبى إسحاق، الذى صار صاحب الخطبة والسكة فى شيراز سنة ٧٤٤هـ. ٢. شرحه على مختصر الأصول للحاجبى فى أصول الفقه، وقد أكتب عليه طلبه

الأعصار، وقد شاركه في تأليفه عدة من الأفاضل. واشتهر بشرح العضدى على مختصر الأصول، وطبع كراراً. (٤) ٣. «العقائد العضدية». ٤. «الرسالة العضدية». _____ ١. في ميلاده و عام وفاته اختلاف، وما ذكرناه هو أحد الأقوال. ٢. الدرر الكامنة لابن حجر: ٢/٢٢٩. ٣. «الإيج» يقع في جنوب إصطهبانات من نواحي شيراز. ٤. روضات الجنات: ٥١/٥٢-٥٢. (٣٥٩)

ويظهر من خير الدين الزركلى في «الأعلام» أنهما طبعتا. وله وراء ذلك آثار لم تر نور الوجود. (١) إلى أن قضى حياته في كرمان مسجوناً (عام ٧٥٦ أو ٧٥٧هـ) ويظهر من غير واحد ممن ترجمه أنه كان يبغض الشيعة ويعاندهم إلى حد يضرب به المثل ومن لطائف شعره قوله: خذ العفو وأمر يعرف كما أمر * ت وأعرض عن الجاهلين ولن في الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوى الجاه لين ٢. حريته الفكرية في اتخاذ الموقف

إن الإيجي، أشعري المنهج، يركز على آراء الأشاعرة ويحتج، ولكن ربما يرد عليهم ولا يقف القارئ على نماذج تشير إلى موردين: الأول: قد نقل أدلة أصحابه على زيادة صفاته سبحانه على ذاته فقال: «لو كان مفهوم كونه عالماً حياً قادراً نفس ذاته لم يفد حملها على ذاته وكان قولنا: الله الواجب بمثابة حمل الشئ على نفسه واللازم باطل». وغير خفى على القارئ أن المستدل لم يفرق بين العينية المفهومية والعينية المصادقية. فزعم أن المدعى هو الأولى مع أنه هو الثانية، ووقف العضدى على فساد الاستدلال فقال: «وفيه نظر، فإنه لا يفيد إلا زيادة هذا المفهوم على مفهوم الذات، وأما زيادة ما صدق عليه هذا المفهوم على حقيقة الذات فلا». (٢) وما ذكره يبطل جميع ما أقامه الأشاعرة من البرهان على الزيادة. الثانى: طرح مسألة التكليف بما لا يطاق. وقال: إنه جائز عند الأشاعرة، فلما رأى أن القول به يخالف الفطرة، أخذ يقسم ما لا يطاق إلى مراتب، فمنع عن التكليف بالمرتبة القصوى منه، لا الوسطى ثم قال: «وبه _____ ١. الأعلام للزركلى: ٣/٢٩٥. ٢. المواقف: ٢٨٠.

(٣٦٠)

يعلم أن كثيراً من أدلته أصحابنا نصب للدليل في غير محل النزاع». (١) نعم، ربما يأخذه التعصب، فيستدل على مذهبه بشئ مستلزم للدور في مقابل الخصم المنكر. مثلاً يقول: «إن الإمامية تثبت بيعة أهل الحل والعقد، خلافاً للشيعة، لثبوت إمامة أبى بكر بالبيعة». (٢) كما يستدل على عدم وجوب العصمة فى الإمام بقوله: «إن أبى بكر لا تجب عصمته اتفاقاً». (٣) والمتروك من مثل الإيجي العارف بالمناظرة، الاجتناب عن مثل هذه الاستدلالات التى لا تصح إلا أن يصح الدور. نرى أنه ينكر القضايا التاريخية المسلمة عند الجميع ويقول فى رد حديث الغدير: «إن علياً لم يكن يوم الغدير». (٤) ونرى أنه لا يطرح فرق الشيعة وينهيها إلى اثنتين وعشرين فرقة، ويأتى بأسماء فرق لم تسمع أذن الدهر بها إلا فى ثنايا هذه الكتب. ويقول: «من فرق الشيعة البدائية الذين جوزوا البداء على الله». (٥) ولكنّه غفل عن أن الاعتقاد بالبداء بالمعنى الصحيح وهو تغير المصير بالأعمال الصالحة والطالحة، عقيدة مشتركة بين الشيعة جمعاء وليست مختصة بفرقة دون أخرى. وتفسير البداء بما يستلزم الظهور بعد الخفاء على الله أو غير ذلك فريضة على الشيعة. إلى غير ذلك من الهفوات الموجودة فى الكتاب، غفر الله لنا و لعباده الصالحين.

_____ ١. المواقف: ٣٣١. ٢. المواقف: ٣٩٩. ٣. المواقف: ٣٩٩. ٤. المواقف: ٤٠٥. ٥. المواقف: ٤٢١.

مسعود بن عمر التفتازانى (٧١٢-٧٩١هـ) (٦)

مسعود بن عمر التفتازانى (٧١٢-٧٩١هـ) (٦)

هو من أئمة العربية ومن المتصلين فى المنطق والكلام، ولد بتفتازان من _____

٦. قيل أيضاً إنه تولد عام ٧٢٢ وتوفى عام ٧٨٧، ٧٩٣هـ (٣٦١)

نواحي «نساء» فى خراسان، أخذ العلوم العقلية عن «قطب الدين الرازى تلميذ العلامة الحلى» والقاضى عضد الدين الإيجى وتقدم فى

الفنون واشتهر ذكره وطال صيته وانتفع الناس بتصانيفه، وانتهت إليه معرفة العلم بالمشرق. مات في سمرقند سنة ٧٩١هـ (١). آثاره العلمية في الأدب والمنطق والكلام

ترك المترجم له آثاراً علمية مشرقة نذكر بعضها: ١. شرحه المعروف بـ«المطول» على «تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني في المعاني والبيان والبدع. نقله إلى البياض عام ٧٤٨هـ بهراء. وقد لخص هذا الشرح وأسماه بالمختصر. ٢. شرحه على تصريف الزنجاني، فرغ منه عام ٧٤٤هـ. ٣. شرحه على العقائد النسفية فرغ منه عام ٧٧٨هـ. ٤. شرح على شمسية المنطق فرغ منه عام ٧٧٢هـ. ٥. مقاصد الطالبين مع شرحه، فرغ منه عام ٧٧٤هـ. ٦. تهذيب أحكام المنطق ألفه بسمرقند عام ٧٧٠هـ (٢) وهذه الآثار كلها مطبوعة متداولة، وبعضها محور الدراسة في الجامعات العلمية إلى يومنا هذا. ومن لطيف أشعاره ما نسبه إليه شيخنا البهائي في كشكوله: كأنه عاشق قد مد صفحته * يوم الوداع إلى توديع مرتحل أو قائم من نعاس فيه لوثته * مواصل لتخطيه من الكسل ويظهر ممّا نقل عنه من الشعر الفارسي أنه كانت له يد غير قصيرة في الأدب الفارسي. _____ ١. بغية الوعاة: ٢/٢٨٥. ٢. روضات الجنات: ٤/٣٥-٣٦.

(٣٦٢) أشعري لا ماتريدي

الماتريديّة منهج كلامي أسسه محمد بن محمد بن محمود المعروف بأبي منصور الماتريدي، و«ماتريد» محله بسمرقند في ماوراء النهر ينسب إليها، وتوفى عام ٣٣٣هـ وهذا المنهج قريب من منهج الشيخ الأشعري، والخلاف بينهما لا يتجاوز عدد الأصابع. ولأجل تقارب الفواصل بينهما يعسر التمييز بين المنهجين، ومقتضى أثرهما. وسنعد فصلاً - ياذنه سبحانه - لبيان هذا المنهج، وحياء مؤسسه، والفروق الموجودة بينه وبين الأشعري، وكان المؤسسسان يعيشان في عصر واحد، ويسعى كلّ منهما للغاية التي يسعى الآخر إليها. بيد أنّ الأشعري كان بالعراق قريباً من المعتزلة، والماتريدي كان بخراسان بعيداً عن مواضع المعركة. والظاهر أنّ التفتازاني - رغم كونه خراسانياً قاطناً في سمرقند وسرخس وهراء - كان أشعرياً، ولا يفترق ما طرحه في شرح المقاصد عما خطته الأشاعرة أبداً. ولنجعل الموضوع (هل هو أشعري أو ماتريدي؟) تحت محكّ التجربة. إنّ النقطة التي تفرق فيها الماتريديّة عن الأشاعرة كون القضاء والقدر سالبين للاختيار عند الأشعري، وليس كذلك عند الماتريدي. والتفتازاني في شرحه على مقاصد الطالبين ينحو إلى القول الأوّل ويقول: قد اشتهر بين أكثر الملل أنّ الحوادث بقضاء الله تعالى وقدره، وهذا يتناول أفعال العباد، وأمره ظاهر عند أهل الحقّ لما تبين أنّه الخالق لها نفسها. ثمّ إنّ ينقل أدلة المعتزلة على أنّه لو كان القضاء والقدر سالبين للاختيار، يلزم بطلان الثواب والعقاب (١)، ثمّ يخرج في مقام الجواب عن استدلال _____ ١. وقد أتى بروايتين: إحداهما عن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - والأخرى عن علي - عليه السّلام - وكلاهما يركزان على أنّ التقدير لا يسلب الاختيار. لاحظ رواية علي - عليه السّلام - في نهج البلاغة قسم الحكم الرقم ٧٨، وأما الرواية النبوية فهذا منتهى: «روى عن النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - أنّه قال لرجل قدم عليه من فارس: أخبرني بأعجب شيء رأيت. فقال: رأيت أقواماً ينكحون أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم، فإذا قيل لهم لم تفعلون ذلك؟ قالوا: قضاء الله علينا وقدره. فقال - عليه السّلام -: سيكون في آخر أمتي أقوام يقولون مثل مقاتلهم، أولئك مجوس أمتي».

(٣٦٣)

المعتزلة بقوله: إنّ ما ذكر لا يدلّ إلّا على أنّ القول بأنّ فعل العبد إذا كان بقضاء الله تعالى وقدره وخلقه وإرادته، يجوز للعبد الإقدام عليه، ويبطل اختياره فيه، واستحقاقه للثواب والعقاب والمدح والذم عليه قول المجوس (١). والظاهر منه قبول النتيجة، ومعه لا يمكن أن يعدّ من الفرقة الماتريديّة. مقتطفات من المقاصد

إنّ شرح المقاصد كتاب مبسوط في علم الكلام، بعد شرح المواقف للسيد الشريف. وقد أصرح في الكتاب بفضائل علي وأهل بيته. ١. يقول: قوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) أراد علياً. وقوله تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) وعليّ رضي الله عنه منهم.... إلى آخر ما ذكر في هذا الفصل من فضائل علي (٢) (٢). ويقول في حقّ السيدة فاطمة الزهراء - عليها السّلام -: فقد ثبت أنّ فاطمة الزهراء سيّدة نساء العالمين، وأنّ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة (٣) (٣).

ويقول في حق الإمام المهدي - عليه السلام - : وقد وردت الأحاديث الصحيحة في ظهور إمام من ولد فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. (٤) _____ ١. شرح المقاصد: ٢/١٤٤. ٢. مقاصد الطالبين، هامش شرح المقاصد: ٢/٢٩٩. ٣. المصدر نفسه: ٣٠٢. ٤. المصدر نفسه: ٣٠٧.

السيد الشريف الجرجاني الأستر آبادي (٧٤٠-٨١٦هـ)

السيد الشريف الجرجاني الأستر آبادي (٧٤٠-٨١٦هـ)

على بن محمد المعروف بالسيد الشريف الجرجاني من المتصلين في الأدب العربي، المعدود من كبار المتكلمين على المنهج الأشعري ولد في قرية «تاكو» قرب «أسترآباد» وأتم دروسه في شيراز، ولما دخلها «تيمور» سنة ٧٨٩هـ غادرها الجرجاني وألقى عصا رحله في سمرقند، ولكنه عاد أيضاً إلى شيراز بعد موت تيمور. (١) وهو يعادل التفتازاني في التوغل في العلمين، الأدب والكلام. لكن الشريف أدق نظراً منه، وآثاره العلمية تعرب عن تخصصه في بعض العلوم، ومشاركته في كثير منها. آثاره العلمية

١. شرحه الكبير على مواقف القاضي عضد الدين الإيجي وهو شرح مبسوط، بلغ الغاية في توضيح ما ذكره القاضي، وقد طبع كراراً، وأخيراً في ثمانية أجزاء، في أربعة مجلدات. ٢. الكبرى والصغرى في المنطق. ٣. الحواشي على المطول للتفتازاني. ٤. التعريفات. إلى غير ذلك من التأليف البالغة نحو خمسين كتاباً. وقد برز جميع ما عنوانه إلى الطبع. (٢) _____ ١. الأعلام: ٥/٧. ٢. لاحظ روضات الجنات: ٥/٣٠٠؛ الأعلام: ٥/٧.

(٣٦٥)

علاء الدين علي بن محمد القوشجي مؤلف

علاء الدين علي بن محمد القوشجي مؤلف شرح التجريد الجديد (...- ٨٧٩هـ)

علي بن محمد القوشجي الحنفي فلکی رياضي، متكلم بارع، أصله من سمرقند. والقوشجي كلمة تركية بمعنى «حافظ الطير» يقال كان أبوه من خدام الأمير «الغ بك» ملك ما وراء النهر، يحفظ له البزاة، ثم ذهب إلى كرمان فقرأ على علمائها وصنف فيها شرح التجريد للطوسي، وعاد إلى سمرقند. وكان «الغ بك» قد بنى رصداً فيها، ولم يكمله فأكماله القوشجي، ثم ذهب إلى تبريز فأكرمه سلطانها «الأمير حسن الطويل» وأرسله في سفارة إلى السلطان «محمد خان» سلطان بلاد الروم، ليصلح بينهما فاستبقاه محمد خان عنده، فألف له رسالة في الحساب أسماها «المحمديّة» ورسالة في علم الهيئة أسماها «الفتحية»، فأعطاه محمد خان مدرسة «أيا صوفيا» فأقام بالآستانه، وتوفى فيها، ودفن في جوار الصحابي أبي أيوب الأنصاري. آثاره العلمية

من أشهر آثاره «شرح التجريد» وهو شرح لكتاب «تجريد العقائد» تأليف المحقق الطوسي، وقد شرحه ببسط و استيعاب، وخالفه في مواضع لا توافق منهجه الأشعري، ولكنه أنصف في موارد حيث شرح العبارة ولم يزد عليها بشيء. يقول في مقدمته الكتاب: إن كتاب التجريد الذي صنفه في هذا الفن المولى الأعظم، والحبر المعظم، قدوة العلماء الراسخين، أسوة الحكماء المتألهين، نصير الحق والملة الدين، محمد بن محمد الطوسي - قدس الله نفسه، وروح ربه - تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم، وجيز النظم، فهو كثير العلم، عظيم الاسم، جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمة العظام، لم تظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بشبهه الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمهات، مشحون بتنبهات (٣٦٦)

على مباحث هي المهمات، مملو بجواهر كلها كالفصوص، ويحتوي على كلمات يجري أكثرها مجرى النصوص، متضمن لبيانات معجزة، في عبارات موجزة، وتلويحات رائعة لكلمات شائقة، يفجر ينبوع السلاسة من لفظه، ولكن معانيه لها السحرة تسجد، وهو في

الاشتهار كالشمس في رائحة النهار، تداولته أيدي النظار، وسابقت في ميادينه جياذ الأفكار. ثم أشار إلى أن شمس الحق والملة والدين محمد الإصفهاني قد شرحه قبله، فهو قدر طاقته حام حول مقاصده، ويقدر وسعه جال في ميدان دلائله وشواهد، وأن السيد الشريف الجرجاني علق على ذلك الشرح حواشي تشتمل على تحقيقات رائقه، ولكن مع ذلك كان كثيراً من مخفيات رموز ذلك الكتاب باقياً على حاله» إلى آخر ما أفاده في مقدمه الكتاب. ثم أهدى كتابه إلى سلطان عصره أبي سعيد الكوركاني. ولهذا الشرح حواش من المحققين كالمحقق الأردبيلي وغيره، وهذا الكتاب أبسط كتاب في الكلام الأشعري بعد شرح المواقف. كما أن له تأليف أخرى ذكرت في الأعلام ومعجم المؤلفين وغيرهما من كتب التراجم، وفي كتاب ريحانة الأدب لشيخنا «المدرس» ترجمه اضافية للقوشجي فلاحظه. (١) ذكر جماعة من الأشاعرة

ومما يناسب إلفات النظر إليه، أن ابن النديم عنون الشيخ الأشعري باسم «ابن أبي بشر» عند البحث عن الكلاية أصحاب عبد الله بن محمد بن كلاب القطان، وعنون البحث يعطى أنه من أصحابه ومقتفى منهجه، ولم يذكر من تلاميذ الأشعري إلا شخصين، وقال: «ومن أصحابه: الدياتي، وحمويه من أهل «سيراف» و كان يستعين بهما، على المهاترة والمشاغبة، وقد كان فيهما علم على مذهبه، ولا كتاب لهما _____ ١. الأعلام: ٥/٩، معجم المؤلفين: ٧/٢٢٧، ريحانة الأدب: ٤/٤٩٥.

(٣٦٧)

يعرف». (١) ولكن ابن عساكر الدمشقي (المتوفى ٥٧١هـ) ذكر أعيان مشاهير أصحابه، وخص لهم باباً وقال: باب ذكر جماعة من أعيان مشاهير أصحابه، إذ كان فضل المقتدى يدل على فضل المقتدى به، ثم ذكر فهرس أسمائهم على النحو التالي: الطبقة الأولى من أصحاب الأشعري

١. أبو عبد الله بن مجاهد البصري. ٢. أبو الحسن الباهلي البصري. ٣. أبو الحسين: بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي. ٤. أبو محمد الطبري المعروف بالعراقي. ٥. أبو بكر القفال الشاشي. ٦. أبو سهل الصعلوكي النيسابوري. ٧. أبو زيد المروزي. ٨. أبو عبد الله بن خفيف الشيرازي. ٩. أبو بكر الجرجاني المعروف بالإسماعيلي. ١٠. أبو الحسن عبد العزيز الطبري. ١١. أبو الحسن علي الطبري. ١٢. أبو جعفر السلمى البغدادي النقاش. ١٣. أبو عبد الله الإصبهاني. ١٤. أبو محمد القرشي الزهري. ١٥. أبو بكر البخاري الاودني. ١٦. أبو منصور بن حمشاد النيسابوري. ١٧. أبو الحسين بن سمعون البغدادي المذكر. ١٨. أبو عبد الرحمن الشروطي الجرجاني. ١٩. أبو علي الفقيه السرخسي. _____ ١. فهرست ابن النديم: ٢٧١.

(٣٦٨)

هؤلاء أصحاب الشيخ أبو الحسن الأشعري الذين تتلمذوا عليه، وارتوا من مهل علمه، ويعدون من الطبقة الأولى للأشاعرة، وأما الطبقة الثانية، وهم أصحاب أصحابه، ممن سلكوا مسلكه في الأصول وتأدبوا بأدابه، فقد جاء بأسمائهم وترجمتهم ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري» وها نحن نأتي بأسمائهم، ومن أراد الوقوف على حياتهم وكتبهم، فعليه الرجوع إليه، وهؤلاء عبارة عن: الطبقة الثانية من أصحابه

٢٠. أبو سعد بن أبي بكر الإسماعيلي الجرجاني. ٢١. أبو الطيب بن أبي سهل الصعلوكي النيسابوري. ٢٢. أبو الحسن بن داود المقرئ الداراني الدمشقي. ٢٣. القاضي أبو بكر بن الطيب بن الباقلاني. (١) ٢٤. أبو علي الدقاق النيسابوري شيخ أبي القاسم القشيري. ٢٥. الحاكم أبو عبد الله بن البيهقي النيسابوري. ٢٦. أبو نصر بن أبي بكر الإسماعيلي الجرجاني. ٢٧. الأستاذ أبو بكر بن فورك الإصبهاني. ٢٨. أبو سعد بن عثمان النيسابوري الخركوشي. ٢٩. أبو عمر محمد بن الحسين البسطامي. ٣٠. أبو القاسم بن أبي عمرو الجلي البغدادي. ٣١. أبو الحسن بن ماشاذ الإصبهاني. ٣٢. أبو طالب بن المهتدي الهاشمي. ٣٣. أبو معمر بن أبي سعد الجرجاني. ٣٤. أبو حازم العبدوي النيسابوري. ٣٥. الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني. ٣٦. أبو علي بن شاذان البغدادي. ٣٧. أبو نعيم الحافظ الإصبهاني. _____ ١. وقد تعرفت على حياته وتأليفه فيما سبق.

(٣٦٩)

٣٨. أبو حامد أحمد بن محمد الاستوائى الدلوى. الطبقة الثالثة من أصحابه

المراد من هذه الطبقة من لقي أصحابه وأخذ العلم عنهم، وإليك أسماء من ذكرهم وترجمهم ابن عساكر: ٣٩. أبو الحسن السكرى البغدادي. ٤٠. أبو منصور الأيوبي النيسابوري. ٤١. أبو محمد عبد الوهاب البغدادي. ٤٢. أبو الحسن النعيمي البصري. ٤٣. أبو طاهر بن خراشة الدمشقي المقرئ. ٤٤. الأستاذ أبو منصور النيسابوري البغدادي. (١) ٤٥. أبو ذر الهروي الحافظ. ٤٦. أبو بكر الدمشقي المعروف بابن الجرمي. ٤٧. أبو محمد الجويني والد الإمام أبي المعالي. ٤٨. أبو القاسم بن أبي عثمان الهمداني البغدادي. ٤٩. أبو جعفر السمناني قاضي الموصل. ٥٠. أبو حاتم الطبري المعروف بالقزويني. ٥١. أبو الحسن رشا بن نظيف المقرئ. ٥٢. أبو محمد الإصبهاني المعروف بابن اللبان. ٥٣. أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي. ٥٤. أبو عبد الله الخبازي المقرئ النيسابوري. ٥٥. أبو الفضل بن عمرو البغدادي المالكي. ٥٦. الأستاذ أبو القاسم الإسفرائيني. ٥٧. الحافظ أبو بكر البيهقي. الطبقة الرابعة من أصحابه ٥٨. أبو بكر الخطيب البغدادي. ————— ١. وقد تعرفت على ترجمته فيما سبق.

(٣٧٠)

٥٩. الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري. ٦٠. أبو علي بن أبي حريصة الهمداني الدمشقي. ٦١. أبو المظفر الإسفرائيني. ٦٢. أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي. ٦٣. الإمام أبو المعالي الجويني. ٦٤. أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي. ٦٥. أبو عبد الله الطبري. الطبقة الخامسة من أصحابه

٦٦. أبو المظفر الخوافي النيسابوري. ٦٧. الإمام أبو الحسن الطبري المعروف بالكي الهراسي. ٦٨. الإمام حجة الإسلام أبو حامد الطوسي الغزالي. (١) ٦٩. الإمام أبو بكر الشاشي. ٧٠. أبو القاسم الأنصاري النيسابوري. ٧١. الإمام أبو نصر بن أبي القاسم القشيري. (٢) ٧٢. الإمام أبو علي الحسن بن سليمان الإصبهاني. ٧٣. أبو سعيد أسعد بن أبي نصر بن الفضل العمري. ٧٤. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن جنى العثماني الديباجي. ٧٥. القاضي أبو العباس أحمد بن سلامة المعروف بابن الرطبي. ٧٦. الإمام أبو عبد الله الفراوي النيسابوري. ٧٧. أبو سعد إسماعيل بن أحمد النيسابوري المعروف بالكرمانى. ٧٨. الإمام أبو الحسن السلمي الدمشقي. ٧٩. أبو منصور محمود بن أحمد بن عبد المنعم ماشاذه ————— ١. قد تعرفت على ترجمته، وعلى آرائه في كتابه: «قواعد العقائد»، وقد نقل ابن عساكر مفتتح هذا الكتاب، في تبينه: ٢٩٩. ٢. وقد رفع بعض أصحاب هذا الإمام شكوى عن الحنابلة، وقد عرفت نص الشكوى وفيها خطوط الأئمة بتصحيح مقاله.

(٣٧١)

٨٠. أبو الفتح محمد بن الفضل بن محمد بن المعتمد الإسفرائيني. ٨١. أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوى المصيصي. هؤلاء هم الذين ذكر ابن عساكر أسماءهم وشيئاً من حياتهم، وقد أدرك هو نفسه عدة من الطبقة الخامسة، بعضها بالمعاصرة وبعضها بالرؤية والمجالسة. ثم إن تاج الدين أبا نصر عبد الوهاب بن علي السبكي قد استدرك على ابن عساكر الطبقات الأخرى التي لم يدركها ابن عساكر، وقد ذكر ابن عساكر خمس طبقات لأصحابه فاستدرك عليه الطبقتين التاليتين وقال: ومن السادسة ٨٢. الإمام فخر الدين الرازي. (١) ٨٣. سيف الدين الآمدي. (٢) ٨٤. شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام. ٨٥. الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي. ٨٦. شيخ الإسلام عز الدين الحصري الحنفي، وصاحب «التحصيل والحاصل» ٨٧. خسرو شاهي. (٣) ومن السابعة ٨٨. شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد. ٨٩. الشيخ علاء الدين الباجي. ٩٠. الشيخ الإمام الوالد تقي الدين السبكي. ٩١. الشيخ صفى الدين الهندي. ٩٢. الشيخ صدر الدين بن المرحل. ————— ١. وقد تعرفت على ترجمتهما. ٢. وقد تعرفت على ترجمتهما. ٣. نسبة إلى خسرو شاه وهي قرية من قرى «مرو» وهي غير الواقعة في آذربيجان.

(٣٧٢)

٩٣. ابن أخيه الشيخ زين الدين. ٩٤. الشيخ صدر الدين سليمان عبد الحكم المالكي. ٩٥. الشيخ شمس الدين الحريري الخطيب. ٩٦. الشيخ جمال الدين الزملكاني. ٩٧. الشيخ جمال الدين بن جملة. ٩٨. الشيخ جمال الدين ابن جميل. ٩٩. قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي. ١٠٠. القاضي شمس الدين بن الحريري الحنفي. ١٠١. القاضي عضد الدين الإيجي الشيرازي. (١) وهاهنا نجتمع بالقلم عن الإفاضة، ونترك أسماء الباقيين من الأشاعرة إلى كتب التراجم، وقد وقفت على ترجمة أعيانهم ومشاهيرهم الذين استثمروا المنهج ونضجوه، ودافعوا عنه بحماس. ***

إلى هنا وقفت على حياة الإمام الأشعري ومنهجه الكلامي و ترجمته الشخصيات البارزة الذين أرسوا ما سيده، ونضجوا منهجه، ولكن الذين جاءوا بعدهم في أقطار الشرق والغرب ما راموا إلاّ تحرير ما ورثوه من مشايخهم وأساتذتهم، ولم يضيفوا عليها شيئاً قابلاً للذكر. تمّ الجزء الثاني من الكتاب و يليه الجزء الثالث في تبين عقائد الماتريديّة والمعتزلة إن شاء الله تعالى . والحمد لله ربّ العالمين

_____ ١ . السبكي، طبقات الشافعية الكبرى: ٣/٣٧٢-٣٧٣.

(٣٧٣)

فتوى شاذة عن الكتاب والسنة

فتوى شاذة عن الكتاب والسنة

بعد أن خرجت الملازم من الطبع وانتهينا إلى هذا المقام وقفنا على فتوى لعبد العزيز بن عبد الله بن باز المؤرخ ٨/٣/١٤٠٧ المرقم ٧١٧/٢ جواباً على سؤال عبد الله عبد الرحمن يتعلّق بجواز الاقتداء والائتمام بمن لا يعتقد بمسألة الرؤية يوم القيامة، فأفتى بأن من ينكر رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة لا يصلّي خلفه، وهو كافر عند أهل السنة والجماعة، وأضاف أنه قد بحث هذا الموضوع مع مفتي الأباضيّة في عمان: الشيخ أحمد الخليلي فاعترف بأنّه لا يؤمن برؤية الله في الآخرة، ويعتقد أنّ القرآن مخلوق، واستدلّ لذلك بما ذكره ابن القيم في كتابه «حادى الأرواح»: ذكر الطبري وغيره أنّه قيل لمالك: إنّ قوماً يزعمون أنّ الله لا يرى يوم القيامة فقال مالك: السيف السيف. وقال أبو حاتم الرازي: قال أبو صالح كاتب الليث: أُملي على عبد العزيز ابن سلمة الماجشون رسالته عما جحدت الجهمية فقال: لم يزل يملئ لهم الشيطان حتى جحدوا قول الله تعالى: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ). وذكر ابن أبي حاتم عن الأوزاعي أنّه قال: إني لأرجو أن يحجب الله عزّ وجلّ جهماً وأصحابه عن أفضل ثوابه، الذي وعده أوليائه حين يقول: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ). إلى أن نقل عن أحمد بن حنبل وقيل له في رجل يحدث بحديث عن رجل (٣٧٤)

عن أبي العواطف أنّ الله لا يرى في الآخرة فقال: لعن الله من يحدث بهذا الحديث اليوم، ثمّ قال: أخزى الله هذا. وقال أبو بكر المروزي: من زعم أنّ الله لا يرى في الآخرة فقد كفر، وقال: من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي، والجهمي كافر. وقال إبراهيم بن زياد الصائغ: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الرؤية من كذب بها فهو زنديق. وقال: من زعم أنّ الله لا يرى فقد كفر بالله، وكذب بالقرآن، وردّ على الله أمره، يستتاب فإن تاب وإلاّ قتل.... تحليل لهذه الفتيا

١. إنّ هذه الفتوى لا تصدر عنّ من يجمع بين الرواية والدراية، وإنّما هي من متفرعات القول بأنّ الله مستقر على عرشه فوق السماوات، وأنّه ينزل في آخر كلّ ليلة نزول الخطيب عن درجات منبره (١)، وأنّ العرش تحته سبحانه ينطأ لطيط الرحل تحت الراكب (٢) ويفتخر بتلك العقيدة ابن زفيل في قصيدته التونية ويقول: بل عطلوا منه السماوات العلى والعرش أخلوه من الرحمان (٣) ومثل تلك العقيدة تنتج أنّ الله تعالى يرى كالبدر يوم القيامة، والرؤية لا تنفك عن الجهة والمكان، تعالى عن ذلك كلّ. ٢. إنّ النبي الأكرم - صلّى الله عليه وآله وسلّم - كان يقبل إسلام من شهد بوحدانيته سبحانه ورسالة النبي - صلّى الله عليه وآله وسلّم - ولم ير أنّ النبي الأكرم يأخذ الإقرار بما وراء ذلك، مثل رؤية الله وما شابهه، وهذا هو البخاري يروي في صحيحه: أنّ الإسلام بنى على خمس وليس فيه شيء من الإقرار بالرؤية، وهل النبي ترك ما هو مقوم الإيمان والإسلام؟! ٣. إنّ الرؤية مسألة اجتهادية تضاربت فيها أقوال الباحثين من

المتكلمين والمفسرين، وكل طائفة تمسكت بلفيف من الآيات، فتمسكت المثبت بقوله سبحانه: (إلى ربها ناظرة) وتمسكت النافي بقوله سبحانه: (لا تُدرِكهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللَّطِيفُ _____ ١ . نقله وسمعه السياح الطائر الصيت ابن بطوطة عن ابن تيمية. ٢ . السنة: ٨٠ . ٣ . من قصيدة ابن زفيل النونية، والمراد منه هو ابن القيم. لاحظ السيف الصيقل للسبكي. (٣٧٥) الخبير).

فكيف يكون إنكار النافي رداً للقرآن، ولا يكون إثبات المثبت رداً له؟! فإذا جاز التأويل لطائفة لما يكون مخالفاً لعقيدته، فكيف لا يسوغ لطائفة أخرى؟! وليست رؤية الله يوم القيامة من الأمور الضرورية التي يلزم إنكارها إنكار الرسالة ولا إنكار القرآن، بل كل طائفة تقبل برحابه صدر المصدرين الرئيسيين، أعنى: الكتاب والسنة، ولكن يناقش في دالتهما على ما تدعيه الطائفة الأخرى، أو تناقش سند الرواية وتقول: إن القول بالرؤية عقيدة موروثه من اليهود والنصارى، أعداء الدين، وقد دسوا هذه الروايات بين أحاديث المسلمين، فلم تزل مسلمة اليهود والنصارى يتحنون الفرص لتفريق كلمة المسلمين، وتشويه تعاليم هذا الدين، حتى تذرعوها بعد وفاة النبي بشتى الوسائل إلى بذر بذور الفساد، فأدخلوا في الدين الحنيف ما نسجته أوهام الأخبار والرهبان. ٤ . إن الاعتقاد بشيء من الأمور من الظواهر الروحية لا تنشأ جذوره في النفس إلا بعد تحقق مبادئ ومقدمات توجد العقيدة، فما معنى قول من يقول في مقابل المنكر للرؤية: السيف السيف، بدل أن يقول: الدراسة الدراسة، الحوار الحوار!! أليس شعار «السيف السيف» ينم عن طبيعة قاسية، ونفسية خالية من الرحمة والسماحة؟! وأنا أجل إمام دار الهجرة عن هذه الكلمة. ٥ . إن مفتى الديار النجدية لم يعتمد إلا على نقول وفتاوى ذكرها ابن القيم في كتابه دون أن يرجع إلى تفسير الآيات واحدة واحدة، أو يناقش المسألة في ضوء السنة. (٣٧٦)

فما أرخص مهمة الإفتاء ومؤهلات المفتى في هذه الديار. وفي الختام، إن ما نقله عن ابن القيم يعرب عن جهله المطبق في مسألة الرؤية، فإن نفى الرؤية شعار أئمة أهل البيت، وشعار الإمام أمير المؤمنين على - عليه السلام - في خطبه، وكلمه قبل أن يتولد الجهم وأذنابه، ولأجل ذلك اشتهر: «العدل والتنزيه علويان، والجبر والتشبيه أمويان». ولأجل ضيق المقام اكتفينا بهذا القدر، ومن أراد التبسط في البحث فليرجع إلى الصفحة ١٩١-٢٣٩ من هذا الكتاب، و

الجزء الثالث (الماتريديّة، والمرجئية)

إشاره

الملل والنحل الجزء الثالث (الماتريديّة، والمرجئية، والجهميّة، والكراميّة، والظاهرية والمعتزلة)

مقدمه

مقدمه بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعد، فهذا هو الجزء الثالث من كتابنا «بحوث في الملل والنحل» تقدّمه للقراء الكرام ونبعث فيه عن المدرستين المعروفتين «الماتريديّة» و«المعتزلة»، والمدرسة الأولى مشتقة من منهج أهل الحديث من الحشويّة والحنبلة، كاشتقاق المنهج الأشعريّ منه، والفرعان يشتركان في كثير من الأصول ويختلفان في بعضها الآخر، وستوافيك الفوارق الموجودة بينهما. وأمّا المدرسة الثانيّة - أعنى مدرسة الاعتزال - فهي منهج عقلي لا يمتّ لمنهج أهل الحديث بصله، والمدرستان تتحرّكان على محورين متخالفين، ونرجو منه سبحانه أن يوفّقنا لتحرير عقائد الطائفتين متحرّرين من كلّ نزع، وتعصب، ورأي مسبق لا دليل عليه، ولتقدّم تحرير منهج الطائفة «الماتريديّة» على «المعتزلة» للصلة التامة بينه وبين المنهج الأشعري الذي سبق عنه البحث مفصّلاً في الجزء الثاني. ولقد نجمت في القرنين الأولين مناهج كلاميّة لها صلة بالمدرستين، فلاكمال الفائدة نبعث قبل تبين منهج الاعتزال عن الفرق التاليّة: المرجئة،

القدرية، الجهمية، الكرامية والظاهرية. فالمرجو منه سبحانه، التوفيق لبيان الحق والحقيقة والقضاء، بعيداً عن التعصب والانحياز الممقوت. إنه ولي التوفيق.

الماتريديّة

اشاره

١- الماتريديّة

الماتريديّة

الماتريديّة

قد تعرّفت على جذور الاختلاف في عصر الرسالة وبعدها، كما تعرّفت على حوافر الاختلاف ودوافعه في عصر الخلفاء، وخرجنا بالنتيجة التالية وهي: أنّ أهل البحث والنقاش من المسلمين قد تفرّقوا على فرقتين مختلفتين في كثير من المبادئ والأصول وإن اشتركتا في كثير منها أيضاً: ١- فرقة أهل الحديث التي يعبر عنها بالحشوية تارة، والحنابلة أخرى، والسلفية ثالثة وكانوا يتسمون بسمه الاقتفاء لكتاب الله، وسنّه رسوله، ولا يقيمون للعقل والبرهان وزناً، كما لا يتفحصون عن مصادر الحديث تفحصاً يكشف عن صحته، بل يقبلون كلّ حديث وصل إليهم عن كل من هبّ ودبّ، ويجعلون في حزمهم كلّ رطب ويابس، ولأجل هذا التساهل ظهرت فيهم آراء وعقائد تشبه آراء أهل الكتاب، كالتشبيه، والتجسيم، والجبر، وسيادة القضاء والقدر على الإنسان كإله حاكم، لا يُغيّر ولا يُبدل، ولا يقدر الإنسان على تغيير مصيره إلى غير ذلك من البدع ولا يقصر عمّا ذكرناه القول بالرؤية تبعاً للعهدين، وكون القرآن قديماً غير مخلوق، مضاهياً لقول اليهود بقدم التوراة، أو النصارى بقدم المسيح، وقد أوضحنا الحال في هذه المباحث في الجزأين الماضيين. ٢- فرقة المعتزلة التي تعتمد على العقل أكثر مما يستحقّه، وترغم أنّ ظواهر بعض (٨)

التصوص الواردة في الكتاب والسنة، مخالفة لما يوحي إليهم عقلهم وفكرتهم، فيبادرون إلى تأويلها تأويلاً واهياً يسلب عن الكلام بلاغته، فينحطّ من ذروته إلى الحضيض، وهؤلاء هم المعروفون بالمعتزلة، وفي ألسن خصومهم بل القدرية). وقد كان الجدل بين الطائفتين قائماً على قدم وساق بغلبة الأولى على الثانية تارة، وانتصار الثانية على الأولى أخرى، وقد كان لأصحاب السياسة والبلاط دور واضح في إشعال نار الاختلاف بإعلاء إحداهما، وحرط الأخرى، حسب مصالحهم الوقتية، والغايات المنشودة لهم.

الداعيان إلى منهج أهل الحديث متعاصران

الداعيان إلى منهج أهل الحديث متعاصران

كان النزاع يعلو تارة، وينخفض أخرى، إلى أن دخل القرن الرابع الهجري، فأعلن الشيخ أبو الحسن الأشعري، في أوائل ذلك القرن، رجوعه عن الاعتزال الذي عاش عليه أربعين سنة، وجنح إلى أهل الحديث، وفي مقدّمته منهج إمام الحنابلة «أحمد بن حنبل»، لكن لا بمعنى اقتفاء منهجه حرفياً بلا تصرّف ولا تعديل فيه، بل قبوله لكن بتعديل فيه على وجه يجعله مقبولاً لكلّ من يريد الجمع بين النقل والعقل، والحديث والبرهان، وقد أسس في ضوء هذا منهجاً معتدلاً بين المنهجين وتصرّف في المذهب الأمّ، تصرّفًا جوهرياً وقد أسعفه حسن الحظّ ونصره رجال في الأجيال المتأخرة، حيث نضّجوا منهجه، حتى صار مذهباً عامّاً لأهل السنة في الأصول، كما صارت المذاهب الأربعة مذاهب رسمية في الفروع. وفي الوقت الذي ظهر مذهب الأشعري بطابع الفرعية لمذهب أهل الحديث، ظهر مذهب آخر بهذا اللون والشكل لغاية نصره السنة وأهلها، وإقصاء المعتزلة عن الساحة الإسلامية. كلّ ذلك بالتصريف في المذهب

وتعديله، وذلك المذهب الآخر هو مذهب (٩)

الماتريديّة للإمام محمّد بن محمّد بن محمود الماتريدي السمرقندي (المتوفى عام ٣٣٣ هـ) أى بعد ثلاثة أو تسعة (١) أعوام من وفاة الإمام الأشعري. والدعايان كانا في عصر واحد، ويعملان على صعيد واحد، ولم تكن بينهما أية صلة، فهذا يكافح الاعتزال ويناصر السنّة في العراق متقلّداً مذهب الشافعي في الفقه، وذاك يناضل المعتزلة في شرق المحيط الإسلامي (ما وراء النهر)، متقلّداً مذهب الإمام أبي حنيفة في الفقه، وكانت المناظرات والتيارات الكلامية رائجة في كلا القطرين. فكانت البصرة - يوم ذاك - بندر الأهواء والعقائد، ومقلها، كما كانت أرض خراسان مأوى أهل الحديث ومهبطهم، وكانت منبت الكرامية وغيرهم أيضاً، نعم كانت المعتزلة بعيدة عن شرق المحيط الإسلامي، ولكن وصلت أمواج منهجهم الى تلك الديار عن طريق اختلاف العلماء بين العراق وخراسان. ولأجل انتماء الداعيين إلى المذهبين المختلفين نرى اهتمام الشافعية بترجمة الأشعري في طبقاتهم، واهتمام علماء الأحناف - أعني المتكلمين منهم - بالماتريدي وإن قصروا في ترجمته في طبقاتهم، ولم يؤدوا حقّه في كتبهم. نعم انتماء الماتريدي للإمام أبي حنيفة في الفقهاء (الأكبر والأصغر) (٢) أمر واضح، فإنّه حنفي، كلاماً وفقهاً، وأكثر من نصره، بل جميعهم، من الأحناف، مثل فخر الإسلام أبي اليسر محمد بن عبد الكريم البزدوي (المتوفى عام ٤٩٣ هـ) والإمام التسنفي (المتوفى عام ٥٧٣ هـ) وسعد الدين التفتازاني (المتوفى عام ٧٩١ هـ) وغيرهم كإبن الهمام والبياضى كما سيوافيك في تراجمهم، بخلاف انتماء الأشعري للإمام الشافعي فإنّه ليس بهذا الحدّ من الوضوح. _____ ١. على اختلاف في تاريخ وفاته بين كونه في ٣٣٠ أو ٣٢٤ . ٢. سمى أبو حنيفة الكلام بالفقه الأكبر، وعلم الشريعة بالفقه الأصغر، وقد سمى بعض رسائله بهذين الاسمين كما سيوافيك.

(١٠)

منهج الماتريدي موروث من أبي حنيفة

منهج الماتريدي موروث من أبي حنيفة

المنهج الذي اختاره الماتريدي، وأرسى قواعده، وأوضح براهينه، هو المنهج الموروث من أبي حنيفة (م ١٥٠ هـ) في العقائد، والكلام، والفقه ومبادئه، والتاريخ يحدّثنا عن كون أبي حنيفة صاحب حلقة في الكلام قبل تفرّغه لعلم الفقه، وقبل اتّصاله بحماد بن أبي سليمان الذي أخذ عنه الفقه. وليس الماتريدي نسيج وحده في هذا الأمر، بل معاصره أبو جعفر الطحاوي صاحب «العقيدة الطحاوية» (م ٣٢١ هـ) مقتف أثر أبي حنيفة حتّى عنون وصدّر رسالته المعروفة بالعقيدة الطحاوية بقوله «بيان عقيدة فقهاء الملّة: أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمّد بن الحسن» (١). ويذكر عبد القاهر البغدادي صاحب كتاب «الفرق بين الفرق» في كتابه الآخر «أصول الدين» أنّ أبا حنيفة له كتاب في الرد على القدرية سمّاه «الفقه الأكبر»، وله رسالة أملاها في نصره قول أهل السنّة: أنّ الاستطاعة مع الفعل... وعلى هذا قوم من أصحابنا (٢)، والرسائل الموروثة من أبي حنيفة أكثر ممّا ذكره البغدادي (٣). ولما كانت المسائل الكلامية في ثنايا هذه الرسائل، غير مرتبة قام أحد الماتريديّة في القرن الحادي عشر، أعني به كمال الدين أحمد البياضى الحنفي، باخراج المسائل الكلامية عن هذه الرسائل من غير تصرّف في عبارات أبي حنيفة وأسماء «إشارات المرام من عبارات الامام» ويقول فيه: «جمعتها من نصوص كتبه التي أملاها على أصحابه من الفقه الأكبر، والرسالة، والفقه الأيسر، وكتاب العالم والمتعلّم، والوصيّة، برواية من الإمام حماد بن أبي حنيفة، وأبي يوسف الأنصاري، وأبي مطيع الحكم بن عبد الله _____ ١. شرح العقيدة الطحاوية: ص ٢٥، والشرح للشيخ عبد الغنى الميداني الدمشقي (المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ). ٢. أصول الدين: ص ٣٠٨ . ٣. وسيوافيك فهرس الرسائل الموروثة من أبي حنيفة، وقد طبع قسم كبير منها .

(١١)

البلخي، وأبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي. وروى عن هؤلاء، إسماعيل بن حماد، ومحمّد بن مقاتل الرازي، ومحمد بن سماعة

التميمي، ونصير بن يحيى البلخي، وشداد بن الحكيم البلخي، وغيرهم. ثم قال: إنَّ الامام أبا منصور محمّد بن محمّد بن محمود الماتريدي روى عن الطّبقه الثانيه، أعنى نصير بن يحيى، ومحمّد بن مقاتل الرازي، وحقق تلك الأصول في كتبه بقواطع الأدلّه، وأتقن التفاريع بلوامع البراهين اليقينيّه^(١). هذه جذور منهجه وأسس مدرسته الكلاميه.

لمحة عن حياة الماتريدي

لمحة عن حياة الماتريدي

من المؤسف جداً إهمال كثير من المؤرخين، وكتب التراجم، ذكر الامام الماتريدي، وتبيين خصوصيات حياته، بل ربّما أهملوا الإشارة إليه عندما يجب ذكره أو الإشارة إليه، فإنَّ الرجل من أئمة المتكلمين، وأقطاب التفسير في عصره فكان الإمام بحياته عند ذكر طبقات المتكلمين والمفسرين لازماً، وهذا خلاف ما نجده من العناية المؤكّده بذكر الأشعري، وتبيين حياته، والإشارة إلى خصوصياتها، حتّى رؤاه، وأحلامه، وغلّه ضيعته، ولعلَّ إحدى الدوافع إلى هذا، هي أنّ الأشعري استوطن في مركز العالم الاسلامي (العراق)، وشهر سيف بيانه وقلمه على الاعتزال في مركز قدرتهم، وموضع سلطتهم، فصار ذلك سبباً لأنّ تمدد إليه الأعين، وتشرّب (٢) نحوه الأعناق، فيذكره الصديق والعدو في كتبهم بمناسبات شتى، وأمّا عديله وقرينه فكان بعيداً عنه، مستوطناً في نقطة يغلب فيها أهل الحديث وفكرتهم، وكانت السلطه في مجالى العلم والعمل لهم، فجهل قدره، ولم تعلم قيمة نضاله مع خصومهم، فقّلت العناية به، _____ ١. إشارات المرام من عبارات الامام للبياضى: ص ٢١ - ٢٢، وهذا الكتاب من المصادر الموثقة في تبين المنهج الماتريدي بعد كتابيه «التوحيد» و «التفسير». ومثله كتاب «أصول الدين» للامام البيزوى. ٢. إشراب إليه وله: مدّ عنقه أو ارتفع لينظر إليه.

(١٢)

وبعلومه، وأفكاره، والإشارة إليه. ولأجل ذلك نرى ابن النديم (م ٣٨٩) لم يترجمه في فهرسته، وفي الوقت نفسه ترجم الشيخ الأشعري (م ٣٣٣هـ)، والامام الطحاوي شيخ الأحناف في مصر (م ٣٢١هـ) مؤلف «عقائد الطحاوي» المسمى ببيان السنّه والجماعه الذي اعتنى به عدّه من الأعلام بالشرح والتعليق. هذا وقد أهمله جمع من المتأخرين، فلم يترجمه أحمد بن محمد بن خلكان (م ٦٨١هـ) في «وفيات الأعيان» مع أنّه ترجم للطحاوي، ولا صلاح الدين الصفدى (م ٧٦٤هـ) في «الوفى بالوفيات»، ولا محمد بن شاکر الكتبي (م ٧٦٤هـ) في «وفيات الوفيات»، ولا تقى الدين محمد بن رافع السيلامى (م ٧٧٤هـ) في «الوفيات»، ولم يذكره ابن خلدون (م ٨٠٨) في مقدمته في الفصل الذي خصّه بعلم الكلام، ولا جلال الدين السيوطى (م ٩١١هـ) في «طبقات المفسرين» مع كونه أحد المفسرين في أوائل القرن الرابع، إلى غير ذلك من المعتمدين بتراجم الأعيان والشخصيات، ولم تصل أيديهم إليه، وإلى كتبه، ونشاطاته العلميه، ونضالاته مع خصوم أهل السنّه. حتى إنّ من ذكره وعنوانه، لم يذكر سوى عدّه كليات في حقه، لا- تلقى ضوءاً على حياته، ولا- تبين شيئاً من خصوصياته، هذا والمعلومات التي وصلت إلينا بعد الفحص عن مظانها عبارة عن الأمور التاليه: ١- ميلاده:

اتفق المترجمون له على أنّه توفى عام (م ٣٣٣هـ)، ولم يعينوا ميلاده، ولكنّ نتمكّن من تعيينه على وجه التقريب من جانب مشايخه اللذين تخرّج عليهم في الحديث، والفقه، والكلام، فإنَّ أحد مشايخه كما سيوافيك، هو نصير بن يحيى البلخي (المتوفى عام ٢٦٨هـ) فلو تلقى عنه العلم وهو ابن عشرين يكون هو من مواليد عام (٢٤٨هـ)، أو ما يقاربه، فيكون أكبر سنّاً من الأشعري بسنين تزيد على عشر. (١٣) ٢- موطنه:

قد اشتهر الامام، بالماتريدي (بضم التاء) و«ماتريد» قرية من قرى سمرقند في بلاد ما وراء النهر (جيجون)^(١). ويوصف بالماتريدي تارة، والسمرقندي أخرى، ويلقب بـ «علم الهدى» لكونه في خطّ الدفاع عن السنّه. ٣- نسبه

ينتهى نسبه إلى أبى أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصارى، مضيف النّبى الأكرم صلّى الله عليه وآله و سلّم في دار الهجرة، وقد

وصفه بذلك البياضى فى «إشارات المرام» (٢). ٤ - مشايخه وأساتذته:

قد أخذ العلم عن عدّة من المشايخ هم: ١ - أبو بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني. ٢ - أبو نصر أحمد بن العياضى. ٣ - نصير بن يحيى، تلميذ حفص بن سالم (أبى مقاتل). ٤ - محمد بن مقاتل الرازى (٣). قال الزبيدى: تخرّج الماتريدى على الإمام أبى نصر العياضى.. ومن شيوخه الامام أبو بكر أحمد بن إسحاق بن صالح الجوزجاني صاحب الفرق، والتمييز.. ومن مشايخه محمّد ابن مقاتل الرازى قاضى الرى. ١ - أحد الأنهار الكبيرة المعروفة كالنيل ودجلة والفرات. ٢. اشارات المرام: ص ٢٣. ٣. المصدر نفسه.

(١٤)

والأولان من تلاميذ أبى سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني، وهو من تلاميذ أبى يوسف، ومحمّد بن الحسن الشيبانى. وأما شيخه الرابع أعنى محمّد بن مقاتل، فقد تخرّج على تلميذ أبى حنيفة مباشرة، وعلى ذلك فالماتريدى يتصل بإمامه تارة بثلاث وسائل، وأخرى بواسطتين. فعن طريق الأولين بواسط ثلاث، وعن طريق الثالث (بن مقاتل) بواسطتين (١). ٥ - ثقافته:

إن ثقافته و آراءه فى الفقهاء، الأكبر والأصغر، ينتهى إلى إمام مذهبه «أبى حنيفة». فإنّ مشايخه الذين أخذ عنهم العلم، عكفوا على رواية الكتب المنسوبة إليه ودراستها، وقد نقل الشيخ الكثرى أسانيد الكتب المروية عن أبى حنيفة عن النسخ الخطية الموجودة فى دار الكتب المصرىة وغيرها، وفيها مشايخ الماتريدى. قال: «ومن الكتب المتوارثة عن أبى حنيفة، كتاب الفقه الأكبر رواية على بن أحمد الفارسى، عن نصير بن يحيى، عن أبى مقاتل (حفص بن سالم)، وعن عصام بن يوسف، عن حماد بن أبى حنيفة، عن أبيه، وتامم السند فى النسخة المحفوظة ضمن المجموعة الرقم (٢٢٦) بمكتبة شيخ الاسلام بالمدينة المنورة. ونصير بن يحيى أحد مشايخ الماتريدى كما عرفت. ومن هذه الكتب «الفقه الأيسر» رواية أبى زكريا يحيى بن مطرف بطريق «نصير بن يحيى» عن أبى مطيع، عن أبى حنيفة، وتامم السند فى المجموعتين (٢٤ و ٢١٥ م) بدار الكتب المصرىة. ومن هذه الكتب «العالم والمتعلم» رواية أبى الفضل أحمد بن على البيكندى الحافظ، عن حاتم بن عقيل، عن الفتح بن أبى علوان، ومحمّد بن يزيد، عن الحسن بن ————— ١. لاحظ: اتحاف السادة المتقين، ج ٢ ص ٥.

(١٥)

صالح، عن أبى مقاتل حفص بن سالم السمرقندى، عن أبى حنيفة، ويرويه أبو منصور الماتريدى عن أبى بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني عن محمد بن مقاتل الرازى، عن أبى مقاتل، عنه، وتامم الأسانيد فى مناقب الموقّ والتأنيب (٧٣ و ٨٥). ومن تلك الرسائل رسالة أبى حنيفة إلى البتّى، رواية نصير بن يحيى، عن محمّد بن مقاتل الرازى، عن أبى مقاتل، عنه، وتامم الأسانيد فى مناقب الموقّ والتأنيب (٧٣ و ٨٥). ومن تلك الرسائل رسالة أبى حنيفة إلى البتّى رواية نصير بن يحيى، عن محمّد بن سماعه، عن أبى يوسف، عن أبى حنيفة، وبهذا السند رواية الوصية أيضاً، وتامم الأسانيد فى نسخ دار الكتب المصرىة - إلى أن قال: فنور تلك الرسائل سعى أصحاب أبى حنيفة وأصحاب أصحابه فى إبانة الحقّ فى المعتقد.. إلى أن جاء إمام السنّة فى ماوراء النهر، أبو منصور محمّد بن محمّد الماتريدى المعروف بـ (امام الهدى) فتفرّغ لتحقيق مسائلها، وتدقيق دلالتها، فأرضى بمؤلفاته جانبى العقل والنقل فى آن واحد، ثمّ ذكر مؤلفاته (١). ترى أنّ أسناد هذه الكتب والرسائل تنتهى إلى أحد مشايخ الماتريدى وقد طبع منها: «الفقه الأكبر، الرسالة، العالم والمتعلم، والوصية» فى مطبعة حيدرآباد عام (١٣٢١هـ). وهذه المؤلفات لا تتجاوز عن كونها بياناً للعقيدة وما يصحّ الإعتقاد به، من دون أن تقترن بالدليل والبرهان، ولكنها تحوّلت من عقيدة إلى علم، على يد (الماتريدى) فهو قد حقّق الأصول فى كتبه، فكان هو متكلّم مدرسة أبى حنيفة ورئيس أهل السنّة فى بلاد ماوراء النهر، ولذلك سمّيت المدرسة باسمه، وأصبح المتكلّمون على مذهب الإمام أبى حنيفة فى بلاد ماوراء النهر، يسمّون بالماتريديين، واقتصر إطلاق اسم أبى حنيفة على ————— ١.

مقدمة اشارات المرام: ص ٥ - ٦.

(١٦)

الأحناف المتخصصين في مذهبه الفقهي (١). وفي (مفتاح السعادة): «إنَّ رئيس أهل السنَّة والجماعة في علم الكلام رجلا: أحدهما حنفي، والآخر شافعي، أمَّا الحنفي: فهو أبو منصور محمَّد بن محمَّد بن محمود الماتريدي، وأمَّا الآخر الشافعي: فهو شيخ السنَّة أبو الحسن الأشعري البصري» (٢). وفي حاشية الكستلي (٣) على شرح العقائد النسفية (٤) للتفتازاني: «المشهور من أهل السنَّة في ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار، هم الأشاعرة، وفي ديار ماوراءالنهر الماتريديَّة أصحاب أبي منصور الماتريدي تلميذ أبي نصر العياضي، تلميذ أبي بكر الجرجاني، تلميذ محمَّد بن الحسن الشيباني من أصحاب الإمام أبي حنيفة» (٥). ويقول الزبيدي: «إذا أُطلق أهل السنَّة والجماعة، فالمراد هم الأشاعرة والماتريديَّة» (٦). ٦- المتخرجون عليه:

تخرَّج عليه عدَّة من العلماء منهم: أ - أبو القاسم إسحاق بن محمَّد بن إسماعيل الشهير بالحكيم السمرقندي (ت ٣٤٠ هـ) _____ ١. مقدمة كتاب التوحيد للماتريدي: ص ٥ بقلم الدكتور فتح الله خليفة - ط ١٣٩٢ هـ -، وهو المراد من «التوحيد» كلما اطلق في هذا الفصل. ٢. مفتاح السعادة ومصباح السيادة: ج ٢ ص ٢٢-٢٣ طبعه حيدر آباد على ما في مقدمته محقق كتاب التوحيد للماتريدي. ٣. هو مصلح الدين مصطفى القسطلاني (م ٩٠٢). ٤. وهذا الكتاب محور الدراسة في الأزهر وغيره، وما زال كذلك إلى يومنا هذا، وهو بمنزلة «شرح الباب الحادي عشر» عند الامامية، يعرض عقائد أهل السنَّة على مذهب الامام «الماتريدي» بشكل واضح. ٥. بهامش شرح العقائد النسفية: ص ١٧. ٦. اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين: تأليف محمد بن محمد بن الحسيني، طبع القاهرة ج ٢ ص ٨.

(١٧)

ب - الإمام أبو الليث البخاري. ج - الامام أبو محمَّد عبد الكريم بن موسى البزدوي، جدَّ محمَّد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم البزدوي مؤلف (أصول الدين). يقول حفيده: «ووجدت للشيخ الامام الزاهد «أبي منصور الماتريدي السمرقندي» كتاباً في علم التوحيد على مذهب أهل السنَّة، وكان من رؤساء أهل السنَّة. حكى لي الشيخ الامام والدي - رحمه الله - عن جده الشيخ الامام الزاهد «عبد الكريم بن موسى» - رحمه الله - كراماته. فإنَّ جدنا كان أخذ معاني كتب أصحابنا، وكتاب التوحيد، وكتاب التأويلات من خلق (١) عن الشيخ الامام أبي منصور الماتريدي - رحمه الله - إلا أنَّ في كتاب التوحيد الذي صنَّفه الشيخ أبو منصور قليل انغلاق و تطويل، وفي ترتيبه نوع تعسير لولا ذلك لاكتفيناه به (٢). ٧ - أنصار مذهب في الأجيال اللاحقة:

إنَّ للمنهج الكلامي الموروث من أبي منصور الماتريدي، أنصاراً وأعاوناً قاموا بإنصاح المذهب ونصرتة، ونشره وإشاعته، وإن لم يصل إلى ما وصل إليه مذهب الأشعري من الانتشار وكثرة الإقتفاء، وإليك ذكر بعض أنصاره: ١ - القاضي الإمام أبو اليسر محمَّد بن محمَّد بن الحسين عبد الكريم البزدوي (المولود عام ٤٢١ هـ والمتوفى في «بخاري» عام ٤٧٨ هـ) وقد عرفت كلامه في حقَّ الماتريدي، وسيوافيك بعض كلامه عند البحث عن فوارق المنهجين، وقد أُلِّف كتاب أصول الدين على غرار هذا المنهج، وسيوافيك الإيعاز إليه. ٢ - أبو المعين النسفي (م ٥٠٢ هـ) وهو من أعظم أنصار ذلك المذهب فهو _____ ١. (كذا في النسخة). ٢. أصول الدين للبزدوي: ص ٣ و ١٥٥-١٥٨.

(١٨)

عند الماتريديَّة كالباقلياني بين الأشاعرة، مؤلف كتاب «تبصرة الأدلَّة» الذي مازال مخطوطاً حتَّى الآن، ويعدُّ ينبوع الثاني بعد كتاب «التوحيد» للماتريديَّة الذين جاءوا بعده (١). ٣ - الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمَّد (م ٥٣٧ هـ) مؤلف «عقائد النسفي» ويقال إنَّه بمنزلة الفهرس لكتاب «تبصرة الأدلَّة» ومع ذلك ما زال هذا الكتاب محور الدِّراسة في الأزهر، وغيره، إلى يومنا هذا، كما تقدَّم. ٤ - الشيخ مسعود بن عمر التفتازاني أحد المتضلِّعين في العلوم العربيَّة، والمنطق، والكلام، وهو شارح «عقائد النسفي» الذي أُلِّف على منهاج الإمام الماتريدي، ولكن لم يتحقَّق لي كونه ماتريدياً، بل الظاهر من شرح مقاصده كونه أشعرياً. خصوصاً في مسألة خلق الأعمال، وكونه سبحانه خالقاً، والعبد كاسباً. ٥ - الشيخ كمال الدين محمد بن همام الدين الشهير بابن الهمام (المتوفى عام ٨٦١ هـ)

صاحب كتاب «المسايرة» في علم الكلام. نشره وشرحه محمّد محيي الدين عبد الحميد وطبع بالقاهرة. ٦- العلامة كمال الدين أحمد البياضى الحنفى مؤلف كتاب «إشارات المرام من عبارات الإمام» أحد العلماء في القرن الحادى عشر و كتابه هذا أحد المصادر للماتريديّة. ٧- وأخيراً الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى المصرى وكيل المشيخة الإسلاميّة فى الخلافة العثمانيّة، أحد الخبراء فى الحديث، والتاريخ، والملل، والنحل. له خدمات صادقة فى نشر الثقافة الإسلاميّة ومكافحة الحشويّة والوهابيّة، ولكنّ الحنابلة يبغضونه وما هذا إلاّ لأنّ عقليتهم لا تخضع لقبول كلّ ما ينقل باسم الحديث ولا سيّما فيما يرجع إلى الصفات الخبرية لله سبحانه الذى لا يفترق عن القول بالتشبيه والتجسيم قدر شعرة. _____ ١. مقدمه التوحيد: ص ٥.

(١٩) ٨- مؤلفاته و آثاره العلميّة:

سجل المترجمون للماتريدى كتباً له تعرب عن ولعه بالكتابة والتدوين والامعان والتحقّق، غير أنّ الحوادث لعبت بها، ولم يبق منها إلاّ ثلاثة، وقد طبع منها اثنان: ١- «كتاب التوحيد» وهو المصدر الأول لطلاب المدرسة الماتريديّة وشيوخها الذين جاءوا بعد الماتريدى، واعتنقوا مذهبه، وهو يستمدّ فى دعم آرائه من الكتاب، والسنة، والعقل، ويعطى للعقل سلطاناً أكبر من النقل، وقد قام بتحقيق نصوصه ونشره الدكتور فتح الله خليف (عام ١٩٧٠ م ، ١٣٩٠ هـ) وطبع الكتاب فى مطابع بيروت مع فهرسه فى (٤١٢) صفحة وقد عرفت من البرزوى مؤلف «أصول الدين» أنّ الكتاب لا يخلو من انغلاق فى التعبير، وهو لائح منه لمن سبره. ٢- «تأويلات أهل السنة» فى تفسير القرآن الكريم، وهو تفسير فى نطاق العقيدة السنيّة، وقد مزجه بآرائه الفقهية والأصولية وآراء أستاذه الإمام أبى حنيفة، فصار بذلك تفسيراً عقيدياً فقهياً، وهو تفسير عامّ لجميع السور، والجزء الأخير منه يفسّر سورة المنافقين، إلى آخر القرآن، وقد وقفنا من المطبوع منه على الجزء الأول وينتهى إلى تفسير الآية (١١٤) من سورة البقرة. حقّقه الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين، وطبع فى القاهرة عام (٣٩٠هـ)، والمقارنة بين الكتابين تعرب عن وحدتهما فى المنبع، والتعبير، والتركيب، فمثلاً ما ذكره فى تفسير قوله: (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) من الاستدلال على جواز الرؤية، هو نفس ما ذكره فى كتاب التوحيد، إلى غير ذلك من المواضيع المشتركة بين الكتابين، ولكنّ التفسير أسهل تناوياً، وأوضح تعبيراً. وأما كتبه الأخر فإليك بيانها: ٣- المقالات: حكى محقق كتاب (التوحيد) وجود نسخة مخطوطة منه فى المكتبات الغريبيّة. ٤- مأخذ الشرايع، ٥- الجدل فى أصول الفقه، ٦- بيان وهم المعتزلة، ٧- ردّ كتاب (٢٠) الأصول الخمسة للباهلى، ٨- كتاب ردّ الإمامة لبعض الروافض، ٩- الردّ على أصول القرامطة، ١٠- كتاب ردّ تهذيب الجدل للكعبى، ١١- رد وعيد الفساق للكعبى أيضاً، ١٢- رد أوائل الأدلة له أيضاً. ٩- الفرق بين المنهجين: الأشعريّة والماتريديّة:

لا شكّ أنّ الإمامين، الأشعري والماتريدى كانا يتحرّكان فى فلك واحد وكانت الغاية هى الدفاع عن عقيدة أهل السنة، والوقوف فى وجه المعتزلة و - مع ذلك - لا يمكن أن يتفقا فى جميع المسائل الرئيسيّة، فضلاً عن التفاريع، وذلك لأنّ الأشعري اختار منهج الإمام أحمد، وطابع منهجه هو الجمود على الظواهر، وقلة العناية بالعقل والبرهان، والشيخ الأشعري وإن تصرّف فيه وعدّله، ولكن لما كان رائده هو الفكرة الحنبليّة فقد عرقلت نطاق عقله عن التوسّع، ولو تجاوز عنها فإنما يتجاوز مع التحفّظ على أصولها. وأمّا الماتريدى فقد تربّى فى منهج تلامذة الإمام أبى حنيفة، ويعلو على ذلك المنهج، الطابع العقلى والاستدلال، كيف ومن أسس منهجه الفقهى، هو العمل بالمقاييس والاستحسانات، وعلى ضوء هذا فلا يمكن أن يكون التلميذان متوافقين فى الأصول، فضلاً عن الفروع، وأن يقع الحافر على الحافر فى جميع المجالات، وقد أشغل هذا الموضوع بال محققين، وحاولوا تبين أنّ أياً من الداعيين أعطى للعقل سلطاناً أكبر، وتفرّقوا فى ذلك إلى أقوال نذكرها: ١- قال أحمد أمين المصرى: «لقد اتّفق الماتريدى والأشعري على كثير من المسائل الأساسيّة، وقد ألّف كتب كثيرة وملخصات، بعضها يشرح مذهب الماتريدى ك(العقائد النسفيّة) لنجم الدين النسفى، وبعضها يشرح عقيدة الأشعري ك(السوسية) و(الجوهرة)، وقد ألّف كتب فى حصر المسائل التى اختلف فيها الماتريدى والأشعري، ربّما أوصلها بعضهم إلى أربعين مسألة- ثمّ قال: إنّ لون الاعتزال (٢١)

أظهر فى الأشعريّة بحكم تتلمذ الأشعري للمعتزلة عهداً طويلاً، واستشهد على ذلك بأنّ الأشعري يقول بوجود المعرفة عقلاً قبل بعث

الأنبياء دون الماتريدي» (١). والظاهر أن ما ذكره الكاتب من هفو القلم وسهوا الفكر، إذ مضافاً إلى أن كتابي الماتريدي «التوحيد والتفسير» و آراء تلاميذه تشهد على خلاف ما ذكر. إن ما استشهد به على ما تبناه خلاف الواقع، فالأشعري يقول بوجود المعرفة سمعاً لا عقلاً، والماتريدي على العكس كما ستوافيك نصوص القوم عند عرض المذهب، والعجب أنه قد سجل نظرية الإمامين قبيل هذا، على خلاف ما ذكره هنا وقال: يقول الماتريدي: إنه تعالى لو لم يبعث للناس رسولاً لوجب عليهم بعقولهم معرفته تعالى، ومعرفة وحدانيته، واتصافه بما يليق، وكونه محدثاً للعالم، كما روى ذلك عن أبي حنيفة، وذهب مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان، ولا يحرم كفر قبل البعث. فإذا (٢) كان أحمد أمين قائلًا بغلبة لون الاعتزال على الأشعري، فهناك من ذهب إلى خلافه، وإليك البيان: ٢- قال أبو زهرة: «إنّ منهاج الماتريديّة للعقل سلطان كبير فيه من غير أيّ شطط أو إسراف، والأشاعرة يتقيدون بالثقل ويؤيدونه بالعقل، حتّى إنّ يكاد الباحث يقوّر أنّ الأشاعرة في خطّ بين الاعتزال وأهل الفقه والحديث، والماتريديّة في خطّ بين المعتزلة والأشاعرة، فإذا كان الميدان الذي تسير فيه هذه الفرق الإسلاميّة الأربع، والتي لا خلاف بين المسلمين في أنّها جميعاً من أهل الإيمان، ذا أقسام أربعة، فعلى طرف منه المعتزلة، وعلى الطرف الآخر أهل الحديث، وفي الربع الذي يلي المعتزلة، الماتريديّة، وفي الربع الذي يلي المحدثين، الأشاعرة» (٣). يلاحظ عليه: أنه كيف جعل أبو زهرة هؤلاء كلّهم من أهل الإيمان، مع أنّ بين ————— ١. ظهر الاسلام: ج ٤ ص ٩١ - ٩٥. ٢. المصدر نفسه. ٣. تاريخ المذاهب الإسلاميّة: ج ١ ص ١٩٩.

(٢٢)

أهل الحديث طوائف المشبّهة، والمجسّمه، والقائلين بالجبر المستلزم للغوية التكليف وبعث الأنبياء، فهل يصحّ أن يعدّ من يصوّر بعث الأنبياء لغواً، وإنزال الكتب عبثاً، من أهل الإيمان؟ والحال أنّه لا تقصر عقيدة هؤلاء عن عقيدة أهل الجاهليّة الأولى الذين وصفهم الإمام علي (عليه السلام) في خطبة بقوله «وأهل الأرض يومئذ (يوم بعث النبي الأكرم) ملل متفرقة، وأهواء منتشرة، وطوائف متشتتة، بين مشبه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير به إلى غيره» (١). ويا للعجب! إذا قسم أبو زهرة ساحه الإيمان كلّها لهذه الطوائف الأربع، فأين يقع مكان أئمة أهل البيت في هذه الساحه وليس لأحد إنكار فضيلتهم، لأنهم الذين أوجب الله سبحانه مودّتهم في القرآن وجعلها أجر رسالته وقال: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى). (الشورى/٢٣)!! وعرفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم أعدال الكتاب وقرناؤه، وقال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي» (٢). وقد عرف الأبيكم والأصم - فضلاً عن غيرهما - أنّ أئمة أهل البيت لم يكونوا في أحد هذه المذاهب، ولا كانوا مقتفين لأحد هذه المناهج، بل كان لهم منهج خاص لا يفترق عن الكتاب، والسنة، والعقل السليم، فما معنى هذا التقسيم؟ «ما هكذا تورّد يا سعد الإبل» و«تلك إذ أقسمه ضيزى»، «أهم يقسمون رحمته ربك...» ٣- قال الشيخ محمّد زاهد الكوثري: «الماتريديّة هم الوسط بين الأشاعرة والمعتزلة، وقلمًا يوجد بينهم متصوّف، فالأشعريّ والماتريدي هما إماما أهل السنّة والجماعة في مشارق الأرض ومغاربها، لهم كتب لا تحصى، وغالب ما وقع بين هذين الإمامين من الخلاف من قبيل اللفظي» (٣). يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من أنّ الماتريديّة بين الأشاعرة والمعتزلة وإن كان متيناً،

————— ١. نهج البلاغة: الخطبة ١ طبعه عبده ص ٢٥. ٢. حديث متفق عليه رواه الفريقان. ٣. مقدمه تبين كذب المفترى:

ص ١٩.

(٢٣)

كما سيأتي عند عرض مذهبهم، لكن كون الخلاف بين الإمامين لفظياً واضح البطلان، إذ كيف يكون النزاع في التحسين والتقيح العقلين، أمراً لفظياً، مع أنّه ترتّب على الإثبات والإنكار مسائل كلاميّة كثيرة؟ أو كيف يكون الاختلاف في كون فعل الانسان فعلاً له حقيقة أو مجازاً من الاختلاف اللفظي؟ ٤- قال محقق كتاب «التوحيد» للماتريدي، في مقدمته: «إنّ شيخى السنّة يلتقيان على منهج واحد ومذهب واحد، في أهمّ مسائل علم الكلام التي وقع فيها الخلاف بين فرق المتكلمين» (١). ولعله لا يرى الخلاف في التحسين والتقيح، وكون فعل الانسان فعلاً له حقيقة، أو مجازاً، اختلافاً جوهرياً، كما لا يرى الاختلاف في كون صفاته عين ذاته، أو زائدة

عليه، أو جواز التكليف بما لا يطاق، وعدمه كذلك. فاللازم عرض مذهبه عن طريق نصوصه الواردة في توحيده، وتفسيره، وكتب أنصاره، حتى يعلم مدى اتفاق الداعيين، واختلافهما. وقبل ذلك نختم البحث بكلمة الامام البزدوى، أحد أنصار الماتريديّة في القرن الخامس، وكان جدّ والده أحد تلاميذه. قال: «وأبو الحسن الأشعري وجميع توابعه يقولون إنهم من أهل السنّة والجماعة، وعلى مذهب الأشعري عامة أصحاب الشافعي، وليس بيننا وبينهم خلاف إلا في مسائل معدودة قد أخطأوا فيها» (٢) وذكر بعد ذلك، تلك المسائل المعدودة وهي لا- تتجاوز عن ثلاث، وسيافيك نصّه! ولأجل وجود الاختلاف الجوهرى بين المذهبين قام جماعة من المعتمدين بتبيين الفروق الموجودة فيهما، بين موجز في الكلام، ومسهب فيه، وربّما ألفوا كتباً ورسائل، وإليك ما وقفنا عليه في هذا المجال: أ- أصول الدين للامام البزدوى، قال فيه تحت عنوان «ما خالف أبو الحسن _____ ١. مقدمة التوحيد، بقلم محققه الدكتور فتح الله خليف: ص ١٨. ٢. أصول الدين للامام محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوى: ص ٢٤٢.

(٢٤)

الأشعري عامة أهل السنّة والجماعة». ١- قال أهل السنّة والجماعة: إنّ لله تعالى أفعالاً، وهي الخلق، والرزق، والرحمة، والله تعالى قديم بأفعاله كلّها، وأفعال الله ليست بحادثه، ولا محدثه، ولا ذات الله، ولا غير الله تعالى، كسائر الصفات. وأبو الحسن الأشعري أنكر أن يكون لله تعالى فعل، وقال: الفعل والمفعول واحد، ووافق في هذا القدريّة والجهميّة، وعليه عاميّة أصحابه، وهو خطأ محض (١). ٢- وقال أهل السنّة والجماعة: المعاصى والكفر ليست برضى الله، ولا محبته، وإنما هي بمشيئة الله تعالى. وأبو الحسن قال: إنّ الله تعالى يرضى بالكفر والمعاصى، ويحبها، وهو خطأ محض أيضاً. ٣- وقال أهل السنّة والجماعة: إنّ الايمان هو التصديق والإعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، وقال أبو الحسن: إنّ الايمان هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان فرض من الفروض، وهو خطأ أيضاً. وشرّ مسائله مسألة الأفعال. وذكر أبو الحسن في كتاب «المقالات» مذهب أهل الحديث، ثم قال: وبه نأخذ، ومذهب أهل الحديث في هذه المسائل الثلاث مثل مذهب أهل السنّة والجماعة. فهذا القول يدلّ على أنّه كان يقول مثل ما قال أهل السنّة والجماعة في هذه المسائل، ولكن ذكر في الموجز الكبير كما ذكرنا هنا، فكان حبه (٢) في هذه المسائل قولان، فكأنّه رجع عن هذه المسائل الثلاث. وكان يقول: كلّ مجتهد مصيب في الفروع، وعامة أهل السنّة والجماعة قالت: يخطئ ويصيب (٣). ١. سيافيك عند عرض مذهب الماتريديّة توضيح مرامهم. ٢. كذا في الأصل وضبطه المحقق بضم الباء. ٣. أصول الدين للبزدوى: ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢٥)

ب- «إشارات المرام من عبارات الامام» تأليف كمال الدين البياضى الحنفى من علماء القرن الحادى عشر، فقد طرح التّقاط الخلافيّة بين الإمامين فبلغ إلى خمسين مسألة (١). ج: نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل الّتى وقع فيها الاختلاف بين الماتريديّة والأشعريّة تأليف عبد الرحيم بن على المعروف بـ «شيخ زاده» طبع في القاهرة (عام ١٣١٧ هـ). د: الروضة البهيّة في ما بين الأشعريّة والماتريديّة تأليف أبى عذبة، طبع في حيدرآباد (عام ١٣٣٢ هـ). هـ: خلافيّات الحكماء مع المتكلمين، وخلافيّات الأشاعرة مع الماتريديّة، تأليف عبدالله بن عثمان بن موسى مخطوطة دار الكتب المصريّة (بالرقم ٣٤٤١ ج) (٢). و: قصيدة في الخلاف بين الأشعريّة والماتريديّة تأليف تاج الدين السبكي، مؤلف (طبقات الشافعيّة الكبرى) المطبوعة بمصر (عام ١٣٢٤ هـ) مخطوطة الجامعة العربيّة الرقم (٢٠٢) المصوّرة عن مخطوطة جامع الشيخ بالاسكندرية (٣). وهذه العناية المؤكّدة في طول الأجيال تعرب عن كون الفرق أو الفوارق جوهرياً، لا لفظياً، وإلا فلا وجه لتأليف الكتب والرسائل لبيان الفوارق اللفظيّة أو الجزئيّة، الموجودة بين المنهجين، وسيظهر الحقّ في البحث التالى. ١٠- عرض مذهب الماتريدى:

ولا نهدف في هذا الفصل إلى عرض كلّ ما يعتقد به الماتريدى في مجال العقائد والأصول، فإنّ قسماً من عقائده هو عين عقيدة أهل الحديث والأشعري، وقد عرضنا _____ ١. اشارات المرام: ص ٥٣ - ٥٦. ٢. انظر مقدمة كتاب التوحيد للماتريدى: ص ٢٥. ٣. انظر مقدمة كتاب التوحيد للماتريدى: ص ٢٥.

(٢٤)

عقائدهم في الجزء الأول من هذه السلسلة، وإنما نقوم ببيان الأصول المهمة التي افرق فيها عن الأشعري، مع الاعتراف بأن الماتريدي يتدرج في بعض الموارد بنفس ما يتدرج به الأشعري، ومن هذا الباب تصحيح القول بالرؤية، فإن القول برؤيته في النشأة الآخرة ملازم لكونه سبحانه محاطاً وواقعاً في جهه ومكان، ومن أجل ذلك قام العلمان في دفع الإشكال على نمط واحد، وهو أن الرؤية تقع «بلا كيف» أو ما يفيد ذلك، حتى يرضيا بذلك أهل النقل والعقل. قال ابن عساكر: «قالت الحشوية المشبهة: إن الله سبحانه وتعالى يرى مكيفاً محدوداً كسائر المراتب، وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية: إنه سبحانه لا يرى بحال من الأحوال فسلك الأشعري طريقاً بينهما فقال: يرى من غير حلول، ولا- حدود، ولا تكيف، كما يرانا هو سبحانه وتعالى، وهو غير محدود، ولا مكيف»(١). وقد نقلنا نصوص نفس الأشعري في موضع الرؤية عند عرض عقائده(٢). وقال الماتريدي في ذلك البحث: «فإن قيل: كيف يرى؟ قيل: بلا كيف، إذ الكيفية تكون لدى صورة، بل يرى بلا وصف قيام وعود، وأتقاء وتعلق، واتصال وانفصال، ومقابلة ومدابرة، وقصير وطويل، ونور وظلمة، وساكن ومتحرك، ومماس ومباين، وخارج وداخل، ولا معنى يأخذه الوهم، أو يقدره العقل، لتعالیه عن ذلك»(٣). يلاحظ عليه: أن الرؤية بهذه الخصوصيات إنكار لها، وأشبهه بالأسد بلا ذنب، ولأرأس. والذي تبين لي بعد التأمل في آرائه في كثير من المسائل الكلامية، أن منهجه كان يتمتع بسمات ثلاث: ١- الماتريدي أعطى للعقل سلطاناً أكبر، ومجالاً أوسع، وذلك هو الحجر الأساس _____ ١. تبين كذب المفترى لابن عساكر: ص ١٤٩ - ١٥٠. ٢. لاحظ الجزء الثاني: ص ٢٠١. ٣. التوحيد للماتريدي: ص ٨٥.

(٢٧)

للسمتين الأخيرتين. ٢- إن منهج الماتريدي أبعد من التشبيه والتجسيم من الأشعري، وأقرب إلى التنزيه. ٣- إنه وإن كان يحمل حملة عيفة على المعتزلة، ولكنه إلى منهجهم أقرب من الإمام الأشعري. وتظهر حقيقة هذا الأمر إذا عرض مذهبه في مختلف المسائل، ولمعرفة جملة من مواضع الاختلاف ودراسة نقاط القوة والضعف، نذكر موارد عشرة و نترك الباقي روماً للإختصار.

١ - استيلاؤه على العرش:

١ - استيلاؤه على العرش:

اتفق الداعيان على أنه يجب الإيمان بما جاء في القرآن من الصفات لله تبارك وتعالى، ومنها استيلاؤه على العرش، والأشعري يفسره على نحو الإنبات ويؤمن بظاهره بلا تفويض ولا تأويل، وأن الله حقيقة مستو على العرش لكن استيلاءً مناسباً له، ويقول: «إن الله مستو على العرش الذي فوق السماوات» ولأجل دفع توهم التجسيم يقول: «يستوى على عرشه كما قال، يليق به من غير طول الإستقرار» ويستشهد بما روى عن رسول الله: إذا بقي ثلث الليل ينزل الله تبارك وتعالى، فيقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له(١). وعلى ضوء هذا فالأشعري ممن يثبت الصفات الخيرية لله بلا تفويض معناها إليه، غاية الأمر يتدرج بلفظة «على نحو يليق به» أو «بلا كيف» كما في الموارد الأخرى، ولكن الماتريدي مع توصيفه سبحانه بالصفات الخيرية، يفوض مفاد الآية إليه سبحانه، فهو يفارق الأشعري في التفويض وعدمه، ويخالف المعتزلة في التأويل وعدمه، فالأشعري من المثبتة بلا تفويض وتأويل، وهو من المثبتة مع التفويض، كما أن المعتزلة _____ ١. الابانة: ص ٨٥.

(٢٨)

من المؤولة، وبذلك يتضح كونه بين الأشعري والمعتزلي، وإليك نصه في مورد استوائه على العرش: قال: «وأما الأصل عندنا في ذلك أن الله تعالى قال ليس كمثل شيء» فنفى عن نفسه شبه خلقه، وقد بينا أنه في فعله وصفته متعال عن الأشباه، فيجب القول بـ(الرحمن على العرش استوى) على ما جاء به التنزيل، وثبت ذلك في العقل، ثم لا نقطع تأويله على شيء، لاحتماله غيره مما ذكرنا،

واحتماله أيضاً ما لم يبلغنا مِمَّا يعلم أنه غير محتمل شبه الخلق، ونؤمن بما أراد الله به، وكذلك في كل أمر ثبت التنزيل فيه، نحو الرؤية وغير ذلك، يجب نفي الشبه عنه، والإيمان بما أراده من غير تحقيق على شيء دون شيء، والله الموفق» (١).

٢- معرفته سبحانه واجبه عقلاً:

٢- معرفته سبحانه واجبه عقلاً:

اتفق الداعيان على وجوب معرفة الله، واختلفا في طريق ثبوت هذا الوجوب، فالأشعري وأتباعه على أنه سمعي، والمعتزلة على أنه عقلي، قال العضدي في المواقف: النظر إلى معرفة الله واجب إجماعاً، واختلف في طريق ثبوته، فهو عند أصحابنا السمع، وعند المعتزلة العقل. أمياً أصحابنا فلهم مسلکان: الأول: الاستدلال بالظواهر مثل قوله تعالى: (قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إلى آخره (٢). ولا يخفى وهن النظرية، لاستلزامها الدور، لأن معرفة الإيجاب تتوقف على معرفة الموجب، فإن من لا يعرفه بوجه من الوجوه، كيف نعرف أنه أوجب؟ فلو استفيدت معرفة الموجب من معرفة الإيجاب، لزم الدور. وأيضاً لو كانت المعرفة تجب بالأمر، فهو إمياً متوجه إلى العارف بالله أو غيره، ————— ١. التوحيد للماتريدي: ص ٧٤. ٢. المواقف: ص ٢٨ وشرحها ج ١ ص ١٢٤ و الآية ١٠١ من سورة يونس.

(٢٩)

فالأول تحصيل للحاصل، وأما الثاني، فهو باطل، لاستحالة خطاب الغافل، إذ كيف يصح الأمر بالغافل المطلق بأن الله قد أمره بالنظر والمعرفة، وأن امتثال أمره واجب إلا- إذا خص الوجوب بالشاك. هذا ما عليه الأشاعرة، وأمياً الماتريديّة فتقول بوجوبها عقلاً مثل المعتزلة. قال البياضى: «ويجب بمجرد العقل في مدة الاستدلال، معرفة وجوده، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وكلامه، وإرادته، وحدوث العالم، ودلالة المعجزة على صدق الرسول، ويجب تصديقه، ويحرم الكفر، والتكذيب به، لا- من البعثة وبلوغ الدعوة» (١). القول بوجوب هذه الأمور من جانب العقل من قبل أن يجيء الشرع دفعاً لمحذور الدور يعرب عن كون الداعي، أعطى للعقل سلطاناً أكبر مما أعطاه الأشعري له.

٣- الاعتراف بالتحسين والتقيح العقليين:

٣- الاعتراف بالتحسين والتقيح العقليين:

إنّ لمسألة التحسين والتقيح العقليين دوراً مؤثراً في المسائل الكلامية، فالأشاعرة على إنكارهما زاعمين أنّ القول باستطاعة العقل على دركهما، يستلزم نفي حزية المشيئة الإلهية والتزامها بقيد وشرط، وقد أوضحنا حال هذه النظرية عند عرض عقائد الأشاعرة (٢). وأما المعتزلة فهم على جانب مخالف، وأما الماتريديّة فيعتزون بالتحسين والتقيح ببعض مراتبهما. قال البياضى: والحسن بمعنى استحقاق المدح والثواب، والقبح بمعنى استحقاق الذم والعقاب على التكذيب عنده (أبي منصور الماتريدي) إجمالاً عقلي، أى يعلم به حكم الصانع في مدة الاستدلال في هذه العشرة (٣). كما في التوضيح وغيره، لا يوجب العقل للحسن والقبح، ولا مطلقاً كما زعمته المعتزلة، أمياً كقيّة الثواب وكونه ————— ١. اشارات المرام: فصل الخلافات بين جمهور الماتريديّة والأشعرية ص ٥٣. ٢. لاحظ الجزء الثاني: ص ٣١٠-٣٣٢. ٣. اشارة إلى ما ذكره من المسائل العشر خلال البحث في وجوب المعرفة عقلاً.

(٣٠)

بالجنّة، وكيفية العقاب وكونه بالنار، فشرعى، واختار ذلك الامام القفال الشاشى، والصيرفى، وأبو بكر الفارسى، والقاضى أبو حامد، وكثير من متقدميهم، كما في القواطع للامام أبى المظفر السمعانى الشافعى والكشف الكبير، وهو مختار الامام القلانسى ومن تبعه كما في (التبصرة البغدادية). ولا يجوز نسخ ما لا يقبل حسنه أو قبحه السقوط كوجوب الايمان، وحرمة الكفر واختاره المذكورون - إلى أن

قال:- ويستحيل عقلاً أتصافه تعالى بالجور وما لا ينبغي، فلا يجوز تعذيب المطيع، ولا العفو عن الكفر، عقلاً، لمنافاته للحكمة، فيجزم العقل بعدم جوازه، كما في التزيهات(١). وغير خفى على النابه أن الشيخ الماتريدى قد اعترف بما هو المهم في باب التحسين والتقيح العقليين وإليك الإشارة إليه: ١- استقلال العقل بالمدح والذم في بعض الأفعال، وهذا هو محل النزاع في بابهما بأن يجد العقل من صميم ذاته أن هنا فعلين مختلفين يستحق فاعل أحدهما المدح، وفاعل الآخر الذم، سواء أكان الفاعل بشراً، أم انساناً، أم ملكاً، أم غيرهما، وتبنى عليه أصول كثيرة كلامية أو عرنا إليها عند عرض عقائد الأشعرى وآرائه. ٢- استقلال العقل بكونه سبحانه عادلاً، فلا يجوز عليه تعذيب المطيع، وأين هو مما يقول به الأشعرى من أنه يجوز لله سبحانه أن يؤلم الأطفال في الآخرة وهو عادل إن فعله(٢). ٣- نعم أنكر الشيخ إيجاب العقل للحسن والقبح، ولكنه لو كان واقفاً على مغزى إيجاب العقل لم يعترض عليه، إذ لا يوجد في أديم الأرض إنسان عاقل عارف بمقام الرب والخلق، يجعل العقل موجباً ومكلفاً - بالكسر - والله سبحانه موجباً ومكلفاً بالفتح - لأن شأن العقل هو الإدراك، ومعنى إيجابه القيام بالحسن، والاجتناب عن ضده، هو استكشافه لزوم القيام بالأول وامتناع القيام بالثاني بالنظر إلى _____ ١. اشارات المرام: فصل الخلافات بين الماتريدي والأشعره، ص ٥٤. ٢. اللمع: ص ١١٦.

(٣١)

المبادئ الموجودة في الفاعل الحكيم، فالمتصف بكل الكمال، والمبرأ عن كل سوء، لا يصدر منه إلا الحسن لوجود الصارف عن غيره، ويمتنع صدور غيره عنه، وليس هذا الامتناع امتناعاً ذاتياً بمعنى تحديد قدرته ومشيئته، بل قدرته ومشيئته مطلقان بالذات غير محدودتين، فهو سبحانه قادر على كلا القسمين من الفعل أعنى الحسن والقبح، لكن بالنظر إلى أنه عالم واقف على قبح الأفعال، وغنى عن فعل القبح، يترك القبيح ولا يفعله، والله الحكيم كتب على نفسه أن لا يخل بالحسن ولا يفعل القبيح، وليس دور العقل إلا دور الكشف والتبيين، والتعبير بالإيجاب بملاك الوقوف على المبادئ الكمالية الموجودة في المبدأ كقولك: يجب أن تكون زوايا المثلث متساوية مع زاويتين قائمتين، فإن الخصوصية التكوينية الكامنة فيه مبدأ ذلك الإيجاب، والعقل كاشفه، ومع ذلك ربما يعبر عن ذلك بالإيجاب. ٤- اختار الماتريدى قصور العقل عن تعيين كيفية الثواب وكونه بالجنة، وكيفية العقاب وكونه بالنار وهو الحق، فإن أقصى ما يستقل به العقل هو لزوم مثوبة المطيع ومجازاة العاصي، وأما الكيفية فلا يستقل العقل بشيء منها (على فرض كون الثواب بالاستحقاق). نعم ما ذكره من أنه ليس لله العفو عن الكفر عقلاً، فالظاهر أنه تحديد رحمته وقد سبقت غضبه، والتعذيب حق له، وله الأعمال وله العفو كعصيان المؤمن الفاسق. نعم أخبر المولى سبحانه بأنه لا يغفر الشرك، ويغفر ما دون ذلك.

٤- التكليف بما لا يطاق غير جائز:

٤- التكليف بما لا يطاق غير جائز:

ذهب الأشعرى إلى جواز التكليف بما لا يطاق وقال: «والدليل على جواز تكليف ما لا يطاق من القرآن قوله تعالى للملائكة: (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) (البقرة ٣١) يعنى أسماء الخلق، وهم لا يعلمون ذلك ولا يقدرون عليه.... إلى غير ذلك من الآيات التي عرفت مفادها في محلها(١). _____ ١. لاحظ الجزء الثاني من هذا الكتاب: ١٨٥.

(٣٢)

والماتريدى مخالف صنوه الداعى ويقول: «ولا- يجوز التكليف بما لا- يطاق لعدم القدرة أو الشرط، واختاره الأستاذ أبو إسحاق الاسفرائينى كما فى (التبصرة) وأبو حامد الاسفرائينى كما فى شرح السبكي لعقيدة أبى منصور(١). هذا ما نقله البياضى عن الماتريدي، وأما نفس أبى منصور فقد فصيل فى كتابه «التوحيد» بين مضىء القدرة فيجوز تكليفه، وبين غيره فلا- يجوز. قال: «إن تكليف من منع عن الطاعة فاسد فى العقل، وأما من مضىء القوة فهو حق أن يكلف مثله، ولو كان لا يكلف مثله لكان لا يكلف إلا من يطيع» (٢). يلاحظ عليه:

١- أن من الأصول المسلّمة عند العقل، كون الامتناع بالإختيار غير مناف للإختيار، فمن ألقى نفسه من شاهق عن اختيار فقد قتل نفسه اختياراً، فالقتل بعد الإلقاء وإن كان خارجاً عن الإختيار، ولكنه لما كان الإلقاء - المذى يُعدّ من مبادئ القتل - في اختياره، يعدّ القتل فعلاً اختيارياً لا اضطرارياً. ٢- أن من فقد القدرة، وعجز عن القيام بالعمل، سواء أكان بعامل اختياري أم غيره، لا يصحّ تكليفه به عن جدّ، لأنّ فاقد القدرة والجماد في هذه الجهة سواسية، فلا تظهر الارادة الجديّة في صقع الذهن، ولو خوطب العاجز فإنّما يخاطب بملاكات أخر من التقرّيع، والتنديد، وغيرهما. وفي ضوء هذين الأمرين يستنتج أنّ من ضيّع قدرته يُعذّب، لما تقرّر من أنّ الامتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار، ولكن لا يصحّ تكليفه بعد الضياع، للغويّة الخطاب واستهجانه، وبذلك يظهر وهن برهان المفصل من أنّه لو لم يصحّ تكليف المضيع للقدرة لاخصّ التكليف بالمطيع، لما عرفت من أنّ سقوط التكليف والخطاب _____ ١. اشارات المرام: ص ٥٤ في فصل الخلافات بين جمهور الماتريديّة والأشعرية. ٢. التوحيد: ص ٢٦٦. (٣٣)

بالتضييع، لا يستلزم سقوط العقاب والمؤاخذه، وقد اشتهر بين القوم أنّ الامتناع بالإختيار، لا ينافي الإختيار عقاباً لا خطاباً، ولو كان الماتريدي واقفاً على أنّ القائلين بامتناع التكليف بما لا يطاق، قائلون بصحّة عقوبته من ضيّع القدرة، وجعل نفسه في عداد العجزة، لما فصل بين من مُنع منه الطّاقة، ومن ضيّعها، ولما ضرب الجميع بسهم واحد.

٥- أفعال الله سبحانه معلّلة بالغايات:

هـ أفعال الله سبحانه معلّلة بالغايات:

ذهبت الأشاعرة إلى أنّ أفعاله سبحانه ليست معلّلة بالأغراض، وأنّه لا يجب عليه شيء، ولا يقبح عليه شيء، واستدلّوا على ذلك بما يلي: ١- لو كان فعله تعالى لغرض، لكان ناقصاً لذاته، مستكملاً بتحصيل ذلك الغرض، لأنّه لا يصلح غرضاً للفاعل إلا ما هو أصلح له من عدمه، وهو معنى الكمال (١). وقالت الماتريديّة: أفعاله تعالى معلّلة بالمصالح والحكم تفصلاً على العباد، فلا يلزم الاستكمال ولا وجوب الأصلح واختاره صاحب المقاصد (٢). هل الغاية، غاية للفاعل أو للفعل؟

إنّ الأشعرى خلط بين الغرض الراجع إلى الفاعل، والغرض الراجع إلى فعله، فالاستكمال موجود في الأوّل دون الثاني، والقائل بكون أفعاله معلّلة بالأغراض، والغايات، والدواعي، والمصالح، إنّما يعني بها الثاني دون الأوّل، والغرض بالمعنى الأوّل ينافي كونه غتياً بالذات، وغتياً في الصّفات، وغتياً في الأفعال، والغرض بالمعنى الثاني يوجب خروج فعله عن كونه عبثاً ولغوياً، وكونه سبحانه عبثاً ولاغياً، فالجمع بين كونه غتياً غير محتاج إلى شيء، وكونه حكيماً منزهاً عن العبث واللغو، يتحقّق بالقول باشتمال أفعاله على مصالح وحكم ترجع إلى العباد والنظام، لا إلى وجوده وذاته، كما لا يخفى. _____ ١. المواقف: ص ٣٣١. ٢. اشارات المرام: ص ٥٤. (٣٤) تفسير العلة الغائية:

العلّة الغائية التي هي إحدى أجزاء العلة التامة، يراد منها في مصطلح الحكماء، ما تُخرج الفاعل من القوّة إلى الفعل، ومن الامكان إلى الوجود، ويكون مقدّمه صورة وذهناً، ومؤخّره وجوداً وتحققاً، فهي السبب لخروج الفاعل عن كونه فاعلاً - بالقوّة إلى كونه فاعلاً بالفعل، مثلاً النجار لا يقوم بصنع الكرسيّ إلا لغاية مطلوبة مترتبة عليه، ولولا تصوّر تلك الغاية لما خرج عن كونه فاعلاً بالقوّة، إلى ساحة كونه فاعلاً بالفعل، وعلى هذا فللعلة الغائية دور في تحقّق المعلول، وخروجه من الامكان إلى الفعلية، لأجل تحريك الفاعل نحو الفعل، وسوقه إلى العمل. ولا تصوّر العلة الغائية بهذا المعنى في ساحتها سبحانه لغناه المطلق في مقام الذات، والوصف، والفعل، فكما أنّه تامّ في مقام الوجود، تامّ في مقام الفعل، فلا يحتاج في الإيجاد إلى شيء وراء ذاته، وإلا فلو كانت فاعليّة الحقّ كفاعليّة الانسان، الذي لا يقوم بالإيجاد والخلق، إلا لأجل الغاية المترتبة عليه، لكان ناقصاً في مقام الفاعليّة، مستكملاً بشيء وراء ذاته وهو لا يجتمع مع غناه المطلق. هذا ما ذكره الحكماء، وهو حقّ لا غبار عليه، وقد استغلّته الأشاعرة في غير موضعه واتخذوه حجّة لتوصيف فعله عارياً عن

أية غاية وغرض، وجعلوا فعله كفعل العابثين واللاعبيين، يفعل (العياذ بالله) بلا غاية، ويعمل بلا غرض، ولكن الاحتجاج بما ذكره الحكماء لإثبات ما رامته الأشاعرة واضح البطلان، لأن إنكار العلّة الغائيّة بهذا المعنى، لا يلازم أن لا يترتب على فعله مصالح وحكم ينتفع بها العباد، وينتظم بها النظام، وإن لم تكن مؤثرة في فاعليّة الحقّ وعلّيته، وذلك لأنّه سبحانه فاعل حكيم، والفاعل الحكيم لا يختار من الأفعال الممكنة إلا ما يناسب ذلك، ولا يصدر منه ما يضاؤه ويخالفه. (٣٥)

وبعبارة ثانية، لا نعى من ذلك أنه قادر لواحد من الفعلين دون الآخر وأنه في مقام الفاعليّة يستكمل بالغاية، فيقوم بهذا دون ذاك، بل هو سبحانه قادر على كلا الأمرين، لا يختار منهما إلا ما يوافق شأنه، ويناسب حكمته، وهذا كالقول بأنّه سبحانه يعدل ولا يجور، فليس يعنى من ذلك أنه تامّ الفاعليّة بالنسبة إلى العدل دون الجور، بل يعنى أنه تامّ القادريّة لكلا العمليين، لكن عدله، وحكمته، ورأفته، ورحمته، تقتضى أن يختار هذا دون ذلك مع سعة قدرته لكليهما. هذا هي حقيقة القول بأنّ أفعال الله لا تعلل بالأغراض والغايات المصطلحة، مع كون أفعاله غير خالية عن المصالح والحكم من دون أن يكون هناك استكمال. دليل ثان للأشاعرة:

ثم إن أئمّة الأشاعرة لما وقفوا على منطق العدليّة في المقام، وأنّ المصالح والحكم ليست غايات للفاعل بل غايات للفعل، وأنّها غير راجعة إلى الفاعل، بل إلى العباد والنظام، طرحوه على بساط البحث فأجابوا عنه وإليك نصّ كلامهم: ١- «فان قيل: لانسلم الملازمة، فإنما الغرض قد يكون عائداً إلى غيره. قيل له: نفع غيره والاحسان إليه إن كان أولى بالنسبة إليه تعالى من عدمه، جاء الالتزام، لأنّه تعالى يستفيد حينئذ بذلك النفع والاحسان ما هو أولى به وأصلح، وإن لم يكن أولى بل كان مساوياً، أو مرجوحاً، لم يصلح أن يكون غرضاً له» (١). وقد جاء بنفس هذا البيان «الفضل بن رزبهان» في ردّه على «نهج الحقّ» للعلامة الحلّي وقال: «إنّه لا يصلح غرضاً للفاعل إلا ما هو أصلح له من عدمه، وذلك لأنّ ما يستوى وجوده وعدمه بالنظر إلى الفاعل، أو كان وجوده مرجوحاً بالقياس إليه، لا يكون باعثاً _____ ١. المواقف: ص ٣٣٢.

(٣٦)

على الفعل، وسبباً لإقدامه عليه بالضرورة، فكلّ ما يكون غرضاً وجب أن يكون وجوده أصلح للفاعل، وأليق به من عدمه، فهو معنى الكمال، فإذا كان الفاعل مستكماً بوجوده، ناقصاً بدونّه» (١). يلاحظ عليه: أنّ المراد من الأصلح والأولى به، ما يناسب شؤونه، فالحكيم لا يقوم إلا بما يناسب شأنه، كما أنّ كلّ فاعل غيره يقوم بما يناسب المبادئ الموجودة فيه، فتفسير الأصلح والأولى بما يفيد ويكمله، تفسير في غير موضعه. ومعنى أنّه لا يختار إلا الأصلح والأولى، ليس أنّ هناك عاملاً خارجاً عن ذاته، يحدّد قدرته ومشيتته ويفرض عليه إيجاد الأصلح والأولى، بل مقتضى كماله وحكمته، هو أن لا يخلق إلا الأصلح والأولى، ويترك اللغو والعبث، فهو سبحانه لما كان جامعاً للصفات الكمالية ومن أبرزها كونه حكيماً، صار مقتضى ذلك الوصف، إيجاد ما يناسبه وترك ما يضاؤه، فأين هو من حديث الاستكمال، والاستفادة، والالتزام، والافراض، كلّ ذلك يعرب عن أنّ المسائل الكلامية طرحت في جوّ غير هادئ وأنّ الخصم لم يقف على منطق الطرف الآخر. والحاصل، أنّ ذاته سبحانه تامة الفاعليّة بالنسبة إلى كلا الفعلين: الفعل المقترن مع الحكمة، والخالي عنها، وذلك لعموم قدرته سبحانه للحسن والقيح، ولكن كونه حكيماً يصدّه عن إيجاد الثاني ويخصّ فعله بالأول، وهذا صادق في كلّ فعل له قسمان: حسن وقيح. مثلاً، الله سبحانه قادر على إنعام المؤمن وتعذيبه، وتامّ الفاعليّة بالنسبة إلى الكلّ، ولكن لا يصدر منه إلا القسم الحسن منهما لا القبيح، فكما لا يستلزم القول بصدور خصوص الحسن دون القبيح (على القول بهما) كونه ناقصاً في الفاعليّة، فهكذا القول بصدور الفعل المقترن بالمصلحة دون المجرد عنها، وإنعام المؤمن ليس مرجوحاً ولا مساوياً مع تعذيبه بل أولى به وأصلح، لكن معنى صلاحه وأولويّته لا يهدف إلى استكمال أو استفادته منه، بل يهدف إلى أنّه المناسب لذاته الجامعة للصفات الكمالية، _____ ١. دلائل الصدق: ج ١ ص ٢٣٣.

(٣٧)

المنزهة عن خلافها، فجماله وكمال، وترفعه عن ارتكاب القبيح، يطلب الفعل المناسب له، وهو المقارن للحكمة، والتجّيب عن

مخالفتها. والحاصل أن الله سبحانه فعل أم لم يفعل فهو كامل بلانهاية، لكن لو فعل لاختار المناسب للحكمة و أين هو من الاستكمال. دليل ثالث للأشاعرة:

وهناك دليل ثالث لهم حاصله: أن غرض الفعل خارج عنه، يحصل تبعاً له وبتوسيطه، وبما أنه تعالى فاعل لجميع الأشياء ابتداءً، فلا يكون شيء من الكائنات إلاً فعلاً له، لا غرضاً لفعل آخر لا يحصل إلاً به، ليصلح غرضاً لذلك الفعل، وليس جعل البعض غرضاً أولى من البعض (١). وكان عليه أن يقرّر الدليل بصورة كاملة ويقول: لو كان البعض غايةً للبعض فإما أن ينتهي إلى فعل لا غاية له فقد ثبت المطلوب، أو لا- فيتسلسل وهو محال. يلاحظ عليه: أنه لا يشك من أطلّ بنظره إلى الكون، أن بعض الأشياء بما فيها من الآثار خلق لأشياء أخرى، فالغاية من إيجاد الموجودات الدانية كونها في خدمة العالیه منها، وأما الغاية في خلق العالیه هي إبلاغها إلى حدّ تكون مظاهر ومجالى لصفات ربّه، وكمال بارئته. إذا نظرنا إلى الكون بالنظر التجزيئي نرى هناك أوائل الأفعال، وثوانيتها، وثواتها... فيقع الداني في خدمة العالیه، ويكون الغرض من إيجاد العالیه إيصاله إلى كماله الممكن المذی هو أمر جميل بالذات، ولا يطلب إيجاد الجميل بالذات غاية سوى وجوده لأن الغاية منطوية في وجوده. هذا إذا نظرنا إلى الكون بالنظر التجزيئي. وأما إذا نظرنا إلى الكون بالنظر _____ ١. المواقف: ص ٣٢٢.

(٣٨)

الجملي، فالغاية للنظام الجملي ليس أمراً خارجاً عن وجود النظام حتى يسأل عنها بالنحو الوارد في الدليل، بل هي عبارة عن الخصوصيات الموجودة فيه وهي بلوغ النظام بأعضاه وأجزائه إلى الكمال الممكن، والكمال الممكن المتوخى من الإيجاد خصوصية موجودة في نفس النظام، ويعدّ صورة فعلية له، فالله سبحانه خلق النظام، وأوجد فعله المطلق، حتى يبلغ ما يصدق عليه فعله كلاً أو بعضاً إلى الكمال المذی يمكن أن يصل إليه. فليست الغاية شيئاً مفصلاً عن النظام، حتى يقال ما هي الغاية لهذه الغاية حتى تتسلسل، أو تصل إلى موجود لا- غاية له. وبما أن إيصال كل ممكن إلى كماله، غاية ذاتية، لأنه عمل جميل بالذات، فيسقط السؤال عن أنه لماذا قام بهذا، لأنه حين أوصل كل موجود إلى كماله الممكن، فالسؤال يسقط إذا انتهى إلى السؤال عن الأمر الجميل بالذات. فلو سئلنا عن الغاية لأصل الإيجاد وإبداع النظام، قلنا: بأن الغرض من الإيجاد عبارة عن إيصال كل ممكن إلى كماله الممكن. ثم إذا طرح السؤال عن الهدف من إيصال كل ممكن إلى كماله الممكن، لكان السؤال جزافياً ساقطاً، لأن العمل الحسن بالذات، يليق أن يفعل، والغاية نفس وجوده. فالإيجاد فيض من الواجب إلى الممكن، وإبلاغه إلى كماله فيض آخر، يتم به الفيض الأول، فالمجموع فيض من الفيض تعالى إلى الفقير المحتاج، ولا ينقص من خزائنه شيء، فأى كمال أحسن وأبدع من هذا؟ وأى غاية أظهر من ذلك، حتى تحتاج إلى غاية أخرى؟ وهذا بمثابة أن يسأل لماذا يفعل الله الأفعال الحسنه بالذات؟ فإنّ الجواب، مستتر في نفس السؤال وهو أنه فعله لأنه حسن بالذات، وما هو حسن بالذات نفسه الغاية، ولا يحتاج إلى غاية أخرى. ولأجل تقريب الأمر إلى الذهن نأتي بمثال: إذا سألنا الشاب الساعي في التحصيل وقلنا له: لماذا تبدل الجهود في طريق تحصيلك؟ فيجيب: لنيل الشهادة العلمية. فإذا أعدنا السؤال عليه وقلنا: ما هي الغاية من تحصيلها؟ يجيبنا: للاشتغال في (٣٩)

إحدى المراكز الصناعية، أو العلمية، أو الادارية. فإذا أعدنا السؤال عليه وقلنا: ماهي الغاية من الاشتغال فيها؟ يقول: لتأمين وسائل العيش مع الأهل والعيال. فلو سألناه بعدها عن الغاية من طلب الرفاه وتأمين سبل العيش، لوجدنا السؤال جزافياً. لأن ما تقدّم من الغايات وأجاب عنها، غايات عرضية لهذه الغاية المطلوبة بالذات، فإذا وصل الكلام إلى الأخيرة يسقط السؤال. القرآن وأفعاله سبحانه الحكيمه: والعجب عن غفلة الأشاعرة من النصوص الصريحة في هذا المجال. يقول سبحانه (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (المؤمنون ١١٥) وقال عزّ من قائل: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الدخان ٣٨). وقال سبحانه: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُذِلَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) (ص ٢٧) وقال سبحانه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات ٥٦) إلى غير ذلك من الآيات التي تنفي العبث عن فعله، وتصرّح باقترانها بالحكمة والغرض.

وأهل الحديث وبعدهم الأشاعرة الذين اشتهروا بالتعبد بظواهر النصوص تعبدًا حرفيًا غير مفوضين معانيها إلى الله سبحانه ولا مؤوليهما، لا- مناص لهم إلا تناسى الآيات الماضية، أو تأويلها، وهم يفرون منه، وينسبونه إلى مخالفهم. عطف مذهب الحكماء على مذهب الأشاعرة:

ومن الخطأ الواضح، عطف مذهب الحكماء على مذهب الأشاعرة، وتصوير أن الطائفتين يقولون بأن أفعال الله سبحانه غير معللة بالأغراض، وهو خطأ محض. كيف وهذا صدر المتألهين يخطئ الأشاعرة ويقول: «إن من المعطلة قوماً جعلوا فعل الله تعالى خالياً عن الحكمة والمصلحة، مع أنك قد علمت أن للطبيعة غايات» (١) وقال أيضاً: _____ ١. الأسفار: ج ٢، ص ٥٩. (٤٠)

«إن الحكماء ما نفوا الغاية والغرض عن شيء من أفعاله مطلقاً، بل إنما نفوا عن فعله المطلق (إذا لوحظ الوجود الإمكانى جملة واحدة) وفي فعله الأول غرضاً زائداً على ذاته تعالى، وأمّا ثوانى الأفعال والأفعال المخصوصة، والمقتيدة، فأثبتوا لكل منها غاية مخصوصة. كيف وكتبهم مشحونه بالبحث عن غايات الموجودات ومنافعها كما يعلم من مباحث الفلكيات، ومباحث الأمزجة، والمركبات، وعلم التشريح، وعلم الأدوية، وغيرها» (١). وعلى ذلك فنظريّة الحكماء تتلخص في أمرين: ١- إن أفعاله سبحانه غير متّصفة بالعبث واللغو، وإن هنا مصالح وحكماً تترتب على فعله، يستفيد بها العباد، ويقوم بها النظام. ٢- إذا لوحظ الوجود الإمكانى على وجه الإطلاق، فليس لفعله غرض خارج عن ذاته، لأن المفروض ملاحظة الوجود الإمكانى جملة واحدة، والغرض الخارج عن الذات لو كان أمراً موجوداً فهو داخل في الوجود الإمكانى، وليس شيء وراءه، وعند ذاك فليس الغرض شيئاً خارجاً عن الذات وإنما الغرض نفس ذاته، لثلاث: يكون ناقص الفاعلية، لأن الحاجة إلى شيء خارج عن ذاته في القيام بالفعل، آية كونه ناقصاً في الفاعلية، والمفروض أنه سبحانه تام في فاعليته، غنى في ذاته وفعله عن كل شيء سوى ذاته. ثم إن لهم بياناً فلسفياً ممزوجاً بالدليل العرفاني، يهدف إلى كون الغرض من الخلق هو ذاته سبحانه، وبه فسروا قوله سبحانه: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وقوله في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف» والله سبحانه هو غاية الغايات، ومن أراد الوقوف على برهانهم فليرجع إلى أسفارهم (٢). _____ ١. الأسفار: ج ٧، ص ٨٤. ٢. الأسفار: ج ٢، ص ٢٦٣. (٤١)

٦- الماتريديّة والصفات الخبرية:

٦- الماتريديّة والصفات الخبرية:

إن تفسير الصفات الخبرية أوجد اختلافاً عميقاً بين المتكلمين وجعلهم فرقة متضادة، وبما أن أهل الحديث والأشاعرة من المثبتين لها، اشتهروا بالصفاتية في مقابل المعتزلة الذين يؤولونها ولا يثبتونها بما يتبادر منها من ظواهرها، ولأجل أن نقف على نظرية الماتريديّة في هذا المقام، نقل كلام الامامين الأشعري والماتريدي ليعلم مدى الاختلاف بين المدرستين، وإليك كلام الأشعري أولاً، ثم كلام الماتريدي ثانياً: أ - كلام الامام الأشعري:

إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول إن الله عز وجل يستوى على عرشه كما قال، يليق به من غير طول الاستقرار كما قال: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه / ٥) وقد قال الله عز وجل: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبُ) (فاطر / ١٠) وقال (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) (النساء / ١٥٨) وقال عز وجل: (يُدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) (السجدة / ٥). وقال حكاية عن فرعون: (يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كَاذِباً) (غافر / ٣٦ - ٣٧) فكذب فرعون نبي الله موسى - عليه السلام - في قوله «إن الله عز وجل فوق السماوات والأرض» وقال عز وجل: (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ) (الملك / ١٦) فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات قال: (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) لأنه مستو على العرش

الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَكُلُّ مَا عِلاَ فَهُوَ سَمَاءٌ، فَالْعَرْشُ أَعْلَى السَّمَاوَاتِ. وَلَيْسَ إِذَا قَالَ: (ءَأَمْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ) يَعْنِي جَمِيعَ السَّمَاوَاتِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْعَرْشَ الَّذِي هُوَ أَعْلَى السَّمَاوَاتِ. أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَكَرَ السَّمَاوَاتِ فَقَالَ: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) (نوح/١٦) وَلَمْ يَرِدْ أَنَّ الْقَمَرَ يَمْلَأُهُنَّ جَمِيعًا، وَأَنَّهُ فِيهِنَّ جَمِيعًا، وَرَأَيْنَا الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ إِذَا دَعَوْا نَحْوَ السَّمَاءِ لِأَنَّ اللَّهَ مُسْتَوٍ عَلَيَّ (٤٢) الْعَرْشَ الَّذِي هُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ. فَلَوْلَا - أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعَرْشِ لَمْ يَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ نَحْوَ الْعَرْشِ كَمَا لَا - يَحْطُونَهَا إِذَا دَعَوْا إِلَى الْأَرْضِ (١). وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي ظَوَاهِرِ كَلِمَاتِهِ وَدَلَالَتِهِ لَا يَشْكُ فِي أَنَّ الشَّيْخَ يَعْتَقِدُ بِكَوْنِهِ سَبْحَانَهُ عَلَى الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَأَيُّ كَلَامٍ أَصْرَحَ مِنْ قَوْلِهِ «فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعَرْشِ» فَلَوْ صَحَّتْ نَسْبَةُ النُّسخَةِ مِنَ (الابانة) إِلَى الشَّيْخِ، وَكَانَتْ مَصُونَةً عَنْ دَسِّ الْحَشَوِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ (٢)، فَهُوَ مِنَ الْمَشْتَبَهَةِ قِطْعًا، غَيْرَ أَنَّهُ لَدَفَعَ عَارَ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ عَنْ نَفْسِهِ، يَتَدَرَّعُ بِلَفْظَةِ «بَلَا كَيْفَ أَوْ «عَلَى نَحْوِ يَلِيقُ بِهِ» أَوْ «مَنْ غَيْرَ طَوْلِ الْاِسْتِقْرَارِ» وَقَدْ أَوْضَحْنَا حَالَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي. وَالْعَجَبُ أَنَّ الشَّيْخَ يَفْسِّرُ الرَّفْعَ الْوَارِدَ فِي الْآيَاتِ تَصْرِيحًا، أَوْ تَلْوِيحًا، بِالرَّفْعِ الْحَسِيِّ. مَعَ أَنَّ فِي نَفْسِ الْآيَاتِ - لَدَى التَّدْبِيرِ - قِرَائِنٌ تَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الرَّفْعِ، هُوَ الرَّفْعُ الْمَعْنَوِيُّ لَا - الْحَسِيِّ وَالصُّعُودِ الْمَادِيِّ. وَأَعْجَبَ مِنْهُ أَنَّهُ نَسَبَ إِلَى الْكَلِيمِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ لِفِرْعَوْنَ: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، فَصَارَ فِرْعَوْنُ بِصُدُودِ تَكْذِيبِهِ إِذْ قَالَ لَهَا مَانَ: «ابْنَ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى» مَعَ أَنَّهُ أَشْبَهَ بِالرَّجْمِ بِالْغَيْبِ، إِذْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الْمَصْدَرُ لِاعْتِقَادِهِ بِكَوْنِ إِلَهِ مُوسَى فِي السَّمَاءِ، هُوَ اجْتِهَادُهُ الشَّخْصِي الْخَاطِئُ، بِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَهَ مُوسَى فِي الْأَرْضِ كَسَائِرِ الْآلِهَةِ، فَلَا مَحَالَةَ هُوَ فِي السَّمَاءِ، وَلَأَجْلَ ذَلِكَ طَلَبَ مِنْ هَامَانَ بِنَاءَ _____ ١. الابانة: ص ٨٥ - ٨٦. ٢. إِنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ زَاهِدَ الْكُوْتُرِي الْمَاتَرِيْدِي لَا يَرَى لِلْكَتَبِ الْمَطْبُوعَةِ بِاسْمِ الْأَشْعَرِيِّ أَصَالَةَ لِأَنَّهَا بِحَرْفِيَّتِهَا نَفْسَ عَقَائِدِ الْحَشَوِيَّةِ مَعَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ لَهُ.

يَقُولُ: وَطَبَعَ كِتَابُ (الابانة) لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْلِ وَثِيقٍ، وَفِي (المقالات) الْمُنْشُورِ بِاسْمِهِ وَقَفَهُ، لِأَنَّ جَمِيعَ النُّسخِ الْمَوْجُودَةِ الْيَوْمَ مِنْ أَصْلِ وَحِيدٍ كَانَتْ فِي حِيَازَةِ أَحَدِ كِبَارِ الْحَشَوِيَّةِ مِمَّنْ لَا - يُؤْتَمَنُ لَا - عَلَى الْاسْمِ، وَلَا عَلَى الْمَسْمُومِ، بَلْ لَوْ صَحَّ الْكِتَابَانِ عَنْهُ عَلَى وَضْعِهِمَا الْحَاضِرِ، لَمَا بَقِيَ وَجْهٌ لِمُنَاصَبَةِ الْحَشَوِيَّةِ الْعِدَاءَ لَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْرُوفِ، عَلَى أَنَّهُ لَا تَخْلُو آرَائُهُ مِنْ بَعْضِ ابْتِعَادِ عَنِ الثَّقَلِ مَرَّةً، وَعَنِ الْعَقْلِ مَرَّةً أُخْرَى، فِي حِسَابِ بَعْضِ النَّظَارِ كَقَوْلِهِ فِي التَّحْسِينِ وَالتَّعْلِيلِ، وَفِيمَا يَفِيدُهُ الدَّلِيلُ النَّقْلِيُّ (مَقْدَمَةُ إِشَارَاتِ الْمَرَامِ: ص ٧). أَقُولُ: إِنَّ الْاِعْتِرَالَ عَنِ الْعَقْلِ، وَإِعْلَانَ الْاِلْتِحَاقِ بِأَهْلِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ أَعْدَمُوا الْعَقْلَ، وَالْاِلْتِجَاءَ إِلَى كُلِّ مَا سُمِّيَ حَدِيثًا لَا يَنْتِجُ إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْكِتَابَيْنِ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّشْكِيكِ فِي مَضَامِينِهِمَا. (٤٣)

الْصَّرْحُ. ثُمَّ إِنَّ نَقْدَ كَلَامِ الشَّيْخِ وَتَفْسِيرِ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى كَوْنِهِ سَبْحَانَهُ فِي الْعَرْشِ، يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطِ فِي الْكَلَامِ، وَسَوْفَ نَقُومُ بِهَا عِنْدَ عَرْضِ عَقَائِدِ الْمَعْتَرَلَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. إِنَّ الصِّفَاتِ الْمَتَشَابِهَةَ الْوَارِدَةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا تَتَجَاوَزُ عَنْ سَبْعِ عَشْرَةَ، مِنْهَا الْيَمِينُ، وَالسَّاقُ، وَالْأَعْيُنُ، وَالْجَنْبُ، وَالْاِسْتِوَاءُ، وَالْغَضَبُ، وَالرِّضَى، وَالنُّورُ، عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْآيَاتِ، وَالْكَفُّ وَالْاِصْبَعَانِ، وَالْقَدَمُ، وَالنُّزُولُ، وَالضَّحْكُ، وَصُورَةُ الرَّحْمَانِ، عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَمْ تَثْبِتْ صِحَّةَ أُسْنَادِهَا، وَقَدْ أَرْسَلْتُهَا الْحَشَوِيَّةَ وَالْحَنَابِلَةَ إِسْرَالِ الْمُسْلِمَاتِ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَظَرِيَّةِ الْأَشَاعِرَةِ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ هِيَ الْإِثْبَاتِ مَتَدَرَّعَةً بِلَفْظَةِ «بَلَا كَيْفَ»، أَوْ «بَلَا تَشْبِيهِ» أَوْ مَا يَقْرَبُ ذَلِكَ. ب - كَلَامِ الْمَاتَرِيْدِي :

مَا ذَكَرَهُ أَبُو مَنْصُورٍ فِي (تَوْحِيدِهِ) يَعْرَبُ بِوَضُوحٍ عَنِ كَوْنِ مَنْهَجِهِ هُوَ التَّنْزِيهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَهُوَ بَعْدَمَا نَقَلَ الْآرَاءَ الْمَخْتَلِفَةَ صَارَ بِصُدُودِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ كَانَ وَلَا مَكَانَ، وَجَائِزَ ارْتِفَاعَ الْأَمْكَنَةِ، وَبِقَاوِهِ عَلَى مَا كَانَ، فَهُوَ عَلَى مَا كَانَ، وَكَانَ عَلَى مَا عَلَيْهِ الْآنَ. جَلَّ عَنِ التَّغْيِيرِ وَالزُّوَالِ، وَالْاِسْتِحَالَةِ وَالْبَطْلَانِ، إِذْ ذَلِكَ أَمَارَاتُ الْحَدِيثِ الَّتِي بِهَا عَرَفَ الْعَالَمُ. ثُمَّ رَدَّ عَلَى الْقَائِلِينَ بِكَوْنِهِ سَبْحَانَهُ عَلَى الْعَرْشِ، بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْارْتِفَاعِ إِلَى مَا يَعْلُو مِنْ مَكَانٍ لِلْجُلُوسِ أَوْ الْقِيَامِ شَرَفٌ وَلَا عُلُوٌّ، وَلَا وَصْفٌ بِالْعِظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ كَمَنْ يَعْلُو السُّطُوحَ وَالْجِبَالَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الرَّفْعَةَ عَلَى مَنْ دُونَهُ عِنْدَ اسْتِوَاءِ الْجَوْهَرِ، فَلَا يَجُوزُ صَرْفُ تَأْوِيلِ الْآيَةِ إِلَيْهِ مَعَ مَا فِيهَا ذَكَرَ الْعِظْمَةَ وَالْجَلَالَ، إِذْ ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (الأعراف / ٥٤) فَذَلِكَ عَلَى تَعْظِيمِ الْعَرْشِ (١). _____ ١. التوحيد: ص ٦٩ و ٧٠.

(٤٤)

ولأجل اختلاف المفسرين في مفاد الآيه، التجأ هو إلى «تفويض معناها إلى الله»، وقال: «وأما الأصل عندنا في ذلك أن الله تعالى قال: (ليس كمثله شيء) فنفي عن نفسه، شبه خلقه، وقد بينا أنه في فعله وصفته متعال عن الأشباه، فيجب القول بأن الرحمن على العرش استوى على ما جاء به التنزيل، وثبت ذلك في العقل. ثم لا نقطع تأويله على شيء لاحتمال غيره مما ذكرنا» (١). فالماتريدي ينفي بتاتا كونه سبحانه على العرش، حتى على النحو اللائق به الذي ملأ- كتب الأشاعرة وينزهه عن تلك الوصمة، ولكن لما كانت المعاني الأخرى متساوية عنده، لم يجزم بشيء منه، وفوض المراد إليه سبحانه، ولأجل ذلك لخص البياضى نظريته الامام الماتريدي وقال: «ولا يؤول المتشابهات ويفوض علمها إلى الله مع التنزيه عن إرادة ظواهرها» (٢). ومراده من «المتشابهات» هو الصفات الخيرية الواردة في الكتاب والسنة. وأما البردوى - أحد أئمة الماتريديه في القرن الخامس - فيظهر منه الجروح إلى إمكان الوقوف على مقاصد الكتاب في هذه الصفات. قال في مسألة «أن الله لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء»: «فإن قالوا قد وجد دلائل الاجسام فإنه يوصف بالاتيان قال الله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلْمٍ مِّنَ الْعَمَامِ) (البقرة/٢١٠) وقال (وَإِذْ رَّبُّكَ عَلَّمَكَ بِمَا كَفَرْتَ وَفَإِذَا كُنتَ مِنَ الْفَجْرِ / ٢٢) ويوصف بالاستواء على العرش قال الله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (يونس / ٣). والاتيان والاستواء على المكان من صفات الجسم، وكذلك يوصف بأن له أيديا وأعيناً، قال الله تعالى (مِمَّا عَمِلْتُمْ أُيْدِينَا أَنْعَامًا) (يس / ٧١) (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) (الطور / ٤٨) وهذا من أمارات الأجسام. ثم أجاب عن كل واحد بأننا نصفه بذلك كما وصف الله تعالى به نفسه وهو _____ ١ . التوحيد: ص ٦٩ و ٧٤ . ٢ . اشارات المرام: ص ٥٤ .

(٤٥)

الصحيح من مذهب السنة، فلا- بد من الوصف بما وصف الله نفسه به، ولكن هذه الصفات ليست من صفات الأجسام، فإن الاتيان يذكر ويراد منه الظهور. قال الله تعالى: (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ) (النحل / ٢٤) وقال (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) (الحشر / ٢) معناه - والله أعلم - ظهرت آثار سخطة في بنيانهم، وظهرت آثار قدرته وقهره فيهم - إلى أن قال:- وكذا الاستواء ليس من صفات الأجسام فإن الاستواء هو الاستيلاء على الشيء والقهر عليه. قال الله تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (القصص / ١٤) معناه - والله أعلم - تقوى حاله بتمام البنية. واستوى أمر فلان: إذا تنهى، ومنه المستوى على الكرسي وهو القاعد عليه، عبارة عن الاستيلاء. فإنه (لا) يقال: استوى على الكرسي ما لم يجلس مستقراً عليه، فالمستقر على العرش مستو، فكان معنى قوله: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ) (الفرقان / ٥٩) - والله أعلم - أى استوى عليه بعد خلقه، والله تعالى مستول على جميع العالم، إلا أنه خص العرش بالذكر لأنه أعظم الأشياء وأشرفها، ثم ذكر تفسير سائر الصفات الخيرية من اليد والعين (١). وكل من كلامى الأستاذ والتلميذ يعربان بوضوح عن اختلاف منهجهما مع منهج الامام الأشعرى، فهو يثبت جميع هذه الصفات الخيرية الظاهرة من كونه سبحانه جسماً وذا أعضاء، ولا يتحرّج من الإثبات، غاية الأمر يتدرّج بما عرفت، وهذا بخلاف الداعى الآخر وتلاميذ منهجه، فإنهم لا يخرجون من خط التنزيه، لكن بين مفوض غير قاطع بمراد الآيه، أو مفسر لها مثل تفسير العدلية الذين سمّتهم الأشاعرة بالمؤولة. ثم إن الشيخ البردوى أفاض الكلام في نقد ما استدلل به الأشعرى من كونه سبحانه على العرش من الآيات والروايات فى كتابه، ومن أراد الوقوف فليرجع إلى المسألة (١٤) من كتابه (٢). _____ ١ . أصول الدين: ص ٢٥ - ٢٨ . ٢ . أصول الدين: ص ٢٨ - ٣١ .

(٤٦)

وفى خاتمة المطاف نلفت نظر القارئ إلى ما ذكره الكاتب المصرى (أحمد أمين) حول عقيدة الأشاعرة فى الصفات الخيرية، قال: «وأما الأشاعرة فقالوا إنها مجازات عن معان ظاهرة، فاليد مجاز عن القدرة، والوجه عن الوجود، والعين عن البصر، والاستواء عن الاستيلاء، واليدان عن كمال القدرة، والتزول عن البرد والعتاء، والضحك عن عفو» (١). وما ذكره هو نفس عقيدة المعتزلة لا الأشاعرة ولا الماتريديه. فالمعتزلة هم المؤولة، يؤولون الصفات بما ذكره، والأشاعرة من المثبتة لكن بقيد «بلا كيف» والماتريديه هم المفوضة،

يفوضون معانيها إلى قائلها. وكم لهذا الكاتب المصري من هفوات في بيان الطوائف الاسلامية. فقد كتب عقيدة الشيعة في كتابه: «فجر الاسلام» و«ضحى الاسلام» وبين التقريرين في الكتابين بون بعيد. والله الحاكم. والعجب أنه لم يعتمد على مصدر شيعي فيهما، وأعجب منه أنه لم يشر إلى واحد من النُقود التي وجهها علماء الشيعة إلى كتابه «فجر الاسلام»، مع أن بعضها طبع في نفس القاهرة عاصمه مصر كـ «أصل الشيعة وأصولها». حيا الله الحرية في القضاء، والأمانة في النقل.

٧- الاستطاعة قبل الفعل أو بعده:

٧- الاستطاعة قبل الفعل أو بعده:

اتفق الإلهيون على أن استطاعة الواجب سبحانه متقدمه على الفعل، فهو سبحانه يوصف بالقدرة قبل إيجاد الأشياء، كما يوصف بها معه وبعبده. إنما الكلام في استطاعة الإنسان على الفعل، فذهب الأشعري إلى كونها مقارنة للفعل ببيان عقلي ذكره في اللمع (٢). والماتريدي يفصل في المسألة بين العلة الناقصة التي يعبر عنها باستطاعة _____ ١. ظهر الإسلام: ج ٤ ص ٩٤، الطبعة الثالثة عام ١٩٦٤. ٢. اللمع: ص ٩٣ - ٩٤. (٤٧)

الأسباب والآلات، وبين العلة التامة التي يعبر عنها باستطاعة الفعل، وإليك نص عبارته في «التوحيد»: «الأصل عندنا في المسمى باسم القدرة أنها على قسمين: أحدهما: «سلامة الأسباب وصحة الآلات» وهي تتقدم الأفعال، وحقيقتها ليست بمجعولة للأفعال، وإن كانت الأفعال لا تقوم إلا بها، لكنها نعم من الله أكرم بها من شاء، والثاني: معنى لا يقدر على تبين حده بشيء يصار إليه، سوى أنه ليس إلا للفعل لا يجوز وجوده بحال إلا ويقع به الفعل عندما يقع معه». ثم حاول تفسير كثير من الآيات التي استدلوها بها على تقدم الاستطاعة على الفعل، بأن الاستطاعة الواردة فيها، هي استطاعة الأسباب والأحوال لا استطاعة الفعل (١).

٨- القدرة صالحة للضدين:

٨- القدرة صالحة للضدين:

القدرة في مقابل «الايجاب». فالثاني لا يصلح إلا للتعلق بشيء واحد، كالتار بالنسبة إلى الإحراق، وهذا بخلاف قدرة الانسان فإنها يصح أن تتعلق بالجلوس تارة، والقيام أخرى. وما ذكره من التفصيل في تقدم الاستطاعة على الفعل، أو كونها معه، يأتي في المقام أيضاً. فالقدرة الناقصة التي يعبر عنها بقابلية الفاعل واستعداده، والتي يعبر عنها الماتريدي بصحة الأسباب والآلات، صالحة للضدين. وأما إذا وصل إلى حد وجب معه الفعل، فحينئذ تكون القدرة أحديّة التعلق، لاتصلح إلا بشيء واحد. وقد نقل شارح (المواقف) كلاماً عن الرازي يعرب عن كون النزاع بين الطرفين لفظياً (٢). وهو خيرة الماتريدي أيضاً حيث قال: «ثم اختلف أهل _____ ١. التوحيد: ص ٢٥٦ - ٢٥٧. ٢. شرح المواقف: ج ٨ ص ١٥٤.

(٤٨)

هذا القول في قوة الطاعة، أهي تصلح للمعصية أم لا؟ قال جماعة: هي تصلح للأمرين جميعاً وهو قول أبي حنيفة وجماعته، وهذا القول أثبتته جميع أهل الاعتزال. واستدل على ذلك بقوله «وأصل هذا أنه لما كان سبب من أسباب القول يصلح للشيء وضده، فكذلك القدرة، مع ما في نفى أن يصلح للأمرين، فوت القدرة على فعل ضد الذي جاء به، وقد يؤمر به وينهى عنه في وقته، فيلزم القول بالقدرة على الشيء وضده ليكون الأمر والنهي على الوسع والقوة» (١). وقال البياضى: «والاستطاعة صالحة للضدين على البدل، واختاره الإمام القلانسي، وابن شريح البغدادي كما في «التبصرة» لعبد القاهر البغدادي، وكثير منهم كما في (شرح المواقف)» (٢).

٩- الماتريدي وأفعال العباد:

٩- الماتريدي وأفعال العباد:

اتفق المسلمون على أنه لا خالق إلا الله واختلفوا في تفسيره في أفعال العباد و آثار الموجودات فذهب أهل السنّة إلى أنه لا صلة بين الطباع وآثارها. والطباع وآثارها من صنع الخالق مباشرة من دون دخاله للطبيعه ولو بنحو الشرط، والمعدّ في سطوعها على الطبيعه وقد اشتهر بين الأزهريين قول القائل: ومن يقل بالطبع أو بالعلمه * فذاك كفر عند أهل الملة هذا كله في غير أفعال العباد، وأما فيها فذهبت الجهمية أتباع جهم بن صفوان إلى أن العبد لا يقدر على إحداث شيء، ولا على كسب شيء، وهذه النظرية هي نظرية الجبرية الخالصة، ولازم ذلك لغوية بعث الرسل، وإنزال الكتب، وإغلاق باب المناهج التربوية في العالم. _____ ١. التوحيد: ص ٢٦٣. ٢. اشارات المرام: ص ٥٥.

(٤٩)

وأهل الدقة من أهل السنّة حاولوا الجمع بين حصر الخلق في الله سبحانه، وصحة تكليف العباد، فقالوا إن الله هو الخالق، والعبد هو الكاسب، والتكليف، والأمر، والنهي، والثواب، والعقاب، بالملاك الثاني دون الأول، وقد أخذوا مصطلح الكسب من الذكر الحكيم. قال سبحانه (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (البقرة/٢٨٦) لكنهم اختلفوا في تفسير حقيقة الكسب إلى حدّ صارت النظرية إحدى الأغايز إلا- ما نقل عن الماتريدي وإمام الحرمين من الأشاعرة، فقد استطاعوا من توضيحها إلى حدّ معقول ومقبول. ولا يعلم مدى الاختلاف بين المدرستين في تفسير الكسب إلا بنقل نصوصهما في هذا المجال. معنى الكسب عند الأشعري:

قال الفاضل القوشجي وهو من أئمة الأشاعرة: «المراد بكسبه إياه، مقارنته لقدرته وإرادته، من غير أن يكون هناك منه تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلاله» (١). وحاصله أنه ليس للعبد دور في خلق الفعل وإيجاده، غير كونه ظرفاً ومحلاً لخلق الله وإيجاده، غاية الأمر إن شرط إيجاده سبحانه هو قصد العبد وعزمه، فإذا قصد وعزم وحدثت فيه القدرة غير المؤثرة، خلق الله الفعل وأوجده، من دون أن يكون لقدرة العبد دور وتأثير، وهذه النظرية قد شغلت بال أئمة الأشاعرة طوال قرون، وقد بذلوا الجهود لتبيينها فما أتوا بشيء يسكن إليه القلب. إذ لقائل أن يسأل ويقول: ١- إذا كان الخالق للفعل هو الله سبحانه مباشرة، ولم يكن لقدرة العبد دور فيه، فلماذا صار الإنسان هو المسؤول عن فعله دون الله سبحانه، مع أن الفعل فعله، لا فعل الإنسان. _____ ١. شرح التجريد للقوشجي: ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٥٠)

٢- إذا كانت القدرة الحادثة في العبد، غير مؤثرة في الإيجاد والتكوين، فما هو الغاية في إحداثها في العبد، وإقداره على العمل، أليس هذا عملاً لغواً غير مناسب لساحة الفاعل الحكيم؟ ٣- إذا كان قصد العبد وعزمه شرطاً لإيجاده سبحانه الفعل بعده، فيسأل عن نفس ذاك القصد فمن خالقه؟ فهل هو مخلوق للقاصد، أو لله سبحانه؟ فعلى الأول تنتقض القاعدة « لا خالق إلا الله » ويثبت في صحيفة الكون، فعل مخلوق للعبد دونه سبحانه، وعلى الثاني تتحد النظرية مع نظرية الجهمية التي عرفوها بالجبرية الخالصة، فإذا كان وجود العبد وقصده وقدرته غير المؤثرة فعلاً- مخلوقاً لله سبحانه فبأي ذنب يدخل العاصي النار؟ وبأي عمل حسن، يثاب المطيع ويدخل الجنة؟ والحاصل، إن تفسير الكسب بإيجاده سبحانه فعل العبد عند عزمه وقصده، يدور أمره بين نقض القاعدة، أو ثبوت الجبر الخالص. ولو تدبر القوم في آيات الذكر الحكيم خصوصاً في الآيات الناصّة على أنه لا خالق إلا الله، لوقفوا على المعنى الصحيح من الآيات والمراد منها، وذلك لأن المراد من حصر الخالق هو حصرها بالمعنى المناسب لشأنه سبحانه، وليس اللائق بشأنه إلا القيام بالايجاد مستقلاً من دون استعانه من أحد، وعليه فلا مانع من حصر الخالق في الله سبحانه، وفي الوقت نفسه أن يكون العبد موجداً لفعله، بقدرة مكتسبة من الله وإذن منه سبحانه، وحصر الخالق المستقلة، غير المعتمدة على غيره، في الله سبحانه، لا ينافي نسبة الخالق إلى بعض الممكنات، لكن خالقيته مستندة إلى القدرة المكتسبة والمعتمدة إليه، وبالوقوف على اختلاف الخالق المنسوبة إلى

الله، مع الخالقية المنسوبة إلى عبده، يتحرز المفسر من مشكلة الجبر وعقدته، وقد أوضحنا الحال في الجزء الثاني عند عرض عقائد الأشعري(١). _____ ١. الجزء الثاني، ص ١٢٨ - ١٥٨ .

(٥١) نظرية أبي حنيفة (شيخ الماتريدي) في الكسب:

إذا كان هذا معنى الكسب لدى الشيخ الأشعري فما معناه لدى الماتريدي؟! أقول: يعلم مذهبه في هذا المجال مما روى عن شيخه أبي حنيفة، كيف وهو مؤسس منهجه وأستاذ مدرسته. قال في الفقه الأكبر: «لم يجبر أحداً من خلقه على الكفر ولا على الإيمان، ولا خلقه مؤمناً ولا كافراً ولكن خلقهم أشخاصاً، والإيمان والكفر فعل العباد، وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون، كسبهم على الحقيقة، والله خالقها»(١). وقال في الفقه الأبسط (على ما في بعض نسخه): «والعبد معاقب في صرف الاستطاعة التي أحدثها الله فيه، وأمر بأن يستعملها في الطاعة دون المعصية في المعصية»(٢). ولو صححت هذه الكلمات من شيخ الماتريدي، فالكسب عنده هو صرف العبد القدرة في طريق الطاعة والمعصية عن اختيار، وهو نفس قول العدليين جمعاء وأين هو من الكسب عند الأشاعرة المفسر بإيجاد الفعل من الله سبحانه مباشرة، من دون أن يكون للعبد وقدرته الحادثة فيه دور في تحقق الفعل غير كونه ظرفاً ومحلاً، وكون ظهور القصد في ضميره شرطاً لإيجاده سبحانه. كلام الماتريدي في أفعال العباد:

هذا كلام أبي حنيفة شيخ الماتريدي، وإليك كلام الماتريدي نفسه في هذا المجال. قال: اختلف متتلو الاسلام في أفعال العباد، فمنهم من جعلها لهم مجازاً وحقيقتها لله لوجه: ١ - وجوب إضافتها إلى الله، على ما أضيف إليه خلق كل شيء في الجملة، فلم _____ ١. اشارات المرام: ص ٢٥٤ . ٢. المصدر نفسه .

(٥٢)

يجز أن تكون الإضافة إلى الله مجازاً. ٢ - إن بتحقيق الفعل لغيره تشابهاً في الفعل، وقد نفى الله ذلك بقوله: (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) (الرعد/١٦). قال الشيخ (الماتريدي نفسه): وعندنا لازم تحقيق الفعل لهم (العباد) بالسمع والعقل والضرورة التي يصير دافع ذلك مكابراً. فأما السمع فله وجهان: الأمر به والنهي عنه، والثاني الوعيد فيه والوعد له. على تسمية ذلك في كل هذا فعلاً، من نحو قوله: (وَاعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (فصّلت/٤٠) وقوله: (افْعَلُوا الْخَيْرَ) (الحج/٧٧) وفي الجزء (بُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسِيرَاتٍ عَلَيْهِمْ) (البقرة/١٦٧) وقوله: (جزاء بما كانوا يعملون) (الواقعة/٢٤) وقوله: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (الزلزلة/٧) وغير ذلك مما أثبت لهم أسماء العمّال، ولفعلهم أسماء الفعل بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وليس في الإضافة إلى الله سبحانه نفى ذلك، بل هي لله، بأن خلقها على ما هي عليه، وأوجدتها بعد أن لم تكن، وللخلق على ما كسبها وفعلوها. على أن الله تعالى إذا أمر ونهى، ومحال الأمر بما لا فعل للمأمور أو المنهى. قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) ولو جاز الأمر بذلك بلا معنى الفعل في الحقيقة، لجاز اليوم الأمر بشيء يكون لأمس، أو للعام الأول أو بإنشاء الخلائق، وإن كان لا معنى لذلك في أمر الخلق. ثم في العقل قبيح إن انضاف إلى الله الطاعة والمعصية، وارتكاب الفواحش والمناكير وأنه المأمور، والمنهى، والمثاب، والمعاقب، فبطل أن يكون الفعل من هذه الوجوه له، ولا قوة إلا بالله. وأيضاً إن الله تعالى إنما وعد الثواب لمن أطاعه في الدنيا، والعقاب لمن عصاه، فإذا كان الأمران فعلاً فإذا هو المُجَزَى بما ذكر، وإذا كان الثواب والعقاب حقيقة، فالإثمار والانتهاه كذلك، ولا قوة إلا بالله. وكذلك في أنه محال أن يأمر أحد نفسه، أو يطيعها، أو يعصها، ومحال تسمية الله عبداً، ذليلاً، مطيعاً، عاصياً، سفيهاً، جائراً، وقد سمى الله تعالى بهذا كله أولئك الذين أمرهم ونهاهم، فإذا صارت هذه الأسماء في التحقيق له، فيكون هو الرب، وهو (٥٣)

العبد، وهو الخالق والمخلوق، ولا غير ثمة، وذلك مدفوع في السمع والعقل، ولا قوة إلا بالله. وأيضاً إن كل أحد يعلم من نفسه أنه مختار لما يفعله، وأنه فاعل كاسب - إلى آخر ما أفاده..(١). هذا كلام الماتريدي، ولا أظن أحداً يتأمل في أطراف كلامه، فيتصوره موافقاً مع الشيخ الأشعري، بل هما يتحرزكان في فلكين مختلفين، كيف ومن جاء بعده من الماتريديّة جعل كلامه في مقابل كلام الأشعري. هذا الإمام البزدوى جعل قول أهل السنّة والجماعة (يعنى الماتريديّة المتصلة إلى الامام أبي حنيفة) في مقابل قول

الأشعري (٢). وهو يترجم مذهبه بما يلي: «قال أهل السنّة والجماعة: أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومفعوله، والله هو موجدتها ومحدثها، ومنشئها، والعبد فاعل على الحقيقة، وهو ما يحصل منه باختيار وقدرة حادثين، وهذا هو فعل العبد، وفعله غير فعل الله تعالى» ثمّ يعرض عقائد سائر الطوائف من المجبّرة، والجهميّة، والقدريّة، والأشعريّة، ويستدلّ على مختاره بالنصوص القرآنيّة ويقول: «فدلّنا هذه النصوص على أنّ الأفعال منّا بقدره حديثه منّا، وهي مخلوقة الله تعالى، فكانت هذه النصوص حجّة على الخصوم أجمع (حتّى الأشعريّة). والله تعالى أضاف الأفعال إلينا في كتابه في مواضع كثيرة. قال الله تعالى: (جزاء بما كانوا يعملون) (السجدة/ ١٧) (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها) (البقرة/ ٧٢) وقال: (إذا قُمتُمْ إلى الصلوة) (المائدة/ ٦). وكذلك نهانا عن أفعال كثيرة وأمرنا بأفعال كثيرة، فلا بدّ أن يكون لنا فعل، ويجب أن يكون ذلك بهديته، ومشيتته، واراادته» (٣). ولقد رسم البياضى الماتريدى عقيدته شيخه في كتاب «إشارات المرام» ويبيّن على نحو يتّحد مع ما يعتقده الإماميّة من أنّه لا- جبر ولا- قدر (تفويض) بل أمر بين الأمرين، _____ ١. التوحيد: ص ٢٢٥- ٢٢٦. ٢. أصول الدين: ص ١٠١. ٣. أصول الدين ص ٩٩ و ١٠٤ - ١٠٥.

(٥٤)

فقال: «وقال قوم من العلماء: إنّ المؤثر مجموع القدرة وقدرة العبد، وهذا المذهب وسط بين الجبر والقدر، وهو أقرب إلى الحقّ وإليه أشار (أبوحنيفة) بقوله كسبهم على الحقيقة والله خالقها» (١). ويقول في فصل الخلافات بين جمهور الماتريديّة والأشعريّة: «واختيار العبد مؤثر في الاتّصاف دون الإيجاد، فالقدرتان المؤثرتان في محلّين وهو الكسب لا مقارنة الاختيار بلا تأثير أصلاً، واختاره الباقلاني كما في (المواقف)، وهو مذهب السلف كما في الطريقة للمحقّق البركوي، واختاره الأستاذ أبو إسحاق الاسفرائيني وإمام الحرمين في قوله الأخير: إنّ اختياره مؤثر في الإيجاد بمعاونة قدرة الله تعالى، فلا- تجتمع القدرتان المؤثرتان بالاستقلال، ولا- يلزم تماثل القدرتين» (٢).

١٠- صفاته عين ذاته:

١٠- صفاته عين ذاته:

اتّفق المسلمون على إثبات صفات ذاتية لله سبحانه مثل العلم، والقدرة، والحياة. ولكن اختلفوا في كيفية الإثبات، فالإماميّة من العديّة على أنّ صفاته سبحانه ليست زائدة على ذاته، لا بمعنى سلبها عن ذاته، كما هو القول المنسوب إلى الزنادقة، ولا بمعنى نيابة الذات مناب الصّفات، ولم تكن واقعياتها متحقّقة في الذات، بل بمعنى أنّها نفس العلم، والقدرة، والحياة، لا أنّ لها العلم، والقدرة، والحياة، فالصفات على القول الأول نفس الذات وأنّه بلغ من الكمال والجمال رتبة صارت الذات نفس الانكشاف والاستطاعة، كما أنّها على الثاني أمور زائدة على الذات قائمة معها، قديمة كقدمها. فالشيخ الأشعري يصرّ على النظرية الثانية، ويستدلّ عليها بوجوه طرحناها على _____ ١. اشارات المرام: ص ٢٥٦ و ٢٥٧. لاحظ بقية كلامه، فهو ينقل عن الامام الباقر - عليه السلام - قوله: لا- جبر ولا تفويض الخ. ٢. اشارات المرام: ص ٥٥.

(٥٥)

بساط البحث في محلّه، ولكنّ الظاهر من الماتريدى حسبما ينقله النسفي هو القول بالعيّية. يقول النسفي: «ثمّ اعلم إنّ عبارة متكلمي أهل الحديث في هذه المسألة أن يقال: إنّ الله تعالى عالم بعلم، وكذا فيما وراء ذلك من الصّفات، وأكثر مشايخنا امتنعوا عن هذه العبارة احترازاً عما توهم أنّ العلم آله وأداة فيقولون: إنّ الله تعالى، عالم، وله علم، وكذا فيما وراء ذلك من الصّفات. والشيخ أبو منصور الماتريدى - رحمه الله - يقول: إنّ الله عالم بذاته، حيّ بذاته، قادر بذاته، ولا يريد منه نفى الصّفات، لأنّه أثبت الصّفات في جميع مصنّفاته، وأتى بالدلائل لإثباتها، ودفع شبهاتهم على وجه لا محيص للخصوم عن ذلك، غير أنّه أراد بذلك دفع وهم المغايرة، وأنّ ذاته يستحيل أن لا يكون عالماً (١). حصيلة البحث:

هذه المسائل العشر التي اختلف فيها الماتريدي والأشعري تميظ الشتر عن وجه المنهجين، وتوقفنا على الاختلاف الهائل السائد عليهما، وتكشف عن أن منهج الماتريدي منهج يعلو عليه سلطان العقل، وعلى ضوء هذا لا يصح لمحقق كتاب «التوحيد» للماتريدي أن يقول: «إن توسط الماتريدي (بين أهل الحديث والمعتزلة) هو بعينه توسط الأشعري، وإن شئنا السنته يلتقيان على منهج واحد، ومذهب واحد، في أهم مسائل الكلام التي وقع فيها الخلاف بين فرق المتكلمين» (٢). لا شك أن الشيخين يلتقيان في عدده من المسائل، كجواز رؤيته سبحانه في الآخرة، وأنه متكلم بالكلام التفسري الذي هو صفة له قديمة بذاته، وهو ليس من جنس الحروف والأصوات، إلى غير ذلك من الأصول. لكن الاتفاق فيهما، وفي بعض الأصول الأخر التي اتفق عليها أكثر المسلمين، لا يضيفي لون الوحدة للمنهجين. ١. العقائد النسفية: ص ٧٦. ٢. مقدمة التوحيد: ص ١٧ - ١٨.

(٥٦)

نعم هناك مسائل اختلف الداعيان فيها، ولا يعدد الاختلاف فيها جذرياً، ونحن نشير إلى قسم منها: ١- الوجود نفس الماهية أو غيرها؟ نقل البياضى في «إشارات المرام» أن المختار لدى الماتريدي هو المغايرة، ولدى الأشعري هو الوحدة. والظاهر كون الاختلاف لفظياً، والمراد هو الوحدة في عالم العين والتحقق، والمغايرة في عالم التصور والذهن (١). ٢- البقاء هو الوجود المستمر أو وصف زائد؟ البقاء لدى الماتريدي نفس الوجود المستمر وليس شيئاً زائداً على وجود الذات في الزمان الثاني، خلافاً للأشعري حيث إن البقاء عنده صفة زائدة على الذات مثل سائر الصفات حتى في الباري عز اسمه (٢). يلاحظ عليه: أن البقاء وصف انتزاعي من استمرار وجود الشيء الزماني: وليست له واقعية وراء استمراره. وأما الوجود الخارج عن إطار الزمان كالمجردات، فإطلاق الباقي عليه بملاك آخر، ليس هنا محل بيانه. ٣- القدرة غير التكوين، والتكوين غير المكوّن: ومما اختلف فيه الداعيان، هو أن القدرة نفس التكوين كما عليه الأشاعرة، أو غيره كما عليه الماتريديّ. ١. اشارات المرام: ص ٥٣ و ٩٤. ٢. لاحظ شرح المنظومة بحث اصالة الوجود ص ١٣.

(٥٧)

قالت الأشاعرة: إن الشائى من الاستطاعة (إن شاء فعل) هو القدرة، والفعل منها (إذا شاء فعل) هو التكوين، فليست هنا صفتان مختلفتان، بل وصف واحد بمعنى القدرة، له حالتان تحصلان باقتران المشيئة وعدمها، فالقدرة قديمة، والتكوين حادث، وأما الماتريديّة فتتلقاهما وصفين ذاتيين مختلفين، والصفات الفعلية من الخلق، والرزق، والرحمة، والمغفرة، تجتمع تحت وصف التكوين دون القدرة. وعلى أى تقدير فهما يختلفان في مسألة أخرى أيضاً، وهو كون التكوين بالمعنى المصدر، هل هو نفس المكوّن (اسم المصدر) كما عليه الأشاعرة، أو غيره كما عليه الماتريديّة، فهناك فعل بمعنى الخلق والتكوين، وهناك مخلوق ومكوّن في الخارج، والمسألتان واردتان في كلام البزدوى وغيره. قال البزدوى: قال أهل السنة والجماعة: إن التكوين والإيجاد صفة الله تعالى غير حادث، بل هو أزلى كالعلم والقدرة (المسألة الأولى) والمكوّن والموجود غير التكوين، وكذا التخليق والخلق صفة الله تعالى غير حادث بل أزلى وهو غير المخلوق (المسألة الثانية) وكذا الرحمة والإحسان وكذا الرزق والمغفرة، وجميع صفات الفعل لله. وقالت الأشعريّة: إن هذه الصفات ليست بصفات الله تعالى، والفعل والمفعول واحد، وقالوا في صفات الذات كالعلم والحياة مثل قولنا (١). وقال البياضى: وصفات الأفعال راجعة إلى صفة ذاتية هي التكوين، أى مبدأ الإخراج من العدم إلى الوجود (٢)، وليس بمعنى المكوّن (٣). والإمعان فى هذه العبارات وأمثالها، يدل على أن صفات الفعل كالأحسان والرزق.. عند الماتريديّة يجمعها وصف التكوين، فالكل واقع تحته، لا تحت القدرة، لأنه يكفى فيها صحّة التعليق (إن شاء فعل) وإن لم يفعل، وهذا بخلاف وصف التكوين، ١. أصول الدين للبزدوى ص ٦٩. لاحظ «إشارات المرام» ص ٦٩. ٢. اسارة إلى المسألة الأولى. ٣. اسارة إلى المسألة الثانية ص ٥٣.

(٥٨)

وهو لا يصدق إلا مع وجود الفعل، وبما أن التكوين غير المكوّن، والأول قائم بذاته، بخلاف المكوّن والمخلوق إذ هو موجود منفصل

عنه سبحانه، يكون التكوين أو الخلق وصفاً أزلياً، بخلاف المكوّن والمخلوق فإنهما حادثان بحدوث الموجودات. يلاحظ عليه:

١- أن التكوين والخلق ليس إلاّ أعمال القدرة عند تحقّق المشيئة، فلا يكون وصفاً وراء ظهورها وشأنيّة التعلّق في القدرة، وفعليته في التكوين، لا تجعلانها شيئين مختلفين، بل أقصى الأمر وحدتهما جوهرًا، واختلافهما مرتبة. وعلى ذلك فتكون جميع الصفات الفعلية مجتمعته تحت القدرة إذا انضمت إليها المشيئة والإرادة. ٢- لو كان التكوين وصفاً ذاتياً أزلياً، لاستلزمت أزليته، أزلية بعض المكوّنات وقدمتها، إذ لا- يفارق وصف التكوين وجوداً عن وجود المكوّن، وهو يناهض أصول التوحيد، ولو فسّر بشأنيّة التكوين، يكون بمعنى القدرة لا شيئاً غيرها، وهو بصدد تصوير المغايرة. وقد تفتنّ البزدوى لهذا الإشكال، ونقله عن بعض مخالفيه وقال: «ربّما يقال: إنّ الإيجاد بلا- موجود مستحيل، كالكسر بلا- مكسور، والضرب بلا- مضروب، فلو قلنا بقدم الإيجاد (التكوين) صرنا قائلين بقدم الموجودات، وذلك مناف للتوحيد فلم يمكن القول بقدم الإيجاد». لكنّه تخلّص عنه بقوله: «إنّ لله تعالى فعلاً- واحداً غير حادث، بذلك الفعل يوجد الأشياء في أوقاتها، كما أنّ لله تعالى قدرة واحدة، بتلك القدرة يقدر على إيجاد الأشياء في أوقاتها» (١).

١. أصول الدين ص ٧٣.

(٥٩)

يلاحظ عليه: أن الالتزام بقدم فعل الله سبحانه ولو واحداً، يخالف التوحيد ويضاده، لأنّ قدم الشيء يلازم استغناءه عن الفاعل والموجد، والمستغنى عن العلة واجب، كذات الواجب، وهل هذا إلاّ الشّرك الصّريح. وأنا أجلّ البزدوى عن الاعتقاد بما ذكره، وإلاّ فأى فرق بين ذاك القول والثنويّة، ولكنّ الإصرار على تصحيح المنهج، والرأى المسبق، أقحمه في مهالك الضلال. قال الامام على عليه السلام: «الأ- وإنّ الخطايا خيل شمس حُمل عليها أهلها، وخُلعت لجمها، فتقحمت بهم في النار» (١). ٣- جعل التكوين غير المكوّن، والخلق غير المخلوق مبنى على التغاير الجوهرى بين المصدر واسمه، فالإيجاد هو المصدر، والموجود هو نتيجته، ولا أظنّ أن يقول به الماتريدى في سائر الموارد. فإذا ضرب زيد عمراً، فالصادر من زيد، يسمّى بالمصدر، والواقع على عمرو يسمّى باسمه، فهل يصحّ لنا أن نعتقد أنّ هنا أمرين، أمر قائم بالفاعل، وأمر قائم بالمفعول وهكذا غيره، أو أنّ هنا شيئاً واحداً إذا نسب إلى الفاعل يسمّى مصدراً. وإذا نسب إلى المفعول يصير اسم المصدر، وهذا هو الفرق بين الإيجاد والموجود أيضاً. ٤- الكلام النفسى لا يسمع: الكلام النفسى الذى هو غير الحروف والأصوات لا يسمع خلافاً للأشعرى. قال فى «إشارات المرام»: «ولا يسمع الكلام النفسى بل الدالّ عليه، واختاره الأستاذ ومن تبعه كما فى «التبصرة» للامام أبى المعين النفسى» (٢). وقد استند الأشعرى فى جواز السماع على الدليل الذى استند عليه فى جواز ————— ١. نهج البلاغة الخطبة ١٥ ص ٤٤. ٢. إشارات المرام ص ٥٥.

(٦٠)

رؤيته سبحانه، وجعل الملاك للسمع هو الوجود، كما جعل الملاك لوقوع الرؤية هو كون الشيء موجوداً. وقد عرفت فى الجزء الثانى عند عرض عقيدة الأشعرى أنّ الكلام النفسى ليس شيئاً وراء العلم فى الإخبار، وليس وراء الإرادة والكراهة فى الإنشاء، والقائل به يريد أن يثبت وصفاً مغايراً للعلم والإرادة. كما عرفت بطلان كون المصحح للرؤية هو كون الشيء موجوداً، وأنّ كلّ موجود يرى. هذا، وإنّ ملاك السماع ليس هو الوجود حتّى يستنتج منه أنّ كلّ موجود يسمع، وهذا واضح لمن له أدنى إمام بالعلوم الطبيعيّة. هذا هو عرض إجمالى لمذهب الامام الماتريدى، وقد وقفت على مشخّصات المنهج، وعرفت الأصول التى اختلف فيها الداعيان، والأصول التى اتّفقا فيها. والتأمّل فيما ذكرناه من النصوص من نفس الماتريدى وتلاميذ منهاجه، يدفع الإنسان إلى القول بأنّ الشيخين الأشعرى والماتريدى كانا فى سبيل واحد من الدّعوة، وهو نصره السنّة ومكافحة الاعتزال، ومع ذلك كلّ فلعلّ واحد أسلوب خاصّ، والقول بوحدة المنهاجين وكون الاختلاف جزئياً، وأنّه فى حلبة الدّعوة إلى السنّة يقع الحافر على الحافر، مدهانه جدّاً وإخفاء للحقيقة، وإسدال الستر على وجهها.

أنصاره وأتباعه في الأجيال المتأخرة:

قد انتشر مذهب الأشعرى في كثير من الحواضر الاسلاميه لآلته ظهر في مركز العالم الاسلامي، وكثرت أنصاره وأعوانه، بين مبين مقاصده، إلى ذاب عن براهينه ودلائله، إلى مكمل لأصوله وقواعده، وأما مذهب الماتريدي فقد نبت في نقطه بعيدة عن الحواضر، فقلت العناية بنقله وشرحه. وهناك وجه آخر لقله انتشاره، وهو أن لمذهب الماتريدي مع كونه بصدد نصر (٦١)

السنة، طابع التعقل، وقد كثرت الدعاية في عصر ظهوره، على ضد أهل التعقل والتفكر، وصار العكوف على النقل المحض، وترك التعقل والبرهنة آية القداسة، والإمام بما أنه أعطى للعقل سلطاناً أكبر مما أعطاه الأشعرى، ووافق في عدّه من الأصول، منهاج المعتزلة، فصار هذا وذاك سببين لقله انتشاره، وندرة أنصاره. ومع ذلك فقد شاع مذهبه بين علماء ماوراءالنهر فقاموا بنشر دعوته ومعاضدته، فألّفوا حول منهاجه، كتباً ورسائل منشورة وغير منشورة. ولأجل إيقاف القارئ على أعلام الماتريديين نأتى بترجمة عدّه منهم: ١-

أبو اليسر محمد البزدوى (٤٢١ - ٤٩٣هـ)

إن أرباب المعاجم من الأحناف وغيرهم قد قصّروا ولم يؤدّوا حقّ الماتريدي في كتبهم، فإذا كان هذا حال الأستاذ فما ظنك بحال التلامذة والأتباع، ولأجل ذلك نجد أنفسنا أمام ظلام دامس يلفّ حياة البزدوى، وأحسن مرجع للوقوف على حياته هو نفس كتابه «أصول الدين» الذي حقّقه وقدم له الدكتور «هانز بيتر لنس» ونشرته عام (١٣٨٣هـ) دار إحياء الكتب العربية في القاهرة، ونقل محقق الكتاب أنه وجد عن طريق المصادفة في هامش كتاب خطي لابن قطلوبغاة «طبقات الحنفية» بجانب ملزّمة عن حياة البزدوى: روى السمعاني أنه - أي البزدوى - ولد في عام (٤٢١هـ). ويظهر من غير واحد من مواضع كتابه أنه تلقى العلوم على يد أبيه. يقول في مسألة: «هل الإيمان مخلوق أو غير مخلوق، ولا يجوز الاطلاق بأن الإيمان مخلوق» ونحن نختار هذا القول، فإن هذا مذهب أبي حنيفة، وهو ما رواه نوح بن أبي مريم الجامع، عن «أبي حنيفة» روى لنا والدنا الشيخ الامام أبو الحسن محمد بن الحسين بن عبد الكريم - رحمه الله عليه - هذا الحديث عن نوح بن أبي مريم (١). _____ ١. أصول الدين ص ١٥٥ - ١٥٨.

(٦٢)

وقال في مسألة أن البعث حق: «وقد روى لنا الشيخ الامام محمد بن الحسين بن عبد الكريم حديثاً متصلاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» (١). ولم يكتف في تلقى العلم بوالده، ويظهر من موضع من كتابه أنه أخذ العلم عن غير واحد من أعلام عصره، ومنهم أبو الخطاب. قال في مسألة (٧٥): هكذا سمعت الشيخ أبا الخطاب (٢). ثقافته:

ينتسب البزدوى إلى مدرسة الإمام أبي حنيفة، وهو يعترف بالصراحة بانتمائه إلى المذهب الحنفي، كما ينتسب في العقيدة إلى مدرسة الماتريدي، وهو أستاذ جدّ أبيه «عبد الكريم» (٣) الذي تلقى العلوم بدوره عن الماتريدي. ويظهر من مقدمه كتاب أصول الدين أنه قرأ أكثر الكتب المؤلفة في ذلك العصر في الفلسفة والكلام، لا سيما للمعتزلة والأشاعرة. قال: «نظرت في الكتب التي صنّفها المتقدمون في علم التوحيد فوجدت بعضها للفلاسفة مثل «إسحاق الكندي» و«الاسفزاری» وأمثالهما، وذلك كله خارج عن الطريق المستقيم، زائغ عن الدين القويم. ووجدت أيضاً تصانيف كثيرة في هذا الفن من العلم للمعتزلة» مثل «عبد الجبار الرازي» و«الجبائي» و«الكعبي» و«النظام» وغيرهم. وكذلك «المجسّم» صنّفوا كتباً في هذا الفن مثل «محمد بن هيصم» وأمثاله، ولا يحلّ النظر في تلك الكتب، وقد وجدت لأبي الحسن الأشعرى كتباً وغيره (غيرها ظ) في هذا الفن من العلم، وهي قريب من مائتي كتاب، والموجز الكبير يأتي على عامّة ما في _____ ١. أصول الدين ص ١٥٦. ٢. أصول الدين ص ٢٨. ٣. نسبه هكذا: محمد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم.

(٦٣)

جميع كتبه، وقد صنّف الأشعرى كتباً كثيرة لتصحيح مذهب «المعتزلة»، فإنه كان يعتقد مذهب الاعتزال في الابتداء، ثم إن الله تعالى

بين له ضلالة «المعتزلة» فتأب عما اعتقد من مذاهبهم، وصنّف كتاباً ناقضاً لما صنّف للمعتزلة. وقد أخذ علمه أصحاب الشافعي بما استقرّ عليه «أبو الحسن الأشعري» وقد صنّف أصحاب الشافعي كتباً كثيرة على وفق ما ذهب إليه الأشعري إلا أنّ أصحابنا من أهل السنّة والجماعة خطّأوا أبا الحسن في بعض المسائل مثل قوله: «التكوين والمكوّن واحد» ونحوه على ما نبين في خلال المسائل إن شاء الله فمن وقف على المسائل التي أخطأ فيها أبو الحسن الأشعري، وعرف خطأه، فلا بأس بالنظر في كتبه وإمساكها، وقد أمسك كتبه كثير من أصحابنا ونظروا فيها، الذين هم رؤساء أهل السنّة والجماعة. وقد صنّف أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطن (١)، كتباً كثيرة في هذا النوع من العلم وهو أقدم من أبي الحسن الأشعري، فلم يقع في يدى شيء من كتبه، وعامة أفاويله توافق أفاويل أهل السنّة والجماعة إلا مسائل قلائل لا تبلغ عشرة مسائل، فإنه خالف فيها أهل السنّة والجماعة، وقد أخطأ فيها على ما نبين في خلال المسائل إن شاء الله تعالى فلا بأس من إمساك كتبه، والنظر فيها لمن وقف على ما أخطأ من المسائل. وقد وجدت للشيخ الامام الزاهد «أبي منصور الماتريدي السمرقندي» كتاباً في علم التوحيد على مذهب أهل السنّة والجماعة، وكان من رؤساء أهل السنّة والجماعة (٢). وهذا يعرب عن عكوفه على دراسة الكتب للفرق الكلامية وعرضها على الأصول التي تلقاها أنها أصول السنّة والجماعة. تلاميذه: قد تلقى عنه عدّة من أكابر علماء الحنفية أشهرهم نجم الدين عمر بن محمد ————— ١. توفي عبد الله بن سعيد عام ٢٤٥ هـ. ٢. أصول الدين ١-٣ وقد عرفت ذيل كلامه في ما سبق.

(٦٤)

النسفي (٤٦٠-٥٣٧ هـ) وهو يقول في حقّ أستاذه: «كان أبو اليسر شيخ أقراننا في بلاد ما وراء النهر، وكان إمام الأئمة، وكان يفد عليه الناس من كل فجّ وقد ملأ الشرق والغرب بمؤلفاته في الأصول والفروع» (١). مؤلفاته: له مؤلفات منها: ١- تعليقه على كتاب الجامع الصغير للشيباني. ٢- الوقعات. ٣- المبسوط في بعض الفروع (٢). ٤- اصول الدين المطبوع. * * ٢- النسفي ميمون بن محمد (٤١٨-٥٠٨ هـ)

ميمون بن محمد بن معبد بن مكحول، أبو المعين النسفي الحنفي، أحد المتكلمين البارعين على منهاج الماتريدي كان بسمرقند سكن «بخارى». تأليفه: «بحر الكلام» وهو مطبوع، و«تبصرة الأدلة» مخطوط ويقال إنه الأصل للعقائد النسفية لأبي حفص النسفي، توجد نسخة منه في القاهرة وغيرهما من الكتب. وقد ترجم في الجواهر المضيئة ج ٢: ١٨٩، وفي الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٧: ٣٤١، وريحانة الأدب للمدرسي ج ٦ ص ١٧٤، وذكر تأليفه الكاتب الجلبى في كشف الظنون. ١- مقدمة أصول الدين نقلاً من طبقات الحنفية لابن قطوبعة، المخطوطة. ٢- نفس المصدر. (٦٥) ٣- النسفي عمر بن محمد (٤٦٠-٥٣٧ هـ):

عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، أبو حفص المعروف بـ «نجم الدين النسفي»، ولد بـ «نسف» وتوفى بسمرقند، وكتابه المعروف «عقائد النسفي» من الكتب المشهورة التي يدور عليه رحي الدراسة منذ قرون إلى يومنا هذا. ولأجل ذلك كتبت عليه الشروح والتعليقات، وهو على منهاج الماتريدي. وشرحه التفتازاني، وله ترجمة في «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» لمحمد بن عبد الحى، ص: ١٤٩ طبع في القاهرة عام ١٣٢٤ هـ والجواهر المضيئة ج ١: ص ٣٩٤، ولسان الميزان ج ٤: ص ٣٢٧، والأعلام لخير الدين الزركلي ج ٥: ص ٦٠ وريحانة الأدب للمدرسي، ج ٦: ص ١٧٣، وقد تقدّم تتلمذه على البزدوى. ٤- ابن الهمام: محمد بن عبد الواحد (٧٩٠-٨١٦ هـ):

محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسي ثم الاسكندري، كمال الدين المعروف بابن الهمام، متكلم حنفي، له تأليف في الكلام والفقه، وقد ألّف «المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة»، في الكلام، وهو مطبوع. حقّقه محمد محي الدين عبد الحميد. ومن كتبه «فتح القدير» في شرح الهداية، ثمانية مجلدات في فقه الحنفية، كما ألّف «التحرير» في أصول الفقه وقد طبعا. له ترجمة في الفوائد البهية ص: ١٨، والجواهر المضيئة، ج ٢: ص ٨٦، وشذرات الذهب ج ٧: ص ٢٨٩ والأعلام للزركلي ج ٢: ص ٢٥٥، وغيرها. ٥- البياضى: كمال الدين أحمد بن حسن الرومى الحنفي - (القرن ١١):

هو من بيت قضاء، وفقه، وعلم، أخذ العلم ببلاده عن والده، والعلامة يحيى المنقاري، وغيرهما من أفاضلهم، وقد أسند إليه منصب القضاء بحاضرة حلب الشهباء سنة ١٠٧٧هـ كما تولّى قضاء مكّة عام ١٠٨٣هـ ومن تأليفه «إشارات المرام من (٦٦) عبارات الامام» الذي طبع بتقديم محمّد زاهد بن الحسن الكوثري، الذي هو من دعاة الماتريديّة في العصر الحاضر وبتحقيق يوسف عبد الرزاق سنة ١٣٦٨هـ وقد وقفت على خصوصيات الكتاب في خلال الأبحاث السابقة. هذا خلاصة القول في الفرقة الماتريديّة التي انحسرت دعوتها عن الجامعات الإسلاميّة، وقلّت الدعاء إليها، ومنهاجها منهاج مزيج من منهاج أهل الحديث والمعتزلة، بل قلّ الاهتمام بهم ودراسة منهاجهم، والحق أنّها مدرسة فكريّة نبتت في المحيط الشرقي وترعرعت زمناً، ثمّ تراجعت إلى حدّ لا نجد داعياً إليها في العصر الحاضر، غير الشيخ الكوثري وأترابه، ولا مناص لطلاب الحرّيّة من شباب أهل السنّة من دراستها واعتناق أصولها، لكونها منهاجاً وسطاً بين العقليّة المحضّة، والتقليّة الخاصّة. إنّ الظروف والشرائط المفروضة عليهم، وإن كانت لا تسمح لهم الاجتهاد المطلق في الأصول والعقائد، ودراسة كلّ أصل في جوّ هادئ من دون أن يتقلّدوا رأى انسان غير معصوم من سنّة أو شيعة، لكن في وسعهم الاجتهاد في المذاهب المنسوبة إلى أهل السنّة والجماعة، فعلى طلاب الحرّيّة، السعي والاجتهاد، للتعرف على الحقّ، وإزهاق الباطل، ولو في إطار المذاهب العقديّة الرسميّة. بيان لقادة الفكر في الأمة:

إنّ الغزو الفكري الذي يشتهه أعداء الإسلام كلّ يوم من المعسكرين: الشرق والغرب، لاجتياح العقيدة الاسلاميّة وإقصاء الشباب عن ساحة الإيمان، وبالتالي إفساد عقيدتهم وإحلالهم عن الدين، وعن التفاني دونه - إنّ هذا الغزو - يفرض علينا الخروج عن إطار الجمود في تحليل العقائد وتقييمها، وعدم الاقتصار على الروايات المنقولة عن «كعب الأخبار»، و«تميم الداري» وأضرابهما، وفتح باب التفكير بمصراعيه في وجه الناشئ وتدريبه وتمرينه بالبرهنه والاستدلال، على ما يعتنقه من العقائد، لأنّه يفضي (٦٧)

لأصول الاسلام ثباتاً ودواماً وللشباب صموداً أمام الهجمات العنيفه، التي توجه إليهم كلّ يوم من المدارس الفكرية المادية المهزوزة وغيرها، فإنّ في حرمان المسلم المستعدّ عن التفكير الصحيح، مظنة جعله فريسة للمناهج الضالّة، المتدرّعة بالسلاح العلمي المادي الفاتك. ولا نهدف بذلك إلى دمج الدّين بالفلسفة اليونانيّة أو الغربيّة بل الغرض هو استخدام العقل السليم الفطري - الذي به عرفنا ربّنا ودعا إليه كتابه - لدرك الدين والدفاع عنه في المجالات التي للعقل إليها سبيل. ولا شكّ أنّ بعض المشايخ لا يعرفون التوسّط في الحياة، ولا الاعتدال في الرأى، فهم بين غارق في العقليّات، غير مقيم للنقل وزناً في مجال العقيدة، وبين مترمّت لا يعرف في أوضح الواضحات سوى رواية أحمد عن فلان، وإن كان على خلاف الحسّ والعقل. هذا وذاك كلاهما مرفوضان جدّاً، وإنّما المأمول هو تقدير التعقل، واحترام حرّيّة الفكر، وهذا أمر يجب علينا أن نروّض أنفسنا عليه. ثمّ إنّ هنا كلاماً لبعض قادة الفكر، يلقي ضوءاً على ما نتوخاه ونطلبه بحماس من حاملي لواء الفكر الاسلامي، ونخصّ بالذكر أساتذة الجامعات الإسلاميّة حيث يقول: «مما لا نرتاب فيه إنّ الحياة الانسانيّة حياة فكريّة لا تتمّ له إلاّ بالادراك الذي نسّميه فكراً، وكان من لوازم ابتناء الحياة على الفكر، إنّ الفكر كلّما كان أصحّ وأتمّ، كانت الحياة أقوم، فالحياة القيّمة - بأية سنّة من السنن أخذ الإنسان، وفي أيّ طريق من الطرق المسلوكة وغير المسلوكة سلك الإنسان - ترتبط بالفكر القيم وتبنتى عليه، وبقدر حظّها منه يكون حظّها من الاستقامة. وقد ذكره الله سبحانه في كتابه العزيز بطرق مختلفة وأساليب متنوّعة كقوله: (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)(الأنعام /١٢٢). وقوله: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا (٦٨) يَعْلَمُونَ) (الزمر /٩) وقوله: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)(المجادلة /١١) وقوله: (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (الزمر /١٧ و ١٨) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي لا -تحتاج إلى العرض، فأمر القرآن في الدعوة إلى الفكر الصحيح، وترويج طريق العلم، ممّا لا ريب فيه.

ولم يعين في الكتاب العزيز هذا الفكر الصحيح الذي يندب إليه، إلاّ أنّه أحال فيه إلى ما يعرفه الناس بحسب عقولهم الفطريّة، وإدراكهم المركوز في نفوسهم. إنك لو تتبعت الكتاب الإلهي، ثمّ تدبّرت في آياته، وجدت ما لعلّه يزيد على ثلاثمائة آية تتضمن

جحد استوائه * وأوصافه أو كونه يتكلم فعن ذلك التنزيه نزهت ربنا * بتوفيقه والله أعلى وأعظم (١) _____ ١ . الصواعق المرسله ج ١ ص ١٧٠ كما في المعتزله ص ٢٥٢ .
(٧١)

وليس هذا الشاعر وحيداً في هذا المجال. بل الحنابلة يتشدقون بالتجسيم ويفتخرون به بلا مبالاه وإليك القصيدة التالية التي نظمها حنبلي آخر أيام محنة ابن حنبل في السجن: علا في السماوات العلى فوق عرشه * إلى خلقه في البر والبحر ينظر يدها بنا مبسوطان كلاهما * يسحان والأيدى من الخلق تقتر نهينا عن التفتيش والبحث رحمة * لنا وطريق البحث يردى ويخسر ولم نر كالتسليم حرزاً وموتلاً * لمن كان يرجو أن يثاب ويحذر وإن ولي الله في دار خلده * إلى ربّه ذى الكبرياء سينظر ولم يحمد الله الجدال وأهله * وكان رسول الله عن ذاك يزجر وسنتنا ترك الكلام وأهله * ومن دينه تشديقه والتقعر (١) ومن أراد أن يقف على كلمات هؤلاء حول التجسيم والتشبيه فعليه بمراجعة كتاب «علاقة الاثبات والتفويض» تأليف رضا بن نعيان معطى بتقديم عبد العزيز بن باز. فقد حشا فيه كلمات أبناء الحنابلة وغيرهم في مجال الصفات، وادعى أنهم يقولون بكونه سبحانه فوق السماوات. وهؤلاء لغاية دفع عار التجسيم يتدعون بكلمة بلا كيف وتشبيه، وهو بلا شبهة واجهة اتخذتها أبناء التجسيم لستر ما يعاب بهم. وهذه التوالى وليده إقصاء العقل عن ساحة العقائد، وإحلال النقل على وجه الاطلاق مكانه، وإلا فالنقل الصحيح لا يكافح العقل أبداً. تم الكلام في الماتريديّة والحمد لله رب العالمين. _____ ١ . مناقب الإمام أحمد بن حنبل لأبي الفرج ابن الجوزى ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ط مصر، الطبعة الأولى .
(٧٢)

المرجئة

المرجئة

المرجئة على وزن المرجعة بصيغة الفاعل من أرجأ الأمر: أخره. وترك الهمزة لغمه. قال في اللسان: أرجأت الأمر وأرجيته: إذا أخرته. وقرئ أرجه، وأرجته قال تعالى: (تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) (الأحزاب ٥١) و«الإرجاء» التأخير، والمرجئة صنف من المسلمين والنسبة إليه مرجئى مثال مرجعى (١). وقال ابن الأثير فى (النهاية): المرجئة تهمز، ولا تهمز وكلاهما بمعنى التأخير، يقال: أرجأته وأرجيته: إذا أخرته فنقول من الهمز رجل مرجئى، وهم المرجئة وفى النسب: مرجئى مثال مرجع ومرجعة ومرجعى، وإذا لم تهمز قلت: رجل مرج ومرجئة ومرجئى مثل معط ومعطية ومعطى (٢). وظاهر كلامهما أنها مأخوذة من الإرجاء بمعنى التأخير، ويحتمل أن يكون مأخوذة من الرجاء أى الأمل. والمشهور هو الأول. وسرّ تسميتهم بالمرجئة بمعنى المؤخره أحد الوجهين: ١- طال التشاجر فى معنى الإيمان فى العصر الأول، وحدثت آراء وأقوال حول حقيقته بين الخوارج والمعتزلة، فذهبت المرجئة إلى أنه عبارة عن مجرد الإقرار بالقول _____ ١ . لسان العرب مادة «رجأ». ٢ . النهاية ج ٢ ص ٢٠٦ نفس المادة.
(٧٤)

واللسان وإن لم يكن مصاحباً للعمل، فأخذوا من الإيمان جانب القول، وطرّدوا جانب العمل، فكأنهم قدّموا الأول وأخروا الثانى واشتهروا بمقولتهم: «لا تضمر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة». وعلى هذا، فهم والخوارج فى هذه المسألة على جانبى نقيض، فالمرجئة لا تشترط العمل فى حقيقة الايمان، وترى العاصى ومرتكب الذنوب، صغيرها وكبيرها، مؤمناً حتى تارك الصلاة والصوم، وشارب الخمر، ومقترف الفحشاء.. والخوارج يضيّقون الأمر فيرون مرتكب الكبيرة كافراً، ولأجل ذلك قاموا بتكفير عثمان للأحداث التي انجرت إلى قتله وتكفير على - عليه السلام - لقبوله التحكيم وإن كان عن اضطرار. ويقابلها المعتزلة أيضاً القائلون بأن مرتكب الكبيرة لا - مؤمن ولا - فاسق بل فى منزله بين الأمرين فزعمت أنها أخذت بالقول الوسط بين المرجئة والخوارج. والقول المشهور بين السنة والشيعة أنه مؤمن فاسق، وسيوافيك القول فى حقيقة الإيمان عند البحث عن عقائد المعتزلة والخوارج. ولعله إلى

ذلك الوجه أيضاً يرجع ما ذكره ابن الاثير في نهايته بأنهم سموا مرجئة لاعتقادهم بأن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، أى أخر عنهم. يلاحظ على هذا الوجه: أن القوم وإن أخروا العمل وأخرجوه عن كونه مقوماً للإيمان أو بعضه، ولم يعتبروه جزءاً و شرطاً، ولكن لم يتفقوا على تفسيره بالقول المجرد، والاقرار باللسان، بل لهم آراء في ذلك. فالیونسيه منهم (أتباع يونس بن عون) زعمت أن الإيمان في القلب واللسان. وإنه هو المعرفة بالله، والمحبة، والخضوع له بالقلب، والاقرار باللسان، أنه واحد ليس كمثل شىء (١). والغسانية (أتباع غسان المرجي) زعمت أن الإيمان هو الاقرار أو المحبة لله تعالى، ١. الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ ط مصر.

(٧٥)

فاكتفت بأحد الأمرين من الإقرار أو المحبة لله (١). إلى غير ذلك من الأقوال والآراء لهم في حقيقة الإيمان (٢). وعلى ضوء هذا لا يصح أن يقال إن المرجئة هم الذين قدموا القول وأخروا العمل. بل أخروا العمل جميعاً و أما غيره فقد اكتفوا في تحقق الايمان تارة بالاذعان القلبي، وأخرى بالاقرار باللسان، هذه ملاحظة بسيطة حول هذه النظرية. وهناك ملاحظة أخرى ربما تبطل أصلها وهي: أن التاريخ يدل على أن أول من قال بالإرجاء هو الحسن بن محمد بن الحنفية، لا بمعنى تقديم القول أو الاذعان القلبي وتأخير العمل، بل المراد تقديم القول في الشيخين وتصديقهما، وتأخير القول في حق عثمان وعلي وطلحة والزبير وإرجاء أمرهم إلى الله سبحانه، والتوقف فيهم. وإليك التصوص التاريخية التي تدلنا على أن أساس الإرجاء هو التوقف في حق الخليفين الأخيرين والمقاتلين لهما. قال ابن سعد: «كان الحسن بن محمد بن الحنفية أول من تكلم بالإرجاء وعن زاذان وميسرة أنهما دخلا على الحسن بن محمد بن علي، فلاماه على الكتاب الذي وضعه على الإرجاء. فقال لزاذان: «يا أبا عمرو لوددت أنني كنت مت ولم أكتبه» وتوفي في خلافة عمر بن عبد العزيز! (٣). وقال ابن كثير في ترجمة الحسن: «وكان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقهاء. وقال أيوب السخيتاني وغيره: كان أول من تكلم في الإرجاء، وكتب في ذلك رسالته، ثم ندم عليها. وقال غيرهم: كان يتوقف في عثمان وطلحة والزبير، فلا يتولاهم، ولا يذمهم. فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ضربه فشجّه وقال: ويحك ألا تتولى أباك علياً. وقال أبو عبيد: توفي سنة خمس وتسعين. وقال خليفته: توفي أيام عمر بن عبد العزيز ————— ١. الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ ط مصر. ٢. فصل الأشعري في المقالات اختلافهم في الايمان، وجعلهم اثنتا عشرة فرقة لاحظ ص ١٣٥ - ١٣٦. ٣. الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٣٢٨.

(٧٦)

والله أعلم» (١). وقال ابن عساكر في تاريخه: «قال عثمان بن إبراهيم بن حاطب: أول من تكلم في الإرجاء هو الحسن بن محمد. كنت حاضراً يوم تكلم، وكنت مع عمي في حلقة، وكان في الحلقة جحدب وقوم معه. فتكلموا في علي وثمان وطلحة والزبير، فأكثروا، والحسن ساكت، ثم تكلم فقال: قد سمعت مقالكم. أرى أن يرجأ علي وثمان وطلحة والزبير فلا يتولى ولا يتبرأ منهم. ثم قال: فقمنا، فقال لي عمر: يا بني ليتخذن هؤلاء هذا الكلام إماماً. فبلغ أباه محمد بن الحنفية ما قال، فضربه بعصا فشجّه وقال: ألا تتولى أباك علياً. ودخل ميسرة عليه فلامه على الكتاب الذي وضعه في الإرجاء، فقال: لوددت أنني كنت مت ولم أكتبه» (٢). وقال ابن حجر في (تهذيب التهذيب) في ترجمة الحسن ما هذا خلاصته: «قال ابن حبان: كان الحسن من علماء الناس بالاختلاف وقال سلام بن أبي مطيع عن أيوب: أنا أتبرأ من الإرجاء. إن أول من تكلم فيه رجل من أهل المدينة يقال له الحسن بن محمد. وقال عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة أنهما دخلا على الحسن بن محمد فلاماه على الكتاب الذي وضعه في الإرجاء، فقال لزاذان: يا أبا عمرو لوددت أنني كنت مت ولم أكتبه. قلت (ابن حجر): المراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه، غير الارجاء الذي يعيه أهل السنة المتعلق بالإيمان، وذلك أنني وقفت على كتاب الحسن بن محمد المذكور، أخرجه ابن أبي عمر العدني في كتاب الايمان له في آخره قال: حدثنا إبراهيم بن عيينة عن عبد الواحد بن أعين قال: كان الحسن بن محمد يأمرني أن أقرأ هذا الكتاب على الناس: أما بعد، فإننا نوصيكم بتقوى الله. فذكر كلاماً في الموعدة والوصية لكتاب الله وأتباع ما فيه وذكر اعتقاده - ثم قال في آخره: ونوالى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما - ونجاهد فيهما، لأنهما لم تقاتل عليهما الأمية ولم نشك في أمرهما، ونرجى من ————— ١. البداية والنهاية ج ٩ ص

١٤٠. ٢. تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٤٦ طبع دمشق ١٣٣٢ هـ

(٧٧)

بعدهما ممن دخل الفتنة، فنكل أمرهم إلى الله - إلى آخر الكلام. فمعنى الذى تكلم فيه الحسن أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتلتين فى الفتنة بكونه مخطئاً أو مصيباً وكان يرى أنه يرجى الأمر فيهما، وأما الإرجاء الذى يتعلق بالايان فلم يعرج عليه فلا يلحقه بذلك عاب(١). هذا التاريخ المتضافر يدلنا على أمور:

١- إذا كان الحسن بن محمّد الحنفية هو الأصل فى الإرجاء فيرجع أصل الإرجاء وتاريخه إلى الربع الأخير من القرن الأول للهجرة، وقد توفى محمّد بن الحنفية والد المؤسس عام ثمانين أو إحدى وثمانين، عن عمر يناهز خمسا وستين سنة، وقد توفى ولده الحسن (أصل الإرجاء) عام تسعة وتسعين أو قبله أو بعده بقليل، وعليه يعود ظهور الإرجاء إلى حوالى عام سبعين من الهجرة، أو ما يقاربه. ٢- إن الحسن بن محمّد هو وليد البيت الهاشمى العريق فى الولاء والمحبة لأمر المؤمنين وشيعته ومحبيه وأصحابه، وعند ذاك كيف يكون مثل هذا الشخص أساساً للإرجاء بهذا المعنى، ولعله أظهر هذه الفكرة فى بداية الأمر (وإن ندم عليه فى أواخر عمره وتمنى الموت قبل كتابة ما كتبه) لغاية توحيد الكلمة، وإيقاف الهجمة على جده أمير المؤمنين - عليه السلام - حيث كان الخطباء ووعاظ السلاطين يستونونه على صهوات المنابر أعواماً مديدة، فأراد وليد البيت الهاشمى إيقاف السب بهذه الفكرة، وإلا فمن البعيد جداً أن لا يطلع الحسن بن الحنفية على انحراف الناكثين والقاسطين والمارقين الذين ابتزوا أمر الخلافة، وتطلعوا إلى أمر، هم أقصر منه فحاول لنيل غايته بالقول بأننا نتكلم فى الشيخين ولا نتكلم فى غيرهما ممن جاءوا بعدهما بشيء من المدح والقدح. والرجل وإن كان حسن التية لكنه كان سيء العمل لما ترتبت على هذا العمل من التوالى الفاسدة، ولعل ندامته فى آخر العمر لأجل ما رأى من المفساد التى ترتبت _____ ١. تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٧٨)

على هذه الفكرة. ٣- لو كان الحسن بن محمّد بن الحنفية هو الأصل فى الإرجاء، فقد عرفت تاريخ حياته وأنه قام بزعره فى الربع الأخير من القرن الأول، وعلى ذلك لا يصح ما نقله أحمد أمين المصرى عن ابن عساكر: «أنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد، ليس بينهم اختلاف قالوا: تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف، وقد منا عليكم وأنتم مختلفون فبعضكم يقول: قتل عثمان مظلوماً، وكان أولى بالعدل أصحابه، وبعضكم يقول: كان على أولى بالحق، وأصحابه كلهم ثقة وعندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجى أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما»(١). يلاحظ عليه: أنه قتل عثمان أواخر عام (٣٥) من الهجرة، واستشهد الامام أمير المؤمنين فى شهر رمضان عام (٤٠هـ)، ومقتضى ما ذكره الدكتور، تكوّن الإرجاء فى العقد الرابع من القرن الأول. وهذا لا يتفق مع ذلك التاريخ المتضافر فى أن أصل الإرجاء هو الحسن بن محمّد بن الحنفية لتأخر عصره، وقد كان لوالده محمّد بن الحنفية يوم قتل عثمان من العمر خمس عشرة ويوم استشهد الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - عشرون سنة، وكان الحسن بن محمّد فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وغاية ما يمكن أن يوجه به هذا النقل، هو أن - الأحوال الحاضرة بعد قتل الخليفين وقدم المسلمين الغزاة، أو وجدت أرضية لتكوّن هذه الفكرة، ولكنها كانت خاملة تدور فى الذاكرة، وأول من أظهرها و طرحها بصورة علمية وكتب فيها رسالة هو الحسن بن محمّد ولذلك قال عمّ عثمان بن ابراهيم بن حاطب لابن أخيه: يا بنى: ليتخذن هؤلاء هذا الكلام إماماً. ٤- وأبعد من هذا الكلام ما ذكره ذلك الكاتب حيث قال: إن نواة هذه الطائفة كانت موجودة فى الصحابة فى الصدر الأول، بحجة أننا نرى أن جماعة من _____ ١. فجر الاسلام: ص ٢٧٩، نقلاً عن تاريخ ابن عساكر.

(٧٩)

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امتنعوا أن يدخلوا فى النزاع الذى كان فى آخر عهد عثمان مثل «أبى بكر» و«عبدالله بن

عمر» و«عمران بن حصين» وروى أبو بكره أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى..» (١).
 قد عرفت أن من المحتمل أن يكون الحافظ لمؤسس هذه الفكرة، هو إيقاف الهجمة على جدّه أمير المؤمنين - عليه السلام - ولكن العامل المؤثر في نشوء هذه البذرة ونموها هو اشتداد الدعاية من جانب الأمويين لتبرئة عثمان من الأحداث المؤلمة المنسوبة إليه، وتزيه الناكثين ومن انضمت إليهم من أمهات المؤمنين في نقض البيعة، والخروج على الإمام المفترض الطاعة، وإكثار الواقعة في الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - وقد أثرت تلك الدعايات والروايات التي كذبوا بها على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بسطاء القوم وسدّاجهم بحيث أخذت تلك الأكاذيب صورة الحجاج، فلم يكن لهم بدّ أمام هذه الدعايات من أحد أمرين: إما الإجهاد، وخرق الحجب، وشهود الحقائق بعين الفكر والعقل. وإما الوقوف على الرأى الوسط والتوقف عن التكلم في حق هؤلاء، وإرجاء الأمر إلى الله، والفرض الأوّل كان أمراً غير ميسور لبساطة الفهم وسذاجته، فصار الثاني متعيّناً. يقول أحد المصريين حول الدعايات الفارغة بعد عهد عثمان: «ومن هنا وهناك تألفت سلسلة الموضوعات والخرافات والأساطير التي ابتلى بها المسلمون، وانتشرت بينهم التلبسات الملتوية والشبه، فشوّت جمال الشريعة المطهّرة، حتى أصبحت وبالاً على الدّين، وشرّاً على المسلمين، وحائلاً دون نهضتهم وتقدّمهم، وعائقاً أمام الوصول إلى كثير من الحقائق التاريخية والعلمية والدينية» (٢). ٦- يعتقد الكاتب المصرى «أحمد أمين» أن المرجئة تكوّنت، بصورة حزب سياسى لا يريد أن يغمس يده في الفتن ولا يريق دماء حزب، بل ولا يحكم بتخطئه فريق _____ ١. فجر الاسلام ص ٢٨٠. ٢. عثمان بن عفان للأستاذ صادق إبراهيم عرجون ص ٤١، كما في الغدير، ج ٨.

(٨٠)

وتصويب آخر. وما ذكره حدس لا- أساس له، ولقد استنتجه ممّا نقلناه عنه سابقاً من أنّ فكرة الإرجاء ترجع إلى الغزاة القادمين إلى المدينة بعد قتل الخليفين.. وعرفت أنّه لا- ينطبق مع ما تضافر في التاريخ. والظاهر أنّ فكرة الإرجاء نشأت في أحضان الدعايات الأموية، والفضائل المفتعلة لجملة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغشيت وجه الحقيقة، وعاقبت البسطاء عن الخوض في الأبحاث الخطيرة، واقتحام المعارك المدلهية، ممّا نغم به على هؤلاء من الطاميات والأحداث وما قيل في براءتهم، فتخيّل لهم أنّ الأصلح والرأى الأوسط هو عدم الجنوح إلى جانب دون آخر. وهؤلاء وإن كانوا غير معذورين في هذا الأمر، لكنهم - في زعمهم - أخذوا جانب الإحتياط في مقابل الناقلين. ٧- إنّ أصل الإرجاء هو التوقف وترك الكلام في حقّ بعض الصحابة. لكنّ هذا الأصل قد نسي في الآونة اللاحقة، وأخذ أصل آخر مكانه، بحيث لم يبق من الأصل الأوّل أثر بين المرجئة اللاحقة وفرقهم المختلفة، وهو البحث عن تحديد الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر. فصار تحديد الإيمان بالافرار دون العمل، أو المعرفة القلبية دون القيام بالأركان، ركناً ركيناً لهذه الطائفة بحيث كلّما أطلقت المرجئة، لا يتبادر من هذه الكلمة إلّا من تبنى هذا المعنى. وقد أنهاهم أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين» في فصل خاصّ إلى اثنتى عشرة طائفة اختلفوا في حقيقة الإيمان بعد اتّفاقهم على إبعاد العمل عن ساحته وحقيقته. وهذا يوضح صحّة ما قلناه من أنّ الإرجاء - يوم تكوّنه - لم يظهر بصورة حزب سياسى. بل ظهر بصورة منهج فكرى دينى التجأ إليه أصحابه، خضوعاً للدعايات (٨١)

الفارغة، وتسليماً لها، وبما أنّ الإرجاء على كلا الأصلين كان لصالح السلطة من الأمويين، كانت السلطة يومذاك تؤيّد لهم لأنّ في تبنى كل من الأصلين، صلاحهم ودعم عروشهم. فالأصل الأوّل يدعو إلى أنّ الإنسان قاصر عن تشخيص المصيب والمخطئ، بل يترك أمر المخطئين إلى الله، وهذا التسليم هو نفس ما يطلبه أصحاب السلطة، حتّى يجتنب الناس عن القضاء في يزيد الخمر، وعبد الملك السفّاك، وعامله الحجّاج بن يوسف الثقفى، ممّن عاشوا قبل الفكرة أو بعدها، وسودوا صحيفة تاريخهم. والأصل الثانى يعرب عن أنّ الشهادة اللّفظية بالتوحيد أو المعرفة القلبية يكفى في دخول الإنسان في عداد المؤمنين، فيحرم قتاله ونضاله بل يكون نفسه وماله مصونين من الإعتداء، وهذا أيضا كان أمنية الأمويين، إذ على ضوء ذلك، يكون يزيد الخمر والحجّاج الظلوم من المؤمنين، ويكون دمه وماله مصونين من الإعتداء. عقيدة المرجئة:

لا- تجد للمرجئة رأياً خاصاً في أبواب المعارف والعقائد سوى باب الايمان والكفر، فكلامهم يدور حول هذين الموضوعين وأسّ نظريتهم أنّ الايمان هو التصديق بالقلب، أو التصديق بالقلب والإقرار باللسان، أو ما يقرب من ذلك، فأخرجوا العمل من حقيقة الايمان، واكتفوا بالتصديق القلبي ونحوه ووترتب على ذلك الأصل أمور: ١- إنّ الايمان لا يزيد ولا ينقص، لأنّ أمر التصديق دائر بين الوجود والعدم، ومثله تفسير الايمان بالإقرار باللسان، فهو أيضاً كذلك وليس العمل داخلاً في حقيقته حتى يقال: إنّ العمل يكثر ويقلّ وسيوافيك نظرنا فيه. ٢- إنّ مرتكب الكبيرة مؤمن حقيقته، لكفاية التصديق القلبي أو الإقرار باللسان في الإتصاف بالايمان، وهؤلاء في هذه العقيدة يخالفون الخوارج والمعتزلة. أما الأولى: (٨٢)

فلأنّهم يعدّون العمل عنصراً مؤثراً في الايمان بحيث يكون تارك العمل كافراً، وقد اشتهر عنهم بأنّ مرتكب الكبائر كافر، وليس المؤمن إلاّ من تحرّز من الكبائر. وأما الثانية: فلأنّهم يعتقدون أنّ مرتكب الكبيرة في منزله بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. والمعتزلة أخفّ وطأه من الخوارج، وإن كانت الطائفتان مشتركين في إدخال العمل في حقيقة الايمان. ٣- إنّ مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار وإن لم يتب، ولا يحكم عليه بالوعيد والعذاب قطعاً لاحتمال شمول عفو سبحانه له، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أنّ صاحب الكبيرة يستحقّ العقوبة إذا لم يتب وإنّ من مات بلا توبة يدخل النار، وقد كتبه الله على نفسه فلا يعفو (١). هذه عقيدة المرجئة عرضناها على وجه الإجمال. وقد تأثر أهل السنّة ببعض هذه الفروع كالقول بعدم تخليد عصاة المؤمنين في النار، وجواز تخلف الوعيد دون الوعد. وهيهنا سؤال وهو أنه إذا كانت حقيقة الإرجاء هو الاكتفاء في الحكم بالايمان بالتصديق القلبي، أو الإقرار باللسان، فما هو الوجه في لعنهم والتبري منهم، إذ ليست هذه النظرية بمجرّدها سبباً للعن والتحاشى والتبري بهذه الدرجة. والإجابة عنه: هي إنّ التبري منهم ليس لأجل هذه النظرية، بل لأجل أنّهم جرّدوا الأعمال من الايمان ولم يعتقدوها من الفرائض (٢) ولم يتقيّدوا بها في مجال الفعل والترك، ولأجل ذلك أصبح الايمان عندهم يتلخّص في التصديق القلبي، والإقرار اللفظي. ولا يخفى أنّ هذه العقيدة خاطئة جداً، إذ لو صحّت فعندئذ لا- يتجاوز الايمان عن التصديق القلبي أو الإقرار باللسان، فما أسهل الإسلام وأيسره لكلّ من انتسب إليه ولو انتساباً شكلياً. ١- ذكر الشيخ الأشعري فروعاً آخر لهم في هذا المجال. لاحظ مقالات الإسلاميين ص ١٢٦ - ١٤٧. ٢- كنز الفوائد ص ١٢٥ ط بيروت.

(٨٣)

قال صاحب بن عباد: ادّعت المرجئة أنّ قاتل النفس بغير الحقّ، وسارق المال، ومخيف السبل ومرتكب الزنا، وشارب الخمر، لا يقطع أنّهم من أهل النار، وإن ماتوا مصرّين. وقالت العدلية: بل هم من أهل النار مخلدون لا يجدون عنها حولاً، لأنّ الله أخبر (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) (الانفطار/١٤) ولم يخصّ فاجراً عن فاجر، فقال عزّ وجلّ: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصِيلُونَ يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) (الانفطار/١٣ - ١٦) وقال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (النساء/٩٣) فإن قالوا فقد قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (النساء/٤٨) فالجواب أنّه تعالى قال في هذه الآية: « لمن يشاء » والمشية مغيبة عنّا، إلى أن نعرفها بالأدلة، وقد بين «من يشاء» بقوله: (إِنَّ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (النساء/٣١) فهو يكفر الصغائر بتجنّب الكبائر، والكبائر بالتوبة، قال سبحانه: (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) (الزمر/٥٤) (١). وهنا وجه آخر لعنهم وهو يرجع إلى قولهم بالإرجاء بالمعنى الأول أعنى التوقف في أمر الامام على أمير المؤمنين - عليه السلام - وعدم الحكم بشيء فيه من الايمان وضده. وأي مصيبة أعظم من التوقف في ايمان أخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصنوه ووزيره، وهو الصديق الأ-كبر، وأول المؤمنين. قال - صلوات الله عليه - «ولقد كنت أتبعه (الرسول) أتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لى في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرنى بالاعتداء به. ولقد كان يجاور في كلّ سنة ب(حراء)، فأراه ولا يراه غيرى، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة وأشمّ ريح النبوة» (٢). ١- الابانة عن مذهب أهل العدل بحجج

القرآن والعقل للصاحب (٣٨٥هـ) ص ٢٣ المطبوع ضمن نفائس المخطوطات. ٢. نهج البلاغة: الخطبة القاصعة ج ٣ ص ١٦١ - ١٨٢ بالرقم ١٨٧.

(٨٤)

أفي مثله يتوقف الإنسان المنصف في الحكم بإيمانه؟ فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة * وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تبيين حقيقة الإيمان وتحديد لغته وكتاباً وسنة. آراء ونظريات حول الإيمان:

اختلف العلماء في ماهية الإيمان ولهم أقوال أربعة نعرضها مع التحليل: ١- الإيمان هو معرفة الله بالقلب فقط، وإن أظهر اليهودية، والنصرانية، وسائر أنواع الكفر بلسانه، فإذا عرف الله بقلبه فهو مؤمن. نسب إلى الجهم بن صفوان وغيره. ٢- إن الإيمان هو إقرار باللسان بالله تعالى وشريعته، وإن اعتقد الكفر بقلبه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن، وهو قول محمد بن كرام السجستاني. ٣- الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وأن الأعمال ليست إيماناً، ولكنها شرائع الإيمان، وهو قول جماعة من الفقهاء وهو الأقوى كما سيوافيك. ٤- الإيمان هو المعرفة بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، وأن كل طاعة واجبة، بل الأعم منها ومن النافلة فهي إيمان وكلما ازداد الإنسان عملاً ازداد إيماناً، وكلما نقص نقص إيمانه (١). وإليك تحليل الآراء والأقوال: ما هو الإيمان لغته وكتاباً:

إن الإيمان لغته هو التصديق، وهو على وزن «إفعال» من الأمن بمعنى سكون النفس واطمئنانها لعدم وجود سبب الخوف، فحقيقته قوله «آمن به»: أذعن به، وسكنت نفسه، واطمأنت بقبوله فيؤول «الباء» في الحقيقة إلى السببية، وهو تارة يتعدى _____ ١. الفصل ج ٣ ص ١٨٨، ونسب إلى محمد بن زياد الحريري الكوفي قول خامس ساقط جداً، ومن شاء فليرجع إليه.

(٨٥)

بالباء كما في قوله تعالى: (آمنّا بما أنزلت) «آل عمران/٥٣» وأخرى باللام كقوله سبحانه: (وما أنت بمؤمن لنا) (يوسف/١٧) وقوله تعالى: (فآمن له لوط) (العنكبوت/٢٦). فإذا كان الإيمان بمعنى التصديق لغته، فهل يكفي التصديق لساناً فقط، أو جناناً فقط، أو لا يكفي هذا ولا ذاك، بل يشترط الجمع، والظاهر من الكتاب العزيز هو الأخير. فالإيمان بمقتضى الآيات عبارة عن التصديق بالقلب، الظاهر باللسان، أو ما يقوم مقامه، ولا يكفي واحد منهما وحده. أما عدم كفاية التصديق القلبي فلقوله تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النمل/١٤) وقوله سبحانه: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) (البقرة/٨٩) فأثبت لليهود المعرفة وفي الوقت نفسه الكفر. وهذا يعرب عن أن الاستيقان النفساني لا بد له من مظهر كالإقرار باللسان، أو الكتابة، أو الإشارة كما في الأخرس. ويمكن أن يقال إنه يكفي التصديق القلبي، ولكن الإنكار باللسان مانع، فلو علم أنه مدعن قلباً، ولم ينكره لساناً، لكفى في الحكم بالإيمان، كما كفى في تحققه واقعاً. وأمّا عدم كفاية التصديق اللساني فلقوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات/١٤) والأعراب صدّقوا بألسنتهم، وأنكروه بقلوبهم أو شكّوا فيه. وهؤلاء جروا في توصيف أنفسهم بالإيمان على مقتضى اللغة، وادّعوا أنهم مصدّقون قلباً وحناناً، فردّ الله عليهم بأنهم مصدّقون لساناً، لا جناناً، وأسماهم مسلمين، ونفى كونهم مؤمنين. وعلى ضوء هذه الآيات يتبين فساد القولين الأولين وتظهر قوة القول الثالث وهو كون الإيمان لغته: هو التصديق القلبي، لكن الكتاب العزيز دلّ على عدم كفاية التصديق القلبي وأنه يشترط أن يكون معه إقرار أو ما يقوم مقامه من الكتابة والإشارة يدلّ على التسليم الباطني، وقد عرفت ما احتملناه أخيراً. وأمّا الأثر المترتب على الإيمان بهذا المعنى في الدنيا فهو حرمة دمه وعرضه وماله (٨٦)

إلا- أن يرتكب قتلاً أو يأتي بفاحشة. وأمّا الأثر المترتب عليه في الآخرة فهو صحّة أعماله واستحقاق الثواب عليها - لو قام بها - وعدم الخلود في النار، واستحقاق العفو والشفاعة. وأمّا السعادة الأخرى فهي رهن العمل كما يأتي بيانه. فمن صدّق لساناً وحناناً، ولكن تجرّد عن العمل والامتثال، فهو مؤمن فاسق، وليس بكافر (خلافاً للخوارج) ولا- هو في منزلة بين المنزلتين أي بين الإيمان والكفر (خلافاً للمعتزلة) ولا- يكفي في النجاة، بل - إن لم يتب - يدخل النار ويعذب فيها. وهذه هي النقطة التي يفترق فيها أهل الحق عن

المرجئة، فإنهم يقولون إن التصديق لساناً أو جناحاً أو معاً، يكفي في النجاة من النار و دخول الجنة، ويشيرون في العصاة روح الطغيان على المثل والأخلاق، اعتماداً على أنهم مؤمنين وإن فعلوا الكبائر وارتكبوا الموبقات. هذا هو الحق القراح، وإليك تحليل أدلته سائر الأقوال على ضوء الأقوال التي سردناها في صدر البحث. هل الايمان هو التصديق القلبي؟

استدل القائل بأن الإيمان هو التصديق القلبي مضافاً إلى ما مرّ من الآيات في صدر البحث (١) بأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وخاطبنا الله بلغة العرب، وهو في اللغة التصديق، والعمل بالجوارح لا يسمى ايماناً. يلاحظ عليه: أنه يكفي في إثبات خروج العمل عن حقيقة الايمان، وأمّا كون التصديق بالقلب كافياً في صدق الايمان فلا يثبت، كيف وقد دلت الآية على أن الجحد لساناً أو غيره، والاستيقان قلباً يوجب دخول الجاحد في عداد الكفار. قال سبحانه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النمل/١٤).
١. (وما أنت بمؤمن لنا) (يوسف / ١٧) (ف آمن له لوط) (العنكبوت / ٢٦).

(٨٧)

غاية ما يمكن أن يقال ما عرفت من أن التصديق القلبي كاف في تحقق الايمان، والجحد لساناً مانع، فلو تحقق التصديق القلبي ولم يقترن بالجحد عناداً لكفي في كون الرجل مؤمناً ثبوتاً وواقعاً، وأمّا الحكم بكونه مؤمناً إثباتاً فيحتاج إلى إظهاره باللسان، أو بالعمل، أو العلم بكونه معتقداً بطريق من الطرق. ثم إن ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) أورد على هذا القول بوجهين: الأول: أن الإيمان في اللغة ليس هو التصديق، لأنه لا يسمى التصديق بالقلب دون التصديق باللسان ايماناً في لغة العرب، وما قال قطّ عربي إن من صدق شيئاً بقلبه فأعلن التكذيب بلسانه، أنه يسمى مصدقاً به ولا مؤمناً به. وكذلك ما سمي قطّ التصديق باللسان دون التصديق بالقلب ايماناً في لغة العرب أصلاً. الثاني: لو كان ما قالوه صحيحاً لوجب أن يطلق اسم الايمان لكل من صدق بشيء ما، ولكان من صدق بالهيئة الحلاج والمسيح والأوثان مؤمنين، لأنهم مصدقون بما صدقوا به (١). يلاحظ عليه: أن الوجه الأول صحيح لو رجع إلى ما ذكرنا من كون الإنكار باللسان مانعاً وإلا فلو صدق قلباً ولم ينكره بلسانه فهو مؤمن لغةً وقرآناً. غير أن الحكم في مقام الإثبات يحتاج إلى الدليل من الإقرار باللسان، أو الكتابة باليد، أو الإشارة بالجوارح. وأمّا الوجه الثاني، فهو من الوهن بمكان لا يحتاج إلى البيان وكم لهذا الرجل من كلمات واهية. أضف إليه ما في كتابه من بذاءة في الكلام وتحرش بالسباب وتحكك بالوقعة. هل الايمان هو الإقرار باللسان؟

إنّ النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ومن بعدهم، اتفقوا على أن من أعلن بلسانه بشهادة _____ ١ . الفصل: ج ٣، ص ١٩٠

(٨٨)

الإسلام فإنه عندهم مسلم محكوم له بحكم الإسلام. أضف إليه قول رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم في السوداء «اعتقها فإنها مؤمنة» (١) يلاحظ عليه: أن الحكم لهم بالايمان كان بحسب الظاهر لا الحكم بأنه مؤمن عند الله واقعاً، ولذلك لو علم عدم مطابقة اللسان مع الجنان يحكم عليه بالنفاق. قال سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (البقرة/٨). ولما كان الرسول وأصحابه مأمورين بالحكم بحسب الظاهر قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بما أرسلت به، فإذا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا - بحقها، وحسابهم على الله» وبذلك يظهر وجه حكمه صَلَّى الله عليه وآله وسلم في السوداء «بأنها مؤمنة». روى ابن حزم عن خالد بن الوليد أنه قال: ربّ رجل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: إنني لم أبعث لأشقّ عن قلوب الناس. إلى هنا تبين فساد القولين الأولين، وأن الحق هو القول الثالث، وعرفت الأثر المترتب عليه، إنمّا المهم هو نقد القول الرابع الذي يجعل العمل جزءاً من الإيمان وإليك البحث فيه: ليس العمل جزءاً من الايمان:

إذا كانت المرجئة في جانب التفریط، فالخوارج المكفرة لمرتكبي الكبائر، والمعتزلة القائلة بأن من فقد العمل، فهو في منزلة بين

المنزلتين، لا- مؤمن ولا كافر، في جانب الإفراط. فإن الذكر الحكيم - مع الدعوة المؤكدة إلى العمل - لا يرى العمل جزءاً من الإيمان بل يعطفه عليه، ويراه كملاً له، لا عنصراً دخلياً فيه. ويكفي في ذلك الآيات التالية: _____ ١. نفس المصدر، ص ٢٠٦.

(٨٩)

١- (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (البقرة/٢٧٧) فالعطف يقتضى المغايرة، فلو كان العمل داخلياً فيه لزم التكرار، واحتمال كون المقام من قبيل ذكر الخاص بعد العام يحتاج الى وجود نكتة لذكره بعده، إلا أن يقال: إن الصالحات جمع معرّف يشمل الفرض والنفل، والقائل بكون العمل جزءاً من الإيمان يريد بها خصوص فعل الواجبات واجتناب المحرمات، فحينئذ يصح عطف الخاص على العام لحصول المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه. نعم، الآية تصلح دليلاً على ردّ مقالة من جعل مطلق العمل - فرضاً كان أو نفلاً - جزءاً من الإيمان. ٢- (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (طه/١١٢) والجملة حالية والمقصود: عمل صالحاً حال كونه مؤمناً، وهذا يقتضى المغايرة. ٣- (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) (الحجرات/٩) فأطلق المؤمن على الطائفة العاصية وقال ما هذا معناه: «فان بغت إحدى الطائفتين من المؤمنين على الطائفة الأخرى منهم» إلا أن يقال: إن اطلاق المؤمن بلحاظ حال التلبس أى بما أنهم كانوا مؤمنين قبل القتال، لا بلحاظ حال الجرى والتكلم. ٤- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبة/١١٩). فأمر الموصوفين بالإيمان، بالتقوى، أى الاتيان بالطاعات والاجتناب عن المحرمات، فدلّ على أن الايمان يجتمع مع عدم التقوى وإلا كان الأمر به لغواً وتحصيلاً للحاصل، إلا أن يحمل الأمر على الإستدامة فيخرج عن كونه تحصيلاً للحاصل. ٥- الآيات الدالة على كون القلب محلاً للإيمان. منها قوله تعالى: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) (المجادلة/٢٢). ولو كان العمل جزءاً منه لما كان القلب محلاً لجميعه. وقوله سبحانه: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي (٩٠) قُلُوبِكُمْ) (الحجرات/١٤) وقوله تعالى: (وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (النحل/١٠٦).

٦- آيات الطّبع والختم، فإنها تشعر بأن محلّ الإيمان هو القلب، ولأجل ذلك من طبع أو ختم على قلبه لا يؤمن أبداً. قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) (النحل/١٠٨) وقال سبحانه: (وَوَخَّتُمْ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ) (البقرة/٢٣). فإن قلت: دلّ الكتاب على أن الايمان عبارة عن التصديق الظاهر بالإقرار باللسان أو نحوه. فعندئذ كيف يكون محلّه هو القلب مع أنّ جزءاً منه الإظهار باللسان ونحوه. قلت: قد عرفت أنّ الايمان لغه هو التصديق قلباً، غاية الأمر دلّ الدليل على عدم كفايته إذا أنكره وجحد باللسان وإن أذعن به فى القلب. بل يمكن أن يقال: إنّ الايمان هو التصديق المورث للسكون والسكينة والتسليم. والجاحد بلسانه لا تحصل له تلك الحالة وإن حصل له العلم، لكن ليس كلّ علم ملازماً للإيمان بل هو أخصّ منه. ولأجل ذلك قال سبحانه: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء/٦٥) فالإيمان هو المعرفة المورثة للسكون، الباعثة إلى التسليم، ولا تحصل تلك الحالة للجاحد الحاقداً. هذا هو مقتضى الكتاب، ويؤيده الإجماع حيث جعلوا الإيمان شرطاً لصحة العبادات، ولا يكون الشىء شرطاً لصحة جزئه. وأما السنّة فهناك روايات تدلّ على أنّ الإقرار المقترن بالعرفان، ايمان. وإليك بعضها: روى الصدوق بسند صحيح عن جعفر الكناسى قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: ما أدنى ما يكون به العبد مؤمناً؟ قال: يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده و (٩١)

رسوله، ويقرّ بالطاعة، ويعرف إمام زمانه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن (١). ومثله غيره. وأما زيادة الايمان ونقصانه، فالظاهر من المتكلمين أنّ الإيمان لو كان هو التصديق فلا يزيد ولا ينقص، بخلاف ما لو جعلنا العمل جزءاً منه فهو يزيد وينقص بزيادته ونقصانه. والتحقق - كما سيأتى - خلافة، فهو على كلا القولين يزيد وينقص، لأنّ التصديق ذو مراتب، والتسليم مثله ذو درجات، وليس تسليم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الله، ولأحكامه، ولفروضه، ولسننه، أو معرفتهم، وإذعانهم كتسليم، ومعرفة سائر الناس، ومن أنكر ذلك فإنما ينكره بلسانه ولكن قلبه مطمئنّ ببطلانه. هل العمل جزء من الايمان؟

احتجّ القائل بأنّ العمل جزء من الإيمان بآيات: ١ - قوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

(الفتح/٤). ولو كانت حقيقة الايمان هي التصديق، لما قبل الزيادة والنقيصة، لأن التصديق أمره دائر بين الوجود والعدم. وهذا بخلاف ما لو كان العمل جزءاً من الايمان. فعندئذ يزيد وينقص حسب زيادة العمل ونقيصته. والزيادة لا تكون إلا في كمية عدد لا في ما سواه، ولا عدد للاعتقاد ولا كمية له (٢). يلاحظ عليه: أن الايمان بمعنى الإذعان أمر مقول بالتشكيك. فليقين مراتب، فيقين الإنسان بأن الإثنين نصف الأربع، يفارق يقينه في الشدة والظهور، بأن نور القمر مستفاد من الشمس، كما أن يقينه الثاني، يختلف عن يقينه بأن كل ممكن فهو زوج ————— ١ . البحار (ج ٦٦: ص ١٦) كتاب الايمان والكفر نقلاً عن (معاني الاخبار). ٢ . الفصل ج ٣ ص ١٩٤.

(٩٢)

تركيبى له ماهية ووجود، وهكذا ينتزل اليقين من القوة إلى الضعف، إلى أن يصل إلى أضعف مراتبه الذي لو تجاوز عنه لزال وصف اليقين، ووصل إلى حد الظن، وله أيضاً مثل اليقين درجات ومراتب، ويقين الإنسان بالقيامة ومشاهدها في هذه النشأة ليس كيقينه بعد الحشر والنشر، ومشاهدها بأم العين. قال سبحانه: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَ بَصُرْتُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٍ) (ق/٢٢) فمن ادعى بأن أمر الايمان بمعنى التصديق والإذعان، دائر بين الوجود والعدم، فقد غفل عن حقيقته ومراتبه. فهل يصح لنا أن ندعى أن ايمان الأنبياء بعالم الغيب، كإيمان الانسان العادي، مع أن مصوبيتهم من العصيان والعدوان رهن علمهم بآثار المعاصي وعواقبه، الذي يصدهم عن اقتراح المعاصي وارتكاب الموبقات. فلو كان إذعانهم كإذعان سائر الناس، لما تميزوا بالعصمة عن المعصية. وما ذكره من أن الزيادة تستعمل في كمية العدد منقوض بآيات كثيرة استعملت الزيادة فيها في غير زيادة الكمية. قال سبحانه: (وَيَجْرُؤُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُورُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) (الاسراء ١٠٩). وقال: (وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً) (الاسراء/٤١). والمراد شدة خشوعهم ونفورهم، لا كثرة عددهما، إلى غير ذلك من الآيات التي استعمل فيها ذلك اللفظ في القوة والشدة لا الكثرة العددية. ٢ - قوله سبحانه: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ) (البقرة/١٤٣) وإنما عنى بذلك صلاتهم إلى بيت المقدس قبل أن تنسخ بالصلاة إلى الكعبة. يلاحظ عليه: أن الاستعمال أعم من الحقيقة، ولا نشك في أن العمل أثر للإذعان ورد فعل له، ومن الممكن أن يطلق السبب ويراد به المسبب. إنما الكلام في أن الإيمان لغةً وكتاباً موضوع لشيء جزؤه العمل وهذا مما لا يشته الاستعمال. أضيف إليه أنه لو أخذنا بظاهرها الحرفي، لزم أن يكون العمل نفس الايمان لا جزءاً منه، ولم يقل به أحد. ٣ - قوله سبحانه: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء/٦٥). أقسم سبحانه (٩٣) بنفسه أنهم لا - يؤمنون إلا - بتحكيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتسليم بالقلب وعدم وجدان الحرج في قضائه. والتحكيم غير التصديق والتسليم، بل هو عمل خارجي. يلاحظ عليه: أن المنافقين - كما ورد في شأن نزول الآية - كانوا يتركون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرجعون في دعاويهم إلى الأحبار - مع ذلك - كانوا يدعون الايمان بمعنى الإذعان والتسليم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت الآية بأنه لا يقبل منهم ذلك الإدعاء حتى يرى أثره في حياتهم وهو تحكيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المرافعات، والتسليم العملي أمام قضائه، وعدم إحساسهم بالحرج مما قضى. وهذا ظاهر متبادر من الآية وشأن نزولها. فمعنى قوله سبحانه: (فلا وربك لا يؤمنون)، أنه لا يقبل ادعاء الايمان منهم إلا عن ذلك الطريق. وبعبارة ثانية: إن الآية وردت في سياق الآيات الآمرة بإطاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) (النساء/٦٤) والمنافقون كانوا يدعون الايمان، وفي الوقت نفسه كانوا يتحاكمون إلى الطاغوت. فنزلت الآية، وأعلنت أن مجرد التصديق لساناً ليس إيماناً. بل الايمان تسليم تام باطنى وظاهري. فلا يستكشف ذلك التسليم التام، إلا بالتسليم للرسل ظاهراً، وعدم التحرج من حكم الرسول باطناً، وآية ذلك ترك الرجوع إلى الطاغوت ورفع النزاع إلى النبي، وقبول حكمه بلا حرج. فأين هو من كون نفس التحكيم جزءاً من الإيمان؟ ٤ - قوله سبحانه: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ سَبِيلاً - وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران/٩٧) سمي سبحانه تارك الحج كافراً. يلاحظ عليه: أن المراد إما كفران النعمة وأن ترك الأمور به كفران لنعمة الأمر، أو كفر الملء لأجل جحد

وجوبه. هـ قوله سبحانه: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) (البينة/٥). والمشار اليه بلفظة «ذلك» جميع ما جاء بعد «إلا» من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فدلّت هذه الآية على دخول العبادات في ماهية الدين. (٩٤)

والمراد من الدين، هو الإسلام لقوله سبحانه (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران/١٩). وعلى ضوء هذا، فالعبادات داخله في الدين حسب الآية الأولى، والمراد من الدين هو الإسلام حسب الآية الثانية، فيثبت أن العبادات داخله في الإسلام، وقد دلّ الدليل على وحدة الإسلام والإيمان وذلك بوجوه: الف - الإسلام هو المبتغى لقوله: (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) (آل عمران / ٨٥) والإيمان أيضاً هو المبتغى، فيكون الإسلام والإيمان متحدين. ب - قوله سبحانه: (يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الحجرات / ١٧) فجعل الإسلام مرادفاً للإيمان. ج - قوله سبحانه: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الذاريات / ٣٥ - ٣٦) وقد أريد من المؤمنين والمسلمين معنى واحداً، فهذه الآيات تدل على وحدة الإسلام والإيمان. فإذا كانت الطاعات داخله في الإسلام فتكون داخله في الإيمان أيضاً لحديث الوحدة (١). يلاحظ عليه أولاً: أنه من المحتمل قوياً أن يكون المشار إليه في قوله (وذلك دين القيمة) هو الجملة الأولى بعد «إلا» أعني (ليعبدوا الله مخلصين له الدين) لا - جميع ما وقع بعدها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والمراد من قوله (ليعبدوا الله مخلصين له الدين) هو إخلاص العبادة لله، كإخلاص الطاعة (٢) له، والشاهد على ذلك قوله سبحانه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم / ٣٠). فإن وزن قوله (ذلك الدين القيم) وزان قوله (ذلك دين القيمة) والمشار إليه في الجملة الأولى هو _____ ١. الفصل: ج ٣ ص ٢٣٤، والبحار: ج ٦٦ ص ١٦ - ١٧. ٢. المراد من الدين في قوله «مخلصين له الدين» هو الطاعة.

(٩٥)

الدين الحنيف الخالص عن الشرك، بإخلاص العبادة والطاعة له سبحانه. ثانياً: يمنع كون العبادات داخله في الإسلام حتى في قوله سبحانه: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) وقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا...) لأن المراد منه هو التسليم أمام الله وتشريعاته، بإخلاص العبادة والطاعة له في مقام العمل دون غيره من الأوثان والأصنام، وبهذا المعنى سمي إبراهيم «مسلماً» في قوله تعالى: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران / ٦٧) وبهذا المعنى طلب يوسف من ربه أن يميته مسلماً قال سبحانه حكاية عنه: (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (يوسف / ١٠١) إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول إخلاص العبادة له، والتجنب من الشرك، فلو فرض أن العبادة داخله في مفهوم الدين، فلا دليل على دخولها في مفهوم الإسلام. ثالثاً: يمنع كون الإسلام والإيمان بمعنى واحد، فالظاهر من الذكر الحكيم اختلافهما مفهوماً. قال سبحانه: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (الحجرات / ١٣) فلو استعمل الإسلام أو المسلمين وأريد منهما الإيمان والمؤمنين في مورد أو موردين، فهو لوجود قرينة تدل على أن المراد من العام هو الخاص. إلى غير ذلك من الآيات التي جمعها ابن حزم في «الفصل» (١) ولا دلالة فيها على ما يرتبه، والاستدلال بهذه الآيات يدل على أن الرجل ظاهرى المذهب إلى النهاية يتعبد بحرثية الظواهر، ولا يتأمل في القرائن الحاففة بالكلام وأسباب النزول. نعم هناك روايات عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - تعرب عن كون العمل جزءاً من الإيمان وإليك بعضها: ١ - روى الكراجكي عن الصادق أنه قال: «ملعون ملعون من قال: الإيمان قول _____ ١. الفصل: بكسر الفاء وفتح الصاد بمعنى النخلة المنقولة من محلها إلى محل آخر لتشم، كقصعة وقصع.

(٩٦)

بلا عمل» (١). ٢ - روى الكليني عن أبي جعفر الباقر - عليه السلام - قال: «قيل لأمير المؤمنين - عليه السلام - من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كان مؤمناً؟ قال: فأين فرائض الله؟ قال: وسمعته يقول: كان عليّ - عليه السلام - يقول: لو كان الإيمان كلاماً لم

ينزل فيه صوم، ولا صلاة، ولا حلال، ولا حرام، قال: وقلت لأبي جعفر - عليه السلام - إن عندنا قوماً يقولون: إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهو مؤمن قال: فلم يضربون الحدود؟ ولم تقطع أيديهم؟ وما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم على الله عز وجل من المؤمن، لأن الملائكة خدام المؤمنين وأن جوار الله للمؤمنين، وأن الجنة للمؤمنين، وأن الحور العين للمؤمنين، ثم قال: فما بال من جحد الفرائض كان كافراً؟ (٢). والمراد من «جحد الفرائض» تركها عمداً بلا عذر، لا جحدها قلباً وإلا لما صلح للاستدلال. ٣ - روى الكليني عن محمد بن حكيم قال: قلت لأبي الحسن - عليه السلام - الكبائر تخرج من الايمان؟ فقال: نعم وما دون الكبائر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن (٣). ٤ - وروى أيضاً عن عبيد بن زرارة قال: دخل ابن قيس الماصر وعمر بن ذر - وأظنّ معهما أبو حنيفة - على أبي جعفر عليه السلام، فتكلم ابن قيس الماصر فقال: إنا لا نخرج أهل دعوتنا وأهل ملتنا من الايمان في المعاصي والذنوب. قال: فقال له أبو جعفر - عليه السلام - يا ابن قيس أما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد قال: لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن، فاذهب أنت وأصحابك حيث شئت (٤).
 ١ - البحار ج ٦٩ ص ١٩، الحديث ٢١. ٢ - الكافي ج ٢ ص ٣٣، الحديث ٢، والبحار ج ٦٦ ص ١٩، الحديث ٢. ٣. ٤ - الكافي ج ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥، الحديث ٢١. ٤ - الكافي ج ٢ ص ٢٨٥، الحديث ٢٢.

(٩٧)

٥ - وعن الرضا عن آباءه - صلوات الله عليهم - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - الايمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بالأركان (١). إلى غير ذلك من الروايات التي جمعها العلامة المجلسي - قدس سره - في بحاره، باب «الايمان مبثوث على الجوارح» (٢). أقول: الظاهر أنها وردت لغاية رد المرجئة التي تكتفي في الحياة الدينية بالقول والمعرفة، وتؤخر العمل وترجو رحمته وغفرانه مع عدم القيام بالوظائف، وقد تضافر عن أئمة أهل البيت - عليه السلام - لعن المرجئة. روى الكليني عن الصادق - عليه السلام - أنه قال: لعن الله القدرية، لعن الله الخوارج، لعن الله المرجئة، لعن الله المرجئة، فقلت: لعنت هؤلاء مرة مرة ولعنت هؤلاء مرتين قال: إن هؤلاء يقولون: إن قتلنا مؤمنون، فدمائنا متلطخة بشياهم إلى يوم القيامة. إن الله حكى عن قوم في كتابه: (أَلَا نُوْمِنُ لِرُسُوْلِ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْيَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ) قال: كان بين القاتلين والقاتلين خمسمائة عام فالزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا (٣). وروى أيضاً عن أبي مسروق قال: سألتني أبو عبد الله - عليه السلام - عن أهل البصرة ما هم؟ فقلت: مرجئة وقدرية وحرورية، قال: لعن الله تلك الملل الكافرة المشركة التي لا تعبد الله على شيء (٤). إلى غير ذلك من الروايات الواردة في ذم هذه الفرق التي كانت تثير روح العصيان والتمرد على الأخلاق والمثل بين الشباب، وتحرضهم على اقتراف الذنوب والمعاصي رجاء المغفرة. ١ - عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٢٢٦. ٢ - بحار الأنوار ج ٦٩ الباب ٣٠ من كتاب الكفر والايمان ص ١٨ - ١٤٩. ٣ - الكافي ج ٢، ص ٤٠٩، الحديث ١. ٤ - الكافي، ج ٢، ص ٤٠٩، الحديث ٢. والآية ١٨٣ من سورة آل عمران.

(٩٨)

والذي يظهر من ملاحظة مجموع الأدلة، هو أن الايمان ذو مراتب ودرجات، ولكل أثره الخاص. ١ - مجرد التصديق بالعقائد الحقة، وقد عرفت ثمرته وهي حرمة دمه وعرضه وماله، وبه يناط صحة الأعمال واستحقاق الثواب، وعدم الخلود في النار، واستحقاق العفو والشفاعة. ٢ - التصديق بها مع الايمان بالفرائض التي ثبت وجوبها بالدليل القطعي كالقرآن، وترك الكبائر التي أوعدها الله عليها النار، وبهذا المعنى أطلق الكافر على تارك الصلاة، ومانع الزكاة، وتارك الحج، وعليه ورد قوله صلى الله عليه وآله وسلم «لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن» وثمره هذا الايمان عدم استحقاق الإذلال والإهانة والعذاب في الدنيا والآخرة. ٣ - التصديق بها مع القيام بفعل الواجبات وترك جميع المحرمات. وثمرته اللّحوق بالمقرّبين، والحشر مع الصّديقين وتضاعف المثوبات، ورفع الدرجات. ٤ - نفس ما ذكر في الدرجة الثالثة لكن بإضافة القيام بفعل المنذوبات، وترك المكروهات، بل بعض المباحات،

وهذا يختص بالأنبياء والأوصياء (١). ويعرب عن كون الإيمان ذا درجات ومراتب، ما رواه الكليني عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبدالله - عليه السلام - فى حديث قال: «قلت: ألا تخبرنى عن الإيمان؟ أقول هو وعمل، أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بين فى كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب، ويدعوه إليه، قال: قلت: صفه لى جعلت فداك حتى أفهمه، قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات، ومنازل: فمنه التام المنتهى تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه. _____ ١. البحار ج ٦٩ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٩٩)

قلت: إن الإيمان ليم وينقص ويزيد؟ قال: نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها... الخ» (١). ويعرب عنه أيضاً ما رواه الصدوق عن أبي عبدالله - عليه السلام - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليس الإيمان بالتحلى، ولا بالتمنى، ولكن الإيمان ما خلص فى القلب، وصدقه الأعمال (٢). والمراد بالتحلى التزين بالأعمال من غير يقين بالقلب، كما أن المراد من التمنى هو تمتنى النجاة بمحض العقائد من غير عمل. وفى ما رواه التعمانى فى كتاب القرآن عن أمير المؤمنين - عليه السلام - شواهد على ذلك التقسيم (٣). خاتمة المطاف

إن البحث فى أن العمل هل هو داخل فى الإيمان أم لا، وإن كان مهماً قابلاً للمعالجة فى ضوء الكتاب والسنة، كما عالجنه، إلا أن للبحث وجهاً آخر لا تقل أهميته عن الوجه الأول وهو تحديد موضوع ما نطلبه من الآثار. فإذا دلّ الدليل على أن الموضوع لهذا الأثر أو لهذه الآثار هو نفس الاعتقاد الجازم، أو هو مع العمل، يجب علينا أن نتبعه سواء أصدق الإيمان على المجرد أم لا؟ سواء كان العمل عنصراً مقوماً أم لا؟ مثلاً: إن حقن الدماء وحرمة الأعراض والأموال يترتب على الإقرار باللسان سواء أكان مدعياً فى القلب أم لا، ما لم تعلم مخالفة اللسان مع الجنان. ولأجل ذلك نرى أن كل عربى وعجمى وأعرابى وقروى أقر بالشهادتين عند الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حكم عليه _____ ١. البحار ج ٦٩ ص ٢٣ - ٢٤ لاحظ تمام الرواية وقد شرحها العلامة المجلسى. ٢. البحار ج ٦٩ ص ٧٢ نقلاً عن معانى الاخبار ص ١٨٧. ٣. البحار ج ٦٩ ص ٧٣ - ٧٤ نقلاً عن تفسير النعمانى.

(١٠٠)

بحقن دمه واحترام ماله. قال أمير المؤمنين - عليه السلام - «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حرم على دماؤهم وأموالهم» (١). فهذه الآثار لا تتطلب أزيد من الإقرار باللسان ما لم تعلم مخالفته للجنان، سواء أصح كونه مؤمناً أم لا. وأما غير هذه من الآثار التى نعبر عنه بالسعادة الأخروية فلا شك أنها رهن العمل، وأن مجرد الاعتقاد والإقرار باللسان لا يضمن ولا يغنى من جوع. وهذا يظهر بالرجوع إلى الكتاب والسنة. قال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات ١٥). نرى أنه ينفى الإيمان عن غير العامل. وما هذا إلا لأن المراد منه، الإيمان المؤثر فى السعادة الأخروية، وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - «الأنسب للإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى، الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل» (٢). فالإمام - عليه السلام - بصدد بيان الإسلام الناجع فى الحياة الأخروية، ولأجل ذلك فبدره نهايةً بالعمل. ولكن الإسلام الذى ينسلك به الانسان فى عداد المسلمين، ويحكم له وعليه ظاهراً ما يحكم للسائرين من المسلمين، تكفى فيه الشهادة باللفظ ما لم تعلم المخالفة بالقلب، وعلى ذلك جرت سيرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه. فلو أوصلنا السبر والدقة إلى تحديد الإيمان فهو المطلوب، وإلا فالمهم هو النظر إلى الآثار المطلوبة وتحديد موضوعاتها حسب الأدلة سواء أصدق عليه الإيمان أم لا، سواء أدخل العمل فى حقيقته أم لا كما تقدم. هذا ما ذكرناه هنا عجاله، وسوف نميط الستر عن وجه الحقيقة عند البحث عن عقيدة الطائفتين - المعتزلة والخوارج - فى مورد مرتكب الكبيرة، ونحدد مفهوم الإيمان فى ضوء الكتاب والسنة. _____ ١. بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٢٤٢. ٢. نهج البلاغة: قسم

الحكم ، الرقم ١٢٥ .

(١٠١) المرجئة والفرق الأخرى:

الانسان يتصور بادئ بدء أن المرجئة كسائر الطوائف لهم آراء في جميع المجالات الكلامية، خاصة بهم، يفترون بها عن غيرهم، ولكن سرعان ما يتبين له أن الأصل المقوم للمرجئة هو مسألة تحديد الإيمان والكفر. وأما الموضوعات الأخرى فليس لهم فيها رأى خاص. ولأجل ذلك تفرقوا في آخر أمرهم إلى فرق متباعدة ومتضادة. فترى مرجئياً يتبع منهج الخوارج، ومرجئياً آخر يقتفى أثر القدرية، وثالثاً يشايح الجبرية. وما هذا إلا لأن الإرجاء قام على أصل واحد وهو تحديد الإيمان بالإقرار أو باللسان أو المعرفة القلبية. وأما الأصول الأخرى فليس لهم فيها رأى خاص قط. وصار هذا سبباً لذويانهم في الفرق الأخرى وتفرقوا على الفرق التالية: ١ - مرجئة الخوارج، ٢ - مرجئة القدرية، ٣ - مرجئة الجبرية، ٤ - المرجئة الخالصة. وهذه الطوائف بعضها بالنسبة إلى بعض على نقيض، فمرجئة القدرية تقول بالاختيار والحرية للانسان، ومرجئة الجبرية تنكره. ومع ذلك كله فالطائفتان تستظلمان تحت سقف واحد، وهو الإرجاء، وإن اختلفوا في سائر المسائل. نعم يوجد هناك مرجئة خالصة لم يتكلموا بشيء في بقية المسائل وذكر الشهرستاني لهم طوائف ست وهي: ١ - اليونسية ٢ - العبيدية ٣ - الغسانية ٤ - الشعبانية ٥ - التومينية ٦ - الصالحية. وهؤلاء لم يتكلموا إلا في الإرجاء واختلفوا في تحديد الإيمان بعد إخراج العمل منه، وتركوا البحث عن سائر الموضوعات، بخلاف الطوائف الثلاث المتقدمة. فإنهم اتركوا في الإرجاء واختلفوا في سائر الموضوعات. فمن مرجئى سلك مسلك الخوارج، يبغض عثماناً وعلياً، ويناضل ضد الحكام، إلى آخر يتفياً بفيء القدرية يحترم الخلفاء الأربع، ويرى الانسان فاعلاً مختاراً وفعله متعلقاً بنفسه. إلى ثالث يركب مطية الجبر ويرى الانسان أداة طيعة للقضاء والقدر. (١٠٢) شعراء المرجئة:

قد وجد بين المرجئة شعراء عبثوا عن عقيدتهم في قصائدهم ونذكر هنا شاعرين: ١ - ثابت بن قطنه. كان في صحابه يزيد بن المهلب يوليه أعمالاً من أعمال الثغور، وقد روى أبو الفرج الإصفهاني قصيده له في أغانيه مستهلها: يا هند فاستمعي لى أن سيرتنا * أن نعبد الله لم نشرك به أحداً نرجى الأمور إذا كانت مشبهه * ونصدق القول فيمن جار أو عندا المسلمون على الاسلام كلهموا * والمشركون استووا في دينهم قددا ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً * م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا لانسفك الدم إلا أن يراد بنا * سفك الدماء طريقا واحداً جددا من يتق الله في الدنيا فإن له * أجر التقى إذا وقى الحساب غدا و ما قضى الله من أمر فليس له * رد و ما يقض من شيء يكن رشدا كل الخوارج مخط في مقالته * ولو تعبد فيما قال و اجتهدا أما على و عثمان فانهما * عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا و كان بينهما شغب وقد شهدا * شق العصا و بعين الله ما شهدا يجرى علياً و عثماناً بسعيهما * و لست أدري بحق آية وردا الله يعلم ماذا يحضران به * وكل عبد سيلقى الله منفردا (١) ٢ - عون بن عبدالله بن علقمة بن مسعود: وقد وصف بكونه من أهل الفقه والأدب وكان يقول بالإرجاء ثم عدل عنه وقال مخطئاً ما اعتقده: فأول ما أفارق غير شك * أفارق ما يقول المرجئونا وقالوا مؤمن من آل جور * وليس المؤمنون بجائرنا وقالوا مؤمن دمه حلال * وقد حرمت دماء المؤمنين (٢) ١ . فجر الاسلام ص ٢٨١ - ٢٨٢ نقلاً عن الأغاني ج ٤ ص ٢٠٤ . ٢ . نفس المصدر: ص ٢٨٢، نقلاً عن الأغاني ج ٨ ص ٩٢ .

(١٠٣) خطر المرجئة على أخلاق المجتمع:

قد عرفت التطور في فكرة الإرجاء وأنه استقر رأى المرجئة أخيراً على أن الإيمان عبارة عن الإقرار باللسان أو الإذعان بالقلب، وهذا يكفي في اتصاف الانسان بالإيمان. ولو صح ما نسب إليهم في شرح المواقف «من عدم العقاب على المعاصي» (١) فالمصيبة أعظم. وهذه الفكرة فكرة خاطئة تسير بالمجتمع - وخصوصاً الشباب - إلى الخلاعة والإنحلال الأخلاقي وترك القيم، بحجة أنه يكفي في اتصاف الانسان بالإيمان، وانسلاكه في سلك المؤمنين، الإقرار باللسان أو الإذعان بالقلب، ولا نحتاج وراء ذلك إلى شيء من الصوم والصلاة، ولا يضره شرب الخمر وفعل الميسر، ويجتمع مع حفظ العفاف وتركه. ولو قدر لهذه الفكرة أن تسود في المجتمع، لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ومن الدين إلا اسمه. ويكون المتدين بهذه الفكرة كافراً واقعياً، اتخذ هذه الفكرة واجهه لما يكن في ضميره.

ولقد شعر أئمة أهل البيت - عليهم السلام - بخطورة الموقف، وعلموا بأن إشاعة هذه الفكرة عند المسلمين عامّة، والشيعه خاصه، سترجعهم إلى الجاهليّة، فقاموا بتحذير الشيعة وأولادهم من خطر المرجئه فقالوا: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئه» (٢). ١. شرح المقاصد للفتازاني ج ٢، ص ٢٢٩ و ٢٣٨. ٢. الكافي ج ٦ ص ٤٧، الحديث ٥. قال المجلسي في المرأة عند شرح هذا الحديث: «أى علموهم فى شرح شبابهم بل فى أوائل إدراكهم وبلوغهم التميز من الحديث ما يهتدون به الى معرفة الأئمة - عليهم السلام - والتشيع قبل أن يغويهم المخالفون ويدخلوهم فى ضلالتهم، فيعسر بعد ذلك صرفهم عن ذلك. والمرجئه فى مقابله الشيعة من الإرجاء بمعنى التأخير، لتأخيرهم علياً عليه السلام عن مرتبه، وقد يطلق فى مقابله الوعيدية إلا أن الأول هو المراد هنا».

ويحتمل أن يكون المراد هو الثانى بقريته «أولادكم» فإن فكرة الإرجاء بالمعنى الأول تضرّ الكلّ، وبالمعنى الثانى تضرّ الشباب الذين تهددهم الغرائز الجامحة كما أوعزنا إليه فى المتن. (١٠٤)

وفكرة الإرجاء فكرة خاطئه تضرّ بالمجتمع عامه. وإتّما خصّص الإمام منهم الشباب لكونهم سريعى التقبل لهذه الفكرة، لما فيها من إعطاء الضوء الأخضر للشباب لاقتراف الذنوب والانحلال الأخلاقى والانكباب وراء الشهوات مع كونهم مؤمنين. ولو صحّ ما ادّعتة المرجئه من الايمان والمعرفة القلبيّة، والمحبة لاله العالم، لوجب أن تكون لتلك المحبة القلبيّة مظاهر فى الحياة، فإنها رائدة الانسان وراسمة حياته، والانسان أسير الحبّ وسجين العشق، فلو كان عارفاً بالله، محباً له، لاتبّع أوامره ونواهيه، وتجنّب ما يسخطه ويتبع ما يرضيه، فما معنى هذه المحبة للخالق وليس لها أثر فى حياة المحبّ. ولقد وردت الإشارة إلى التأثير الذى يتركه الحبّ والودّ فى نفس المحبّ فى كلام الإمام الصادق - عليه السلام - حيث قال: «ما أحبّ الله عزّ وجلّ من عصاه» ثم أنشد الامام - عليه السلام - قائلاً: تعصى الإله وأنت تظهر حبه * هذا محالّ فى الفعال بديع لو كان حبك صادقاً لأطعته * إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع (١) إنّ للإمام الصادق - عليه السلام - احتجاجاً على المرجئه، علمه لأحد أصحابه وأبطل فيه حجّة القائل بكفاية الاقرار بالايمان قياساً على كفاية الانكار باللسان فى الكفر، وإليك الحديث: روى محمّد بن حفص بن خارجة قال: سمعت أبا عبدالله - عليه السلام - يقول: وسأله رجل عن قول المرجئه فى الكفر والايمان وقال: إنهم يحتجون علينا ويقولون: كما أنّ الكافر عندنا هو الكافر عند الله، فكذلك نجد المؤمن إذا أقرّ يا يمانه أنّه عند الله مؤمن، فقال: سبحان الله، وكيف يستوى هذان، والكفر إقرار من العبد فلا يكلف بعد اقراره بينة، والايمان دعوى لا يجوز إلاّ بينة، وبينته عمله وتبته، فإذا اتّفقا فالعبد عند الله مؤمن، والكفر موجود بكلّ جهة من هذه الجهات الثلاث، من نيّة، أو _____ ١. سفينة البحار: ج ١ ص ١٩٩ مادة «حب».

(١٠٥)

قول، أو عمل. والأحكام تجرى على القول والعمل، فما أكثر من يشهد له المؤمنون بالايمان، ويجرى عليه أحكام المؤمنين، وهو عند الله كافر، وقد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله وعمله (١). توضيح الرواية: أنّ الامام - عليه السلام - شبه الاقرار الظاهري بالدعوة كسائر الدعاوى، كما أنّ الدعوة فى الدعاوى لا تقبل إلاّ بينة، فكذا جعل الله تعالى هذه الدعوة غير مقبولة إلاّ بشاهدين من قلبه وجوارحه فلا يثبت إلاّ بهما. المرجئه وعلماء الشيعة

إنّ علماء الشيعة الإمامية تبعاً لأئمتهم، قاموا فى وجه المرجئه وحذروا الأئمة من ألوان خداعهم، علماً منهم بأنّ فى نفوذ فكرة الارغاء مسخ الإسلام ومحوه من أديم الأرض، وإليك كلمة قيّمة لفضل بن شاذان الأزدي النيسابورى (المتوفى عام ٢٦٠هـ) من أصحاب الأئمة الثلاثة: - الجواد والهادى والعسكرى - عليهم السلام - ذكرها فى كتابه (الايضاح ص ٢٠) قال: «ومنهم المرجئه الذين يروى منهم أعلامهم مثل إبراهيم النخعي، وإبراهيم بن يزيد التيمي، ومن دونهما مثل سفيان الثورى، وابن المبارك ووكيع، وهشام، وعلى بن عاصم عن رجالهم أنّ النّبى صلّى الله عليه وآله وسلم قال: صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب؛ القدرية والمرجئه. فقيل لهم: ما المرجئه؟ قالوا: الذين يقولون: الايمان قول بلا عمل. وأصل ما هم عليه أنّهم يدينون بأنّ أحدهم لو ذبح أباه وأمه وابنه وبنته

وأخاه وأخته، وأحرقهم بالنار، أو زنى، أو سرق، أو قتل النفس التي حرم الله، أو أحرقت المصاحف، أو هدم الكعبة، أو نبش القبور، أو أتى أى كبيرة نهى الله عنها، إن ذلك لا يفسد عليه إيمانه، ولا يخرج منه، وأنه إذا أقر بلسانه بالشهادتين إنه مستكمل الإيمان، إيمانه كإيمان جبرئيل وميكائيل - صلى الله عليهما - فعل ما فعل، وارتكب ما ارتكب مما نهى الله عنه، ويحتجون بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أمرنا أن نقاتل الناس حتى يقولوا: ١. الكافي: ج ٢ ص ٣٩ - ٤٠، الحديث ٨. (١٠٦)

لا - إله إلا الله، وهذا قبل أن يفرض سائر الفرائض وهو منسوخ. وقد روى محمد بن الفضل، عن أبيه، عن المغيرة بن سعيد، عن أبيه، عن مقسم، عن سعيد بن جبيرة قال: المرجئة يهود هذه الأمة. وقد نسخ احتجاجهم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم شهر رمضان (١). وله - رحمه الله - احتجاج ومناشدة مع المرجئة في كتابه فمن أراد فليرجع إليه (٢). هل كان أبو حنيفة مرجئياً؟ إن المشهور بين أرباب الملل والنحل أن الامام أبا حنيفة كان مرجئياً، ومن نقل ذلك، الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتابه «مقالات الإسلاميين» فقال: «الفرقة التاسعة من المرجئة أبو حنيفة وأصحابه يزعمون أن الإيمان المعرفة بالله، والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء به من عند الله في الجملة دون التفصيل». ثم ينقل عن غسان وأكثر أصحاب أبي حنيفة أنهم ينقلون عن أسلافهم أن الإيمان هو الإقرار والمحبة لله والتعظيم له والهيبة منه، وترك الاستخفاف بحقه، وأنه يزيد ولا ينقص (٣). والظاهر هو الأول لتنصيبه في كتاب «العالم والمتعلم» الذي أملاه وكتبه تلاميذه على ذلك وإليك النص: قال العالم - رضى الله عنه - الإيمان هو التصديق والمعرفة واليقين والإقرار والاسلام. والناس في التصديق على ثلاث منازل: فمنهم: من يصدق بالله وبما جاء منه بقلبه ولسانه. ١. (١٠٧)

ومنهم: من يصدق بلسانه ويكذب بقلبه. ومنهم: من يصدق بقلبه ويكذب بلسانه. قال المتعلم - رحمه الله - لقد فتحت لي باب مسألة لم أهدت إليه، فأخبرني عن أهل هذه المنازل الثلاث أهم عند الله مؤمنون؟ قال العالم - رضى الله عنه - من صدق بالله وبما جاء من عند الله بقلبه ولسانه فهو عند الله وعند الناس مؤمن. ومن صدق بلسانه وكذب بقلبه كان عند الله كافراً وعند الناس مؤمناً، لأن الناس لا يعلمون ما في قلبه. وعليه يسمونه مؤمناً بما ظهر لهم من الإقرار بهذه الشهادة وليس لهم أن يتكلفوا علم ما في القلوب. ومنهم من يكون عند الله مؤمناً وعند الناس كافراً وذلك بأن الرجل يكون مؤمناً بالله وبما جاء عنه. ويظهر الكفر بلسانه في حال التقية أى الإكراه فيسميه من لا يعرف أنه يتقى، كافراً، وهو عند الله مؤمن (١). وفي الفقه الأكبر المنسوب له ما هذا نصه: «الإيمان هو الإقرار والتصديق» وجاء فيه: «ويستوى المؤمنون كلهم في المعرفة واليقين والتوكل والمحبة والرضا والرجاء ويتفاوتون فيما دون الإيمان في ذلك كله». وجاء فيه: «الله متفضل على عباده عادل قد يعطى في الثواب أضعاف ما يستوجه العبد، تفضلاً منه وقد يعاقب على الذنب عدلاً منه وقد يعفو فضلاً منه»، وجاء فيه: «ولا نكفر أحداً بذنب ولا ننفي أحداً عن الإيمان» (٢). أقول: إن القول بأن الإيمان هو التصديق القلبي فقط، لا يدخل القائل في عداد المرجئة إذا كان مهتماً بالعمل ويرى النجاة والسعادة فيه، وأنه لولا له لكان خاسراً غير ١. العالم والمتعلم للإمام أبي حنيفة، تحقيق عمر رواس قلعة جي وعبد الوهاب الهندي الندوي، ص ٥٢ - ٥٣. ٢. ضحى الإسلام: ج ٣ ص ٣٢١.

(١٠٨)

رابح. فالمرجئة هم الذين يهتمون بالعقيدة ولا يهتمون بالعمل ولا يعدونه عنصراً مؤثراً في الحياة الآخروية، ويعيشون على أساس العفو والرجاء وبالجملة يهتمون بالرغب دون الرهب والله سبحانه يقول: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) (الأنبياء / ٩٠). وعلى ذلك فرمى كل من قال بأن الإيمان هو التصديق بالإرجاء، رمى في غير محله، فإذا كان المرمى ذا عناية خاصة بالعمل

بالأركان، والقيام بالجوارح، وكان شعاره قوله سبحانه: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفَىٰ خُسْرًا * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَ تَوَّصُوا بِالصَّبْرِ) فهو على طرف النقيض منهم، خصوصاً على ما نقله شارح المواقف من المرجئة بأنهم ينفون العقاب على الكبائر إذا كان المرتكب مؤمناً على مذهبهم. هذا إجمال القول في عقيدة المرجئة وما يترتب عليها من المفساد، ولأئمة أهل البيت عليهم السلام - كلمات في حقهم حذروا المجتمع فيها من تلك الطائفة يجدها المتتبع في محلّه (١). ويظهر من الأمير نشوان الحميري (المتوفى عام ٥٧٣هـ) شيوع المرجئة في عصره في الأوساط الإسلامية قال: «وليس كورة من كور الاسلام إلا والمرجئة غالبون عليها إلا القليل» (٢) - أعاذنا الله من شرّ الأبالسة. إكمال :

قد عرفت التطور في استعمال لفظ «المرجئة» وأنها تستعمل تارة في تأخير القول في عثمان وعلي، وعدم القضاء في حقهما بشيء، وإرجاع أمرهما إلى الله. وأخرى في تقديم القول على العمل وتأخيره عنه قائلاً - بأنه لا - تضرّ مع الايمان المعصية، كما لا تنفع مع

_____ ١. بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٩٢ فصل المعراج، وغيره. ٢. شرح الحور العين ص ٢٠٣، كما في «بحوث مع أهل السنة».

(١٠٩)

الكفر الطاعة، والحسن بن محمد بن الحنفية مبدع الإرجاء بالمعنى الأول، لا الثاني. وإطلاقها على المعنيين لاشتراكهما في التأخير. غير أن الدكتور جلال محمد عبد الحميد موسى نسب الإرجاء بالمعنى الثاني الى الحسن وقال: «إننا نجد بذور هذا المذهب عند الحسن بن محمد الحنفية (ت ١٠١هـ) وهو عالم من علماء أهل البيت، قد تصدّى للردّ على الخوارج حين نشروا مبدأهم الخطير «لا عقد بدون عمل» وهو يستلزم تكفير مرتكب الكبيرة واستحلال قتله، فأعلن «الحسن» أنه لا يضرّ مع الايمان معصية وأن الطاعات وترك المعاصي ليست من أصل الايمان، حتى يزول الايمان بزوالها» (١). وما ذكره خلط بين معنى الإرجاء فلاحظ، وقد تقدّم في كلام ابن حجر التصريح بذلك (٢). تمّ الكلام في المرجئة _____ ١. نشأة الأشعرية وتطورها: ص ٢٠. ٢. تهذيب التهذيب: ج ٢، ص ٣٢١. (١١٠) (١١١)

القدرية

القدرية

القدرية أسلاف المعتزلة

خرج المسلمون من الجزيرة العربية بدافع نشر الاسلام وبسط نفوذه، فلمّا استولوا على البلاد واستتبّ لهم الأمر، تفاجأوا بثقافات وحضارات، وشرائع وديانات، لم يكن لهم بها عهد، ففرضت الظروف عليهم الاختلاط والتعايش مع غير المسلمين، وربّما انتهى الأمر إلى التفاعل والتأثير بمبادئهم وأفكارهم، فوقفوا على أصول ومبادئ تخالف دينهم، فأوجد ذلك اضطراباً فكرياً بين الأوساط الإسلامية. كيف لا، وقد كان الخصم متدرّجاً بالسلاح العلمي، ومجهّزاً بأساليب كلامية، والمسلمون الغزاة بسطاء غير مجيدين كيفية البرهنة، والمجادلة العلمية مع خصمائهم، فصار ذلك سبباً لطرح أسئلة ونموّ اشكالات في أذهان المسلمين خارج الجزيرة العربية وداخلها، وقد كان الغزاة ينقلون ما سمعوا أو ما تأثروا به في حلّهم وترحالهم داخل المدن وخارجها. وهذا التلاقح الفكري بين المسلمين وغيرهم أدى إلى افتراق الأمة الإسلامية إلى طائفتين: الطائفة الأولى: وهم يشكّلون الأكثرية الساحقة في المسلمين، جنحت إلى الجانب السلبي وأراحت نفسها من الخوض في تلك المباحث، وإن كانت لها صلة بصميم الدين كالقضاء والقدر، وعيية الصفات للذات أو زيادتها عليها، كيفية (١١٢)

الحشر والنشر، ووجود الشرّ في العالم، مع كون خالقه حكيماً إلى غير ذلك ممّا لا يمكن فصلها عن الدين، وأقصى ما كان لدى هؤلاء المتزمتين، دعوة المسلمين إلى التعيّد بما جاء من النصوص في القرآن والسنة، وقد تصدّر هذه الطائفة الفقهاء وأهل الحديث

ولقد أثر عنهم قول وعمل يعرفان موقفهم في هذه التيارات، ويرجع مغزى ذلك إلى الأخذ بالجانب السلبى وترك الكلام الذى هو أسهل الأمرين، ولأجل ذلك قامت تلك الطائفة بتحريم علم الكلام والمنطق والفلسفة، وإن كان يهدف إلى تقرير العقائد الإسلامية عن طريق العقل والبرهان. وإليك نماذج من أقوالهم فى هذا المضمار: ١- عن أبى يوسف القاضى (م ١٩٢): طلب علم الكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم (١). ٢- وعن الشافعى: لأن يلقى الله تبارك وتعالى بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام (٢). ٣- وهذا الإمام مالك (م ١٧٩) لما سئل عن كيفية الاستواء على العرش؟ فقال: الاستواء معقول والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة (٣). فهؤلاء صوّروا البحث عن قوانين الكون، وصحيفة الوجود جهلاً، والجهل بها علماً، والبرهنة على وجوده سبحانه أمراً مذموماً، والسؤال عن مفاد الآيه ومرماها بدعة. فكأن القرآن أنزل للتلاوة والقراءة دون الفهم والتدبر، وكأن القرآن لم يأمر الناس بالسؤال من أهل الذكر إذا كانوا جاهلين. فإذا كان هذا حال قادة الأمة وفقهائها، فكيف حال من يقتدى بهم؟ ٤- سأل رجل عن مالك وقال: ينزل الله سماء الدنيا؟ قال: نعم. قال: نزوله بعلمه أم بماذا؟ فصاح مالك: اسكت عن هذا وغضب غضباً شديداً (٤). ٥- قد بلغ تطرف إمام الحنابلة إلى حد أن أبانور (م ٢٤٠) فسّر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله خلق آدم على صورته» على وجه لا يستلزم التجسيم والتشبيه بإرجاع الضمير إلى آدم حتى يتخلص من معتبهما، فهجره أحمد، فأناه أبو ثور، فقال أحمد: أى صورة كانت لآدم يخلق عليها، كيف تصنع بقوله: (خلق آدم على صورة الرحمان) فاعتذر أبو ثور

١- تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٥٣. ٢- حياة الحيوان للميرى ج ١ ص ١١، كما فى كتاب «المعتزلة» ص ٢٤٢. ٣- طبقات الشافعية: ج ٣ ص ١٢٦. ٤- الصواعق المرسله على الجهميه والمعتله، لابن قيم الجوزى، طبع مكه المكرمه، عام ١٣٤٨ ج ٢ ص ٢٥١، كما فى «المعتزلة» ص ٢٤٥.

(١١٣)

وتاب بين يديه (١). فالدواء عنده لكل داء هو الدعوة إلى التعبد بالنصوص تعبداً حرفياً من غير تحليل ولا تفسير. ٦- إن أحد أصحابه، الحارث المحاسبى (م ٢٤٣) ألف كتاباً فى الرد على المعتزلة، فأنكره أحمد وهجره. ولما اعترض عليه المحاسبى بأن الرد على البدعة فرض، أجاب أحمد بقوله: إنك حكيت شبهتهم أولاً- ثم أجبت عنها فلم تأمن أطالع الشبهه ولا- ألتفت إلى الجواب أو أنظر إلى الجواب ولا- أفهم كنهها (٢). يلاحظ عليه: أنه لا شك فى أن الردود على أصحاب البدع والضلالات، يجب أن تكون بشكل تهدى الأمة ولا تضلها، وتقمع الإشكال ولا ترسخه. فمن كانت له تلك الصلاحيه فعليه القيام بالرد والنقد. فهذا هو القرآن الكريم الأسوة المباركه، ينقل آراء المشركين ثم ينقضها ويدمرها، وإلا فمعنى ذلك أن يفسح المعيتون من علماء الإسلام للأبالسه أن يهاجموا الإسلام ويضعفوا أركانه، ويتخذوا الأحداث والشبان فريسه لأفكارهم يفتكون بهم، ويكون الغيارى من المسلمين القادرون على دفع هجومهم، متفرجين فى مقابل جراه العاصى وحمله الماجن «ما هكذا تورد يا سعد الإبل». وكيف يرضى الشارع الذى جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة على المسلمين بهذه

١- نفع الطيب ج ٣ ص ١٥٣، كما فى كتاب «المعتزلة». ٢- المنقذ من الضلال ص ٤٥ راجع كتاب المعتزلة ص ٢٤٥ - ٢٥١.

(١١٤)

النكسه. هذا حال الطائفة الأولى وإليك نبذة عن وضع الطائفة الأخرى. الطائفة الثانية: وهم الأقلية من أصحاب الفكر، وقد عاينوا المشاكل عن كثب وحاولوا حلها بالدراسة والتحليل. فلأجل تلك الغايه تدرعوا بمنطق الخصم وأساليبه الكلامية، فقلعوا بها الشبه وصانوا دينهم وإيمان أحداثهم عن زيغ المبطلين. كل ذلك بدافع الذب عن حريم الدين وصيانتها، وتجسيدا للأصل الأصيل فى الكتاب والسنة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - وأسوة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذى كان يدافع عن دين الله بسيفه وسنانه، وبنانه وبيانه، وكتبه ورسائله. وقد نجم بين الأمة فى هذه الطائفة علماء أختيار اشتروا رضا الله سبحانه بغضب المخلوق، فكانوا يحمون جسد الإسلام من التبال المرشوقه والموجهه من السلطه الحاكمة إليه، تحت ستار الدفاع عن الدين ومكافحة المضلين،

وقد أساء لهم التاريخ فأسماهم بالقدرية، خطأ من شأنهم، وإدخالاً لهم تحت الحديث المروي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم «القدرية مجوس هذه الأمة» وكان العصر الأموي (من الوقت الذي استولى فيه معاوية على عرش الملك إلى آخر من تولى منهم)، يسوده القول بالجبر، الذي يصور الانسان والمجتمع أنهما مسيران لا مخيران، وأن كل ما يجري في الكون من صلاح وفساد، وسعة وضيق، وجوع وكثرة، وصلاح وقتال بين الناس أمر حتمي قضى به عليهم، وليس للبشر فيه أي صنع وتصرف. وقد اتخذت الطغمة الأموية هذه الفكرة غطاءً لأفعالهم الشنيعة حتى يسدوا بذلك باب الاعتراض على أفعالهم بحجة أن الاعتراض عليهم إعتراض على صنعه سبحانه وقضائه وقدره، وأن الله سبحانه فرض على الانسان حكم ابن آكلة الأكباد وابنه السكير. وأبناء البيت الاموي الخبيث يعيشون عيشة رغد ورخاء وترف، ويعيش الآخرون على بطون غرثي وأكباد حري. وقد كانت هذه الفكرة تروج بالخطباء ووعاظ السلاطين مرتزة البلاط الاموي. (١١٥)

ففي هذه الظروف نهض رجال ذووا بصيرة لا يستسيغون هذه الفكرة، بل يرونها من حبال الشيطان، ألقيت لاصطياد المستضعفين، وسلب حرياتهم ونهب إمكانياتهم، فثاروا على الفكرة وأصحابها وناضلوا من أجل ذلك بصمود وحماس، وكان عملهم هذا انتفاضة في وجه المجبرة تنزيهاً لساحته سبحانه عمياً وصفه به الجاهلون، وسكت عنه الآخرون رهباً أو رغباً، فكان جزاؤهم القتل والصليب والتكيل بعد الحكم بتكفيرهم من جانب قضاة الجور، بدعوى مروقهم عن الدين وخروجهم على أمير المؤمنين!! عبد الملك بن مروان!! وسيفه الشاهر الحجاج بن يوسف. ونقدم إليك لمحات من حياتهم ونضالهم في طريق عقيدتهم، وأنهم لم يكونوا يدينون بشيء مميماً رموا به إلا القول بأن الانسان مختار في حياته، وأنه ليس له إلا ما سعى، ولم تكن عندهم فكرة التفويض التي تعادل الشرك الخفي، وإنما حدثت فكرة التفويض بعدهم بين المعتزلة. وعلى ذلك فهؤلاء المسنون بالقدرية ظلماً وعدواناً، أسلاف المعتزلة في الدعوة إلى حرية الانسان، لا في الدعوة إلى التفويض البغيض. واستغلت الأشاعرة ومؤلفو الملل والنحل لفظ «القدرية»، فاستعملوها في مخالفيهم تبعاً لأهل الحديث في هذه الظروف، فأطلقوها على كل من ادعى للانسان حرية في العمل واختياراً في الفعل الذي هو مناط صحته التكليف، ومدار بعث الرسل، فدعاة الحرية عندهم قدرية إما لاتهامهم - كذباً وزوراً - بانكار تقدير الله وقضائه، من باب إطلاق الشيء (القدرية) وإرادة نقيضه (انكار القدر ونفيه)، أو لاتهامهم بأنهم يقولون نحن نقدر أعمالنا وأفعالنا... وسيوافيك بحث حول هذه اللفظة عند خاتمة البحث. دعاة الحرية

١ - معبد بن عبدالله الجهني البصري (م ٨٠): أول من قال بالقدر في البصرة. سمع الحديث من ابن عباس، وعمران بن حصين وغيرهما وحضر يوم التحكيم، وانتقل من البصرة إلى المدينة فنشر فيها مذهبه، وكان صدوقاً ثقة في الحديث ومن التابعين، (١١٦)
 وخرج مع ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف، فخرج وأقام بمكة فقتله الحجاج صبراً بعد أن عذبه، وقيل صلبه عبد الملك بن مروان في دمشق على القول بالقدر ثم قتله (١). وقال المقرئ في خطبه: «أول من قال بالقدر في الإسلام معبد بن خالد الجهني وكان يجالس الحسن بن الحسين البصري، فتكلم بالقدر في البصرة، وسلك أهل البصرة مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله، وأخذ معبد هذا الرأي عن رجل من الأساورة يقال له أبو يونس سنسويه ويعرف بالأسواري، فلما عظمت الفتنة به عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان، سنة ثمانين من الهجرة - إلى أن قال: وكان عطاء بن يسار قاضياً يرى القدر وكان يأتي هو ومعبد الجهني إلى الحسن البصري، فيقولان له إن هؤلاء يسفكون الدماء ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله فقال: كذب أعداء الله قطعن عليه بهذا» (٢). ٢ - غيلان بن مسلم الدمشقي: وهو ثاني من تكلم بالقدر ودعا إليه ولم يسبقه سوى معبد الجهني. قال الشهرستاني في «الملل والنحل»: «كان غيلان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، وقيل تاب عن القول بالقدر على يد عمر بن عبد العزيز، فلما مات عمر جاهر بمذهبه فطلبه هشام بن عبد الملك وأحضر الأوزاعي لمناظرته. فأتى الأوزاعي بقتله، فصلب على باب كيسان بدمشق وقتل عام (١٠٥) (٣). قال القاضي عبد الجبار: «ومنهم (الطبقة الرابعة من المعتزلة) غيلان بن مسلم، أخذ العلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية» (٤). وقال ابن المرتضى نقلاً عن الحاكم: «أخذ غيلان الدمشقي المذهب عن الحسن بن محمد بن الحنفية ولم تكن مخالفته

(الحسن) لأبيه ولأخيه إلا في شيء من الإرجاء. روى _____ ١. الأعلام للزركلي ج ٨ ص ١٧٧ ناقلاً عن تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٢٥، وميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٨٣، وشذرات الذهب ج ١ ص ٨٨، والبداية والنهاية ج ٩ ص ٣٤. ٢. الخطط المقرينية: ج ٢ ص ٣٥٦. سيوافيك نظرنا في كلامه فانتظر. ٣. الملل والنحل: ج ١ ص ٤٧ ولسان الميزان ج ٤ ص ٤٢٤. والأعلام للزركلي ج ٥ ص ٣٢٠. ٤. طبقات المعتزلة: ص ٢٢٩ ولكلامه ذيل يجيء عن ابن المرتضى عند البحث عن جذور الاعتزال.

(١١٧)

أن الحسن كان يقول - إذا رأى غيلان في الموسم - أترون هذا، هو حجّة الله على أهل الشام، ولكنّ الفتى مقتول، وكان وحيد دهره في العلم والزهد والدعاء إلى الله وتوحيده وعدله، قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه. وسبب قتله أن غيلان كتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يحذّره فيه من انطفاء السنّة وظهور البدعة (١). فلما وصلت الرسالة إلى عمر بن عبد العزيز دعاه وقال: أعنى على ما أنا فيه. فقال غيلان: ولنى بيع الخزائن وردّ المظالم فولاه فكان يبيعها وينادى عليها ويقول: تعالوا إلى متاع الخونه، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنّته وسيرته، وكان فيما نادى عليه جوارب خزّ فبلغ ثلاثين ألف درهم، وقد أتكل بعضها. فقال غيلان: من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى وهكذا يأتكل والناس يموتون من الجوع. فمرّ به هشام بن عبد الملك قال: أرى هذا يعينى ويعيب آبائى وإن ظفرت به لأقطع يديه ورجليه فلما ولي هشام قتله على النحو الذى وعده (٢). وما ذكرناه من النصوص يوقفنا على أمور: ١ - إن القول بكون الإنسان مختيراً لا مسيراً يتصل جذورها بالبيت الهاشمي. فقد عرفت أن معبداً الجهني كان تلميذاً لابن عباس، وغيلان الدمشقي تتلمذ للحسن بن محمّد بن الحنفية. فما ذكره المقريني من أنه أخذ ذلك الرأي من أبي يونس سنسويه لا يركن إليه، بعد ثبوت تتلمذهما لقادة الفكر من البيت الهاشمي، ولعمران بن حصين الصحابي الجليل ومن أعلام أصحاب علي - عليه السلام - ٢ - إن نضال الرّجلين في العهد الأموي كان ضدّ ولاء الجور الذين كانوا يسفكون الدماء وينسبونهم إلى قضاء الله وقدره، فهؤلاء الأحرار قاموا في وجههم وأنكروا القدر بالمعنى الذى استغلته السلطة وبوّرت به أعمالها الشنيعة، وإلا فمن البعيد جداً من مسلم واع أن ينكر القضاء والقدر الواردين في الكتاب والسنّة على وجه لا يسلب الحرية من الإنسان ولا يجعله مكتوف الأيدي. _____ ١. ستوافيك رسالته فانتظر. ٢. المنية والأمل: ص ٢٦.

(١١٨)

٣ - إن هذا التاريخ يدلنا على أن رجال العيث والفساد إذا أرادوا إخفاء دعوة الصالحين اتهموهم بالكفر والزندقه ومخالفة الكتاب والسنّة. ٤ - إن صلب معبد الجهني بيد الحجاج السفّاك بأمر عبد الملك أوضح دليل على أن الرجل كان من دعاة الإصلاح، ولكن ثقل أمره على الطغمة الأمويّة فاستفزه من أديم الأرض وقطعوا جذوره بالصيبل والقتل، كما أن قيام غيلان في وجه هشام بن عبد الملك يعرب عن صموده في سبيل الحقّ وإزهاق الباطل وقلته به يدلّ على قداسة ما كان يذهب إليه. وعلى أىّ تقدير فهذان الرجلان، في الطليعة من دعاة الحرية والاختيار، وبعدان أسلافاً للاعتزال ولا يمتان له بصله غير الإشتراك في نفى الجبر والتسيير. ه - إن هؤلاء الأحرار وإن رُموا بالقدريّة بمعنى إنكار القضاء والقدر، ولكنهم كانوا بصدد إثبات الاختيار والحرية للإنسان في مقابل الجبر وإغلال الأيدي الذى كانت السلطة تشجعه، والاختيار هو الذى بُنيت عليه الشرائع وعليه شرّعت التكاليف، فإنكاره إنكار للأمر الضرورى. ولكنّ السلطة لأجل إخماد ثورتهم اتهمتهم بالقدريّة حتى تطعن بهم أنهم خالفوا الكتاب والسنّة الدالين على تقدير الأشياء من جانبه سبحانه وقضائه عليها، وأين هذه التهمة ممّا تمسك به القوم من الدعوة إلى الاختيار والحرية؟ وأما تفسير القدريّة في حقّ هؤلاء بتفويض الإنسان إلى نفسه وأفعاله، أنه ليس لله سبحانه أى صنع في فعله فهو تفسير جديد حدث بعد هؤلاء، وبه رُميت المعتزلة كما سيأتى الكلام فيه. وفي الحقيقة كانت دعوة هؤلاء ردّ فعل لاسطورة الجبر التي كانت ذاتعة في الصدر الأوّل عن طريق أهل الكتاب الذين تلبسوا بالإسلام، وكانت الأكثرية الساحقة من المسلمين يؤمنون بالقدر على وجه يجعل الإنسان مغلول اليدين. و

قد قال (١١٩)

أحد رجايز ذلك الزمان معبراً عن تلك العقيدة: يا أيها المضمر همًّا لا تهمُّ * إنَّك إنْ تُقَدِّرَ لك الحمى تُحَمِّمَ ولو علوت شاهقاً من العلم * كيف توقيك و قد جفَّ القلم (١) فإذا كان الرأي العام عند المسلمين هذا، فعلى العالم أن يظهر علمه. فلأجل ذلك نرى أن معبدًا الجهني و غيلان الدمشقي و القاضي عطاء بن يسار و غيرهم كعمر المقصوص (م/٨٠) الذي ظهر بدمشق و كان أستاذًا للخليفة معاوية بن يزيد بن معاوية و قتله الأمويون بتهمة إفساد الخليفة (٢) انتفضوا ضدَّ هذه الفكرة الفاسدة فلقوا ما لقوا من القتل و التنكيل، و قد أدوا رسالتهم. ولو أن علماء الإسلام في السنَّة و الجماعة قاموا بواجبهم في تلك الحقبة التاريخية و ما هابوا السلطة، لما ظهرت الحركات الرجعية بين الأمية الإسلامية في أوائل القرن الثاني، التي كانت تدعو إلى الجاهلية الأولى، ولأجل إيقاف القارئ على هذه الحركات و مبادئها سنعرض عليه بعض الحركات الرجعية التي ظهرت في القرن الثاني و الثالث بعد إكمال البحث في المقام فانتظر.

رسالة غيلان إلى عمر بن عبدالعزيز

الرسالة التي بعث بها غيلان إلى عمر بن عبدالعزيز توقفنا: أولاً: على مكانته من الصمود في وجه المخالفين، و مما جاء في تلك الرسالة: «أبصرت يا عمر و ماكدت أعلم يا عمر، أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً، و رسماً عافياً، فيا ميت بين الأموات، لا ترى أثراً فتتبع، ولا -تسمع صوتاً فتنتفع، طفى أمر السنَّة، و ظهرت البدعة، أخيف العالم فلا يتكلم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، و ربّما نجحت الأمة بالإمام، و ربّما هلكت بالإمام، فانظر أيّ الإمامين أنت، فإنّه تعالى يقول: _____ ١. تأويل مختلف الحديث: ص ٢٨ ط بيروت دار الجيل. ٢. مختصر الدول لابن العبري: ص ١٥١. لاحظ كتاب المعتزلة ص ٩١.

(١٢٠)

(وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) فهذا إمام هدى، و من اتّبعه شريكان، و أما الآخر: فقال تعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) (القصص: ٤١) ولن تجد داعياً يقول: تعالوا إلى النار - إذا لا يتبعه أحد - ولكنّ الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصي الله، فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضى ما يعذب عليه، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه، أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة، أو يعذبهم على الطاعة، أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم و التظالم، و هل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب أو التكاذب بينهم؟ كفى بيان هذا بياناً، و بالعمى عنه عمى (١). و هذه الرسالة التي نقلها ابن المرتضى تعرب أولاً: عن أنّ الرجل كان ذا همّة قعساء، و غيره لا يرضى معها بتدهور الأمور في المجتمع و رجوعه القهقري، أنّه بلغ من الإصحاح بالحقيقة أن خاطب خليفه الزمان بما جاء في هذه الرسالة.. و أين كلامه هذا «انظر أيّ الإمامين أنت» من كلام مرتزقة البلاط الأموي من حيث تقرّظهم للخلفاء و الثناء على أعمالهم القبيحة، و وصفهم بالسير على خطى الرسول محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم. هذا هو جرير بن عطية الخنفي يمدح بنى أمية بقوله: أستم خير من ركب المطايا * و أندى العالمين بطون راح و هذه ليلي الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف بقولها: إذا هبط الحجاج أرضاً مريضه * تتبع أقصى دائها فشفاه شفاها من الداء العضال الذي بها * غلام إذا هزّ القناة سقاها وقال الآخر: رأيت الوليد بن يزيد مباركاً * شديداً بأعباء الخلافة كاهله _____ ١. المنية و الامل ص ٢٥ - ٢٦.

(١٢١)

إلى غيرهم من الشعراء و الأدباء الذين يمدحون الطغاة بشعرهم لا بشعورهم و نثرهم لا بعقولهم. ثانياً: إنّ المتبادر من قوله «أو يعذب على ما قضى ... الخ» إنّما هو انكار القضاء الدارج في ألسن الأمويين من غلّ الأيدي و جعل الإنسان كالريشة في مهبّ الريح، و أما القضاء بمعنى العلم الأزلي بالأشياء و الحوادث فلم يعرف إنكاره له. محاكمة غيلان

و من العجب «وما عشت أراك الدهر عجباً» أنّ هشام بن عبد الملك قبض على غيلان الدمشقي فقال له: قد كثر كلام الناس فيك، فبعث إلى الأوزاعي، فلمّا حضر قال له هشام: يا أبا عمر ناظر لنا هذا القدرى، فقال الأوزاعي مخاطباً غيلان: اختر إن شئت ثلاث كلمات و إن شئت أربع كلمات و إن شئت واحدة. فقال غيلان: بل ثلاث كلمات. فقال الأوزاعي: أخبرني عن الله عزّ و جلّ هل

قضى على مانهى؟ فقال غيلان: ليس عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: هذه واحدة. ثم قال: أخبرني عن الله عز وجل أحال دون ما أمر؟ فقال غيلان: هذه أشد من الأولى، ما عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: هذه اثنتان يا أمير المؤمنين ثم قال: أخبرني عن الله عز وجل هل أعان على ما حرم؟ فقال غيلان: هذه أشد من الأولى والثانية، ما عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: هذه ثلاث كلمات. فأمر هشام فضربت عنقه (١). ثم إن هشاماً طلب من الأوزاعي أن يفسر له هذه الكلمات الثلاث. فقال _____ ١. لا تنس أن هشاماً قد يمّم قتله قبل القاء القبض عليه وقبل هذه المناظرة المسرحية.

(١٢٢)

الأوزاعي: أمّا الأول فإن الله تعالى قضى على ما نهى، نهى آدم عن الأكل من الشجرة ثم قضى عليه بأكلها. أمّا الثاني فإن الله تعالى حال دون ما أمر، أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود، و أمّا الثالث، فإن الله تعالى أعان على ما حرم، حرم الميتة والدم ولحم الخنزير، ثم أعان عليها بالاضطرار... (١). يلاحظ على هذه المناظرة:

أولاً: أن الجهل بهذه الأسئلة الثلاثة لو كان مبرراً لضرب العنق، فهشام بن عبد الملك خليفة الزمان أولى بهذا، لأنه كان أيضاً جاهلاً بها بدليل استفساره عنها من الأوزاعي. فلماذا لا تضرب عنقه أيضاً؟ وهذا يعرب عن أن الحكم بالإعدام كان صادراً قبل المناظرة، وإنما كانت المناظرة بين يدي الأوزاعي تبريراً للإعدام حتى لا يقال إن الحكم صدر إعتباطاً. ثانياً: ما سأله الأوزاعي عنه ثم أجاب عنه، يدل على أنه كان يمشى على خط الجبر، وأنه كان معتقداً بأن قضاء الله يسلب عن الإنسان الحرية والاختيار. فكان أكل آدم من الشجرة بقضاء من الله و ما كان له محيص عن الأكل، كما أن تخلف إبليس عن السجود كان بقضاء الله و لم يكن له مفر عن المعصية. وقد حال سبحانه بينه وبين السجود على آدم، ومن المعلوم أن غيلان الدمشقي و كل موحد يعتقد بصحة بعث الرسل و صحته التكليف ... لا- يراه صحيحاً. ثالثاً: إن المناظرة لم تكن مبتية على أصولها. فإن من أدب المناظرة أن يطرح السؤال أو الإشكال على وجه واضح، حتى يتدبر الآخر فيما يرتبه المناظر من الجواب، وأمّا الأسئلة التي طرحها الفقيه الأوزاعي فإنها أشبه بالأحاجي واللغز، لا- يستفاد منها إلا- في مواضع خاصة لاختبار ذكاء الإنسان، ولم يكن المقام إلا- مقام السيف والدم لا- الإختبار للذكاء. _____ ١. تاريخ المذاهب الاسلاميه ج ١ ص ١٢٧- ١٢٨ نقلاً عن العقد الفريد وشرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون.

(١٢٣)

وفي حدسي أن غيلان الدمشقي قد وقف على نية الأوزاعي و أنه يريد أن يأخذ منه الإعراف بأحد الأمرين إما بالجبر إذا أجاب بمثل ما يريد، و عندئذ يكون مناقضاً لعقيدته. وإما بالاختيار و الحرية فيكون محكوماً بالإعدام و ضرب العنق. فاختر السكوت و عدم الإجابة حتى يتخلص من كلتا المعتقدتين. و ما كان المسكين عارفاً بأن الحكم بالإعدام قد سبق السؤال و الجواب، و هذه المناظرة مناظرة مسرحية رُتبت لتبرير إراقه دمه تحت غطاء السؤال و الجواب. هذا وقد قام بعض المعتمدين بالملل و النحل، بنشر ما وصل إليه من الوثائق عن بدايات علم الكلام في الاسلام، فنشر ضمن مجموعة رسالتين: رسالة الحسن بن محمد ابن الحنفية في القدر، و رسالة عمر بن عبدالعزيز فيه أيضاً. و سيوافيك الكلام حولهما في آخر المطاف. و للكتاب ملحق يهدف إلى تبيان بعض القضايا المتعلقة بشخصية من شخصيات القدرية المفكرين و هو غيلان الدمشقي، و خاصة تلك القضايا المتعلقة بحياته و إعدامه في زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٢٥). قال محقق الكتاب: و تدل معظم الروايات على أنها أفاصيص موضوعه اختلقتها روايتها ليرهنوا على أن غيلان كان خارجاً عن الجماعة، و أن حججه كانت غير مقنعة، و أن السلطة السياسية كانت على حق عندما أعدمته. و هذا كله مما يجعل استخلاص ما حدث على وجه الدقة أمراً صعباً، على أنني حاولت توضيح الأمر بمعلومات استقيتها من كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري، بالإضافة إلى المصادر الأخرى (١). _____ ١. بدايات علم الكلام في الاسلام: رسالتان في الرد على القدرية مع ملحق في أخبار غيلان الدمشقي حققها و ترجمها و علّق عليها يوسف فان أس نشرها المعهد الالماني للأبحاث الشرقية في بيروت. و قد وقفنا على تصوير الرسالتين الاولين دون الملحق و اكتفينا ببيان كلام المحقق.

(١٢٤) خاتمة المطاف

قد تكرر لفظ «القدرية» في كلمات أهل الحديث و المتكلمين و مؤلفي الفرق و الملل و النحل، و رويت حولها أحاديث و هي إحدى المصطلحات الدارجة بينهم، و تحاول كل طائفة أن تتبرأ منها و تتهم مخالفيها بها. ولأجل إكمال البحث نتحدث عن سند الحديث أولاً، و دلالة ثانياً على وجه الإجمال، وإليك متن الحديث بصورة: ١- روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم و إن ماتوا فلا تشهدوهم». ٢- و روى أيضاً عن عبد الله بن عباس (١) أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم». ٣- روى الترمذي عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة، و القدرية» (٢). إذا عرفت متن الحديث فإن الكلام يقع في موردين: الأول: في سند الحديث. فهل روى بسند صحيح يمكن الاحتجاج به أو لا؟ الثاني: فما هو المقصود من القدرية على فرض صحته؟ أما من ناحية السند، فيكفي في ضعف الأول ما قاله المنذرى: «إنه منقطع لأنه يرويه سلمة بن دينار عن ابن عمر، و لم يدركه، و قد روى عن ابن عمر من طرق لا يثبت منها شيء». و يكفي في ضعف سند الثاني وجود «حكم بن شريك الهذلي البصري» فيه و هو مجهول لم يعرف. ١. كذا في جامع الأصول ولكن في سنن أبي داود، «عمر بن الخطاب» مكان «عبد الله بن عباس»، لاحظ: ج ٤، ص ٢٢٨، الحديث ٤٧١٠. ٢. جامع الأصول: ج ١٠ ص ٥٢٦.

(١٢٥)

و في ضعف سند الثالث وجود «محمد بن فضيل بن غزوان» و هو ضعيف (١). أضف إلى ذلك أن جمعاً من الحفاظ عدوا أصل الحديث من الموضوعات. منهم سراج الدين القزويني قال: إنه موضوع و تعقبه ابن حجر (٢). و قال أبو حاتم: «هذا الحديث باطل»، و قال النسائي: «هذا الحديث باطل كذب»، و قال ابن الجوزي: «حديث لعن القدرية لا شك في وضعه» (٣). هذا وضع السند، و أما الدلالة، فقد اختلف النظر في مفاده، كل من المجبرة و العديئة يتبرأ منه، و يريد تطبيقه على خصمه. فأهل الحديث و الحشوية و السلفية و الأشعرية الذين يتسمون بسمه الجبر الجلي أو الخفي، يفسرون القدرية بفساد القدر، من باب إطلاق الشيء و إرادة نقيضه، و المعتزلة و أسلافهم، أعنى دعاة الحرية و الاختيار يتهمون الجبرية بالقدرية، لأنهم قائلون بالقدر و التقدير، و أن كل شيء يتحقق بتقدير من الله سبحانه و لا محيص عما قدر و قضى. و هناك كلمة للعلامة محمد بن علي الكراچكي (م ٤٤٩) من تلاميذ الشيخ المفيد لا بأس بنقلها، قال: «و لم نجد في أسماء الفرق ما ينكره أصحابه و يتبرأ منه سوى القدرية». فأهل العدل يقولون لأهل الجبر: أنتم «القدرية»، و أهل الجبر يقولون لأهل العدل: «أنتم القدرية»، و إنما تبرأ الجميع من ذلك لأنهم رووا - من طريق أبي هريرة - عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه لعن القدرية و قال: «إنهم مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم، و إن ماتوا فلا تشهدوهم» (٤). و قد حاول الأشعري تطبيق الحديث على المعتزلة و قال: «زعمت القدرية - يريد بها المعتزلة و أسلافهم - أننا نستحق اسم القدر، لأننا نقول: إن الله عز و جل قدر الشر _____ ١. جامع الأصول: ج ١٠ ص ٥٢٦. ٢. جامع الأصول: ج ١٠ ص ٥٢٦. ٣. الموضوعات لابن الجوزي: ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ و اللثالي المصنوعة للسيوطي، ج ١، ص ٢٥٨. ٤. كنز الفوائد: ج ١ ص ١٢٣ ط بيروت.

(١٢٦)

و الكفر، فمن يثبت القدر كان قدرياً دون من لم يثبت. ثم أجاب عن استدلال المعتزلة و قال: «القدرى من يثبت القدر لنفسه دون ربه عز و جل، و أنه يقدر أفعاله دون خالقه، و كذلك هو في اللغة، لأن الصانع هو من زعم أنه يصوغ دون من يقول إنه يصاغ له، فلما كانت المعتزلة تزعم أنهم يقدرون أعمالهم و يفعلونها دون ربهم، و جب أن يكونوا قدرية، و لم تكن نحن قدرية لأننا لم نضف الأعمال إلى أنفسنا دون ربنا و لم نقل: إننا نقدرها دونه. قلنا إنك تقدر لنا» (١). يلاحظ عليه: أن القضاء و القدر من الكلمات الواردة في الكتاب و السنة بكثرة. و الفاعل في الجميع هو الله سبحانه و تعالى، لا الإنسان قال تعالى: (والمذى قدر فهدى) (الأعلى-٣) و قال: (إننا كل شيء خلقناه بقدر) (القمر/٤٩). فلو أطلق «القدرية» يراد به المعتقد لما جاء في المصدرين من قضاء الله و قدره، لا المعتقد بأن

الإنسان هو الذى يقدر أفعاله و أعماله. وأعجب من ذلك قياسه اسم الفاعل على المصادر المنسوبة، فالأول كالصائغ يراد منه الفاعل أى من يصوغ، دون الثانية. بل يراد منها المعتقد بالمصدر الذى نسب إليه، كالجبرية: من يعتقد بالجبر، والعدلية: من يعتقد بالعدل، وهكذا. ثم إن هنا محاولات أخرى لأجل تطبيق الحديث على عقيدة دعاء الحرية والاختيار غير ما عرفته من كلام الأشعرى من أن الإنسان هو المقدر لأعماله، كما عرفت ضعفه وإليك بيانها: ١- القدرية منسوبة إلى «القدرة» بمعنى الاستطاعة، فمن قال بتأثير قدرة الإنسان فى فعله و أنها المصدر له، فهو قدرى. يلاحظ عليه: أنه لو صح هذا الوجه لوجب ضمّ الفاء دون فتحها، والمشهور هو الأول ولم يسمع الثانى. ————— ١. الابانة: ص ١٤٦.

(١٢٧)

أضف إليه أن المناسب على هذا الوجه هو التعبير «بالقادريّة» لا- «القدرية» بضمّ الفاء الذى هو غير مأنوس للأذهان و الأفهام. ٢- إن الحديث من باب إطلاق الشىء و إرادة نقيضه، أى نفاة القدر و منكره، وسيأتى فى حديث أحمد ما يوافق ذلك. يلاحظ عليه: أنه لم ير مثله فى أمثاله، فلا تطلق الجبرية، ولا العدلية على نفاة الجبر والعدل. أضف إليه أنه لم يظهر من هؤلاء - أعنى معبداً الجهنى ولا غيلان الدمشقى - إنكار التقدير بالمعنى الصحيح، غير المنافى للحرية والاختيار، فإذا أردنا أن نعرف مذهبهم فى مجال القضاء و القدر، فيلزم علينا الرجوع إلى مذهب خصومهم، فإن الأمور تعرف بأضدادها، و حاشا أن يكون المسلم الواعى منكراً للقضاء و القدر الواردين فى الكتاب و السنة، غير السالين للاختيار و الحرية، غير المنافين لصحة التكليف و بعث الرسل. و إنما أنكروا القدر بالمعنى الذى كان البلاط و مرتزقته ينتحلونه لتبرير أعمالهم الإجرامية، ولا يرون للإنسان ولا لأنفسهم أية مسؤولية فيها، و يرفعون عقيرتهم بأن كل ما فى الكون من خير و شر، و كظّة و سغب، إنما يرجع إلى إرادته سبحانه. فلا يصح الاعتراض على جوع المظلوم و شبع الظالم. و هؤلاء الأحرار قد قاموا فى وجه الأمويين و أنكروا القدر بهذا المعنى الذى يعرف الإنسان كالريشة فى مهبّ الريح. ونفى القدر بهذا المعنى، غير نفيه بالمعنى الصحيح سواء فسّر بالعلم و الإرادة الأزلين، أم بتقدير الأشياء و القضاء على وجودها و تقدير الإنسان بينهما موجوداً مختاراً مسؤولاً عن فعله، و القضاء على ما يصدر منه بهذه الصورة على ما أوضحناه فى محلّه. ٣- ما نقله الشيخ أبو زهرة عن الشيخ مصطفى الصبرى شيخ إسلام (تركيا) السابق وهو مقارنة رأيهم بعض عقائد المجوس، فالمجوس ينسبون الخير إلى الله و الشر إلى الشيطان و كذلك هؤلاء القدرية يفرقون بين الخير و الشر فيسندون الخير إلى الله (١٢٨)

و الشر إلى الشيطان (١). يلاحظ عليه: أن نسبة التوبة بالمعنى الذى ذكره شيخ إسلام تركيا إلى المعتزلة رجم بالغيب، فإن المعروف من مذهب المعتزلة فضلاً عن أسلافهم هو نسبة الخير و الشر إلى الإنسان نفسه لا التفريق بينهما. وهذا كلام قاضى القضاء عبد الجبار، يمنع بتاتا عن انتساب فعل الإنسان إلى الله خيره و شرّه و يقول: «إن أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله و من عنده و من قبله، وذلك واضح، فإن أفعالهم حدثت من جهتهم و حصلت بدواعيهم و قصودهم، واستحقوا عليها المدح و الذم، والثواب و العقاب فلو كانت من جهته تعالى أو من عنده أو من قبله لما جاز ذلك...» (٢). هذا بعض الكلام حول الحديث و مفاده و من أراد البسط والاستيعاب فعليه المراجعة إلى «شرح الأصول الخمسة» ص ٧٧٢ - ٧٧٨، و شرح التجريد للعلامة الحلى، ص ١٩٦، ط صيدا و شرح المقاصد للتفتازانى ج ٢، ص ١٢٢ و التمهيد للباقلانى الفصل الثامن والعشرين». ولو أن الرسول يعدّ القدرية فى هذا الحديث مجوس هذه الأمة، ففى بعض ما روى عن ابن عمر عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم عدت نفاة القدر مجوس الأمة، وإليك نزراً منه: روى أحمد فى مسنده عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «لكلّ أمة مجوس، و مجوس أمتى الذين يقولون لا قدر، إن مرضوا فلا تعودوهم و إن ماتوا فلا تشهدوهم» (٣). و روى الترمذى و أبو داود عن نافع مولى ابن عمر أن رجلاً جاء ابن عمر فقال: «إن فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال ابن عمر: بلغنى أنه قد أحدث التكذيب بالقدر، ————— ١. تاريخ المذاهب الاسلامية: ج ١ ص ١٢٤. ٢. شرح الأصول الخمسة: ص ٧٧٨. ٣. مسند أحمد: ج ٢ ص ٨٦.

(١٢٩)

فإن كان قد أحدث فلا تقرأ مني السلام فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ويكون في هذه الأمة، أو في أمتي - الشك منه - خسف و مسخ و ذلك بالمكذبين بالقدر» (١). ولا يخفى وجود التعارض الصريح بين كون القدرية مجوس الأمة، و كون نافي القدر مجوسها. و تفسير الأول بنفاه القدر تفسير بلا دليل، بل تفسير على خلاف اللغوة و العرف. و يكفي في ضعف الحديث الثاني أنه وقع التأكيد و صدر الشك في القدر في العصور الماضية، ولم يعم الخسف و المسخ للمكذبين و الشاكين فيه. إن السابر في كتب الحديث و التاريخ و الملل و النحل يرى العناية التامة من أصحاب الحديث و غيره لمسألة القدر. و قد كانت تحتل في تلك العصور، المكانة العليا بين المسائل العقيدية حتى كان مدار الإيمان و الكفر فكان المثبت مؤمناً و النافي كافراً. هذا مع أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبل إسلام آلاف القائلين بالشهادتين من دون أن يسألهم ولو في مورد عن القضاء و القدر، وأنه هل يعتقد القائل، بأن الله سبحانه يقدر أفعال الإنسان و أعماله، فيحكم عليه بالإسلام أو لا، فيحكم عليه بالكفر. إذن فما معنى هذه العناية الحادثة بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المسألة؟ أليس هذا يدفع الإنسان إلى القول بأنها كانت مسألة مستوردة، زرعها الأخبار و الزهبان، و غذتها السلطة الأموية و ... وبالتالي شق بها عصا المسلمين و صاروا يكفر بعضهم بعضاً. هذا و إن الشيخ البخاري يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله، و إقام الصلاة، و إيتاء الزكاة و الحج و صوم رمضان» (٢). ————— ١. جامع الأصول: ج ١٠ ص ٥٢٦ - ٥٢٧. ٢. صحيح البخاري: ج ١ ص ٧ من كتاب الايمان.

(١٣٠)

وروى عبادة بن الصامت و كان شهد بدرًا و هو أحد النقباء ليلة العقبة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال - وحواله عصابة من أصحابه -: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً و لا تسرقوا و لا تزنوا و لا تقتلوا أولادكم و لا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم و أرجلكم و لا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله و من أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، و من أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه و إن شاء عاقبه» فبايعناه على ذلك (١). فلو كان للاعتقاد بالقدر، تلك المكانة العظمى، فلماذا لم يذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مورد، ولماذا تركه سبحانه عند أمره رسولاً بأخذ البيعة عن النساء؟ (٢) كل ذلك يشرف الإنسان على القطع بأن البحث عن القدر و المغالاة فيه، كان بحثاً سياسياً وراءه غاية سياسية لأصحاب السلطة و الإدارة. و إلا فلا وجه لأن يتركه الوحي في أخذ البيعة عن النساء. و لا الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم في عرض الإسلام و تبينه و قبوله من الآلاف المؤلفه من المتشرفين بالإسلام. رسائل ثلاث حول القدر

ولو طلب القارئ الكريم التعرّف على التشاجر الذي كان قائماً على قدم و ساق في بيان معنى القدر و أنه ماذا كان يراد منه، وأنه هل كان الاعتقاد به يوم ذاك ملازماً للجبر أو لا؟ فعليه بدراسة ثلاث رسائل في هذا المجال، تعدّ من بدايات علم الكلام في الإسلام و قد نشرت تلك الرسائل حديثاً وهي: ١- الرسالة المنسوبة إلى الحسن بن محمد بن الحنفية، و الرسالة كتبت بايحاء من الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (م ٨٦ هـ) و يرجع تاريخ تأليفها إلى عام ٧٣ هـ فيكون أقدم رسالة في هذا المجال إن صحّت النسبة إليه. ————— ١. صحيح البخاري: ج ١ ص ٨-٩ من كتاب الايمان. ٢. الممتحنة / ١٢.

(١٣١)

٢- ما كتبه الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (م ١٠١ هـ) إلى بعض القدرية المجهول الهوية و قد جاء القدر في الرسلتين مساوفاً للجبر. و قد فرض الحاكم الأموي قديراً ينكر علمه سبحانه الأزلي بالأشياء و أفعال العباد، فيردّ عليه بحماس على نحو يستنتج منه الجبر، و الرسالة جديرة بالقراءة حتى يعلم أن الأمويين من صالحهم إلى طالحهم كيف شوّهوا الإسلام، و صاروا أصدق موضوع لقول القائل «ولولاكم لعم الإسلام العالم كله». و قد نشرت هذه الرسالة بصورة مستقلة. و طبعت ضمن ترجمة عمر بن عبدالعزيز في كتاب حلية الأولياء ج ٥ ص ٣٤٦-٣٥٣. ٣- ما كتبه الحسن بن يسار المعروف بالحسن البصري (م ١١٠ هـ) حيث إن الحجاج بن يوسف كتب إلى

الحسن: «بلغنا عنك في القدر شيء» فكتب إليه رسالة طويلة ذكر أطرافاً منها ابن المرتضى في المنية و الأمل ص ١٣-١٤. قال الشهر ستاني: «ورأيت رسالة (١) نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبدالملك ابن مروان و قد سأله عن القول بالقدر والجبر. فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية و استدلل فيها بآيات من الكتاب و دلائل من العقل. وقال: ولعلها لو اصل بن عطاء فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره و شره من الله تعالى. فإن هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم. والعجب أنه حمل هذا اللفظ الوارد في الخبر على البلاء و العافية، والشدة والرشاء، والمرض والشفاء، والموت والحياة، إلى غير ذلك من أفعال الله تعالى دون الخير والشر، والحسن والقيح، الصادرين من اكتساب العباد. وكذلك أورده جماعة من المعتزلة في المقالات عن أصحابهم» (٢). ولا وجه لما احتمله من كون الرسالة لو اصل، إلا تصلبه في مذهب الأشعري و أن فاعل الخير والشر مطلقاً - حتى الصادر من العبد - هو الله سبحانه دون العبد، ومن _____ ١. نقل القاضي عبد الجبار نص الرسالة في كتابه «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» ص ٢١٥ - ٢٢٣. الملل والنحل ج ١ ص ٤٧، لاحظ نص الرسالة في الجزء الأول من هذه الموسوعات ثم اقص.

(١٣٢)

كان هذا مذهبه، يستبعد أن ينسب ما في الرسالة إلى الحسن البصري - ذلك الإمام المقدم عند أهل السنة - وأما على المذهب الحق من أن الفاعل الحقيقي لأفعال الإنسان هو نفسه، لا - على وجه التفويض من الله إليه، بل بقدره مفاضة منه إليه في كل حين، واختيار كونه ذاته به، و حرية فطرت بها فالفعل فعل الإنسان، وفي الوقت نفسه فعل الله تسيباً، بل أدق وأرق منه كما حقق في محله. وأخيراً نلفت نظر القارئ إلى ما كتبه كافي الكفاة صاحب إسماعيل بن عباد (ت: ٣٢٦ - م - ٣٨٥) في الرد على القدرية أسماها «الابانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعقل». وبما أن هذه الرسالة طريفة في بابها تأتي بنص ما يخص برد القدرية، ويريد من هذه اللفظة القائلين بالقدر على وجه يستلزم الجبر و إليك نصها: رسالة صاحب في الرد على القدرية (المجبرة)

زعمت المجبرة القدرية: أن الله يريد الظلم والفساد، ويحب الكفر والعدوان، ويشاء أن يشرك به ولا يعبد، ويرضى أن يجحد و يسب و يشتم، وقالت العدلية: بل الله لا يرضى إلا الصلاح و لا يريد إلا الاستقامة والسداد، وكيف يريد الفساد و قد نهى عنه و توعد، وكيف لا يريد الصلاح و قد أمر به ودعا إليه، ولو لم يفعل العباد إلا ما أراد الله تعالى لكان كلهم مطيعاً لله تعالى، فإن كان الكافر قد فعل ما أراد منه مولاه فليس بعاص، وأطوع ما يكون العبد لمولاه إذا فعل ما يريد، وأيضاً فليس بحكيم من أراد أن يشتم، ولم يرد أن يعظم، ورضى أن تجحد نعمه، وأحب أن لا تشكر مننه، قال الله تعالى: (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) (١) وقال تعالى: (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) (٢) _____ ١. المؤمن / ٣١. ٢. الزمر / ٩.

(١٣٣)

وقال تعالى: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) (١) وقال تعالى في تكذيب من زعم أن الكفار كفروا بمشيئة الله: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَمَا دَلَّكَ - إلى قوله - وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) (٢) أي تكذبون. فإن قالوا: وقال الله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (٣) فقل: هذه الآية وردت على الخير دون الشر. وقال تعالى: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (٤) وقال تعالى في سورة أخرى: (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (٥). فإن قالوا: لو أراد من العبد شيئاً ولم يفعل لكان العبد قد غلبه، فهذا ينقلب في الأمر، لأنه قد خولف ولم يكن مغلوباً، وكذلك الإرادة. ألا ترى إلى من قال و أراد من مملوك شيئاً ولم يفعله، وأمر آخر بفعل فخالف لكان المخالف في الأمر أعظم في النفوس عصياناً، كلاً... بل هو الغالب، و إنما أمهل العصاة حتماً ولم يجبرهم على الإيمان، لأن المكرة لا يستحق ثواباً، بل أزاح عنهم، وأقدرهم و أمكنهم، فمن أحسن في ثوابه، ومن أساء في عقابه، ولو شاء لأكرههم على الإيمان أجمعين كما قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (٦) وكقوله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا - إلى قوله - أَجْمَعِينَ) (٧) وقال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (٨). وزعمت القدرية: أن الله تعالى خالق الكفر و فاعله، و منشئ الزنا و مخترعه

ومتولى القيادة و موجدتها، و مبتدع السرقة و محدثها، و كل قبائح العباد من صنعته، و كل تفاوت فمن عنده، و كل فساد فمن تقديره، و كل خطأ فمن تدبيره. فإن قالوا على سبب التلبس: إن العبد يكتسب ذلك، فإذا طولبوا بمعنى _____ ١. البقرة / ٢٠٥. ٢. الأنعام / ١٤٨. ٣. الدهر / ٣٠. ٤. التكوير / ٢٨ - ٢٩. ٥. الدهر / ٢٩. ٦. يونس / ٩٩. ٧. السجدة / ١٣. ٨. البقرة / ٢٥٦. (١٣٤)

الكسب لم يتوا بشيء معقول، وقالت العدلية: معاذ الله أن يكون فعله إلا حكمة و حقاً، و صواباً و عدلاً، فالزنا فعل الزانى انفراد بفعله، فكل قبيح منسوب إلى المذموم به، و إنما تولى المذمة العاصي، إذ باع الآخرة بالدنيا، ولم يعلم أن ما عند الله خير و أبقي، ولو كان قد خلق أعمال العباد لما جاز أن يأمر بها و ينهاهم عنها كما لم يجز أن يأمرهم بتطويل جوارحهم و تقصيرها، إذ خلقها على ما خلقها، ولو خلق الكفر لما جاز أن يعيب ما خلق، ولو كان فاعل الكفر لما جاز أن يذم و يعيب ما خلق و يذم مافعل، ولو كان مخترع الفساد لما جاز أن يعاقب على ما اخترع، ولا تنفك القبائح من أن تكون من الله تعالى فلا حجة على العبد، أو من الله و من العبد فمن الظلم أن يفرده بعقاب ما شارك في فعله، أو من العبد فهو يستحق العقاب، وقال تعالى: (يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ إِلَى قَوْلِهِ - وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (١) (فلو كان لوى ألسنتهم من خلق الله تعالى لما قال: (وما هو من عند الله) (٢). و بعد، فالكفر قبيح و أفعال الله حسنة، فعلنا أن الكفر ليس منها، و هكذا أخبر تعالى بقوله: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (٣) و قوله تعالى: (صُنِعَ اللَّهُ لِدَى أَلْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (٤)). فإن سألوا عن قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (٥) فقل: هذه الآية لو تلوتم صدرها لعلمتم أن لا حجة لكم فيها، لأنه تعالى أراد بالأعمال هيهنا الأصنام، و الأصنام أجساد، و ليس من مذهبنا أننا خلقنا الأصنام، بل الله خلقها، ألا ترى أنه قال تعالى: (أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (٦). فإن قالوا: (لا يُسْتَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشَآلُونَ) (٧) فقل: إنه أدل على العدل، لأن العباد يسألون عن أفعالهم لما كان فيها العيب و الظلم و القبيح، و الله تعالى لما كانت أفعاله كلها حسنة لا قبيح فيها، و عدلاً لا ظلم معها، تنزه عن أن يسأل، و لم يرد بهذا ما _____ ١. آل عمران / ٧٨. ٢. آل عمران / ٧٨. ٣. السجدة / ٧. ٤. النمل / ٨٨. ٥. الصافات / ٩٦. ٦. الصافات / ٩٥ - ٩٦. ٧. الأنبياء / ٢٣.

(١٣٥)

تريده الفراعنة إذ قالت لرعيتهما: وقد سألناكم فلا تسألونا لم أظلمكم و أفسقكم (كذا)، كلاً... فإنه تعالى لم يدع للسؤال موضعاً بإحسانه الشامل، و عدله الفاضل، و لولا ذلك لم يقل: (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١) فنحن نقول: إن أفعالنا الصالحة من الله ليس بمعنى أنه فعلها، و كيف يفعلها و فيها خضوع و طاعة، و الله تعالى لا يكون خاضعاً و لا مطيعاً، بل نقول: إنها منه، بمعنى أنه مكن منها، و دعا إليها و أمر بها و حرّض عليها، و نقول: إن القبائح ليست منه لأنه نهى عنها، و زجر و توعد عليها، و خوف منها و أنذر، و نقول: إنها من الشيطان بمعنى أنه دعا إليها و أغوى، و متى في الغرور (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (٢) (أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ - إِلَى قَوْلِهِ - لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (٣) و قال تعالى في صفة الشيطان: (يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً) (٤). فإن قالوا: فقد قال تعالى: (كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (٥) قلنا: معنى الآية غير ما قدرت و لو قدرتها كما نقدر لعلمت أن لا حجة فيها لك، لأنه تعالى يقول: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَبَهُ يَقُولُوا هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - قُلْ كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (٦) فإنما هذا في الكفار حيث تطيروا بنبي الله - عليه السلام - و كانوا إذا أتاهم الخصب يقولون هذا من عند الله و إذا أتاهم الجذب يقولون: هذا من عندك، كما قال تعالى: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ - إِلَى قَوْلِهِ - لا يَعْلَمُونَ) (٧) فبين الله تعالى أن ذلك كله - يعنى الخصب و الجذب - من عنده، إلا أنه لم يقل: و إن تصبهم سيئه يقولوا هذه من عندنا على ما تذكره المجبرة و قد دل الله على بطلان قولهم: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَبَةٍ مِنْ حَسَبَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) (٨). و زعمت المجبرة القدرية أن الله خلق أكثر العباد للنار، و خلقهم أشقياء بلا- ذنب _____ ١. النساء / ١٦٥. ٢. فصلت / ٤٦. ٣. النحل / ٩٠. ٤. النساء / ١٢٠. ٥. النساء / ٧٨. ٦. النساء / ٧٨. ٧. الاعراف / ١٣١. ٨. النساء / ٧٩.

(١٣٦)

ولا جرم، وغضب عليهم و هو حليم من غير أن يغضبوه، وخذلهم من قبل أن يعصوه، وأضلهم عن الطريق الواضح من غير أن خالفوه، وقالت العدلية: خلق الله الخلق لطاعته، ولم يخلقهم لمخالفته، وأوضح الدلالة والزسل لصالح الجماعة، ولم يضل عن دينه و سبيله. وكذا أخبر بقوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (١) وكيف يمنع إبليس من السجدة ثم يقول: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي) (٢). فإن سألوا عن قوله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ) (٣) قيل: «لام العاقبة» معناها أن مصيرهم إلى النار، كما قال تعالى: (فَالْتَفَتُهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيُكَوِّنَ لَهُمْ عُدُوًّا وَحَزَنًا) (٤) و إن كانوا التقطوه ليكون لهم قرّة عين، وقد بين ذلك بقوله تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَمَكْ) - إلى (٥) آخره - وكذلك الجواب بقوله تعالى: (أَنْتُمْ نُفُلَى لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا) (٦). وزعمت المجبرة القدرية أن الله يضل أكثر عباده من دينه، فإنه ما هدى أحداً من العصاة إلى ما أمرهم به، وأن الأنبياء - عليهم السلام - أراد الله بيعتهم الزيادة في عمى الكافرين، وقالت العدلية: أن الله لا يضل عن دينه أحداً، ولم يمنع أحداً الهدى البذى هو الدلالة، وقد هدى ومن لم يهتد فسوء اختياره غوى. قال الله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) (٧) على أننا نقول أن الله يضل من شاء ويهدى، و أنه يضل الظالمين عن ثوابه وجناته، وذلك جزاء على سيئاتهم، وعقاب على جرمهم، قال الله تعالى: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ - إِلَى قَوْلِهِ - أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (٨) فأما الضلال عن الدين فهو فعل شياطين الجن والإنس، ألا ترى أن الله تعالى ذم عليهم فقال: (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) (٩) وقد حكى عن أهل النار أنهم يقولون: _____ ١. الذاريات / ٥٦. ٢. ص / ٧٥. ٣. الأعراف / ١٧٩. ٤. القصص / ٨. ٥. القصص / ٩. ٦. آل عمران / ١٧٨. ٧. فصلت / ١٦. ٨. البقرة / ٢٦ - ٢٧. ٩. طه / ٨٥. (١٣٧)

(وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) (١) وما يقولون: وما أضلنا إلا - رب العالمين. وقالت المجبرة القدرية: أن الله كلّف العباد ما لا يطيقون، وذلك بادعائها أن الله خلق الكفر في الكفار، ولا يُقدرهم على الإيمان ثم يأمرهم به، فإذا لم يفعلوا الإيمان التذى لم يُقدره عليهم، وفعلوا الكفر البذى خلقه فيهم، وأراده منهم، وقضاه عليهم، عاقبهم عذاباً دائماً. وقالت العدلية: معاذ الله! إن الله لا يكلف العباد ما لا يتسعون له (الوسع: دون الطاقة) إذ تكليف ما لا - يطاق ظلم و عبث، و أنه لا - يظلم ولا يعبث ولو جاز أن يكلف من لا يُقدره على الإيمان لجاز أن يكلف من لا مال له باخراج الزكاة، وأن يكلف المُقعد بالمشى والعدو وقال تعالى: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (٢) فهو لا - يكلف من لا يستطيع قبل الفعل أن يفعل، قال تعالى: (ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) - إلى آخره (٣) - فهو يأمر بالحج قبل الحج، فكذلك استطاعته قبل أن يحج، ولو لم يستطيعوا الإيمان لم يقل لهم: (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) (٤) ولو نصرهم على الإفك لم يقل: (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (٥). و ادعت المجبرة أن الأقدار المذمومة حتم من الله، ونفيناها عنه سبحانه، لأن تقديره لا يكون باطلاً ولا متناقضاً، فلما وجدنا الأشياء المتناقضة الباطلة علمنا أنه لا يقدرها و كفى القدرية إذا أثبتوا ما تنازعنا فيه و نفيناها، ولو جاز لجاز أن يكون من ينفي التنصير نصرانياً، ومن ينفي اليهود يهودياً. فإن قالوا: إنكم أثبتتم ذلك لأنفسكم، ومثبت الشيء لنفسه أولى ممن ينسبه إليه، فالجواب: أن التنازع بيننا لم يقع في كوننا قادرين، فأثبتنا تنازعنا في أن الأقدار المذمومة تثبت لله سبحانه و تعالى أو ينزّه عنها، فأثبتوها إن كنتم قدرية. _____ ١. البقرة / ٢٨٦. ٢. الشعراء / ٩٩. ٣. آل عمران / ٩٧. ٤. التكوير / ٢٦. ٥. العنكبوت / ٦١.

(١٣٨)

وبعد: فلو كان من أثبتها لنفسه قدرياً لكان على زعمكم قد أثبتته الله لنفسه فهو قدرى و بعد هذا القول، فلو كان هذا اسم ذم فهو لكم أليق، لأنكم فعلتم القبائح وأضفتموها إلى الله تعالى البرىء منها، وقد قال عز من قائل: (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا) - إلى آخرها - (١). تم الكلام في القدرية _____ ١. النساء / ١١٢.

(١٣٩)

الجهمية

الجهمية

الحركات الرجعية

الحركات الرجعية ونعني بها الحركات الفكرية التي ظهرت بين المسلمين بين القرنين الثاني والثالث، وهي ترمي إلى إرجاع الأمة إلى العقائد السائدة في العصر الجاهلي بين المشركين وأهل الكتاب، من القول بالجبر والتجسيم إلى غير ذلك من البضائع الفكرية المستوردة منهم إلى أوساط المسلمين. ولأجل إيقاف القارىء على نماذج من هذه الحركات، نبحت عن عدة مناهج زرعت شروراً في المجتمع الإسلامي، وبقيت آثارها إلى العصر الحاضر لكن بتغيير الاسم والعنوان، وتحت غطاء مخدع. والسبب الوحيد لبث هذه السموم هو إقصاء العقل عن ساحة العقائد وإخضاعه لكل رطب ويابس يتسم بسمه الحديث، وليس بحديث، بل يعد من مرويات العهدين وأقاصيص الأخبار والرهبان. وإليك بيان هذه الحركات واحدة تلو الأخرى: الجهمية وسماتها: الجبر والتعطيل مؤسسها جهم بن صفوان السمرقندي (ت ١٢٨ هـ). قال الذهبي: «جهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندي الضالّ المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان (١٤٠)

صغارالتابعين، و ما علمته روى شيئاً، لكنّه زرع شراً عظيماً» (١). قال المقرئ: «الجهمية أتباع جهم بن صفوان الترمذي مولى راسب، و قتل في آخر دولة بنى أمية، و هو: ١- ينفي الصفات الإلهية كلها، ويقول: لا يجوز أن يوصف البارى بصفة يوصف بها خلقه. ٢- أن الإنسان لا يقدر على شيء و لا يوصف بالقدرة، و لا الإستطاعة. ٣- أن الجنة و النار يفنيان، و تنقطع حركات أهلها. ٤- أن من عرف الله و لم ينطق بالإيمان لم يكفر، لأن العلم لا يزول بالصمت، و هو مؤمن مع ذلك. و قد كفره المعتزلة في نفي الاستطاعة. و كفره أهل السنة بنفي الصفات و خلق القرآن و نفي الرؤية. ٥- و انفراد بجواز الخروج على السلطان الجائر. ٦- و زعم أن علم الله حادث لا بصفة يوصف بها غيره (٢). و قد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة (١٢٨ هـ) كيفية قتله بيد نصر بن سيار، و من أراد فليرجع إليه (٣). و قد نسب إليه عبد القاهر البغدادي، أصولاً تقرب مما نسب إليه المقرئ في خطه على ما عرفت. و قال: «و كان جهم مع ضلالاته التي ذكرناها يحمل السلاح و يقاتل السلطان _____ ١. ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٤٢٦ رقم الترجمة ١٥٨٤. ٢. الخطط المقرئية: ج ٣، ص ٣٤٩ و لاحظ ص ٣٥١. ٣. الكامل لابن الأثير: ج ٥ ص ٣٤٢ - ٣٤٥.

(١٤١)

وخرج مع السريج بن حارث (١) على نصر بن سيار و قتله سلم بن أحوز المازني في آخر زمان بنى مروان، و أتباعه اليوم (بناهند)، و خرج إليهم في زماننا إسماعيل بن إبراهيم بن كبوس الشيرازي الديلمي، فدعاهم إلى مذهب شيخنا أبي الحسن الأشعري، فأجابهم قوم منهم و صاروا مع أهل (٢) لسنة. و قد نسب إليه الشهرستاني عدة أمور نذكر منها أمرين: ١- إن الإنسان لا يقدر على شيء، و لا يوصف بالاستطاعة و إنما هو مجبور على أفعاله لا قدرة له، و الله هو الذي يخلق الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، و تنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال أثمرت الشجرة، و جرى الماء، و تحرك الحجر، و طلعت الشمس و غربت، و تغيّمت السماء و أمطرت، و اهتزت الأرض و أنبتت، إلى غير ذلك، و الثواب و العقاب جبر. كما أن الأفعال كلها جبر. قال: و إذا ثبت الجبر فالتكليف إذاً جبر. ٢- إن حركات أهل الخلد ينقطع، و الجنة و النار تفنيان بعد دخول أهلها فيهما، و تلذذ أهل الجنة بنعيمها، و تألم أهل النار بجحيمها، إذ لا تتصور حركات لا تنهاى آخر، كما لا تتصور حركات لا تنهاى أولاً. و حمل قوله تعالى (خالدين فيها) على المبالغة و التأكيد دون الحقيقة في التخليد. كما يقال خلد الله ملك فلان، و استشهد على الانقطاع بقوله تعالى: (خالدين فيها ما دامت السموات و الأرض إلا ما شاء ربك) (هود / ١٠٧) فالآية اشتملت على شريطة و استثناء، و الخلود و التأييد لا شرط فيه و لا استثناء (٣). و قد نقل الشهرستاني عنه أموراً أخر، مضى بعضها في كلام غيره. أقول: قاعدة مذهبه أمران: _____ ١. في

تاريخ الطبري: الحارث بن سريج وهو الصحيح. ٢. الفرق بين الفرق: ص ٢١٢. ٣. الملل والنحل: ج ١، ص ٨٧ - ٨٨.

(١٤٢)

الأول: الجبر ونفى الاستطاعة والقدرة، فالجهم بن صفوان رأس الجبر وأساسه، ويطلق عليه و على أتباعه الجبرية الخالصة في مقابل غير الخالص منها. قال الشهرستاني: «الجبر هو نفى الفعل حقيقته عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف، فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً. والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً. فأما من أثبت للقدرة الحادثه أثراً ما في الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبري» (١). يلاحظ عليه: أن الفرق الثلاث كلهم جبريون من غير فرق بين نافي القدرة والاستطاعة كما عليه «الجهم» أو مثبتها، لكن قدرة غير مؤثرة، بل مقارنة لإيجاده سبحانه فعل العبد وعمله، أو مؤثرة في اتصاف الفاعل بكونه كاسباً والفعل كاسباً، لما عرفت من أن القول بالكسب نظرية مبهمه جداً لا ترجع إلى أصل صحيح، وأن القول بأنه سبحانه هو الخالق المباشر لكل شيء لا يترك لنظرية الكسب مجالاً للصحة، لأن الكسب لو كان أمراً وجودياً فإله هو خالقه و موجد (أخذاً بانحصار الخلق في الله)، وإن كان أمراً عدمياً اعتبارياً، فلا يخرج الفاعل من كونه فاعلاً مجبوراً (٢). وعلى أي تقدير، فالقول بالجبر وإذاعته بين الناس وانقيادهم له كان حركة رجعية إلى العصر الجاهلي، وقد كان الجبر سائداً على مشركي العرب وغيرهم (٣). الثاني: تعطيل ذاته سبحانه عن التوصيف بصفات الكمال والجمال ومن هنا نجمت المعطلة. ولكنه لم يتبين لي صدق ما نسب إليه البغدادي والشهرستاني من أنه قال: لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفي كونه حياً عالمياً وأثبت كونه قادراً، فاعلاً، خالقاً، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق (٤). ١ -

الملل والنحل: ج ١، ص ٨٦. ٢. راجع: الجزء الثاني من كتابنا هذا ص ١٣٠ - ١٥٣. ٣. راجع: الجزء الأول ص ٢٣٢. ٤. الملل والنحل:

ج ١ ص ٨٦.

(١٤٣)

وأظن أن مراده من قوله «بصفة يوصف بها خلقه» هي الصفات الخبرية، كاليد، والعين، والرجل، وما أشبهها، مما أصر أهل الحديث والحشوية على توصيفه سبحانه بها، بالمعنى اللغوي الملازم للتجسيم والتشبيه. هاتان قاعدتا مذهب الجهم، وأما غيرهما مما نسب إليه، فمشكوك جداً، وبما أنه استدلل لمذهبه في مورد عدم الخلود في الجنة والنار بما عرفت من الآية، فنرجع إلى توضيح الآية فنقول: جعل الجهم الاستثناء في الآية دليلاً على عدم الخلود. يلاحظ عليه: أنه استدلل بالآية على عدم الخلود بوجهين: الأول: تحديد الخلود بمدّة دوام السماوات والأرض وهما غير مؤيدتين بالضرورة قال سبحانه: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) (الأحقاف/٣) وقال تعالى: (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) (الزمر / ٦٧). الثاني: الاستثناء الوارد في الآية من الخلود بقوله: (إِلَّا مَا شَاءَ رَبِّكَ) في كلا موردين: نعيم الجنة وعذاب الجحيم. أما الأول: فالإجابة عنه واضحة، لأن المراد من السماوات والأرض فيها، ليس سماء الدنيا وأرضها، بل سماء الآخرة وأرضها، والأوليتان فانيتان، والأخريتان باقيتان والله سبحانه يذكر للنظام الآخر أرضاً و سماءً غير ما في الدنيا. قال تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (إبراهيم/٤٨) وقال حاكياً عن أهل الجنة: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) (الزمر/٧٤) فبالآخرة سماء وأرض، كما أن فيها جنة وناراً ولهما أهل، وتحديد بقاء الجنة والنار وأهلها بمدّة دوام السماوات والأرض راجع إلى سماء الآخرة وأرضها وهما مؤبدتان غير فانيتين، وإنما تفنى سماء الدنيا وأرضها، وأما السماوات التي تظلل الجنة مثلاً والأرض التي تقلها وقد أشرقت بنور ربها فهما ثابتتان غير زائلتين. (١٤٤)

أضف إلى ذلك أنه سبحانه وصف الجنة بأنها عنده وقال: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) (النحل/٩٦) فالجنة باقية غير فانية، ولا يفتقر عنها الجحيم ونارها. وأما الإشكال الثاني فالجواب عنه في مورد الجنة أوضح من الآخر، لأنه يذكر فيها قوله (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ) الظاهر في دوام النعمة وعدم تحقق المشيئة. توضيح ذلك أنه سبحانه يقول في مورد أهل النار: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا

زَيْرٌ وَ شَهِيْقٌ * خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (هود ١٠٦-١٠٧).
و يقول في أهل الجنة: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُرِعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ)
(هود / ١٠٨).

ترى أنه سبحانه يذلل المشيئة في آية الجنة بقوله: (عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ) (١) الدال على عدم انقطاع النعمة، وأن تلك المشيئة أي مشيئة الخروج لا تتحقق. وعلى كل تقدير، فالجواب عن الاستثناء في الآيتين هو أن الاستثناء مسوق لاثبات قدرة الله المطلقة، وأن قدرة الله سبحانه لا تنقطع عنهم بإدخالهم الجنة والنار، وملكه لا يزول ولا يبطل، وأن قدرته على الإخراج باقية، فله تعالى أن يخرجهم من الجنة وإن وعد لهم البقاء فيها دائماً، لكنه سبحانه لا يخرجهم لمكان وعده، والله لا يخلف الميعاد. نعم قوله سبحانه في آية النار (إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ) يشير إلى تحقق المشيئة في جانب النار كما في المسلمين العصاة دون المشركين والكفار. التطوير في لفظ «الجهمي»
لما كان نفى الصفات عن الله، والقول بخلق القرآن ونفى الروية، مما نسب إلى _____ ١. مقالات الاسلاميين: ج ٢ ص ٤٩٤ ، والفرق بين الفرق ص ٢١١.

(١٤٥)

منهج الجهم وقد عرفت أساس مذهبه فيما مر، صار لفظ «الجهمي» رمزاً لكل من قال بأحد هذه الأمور، وإن كان غير قائل بالجبر ونفى القدر. ولأجل ذلك ربما تطلق الجهمية و يراد منها المعتزلة أو القدرية، وعلى هذا الأساس يقول أحمد بن حنبل: «والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أن القرآن كلام الله ووقف ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق، فهو أخبث من الأول، ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن و تلاوتنا له مخلوقه، والقرآن كلام الله، فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم» (١). نعم، القوم وإن نسبوا إلى الجهم كون القرآن مخلوقاً، لكنه بعيد جداً، لأنه مات في آخر دولة الأمويين ولم تكن المسألة معنونة في تلك الأيام، وإنما طرحت في العصر العباسي خصوصاً في عصر المأمون. وقد ألف البخاري والإمام أحمد (٢) كتابين في الرد على الجهمية وعنيا بهم المعتزلة. والمعتزلة يتبرأون من هذا الاسم. ويتبرأ بشر بن المعتمر - أحد رؤساء المعتزلة - من الجهمية في ارجوزته إذ يقول: نفيهم عننا ولسنا منهم * ولا هم منا ولا نرضاهم إمامهم جهم وما لجهم * وصحب عمرو ذي التقى والعلم (٣) ويريد عمرو بن عبيد الرئيس الثاني للمعتزلة بعد واصل بن عطاء. وعلى كل تقدير، فعند المعتزلة «جهمية» ظلم واعتساف، ولم يذكر أحد من الجهم من رجالهم، وقد أرسل واصل بن عطاء، حفص بن سالم إلى خراسان، وأمره _____ ١. السنة لأحمد بن حنبل: ص ٤٩. ٢. طبع مع كتاب السنة له. ٣. فجر الاسلام: ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(١٤٦)

بلقائه فمناظرته وإنه لقيه في مسجد «ترفد» حتى قطعه (١). * * * مقاتل بن سليمان المجسم
إن القضاء على العقل في ساحة العقائد، والاعتماد على النقل المحض - الذي انقطع أثره بعد رحلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عصر أبي جعفر المنصور - إلا شيئاً لا يذكر أريد هذه الحركات الرجعية لو لم نقل إنه أنتجها. ومن رافع ألوية التشبيه والتجسيم، وناقل أقاصيص الأخبار والرهبان في القرن الثاني، هو مقاتل بن سليمان الذي كان هو و جهم بن صفوان في مسألة التنزيه والتشبيه على طرفي نقيض، فالأول غلا - في التنزيه حتى عطل، وذاك غلا في الاثبات حتى شبه فهذا معطل وذاك مشبه، وقد ملئت كتب التفاسير بأقوال مقاتل وآرائه فليعرف القارئ مكانه في الوثافة وتنزيه الرب عن صفات الخلق. قال ابن حبان: «كان يأخذ من اليهود والنصارى في علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان يشبه الرب بالمخلوقات، وكان يكذب في الحديث». قال أبو حنيفة: «أفرط جهم في نفى التشبيه، حتى قال إنه تعالى ليس بشيء، وأفرط مقاتل في الاثبات حتى جعله مثل خلقه». وقال وكيع: «كان كذاباً». وقال البخاري: «قال سفيان بن عيينة: سمعت مقاتلاً يقول: إن لم يخرج الدجال في سنة خمسين ومائة فاعلموا أنني كذاب» (٢).
_____ ١. طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار: ٩٧ - ١٦٣. ٢. لم يخرج الدجال في هذه السنة ولا بعدها، فهل يبقى الشك

في أنه كذاب؟ نعم، مات هو في تلك السنة فيموته مات الدجل والكذب القائم به.

(١٤٧)

وقال النسائي: «كان مقاتل يكذب». وقال الجوزجاني: «كان دجالاً جسوراً». سمعت أبا اليمان يقول: قدم هيهنا فلما أن صلى الإمام أسند ظهره إلى القبلة وقال: سلوني عما دون العرش، وحدثت أنه قال مثلها بمكة، فقام إليه رجل، فقال: أخبرني عن التملة أين أمعاؤها؟ تم الكلام في الجهمية (١٤٨) (١٤٩)

الكرامية

الكرامية

الحركات الرجعية

وهذه الفرقة منسوبة إلى محمد بن كرام السجستاني شيخ الكرامية (م ٢٥٥). قال الذهبي: «ساقط الحديث على بدعته، أكثر عن أحمد الجوبباري ومحمد بن تميم السعدي وكانا كذابين». قال ابن حبان: «خذل، حتى التقط من المذاهب أردأها، ومن الأحاديث أوهأها... وجعل الإيمان قولاً بلا معرفة». وقال ابن حزم: «قال ابن كرام: الإيمان قول باللسان، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن. ومن بدع الكرامية قولهم في المعبود تعالى إنه جسم لا كالأجسام وقد سئقت أخبار ابن كرام في تاريخي الكبير. وله أتباع ومريدون وقد سجن في نيسابور لأجل بدعته ثمانية أعوام، ثم أخرج وسار إلى بيت المقدس، ومات بالشام سنة ٢٥٥ هـ» (١). يلاحظ عليه: أن ما أسماه مؤمناً سماه القرآن منافقاً. قال سبحانه (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) (المنافقون/١). _____ ١. ميزان الاعتدال: ج ٤ ص ٢١.

(١٥٠)

وقاعدة مذهبه التجسيم، وتوصيف الواجب بأمور حادثه، وكل ما يذكره أصحاب الملل والنحل يرجع إلى هذا الأصل، وأما أصنافهم فقد ذكر البغدادي أن للكرامية بخراسان ثلاثة أصناف: حقائقية، والطرائقية و اسحاقية (١) وذكر الشهرستاني لها اثنتي عشرة فرقة وأن أصولها ستة. وكانت الحركة الكرامية، حركة رجعية بحثت حيث دعا أتباعه إلى تجسيم معبوده، وأنه جسم له حد ونهاية من تحت والجهة التي منها يلقى عرشه. وقال البغدادي: وهذا شبيه بقول الثنوية: إن معبودهم الذي سموه نوراً، يتناهى من الجهة التي تلاقى الظلام وإن لم يتناه من خمس جهات. ومن عقائده: أن معبودهم محل للحوادث و زعموا أن أقواله وإراداته، وإدراكاته للمريثات، وإدراكاته للمسموعات، وملاقاته للصفحة العليا من العالم، أعراض حادثه فيه، وهو محل لتلك الحوادث الحادثه فيه (٢). ومن غرائب آرائه أنه وصف معبوده بالثقل وذلك أنه قال في كتاب «عذاب القبر» في تفسير قول الله عز وجل: (إذا السماء انفطرت) : أنها انفطرت من ثقل الرحمان عليها. إلى غير ذلك من المضحكات والمبكميات في الأصول والفقهاء. وقد ذكر البغدادي آراءه الفقهية أيضاً وذكر فيه قصة عجيبة من أرادها فليرجع إليه (٣). إن للكرامية نظريات في موضوعات أخر، ذكرها البغدادي، وقد بلغت جرأتهم في باب النبوة حتى قال بعضهم: إن النبي أخطأ في تبليغ قوله «ومناة الثالثة الأخرى» حتى قال بعده: «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتها ترتجي» (٤). _____ ١. الفرق بين الفرق: ص ٢١٥. ٢. الملل والنحل: ج ١ ص ١٠٨. ٣. الفرق بين الفرق: ص ٢١٨ - ٢٢٥. ٤. الفرق بين الفرق: ص ٢٢٢.

(١٥١)

مع أن قصة الغرائق اقصوصه ابتدعها قوم من أهل الضلالة وقد أوضحنا حالها في محاضراتنا باسم سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم فلاحظ. ونكتفى بهذا النزر في بيان عقائدهم وكلها وليد إقصاء العقل والمنطق عن ساحة العقائد والاكتفاء بالروايات، مع ما فيها من أباطيل و ترهات وضعها الأعداء، واختلقها الأهواء فهي من أسوأ الحركات الرجعية، الظاهرة في أواسط القرن الثالث.

تم الكلام في الكرامة (١٥٢) (١٥٣)

الظاهرية (١)

الظاهرية (١)

الحركات الرجعية

وهذا المسلك الفقهي منسوب إلى داود بن علي الاصفهاني الظاهري (ت ٢٠٠ - م ٢٧٠) وسمع من سليمان بن حرب و أبي ثور. قال الخطيب: «كان إماماً ورعاً، زاهداً ناسكاً، وفي كتبه حديث كثير لكن الرواية عنه عزيزة جداً» (٢). وقال ابن خلكان: «كان من أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعي وصنف في فضائله والثناء عليه كتابين، وكان صاحب مذهب مستقل و تبعه جمع كثير - يعرفون بالظاهرية - وكان ولده - أبو بكر محمّد - على مذهبه، وانتهت إليه رئاسة العلم ببغداد» (٣). وقد بسط الخطيب الكلام في تأريخه ونقل بعض ما رواه وأشار إلى جوانب من حياته (٤). ١. التعرض للمذهب الظاهري في المقام مع أنه مذهب فقهي لا - كلامي، لا اشتراكه مع الحركات الرجعية الكلامية في طرد العقل والتفكير عن ساحة العلم، وقد ظهر ذلك المذهب في نفس الوقت الذي ظهرت فيه سائر المناهج الفكرية الكلامية والكل يحمل طابعاً واحداً وهو اعدام العقل واقصاؤه عن الأوساط العلمية فناسب ذكره في المقام. ٢. ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٥. ٣. وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٥٥. ٤. تاريخ بغداد للخطيب ج ٨ ص ٣٦٩.

(١٥٤)

وما أسسه من المذهب يرتبط بالفروع والأحكام، لا العقائد والأصول فالمصدر الفقهي عنده هو النصوص، بلا رأى في حكم من أحكام الشرع، فهم يأخذون بالنصوص وحدها و إذا لم يكن النص أخذوا بالإباحة الأصلية. أقول: إن إقصاء العقل عن ساحة العقائد يستلزم طرده عن ساحة الفقه بوجه أولى، لأن أساسه هو التعبد بالنصوص، وعدم الافتاء بشيء لا يوجد له أصل في الكتاب والسنة، لكن الجمود على حرفية النصوص شيء والتعبد بالنصوص و عدم الافتاء في مورد لا يوجد فيه أصل و دلالة في المصدرين الرئيسيين شيء آخر. فالظاهرية على الأول، والفقهاء على الثاني، ولأجل إيضاح الحال نأتى بمثالين: ١ - إن الشكل الأول من الأشكال الأربعة ضروري الإنتاج من غير فرق بين الأمور التكوينية أو الأحكام الشرعية، فكما أن الحكم بحدوث العالم نتيجة حتمية لقولنا: العالم متغير وكل متغير حادث، فهكذا الحكم بحرمة كل مسكر، نتيجة قطعية لقولنا: الفقاع مسكر، وكل مسكر حرام، فالفقاع حرام. لكن الظاهري يقبل المقدمتين و لكن لا يفتي بالنتيجة بحجة أنها غير مذكورة في النصوص. ٢ - ما يسميه الفقهاء بلحن الخطاب و إن كان شيئاً غير مذكور في نفس الخطاب، لكنّه من اللوازم البيئية له، بحيث يتبادر إلى الذهن من سماعه، فإذا خاطبنا سبحانه بقوله: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) (الإسراء/ ٢٣) يتوجه الذهن إلى حرمة ضربهما و شتمهما بطريق أولى، ولكن الفقيه الظاهري يأبى عن الأخذ به بحجة كونه غير منصوص. قال سبحانه: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِهِمْ مِمَّا قَدْ سَلِفَ وَإِنْ يَئُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ) (الأنفال / ٣٨) فالموضوع للحكم «مغفرة ما سلف عند الانتهاء» و إن كان هو الكافر، لكن الذهن السليم يتبادر إلى فهم شيء آخر لازم لهذا الحكم بالضرورة و هو تعميم الحكم إلى المسلم أيضاً بوجه أكد. ولكن الظاهري يتركه بحجة أنه غير مذكور في النص. (١٥٥)

وهذا النوع من الجمود يجعل النصوص غير كافلة لاستخراج الفروع الكثيرة وتصبح الشريعة ناقصة من حيث التشريع والتقنين، وغير صالحة لجميع الأجيال والعصور، وفاقدة للمرونة اللازمة التي عليها أساس خاتمية نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم و كتابه وسنته و... وهؤلاء بين السنة كالإخباريين بين الشيعة، غير أن الظاهرية ظهرت في القرن الثالث وقد عمل فيما لا نص فيه بالإباحة الأصلية، والأخبارية ظهرت في الشيعة في القرن العاشر وهم يعملون فيما لا نص فيه بالاحتياط. إن الاكتفاء بظاهر الشريعة وأخذ الأحكام من ظواهر النصوص له تفسيران أحدهما صحيح جداً، والآخر باطل، فإن أريد منه نفى الظنون التي لم يدل على صحته الاحتجاج بها دليل، فهو نفس نص الكتاب العزيز. قال سبحانه: (قُلْ ءَإِنَّ لِلَّهِ أَنْ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (يونس/ ٥٩)، فالشيعة الإمامية

بفضل النصوص الوافرة عن أئمة أهل البيت المتصلة أسنادها إلى الرسول الإكرم صلى الله عليه وآله وسلم استطاعت أن تستخرج أحكام الحوادث والموضوعات الكثيرة منها، وامتنعت عن العمل بالقياس والاستحسان وغيرهما من الأدلة الظنية التي لم يقدّم الدليل القطعي على صحته الاحتجاج بها، بل قام الدليل على حرمة العمل على بعضها كالقياس وقد ورد في نصوص أئمتهم - عليهم السلام - : «وإن السنة إذا قيست محق الدين» (١). وإن أريد بها لوازم الخطاب أي ما يكون في نظر العقلاء كالمذكور أخذاً بقولهم: «الكناية أبلغ من التصريح» ويكون التفكيك بينهما أمراً غير صحيح، فليس ذلك عملاً بغير النصوص. نعم ليس عملاً بالظاهر الحرفي، ولكنه عمل بها بما يفهمه المخاطبون بها. وعلى ذلك الأساس يكون لوازم الخطاب حجة إذا كانت الملازمة ثابتة بينة في نظر العقلاء الذين هم المعنيون بهذه الخطابات، كادعائها بين وجوب الشيء ووجوب _____ ١. الوسائل ج ١٨، الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، الحديث ١٠.

(١٥٦)

مقدمته، أو حرمة ضده، أو امتناع اجتماع وجوبه مع حرمة، إلى غير ذلك من المداليل الالتزامية كمفاهيم الجمل الشرطية أو الوصفية أو المغتية بغاية. ولأجل كون هذه المداليل على فرض ثبوت الملازمة، بحكم المنطوق، ذهب المحققون في باب «المفاهيم» إلى أن النزاع في باب «حجية المفاهيم» صغرى، أي في ثبوت أصل المفهوم والملازمة، وأنه إذا قال المولى: إن سلم زيد فأكرمه، هل يتبادر منه إلى الأذهان الصافية وجوب الاكرام عند التسليم، وارتفاعه عند انتفائه أو لا؟ لا كبرى، بمعنى البحث عن حجية هذه الملازمة بعد ثبوتها، إذ لا كلام في الحجية بعد ثبوتها. وبذلك يتبين الحق الصراح في مسألة «تبعية النصوص الشرعية» وعدم الخروج عن إطارها، وأن أهل السنة فيها بين مفرط ومفرط. والطريق الوسطى هي الجادة (١). فأصحاب القياس والاستحسان مفرطون في الخروج عن النصوص الشرعية، ويعملون بما لم يدل على الاحتجاج به دليل. كما أن الظاهرية مفرطة في عدم الخروج عن ظواهر النصوص بحرفيتها، وإن كان العقلاء على خلافهم في محاوراتهم العرفية، ومن المعلوم أنه ليست للشارع طريقة للمفاهيم غير الطريقة الدارجة. تلاميذه ومدى سلطان مذهبه

قال الخطيب في تاريخه: «روى عنه ابنه محمد، وزكريا بن يحيى الساجي، ويوسف بن يعقوب بن مهران الداودي، والعباس بن أحمد المذكر، وهؤلاء رووا عنه وانتحلوا مذهبه» (٢). _____ ١. اقتباس من كلام الامام علي عليه السلام في النهج قال: اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة. نهج البلاغة قسم الخطب الرقم ١٥ ط عبده. ٢. تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٧٠.

(١٥٧)

«ولكن عامة الفقهاء والمحدثين تركوا الرواية عنه كما تركوا مذهبه، وكثرت المعارضة، وقلّ التأييد، ولم يكن لمذهبه سلطان إلا في بلاد الشرق (نيسابور وضواحيها) في القرنين الثالث والرابع. ونقل عن صاحب «أحسن التقاسيم» أنه كان رابع مذهب في القرن الرابع في الشرق، وكان الثلاثة التي هو رابعها: مذهب الشافعي، ومذهب أبي حنيفة، ومالك، فكأنه كان في الشرق أكثر انتشاراً أو تابعاً من مذهب أحمد إمام السنة في القرن الرابع الهجري، ولكن في القرن الخامس جاء أبو يعلى وجعل المذهب الحنبلي مكانه، وبذلك زحزح المذهب الظاهري وحل محله» (١). ابن حزم (ت ٣٨٤- م ٤٥٨) آخر تلميذ فكري لداود الظاهري

قد عرفت أن أبا يعلى الحنبلي (م ٤٥٨) قد زحزح المذهب الظاهري، وأحل محله مذهب إمامه أحمد في أواسط القرن الخامس و بذلك خبا ضوءه وانحسر عن المدارس الفقهية، ولم يبق له وجود إلا في ثنايا الكتب، لولا أن علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أعاد ذكره بلسانه و قلمه، وألّف حول ذلك المذهب كتباً و رسائل و انتقل المذهب الظاهري من الشرق إلى الغرب، ودخل الأندلس وقد حمل العبء وحده وخدم المذهب الظاهري بتأليفه: ١- الاحكام في أصول الأحكام: يبين فيه أصول المذهب الظاهري. ٢- النبذ: وهو خلاصة ذلك الكتاب. ٣- المحلى: وهو كتاب كبير انتشر في عشرة أجزاء، جمع أحاديث الأحكام وفقه علماء الأمصار. طبع في بيروت، بتحقيق أحمد محمد شاكر. نزر من آرائه الشاذة

١ - أفتى بطلان الاجتهاد في استخراج الأحكام الفقهيّة مستدلاً بقوله سبحانه: _____ ١ . تاريخ المذاهب الاسلاميّة: ج ٢ ص ٣٥١ نقلاً عن مقدمة «النبد» للشيخ الكوثري.

(١٥٨)

(مَا فَزَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام/٣٨) ولو كان ثمة موضع للرأى لكان الكتاب قد فزط في شىء، وقوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَبَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (النساء/٥٩)(١). يلاحظ عليه: أن الاستدلال بهاتين الآيتين يعرب عن كون ابن حزم فقيهاً ظاهرياً بحثاً، ينظر إلى الظواهر بحرفيتها ولا يتأمل حتى في القرائن الموجودة في نفس الآيات. أمّا الآية الأولى فالمراد من الكتاب فيها، هو صحيفة الكون لقوله سبحانه في صدرها: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَزَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ...) (الأنعام/٣٨). لأن التفريط في المقام بمعنى التضييع و التقصير، والمعنى أن الدواب والطيور لما كانت أمماً أمثال الإنسان، فما قصر سبحانه في حقهم من إعطاء الكمال بمقدار ما لها من اللياقة والشأن. وأقصى ما يمكن أن يقال: إن المراد منه، هو اللوح المحفوظ الذي يسميه سبحانه في موارد من كلامه كتاباً مكتوباً فيه كل شىء، وأمّا تفسيره بالقرآن ضعيف لا يركن إليه بعد ملاحظة جمل الآية. وأمّا الآية الثانية فهي راجعة إلى القضاء في المنازعات و المرافعات فالمرجع هو الله سبحانه و رسوله، ولا صلة للآية بحصر المصادر في الكتاب والسنة. ولأجل ذلك لم يذكر فيه الإجماع الذي هو حجة عند ابن حزم و مؤسس منهجه، وما هذا إلا أن الآية وردت في مجال القضاء في المرافعات، دون الافتاء في الأحكام الكليّة. توضيح ذلك: أن القضاء في المنازعات يشترك مع الاجتهاد في الأحكام الشرعيّة في أن كلا من القاضى والمجتهد يسعى لكسح الجهل و رفع الشبهة، غير أن الشبهة في _____ ١ . تاريخ المذاهب الاسلاميّة: ج ٢ ص ٣٨٨.

(١٥٩)

مجال القضاء، موضوعيّة على الأغلب مع كون الحكم الكلى معلوماً، كاختلاف الناس في الأموال والديون، بخلاف الشبهة في مجال الاجتهاد فإن الحكم الكلى مشته غير معلوم، والمجتهد يسعى بكلّ حول وقوة رفع الشبهة، و إراءة مبحث الحقيقة. والآية كما هو صريح سياقها، ناظرة إلى المقام الأول، ولا صلة لها بالمقام الثانى. يقول سبحانه بعد هذه الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا كَمِثْلِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (النساء/٦٠) وقد ورد في أسباب نزولها ما يؤيد ما ذكرناه فلاحظ. ٢ - يجوز للجنب مسّ المصحف

قال في المحلى: «وأما مسّ المصحف، فإن الآثار التي احتج بها من لم يجز للجنب مسّه، فإنه لا يصحّ منها شىء، لأنها إما مرسله، وإما ضعيفه لا تسند، وإما عن مجهول... فإن ذكروا قول الله: (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (الواقعة/٧٨ - ٧٩). فهذا لا حجة لهم فيه، لأنه ليس أمراً، وإنما هو خبره والله تعالى لا يقول إلا حقاً، ولا يجوز أن يصرف لفظ الخبر إلى معنى الأمر إلا بنص جلى أو إجماع متيقن. فلما رأينا المصحف يمسه الطاهر و غير الطاهر علمنا أنه عزوجل لم يعن المصحف و إنما عنى به كتاباً آخر»(١). واستدل على الجواز بعمل النبي و أنه كتب كتاباً إلى عظيم «بصرى» ليدفعه إلى هرقل وفيه قوله سبحانه: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) (آل عمران/٦٤). وقد أيقن أنهم يمسيون ذلك الكتاب(٢).

_____ ١ . المحلى: ج ١ ص ٨٣ . ٢ . الدر المنثور: ج ١ ص ٤٠.

(١٦٠)

يلاحظ عليه أولاً: أن قوله (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) وصف ثان للقرآن في قوله: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) والمراد أن القرآن في كتاب محفوظ من التغيير و التبديل، والمراد من الكتاب هو اللوح المحفوظ بشهادة قوله: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) (البروج/٢١ - ٢٢). وليس المراد منه المصحف، لاستلزامه وحدة الظرف و المظروف. وثانياً: أن الظاهر من ابن حزم الظاهري، أن الاستدلال على حرمة مسّ المصحف للجنب مبنى على تعيين المراد من الكتاب في قوله: (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) فهل المراد منه هو المصحف أو غيره؟ فعلى

الأول يثبت حرمة مسّ المصحف لغير المتطهر بخلاف الثاني. فرجح كون المراد منه هو غيره، لما ذكر من الدليل ولكن خفى عليه أن الاستدلال ليس مبتغياً على ما ذكره، بل الاستدلال مبني على كون الضمير في قوله: (لا يمسه) هل هو عائد إلى القرآن، أو إلى الكتاب، المتقدمين عليه في الآية؟ فإن قلنا بالأول يكون المراد من المسّ هو مسّ كتابة القرآن، ومن التطهير هو الطهارة من الخبث والحدث. ولا مناص عندئذ من حمل التثني على التثني لصيانة كلامه عن الكذب نظير قوله سبحانه: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) (البقرة/١٩٧). وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ضرر ولا ضرار» على القول الحق (١). وإن قلنا بالثاني، يكون المراد من المسّ، هو العلم به ويكون المراد من المطهرين، من طهر الله نفوسهم من أرجاس المعاصي وأقذار الذنوب. وأمّا تعيين أحد الاحتمالين فخارج عن موضوع البحث، وإنما الهدف إراءة نماذج من تفكير ابن حزم. أمّا الاستدلال بكتابة الآية وبعثها إلى عظيم «بصرى» والنسبي يعلم أن الكافر سيمسها. _____ ١. لاحظ محاضرات المؤلف باسم «قاعدتان فقهيّتان» تقف على اسناد الحديث ومضمونه.

(١٦١)

فيلاحظ عليه أولاً: أن الاستدلال مبني على كون الكفار مكلفين بالفروع كما هم مكلفون بالأصول وهو بعد أمر متنازع فيه. وثانياً: أن التسبب إنما يحرم إذا كان مؤدياً إلى مسّ الجاهل القاصر، كما إذا وضع الإنسان يد غير المتطهر على كتابة القرآن وهو جاهل أو غافل، لا ما إذا كان غير معذور كعظيم «بصرى» وغيره من الطغاة غير المعذورين في ترك الأصول ومخالفة الفروع، إذ في وسعهم أن يعتنقوا الإسلام ويدخلوا تحت السلم ويتعرفوا على أصوله ويعملوا بفروعه ويجتنبوا محرّماته. وهذا الجواب سائد في تمكين الكافرين من الكتب التي فيها أسماؤه سبحانه بعد إتمام الحجّة عليهم وإن كان في جريانه في المقام خفاء. وثالثاً: أن المصالح الكبرى التي تتبلور في بثّ الدعوة الإسلامية في المناطق المعمورة وإنقاذ الأجيال عن الوثنيّة وعبادة الطغاة ربّما ترخص للرسول أن يقوم بعمل ربّما ينتهي إلى مسّ غير المتطهر آية من الكتاب العزيز وله نظائر في الشريعة الإسلامية. ٣- قاتل الإمام عليّ - عليه السلام - كان مجتهداً

وهذا هو النموذج الثالث من آراء الرّجل نأتى بنصّه من كتاب المحلّي، فقال: «مسألة، مقتول كان في أوليائه غائب أو صغير أو مجنون اختلف الناس في هذا: فقال أبو حنيفة: إذا كان للمقتول بنون وفيهم واحد كبير وغيرهم صغار، أن للكبير أن يقتل ولا ينتظر بلوغ الصغار. ثمّ أورد على الشافعيّة القائلة بعدم الجواز بأنّ الحسن بن عليّ عليهما السلام - قد قتل عبدالرحمن بن ملجم، ولعلّي بنون صغار. ثمّ قال: هذه القصّة (يعني قتل ابن ملجم) عائدة على الحنفيين بمثل ما شنعوا على الشافعيين سواء سواء، لأنّهم والمالكين لا يختلفون في أن من قتل آخر على تأويل فلا قود في ذلك، ولا خلاف بين أحد من الأئمّة في أن عبدالرحمن بن ملجم لم يقتل عليّاً - رضى الله عنه - إلاّ متأولاً مجتهداً مقدراً أنّه على صواب وفي ذلك يقول عمران بن حطان شاعر الصفرية: (١٦٢)

يا ضربة من تقى ما أراد بها * إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا إنّي لأذكره حيناً فأحسبه * أوفى البريّة عندالله ميزانا أي لأفكر فيه ثمّ أحسبه، فقد حصل الحنفيون من خلاف الحسن بن عليّ على مثل ما شنعوا به على الشافعيين وما ينقلون أبداً في رجوع سهامهم عليهم، ومن الوقوع فيما حفروه (١). يلاحظ عليه: أن الفقيه الأندلسي قد خرج في فتياه هذه عن مسلكه وهو التقيد بالنصوص الشرعية تعييداً حرفياً غير معتمد على العقل والاجتهاد، مع أنّه هو طرح النصّ ولجأ إلى الاجتهاد الخاطي. فهذا هو التّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعلّي: ألا أخبرك بأشدّ الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال: أخبرني يا رسول الله قال: فإنّ أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عاقر ناقة ثمود و خاضب لحيّتك بدم رأسك (٢). وقد وصف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قاتل عليّ في غير واحد من أحاديثه بأنّه أشقى الآخرين وأشقى هذه الأئمّة (٣).... إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا السياق. والحقّ أنّ الاجتهاد الذي يؤدّي إلى وجوب قتل الإمام المفترض طاعته بالنصّ، اجتهاد يهتّر منه العرش ونحن أيضاً نصافق ابن حزم وأستاذه داود الاصفهاني في ردّ هذا القسم من الاجتهاد الذي تكون نتيجته نجاح الخوارج المارقين عن الدين، وما ذكره من الشعر هو لعمران بن حطان رأس الخوارج في

عصره وقد أجاهه معاصره القاضى أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعى قائلاً: يا ضربه من شقى ما أراد بها * إلا ليهدم للاسلام أركاناً
 إنى لأذكره يوماً فالعنه * ديناً وألعن عمراناً و حطّاناً _____ ١ . المحلى: ج ١٠ ص ٤٨٢ - ٤٨٤ . ٢ . العقد الفريد: ج ٢ ص
 ٢٩٨ . ٣ . مسند أحمد: ج ٤ ص ٢٤٣ .
 (١٤٣)

عليه ثم عليه الدهر متصلاً * لعائن الله إسراراً و إعلاناً فأنتما من كلاب الدهر * جاء به نصّ الشريعة برهاناً وتبياناً (١) وله فى كتابه
 «الفصل» كلام يشبه ما ذكره فى قاتل الإمام حيث عدّ فيه قاتل عمّار وهو أبو الغادية يسار بن سيع السلمى متأولاً مجتهداً مخطئاً مأجوراً
 بأجر واحد، وعدّ عمّاراً الثائر على الخليفة فاسقاً محارباً سافكاً دمّاً حراماً عمداً بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان (٢). وما تلك
 المذاهب إلا- نتيجة تقاعس العلماء الأخيار عن وظيفتهم، ونتيجة طرد العقل الصحيح الفطرى عن مناهج الحياة. ولا أظنّ أنّ إنساناً
 منصفاً يفكر فى هذه المناهج والمسالك، يعدّ دعاة الحرية والاختيار والتعقل ضلالاً كفّاراً، ودعاة الجبرية والتشبيّه والتجسيم والجمود
 الفكرى علماء وعاء. (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/٥٢).
 تمّ الكلام حول الحركات الرجعية الثلاث _____ ١ . مروج الذهب: ج ٢ ص ٤١٥ . ٢ . الفصل: ج ٤ ص ١٤١ .

المعتزلة

اشاره

٧- المعتزلة

المعتزلة

المعتزلة

المعتزلة بين المدارس الكلامية المختلفة، مدرسه فكرية عقلية، أعطت للعقل القسط الأوفر والسهم الأكبر حتى فيما لا سبيل له للقضاء
 فيه، ولها من نتائج الفكر والمعرفة ما شهد له التاريخ، ودلت عليه كتب القوم و رسائلهم الباقية. وما نقله عنهم خصومهم و أعداؤهم.
 وباختصار، إنّه مذهب فكرى كبير يزخر بمعارف حول المبدأ والمعاد، وبأنظار عقلية أو تجريبية حول صحيفه الكون. ومن المؤسف
 جداً أنّ هوى العصية بل يد الخيانة و الجناية لعبت بكثير من مخلفاتهم الفكرية و أطاحت به فأضاعتهما بالخرق و المزق و إن كان فيما
 بقى و ما كشفت عنه بعثه وزارة المعارف المصرية إلى اليمن و نشرتها (١) كفاية لمن أراد التعرف على المذهب عن لسان شيوخهم،
 ثمّ دراستها، وستتلو عليك قائمة الكتب الباقية أو المنشورة فى هذه الآونة الأخيرة عنهم، وبالتنظر إليها يعلم أنّ الباقي يشكل طفيفاً من
 الكثير المضاع - ومع ذلك - فهو يستطيع أن يرسم لنا معالم هذا المذهب بوضوح بحيث يغنى عن المراجعة إلى كتب خصومهم و
 أعدائهم. إنّ ضياع كتب المعتزلة فى القرون السابقة وعدم تمكّن الباحثين عنها، ألجأهم فى _____ ١ . أصدرت دار الكتب
 المصرية عام ١٩٦٧ قائمة المخطوطات العربية المصورة بالميكروفيلم من الجمهورية العربية اليمنية. كما قامت بنشر كتب القاضى عبد
 الجبار رئيس الاعتزال فى اوائل القرن الخامس فطبت منها كتاب شرح الأصول الخمسة وكتاب المغنى له أيضاً فى أربعة عشر جزءاً
 وغيرهما.

(١٤٤)

كتابة عقائدهم و تحليل أصولهم إلى الاعتماد على كتب الأشاعرة فى مجال علم الكلام والملل و النحل، ومن الواضح جداً أنّ كثيراً
 من الخصوم ليسوا بمنصفين و موضوعيين وقد نسبوا إليهم ما لا يوافق الأصول الموثوق بها (١). إنّ الدّراسة الموضوعية الهادفة تكلف

الباحث الرجوع إلى الكتب المؤلفة بيد أعلام المذاهب و خبرائه المعروفين بالحدق والوثاقه، والاعتماد على كتب الخصوم خارج عن أدب الجدل و رسم التحقيق. بيد أننا نرى كثيراً من الكتاب المعاصرين يعتمدون في تحليل عقائد الطوائف الإسلامية على «مقالات الإسلاميين» للشيخ الأشعري و «الفرق بين الفرق» لعبد القادر البغدادي و «الملل و النحل» للشهرستاني، وهؤلاء كلهم من أعلام الأشاعرة و يرجع إليهم في الوقوف على التفكير الأشعري، وأما في غيره فلا يكون قولهم و نقلهم حججاً في حقهم، إلا إذا طابق الأصل، فإن الكاتب مهما يكون أميناً - إذا كان في موقف الجدل والنقاش و حاول إثبات مقاله و تدمير مقاله الخصم - لا يصح الركون إلى نقله، إلا - إذا أتى بنص عبارة الخصم بلا - تصرف ولا تبديل. ومن المعلوم أن الكتب المؤلفة في العصور الماضية لا تسير على هذا المنهاج، كما هو واضح لمن سبر. إن من الظلم البارز الاعتماد في تحليل عقائد الطوائف الإسلامية على كتب ابن حزم الأندلسي (المتوفى عام ٤٥٦ هـ) وابن خلدون المغربي (المتوفى عام ٨٠٨ هـ) وغيرهما خصوصاً فيما كتبه حول الشيعة لبعدهم عن البيئة الشيعية و مؤلفاتهم، ولذلك ترى فيها الخبط والخطأ... وهذا مبلغ علم الشهرستاني و اطلاعه عنهم حيث يذكر الأئمة الاثني عشر ويقول: إن علي بن محمد النقي مشهده بقم (٢) و يكفيك فيما ذكرناه ما قاله أحد معاصريه (أبو محمد الخوارزمي) قال بعد ذكر مشايخه في الفقه _____ ١. مثلاً نسب إليهم أنهم لا يقولون بعذاب القبر مع أن القاضي في شرح الأصول الخمسة ص ٧٣٢ يقول: إن المعتزلة تقول بعذاب القبر ولا - تنكره قال: وأما فائدة عذاب القبر وكونه مصلحة للمكلفين فإنهم متى علموا أنهم إن أقدموا على المقبحات وأخلوا بالواجبات عذبوا في القبر... وسيأتي البحث عنه في محله. ٢. الملل والنحل: ج ١ ص ١٦٩.

(١٦٧)

وأصوله والحديث: «ولولا - تخبطه في الاعتقاد وميله إلى الالحاد لكان هو الإمام، وكثيراً ما كنا نتعجب في وفور فضله وكمال عقله و كيف مال إلى شيء لا أصل له و اختار أمراً لا دليل عليه لا معقولاً ولا منقولاً ونعوذ بالله من الخذلان والحرمان من نور الإيمان» (١). اهتمام المستشرقين بتراث المعتزلة

اهتم المستشرقون في العصور الأخيرة بدراسة مذهب الاعتزال وما فيه من الخطوط والأصول في الكون و حياة الإنسان و اختياره و حريته، ولقد أعجبهم فكرتهم في أفعال العباد وصار ذلك سبباً لاهتمام الجدد من أهل السنة و بالأخص المصريين منهم إلى دراسة مذهبهم و نشر كتبهم و تقدير فكرتهم و الدفاع عنهم قدر الامكان ورد الاعتبار إليهم. ولأجل ذلك نشرت في العهد القريب كتب تتناول البحث عن ذلك المذهب مثل: ١ - تاريخ الجهمية والمعتزلة: لجمال الدين القاسمي الدمشقي، طبع في القاهرة عام ١٣٣١ هـ - ٢ - المعتزلة: تأليف زهدى حسن جار اللهطبع في القاهرة عام ١٣٦٦ هـ وهي رسالة تبحث في تاريخ المعتزلة و عقائدهم و أثرهم في تطور الفكر الإسلامي. قدمها مؤلفها إلى دائرة التاريخ العربي في كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأمريكية. ونال عليه رتبة أستاذ في العلوم وله في الكتاب مواقف موضوعية. ٣ - فجر الإسلام: لأحمد أمين المصري، الفصل الرابع، ص ٢٨٣ - ٣٠٣. ٤ - ضحى الإسلام: له أيضاً، الفصل الأول ص ٢١ - ١٠٧. ٥ - تاريخ المذاهب الإسلامية: تأليف محمد أبو زهرة فصل القدرية، ص ١٢٣ - ١٧٩. _____ ١. معجم البلدان: ج ٣ ص ٣٧٧ ط بيروت دار احياء التراث العربي مادة شهرستان.

(١٦٨)

٦ - فضل الاعتزال و طبقات المعتزلة: تحقيق فؤاد السيد، نشرته الدار التونسية للنشر، عام ١٤٠٦ هـ الطبعة الثانية، وهو يضم كتباً ثلاثة لأنتمية الاعتزال: أبي القاسم البلخي، والقاضي عبد الجبار، و الحاكم الجشمي، والكتاب مزدان بتحقيقات نافعة. وهذه العناية الكبيرة المؤكدة من أبناء الأشاعرة لبيان تاريخ المعتزلة و عقائدهم وإظهار الأسف و الأسى لذهاب ثروتهم العلمية، وإنشاء بعثة علمية لأخذ الصور من مخطفاتهم الخطية المبعثرة في بلاد اليمن والقيام بنشرها، عمل مبارك وجهد مقدر، لكن آثاره أبناء الاستشراق في نفوس هؤلاء. هذا هو (آلفرد جيوم) أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة لندن يقول: «إن ما انتهى إلينا من كتابات رجال الاعتزال قليل جداً إلى حد أننا مضطرون إلى أن نعتمد على ما يقوله مخالفوهم عنهم، وقد كانوا يحملون لهم ذكريات مريرة لما قام به المعتزلة من

أعمال تعسفية لذلك، فإن أملنا لكبير، إذا كانت مكتبات الشيعة في اليمن أو في غير اليمن تحوى مخطوطات من أصل معتزلي أن نقوم بنشرها. هذا، وإن أولئك الذين يرغبون في الوقوف على نتاج العقل العربي في عصور الخلافة الذهبية، يحسنون صنعا إذا أقدموا على درس هذه الرسالة للماعة في تاريخ حركة عظيمه في حركات الفكر العربي» (١). وهذا «شتيز» المستشرق وصفهم بأنهم المفكرون الأحرار في الاسلام، وألف كتاباً بهذا الاسم. ووصفهم «آدم ميت» و«هاملتون» بأنهم دعاة الحرية الفكرية والاستنارة (٢). وقال «جولد تسيهر»: «إن المعتزلة وسعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيها عنصراً مهماً آخر قيماً وهو العقل الذي كان حتى ذلك الحين مبعداً بشدة عن هذه ————— ١. من مقدمة كتاب المعتزلة، تأليف زهدى حسن جار الله، قدم له «آلفرد جيوم» أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة لندن. عام ١٩٤٧ م = ١٣٦٦ هـ ٢. أدب المعتزلة: ص ١٧٢.

(١٦٩)

الناحية» (١). وربما يرد على الأخير بأنه تجاسر على قلب الحقائق مسقطاً الواقع الذي يثبت اجتهاد الرسول و الصحابة والتابعين... وكتب السنه و السيرة والتاريخ والفقه والخلاف والمقارنات الفقهية حافلة بما يؤيد اجتهادهم وتعويلهم على العقل. يلاحظ عليه: أن كلام هذا الراذ أقرب إلى قلب الواقع مما ذكره «جولد تسيهر» ذلك المستشرق الحاقدا على الإسلام و نبيه، وذلك لأن أهل الحديث والحنبلة ينكرون الحسن والقبح العقليين، وإنكار ذلك مساوق لإنكار كثير من المعارف الدينيه، والمعارف الدينيه عندهم قائمه على السنه فقط، و أحيانا على الكتاب. وأما العقل فهو محكوم عندهم بالاعدام، حتى أن طريق الإمام أبي الحسن الأشعري غير مقبول لدى أهل الحديث والحنبلة ولأجل ذلك ما ذكروه في طبقاتهم، قائلين بأن الشيخ الأشعري يستدل على العقائد، مكان أن يعتمد فيها على الحديث والسنه. وأما الاعتماد على العقل في الفقه، فلو أريد منه القياس والاستحسان فهو من قبيل العقل الظني الذي لا يغنى من الحق شيئاً، وإن أريد منه الحكم القطعي من العقل، فهو مبنى على التحسين والتقيح العقليين، وأهل الحديث والحنبلة حتى الأشاعرة ينكرون إمكان هذا الإدراك العقلي. هذا وللمستشرقين كلمات أخر في تحسين منهج الاعتزال ضربنا عنها صفحاً. أحمد أمين و مدرسة الاعتزال

إن أحمد أمين (الكاتب الشهير المصري) مع أنه لم يقف من كتب المعتزلة إلا على الأقل القليل كالانتصار لأبي الحسين الخياط (م ٣١١)، والكشاف للزمخشري (م ٥٣٨)، وبعض كتب الجاحظ (م ٢٥٥) وقد اعتمد في نقل عقائد المعتزلة ————— ١. المعتزلة بين العمل والفكر: ص ١٠٣، تأليف: على الشابي، أبو لبابه حسن، عبد المجيد النجار. طبع الشركة التونسية.

(١٧٠)

على كتب الأشاعرة كمقالات الإسلاميين للشيخ الأشعري (م ٣٢٤)، ونهاية الأقدام للشهرستاني (م ٥٤٨)، والاقتصاد للغزالي (م ٥٠٥)، والمواقف للعضدي (م ٧٧٥) إلى غير ذلك، وهؤلاء كلهم أعداء المعتزلة ولا يستطيعون تقرير مواقف خصومهم في المسائل مجردين عن كل انحياز، - مع أنه لم يقف - تأثر كثيراً بمنهج الاعتزال تبعاً لأسانذته الغربيين، ولولاهم لما خرج الأستاذ أحمد أمين عما حاكت عليه البيئه المصريه الأشعريه من الشباك الفكرى قدر أنمله، ولا بأس بنقل جمل من إطراره للمعتزلة في فصول مختلفه. ١ - يقول حول توحيد المعتزلة و تنزيههم: «وقد كانت نظرهم في توحيد الله نظره في غاية السمو والرفعه، فطبّقوا قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) أبداع تطبيق، وفصلوه خير تفصيل وحاربوا الأنظار الوضعيه من مثل أنظار الذين جعلوا الله تعالى جسماً» (١). ٢ - يقول حول نظريتهم في حرية العباد: «وقالت المعتزلة بحرية الإرادة وغلوا فيها أمام قوم سلبوا الإنسان إرادته حتى جعلوه كالريشه في مهبّ الريح أو كالخشبة في اليم. وعندى أن الخطأ في القول بسطان العقل و حرية الإرادة والغلو فيهما خير من الغلو في أضدادهما، وفي رأيي أنه لو سادت تعاليم المعتزلة إلى اليوم لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالى وقد أعجزهم التسليم وشلّهم الجبر وقعد بهم التواكل» (٢). ٣ - يقول في حق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام، الشخصيه الرابعه بين المعتزلة بعد واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبي الهذيل العلاف، أستاذ الجاحظ وقد توفي عام ٢٣١: «أما ناحيته العقلية فيها الركنا الأساسيان اللذان سببا النهضة الحديثه في

أروبا وهما الشك والتجربة، وأما الشك فقد كان يعتبره النظام أساساً للبحث فكان يقول: الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ————— ١. ضحى الاسلام: ج ٣، ص ٦٨. ٢. نفس المصدر: ج ٣، ص ٧٠.

(١٧١)

ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك. وأما التجربة فقد استخدمها كما يستخدمها الطبيعي أو الكيماوي اليوم في معمله»(١). وقال أحمد أمين في مقال خاص تحت عنوان «المعتزلة والمحدثون»: كان للمعتزلة منهج خاص أشبه ما يكون بمنهج من يسميهم الإفرنج العقليين، عمادهم الشك أولاً والتجربة ثانياً، والحكم أخيراً. وللجاحظ في كتابه «الحيوان» مبحث طريف عن الشك، وكانوا وفق هذا المنهج لا يقبلون الحديث إلا إذا أقره العقل، ويؤولون الآيات حسب ما يتفق والعقل كما فعل الزمخشري في الكشاف، ولا يؤمنون برؤية الإنسان للجن لأن الله تعالى يقول: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ويهزأون بمن يخاف من الجن، ولا يؤمنون بالخرافات والأوهام، ويؤسسون دعوتهم إلى الإسلام حسب مقتضيات العقل وفلسفة اليونان، ولهم في ذلك باع طويل، ولا يؤمنون بأقوال أرسطو لأنه أرسطو، بل نرى في «الحيوان» أن الجاحظ يفضل أحياناً قول أعرابي جاهلي بدوي على قول أرسطو الفيلسوف الكبير. هكذا كان منهجهم، وهو منهج لا يناسب إلا الخاصية، ولذلك لم يعتنق الاعتزال إلا خاصية المثقفين، أما العوام فكانوا يكرهونه. ويقابل هذا المنهج منهج المحدثين، وهو منهج يعتمد على الرواية لا على الدراية، ولذلك كان نقدهم للحديث نقد سند لا متن، ومتى صحَّ السند صحَّ المتن ولو خالف العقل، وقلَّ أن نجد حديثاً نُقد من ناحية المتن عندهم، وإذا عُرض عليهم أمر رجعوا إلى الحديث ولو كان ظاهره لا يتفق والعقل، كما يتجلى ذلك في مذهب الحنابلة. وكان من سوء الحظ أن تدخل المعتزلة في السياسة ولم يقتصر على ————— ١. ضحى الاسلام: ج ٣، ص ١١٢.

(١٧٢)

الدين، والسياسة دائماً شائكة، فنصرهم على ذلك المأمون والواثق والمعتمد، وامتحنوا الناس وأكروههم على الاعتزال، فكرههم العامة واستبطلوا الإمام ابن حنبل الذي وقف في وجههم، فلما جاء المتوكل انتصر للرأي العام ضدَّهم، وانتصر للإمام أحمد بن حنبل على الجاحظ وابن أبي دواد وأمثالهما، ونكل بهم تنكيلاً شديداً، فبعد أن كان يتظاهر الرجل بأنه معتزلي، كان الرجل يعتزل ويختفي حتى عدَّ جريئاً كلَّ الجراءة الزمخشري الذي كان يتظاهر بالاعتزال ويؤلف فيه، ولم يكن له كلَّ هذا الفضل، لأنه أتى بعد هدوء الفورة التي حدثت ضدَّ الاعتزال. فلنتصوّر الآن ماذا كان لو سار المسلمون على منهج الاعتزال إلى اليوم؟. أظنَّ أن مذهب الشك والتجربة وإلقين بعدهما كان يكون قد ربي وترعرع ونضج في غضون الألف سنة التي مرّت عليه، وكنا نفضل الأروبيين في فخفتهم وطمطنتهم بالشك والتجربة التي ينسبونها إلى «بيكن» مع أنه لم يعمل أكثر من بسط مذهب المعتزلة. وكان هذا الشك وهذه التجربة مما يؤدي حتماً إلى الاختراع وبدل تأخر الاختراع إلى ما بعد بيكن وديكارت، كان يتقدم مئات من السنين، وكان العالم قد وصل إلى ما لم يصل إليه إلى اليوم، وكان وصوله على يد المسلمين لا على يد الغربيين، وكان لا يموت خلق الابتكار في الشرق ويقتصر على الغرب. فقد عهدنا المسلمين بفضل منهج المحدثين يقتصرون على جمع متفرق أو تفریق مجتمع، وقلَّ أن نجد مبتكراً كابن خلدون الذي كانت له مدرسة خاصية، تلاميذها الغربيون لا الشرقيون. فالحق أن خسارة المسلمين بإزالة المعتزلة من الوجود كانت خسارة كبرى لا تعوّض. ثم بدأ المسلمون يهجون منهج الحضارة الغربية تقليداً من الخارج لا بعثاً من الداخل، وشتان ما بينهما، فالتقليد للخارج بثَّ فيهم ما يسميه علماء النفس مركب النقص، فهم يرون أنهم عالة على الغربيين في منهجهم، ولو كان من أنفسهم لاعتزوا به (١٧٣)

وافتحروا، ولكن ما قُدِّر لا بدَّ أن يكون، والله في خلقه شؤون»(١). هذا بعض ما تأثر به الأستاذ المصري بمنهج الاعتزال فأطلق قلمه بمدحهم، ولكن لما وقف في غضون التأريخ على أن المعتزلة تربت في أحضان البيت العلوي وأنَّ واصل بن عطاء مؤسس المنهج تتلمذ على أبي هاشم بن محمّد الحنفية، وأنهم أخذوا التوحيد والعدل من الأصول الخمسة من خطب الإمام أمير المؤمنين - عليه

السلام - ثارت ثورته وثقل عليه البحث لما يكنه في نفسه من عداة وحقد للشيعة وأئمتهم فانبرى لتحريف التأريخ و إسدال الستر على الحقيقة و إنكار كون الأصل لبعض أصول المعتزلة هو البيت العلوى. ولنا معه في ذلك الفصل بحث ضاف فانتظر. هذا والكلام حول هذه الطائفة يأتي في فصول: _____ ١. رسالة الإسلام التي تصدرها «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» بالقاهرة: العدد الثالث من السنة الثالثة.

(١٧٤)

الفصل الأول

الفصل الأول سبب تسميتهم بالمعتزلة

لقد شغل بال الباحثين من المسلمين و المستشرقين سبب تسمية هذه الطائفة بالمعتزلة، فاختار كل مذهباً، ونحن نأتى بجميع الآراء أو أكثرها على وجه الاجمال، مع التحليل والقضاء بينها. ١ - اعترالهم عن على - عليه السلام - في محاربتة لمخالفه
قال أبو محمّد الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث في كتابه «فرق الشيعة» عند البحث عن الأحداث الواقعة بعد قتل عثمان: «فلما قُتل بايع الناس علياً فسموا الجماعة، ثم افترقوا بعد ذلك و صاروا ثلاث فرق: فرقة أقامت على ولايته - عليه السلام - وفرقة خالفت علياً وهم طلحة و الزبير و عائشة، وفرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وهو سعد بن أبي وقاص، و عبد الله بن عمر بن الخطاب، و محمد بن مسلمة الأنصاري، وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فإن هؤلاء اعتزلوا عن على عليه السلام و امتنعوا عن محاربتة و المحاربة معه بعد دخولهم في بيعته و الرضا به. فسموا المعتزلة، و صاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد، وقالوا: لا يحل قتال علي ولا القتال معه. و ذكر بعض أهل العلم أن الأحنف بن قيس التميمي اعتزل بعد ذلك في خاصة (١٧٥) قومه من بني تميم لا على التدين بالاعتزال. ولكن على طلب السلامة في القتل و ذهاب المال و قال لقومه: اعتزلوا الفتنة أصلح لكم». و ذكر (١) نصر بن مزاحم المنقري أن المغيرة بن شعبه كان مقيماً بالطائف لم يشهد صفين. فقال معاوية: يا مغيرة: ما ترى؟ قال: يا معاوية لو وسعني أن أنصرك لنصرتك، ولكن علي أن آتيك بأمر الرجلين (أبي موسى الأشعري و عمرو بن العاص) فركب حتى أتى دومة الجندل، فدخل على أبي موسى كأنه زائر له، فقال: يا أبا موسى! ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر و كره الدماء؟ قال: أولئك خيار الناس خفت ظهورهم من دمايتهم و خمصت بطونهم من أموالهم. ثم أتى عمراً فقال: يا أبا عبد الله! ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر و كره الدماء؟ فقال: أولئك شر الناس لم يعرفوا حقاً و لم ينكروا باطلاً (٢). غير أن شيوخ المعتزلة يردون هذه الرواية ولا يقيمون لها وزناً. بل يقول البلخي: «ومن الناس من يقول سموا معتزلة لاعتزالهم علي بن أبي طالب في حروبه، وليس كذلك، لأن جمهور المعتزلة بل أكثرهم إلا القليل الشاذ منهم يقولون إن علياً عليه السلام كان على صواب، وإن من حاربه فهو ضال و تبرأوا ممن لم يتب عن محاربتة ولا يتولون أحداً ممن حاربه إلا من صحت عندهم توبته منهم، و من كان بهذه الصفة فليس بمعتزل عنه عليه السلام ولا يجوز أن يسمي بهذا الاسم» (٣). أقول: لولا أن النوبختي ذكر بعد نقل هذه الرواية قوله: «وأنهم صاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد» لأمكن المناقشة في كونه وجه التسمية، و أن الاعتزال بالطابع الفكري و العقلي كان استمراراً للاعتزال بطابعه السياسي. إذ من الممكن أن تستعمل كلمة واحدة في طائفتين يجمعهما جامع وهو العزلة و ترك الجماعة. فهؤلاء الذين خذلوا _____ ١. فرق الشيعة: ص ٥ طبع النجف عام ١٣٥٥ هـ. ٢. وقعة صفين ص ٦٢٠ - ٦٢١ طبع مصر. ٣. فضل الاعتزال ص ١٣ - ١٤.

(١٧٤)

علياً بترك البيعة و الحرب معه ضد الناكثين و القاسطين معتزلون، كما أن واصل بن عطاء و تلاميذه معتزلون لأجل تركهم مجلس درس أستاذه و تلاميذه كما يأتي في الرواية الأخرى. و اطلاق كلمة واحدة على الطائفتين اللتين لهما طابعان مختلفان لا يدل على أن الطائفة الثانية هي استمرار للأولى. و إنما يمنعنا عن رد هذه النظرية على وجه القطع هو صراحة كلام النوبختي في ذلك. ٢ - اعترالهم

عن الحسن بن علي - عليهما السلام -

وهناك رواية أخرى تدلّ على أنّ تسميتهم بهذا اللقب لاعتزالهم عن الحسن بن عليّ و معاوية، نقله الملقى (المتوفى عام ٣٧٣) في «التنبيه والرّد» واستحسنه الكوثري (١) وحسب أنّه وقف على أمر بديع. يقول الملقى: «وهم سمّوا أنفسهم معتزلةً وذلك عندما بايع الحسن بن عليّ - عليهما السلام - معاوية وسلّم إليه الأمر اعتزلوا الحسن بن عليّ و معاوية و جميع الناس، وذلك أنّهم كانوا من أصحاب عليّ ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة و سمّوا بذلك معتزلةً» (٢). أقول: هذا الرأى قريب من جهة، لأنّ المعتزلة أخذوا تعاليمهم في التوحيد والعدل عن عليّ عليه السلام كما سيأتي، فليس ببعيد أن يرجع وجه التسمية إلى زمن تصالح الإمام الحسن - عليه السلام - مع معاوية. ومع ذلك كلّه، يمكن أن يقال فيه مثل ما قلناه في النظرية السابقة، وهو أنّه كانت طائفتان مختلفتان لا صلة بينهما سوى الاشتراك الاسمي، ظهرت إحداهما بعد صلح الحسن عليه السلام وكان لها طابع سياسى، وظهرت الأخرى في زمن الحسن البصرى عند اعتزال واصل عن حلقة بحثه كما سيأتي بيانه، لها طابع عقلى. وهناك إشكال آخر يتوجّه على رواية الملقى حيث قال: «وهم سمّوا أنفسهم» ————— ١. تعليق «تبيين كذب المفتري» ص ١٠. ٢. التنبيه والرّد ص ٢٦.

(١٧٧)

معتزلة» وهو أنّ لفظ الاعتزال ليس لفظاً يعرب عن المنهج حتّى يطلقوا هذا الاسم على أنفسهم، إن لم يكن فيه دلالة على ذمّ ما. ٣ - اعتزال عامر عن مجلس الحسن البصرى

وهناك رواية ثالثة رواها ابن دريد يتحدّث عن بنى العنبر قال: «ومن رجالهم فى الإسلام عامر بن عبدالله يقال له عامر بن عبد قيس، وكان عثمان بن عفان كتب إلى عبدالله بن عامر أن يسيره إلى الشام، لأنّه يظعن عليهم وكان من خيار المسلمين وله كلام فى التوحيد كثير، وهو الذى اعتزل الحسن البصرى فسمّوا المعتزلة» (١). وروى أبو نعيم بالإسناد عن الحسن البصرى أنّه قال: «كان لعامر بن عبدالله بن عبد قيس مجلس فى المسجد فتركه حتّى ظننا أنّه قد ضارح أصحاب الأهواء، قال: فأتينا فقلنا له: كان لك مجلس فى المسجد فتركته؟ قال: أجل، إنّه مجلس كثير اللغظ والتخليط، قال: فأيقنا أنّه قد ضارح أصحاب الأهواء، فقلنا: ما تقول فيهم؟ قال: وما عسى أن أقول فيهم ... الخ»، ونقل أبو نعيم الاصفهاني أيضاً أنّه عتب أبو موسى الأشعري (٢) عامر بن عبد قيس اعتزاله مجلسه الذى اعتاده فى المسجد، فكتب إليه قائلاً: «فإني عهدتك على أمر وبلغني أنّك تغيرت فاتق الله و عد» (٣). وقال المعلق على كتاب «فضل الاعتزال»: إذا كان ابن دريد و أبو نعيم لم يحددا لنا زمن اعتزال عامر بن عبد قيس، فمن الممكن أن نستنتج أنّه تمّ فى خلال تسع سنوات من سنة ٣٥ وهو تاريخ اعتزال جماعة سعد بن أبى وقاص إذ عناهم الحسن البصرى فى حديثه، إلى سنة ٤٤ وهو تاريخ وفاة أبى موسى الأشعري إذ أفاد أبو نعيم أنّه عاتب عامر لاعتزاله مجلسه». ————— ١. الاشتقاق ج ١ ص ٢١٣ كما فى تعليق «فضل الاعتزال» ص ١٥. ٢. كان أبو موسى والى الكوفة أواخر خلافة عثمان إلى عام ٣٦، حتّى عزله على - عليه السلام - لأجل قعوده عن نصره الامام. ٣. حلية الأولياء: ج ٢ ص ٩٣ - ٩٥.

(١٧٨)

يلاحظ عليه: أنّ الحسن البصرى ولد بالمدينة عام (٢١)، ثمّ سكن البصرة وتوفى عام (١١٠)، فمن البعيد أن يكون له مجلس بحث فى المسجد وهو من أبناء العشرين أو دونه، فلو صحّ ما حدّده المعلق من زمن الاعتزال يلزم أن يكون له مجلس بحث فى المسجد بين أعوام ٣٥ - ٤٤، ويكون عامر بن عبدالله الشخصيّة المعروفة أحد حضار بحثه، وقد قدر الزركلى فى كتابه «الأعلام» وفاة عامر نحو سنة (٥٥) (١). ثمّ إنّ عتب أبى موسى لا - يصحّ أن يكون فى خلال تسع سنوات بين أعوام ٣٥ - ٤٤ لأنّه عزل عن الولاية عام ٣٦ و غادر الكوفة ولم يرجع إليها، ولما أصدر حكمه الجائر فى دومة الجندل ضدّ عليّ - عليه السلام - خاف من انتفاضة الناس و ثورتهم عليه، وغادرها إلى مكّة المكرّمة ومات بها عام ٤٣ أو ٤٤. ولو صحّ عتابه لكان قبل سنة ٣٦، وهذا يستلزم أن تكون للحسن حلقة بحث فى أوان البلوغ، وهو بعيد، مع وجود وجوه الصّحابة وأكابر التابعين فى الكوفة. ثمّ لو صحّت الرواية لما صحّ أن يكون عامر بن عبدالله،

المؤسس الأول لمذهب الاعتزال و إن استعمل في حقه كلمة الاعتزال، لأن كلمة الاعتزال في تلك العصور كانت رمزاً للتخلف عن الفكرة السائدة على المجتمع، فمن خالف الفكرة و انحاز عنها، أطلق على فعله الاعتزال و على نفسه المعتزل، ازدراءً به، و تلك الكلمة بمنزلة الرجعية في أعصارنا هذه، و ما جاء في تلك الروايات إشارة إلى أن هؤلاء اعتزلوا عن السياسة السائدة على المجتمع كما في اعتزال سعد بن أبي وقاص و نظائره. أو اعتزال جماعة عن الحسن بن علي - عليهما السلام - أو عن الفكرة الدينيّة كما في الرواية الثالثة. والحق في التسمية ما ذكره في القول الرابع وقد تواتر نقله. ٤ - اعتزال واصل عن مجلس الحسن البصري

قد عرفت أن حكم مرتكب الكبيرة قد أوجد ضجة كبيرة في الأوساط الإسلاميّة _____ ١. الأعلام: ج ٤، ص ٢١. (١٧٩)

في عصر علي - عليه السلام - وبعده، حيث عدّ الخوارج مرتكب الكبيرة كافراً، كما عدّه غيرهم مؤمناً فاسقاً، وعدّت المرجئة من شهد بالتوحيد والرسالة لساناً أو جناحاً مؤمناً. وقد أخذت المسألة لنفسها مجالاً خاصاً للبحث عدّة قرون. وكان للمسألة في زمن الحسن البصري دوى خاص. نقل الشهرستاني أنه دخل واحد على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبراء، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأئمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك و قبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. ثم قام و اعتزل إلى اسطوانة المسجد يقّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عناً واصل، فسّمى هو وأصحابه: معتزلة (١). و ربّما نسبت هذه الواقعة بشكل آخر إلى «عمرو بن عبيد». قال ابن خلكان في ترجمة قتادة السدوسي: «كان قتادة من أنسب الناس كان قد أدرك ذعفلاً و كان يدور البصرة أعلاها و أسفلها بغير قائد فدخل مسجد البصرة، فإذا بعمر بن عبيد و نفر معه قد اعتزلوا من حلقة الحسن البصري و حلّقوا و ارتفعت أصواتهم، فأتهم وهو يظن أنها حلقة الحسن، فلما صار معهم عرف أنها ليست هي. فقال: إنما هؤلاء المعتزلة، ثم قام عنهم فمذ يومئذ سموا المعتزلة» (٢). و تظهر تلك النظرية من الشيخ المفيد في «أوائل المقالات» حيث قال: «وأما المعتزلة وما وسمت به من اسم الاعتزال، فهو لقب حدث لها عند القول بالمنزلة بين المنزلتين، وما أحدثه واصل بن عطاء من المذهب في ذلك و نصب من الاحتجاج له، _____ ١. الفرق بين الفرق: ص ٢١، وفي ذيل عبارته ما يدل على أن تسميتهم بها لأمر آخر سيوافيك بيانه. ٢. وفيات الأعيان ج ٤ ص ٨٥ رقم الترجمة ٥٤١.

(١٨٠)

فتابعه عمرو بن عبيد، ووافق على التدين به من قال بها و من أتبعهما عليه، إلى اعتزال الحسن البصري و أصحابه والتحيز عن مجلسه فسّماهم الناس المعتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن بعد أن كانوا من أهله و تفرّدهم بما ذهبوا إليه من هذه المسألة من جميع الأئمة و سائر العلماء ولم يكن قبل ذلك يعرف الاعتزال ولا - كان علماً على فريق من الناس» (١). ولولا - قوله: «وتفرّدهم بما ذهبوا إليه في هذه المسألة من جميع الأئمة و سائر العلماء» لكان نصّاً في هذه النظرية، إلا أن هذا الذيل يمكن أن يكون إشارة إلى النظرية الأخرى التي ستبين. قد نقل اعتزال واصل حلقة الحسن جماعة كثيرة، فنقلها المرتضى في أماليه ج ١ ص ١٦٧، والبغدادي في الفرق بين الفرق ص ١١٨، والشهرستاني في الملل و النحل ج ١ ص ٤٨، وابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٦ ص ٨، والمقرئ في خطه ج ٢ ص ٣٤٦. وعلى كلّ تقدير فقد ناقش الدكتور «نيبريج» المستشرق هذه النظرية بأنّه وردت تسمية هذه المدرسة بأهل الاعتزال بمن قال بالاعتزال، ولو كان معنى الكلمة ما زعموه لما جاز مثل هذه التسمية، ثم إن لها عدّة نظائر في عرف ذلك الزمان كالمرجئة يرادفها أهل الأرجاء وهم الذين قالوا بالأرجاء، والرافضة يرادفها أهل الرفض و من قال بالرفض (٢). ولعل المناقشة في محلّها كما سيظهر مما نقله عن المسعودي في النظرية السادسة. ٥ - الاعتزال عن القولين السائدين في ذلك العصر

وهناك رأى خامس في تسميتهم بالاعتزال يظهر من شيخ المعتزلة أبي القاسم البلخي (م ٣١٧) يقول: «والسبب الذي له سميت

المعتزلة بالاعتزال؛ أن الاختلاف ————— ١. أوائل المقالات ص ٥ - ٦. ٢. مقدمة كتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط ص ٥٤.

(١٨١)

وقع في أسماء مرتكبي الكبائر من أهل الصيالة، فقالت الخوارج: إنهم كفار مشركون وهم مع ذلك فساق، وقال بعض المرجئة: إنهم مؤمنون لإقرارهم بالله ورسوله وكتابته وبما جاء به رسوله وإن لم يعملوا به، فاعتزلت المعتزلة جميع ما اختلف فيه هؤلاء وقالوا تأخذ بما اجتمعوا عليه من تسميتهم بالفاسق وندع ما اختلفوا فيه من تسميتهم بالكفر والإيمان والنفاق والشرك، قالوا: لأن المؤمن ولي الله، والله يجب تعظيمه وتكريمه وليس الفاسق كذلك، والكافر والمشرك والمنافق يجب قتل بعضهم وأخذ الجزية من بعض، وبعضهم يعبد في السر إلهاً غير الله، وليس الفاسق بهذه الصفة. قالوا: فلما خرج من هذه الأحكام، خرج من أن يكون مسمى بأسماء أهلها وهذا هو القول بالمنزلة بين المنزلتين أي الفسق منزلة بين الكفر والإيمان» (١). و يظهر هذا من البغدادى أيضاً قال: «ومنها اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمية الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين وهي أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر، ولأجل هذا سمّاهم المسلمون «معتزلة» لاعتزالهم قول الأمة بأسرها» (٢) وفي الوقت نفسه نقل البغدادى، قصيدة اعتزال «واصل» حلقة الحسن بنحو يوههم كون وجه التسمية هو اعتزال واصل مجلس الحسن. لاحظ ص ١١٨. ويظهر من ابن المرتضى تأييده. قال في ذيل كلامه: «سمى وأصحابه معتزلة لاعتزالهم كل الأقوال المحدثه والمجبرة». ثم رد على من زعم أن إطلاق المعتزلة لمخالفتهم الاجماع بقوله: «لم يخالفوا الإجماع، بل عملوا بالمجمع عليه في الصدر الأول ورفضوا المحدثات المبتدعة» (٣). ويظهر هذا أيضاً من نشوان بن سعيد اليمنى حيث قال: «وسميت المعتزلة معتزلة لقولهم بالمنزلة بين المنزلتين وذلك أن المسلمين اختلفوا ————— ١. باب ذكر المعتزلة من مقالات الاسلاميين للبلخي ص ١١٥. ٢. الفرق بين الفرق: ص ٢١ و ١١٥، ط دار المعرفة. ٣. المنية والأمل: لأحمد بن يحيى المرتضى ص ٤ طبع دار صادر.

(١٨٢)

في أهل الكبائر فقالت الخوارج: هم كفار مشركون، وقال بعض المرجئة: إنهم مؤمنون، وقالت المعتزلة: لا- نسّمهم بالكفر ولا بالإيمان، ولا نقول إنهم مشركون ولا مؤمنون بل فساق، فاعتزلوا القولين جميعاً وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين فسمّوا بالمعتزلة» (١). ٦- جعل الفاسق معتزلاً عن الإيمان والكفر

وهذه النظرية غير النظرية الماضية، فإن الاعتزال فيها كان وصفاً لنفس المعتزلة فهم اعتزلوا عن جميع ما اختلفت فيه من الآراء وأخذوا بالمتفق عليه، ولكنّه في هذه النظرية وصف لمورد الخلاف، أعنى الفاسق، فجعلوه معتزلاً عن الإيمان والكفر، فلا هو مؤمن ولا كافر، وتظهر تلك النظرية من المسعودى في موجهه، قال في بيان الأصل الرابع من الأصول الخمسة: «وأما القول بالمنزلة بين المنزلتين وهو الأصل الرابع، فهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمّى فاسقاً على حسب ما ورد التوقيف بتسميته وأجمع أهل الصيالة على فسوقه». قال المسعودى: «وبهذا الباب سميت المعتزلة، وهو الاعتزال، وهو الموصوف بالأسماء والأحكام مع ما تقدّم من الوعيد في الفاسق من الخلود في النار» (٢). وقال أيضاً: «مات واصل بن عطاء - ويكنى بأبي حذيفة - في سنة إحدى و ثلاثين و مائة وهو شيخ المعتزلة و قديمها، وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وهو أن الفاسق من أهل الملة ليس بمؤمن ولا- كافر وبه سميت المعتزلة وهو الاعتزال» (٣). والدقة في قوله: «وبه سميت...» (أي بعزل الفاسق عن الإيمان والكفر) تعطى أن وجه التسمية يعود إلى جعل الفاسق منعزلاً عنهما. ————— ١. شرح رسالة الحور العين: ص ٢٠٤ - ٢٠٥. ٢. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٢٢، ط بيروت دار الأندلس. ٣. نفس المصدر: ج ٤ ص ٢٢، ط بيروت دار الأندلس.

(١٨٣)

وهناك نظرية سابعة ذكرها أحمد أمين المصرى في فجر الإسلام ص ٣٤٤، ولكنها من الوهن بمكان لم يرتضها هو نفسه في كتبه

اللاحقة فلنضرب عنها صفحاً. إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة أنه لو كان أساس الاعتزال هو واصل بن عطاء أو عمرو بن عبيد، فتسميتهم بالمعتزلة، إما لاعتزال المؤسس عن مجلس البحث أو باعتزاله عن الرأيين السائدين، أو لاعتقادهم بكون الفاسق منعزلاً عن الكفر والإيمان، وخروج مرتكب الكبيرة عن عداد المؤمنين والكافرين. والعجب أن أستاذ واصل كان يذهب إلى أنه منافق، وأراد بذلك تخفيف أمره بالنسبة إلى الكافر، مع أن جزاء المنافق في الآخرة لو لم يكن أشد من الكافر ليس بأقل منه. أرى أن إفاضة الكلام في تحقيق وجه التسمية أزيد من هذا خروج عن وضع الرسالة فلنرجع إلى سائر أسمائهم. سائر ألقاب المعتزلة

فقد ذكر ابن المرتضى لهم أسماء أخر. ١- العدلية: لقولهم بعدل الله و حكمته. ٢- الموحدة: لقولهم لا قديم مع الله (١). ولأجل هذا يطلق على هذه الطائفة أهل العدل و التوحيد، ولعلمهم يعنون بالعدل مضافاً إلى ما ذكر ابن المرتضى نفى القدر بالمعنى المستلزم للجبر، أو يريدون بذلك نفى كونه سبحانه خالقاً لأفعال العباد، إذ فيه الظلم والقيح والجور، وأما التوحيد فإنهم يريدون منه نفى الصفات الزائدة القديمة، فإن في الاعتقاد بزيادة الصفات اعتراف بقدماء معه سبحانه، وتزييه سبحانه عن التشبيه و التجسيم،

_____ ١. المنية و الأمل ص ١.

(١٨٤)

وسياتى أن هذين الأصلين اللذين يعدان الركنين الأساسيين لمدرسة الاعتزال مأخوذان من خطب الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام -

٣- أهل الحق: المعتزلة يعتبرون أنفسهم أهل الحق، والفرقة الناجية من ثلاث وسبعين فرقة، وقد فرغنا الكلام عن هذا الحديث و تعيين الفرقة الناجية في الجزء الأول. ٤- القدرية: يعبر عن المعتزلة في الكتب الكلامية بالقدرية. والمعتزلة يطلقونها على خصمائهم، وذلك لما روى عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: أن القدرية مجوس هذه الأمة. فلو قلنا بأن القدرية منسوبة إلى القدر عدل القضاء، فتنطبق على خصماء المعتزلة القائلين بالقدر السالب للاختيار. ولو قلنا بأنها منسوبة إلى القدرة، أى القائلين بتأثير قدرة الإنسان في فعله واختياره و تمكنه في إيجاده، فتنطبق - على زعم الخصماء - على المعتزلة لقولهم بتأثير قدرة الإنسان في فعله. وقد طال الكلام بين المتكلمين في تفسير الحديث و ذكر كل طائفة وجهاً لانطباقه على خصمها (١). والحق أن المتبادر من الحديث هو القدرية المنسوبة إلى القدر الذى هو بمعنى التقدير، و إطلاقه على مثبت القدر كأهل الحديث والحناابلة متعين، إذ لا يطلق الشئ و يراد منه ضده. فلو كان المراد منه المعتزلة يجب أن يراد منها نفى القدر. وقد روى عن زيد بن علي أنه قال - حين سأله أبو الخطاب عما يذهب إليه - : «أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله و من المرجئة الذين أطمعوا الفساق». هذا، ولقد أوضحنا المراد من الحديث محلّه (٢). ٥- الثنوية: المعتزلة يدعون بالثنوية و لعل وجه ما يتراءى من بعضهم لقولهم _____ ١. لاحظ في الوقوف على هذه الوجوه كشف المراد للعلامة الحلبي ص ١٩٥، وشرح المقاصد للفتازاني ج ٢ ص ١٤٣، وقد مضى الكلام في سند الحديث ودلالته في فصل القدرية من هذا الجزء فلاحظ. ٢. لاحظ الجزء الأول من الملل والنحل للمؤلف ص ١٠٣ - ١٠٩ ولاحظ الالهيات في ضوء الكتاب والسنة والعقل: محاضراتنا الكلامية بقلم الفاضل الشيخ حسن مكى.

(١٨٥)

الخير من الله والشر من العبد. وهناك وجه آخر لتسميتهم بالثنوية، أو المجوسية، وهو أن المعتزلة قالت باستقلال الإنسان في ايجاد فعله، بل نقل عن بعضهم القول بحاجة الموجود في حدوثه إلى الواجب دون بقائه و استمراره، فصيروا الإنسان كأنه مستقل في فعله، بل صيروا الممكنات كواجب غنتي عن العلة في بقائه و استمراره، دون حدوثه. ولكن النسبة غير صحيحة، إلا إلى بعض المتأخرين من المعتزلة، ولم يظهر لنا أن المتقدمين منهم كانوا على هذا الرأي. ٦- الوعيدية: و إنما أطلقت عليهم هذه الكلمة لقولهم بالوعد والوعيد، وأن الله صادق في وعده، كما هو صادق في وعيده و أنه لا يغفر الذنوب إلا بعد التوبة، فلو مات بدونها يكون معدباً قطعاً ولا يغفر له جزماً و يخلد في النار و يعدب عذاباً أضعف من عذاب الكافر. ٧- المعطلة: أى تعطيل ذاته سبحانه عن الصفات الذاتية، وهذا الصق بالجهمية الذين يعدون في الرعي الأول في نفى الصفات. وأما المعتزلة فلهم في الصفات مذهبان: ١- القول بالنيابة، أى خلو الذات

عن الصفات ولكن تنوب الذات مكان الصفات في الآثار المطلوبة منها، وقد اشتهر قولهم «خذ الغايات واترك المبادئ»، وهذا مخالف لكتاب الله و السنة والعقل. فإنّ النقل يدلّ بوضوح على اتّصافه سبحانه بالصفات الكمالية، وأمّا العقل، فحدث عنه ولا حرج، لأنّ الكمال يساوق الوجود وكلّما كان الوجود أعلى و أشرف يكون الكمالات فيه أكد. ٢ - عتيّة الصفات مع الذات و اشتمالها على حقائقها. من دون أن يكون ذات وصفه، بل الذات بلغت في الكمال إلى درجة صار نفس العلم والقدرة. وهذا هو الظاهر من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وتعضده البراهين (١٨٦)

العقلية و إطلاق المعطلة على هذه الطائفة لا يخلو من تجرّ و افتراء. والأولى بهذا الاسم أهل الحديث و الحنابلة، فإنّهم المعطلة حقيقة، إذ عطّلوا العقول عن معرفة الله و أسمائه و صفاته و أفعاله، ومنعوا الخوض في المسائل العقلية، وكانّ العقل خلق لا لغاية إلاّ للسعي وراء الحياة المادية. ٨ - الجهمية: (١) وهذا اللقب منحه أحمد بن حنبل لهم، فكلمًا يقول: قالت الجهمية، أو يصف القائل بأنّه جهمي يريد به المعتزلة لما وجد من موافقتهم الجهمية في بعض المسائل، و إن كانت الجهمية متقدّمة على المعتزلة، لكنّها على زعمهم مهّودوا السبيل للمعتزلة، مع أنّك عرفت أنّ واصلًا أرسل أحد تلاميذه إلى معارضة و أنّهم لا يعدّون الجهم من رجالهم أو طبقاتهم لاختلافهم معه في بعض المسائل الجوهرية، فإنّ الجهم جبريّ و المعتزلة قائله بالاختيار، ولعلّ بعض هذه التسميات من مصاديق قوله سبحانه (ولا تنازوا بالألقاب) (الحجرات/١١). ٩ - المفنية: ١٠ - اللفظية: وهذا اللقب ذكرهما المقرئ وقال: أنّهم يوصفون بالمفنية لما نسب إلى أبي الهذيل من فناء حركات أهل الجنة و النار، و اللفظية لقولهم: ألفاظ القرآن مخلوقة و القبرية لانكارهم عذاب القبر (٢). ١ - نسبة إلى الجهم بن صفوان، وقد عرفت القول في عقائده و آرائه و أنّ المهم منه أمران: نفى الرؤية و الجبر. ٢ - الخطط للمقرئ: ج ٤، ص ١٦٩.

(١٨٧)

الفصل الثاني

الفصل الثاني المبادئ الفكرية للاعتزال و خطب الإمام عليّ - عليه السلام -

قد تعرّف فيما مضى على تاريخ ظهور المعتزلة و أنّ الاعتزال بعنوان المنهج الفكري العلمي لا السياسي يرجع إلى أوائل القرن الثاني، وذلك عندما اعتزل واصل بن عطاء عن حلقة الحسن البصري و شكّل حلقة دراسية فكرية في مقابل أستاذه، والقرائن القطعية تؤكّد بظهوره في أوائل ذلك القرن، فإنّ واصل بن عطاء من مواليد عام ٨٠ من الهجرة، وقد توفّي أستاذه الحسن البصري عام ١١٠، فمن البعيد أن يستطيع إنسان على تشكيل حلقة دراسية قابلة للذكر في مقابل الخطيب الحسن البصري، وله من العمر دون العشرين. وهذا يؤكّد على أنّ الاعتزال ظهر في أوائل القرن الثاني. ثمّ إنّ القول بالمتزلة بين المتزلتين و إن كان يعدّ منطلق الاعتزال، ومغرس بذره، ولكن حقيقة الاعتزال لا تقوم بهذا الأصل، ولا يعدّ الدرجة الأولى من أصوله، فإنّ الأصلين التوحيد والعدل يعدّان حجر الأساس لهذا المنهج، وسائر الأصول في الدرجة الثانية. وفي ضوء هذا يقف القارئ بفضل النصوص الآتية على أنّ الاعتزال أخذ ذينك الأصلين من البيت العلويّ عامية، ومن خطب الإمام عليّ عليه السلام و كلماته خاصية، ولأجل ذلك يجب أن يعترف بأنّ الاعتزال أخذ الأصول الأصلية لمنهجه من بيت الولاية. ولأجل إيقاف القارئ هذا الاستنتاج، نضع أمامه شواهد من التاريخ والاعترافات التي أجهر بها شيوخ المعتزلة: ١ - هذا هو الكعبي إمام المعتزلة في أوائل القرن الرابع يقول: «والمعتزلة يقال إنّ لها و لمذهبها أسناداً تتصل بالنبيّ وليس لأحد من فرق الأئمة مثلها، وليس يمكن لخصومهم دفعهم (١٨٨)

عنه، وهو أنّ خصومهم يقرّون بأنّ مذهبهم يسند إلى واصل بن عطاء، وأنّ واصلًا يسند إلى محمّد بن عليّ بن أبي طالب و ابنه أبي هاشم عبدالله بن محمد بن علي، وأنّ محمّدًا أخذ عن أبيه عليّ و أنّ عليًا عن رسول اللّهيّ الله عليه و آلّه و سلّم (١). ٢ - كان واصل بن عطاء من أهل المدينة ربّاه محمّد بن عليّ بن أبي طالب و علّمه، وكان مع ابنه أبي هاشم عبدالله بن محمّد في الكتاب، ثمّ صحبه

بعد موت أبيه صحبة طويلة، وحكى عن بعض السلف أنه قيل له: كيف كان علم محمد بن علي؟ فقال: إذا أردت أن تعلم ذلك فانظر إلى أثره في واصل. ثم انتقل واصل إلى البصرة فلزم الحسن ابن أبي الحسن (٢). ٣- وقال القاضي عبد الجبار في «طبقات المعتزلة»: «وأخذ واصل العلم عن محمد بن الحنفية وكان خالاً لأبي هاشم وكان يلزم مجلس الحسن» (٣). وما ذكره القاضي لا ينطبق على الحقيقة، فإن واصل بن عطاء الغزال ولد بالمدينة سنة ثمانين، وقد مات محمد بن الحنفية عام ٨٠ أو ٨١، فلا يصح أخذ العلم منه، والصحيح أن يقال أخذ واصل العلم من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وقد نقل المحقق أن في حاشية الأصل «من أبي هاشم». والصحيح ما في عبارته التالية، قال: ٤- وقال: «إن أبا الهذيل قد أخذ هذا العلم عن عثمان الطويل، وأخذ هو عن _____ ١. ذكر المعتزلة من مقالات الاسلاميين للبلخي: ص ٦٨. ٢. ذكر المعتزلة للكعبى: ص ٦٤. ٣. طبقات المعتزلة: ص ٢٣٤.

(١٨٩)

واصل بن عطاء و عمرو بن عبيد، وأخذ واصل و عمرو عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأخذ أبو هاشم عن أبيه محمد بن الحنفية، وأخذ محمد عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام وأخذ علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١). وقد تبته الشريف المرتضى لما ذكرنا. قال: «وذكر أبو الحسين الخياط أن واصل كان من أهل مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ومولده سنة ثمانين و مات سنة إحدى و ثلاثين و مائه. وكان واصل ممن لقي أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية وصحبه، و أخذ عنه و قال قوم إنه لقي أباه محمداً و ذلك غلط، لأن محمداً توفي سنة ثمانين أو إحدى و ثمانين و واصل ولد في سنة ثمانين» (٢). ٥- وقال القاضي أيضاً: «فأما أبو هاشم عبدالله بن محمد بن علي، فلو لم يظهر علمه و فضله إلا بما ظهر عن واصل بن عطاء لكفى، وكان يأخذ العلم عن أبيه. فكان واصل بما أظهر بمنزلة كتاب مصنفه أبو هاشم، و ذكر قوله فيه. و كذلك أخوه، فإن غيلان يقال إنه أخذ العلم من الحسن بن محمد بن الحنفية أخى أبي هاشم» (٣). ٦- وقال الشهرستاني: «يقال أخذ واصل عن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية» (٤). ٧- وقال ابن المرتضى: «وسند المعتزلة لمذهبهم أوضح من الفلق، إذ يتصل إلى واصل و عمرو اتصالاً شامراً ظاهراً. وهما أخذوا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي هاشم عبدالله بن محمد، و محمد هو الذي ربي واصلاً و علمه حتى تخرج واستحكم. و محمد أخذ عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم». _____ ١. المصدر نفسه: ص ١٦٤. ٢. أمالي المرتضى: ج ١، ص ١٦٤ - ١٦٥. ٣. طبقات المعتزلة: ص ٢٢٦. ٤. الملل والنحل: ج ١ ص ٤٩.

(١٩٠)

٨- وقال أيضاً: «ومن أولاد علي عليه السلام أبو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية وهو الذي أخذ عنه واصل وكان معه في المكتب فأخذ عنه و عن أبيه، وكذلك أخوه الحسن بن محمد أستاذ غيلان و يميل إلى الإرجاء» (١). ٩- وقال ابن أبي الحديد: «إن أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأن شرف العلم بشرف المعلوم و معلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم و من كلامه (علي عليه السلام) اقتبس و عنه نقل، ومنه ابتداء وإليه انتهى. فإن المعتزلة - الذين هم أهل التوحيد والعدل و أرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن - تلامذته و أصحابه، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية. وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام» (٢). ١٠- وقال المرتضى في أماليه: «اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - و خطبه، فإنها تتضمن من ذلك ما لا زيادة عليه ولا غاية وراءه، و من تأمل المأثور في ذلك من كلامه، علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه و جمعه، إنما هو تفصيل لتلك الجمل و شرح لتلك الأصول، و روى عن الأئمة (من أبنائه - عليهم السلام) من ذلك ما يكاد لا يحاط به كثرة، و من أحب الوقوف عليه و طلبه من مظان أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة، ونتاج للعقول العقيمة» (٣). ١١- وقال القاضي عبد الجبار: «وهذا المذهب - أعني صاحب الكبيرة لا يكون مؤمناً ولا كافراً ولا منافقاً بل يكون فاسقاً - أخذه واصل بن عطاء عن أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية و كان من أصحابه» (٤). _____ ١. المنية والأمل: ص ٥ - ٦ و ص ١١. ٢. الشرح الحديدي: ج ١ ص ١٧. ٣. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٤٨. ٤.

شرح الأصول الخمسة: ص ١٣٨

(١٩١)

١٢- وقال الدكتور حسن إبراهيم حسن: «فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى علي بن أبي طالب، وقلما نجد كتاباً من كتبهم و على الأخص كتب المتأخرين منهم إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمه مؤسس لمذهب الاعتزال و علم الكلام غير الإمام علي - عليه السلام -» (١).
 ١٣- يقول محقق كتاب شرح الأصول الخمسة: «ويؤكد المعتزلة أنهم تلقوا هذه الأصول عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ويزكرون سندهم في ذلك و نحن ثبت فيما يلي هذا السند - كما على أول ورقة من شرح الأصول (٢) - تعليق الفرزادى . يقول: أخذ هذه الأصول من الفقيه الإمام الأوحى نجم الدين أحمد بن أبي الحسين الكنى، وهو عن الفقيه الإمام الأجل محمد بن أحمد الفرزادى، وهو عن عمه الشيخ السعيد البارع إسماعيل بن علي الفرزادى، وهو عن محمد بن مزدك، وهو عن أبي محمد بن متويه، وهو عن الشيخ أبي رشيد النيسابورى، وهو عن قاضى القضاء عماد الدين عبد الجبار بن أحمد - رحمه الله - وهو عن الشيخ المرشد أبي عبد الله البصرى، وهو عن الشيخ أبي علي ابن خلاد، وهو عن الشيخ أبي هاشم وهو عن أبيه الشيخ أبي علي الجبائى وهو عن أبي يعقوب الشحام، وهو عن عثمان الطويل، وهو عن الشيخ أبي الهذيل، وهو عن واصل ابن عطاء، وهو عن أبي هاشم (٣) محمد بن الحنفية، وهو عن أبيه أمير المؤمنين علي عليه السلام - وهو عن خير الأولين والآخرين و خاتم النبيين محمد المصطفى - صلوات الله عليه - وهو عن جبرئيل عليه السلام - وهو عن الله تعالى وليس لأحد من أرباب المذاهب مثل هذا الإسناد (٤) ناد. أبعد هذه التصريحات يبقى شك في أن المعتزلة في أصولهم عالية لعلوم أئمة أهل البيت - عليهم السلام - . . . ١. تاريخ الاسلام: ج ٢، ص ١٥٦، الطبعة السابعة. ٢. النسخة المخطوطة. ٣. وفي العبارة سقط والصحيح: «عبد الله بن محمد عن أبيه». ٤. مقدمة شرح الأصول الخمسة ص ٢٤.

(١٩٢)

وسيوافيك التصريح من القاضى عبد الجبار أن أصول الاعتزال ترجع إلى أصليين: التوحيد والعدل، وأما الأصول الثلاثة فهي داخله تحت الأصلين وقد عرفت أن المعتزلة أخذت الأصلين من أئمة أهل البيت عليهم السلام - ١٤- وقال أبو سعيد بن نشوان الحميرى (ت ٥٧٣) إن لمذهب المعتزلة أسانيد تتصل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس لأحد من فرق الأمة مثلهم، ولا يمكن لحضومهم دفعه و ذلك ان مذهبهم مستند إلى واصل بن عطاء و ان واصلا يستند إلى محمد بن علي بن أبي طالب و هو ابن الحنفية، و إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي و ان محمد يسند إلى ابنه علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - و إن علياً يسند إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١). ١٥- وقال بن المرتضى: و سند مذهبهم أصح أسانيد أهل القبلة إذ يتصل إلى واصل و عمرو... عن عبد الله بن محمد عن أبيه محمد بن علي بن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام - عنه صلى الله عليه وآله وسلم و ما ينطق عن الهوى (٢). (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ) . . . ١. الحور العين: ٢٠٦. ٢. البحر الزخار ١: ٤٤.

الفصل الثالث

الفصل الثالث الشيعة والمعتزلة أئمتها أصل للآخر

إن بعض المتسرعين من الكتاب المتأخرين كأحمد أمين المصرى ومن هذا حذوه، يصرّون على أن الشيعة أخذت منهجها الفكرى فى الأصول والعقائد من المعتزلة، لما رأوا من وحدة العقيدة فى القول بالتوحيد والعدل، وإنكار الرؤية و إثبات الحسن والقبح العقليين، وقدرة العبد و اختياره فى أفعاله إلى غير ذلك من المبادئ المشتركة بين الطائفتين. نظرية أحمد أمين و مناقشتها

يقول أحمد أمين: «ولقد قرأت كتاب الياقوت لأبى إسحاق إبراهيم من قدماء متكلمى الشيعة الإمامية، فكنت كأنى أقرأ كتاباً من كتب أصول المعتزلة إلا فى مسائل معدودة كالفصل الأخير فى الإمامة ولكن أيهما أخذ من الآخر؟ أما بعض الشيعة فيزعم أن المعتزلة أخذوا عنهم، وأن واصل بن عطاء تتلمذ على جعفر الصادق - عليه السلام - وإنى أرجح أن الشيعة أخذوا من المعتزلة تعاليمهم، ونشوء

مذهب الاعتزال يدل على ذلك». استدلل أحمد أمين على ما يريته بأن زيد بن عليّ زعيم الفرقة الشيعية الزيدية تتلمذ لواصل بن عطاء. وكان جعفر الصادق عليه السلام يتصل بعمه زيد. ويقول أبو الفرج في «مقاتل (١٩٤)

الطالبين»: «كان جعفر بن محمد يمسك لزيد بن عليّ بالركاب، ويسوي ثيابه على السرج» فإذا صح ما ذكره الشهرستاني وغيره من تتلمذ زيد لواصل، فلا يعقل كثيراً أن يتلمذ واصل لجعفر، وكثير من المعتزلة كان يتشيع، فالظاهر أنه عن طريق هؤلاء تسربت أصول المعتزلة إلى الشيعة^(١). يلاحظ عليه: أن ما ذكره الكاتب المصري اجتهاد في مقابل تنصيب أئمة المعتزلة أنفسهم بأنهم أخذوا أصولهم من أبي هاشم ابن محمّد الحنفية، وأخذ هو عن أبيه محمّد، وهو أخذ من عليّ بن أبي طالب ومع هذا التنصيب من نفس المعتزلة فما معنى هذا الاجتهاد؟ ترى ابن المرتضى يعدّ عليّاً من الطبقة الأولى للمعتزلة، كما يعدّ الحسين اللذين اشتهر منهما القول بالتحديد والعدل من الطبقة الثانية. وهكذا يذكر عدّة من علماء أهل البيت كالنفس الزكية وغيره من الطبقة الثالثة. وقد نقل في كتابه هذا كلمات أئمة أهل البيت وعلمائهم في الأصول والعقائد^(٢). ومع هذا كيف يصح أن تكون الشيعة عالة على المعتزلة؟! ونظير ذلك ما ذكره القاضي عبد الجبار المعتزلي في «فضل الاعتزال و طبقات المعتزلة»^(٣). أبعده هذا التنصيب منهم يصح الاجتهاد في مقابل النصّ؟! وأما ما استند إليه أحمد أمين، فالحقّ أنّه لم يثبت أولاً تتلمذ واصل للإمام الصادق عليه السلام - حتّى يثبت قوله: إن الصادق كان يمسك الركاب لتلميذ واصل وهو زيد، ولم يدع أحد من المحققين تتلمذه للصادق. كما أنّه لم يثبت تتلمذ زيد بن عليّ لواصل.

_____ ١. ضحى الاسلام: ج ٣، ص ٢٦٧ - ٢٦٨، الطبعة الثالثة. ٢. المنية والأمل: ص ٧ - ١٠. ٣. فضل الاعتزال و طبقات المعتزلة: ص ٢١٤.

(١٩٥)

ومن سبر تاريخ أئمة أهل البيت و ذريتهم الطيبة وقف على أنّهم لم يدقوا باب أحد من الناس، بل تلقوا ما تلقوه عن نفس الأئمة، على أن زيد بن عليّ قد صلب عام ١٢١ وله من العمر في ذلك الوقت ٤٢. فيكون من مواليد عام ٧٩ أو ٨٠، وكان واصل من مواليد عام ٨٠، فمن البعيد أن يكون وليد البيت العلويّ تلميذاً لمن هو أصغر منه سنّاً أو مثله، وقد عدّه الرجاليون من أصحاب أبيه عليّ السجاد عليه السلام (م ٩٤) وأخيه الإمام الباقر عليه السلام (م ١١٤) والإمام الصادق عليه السلام الذي استشهد زيد في حياته. نظرية بعض المستشرقين و مناقشتها

وهناك رجال آخرون قد وقعوا في نفس هذه الشبهة، وأرسلوها إرسال المسلمات، إمّا مجردة عن الدليل أو مقرونة بتلفيقات غير منتجة. فمن الطائفة الأولى المستشرق «آدم متر» يقول: «لم يكن للشيعة حتّى ذلك الوقت (عام ٣٣٤) مذهب كلامي خاصّ بهم، فاقتبسوا عن المعتزلة أصول الكلام و أساليبه... حتّى إن ابن بابويه أكبر علماء الشيعة في القرن الرابع الهجريّ أتبع في كتابه «العلل» طريقة علماء المعتزلة اللذين كانوا يبحثون عن علل كلّ شيء - إلى أن قال: إن الشيعة من حيث العقيدة و المذهب هم ورثة المعتزلة»^(١). يلاحظ عليه أولاً: أن ما ذكره يعرب عن قلّة اطلاع المستشرق على الثقافة الشيعية، وعدم تعرّفه على المتكلمين البارزين فيهم قبل السنة المذكورة. ويكفي في ذلك مراجعة كتاب «تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام» للسيد حسن الصدر ص ٣٥٣ - ٤٠٢. لقد كان للشيعة متكلمون بارعون في الجدل و المناظرة في أبواب العقائد في القرون الثلاثة الأولى. وها نحن نأتى بأسماء نماذج من أبرع متكلمي الشيعة في _____ ١. الحضارة الاسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ لآدم متر: ج ١ ص ١٠٢.

(١٩٦)

القرن الثاني، وترك البحث عن غيرهم من السابقين واللاحقين إلى محلّه. ١ - عيسى بن روضة يعرّفه النجاشي بقوله: «عيسى بن روضة حاجب المنصور كان متكلماً جيّد الكلام، وله كتاب في الإمامة وقد وصفه أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد، وذكر أنّه رأى الكتاب، وقال بعض أصحابنا رحمهم الله: إنّه رأى هذا الكتاب. وقرأت في بعض الكتب أنّ المنصور لما كان بالحيرة سمع على عيسى بن روضة وكان مولاه وهو يتكلم في الإمامة فأعجب به واستجاد كلامه»^(١). ٢ - علي بن

إسماعيل بن ميثم التمار البغدادي

يقول ابن النديم: «أول من تكلم في مذهب الإمامة: علي بن إسماعيل بن ميثم التمار، وميثم من جلمة أصحاب علي - عليه السلام - ولعلي من الكتب كتاب الإمامة وكتاب الاستحقاق» (٢). وقال النجاشي: «علي بن إسماعيل ... كوفي سكن البصرة، وكان من وجوه المتكلمين من أصحابنا، كالم أبا الهذيل والنظام، له مجالس و كتب منها كتاب الإمامة... وكتاب مجالس هشام بن الحكم» (٣). ٣ - أبو جعفر محمد بن علي بن النعمان الملقب بمؤمن الطاق

قال النجاشي: «وأما منزلته في العلم وحسن الخاطر فأشهر،... وله كتاب إفعال لا تفعل... كتاب كبير حسن... وله كتاب الاحتجاج في إمامة أمير المؤمنين - عليه السلام - وكتاب كلامه على الخوارج وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة و المرجئة... الخ» (٤). ١ - فهرست النجاشي: رقم الترجمة ٧٩٦. ٢. فهرست ابن النديم: الفن الثاني من المقالة الخامسة ص ٢٢٣. ٣. فهرست النجاشي: رقم الترجمة ٦٦١. ٤. فهرست النجاشي: رقم الترجمة ٨٨٦.

(١٩٧)

وقال ابن النديم: «كان حسن الاعتقاد والهدى حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الحاضر والجواب، وله مع أبي حنيفة مناظرات . ثم ذكر مناظرته مع أبي حنيفة في المتعة و الرجعة» (١). ٤ - هشام بن الحكم

يقول ابن النديم: «هو من جلمة أصحاب أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام - وهو من متكلمي الشيعة الإمامية و بطانهم وهو الذي فتح الكلام في الإمامة، وهذب المذهب، وسهل طريق الحجاج فيه، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب. وكان أولاً من أصحاب الجهم بن صفوان، ثم انتقل إلى القول بالإمامة بالدلائل والنظر» (٢). يقول أحمد أمين: «أما هشام بن الحكم فيظهر أنه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام ... جدلاً، قوي الحجية، ناظر المعتزلة و ناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة تدل على حضور بديهته وقوة حجته قد ناظر أبا الهذيل العلاف المعتزلي» (٣). أبعاد هذه الشخصيات البارزة (٤) في علم الكلام يصح قول هذا المستشرق الحاقده إنه لم يكن للشيعة مذهب كلامي خاص بهم؟ وثانياً: إن الاستدلال على تأثر الشيعة بالمعتزلة بتأليف الشيخ الصدوق «علل الشرائع» على غرار كتب المعتزلة الذين يبحثون عن علل كل شيء، يكشف عن أن المستشرق لم يرجع إلى نفس الكتاب رجوعاً دقيقاً، فإن الكتاب فيرر علل الشرائع والأحكام، بالأحاديث المروية عن النبي والوصي والأئمة من بعدهما - عليهم السلام - وليس _____ ١. فهرست ابن النديم: الفن الثاني من المقالة الخامسة، ص ٢٦٤. ٢. نفس المصدر. ٣. ضحى الاسلام: ج ٣ ص ٢٦٨. ٤. هذا قليل من كثير وقد جئنا بأسماء لفيق من متكلمي الشيعة في القرون الثلاثة في رسالتنا «الشيعة و علم الكلام عبر القرون الأربعة».

(١٩٨)

الكتاب تفسيراً للأحكام من نفس المؤلف حتى يقال إنه ألفه على غرار كتب المعتزلة. وثالثاً: إن المناظرات التي دارت بين الشيعة و المعتزلة من عصر الإمام الباقر عليه السلام - إلى العصر الذي ارتمت فيه المعتزلة في أحضان آل بويه أدل دليل على أن النظام الفكري للشيعة لا يتفق مع المعتزلة من لدن تكون المذهبين، ومن أراد الوقوف على تلك المساجلات فعليه الرجوع إلى المصادر (١). وهذا محمد بن عبدالرحمان بن قبة (المتوفى قبل سنة ٣١٧) له كتاب الرد على الجبائي. ونقل النجاشي عن أبي الحسين السوسنجردى، أنه قال: «مضيت إلى أبي القاسم البلخي إلى بلخ بعد زيارتي الرضا عليه السلام بطوس فسلمت عليه وكان عارفاً بي و معي كتاب أبي جعفر ابن قبة في الإمامة المعروف بالانصاف فوقف عليه و نقضه بالمسترشد في الإمامة» فعدت إلى الري فدفعت الكتاب إلى ابن قبة فنقضه بالمستثبت في الإمامة» فحملته إلى أبي القاسم فنقضه ب «نقض المستثبت» فعدت إلى الري فوجدت أبا جعفر قد مات - رحمه الله - (٢). وهذا الحسن بن موسى النوبختي من أكابر متكلمي الشيعة له ردود على المعتزلة: ١ - الرد على الجبائي ٢ - الرد على أبي الهذيل العلاف في أن نعيم الجنة منقطع بالمناقض على أبي الهذيل في المعرفة ٤ - النقض على جعفر بن حرب ٥ - الرد على

أصحاب المنزلة بين المنزلتين (٣). وقد قام الشيخ المفيد (ت ٣٣٦ - م ٤١٣) بنقض كثير من كتب المعتزلة، فله الكتب التالية و كلها ردود عليهم. ١- الرد على الجاحظ العثمانية ٢- نقض المروانية له أيضاً ٣- نقض فضيلة المعتزلة له أيضاً ٤- النقض على ابن عباد في الإمامة ٥- النقض على علي بن عيسى ————— ١. لاحظ: الفصول المختارة من العيون والمحاسن، للشيخ المفيد (م ٤١٣) وكنز الفوائد، للعلامة الكراچكي (م ٤٤٩) ومناظرات هشام ومؤمن الطاق وغيرهم الواردة في بحار الأنوار. ٢. رجال النجاشي: رقم ١٠٢٣. ٣. رجال النجاشي: رقم ١٤٦.

(١٩٩)

الرماني ٦-النقض على أبي عبدالله البصري في المتعة ٧- نقض الخمس عشرة مسألة للبلخي ٨- نقض الإمامة على جعفر بن حرب ٩- الكلام على الجبائي في المعدوم ١٠- نقض كتاب الأصم في الإمامة ١١- كتاب الرد على الجبائي في التفسير ١٢- عمد مختصرة على المعتزلة في الوعيد. إلى غير ذلك من كتبه حول الإمامة التي أكثر ردودها على ما ألفته المعتزلة في هذا المجال (١). كما أن تلميذه السيد المرتضى (ت ٣٥٥ - م ٤٣٦) نقض بعض كتب المعتزلة، فألف الشافي رداً على الجزء العشرين من كتاب المغنى للقاضي عبد الجبار (م ٤١٥) (٢). كل ذلك يعرّف موقف الطائفتين في المسائل الكلامية و أنّهما و إن اجتمعتا في مسائل، اختلفتا في مسائل كثيرة أخرى. نظريه مؤلف كتاب «المعتزلة» و مناقشتها

إنّ هنا وجوهاً أخر لفقها مؤلف كتاب «المعتزلة» تبعاً لأحمد أمين ربّما يستظهر منها عيلولة الشيعة في العقائد على المعتزلة و إليك تحليلها: ١- إنّ المقدسي نظر في كتب الفاطميين الشيعة في شمال أفريقيا فوجد أنّهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول (٣). يلاحظ عليه: أنّه وجد الشيعة في بلاد العجم يقولون بالتوحيد والعدل كما تقول به المعتزلة، وهو لا يدلّ على أنّ الشيعة أخذتها من المعتزلة لو لم نقل بالعكس. نعم، إنّ المعتزلة بعد النكبة وطرق التكبسة في حياتهم لجأوا الى أمراء آل بويه في أوائل القرن الرابع لما وجدوا فيهم من سعة الصدر، واستعادوا في ظلّ حكمهم شيئاً من القوّة والسيطرة، ولعلنا نتحدّث عنه في محله، ولم تكن تلك الالفه موجودة قبل النكبة. كيف ومن قرأ تاريخ المعتزلة يقف على أنّهم كانوا خصماء الشيعة في العصور السابقة، ————— ١. رجال النجاشي: رقم ١٠٦٧. ٢. المصدر نفسه: رقم ٧٠٨. ٣. يأتي سائر الوجوه ص ٢١٦ فانظر.

(٢٠٠)

فكانت الطائفتان تتصارعان صراع الأقران و ربّما يقتتلان قتال موت و حياة، فكيف يمكن أن تكون الشيعة عالية على المعتزلة في عقائدهم. فمن نسب ذلك إلى الشيعة فقد جهل تاريخ علم الكلام. فأين مبادئ الشيعة من مبادئ الاعتزال؟ فهما و إنّ كانا يشتركان في التوحيد والعدل ونفي الرؤية و التجسيم و القول بالتحسين و التقييح العقليين، ولكن يفترق أنّ في كثير من الأصول و تكفي في ذلك المراجعة لكتاب «أوائل المقالات» (١) للشيخ المفيد، فقد عنون فيه بعض الفوارق الموجودة بين عقيدة الشيعة و سائر الفرق و منهم المعتزلة. الفوارق الفكرية بين الشيعة و المعتزلة

إنّ بين المنهجين الكلاميين مشتركات و معترقات، وقد تعرفت على قسم من المشتركات، فهنا نحن نلمح إلى الفوارق بينهما، التي جعلهما منهجين كلاميين مختلفين لكل ميزة و خصوصية، و إليك رؤوسها على وجهه الإجمال: ١- عينية الصفات مع الذات:

اتفقت الطائفتان على أنّ صفاته الذاتية ليست زائدة على الذات، بمعنى أنّ تكون هناك ذات، و صفة وراءها، كما في الممكنات فإنّ الإنسان له ذات وله علم و قدره، هذا ممّا اتفقتا عليه، ولكنهما اختلفتا في تفسير ذلك، فالعيشة الإيمية ذهبت إلى أنّ الوجود في مقام الواجب بالغ من الكمال على حدّ يعد نفس العلم والضابطه الكلية حتى في مقام الواجب بل الموصوف هناك لأجل الكمال المفرط نفس الصفة، ولا- مانع من كون العلم في درجة، قائماً بالذات، وفي أخرى نفس الذات، وما هذا إلا لأنّ زيادة الوصف على الذات توجب حاجتها إلى شيء وراءها، وهو ينافي وجوب ————— ١. اوائل المقالات: ص ٨-١٦.

(٢٠١)

الوجود والغناء المطلق. هذه هي نظرية الشيعة مقرونة بالدليل الإجمالي، وقد اقتفوا في ذلك مارسمه على - عليه السلام - فقال: «وكمال الإخلاص له نفى الصفات (الزائدة) عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله (بوصف زائد على ذاته) فقد قرنه (قرن ذاته بشيء غيرها) ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله (١) وقال الإمام الصادق: «لم يزل الله جلّ وعزّ، ربنا والعلم ذاته، ولا- معلوم، والسمع ذاته، ولا- مسموع والبصر ذاته ولا- مبصر، و القدرة ذاته ولا مقدور» (٢) هذا ما لدى الشيعة، وأما المعتزلة فقد اضطرب كلامهم في المقام، فالقول المشهور عندهم هي نظرية نيابة الذات عن الصفات، من دون أن تكون هناك صفة، وذلك لأنهم رأوا أن الأمر في أوصافه سبحانه يدور بين محذورين . ١- لو قلنا بأن له سبحانه صفات كالعلم، وجب الاعتراف بالتعدد و الإثنية، لأنّ واقع الصفات هو المغايرة للموصوف . ٢- إنّ نفى العلم والقدرة و سائر الصفات الكمالية يستلزم النقص في ذاته أولاً ويكذبه اتقان آثاره وأفعاله ثانياً. فالمخلص والفر من هذين المحذورين يتلخص عندهم في انتخاب نظرية النيابة، وهي القول بأنّ الذات نائبة مناب الصفات، و إنّ لم تكن هناك واقعية للصفات وراء الذات، فما يترقب من الذات المقرونة بالصفة، يترتب على تلك الذات النائبة مقامها، هذا هو المشهور عن المعتزلة وإليك نصّ كلام عباد بن سليمان في ذلك المجال قال: «هو عالم قادر، حيّ، ولا أثبت له علماً، ولا قدرة، ولا حياة، ولا أثبت سمعاً، ولا أثبت بصراً وأقول هو عالم لا يعلم، قادر لا بقدرة، حيّ لا بحياة، وسميع لا بسمع، وكذلك سائر ما يسمّى من الأسماء التي يسمّى بها (٣) يلاحظ: أنّ نظرية النيابة المشهورة عن المعتزلة، مبنية على تخيل كون الشيء وصفاً ملازم للزيادة دائماً، فوقوا بين المحذورين وتخلصوا بالنيابة، ومن المعلوم أنّ موجه النيابة إلى خلو الذات عن الكمال أولاً، وكون الذات الفاقدة للعلم، نائبة عن الذات المقرونة بها أشبه باللغز. نعم، بعض المعتزلة كأبي هذيل العلاف (١٣٠-٢٣٥) ذهب إلى نفس ما ذهب الشيعة إليه، وقد ذكرنا كلامه في الجزء الثاني (٤) _____ ١. الرضى: نهج البلاغة: الخطبة (١) ٢. الصدوق: الاتوحيد: ١٣٩. ٣. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١: ٣٣٥. ٤. لاحظ بحوث في الملل والنحل ٨٤: ٢٠٢. ٢- إحباط الأعمال الصالحة بالطالحة.

الإحباط في عرف المتكلمين عبارة عن بطلان الحسنه، وعدم ترتب ما يتوقع منها عليها، ويقابله التفكير وهو إسقاط السيئه بعدم جريان مقتضاها عليها فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة، والمعروف عن الإمامية والأشاعرة هو أنّه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب، والمعروف من المعتزلة هو التحاط (١)، ثمّ إنهم اختلفوا في كيفية فمنهم من قال: من أنّ الإساءة الكثيرة تسقط الحسنات القليلة وتمحوها بالكلية من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة وهو المحكى عن أبي على الجبائي. ومنهم من قال: بأنّ الإحسان القليل يسقط بالإساءة الكثيرة ولكنه يقلل في تأثير الإساءة فينقص الإحسان من الإساءة فيجري العبد بالمقدار الباقي بعد التقيص، وهو المنسوب إلى أبي هاشم. ومنهم من قال: إنّ الإساءة المتأخرة تحبط جميع الطاعات وإنّ كانت الإساءة أقل منها، حتى قيل: إنّ الجمهور من المعتزلة ذهبوا إلى أنّ الكبيرة الواحدة، تحبط ثواب _____ ١. المفيد: أوائل المقالات: ٥٧. وسوافيك نصوص المعتزلة في محلها.

(٢٠٣)

جميع العبادات (١) هذا على قول المعتزلة. وأما على قول نفاة الإحباط فالمطيع والمعاصي يستحق الثواب والعقاب معاً فيعاقب مدّة ثم يخرج من النار فيثاب بالجنّة. نعم، ثبت الإحباط في موارد نادرة، كالإرتداد بعد الإسلام، والشرك المقارن للعمل، والصدّ عن سبيل الله، ومجادلة الرسول ومشاقته، وقتل الأنبياء، وقتل الآمرين بالقسط، وإساءة الأدب مع النبي، والنفاق، وغير ذلك ممّا شرحناه في الإلهيات (٢). ٣- خلود مرتكب الكبيرة في النار

اتّفتت الإمامية على أنّ الوعيد بالخلود في النار متوجّه إلى الكفّار خاصية دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلوات، و وافقهم على هذا القول كافة المرجئة سوى محمد بن شبيب وأصحاب الحديث قاطبة، وأجمعت المعتزلة

على خلاف ذلك، وزعموا أن الوعيد بالخلود في النار عام في الكفار و جميع فساد أهل الصلاة . ويظهر من العلامة الحلبي أن الخلود ليس هو مذهب جميع المعتزلة حيث قال : أجمع المسلمون كافة على أن عذاب الكافر مؤبد لا ينقطع، وأما أصحاب الكبار من المسلمين، فالوعيدية على أنه كذلك. وذهبت الإمامية وطائفة كثيرة من المعتزلة والأشاعرة إلى أن عذاب منقطع (٣). والظاهر من القاضي عبد الجبار هو الخلود، واستدل بقوله سبحانه: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا) (النساء/١٤). فالله تعالى _____ ١ . التفتازاني: شرح المقاصد ٢: ٢٣٢، القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٢٥٦. ٢ . حسن مكى العاملي: الإلهيات ١: ٨٧٠ - ٨٧٤. ٣ . العلامة الحلبي: كشف المراد: ٢٦٥.

(٢٠٤)

أخير أن العصاة يعدبون بالنار ويخلدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً فيجب حمله عليها لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه فلما لم يبينه دل على ما ذكرناه. فإن قيل: إنما أراد الله تعالى بالآية الكافر دون الفاسق، ألا ترى إلى قوله تعالى: (وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ) وذلك لا يصيّر إلا الكفرة إلا الفاسق لا يتعدى حدود الله تعالى أجمع. ثم أجاب عنه فلاحظ كلامه (١) ٤ - لزوم العمل بالوعيد وعدمه

المشهور عن المعتزلة أنهم لا يجوزون العفو عن المسيء لاستلزامه الخلف، وأنه يجب العمل بالوعيد كالعمل بالوعيد، والظاهر من القاضي أنها نظرية البغداديين من المعتزلة قال: اعلم أن البغدادية من أصحابنا أوجبت على الله أن يفعل بالعصاة ما يستحقونه لا محال، وقالت: لا يجوز أن يعفو عنهم، فصار العقاب عندهم أعلى حالاً في الوجوب من الثواب، فإن الثواب عندهم لا يجب إلا من حيث الجود، وليس هذا قولهم في العقاب فإنه يجب فعله بكل حال (٢). وذهبت الإمامية إلى جواز العفو عن المسيء إذا مات بالتوبة، واستدل الشريف المرتضى بقوله سبحانه: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) (الرعد ٦). وقال: في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة لأنه سبحانه دلنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين لأدنى قوله: (على ظلمهم) جملة حالية إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجرى ذلك مجرى قول القائل: _____ ١ . القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٧٥. ٢ . القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٤٤.

(٢٠٥)

«أنا أودّ فلانا على غدره (و) وأصله على هجره» (١). وقد أوضحنا الحال في دلالة الآية وأجبنا عن إشكال القاضي على دلالتها في الإلهيات (٢). ٥ - الشفاعة حطّ الذنوب أو ترفيع الدرجة :

لما ذهبت المعتزلة إلى خلود مرتكب الكبيرة في النار، وإلى لزوم العمل بالوعيد، ورأت أن آيات الشفاعة الفساق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا تنزل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير وترصد للآخر حتى يقتله، فكما أن ذلك يقبح فكذلك هاهنا (٣). فالشفاعة عندهم عبارة عن ترفيع الدرجة، فخصوها بالتائبين من المؤمنين وصار أثرها عندهم ترفيع المقام لا الإنقاذ من العذاب أو الخروج منه، قال القاضي: إن فائدة الشفاعة رفع مرتبة الشفيع والدلالة على منزلة من المشفوع (٤). وأما عند الشيعة الإمامية فهو عبارة عن إسقاط العذاب، قال الشيخ المفيد: اتفقت الإمامية على أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين - عليه السلام - يشفع في أصحاب الذنوب من شيعة وأمنه آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ووافقهم على شفاعته الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المرجئة سوى ابن شبيب وجماعة من أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف وزعمت أن شفاعته رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للمطيعين دون العاصين _____ ١ . الطبرسي ٣: ٢٨٧. ٢ . حسن مكى العاملي: الإلهيات ١: ٩١٠. ٣ . القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٨٨. ٤ . القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٨٩.

(٢٠٦)

وأنه لا يشفع في مستحقى العقاب من الخلق أجمعين (١). ٦- مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر إن مقترف الكبيرة عند الشيعة والأشاعرة مؤمن فاسق خرج عن طاعة الله. وهو عند الخوارج، كافر كفر ملء عند جميع فرقهم إلا الأباضية فهو عند كافر كفر النعمة، وأمّا المعتزلة فهو عندهم في منزلة بين المنزلتين قال القاضي: إن صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسم المؤمن فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن بل يفرد له حكم ثالث. وهذا الحكم الذى ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين، قال صاحب الكبيرة له منزلة تتجاوزها هاتان المنزلتان (٢). وهذا أحد الأصول الخمسة التى عليها يدور رمى الاعتزال ومن أنكر واحداً منها فليس بمعتزلى (٣). ٧- النسخ جائز ممتنع عند المعتزلة

اتفق المسلمون على جواز النسخ خلافاً لليهود، واختلفوا فى البداء، ذهب الشيعة إلى إمكانه ووقوعه، خلافاً لغيرهم فقالوا بالامتناع. ثم إن الذى صار سبباً للتفريق عند القاضي هو أنه اشترط فى النسخ أموراً أهمها: أن النسخ لا يتعلق بعين ما كان ثابتاً، بل يتعلق بمثل ما كان ثابتاً أشار إليها بقوله: النسخ إزالة مثل الحكم الثابت بدلالة شرعية، بدليل آخر شرعى على وجه لولاه لثبت، ولم يزل مع تراخيه عنه. ١- المفيد: أوئل المقالات: ١٤- ١٥. ٢- القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٦٩٧. ٣- الخياط: الانصار / ١٢٦، ومروج الذهب ٣ / ٢٢٢.

(٢٠٧)

قال: فاعتبرنا أن يكون إزالة مثل الحكم الثابت لأنه لو زال عين ما كان ثابتاً من قبل لم يكن نسخاً بل كان نقضاً، وهذا بخلاف البداء فإنه يتعلق بعين ما كان ثابتاً. ومثاله أن يقول أحدنا لغلامه: إذا زالت الشمس ودخلت السوق فاشتر اللحم. ثم يقول له: إذا زالت الشمس ودخلت السوق فلا تشتري اللحم، وهذا هو البداء وإنما سمي به لأنه يقتضى أنه قد ظهر له من حال اشتراء اللحم ما كان خائفاً عليه كم قبل (١). وقال أيضاً: الذى يدل على البداء، أن يأمر الله جلّ وعزّ بنفس مانهى عنه فى وقت واحد على وجه واحد وهذا محال لانجيزه البتة (٢). نحن لانحوم حول البداء وما هو الفرق بينه وبين النسخ، فقد أشبعنا الكلام فيه فى نحوثنا الكلامية (٣). غير أن الذى يتوجه على كلام القاضي أن ما أحاله هو أيضاً من أقسام النسخ لا من أقسام البداء المصطلح فإنه على قسمين: ١- النسخ بعد حضور وقت العمل. ٢- النسخ قبل حضور وقت العمل. والذى أحاله هو القسم الثانى، وأمّا الوجه الذى اعتمد عليه فهوون بأنه ربّما تترتب المصلحة على نفس إنشاء الحكم وإن لم يكن العمل به مراداً جدياً كما هو الحال فى أمر إبراهيم بذبح ولده، والأوامر الامتحانية كلها من هذا القبيل فإذا شوهد من الإنسان القيام بمقدمات الواجب، ينسخ الحكم، وعلى كل تقدير فما سماه بداء، ليس هو محل النزاع بين الإمامية وغيرهم. والبداء عندهم عبارة عن تغيير المصير الأعمال الصالحة أو الطاعة وهو شىء ١- القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ص ٥٨٤، ٥٨٥. ٢- رسائل العدل والتوحيد ١، رسالة القاضي عبد الجبار / ٢٤١. ٣- لاحظ الالهيات ج ١، ص ٥٦٥.

(٢٠٨)

اتفق عليه المسلمون، ورد به النص فى القرآن و النسنة. هذه هى حقيقة البداء فى عالم الثبوت، وله أثر فى عالم الإثبات وهو أنه ربّما يقف النبى على مقتضى المصير ولا يقف على ما يغيره، فيخير به على حسب العلم بالمقتضى ولكن لا يتحقق لأجل تحقق ما يغيره، فيقال هنا: بداء الله والمقصود بداء من الله للعباد كما هو الحال فى إخبار يونس عن تعذيب القوم وغير ذلك، وقد وردت جملة «بدا لله» فى صحيح البخارى (١). قال الشيخ المفيد: أقول فى معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم فى النسخ وأمثاله من الإفطار بعد الإغناء والأمراض بعد الإعفاء وما يذهب إليه أهل العدل خاصية من الزيادة فى الآجال والأرزاق والنقصان منها بالأعمال وأمّا إطلاق لفظ البداء، فإنما صرت إليه لأجل السمع الوارد عن الوسائط بين العباد وبين الله - عزّ وجلّ - وليس بينى وبين كافة المسلمين فى هذا الباب

خلاف، وإنما خالف من خالفهم في اللفظ دون ما سواه (٢). وهذا يعرب عن أن القوم لم يقفوا على مصطلح الإمامية في البدء وإلا لأصفقوا على جوازه. ٨- الواسطة بين الوجود والعدم

اتفق المفكرون من الفلاسفة و المتكلمين على أنه لا واسطة بين الوجود والعدم كما لا واسطة بين الموجود والعدم، وإن الماهيات قبل اتصافها بالوجود معدومات حقيقة، غير أن المعتزلة ذهبت إلى أنها في حال عدم غير موجود ولا معدوم، بل متوسط بينهما وهذا هو العرف منهم بالقول بالأحوال. قال الشيخ المفيد: المعدوم هو المنفى العين، الخارج عن صفحة الموجود، ولا _____ ١. البخارى: الصحيح ٤ / ١٧٢ باب حديث «أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل». ٢. المفيد: أوائل المقالات، ص ٥٣. (٢٠٩)

أقول: إنه جسم ولا جوهر ولا عرض، ولا شيء على الحقيقة، وإن سميت بشيء من هذه الأسماء، فإنما تسميه به مجازاً وهذا مذهب جماعة من بغدادية المعتزلة وأصحاب المخلوق (كذا)، والبلخي يزعم أنه شيء ولا يسميه بجسم ولا جوهر ولا عرض، والجبائي وابنه يزرعان أن المعدوم شيء وجوهر وعرض، والخياط يزعم أنه شيء وعرض وجسم (١). وبما أنه المسألة واضحة جداً لانحوم حولها. ٩- التوفيق في الأفعال

ذهبت المعتزلة إلا من شد كالنجار و أبي الحسين البصرى (٢) إلى أن أفعال العباد واقعة بقدرتهم وحدها على سبيل الاستقلال ايجاب (٣) بل باختيار. قال القاضي: أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنها من الله تعالى ومن عنده و من قبله ٠٠٠ (٤). قال السيد الشريف إن المعتزلة اسدلوا بوجوه كثيرة مرجعها إلى أمر واحد وهو أنه لو لا- استقلال العبد بالفعل على سبيل الاختيار، لبطل التكليف وبطل التأديب الذي ورد به الشرع وارتفع المدح والذم إذ ليس للفعل استناد إلى العبد أصلاً، ولم يبق للبعثة فائدة لأن العباد ليسوا موحدين أفعالهم، فمن أين لهم استحقاق الثواب والعقاب (٥). _____ ١. المفيد: أوائل المقالات / ٧٩. ٢. لاحظ حاشية شرح المواقف لعبد الحليم السيالكوتي، ج ٢، ص ١٥٦. ٣. ولعل قولهم بلا- إيجاد اشارة إلى أن حال الصدور لا يتصف بالوجوب أيضاً. والقاعدة الفلسفية «الشيء مالم يجب لم يوجد» غير مقبولة عندهم. ٤. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ٧٧٨، وفي ذيله ما ربما يوهم خلاف ما هو المشهور عنهم. ٥. السيد الشريف الجرجاني (ت ٨٨٦): شرح المواقف، ج ٨، ص ١٥٦. (٢١٠)

ثم إن نظريتهم في استقلال العبد في الفعل مبنية على مسألة فليسفسه وهو أن حاجة الممكن إلى العلة تنصر في حدوثه، لافيه وفي بقاءه، وعلى ضوء ذلك قالوا باستقلال العبد في مقام الإيجاد. والمبنى والبناء كلاهما باطلان. أما الافتقار حدوثاً فقط، فهو لا يجتمع مع كون الإمكان من لوازم الماهية وهي محفوظة حدوثاً وبقاءً، فكيف يجوز الغناء عن الفاعل بقاء. قال الحكيم الشيخ محمد حسين الإصفهاني: والافتقار لازم الإمكان * من دون حاجة إلى البرهان لافرق ما بين الحدوث والبقاء * في لازم الذات ولن يفترقا هذا كله حول المبنى في التخلص عن الجبر استناد الفعل إلى الفاعل والخالق معاً، لكن يكون قدرة المخلوق في طول قدرة الخلق، ومنشعبة عنها، وهذا يكفي في الاستناد وصحة الأمر والنهي والتأديب والثوب، فالجبر والتوفيق باطلان، والأمر بين الأمرين هو الحق الصراح، وقد تواتر عن أئمة أهل البيت قولهم: لا- جبر وتفويض لكن أمر بين الأمرين (١). ثم إن الدافع إلى القول بالتفويض هو صيانة عدله سبحانه فزعموا أن الصيانة لها رهن ما ذهبت إليه الإمامية، ثم انهم وإن نزهوا العبد عن الظلم ولكن صوروا له شريكاً في الإيجاد، ولأجل ذلك قال الامام الرضا - عليه السلام: «مساكين القدرية أرادوا أن يصفوا الله - عز وجل - بعدله، فأخرجوه من قدرته وسلطانه (٢). _____ ١. الصدق: التوحيت ٨، ولاحظ الأحاديث الأخرى. ٢. نفس المصدر، ص ٥٤، الحديث ٩٣.

(٢١١) ١٠- قبول التوبة واجب على الله أو تفضل منه؟ اتفق المسلمون على أن التوبة تسقط العقاب، وإنما الخلاف في أنه هل يجب على الله قبولها فلو عاقب بعد التوبة كان ظالماً أو هو تفضل منه سبحانه؟ فالمعتزلة على الأول، والأشاعرة والإمامية على الثاني (١). قال المفيد: «اتفقت الإمامية على أن قول التوبة بفضل من الله عز وجل، وليس بواجب في العقول اسقاطها لما سلف من استحقاق

العقاب، ولولا أن السمع ورد بإسقاطها لجاز في العقول بقاء التائبين على شرط الإستحقاق، و وافقهم على ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلافهم و زعموا أن التوبة مسقطه لما سلف من العقاب على الواجب (٢). و لقد أحسن - قدس الله سره - حيث جعل محور المسألة قبول التوبة وعدمه بما هو هو لا بلحاظ آخر كما في صورة الأخبار بقبول التوبة قال سبحانه: (يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) (التوبة / ١٠٤). إذ عندئذ يجب قبول التوبة عقلاً - وإلزام الخلف في الوعد. قال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة / ١٦٠). وصفحه بالرحيم عقيب التواب يدل على أن إسقاط العقاب بعد التوبة تفضل منه سبحانه ورحمة من جهته، على ما قاله أصحابنا، وأنه غير واجب عقلاً على خلاف ما ذهب إليه المعتزلة (٣). ومن أراد أن يقف على دلائل المعتزلة في المقام فليرجع إلى كشف المراد شرح المقاصد. ١. لاحظ: التفتازاني: شرح المقاصد، ج ٢، ٢٤٢، العلامة الحلي: كشف المراد، ص ٢٦٨، القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة، ص ٧٩٨. ٢. المفيد: أوائل المقالات ص ١٥. ٣. الطبرسي: ومجمع البيان ١ / ٢٤٢.

(٢١٢) ١١ - عصمة الأنبياء قبل البعثة و بعدها اتفقت الإمامية على أن جميع أنبياء الله - صلوات الله عليهم أجمعين - معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها، ومما يستخف فاعله من الصغائر وأما ما كان من صغير لا يستخف فاعله فجائز و قوعه منهم قبل النبوة وعلى غير تعمد وممتنع منهم بعدها، على كل حال هذا مذهب جمهور الإمامية والمعتزلة بأسرها تخالف فيه (١).

والمقول عن أبي على الجبائي التفصيل في الكبائر بين قبل البعثة وبعدها فيجوز في الأول دون الثاني، والمختار عند القاضي في الكبائر عدم الجواز مطلقاً وأما المفردات فاتفقوا على عدم جواز (٢). ١٢ - وجوب الأمر بالمعروف عقلاً وعدمه

اتفقت الأئمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا - استثناء غير أنهم اختلفوا في وجوبه عقلاً وسمعاً، أو سمعاً فقط، فالمعتزلة على الأول والإمامية على الثاني. قال المفيد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان فرض على الكفاية بشرط الحاجة إليه لقيام الحجّة على من لا يعلم لديه إلا بذكره أو حصول العلم بالمصلحة به أو غلبه الظن وبذلك (٣). ثم إن المحقق الطوسي ذكر في متن التريد دلائل العتزة على وجوبها عقلاً، ثم عقب عليها بنقد وتحليل (٤). ١. المفيد: أوائل المقالات / ٣٠. ٢. القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٥٧٣. ٣. المفيد: أوائل المقالات / ٩٨، وبذلك يظهر وهن ما ذكره القاضي في شرح الأصول الخمسة من نسبة عدم الوجوب على الإطلاق إلى الإمامية لاحظ ص ٧٤١. ٤. العلامة الحلي: المراد / ٢٧١ طبع صيدا.

(٢١٣) ١٣ - آباء رسول الله كلهم موحدون اتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّ وجلّ - موحدون له، وخالفهم على هذا القول جميع الفرق (١). ١٤ - تفضيل الأنبياء على الملائكة

اتفقت الإمامية على ذلك أن أنبياء الله عزّ وجلّ ورسله من البشر أفضل من الملائكة و وافقهم على ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك و زعم الجمهور منهم أن الملائكة أفضل من الأنبياء والرسول (٢). ١٥ - الرجعة: إمكانها و وقوعها قضية الرجعة التي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن أهل بيت الرسالة مما تعتقد به الشيعة من بين الامة الإسلامية قال الشيخ المفيد: إن الله يحشر قوماً من أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد موتهم قبل يوم القيامة وهذا مذهب

يختص به آله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن شاهد به (٣). وخالفت المعتزلة والأشاعرة وأهل الحديث في ذلك. ١٦ - الجنة والنار مخلوقتان أو لا؟

إن الله سبحانه وعد المتقين بالجنة أو عد العصاة بالنار فهل هما مخلوقتان أو لا؟ والمسألة نقلية محضة للإمامية إلا من شذ، ذهب إلى أن الجنة والنار في هذا الوقت مخلوقتان قال الشيخ المفيد: وبذلك جاءت الأخبار وعليه إجماع أهل الشرع _____ ١.

المفيد: أوائل المقالات، ص ١٢. ٢. المفيد: أوائل المقالات، ص ١٦. ٣. المجلسي: البحار شرح ٥٣ / ٣٦، نقل المسائل السرورية للشيخ المفيد.

والآثار (١). وقال التفتازاني: «جمهور المسلمين على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن خلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار ومن يجري مجراهما من المعتزلة حيث زعموا أنهما إنما يخلقان يوم الجزاء» (٢). والظاهر من السيد الرضى من الشيعة (٣٥٩ - ٤٠٦) أنهما غير مخلوقتين الآن حيث قال: الصحيح أنهما إنما تخلقان بعده (٣). ١٧- تأويل النصوص اعتماداً على القواعد العقلية:

إنّ الاصول الخمسة عند المعتزل توصف بالصحة والاتقان على درجة تقدم على النصوص الشرعية الواردة في القرآن الكريم والسنة، فقد أعطوا للعقل أكثر مما يستحقه، فقالوا: إنّ المراد في الشفاعة هو ترفيع الدرجة لا رفع العقاب وقس على ذلك سائر تأويلاتهم في الكتاب والسنة. إنّ النص الوارد في القرآن الكريم دليل قطعي لا يعادله شيء فعند ذلك تجب تخطئه العقل لتأويل القرآن، والتعارض بين القطعيين غير معقول، وتأويل النص القطعي كرفضه، نعم لو كان النص ظني السند أو كان الدليل الشرعي ظني الدلالة فلتأويل مجال، هذا وللبحث صلة تطلب في مجالها. ١٨- الإمامة بالتنصيص أو بالشورى:

اتفقت الإمامية على أنّ الامامة بالتنصيص خلافاً للأشاعرة والمعتزلة وقالوا _____ ١. المفيد: أوائل المقالات / ١٠٢ . ٢ . التفتازاني: شرح المقاصد / ٣١٨ ٢ ولاحظ شرح التجريد للقوشجي / ٥٠٧ وعبارة الأخيرين واحدة. ٣. تارضى: حقائق التأويل ٥ / ٢٤٥ .

(٢١٥)

بالشورى وغيرها، ويتفرع على ذلك أمر آخر وهو: أنّ النبي نص على خليفة بالذات عند الإمامية، وقال الآخرون: سكت وترك الأمر شورى بين المسلمين. قال القاضي عند البحث عن طرق الإمامة (عند المعتزلة): إنها العقد والاختيار (١). ١٩ - هل يشترط في الإمام كونه معصوماً

اتفقت الإمامية على أنّ الامام يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والمعصية خلافاً للمعتزلة حيث اكتفت أنه يجب أن يكون مبرزاً في العلم مجتهداً ذا ورع شديد، يوثق بقوله ويؤمن منه ويعتمد عليه (٢). قال المفيد: إنّ الثمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الاحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الأنبياء، وانهم لا يجوز منهم صغيرة إلا ما قدمت ذكر جوازه على الأنبياء، وانه لا يجوز منه سهو في شيء في الدين و الايسون شيئاً من الأحكام، وعلى هذا مذهب سائر الإمامية إلا من شدّ منهم وتعلّق بظاهر روايات لها تأويلات على خلاف ظنه الفاسد في الباب، والمعتزلة بأسرها تخالف في ذلك ويجوزون من الأئمة وقوع الكبائر والرّد عن إسلام (٣). ٢٠ - حكم محارب الإمام على أمير المؤمنين:

اتفقت الإمامية على أنّ الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفار ضلال ملعونون بحربهم أمير المؤمنين - عليه السلام - وأنهم بذلك في النار مخلدون وأجمعيت المعتزلة سوى الغزال منهم وابن باب، والمرجئة والحشوية من أصحاب _____ ١ . القاضي عبد الجبار شرح الأصول الخمسة: ٧٥٣ . ٢ . نفس المصدر: ٧٥٤ . ٣ . الشيخ المفيد: أوائل المقالات: ٣٥ .

(٢١٦)

الحديث على خلاف ذلك، فزعمت المعتزلة كافّة إلا من ستمناه وجماعه من المرجئة وطائفة من أصحاب الحديث، أنّهم فساق ليسوا بكفار، وقطعت المعتزلة من بينهم على أنّهم لفسقهم في النار خالدون (١). هذه جملة من الأصول التي يختلف فيها المنهجان وبقيت هناك أصول أخرى تضاربت فيها آراء الفريقين لم نذكرها روماً للإختصار. ولنعد إلى تحليل سائر الوجوه لمؤلف كتاب المعتزلة. ٢ -

قال الذهبي: «وجد الرّفص والاعتزال في زمانه متصادقين متآخيين» (٢). ٣ - وقال المقرئ: «قلما يوجد معتزلي إلا وهو رافضي» (٣).

٤ - يقول الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي (م ١٣٣١): «إنّ المعتزلة اليوم كفرقة أهل السنة والجماعة، من أعظم الفرق رجالاً وأكثرها تابعاً، لأنّ شيعة العراق على الإطلاق معتزلة. وكذلك شيعة الأقطار الهندية و الفارسية و الشامية، ومثلهم الشيعة الزيدية باليمن» (٤). إنّ هذه الكلمات لا تدلّ على عيلولة الشيعة في عقائدهم على المعتزلة، فإنّ الشيعة الإمامية تقتدى في أصولها وفروعها بأئمة أهل البيت - عليهم السلام - الذين جعلهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عدلاً للقرآن الكريم وقال: «إنّي تارك فيكم

الثقلين كتاب الله وعترتي»، ولا ترجع إلى غيرهما. ولم نر شيعياً إمامياً أخذ عقيدته من عالم معتزلي. ومع هذين المصدرين الصحيحين لا حاجة للرجوع إلى غيرهما. والمعتزلة كما أقرّ أعلامهم اقتفوا في التوحيد والعدل أثر خطب الإمام أمير ————— ١ . نفس المصدر: ١٠ . ٢ . ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٢٣٥، كما في «المعتزلة»، ص ٢١٨ . ٣ . الخطط: ج ٤ ص ١٦٩، كما في المصدر نفسه، ص ٢١٨ . ٤ . تاريخ الجهمية والمعتزلة: ص ٤٢، كما في المصدر نفسه، ص ٢١٩ .

(٢١٧)

المؤمنين عليه السلام - وتلمذوا على حفيده أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية. وما ذكره القاسمي الدمشقي من أن شيعه العراق على الإطلاق معتزلة، صحيحة إن أراد أن شيعه العراق بل الشيعة في جميع الأقطار قائلون بالتوحيد والعدل، اقتفاءً لأثر الكتاب والسنة الصحيحة المروية عن أئمة أهل البيت لا سيما خطب الإمام علي عليه السلام - ، كما أن المعتزلة أيضاً قائلون بهما مقتفين أثر ما أخذوه من البيت العلوي. نعم إن المعتزلة أقرب إلى الشيعة من الحنابلة والأشاعرة، فإن ولاء كثير منهم لأهل البيت لا ينكر، كما أن تمسكهم بالأصول العقلية المبرهنه، ورفض الآخرين لها، جعلهم متحدّين في كثير من الأصول مع الشيعة، ومع ذلك فإن لجميع الطوائف الإسلامية، أصولاً مشتركة، وأصولاً يميّز بها بعضهم عن بعض فلكل طائفة إسلامية مشتركات ومميزات. رمى الاعتزال بالتشيع

إن من عجائب الدهر - وما عشت أراك الدهر عجباً - رمى المعتزلة بالتشيع، وترى تلك النسبة في كتب الأشاعرة والحنابلة، خصوصاً الرجاليين منهم، فلم تكن الشيعة وحدها متهمه بالاعتزال، بل صارت المعتزلة متهمه بنظيرتها، غير أن رمى الشيعة بالاعتزال لا يختص بقوم دون قوم، حتى إن أصحاب الطبقات من المعتزلة عدوا أئمة أهل البيت - عليهم السلام - وكبار علماء الشيعة من المعتزلة، حتى قالوا: إن الحسن بن موسى النوبختي من المعتزلة، ولم يكتفوا بذلك، بل عدوا المرتضى والرضي منهم (١). وقد عرفت مدى صدق هذه النسبة، وأن كثيراً من أعلام الشيعة نقدوا كتب المعتزلة، حتى إن الشيخ المفيد نقض كتاب «فضيلة المعتزلة» للجاحظ. إنما الكلام في التهمة الأخرى، وهو رمى الاعتزال بالتشيع، والحق أنه لو فسّر التشيع بحب علي وأهل بيته - عليهم السلام - فأعلام السنة من الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة ————— ١ . طبقات المعتزلة: أحمد بن يحيى المرتضى، ص ٩ و ١٥ و ١١٧، الطبعة الثانية (١٤٠٧).

(٢١٨)

كلهم شيعة إلا من له هوى العثمانية، الذين يكثر من الوقعة في علي وأولاده - عليهم السلام - . أما لو فسّر بتقديم علي سائر الخلفاء في العلم والزهد و سائر المثل الأخلاقية، فمعتزلة بغداد إلا من شدّ شيعة، فإنهم وإن اعترفوا بخلافه الخلفاء، لكن يعترفون بفضل علي - عليه السلام - وتقدمه على أقرانه، وهذا هو الذي صار سبباً لجرح كثير من الرواة العدول، وما ذنبهم إلا تقديم علي غيره في الفضائل، أخذاً بنصوص الآيات والروايات في حقه. نعم، لو فسّر التشيع بالاعتراف بخلافه علي بتنصيب من النبي صلى الله عليه وآله وأمر منه سبحانه فالشيعة تنحصر بمن يعتقد بهذا المبدأ، والمعتزلة كلهم يخالفون ولا يعترفون به. والذي أوقع جمعاً من مؤلفي المقالات في الوهم الأول هو التقاء التشيع مع الاعتزال في بعض المواضع والنقاط كالتوحيد والعدل، ولو صار ذلك سبباً لرمى الشيعة بالاعتزال، صحّ عدّ الأشاعرة منهم لالتقاءهم معهم في عدّة من الأصول. وأما الذي أوقعهم في الوهم الثاني هو انحيازهم إلى علي في كثير من المبادئ خصوصاً التوحيد والعدل. وعلى أيّ تقدير، فلفظ التشيع قد تطوّر من جهة المعنى بعد ما كان معناه في اليوم الأول، بعد رحلة الرسول، هو من شايح علياً دون غيره، وقال بخلافه دون سائر الخلفاء، فأطلق علي من أحبّ علياً وأولاده، وناضل العثمانية وأهوائها، وعلى من قدّم علياً في الفضائل والمناقب، لا في الخلافة، فلأجل هذا التطوّر فرّبما يشته المراد منه في كلمات الرجاليين وأصحاب المقالات، وربّما تعدّ أناس شيعة بالمعنى الأول، مع أنهم شيعة بالمعنيين الأخيرين، فلاحظ، وسيوافيك التوضيح عن البحث عن عقائد الشيعة الزيدية والاسماعيلية والإمامية. «رزقهم الله توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد» «وبني

الإسلام على دعامين» «كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة»

الفصل الرابع

الفصل الرابع أئمة المعتزلة

دلّت النصوص التاريخية على أن «واصل بن عطاء» هو المؤسس الأول لمنهج الاعتزال، وقد طرح أصولاً نضجت و تكاملت بأيدي تلامذته و مقتفى منهجه عبر العصور والقرون. ومن أراد أن يكتب تاريخ المعتزلة و طبقاتهم، فعليه أن يجعل «واصل» رأس مخروط الاعتزال إلى أن يصل بالتدرج إلى قاعدته. وأما من تقدّم عليه من الصحابة و التابعين حتى القدرية المتبلورة في «معبد الجهني» و «غيلان الدمشقي» وغيرهم... فلا يمتون للاعتزال بصله، و إنّ اتفقوا مع المعتزلة في القول بالتوحيد والعدل، وحرية الإنسان و استطاعته على الفعل والترك. وذلك لأنّ التوحيد والعدل، كان شعار المسلمين من عصر النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى الزمان الذي طلع فيه منهج الاعتزال، كما أن القول بالحرية و استطاعة الإنسان على أحد الطرفين قول بأمر فطري جبل عليه الإنسان طوال القرون والأدوار قبل الإسلام و بعده، فلا يعدّ الاعتقاد به إحداثاً للمنهج و تأسيساً له. نعم، القول بكون الإنسان مسيراً لا مختيراً، و أنّ فاعل الخير والشر هو الله سبحانه، و أنّ كلّ إنسان خلق لما قدر له في علمه الأزلي، و أنّ التقدير كاله، لا يتغير حكمه وقضاؤه، إحداث منهج جديد رغم أنّ العقلاء و نصوص الكتاب على خلافه في جميع (٢٢٠)

الأدوار. وعلى ضوء هذا، فلا يصحّ عدّ كلّ من قال بواحد من هذه الأصول سلفاً للاعتزال، و شيخاً للمعتزلة، و إنّ اتفق معهم فيها. وعلى هذا الخطّ الذي رسمناه مشى أبو القاسم البلخي (م ٣١٧) في كتابه «مقالات الإسلاميين - باب ذكر المعتزلة» فابتدأ في ذكر طبقاتهم بـ «واصل بن عطاء» و «عمر بن عبيد» وانتهى إلى أعلامهم في عصره وقال: «وفي زماننا هذا شيخنا أبو الحسين الخياط عبد الرحيم بن محمّد (م ٣١١) و أحمد بن الشنطوي» (١). نعم، خالفه القاضي عبد الجبار (م ٤١٥) فعّد للمعتزلة طبقات قبل واصل، فعّد الخلفاء من الطبقة الأولى، والحسن والحسين - عليهما السلام - ومحمّد (بن الحنفية) بن عليّ من الطبقة الثانية، وأبا هاشم عبد الله بن محمّد (بن الحنفية) بن عليّ و أخاه الحسن بن محمّد والحسن البصري وابن سيرين ومن في طبقتهم ممن حكى العدل عنه من الطبقة الثالثة، وعدّ غيلان بن مسلم و واصل بن عطاء و عمرو بن عبيد من الطبقة الرابعة إلى أنّ أنهام إلى عشر طبقات (٢). وقد كتب الحاكم الجشمي اليميني الزيدي (ت ٤١٣ - م ٤٩٤) ذيلاً له فأضاف إليها طبقتين أخريين وهو جزء من كتابه «شرح العيون» (٣). وأما أحمد بن يحيى بن المرتضى، فقد مشى على ضوء القاضي فأعاد ما ذكره هو وغيره في باب خاص، أسماه «باب ذكر المعتزلة» وهو جزء من كتابه «المنية والأمل» في شرح كتاب الملل والنحل، وقد طبع منه خصوص ذلك الباب كراراً، فنحن نقل عن النسخة التي حقّقها المستشرق «توما أرندل» طبع دار صادر بيروت. ١. مقالات الإسلاميين: باب ذكر المعتزلة ص ٦٤ - ٧٤ وقد طبع من المقالات خصوص هذا الباب بتحقيق فؤاد سيد، ط. تونس. ٢. فضل الاعتزال و طبقات المعتزلة: ص ٢١٤ - ٣٣٣. ٣. طبع هذا الجزء مع كتاب فضل الاعتزال بتحقيق فؤاد سيد.

(٢٢١)

ولقد أجاد أبو الحسين الخياط، حيث جعل الاعتقاد بالأصول الخمسة ملاكاً لصدق الاعتزال و كون المعتقد معتزلياً. قال: «الاعتزال قائم على أصول خمسة عامية، من اعتقد بها جميعاً كان معتزلياً، ومن نقص منها أو زاد عليها ولو أصلاً و احداً لم يستحقّ اسم الاعتزال، وتلك الأصول مرتبة حسب أهميتها وهي: ١ - التوحيد، ٢ - العدل، ٣ - الوعد والوعيد، ٤ - المنزلة بين المنزلتين، ٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١). إنّ عدّ أمثال الشريف المرتضى من المعتزلة بحجة قوله بالتوحيد والعدل، يستلزم أن يعدّ شيخه كالمفيد و تلميذه كالطوسي منهم. مع أنّ موقف هؤلاء من تلك الطائفة موقف النقد والردّ. وقد ردّ الشيخ المفيد (م ٤١٣) في أكثر كتبه عليهم، لا سيما في كتابه «أوائل المقالات» كما نقد الشريف المرتضى (م ٤٣٦) خصوص الجزء العشرين من «المغني» للقاضي عبد الجبار

وأسماء «الشافي» واختصره تلميذه شيخ الطائفة الطوسي (م ٤٦٠) وأسماء «تلخيص الشافي» وقد انتشر الجميع بطباعة قديمة و حديثه، ومن طالع تلك الكتب يقف على أن موقف الشيعة الإمامية من المعتزلة موقف الموافقة في بعض الأصول والمخالفة في البعض الآخر، كشأنهم مع الأشاعرة وغيرهم من الطوائف الإسلامية. والعجب أن أكثر من كتب عن المعتزلة من المتأخرين اشتبه عليهم الأمر، وربما عدوا أعلام الإمامية من مشايخ الاعتزال ورواد منهجه، والشيعة الإمامية بفضل علوم أئمتهم ونصوص رواياتهم في غنى عن كل منهج لا- يمت بالكتاب والعترة (أعداله وقرنائه) بصله. وهذا الفصل الذي تقدمه للقراء يختص بتعريف أئمة المعتزلة ومشايخهم الكبار، الذين نضج المذهب بأفكارهم وآرائهم ووصل إلى القمة في الكمال. وأما أعلام الطائفة الذين كان لهم دور في تبني هذا الخط من دون أن يتركوا أثراً _____ ١. الانتصار: ص ٥، ومقالات الاسلاميين للأشعري: ج ١، ص ٢٧٨.

(٢٢٢)

يستحق الذكر، في الأصول الخمسة نذكرهم في فصل لاحق حتى تتميز الطائفتان. نعم، انطفأ دعوة الاعتزال وضعفت شوكتهم بعد سادس القرون أو سابعها، فلا تسمع لهم ذكراً في الأجيال اللاحقة فلا إمام ولا علم ولا فقد انقرضوا بسيف السلطنة وقسوة الحنابلة والأشاعرة، وتركوا آثاراً وكتباً عبث بها الزمان، فلم يبق إلا التزر اليسير. ولكن آثارهم ١٠٠٠ إن آثارنا تدل علينا * فانظروا بعدنا إلى الآثار ١- واصل بن عطاء (ت ٨٠- م ١٣١)

أبو حذيفة واصل بن عطاء مؤسس الاعتزال، المعروف بالغزال. يقول ابن خلكان: «كان واصل أحد الأعاجيب ذلك أنه كان ألثغ، قبيح اللثغة في الرء فكان يخلص كلامه من الرء ولا يظن لذلك، لا قدره على الكلام وسهولة ألفاظه، ففي ذلك يقول أبو الطروق يمدحه بإطالة الخطب واجتنابه الرء على كثرة ترددها في الكلام حتى كأنها ليست فيه عليم بإبدال الحروف وقامع * لكل خطيب يغلب الحق باطله وقال الآخر: ويجعل البر فمحا في تصرفه * وخالف الرء حتى احتال للشعر ولم يطق مطراً والقول يعجله * فعاذ بالغيث اشفاقاً من المطر قد ذكر عنده بشر بن برد (المتهم بالزندقة) فقال: «أما لهذا الأعمى المكئي بأبي معاذ من يقتله؟ أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يعج بطنه على مضجعه، ثم لا- يكون إلا- سذوسياً أو عقلياً» فلاحظ أنه قال: «هذا الأعمى» ولم يقل: بشر ولا ابن برد، ولا الضرير. وقال: «من أخلاق الغالية» ولم يقل: المغيرية ولا المنصورية، وقال: «لبعثت» ولم يقل: لأرسلت، وقال: «على مضجعه» ولم يقل: على مرقده ولا على فراشه، وقال: «يعج» ولم يقل: يبقر (١) يقول ابن العماد الحنبلي: «كان واصل ألثغ يبذل الرء غيناً في كلامه وكان يخلص كلامه بحيث لا تسمع منه الرء حتى يظن خواص جلسائه أنه غير ألثغ، حتى يقال: إنه دفعت إليه رقعة مضمونها: أمر أمير الأمراء الكرام أن يحفر بئراً على قارعة الطريق، فيشرب منه الصادر والوارد. فقرأ على الفور: حكم حاكم الحكام الفخام، أن ينبش جُبياً على جادة الممشى فيسقى منه الصادي والغادي. فغير كل لفظ برديفه وهذا من عجيب الإقتدار، وقد أشارت الشعراء إلى عدم تكلمه بالرء. من ذلك قول بعضهم: _____ ١. وفيات الأعيان: ج ٦ ص ٨ وأمالى المرتضى: ج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢٢٣)

نعم تجنب لا- يوم العطاء كما * تجنب ابن عطاء لفظه الرء (١) وقد كانت بينه وبين بشر بن برد قبل اظهاره ما يخالف عقيدة واصل أو اصر الصداقة وقد ذكر بشر خطبته التي ألقى فيها الرء وقال: تكلف القول والأقوام قد حلفوا * وحبروا خطباً ناهيك من خطب وقال مرتجلاً- تغلى بداهته * كمرجل القين لما حف باللهب وجانب الرء ولم يشعر به أحد * قبل التصفح والإغراق في الطلب ولم يبرأ منه واصل لما ظهر منه ما لا يرضيه، هجاه بشر وقال: مالي أشايح غزاًلاً له عنق * كينقيد الدو إن ولى وإن مثلاً عنق الزرافة ما بالي و بالكم * تكفرون رجالاً كفروا رجالاً (٢) بث الدعاء في البلاد

كان واصل صموداً في عقيدته، ولما تمكن من إنفاذ الدعاء إلى الآفاق، فزق _____ ١. شذرات الذهب: ج ١ ص ١٨٢ و ١٨٣ حوادث عام ١٣١ هـ ٢. المنية والأمل: ص ١٩ طبع دار صادر.

(٢٢٤)

أصحابه في البلاد حتى يكونوا دعاة إلى طريقه. فبعث عبدالله بن الحارث إلى المغرب، فأجابه خلق كثير، وبعث إلى خراسان حفص بن سالم، فدخل «ترمذ» ولزم المسجد حتى اشتهر، ثم ناظر جهماً فقطعه، وبعث القاسم إلى اليمن، وبعث أيوب إلى الجزيرة، وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة، وعثمان الطويل إلى أرمينية^(١). يقول صاحب كتاب «المعتزلة»:

«درج أصحاب الواصل و تلاميذه من بعده على هذه الخطبة (المناظرة) في الرد على المخالفين، فكان عمرو بن عبيد حيث التقى بأحدهم لا يتركه حتى يناظره. ناظر جرير بن حازم الأزدي السمني في البصرة وقطعه، واشترك مع واصل بن عطاء في مناظرة بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وكلاهما من الثوية المعروفين فقطعاهما، وتناظر عمرو بن عبيد مع مجوسى على ظهر سفينة فقطعه المجوسى. [كذا] قال له عمرو: لما لا تسلم؟ فقال: لأن الله لم يرد إسلامي، فإذا أراد الله إسلامي أسلمت. قال عمرو: إن الله تعالى يريد إسلامك ولكن الشياطين لا يتركونك. فأجاب المجوسى: فأنا أكون مع الشريك الأغلب! (٢) يلاحظ عليه: أنه كان اللازم على عمرو أن يقول: إن الله تعالى أراد إسلامك ولكن بحرية واختيار، لا بإلجاء واضطرار. فلو أسلمت كان إسلامك على طبق ما يريد، وإن كفرت لم يكن كفرك آية غلبتك عليه وقد أوضحنا كيفية تعلق إرادته سبحانه بأفعال العباد. من آرائه و مناظراته إن واصل هو أول من أظهر المنزلة بين المنزلتين، لأن الناس كانوا في أسماء أهل الكباثر من أهل الصلاة على أقوال. كانت الخوارج تسميهم بالكفر والشرك. والمرجئة _____ ١. المنية والأمل: ص ١٩ - ٢٠. ٢. كتاب المعتزلة: ص ٣٩ - ٤٠.

(٢٢٥)

تسميهم بالإيمان. وكان الحسن و أصحابه يسمونهم بالنفاق. ١ - رأيه في مرتكب الكبيرة ذهب واصل بن عطاء إلى القول بأنهم فساق غير مؤمنين، لا كفار ولا منافقون. واستدل على ذلك بما نقله المرتضى عنه في أماليه من أننا نجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً، ويختلفون في ما عدا ذلك من أسمائه، لأن الخوارج تسميه مشركاً فاسقاً، والشيعة الزيدية تسميه كافر نعمه فاسقاً، والحسن يسميه منافقاً فاسقاً، والمرجئة تسميه مؤمناً فاسقاً. فاجتمعوا على تسميته بالفسق. واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه فالواجب أن يسمى بالاسم الذي اتفق عليه وهو الفسق. ولا يسمى بما عدا ذلك من الأسماء التي اختلف فيها. فيكون صاحب الكبيرة فاسقاً، ولا يقال فيه إنه مؤمن ولا منافق ولا مشرك، ولا كافر نعمه، فهذا أشبه بأهل الدين (١). يلاحظ عليه: أن ما ذكره لا يثبت أزيد من أن المسلمين اتفقوا على كون مرتكب الكبيرة فاسقاً ولم يتفقوا على غيره من سائر الأسماء. لكن عدم اتفاقهم على شيء منها لا يدل على أنه ليس منها أبداً، كما هو ظاهر قوله «ولا يقال فيه إنه مؤمن...» فإن عدم وجود الإجماع على واحدة من تلك الأسماء لا يلزم عدم وجود دليل آخر على وجود واحد منها فيه. فكان اللازم على واصل أن يقيم الدليل على أنه لا يسمى بواحد منها. و إلى ما ذكرنا ينظر قول السيد المرتضى في أماليه حيث قال: «إن الإجماع وإن لم يوجد في تسمية صاحب الكبيرة بالتفاق، ولا في غيره من الأسماء، كما وجد في تسميته بالفسق، ولكنه غير ممتنع أن يسمى بذلك لدليل غير الإجماع، ووجود الإجماع في الشيء، وإن كان دليلاً على صحته لكن ليس فحده دليلاً على فساده» (٢). وقد اعترض ابن المرتضى صاحب «المنية و الأمل» على كلام السيد المرتضى _____ ١. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٦١. ٢. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٦٧ ولكلامه ذيل فراجع.

(٢٢٦)

بكلام واه، يشبه كلام الهازل حيث قال: «يصح الاستدلال بالإجماع المركب و صورته هنا أنه أجمعوا على تسميته فاسقاً واختلفوا فيما عداه، وهو حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل ولا دليل على ما عدا المجمع عليه ههنا» (١). يلاحظ عليه: أنه اشتبه عليه معنى الإجماع المركب، لأن معناه أنه إذا كانت المسألة بين الأمة ذات قولين، مثلاً - قالت طائفة من الفقهاء: الحبة للولد الأكبر، وقالت الأخرى: الحبة لجميع الورثة، فيقال: لا يجوز إحداث قول ثالث، أخذاً بالإجماع المركب، لأن الأمة اتفقت على نفي الثالث. وأين هو في

المقام؟ إذ لم تتفق الأمة على نفي هذه الأسماء، بل اختلفوا على أقوال، فالرجل غير عارف بمصطلح الأصوليين فاستعمله في غير محله.
٢ - مناظرته مع عمرو في مرتكب الكبيرة

إن عمرو بن عبيد كان من أصحاب الحسن و تلاميذه. فجمع بينه و بين واصل ليناظره فيما أظهر من القول بالمنزلة بين المنزلتين، فلما وقفوا على الاجتماع ذكر أن واصلًا أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلقة الحسن، وفيها عمرو بن عبيد جالس. فلما نظر إلى واصل وكان في عنقه طول واعوجاج، قال: أرى عنقًا لا- يفلح صاحبها، فسمع ذلك واصل فلما سلم عليه قال له: يا ابن أخي إن من عاب الصنعة عاب الصانع، فقال له عمرو بن عبيد: يا أبا حذيفة قد وعظت فأحسنت ولن أعود إلى مثل الذي كان مني. وجلس واصل في الحلقة وسأل أن يكلم عمرًا، فقال واصل لعمرو: لم قلت: إن من أتى كبيرة من أهل الصيلة استحق اسم النفاق؟ فقال عمرو: لقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُحْضِينَ نَاتٍ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور/٤) ثم قال في موضع آخر: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (التوبة/٦٧) فكان كل فاسق منافقًا. إذ كانت ألف ولام —————
١ . المنيه والأمل: ص ٢٤.

(٢٢٧)

المعرفة موجودتين في الفاسق. فقال له واصل: أليس قد وجدت الله تعالى يقول: (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة/٤٥) وأجمع أهل العلم على أن صاحب الكبيرة يستحق اسم الظالم، كما يستحق اسم الفاسق، فألا كفرت صاحب الكبيرة من أهل الصلاة بقول الله تعالى: (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة/٢٥٤) فعرف بألف و لام التعريف (١). يلاحظ عليه: أن «واصلًا» دفع دليل خصمه بالنقض ولأجل ذلك يقول السيد المرتضى في حقه: «أما ما ألزمه واصل بن عطاء لعمرو بن عبيد فسديد لازم» ولكن كان في وسعه الإجابة عنه بشكل جلي، وهو أن ما استدلل به «عمرو» من الآيات غير كاف في إثبات ما يرتثيه. لأن آية النور وإن حكمت بفسق مرتكب الكبيرة، ولكن آية التوبة لم تحكم بأن كل فاسق منافق، وإنما حكم بأن كل منافق فاسق، وبعبارة واضحة حصرت الآية، المنافقين بالفاسقين ولا العكس. ومن المحتمل أن يكون المنافق أخص من الفاسق. والفاسق أعم منه فيكون استدلاله عقيمًا. قال سبحانه: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) ولم يقل: إن الفاسقين هم المنافقون. وبذلك تقف على مغزى ما نقض به واصل دليل عمرو، فإنه صحيح إذا كان الهدف إفحام الخصم بالجواب النقيض. وأما إذا كانت الإجابة على الوجه الحلي فهي ساقطة جدًا، لأنه سبحانه حصر الكافرين في الظالمين لا- العكس. فقال: (والكافرون هم الظالمون) فمن الممكن أن يكون كل كافر ظالمًا ولا العكس. وصاحب الكبيرة وإن استحق اسم الظالم، كما استحق اسم الفاسق، ولكنه لا- يستحق اسم الكافر بحجة أنه سبحانه قال: (والكافرون هم الظالمون) ، و لم يقل: (والظالمون هم الكافرون). ١ . أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٦٦ ولكلامه ذيل لا حاجة لنقله، وربما أوجد تشويشًا في الاستدلال وقد نقله ابن المرتضى في المنيه والأمل بصورة واضحة ص ٢٣.

(٢٢٨) ٣ - من لطائف تفسيره للقرآن

حكى أن واصلًا كان يقول: «أراد الله من العباد أن يعرفوه ثم يعملوا ثم يعلموا. قال الله تعالى (يا موسى إني أنا الله) فعرفه نفسه، ثم قال: (اخْلَعْ نَعْلَيْكَ) (طه/١٢) فبعد أن عرفه نفسه أمره بالعمل قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: (وَالْعَصِيرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا - يعنى صدقوا - وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) علموا و عملوا و علموا (١). يلاحظ عليه: أن الآية الأولى دلت على تقدم العلم على العمل، وأما تقدم العمل على تعليم الغير فهي ساكتة عنها. نعم الآية الثالثة ربما تكون ظاهرة فيما يدعيه بحجة النظم والترتيب في الذكر، وإن كانت واو العاطفة لا تدل على الترتيب. ٤ - من نوادر حكاياته

روى المبرّد قال : حَدَّثْتُ أَنَّ واصل بن عطاء أقبل في رفقة فأحسوا بالخوارج، وكانوا قد أشرفوا على العطب. فقال واصل لأهل الرفقة : إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني و إياهم، فقالوا: شأنك. فقال الخوارج له : ما أنت و أصحابك؟ قال : مشركون مستجبرون ليسمعوا كلام الله، و يقيموا حدوده فقالوا : قد أجرناكم، قال : فعلمونا أحكامه، فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول : قد قبلت أنا

ومن معي، قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا، قال لهم: ليس ذلك لكم. قال الله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (التوبة/٦) فأبلغونا مأمننا فساروا بأجمعهم حتى بلغوا الأمان (٢). ٥ - تهجدته ولقبه بالغرّال ينقل ابن المرتضى عن أخت «عمرو بن عبيد» - وكانت زوجة واصل - أنها قالت _____ ١. أمالي المرتضى ج ١ ص ١٦٨. ٢. المصدر نفسه.

(٢٢٩)

: «كان واصل إذا جنّه الليل صفّى قدميه يصلّى ولوح ودواؤه موضوعان، فإذا مرّت به آية فيه حجّته على مخالف، جلس فكتبها ثم عاد في صلاته. ونقل أيضاً: أنّ واصلًا كان يلزم أبا عبدالله الغرّال - وكان صديقاً له - ليعرف المتعفّفات من النساء فيجعل صدقته لهنّ وكان يعجبه ذلك، وقال الجاحظ: لم يشكّ أصحابنا أنّ واصلًا لم يقبض ديناراً ولا درهماً، وفي ذلك قال بعضهم في مرثيته: ولا مسّ ديناراً ولا مسّ درهماً* ولا عرف الثوب المذى هو قاطعه (١) وأما مولده فقد اتّفقوا على أنّ ولادته كانت سنة ٨٠ للهجرة في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتوفّي عام ١٣١ هـ (٢). مؤلفاته

ذكر ابن النديم في الفهرست - و تبعه ابن خلكان - أنّ لوصل التصانيف التالية: ١ - كتاب أصناف المرجئة. ٢ - كتاب التوبة. ٣ - كتاب المنزلة بين المنزلتين. ٤ - كتاب خطبته التي أخرج منها الزاء. وقد نشرت هذه الخطبة عام ١٩٥١ في المجموعة الثانية من نواذر المخطوطات بتحقيق عبدالسلام هارون. ٥ - كتاب معاني القرآن. ٦ - كتاب الخطب في التوحيد والعدل. ومن المحتمل أنه قام بجمع خطب الإمام عليّ - عليه السلام - في التوحيد والعدل _____ ١. المنية والأمل: ص ١٨. ٢. وفيات الأعيان: ج ٦ ص ١١، والمنية والأمل: ص ١٨.

(٢٣٠)

فأفرده تاليفاً. ٧ - كتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد. ٨ - كتاب السبيل إلى معرفة الحق. ٩ - كتاب في الدعوة. ١٠ - كتاب طبقات أهل العلم والجهل (١). وغير ذلك. القواعد الأربع لواصل بن عطاء

إنّ الاعتزال مذهب عقلي ألقيت نواته في أوائل القرن الثاني بيد واصل بن عطاء، ثمّ نمت عبر العصور، فكلمّا تقدّم الاعتزال إلى الإمام، وربّي في أحضانه ذوى الحصافة، والأدمغة الكبيرة، أخذ يتكامل في ضوء البحث والنقاش، وكان الاعتزال في زمن المؤسّس يدور على أربع قواعد فقط، وهي بالنسبة إلى ما تركته المعتزلة من التراث الكلامي إلى فترة الانقراض شيء قليل، وأين هو من الاعتزال المذى تريه لنا كتب القاضي عبد الجبار في كتاب المغنى أو غيره من البسط في تلك القواعد، وتأسيس أصول وقواعد أخرى، لم تخطر ببال المؤسّس. قال الشهرستاني: «الواصلية هم أصحاب واصل بن عطاء واعتزالهم يدور على أربع قواعد: القاعدة الأولى: القول بنفى صفات الباري من العلم والقدرة والإرادة والحياة، وكانت هذه المقالة في بدئها غير نضيجه، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين (٢) قال: ومن أثبت معنى، وصفه قديمة فقد أثبت إلهين. _____ ١. فهرست ابن النديم: الفن الأول من المقالة الخامسة، ص ٢٠٣. ٢. وهذا يعرب بوضوح عن أنّ الداعي لتأسيس هذه القاعدة ليس انكار صفاته سبحانه كالملاحدة المنكرين لكونه عالماً قادراً، بل الداعي هو تنزيه الرب عن وجود قديم مثله، وما نسب إليه الأشعري في كتاب الإبانة ص ١٠٧ من الداعي ليس في محله.

(٢٣١)

القاعدة الثانية: القول بالقدر، وحاصلها أنّ العبد هو الفاعل للخير والشرّ والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، والربّ أقدره على ذلك. القاعدة الثالثة: المنزلة بين المنزلتين، وأنّ مرتكب الكبيرة ليس كافراً ولا مؤمناً، بل فاسق مخلمد في النار إنّ لم يتب. القاعدة الرابعة: قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وصفين، أنّ أحدهما مخطئ لا بعينه، وكذلك قوله في عثمان وخاذليه، أنّ أحد الفريقين فاسق لا محالة، كما أنّ أحد المتلاعنين فاسق لا محالة، لكن لا بعينه. ثمّ ربّ الشهرستاني على تلك القاعدة وقال: «وقد عرفت قوله في

الفاسق وأقل درجات الفريقين أنه لا تقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة المتلاعنين، فلم يجوز شهادة علي وطلحة والزبير على باقة بقل، وجوز أن يكون عثمان وعلي على الخطأ» (١). أقول: إن القاعدة الأولى إشارة إلى الأصل الأول من الأصول الخمسة، أعني التوحيد، وهذا الأصل عندهم رمز إلى تزويه سبحانه عن التشبيه والتجسيم، كما أن القاعدة الثانية من فروع الأصل الثاني، أعني القول بالعدل، فتوصيفه سبحانه به يقتضى القول بالقدر، أى إن الإنسان يفعل بقدرته واستطاعته المكتسبة، ولا معنى لأن يكون خالق الفعل هو الله سبحانه، ويكون العبد هو المسؤول. نعم دائرة الأصل الثاني (العدل) أوسع من هذه القاعدة. والقاعدة الثالثة نفس أحد الأصول الخمسة، وبقي منها أصلان - الوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ولم يأت ذكر منهما في كلام «واصل». وأما القاعدة الرابعة فقد خالف فيها واصل وتلميذه عمرو بن عبيد جمهور المعتزلة. قال ابن حزم: «اختلف الناس في تلك الحرب على ثلاث فرق: _____ ١. الملل والنحل: ج ١ ص ٤٩.

(٢٣٢)

١ - فقال جميع الشيعة وبعض المرجئة وجمهور المعتزلة وبعض أهل السنة: إن علياً كان هو المصيب في حربه، وكل من خالفه على خطأ. وقال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل وطوائف من المعتزلة: إن علياً مصيب في قتاله مع معاوية وأهل النهروان، ووقفوا في قتاله مع أهل الجمل، وقالوا: إحدى الطائفتين مخطئة ولا نعرف أيهما هي، وقالت الخوارج: علي المصيب في قتال أهل الجمل وأهل صفين وهو مخطئ في قتاله أهل النهروان (١). ولا يخفى وجود الاختلاف بين الثقلين، فعلى ما نقله الشهرستاني كانت الواصليّة متوقّفة في محاربي الإمام في وقعتي «الجمل وصفين» وعلى ما نقله ابن حزم يختصّ التوقف بمحاربيه في وقعة «الجمل» ويوافق ابن حزم عبد القاهر البغدادي، وقال: «ثم إن واصلًا فارق السلف ببدعة ثالثة، وذلك أنه وجد أهل عصره مختلفين في علي وأصحابه، وفي طلحة والزبير وعائشة، وسائر أصحاب الجمل - إلى ما ذكره» (٢). ويوافقهما نقل المفيد حيث قال ما هذا خلاصته: «اتفقت الإمامية والزيدية والخوارج، على أن الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام كفار ضلال، ملعونون بحربهم أمير المؤمنين. وزعمت المعتزلة كلهم أنهم فساق ليسوا بكفار، وقطعت المعتزلة من بينهم على أنهم لفسقهم في النار خالدون، وزعم واصل الغزالي وعمرو بن عبيد بن باب من بين كافة المعتزلة أن طلحة والزبير وعائشة ومن كان في حربهم، من علي بن أبي طالب والحسن والحسين ومحمّد ومن كان في حربهم كعمّار بن ياسر وغيره من المهاجرين، ووجوه الأنصار وبقايا أهل بيعة الرضوان، كانوا في اختلافهم كالمتلاعنين وأن إحدى الطائفتين فساق ضلال مستحقون للخلود في النار إلا أنه لم يقدّم دليل عليها» (٣). _____ ١. الفصل في الملل والأهواء والنحل: ج ٤ ص ١٥٣. ٢. الفرق بين الفرق: ص ١١٩. ٣. أوائل المقالات: ص ١٠ - ١١.

(٢٣٣) نقد النظرية

إن واصل بن عطاء ومن لفّ لّفه في هذا الباب، يلوكون في أشداقهم ما يضادّ نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد أخبر علياً بأنه يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد عهد به الرسول وأمره بقتالهم. روى أبو سعيد الخدري قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين. قلنا: يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟ قال: مع علي بن أبي طالب عليها السلام -». روى أبو اليقظان عمّار بن ياسر قال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين». وقد رواه الحفاظ من أهل الحديث وأرباب المعاجم والتأريخ، ومن أراد الوقوف على تفصيله فعليه الرجوع إلى «الغدیر: ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٥». ويكفي في ذلك ما نقله ابن عساكر في تأريخه عن أبي صادق أنه قال: قدم أبو أيوب الأنصاري العراق، فأهدت له الأزد «جزراً» فبعثوا بها معي فدخلت فسلمت إليه وقلت له: قد أكرمك الله بصحبة نبيّه ونزوله عليك، فمالى أراك تستقبل الناس تقاثلهم؟ تستقبل هؤلاء وهؤلاء مرّة؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد إلينا أن نقاتل مع علي الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين فهذا وجهنا إليهم يعني معاوية وأصحابه -، وعهد إلينا أن نقاتل مع علي المارقين فلم أرهم بعد (١). وقد تجاهل واصل وأتباعه وعرفوا الحق وأنكروه، فإنّ حكم الخارج على الإمام المفترض طاعته ليس أمراً مخفياً على رئيس

المعتزلة، ولا أرى باغياً أخسر من الزبير، ولا أشقى من طلحة، غير ابن آكلة الأكباد حزب الشيطان. ————— ١. الغدير: ج ٣ ص ١٩٢.

(٢٣٤) (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (١).

و في نهاية المطاف نقول: إنه من مواليد عام الثمانين في المدينة وتوفى في البصرة عام ١٣١، كما أرّخه المسعودي وغيره. ٢ - عمرو بن عبيد (ت ٨٠ - م ١٤٣) (٢)

الشخصية الثانية للمعتزلة بعد واصل بن عطاء هو عمرو بن عبيد وكان من أعضاء حلقة الحسن، مثل واصل، لكنه التحق به بعد مناظرة جرت بينهما في مرتكب الكبيرة كما نقلناها. يقول السيد المرتضى في أماليه: «يكنى أبا عثمان مولى لبنى العدوية من بنى تميم. قال الجاحظ: وهو عمرو بن عبيد بن باب. و«باب» نفسه من سبي كابل من سبي عبدالرحمان بن سمرة، وكان باب مولى لبنى العدوية قال: وكان عبيد شريطاً، وكان عمرو مترهداً، فكان إذا اجتازا معاً على الناس قالوا هذا أشرّ الناس، أبو خير الناس، فيقول عبيد: صدقتم هذا إبراهيم وأنا تاريخ». يلاحظ عليه: أن ما ذكره عبيد من التشبيه إنما يتّم على عقيدة أهل السنة، بأنّ أبا إبراهيم كان وثنياً، وأما على عقيدة الشيعة، وهي التي تؤيدّها الآيات القرآنية، أن أباه كان مؤمناً موحداً وأن «آزر» كان عمّه لا والده (٣) فلا يتّم. وقد روى السيد في أماليه وغيره من أرباب المعاجم قصصاً في زهده وورعه غير أن قسماً منها يعدّ مغالاة في الفضائل وإليك نموذجاً منها: روى ابن المرتضى عن الجاحظ أنه قال: صلى عمرو أربعين عاماً صلاة الفجر ————— ١. النحل/١٤. ٢. فهرس ابن النديم: الفن الأول من المقالة الخامسة، ص ٢٠٣. ٣. مجمع البيان: ج ٣ ص ٣١٩ ط صيدا في تفسير قوله (ربنا اغفر لي ولوالدي) إبراهيم / (٤١). (٢٣٥)

بوضوء المغرب. وحجّ أربعين حجّة ماشياً، وبغيره موقوف على من أحصر، وكان يحيى الليل بركعة واحدة، ويرجع آية واحدة (١). وقد روى نظيره في حقّ الشيخ أبي الحسن الأشعري، وقد قلنا إنه من المغالاة في الفضائل، إذ قلما يتفق لإنسان ألا يكون مريضاً ولا مسافراً ولا معذوراً طيلة أربعين سنة، حتى يصلّى فيها صلاة الصبح بوضوء العتمة. ما اثر عنه في مجالى التفسير والعقيدة

١ - روى المرتضى في أماليه أن ابن لهيعة أتى عمرو بن عبيد في المسجد الحرام فسلم عليه و جلس إليه وقال له: يا أبا عثمان ما تقول في قوله تعالى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) (النساء/١٢٩) فقال: ذلك في محبة القلوب التي لا يستطيعها العبد ولم يكلفها، فأمر العدل بينهما في القسمة من النفس والكسوة والنفقة، فهو مطبق لذلك، وقد كلفه بقوله تعالى: (فلا تميّلوا كلّ الميل) فيما تطبقون (فتبدروها كالمعلّقة) بمنزلة من ليست أيماً ولا ذات زوج. فقال ابن لهيعة: هذا والله هو الحق (٢). أقول: ما سأله ابن لهيعة كان سؤالاً درجياً في ذلك العصر، وقد طرحه بعض الزنادقة، كابن أبي العوجاء في البصرة - بندر الأهواء والآراء - ليوهم أن في القرآن تناقضاً. ولأجل ذلك سأل عنها هشام بن الحكم تارة و أبا جعفر الأحول، مؤمن الطاق، أخرى، فغادر الرجلان البصرة، لزيارة الإمام الصادق عليه السلام في المدينة في غير موسم الحجّ والعمرة للتعرف على الجواب وقد عرضا السؤال عليه، فأجاب بنفس الجواب الذي مرّ في كلام عمرو بن عبيد، فلما سمع ابن أبي العوجاء الجواب قال: هذا ما حملته الإبل من الحجاز (٣). —————

١. المنية والأمل: ص ٢٢. لاحظ الجزء الثاني من كتابنا ص ٢٤. ٢. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٧٠ - ١٧١. ٣. البرهان في تفسير القرآن: ج ١ ص ٤٢٠، الحديث ٢ - ٣.

(٢٣٦)

ولعلّ ما أجاب الإمام - عليه السلام - كان منتشرًا في البصرة من جانب تلميذه، وانتهى إلى عمرو بن عبيد، فأجاب بنفس ما أجاب به الإمام، ويظهر من كلام ابن أبي العوجاء، تقدّم إجابة الإمام على جواب عمرو بن عبيد زماناً وإلا لما صحّ أن يقال «هذا ما حملته الإبل من الحجاز» بل كان له أن يحتمل أن الجواب أخذ من عمرو بن عبيد، عميد الاعتزال. نعم يحتمل أن تكون الإجابتان من قبيل توارد خاطر ومجيئهما على سبيل الاتفاق، بلا أخذ أحدهما من الآخر. ٢ - روى السيد المرتضى في أماليه و قال: «إنّ هشام بن الحكم قدم

البصرة فأتى حلقة عمرو بن عبيد فجلس فيها و عمرو لا يعرفه فقال لعمرو: أليس قد جعل الله لك عينين؟ قال: بلى، قال: ولم؟ قال: لأنظر بهما في ملكوت السماوات والأرض فأعتبر، قال: وجعل لك فماً؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال: لأذوق الطعوم وأجيب الداعي، ثم عدد عليه الحواس كلها، ثم قال: وجعل لك قلباً؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال لتؤدى إليه الحواس ما أدركته فيميز بينها. قال: فأنت لم يرض لك ربك تعالى إذ خلق لك خمس حواس حتى جعل لها إماماً ترجع إليه، أترضى لهذا الخلق الذين جشأ بهم العالم ألا يجعل لهم إماماً يرجعون إليه؟ فقال له عمرو: ارتفع حتى ننظر في مسألتك وعرفه. ثم دار هشام في حلق البصرة فما أمسى حتى اختلفوا^(١). أقول: ما أجاب به عمرو بن عبيد هشام بن الحكم، يدل على دماثة في الخلق وسماحة في المناظرة مع أنه طعن في السن، وهشام بن الحكم كان يعد في ذلك اليوم من الأحداث، وقد استمهل حتى يتأمل في مسألته ولم يرفع عليه صوته وعقيرته بالشم والسب، كما هو عادة أكثر المتعصبين، ولم يرمه بالخروج عن المذهب. ٣- قال الجاحظ: «نازع رجل عمرو بن عبيد في القدر فقال له عمرو: إن الله تعالى قال في كتابه ما يزيل الشك عن قلوب المؤمنين في القضاء والقدر قال تعالى: ١. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٧٦- ١٧٧.

(٢٣٧) (فَوربك لسننكهم أجمعين * عما كانوا يعملون) (الحجر / ٩٢ و ٩٣). ولم يقل لسننكهم عما قضيت عليهم، أو قدرته فيهم، أو أردته منهم، أو شئت لهم، وليس بعد هذا الأمر، إلا الإقرار بالعدل، أو السكوت عن الجور الذي لا يجوز على الله تعالى^(١). أقول: روى نظير ذلك من الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - وقد سئل عن القدر؟ فقال: «ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو فعله، وما لم تستطع فهو فعل الله، يقول الله للعبد: لم كفرت ولا يقول لم مرضت^(٢). و أخيراً روى السيد المرتضى أن أبا جعفر المنصور مر على قبره بمزان - وهو موضع على ليل من مكة على طريق البصرة - فأنشأ يقول: صلى الإله عليك من متوسد * قبراً مررت به على مزان قبراً تضمّن مؤمناً متخشعاً * عبد الإله ودان بالفرقان وإذا الرجال تنازعوا في شبهة * فصل الخطاب بحكمه وبيان فلو أن هذا الدهر أبقى صالحاً * أبقى لنا عمراً أبا عثمان (٣) ٤- قال الخطيب: «كان عمرو يسكن البصرة، وجالس الحسن البصرى، وحفظ عنه، واشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة فقال بالقدر ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن وكان له سمعه و إظهار زهد - ثم نقل بعض ما يدل على زهده أو إظهاره^(٤). ما ذكره الخطيب من تخصيص أهل السنة باتباع مذهبه تخصيص بلا دليل، فإن الفرق الإسلامية يحترمون السنة الصيحيحة، والكل بهذا المعنى أهل السنة. ولو كان وجه إزالته عنهم قوله بالقدر، فقد سبقه أستاذه الحسن إلى هذا القول، كما تدل عليه رسالته ١. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٧٧. ٢. المنية والأمل: ص ٢١ ط دار صادر. ٣. أمالي المرتضى: ج ١ ص ١٧٨، ووفيات الأعيان: ج ٢ ص ٤٦٢. ٤. تاريخ بغداد: ج ١٢، ص ١٦٦، رقم الترجمة ٦٦٥٢. (٢٣٨)

إلى عمر بن عبدالعزيز، التي أتى بنصها القاضي عبدالجبار في «فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة»^(١) فلو خرج عمرو بالقول بالقدر عن مذهب أهل السنة، فهذه شنشنة أعرفها من عبد القاهر في كتابه «الفرق بين الفرق»، والخطيب في تاريخه، وغيرهما من الكتّاب المتعصبين الذين يفتحون أبواب الجنّة على مصاريحها على وجوه أصحابهم، ويقفلونها بإحكام أمام الفرق الأخرى. نعم، تطرف من قال: «إن تسمية جمهرة المسلمين بأهل السنة، تسمية متأخرة يرجع تاريخها إلى حوالى القرن السابع الهجرى، إلى بعد عصر آخر الأئمة المشهورين وهو ابن حنبل بحوالى أربعة قرون»^(٢). فإن أهل الحديث كانوا يسمونهم أهل السنة، وهذا أحمد بن حنبل يقول في ديباجة كتابه «السنة»: «هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المتمسكين بعروتها المعروفين بها»^(٣). وهذا الشيخ الأشعري يعرض عقائد أهل الحديث باسم أهل السنة^(٤). إنما الاشكال في احتكار هذا الإسم في طائفة خاصة من المسلمين، مشعراً به إلى أن غيرهم رفضوا السنة و عملوا بالبدعة. نعم، لم تكن هذه التسمية في عصر النبي، ولا الخلفاء، ولا في أوائل القرن الثاني، وإنما حدثت في أواسطه. ٥- نقل الخطيب بسنده عن معاذ قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: «إن كانت (تبت يدا أبي لهب) في اللوح المحفوظ، فما على أبي لهب من لوم». و ينقله أيضاً عن معاذ بصورة أخرى قال: «كنت جالساً عند عمرو بن عبيد، ١. طبقات

المعتزلة: ص ٢١٥ - ٢٢٣. مَرَّ نَصُّ الرِّسَالَةِ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ص ٢٨٢ - ٢٩١. ٢. الاباضية بين القرون الاسلامية: ج ٢، ص ١٢٨ تأليف على يحيى معمر. ٣. السنة: ص ٤٤. ٤. مقالات الإسلاميين: ص ٢٩٠ (٢٣٩)

فأثاه رجل يقال له عثمان أخو السمري فقال: يا أبا عثمان! سمعت والله اليوم بالكفر فقال: لا تعجل بالكفر، وما سمعت؟ قال: سمعت هاشماً الأوقصي يقول: إنَّ (تَبَّثُ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) وقوله: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً) و: (سَأَصِلِيهِ سَقَرًا) إنَّ هذا ليس في أم الكتاب، والله تعالى يقول: (حم * وَالكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ) فما الكفر إلا هذا يا أبا عثمان. فسكت عمرو هنيهة، ثم أقبل على فقال: والله لو كان القول كما يقول، ما كان على أبي لهب من لوم، ولا على الوحيد من لوم. قال: يقول عثمان ذاك؟ هذا والله الدين يا أبا عثمان. قال معاذ: فدخل بالاسلام وخرج بالكفر (١). ثم ينقل عن معاذ أنه نقل مقالة عمرو لو كيع بن الجراح فقال: «من قال هذا القول استتيب، فإن تاب وإلا- ضربت عنقه». يلاحظ عليه: أن تاريخ بغداد عيبة الأعاجيب والموضوعات. إنه يروى في بداية ترجمته «عمرو بن عبيد» قصصاً في زهده وتمرده على الطواغيت، كأبي جعفر المنصور العباسي على وجه يليق أن تنسب إلى الأنبياء والأولياء، ولا يلبث فيأتي بهذه الأعاجيب التي لا يليق أن ينسب إلى مسلم عادي، فضلاً عن شيخ الكلام في عصره. لأنَّ المعتزلة وفي مقدمهم الشيخان، اعترفوا بأنَّ علمه سبحانه بالأشياء والحوادث أزلي لا حادث (٢) و معه كيف يمكن لمثل عمرو شيخ المنهج أن ينكر علمه سبحانه بما يصدر من الوليد ابن المغيرة، أو أبي لهب من الأفعال والأقوال؟ وكيف يمكن لمسلم أن ينكر كون القرآن موجوداً في الكتاب (لدينا لعلِّي حكيم) مع وروده فيه على وجه الصراحة. كل ذلك يعرب عن أن ما نسب إليه من السفساف أخيراً، وليد العدا والبغضاء. فالمسلم الذي يأخذ عقائده وآراءه من الكتاب والسنة الصيحيحة والعقل السليم، يعترف بأنَّ كلَّ _____ ١. تاريخ بغداد: ج ١٢ ص ١٧٠ - ١٧٢. ٢. قال القاضي عبد الجبار (م ٤١٥): فاعلم أن تلك الصفة التي يقع بها الخلاف والوفاق (عالم، لا عالم) يستحقها لذاته وهذه الصفات الأربع التي هي كونه قادراً عالمياً حياً موجوداً لما هو عليه في ذاته... إلى آخر ما ذكر في شرح الأصول الخمسة: ص ١٢٩.

(٢٤٠)

شيء معلوم لله سبحانه في الأزل. غير أن علمه الأزلي لا يصير الإنسان مسيراً مكتوف الأيدي، لأنَّ علمه سبحانه لم يتعلّق بصدور كلِّ فعل عن الإنسان على الإطلاق وبأى وجه كان، وإنما تعلّق بصدوره منه في ظلِّ المبادئ الموجودة فيه، ومنها الإرادة والاختيار والحرية والانتخاب واختصار علمه سبحانه تعلّق بأنَّ الإنسان فاعل مختار يفعل كلَّ شيء بإرادته ومثل هذا العلم لو لم يؤكّد الاختيار لما كان سبباً للجبر. وقد أوضحنا هذا الجواب عند البحث عن عموم مشيئته سبحانه وعلمه في الجزء الثاني من هذه الموسوعة: نعم، عمرو بن عبيد وكلّ من يعتقد بعدله سبحانه لا يجنح إلى روايات القدر التي تعرّف الإنسان كالريشة في مهبّ الريح. ولقد ذكرنا نزرأ من تلك الأحاديث في كتابنا هذا. وفود عمرو على الإمام الباقر - عليه السلام -

روى أن عمرو بن عبيد وفد على محمّد بن عليّ الباقر - عليه السلام - لامتحانه بالسؤال عن بعض الآيات، فقال له: «جعلت فداك، ما معنى قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) (الانبيا/٣٠) ما هذا الرّيق والفتق؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: كانت السّماء رتقاً لا ينزل القطر وكانت الأرض رتقاً لا تخرج الثّبات، ففتق الله السّماء بالقطر، وفتق الأرض بالنبات». فانطلق عمرو ولم يجد اعتراضاً ومضى. ثم عاد إليه فقال: أخبرني جعلت فداك عن قوله تعالى: (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) (طه/٨١) ما غضب الله؟ فقال له أبو جعفر - عليه السلام - «غضب الله تعالى عقابه يا عمرو. من ظنَّ أن الله يغيّره شيء فقد كفر» (١). _____ ١. بحار الأنوار: ج ٤٦، ص ٣٥٤ نقلاً عن المناقب لابن شهر آشوب. وغيره. (٢٤١) وفود عمرو على الإمام الصادق - عليه السلام -

روى الطبرسي في «الاحتجاج» عن عبد الكريم بن عتبة الهاشمي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام - بمكة إذ دخل عليه أناس من

المعتزلة فيهم عمرو بن عبيد واصل ابن عطاء و حفص بن سالم، وأناس من رؤسائهم وذلك حين قتل الوليد (١) واختلف أهل الشام بينهم فتكلموا و أكثروا، وخطبوا فأطالوا فقال لهم أبو عبد الله عليه السلام: «إنكم قد أكثرتم عليّ و أطلتم فأسندوا أمركم إلى رجل منكم فليتكلم بحجتكم و ليوزج، فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ و أطال، فكان فيما قال: قتل أهل الشام خليفتهم، و ضرب الله بعضهم ببعض، و تشبّت أمرهم. فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين و عقل و مروءة و معدن للخلافه وهو محمد بن عبد الله بن الحسن (٢) فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ثم نظهر أمرنا معه، و ندعو الناس إليه، فمن بايعه كنا معه و كان معنا... إلى آخر ما قال. فلما تمّ كلامه أجابه الإمام بكلام مسهب. وفي آخر كلامه: «أتق الله يا عمرو و أنتم أيها الرّهط، فاتقوا الله، فإنّ أبي حدّثني و كان خير أهل الأرض و أعلمهم بكتاب الله و سنّة رسوله أنّ رسول الله قال: من ضرب النّاس بسيفه و دعاهم إلى نفسه و في المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلف (٣). روى الصّيدوق في عيونه عن عليّ الرضا - عليه السلام - عن أبيه، عن جدّه - عليهم السلام - قال: «دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد الله، فلما سلّم و جلس عنده تلا هذه الآية: (الَّذِينَ يَجْتَبِئُونَ كِبَاءَهُمُ الْإِثْمَ) (الشورى/٣٧) ثمّ سأل عن الكبائر فأجابه - عليه السلام - فخرج عمرو بن عبيد وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك والله من قال برأيه و نازعكم في الفضل و العلم» (٤).

_____ ١. الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. قتل في جمادى الآخرة عام ١٢٦ و كان فاسقاً شريئاً للخمر. ٢. الملقب بالنفس الزكية، قتل بالمدينة في خلافة المنصور عام ١٤٥. ٣. بحار الأنوار: ج ٤٧، ص ٢١٣ - ٢١٥. ٤. بحار الأنوار: ج ٤٧، باب مكارم أخلاقه، ص ١٩، الحديث ١٣.

(٢٤٢) ٣ - أبو الهذيل العلاف (ت ١٣٥ - م ٢٣٥)

أبو الهذيل محمّد بن الهذيل العبدى - نسبة إلى عبد القيس - و كان مولاهم و كان يلقب بالعلاف، لأنّ داره في البصرة كانت في العلافين (١). قال ابن التّديم: «كان شيخ البصريين في الاعتزال و من أكبر علمائهم وهو صاحب المقالات في مذهبهم و مجالس و مناظرات. نقل ابن المرتضى عن صاحب المصايح أنّه كان نسيح وحده و عالم دهره و لم يتقدّمه أحد من الموافقين ولا من المخالفين. كان إبراهيم النّظام من أصحابه، ثمّ انقطع عنه مدّة و نظر في شيء من كتب الفلاسفة، فلما ورد البصرة كان يرى أنّه قد أورد من لطيف الكلام ما لم يسبق إلى أبي الهذيل. قال إبراهيم: فناظرت أبا الهذيل في ذلك فخيّل إليّ أنّه لم يكن متشاغلاً إلاّ به لتصرّفه فيه و حذقه في المناظرة فيه (٢). قال القاضي: «ومناظراته مع المجوس و الثنويّة و غيرهم طويلة ممدودة و كان يقطع الخصم بأقلّ كلام. يقال إنّه أسلم على يده زيادة على ٣٠٠٠ رجل». قال المبرّد: «ما رأيت أفصح من أبي الهذيل و الجاحظ، و كان أبو الهذيل أحسن مناظرة. شهدته في مجلس و قد استشهد في جملة كلامه بثلاثمائة بيت... و في مجلس المأمون استشهد في عرض كلامه بسبعمائة بيت» (٣). و ما ناظر به المخالفين دليل على نبوغه المبكر و تضلّعه في هذا الفن، فلنذكر بعضه: ١ - مات ابن لصالح بن عبد القدوس الذي يرمى بالزندقة، فجزع عليه، فقال له أبو الهذيل: «لا أعرف لجزعك عليه وجهاً، إذ كان الناس عندك كالزّرع فقال صالح: _____ ١. أمالي المرتضى: ج ١، ص ١٧٨، وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٢٦٥ - ٢٦٧ رقم الترجمة ٦٠٦ و قد قيل في تاريخ وفاته غير هذا نقله المرتضى في أماليه. ٢. فهرست ابن النديم: ص ٢٢٥ - ٢٢٦. ٣. المنية و الأمل: ص ٢٦ - ٢٧.

(٢٤٣)

يا أبا الهذيل إنّما أجزع عليه لأنّه لم يقرأ كتاب «الشكوك». فقال: ما هذا الكتاب يا صالح؟ قال: هو كتاب قد وضعته، من قرأه يشكّ فيما كان حتّى يتوهم أنّه لم يكن، ويشكّ فيما لم يكن حتّى يتوهم أنّه قد كان. فقال له أبو الهذيل: فشكّ أنت في موت ابنك، و اعمل على أنّه لم يمّت و إن كان قد مات. وشكّ أيضاً في قراءته كتاب «الشكوك» و إن كان لم يقرأه» (١). ٢ - بلغ أبا الهذيل في حدائنه سنّه أنّ رجلاً يهودياً قدم البصرة و قطع جماعة من متكلميها، فقال لعمّه: «يا عمّ امض بي إلى هذا اليهودي حتّى أكلّمه. فقال له عمّه: يا بنيّ كيف تكلمه و قد عرفت خبره، و أنّه قطع مشايخ المتكلمين! فقال: لا بدّ من أن تمضى بي إليه. فمضى به. قال: فوجدته يقرّر الناس على نبوة موسى - عليه السلام - فإذا اعترفوا له بها قال: نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدعون، فتقدّمت إليه،

فقلت: أسألك أم تسألني؟ فقال: بل أسألك، فقلت: ذاك إليك، فقال لي: أتعترف بأن موسى نبي صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك؟ فقلت له: إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشر بنبيي - عليه السلام - وشهد بنبوته وصدقه فهو نبي صادق، وإن كان غير من وصف، فذلك شيطان لا أتعترف بنبوته؛ فورد عليه ما لم يكن في حسابه، ثم قال لي: أتقول إن التوراة حق؟ فقلت: هذه المسألة تجرى مجرى الأولى، إن كانت هذه التوراة التي تسألني عنها هي التي تتضمن البشارة بنبيي - عليه السلام - فلك حق، وإن لم تكن كذلك فليست بحق، ولا أقر بها. فبهت وأفحم ولم يدر ما يقول. ثم قال لي: أحتاج أن أقول لك شيئاً بيني وبينك، فظننت أنه يقول شيئاً من الخير، فتقدمت إليه فسأرتني فقال لي: أمك كذا وكذا وأم من علمك، لا يكني، وقدّر أنّي أثب به، فيقول: وثبوا بي وشغبوا عليّ، فأقبلت على من كان في المجلس فقلت: أعزكم الله، أستم قد وقفت على سؤاله إياي وعلى جوابي ————— ١.

الفهرست لابن النديم: الفن الأول من المقالة الخامسة ص ٢٠٤ - وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢٤٤)

إياه؟ قالوا: بلى، قلت: أفليس عليه أن يردّ جوابي أيضاً؟ قالوا: بلى، قلت لهم: فإنه لما سأرتني شتمني بالشتم الذي يوجب الحدّ، وشتم من علمني، وإتما قدّر أنّي أثب عليه، فيدعي أنّا واثناه وشغبنا عليه، وقد عزّفتكم شأنه بعد الانقطاع فانصروني، فأخذته الأيدي من كلّ جهة فخرج هارباً من البصرة» (١). أقول: إن ما طرحه الرجل اليهودي من الشبهة كانت شبهةً دارجةً لأهل الكتاب يتمسّكون بها كلّ منهم من غير فرق بين اليهودي والمسيحي. وقد سألت الجائليق النصراني الإمام عليّ بن موسى الرضا - عليه السلام - في مجلس المأمون عن هذه الشبهة، فقال الجائليق: ما تقول في نبوة عيسى و كتابه هل تنكر منهما شيئاً؟ قال الرضا - عليه السلام - : «أنا مقرّ بنبوّة عيسى و كتابه... وكافر بنبوّة كلّ عيسى لم يقرّ بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلم و كتابه ولم يبشّر به أمته» (٢). إن الإمام الطاهر عليّ بن موسى الرضا - عليه السلام - قدم خراسان عام ١٩٩، وتوفّي بها عام ٢٠٣ هـ وكانت المناظرات خلال هذه السنوات دائرةً و مجالسها بالعلماء والأدباء حافلة، فنقلوا ما دار بين الإمام والجائليق إلى العواصم الإسلامية. فليس من البعيد أن يكون أبو الهذيل قد اقتبس كلامه من الإمام - عليه السلام - ، كما أنّ من المحتمل أن يكون من باب توارد الخاطر. ٣ - أتى إليه رجل فقال: «أشكل عليّ أشياء من القرآن فقصدت هذا البلد فلم أجد عند أحد ممّن سألته شفاء لما أردته، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل: إنّ بغيتك عند هذا الرجل فاتّق الله و أفدني، فقال أبو الهذيل ماذا أشكل عليك؟ قال: آيات من القرآن توهمني أنّها متناقضة و آيات توهمني أنّها ملحونة. قال: فماذا أحبّ إليك، أجييك بالجملة أو تسألني عن آية آية؟ قال: بل تجيبني بالجملة، فقال أبو الهذيل: هل تعلم أنّ محمّداً كان من أوساط العرب و غير مطعون عليه في لغته، وأنّه ————— ١. أمالي المرتضى: ج ١، ص ١٧٨ - ١٧٩. ٢.

الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج ٢، ص ٢٠٢ وللمناظرة صلة، من أراد فليراجع.

(٢٤٥)

كان عند قومه من أعقل العرب فلم يكن مطعوناً عليه؟ فقال: اللهم نعم، قال أبو الهذيل: فهل تعلم أنّ العرب كانوا أهل جدل؟ قال: اللهم نعم، قال: فهل اجتهدوا عليه بالمنقضة واللحن؟ قال: اللهم لا، قال أبو الهذيل: فتدع قولهم على علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الأوساط؟ قال: فأشهد أنّ لا إله إلا الله و أنّ محمّداً رسول الله، قال: كفاني هذا و انصرف و تفقّه في الدين» (١). تأليفه

بينما لم يذكر ابن التّديم أيّ تأليف لأبي الهذيل يحكي ابن المرتضى عن يحيى بن بشر أنّ لأبي الهذيل ستين كتاباً في الردّ على المخالفين في دقيق الكلام (٢). نعم، ذكر ابن التّديم في باب الكتب المؤلّفة في متشابه القرآن أنّ لأبي الهذيل العلاف كتاباً في ذلك الفن (٣). قال ابن خلّكان: «ولأبي الهذيل كتاب يعرف بالميلاس و كان «ميلاس» رجلاً معجوسياً و أسلم، و كان سبب إسلامه أنّه جمع بين أبي الهذيل وبين جماعة من الثنوية، فقطعهم أبو الهذيل فأسلم ميلاس عند ذلك» (٤). وذكر البغدادي كتابين لأبي الهذيل هما «الحجج» و «القوالب» والثاني ردّ على الدهرية (٥). أقول: إنّ من سبر كتاب «الفرق بين الفرق» لعبد القاهر البغدادي يعرف حقه على المعتزلة وعلى ذوى الفكر و لذلك ترجمه بصورة تكشف عن عمق غيظ له، فقال: «كان مولى لعبد القيس وقد جرى على منهاج أبناء

السبايا لظهور أكثر البدع منهم، وفضائحه تترى تكفره فيها سائر فرق الأئمة من أصحابه في الاعتزال ومن غيرهم، ————— ١ . طبقات المعتزلة للقاضي: ص ٢٥٤ . ٢ . المنية والأمل: ص ٢٥ . ٣ . الفهرست لابن النديم: الفن الثالث من المقالة الأولى ص ٣٩ . ٤ . وفيات الأعيان: ج ٤ ص ٢٦٦ . ٥ . الفرق بين الفرق: ص ١٢٤ . (٢٤٦)

وللمعروف بالمزدار من المعتزلة كتاب كبير فيه فضائح أبي الهذيل، وفي تكفيره بما انفرد به من ضلالتة. وللجبائي أيضاً كتاب في الرد على أبي الهذيل في المخلوق، يكفره فيه، ولجعفر بن حرب المشهور في زعماء المعتزلة أيضاً كتاب سماه «توبيخ أبي الهذيل» وأشار بتكفير أبي الهذيل، وذكر فيه أن قوله يجزى إلى قول الدهرية»(١). تشيعه قال ابن المرتضى: «ذكروا أنه صلى عليه أحمد بن أبي دؤاد القاضي فكبر عليه خمساً، ثم لمّا مات هشام بن عمرو فكبر عليه أربعاً، فقيل له في ذلك (ما وجه ذلك)؟ فقال: «إنّ أبا الهذيل كان يتشيع لبني هاشم فصلّيت عليه صلاتهم» وأبو الهذيل كان يفضّل عليّاً على عثمان. وكان الشيعي في ذلك الزمان من يفضّل عليّاً على عثمان»(٢). وهذا يكشف عن أنّ التشيع ربّما يستعمل في تفضيل الإمام - عليه السلام - على خليفة أو على الخلفاء الثلاث فقط، ولا يلازم التشيع القول بكون عليّ هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا فصل. فإنّ هذا هو التشيع بالمعنى الأخصّ. قال ابن أبي الحديد: «سئل شيخنا أبو الهذيل أيّما أعظم منزلة عند الله: عليّ - عليه السلام - أم أبوبكر؟ فقال: والله لمبارزة عليّ عمرواً يوم الخندق تعدل أعمال المهاجرين والأنصار و طاعاتهم كلّها، فضلاً عن أبي بكر»(٣). وفاته

إذا كانت ولادة أبي الهذيل ١٣٥ و وفاته ٢٣٥ فقد توفى الرجل عن عمر يناهز المائة. ويقول ابن خلكان: «وكان قد كفّ بصره، وخرف في آخر عمره إلاّ - أنّه كان لا ————— ١ . الفرق بين الفرق: ص ١٢١ - ١٢٢ . ٢ . المنية والأمل: ص ٢٨ . ٣ . شرح نهج البلاغة: ج ١٩ ص ٦٠ . (٢٤٧)

يذهب عليه شيء من الأصول، لكنّه ضعف عن مناهضة المناظرين و حجاج المخالفين و ضعف خاطره»(١). و جرى ابن قتيبة في كتابه «تأويل مختلف الحديث» على ذمّ مشايخ المعتزلة ورميهم بقصص خرافية، فنقل أولاً عن بعض أصدقاء أبي الهذيل أنّه بذل مائة ألف درهم على الإخوان. ثمّ قال رداً على هذه القصة: «وكان أبو الهذيل أهدى دجاجة إلى موسى بن عمران فجعلها تاريخاً لكلّ شيء، فكان يقول: فعلت كذا وكذا قبل أن أهدى إليك تلك الدجاجة أو بعد أن أهديت إليك تلك الدجاجة». ثمّ فرّع على ذلك وقال: «هذا نظر من لا يقسم على الإخوان عشرة أفلس فضلاً عن مائة ألف»(٢). «اللهم لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا». كلمة بديئة عنوان الخطيب شيخ المعتزلة محمّداً أبا الهذيل، ولكنّه جرى فيه كعادته فيهم بتسليط لسانه عليهم فقال: «شيخ المعتزلة»، ومصنّف الكتب في مذاهبهم وهو من أهل البصرة. ورد بغداد وكان خبيث القول. فارق إجماع المسلمين وردّ نصّ كتاب الله عزّ وجلّ إذ زعم أنّ أهل الجنّة تنقطع حركاتهم فيها، حتّى لا ينطقوا نطقه ولا يتكلّموا بكلمة، فلزمه القول بانقطاع نعيم الجنّة عنهم والله تعالى يقول: (أكلها دائم). وجحد صفات الله التي وصف بها نفسه، وزعم أنّ علم الله هو الله، و قدره الله هي الله. فجعل الله علماً و قدره - تعالى الله عمّا وصفه به علواً كبيراً - (٣). يلاحظ عليه: أنّ النسبة الأولى لم تثبت بعد، وهؤلاء هم الأشاعرة ينقلونه عن أبي الهذيل و أتباعه، وقد اعتذر أبو الحسين الخياط عن هذه النسبة في كتابه «الانتصار» وبما ————— ١ . وفيات الأعيان: ج ٤ ص ٢٦٧ . ٢ . تأويل مختلف الحديث: ص ٤٣ . ٣ . تاريخ بغداد: ج ٣، ص ٣٦٦ . (٢٤٨)

أنّ كتب الرجل قد ضاعت و عبث بها الزمان فلا يصحّ في منطقي العقل الجزم بذلك إلاّ إذا تواتر التّقل وهو مفقود. وأمّا النسبة الثانية فقد غفل عن مغزاها الخطيب فتصوّره أمراً شنيعاً مع أنّ أبا الهذيل يقصد بذلك الوصول إلى قيّة التوحيد، وهو نفى كون صفاته

سبحانه زائده على ذاته. لأن القول بالزيادة يستلزم التركيب (تركيب ذاته مع صفاته السبع الكمالية) وقد أوضحناه في الجزء الثاني من كتابنا فراجع (١). والذى يندى الجبين أن يقذف الشيخ بأمر شنيع. نقل الخطيب عن أبي حذيفة: كان أبو الهذيل يشرب عند ابن لعثمان بن عبد الوهاب، قال: فراود غلاماً في الكنيف ... إلى آخر ما ذكره في الوقية به التي يجب أن يحذ القاذف و يبرء المرمى بها، ولكن الطائفة البغيضة دفعت الخطيب إلى نقل القصة بلا اكتراث. (إن الذين يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). ٤- النِّزَامُ (ت ١٦٠هـ - م ٢٣١هـ) (٢)

إبراهيم بن سيار بن هاني النِّزَامُ النِّزَامُ: هو الشخصية الثالثة للمعتزلة ومن متخرجي مدرسه البصرة للاعتزال. قال ابن النديم: يكتي أبا إسحاق، كان متكلماً شاعراً أديباً وكان يتعنف أبا نؤاس وله فيه عدّة مقطعات و إياه عنى أبو نؤاس بقوله: فقل لمن يدعى في العلم فلسفة * حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء لا تحظر العفو إن كنت امرءاً حرجاً * فإن حظركه بالدين إزرء (٣) _____ ١ . ص ٧٨ - ٧٩ وسيوافيك بيانه في الفصل المختص ببيان الأصول الخمسة للمعتزلة. ٢ . في ميلاده ووفاته أقوال أخر وما ذكرناه هو المؤيد بالقرائن. ٣ . فهرست ابن النديم: الفن الأول من المقالة الخامسة ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . (٢٤٩)

وذكره الكعبي في «ذكر المعتزلة» وقال: «هو من أهل البصرة ثم نقل آراءه التي تفرّد بها» (١). وقال الشريف المرتضى: «كان مقدماً في علم الكلام، حسن الخاطر، شديد التدقيق والغوص على المعاني، وإنما أداه إلى المذاهب الباطلة التي تفرّد بها واستشنت منه، تدقيقه وتغلغله وقيل: إنّه مولى الزياديين من ولد العبيد و إن الرّزق جرى على أحد آبائه» (٢). وذكره القاضي عبد الجبار في «طبقات المعتزلة» وقال: «إنّه من أصحاب أبي الهذيل و خالفه في أشياء» (٣). ذكاه المتوقّد

١ - روى الشريف المرتضى أن أبا النِّزَامُ جاء به وهو حدث إلى الخليل بن أحمد (م ١٧٠هـ) ليعلمه فقال له الخليل يوماً يمتحنه - وفي يده قدح زجاج - يا بني، صف لي هذه الزجاجه، فقال: أ بمدح أم بدم؟ قال: بمدح، قال: نعم، تريك القذى، لا تقبل الأذى، ولا تستر ما وراءها، قال: فذمها، قال: سريع كسرهما، بطيء جبرها، قال: فصف هذه النخلة، و أوما إلى نخلة في داره، فقال: أ بمدح أم بدم؟ قال: بمدح، قال: هي حلو مجتناها، باسق منتهاها، ناظر أعلاها، قال: فذمها، قال: هي صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى، محفوفة بالأذى، فقال الخليل: يا بني، نحن إلى التعلم منك أحوج. قال الشريف المرتضى بعد نقل هذه القصة: «وهذه بلاغة من النِّزَامُ حسنة، لأنّ البلاغة هي وصف الشيء ذمّاً أو مدحاً بأقصى ما يقال فيه» (٤). ٢ - قال أبو عبيدة: «ما ينبغي أن يكون في الدنيا مثله، فإنّي امتحتته فقلت: ما _____ ١ . فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: ص ٧٠. ٢ . أمالي المرتضى: ج ١، ص ١٨٧. ٣ . فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: ص ٢٦٤. ٤ . أمالي المرتضى: ج ١، ص ١٨٩.

(٢٥٠)

عيب الزجاج؟ فقال على البديهة: يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر» (١). ٣ - روى أنه كان لا يكتب ولا يقرأ وقد حفظ القرآن والتوراة والانجيل والزبور وتفسيرها مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس في الفتيا (٢). ٤ - قال الجاحظ: «الأوائل يقولون: في كلّ ألف سنة رجل لا- نظير له. فان كان ذلك صحيحاً فهو: أبو إسحاق النِّزَامُ» (٣). ولو صحّ ما نقلناه في حقّه، فهو يحكى عن كون المترجم له ذا نبوغ مبكر، و ذكاء وقاد، وقابليته كبيرة، ومثل هذا لو وقع تحت رعاية صحيحة و تربى على يدى أستاذ بارع يتجلى نبوغه بأحسن ما يمكن و تتفجر طاقاته لصالح الحقائق، و إدراك الواقعيّات، وإذا فقد مثل ذلك الأستاذ البارع وهو على ما ذكرناه من المواهب والقابليّات انحرف انحرافاً شديداً، و تحرّكت طاقاته في اتّجاه الجناية على الحقائق و ظلم الواقعيّات. ولعلّ ما يحكى عن النِّزَامُ من بعض الأفكار المنحرفة - إن صحّت - فذلك نتيجة النبوغ غير الموجه، والقابليّة غير الخاضعة للإرشاد والهداية. وسيوافيك بعض أفكاره غير الصّحيحة، غير أنّ أكثر مصادرها هي كتب الأشاعرة ك «مقالات الإسلاميين» للأشعري، و «الفرق بين الفرق» و غيرهما من كتب الأشاعرة الذين ينظرون إلى المعتزلة بعين العدا و مخالفي السّنة. نعم هجوم الأشاعرة عليه، وردّ بعض المعتزلة

عليه (٤) يعرب عن شذوذ في منهجه، وانحراف في فكره. ٥- روى القاضى أنه كان يقول عندما يوجد بنفسه: «اللهم إن كنت تعلم أنى لم أقصير في نصرته توحيدك ولم أعتقد مذهباً إلا أسنده التوحيد، اللهم إن كنت تعلم ذلك فاغفر لى ذنوبى و سهّل على سكرات الموت». قال: فمات من ساعته (٥). _____ ١. المنية والأمل، لابن المرتضى: ص ٢٩. ٢. المنية والأمل، لابن المرتضى: ص ٢٩. ٣. المنية والأمل، لابن المرتضى: ص ٢٩. ٤. لاحظ الفرق بين الفرق ص ١٣٢ ترى ردود المعتزلة عليه. فقد ذكر أن لأبى الهذيل والجبائى والاسكافى وجعفر بن حرب ردوداً عليه. ٥. فضل الاعتزال للقاضى: ص ٢٦٤ - المنية والأمل ص ٢٩ - ٣٠. (٢٥١)

ولو صحّ هذا فلا يصحّ ما ينسب إليه البغدادي من أن النظام كان أفسق خلق الله عزّ وجلّ و أجراهم على الذنوب العظام و على إدمان شرب المسكر. وقد ذكر عبدالله بن قتيبة في كتاب «مختلف الحديث» أن النظام كان يغدو على مسكر و يروح على مسكر وأنشد قوله في المسكر: ما زلت آخذ روح الزقّ في لطف * وأستبيح دماً من غير مذبوح حتى اثنتيت ولى روحان فى بدن * والزقّ مطّرح جسم بلا روح ثم أخذ البغدادي فى ذمّه بكلمات رديئة لا تصلح للنقل، وقد عدّ البغدادي له أزيد من عشرين فضيحة و جعل بعضها سبباً لكفره، غير أن بعضها ليس بفضيحة و بعضها الآخر لا يوجب الكفر (١) و البغدادي فى هذه التّهم و النسب - كما قال - تبع شيخ أصحاب الحديث ابن قتيبة حيث قال: «وجدنا النظام شاطراً من الشّطار يغدو على سكر و يروح على سكر و بيت على جرائرها و يدخل فى الأدناس و يرتكب الفواحش والشائعات» ثم ذكر البيتين (٢). أفى ميزان النّصفه الاعتماد على قول الخصم عند القضاء عليه؟ و ذكر الشهرستاني له مسائل انفراد بها و أنهاها إلى ثلاث عشرة مسألة (٣) و فى قلمه نراه قابلة للتقدير بخلاف البغدادي فى الفرق و نذكر نموذجين من هذه الفضائح المزمومة: ١ - قوله بانقسام كلّ جزء لا إلى نهاية. فزعم البغدادي أن نتيجة ذلك القول إحالة كون الله تعالى محيطاً بأجزاء العالم، عالماً بها، وذلك قول الله تعالى: (وَأَحَاطَ بِمَا لَمْ يَدْرِهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَيْدَاداً) (الجن/٢٨)(٤). _____ ١. الفرق بين الفرق: ص ١٣١ - ١٥٠. ٢. تأويل مختلف الحديث: ص ١٧ و ١٨. ٣. الملل والنحل: ج ١ ص ٥٤ - ٥٨. ٤. الفرق بين الفرق: ص ١٣٩.

(٢٥٢)

يلاحظ عليه: أن القائل ببطان تركب الجسم من أجزاء لا يتجزأ، وأنّ كلّ جزء مفروض ينقسم إلى ما لا نهاية له، لا يعنى به انقسام كلّ جزء إلى ما لا نهاية له بالفعل، بحيث يكون فى كلّ ذرة أجزاء فعليّة مترتبة متسلسلة، بل المراد هو الانقسام بالقوّة، بمعنى أن الانقسام لا ينتهى إلى جزء لا يمكن تقسيمه عقلاً، لأنّ ما نرضه جزءاً غير متجزئ، شرقه غير غربه، فيكون منقسماً بهذا الشكل إلى ما لا نهاية له، وإن كان ينتهى إلى جزء لا يمكن تقسيمه حساً لأجل ضعف أدوات التقسيم، ولكن هذا لا يصدّ التقسيم العقلى و لا يمنع منه. وهذا واضح لمن أمعن النظر فى أدلّة القائلين ببطان الجزء الذى لا يتجزأ. فالبغدادي خلط بين مسألة أجزاء غير متناهية بالفعل و مسألة أجزاء غير متناهية بالقوّة، وما فرضه إشكالاً - على فرض صحّته فى نفسه - إنّما يترتب على الأوّل دون الثانى، لأنّ العالم على الفرض الثانى يكون متناهياً بالفعل، ويكون سبحانه محيطاً بأجزاء العالم، عالماً به، وإن كان غير متناه بالقوّة، لكن مناط العلم هو الأوّل لا الثانى. و ثانياً: نفرض أن العالم له أجزاء غير متناهية، ولكنّه سبحانه أيضاً موجود غير متناه، على ما برهن عليه فى محلّه، فلا يشدّ عن حيطة وجوده شىء، نعم من خصّ وجوده سبحانه بالعرش فوق السّماوات لا - محيى له عن توصيفه بالتناهى والله سبحانه منزّه عن التناهى و أحكام الممكنات. ٢ - قوله بأنّ الإنسان هو الروح و هو جسم لطيف تداخل بهذا الجسم، ثمّ رتب عليه على زعمه إشكالات: منها أنّ الإنسان على هذا لا يرى على الحقيقة و إنّما يرى الجسد الذى فيه الإنسان. ومنها أنّه يوجب أن الصّحابة ما رأوا رسول الله و إنّما رأوا قالباً فيه الرّسول، إلى غير ذلك من الاشكالات الواهية. أقول: لا يظهر من القرآن كون الروح هو الجسم اللطيف المتداخل فى البدن، ولكنّه يظهر منه كون حقيقة الإنسان هى روحه، وأنّ واقعيته و شخصيته بروحه لا (٢٥٣)

بجسده. قال سبحانه: (قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (السجدة/١١). إنّ كلمة «التوفى» لا - تعنى

الاماتة كما هو معروف، بل تعنى الأخذ و القبض، فقله سبحانه (يتوقاكم) بمعنى يأخذكم و يقبضكم، فالآية ظاهرة في أن ملك الموت يأخذ الإنسان كله، ويكون محفوظاً عند ربّه، وهذا إنّما يتمّ ولو كان حقيقة الإنسان هو روحه و نفسه، لا روحه و جسمه، وإلاّ يكون المأخوذ بعض الإنسان و جزئه، لوضوح أنّ ملك الموت يأخذ أحد الجزأين وهو الرّوح و يترك الجزء الآخر وهو يودع في القبر الملى لا علاقة لملك الموت به. وما رتب البغدادى على نظريّة النّظام من الاشكالات لا يستحقّ الردّ والتّقد. إذا عرفت هذين النموذجين اللّذين عدّهما البغدادى من فضائح النّظام - وليسا منها - فعند ذا يتبين وجوب دراسة آراء ذلك الرجل في جوّ هادى بعيد عن الحقد والبغض حتّى يتّضح الحقّ عن الباطل، مع أنّه لا مصدر لنسبة هذه الآراء إلاّ كتب الأشاعرة و بصورة ناقصة «الانتصار» لأبى الحسين الخياط، وليس كتابنا هذا كتاباً كلامياً و إنّما هو كتاب تأريخ العقائد ولأجل ذلك نكتفى بهذا المقدار، غير أنّه نرى من الواجب التّعريض لعقيدة منسوبة إليه في إعجاز القرآن المعروفة بمذهب الصّرفة. النّظام و مذهب الصّرفة في إعجاز القرآن من الآراء الباطلة الّتي نسبت إلى النّظام، هو حصر إعجاز القرآن في الاخبار عن المغيبات، وأما التّأليف والتّظيم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا - أنّ الله منعهم بمنع (١). وقد نقل عنه البغدادى في «الفرق» بقوله: «إنّه أنكر إعجاز القرآن في (٢) نظمه». وقال الشهرستانى: «قوله في إعجاز القرآن أنّه من حيث الاخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به ————— ١. مقالات الاسلاميين: ص ٢٢٥. ٢. الفرق بين الفرق: ص ١٣٢.

(٢٥٤)

جبراً وتعجزاً، حتّى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة و فصاحة و نظماً» (١). أقول: لا شك أنّ مذهب الصّرفة في إعجاز القرآن مذهب مردود بنصّ القرآن وإجماع الأمية، لأنّ مذهب الصّرف يرجع إلى أنّ القرآن لم يبلغ في مجال الفصاحة والبلاغة حدّ الإعجاز، حتّى لا يتمكّن الإنسان العادى من مباراته و مقابله، بل هو في هذه الجهة لا يختلف عن كلام الفصحاء و البلغاء، ولكّنه سبحانه يحول بينهم وبين الإتيان بمثله، إمّا بصرف دواعيهم عن المعارضة، أو بسلب قدرتهم عند المقابلة. ومن المعلوم أنّ تفسير إعجاز القرآن بمثل هذا باطل جداً لأنّ القرآن عند المسلمين معجز لكونه خارق للعادة لما فيه من ضروب الإعجاز في الجوانب الأربعة: ١ - الفصاحة القصوى ٢ - البلاغة العليا ٣ - النظم المخصوص ٤ - الأسلوب البديع. فقد تجاوز عن حدّ الكلام البشرى و وصل إلى حدّ لا تكفى في الاتيان بمثله القدرة البشرية. يقول الطبرسى في تفسير قوله: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الإسراء/ ٨٨) «معناه قل يا محمد لهؤلاء الكفّار: لئن اجتمعت الإنس و الجنّ متعاونين متعاضدين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن من فصاحته و بلاغته و نظمه على الوجوه الّتي هو عليها من كونه في الطبقة العليا من البلاغة و الدرجة القصوى من حسن النظم و جودة المعاني و تهذيب العبارة.. لعجزوا عن ذلك ولم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» (٢). إنّ مذهب الصّرفة كمذهب الصّدفه لدى الماديين في الوهن و البطلان، فإنّه سبحانه أرفع شأناً من أن يأمر الإنسان والجنّ بأن يباروا القرآن، ويرضى منهم بمباراة بعضه لو تعدّر عليهم الكلّ، ثمّ يعترض سبيلهم و يصرف منهم القوّة والهمّة و يمنعهم ————— ١. الملل والنحل: ج ١ ص ٥٦ - ٥٧. ٢. مجمع البيان: ج ٦ ص ٦٧٦.

(٢٥٥)

من أن يأتوا بما أراد منهم مع قدرتهم عليه قبل عزم المباراة والمقابلة. ولو صحّ وجه إعجازه في الصّيرفة، فيتّم حتّى مع كونه كلاماً مغسولاً من الفصاحة، ومبدولاً مردولاً للغاية، وكلّما حاول الإنسان أن يقابله، صرفت دواعيه وسلبت قدرته عن الاتيان بمثله، هو كما ترى (١). مؤلفاته

مع أنّه كثر اللّغظ والصّياح حول آراء النّظام (٢) فطبع الحال يقتضى أن يكون له عشرات المؤلّفات، غير أنّه لم يصل من أسماء مؤلّفاته إلينا أزيد ممّا يلي: ١ - التّوحيد ٢ - العالم (٣) ٣ - الجزء (٤) ٤ - كتاب الردّ على الثنوية (٥). ومن أراد أن يرجع إلى متفرّداته - إن صحّت التّسبة - فليرجع إلى «الملل والنحل» للشهرستانى، فإنّه جمعها تحت ثلاث عشرة مسألة، مع النزاهة و رعاية أدب البحث، خلافاً

للبغدادي، فإن كلامه بعيد عن الأدب. ٥- أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي (ت ٢٣٥ - م ٣٠٣)

هو أحد أئمة المعتزلة في عصره، وإماماً في كلامه ويعرفه ابن النديم في فهرسته بقوله: «هو من معتزلة البصرة، ذل الكلام و سهله و يسره ما صعب منه، وإليه انتهت رئاسة البصريين في زمانه، لا يدافع في ذلك. وأخذ عن أبي يعقوب الشحام. ورد البصرة ١. ومن أراد البحث حول تلك النظرية فعليه الرجوع إلى المصادر التالية: أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ٣١، بحار الأنوار: ج ١٢، ص ١ - ٣٢. المعجزة الخالدة للعلامة الشهرستاني ص ٩٢ - ٩٣. مقال للكاتب الفكيكي في مجلة رسالة الإسلام، العدد الثالث من السنة الثالثة، والعدد الأول من السنة الرابعة. الجزء الثاني من الإلهيات من محاضراتنا الكلامية التي قام بتحريها الشيخ الفاضل حسن مكى العاملي. ٢. ألف محمد عبد الهادي أبو ريده كتاباً مستقلاً حول آراء النظام وأسماء «إبراهيم بن سيار النظام» وطبع عام ١٣٦٥ بالقاهرة وقد جمع آراءه عن مصادر مطبوعة ومخطوطة. ٣. ذكرهما أبو الحسين الخياط (م ٣١١) في الانتصار ص ١٤ - ١٧٢. ٤. مقالات الاسلاميين: ج ٢ ص ٣١٦. ٥. الفرق بين الفرق: ص ١٣٤.

(٢٥٦)

و تكلم مع من بها من المتكلمين، وصار إلى بغداد، فحضر مجلس أبي... الضير و تكلم فتبين فضله و علمه، وعاد إلى العسكر ومولده سنة ٢٣٥ هـ وتوفي سنة ٣٠٣ هـ (١). وقال ابن خلكان: «إنه أحد أئمة المعتزلة، كان إماماً في علم الكلام، وأخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره. له في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة و عنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعري علم الكلام وله معه مناظرة روتها العلماء» (٢). قال الياقوت: «الجبائي منسوب إلى «جبا» بضم الجيم و تشديد الباء: بلد أو كورة من خوزستان، و من الناس من جعل عبّادان من هذه الكورة و هي في طرف من البصرة و الأهواز، حتى جعل من لا خبرة له «جبياً» من أعمال البصرة و ليس الأمر كذلك - إلى أن قال -: «جبا» في الأصل عجمي و كان القياس أن ينسب إليها جبوي، فنسبوا إليها جبائي على غير قياس مثل نسبتهم إلى الممدود، و ليس في كلام العجم ممدود، و جبا أيضاً من أعمال النهروان» (٣). وقد أثنى عليه ابن المرتضى في «المنية والأمل» بما لا مزيد عليه فقال: «وهو الذي سهل علم الكلام و يسره و ذلله و كان مع ذلك فقيهاً ورعاً زاهداً جليلاً نبيلاً، ولم يتفق لأحد من إذعان سائر طبقات المعتزلة له بالتقدم و الرئاسة بعد أبي الهذيل مثله، بل ما اتفق له هو أشهر أمراً و أظهر أثراً، و كان شيخه أبا يعقوب الشحام، ولقى غيره من متكلمي زمانه و كان على حدائته سنّه معروفاً بقوة الجدل» (٤). مناظراته

١ - حضر من علماء المجبرة رجل يقال له صقر. فإذا غلام أبيض الوجه زجّ ١. فهرست ابن النديم الفن الأول من المقالة الخامسة ص ٢١٧ - ٢١٨. ٢. لاحظ الجزء الثاني من كتابنا هذا ص ١٨. ٣. معجم البلدان: ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ طبع التراث العربي. ٤. المنية والأمل: ص ٤٥.

(٢٥٧)

نفسه في صدر صقر و قال له: أسألك؟ فنظر إليه الحاضرون و تعجبوا من جرأته مع صغر سنّه. فقال له: سل، فقال: هل الله تعالى يفعل العدل؟ قال: نعم، قال: أفتسميه بفعله العدل عادلاً؟ قال: نعم، قال: فهل يفعل الجور؟ قال: نعم، قال: أفتسميه جائراً؟ قال: لا، قال: فيلزم أن لا- تسميه بفعله العدل عادلاً، فانقطع صقر، وجعل الناس يسألون من هذا الصبي؟ فقيل: هو غلام من جباء (١). يلاحظ على تلك المناظرة: أنه في وسع المجبر أن يقول: إن أسماءه سبحانه توقيفية ولا يصح لنا تسميته بما لا يسمى به نفسه. ٢- روى ابن المرتضى أن أبا علي ناظر بعضهم في الإرجاء و أبو حنيفة و الزبير حاضران، فقال أبو حنيفة: إن أبا عمرو بن العلاء لقي عمرو بن عبيد، فقال له: يا أبا عثمان إنك أعجمي و لست بأعجمي اللسان و لكنك أعجمي الفهم. إن العرب إذا وعدت أنجزت، وإذا أوعدت أخلفت و أنشد شعراً: إنني و إن أوعدته و وعدته * لمخلف إيعادي، و منجز موعدي فقال أبو علي: إن أبا عثمان أجابه بالمسكت و قال له: إن الشاعر قد يكذب و قد يصدق، ولكن حدثني عن قول الله عزّ و جلّ: (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود/١١٩، السجدة/١٣)

إن ملأها أتقول صدق؟ قال: نعم، وإن لم يملأها أفتقول صدق؟ فسكت أبو حنيفة. يلاحظ عليه: أنه سبحانه إنما يخلف بما أوعدته إذا عفا عن الكافر والمشرک والمسلم جميعاً، وأما إذا عفا عن المسلمين خاصة فلا يلزم الكذب، لأنه لا يستلزم خلف اليعاد الوارد في الآية المباركة، ولا يلزم خلؤ جهنم من الجنة والناس الذي أشار الله إليه بقوله: (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)، لأن من يجرى عليه العفو أقل ممن يكون محكوماً بدخول الجحيم، وليس القائل بالعفو يقول بأن العفو يعم كل _____ ١. المنية والأمل: ص ٤٦.

(٢٥٨)

كافر ومشرک ومسلم، وإنما يتحقق في إطار محدود ومضيق. كيف وقد وعد سبحانه على وجه الجزم والقطع بقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ) (النساء/٤٨) وليس المراد من الغفران هو المغفرة لأجل التوبة، لأن الغفران بعد التوبة يعم المشرک وغيره، وإنما المراد هو الغفران والمغفرة بلا توبة وإنابة، والمشرک والمنافق لا يعمهما العفو أبداً ويكفي ذلك في تحقق وعيد الرب وصدق إخباره (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ). وخلاصة القول: أن القائل بالعفو في مورد اليعاد يدعى قضيه جزئية لا قضيه كلية استيعابية، وللبحث صلة تمر عليك عند البحث عن أصول المعتزلة فارتقب. ثم إن في وسع أبي علي أن يقابل شعر المناظر بشعر شاعر آخر وينشد قوله: إن أبا ثابت لمجتمع الرأي * شريف الآباء والبيت لا يخلف الوعد والوعيد ولا * بيت من ثاره على فوت (١) تأليفاته

يظهر مما نقله ابن المرتضى أنه غزير الإنتاج. قال: قال أبو الحسين: «وكان أصحابنا يقولون: إنهم حرّروا ما أملاه أبو علي فوجدوه مائة ألف وخمسين ألف ورقة، قال: وما رأيته ينظر في كتاب إلا يوماً نظراً في زيغ الخوارزمي، ورأيت يوماً أخذ بيده جزءاً من الجامع الكبير لمحمد بن الحسن وكان يقول: إن الكلام أسهل شيء، لأن العقل يدلّ عليه» (٢). يلاحظ عليه: أن علم الكلام كما يستمد من العقل، يستمد من الكتاب والسنة الصحيحة خصوصاً فيما يرجع إلى ما بعد الموت، وأن الاستبداد بالعقل الشخصي من دون المراجعة لآراء من سبق من الأعاظم لا ينتج شيئاً ناضجاً. فكما أن التقاء الأسلاك _____ ١. المنية والأمل: ص ٤٨. ٢. نفس المصدر : ص ٤٧.

(٢٥٩)

الكهربائية يوجب تفجير النور والطاقة، فهكذا التقاء الأفكار والآراء يوجب اكتساح ظلمات الجهل عن أمام المفكر. ويظهر من ابن المرتضى في ترجمته الأصم أن لأبي علي تفسيراً، قال: «وكان أبو علي لا يذكر أحداً في تفسيره إلا الأصم» (١) ومن المحتمل أن يكون المقصود أنه لا يذكر من آراء الرجال في التفسير شيئاً إلا عن الأصم. ويظهر أيضاً منه - في ترجمته أبي محمد عبد الله بن العباس الرامهرمزي تلميذه - أن لأبي علي كتباً في الرد على أهل النجوم، ويذكر أن كثيراً منها يجري مجرى الأمارات التي يغلب الظن عندها (٢). كما يظهر منه - في ترجمته الخراسانيين الثلاثة الذين خرّجوا على أبي علي وأخذوا عنه - أن أبا علي أملى كتاب «اللطف» لأبي الفضل الخجندی، ثالث الخراسانيين (٣). ونقل ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» عن الشيخ الأشعري أن له كتاباً في الرد على كتاب «الأصول» لأستاذه أبي علي الجبائي (٤). إلى غير ذلك مما أهمل أرباب التراجم ذكره في ترجمته. لمحّة من أحواله روى ابن المرتضى وقال: قال أبو الحسن: «وكان من أحسن الناس وجهاً وتواضعاً - إلى أن قال - وكان إذا روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي والحسن والحسين وفاطمة: «أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم» يقول: العجب من هؤلاء النواب (٥) يروون هذا الحديث ثم يقولون بمعاوية» (٦). وروى عن علي - عليه السلام - أن رجلين أتياه فقالا: ائذن لنا أن نصير إلى معاوية _____ ١. المنية والأمل: ص ٣٣. ٢. نفس المصدر: ص ٥٨. ٣. نفس المصدر: ص ٦٥. ٤. تبيين كذب المفتري: ص ١٣٠. ٥. تطلق على الحشوية ومن لف لفهم. ٦. المنية والأمل: ص ٤٧.

(٢٦٠)

فستحلّه من دماء من قتلنا من أصحابه. فقال عليّ - عليه السلام -: «أما إن الله قد أحبط عملكما بئدما علي ما فعلتما» (١). قال أبو الحسن: «والرافضة لجهلهم بأبي عليّ و مذهبه يرمونه بالنصب و كيف وقد نقض كتاب عباد في تفضيل أبي بكر، ولم ينقض كتاب الاسكافي المسمّى «المعيار والموازنة في تفضيل عليّ على أبي بكر» (٢). إن العالم العابد رضى الدين بن طاووس (المتوفى سنة ٦٦٤) نقل كثيراً من آرائه في كتاب «سعد السعود» و نقضه، ولو صحت نسبة تلك الآراء إليه فهو مبغض للشيعة وقد أنكر كثيراً من الحقائق التاريخية فراجعته. ٥ - أبو هاشم الجبائي (ت ٢٧٧ - م ٣٢١)

عبدالسلام بن محمد بن عبد الوهاب بن أبي عليّ الجبائي، قال الخطيب: «شيخ المعتزلة و مصنف الكتب على مذاهبهم. سكن بغداد إلى حين وفاته» (٣). وقال ابن خلكان: «المتكلم المشهور، العالم بن العالم، كان هو وأبوه من كبار المعتزلة ولهما مقالات على مذهب الاعتزال، وكتب الكلام مشحونة بمذاهبهما واعتقادهما. و كان له ولد يسمّى أبا عليّ و كان عاقباً لا يعرف شيئاً. فدخل يوماً على صاحب بن عباد فظنّه عالماً فأكرمه ورفع مرتبته. ثم سأل عن مسألة، فقال: «لا أعرف نصف العلم»، فقال له صاحب: «صدقت يا ولدي، إلا أن أباك تقدّم بالنصف الآخر» (٤). وقد حكى الخطيب عنه تاريخ ولادته، أنّه قال: «ولدت سنة سبع و سبعين ومائتين و ولد أبي أبو عليّ سنة خمس و ثلاثين و مائتين و مات في شعبان سنة ثلاث _____ ١ . المنية والأمل: ص ٤٧. ٢ . المنية والأمل: ص ٤٧. ٣ . تاريخ بغداد: ج ١١، ص ٥٥. ٤ . وفيات الأعيان: ج ٣، ص ١٨٣.

(٢٤١)

و ثلاثمائة. قال أبو الحسن: ومات أبو هاشم في رجب سنة إحدى و عشرين و ثلاثمائة ببغداد و توليت دفنه في مقابر باب البستان من الجانب الشرقي، وقد توفى في اليوم الذي توفى أبو بكر بن دريد. وعن الحسن بن سهل القاضي: بينا نحن ندفن أبا هاشم إذ حملت جنازة أخرى ومعها جميعه عرفتهم بالأدب. فقلت لهم: جنازة من هذه؟ فقالوا: جنازة أبي بكر ابن دريد، فذكرت حديث الرشيد لما دفن محمد بن الحسن و الكسائي بالرى في يوم واحد. قال: و كان هذا في سنة ثلاث و عشرين و ثلاثمائة، فأخبرت أصحابنا بالخبر، و بكينا على الكلام والعريّة طويلاً. ثم افترقنا. وعلّق عليه الخطيب: «الصحيح أن أبا هاشم مات في ليلة السبت الثالث والعشرين من رجب سنة إحدى و عشرين، قال: و كان عمره ستاً و أربعين سنة وثمانية أشهر و إحدى و عشرين يوماً» (١). وقال القاضي نقلاً عن أبي الحسن بن فرزويه أنّه بلغ من العلم ما لم يبلغه رؤساء علم الكلام. و ذكر أنّه كان من حرصه يسأل أبا عليّ (والده) حتّى يتأذى منه، فسمعت أبا عليّ في بعض الأوقات يسير معه لحاجة وهو يقول لا تؤذنا و يزيد فوق هذا الكلام. و كان يسأله طول نهاره ما قدر على ذلك، فإذا جاء الليل سبق إلى موضع مبيته لئلا يغلق أبو عليّ دونه الباب، فيستلقى أبو عليّ على سريره، ويقف أبو هاشم بين يديه قائماً يسأله حتّى يضجره، فيحوّل وجهه عنه، فيتحوّل إلى وجهه، ولا يزال كذلك حتّى ينام، و ربّما سبق أبو عليّ فأغلق الباب دونه. قال: و من هذا حرصه على ما اختصّ به من الذكاء، لم يتعجب من تقدمه (٢). كان أبو هاشم أحسن الناس أخلاقاً و أطلقهم وجهاً، واستنكر بعض الناس خلافه مع أبيه (في المسائل الكلامية) وليس خلاف التابع للمتبع في دقيق الفروع بمستنكر، فقد خالف أصحاب أبي حنيفة إياه. وقال أبو الحسن بن فرزويه في ذلك _____ ١ . تاريخ بغداد: ج ١١، ص ٥٦. ٢ . طبقات المعتزلة للقاضي: ص ٣٠٤.

(٢٤٢)

شعراً وهو قوله: يقولون بين أبي هاشم * وبين أبيه خلاف كبير فقلت وهل ذاك من ضائر * وهل كان ذلك ممّا يضير فخلوا عن الشيخ لا- تعرضوا * لبحر تضايق عنه البحور فان أبا هاشم تلوه * إلى حيث دار أبوه يدور ولكن جرى في لطيف الكلام (١) * كلام خفي وعلم غزير فإياك إياك من مظلم * ولا تعد عن واضح مستنير (٢) تأليفاته

ذكر ابن النديم لأبي هاشم كتباً، وقال: «أبو هاشم عبدالسلام بن محمد الجبائي، قدم مدينة السّلام سنة ٣١٤ و كان ذكياً حسن الفهم، ثابت الفطنة، صانعاً للكلام، مقتدرراً عليه، قيماً به، وتوفى سنة ٣٢١ وله من الكتب: ١ - الجامع الكبير، ٢ - كتاب الأبواب الكبير، ٣ -

كتاب الأبواب الصغير، ٤ - الجامع الصغير، ٥ - كتاب الإنسان، ٦ - كتاب العوض، ٧ - كتاب المسائل العسكرية، ٨ - النقض على أرسطو طاليس في الكون والفساد، ٩ - كتاب الطبايع والنقض على القائلين بها، ١٠ - كتاب الاجتهاد كلام (٣). انتشار مذهبه يظهر من البغدادي أن مذهبه كان منتشرًا في أوائل القرن الخامس في بغداد وقد سُمي أتباعه بالبهبهشمية وقال: هؤلاء أتباع أبي هاشم الجبائي، وأكثر معتزلة عصرنا على _____ ١. المراد من لطيف الكلام، المباحث التي لها صلة لاثبات بعض العقائد الإسلامية وليست منها، كالمبحث عن الجوهر والعرض والأ-كوان والأفلا-ك وفي الحقيقة كان البحث عنها تبعاً للفلاسفة. ٢. طبقات المعتزلة للقاضي: ص ٣٠٥. ٣. فهرست ابن النديم: الفن الأول من المقالة الخامسة ص ٢٢٢.

(٢٦٣)

مذهبه، لدعوة ابن عباد وزير آل بويه إليه (١). تلاميذه

قد ذكر ابن المرتضى أبا هاشم في الطبقة التاسعة، وذكر تلاميذه في الطبقة العاشرة، وقال: «اعلم أن هذه الطبقة تشتمل على من أخذ عن أبي هاشم وعمّن هو في طبقة مع اختلاف درجاتهم وتفاوت أحوالهم وقدّمنا أصحاب أبي هاشم لكثرتهم وبراعتهم». ثم ذكر أسماء تلاميذه، فمن أراد فليرجع إليه. ٧ - قاضي القضاء عبد الجبار (ت نحو ٣٢٤ - م ٤١٥ أو ٤١٦) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسدي، الملقب بقاضي القضاء ولا يطلق ذلك اللقب على غيره. قال الخطيب: «كان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع ومذاهب المعتزلة في الأصول، وله في ذلك مصنفات وولى قضاء القضاء بالري وورد بغداد حاجاً وحدثها. وقال: مات عبد الجبار بن أحمد قبل دخولي الري في رحلتى إلى خراسان وذلك في سنة ٤١٥» (٢). وترجمه الحاكم الجشمي (المتوفى عام ٤٩٤ هـ) في كتاب «شرح عيون المسائل» وعده من الطبقة الحادية عشرة من طبقات المعتزلة وقال: «يعدّ من معتزلة، البصرة من أصحاب أبي هاشم لنصرته مذهبه». قرأ على أبي إسحاق بن عياش أولاً، ثم على الشيخ أبي عبد الله البصري (٣). _____ ١. تاريخ بغداد: ج ١١، ص ١١٣. ٢. المصدر نفسه. ٣. كلاهما من الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة.

(٢٦٤)

وليست تحضرني عبارة تنبئ عن محله في الفضل وعلو منزلته في العلم، فإنه الذي فتق الكلام ونشره ووضع فيه الكتب الجليله التي سارت بها الركبان وبلغ المشرق والمغرب، وضمّنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد قبله، وطال عمره مواظباً على التدريس والاملاء حتى طبّق الأرض بكتبه وأصحابه. وبُعِدَ صوته وعظم قدره وإليه انتهت الرئاسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافع، وصار الاعتماد على كتبه ومسانله حتى نسخ كتب من تقدّم من المشايخ وقرب عهده، وشهرة حاله تغنى عن الاطّاب من وصفه. وفيه يقول أبو الأسعد الآبي في قصيدة له في التوحيد والعدل: ويعدّ من مشايخ أهل العدل. أم لكم مثل إمام الأئمة * قاضي القضاء سيّد الأئمة من بثّ دين الله في الآفاق * وبثّ حبل الكفر والنفاق وأصله من أسدآباد همدان، ثم خرج إلى البصرة واختلف إلى مجالس العلماء وكان يذهب في الأصول مذهب الأشعرية وفي الفروع مذهب الشافعي، ولما حضر المجالس وناظر ونظر عرف الحق، وانقاد وانتقل إلى أبي إسحاق بن عياش فقرأ عليه مدّة ثم رحل إلى بغداد وأقام عند الشيخ أبي عبد الله مدّة مديدة حتى فاق الأقران وخرج واحد دهره وفريد زمانه، وصنّف وهو بحضرته كتباً كثيرة وكان ربّما يدرس بها وبالعسكر (١) ورامهرمز (٢). وابتدأ بها إملاء «المغنى» في مسجد عبد الله بن عباس متبركاً به. فلما قدم الريّ سأله أن يجعله باسم بعض الكبار فأبى واستدعاه الصاحب إلى الريّ بعد سنة ستين وثلاثمائة فبقي بها مواظباً على التدريس إلى أن توفى سنة ٤١٥ أو ٤١٦ فكان يدرس ويملى وكثر الانتفاع به وطار ذكره في الآفاق. _____ ١. عسكر مكرم بلد مشهور من نواحي خوزستان. ٢. مدينه من بلاد خوزستان.

(٢٦٥)

وروي أنه كان في التفضيل بمذهب الشيخين (١) في التوقف، ثم رجع في آخر عمره إلى تفضيل أمير المؤمنين - عليه السلام - وهو المذكور في كتبه. وكان الصاحب يقول فيه مرّة: هو أفضل أهل الأرض، وأخرى: هو أعلم أهل الأرض (٢). اسلوبه في الكتابة

يظهر من ترجمته حياته أن كتابه الكبير «المغنى» الذي يقع في عشرين جزءاً ممّا أملاه على تلاميذه ولم يكتبه بيانه. يقول الحاكم: كان - رحمه الله - يختصر في الاملاء و يبسط في الدرس على ضد ما كان يفعله الشيخ أبو عبدالله (٣) فكان من حسن طريقته ترك الناس كتب من تقدم. ولما فرغ من كتاب «المغنى» بعث به إلى (الصاحب) فكتب (الصاحب) إليه كتاباً بهذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم أتم الله على قاضى القضاء نعمته، وأجزل لديه منته، لقد أتم من كتاب «المغنى» ذخيرة للموحد، وشجى للملحد، وعتاداً للحق، وسداداً للباطل، وإنه كتاب تفخر به شرعتنا على الشرع، ونحلتنا على النحل، وأمّتنا على الأمم و ملّتنا على الملل، وفقه الله له حين نامت الخواطر و كلت الأوهام و ظنّ الظانّون بالله أن العلم قد قبض ونخاعه قد ضعف، وأن شيوخه الأعلون (كذا) قد شالت نعماتهم و خفت بضاعتهم، ووهن كاهلهم، ودرج أفاضلهم، ولم يدروا أن في سرّ الغيب إن كان آخرّاً بالاضافة إليهم، إنّه الأول بالامامة عليهم، كذلك يفعل الله ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. فليقرّ قاضى القضاء - أدام الله تمكينه - عيناً بما قدّم لنفسه و آخر و اكتسب لغده و ذخر، _____ ١. هما الجبائيان أبو على و أبو هاشم. ٢. مقدّمه فضل الاعتزال و طبقات المعتزلة: ص ١٣١. ٣. هو الشيخ أبو عبدالله الحسين بن على البصرى من الطبقة العاشرة.

(٢٦٦)

وليرين في ميزانه - إن شاء الله - من ثواب ما دأب فيه و احتسب و سهر ليله و انتصب، صابراً على كدّ الخواطر و معانياً برد الأصايل إلى حرّ الهواجر، أثقل من أحد و أرزن، وأوفى من الرمل و أوزن (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) و ورد محمّد ولدنا بالنباء العظيم و الصّراط المستقيم من الجزء الأخير من كتاب «المغنى» فقلت يا بشرى، هذا زاد المسافر، و كفاية الحاضر و تحفة المرتاد و طففت أنشئ و أقول: ولو أنشر الشيخان عمرو و واصل * لقالا جوزيت الخير عنّا و أنعمنا فأتم على قاضى القضاء نعمه، كما أورد علينا ديمه و السلام (١). ثم إن الحاكم بسط الكلام في أسماء تأليفه، و قال: «إن له ٤٠٠ ألف ورقة ممّا صنّف في كل فنّ و كان موقفاً في التصنيف و التدريس، و كتبه تتنوع أنواعاً فله كتب في الكلام لم يسبق إلى تصنيف مثلها في ذلك الباب. ثم سرد أسماء كتبه البالغة إلى ثلاثة و أربعين، نأتى بها ملخصاً: ١ - الدواعى و الصوراف، ٢ - الخلاف و الوفاق، ٣ - الخاطر، ٤ - الاعتماد، ٥ - المنع و التمانع، ٦ - كتاب ما يجوز فيه التزايد و ما لا يجوز، ٧ - المغنى، ٨ - الفعل و الفاعل، ٩ - المبسوط، ١٠ - المحيط، ١١ - الحكمة و الحكيم، ١٢ - شرح الأصول الخمسة، ١٣ - شرح الجامعين، ١٤ - شرح الأصول، ١٥ - شرح المقالات، ١٦ - شرح الأعراض و هذا كله في الكلام. ومنها في أصول الفقه:

١٧ - النهاية، ١٨ - العمدة، ١٩ - شرحها. وهناك كتب في التّقص على المخالفين: ٢٠ - نقض اللمع، ٢١ - نقض الامامة. وهناك جوابات مسائل وردت عليه من الآفاق: ٢٢ - الرازيات، ٢٣ - العسكريات، ٢٤ - القاشانيات، ٢٥ - الخوارزميات، ٢٦ - النيسابوريات. _____ ١. الطبقتان ١١ و ١٢ من كتاب شرح العيون ص ٣٦٩ - ٣٧١ للحاكم الجشمى.

(٢٦٧) وهناك كتب في الخلاف و المواعظ:

٢٧ - الخلاف بين الشيخين، ٢٨ - نصيحة المتفقّهة. وله كتب تكلم فيها على أهل الأهواء الخارجين عن الإسلام و غيرهم أوضح فيها الحق: ٢٩ - شرح الآراء. وله كتب في علوم القرآن: ٣٠ - المحيط، ٣١ - الأدلة، ٣٢ - التنزيه، ٣٣ - المتشابه، ٣٤ - شهادات القرآن. ثم قال الحاكم: «له كتب في كل فنّ بلغنى اسمه أو لم يبلغ، أحسن فيها غاية الاحسان، نحو كتابه: ٣٥ - التجريد، ٣٦ - المكيات، ٣٧ - الكوفيات، ٣٨ - الجمل، ٣٩ - اليهود، ٤٠ - المقدمات، ٤١ - الجدل، ٤٢ - الحدود، إلى غير ذلك مما يكثّر تعداده، و ذكر جميع مصنفاته يتعدّر (١). و من حسن حظّ القاضى دون سائر المعتزلة أنّه قد طبعت كمّيّة هائلة من كتبه في الآونة الأخيرة، و هذه الكتب رفعت الستار عن وجه عقائد المعتزلة و أغنتنا عن الرجوع إلى كتب خصومهم، فنذكر ما طبع: ١ - «تنزيه القرآن عن المطاعن»: طبع في بيروت طبع دار النهضة الحديثة. واسمه يحكى عن محتواه و يجيب فيه عن كثير من الأسئلة التي تدور حول الآيات. قال في ديباجته: «فقد أملينا كتاباً يفصل بين المحكم و المتشابه. عرضنا فيه سور القرآن على ترتيبها و بينا معانى ما تشابه من آياتها، مع بيان وجه خطأ

فريق من الناس في تأويلها، ليكون النفع به أعظم». ————— ١ . الطبقتان ١١ و ١٢ من شرح العيون ص ٢٦٧ - ٢٦٩. للحاكم الجشمي تحقيق فؤاد سيد. ط تونس. (٢٦٨)

وطبع أيضاً في القاهرة سنة ١٣٢٦. ٢ - «طبقات المعتزلة»: وهو أساس «طبقات المعتزلة» لابن المرتضى. نشره فؤاد سيد، و أسماه «فضل الاعتزال و طبقات المعتزلة» مع كتاب «ذكر المعتزلة» للكعبي و«الطبقات الحادية عشرة و الثانية عشرة من شرح العيون» للحاكم الجشمي طبع سنة ١٤٠٦. ٣ - «شرح الأصول الخمسة»: نشره عبدالكريم عثمان في القاهرة سنة ١٩٦ م ١٣٨٤ هـ وهو كتاب مختصر جامع يعرض عقائد المعتزلة عامية و عقيدة القاضي خاصية، وهو أحسن كتاب لمن أراد أن يطلع على عقائدهم، وقد أملاه على تلاميذه. ٤ - «المغني»: وهو من الكتب المبسوطة في عقائد المعتزلة. اكتشفتها البعثة المصرية في اليمن عام ١٩٥٢ وقد عثر منه حتى الآن على ١٤ جزءاً. والكتاب يقع في عشرين جزءاً و إليك الأجزاء المطبوعة ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ٢٠ والجزء الأخير يختص بالإمامة وهو الذي نقضه السيد المرتضى و أسماه «الشافى» وطبع في مجلد كبير، ولخصه الشيخ الطوسي و أسماه «تلخيص الشافى» وطبع في جزأين. ٥ - «المحيط بالتكليف»: تحقيق السيد عزمي، طبع الدار المصرية للتأليف، جمعه الحسن بن أحمد بن متويه (ت ٦٨٣). لاحظ مقدمه المحقق. ٦ - «متشابه القرآن»: تحقيق عدنان محمّد زر زور، طبع دار التراث في القاهرة في جزأين. تلاميذه

وقد فصل الكلام ابن المرتضى في تلاميذه وجعلهم من الطبقة ١٢ و أسماهم واحداً بعد آخر، منهم أبو رشيد سعيد بن محمّد النيسابوري والشريف المرتضى (٢٦٩)

أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي. أخذ عن قاضي القضاة عند انصرافه من الحج، إلى غير ذلك من تلاميذه (١). وقال الرضى في «شرح المجازات النبوية» عند البحث عن حديث الرؤية: «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر» قال: «ومما علّفته عن قاضي القضاة أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد عند بلوغى في القراءة عليه إلى الكلام في الرؤية أنّ من شروط قبول خبر الواحد أن يكون راويه عدلاً، وراوى هذا الخبر: قيس بن أبي حازم عن جرير ابن عبدالله الجلى، وكان منحرفاً عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ويقال إنّه كان من الخوارج، وذلك يقدح في عدالته و يوجب تهمته في روايته، وأيضاً فقد كان رمى في عقله قبل موته وكان مع ذلك يكثر الرواية، فلا يعلم هل روى هذا الخبر في الحال التي كان فيها سالم التمييز أو في الحال التي كان فيها فاسد المعقول، وكل ذلك يمنع من قبول خبره، وبوجب إطراره. ثم قال: وأقول أنا: ومن شرط قبول خبر الواحد أيضاً مع ما ذكره قاضي القضاة من اعتبار كون راويه عدلاً، أن يعرى الخبر المروى من نكير السلف، وقد نقل نكير جماعة من السلف على راوى هذا الخبر. منهم العرباض بن سارية السلمى وهو من مختصي الصحابة، روى عنه أنه قال: من قال: إن محمداً رأى ربه فقد كذب. وروى أيضاً عن بعض أزواج النبي - عليه الصلاة والسلام - أنها قالت: من زعم أنّ محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله. وقالت ذلك عند ذهاب بعض الناس إلى أن قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) إنّما أريد بها رؤية الله سبحانه لا رؤية جبرائيل كما يقوله أهل العدل. وأيضاً ففي هذا الخبر كاف التشبيه، لأنه قال: «ترونه كما ترون القمر» الذى هو في جهة مخصوصة وعلى صفة معلومة. وإذا كان الأمر كما قلنا لم يكن للخبر ظاهر واحتجنا إلى تأويله كما احتجنا إلى ذلك في غيره» (٢). ————— ١ . المنية والأمل: ص ٦٩ - ٧١. ٢ .

المجازات النبوية تحقيق طه محمد ص ٤٨ - ٤٩.

(٢٧٠)

وقال أيضاً في تفسير قوله صلى الله عليه وآله وسلم «قيدوا العلم بالكتاب»: «وذكر لى قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد عند قراءة عليه ما قرأته من كتابه الموسوم بالعمد في أصول الفقه: إنّ هذه العلوم المخصوصة (العلوم العقلية العملية كالتحسين والتقيح العقلين) إنّما سميت عقلاً، لأنها تعقل من فعل المقبّحات، لأن العلم بها إذا دعت نفسه إلى ارتكاب شيء من المقبّحات، منعه

علمه بقبحه من ارتكابه والاقدام على طرق بابه، تشبيهاً بعقال الناقه المانع لها من الشroud، والحائل بينها وبين النهوض. ولهذا المعنى لم يوصف القديم تعالى بأنه عاقل، لأن هذه العلوم غير حاصله له، إذ هو عالم بالمعلومات كلها لذاته. قال: وقيل أيضاً إنما سميت هذه العلوم المخصوصة عقلاً، لأن ما سواها من العلوم يثبت بثباتها و يستقر باستقرارها تشبيهاً بعقال الناقه الذي به تثبت في مكانها، ولمثل ذلك قيل معقل الجبل للمكان الذي يلجأ إليه و يعتصم به، وله سميت المرأة عقيله، وهى التى يمنعها شرف بيتها و كرم أهلها وقوة حزمها من الإقدام على ما يشينها، والتعرض لما يعيبها. والكلام فى تفصيل هذه العلوم وبيان ما لأجله احتيج إلى كل واحد منها يطول وليس هذا الكتاب من مظان ذكره و مواضع شرحه»(١). _____ ١. المجازات النبوية للشريف الرضى تحقيق طه محمد طه ص ١٨٠ - ١٨١.

الفصل الخامس

الفصل الخامس أعلام المعتزلة

قد تعرفت على أئمة المعتزلة الذين رسموا معالم المذهب. وهناك شخصيات لامعة شاركوا الأئمة فى نضج المذهب و نشره، ولكنهم دون الأئمة فى العلم والتفكير. ولأجل إيقاف القارئ على حياتهم و آرائهم و آثارهم نورد ترجمة قسم قليل منهم: ١ - أبوسهل بشر بن المعتمر (م ٢١٠) مؤسس مدرسة اعتزال بغداد

قال الشريف المرتضى: «هو من وجوه أهل الكلام ويقال: إن جميع المعتزلة بعده من مستحبيه. وقال أبو القاسم البلخى: إنه من أهل بغداد وقيل من أهل الكوفة...وله أشعار كثيرة يحتج فيها على أهل المقالات»(١). وقال القاضى: «إنه زعيم البغداديين من المعتزلة وله قصيدة طويلة يقال إنها أربعون ألف بيت، رد فيها على جميع المخالفين، ويقال إن الرشيد حبسه حين قيل له: إنه رافضى. فقال فى السجن أبياتاً بعثها إليه فأفرج عنه»(٢). توفى عام ٢١٠ كما أرخه الذهبى فى «لسان الميزان». _____ ١. أمالى المرتضى: ج ١، ص ١٨٦ - ١٨٧. ٢. فضل الاعتزال للقاضى: ص ٢٦٥.

(٢٧٢) ٢- معمر بن عباد السلمى (م ٢١٥) خريج مدرسة البصرة

يكنى أبا عمرو وكان عالماً عدلاً و تفرد بمذاهب و كان بشر بن المعتمر وهشام بن عمرو وأبو الحسين المدائنى من تلامذته. قال القاضى عبدالجبار: «لما منع الرشيد من الجدل فى الدين و حبس أهل علم الكلام، كتب إليه ملك السند: إنك رئيس قوم لا ينصفون و يقلدون الرجال و يغلبون بالسيف، فإن كنت على ثقة من دينك فوجه إلى من أناظره، فإن كان الحق معك تبعنك، وإن كان معى تبعتنى. فوجه إليه قاضياً، و كان عند الملك رجل من السمنية وهو الذى حمله على هذه المكاتبه، فلما وصل القاضى إليه أكرمه ورفع مجلسه، فسأله السمنى فقال: أخبرنى عن معبودك هل هو القادر؟ قال: نعم، قال: أفهو قادر على أن يخلق مثله؟ فقال القاضى: هذه المسألة من علم الكلام وهو بدعه، وأصحابنا ينكرونه. ففعال السمنى: من أصحابك؟ فقال: فلان وفلان وعد جماعة من الفقهاء، فقال السمنى للملك: قد كنت أعلمتك دينهم وأخبرتكم بجهلهم و تقليدهم و غلبتهم بالسيف، قال: فأمر ذلك الملك القاضى بالانصراف، و كتب معه إلى الرشيد: إنى كنت بدأتك بالكتاب وأنا على غير يقين مما حكى لى عنكم، فالآن قد تيقنت ذلك بحضور هذا القاضى - وحكى له فى الكتاب ما جرى. فلما ورد الكتاب على الرشيد قامت قيامته، وضاق صدره، وقال: أليس لهذا الدين من يناضل عنه؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، هم الذين نهيتهم عن الجدل فى الدين و جماعة منهم فى الحبس. فقال: أحضروهم، فلما حضروا قال: ما تقولون فى هذه المسألة؟ فقال صبي من بينهم: هذا السؤال محال، لأن المخلوق لا يكون إلا محدثاً، والمحدث لا يكون مثل القديم، فقد استحال أن يقال: يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر، كما استحال أن يقال: يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلاً، فقال الرشيد: وجهوا بهذا الصبى إلى السند حتى يناظرهم. فقالوا: إنه لا- يؤمن أن يسأله عن غير هذا، فيجب أن توجه من يفى بالمناظرة فى كل العلم. قال الرشيد: فمن لهم؟ فوق اختيارهم على (٢٧٣)

معمراً، فلما قرب من السند بلغ خبره ملك السند فخاف السمنى أن يفتضح على يديه وقد كان عرفه من قبل، فدرس من سمّه في الطريق فقتله» (١). أقول: ما أجاب به الصّبي صحيح، غير أن العبارة غير وافية، والمقصود: ما سألته (خلق المثل) محال لا نفس السؤال محال. قال صاحب كتاب «المعتزلة»: «فلئن صحّت هذه القصة فإنها تعنى أن الرشيد لم يجد في مملكته الواسعة من يدافع عن الإسلام غير المعتزلة. والواقع أن المعتزلة تحمّسوا لهذه القضية كثيراً، فلم يكتفوا بالردّ على المخالفين وتقطيعهم بل تعدّوا ذلك إلى التبشير بالدين الإسلامي و حمل الناس على اعتناقه فكانوا لا ينفكّون يرسلون وفودهم لهذا الغرض إلى البلاد التي يكثر فيها المجوس أو غيرهم من الوثنيين» (٢). ويقول صفوان الأنصاري شاعر المعتزلة في مدح واصل وصحبه ما يظهر حقيقة الجهود التي بذلها في سبيل الدفاع عن حوزة الدين و التبشير به: رجال دعاة لا يقلّ عزيمتهم * تحكّم جبار ولا كيد ساحر إذا قال مرّوا في الشتاء تطاوعوا * وإن كان صيفاً لم يخف شهر ناجر (٣) ٣- ثمامة بن الأشرس النميري (م ٢١٣) خرّيج مدرسة بغداد

قال ابن النديم: «نبيه من جلسه المتكلمين المعتزلة، كاتب بليغ، بلغ من المأمون منزلة جليلاً وأراده على الوزارة فامتنع» (٤).
 ١. ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل، ص ٣١ و ٣٢. ٢. المعتزلة: ص ٤٤. ٣. البيان والتبيين: ج ١، ص ٣٧، نقلاً عن «المعتزلة» ص ٤٥. والناجر: أشد أشهر الصيف حرّاً. ٤. الفهرست لابن النديم، الفن الاول من المقالة الخامسة: ص ٢٠٧.
 (٢٧٤)

قال البغدادي: «كان زعيم القدرية في زمن المأمون والمعتمد والواثق، وقيل: إنه هو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال» (١). وقال ابن المرتضى: «ثمامة ابن الأشرس، يكنى أبا معن التميمي وكان واحد دهره في العلم والأدب، وكان جدلاً حاذقاً. قال أبو القاسم: قال ثمامة يوماً للمأمون: أنا أبين لك القدر بحرفين و أزيد حرفاً للضعيف. قال: ومن الضعيف؟ قال: يحيى بن أكثم، قال: هات، قال: لا تخلو أفعال العباد من ثلاثة أوجه: إمّا كلّها من الله ولا فعل لهم، لم يستحقّوا ثواباً ولا عقاباً ولا مدحاً ولا ذمّاً. أو تكون منهم ومن الله، وجب المدح والذمّ لهم جميعاً أو منهم فقط، كان لهم الثواب والعقاب والمدح والذمّ. قال: صدقت (٢). أقول: ذهب عليه أن استناد الفعل إلى الله و العبد إنّما يقتضى الاشراك في الثواب والعقاب أو المدح والذمّ إذا كانا فاعلين بالسوية في جميع المراحل، حتّى في مرحلة الجزء الأخير من العلة التامة للفعل كما إذا اشترك الفاعلان معاً في إنقاذ غريق أو قتل إنسان، وأمّا إذا كان أحدهما هو الجزء المؤثر دون الآخر فيكون هو المسؤول، وعليه الثواب والعقاب، وهذا هو الأمر بين الأمرين، والعبد غير مجبور ولا موقّض، والتفصيل في محله. روى المرتضى أنّه سأل مجبر بشر بن المعتمر وقال له: «أنتم تحمدون الله على إيمانكم؟ قال: نعم، فقال له: فكأنه (الله) يحبّ أن يحمّد على ما لم يفعل وقد ذمّ ذلك في كتابه. فقال له: إنّما ذمّ من أحبّ أن يحمّد على ما لم يفعل ممّن لم يعن عليه، ولم يدع إليه. وهو يشغب إذ أقبل ثمامة بن أشرس، فقال بشر للمجبر: قد سألت القوم وأجابوك، وهذا أبو معن فأسأله عن المسألة، فقال له: هل يجب عليك أن تحمد الله على الإيمان؟ فقال: لا، بل هو يحمّدني عليه، لأنّه أمرني به ففعلته، وأنا أحمده على الأمر به، والتقوية
 ١. الفرق بين الفرق: ص ١٧٢. ٢. المنية والأمل: ص ٣٥.

(٢٧٥)

عليه، والدعاء إليه، فانقطع المجبر، فقال بشر: شئت فسئلت» (١). وقال يوماً للمأمون: «إذا وقف العبد بين يدي الله تعالى يوم القيامة فقال الله تعالى: ما حملك على معصيتي؟ فيقول على مذهب الجبر: يا رب أنت خلقتني كافراً وأمرتني بما لم أقدر عليه، وحلت بيني وبين ما أمرتني به ونهيتني عمّا قضيت عليّ وحملتني عليه أليس هو بصادق؟ قال: بلى، قال: فإن الله تعالى يقول: (يوم ينفع الصادقين صدقهم) أفينفعه هذا الصّدق؟ فقال بعض الهاشميين: ومن يدعه يقول هذا أو يحتجّ (به). فقال ثمامة: أليس إذا منعه الكلام والحجّة يعلم أنّه قد منعه من إبانة عذره، وأنّه لو تركه لأبان عذره؟ فانقطع» (٢). وقد ترجم له الخطيب في تاريخه، ومن ظريف ما نقل عنه أنّه قال: شهدت رجلاً يوماً من الأيام وقد قدّم خصماً إلى بعض الولاة فقال: أصلحك الله ناصبي رافضي جهميّ مشبه مجبر قدرى يشتم الحجاج بن الزبير الذي هدم الكعبة على عليّ بن أبي سفيان و يلعن معاوية بن أبي طالب. فقال له الوالي: ما أدري ممّا أتعجب؟ من

علمك بالأنساب أو من معرفتك بالمقالات؟ فقال: أصلحك الله ما خرجت من الكتاب حتى تعلمت هذا كله» (٣). وقال الذهبي: «من كبار المعتزلة ومن رؤوس الضلالة، كان له اتصال بالرشيد، ثم بالمأمون وكان ذا نوادر وملح» (٤). ومن أراد الوقوف على نوادره فعليه الرجوع إلى «المنية والأمل» و «فضل الاعتزال» وقد اتفقا على أن وجه اتصاله بالخلفاء صار سبباً لوجود بعض الهزل في كلامه وقد اتخذ طريقاً إلى ميلهم إليه ليتوصل به إلى المعونة في الدين. ————— ١. أمالي المرتضى: ج ١، ص ١٨٦. فضل الاعتزال: ص ٢٧٣ وفي المصدر الأخير: «سهلت بعد ما صعبت». ٢. فضل الاعتزال: ص ٢٧٣. المنية والأمل: ص ٣٥ و ٣٦. ٣. تاريخ بغداد: ج ٧، ص ١٤٦. ٤. ميزان الاعتدال: ج ١، ص ٣٧١.

(٢٧٦) ٤- أبو بكر عبدالرحمن بن كيسان الأصم (م قريباً من ٢٢٥) خزيج مدرسه البصرة قال القاضي: «كان من أفصح الناس و أفقههم و أورعهم. لكنّه ينفي الأعراض وله تفسير عجيب، وكان جليل القدر يكاتبه السلطان، وعنه أخذ ابن عليّ (١) العلم، والذي نقم عليه أصحابنا بعد نفي الأعراض، ازوراره عن عليّ - عليه السلام - وكان أصحابنا يقولون: بلى بمنظرة هشام بن الحكم فيعلوه هذا ويعلوه (٢) ذا». ٥- أبو موسى عيسى بن صبيح المراد (م ٢٢٦). قال القاضي: «كان متكلماً عالمًا زاهداً وكان يسمّى راهب المعتزلة لعبادته، ويقال: إن أبا الهذيل حضر مجلسه و سمع قصصه بالعدل وحسن بيانه على الله تعالى و عدله و تفضّله، فقال: هكذا شهدت أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء، و أبي عثمان عمرو، وله كتب في الجليّ من الكلام و لما حضرته الوفاة ذكر أنّ ما كان في يديه من المال شبهة لم يدر ما حكمها، فأخرجها إلى المساكين تحرّزاً و إشفاقاً، وقيل فيه شعر: لكنّ من جمع المحاسن كلّها * كهلّ يقال لشيخه المراد (٣) تلاميذه

ذكر القاضي أنّ من تلاميذه الجعفرين و المراد: جعفر بن حرب و جعفر بن مبشر و ذكر ترجمتهما في الطبقة السابعة. تأثير كلامه إن جعفر بن حرب كان من الجند وكان في جنديته (ن خ حدثه) يمرّ على ————— ١. إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي، توفي ١٩٣ أو ١٩٤. ٢. فضل الاعتزال: ص ٢٦٧. ٣. المصدر نفسه: ص ٢٧٧ و ٢٧٨. (٢٧٧)

أصحاب أبي موسى و يعث بهم ويؤذيمهم، فشكوا إلى أبي موسى فقال: تعهدوا إلى أن يصير إلى مجلسي، فلما صار إلى مجلسه وسمع كلامه و وعظه مرّ (ظ خرج) حتى دخل الماء عارياً من ثيابه، وبعث إلى أبي موسى أن يبعث له ثياباً ليلبسها ففعل، ثمّ لزمه فخرج في العلم ما عرف به. وكان أبو الوليد بشر بن وليد بن خالد الكندي قاضياً على مدينة للخليفة المأمون، وكان شديد القسوة على أبي موسى وأصحابه، فدخل إبراهيم بن أبي محمّد الزيدي وهو رضيع المأمون عليه فأنشد هذه الأبيات: يا أيها الملك الموحد ربّه * قاضيك بشر بن الوليد (١) حمار ينفي شهادة من يبيّ بما به * نطق الكتاب وجاءت الآثار فالنفي للتشبيه عن ربّ العلا * سبحانه و تقدّس الجبار و يعدّ عدلاً من يدين بأنّه * شيخ تحيط بجسمه الأقطار إن المشبه كافر في دينه * والدائون بدينه كفار فاعزله واختر للرعية قاضياً * فلعلّ من يرضى و من يختار عند المريسي (٢) اليقين برّبّه * لو لم يشب توحيد اجبار والدين بالارحاء مبني أصله * جهل وليس له به استبشار لكن من جمع المحاسن كلّها * كهلّ يقال لشيخه المزدار (٣) ٦- أبو جعفر محمّد بن عبدالله الاسكافي (م ٢٤٠)

قال الخطيب: «محمد بن عبدالله أبو جعفر المعروف بالاسكافي أحد المتكلمين من ————— ١. هو أبو الوليد، بشر بن الوليد بن خالد الكندي قاضي مدينة منصور كما عرفت. توفي سنة ٢٣٨. لاحظ تاريخ بغداد: ج ٧، ص ٨٠. ٢. هو بشر بن غياث المريسي العدوي، كان يسكن بغداد وأخذ الفقه عن أبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة وكان الشافعي من أصدقائه مدّة اقامته ببغداد. توفي سنة ٢١٩، لاحظ تاريخ بغداد: ج ٧ ص ٥٦. ٣. وقد ضبطه بعض المحققين بالزاء وبعده الدال. راجع فضل الاعتزال: ص ٢٧٧ - ٢٧٩. (٢٧٨)

معتزلة البغداديين، له تصانيف معروفة، وكان الحسين بن عليّ بن يزيد الكرابيسي صاحب الشافعي يتكلم معه و يناظره و بلغني أنّه

مات في سنة أربعين ومائتين»(١). وقال ابن أبي الحديد: «كان شيخنا أبو جعفر الاسكافي - رحمه الله - من المتحققين بموالاته عليّ - عليه السلام - والمبالغين في تفضيله، وإن كان القول بالتفصيل عامّاً شائعاً في البغداديين من أصحابنا كافة إلا أن أبا جعفر أشدّهم في ذلك قولاً وأخلصهم فيه اعتقاداً»(٢). وقال أيضاً: «وأما أبو جعفر الاسكافي وهو شيخنا محمد بن عبدالله الاسكافي، عدّه قاضي القضاة في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة، مع عباد بن سليمان الصيمري، ومع زرقان، ومع عيسى بن الهيثم الصوفي، وجعل أول الطبقة ثمامة بن أشرس أبا معن، ثم أبا عثمان الجاحظ، ثم أبا موسى عيسى بن صبيح المردار، ثم أبا عمران يونس بن عمران... إلى أن قال: كان أبو جعفر فاضلاً عالماً صنّف سبعين كتاباً في علم الكلام»(٣). وهو الذي نقض كتاب «العثمانية» على أبي عثمان الجاحظ في حياته، ودخل الجاحظ الورّاقين ببغداد، فقال: من هذا الغلام السواري الذي بلغنا أنه يعرض لنقض كتبنا والاسكافي جالس، فاختمتني حتى لم يره»(٤). وكان أبو جعفر يقول بالتفصيل على قاعدة معتزلة بغداد و يبالغ في ذلك وكان علوى الرأي، محققاً منصفاً، قليل العصبيّة(٥). ١. تاريخ بغداد: ج ٥، ص ٤١٦. ٢. شرح ابن أبي الحديد: ج ٤، ص ٦٣ ولكلامه ذيل نافع ولكنه خارج عن موضوع البحث. ٣. لم نجد هذا النص في ترجمته في طبقات القاضي المطبوع والذي حققه «فؤاد سيد». وهذا يعرب عن كون المطبوع ناقصاً محرّفاً. نعم ما بعد هذا النص موجود فيها. ٤. فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: ص ٢٧٦. ٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٧، ص ١٣٣.

(٢٧٩)

وظاهر نصّ القاضي أنه ألف تسعين كتاباً في علم الكلام(١). وهذه صورة بعض كتبه: كتاب اللطيف، كتاب البدل، كتاب الردّ على النظام في أن الطّبعين المختلفين يفعل بهما فعلاً واحداً، كتاب المقامات في تفضيل عليّ - عليه السلام - كتاب إثبات خلق القرآن، كتاب الردّ على المشبهه، كتاب المخلوق على المجبّرة، كتاب بيان المشكل على برغوث، كتاب التمويه نقض كتاب حفص، كتاب النقض لكتاب أبي الحسين النّجار، كتاب الردّ على من أنكر خلق القرآن، كتاب الشّرح لأقوال المجبّرة، كتاب إبطال قول من قال بتعذيب الأطفال، كتاب جمل قول أهل الحقّ، كتاب النّعيم، كتاب ما اختلف فيه المتكلّمون، كتاب الردّ على أبي حسين في الاستطاعة، كتاب فضائل عليّ - عليه السلام -، كتاب الأشربة، كتاب العطب، كتاب الردّ على هشام، كتاب نقض كتاب أبي شبيب في الوعيد(٢). وقد اشتهر من بين كتبه كتاب «النقض على العثمانية» للجاحظ، وهذا يدلّ على أن الرّجل كان مبدئياً متحمساً حيث قام بالمحاماة عن أكبر شخصيّة إسلاميّة من أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في العصر الذي استفحل الانحراف عن أهل البيت، وشاع التكالب على الدّنيا بين الناس، وراج التّقرّب إلى أرباب السلطنة من بني العباس أعداء أهل البيت. ولكن هذا الكتاب لم يصل لحدّ الآن إلى أيدي المحقّقين في عصرنا هذا، غير ما نقله ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، وقد استقصى محمد هارون المصري محقّق كتاب العثمانية للجاحظ ما رواه ابن أبي الحديد عن كتاب النقض في شرحه، فجمعه وطبعه في آخر كتاب «العثمانية». هذا، وقد نقل المقرّبي في خطه آراء خاصّة عنه وهي ساقطة وضعها أعداؤه عليه. قال: «الاسكافية أتباع أبي جعفر محمد بن عبدالله الاسكافي، ومن قوله: إن الله _____ ١. فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: ص ٢٨٥. ٢. المعيار والموازنة: المقدّمة، ص ٢.

(٢٨٠)

تعالى لا يقدر على ظلم العقلاء، ويقدر على ظلم الأطفال والمجانين... الخ»(١). ٧- أحمد بن أبي دؤاد (ت ١٦٠هـ - م ٢٤٠هـ) خريج مدرسة بغداد

قال ابن التّديم: «هو من أفاضل المعتزلة وممن جرّد في إظهار المذهب والدّب عن أهله والعناية به، وهو من صنایع يحيى بن أكثم و به اتّصل بالمأمون، ومن جهة المأمون اتّصل بالمعتصم ولم ير في أبناء جنسه أكرم منه ولا أنبل ولا أسخى»(٢). قال الذهبي: «أحمد بن أبي دؤاد القاضي جهمي بغیض، هلك سنة ٢٤٠. قلّ ما روى»(٣). في «العبر» أنه قال: «قاضي القضاة كان فصيحاً مفوّهاً شاعراً جواداً وكان مع ذلك رأساً من رؤوس الجهميّة والمعتزلة، وهو الذي شغب على إمام أهل السنّة أحمد بن حنبل وأفتى بقتله، وقد غضب عليه

وعلى آله المتوكل العباسي سنة ٢٣٧ فصادرهم وأخذ منهم ستة عشر ألف ألف درهم وحبسه ومرض بالفالج ومات سنة ٢٤٠ هـ (٤). بذل القاضي أحمد بن دؤاد أقصى جهده في نشر الاعتزال واستغل السلطة التي جعلت له في ذلك السبيل بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى. والحنابلة والأشاعرة يواجهونه بالسب والشتم، لأنه هو الذي حاكم الإمام أحمد في قوله بقدوم القرآن أو كونه غير مخلوق فأفحمه. وقد استخرج مؤلف كتاب «المعتزلة» صورة المحاكمة من «الفصول المختارة» المطبوعة بهامش «الكامل» للمبرد وإليك بيانه: ابن أبي دؤاد: أليس لا شيء إلا قديم أو حديث؟ ابن حنبل: نعم. ابن أبي دؤاد: أو ليس القرآن شيئاً؟ ابن حنبل: نعم. ابن أبي دؤاد: أو ليس لا- قديم إلا- الله؟ ابن حنبل: نعم. ابن أبي دؤاد: القرآن إذاً حديث. ابن حنبل: لست أنا بمتكلم (٥). _____ ١. الخطط المقرزية: ج ٢، ص ٢٤٦. ٢. الفهرست لابن النديم: الفن الأول من المقالة الخامسة، ص ٢١٢. ٣. ميزان الاعتدال: ج ١، ص ٩٧، رقم الترجمة: ٣٧٤. ٤. العبر في خبر من غبر: ج ١، ص ٣٣٩. ٥. المعتزلة: ص ١٧٥.

(٢٨١)

وهذه إحدى صور المحاكمة ولها صور أخر طوينا الكلام عن ذكرها وتأتي عند البحث عن محنة أحمد وهذا يعرب عن براءة الرجل في مقام قطع الطريق على الخصم، وهذا وأشباهه مما دفع الحنابلة والأشاعرة على التحامل والازدراء بالرجل، وسيوافيك أن أكثر ما نقل في محنة الإمام من التشديد والتغليظ عليه، ودوسه بالأقدام و سحبه، يرجع إلى أبي الفرج ابن الجوزي الحنبلي المتعصب لإمامه وليس له مصدر في التأريخ سواه. وقد نقل البغدادي حول وفاته قصة أشبه بالأسطورة (١) وكم له في كتابه «الفرق بين الفرق» من نظائر. ٨ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥)

قال القاضي نقلاً عن «المصايح»: «إنه نسيح وحده في العلوم، لأنه جمع إلى علم الكلام والفصاحة، العلم بالأخبار والأشعار والفقه و تأويل الكلام وهو متقدم في الجدل والهزل، وله كتب في التوحيد وإثبات النبوة ونظم القرآن و حديثه، وفي فضائل المعتزلة» (٢). أقول: كتابه الأخير هو كتاب «فضيلة المعتزلة» الذي رد عليه ابن الراوندي في _____ ١. الفرق بين الفرق: ص ١٧٤ - ١٧٥. ٢. فضل الاعتزال: ص ٢٧٥.

(٢٨٢)

كتاب خاص أسماء «فضيحة المعتزلة» ثم إن أبا الحسين الخياط (م ٣١١) ألف كتاب «الانتصار» وانتصر فيه للجاحظ وقد طبع الانتصار لأول مرة في القاهرة عام ١٩٢٥. ومن أحسن تصانيفه وأمتنها كتاب «الحيوان» في أربعة أجزاء، و«البيان والتبيين» في جزأين، و«البخلاء»، و«مجموع الرسائل»، وأردأها كتاب «العثمانية». وقد كتبت عن الجاحظ دراسات كثيرة بأقلام المستشرقين والعرب ومن أراد فليرجع إلي: كتاب: «الجاحظ معلم العقل والأدب» لشفيق جبري. وكتاب: «أدب الجاحظ» لحسن السندوبي. وكتاب: «الجاحظ» لفؤاد أفرام البستاني... وغيرها. وإن أدب الرجل و اطلاعه الواسع شيء لا ينكر وتشهد عليه آثاره المطبوعة. ولكن الكلام في ورعه وتقاه ونفسيته و روحيته، فلا يشك من سبر حياته في طيات المعاجم والكتب أنه لم يكن رجلاً مبدئياً أبداً، بل كان متقرباً لفراغته عصره، وكفى أنه كان ملازماً لمحمد بن عبد الملك المعروف بالوزير الزيات. يقول ابن خلكان: «كان محمد المذكور شديد القسوة، صعب العريكة، لا يرق لأحد ولا يرحمه، وكان يقول: الرحمة خور في الطبيعة. ووقع يوماً على رقعة رجل توصل إليه بقرب الجوار منه، فقال: الجوار للحيطان والتعطف للنسوان. فلما أراد المتوكل قتله أحضره و أحضر تنور خشب فيه مسامير من حديد، أطرافها إلى داخل التنور تمنع من يكون فيه من الحركة، كان محمداً اتخذها ليعذب فيه من يطالبه وهو أول من عمل ذلك وعذب فيه ابن أسباط المصري - وقال: أجرينا فيك حكمك في الناس. فأجلس فيه. فمات بعد ثلاث و ذلك في سنة ثلاث و ثلاثين ومائتين، وقيل: إنه كتب في التنور بفحمة: من له عهد بنوم * يرشد الصب إليه رحم الله رحيماً * دل عيني عليه (٢٨٣)

ودفن ولم يعمق قبره فنبشته الكلاب و أكلته» (١). هذا حال صديق الرجل و زميله، فاعرف حاله من حاله. فإن الرجل على دين جليسه. تلون الرجل في حياته

تدل آثاره على أن الرجل كان متلوياً في حياته غير جانح إلى فئة، بل كان كالريشة في مهبّ الريح يميل مع كلّ ريح، فتارة يكون عثمانى الهوى و يؤلّف كتاباً في ذلك ويدعمه بكتاب آخر في إمامة المروانوية و خلافة الشجرة الملعونة في القرآن، وأخرى علويّاً يجمع الكلم القصار لعلّي - عليه السلام - يفضّل عليّاً على غيره. قال ابن قتيبة في شأنه: «تجدّه يحتجّ مرّة للعثمانية على الرفضة، ومرّة للزيدية على العثمانية و أهل السنّة، ومرّة يفضّل عليّاً - رضي الله عنه - ومرّة يؤخّره... إلى أن قال: ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوّز في الحجّة كأنّه أراد تنبيههم على ما لا يعرفون و تشكيك الضعفة من المسلمين. وتجدّه يقصد في كتبه المضاحيك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث و شرّاب التبيذ. ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم كذكره كبد الحوت و قرن الشيطان و ذكر الحجر الأسود و أنّه كان أبيض فسوّده المشركون، وقد كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا و يذكر الصّحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة. وهو مع هذا من أكذب الأمم و أوضعهم للحديث و أنصرهم للباطل» (٢). وقال المسعودي في «مروج الذهب» عند ذكر الدولة العباسية: «وقد صنّف الجاحظ كتاباً استقصى فيه الحجاج عند نفسه، و أيّده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصوّره من عقله و ترجمه بكتاب «العثمانية» يحلّ فيه عند نفسه فضائل عليّ - عليه السلام - _____ ١. وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٠٢، ط دار صادر. ٢. تأويل مختلف الحديث: ص ٥٩ - ٦٠.

(٢٨٤)

ومناقبه، ويحتجّ فيه لغيره طلباً لامانة الحقّ و مضادّة لأهله والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. ثمّ لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب «العثمانية» حتّى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامة المروانوية و أقوال شيعتهم، و رأيته مترجماً بكتاب إمامة أمير المؤمنين معاوية في الانتصار له من عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - وشيعته الرفضة، يذكر فيه رجال المروانوية و يؤيد فيه إمامة بنى أمية و غيرهم. ثمّ صنّف كتاباً آخر ترجمه بكتاب «مسائل العثمانية» يذكر فيه ما فاته ذكره و نقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - ومناقبه فيما ذكرنا. وقد نقضت عليه ما ذكرنا من كتبه لكتاب العثمانية و غيره. وقد نقضها جماعة من متكلّمي الشيعة كأبي عيسى الورّاق والحسن بن موسى النخعي (١) و غيرهما من الشيعة ممّن ذكر ذلك في كتبه في الإمامة مجتمعة و متفرّقة» (٢). ومن أراد أن يقف على ضعف الرجل في مجال العفاف والورع فعليه أن يرجع إلى ما نقله عنه ابن خلّكان في «وفيات الأعيان» (٣). ٩- أبو الحسين عبد الرّحيم بن محمّد المعروف بالخيّاط (م - ٣١١) خريج مدرسة بغداد

ترجمه القاضي في «فضل الاعتزال» وقال: «كان عالماً فاضلاً من أصحاب جعفر (٤) وله كتب كثيرة في النقوض على ابن الراوندي و غيره. وهو أستاذ أبي القاسم البلخي رحمه الله - و ذكر أنّه لمّا أراد العود إلى خراسان من عنده أراد أن يجعل طريقه _____ ١. كذا في النسخة والصحيح: النوبختي. ٢. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ طبع دار الأندلس. ٣. وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٤٧١ - ٤٧٣. ٤. يريد: جعفر بن مبشر بن أحمد بن محمد أبو محمد الثقفى المتكلم (المتوفى سنة ٢٣٤) من معتزلة بغداد له ترجمة في تاريخ بغداد: ج ٧، ص ١٦٢، ولسان الميزان: ج ٢، ص ١٢١.

(٢٨٥)

على أبي عليّ (الجبّائي) فسأله أبو الحسين بحقّ الصحبة أن لا- يفعل ذلك، لأنّه خاف أن ينسب إلى أبي عليّ وهو من أحفظ الناس باختلاف المعتزلة في الكلام و أعرفهم بأقوالهم. وقد كان الشيخ أبو القاسم يكاّته بعد العود من عنده حالاً بعد حال فيعرف من جهته ما خفى عليه» (١). ومن أشهر كتبه: «الانتصار» ردّ فيه على كتاب «فضيحة المعتزلة» لابن الراوندي وطبع بالقاهرة - ١٩٢٥ م. وسأل أبو العيّاس الحلبي أبا الحسين الخيّاط فقال: «أخبرني عن إبليس هل أراد أن يكفر فرعون؟ قال: نعم، قال الحلبي: فقد غلب إبليس إرادة الله؟ قال أبو الحسين: هذا لا يجب فإنّ الله تعالى قال: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفُحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفَرَةً مِنْهُ وَفُضْلاً) وهذا لا- يوجب أن يكون أمر إبليس غلب أمر الله، فكذلك الإبرادة و ذلك لأنّ الله تعالى لو أراد أن يؤمن فرعون كرهاً لآمن (٢). وعبارة

واضحاً، إنَّ إرادة كلِّ منهما (الله سبحانه و إبليس المطرود) ليست إرادة تكويته قاهرة سالبه للاختيار، بل إرادة أشبه بإرادة تشريعية يترأى أنَّها تعلقت بفعل الغير، وهو مختار في فعله و عمله و تطبيقه على كلِّ من الطَّيِّبين، فليس في موافقته أو مخالفته أىَّ غلبه من المرادين على الآخر. نعم لو كانت إرادة كلِّ منهما إرادة تكويته تعلقت واحدة بإيمان فرعون والأخرى بكفره فكفر ولم يؤمن لزمت غلبه إرادة إبليس على إرادة الله تعالى. وسئل عن أفضل الصَّحابة فقال: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - عليه السلام لأنَّ الخصال التي فضّل الناس بها متفرقة في الناس وهي مجتمعة فيه، وعدّ الفضائل فليل فما منع الناس من العقد له بالإمامة؟ فقال: هذا باب لا علم لي به إلا بما فعل _____ ١. فضل الاعتزال: ص ٢٩. ٢. المنية والأمل: ص ٤٩.

(٢٨٤)

الناس وتسليمه الأمر على ما أمضاه عليه الصَّحابة، لأنِّي لمّا وجدت الناس قد عملوا ولم أراه أنكر ذلك ولا خالف، علمت صحته ما فعلوا»(١). يلاحظ عليه: إذا أثبت كونه أفضل الصحابة، فتقدّم المفضول على الفاضل قبيح عقلاً، وبه ردّ سبحانه اعتراض بنى إسرائيل على جعل طالوت ملكاً. قال سبحانه: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة/٢٤٧). وأما تسليم الإمام لعمل الصَّحابة فهو غير صحيح، فقد اعترض على عملهم مرّة بعد مرّة و يكفى في ذلك خطبه وقصار حكمه وما نقله عنه المؤرّخون(٢). هذا و أشباهه قابل للاغماض، وإنّما الكلام فيما نسب إلى الشيعة من النسب المفتعلة والأكاذيب الشائنة و إليك نماذج من قذائفه و طاماته في كتاب «الانتصار»: ١- الراضية تعتقد أنّ ربّها ذو هيئة و صورة يتحرّك ويسكن و يزول و ينتقل، وأنّه كان غير عالم فعلم...إلى أن قال: هذا توحيد الراضية بأسرها إلا نفرّاً منهم يسيراً صحبوا المعتزلة و اعتقدوا التوحيد، فنفتهم الراضية عنهم و تبرأت منهم. فأتمّيا جملتهم و مشايخهم مثل هشام بن سالم، و شيطان الطاق، و عليّ بن ميثم، و هشام بن الحكم بن منصور، و السكاك فقولهم ما حكيت عنهم. ٢- فهل على وجه الأرض رافضى إلاّ- وهو يقول: إنّ الله صورة، و يروى في ذلك الروايات و يحتجّ فيه بالأحاديث عن أمّتهم، إلاّ من صحب المعتزلة منهم قديماً، فقال بالتوحيد فنفته الراضية عنها ولم تقره. ٣- يرون الراضية أن يطأ المرأة الواحدة في اليوم الواحد مائة رجل من غير _____ ١. المنية والأمل: تصحيح توما أرندل، ص ٤٩ و ٥٠. ٢. لاحظ: الامامة والسياسة، ص ١١ لابن قتيبة وغيرها.

(٢٨٧)

استبراء ولا قضاء عدّه وهذا خلاف ما عليه أمّة محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم (١). نحن لا نعلّق على تلك الأساطير شيئاً و إنّما نمزّ عليها كراماً. ١٠- أبو القاسم البلخي الكعبي (ت ٢٧٣ - م ٣١٧ أو ٣١٩) خريج مدرسة بغداد عبد الله بن أحمد بن محمود أبو القاسم البلخي. قال الخطيب: من متكلمى المعتزلة البغداديين، صنّف في الكلام كتباً كثيرة و أقام ببغداد مدّة طويلة و انتشرت بها كتبه، ثمّ عاد إلى بلخ فأقام بها إلى حين وفاته. أخبرني القاضي أبو عبد الله الصيمري، (حدّثنا) أبو عبد الله محمّد بن عمران المرزباني، قال: كانت بيننا وبين أبي القاسم البلخي صداقة قديمة و كيدة و كان إذا ورد مدينة السلام قصد أبي و كثر عنده، وإذا رجع إلى بلده لم تنقطع كتبه عنّا، و توفّي أبو القاسم بلخ في أوّل شعبان سنة تسع عشرة و ثلاثمائة»(٢). وقال ابن خلّكان: «العالم المشهور كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم «الكعبيّة» وهو صاحب مقالات، و من مقالته: أنّ الله سبحانه و تعالى ليست له إرادة، وأنّ جميع أفعاله واقعة منه بغير إرادة ولا مشيئة منه لها، و كان من كبار المتكلمين، وله اختيارات في علم الكلام، توفّي مستهلّ شعبان سنة سبع عشرة و ثلاثمائة. و الكعبي نسبة إلى بنى كعب، و البلخي نسبة إلى بلخ إحدى مدن خراسان»(٣). و قد خفى على الخطيب و ابن خلّكان ما يهدف إليه الكعبي من نفي الإرادة و المشيئة عنه سبحانه، و قد اختار من أنظاره تلك النظرية للازدراء عليه، ولكنّها غفلا- عن أنّ الكعبي لا يهدف إلى نفي الإرادة عن الله سبحانه حتّى يعرّفه كالفواعل _____ ١. لاحظ: الانتصار ص ٨، ١٤٤، ٨٩. ٢. تاريخ بغداد: ج ٩، ص ٣٨٤. ٣. وفيات الاعيان: ج ٣، ص ٤٥ رقم الترجمة ٣٣٠.

(٢٨٨)

الطبيعية، بل له هناك هدف سام لا يقف عليه إلا العارف بالأصول الكلامية، وهو أن الإرادة أو المشيئة حسب طبعها من الأمور الحديثة الجديدة المسبوقة بالعدم فلا تتصور مثل هذه الإرادة لله، أي الإرادة الحادثة القائمة بذاته. وبعبارة واضحة: إن حقيقة الإرادة تلازم التجدد والحدوث والتجزى والتقسى، ومثل ذلك لا يليق بساحته سبحانه. فلأجل ذلك يرى الكعبي تزيهه سبحانه عن وصمه الحدوث والتجدد. ومع ذلك لا يسلب عنه ما يعدد كمالاً للإرادة، فإن الإرادة من الصفات العالية الكمالية بما أنها رمز للاختيار، وآية الحرّية، وهذا غير منفي عن الله سبحانه عند البلخي. ويدل على ذلك ما نقله ابن شاعر الكعبي في «عيون التواريخ» ما هذا لفظه، قال: «كان الكعبي تلميذ أبي الحسين الخياط وقد وافقه في اعتقاداته جميعاً، وانفرد عنه بمسائل. منها قوله: إن إرادة الرب تعالى ليست قائمة بذاته، ولا هو يريد إرادته و (لا) إرادته حادثه في محل، بل إذا أطلق عليه: إنه يريد، فمعناه أنه عالم قادر غير مكره في فعله ولا كاره. وإذا قيل: إنه يريد لأفعاله، فالمراد أنه خالق لها على وفق علمه، وإذا قيل إنه يريد لأفعال عباده، فالمراد أنه راض بما أمر به» (١). مؤلفاته

قال ابن حجر في «لسان الميزان»: «عبدالله بن أحمد بن محمود البلخي أبو القاسم الكعبي من كبار المعتزلة وله تصانيف في الطعن على المحدثين تدل على كثرة اطلاعه وتعصّبه» (٢). غير أن أكثر هذه الكتب قد بطش بها الزمان و أضعها كما أضع أكثر كتب المعتزلة وقد استقصى فؤاد سيد في مقدمته على كتاب «ذكر المعتزلة» لأبي القاسم ————— ١. باب ذكر المعتزلة من مقالات الاسلاميين، لأبي القاسم البلخي، المقدمة ص ٤٤، نقلاً عن عيون التواريخ ج ٧، ص ١٠٦ مخطوطة دار الكتب. ٢. لسان الميزان: ج ٣ ص ٢٥٢.

(٢٨٩)

البلخي أسماء كتبه و أنهاها إلى ستّة و أربعين كتاباً. وقال النجاشي في ترجمه محمّد بن عبدالرحمان بن قبة: «وأخذ عنه ابن بطّة و ذكره في فهرسه وقال: وسمعت من محمّد بن عبدالرحمان بن قبة، له كتاب الانصاف في الإمامة وكتاب المستثبت نقض كتاب أبي القاسم البلخي» ثم قال: «سمعت أبا الحسين المهلوس العلوي الموسوي -رضي الله عنه- يقول في مجلس الرضى أبي الحسن محمّد بن الحسين بن موسى و هناك شيخنا أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان -رحمهم الله أجمعين- سمعت أبا الحسين السوسنجردى -رحمه الله- وكان من عيون أصحابنا وصالحيهم المتكلمين وله كتاب في الإمامة معروف به وكان قد حجّ على قدميه خمسين حجّة -يقول: مضيت إلى أبي القاسم البلخي إلى بلخ بعد زيارتي الرضا -عليه السلام- بطوس فسلمت عليه وكان عارفاً، ومعى كتاب أبي جعفر ابن قبة في الإمامة المعروف بالانصاف، فوقف عليه ونقضه بـ «المسترشد في الإمامة» فعدت إلى الري، فدفعت الكتاب إلى ابن قبة فنقضه بـ «المستثبت في الإمامة» فحملته إلى أبي القاسم فنقضه بـ «نقض المستثبت» فعدت إلى الري فوجدت أبا جعفر قدماء -رحمه الله- (١). مناظرته مع رجل سوفسطائي

حكى في كتابه «مقالات أبي القاسم» أنه وصل إليه رجل من السوفسطائية راكباً على بغل، فدخل عليه فجعل ينكر الضروريات و يلحقها بالخيالات، فلمّا لم يتمكّن من حجّة يقطعه قام من المجلس موهماً أنه قام في بعض حوائجه، فأخذ البغل و ذهب به إلى مكان آخر ثم رجع لتمام الحديث، فلمّا نهض السوفسطائي للذهاب ولم يكن قد انقطع بحجّة عنده طلب البغل حيث تركه فلم يجده، فرجع إلى أبي القاسم وقال: إنّي لم أجد البغل، فقال أبو القاسم: لعلك تركته في غير هذا الموضوع الذي طلبته فيه، وخیّل لك أنك وضعته في غيره، بل لعلك لم تأت راكباً على بغل و إنّما خیّل اليك تخيلاً وجاءه ————— ١. فهرس النجاشي: الرقم ١٠٢٣.

(٢٩٠)

بأنواع من هذا الكلام، فأظن أنه ذكر أن ذلك كان سبباً في رجوع السوفسطائي عن مذهبه وتوبته عنه (١). تلك عشرة كاملة من أعلام المعتزلة و فظاحلهم. ولعل هذا المقدار في ترجمه أئمّتهم و مشايخهم يوقفنا على موقفهم في الفضل و الفضيلة و هذا البحث الضافي

يوقفك على أن تدمير تلك الطائفة - مع ما فيها، ما فيها - كانت خسارة لا تجبر. _____ ١. المنية والامل: ص ٥١.

(٢٩١)

الفصل السادس

الفصل السادس في طبقات المعتزلة و مدارسهم

المعتزلة تنقسم تارة بحسب الطبقات و أخرى بحسب المدارس. أما الأول، فقد قسمها القاضي عبد الجبار (م ٤١٥) إلى طبقات عشر. ثم جاء بعده الحاكم (١) فأضاف عليها طبقتين فصارت اثنتي عشرة طبقة. وقد أدرجها ابن المرتضى في كتابه «المنية و الأمل» الذي طبع منه هذا القسم فقط. ولأجل رفع الاشتباه في الاسم نعبر عن كتاب القاضي بالطبقات، وعن هذا القسم باسم كل الكتاب: المنية و الأمل. إن ملاك التقسيم في ترتيب الطبقات هو التسلسل الزمني و الترتيب التاريخي. فالأستاذة في طبقة و التلامذة في طبقة بعدها. ومن أراد الوقوف على أسمائهم و حياتهم فعليه المراجعة إلى المصادر السابقة باضافة «ذكر المعتزلة» للكعبى. وبما أن الاكتفاء بذكر الأسماء وحده لا يفيد شيئاً و التفصيل خارج عن موضوع البحث، فنحيل القارئ إلى الكتب المذكورة و نكتفى بذكر مدارس الاعتزال و بعض الفروق الموجودة بينها. _____ ١. المراد منه المتكلم المعتزلى الزيدى أبو سعد المحسن بن محمد كرامة الجشمى البيهقى صاحب المؤلفات توفى مقتولاً بمكة في شهر رجب سنة ٤٦٥، أو ٤٤٥. و توهمت المستشرقة سوسنه «ديفلد ملزر» أن المراد منه هو المحدث المشهور محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى صاحب المستدرک المتوفى عام ٤٠٥ وهو وهم.

(٢٩٢) مدارس الاعتزال

إن مدارس الاعتزال لا تتجاوز مدرستين: مدرسة البصرة، و مدرسة بغداد. و الأولى منهما مهد الاعتزال و مغرسه، و فيها برز و اصل بن عطاء، و عمرو بن عبيد، و أبو الهذيل العلاف و النظام. غير أنه تأسست في أواخر القرن الثانى مدرسة أخرى في عاصمة الخلافة العباسية «بغداد» بمهاجرة أحد خزيجى مدرسة البصرة إليها و هو بشر بن المعتمر (م ٢١٠). فظهر هناك رجال مفكرون على منهج الاعتزال، و آثار التعدد و البعد المكانى خلافاً بين خزيجى المدرستين في كثير من المسائل الفرعية بعد الاتفاق على المسائل الرئيسية. و لكل من المدرستين مميزات و مشخصات يقف عليها من تدبر في أفكار أصحابها و آرائهم. و لبعض المعتزلة رسائل مخصوصة في هذا المضمار. غير أن الناظر فيما ينقل ابن أبى الحديد المعتزلى من مشايخه البغداديين أنهم يوافقون الشيعة أكثر من معتزلة البصرة. و قد ألف الشيخ المفيد (م ٤١٣) رسالة باسم «المقنعة» في وفاق البغداديين من المعتزلة لما روى عن الأئمة - عليهم السلام - (١). و للتعرف على بعض مشايخ المدرستين نأتى بهذا الجدول: مشايخ مدرسة البصرة

١- واصل بن عطاء (م ١٣١). ٢- عمرو بن عبيد (م ١٤٣). ٣- أبو الهذيل العلاف (م ٢٣٥). _____ ١. أوائل المقالات: ص ٢٥. و هذا الكتاب غير كتابه الآخر بهذا الاسم في الفقه.

(٢٩٣)

٤- إبراهيم بن سيار النظام (م ٢٣١). ٥- على الأسوار (المتوفى حوالى المائتين). ٦- معمر بن عباد السلمى (م ٢٢٠). ٧- عباد بن سليمان (م ٢٢٠). ٨- هشام الفوطى (م ٢٤٦). ٩- عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥). ١٠- أبو يعقوب الشحام (م ٢٣٠). ١١- أبو على الجبائى (م ٣٠٣). ١٢- أبو هاشم الجبائى (م ٣٢١). ١٣- أبو عبد الله الحسين بن على البصرى (م ٣٦٧). ١٤- أبو إسحاق بن عياش (شيخ القاضى). ١٥- القاضى عبد الجبار (م ٤١٥). مشايخ مدرسة بغداد

١- بشر بن المعتمر (م ٢١٠)، مؤسس المدرسة. ٢- ثمامة بن الأشرس (م ٢٣٤). ٣- جعفر بن المبشر (م ٢٣٤). ٤- جعفر بن حرب (م ٢٣٦). ٥- أحمد بن أبى دؤاد (م ٢٤٠). ٦- محمد الاسكافى (م ٢٤٠). ٧- أبو الحسين الخياط (م ٣١١). (٢٩٤)

٨- أبو القاسم البلخى الكعبى (م ٣١٧). من أراد أن يقف على بعض آرائهم التى يخالفون فيها مشايخهم البصريين فعليه بمطالعة شرح

النهج لابن أبي الحديد، فإنه يعرض آراءهم في شرحه في مجالات مختلفة.

الفصل السابع

الفصل السابع في الأصول الخمسة عند المعتزلة

اشتهرت المعتزلة بأصولها الخمسة، فمن دان بها فهو معتزلي ومن نقص منها أو زاد عليها فليس منهم. وتلك الأصول المرتبة حسب أهميتها، عبارة عن: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فمن دان بها ثم خالف بقيت المعتزلة في تفاصيلها أو في فروع أخر لم يخرج بذلك عنهم. قال الخياط: «فليس يستحق أحد منهم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا اكملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي» (١). قال المسعودي (م ٣٤٥) بعد سرد الأصول الخمسة حسب ما سمعت منا: «فهذا ما اجتمعت عليه المعتزلة ومن اعتقد ما ذكرناه من الأصول الخمسة، كان معتزلياً، فان اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال، فلا يستحقه إلا باعتقاد هذه الأصول الخمسة. وقد تنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم» (٢). والعجب من ابن حزم (م ٤٥٦) حيث زعم أن الأصول الخمسة عبارة عن القول بخلق القرآن، ونفي الرؤية، والتشبيه ونفي القدر، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، ونفي

_____ ١. الانتصار للخياط: ص ١٢٦. ٢. مروج الذهب: ج ٣، ص ٢٢٢.

(٢٩٦)

الصفات (١). فقد ذكر من الأصول ثلاثة، حيث إن نفي القدر وخلق القرآن إيعاز إلى العدل (٢) كما أن نفي الصفات والرؤية إشارة إلى التوحيد أي تنزيهه سبحانه عما لا يليق، وأهمل اثنتين منها أعنى الوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإذا كان هذا مبلغ علم الرجل بأصول الاعتزال الذي هو أقرب إليه من الشيعة، فما ظنك بعلمه بطوائف أخرى كمعتقدات الشيعة الذين يعيشون في بيئة بعيدة منه، ولأجل ذلك رماهم بنسب مفتعلة. إيعاز إلى الأصول الخمسة

وقبل كل شيء نطرح هذه الأصول على وجه الاجمال حتى يعلم ماذا يريد منها المعتزلة، ثم نأخذ بشرحها واحداً بعد واحد فنقول: ١- التوحيد: ويراد منه العلم بأن الله واحد لا- يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد الذي يستحقه. وسياوفاك تفصيله فيما بعد، والتوحيد عندهم رمز لتنزيهه سبحانه عن شوائب الامكان ووهم المثلية وغيرهما مما يجب تنزيهه ساحتة عنه كالتجسيم والتشبيه وإمكان الرؤية وطوء الحوادث عليه، غير أن المهم في هذا الأصل هو الوقوف على كيفية جريان صفاته عليه سبحانه ونفي الرؤية، وغيرهما يقع في الدرجة الثانية من الأهمية في هذا الأصل، لأن كثيراً منها لم يختلف المسلمون فيه إلا القليل منهم. ٢- العدل: إذا قيل إنه تعالى عادل، فالمراد أن أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، وأنه لا يخل بما هو واجب عليه. وعلى ضوء هذا لا- يكذب في خبره، ولا- يجور في حكمه ولا- يعذب أطفال المشركين بذنوب آبائهم، ولا- يظهر المعجزة على أيدي

_____ ١. الفصل: ج ٢، ص ١١٣. ٢. سياأتي في الأصل الثاني أن القاضي أدخل البحث عن خلق القرآن تحت ذلك. وإن كان غير صحيح.

(٢٩٧)

الكذابين، ولا- يكلف العباد ما لا يطيقون، وما لا يعلمون، بل يقدرهم على ما كلفهم، ويعلمهم صفة ما كلفهم، ويدلهم على ذلك ويبين لهم (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (١) وأنه إذا كلف المكلف وأتى بما كلف على الوجه الذي كلف فإنه يشبهه لا محالة، وأنه سبحانه إذا ألم وأسقم فإتما فعله لصلاحه ومنافعه وإلا كان مخالفاً بواجب... ٣- الوعد والوعيد: والمراد منه أن الله وعد المطيعين بالثواب، وتوعيد العصاة بالعقاب، وأنه يفعل ما وعد به وتوعيد عليه لا محالة. ولا يجوز الخلف لأنه يستلزم الكذب. فإذا أخبر عن الفعل ثم تركه يكون كذباً، ولو أخبر عن العزم، فيما أنه محال عليه كان معناه الإخبار عن نفس الفعل، فيكون

الخلق كذباً، وعلى ضوء هذا الأصل حكموا بتخليد مرتكب الكبائر في النار إذا مات بلا توبة. ٤- المنزلة بين المتزلتين: وتلقب بمسألة الأسماء والأحكام، وهي أن صاحب الكبيرة ليس بكافر كما عليه الخوارج، ولا منافق كما عليه الحسن البصري، ولا مؤمن كما عليه بعضهم، بل فاسق لا يحكم عليه بالكفر ولا بالإيمان. ٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والمعروف كل فعل عرف فاعله حسنه أو دل عليه، والمنكر كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه، ولا خلاف بين المسلمين في وجوبهما، إنما الخلاف في أنه هل يعلم عقلاً أو لا يعلم إلا سمعاً؟ ذهب أبو علي (٣٠٣ م) إلى أنه يعلم عقلاً وسمعاً، وأبو هاشم (٣٢١ م) إلى أنه يعلم سمعاً، ولو جوبه شروط تذكر في محلها، ومنها أن لا يؤدي إلى مضرة في ماله أو نفسه إلا أن يكون في تحمله لتلك المذلة إغزاز للدين. قال القاضي: «وعلى هذا يحمل ما كان من الحسين بن علي - عليهما السلام - لما كان في صبره على ما صبر إغزاز لدين الله عز وجل ولهذا نبأه به سائر الأمم فنقول: لم يبق من ولد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلا سبط واحد، فلم يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى _____ ١. الأنفال/٤٢.

(٢٩٨)

قتل دون ذلك» (١). والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضربين:

أحدهما: إقامة ما لا يقوم به إلا الأئمة كإقامة الحدود وحفظ بيضة الإسلام وسد الثغور وإنفاذ الجيوش ونصب القضاة والأمراء وما أشبه ذلك. والثاني: ما يقوم به كافة الناس، وفي المسلمين - كالإمامية - من يقول بأن بعض المراتب منه كالجهاد الابتدائي مع الكفار مشروط بوجود إمام معصوم مفترض الطاعة. وهذا إلماع إلى معرفة الأصول الخمسة التي يدور عليها فلك الاعتزال وقد أخذناها من شرح الأصول الخمسة وقد أتى بها في الفصل الذي عقده لبيان أصول المعتزلة على وجه الاختصار. ثم أخذ بالتفصيل في ضمن فصول. والمعتزلة قد اتفقوا على هذه الأصول وإن اختلفوا في تفاصيلها. نعم، إن هناك اختلافات فيها بين أصحاب المدرستين: أصحاب مدرسة البصرة وعلي رأسهم واصل ابن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام والجبائيان والقاضي، وأصحاب مدرسة بغداد وفي مقدمهم بشر بن المعتمر، وأبو الحسين الخياط، وأبو القاسم البلخي، وقد عرفت في الفصول السابقة ترجمة حياتهم. هذه الأصول الخمسة التي بها يناط دخول الرجل في سلك المعتزلة. وقد ذكر الشهرستاني الأصول التي اتفقت المعتزلة عليها، من دون أن يفرق بين ما يدخل في الأصول الخمسة وما هو خارج عنها، وإليك نصه: «القول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حتى بذاته، لا بعلم وقدرة وحياء. هي صفات قديمة، ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف، _____ ١. الأصول الخمسة ص ١٤٢.

(٢٩٩)

لشاركته في الإلهية. واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل، وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه. فإن ما وجد في المحل عرض قد فنى في الحال. واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته، لكن اختلفوا في وجوه وجودها، ومحامل معانيها كما سيأتي. واتفقوا على نفي روية الله تعالى بالأبصار في دار القرار، ونفي التشبيه عنه من كل وجه: جهة، ومكاناً، وصوره و جسماً، وتجزئاً، وانتقالاً، وزوالاً وتغيراً وتأثراً. وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، وسموا هذا النمط توحيداً. واتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرا و شرها مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة. والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم، وفعل هو كفر ومعصية، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً. واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد، وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه عندهم خلاف. وسموا هذا النمط عدلاً. واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة، استحق الثواب والعوض. والتفضل معنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبتها، استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار و سموا هذا النمط وعداً و عيداً. واتفقوا على أن أصول المعرفة، وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن

واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكليف ألطاف للباريء تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء - عليهم السلام - امتحاناً واختباراً (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) (الانفال/٤٢). واختلفوا في الإمامة، والقول فيها نصاً واختياراً، كما سيأتي عند مقالة كل (٣٠٠)

طائفة^(١). يلاحظ عليه: أن المعتزلة لم تقل في الإمامة بالنص، وإنما يقولون بالاختيار. ونسبة نظرية النص إليهم مبنية على عد الشيعة القائلين بالنص منهم، وهو خطأ. ولا يخفى على القارئ بعد الاحاطة بما حققنا حول الأصول الخمسة تفكيك الأصول عما يترتب عليها من الأحكام، وقد خلط هو وقبله الأشعري بين المبنى وما يترتب عليه من البناء وغيرهما من الأصول. *** وتحقق الحق حول هذه الأصول يستدعي رسم أمور تلقى ضوءاً على الأبحاث التالية: ١- أصلان أو أصول خمسة؟

إن القاضي عبد الجبار ليس أول من ألف في عقائد المعتزلة باسم الأصول الخمسة بل سبق في ذلك شخصان آخران من خزرجي المدرستين، أحدهما: أبو الهذيل العلاف البصري، والثاني: جعفر بن حرب البغدادي. قال النسفي في «بحر الكلام»: «خرج أبو الهذيل فصنّف لهم كتابين و بين مذهبهم، وجمع علومهم، وسمّى ذلك: «الخمسة الأصول»، وكلّما رأوا رجلاً قالوا له: هل قرأت «الأصول الخمسة» فإن قال: نعم، عرفوا أنّه على مذهبهم»^(٢). وقال ابن المرتضى: «ومنهم جعفر بن حرب (م ٢٣٦) الذي عدّه المرتضى من الطبقة السابعة فقال: له الأصول الخمسة»^(٣). والظاهر أن القاضي أملى شرح الأصول الخمسة على غرار الكتابين الماضين وكتبه عدد من تلاميذه، وقد اختلفت كلمة القاضي في عدّ الأصول، فجعلها في شرح ————— ١. الملل والنحل: ج ١، ص ٤٤-٤٦، طبعة دار المعرفة. ٢. نقله محقق شرح الأصول الخمسة للقاضي، ص ٢٦، عن مخطوط دار الكتب المصرية لبحر الكلام، ورقة ٥٧. ٣. المنية والامل: ص ٤١. والصحيح «الخمسة».

(٣٠١)

الأصول خمسة على الوجه الذي عرفت، وجعلها في «المغني»^(١) اثنين: التوحيد والعدل. وجعل غيرهما داخلًا في دينك الأصليين. وجعلها في كتاب «مختصر الحسنی»، أربعة: التوحيد والعدل والنبوات والشرائع، وأدخل الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشرائع. ويظهر من كلمات تلاميذه الذين أملى لهم القاضي كتاب «الأصول الخمسة» أن ما فعله في «المغني» هو الأرجح، قالوا: إن النبوات والشرائع داخلان في العدل، لأنه كلام في أنه تعالى إذا علم أن صلاحنا في بعثه الرسل وأن نتعبد بالشرعية، وجب أن يبعث و نتعبد، ومن العدل أن لا يُخلّ بما هو واجب عليه. وكذلك الوعد والوعيد داخل في العدل. لأنه كلام في أنه تعالى إذا وعد المطيعين بالثواب، وتوعد العصاة بالعقاب فلا بد من أن يفعل ولا يخلف في وعده ولا في وعيده، ومن العدل أن لا يُخلف ولا يكذب، وكذلك المنزلة بين المنزلتين داخل في باب العدل، لأنه كلام في أن الله تعالى إذا علم أن صلاحنا يا إجراء أسماء وأحكام على المكلفين وجب أن يتعيّدنا به، ومن العدل أن لا يُخلّ بالواجب وكذا الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأولى أن يقتصر على ما أورده «في المغني»^(٢). يلاحظ عليه: أولاً: - أنه لو صحّ إدخال المنزلة بين المنزلتين في باب العدل، حسب البيان الذي سمعت، لصحّ إدخال المعارف العقلية كلها تحته بنفس البيان، بأن يقال إن الله تعالى إذا علم أن صلاحنا أن يتعيّدنا بالمعارف وجب أن يتعبّدنا بها، ومن العدل أن لا يُخلّ بالواجب، ولا أرى أن واحداً من المعتزلة يقبل ذلك. وثانياً - إن الأصول الاعتقادية على قسمين: قسم يجب الاعتقاد به بنفس عنوانه ولا يكفى الاعتقاد بالجامع البعيد الذي يشملها، وذلك كالاتقاد بنبوّة النبي الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلم وعموميّة رسالته وخاتمتها، فالكلّ ممّا ————— ١. من أبسط كتب القاضي وأهمها، يقع في عشرين جزءاً، طبع منه أربعة عشر جزءاً ولم يعثر على الباقي. ٢. شرح الأصول الخمسة: ص ١٢٣.

(٣٠٢)

تجب معرفته بنفس عنوانه ولا يكفي في معرفته عرفان عدله سبحانه، بحجّة أن النبوات والشرائع داخله تحته، فمن عرف الله سبحانه بالعدل كفى في معرفة ما يقع تحته. ولعلّ المعارف العقلية التي يستقلّ العقل بعنوانها من مقولة القسم الأول. وقسم آخر يكفي فيه

الاعتقاد بالعنوان البعيد ولا يلزم الاعتقاد بشخصه، كالاتفاق ببعض الخصوصيات الواردة في الحياة البرزخية والأخروية. *** ٢- ما يلزم المكلف عرفانه من أصول الدين

عَرَفَ المتكلمون أصول الدين بما يجب الاعتقاد به على وجه التفصيل أو الاجمال» ويقابلها الفروع فهي ما يجب العمل به. ويظهر من القاضي أنه يجب على كل مسلم، عالماً كان أو غيره، الاعتقاد بالأصول الخمسة أما التوحيد والعدل فذلك لوجهين: ١- إن في ترك الاعتقاد بالتوحيد والعدل مظنة الضرر ويخاف الإنسان من تركه. ٢- إنه لطف في أداء الواجبات واجتناب المقبحات. وأما الأصول الأخر فيجب الاعتقاد بها، لأن العلم بكمال التوحيد والعدل موقوف على ذلك، ألا ترى أن من جوز على الله تعالى في وعده ووعيد الخلف والاخلال بما يجب عليه من إزاحة علمه المكلفين وغيره فإنه لا يتكامل له العلم بالعدل، ولا فرق في ذلك بين من يسلك طريقة العلماء وبين من لا يكون كذلك، لأن العامى أيضاً يلزمه معرفة هذه الأصول على سبيل الجملة، وإن لم يلزمه معرفتها على سبيل التفصيل، لأن من لم يعرف هذه الأصول، لا على الجملة، ولا على التفصيل، لم يتكامل علمه بالتوحيد والعدل (١). يلاحظ عليه أولاً: - أن القول بلزوم معرفة الأصول الخمسة على النحو الذي ————— ١. شرح الأصول الخمسة: ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣٠٣)

تسرده المعتزلة قول بلا دليل. كيف والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبل إسلام من شهد الشهادتين وإن لم يشهد على بعض هذه الأصول، ومعنى الشهادة الثانية هو التصديق بكل ما جاء به وهذا يكفي في تسمية الشاهد مسلماً إذا اعترف بلسانه، ومؤمناً إذا اعترف بقلبه. وعلى ضوء ذلك فلا يلزم عرفان هذه الأصول، لا على وجه التفصيل أى بالبرهنة والاستدلال، ولا على وجه الاجمال أى تلقياً أصولاً مسلماً. وثانياً: أنه لو صح ما ذكره من البيان بطل الاقتصار على الأصول الخمسة، لأن الاعتقاد بالنبوات والشرائع والمعاد وحشر الأجساد مما يتكامل به العلم بالعدل، فمن لم يعرفها، لا على وجه الجملة ولا على وجه التفصيل، لم يتكامل اعتقاده بالتوحيد والعدل، وقس عليه سائر الأصول. والذي يمكن أن يقال في المقام أن ما يجب تحصيله من هذه الأصول الخمسة هو وجوب معرفة وحدانيته على الوجه اللائق به، وأما الأصول الأربعة فلا- دليل على وجوب عرفانها بعينها استدلالاً أو تعديداً. *** ٣- سبب الاقتصار على الأصول الخمسة

قد تعرّف على أنه لا وجه للاقتصار على الأصول الخمسة، لما مرّ من أن أمر النبوات والشرائع والمعاد أولى بأن يعدّ من الأصول، غير أن القاضي حاول أن يبين وجه الاقتصار على الخمسة فقال: «إن المخالف في هذه الأصول ربّما كفر و ربّما فسق و ربّما كان مخطئاً. أما من خالف في التوحيد ونفى عن الله تعالى ما يجب إثباته، وأثبت ما يجب نفيه عنه، فإنه يكون كافراً. وأما من خالف في العدل وأضاف إلى الله تعالى القبائح كلّها من الظلم والكذب وإظهار المعجزات على الكذّابين وتعذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم (٣٠٤)

والإخلال بالواجب، فإنه يكفر أيضاً. وأما من خالف في الوعد والوعيد وقال: إنه تعالى ما وعد المطيعين بالثواب، ولا توعد العاصين بالعقاب البتة، فإنه يكون كافراً، لأنه ردّ ما هو معلوم ضرورة من دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكذا لو قال: إنه تعالى وعد وتوعد ولكن يجوز أن يخلف في وعيده، لأن الخلف في الوعد كرم، فإنه يكون كافراً لإضافته القبيح إلى الله تعالى. فان قال: إن الله تعالى وعد وتوعد، ولا يجوز أن يخلف في وعده و وعيده، ولكن يجوز أن يكون في عمومات الوعد شرط أو استثناء لم يبيته الله تعالى، فإنه يكون مخطئاً. وأما من خالف في المنزل بين المنزلتين، فقال: إن حكم صاحب الكبيرة حكم عبدة الأوثان والمجوس وغيرهم فإنه يكون كافراً، لأننا نعلم خلافه من دين النبي والأئمة ضرورة. فان قال: حكمه حكم المؤمن في التعظيم والموالاة في الله تعالى، فإنه يكون فاسقاً، لأنه خرق إجماعاً مصرحاً به على معنى أنه أنكر ما يعلم ضرورة من دين الأئمة. فان قال: ليس حكمه حكم المؤمن ولا حكم الكافر ولكن أسّميه مؤمناً، فإنه يكون مخطئاً. وأما من خالف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً، وقال: إن الله تعالى لم يكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً، فإنه يكون كافراً، لأنه ردّ ما هو معلوم ضرورة من دين النبي و دين الأمة.

فان قال: إن ذلك ممّا ورد به التّكليف، ولكنّه مشروط بوجود الإمام فإنّه يكون مخطئاً^(١). يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من الوجوه الثلاثة من الكفر والفسق والخطاء، لا تختصّ ————— ١. شرح الأصول الخمسة، ص ١٢٥ - ١٢٦، يريد من العبارة الأخيرة الشيعة الامامية القائلين بأنّ بعض المراتب من الأمر بالمعروف مشروط بوجود الامام المعصوم مع بسط اليد.

(٣٠٥)

بهذه الخمسة، فهناك أصول حالها حال الخمسة. فإنّ منكر نبوة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أو عالمية رسالته أو خاتمتيتها كافر. ومنكر عصمته بلا- شفاستق، ومعها مخطيء. وهناك وجه آخر لتخصيص الخمسة من الأصول بالذكر أشار إليه القاضي في كلامه وقال: «إنّ خلاف المخالفين لنا لا يعدو أحد هذه الأصول. ألا ترى أنّ خلاف الملحده والمعطله والدهرية والمشبّهة قد دخل في التوحيد. وخلاف المجبره بأسرهم دخل في باب العدل. وخلاف المرجئه دخل في باب الوعد والوعيد. وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين. وخلاف الإمامية دخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»^(١). وهذا الوجه وإن صحّح سبب الاقتصار على الخمسة، لكنّه يدلنا على شيء آخر غريب في باب العقائد والأصول، وهو أنّ السابر في كتب الحنابلة والأشاعرة والمعتزلة يقف بوضوح على أنّ أكثر الأصول التي اتخذتها الطوائف الإسلامية أصولاً عقائدية ليست إلّا أصولاً كلامية ناتجة من المعارك العلمية، وليست أصولاً للدين أعني ما يجب على كلّ مؤمن الإيمان به بالتفصيل والبرهنة أو بالاجمال وإن لم يقترن بالبرهان. والأصول الخمسة التي يتبناها المعتزلة مؤلفة من أمور تعدّ من أصول الدين كالتوحيد والعدل على وجهه، ومن أصول كلامية أنتجوها من البحث والنقاش، وأقحموها في الأصول لغاية ردّ الفرق المخالفة التي لا توافقهم في هذه المسائل الكلامية. وعند ذاك يستنتج القارئ أنّ ما اتخذته المعتزلة من الأصول، وجعلته في صدر آرائها ليست إلّا آراء كلامية لهذه الفرقة، تظاهروا بها للردّ على المجبره والمشبّهة والمرجئه والإمامية وغيرهم من الفرق على نحو لولا- تلكم الفرق لما سمعت من هذه الأصول ذكراً، «وليس هذه أول قارورة كسرت في الإسلام»، فإنّ السلفيين وأهل الحديث والحنابلة وبعدهم الأشاعرة ذهبوا هذا المذهب فقاموا بتنظيم قائمة بينوا فيها «قولهم

————— ١. شرح الأصول الخمسة، ص ١٢٤.

(٣٠٦)

الذي يقولون به، وديانتهم التي يدينون بها»^(١). و بينوا «مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السنّة، فمن خالف شيئاً منها في هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج أهل السنّة وسبيل (٢)لحق». وفي الوقت نفسه إن أكثر ما جاء في قائمتي الشيخين أصول كلامية نتجت من البحث والنزاع، و صفت لدى الشيخين بعد عراقك، ومن تلك الأصول القول بقدم القرآن و كونه غير مخلوق، مع تصريح أئمة الحديث بعدم ورود نصّ في ذلك من الرسول ومنها كون خير الأمة الخلفاء الراشدين و يتفاضلون بحسب تقدّم تصديهم للخلافة، فالأول منهم هو الأفضل ثمّ الثاني ... ومعنى هذا أنّ الأصول التي يدين بها أهل السنّة لم تكن منتظمة ولا مرتبة في عصر الرسول والصحابة ولا التابعين، وإنّما انتظمت بعد احتكاك الآراء واختلاف الأفكار حتّى أنتج البحث والنقاش هذه الأصول والكلّيات. وإنّ ذا من العجب. إنّ الأصول التي يدين بها أهل الحديث والأشاعرة هي التي مرّقت الأمية الواحدة تمزيقاً، وصيرتها فرقا شتى، وما هذا إلّا لأجل إصرارهم على أنّ هذه الأصول أصول الديانة، والزائل عنها خارج عن الجماعة. وكان في وسعهم التفريق بين الأصول العقائدية التي لا- متدح لمسلم عن عرفانها والإيمان بها إجمالاً أو تفصيلاً، والأصول الكلامية التي وصل إليها البحث الكلامي بفضل النقاش في ضوء الكتاب والسنّة والبرهان العقلي القائم على أصول موضوعية مبرهنة. وعند ذلك تتجلى عندك حقيقة ناصعة وهي أنّ أكثر الفرق التي عدّها أصحاب الملل والنحل والمقالات فرقا إسلامية، فإنّما هي فرق كلامية وليست فرقا دينية إسلامية داخله في الثلاث والسبعين فرقة بحيث تكون الواحدة منها ناجية والبواقي هلكي، لأنّ الإذعان بحكم مرتكب الكبيرة ليس ملاكاً للنجاة والهلا-ك حتّى تكون فرقة منهم من ————— ١. هذه نفس عبارة الشيخ الأشعري في «الابانة» الباب الثاني، ص ١٧. ٢. وهذه نفس عبارة إمام الحنابلة في كتابه «السنّة»، ص ٤٤.

(٣٠٧)

أهل النجاة و غيرهم من أهل النار، ويكون الإيمان منوطاً بالإذعان به، وعدم الإيمان موجباً للخروج عنها، بل أقصى ما يقال في حق هذه الأصول أنها أصول حقة صحيحة دل على صحتها الدليل، ولكن ليس كل حق مما يجب الإذعان به أو يؤخذ على عدم الاعتقاد به. هذا هو الشيخ أبو جعفر الطحاوي المصري (م ٣٢١) كتب رسالة حول عقيدة أهل السنة تشتمل على مائة و خمسة أصول زعم أنها عقيدة الجماعة و السنة على مذهب فقهاء الأمة: أبي حنيفة، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد ابن الحسن الشيباني (١) وقد كتب على هذه الرسالة شروح و تعاليق، واحتلت مكانها بعد زمن - «العقائد النسفية». وللأسف أن كل أصل من الكتابين رد على فرقة و مله. فصارت الأصول الإسلامية عبارة عن عدة أصول يرد بكل أصل مله و نحله، كالملاحدة و المجبرة و القدرية و الراضة من الفرق الكلامية التي أنجبتها الأبحاث و التيارات الفكرية. ثم إنني وقفت بعد ما حررت على ما نقلته المستشرق «سوسنه ديفلد» محقق كتاب «طبقات المعتزلة» لابن المرتضى عن الأستاذ «هريرا»: «من أراد أن يفهم إحدى العقائد السنية فعليه أن يستحضر في خاطره أن كل جملة منها إنما هي رد على إحدى الفرق المخالفة لها من الشيعة و الخوارج و المرجئة و الجهمية و المعتزلة، ولقد تشكلت عقيدة أهل السنة برد الفرق الضالة التي لم تسم «ضاللة» إلا بعد غلبة أصحاب السنة و الجماعة» (٢). فواجب على الباحث المنصف الذي يتغى الحقيقة، التفكيك بين أصول الدين و الأصول الكلامية. وعند ذلك تحصل الوحدة بين الأمة أو تقرب الخطى بين الفرق، ويقال التشاح و النزاع المؤدى إلى الهلاك. إذا عرفت هذه الأمور فلنأخذ بتفصيل الأصول الخمسة واحداً بعد آخر:

١. شرح العقائد الطحاوية: ص ٢٥. ٢. طبقات المعتزلة لابن المرتضى: المقدمة. ط بيروت.

(٣٠٨)

الأصل الأول التوحيد

الأصل الأول التوحيد

عرّف التوحيد في مصطلح المتكلمين بأنه العلم بأن الله سبحانه واحد لا يشاركه غيره في الذات و الصفات و الأفعال و العبادة و بالجملة (ليس كمثل شئ) (الشورى/١١). والذي يصلح للبحث عنه في هذا الأصل عبارة عن الأمور التالية: ١- إثبات وجوده سبحانه في مقابل الدهرية و المادية القائلين بأصالة المادة و قدمها و غناها في الفعل و الانفعال و إيجاد الأنواع عن قدره خارجة عن نطاقها. ٢- إنه سبحانه واحد لا ثاني له، بسيط لا جزء له، فهو الواحد الأحد، خلافاً للثنوية و المانوية في الواحديّة، وللنصاري في الأحديّة. ٣- عرفان صفاته سبحانه سواء أكانت من صفات الذات ككونه عالماً قادراً حياً سمياً بصيراً مدركاً، أم من صفات الأفعال ككونه خالقاً رازقاً غافراً. ٤- كفيته استحقاقه لهذه الصفات و تبين وجه حملها عليه سبحانه، فهل تحمل عليه كحملها على سائر الممكنات أو لا؟ ٥- تنزيهه سبحانه عما لا يليق به كالحاجة و كونه جسماً أو جسمائياً، عرضاً أو جوهرراً أو غير ذلك. ٦- تنزيهه سبحانه عن إمكان الرؤية التي يتبناها أهل الحديث و الأشاعرة (٣٠٩)

بحماس. فمع أن هذه الأبحاث الستة صالحة للبحث في هذا الأصل، لكن نرى أن المعتزلة يركزون على البحث عن الرابع و السادس أكثر من غيرهما، و يمزون على الأبحاث الباقية مروراً إجمالياً. وما هذا إلا لأن أهل الحديث و الأشاعرة متفقون معهم فيها. وهذا أيضاً يؤيد ما ذكرنا من أن الأصول العقائدية إنما رتب و نظمت بين كل فرقة لأجل الرد على مخالفيها لا لبيان الأصول التي يناط بها الإسلام و الإيمان في عصر النبي و الصحابة. ولأجل ذلك صار التوحيد عند المعتزلة رمزاً للتنزيه، فكلمة أطلقت هذه الكلمة، انصرفت أذهانهم إلى تنزيهه سبحانه عما لا يليق به في باب الصفات و مجال الروية. وبما أنهم ينفون الصفات الزائدة على ذاته سبحانه، و تثبتة الأشاعرة و قبلهم أهل الحديث، صارت الصفاتية شعاراً لهذه الفرقة. إذا وقفت على ذلك فلنركز على النقاط التي يرجى تبينها في زاوية فكر الاعتزال و نظوى الكلام عن غيرها لعدم الخلاف، فنقول: إن البحث عن صفاته سبحانه يتمركز على نقاط ثلاث: الأولى:

تبيين كيفية استحقاقه سبحانه لصفاته الكمالية وحملها عليه، فهل هذه الصفات حادثه أو قديمة، زائده على الذات أم لا؟ الثانية: تبيين كيفية حمل الصفات الخبرية عليه الواردة في الذكر الحكيم من اليد والوجه والعين، فهل تحمل على الله سبحانه بظواهرها الحرفية كما عليه السلفية والأشاعرة، أو تحمل عليه بظواهرها التصديقية، أو لا هذا ولا ذاك بل تؤول لقرائن عقلية؟ الثالثة: نفى الرؤية الحسية التي يدعيها أهل الحديث. فلنرجع إلى تبيين النقطة الأولى أعني كيفية حمل الصفات عليه. (٣١٠)

أ - نفى الصفات الزائدة على ذاته اتفق أهل الحديث والكلابية وتبعهم الشيخ الأشعري على أن الله سبحانه صفات ذات كماله قديمة، زائدة على ذاته. قال القاضي: «وعند الكلابية إنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان أزلية، وأراد بالأزلي القديم، إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا قديم مع الله تعالى لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك، ثم نبغ الأشعري وأطلق القول بأنه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان قديمة لوقاحته وقله مبالاته بالإسلام والمسلمين» (١) ورائدهم في هذه العقيدة هو الظواهر القرآنية. قال سبحانه: (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) (النساء/١٦٦)، وقال تعالى: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) (فاطر/١١). وقال عز من قائل: (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ) (الذاريات/٥٨). قالوا: إن ظواهر هذه الآيات تعرب عن أن هنا ذاتاً ولها علم ولها قدرة كلاهما يغييران ذاته. ولو كانا نفس ذاته لما صح التعبير بقوله (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) أو (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ) ومثلها سائر الآيات الظاهرة في مغايرة الصفات للذات (٢). هذا دليل أهل الحديث والكلابية والأشاعرة و نرجع إلى تبيين مفاد الآيات بعد الفراغ من دليل المعتزلة. تشيئة القديم في نظرية أهل الحديث إن هذه النظرية التي يتبناها أهل الحديث اغتراراً بظواهر النصوص، تؤدي إلى تعدد القديم المنتهي إلى تعدد الواجب حسب عدد الصفات، وأي ثبوت أسوأ من هذه؟ فلو قالت الثبوتية بأصلين أزليين هما النور والظلمة، وقالت المانوية بأن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، أو قالت التصارية بالأقانيم ١ - شرح الأصول الخمسة: ص ١٨٣. ٢ - لاحظ: الابانة للشيخ الأشعري: ص ١٠٧.

(٣١١)

الثالثة فقد قال هؤلاء الأشاعرة بقدماء كثيرين بحسب تعدد الصفات. وبذلك تقف على أن الحافز على التركيز على نفى الصفات الزائدة، هو التحفظ على التوحيد و وحدانية الواجب والقديم، ونفى المثل والنظير له أخذاً بقوله سبحانه (ليس كمثله شيء) و (قل هو الله أحد). فمن المحتمل عند البعض أن المعتزلة أرادوا بهذا، الرد على فكرة الأقانيم لدى التصارية، فإن القول بأن الذات الإلهية جوهر يتقوم بأقانيم أي صفات هي الوجود والعلم والحياة، قد أدى إلى الاعتقاد باستقلال الأقانيم عن الجوهر، وإلى اعتبار الصفات أشخاصاً، وإلى تجسيد «الاقنوم الثاني» - ااقنوم العلم - في الابن. فلموا جهة هذا الاعتقاد نفى المعتزلة وصف الله بأنه جوهر واعتبروا الصفات هي الذات غير مغايرة لها، فصفات الله ليست حقائق مستقلة وإنما هي اعتبارات ذهنية، ويمكن أن تختلف وجوه الاعتبارات في النظر إلى الشيء الواحد دون أن يلزم من ذلك التعدد في ذاته، فيقال عالم ونعني إثبات علم هو ذاته، ونفي الجهل عن ذاته، ويقال: قادر ونعني إثبات ذاته ونفي العجز، فالله حي عالم قادر بذاته لا ب حياة وعلم وقدرة زائدة على ذاته (١). يلاحظ عليه: أنه إنما يصح لو كانت الصفات الذاتية منحصرة في الثلاث: العلم والقدرة والحياة حتى يقال إن الهدف من القول بالعبثية نفى توهم التثليث، بل الصفات الذاتية أكثر من ذلك. أضف إلى ذلك أن تفسير عقيدة المعتزلة في باب الصفات بأنها ليست حقائق مستقلة وإنما هي اعتبارات ذهنية، غير تامة ناشئة من تفسير خصومهم بما ذكر، بل الحق أن مرادهم هو أن واقعية خارجيه بسيطة تجمع هذه الواقعات ببساطتها و وحدتها، لا- أنها اعتبارات ذهنية، وليست للصفات واقعية خارجيه، فإنه لا ينطبق إلا على القول بالنيابة. ١ - نهاية الاقدام في علم الكلام للشهرستاني: ص ١٩٢ - ١٩٤، و «في علم الكلام» قسم المعتزلة للدكتور أحمد محمود صبحي، ص ١٢٣.

(٣١٢) محاولة الأشاعرة لتصحيح تشيئة القديم

لما كان ما استند إليه أهل الاعتزال من البرهان في نفى الصفات الزائدة برهاناً دامغاً قاطعاً للنزاع، حاول أهل التفكير من الأشاعرة نقده، ولكن أتوا بالعجب العجاب. فهذا هو القاضي عضد الدين الإيجي يجيب عن البرهان في موافقه بقوله: «إن الكفر إثبات ذوات قديمة

لا ذات وصفات» (١) وقد أقره شارحه الشريف الجرجاني. وهو من الوهن بمكان، إذ هو أشبه بتخصيص القاعدة العقلية، والقاعدة العقلية لا تخصيص. إذ لسائل أن يسأل: أي فرق بين الذات والوصف حتى يكون القول بتعدد الأول موجباً للكفر دون الثاني، مع أن ملاك الكفر موجود في كلا الموضوعين، فإن القول بتعدد القدماء قول بتعدد الواجب، قول بتعدد الغنى بالذات المستغنى عن غيره، قول بتعدد من يكون وجوده عن ذاته لا عن غيره، وهذا كله من صفات البارى عز اسمه، فلو كانت صفاته غير ذاته و كانت قديمة، تكون واجبة غنية عن كل شيء، واجدة لوجودها. وهناك محاولة ثانية للتخلص عن تعدد القدماء وهى القول بأن الصفات لا هو ولا غيره (٢) وهذا أشبه باللغز مع أن العقائد الإسلامية تتسم بسمه الوضوح والسهولة، لا التعقيد والغموض الذى ربما ينتهى فى المقام إلى رفع النقيضين. ولو قال بحدوث الصفات - ولن يقول أبداً - يكون الفساد أفحش، والمصيبة أعظم، لأن اتصافه بالقدرة الحادثة مثلاً إما بالاختيار وإما بالإيجاب. والأول محال لاستلزامه محذور التسلسل فى صفاته، لأن الكلام ينتقل إلى القدرة الثانية. فهل اتصافه بها عن اختيار أو بإيجاب؟ فعلى الأول يعود السؤال فيلزم التسلسل. وعلى الثانى يلزم أن يكون فاعلاً موجباً بالذات، وأنى نقص أعظم من تصوير مبدأ الكمال والجمال وخالق _____ ١. المواقف: ص ٢٨٠. ٢. أوائل المقالات: ص ١٧.

(٣١٣)

القدرة والاختيار فى الإنسان، فاعلاً موجباً فى اتصافه بصفاته، فلو صح كونه موجباً فى مورد، فليصح فى سائر الموارد ككونه فاعلاً موجباً بالقياس إلى مصنوعاته. وهذه الأمور هى الحوافز الحقيقية التى دعت المعتزلة إلى القول بالتوحيد والتزيه فى باب الصفات ونفى الصفات الزائدة والمعانى القائمة بذاته، ولم يكن الحافز إلا الفرار عن الثنوية وتوابعها. ومن الجسارة الواضحة بل الظلم الفاحش اتهم هذه الفرقة بما كتبهم عنه أهل الملل والمقالات. فهذا الأشعرى يتهمهم بقوله «أرادت المعتزلة أن تنفى أن الله عالم قادر حتى سمع بصير، فمنعهم خوف السيف من إظهارهم نفى ذلك، فأتوا بمعناه، لأنهم إذا قالوا: لا علم لله ولا قدرة له، فقد قالوا: إنه ليس بعالم ولا- قادر و وجب ذلك عليهم، وهذا إنما أخذوه عن أهل الزنادقة والتعطيل، لأن الزنادقة قال كثير منهم إن الله ليس بعالم ولا قادر ولا حتى ولا سمع ولا بصير، فلم تقدر المعتزلة أن تفصح بذلك فأتت بمعناه وقالت: إن الله عالم قادر حتى سمع بصير من طريق التسمية (الكتاب والسنة) من غير أن يثبتوا له حقيقة العلم والقدرة والسمع والبصر. وحاصل (١) تحليل الشيخ أن المعتزلة كانت بصدد نفى الأسماء والصفات وفاقاً للزنادقة، فلم يقدروا عليه خوفاً من السلطة، ولكنهم نفوا العلم والقدرة والحياء حتى يتسنى لهم نفى الأسماء والصفات (العالم والقادر) بالملازمة، فمثلهم كمثل من خرج من الباب موهماً للانصراف ثم دخل من النافذة. تلك والله جراءة فى الدين و جسارة بلا مبرر، والآثار الباقية من المعتزلة تبين لنا جهة إصرارهم على نفى الصفات الزائدة على الذات. وليست الغاية نفى أسمائه وصفاته وتصوير كونه سبحانه غير عالم ولا قادر، بل الغاية نفى الثنوية وتعدد الواجب. قال القاضى: «لو كان عالماً بعلم، لكان لا يخلو إما أن يكون موجوداً أو معدوماً، _____ ١. الابانة: ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٣١٤)

لا يجوز أن يكون معدوماً، وإن كان موجوداً فلا يخلو إما أن يكون قديماً أو محدثاً، والأقسام كلها باطله، فلم يبق إلا أن يكون عالماً بذاته على ما نقوله» (١). وقال أيضاً: «لو كان يستحق هذه الصفات لمعان قديمة، وجب أن تكون هذه المعانى مثلاً لله تعالى... إلى آخر ما أفاده» (٢). كل ذلك يعرب عن أن الداعى لنفى الصفات الأثرية هو تنزيهه سبحانه عن المثل بل الأمثال. تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. نعم هناك حافزان آخران صاروا سببين لنفى الصفات الزائدة على الذات نشير إليهما: ١- تركيب الذات مع الصفات، فإنه سبحانه كما هو واحد لا- نظير له ولا- مثيل فهو عز وجل «أحد» بسيط لا- جزء له، والتركيب حليف الامكان، لأن المركب متقوم بالأجزاء، والمتقوم لا يكون واجباً ولا غنياً. ٢- استلزام القول بالصفات الزائدة على الذات كونه سبحانه ناقصاً مستكملاً بالخارج عن ذاته و حيطه وجوده، مع أنه سبحانه كل الجمال والكمال، لا يشد كمال عن حيطه وجوده، ولا جمال عن حد ذاته. ولأجل هذين الأمرين مع ما تقدم من حديث تعدد القدماء اشتهرت المعتزلة بنفاة الصفات «الصفات الزائدة على الذات» كما اشتهرت الأشاعرة

بالصفاتية، متظاهرين بأن هناك ذاتاً ووصفاً، والذات غير الوصف، وكلاهما قديمان. إذا عرفت موقف المعتزلة في نفى الصفات الزائدة على الذات، فهلم معي نقرأ بحثاً آخر من هذا المقام وهو تبين كيفية حمل الصفات على ذاته سبحانه على مذهبهم، إذ كيف يمكن توصيفه سبحانه بأنه عالم وقادر مع القول بعدم الصفات الزائدة على ————— ١ . شرح الأصول الخمسة: ص ١٨٣ . ٢ . المصدر نفسه: ص ١٩٥، ولاحظ ص ١٩٧. ولاحظ الملل والنحل: ج ١ ص ٤٦ في تبين القاعدة الأولى من القواعد الأربع التي اختارها واصل بن عطاء، ترى فيها التصريح منه بأن الغاية لنفى الصفات هو التنزيه.

(٣١٥)

الذات أي عدم العلم والقدرة المغايرين لها. وهذا هو البحث المهم في المقام، فنقول: إن لهم في تبين كيفية الحمل آراء مختلفة بين صحيح وزائف وإليك الإشارة إلى عناوين مذاهبيهم إلى أن نأخذ بالتفصيل. أ - مذهب أبي الهذيل: إنه عالم بعلم هو هو. ب - مذهب أبي علي الجبائي: إنه يستحق هذه الصفات الأربع التي هي كونه قادراً، عالماً، حياً، موجوداً لذاته. ج - مذهب أبي هاشم: إنه يستحقها لما هو عليه في ذاته (١). هذه هي مذاهبيهم الثلاثة في تبين كيفية الحمل، وقد حاق بها الابهام، وإليك التوضيح: توضيح مذهب أبي الهذيل

إن أبا الهذيل من كبار رجال الاعتزال و أحد شيوخ مدرسة البصرة، توفي سنة ٢٣٥ هـ و يعتبر أول من نظم قواعد الاعتزال و وضع أصوله، ولكن الزمان عبث بكتبه، ولأجل ذلك طرأ على مذهبه الابهام حتى إن القاضي عبدالجبار أرجعه إلى مذهب أبي علي الجبائي و قال: «أراد أبو الهذيل ما ذكره الشيخ أبو علي إلا أنه لم تتلخص له العبارة» (٢). لكن ما نقل عنه حول مذهبه في علم الباري يدفعنا إلى القول بأن مذهبه في باب الصفات يغير مختار الجبائي وإليك هذه الكلمات: قال الشيخ الأشعري: «والفرقة الهذيلية يزعمون أن الله علماً هو هو، و قدره هو هو، و حياة هو هو، و سمعاً هو هو، و كذلك قالوا في سائر صفات الذات» (٣). ————— ١ . شرح الأصول الخمسة: ص ١٨٢ . ٢ . المصدر نفسه: ص ١٨٣ . ٣ . مقالات الاسلاميين: ص ١٧٩.

(٣١٦)

قال الشهرستاني: «انفرد أبو الهذيل بعشر قواعد، الأولى: إن الباري تعالى عالم بعلم و علمه ذاته، قادر بقدره و قدرته ذاته، حتى بحياة و حياته ذاته، وإنما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته بل هي ذاته» (١). ولو صح نقل هذه الكلمات عن أبي الهذيل فهو لا يهدف إلى إنكار أسمائه كالعالم و القادر و الحى، ولا إلى إنكار صفاته من العلم و القدرة و الحياة، بل يعترف بهما معاً، غير أنه يقول باتحاد الصفات مع الذات وجوداً و عينية، و تغايرهما مفهوماً دفعاً للاشكالات المتوجهة إلى القول بالزيادة. ولأجل إيقاف القارئ على مرام الشيخ أبي الهذيل نأتى بالتوضيح التالي: إن المتبادر من قولنا «عالم، قادر، حى» في نظر أهل اللسان هو الذات الموصوفة بالعلم و القدرة و الحياة، بمعنى أنه يتبادر مفهوم بسيط ينحل إلى ذلك المركب م آلاً. فتكون هناك اثني عشر باعتبار أن هناك موصوفاً و معروضاً و وصفاً و عرضاً. هذا هو المتبادر في الاستعمالات العرفية، ولا يمكن إنكار ذلك أبداً. ولكنه بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله، لاستلزامه ثنية الواجب أولاً، وتركبه من شيئين ثانياً، واستكمالها بغيره ثالثاً. فلأجل ذلك يجب أن يصار في توصيفه سبحانه إلى فرض آخر يحفظ معه أمران: كونه سبحانه واجداً لحقيقة العلم و القدرة و الحياة حتى لا يلزم التعطيل، و كونه واحداً بسيطاً غير مركب من شيء و شيء حتى لا ترد الاشكالات الثلاثة الماضية، و التحفظ على هذين الأمرين لا يحصل إلا بالقول بأن أوصافه سبحانه و نعوته كلها موجودة بوجود واحد وهو وجود الذات، وهي بمفردها مصداق لهذه النعوت، و يكفى نفس وجودها في حمل هذه الصفات الكمالية عليها بلا طرؤ تعدد في مرحلة الذات. ولأجل تقريب المطلب وأنه يمكن أن تحمل صفات كثيرة على شيء ————— ١ . الملل والنحل: ج ١، ص ٤٩ - ٥٠.

(٣١٧)

واحد، و ينتزع منه مفاهيم عديدة، نأتى بمثال و إن كان الفرق بين المثل و الممثل عظيماً، ولكن الهدف هو التقريب لا التشبيه. إذا

تصوّرنا الإنسان الخارجي و فرضنا له ماهية، فلها ذاتيات - كالحیوان والناطق يعدّان من الأمور الذاتية بالنسبة إلى ماهيته، فهذه الذاتيات موجودة بوجود واحد شخصي من دون أن تكون حيشية الحيوان في الخارج غير حيشية الناطق، بل الإنسان الخارجي كلّه بوحدته مصداق للحيوان، كما هو كلّ مصداق للناطق. فهنا شيء واحد و هو الشخصية الخارجية التي هي مصداق الإنسان، يصحّ أن ينتزع منه مفاهيم كثيرة من دون أن تتلم وحدته. وعلى ضوء هذا المثال نقول: إنّ ذاته سبحانه بوحدتها و بساطتها، مصداق لكونه عالماً وقادراً و حياً، وليست حقيقة العلم في ذاته تغاير واقعية القدرة فيه. كما أنّ كليهما لا يغيّران حقيقة الحياة. بل الذات الواحدة بما أنّها موجودة بسيط، مصداق لهذه الكمالات من دون أن تضمّ إلى الذات ضميمه أو تطراً كثرة. وبهذا البيان تحفظ على بساطته، كما تحفظ على كونه واجداً لحقيقة الصفات الكمالية. ولا يهدف هذا البيان إلى إخلاء الذات عن حقيقة هذه الصفات، ولا تعطيلها عن الاتّصاف بها، بل يريد أنّ الذات لأجل كونها كلّ الكمال و كلّ الجمال، وليس فوقها موجود أكمل و أجمل، بوحدتها و بساطتها واجدة لحقيقة هذه الصفات. والفرق بين كونه سبحانه عالماً و كون زيد عالماً، بعد اشتراكهما في كونهما واجدين لحقيقة هذا الوصف، هو أنّه سبحانه ببساطته واجد لهذا الكمال، وذاته مصداق للعلم، ولكنّ زيداً بذاته غير واجد لهذا الكمال و إنّما وصل إليه في مرتبة بعدها. نعم، كونه سبحانه عالماً بهذا المعنى يخالف ما هو المتبادر منه لفظ «العالم» وأشباهه، فإنّ المتبادر منه هو الذات المتّصفه بالمبدأ لا الذات البسيطة المتحقّق فيها المبدأ، والقسم الثاني مصداق جديد لم يتعرّف عليه العرف كما لم يتعرّف عليه الواضع، وإنّما هو مصداق كشف عنه العقل بدقته و غفل عنه العرف لمسامحته، ولكنّه لا يضر (٣١٨)

بالاطلاق، لأنّ العرف لا يتوجّه إلى هذه الدقائق، وأهل الدقّة غير غافلين عن هذا الفرق، وارتكاب خلاف الظواهر بهذا المقدار فراراً عن الاشكالات العقلية كثير النضير (١). ثمّ إنّ القائلين بوحدة الصفات مع الذات لا يعنون منها الوحدة من حيث المفهوم والموضوع له، بداهة أنّ ما يفهم من لفظ الجلالة في قولنا «الله عالم» غير ما يفهم من المحمول كلفظ «العالم» و إنّما يعنون بها الوحدة من حيث العينية والتحقّق، بمعنى أنّ ما هو المصداق للفظ الجلالة هو المصداق للفظ العالم، وهكذا سائر الصفات. برهان بديع لاثبات الوحدة ثمّ إنّ لأهل التحقيق في إثبات الوحدة العينية براهين دقيقة نكتفي بذكر واحد منها: «إنّ بديهة العقل حاكمه بأنّ ذاتاً ما إذا كان لها من الكمال ما هو بحسب نفس ذاتها، فهي أفضل و أكمل من ذات لها كمال زائد على ذاتها، لأنّ تجلّل الأولى بذاتها، وتجلّل الثانية بصفاتها. وما تجلّل بذاته أشرف ممّا يتجلّل بغير ذاته، وإن كان ذلك الغير صفاته. وواجب الوجود يجب أن يكون في أعلى ما يتصوّر من البهاء و الشرف والجمال، لأنّ ذاته مبدأ سلسلة الوجودات و واهب كلّ الخيرات و الكمالات، والواهب المفيض لا محالة أكرم و أمجد من الموهوب المفاض عليه، فلو لم يكن كماله بنفس حقيقته المقدّسة، بل مع اللواحق لكان المجموع من الذات و اللواحق أشرف من الذات المجردة، والمجموع معلول فيلزم أن يكون المعلول أشرف و أكمل من علته وهو محال بين الاستحالة» (٢). هذا هو واقع النظرية و حقيقتها، وأنت إذا لاحظت دليلها وما أوضحناها به ————— ١. قال سبحانه (الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً) (الانفال / ٦٦) فهل يمكن الأخذ بظاهره البدئي في أنّه لم يكن عالماً قبله. ٢. الاسفار: ج ٦، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٣١٩)

تقف على أنّ ما ردّ به تلك النظرية ناش عن عدم الوقوف على مراد القائل، ولو أنّهم كانوا واقفين على مصدر هذه النظرية لما وجّهوا إليها سهامهم المرقوشة، وإليك تلك الردود واحداً بعد الآخر. ١- قال الأشعري: «وألزم أبو الهذيل فقيل له: إذا قلت إنّ علم الله هو الله فقل: يا علم الله اغفر لي و ارحمني فأبى ذلك، فلزمته المناقضة». ٢- وقال: «إنّ من قال عالم ولا علم، كان مناقضاً، كما أنّ من قال علم ولا- عالم كان مناقضاً» (١). يلاحظ عليه: أمّا أولاً: فإنّ أبا الهذيل لم يقل بالوحدة من حيث المفهوم و إنّما قال بالوحدة من حيث التحقق و العينية وما ذكره من النقص إنّما يرد على الوجه الأوّل لا- على الوجه الثاني. فلا- يصحّ أن يقال «يا علم الله اغفر لي»، لأنّ المفهوم من لفظ علم الله غير المفهوم من لفظ الجلالة، فلا- يصحّ أن يوضع «علم الله» من حيث المفهوم مكان لفظ «الله» و يدعى بمفهوم غيره، ولأجل ذلك لا يصحّ أن يقال يا موجود، ويقصد به الله سبحانه، بحجّة أنّ ماهيته إتيته، ووجوده نفس ماهيته. وأمّا ثانياً:

فبأن الشيخ الأشعري خلط بين نظرية أبي الهذيل ونظرية الجبائي الذي تتلمذ عليه الشيخ الأشعري سنين متماذية إلى أن رفضه ورفض مذهبه، وانسلك في عداد الحنابلة. فتصوّر أنّ مذهب أبي عليّ نفس مذهب أبي الهذيل. ففي مذهب أبي عليّ، الذات خالية من الصّفات الحقيقيّة، غير أنّها نائبة منابها، ولأجل هذه النيابة يصحّ الحمل، ويجيء توضيحه عمّا قريب، بخلافه على مذهب أبي الهذيل. ٣- قال البغدادي: «الفضيحة الرابعة من فضائحه (أبي الهذيل) قوله بأنّ علم الله سبحانه وتعالى هو الله وقدرته هي هو، ويلزمه على هذا القول أن يكون الله تعالى علماً وقدره، ولو كان هو علماً وقدره لاستحال أن يكون عالماً قادراً، لأنّ العلم لا يكون ————— ١. الابانة: ص ١٠٨.

(٣٢٠)

عالمًا والقدرة لا تكون قدرة» (١). يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من الاشكال مبنيّ على اقتناص المعارف الإلهية من اللّغة والعرف، أو من باب مقايسة الواجب بالممكن، فيما أنّ العلم والقدرة في الإنسان عرض والإنسان معروض لهما، تخيل أنّ العلم والقدرة في جميع المراتب أعراض لا- تخرج عن حدّها، ولكنّه غفل عن أنّ للعلم والقدرة والحياة مراتب و درجات. فالعلم منه عرض كعلمنا بالأشياء الخارجيّة، ومنه جوهر كعلمنا بذاتنا وحضور ذاتنا لدى ذاتنا، ومنه واجب قائم بنفسه كعلم الله سبحانه بذاته. فعند ذلك لا مانع من أن يكون هناك علم قائم بالذات و قدرة مثلها و حياة كذلك. وهناك كلمة قيمة للحكيم الفارابي حيث يقول: «يجب أن يكون في الوجود وجود بالذات، وفي العلم علم بالذات، وفي القدرة قدرة بالذات، وفي الإرادة إرادة بالذات، حتّى تكون هذه الأمور في غيره لا بالذات». ومصدره (٢) هذه الكلمات العجيبة هو مقايسة الغائب بالشاهد و تصوّر أنّ علمه سبحانه أو قدرته و حياته كعلم الممكنات و قدرتها و حياتها. فذلك هو التشبيه الذي هو الأساس لمذهب أهل الحديث ومن لفّ لفهم. ٤- ذكر الشهرستاني أنّ أبا الهذيل اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أنّ ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه (٣). يلاحظ عليه: أنّه رجم بالغيب ومن الممكن أنّه وصل إليه من خطب الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - كما سيوافيك كلامه، وقد عرفت أنّ المعتزلة في التوحيد والعدل عالة على خطب الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - . ٥- قال القاضي الايجي: «لو كان مفهوم كونه عالماً حيّاً قادراً نفس ذاته، لم يفد ————— ١. الفرق بين الفرق: ص ١٢٧. ٢. تعاليق الاسفار: ج ٦، ص ١٣٥. ٣. الملل والنحل: ج ١، ص ٥٠.

(٣٢١)

حملها على ذاته، وكان قولنا: «الله الواجب» بمثابة حمل الشيء على نفسه». ٦- وقال أيضاً: «لو كان العلم نفس الذات والقدرة نفس الذات لكان العلم نفس القدرة فكان المفهوم من العلم والقدرة واحداً» (١). يلاحظ عليه: أنّ الاشكالين من الوهن بمكان، حتّى إنّ المستشكل لم يقبله. وأساس الاشكال هو الخلط بين الوحدة المفهوميّة والوحدة المصادقيّة، والقائل يقول بالثاني لا بالأوّل. ولأجل ذلك يقول الايجي في دفع الاشكال الأوّل: «وفيه نظر، فإنّه لا يفيد إلاّ زيادة هذا المفهوم على مفهوم الذات، وأما زيادة ما صدق عليه هذا المفهوم على حقيقة الذات فلا». وعند ذلك يصحّ لشيخ الاعتزال أن يتمثل ويقول: وكم من عائب قولاً صحيحاً * وآفته من الفهم السقيم كلام الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - في عينيّة الصفات مع الذات قد ورد في خطب الإمام - عليه السلام - ما يدلّ على نفى زيادة الصفات لله تعالى بأبلغ وجه و أكدّه حيث قال في خطبة من خطبه المشهورة: «أولّ الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصّفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال علام فقد أخلّى منه» (٢). وتوضيح هذه الجمل الدريّة تدفعنا إلى البسط في الكلام ولكنّ المقام لا يقتضيه وإنّما نشير إلى بعضها. ————— ١. المواقف: ص ٢٨٠. ٢. نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

(٣٢٢)

قال - عليه السلام - : «وكمال توحيد الاخلاص له»، يريد تخليصه سبحانه من الزوائد والثواني حتى لا يكون خليطاً مع غيره، ثم فرع على ذلك قوله: «وكمال الاخلاص له نفى الصِّفات عنه» يريد نفى الصِّفات التي وجودها غير وجود الذات لا نفى حقائقها عن ذاته، فإن ذاته بذاته مصداق لجميع النعوت الكمالية والأوصاف الإلهية من دون قيام أمر زائد على ذاته، فعلمه وقدرته و... كلها موجودة بوجود ذاته الأحديّة مع أنّ مفاهيمها متغايرة. وقال - عليه السلام - : «لشهادة كلِّ صفة أنّها غير الموصوف ... الخ» إشارة إلى برهان نفى الصفات العارضة، سواء فرضت قديمة كما عليه الكلاسيّة والأشاعرة أو حادثه. فإنّ الصفة إذا كانت عارضة كانت مغايرة للموصوف بها. فعندئذ يترتب عليه قول: «فمن وصفه فقد قرنه» أي من وصفه بصفة زائدة فقد قرنه بغيره، فان كان ذلك الغير مستقلاً في الوجود يلزم أن يكون له ثان في الوجود، وإن كان غير مستقلّ فيما أنه جزء له فقد جعله مركباً ذا جزأين وإليه يشير بقوله: «ومن ثناه فقد جزأه» ومن المعلوم أنّ من جزأه فقد جهله، ولم يعرفه على ما هو عليه. ومن جهله بهذا المعنى فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، لأنّ الإشارة إلى الشيء حسيّة كانت أو عقليّة تستلزم جعله محدوداً بحدّ خاصّ، ومن حدّه بحد معيّن فقد جعله واحداً بالعدد - إلى آخر ما أفاده. هذا هو توضيح نظريّة أبي الهذيل وهو المختار لدى الإماميّة وعليه خطب الإمام وكلمات أئمّة أهل البيت - عليهم السلام - وعندئذ يحين وقت إيضاح النظرية الثانية المنسوبة إلى أبي علي الجبائي. توضيح مذهب أبي علي الجبائي

إنّ أبا علي الجبائي يقول: إنّ تعالى يستحقّ هذه الصِّفات الأربع التي هي كونه قادراً عالمياً حياً موجوداً لذاته. فهو يهدف إلى نظريّة أخرى يليق أن يتّهم معها (٣٢٣) بالتعطيل.

وقد أوضح الشهرستاني الفرق بين هذه النظرية والنظرية السابقة بقوله: «والفرق بين قول القائل: «عالم بذاته لا بعلم» وبين قول القائل: «عالم بعلم هو ذاته»، أنّ الأول هو نفى الصِّفة، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة، أو إثبات صفة هي بعينها ذات» (١). ولقد أحسن في التوضيح وأصاب الغرض. فعلى هذا القول ليست الذات واجدة لواقعيّات الصِّفات، غير أنّ ما يترقّب من الذات المتصّفة بها، يترتب على ذاته سبحانه وإن لم تكن هناك تلك الصفات. مثلاً أثر الذات الموصوفة بالعلم هو إتقان الفعل وهو يترتب على ذاته سبحانه بلا وجود وصف العلم فيه، وقد اشتهر عندهم «خذ الغايات واترك المبادئ». وصاحب النظرية توفّق في الجمع بين الأمرين الخطيرين. فمن جانب اتّفتت الشرائع السماوية على أنّه سبحانه عالم حيّ قادر. ومن جانب آخر واقعية الصِّفة لا تنفك عن القيام بالغير بحيث لو لم تكن قائمة به لما صدق عليه الوصف. فعندئذ يدور الأمر بين الأمور التالية: ١- نفى كونه عالمياً قادراً حياً... وهذا يكذب اتفاق الشرائع السماوية ووجود آثار الصفات في أفعاله من الإتقان والنظم البارزين. ٢- كون صفاته زائدة على ذاته وهو يستلزم المفاسد السابقة من تعدّد القدماء وغيره. ٣- كون صفاته عين ذاته كما عليه شيخ المعتزلة في عصره «أبي الهذيل» وهو لا يتفق مع واقعية الصفات، فإنّ واقعيّتها نفس قيامها بالغير لا صيرورتها نفسها، فتعيّن القول التالي: ٤- كون ذاته نائبة مناب الصِّفات وإن لم تكن هناك واقعيّتها. وممّن اختار هذا _____ ١. الملل والنحل: ج ١ ص ٥٠.

(٣٢٤)

القول قبل الجبائي هو عبّاد بن سليمان المعتزلي. قال: «هو عالم، قادر، حيّ، ولا أثبت له علماً، ولا قدرة، ولا حياة ولا أثبت سمعاً ولا أثبت بصراً. وأقول: هو عالم لا بعلم، وقادر لا بقدرة، وحيّ لا بحياة، وسميع لا بسمع، وكذلك سائر ما يسمّى به من الأسماء التي يسمّى بها» (١). تقييم نظرية النيابة

إنّ هذه النظرية من الوهن بمكان، فإنّ أبا عليّ لو تأمّل في واقعية الصفات الكمالية لما أصرّ على أنّ واقعيّتها في جميع المجالات والمراحل، واقعية القيام بالغير. وإنّما هي واقعيّتها في بعض المراتب كعلم الإنسان وقدرته وحياته، وليس في جميع المراتب كذلك. وذلك لأنّ الكمالات ترجع إلى الوجود، وله شؤون وعرض عريض. فكما أنّ منه وجوداً رابطاً ورابطياً وجوهراً، فكذا العلم. فمنه عرض قائم بالغير، ومنه جوهر قائم في نفسه كعلم الإنسان المدرك بذاته، ومنه ممكن ومنه واجب، وهكذا سائر الصفات. وعلى ذلك فالإصرار على واقعية واحدة تجمع شتات العلم، إصرار في غير محلّه. فإنّ للعلم وكلّ كمال مثله، إطارات وقوالب ومظاهر ومجالات

تختلف حسب اختلاف المراتب. إذا وقفت على مذهب الوالد (أبي علي) فهل معي ندرس مذهب الولد في باب حمل الصفات الذاتية عليه سبحانه. مذهب أبي هاشم

إن لأبي هاشم في كيفية استحقاق الصفات مذهباً خاصاً عبر عنه القاضي بقوله: «وعند أبي هاشم يستحقها لما هو عليه في ذاته» وعبر عن نظرية أبيه بقوله: «إنه» ١. مقالات الاسلاميين: ج ١، ص ٢٢٥. نعم نقل القاضي في شرح الأصول الخمسة ص ١٨٣ رأياً آخر لسليمان بن جرير وهو غير عباد بن سليمان فلا يختلط عليك الأمر.

(٣٢٥)

يستحقها القديم تعالى لذاته» (١). وقد حاول البغدادي تبين الفرق بقوله: «إن أبا علي جعل نفس الباري علماً لكونه عالماً وقادراً، وخالف أبو هاشم أباه وزعم أن الله عالم لكونه على حال، قادر لكونه على حال وزعم أن له في كل معلوم حالاً مخصوصاً، وفي كل مقدور حالاً مخصوصاً. وزعم أن الأحوال لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا أشياء» (٢). وأوضحه الشهرستاني بقوله: «قال الجبائي: عالم لذاته، قادر حتى لذاته، ومعنى قوله: «لذاته» أي لا يقتضى كونه عالماً، صفة هي علم أو حال توجب كونه عالماً، وعند أبي هاشم: «هو عالم لذاته» بمعنى أنه ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإنما تعلم الصفة على الذات، لا بانفرادها. فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة، أي هي على حياها لا تعرف كذلك بل مع الذات» (٣). وأنت تعلم أن هذه المحاولات تزيد في الغموض، وقد أصبحت نظريته لغزاً من الألغاز لم يقف عليه أحد. قال الشريف المرتضى: «سمعت الشيخ المفيد يقول: ثلاثة أشياء لا تعقل وقد اجتهد المتكلمون في تحصيل معانيها من معتقديها بكل حيلة، فلم يظفروا منهم إلا بعبارات يناقض المعنى فيها مفهوم الكلام: اتحاد النصرانية (التثليث مع ادعاء الوحدة)، وكسب التجارية و أحوال البهشمية» (٤). مما يقال ولا حقيقته عنده * معقولة تدنو إلى الأفهام الكسب عند الأشعري والحال * عند البهشمي وطرفة النظام (٥) ١. شرح الأصول الخمسة: ص ١٢٩. ٢. أصول الدين للبغدادي: ص ٩٢. ٣. الملل والنحل: ج ١، ص ٨٢. ٤. الفصول المختارة: ص ١٢٨. ٥. القضاء والقدر، لعبد الكريم الخطيب: ص ١٨٥.

(٣٢٦)

وبما أن تحقيق نظريته مبني على تحقيق «الأحوال» التي يتبناها أبو هاشم فلنكتف بهذا المقدار. هذا كله حول المسألة الأولى التي تركز المعتزلة عليها عند البحث عن الأصل الأول (التوحيد) وإليك البحث في المسألة الثانية التي يركزون عليها في إطار هذا الأصل، وهي تبين كيفية حمل الصفات الخبرية عليه سبحانه. * * * ب - المعتزلة وحمل الصفات الخبرية (١)

قسّم الباحثون صفاته سبحانه إلى صفات ذاتية و صفات خبرية، فتوصيفه سبحانه بالعلم والقدرة توصيف بصفات ذاتية، كما أن توصيفه بما دل عليه ظواهر الآيات والأحاديث كالوجه واليدين صفات خبرية. وأما عقيدة المعتزلة في هذه الصفات، فقد وصفها الشيخ الأشعري في كتابه بأحسن وجه. وإليك نص كلامه: «أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، وليس بجسم، ولا شبح، ولا جثة، ولا صورة لحم ولا دم، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسمة، ولا -بذى حرارة ولا -برودة ولا -رطوبة ولا -يبوسة، ولا -طول ولا عرض ولا عمق، ولا اجتماع ولا افتراق. ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض، ولا بذى أبعاد و أجزاء و جوارح وأعضاء، وليس بذى جهات ولا بذى يمين و شمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تجوز عليه المماسية ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحدود، ولا والد ولا مولود، ولا تحيط به الأقدار، ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه ١. هذه هي النقطة الثانية التي تركز عليها المعتزلة في هذا الأصل.

(٣٢٧)

الحواس ولا يقاس بالناس، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تجرى عليه الآفات، ولا تحل به العاهات، وكل ما خطر بالبال، وتصوّر

بالوهم فغير مشبه له. لم يزل أولاً، سابقاً، متقدماً للمحدثات، موجوداً قبل المخلوقات، ولم يزل عالماً قادراً حياً ولا يزال كذلك. لا تراه العيون، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأوهام، ولا يسمع بالأسماع، شئ لا كالأشياء، عالم قادر حتى لا كالعلماء القادرين الأحياء. وإنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا إله سواه، ولا شريك له في ملكه، ولا وزير له في سلطانه ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق. لم يخلق الخلق على مثال سبق، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ولا- بأصعب عليه منه، ولا يجوز عليه اجترار المنافع ولا تلحقه المضار، ولا يناله السرور واللذات، ولا يصل إليه الأذى والآلام، ليس بذى غاية فيتناهى، ولا يجوز عليه الفناء، ولا يلحقه العجز والنقص، تقدس عن ملامسة النساء، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء، قال: فهذه جملة قولهم في التوحيد^(١). والسابر في نهج البلاغة يقف على أن المعتزلة أخذت جل هذه الكلمات من خطب الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - لكن باختلاف في التعبير والألفاظ. وقد ذكرت المعتزلة وغيرهم دليلاً عقلياً على تنزيهه سبحانه عن هذه الصفات، خلاصته: أنه سبحانه ليس مادّة ولا مادياً ولا مركباً منهما، وما ليس كذلك يمتنع عليه هذه الصفات. فمن ثبت له حركة أو سكوناً أو يداً أو رجلاً فلا منتدح له عن القول بكونه جسماً أو جسمانياً. هذا هو الحق القراح الذي لا يشك فيه مسلم واع. إنمّا الكلام في تفسير ما ورد من النصوص المشتملة بظواهرها على هذه الصفات. وهذه النقطة هي المخمصة الكبرى للمعتزلة. فلا بدّ لهم من الجمع ما بين العقل والتقل بوجه يقبله العقل، ولا

_____ ١ . مقالات الاسلاميين للاشعري: ص ١٥٥ - ١٥٦. وقد كتب أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (م ٤٤٩) قائمة تشتمل على أصول التنزيه على مذهب الامامية أسماها «البيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان» فمن أراد فليرجع إلى كتز الفوائد، ج ١، ص ٢٤٠ ط بيروت.

(٣٢٨)

يكذبه النقل. ثم إن للباحثين من المتكلمين و أهل الحديث في المقام طرقاً نشير إليها: الأول: الإثبات مع التشبيه والتكييف. الثاني: الإثبات بلا تشبيه ولا تكييف. الثالث: التفويض. الرابع: التأويل. وقد بحثنا عن الوجوه الثلاثة الأولى في الجزء الثاني، وهي خيرة أهل الحديث والأشاعرة. والأمر الرابع هو خيرة المعتزلة. ولأجل ذلك يسمون المؤولة، فيؤولون الآيات المشتملة على اليد والوجه والاستيلاء وغير ذلك، ولنا هنا كلمة موجزة وهي: إن التأويل على قسمين: قسم يرفضه الكتاب ولا- يرضى به العقل وهو تأويل النصوص القرآنية والأحاديث المتواترة بحجة أنها تخالف العقل الصريح فقط، وهذا رأى عازب، بل فكرة خاطئة. فإن ظواهر الكتاب والنصوص الصحيحة لا يمكن أن تكون مخالفة للعقل. ولقد كذب من قال من المؤولة: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر أو إن التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة في العقل هو أصل ضلالة الحشوية^(١). فإن هؤلاء لم يعرفوا موقف الكتاب والسنة الصحيحة، فإن من الممتنع أن يشتمل الكتاب الهادي على ما يصاد العقل الصحيح. وهو القائل (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (محمد/٢٤). وقسم يراد منه تمييز الظاهر التصديقي عن الظاهر الحرفي، وتمييز الظاهر البدوي عن الظاهر الاستمراري (ما يستقر في الذهن بعد التدبر) ومثل هذا لا يتحقق إلا _____ ١ . علاقة الاثبات والتفويض: ص ٦٧، نقلاً عن الصاوي على تفسير الجلالين ج ٣، ص ١٠ وغيره.

(٣٢٩)

بالتأمل في نفس الآية الكريمة و ما احتف بها من القرائن اللفظية أو ما جاء في الآيات الأخر. وهذا القسم لو صحّت تسميته بالتأويل، تأويل مقبول. كيف وهو ليس بتأويل بمعنى صرف الكلام عن ظاهره والأخذ بخلاف الظاهر، بل واقعته تحديد ظاهر الكلام، وتعيينه. وهذا من خواص كل كلام مشتمل على نكات بديعة و معاني رفيعة ألقى لهداية الناس باختلاف طبقاتهم و تعدد ثقافتهم. ومثل هذا لو صحّ عليه أنه أخذ بخلاف الظاهر فإنمّا هو أخذ بخلاف الظاهر الحرفي و رفض لظاهرة الابتدائي. وأمّا الظاهر التصديقي والاستمراري فهو عين الأخذ به. ونمثّل لك مثلاً: إذا قال القائل في تبين سماحة شخص وجوده: «فلان كثير الرماد» فهناك ظاهر حرفي و ظاهر تصديقي، كما أنّ هناك ظاهراً بدئياً و ظاهراً استمراريّاً. فالأول مرفوض جداً، فإن كثرة الرماد في البيت لو لم يكن ذمّاً

لا يكون مدحاً، مع أن القائل بصدد المدح. والثاني مقبول عند العقلاء وعليه يدور رحى الفصاحة والبلاغة وإلقاء الخطب الرنانة و إنشاء الكلم اللذيذة على الأسماع. المعتزلة بين التأويل المرفوض و المقبول إن المعتزلة في تفسير الآيات الواردة في مجال الصفات بين تأويل مرفوض، وتأويل مقبول. فتارة يؤولون الكلام بحجة أنه يخالف العقل ولا- يذكرون للتأويل قرينه مقاليته أو شاهداً من سائر الآيات. وهذا يعرب عن أن الغاية منه هو التخلص من مخالفة النقل مع العقل، وهذا هو التأويل المرفوض، فحاشا أن يكون النقل مخالفاً للعقل. بل المخالفة تترأى إما لعدم تشخيص حقيقة النقل و تخيل ما ليس بظاهرها ظاهراً، أو لاشتباه العقل فيما يحكم و يبرم. وأخرى يؤولون معتمدين على القرائن و الشواهد التي تثبت الظهور التصديقي و توقفنا على أن الظهور البدائي أو التصوري ليس بمراد. وهذا هو التأويل المقبول، (٣٣٠)

وإليه الاستناد في تأويل المتشابهات بالمحكمات و تعيين الظهور التصديقي. ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من التأويلين نأتى بمثالين: ١- قول سبحانه: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسِيتَكَبَّرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) (ص/٧٥). ترى أن القاضي يبادر إلى تأويل الآية بأن اليد هنا بمعنى القوة (١). يلاحظ عليه: أن اليد و إن كانت تستعمل في القوة والنعمة، قال سبحانه (وَأذْكُرْ عِبَادَنَا دَاوُدَ إِذْ أَوْأَىٰ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص/١٧) فإن اليد في هذه الآية مرادة ابتداء بين النعمة والقوة والعضو المخصوص، إلا أن القرينه في الآيات تدل على أنها كناية عن النعمة أو القوة، والقرينه عليه ورودها في قصة داود المشهورة في القرآن. فقد كان ذا نعمة وقوة، أشار إليهما سبحانه في تلك السورة وقال: (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ...) (ص/١٩-٢٩) وهذه الآيات قرينه على أن اليد إنما كنى بها عن النعمة والقوة. إلا أن الآية السابقة تفارق هذه الآية و ليس مثلها وذلك لأجل أمرين: أولاً: إن من المعلوم أن الخالق لا يخلق شيئاً إلا عن قوة، فلا معنى لذكرها إلا أن تكون هنا نكتة، مثل دفع توهم العجز في المتكلم و ليس المقام كذلك كما سيأتى في قوله سبحانه (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ). وثانياً: أنه لو كان المراد منها هو القوة، فما هو وجه التثنية؟ فلأجل ذلك كان اللأزم على القاضي أمثاله، الامعان في الآية حتى يقفوا على الظهور التصديقي، ليستغنوا به عن مخالفة العقل. فنقول: إن اليد في الآية استعملت في العضو المخصوص، ولكنها كنى بها عن الاهتمام بخلقه آدم حتى يتسنى بذلك ذم إبليس على ترك السجود لآدم. فقله سبحانه: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي) كناية عن أن آدم لم يكن مخلوقاً لغيري حتى ————— ١. شرح الاصول الخمسة: ص ٢٢٨.

(٣٣١)

يصح لك يا شيطان التجنب عن السجود له، بحجة أنه لا- صلة له بي، مع أنه موجود خلقته بنفسى، ونفخت فيه من روحى. فهو مصنوعى و مخلوقى المذى قمت بخلقه، فمع ذلك تمردت عن السجود له. فأطلقت الخلقه باليد و كنى بها عن قيامه سبحانه بخلقه، وعنايته بايجاده، وتعليمه إياه أسماءه، لأن الغالب في عمل الإنسان هو القيام به باستعمال اليد، يقول: هذا ما بنيت بيدي، أو ما صنعته بيدي، أو رببته بيدي و يراد من الكل هو القيام المباشري بالعمل، و ربما استعان فيه بعينه و سمعه و غيرهما من الأعضاء، لكنه لا يذكرها و يكتفى باليد. وكأنه سبحانه يندد بالشيطان بأنك تركت السجود لموجود اهتمت بخلقه و صنعته. و نظير ذلك قوله سبحانه: (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) (يس/٧١) فالأيدى كناية عن تفزده تعالى بخلقها، لم يشركه أحد فيه. فهي مصنوعة لله تعالى والناس يتصرفون فيها تصرف الملاك كأنها مصنوعة لهم، فبدل أن يشكروا يكفرون بنعمته. وأنت إذا قارنت بين الآيتين تقف على أن المقصود هو المعنى الكنائى، والمدار في الموافقة والمخالفة هو الظهور التصديقي لا التصوري. قال الشريف المرتضى: «قوله تعالى: (لما خلقت بيدي)» جار مجرى قوله «لما خلقت أنا» و ذلك مشهور في لغة العرب. يقول أحدهم: هذا ما كسبت يداك، وما جرت عليك يداك. و إذا أرادوا نفي الفعل عن الفاعل استعمالوا فيه هذا الضرب من الكلام فيقولون: فلان لا تمشى قدمه، ولا ينطق لسانه، ولا تكتب يده، وكذلك في الاثبات، ولا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح في الحقيقة بل الفائدة فيه النفي عن الفاعل» (١). وأما قوله سبحانه (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات/٤٧)، فالمراد من الأيدى هو القوة و الأحكام، والقرينه عليه قوله: (لموسعون) وكأنه سبحانه ————— ١. امالى المرتضى: ج ١، ص ٥٦٥.

(٣٣٢)

يقول: والسماء بنيناها بقدره لا يوصف قدرها و إنا لذو سعة في القدرة لا يعجزها شيء، أو بنيناها بقدره عظيمة و نوسعها في الخلقه. ومن أراد أن يقف على تأويل غير مقبول في تفسير الآية فعليه أن يرجع إلى كلام الزمخشري في هذا الباب، فإن تأويله أردأ من تأويل القاضي، وهو من ذلك العالم البارع الأديب بعيد جدًّا (١). هذا نموذج من التأويل المردود، وأما التأويل المقبول فحدث عنه ولا حرج، وإليك نموذجاً منه: ٢- قوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (يونس/٣). وقوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف/٥٤). وقد شغل بال المفسرين و أهل الكلام استواؤه سبحانه على العرش، فأقصى ما عند أهل التنزيه من الأشاعره أنه سبحانه مستو على عرشه (جالس أو مستقر عليه) ولكن من غير كيف (٢). وأما المشبهة فهم يقولون بالجلوس على العرش على الكيف والتشبيه. ولو أن القوم تدبروا في نفس الآيتين الماضيتين والآيات الأخر (٣) التي ورد فيها قوله سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، لوقفوا على أن الظهور التصوري وهو كونه سبحانه ذا سرير متربعا عليه، غير مراد قطعاً، إذ لا مناسبة لهذا المعنى مع ما جاء في الآيات من بيان عظمة قدرته وسعة ملكه و تدبيره، وإنه لا يشذ عن علمه شيء، بل ————— ١. لاحظ الكشاف: ج ٣ ص ٢١.

٢. الابانة: باب ذكر الاستواء على العرش، ص ٨٥. ٣. الرعد / ٢، الفرقان / ٥٩، السجدة / ٥، الحديد / ٥، غافر / ١٥، طه / ٨ باختلاف يسير .

(٣٣٣)

المراد هو الظهور التصديقي، وأن الاستواء بمعنى التمكّن والاستيلاء التام، لا الجلوس ولا الاستقرار بعد التزلزل، كما أن المراد من العرش، عرش التدبير و عرش الملك لا-الذي يجلس عليه الملوك. وليس هذا شيئاً غير موجود في الأدب العربي بل هو مملوء من هذه المعاني. أما الاستواء بمعنى الاستيلاء فقد قال الأخطل يمدح بشراً أخا عبد الملك بن مروان حين ولي إمرة العراقيين: قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق فالحمد للمهيمن الخلاق فليس المراد من الاستواء الجلوس أو الاستقرار، بل التمكّن والاستيلاء التام والسيطرة على العراقيين وكسح كل مزاحم ومخالف. وقال الطرماح بن حكيم: طال على رسم مهدد أبده * وعفى واستوى به بلده والمراد استقام له الأمر واستتب. وقال آخر: فلما علونا و استويتنا عليهم * تركناهم صرعى لئس و كاسر هذا حول الاستواء. وأما العرش، فالمتبادر منه تصوراً هو السرير يجلس عليه الملوك، و يدبرون منه ملكهم و يصدرون الأوامر والنواهي. غير أنه هناك كناية عن الملك والسلاطة. يقال: ثل عرش بنى فلان، إذا زال ملكهم. يقول الشاعر: إذا ما بنو مروان ثلثت عروشهم * وأودت كما أودت أياد وحمير فليس المراد تهدم العروش التي كانوا يجلسون عليها، بل كناية عن زوال الملك والسيطرة وانقطاع سلطتهم. والدقة في الآيات التي ورد فيها استيلاءه سبحانه على العرش يثبت بوضوح أن المراد من الآية هو السيطرة والتمكّن على صحيفة الكون (٣٣٤)

والخلق، وأنها بعد الخلقه في قبضة قدرته و حوزة سلطنته لم تفوض لغيره، ولأجل ذلك يذكر في سورة يونس بعد هذه الجملة قوله: (يدبر الأمر ما من شئ إلا من بعد إذنه) معرباً عن أنه المدبر لأمر الخلق، وذلك لاستيلائه على عرش ملكه. فمن استولى على عرش ملكه يقوم بتدبيره، ومن ثل عرشه أو زال ملكه أو انقطع عنه لا يقدر على التدبير. كما أنه سبحانه يذكر بعد هذه الجملة في سورة الأعراف كيفية التدبير و يقول <<: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ >> فهذه الجمل تعبير عن تدبيره صحيفة الكون. وكونه مصدرراً لهذه التدبيرات الشامخة، دليل على أنه مستول على ملكه، مهيمن عليه، مسيطر على ما خلق ولم يخرج الكون عن حوزة قدرته، ومثله سائر الآيات الواردة فيها تلك الجملة، فإنك ترى أنه جاء في ضمن بيان فعل من أفعاله سبحانه. ففيها دلالات على «التوحيد في التدبير» الذي هو أحد مراتبه. وأما إذا فسّرنا الاستواء بالجلوس والاستقرار، والعرش

بالكرسى الذى يترع عليه الملوک، يكون المعنى غير مرتبط بما ورد فى الآيه من المفاهيم، إذ أى مناسبة بين الترع على الكرسى المادى والقيام بهذه التدابير الرفيعة. فإن المصحح للتدبير هو السيطرة والهيمنة على الملك وهو لا يحتاج إلى الترع والجلوس على الكرسى، بل يتوقف على سعة ملكه و نفوذ سلطته. وقد قام القاضى بتأويل الآيه بمثل ما ذكرنا-بعبارات قليلة-وهو نموذج واضح للتأويل المقبول. وإذا وقفت على هذا المقياس تقدر على تمييز المقبول عن الزائف فى الصفات الخبرية، وعليك بالآيات الوارد فيها الألفاظ التالية: الوجه، العين، الساق، مجيئه سبحانه. وفى الأحاديث المروية عن طرق ضعاف ورد: الرجل، والقدم. فالمعتزلة بل العدلية عامة يصفونه سبحانه بكل ما وصف نفسه به. ولكن (٣٣٥)

الاختلاف فى تمييز المراد الجدى عن الصورى، والظاهر التصديقى عن الظاهر الحرفى. فالمشبهه والأشاعرة مصرون على الأخذ بالأول مع أن سيرة العقلاء العارفين بالكلام وأساليب البلاغة على الثانى. وعند ذلك لا تجد أى مخالفة بين العقل والنقل الصحيح كالقرآن الكريم. وأميا الروايات فأكثرها إسرائيليات دسّت فى الأحاديث الإسلاميه من طريق الأخبار والرهبان ونقلها السذج من أصحاب الحديث زاعمين أنها حقائق راهنه يلزم الأخذ بها، وقد استوفينا الكلام فيها عند البحث عن عقائد أهل الحديث. ***ج- نفى الرؤية الحسيه

هذه هى النقطة الثالثه التى تركز عليها المعتزلة عند البحث عن التوحيد، وقد عرفت أن التوحيد رمز للتزيه، أى تنزيهه سبحانه عن الجسم والجسمانيات و أحكامها. وقد شغلت هذه المسأله بال مفسرين و المتكلمين وقد بحث عنها القاضى فى كتابيه «شرح الأصول الخمسه»، و «المغنى» على وجه البسط. يقول القاضى: «ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية، وهذه مسأله خلاف بين الناس، وفى الحقيقه الخلاف فى هذه المسأله إنما يتحقق بيننا وبين هؤلاء الأشاعره الذين لا يكتفون الرؤية. وأمما المجسيمه فهم يسلّمون أن الله تعالى لو لم يكن جسمًا لم صحّ أن يرى، ونحن نسلّم لهم أن الله تعالى لو كان جسمًا لصحّ أن يرى والكلام معهم فى هذه المسأله لغو». وبما أنا استوفينا دراسه أدله المجوزين للرؤية فى الجزء الثانى، فلنكتف فى المقام بدراسه أدله النافين على وجه الإجمال. فنقول: استدلت المعتزلة على نفى الرؤية بالأدله العقلية والسمعيه. أمما العقلية، فهى ما أثبتها الحسّ والعلوم الطبيعیه من أن الرائي بالحاسه لا يرى الشىء إلا إذا كان مقابلاً أو حالاً فى المقابل أو فى حكم المقابل. وقد ثبت أن الله تعالى لا يجوز أن يكون كذلك، لأنّ المقابلة من أحكام الأجسام والأعراض وهو سبحانه فوق الممكنات والماديّات. (٣٣٦)

هذا ما استدلل به القاضى تبعاً لمشايعه. ثم أجاب عمّا ربّما يتمسك به المجوز من أنه يمكن أن نرى القديم تعالى بحاسه سادسه من دون الحاجه إلى المقابله. وقال: إنّه لو جاز أن يرى القديم بحاسه سادسه لجاز أن يذاق بحاسه سابعه، وأن يلمس بحاسه ثامنه، وأن يشمّ بحاسه تاسعه، ويسمع بحاسه عاشره. تعالى عن ذلك علواً كبيراً(١). أقول: كان على القاضى أن يعترض أيضاً بأنّ الرؤية بحاسه سادسه مضافاً إلى أنه رجم بالغيب، خروج عن الموضوع. وأمما السمعيه: فقد استدلل القاضى بقوله تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(الأنعام/١٠٣). قال: «وجه الدلاله فى الآيه هو ما قد ثبت من أن الإدراك إذا قرن بالبصر، لا يحتمل إلاّ الرؤية. وثبت أنه تعالى نفى عن نفسه إدراك البصر، ونجد فى ذلك تمدحاً راجعاً إلى ذاته. وما كان نفيه تمدحاً راجعاً إلى ذاته كان إثباته نقصاً، والنقائص غير جائزه على الله تعالى فى حال من الأحوال. ثم قال: فإن قيل: أليس يقولون: «أدركت ببصرى حراره الميل» فكيف يصحّ قولكم إن الادراك إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلاّ الرؤية؟ أجيب بأنّ هذا ليس من اللغه فى شىء، وإنما اخترعه ابن أبى بشر الأشعري ليصحّ مذهبه به، إذ لم يرد فى كلامهم لا المنظوم ولا المنثور». أقول: إن العرب فى هذا المجال تقول: «أحسست ببصرى حراره الميل» على أن الباء إنما تدخل على الآله كقولهم: «مشيت برجلي و كتبت بقلمى» والبصر ليس بآله فى إدراك الحراره، بل يستوى فيه البصر والسمع، فلو أطلق البصر فلا يرد منه إلاّ العضو الحاسّ لا العضو الذى يرى به. ثم إنّ القاضى أفاض الكلام فى دلالة الآيه وردّ ما أثير حولها من الشبهات بوجه _____ ١. شرح الأصول الخمسه: ص ٢٤٨ - ٢٥٣.

ممتاز، فمن أراد فليرجع إليه (١). ومن لطيف ما أفاده في المقام، هو الاجابة عن احتجاج المشتين بما رووه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر» (٢). فأجاب عن الاستدلال بوجوه: الأول: إن الأخذ بظاهر الخبر يستلزم أن نرى الله سبحانه مثلما نرى القمر، فإننا لا نرى القمر إلا مدوراً عالياً منوراً، والله سبحانه أعلى من هذه الصفات. يلاحظ عليه: أن وجه الشبه هو الرؤية الحسية اليقينية. فكما أن الإنسان لا يشك - بعد ما رأى القمر - أنه رآه، فهكذا فيه سبحانه لاتمام الخصوصيات. الثاني: أن هذا الخبر يروى عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبدالله البجلي، عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم. وقيس هذا مطعون فيه من وجهين: أحدهما: أنه كان يرى رأى الخوارج. يروى أنه قال: «منذ سمعت علياً على منبر الكوفة يقول: انفروا إلى بقيّة الأحزاب - يعنى التهرؤان - دخل بغضه على قلبى» ومن دخل بغض أمير المؤمنين - عليه السلام - قلبه فأقلّ أحواله أن لا يعتمد على قوله، ولا يحتج بخبره. وثانيهما: قيل إنه خولط في عقله آخر عمره، والكتبة يكتبون عنه على عادتهم في حال عدم التمييز، ولا ندري أن هذا الخبر رواه وهو صحيح العقل أو مختلطه. الثالث: إن صح هذا الخبر فأكبر ما فيه أن يكون خبراً من أخبار الآحاد. وخبر الواحد ممياً لا يقتضى العلم. ومسألنا طريقها القطع والثبات. ثم إن هذا الخبر معارض بأخبار رويت. ثم ذكر بعض الأخبار (٣).

١. شرح الأصول الخمسة: ص ٢٤٨ - ٢٥٣. ٢. صحيح البخارى، كتاب المواقيت، الباب ١٦، الحديث ٢٦ ج ١ ص ١١١، وباب الاذان وغيره. ٣. شرح الأصول الخمسة: ص ٢٦٩.

(٣٣٨)

الاجابة عن الشبه الثلاث إن للمبتين، شبهاً ثلاثاً أشبه ما تكون بشبهات الأحداث: الأولى: إن القديم تعالى عندكم راء لذاته، فيجب أن يرى نفسه فيما لم يزل. وكل من قال إنه يرى نفسه، قال إنه يراه غيره. يلاحظ عليه: أن الصغرى والكبرى ممنوعتان. فإن أريد من رؤيته لذاته حضور ذاته لذاته وعدم غيبوتها عنها، فهو صحيح ولا صلة له بالرؤية الحسية، وإن أريد الرؤية بالبصر فالصغرى ممنوعة. وأما الكبرى فزعم المستدل أن المسألة مسألة فقهية لا يصح التفكيك بينهما. الثانية: إن مصحح الرؤية هو الوجود، بدليل أن الشئ متى كان موجوداً كان مرئياً. ومتى لم يكن كذلك لم يكن مرئياً. يلاحظ عليه: أن الوجود شرط الرؤية لا العلة التامة. ولأجل ذلك لا يرى الإنسان الارادات والكرهات ولا غير ذلك. فلرؤية شرائط قد حقت في العلوم الطبيعية. الثالثة: إن إثبات الرؤية لله تعالى لا تؤدى إلى حدوثه، ولا إلى حدوث معنى فيه، ولا إلى تشبيهه بخلقه. وأجاب القاضى أن إثبات الرؤية تؤدى إلى تشبيهه بخلقه، لأن الشئ إنما يرى إذا كان مقابلاً، أو حالاً في المقابل، وهذه من صفات الأجسام، فيجب أن يكون تعالى جسماً، وإذا كان جسماً يجب أن يكون محدثاً (١). ١. كان على القاضى وغيره البحث عن حدوث كلامه سبحانه أو قدمه في المقام، لأن نفي قدمه من شئون توحيده، ولكنه غفل عن ذلك.

الأصل الثانى العدل

العدل

العدل

هذا هو الأصل الثانى من الأصول الخمسة، والأصل الأول يهدف إلى تنزيه ذاته سبحانه عما لا يجوز حمله عليه، وتمييزه عما يجوز، وهذا يهدف إلى أفعاله سبحانه و تمييز ما يجوز عليه عما لا يجوز، فإذا وصفنا القديم تعالى بأنه عدل حكيم، فالمراد به أنه لا يفعل القبيح أو لا يختاره ولا يخل بما هو واجب عليه وإن أفعاله كلها حسنة. وخالفتم المجبرة و أضافت إلى الله تعالى كل قبيح، وقد تعزفت على تعريف القاضى لهذا الأصل فى مدخل البحث عن الأصول الخمسة. و خلاصة هذا الأصل عند العدلية من غير فرق بين المعتزلة والإمامية، هو أن الله عزوجل عدل كريم، خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وعثمهم بهدائته، بداهم

بالنعم و تفضل عليهم بالاحسان. لم يكلف أحداً إلا دون الطاقة، ولم يأمره إلا بما جعل له عليه الاستطاعة. لا عبث في صنعه ولا قبيح في فعله. جلّ عن مشاركة عباده في الأفعال، وتعالى عن اضطرارهم إلى الأعمال لا يعذب أحداً إلا على ذنب فعله، ولا يلوم عبداً إلا على قبيح صنعه. لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً. ثم إن لهذا الأصل دوراً كبيراً في تطوير المسائل الكلامية، وهو الحجر الأساس لكثير من آراء المعتزلة كما نشير إليها. وهو يبنى على التحسين والتقيح العقليين، فلو ثبتا بالبرهان العقلي، يثبت العدل كما ثبت كل ما بنى عليه من المسائل، وإلا يصبح الأساس والبناء خاليين من البرهان. وترى ما ذكرنا في نصّ القاضي، يقول: (٣٤٠)

«إنّ العدل مصدر عدل يعدل عدلاً، ثم قد يذكر و يراد به الفعل، وقد يذكر و يراد به الفاعل، فإذا وصف به الفعل، فالمراد به كل فعل حسن يفعله الفاعل لينفع به غيره أو ليضره. فأما إذا وصف به الفاعل، فعلى طريق المبالغة كقولهم للصائم: صوم، ونحن إذا وصفنا القديم تعالى بأنه عدل حكيم، فالمراد به أنه لا يفعل القبيح، أو لا يختاره، ولا يخل بما هو واجب عليه، وأن أفعاله كلها حسنة، وقد خالفنا في ذلك المجبّر وأضافت إلى الله تعالى كل قبيح» (١). إن إثبات عدله سبحانه مبنى على ثبوت أمور ثلاثة: الأول: إن هناك أفعالاً تتصف بذاتها بالحسن والقبح. الثاني: إن الله تعالى عالم بحسن الأشياء وقبحها. الثالث: إنه سبحانه لا يصدر منه القبيح. أما الأول: فقد برهنوا عليه بوجوه مختلفة، أوضحها ما أشار إليه أبو عبدالله البصرى في عبارة مختصرة و قال: «إن كل عاقل يستحسن بكمال عقله التفرقة بين المحسن والمسيء، وإنما تفرق بينهما الحسنه و إلا فلا نفع في ذلك ولا دفع ضرر». قال القاضي عبدالجبار: «ومعرفة حسن الأفعال أو قبحها كمعرفة حسن الصدق وقبح الكذب، إنما يعلم ببداهه العقول. أما استنباط وجوه الحسن أو القبح في فعل معين فذلك يحتاج الى تفكير و استدلال، ومن ثم لا تختلف العقول في التمييز بين حسن الأفعال وقبحها على وجه الجملة، كمعرفة قبح الظلم، ولكنها تختلف في الحكم على الأفعال تفصيلاً، فيستحسن الخوارج قتل مخالفهم بينما تستقبح ذلك معظم فرق المسلمين» (٢). ١. شرح الأصول الخمسة: ص ٣٠١. ٢. المغنى: ج ٦، ص ٢٠.

(٣٤١)

توضيحه إن في الحكمة النظرية قضايا نظرية تنتهي إلى قضايا بديهية، ولولا ذلك لعقمت القياسات و صارت غير منتجة، ومثلها الحكمة العملية، ففيها قضايا غير معلومة لا تعرف إلا بالانتهاء إلى قضايا ضرورية، وإلا لما عرف الإنسان شيئاً من قضايا الحكمة العملية. فكما أن العقل يدرك القضايا البديهية في الحكمة النظرية من صميم ذاتها، فهكذا يدرك بديهيات القضايا في الحكمة العملية من صميم ذاتها بلا حاجة إلى تصوّر شيء آخر. مثلاً، إن كل القضايا النظرية يجب أن تنتهي إلى قضيتها امتناع اجتماع التقيضين وارتفاعهما، بحيث لو ارتفع التصديق بهما لما أمكن التصديق بشيء من القضايا ولذا تسمى بـ «أمّ القضايا» فلا يحصل اليقين بأن زوايا المثلث مثلاً تساوي قائمتين، إلا إذا حصل قبله امتناع صدق نقيض تلك القضية، أي عدم مساواتها لهما. وإلا فلو احتمل صدق النقيض لما حصل اليقين بالنسبة، ولأجل ذلك اتفقت كلمة الحكماء على أن إقامة البرهان على المسائل النظرية إنما تتم إذا انتهى البرهان إلى أمّ القضايا التي قد عرفت. وعلى ضوء هذا البيان نقول: كما أن للقضايا النظرية في العقل النظري قضايا بديهية أو قضايا أولية تنتهي إليها، فهكذا القضايا غير الواضحة في العقل العملي يجب أن تنتهي إلى قضايا أولية و واضحة عند ذلك العقل، بحيث لو ارتفع التصديق بهذه القضايا في الحكمة العملية لما صحّ التصديق بقضيتها من القضايا فيها. فمن تلك القضايا البديهية في العقل العملي مسألة التحسين والتقيح العقليين الثابتين لجملة من القضايا مثل قولنا: «العدل حسن» و «الظلم قبيح» و «جزاء الإحسان بالإحسان حسن» و «جزاء الإحسان بالإساءة قبيح». فهذه القضايا قضايا أولية في الحكمة العملية، والعقل العملي يدركها من ملاحظة القضية بنفسها وفي ضوئها يحكم بما ورد في مجال العقل العملي من الأحكام المربوطة بالأخلاق أولاً، وتدبير المنزل ثانياً، وسياسة المدن ثالثاً، التي يبحث عنها في العقل العملي. وليس استقلال (٣٤٢)

العقل في تلك القضايا الأولية الراجعة إلى العقل العملي إلا لأجل أنه يجدها إما ملائمة للجانب العالي من الإنسانية، المشترك بين

جميع أفراد الإنسان، أو منافرة له. وبذلك تصبح قضية التحسين والتقيح في قسم من الأفعال، قضية كلية لا تختص بزمان دون زمان، ولا-جيل دون جيل. بل لا تختص - في كونها كمالاً أو نقصاً - بالإنسان بل تعم الموجود الحي المدرك المختار، لأن العقل يدركها بصورة قضية عامية شاملة لكل من يمكن أن يتصف بهذه الأفعال كالعدل والظلم، فهو يدرك أن الأول حسن عند الجميع ومن الجميع، والثاني قبيح كذلك، وليس للإنسان خصوصية في ذلك القضاء. وبذلك يصبح المدعى للتحسين والتقيح العقلين الذاتيين في غنى عن البرهنة لما يتبناه، كما أن المدعى لامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما كذلك. والعجب أن الحكماء والمتكلمين اتفقوا على أنه يجب انتهاء القضايا النظرية في العقل النظري إلى قضايا بديهية، وإلا عقت الأقيسة ولزم التسلسل في مقام الاستنتاج، ولكنهم غفلوا عن إجراء ذلك الأصل في جانب العقل العملي ولم يقسموا القضايا العملية إلى فكرية وبديهية، أو نظرية وضرورية. كيف والاستنتاج والجزم بالقضايا الواردة في مجال العقل لا يتم إلا إذا انتهى العقل إلى قضايا واضحة في ذلك المجال. فالمسائل المطروحة في الأخلاق ممتا يجب الاتصاف به أو التنزه عنه، أو المطروحة في القضايا البيئية والعائلية التي يعبر عنها بتدبير المنزل، أو القضايا المبحوث عنها في علم السياسة وتدبير المدن، ليست في الوضوح على نمط واحد، بل لها درجات ومراتب. فلا ينال العقل الجزم بكل القضايا العملية إلا إذا كانت هناك قضايا بديهية واضحة تبني عليها القضايا المجهولة العملية حتى يحصل الجزم بها ويرتفع الإبهام عن وجهها. ولأجل ذلك فالقائل بالتحسين والتقيح العقلين في غنى عن التوسع في طرح أدلة القائلين بهما. (٣٤٣)

وبهذا البيان يستغنى الإنسان عن كثير من الأدلة التي أقامها القائلون بالحسن والقبح، سواء أكانت صحيحة أم لا. نظير ما ربما يقال من أن أحدا لو خير بين الصدق والكذب وكان التفع في أحدهما كالتفع في الآخر وقيل له: إن كذبت أعطيناك درهماً وإن صدقت أعطيناك درهماً، فإنه قُط لا يختار الكذب على الصدق. ليس ذلك إلا لعلمه بقبحه وبقبحه عنه (١). يلاحظ عليه: أن اختيار الصدق على الكذب يمكن أن يكون مستنداً إلى أمر آخر، وهو كون الصدق مطابقاً للفضيلة والكذب على خلافها. ولأجل ذلك لا يختار الصبي إلا الصدق وليس ذلك لأجل العلم بقبح الكذب. هذا كله حول الأمر الأول. وأمّا الأمر الثاني: أعنى كونه سبحانه عالماً بحسن الأشياء وقبحها، فقد استدلل عليه القاضي بأنه تعالى عالم لذاته، ومن حق العالم لذاته - أن يعلم جميع المعلومات على الوجوه التي يصح أن تعلم عليها. ومن الوجوه التي يصح أن يعلم المعلوم عليه قبح القبائح، فيجب أن يكون القديم تعالى عالماً به (٢). يلاحظ عليه: أن كلامه مجمل ولعله يريد أن ذاته سبحانه علّة الأشياء وعلّة لصفاتها، والعلم بالعلّة، علم بالمعاليل. فهو سبحانه بما أنه عالم لذاته، عالم بمعاليله من الذوات والصفات. ولكن التقرير عليل من وجهين: الأول: إن الحسن والقبح من صفات الأفعال لا من صفات الأشياء الخارجية من الجواهر والاعراض القائمة بها، وأفعال الإنسان ليست مخلوقة له سبحانه عند المعتزلة فلا تكون معلولة لذاته حتى يلزم من العلم بالذات، العلم بها. الثاني: إن الحسن والقبح، بمعنى يجب أن يفعل أو لا يفعل، من الأحكام العقلية وليست من الصفات الخارجية للأفعال والأشياء، حتى يكونا مخلوقين له سبحانه، ————— ١. شرح الأصول الخمسة: ص ٣٠٣. ٢. المصدر السابق:

ص ٣٠٢

(٣٤٤)

وحتى يقال بأن خالق القبيح والحسن خالق لقبحه أو حسنه. فالطريق الأوسط، الاستدلال على علمه بالحسن والقبح بعلم الإنسان بهما، والله سبحانه عالم بما خلق، وبما ينطوي عليه مخلوقه من التصورات والتصديقات. فإذا كان حسن الأشياء وقبحها بذاتها معلومة للإنسان المخلوق، فهي معلومة له بالضرورة، لانهاء ما في الكون إلى الله سبحانه. قال تعالى: (ألا- يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (الملك/١٤) وقد تعرّف في البيان الذي أوضحنا به دليل أبي عبدالله البصري أن العقل يدرك أن هنا شيئاً حسناً لدى الكلّ وقبيحاً كذلك. فلا يختص قبح الأشياء ولا حسنهما بشخص دون آخر. وأمّا الأمر الثالث: فقد استدللوا عليه بما ورد في الكتب الكلامية من أن القبيح لا يختاره إلا الجاهل بالقبح أو المحتاج إليه، وكلاهما منفيان عنه تعالى، ولأجل ذلك إن الظلمة والفسقة لا يرتكبان القبائح إلا لجهلهم بقبحها أو لاعتقادهم أنهم سيحتاجون إليها في المستقبل، كما في غصب الأموال. يلاحظ عليه: أن هذا الدليل مبنّى على

كون فاعليته الواجب بالداعي الزائد على ذاته، وهو خلاف التحقيق لكونه تاماً في الفاعلية. فلا يكون في اليجاد محتاجاً إلى شيء وراء ذاته. والأولى أن يقرّر بأن مقتضى التحسين والتقييح العقلين على ما عرفت- هو أن العقل بما هو هو، يدرك أن هذا الشيء بما هو هو، حسن أو قبيح، وأن أحد هذين الوصفين ثابت للشيء بما هو هو، من دون دخالة ظرف من الظروف أو قيد من القيود، ومن دون دخالة درك مدرك خاص. وعلى ذلك فالعقل في تحسينه و تقييحه يدرك واقعية عامية و متساوية بالنسبة إلى جميع المدركين والفاعلين، من غير فرق بين الممكن والواجب. فالعدل حسن يمدح فاعله عند الجميع، والظلم قبيح يذم فاعله عند الجميع، وعلى هذا الأساس فالله سبحانه، المدرك للفعل ووصفه - أعنى استحقاق الفاعل للمدح أو الذم من غير (٣٤٥)

خصوصية للفاعل - كيف يقوم بفعل ما يحكم بأن فاعله مستحق للذم، أو يقوم بفعل ما يحكم بأنه يجب التنزه عنه؟! وعلى ذلك فالله سبحانه عادل، لأن الظلم قبيح و مما يجب التنزه عنه، ولا يصدر القبيح من الحكيم، والعدل حسن و مما ينبغي الاتصاف به، فيكون الاتصاف بالعدل من شؤون كونه حكيماً منزهاً عما لا ينبغي. وإن شئت قلت: إن الإنسان يدرك أن القيام بالعدل كمال لكل أحد، وارتكاب الظلم نقص لكل أحد. وهو كذلك حسب إدراك العقل، عنده سبحانه. ومعه كيف يجوز أن يرتكب الواجب خلاف الكمال، ويقوم بما يجزّ التقص إليه!؟

ما يتفرّع على العدل من المسائل قد عرفت أن الحسن والقبح أساس القول بالعدل، وعنه تتفرّع عدّة مسائل تفترق فيها مدرسة الاعتزال عن مدرسة أهل الحديث والأشاعرة. ونحن نشير إلى عناوينها، ثم نبث عن كل واحد تلو الآخر وهي عبارة عن: ١- الله قادر على القبيح. ٢- أفعال العباد غير مخلوقة فيهم و أنهم المحدثون لها. ٣- الاستطاعة متقدمة على الفعل. ٤- قبح التكليف بما لا يطاق. ٥- الله تعالى لا يكون مريداً للمعاصي. ٦- اللطف واجب على الله سبحانه. ٧- حكم القرآن الكريم من حيث الحدوث والقدم. ٨- ما يتعلّق بالنبوّات والشرائع و معاجز الأنبياء. هذه هي المسائل المبتية على العدل، ونحن نأخذ بالبحث عنها على منهج الاعتزال، وسيوافيك أن ثمرات التحسين والتقييح العقلين أوسع مما ذكر. (٣٤٦)

المسألة الأولى: قدرته سبحانه على القبيح

المسألة الأولى: قدرته سبحانه على القبيح

قد عرفت أن القاضى قد رتب على القول بالعدل عدّة مسائل، ولأجل التعرّف على منهج الاعتزال نطرح هذه المسائل مكتفين على ما جاء به القاضى فى (شرح الأصول الخمسة) فهو رائدنا فى هذه المباحث، ومن أراد التبسط فعليه المراجعة بكتابه الآخر: «المغنى» وقد طبع منه أربعة عشر جزءاً، وعلى كلّ حال فكتب القاضى هى الممثلة لرأى المعتزلة فى أعصارهم. والمسألة الأولى فى قدرته سبحانه على القبيح وإتما عنوانها فى هذا الفصل لأدنى مناسبة، مع أن عنوانها فى عموم القدرة أولى من عنوانها فى مسألة التحسين والتقييح، والمخالف فيها عدّة من المعتزلة منهم النّظام وعلّى الأسوارى والجاحظ، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى غير موصوف بالقدرة على ما لو فعله لكان قبيحاً، وقد ردّ عليه القاضى بقوله «إنه تعالى قادر على أن يخلق فينا العلم كما هو قادر على أن يخلق بدله الجهل، وأيضاً قادر على أن يخلق الشهوة فى أهل الجنّة كما هو قادر على أن يخلق فيهم النّفرة»(١). أقول: إن التفصيل بين القدرة على الحسن والقدرة على القبيح، موهون جدّاً، وناش عن عدم التعرّف على مفهوم القدرة، فإنها تستعمل فيما إذا كان الفاعل بالنسبة إلى الفعل والتّرك متساوياً، وإلا لما وصف بالقدرة، بل بالايجاب. فلو كان قادراً على إدخال المطيع إلى الجنّة، ولم يكن قادراً على إدخاله فى النار لما وصف بالقادر، بل كان فاعلاً موجباً، وبذلك يعلم حال عدّة من المسائل التى اختلف فيها المعتزلة، وإليك عناوينها: ١- ذهب عبّاد بن سليمان إلى عدم قدرته تعالى على خلاف معلومه، قائلاً بأن ما علم وقوعه يقع قطعاً، فهو واجب الوقوع، وما علم عدم وقوعه لا يقع قطعاً، فهو ممتنع ————— ١ . شرح الأصول الخمسة: ص ٣١٤.

الوقوف. يلاحظ عليه: أن معناه نفى القدرة و توصيفه سبحانه بالايجاب أولاً، وأن تعلق العلم بوقوعه لا يخرج عن الاختيار ثانياً، لأنه تعلق بصدوره عنه سبحانه اختياراً لا اضطراراً وإيجاباً وقد قلنا نظير ذلك في تعلق علمه سبحانه بصدور أفعال العباد عنهم. فلاحظ(١).
 ٢- ذهب البلخي إلى عدم قدرته تعالى على مثل مقدور العبد، لأنه إما طاعة، أو معصية، أو عبث. وهو منزّه عن أن يكون مطيعاً، أو عاصياً، أو عابثاً. وقد غفل عن أن الاطاعة والمعصية، ليستا من الأمور الحقيقية الدخيلة في ماهية العمل، فلو قام إنسان كالخليل لبناء بيت امتثالاً لأمره سبحانه، فالله سبحانه يقدر على إيجاد بيت مثله، والفعالان متحدان ماهية و هيئة، وإن كان الأول مصداقاً للاطاعة دون الآخر. وبعبارة أخرى: أن الاطاعة أمر انتزاعي ينتزعه العقل من مطابقة المأتي به لما أمر به المولى، وعلى هذا فهناك واقعيتان: الأولى: الأمر، الثاني، المأتي به، وأما الموافقة والمخالفة فهما أمران ذهبتان يتواردان على الذهن من ملاحظتهما، فإن وجد بينهما المشابهة أو المخالفة يعبر عن الأولى بالطاعة، وعن الثانية بالعصيان، وليس لهما واقعية وراء الذهن، فلا تكون الحقيقة الخارجية سواء صدرت عن الله سبحانه، أو عن عباده، أمرين متباينين. ٣- ذهب الجبائيان إلى عدم قدرته تعالى على عين مقدور العبد، وإلا لزم اجتماع النقيضين إذا أَرَادَهُ اللهُ وَكَرِهَهُ الْعَبْدَ، أَوْ بِالْعَكْسِ. يلاحظ عليه: أنه كان على القائل الاستدلال بوجه آخر، وهو أنه يلزم حينئذ اجتماع العلتين على معلول واحد. ومع ذلك كله، فما جاء في الاستدلال نشأ من فكرة ثبوتية ناشئة عن مبادئ الاعتزال، فتخيّل أن فعل العبد يجب أن يكون مخلوقاً للعبد _____ ١. لاحظ الجزء الثاني: ص ٣٠١-٣٠٧.

(٣٤٨)

وحده ولا- يكون لله سبحانه فيه شأن، لما أن هناك فاعلين مستقلين: «الله» و «الإنسان»، ولكل مجاله الخاص. وعند ذلك لا يرتبط مقدور العبد بالله سبحانه كما لا- يرتبط مقدوره بعباده، ولكنه باطل، لما عرفت من أن العلتين ليستا عرضيتين بل طويلتين، فالعلل الامكانية في طول العلة الواجبة، وبما أنه تنتهي العلة إلى الواجب، يكون مخلوق العبد مخلوقه سبحانه.

المسألة الثانية: في أن أفعال العباد، ليست

المسألة الثانية: في أن أفعال العباد، ليست مخلوقة لله سبحانه من فروع القول بالعدل كون فعل الإنسان فعله، لا فعل خالقه. توضيحه: أن أهل الحديث و الأشاعرة يعتقدون بكون أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، وعندئذ يلزم على أصول الاعتزال كونه سبحانه موصوفاً بفعل القبيح، وذلك لأن أفعال العباد بين حسن وقبيح، فلو كان هو الفاعل يلزم أن يكون فاعل القبيح. ثم الجزاء على القبيح قبيح مع كون الفاعل هو الله سبحانه. ويفضّل القاضى الأقوال في المسألة على النحو التالي: ١- العباد هم المحدثون لأفعالهم، ويقابلهم الجبرية كالجهمية القائلون بأن أفعالهم مخلوقة لله ولا تعلق لها بالعباد. ٢- من ذهب إلى كونها مخلوقة لله ولكن لها تعلق بهم من جهة الكسب. ٣- من سوى في هذه القضية بين المباشر و المتولد، وقال: كلاهما مخلوق لله سبحانه ومتعلق بنا من جهة الكسب، وينسب هذا إلى ضرار بن عمرو. ٤- ومنهم من فصل بين المباشر و المتولد، فقال: إن المباشر خلق الله تعالى فينا متعلق بنا من حيث الكسب، وأمّا المتولد كالأحراق بعد اللقاء فالله تعالى متفرد بخلقه. وبما أننا استوفينا الكلام في عقيدة الأشاعرة و مفهوم الكسب في الجزء الثاني، _____ (٣٤٩)

نركز البحث هنا على عقيدة المعتزلة. فالمنقول عنهم تفويض، أفعال العباد إلى أنفسهم وأنها شأن لله سبحانه في أفعال عباده، فذواتهم مخلوقة لله و أفعالهم مفوضة إلى أنفسهم. وبعبارة ثانية: العباد في ذواتهم محتاجون إلى الواجب لا في أفعالهم و حرركاتهم وسكناتهم. فالمعتزلة في كتب الأشاعرة و الشيعية الإمامية، مرمية بهذه العقيدة، وإليك نقل ما يعرب عن مذهبهم: ١- قال الأشعري: «زعمت المعتزلة أن الله تعالى لم يخلق الكفر والمعاصي ولا شيئاً من أفعال غيره. وأن الله خلق الكافر لا كافراً، ثم إنه كفر وكذلك المؤمن، واختلفت في الإنسان يخلق فعله أم لا، على ثلاث مقالات: فرغم بعضهم أن معنى فاعل و خالق واحد، وأنا لا نطلق ذلك في الإنسان لأننا مُنعنا منه. وقال بعضهم: هو الفعل لا بآله ولا بجارحة، وهذا يستحيل منه. وقال بعضهم: معنى خالق: أنه وقع منه الفعل

مقدراً، فكل من وقع فعله مقدراً فهو خالق، قديماً كان أم محدثاً»(١). وحاصله أنهم لم يقولوا بكون أفعال العباد مخلوقة لله، وأما كونها مخلوقة لأنفسهم فمن فسير الخلق بالاجاد لا- بآله ولا بجارحة، فممنع عن الاطلاق. وأما من فسير الخلق بالتقدير فقد جوزوه، وسيوافيك التصريح من أبي بكر الأنباري وغيره أن الخلق ربما يستعمل في التقدير. ٢- وقال البغدادي: «وقالت المعتزلة: إن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس، ولا- لشيء من أعمال الحيوانات، وقد زعموا أن الناس هم المذنبون يقدرون على أكسابهم وأنه ليس لله عزوجل في أكسابهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع و تقدير»(٢).

١. مقالات الاسلاميين: ص ٢٩٥ ط ٢.٢. الفرق بين الفرق: ص ١١٤ - ١١٥.

(٣٥٠)

٣- وقال القاضي عبدالجبار: «ذكر شيخنا أبو علي - رحمه الله - اتفق كل أهل العدل على أن أفعال العباد من تصرفهم و قيامهم و عودهم، حادثه من جهتهم، وأن الله عزوجل أقدروهم على ذلك، ولا فاعل لها ولا محدث سواهم، وأن من قال إن الله سبحانه خالقها ومحدثها، فقد عظم خطأه، وأحالوا حدوث فعل من فاعلين»(١). ٤- وقال أيضاً: «نحن نبين أن العبد إنما يقدر على إحداث و إيجاد، وأن القدرة لا تتعلق بالشيء إلا على طريق الحدوث، وأنه يستحيل أن يفعل الشيء من وجهين، ويستحيل تعلق الفعل بفاعلين محدثين، أو قديم ومحدث.... و نبيّن من بعد إبطال قول من أضاف أفعال العباد إلى الله تعالى. ونذكر ما يلزمهم على قوده من الفساد، والخروج عن الدين، والتزام جحد الضروريات»(٢). ٥- قال صدر المتألهين: «ذهبت جماعة إلى أن الله أوجد العباد و أقدروهم على بعض الأفعال، وفوض إليهم الاختيار، فهم مستقلون بايجادها على وفق مشيئتهم و طبق إرادتهم»(٣). وهذه النصوص الخمسة من أكابر الأشاعرة والمعتزلة والإمامية، تحاول أن ترميهم بالتفويض و إن لم تكن في الصراحة بمكان يجزم الإنسان معها بصحة النسبة. ولأجل ذلك يلزم المزيد من التبع في كتبهم التي قصرت أيدينا عنها. ولأجل التوضيح نبحت عن أمور: ١- لا- شكك في وجود القول بالتفويض في عصر الإمام الباقر - عليه السلام - كيف وقد طلب عبدالملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، من عامله في المدينة، أن يوجه محمد بن علي الباقر إلى الشام حتى يناظر قدرياً أعبي الشاميين جميعاً. فبعث الإمام ولده جعفر الصادق - عليه السلام - . فلما ورد الشام واجتمع مع القدرى، فقال للإمام: سل عما شئت. فقال: إقرأ سورة الحمد. قال: فقرأها... حتى بلغ قول الله تبارك و تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ

١. المغنى: ج ٦، الارادة ص ٤١ و ج ٨، ص ١. ٢. المغنى: ج ٦، الارادة ص ٤١ و ج ٨، ص ٣. ١. رسالة خلق الأعمال.

(٣٥١)

إِيَّاكَ نَسْتَعِين) فقال له جعفر - عليه السلام - قف. من تستعين؟ ما حاجتك إلى المعونة؟ إن الأمر إليك. فبهت القدرى(١). ٢- تضافر عنهم - عليهم السلام - التّديد بالجبر والتفويض بمضامين مختلفه، تأتي بواحد منها حتى تقف على ما يشابهه: سأل محمد بن عجلان الصّادق - عليه السلام - أنه هل فوض الله الأمر إلى العباد؟ قال: «الله أكرم من أن يفوض إليهم. قال: فأجبرهم على أفعالهم؟ فقال: الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثم يعدّبه عليه»(٢). ٣- تضافر عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - قولهم: «لا جبر ولا تفويض» وذلك يدفعنا إلى القول بوجود المفوضه في زمن صدور هذه الروايات بين الأمة الإسلامية، ويرجع صدورهما إلى أواخر القرن الأول، وأواسط القرن الثاني. ٤- إنّما الكلام في أنّ المعتزلة هل هم المعنيون في هذه الأخبار، أو هم غيرهم، وهذا هو اللّذي يحتاج إلى دراسة عميقة بالغور في الآثار الباقية من المعتزلة. أما ما نقلناه من «المغنى» فهو محتمل الوجهين، فيمكن أن يكون إشارة إلى استقلال العباد في أفعالهم و أعمالهم كما نسب إليهم صدر المتألهين. كما أنه يمكن أن يكون قوله: «لا فاعل لأفعال العباد ولا محدث لها سواهم»، هو نفى كونها مخلوقة لله سبحانه مباشرة وبلا- واسطة. والشاهد عليه قوله فيما بعد: «وأن من قال إن الله سبحانه خالقها و محدثها، فقد عظم خطأه و أحالوا حدوث فعل من فاعلين». فالعبارة بصدد نفى كون فعل العباد مخلوقاً لله مباشرة على النحو اللّذي

يذهب إليه أهل الحديث والأشاعرة. وهذا غير القول باستقلال العباد في أفعالهم و غناهم عن الواجب في أعمالهم.

_____ ١. بحار الأنوار: ج ٥، ص ٥٥-٥٦. ٢. المصدر نفسه: ص ٥١.

(٣٥٢)

وبعبارة ثانية: كان المذهب في أفعال العباد أحد أمرين: كون أفعالهم مخلوقة لله مباشرة و بلا واسطة، أو كون أفعالهم مخلوقة للعبد كذلك. فأهل الحديث والأشاعرة على الأول، والمعتزلة على الثاني. لكن القول بالثاني ليس بمعنى انقطاع عمل العباد عن الله سبحانه، وعدم انتهاء سلسلة العلة إلى الحق عز اسمه. نعم، لم يكن الأمر بين الأمرين شيئاً مفهوماً لديهم حتى يعتقدوا به، لأنه من الكنوز العلمية التي ظهرت من معادن العلم و أهل بيت النبوة. ولكن عدم الوقوف على هذا المذهب غير الاعتقاد على التفويض و الازعان بالمعنى الباطل الذي لا يفارق الشرك. ٥- إن ما استدلل به القاضي على مذهبه لا- يثبت سوى نفى الجبر و كون أفعال العباد غير مخلوقة لله سبحانه. وأما التفويض الذي اتهم به، فلا تثبته أدلته، وإليك بعض ما استدلل به على رد الخصم على وجه الاجمال: الأول: قال: «والذي يدل على ذلك أن الفصل بين المحسن والمسيء، وبين حسن الوجه وقيحه. فنحمد المحسن على إحسانه و نذم المسيء على إساءته. ولا- تجوز هذه الطريقة في حسن الوجه وقيحه. فلولا- أن أحدهما متعلق بنا بخلاف الآخر، لما وجب هذا الفصل» (١). الثاني: قال: «لو صح الجبر لزمهم التسوية بين الرسول و إبليس، لأن الرسول يدعوهم إلى خلاف ما أراد الله تعالى منهم، كما أن إبليس يدعوهم إلى ذلك، بل يلزمهم أن يكون حال الرسول أسوأ من حال إبليس» (٢). الثالث: قال: «يلزم قبح مجاهدة الكفار، لأن للكفرة أن يقولوا لماذا تجاهدونا؟ فإن كان جهادكم إيانا على ما لا يريد الله تعالى منا ولا يحبه، فالجهاد لكم أولى و أوجب، وإن كان الجهاد لنا على ما خلق فينا... فذلك جهاد لا معنى له» (٣).

_____ ١. شرح الأصول الخمسة: الصفحات ٣٣٣ و ٣٣٥ و ٣٣٦. ٢. شرح الأصول الخمسة: الصفحات ٣٣٣ و ٣٣٥ و ٣٣٦. ٣. شرح الأصول الخمسة: الصفحات ٣٣٦.

(٣٥٣)

إلى غير ذلك من الأدلة التي أقامها القاضي على نفى الجبر، فلا يجد الإنسان في كتابه ما يثبت به التفويض ولو بصورة الدليل. ٦- إن فكرة التفويض فكرة ثنوية لا- يعرج عليها مسلم واع، عارف بالكتاب والسنة وبدائيات الفلسفة الإلهية، ولا ينطق بها من وقف على موقف الممكن من الواجب، وواقعية العلة و المعاليل الامكانية بالنسبة إلى الواجب المكون لها بأسرها، فإن صفحة الوجود الامكاني صفحة فقيرة متدلية بالذات قائمة بالغير، ذاتاً كان أم فعلاً. ونسبة الوجود الامكاني إلى الوجود الواجب، كنسبة الوجود الحرفي إلى الاسمي. وعندئذ كيف يعقل لموجود امكاني الاستقلال في التأثير والفعل من دون أن يستند إلى الواجب و يعتمد عليه. وبعبارة ثانية: كما أنه ليس للمعنى الحرفي الخروج عن إطار المعنى الاسمي في المراحل الثلاث: التصور، والدلالة، والتحقق في الخارج، فهكذا المعلول الامكاني بهويته و أفعاله، فليس له الخروج عن إطار العلة الواجبة في حال من الحالات. هذا، وقد أوضحنا بطلان التفويض كتاباً و عقلاً- في أبحاثنا الكلامية (١). ٧- هنا مسألتان: الأولى: هل أفعال العباد مفوضة إليهم أنفسهم أو لا؟ الثانية: هل الذات الامكانية محتاجة إلى الواجب في حدوثهم فقط، أو في حدوثهم و بقائهم؟ فمن قال بالأول وجب له القول بالتفويض في الأفعال بوجه أولى، لأن الذات إذا كانت غيبية عن الواجب في بقائه، فأولى أن يكون كذلك في أفعالها. قال الشيخ الرئيس في إشارته: «وقد يقولون إنه إذا وجد فقد زالت الحاجة إلى الفاعل، حتى إنه لو فقد الفاعل جاز أن يبقى المفعول موجوداً كما يشاهدونه من فقدان البناء و قوام البناء، وحتى إن كثيراً منهم لا يتحاشى أن يقول: لو جاز على الباري تعالى

_____ ١. لاحظ «الالهيات في الكتاب والعقل والسنة» الجزء الثاني ٣٢١-٣٣١.

(٣٥٤)

العدم لما ضرر عدمه وجود العالم، لأن العالم عندهم إنما احتاج إلى الباري تعالى في أن أوجده أي أخرجه من العدم إلى الوجود،

حتى كان بذلك فاعلاً. فإذا قد فعل و حصل له الوجود عن العدم، فكيف يخرج بعد ذلك إلى الوجود عن العدم حتى يحتاج إلى الفاعل»(١). أقول: ما نقله الشيخ عنهم مبنى على أن مناط حاجة الممكن إلى العلة هل هو إمكانه أو حدوثه، فمن قال بالثاني، صور الممكن غنياً في بقاءه - فضلاً عن فعله - عن الواجب. ومن قال بالأول، أظهر الممكن محتاجاً في كل حال من الأحوال إلى الواجب حدوثاً و بقاءً و ذاتاً و فعلاً. وبما أن التحقيق كون مناط الحاجة هو الامكان، فإذا أصبح التفويض أمراً باطلاً لا يحتاج إلى التلليل أكثر من ذلك. ولأجل ذلك تأتي ببعض الدلائل المتقنة على أن مناط الحاجة هو الامكان، و هو لا يزول عن الممكن أبداً. فذاته تتعلق به دائماً، فكيف بأفعاله، فانتظر. ٨- الظاهر من الشيخ المفيد موافقة المعتزلة للإمامية في مسألة أفعال العباد. قال: «إن الله عدل كريم - إلى أن قال: - جل عن مشاركة عباده في الأفعال، و تعالى عن اضطرارهم إلى الأعمال. لا يعذب أحداً إلا على ذنب فعله، ولا يلوم عبداً إلا على قبيح صنعه. لا يظلم مثقال ذرة، فإن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً. وعلى هذا القول جمهور أهل الإمامة، و به تواترت الآثار عن آل محمد - عليهم السلام - وإليه يذهب المعتزلة بأسرها إلا ضراراً منها و أتباعه. وهو قول كثير من المرجئة، و جماعة من الزيدية و المحكمه، و نفر من أصحاب الحديث، و خالف فيه جمهور العامة و بقايا ممن عدناه»(٢). وما ذكره الشيخ المفيد يعرب عن أن المعتزلة في ذلك العصر لم تكن معتقدة بالتفويض، وإلا لم يعدها الشيخ متحده مع الإمامية القائلة بنفي الجبر و التفويض

_____ ١ . الاشارات، للشيخ الرئيس: ج ٣، ص ٦٨. ٢ . أوائل المقالات: ص ٢٤ - ٢٥.

(٣٥٥)

معاً. ٩- يظهر من المفيد أن المراد من التفويض الوارد في الروايات غير ما هو المصطلح بيننا حيث قال: «الجبر هو الحمل على الفعل و الاضطرار إليه بالقهر و الغلبة. و حقيقته ذلك إيجاد الفعل في الخلق من غير أن يكون له قدرة على دفعه، و الامتناع من وجوده فيه.... و التفويض هو القول برفع الحظر عن الخلق في الأفعال، و الاباحة لهم مع ما شاءوا من الأعمال. و هذا قول الزنادقة و أصحاب الاباحات. و الواسطة بين هذين القولين أن الله أقدر الخلق على أفعالهم، و مكنهم من أعمالهم، و حد لهم الحدود في ذلك... إلى آخر ما أفاده»(١). ١٠- هل يصح إطلاق «الخلق» في مورد فعل الإنسان، أو يختص «الخلق» بفعل الله سبحانه؟ لا- شك أن الله سبحانه هو الخالق، و أنه خلق السموات و الأرض بجواهرها و أعراضها. إنما الكلام في أنه هل يصح استعمال كلمة الخلق في مورد فعل الإنسان، فإذا قام أو قعد يصح لنا أن نقول: «خلق القيام و القعود» أو إذا أكل و شرب هل يصح لنا أن نقول: «خلق الأكل و الشرب» أو لا يجوز ذلك إلا في مورد يكون هناك عناية في استعمال هذه اللفظة. و الراجح في مصطلح القرآن هو التعبير بالكسب و الفعل. قال سبحانه: (لها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (البقرة/٢٨٦). و قال تعالى: (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (النمل/٣٣). و قال سبحانه: (لَمْ تَقُولُونَ مَالًا تَفْعَلُونَ) (الصف/٢). فالعبر الراجح عن أفعال الإنسان بصورة عامية هو الكسب و الفعل، و بصورة خاصة هو الأفعال المخصوصة من الأكل و الشرب.

_____ ١ . شرح عقائد الصدوق، ص ١٤ - ١٥.

(٣٥٦)

و أمياً استعمال كلمة الخلق في مورد الفعل بأن يقال: «خلق الفعل و العمل» فليس بمعهود، و إنما هو اصطلاح تسرب إلى كلمات المحدثين و المتكلمين في نهاية القرن الأول و أوائل الثاني، حتى قام البخاري بتأليف أسماه «خلق الأعمال». قال الشيخ المفيد: «إن الخلق يفعلون، و يحدثون، و يخترعون، و يصنعون، و يكتسبون، و لا أطلق القول عليهم بأنهم يخلقون و لا لهم خالقون، و لا أتعدى ذكر ذلك فيما ذكر الله تعالى، و لا أتجاوز به مواضعه من القرآن، و على هذا القول إجماع الإمامية، و الزيدية، و البغداديين من المعتزلة، و أكثر المرجئة، و أصحاب الحديث، و خالف فيه البصريون من المعتزلة، و أطلقوا على العباد أنهم خالقون، فخرجوا بذلك من إجماع المسلمين»(١). أمياً القرآن فلم يصف فعل الإنسان بما هو فعله من دون أن يحدث هيئة أو تركيباً بالخلق إلا- في مورد واحد، قال سبحانه: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَ تَخْلُقُونَ إِفْكًا) (العنكبوت/١٧) مع أنه يحتمل أن يكون الخلق فيه بمعنى الكذب. قال في

اللسان: «الخلق: الكذب. وخلق الكذب والإفك: افتراه، ابتدعه. ومنه قوله سبحانه: (وتخلقون إفكا) و منه أيضاً قوله سبحانه: (إن هذا إلا خلق الأولين) أى كذب الأولين(٢). نعم، وصف القرآن عمل المسيح بالخلق، لكن فى مورد خاص وهو إحداث صورة وهيئة وتركيب فى الخارج. فعندما جعل من الطين كهيئة الطير، خاطبه سبحانه بقوله: (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير يا ذنى فتفتح فيها فتكون طيراً يا ذنى) (المائدة/١١٠) وعليه يحمل قوله سبحانه: (فتبارك الله أحسن خالقين) (المؤمنون/١٤). وأما فى غير هذه الصورة، كالفعل المجرد عن إحداث شىء مثل المشى والقعود،

_____ ١. أوائل المقالات: ص ٢٥. ٢. لسان العرب: مادة خلق.

(٣٥٧)

فلم يعهد توصيفه بالخلق، وإنما حدث هذا الاصطلاح (أى خلق الأفعال والأعمال) فى أواخر القرن الأول و أوائل الثانى. ولأجل ذلك تنصرف الاطلاقات الواردة فى القرآن الكريم من أنه خالق كل شىء إلى غير أفعاله. هذا من حيث القرآن. وأما اللغوة، فالظاهر من «اللسان» التفريق بين الخلق بمعنى الانشاء على مثال أبدعه، والخلق بمعنى التقدير، والأول يختص بالله سبحانه، والثانى يعمّه وغيره، وعليه حملوا قوله سبحانه: (أحسن الخالقين) (أى المقدرين). قال فى اللسان: «الخلق بمعنى التقدير، وخلق الأديم يخلقه خلقاً: قدره لما يريد قبل القطع، وقاسه ليقطع منه»(١). ولأجل ذلك، فالأولى فى عنوان البحث مكان خلق الأعمال أن يقال: هل أفعال العباد مستندة إلى الله سبحانه فقط، أو إلى العباد فقط، أو إليهما معاً، أو ما يشبه ذلك؟ ١١- إن الأبحاث العقلية لا تدور مدار صحة التسمية. فسواء أصح توصيف أفعال العباد بالخلق أم لا، ففعل الإنسان بما أنه من الموجودات الامكانية، لا يخرج من كتم العدم إلى حيز الوجود إلا بعلة واجبة أو ممكنة منتهية إلى الواجب. فعلى الأول يكون فعلاً مباشراً له، وعلى الثانى يكون فعلاً تسببياً له. وبذلك يظهر بطلان كلا المذهبين، أما الجبر - وهو تصوير أن العلة التامة للفعل هو الواجب - فيلزم من كون الفعل الصادر من العبد فعلاً مباشراً للواجب، وكيف يمكن أن يكون الأكل، والشرب، والمشى، والقعود أفعالاً له مع أن ماهيات هذه الأفعال واقعة بأعمال الجوارح من الإنسان. وأمّا التفويض - وهو تصوير استقلال العبد فى مقام الفعل والعمل - فلازمه كون الإنسان فاعلاً واجباً فى مقام الفعل غير محتاج إلى الواجب فى عمله، ومرجعه إلى التثوية فى الاعتقاد، والشرك فى الفاعلية.

_____ ١. لسان العرب: مادة خلق.

(٣٥٨)

فلا مناص من رفض القولين واختيار مذهب بين المذهبين الذى يدعّمه العقل، والكتاب، وأحاديث العترة الطاهرة. ومن أراد الوقوف على حقيقته فعليه بالمؤلفات الكلامية لأصحابنا الإمامية. ١٢- إن الجنوح إلى التفويض لأحد أمرين أو كليهما: ألف - كون الحادث فى حدوثه محتاجاً إلى الواجب لا فى بقائه. فإذا كان هذا حال الذات فيكون الفعل الصادر عنها غير مستند إليه بوجه أولى؟! ب - لو كان الفعل مستنداً إلى خالق العبد ونفسه يلزم توارد القدرتين على مقدور واحد. ولأجل إيضاح حال كلا الدليلين نبحت عن كل منهما مستقلاً. مناط الحاجة إلى العلة هو الامكان لا الحدوث إن هذا الأصل (كون مناط الحاجة إلى العلة هو الحدوث لا الامكان) الذى بنت عليها المفوضة نظريتهم فى أفعال العباد، بل و آثار كل الكائنات، باطل من وجوه: الوجه الأول: إن مناط حاجة المعلول إلى العلة هو الامكان أى عدم كون وجوده نابعاً من ذاته، أو كون الوجود والعدم بالنسبة إلى ذاته متساويين، وهذا الملاك موجود فى حالتى البدء والبقاء. وأمّا الحدوث فليس ملاكاً للحاجة فإنه عبارة عن تحقق الشىء بعد عدمه و مثل هذا، أمر انتزاعى ينتزع بعد اتصاف الماهية بالوجود، وملاك الحاجة يجب أن يكون قبل الوجود لا بعده. إن الحدوث أمر منتزع من الشىء بعد تحققه، و يقع فى الدرجة الخامسة من محل حاجة الممكن إلى العلة، وذلك لأن الشىء يحتاج أولاً، ثم تقتربه العلة ثانياً، فتوجده ثالثاً، فيتحقق الوجود رابعاً، فينتزع منه وصف الحدوث خامساً. فكيف يكون الحدوث مناط الحاجة الذى يجب أن يكون فى المرتبة الأولى، وقد اشتهر قولهم: الشىء قرّر (تصور)، فاحتاج، فأوجد، فوجد، فحدث.

(٣٥٩)

وبعبارة ثانية : ذهب الحكماء إلى أن مناط الحاجة هو كون الشيء (الماهية) متساوي النسبة إلى الوجود والعدم، وأنه بذاته لا يقتضى شيئاً واحداً من الطرفين، ولا يخرج عن حد الاستواء إلا بعلمه قاهرة تجره إلى أحد الطرفين وتخرجه عن حالة اللاقتضاء إلى حالة الاقتضاء. فإذا كان مناط الحاجة هو ذلك (إن الشيء بالنظر إلى ذاته لا يقتضى شيئاً) فهو موجود في حالتي الحدوث والبقاء، والقول باستغناء الكون في بقاءه عن العلة، دون حدوثه، تخصيص للقاعدة العقلية التي تقول: إن كل ممكن ما دام ممكناً، بمعنى ما دام كون الوجود غير نابع من ذاته، يحتاج إلى علمه، وتخصيص القاعدة العقلية مرفوض جداً. ويشير الحكيم المتأله الشيخ محمد حسين الاصفهاني (١٢٩٦ - ١٣٦١) في منظومته إلى هذا الوجه بقوله: والافتقار لانزم الامكان * من دون حاجة إلى البرهان لا- فرق ما بين الحدوث والبقا * في لازم الذات ولن يفترقا الوجه الثاني: إن القول بأن العالم المادى بحاجة إلى العلة في الحدوث دون البقاء، يشبه القول بأن بعض أبعاد الجسم بحاجة إلى العلة دون الأبعاد الأخرى. فإن لكل جسم بعدين، بعداً مكانياً و بعداً زمانياً، فامتداد الجسم في أبعاده الثلاثة، يشكّل بعده المكانية. كما أن بقاءه في عمود الزمان يشكّل بعده الزماني. فالجسم باعتبار أبعاضه ذو أبعاد مكانية وباعتبار استمرار وجوده مدى الساعات والأيام ذو أبعاد زمانية، فكما أن حاجة الجسم إلى العلة لا تختص ببعض أجزائه و أبعاضه، بل الجسم في كل بعد من الأبعاد المكانيّة محتاج إلى العلة، فكذا هو محتاج إليها في جميع أبعاده الزمانيّة، حدوثاً وبقاءً من غير فرق بين آن الحدوث و آن البقاء و الآنات المتتالية، فالتفريق بين الحدوث و البقاء يشبه القول باستغناء الجسم في بعض أبعاضه عن العلة. فالبعد الزماني والمكاني وجهان لعملة واحدة، وبعدها لشيء واحد فلا يمكن التفكيك بينهما. وتظهر حقيقة هذا الوجه إذا وقفنا على أن العالم في ظل الحركة الجوهرية، في تبدل

(٣٦٠)

مستمر و تغير دائم، نافذين في جوهر الأشياء و طبيعة العالم المادى، فذوات الأشياء في تجدد دائم وانتثار متواصل والعالم حسب هذه النظرية أشبه بنهر جار تنعكس فيه صورة القمر، فالتناظر الساذج يتصور أن هناك صورة منعكسة على الماء وهي باقية ثابتة والتناظر الدقيق يقضى على أن الصور تتبدل حسب جريان الماء و سيلانه، فهناك صور مستمرة. وعلى ضوء هذه النظرية، العالم المادى أشبه بعين نابعة من دون توقّف حتى لحظة واحدة، فإذا كان هذا حال العالم المادى، فكيف يصح لعاقل أن يقول إن العالم، ومنه الإنسان، إنما يحتاج إلى العلة في حدوثه دون بقاءه، مع أنه ليس هنا أي بقاء و ثبات، بل العالم في حدوث بعد حدوث و زوال بعد زوال، على وجه الاتصال و الاستمرار بحيث يحسبه الساذج بقاء وهو في حال الزوال و التبدل و السيلان (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب) (النمل ٨٨) (١). الوجه الثالث: إن القول بحاجة الممكن إلى العلة في حدوثه دون بقاءه غفلة عن واقعية المعلول و نسبته إلى علته، فإن وزانه إليها وزان المعنى الحرفي بالنسبة إلى المعنى الاسمي، فكما أنه ليس للأول الخروج عن إطار الثاني في المراحل الثلاث: التصور، والدلالة، والتحقق، فهكذا المعلول ليس له الخروج عن إطار العلة في حال من الحالين الحدوث والبقاء. فإذا كان هذا حال المقيس عليه فاستوضح منه حال المقيس. فإن المفاض منه سبحانه هو الوجود، وهو لا يخلو عن إحدى حالتين: إما وجود واجب، أو ممكن، والأول خلف لأن المفروض كونه معلولاً، فثبت الثاني، وما هو كذلك لا يمكن أن يخرج عما هو عليه (أي الامكان). فكما هو ممكن حدوثاً ممكن بقاء، ومثل ذلك لا يستغنى عن الواجب في حال من الحالات. لأن الاستغناء آية انقلابه عن الامكان إلى الوجوب وعن الفقر إلى الغنى.

١. البحث عن الحركة الجوهرية طويل الذيل. لاحظ كتاب (الله خالق الكون: ص ٥١٤ - ٥٦٠) تجد فيه بغيتك.

(٣٦١)

نعم، ما ذكرنا من النسبة إنما يجري في العلل والمعالي الإلهية لا الفواعل الطبيعية، فالمعلول الإلهي بالنسبة إلى علته هو ما ذكرنا، والمراد من العلة الإلهية مفيض الوجود ومعطيه، كالتفلسف بالنسبة إلى الصور التي تخلقها في ضميرها، والارادة التي توّجدها في

موطنها، ففي مثل هذه المعاليل تكون نسبة المعلول إلى العلة كنسبة المعنى الحرفي إلى الاسمى. وأما الفاعل الطبيعي، كالتار بالنسبة إلى الاحراق، فخارج عن إطار بحثنا، إذ ليس هناك عليّة حقيقية، بل حديث العليّة هناك لا يتجاوز عن تبديل أجزاء التار إلى الحرارة، وذلك كما هو الحال في العلل الفيزيائية والكيميائية، فالعليّة هناك تبدل عنصر إلى عنصر في ظل شرائط و خصوصيات توجب التبدل، وليس هناك حديث عن الایجاد و الاعطاء. وعلى ذلك فالتفويض - أى استقلال الفاعل في الفعل - يستلزم انقلاب الممكن و صيرورته واجباً في جهتين: الأولى: الاستغناء في جانب الذات من حيث البقاء. الثانية: الاستغناء في جانب نفس الفعل مع أنّ الفعل ممكن مثل الذات. الوجه الرابع: إنّ القول بالتفويض يستلزم الشّرك، أى الاعتقاد بوجود خالقين مستقلّين أحدهما العلة العليا التي أحدثت الموجودات والكائنات والإنسان، والأخرى الإنسان بل كلّ الكائنات، فإنّها تستقلّ بعد الخلقة والحدوث في بقائها أولاً، وتأثيراتها ثانياً. فلو قالت المعتزلة بالتفصيل بين الكائنات والإنسان و نسبت آثار الكائنات إلى الواجب، فهو لأجل أنّها لا تراحم العدل دون الإنسان، وعلى ما ذكرنا يكون التفصيل بلا دليل. ثمّ إنّ القوم استدّلوا على المسألة العقلية (غناء الممكن في بقائه عن العلة)، بالأمثلة المحسوسة، منها: بقاء البناء والمصنوعات بعد موت البناء والصانع، ولكنّ

(٣٤٢)

التمثيل في غير محلّه، لأنّ البناء والصانع فاعلان للحركة أى ضمّ بعض الأجزاء إلى بعض والحركة تنتهى بانتهاء عملهما فضلاً عن موتهما. وأما بقاء البناء والمصنوعات فهو مرهون للنظم السائد فيهما، فإنّ البناء يبقى بفضل القوى الطبيعية الكامنة فيه، التي أودعها الله سبحانه في صميم الأشياء فليس للبناء والصانع فيها صنع، وأما الهيئته والشكل فهما نتيجة اجتماع أجزاء صغيرة، فتحصل من المجموع هيئة خاصّة وليس لهما فيها أيضاً صنع. تمثيلان لإيضاح الحقيقة الحقّ إنّ قياس المعقول بالمحسوس الذي ارتكبه المعتزلة - لو صحّت النسبة - قياس غير تامّ، ولو أراد المحقّق القياس والتمثيل فعليه أن يتمسك بالمثالين التاليين: الأوّل: إنّ مثل الموجودات الإمكانية بالنسبة إلى الواجب، كمثال المصباح الكهربائي المضيء، فالحسّ الخاطئ يزعم أنّ الضوء المنبعث من هذا المصباح هو استمرار للضوء الأوّل، ويتصوّر أنّ المصباح إنّما يحتاج إلى المولّد الكهربائي في حدوث الضوء دون استمراره. والحال إنّ المصباح فاقد للاضاءة في مقام الذات، محتاج في حصولها إلى ذلك المولّد في كلّ لحظة، لأنّ الضوء المتألّئ من المصباح إنّما هو استضاءة بعد استضاءة واستنارة بعد استنارة، من المولّد الكهربائي، أفلا ينطفئ المصباح إذا انقطع الاتّصال بينه وبين المولّد؟ فالعالم يشبه هذا المصباح الكهربائي تماماً، فهو لكونه فاقداً للوجود الذاتى يحتاج إلى العلة في حدوثه وبقائه، لأنّه يأخذ الوجود آنأ بعد آن، وزماناً بعد زمان. الثانى: نفترض منطقة حارة جافة تطلع عليها الشمس بأشعتها المحرقة الشديدة. فإذا أردنا أن تكون تلك المنطقة رطبة دائماً بتقطير الماء عليها، وإفاضته بما يشبه الرذاذ (١)، فإنّ هذا الأمر يتوقّف على استمرار تقاطر الماء عليها، ولو انقطع لحظة ساد

المطر الضعيف

(٣٤٣)

عليها الجفاف، وصارت يابسة. فمثل الممكن يتّصف بالوجود باستمرار، مثل هذه الأرض المتّصفة بالرطوبة دائماً، فكما أنّ الثانى رهن استمرار إفاضة قطرات الماء عليها آنأ بعد آن، فهكذا الأوّل لا يتحقّق إلا باستمرار إفاضة الوجود عليه آنأ بعد آن، ولو انقطع الفيض والصلّة بينه وبين المفيض لانعدم ولم يبق منه أثر. تعلق مقدور واحد بقادرين أو قدرتين قد سبق أن القاضى اعتمد على هذا الوجه (١) فى نفى صلة فعل العبد بالله سبحانه، وزعم أنّ القول بكون أفعال العباد مخلوقه لله سبحانه يستلزم تعلق المقدور الواحد بقادرين أو بقدرتين، وهذا أمر محال سواء أكانا حادثين أم قديمين، أم كان أحدهما حادثاً والآخر قديماً. وقد خصّص القاضى الجزء الثامن من أجزاء موسوعته «المغنى» بالجبر والاختيار، وأسماه «المخلوق» ويشتمل على عشرين فصلاً، عرض فيها آراء المعتزلة المتنوّعة فى خلق الأفعال وناقش خصومهم، وردّ على شبهاتهم. وقد عقد فصلاً خاصاً (٢) لهذا الأمر، واستدلّ على الامتناع بأدلة عشر أو أزيد، وهو أبسط الفصول وأوسعها من بينها، وقد فات على القاضى تحرير محلّ النزاع، وأنّ المراد من القدرتين ما هو. فهل المراد القدرتان العرضيتان

أو الطوليتان؟ فإن كان المراد هو الأولى فاستحالة اجتماع قدرتين تامتين عرضيتين على مقدر واحد لا يحتاج إلى الاطناب الذي ارتكبه القاضي، لأنه ينتهي إلى خلف الفرض، وتخرج العلة التامة عن كونها علة تامة، وتصير علة ناقصة. لأن المقدر بعد التحقق إما أن ينسب إلى كلتا القدرتين، بحيث يكون لكل منهما تأثير ودخاله، فتعود العلة التامة إلى العلة الناقصة، والقادر التام إلى القادر غير التام. ١. لاحظ ص ٣٥٠ من هذا الجزء. ٢. المغنى: الجزء ٨، ص ١٠٩ - ١٦١.

(٣٦٤)

التام وهو خلف الفرض، وهذا كما إذا اشترك رجلان في رفع الصخرة، مع قدرة كل منهما على الرفع وحده. فعند ذاك لا يعد كل منهما علة تامة في مقام الرفع. وإما أن ينسب إلى واحدة منهما دون الأخرى، وهذا هو المطلوب. وإما أن لا ينسب إلى واحدة منهما، فكيف خرج عن كتم العدم، مع أن حاجة الحادث إلى العلة أمر واضح. وأما اجتماع قدرتين عرضيتين لكن ناقصتين على مقدر واحد، فلا يترتب عليه محذور أبداً. واللائق بالبحث غير هاتين الصورتين، فإن قدرة الله سبحانه و قدره العبد ليستا في عرض واحد، بل الثانية في طول الأخرى، فهو الذي خلق العبد، وحباه القدرة، وأقدره على اليجاد وهو في كل آن و حين يستمد من مواهب ربه. فالعبد وكل ما في الكون من علل وأسباب، جنوده وقواه، بين فاعل بالاختيار، ومؤثر بالاضطرار. فللفعل صلة بقدرة العبد، كما أن له صلة بالله سبحانه و قدرته. وبوجه بعيد كالرؤية والسمع، فهما فعلا للأجهزة الظاهرية من العين والسمع، وفي الوقت نفسه فعلا للنفس القاهرة على قواه الباطنية والظاهرية. فاجتماع قدرتين مثل هاتين لا يستلزم شيئاً من الاشكالات. إن المعتزلة لم تجد في حل مشكلة فعل الإنسان إلا سلوك أحد الطريقتين و زعمت أنه لا طريق غيرهما ينتهي أحدهما إلى الجبر، والأخرى إلى التفويض. ١- صلة الفعل بالله سبحانه و انقطاعه عن العبد، فعند ذاك يقال: فعلا يحاسب العبد ويعاقب؟ ٢- نسبة الفعل إلى العبد و انقطاعه عن بارئه، فيسأل: هل هناك أفعال تجاوز قدرة الله وهل يصدر في ملكه ما لا يريد؟ فالأشاعر استسهلوا الاشكال الأول ونسبوا الفعل إلى الله سبحانه و صوروا العبد محلاً لارادته و قدرته سبحانه، من دون أن يقيموا لإرادة العبد و قدرته و زناً و قيمة. -----

(٣٦٥)

والمعتزلة اختارت الثاني واستسهلت وقوع ظاهرة خارجة عن سلطانه سبحانه. ولو أن القوم وقفوا على الطريق الثالث الذي يتزده عن فساد المسلكين و يجمع مزيتهم، لأعرضوا عنهما والتجأوا إلى الحق اللأحب وهو القول بالأمر بين الأمرين، فللفعل صلة لخالق العبد، كما أن له صلة لفاعل الفعل، ولكن المسؤولية متوجهة على العبد، إذ هو الذي يصرف القدرة الموهوبة عن اختيار فيما يختاره من الأفعال و يعمل من الأعمال. وسوف تقف على حقيقة الحال عند بيان عقائد الإمامية فانظر.

المسألة الثالثة: في تقدم الاستطاعة على الفعل

المسألة الثالثة: في تقدم الاستطاعة على الفعل

اختلفت المعتزلة والأشاعر في تقدم القدرة على المقدر، فالطائفة الأولى على لزوم تقدمها عليه والثانية على لزوم المقارنة بينهما. وكان الأولى البحث عن هذه المسألة في باب القدرة. غير أن القاضي طرحه في باب العدل و قال: «وجه اتصاله به أنه يلزم على القول بمقارنتها للمقدور، تكليف ما لا يطاق و ذلك قبيح، ومن العدل أن لا يفعل القبيح». ثم استدلل على مذهبه بوجهين: الأول: لو كانت القدرة مقارنة لمقدورها لوجب أن يكون تكليف الكافر بالإيمان تكليفاً بما لا يطاق، إذ لو أطاقه لوقع منه، فلما لم يقع دل على أنه كان غير قادر عليه. وتكليف ما لا يطاق قبيح. الثاني: إن القدرة صالحة للضدين، فلو كانت مقارنة لهما لوجب بوجودها وجود الضدين، فيجب في الكافر وقد كلف بالإيمان، أن يكون كافراً مؤمناً دفعة واحدة، وذلك محال(١). ١. شرح الأصول الخمسة: ص ٣٩٦.

(٣٦٦)

يلاحظ على الاستدلال الأول: أنه مبني على تفسير القدرة بالعلّة التامة التي يكون الفعل معها ضروريّ الوجود فيصحّ كلّ ما جاء فيه. وذلك لأنّ التكليف مشروط بالقدرة، والقدرة المفسّرة بالعلّة التامة لا تنفكّ عن المقدور. فيستكشف عند عدم اعتناقه له بعد التكليف، فقدان القدرة والطاقة، إذ لو كانت لآمنت، لاستحالة انفكاك العلّة التامة عن معلولها. فيلزم تكليف ما لا يطاق وهو قبيح. هذا، ولكنّ المستدلّ غفل عن أنّ المراد من القدرة هو الاستعداد للفعل بحيث لو أراد وقع، ومثل هذا لا يستلزم وجود المقدور، ولا يستكشف من عدمه عدمه، لأنّ الاستعداد للفعل ليس علّة تامة للمقدور. فلأشعري أن يلتزم باقتران القدرة للفعل في تكليف أبي جهل، ولا يترتب عليه أيّ تال فاسد عند امتناعه. ويلاحظ على الثاني: أنه فسرت القدرة فيه على خلاف ما فسّرت به في الدليل الأول. ومبنى استدلاله في هذا الدليل هو تفسير القدرة بالعلّة الناقصة والاستعداد، لوضوح أنّ القدرة بهذا المعنى صالحة للضدّين، لا القدرة بمعنى العلّة التامة، فلو قلنا باقترانها بالمقدور يصحّ أن نقول: إنّ القدرة صالحة للضدّين ولكن لا يلزم منه أن يكون مؤمناً وكافراً. وبالجملة: كونها صالحة للضدّين مبني على كونها علّة ناقصة، ولزوم كون الإنسان مؤمناً وكافراً معاً، مبني على كونها علّة تامة. فالاستدلال الواحد مبني على مبنيين مختلفين. والحقّ إنّ المسألة غير منقّحة في كلام الطائفتين، إذ لم ينقح موضوع البحث، ولا المراد من القدرة. فالحقّ هو التفصيل بين القدرة بمعنى الاقتضاء فهي مقدّمة على الفعل، والعلّة التامة فمقارنه له (١). _____ ١ . لاحظ الجزء الثاني من كتابنا هذا: ص ١٧٢.

المسألة الرابعة: في قبح التكليف بما لا يطاق

المسألة الرابعة: في قبح التكليف بما لا يطاق

القول بجواز التكليف بما لا يطاق نشأ من المسألة السابقة. ولو كانت السابقة منقّحة من حيث الموضوع والحكم، لما اندفعت الأشاعرة إلى اختيار الجواز في هذه المسألة التي يشهد العقل السليم بقبحه أولاً وعدم إمكانه ثبوتاً ثانياً، إذ كيف يريد الإنسان بالارادة الجديّة الركض من الفالج، والتكاح من الطفل الرضيع؟ ولكنهم لما فسروا القدرة بالعلّة التامة من جانب، واعتقدوا بلزوم اقترانها بالمقدور من جانب آخر، واستنتجوا من عدم الاعتناق عدم القدرة، فلزمهم عند تكليف الكفار بالإيمان وعدم اعتناقهم، القول بجواز التكليف بما لا يطاق، وإنه كان هناك تكليف للكافر، ولم تكن له طاقة، وذلك لأنه لو كانت له طاقة لآمن قطعاً. فبقاؤه على الكفر يكشف عن عدم قدرته، إذ لو كانت لآمن قطعاً لحدث امتناع الانفكاك. فينتج أنّ التكليف كان موجوداً ولم يكن هناك قدرة. غير أنّ الأشعري ومن قبله ومن بعده، لو فسروا القدرة التي هي من شرائط التكليف بمعنى العلّة الناقصة والاقتضاء، لما لزمهم الالتزام بهذه النتيجة الفاسدة، حتّى ولو قالوا بلزوم الاقتران. ففي مورد أبي جهل وأبي لهب كان هناك تكليف أولاً، وطاقة بمعنى الاستعداد والاستطاعة على نحو لو أراد كلّ لآمن ثانياً، وكانت القدرة بهذا المعنى مقارنه للتكليف ثالثاً. ولكن عدم إيمانه وإصراره على الكفر، لا يكشف عن فقدان الشرط، لأنّ الاستطاعة بمعنى الاقتضاء أعمّ من تحقّق المعلول معها وعدمه. والعجب أنّ هؤلاء استدّلوا بآيات على ما يتّبونونه من جواز التكليف بالقبيح. وبذلك عزّفوا الإسلام والقرآن مناقضين للفطرة وحكم العقل وإدراك العقلاء-أعاذنا الله من سوء الموقف. (٣٦٨)

وبما أنّ الاجابة عن الاستدلال بالآيات واضحة، طوينا الكلام عن استدلالاتهم، روماً للاختصار ولما سبق منّا في الجزء الثاني في تحليل عقائد الأشعري (١).

١ . لاحظ الجزء الثاني من هذه الموسوعة: ص ١٩٣.

المسألة الخامسة: في أنّ الله لا يريد المعاصي

المسألة الخامسة: في أن الله لا يريد المعاصي

ذهبت المعتزلة إلى أنه لا يجوز أن يكون سبحانه مريداً للمعاصي. وأوضح القاضي وجه صلة هذا البحث بباب العدل بأن الإرادة فعل من الأفعال، ومتى تعلقت بالقيح كانت واجبة لا محالة، وكونه تعالى عدلاً يقتضي أن تنفي عنه هذه الإرادة (٢). المعتزلة ينظرون إلى المسألة من زاوية التنزيه فيتصوِّرون أن تنزيه الرّب يتحقق بعدم تعلّق إرادته بالقباح، لأنّ من أراد القبيح يتّصف فعله بالقبح و يسرى إلى الفاعل، بينما يريد الأشعري تعظيم الرّب، وأنّه لا يكون في ملكه ما لا يريد ويذهب إلى سعة إرادته. وقد نقل التفتازاني في «شرح المقاصد» أنّه دخل القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) دار الصحاح بن عباد (ت ٣٨٥هـ) فرأى الأستاذ أبا إسحاق الإسفرائيني (ت ٤١٣هـ)، فقال القاضي: «سبحان من تنزه عن الفحشاء» (مزدرياً بالاسفرائيني بأنّه لأجل القول بسعة إرادته يصفه سبحانه بالفحشاء) فأجابه الاسفرائيني بقوله: «سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء» إيماءً بأنّ القاضي لأجل قوله بضيق إرادته سبحانه، يعتقد بأنّ هناك أشياء تقع في سلطانه ومملكته خارجة عن مشيئته (٣). لكنّ القولين بين الإفراط والتفريط. وما يتبينانه من الغاية (التنزيه و التعظيم) يحصل برفض القولين، والاعتناق بالقول الثالث الذي هو مذهب بين المذهبين، وأمر ————— ١. لاحظ الجزء الثاني من هذه الموسوعة: ص ١٩٣. ٢. شرح الأصول الخمسة: ص ٤٣١. ٣. انظر شرح المقاصد: ج ٢، ص ١٤٥.

(٣٦٩)

بين الأمرين. وهذا المذهب هو المروي عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - ويوافقه العقل و تؤيّدّه نصوص الكتاب، وهو جامع بين المزيّتين و منزّه عن شناعة القولين. فالمعتزلة، وإن أصابوا في تنزيه الرّب عن القباح، لكنّهم أخطأوا في تحديد سلطنته بإخراج أفعال عباده عن إحاطة إرادته و سلطنته وملكه، فصوِّروا الإنسان فاعلاً يفعل بإرادته، ويعمل بمشيئته مستقلاً بلا استمداد من إرادته و مشيئته سبحانه. والأشاعرة، وإن أصابوا في إدخال أفعال العباد في ملكه و سلطنته، لكنّهم أخطأوا في جعل أفعال العباد مرادة لله بالإرادة المباشريّة. فصار هناك مريد واحد وهو الله سبحانه و غيره من الفواعل مظاهر إرادته. وهذا يستلزم كونه سبحانه هو المسؤول عن القباح لكونه الفاعل لها. وأمّا القول الثالث فهو عبارة عن سعة إرادته لكلّ ظاهرة امكانيّة، لكن لا بمعنى كونه سبحانه هو المصدر المباشر لكلّ شيء، بل بمعنى أنّه تعلقت إرادته على صدور كلّ فعل عن فاعله بما فيه من الخصوصيات، فلو صدر عنه بلا هذه الخصوصيات لزم تخلف مراده عن إرادته، فتعلقت إرادته سبحانه على كون التّيار مصدراً للحرارة بلا علم و شعور، بل عن جبر واضطرار. كما تعلقت إرادته على صدور فعل الإنسان عنه باختيار ذاتي و حرّيّة فطريّة. وباختصار، شاء أن يكون الإنسان مختاراً في فعله و عمله. فإذا اختار و فعل فقد فعل بإرادته، كما فعل بإرادة الله سبحانه. وليست الإرادة الأزليّة منافية لحرّيّته و اختياره، وقد أوضحنا ذلك في أبحاثنا الكلاميّة (١). فلاحظ. وهناك كلام للشّهد الأجلّ محمّد بن مكّي (المتوفى عام ٧٨٦هـ) عند بحثه عن تضافر الأخبار على أنّ صلة الأرحام تزيد في العمر، يقرب ممّا ذكرناه، قال (قدّس سرّه): ————— ١. لاحظ: الالهيات على ضوء الكتاب والسنة والعقل، ص ٦٣٢، والجزء الثاني من هذه الموسوعة، ص ٣٠٢.

(٣٧٠)

«أشكّل هذا بأنّ المقدّرات في الأزل، والمكتوبات في اللوح المحفوظ لا تتغير بالزيادة والنقصان لاستحالة خلاف معلوم الله تعالى، وقد سبق العلم بوجود كلّ ممكن أراد وجوده و بعدم كلّ ممكن أراد بقاءه على حالة العدم أو إعدامه بعد ايجاده، فكيف يمكن الحكم بزيادة العمر و نقصانه بسبب من الأسباب؟». ثمّ أجاب وقال: «إنّ الله تعالى كما علم كمّيّة العمر، علم ارتباطه بسببه المخصوص، وكما علم من زيد دخول الجنّة، جعله مرتبطاً بأسبابه المخصوصة، من ايجاده، وخلق العقل له، وبعث الأنبياء و نصب الألفاظ، وحسن الاختيار، والعمل بموجب الشّرع، فالواجب على كلّ مكلف الاتيان بما أمر به، ولا يتكل على العلم، فإنّه مهما صدر منه فهو المعلوم بعينه. وبالجملة: جميع ما يحدث في العالم، معلوم لله تعالى على ما هو عليه واقع، من شرط أو سبب وليس نصب صلة الرحم زيادة في العمر إلاّ كنصب الإيمان سبباً في دخول الجنّة» (١). ولو أمعنت في أطراف كلامه تجد أنّه (قدّس الله سرّه) يشير إلى

نفس الجواب الذي بيناه خصوصاً قوله «جعله مرتبطاً بأسبابه المخصوصة من إيجاده .. وحسن الاختيار» وقوله: «جميع ما يحدث في العالم معلوم لله تعالى على ما هو عليه...».

المسألة السادسة: في وجوب اللطف

المسألة السادسة: في وجوب اللطف

اشتهرت العدالة بوجوب اللطف (٢) على الله سبحانه، وخالفتهم الأشعرية وبشر _____ ١. القواعد والفوائد: ج ٢، ص ٥٦، القاعدة ١٦٣. ٢. المراد من الوجوب كونه مقتضى الحكمة، أو الجود والكرم، لا- الوجوب بالمعنى المتبادر في أوساط الناس من حاكمية العباد على الله، وكون تركه مستلزماً للذم واللوم أو العقاب، وعلى ذلك فالحكم مستكشف العقل باعتبار ملاحظة أوصافه الجميلة. وعلى أى تقدير فمن قال به فإنما قال به من باب الحكمة، تحصيلاً لهدف الخلق، أو هدف التكليف، أو من باب الجود والكرم، وأما إيجابه من باب العدل فلم يعلم له معنى محصل.

(٣٧١)

ابن المعتمر من معتزلة بغداد، وإيضاح الحق يستدعى البحث عن أمور: الأول: تعريف اللطف و بيان حقيقته و أقسامه. إن اللطف، في اصطلاح المتكلمين، يوصف بوصفين: ١- اللطف المحصل. ٢- اللطف المقرَّب. وهناك مسائل تترتب على اللطف بالمعنى الأول، ومسائل أخرى تترتب على اللطف بالمعنى الثاني، وربما يؤدي عدم التمييز بين المعنيين إلى خلط ما يترتب على الأول بما يترتب على الثاني .. ولأجل الاحتراز عن ذلك نبحت عن كل منهما بنحو مستقل. ١- اللطف المحصل اللطف المحصل: عبارة عن القيام بالمبادئ والمقدمات التي يتوقف عليها تحقق غرض الخلق، وصونها عن العبث واللغو، بحيث لولا القيام بهذه المبادئ والمقدمات من جانبه سبحانه، لصار فعله فارغاً عن الغاية، وناقض حكيمته التي تستلزم التحرُّز عن العبث، وذلك كيان تكاليف الإنسان و إعطائه القدرة على امتثالها. ومن هذا الباب بعث الرُّسل لتبيين طريق السَّعادة، وتيسير سلوكها. وقد عرفت في الأدلَّة السابقة، أن الإنسان أقصر من أن ينال المعارف الحقَّة، أو يهتدى إلى طريق السَّعادة في الحياة بالاعتماد على عقله، والاستغناء عن التعليم السماوى. و وجوب اللطف بهذا المعنى، ليس موضع مناقشة لدى القائلين بحكيمته سبحانه، وتنزيهه عن الفعل العبثي الذي اتفق عليه العقل والنقل (١). وإنما الكلام في «اللطف المقرَّب»، وإليك البيان فيه: _____ ١. لاحظ سورة الذاريات: الآية ٥٦ وسورة المؤمنون: الآية ١١٥.

(٣٧٢) ٢- اللطف المقرَّب

اللطف المقرَّب: عبارة عن القيام بما يكون محصلاً- لغرض التكليف بحيث لولاه لما حصل الغرض منه و ذلك كالوعد والوعيد، والترغيب و الترهيب، التي تستتبع رغبة العبد إلى العمل، وبعده عن المعصية (١). وهذا النوع من اللطف ليس دخيلاً في تمكين العبد من الطاعة، بل هو قادر على الطاعة وترك المخالفة سواء أكان هناك وعد أم لا، فإنَّ القدرة على الإمتثال رهن التعرّف على التكليف عن طريق الأنبياء، مضافاً إلى إعطاء الطاقات الماديَّة، والمفروض حصول هذه المبادئ والمقدمات، غير أن كثيراً من الناس لا يقومون بواجبهم بمجرد الوقوف على التكليف ما لم يكن هناك وعد و وعيد و ترغيب و ترهيب، فهذا النوع من اللطف قد وقع موقع النقاش بين المتكلمين. والحق هو القول بوجوب اللطف إذا كان غرض التكليف (لا- غرض الخلق) موقوفاً عليه عند الأكثرية الساحقة من المكلفين. مثلاً- لو فرضنا أن غالب المكلفين، لا يقومون بتكاليفهم بمجرد سماعها من الرُّسل - وان كانوا قادرين عليها - إلا إذا كانت مقرونة بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وجب على المكلف القيام بذلك، صوناً للتكليف عن اللغو، ولو أهملها المكلف ترتب عليه بطلان غرضه من التكليف، وبالتالي بطلان غرضه من الخلق. وفي الكتاب والسنة إشارات إلى هذا النوع من اللطف. يقول سبحانه: _____ ١. عرّف اللطف المقرَّب بأنه هيئة مقربة إلى الطاعة ومبعدة عن المعصية، من دون أن يكون له حظ في

التمكين وحصول القدرة، ولا يبلغ حدّ الاجراء.

فخرج بالقيد الأوّل (لم يكن له حظ...) اللطف المحضّل، فإنّ له دخاله في تمكين المكلف من الفعل بحيث لولاه لانتفت القدرة. وخرج بالقيد الثاني (لا يبلغ حدّ الإلجاء) الإكراه والإلزام على الطاعة والاجتناب عن المعصية، فإنّ ذلك ينافي التكليف الذي يتطلب الحرية والاختيار في المكلف (لاحظ: كشف المراد، ص ٢٠١، ط صيدا). وقال القاضي عبد الجبار: «اللطف هو كل ما يختار عنده المرء الواجب ويتجنب القبيح، أو ما يكون عنده أقرب إمّا إلى اختيار الواجب أو ترك القبيح» (شرح الاصول الخمسة: ص ٥١٩). (٣٧٣) (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (سورة الأعراف/١٦٨)

والمراد من الحسنات والسيئات، نعماء الدنيا وضرّاؤها، و كأنّ الهدف من ابتلائهم بهما هو رجوعهم إلى الحق والطاعة. و يقول سبحانه: (وما أرسلنا في قريّة من نبيّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّراء لعلّهم يضرّعون) (سورة الأعراف/٩٤) وفي الآية إشارة إلى كلا القسمين من اللطف، ومفاد الآية أنّ الله تعالى أرسل رسله لإبلاغ تكاليفه إلى العباد وإرشادهم إلى طريق الكمال (اللطف المحضّل)، غير أنّ الرّفاه والرّخاء والتوغّل في النعم الماديّة، ربّما يسبّب الطغيان وغفلة الإنسان عن هدف الخلقة وإجابة دعوة الأنبياء، فاقترض حكمته تعالى أخذهم بالبأساء والضّراء لعلّهم يضرّعون ويبتهلون إلى الله تعالى. ولأجل ذلك نشهد أنّ الأنبياء لم يكتفوا باقامة الحجّة والبرهان، والإتيان بالمعجز، بل كانوا - مضافاً إلى ذلك - مبشّرين و منذرين، وكان التّربيع والتّرهيب من شؤون رسالتهم، قال تعالى: (رُؤِياً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) (سورة النساء/١٦٥) والإنذار والتبشير دخيلان في رغبة الناس بالطاعة وابتعادهم عن المعصية. وفي كلام الإمام على - عليه السلام - إشارة إلى هذا: قال - عليه السلام - «أيّها الناس، إنّ الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة وأخلاق شريفة، فعلم أنّهم لم يكونوا كذلك إلاّ بأن يعرّفهم ما لهم وما عليهم، والتّعريف لا يكون إلاّ بالأمر والنّهي (١)، والأمر والنّهي لا يجتمعان إلاّ بالوعد والوعيد، والوعد لا يكون إلاّ بالتّربيع، والوعد لا يكون إلاّ بالتّرهيب، والتّربيع لا يكون إلاّ بما تشتهيهم أنفسهم وتلذّه أعينهم، والتّرهيب لا يكون إلاّ بضدّ ذلك ... الخ» (٢). وقوله - عليه السلام - «والأمر والنّهي لا يجتمعان إلاّ بالوعد والوعيد» إشارة إلى أنّ ————— ١. هذا إشارة إلى اللطف المحصل. ٢. بحار الأنوار، ج ٥، كتاب العدل والمعاد، الباب الخامس عشر، الحديث ١٣، ص ٣١٦.

(٣٧٤)

امتثال الأمر والنّهي ونفوذهما في نفوس الناس، يتوقّف على الثّواب والعقاب، فلولاهما لما كان هناك حركة إيجابيّة نحو التّكليف إلاّ - من العارفين الذين يعبدون الله تعالى، لا رغبة ولا رهبة، بل لكونه مستحقاً للعبادة. فتحصل من ذلك أنّ ما هو دخيل في تحقّق الرّغبة بالطّاعة، والابتعاد عن المعصية في نفوس الأكثرية الساحقة من البشر، يجب على الله سبحانه القيام به صوتاً للتّكليف عن اللغو، وبالتالي صوتاً للخلقة عن العبث. نعم، إذا كانت هذه المبادئ كافيّة في تحريك الأكثرية نحو الطّاعة، ولكنّ القليل منهم لا يمتثلون إلاّ في ظروف خاصّة كاليسار في الرزق، أو كثرة الرفاه، فهل هو واجب على الله سبحانه؟ الظاهر لا، إلاّ من باب الجود والتّفصّل. وبذلك يعلم أنّ اللطف المقرّب إذا كان مؤثراً في رغبة الأكثرية بالطّاعة وترك المعصية يجب من باب الحكمة، وأقياً إذا كان مؤثراً في آحادهم المعدودين، فالقيام به من باب الفضل والكرم. وبذلك تقف على مدى صحّة ما استدللّ به بعضهم على اللطف في المقام، أو سقمه. استدللّ القاضي عبد الجبار على وجوب اللطف بقوله: «إنّ الله تعالى كلف المكلف، وكان غرضه بذلك تعريضه إلى درجة الثّواب، وعلم أنّ في مقدوره ما لو فعل به لا اختار عنده الواجب، واجتنب القبيح، فلا بدّ من أن يفعل به ذلك الفعل وإلاّ عاد بالتّقض على غرضه، وصار الحال فيه كالحال في أحدنا إذ أراد من بعض أصدقائه أن يجيبه إلى طعام قد اتّخذه، وعلم من حاله أنّه لا يجيبه، إلاّ - إذا بعث إليه بعض أعزّته من ولد أو غيره، فإنّه يجب عليه أن يبعث، حتّى إذا لم يفعل عاد بالتّقض على غرضه وكذلك هيّهنا» (١). قال الشّهريستاني: «اللطف عبارة عن كلّ ما يوصل الإنسان إلى الطّاعة ويبعده عن المعصية، ولما كان الله عادلاً في حكمه، رؤوفاً بخلقه، ناظراً لعباده، لا يرضى لعباده ————— ١. شرح الاصول الخمسة: ص ٥٢١.

(٣٧٥)

الكفر، ولا يريد ظلماً للعالمين، فهو لم يدخر عنهم شيئاً مما يعلم أنه إذا فعل بهم، أتوا بالطاعة والصلاح»(١). وقال العلامة الحلبي: «إنّ المكلف - بالكسر - إذا علم أن المكلف - بالفتح - لا يطيع إلا باللطف، فلو كلفه من دونه، كان ناقضاً لغرضه، كمن دعا غيره إلى طعام، وهو يعلم أنه لا - يجيبه إلا - أن يستعمل معه نوعاً من التأدب، فإن لم يفعل الداعي ذلك النوع من التأدب كان ناقضاً لغرضه، فوجوب اللطف يستلزم تحصيل الغرض»(٢). وقال الفاضل المقداد: «إنّا بيننا أنه تعالى مرید للطاعة و كاره للمعصية، فإذا علم أن المكلف لا يختار الطاعة، أو لا يترك المعصية، أو لا يكون أقرب إلى ذلك إلا عند فعل يفعله به، وذلك الفعل ليس فيه مشقة ولا غضاضة، فإنه يجب في حكمته أن يفعله، إذ لو لم يفعله لكشف ذلك، إما عن عدم إرادته لذلك الفعل، وهو باطل لما تقدم، أو عن نقض غرضه إذا كان مريداً له، لكن ثبت كونه مريداً له فيكون ناقضاً لغرضه. ويجري ذلك في الشاهد مجرى من أراد حضور شخص إلى وليمة، وعرف أو غلب على ظنه أن ذلك الشخص لا يحضر إلا مع فعل يفعله، من إرسال رسول، أو نوع، أدب، أو بشاشة، أو غير ذلك من الأفعال، ولا غضاضة عليه في فعل ذلك، فمتى لم يفعل عُد ناقضاً لغرضه، ونقض الغرض باطل، لأنه نقص، والنقص عليه تعالى محال، ولأنّ العقلاء يعدونه سَفَهًا وهو ينافي الحكمة»(٣). وهذه البيانات تدلّ على أن اللطف واجب من باب الحكمة. هذا كلام القائلين بوجوب اللطف، وهو على إطلاقه غير تام، بل الحق هو التفصيل بين ما يكون مؤثراً في تحقق التكليف بشكل عام بين المكلفين، فيجب من _____ ١. الملل والنحل: ج ١، ص ١٠٧. ٢. كشف المراد: الفصل الثاني، المسألة الثانية عشرة، ص ٣٢٥، ط قم ١٤٠٧. ٣. ارشاد الطالبين: ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٣٧٦)

باب الحكمة، وإلا فيرجع إلى جوده و تفضله من دون إيجاب عليه. واستدلّ القائل بعدم وجوبه بقوله: «لو وجب اللطف على الله تعالى لكان لا يوجد في العالم عاص، لأنه ما من مكلف إلا وفي مقدور الله تعالى من الألفاظ ما لو فعله به لاختر عنده الواجب و اجتنب القبيح، فلمّا وجدنا في المكلفين من أطاع وفيهم من عصى، تبين أن الألفاظ غير واجبة على الله تعالى»(١). يلاحظ عليه: أن هذا المستدلّ لم يقف على حقيقة اللطف، ولذلك استدلّ بوجود العصاة على عدم وجوبه، فهو تصوّر أن اللطف عبارة عما لا يتخلف معه المكلف عن الإتيان بالطاعة وترك المعصية، فنتيجته كون وجود العصيان دليلاً على عدم وجوبه، وعدم وجوده دليلاً على وجوبه، مع أنك قد عرفت في أدلة القائلين به بأنه ما يكون مقرباً إلى الطاعة و مبعداً عن المعصية من دون أن يبلغ حدّ الإلجاء. يقول القاضي عبد الجبار: «إنّ العباد على قسمين، فإنّ فيهم من يعلم الله تعالى من حاله أنه إن فعل به بعض الأفعال كان عند ذلك يختار الواجب و يتجنّب القبيح، أو يكون أقرب إلى ذلك، وفيهم من هو خلافه حتى إن فعل به كل ما فعل لم يختر عنده واجباً ولا اجتنب قبيحاً»(٢). ويؤيده ما ورد في الذكر الحكيم من أن هناك أناساً لا يؤمنون أبداً ولو جاءهم نبهم بكل أنواع الآيات والمعجزات. قال سبحانه: (وما تُغنى الآيات و النذُر عن قول لا يؤمنون)(٣). وقال سبحانه: (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك)(٤). وفي الختام نقول: إن اللطف سواء أكان المراد منه اللطف المحضّل أم اللطف المقرب، من شؤون الحكمة، فمن وصفه سبحانه بالحكمة والتزّه عن اللغو والعبث، لامناص له عن الاعتقاد بهذه القاعدة، غير أن القول بوجوب اللطف في المحضّل _____ ١. شرح الأصول الخمسة: ص ٥٢٣. ٢. شرح الأصول الخمسة: ص ٥٢٠. ٣. سورة يونس: الآية ١٠١. ٤. سورة البقرة: الآية ١٤٥.

(٣٧٧)

أوضح من القول به في المقرب. ولكن يظهر من الشيخ المفيد أن وجوب اللطف من باب الجود والكرم، قال: «إن ما أوجبه أصحاب اللطف من اللطف، إنما وجب من جهة الجود والكرم، لا - من حيث ظنوا أن العدل أوجبه، وأنه لو لم يفعل لكان ظالماً»(١). يلاحظ عليه: أن إيجابه من باب الجود والكرم يختص باللطف الراجع إلى آحاد المكلفين، لا ما يرجع إلى تجسيد غرض الخلقة، أو غرض التكليف، عند الأكثرية الساحقة من المكلفين، كما عرفت. ثم إن المراد من وجوب اللطف على الله سبحانه ليس ما يتبادر إلى أذهان

السطحيين من الناس، من حاكمية العباد على الله، مع أن له الحكم والفصل، بل المراد استكشاف الوجوب من أوصافه تعالى، فإن أفعاله مظاهر لأوصافه تعالى، كما أن أوصافه مظاهر لذاته تبارك وتعالى. فإذا علمنا-بدليل عقلي قاطع- أنه تعالى حكيم، استتبع ذلك واستلزم العلم بأنه لطيف بعباده، حيثما يبطل غرض الخلق أو غرض التكليف لولا اللطف.

المسألة السابعة: في حدوث كلامه تعالى

المسألة السابعة: في حدوث كلامه تعالى

من المسائل التي أثارت ضجة كبرى بين العلماء وانتهت إلى محنة تعرف في التاريخ بمحنة الإمام أحمد بن حنبل، هي البحث عن حدوث القرآن وقدمه، وعن كونه مخلوقاً أو لا. فالمعتزلة على حدوث القرآن ونفى قدمه تنزيهاً له سبحانه عن المثل القديم وغير المخلوق، وأصحاب الحديث والحنابلة وبعدهم الأشاعرة على ضدّه و أنه قديم أو ليس بمخلوق فراراً عن سمة الحدوث الطارئ على صفاته مثل التكلم. ولما وصلت المعتزلة في عصر المأمون وبعده في عصر الواثق إلى قمة القدرة و _____ ١ . أوائل المقالات: ص ٢٥ - ٢٦.

(٣٧٨)

كانت الخلافة العباسية توازهم و تؤيدهم، خرجوا عن منهجهم السابق - منهج الحرّية في الرأي والتفكير - وسلخوا في هذه المسألة مسلك الضغط. فطفقوا يحملون الناس على عقيدتهم (خلق القرآن) بالقوة والاكراه، فمن خالفهم ولم يقرب به يحكم عليه بالحبس تارة والضرب أخرى. وأوجد ذلك في حياتهم العلمية نقطة سوداء، وسيوفيك تفصيل حمل الناس على اعتناق عقيدتهم في هذا المجال في فصل خاص. هذا من جانب و من جانب آخر، لما أخذ أحمد بن حنبل في هذا المجال موقف الصمود والثبات في عقيدته صار بطلاً في حياته، وبعدها يضرب به المثل في الصمود على العقيدة، وقد استبطلته المعتزلة و صار إماماً في عقائد أهل السنة بصموده في طريق عقيدته. ولإيضاح الحق نرسم أموراً: ١- مسلك أهل الحديث

إن مسلك أهل الحديث في اتخاذ العقيدة في مسائل الدين هو اقتفاء كتاب الله وسنة رسوله. فما جاء فيها يؤخذ به و ما لم يجرى فيها يسكت عنه ولا- يبحث فيه، ولأجل ذلك كان أهل الحديث يحرمون علم الكلام، ويمنعون البحث عن كل ما ليس وارداً في الكتاب والسنة. وعلى ضوء هذا كان اللازم على أهل الحديث السكوت وعدم التمسك ببيت شفة في هذه المسألة، لأن البحث فيها حرام على أصولهم، سواء أكان الموقف هو قدم القرآن أم حدوثه، لأنه لم يرد فيه نص عن رسول الله، ولا عن أصحابه، ومع الأسف كان موقفهم وافي مقدمهم أحمد بن حنبل - موقف الايجاب وتكفير المخالف. يقول الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «السنة»: «والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أن القرآن كلام الله عز وجل ووقف ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو أخبث من الأول، ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن و تلاوتنا له مخلوقه والقرآن كلام الله، فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو (٣٧٩)

مثلهم» (١). إن السلفيين و حتى أتباعهم في هذه الأيام يتحرجون من القول بأن الله ليس بجسم، قائلين بأنه لم يرد نص فيه في الشريعة، ولكن يتشدقون بقدم القرآن وعدم حدوثه، بلا- اكترات سالفهم ولا-حقهم حتى جعلوه أصلاً يدور عليه إسلام المرء وكفره. ٢-

التصاري و قدم الكلمة

إن القول بقدم القرآن تسرب إلى أوساط المسلمين من المسيحيين، حيث كانوا يقولون بقدم الكلمة. وقد صرح بذلك الخليفة العباسي في كتابه الذي بعثه من الرقة إلى رئيس شرطة بغداد إسحاق بن إبراهيم يقول: «وضاهوا به قول التصاري في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله» (٢). قال أبو العباس البغوي: «دخلنا على «فتيون» التصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي، فجرى الحديث إلى أن سألته عن ابن كلاب (الذي كان يقول بأن كلام الله هو الله) فقال: «رحم الله عبد الله كان

يجيء فيجلس إلى تلك الزاوية وأشار إلى ناحية من البيعة وعنى أخذ هذا القول (كلام الله هو الله) ولو عاش لنصيرنا المسلمين قال البغوي: وسأله محمد بن إسحاق الطالقاني، فقال: ما تقول في المسيح؟ قال: ما يقوله أهل السنة من المسلمين في القرآن» (٣). قال أبو زهرة: «إنّ النَّصارى الذين كانوا في حاشية البيت الأموي وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي وغيرهم، كانوا يبتون الشكوك بين المسلمين. فقد جاء في القرآن أنّ عيسى بن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم. فكان يثبت بين المسلمين أنّ كلمة الله قديمة فيسألهم: أ كلمته قديمة أم لا؟! فان قالوا: لا، فقد قالوا: إنّ كلامه مخلوق. وإن قالوا: ————— ١. كتاب السنة: ص ٢٠٤٩. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ١٩٨، حوادث سنة ٢١٨. ٣. فهرست ابن النديم: الفن الثالث من المقالة الخامسة ص ٢٣٠.

(٣٨٠)

قديمة، ادعى أنّ عيسى قديم» (١). وبعد ذلك لا يعبا بما قاله مؤلف كتاب «المعتزلة» من أنّ القول بخلق القرآن جاء من اليهود، وأنّ أوّل من نشرها منهم لبيد بن الأعصم عدو النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللمدود الذي كان يقول بخلق القرآن، ثم أخذ ابن أخته طالوت هذه المقالة عنه، وصنّف في خلق القرآن (٢). هذا، وإنّ المشهور بين اليهود هو قدم التوراة (٣). وعلى كلّ تقدير، فالمسألة مستوردة وليست نابتة من صميم الدين وأصوله. وقد طرحت في أواخر القرن الثاني في عصر المأمون، وامتدت إلى عصر المتوكل ومن بعده الذين يضغطون على المعتزلة وينكلون بهم. إنّ تاريخ البحث يعرب عن أمرين: أ- إنّ المسألة طرحت في جو غير هادئ ومشحون بالعداء، ولم يكن البحث لكشف الحقيقة وابتداعها، بل كلّ يصرّ على إثبات مدّعاء. ب- لم يكن موضوع البحث منقحاً حتى يتوارد عليه النفي والاثبات، وأنهم لماذا يفرون من القول بحدوث القرآن ولماذا يكفرون القائل به. أهم يريدون من قدم القرآن، قدم الآيات التي يتلوها القارئ، أو النبي الأكرم، أو أمين الوحي. أم يريدون قدم معانيه والمفاهيم الواردة فيه. أو يريدون قدم علمه، سبحانه إلى غير ذلك من الاحتمالات التي لم يركّز البحث على واحد منها. يقول القاضي: «ذهبت الحشويّة من الحنابلة إلى أنّ هذا القرآن المتلو في المحارِب والمكتوب في المصاحف، غير مخلوق ولا محدث، بل قديم مع الله تعالى». وقال ابن قتيبة: «اتفقوا على أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق وإنما اختلفوا في ————— ١. تاريخ المذاهب الاسلاميّة: ج ٢، ص ٣٩٤. ٢. المعتزلة: ص ٢٢، زهدى حسن جار الله. ٣. اليهودية: ص ٢٢٢، تأليف أحمد شلبي، كما في بحوث مع أهل السنة والسلفية ص ١٥٣.

(٣٨١)

اللفظ بالقرآن لغموض وقع في ذلك وكلّهم يجمعون على أنّ القرآن بكلّ حال - مقروءاً و مكتوباً ومسموعاً و محفوظاً - غير مخلوق» (١). وذهبت الكلابية (٢) إلى أنّ كلام الله تعالى هو معنى أزلي قائم بذاته مع أنّه شيء واحد. وأمّا مذهبنا في ذلك فهو أنّ القرآن كلام الله تعالى ووحيه وهو مخلوق محدث أنزله الله على نبيّه ليكون علماً ودالاً على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام واستوجب منّا بذلك الحمد والشكر والتحميد والتقديس، واذن هو الذي نسمعه اليوم ونتلوه وإن لم يكن محدثاً من جهة الله تعالى فهو مضاف إليه على الحقيقة كما يضاف ما نشده اليوم من قصيدة امرئ القيس على الحقيقة، وإن لم يكن محدثاً لها من جهته الآن (٣). ٣- استدلالهم على حدوث القرآن

إذا كان محلّ النزاع هو القرآن المتلو كما يظهر من كلام القاضي فحدوثه أمر واضح، فإنّ الكلام هو الحروف المنظومة التي تظهر بالأصوات المقطّعة وليس حدوثه شيئاً يحتاج إلى دليل ولو احتاج حدوث مثل هذا إلى دليل إذا احتاج النهار إلى دليل. كيف وإنّ ترتيب حروف الكلمات والجمل يستلزم الحدوث، لأنّ تحقّق كلمة بسم الله يتوقّف على حدوث الباء وانعدامها، ثمّ حدوث السين كذلك، ثمّ حدوث الميم وهكذا إلى آخر البسملة. فالحدوث ثمّ الانعدام لا يفارقان مفردات الحروف. وفي ضوء هذا توجد الكلمة فكيف يمكن أن يكون مثل هذا قديماً أزلياً مع الله تعالى؟. وهذا الاستدلال متين لا مفرّ منه. ١. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ص ١٦ طبع دار الجيل، ٢. المؤسس هو عبدالله بن محمد بن كلاب، وله مع عباد بن سليمان مناظرات، وكان يقول: إنّ كلام الله هو الله، وكان عباد يقول: إنّ نصراني بهذا القول: فلاحظ فهرست ابن النديم الفن الثالث من المقالة الخامسة ص

قلناه. وكذلك فقد قال لبيد: إلى الحول ثم اسم السِّلام عليكما * ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر أي السِّلام عليكما. وهكذا فإنَّ أحدنا إذا قال: طلقت زينب، كان الطلاق واقعاً عليها. فلو لم يكن الاسم والمسمى واحداً لا يكون كذلك». وأجاب عنه القاضي بأنَّ الاسم غير المسمى وإلا- فمن قال: ناراً، يجب أن يحترق فمه. وعلى هذا قال بعضهم: لو كان من قال ناراً أحرقت فمه * لما تفوه باسم النار مخلوق فكيف يكون الاسم والمسمى واحداً، مع أنَّ الاسم عرض والمسمى جسم؟. أقول: يجب إلفات نظر القارئ إلى أمور: ١- إنَّ اتِّحاد الاسم مع المسمى صحيح على وجهه و باطل على وجه آخر. فإنَّ أرادوا اتِّحاد واقعِيَّة العالم مع ذاته سبحانه فذلك صحيح، لما قلنا من أنَّ ذاته سبحانه (٣٨٥)

بلا ضمِّ ضميمه مصداق للعالم، وليست ذاته شيئاً وعالميته شيئاً آخر، ولأجل ذلك، الاسم هو واقعِيَّة العالمِيَّة، ولفظ (العالم) إسم للاسم. وإنَّ أرادوا اتِّحاد لفظ (العالم) الّذي حدوثة ذاتي، و تدرّجه عين تحقّقه، مع المسمى فذلك من البطالين بمكان. ٢- إنَّ المعارف الإلهِيَّة لا تبتنى على المسائل الفقهيَّة، فإنَّ لكلِّ علم منهجاً خاصّاً لتحليل مسأله. فالمعارف الإلهِيَّة مسائل حقيقيَّة تطرح على بساط البحث، و ينظر إليها من زاوية البرهان العقلي. وأمَّا المسائل الفقهيَّة فهي مسائل اعتبارِيَّة، اعتبرها الشَّارع موضوعاً لأمره ونهيه و طاعته و عصيانه، فلا يصحَّ الاستدلال عليها إلاَّ من زاوية العلوم الاعتبارِيَّة. فالعالم كلُّ العالم من يحلُّ كلَّ مسألة بمنهجها الخاصِّ، ولا يخلط هذا بذاك. ولكنَّ الحنابلة طفقوا يستدلُّون على اتِّحاد الاسم مع المسمى بمسألة فقهيَّة، وهذا مثل من أنكر كروِيَّة الأرض بحجَّة أنَّ كروِيَّتھا لا توافق كون ليلة القدر ليلة واحدة، بل تستلزم أن تكون ليلتين. وقد أوضحنا حال هذه الشَّبهة في أبحاثنا الفقهيَّة. ٣- إنَّ الحلف في قول «تالله» و «والله»، واقع على الاسم لا على المسمى، لوضوح أنَّ المقسم به هو لفظ الجلالة لا مصداقه، غاية الأمر اللفظ طريق و مرآة إلى المسمى، ومع ذلك فالمحلف به لفظه واسمه، لا مصداقه و ذاته مباشرة، فأين للإنسان الناقص شهود ذاته حتَّى يحلف بها. فلو تصعد و تصوب لا- يكون حلفه خارجاً عن الحلف باللفظ. فإذا كان الحلف هنا على الاسم، يكون الحلف في قوله «باسم الله» أيضاً على الاسم بحجَّة أنَّ الاضافة بيانيَّة، بمعنى أحلف على الاسم الّذي هو الله. ففي كلا القسمين الحلف واقع على الاسم، دون المسمى، وليس الحلف في الأوّل على المسمى حتَّى يستدلَّ بصحَّة الحلف في الثَّاني المشتمل على لفظ الاسم، على أنَّ الاسم هو المسمى و يستنتج من قدم المسمى قدم الاسم و منه قدم القرآن لاشتماله على أسمائه. إنَّ اتِّحاد الاسم مع المسمى من الأفكار الباطلة الّتي شطب العلم، والفكر (٣٨٦)

الصحيح، عليها طيلة قرون. ومع الأسف إنَّ الشَّيخ الأشعري جعله من جملة عقائد أصحاب الحديث و أهل السنَّة، وقال في قائمه عقائد تلك الطائفة: «إنَّ أسماء الله لا يقال إنَّها غير الله، كما قالت المعتزلة والخوارج»(١). يحكى أنَّ بعض الحنابلة ناظر أبا الهذيل في هذه المسألة فأخذ لوحاً و كتب عليه «الله». قال: أفنتكر أن يكون هذا هو الله و تدفع المحسوس؟ فأخذ أبو الهذيل اللوح من يده و كتب بجنبه: «الله» آخر. فقال للحنبلي: أيهما الله إذن؟ فانقطع المدير(٢). فلو صحَّت هذه الوحدة لوجب تعدُّد الآلهة حسب تعدُّد أسمائه و كثرتها في لغة العرب و سائر اللغات. الشَّبهة الثَّانية: إنَّ القوم تعلقوا بآيات من القرآن في إثبات قدمه. منها قوله تعالى: (ألا له الخلق و الأمر) (الاعراف/٥٤) قالوا: إنَّه تعالى فضَّل بين الخلق و الأمر، وفي ذلك دلالة على أنَّ الأمر غير مخلوق(٣). و القرآن مشتمل على الأمر فيكون غير مخلوق. و أجاب عنه القاضي بأنَّ ذلك من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ، مثل قوله سبحانه: (فيهم أفاكهة و نخل و رُمان) (الرحمن/٦٨). و يمكن أن يجاب بالتقصُّ والحلِّ. أمَّا نقضاً بقوله سبحانه: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) (الإسراء/٨٥). فلو كان الأمر غير مخلوق يلزم أن يكون الروح الّذي من الأمر غير مخلوق و قديماً. وأمَّا حلاً فبوجهين: أ- المراد من الخلق هنا هو التقدير، قال في اللسان: «الخلق: التقدير، وخلق الأديم يخلقه خلقاً: قدره لما يريد قبل القطع. قال زهير يمدح رجلاً:

_____ ١. المقالات: ص ٢٩٠. وفي هذا المصدر تكلم عن أصحاب الحديث حول اتِّحاد الاسم مع المسمى، فراجعه. ٢.

شرح الاصول الخمسة: ص ٥٤٤. ٣. المصدر نفسه

ولأنت تفرى ما خلقت * و بعض القوم يخلق ثم لا يفرى (١). والمراد من الأمر هو الایجاد، لقوله سبحانه: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس/٨٢). وعلى ذلك يعود معنى الآية إلى أن التقدير والایجاد في عالم الكون من السموات والأرض و ما بينهما له سبحانه. ويشهد عليه ملاحظة نفس الآية: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، يُعِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف/٥٤). فخلق العالم من الذرة إلى المجرة، رهن التقدير والایجاد، ولا شريك له سبحانه في واحد من هذين الأمرين، وعندئذ لا صلة لكلمة الأمر، بالأوامر الشرعية الواردة في القرآن الكريم حتى يستدل من حديث المقابلة أن الأمر غير الخلق. ب- المراد من الخلق هو الایجاد، كما هو الشائع، والمراد من الأمر السنن السائدة على العالم، الحاكمة عليه والوسيلة للتدبير. ويشهد له قوله قبل ذلك: (مسخرات بأمره) أي مسخرات بسننه وقوانينه سبحانه. فيعود معنى الآية أيضاً إلى أن الخلق والتدبير بالسنن له سبحانه، لا يشاركه فيهما شيء. ويظهر ذلك إذا علمنا أن «الألف واللام» في «له الأمر» إشارة إلى الأمر الوارد قبله أي: (مسخرات بأمره) ومن المعلوم أن التسخير قائم بوضع سنن وقوانين على عالم الخلق. الشبهة الثالثة: إن توصيف القرآن بأنه مخلوق ربما يوهم وصف القرآن بالكذب والاختلاق، ولهذا يقال: قصيدة مخلوقة ومخلقة، إذا كانت مشتملة على أكاذيب وأباطيل. قال سبحانه: (إن هذا إله خلق الأولين) (الشعراء/١٣٧). وقال سبحانه: (إن هذا إلا اختلاق) (ص/٧). والإجابة عنه واضحة، فإن المراد من كونه مخلوقاً، كونه مخلوقاً لله سبحانه. ١. لسان العرب: مادة «خلق».

(٣٨٨)

ويشهد له أنه سبحانه وصفه بـ «أنزله»، و «جعله»، وغير ذلك من الأفعال الدالة على انتسابه إلى الله سبحانه. واستغلال الملحد لهذه الكلمة بتفسيرها بالكذب والاختلاق لا يغير الواقع، فالمراد أن القرآن المتلو على لسان النبي والصحابة والتابعين والمسلمين، شيء موجود ولا بد له من محدث وخالق، وخالقه هو الله سبحانه. قال المفيد - رحمه الله - «إن كلام الله تعالى محدث، وبذلك جاءت الآثار عن آل محمّد - عليهم السلام - والمراد أن القرآن كلام الله ووحيه وأنه محدث كما وصفه الله تعالى. وأمنع من إطلاق القول عليه بأنه مخلوق. وبهذا جاءت الآثار عن الصادقين، وعليه كافة الإمامية إلا من شدّ» (١). والحاصل إن إطلاق لفظ «الخلق» على القرآن، لمّا كان موهماً لكونه كذباً ومخلوقاً، منع من إطلاقه في هذا المقام، وأجيز إطلاق ما لا يوهم مثل هذا المعنى. كلفظ «محدث». وأنه كلام الله و كتابه و تنزيله، مما يفيد أنه غير أزلي، وليس بقديم. فإذن، يكون من قبيل: عباراتنا شتى ' و حسنك واحد * وكلّ إلى ذاك الجمال يشير وقد وردت الروايات في التهي عن إطلاق الخلق على القرآن - لصد استغلال الملاحدة - في (توحيد الصدوق) (٢). هذا، وقد أشار القاضي عبد الجبار إلى هذا الوجه وقال: «فان قيل: أليس قوله تعالى ' و تخلقون إفاكاً' أريد به كونه كذباً فما أنكرتم، أليس من أن القرآن لا يوصف بذلك من إيهام كونه كذباً... أليس يقولون قصيدة مخلوقة مخلقة يعني أنها كذب، وعلى هذا الوجه يقول القائل: خلقت حديثاً واختلقته» (٣). ١. أوائل المقالات: ص ١٨ - ١٩ - ٢. لاحظ: توحيد الصدوق، باب القرآن، الأحاديث ٢ و ٣ و ٤ و ٥، ص ٢٢١ - ٢٢٢. ٣. المغنى: أبواب التوحيد والعدل، ج ٧، ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٣٨٩)

ولكن الإجابة عنه واضحة، لما عرفت من أنه يمكن التعبير عنه بوجه لا يستلزم ذلك الوهم ككونه محدثاً، أو إنه غير قديم. والظاهر أن الوجه في عدم توصيفه بكونه مخلوقاً هو تصوّر الملازمة بين كونه مخلوقاً وكون علمه سبحانه حادثاً. وهناك وجه آخر لعدم التزامهم بكونه مخلوقاً وهو تصوّر أن كل مخلوق فان، فيلزم فناء القرآن و موته مع أنه سبحانه يقول: (إننا نحن نزلنا الذكر و إننا له لحافظون) (١). الشبهة الرابعة: إن الله سبحانه خلق العالم بلفظ «كن»، يقول: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (يس/٧٤) و يقولون لو لم يكن هذا الـ «كن» قديماً، لوجب أن يكون محدثاً. فكان لا يحدث إلا - بـ «كن» آخر. والكلام في ذلك الـ «كن» كالكلام فيه، فيتسلسل إلى ما لا نهاية له (٢). وأجاب عنه القاضي: ليس المراد من هذه اللفظة هو المركب من الكاف و التون، إذ لا

شك في حدوثه، فيجب أن يكون المراد هو الإرادة (٣). ثم قال: «والغرض من هذه الآية و ما جرى مجراها إنما هو الدلالة على سرعة استجابة الأشياء له من غير امتناع، نظيرها قوله تعالى: (وقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) (فصلت/١١). ومنه قول الشاعر: و قالت له العينان سمعاً و طاعة * و حدرتا كالذُرِّ لَمَّا يَتَّقِبُ والذي يدل على أن المراد هنا ليس لفظه «كن»، أنه ليس في المقام مخاطب ذو سمع يسمع الخطاب فيوجد به، وعندئذ تصير الآية تمثيلاً لحقيقته فلسفيته، وهي أن إفاضته سبحانه وجود الشيء لا تتوقف على شيء وراء ذاته المتعاليه. فمشيئته سبحانه _____ ١. المغنى: ج ٧، ص ١٢١ وهو أيضاً كما ترى. ٢. شرح الاصول الخمسة: ص ٥٦٠. المصدر السابق. ولما كان القول بالارادة الحادثة في ذاته مستلزماً لحدوث الذات، التجأ القاضى وأتباعه إلى أن لله سبحانه إرادة غير قائمة بذاته، وهو كما ترى.

(٣٩٠)

مساوقه لوجود الشيء بلا تخلف. وأما حقيقته إرادته فليانها مقام آخر. وفي نفس الآيات إشارات لطيفة إلى هذا المعنى. قال سبحانه: (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (القمر/٥٠) فيكون الهدف من الآية ونظائرها بيان أن إرادته و مشيئته المتعلقة بتحقيق الشيء يساوق وجوده و ليست كارادة الإنسان. فإن الإرادة والمشيئته فيه لا تساوق وجود الشيء، بل يحتاج إلى مقدمات و أسباب.

المسألة الثامنة: ما تعلق بالنبؤات و الشرائع و

المسألة الثامنة: ما تعلق بالنبؤات و الشرائع و معاجز الأنبياء

إن القاضى رتب على القول بالعدل عدده مسائل زعم أنها من نتائج القول به، وبما أن الاختلاف فيها بين المعتزلة و غيرهم بسيط، نكتفى بإيرادها إجمالاً: ١- بعث الأنبياء: قال: «ووجه اتصاله باب العدل هو أنه سبحانه إذا علم أن صلاحنا يتعلق بالشرعيات، فلا بد من أن يعرفناها، لكي لا يكون مُخَلَّلاً بما هو واجب عليه، ومن العدل أن لا يخل بما هو واجب عليه». ٢- لزوم اقتران النبؤة بالمعجز: قال: «إذا بعث إلينا رسولاً ليعرفنا المصالح، فلا بد من أن يدعى النبؤة و يظهر عليه العلم المعجز الدال على صدقه عقيب دعواه النبؤة». ثم فصل حقيقة المعجز. يلاحظ عليه: إن مقتضى العدل بعث الأنبياء بالدلائل و البيئات المثبتة لدعواهم النبؤة، ولا تنحصر البيئات بالمعجزات، بل المعجز إحدى الطرق إلى التعرف على صدق النبي. وهناك طريقان آخران نشير إلى عنوانيهما: أ- تصديق النبي السابق (الذي ثبت نبوته قطعياً) نبؤة النبي اللاحق. (٣٩١)

ب- جمع القرائن والشواهد التي تدل على صدق دعواه صدقاً قطعياً (١). ٣- صفات النبي: يقول: «الرسول لا بد أن يكون منزهاً عن المنفردات جملة، كبيرة أو صغيرة، لأن الغرض من البعثة ليس إلا لطف العباد و مصالحهم. فلا بد من أن يكون مقبولاً للمكلف. ثم جوز صدور الصيغائر عن الأنبياء التي لا حظ لها إلا في تقليل الثواب دون التنفير... لأن قلبه الثواب مما لا يقدر في صدق الرسل ولا في القبول منهم» (٢). يلاحظ عليه: أن صدور الذنب من النبي يوجب زوال الثقة بصدق قوله، فيقال: لو كان صادقاً فيما يرويه فلماذا يتخلف عنه. ٤- نسخ الشرائع: فقد ذكر جملة من الأدلة على جواز النسخ في الشرائع وطرح القول بالبداء و بين الفرق بينه و بين النسخ. ٥- نبؤة نبي الإسلام و دلائل نبوته وأن القرآن معجز: ثم بسط الكلام في إعجاز القرآن إلى أن وصل بحثه إلى القول بالتحريف في القرآن. ومن أعجب ما أتى به قوله إن الإمامية جوزوا في القرآن الزيادة و التقصان حتى قالوا: إن سورة الاحزاب كانت بحمل جمل، وإنه قد زيد فيها، ونقص، وغيّر و حرّف (٣). أقول: غاب عن القاضى أن الإمامية على بكرة أبيهم لم يصدر منهم هذا الكلام الركيك. نعم، روى القرطبي عند تفسيره سورة الاحزاب من عائشة قالت: كانت سورة الاحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مائتي آية، فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن (٤). ثم الكلام حول الأصل الثاني والفروع التي تترتب عليه. _____ ١. قد فصلنا تلك الطرق في بحوثنا الكلامية لاحظ الالهيات ج ٣ ص ١١٤-١١٤. ٢. شرح الاصول الخمسة: ص ٥٧٤-

٥٧٥. ٣. شرح الاصول الخمسة: ص ٦٠١. ٤. تفسير القرطبي: ج ١٤، ص ١١٣.

الأصل الثالث الوعد والوعيد

الأصل الثالث الوعد والوعيد

هذا هو الأصل الثالث من الأصول التي بنى عليها الاعتزال، والمراد من الوعد هو المدح والثواب على الطاعات، و من الوعيد الذم والعقاب على المعاصي. والمسائل المبتنية على الوعد والوعيد في الكتاب والسنة والعقل كثيرة طرحها المتكلمون والمفسرون في كتبهم الكلامية والتفسيرية. وليست المعتزلة متفرّدة بالرأى في هذه المسائل وإنما تفرّدوا في بعض الفروع ولأجل ذلك نذكر عناوين المسائل الكلية، ثم نركّز على متفرّدات المعتزلة، وإليك البيان: ١- الكلام في المستحقّ بالأفعال (الطاعة والعصيان) فهو إما المدح والذمّ، أو الثواب والعقاب. ٢- الكلام في الشروط التي معها تستحقّ هذه الأحكام. ٣- هل الثواب على وجه التفضّل كما هو المشهور لدى الشيعة وجماعة من أهل السنة، أو من باب الاستحقاق، كما هو المشهور لدى معتزلة البصرة؟ ٤- هل استحقاق العقاب عقلي وسمعي، أو سمعي فقط؟ ٥- هل الطاعات مؤثّرة في سقوط العقاب، والمعاصي مؤثّرة في سقوط الثواب، فيعبر عن الأول بالتكفير، وعن الثاني بالإحباط؟ ٦- تقسيم المعاصي إلى الكبائر والصغائر. (٣٩٣)

هذه هي المسائل التي اختلفت فيها كلمة المتكلمين من غير فرق بين المعتزلي وغيره ولا نركّز البحث على هذه المسائل، وإنما نبث في المسائل الآتية التي تعدّ من متفرّدات المعتزلة. أ- هل يحسن من الله تعالى عقلاً أن يعفو عن العصاة وأن لا يعاقبهم إذا ماتوا بلا توبة، أو إنه ليس له إسقاطه؟ ب- هل الفاسق (مرتكب الكبائر) مخلّد في العذاب أو لا؟ سواء أكان العذاب بالنار أم غيرها. ج- إذا كان التخليد في العذاب أمراً محققاً، فما معنى الشفاعة التي تضافر عليها الكتاب والسنة المفسّرة بخروج الفساق من النار بشفاعة الرّسول وغيره؟ د- هل القائلون بجواز العفو أو عدم الخلود مرجئ أم راجئ؟ هـ- هل الطاعات مؤثّرة في سقوط العقاب، والمعاصي مؤثّرة في سقوط الثواب؟ هذه هي المسائل التي تفرّدت بها المعتزلة، واشتركت معهم فئة الخوارج في تخليد الفساق في العذاب، لقولهم بكفر المرتكب للكبيرة، وهذا الأصل - أي الوعد والوعيد - رمز إلى هذه المسائل الخمس الأخيرة. أ- هل يحسن العفو عن العصاة من الله أو لا؟

اختلفت مدارس الاعتزال فيها، فالبصريون ومنهم القاضي عبد الجبار على الجواز، والبغداديون على المنع، حتّى قالوا: يجب عليه أن يعاقب المستحقّ للعقوبة، ولا يجوز أن يعفو عنه، حتّى صار العقاب عندهم أعلى حالاً في الوجوب من الثواب. فإنّ الثواب عندهم لا يجب إلّا من حيث الجود. وليس هذا قولهم في العقاب فإنّه يجب فعله على كلّ حال. (٣٩٤)

احتجّ القاضي على الجواز بأنّ العقاب حقّ الله تعالى على العبد، وليس في إسقاطه إسقاط حقّ ليس من توابعه، وإليه استبقاؤه فله إسقاطه، كالدين فإنّه لما كان حقاً لصاحب الدين خالصاً، ولم يتضمّن إسقاط حقّ ليس من توابعه وكان إليه استبقاؤه، كان له أن يسقط كما أن له أن يستوفيه. استدللّ البغداديون بوجوه: الأوّل: إنّ العقاب لطف من جهة الله تعالى واللطف يجب أن يكون مفعولاً بالمكلف على أبلغ الوجوه، ولن يكون كذلك إلّا والعقاب واجب على الله تعالى. فمعلوم أنّ المكلف متى علم أنّه يفعل به ما يستحقّه من العقوبة على كلّ وجه، كان أقرب إلى أداء الواجبات واجتنب الكبائر (١). يلاحظ عليه: أنّ اللطف عبارة عمّا يقرب الإنسان من الطاعة ويبعده عن المعصية، وهذا لا يتصوّر إلّا في دار التكليف لا- دار الجزاء، ففي الأولى العمل والسعي، وفي الأخرى الحساب والاجتناء. وأمّا ما ذكروه أخيراً من أنّه لو علم المكلف أنّه يفعل به ما يستحقّه من العقوبة على كلّ وجه كان أقرب إلى أداء الواجبات واجتنب الكبائر فيلاحظ عليه: أنّه لو تمّ لوجب سدّ باب التوبة، لإمكان أن يقال إنّ المكلف لو علم أنّه لا تقبل توبته، كان أقرب إلى الطاعة، وأبعد من المعصية. وهذا لا يتصوّر إلّا في دار الجزاء آثاراً بقاءً في حياة الإنسان، وليأس آثاراً سلبيةً في الادمّة على الموبقات، ولأجل ذلك يشتمل الذمّ الحكيم على آيات التّرجيب كما يشتمل على آيات التّرهيب. وأخيراً نقول: إنّ القول بجواز العفو، غير القول بحتميته. والأثر السّلبى - لو سلّمنا - يترتب على الثاني دون الأوّل، والكلام في جواز العفو لا- في وجوبه وحتميته.

١. شرح الأصول الخمسة: ص ٦٤٦ و ٦٤٧.

(٣٩٥)

الثاني: ما نقله عنهم العلامة الدواني في (شرح العقائد)، قال: «المعتزلة والخوارج أوجبوا عقاب صاحب الكبيرة إذا مات بلا توبة، و حرّموا عليه العفو. واستدلوا عليه بأن الله أوعد مرتكب الكبيرة بالعقاب، فلو لم يعاقب لزم الخلف في وعده والكذب في خبره، وهما محالان» (١). وأجيب عنه بأن الوعد والوعيد مشروطان بقيود و شروط معلومة من التصوص، فيجوز التخلف بسبب انتفاء بعض تلك الشروط (٢). وربما أجيب بوجه آخر وهو أن الخلف في الوعيد جائز على الله تعالى و إن كان لا يجوز أن يخلف الوعد. وروى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: «من وعده الله على عمله ثواباً فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقاباً فهو في الخيار» (٣). وروى أن عمرو بن عبيد (رئيس المعتزلة بعد واصل) جاء إلى أبي عمرو بن العلاء وقال: يا أبا عمرو، يخلف الله ما وعده؟ قال: لا. قال: أفرايت من أوعده الله على عمل عقاباً، أيخلف الله وعيده فيه؟ فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت يا أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد. إن العرب لا يعدّ عيباً ولا خلفاً، أن يعدّ شراً ثم لم يفعل، بل يرى ذلك كراماً و فضلاً، وإنما الخلف أن يعدّ خيراً ثم لم يفعل. قال (عمرو بن عبيد) فأوجدني هذا العرب. قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر: وإني إذا أوعدته أو وعدته * لمخلف إيعادي و منجز موعدي و ذكر الشاعر الآخر: إذا وعد السراء أنجز وعده * وإن أوعد الضراء فالعفو مانع (٤) ————— ١. شرح العقائد العضدية: ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٨. المطبوع مع حاشية اسماعيل الكلنوبى عام ١٣١٩ فى الاستانة. ٢. شرح العقائد العضدية: ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٨. المطبوع مع حاشية اسماعيل الكلنوبى عام ١٣١٩ فى الاستانة. ٣. شرح العقائد العضدية ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٩ و المتن للقاضى الـايـجى (المتوفى عام ٧٥٦) والشرح لجلال الدين الدواني (المتوفى عام ٩٠٨، أو ٩٠٩هـ) طبعاً مع حواشى الشيخ اسماعيل الكلنوبى المتوفى (عام ١٢٠٥هـ) فى استنبول (عام ١٣١٧هـ). ٤. المعتزلة: ص ١٥٧، والظاهر منه أنه نقله عن الجوينى فى كتابه «الارشاد الى قواطع الأدلة إلى صحيح الاعتقاد».

(٣٩٦)

يلاحظ على الجواب الأول أنه احتمال محض يثبت به الامكان لا الوقوع، ويرتفع به الاستحالة. ولعلّ الغاية هى اثبات الامكان. وأما الجواب الثانى فظاهره أشبه بالبحث اللفظى و الأدبى، مع أن المسألة عقلية، ولعلّ المجيب يريد شيئاً آخر أشار إليه شيخنا المفيد فى كتاب «العيون والمحاسن» وهو التفصيل بين الوعد والوعيد، وأن الخلف فى الأول قبيح عقلاً والخلف فى الثانى ليس بقبيح عقلاً. والدليل على ذلك أن كل عاقل يستحسن العفو بعد الوعيد فى ظروف خاصّة، ولا يعلّقون بصاحبه ذمّاً. فلو كان العفو من الله تعالى مع الوعيد قبيحاً، يجب أن يكون كذلك عند كل عاقل. ولعلّ وجه ذلك أن الخلف فى الوعد إسقاط لحقّ الغير و إمساك عن أداء ما عليه من الحقّ، وأمّا الوعيد فإنّ مآل الخلف إلى إسقاط حقّ نفسه، ومثل ذلك يعدّ مستحسناً لا قبيحاً إذا وقع الخلف فى موقعه. الثالث: إنّ فى جواز ذلك إغراء للمكلف بفعل القبيح اتكالاً منه على عفو الله، فالعقاب ضرورى، لأنّه زاجر عن ارتكاب القبائح، كما أنّ فى العفو تسوية بين المطيع والعاصى و ذلك ما لا يتفق مع العدل (١). يلاحظ عليه: أن الإغراء لازم القول بالعفو قطعاً كما عليه المرجئة، لا القول به احتمالاً كما عليه الراجئة، ولو صحّ ما ذكر، لبطل الوعد بالتوبة والشفاعة، وأمّا حديث التسوية، فهو يرتفع بانابة المطيع دون العاصى و إنّما يلزم بتسويتهم فى الثواب أيضاً. إلى هنا تمّ الكلام فى المسألة الأولى و ثبت أن العفو عن العصاة من المسلمين جائز. ولأجل ذلك يقول الصّيدوق فى تبين عقائد الإمامية: اعتقادنا فى الوعد والوعيد هو أن من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه، ومن وعده على عمل عقاباً فهو بالخيار إن عدّبه فبعده، وإن عفا عنه فبفضله (وما ربك) ————— ١. المعتزلة: ص ١٥٧، والظاهر منه أنه نقله عن الجوينى فى كتابه «الارشاد الى قواطع الأدلة إلى صحيح الاعتقاد».

(٣٩٧) بظلام للعبيد) وقال عزوجل: (إنّ الله لا يعفّر أن يشرك به و يعفّر ما دون ذلك لمن يشاء) (١).

هذا هو موجز الكلام فى المسألة الأولى، وإليك البحث فى مسألة التخليد. ب - هل الفاسق مخلد فى العذاب أو لا ؟

هذا هو البحث المهم في هذا الأصل، ويعد بيت القصيد في فروعه. لا شك أن الله تعالى أوعد المجرمين التخليد في العذاب، فهل هو مختص بالمشركين والمنافقين أو يعم مرتكب الكبائر؟ ذهب المعتزلة إلى عمومها و صار القول بالتخليد شارة الاعتزال وسمته، وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين. قال المفيد: «اتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصية، دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى و الاقرار بفرائضه من أهل الصلوة، و وافقهم على هذا القول كافة المرجئة سوى محمد بن شيب و أصحاب الحديث قاطبة. و أجمعت المعتزلة على خلاف ذلك و زعموا أن الوعيد بالخلود في النار عام في الكفار، وجميع فساق أهل الصلوة» (٢). ثم إن المعتزلة استدلت على خلود الفاسق في النار بالسبع وهو عدة آيات، استظهرت من إطلاقها أن الخلود يعم الكافر و المنافق و الفاسق، و إليك هذه الآيات واحدة بعد الأخرى: الآية الأولى: قوله سبحانه: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (النساء/١٤) (٣). ولا شك أن الفاسق ممن عصى الله و رسوله بترك الفرائض و ارتكاب المعاصي. ————— ١. أوائل المقالات: ص ١٤. والآيات من سورتي فصلت ٤٦ والنساء ٤٨. ٢. أوائل المقالات: ص ١٤. ٣. و أمّا قوله سبحانه: (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها) (الجن ٢٣). فهو راجع الى الكفار، كما هو واضح لمن لاحظ آيات السورة.

(٣٩٨)

يلاحظ عليه: أولاً: إن دلالة الآية على خلود الفاسق في النار لا يتجاوز حد الاطلاق، والمطلق قابل للتقييد، وقد خرج عن هذه الآية باتفاق المسلمين، الفاسق الثائب. فلو دل دليل هنا على أن المسلم الفاسق ربما تشمله عناية الله و رحمته، ويخرج عن العذاب، لكان المطلق مقيداً ب قيد آخر وراء الثائب. فيبقى تحت الآية، المشرك و المنافق. وثانياً: إن الموضوع في الآية ليس مطلق العصيان، بل العصيان المنضم إليه تعدى حدود الله، و من المحتمل جداً أن المراد من التعدى هو رفض أحكامه سبحانه، و طردها، و عدم قبولها. كيف، و قد وردت الآية بعد بيان أحكام الفرائض. يقول سبحانه: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ...) (النساء/١١). و يقول سبحانه: (وَلَكُمْ مِنْ مِمَّا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ...) (النساء/١٢). و يقول سبحانه: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...) (النساء/١٣). ثم يقول سبحانه: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ...) (النساء/١٤). و قوله: (ويتعد حدوده) و إن لم يكن ظاهراً في رفض التشريع، لكنه يحتمله، بل ليس الحمل عليه بعيداً بشهادة الآيات الأخرى الدالة على شمول غفرانه لكل ذنب دون الشرك، أو شمول رحمته للناس على ظلمهم إلى غير ذلك من الآيات الواردة في حق الفاسق غير الثائب كما سيوافيك. يقول الطبرسي - رحمه الله - : «إن قوله: (ويتعد حدوده) ظاهر في تعدى جميع حدود الله، وهذه صفة الكفار. ولأن صاحب الصيغة بلا خلاف خارج عن عموم الآية و إن كان فاعلاً للمعصية، و متعدياً حدّاً من حدود الله. و إذا جاز إخراجه بدليل، جاز لغيره أن يخرج من عمومها من يشفع له النبي، أو يتفضل الله عليه بالعفو، بدليل آخر. و أيضاً فإن الثائب لا بد من إخراجه من عموم الآية لقيام الدليل على وجوب قبول (٣٩٩)

التوبة. و كذلك يجب إخراج من يتفضل الله بإسقاط عقابه منها لقيام الدلالة على جواز وقوع التفضل بالعفو» (١). الآية الثانية: قوله سبحانه: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (النساء/٩٣). قال القاضي: «وجه الاستدلال هو أنه تعالى بين أن من قتل مؤمناً عمداً جزاه، و عاقبه، و غضب عليه، و لعنه و أدخله في جهنم» (٢). يلاحظ عليه أولاً: أن دلالة الآية بالاطلاق، فكما خرج منه القاتل الكافر إذا أسلم، و المسلم القاتل إذا تاب، فليكن كذلك من مات بلا توبة و لكن اقتضت الحكمة الإلهية أن يتفضل عليه بالعفو. فليس التخصيص أمراً مشكلاً. وثانياً: إن المحتمل أن يكون المراد القاتل المستحل لقتل المؤمن، أو قتله لإيمانه. و هذا غير بعيد لمن لاحظ سياق الآيات. لاحظ قوله سبحانه: (سَيَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بِنَبِيٍّ يَقْتُلُوا كُلَّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوا لَكُمْ وَيَقْتُلُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَ أُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) (النساء/٩١). ثم ذكر سبحانه بعد هذه الآية حكم قتل المؤمن خطأ و تعدياً، و في ضوء هذا

يمكن أن يستظهر أن الآية ناظرة إلى القتل العمدي الذي يقوم به القاتل لعداء ديني لا غير، فيكون ناظراً إلى غير المسلم. الآية الثالثة: قوله سبحانه: (بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة/٨١). ١. مجمع البيان: ج ٢، ص ٢٠، طبعه صيدا. ٢. شرح الاصول الخمسة: ص ٦٥٩. (٤٠٠)

والاستدلال بهذه الآية إنما يصح مع غض النظر عن سياقها، وأما مع النظر إليه فإنها وارده في حق اليهود، أضف إليه أن قوله سبحانه: (وأحاطت به خطيئته) لا يهدف إلا إلى الكافر، فإن المسلم المؤمن مهما كان عاصياً لا تحيط به خطيئته، ففي قلبه نقاط بيضاء يشع عليها إيمانه واعتقاده بالله سبحانه وأنبيائه وكتبه على أن دلالة الآية بالاطلاق، فلو ثبت ما تقوله جمهرة المسلمين، يخرج الفاسق من الآية بالدليل. الآية الرابعة: قوله سبحانه: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ* لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (الزخرف/٧٤-٧٦). إن دلالة الآية بالاطلاق فهي قابلة للتقييد أولاً. وسياق الآية في حق الكفار ثانياً، بشهادة قوله سبحانه قبل هذه الآية: (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ* ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) (الزخرف/٦٩-٧٠). ثم يقول: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) ف«المجرمين» في مقابل «الذين آمنوا» فلا يعم المسلم. هذه هي الآيات التي استدلت بها المعتزلة على تخليد الفاسق في النار. وقد عرفت أن دلالتها بالاطلاق لا بالصراحة، وتقييد المطلق أمر سهل، مثل تخصيص العام، مضافاً إلى انصراف أكثرها أو جميعها إلى الكافر والمنافق. وهناك آيات (١) أظهر مما سبق تدل على شمول الرحمة الإلهية للفاسق غير التائبين، وإليك بيانها: ١- قوله سبحانه: (وَيَسِّرْ لَنَا ذُرِّيَّتَهُ بِالسَّيِّئَةِ قَبِيلَ الْحَسَنِهِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) (الرعد/٦). قال الشريف المرتضى: «في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، لأنَّه سبحانه دلنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين. لأنَّ قوله: (على ظلمهم) ١. كما تدل هذه الآيات على عدم الخلود في النار، تدل على جواز العفو عن الفاسق من بدء الأمر، وأنه يعفى عنه ولا يعذب من رأس، فهذا الصنف من الآيات كما تحتجُّ بها في هذه المسألة، تحتجُّ بها في المسألة السالفة أيضاً فلاحظ. (٤٠١)

إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجري ذلك مجرى قول القائل: أنا أود فلاناً على غدره، وأصمته على هجره» (١). وقد قرَّر القاضي دلالة الآية و أجاب عنه بأنَّ الأخذ بظاهر الآية ممَّا لا يجوز بالاتفاق، لأنَّه يقتضى الاغراء على الظلم، وذلك ممَّا لا يجوز على الله تعالى، فلا بد من أن يؤوَّل، وتأويله هو أنه يغفر للظالم على ظلمه إذا تاب (٢). يلاحظ عليه: أن ما ذكره من الإشكال، جار في صورة التوبة أيضاً، فإنَّ الوعد بالمغفرة مع التوبة يوجب تمادى العاصي في المعصية برجاء أنه يتوب. فلو كان القول بعدم خلود المؤمن موجبا للاغراء، فليكن الوعد بالغفران مع التوبة كذلك. والذي يدل على أن الحكم عام للتائب وغيره هو التعبير بلفظ «الناس» مكان «المؤمنين». فلو كان المراد هو التائب لكان المناسب أن يقول سبحانه: «وإنَّ ربك لذو مغفرة للمؤمنين على ظلمهم» مكان قوله للناس. وهذا يدل على أن الحكم عام يعم التائب وغيره. وفي الختام، إنَّ الآية تعد المغفرة للناس ولا تذكر حدودها و شرائطها، فلا يصح عند العقل الاعتماد على هذا الوعد و ارتكاب الكبائر. فإنَّه وعد إجمالي غير مبين من حيث الشروط و القيود. ٢- قوله سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) (النساء/٤٨). وجه الاستدلال بهذه الآية على أن رحمته تشمل غير التائب من الذنوب، أنه سبحانه نفى غفران الشرك دون غيره من الذنوب، وبما أن الشرك يغفر مع التوبة فتكون الجملتان ناظرتين إلى غير التائب، فمعنى قوله: «إنَّ الله لا يغفر أن يشرك» أنه لا يغفر إذا مات بلا توبة، كما أن معنى قوله: «و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء» أنه يغفر ما دون ١. مجمع البيان: ج ٣، ص ٢٧٨. ٢. شرح الاصول الخمسة: ص ٦٨٤.

الشُّرك من الذنوب بغير توبه لمن يشاء من المذنبين. ولو كانت سائر الذنوب مثل الشرك غير مغفورة إلا بالتوبه، لما حسن التفصيل بينهما، مع وضوح الآية في التفصيل (١). وقد أوضح القاضي دلالة الآية على ما يتبناه الجمهور بوجه رائع، ولكنه تأثراً بعقيدته الخاصة في الفاسق قال: «إن الآية مجمله مفتقرة إلى البيان لأنه قال: «و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء» ولم يبين من الذي يغفر له. فاحتمل أن يكون المراد به أصحاب الصغائر، واحتمل أن يكون المراد به أصحاب الكبائر. فسقط احتجاجهم بالآية (٢). أقول: عزب عن القاضي أن الآية مطلقة تعم كلا القسمين، فأى إجمال في الآية حتى نتوقف. والعجب أنه يتمسك بإطلاق الطائفة الأولى من الآيات، ولكنه يتوقف في إطلاق هذا الصنف. نعم، دفعاً للاغراء، وقطعاً لعذر الجاهل، قيد سبحانه غفرانه بقوله: «لمن يشاء» حتى يصده عن الإرتداء في أحضان المعصية بحجة أنه سبحانه وعد له بالمغفرة. ثم إن القاسم بن محمّد بن عليّ الزيدي العلويّ المعتزلي تبع القاضي في تحديد مداليل هذه الآيات وقال: آيات الوعيد لا إجمال فيها، وهذه الآيات ونحوها مجمله فيجب حملها على قوله تعالى (وإني لغفارٌ لمن تاب و آمن و عمل صالحاً ثم اهتدى) (طه/٨٢) ثم ساق بعض الآيات الواردة في غفران العباد في مجال التوبه (٣). ويظهر النظر في كلامه مِمَّا قَدَّمناه في نقد كلام القاضي فلا نعيد. إلى غير ذلك من الآيات التي استدلل بها جمهور المسلمين على شمول مغفرته سبحانه لعصاة المسلمين، وعدم تعذيبهم، أو إخراجهم من العذاب، بعد فترة خاصية. هذا، والبحث أشبه بالبحث التفسيري منه بالكلامى. ومن أراد الاستقصاء في هذا المجال فعليه جمع الآيات الواردة حول الذنوب والغفران، حتى يتضح الحال فيها، ويتخذ موضعاً حاسماً يازاء اختلافاتها الأولية. _____ ١. مجمع البيان: ج ٢ ص ٥٧ بتلخيص. ٢. شرح الأصول الخمسة: ص ٦٧٨. ٣. الأساس لعقائد الأكياس: ص ١٩٨.

(٤٠٣) ج - هل الشفاعة للتائبين من المؤمنين أو للفاسق منهم؟

إن هذه المسألة مبنية على المختار في المسألة السابقة، ولما كان المختار عند جمهور المسلمين جواز العفو عن الفاسق، أو عدم تخليده بعد تعذيبه مدة، قالوا بأن الشفاعة للفاسق وأن شفاعة الشفاعة تجلب عفو سبحانه إليهم، فيعفو عنهم من بدء الأمر، أو بعد ما يعذبهم فترة. وأما المعتزلة، فلما كان المختار عندهم في المسألة السابقة خلود الفاسق في العذاب، خصوا الشفاعة بالتائبين من المؤمنين، وصار أثرها عندهم ترفيع المقام لا الانقاذ من العذاب، أو الخروج منه. وهذه هي النقطة الحساسة في الأبحاث الكلامية التي لها صلة بكتاب الله و سنته. فالمعتزلة في المقام أولوا صريح القرآن و الروايات وقالوا: إن شفاعة الفاسق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا، ينزل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير و ترصد للآخر حتى يقتله، فكما أن ذلك يقبح فكذلك هي هنا (١). والخطأ في تفسير آيات الشفاعة، ورفض الروايات المتواترة، حدث من الخطأ في المسألة السابقة. وهكذا شيمه الخطأ و خاصيته فلا يقف عند حد، قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : «ألا - و إن الخطايا خيل شمس، حمل عليها أهلها، و خلعت لجمها» (٢). وما ذكره القاضي غفله عن شروط الشفاعة، المحررة في محلها، فإن بعض الذنوب الكبيرة ربما تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه، كما تقطع الأواصر الروحية مع النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فأمثال هؤلاء العصاة لا تشملهم الشفاعة، وقد وردت الروايات الإسلامية حول شروط الشفاعة، و في حرمان طوائف من الناس منها. والعجب أن القاضي يستدل على أن العقوبة على طريق الدوام، ولا يخرج الفاسق _____ ١. شرح الأصول الخمسة: ص ٦٨٨. ٢. نهج البلاغة: الخطبة ٦١.

(٤٠٤)

من النار بشفاعة النبي صلى الله عليه و آله و سلم بقوله سبحانه: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) (البقرة/٤٨)، وقوله سبحانه: (ما للظالمين من حميم ولا شفيح يطاع) (غافر/١٨) (١). يلاحظ عليه أولاً: أن الأسلوب الصحيح لتفسير القرآن الكريم هو تجريد المفسر نفسه عن كل رأى سابق أولاً، وجمع الآيات المربوطة بموضوع واحد ثانياً. فعند ذلك يقدر على فهم المراد. والقاضي نظر إلى الآيات بمنظار الاعتزال أولاً، ولم يجمع الآيات الراجعة إلى الشفاعة ثانياً، مع أن الآيات الراجعة إلى الشفاعة على سبعة أصناف (٢) فأخذ صنفاً واحداً و ترك الأصناف الأخر. ثانياً: ما ذكره من الآيتين في نفى الشفاعة راجعتان إلى الكفار. فالآية الأولى ناظرة إلى نفى الشفاعة

التي كانت اليهود يتبنونها كما هو صريح سياقها، والآية الثانية التي وردت في السورة المكية ناظرة إلى الشفاعة التي كان المشركون يعتقدون بها. قال سبحانه حاكياً عنهم: (إذ نُسويكم رب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم) (الشعراء/ ٩٨ - ١٠١). وقال سبحانه: (وكننا نكذب بيوم الدين * حتى أتينا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (المدثر/ ٤٦ - ٤٨). ثالثاً: أن مسألة الشفاعة لم تكن فكرة جديدة ابتكرها الإسلام وانفرد بها، بل كانت فكرة رائجة بين أمم العالم من قبل، وخاصة الوثنيين واليهود، والإسلام طرحها مهذباً من الخرافات، ومبنيًا نسج حولها من الأوهام، وقررها على أسلوب يوافق أصول العدل والعقل، وصححها تحت شرائط في الشافع والمشفوع له، وهي التي تجرّ العصاة إلى الطهارة من الذنوب، وكف اليد عن الآثام والمعاصي، ولا توجد فيهم جرأة وجسارة على هتك الستر. ومن امعن النظر في آراء اليهود والوثنيين في أمر الشفاعة أن الشفاعة تقف على _____ ١. الاصول الخمسة: ص ٦٨٩. ٢. لاحظ في الوقوف على هذه الأصناف الجزء الرابع من مفاهيم القرآن ١٧٧ - ١٩٩.

(٤٠٥)

الدارجة بينهم، خصوصاً اليهود، كانت مبنية على رجائهم لشفاعة أنبيائهم وآبائهم في حطّ ذنوبهم، وغفران آثامهم. ولأجل هذا الاعتقاد كانوا يفترون المعاصي، ويرتكبون الذنوب تعويلاً على ذلك الرجاء. وفي هذا الموقف يقول سبحانه رداً على تلك العقيدة الباعثة على الجرأة: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) (البقرة/ ٥٥)، ويقول أيضاً رفضاً لتلك الشفاعة المحرّرة من كل قيد: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) (الأنبياء/ ٢٨). وحاصل الآيتين أن أصل الشفاعة التي تدعيها اليهود و يلوذ بها الوثنيون حق ثابت في الشريعة السماوية، غير أن لها شروطاً أهمها إذنه سبحانه للشافع، ورضاه للمشفوع له. وعلى ذلك فكيف يصحّ لنا تخصيص الآيات بقسم خاص من الشفاعة وهي شفاعته الأولياء لرفع الدرجة وزيادة الثواب. وأوضح دليل على عموميّة الشفاعة ما أصفق على نقله المحدثون من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أذخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي». والقاضي رمى هذا الحديث بأنه خبر واحد لا يصحّ به الاحتجاج في باب العقائد. وما ذكره يعرب عن قصور باعه في مجال الحديث. فقد رواه من أئمة الحديث أبو داود في سننه، والترمذي في صحيحه، وابن حنبل في مسنده، وابن ماجه في صحيحه (١). وليس حديث الشفاعة الدالّ على شمولها لأصحاب الكبائر منحصراً به، بل أحاديث الشفاعة في هذا المجال متواترة، وقد جمعنا ما رواه السنّة والشيعة في هذا المجال في كتابنا «مفاهيم القرآن» (٢). _____ ١. راجع سنن أبي داود، ج ٤، ص ٢٣٦. وصحيح الترمذي، ج ٤، ص ٤٥. وصحيح ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤٤. ومسند احمد، ج ٣ ص ٢١٣. ٢. لاحظ: ج ٤، فصل الشفاعة في الأحاديث الاسلاميّة، ص ٢٨٩ - ٣١١. فتجد في تلك الصحائف (١١٢) حديثاً عن النبي وعترته. وقد قام العلامة المجلسي بجمع احاديث الشفاعة في موسوعته بحار الانوار (ج ٨، ص ٢٩ - ٦٣) وروى بعضها الآخر في سائر أجزائه. كما روى علاء الدين المتقي احاديث الشفاعة في كنز العمال ج ١٤ ص ٦٢٨-٦٤٠.

(٤٠٦) د - القائلون بجواز العفو أو عدم الخلود، مرجئه أو راجيه؟

قد تعرّف على عقيدة المرجئة في الفصول السابقة وأن شعارهم أنه لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الشرك طاعة. وقد عرفناك منهجهم وأن هؤلاء بهذا الشعار يغزون الجهال بالمعصية واقتراف الذنوب ولا يعتنون بالعمل بحجة أنهم مؤمنون في كل حال، ويعيشون في جميع الأحوال بإرجاء العمل ويقولون: إن إيمان واحد مّا يعدل إيمان جبرائيل والنبى الأكرم. هذه هي المرجئة. وأمّا جمهرة المسلمين القائلون بجواز العفو وعدم الخلود، فهم راجية، يعتقدون بالعقاب والثواب، يدعون ربهم رغباً و رهباً، ولا يتكلمون في حياتهم على العفو والرجاء من دون عمل، غير أنهم يبيّثون بذور الرجاء في قلوب العباد لما فيه من آثار تربويّة. وقد ذكرنا في محلّه أنّ في القول بالعفو عن العصاة وخروجهم من النار بالشفاعة وغيرها، بصيص من الرجاء، و نافذة من الأمل فتحة القرآن في وجه العصاة حتى لا يياسوا من روح الله و رحمته، ولئلا يغلبهم الشعور بالحرمان من عفوه، فيتمادوا في العصيان. فالمرجئة من قدّموا الإيمان وأخروا العمل، بخلاف الراجية، فإنهم جعلوا الإيمان غير منفكّ عن العمل وينادون بأعلى أصواتهم أن الإيمان بلا عمل

كشجرة بلا ثمر، لا يغنى ولا يسمن من جوع، ويخافون ربهم بالغيب، ومع ذلك يرجون رحمته. فلا ينفك الخوف عن الرجاء، والرهبنة عن الرغبة. هـ- هل الطاعات مؤثرة في سقوط العقاب، والمعاصي مؤثرة في سقوط الثواب، وهذا ما يعتبر عنه بالإحباط والتكفير. الاحباط في اللغة بمعنى: الإبطال، يقال: أحبط الله عمل الكافر. أى أبطله(١). والكفر بمعنى «الستر» و «التغطية»، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، _____ ١. المقاييس: ج ٢، مادة حبط، ص ١٢٩.

(٤٠٧)

والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، ويقال للزارع: كافر، لأنه يغطي الحب بتراب الأرض، قال الله تعالى: (كمثل غيث أعجب الكفار نباتاً) (سورة الحديد، الآية ٢٠). والكفر ضد الإيمان، سمي بذلك لأنه تغطية الحق(١). والمراد من الحبط هو: سقوط ثواب العمل الصالح المتقدم، بالذنوب المتأخرة، كما أن المراد من التكفير هو سقوط الذنوب المتقدمة، بالطاعة المتأخرة. وبعبارة أخرى: إن الاحباط في عرف المتكلمين: عبارة عن إبطال الحسنه بعدم ترتب ما يتوقع منها عليها، ويقابله التكفير وهو: إسقاط السيئه بعدم جريان مقتضاها عليها، فهو في المعصية نقيض الاحباط في الطاعة و لنقدم الكلام في الإحباط أولاً. ١- الاحباط

المعروف عن المعتزلة هو القول بالإحباط، كما أن المعروف عن الامامية والأشاعرة هو أنه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب(٢). قال القاضي عبد الجبار: «إن المكلف لا يخلو إما أن تخلص طاعاته ومعاصيه، أو يكون قد جمع بينهما، فلا يخلو إما أن تتساوى طاعاته ومعاصيه، أو يزيد أحدهما على الآخر، فإنه لا بد من أن يسقط الأقل بالأكثر.... وهذا هو القول بالإحباط والتكفير على ما قاله المشايخ، وقد خالفنا في ذلك المرجئه، وعباد بن سليمان الصيمري»(٣). قال التفتازاني: «لا خلاف في أن من آمن بعد الكفر والمعاصي فهو من أهل الجنة بمنزلة من لا معصية له، ومن كفر بعد الإيمان والعمل الصالح، فهو من أهل النار بمنزلة من لا حسنة له. وإنما الكلام فيمن آمن وعمل صالحاً وآخر سيئاً واستمر على _____ ١. المقاييس: ج ٥، مادة كفر، ص ٩١. ٢. أوائل المقالات: ص ٥٧. ٣. الأصول الخمسة: ص ٦٢٤، وقد ذهب القاضي إلى عدم جواز استحقاق المكلف الثواب والعقاب إذا كانا مساويين، فأنحصر الأمر في المطيع المحض والعاصي كذلك ومن خلط أحدهما بالآخر على وجه لا يتساويان، وهذا القسم هو مورد نظرية الإحباط والتكفير. فلاحظ.

(٤٠٨)

الطاعات والكبائر، كما يشاهد من الناس، فعندنا م آله إلى الجنة ولو بعد النار، واستحقاقه للثواب والعقاب، بمقتضى الوعد والوعيد من غير حبوط. والمشهور من مذهب المعتزلة أنه من أهل الخلود في النار إذا مات قبل التوبة، فأشكل عليهم الأمر في إيمانه وطاعته وما يثبت من استحقاقاته، أين طارت؟ وكيف زالت؟ فقالوا بحبوط الطاعات، ومالوا إلى أن السيئات يذهبن الحسنات»(١). أقول: اشتهر بين المتكلمين أن المعتزلة يقولون بالإحباط والتكفير، وأما الأشاعرة والإمامية فهم يذهبون إلى خلافهم. غير أن هنا مشكلة وهي أن نفيهما على الإطلاق يخالف ما هو مسلم عند المسلمين من أن الإيمان يكفر الكفر، ويدخل المؤمن الجنة خالداً فيها، وأن الكفر يحبط الإيمان ويخلد الكافر في النار. وهذا النوع من الإحباط والتكفير مما أصفقت عليه الأئمة، ومع ذلك كيف يمكن نفيهما في مذهب الأشاعرة والإمامية؟ ولأجل ذلك، يجب الدقمة في فهم مرادهما من نفيهما على الإطلاق، وسوف يتبين الحال في هذين المجالين. هذا، وإن القائلين بالإحباط اختلفوا في كفيته، فمنهم من قال بأن الإساءة الكثيرة تسقط الحسنات القليلة، وتمحوها بالكليته، من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة فيقل الإحسان من الإساءة، وهو المحكي عن أبي علي الجبائي. ومنهم من قال بأن الإحسان القليل يسقط بالإساءة الكثيرة، ولكنه يؤثر في تقليل الإساءة فينقص الإحسان من الإساءة، فيجزى العبد بالمقدار الباقي بعد التنقيص، وهو المنسوب إلى أبي هاشم. وهناك قول آخر في الإحباط وهو عجيب جداً، حكاه التفتازاني في «شرح المقاصد» وهو أن الإساءة المتأخرة تحبط جميع الطاعات وإن كانت الإساءة أقل منها قال: حتى ذهب الجمهور منهم إلى أن الكبيرة الواحدة تحبط ثواب جميع العبادات. وعلى هذا(٢) ففي الإحباط أقوال ثلاثة: _____ ١. شرح المقاصد: ج ٢، ص ٢٣٢. ٢. شرح المقاصد: ج ٢، ص ٢٣٢.

(٤٠٩)

١ - الإساءة الكثيرة تسقط الحسنه القليله من دون تأثير في تقليل الإساءة. ٢ - الإساءة الكثيرة تسقط الحسنه القليله، مع تأثير الإحسان في تقليل الإساءة. ٣ - إن الإساءة المتأخره عن الطاعات، تبطل جميع الطاعات من دون ملاحظه القلبه والكثرة. إذا عرفت موضع النزاع في كلام القوم، فلننقل أدله الطرفين: أدله نفاة الإحباط

استدلّ النافون بوجهين: عقليّ و نقليّ. أمّا الوجه العقليّ: فهو أنّ القول بالإحباط يستلزم الظلم، لأنّ من أساء و أطاع و كانت إساءته أكثر، يكون بمنزله من لم يُحسن. وإن كان إحسانه أكثر، يكون بمنزله من لم يسيء. وإن تساوى يكون مساوياً لمن يصدر عنه أحدهما، وهو نفس الظلم (١). يلاحظ عليه: أنّ الإحباط إنّما يعدّ ظلماً، و يشمله هذا الدليل، إذا كان الأكثر من الإساءة مؤثراً في سقوط الأقلّ من الطاعة بالكلية، من دون أن تؤثر الطاعة القليلة في تقليل الإساءة الكثيرة، كما عليه أبو عليّ الجبائي. وأمّا على القول بالموازنة، كما هو المحكي عن ابنه أبي هاشم، فلا يلزم الظلم، و صورته أن يأتي المكلف بطاعة استحقّ عليها عشرة أجزاء من الثواب، و بمعصية استحقّ عليها عشرين جزءاً من العقاب، فلو قلنا بأنّه يحسن من الله سبحانه أن يفعل به عشرين جزءاً من العقاب، ولا يكون لما استحقّه من الطاعة أيّ تأثير للزم منه الظلم. وأمّا إذا قلنا بأنّه يقبح من الله تعالى ذلك، ولا يحسن منه أن يفعل به من العقاب إلاّ عشرة أجزاء، وأمّا العشرة الأخرى فإنّها تسقط بالثواب الذي استحقّه على ما أتى به من الطاعة، فلا يلزم ذلك. يقول القاضي عبد الجبار بعد نقل مذهب أبي هاشم: «و لعمري إنّ القول اللائق بالله تعالى. دون ما يقوله أبو عليّ و المذبي يدلّ على صحته هو أنّ المكلف أتى

_____ ١ . كشف المراد: ص ٢٦٠.

(٤١٠)

بالطاعات على الحدّ الذي أمر به، وعلى الحدّ الذي لو أتى به منفرداً عن المعصية لكان يستحقّ عليها الثواب، فيجب أن يستحقّ عليها الثواب وإن دَنَسها بالمعصية، إلاّ أنّه لا يمكن والحالة هذه أن يوفّر عليه، على الحدّ الذي يستحقّه، لاستحالة، فلا مانع من أن يزول من العقاب بمقداره، لأنّ دفع الضرر كالنفع في أنّه مما يعدّ من المنافع. ثمّ قال: فأما على مذهب أبي عليّ فيلزم أن لا يكون قد رأى صاحب الكبيرة شيئاً ممّا أتى به من الطاعات. وقد نصّ الله تعالى على خلافه (١). والأولى أن يستدلّ على بطلان الإحباط بأنّه يستلزم خُلف الوعد إذا كان الوعد منجزاً، كما هو في محلّ النزاع، وأمّا إذا كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان به، فهو خارج عن محلّ البحث هذا، من غير فرق بين قول الوالد والولد. وأمّا الوجه الثقلّي، فقوله سبحانه: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (سورة الزلزلة: الآية ٧). يلاحظ عليه: أنّ الاستدلال بالآية إنّما يتمّ على القولين الأوّل والثالث، حيث لا يكون للإحسان القليل دور، وأمّا على القول الثاني، فالآية قابلة للانطباق عليه، لأنّه إذا كان للإحسان القليل، تأثير في تقليل الإساءة الكثيرة، فهو نحو رؤيته له، لأنّ دفع المضرة كالنفع في أنّه مما يُعَدّ منفعة. وهذا كما إذا ربح إنسان في تجارة قليلاً، وخسر في تجارة أخرى أكثر فأدى بعض ديونه من الرّبح القليل. نعم الظاهر من الآية رؤيه جزاء الخير، وهو بالقول بعدم الإحباط الصق و أطبق. سؤال و إجابة

السؤال: لو كان القول بالإحباط مستلزماً للظلم، أو كان مستلزماً لخلف الوعد، فما هو المخلص فيما يدلّ على حبط العمل، في غير مورد من الآيات التي ورد فيها أنّ _____ ١ . شرح الأصول الخمسة: ص ٦٢٩.

(٤١١)

الكفر والارتداد والشرك و الإساءة إلى النبي و غير ذلك ممّا يحبط الحسنات (١). ما هو الجواب عن هذه الآيات؟ وما هو تفسيرها؟ الجواب: إنّ القائمين ببطلان الإحباط يفسّرون الآيات بأنّ الاستحقاق في مواردّها كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان بالطاعات، فإذا عصى الإنسان ولم يحقّ الشرط، انكشف عدم الاستحقاق. ويمكن أن يقال بأنّ الاستحقاق في بدء صدور الطاعات لم يكن مشروطاً بعدم لحوق العصيان، بل كان استقرار الاستحقاق في مستقبل الأيام، هو المشروط بعدم لحوق المعصية، فإنّ فُقد الشرط فُقد استقرار الاستحقاق و استمراره. يقول الشيخ الطوسي في تفسير قوله سبحانه: (وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ

أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أضحأ النار هم فيها خالدين) (٢) «معناه أنها صارت بمنزلة ما لم يكن، لا يقاعهم إياها على خلاف الوجه المأمور به، وليس المراد أنهم استحقوا عليها الثواب ثم انحبطت، لأن الإحباط - عندنا باطل على هذا ال (٣) وجه». ويقول الطبرسي في تفسير قوله سبحانه: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (المائدة: الآية ٥). «وفي قوله: (فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) هنا دلالة على أن حبوط الأعمال لا يترتب على ثبوت الثواب. فإن الكافر لا يكون له عمل قد ثبت عليه ثواب، وإنما يكون له عمل في الظاهر لو لا كفره لكان يستحق الثواب عليه، فعبر سبحانه عن هذا العمل بأنه حبط، فهو حقيقة معناه» (٤). ويقول في تفسير قوله سبحانه: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ _____ ١ . سنذكرها في آخر البحث. ٢ . سورة البقرة: الآية ٢١٧. ٣ . البيان: ج ٢، ص ٢٠٨، ولاحظ: مجمع البيان، ج ١، ص ٣١٣. ٤ . مجمع البيان: ج ٢، ص ١٦٣.

(٤١٢) جَهْدَ إِيمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ) (سورة المائدة: الآية ٥٣). «أى ضاعت أعمالهم التي عملوها لأنهم أوقعوها على خلاف الوجه المأمور به، وبطلما أظهره من الإيمان، لأنه لم يوافق باطنهم ظاهرهم، فلم يستحقوا به الثواب» (١). وبما ذكره الطبرسي يظهر جواب سؤال آخر، وهو أنه إذا كان الاستحقاق مشروطاً بعدم صدور العصيان، فإذا صدر يكشف عن عدم الإستحقاق أبداً، فكيف يطلق عليه الإحباط، وما الإحباط إلا الإبطال والإسقاط، ولم يكن هناك شيء حتى يبطل أو يسقط؟ وذلك لأن نفس العمل في الظاهر سبب و مقتض، فالإبطال والإسقاط كما يصدقان مع وجود العلة التامة، فهكذا يصدقان مع وجود جزء العلة وسببها ومقتضيها، وهذا كمن ملك أرضاً صالحة للزراعة فأحدث فيها ما أفقدها هذه الصلاحية. وبعبارة أخرى، إن الموت على الكفر، وإن كان يبطل ثواب جميع الأعمال، لكن ليس هذا بالإحباط، بل بشرط الموافاة على الإيمان في استحقاق الثواب على القول بالاستحقاق. أو في إنجاز الوعد بالثواب على القول بعدم الاستحقاق. وهكذا القول في المعاصي التي ورد أنها حابطة لبعض الحسنات من غير قول بالحبط، بل يكون الإستحقاق أو الوعد مشروطاً بعدم صدور تلك المعصية. والذي يبدو لنا من هذه الكلمات إن النزاع بين نافي الاحباط و مثبتة في هذه الموارد الخاصة، أشبه بنزاع لفظي، لأنهما متفقان على النتيجة وهي عدم ترتب الثواب على الإيمان و الأعمال الحسنة إذا لحقها الكفر أو بعض الكبائر، غير أن النافي يقول بأنه لم يكن هناك ثواب فعلي حتى يحبطه الكفر أو بعض الكبائر، لأن ترتب الثواب أو الاستحقاق كان مشروطاً بشرط غير حاصل، والمثبت له يقول بوجوده فعلاً، لكنه يسقط _____ ١ . مجمع البيان: ج ٢، ص ٢٠٧.

(٤١٣)

بهما. وعلى كل واحدة من النظريتين فالكافر و المرتكب للكبائر، صفر اليد يوم القيامة. نعم، هذا التفسير إنما نحتاج إليه في جانب الاحباط، وأما في جانب التكفير فلا حاجة إليه، بل لنا أن نقول إن التوبة و الأعمال المكفرة يذهبان العقاب المكتوب على المعاصي من دون حاجة إلى القول بكون الإستحقاق مشروطاً بالموافاة على الكفر، لجواز تفضله سبحانه بالعفو. هذا، ولا يصح القول بالإحباط و التكفير في كل المعاصي عند النافي، بل يجب عليه تتبع النصوص، فكل معصية وردت في الكتاب أو في الآثار الصحيحة إنها مذهبة لأثر الإيمان و الحسنه نقول بالاحباط فيها على التفسير الذي ذكرناه. وهكذا في جانب التكفير فلا يمكن لنا أن نقول إن كل حسنة تذهب السيئة إلا بالنص. وأما على قول المثبت فالظاهر أنه يقول بأن كل كبيرة توجب الإحباط للأصل الذي افترضه صحيحاً وهو خلود مرتكب الكبيرة في النار على الإطلاق. إلى هنا تم بيان دليل النافين للإحباط على الوجه اللائق بكلامهم، والإجابة عليه. أدلة مثبتة الإحباط

استدل القاضي على ثبوت الإحباط بوجه عقلي فقال: «قد ثبت أن الثواب (١) والعقاب يستحقان على طريق الدوام. فلا يخلو المكلف إمّا أن يستحق الثواب فيثاب، أو يستحق العقاب فيعاقب، أو لا. يستحق الثواب ولا العقاب، فلا يثاب ولا يعاقب، أو يستحق الثواب والعقاب، فيثاب و يعاقب دفعة واحدة، أو يؤثر الأ-كث في الأقل على ما نقوله: لا يجوز أن لا يستحق الثواب ولا العقاب، فإن ذلك خلاف ما اتفقت عليه الأمة. ولا أن يستحق الثواب والعقاب معاً فيكون مثاباً و معاقباً دفعة واحدة، لأن ذلك _____ ١ . يكفي

في ذلك كونه مستحقاً للعقاب دائماً فقط ولا يتوقف على استحقاقه للثواب كذلك فلاحظ.

(٤١٤)

مستحيل والمستحيل ممّا لا يستحقّ... فلا يصحّ إلا ما ذكرناه من أنّ الأقلّ يسقط بالأكثر. وهذا هو الذي يقوله الشّيخان أبو عليّ و أبو هاشم ولا يختلفان فيه، وإنّما الخلاف بينهما في كيفية ذلك» (١). يلاحظ عليه: أنّه مبنيّ على أنّ استحقاق العقاب على وجه الدوام، وهو مبنيّ على أنّ مرتكب الكبيرة مُخلّد في النار، وبما أنّ الأساس باطل، فيبطل ما بني عليه، فلا دليل على دوام استحقاق العقاب، وعلى ذلك فالحصر غير حاصر، وأنّ هنا شقاً سادساً ترك في كلامه وهو أنّه يستحقّ الثواب والعقاب معاً لكن لا دفعه واحده، بل يعاقب مدّة ثم يخرج من النار فيثاب بالجنة على ما عليه جمهور المسلمين. وقد نقل القاضي عبد الجبار وجهاً عقلياً آخر للإحباط عن الشّيخ أبي عليّ و أجاب عنه، فلاحظ (٢). تحليل لمسألة الإحباط

وهي هنا تحليل آخر للمسألة وهو أنّ في الثواب والعقاب أقوال: ١- الثواب والعقاب في الآخرة من قبيل الأمور الوضعيّة الجعليّة، كجعل الأجر للعامل، والعقاب للمتخلف في هذه النشأة. ٢- الثواب والعقاب في الآخرة مخلوقان لنفس الإنسان حسب الملكات التي اكتسبها في هذه الدنيا، بحيث لا يمكن لصاحب هذه الملكة، الشكون والهدوء إلا بفعل ما يناسبها. ٣- الثواب والعقاب في الآخرة عبارة عن تمثّل العمل في الآخرة و تجلّيه فيها ————— ١. شرح الاصول الخمسة: ص ٦٢٥. وترك تعليل الوجه الأول (وهو أنّ يستحق الثواب فقط) والثاني (وهو أنّ يستحق العقاب فقط) لوضوحه. ٢. شرح الاصول الخمسة: ص ٦٣٠ - ٦٣١، وحاصل هذا الدليل أنّ المكلف، بارتكاب الكبيرة يخرج نفسه من صلاحية استحقاق الثواب. وهو كما ترى دعوى بلا دليل، إذ لا دليل على أنّ كلّ معصية لها هذا الشأن، وليست كلّ معصية كالكفر والارتداد والنفاق.

(٤١٥)

بوجوده الأخرى من دون أنّ يكون للنفس دور في تلك الحياة في تجلّي هذه الأعمال بتلك الصور، بل هي من ملازمات وجود الإنسان المحشور. فلو قلنا بالوجه الأوّل، كان لما نقلناه من نفاة الحبط (من أنّ الاستحقاق أو استمراره مشروط بعدم الإتيان بالمعصية) وجه حسن، لأنّ الأمور الوضعيّة، رفعها ووضعها وتبسيطها وتضييقها، بيد المقتنّ والمشرع، وعندئذ يُجمع بين حكم العقل بلزوم الوفاء بالوعد، وما دلّ من الآيات على وجود الإحباط في موارد مختلفة، كما سيوافيك. وقد عرفت حاصل الجمع، وهو أنّ إطلاق الإحباط ليس لإبطال استحقاق الإنسان الثواب، بل لم يكن مستحقاً من رأس لعدم تحقّق شرط الثواب، وأمّا مصحّح تسميته بالإحباط فقد عرفته أيضاً، وهو أنّ ظاهر العمل كان يحكى عن الثواب وكان جزءاً علّه له. ولو قلنا بالوجه الثاني، وحاصله أنّ الملكات الحسنه والسيئة التي تعدّ فعليات للنفس، تحصل بسبب الحسنات والسيئات التي كانت تصدر من النفس. فإذا قامت بفعل الحسنات، تحصل فيها صورة معنويّة مقتضية لخلق الثواب. كما أنّه إذا صدر منها سيئة، تقوم بها صورة معنويّة تصلح لأن تكون مبدأ لخلق العقاب. وبما أنّ الإنسان في معرض التحوّل والتغيّر من حيث الملكات النفسانيّة، حسب ما يفعل من الحسنات والسيئات، فإنّ من الممكن بطلان صورة موجودة في النفس و تبدّلها إلى صورة غيرها ما دامت تعيش في هذه النشأة الدنيويّة. نعم، تقف الحركة و يبطل التحوّل عند موافاة الموت، فعند ذلك تثبت لها الصور بلا تغيير أصلاً. فلو قلنا بهذا الوجه، كان الإحباط على وفق القاعدة، لأنّ الجزء في الآخرة، إذا كان فعل النفس و إيجادها، فهو يتبع الصورة الأخيرة للنفس، التي اكتسبتها قبل الموت، فإن كانت صورة معنويّة مناسبة للثواب فالنفس منعمه في الثواب من دون (٤١٦)

مقابلة بالعقاب، لأنّ الصورة المناسبة للعقاب قد بطلت بصورة أخرى. وإذا انعكست الصورة انعكس الحكم. وأمّا لو قلنا بالوجه الثالث، وهو تجسّم الأعمال و تمثّلها في الآخرة بالوجود المماثل لها، فالقول بعدم الاحباط هو الموافق للقاعدة، إذ لا معنى للإبطال في النشأة الأخرى. غير أنّ الكلام كلّ في انحصار الثواب والعقاب بهذين الوجهين الأخيرين (١). عوامل الإحباط و أسبابه

البحث عن عوامل الإحباط و أسبابه، بحثٌ نقلني يتوقّف على السبر و الفحص في الكتاب والسنة، ونكتفي في المقام بما جاء في

الكتاب العزيز. ١ - الإرتداد بعد الإسلام

قال سبحانه: (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (سورة البقرة: الآية ٢١٧). ٢ - الشرك المقارن بالعمل

يقول سبحانه: (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) (سورة التوبة: الآية ١٧). وقد كان المشركون يزعمون أن العمل الصالح بنفسه موجب للثواب، غير أن القرآن شطب على هذه العقيدة، وصرح بأن الثواب يترتب على العمل الصالح، إذا صدر من فاعل مؤمن. ولأجل ذلك أتبع سبحانه الآية السابقة بقوله: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ _____ ١. لاحظ: «الالهيات» ج ١، ص ٢٩٩.

(٤١٧) بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) (سورة التوبة: الآية ١٨). ٣ - كراهة ما أنزل الله

قال سبحانه: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (سورة محمد: الآيتان ٨ و ٩). ٤ - الكفر ٥ - الصد عن سبيل الله ٦ - مجادله الرسول و مشاقته

وقد جاءت هذه العوامل الثلاثة في قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ) (سورة محمد: الآية ٣٢. ولاحظ في عامل الكفر، سورة التوبة: الآية ٦٩). وهل كل منها عامل مستقل، أو أن هنا عاملاً واحداً هو الكفر، ويكون حينئذ الصد عن سبيل الله و مشاقمة الرسول من آثار الكفر، فهم كفروا، فصعدوا و شاقوا؟ وتظهر الثمرة فيما لو صد إنسان عن سبيل الله لأغراض دنيوية، أو شاق الرسول لحاله نفسانية مع اعتقاده التام بنبوة ذاك الرسول و قبح عمل نفسه. فلو قلنا باستقلال كل منها في الحبط، يحبط عمله، وإلا فلا، و بما أن الآية ليست في مقام البيان، بل تحكى عمل قوم كانت لهم هذه الشؤون فلا- يمكن استظهار استقلال كل منها في الحبط نعم، يمكن القول بالاستقلال من باب الأولوية، وذلك أنه إذا كان رفع الصوت فوق صوت النبي من عوامل الإحباط كما سيأتي فكيف لا يكون الصد و القتل من عوامله؟ ٧ - قتل الأنبياء ٨ - قتل الأمرين بالقسط من الناس قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بَغِيرِ حَقِّ، (٤١٨) وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (آل عمران: الآيتان ٢١ - ٢٢). ٩ - إساءة الأدب مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم

قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) (سورة الحجرات: الآية ٢). وربما يتصور أن رفع الصوت ليس عاملاً مستقلاً في الإحباط، بل هو كاشف عن كفر الرافع، ولكنه احتمال ضعيف، لأن الآية تخاطب المؤمنين به بقولها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا). نعم، لا يمكن الالتزام بأن كل إساءة بالنسبة إلى النبي تحبط الأعمال الصالحة (١)، إلا إذا كانت هتكاً في نظر العامة، و تحقيراً له في أوساط المسلمين، كما هو الظاهر من أسباب نزول الآية. ١٠ - الإقبال على الدنيا و الاعراض عن الآخرة

قال سبحانه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زَيَّنَّهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَبَّحُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (سورة هود: الآيتان ١٥ و ١٦). ويمكن أن يقال إن الإقبال على الدنيا بهذا النحو الذي جاء في الآية يساوق الكفر، أو يساوق ترك الفرائض، والتوغل في الموبقات، فتكون إرادة الحياة الدنيا وزينتها إشارة إلى العامل الواقعي. _____ ١. كالغضب في محضره - صلوات الله عليه و آله.

(٤١٩) ١١ - إنكار الآخرة

قال سبحانه: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لَقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) (سورة الأعراف: الآية ١٤٧. ولاحظ سورة الكهف: الآية ١٠٥). وهو فرع من فروع الكفر وليس عاملاً مستقلاً. ١٢ - النفاق

قال سبحانه: (مَنْ يَعْلَمْ اللَّهُ الْمَعْقُوبِينَ مِنْكُمْ وَ الْمَتَائِلِينَ لِإِحْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَ لَا يَأْتُونَ الْبِئْسَ إِلَّا - قَلِيلاً * أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ

أَعْمَىٰ لَهُمْ وَكَأَن ذَلِك عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) (سورة الاحزاب: الآيات ١٨ و ١٩). وقوله: «الإخوانهم»، يدل على أنهم لم يكونوا مؤمنين، بل كانوا منافقين. ويصرح به قوله: «أو لئن لم يؤمنوا». وعلى ذلك فيرجع التناق إلى عامل الكفر و عدم الإيمان، وليس سبباً مستقلاً. هذه هي أبرز أسباب الإحباط في الذكر الحكيم، وقد عرفت إمكان إدغام البعض في البعض، وعلى كل تقدير، فالإحباط هنا هو بطلان أثر المقتضى، لا إبطال أثر ثابت بالفعل، كما تقدم (١). ٢ - التكفير

التكفير هو إسقاط ذنوب الأفعال المتقدمة بثواب الطاعات المتأخرة، وهو لا يعد ظلماً، لأن العقاب حق للمولى، وإسقاط الحق ليس ظلماً بل إحسان، وقد عرفت أن خلف الوعيد ليس بقبیح و إنما القبيح خلف الوعد. فلأجل ذلك لا حاجة إلى تقييد استحقاق العقاب أو استمرار استحقاقه بعدم تعقب الطاعات. بل الاستحقاق ————— ١. وأمياً بيان عوامل الإحباط في السنة فهو موكول الى محل آخر.

(٤٢٠)

واستمراره ثابتان، غير أن المولى سبحانه، تفضلاً منه، عفا عن عبده لفعلة الطاعات. قال سبحانه: (إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) (سورة النساء: الآية ٣١). وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (سورة الأنفال: الآية ٢٩). وقال سبحانه: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بِهِمْ) (سورة محمد صلى الله عليه و آله و سلم الآية ٢). ولا يمكن استفادة الإطلاق من هذه الآيات، و أن كل معصية تكفر، لأنها بصدد بيان تشريع التكفير، و أما شروطه و بيان المعاصي التي تكفر دون غيرها، فلا يستفاد منها، وإنما الظاهر من الآية الأولى هو اشتراط تكفير الذنوب الصغيرة باجتنب الكبيرة منها، و من الآية الثانية، اشتراط تكفير السيئات بالتقوى و من الثالثة، تكفير السيئات للذين آمنوا و عملوا الصالحات و آمنوا بما نُزِّلَ عَلَى الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ. روى الكراجكي بسنده عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «وإن كان عليه فضل، وهو من أهل التقوى، ولم يشرك بالله تعالى، و اتقى الشرك به، فهو من أهل المغفرة، يغفر الله له برحمته إن شاء و يتفضل عليه بعفوه» (١). ————— ١. البحار، ج ٥، ص ٣٣٥.

الأصل الرابع المنزلة بين المنزلتين

الأصل الرابع المنزلة بين المنزلتين

إن هذا الأصل يهدف إلى أن صاحب الكبيرة لا يسمى مؤمناً، كما عليه جمهور المسلمين ولا كافراً، كما عليه الخوارج، وإنما يسمى فاسقاً. فهو من حيث الإيمان والكفر في منزلة بين المنزلتين. قال القاضي: «لا- يكون اسمه اسم الكافر ولا اسمه اسم المؤمن، وإنما يسمى فاسقاً. وكذلك فلا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث و هذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة بالمنزلة بين المنزلتين. فإن صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر، ولا منزلة المؤمن، بل له منزلة بينهما» (١). ثم إنه قسم المكلف من حيث استحقاق الثواب والعقاب إلى قسمين: إما أن يكون مستحقاً للثواب فهو من أولياء الله، وإمياً أن يكون مستحقاً للعقاب فهو من أعداء الله. ثم الثاني إما أن يكون مستحقاً للعقاب العظيم فهو الكافر والمنافق والمرتد. وإن استحق عقاباً دون ذلك سمي فاسقاً «وهو المرتكب للكبيرة». ثم إن الأساس لاجراغ الفاسق عن المؤمن هو جعل العمل جزءاً من الإيمان، ————— ١. شرح الأصول الخمسة: ص ٦٩٧.

(٤٢٢)

وعلى هذا فإذا ترك فريضة أو ارتكب حراماً يخرج من عداد المؤمنين و فيه تشترك المعتزلة والخوارج، ولكن تنشعب المعتزلة عن الخوارج بقولهم إنه لا مؤمن ولا كافر، بل في منزلة أو له - بين المنزلتين، ولكنه عند الخوارج ليس بمؤمن بل كافر. ثم إنهم استدلوا

على كونه ليس بمؤمن بوجه نأتى بها مع تحليلها: الدليل الأول: ما مرّ في مناظرة واصل بن عطاء مع عمرو بن عبيد من اختلاف المسلمين في سائر الأسماء و اتّفاقهم على كونه فاسقاً، فأخذ بالمجمع عليه و طرح ما اختلفوا فيه، حيث إنهم اختلفوا في كونه مؤمناً أو كافراً أو منافقاً، ولكن اتّفقوا في كونه فاسقاً، فأخذ بالمتيقّن و طرح المختلف فيه. وقد عرفت ضعف هذا الدليل فلا نعيده. الدليل الثاني: ما ذكره القاضي من أنّ «المؤمن» نقل عن معناه اللغوي إلى معنى آخر وصار بالشّرع اسماً لمن يستحقّ المدح و التّعظيم، والدليل على ذلك أنّه تعالى لم يذكر اسم المؤمن إلّا وقد قرن إليه المدح و التّعظيم. ألا ترى إلى قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون) و قوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتّى يستأذنوه) إلى غير ذلك من الآيات. ومثله لفظ المسلم فهو منقول إلى من يستحقّ المدح و التّعظيم. يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره ادعاء محض غير مقترن بالدليل ناش من خلط الأثر بنذى الأثر، ولو صحّ لوجب أن يقول القاضي: إنّ الصّلاة موضوع لمعراج المؤمن، والصّوم للجنته من النار، والزّكاة لتنمية المال، لقوله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «الصّلاة معراج المؤمن» و «الصّوم جنته من النار» و «الزّكاة تنمية للمال». والندى يدلّ على فساد ما ذكره أنّه لو صحّ لوجب أن يصحّ وضع الممدوح مكان المؤمن في الآيات التالية، مع أنّه لا يقبله أىّ ذوق سليم. ١- قال سبحانه: (ولعبد مؤمن من خير من مشرك) (البقرة/٢٢١). (٤٢٣)

٢- وقال سبحانه: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلّا خطأ) (النساء/٩٢). ٣- وقال سبحانه: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله و رسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة) (الأحزاب/٣٦) إلى غير ذلك من الآيات. والعجب من القاضي كيف غفل عن الآيات التي ذكر فيها متعلّق الإيمان، ومعه لا يمكن حمله إلّا على أنّه بمعنى الازدعان. قال سبحانه: (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر) (النساء/٣٩). و قال سبحانه: (والذين آمنوا بالله و رسوله و لم يفرّقوا بين أحد منهم) (النساء/٢٥١) وقال سبحانه: (فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به) (النساء/١٧٥). إلى غير ذلك من الآيات التي لا تبقى شكّاً في أنّ الإيمان بمعنى الازدعان مطلقاً، وفي المقام بمعنى الإيمان بالله واليوم الآخر و رسوله. وأمّا ما ذكر من أنّه سبحانه لم يذكر اسم المؤمن إلّا وقد قرن إليه المدح و التّعظيم منقول بقوله سبحانه: (ومن يؤمن بالله و يعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته) (التغابن/٩). وقال سبحانه: (الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن) (الأنعام/٨٢) و الظاهر أنّ القيد «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» احترازي لا توضيحي. أضف إليه أنّ الإيمان ذو درجات و مراتب، فالمدح المطلق للدرجة العليا و المدح النسبي للدرجات التالية لها. ثمّ إنّ تقسيم الناس إلى قسمين: من يستحقّ الثواب، و من يستحقّ العقاب، لا يصدقه القرآن، بل هناك قسم ثالث و هو عبارة عمّن يستحقّ كلا الأمرين. قال سبحانه: (وآخرون) (من الأعراب) اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنّ الله غفور رحيم) (التوبة/١٠٢) فلأجل كونه ذا عمل (٤٢٤)

صالح يستحقّ الثواب قطعاً لقوله: (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فلنجيّه حيوه طيِّبه و لنجزّيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل/٩٧) ويستحقّ العقاب لكونه ذا عمل سيّئ. ثمّ إنّ القاضي عطف على دليله السابق قوله: ١- لو كان لفظ المؤمن باقياً على ما كان عليه في اللّغة لكان يجب إذا صدّق المرء غيره أو آمنه من الخوف أن يسمّى مؤمناً و إن كان كافراً. ٢- ولكان يجب أن لا يسمّى الأخرس مؤمناً. ٣- ولكان أن لا- يجرى على التّائم و السّاهي، لأنّ الانقياد غير مقصود منهما. ٤- ولكان يجب أن لا يسمّى الآن بهذا الاسم إلّا- المشتغل به دون من سبق منه الإسلام، ولازمه أن لا- يسمّى أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم مؤمنين (١). يلاحظ عليه: أنّ هذه الوجوه عليه جدّاً لا تليق بمقام القاضي. أمّا الأوّل، فالمؤمن هو المدعّن المصدّق، ويختلف متعلّقه بحسب اختلاف الموارد، فإذا أطلق في عرف اللّغة يراد منه نفس المدعّن، سواء كان متعلّقه هو الله سبحانه أو غيره. قال سبحانه: (وما أنت بمؤمن لنا) (يوسف/١٧). وأمّا في عرف الشّرع و المتشرّعه و مصطلح القرآن و الحديث، فالمراد هو الازدعان بالله واليوم الآخر و رسالته رسولاً، فالندى يصدق شخصاً مؤمناً حسب اللّغة، ولا يطلق عليه المؤمن في مصطلح الشّرع و المتشرّعه بهذا الملاك. وأمّا الأخرس فهو مؤمن لكشف إشاراته عن إذعانه، والتّائم و السّاهي مؤمنان لوجود الازدعان في روحهما، غاية الأمر يكون التّوم و السّيهو مانعين عن بروزهما. وأمّا من مات مؤمناً فهو أيضاً مؤمناً بلحاظ حال التّسبب، لا حال التّكلم، فالضّارب و القاتل في اليوم الماضي يطلق

عليهما المشتق باعتبار زمان النسبة لا باعتبار زمان التكلم، والشجرة ————— ١ . شرح الاصول الخمسة: ص ٧٠٣ - ٧٠٥.

(٤٢٥)

المثمرة في الشتاء مثمرة بلحاظ حال النسبة. ثم إن القاضي استدلل بآيات ربما يستظهر منها دخول الأعمال في الإيمان، فقد أوضحنا مدليلها عند البحث عن عقائد المرجئة، فلا نطيل. ثم إن هناك اختلافاً بين نفس المعتزلة، فذهب أبو الهذيل إلى أن الإيمان عبارة عن أداء الطاعات، الفرائض و النوافل، واجتناب المقبّحات. وهو أيضاً خيرة القاضي. واختار الجبائيان أنه عبارة عن أداء الطاعات، الفرائض دون النوافل، واجتناب المقبّحات. وقد عرفت ضعف الكل عند البحث عن المرجئة. بقي هنا بحث وهو الاجابة عن الاستدلالات التي تمسك بها الخوارج على أن مرتكب الكبائر كافر. ونبحث عنها في الجزء (١) المختص بعقائدهم، فانتظر.

————— ١ . لاحظ الجزء الخامس من هذه الموسوعة.

(٤٢٦)

الأصل الخامس الأمر بالمعروف والنهي عن

الأصل الخامس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هذا هو الأصل الخامس من الأصول الخمسة. والأصول المتقدمة تتعلق بالنظر والاعتقاد بخلافه، فهو بالعمل الصق و على هذا الأصل بعث واصل بن عطاء وغيره دعواته إلى الأقطار المختلفة كما عرفته في ترجمته. ويبحث فيه عن المسائل التالية. ١- هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب أو لا؟ ٢- هل وجوبهما سمعي أو عقلي؟ ٣- ما هي شرائط وجوبهما؟ ٤- هل وجوبهما عيني أو كفاي؟ ٥- مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أمّا الأولى، فقد ذكر القاضي أنه لاختلاف بين الأمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا ما يحكى عن شردمة من الإمامية لا يقع بهم و بكلامهم اعتداد(١). يلاحظ عليه: أنه ماذا يريد من قوله «من الإمامية»؟ هل كلمة من تبعيضية أو بيائية؟ فإن كان الأول كما هو الظاهر، فلا نعرف تلك الشردمة من الإمامية، فإنهم عن بكره أبيهم مقتنون للكتاب والسنة، وصریح الكتاب و أحاديث العترة الطاهرة على ————— ١ . شرح الاصول الخمسة: ص ٧٤١.

(٤٢٧)

وجوبهما. فمن أراد فليرجع إلى جوامعهم الحديثية(١). ونكتفي برواية واحدة من عشرات الروايات. روى جابر بن عبد الله الأنصاري عن أبي جعفر الباقر - عليه السلام - أنه قال: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء و منهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض و تؤمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، و تعمّر الأرض، و ينتصف من الأعداء، و يستقيم الأمر»(٢). وإن كان الثاني، فهو غير صحيح. وهذه كتب الإمامية في الكلام والتفسير والفقهاء مشحونة بالبحث عن فروع المسألة بعد تسليم وجوبها. قال الشيخ المفيد (م ٤١٣هـ): «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان فرض على الكفاية بشرط الحاجة إليه، لقيام الحجّة على من لا علم لديه إلا بذكره أو حصول العلم بالمصلحة به أو غلبة الظنّ بذلك»(٣). وهذا المحقق الطوسي نصير الدين (م ٦٧٢هـ) يقول في «تجريد الاعتقاد»: «والأمر بالمعروف واجب، وكذا النهي عن المنكر. وبالمندوب مندوب»(٤). نعم، بعض مراتب الأمر بالمعروف كالجهاد الابتدائي مع العدو الكافر مشروط بوجود الإمام العادل. قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام - في كتابه إلى المأمون: «والجهاد واجب مع إمام عادل، ومن قاتل فقتل دون ماله ورحله و نفسه فهو شهيد»(٥). وقد استظهر بعض الفقهاء من هذا الحديث و غيره أن المراد هو الإمام المعصوم المنصوص على ولايته من جانب الله سبحانه بواسطة النبي. غير أن في دلالة الروايات على هذا الشرط نوع خفاء، بل عموم ولاية الفقيه في زمان الغيبة كاف في تسويغ ذلك ————— ١ . لاحظ: وسائل الشيعة، ج ١١، الباب الأول من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٣٩٣. ٢. المصدر السابق، الحديث السابع. ٣. أوائل المقالات: ص ٩٨. ٤. كشف المراد: ص ٢٧١، ط صيدا. ٥. الوسائل: ج ١١، الباب الثاني عشر من أبواب جهاد العدو، الحديث ١٠.

(٤٢٨)

للفقيه الجامع للشرائط (١). وأما سائر مراتب الأمر بالمعروف من الإنكار بالقلب والتذكير باللفظ والعمل باليد فسيأتى البحث عنه فى المسألة الخامسة. نعم، كان على القاضى أن يذكر خلاف الحنابلة والأشاعرة فى مجابهة الظالمومكافحته. قال إمام الحنابلة: «السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر». وقال الشيخ أبو جعفر الطحاوى الحنفى: «ولا نرى الخروج على أئمتنا ولا أمرنا، وإن جاروا، ولا ندعو على أحد منهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعات الله فريضة علينا ما لم يأمروا بمعصية» (٢). وهؤلاء يرون إطاعة السلطان الجائر، مع أن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ومن أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (٣). وروى أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (٤). ومع ذلك كله فقد نسي القاضى أن ينسب عدم وجوب الأمر بالمعروف والتبهي عن المنكر إلى هذه الجماهير، ونسبه إلى الإمامية وقد عرفت كيفية النسبة. والمسألة من الوضوح بمكان لا تحتاج معه إلى تكثير المصادر. وأما الثانية، فقد ذهب أبو على الجبائى إلى أن ذلك يعلم عقلاً. وقال ابنه أبو هاشم: «بل لا يعلم عقلاً إلا فى موضع واحد، وهو أن يرى أحدنا غيره يظلم أحداً فيلحقه بذلك غم، فإنه يجب عليه التبهي و دفعه، دفعاً لذلك الضرر الذى لحقه من ————— ١. جواهر الكلام: ج ٢١، ص ١٣ - ١٤. ٢. قد ذكرنا عبارات القوم فى وجوب طاعة السلطان الظالم فى الجزء الأول من كتابنا هذا. ٣. صحيح الترمذى، ج ٤، كتاب الفتن، الباب ١٤، ص ٤٧١، رقم الحديث ٢١٧٤. ٤. المصدر السابق، الباب ٨، رقم الحديث ٢١٦٨.

(٤٢٩)

الغم عن نفسه. فإما فيما عدا هذا الموضوع فلا يجب إلا شرعاً وقال القاضى: «وهو الصحيح من المذهب» (١). يلاحظ عليه: أن أبا هاشم يصور حياة الفرد منقطعة عن سائر الناس، فلأجل ذلك أخذ يستثنى صورة واحدة. ولو وقف على كيفية حياة الفرد فى المجتمع لحكم على الكل بحكم واحد، وذلك أن أعضاء المجتمع الواحد الذين يعيشون فى بيئته واحدة مشتركون فى المصير، فلو كان هناك خير لعم الجميع ولم يقتصر على فاعله، ولو كان هناك شرّ يشمل الجميع أيضاً ولم يختص بمرتكبه، ومن هنا يجب أن تحدّد تصرفات الأفراد فى المجتمع وتحدّد حرّياتهم بمصالح الأمة ولا تتخطأها. ولأجل ذلك يشبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم وحدة المجتمع بركاب سفينة فى عرض البحر إذا تهدّدها خطر تهدّد الجميع ولم يختص بأحد دون أحد. ولذلك لا يجوز لأحد ركبها أن يثقب موضع قدمه، بحجّه أنه مكان يختص به ولا يرتبط بالآخرين، لأنّ ضرر هذا العمل يعود إلى الجميع ولا يعود إليه خاصّة. روى البخارى عن التّعمان بن بشير أنه قال: سمعت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» (٢). وروى الترمذى نظيره فى سننه كتاب الفتن: روى جعفر بن محمّد عن آبائه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المعصية إذا عمل بها العبد سراً لم تضرّ إلا عاملها فإذا عمل علانية ولم يغيّر عليه أضرت بالعامّة» قال جعفر ————— ١. شرح الاصول الخمسة: ص ٧٤٢. ٢. صحيح البخارى: ج ٣، باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه، ص ١٣٩. المطبوع على النسخة الاميرية، ورواه الجاحظ فى البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٩.

(٤٣٠)

بن محمّد عليهما السلام -: وذلك أنه يذلّ بعمله دين الله و يقتدى به أهل عداوة الله (١) و بهذا يعرف قيمة كلام أبى هاشم حيث إنّه نظر إلى حقيقة المجتمع بنظرة فردية، ولأجل ذلك لم يقل بوجوب الأمر بالمعروف عقلاً إلا فى مورد واحد وهو ما إذا عرضه الغم من ظلم أحد أحداً، مع أنه لو كان هذا هو الملاك لوجب فى كثير من الموارد بنفس الملاك، غاية الأمر ربّما يكون الضرر مشهوداً و ربّما يكون مستوراً. ثمّ إنّ البحث عن وجوبه سمعياً أو عقلياً بحث كلامى لا صلة له بكتاب تاريخ العقائد، غير أننا إكمالاً للفائدة نأتى

بنكته وهي: أن الظاهر من القول بوجوب اللطف هو أن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقلي، وذلك لأن اللطف ليس إلا تقرب العباد إلى الطاعة وابتعادهم عن المعصية، ومن أوضح ما يحقق تلك الغاية هو الأمر بالمعروف بعامة مراتبه. غير أن المحقق الطوسي استشكل على وجوبهما عقلاً وقال: «لو كانا واجبين عقلاً، لزم ما هو خلاف الواقع أو الإخلال بحكمته». وأوضحه شارح كلامه العلامة الحلّي وقال: «إنهما لو وجبا عقلاً لوجبا على الله تعالى. فإن كل واجب عقلي يجب على كل من حصل في حقه وجه الوجوب، ولو وجبا عليه تعالى لكان إماماً فاعلاً لهما، فكان يلزم وقوع المعروف قطعاً، لأنه تعالى يحمل المكلفين عليه، وانتفاء المنكر قطعاً، لأنه تعالى يمنع المكلفين منه، وهذا خلاف ما هو الواقع في الخارج. وإما غير فاعل لهما فيكون مخالفاً بالواجب وذلك محال لما ثبت من حكمته تعالى» (٢). يلاحظ عليه: أن وجوبهما عقلاً لا يلزم وجوبهما على الله سبحانه بعامة مراتبه، لأنه لو وجب عليه بعامة مراتبه يلزم إخلال الغرض وإبطال التكليف. وهذا يصد العقل عن إيجابهما على الله سبحانه فيما لو استلزم الإلجاء والإخلال بالغرض،

_____ ١. الوسائل: ج ١١، كتاب الجهاد، الباب ٤ من أبواب الأمر بالمعروف، الحديث ٢.١. كشف المراد: ص ٢٧١، ط صيدا.

(٤٣١)

فيكتفى فيه بالتبليغ والانداز وغيرهما مما لا ينافي حرية المكلف في مجال التكليف. وإلى ذلك يشير شيخنا الشهيد الثاني بقوله: «لاستلزام القيام به على هذا الوجه (من وجوبه قولاً وفعلاً) الإلجاء الممتنع في التكليف، ويجوز اختلاف الواجب باختلاف محالّه، خصوصاً مع ظهور المانع، فيكون الواجب في حقه تعالى الانذار والتخويف بالمخالفة لئلا يبطل التكليف، والمفروض أنه قد فعل» (١). وأما الثالثة، وهي شرائط وجوبهما، فقد فصل في الكلام المتكلمون والفقهاء فقالوا: شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة: الأول: علم فاعلهما بالمعروف والمنكر. الثاني: تجويز التأثير، فلو عرف أن أمره ونهيه لا يؤثران لم يجب. الثالث: انتفاء المفسدة، فلو عرف أو غلب على ظنه حصول مفسدة له أو لبعض إخوانه في أمره ونهيه سقط وجوبهما دفعا للضرر (٢). وهناك شروط أخر لم يذكرها العلامة في كلامه. منها: الرابع: تنجز التكليف في حق المأمور والمنهي، فلو كان مضطراً إلى أكل الميتة لا تكون الحرمة في حقه منجزة، فلا يكون فعله حراماً ولا منكراً، وإن كان في حق الأمر والنهي منجزاً. وعلى كل تقدير فالشرط الثالث - أي عدم المفسدة - شرط في موارد خاصة لا مطلقاً. فربما يجب على الأمر والنهي تحمّل المضرة وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما إذا كان تركه لهما لغاية دفع المفسدة موجبا لخروج الناس عن الدين وتزلزلهم وغير ذلك مما أوضحنا حاله في أبحاثنا الفقهية (٣). وأما الرابعة، وهي كون وجوبهما عينيّاً أو كفايياً، فالأكثر على أنه كفاييّ، لأن _____ ١. الروضة البهية: ج ١، كتاب الجهاد، الفصل الخامس، ص ٢٦٢، الطبعة الحجرية. ٢. كشف المراد: ص ٢٧١، ط صيدا. ٣. لاحظ: رسالتنا الفقهية في التقيّة. فقد قلنا إن التقيّة ربّما تحرم إذا كان الفساد في تركها أوسع.

(٤٣٢)

الغرض شرعاً وقوع المعروف وارتفاع المنكر، من غير اعتبار مباشر معين، فإذا حصل ارتفاع الوجوب وهو معنى الكفاييّ. والاستدلال على كونه عينيّاً بالعمومات غير كاف كما حقق في محله. وأما الخامسة، أعني مراتبهما، فتبتدئ من القلب، ثم اللسان، ثم اليد وتنتهي بأجزاء الحدود والتعزيرات. قال الباقر - عليه السلام - : «فانكروا بقلوبكم، ولفظوا بألستكم، وصبّوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم» (١). وعلى هذا يصبح الأمر بالمعروف على قسمين: قسم لا يحتاج إلى جهاز و قدرة، وهذا ما يرجع إلى عامة الناس. وقسم يحتاج إلى الجهاز والقوة ويتوقف على صدور الحكم، وهذا يرجع إلى السلطة التنفيذية القائمة بالدولة الإسلامية بأركانها الثلاثة. وقد بسط الفقهاء الكلام في بيان مراتبهما. فمن لاحظ الروايات وكلمات الفقهاء يقف على أن بعض المراتب واجب على الكل والبعض الآخر يجب على أصحاب القوة والسلطة. إلى هنا تمّ البحث عن الأصول الخمسة للمعتزلة، وبقي هنا بحوث نجعلها خاتمة المطاف.

_____ ١. الوسائل: ج ١١، كتاب الجهاد، الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف، الحديث ١.

(٤٣٣)

خاتمة المطاف

خاتمة المطاف

الأول: تحليل بعض ما رمى به مشايخ المعتزلة من الانحلال الأخلاقي، فإن في ذلك توضيحاً للحق، بل دفاعاً عنه. الثاني: تبين تاريخ المعتزلة من حيث تدرجهم من القدرة إلى الضعف، وذلك بحث تاريخي يهمننا من بعض الجهات، وسيظهر في طيات البحث. الثالث: الآثار العلمية الباقية من المعتزلة. ١ - دفاع عن الحق

الاعتزال ظهر في أوساط المسلمين بطابعه العقلي لتحقيق العقائد الإسلامية، ودعمها على ضوء الدليل والبرهان. فكانوا يدافعون عنها حسب طاقاتهم الفكرية، يشهد بذلك حياة مشايخهم وأئمتهم وتلاميذهم. ولعلّ تصلبهم في المناظرة، وعدم التسكوت في مقابل الملاحدة وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، لأجل عنايتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى صار ذلك أحد أصولهم التي بها يتميزون عن غيرهم، وقد عرفت نماذج من مناظراتهم مع المخالفين فلا نعيد. ولم يكن دفاعهم عن الإسلام منحصرًا بالمناقشات اللفظية، بل كانوا يستعملون القوة إذا أُتيح لهم ذلك. مثلاً: إن بشار بن برد كان متهمًا بالالحاد، فهده واصل بالقتل، ولم يكتف بذلك حتى نفاه من البصرة، فذهب إلى حران وبقي فيها إلى أن توفي واصل ثم عاد إلى البصرة. (٤٣٤)

وفي ذلك يقول صفوان الأنصاري مخاطباً لبشار: كأنك غضبان على الدين كله * وطالب دخل لا بيت على حقد رجعت إلى الأمصار من بعد واصل * وكنت شريراً في التهام والتجد (١) ومن مظاهر دعمهم لأصول العقائد الإسلامية ومكافحة التجسيم والتشبيه هو أن واصل بن عطاء بعث تلاميذه إلى الأطراف والأكناف لتبليغ رسالة التنزيه ورفض التشبيه، وقد أتينا بأسماء المبعوثين في ترجمته (٢). وروى عمر الباهلي أنه قرأ الجزء الأول من كتاب «الألف مسألة في الرد على المانوية» لواصل، كان فيها ثيف و ثلاثون مسألة، وهو الذي أوفد حفص بن سالم إلى خراسان، فناظر جهم بن صفوان وقطعه وجعله يرجع إلى القول الحق. وعلى ذلك درج أصحاب واصل وتلاميذه من بعده (٣). وتبع واصلاً وعمرو بن عبيد، أبو الهذيل العلاف وقد قرأت في ترجمته بعض مناظراته. ولا تنس ما ذكرناه في ترجمته «معمربن عباد» وقد بعثه الرشيد إلى مناظرة السمني، وهو يدل على أن المعتزلة كانوا هم المتحمسين للمناظرة بين أهل السنة، وأما غيرهم فلا يملكون في مقام المناظرة سوى القول بأن البحث حرام. هذا هو القاضي عبد الجبار قد قام في وجوه الملحدين والشاكين في إعجاز القرآن، فألف كتابه «تنزيه القرآن عن المطاعن» و كتاباً آخر في نبوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أسماء «تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم» قال محقق كتاب «شرح الأصول الخمسة» بأنه أعده للطبع. ١ - البيان والتبيين: ج ١، ص ٢٥. ٢ - المنية والامل: ص ٢٠، ط تومارنلد. ٣ - المنية والامل: ص ٢١.

(٤٣٥)

ونحن إذا قرأنا في حياتهم هذه البطولات الفكرية والعملية، يشكل علينا قبول ما نسبته إليهم أعداؤهم من المجون والانحلال الأخلاقي. لا أقول إن كل عالم معتزلي، عادل لا يعصى ولا يخطأ، غير أن الكلام في أن تنزيه طائفة خاصية كالحنابلة والأشاعرة، ورمي طائفة أخرى بضده، مما لا يؤيده الإنصاف، فلو قلنا إنما حكمهم حكم سائر الطوائف الإسلامية حيث في كل طائفة ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخير (١) لكان أقرب إلى الواقع والحقيقة. ولأجل إيقاف القارئ على بعض ما رميت به تلك الطائفة نذكر ما يلي: ما زلت آخذ روح الزق في لطف * وأستبيح دماً من غير مجروح حتى انثيت ولي روحان في جسد * و الزق منطرح جسم بلا روح (٢) ١ - روى ابن قتيبة أن النظام كان يغدو على سكر ويروح على سكر و يبيت على حرائرها، ويدخل في الأذناس و يرتكب الفواحش والشائعات، وله في الشراب شعر. ٢ - نقل البغدادي عن كتاب «المضحك» للجاحظ، أن المأمون ركب يوماً فرأى ثمامة سكران قد وقع على الطين، فقال المأمون له: ألا تستحيي؟ قال: لا والله. قال: عليك لعنة الله. قال ثمامة: تترى ثم تترى (٣). ٣ - وذكر

أيضاً أن أبا هاشم الجبائي كان أفسق أهل زمانه و كان مصرّاً على شرب الخمر وقيل: إنه مات في سكره حتى قال فيه بعض المرجئة: يعيب القول بالإرجاء حتى * يرى بعض الرجاء من الجرائر وأعظم من ذوى الارغاء جرماً * وعيدى أصرّ على الكبائر (٤) _____ ١. اقتباس من قوله سبحانه: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات)(فاطر / ٣٢). ٢. تأويل مختلف الحديث: ص ١٨. ٣. الفرق بين الفرق: ص ١٧٣. ٤. المصدر السابق: ص ١٩١. (٤٣٦)

يلاحظ عليه: أن ابن قتيبة والبغدادى تفرّدا في نقل هذه النقول والنسب، وأمّا غيرهما من الأشاعرة فنزّهوا أقلامهم عن ذكرها، ولو كانت لهذه النسب مسحة من الحقّ أو لمسة من الصّدق لما تورّعوا عن ذكرها، على أن من سبر كتاب «الفرق بين الفرق» للبغدادى يرى فيه قسوة عجيبة في حقّ الطوائف الإسلامية لا سيما المعتزلة. وعلى ذلك، فما أحسن قول القائل إذا تمثّل به في حقّ هذه الطائفة: حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه * فالكلّ أعداء له و خصوم كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسداً و بغياً إنه لدميم (١) (ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان)(الحشر/١٠) المعتزلة من القوّة إلى الضّعف

إن فكرة الاعتزال كانت فكرة بدائية، ونبته غرسها واصل بن عطاء في أوائل القرن الثانى، وأخذت تتكامل عن طريق تلاميذه و بعض زملائه كعمرو بن عبيد. وقد كان له تأثير في بدء ظهورها إلى أن استطاع أن يستجلب إليه بعض الخلفاء الأمويين المتأخرين، كيزيد بن وليد بن عبد الملك (م ١٢٦هـ)، ومروان بن محمّد بن مروان آخر خلفائهم (م ١٣٢هـ)، حيث اشتهر أن الأخير كان يقول بخلق القرآن و نفى القدر (٢). ولما اندلعت نيران الثورات ضدّ الأمويين، وقضت على خلافة تلك الطغمة الأثيمة، لمع نجم المعتزلة في عصر أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) وقد عرفت في ترجمة عمرو بن عبيد وجود الصلة الوثيقة بينه و بين المنصور. ولما هلك المنصور، أخذ المهدي ابنه زمام الحكم، ولم ير للمعتزلة في زمنه أى نشاط يذكر، خصوصاً أن المهدي كان شديداً على أصحاب الأهواء، حسب ما يقولون. _____ ١. الشعر لأبى الأسود الدؤلى صاحب الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - راجع ملحق ديوانه. ٢. الكامل لابن الاثير: ج ٤، ص ٣٣٢ قال: «وكان مروان يلقب بالحمار، والجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك.

(٤٣٧)

روى الكشى عن محمّد بن عيسى بن عبيد، عن يونس، عن هشام ... أنه لما كان أيام المهدي، شدّد على أصحاب الأهواء، وكتب له ابن المفضل صنوف الفرق، صنفاً صنفاً، ثم قرأ الكتاب على الناس، فقال يونس: «قد سمعت الكتاب يقرأ على الناس على باب الذهب بالمدينة، مرّة أخرى بمدينة الوضاح» (١). وبما أن أهل الحديث كانوا يشكّلون الأكثرية الساحقة، فيكون المراد من أصحاب الأهواء الذين شدّد عليهم المهدي، غيرهم من سائر الفرق فيعمّ المعتزلة و المرجئة و المحكّمة و الشيعة و غيرهم. ولأجل ذلك لم ير أى نشاط للمعتزلة أيامه، حتى مضى المهدي لسيله، و جاء عصر الرّشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) فيحكى التاريخ عن وجود نشاط لهم في أيامه، حتى أنه لم يوجد في عصره من يجادل السمنية غيرهم (٢) ومع ذلك لم يكن الرّشيد يفسح المجال للمتكلّمين. يقول ابن المرتضى: «وكان الرّشيد نهى عن الكلام، وأمر بحبس المتكلّمين» (٣). نعم ابتسم الدهر للمعتزلة أيام المأمون، لأنه كان متعظشاً إلى العلم و التعقل، والبحث و الجدل، فترى في عصره أن رجال المعتزلة يتصلون ببلاطه، وكان لهم تأثير كبير في نفسيته. يقول الطبرى: «وفى هذه السنّة (٢١٢هـ) أظهر المأمون القول بخلق القرآن و تفضيل على بن أبى طالب - عليه السلام - وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم وذلك في شهر ربيع الأوّل (٤) و لما استفحلت دعوة المحدّثين إلى قدم القرآن و اشتدّ أمرهم كتب المأمون عام (٢١٨هـ) إلى إسحاق بن إبراهيم في امتحان القضاء و المحدّثين، _____ ١. رجال الكشى: ترجمة هشام بن الحكم، الرقم ١٣١، ص ٢٢٧. ولعل هذا الكتاب أوّل كتاب ألّف في الملل و النحل بين المسلمين. ٢. لاحظ: طبقات المعتزلة، لابن المرتضى، ص ٥٥. ٣. طبقات المعتزلة، لابن المرتضى، ص ٥٦. ٤. تاريخ الطبرى: ج ٧، ص ١٨٨، حوادث سنة ٢١٢.

(٤٣٨)

ومما جاء في تلك الرسالة: فاجمع من حضررتك من القضاء، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، و تكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن و إحدائه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله و استحفظه من أمور رعيته، بمن لا يوثق بدينه و خلوص توحيده و يقينه، فإذا أقرؤا بذلك و وافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والتجاء، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، و ترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاء أهل عملك في مسألتهم و الأمر لهم بمثل ذلك. ثم أشرف عليهم و تفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين و الإخلاص للتوحيد و اكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله، و كتب في شهر ربيع الأول سنة (٢١٨هـ) «١». رسالة ثانية من المأمون في إشخاص سبعة نفر إليه

ثم إن المأمون كتب إلى إسحاق بن إبراهيم رئيس الشرطة في بغداد أن يشخص إليه سبعة نفر من المحدثين. منهم: ١ - محمد بن سعد كاتب الواقدي ٢ - أبو مسلم، مستملى يزيد بن هارون ٣ يحيى بن معين ٤ - زهير بن حرب أبو خثيمة ٥ - إسماعيل بن داود ٦ - إسماعيل بن أبي مسعود ٧ - أحمد بن الدورقي، فامتنعهم المأمون و سألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السيلام و أحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهّر أمرهم و قولهم بحضرة الفقهاء و المشايخ من أهل الحديث، فأقرؤا بمثل ما _____ ١ . تاريخ الطبري: ج ٧ ص ١٩٧، حوادث سنة ٢١٨.

(٤٣٩)

أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم. فقد فعل ذلك إسحاق بن إبراهيم بأمر المأمون. رسالة ثالثة للمأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ثم إن المأمون كتب بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم رسالة مفصلة و ممّا جاء فيه: «ومما بينه أمير المؤمنين برويته و طالعه بفكره، فتبين عظيم خطره و جليل ما يرجع في الدين من وكفه و ضرره، ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم. و أثراً من رسول الله و صفته محمد - صلى الله عليه و آله - باقياً لهم و اشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم و تزين في عقولهم أن لا يكون مخلوقاً، فتعرضوا لذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه، و تفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته، وأنشأها بقدرته، والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولها ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه خلقاً من خلقه و حدثاً هو المحدث له، وإن كان القرآن ناطقاً به ودالاً عليه و قاطعاً للاختلاف فيه وضاهوا به قول النصاري في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله. والله عز وجل يقول: (إننا جعلناه قرآناً عربياً) و تأويل ذلك أنا خلقناه كما قال جل جلاله: (وجعل منها زوجاً ليسكن إليها) وقال: (وجعلنا الليل لباساً و جعلنا النهار معاشاً) و (جعلنا من الماء كل شيء حي) فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شيء الصنع و أخبر أنه جاعله وحده فقال: (إنه لقرآن مجيد* في لوح محفوظ) فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لبيته: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وقال: (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقال: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) و أخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) فسمى الله تعالى القرآن قرآناً (٤٤٠)

و ذكراً و إيماناً و نوراً و هدى و مباركاً و عربياً و قصصاً فقال: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) و قال: (قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) و قال: (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) و قال: (لا- يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه) فجعل له أولاً و آخراً، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق، وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن التلم في دينهم والحرص في أمانتهم، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والاحاد على قلوبهم حتى عرفوا و وصفوا خلق الله و فعله بالصيغة التي هي لله وحده و شبيهه به، والأشباه أولى بخلقهم وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة خطأ في

الذين ولا نصيباً من الإيمان واليقين... إلى أن قال: فقرأ على جعفر بن عيسى وعبدالرحمن بن إسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصصهما عن علمهما في القرآن وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق. فإن قالوا: بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما في الشهادات على الحقوق ونصهم عن قولهم في القرآن، فمن لمن يقل منهم إنه مخلوق أبطلاً شهادته ولم يقطعاً حكماً بقوله وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره، وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاء وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ويمنع المرتاب من إغفال دينه واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله» (١). دعوة المحدثين والقضاء لسماع كتاب الخليفة

ولما جاءت الرسالة الثالثة إلى إسحاق بن إبراهيم، أحضر لفيلاً من المحدثين منهم ١- أبو حسان الزيادي، ٢- وبشر بن وليد الكندي، ٣- وعلي بن أبي مقاتل، ١. تاريخ الطبري: ج ٧، ص ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠، حوادث سنة ٢١٨. (٤٤١)

٤- الفضل بن غانم، ٥- والذبال بن الهيثم، ٦- وسجادة، ٧- والقواريري، ٨- وأحمد بن حنبل، ٩- وقتيبة، ١٠- وسعدويه الواسطي، ١١- وعلي بن الجعد، ١٢- وإسحاق بن أبي إسرائيل، ١٣- وابن الهرش، ١٤- وابن عليّة الأكبر، ١٥- ويحيى بن عبدالرحمان العمري، ١٦- وشيخاً آخر من ولد عمر بن الخطاب، كان قاضي الرقة، ١٧- وأبو نصر التمار، ١٨- وأبو معمر القطيعي، ١٩- ومحمد بن حاتم بن ميمون، ٢٠- ومحمد بن نوح المضروب، ٢١- وابن الفرخان، ٢٢- والنضر بن شمیل، ٢٣- وابن علي بن عاصم، ٢٤- وأبو العوام البزاز، ٢٥- وابن شجاع، ٢٦- وعبدالرحمان بن إسحاق. فقرأ عليهم رسالة المأمون مرتين حتى فهموه، ثم سأل كل واحد عن رأيه في خلق القرآن. فوجد في الأجوبة عتياً وغباءً، لا يتطلبون الحق. وإليك نصّ محاوره إسحاق مع بعض هؤلاء. ١- إسحاق بن إبراهيم، مخاطباً بشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ بشر: القرآن كلام الله. إسحاق: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو، قال الله: (خالق كل شيء) ما القرآن شيء؟ بشر: هو شيء. إسحاق: فمخلوق؟ بشر: ليس بخالق. إسحاق: ليس أسألك عن هذا، أمخلوق هو؟ بشر: ما أحسن غير ما قلت لك، وقد استعهدت أمير المؤمنين أن لا أتكلّم فيه، وليس عندي غير ما قلت لك. محاورته مع علي بن أبي مقاتل إسحاق بن إبراهيم: القرآن مخلوق؟ (٤٤٢)

علي بن أبي مقاتل: القرآن كلام الله. إسحاق: لم أسألك عن هذا. ابن أبي مقاتل: هو كلام الله. محاورته مع أبي حسان الزيادي إسحاق: القرآن مخلوق هو؟ أبو حسان: القرآن كلام الله، والله خالق كل شيء، وما دون الله مخلوق، وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامية العلم، وقد سمع ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، وقد قلّمه الله أمرنا، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدى إليه زكاة أموالنا، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة، وإن أمرنا ائتمرنا، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا. إسحاق: القرآن مخلوق هو؟ أبو حسان: (أعاد كلامه السابق). إسحاق: إن هذه مقالة أمير المؤمنين. أبو حسان: قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها، وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول، قلت ما أمرتني به، فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه. إسحاق: ما أمرني أن أبلغك شيئاً. قال «علي بن أبي مقاتل: قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها». أبو حسان: ما عندي إلا السمع والطاعة، فمرني أتمم. إسحاق: ما أمرني أن أمرك وإنما أمرني أن أمتحنك. محاورته مع أحمد حنبل إسحاق: ما تقول في القرآن؟ (٤٤٣)

أحمد: هو كلام الله. إسحاق: أمخلوق هو؟ أحمد: هو كلام الله، لا أزيد عليها. إسحاق: (قرأ عليه رقعة وفيها: أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه). فلما أتى إسحاق إلى قوله: «ليس كمثل شيء وهو السميع البصير» (١)، وأمسك عن قوله: «لا يشبهه شيء، من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه»، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر (٢) فقال: أصلحك الله، إنه (أحمد) يقول: سميع من اذن، بصير من عين. فقال إسحاق: ما

معنى قوله سمع بصير؟ أحمد: هو كما وصف نفسه. إسحاق: فما معناه؟ أحمد: لا أدري، هو كما وصف نفسه. ثم إن إسحاق دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقولون: القرآن كلام الله إلا هؤلاء النفرة: قتيبة وعبيد الله بن محمد بن الحسن، وابن عليه الأكبر، وابن البكاء، وعبد المنعم بن إدريس، والمظفر بن مرجا، ورجلاً ضريباً ليس من أهل الفقه ولا يعرف بشيء منه إلا أنه دس في ذلك الموضع، ورجلاً من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة، وابن الأحمر. فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال: القرآن مجعول لقول الله تعالى: (إننا جعلناه قرآناً عربياً) والقرآن محدث لقوله: (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث). قال له إسحاق: فالمجعول مخلوق؟ قال: نعم.

_____ ١. سقط قوله: «ليس كمثل شيء وهو السميع البصير» من الرقعة التي نقلها ص ٢٠٠ ولكن نقله ص ٢٠١. ٢. في المصدر «أصغر» والصحيح ما أثبتناه.

(٤٤٤)

قال إسحاق: فالقرآن مخلوق؟ قال: لا أقول مخلوق، ولكنه مجعول، فكتب مقاله. فلما فرغ من امتحان القوم و كتبت مقالاتهم رجلاً رجلاً و وجهت إلى المأمون، فمكث القوم تسعة أيام ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمر هؤلاء. الرسالة الرابعة للمأمون إلى إسحاق

كتب المأمون في جواب رسالته كتاباً مفصلاً نأخذ منها ما يلي: «أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك، جواب كتابه كان إليك فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة و ملتسمو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملّة من القول في القرآن و أمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم و تكشيف أحوالهم و إحلالهم محالهم». ثم تكلم المأمون في حق الممتنعين عن الاعتراف بكون القرآن مخلوقاً و الرسالة مفصلة (١) و الملقّت للنظر فيها أمران: الأول: أمر المأمون رئيس الشرطة بضرب عنق بشر بن الوليد، و إبراهيم المهدي إذا لم يتوبا بعد الاستتابة، و حمل الباقيين موتقين إلى عسكر أمير المؤمنين و تسليمهم إلى من يؤمن بتسليمهم إليه لينصّهم أمير المؤمنين، فإن لم يرجعوا و يتوبوا حملهم جميعاً على السيف. الثاني: تذكّر بعض أفعال الممتنعين بالاعتراف بخلق القرآن، بوجه يعرب أنّهم لم يكونوا أهل صلاح و فلاح، بل كانوا من مقترفي المعاصي نقتطف منها ما يلي: «وأما الذّيال بن الهيثم فأعلمه أنّه كان في الطّعام الذي كان يسرقه في الأنبار، و فيما يستوى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله و أنّه لو كان مقتفياً _____ ١. لاحظ تاريخ الطبري ٧: ٢٠٢-٢٠٣.

(٤٤٥)

آثار سلفه و سالكاً مناهجهم و مهتدياً سبيلهم لما خرج إلى الشّرك بعد إيمانه. و أمّا أحمد بن حنبل و ما تكتب عنه فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة و سبيله فيها و استدللّ على جهله و آفته بها. و أمّا الفضل بن غانم فأعلمه أنّه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، و ما اكتسب من الأموال في أقلّ من سنة، و ما شجر بينه و بين المطّلب بن عبد الله في ذلك، فإنّه من كان شأنه شأنه، و كانت رغبته في الدنيا و الدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما و إثارةً لعاجل نفعهما. و أمّا الزّيادي فأعلمه أنّه كان متحلاً، و لا أول دعوى كان في الإسلام خولف فيه حكم رسول الله و كان جديراً أن يسلك مسلكه. و أمّا الفضل بن الفرخان فأعلمه أنّه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق و غيره تربصاً بمن استودعه و طمعاً في الاستكثار لما صار في يده و لا سبيل عليه عن تقادم عهده و تطاول الأيام به. و أمّا محمد بن حاتم و ابن نوح و المعروف بأبي معمر فأعلمهم أنّهم مشاغل بأكل الرّبا عن الوقوف على التوحيد، و إنّ أمير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتهم في الله و مجاهدتهم إلا لإربائهم و ما نزل به كتاب الله في أمثالهم لاستحلّ ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً و صاروا للنصارى مثلاً. ثم وقع في الوقعة في كلّ واحد من الممتنعين ما يشتمّر القلم من نقله، فلو كانت تلك النسب على وجهها فويل لهم مما كسبت أيديهم من عظام المحرّمات و ما كسبت قلوبهم من الشّرك (١). فلما وصل كتاب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم دعا القوم و قرأ عليهم كتاب المأمون، فأجاب القوم الممتنعون كلهم، و اعترفوا بأنّ القرآن مخلوق إلا أربعة نفر منهم _____ ١. تاريخ

الطبرى: ٧/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٤٤٦)

أحمد بن حنبل، وسجادة، والقواريرى، ومحمد بن نوح المضروب، فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا في الحديد. فلما كان من الغد دعا بهم جميعاً يساقون في الحديد فأعاد عليهم المحنة فأجابهم سجادة إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده و خلى سبيله وأصر الآخرون على قولهم. فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضاً فأعاد عليهم القول، فأجاب القواريرى إلى أن القرآن مخلوق فأمر بإطلاق قيده و خلى سبيله، وأصر أحمد بن حنبل و محمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا فشدوا جميعاً في الحديد و وجّها إلى طرسوس و كتب معهما كتاباً يشخصهما. ثم لما اعترض على الزاجعين من عقيدتهم بزور عملهم بعمل عمّار بن ياسر حيث أكره على الشرك و قلبه مطمئن بالإيمان(١) و قد كتبت تأويلهم إلى المأمون، فلأجل ذلك ورد كتاب مأمون بأنه قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم إليه، وأن بشر بن الوليد تأول الآية التي أنزل الله تعالى في عمّار بن ياسر وقد أخطأ التأويل إنما عنى الله عزوجل بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر الشرك، فأما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له، فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الرّوم. فأخذ إسحاق بن إبراهيم من القوم الكفلاء ليؤافوا بالعسكر بطرسوس، فأشخص كل من ذكرنا أسماءهم، فلما صاروا إلى الرّقة بلغتهم وفاة المأمون، فأمر بهم عنسبة بن إسحاق - وهو والى الرّقة - إلى أن يصيروا إلى الرّقة، ثم أشخصهم إلى إسحاق بن إبراهيم بمدينة السلام (بغداد) مع الرسول المتوجه بهم إلى أمير المؤمنين، فسلمهم إليه فأمرهم إسحاق بلزوم منازلهم ثم رخص لهم ذلك في الخروج(٢). وما ذكرناه هو خلاصة محنة أحمد و من كان على فكرته في زمن المأمون وليس فيه _____ ١ . إشارة الى قوله سبحانه (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (النمل / ١٠٦). ٢ . تاريخ الطبرى: ج ٧، ص ١٩٥ إلى ٢٠٦ بتلخيص منا.

(٤٤٧)

إلا إشخاص أحمد و محمد بن نوح موثقين في الحديد إلى طرسوس و إشخاص غيرهما مطلقين، ولما بلغهم وفاة المأمون رجعوا من الرّقة ولم يسيروا إلى طرسوس. هذا وقد ذكر القصة اليعقوبى بصورة مختصرة و قال: «وصار المأمون إلى دمشق سنة (٢١٨هـ) و امتحن الناس في العدل والتوحيد و كتب في إشخاص الفقهاء من العراق و غيرها فامتحنهم في خلق القرآن و أكفر من امتنع أن يقول - : القرآن غير مخلوق، و كتب أن لا تقبل شهادته، فقال كل بذلك إلا نفرأ يسيراً(١). هذا تفصيل المحنة أيام المأمون، وأما ما وقع في أيام الخلفيتين: المعتصم والواثق، فسوافيك بيانه بعد تعليقتنا. تعليق على محنة خلق القرآن

إن هنا أموراً لا بد من الإلفات إليها: ١ - لم يظهر من كتب الخليفة إلى صاحب الشرطه وجه إصراره على أخذ الاعتراف من المحدثين بخلق القرآن. فهل كان الحافظ إخلاصه للتوحيد، و صموده أمام الشرك، أو كان هناك مرمى آخر لإثارة هذه المباحث، حتى ينصرف المفكرون بسبب الاشتغال بهذه المباحث عن نقد أفعالهم و انحرافاتهم، وبالتالي إيقاف الثورة أو إضمارها. فإن القلوب إذا اشتغلت بشيء، منعت عن الاشتغال بشيء آخر. ٢ - لو كانت الرسالة مكتوبة بيد الخليفة أو باملائه، فهي تحكى عن عمق تفكيره في المباحث الكلامية، وإحاطته بأكثر الآيات و قد جاء في المقام بأسد الدلائل و أتقنها، حيث استدلت تارة بتعلق الجعل بالقرآن، وأخرى بإحاطة اللوح المحفوظ به، ولا يحاط إلا بمخلوق، وثالثة بتوصيفه ب«محدث»، و رابعة بتوصيفه بصفات كلها صفات _____ ١ . تاريخ اليعقوبى: ج ٢، ص ٤٦٨، ط دار صادر.

(٤٤٨)

المخلوق من تعلق النزول به ونهى النبي عن العجلة بقرائه، والدعوة إلى الاتيان بمثله، وأن له أماماً و خلفاً، إلى غير ذلك. ٣ - إن الرسالة كشفت القناع عن السبب الذى أدخل هذه المسألة في أوساط المسلمين، و قال: «إن القائلين بقدم القرآن يضاهنون قول النصارى في أن المسيح كلمة وليس بمخلوق»، وهو يعرب عن أن الفكرة دخلت إلى أوساط المسلمين بسبب احتكاك المسلمين

بهم. وما يقال من أن اليهود هم المصدر لدخول هذه الفكرة بينهم غير تامّ والمأمون أعرف بمصدر هذه الفكرة. ٤ - لو صحّ ما ذكره الطبري من صورة المحاورة التي دارت بين رئيس الشرطة والمحدثين، فإنه يكشف عن جمود المجيبين وغيثهم في الجواب، فإنهم اتفقوا على أن القرآن ليس بخالق، ولكنهم امتنعوا عن الاعتراف بأنه مخلوق، وبالتالي جعلوا واسطة بين الخالق والمخلوق أو بين النفي والاثبات، وهو كما ترى. ولو كان عذرهم في عدم الاعتراف بأن القرآن مخلوق، هو الخوف من أن يكون هذا الاعتراف ذريعاً للملاحدة حتى ينسبوا إلى المسلمين بأنهم يقولون إن القرآن مخلوق أي مخلوق أو مزور أو مخلوق للبشر، فيمكن التخلص منه بالتصريح بأنه مخلوق لله سبحانه لا غير، والله هو خالقه و جاعله ليس غير. ٥ - لا شك أن عمل الخليفة كان أشبه بعمل محاكم التفتيش في القرون الوسطى حيث كان البابا والبطاركة والقساوسة، يتحرّون عقائد الناس لا سيما المكتشفين أمثال غاليليو، وكان ذلك و صمه عار على حياة الخليفة و بالتالي على المعتزلة الذين كان الخليفة يلعب بحبالهم، ويلحقهم وزر أعماله، وما يترك في المجتمع من رد فعل سيئ. ومن المعلوم أن أخذ الاعتراف بكون القرآن مخلوقاً في جو رهيب، لا يوافق تعاليم المعتزلة، كما لا يوافق تعاليم الإسلام، على أنه لا قيمة لهذا الاعتراف عند العقل و الثقل فكيف رضى القوم بهذا العمل. ٦ - العجب من تلوّن الخليفة في قضائه في حقّ الممتنعين عن الاعتراف بخلق (٤٤٩)

القرآن، فيرى أن بشر بن الوليد، وإبراهيم المهدي مستحقان لضرب العنق إذا استتبيا ولم يتوبا، والباقيين مستحقون للإشخاص إلى عسكره، مع أن الجرم واحد، والكل كانوا محدّثين فهاء، ولم يكن الأولان قائدي الشرك، والباقيون مقتفيه. فلو كان القول بعدم خلق القرآن أو قدمه موجباً للردة والرجوع إلى الشرك فالحكم الإلهي هو القتل وإلا فلا، وهذا يعرب عن أن جهاز القضاء كان أداء طيعه بأيدي الخلفاء، يستغلونه حسب أهوائهم. ٧ - إن محنة القائمين بعدم خلق القرآن، تمت في زمن الخليفة المأمون بالإشخاص والإبعاد من دار السلام إلى طرسوس. غير أن التاريخ يذكر إشخاص اثنين موثّقين إلى عسكر الخليفة، وإشخاص الباقيين بلا قيود ولا ضرب ولا قتل إلى الخليفة. ولم يحدث التاريخ هنا عن ضرب و قتل. ولكن المحنة لم تنته بموت المأمون، بل استمرت في خلافة أخيه المعتصم، فالواق ابنه ولكن بصورة سيئة، حدث عنها التاريخ. قضى المأمون نحبه وجاء بعده أخوه المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) فضيق الأمر على القائمين بعدم خلق القرآن. يقول اليعقوبي: «وامتحن المعتصم أحمد بن حنبل في خلق القرآن، فقال أحمد: أنا رجل علمت علماً ولم أعلم فيه بهذا، فأحضر له الفقهاء و ناظره عبدالرحمان بن إسحاق و غيره، فامتنع أن يقول إن القرآن مخلوق، فضرب عدّة سياط. فقال إسحاق بن إبراهيم: ولئي يا أمير المؤمنين مناظرته فقال: شأنك به. إسحاق بن إبراهيم: هذا العلم الذي علمته نزل به عليك ملك أو علمته من الرجال؟ ابن حنبل: علمته من الرجال. إسحاق: علمته شيئاً بعد شيء أو جملة؟ ابن حنبل: علمته شيئاً بعد شيء. (٤٥٠)

إسحاق: فبقى عليك شيء لم تعلمه؟ ابن حنبل: بقى عليّ. إسحاق: فهذا ممّا لم تعلمه وقد علمك أمير المؤمنين. ابن حنبل: فإني أقول بقول أمير المؤمنين. إسحاق: في خلق القرآن؟ ابن حنبل: في خلق القرآن. فأشهد عليه و خلع عليه و أطلقه إلى منزله (١). هذا ما كتبه ذلك المؤرخ المتوفى (عام ٢٩٠هـ). وأما الطبري فلم يذكر في حياة المعتصم ما يرجع إلى مسألة خلق القرآن. وقال المسعودي: «وفيها (سنة ٢١٩هـ) ضرب المعتصم أحمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطاً ليقول بخلق القرآن» (٢). نعم ذكر الجزري في كامله في حوادث سنة (٢١٩هـ) و قال: «وفيها أحضر المعتصم أحمد بن حنبل و امتحنه بالقرآن، فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلدًا عظيمًا حتى غاب عقله و تقطع جلده و حبس مقيداً» (٣). وروى الجاحظ أنه لم يكن في مجلس الامتحان ضيق، ولا كانت حاله حالاً مؤسماً، ولا كان مثقلاً بالحديد، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد، ولقد كان ينازع بألين الكلام و يجب بأغلظ الجواب و يرزنون و يخفّ و يحلمون و يطيش» (٤). هذا ولكن المتحيزين إلى الحنابلة يذكرون المحنة بشكل فظيع. هذا أبو زهرة قد لخص مقالهم بقوله: «وقد تبين أن أحمد بن حنبل كان مقيداً مسوقاً عند ما مات المأمون، فأعيد إلى _____ ١. تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٤٧٢. ٢. مروج الذهب: ٣/٤٦٤ ط دار الاندلس. ٣. الكامل، ج ٥، ص ٢٣٣. ٤. الفصول المختارة على هامش الكامل للمبرد: ج ٢، ص ١٣٩.

السجن ببغداد حتى يصدر في شأنه أمر، ثم سيق إلى المعتصم و اتخذت معه ذرايع الاغراء و الارهاب، فما أجدى في حمله ترغيب و لا ترهيب، فلما لم يجد القول رغباً و رهباً، نفذوا الوعيد فأخذوا يضربونه بالسياط، المرة بعد الأخرى، ولم يترك في كل مرة حتى يغمى عليه و ينخس بالسيف فلا يحس. فتكرر ذلك مع حبسه نحواً من ثمانية و عشرين شهراً فلما استياسوا منه و ثارت في نفوسهم بعض نوازع الرحمة أطلقوا سراحه و أعادوه إلى بيته و قد أثخنه الجراح و أثقله الضرب المبرح المتوالي و الالقاء في غيابات السجن» (١). و ليس لما ذكره أبو زهرة مصدر سوى «مناقب الامام أحمد بن حنبل» للحافظ أبي الفرج عبدالرحمان بن الجوزي و من تبعه مثل الحافظ ابن كثير في «البدایة و النهایة» (٢). و الناظر في هذين الكتابين يرى تحيزهما لأحمد بن حنبل و أنهما يريدان نحت الفضائل له و عند ما قصرت أيديهما عنها لجأوا إلى المنامات، فلا يمكن الاعتماد عليهما فيما يرويان من التفاصيل في هذه المحنة. و قد عرفت التضارب في التاريخ بين قائل بأن أحمد رجع عن رأيه أثناء الضرب كاليقوبي، و قائل بأنه بقي على إنكاره. محنة خلق القرآن و الواثق قضى المعتصم نحبه و خلفه ابنه الواثق (٢٢٣ - ٢٢٧هـ) (٣) و كان للمعتزلة في عصره قوة و قدرة و نشاط و سيطرة. قال اليعقوبي: «وامتحن الواثق الناس في خلق القرآن فكتب إلى القضاء أن يفعلوا ذلك في سائر البلدان و أن لا يجيزوا إلا شهادة من قال بالتوحيد، فحبس بهذا السبب عالماً كثيراً» (٤). ١. ابن حنبل - حياته و عصره - أبو زهرة، ص ٦٥. ٢. البدایة و النهایة، ج ١٠، ص ٢٣٠ إلى ٣٤٣. ٣. البدایة و النهایة: ج ١٠، ص ٢٩٧. ٤. تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٤٨٢.

(٤٥٢)

يقول الحافظ ابن كثير: «و أمر الواثق بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفرنج، بالقول بخلق القرآن و أن الله لا يرى في الآخرة، فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن و أن الله لا يرى في الآخرة فودى و إلا ترك في أيدي الكفار. و هذه بدعة صلعاء، شنعاء، عمياء، صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا عقل صحيح» (١). و لكن تحيز ابن كثير للحنابلة و أصحاب القول بعدم خلق القرآن واضح في كتابه. فالاعتماد على ما ينقل من المحنة في حق الحنابلة إن لم تؤيده سائر الآثار مشكل، و بما أن في الكتاب، مغالاة في الفضائل، و محاولته لجعله اسطورة في التأريخ بنقول مختلفة، نكتفي بما يذكره الطبري في المقام. يقول: «إن مالك بن هيثم الخزاعي كان أحد نقباء بني العباس، و كان حفيده أحمد بن نصر بن مالك، يغشاه أصحاب الحديث كيحيى بن معين و ابن الدورقي و ابن خيثمة، و كان يظهر المبائنة لمن يقول: القرآن مخلوق، مع منزلة أبيه من السلطان في دولة بني العباس، و يبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق على من يقول ذلك. فحرك أصحاب الحديث و كل من ينكر القول بخلق القرآن أحمد بن نصر و حملوه على الحركة لانكار القول بخلق القرآن، و الغاية من هذه الحركة، الثورة في بغداد على الخليفة الواثق، و خلعه من الخلافة، غير أن هذه المحاولة فشلت فأخذوا و حملوا إلى سامراء، التي كانت مقرراً للواثق، فحضر القوم و اجتمعوا عنده، فلما أتى بأحمد بن نصر قال له: يا أحمد ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله، قال أفعلم مخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: فما تقول في ربك أترأه يوم القيامة؟ قال: يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله أنه قال: ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته، فحن على الخبر. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون فيه؟ فقال عبدالرحمان بن إسحاق: يا أمير _____ ١. البدایة و النهایة: ج ١٠، ص ٣٠٧.

(٤٥٣)

المؤمنين هو حلال الدم. و قال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين، كافر يستتاب لعل به عاهة، أو تغير عقلي، فقال الواثق، إذا رأيتموني قد قمت إليه فلا يقوم أحد معي، فإني أحسب خطاي إليه، و دعا بالصمصامة، سيف عمرو بن معديكرب، فمشى إليه وهو في وسط الدار، و دعا بنطع فصير في وسطه حبل فشد رأسه، و مد الحبل، فضربه الواثق ضربة، فوقعت على حبل العاتق، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه، فضرب عنقه و حز رأسه» (١). هذه خلاصة القصيدة. و من المعلوم أن هذه القسوة من الخليفة كانت مبررة عنده، لا لأجل قوله بخلق القرآن و رؤيته الله، بل لما قام به من الثورة عليه. و يقول أيضاً: «أمر الواثق بامتحان أهل الثغور في القرآن، فقالوا بخلقه جميعاً إلا أربعة نفر، فأمر الواثق بضرب أعناقهم إن لم يقولوه» (٢). و قام الواثق بنفس العمل الذي قام به أبوه

في امتحان أسرى المسلمين، فمن قال إن القرآن مخلوق فودى به، ومن أبى ذلك ترك في أيدي الروم و أمر لطالب بخمسة آلاف درهم، وأمر أن يعطوا جميع من قال إن القرآن مخلوق ممن فودى به ديناراً لكل إنسان من مال حمل معهم (٣). وكانت المحنة مستمرة، والضيق على أصحاب القول بعدم خلق القرآن متواصلاً إلى أن وافاه الأجل ومات الواثق عام ٢٣٢. وقد اتفقت كلمة أهل السير على أن الخلفاء كانوا يلعبون بحبال عدده من المعتزلة الذين كسبوا منزلة عظيمة لدى الخلفاء، وهم ثمامة بن أشرس و أحمد بن أبي دؤاد الزيات وغيرهم. وبموت الخليفة وتسم ابنه المتوكل على الخلافة، غاب نجم المعتزلة وانحدروا من الأوج إلى الحضيض و من العز إلى الذل، وإليك هذا القسم من التاريخ. ————— ١. تاريخ الطبري: ج ٧، حوادث سنة ٢٣١، ص ٣٢٨، ٣٢٩. ٢. المصدر السابق: ص ٣٣١. ٣. المصدر السابق: ص ٣٣٢. (٤٥٤) قصة المحنة و خلافة المتوكل

قضى الواثق نحبه و قام مقامه المتوكل و أمر الناس بترك النظر و البحث و الجدل و ترك ما كانوا عليه في أيام الخلفاء الثلاث: المأمون و المعتصم و الواثق، و أمر شيخ المحدثين بالتحديث و إظهار السنة (١). قال يعقوبى: «نهى المتوكل الناس عن الكلام في القرآن و أطلق من كان في السجن من أهل البلدان، و من أخذ في خلافة الواثق، فخلاهم جميعاً و كساهم، و كتب إلى الآفاق كتباً ينهى عن المناظرة و الجدل» (٢). هذه هي الضربة الأولى التي وجهها المتوكل إلى المعتزلة، و أقفل باب البحث و المناظرة الذي كان لصالح المعتزلة على ضد أهل الحديث، حيث كان المعتزلة يتفوقون على خصمائهم في مجال النقاش. ومع ذلك كله لم يكن ذلك ضربة قاضية لنظام الاعتزال، ولأجل ذلك لم يعزل أحمد بن دؤاد عن قضاء القضاة ولا عن مظالم العسكر، بل أبقاه على منصبه إلى أن عجز عن القيام بالعمل لإصابته بالفالج عام ٢٣٣ و اختار بعده ولده محمد بن أحمد. يقول الخطيب: «فلما فجع أحمد بن أبي دؤاد في جمادى الآخرة سنة ٢٣٣ ... ولى المتوكل ابنه محمد بن أحمد أبا الوليد القضاء و مظالم العسكر مكان أبيه» (٣). و من المعلوم أن أحمد بن أبي دؤاد هو العامل المؤثر في دعوة الخلفاء على ضد أهل الحديث القائلين بقدم القرآن أو كونه غير مخلوق. و يظهر من ابن الجوزي في كتاب مناقب الإمام أحمد أن المتوكل وجه إلى المعتزلة ضربة ثانية مؤثرة في إبعادهم عن ساحة المساجد و المدارس و إشخاص أهل الحديث ————— ١. مروج الذهب: ج ٤، ص ١. ٢. تاريخ يعقوبى: ج ٢، ص ٤٨٤ - ٤٨٥. ٣. تاريخ بغداد: ج ١، ص ٢٩٨.

(٤٥٥)

ودعوتهم إليها. يقول: «في سنة ٢٣٤ أشخص المتوكل الفقهاء و المحدثين، و أمرهم أن يجلسوا للناس و أن يحدّثوا بالأحاديث فيها الرد على المعتزلة و الجهمية، و أن يحدّثوا في الرؤية، فجلس عثمان بن أبي شيبة في مدينة المنصور، و وضع له منبر و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً من الناس، و جلس أبو بكر بن أبي شيبة في مسجد الرصافة و اجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً» (١). و التاريخ يعرب عن شدة تفاقم أمر المعتزلة سنة بعد سنة و انجذاب المتوكل إلى أهل الحديث، و تخطئه عمل أبيه الواثق، حيث إن أباه قتل بسيفه أحمد بن نصر لأجل قوله بعدم خلق القرآن وصلبه و كانت جثته باقية على الصليب إلى عام ٢٣٧، ولكن المتوكل أمر بإنزال جثته وهو نوع تخطئه لعمل أبيه أولاً، و إمضاء لمنهج أهل الحديث ثانياً. يقول الطبري: «وقد كان المتوكل لما أفضت إليه الخلافة، نهى عن الجدل في القرآن وغيره، و نفذت كتبه بذلك إلى الآفاق، و هم بإنزال أحمد بن نصر عن خشبته، فاجتمع الغوغاء و الزعاع إلى موضع تلك الخشبة و كثروا و تكلموا، فبلغ ذلك المتوكل، فوجه إليهم نصر بن الليث، فأخذ منهم نحواً من عشرين رجلاً - فضر بهم و حبسهم، و ترك إنزال جثة أحمد بن نصر من خشبته لما بلغه من تكثير العامة في أمره، و بقي الذين أخذوا بسببه في الحبس حيناً ... فلما دفع بدنه إلى أوليائه في الوقت الذي ذكرت، حمله ابن أخيه موسى إلى (بغداد) و غسل و دفن و ضم رأسه إلى بدنه» (٢). ومع ذلك لم يكتف في قطع جذور المعتزلة عن بلاطه و صار بصدد الانتقام من آل ابن أبي دؤاد. يقول الطبري: «وفي سنة ٢٣٧ غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد و أمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر، و حبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد في ديوان الخراج ————— ١. مناقب الامام أحمد: ص ٣٧٥ - ٣٨٥. ٢.

تاريخ الطبري: ج ٧، حوادث سنة ٢٣٧، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٤٥٦)

وحبس إخوته عند عبيد الله بن السريّ خليفة صاحب الشرطة» (١). والظاهر من الخطيب في تاريخه أن عزل محمّد بن أحمد كان يوم الأربعاء بعشر بقين من صفر سنة ٢٤٠ وصدّرت أمواله، ومات أبو الوليد محمّد بن أحمد ببغداد في ذي القعدة سنة ٢٤٠ ومات أبوه أحمد بعده بعشرين يوماً (٢). ثم إن إبعاد المعتزلة عن ساحة القدرة فسح للشعب إظهار حقه وإبداء كامل غيظه في مناسبات شتى. منها ما عرفت عند إنزال جثّة أحمد بن نصر، ومنها ما فعلوه في تشييع جنازة أحمد بن حنبل، فقد شيّعه جماعة كثيرة وإن غالي ابن الجوزي - كما هو شأنه - في حقّ إمامه وقال: «وعن بعض الشهود أنه مكث طول الأسبوع رجاء أن يصل إلى القبر فلم يتمكّن إلا بشقّ النفس لكثرة ازدحام الناس عليه» (٣). وأخذ الشعراء يهجون المعتزلة. يقول شاعرهم: أفلت سعود نجومك ابن دؤاد * و بدت نحوسك في جميع إياد فرحت بمصرعك البريّة كلها * من كان منها موقتاً بمعاد كم من كريمه معشر أرملةها * ومحدّث أوثقت بالأقياد كم مجلس لله قد عطّته * كيلا يحدّث فيه بالاسناد كم من مساجد قد منعت قضاها * من أن يعدل شاهد برشاد كم من مصايح لها أطفأتها * كيما تزلّ عن الطّريق الهادي (٤) وأخذ أهل الحديث يجلسون في المساجد ويروون الأحاديث ضد الاعتزال ويكفرون المعتزلة. سأل أحدهم أحمد بن حنبل عمّن يقول إن القرآن مخلوق، فقال: كافر. قال: فابن دؤاد؟ قال كافر بالله العظيم (٥).

١. تاريخ الطبري: ج ٧، حوادث سنة ٢٣٧، ص ٣٦٧ - ٣٦٨. ٢. تاريخ بغداد: ج ١، ص ٢٩٨، ولاحظ الكامل لابن الاثير ج ٥، حوادث سنة ٢٤٠، ص ٢٩٤. ٣. مناقب الامام أحمد: ص ٤١٨. ٤. تاريخ بغداد: ج ٤، ص ١٥٥. ٥. تاريخ بغداد: ج ٣، ص ٢٨٥.

(٤٥٧)

عند ذلك شعرت المعتزلة بأن الظروف قاسية و أن السّيطرة والأكثرية الساحقة من أهل السنّة يريدون أن يقضوا عليهم و يشفوا غيظ صدورهم منهم، ومع ذلك كلّ كانت عندهم طاقة يردون بها عن أنفسهم التي رشقوا بها و يتمسّكون بكلّ طحلب وحشيش. فقام الجاحظ أحد أدباء المعتزلة فألف كتاباً باسم «فضيلة المعتزلة» فأثنى عليهم و عدّ فضائلهم وكان الكتاب من حيث الصياغة والتعبير بمكان توجّهت إليه أبصار الخاصة والعامة، و بالتالي ظهر عليه ردّ أو ردود، أشهرها ما كتبه أحمد بن يحيى الراوندي (م ٣٤٥هـ) الذي كان من المعتزلة، ثم رجع عنهم فألف كتابه «فضيحة المعتزلة» ولم يبرح زمان حتّى جاء أبو الحسين عبدالرحمن بن محمّد بن عثمان الخياط فألف «الانتصار» انتصر فيه للجاحظ على ابن الراوندي والموجود من هذه الكتب الثلاثة هو الأخير. ثم إن ميّاً أعان على انقراضهم هو تشبّت مذاهبهم و فرقهم، فإنّ القوم تفرّقوا إلى مدرستين، مدرسة معتزلة بغداد و مدرسة معتزلة البصرة، ولم تكن حتّى في نفس كلّ واحدة منهما وحدة في التفكير، فصاروا فرقاً ينفون على العشرين و عند ذلك بلغوا الى درجة من الضعف والانحلال، وإن كان ينجم بينهم رجال مفكّرون كأبي عليّ الجبائي (م ٣٠٣هـ) و ولده أبي هاشم (م ٣٢١هـ). وجاءت الضربة الأخيرة من جانب أبي الحسن الأشعريّ الذي كان ربيب أبي عليّ الجبائي و تلميذه، ورجوعه عن الاعتزال بالتحاقه بأهل الحديث، فقد رقى في البصرة يوم الجمعة كرسياً و نادى بأعلى صوته: «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا اعرفه بنفسي أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشّرّ أنا أفعلها و أنا تائب مقلع، معتقد للردّ على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعائبهم» (١). فقد كان لرجوع من كان من أكابر تلاميذ أبي عليّ الجبائي أثر بارز في النفوس ————— ١. فهرس ابن النديم، الفن الثالث من المقالة الخامسة ص ٢٣١، ووفيات الاعيان، ج ٣، ص ٢٧٥.

(٤٥٨)

وبذلك أخذ الدهر يقلب عليهم ظهر المجنّ، تقلّب لحيّة البحر بالسفن المشحونة والفلك المصنوعة، بين بالغ إلى ساحل النجاة و هالك في أمواج الدهر. هذا هو القادر بالله أحد خلفاء العبّاسيين قام في سنة (٤٠٨هـ) بنفس العمل الذي قامت به المعتزلة في عصر

المعتصم والوائق. يقول الحافظ ابن كثير: «وفي سنة (٤٠٨هـ)، استتاب القادر بالله الخليفة فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع و تبرأوا من الاعتزال و الرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم بذلك و أنهم متى خالفوا أحلّ فيهم من النكاح والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامثل محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك واستنّ بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خراسان و غيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبّهة و صلبهم و حبسهم و نفاهم و أمر بلعنهم على المنابر و أبعد جميع طوائف أهل البدع و نفاهم عن ديارهم و صار ذلك سنة في الإسلام» (١). قال الخطيب: «وصف القادر بالله كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث و أورد في كتابه فضائل عمر بن عبدالعزيز و إكفار المعتزلة و القائلين بخلق القرآن و كان الكتاب يقرأ كل جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي و يحضر الناس سماعه» (٢). أقول: وهذا الكتاب هو المعروف «بالبیان القادري» و صار هذا الكتاب محوراً لتمييز الحق عن الباطل و الصّحيح عن الزائف. و قال ابن الجزري في حوادث سنة (٤٢٠هـ): «ولما ملك محمود بن سبكتكين الري.. نفى المعتزلة إلى خراسان و أحرقت كتب الفلسفة و مذاهب الاعتزال و النجوم و أخذ من الكتب ما سوى ذلك مائة حمل» (٣). ١. البداية و النهاية: ج ١٢ ص ٦. ٢. تاريخ بغداد: ج ٤، ص ٣٧ و ٣٨. ٣. الكامل: ج ٧، حوادث سنة ٤٢٠.

(٤٥٩)

و قال ابن كثير في حوادث سنة (٤٥٦هـ) ناقلاً عن ابن الجوزي: «وفي يوم الجمعة ثاني عشر شعبان هجم قوم من أصحاب عبدالصمد على أبي علي بن الوليد المدرس للمعتزلة فسبوه و شتموه لامتناعه من الصلاة في الجامع و تدريسه للناس بهذا المذهب و أهانوه و جزّوه و لعنت المعتزلة في جامع المنصور و جلس أبو سعيد بن أبي عمارة و جعل يلعن المعتزلة» (١). و قال في حوادث سنة (٤٧٧هـ): «إنّ أبا علي بن الوليد شيخ المعتزلة كان مدرّساً لهم فأنكر أهل السنة عليه فلزم بيته خمسين سنة إلى أن توفى في ذي الحجة منها». و يقول أيضاً في حوادث (٤٦١هـ): «وفيها نقت الحنابلة على الشيخ أبي الوفاء علي بن عقيل و هو من كبرائهم بتردده إلى أبي علي بن الوليد المتكلم المعتزلي و أتهموه بالاعتزال» (٢). و يقول في حوادث سنة (٤٦٥هـ): «وفي يوم الخميس حادي عشر المحرم حضر إلى الديوان أبو الوفاء علي بن محمد بن عقيل العقيلي الحنبلي و قد كتب على نفسه كتاباً يتضمّن توبته من الاعتزال» (٣). و بذلك حقق التاريخ السنة المعروفة «كما تدين تدان» و أخذت الطائفتان، الحنابلة و المعتزلة يتصارعان و يقتتلان قتال موت أو حياة، فصارت الانتصار لأصحاب الحديث، و الهلاك و الاضطهاد للمعتزلة، فلم يظهر بعد هذه القرون إلاّ آحاد ينجمون في الفينة بعد الفينة و الفترة بعد الفترة لا تجد لهم ذكراً بارزاً في ثنانيا التاريخ. إنّ تكامل الأمم و بلوغها الذروة من العظمة، ثم انحدارها إلى هاوية الضعف و الانحلال سنة إلهية قضى بها على جميع الأمم، فلم يكن ارتقاء المعتزلة بلا سبب، كما أنّه لم يكن ضعفهم بلا علّة. فيجب على الباحث المتأمل في ثنانيا القضايا التاريخية تحليل هذه الظاهرة تحليلاً علمياً يوافق الأصول المسلمة في تحليل هذه المباحث. ١. البداية و النهاية: الجزء ١٢، ص ٩١. ٢. المصدر نفسه: ص ٩٨ و ١٠٥. ٣. المصدر نفسه: ص ٩٨ و ١٠٥.

(٤٦٠)

أقول: إنّ المعتزلة لم يسقطوا سياسياً فحسب، بل سقطوا فكرياً، فلا تسمع بعد أبي هاشم الجبائي (م ٣٢١هـ) في القرن الرابع، و بعد القاضي عبدالجبّار (م ٤١٥هـ) في القرن الخامس، مفكراً قوياً في المسائل الكلامية، يوازي المتقدمين منهم مثل أبي هذيل العلاف، و النظام. بل أكثر ما قام به المتأخرون بعد القاضي لا يتجاوز عن تبين المذهب و توضيح صياغته من دون تأسيس قاعدة أو أصل في المجالات الكلامية. و الظاهر أنّه لم يكن لسقوطهم سبب واحد، بل يستند انحلالهم إلى أسباب متعدّدة أدّت بهم إلى الهلاك و الدمار و الانقراض إلاّ في نقاط خاصية كاليمين و غيرها. وها إليك بيان الأمور التي سببت سقوطهم: ١ - إنّ مذهب السنة بمفهومه الحقيقي، يبتنى على عدالة الصحابة أجمعين و إجلالهم، بل على تعديل السلف من التابعين و تابعي التابعين في الأقوال و الأفعال، كيف و هؤلاء عند أهل السنة عمد المذهب، التي قام عليها صرحه. و جرح واحد من الصّحابة أو ترك قوله، إخلال في الأساس، و هو ما لا يقبله

المذهب بتاتا. فلأجل ذلك ترى أن أهل السنة، يقدسون السلف و يكسونهم حلية العدالة التي لا تقل عن العصمة في حق النبي الأكرم والعترة الطاهرة - عليهم السلام - عند الشيعة. وما هذا إلا لأن المذهب مبني على تلك الأسس من أول يوم اجتمعوا فيه لاختيار خليفة للرسول إلى يومنا هذا. فمع أن كثيراً من المفكرين منهم يتلون كتاب الله الصريح في التنديد ببعض الصحابة، و يقرأون الصحاح والمسانيد الصريحة في ارتداد الكثير منهم بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يلقبون التاريخ ظهر المجن، فيشاهدون فيه موبقات بعض الصحابة و خداعهم و ضلالهم، مع ذلك كله لا ينسون فيهم بنت شفاء و يحكمون الأصل على هذه المعارف الصحيحة. وهذه قاصمة للمذهب السنّي بالمعنى الحقيقي. هذا من جانب. ومن جانب آخر، إن المعتزلة كانوا منتمين لأهل السنة، وفي الوقت نفسه كانوا (٤٦١)

يعطون للعقل قسطاً أوفر و يقدمونه على النصوص الواردة في الصحاح والمسانيد عن الصحابة والتابعين. مثلاً إن النصوص النبوية التي يروها المحدثون من أهل السنة تركّز على التجسيم والرؤية والتشبيه والجبر و سلب الاختيار عن الإنسان، فمعنى كون الفرقة فرقة سنيّة، تكريم هذه الأصول والأحاديث و عدم الخروج عن خطوطها، ولكنهم مع الانتماء واجهوا هذه النصوص بشدة و قسوة، فأخذوا يردونها و يضربونها عرض الجدار، وهذان لا يجتمعان. فكون الإنسان مقتفياً لمذهب أهل السنة لا ينفك عن اقتفاء هذه الآثار و عدم التخطي عنها، والثورة على هذه النصوص، إمعاء لمذهب السنة و هدم لأسسه، فكيف يجتمعان. فلازم ذلك أنهم صاروا يتبنون مبادئ متناقضين يضربون بواحد منهما المبدأ الآخر. فالحق أن التسنن بالمعنى الصحيح هو ما كان عليه أحمد بن حنبل و نظراؤه من الجمود على الظواهر، والأخذ في الصفات الخبرية بالمعنى الحرفي، و رفض العقل والبرهان في مجال العقائد والأحكام، و ترك التفكير والتعقل في المعارف، وهذا هو الخط السنّي الحقيقي الذي عليه و هابيه اليوم في نجد والحجاز، فمن أراد الانتماء إلى هذا المذهب، يجب أن يسلك هذا الطريق و يترك التفكير والبرهنة في جميع المجالات، و من جمع بينهما فقد جمع بين الضدين والنقيضين. إننا نرى أن الشيخ أبا الحسن الأشعري بعد ما تاب و التحق بالحنابلة، و حاول إثبات عقائد أهل الحديث بالبرهنة والدليل، قابله إنكار شديد من قبل الحنابلة، ولأجل ذلك لم يترجموه في طبقاتهم ولا عدّوه من أنفسهم، بل استنكر «البر بهاري» رئيس حنابلة بغداد طريقته بأنه يتجاوز في طرح الأصول والعقائد عن النصوص و يدخل في باب الدليل والبرهان، وقد صار ذلك سبباً لحدوث مخاصمة شديدة بين الحنابلة والأشاعرة على مدى القرون. وقد عرفت في الجزء الثاني شكوى الأشاعرة من المتوسمين بالحنبلية، وما هذا إلا (٤٦٢)

لأنّ خط الحنابلة خط الرواية عن التابعين والصحابة والاقتفاء بهم من دون أن يقيموا للعقل وزناً، وهذا على طرف النقيض من كتب الإمام الأشعري (سوى الابانة) و كتب أئمة الأشاعرة، فإنها مشحونة بالاستدلال العقلي على العقائد وإن كان لصالح آراء أهل الحديث. وفي ضوء ذلك تقف على أن موضع المعتزلة من المجتمع السنّي موضع الرقعة من اللباس، فكانوا من أهل السنة و يدعون الانتماء إليهم، غير أن أهل السنة لا يقبلونهم وهذا وحده يكفي في سقوطهم من أعين العامة و أوساط الناس. ٢ - كان لأصحاب الحديث - بما أنهم حفظة السنة و علماء الدين - نفاذ عجب في نفوس العامة و كان ذلك كافياً في إثارة سخطهم على المعتزلة، لأنهم ما زالوا يذكرونهم على صهوات المنابر وأندية الوعظ والإرشاد بالاحاد ورفض السنة و مخالفة الدين، ولم تكن الواقعة فيهم منحصرة بيوم أو شهر أو سنة، بل امتدت طوال قرون في العواصم الإسلامية حتى أيقن بسطاء الأمة بل علماءهم بأن الاعتزال خروج على الدين باسم الدين و محو للسنة باسم البرهنة بالعقل. وكفى هذا في إبعاد المعتزلة عن ساحة المجتمع و إسقاطهم عن أعين الناس والهجوم عليهم وعلى أموالهم إذا أتحت للناس الفرصة و وافقت عليه السيلطة الحاكمة. ٣ - إن المعتزلة كانوا يتبنون عقائد تخدش عواطف العامة بخلاف أهل الحديث، فقد كانوا يتبنون ما يوافق أفكارهم و مصالحهم في الدنيا والآخرة، فأهل الحديث كانوا يدعون بأن شفاعة الشافعين تعمّ العادل والفاسق و أن رسول الله أذخرها للمذنبين من أمته و مثل هذا يوجب التفاف عامة الناس حول رأيهم، وهذا بخلاف ما يتبناه المعتزلة، فإنهم يقولون بأنها لا تشمل إلا صلحاء الأمية، والغرض منها رفع الدرجة لإمعاء الذنوب. فأئى العقيدتين أولى بأن تتبّع عند عامية الناس؟ إن أهل الحديث يقولون بأن الخلود في النار يختص بالكافر، والمؤمن وإن كان فاسقاً لا يخلد و إن

مات بلا توبة. (٤٦٣)

وهذا بخلاف ما يقوله المعتزلة من خلود مرتكبي الكبائر في النار إذا ماتوا بلا توبة. فكان لفكرة أهل الحديث جاذبية تضم العامة إليهم وهذا بخلاف ما تقوله المعتزلة. ٤- إن نجم المعتزلة أفل بعد الواثق عند ما تسنم المتوكل منصفه الخلافة، فعند ذلك صارت السلطة الحكوميه سيفاً مصلتاً فوق رقابهم و شبحاً مرعباً يلاحقهم بعد ما كانت أداة طيعه لهم، والناس على دين ملوكهم وسلاطينهم، ثم اشتد غضب الخلفاء عليهم على مر الزمن، فصار ذلك سبباً لذبح المعتزلة تحت كل حجر و مدر، وقد استغل أهل الحديث والحنابلة غضب السيلطة على المعتزلة وقادوهم إلى الحد الذي عرفت من النكايه. ٥- إن المعتزلة قد اشتهروا بالقول بحريه الفرد في أعماله و كانوا يدافعون عن حريه الإنسان و احترام العقل، وهذا لا- يجتمع مع ما ارتكبه في أيام الخلفاء الثلاث، فناقضوا بذلك أنفسهم و عارضوا تعاليمهم و أظهروا أنهم لا يقدرّون العقل حق قدره، فإذا كانت الحريه تفرض على المعتزلة أن يدينوا بخلق القرآن، فهذا بنفسه يفرض عليهم أن لا يسوقوا الناس بالجبر والحبس والضرب على الاعتراف بخلق القرآن، وغايه ما كان على المعتزلة تشكيل أنديه الوعظ والارشاد والجدال الصحيح حتى يتموا الحجية على متحري الحقيقة أخذاً بقوله سبحانه: (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)(١). وأين هذا من الاصرار على تعديل السرائر والحكومة على الضمائر و فرض العقيدة بالجبر والضرب؟ «إن الحركة الفلسفية العلمية التي بدأت تتقوى و تنتشر بيد المعتزلة وأخذت تلقي أنصاراً و أعواناً، لو تركت تسير في مجراها الطبيعي، لاستطاعت أن تقضى على الروح الرجعية في الأمة على قوتها و عنفها. ولكتب لها الفوز والنجاح، ولكن _____ ١. سورة النحل / ١٢٥.

(٤٦٤)

المعتزلة استبقوا الزمن واستعجلوا الأمور، فأرادوا في زمن دولتهم أن يحققوا ما لا يتحقق إلا بالاقناع، وأن ينجزوا في برهه و جيزه ما قد يتطلب قرناً(١). ٦- إن صمود أحمد بن حنبل في طريق عقيدته أضفى له عند الأمة بطوله في طريق حفظ السنه وجعل منه أسطورة للدفاع عن العقائد و قبول الاضطهاد في طريق الدين ولما أفرج عنه التف الناس حوله واندفعوا يحاربون أعداءه و يكيّدون لهم، ولم يبرح في الإجهار على ضد المعتزلة و إثارة الناس عليهم. ٧- إن الرجعية كانت متأصلة في نفوس العامة، متحكمة في كثير من العلماء وكانوا لا يرغبون في مخالفة السلف قدر شعرة، وهذا أوجب انتصار أهل الحديث على أهل العقل والاستدلال، وكان عمل المعتزلة مثيراً لروح التعصب فيهم أزيد ممّا كانوا عليه، ولعلمهم كانوا يتقربون في ضربهم و شتمهم و قتلهم إلى الله. ٨- وقد كان للشّيخ أبي الحسن الأشعري دور مؤثر في تأليب العامة و الخاصية على المعتزلة، فإنه كان معتزلياً عارفاً بسلاح العقل والمنطق. فقد رجع عن المعتزلة لأجل أنه رأى الهوة السحيقة بين أهل السنه و أهل الاعتزال، فأراد أن يتخذ طريقاً وسطاً بين المذهبين، ولكنه بدلاً من أن يستعمل ذلك السلاح في نصره الدين قام بمقاومة الاعتزال وهدمه، ولم يفعل ذلك إلا مجازاة للرأي العام و طمعاً في كسب عطفهم و تأييدهم، وبالتالي خضع للقوى الرجعية إلى حد كبير، فأمضى كل ما كان عليه الحنابلة من مسألة القدر والرؤية بحرفيتها. ٩- إن جنوح السيلطة إلى أصحاب الحديث من عصر المتوكل إلى آخر العباسيين وتوليهم عن المعتزلة دعاة العدل والتوحيد، لم يكن خالياً عن الأهداف السياسية التي كانت لمصالح عروشهم وحكومتهم، لأن من مبادئ أهل الحديث وجوب إطاعة السلطان الجائر و حرمة الخروج عليه و وجوب الصلاة خلف كل برّ و فاجر إلى غير ذلك من الأحكام التي ذكرها إمام الحنابلة في عقيدة أهل الحديث، ومن المعلوم أن هذا هو ما تتوخاه السيلطة، فإن في ذلك دعماً لجورها و استبدادها. وأين هذا من القول بالعدل والدعوة إلى التفكر و وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و وجوب الخروج على السلطان الجائر و نصب الإمام العادل، إلى غير ذلك من الأصول التي كانت المعتزلة تتبناه ولم تكن لصالح الحكومة. هذا و ذاك صار سبباً لرجوع السيلطة إلى أهل الحديث و تقديمهم على المعتزلة. ١٠- إن لله سبحانه سنه في الأقوام و الأمم عبر عنها في الكتاب العزيز بقوله: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) (آل عمران/ ١٤٠) فلا ترى أمة في ذروة العزّ دائماً ولا في حضيض الذلّ كذلك. نعم لتحقيق السنه و تبلورها في المجتمع أسباب وعلل ربما يكون ما ذكرنا

من الأسباب بعضها. _____ ١. المعتزلة لحسن زهدى جار الله: ص ٢٥٢.

(٤٦٥) ٢- الآثار الباقية من المعتزلة (١).

كان مشايخ الاعتزال و أئمتهم ذوى قرائح خصبة، وكفاءات خاصّة فى نضد القريض و ارتجال الخطب. فكان إلقاء الكلام على الوجه البليغ، المطابق لمقتضى الحال، أحد أسلحتهم الفتاكّة فى باب المناظرة. ومن المحتمل أيضاً أن تسمية علم الكلام به لأنّ المعتزلة هم الأسس لتدوين علم الكلام بين أهل السنّة، وبما أنّهم قد بلغوا الذروة والسّنام فى البلاغة والفصاحة و إلقاء الكلام، سمّيت صناعتهم بأوصافهم و خصوصياتهم، فأطلقوا على منهجهم الفكرى لفظ الكلام و علمه. ويظهر ذلك من الرجوع إلى تاريخ حياتهم، وقد عرفت أنّ واصل بن عطاء مع أنّه كان به لثغة بالراء ولكن كان يتجنّب عن الرأى فى خطبه، فيتكلّم بالقمح مكان البئر، والغيث مكان المطر. ولم يكن التّفوق فى البلاغة مختصّاً به، بل هو الغالب على أئمة المعتزلة. فلا-عجب لأن يتركوا كتباً قيّمةً فى مجالات العقيدة والأدب والتفسير، غير أنّ الدهر لعب بكتبهم، _____ ١. هذا هو البحث الثانى الذى وعدنا به فى صدر خاتمة المطاف.

(٤٦٦)

وأعان على حرقها وإعدامها خصماؤهم، فلم يصل إلينا إلاّ التّزر القليل الذى حفظته الصدفة. و نذكر من آثار المعتزلة ما طبع و نشر، وأمّا المخطوطة منها الموجودة فى المكتبات العالميّة فهى على عاتق الفهارس، ولو قمنا به لطلال بنا المقام فنذكر المطبوع حسب التسلسل التاريخى للتأليف. ١- «المعيار والموازنة» لأبى جعفر الاسكافى (م ٢٤٠)، فى فضائل الإمام أميرالمؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - تحقيق محمد باقر المحمودى، طبع فى بيروت/١٤٠٢. ٢- «درة التنزيل و غرة التأويل» له أيضاً طبع فى مطبعة السعادة، عام (١٣٢٦هـ). ٣- «البيان والتبيين» لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥هـ) فى أربعة أجزاء، طبع عدّة مرّات، آخرها طبعه دار الفكر عام ١٩٦٨. ٤- «المحاسن والاضداد» له أيضاً طبع فى القاهرة (عام ١٣٣١هـ). ٥- «الفصول المختارة من كتب الجاحظ» جمعها الإمام عبيد الله بن حسيان، طبع على هامش «الكامل» للمبرّد فى القاهرة، (عام ١٣٢٤هـ). ٦- «العثمانية» تحقيق محمّد هارون المصرى طبع مصر، واستقصى المحقّق ما بثّه ابن أبى الحديد فى شرحه على نهج البلاغة من كتاب (نقض العثمانية) لأبى جعفر الاسكافى، فجمعه وطبعه فى آخر «العثمانية» فجاء الكتاب ونقضه فى مجلّد واحد. وتعرّفت على شأن الكتاب فى ترجمة الجاحظ. ٧- «رسائل الجاحظ» فى جزئين، تحقيق عبدالسلام هارون، طبع فى القاهرة عام (١٩٦٤م). ٨- «البخلاء» له أيضاً، تحقيق طه الحاجزى، طبع فى مصر. ٩- «الانتصار» فى الردّ على ابن الزاوندى، تأليف أبى الحسين المعروف بالخيّاط، (٤٦٧)

طبع مع مقدّمه و تحقيق وتعليق للدكتور نبيرج الاستاذ بجامعة (آبسالة) فى (مملكة السويد). وفى آخره قائمة لفهرس الكتب المذكورة فى هذا الكتاب أكثرها للمعتزلة يبلغ عددها أربعين كتاباً (١). ١٠- «فضل الاعتزال أو ذكر المعتزلة» لأبى القاسم البلخى (م ٣١٧هـ) أو ٣١٩هـ) تحقيق فؤاد سيّد، طبع الدار التونسية، عام (١٤٠٦هـ). ١١- «شرح الأصول الخمسة» لقاضى القضاة عبدالجبار بن أحمد (٤١٥هـ). حقّقه وقدم له الدكتور عبدالكريم عثمان، المطبوع بمصر، عام (١٣٦٤هـ)، فى (٨٠٤) صفحة وراء الفهارس وهو أجمع كتاب لتبيين الأصول الخمسة التى تتبناها المعتزلة فى مجال العقائد. ١٢- «المغنى» له أيضاً، وهو إملاء القاضى لتلاميذه، وقد طبع منه لحدّ الآن أربعة عشر جزءاً وهو فى عشرين جزءاً، وقد اكتشفتها البعثة العلميّة المصريّة باليمن، وهو أبسط كتاب للمعتزلة فى مجال الكلام، والجزء الأخير منه فى الإمامة، الذى نقضه السيّد المرتضى بكتاب أسماه بـ «الشافى» ولخصه الشيخ الطوسى، والأصل والملخص مطبوعان. ١٣- «تنزيه القرآن عن المطاعن» طبع عن النسخة المخطوطة بدار الكتب المصريّة. له أيضاً ما يلى: ١٤- «متشابه القرآن» له فى جزئين. طبع فى القاهرة، دار التراث، تحقيق الدكتور عدنان زرزور. ١٥- «المجموع المحيط بالتكليف له». ١٦- «المختصر فى أصول الدّين» من رسائل العدل والتوحيد تحقيق محمد عمارة. _____ ١. الانتصار: قسم الفهرس، ص ٢٤٩ - ٢٥٢.

(٤٦٨)

١٧- «طبقات المعتزلة» له أيضاً، تحقيق فؤاد سيّد، طبع الدار التونسية، عام (١٤٠٦هـ). ١٨- «ديوان الأصول فى التوحيد» لأبى رشيد

سعيد بن محمد النيسابوري رئيس المعتزلة بعد القاضي عبد الجبار، طبع مصر، عام (١٩٦٨م)، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريده، وقد تبعا في نسبة الكتاب إليه، رأى محقق الكتاب. ١٩ - «الطبقتان الحادية عشرة والثانية عشرة من طبقات المعتزلة» لأبي السعد المحسن بن محمد كلام الجشمي البيهقي (م ٤٩٤هـ)، وكأنه ذيل لكتاب «طبقات المعتزلة» للقاضي حيث ترجم فيه الطبقتين الحادية عشرة والثانية عشرة من المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، طبع الدار التونسية، وهو جزء من كتابه «شرح العيون». ٢٠ - «رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس» له أيضاً، تحقيق حسين المدرسي الطباطبائي، طبع عام (١٤٠٦)، وقد ألفه بصورة روائية على النهج المعروف اليوم. ٢١ - «تفسير الكشاف» للشيخ محمود بن عمر بن محمود الزمخشري (م ٥٣٨هـ) وقد طبع عدة مرات، وهو أحد التفاسير التي يرجع إليها جميع المسلمين في الوقوف على بلاغة القرآن، ولا يزال إلى اليوم ينظر إليه كأحد التفاسير المهمة، وقد أدرج في تفسيره حسب تناسب الآيات آراء المعتزلة وأخضع الآيات لتلك المبادئ. وله أيضاً ما يلي: ٢٢ - «أساس البلاغة» في اللغة، طبع في مصر. ٢٣ - «أطواق الذهب في المواعظ والخطب» تحتوي مائة مقالة في النصائح، طبع في مصر وبيروت و استنبول. ٢٤ - «عجب العجاب في شرح لامية العرب» طبع في القاهرة و استنبول. ٢٥ - «الانموذج» طبع في إيران مع شرح عبدالغنى الأردبيلي. ٢٦ - «الجبال و الأمكنة و المياه» طبع في ليدن. ٢٧ - «ربيع الأبرار و نصوص الأخبار». ٢٨ - «الفائق في غريب الحديث» طبع في حيدرآباد. (٤٦٩)

٢٩ - «الكلم النوايح أو نوايح الكلم» طبع في القاهرة و بيروت. ٣٠ - «المفصل في صناعة الإعراب» طبع في مصر و غيرها. ٣١ - «مقدمة الأدب» في اللغة، طبع في ليسييك. ٣٢ - «شرح نهج البلاغة» لعز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد البغدادي المدائني (م ٦٥٥هـ) وهو أعظم الشروح و أطولها و أشملها بالعلوم والآداب والتاريخ والمعارف، ألفه لمؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمي وزير المستعصم بالله آخر الخلفاء والملوك العباسيين، وكان له كتب فيها عشرة آلاف مجلد من نفاس الكتب (١) طبع في عشرين جزءاً بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم في القاهرة. ٣٣ - «طبقات المعتزلة» لأحمد بن يحيى بن المرتضى أحد أئمة الزيدية، ولد عام (٧٦٤هـ) وتوفي بظفار عام (٨٤٠هـ)، وهو جزء من كتابه الآخر «المنية والأمل» في شرح كتاب الملل والنحل. ٣٤ - البحر الزخار دورة فقهية على مذهب الإمام زيد طبع في ستة أجزاء. ٣٥ - «كتاب الأساس لعقائد الأكياس» تأليف القاسم بن محمد بن علي الزيدى العلوي (م ١٠٢٩هـ). حققه و قدّم له الدكتور البيرنصري نادر، طبع دار الطليعة بيروت، عام ١٩٨٠. ٣٦ - «العلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايخ» للشيخ صالح المقبل (م ١١٠٨هـ)، طبع القاهرة عام (١٣٣١هـ) (٢). *** هذه هي المعتزلة و تأريخها، هذه تعاليمها و مشايخها و آثارها، فمن أراد الكتابة _____ ١. مقدمة نهج البلاغة، بقلم المحقق. ٢. ولعل الفئات منى أكثر من المذكور، والتكليف على حدّ المقدور، وقد اكتفينا بذكر ما وقفنا على المطبوع من كتبهم، أما المخطوط منها فحدّث عنه ولا حرج، يقف عليها من راجع فهرس مخطوطات المكتبة المتوكّلية في جامع صنعاء باليمن، وقد صور أكثرها دار الكتب المصرية ونشر قسماً كبيراً منها.

(٤٧٠)

عن المعتزلة فعليه الرجوع إلى هذه المصادر وإن كانت قليلة، لكنّها تغنيه عن الرجوع إلى كتب خصمائهم ك «الفرق بين الفرق» للبغدادي، فإنّه أخذ ما أخذه عن خصمهم ابن الراوندي فنسب إليهم في كتابه فضائح لا يمكن الزكون عليه، فإنّ الخصم لا يصدّق في النسبة والنقل. نعم، كان انقراض المعتزلة انهماماً لدعاة الحرّية و انتصاراً للتحجّر و تقوية لقوى الجهل و الأمية، ولو كانت الحرّية سائدة على الأمة الإسلامية لكان الوضع غير ما نشاهده بين الأمة، والحكم لله العليّ القدير. بلغ الكلام إلى هنا و فرغنا من تأليف هذا الجزء و ترصيفه و تبييضه يوم الجمعة يوم تحرير القدس العالمي التاسع والعشرين من شهر رمضان من شهر عام ١٤٠٩هـ/ق. والحمد لله أولاً و آخراً و ظاهراً و باطناً. قم - مؤسسه الإمام الصادق - عليه السلام - جعفر السبحاني

الجزء الرابع (يتناول حياة ابن تيمية)

إشارة

الملل والنحل الجزء الرابع (يتناول حياة ابن تيمية وابن عبد الوهاب وعقائدهما وشخصياتهم)

مقدمة

مقدمة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الخاتم وعلى آله المصطفين الأخيار. أما بعد: فهذا هو الجزء الرابع من موسوعتنا الكلامية حول المذاهب الإسلامية، ونستعرض فيه دراسة المذهب الوهابي الذي نشأ في أوسط القرن الثاني عشر في إقليم «نجد» وقد غاب نجمه يوم طلوعه، وصار خامل الذكر، ثم أعيد إلى الساحة الإسلامية في أوسط القرن الرابع عشر، بعد استيلاء العائلة السعودية على الحرمين الشريفين (مكة و المدينة)، وتبنت الدعايات السياسية الزمنية ترويج ذلك المسلك بترغيب وإرهاب، وقامت الدوائر الإعلامية العالمية - عن طريق المجلات والصحف، والمؤلفين المأجورين الجدد - بنشر تعاليمه و تفاصيله. أسأل الله سبحانه أن يوفقنا في هذا الجزء، ويعيننا في هذه الدراسة، ويوصلنا إلى الحق الصواب إنه قريب مجيب. إن المذهب الوهابي المفروض على الشعب المسلم في الجزيرة العربية وغيرها، قام على الأفكار التي ورثها مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (ت ١١١٥ - م ١٢٠٧) من أحمد بن تيمية (ت ٦٦١ - م ٧٢٨) الذي بذر هذه الأفكار في أواخر القرن السابع (٦٩٨) وأوائل القرن الثامن، وكانت بذرته التي بذرها مودوعة في الكتب وزوايا المكتبات، إلى أن أحيى محمد بن عبد الوهاب ما دثره الدهر، واتخذ من عقائد شيخه في المذهب ابن تيمية قاعدة (٦)

لمذهبه، وحذف منها ما يمت إلى مسألة التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة والفوقية بصله، واهتم بما يرجع من عقائده إلى مسألة التوحيد والشرك. ولأجل أن تكون الدراسة متكاملة الأطراف، مترامية الجوانب، نشرع باذية بدء دراسة حياة شيخه ابن تيمية أولاً، ثم نعقبها بدراسة مجدد مذهبه ومسلكه في القرن الثاني عشر الهجري، وإليك البحث عن حياة ابن تيمية وآراء معاصريه في حقه، وآرائه، مع تحليل ما اعتمد عليه من الأصول لمذهبه، ولكن بعد تقديم مقدمة تكشف عن الظروف العصبية التي ألقيت فيها هذه البذرة، ونشأ فيها هذا المذهب. قم - الحوزة العلمية جعفر السبحاني شوال المكرم / ١٤١٠. (٧)

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة دعامتان للإسلام

بُنِيَ الإسلام على كلمتين هما دعامتا المبدئيتان: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، أما الأولى فقد دعا إليها النبي الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم -، بل الأنبياء والمرسلون قاطبة، ولم يكن لهم هدف سوى إرساء قاعدة التوحيد والقضاء على الوثنية، وما سوى ذلك من التعاليم من فروع تلك الشجرة الطيبة وأغصانها وثمارها، ولولا هذا الأصل لما قام للدين عمود ولا اخضر للإسلام عود. قال سبحانه: (و لقد بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ). (١) وأما الثانية فهي الدعامة الثانية لإرساء صرح الإسلام، بل هي الركن الركين لنشر تعاليمه وكبح جماح الجبايرة والطواغيت، ولولا وحدة الكلمة لكان الإسلام في بدء طلوعه فريسة لمطامع الظالمين، وقد دعا إليها الذكر الحكيم في غير مورد من آياته. قال سبحانه: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا). (٢). وقد قام النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في دار هجرته بتجسيد مفهوم الاخوة بين أصحابه، قال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ). (٣)،

١. سورة النحل: الآية ٣٦.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

٣. سورة الحجرات: الآية ١٠. (٨)

فآخى بين الأوس و الخزرج، وبين المهاجرين والأنصار، وآخى بين نفسه و صنوه و صهره على صلوات الله عليه (١). ثم إن الرسول الأكرم - انطلاقةً من هذا المبدأ - شبه المؤمنين مع كثرتهم و وفرتهم بالجسد الواحد وقال: «مثل المؤمنين في توادهم و تعاطفهم و تراحمهم كمثل الجسد (الواحد) إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى» (٢). ولقد كان النبي الأكرم يراقب أمر الأمة، لا - يشق عصاها منازع جاهل أو عدو غاشم، وكان يقودها إلى الأمام برعايته الحكيمه، وكلما واجه خلافاً أو شقاقاً و نزاعاً بادر إلى ترميم صدعها بحزم عظيم و تدبير وثيق، ولقد شهد التاريخ له بمواقف في هذا المجال انتخبنا منها ما يلي: ١- انتصر المسلمون على قبيلة بنى المصطلق و قتل من قتل من العدو و أسر من أسر منهم فبينما رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على مائهم، نشب النزاع بين رجل من الأنصار و رجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري فقال: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر وقال: يا معشر المهاجرين، فلما سمعها النبي، قال: دعوها فإنها منتنة.. يعني إنها كلمة خبيثة، لأنها من دعوى الجاهلية، والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة و صيرهم حزباً واحداً، فينبغي أن تكون الدعوة في كل مكان و زمان لصالح الإسلام و المسلمين عامة، لا لصالح قوم ضد الآخرين، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يُعزَّر (٣). فالنبي الأكرم يصف كل دعوى تشق عصا المسلمين و تمزق وحدتهم بأنها دعوى منتنة، فكيف لا يكون كذلك و هي توجب انهدام الدعامة للكيان الإسلامي، وبالتالي انقراض صرح الإسلام .

١. راجع في الوقوف على مصادر الحديث كتاب الغدير. ج ٣ ص ١١٢ - ١٢٤ .

٢. مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧٠ .

٣. السيرة النبوية، ج ٣ ص ٣٠٣ غزوة بنى المصطلق، ولا حظ التعليق للسهيلي، وراجع مجمع البيان، ج ٥ ص ٢٩٣ وغيره من التفاسير (٩).

٢- نزل النبي الأكرم دار هجرته و التفت حوله القبيلتان: الأوس و الخزرج، فمرّ شأس بن قيس - المذني كان شيخاً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس و الخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم و جماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بنى غيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم فقال: اعمد اليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعث، يوم اقتتل فيه الأوس و الخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهرى، و على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً. دخل الشاب اليهودي مجمع القوم فأخذ يذكر مقاتلتهم و مضاربتهم في عصر الجاهلية، فأحى فيهم حميتها حتى استعدوا للنزاع و الجدل بحجة أنهم قتل بعضهم بعضاً في العصر الجاهلي يوم بعث، و أخذ الشاب يُوجج نار الفتنة و يصب الزيت على النار حتى تواتب رجالان من الحيين فتقاولا . فبلغ ذلك رسول الله فخرج، إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله بالإسلام و أكرمكم به و قطع به عنكم أمر الجاهلية، و استنقذكم من الكفر و ألف به بين قلوبكم؟ كانت كلمة النبي كالماء المصبوب على النار بشدة و قوة، حيث عرف القوم أنها نزعاً من الشيطان و كيد من عدوهم، فبكوا و عانق الرجال من الأوس و الخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مدعين، متسالمين، مطيعين قد دفع الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأس و ما صنع (١) ..

١. السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٥٠ . (١٠)

٣- كان لقضية الإفك في عصر الرسول دوى بين أعدائه، فكان عدو الله «عبد الله بن أبي» يشيع الفاحشة و يؤذى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقام رسول الله في الناس يخطبهم، فحمد الله و أثنى عليه - ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي و يقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا - خيراً، و يقولون ذلك الرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، و ما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معي - و كان كبر ذلك الإفك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج . فلما قال رسول الله تلك المقالة، قال «أسيد بن

حضير» وكان أوسياً: يا رسول الله! إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، فقال سعد بن عباد - وكان خزرجياً - : كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وعندنا تساور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر. وفي لفظ البخاري: فصار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قائم على المنبر، فلم يزل يخفصهم حتى سكتوا وسكت (١). هذه نماذج من مواقف النبي الأ-عظم حيال الخلافات التي كانت تنشب أحياناً بين أمته وهو - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يصنع من الخلاف وثاماً ومن النزاع وفاقاً، ويدفع الشر بقيادته الحكيمه، وما هذا إلا لأن صرح الإسلام قائم على كلمتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة. وهذا صنو النبي الأكرم ووصيه وخليفته - إذ حرم من حقّه المشروع، وبدلت الخلافة التنصيبية إلى تداول الخلافة بين تيم وعدى، ثم إلى أمية - قد

١. السيرة النبوية ج ٣ ص ٣١٢-٣١٣، و صحيح البخاري ج ٥ ص ١١٩ باب غزوة بني المصطلق . (١١)

بقي حليف بيته وأليف كتاب الله، وهو يرى المفضول يمارس الخلافة مع وجود الفاضل، بل يرى تراثه نهياً، ومع ذلك كله لم ينبس بينت شفه إلا في موارد خاصه، حفظاً للوفاق والوثام، وهو - عليه السلام - يشرح لنا تلك الواقعة بقوله: «فوالله ما كان يُلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العَرَب تُرْعَجَ هَذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلا أَنَّهُمْ مُنْحَوَةٌ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلا انْتِيالُ النَّاسِ عَلَيَّ فُلانٌ يُبَايِعُونَهُ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ راجِعَهُ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الإِسْلامِ يَدْعُونَ إِلى مَحْجِ دِينِ مُحَمَّدٍ فَحَشِيتُ إِذْ لَمْ أَتُضَيِّرِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ تَلْمَازاً أَوْ هَدْمَازاً تَكُونُ المُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمُ مِنْ قَوْتِ وَلايَتِكُمْ، الَّتِي إِنا هِيَ مَتاعُ أَيامِ قلائِلٍ...» (١). وعندما تسنم سدة الخلافة ورجع الحق إلى مداره، قام خطيباً فقال: «الزُّمُوا السَّوادَ الأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الجِماعَةِ وَإِيّاكُمْ وَالفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الغَنَمِ لِلذُّبِّ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلى هَذَا الشَّعارِ فَاقْتُلُوهُ وَلو كانَ تَحْتَ عِمّامَتِي هَذِهِ» (٢). هذه هي سيرة النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة وصيه وتلميذه، وهما تعربان عن أن حفظ الوحدة من أهم الواجبات وأوجب الفرائض، ولكن يا للأسف لم تراع الأمية نصح النبي الأكرم عبر القرون والأجيال، وهذه مأساة سقيفة بني ساعدة المسرحية وما تمخض عنها. وقرأها بدقه وإمعان تر أن الجانبين المهاجرين والأنصار تشبثوا بدعاوى منتنة تشبه دعوى الجاهلية، فمندوب الأنصار يجز النار إلى قرصه بحجة أنهم نصرروا النبي الأكرم و آووه، كما أن المتكلم عن جانب المهاجرين (و لم يكن في السقيفة منهم آنذاك إلا خمسة أشخاص) يراهم أحق بتداول الخلافة بحجة أنهم عشيرة النبي الأكرم، وفي الوقت نفسه لم نجد في كلامهما ما يشير إلى ما يخدم صالح الإسلام والمسلمين، وأن المصالح الكبرى تكمن ضمانتها في تنصيب من توفرت فيه شرائط وسمات وملامح القيادة الربانية دون سائر أفراد الأمة .

١. نهج البلاغة، الرسالة ٦٢.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧. (١٢)

وقد تو إلى الخلاف والشقاق، ودارت الدوائر على المسلمين بعد مقتل عثمان وانتخاب على - عليه السلام - للزعامة باتفاق المهاجرين والأنصار، إلا من شد ولا يتجاوز عددهم خمسة، وعند ذلك ثقل على الأمة عدل على وسيرته، فثارت الضغائن البدرية ضده فوق وقع، وتوالت الوقائع والأحداث، فجاءت وقعة الجمل التي أريق فيها دماء المسلمين، لأجل إزالة الإمام وتنحيته عن حقه ومقامه. وبعد ما انتصر الإمام على الناكثين وعاد الحق إلى مقره، نجم قرن آخر تمثل في وقعة صفين التي ذهبت ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين، إلى أن انتهى الأمر إلى وقعة النهروان التي شغلت بال الإمام واستنفدت طاقات المسلمين، واستشهد الإمام، والمسلمون بعد لم يندمل جرحهم، وبويع ولده الإمام الحسن السبط للخلافة، وأخذ بزمام الأمر أشهراً قلائل، غير أن ابن ابي سفيان شن الغارة على العراق وشيعة الحسن - عليه السلام - ومبايعيه، فانجز الأمر إلى التصالح، وأنيخ جمل الخلافة على باب بني أمية يتداول كرتها واحد

بعد واحد، حتى انتكث عليهم فتلهم وأجهز عليهم عملهم بانتفاضة الأمة ضدّهم، إلى أن استولى العباسيون فصاروا خلفاء الأمة وقادتها، ولم يكونوا بأحسن من الأمويين . يا ليت جور بنى مروان دام لنا * وليت عدل بنى العباس في النار كان العباسيون يتوارثون الخلافة من الآباء إلى الأولاد، و كان للإسلام صولة وللمسلمين هيبه، ولم تكن تجترىء القوى الكافرة في العالم عبر قرون على غزو المسلمين، وإن كانت الفتنة والحروب الداخلية دائرة بينهم. غير أن تلك الحروب وضعف القيادة الإسلامية أتاحت فرصة صالحة للقوى الكافرة المتربّصة بالمسلمين لشنّ الغارة على الوطن الإسلامي وضرب الإسلام والمسلمين ضربة قاضية في أوائل القرن السادس، حيث أنشبت مخالبتها في جسد الإسلام والمسلمين، وانقضت عليهما بالحملات الصليبية في أوائل ذلك القرن، وكان منطلق شنّ تلك الحملات والغارات من جانب الغرب، عن طريق البحر تارة على سواحل الشامات، وأخرى عن طريق البر عبر القسطنطينية. كانت تلك الحروب لا تزال طاحنة ومشتعلة ينتصر فيها المسلمون على (١٣)

العدو في فترة بعد فترة، إذ بدأت الحملات الأخرى من جانب الشرق على يد التتار والمغول، فكان مختتم الحروب الصليبية مبدأ للحروب الوثنية بايدي عبدة الشمس والكواكب، ولعلّ هذا يعرب عن اتفاق الصليب والصنم، وبالتالي الصليبيين والصنميين على تدمير الحضارة الإسلامية... ولسنا أول من تتبه إلى اتفاق هاتين القوتين في ذلك العصر المظلم، بل يظهر عن طريق الإمعان في ثنايا التاريخ أن ذلك كان أمراً مدبراً، ولو لم يكن هناك اتفاق في بدء الأمر لكن حصل الاتفاق بين الصليبي والوثني في أثناء تلك الحروب، وفي كلام ابن الأثير المعاصر لهذه الحروب إشارة إلى ذلك حيث يقول: «وقد بلى الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يتبل بها أحد من الأمم. منها هؤلاء التتار - قبحهم الله - أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الإفرنج - لعنهم الله - من المغرب إلى الشام وقصدتهم ديار مصر، وملكهم نجر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم» (١). ثم إن ابن الأثير يشير إلى ضعف القيادة الإسلامية في تلك العصور، ويزيح النقاب عنها بقوله: «يسرّ الله للمسلمين و الإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه...» (٢). ولأجل إيقاف القارىء على مدى الخسائر الفادحة الواردة على الإسلام والمسلمين، الناجمة عن هذه الحروب الصليبية والتتارية، نذكر لمحة خاطفة من هاتين الحريين كنموذج تمثيلي، ليعلم بذلك داء المسلمين فيه، ثم نبحث عن الدواء الذي كان ينبغي لعلماء الإسلام أن يقدموه إلى المجتمع الإسلامي، والمصل الناجع، ونقدّم الكلام عن الحروب الصليبية أولاً، ثم عن التتارية ثانياً، ثم تنامي رقعة الهجمات الصليبية في الوطن الإسلامي بهجومهم على الأندلس ثالثاً، وقد استغرقت هذه الهجمات الصليبية والتتارية قرنين، من

١. الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٦٠.

٢. الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٧٦. (١٤)

أوائل القرن السادس إلى أواخر القرن السابع أو أزيد. الحروب الصليبية (٤٩١ - ٦١٦)

كانت النصرانية بالمرصاد للمسلمين، وكان من أمنياتهم الاستيلاء على بيت المقدس و سلبه من أيدي المسلمين بحجة أنه قبله الأمم المسيحية ومثوى ومنتجع عواطفهم الدينية، فشنوا الغارة على بلاد المسلمين حوالي سنة ٤٩١ إلى أواخر القرن السابع، وكانت للحروب الصليبية مراحل ثمان أو تسع، فكانوا ينتصرون في بعضها، كما تلحقهم الهزيمة في بعضها الآخر، ومن المراحل التي انتصروا فيها على المسلمين المرحلة المعروفة التي: «ساروا فيها إلى بيت المقدس، فحاصروه ونصبوا عليه برجين، وملكوه من الجانب الشمالي، وسلط على الناس السيف، ولبت الإفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد ما يزيد على سبعين ألفاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء» (١). إن التواريخ الإسلامية تعرف السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (م ٥٨٩ هـ) الفاتح الكبير والقائد الفذ، الذي صمد في وجهه، الصليبيين حيث طرد الإفرنج عن الشامات، غير أنه لم يقض في فتوحاته على غائلة الحروب الصليبية بشكل نهائي، بل امتدت هذه الحروب في الوطن الإسلامي بعده أيضاً. كيف وقد وقعت حرب ضروس في سنة ٥٩٣ هـ بين الملك العادل ابى بكر بن

ايوب وبين الإفرنج، فأنقذ مدينة يافا من الساحل الشامي من يد الإفرنج (٢) وقد ذكر ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٦١٤: «أن الإفرنج اقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ٦١٥ فساروا في البحر إلى دمياط، فوصلوا في صفر، فأرسلوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل...» (٣). زحف التتار إلى البلاد الإسلام

قد ذكر المؤرخون بعض الدوافع لاشتعال هذه الحرب في أوائل القرن

١. تاريخ مختصر الدول، للملطي المعروف بابن العبري، المتوفى ٦٧٥ هـ.

٢. الكامل ج ١٢ ص ١٢٦.

٣. الكامل ج ١٢ ص ٣٢٣. (١٥)

السابع بين الوثنيين والمسلمين قالوا: إن ملك التتار المعروف بـ «جنكيز خان» قد سیر جماعة من التجار ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى ما وراء النهر، سمرقند وبخارى، ليشتروا به ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى «أوترار» وهي آخر ولاية «خوارزم شاه» وكان له نائب هناك، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتار أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال، فقتلهم وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى خوارزم شاه فزقه على تجار بخارى و سمرقند، وأخذ ثمنه منهم، فبلغ الخبر إلى جنكيز خان فأرسل رسولا إلى خوارزم شاه يقول: «تقتلون أصحابي و تجاري وتأخذون مالي منهم، فاستعدوا للحرب فإنني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به» (١). ويظهر من بعض الآثار أن يد بعض الأساقفة كانت وراء تحريض ملك التتار على الزحف والحرب، يقول ابن العبري: «عظم الأمر عند جنكيز خان وتأثر منه إلى الغاية وهجره النوم، وصار يحدث نفسه ويفكر في ما يفعله، ففي الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد ويده عكازة وهو قائم، فذكر رؤياه للأسقف فقال الأسقف: يكون الخان قد رأى بعض قديسينا، ومن ذلك الوقت صار يميل إلى النصراري ويحسن الظن بهم ويكرمهم، ومن هذه السنة (٦١٤) قصد جنكيز خان البلاد الإسلامية» (٢). الداهية العظمى أو خروج التتار إلى بلاد الإسلام إن عظمة الداهية بلغت حداً لا يستطيع القلم واللسان تبينها وترسيمها ولا يستطيع المسلم أن يسمع ذكراً منها أو يقرأ فصلاً من فصولها، حتى أن ابن الأثير بقي عدة سنين معرضاً عن ذكر الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم علل إعراضه عن تحرير هذه الواقعة

١. الكامل ج ١٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢.

٢. تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٠. (١٦)

بقوله: «ومن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلا أنه حتى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رايت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم و إلى الآن لم يبتلوا بمثله لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر بنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لن يروا مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجال فإنه يبقى على من أتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإننا لله و إننا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وصارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها

ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً، وتخريباً وقتلاً، ثم يتجاوزونها إلى الري، وهمدان، وبلد الجبل وما فيها من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية يخربونها ويقتلون أكثر أهلها ومن ينجو إلا الشريد الفارّ (فعلوا كل ذلك) في أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية صاروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه (١٧)

ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم، قتلاً، ونهباً، وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفاقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير. ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد. وهذا ما لم يطرق الأسماع مثله. فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً. وإنما رضى من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبق في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم إليه» (١) . ثم إن ابن الأثير تتبع مسير التتار وهجماتهم الوحشية، فذكر الحوادث المفجعة سنة بعد سنة، إلى أن وصول إلى حوادث (٦٢٨ هـ) وبعدها بقليل . وأظن أن فيما ذكره على وجه الإجمال غنى وكفاية، ولا يحتاج إلى سرد التفاصيل التي جاءت بعد هذا الإجمال، ولكنه لم يدرك الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين عند سقوط بغداد، ولكن المؤرخين الذين جاءوا بعده ذكروا سقوط العاصمة في أيدي أولئك الوحوش الضواري، وقد ارتكبوا جرائم لا تغسل عن ساحة الذاكرة الإنسانية بماء المحيط، فضلاً عن البحر والنهر، ولاجل إيقاف القاريء على مدى الخسائر الفادحة الروحية والجسدية الواردة على المسلمين، نذكر من تلك الهجمات العديدة هجومهم على بغداد، فإنه يوقفنا على حقيقة ما جرى في غيرها، معتمدين في ذلك على ما سطره ابن كثير في تاريخه. _____

١ . الكامل لابن الأثير ج ١٢ ص ٣٥٨ - ٣٦١ . (١٨) سقوط الخلافة العباسية بأيدي وحوش التتار

لم تستهل هذه السنة إلا وجنود التتار قد أحاطت ببغداد بصحبة الأميرين اللذين على مقدمه عساكر سلطان التتار، هولاكوخان، وقد جاءت إليهم أمداد صابح الموصل يساعدهم على البغادة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر «لن يغنى حذر عن قدر» وكما قال تعالى: (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ) (١) وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ) (٢). وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة خطاياها، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفرع فرعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: «إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب عن ذوى العقول عقولهم» فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة وكان قدوم هولاكوخان بجنوده كلها - وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل - إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة. ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وعلى أبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثونهم ويحزنون على الإسلام وأهله . ولما فتحوا البلد، قتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء _____

١ . سورة نوح: الآية ٤ .

٢ . سورة الرعد: الآية ١١ . (١٩)

والوالدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار و أماكن الحوش، وقنى الوسخ، وكمنا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون في الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجرى الميازيب من الدماء في الأزقة، فإننا لله وإننا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم... وطائفه من التجار أخذوا لهم أماناً، وبذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها، كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقله. وقد جرى على بنى إسرائيل بيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد، كما قص الله تعالى، علينا ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول: (وَقَضَّيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاشُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا) (١). وقد قتل من بنى إسرائيل خلق من الصلحاء، وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعد ما كان معموراً بالعباد والزهاد والأخبار والأنبياء، فصار خاوياً على عروشه واهى البناء. وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفى نفس، فإننا لله وإننا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً. ولما انقضى الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على

١. سورة الإسراء: الآية ٥٤-٥٥. (٢٠)

عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، القتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الرياح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والطعن والطاعون فإننا لله وإننا إليه راجعون. ولما نودي ببغداد الأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی، وكان رحيل السلطان المسلط هولوكوخان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة (٦٦٦ هـ) إلى مقر ملكه (١). ثم امتدت الهجمات بعد سقوط بغداد حتى وصل جيش العدو إلى عين جالوت وغزة في فلسطين، وكانت الأمانة الكبرى للعدو هي الاستيلاء على الشامات ثم مصر، ولكن الزحف توقف بتدبير الملك الظاهر بيبرس (٦٥٩ - ٦٧٦ هـ) ولكن العدو حاول الاستيلاء ثانياً على الشامات... (٢). وهذا الياقعي يتبع مسير التتار وهجومهم، فيقول في حوادث عام ٧٠٠ هـ: «حصلت أراجيف بالتتار وجاء غازان بجيشه الفرات وقصد حلب فتشوشت الخواطر...». ويقول في حوادث عام ٧٠٢ هـ: «طرق غازان الشام ولكن انهزم عند سور دمشق وتفترقت جيوشه، ثم جهز غازان جيوشه فصاروا إلى مرج دمشق وتأخر المسلمون وبات أهل دمشق في بكاء واستغاثة وخطب شديد، وقدم

١. البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٠٠-٢١٣.

٢. فيليب حتى. تاريخ العرب المترجم إلى الفارسية، ج ٢ ص ٨٨٣، ٨٥١، ٨٢٨. (٢١)

السلطان وانضمت إليه جيوشه...» (١). هذا قليل من كثير مما جنت يد التتار على الإسلام والمسلمين، وقد امتد الدمار والهلاك بعد هذه السنة حتى تجاوز القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن. فابتدأت الحروب التتارية من عام ٦٠٣ هـ وانتهت عام ٨٠٧ هـ بموت تيمورلنك الذي تظاهر هو بالإسلام وبعض من قبله، ولكن لمن تزل القلوب مضطربة باستيلاء هؤلاء على المناطق الإسلامية. * * * إبادة المسلمين في الأندلس

انتهت الحروب الصليبية والتتارية في مختتم القرن الثامن، ولكن نار الحرب بين المسلمين والمسيحيين كانت مشتعلة في الوطن

الإسلامي «الأندلس» عن طريق إبادة المسلمين وإجلانهم عن وطنهم والتنكيل بهم . إن المسلمين بفضل المجاهدين الإسلاميين وصلوا إلى تلك البلدة الخصبة عام ٩٢ هـ واستمروا في الفتح إلى أن وصلوا إلى قلب فرنسا عند مدينتي «تور» و«بواتيه» عام ١١٢ هـ (٢) وهناك توقفت الفتوحات بسبب ضعف القيادة الإسلامية في بغداد، وقطع صلة الحكام بالأندلس عنها، وعند ذلك طمع الصليبيون في سلب تلك البلدة من أيدي المسلمين، فبدأوا بالحروب ضدهم، وكانت الأندلس في نهاية القرن الخامس الهجري قد انقسمت إلى عدة ممالك صغيرة، عرف حكامها بملوك الطوائف، وكان نصارى الشمال يهددون هذه المنطقة» (٣) . إلى أن حلت الهزيمة بالمسلمين في موقعة العقاب في ١٥ صفر ٦٠٩ هـ أي في نفس الوقت الذي كان التتار قد بدأوا بشن الغارة على المسلمين من الشرق إلى الغرب وبالتالي زال سلطان «الموحدين» وسقطت هذه البلاد في يد _____

١ . مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

٢ . دائرة المعارف الإسلامية، مادة «أندلس» .

٣ . تاريخ الإسلام، تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٤ ص ٥٣٧ . (٢٢)

«الإسبان» ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرقي إسبانية حيث قامت مملكة «غرناطة» الإسلامية على أيدي بني نصر (بنى الأحمر) الذين بايعوا الخليفة الحفصي أقوى حكام المغرب في ذلك الحين (١) . ولكن العدو لم يرض بما اكتسب من الفتوح فشّن الغارة عليهم حتى أبادهم عام ٨٩٨ هـ فصار الأندلس كله للإسبان. ثم إن التاريخ يحكى لنا تعامل الإفرنج مع المسلمين معاملة سوء، حيث أجبروهم على التنصير وعلى خروج النساء مكشوفات، فهرب المسلمون إلى الجبال فصاروا يطاردونهم كما تطارد الفرائس. وقد عدّ بعض المؤرخين عدد العرب المطرودين في قرن واحد (أي من عام ٧٩١ إلى عام ٨٩٨ هـ) نحواً من ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلماً . و أنت إذا قرأت التاريخ وقلبت صفحاته تقف على أن هذه القرون الأربعة أي من بداية ٥٠٠ إلى ٩٠٠ هـ شرّ القرون وأسوأها بالنسبة إلى المسلمين، فقد حلت بهم عقوبات وضحايا لم يسجل التاريخ لواحد من الأمم مثلها، وإليك مبدأ هذه الحروب ومختتمها: ١- الحروب الصليبية. بدأت من عام ٤٨٩ هـ واستمرت إلى عام ٦٦٠ هـ . ٢- الحروب التترية، ابتدأت من عام ٦٠٣ هـ وانتهت عام ٨٠٧ هـ بموت تيمور لنگ الذي تظاهر بالإسلام . ٣- إبادة المسلمين في الأندلس و إجلاؤهم بعد انحصار سلطانهم في منطقة صغيرة في غرناطة، ابتدأت من عام ٦٠٩ إلى ٨٩٨ هـ . حصيلة البحث

نحن نستنتج من هذا البحث الضافي أن الخلافة العباسية وملوكها وسلطانيتها بلغوا من الفساد والانحلال إلى حدّ غاب عنهم معه ما كان يجري _____

١ . المصدر نفسه، ص ٣١٨ . (٢٣)

خارج قصورهم، فقد كانت القوى الكافرة محيطت بدار الخلافة، والخليفة كان غافلاً عمّا يجري خارج القصر، وكانت تلعب بين يديه جاريته فلم يوظفه من الغفلة أو السكره إلا إصابة نبل الخصم لجاريته، فإذا كان هذا هو الإسلام وهذا خليفته، وهذا شعوره وإحساسه، فعلى الإسلام السلام، وعلى تلك الخلافة العفاء . وقد عرفت أن ابن الأثير كان من المشاهدين للقضايا عن كذب، ويعرف الخلفاء وسلطانهم بأنهم بلغوا من العقلية إلى درجة لا يهتمهم إلا ما يهتم البهيمة من إشباع بطنها وإرضاء فرجها (١) . ومن المعلوم أن الفساد لم يكن مقتصرًا على بلاط الخلفاء، بل الانحلال الخلقى والانحطاط المعنوي كان سائداً على الغالبية العظمى من المجتمع، إذ الناس على دين ملوكهم، ومن العجب أن المؤرخين الأبعاد يحملون وزر سقوط الخلافة العباسية على عاتق الوزير الشيعي مؤيد الدين ابن العلقمي، الذي يصفه ابن الكثير بقوله: «وكان عنده فضيلة في الإنشاء وليديه فضيلة في الأدب» ويضيف أيضاً: «إنه أشار على الخليفة بأن يبعث إلى هولاءكو بهدايا سنية ليكون ذلك مدارة له عمّا يريد من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير «أبيك» وغيره، وقالوا إن الوزير إنّما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاءكوخان» (٢) . ومن الظلم إلقاء جريرة سقوط بغداد على عاتق هذا الوزير مع كون الخليفة على الحال

التي سمعتها من ابن الكثير، وكون الملوك والسلاطين لا يهتمهم إلا - بطنهم وشهوتهم، مع اشتعال نار الخلاف بين الرؤساء والقادة الشاغلين منصفه قيادة المجتمع الإسلامي، فلا تنتج تلك المقدمات إلا - هذا الوضع الويل، إنا لله و إنا إليه راجعون .

١ . الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٧٥ .

٢ . البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٤ . (٢٤) الحواضر الإسلامية آنذاك، دواؤها وذواؤها

قد تعرفت على الأوضاع المؤسفة السائدة في الحواضر الإسلامية، وما آلت إليه من الدمار والهلاك والمذابح الفظيعة، والمجازر الرهيبة التي تعرض لها سكانها الأبرياء، بسبب تلك الحملات العدوانية، وعندئذ نسأل كل مسلم حر الضمير عن دواء هذا الداء الذي ألم بالمسلمين، وعلاج تلك المأساة التي وقع فيها الإسلام؟ ولا - أشك في أن دواءها الوحيد كان هو إحياء التعاليم الإسلامية - آنذاك - في مجال الجهاد والمقاومة، وإعادة الثقة إلى النفوس، والعمل على تقوية المعنويات ورفع المستوى العسكري لدى المسلمين عملاً - بقوله تعالى: (وَاعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعِدُّوا لِلَّهِ وَعِدُّواكُمْ) (١) . ثم السعي في توحيد ما تفرقت وتشقت من صفوف المسلمين، وحثهم على تعمیر ما تهدم من حضارة الإسلام، وإحياء شتى مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما انهارت تحت ضربات الأعداء من الشرق والغرب . ولا يكون ذلك إلا بإعادة العلم الناجع إلى الساحة، وتناسي الخلافات الفرعية، والدعوة إلى التمسك بمبادئ الوحدة، وتجسيد قوله سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (٢) ورفض البحث عن الخلافات التي تثير النزاع، وتوجد الفرقة وتمزق الصفوف . هذا ما يحكم به ضمير كل إنسان حر، فلو وجدنا في مثل هذه الظروف العصبية من يثير نار الخلافات الطائفية والمذهبية، وبالتالي يضرب المسلم بالمسلم ويشغلهم بالبحث عن فروع ليس لها من الأهمية بالقياس إلى علاج الدمار الرهيب الذي حل بالمسلمين - لو وجدنا رجلاً بهذا الوصف والنعته - فلا نشك أن نعته نعمة جاهلية، وحرته حركة مشبوهة، ودعوته دعوة منتنة

١ . سورة الانفال: الآية ٦٠ .

٢ . سورة الحجرات: الآية ١٠ . (٢٥)

حسب تعبير النبي، ومن الظلم والجناية على الإسلام والمسلمين تلقيب هذا الداعي بـ «شيخ الإسلام» أو «محيي الشريعة» أو «محيي السنة» أو غير ذلك من ألفاظ الثناء الوافر الذي يوصف به هذا الرجل في هذا القرن، بترغيب وترهيب من أصحاب الثراء والسلطة، بعد أن كان معروفاً بغيرها في القرون الغابرة، كما ستوافيك كلمات معاصريه ومن جاء بعدهم إلى هذه الأعصار . إن طرح الخلافات الكلامية والفقهية - في العصر الذي كانت القوارع تنصب فيه على رؤوس المسلمين من الشرق والغرب، وتهدم الديار وتقتل النفوس البريئة، وتشق بطون النساء والأطفال، ويرفع الرجال على أعواد المشاتق وتخضب الأراضي بدماء المسلمين - ما هو إلا من قبيل صب الزيت على النار، وتعميق الجرح غير المندمل . إن طرح المسائل على ضوء العقل إذا كان لغاية التعرف على الحقائق أمر يستحسنه العقل ويقبله الشرع في جميع الحالات ولكن طرح هذه المسائل على وجه يتضمن تكفير الفرق الإسلامية واتهامهم بالشرك، وتجويز قتلهم وإهدار دمائهم، في الوقت الذي غمس العدو يده في دمائهم إلى مرفقه، وقتل منهم الملايين، لا يصح تفسيره إلا بأحد وجهين: إما أن يكون رجلاً غيبياً لا يعرف الداء ولا الدواء، أو رجلاً معقداً مغرماً بالشهرة وحب العظمة . وما هذا الرجل إلا أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية (ت ٦٦١ - م ٧٢٨ هـ) فقد ولد في شر القرون وعاش في أجوائها الصعبة على المسلمين، ومات في ظروف الهزيمة التي حلت بالمسلمين، لعل تعرفت عليها، فقد أثار في تلك الظروف العصبية مسائل خلافية لا تزيد في الطين إلا بله ولا في الجرح إلا تعميقاً، فهو بدل أن يعيد إلى الساحة الإسلامية الأخلاق والعمل بالإسلام، ويعظ الملوك والساسة بالقيام بالوظائف وفتح معسكرات لإعداد الشباب وتدريبهم، وإيجاد روح الكفاح، تجده يرفع عقيرته بالمسائل التي لا تعود على المسلمين في تلك الظروف العصبية بشيء سوى تعميق الخلاف وتعكير الصفو، وتشديد النزاعات المذهبية والطائفية . ورؤوس المسائل التي طرحها ابن تيمية وأصر عليها

وخالف الرأي العام (٢٦)

للمسلمين - ولأجل ذلك اعتقل ونفى إلى مصر - هي الأمور التالية: ١- يجب توصيفه سبحانه بالصفات الخبرية بنفس المعانى اللغوية من دون تصرف، كالاستواء على العرش، و أن له يداً ووجهاً، وأن له نزولاً وصعوداً. ٢- يحرم شد الرحال إلى زيارة النبي وتعظيمه بحجة أنها تؤدى إلى الشرك. ٣- يحرم التوسيل بالأولياء والصالحين. ٤- تحرم الاستغاثة بالأولياء ودعوتهم. ٥- يحرم بناء القبور وتعميرها. ٦- لا يصح أكثر الفضائل المنقولة في الصحاح والسنن في حق علي وآله . إلى غير ذلك من المسائل الفرعية في أبواب الطلاق وغيرها كما ستقف عليها عند عرض آرائه. هب أيها القارىء لما أن تبناه من الآراء مسحة من الحق - وليست آراء ساقطة تضاد القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة المسلمين - هب أنها آراء صحيحة - ولكنها هل كانت مفيدة في تلك الظروف، هل كانت دواءً لداء الأمة الإسلامية؟ أو كانت أموراً غريبة عما يجب القيام به، بل كانت مؤيدة لما يتوخاه العدو من تشتيت الشمل وتمزيق الصفوف؟! إن من البداهة بمكان أن هذه المسائل لم تكن مما يخشاه العدو، فإن هذا النوع من المسائل الجدلية لا تفضح نوايا العدو ولا تعرقل خطته، لأنها لا تعيد إلى المسلمين روح الوثبة والمقاومة والاستبسال، بل من شأنها أن تستنفد طاقاتهم من دون جدوى، و تفنى قواهم من دون أثر يتصل بالواقع . فلو كان ابن تيمية «شيخ الإسلام» حقاً لكان عليه أن يدع ما يلهي المسلمين عن مصيرهم، بل ما يعمق محتهم، ويتصدى لمواجهة العدو بإعادة الروح الجهادية إلى نفوسهم، وبث المعنويات في قلوبهم، وتوجيه همم (٢٧) المسلمين، إلى إعادة بناء كيانهم العسكري والصناعي والعلوم الناجعة، حتى يستعيدوا بذلك مجدهم المندثر الذي تألق في القرن الرابع الهجري . ويا للأسف إنه بدل القيام بوظائف شيخوخة الإسلام الحقيقية انصرف إلى مسائل اجتهادية ليست ناجعة في ذلك العصر ولا بعده . ابن تيمية لم يكن سلفياً

إن الموالين لابن تيمية والمقتفين أثره يصفونه بالسلفية، ويتقولون فيه بأنه محيي مذهب السلف. هب أن السلفية مسلك ومذهب، ولكن السلفية عبارة عمّن لا- يتخطى عما سلكه السلف الصالح طيلة قرون سبعة، ولكن آراءه وأفكاره على طرف النقيض من آراء السلف. إن المسلمين طيلة قرون كانوا يحترمون قبر النبي ويزورونه، ولم تقع الزيارة في تلك العصور ولو مرة واحدة ذريعة إلى الشرك، بل كان الداعى إلى زيارته في كل فترة من الفترات، كونه نبي الإسلام نبي التوحيد، ومكافح الشرك ومنازعه، فيجب احترامه وتكريمه وحفظ آثاره وقبره، وآثار أصحابه وزوجاته وأبنائه انطلاقاً من هذا المبدأ (أى كونه نبي التوحيد، مشيد بنائه الشامخ) ولكننا نرى أن ابن تيمية يخالف هذه السيرة الموروثة من الصحابة إلى زمانه، ويحرم شد الرحال إلى زيارته تمسكاً بحديث غير دال على ما يرتثيه، كما سيوافيك. إن المسلمين طيلة القرون الغابرة إلى ميلاد ابن تيمية كانوا يتبركون بالنبي وآثاره، ولا يرون ذلك شركاً ولا ذريعة إليه، حتى أن الشيخين أوصيا بموارثتهما في جوار النبي، لما استقر في قرارة ضميرهما بأن للمكان شرافة ومكانة بالغين، وأن الموارد في ساحة النبي لها كرامته، ولم ينس أحد من الصحابة بينت شفه بأن ذلك ذريعة إلى الشرك، إلى أن ألقى الشر بجرانه إلى الأرض بميلاد ابن تيمية وآرائه الساقطة، فجعل ينكر هذا العمل ويخالف السلف. إن السلف الصالح في حياة النبي وبعده كانوا يستغيثون بالنبي لما له من كرامة عند الله، لما أمرهم الله سبحانه بالمجىء إليه وطلب الاستغفار منه، ولم يخطر ببال أحد أن الاستغاثة بالملخوق شرك أو ذريعة إلى الشرك، وكان هذا (٢٨)

ديدن السلف في جميع القرون، فجاء ابن تيمية ينكر الاستغاثة والتوسل، ثم يصف نفسه سلفياً، فما معنى هذه السلفية؟ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل) . تقييم إنجازات ابن تيمية

إن قيمة كل امرئ بما يقدمه إلى الأمة من خدمات وخيرات، فإما أن يشيد بناء ثقافتهم ويضمن تقدمهم في ميادين العلم والعمل، ويرفع من مستوى أخلاقهم وسلوكهم الإنساني والإسلامي، وإما أن يرفع مستوى معيشتهم ويسعى في ترفيهم بمشايخ البر والإحسان، من بناء المدارس ومراكز التعليم والمستشفيات والمستوصفات، ودعم الكفاح بالتدريب العسكري وغيره مما يرجع إلى دعم البنية المادية للمجتمع. هلم معي نطرح إنجازات ابن تيمية على طاولة النقاش والمحاسبة، فهل قام بأحد الأمرين؟ أمّا من جانب المعنى

فلم نر أنه قدم إلى المجتمع، دراسة نافعة في الحقوق والسياسة والاقتصاد أو الاجتماع، أو ألف جامعاً حديثاً يكون هو المرجع للمسلمين كما قام بعض معاصريه بهذا الأمر، فلم يبق منه إلا التركيز على المسائل التي قدمنا رؤوسها والتي كُفّر بها مخالفه، وبالتالي كُفّر جمهور المسلمين الذين عاشوا طيلة سبعة قرون. هب أنه قدم إلى المسلمين دراسات توحيدية، ولكن ما كانت نتيجة تلك الدراسات، فغاية ما أنجز وأتى - بعد ما تصوب وتصعد - أنه يجب توصيفه سبحانه بنفس الصفات الخيرية بمعناها اللغوي، فصار معناه هو التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة والفوقية لله سبحانه، وقد فهم الكل هذا المعنى من دراساته. هب أنه لم يقصد من إثبات هذه الصفات ما نسب إليه من الجسمية، ولكنه صب ما رآه في قوالب أدعَن الكُل - الداني منهم والنائي - بأنه مُجسّم مشبه مُثبت لله سبحانه الجهة والفوقية، مع أنه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، وأنه ليس كمثله شيء. ما معنى هذه الدراسات العميقة التي لم تورث إلا هذه الأفكار الباطلة، (٢٩)

وسوف يوافقك أن الرجل مجسّم وإن كان لا يتفوه به، ولكن جُمَله وألفاظه وعباراته وما أصرّ عليه لا تنتج إلا ذلك. وقس عليه سائر إنجازاته من جانب المعنى، فقد منع شد الرحيل إلى زيارة النبي الأكرم، مع أن قبور الأنبياء لم تزار تزل من عصر النبي وقبله وبعده، وليست الغاية من زيارتهم إلا - التوقير والتكريم و عقد الميثاق مع ما جاءوا به من أسس التوحيد، فكيف يكون ذلك ذريعة إلى الشرك؟ وحصيلة البحث هي أننا لم نجد في جميع إنجازاته شيئاً بديعاً يرفع به رأسه ويفتخر به على من سواه، سوى ما في كلامه من الغلظة والأذى. اللسان والقلم مرآتان للضمير

إن اللسان والقلم مرآتان للضمير صاحبهما يعربان عن نفسيته الخبيثة أو الطيبة، الشريرة أو الخيرة، فاللسان البذيء يكشف عن نفسيته المستهتره المريضة، كما أن اللسان ومثله القلم التزيهين يكشفان عن ملكة فاضلة. ومن رجع إلى كتب ابن تيمية يعرف أنه ما كان يملك لسانه وقلمه عن التقول على المسلمين والتهجم عليهم فجاءت كتاباته مليئة بالقول البذيء وإساءة الأدب، الذي هو على طرف النقيض من الإسلام والعلم. ابن تيمية في مرآة الرأي العام

ولقد كانت ثورة الرأي العام الإسلامي عليه من جانب الفقهاء والحكام والمتكلمين والمحدثين أدل دليل على انحرافه عن الخط المستقيم والطريق المهيع، فليس من القضاء الصحيح تخطئة جمهور المسلمين وتصويب رجل واحد، فمنذ نشر الرجل رأيه حول الصفات الخيرية عام ٦٩٨ هـ في «الرسالة الحموية» جاءت الاستنكارات تترى من جميع الطوائف، وكلما تعرض الرجل للعقائد الإسلامية التي اطبقت عليها الأمة في جميع القرون، تعالي الاستنكار، حتى ألقى عليه القبض ونفى من بلد إلى بلد، وتعرض لاعتقال بعد اعتقال، إلى أن منع من القرطاس والكتابة، حتى مات في السجن ممنوعاً من كل شيء. ولو كان الرجل شيخ الإسلام ورائده وناصحه، لما ضاق عليه المجال من (٣٠)

جانب أبناء جلدته من قضاء وحكام: شوافع وأحناف. نعم الأسف كله على الناشئة الجدد الذين وقعوا فرائس في أحابيل الدعاية الوهابية التي يقودها النظام السعودي ويغذيها بثروته الواسعة، ويدعمها الاستعمار الغاشم لغاية إضعاف المسلمين بالخلافات وإشغالهم بقضايا ومسائل لا تمت إلى الحياة بصله. ولأجل ذلك نضع حياة الرجل وشخصيته أولاً، وآراء معاصريه ومن جاء بعده في القرون اللاحقة في حقه في ميزان النقد والقضاء ثانياً، ثم نبحت عن آرائه وأفكاره ونعرضها على الكتاب والسنة ثالثاً، حتى يتبين الحق ويظهر، ويزهق الباطل.

ابن تيمية: حياته والرأي العام فيه

ابن تيمية: حياته والرأي العام فيه

هو أحمد بن عبد الحلیم الحرانی الدمشقی، ولد في العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ، بعد خمس سنوات من سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، وانغمار المسلمين في مشاكل كثيرة. كان مولده بمدينة حران مهد الصابئة والصابئين من أقدم عصور الإسلام،

وقد نشأ النشأة الأولى إلى أن بلغ السابعة من عمره، فلما أغار عليها التتار، فرّ سكانها منها، وكان ممن هاجر أسرة ابن تيمية، حيث هاجرت إلى دمشق، وقد اتّجه إلى العلم منذ صغره، وكان يدرس الفقه الحنبلي ويتتبع سير ذلك المذهب، وكان أبوه من شيوخ هذا المذهب، ففي المدارس الحنبلية تخرج ابن تيمية، ودرس في كنف أبيه وتوجيهه ولم ير منه بادرة إلا بعد ما كتب رسالته في جواب سؤال أهل حماة، سأله بقولهم: «ما قول السادة العلماء أئمة الدين - أحسن الله إليهم أجمعين - في آيات الصفات، كقوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وقوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) إلى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات، وأيضاً كقوله (صلى الله عليه وآله): «إن قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن» وقوله: «يضع الجيّار قدمه في النار» إلى غير ذلك، وما قالت العلماء فيه، وليسطوا القول في ذلك ماجورين إن شاء الله؟» (١) .

١ . الرسالة الحموية، ص ٤٢٥ - طبعت في ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ج ١ . (٣٢)

فأجاب بما هو نص في التجسيم، وإن ذيل كلامه بشيء يريد به الستر على عاره، ولكنه لا يسمن ولا يغنى من جوع، وسيوافيك نصه عند تبين عقائده، فوجد الجواب ضجة كبرى، وعرف بالشذوذ والانحراف، وكان ذلك عام ٦٩٨ هـ يقول تلميذه «ابن كثير» في حوادث تلك السنة: «قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي «جلال الدين الحنفى» فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماة، المسماة بالحموية...» (١) . وقد كانت له محنة أخرى في عام ٧٠٥ هـ يذكره ابن كثير في حوادث تلك السنة ويقول: «وفي يوم الإثنين ثامن رجب حضر القضاء وفيهم «الشيخ تقي الدين ابن تيمية» عند نائب السلطنة بالقصر، وقرأت عقيدة الشيخ تقي الدين (الواسطية)، وحصل بحث في أماكن منها، وأُخرت مواضع إلى المجلس الثاني، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر الشهر المذكور، وحضر الشيخ صفى الدين الهندي وتكلم مع الشيخ تقي الدين كلاماً كثيراً، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين الزملكاني هو الذى يحاqqه من غير مسامحة، فتناظرا في ذلك وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين الزملكاني، وجوده ذهنه، وحسن بحثه، حيث قاوم «ابن تيمية» في البحث وتكلم معه... ثم عقد المجلس في يوم سابع شعبان بالقصر، واجتمع الجماعة على الرضى، إلى أن صدر القرار بنفى الشيخ إلى مصر إن لم يعزف عن بواده وعقائده، فأدى به الأمر إلى انتدابه في مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة، وانتدب للبحث معه شمس بن عدنان، وأدعى عليه عند «ابن مخلوف» المالكي أنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقته، وإن الله يتكلم بحرف وصوت، فحكم عليه القاضي بالحبس في برج أياما، ثم نقل منه إلى الحبس المعروف بالجب، وكتب

١ . البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤ و ٢٦ . (٣٣)

كتاب نودى به في البلاد الشامية والمصرية، وفيه الحط على الشيخ تقي الدين، فانضم إلى صفه جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانته عظيمة (١) . بقى الشيخ في السجن بسبب عقيدته التي لا تجتمع مع عقيدة جمهور المسلمين حتى مطلع سنة (٧٠٦ هـ) . يقول ابن كثير: وفي ليلة عيد الفطر من تلك السنة، أحضر الأمير سيف الدين سلاز نائب مصر، القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء، فالقضاة: الشافعى والمالكي والحنفى، والفقهاء: الباجى، والجزرى، والمنوارى، وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الحبس، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطاً في ذلك منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض عقائده، فأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع عن الحضور . استهلّت سنة (٧٠٧ هـ) والشيخ معتقل في قلعة الجبل بمصر، إلى أن أُطلق سراحه يوم الجمعة ٢٣ من ربيع الأول، وخير بين الإقامة بمصر أو الروح إلى موطنه الشام، وقد اختار هو الإقامة بمصر، ولكنه لم يبرح في غلوائه وأفكاره إلى أن واجهته محنة ثالثة، وقد ذكرها ابن كثير أيضاً في تاريخه. المحنة الثالثة

وفي شوال عام ٧٠٧ هـ، شكى منه أيضاً، فردّ الأمر إلى القاضي الشافعى، فعقد له مجلس، وأدعى له ابن عطاء بأشياء ورأى القاضي بدر الدين بن جماعة أنّ في آرائه قلة أدب بساحة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فحضرت رسالته إلى القاضي إلى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فتمّ الأمر بحسبه في سجن القضاة، ودخل السجن، وأُفرج عنه في مستهل سنة ٧٠٨ هـ وبقي في القاهرة إلى أن توجه

منفياً إلى الإسكندرية في ليلة سلخ صفر في عام ٧٠٩ هـ وأقام هناك ثمانية أشهر إلى أن تغيرت الظروف، فعاد
١. المصدر نفسه. (٣٤)

الشيخ منها إلى القاهرة يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ فاقام بها إلى سنة ٧١٢ هـ ثم رجع إلى الشام (١). وشغل الشيخ منصبه التدريس والإفتاء إلى سنة ٧١٨ هـ. وقد صدر منه فتاوى شاذة، وكان مصرّاً عليها، فعقد له يوم الخميس ثاني رجب من شهور سنة ٨٢٠ هـ مجلس بدار السعادة، فحضر نائب السلطنة، وحضر القضاة والمعنيون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه، ثم حبس في القلعة خمسة أشهر، إلى أن ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء، سنة ٧٢١ هـ. وظل الشيخ بعد خروجه من الحبس مستمراً في التدريس إلى عام ٧٢٦ هـ. يقول جمال الدين يوسف بن تغرى الأتابكي: «ورد مرسوم شريف من السلطان في شعبان سنة ٧٢٦ بأن يجعل في قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولاً بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواتاً [دواة] ولا قلماً ولا ورقاً» (٢). وقال الياغى: «مات بقلعة دمشق الشيخ الحافظ الكبير، تقي الدين أحمد، بن تيمية، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق» (٣). هذا، وقد لفظ الرجل نفسه ومات في قلعة دمشق عام ٧٢٨ هـ وبذلك طويت صحيفة حياته، وبقيت آثاره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. إن ما تلوناه عليك من حياته يعرب: أولاً: إنه لم يكن رجلاً موضوعياً يهتم ما كان يعاني منه المسلمون في تلك الظروف العصيبة، التي كانت الدعوة إلى الوحدة فيها أحوج ما يحتاج إليه

١. البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٢، وكانت إقامته بمصر سبع سنين.

٢. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ص ٣٤٠.

٣. مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٧٧. (٣٥)

الناس، فكان يبث بذور الخلاف فترة بعد فترة، ويشغل الحكومات والقضاة عن القيام بالواجب بنقل الشيخ من مقام إلى مقام. وثانياً: إن جماهير الفقهاء والقضاة كانوا يخالفونه فيما يبديه من الآراء الشاذة، في مجال الأصول والفروع، وإن آراءه كانت مخالفة لما هو المشهور المجمع عليه بين العلماء. وثالثاً: إن الرجل كان معروفاً بالقول بالتجسيم والتشبيه والجهه، وكان اعتقاله لأجل التفوه بها، فكل من أراد تنزيهه عن هذه التهمة، خالف الرأي العام في حقه وما عرف منه يوم حياته.

نعم إن هناك أناساً ترجموا للرجل ترجمة وافية، فأثنوا عليه الثناء البالغ، وذكروا ذكاه وتوقد ذهنه، وإحاطته بالكتاب والسنة، كما ذكروا آثاره العلمية من كتب ورسائل، ولكن يؤخذ عليهم بأنه لماذا ركزوا على جانب واحد من حياته، ولم يسيروا إلى الجانب السلبي منها، فإنه لا يمكن لأحد تخطئه أولئك العلماء الذين ناظروه، وباحثوه، وأصدروا أرائهم فيه، وهم كثيرون، ولأجل ذلك نشير إلى المصادر التي أخذتها العصبية العمياء فجاءوا كأنهم يعرفون رجلاً أطبق علماء عصره على نزاهته وصفاء فكره، فمن أراد أن يقف عليها فليرجع إلى المصادر التالية: ١- تذكرة الحفاظ للذهبي ١٤٩٦/٤، بالرقم ١١٧٥. وإن استدرك زلته هذه بيث رسالة مستقلة إلى ابن تيمية يستنكر فيها عليه أعماله وأقواله كما ستوافيك. ٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (م ١٠٩٨) ٦/٨٠. ٣- طبقات الحفاظ، لجلال الدين السيوطي، (ت ٩١١ هـ)، ص ٥٢. ٤- الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب زين الدين، أبي الفرج، عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، (٧٣٦ - ٧٩٥ هـ) ٢/٣٨٧، بالرقم ٤٩٥. (٣٦)

٥- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين، خليل بن أيبك الصفوى ٧/١٥ - ٣٣ بالرقم ٢٩٦٤. ٦- طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (م ٩٤٥ هـ)، ص ٤٥ - ٤٩ بالرقم ٤٢. ٧- تاريخ الشيخ زين الدين عمر، الوردى، المعروف بتاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٤٠٦. ٨- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تأليف محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)، ج ١ ص ٦٣ - ٧٢ بالرقم ٤٠. ٩- البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين، أبي الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، (م ٧٤٤ هـ)، ج ١٤، في حوادث سنة (٦٩٨ هـ)، وغيرها. ولكنه أشار في مواضع آخر إلى بعض زلاته ومخالفته للرأي العام في ذلك اليوم كما عرفت. ١٠- الأعلام

للزركلى، ج ١ ص ٤٤. نعم هؤلاء هم الدين ركزوا على الجانب الإيجابي وتناسوا الجانب السلبي، مع أن التقييم لا يصح إلا بملاحظة كلا- الجانبين، ولكن هناك جماعة موضوعيين واقعيين، لم تملأ- عيونهم كتب الرجل ورسائله، فجاءوا بتقييم آرائه فيما صار سبباً لاشتهاره، وإليك نصوص هؤلاء حتى لا نخرج في التقييم عن حد العدل. آراء معصاريه ومقاربي عصره في حقه قد تعرّف على حياة الشيخ وأنه لم يزل ينتقل من معتقل إلى آخر، ومن مصر إلى مصر، وكان الرأي المتفق عليه بين القضاة والمعنيين من الحكام هو أنه رجل يصدر عن عقائد وآراء في مجال العقائد والأحكام تخالف الرأي العام بين أهل السنة، ولأجل ذلك كانوا يصدرون الحكم عليه بعد الحكم، ويعاقبونه مرة بعد أخرى وقد علمت أنه منع من الكتابة حتى في نفس السجن، فما حال من كان على طرف الخلاف من قضاة المذاهب وحكامهم و علمائهم؟ (٣٧)

وبذلك تعرف أن الدعايات الأخيرة هي التي تريد أن تعرّفه بشيخ الإسلام و محيي السنة، فما معنى هذه الشيوخة لأهل السنة مع أنهم أجمعوا على ضلاله وشذوذه؟ ولأجل أن يقف القارىء على آراء معصاريه في حقه ومقاربي زمانه، نقتطف من غضون التاريخ جملاً تكشف عن إطباق العلماء، على الرد عليه ونقد آرائه، وستوافيك في أثناء البحث رسالة الذهبى إليه بنصها. وإليك قائمة الشخصيات الذين ردوا عليه في عصره أو بعده بقليل: ١- الشيخ صفى الدين الهندي الأرموى (ت ٧١٥ هـ)

عزّفه السبكي بقوله: «متكلم على مذهب الأشعري، كان من أعلم الناس بمذهب الشيخ أبي الحسن وأدراهم بأسراره، متضلّعاً بالأصلين، ومن تصانيفه في علم الكلام «الزبدة»، وفي أصول الفقه: «النهاية»، وكل مصنفاة حسنة جامعة، لاسيما «النهاية». مولده ببلاد الهند سنة ٦٤٤ هـ ثم قدم دمشق سنة ٦٨٥ هـ واستوطنها وتوفى بها سنة ٧١٥ هـ ولما وقع من ابن تيمية في «المسألة الحموية» ما وقع، وعقد له المجلس بدار السعادة (١) بين يدي الأمير «تنكز» وجمعت العلماء، أشاروا بأن الشيخ الهندي يحضر، فحضر، وكان الهندي طويل النفس في التقرير، إذا شرع في وجه يقرره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلا أشار إليه في التقرير، بحيث لا يتم التقرير إلا وقد بعد على المعترض مقاومته، فلما شرع يقرّر، أخذ ابن تيمية يعجّل عليه على عادته، ويخرج من شيء إلى شيء. فقال له الهندي: ما أراك يا ابن تيمية إلا- كالصفرور حيث أردت أن أقبضه من مكان، فز إلى مكان آخر. وكان الأمير تنكز يعظم الهندي ويعتقده، وكان الهندي شيخ الحاضرين كلهم، فكلهم صدر عن رأيه، وحبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة، وهي _____

١. قال المعلق: كان ذلك سنة (٧٠٥ هـ)، راجع البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٦- ٣٨. (٣٨)

التي تضمّنت قوله بالجهة، ونودى عليه في البلاد وعلى أصحابه، وعزلوا من وظائفهم (١). ٢- الشيخ شهاب الدين ابن جهيل الكلابي الحلبي (ت ٧٣٣ هـ)

قال «السبكي»: «درس وأفتى وشغل بالعلم مدة بالقدس ودمشق. مات سنة ٧٣٣ هـ ووقفت له على تصنيف صنفه في نفى الجهة رداً على ابن تيمية» وبما أن الرسالة مفصلة نكتفي في المقام بذكر مقدمتها. يقول: «أما بعد فالذى دعا إلى تصدير هذه النبذة. ما وقع في هذه المدة، مما علّقه بعضهم في إثبات الجهة واغتر بها من لم يرسخ له في التعليم قدم، ولم يتعلّق بأذيال المعرفة، ولا كبحه لجام الفهم ولا- استبصر بنور الحكمة فاحببت أن أذكر عقيدة أهل السنة وأهل الجماعة ثم أُبين فساد ما ذكره، مع أنه لم يدع دعوى إلا نقضها ولا أطلد قاعدة إلا هدمها» (٢). ٣- قاضى القضاء كمال الدين الزملكاني (٦٦٧- ٧٣٣ هـ)

عزّفه السبكي بقوله: «الإمام العلامة المناظر، ولد في شوال سنة ٦٦٧ هـ ودرس بالشامية البرانية - إلى أن قال -: ثم ولي قضاء حلب، وصنّف الرد على ابن تيمية في مسألتي الطلاق والزيارة (٣). ٤- الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ترجمه في «تذكرة الحفاظ» غير أنه لم يذكر مما ردّ عليه بشيء، وهذا عجيب من الحافظ الذهبي، ولكنّه نصحه في رسالته بعثها إليه ويذكر ما فيه ويقول: «الحمد لله على ذلتي، يا ربّ أرحمني، وأقلني عثرتي، واحفظ عليّ _____

١. طبقات الشافعية الكبرى ج ٩ ص ١٦٢- ١٦٤.

٢. تاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٢٧- م ٧٧١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٩ ص ٣٤- ٣٥.

٣. طبقات الشافعية الكبرى ج ٩ ص ١٩٠ - ١٩١. (٣٩)

إيماني، واحزنه على قلته حزني، وأسفاه على السنه وذهاب أهلها، واشوقاه إلى إخوان مؤمنين يعاونوني على البكاء، واحزنه على فقد أناس كانوا مصايح العلم وأهل التقوى وكنوز الخيرات، آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتباً لمن شغله عيوب الناس عن عيبه. إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعبارتك وتذم العلماء وتتبع عورات الناس؟ مع علمك بنهي الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - [وآله]: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» بل اعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك: إنما الوقيعه في هؤلاء الذين ما شموا رائحة الإسلام، ولا عرفوا ما جاء به محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - [وآله] وهو جهاد، بلى والله عرفوا أخيراً كثيراً مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئاً كثيراً مما لا يعينهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، يا رجل! بالله عليك كفّ عنّا، فإنك محجاج عليم اللسان لا- تقر ولا تنام، إياكم والغلوّات في الدين، كره نبيك - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - [وآله] المسائل وعابها، ونهى عن كثرة السؤال وقال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» وكثرة الكلام بغير زلل، تقسى القلب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونسيه والفلاسفه وتلك الكفريات التي تعمى القلوب، والله قد صرنا ضحكة في الوجود، فإلى كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفيه؟ لنرد عليها بعقولنا، يا رجل! قد بلغت «سموم» الفلاسفه وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن والله في البدن، واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبر وخشيه بتذكر وصمت بتفكر. واهاً لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمه، بل عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنه، كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما، بالله خلونا من ذكر بدعه الخميس وأكل الحبوب، وجدوا في ذكر بدع كنا نعدّها من أساس الضلال، قد صارت هي محض السنه وأساس (٤٠)

التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون، وتعدّ النصارى مثلنا، والله في القلوب شكوك، إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد، يا خبيه من أتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال، لاسيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنّه ينفحك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه. فهل معظم أتباعك إلاّ قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامي كذاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوى المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم اقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلى كم تصادقها وتعادى الأخيار؟ إلى كم تصادقها وتردى الأبرار؟ إلى كم تعظمها وتصغر العباد؟ إلى متى تخالها وتمقت الزهاد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفيه لا تمدح - والله - بها أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك. بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار، أما أن لك أن ترعوى؟ أما حان لك أن تتوب وتيب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى - والله - ما أذكر أنك تذكر الموت، بل تزدري بمن يذكر الموت. فما أظنك تقبل على قولي ولا تصغى إلى وعظي، بل لك همه كبيره في نقض هذه الورقه بمجلدات، وتقطع لي أذنان الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول البته سكت، فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟ وأعدائك - والله - فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، عما أن أولياءك فيهم فجزة وكذبه وجهله وبطله وعور وبقر، قد رضيت منك بأن تسبني علانية، وتتفع بمقالتي سراً، فرحم الله امرأً أهدي إلى عيوبي، فإني كثير العيوب، غزير الذنوب، الويل لي إن أنا لا أتوب، وافضحني من علام الغيوب! ودوائى عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين». (١)

١. تكملة السيف الصقيل، للمحقق المعاصر الكوثري، ص ١٩٠ - ١٩٢ كتبه من خط ابن قاضي: شبهة، منقولاً من خط قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة وكتبه، هو من خط الشيخ الحافظ أبي سعيد العلاني المنسوخ من خط الذهبي، وجاء شطر منه في «فرقان القرآن» تأليف الشيخ سلامة القضاة العزامي الشافعي في مقدمه كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي ص ١٢٩. وقد طبعت صورته خط

ابن قاضي شهبة في تكملة السيف الصقيل ص ١٨٧ - ١٨٩.

(٤١) ٥- الشيخ الإمام صدر الدين المرحل (ت حوالي ٧٥٠ هـ)

عزفه السبكي بقوله: «كان إماماً كبيراً، بارعاً في المذهب والأصلين، يضرب المثل باسمه، فارساً في البحث، نظاراً مفرط الذكاء، عجيب الحافظة - إلى أن قال - : وله مع ابن تيمية، المناظرات الحسنة، وبها حصل عليه التعصب من أتباع ابن تيمية، قيل فيه ما هو بعيد عنه، وكثر القائل فارتاب العاقل، وكان الوالد يعظم الشيخ صدر الدين ويحبه، ويثنى عليه بالعلم وحسن العقيدة ومعرفة الكلام على مذهب الأشعري (١). ٦- الحافظ علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦ هـ)

ترجمه ولده في طبقات الشافعية، وهو أحد من ردّ علي ابن تيمية، وألف فيه كتاباً أسماه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام» وربما سمي «شن الغارة على من أنكر السفر للزيارة» (٢) وهو يعرف والده ويقول: «إمام ناضح عن رسول الله بنضاله، وجاهد بجداله، حمى جناب النبوة الشريف، بقيامه في نصره، وتسديد سهامه للذنب عنه من كنانة مصره... إلى أن قال: قام حين خلط علي ابن تيمية الأمر، وسول له قرينه الخوض في ضحضاح ذلك الجمر، حين سد باب الوسيلة وأنكر شد الرجال لمجرد الزيارة، وما برح يدلج ويسير حتى نصر صاحب ذلك الحمى الذي لا ينتهك، وقد كادت تزود عنه قسراً صدور الركائب. وتجر قهراً أعنة القلوب بتلك الشبهة التي كادت شرارتها تعلق بحداد الأوهام... كيف يزار المسجد ويخفي صاحبه، أو يخفيه الإبهام؟ ولولاه - عليه السلام - لما عرف تفضيل ذلك المسجد، ولولاه لما قدس الوالي، ولا أسس على التقوى مسجد في ذلك النادي

١. طبقات الشافعية الكبرى ج ٩ ص ٢٥٣.

٢. طبقات الشافعية ج ١٠ ص ٣٠٨. (٤٢)

شكر الله له، قام في لزوم ما انعقد عليه الإجماع» (١). وكان لهذا الكتاب دوى في ذاك العصر، حيث جابه السبكي ضوضاء الباطل بكتابه الهادي، وصار مدار الدراسة والقراءة، وهذا هو الشيخ صلاح الدين الصفدي قرأ الكتاب على المؤلف، يقول السبكي (ولد المؤلف): قرأ علي الشيخ الإمام (المراد تقي الدين السبكي) - رحمه الله - جميع كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام» (٢). وقال أيضاً في خطبة كتابه «الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: «أما بعد فإنه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاهد، بعد أن كان مستتراً بتبعيه الكتاب والسنة، مظهرًا أنه داع إلى الحق، هاد إلى الجنة، فخرج عن الإتياع إلى الإبتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضيه الجسمية والتركيب في الذات المقدسة، وإن الإفتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى، وإن القرآن محدث تكلم الله به بعد أن لم يكن، وإنه يتكلم ويسكت، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلوقات، وتعدى في ذلك إلى استلزام قدم العالم، والتزم بالقول بأنه لا أول للمخلوقات فقال بحوادث لا أول لها، فأثبت الصفة القديمة حادثه، والمخلوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين في مله من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاث والسبعين التي افتقرت عليها الأمة، ولا وقفت به مع أمه من الأمم همه. وكل ذلك وإن كان كفرةً شنيعاً، لكنّه تقل حملته بالنسبة إلى ما أحدث في الفروع. ثم إن السبكي لما وقف على كتاب «منهاج السنة» في الرد على «منهاج الكرامة» للعلامة الحلبي، أنشأ قصيدة، ومما جاء فيها ناقداً لابن تيمية قوله:

١. طبقات الشافعية ج ١٠ ص ١٤٩ - ١٥٠ وللکلام صلة.

٢. المصدر نفسه، ص ٥. (٤٣)

ولابن تيمية رد عليه وفي * بمقصد الرد واستيفاء أضربه لكنّه خلط الحق المبين بما * يشوبه كدراً في صفو مشربه يرى حوادث لا مبدا لأولها * في الله سبحانه عما يظن به لو كان حياً يرى قولي ويفهمه * رددت ما قال أقفو اثر سبسه كما رددت عليه بالطلاق وفي * ترك الزيارة رداً غير مشتبه (١) إن الشيخ الذهبي من الحنابلة الذين يتعصبون للمذهب الحنبلي، ومع ذلك نرى أنه يصف تقي الدين

السبكي الذي ولي مشيخة دار الحديث وخطابه الجامع الأموي بدمشق بقوله: لِيَهْن المنبرُ الأمويُّ لما * علاه الحاكمُ البحرُ التقى شيوخ العصر أحفظهم جميعاً * وأخطبهم «وأفضاهم عليٌّ» فإذا كان هذا مقام السبكي عند الذهبي، فليكن حجة على الحنابلة ممن يبغض السبكي لنقده نظرية ابن تيمية في الزيارة وغيرها (٢). ٧ - محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤ هـ) قال في «فوات الوفيات» في ترجمته: «إنه ألف رسالة في فضل معاوية، وفي أن ابنه يزيد لا يسب» (٣). هذه الرسالة تعرب عن نزعه الأموية، ويكفي القول في الوالد والوالد: «والد وما ولد» أنه بدّل الحكومة الإسلامية إلى الملكية الوراثية، ودعا عباد الله إلى ابنه يزيد، المتكبر، الخميّر، صاحب الديوك والفهود والقروء، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة والتهديد والرهبنة، وهو يطلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكره وفجوره، ولما استتب الأمر ليزيد، أوقع بأهل الحرّة الواقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، وظن أنه قد انتقم من أولياء الله فقال مجاهراً بكفروه: _____

١. المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨٦ وتوفى السبكي تقى الدين والد تاج الدين عام (٧٥٦ هـ) وتوفى الولد عام (٧٧١ هـ).

٢. فرقان القرآن ص ١٢٩.

٣. فوات الوفيات ج ١ ص ٧٧. (٤٤)

لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحى نزل وهذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله، ثم من أغلظ ما انتهك وأعظم ما اخترم سفكه دم الحسين بن عليّ، بن فاطمة بنت رسول الله، مع موقعه من رسول الله ومكانه منه، ومنزلته من الدين والفضل، وشهادة رسول الله له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة، اجترأ على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمته، فكأنما يقتل به وبأهل بيته، قوماً من الكفار (١). ٨ - أبو محمد المعروف بالياضي (ت ٧٦٨ هـ)

قال في كتابه «مرآة الجنان» في ترجمة ابن تيمية: «مات بقلعه دمشق الشيخ الحافظ الكبير تقى الدين أحمد بن تيمية معتقلاً، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق، وسمع من جماعته وله مسائل غريبة - أنكر عليها وحبس بسببها - مباينة لمذهب أهل السنة، ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبي - عليه الصلاة والسلام - وطعنه مشايخ الصوفية، وكذلك ما قد عرف من مذهبه كمسألة الطلاق وغيرها، وكذلك عقيدته في الجهة، وما نقل فيها من الأقوال الباطلة، وغير ذلك ما هو معروف من مذهبه، ولقد رأيت مناماً في وقت مبارك يتعلّق بعضه بعقيدته، ويدل على خطئه فيها، وقد قدمت ذكره في حوادث سنة ٥٥٨ هـ في ترجمة صاحب «البيان». وقال: كان ابن تيمية يقول: «إن الله على العرش استوى»، استواء حقيقة، وإنه يتكلم بحرف وصوت، وقد نودي في دمشق وغيرها: من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه! (٢) وقال في حوادث سنة ٧٢٨ هـ: وله _____

١. مأخوذ من كتاب (المعتضد) الذي تلى على رؤوس الشهداء في أيامه. نقله الطبري في تاريخه ج ١١ ص ٧٧.

٢. مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٧٧، في حوادث سنة ٧٢٨ هـ وص ٢٤٠. (٤٥)

مسائل غريبة أنكر عليها وحبس بسببها مباينة لمذهب (أهل السنة) ثم (عدّ له) قبائح، قال: ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . ٩ - أبو بكر الحصني الدمشقي (ت ٨٢٩ هـ)

يقول: «فاعلم أنني نظرت في كلام هذا الخبيث الذي في قلبه مرض الزيف، المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة، وتبعه على ذلك خلق من العوام وغيرهم ممن أراد الله عز وجل إهلاكه، فوجدت فيه ما لا أقدر على النطق به، ولا لي أنامل تطاوعني على رسمه وتسطيره، لما فيه من تكذيب رب العالمين، في تنزيهه لنفسه في كتابه المبين، وكذا الازدراء بأصفيائه، المنتخبين وخلفائهم الراشدين، واتباعهم الموفقين، فعدلت عن ذلك إلى ذكر ما ذكره الأئمة المتّقون، وما اتّفقوا عليه من تبعيده وإخراجه ببغضه من الدين (١). ١٠ - شيخ الإسلام، شهاب الدين، أحمد بن حجر، العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)

ترجمه ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» وذكر حياته على وجه التفصيل وقال: «وأول ما أنكروا عليه من مقالاته في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية، وبحثوا معه، ومنع من الكلام» ثم ذكر معتقلاته وسجونه إلى أن أدركته المتيئة بما لا حاجة إلى ذكره، ونقتبس مما ذكره الجمل التالية: أ - يقول: «حكم المالكي بحبسه فأقيم من المجلس وحبس في برج، ثم بلغ المالكي أن الناس يترددون عليه، فقال: يجب التضيق عليه إن لم يقتل، وإلا - فقد ثبت كفره، فنقلوه ليلئ عيد الفطر إلى الجب، وعاد القاضي الشافعي إلى ولايته، ونودي بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله، خصوصاً الحنابلة، وقرأ المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود في الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من _____

١ . دفع شبهة من شبه وتمرد، ص ٢١٦، طبع بمصر عام ١٣٥٠ هـ . (٤٦)

الصالحية وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي» . ب - نقل عن جمال الدين السمرمي أنه قال: وكان ابن تيمية يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس: «... ومن ثم نصب أصحابه إلى الغلو فيه، واقتضى ذلك العجب بنفسه حتى زها على أبناء جنسه، واستشعر أنه مجتهد يرد على صغير العلماء وكبيرهم، قديمهم وحديثهم، حتى انتهى إلى عمر فخظأه في شيء، وقال في حق علي: أخطأ في سبعة عشر شيئاً، ثم خالف فيها، وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الأشاعرة، حتى أنه سب الغزالي،.. فعظم ذلك على الشيخ نصر المنبجي، وأعاناه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات في العقائد المثيرة وقعت منه في مواعيده وفتاواه، فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين فقال: كنزولي هذا(١)، فنسب إلى التجسيم، وردّه علي من توسيل بالنبي، فأشخص من دمشق في رمضان سنة (٧٠٥ هـ) . ثم يقول: إنه اختلف الناس بعد إخراجه عن بعض معتقلاته، فمنهم من نسبه إلى التجسيم، لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك، كقوله إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله، وإنه مستو على العرش بذاته، فقيل له يلزم من ذلك التحيز والانقسام، ومنهم من أنكروا كون التحيز والانقسام من خواص الأجسام (٢) . ومنهم من ينسبه إلى الزندقة، لقوله: إن النبي لا يستغاث به، وإن في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبي، ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في علي _____

١ . سيوافيك نص ابن بطوطة السياح المعروف في ذلك، وأنه سمعه بأذنه ورآه بعينه، فانتظر .

٢ . اقرأ واضحك على عقلية القائل . (٤٧)

ماتقدم، ولقوله إنه كان مخذولاً حيثما توجه، وإنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، إنما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله إنه كان يحب الرئاسة، وإن عثمان كان يحب المال، ولقوله أبوبكر أسلم شيخاً يدرى ما يقول، وعلى أسلم صبياً والصبي لا يصح إسلامه على قول(١) . ١١ - جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي (٨١٢ - ٨٧٤ هـ)

وقد ترجمه جمال الدين في كتابه: «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» ومما جاء فيه: قال القاضي كمال الدين الزمكاني: «ثم جرت له محن في مسألة الطلاق الثلاث، وشدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وحبّب للناس القيام عليه، وحبس مرات في القاهرة والإسكندرية ودمشق، وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق، إلى أن ورد مرسوم شريف من السلطان في شعبان سنة (٧٢٦ هـ) بأن يجعل في قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولاً بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواتاً [دواة] ولا قلماً ولا ورقة. ومما وقع له قبل حبسه أنه ناظر بعض الفقهاء، وكتب محضراً، فإنه قال. أنا أشعري ثم أخذ خطه بما نصه: أنا أعتقد أن القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وهو غير مخلوق، وليس بحرف ولا صوت، وأن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ليس على ظاهره، ولا أعلم كنه المراد به، بل لا يعلمه إلا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء، وكتبه أحمد بن تيمية، ثم أشهدوا عليه جماعة أنه تاب مما ينافي ذلك مختاراً، وشهد عليه بذلك جمع من العلماء وغيرهم»(٢) . _____

١ . الدرر الكامنة ج ١ ص ١٥٤ - ١٦٥ .

٢ . «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٤٠، والملكانى هو كمال الدين محمد بن على بن عبد الواحد الشافعى، ولد سنة (٦٦٧ هـ) وتوفى سنة (٧٣٣ هـ). (٤٨)

وترجمه أيضاً في كتابه الآخر: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» بنفس النص الوارد في «المنهل الصافي» (١). ١٢ - شهاب الدين، ابن حجر، الهيئى (ت ٩٧٣ هـ)

قال في ترجمه ابن تيمية: «ابن تيمية عبد خذله الله، وأصله وأعماه وأصمه وأذله، بذلك صرح الأئمة الذين يتنوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد، أبى الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام العز بن جماعه، وأهل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفية ولم يقصر اعتراضه على متأخرى السلف الصوفية، بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب رضى الله عنهما. والحاصل أنه لا يقام لكلامه وزن، بل يرمى في كل وعز وحزن ويعتقد فيه أنه مبتدع، ضال، مضل، غال، عامله الله بعدله، وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله. آمين! إلى أن قال: إنه قائل بالجهه، وله في إثباتها جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسميه والمحاذاه والاستقرار. أى فعله بعض الأحيان كان يصرح بتلك اللوازم فنسبت إليه، وممن نسب إليه ذلك من أئمة الإسلام المتفق على جلالته وإمامته وديانته، وإنه الثقة العدل المرتضى المحقق المدقق، فلا يقول شيئاً إلا عن ثبت، وتحقق، ومزيد احتياط، و تحر، لا سيما إن نسب إلى مسلم ما يقتضى كفره، وردته، وضلاله، وإهدار دمه» (٢). وقال أيضاً في كتابه: «الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوى المكرم»: «فإن قلت: كيف تحكى الإجماع السابق على مشروعيه الزيارة والسفر إليها وطلبها، وابن تيمية من متأخرى الحنابلة منكر لمشروعيه ذلك كله، كما

١ . «النجوم الزاهرة...» ج ٢ ص ٢٧٩ .

٢ . الفتاوى الحديثية، ص ٨٦. ونقله العلامة الشيخ محمد بخيت (م ١٣٥٤ هـ) في كتابه «تطهير الفؤاد» ص ٩ ط مصر. (٤٩) رآه السبكي في خطه، واطال ابن تيمية في الاستدلال بذلك بما تمجّه الأسماع وتنفر منه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً، وأنه لا- تقصر فيه الصلاة، وأن جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعه، وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه! . قلت: من هو ابن تيمية حتى ينظر إليه؟ أو يعول في شىء من أمور الدين عليه؟ وهل هو إلا كما قال جماعه من الأئمة الذين تعقبوا كلماته الفاسدة، و حججه الكاسدة، حتى أظهروا عوار سقطاته، وقبائح أوهامه وغلطاته، كالعز بن جماعه: عبد أذله الله وأغواه، وألبسه رداء الخزي وبؤاه من قوة الإفتراء والكذب ما أعقبه الهوان، وأوجب له الحرمان...» (١). ١٣ - ملأ على القارىء الحنفى (ت ١٠١٦ هـ)

وقال ملأ على القارىء الحنفى في شرحه على الشفاء (٢): «وقد أفرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - كما أفرط غيره حيث قال: كون الزيارة قربه معلوم من الدين بالضرورة. وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعلّ الثانى أقرب إلى الصواب، لأنّ تحريم ما أجمع العلماء فيه على الاستحباب يكون كفراً، لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب» .

١٤- أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى، الشهير بابن القاضى (٩٦٠ - ١٠٢٥ هـ)

وقد ترجمه ابن القاضى فى ذيل وفيات الأعيان المسمى بـ «دره الحجال فى أسماء الرجال» قال: «أحمد بن عبد الحلیم مفتى الشام ومحدّثه وحافظه، وكان يرتكب شواذ الفتاوى، ويزعم أنه مجتهد» (٣) .

١ . فرقان القرآن، ص ١٣٢ - طبع فى مقدمه كتاب الأسماء والصفات للبيهقى .

٢ . «دره الحجال فى أسماء الرجال» ج ١ ص ٣٠ .

٣ . تأليف الحافظ أبى الفضل عياض بن موسى القاضى (ت ٥٤٤ هـ) وأسماء: «الشفاه فى تعريف حقوق المصطفى» وله شروح كثيرة ذكره الكاتب الحلبي فى كتابه . (٥٠) ١٥ - النبهانى (ت ١٣٥٠ هـ)

قال النبهانى فى تأليفه «شواهد الحق» بعد نقل أسماء عدده من الطاعنين به: «فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار أنّ

علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على ردّ بدع ابن تيمية، ومنهم من طعنوا بصحة نقله، كما طعنوا بكمال عقله، فضلاً عن شدة تشنيعهم عليه في خطئه الفاحش في تلك المسائل التي شدّ بها في الدين، وخالف بها إجماع المسلمين، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين - صلى الله عليه وآله وسلم - . ١٦- المحقق الشيخ محمد الكوثري المصري (ت ١٣٧١ هـ)

إنّ الشيخ الكوثري هو أكثر الناس تتبعاً لمكان حياة ابن تيمية، وقد شهره وفضحه، بنشر كتاب «السيف الصقيل» للسبكي وجعل له تكملة، نشرهما، معاً فمن وقف على هذا الكتاب وما ذيل به، لعرف مواقع الرجل، وإليك كلمة من الكوثري في حق الحشوية، يقول في تقديمه لكتاب «الأسماء والصفات» للحافظ البيهقي - بعد ما يسرد أسماء عدة من كتب الحشوية كالأستقامة لخشيش بن أصرم، والسنة لعبد الله بن أحمد «والنقض» لعثمان بن سعيد الدارمي السجزي المجسم - : «إنّ السجزي أول من اجترأ بالقول «إنّ الله لو شاء لا- ستقرّ على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته، فكيف على عرش عظيم» وتابعه الشيخ ابن تيمية الحراني في ذلك، كما تجد نص كلامه في «غوث العباد» المطبوع سنة ١٣٥١ بمطبعة الحلبي» (١) . وقال أيضاً في مقدمته على السيف الصقيل: جزى الله علماء أصول الدين عن الإسلام خيراً، فإنّ لهم فضلاً جسيماً في صيانة عقائد المسلمين بادلة ناهضة مدى القرون، أمام كل فرقة زائفة - إلى أن قال - : ومن طالع من ألفه بعض الرواة على طول القرون من كتب في التوحيد

١ . مقدمة الأسماء والصفات للبيهقي، ص «ب» . (٥١)

والصفات والسنة، والردود على أهل النظر، يشكر الله سبحانه على النور الذي افاضه على عقله، حتّى نبذ مثل تلك الطامات بأول نظرة. وقد استمرت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط الله تعالى، ولاستسخاف العقلاء، من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ في أواخر القرن السابع بدمشق، حرّاني تجرّد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء، متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب، بدون أستاذ يرشده في مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتصافرا في الدفاع عن تحريف السخفاء إلاّ إذا كان العقل عقل صابئ والنقل نقل صبي، وكم انخدع بخزعبلاته أناس ليسوا من التأهيل للجمع بين الرواية والدارية في شيء، وله مع خلطائه هؤلاء، موقف في يوم القيامة لا يغبط عليه. ومن درس حياته يجدها كلها فتناً لا- يثيرها حافظ بعقله، غير مصاب في دينه، وأتّى يوجد نصّ صريح منقول أو برهان صحيح معقول يثبت الجهة والحركة والثقل والمكان ونحوها لله سبحانه؟ . وكل ما في الرجل أنّه كان له لسان طلق، وقلم سيال، وحافضة جيدة، قلب - بنفسه بدون أستاذ رشيد - صفحات كتب كثيرة جداً من كتب النحل التي كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيلاء المغول على بلاد الشرق، فاعتربما فهمه من تلك الكتب من الوسوس والهواجس، حتى طمحت نفسه إلى أن تكون قدوة في المعتقد والأحكام العملية، ففاه في القبيلين بما لم يفه به أحد من العالمين، مما هو وسمه عار وأماره مروق في نظر الناظرين، فانفضّ من حوله أناس كانوا تعجلوا في إطرانه - باديء بدء - قبل تجريبه، وتخلّوا عنه واحداً إثر واحد على تعاب فتنة المدونة في كتب التاريخ، ولم يبق (١) معه إلاّ أهل مذهبه في الحشو من جهلة المقلدة، ومن ظن أن علماء

١ . وقال في التعليق: وثناء بعض المتأخرين عليه لم يكن إلاّ عن جهل بمضلات الفتن في كلامه، ووجوه الزيغ في مؤلفاته، ومنهم من ظن أنه دام على توبته بعد ما استتيب فدام على الثناء، ولا حجة في مثل تلك الأثنية، وأقواله المائلة أمامنا في كتبه لا يؤيدها إلاّ غاوغوى، نسأل الله السلامة . (٥٢)

عصره صاروا كلهم إلباً واحداً ضده حسداً من عند أنفسهم، فلَيْتَهُم عقله وإدراكه قبل اتّهام الآخرين، بعد أن درس مبلغ بشاعة شواذه في الاعتقاد والعمل، وهو لم يزل يستتاب استتابة إثر استتابة، وينقل من سجن إلى سجن إلى أن افضى إلى ما عمل وهو مسجون فقير، هو وأهواؤه في البابين، بموته وبرود العلماء عليه، وماهى ببعيدة عن متناول رواد الحقائق . كلامه في حق تلميذه ابن القيم وكان ابن زفيل الزرعي المعروف بابن القيم يسايره في شواذه حياً وميتاً، ويقلده فيها تقليداً أعمى في الحق والباطل، وإن كان يتظاهر بمظهر الاستدلال، لكن لم يكن استدلاله المصطنع سوى ترديد منه لتشغيب قدوته، دائباً على إذاعة شواذ شيخه، متوخياً - في غالب

مؤلفاته - تلطيف لهجة أستاذه في تلك الشواذ لتتطلى وتنفق على الضعفاء، وعمله كله التلييس والمخادعة والنضال عن تلك الأهواء المخزية، حتى أفنى عمره بالدندنه حول مفردات الشيخ الحراني . تراه يثرثر في كل واد ويخطب بكل ناد، بكلام لا محصل له عند أهل التحصيل، ولم يكن له حظ من المعقول، وإن كان كثير السرد لآراء أهل النظر، ويظهر مبلغ تهافته لمن طالع شفاء العليل له بتبصر، ونونيته (١) و عزوه من الدلائل على أنه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا بنقد الحديث، حيث أثنى فيهما على أناس هلكي، واستدل فيهما باخبار غير صحيحة على صفات الله سبحانه. وقد ذكره الذهبي في المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسيني

١ . وهي قصيدته البالغة خمسة آلاف بيت في العقائد، وهي التي رد عليها السبكي بتأليف كتاب السيف الصقيل، وأكمله محمد الكوثري وأسماء تكملة السيف الصقيل، وها نحن ننقل هاتيكن العبارات منها. (٥٣)

ولا ابن فهد ولا السيوطي في عداد الحفاظ في ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القاريء بموقع الأعجاب من أبحاثه الحديثية في زاد المعاد وغيره، فمختزل مأخوذ مما عنده عن كتب قيمة لأهل العلم بالحديث، ك«المورد الهني في شرح سير عبدالغني» للقطب الحلبي ونحوه . ولو لا محلي ابن حزم «وأحكامه» و «مصنف» ابن أبي شيبه «وتمهيد» ابن عبدالبر لما تمكن من مغالطاته وتهويلاته في «أعلام الموقعين» . وكم استتيب وعذر مع شيخه وبعده على مخاز في الاعتقاد والعمل، تستبين منها ما ينطوي عليه من المضى على صنوف الزيف تقليداً لشيخه الزائغ، وسيلقى جزاء عمله هذا في الآخرة - إن لم يكن ختم له بالتوبة والأمانة - كما لقي بعض ذلك في الدنيا . كلام الحافظ الذهبي وغيره في حق ابن القيم

قال الذهبي في المعجم المختص عن ابن القيم هذا: «عنى بالحديث بمتونه وبعض رجاله وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصولين . وقد حبس مدة لإنكاره على شد الرحل لزيارة قبر الخليل (إبراهيم - عليه السلام -) ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، لكنّه معجب برأيه جرىء على الأمور . قال ابن حجر في الدرر الكامنة: «غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه... واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروباً بالدره، فلما مات أفرج عنه، وامتنح مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه». قال ابن كثير: «كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق، حتى جرت له بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكي وغيره... وكان جماعاً للكتب فحصيل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلاً سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم.. وهو طويل النفس في مصنفاته، يتعانى (٥٤)

الإيضاح جهده، فيسهب جداً، ومعظمها من كلام شيخه بتصرف في ذلك، وله في ذلك ملكة قوية، ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها.. وجرت له محن مع القضاء، منها في ربيع الأول طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل فأنكر عليه، وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يفتي به من ذلك». . كلام ابن الحصني في حقه

وقال التقى الحصني: كان ابن تيمية ممن يعتقد ويفتي بأن شد الرحال إلى قبور الأنبياء حرام لا تقصر فيه الصلاة، ويصرح بقبر الخليل وقبر النبي (صلى الله عليهما وسلم) ، وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن قيم الجوزية الزرعي، وإسماعيل بن كثير الشركويني، فاتفق أن ابن قيم الجوزية سافر إلى القدس الشريف، ورقى على منبر في الحرم ووعظ وقال في أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة: وها أنا راجع ولا- أزور الخليل. ثم جاء إلى نابلس، وعمل له مجلس وعظ، وذكر المسألة بعينها حتى قال: فلا يزور قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، فقام إليه الناس وأرادوا قتله، فحماه منهم والى نابلس، وكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرّفون صورة ما وقع منه، فطلبه القاضي المالكي فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضي شمس الدين بن مسلم الحنبلي وأسلم على يديه، فقبل توبته وحكم بإسلامه وحقن دمه، ولم يعزّه لأجل ابن تيمية... ثم أحضر ابن قيم الجوزية وأدعى عليه بما قاله في القدس الشريف وفي نابلس فأنكر، فقامت عليه البينة بما قاله، فأدب وحمل على جمل، ثم أعيد إلى السجن، ثم أحضر إلى مجلس شمس الدين المالكي وأرادوا

ضرب عنقه، فما كان جوابه إلا- أن قال: إن القاضي الحنبلي حكم بحقن دمي وبإسلامي وقبول توبتي، فأعيد إلى الحبس إلى أن أحضر الحنبلي فأخبر بما قاله، فأحضر وعزّر وضرب بالدرّة، وأركب حماراً وطيف به في البلد والصالحية، وردّوه إلى الحبس - وجرسوا ابن القيم وابن كثير، وطيف بهما في البلد وعلى باب الجوزية لفتواهم في مسألة الطلاق . (٥٥)

قال ابن رجب: قد امتحن و أودى مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المدة الأخيرة بالقلعة منفرداً، لم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وقد سقت هنا نماذج من كلمات أصحابه و أصداده والمتحايدين في حقه، ليعتبر بها المغرورون به. على أن الخبر اليقين فيما يجده القاريء الكريم في حقه في هذا الكتاب، وأرجو أن الحق لا- يتعدى ما دلت عليه في حقه فيما كتبناه. وأحق الناس بالثناء وأجدرهم بالترحم من أفنى عمره في سبيل العلم منصاعاً لمبتدع يرديه من غير أن يتخيّر أستاذاً رشيداً يهديه، ومثله إذا دون أسفاراً لا يزداد بها إلا بسمعه ولا يبصر بعداً عن الله وأوزاراً، وهو الذي يصبح متفانياً في شيخه الزائع بحيث لا يسمع إلا ببصره في جميع شؤونه، ويبقى في أحط دركات الجهل من التقليد الأعمى، ولو فكر قليلاً لكان أدرك أن من السخف بمكان، وضعه لشيخه في إحدى كفتي الميزان ليوازن به جميع العلماء والفقهاء من هذه الأمة في كفته الأخرى فيزنهم ويغالبهم به فيغلبهم في علومهم!! وهذا ما لا يصدر من حافظ بعقله، ولا- سيما بعد التفكير في تلك المخازي من شواذه . نعم، يمكن أن يكون عنده أو عند شيخه بعض تفوق في بعض العلوم على بعض مشايخ حارته، أو أهل خطته أو قريته أو مضرب خيام عشيرته، لكن لا يوجب هذا أن يصدق ظنه في حق نفسه أن جوّ هذه الأرض يضيق عن واسع فهمه، وعرض هذه البحار لا يتسع لآخر علومه»(١) . ١٧- الشيخ سلامة القضا الغزالي (ت ١٣٧٩ هـ) قال: «بدأ ابن تيمية حياته بطلب العلم على ذكاء وتصالح، ورفق به أكابر العلماء لأنّ أباه كان رجلاً هادئاً وكان من بيت علم، فساندوه وشجعوه وأثنوا عليه خيراً، حتّى إذا أقبل عليه الناس بدأ يظهر بالبدع، وأبطرته الغرّة، فتمادى في التعصب لآرائه، وما زال يتلاعب به الهوى حتّى كان مجموعته بدع

١ . تكملة السيف الصقيل ص ٤ - ٩ . (٥٦)

شعاع، ودائرة جهالات وأباطيل شوهاء، فتجده في مسائل من علم التوحيد حشواً كرامياً، يقول في الله بالأجزاء والجهة والمكان، والنزول والصعود الحسينيين، وحلول الحوادث بذاته تعالى، ومن ناحية أخرى تجد فيه حضيضة الخوارج، يكفر أكابر الأمة ويخطيء أعظم الأئمة وقال: من نذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أو ذبح له ذبيحة كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابد لغير الله فيكون بذلك كافراً، ويطلق في ذلك الكلام، واغترّ بكلامه بعض من تأخّر عنه من العلماء ممن ابتلى بصحبته أو صحبه تلاميذه، وهو منه تلبس في الدين، وصرّف إلى معنى لا يريد مسلم من المسلمين، ومن خبر حال من فعل ذلك من المسلمين وجدهم لا يقصدون بذبائهم ونذورهم للمتقين من الأنبياء والأولياء إلا الصدقة عنهم، وجعل ثوابها إليهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقدة على أن صدقة الأحياء نافعة للأموات واصله إليهم. ولقد تعدّى هذا الرجل حتّى على الجناب المحمدي فقال: إن شد الرحال إلى زيارته معصية، وإن من ناداه مستغيثاً به بعد وفاته فقد أشرك، فتارة يجعله شركاً أصغر، وأخرى يجعله شركاً أكبر، وإن كان المستغيث ممتلىء القلب بأنّه لا خالق ولا مؤثر إلا الله، وأنّ النبي إنّما ترفع إليه الحوائج ويستغاث به، على أنّ الله جعله منبع كل خير، مقبول الشفاعة، مستجاب الدعاء كما هي عقيدة جميع المسلمين مهما كانوا من العامة . وقد أوضح ذلك كل الإيضاح قبلنا أكابر جهابذة العلم لا سيما علّم أعلام هذا العصر، حامل لواء الحكمة الإسلامية، وأحد جماعة كبار العلماء بحق، الشيخ يوسف الدجوي، فيما كتبه في مجلّة الأزهر - آدم الله تأييده بروح منه، وجلله بالعافية من لدنه . وهذه البدعة من مبتكراته قد اغتر بها ناس، فقالوا بكفر من عداهم من جماهير المسلمين، وسفكت في ذلك دماء لا تحصى، وقد ألفت الكتب الكثيرة في رد هذه البدعة وفروعها، بين مطوّل قد جوده صاحبه، ومختصر أفاده مؤلفه وأجاد. (٥٧)

ومن عجيب أمر هذا الرجل أنّه إذا ابتدع شيئاً حكى عليه إجماع الأولين والآخريين كذباً وزوراً، وربما تجد تناقضه في الصفحة الواحدة، فتجده في منهاجه مثلاً يدعى أنّه ما من حادث إلا وقبله حادث إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي، ثم يقول: وعلى ذلك

أجمع الصحابة والتابعون. وبعد قليل يحكى اختلافاً لحق الصحابة في أول مخلوق ما هو؟ أهو القلم أم الماء؟ وبينما تراه يتكلم بلسان أهل الحق المنزهين، إذا بك تراه قد انقلب جهوياً (١) وسمى كل من لا يقول بذلك معطلاً، وزنديقاً، وكافراً، وقد جمع تلميذه «ابن زفيل» سفاهاته ووساوسه في علم أصول الدين، في قصيدته النونية، وبينما تراه يسب جهماً والجهمية، إذا بك تراه يأخذ بقوله في أن النار تفنى، وأن أهلها ليسوا خالدين فيها أبداً - إلى أن قال - وليس من غرضنا بسط الكلام في بدع هذا الرجل، فقد كفانا العلماء - شكر الله سعيهم - من عصره إلى هذا العهد، المؤنة بالتصانيف الممتعة في الرد عليها، ولكن رفع الجهل رأسه في عصرنا هذا، وانتدب ناس من شيعته لطبع الكثير من كتبه وكتب تلميذه ابن زفيل، ففضحوا الرجل وشهروا به عند المحققين من أهل الفقه في الدين، وتبينت صحة نسبة ما كان يتورع العلماء عن نسبه إليه، وإن نصيحتي التي أسديها لكن مسلم نصيحة لله ولرسوله ولكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، هي لزوم جماعة المسلمين في أصول الدين وفروعه، ولولا أنني اشفق على القارئ أن يملّ لتحدثت إليه طويلاً فيما أصاب الإسلام والمسلمين من عظام هذا الرجل، ولبسطة له ما قال أكابر العلماء فيه وفي شيعته، ولكني أرجو أن يكون ما قدمته كافياً لذوى النهي» (٢). ١٨ - الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٦ هـ)

ألف الشيخ محمد أبو زهرة، كتاباً في حياة ابن تيمية وشخصيته، ومع _____
١. كذا في النسخة ولعل المراد: «جهمياً» .

[أو لعل المراد: نسبه إلى من يقول في الله بالجهة] الناشر .

٢. فرقان القرآن ص ١٣٢ - ١٣٧ وقد فرغ المؤلف منه سنة ١٣٥٨ هـ. (٥٨)

أنه أغمض عن كثير من الجوانب السلبية في حياته، وأخرج كتابه على وجه يلائم روح المحايدة في الكتاب، ومع ذلك انتقد عليه في موارد، ومنها: منعه التبرك بآثار النبي. يقول: «دفن النبي في حجرة عائشة لأن يكون قبره قريباً من المسجد، وأن يكون قبره معروفاً غير مجهول، فإنه لو دفن بالبقيع في الصحراء، فقد يجهل موضعه، ويكون بعيداً عن مسجده، وأما إذا دفن في حجرة عائشة فإنه يكون قريباً من مهبط الوحي ومبعث الدعوة ومكان التنزيل، وبعد فإننا نخالف ابن تيمية منعه التبرك بزيارة قبر الرسول و المناجاة عنده، وعدم الندب إليه، وإن التبرك الذي نريده ليس هو العبادة أو التقرب إلى الله بالمكان. إنما التبرك هو التذكر والاعتبار والاستبصار. وأى امرئ مسلم علم حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرته، وهداياته، وغزواته وجهاده، ثم يذهب إلى المدينة ولا يحس بأنه في هذا المكان كان يسير الرسول ويدعو ويعمل، ويدبر ويجاهد، أو لا يعتبر - ولا يستبصر، أو لا يحس بروحانية الإسلام و عبقرية النبي الأمين، أو لا تهز أعطافه محبة لله ورسوله والأخذ بما أمر الله به، والانتهاه عما نهى عنه إلا من عرض عن ذكر الله ولم يكن من أولى الأبصار؟ إن الزيارة إلى قبر الرسول هي الذكرى والاعتبار، والهدى والاستبصار والدعاء عند القبر دعاء، القلب خاشع، العقل خاضع، والنفس مخلص، والوجدان مستيقظ، وإن ذلك أبرك الدعاء» (١). وهذه النصوص الرائعة من أئمة الحديث والتفسير والكلام في حق الرجل تغنينا عن إفاضة القول فيه، وقد اكتفينا بهذا المقدار عن الكثير، فإن الناقدين له أكثر مما ذكرنا. وقد نشر كتيب باسم «الوهابية في نظر المسلمين» (٢) وذكر بعض من لم نذكره، كما أنه لم يذكر بعض ما ذكرنا من النصوص. والذي يعرب عن أن الرأي العام يوم ذاك كان على ضده هو أن لفيماً من العلماء من معاصريه والمتأخرين عنه ردوا عليه بكتب ورسائل فندوا فيها.

١. ابن تيمية حياته وشخصيته ص ٢٢٨ .

٢. تأليف: إحسان عبداللطيف البكري. (٥٩)

الرجل حول الصفات الخيرية أولاً، والزيارة والتوسل ثانياً، إلى غير ذلك مما أثار عجباً في السحاة الإسلامية، وإليك الإيعاز بالردود التي كتبت على آرائه. الناقدون والرادون على ابن تيمية

وإليك قائمة ممن ألف كتاباً أو رسالة حول آرائه: ١- شفاء السقام في زيارة خير الأنام، لتقى الدين السبكي . ٢- الدرّة المضيئة في الرد على ابن تيمية، له أيضاً . ٣- المقالة المرضية، لقاضي قضاة المالكية تقى الدين أبي عبدالله الأحنائي . ٤- نجم المهتدي ورجم

المقتدى، للخضر ابن المعلم القرشي . ٥- دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد، لتقى الدين الإمام أبي بكر الحصني
الدمشقي (ت ٧٢٩ هـ) . ٦- التحفة المختارة في الرد على منكري الزيارة، لتاج الدين عمر بن علي اللخمي المالكي الفاكهاني (ت
٧٣٤ هـ) . ومما جاء فيه قوله: أخبر جمال الدين عبدالله بن محمد الأنصاري المحدث قال: رحلنا مع شيخنا تاج الدين الفاكهاني إلى
دمشق، فقصد زيارة نعل رسول الله التي بدار الحديث الأشرفية بدمشق، وكنت معه، فلما رأى النعل المكرم، حسر عن رأسه، وجعل
يقبله ويمرغ وجهه عليه ودموعه تسيل وأنشد: فلو قيل للمجنون: ليلي ووصلها * تريد أم الدنيا وما في طواياها لقال غبار من تراب نعالها
* أحب إلى نفسي وأشفى لبلواها(١) ٧- اعتراضات على ابن تيمية، لأحمد بن إبراهيم السروطي —————

١ . الغدير: ج ٥ ص ١٥٥ نقلا عن الدياج المذهب . (٦٠)

الحنفي (١) . ٨- إكمال السنة في نقض منهاج السنة، للسيد مهدي بن صالح الموسوي القزويني الكاظمي (ت ١٣٥٨ هـ) (٢) . ٩-
الإنصاف والإنصاف لأهل الحق من الإسراف، في الرد على ابن تيمية الحنبلي الحراني، فرغ منه مؤلفه سنة (٧٥٧ هـ)، توجد نسخة منه
في المكتبة الرضوية - مشهد - رقم ٥٦٤٣ . ١٠- البراهين الجلية في ضلال ابن تيمية، للسيد حسن الصدر الكاظمي (ت ١٣٥٤ هـ) (٣) .
١١- البراهين الساطعة، للشيخ سلامة العزامي (١٣٧٩ هـ) (٤) . ١٢- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (أحمد بن تيمية وأحمد بن
حجر)، للشيخ نعمان بن محمود الألويسي (٥) . ١٣- الدرّة المضيئة في الرد على ابن تيمية، لمحمد بن حميد الدين الحنفي الدمشقي
كمال الدين المعروف بابن الزملكاني (٦) . ١٤- الرد على ابن تيمية في الاعتقاد، لمحمد بن حميد الدين الحنفي الدمشقي (٧) . الفتيا
التي اصدرها الشاميون في حق ابن تيمية

وفي الختام ثبت في المقام صورة الفتيا التي اصدرها الشاميون ونقلها —————

١ . معجم المؤلفين: ج ١ ص ١٤٠ .

٢ . الذريعة ج ١٠ ص ١٧٦ .

٣ . الذريعة ج ٣ ص ٧٩ .

٤ . ابن مرزوق: كتاب التوسل بالنبي، ص ٢٥٣ .

٥ . إيضاح المكنون: ج ١ ص ٢٦٣، معجم المؤلفين ج ١٣ ص ١٠٧ .

٦ . كشف الظنون ج ١ ص ٧٤٤، معجم المؤلفين ج ١١ ص ٢٢ .

٧ . معجم المؤلفين ج ٨ ص ٣١٦ . (٦١)

الشيخ محمد زاهد الكوثري في تكملة السيف الصقيل، وإليك ما ذكره: «وقد اصدر الشاميون فتياً وكتب عليها البرهان ابن الفركاح
الفزاري نحو أربعين سطراً بأشياء، إلى أن قال بتكفيره، وواقفه على ذلك الشهاب بن جهيل، وكتب تحت خطه، كذلك المالكي، ثم
عرضت الفتيا لقاضي القضاة الشافعية بمصر: البدر بن جماعة، فكتب على ظاهر الفتوى: الحمد لله، هذا المنقول باطنها جواب عن
السؤال عن قوله: إن زيارة الأنبياء والصالحين بدعة، وما ذكره من نحو ذلك، ومن أنه لا يرخص بالسفر لزيارة الأنبياء، باطل مردود
عليه، وقد نقل جماعة من العلماء أن زيارة النبي فضيلة وسنة مجمع عليها، وهذا المفتي المذكور - يعنى ابن تيمية - ينبغي أن يزرع عن
مثل هذه الفتاوى الباطلة عند الأئمة والعلماء، ويمنع من الفتاوى الغريبة، ويحبس إذا لم يمتنع من ذلك، ويشهر أمره ليحفظ الناس من
الافتداء به. وكتبه محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعي . وكذلك يقول محمد بن الجريري الأنصاري، الحنفي: لكن
يحبس الآن جزماً مطلقاً، وكذلك يقول محمد بن أبي بكر المالكي، ويبالغ في زجره حسبما تندفع تلك المفسدة وغيرها من الفساد .
وكذلك يقول أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي: وهؤلاء الأربعة قضاة المذاهب الأربعة بمصر أيام تلك الفتنة في سنة (٧٢٦ هـ) (١) .
ولو أردنا أن نستقصى كل ما كتب ردأعلى ابن تيمية، لخرجنا عمياً هو الهدف، وكفى في ذلك ما نشر باسم «الوهابية في نظر
المسلمين» (٢) . إلى هنا تمّ تبين الرأي العام في ابن تيمية، في حياته ومماته، وقد عرفت —————

١. راجع تكملة السيف الصيقل، ص ١٥٥، ودفع الشبهة لتقى الدين الحصني ص ٤٥ - ٤٧ .

٢. تأليف إحسان عبداللطيف البكري: الطبعة الرابعة، ومجلة «تراثنا». (٦٢)

فما هو الحق، غير أن تقييم الرجل بنقل آراء الأكابر من العلماء وإن كان له قيمة - ولكنّه تقييم تقليدي لهم - ومن أراد تقييمه عن اجتهاد وإمعان فيجب أن يستعرض آراءه وأقواله من كتبه ورسائله، ليعرف ما هو الحق في ذلك المجال، وعندئذ يصدر القاضي عن اجتهاد وإمعان، لا عن تقليد واقتداء بالغير، ولأجل ذلك نخص الفصل الآتي بنقل آرائه في مواضع مختلفة، ونكتفي ببعضها الذي أوجد ضجة في الأيام الغابرة، وقام العلماء في وجهه كصف واحد، وزجروه وعاتبوه ونفوه وسجنوه، إلى أن مات في سجن دمشق، ولا ينافي كل ذلك ما للرجل من فضل وفضيلة في نواح من العلوم الإسلامية، فإنه لولا تحليه بالذكاء والتوقد، أو بالعلم بالكتاب والسنة لما اكتسب مقاماً في الأوساط الإسلامية، ولم يكن لآرائه قيمة، فالمبدع لا يكون ناجحاً في بدعه وضلاله إلا إذا خلط الحق بالباطل - وإلا - فالباطل المطلق لا يكون له نجاح ونفوذ، ولنعم ما قال أمير المؤمنين علي - عليه السلام -: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا، على غير دين الله. فلو أن الباطل خلس من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلس من لبس الباطل، انقطعت عنه السنن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمجان، فهناك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى» (١) .

١. نهج البلاغة الخطبة ٤٩ .

الإتهام بالشرك والبدعة

الإتهام بالشرك والبدعة

إن أكثر شيء تداولوا وأرخصه في كتب الوهابيين ودعاياتهم هو اتّهام المسلمين بالشرك والبدعة، وكأنهم لا يجدون في كنانتهم شيئاً يرمون به المسلمين سوى هاتين الفريتين. ترى أنهم يتهمون جميع المسلمين من عرب وعجم وسنة وشيعه بالشرك في العبادة، وأنه ليس تحت السماء وفوق الأرض أمه موحّده سوى محمد بن عبد الوهاب وأتباعه . كما أنهم بدل تكريم المسلمين عند اللقاء، وتهنئتهم بالتسليم ونشر العطور ونثر الازهاير عليهم، يتهمونهم بالابتداع، ويسمونهم بالمبتدعة. ولأجل ذلك يجب على كل محقق وناقد لمزاعم الوهابيين الموروثة من ابن تيمية القيام بأمرين مهمين وهما: ١- تحديد العبادة تحديداً منطقياً بحيث يكون جامعاً ومانعاً . ٢- تحديد البدعة تحديداً دقيقاً مثل الشرك في العبادة . ثم القيام بتطبيق ما أوقفه عليه البحث والتنقيب على ما يصفونه بالشرك والبدعة، حتّى يتبين أن التطبيق صحيح أولاً؟ فما نقدّم إليك أيها القارئ الكريم بحثاً ضافياً حول هذين الموضوعين المهمين، حتّى يتضح الحقّ بأجلى مظاهره، وتقف على أن أكثر من يصفونه بالشرك والبدعة خيال وضلال وجهل بحقيقتهما. (٦٤)

ابن تيمية

ابن تيمية وملاكات التوحيد والشرك في العبادة

إنّ المفتاح الوحيد لردّ شبه الوهابيين هو تحديد العبادة وتمييزها عن غيرها، فما لم يتحدّد مفهوم العبادة بشكل منطقي حتّى تتميز في ضوءه العبادة من غيرها، لم يكن البحث والنقاش ناجحاً، ولأجل ذلك نخصّص هذا الفصل لتعريف العبادة، ونبين ما ذكر حولها من التعاريف. إنّ للتوحيد مراتب بينها علماء الإسلام في الكتب الكلامية والتفسيرية، ونحن نشير إلى هذه المراتب على وجه الإجمال، ونركّز على التوحيد في العبادة: الأولى: التوحيد في الذات، أو التوحيد الذاتي، والمراد منه هو: أنه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له. قال سبحانه: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (١) . الثانية: التوحيد في الخالقية، والمراد منه هو: أنه ليس في صفحة الوجود خالق أصيل غير الله، ولا مؤثر مستقل سواه، وأنّ تأثير سائر الأسباب الطبيعية وغيرها بأمره وإذنه وإرادته سبحانه. قال سبحانه: (قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

الوَاحِدُ الْقَهَّارُ(٢). الثالثة: التوحيد في الربوبية والتدبير، والمراد منه أن للكون مدبراً واحداً _____

١. سورة الإخلاص: الآية ١ .

٢. سورة الرعد: الآية ١٦ . (٦٦)

ومتصرفاً فرداً لا يشاركه في التدبير شيء آخر، وأن تدبير الملائكة وسائر الأسباب بأمره وإذنه، فلم يفوض أمر التدبير إلى الأجرام السماوية والملائكة والجن. قال سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)(١). والمراد من الشفيع هو العلل الطولية، وسُمي بالشفيع لأن تأثيره متوقف إلى ضمّ إذنه سبحانه إليه، والشفيع هو الضم، سمي السبب شافعاً لأنه يؤثر بانضمام إذنه تعالى. وإذ انتهى إليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين، أو الاعتضاد بأعضاء، لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الأمور - وهو الشفاعة - إلا من عبد إذنه تعالى، فهو سبحانه السبب الأصلي الذي لا سبب بالأصالة دونه، وأما الأسباب فإنها أسباب بتسبيبه، وشفعاء من بعد إذنه(٢). الرابعة: التوحيد في التشريع والتقنين، والمراد منه حصر الحاكمية التشريعية في الله فليس لأحد أن يأمر وينهى ويحرم ويحلل إلا الله سبحانه. قال تعالى: (إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)(٣). الخامسة: التوحيد في الطاعة، والمراد منه هو: أنه ليس هناك من تجب طاعته بالذات إلا الله تعالى، فهو وحده الذي يجب أن يطاع، ولو وجبت طاعة النبي فإنما هو بإذنه. قال سبحانه (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا)(٤). السادسة: التوحيد في الحاكمية، والمراد منه هو: أن جميع الناس سواسية، فلا ولاية لأحد على أحد بالذات، بل الولاية لله المالك الخالق، فمن مارس الحكم في الحياة يجب أن يكون بإذنه، قال سبحانه: (إِنَّ الْحُكْمَ _____

١. سورة يونس: الآية ٣ .

٢. الميزان ج ١٠، ص ٧٦ .

٣. سورة يوسف: الآية ٤٠ .

٤. سورة التغابن: الآية ١٦ . (٦٧) إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ(١). السابعة: التوحيد في الشفاعة والمغفرة، والمراد منه هو: أن كلا من الشفاعة والمغفرة حق مختص به فلا يغفر الذنوب إلا هو، ولا يشفع أحد إلا بإذنه. قال سبحانه: (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)(٢).

وقال سبحانه: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)(٣). الثامن: التوحيد في العبادة، وحصرها في الله سبحانه، فلا معبود إلا هو، لا يشاركه فيها شيء، وهذا الأصل مما اتفق عليه الموحدون، فلا تجد موحداً يجوز عبادة غير الله. إنما الكلام في المصاديق والجزئيات، وأن هذا العمل مثلاً (الاستغناء بالأولياء وطلب الدعاء منهم والتوسل بهم) هل هو عبادة لهم حتى يحكم على المرتكب بالشرك، لأنه عبد غير الله، أو لا؟ وهذا هو البحث الذي عقدنا هذا الفصل لبيان، وما تقدم ذكره من أقسام التوحيد كان استطراداً في الكلام(٤).

جاءت لفظة العبادة في المعاجم بمعنى الخضوع والتذلل. قال ابن منظور: أصل العبودية: الخضوع والتذلل، وقال الراغب: العبودية إظهار _____

١. سورة الأنعام: الآية ٥٧ .

٢. سورة ال عمران: الآية ١٣٥ .

٣. سورة البقرة: الآية ٢٥٥ .

٤. إن الوهابية تعترف بنوعين من التوحيد وهما التوحيد الربوبي والتوحيد الالوهي، ويفسرون الأول بالتوحيد في الخالق، والثاني بالتوحيد في العبادة، وكلا الاصطلاحين خطأ.

أما الأول فالمراد من الربوبية هو تدبير المربوب وإدارته، وأن وظيفة الرب الذي هو بمعنى صاحب، إدرة مربوبه، كرب الدابة والدار والبستان بالنسبة إليها. فالتوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالق، وإن كان ربما تنتهي الربوبية إلى الخالق.

و أما الثاني، أعنى التوحيد في الألوهية فهو مبنى على أن الإله بمعنى المعبود، ولكنه خطأ، بل هو ولفظ الجلالة بمعنى واحد، غير أن الأول كلى والثانى علم لواحد من مصاديق ذلك الكلى .

ومن أراد التفصيل فليرجع إلى مفاهيم القرآن، الجزء الأول ص ٤٣٢. وعلى ضوء هذا كلما أطلقنا لفظ الإله أو الألوهية فلا نريد منه إلا هذا، لا المعبود . (٦٨)

التذلل، والعبادة أبلغ منها، ولكن هذه التعاريف وأمثالها كتفسيرها بالطاعة كما فى القاموس، كلها تفسير بالمعنى الأعم، فليس التذلل وإظهار الخضوع والطاعة نفس العبادة، وإلا يلزم الالتزام بأمر لا يصح لمسلم أن يلزم بها: ١- يلزم أن يكون خضوع الولد أمام الوالد، والتلميذ أمام الأستاذ، والجندي أمام القائد، عبادة لهم. قال تعالى: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) (١) . ٢- يلزم أن يكون سجود الملائكة لآدم، الذى هو من أعلى مظاهر الخضوع، عبادة لآدم. قال سبحانه: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...) (٢) . ٣- يلزم أن يكون سجود يعقوب وزوجته وأبنائه ليوسف عبادة له. قال سبحانه: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) (٣) . ٤- يلزم أن يكون تذلل المؤمن عبادة له، مع أنه من صفاته الحميدة، قال تعالى: (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) (٤) . كل ذلك يدفع بنا إلى القول بأن تفسير العبادة بالتذلل والتخضع أو إظهارهما، وبالطاعة وما يشابه ذلك تفسير بالمعنى الأعم، ولا يكون الخضوع ضعيفه وشديده عبادة إلا إذا دخل فيه عنصر قلبى خاص يميزه عن مماثلاته ومشابهاته، وهذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية: ١- الاعتقاد بألوهية المعبود .

١ . سورة الإسراء: الآية ٢٤ .

٢ . سورة البقرة: الآية: ٣٤ .

٣ . سورة يوسف: الآية ١٠٠ .

٤ . سورة المائدة: الآية ٥٤ . (٦٩)

٢- الاعتقاد بربوبيته . ٣- الاعتقاد باستقلاله فى الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد على معاضد. إن هذه العبارات الثلاثة تهدف إلى أمر واحد، وهو أن مقوم العبادة ليس هو ظواهر الأفعال وصورها، بل مقومها هو باطن الأعمال ومناشئها، والخضوع الذى ينبعث عن اعتقاد خاص فى حق المعبود، وهو: إمّا عبارة عن الاعتقاد بألوهية المعبود، سواء أكانت ألوهية حقيقية أم ألوهية كاذبة مدعاة، فالله سبحانه إله العالم وهو الإله الحقيقى الذى اعترف به كل موحد على وجه الأرض، كما أن الأوثان والأصنام آلهة مدعاة اعتقد بألوهيتها عبدتها والعاكفون عليها، فالله سبحانه عند المشركين كان إلهاً كبيراً وهؤلاء آلهة صغيرة، وزعت شؤون الإله الكبير عليهم. أو عبارة عن الاعتقاد بربوبية المعبود، وأنه المدبّر والمدبر بنفسه. أو عبارة عن الاعتقاد باستقلال الفاعل فى فعله وإيجاده، سواء أكان مستقلاً فى وجوده وذاته كما هو شأن الإله الكبير عند المشركين، أم غير مستقل فى ذاته ومخلوقاً لله سبحانه، ولكنه يملك شؤونه سبحانه من المغفرة والشفاعة، أو التدبير والرزق أو الخلق، إلى غير ذلك مما هو من شؤونه سبحانه، والمراد من تملكه بعض هذه الشؤون أو كلها، هو استقلاله فى ذلك المجال، فكأنه سبحانه فوضها إليه وتقاعد هو عن العمل . هذه هى الملاكات التى تضى على كل خضوع خفيف أو شديد، لون العبادة وتميزه عن أى تكريم وتعظيم للغير. وفى الآيات القرآنية إلماعات إلى هذه القيود التى ترجع حقيقتها إلى أمور ثلاثة: إمّا الأول: فإليك بعض الآيات: قال سبحانه: (أَمْ لَهُمْ إلهٌ غَيْرُ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١) فقد جعل فى هذه الآية اعتقادهم بألوهية

١ . سورة الطور: الآية ٤٣ . (٧٠)

غير الله هو الملاك للشرك. يقول سبحانه: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) (١) أى إنهم يرفضون هذا الكلام لأنهم يعتقدون بألوهية معبوداتهم، ويعبدونها بما أنها آلهة حسب تصورهم، ولأجل تلك العقيدة السخيفة، قال تعالى: (إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ

كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ(٢) . وقال سبحانه: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ)(٣) . والآيات في هذا المجال وافرة جداً لا حاجة لنقلها، ومن تدبر في هذه الآيات يرى أن التنديد بالمشركين لأجل اعتقادهم بألوهية أصنامهم وأوثانهم. قال سبحانه: (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ)(٤) . وأما الثاني: أي كون الاعتقاد بالربوبية مؤثراً في إضفاء طابع العبادة على الخضوع، فيكفي قوله سبحانه: (يا أيها الناس اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (٥) . وقال تعالى: (ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) (٦) . فتعليل لزوم العبادة بكونه سبحانه «ربكم» في الآية الأولى أو «ربكم وخالق كل شيء» في الآية الثانية، يعرب عن أن الدافع إلى العبادة هو ذلك الاعتقاد، وبالتالي ينتج أنه لا يتصف الخضوع بصفة العبادة إلا إذا اعتقد الإنسان أن المخضوع له خالق ورب أو ما يقاربه، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه

١ . سورة الصافات: الآية ٣٥ .

٢ . سورة غافر: الآية ١٢ .

٣ . سورة الزمر: الآية ٤٥ .

٤ . سورة الحجر: الآية ٩٦ .

٥ . سورة البقرة: الآية ٢١ .

٦ . سورة الأنعام: الآية ١٠٢ . (٧١)

ينفي صلاحية من في السماوات والأرض لأن يكون معبوداً لأجل أنهم عباد الرحمن، قال: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا)(١)، فليسوا أرباباً ليدبروا أمورهم، ولا خالقين ليخلقوهم . نعم، الاعتقاد بالربوبية ينحل إلى الاعتقاد بأنه يملك شؤون العابد، إما في جميع الجهات كما هو الحال في إله العالم عندن الموحدين، أو بعض الشؤون كالشفاعة والمغفرة، أو قضاء الحوائج ورفع النوازل، كما هو الحال في الآلهة الكاذبة عند المشركين، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينفي عن معبوداتهم كونهم مالكيين لكشف الضر. قال: (لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)(٢)، وقال تعالى: (لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)(٣) وقال: (لَا يَمْلِكُونَ عَنِ الشَّفَاعَةِ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)(٤) . وقال: (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا)(٥) إلى غير ذلك من الآيات التي بتاتا، تملك معبوداتهم المدعاة شيئاً من شؤونه سبحانه . وهذا يعرب عن أن وجه اتصاف خضوعهم بالعبادة ودعائهم لها، هو اعتقادهم بأنهم أرباب يملكون ما ينفع في حياتهم عاجلاً أو آجلاً، ويؤيد ذلك ما كانوا يرددون في ألسنتهم حين الطواف والسعي ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك . وأما الثالث: وهو الاعتقاد بكون المخضوع له مستقلاً إما في ذاته وفعله، أو في فعله فقط، الإلماح إليه في غير موضع من كتاب الله العزيز، وهو توصيفه سبحانه بالقيوم، قال سبحانه: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ

١ . سورة مريم: الآية ٩٣ .

٢ . سورة الرعد: الآية ١٦ .

٣ . سورة الإسراء: الآية ٥٦ .

٤ . سورة مريم: الآية ٨٧ .

٥ . سورة العنكبوت: الآية ١٧ . (٧٢) (الْقَيُّومُ) (١) وقال: (وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ)(٢) والمراد منه هو الموجود القائم بنفسه، ليس فيه شائبة من الفقر والحاجة، وأن كل ما سواه قائم به، ومن المعلوم أن القائم بنفسه والغنى في ذاته، غنى في فعله عن غيره، فلو استغنا بأحد باعتقاد أنه يملك كشف الضر عنا فقد طلبنا فعل الله سبحانه من غيره، لأنه تعالى وحده الذي يملك كشف الضر لا غيره، والغنى في الفعل هو الله سبحانه، فلو أقمنا موجوداً آخر مكان الله سبحانه في مجال الإيجاد، وزعمنا أنه يخلق ويرزق ويدبر الأمور، أو

أنه يغفر الذنوب ويقضى الحاجات من عند نفسه، أو بتفويض من الله سبحانه واعتزاله عن الساحة، فقد وصفناه بالربوبية أولاً (التعريف الثاني) ولو زعمنا أنه قائم بنفس الفعل الذي يقوم به سبحانه ثانياً فكأننا أعطينا غيره صفة من صفاته سبحانه، وهي القيومية ولو في مجال الإيجاد (التعريف الثالث) .

هذا وللتفويض شؤون واسعة: منها تفويض الله تدبير العالم إلى خيار عباده من الملائكة والأنبياء والأولياء، ويسمى بالتفويض التكويني . ومنها تفويض الشؤون الإلهية إلى عباده كالتقنين والتشريع والمغفرة والشفاعة ويسمى بالتفويض التشريعي . وهذا هو الذكر الحكيم يصف أهل الكتاب بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يقول: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٣) . إنَّ أهل الكتاب لم يعبدوهم من طريق الصلاة والصوم لها، وإنما _____

١ . سورة البقرة: الآية ٢٥٥ .

٢ . سورة طه: الآية ١١١ .

٣ . سورة التوبة: الآية ٣١ . (٧٣)

أشركوهم في تفويض أمر التشريع والتقنين إليهم، وزعموا أنهم يملكون شأناً من شؤونه سبحانه. قال الإمام الصادق - عليه السلام - : «والله ما صَإَمُوا لَهُمْ، وَلَا صَإَمُوا لَهُمْ، وَلَكِنْ أَحَلُّوا حَرَمًا وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَاتَّبَعُوهُمْ» (١). روى الثعلبي في تفسيره: عن عدى بن حاتم قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: «يا عدى، اطرح هذا الربق من عنقك» قال: فطرحته، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً) حتى فرغ منها، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرمون ما أحله الله، فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال: فقلت: بلى. قال: فتلك عبادة (٢) . وفي ضوء هذا البحث الضافي تستطيع أن تميز العبادة عن غيرها، والتعبد عن التكريم، والخضوع العبادي عن التعظيم العرفي وتقف على أن سجود الملائكة لآدم، ويعقوب وزوجته وأبنائه ليوسف، لم تكن عبادة قط، وما هذا إلا لأن خضوعهم لم يكن نابغاً عن الاعتقاد بالوهيتهما أو ربوبيتهما، أو أنهما يملكان شؤون الله سبحانه، كلها أو بعضها، ويقومان بحاجة المستنجد بنفسهما وذاتهما. ومما يؤيد أن خضوع المشركين أمام أوثانهم وأصنامهم كان ممزوجاً بالاعتقاد بكونهم آلهة صغيرة، أو أرباباً، وموجودات تملك شؤون الرب أو بعضها، أنهم كانوا يصفونها بأنها أنداد لله سبحانه. قال سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) (٣) ولما زعموا أن معبوداتهم المصطنعة، تستجيب دعاءهم وتشفع لهم مثله، عادوا يحبونها كحب الله، ويذكر في آية أخرى أن المشركين كانوا يسوون آلهتهم برب العالمين.

١ . الكافي ج ١ ص ٥٣ .

٢ . مجمع البيان ج ٣ ص ٢٣ والبرهان في تفسير القرآن ج ٢ ص ١٢٠ .

٣ . سورة البقرة: الآية ١٦٥ . (٧٤)

قال سبحانه: (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نَسُواكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ) (١) . والمراد هو التسوية في شؤونه سبحانه جميعها أو بعضها، وأمّا التسوية في العبادة فكانت من شؤون ذلك الاعتقاد، فإنَّ العبادة خضوع من الإنسان للمعبود، فلا تتحقق إلا أن يكون هناك إحساس من صميم ذاته بأن للمعبود سيطرة غيبية عليه، يملك شؤونه في حياته، وكان المشركون في ظل هذه العقيدة يسوون أوثانهم برب العالمين. وبالتالي يعبدونهم. وليس المراد من التسوية هو التسوية في خصوص توجيه العبادة، إذ لم يعهد من المشركين المتواجدين في عصر الرسول توجيه العبادة إلى الله، ويؤيد ذلك: أن الوثنية دخلت مكة ونواحيها أول ما دخلت بصورة الشرك في الربوبية، وفي ذلك يكتب ابن هشام: كان عمرو بن لحي أول من أدخل الوثنية إلى مكة ونواحيها، فقد رأى في سفره إلى البلقاء من أراضى الشام أناساً يعبدون الأوثان، وعندما سألهم عما يفعلون بقوله: «ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟» قالوا: هذه أصنام نعبدها

فستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطونني منه فأسير به إلى أرض العرب فيعبدون؟! ثم إنه استصحب معه إلى مكة صنماً كبيراً باسم (هبل)، ووضعه على سطح الكعبة المشرفة ودعا الناس إلى عبادتها(٢)، فطلب المطر من هذه الأوثان يكشف عن اعتقادهم بأن لهذه الأوثان دخلاً في تدبير شؤون الكون و حياة الإنسان. الوهابيون وملاكات التوحيد و الشرك ثم إن الوهابيين لما لم يضعوا للعبادة حداً منطقياً تتميز به عن غيرها،

١. سورة الشعراء: الآية ٩٧ - ٩٨ .

٢. سيرة ابن هشام ج ١ ص ٧٩. (٧٥)

عمدوا إلى وضع ملاكات للعبادة، عجيبة جداً، وهي ماثوثة في كتبهم وثنايا دعاياتهم وهي: ١- الاعتقاد بالسلطة الغيبية. ٢- الاعتقاد بأن المدعو يقضى حاجته بسبب غير عادى. ٣- طلب الحاجة من الميت. ٤- طلب الحاجة مع كون المطلوب منه عاجزاً. إلى غير ذلك من المعايير التي لا تمت إلى التوحيد والشرك بصله أبداً ولكون هذه الملاكات تدور على ألسنتهم و تتكرر في كتبهم، نركز على هذه المعايير وأشباهاها لنخرج بنتيجة قطعية، وهي أن الملاك في تمييز التوحيد عن الشرك أمر واحد وهو الاعتقاد بالألوهية والربوبية، أو كون الفاعل مستقلاً ومفوضاً إليه الأمر، وأما هذه المعايير فكلها معايير عرضية، بل لا تمت إلى مسألة العبادة بصله أصلاً، بل كل منها يوصف بالتوحيد على وجهه، وبالشرك على آخره، وإليك البيان: ١- هل الاعتقاد بالسلطة الغيبية معيار للشرك؟ «إن هناك من يتصور أن الاعتقاد بالسلطة الغيبية في المدعو يلزم الاعتقاد بكونه إلهاً. يقول الكاتب المودودي: «إن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرع إليه هو - لا جرم - تصور كونه مالكا للسلطة المهيمنة على الطبيعة، وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة»(١) وهذا الكلام صريح في أنه جعل الاعتقاد بهذه السلطة ملازماً للاعتقاد بالألوهية، وعلى ضوء ذلك فكل من اعتقد في واحد من الصالحين بأن له تلك السلطة فهو معتقد بألوهيته، فيصبح دعاؤه عبادة، والداعي عابداً له. وهو مردود من وجهين:

١. المصطلحات الأربعة ص ١٧. (٧٦) أولاً: إن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله، لا ينحصر في تصور كونه مالكا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة، بل يكفي الاعتقاد بكونه مالكا للشفاعة والمغفرة، كما كان عليه فريق من عرب الجاهلية، إذ كانوا يعتقدون في شأن أصنامهم بأنها آلهتهم لأنها تملك الشفاعة والمغفرة، وهو غير القول بوجود السلطة على عالم التكوين، وبذلك يظهر الضعف في كلام آخر له، حيث يقول:

«إن كلا من السلطة والألوهية تستلزم الأخرى»(١). والحال أن الاعتقاد بالألوهية أعظم من الاعتقاد بالسلطة، فلو افترضنا أن الاعتقاد بالسلطة يستلزم الألوهية، ولكن الاعتقاد بالألوهية لا يستلزم الاعتقاد بالسلطة، بل يكفي أن يعتقد أن المدعو يملك مقام الشفاعة والمغفرة، أو شأناً من شؤونه سبحانه. وثانياً: إن الاعتقاد بالسلطة إنما يستلزم الاعتقاد بالألوهية إذا كان ينطوي على الاعتقاد بأنه فوّضت إليه تلك السلطة تفويضاً، بحيث يقوم بأعمالها باختياره من دون استئذان من الله سبحانه واعتماد عليه، وعلى ضوء ذلك لا يكون الاعتقاد بها - إذا كان إعمال تلك السلطة بإذن الله - ملازماً للاعتقاد بالألوهية، وإلا وجب أن لا نسجل أحداً من المسلمين المعتقدين بالقرآن في ديوان الموحدين، فإنه ثبت ليوستف وموسى وسليمان والمسيح، بل لأناس آخرين ليسوا بأنبياء سلطة غيبية. هذا قوله سبحانه في قصة سليمان: (قال يا أيها الملأ أئكم يأتييني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفریت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم)(٢).

١. المصطلحات الأربعة ص ٣٠.

٢. سورة النمل: الآية ٣٨ - ٤٠. (٧٧)

ولا يرتاب أحد في أنّ سليمان سأل ما سأل بعد اعتقاده بكونهم أصحاب السلطة الغيبية، أفصح للمودودي أن يرمى ذلك النبي العظيم بما لا يليق بساحته، بل لا يحتمل في حقه؟ . إنّ الذكر الحكيم يثبت - لسليمان - نفسه سلطة غيبية، وأنه كان له سلطة على الجن والطيور حتى أصبحا من جنوده، كما يقول: (وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ...) (١). وكانت له السلطة على عالم الحيوانات حتى أنه كان يخاطبهم ويطلب منهم تنفيذ أوامره، كما يقول: (وَتَقَدَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدَيْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (٢)، وكانت له السلطة على الجن، فكانوا يعملون بأمره وإرادته، كما يقول: (وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُأْذِنُ رَبِّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ...) (٣)، وكانت له السلطة على الريح أيما تسليط كما يقول: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ) (٤).

وعلى أيّ تقدير فإيه سلطة أعظم وأوضح من هذه السلطة التي كانت لسليمان؟ والجدير بالذكر أنّ بعض الآيات صرحت بأنّ كل هذه الأمور غير العادية كانت تتحقق بأمره . هذا ما ذكره القرآن في حق سليمان، وقد ذكر نظيره في حق غير واحد من الأنبياء، لاحظ الآيات (٥) فكيف يكون الاعتقاد بالسلطة الغيبية المهيمنة على الطبيعة على وجه الإطلاق ملازمًا للاعتقاد بالألوهية؟

١ . سورة النمل: الآية ١٧ .

٢ . سورة النمل: الآية ٢٠ - ٢١ .

٣ . سورة سبأ: الآية ١٢ - ١٣ .

٤ . سورة الأنبياء: الآية ٨١ .

٥ . سورة يوسف: الآية ٩٣ - ٩٤، سورة الشعراء: الآية ٦٣، سورة البقرة: الآية ٦٠ (في حق موسى)، سورة آل عمران: الآية ٤٩ (في حق

المسيح)، سورة المائدة: الآية ١١٠ (في حقه أيضاً) . (٧٨) ٢- هل طلب قضاء الحاجة بأسباب غير طبيعية معيار للشرك؟

يرى المودودي ان التوسل بالأسباب الطبيعية ليس بشرك، أمّا طلب الحاجة وإنجازها بأسباب غيرها فهو يلازم الشرك. يقول: فالمرء إذا كان أصابه العطش فدعا خادمه وأمره بإحضار الماء، لا يطلق عليه حكم الدعاء، ولا أن الرجل اتخذ إلهًا، وذلك أن كل ما فعله الرجل جار على قانون العلل والأسباب، ولكن إذا استغاث بولّي في هذا الحال فلا شك أنه دعاه لتفريج الكربة واتخذ إلهًا، فكأنّي به يراه سميعاً بصيراً، ويزعم أنّ له نوعاً من السلطة على عالم الأسباب مما يجعله قادراً على أن يقوم بإبلاغه الماء، أو شفائه من المرض (١). أقول: إنّ ما ذكره صورة أخرى للمعيار الأول، وكلاهما وجهان لعملة واحدة، فإنّ طلب التوسل بالأسباب غير الطبيعية لا ينفك عن الاعتقاد بكونه مالكا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة . يلاحظ عليه: أنّ المودودي تصوّر أنّ طلب التوسل بالأسباب الطبيعية ليس بشرك، وإنّما الشرك هو طلب التوسل بغيرها. والحال أنّ كلا منهما على وجهين: فلو تصوّر أنّ القائم بعمل على وفق الأصول الطبيعية، إنّما يقوم به عند نفسه وباقتدار مستقل من دون اعتماد على اقداره سبحانه واستئذان منه، فقد اعتقد بألوهيته وطلب فعل الإله من غيره، وأمّا إذا اعتقد أنّ الخادم يحضر الماء بقدره مكتسبة واستئذان منه فهو نفس التوحيد. ومثله الكلام في الأسباب غير الطبيعية، فلا شك أنّ أمة المسيح كانوا يعتقدون في حقه - بعدما رأوا الآيات والمعجزات منه - أنّ له سلطة غيبية، وكانوا يسألونه إبراء مرضاهم وإحياء موتاهم، أفهل يتصوّر أنّ سؤالهم هذا كان شركاً؟ وأنّ المسيح كان مجيباً لدعوتهم الشركية؟! فمن ذا الذي يسمع قول المسيح بين بني إسرائيل: (أَنْتِي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى يَأْذِنُ اللَّهُ وَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي) _____

١ . المصطلحات الأربعة ص ٣٠ . (٧٩) يُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) .

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْمَعُ كَلَامَهُ هَذَا - ولا يعتقد بسلطته الغيبية؟ ولا يسأله كشف الكرب والملمات بإذنه سبحانه؟ أفصح للمودودي أنّ يتهم أمة المسيح وفيهم الحواريون الذين أنزلت عليهم مائدة من السماء ومدحهم سبحانه في الذكر الحكيم (٢) بالشرك؟ هذا هو

الذكر الحكيم ينقل عن السامري قوله: (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) (٣). وهو يعطى أن السامري توسل بالتراب المأخوذ من أثر الرسول، وكان له أثر خاص في إخراج العجل الذي كان له خوار. فلو اعتقد المسلم - تبعاً للقرآن - بأنه توسل بأسباب غير طبيعية لإضلال قومه، فهل يصح اتهامه بالشرك؟. وبالجملة: ليس الاعتقاد بالسلطة الغيبية في مقابل الاعتقاد بالسلطة العادية، كما وليس التوسل بالأسباب غير العادية في مقابل التوسل بالأسباب العادية، معيارين للتوحيد والشرك، بل كل واحد منهما يمكن أن يقع على وجهين، فعلى وجه يوافق الأصول التوحيدية، وعلى آخر يخالفها. ٣- هل الموت والحياة ملاكان للتوحيد والشرك؟.

يظهر من الوهابيين أنهم يجوزون استغاثة الأحياء، وفي الوقت نفسه يرون استغاثة الأموات شركاً. يقول محمد بن عبد الوهاب: وهذا جائز في الدنيا والآخرة أن تأتي رجلاً صالحاً تقول له: ادع الله لي، كما كان أصحاب الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يسألونه في حياته، وأما بعد مماته فحاشا وكلاً أن يكونوا سألوا ذلك، بل أنكروا السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعاء نفسه (٤).

١. سورة آل عمران: الآية ٤٩.

٢. سورة المائدة: الآية ١١٥ وسورة الصف: الآية ١٤.

٣. سورة طه: الآية ٩٦.

٤. كشف الشبهات - طبع مصر - ص ٧٠. (٨٠)

عجيب جداً أن يكون عمل محدد ومشخص إذا طلب من الحي، نفس التوحيد، وإذا طلب من الميت يكون عين الشرك. إن القرآن ينقل عن بعض شيعه موسى ويقول: (فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) (١) فنفس هذه الاستغاثة في حال الحياة، يتصور على وجهين، يحكم على أحدهما أنه موافق لأصول التوحيد، وعلى الآخر بخلافها!! إن هذه الاستغاثة إنما تكون على وفق التوحيد إذا اعتقد أن موسى في حال حياته يقوم بالاعانة بقدره مكتسبه وإذن منه سبحانه، ولو اعتقد بأصلته في إغاثة المستغيث فقد اعتقد بألوهيته، فإذا كان هذا هو المعيار في الاستغاثة من الحي، فليكن هذا هو المعيار عند الاستمداد بالأرواح المقدسة العاملة الشاعرة حسب أخبار القرآن (أو الأموات) على زعم الوهابيين. فلو فرضنا أن أحداً من شيعه موسى استغاث به بعد خروج روحه الشريف عن بدنه على نحو الاستغاثة الأولى، فهل يتصور أنه أشرك بالله؟ وأنه عبد موسى لاعتقاده أنه يغني المستغيث حياً وميتاً؟. ولو كانت حياة المستغاث ومماته معياراً، فإنما يصح أن يكون معياراً في الجدوائيه وخلافها، لا في الشرك والتوحيد. وبذلك تقف على ضعف كلام تلميذ ابن تيمية حيث يقول: «و من أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً» (٢). يلاحظ عليه: أن ما ذكره من الدليلين لا يثبت مدعاه، لأن قوله: «فإن الميت قد انقطع عمله» على فرض صحته، يثبت عدم الفائدة في

١. سورة القصص: الآية ١٥.

٢. فتح المجيد، تأليف حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٦٧ الطبعة السادسة. (٨١)

الاستغاثة بالميت، لا- أنه شرك، وأما قوله: «ولا يملك نفسه ضراً ولا نفعاً» فهو جار في الحي والميت، فليس في صفحة الوجود من يملك لنفسه شيئاً، وإنما يملك يادنه وإراته سواء أكان حياً أم ميتاً، ومع الإذن الإلهي يقدر على إيصال النفع والضرر أحياء وأمواتاً. هذا كلام التلميذ، فهلم ندرس كلام أستاذة ابن تيمية وهو يقول: كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية وجعل يقول: يا سيدي فلان أنصرنى وأغثنى... فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب، وإلا قتل (١). يلاحظ عليه: أن الإستهانة بالأموات - حسب تعبير الوهابيين، أو الأرواح المقدسة حسب تعبيرنا - إذا كانت ملازمة للاعتقاد بنوع من الألوهية، يلزم أن تكون الإستهانة بالأحياء ملازمة لذلك، لأن حياة المستغاث ومماته حد لجدوائيه الإستهانة وعدمها، وليس حداً للتوحيد والشرك، في حين

أن الاستغاثه بالحى تعد من أشد الضروريات للحياة الاجتماعية . وهناك كلام آخر له هلم معى نستمع إليه يقول: «والذين يدعون مع الله الهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم فيقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، أو هؤلاء شفعاؤنا» (٢) . إن قياس استغاثه المسلمين بما يقوم به المسيحيون والوثنيون، والخط بينهما ابتعاد عن الموضوعية، لأن المسيحيين يعتقدون بألوهية المسيح، والوثنيين يعتقدون بتملك الأوثان مقام الشفاعة والمغفرة، بل مقام التصرف فى الكون كإرسال الأمطار على ما نقله ابن هشام (٣) ولأجل هذا الاعتقاد كان طلبهم واستغاثتهم بالمسيح والأوثان عبادة لها .

١ . فتح المجيد ص ١٦٧ .

٢ . نفس المصدر .

٣ . السيرة النبوية ج ١ ص ٧٩ . (٨٢)

وأما استغاثه المسلمين بالأرواح المقدسة فخالية من هذه الشوائب فعندئذ، لا يكون شركاً ولا عبادة، بل استغاثه بعد لا يقوم بشيء إلا بإذنه سبحانه، فإن أذن أجاب، وإن لم يأذن سكت، فما معنى توصيف هذا بالشرك ؟ ٤- هل القدرة والعجز حدان للتوحيد والشرك ؟

وهناك معيار مزعوم آخر يظهر من كلمات ابن تيمية، وهو أن قدرة المستغاث على تحقيق الحاجة يوجب أن لا يكون الطلب شركاً ولكن عجزه عن قضاء الحاجة يضى على الطلب لون الشرك، يقول ابن تيمية: «من يأتي إلى قبر نبي أو صالح ويسأل حاجته ويستنجد به، مثل أن يسأله أن يزيل مرضه ويقضى دينه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل» (١) . وليس هذا ملاكاً جديداً بل هو وجه آخر للملايك السابق، غير أنه عثر فى السابق بموت المستغاث وحياته، وهنا بالعجز والقدرة، يقول الصنعاني: «الاستغاثه بالمخلوقين فى ما يقدرون عليه مما لا ينكرها أحد، وإنما الكلام فى استغاثه القبورين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أموراً لا يقدر عليها إلا الله تعالى، من عافية المرض وغيرها، وقد قالت أم سليم: يا رسول الله . خادمك أنس، ادع الله له، وقد كان الصحابة يطلبون الدعاء منه وهو حى، وهذا أمير متفق على جوازه، والكلام فى طلب القبورين من الأموات أو من الأحياء أن يشفوا مرضاهم ويردوا غائبهم، ونحو ذلك من المطالب التى لا يقدر عليها إلا الله» (٢) . وعلى أى تقدير، فسواء أكان هذا وجهاً آخر للملايك السابق أم ملاكاً آخر بقريته عطف الأحياء على الأموات فى هذا الكلام، فليست القدرة والعجز ملاكين للتوحيد والشرك، وإنما هما ملايك الجدوائيه وعدمها .

١ . زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور، ص ١٥٦ - والهداية السنية، ص ٤٠ .

٢ . كشف الإرتياب ص ٢٧٢ نقلا عن الصنعاني . (٨٣) ٥- طلب فعل الله من غيره

هذا هو الملايك الحقيقى الذى أو عز إليه الصنعاني، ويوجد فى كلمات ابن تيمية وقد عرفت قوله: «من يأتي إلى قبر نبي أو صالح ويسأله أن يزيل مرضه ويقضى دينه أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى» وهذا مما لا إشكال فيه، غير أن الكلام فى تمييز فعل الله عن فعل غيره، أما الكبرى فمسلمة عند الكل، فقد اتفق الموحدون على أن طلب فعله سبحانه من غيره، ملازم للاعتقاد بألوهية المسؤول وربوبيته، فاللازم دراسة الصغرى، وأن فعل الله ما هو؟ والتركيذ عليه . ترى أن ابن تيمية قد سلم أن شفاء المريض وقضاء الدين على وجه الإطلاق من أفعاله سبحانه، مع أن الحق أن قسماً منهما يعدّ فعلاً لله سبحانه دون قسم آخر . إن إبراء المريض وقضاء الدين ورد الضالّه وغيرها بالسنان الطبيعىة أو غيرها على وجه الاستقلال ومن دون استعانة بأحد هو فعل الله سبحانه، فلو طلب نفس ذلك من غيره لا ينفك عن الاعتقاد بالألوهية والربوبية . وأما لو طلب منه مع الاعتقاد بأنه مستغاث يقوم بهذه الأمور عن طريق العلل الطبيعىة أو غيرها، مستمداً من قدرة الله وقائماً بإذنه ومشيتته، فليس هذا فعل الله حتى يكون طلبه من غيره شركاً . لأنه سبحانه يقوم بالفعل مستقلاً وبلا استمداد . كيف وقد صرح القرآن بأن المسيح «يرى الأكمه والأبرص بإذنه» مع أن ابن تيمية وأتباعه زعموا أنها

من أفعاله سبحانه، قال سبحانه: (وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ بِإِذْنِي) (١) وقد نسب الذكر الحكيم

١ . سورة المائدة: الآية ١١٠ . (٨٤)

كثيراً من الأمور الخارقة للعادة إلى أنبيائه، فلم تكن هذه النسبة إلا لأجل أنهم يقومون بما يقومون، بإذنه سبحانه . وحصيله الكلام: التوسل بالأسباب بقيد أنها أسباب - سواء أكانت طبيعية أم غير طبيعية - لا يلزم الشرك، نعم، السبب ربما يكون سبباً واقعياً، وأخرى سبباً كاذباً وخاطئاً، والاشتباه في سببية السبب لا يستلزم الاعتقاد بالوهية السبب أو ربوبيته، أو كون الطلب منه طلب فعل الله من غيره . ونعيد الكلام حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره فنقول: إنَّ التعلُّق بالشىء والطلب منه مع الاعتقاد بالسببية، وأنَّ الله سبحانه أعطاه المقدره على إنجاز المأمول يمتنع أن يتصف بالشرك، لأنَّ المفروض أنَّ المتوسل إنما تعلَّق به بقيد كونه رابطاً وسبباً. نعم يمكن أن يكون المتوسل صائباً في الاعتقاد بالسببية أو خاطئاً، ولكن الاشتباه في الموضوع لا يكون دليلاً على الاعتقاد . وأما إذا كان التعلُّق بالشىء لا - بوصف السببية والرابطة، بل بما أنَّ المطلوب منه، موجود مستقل في فعله وإيجاده، يقوم بالفعل بنفسه، ويقوم بحاجته المستنجد من صميم ذاته من دون أن يكون سبباً وربطاً بين الإنسان وربّه، فهذا يكون ملازماً للاعتقاد بالالوهية من دون نقاش . كان اللائق بآب تيمية ونظرائه دراسة فعل الله سبحانه وتمييزه عن غيره، حتى لا يحكموا بضرس قاطع بأنَّ الإعانة والإماتة والشفاعة وغيرها على الإطلاق من أفعال الله سبحانه، بل الحق أنَّ كلاً من هذه الأفعال يقع على وجهين، فهو على وجه فعله سبحانه، وعلى وجه آخر يصحَّ أن يعدَّ فعلاً - للسبب، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينسب فعلاً واحداً لذاته، وفي الوقت نفسه ينسبه لمخلوق من مخلوقاته، وإليك نماذج من ذلك: ١- يعدّ القرآن - في بعض آياته - قبض الأرواح فعلاً لله تعالى، ويصرح بأنَّ الله هو الذي يتوفى الأنفس حين موتها إذ يقول مثلاً: (٨٥) (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (١) .

بينما تجده ينسب التوفى في موضع آخر، إلى غيره، قال: (حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رُسُلنا) (٢) . ٢- يأمر القرآن - في سورة الحمد - بالاستعانة بالله وحده إذ يقول: (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (٣)، في حين نجده في آية أخرى يأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة إذ يقول: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) (٤) . ٣- يعتبر القرآن الكريم الشفاعة حقاً مختصاً بالله وحده، إذ يقول: (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً) (٥) . بينما يخبرنا - في آية أخرى - عن وجود شفعاء غير الله كالملائكة ويقول: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ) (٦) . ٤- إنَّ الله هو الكاتب لأعمال عباده إذ يقول: (وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ) (٧) في حين أنَّ القرآن يعتبر الملائكة كتبه أعمال العباد إذ يقول: (بَلَى وَرُسُلنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (٨) . ٥- قد تضافرت الآيات على أنه سبحانه هو المدبّر، يقول: (وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) (٩) بينما يصرح القرآن بمدبريه غيره ويقول: _____

١ . سورة الزمر: الآية ٤٢ .

٢ . سورة الأنعام: الآية ٦١ .

٣ . سورة الفاتحة: الآية ٥ .

٤ . سورة البقرة: الآية ٤٥ .

٥ . سورة الزمر: الآية ٤٤ .

٦ . سورة النجم: الآية ٢٦ .

٧ . سورة النساء: الآية ٨١ .

٨ . سورة الزخرف: الآية ٨٠ .

٩ . سورة يونس: الآية ٣١ . (٨٦) (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) (١) .

وهذه نماذج من الآيات مما نسب الفعل إلى الله سبحانه، وفي الوقت نفسه نسب إلى عباده، وما المصحح إلا - ما ذكرنا، وهو أن

المنسب إليه سبحانه غير المنسوب إلى العباد، وأن قيامه سبحانه بالأفعال على وجه الاستقلال من دون أن يعتمد على سبب عال أو قوة عليا، وأمّا قيام غيره فإنما هو بالسببية والرابضية والمأمورية. وفي ضوء هذا تقدر على تمييز فعله سبحانه عن فعل غيره، فليس شفاء المريض وقضاء الدين وردّ الضالة على وجه الإطلاق، من فعله سبحانه، ولا من فعل عباده، بل لكلّ سمة وعلامة، بها يتميز عن غيره. والحد الفاصل بين فعله سبحانه وفعل غيره هو كون الفاعل مستقلا في الابداع، ومالكاً لفعله، وكونه غير مستقل في الفعل وغير مالك له، والأول (أى الذى يصدر عن الفاعل على وجه الاستقلال) لا يطلب إلا منه، والثاني يطلب من غيره. فتلخص من هذا البحث الضافى أنّ كل خضوع قلبى أو لسانى أو خشوع فعلى لا يتصف بالعبادة إلا إذا اعتقد الخاضع بأنّ فى المخضوع له، عنصر الألوهية والربوبية، وأنه مستقل فى الذات والفعل، أو فى الفعل فقط، وأمّا إذا كان قلب الخاضع خالياً عن الاعتقاد بهذا العنصر، بل كان معتقداً بعبوديته وعدم مالكيته شيئاً، وعدم قيامه بأمر إلا بإذنه، وأنه ليس له دور سوى دور السببية، فطلب أى شىء منه لا يتسم بالعبادة، سواء أطلب منه القيام عن طريق أسباب طبيعية، أم القيام به عن طريق أسباب خارقه للعادة. وسواء اعتقد أنّ فيه سلطة غيبية يقوم بأعمال خارقه للعادة فى ظلها أو لا- وسواء أكان المطلوب منه عاجزاً أم قادراً. وسواء أطلب أموراً عادية كالسقى، أم أموراً غير عادية كبرء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى .

١ . سورة النازعات: الآية ٥ . (٨٧)

إذ ليس شىء منها هو العامل المؤثر لإضفاء العبادة على الطلب، وإنما المؤثر هو ما ذكرناه، وبذلك نقدر على القضاء فى الموضوعات التالية التى وصفتها الوهابية بأنها شرك محرم وهى: ١- طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين . ٢- الاستعانة بأولياء الله . ٣- طلب شفاء المريض من غير الله . ٤- دعوة الصالحين، مثل: يا محمد أغثنى . فإنّ الوهابيين تبعاً لشيخهم فى المنهج يصورون جميع هذه الدعوات دعوات شركية أشبه بدعاء عبدة الأصنام . ولكنك بعدما أحطت خبراً بما ذكرنا سرعان ما ترجع وتقضى بحكمين مختلفين ينشآن من اختلاف عقيدة الداعى وتقول: إنّ كل واحد من هذه الأمور على وجه، شرك، وعلى وجه آخر ليس بشرك، ولا يعلم أى واحد منهما إلا أن نقف على عقيدة السائل . فلو كان المدعو فى اعتقاد الداعى هو الله العالم أو غيره، لكن باعتقاد أن له سهماً من الألوهية أو الربوبية، فهو عبادة بلا شك، حتى لو سئل منه السقى بالماء وإبصار الباب، وما شابههما من الأمور العادية البسيطة والمتعارفة. وأمّا إذا كان المدعو حسب اعتقاد الداعى عبداً مرزوقاً ومربوباً محتاجاً، قائماً فى ذاته بالله سبحانه، مستمداً فى فعله منه، ولا يقوم بفعل إلا بإقداره واذنه، فلا- يكون الطلب منه ولا دعاؤه متسماً بوصف العبادة، بل أقصى ما يمكن أن يقال هو أنّه إذا كان المسؤول والمدعو قادراً على العمل، يكون الطلب مفيداً، وإلا يكون لغواً . وبذلك يظهر أنّ الميزان فى توصيف العمل بالشرك والانحراف عن خط التوحيد ليس هو صور الأعمال وظواهرها، بل المراد حقائقها وبواطنها. فما ورد (٨٨)

فى كلمات القوم من تشبيه عمل المسلمين بعمل عبدة الأصنام تشبيه باطل لا يعول عليه. بقيت هنا كلمة وهى : ما هو المراد من النهى عن دعوة غير الله ؟

إنّ الآفة كل الآفة هى أن الوهابيين كشيخهم ابن تيمية يسردون الآيات والروايات من دون أن يتفكروا فى مفادها ومواردها، ولكنهم يأخذون بالظواهر الابتدائية مع تناسى ما حول الآيات من القرائن، فتراهم يعدون دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والطلب منهم شركاً، بحجّة أنّه سبحانه عد دعاء المشركين للأصنام والأوثان شركاً وقال: (وَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) (١) . (لَهُ دَعْوَةٌ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) (٢) . (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ) (٣) . (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قَمَطِيرٍ) (٤) . (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا) (٥) . (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...) (٦) .

١ . سورة الجن: الآية ١٨ .

٢ . سورة الرعد: الآية ١٤ .

- ٣ . سورة الأعراف: الآية ١٩٤ .
- ٤ . سورة فاطر: الآية ١٣ .
- ٥ . سورة الإسراء: الآية ٥٦ .
- ٦ . سورة الإسراء: الآية ٥٧ . (٨٩) (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ...) (١) . (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (٢) .
- تري أنهم يسردون هذه الآيات الواردة في حق المشركين المعتقدين بالوهية الأصنام وربوبيتهم، وكونهم مفوضاً إليهم القيام بالأفعال والأعمال، من الشفاعة والمغفرة، والشفاء وغيرها. يسردون هذه الآيات بصلافة وقحة في حق المسلمين الإلهيين الذين لا يعتقدون في حق الأنبياء والصالحين سوى كونهم عباداً مقربين، تستجاب دعوتهم إذا دعوا، ويقومون بحاجة المستنجد بإذنه سبحانه وقدرته، وإليك محصلها: ١- إن هذه الآيات وما ضاهاها تختص بالمشركين الذين كانوا يصورون أوثانهم وأصانهم آلهة يملكون كشف الضر والتحويل، وينصرون بلا استئذان منه سبحانه، لأنهم يملكون هذا الجانب من الأفعال الإلهية، وأين هو من عقيدة المسلم الموحد في حق الأنبياء والصالحين من أنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، وهم بأمره يعملون، وإذنه يشفعون و...؟ ٢- إن المراد من الدعاء في هذه الآيات، ليس الدعوة المجردة بمعنى النداء بل المراد هو الدعاء الخاص المرادف للعبادة، وليس ذلك بغريب، فقد جمع سبحانه في آية واحدة، بين الدعوة والعبادة، وفسر الأولى بالثانية نحو قوله: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (٣) . يقول الإمام زين العابدين - عليه السلام - : «وسميت دعاءك عبادة، وتركه استكباراً وتوعدت على تركه دخول جهنم داخِرِينَ» (٤) .

- ١ . سورة يونس: الآية ١٠٦ .
- ٢ . سورة الاحقاف: الآية ٥ .
- ٣ . سورة غافر: الآية ٦٠ .
- ٤ . الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٩ . (٩٠)
- وما ورد في الحديث: «الدعاء معَّ العبادة» فالمراد هو هذا القسم من الدعاء، أي الدعاء المقرون بالوهية المدعو بنحو من الأنحاء . ٣- إن المنهى عنه هو جعل المدعو في مرتبة الله الخالق، كما يعرب عنه قوله: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) (١) وكان هو أساس عبادة المشركين، قال سبحانه: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) (٢) وقال: (إِذْ نَسَّوْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (٣) وأين هذه الآيات من الموحدين الذين لا يرون مع الله شيئاً، بل يرون الكل دونه لكونهم مربوبين؟ .

- ١ . سورة الجن: الآية ١٨ .
- ٢ . سورة إبراهيم: الآية ٣٠ .
- ٣ . سورة الشعراء: الآية ٩٨ .

البدعة في الدين وما هو حدها

البدعة في الدين وما هو حدها

«البدعة» هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، ولا شك أن البدعة محرمة بنص الكتاب العزيز، قال سبحانه: (اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (١) دلت الآية على أن كل ما ينسب إلى الله سبحانه بلا إذن منه فهو أمر محرّم، ومن أدخل في الدين ما ليس منه فقد افترى على الله، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه يعد من افترى على الله أظلم الناس قال سبحانه: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) (٢) . نرى أنه لما اقترح المشركون على النبي أن يأتي بقرآن غير هذا أو يبدله إلى الآخر،

تحاشى عن ذلك وقال: (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مَنْ تَلَقَّاءَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ (٣) . فالمبدع في الشريعة، مبدل لها، وسوف يحيق به عذاب أليم . هل التقاليد والآداب من البدع؟
قد تعرّف أنّ مقوّم البدعة هو أن يقوم الإنسان بفعل ما، باسم الدين والشريعة، وباعتقاد أنه جزء منها، وأما إذا قام بأمر مباح في حد نفسه، ومن _____

١ . سورة يونس: الآية ٥٩ .

٢ . سورة يونس: الآية ١٧ .

٣ . سورة يونس: الآية ١٥ . (٩٢)

دون أن ينطبق عليه أحد العناوين المحرمة كشرب الخمر واقتراف الميسر، لا- بما أنه من الدين، بل بما أنه من العادات والتقاليد المتعارفة في حياة الشعب، من دون أن يمت إلى الدين بصلته، مثلا إذا احتفل شعب بيوم استقلالهم، وخروجهم عن ذل الاستعباد، أو إذا احتفلوا في أول الربيع بما أنه أول السنة، وترددوا في أنديّة الأحيّة والإخوان، فلا- يكون ذلك بدعة، وذلك لأنّ المحتفلين لا يقومون به بما أنه من الدين، وأنّ الشارع أمر بذلك، وإثما يقومون به باسم التقاليد والعادات التي جرت عليها الآباء والأجداد، أو ابتكرها الجيل الحاضر تشييدا لعزائم الشعب، في طريق حفظ استقلالهم، والخروج عن سيطرة القوى الكبرى عليهم، مع كون العمل غير محرم في ذاته، بل هو اجتماع وإنشاد قصائد، وإلقاء خطب وشرب شاي، ولقاء إخوان، إلى غير ذلك . لقد مرّت على الشعب الجزائري أعوام عديدة كان يسيطر عليهم فيها الإستعمار الفرنسي، ينهب أموالهم وثوراتهم الطائفة، ويدمر ثقافتهم الإسلامية وهو يتهم الدينية، ثم إنّ الله سبحانه منحهم - في ظل عزائمهم القوية واستعدادهم لبذل النفس والنفيس في سبيل هدفهم المنشود - الإستقلال والحرية، والرجوع إلى هويتهم الإسلامية، فلو عزم هذا الشعب على أن يقيم في ذلك اليوم في كل سنة احتفالا- عظيماً غير مقترن باقتراف المنكرات وارتكاب المعاصي، لا يلامون ولا يذمون على فعلهم هذا، بل يمدحهم العقلاء بفطرتهم السليمة، ولا يدور في خلد أحد أنّهم ارتكبوا بدعة في الدين، وذلك لأنهم لم يقوموا بما قاموا به، باسم الدين والشريعة، وأنّ النبي أمر بذلك، بل قاموا بذلك باسم حفظ المصالح الشعبية وتشديد عزائمهم الذي هو في حد ذاته حلال بلا ريب: فمن حكم بحرمة هذه التقاليد والآداب و الرسوم، سواء أكانت لها جذور في الأعوام السابقة أم كانت من محدثات العصر، فقد ارتكب الخطأ في تحديد البدعة، ولم يميزها عن غيرها من المراسم والآداب . ولو صحّ تقسيم البدعة إلى الحسنّة والسيئة، فإنما يصحّ في هذا القسم، أي التقاليد والآداب العرفية، فقد يتصف بالحسن وأخرى بالقبح، وأما (٩٣)

البدعة بمعنى إدخال ما ليس من الدين في الدين فهو قبيح مطلقاً، لا ينقسم وليس له إلا قسم واحد، وهو أنّه قبيح محرّم على الإطلاق . هذا ابن تيمية باذر هذه البذور الخبيثة والشكوك الساقطة يصرح بأنّ الأصل في العادات هو الحلية، إلا ما حظره الله، قال: «فالأصل في العبادات لا يشرع منها إلا ما شرعه الله، والأصل في العادات لا يحظر منها إلا ما حظره الله» (١) . وبذلك يعلم أنّ تضييق الأمر والتقاليد التي لم يرد فيها حظر من الشرع، لا- يصدر إلا- من الجاهل، فإنّ الشريعة الإسلامية سمحة سهلة (٢) لم تتدخل في عادات الناس وتقاليدهم، بل خوّلتها إلى أنفسهم حتى يختار كل شعب ما يناسب بيئته و ظروفه وملابساته، وهذا هو الأساس، لكون الإسلام خاتم الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيه خاتم الأنبياء ولو كان محدداً للتقاليد والآداب، والرسوم والماراسم لوقع التصادم بينه وبين حياة الشعوب وحضاراتها المتكاملة مع مرّ الحقب والأزمان . هل الاحتفال بالمواليد من التقاليد أو من صميم الدين ؟

البحث المهم في المقام هو تعيين حكم هذا المصداق، وأن الاحتفال بميلاد النبي هل هو كالاحتفال بمواليد سائر الأفراد كالأبائ والأجداد أو الأولاد الذي جرى عليه ديدين العقلاء في العالم؟ أو أن الاحتفال به يعد من الأمور الدينية؟ لا اظن أنّ من لمس روح الاحتفالات والمهرجانات التي تقام بين المسلمين يوم الميلاد وغيره أن ينسبها إلى التقاليد والرسوم والآداب القومية، فإذن ذلك شيء لا يلائم روح الاحتفالات وأغراض المقيمين لها، فلا شك أنّهم يقومون _____

١ . المجموع من فتاوى ابن تيمية، ج ١٤ ص ١٩٦ .

٢ . صحيح البخارى ج ١ كتاب الإيمان باب «الدين يسر» ص ١٢ روى عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» . (٩٤)

به باسم الدين، ويرجون ثواباً جزيلاً في عقابهم، فالإصرار على أنه من الآداب والرسوم خطأ، لا يتفوه به من شاهدها وعانيتها وعاشر المقيمين لها، فيجب على المسوغ والمانع البحث في أمر آخر، وهو أنه هل لهذا الأمر أصل في الشريعة على الوجه الكلى حتى يكون الإحتفال تجسيداً له في هذه الظروف، أو ليس له أصل في الشريعة حتى يكون بدعة؟ والأسف كله أن المانع والمسوغين لم يركزوا على هذا المهم إلا القليل منهم (١) فعلى من يحاول حسم مادة الخلاف تبيين تلك النقطة الحساسة، وترك ما يثار حوله من الجدل والحوار . فنقول: إن كون شيء أمراً جائزاً في الدين على قسمين: تارة يقع النص عليه بشخصه، كالاحتفال في عيدى الفطر والأضحى، أو الاجتماع في عرفه ومنى، فلا شك أن هذا الاجتماع والاحتفال أمر به الشارع بشخصه، فخرج به عن كونه بدعة. وأخرى يقع النص عليه على الوجه الكلى، ويترك انتخاب أساليبه وأشكاله وألوانه إلى الناس حسب الظروف ورعاية المقتضيات، وإليك بعض الأمثلة: ١- ندب الشارع إلى تعليم الأولاد ومكافحة الأمية، ولا شك أن لهذا الأمر الكلى أشكالاً أو ألواناً حسب تبدل الحضارات وتكاملها، فلو كان التعليم والكتابة في الظروف السابقة متحققة بالكتابة بالقصب والحبر، وجلس المتعلم أمام المعلم على الأرض في الكتابيب، فقد تطورت كيفية التعليم من هذه الحالة البسيطة إلى حالة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة، حيث أصبح الناس يتعلمون عن طريق الإذاعة والتلفاز، و (الكمبيوتر)، والأشرطة، إلى غير ذلك من وسائل التعليم وأجهزة الإعلام، سواء أكان ما يذيعه تعليمياً أم تبليغياً، فالشارع أمر

١ . ولقد أعطى العلامة الحجة السيد جعفر مرتضى في كتابه القيم «المواسم والمراسم» للتحقيق في هذا المجال حقه. شكر الله مساعيه . (٩٥)

بالتعليم والتعلم، وخوّل اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات، ولو كان مصراً على لون خاص من كيفية التعليم، لفشل في طريق هدفه المقدس، لأن الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة والكيفية المختصة التي يعينها ويحددها. ٢- ندب الإسلام إلى الإحسان إلى اليتامى، والتحنن عليهم وحفظ أموالهم، وتربيتهم، غير أن هذا الأمر الكلى له ألوان وأساليب مختلفة، تجارى مقتضيات، العصر وإمكانياته، فالإلزام علينا هو امتثال ما ندب إليه الشارع، وأما كيفية الإحسان فقد خولت إلى أوليائهم حسب إمكانيات الظروف ومقتضياتها، فمن أصر على أن الشارع بين خصوصيات الامتثال ومشخصات إطاعة ذلك الأمر، فقد جهل الإسلام ولم يعرف أساس كونه خاتماً، إذ لا يكون خاتماً إلا إذا أخذ باللب (الإحسان إلى الأيتام) وترك القشر واللباس إلى الناس ومقتضيات الظروف . ٣- إن الصحابة - حسب روايته أهل السنة - قاموا بجمع آيات القرآن المتفرقة في مصحف واحد، ولم يصف أحد منهم هذا العمل بدعة، وما هذا إلا لأن عملهم كان تطبيقاً لقوله سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١)، فعملهم في الواقع كان تطبيقاً عملياً لنصوص شرعية من الكتاب والسنة، وعلى ذلك جرى المسلمون في مجال الاهتمام بالقرآن من كتابته وتنقيطه، وإعراب كلمه وجمله، وعد آياته وتمييزها بالنقاط الحمر، وأخيراً طباعته ونشره، وتقدير حفاظه وتكريمهم والاحتفال بهم، إلى غير ذلك من الأمور التي كلها دعم لحفظ القرآن وتثبيتته وبقائه، وإن لم يفعله رسول الله ولا الصحابة ولا التابعون، إذ يكفي وجود أصل له في الأدلة . ٤- الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانته حدوده من الأعداء أصل ثابت في القرآن الكريم، قال سبحانه: (وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (٢)، وأما كيفية الدفاع ونوع السلاح ولزوم الخدمة العسكرية

١ . سورة الحجر: الآية ٩ .

٢ . سورة الأنفال: الآية ٦٠ . (٩٦)

فالكل تطبيق لهذا المبدأ وتجسيد لهذا الأصل، فما ربما يرمى التجنيد العمومى إلى أنه بدعة، غفلة عن حقيقة الحال، وإن الإسلام

يتبنّى الأصل، ويترك الصور والألوان والأشكال إلى مقتضيات الظروف . هذا هو الأصل الذي به نميز «البدعة» عن «التطبيق»، و«الابتداع» عن «الاتباع» وإليك بعض الكلمات من المخالفين للذكريات وغيرهم حول ما هو بدعة وما ليس ببدعة، والكل يؤكد ما قلناه: قال ابن رجب: قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «وَيَاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثه المبتدعه، وأكد ذلك بقوله: «كل بدعة ضلالة» والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما له أصل فليس ببدعة، وإن كان بدعة لغةً، وفي صحيح مسلم: «عن جابر رضى الله عنه أن النبي كان يقول في خطبته: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة...» وقوله: «كل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين برىء منه (١). وقال ابن حجر في شرح قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «إن أحسن الحديث كتاب الله» والمحدثات - بفتح الدال - جمع محدثه، والمراد ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع، فليس ببدعة فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغه، فإن كل شيء أحدث على غير مثال يسمى بدعة، سواء أكان محموداً أم مذموماً، وكذا القول في المحدثه (٢).

١ . جوامع العلوم والحكم ص ٢٣٣ .

٢ . فتح الباري ج ١٣ ص ٢٥٣ . (٩٧)

ومن راجع القرآن والسنة يقف على أصل رصين في الإسلام في حق النبي الأكرم، وهو لزوم تكريم النبي وتعظيمه حياً وميتاً، وهو أصل لا- يمكن لمسلم إنكاره، وإذا ثبت ذلك الاصل يقع الكلام في أن هذه الاحتفالات هل هي تجسيد لهذا الأصل أو لا؟ فيلزم البحث في موردين: الأول: لزوم تكريم النبي حياً وميتاً

من أمعن في القرآن الكريم يقف على أنه يحث المسلمين على تكريم النبي وتعظيمه، وأنه لا- يصح للمسلمين أن يعاملوه معاملة الإنسان الاعتيادي، وإليك ما يمكن استنباط هذا الأصل منه . ١- قال سبحانه: (الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١) . إن الكلمات الواردة في هذه الآية هي: ١- «آمنوا به» ٢- «عزروه» ٣- «نصروه» ٤- «اتبعوا النور الذي أنزل معه» . فالآية تدعو إلى الإيمان بالنبي وتعزيره ونصرته واتباع النور الذي أنزل معه، والمراد من التعزير، ليس مطلق النصره، لأنه ذكره بقوله «نصروه» ولا حاجة لتكراره، ولا مطلق منع الأعداء عنه، بل المراد هو توقيره وتعظيمه (٢)، أو نصرته مع التعظيم (٣) . وعلى كل تقدير فالمفهوم من الآية هو تعزير النبي واحترامه، ومن المعلوم أن احترامه ليس إلا- لأجل كونه سراجاً منيراً للأمة وهادياً إلى الشريعة ودينه سبحانه . ٢- أشار سبحانه إلى مكانته المرقومه ولزوم توقيره وتكريمه بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

١ . سورة الأعراف: الآية ١٥٧ .

٢ . تفسير الجلالين ص ٢٢٥ مجمع البيان ج ٢ ص ٤٨٨ .

٣ . الميزان ج ٨ ص ٢٩٦، مجمع البحرين مادة «عزر» . (٩٨) كَجَهْرٍ بِعِضْكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) (١)، فجعل رفع الصوت فوق صوته والجهر له كجهر بعضهم بعضاً، سبباً لحبط الأعمال فما أعظم شأنه وأجل قدره .

٣- وقال سبحانه: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) (٢) . ٤- وأشار إلى حرمة التسرع في إبداء الرأي بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٣) . ٥- إنه سبحانه قرن طاعة النبي بطاعته وقال: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (٤)، وجعل طاعته طاعة نفسه وقال: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (٥)، وجعل اتباع الرسول آية لحب الله سبحانه، وقال: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (٦)، وندد بمن قدم حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة

والأموال والتجارة والمسكن على حب الرسول، وقال: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَبْنَاءُكُمْ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) (٧). وروى أنس أن رسول الله قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، وروى أن رسول الله قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...» (٨).

١. سورة الحجرات: الآية ٢.

٢. سورة النور: الآية ٦٣.

٣. سورة الحجرات: الآية ١.

٤. سورة النساء: الآية ٥٩.

٥. سورة النساء: الآية ٨٠.

٦. سورة آل عمران: الآية ٣١.

٧. سورة التوبة: الآية ٢٤.

٨. مسند أحمد، مما أسند أنس بن مالك ج ٣ ص ١٠٣ و ١٧٤ و ٢٣٠، انظر صحيح البخارى ج ١ ص ٨ «باب حب الرسول من الإيمان» والروايات حول حب النبي وعترته كثيرة، لاحظ جامع الأصول، وكنز العمال. (٩٩)

٦- إنه سبحانه أمر بالصلاة والتسليم على النبي وقال: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (١). وروى أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي» وقال: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً» (٢). والصلاة عليه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أحد أركان الصلاة، من تركها عامداً بطلت صلاته، والدعاء له بالوسيلة والفضيلة والمقام المحمود عقيب الأذان أمر محمود، وفيه فضل كبير. ٧- أشار إلى كيفية معاشرته المؤمنين معه ومع أزواجه بعد وفاته، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءً، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا تَتَكَبَّرُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا) (٣).

ومن وقف على خصائص النبي التي ذكرها الفقهاء في الكتب الفقهية، يقف على مكانته عند الله، وعظمته عند المسلمين، ولزوم توقيره وتكبيره وتعظيمه. هذه الآيات والأحاديث تفيد بأنه سبحانه فرض محبة النبي ومودته على

١. سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

٢. مسند أحمد، مما أسند إلى علي بن الحسين ج ١ ص ٢٠١، والدر المنثور ج ٥ ص ٢١٧ في تفسير قوله: «إن الله وملائكته»، ورواه الترمذي في ج ٥، في كتاب الدعوات.

٣. سورة الأحزاب: الآية ٥٣. (١٠٠)

المؤمنين، وأن المؤمن لا- يتم له إيمان حتى يكون - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أحب إليه من نفسه وماله وأهله، ومن شك في ذلك فهو شاك في البديهييات الدينية. وهنا يقع الكلام في المقام الثاني، وهو ما يتحقق به التكريم، وما يمكن الاستقلال به على أنه صادق في حب النبي، وإليك البحث فيه. الثاني: الاحتفال بتجسيد لتكريم النبي

أذا دلت الآيات والأحاديث على لزوم تكريم النبي وتعظيمه أولاً، وحبه ومودته ثانياً، فعندئذ يقع الكلام: فيما يتحقق به ذلك الأصل، وتتجسم به هذه الفريضة. لا شك أن لتكريم الإنسان وتعظيمه طرقاً مختلفة مألوفة للناس، ولكن صاحب الشخصية العالمية إذا أراد الشعب المسلم تكريمه وتعظيمه، فالاحتفال بولادته وإقامة العزاء يوم رحلته، تكريم وتعظيم له، وتجسيد لذلك الأصل الذي نطق به

الكتاب والسنة، وليس ذلك أمراً خفياً على الناس فإنَّ العقلاء بفطرتهم يحتفلون بذكرى شخصياتهم ولادةً ووفاءً، تكريماً واحتراماً لهم، والفرق بين تكريم النبي وتكريم تلك الشخصيات أن تكريمهم من قبيل التقاليد والآداب الشعبية، فلو لم يرد حظر منه كفى في جواز ذلك عدم الحظر. وأما تكريم النبي الأكرم فله أصل في الشريعة الغراء، وله تجليات في الظروف المختلفة، فلو احتفل المؤمنون في كل دورة وكورة بميلاد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من دون اقرار المعاصي والمنكرات، وأقاموا احتفالاً - حاشداً يبهير العيون ويحير العقول، فقام الخطباء فيه بإلقاء الكلم حول فضائله ومناقبه، وما نزل في حقه من الآيات والآثار، وما ضحى بنفسه ونفيسه في طريق هداية أمته، وقام الشعراء بإنشاء القصائد التي تُستلهم من الكتاب والسنة خالية عن الغلو والإفراط، ثم قاموا بإطعام الإخوان والمحبين لرسول الله من مال الله الذي جعل الناس فيه مستخلفين... فلا شك أنهم جسدوا ذلك الأصل الرصين (تكريم النبي وتعظيمه) بعملهم المشرق، كما أظهروا بذلك محبتهم وولاءهم لصاحب الرسالة. (١٠١)

وعند ذلك كيف يمكن أن توصف تلكم الاحتفالات الباهرة بالبدعة؟ أوليست البدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين؟ وهل المسلمون أدخلوا في الدين ما ليس منه؟ أوليس تكريمه وتوقيره هو الأصل الرصين؟ أوليس الإحتفال الباهر تحقيقاً عملياً لذلك المبدأ عند جميع العقلاء، فأين البدعة ياترى؟ أوليس القرآن والسنة ندبا للمسلمين إلى حب النبي، وهل الحب يجب أن يبقى كامناً في مكان النفس، ولو تظاهر به الإنسان كان عاصياً، أو أن المحبة والمودة لها مظاهر ومجال، وإظهار الفرح يوم ولادته والحزن يوم رحلته دليل على الحب الأصيل والمودة المكونة في القلب. ولنا نكر أن لإظهار المودة وتوقيره طرقاً أخرى، منها التمسك بسنة قولاً وعملاً - وتعلماً وتعليماً وإشاراً، أو التأسي بأخلاقه وآدابه، ونشر سنته وأحاديثه، إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون مظاهر للحب، - ولكن أيها الأخ العزيز - لا ينحصر إظهار الحب والتكريم في هذه الأمور، فإنها من الوظائف الدينية التي يجب على المسلم القيام بها في كل يوم وليلة، وهي في الوقت نفسه مظاهر لتوقير النبي وتكريمه وإظهار المودة والحب له، ولكن الإحتفال بمولده وإقامة العزاء في يوم رحلته أيضاً مظهر آخر للتوقير والتكريم وإظهار المودة، فلماذا نؤمن ببعض ونكفر ببعض؟ فكيف تقام الإحتفالات في نفس المملكة السعودية لأبناء عائلتها وتغفل عن النبي الأكرم وأهل بيته، وإن كنت في شك من ذلك فانظر إلى العدد (١٠٢) من مجلة «الفيصل» التي تصدر في طباعة أنيقة جداً في السعودية، فهو يحتوي على تقرير مبسوط عن الإحتفال الكبير الذي أقامته السلطات السعودية بمناسبة عودة «الأمير سلطان» من الرحلة الفضائية في مركبة «ديسكفري»، ويحتوي هذا العدد على صور كثيرة تحكى عن حجم المبالغ الطائلة التي صرفت في ذلك الإحتفال، وقد نشرت الكلمات والقصائد التي أُلقيت فيه، وقرىء فيها المدح المفرط والثناء المسرف على آل سعود عامة والأمير العائد من الرحلة الفضائية خاصة... ألا يستحق رسول الإسلام أن تخلد ذكرى مولده الشريف، وتنشر مناقبه (١٠٢)

وفضائله وإنجازاته العظيمة، وعطاؤه الزاخر، وخدماته الجليلة، وجهاده وجهوده وغير ذلك، حتى يعرف الصديق والعدو ما أسداه هذا النبي العظيم من خدمة، وما قدمه من عطاء، وما تحمّل من عناء وعذاب في سبيل هداية البشر، وهل التكريم إلا الإحتفال به، ونشر قيمه الفاضلة، والحث على الاقتداء به والأخذ بهديه، والمحافظة على آثاره؟ ما هذا التناقض بين القول والعمل؟ تقيمون الإحتفال لأمير البلد، وتحرمون الإحتفال للنبي الأكرم؟. فلو أُقيم إحتفال في أي بلد من بلاد الله تبارك وتعالى، سواء أكان في ميلاد النبي أم غيره، وقرأ المقرء الآيات النازلة في حقه، أو تليت قصيدة حسان بن ثابت الذي قال رسول الله بأنَّ لسانه على المشركين أشد وقعاً من السيوف على رقابهم، كقوله في قصيدة رثى بها النبي بعد رحلته، يقول فيها: بطيبة رسم للرسول ومعهد * منير وقد تعفو الرسوم وتهمد يدل على الرحمن من يقتدى به * وينقذ من هول الخزايا ويرشد إمام لهم يهديهم الحق جاهاً * معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا (١) أو ألقى فيها شعر كعب بن زهير الذي يمدح به النبي ويقول: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيم إثرها لم يُفد مكبول تُبئت أن رسول الله أوعدني * والعفو عند رسول الله مأمول مهلا - هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعظ و تفصيل * إن الرسول لَنورٌ يستضاء به مهتدٌ من سيوف الله مسلول (٢) أو ما أنشأه عبدالله بن رواحه ويقول فيه: خلّوا بني الكفار عن سبيله * خلّوا فكل الخير في

رسوله يارب إني مؤمن بقليله * أعرف حق الله في قبوله (٣) أو قرأ فيها قصيدة البوصيري التي أنشأها عن إيمان وإخلاص بالرسول لغاية التكريم والاحترام مستهلها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَدَى سَلَمٍ * مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مَقْلَهُ بَدَمٍ _____

١. السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٦٦، والقصيدة .

٢. السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٥١٣ .

٣. السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٣٧١ . (١٠٣)

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة * وأومض البرق في الظلماء من أضْم (١) فهل يتصور أن يعد ذلك أمراً محرماً وبدعاً؟ وكأن الرسول يجب أن يكون حامل الذكر. ولو هتف به هاتف بالتكريم يكون آثماً، يجب أن يجلد أو يقتل لأجل البدعة أو الشرك: سبحانك يا رب ما أعظم جرأتهم على الحط من كرامة الرسول وعظمته!! نرى أنه سبحانه خَلَدَ ذكره ورفع مقامه بمنجِه النبوة وقال: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (٢) فلنفترض أن الآية: «رفعنا لك ذكرك» تشير إلى منح منصب النبوة، ومقام الرسالة له، ولكن يستفاد من الآية أن رفع النبي أمر مطلوب لله سبحانه، وأن تويجه بالنبوة سبب لذلك الرفع المحمود، فالاحتفال بمولده ليس إلا تجسيدا لذلك الرفع المطلوب، وليس لقائل أن يقول: إن المطلوب هو رفعه بمنح النبوة له فقط، فلا يسوغ ترفيعه وتخليد ذكره في المجتمع عن طريق آخر، فإن ذلك يباه الذوق السليم . هذا هو معنى البدعة، وهذا تحديدها، فاتخذة مقياساً تميز به المبتدع عن المشرع، والبدعة عن السنة، وبذلك تقف على أن أكثر ما يصفونه بالبدعة له أصل في القرآن والسنة، ولأجل أن يكون البحث مترامياً الأطراف نردفه بالبحث عن التبرك، حتى يكون الوقوف على حقيقته معيناً على حل عقدهم ومشاكلهم، وسيوافيك البحث مستقلاً عن الاحتفال بالمواليد .

١. جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، ص ٤٦٧ والقصيدة لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري صاحب «البردة» و «الهمزية» ولهذه القصيدة شروح.

٢. سورة الإنشراح: الآية ٤ . (١٠٤) (١٠٥)

التبرك بآثار النبي الأكرم والصالحين

التبرك بآثار النبي الأكرم والصالحين

جرت سيرة الموحدين على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وجرت سيرة المسلمين على التبرك بآثار النبي الأكرم، والتبرك بالآثار إما تطبيقاً لمبدأ الحب والمودة لرسول الله، وإما طلباً لأثر معنوي وضعه الله سبحانه في الشيء المتبرك به، كما في التبرك بماء زمزم، وماء ميزاب الكعبة وكسوتها، وماء الفرات وسور المؤمن، إلى غير ذلك مما وردت الأحاديث في التبرك به. فسواء أكان تجسيدا للمحبة والمودة كتقبيل الأضرحة والمنبر والأبواب، أم كان لطلب الآثار الخاصة التي وردت النصوص فيها، فلا يمت ذلك إلى الشرك في العبادة بصله، وقد عرفت أن العنصر المقوم لتحقيق مبدأ الشرك هو الاعتقاد بـ «الألوهية» والربوبية، أو كون المدعو مبدأ لأفعال إلهية، وأما إظهار المودة والمحبة لآثار المحبوب على حد قول الشاعر: أمر على الديار ديار ليلي * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا أو طلب الشفاء من الأسباب التي ورد الحديث بأن فيها الشفاء، فليس عبادة فإن الشافي هو الله سبحانه، وماء زمزم وماء ميزاب الكعبة أسباب له، فهذه الأسباب المعنوية كالأدوية الكيماوية التي عمّت العالم، يأوى إليها كل مريض من موحد ومشرك، غير أن الموحد يستعملها بما أنها السبب، والشافي هو الله سبحانه، وهو الذي أعطى السببية لها، ولو أراد لسلبها عنها . (١٠٦)

فالمهم في المقام دراسة ما ورد في الشرع حول التبرك بآثار الأنبياء والأولياء، وتبيين موضع الصحابة من آثار الرسول الأكرم - صَلَّى

الله عليه وآله وسلم - وقبل أن نسرده بعض ما وقفنا عليه، نشير إلى كتابين كريمين في ذلك المجال: ١- «تبرك الصحابة» للشيخ محمد طاهر مكى، من علماء الحرم الشريف، طبع مكة المكرمة . ٢- «التبرك» تأليف الأستاذ الفذ الشيخ على الأحمدي، وقد استقصى فيه جل ما ورد في التبرك، ولا اظن أن من قرأ هذين الكتابين يبقى له الشك في جوازه، إن كان ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، وإلا يزيده إلا خساراً. التبرك في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم يذكر أن يوسف أمر البشير أن يذهب بقميصه إلى أبيه، وقال: القوا بقميصي هذا على وجهه فيعود بصيراً، والله سبحانه يحكى عن يوسف هكذا: (اذهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) (١) (فَلَمَّا جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٢) فالآيات صريحة في أن يعقوب تبرك بقميص ابنه يوسف، ولا شك أن قميص يوسف كان من القطن، والقطن كالحديد الذي يصنع منه الأضرحة والأبواب، والقطن والحديد لا يؤثران في رفع المرض وكشف الكربة، ولكنه سبحانه تكريماً للنبي يمن على المريض بالشفاء بعد التبرك به، وكان هناك صلة معنوية غير مريئة ولا ملموسة ولا مدركة في المختبرات بين التبرك بالقميص وآثار الأنبياء ونزول الشفاء من الله سبحانه، كما نرى تلك الرابطة بين استعمال الدواء وحصول البرء بعده، ومن المعلوم أنه سبحانه هو مسبب الأسباب، وجاعل السببية للسبب. _____

١ . سورة يوسف: الآية ٩٣ .

٢ . سورة يوسف: الآية ٩٦ . (١٠٧)

إن هيئة الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر حول الضريح النبوي الشريف والمسجد الحرام يرفعون عقيرتهم بأن هذا (الضريح) حديد، والحديد لا يفيد، فليستمعوا إلى قول الله سبحانه: (اذهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا)، فعلى ضوء كلامهم قميص يوسف من القطن، والقطن كالحديد، ولكنه سبحانه منح الشفاء لعين نبيه غب تبركه بقميص ولده لصموده في سبيل الله . وأما الأحاديث والآثار الواردة حول التبرك فحدث عنها ولا- حرج، فإنها تتجاوز المائة، ومن أراد فليرجع إلى الكتابين الجليلين اللذين نوهنا بهما، وقبل أن نورد بعض الآثار، نذكر بعض الكلمات في هذا المجال من كبار العلماء: قال ابن حجر: «كل مولود في حياة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يُحْكَمُ بِأَنَّهُ رَأَاهُ، وَذَلِكَ لِتَوْفَرِ دَوَاعِي إِحْضَارِ الْأَنْصَارِ أَوْلَادِهِمْ عِنْدَ النَّبِيِّ لِلتَّحْنِيكِ وَالتَّبَرُّكِ، حَتَّى قِيلَ: لَمَّا افْتَتَحَتْ مَكَّةُ، جَعَلَ أَهْلُ مَكَّةَ يَأْتُونَ إِلَى النَّبِيِّ بِصَبِيَانِهِمْ لِيَمْسَحَ عَلَيْهِمْ رُؤُوسَهُمْ، وَيَدْعُو لَهُمْ بِالْبِرْكَ» (١) . يقول مؤلف تبرك الصحابة: «لا شك أن آثار رسول الله - صفوه خلق الله وأفضل النبيين - أثبت وجوداً وأشهر ذكراً، فهي أولى بذلك التبرك وأحرى، وقد شهدته الجمة الغفيرة من الصحابة، وأجمعوا على التبرك بها والاهتمام بجمعها، وهم الهداء المهديون والقدوة الصالحون، فتبركوا بشعراته وفضل وضوئه وبعرقه وثيابه، وبمس جسده الشريف، وغير ذلك مما عرف من آثاره الشريفة التي صحت بها الأخبار عن الأخيار» (٢) . ولتقدم بعض ما ذكره الشيخان (البخاري ومسلم) لكون صحيحيهما من أئمة الكتب عند أهل السنة وأصحابها: ١- هذا الشيخ البخاري يروي أن الصحابة كانوا يتبركون بفضله وضوئه، قال: _____

١ . الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ص ٥ .

٢ . تبرك الصحابة ص ٥ . (١٠٨)

«لما خرج علينا رسول الله بالهجرة، فأتى بوضوء فتوضأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه ويتمسحون به» (١) . ٢- إن الصحابة كانوا يتبركون بشعره، فروى أنس أن رسول الله لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ شعره (٢) . ٣- إن الصحابة كانوا يتبركون بالإناء الذي شرب منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، قال أبو بردة: قال لي عبدالله بن سلام: ألا اسقيك في قدح شرب النبي فيه؟ (٣) . ويفهم من الرواية أن عبدالله بن سلام كان يحتفظ بذلك القدح للتبرك، لشرب رسول الله منه. ٤- كان الصحابة يتبركون بيديه الشريفتين، فعن أبي حنيفة: خرج رسول الله بالهجرة إلى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين - إلى أن قال - : وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم، قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة

من المسك (٤). لا أظن أن الوهابي يجترىء على ردّ أحاديث البخارى، لأنه أصحّ الكتب وأتقنها، خصوصاً أن هذه الروايات جاءت فيها متواترة، وهم القائلون: وما من صحيح كالبخارى جامعاً * ولا مسند يلقى كمسند أحمد هذا بعض ما رواه البخارى، وهلم معى ندرس ما ذكره مسلم فى صحيحه: ذكر مسلم أن الصحابة كانوا يأتون بصبيانهم إلى النبى للتبرك والتحنيك، قال: إن رسول الله كان يؤتى إليه بالصبيان، فيبارك عليهم ويحنكهم (٥). _____

١. صحيح البخارى ج ١ ص ٥٩، فتح البارى ج ١ ص ٢٥٦.

٢. صحيح البخارى ج ١ ص ٥٤.

٣. صحيح البخارى ج ١ ص ١٤٧، فتح البارى ج ١٠ ص ٨٥.

٤. صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٨.

٥. صحيح مسلم ص ١٦٩١. (١٠٩).

كما روى فى حق شعره: «أن رسول الله أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم اتى منزله بمنى، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس (١). هذا بعض ما رواه الشيخان، وأما ما رواه غيرهم فحدّث عنه ولا حرج، وقد عقد البخارى فى صحيحه باباً سماه: «باب ما ذكر من درع النبى وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك، مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته، مما يتبرك به أصحابه وغيرهم بعد وفاته» (٢). إن فاطمة - عليها السلام - التى لا شك أنها من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً حضرت قبر أبيها، وأخذت قبضة من تراب القبر تشمه وتبكي وتقول: ماذا على من شتم تربة أحمد * أن لا يشم مدى الزمان غواليا صُيبت على مصائب لو أنها * صُيبت على الأيام صرن لياليا وفى لفظ: فجعلتها على عينها ووجهها (٣). نعم، كانت بنو أمية وأذناهم يمنعون الناس عن التبرك بقبر رسول الله وآثاره، فمن منع التبرك فإنما هو على خطهم. روى الحاكم فى المستدرک: «أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته، ثم قال: هل تدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصارى، فقال: إني لم آت الحجر، وإنما جئت رسول الله، سمعت رسول الله يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذ وليه غير أهله (٤). _____

١. صحيح مسلم ج ٣ ص ٩٤٧.

٢. صحيح البخارى ج ٤ ص ٨٢.

٣. وفاء الوفاء: ج ٢ ص ٤٤٤، صلح الإخوان، ص ٥٧ وغيرهما من المصادر.

٤. مستدرک الصحيحين للحاكم ج ٥ ص ٥١٥، ومجمع الزوائد ج ٤ ص ٢، باب وضع الوجه على قبر سيدنا رسول الله. (١١٠)

قال العلامة الأمينى: «إن هذا الحديث يعطينا خيراً بأن المنع عن التوسل بالقبور الطاهرة إنما هو من بدع الأمويين وضلالاتهم، منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أذن الدنيا قط صحابياً ينكر ذلك، غير وليد بيت أمية، مروان الغاشم. نعم... «الثور يحمى انفه بروقه» (١). نعم... لبنى أمية عامة، ولمروان خاصة ضغينة على رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - منذ يوم لم يُبق - صلّى الله عليه وآله وسلم - فى الأسرة الأموية حرمة إلا هتكها، ولا ناموساً إلا مزقه، ولا ركناً إلا أباده، وذلك بوقيعته - صلّى الله عليه وآله وسلم - فيهم، وهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا - وحى يوحى، علمه شديد القوى» فقد صحّ عنه - صلّى الله عليه وآله وسلم - قوله: «إذا بلغت بنو أمية أربعين، اتّخذوا عباد الله خولا، ومال الله نحلا وكتاب الله دغلاً» (٢). نعم تبع مروان بن الحكم - الوزغ ابن الوزغ - ابن طريد رسول الله من بعده الحجاج بن يوسف، هذا هو المبرّد ينقل فى كامله، قال: ومما كفرت به الفقهاء الحجاج بن يوسف والناس يطوفون بقبر رسول الله منبره. لقوله: «إنما يطوفون بأعواد ورقية» (٣) ومراد الحجاج من الأعواد: المنبر، ومن الرّمة: عظام رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فيستسخر من المسلمين ويهينهم بكلامه، وهذا يعرب عن أن المسلمين كانوا يطوفون حول قبر رسول الله. قال ابن أبى الحديد: خطب الحجاج بكوفة، فذكر الذين يزورون قبر _____

١. الروق: القرن، وهو مثل يضرب لمن يدافع عن شخصيته وعرضه .

٢. الغدير: ج ٥ ص ١٤٩ .

٣. التبرك ص ١٦١ . (١١١)

رسول الله بالمدينة، فقال: تبا لهم، إنهم يطوفون بأعداء ورمية بالية. هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟ ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله؟(١). هذا بعض ما يمكن أن يقال حول التبرك، ومن أراد التفصيل والتبسط فليرجع إلى كتاب «التبرك» فقد بلغ الغاية في ذلك المجال . * * * * *

هذا وقع عقد العلامة الأميني فصلا أسماء «التبرك» بالقبر الشريف بالتزام وتمريغ وتقبيل» وذكر هناك نصوصاً كثيرة تحكى عن جريان السيرة على التبرك بالقبر الشريف، فمن أراد فليرجع إلى الجزء الخامس: ص ١٤٦ - ١٦٤ .
١. شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٤٢ .

عقائد ابن تيمية

عقائد ابن تيمية

عقائد ابن تيمية عقائده و آراؤه

إن الآراء والمعتقدات، مقياس شخصية الإنسان، ومستوى عقلية وثقافته، كما أن ما يمت منها إلى الإسلام بصله، مقياس عرفانه بالكتاب والسنة، وسلامة ذوقه وصفاء ذهنه، وقد حان تقييم شخصية ابن تيمية عن طريق عرض آرائه على المصادر الإسلامية، ليعلم مدى صحتها وانطباقها على المصدرين وحد سلامة ذوقه وصفاء ذهنه في مقام الاستضاء بهما، وإليك البيان: (١١٤)

ابن تيمية ورأيه في الصفات الخيرية (١)

ابن تيمية ورأيه في الصفات الخيرية (١)

إن المحنة الأولى لابن تيمية بدأت مما نشره باسم «العقيدة الحموية» حيث أجاب فيها عن سؤال أهل «حماه» في آيات الصفات، مثل قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) وقوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)، وأحاديث الصفات، كقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من اصابع الرحمن»، وقوله: «يضع الجبار قدمه في النار» بما هذا نصه: «فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وعلى كل شيء، وأنه فوق السماء، مثل قوله: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)، (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)، (أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ...)، (أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا...)، (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...)(إِلَيْهِ تَعْرُجُ...وَالرُّوحُ...)(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ...)(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)(في ستة مواضع). (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ، فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ _____

١. الصفات الخيرية، هي الصفات التي أخبر عنها القرآن والسنة، مقابل ما يدل عليه العقل كالعلم والقدرة . (١١٥) موسى وإني لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا...، (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)، (مُنزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ) إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفه .

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى، مثل قصة معراج الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إلى ربه، ونزول الملائكة من عند الله وصعودهم إليه، وقوله في الملائكة: «الذين يتعاقبون بالليل والنهار، فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم، فيسألهم وهو أعلم بهم»، وفي الصحيح في حديث الخوارج: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً» وفي حديث الرقية الذي

رواه أبو داود وغيره: «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك. أمرك في السماء كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض. اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبين»، وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ من إخوانه فليقل: «ربنا الله الذي في السماء ذكره»، وقوله في حديث الأعمال: «والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله في حديث قبض الروح: «حتى يعرج به إلى السماء التي فيها الله». وقول عبدالله بن رواحة الذي أنشده للنبي وأقره عليه: شهدت بأن وعد الله حق * وأن النار مثوى الكافرين وأن العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش رب العالمينا وقول أمية بن أبي الصلت الذي أنشده للنبي، فاستحسنه، وقال: آمن شعره وكفر قلبه . مجدوا الله فهو للمجد أهل * ربنا في السماء أمسى كبيراً بالبناء الأعلى الذي سبق لنا * س وسوى فوق السماء سريرا شرجعاً (١) ما يناله بصر الـ * عين ترى دونه الملائك صوراً (٢) إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله، مما هو من أبلغ التواترات اللفظية والمعنوية التي تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية، إن الرسول المبلغ

١ . الشرجع: الطويل .

٢ . الصور، جمع أصور: المائل العنق. (١١٦)

عن الله ألقى إلى أمته المدعويين: أن الله سبحانه على العرش استوى وأنه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم وعجمهم في الجاهلية والإسلام، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته . ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفاً، ثم ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، ولا عن أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف، حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً، ولم يقل أحد منهم قط إن الله ليس في السماء ولا أنه ليس على العرش، ولا- أنه ليس في كل مكان، ولا- أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا- أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر أن النبي لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات، في أعظم مجمع حضره رسول الله، جعل يقول: ألا- هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيرفع إصبه إلى السماء وينكبها إليهم فيقول: اللهم اشهد، غير مرة، وأمثال ذلك كثيرة (١) . وقد كرر ابن تيمية ما اختاره في باب الصفات الخيرية في غير واحد من آثاره، فقال في العقيدة الواسطية: «وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها، كذلك مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له» وقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر، كلاهما يدخل الجنة» . وقوله: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه» وقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء - تقدس اسمك - أمرك في السماء والأرض...» .

١ . العقيدة الحموية الكبرى - الرسالة الحادية عشرة - من مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ص ٤٢٩ - ٤٣٢ . (١١٧)

وقوله: «والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فأنها مؤمنة» وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه، فلا- يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه»، وقوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» . وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، على خلقه، وهو معهم سبحانه أينما كانوا (١) . وقال: «وقد سأله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فأجابهم: نعم، وسأله أبو رزين: أضحك ربنا؟ فقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: نعم، فقال: لن نعدم من رب يضحك خيراً. ثم إنهم لما سأله عن الرؤية، قال: إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر، فشبه الرؤية بالرؤية (٢) . وقال رداً على نفاة الصفات (٣): إِمَّا أن يكون الله يحب مئياً أن نعتقد قول النفاة، أو نعتقد قول أهل الإثبات، أو نعتقد

واحداً منهما فإن كان مطلوبه منّا اعتقاد قول النفاة، وهو أنه لا داخل العالم ولا خارجه، وأنه ليس فوق السماوات ربّ ولا على العرش إله، وأنّ محمداً لم يعرج به إلى الله، وإنما عرج به إلى السماوات فقط، لا إلى الله، فإنّ الملائكة لا تعرج إلى الله بل إلى ملكوته، وإنّ الله لا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء، وأمثال ذلك. وإن كانوا يعبرون عن ذلك بعبارات مبتدعة فيها إجمال وإبهام وإيهام، كقولهم: ليس بمتحيز، ولا جسم، ولا جوهر، ولا هو في جهة، ولا مكان، وأمثال هذه _____

١ . العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة، من مجموع الرسائل الكبرى، ص ٣٩٨ - ٤٠٠ بتلخيص .

٢ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢٠٣، طبع لجنة التراث العربي .

٣ . المراد: الصفات الخيرية كاليد والوجه . (١١٨)

العبارات التي تفهم منها العامة تنزيه الرب تعالى عن النقائص، ومقصدهم أنه ليس فوق السماوات ربّ ولا على العرش إله يعبد، ولا عرج بالرسول إلى الله، ولو كان هذا هو المطلوب كان من المعلوم أنه لا بد أن يبينه الرسول، وقد علم بالاضطرار أنّ الرسول وأصحابه لم يتكلموا بمذهب النفاة (١) . وقال: «إنّ المالكية وغير المالكية نقلوا عن مالك أنه قال: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، ولأنّ علماءهم حكموا إجماع السنة والجماعة على أنّ الله بذاته فوق عرشه» (٢) . وقال - نقلاً عن ابن أبي حنيفة - «أنه سئل عن قول: لا أعرف ربّي في السماء أو في الأرض؟ قال: كفر، لأنّ الله يقول: (الرّحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سبع سماواته، فقال السائل: إنّه يقول على العرش، ولكن لا - أدري العرش في السماء أو في الأرض؟ فقال: إنّه إذا أنكر أنه في السماء كفر، لأنّه تعالى في أعلى عليين، وإنّه ليدعى من أعلى لا من أسفل (٣) . ونقل عن عبدالله بن المبارك أنه سئل: بماذا تعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سماواته على عرشه، بائن عن خلقه قلت بحد لا - يعلمه غيره. ثم نقل عن كثير من أئمة الحديث كالثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد، وإسحاق، عن كون الله سبحانه فوق العرش بذاته، وأنّ علمه بكل مكان (٤). إلى غير ذلك مما نقله وأرسله على نسق واحد، والكل يهدف إلى أن الصفات الخيرية يجب أن تجرى على الله سبحانه بحرفيتها وظهورها التصوري، من دون تفصيل وتأويل، يارجاعها إلى المعاني المجازية أو الكنائية . _____

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢٠٣ .

٢ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢٠٣ .

٣ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢٠٧ .

٤ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ . (١١٩) الآراء المتضاربة حول الصفات الخيرية

إنّ للمتكلمين وأهل الحديث في تفسير الصفات الخيرية مذاهب نشير إليها: ١- جريها على الله سبحانه كجريها على المخلوقين، وهذا ما يعبر عنه بالتكييف، وعليه المجسمة وأصحاب الجهة والتشبيه - خذلهم الله سبحانه - وهو يستلزم أن يكون سبحانه جسماً، أو جسمانياً جالساً على كرسي جسماني، ناظراً من عرشه إلى تحته كنظر الملك الجبار إلى عبيده وغلماؤه . ٢- جريها على الله سبحانه بنفس المفاهيم اللغوية والمعاني الابتدائية، والمدلولات التصورية، بلا تصرف وتعليل وتدخّل فيها، والله سبحانه يتّصف بها لكن بلا تكليف، والفرق بين هذا القول والقول الأوّل هو أنّ القول الأوّل يثبت المعاني مع الكيفية، وهذا القول يثبتها بنفس المعاني لكن بلا تكليف، وهذا هو الذي اختاره ابن تيمية، ويذكر ذلك في رسائله ويقول: «والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أنّ الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق، ولوازمها» (١). ويقول أيضاً: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، فيعطّلون أسماءه الحسنی يحزفون الكلم عن مواضعه. أمّا المعطلون، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلّا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفى تلك المفهومات،

فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولاً وعطلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه» (٢) .

١ . العقيدة الحموية ص ٤٢٨ - ٤٤٠ .

٢ . المصدر نفسه . (١٢٠)

٣- جريها على الله سبحانه بمفاهيمها التصديقية، بعد الإمعان في القرائن الموجودة في نفس الآيات والروايات الصحيحة وأما غيرهما، فأكثر ما ورد في ذلك من وضع الأحبار والرهبان الذين دسوا هذه الأحاديث بين المسلمين بخداع خاص . وعلى ضوء ذلك فالكل قائلون باستوائه على العرش، لكن الطائفة الأولى يفسرونه بالجلوس والاستقرار على العرش كاستقرار الإنسان على عرشه، الذي له قوائم أربع . والطائفة الثانية يفسرونه بنفس هذه المفاهيم، ولكن يقولون: استقراراً وجلوساً لائقاً بحاله سبحانه، وعرشاً لائقاً بساحته، فهو مستقر وجالس لا كجلوس الإنسان وله عرش لا كعروشه، بل الكل ما يليق بساحته، من غير تكييف ولا تمثيل . والطائفة الثالثة يفسرونه بالاستيلاء، أخذاً بالقرائن الموجودة في نفس الآيات، وما ورد في كلمات البلغاء والفصحاء في استعمال نظيره في كلماتهم ومحاوراتهم. ٤- وهناك طائفة رابعة يقولون بالتفويض، وأنه ليس لنا تفسير الآية، بل نفوض معانيها إليه سبحانه . قال الشهرستاني: «اعلم إن جماعة كثيرة من السلف، كانوا يثبتون لله صفات خبرية مثل اليدين والوجه، ولا يؤولون ذلك، إلا أنهم يقولون: إننا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (ولسنا مكلفين بمعرفة هذه الصفات)» (١) . وقال الرازي: «إن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها، كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض في تفسيرها» (٢) .

١ . الملل والنحل ج ١ ص ٩٣ بتلخيص .

٢ . أساس التقديس ص ٢٢٣ . (١٢١)

إلى غير ذلك من الكلمات التي نقلناها في هذه الموسوعة (١) . ثم إن أصحاب التنازع بالألقاب وصفوا الطائفة الثالثة بالمعطلة تارة، والمؤولة أخرى، ولكنهم غير معطلة أبداً، لأنهم لم يعطلوا في مقام توصيفه سبحانه شيئاً مما ورد في الكتاب، غير أنهم قاموا بتعيين المراد من هذه الصفات فأجروها عليه، وأما المؤولة، وإنما يصح توصيفهم بهذا الوصف إذا أريد منها المعاني التصورية الابتدائية، وأما المعاني التصديقية التي تدل عليها القرائن، فلا يؤولون شيئاً منها، والملاك في صدق التأويل هو المعاني التصديقية، لا التصورية . هذه هي الأقوال المعروفة في باب الصفات على وجه الإجمال، هلّم معي ندرس نظرية ابن تيمية فيها، حتى يتجلى الحق بأجلى مظاهره . نظرية ابن تيمية تلازم الجهه والتجسيم

لا- يشك من نظر إلى ما نقلناه عن ابن تيمية في مواضع متعددة من رسائله وكتبه في أنه صريح في التجسيم والتشبيه، خصوصاً أنه يصرح بأنه تصح الإشارة الحسية بالأصابع إليه، ولا هدف له من جمع كل ما ورد في ذلك المجال من غث وسمين وصحيح وزائف . إلا- إثبات أن هذه الصفات تجرى عليه سبحانه بمعانيها اللغوية، غير أن تذرعه بلفظ «بلا كيف» أو «بلا تمثيل» أو ما يقاربهما ربما يوجب عدم عدّه من المجسّمه والمشبهه، لأنه يقول بأن له سبحانه هذه الصفات لا كصفات المخلوقين، ولكن هذا التذرع واجهه يريد به تبرير توصيفه سبحانه بها بمعانيها اللغوية، وعدم اتهامه بالقول بالتجسيم والتشبيه، ولكنها لا تفيد شيئاً وذلك: إن هذه الصفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعه لغه على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية، فاليد هي الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعه للحركة من العالى إلى السافل، والحركة من صفات الجسم، فالكيفية مقومة لمعاني هذه

١ . راجع الجزئين الثاني والثالث . (١٢٢)

الألفاظ والصفات، فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يداً ورجلاً بالمعنى اللغوي المتبادر عرفاً، وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلا سلوك أحد

طريقين: ١- جريها بنفس معانيها اللغوية التي تتبادر منها المفاهيم المتكيفة، فهو نفس القول بالتجسيم . ٢- جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما في قوله سبحانه: (بِلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) (١)، فهذا هو قول المؤولة، أو المعطلة باصطلاح ابن تيمية، وليس ههنا معنى ثالث ينطبق على ما يتبناه ابن تيمية، وهو إجراؤها على الله بنفس مفاهيمها، لكن من غير تكيف، وذلك لما عرفت أن مفاهيمها متقومة بالتكيف والتمثيل، فلو حذفنا الهيئة والكيفية من اليد، فلا يبقى منها شيء، كما أننا لو حذفنا الحركة الحسية من النزول لا يبقى منه شيء، إلا إذا حملا على الكناية والتأويل، وهو ما لا يقبله ابن تيمية وأتباعه . ولو صح حمل هذه المفاهيم عليه سبحانه بالتذرع بـ «بلا تكيف» و «لا تمثيل» لصح توصيفه سبحانه بكل شيء فيه أدنى كمال، ونقول: إنه جسم لا كالأجسام، وله قلب لا كهذه القلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة. وخلاصة القول: إن ابن تيمية يرى نفسه بين أمرين: أحدهما: القرآن بظواهره الحرفية حجة لا- يصح لأحد تأويلها أو حملها على الكناية والمجاز . ثانيهما: إن القرآن صريح في أنه ليس كمثله شيء، وأن المشركين ما قدروا الله حق قدره، إلى كثير من آيات التنزيه.

فعند ذلك يريد أن يجمع بين الأمرين باللجوء إلى أن المقصود ما يناسب ساحتها، زاعماً بأنه ينبجيه عن القول بالجهة والتجسيم، مع أنه ليس لنا إلا اختيار أحد الأمرين: الأخذ بالمفاهيم اللغوية بلا تأويل ومرجعه إلى

١ . سورة المائدة: الآية ٦٤ . (١٢٣)

التجسيم، أو الإمعان في الآيات والآثار الصحيحة وتفسيرها حسب الدلالة التصديقية، بالمعاني الكنائية أو المجازية أو غير ذلك . وأما ما ادّعاه من أن ما ذكره نفس معتقد السلف فقد أجاب عنه العلامة الشيخ سلامة القضاعي العزامي الشافعي (ت ١٣٧٩ هـ) قال: «إذا سمعت في بعض عبارات بعض السلف: إنما تؤمن بأن له وجهاً لا- كالوجه، ويداً لا كالأيدي، فلا تظن أنهم أرادوا أن ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاد، فجزء منها يد وجزء منه وجه، غير أنه لا يشابه الأيدي والوجه التي للخلق . حاشاهم من ذلك، وما هذا إلا التشبيه بعينه، وإنما أرادوا بذلك أن لفظ الوجه واليد قد استعمل في معنى من المعاني وصفه من الصفات التي تليق بالذات العلية، كالعظمة والقدرة، غير أنهم يتورعون عن تعيين تلك الصفة تهيئاً من التهجم على ذلك المقام الأقدس، وانتهاز الجسم والمشبهه مثل هذه العبارة فغرروا بها العوام، وخذعوا بها الأغمار من الناس، وحملوها على الأجزاء فوقوعوا في حقيقة التجسيم والتشبيه، وتبرأوا من اسمه، وليس يخفى نقدهم المزيف على صيارفة العلماء وجهابذة الحكماء» (١) . وقد صرح بما ذكرنا - الأخذ بالمفاهيم اللغوية يلزم الجهة والتجسيم - ناصر ابن تيمية في جميع المواقف (إلا- في موقف أو موقفين) الشيخ محمد أبو زهرة حيث لم يستطع أن يستتر الحقيقة، فقال: «ولا تتسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع والإقرار بأنه في السماء، وأنه يستوى على العرش، وبين تنزيهه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث. وإن التأويل (حملها على المجاز والكناية) بلا- شك في هذا يقرب العقيدة إلى المدارك البشرية، ولا يصح أن يكلف الناس ما لا يطيقون، وإذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول في مكان والتنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل إلى سعة أفقه إن كان كلامه مستقيماً» (٢) . يقول أيضاً: «ومهما حاولوا نفى التشبيه فإنه لاصق بهم، فإذا جاء ابن

١ . فرقان القرآن ص ٨٠ - ٨١ .

٢ . ابن تيمية، حياته وعصره ص ٢٧٠ . (١٢٤)

تيمية من بعدهم بأكثر من قرن فقال: «إنه اشتراك في الاسم لا في الحقيقة» فإن فسروا الاستواء بظاهر اللفظ فإنه الإقعاد والجلوس، والجسمية لازمة لا محالة، وإن فسروه بغير المحسوس فهو تأويل، وقد وقعوا فيهما نهوا عنه، وفي الحاليين قد خالفوا التوقف الذي سلكه السلف» (١) . أقول: ليس ابن تيمية فريداً في هذا الباب، بل المذهب الذي أرسى قواعده شيخه ابن حنبل من التعبد بالظواهر بحرفيتها ومعانيها التصويرية لا ينفك عن التجسيم والتشبيه، ومهما حاولوا الفرار عنه وقعوا فيه من حيث لا يشعرون. نعم حاول ابن الجوزي أن يدافع عن أستاذ مذهبه فوجه اللوم إلى تلاميذه، فقال: «رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة:

أبو عبدالله بن حامد (٢) وصاحبه القاضي (أبو يعلى) (٣) وابن الزاغواني (٤)، فصنّفوا كتباً شأنوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أنّ الله سبحانه وتعالى خلق آدم - عليه السلام - على صورته، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهوات وأضراساً وأضواءً لوجهه، ويدين وأصابع وكفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين، وقالوا ما سمعنا بذكر الرأس . وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة، ولا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى

١ . ابن تيمية حياته وعصره ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

٢ . شيخ الحنابلة في عصره، البغدادي، الوراق، المتوفى سنة ٤٠٣ له كتاب في أصول الاعتقاد سماه «شرح أصول الدين» وفيه أقوال تدل على التشبيه والتجسيم.

٣ . القاضي أبو يعلى محمد الحسين بن خلف بن الفراء الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٨ وقد تكلم في أصول الاعتقاد كلاماً تبع أستاذه ابن حامد وأكثر من التشبيه والتمثيل حتى قال فيه بعض العلماء:

«لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيئاً لا يغسله ماء البحار» .

٤ . هو أبو الحسن علي بن عبيدالله بن نصر الزاغواني الحنبلي المتوفى سنة ٥٢٧ وله كتاب في أصول الاعتقاد اسمه «الإيضاح» قال فيه بعض العلماء: «إنّ فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه» . (١٢٥)

النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجه الظواهر من سمات الحدث، ولم يقنعوا أن يقولوا صفة فعل حتى قالوا: صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات، قالوا: «لا نحملها على توجيه اللغوة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معنى بر ولطف، ولا - ساق على شدة، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت آدميين»، والشيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن، فإن صرفه صارف حمل على المجاز. ثم يتخرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه، ولقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل وأتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل - رحمه الله - يقول وهو تحت السياط: «كيف أقول ما لم يقل به» فإياكم أن تبدعوا في مذهبه ما ليس منه . ثم قلت في أن الأحاديث تحمل على ظاهرها، فظاهر القدم: الجارحة، ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات، وينبغي أن لا - يحمل ما لا يثبت الأصل وهو العقل، فإننا به عرفنا الله وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلت نقرأ الأحاديث ونسكت، لما أنكر عليكم، وإنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلفي ما ليس فيه» (١) . أقول: عزب عن ابن الجوزي الحنبلي أن إمامه هو الذي دعم هذه الفكرة في كتبه، وأنه هو الذي حشا كتبه بأحاديث التجسيم والتشبيه، ومن اراد الوقوف عليها، فليرجع إلى كتاب السنة الذي رواه ابن عبدالله، وقد رويناه قسماً وافراً من رواياته في الجزء الأول (٢) . نعم، عزم عز بن عبدالسلام الحشوية وقال بأنهم على ضربين:

١ . ابن تيمية، حياته وعصره، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ نقلاً عن دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي، ونقله ملخصاً الشيخ سلامة في فرقان القرآن ص ٨٢ .

٢ . بحوث في الملل والنحل ج ١ ص ١٣٠ - ١٤٣ . (١٢٦)

أحدهما «يتحاشى عن الحشو والتشبيه والتجسيم، والآخر تستر بمذهب السلف، ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التشبيه والتجسيم» (١) . والحق أنّ الحشوية بأجمعهم مجسّمه، والتسمك بمذهب السلف واجهه ستروا بها قبح عقيدتهم، ولو رفع الستر لبان أنهم مجسّمه ومشبهه، وفي هذا الصدد يقول الزمخشري: «ولو حنبلياً قلت قالوا بأنني * ثقیل حلولئ بغیض مجسم ويقول أبو بكر ابن العربي في حقهم: قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا * عنها العدول إلى رأى ونظر بينوا عن الخلق لستم منهم أبداً * ما للأنام ومعلوف من البقر (٢) نعم، الظواهر هي الأصل ولا يجوز لأحد العدول عنه: ولكن الظواهر منها ظاهر حرفي، ابتدائي، تصوري، فهو ليس بحجة أبداً،

ومنها ظاهر جملي تصديقي استمراري، وهو الحجة قطعاً، فإذا قلت: رأيت أسداً في الحمام، فالظهور الابتدائي التصوري الحرفي للفظ الأسد هو الحيوان المفترس، ويقابله الظهور التصديقي الجملي الاستمراري وهو الرجل الشجاع، وهؤلاء الذين يضلون العوام يغترون بالقسم الأول من الظاهر، دون الثاني. وإذا قال المحققون: ظواهر الكتاب والسنة حجة لا يصح العدول عنها ولا يجوز لأحد تأويلها، يريدون الظهورات التصديقية التي تنعقد للكلام بعد الإمعان في القرائن المتصلة أو المنفصلة، ولكن من يتبع الظواهر الحرفية فقد ضل، وغفل عن أن كلام العرب والبلغاء والفصحاء ملئ بالمجازات والكنائيات. وحصيلته البحث أن الجمود على الظواهر عبارة عن الجمود على ظواهرها الحرفية ولا شك أنه يجر إلى الكفر أحياناً، فمن جمده على ظاهر قوله سبحانه: (ليس كمثله شيء) يجب عليه أن يقول: إنَّ لله مثلاً وليس كهذا المثل شيء، كما أنَّ التأويل ضلال، والمراد منه هو العدول عن الظواهر

١. نقض المنطق ص ١١٩، كما في كتاب «ابن تيمية» لمحمد أبي زهرة.

٢. فرقان القرآن ص ٩٨. (١٢٧)

التصديقية التي تتبادر إلى أذهان أهل اللغة بعد الإمعان في سياق الكلام، والتأمل في نظائره في كلمات العرب. فلو استقرَّ ظهور جملة في شيء بهذا الشرط، فالعدول عنه يوجب مسخ كلام الله ومحو الشريعة. فعلى العالم الباحث أن يمعن النظر في الصفات الخبرية التي جاءت في الكتاب والسنة، ويتلقاها آيات متشابهة، ويمعن في الآيات المحكمة حتى يزيل عنها التشابه. «ومن تتبع براهين القرآن واستقرأ آياته العظام وجد كثيراً مما تشابه فيه، ورأى كثيراً منه محكماً، وهو ما كان من المجاز البين الشائع في لغة العرب، وعلى قدر الرسوخ في العلم يكون زوال التشابه أو أكثره عن الكثير من المتشابه، ولما كان الراسخون في العلم متفاوتين لا- جرم تفاوتت أنصباؤهم في زوال التشابه عنهم...» (١). وفي الختام نذكر أموراً الأول: إنَّ ابن تيمية وإن تشرَّب بقوله (بما يناسب ساحته) ونظيره، ولكنَّه أظهر عقيدته الواقعية في مجالات خاصة، وهذا ابن بطوطة ينقل في رحلته: «وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون، إلا أنه كان في عقله شيء، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظمهم على المنبر، وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء.. ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزوادي المالكي وقال: إنَّ هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدَّد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر الشهود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة.

قال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله، فأعاد عليه فاجاب عليه بمثل قوله، فأمر الملك الناصر بسجنه، فسجن أعواماً، وصنَّف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط. ثم إنَّ أمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه فأمر بإطلاقه إلى أن

١. كلام الإمام ابن دقيق العيد، كما في فرقان القرآن ص ٩٧. (١٢٨)

وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنت إذ ذاك بدمشق. فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويدكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إنَّ الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدى والمنال ضرباً كثيراً (١). * * * الثاني: إنَّ ابن تيمية ومن لفَّ لفَّه يستدلون على مقالاتهم بالقياس، ويقولون: إنَّ الوجه، والعين، واليدين، والقدمين والساق صفات مثل سائر الصفات، كالحياة والعلم والإرادة، فكما أنَّ له سبحانه حياة لا كحياة الإنسان، فهكذا صفاته الخبرية، فله وجه لا كالوجه، ويد لا كالأيدى، ورجل لا كالرجل.

يلاحظ عليه: أنَّ الاستدلال بالقياس في مجال العقائد أشد خطأ من الاستدلال به في المسائل الفقهية، وعلى فرض الصحة فالقياس مع الفارق، وذلك أنَّ كلاً- من العلم والقدرة موضوع لمعنى غير متقيد بالجسم والمادة، فالعلم من ينكشف لديه المعلوم، والقادر من يستطيع على الفعل عن اختيار، فلاجل ذلك لكل واحد منهما مراتب ودرجات، فمنه حصولي ومنه حضوري، فمنه زائد على الذات، ومنه عين الذات، وأمَّا الصفات الخبرية كالوجه فإنها موضوعة على الموجود المادي الذي له شكل خاص، ولو كانت له مصاديق

متفاوتة كوجه الإنسان والفرس والأسد فإنما هي في إطار الجسم المادي، فالوجه بأي نحو أطلق يجب أن يكون موجوداً مادياً متهيئاً بهيئة خاصة، فالوجه الفاقد للمادة والهيئة، ليس وجهاً لغئاً، ومثله الرجل واليد، فالقول بأن له سبحان يداً لا كالأيدي، إن أُريد منه التأويل، أي تأويله بالقدرة، فهذا هو الذي ذهب إليه أهل التنزيه، وإن أُريد به المعنى اللغوي بلا تدخل ولا تصرف، ومع ذلك فهو يفقد المادة والهيئة والشكل فهذا أشبه بالتناقض. * * *

١. ابن بطوطة: الرحلة ص ٩٥ - ٩٦ طبع دار صادر (١٣٨٤ هـ). (١٢٩) الثالث: إن ابن تيمية ينسب إلى السلف بأنهم لا يؤولون ظواهر الكتاب في مجال الصفات الخبرية، ثم يستنتج منه أنهم يحملونها على ظواهرها اللغوية، ويقولون: إن لله وجهاً ويداً ورجلاً، ونزولاً ونقله بنفس معانيها اللغوية، غاية الأمر أن الكيف مجهول.

يلاحظ عليه: أن ما نسب إلى السلف إذا كان صحيحاً يهدف إلى توقفهم في تعيين المراد وتفويض الأمر إلى الله، إذ في الأخذ بالظاهر اليدوي مغبة الجهة والتجسيم، وفي تعيين المراد مظنة التفسير بالرأى، فكانوا لا يخوضون في هذه الأبحاث الخطرة، وأما أنهم يحملونها على ظواهرها ويفسرونها بنفس معانيها الابتدائية التصورية، كما زعمه ابن تيمية، فهو افتراء على المثبتين منهم. نعم، كان أهل التحقيق يخوضون في هذه المباحث ويعينون المعنى المراد، وهذا ما يطلق عليه التأويل، ولكن التأويل صحيح على وجهه، وباطل على وجه آخر، فإن كان هناك شاهد عليه في نفس الآية والحديث، أو كان التأويل من قسم المجاز البين الشائع، فالحق سلوكه من غير توقف، وإن لم يكن في النصوص عليه شاهد، أو كان من المجاز البعيد، فهذا هو التأويل الباطل، وهو يلزم الخروج عن الملة والدخول في الكفر والإلحاد. كما أن التأويل بلا قيد وشرط كفر وضلال، كما عليه الباطنية، فهكذا التعبد بالظواهر الابتدائية والمعاني التصورية، وعدم الاعتناء بالقرائن المتصلة أو المنفصلة أيضاً كفر وضلال وتعبد بالتجسيم والتشبيه. إن المتحرى للحقيقة يتبع الحق ولا يخاف من الإرهاب والإرعاب، ولا من التنازع بالألقاب، فلا يهوله ما يسمع من ابن تيمية وابن عبد الوهاب من تسمية المنزهين للحق عن الجهة والمكان، معطله وجهية، وتلقيب القائلين ببدع اليهود والنصارى بالموحدين والمثبتين، فلا يصرفك النبز بالألقاب إلى الإنحراف عن الحق الصراح، الذي أرشدك إليه كتاب الله وسنة رسوله القويمه، والعقل الذي به عرفت الله سبحانه، وبه عرفت رسله ومعجزه وآياته. (١٣٠)

ومما يدل على أن السلف لا يحملون الصفات الخبرية على ظواهرها، بل لا يتكلمون ويفوضون الأمر إلى الله، هو ما نقل عن عالم المدينة مالك بن أنس عندما سئل عن قوله سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) أَنَّهُ كَيْفَ اسْتَوَى؟ قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول (١). نعم إن ابن تيمية وأبناء الوهابية يحكون عنه أنه قال: «الكيف مجهول»، والفرق بين العبارتين واضح، فالأول يهدف إلى التنزيه، والثاني يناسب التجسيم، إذ معناه أن لا استوائه على العرش كيفية من الكيفيات ولكنها مجهولة لنا. ويدل على أن الوارد هو «غير معقول» ما جاء في ذيل الرواية أن مالك بعدما سمع السؤال وأجاب بما ذكرناه، علتة الرخصاء، أي العرق الكثير وقال: «ما أظنك إلا صاحب بدعة» وما ظنه كذلك إلا لأن سؤاله كان عن الكيفية، فأحس أن السائل يريد إثبات الكيفية لاستوائه سبحانه، فأخذته الرخصاء من سؤاله واعتقاده. * * * الرابع: إن ابن تيمية يكرر كثيراً استواءه سبحانه على العرش، ويعتمد على ظاهره، ويتخيل أن الاستواء بمعنى الاستقرار أو الجلوس، ولكنه تستراً لمذهبه، يضيف إليه «بلا تكييف» ولأجل رفع الستر عن معنى الآية نأتى بكلام شيخ السلف من المفسرين أبي جعفر الطبري، ولا يشك أحد في أنه سلفي، فهو يقول:

الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه: ١- انتهاء شباب الرجل وقوته، ويقال: إذا صار كذلك قد استوى الرجل. ٢- استقامه ما كان فيه أود من الأمور والأسباب. يقال: استوى لفلان أمره إذا استقام له بعد أود، ومنه قول الطرماح:

١. نقله الذهبي في كتابه «العلو» عن مالك وشيخه ربيعة، كما نقله أيضاً بالسند عن أبي عبد الله الحاكم وابن زرع، لاحظ فرقان القرآن ص ١٤ - ١٥ ونقله عن الإلكائي في شرح السنة. (١٣١)

طال على رسم محدد أبده * وعفا واستوى به بلده يعني استقام به. ٣- الإقبال على الشيء بالفعل، كما يقال: استوى فلان على فلان،

بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه . ٤- الاختيار والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة، أى احتوى عليها وحازها. ٥- العلو والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعنى به علوه عليه . ثم قال: وأولى المعانى بقول الله جل ثناؤه: (ثم استوى إلى السماء فسواهن): علا عليهن وارتفع، قد برهن بقدرته وخلقه سبع سماوات(١) . وهذا الشيخ السلفى لا يفسر الاستواء على العرش، بالجلوس ولا بالاستقرار، بل بعلو الملك والسلطان، كما هو المراد من قوله سبحانه:(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)(٢)، والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم لا يفهمون من الاستواء إذا وقع وصفاً لموصوف بالقدرة والعظمة، سوى العلو، قال الشاعر: قد استوى بشرٌ على العراقِ * من غير سيف ودم مهراق وقال الآخر: ولما علونا واستويتنا عليهم * تركناهم مرعى لنسر وكاسر والأسف أن ابن تيمية وأتباعه إذ فسروا الاستواء بالعلو، يفسرونه بالعلو بالمكان، ولا يدرون أن الفضيلة والكرامة فى العلو المعنوى لا العلو المكانى، فما قيمة العلو فى المكان إذا لم يكن هناك علو معنوى، وهذا هو القرآن يركّز على العلو المعنوى، ويقول: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(٣)، وقال سبحانه: (أَلَا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَآتُونِي

١ . تفسير الطبرى ج ١ ص ١٥٠، سورة البقرة الآية ٢٩ ط دارالمعرفة .

٢ . سورة البقرة: الآية ٢٥٥ .

٣ . سورة آل عمران: الآية ١٣٩ . (١٣٢) (مُسْلِمِينَ) (١) وقال سبحانه: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) (٢) وقال تعالى: (وَأَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) (٣) وقال: (لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى) (٤) .

هذا كله حول الاستواء، وأميا العرش فهو سرير الملك الذى يجلس عليه للحكم، وهذا هو أصل الوضع، ثم يكنى به عن السلطة والسيطرة، حتى صار يستعمل فى هذا المعنى ولا ينصرف إلى المعنى اللغوى، فإذا كان الملك آخذاً بزمام الأمور ومسيطرًا على البلد وأهله يقال: استوى على العرش، أو هو مستو عليه، وإذا كان ضعيفاً فى الإدارة غير نافذ أمره فى البلد وأهله، وكان هناك انتفاضة بعد انتفاضة، يقال: إنه غير مستو على عرشه . ومن تتبع القرآن الكريم وأمعن النظر فى الموارد التى ورد فيها استواؤه سبحانه على العرش فى موارد متعددة يجد أنه ذكر مقروناً بفعل من أفعاله، دال على غناه المطلق، مثل رفع السماوات بغير عمد، قال سبحانه: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) (٥)، أو (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) . وإليك الآيات التى جاء فيها هذا الأمر، قال سبحانه: (إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، يُعْشَى اللَّيْلِ النَّهَارَ) (٦) وقال سبحانه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) (٧)، وقال سبحانه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

١ . سورة النمل: الآية ٣١ .

٢ . سورة القصص: الآية ٤ .

٣ . سورة الدخان: الآية ١٩ .

٤ . سورة طه: الآية ٦٨ .

٥ . سورة الرعد: الآية ٢ .

٦ . سورة الأعراف: الآية ٥٤ .

٧ . سورة يونس: الآية ٣ . (١٣٣) فى سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَدَّلَ بِهِ حَبِيرًا) (١) وقال سبحانه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) (٢) وقال سبحانه: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) (٣) .

والناظر فى هذه الآيات يرى أنه سبحانه عندما يذكر استواءه على العرش يذكر آثار قدرته وعظمته من خلق السماوات والأرض فى

سته أيام، وتدبيره الأمر «يدبر الأمر»، وأنه لا مؤثر ولا موجد إلا بإذنه «ما من شفيح إلا من بعد إذنه»، ومن علمه الواسع بما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها. كل ذلك يعرب عن أن الآية في جميع الموارد تهدف إلى علوه سبحانه على عالم الوجود الإمكانى، وأنه بجملته في سلطانه وقدرته، ولا يخرج شىء من حيطه قدرته، وأين هذا من تفسيره بالجلوس على العرش فوق السماوات ناظراً إلى ما دونه. (تعالى عما يقولون علواً كبيراً). ولو تتبع المعاصرون المتمون إلى السلف يجدون خير السلف كالطبرى (٤) يفسر «الواسع» في قوله: (والله واسع عليم) (٥) ويقول: والله واسع الفضل، جواد بعطاياه، فزوجوا إماءكم فإن الله واسع يوسع عليهم من فضله إن كانوا فقراء، كما أن الشيخ البخارى يفسر الوجه في قوله: (كل شىء هالك إلا وجهه) بالملك (٦). * * *

١ . سورة الفرقان: الآية ٥٩ .

٢ . سورة السجدة: الآية ٤ .

٣ . سورة الحديد: الآية ٤ .

٤ . تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٩٨ .

٥ . سورة النور: الآية ٣٢ .

٦ . صحيح البخارى ج ٦ ص ١١٢، تفسير سورة القصص، الآية ٨٨ . (١٣٤) الخامس: إن الفرقة المشبهة ليست وليده عصرنا هذا، بل لها عرق ممتد إلى زمن التابعين، الذى كثرت فيه مسلمة اليهود والنصارى، فأدخلوا فى الأحاديث ما يروقههم من العقائد، فتأثر بهم السذج من المسلمين والمحدثين، فأولئك هم المعروفون بالحشوية نسبة إلى الحشو (بسكون الشين) وهو اللغو الذى لا اعتبار له، فضلاً عن أن يكون منسوباً إلى الله ورسوله، أو مذهباً يدان الله به، وما زال أهل الحق لهم بالمرصاد.

وقد كان القول بالتجسيم والتشبيه رد فعل لما كان عليه على - عليه السلام - وأولاده من الدعوة إلى التنزيه، والاجتناب عن التشبيه، فى مجال الحق وذاته وصفاته، نعم حكى عن الإمام أبى حنيفة أنه قال: «أتانا من المشرق ريان خيثان، جهم معطل ومقاتل مشبه، فأفرط جهم فى النفى (نفى الصفات الجسمانية) حتى قال: «وإن الله ليس بشىء» وافرط مقاتل فى الإثبات، حتى جعل الله تعالى مثل خلقه» (١). ولكن الإمام أبى حنيفة تسامح فى نسبة التجسيم إلى مقاتل، بل لها جذور فى الأحاديث المروية فى الصحاح والمسانيد التى دسها مسلمة اليهود والنصارى فى الأحاديث، وكثير من المحدثين راقتهم تلك الأحاديث، وبما أن علياً وانباء بيته الطاهر كانوا على التنزيه، وهذه حطبة الرفيعة الرائعة فى تنزيه الحق، حاولت السلطة الأموية أن تروج كل حديث يتضمن ضد ما كان عليه على، ويحترم كل محدث يجنح إلى بث هذه الخرافات. السادس: إن أتباع ابن تيمية ومن كان على ذاك الخط قبله من الحشوية، يفرزون من الاستدلال والبرهنة وعلم الكلام والمناظرة، ويحرمون الاستماع إلى البراهين العقلية والمجادلة التى هى أحسن، ولكنهم تمويهاتهم التى يريدون بها دعم مبادئهم وصيانتها عن النقد والإشكال، وكأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه: (...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (٢) أو قوله سبحانه:

١ . تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٢٨١ ترجمه مقاتل .

٢ . سورة البقرة: الآية ١١١ . (١٣٥) (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...) (١) أو قوله سبحانه: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (٢).

والكل يهدف إلى أن المسلم الواعى إنما يتبع البرهان ولا يعرض عنه، ولا يعطل عقله حتى يميز الأحسن عن غيره، ويجادل المخالف بالبرهان والدليل. نعم لو أريد من علم الكلام، المرء والجدال وكسب العظمة والمقام، فلا شك أنه مرغوب عنه. نعم، ليس لهم هدف من تحريم البحث والنظر إلا الستر لعوار بدعهم، وعقائدهم الباطلة، ولا يجحد النظر فى العقائد إلا أحد رجلين: رجل غبى يشق عليه سلوك أهل التحصيل والناس أعداء ما جهلوا، ورجل يعتقد بمذاهب فاسدة يخاف من ظهور عوار مذهبه وفضائح عقيدته. هذا

قليل مما ذكره ابن تيمية وأتباعه في الصفات الخبرية، ولو أردنا أن نستقصى كلمات الرجل في المقام لطال بنا الكلام، ولنكتف بهذا المقدار، وقد عرفت الحق، والحق أحق أن يتبع .

١ . سورة الزمر: الآية ١٨ .

٢ . سورة النحل: الآية ١٢٥ . (١٣٦)

ابن تيمية وشد الرحال إلى زيارة النبي - صَلَّى اللهُ

ابن تيمية وشد الرحال إلى زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم -

ذهب ابن تيمية إلى أن شد الرحال إلى زيارة قبر رجل صالح حرام، وقال: ثبت في الصحيحين عن النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا» ثم قال: ولو نذر السفر إلى قبر الخليل - عليه السلام - أو قبر النبي لم يجب الوفاء بهذا النذر بإتفاق الأئمة الأربعة، فإن السفر إلى هذه المواضع منهى عنه لنهي النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...» فإذا كانت المساجد التي هي من بيوت الله، التي أمر فيها بالصلوات الخمس، قد نهى عن السفر إليها، فإذا كان مثل هذا ينهى عن السفر إليه، فما ظنك بغيرها؟ فقد رخص بعض المتأخرين في السفر إلى المشاهد ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعية - إلى أن قال - : وكل حديث يروى في زيارة قبر النبي فإنه ضعيف، بل موضوع، ولم يرو أهل الصحاح والسنن والمسانيد، كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئاً، ولكن الذي في السنن ما رواه أبو داود عن النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - أنه قال: «ما من رجل يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام، فهو يرد السلام على من سلم عليه عند قبره ويبلغ [إليه] سلام من سلم عليه من البعيد، كما في النسائي عنه أنه قال: «إن الله وكل بقبرى ملائكة يبلغون لأمتى السلام» وفي السنن عنه أنه قال: «أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة (١٣٧)

وليلة الجمعة، فإن صلاتكم معروضة على (١) . أقول: إن هنا مسألتين: الأولى: شد الرحال إلى زيارة الأنبياء والصالحين . الثانية: حكم زيارة قبر الصالحين والأنبياء والنبي الأكرم، وإن لم يكن هناك شد للرحال، ونحن ندرس كلتا المسألتين في ضوء الكتاب والسنة، فنقول:

أفتى ابن تيمية بتحريم شد الرحال إلى زيارة الصالحين والأنبياء والأئمة مستدلاً بما ورد من النهى من شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، والاستدلال بهذا يتوقف على الإمعان في سند الحديث ودلالته، فنقول: روى الحديث بصور ثلاث، والذي يصح الاستدلال به إنما هو الصورة الأولى والثانية - لا الثالثة، وإليك البيان: ١- لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى. ٢- إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدى، ومسجد إيلياء. ٣- تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد (٢). فلو قلنا بأن لفظه «إنما» تفيد الحصر، تكون الصورة الثانية مثل الصورة الأولى في إفادة الحصر، وإلا فينحصر الاستدلال بالصورة الأولى، فلنفترض أن الحديث ورد على نمط صورتين الأولىين، فنقول: إن الاستثناء

١ . مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٥٧ - ٦٥ الرسالة الثالثة في زيارة بيت المقدس .

٢ . أورد مسلم هذه الأحاديث في صحيحه ج ٤ ص ١٢٦، كتاب الحج باب (لا تشد الرحال) وذكره أبو داود في سننه ج ١ ص ٤٦٩ كتاب الحج، وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي ج ٣ ص ٣٧ و ٣٨ وقد ذكر السبكي صوراً أخرى للحديث هي أضعف دلالة على مقصود المستدل، لاحظ شفاء السقام ص ٩٨ . (١٣٨)

لا- يستغنى عن وجود المستثنى منه، وحيث لم يذكر في كلامه، فيلزم تقديره وهو أحد الأمرين: أ- لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى ثلاثة . ب- لا تشد الرحال إلى مكان من الأماكن إلا إلى ثلاثة مساجد . أمّا الأول فيجب علينا ملاحظة الأمور التالية: الأول: إن الحديث لو دل على شيء فإنما يدل على النهى عن شد الرحال إلى مسجد سوى المساجد الثلاثة، وأمّا شد الرحال إلى

الأماكن الأخرى فالحديث ساكت عنه، غير متعرض لشيء من أحكامه، بل النفي والإثبات يتوجهان إلى المسجد، فالمسجد ينهى عن شد الرحال إليها غير المساجد الثلاثة، والاستدلال به على حكم شد الرحال إلى المنتزهات و المراكز العلمية أو الصناعية أو مقابر الأولياء والشهداء أو الصديقين والصلحاء فهو ساكت عنه، ومن العجيب أن نستدل به على تحريم شد الرحال إليها . الثاني: إن النهي عن شد الرحال إلى غير هذه المساجد لا يعنى تحريمه بل يعنى نفي الفضيلة فيه، وذلك لأن المساجد سوى الثلاثة، لما كانت متساوية في الفضيلة والثواب فلا ملزم لتحمل العبء بشد الرحال إليها، فالمساجد الجامعة متساوية في الفضيلة في عامة البلاد، فلا وجه لشد الرحال إلى مسجد لإقامة الصلاة فيه، ولكنه إذا شد الرحال بقصد الصلاة فيه والعبادة لربه، لا يعد عمله محرماً، بل غاية الأمر لا يترتب عليه ثواب خاص .

وبذلك يتبين بطلان ما ذكره ابن تيمية من الاستدلال بالأولوية بأنه إذا حرم شد الرحال إلى غير هذه الثلاثة مع أنه من بيوت الله التي أمر فيها بالصلوات الخمس يكون شد الرحال إلى زيارة القبور حراماً بطريق أولى، إذ ليست ساحة القبور مراكز للعبادة، فهي أقل درجة من سائر المساجد . وجه الضعف أن الاستدلال مبنى على أن التحريم تحريم مولوى تعبدى، وأما على ما استظهرناه من أن النهي إرشادى إلى أنه لا- وجه لتحمل العبء في هذا الطريق، لتساوى المساجد في الفضيلة والكرامة، فلا وجه للاستدلال، لترتب الثواب على زيارة القبور . (١٣٩) الثالث: إن الحديث نص أو ظاهر في الحصر، مع أنه ورد في الصحيح أن النبي كان يأتي مسجد قبا راكباً و ماشياً يصلى فيه (١) فكيف يجتمع هذا العمل مع هذا الحصر، ولسان الحديث لسان الإباء عن التخصيص؟ فلا يصح لنا أن نقول إن النهي خصيص بعمل النبي، وهذا ربما يكشف عن كون الحديث غير صحيح من رأس، أو أنه نقل محرفاً، خصوصاً أنه نقل عن طريق أبي هريرة، والاستدلال بمتفرقاته أمر مشكل، وقد تنبه ابن تيمية لهذا الإشكال فحاول أن يرفع التناقض بين الحصر، فقال: «إنه يستحب لمن كان بالمدينة أن يذهب إلى مسجد قبا» ولكنه لا يرفع الإشكال، فإن الكلام في تخصيص النص الدال على الحصر، وأنه لا يشد إلى غيره أبداً، سواء المقيم والمسافر.

هذا كله على فرض كون المستثنى منه هو المسجد، وقد عرفت كونه أجنياً عن السفر إلى غير المساجد، وبما أن المستثنى منه هو المسجد فالمناسب هو كون المستثنى من هذا القبيل . وأما على التقدير الثاني وهو تقدير الأماكن وما يقاربه ويعادله، فلازم ذلك أن تكون كافة الأسفار محرمة غير السفر إلى المساجد الثلاثة، وهل يلتزم بذلك مسلم، وهل يفتى به أحد؟ كيف ولو كان الحديث بصدد منع كافة الأسفار المعنوية، فكيف كان النبي والمسلمون يشدون الرحال في موسم الحج إلى عرفات والمشعر ومنى، وهذا دليل على أن المستثنى منه هو المساجد لا- الأماكن . أضف إلى ذلك أن الذكر الحكيم والأحاديث الصحيحة حثاً على السفر إلى طلب العلم، والجهاد في سبيل الله، وصله الرحم، وزيارة الوالدين، قال سبحانه: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (٢) .

١ . صحيح مسلم ج ٤ ص ١٢٧ وصحيح البخارى ج ٢ ص ١٧٦ السنن للنسائي، المطبوع مع شرح السيوطى ج ٢ ص ١٢٧ .

٢ . سورة التوبة: الآية ١٢٢ . (١٤٠)

مضافاً إلى ما ورد في السفر لطلب الرزق، فلو كان الحكم عاماً، فما معنى هذه التخصيصات الكثيرة الوافرة التي تنافى البلاغ، والتي تنزل الحصر، وهناك كلمة قيمة للغزالي في إحياء العلوم يقول: «القسم الثاني هو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد.. ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء - عليهم السلام - وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته، يتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» لان ذلك في المساجد، فإنها متماثلة (في الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله (١) . تحليل آخر للنهي عن السفر

ولنفترض أن المستثنى منه هو الأمكنة، ولكن المتبادر من الحديث أن يكون الدافع إلى السفر هو تعظيم ذلك المكان، فيختص النهى بما إذا أُريد من شد الرحال إلى مكان، تعظيمه ولو بإيقاع العبادة فيه، وعندئذ يخرج السفر إلى زيارة النبي عن منطوق الحديث، لأنه لا يسافر لتعظيم بقعته، وإنما يسافر لزيارة من فيها مثل ما لو كان حياً. ويؤيد ذلك أمران: ١- روى عن بعض التابعين أنه سأل ابن عمر أنه يريد أن يأتي الطور، فأجابه: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد... ودع الطور فلا تأته (٢). ٢- أفتى الجمهور بأنه لو نذر أن يأتي مسجداً من المساجد سوى الثلاثة

١. كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ج ٢ ص ٢٤٧، كتاب آداب السفر، طبعه دار المعرفة بيروت .

٢. الفتاوى الكبرى ج ٢ ص ٢٤. (١٤١)

فلا ينعقد النذر، فإنه ليس في قصد مسجد بعينه غير الثلاثة قربه مقصودة، وما لا يكون قربه ولا عبادة فهو غير ملزم بالنذر. كل ذلك يحدد مصب الحديث وهدفه، وأن المقصود هو المنع عن تعظيم مكان تشد الرحال إليه، وأما إذا كانت الغاية تعظيم من عظمه الله سبحانه وأكرمه ورزقه فضلاً كبيراً - كما قال -: (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) (١)، فهو خارج عن مورد الحديث. ومع ذلك فإن النهى عن شد الرحال إلى مكان خاص ليس لغاية تحريمه، وإنما هو إرشاد إلى نفى الفضيلة. قال ابن قدامة الحنبلي: «إن سافر لزيارة القبور والمشاهد فقال ابن عقيل لا يباح له الترخص لأنه منهى عن السفر إليها، قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: لا تشد الرحال إلا - إلى ثلاثة مساجد، والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأن النبي كان يأتي قبا ماشياً وراكباً، وكان يزور القبور، وقال: زوروها تذكركم الآخرة، وأما قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، فيحمل على نفى الفضيلة، لا على التحريم، فليست الفضيلة شرطاً في إباحة القصر ولا يضر انتفاؤها (٢). هذا كله حول الحديث وتحديد مضمونه، وقد عرفت أن شد الرحال إلى زيارة النبي خارج عن موضوع الحديث على كلا التقديرين، فالاستدلال به على التحريم باطل جداً. الدليل على جواز السفر إلى زيارة القبور

ثم إن هنا سؤالاً يثار في المقام، وهو أن الحديث وإن كان قاصراً عن إثبات التحريم، ولكن ما هو الدليل على جواز السفر لزيارة قبر النبي أو سائر

١. سورة النساء: الآية ١١٣ .

٢. المغنى لابن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠هـ، ج ٢ ص ٢١٧-٢١٨، وذكر في ج ٣ ص ٤٩٨ استحباب الزيارة، وكيفية زيارة النبي فلاحظ، وما نقله عن ابن عقيل غير ثابت، لأن السبكي نقل عنه خلافه، لاحظ شفاء السقام ص ١١٣. (١٤٢)

القبور، خصوصاً إذا كان السفر دينياً ومنسوباً إلى الشرع، فإن الإفتاء بجوازه بما أنه عمل يؤتى به لأجل كونه أمراً دينياً يحتاج إلى الدليل، وإلى الجواب: يدل على جواز السفر لفيف من الدلائل، وإليك بيانها: الأول: ما ورد من الحث على زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وإلى الجواب: يدل على جواز السفر لفيف من الدلائل، وإليك بيانها: الأول: ما ورد من الحث على زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وستوافيك نصوصها فإنها بين صريح في جواز السفر أو مطلق يعم المقيم والمسافر، فقول النبي وفعله حجتان، أما قوله: فقد روى عن عبدالله بن عمر أنه قال: قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: من جاءني زائراً لا تعمله (تحمله) إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة. روى أيضاً عن عبدالله بن عمر عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي. والثاني صريح في جواز السفر، والأول مطلق يعم المسافر والمقيم في المدينة، وستوافيك هذه النصوص عن أعلام المحدثين. وأما فعله، فقد روى عن طلحة بن عبدالله قال: خرجنا مع رسول الله يريد قبور الشهداء - إلى أن قال - : فلما جئنا قبور الشهداء، قال: هذه قبور إخواننا (١). الثاني: الإجماع، لإطباق السلف والخلف، لأن الناس لم يزلوا في كل عام إذا قضاوا الحج يتوجهون إلى زيارته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وإن منهم من يفعل ذلك قبل الحج، قال السبكي: هكذا شاهدناه، وشاهده من قبلنا وحكاها العلماء عن الأعصار القديمة، وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال، ويبدلون فيه المهج، معتقدين أن ذلك قربه وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من

١ . أخرجه أبو داود في سننه ج ١ ص ٣١١، والبيهقي في السنن الكبرى ج ٥ ص ٢٤٩ والمراد من الشهداء شهداء أحد، كما هو مورد الحديث . (١٤٣)

مشارك الارض ومغاربها على مَر السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم، يستحيل أن يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عزوجل، ومن تأخر فإتأخر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه، وودّ لو تيسّر له، ومن ادّعى أن هذا الجمع العظيم مجمع على خطأ فهو المخطيء . وما ربما يقال من أن سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أخرى وهى الصلاة فى المسجد، باطل جداً. فإن المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة فى أمر البديهة، فمن عرف الناس أنهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلا بيال قليل منهم، ولهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسّر إتيانه، وإن كان فى الصلاة فيه من الفضل ما قد عرفت، فالمقصود الأعم في المدينة، كما أن المقصود الأعظم فى مكة، الحج أو العمرة، وصاحب هذا السؤال إن شك فى نفسه فليسأل كل من توجه إلى المدينة ما قصد بذلك (١) . الثالث: إنّه إذا كانت الزيارة قرينة وأمرأ مستحباً على الوجه العام والخاص، فالسفر وسيلة القربة، والوسائل معتبرة بالمقاصد، فيجوز قطعاً. الرابع: ما نقله المؤرخون عن بعض الصحابة والتابعين .

١- قال ابن عساكر فى ترجمه بلال: إن بلالاً رأى فى منامه رسول الله وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال، اما آن لك أن تزورنى يا بلال؟ فانتبه حزينا، وجلا، خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فجعل يبكى عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين - رضى الله عنهما - فجعل يضمهما ويقبلهما، فقالا له: نشتهى نسمع أذانك الذى كنت تؤذن به لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ففعل، فعلا- سطح المسجد، فوقف موقفه الذى كان يقف فيه، فلما أن قال: «الله أكبر، الله أكبر» ارتجت المدينة، فلما أن قال: «أشهد أن لا إله إلا الله»، ازدادت رجتها، فلما أن قال: «أشهد أن محمداً رسول الله» خرجت العواتق من _____

١ . شفاء السقام، فى زيارة خير الأنام لتقى الدين السبكي ص ٨٥- ٨٦ ط بولاق مصر . (١٤٤)
خدورهن فقالوا: أبعث رسول الله؟ فما رثى يوماً أكبر باكياً بالمدينة بعد رسول الله من ذلك اليوم (١) . ٢- إن عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرىء النبى السلام، ثم يرجع، قال السبكي: إن سفر بلال فى زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبدالعزيز فى زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة لم يكن إلا للزيارة والسلام على النبى، ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك من أمر الدنيا، ولا من أمر الدين، ولا من قصد المسجد، ولا غيره . ٣- إن عمر لما صالح أهل بيت المقدس، وقدم عليه كعب الأخبار وأسلم، وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معى إلى المدينة وتزور قبر النبى وتمتّع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة أول ما بدأ بالمسجد، سلم على رسول الله (٢) . ٤- ذكر ابن عساكر فى تاريخه وابن الجوزى فى مثير الغرام الساكن بأسانيدهما إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - وزرته وسلمت بحدائه، فجاءه أعرابى فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل إليك كتاباً صادقاً قال فيه: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) وإنى جئتكم مستغفراً ربك من ذنوبى، مستشفعاً فيها بك إلى ربى، ثم بكى وأنشأ يقول: يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسى الفداء لقبر ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكم وقد ذيله أبو الطيب أحمد بن عبدالعزيز بأبيات وقال: وفيه شمس التقى والدين قد غربت من بعد ما أشرقت من نورها الظلم _____

١ . شفاء السقام ص ٤٤ - ٤٧ وقد نقله من مصادر كثيرة، قال: وذكره الحافظ أبو محمد عبدالغنى المقدسى فى «الكمال فى ترجمه بلال».

٢ . المصدر نفسه . (١٤٥)

حاشا لوجهك أن يبلى وقد هديت في الشرق والغرب من أنواره الأمام (١) وبذلك تعرف قيمة ما ذكره ابن تيمية حول السفر إلى المشاهد وقال: وقد رخص بعض المتأخرين في السفر إلى المشاهد، ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعية (٢). وبما أنك تعرفت على الحجج الشرعية على الجواز، هلم معي ندرس نصوص الأعلام من علماء الإسلام لتعرف موقف ابن تيمية في التثبت والأمانة، وإليك نصوصهم حول السفر للزيارة نقتطف موضع الحاجة من كلماتهم: نصوص الأعلام على جواز السفر لزيارة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

لعل القارىء يتصور أن لما ذكره ابن تيمية من عدم الإفتاء بجواز السفر، مسحة من الحق والصدق، ولكنه إذا أمعن النظر فيما وصل إلينا من فتاواهم، يقف على أن الحق على ضد ما نسب إليهم، وإليك البيان: ١- قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملى الشافعى المتوفى سنة (٤٢٥ هـ) في «التجريد»: ويستحب للحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبي . ٢- وقال أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة (٤٥٠ هـ)، في الأحكام السلطانية، ص ١٠٥: «فإذا عاد (ولى الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله، ليجمع لهم بين حج بيت الله عزوجل وزيارة قبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، رعاية لحرمة، وقياماً بحقوق طاعته (٣) . ٣- وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الفقيه البغدادى الحنبلى المتوفى سنة (٥١٠ هـ) فى كتاب الهداية: «فإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي وقبر صاحبيه». ٤- قال القاضى عياض المالكى، المتوفى سنة (٥٤٤ هـ) فى «الشفاء»، نقلاً

١ . شفاء السقام ص ٥٢ .

٢ . نفس المصدر .

٣ . مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٦٠ . (١٤٦)

عن إسحاق بن إبراهيم الفقيه: «مما لم يزل من شأن من حج، المزور (١) بالمدينة والقصد إلى الصلاة فى مسجد رسول الله، والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره ومجلسه، وملامس يديه، ومواطن قدميه، والعمود الذى استند إليه، ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه، ومن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين . ٥- قال أبو محمد عبدالكريم بن عطاء الله المالكى المتوفى سنة (٦١٢ هـ) فى مناسكه: فصل: إذا كمل لك حجك وعمرتك على الوجه المشروع، لم يبق بعد ذلك إلا إتيان مسجد رسول الله للسلام على النبي والدعاء عنده، والسلام على صاحبيه، والوصول إلى البقيع وزيارة ما فيه من قبور الصحابة والتابعين . ٦- وقال نجم الدين بن حمدان الحنبلى المتوفى سنة (٥٩٥ هـ) فى الرعاية الكبرى فى الفنون الحنبلىة: «ويسن لمن فرغ من نسكه، زيارة قبر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقبر صاحبيه، وله بعد فراغ حجه، وإن شاء قبل فراغه» . ٧- قال القاضى الحسين: «إذا فرغ من الحج... ثم يأتى المدينة ويزور قبر النبي» . ٨- قال الإمام ابن الحاج محمد بن محمد العبدرى القيروانى المالكى، المتوفى سنة (٧٣٧ هـ) فى (المدخل) فى فصل زيارة القبور (١: ٢٥٧): وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فيأتى إليهم الزائر، ويتعین عليه قصدهم من الأماكن البعيدة. ٩- قال الشيخ تقى الدين السبكى الشافعى المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) فى «شفاء السقام فى زيارة خير الأنام»: «ومن روى عنه السفر إلى زيارة النبي، بلال بن أبى رباح» ثم ذكر قصته. لاحظ الباب الثالث من كتاب شفاء السقام فقد عقده فى ما ورد فى السفر إلى زيارته . ١٠- ذكر شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصارى الشافعى المتوفى

١ . مصدر ميمى بمعنى الزيارة . (١٤٧)

سنة (٩٢٥ هـ) فى «أسنى المطالب» (١/٥٠١) «فيما يستحب لمن حج»: ثم يزور قبر النبي ويسلم عليه وعلى صاحبيه بالمدينة المشرفة.. ١١- أفتى الشيخ محمد بن الخطيب الشربيني المتوفى سنة (٩٧٧ هـ) فى مغنى المحتاج (١/٣٥٧) باستحباب زيارة النبي مطلقاً، وأن تخصيص بعض باستحبابه بعد الفراغ عن الحج لأجل التأكيد، وأنه يتأكد للحاج أكثر من غيره . ١٢- وقال الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة (١٠٣١ هـ) فى شرح الجامع الصغير، ج ٦ ص ١٤٠: وزيارة القبر الشريف من كمالات الحج . ١٣- عقد الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالى فى «مراقى الفلاح بإمداد الفتاح» فصلاً فى زيارة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: زيارة النبي

من أفضل القربات فإنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حرض عليها وبالغ في الندب إليها فقال: من وجد سعة فلم يزرني فقد جفاني .
 ١٤- وقال القاضي شهاب الدين الخفاجي الحنفي المصري المتوفى سنة (١٠٦٢ هـ) في شرح الشفاء (٣/٥٦٦) واعلم أن هذا الحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...» هو الذي دعا ابن تيمية ومن معه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كَفَرُوا بها، وصنّف فيها السبكي مصنفاً مستقلاً وهي منعه من زيارة قبر النبي وشد الرحال إليه، وهو كما قيل: لمهبط الوحي حقاً ترحل النجب * وعند ذاك المرجى ينتهي الطلب فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها. ١٥- قال الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفى سنة (١٠٨٧ هـ) في مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/١٥٧): «من أحسن المندوبات، بل يقرب من درجة الواجبات زيارة قبر نبينا وسيدنا محمد، وقد حرض - عليه السلام - على زيارته وبالغ في الندب إليها، ثم قال: فإن كان الحج فرضاً فالأحسن أن يبدأ به إذا لم يقع في طريق الحاج المدينة المنورة، ثم يشنى بالزيارة. (١٤٨)

١٦- قال أبو الحسن السندی محمد بن عبدالهادی الحنفي المتوفى سنة (١١٣٨ هـ) في شرح سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٢٦٨ قال الدميري: فائدة: زيارة النبي من أفضل الطاعات وأعظم القربات، لقوله من جاءني زائراً لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة . ١٧- قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي المتوفى سنة (١٢٧٧ هـ) في حاشيته على شرح ابن الغزى على متن الشيخ أبي شجاع في الفقه الشافعي، (١/٣٤٧): ويسن زيارة قبره ولو لغير حاج ومعتمر كالذي قبله، ويسن لمن قصد المدينة الشريفة لزيارته أن يكثر من الصلاة والسلام عليه في طريقه . ١٨- قال الشيخ عبدالمعطي السقاء في الإرشادات السنية ص ٢٦٠: زيارة النبي إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مكة - أدام الله تشریفها وتعظيمها - طلب منه أن يتوجه إلى المدينة المنورة للفوز بزيارته عليه الصلاة والسلام . ١٩- وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري في تكلمة السيف الصقيل ص ١٥٦ : ولم يخف ابن تيمية من الله في رواية عد السفر لزيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام ابن الوفاء ابن عقيل الحنبلي - وحاشاه عن ذلك - راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى والتوسل به، كما هو مذهب الحنابلة، ثم ذكر كلامه وفيه القول باستحباب قدوم المدينة وزيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وكيفية زيارته (١) . وهذه النصوص تدل على أن شد الرحال إلى زيارة النبي الأكرم كان أمراً متسالماً عليه، وقد شدّ من حرّمه وسعى في منع الناس من زيارته . ٢٠- ثم إن تقى الدين السبكي ذكر فروعاً فقهية عن أئمة المذاهب،

١ . قد أخذنا هذه النصوص برمتها من كتاب الغدير للمحقق الأميني من ج ٥ ص ١٠٩ - ١٢٥ وقد نقل أربعين كلمة عن أعلام المذاهب الأربعة حول زيارة النبي الأقدس، ونحن اقتطفنا منه ذلك، ويدل على استحباب السفر فقط، وأما استحباب زيارته فسوافيك في فصل آخر . (١٤٩)

تدل على محبوبية شد الرحال إليها من أرجاء الدنيا، فمن أراد فليرجع إليه (١). وفيما ذكرنا من النصوص غني، كما أن فيما ذكرنا من الحجج كفاية لمن أراد الحق وتجنب عن العصبية، فحان حين البحث حول نظريته في نفس الزيارة، وما أثار حولها من شبهات . * *
 * (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (٢) .

١ . شفاء السقام ص ٤٢ .

٢ . سورة الأنعام: الآية ٢١ .

ابن تيمية ورأيه في زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

ابن تيمية ورأيه في زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

المعروف من ابن تيمية وأبناء الوهابية هو جواز زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وتحريم السفر إليها، لكن ما نقلناه في البحث الثاني ينافي ذلك، فإن الظاهر أنه يحرم أصل الزيارة وقد عرفت أنه قال: كل حديث يروى في زيارة قبر النبي فإنه ضعيف، بل

موضوع، ولم يروا أهل الصحاح والسنن والمسانيد كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئاً (١). وقال السبكي: قد يتوهم أن نزاع ابن تيمية قاصر على السفر للزيارة دون أصل الزيارة، وليس كذلك، بل نزاعه في الزيارة أيضاً كما سنذكره من الشبهتين وهما: ١- كون الزيارة على هذا الوجه المخصوص بدعة. ٢- كون الزيارة من تعظيم غير الله المفضى إلى الشرك. وما كان كذلك، كان ممنوعاً، وعلى هاتين الشبهتين بنى كلامه، وقد نقل السبكي فتياً بخط ابن تيمية ولكن كلامه فيها مضطرب، ففي صدرها ما يشعر بمنع الزيارة مطلقاً، وفي ذيلها ما يقتضى أنه إذا كانت الزيارة بمعنى السلام عليه والدعاء له، جازت، ويطلق ذلك ما نقلناه عن الرسالة الثالثة. والحاصل أنه يقسم الزيارة إلى الزيارة البدعية والزيارة الشرعية فيجوز

١. مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٦٥ الرسالة الثالثة. (١٥١)

الثانية ويقصرها في السلام على الميت والدعاء له إن كان مؤمناً، يقول: فالزيارة لقبر المؤمن، نبياً كان أو غير نبي من جنس الصلاة على جنازته، يدعى له كما يدعى إذا صلى على جنازته (١). فاللازم البحث عن زيارة القبور أولاً، وزيارة قبر النبي الأعظم بشخصه ثانياً. * * * زيارة القبور في السنة

لا- شك أن زيارة القبور تطوى على آثار أخلاقية وتربوية هامة، لأن مشاهدة هذا الوادي الهادي - الذي يضم في أعماقه مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذا الحياة الدنيا ثم انتقلوا إلى الآخرة - تخفف روح الطمع والحرص على الدنيا، ولربما يغير الإنسان سلوكه في هذه الحياة، فيترك الجرائم والمنكرات، ويتوجه إلى الله والآخرة. ولذا يقول الرسول الأعظم: ١- «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» (٢). ودل بعض الأحاديث على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نهى عن زيارة القبور في أول الأمر، ولعل النهي كان لأجل أن الأموات يوم ذاك كانوا مشركين وعبدة للأصنام، فنهى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن زيارة الأموات، ولما كثرت الشهداء بين المسلمين وماتت مجموعة كبيرة من المسلمين في المدينة وأطرافها، رخص النبي بإذن من الله سبحانه وقال: ٢- «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تزهّد في الدنيا وتذكر الآخرة» (٣).

١. شفاء السقام ص ١٠٧.

٢. سنن ابن ماجه ج ١ ص ١١٣.

٣. السنن لابن ماجه ج ١ ص ١١٤ طبعه الهند - باب ما جاء في زيارة القبور، وصحيح الترمذي، أبواب الجنائز ج ٣ ص ٢٧٤. (١٥٢)

٣- وروى مسلم في صحيحه: «زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله... وقال: استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» (١). ٤- وقالت عائشة: «إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رخص في زيارة القبور» (٢). ٥- وقالت: إن النبي قال: أمرني ربي أن أتى البقيع فأستغفر لهم. قلت: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون (٣). وجاء في أحاديث أخرى نص الكلمات التي كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقولها عند زيارة القبور، وهي: ٦- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإننا وإياكم متواعدون غدا ومواكلون، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» (٤). وجاء في حديث آخر نص الكلمات بما يلي: ٧- «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، أسأل الله العافية لنا ولكم» (٥). وفي حديث ثالث:

١. صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٥ باب استئذان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ربه عز وجل في زيارة قبر أمه.

٢. صحيح ابن ماجه ج ١ ص ١١٤.

٣. صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور، السنن للنسائي ج ٣ ص ٧٦.

٤. السنن للنسائي ج ٤ ص ٧٦-٧٧.

٥. السنن للنسائي ج ٤ ص ٥٦-٧٧. (١٥٣)

٨- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» (١). ويستفاد من حديث عائشة أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان يخرج إلى البقيع في آخر الليل من كل ليلة، ويقول: ٩- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وآتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع العرق» (٢). ويستفاد من حديث آخر أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان يزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ويعلمهم كيفية الزيارة: ١٠- «كان رسول الله يعلمهم - إذا خرجوا إلى المقابر - فكان قائلهم يقول: السلام على أهل الديار - أو - السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية» (٣). النساء وزيارة القبور

ولعل هنا من يتوهم أن الزيارة تسوغ للرجال دون النساء، لما روى عن النبي: لعن رسول الله زوارات القبور (٤). ويناقض هذا الحديث ما نقله مسلم في صحيحه والنسائي في سننه أن النبي زار البقيع مع حليته عائشة، وعلمها كيفية الزيارة كما مر في الرقم (٥) من الروايات، ولأجل ذلك يجب أن يعالج هذا الحديث بشكل خاص وهو التفريق بين زائرات القبور وزواراتها، ولعل الثاني كان مقروناً بأمر محرّمه كالتبرج المنهى عنه، أو البكاء بما يقترب بالنوح المحرم، أو غير ذلك من الوجوه التي يمكن الجمع بها بين المتعارضين، وإلا - فأى فرق بين الرجل والمرأة في هذا الأمر حتى تكون لأحدهما جائزة وللأخرى محرّمة، لولا - المحذورات الخاصة؟

١. السنن لأبي داود ج ٢ ص ١٩٦.

٢. صحيح مسلم ج ٣ ص ٦٣ باب ما يقال عند القبور.

٣. صحيح مسلم ج ٣ ص ١١، باب ما يقال عند دخول القبر.

٤. صحيح ابن ماجه ج ١ ص ٤٧٨، كتاب الجنائز الطبعة الأولى بمصر. (١٥٤)

أضف إلى ذلك جريان السيرة بين المسلمين حتى في نفس عصر الصحابة والتابعين على زيارة السيدات لقبور أعزائها، فهذه السيدة فاطمة الزهراء - عليها السلام - كانت تخرج إلى زيارة قبر عمها حمزة في كل جمعة، أو أقل من ذلك، وكانت تصلي عند قبره وتبكي (١). وهذه عائشة زوجة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لما جاءت إلى مكة خرجت لزيارة قبر أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر، وأنشدت بيتين من الشعر في رثائه (٢). هذا كله في زيارة قبور المسلمين، وأمّا زيارة أوليائهم من النبي والأئمة والشهداء والصالحين فلا شك أن لزيارتهم نتائج بناءة، نشير إليها: إن زيارة مرقد هذه الشخصيات هو نوع من الشكر والتقدير لتضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأن هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والفضيلة، والدفاع عن المبدأ والعقيدة، وهذا لا يدفعنا إلى زيارة قبورهم وحدها، بل يدفعنا إلى إبقاء ذكرياتهم حيّة ساخنة، والمحافظة على آثارهم، وإقامة المهرجانات في ذكرى مواليدهم، وعقد المجالس وإلقاء الخطب المفيدة في أيام رحلتهم، وهذا شيء مما يدركه كل ذي مسكّة، فلأجل ذلك نرى أن أبناء الأمم الحية يتسابقون في زيارة مدافن رؤسائهم وشخصياتهم الذين ضحوا أنفسهم و أموالهم في سبيل إحياء الشعب و اسقلاله، و نجاته من يد المستعمرين والظالمين، و يقيمون الذكريات المثوية لإحياء معالمهم و آثارهم و أسمائهم، ولا يخطر ببال أحد أن هذه الأمور عبادة لهم، فأين التعظيم والتعزيز للشخصيات من عبادتهم؟ فإنّ التعظيم تقدير لجودهم، والعبادة رمز لألوهيتهم وربوبيتهم، فهل ممّا من يخلط بين الأمرين؟ إذا وقفت على الآثار البناءة لزيارة مطلق القبور، وزيارة قبور الأولياء والصالحين، وتعرّفت على مجموعة من الروايات الحاثّة على زيارة قبور دار

١. مستدرک الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٢٧٧.

٢. صحيح الترمذی ج ٤ ص ٢٧٥، كتاب الجنائز باب ما جاء في زيارة القبور. (١٥٥)

المؤمنين، فلنذكر خصوص ما ورد من الروايات التي فيها الحث على زيارة قبر النبي الأعظم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . قد نقل قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن عبدالكافي السبكي ١٥ حديثاً في ذلك المجال وتكلم في أسنادها و صحح كثيراً منها (١). كما

قام العلامة السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ) في كتابه القيم (وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى) بنقل روايات كثيرة في ذلك المجال (٢). كما أن فقهاء المذاهب الأربعة في مصر العزيزة في العصر الحاضر أفتوا بأن زيارة قبر النبي أفضل المندوبات. ورد فيها أحاديث. وقد اعتمدوا على رواية عبدالله بن عمر عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه قال: (من زار قبري وجبت له شفاعتي) (٣). وبما أن العلامة الأميني قد تحمّل جهوداً جبارة في جمع الأحاديث الواردة حول زيارة النبي الأكرم، والفحص عن مظانها ومصادرها من أقدم العصور إلى عصرنا هذا، فنحن - تقديراً لجهوده الجبارة ومثابرته الجليله في هذا الطريق - ننقل عن تلك الموسوعة نفس الروايات ومصادرها. قال قدس سره: (١)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من زار قبري وجبت له شفاعتي». أخرجه أمة من الحفاظ وأئمة الحديث، منهم: ١- عبيد بن محمد أبو محمد الوراق النيسابوري المتوفى سنة (٢٥٥ هـ). ٢- ابن أبي الدنيا أبو بكر عبدالله بن محمد القرشي المتوفى سنة (٢٨١ هـ).

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام، ص ٣-٣٤، الباب الأول: في الأحاديث الواردة في الزيارة .

٢. وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٣٦ .

٣. الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٥٠٥ . (١٥٦)

٣- الدولابي أبو بشر محمد الرازي المتوفى سنة (٣١٠ هـ) في الكنى والأسماء ج ٢ ص ٦٤ . ٤- محمد بن إسحاق أبو بكر النيسابوري المتوفى سنة (٣١١ هـ) الشهير بابن خزيمه، أخرجه في صحيحه . ٥- الحافظ محمد بن عمرو أبو جعفر العقيلي المتوفى سنة (٣٢٢ هـ) في كتابه . ٦- القاضي المحاملي أبو عبدالله الحسين البغدادي المتوفى سنة (٣٣٠ هـ) . ٧- الحافظ أبو أحمد بن عدى المتوفى سنة (٣٦٥ هـ) في الكامل . ٨- الحافظ أبو الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد الأنصاري المتوفى سنة (٣٦٩ هـ) . ٩- الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ) في سننه . ١٠- أفضى القضاء أبو الحسن الماوردي المتوفى سنة (٤٥٠ هـ) في «الأحكام السلطانية» ص ١٠٥ . ١١- الحافظ أبو بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) في «السنن» وغيره . ١٢- القاضي أبو الحسن علي بن الحسن الخلعي الشافعي المتوفى سنة (٤٩٢ هـ) في فوائده . ١٣- الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي الإصبهاني المتوفى سنة (٥٣٥ هـ) . ١٤- القاضي عياض المالكي المتوفى سنة (٥٤٤ هـ) في «الشفاء» . ١٥- الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ)، في تاريخه في باب (من زار قبره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهذا الباب أسقطه المهذب من الكتاب في طبعه، والله يعلم سر تحريفه هذا وما أضمرته سريره . ١٦- الحافظ أبو طاهر أحمد بن السلفي المتوفى سنة (٥٧٦ هـ) . ١٧- أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الأندلسي المتوفى سنة (١٥٧)

(٥٨١ هـ) الأحكام الوسطى والصغرى (١). ١٨- الحافظ ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧ هـ) في «مثير الغرام الساكن» . ١٩- الحافظ علي بن مفضل المقدسي الإسكندراني المالكي المتوفى سنة (٦١١ هـ) . ٢٠- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) . ٢١- الحافظ أبو محمد عبدالعظيم المنذرى المتوفى سنة (٦٥٦ هـ) . ٢٢- الحافظ أبو الحسين يحيى بن علي القرشي الأموي المالكي المتوفى سنة (٦٦٢ هـ). في كتابه «الدلائل المبينة في فضائل المدينة» . ٢٣- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمياطي المتوفى سنة (٧٠٥ هـ) . ٢٤- الحافظ أبو الحسين هبة الله بن الحسن . ٢٥- أبو الحسن يحيى بن الحسن الحسيني في كتاب «أخبار المدينة» . ٢٦- أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج المتوفى سنة (٧٣٧ هـ)، في «المدخل» ج ١ ص ٢٦١ . ٢٧- تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي الشافعي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، بسط القول في ذكر طرقه في شفاء السقام، ص ٣ - ١٢ وقال في ص ٨: والرواة جميعهم إلى موسى بن هلال ثقة لا ريبه فيهم، وموسى بن هلال، قال ابن عدى: أرجو أنه لا باس به، هو من مشايخ أحمد، وأحمد لم يكن يروى إلا عن ثقة، وقد صرح الخصم بذلك في الرد على البكري . ثم ذكر شواهد لقوة سنده فقال: وبذلك تبين أن اقل درجات هذا الحديث أن يكون حسناً إن نوزع في دعوى صحته، إلى أن قال: وبهذا بل

١ . قال في خطبة الأحكام الصغرى: أنه تخيرها صحيحة الأسناد معروفة عند النقاد، قد نقلها الإثبات وتداولها الثقات، وقال في خطبة الوسطى: إن سكوته عن الحديث دليل على صحته... الخ راجع (شفاء السقام) ص ٩ . (١٥٨)

بأقل منه يتبين افتراء من ادعى أن جميع الأحاديث الواردة في الزيارة موضوعه، فسبحان الله! أما المستحي من الله ومن رسوله في هذه المقالة التي لم يسبقه إليها عالم ولا جاهل، لا من أهل الحديث ولا من غيرهم؟ ولا ذكر أحد موسى بن هلال ولا غيره من رواة حديثه هذا بالوضع، ولا اتهمه به فيما علمنا، فكيف يستجيز مسلم أن يطلق على كل الأحاديث التي هو واحد منها موضوعه، ولم ينقل إليه ذلك عن عالم قبله، ولا ظهر على هذا الحديث شيء من الأسباب المقتضية للمحدثين للحكم بالوضع، ولا حكم منته بما يخالف الشريعة، فمن أي وجه يحكم بالوضع عليه لو كان ضعيفاً؟ فكيف وهو حسن وصحيح . ٢٨- الشيخ شعيب عبدالله بن سعد المصري، ثم المكي الشهير بالحريفيش المتوفى سنة (٨٠١ هـ) في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧ . ٢٩- السيد نور الدين علي بن عبدالله الشافعي القاهري السهمودي (١) المتوفى سنة (٩١١ هـ) في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٤ . ٣٠- الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى سنة (٩١١ هـ) في «الجامع الكبير» كما في ترتيبه: ج ٨ ص ٩٩ . ٣١- الحافظ أبو العباس شهاب الدين القسطلاني (٢) المتوفى سنة (٩٢٣ هـ)، في «المواهب اللدنية» من طريق الدارقطني، وقال: رواه عبد الحق في أحكامه الوسطى والصغرى وسكت عنه، وسكوته عن الحديث فيه دليل على صحته . ٣٢- الحافظ ابن الديبع أبو محمد الشيباني المتوفى سنة (٩٤٤ هـ)، في «تميز الطيب من الخبيث» ص ١٦٢ . ٣٣- الشيخ شمس الدين محمد الخطيب الشربيني المتوفى سنة (٩٧٧ هـ)، في «المغنى» ج ١ ص ٤٩٤ عن صحيح ابن خزيمة . ٣٤- زين الدين عبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة (١٠٣١ هـ)، في «كنوز

١ . السهمود قرية كبيرة غربي نيل مصر .

٢ . نسبة إلى قسطله بلدة بالأندلس . (١٥٩)

الحقايق» ص ١٤١، وشرح الجامع الصغير للسيوطي ج ٦ ص ١٤٠ . ٣٥- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفى سنة (١٠٧٨ هـ)، في «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ . ٣٦- أبو عبدالله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المصري المالكي المتوفى سنة (١١٢٢ هـ) في «شرح المواهب» ج ٨ ص ٢٩٨ نقلاً عن أبي الشيخ وابن أبي الدنيا . ٣٧- الشيخ إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٥٠ نقلاً عن أبي الشيخ، وابن أبي الدنيا، وابن خزيمة . ٣٨- الشيخ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥ نقلاً عن غير واحد من أئمة الحديث . ٣٩- الشيخ محمد بن السيد درويش الحوت البيروني المتوفى سنة (١٢٧٦ هـ) في «حسن الأثر» ص ٢٤٦ . ٤٠- السيد محمد بن عبدالله الدمياطي الشافعي المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ)، في «مصباح الظلام» ج ٢ ص ١٤٤ . ٤١- عدة من فقهاء المذاهب الأربعة في مصر اليوم في «الفقه على المذاهب الأربعة» ج ١ ص ٥٩٠ (٢) .

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من جاءني زائراً لا عمله إلا زيارتي، كان حقاً علي أن أكون له شفيحاً يوم القيامة. وفي لفظ: لا تحمله إلا زيارتي. وفي آخر: لم تنزعه حاجة إلا زيارتي وفي رابع: لا ينزعه إلا زيارتي كان حقاً علي الله عز وجل، وفي خامس للغزالي: لا يهمله إلا زيارتي أخرجه جمع من الحفاظ لا يستهان بهم وبعدهم منهم: ١- الحافظ أبو علي سعيد بن عثمان السكن البغدادي المتوفى بمصر (١٦٠) .

سنة (٣٥٣ هـ) في كتابه «السنن الصحاح» جعل في آخر كتاب الحج (باب ثواب من زار قبر النبي) ولم يذكر في الباب غير هذا الحديث. قال السبكي في «شفاء السقام» ص ١٦: وذلك منه حكم بأنه مجمع على صحته بمقتضى الشرط الذي شرطه في الخطبة، وابن السكن هذا إمام حافظ ثقة كثير الحديث واسع الرحلة... الخ . قال في خطبة كتابه: اما بعد: فإنك سألتني أن أجمع لك ما صحّ عندي من السنن المأثورة التي نقلها الأئمة من أهل البلدان، الذين لا يطعن عليهم طاعن فيما نقلوه، فتدبرت ما سألتني عنه فوجدت جماعة من الأئمة قد تكلفوا ما سألتني من ذلك وقد وعيت جمع ما ذكروه، وحفظت عنهم أكثر ما نقلوه، واقتديت بهم، وأجبتك إلى

ما سألتني من ذلك، وجعلته أبواً في جميع ما يحتاج إليه من احكام المسلمين، فأول من نصب نفسه لطلب صحيح الآثار: البخارى وتابعه مسلم، وأبو داود، والنسائي وقد تصفحت ما ذكروه وتدبرت ما نقلوه فوجدتهم مجتهدين فيما طلبوه، فما ذكرته في كتابي هذا مجملاً- فهو مما أجمعوا على صحته، وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم، فقد بينت حجته في قبول ما ذكره، ونسبته إلى اختياره دون غيره، وما ذكرته مما يتفرد به أحد من أهل النقل للحديث فقد بينت علته، ودلت على انفراده دون غيره، وبالله التوفيق . ٢- الحافظ أبو القاسم الطبراني المتوفى سنة (٣٦٠ هـ)، أخرجه في معجمه الكبير . ٣- الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم المقرئ الإصبهاني المتوفى سنة (٣٨١ هـ)، في معجمه . ٤- الحافظ أبو الحسن الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ)، أخرجه في أماليه . ٥- الحافظ أبو نعيم الإصبهاني المتوفى سنة (٤٠٢ هـ). ٦- القاضي أبو الحسن علي بن الحسن الخلعى الشافعى المتوفى سنة (٤٩٢ هـ) صاحب «الفوائد» . (١٦١)

٧- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الشافعى المتوفى سنة (٥٠٥ هـ)، في «إحياء العلوم» ج ١ ص ٢٤٦ . ٨- الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ)، صاحب «تاريخ الشام» . ٩- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقى المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) . ١٠- الحافظ يحيى بن علي القرشى الأموى المالكى المتوفى سنة (٦٢٢ هـ) . ١١- الحافظ أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد في كتابه . ١٢- تقي الدين السبكى الشافعى المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) فصل القول في طرق هذا الحديث، وأخرجه من طرق شتى وصححه في «شفاء السقام» ص ١٣- ١٦ . ١٣- السيد نور الدين علي بن عبدالله الشافعى القاهرى السمهودى المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٦، ذكره من طرق شتى، منها طريق الحافظ ابن السكن فقال: ومقتضى ما شرطه في خطبته أن يكون هذا الحديث مما أجمع على صحته ثم قال: قلت: ولهذا نقل عنه جماعة منهم الحافظ زين الدين العراقى أنه صححه... الخ . ١٤- أبو العباس شهاب الدين القسطلانى المتوفى سنة (٩٢٤ هـ)، في «المواهب اللدنية» وقال: صححه ابن السكن . ١٥- الشيخ محمد الخطيب الشربىنى المتوفى سنة (٩٧٧ هـ)، في «معنى المحتاج» شرح المنهاج ج ١ ص ٤٩٤ وقال: رواه ابن السكن في سننه الصحاح المأثورة . ١٦- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفى سنة (١٠٧٨ هـ)، في «معجم الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ . (٣)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من حج فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى» وفى غير واحد من طرقه زيادة: وصحبنى. أخرجه جمع من الحفاظ منهم: (١٦٢)

١- الحافظ عبد الرزاق أبو بكر الصنعانى المتوفى سنة (٢١١ هـ) . ٢- الحافظ أبو العباس الحسن بن سفيان الشيبانى المتوفى سنة (٣٠٣ هـ) . ٣- الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي الموصلى المتوفى سنة (٣٠٧ هـ) فى مسنده . ٤- الحافظ أبو القاسم عبدالله بن محمد البغوى سنة (٣١٧ هـ) . ٥- الحافظ أبو القاسم الطبرانى المتوفى سنة (٣٦٠ هـ) . ٦- الحافظ أبو أحمد بن عدى المتوفى سنة (٣٦٥ هـ) فى «الكامل» . ٧- الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم المقرئ المتوفى سنة (٣٨١ هـ) . ٨- الحافظ أبو الحسن الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ)، فى سننه وغيرها . ٩- الحافظ أبو بكر البيهقى المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) فى سننه ج ٥ ص ٢٤٦ . ١٠- الحافظ ابن عساكر الدمشقى المتوفى سنة (٥٧١ هـ) فى تاريخه . ١١- الحافظ ابن الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧ هـ) فى «مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» . ١٢- الحافظ أبو عبدالله بن النجار البغدادى المتوفى سنة (٦٤٣ هـ)، فى كتابه «الدرة الثمينه فى أخبار المدينة» . ١٣- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقى المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) . ١٤- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمياطى المتوفى سنة (٧٠٥ هـ) . ١٥- أبو الفتح أحمد بن محمد بن أحمد الحداد فى كتابه . ١٦- الحافظ أبو الحسين المصرى . ١٧- ولى الدين الخطيب التبريزى فى «مشكاة المصابيح» المتوفى سنة (٧٣٧ هـ)، فى باب حرم المدينة فى الفصل الثالث . ١٨- تقي الدين السبكى المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، بسط القول فى طرقه فى «شفاء السقام» ص ١٦ - ٢١ ورواه عن كثير من هؤلاء الحفاظ المذكورين وغيرهم . (١٦٣)

١٩- الشيخ شعيب عبدالله المصرى الحريفيش المتوفى سنة (٨٠١ هـ)، فى «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧ . ٢٠- السيد نور الدين السمهودى المتوفى سنة (٩١١ هـ)، فصل القول فى طرقه فى «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٧ . ٢١- الحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى

سنة (٩١١ هـ)، في «الجامع الكبير» كما في ترتيبه ج ٨ ص ٩٩ . ٢٢- قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي الحنفي المتوفى سنة (١٠٦٩ هـ)، في شرح الشفاء للقاضي عياض ج ٣ ص ٥٦٧ . ٢٣- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفى سنة (١٠٧٨ هـ)، في «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ . ٢٤- الشيخ محمد الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥ . ٢٥- السيد محمد بن عبدالله الدمياطي الشافعي المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ)، في «مصباح الظلام» ج ٢ ص ١٤٤ . (٤)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني» أخرجه جمع منهم: ١- الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي المتوفى سنة (٣٥٤ هـ)، في «الضعفاء» . ٢- الحافظ ابن عدى المتوفى سنة (٣٦٥ هـ)، في «الكامل» . ٣- الحافظ الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ)، في كتابه أحاديث مالك التي ليست في الموطأ . ٤- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٦٥ هـ)، من غير طريق في «شفاء» (١٦٤)

السقام» ص ٢٢، وردّ حكم ابن الجوزي على الحديث بالوضع . ٥- السيد نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩٢١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٨ . ٦- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٢ هـ)، في «المواهب اللدنية» نقلاً عن ابن عدى، وابن حبان، والدارقطني . ٧- الشيخ اسماعيل الجراحي العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٧٨ نقلاً عن ابن عدى، وابن حبان، والدارقطني . ٨- الشيخ المرتضى الزبيدي الحنفي المتوفى سنة (١٢٠٥ هـ)، في «تاج العروس» ج ١٠ ص ٧٤ . ٩- الشيخ محمد الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥ . (٥)

عن عمر مرفوعاً: «من زار قبري (أو من زارني) كنت له شفيحاً (أو شهيداً) ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله عزوجل في الآمين يوم القيامة» أخرجه: ١- الحافظ أبو داود الطيالسي المتوفى سنة (٢٠٤ هـ)، في مسنده ج ١ ص ١٢ . ٢- الحافظ أبو نعيم الإصبهاني المتوفى سنة (٤٣٠ هـ) . ٣- الحافظ البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) في «السنن الكبرى» ج ٥ ص ٢٤٥ . ٤- الحافظ ابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة (٥٧١ هـ)، في «تاريخ الشام» . ٥- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) . (١٦٥)

٦- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٢ . ٧- نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٩ . ٨- أبو العباس القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣ هـ)، في «المواهب اللدنية» . ٩- الحافظ ابن الديبع المتوفى سنة (٩٤٤ هـ)، في «تميز الطيب» ص ١٦٢ . ١٠- زين الدين عبدالرؤوف المناوي المتوفى سنة (١٠٣١ هـ)، في «كنوز الحقائق» ص ١٤١ . ١١- الشيخ إسماعيل العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٧٨ . (٦)

عن حاطب بن أبي بلتعة مرفوعاً: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمين» . أخرجه: ١- الحافظ أبو الحسن الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ)، في «السنن» . ٢- الحافظ أبو بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) . ٣- الحافظ ابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة (٥٧١ هـ) . ٤- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) . ٥- الحافظ أبو عبدالله المؤمن الدمياطي المتوفى سنة (٧٠٥ هـ) . ٦- أبو عبدالله العبدري المالكي ابن الحاج المتوفى سنة (٧٣٧ هـ)، في «المدخل» . ٧- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٥ . (١٦٦)

٨- الشيخ شعيب الحرثيفيش المتوفى سنة (٨١٠ هـ)، في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧ . ٩- نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٩ . ١٠- أبو العباس القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣ هـ) في «المواهب اللدنية» عن البيهقي . ١١- الجراحي العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٥٥١ عن ابن عساكر والذهبي، وحكى عن الأخير أنه قال: إن هذا الحديث من أجود أحاديث الباب إسناداً . ١٢- الشيخ محمد الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ) في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥ . ١٣- الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروني المتوفى سنة (١٢٧٦ هـ)، في «حسن الأثر» ص ٢٤٦ . (٧)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من حج حجة الإسلام وزار قبري، وغزا غزوة وصلى عليّ في بيت المقدس لم يسأل الله عزوجل فيما افترض عليه» . أخرجه الحافظ محمد بن الحسين بن أحمد أبو الفتح الأردني المتوفى سنة (٣٧٤ هـ)، في فوائده، ورواه عنه الحافظ

- السلفى أبو طاهر الإصبهاني المتوفى سنة (٥٧٦ هـ) بإسناده، وأخرجه بالطريق المذكور تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) في «شفاء السقام» ص ٢٥، وذكره السيد السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠٠ والشيخ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٦. (٨)
- عن أبي هريرة مرفوعاً: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي»، (١٦٧)
- ومن زارني كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» أخرجه: ١- الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه المتوفى سنة (٤١٦ هـ). ٢-
- الحافظ أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن الإصبهاني المتوفى سنة (٥٤٠ هـ). ٣- أبو الفتوح سعيد بن محمد اليعقوبي في فوائده المتوفى سنة (٥٥٢ هـ). ٤- الحافظ أبو سعد عبدالكريم السمعاني الشافعي المتوفى سنة (٥٦٢ هـ). ٥- ابن الأنماطي إسماعيل بن عبدالله الأنصاري المالكي المتوفى سنة (٦١٩ هـ). ٦- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) في «شفاء السقام» ص ٢٦. ٧-
- السيد نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠٠. (٩)
- عن أنس بن مالك مرفوعاً: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً». وفي رواية أخرى عنه أيضاً: «من مات في أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة، ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى يوم القيامة». وفي لفظ ثالث له زيادة: «وكننت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة». أخرجه أمه من الحفاظ منهم: ١- ابن أبي فديك محمد بن إسماعيل المتوفى سنة (٢٠٠ هـ). ٢- ابن أبي الدنيا أبو بكر القرشي المتوفى سنة (٢٨١ هـ). ٣- الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٥ هـ). ٤- الحافظ أبو بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) في «شعب الإيمان». ٥- القاضي عياض المالكي المتوفى سنة (٥٤٤ هـ) في «الشفاء». (١٦٨)
- ٦- الحافظ علي بن الحسن الشهيري بابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ). ٧- الحافظ ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧ هـ) في «مثير الغرام الساكن». ٨- الحافظ عبد المؤمن الدميطي المتوفى سنة (٧٠٥ هـ). ٩- أبو عبدالله العبدري المالكي ابن الحاج المتوفى سنة (٧٣٧ هـ) في «المدخل» ج ١ ص ٢٦١. ١٠- شمس الدين أبو عبدالله الدمشقي الحنبلي المعروف بابن القيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١ هـ)، في «زاد المعاد» ج ٢ ص ٤٧. ١١- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٧. ١٢- السيد نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠٠. ١٣- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣ هـ) في «المواهب اللدنية». ١٤- جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «الجامع الكبير» كما في ترتيبه ج ٨ ص ٩٩. ١٥- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفى سنة (١٠٧٨ هـ)، «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ بلفظ: «من زارني في المدينة متعمداً كان في جوارى إلى يوم القيامة». ١٦- الشيخ محمد الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٦. ١٧- أبو عبدالله الزرقاني المالكي المتوفى سنة (١١٢٢ هـ)، في «شرح المواهب» ج ٨ ص ٢٩٩. ١٨- الجراحي العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ)، في كشف «الخفاء» ج ٢ ص ٢٥١. (١٦٩)
- ١٩- السيد أحمد الهاشمي في مختار الأحاديث النبوية، ص ١٦٩. ٢٠- السيد محمد بن عبدالله الدميطي الشافعي المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ)، في «مصباح الظلام» ج ٢ ص ١٤٤. ٢١- الشيخ منصور علي ناصف في «التاج» ج ٢ ص ٢١٦. (١٠)
- عن أنس بن مالك مرفوعاً: «من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، وما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر» أخرجه: ١- الحافظ أبو عبدالله محمد بن محمود ابن النجار المتوفى سنة (٦٤٣ هـ)، في كتابه «الدرة الثمينة في فضائل المدينة». ٢- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٨. ٣- الحافظ زين الدين العراقي المتوفى سنة (٨٠٦ هـ)، أشار إليه كما في «المواهب». ٤- السيد نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠٠. ٥- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣ هـ) في «المواهب اللدنية». ٦- العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ص ٢٧٨. (١١)
- عن ابن عباس مرفوعاً: «من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة

شهيذاً، أو قال: شفيحاً». أخرجه الحافظ أبو جعفر العقيلي المتوفى سنة (٣٢٢ هـ)، في كتاب (١٧٠) «الضعفاء» في ترجمته فضالة بن سعيد المازني، والحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) كما في «شفاء السقام» ص ٢١، و«وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠١، و«نيل الأوطار» للشوكاني ج ٤ ص ٣٢٥ - ٣٢٦. (١٢)

عن علي أمير المؤمنين مرفوعاً وغير مرفوع: «من زار قبري بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزر قبري فقد جفاني» أخرجه:

- ١- أبو الحسين يحيى بن الحسن بن جعفر الحسني في كتابه «أخبار المدينة». ٢- أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري الخركوشي المتوفى سنة (٤٠٦ هـ)، في «شرف المصطفى». ٣- الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ). ٤- الحافظ أبو عبدالله ابن النجار المتوفى سنة (٦٤٣ هـ) في كتاب «الدرة الثمينة». ٥- الحافظ عبد المؤمن الدمياطي المتوفى سنة (٧٠٥ هـ). ٦- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٩. ٧- الشيخ شعيب الحريفيش المتوفى سنة (٨٠١ هـ)، في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧. ٨- السيد نور الدين السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ) في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠١. ٩- زين الدين عبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة (١٠٣١ هـ) في «كنوز الحقائق» ص ١٤١. (١٣)

عن بكر بن عبدالله مرفوعاً: «من أتى المدينة زائراً لي وجبت له شفاعتي (١٧١) يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعث آمناً». أخرجه أبو الحسين يحيى بن الحسن الحسني في كتابه «أخبار المدينة» كما في «شفاء السقام» للسبكي ص ٣٠، و«وفاء الوفاء» للسمهودي، ج ٣ ص ٤٠٢. (١٤)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي» أخرجه: ١- الحافظ سعيد بن منصور النسائي أبو عثمان الخراساني المتوفى سنة (٢٢٧ هـ). ٢- الحافظ أبو القاسم الطبراني المتوفى سنة (٣٦٠ هـ). ٣- الحافظ أبو أحمد ابن عدى المتوفى سنة (٣٦٥ هـ). ٤- الحافظ أبو الشيخ الأنصاري المتوفى سنة (٣٦٩ هـ). ٥- الحافظ أبو الحسن الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ). ٦- الحافظ أبو بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨ هـ). ٧- القاضي عياض المالكي المتوفى سنة (٥٤٤ هـ). ٨- قاضي القضاة الخفاجي الحنفي المتوفى سنة (١٠٦٩ هـ)، في شرح الشفاء ج ٣ ص ٥٦٥ نقله عن البيهقي، والدارقطني، والطبراني، وابن منصور. ٩- زين الدين عبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة (١٠٣١ هـ)، في «كنوز الحقائق» ص ١٤١ بلفظ: «من زار قبري بعد موتي». ١٠- العجلوني المتوفى سنة (١١٦٢ هـ) في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٥١، نقلاً عن أبي الشيخ، والطبراني، وابن عدى، والبيهقي. (١٥)

عن ابن عباس مرفوعاً: «من حجَّ إلى مكة ثم قصدني في مسجدي كتبت له حجتان مبرورتان». أخرجه الفردوس في مسنده كما في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠١ و«نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٦. (١٧٢) (١٦)

عن رجل من آل الخطاب مرفوعاً: «من زارني متعمداً كان في جوارى يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمنين (من الآمنين)». وزاد الشحامي عقب قوله «يوم القيامة»: «ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» روى بأسناده. فيه من الحفاظ: ١- الحافظ أبو جعفر العقيلي المتوفى سنة (٣٢٢ هـ). ٢- الحافظ أبو الحسن الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ). ٣- الحافظ أبو عبدالله الحاكم المتوفى سنة (٤٠٥ هـ). ٤- الحافظ أبو بكر البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨ هـ)، في «شعب الإيمان». ٥- الحافظ ابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة (٥٧١ هـ). ٦- الحافظ أبو محمد بن المؤمن الدمياطي المتوفى سنة (٧٠٥ هـ)، وأخرجه من طريق هؤلاء الحفاظ. ٧- ولي الدين الخطيب العمري التبريزي في «مشكاة المصابيح» المتوفى سنة (٧٣٧ هـ) في باب حرم المدينة في الفصل الثالث. ٨- تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٤ وقال: مرسل جيد، ورواه عنه السيد نور الدين السمهودي في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٩. (١٧)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من زارني بالمدينة كنت له شهيداً وشفيعاً»، أخرجه الحافظ الدارقطني بأسناده في «السنن» كما في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٨. (١٧٣) (١٨)

روى عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، قال: «من وجد سعة ولم ينفد «يغد» إلى فقد جفاني». ذكره ابن فرحون في مناسكه،

والغزالي في «الإحياء» ج ١ ص ٢٤٦، والقسطلاني في «المواهب اللدنية»، والعجلوني في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٧٨. (١٩)
قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «من زارني بعد وفاتي وسلم عليّ رددت عليه السلام عشراً، وزاره عشرة من الملائكة، كلهم يسلمون عليه، ومن سلم عليّ في بيته رد الله تعالى عليّ روي حتى أسلم عليه». ذكره الشيخ شعيب الحريفيش المتوفى سنة (٨٠١هـ) في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧. (٢٠)

عن أبي عبدالله محمد بن العلاء رحمه الله قال: دخلت المدينة وقد غلب عليّ الجوع، فزرت قبر النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وسلمت عليه وعلى الشيخين رضي الله عنهما وقلت: يا رسول الله جئت وبي من الفاقة والجوع ما لا يعلمه إلا الله عزوجل، وأنا ضيفك في هذه الليلة، ثم غلبني النوم فرأيت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في المنام فأعطاني رغيفاً فأكلت نصفه ثم انتبهت من المنام وفي يدي نصفه الآخر، فتحقق عندي قول النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإنّ الشيطان لا يتمثل بي». ثم نوديت: يا أبا عبدالله: «لا يزور قبري أحد إلا غفر له ونال شفاعتي غداً». ذكره الشيخ شعيب الحريفيش في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٨ فقال في المعنى من زار قبر محمد * نال الشفاعة في غد بالله كرر ذكره * وحديثه يا منشدى واجعل صلاتك دائماً * جهراً عليه تهتدي (١٧٤)

فهو الرسول المصطفى * ذو الجود والكف الندي وهو المشفع في الوري * من هول يوم الموعد والحوض مخصوص به * في الحشر عذب المورد صلى عليه ربنا * ما لاح نجم الفرقد (٢١)

مرفوعاً عنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لا عذر لمن كان له سعة من أمتي ولم يزرنى». رواه الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده في «مجمع الأنهر» في شرح ملتقى الأبحر ص ١٥٧، وَعَدَّهُ من أدلة الباب من دون غمز فيه. (٢٢)

عن أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - : «من زار قبر رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - كان في جواره» أخرجه ابن عساكر كما في «نيل الأوطار» للشوكاني ج ٤ ص ٣٢٦. * * *

وبعد هذه النصوص المتضاربة لا حاجة إلى نقل كلمات أعلام المذاهب الإسلامية حول زيارة النبي الأقدس، وهي وافرة، وقد نقلنا شرطاً منها عند البحث عن شد الرحال إلى زيارته، فمن أراد أن يقف على تلك النصوص فليرجع إلى الأثر القيم «الغدير» للعلامة الأميني (١). وأخيراً نذكر كلام محمد بن عبدالوهاب، مجدد مذهب ابن تيمية في المقام قال: «تسن زيارة النبي إلا أن لا تشد الرحال إلا إلى زيارة المسجد والصلاة فيه» (٢). انظر كيف يسير إثر أستاذه في المنهج حذو النعل بالنعل. إلى هنا اتضح الحق بأجل مظاهره، وبقى هنا أمر وهو دفع ما أثار ابن

١. الغدير ج ٥ ص ١٠٩ - ١٢٩.

٢. الهدية السنية، الرسالة الثانية.. (١٧٥)

تيمية من الشبهة في زيارة النبي الأكرم التي أشرنا إليها في صدر البحث وهي: ١- كون الزيارة على هذا الوجه المخصوص بدعة. ٢- كون الزيارة من تعظيم غير الله المفضى إلى الشرك. أما الشبهة الأولى فهي باطله من رأس، وذلك لأن البدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، فهل يمكن لأحد بعد هذه النصوص المتضاربة، التقول بأنه لم يرد في الدين شيء حول زيارة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - لم يامر بها؟ كيف وقد أمر هو بزيارة القبور؟ فهل يتصور أنه لا يعادل زيارته زيارة قبر مسلم؟ (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) وقد أمر النبي بزيارة قبور المؤمنين. وأما الشبهة الثانية فنقول: كيف تكون زيارة النبي مفضية إلى الشرك مع أن زيارة قبر نبي التوحيد، استشعار لحقيقته، وتقديس لمعناه؟ فإنّ التقديس الذي يتصل بالرسول إنما هو من فكرتهم وهدايتهم. فالتقديس لمحمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تقديس للمعاني التي دعا إليها وحثّ عليها، فكيف يتصور من مؤمن عرف حقيقة الدعوة المحمدية أن يكون مضمراً لأي معنى من معاني الوثنية، وهو يستعبر ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة؟ فإذا كان خوف ابن تيمية من أن يؤدي ذلك إلى الوثنية بمضى الأعصار والدهور فإنه خوف من غير جهة، لأنّ الناس كانوا يزورون قبر

الرسول إلى أول القرن الثامن، ثم باتوا إلى العصور من بعده إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم ينظر أحد إليه نظر عبادة أو وثنية، ولو أفرط بعض العوام فذلك لا يمنع تلك الذكريات العطرة، بل يجب إرشادهم وتفهمهم لا منعهم من الزيارة ولا تكفيرهم. قال الشيخ محمد زاهد الكوثري: «إن سعى ابن تيمية في منع الناس من زيارته يدل على ضغينة كامنة فيه نحو الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وكيف يتصور الإشراك بسبب الزيارة، (١٧٦)

والتوسل في المسلمين الذين يعتقدون في حقه أنه عبده ورسوله، وينطقون بذلك في صلاتهم نحو عشرين مرة في كل يوم على أقل تقدير، إدامه لذكرى ذلك، ولم يزل أهل العلم ينهون العوام عن البدع في كل شؤونهم، ويرشدونهم إلى السنة في الزيارة وغيرها إذا صدرت منهم بدعة في شيء، ولم يعدوهم في يوم من الأيام مشركين بسبب الزيارة أو التوسل، وأول من رماهم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية، وجرى خلفه من أراد استباحة أموال المسلمين ودماءهم لحاجة في النفس» (١). ثم إن آخر ما في كنانة ابن تيمية وأتباعه في عد الزيارة بدعة وتقسيمها إلى قسمين، ما رواه أحمد في مسنده، وهو أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: **اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يَبْعُدُ (٢)**. وسيوافيك الكلام في معنى الحديث عند البحث عن الاحتفال بميلاد النبي، ولا صلة لهذا الحديث بالزيارة، والزائر المسلم لا يعبد النبي ولا يعبد قبره، كما هو واضح، بل يعبد الله سبحانه، وإنما يزور قبر نبيه كما يزور قبور آبائه وأجدادهم من غير فرق، غير أنه يترتب على زيارة قبر نبي التوحيد ما لا يترتب على غيره. * * * (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِئْسَ دَأْبُهُمْ أَقْتَدِهِ) (٣).

١. تكملة السيف الصقيل ص ١٥٨.

٢. مسند أحمد ج ٣ ص ٢٤٨.

٣. سورة الأنعام: الآية ٩٠.

ابن تيمية والبناء على القبور

ابن تيمية والبناء على القبور

إن ابن تيمية هو أول من أفتى بحرمة البناء على القبور، سواء أكان صاحب القبر صالحاً أم طالحاً، وإليك نصه: قال: وقد اتفق أئمة الإسلام على: ١- أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد التي على القبور. ٢- ولا يشرع اتخاذها مساجد. ٣- ولا تشرع الصلاة عندها. ٤- ولا يشرع قصدتها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغائة وابتهاال، ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهي عنها... إلى أن قال: وإنما دين الله تعالى تعظيم بيوت الله وحده، وهي المساجد التي تشرع فيها الصلاة جماعة وغير جماعة، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له.. وذكر بعض الآيات الواردة في تعظيم المساجد، وعد منها قوله تعالى: (فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) (١).

١. سورة النور: الآية ٣٦ - ٣٧ وقد أفتى في كلامه هذا بحرمة أمور أربعة، سنبحث عنها واحداً بعد واحد إلا مسألة قصد المشاهد، لما استوفينا الكلام فيه عند البحث عن قصد السفر إلى زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . (١٧٨)

وأما اتخاذ القبور أوثاناً فهو من دين المشركين (١). يقول تلميذه ابن القيم: يجب هدم المساجد التي بنيت على القبور، ولا يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً (٢). وعلى هذا الأصل لما استولى السعوديون على الحرمين الشريفين هدموا المراقد المقدسة في البقيع، وبيوت أهل البيت، بعدما رفعوا سؤالاً إلى علماء المدينة المنورة، وإليك السؤال والجواب: السؤال: ما قول علماء المدينة المنورة - زادهم الله فهماً وعلماً - في البناء على القبور، واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهى عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها، ومنع الصلاة عندها أم لا؟

وإذا كان البناء في مسبله كالبيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه، فهل هو غضب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ الجواب: أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث عليّ (رضي الله عنه) أنه قال لأبي الهياج:

«ألا ابغثك على ما بعثني عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» (٣). والامعان في الاستفتاء يعرب عن أنه لم تكن الغاية منه الوقوف على حكم

١. مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ طبع مصر، تحت إشراف السيد محمد رشيد رضا.

٢. زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن القيم ص ٦٦١.

٣. جريدة أم القرى، وقد نشرت نص الإستفتاء وجوابه في العدد الصادر بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٣٤٤ هـ. (١٧٩)

الله، سواء أكان جائزاً أم حراماً، وإنما كانت الغاية هي أخذ الاعتراف منهم على الحظر، ولأجل ذلك أدرج المستفتي الجواب في السؤال وقال: «بل هو ممنوع منهى عنه نهياً شديداً» وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المستفتي قام على رأس المفتين فأخذ منهم الجواب بالتخويف والتهديد. ثم إن المستفتي أي الشيخ النجدي المعروف بسليمان بن بليهد، يقول في مقال نشرته جريدة «أم القرى» في عددها الصادر في شهر جمادى الآخرة من شهر سنة ١٢٤٥ هجرية: «إن بناء القباب على مراقد العلماء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجري». وهذا ما يكرره علماء الوهابية في دعاياتهم، ويضيفون إلى حديث «أبي الهياج» حديث «جابر» عن النبي الذي سيوايك بيانه ونقده سنداً ومتناً. ولأجل إيضاح الحال، نحلل ما جاء في الجواب، من الاستدلال بالإجماع تارة، والحديث ثانياً، فنقول: هل هناك إجماع على التحريم؟

إن للإجماع الوارد في كلامه احتمالات: ١- الإجماع التقديري، بحجة وجود الحديث الصحيح في الصحاح، بمعنى أنه لو وقف العلماء عليه لأفتوا بمضمونه كما أفتى به المجيب، ولا يخفى أنه غير مفيد، إذ هو فرع كون الحديث صحيحاً سنداً وكاملاً من حيث الدلالة على مقصوده عند غيرهم، وكلا- الأمرين غير ثابت، بل ثبت خلافهما كما سيوايك بيانه. ٢- الإجماع المحقق، وأن العلماء أفتوا في كتبهم بالتحريم حدوداً وبقاءً، وهذا خلاف نصوصهم، ونكتفي بالنص الوارد في الفقه على المذاهب الأربعة الذي اتفق عليه علماء أهل السنة في العصر الحاضر، حيث قالوا بكلمة واحدة: (١٨٠)

«يكره أن يبنى القبر بيت أو قبة أو مدرسه أو مسجد» (١): وهذا شارح صحيح مسلم يقول في شرح حديث أبي الهياج: أمّا البناء فإن كان في ملك الباني فمكروه، وإن كان في مقبرة مسبله فحرام، نص عليه الشافعي والأصحاب (٢). وتحريم البناء - عندئذ - لأجل عنوان عرضي لا ذاتي، وهو المزاحمة لأهداف الواقف وأغراضه. ٣- سيرة المسلمين وعملهم منذ أن ارتحل النبي الأكرم إلى يومنا هذا، سوى الوهابيين. أما سيرة المسلمين فحدّث عنها ولا حرج، فقد دفن النبي الأكرم في بيته الرفيع، ولم يخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أن البناء على القبر حرام، وأنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نهى عنه نهياً شديداً، ولما كان البيت متعلقاً بزوجه (عائشة) جعلوا في وسطه ساتراً، ولما توفى الشيخان أوصيا بدفنهما في حجرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تبرّكاً بذاته ومكانه، ولم تسمع من أيّ ابن أنثى نعيه أنه حرام ولا- مكروه، وعلى ذلك استمرت سيرة المسلمين في حق الصلحاء والأولياء والعلماء، يدفنونهم في البيوت المعدة لذلك، أو يرفعون لمراقدهم قواعد وسقفاً بعد الدفن تكريماً لهم وتقديراً لتضحياتهم، ولم يخطر ببال أحد أنه على خلاف الدين والشرع. وهذا عمل المسلمين وسيرتهم القطعية في جميع الأقطار والأمصار، ملء المسامع والأبصار على اختلاف نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصر من الشيعة والسنة، وأي بلاد من بلاد الإسلام من مصر أو العراق أو الحجاز أو سوريا، وتونس ومراكش وإيران، وهلمّ جزاً ليس فيها قبور مشيدة، وضرائح منجدة وهؤلاء أئمة المذاهب: الشافعي في مصر، وأبو حنيفة في بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقة القباب،

١. الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٢١.

٢ . صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ كتاب الجنائز طبع مصر . (١٨١)

شامخة المباني غير أن الوهابيين لما استولوا على المدينة هدموا قبر مالك. وهذه القبور قد شيدت وبنيت في الأزمنة التي كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوى، وزعماء المذهب، فما أنكر منهم ناكراً، وليس هذا رائجاً بين المسلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعد تعميم قبور الشخصيات من غرائز البشر ومقتضيات الحضارة وشارة الرقي، فكل هذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، ولو لم تكن تلك السيرة المسلمة بين المسلمين والعقلاء عامة غير مفيدة في المقام، فلا يصح الاستناد إلى أية سيرة قاطعة بين المسلمين أو الناس . وليس يصح في الأذهان شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل النتائج المحموده لحفظ الآثار الإسلامية إن المحافظة على آثار الأنبياء وخاصة آثار النبي الأكرم من قبره وقيور زوجاته وأولاده وأصحابه والشهداء الذين ضحوا بانفسهم في سبيل دينه، نتائج محموده لا تستغنى عنها الأمة الإسلامية في وقت من الزمن، فإن الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبه خاتم الأنبياء، فهي حجة على الناس إلى قيام الساعة التي لا يحيط بوقتها إلا الله تعالى، قال سبحانه: (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لَا يُجَلِّئُهَا لِوَفَّيْتَهَا إِلَّا هُوَ) (١) .

فمن الممكن أن تمر على عمر الدنيا، وبالتالي على عمر الشريعة الإسلامية آلاف السنين، فالقضاء على آثار الشريعة ومعالم وجود نبينا يجعلها في معرض التشكيك والتردد، وأنه هل لما يدعيه المسلمون من الرجاء الكبرى يبعث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ومواقفه وقضاياه وتشريعاته مسحة حق؟ بل ربما تحولها بعد مدة إلى أسطورة تاريخية، حيث لا يجد الناس بعد حقب من الدهر آثاراً ملموسة من صاحب الشريعة، وليس هذا شيئاً غريباً، وهذه هي المسيحية قد مضى من عمرها عشرون قرناً، وقد تحول المسيح وأمه العذراء

١ . سورة الأعراف: الآية ١٨٧ . (١٨٢)

وكتابه الإنجيل وتلاميذه إلى أساطير تاريخية، وصار بعض المستشرقين يشككون مبدئياً في وجود رجل اسمه المسيح واسم أمه مريم وكتابه الإنجيل، وكادوا يعتبرونه أسطورة خيالية تشبه أسطورة (المجنون العامري وليلاه) وما هذا إلا لعدم وجود أثر ملموس منه، ولا من كتبه الواقعي وأصحابه وحوارييه . وأما المسلمون فهم يواجهون العالم مرفوعى الرؤوس، ويقولون: يا أهل العالم قد بعث نبي في ارض الحجاز قبل ألف وأربعمائة سنة، وقد حقق نجاحاً في مهمته، وهذه آثار وجوده وحياته، فهذه هي الدار التي ولد فيها، وهذا هو غار حراء، مهبط وحيه في بدء الأمر، وهذا هو البيت الذي دفن فيه، وهذه مدارس أولاده... فالإبقاء على الآثار الإسلامية وصيانتها من الزوال، صغيرة أو كبيرة، دعم لاستمرار رسالة هذا الدين وبقائه على مدى العصور والأزمان، وتدميرها سبب رئيس لتعريضها للشك والإنكار، وإعانة على أهداف المخالفين . وقد اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبي وسيرته وسلوكه، حتى أنهم سجلوا دقائق أموره وخصائص حياته ومميزات شخصيته إلى درجة أنهم سجلوا حتى ما يرتبط بخاتمه وحذائه، وسواكه وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده وإبله وغلّامه، والآبار التي شرب منها الماء، والأراضي التي وقفها لوجه الله سبحانه، ومشيته، وأكله، وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدسة وخضابه لها وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض باقية إلى يومنا هذا . ولو كان ابن تيمية موجوداً في تلك الأعصار، وكان ينظر إلى الموضوع بالفكرة التي نشأ عليها، لرمى الصحابة الأجلاء والسلف الصالح بالشرك والوثنية، وزعم أنهم اتخذوا نبيهم وثناً يعبد، ولكن من حسن الحظ أنه لم يكن موجوداً فيها، ولكن كتب السير حافلة بذكرها فليقتض عليهم بالحق. وما أشبه عمل من يدمر الآثار النبوية تحت واجهة قلع الشرك بعمل الصبيان النوكي الذين يتلاعبون بميراث آبائهم بالتمزيق والتدمير، أو البيع بثمان بخس . (١٨٣)

ولأجل أن تعرف مدى شيوع هذه السيرة فارجع إلى ما يكتبه أحد الكتاب الوهابيين ويقول: «وهذا أمر عمّ البلاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً، بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلا فيها قبور ومشاهد، بل مساجد المسلمين غالباً لا تخلو من قبر ومشهد، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الإسلام» (١) . فلو كانت هذه سيرة المسلمين، فما معنى ادعاء الإجماع على حرمة البناء ووجوب هدمه؟ فلو كان الهدم واجباً فلماذا لم يأمر الخليفة عمر بهدم قبور الأنبياء عندما فتح المسلمون بيت المقدس؟.

فهل الخليفة تسامح في هذا الأمر الخطير، أم أنه وسائر الصحابة الحضور في الواقعة، وجدوه أمراً مطابقاً للفطرة والشريعة الإسلامية، فلأجل ذلك أبقوها على حالها، وقام المسلمون بصيانتها وحفظها طوال القرون؟ إلى هنا تبين أنه لا إجماع في المسألة، بل لم تكن المسألة خلافية إلى عصر ابن تيمية، وقد خالف هو وحده وتبعه تلميذه ابن القيم، وكانت الفتوى مدفونة في الكتب إلى أن أحيائها تلميذه في المنهج محمد بن عبد الوهاب، فنبش تلك الدفائن واستخرج هاتيك الكوامن والبذور المهلكة، فأثمرت قتل النفوس، وقطع الرؤوس كما سيوافيك تفصيل هذه الكوارث. وقد استند ابن تيمية وأتباعه في ادعاء الحرمة لحديث أبي الهياج، ونحن نذكر متن الحديث بالسند الذي رواه مسلم في صحيحه. «حدثنا يحيى بن يحيى، وأبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، قال يحيى: أخبرنا وقال الآخرون: حدثنا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبي —————

١. تطهير الاعتقاد ص ١٧ طبع مصر. ثم إنه حاول أن يجيب عن هذا الأمر بما الإعراض عن ذكره أحسن. (١٨٤)

ثابت، عن أبي وائل عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا ابغضتك على ما بعثني عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته (١). زعم المستدل أن معناه: ولا قبراً عالياً إلا سويته بالأرض. والاستدلال به باطل، لأنه ضعيف السند، قاصر الدلالة. وأما السند فيكفي أن علماء الرجال ضعفوا هؤلاء الأربعة الواقعيين في السند: ١- وكيع. ٢- سفيان الثوري. ٣- حبيب بن أبي ثابت. ٤- أبو وائل الأسدي (٢). ويكفي في ضعف الحديث أنه رواه أبو الهياج وليس له في الصحاح والمسانيد حديث غير هذا، فكيف يستدل بسند يشتمل على المدلسين والمضعفين والذين لا يحتج بحديثهم، كما ذكره ابن حجر في ترجمته هؤلاء الأربعة. وإليك نقل اقوال العلماء في حقهم: ١- وكيع: هو وكيع بن الجراح بن مليح، الرواسي، الكوفي، روى عن عدة منهم سفيان الثوري، وروى عنه جماعة منهم يحيى بن يحيى، وهو مع ما مدحوه نقلوا فيه أيضاً قدحاً كثيراً، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: قال عبدالله بن أحمد عن أبيه (أحمد بن حنبل) قال: سمعت أبي يقول: كان وكيع أحفظ من عبدالرحمن بن مهدي كثيراً، وقال في

١. صحيح مسلم، ج ٣ كتاب الجنائز ص ٦١، السنن للترمذي ج ٢ ص ٢٥٦، باب ما جاء في تسوية القبور، السنن للنسائي ج ٤ باب تسوية القبر ص ٨٨.

٢. لاحظ تهذيب التهذيب للعسقلاني الأجزاء ٣، ٤، ١١ ص ١٧٩، ١١٥، ١٣٠، ١٢٥. (١٨٥)

موضع آخر: ابن مهدي أكثر تصحيحاً من وكيع: وو كيع أكثر خطأ منه. وقال في موضع آخر: أخطأ وكيع في خمسمائة حديث. وقال ابن عماد: قلت لو كيع: عدوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث غلطت فيها، فقال: حدثهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، وأربعة ليس بكثير في ألف وخمسمائة. وقال علي بن المديني: كان وكيع يلحن، ولو حدث بألفاظه لكان عجباً. وقال محمد بن نصر المروزي: كان يحدث بآخره من حفظه، فيغير ألفاظ الحديث كأنه كان يحدث بالمعنى، ولم يكن من أهل اللسان (١). وقال الذهبي في ميزان الاعتدال بعدما مدحه: قال ابن المديني: كان وكيع يلحن، ولو حدث بألفاظه كان عجباً (٢). * * * ٢- سفيان الثوري: وهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أكثروا المدح في حقه، وقال الذهبي: مع أنه كان يدلّس عن الضعفاء، ولكن كان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال: يدلّس ويكتب عن الكذابين (٣).

وقال ابن حجر: قال ابن المبارك: حدث سفيان بحديث فحجته وهو يدلّس، فلما رأني استحيي، وقال: نرويه عنك؟ (٤). وقال في ترجمته يحيى بن سعيد بن فروخ قال: أبو بكر، وسمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلّس علي رجلاً - ضعيفاً فما أمكنه (٥).

١. تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٢٣، ١٣١.

٢. ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٣٣٦.

٣. ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٦٩ برقم ٣٣٢٢.

٤. تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١١٥ في ترجمه سفیان .

٥. تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٢١٨ . (١٨٦)

والتدليس هو أن يروي عن رجل لم يلقه، وبينه وبينه واسطة فلا يذكر الواسطة. وقال أيضاً في ترجمه سفیان: قال ابن المديني عن يحيى بن سعيد: لم يلق سفیان أباً بكر بن حفص، ولا حيان بن أياس، ولم يسمع من سعيد بن أبي بردة، وقال البغوي: لم يسمع من يزيد الرقاشي. وقال أحمد: لم يسمع من سلمة بن كهيل حديث المسائئ، يضع ماله حيث يشاء ولم يسمع من خالد بن سلمة بتاتاً، ولا من ابن عون إلا حديثاً واحداً (١). وهذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مدلساً، وعندئذ يكون فاقداً لملكة العدالة، لأنه كان يصور غير الواقع واقعاً. وقال الإمام الذهبي: قال صاحب الحلية: أخبرنا أبو أحمد الفطريفي، أخبرنا محمد بن أحمد بن مكرم، أخبرنا علي بن عبد الحميد، أخبرنا موسى بن مسعود، أخبرنا سفیان، دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز وكساء خز دخاني، فقلت: يا بن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ليس هذا من لباس آبائك قال: كانوا على قدر اقتار الزمان، وهذا زمان قد اسبل عزاليه ثم حسر عن جبة صوف تحته، وقال: لبسنا يا ثوري هذا لله وهذا لكم، فما كان لله أخفيناها وما كان لكم أبديناها (٢). إن هذا الإعراض يدل على عدم فهمه للأمر، وعدم معرفته بها. * * * ٣- حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار: تابعي، وثقه بعض، ولكن قال ابن حبان في الثقات: كان مدلساً، وقال العقيلي: غمزه ابن عون، وقال القطان: له غير حديث عن عطاء لا يتابع عليه، وليست محفوظة.

وقال ابن خزيمة في صحيحة: كان مدلساً. وقال العقيلي: وله عن عطاء أحاديث لا يتابع (٣). _____ ١. تهذيب التهذيب

ج ٤ ص ١١٥ والمسائئ: العبد المعتق .

٢. تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٦٧ .

٣. تهذيب التهذيب ج ٢ ص ١٧٩ . (١٨٧)

وقال ابن حجر أيضاً في تقريب التهذيب: حبيب بن أبي ثابت: قيس، ويقال: هند بن دينار الأسدي، مولا هم أبو يحيى الكوفي، ثقة فقيه جليل، وكان كثير الإرسال والتدليس، من الثالثة، مات سنة تسع عشرة ومائة (١). ونقل ابن حجر عن كتاب الموضوعات لابن الجوزي من نسخة بخط المنذري أنه نقل فيه حديثاً عن أبي كعب في قول جبرئيل: لو جلست معك مثل ما جلس نوح في قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال، ولم يعله ابن الجوزي إلا بعبد الله بن عامر الأسلمي شيخ حبيب بن أبي ثابت (٢). * * * ٤- أبو وائل الأسدي: وهو شقيق بن سلمة الكوفي، كان منحرفاً عن علي بن أبي طالب، قال ابن حجر: قيل لأبي وائل: أيهما أحب إليك: علي أم عثمان؟ قال: كان علي أحب إلي ثم صار عثمان (٣).

ولفظه «أحب» هناك ليست صيغة التفضيل بل المراد أنه كنت علوياً ثم صرت عثمانياً، وكان الحزبان يومذاك يبغض أحدهما الآخر. ويشهد لذلك ما ذكره ابن أبي الحديد حيث قال: ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة، كان عثمانياً يقع في علي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ويقال إنه كان يرى رأي الخوارج، ولم يختلف في أنه خرج معهم، وأنه عاد إلى علي - عليه السلام - منياً مقلعاً. روى خلف ابن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف فخرج إلينا علي فما زال يكلمنا حتى رجع منا ألفان. وروى صاحب كتاب «الغارات» عن عثمان بن أبي شيبة، عن الفضل بن دكين، عن سفیان الثوري قال: سمعت أبا وائل يقول: شهدت صفين وبئس الصفوف كانت!

١. تقريب التهذيب ج ١ ص ١٤٨ تحت رقم ١٠٦ .

٢. لسان الميزان ج ٢ ص ١٦٨ في ترجمه حبيب بن ثابت .

٣. تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣٦٢ . (١٨٨)

قال وقد روى أبو بكر بن عاصم بن أبي النجود قال: كان أبو وائل عثمانياً (١). ويكفي أنه كان من ولاية عبيد الله بن زياد لعنه الله . قال ابن أبي الحديد: وقال أبو وائل: استعملني ابن زياد علي بيت المال بالكوفة (٢). هذا كله حول سند الرواية، وقد عرفت أن سندها

يشتمل على ضعاف، وعلى فرض ورود المدح في حقهم فو معارض بما عرفت من الجرح، وعند التعارض يقدم الجرح على المدح فيسقط الحديث عن الاعتبار، ويرجع إلى أدلة أخرى، وسيوافيك أن الأصل في المقام الجواز، كما سيأتي ذلك في آخر البحث . *

وأما ضعفه دلالة فإليك البيان . إن تبين ضعف دلالة الحديث يتوقف على توضيح معنى اللفظين الواردين في الحديث المذكور: ١- «قبراً مشرفاً». ٢- «إلا سويته». أما الأول فقد قال صاحب القاموس: والشرف محركة: العلو. ومن البعير سنامه، وعلى ذلك فيحتمل أن يراد منه مطلق العلو، أو العلو الخاص كسنام البعير ولا- يتعين ذلك إلا- بالقرينة. أمّا الثاني، أعنى قوله: «سويته» فهو يستعمل على وجهين: أ- يطلق ويراد منه مساواة شيء بشيء، فيتعدى إلى المفعول الثاني بحرف التعدي كالبناء قال سبحانه (إذ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (٣) .

١ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٩٩ .

٢ . شرح نهج البلاغة ج ١٢ ص ٢٢٣ .

٣ . سورة الشعراء: الآية ٩٨ . (١٨٩)

أى نعدّ الآلهة المكذوبة متساوين مع رب العالمين، فنضيف إليكم ما نضيف إلى رب العالمين. وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) (١) أى يودّون أن يكونوا تراباً أو ميتاً مدفوناً تحت الأرض . ب - يطلق ويراد منه ما هو وصف لنفس الشيء، لا- بملاحظة شيء آخر، فيكتفى بمفعول واحد، قال سبحانه: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) (٢) وقال سبحانه: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّي بَنَانَهُ) (٣) وقال سبحانه: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (٤) فى هذه الموارد وقعت التسوية وصفاً لنفس الشيء بلا إضافة إلى غيره. ويراد منه حسب اختلاف الموارد تارة كمال الخلقة واستقامتها فى مقابل نقصها واعوجاجها، وهذا هو المقصود فى الآيات الكريمة، وأخرى تسطيحه مقابل اعوجاجه، وبسطه مقابل كونه كالسنام . إذا عرفت ذلك فلنعد إلى الحديث ولنطبق الضابطة عليه، فيما أنه استعمل مع مفعول واحد فلا يراد منه المعنى الأول، أى مساواته بالأرض، وإلا كان عليه أن يقول «سويته بالأرض» بل يراد منه ما هو وصف لنفس القبر والمعنى المناسب هو تسطيح القبر فى مقابل تسنيمه، وبسطه فى مقابل اعوجاجه، وهذا هو الذى فهمه شراح الحديث، وبما أن السنة هى التسطيح، والتسنيم بدعة، أمر على - عليه السلام - بأن تكافح هذه البدعة، ويسطح كل قبر مسنم . ويؤيد ما ذكرناه أن المحققين من أهل السنة لم يفهموا من الحديث إلا- ما ذكرناه، وإليك نقل كلماتهم : ١- قال القرطبي فى تفسير الحديث: «قال علماؤنا: ظاهر حديث أبى

١ . سورة النساء: الآية ٤٢ .

٢ . سورة الأعلى: الآية ٢ .

٣ . سورة القيامة: الآية ٤ .

٤ . سورة الحجر: الآية ٢٩ . (١٩٠)

الهياج منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون واطئة» (١) . إن دلالة الحديث على منع تسنيم القبور ظاهرة، وأما دلالتها على عدم ارتفاعها فغير ظاهر، بل مردود باتفاق أئمة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر (٢) . ٢- قال ابن حجر العسقلانى فى شرحه على البخارى ما هذا نصه: (مسنماً بضم الميم وتشديد النون المفتوحة أى: مرتفعاً. زاد أبو نعيم فى مستخرجه: وقبر أبوبكر وعمر كذلك واستدل به على أن المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبى حنيفة ومالك وأحمد والمزنى وكثير من الشافعية . وقال أكثر الشافعية ونص عليه الشافعى: التسطيح أفضل من التسنيم، لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - سطح قبر إبراهيم، وفعلة حجة لا فعل غيره، وقول السفيان التمار «رأى قبر النبى مسنماً فى زمان معاوية» لا حجة فيه، كما قال البيهقى، لاحتمال أن قبره - صلى الله عليه وآله وسلم - وقبرى صاحبيه لم تكن فى

الأزمنة الماضية مسنم - إلى أن قال - : ولا يخالف ذلك قول علي - عليه السلام - أمرني رسول الله أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، لأنه لم يرد تسويته بالأرض، وإنما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار، ونقله في المجموع عن الأصحاب (٣) . ٣- وقال النووي في شرح صحيح مسلم: إن السنه أن القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يسنم بل يرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه، ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء أن الأفضل عندهم تسنيمها، وهو مذهب مالك (٤) . ويؤيد ذلك أن صاحب الصحيح (مسلماً) عنون الباب بـ (باب تسوية القبور) ثم روى بسنده إلى تمامه قال: كُنّا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم ، _____

١ . تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٨٠ تفسير سورة الكهف .

٢ . الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٢ .

٣ . إرشاد الساري ج ٢ ص ٤٦٨ .

٤ . صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ ص ٣٦ الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي . (١٩١)

فتوفى صاحب لنا، فأمر فضال بن عبيد بقبره فسوى، قال: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يأمر بتسويتها، ثم أورد بعده في نفس الباب حديث أبي الهياج المتقدم (١) . وفي الختام نذكر أموراً: ١- القول بوجود مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتفقت عليه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وكلهم متفقون على أنه يندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر (٢) ولو أخذنا بالتفسير الذي يرومه الوهابي من حديث أبي الهياج من مساواة القبر بالأرض يجب أن يكون القبر لاطناً مساوياً معه . ٢- لما عجز الوهابيون في مقابل سيرة المسلمين، حيث دفنوا النبي في بيته فصار القبر عليه بناء، عمد بعضهم إلى التفريق بين الأمرين فقال: الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبي تحت البناء ولم يبنوا على قبره شيئاً (٣) ولكنه تفريق بلا وجه، لأن حديث أبي الهياج مطلق يعم صورتين . ٣- حديث أبي الهياج - على فرض صحته وسنده ودلالته - يهدف إلى تخريب القبر ومساواته بالأرض، لا هدم البناء الواقع عليه، فالاستدلال به على الثاني استدلال عجيب . * * * ب - حديث جابر وتحليله سنداً وامتناً

إن الوهابيين يستدلون بحديث جابر على حرمة البناء على القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذكر نصاً واحداً منها: روى مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص _____

١ . المصدر السابق .

٢ . الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٢ .

٣ . رياض الجنّة، بقلم مقبل بن الهادي طبع الكويت . (١٩٢)

ابن غياث، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه (١) . والاستدلال بحديث جابر غير صحيح سنداً وامتناً . أما الأول فلأن جميع أسانيد مشتملة على رجلين هما في غاية الضعف : ١- ابن جريج: وهو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج . ٢- أبو الزبير . وهو محمد بن مسلم الأسدي . أمّا الأول فإليك كلمات أئمة الرجال في حقه: سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريج قال: فقال: ضعيف، فقيل له إنه يقول: أخبرني قال: لا شيء.. كله ضعيف، وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريج: قال فلان وقال فلان جاء بمناكير . وقال مالك بن أنس: كان ابن جريج حاطب ليل . وقال الدارقطني: يجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لا يدلّس إلا في ما سمعه من مجروح . وقال ابن حبان: كان ابن جريج يدلّس في أحاديث (٢) . وأمّا الثاني: فإليك أقوال علماء الرجال فيه: فعن إمام الحنابلة عن أيوب إنه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية . _____

١ . لاحظ للوقوف على متون الحديث المختلفة وأسانيد: صحيح مسلم، كتاب الجنائز ج ٣ ص ٦٢، والسنن للترمذي ج ٢ ص ٢٠٨، طبع المكتبة السلفية، وصحيح ابن ماجه، ج ١ كتاب الجنائز، ص ٤٧٣، وصحيح النسائي ج ٤ ص ٨٧ إلى ٨٨، وسنن أبي داود ج ٣ ص ٢١٦، باب البناء على القبر، ومسند أحمد ج ٣ ص ٢٩٥ و ٣٣٢ ورواه أيضاً مراسلاً عن جابر ص ٣٩٩ .

٢ . تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢-٤ و ص ٥-٦ طبع دار المعارف العثمانية. ولاحظ ما ذكرناه في الجزء الأول ص ٩٦ . (١٩٣) وعن شعبة: لم يكن في الدنيا أحب إلي من رجل يقدم فأسأله عن أبي الزبير، فقدمت مكة فسمعت منه فينا أنا جالس عنده، إذ جاء رجل فسأله عن مسألة فردّ عليه، فافتري عليه فقلت: يا أبا الزبير فتفري على رجل مسلم؟ قال: إنه أغضبني، قلت: ومن يغضبك فتفري عليه؟ لا رويت عنك شيئاً. وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبي الزبير؟ قال: رأيت يزن ويسترجع في الميزان . وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن أبي الزبير، فقال: يكتب ولا يحتج به قال: وسألت أبا زرعة عن أبي الزبير فقال: يروى عنه الناس قلت: يحتج بحديثه؟ قال: إنما يحتج بحديث الثقات (١) . بالله عليك أيصح الاستدلال بهذا الحديث؟ أهمل يصح هدم آثار النبوة والرسالة والصحابة بهذه الرواية؟ . على أن بعض الأسانيد مشتمل على عبد الرحمن بن أسود المتهم بالكذب والوضع . هذا كله ما يتعلّق بالسند، وأمّا المتن ففيه ملاحظتان: الأولى: إنّ الحديث روى بصور سبع، مع أنّ النسي نطق بصورة واحدة، ولو رجعت إلى متونه المبعثرة في المصادر التي أوعزنا إليها ترى فيها الاضطراب العجيب، وإليك صورها:

١- نهى رسول الله عن تجصيص القبر والاعتماد عليه . ٢- نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن الكتابة على القبر . ٣- نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن تجصيص القبر، والكتابة والبناء عليه، والمشى عليه .

١ . تهذيب التهذيب، ترجمة أبي الزبير ج ٩ ص ٤٤٢ طبع حيدرآباد - دكن عام ١٣٢٦، ولاحظ: الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٤٨١ . (١٩٤)

٤- نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن الجلوس على القبر، وتجصيصه، والبناء والكتابة عليه . ٦- نهى عن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن الجلوس على القبر وتجصيصه والبناء عليه، والزيارة عليه، والكتابة عليه (١). مضافاً إلى اختلافات أخرى في أداء مقصود واحد، فيعتبر عنه تارة بالاعتماد، وأخرى بالوطء، وثالثة بالعود. ومن المعلوم إنّ الاعتماد غير الوطء، وهما غير القعود، فمع هذا الاضطراب والاختلاف في المضمون لا- يمكن لأي فقيه أن يعتمد عليه؟! الثانية: إنّ الحديث على فرض صحته لا يثبت سوى ورود النهي من النبي ولكن النهي منه تحريمي ومنه تنزيهي، وبعبارة أخرى: نهى تحريم، ونهى كراهة، وقد استعمل النهي في كلمات الرسول في القسم الثاني كثيراً ولأجل ذلك حمله الفقهاء على الكراهة، فترى الترمذي يذكر هذا الحديث في صحيحة تحت عنوان كراهية تجصيص القبور، والسندی شارح صحيح ابن ماجه ينقل عن الحاكم النيسابوري أنّه لم يعمل بهذا النهي (بالمضمون التحريمي) أحد من المسلمين، بدليل أن سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور .

وأما الكراهة فربما تكون مرتفعة بالنسبة إلى المصالح العظيمة المترتبة عليه، كما إذا صار البناء على القبر سبباً لحفظ الآثار الإسلامية، وإظهار المودة لصاحب القبر الذي فرض الله مودته على الناس (٢)، أو يكون لاستغلال الزائر وتمكّنه من تلاوة القرآن وإهداء ثوابه إلى صاحب القبر، إلى غير ذلك من الأمور .

١ . لاحظ في الوقوف على المتون المختلفة للحديث مضافاً إلى المصادر التي أوعزنا إليها، كتابنا (الوهابية في الميزان) ص ٨٨ - ٨٩ .

٢ . قال سبحانه: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) (الشورى/٢٣) . (١٩٥)

التي يتمكّن الإنسان منها تحت الظل لا- تحت الشمس ولا في برد الليل، فالنهي التنزيهي أشبه بالمقتضيات التي ترتفع بأقوى منها . أحاديث ثلاثة في الميزان

فقد ورد في ذلك المجال أحاديث أخر نذكرها بسندها ومنتها: روى ابن ماجه في صحيحه ما يلي: ١- حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدثنا وهب، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبي سعيد أنّ النبي نهى أن يبني على القبر (١) . ويذكر ابن حنبل حديثاً آخر بسندين هما: ٢- حدثنا حسن، حدثنا بريد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت: نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن يبني على القبر أو يجصص . ٣- على بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن

لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب عن ناعم مولى أم سلمة: أن النبي نهى أن يجصص قبر أو يبنى عليه أو يجلس (٢). فسند الحديث الأول يشمل على (وهب) وهو مردد بين سبعة عشر رجلاً، وفيهم الوضاعون والكذابون (٣). والحديث الثاني والثالث لا يحتج بهما لاشتمالهما على (عبدالله بن لهيعة) الذي يقول فيه ابن معين: ضعيف لا يحتج به، ونقل الحميدى عن يحيى بن سعيد أنه كان لا يراه شيئاً (٤). _____

١. صحيح ابن ماجه ج ١ ص ٤٧٤.

٢. مسند أحمد ج ٦ ص ٢٩٩.

٣. ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٥٠-٣٥٥.

٤. ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٤٧٦، وتهذيب التهذيب ج ١ ص ٤٤٤. (١٩٦)

هذه حال الأحاديث التي صارت ذريعة بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسلامية منذ أن استولوا على الحرمين الشريفين، حيث لا تمر سنة إلا ويدمر أثر من الآثار الإسلامية بحجة توسيع الحرم الشريف، حتى المكتبات وبيوتات بنى هاشم ومدارسهم، وبيت مضيف النبي أبي أيوب الأنصاري، وفي الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود في خيبر وغيرهم باسم الحفاظ على الآثار التاريخية. ثم إن القاضي ابن بليهد قد أعوزته الحجة فتمسك بكون البقيع مسبله موقوفه، وأن البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها. سبحان الله ما أتقنه من برهان؟ من أين علم أن البقيع كانت أرضاً حية وقفها صاحبها على دفن الأموات؟ ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنه لم يكن فيها يوم أعدت للتدفين أي أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب (وفاء الوفاء). آخر ما في كنانة المستدل

ذكر البخاري في صحيحه في باب كراهة اتخاذ المساجد على القبور الخبر التالي: لما مات الحسن بن الحسن بن علي ضربت امرأته القبنة على قبره سنة، ثم رفعت، فسمعوا صالحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يسوا فانقلبوا (١). إن هذا الخبر لو صح فهو على نقيض المطلوب أدل، فهو يدل على جواز نصب المظلمة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن - عليهما السلام - لأنه كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة، ولعلها نصبت تلك القبنة لأجل تلاوة القرآن في جوار زوجها وإهداء ثوابها إلى روحه. وأما قول الصالح فهو أشبه بقول غير الصالح، كما أن الجواب أيضاً _____

١. صحيح البخاري كتاب الجنائز ج ٢ ص ١١١، السنن للنسائي ج ٢ كتاب الجنائز ص ١٧١. (١٩٧)

مثله، لأنه بصدد الشماتة على امرأة افتقدت زوجها وهي مستحقة للتعزية والتسلي لا الشماتة، لأنها ليست من أخلاق المسلمين، ولم تكن المرأة تأمل عودة زوجها إلى الحياة حتى يقال إنها يئست، بل كان نصبها للمظلمة للغايات الدينية والأخلاقية. ترى هؤلاء الأغبياء يدمرون آثار الرسالة وهم يتمسكون في ذلك بركام من الأوهام، ويسخرون من الذين أظهروا حباً لأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وفرض مودتهم وولاءهم وقال: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (١). * * *

إلى هنا تبين أنه ليس للقوم دليل، بل ولا شبهة على حرمة البناء على القبور، وأنهم لم يدرسوا صحاحهم ومسانيدهم حسبما درس السلف الصالح. والآذنهلم معي أتلو عليك أدلة القائلين بالجواز، سواء أكان صاحب القبر رجلاً عادياً أم كان عظيماً من عظماء الدين، وإليك بيانها: عرض المسألة على الأدلة المحكمة

إذا وقفت على ضعف ما استدلت به القوم على تحريم البناء على القبور، وسقوطه عن الاعتبار، فيجب عرض المسألة على الأدلة المحكمة التي لا يصح لأحد النقاش في اعتبارها وحجيتها. فإذا دلت تلك الأدلة على الجواز، فلا محيص من طرح هذه الأحاديث الضعاف، أو حملها على الكراهة، أو غير ذلك. وإليك بيان تلك الأدلة: ١- الكتاب والبناء على القبور

يظهر من الكتاب أن البناء على القبور، بل بناء المسجد عليها كان جائزاً في الشرائع السابقة، وأن الناس عندما وقفوا على قبور أصحاب الكهف، _____

١. سورة الشورى: الآية ٢٣. (١٩٨)

اختلفوا على قولين: فمن قائل: (ابنوا عليهم بُنياناً) (١). ومن قائل آخر: (لَتَنخَذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً) (٢). والاستدلال بالآية واضح لمن يرى القرآن قدوةً وأسوةً. فإن القرآن ينقل كلا القولين، من دون أن ينتقدهما أو يعترض عليهما ويردع عنهما بل الظاهر أنه ينقلهما بصورة التحسين، وأن أصحاب الكهف بلغ بهم ثباتهم في طريق العقيدة إلى حد لما عثر عليهم الناس اجتمعوا على تكريمهم واحترامهم، بل التبرك بهم، فمن قائل بلزوم البناء عليهم. وآخر باتخاذ مراقدهم مسجداً، وليس القرآن كتاب قصة وأسطورة، وإنما هو كتاب إرشاد وقدوة وإمام. فلو كانوا في عملهم هذا ضالين لعلق على قولهم بشيء أو عابه، كما هو الحال فيما ينقل عن المشركين، والكافرين، عملاً، أو رأياً. قال سبحانه حاكياً كيفية غرق فرعون: (حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (٣) ولأجل إيقاف المؤمنين على أن الإيمان في هذا الظرف غير مفيد، عقّب عليه بقوله: (الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (٤). فلأجل ذلك يكون القرآن قدوة في كل ما ينقله من أعمال الماضين، إلا إذا عقّب عليه بالرد، أو دلّت القرائن على كونه عملاً غير مقبول. ٢- السيرة المستمرة بين المسلمين

لم يزل الإلهيون من أهل الكتاب والمسلمين في قاطبة الأعصار يهتمون بمقابر الأنبياء والأولياء بالبناء والتعمير، ثم التطهير والتنظيف، حتى نرى أن كثيراً من المتمكنين يخصصون أموالهم ويوقفونها في هذا المجال. فهذه القباب الشاهقة، والمنائر الرفيعة، والمساحات الوسيعة حول

١. سورة الكهف: الآية ٢١.

٢. سورة الكهف: الآية ٢١.

٣. سورة يونس: الآية ٩٠.

٤. سورة يونس: الآية ٩١. (١٩٩)

مراقدهم الأنبياء والأولياء، في مختلف البلاد شرقها وغربها، وهذا دليل قاطع على أن هذه السيرة كانت مرضية عن صاحب الشريعة وخلفائه وأصحابه، وإلا- كان عليهم رفضها وردّها بالبيان والبيان، والسلطة والقوة، فالسكوت في بعض الفترات ودعمها في بعض الأحيان أدل دليل على كونها سيرة مرضية. نعم، إذا كان اتخاذ المقابر مساجد على النحو الراجح عند اليهود والنصارى فهو محرّم، وقد نصّ الرسول على تحريمه، كما تأتي الروايات مع توضيحها، وهو مسألة أخرى غير مجرّد البناء على القبور الذي هو مسألتنا. هذا هو السلف الصالح قد وقفوا - بعد ما فتحوا الشام - على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ... فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب أن تهدم، وهكذا الحال في سائر القبور المشيدة عليها الأبنية في أطراف العالم، وإن كنت في ريب فاقراً لتواريخهم، وإليك نص ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية: إن المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة من قبيلة «لخم» النصرانية يقومون على حرم إبراهيم بـ «حبرون» ولعلمهم استغلوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم.. وربما يكون توصيف تميم الداري نسبة إلى الدار، أي: الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخمين للإسلام، لأنه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذي قدّسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم (١). وجاء أيضاً في دائرة المعارف الإسلامية في مادة «الخليل»: ويقول المقدسي، وهو أول من أسهب في وصف الخليل: إن قبر إبراهيم كانت تعلوه قبة بنيت في العهد الإسلامي، ويقول مجير الدين: إنها شيدت في عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطى بعضه، وقبر يعقوب قبالة، وكان المقدسي أول من ذكر تلك الهبات الثمينة التي قدّمها الأمراء الورعون من أفاصي البلاد إلى هذا الضريح، وذلك الاستقبال الكريم الذي يلقاه الحجاج من جانب

١. دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٤٨٤ مادة تميم الداري. (٢٠٠)

التميميين (١). ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التي كانت مشيدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا في مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أن السيرة

السنية الرائجة في تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابه والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هي مشروعية البناء على القبور، والعناية بحفظ آثار رجال الدين، ولم ينسب أي ابن أنثى حول ذلك بنت شفه، وما اعترض عليها، بل تلقوها إظهاراً للمحبة والود لأصحاب الرسالات والنبوات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرماً فقد اتبع غير سبيل المؤمنين قال سبحانه: (وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (٢).

وقد وارى المسلمون جسد النبي الأكرم في بيته المسقف، ولم يزل المسلمون مذ أن ووري جثمانه، على العناية بحجرته الشريفه بشتى الأساليب، وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً وقد جاء تفصيل كل ذلك مع ذكر وصف الأبنية التي توالى عليها عبر القرون في الكتب المتعلقة بتاريخ المدينة، لا سيما وفاء الوفاء للعلامة السمهودي المتوفى عام (٩١١ هـ) (٣) والبناء الأخير الذي شيّد عام (١٢٧٠ هـ) قائم لم يمسه سوء، وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظاً عن الاجترار. وأما المشاهد والقباب المبنية في المدينة في العصور الأولى فحدّث عنها ولا- حرج، ولا- سيما في بقيع الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة. هذا هو المسعودى المتوفى عام (٣٤٥ هـ) يقول: «وعلى قبورهم في هذا

١. دائرة المعارف الإسلامية ج ٨ ص ٤٢٠ مادة خليل.

٢. سورة النساء: الآية ١١٥.

٣. وفاء الوفاء ج ٢ الفصل التاسع ص ٤٥٨ إلى آخر الفصل (٢٠١).

الموضع من البقيع رخامة مكتوبه عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مبيد الأمم ومحي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن أبي طالب، ومحمد بن علي و جعفر بن محمد» (١). وذكر السبط ابن الجوزى المتوفى عام ٦٥٤ هـ في تذكرة الخواص ص ٣١١ نظير ذلك، وهذا هو محمد بن أبي بكر التلمساني يصف المدينة الطيبة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله: «وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلاً، عليه مكتوب: هذا قبر الحسن بن علي، دفن إلى جنب أمه فاطمة رضي الله عنها وعنه (٢). ويقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار المتوفى عام ٦٤٣ هـ في أخبار مدينة الرسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -... في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أول البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما في كل يوم للزيارة، رضي الله عنهم (٣). يقول ابن جبير ذلك السائح الطائر الصيت المتوفى عام ٦١٤ هـ في رحلته في وصف بقيع الغرقد: مقابل قبر مالك، قبر السلامة الطاهرة إبراهيم ابن النبي عليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)... ويزائه قبر عقيل ابن أبي طالب (رضى الله عنه). وعبدالله بن جعفر الطيار (رضى الله عنه)، ويزائهم روضة فيها أزواج النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ويزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، ويليها روضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن علي (رضى الله عنه)، وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج من، رأس الحسن إلى رجلى العباس (رضى الله عنهما)، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع، إصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمسامير على أبداع صفة وأجمل منظر، وعلى هذا

١. مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢ ص ٢٨٨.

٢. مجلة العرب رقم ٥-٦ المؤرخ ١٣٩٣.

٣. أخبار مدينة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال - طبع مكة المكرمة ١٣٦٦. (٢٠٢)

الشكل قبة إبراهيم ابن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -، ويعرف ببيت الحزن... وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين (رضى الله عنه)، وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلي مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي (رضى الله عنها) وعن بنيتها (١). روى البلاذري أنه لما ماتت زينب بنت

جشش سنة عشرين صلى عليها «عمر» وكان دفنها في يوم صائف، ضرب «عمر» على قبرها فسطاطاً (٢) ولم يكن الهدف من ضربه تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها، بل لأجل تسهيله لأهلها حتى يتفأوا بظله ويقرأوا ما تيسر من القرآن والدعاء، فلاحظ . حصيلة البحث إن سيرة المسلمين من عصر الصحابة إلى التابعين إلى تابعي التابعين، إلى عصرنا هذا أقوى حجة على الحكم الشرعي - فإن اتفاق العلماء في عصر و «إجماعهم على حكم» حجة شرعية عليه، فكيف اتفاهم عليه طيلة قرون، ولا سيما الصحابة العدول . فالصحابه واروا جسد النبي الأ-كرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في بيته، ولم يخطر ببال أحد أن البناء على القبور محرّم، ولا- أظن أن جاهلا متسنّياً كما يفرق بين البناء المتقدم على الدفن والمتأخر عنه، فضلا عن عالم، فإن كون قبر الميت تحت بناء تكريم له وتعظيم، والقوم يتلقونه شركاء لأنه تعظيم لغير الله، فلا يفرق بين البناء على القبور أو دفن الميت تحت بناء . وليس هذا شيء ينكره أحد من المسلمين . والعجب أن الوهابيين لما واجهوا هذه السيرة المستمرة عمدوا إلى تفسير هذه السيرة بأن النبي إنما دفن في بيته، لأجل حديث رواه أبو بكر، قال ابن كثير: إن أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يدروا أين يقبرون _____

١ . رحلة ابن جبير، بيروت دار صادر. وقد زار المدينة المنورة عام ٥٧٨ هـ .

٢ . أنساب الأشراف ج ١ ص ٤٣٦ . (٢٠٣)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى قال أبو بكر: سمعت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: لم يقبر نبي إلا- حيث يموت (١) . ثم أضاف المؤلف: فعلنا من هذه الأحاديث أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - دفن في بيته كما أمر بذلك، فعلى هذا فلا حجة فيه للقبوريين في البناء على القبور، إذ لم يبن على قبره، وإنما دفن في بيته (٢) . ولا يخفى وجود التهافت في عبارته، فصدرها يدل على أن دفن النبي في بيته كان بأمره - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولو لم يكن أمره لما دفنوه فيه، لأنّ الدفن في البناء حرام، وذيل العبارة يدل على التفريق بين الدفن تحت البناء القائم والبناء على القبر . فلو أراد الوجه الأول كما هو ظاهره حيث استقصى مصادر الحديث المذكور قرابة ست صفحات، فهو مردود بدفن الشيخين في البيت، مع أنه لم يرد في حقهما ما ورد في حق النبي . ولو أراد الثاني فهو تفريق لا يجنح إليه ذو مسكته، بعد وحدة الملاك والاشتراك في المفسدة المزعومة . وبعد دلالة الذكر الحكيم والسيرة على الجواز، لا مناص عن طرح هذه الروايات أو تأويلها. ٣- البناء تعظيم لشعائر الله إن تعظيم قبور الأنبياء والأولياء وتنظيفها وحفظها عن تطرق الفساد والانهدام مظهر لتعظيم شعائر الله قال سبحانه: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (٣) . _____

١ . البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٦٦، وقد جاءت مصادر هذه الرواية في كتاب رياض الجنة ص ٢٦٤ .

٢ . رياض الجنة ٢٦٩ .

٣ . سورة الحج: الآية ٣٢ . (٢٠٤)

والاستدلال بالآية يتوقف على ثبوت صغرى وكبرى: الغصرى عبارة عن كون الأنبياء وأوصيائهم ومن يرتبط بهم أحياء وأمواتاً من شعائر الله... والكبرى عبارة عن كون البناء والتنظيف وصيانة المقابر تعظيم لشعائر الله . ولا أظن أن الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنما المهم بيان الصغرى، وأنّ الأنبياء والأوصياء من شعائر الله، وبيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد حول شعائر الله من الآيات : ١- (إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) (١) . ٢- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرَضْوَاناً) (٢) . ٣- (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ) (٣) . ٤- وفي رواية أخرى جعل مكان شعائر الله، حرّات الله وقال: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ... (٤) .

ما هو المقصود من (شعائر الله) ؟ هنا احتمالات: ١- تعظيم آيات وجوده سبحانه . ٢- معالم عبادته وأعلام طاعته . ٣- معالم دينه وشريعته وكل ما يمتاليهما بصله . _____

١ . سورة البقرة: الآية ١٥٨ .

٢ . سورة المائدة: الآية ٢ .

٣ . سورة الحج: الآية ٣٦ .

٤ . سورة الحج: الآية ٣٠ . (٢٠٥)

أمّا الأول فلم يقل به أحد، إذ كل ما في الكون آيات وجوده، ولا يصح تعظيم كل موجود بحجة أنه دليل على الصانع . وأمّا الثاني فهو داخل في الآية قطعاً، وقد عدّ الصفا والمروة والبدن من شعائر الله، فهي من معالم عبادته وأعلام طاعنه، إنما الكلام في اختصاص الآية بمعالم العبادة وأعلام طاعته، الظاهر المتبادر هو الثالث، أي معالم دينه سبحانه، سواء أكانت أعلاماً لعبادته وطاعته أم لا، فالأنبياء والأوصياء والشهداء والصحف والقرآن الكريم والأحاديث النبوية كلها من شعائر دين الله وأعلام شريعته، فمن عظمها فقد عظم شعائر الدين . قال القرطبي: فشعائر الله: أعلام دينه، لا سيما ما يتعلق بالمناسك (١) ولقد أحسن حيث عمّم أولاً، ثم ذكر مورد الآية ثانياً، ومما يعرب عن ذلك أن إيجاب التعظيم تعلق بـ (حرمات الله) في آية أخرى . قال سبحانه: (وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)، والحرمات ما لا يحل انتهاكه، فأحكامه سبحانه حرمات الله، إذ لا يحل انتهاكها، وأعلام طاعته وعبادته وحرمات الله، إذ يحرم انتهاكها وأنبياءه وأوصياؤهم وشهداء دينه وكتبه وصحفه من حرمات الله، يحرم انتهاكهم، فلو عظمهم المؤمن أحياء وأمواتاً فقد عمل بالآيتين: «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ» «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ». ٤- الإذن في ترفيع بيوت خاصة

لقد أذن الله تعالى في ترفيع البيوت التي يذكر فيها اسمه فقال: (فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعُوا وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصِيَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) (٢) وقد عرفت أن ابن تيمية جعل الآية دليلاً على تكريم المساجد، ولكنه غفل عن أن البيوت غير المساجد، فهناك بيت وهناك مسجد، والبيت هو البناء الذي يتشكّل من جدران أربعة وعليها

١ . تفسير القرطبي، طبع دار إحياء التراث العربي، ج ١٢ ص ٥٦ .

٢ . سورة النور: الآية ٣٦ - ٣٧ . (٢٠٦)

سقف قائم، ولأجل ذلك يقال للكعبة بيت الله، وللساحة المحيطة به (المسجد الحرام) وأيضاً يستحب أن تكون المساجد غير مسقّفة، وترى المسجد الحرام مكشوفاً تحت السماء من دون سقف يظله، دون البيت فالسقف من مقوماته . قال سبحانه: (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) (١) . فالبيوت غير المساجد، ولو تنزلنا فهي أعمّ منها تشمل المسجد وغيره . هذا كله حول البيوت، وأمّا الرفع الوارد في الآية الكريمة فسواء أفسّر بالرفع الحسى بإرساء القواعد وإقامة الجدران كما في قوله سبحانه: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ) (٢)، أمّ فسّر بالرفع المعنوي كما هو الحال في قوله سبحانه: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) (٣) . أي منحناه مكاناً عالياً . فلو فسّر بالرفع الحسى يكون دليلاً على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء، وتعميرها في حياتهم وبعد وفاتهم حسب إطلاق الآية، وقد كان بيوت كثير من الأئمة الصالحين هي مقابرهم، فتشيد هذه البيوت عمل جائز بنص الآية، وأمّا لو فسّر بالرفع المعنوي، وأن من وظائف المسلمين تكريم هذه البيوت كما هو المتبادر، فتعمير بيوتهم من مظاهر ذلك التعظيم المعنوي، كما أنّ تدميرها وجعلها معرضة لما لا يناسب ساحتهم، تجاهل لهذه الآية وتولّ عنها . ومن لطيف ما روى في المقام ما رواه الحافظ السيوطي عن أنس بن مالك، وبريدة، أنّ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قرأ قوله: (فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعُوا) فقال: يا رسول الله؟ فقال: «بيوت الأنبياء» فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول الله وهذا البيت منها؟ - مشيراً إلى بيت علي وفاطمة - فقال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : نعم من أفاضلها (٤) .

١ . سورة الزخرف: الآية ٣٣ .

٢ . سورة البقرة: الآية ١٢٧ .

٣ . سورة مريم: الآية ٥٧ .

٤. الدر المنثور: ج ٥ ص ٥٠. (٢٠٧)

فهذه الآية وحدها كافية في جواز تعظيم بيوت الأنبياء والأوصياء وأهل بيت النبي مطلقاً، ومقابرهم ومرآدهم إذا كانت بيوتهم . ٥- إظهار المودة للنبي والقريبى

إن القرآن الكريم - يأمرنا - بكل صراحة - بحب النبي وأقربائه - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومودتهم ومحبتهم فيقول: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (١). (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (٢) .

ومن الواضح لدى كل من يخاطبه الله بهذه الآية أن البناء على مرآد النبي وأهل بيته - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وهو نوع من إظهار الحب والمودة لهم، وبذلك يخرج عن كونه بدعة لوجود أصل له في الكتاب والسنة، ولو بصورة كلية . وهذه العادة متبعة عند كافة الشعوب، والأهم في العالم، فالجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنانس ومقابر مشهورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها . إلى هنا تم الكلام حول جواز البناء على القبور مطلقاً، وقبور الأنبياء والأوصياء والصالحين خاصة، على وجه لم يبق لمتدبر فيه شك، ولا- لمكابرين إنكار، إلا من أعمى الله بصره وبصيرته . هذه هي الآيات الواضحة الدلالة على جواز البناء، وهذه هي سيرة المسلمين المشرقة طوال القرون .

١ . سورة المائدة: الآية ٥٦ .

٢ . سورة الشورى: الآية ٢٣ . (٢٠٨)

فلو فرضنا تعارض الأدلة من الجانبين، فالأصل هو الإباحة كما سيوافيك . ٦- الأصل هو الإباحة إن القائل بالحرمة يجب أن يستدل عليها، والقائل بالإباحة يكفيه الأصل (عدم الحرمة إلا ما قام الدليل على تحريمه) وقد عرفت أنه ليس هناك شبه دليل على الحرمة، والآيات أدل دليل على أنه سبحانه لا يعذب أمة إلا بعد إرسال الرسل وبعثهم، وهو كناية عن وصول البيان والتشريع إلى الناس، فلو لم يصل - وإن بلغه الرسول - لا يكون منجزاً في حق العبد. قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (١) .

وظاهر الآيات يعطى أن وظيفة التشريع تبيين المحرمات لا المباحات. قال سبحانه: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ) (٢) . وقال: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ) (٣) . فإذا كان صعيد التشريع فارغاً عما يدل على التحريم فهو حجة على كون الشيء مباحاً محلاً. وإليك البحث عن بناء المساجد على قبور الصالحين، وهو الموضوع الخامس فيما طرحه ابن تيمية . *

١ . سورة الإسراء: الآية ١٥ .

٢ . سورة الأنعام: الآية ١٥١ .

٣ . سورة الأنعام: الآية ١٤٥ .

ابن تيمية وبناء المساجد على القبور

ابن تيمية وبناء المساجد على القبور قال ابن تيمية: «ولا يشرع اتخاذها - أى القبور - مساجد» (١) . وقال أيضاً: «لا يجوز بناء المسجد على القبور» . وقد استدلل الوهابيون على ما يتبنونه بالحديث التالي المروى بعبارات مختلفة: ١- «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . ٢- «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . ٣- «ألا ومن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك» . ٤- «أخرجوا أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . ٥- «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٢) .

١ . مضى مصدرها .

٢ . راجع للوقوف على مصادر هذه الأحاديث صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ٢ ص ١١١، السنن للنسائي ج ٢ كتاب الجنائز ص ٨٧١، صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٦٨ كتاب المساجد وغيرها، وقد جمع مصادر الحديث وصوره المختلفة محمد ناصر الدين الألبانى فى كتابه تحذير الساجد ص ١١ - ٢٨ فذكر للحديث ١٤ صورة كما جمعها أبو عبدالرحمن مقبل بن هادى الوادعى فى كتاب رياض الجنة ص ٢٧٨ - ٢٨١ . (٢١٠)

إنّ الوهابيين استغلوا هذا الحديث وخرجوا بهذه النتيجة بأنّ مفادها: أ - حرمة بناء المساجد على القبور . ب - وحرمة قصد الصلاة فيها . حتّى قال ابن تيمية: إنّ المسجد والقبور لا يجتمعان(١) . وهذا هو الكلام الذى يجتره ويكرره كل من جاء بعده، فنظروا إلى الروايات بعقيدة مسبقه، وتركوا إجماع الأمة ودلالة الكتاب على الجواز كما بيناه، فنقول: إنّ لهذه الروايات احتمالات: ١- الصلاة على القبور بالسجود عليها تعظيماً . ٢- الصلاة باتجاه القبور واتخاذها قبله . ٣- بناء المساجد على القبور وقصد الصلاة فيها تبركاً بالمقبور . ٤- إقامة الصلاة عند مرآد الأنبياء ومقابرهم فقط . فهل للحديث إطلاق يعم هذه الصورة والاحتمالات كما ادّعاها الألبانى تبعاً لشيخه ابن تيمية، وزعم أنّ هذا الحديث من جوامع كلمه - صلّى الله عليه وآله وسلم - . أو أنّ الحديث ينصرف - بشهادة القرائن المتصلة والمنفصلة - إلى بعض الصور مما يلزم كون العمل شركاً، والمصلى مشركاً وخارجاً عن الحدود التى حددها الكتاب والسنة، كما هو الحق بشهادة القرائن العشر التالية؟ وإليك البيان: ١- إنّ الحديث يركّز على عمل اليهود والنصارى، وأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وينهى المسلمين عن متابعتهم فى ذلك .

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ وزاد المعاد تأليف ابن القيم ص ٦٦١ . (٢١١)

وبما أنّ أهل الكتاب معروفون بالشرك وعبادة غير الله طيلة الأجيال والقرون، فالمسيحية تعبد - المسيح وأمه - كما أنّ كثيراً منهم اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، يحرمون ما أحلّ الله ويحلّون ما حرّم الله . اليهود هم الذين طلبوا من نبيهم أن يجعل إلهاً كما أنّ لغيرهم آلهة، وهم الذين عبدوا العجل، بل عبدوا بعد رحلة الكليم أرباباً وآلهة، فهم كأنهم مفطورون على الوثنية وعبادة البشر - فعند ذلك - ينصرف الحديث إلى عمل يلحق المسلم بهم، ولا- يمكن أن يدعى أنّ الحديث يعم ما إذا كان عمل اتخاذ القبور مساجد مجرداً عن أى شرك، أو إذا كانت إقامة الصلاة عند قبورهم من باب التبرك بهم . ٢- نرى أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يصف هؤلاء الجماعة بكونهم شرار الناس . فقد روى مسلم فى كتاب المساجد أنّ أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتها فى الحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - : إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنى على قبره مسجد، وصوّر فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله(١) . إنّ توصيفهم بأنهم شرار الخلق عند الله، يميّط الستر عن حقيقة عملهم، إذ لا- يوصف الإنسان بالشر المطلق، إلّا- إذا كان مشركاً . قال سبحانه: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)(٢)، وقال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(٣) . كل ذلك يكشف عن مرمى الحديث، وأنّ عملهم لم يكن عملاً مجرداً مثل صرف بناء المسجد على القبر والصلاة فيه، أو إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملاً مقترناً بالشرك بألوانه وصوره المختلفة، كاتخاذ القبر إلهاً ومعبوداً أو قبله عند الصلاة، أو السجدة عليها بمعنى اتخاذها مسجوداً . ٣- إنّ الروايات الناهية الواردة فى المقام على قسمين:

١ . صحيح مسلم ج ٢ كتاب المساجد ص ٦٦٦ .

٢ . سورة الأنفال: الآية ٢٢ .

٣ . سورة الأنفال: الآية ٥٥ . (٢١٢)

قسم يشتمل على اللعن، وهذا مختص باتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد . وقسم آخر مشتمل على مجرد النهى من دون اقتران باللعن، وقد ورد ذلك فى مطلق القبور . ١- عن أبى مرصد الغنوى قال: قال رسول الله: لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها(١) . ٢-

عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَ الْحَمَامَ (٢) وَغَيْرَ ذَلِكَ . ٣-
 عن عبد الله بن عمر: نهى عن الصلاة في المقبرة (٣) . فعندئذ يجب التأمل في هذا التفريق، لماذا اقترن الأول (اتخاذ قبور الأنبياء
 مساجد) باللعن دون الآخر، وإنما ورد فيه مجرد النهى، (المحمول على الكراهة مطلقاً، أو في ما إذا كان القبر بحيال المصلى، أو كانت
 الصلاة بين القبرين) وما هذا إلا لأن القسم الأول ناظر إلى عمل اليهود والنصارى في مورد قبور أنبيائهم . وبما أنه كان مقترناً بالشرك
 بالسجود لها تعظيماً لهم، أو باتخاذها قبلة، استحقوا اللعن، وعرفوا بأنهم شرار الناس، وهى المسلمون عن أتباعهم . وأما القسم الآخر
 فلم يكن مقترناً بذلك أبداً، فجاء فيه النهى مجرداً عن اللعن . وبهذا لا يمكن القول بإطلاق الحديث و عموميته لكل الأحوال . ٤- إن
 السيدة عائشة، قالت: قال رسول الله: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: فلولا- ذاك لأبرز قبره،

١ . صحيح مسلم ج ٧ ص ٣٨ .

٢ . سنن أبي داود ج ١ ص ١٨٤ .

٣ . موارد الضمان ص ١٠ كما في رياض الجنة . (٢١٣)

غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً (١) إن المسلمين بعدما دفنوا النبي في بيته سوروه بحائط مستدير، لا مربع، لئلا يشابه الكعبة . ومن
 المعلوم أن التسوير بالجدران وعدم إبراز قبره إنما يمنع عن اتخاذ مسجوداً له أو قبلة، وأما الصلاة في جنبه فلم يكن الجدار مانعاً عن
 إقامة الصلاة . ومراد السيدة عائشة: إن عدم إبراز القبر وستره بالحيطان منع المسلمين عن أن يرتكبوا ما كان اليهود والنصارى يرتكبونه
 . ومن المعلوم أن الجدران منعت عن الصور الشركية كصورة اتخاذ مسجوداً له أو قبلة، لا إقامة الصلاة المجردة من هذه الضمانم .
 وهذا دليل واضح على أن الحديث كان بصدده نهى المسلمين عن اتخاذ القبر مسجوداً له أو قبلة . والعجب من الشيخ الالبانى حيث
 أراد استغلال الحديث لتأييد مذهبه، وموقفه، وفسر قولها: «فلولا ذاك لأبرز قبره» بأن المقصود هو الدفن خارج بيته، مع أن العبارة لا
 تتحمل هذا، لأنها تركز على القبر الموجود، فيكون المقصود: ولو لا ذاك لكشف قبره ولم يتخذ عليه حائط . ٥- قال أبو هريرة: قال
 رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: أَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا، لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ . إنَّ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْجَمَلَتَيْنِ
 تَكْشِفُ عَنْ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ: اتِّخَاذُ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ عَلَى نَحْوِ يَعُودِ الْقَبْرِ وَثَنًا يَعْْبُدُ، أَوْ يَصَلِّي إِلَيْهِ . وَأَمَّا الصَّلَاةُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 وَإِلَى الْكَعْبَةِ عِنْدَ الْقَبْرِ تَبَرُّكًا بِهِ فَلَا تَجْعَلُ الْقَبْرَ وَثَنًا يَعْْبُدُ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يَأْمُرُ الْحَجِيجَ بِاتِّخَاذِ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًا، وَيَقُولُ:

(وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا) (٢)

١ . البخارى ج ٣ ص ١٥٩ ومسلم ج ٢ ص ٧٦ .

٢ . سورة البقرة: الآية ١٢٥ . (٢١٤)

وليست الصلاة عند القبر إلا كمثل الصلاة عند مقام إبراهيم . غير أن جسد النبي إبراهيم قد لامس هذا المكان مرة أو مرات عديدة،
 ولكن مقابر الأنبياء احتضنت أجسادهم التي لا تبلى دائماً . ٦- إن علماء الحديث وجهابذته فهموا من هذه الأحاديث نفس ما قلناه،
 وإن لم يذكر الألبانى وغيره شيئاً من هذه التفاسير . أ - يقول العسقلانى: إنَّما صَوَّرُوا أَوَائِلَهُمُ الصُّورَ لِيَسْتَأْنِسُوا بِهَا، وَيَتَذَكَّرُوا أَفْعَالَهُمْ
 الصَّالِحَةَ فَيَجْتَهِدُوا كاجْتِهَادِهِمْ، ثُمَّ خَلْفَهُمْ قَوْمٌ جَهَلُوا مَرَادَهُمْ وَوَسَّوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ أَسْلَافَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّورَ
 وَيَعْظُمُونَهَا... إِلَى أَنْ يَقُولَ: قَالَ الْبِيضَاوِيُّ: لَمَّا كَانَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَسْجُدُونَ لِقُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ تَعْظِيمًا لَشَانِهِمْ، وَيَجْعَلُونَهَا قِبْلَةً يَتَوَجَّهُونَ
 فِي الصَّلَاةِ نَحْوَهَا، وَاتَّخَذُوهَا أَوْثَانًا، لَعَنَهُمْ وَمَنَعَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ. فَأَمَّا مَنْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا فِي جَوَارِ صَالِحٍ وَقَصَدَ التَّبَرُّكَ بِالقَرْبِ
 مِنْهُ، لَا لِلتَّعْظِيمِ وَلَا لِلتَّوَجُّهِ نَحْوَهُ، فَلَا يَدْخُلُ فِي الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ (١). ب - ويقول النووى في شرح صحيح مسلم: قال العلماء إنما نهى
 النبي عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من
 الأمم الخالية. ولما احتاجت الصحابة والتابعون إلى زيادة في مسجد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - حين كثر المسلمون،

وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وصاحبه، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلى إليه العوام ويعود المحذور. ولهذا قالت عائشة في الحديث عنه: ولو لا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً (٢). ج - وقال السندي شارح الصحيح للنسائي: اتخذوا قبور أنبيائهم

١. فتح الباري في شرح صحيح البخارى ج ١ ص ٥٢٥ ط دار المعرفة، وقريب منه ما في إرشاد السارى في شرح صحيح البخارى ج ٢ ص ٤٣٧ باب بناء المساجد على القبور .

٢. صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٥ ص ١٣ - ١٤ . (٢١٥)

مساجد، أى قبله للصلاة ويصلون إليها، أو بنوا مساجد يصلون فيها، ولعل وجه الكراهة أنه قد يقضى إلى عبادة نفس القبر . إلى أن يقول: يحذر النبي أمة أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذ تلك القبور مساجد، إما بالسجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبله يتوجهون في الصلاة إليها (١). د - وقال شارح آخر: إن حديث عائشة يرتبط بالمسجد النبوي قبل الزيادة فيه... أما بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه فقد بنوا الحجرة بشكل مثلث كى لا يتمكن أحد من الصلاة على القبر، إن اليهود والنصارى كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شركاء في العبادة (٢). هـ - قال الشيخ على القارى: سبب لعنهم إما لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلى، وإما لأنهم كانوا يتخذون الصلاة لله تعالى في مدافن الأنبياء، والسجود على مقابرهم، والتوجه إلى قبورهم حال الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله، والمبالغة في تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفى. فنهى النبي أمة عن ذلك إما لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود، أو لتضمنه الشرك الخفى. كذا قال بعض الشراح من أئمتنا ويؤيده ما جاء في رواية. يحذر مثل المذنب منعوا (٣). و - إن المروى عن أئمة أهل البيت هو ما فهمه أولئك الشراح . ١ - روى الصدوق مرسلًا قال: وقال النبي: لا تتخذوا قبرى قبله ولا مسجداً، فإن الله لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (٤). والمراد من قوله «مسجداً» بقرينة «قبله» هو السجود عليه تعظيماً. روى الشيخ الطوسى بأسناده عن معمر بن خلاد، عن الرضا - عليه السلام -

١. السنن للنسائي ج ٢ ص ٤١ طبع الأزهر .

٢. صحيح مسلم ج ٢٢ ص ٦٦ .

٣. مرقاة المفاتيح فى شرح مشكاة المصابيح ج ١ ص ٤٥٦ .

٤. الوسائل: الجزء الثانى الباب ٦٥ من أبواب الدفن. الحديث ٢ . (٢١٦)

قال: لا بأس بالصلاة بين المقابر ما لم يتخذ القبر قبله (١). ٣ - روى الصدوق فى علل الشرائع بإسناده إلى زرارته عن أبى جعفر (الباقى) - عليه السلام - قال: قلت له: الصلاة بين القبور، قال: بين خللها، ولا تتخذ شيئاً منها قبله، فإن رسول الله نهى عن ذلك وقال: لا تتخذوا قبرى قبله ولا مسجداً، فإن الله عزوجل لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (٢). ولو كان المراد هو اتخاذ القبر قبله حقيقة، بأن يصلى عليه من كل جانب كالكعبة، يكون حراماً لكونه بدعة، ولو كان المراد كون القبر أمامه وحيال وجهه، فيحمل على الكراهة لجريان سيرة المسلمين على الصلاة فى الصفة فى مسجد النبى، والقبر بحيال المصلى . ٧ - روى المفسرون فى تفسير قوله سبحانه: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسِرًا) (٣). عن ابن عباس: هؤلاء كانوا قومًا صالحين فى قومهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلما طال عليهم الأمد عبودهم . قال القرطبي: روى الأئمة عن أبى مرصد الغنوى قال: سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يقول: لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا إليها (لفظ مسلم) أى لا تتخذوها قبله، فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى (٤). ٨ - روى مسلم فى صحيحه عن النبى الأكرم أنه قال حينما قالت أم حبيبة وأم سلمة بأنهما رأتا تصاوير فى إحدى كنائس الحبشة: إن أولئك إذا كان فىهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه

تلك الصورة،

١. الوسائل الجزء الثالث، الباب ٢٥ من أبواب مكان المصلى، الحديث ٣ والباب ٢٦ الحديث ٣.

٢. نفس المصدر.

٣. سورة نوح: الآية ٢٣.

٤. تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٨٠. (٢١٧)

أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة (١). إن الهدف من وضع صور الصالحين بجوار قبورهم إما لغاية اتخاذها قبله أو عبادة ذويها، كالصنم المنصوب، ومعه لا يمكن أن يستدل به على تحريم مطلق اتخاذ القبور، مساجد . ٩- إن أقصى ما يدل عليه الحديث لو قلنا بإطلاقه هو أن يتخذ مدفن الأنبياء مساجد، وأما بناء مسجد في جنب مدافنهم بحيث يكون المسجد وراء المدفن كما هو الحال في المشاهد المشرفة لأئمة الشيعة فلا يعمه النهي أبداً . ١٠- وعلى فرض وجود الإطلاق فإذا دار الأمر بين الأخذ بالكتاب (٢) والسنة الرائجة بين المسلمين من عهد التابعين إلى يومنا هذا، حيث يصلون في مسجد النبي وقبره في وسطه، وبين إطلاق هذه الرواية فالأول هو المتعين . إذا تبين عدم صلاحية الحديث للاستدلال على التحريم، فيجب علينا عرض المسألة على سائر الأدلة، وإليك البيان. عرض المسألة على القرآن

كان الواجب على الوهابيين الذين يدمرون الآثار الإسلامية بهذه الأحاديث عرض المسألة على القرآن الكريم الذي هو تبيان لكل شيء . قال سبحانه: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) (٣).

والقرآن صادق مصدق لا يكذب - يذكر سبحانه - في قصة أصحاب الكهف أن القوم لما عثروا على أجسادهم المطرية في الغار اختلفوا على قولين: تذكرهما الآية التالية: (وَكَذَلِكَ أَعْتَوْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ

١. صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٦ كتاب المساجد .

٢. سيوافيك بيان دلالة الكتاب على الجواز .

٣. سورة النحل: الآية ٨٩. (٢١٨) فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ائبوا عليهم بئياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً (١) .

فالآية صريحة في أن القوم بعد ما عثروا عليهم اختلفوا في كيفية تكريمهم وتعظيمهم على قولين: ١- البناء على قبورهم «ابنوا عليهم بئياناً» . ٢- بناء المسجد على قبورهم «لنتخذن عليهم مسجداً». وكلتا الطائفتين يريدان التعظيم والتكريم على اختلاف منهجهم، والمعروف بين المفسرين أن القائلين بالقول الأول كانوا هم المشركين، وأن القائلين بالقول الثاني هم الموحدون والمسلمون، وسواء أثبت ذلك أم لا فإن العاثرين عليهم اختلفوا في كيفية تكريمهم وتعظيمهم، وعلى كل تقدير فالآية حجة على جواز بناء المسجد على القبور أولاً، وعلى جواز بناء المسلمين عليها ثانياً، وذلك لأن القرآن يذكر القولين من دون رد وطعن، ولو كان كل من القولين - وخصوصاً القول الثاني - على خلاف الهداية وفي جانب الضلالة، لأشار إلى رده وطعنه، وليس القرآن كتاب قصة وإنما هو كتاب هداية، فلو كان يذكر شيئاً من الأمم السالفة، فإنما هو للعبرة والاعتبار، ولأجل ذلك كثيراً ما يرد عليهم بعد نقل كلامهم، فسكوت القرآن تجاه هذين القولين ونقلهما عن القوم بصورة كونه عملاً مستحسنًا، أقوى دليل على جواز العمل المذكور في الأمة المحمدية . قال الطبري في تفسير قوله تعالى: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ): «إن المبعوث دخل المدينة فجعل يمشى بين سوقها فيسمع أناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فزعاً، ورأى أنه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه: أما عشيبة أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل، أما الغداة فاسمعهم، وكل

١. سورة الكهف: الآية ٢١. (٢١٩)

إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف... (١) . وهذا يعرب عن أن الأكثرية الساحقة

كانت موحدة مؤمنة متدينه بشريعه المسيح، رغم ما كانوا على ضده قبل ثلاثمائة سنه . وقال في تفسير قوله تعالى: (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا) فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: ابنا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم يقول: رب الفتية أعلم بشأنهم وقوله: «قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ» يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف لتتخذنّ عليهم مسجداً . وقد نقل عن عبد الله بن عبيد بن عمير: فقال المشركون بنى عليهم بنياناً، فإنهم آباؤنا، ونعبد الله فيها. وقال المسلمون: نحن أحقّ بهم، هم منّا، بنى عليهم مسجداً ونعبد الله فيه (٢) . وبذلك يعلم أنّ ما ذكره الألباني في الرد على الاستدلال بالآية، من أنّ المراد من الغالبيين هم أهل السلطنة ولا دليل على حجيت فعلهم، رجم بالغيب، فإنّ ما ذكره الطبري يدل على أنّ المراد هو الغلبة في مجال الدين، وتدهور الوثنية وازدهار التوحيد . وهذا يدلّ على أنّ سيرة العقلاء في العالم تكريم موتاهم، وأنّ سيرة المؤمنين الموحدين اتخاذ مقابر الصالحين مساجد ليتبركوا بوجودهم وأجسادهم الذين كرسوا حياتهم في إشادة قوائم التوحيد ورفعوا صرحه، وكيف يتصور ممن قام بتكريم إمام الموحدين وسيدهم، أن ينحرف عن خطه الأصيل (التوحيد) ويعبد غيره سبحانه ويكون مشركاً، إلا إذا كان منحرفاً وأشرب في قلبه العجل - أعادنا الله من وساوسهم . * * *

١ . تفسير الطبري ج ١٥ ص ٢١٩ طبع مصطفى الحلبي بمصر، سورة الكهف الآية ١٩ .

٢ . تفسير الطبري ج ١٥ ص ٢٢٥، ولاحظ تفسير القرطبي والكشاف للزمخشري وغرائب القرآن لليسابوري في ذيل هذه الآية . (٢٢٠)

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

هذا هو الموضوع السادس الذي قال في حقه ابن تيمية: «ولا تشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغاثه وابتهاه ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطله لأجل النهي عنها، إلى أن قال: وإنما دين الله تعالى تعظيم بيوت الله وحدها التي تشرع فيها الصلوات جماعة وغير جماعة، والاعتكاف، وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له (١) . يقول محمد بن عبد الوهاب: لم يذكر أحد من أئمة السلف أنّ الصلاة عند القبور وفي مشاهدتها مستحبة، ولا- أنّ الصلاة والدعاء هناك أفضل، بل اتفق الكل على أنّ الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين (٢) . وجاء في الجواب المنسوب إلى علماء المدينة: «أما التوجه إلى حجرة النبي عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب، لأنّ أفضل الجهات جهة القبلة» . وقد تجاوزت هذه المسألة على مر الزمان مرحلة المنع إلى مرحلة الشرك ،

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٦٠ .

٢ . زيارة القبور ص ١٥٩ - ١٦٠ . (٢٢١)

حتى أنهم اليوم يعتبرون ذلك شركاً، وكل من فعل ذلك يكون عندهم مشركاً، وإليك توضيح المسألة: ١- لا شك أنّ إقامة الصلاة عند القبور لغاية عبادة صاحب القبر أو اتخاذه قبلة شرك، ولكن لاتجد على وجه البسيطة مسلماً يفعل ذلك، بل لا يحوم حوله البعداء من الأوساط الإسلامية، فضلاً عن المتحصّرين منهم، المتواجدين في الأوساط الدينية . ٢- إنّ هدف المسلمين من إقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء، هو التبرك بالمكان الذي احتضن جسد حبيب من أحبّاء الله، فيتمتع بذلك المكان بمنزلة سامية، فالصلاة والدعاء هناك يعودان بثواب أكثر على فاعلها. إنّ لمشاهد الأولياء ومراقدهم شرفاً وفضيلة خاصة لا توجد في غيرها، ولأجل ذلك أوصى الشيخان بدفنهما في جوار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، فالمصلي لدى قبورهم لا يقصد سوى ما قصده الشيخان لا غير. فلو كان قصد التبرك بمكان شركاً فلماذا أوصى الشيخان بالدفن بجوار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ؟ . ٣- إنّ القرآن الكريم

يأمر حجاج بيت الله الحرام بإقامة الصلاة عند مقام إبراهيم، وهو الصخرة التي وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبة، فيقول: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأُمَّنًا وَاتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) (١). إن الصلاة في مقام إبراهيم لأجل التبرك بمقام النبي إبراهيم، فلو كانت عبادة الله تبارك وتعالى مقرونة بالتبرك بمكان المخلوق شركاً، فلماذا أمر به سبحانه، فهل هناك فرق بين مقامهم ومثوالمهم؟ ٤- سأل المنصور العباسي مالك بن أنس وهما في مسجد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله؟ فقال مالك: لم تصرف عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله (٢). _____

١. سورة البقرة: الآية ١٢٥.

٢. وفاء الوفاء ج ٤ ص ١٣٧٦. (٢٢٢)

والعجب أن الكاتب الوهابي (الرفاعي) حاول أن يكذب القصة، قال: «إن أبا جعفر المنصور كان من أعلم علماء عصره، فلا يصح أن يكون جاهلاً - فيستفسر». يا للعجب! من أين علم أنه كان مثل مالك بن أنس إمام المدينة المنورة؟ وهل له آثار في الفقه والحديث مثل مالك؟ ماهذه الكلمة الساقطة؟ وأي دليل على أنه لم يكن جاهلاً بهذه المسألة فيستفسر مثله أو من هو أعلم منه؟ ٥- روى السيوطي في أحاديث المعراج أن النبي الأكرم نزل في المدينة وطور وسيناء وبيت لحم، وصلى فيها، فقال له جبرائيل: يا رسول الله أتعلم أين صليت؟ إنك صليت في طيبة، وإليها مهاجرتك، وصليت في طور سيناء، حيث كلم الله موسى تكليماً، وصليت في بيت لحم حيث ولد عيسى (١). ولا أظن أن يتوهم أحد وجود الفرق بين المولد والمرقد بالتجويز في الأول دون الثاني. ٦- إن المسلمين جميعاً يصلون في حجر إسماعيل، مع أن الحجر مدفنه ومدفن أمه هاجر، فأى فرق بين مرقد النبي ومدفن أبيه إسماعيل؟ ٧- ولقد بلغت هاجر أم إسماعيل مرتبة عند الله بسبب صبرها وتحملها المتاعب في سبيل الله سبحانه، فجعل الله موضع أقدامها محلاً للعبادة، وأوجب على حجاج بيته الحرام أن يسعوا فيها كما سعت هاجر بين جبلي الصفا والمروة، فنسأل إذا كان صبرها على المكاره، وتحملها المتاعب في سبيل الله تعالى قد منحا الكرامة لموضع أقدامها، وأوجب الله على المسلمين أن يعبدوه سبحانه في ذلك المكان بالسعي بين الصفا والمروة، فلماذا لا يكون قبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - _____

١. الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطي ج ١ ص ١٥٤. (٢٢٣)

مباركاً ومقدساً، في حين أنه تحمّل أنواع المصاعب والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده. قال ابن القيم - تلميذ ابن تيمية -: «إن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطن أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه» (١). ٨- إذا كانت الصلاة عند القبر محرمة في الشريعة الإسلامية، فلماذا قضت عائشة عمرها في البيت الذي دفن فيه الرسول؟ ٩- إن السيدة فاطمة الزهراء التي قال في حقها النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «إن الله يرضى برضى فاطمة ويغضب بغضبها» (٢) كانت تزور قبر عمها حمزة في كل جمعة أو في كل أسبوع مرتين، وكانت تبكي وتصلّي عند قبره. يقول البيهقي: كانت فاطمة (رضي الله عنها) تزور قبر عمها حمزة كل جمعة، فتصلي وتبكي عنده (٣). ١٠- إن مرافد الأنبياء ومشاهدتهم تعدّ جزءاً من مطلق الأرض التي جعلها الله سبحانه محلاً لعبادته، وقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» (٤). فما الدليل على إخراج مشاهد الأنبياء والأولياء والصالحين عن إطلاق الحديث المتفق عليه، أفيزعم الوهابي ان الصلاة في مشاهد الأنبياء ومرافدهم أقل ثواباً من مطلق الأرض؟! _____

١. زاد المعاد في هدى خير العباد طبع مصطفى البابي الحلبي، القاهرة بإشراف طه عبدالرؤوف ١٣٩٠ هـ ق.

٢. صحيح البخاري ج ٥ باب مناقب قرابة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ص ٢٠ ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ١٥٤.

٣. السنن للبيهقي ج ٤ ص ٧٨ مستدرک الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٣٧٧.

٤ . صحيح البخارى ج ١ ص ٩١، مسند أحمد ج ٢ ص ٢٢٢ . (٢٢٤)

وأخيراً نرى أن المسلمين يقيمون الصلاة طيلة أربعة عشر قرناً عند قبر النبى والخليفين، من دون أن يختلف ببال أحد من أن إقامة الصلاة عند القبور حرام أو مكروه . كيف، ولو كان مكروهاً أو حراماً لما أوصى الإمام الحسن بن على بدفن جسده المطهر عند قبر جده المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى حالت بنو أمية دون إنفاذ وصيته . هذه الوجوه العشرة كافية لمن أراد اتباع الحق، ولا أظن أن المنصف المتحرى للحقيقة - إذا تجرد عن الهوى - ينبذ هذه الأدلة وراء ظهره . * * *

وفى الختام نذكر حكم الإضاءة عند القبور، فربما يحكم بالحرمة لما رواه النسائي عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج (١) . إن هذا الحديث وأمثاله يهدف إلى ما إذا كانت الإضاءة تذكيراً للمال، أو تشبهاً ببعض الأمم والشعوب، وإلا فالإضاءة إذا كانت لغاية قراءة القرآن والدعاء لا تكون محرمة . بل يقول العلامة السندى فى شرحه على الحديث: «والنهى عنه لأنه تضييع مال بلا نفع» (٢) . أضف إلى ما فى الحديث من لعن زائرات القبور، مع أن عائشة زارت البقيع مع النبى، وقد علمها كيفية الزيارة كما تقدم حديثه .

١ . السنن للنسائي ج ٣ ص ٧٧ .

٢ . السنن للنسائي ج ٣ ص ٧٧ طبع مصر وج ٤ ص ٩٥ طبع بيروت شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٩٨ . (٢٢٥)

ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين

ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين

إن التوسل بالأنبياء والصالحين فى حال حياتهم أو بعد التحاقهم بالرفيق الأعلى من الأمور الرائجة بين الموحدين فى جميع الأجيال والقرون، وقد أثار فتوى ابن تيمية فيها بالحرمة ضجة كبرى بين المسلمين، فالمسلمون كانوا إلى عصر ابن تيمية على جواز التوسل بشروطه المسوغه، إلى أن جاء ابن تيمية فأفتى بالحرمة، وتبعه الوهابيون، فأقصى ما جاز عندهم من التوسل هو الدعاء النبى فى حال حياته، غير أن الشبه والظنون التى اعتمدا عليها فى منع التوسل كانت تقتضى منع هذا القسم أيضاً، لأنه توسل بالمخلوق لا محالة فى مقام العبادة، لكنهم لم يجدوا منتدحاً عن القول بجوازه لتصريح القرآن به، حيث حث المسلمين على المعجىء إلى النبى وطلب الاستغفار منه، قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) (١)، وقال سبحانه: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا رُؤُوسِهِمْ وَرَأَيْتُهُمْ يُصَدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (٢) وقال سبحانه ناقلاً عن أبناء يعقوب (يا أبانا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) (٣) .

١ . سورة النساء: الآية ٦٤ .

٢ . سورة المنافقون: الآية ٥ .

٣ . سورة يوسف: الآية ٩٧ . (٢٢٦)

ولأجل الحط من شأن النبى وكرامته يجعلون النبى مساوياً للمؤمنين ويقولون: «إن التوسل الجائز هو التوسل بدعاء المؤمن حال حياته، ولو جاز التوسل بدعاء النبى فليس هذا إلا لكونه أحد المؤمنين، ويجوز التوسل بدعاء كل أخ مؤمن من غير فرق بين النبى وغيره، وأما غير ذلك فكله ممنوع». وستوافيك أقسامه و كلماتهم فيها، وبما أن الوهابيين مازالوا يستدلون ضد المتوسلين ببعض الآيات، نقدم البحث عنها ونقول: آيتان على طاوله التفسير (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) (١).

يقول محمد نسيب الرفاعى مؤسس الدعوة السلفية وخادمها فى الرياض: إنك ترى أن الله تعالى يلفت أنظار المؤمنين إلى أن عمل المشركين بالتزلف إلى الله بأشخاص المخلوقين لا يفيدهم شيئاً، لأنهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، فدعاؤهم بالدوات

أو التوسل بهم لا- يقدّم ولا- يؤخّر، ولا- يوصلهم، لأنهم أخطأوا الطريق إلى الله . إنّ هاتين الآيتين في سورة الإسراء نزلتا في نفر من العرب كانوا يعبدون نفعاً من الجن فأسلم الجنّيون، أما الإنس الذين كانوا يعبدونهم فلم يشعروا بإسلامهم، فأخبرهم الله بوحيه المنزل على عبده ورسوله محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : إنّ هؤلاء الذين يزعم المشركون أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، يتسابقون ويتنافسون فيما بينهم بالتقرب إلى الله تعالى، ويرجون رحمته و يخشون عذابه، فكيف أيها المشركون تدعونهم لكشف الضر عنكم وتوسّطونهم، فما الذى تؤملون منهم وهم على أشد ما يكونون حاجة إلى الله تعالى، فالذى لا- يملك شيئاً، لا- يعطى شيئاً(٢).

١ . سورة الإسراء: الآية ٥٦ - ٥٧ .

٢ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٢ - ١٣ . (٢٢٧)

إنّ الاستدلال بهاتين الآيتين على رد التوسل الشائع بين المسلمين من عجيب الأمور، فإنّ التوبخ فيهما متوجّه إلى المشركين الذين كانوا معتقدين بألوهية معبوداتهم، وأنهم يملكون كشف الضر وتحويل السوء عن الدعاة، والله سبحانه يرد عليهم بأن المدعويين فى أشد الحاجة إلى طلب التقرب إلى الله سبحانه، فكيف يمكن لهم كشف الضر عنهم؟ وأيّ صلة بين أولئك المشركين المعتقدين بألوهية المدعويين، والموحدين الذين يعتقدون بأنّه لا يملك كشف الضر إلاّ الله، ولكنهم يوسّطون بينهم وبين ربهم أحد عباد الله الصالحين، الذى له مكانة عند الله، لعلّه سبحانه يجيب دعوته لأجله وحرمة ومقامه، وليس ذلك بدعة، فقد أمر بتوسيط دعاء النبي فى طلب المغفرة من الله، وأمر العصاة أن يطلبوا منه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - الاستغفار على ما عرفت . والقسمان يشتركان فى توسيط المخلوق، سواء أكان ذاته القدسية أم دعاءه المستجاب . ثم إنّ فى ذيل كلامه يقول: «إنّ الذين كان العرب يوسطونهم فى توسلاتهم كانوا يتقربون إلى الله بأعمالهم الصالحة، فما بال المسلمين المتوسلين لا يقتدون بهم، ولم لا يفعلون ما يفعلون ما داموا بهم وبصلاحتهم واثقين؟ . وللملاحظة والتدبر فى كلامه مجال واسع: أما أولاً - فمن أين علم أنّ هؤلاء الذين كان العرب يوسطونهم كانوا يتقربون إلى الله بأعمالهم الصالحة؟ فليس فى الآية شىء يدل على ذلك . وثانياً - لو صحّ ذلك فمعنى كلامه أنّ التوسل منحصر فى ذلك، مع أنّه من المجوزين لتوسل المسلم بدعاء النبي فى حال حياته، بل بدعاء أخيه المسلم، فلماذا صار التخلف ههنا عن هديهم ومذهبهم جائزاً مع أنّهم لم يكونوا متقربين إلاّ بأعمالهم فقط .

والحق أنّ الكاتب اتخذ موقفاً مسبقاً فى مجال التوسل، وهو إحياء ما بذره ابن تيمية، فلذلك ترى أنّه يقفو فى كتابه أثر شيخه، بلا تخلف عنه قيد شعرة، مع أنّه يتظاهر فى بدء كتابه بأنّه يريد أن يعالج الموضوع علاجاً محايداً (٢٢٨)

عن كلّ تحييز (١) . أقسام التوسل: المشروع والممنوع عند الوهابيين

ثم إنّ الرفاعى لغاية التظاهر بالحياد فى الكتابة عن التوسل، يقسمه إلى مشروع وممنوع ويقول: وينقسم التوسل المشروع إلى ثلاثة أقسام: ١- توسل المؤمن إلى الله تعالى بذاته العلية، وبأسمائه الحسنى، وبصفاته العلى . ٢- توسل المؤمن إلى الله تعالى بأعماله الصالحة . ٣- توسل المؤمن إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن له . ثم إنّ يقدم الكتابة فى الموضوعات الثلاثة فيما يقرب من مائة وسبعين صفحة، مع أنّ هذه الموضوعات من المسائل البديهية لدى الأمم جمعاء، فضلاً عن المسلمين، ولكنّه جاء يصرف القلم والحبر والورق فى هذه الموضوعات لغاية التظاهر بأنه ليس مانعاً من التوسل، لكن التوسل المشروع هو هذه . ثم إنّ خصّ الشرط الآخر من كتابه التوسل الممنوع، وجعله ثلاثة : ١- التوسل إلى الله بذوات النبيين والصالحين، وبالأمكنة الفاضلة كالكعبة والمشعر الحرام، وبالأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر وأشهر الحج والأشهر الحرم . ٢- التوسل إلى الله بجاه فلان أو حرمة أو ما أشبه ذلك . ٣- الإقسام على الله تعالى بالمتوسل به . ثم إنّ بدأ فى البحث عن أحكام هذه التوسلات الثلاثة، وخرج بالمآل بحرمتها إمّا بالظن فى أسناد الأحاديث، أو بنقد مضامينها، مع أنّ المأثورات الواردة فى ذلك المقام مستفيضة أو متواترة بالمعنى، فمن العجيب المناقشة فى أسناد المستفيض أو المتواتر. نعم إنّ الشيخ الرفاعى تنازل عن توصيف هذه

١ . التوصل إلى حقيقة التوصل ص ٩ . (٢٢٩)

التوسلات بالشرك، وأفتى بحرمتها، مع أن المعروف من ابن تيمية وأذنبه هو توصيفها بالشرك، أو كونها ذريعة له . يقول ابن تيمية في بيان مراتب التوسل : أحدها: إنَّ الدعاء لغير الله سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من الأنبياء - عليهم السَّلام - أم غيرهم، فيقال: يا سيدي أغثنى، وأنا مستجير بك وغير ذلك، فهذا هو الشرك بالله . الثاني: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء الصالحين: ادع الله وادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا مما لا يستريب عالم في أنه غير جائز . الثالث: أن يقول: أسألك بجاه فلان عندك وحرمة ونحو ذلك(١) . ترى أنه وصف الصورة الأولى بالشرك والثانية والثالثة بعدم الجواز، فقد فرغنا من تبين معيار التوحيد والشرك فلا نعيد، وإنما نتكلم في الجواز وعدمه، ولنبحث عن الصور الثلاث التي جاءت في كلام الرفاعي، وزعم أنها ممنوعة، فنقول: * * *

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٢٢ - ٢٣ .

اقسام التوسل:

التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

احتج الشيخ السلفي المعاصر على التحريم بوجوه واهية مدحوضة، وإليك بيانها: ١- لو كان هذا النوع من التوسل مشروعاً حقيقة لذكره الشارع في زمرة ما ذكره وحث كذلك الناس عليه، وليس معقولاً أن يهمله الله تعالى ولا يبلغه رسوله . ٢- إنَّ الله عاب في الآيه المتقدمة (آيه الإسراء) محاولتهم القربى والزلفى إليه تعالى بالأشخاص والعباد المخلوقين، فكلا الأمرين في الآيه عيب وذنب . ٣- إنَّ أرادوا بالواسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطه في رزق العباد فهو من أعظم الشرك(١) . يلاحظ على الوجه الأول: أن القائلين بالتوسل بالأشخاص يدعون أن النبي ذكره في كلامه، وقد نقل هو في نفس الكتاب سته وعشرين دليلاً عنهم، وهو بين حديث مروى عن النبي، وأثر منقول عن الصحابة في ذلك المجال، وهو وإن ناقش في أساندها غالباً، لكنّه غفل - بعد تسليم ما ناقشه - عن أن هذا العدد الهائل من الأخبار، أخبار متواترة بالمعنى، ولا وجه للمناقشة في

١ . التوصل إلى حقيقة التوسل ١٧٧ - ١٨٠ . (٢٣٢)

المتواتر، ولو صحَّ النقاش في المتواتر فربما تكون جميع الأسناد زائفة باطله . ويلاحظ على الوجه الثاني: أن الله تعالى عاب عليهم بعبادتهم الوسائل التي يوسطونها بينهم وبين الله، لا لتوسلهم بالأشخاص والعباد. قال سبحانه نقلًا عنهم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (١) فكم فرق بين أن يعيب سبحانه توسط الصالحين في دعائه سبحانه، وأن يعيب عبادتهم الصالحين ليتوسطوا بينهم وبين الله، والآيه تهدف إلى الثاني دون الأول، وما هذا الاعوجاج في الفهم لو لم يكن عناداً؟ . يلاحظ على الوجه الثالث: أنه فريه واضحة لا تصدر عن مسلم، بل يريدون منهم الدعاء والطلب من الله مثل حال حياتهم، أو يطلبون من الله سبحانه قضاء حاجتهم، لأجل حرمة الوسائط الذين كرمهم الله في الدنيا والآخرة، فالمدعو الحقيقي هو الله سبحانه، وهو الكعبة المقصودة مآلاً . إذا وقفت على دلائله الداحضة. هلّم نقرر أدلة القائلين بجواز هذا النوع من التوسل، وهي أدلة مشرقه لا تبقى لأحد شكاً، وإليك البيان: ١- توسل الضرير بالنبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

عن عثمان بن حنيف أنه قال: إنَّ رجلاً ضريراً أتى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقال: ادع الله أن يعافيني . فقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير . قال: فادعه! فأمره - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويصلى ركعتين. ويدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتُوجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتُوجَّهُ

١ . سورة الزمر: الآية ٣ . (٢٣٣)

بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفّعه في» قال ابن حنيف: والله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضرر. كلمات حول سند الحديث

قال ابن تيمية: وقد روى الترمذى حديثاً صحيحاً عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنه علم رجلاً أن يدعو فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوسل بنبيك... وروى النسائي نحو هذا الدعاء (١). وقال الترمذى: هذا حديث حق حسن صحيح. وقال ابن ماجه: هذا حديث صحيح. وقال الرفاعي: لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور... (٢). نعم حاول السيد محمد رشيد رضا، مؤلف المنار، الذي علق على كتاب مجموعة الرسائل والمسائل، تأليف ابن تيمية، أن يضعف الحديث بحجة أنه ورد في سننه أبو جعفر، وأنه غير أبي جعفر الخطمي (٣). ولكن المحاولة فاشلة، فإن إمام مذهبه أحمد في مسنده وصفه بالخطمي، ونقل الرفاعي عن نفس ابن تيمية أنه جزم بأنه هو أبو جعفر الخطمي، وهو ثقة (٤) ووصفه الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه بـ (الخطمي المدني). ولأجل أن يقف القارئ على مظان الحديث في الصحاح نذكره مصادره: ١- سنن ابن ماجه، الجزء الأول، ص ٤٤١ رقم الحديث ١٣٨٥

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٣ .

٢ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ١٥٨ .

٣ . مجموعة الرسائل والمسائل ص ١٣ قسم التعليق .

٤ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ٢٢٨ . (٢٣٤)

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء الكتاب العربي، وقد عرفت تنصيصه بأنه حديث صحيح . ٢- مسند أحمد، ج ٤ ص ١٣٨ عن مسند عثمان بن حنيف، طبع المكتب الإسلامي مؤسسة دار صادر، وقد روى هذا الحديث عن ثلاثة طرق . ٣- صحيح الترمذى ج ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩، الحديث برقم ٣٥٧٨، وقد عرفت كلمته في حق الحديث . ٤- مستدرک الصحيحين للحاكم النيسابوري، الجزء الأول ص ٣١٣ طبع حيدر آباد الهند . قال بعد ذكر الحديث: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه . ٥- المعجم الكبير للطبراني: الجزء التاسع باب (ما أسند إلى عثمان بن حنيف) ص ١٧ برقم ٨٣١١، قال المعلق في ذيل الصفحة: ورواه في الصغير ١/١٨٣ - ١٨٤ وقال: لم يروه عن روح بن أبي القاسم إلا شبيب بن سعيد المكي، وهو ثقة، وهو الذي يحدث يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي، وقد روى هذا الحديث شعبه عن أبي جعفر الخطمي - واسمه عمير بن يزيد - وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس بن شعبه، والحديث صحيح . وبعد هذا كله لا مجال للمناقشة في سند الحديث أو الطعن فيه، كيف والخصم الذي يحاول أن يضعف كل صحيح، فشلت محاولته في حقه، فسلم سنده، ولكن مضي يناقش في دلالتة، وسيوافيك أنها أيضاً محاولة فاشلة . دلالة الحديث

إنّ الحديث يدلّ بوضوح على أنّ الأعمى توسل بذات النبي بتعليم منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فهو وإن طلب الدعاء من النبي الأكرم في بدء الأمر، ولكنّ النبي علّمه دعاء تضمّن التوسل بذات النبي، وهذا هو المهم في تبين معنى الحديث . (٢٣٥)
وبعبارة ثانية: الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران: الأول: إنّ الراوي طلب من النبي الدعاء، ولم يظهر منه توسل بذات النبي . الثاني: إنّ الدعاء الذي علّمه النبي تضمّن التوسل بذات النبي بالصراحة التامة، فيكون دليلاً على جواز التوسل بالذات، وإليك الجمل التي هي صريحة في المقصود:

١-اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك . إنّ كلمة «بنبيك» متعلقة بفعلين: «أسألك» و «أتوجه إليك» والمراد من النبي نفسه المقدسة وشخصه الكريم، لا دعاؤه . إنّ من يقدر كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيك» ويصوّر أنّ المراد: أسألك بدعاء نبيك، أو أتوجه إليك بدعاء نبيك، فهو يتحكم بلا دليل، ويؤوّل بلا جهة، ولو أنّ محدثاً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدرية .

٢- «محمد نبي الرحمة». لكن يتضح أن المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وشخصيته جاءت بعد كلمة (نبيك) جملة «محمد نبي الرحمة» لكن يتضح الهدف بأكثر ما يمكن . ٣- إن جملة «يا محمد إني أتوجه إلى ربي» تدل على أن الرجل - حسب تعليم الرسول - اتخذ النبي نفسه وسيلة لدعائه، أي أنه توسل بذات النبي لا بدعائه . ٤- إن قوله: «وشفعه في»: معناه يا رب اجعل النبي شفيعي وتقبل شفاعته في حقي، وليس معناه تقبل دعاءه في حقي . ٥- فإنه لم يرد في الحديث أن النبي دعا بنفسه حتى يكون معناه: استجب دعاءه في حقي، ولو كان هناك دعاء من النبي لذكره الراوي، إذ (٢٣٦)

ليس دعاؤه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من الأمور غير المهمة حتى يتسامح الراوي في حقه . نعم، إن الراوي طلب الدعاء من النبي، والنبي وعده بالدعاء حيث قال: إن شئت دعوت، ولكن النبي لما علمه دعاء مؤثراً في قضاء حاجته، وسكت عن دعاء نفسه، صار هذا قرينة على أن وعده بالدعاء، كان أعم من الدعاء المباشر أو التسيبي . فالدعاء الذي وعد به النبي هو نفس الدعاء الذي علمه الضرير، فكان دعاء له - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بالتسيب كما كان دعاء للضرير بالمباشرة . فالنقطة المركزية في هذا التوسل هي شخص رسول الله وشخصيته الكريمة، لا دعاؤه، وإن كان دعاؤه - في سائر المواضع - أيضاً مؤثراً مثل التوسل بشخصيته، ومن تأمل في ما ذكرنا من القرائن يجزم بأن المتوسل به بعد تعليم النبي، هو نفس الرسول وشخصيته . ٦- ولنفترض أن معنى قوله: «وشفعه في»: استجب دعاءه في حقي، ونفترض أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مضافاً إلى ما علمه من الدعاء - قام بنفسه أيضاً بالدعاء، ودعا البارئ سبحانه أن يرد إليه بصره، ولكن أية منافاة بين الدعاءين حتى يكون أحدهما قرينة على التصرف في الآخر . فهناك كان دعاء من النبي ولم يذكر لفظه، ودعاء آخر علمه الرسول للضرير وقد تضمن هذا الدعاء التوسل بذات النبي وشخصه، وليس بين الدعاءين أي تراحم وتعارض حتى نجعل أحدهما قرينة على الآخر . تشكيك الرفاعي في دلالة الحديث

إن الخصم قد عجز عن الدفاع عن مذهبه وهو يواجه هذه الرواية، فإنها بصراحتها تقاومه وتكافحها، فعاد يكرر ما ذكره شيخه في رسائله، غير أن شيخه: نقله بصورة الاحتمال، ولكن الرفاعي ذكره بحماس . قال ابن تيمية: «ومن الناس من يقول: هذا يقتضى جواز التوسل بذاته مطلقاً، حياً وميتاً، ومنهم من يقول: هذه قضية عين وليس فيها إلا (٢٣٧)

التوسل بدعائه وشفاعته، لا التوسل بذاته» (١) . ترى أن شيخ الرفاعي ينسبه إلى الغير عن تردد وشك، ولكن الرفاعي عاد يكرر هذا المطلب بثوب جديد، ويدعى أن السائل لم يقصد التوسل بذات الرسول بل بدعائه المستجاب، ويستدل على ذلك بالعبارات التالية: ١- قول الأعمى لرسول الله: ادع الله أن يعافيني . ٢- جواب الرسول له: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت . ٣- إصرار الأعمى على طلب الدعاء منه بقوله: فادعه . ٤- قول الأعمى في آخر دعائه الذي علمه إياه رسول الله: اللهم شفّعه في . فاستنتج من ذلك كله أن المتوسل به هو دعاؤه . ولقد عذب عن المسكين أن الوجوه الثلاثة الأولى لا تمت إلى مقصوده بصله، لما عرفت من أن الأعمى في محاورته مع الرسول لم يكن يخطر بباله إلا طلب الدعاء، ولأجل ذلك طلب منه الدعاء، وأن الرسول لما خيره بين الدعاء والصبر على الأذى، اختار الدعاء ورفض الصبر، غير أن النقطة المركزية للاستدلال ليست هذه المحاورة، وإنما هو الدعاء الذي علمه رسول الله الضرير، فإنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - علمه دعاء يتضمن التوسل بذات النبي: وبعبارة ثانية: كانت هناك حالتان: الأولى: المحاورة الابتدائية التي وقعت بين النبي والضرير، فكان الموضوع هناك دعاء الرسول بلا شك . الثانية: الدعاء الذي علمه الرسول، فإنه تضمن التوسل بذات النبي، فالتصرف في هذا النص بحجة أن الموضوع في المحاورة الأولى هو الدعاء، تصرف عجيب، فإن الأعمى وإن لم يتردد في خلده سوى دعاء الرسول المستجاب، ولكن الرسول علمه دعاء جاء فيه التوسل بذاته. ونحن نفترض أنه كان من الرسول، دعاء غير ما علمه للضرير، ولكن أية ضرورة تقضى بأن نؤول ما ورد في العبارة التي علمها للسائل؟

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٣ . (٢٣٨)

فما هذه الشبه والظنون التي يتمسك بها الرفاعي في سبيل دعم مذهبه؟ بالله عليك أيها الكاتب الوهابي الذي يعيش عيشاً رغداً في الرياض في ظل الثروة الطائلة للسلطة، لولا أنك من القائمين بمنع التوسل بذات النبي، هل كان يخلد ببالك أن المراد من الدعاء الذي

علمه للضرير، هو التوسل بدعاء النبي لا ذاته؟ ولولا أنك قد أخذت موقفاً مسبقاً في الموضوع، هل كان يتردد في ذهنك تأويل ذلك النص؟ وأنت وأشياخك ونظراؤك تصيرون القارعات على الذين يؤولون الصفات الخيرية كاليد والاستواء والوجه، وتصفونهم بالجهمية والمؤولة وغير ذلك من الألفاظ الركيكة، فكيف تسوغون تأويل هذا النص الذي لا يرتاب فيه إلا من اتخذ رأياً مسبقاً؟ وأما قوله: «وشفعه في» فقد قلنا إن المراد: اجعله شافعاً لي، وليس معناه استجب دعاءه في حقى، وإلا لما عدل عن اللفظ الصريح إلى هذا اللفظ الذي ليس بواضح في ما يريدون. والعجب أن الرفاعي يتمسك بالطحلب ويقول: «لو كان قصده التوسل بشخص الرسول أو بحقه أو بجاهه لكان يكفيه أن يبقى في بيته، ويدعوا الله قائلاً- مثلاً: اللهم ردّ بصري بجاه نبيك، دون أن يحضر ويتجشم عناء المشى... ولكن ليس هذا بعجيب ممن اتخذ رأياً مسبقاً في الموضوع، وذلك لأنّ الضرير لم يكن متذكراً هذا النوع من التوسل حتى يجلس في بيته ويتوسل به - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وإنما علمه النبي الأكرم، وما معنى هذا الترقب من الرجل؟. ثم إن الكاتب يدعى أن لفظ الحديث ومفاهيم اللغة العربية وقواعدها كلها تشهد بأنّ معناه هو التوسل بدعاء النبي، ماذا يريد من لفظ الحديث؟ هل يريد المحاوره الأولى التي لا تمت إلى مركز الاستدلال وموضعه بصله، أو يريد الدعاء الذي علمه الرسول؟ فهو يشهد بخلافه؟ (٢٣٩)

وماذا يريد من مفاهيم اللغة العربية وقواعدها، وأية قاعدة عربية تمنع الأخذ بظاهر الدعاء؟ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل!) . إنك إذا قرأت ما جاء به الكاتب من صخب وهياج في ذيل كلامه، لتعجب من عباراته الفارغة وكلماته الجوفاء، التي هي بالخطابة أشبه منها بالبرهان. * * * ٢- التوسل بالنبي بتعليم من الصحابي الجليل

روى الطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقى ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: انت الميضأة، فتوضأ، ثم أتت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك نبينا محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - نبي الرحمة يا محمد! إني أتوجه بك إلى ربي فتقضى لي حاجتي، فتذكر حاجتك، ورح حتى أروح معك. فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة؟ وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : فتصبر! فقال يا رسول الله. ليس لي قائد فقد شقّ علي. فقال النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات... قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا (٢٤٠)

الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط (١). ورواه في المعجم الصغير فقال: لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد، أبو سعيد المكي، وهو ثقة، وهو الذي يحدث عنه أحمد (ابن أحمد) ابن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي واسمه عمير بن يزيد، وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح، وروى هذا الحديث عون بن عماره عن روح بن القاسم، عن محمد بن المنكدر، عن جابر (رضى الله عنه) وهو فيه عون بن عمار، والصواب شبيب بن سعيد (٢). إن دلالة الحديث على جواز التوسل بالنبي أظهر من الشمس وأبين من الأمس، ولكن الكاتب الوهابي أخذ يناقش في الحديث من جوانب أخرى. فقال: «إن هذا الحديث تتجلى فيه آثار الصنع، ويدل عليه أمور: ١- إن ما ذكره لا يوافق سيرة عثمان بن عفان لما اشتهر عنه من الرقة واللين. ٢- إن معنى التوسل عند الصحابة هو دعاء الشخص المتوسل به إلى الله تعالى بقضاء حاجة المتوسل، لا كما يعرفه القوم في زماننا هذا من التوسل بذات المتوسل به. ٣- لو كان دعاء الأعمى الذي علمه رسول الله دعاء ينفع

لكل زمان ومكان، لما رأينا أى أعمى على وجه البسيطة». يلاحظ عليه: أن كل واحد من هذه الوجوه ساقط جداً لا يمكن أن يستدل به على جعل [وضع] الحديث . أما الأول: فلأن المعروف من الخليفة هو تكريم الأقربين والإحسان إليهم، خصوصاً بنى أبيه، لا تعميمه إلى الجميع. هذا هو التاريخ ضبط عطاءه .

١ . المعجم الكبير، للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ج ٩ ص ١٦ - ١٧، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١٠ .

٢ . المعجم الصغير للطبراني ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٤، طبع دار الفكر . (٢٤١)

لمروان بن الحكم خمس غنائم افريقية، والحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم، وقضى ما استقرضه الوليد بن عقبة من عبد الله بن مسعود الذي كان أمين بيت المال في عصر ولاية الوليد على الكوفة، إلى غير ذلك من عطايه إلى بنى أبيه وأقربائه (١) وفي الوقت نفسه كان أبو ذر يعيش في الربذة ويعانى من جوع أليم، يليه في الفقر وبساطة الحياة عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، فلا يمكن أن يقال إن الخليفة كان ينظر إلى الجميع بعين واحدة، وقد كان عمله هذا هو الذي أجهز عليه وانتكث عليه فتله. هذا هو الإمام على - عليه السلام - يصف ذلك العصر بقوله: «إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حَضَيْتَهُ بَيْنَ نَيْلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بُنُو أَبِيهِ يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ نَبْتَهُ الرَّبِيعِ» (٢) .

وفي رسالته إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة يقول: (أَوْ أُبَيْتَ مِبْطَانًا وَحَوْلَى بُطُونٍ غَزَتْ وَأُكْبَادٌ حَزَى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: وَحَبِيبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بِيْطَنَهُ * وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ (٣)

. وهو يشير بذلك إلى الأوضاع السائدة في عصره وعصر من تقدمه . وأما الثانى فهو من: غرائب الكلام، فقد جعل مذهبه دليلاً على ضعف الرواية، وهو أن معنى التوسل عند الصحابة - هو التوسل بدعاء الشخص لا بذاته - فمن أين يدعى أن هذا مذهب الصحابة، وما هو المصدر لذاك الحصر؟ مع أن الحديثين المرويين من طريق ذلك الصحابي الجليل، يدلان على خلافه .

١ . لاحظ في ذلك تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٦٨، والمعارف لابن قتيبة، ص ٨٤، والأنساب للبلادري ج ٥ ص ٥٢ ولاحظ الغدير ج ٨ ص ٢٨٦، تجد فيه قائمة من عطايا الخليفة الهائلة لنبى أبيه .

٢ . نهج البلاغة الخطبة ٣ .

٣ . نهج البلاغة قسم الكتب رقم ٤٥ . (٢٤٢)

وأما الثالث فهو إطاحة بالوحي وازدراء به، ولو صح فلنائل أن يقول: لو صح قوله سبحانه: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (١) يجب أن لا يبقى على وجه البسيطة ذو حاجة . ولو صح قوله: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ...) (٢) يجب أن لا يبقى على وجه البسيطة مضطراً أو فقير، مع أن البسيطة مليئة بالمضطر والمحتاج . نعم، إن الدعاء سبب لنزول الرحمة ودفع الكربة، ولكن ليس تمام السبب لإنجاح المقصود، بل له شروط ومعدات، وله موانع وعوائق، ولأجل ذلك نرى أن كثيراً من الأدعية لا تستجاب مع أنه سبحانه يحث عباده على الدعاء، وأنه يستجيب إذا دعاه ويقول: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ). هذا كله حول مناقشاته في متن الرواية ومضمونه.. هلم معى نستمتع مناقشته في السند: يقول: إن في سند هذا الحديث رجلا اسمه (روح بن صلاح) وقد ضعفه الجمهور، وابن عدى، وقال ابن يونس: يروى أحاديث منكراً. يلاحظ عليه: أن الطبراني نقل الرواية بهذا السند: «حدثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصرى المقرئ، ثنا أصبغ بن الفرخ، ثنا ابن وهب عن أبى سعيد المكي، عن روح بن القاسم، عن أبى جعفر الخطمى المدني، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف» (٣) . كما نقله بهذا السند فى المعجم باختلاف يسير لا يضر بوحدة السند .

١ . سورة غافر: الآية ٦٠ .

٢ . سورة النمل: الآية ٦٢ .

٣. المعجم الكبير للطبراني ج ٩ ص ١٧ وفي المعجم الصغير أصبغ بن الفرج مكان (الفرج). (٢٤٣)

ورواه البيهقي بالسند التالي: «أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد - رحمه الله - أنبأنا الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال، قال: أنبأنا أبو عروبة، حدثنا العباس بن الفرج، حدثنا إسماعيل بن شبيب، حدثنا أبي عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المدني... (إلى آخر السند) (١). وأنت ترى أنه ليس في طريق الرواية «روح بن صلاح» بل الموجود هو روح بن القاسم، والكاتب صرح بأن الرواية رواها الطبراني والبيهقي، وهذا يعرب عن أن الكاتب لم يرجع إلى المصادر وإنما اعتمد على تقوّل الآخرين. نحن نفترض أنه ورد في سند الرواية روح بن صلاح، ولكن ما ذكره من أن الجمهور ضعّفوه أمر لا - تصدقه المعاجم الموجودة فيما بأيدينا، وإنما ضعّفه ابن عدي، وفي الوقت نفسه وثّقه ابن حبان والحاكم. وسيافيك الكلام في حقه في حديث فاطمة بنت أسد، فانتظر. أهكذا أدب نقد الرواية يا شيخ؟ هداك الله إلى النهج القويم. وفي الختام نقول: إن السبكي نقل الرواية عن المعجم الكبير للطبراني بنفس السند الذي نقلناه، وهذا يكشف عن صحة المطبوع (٢). * * * ٤- توسل الخليفة بعم النبي

قبل أن نذكر نص توسل الخليفة عمر بعم النبي: نبتة على أمر وهو: إن سيرة المسلمين في حياة النبي وبعد وفاته تعرب عن أنهم كانوا يتوسلون بأولياء الله، من دون أن يتردد في خلد واحد منهم بأنه أمر حرام أو شرك أبو بدعة، بل كانوا يرون التوسل بدعاء النبي والصالحين رمزاً إلى التوسل بالنبي ومنزلته وشخصيته، فإنه لو كان لدعائه أثر، فإنما هو لأجل قداسة نفسه

١. دلائل النبوة ج ٦ ص ١٦٨.

٢. لاحظ: شفاء السقام ص ١٣٩ - ١٤٠. (٢٤٤)

وطهارة ذاته، ولولاها لما استجيبت دعوته، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء النبي والتوسل بشخصه وذاته؟ حتى يكون الأول نفس التوحيد، والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه؟ لم يكن التوسل بالصالحين والطيبين والمعصومين والمخلصين من عباد الله أمراً جديداً بين الصحابة، بل كان ذلك امتداداً للسيرة الموجودة قبل الإسلام، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك، وإليك البيان: استسقاء عبدالمطلب بالنبي وهو رضيع

إن عبدالمطلب استسقى بالنبي الأكرم وهو طفل صغير، حتى قال ابن حجر: إن أبا طالب يشير بقوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل إلى ما وقع في زمن عبدالمطلب حيث استسقى لقريش والنبي معه غلام (١). استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام

أخرج ابن عساكر عن أبي عرفة، قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام يعني النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة قتما، وحوله أغيلم، فأخذ النبي أبوطالب فألصق ظهره بالكعبة، ولأذ إلى الغلام وما في السماء قرعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدوق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي، والبادي، وفي ذلك يقول أبوطالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢) وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام، بل استسقاء عبدالمطلب

١. فتح الباري ج ٢ ص ٣٩٨ ودلائل النبوة ج ٢ ص ١٢٦.

٢. فتح الباري ج ٢ ص ٤٩٤ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١١٦. (٢٤٥)

به وهو صبي أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس. ويظهر من الروايات أن استسقاء أبي طالب بالنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان موضع رضا منه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فإنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس فجاء المطر وأخصب الوادي فقال النبي: لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه، ومن ينشدنا قوله؟ فقام علي - عَلَيْهِ السَّلَام - وقال: يا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كأنك أردت قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١) إن التوسل بالأطفال في الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع فهذا هو الإمام الشافعي يقول في آداب صلاة الاستسقاء: «وأحب أن يخرج الصبيان، و

يتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبه منهن **ولا أحب خروج ذات الهيبه، ولا أمر بإخراج البهائم** (٢). ما هو الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن، إلا استنزال الرحمه بهم وبقداستهم وطهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أن التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح الستنزال الرحمه وكأن المتوسل يقول: ربي وسيدى، الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وكلتا الطائفتين أحق بالرحمه والمرحمه. فلاجلهم أنزل رحمتك علينا، حتى تعمنا في ظلهم . إن الساقى ربما يسقى مساحه كبيره لأجل شجره واحده، وفي ظلها تسقى الأعشاب وسائر الخضراوات غير المفيده. وعلى ضوء ذلك تقدر على تفسير توسل الخليفه بعم الرسول: العباس بن عبدالمطلب، الذى ستتلوه عليك، وأنه كان توسلا بشخصه وقداسته وصلته بالرسول، وأنه كان امتداداً للسيره المستمره قبل هذا، ولا

١ . إرشاد السارى ج ٢ ص ٣٣٨ .

٢ . الأم ج ١ ص ٢٣٠ . (٢٤٦)

يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصله، وإنما هو شىء اخترعه الوهابيون لحفظ موقفهم المسبق فى هذه المباحث . التوسل بعم النبى - صلى الله عليه وآله وسلم -

ما تعرفت عليه سابقاً كان تقدمه لدراسه هذا الحديث الذى يرويه البخارى فى صحيحه ويقول: «كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب (رضى الله عنه) وقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون» (١) . هذا نص البخارى، وهو يدل على أن عمر بن الخطاب عند دعائه واستسقائه توسل بعم النبى وشخصه وشخصيته، وقداسته وقربته من النبى، لا بدعائه، ويدل على ذلك أمور: ١- قول الخليفه عند الدعاء.. قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا». وهذا ظاهر فى أن الخليفه قام بالدعاء فى مقام الاستسقاء، وتوسل بعم الرسول فى دعائه، ولو كان المقصود هو التوسل بدعائه، كان عليه أن يقول: يا عم رسول الله كنا نطلب الدعاء من الرسول فيسقيننا الله، والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا. ٢- روى ابن الأثير كيفيه الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرماده لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيله إلى الله والمكان منه. وقال حسان: سأل الإمام وقد تابع جدبنا * فسقى الغمام بغره العباس عم النبى وصنو والده الذى * ورث النبى بذاك دون الناس أحيى الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجناب بعد إلباس ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين (٢).

١ . صحيح البخارى، باب صلاة الإستسقاء ج ٢ ص ٣٢ .

٢ . الجزرى: أسد الغابه ج ٣ ص ١١١ طبع مصر. (٢٤٧)

أمعن النظر فى قول الخليفه: هذا والله الوسيله . ٣- ويظهر من شعر حسان أن المستسقى كان هو نفس الخليفه وهو الداعى حيث قال: «سأل الإمام...» وكان العباس وسيلته لاستجابة الدعاء . وأظن أن هذه الروايات الصحيحه لا تبقى شكاً ولا ريباً فى خلد أحد فى جواز التوسل بالصالحين . تشكيك الرفاعى فى دلالة الحديث

يقول الرفاعى: «لا ريب فى أن هذا الحديث صحيح، وما ظنك بحديث يرويه الإمام البخارى» ولكنه بصلافة خاصه به يدعى أنه من قبيل توسل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن، ويقول: إن الحديث يخبرنا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) كلف العباس أن يستسقى للمسلمين ويدعو الله تعالى أن يستسقيهم الغيث **وويين الأسباب الموجهه لتكليف العباس**، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا (١). ثم أضاف: أنه لو كان قصده ذات العباس لكانت ذات النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل وأعظم وأقرب إلى الله من ذات العباس بلا شك ولا ريب، فثبت أن القصد كان الدعاء ولم تكن ذات الرسول مقصوده عندما كان حياً (٢) . لا أظن أن أحداً يحمل شيئاً من الإنصاف تجاه الحقيقه يسوغ لنفسه أن يفسر الحديث بما ذكره، فمن أين يقول:

إن عمر بن الخطاب كلف العباس أن يستسقى للمسلمين، بل الخليفه قام بنفسه بالاستسقاء متوسلاً بعم النبى

١ . التوصل إلى حقيقة التوصل ص ٢٥٣ .

٢ . التوصل إلى حقيقة التوصل، ص ٢٥٣ و ٢٥٦ وقد أخذه من ابن تيمية حيث قال: «وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا في دعائهم في الصحراء: نسألك ونقسم عليك بأنبيائك أو نبيك أو بجاههم، مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٢ . (٢٤٨)

العباس حيث قال: «اللهم إنا نتوسل..» فإن الاستسقاء وظيفة الإمام، وكان الإمام هو الخليفة نفسه لا العباس وقد عقد البخاري باباً وقال: (باب إذا استشفعوا إلى الإمام يستسقى لهم لم يردهم) (١) . ويؤيد أن المستسقى هو الامام ومن كان معه في المصلى، ما رواه المؤرخ الكبير ابن الأثير فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس، عام الرمادة، لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه. وقال حسان: سأل الإمام وقد تتابع جدبنا * فسقى الغمام بغرة العباس عم النبي وصنو والده الذي * ورث النبي بذاك دون الناس أحيى الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجانب بعد الياس ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين (٢) . يقول القسطلاني: إن عمر لما استسقى بالعباس قال: أيها الناس إن رسول الله يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدو به في عمه، واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى . ثم إن الاستسقاء وإن كان يتم بصرف الدعاء، ولكن أفضله هو الاستسقاء بركعتين من الصلاة. وروى البخاري أن النبي استسقى فصلى ركعتين، وقلب رداءه . وروى أيضاً أن النبي خرج إلى المصلى يصلي، وأنه لَمَّا دعا أو أراد أن يدعو استقبل القبلة وحول رداءه (٣) . ولو كان الاستسقاء بإقامة الصلاة، فكانت الإمامة للخليفة، والإتمام للباقيين .

١ . صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٠ .

٢ . أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ١١١ طبع مصر .

٣ . صحيح البخاري ج ٢ ص ٣١ ، أبواب الإستسقاء . (٢٤٩)

ولو تحقق بصورة الدعاء، فكان الدعاء من الخليفة، والمرافقة بالتأمين من غيره. ولا ينافي ذلك أن يكون لكل من المأمومين دعاء على حدة، وراء الدعاء الذي يدعو به الإمام، وقد ضبط متن الدعاء الذي دعا به العباس، وقد نقلوا أنه كان من دعائه : اللهم لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث (١) . ولقد ورد في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت استحباب إخراج الصغار الرضع، والكبار الرضع إلى المصلى، ليكون الحال أنسب لنزول الرحمة الإلهية، فإن الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسير الله في أرضه، وكلتا الطائفتين، أحق بالرحمة والمرحمة، فبركتهم تنزل الرحمة وتعم غيرهم، وبذلك يظهر الجواب عما ذكره الرفاعي من أنه لو كان قصد الخليفة ذات العباس لكان النبي أولى وأقرب إلى الله من ذات العباس - لما عرفت - من أن الهدف من إخراج عم النبي إلى المصلى وضمه إلى الناس، هو استئزال الرحمة، قائلين بأننا لو لم نكن مستحقين لنزول الرحمة لكن عم النبي لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحه من أزمة القحط والغلاء وبالتالي تعم غيره ومن المعلوم أن هذا لا يتحقق إلا بالتوسل بإنسان حي يكون شريكاً مع الجماعة في المصير، وفي عناء العيش ورغده، لا مثل النبي الراحل الخارج عن الدنيا و النازل دار الآخرة، ولو توسل به أيضاً، فإنما هو بملاك آخر، ولم يكن مطروحاً في المقام . * * * ٤- توسل الأعرابي بالنبي نفسه

روى جمع من المحدثين أن أعرابياً دخل على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: لقد أتيناك وما لنا بغير يئط، ولا صبي يغط، ثم أنشأ يقول:

١ . إرشاد الساري، للقسطلاني، ج ٢ ص ٣٣٨ . (٢٥٠)

أتيناك والعدراء تدمى لبانها * وقد شغلت أم الصبي عن الطفل ولا شيء مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الناس إلا إلى الرسل؟ فقام رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يجر رداءه حتى صعد المنبر،

فرفع يديه وقال: اللَّهُمَّ اسقنا غيثاً مغيثاً... فما رد النبي يديه حتى أَلقت السماء... ثم قال: لله در أبي طالب، لو كان حياً لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟ فقام علي بن أبي طالب - عليه السلام - وقال: كأنك تريد يا رسول الله قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل يطوف به الهلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة وفواضل فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: أجل . فأشدد علي - عليه السلام - أبيتاً من القصيدة، والرسول يستغفر لأبي طالب على المنبر، ثم قام رجل من كنانة وأنشد يقول: لك الحمد والحمد ممن شكر * سقينا بوجه النبي المطر (١) دلالة الحديث

إن الإمعان في مجموع الرواية يعرب عن أن الأعرابي توسل بشخص النبي وطلب منه قضاء حاجته، والدليل على ذلك الأمور التالية: أ - أتيناك وما لنا بغير يئط . ب - أتيناك والعذراء تدمى لبانها . ج - وليس لنا إلا إليك فرارنا .

١ . السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٦، لاحظ فتح الباري ج ٢ ص ٤٩٤ والقصيدة المذكورة في السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٨٠ (٢٥١) .

د - واين فرار الناس إلا - إلى الرسل؟ هـ - إنشاء علي بن أبي طالب شعر والده، وهو يتضمن قوله: «وأبيض يستسقى الغمام بوجهه» . روى ابن عساكر عن أبي عرفة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا ابا طالب! أقحط الوادي وأجدب، فهلهم واستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبغه الغلام وما في السماء قرعة، فأقبل السحاب من هيهنا وهيهنا وأغدق وأغدودق، انفجر له الوادي، وأخصب البادي والنادى، وإلى تلك الحادثة يشير أبو طالب في شعره: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١) فمماثلة الحادتين تحكم بأن التوسل كان بذات النبي، كما كان توسل أبي طالب بنفس النبي. و - قول رجل من كنانة في شعره، «سقينا بوجه النبي المطر» . كل ذلك يعرب عن أن التوسل كان من الأعرابي وغيره بنفس النبي . نعم إن النبي الأكرم قام بالدعاء، فلا يكون دعاء النبي قرينه على أن الأعرابي توسل بدعائه، إذ لا منافاة بين أن يكون توسله بشخص النبي وكرامته وفضيلته، وبين أن يقوم النبي بقضاء حاجته (استتزال المطر) بطلبه من الله سبحانه . فمن يريد أن يؤول هذه النصوص ويجعلها من قبيل التوسل بالدعاء، فهو إنما يحاول دعم رأيه المسبق . نقد ما ذكره الرفاعي

إن الشيخ الرفاعي لكونه قد اتخذ موقفاً مسبقاً خاصاً في التوسل بالأنبياء _____

١ . مر المصدر. (٢٥٢)

والصالحين، تجشم عناء تأويل نصوص الأحاديث بما يتبناه، ولما كان الحديث صريحاً في التوسل بنفس النبي صار يعترض على هذه الدلالة قائلاً بأن الأعرابي جاء إلى النبي لأن يدعوا الله لهم بأن يستسقيهم الغيث، وإلا لبقى الأعرابي في منزله، واكتفى أن يقول وهو في بيته: اللَّهُمَّ اسقنا الغيث بجاه نبيك، أو بذات نبيك، ولما تجشم المجيء من أهله وبيته إلى النبي في المدينة (١) . يلاحظ عليه: أنه لا منافاة بين الأمرين حتى يكون أحدهما قرينه على الأخرى، حتى يتصرف في النصوص بتفسيرها الخاص بالتوسل إلى الدعاء، فالأعرابي توسل بذات النبي، ولا يهّمه سوى قضاء حاجته من أي طريق كان، سواء أتحقق بدعاء النبي أم بإعجازه وكرامته، وأما أنه لماذا تجشم عناء المجيء من أهله وبيته إلى النبي ولم يكتف بالتوسل نفسه فلأنه كان يرى للمثول أمامه فضيلة وكرامة، أو أن توسله بشخصه إذا انضم إليه دعاء النبي يوجب قضاء حاجته ولا يتحقق إلا - بالحضور لديه، فلأجل ذلك جاء إلى النبي وتوسل بشخصه وشخصيته، فصار ذلك سبباً لقيام النبي، ولا يعنى هذا أنه توسل بدعائه - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ لا منافاة بين أن يتوسل الأعرابي بشخصه، وبين أن يكون هذا داعياً للنبي أن يقوم بالدعاء، فلا يكون دعاؤه قرينه على كيفية التوسل . وأخيراً يؤخذ الرفاعي بأنه ذكر متن الحديث بصورة مختصرة، فترك ما ذكرناه من القرائن، ولم يشر إلى المصادر الكثيرة التي نقلت هذا الحديث . المناقشة في سند الحديث

جاء الرفاعي يناقش في سند هذا الحديث بأن في سنده (مسلم الملائي)، ونقل عن علماء الرجال أنه متروك، وقال أحمد: لا يكتب حديثه. وقال يحيى: ليس بثقة، وقال البخاري: يتكلمون فيه، وقال يحيى أيضاً: زعموا أنه اختلط، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال

الذهبي: إنه روى

١. التوصل إلى حقيقة التوسل ص ٢٩١ وقد أخذه من شيخه ابن تيمية. لاحظ مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٣. (٢٥٣)
 حديث الطير المذى أهدته أم أيمن لرسول الله، وحديث الطائر موضوع عند أهل الحديث. أقول: إن ذيل العبارة يكشف عن الدافع الذي دفع هؤلاء إلى تضعيف الرجل، وهو ليس إلا كونه ناقلاً لفضيلة ساطعة للإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام -. روى أحمد بن حنبل بسنده عن سفينة مولى رسول الله قال: أهدت امرأة من الأنصار إلى رسول الله طيرين بين رغيفين، فقدمت إليه الطيرين، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: أَللَّهِمَّ ائْتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ وَإِلَى رَسُولِكَ، فجاء علي - عليه السلام - فرفع صوته، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: من هذا؟ قلت: علي، قال: فافتح له، ففتحت له فأكل من الطير مع النبي حتى فنيا(١). وعلى ضوء هذا لا تقام لهذا التضعيف قيمة. ٥- توسل المنصور بالنبي بتعليم مالك

إن المنصور الدوانيقي سأل مالك بن أنس، إمام المالكية، عن كيفية زيارة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - والتوسل به، فقال لمالك: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو. أم أستقبل رسول الله؟ فقال مالك في جوابه: لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله، قال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)(٢). _____

١. فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ج ٢ ص ٥٦٠ ورواه غيره لاحظ العمدة لابن البطريق ص ٢٤٢ - ٢٥٣.

٢. وفاء الوفاء ج ٢ ص ٢٥٣، النساء: ٦٤. (٢٥٤)

وقد نقل ابن حجر الهيتمي عن الإمام الشافعي هذين البيتين: آل النبي ذريعتي * وهم إليه وسيلتي أرجو بهم أعطى غداً * بيدي اليمين صحيفتي(١) هذه النقول والنصوص من أئمة الأمة ومشاهير تكشف عن أمرين: ١- إن التوسل بالصالحين - وفي الطليعة الأنبياء العظام - كان أمراً رائجاً بين المسلمين، ولم يخطر ببال أحد أنه شرك، كما لم يخطر ببالهم التفريق بين التوسل بأشخاصهم وذواتهم، ولم يصنع هذا التفريق سوى الوهابيين الذين يسعون في الحط من منزلة الصالحين ومكانتهم، ويجعلون التوسل بدعائهم كالتوسل بدعاء الأخ المؤمن، وإنه لا فرق بين هذا وذاك، وهم وإن كانوا لا يصرحون بهذه التسوية، لكنهم يكونون ذلك ويضمرونه. ٢- إن هذه النصوص تفسر لنا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(٢). فإن الوسيلة سواء أفسرت بمعنى القرابة والمنزلة والدرجة، كما عليه أكثر المفسرين مأخوذاً من قولهم توسلت إليه، أي تقربت. قال عنتر بن شداد: إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك تلجلجي وتحصني ويقال: وسل إليه، أي: تقرب. قال ليبيد: بلى كل ذي رأى إلى الله واسل. وعليه فمعنى الوسيلة: الوصلة والقربة. أم فسرت بما يتقرب به إلى الغير ويجمع على الوسائل والوسل، كما عليه أهل اللغة، قال الجوهرى فى صحاحه: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل، وتوسل إليه بوسيلة أى: تقرب إليه بعمل. وفى القاموس: الوسيلة والواسطة: المنزلة عند الملك والدرجة والقربة. _____

١. الصواعق المحرقة ص ١٧٨.

٢. سورة المائدة: الآية ٣٥. (٢٥٥)

وفى المصباح: وسلت إلى الله بالعمل: رغبت وتقربت، ومنه اشتقاق الوسيلة، وهى ما يتقرب به إلى الله، والجمع الوسائل، وعلى أى تقدير: فالتوسل بالصالحين بما لهم من مكانة ومنزلة عند الله، إما أنه بذاته تقرب إلى الله تعالى، لأن إظهار المودة لمن يحبه الله محبوب وعمل صالح، أو وسيلة يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه، فهذه النقول تعرب عن مصداق للوسيلة فى عرض سائر المصاديق من الأعمال الصالحة والعبادات، خصوصاً الجهاد ضد العدو الداخلى والخارجى الذى جاء فى ذيل الآيه، فتخصيص الوسيلة بالعبادات والاستغفار تخصيص بلاهه. إلى هنا تم الكلام حول التوسل بالصالحين أنفسهم وذواتهم، وبقي الكلام فى التوسل بمنزلتهم وكرامتهم وحقهم، وإليك البيان: (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)(١). _____

١ . سورة القصص: الآية ٦٩ . (٢٥٦)

التوسل إلى الله بحق النبي وحرمة ومنزلته

التوسل إلى الله بحق النبي وحرمة ومنزلته

إنّ من التوسلات الرائجة بين المسلمين منذ وقعوا في إطار التعليم الإسلامي، التوسل بمنازل الصالحين وحقوقهم على الله. وليس معنى ذلك أنّ للعباد أو لبعضهم على الله سبحانه حقاً ذاتياً يلزم عليه سبحانه [عدم] الخروج عنه، بل لله سبحانه الحق كله، فله على الناس حقّ العبادة والطاعة إلى غير ذلك، بل المراد المقام والمنزلة التي منحها سبحانه عباده تكريماً لهم، وليس لأحد على الله حقّ إلا ما جعله الله سبحانه حقاً على ذمته لهم تفضلاً وتكريماً، قال سبحانه: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (١). وسيوافيك تفصيل ذلك عند البحث عن أحلاف الله سبحانه بحق المخلوق، فانتظر. إنّ هذا النوع من التوسل لا يفتقر عن التوسل بذات النبي وشخصه، فإنّ المنزلة والمقام مرآة لشخصه وذاته، فإنّ حرمة الشخص وكرامته ومنزلته نابعة من كرامته ذاته وفضيلتها، فلو صحّ التوسل بالأول كما تعرفت عليه من الأحاديث، يصحّ الثاني من دون إشكال أو إبهام. ويدلّ عليه من الأحاديث ما نذكره: _____

١ . سورة الروم: الآية ٤٧ . (٢٥٧) أ - التوسل بحق السائلين

روى عطية بن العوفى عن أبى سعيد الخدرى أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهمّ إننى أسألك بحقّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشأى هذا، فإننى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أن تعيذنى من النار وأن تغفر ذنوبى إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت. إلا أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك» (١). فالحديث واضح مضموناً، ويدل على أنّ للإنسان أن يتوسل إلى الله بحرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم وجاههم، فيجعلها وسيلة لقضاء حاجته. إنّ الكاتب الوهابى الرفاعى، حيث لم يجد ضعفاً فى الدلالة، أخذ يضعف سند الحديث، قائلاً بأنّ «فى سنده عطية العوفى وهو ضعيف» (٢). أقول: إنّ الدافع الوحيد لتضعيف عطية، ذلك التابعى الشهير، كما وصفه به الذهبى فى ميزان الاعتدال هو تشييعه وولائه لعلى وآله - عليهم السّلام - ، ولأجل ذلك نرى أنّ الذهبى ينقل عن سالم المرادى: «كان عطية يتشيع»، وإنّ التشيع أحد وجوه التضعيف لدى القوم، ومع ذلك قال أبو حاتم: يكتب حديثه، ضعيف، وقال ابن معين: صالح. وقال ابن حجر فى تقريب التهذيب: «عطية بن سعد بن جنادة العوفى الجدلى الكوفى أبو الحسن صدوق يخطئ كثيراً، كان شيعياً مدلساً» (٣) وقال فى تهذيب التهذيب: قال ابن عدى: قد روى عن جماعة من الثقات، ولعطية عن أبى سعيد أحاديث عدة، وعن غير أبى سعيد، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدّ من شيعه أهل الكوفة. قال الحضرى: توفى سنة إحدى عشرة ومائة. _____

١ . سنن ابن ماجه، ج ١ ص ٢٥٦، الحديث برقم ٧٧٨ ومسند الإمام أحمد، ج ٣، ص ٢١.

٢ . التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ٢١٢ .

٣ . تقريب التهذيب، ج ٢ ص ٢٤، برقم ٢١٦ . (٢٥٨)

وقال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سبّ على - إلى أن قال - وكان ثقة إن شاء الله، وله أحاديث صالحة. كان أبو بكر البزار يعده فى التشيع، روى عن جملة الناس. وقال الساجى: ليس بحجة، وكان يقدم علينا على الكل (١). وهذه النصوص تعرب عن تضارب الأقوال فى حقه، كما تكشف عن أنّ الدافع المهم لتضعيفه، تشييعه وحبّه وولائه وتقديمه علينا، وهل هذا ذنب؟. إنّ لوضع الحديث دوافع خاصة يوجد أكثرها فى أبواب المناقب والمثالب وخصائص البلدان والقبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبعد الموروثه من اليهود والنصارى فى أبواب التجسيم والجهة والجنة والنار، وأمّا مثل هذا الحديث الذى يعرب بوضوح عن أنه كلام إنسان خائف من الله سبحانه، ترتعد فرائضه من سماع عذابه، فبعيد عن الوضع والجعل ب - توسل النبي بحقه وحق من سبقه من الأنبياء

روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه، أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على - رضى الله عنهما - دخل عليها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمي. كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعينني، وتعرين وتكسينني، وتمنعين نفساً طيباً وتطعمينني، تريدن بذلك وجه الله والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور، سكب رسول الله بيده، ثم خلع رسول الله قميصه فألبسها إياه، وكفنها ببرد فوقها، ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد، حفره رسول الله بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه وقال: «الله الذي يحيى ويميت وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك

١. تهذيب التهذيب، ج ٧ ص ٢٢٧، برقم ٤١٣. (٢٥٩)

والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين»، وكبر عليها أربعاً، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر. رواه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ). والاستدلال به مبنى على تمامية الرواية سنداً ومضموناً، وإليك البحث فيهما معاً: ١- رواه الطبراني في المعجم الأوسط، ص ٣٥٦ - ٣٥٧، وقال: لم يروه عن عاصم إلا سفيان الثوري، تفرد به «روح بن صلاح». ٢- ورواه أبو نعيم من طريق الطبراني في حلية الأولياء: ٣/١٢١. ٣- رواه الحاكم في مستدركه، ج ٣، ص ١٠٨، وهو لا يروى في هذا الكتاب إلا الصحيح على شرط الشيخين (البخاري و مسلم). ٤- رواه ابن عبد البر في الإستهباب. لاحظ هامش الإصابة، ج ٤، ص ٣٨٢. ٥- نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١٨ - برقم ١٧. ٦- ورواه الحافظ نور الدين الهيثمي المتوفى سنة ٧٠٨ هـ في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٩ ص ٢٥٦ - ٢٥٧. وقد جمع فيه زوائد مسند الإمام أحمد، وأبي يعلى الموصلي أبي بكر البزاز، ومعجم الطبراني الثلاثة، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. ٧- رواه المتقى الهندي في كتر العمال، ج ١٣، ص ٦٣٦، برقم ٣٧٦٠٨. هؤلاء الحفاظ نقلوا الحديث في جوامعهم، وصرّحوا بأن رجال السند رجال الصحيح، وأنه لو كان هناك ففى روح بن صلاح، وقد وثقه العلمان: ابن حبان والحاكم. (٢٦٠)

وقال الذهبي: روح بن صلاح المصري، يقال له ابن سيابة، ضعفه ابن عدي، يكتنّى أبا الحارث، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحاكم: ثقة مأمون (١). ولكن الكاتب الوهابي المعاصر يقول في سند الحديث: إن هذا الحديث غير صحيح لأن في سنده رجلا هو روح بن صلاح وقد ضعفه الجمهور، وقد روى أحاديث منكراً، كما صرح بذلك ابن يونس وابن عدي (٢). وأنت خير بأنه إنما ضعفه (ابن عدي) وأين هذا من قوله: وقد ضعفه الجمهور، أليس ابن حبان من أعلام الحديث ورجاله؟ أو ليس الحاكم هو الحفاظ الكبير الذي استدرك على صحيحى الشيخين بما تركاه؟ إن الإنسان إذا اتخذ موقفاً مسبقاً في الموضوع، يحاول أن يضعف الصحيح والقوى، ويقوى ويصحح الضعيف، وعلى كل تقدير فليس لنا ترك هذا الحديث وعدم العمل به بمجرد تضعيف ابن عدي لتوثيق غيره. وأظن - وظن الألعى صواب - أن الدافع إلى تضعيف نظراء روح بن صلاح هو ولاؤه ومودته لأهل بيت النبوة، حيث نقل هذه الدرّة الباهرة في حق أم سيد الأوصياء. هذا كله حول السند، وأما الدلالة فلا أظن أن من يملك شيئاً من الإنصاف يشك في دلالة الحديث على توسل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بحقه وحق أنبيائه. ج - توسل آدم بحق النبي

روى البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لما اقترف آدم الخطيئة قال: ربى أسألك بحق محمد لما غفرت لى، فقال الله عز وجل: يا آدم. كيف عرفت محمداً ولم أخلقك؟ قال: لأنك يا

١. ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٨٥، رقم ٢٨٠١.

٢. التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ٢٢٧. (٢٦١)

رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى إسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله - عز وجل - : صدقت يا آدم. إنه لأحب الخلق إلىّ وإذ سألتني بحقه فقد

غفرت لك. ولو لا- محمد ما خلقتك . قال البيهقي: تفرد به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، من هذا الوجه عنه، وهو ضعيف (والله أعلم) (١). إنَّ الشيخ الرفاعي لما رأى صراحة الحديث في التوسل بحق النبي أخذ يناقش في الحديث من جهات أخرى، وإليك بيانه: ١- إنَّ الحديث تضمّن الإقسام على الله بمخلوقاته، وهو أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على الله بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنَّ الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنه شرك لأنه حلف بغير الله، فالحلف على الله بمخلوقاته من باب أولى . يلاحظ عليه: أنه سيوافيك جواز الحلف بالمخلوق، سواء حلف بمخلوق على مخلوق أو بمخلوق على الله، وأن القرآن ملئ بالإقسام بالمخلوقات، فلو كان أمراً حراماً أو ذريعاً إلى الشرك أو الشرك نفسه لما حلف سبحانه بمخلوقاته، وسيوافيك توضيحه، ولا يلزم الحلف بالمخلوق جعله في مرتبة الخالق، بحجة «إننا نحلف بالله فلو حلفنا بمخلوقه يلزم من ذلك جعله في مرتبة الخالق»، كيف ونحن نطيع الله سبحانه ونطيع رسوله، فهل يتصور من ذلك أننا جعلنا الرسول في مرتبة الخالق؟ قال سبحانه: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ...)(٢)، قال سبحانه: (أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ)(٣)، أفيلزم من ذلك أن يكون الوالدان في رتبة الخالق

- ١ . دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٣٨٤ - م ٤٥٨ هـ) طبع دار الكتب العلمية - بيروت، ج ٥، ص ٤٨٩ .
- ٢ . سورة النساء: الآية ٥٩ .
- ٣ . سورة لقمان: الآية ١٤ . (٢٦٢)

لأنه سبحانه أمر بشكر نفسه وشكر الوالدين . إنَّ الحلف لا يستلزم أزيد من كون المحلوف به أمراً عظيماً عزيزاً لاثقاً بالحلف به، وأما كونه في درجة الخالق فزعم عجيب واستدلال غريب . وأمّا كونه شركاً فقد عرفت أن المقصود هو الشرك في العبادة، والعنصر المقوم لتحقيقها هو الاعتقاد بكونها إلهاً أو رباً أو مفوضاً إليه فعله سبحانه، والمفروض عدمه . ترى أن الكاتب يجعل معتقده دليلاً على بطلان الحديث وضعفه، وهكذا أدب النقدي؟ . ٢- إنَّ الحوار الوارد في الحديث كان بعد اقتراب الخطيئة، ولكنه قبل أن يخطيء، علمه الله الأسماء كلها، ومن جملة الأسماء كلها اسم محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وعلم أنه نبي ورسول، وأنه خير الخلق أجمعين، فكان أحرى أن يقول آدم: ربي إنك أعلمتني به أنه كذلك، لما علمتني الأسماء كلها . يلاحظ عليه: أن المسكين زعم أن المراد من الأسماء أسماء الموجودات، وغفل عن أن المراد هو العلم بحقائق الكون وقوانينه وسننه ورموزه بقريته قوله سبحانه: «ثم عرضهم على الملائكة» فلو كان المراد الأسماء لكان الأنسب أن يقول: ثم عرضها، على أنه لا فضيلة رابية في تعلم أسماء الموجودات وألفاظها . سلمنا أن المراد ما ذكره، لكن الظاهر من الحديث أنه وقف على ذلك بعد الخلقة ونفخ الروح فيه، قبل أن يحظى بتعلم الأسماء كلها، حيث قال: لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحي، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش... والمتبادر من العبارة أن هذا العلم كان علماً خاصاً جزئياً وقف عليه بعد فتح عينيه على الحياة في الجنة، قبل تعلمه جميع الأسماء، وأما هو فقد كان مرحلة أخرى أوسع من هذا العلم، بل لا يقاس عليه . وبالجملة: إنَّ الحديث لا غبار عليه من حيث الدلالة. نعم يقع الكلام (٢٦٣)

في السند. فقد ورد فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ضعفه الذهبي اعتماداً على تضعيف أحمد وغيره (١). ولكن الحاكم النيسابوري أوردته في مستدركه، قائلاً بصحته (٢). وعلى ذلك فليس الخبر على حد يحكم عليه بالوضع والجعل، كما يصر عليه الرفاعي بل هو كسائر الأحاديث التي اختلف العلماء في تصحيحها، فلو لم يكن دليلاً على المدعى يكون مؤيداً له، كيف وقد رواه جلال الدين السيوطي في تفسيره (٣). وهناك نكتتان ننبه عليهما: الأولى: إنَّ أحاديث التوسل وإن كانت تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، لكن المجموع يعرب عن تضافر المضمون وتواتره، فعند ذلك تسقط المناقشة في أسنادها بعد ملاحظة ورود كمية كبيرة من الأحاديث في هذا المجال، وأنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، وما يوافيك، تدعن بتضافر المضمون أو تواتره . الثانية: نحن نفترض أن الحديث الراهن مجعول موضوع، ولكنه يعرب عن أن التوسل بالمخلوق والإقسام على الله بمخلوقاته ليس شركاً ولا ذريعاً

إليه، بل ولا- حراماً . وذلك لأنه لو كان شركاً وذريعةً إليه أو حراماً، لما رواه الرواة الثقات واحد عن واحد، وهم أعرف بموازين الشرك ومعاييره، ولما أورده الأكابر من العلماء في المعاجم الحديثية، كالبيهقي في دلائل النبوة، والحاكم في مستدركه، والسيوطي في تفسيره، والطبراني في المعجم الصغير، وأكابر _____

١ . ميزان الاعتدال، ج ٢ ص ٥٦٤ .

٢ . المستدرک على الصحيحين، ج ٢ ص ٦١٥ .

٣ . الدر المنثور، ج ١ ص ٥٩، ونقله كثير من المفسرين عند تفسير الآية . (٢٦٤)

المفسرين في القرون الغابرة، لأنَّ الشرك أمر بين الغيِّ، فلا- معنى ولا- مسوِّغ لنقله بحجة أنه رواية . فكل ذلك يعرب عن الفكرة الخاطئة في توصيف الحلف على الله بمخلوقاته شركاً (١) . * * * * (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (٢) . _____

١ . قد تركنا البحث عن التوسل بجاه النبي الوارد في كلام الرفاعي لأنه ليس قسماً ثالثاً، بل داخلاً في القسم الثاني، أي التوسل بحقه .

٢ . سورة المرسلات: الآية ٥٠ .

التوسل بدعاء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

التوسل بدعاء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

قد تعرفت في صدر البحث على أن ابن تيمية وأتباعه يجوزون التوسل بدعاء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في حال حياته، ويجعلونه من التوسلات الجائزة الداخلة في إطار «التوسل بدعاء الأخ المؤمن» ولكنهم يخصونه بحال حياته، ويحرّمونه بعد رحلته، قال ابن تيمية: «أجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به حال حياته ويتوسلون بحضرته، وأما في مغيبه أو بعد موته فلم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية ومن كان يحضرهما من الصحابة والتابعين لما أجدبوا استسقوا بمن كان حياً كالعباس ويزيد بن الأسود، ولم ينقل عنهم أنهم في هذه الحالة استشفعوا بالنبي عند قبره ولا غيره، بل عدلوا إلى خيارهم... ثم إنَّ المسلمين بعد موته إنما توسلوا بغيره من الأحياء بدلا عنه، فلو كان التوسل به - حياً وميتاً - مشروعاً لم يميلوا عنه وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، إلى غيره ممن ليس مثله. فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون، وهم أعلم منا برسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وما ينفع، وما لا يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضروره ومخمسه يطلبون تفرج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق، دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه، ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أن التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو من جنس مسألته أن يدعو، فما زال المسلمون (٢٦٤)

يسألونه ليدعو لهم في حياته، وأما بعد موته فلم يسأل الصحابة منه ذلك، لا عند قبره ولا عند غيره كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصحالين (١) . وقد علق السيد محمد رشيد رضا مؤلف المنار على هذا الموضوع بقوله: «يزعم بعض الناس في زماننا أنه لا فرق في طلب الدعاء والشفاعة منه بين هذه الحياة والممات، لأنه حتى في قبره وكأنهم يدعون أنهم أعلم من الصحابة وسائر أئمة السلف بذلك، فالصحابه - رضی اللهُ عنهم - فرقوا بين الحالين، وإن شئت قلت بين الحياتين، والأمر التعبدية لا تشرع بالعقل ولا بالقياس (٢) . يلاحظ عليه: أن المعروف أن السنّة عبارة عن قول المعصوم وفعله وتقريره، فالحجة عبارة عن أحد هذه الأمور، ونحن نفترض أن الصحابة بأجمعهم من المعصومين. فإن أقصى ما يمكن أن يحتج به هو أن فعل الصحابة دليل على جواز الفعل، وأما أن تركهم دليل على حرمة، وعدم جوازه، فمن عجائب الأمور وغرائبها، ولم يعهد هذا الاستدلال من أهل الفتوى والدليل. وأما عدول الصحابة عن التوسل بدعاء النبي في حال مماته، إلى التوسل ببعض أهل بيته فقد ذكرنا وجهه، وهو: أن التوسل بالإنسان الصالح الحي لأجل إظهار أن ذلك الفرد يتحد مع المتوسلين في المصير، وأنه لولا نزول الرحمة لعمّة الهلاك والدمار مثلهم، وبما أنه صالح لنزول الرحمة عليه،

فلتنزل رحمتك عليه يا رب فإنه أهل لذلك، وإن كنا غير مستحقين لها . ومن المعلوم أن ترسيم هذا، الذي هو أحد الأسباب لاستنزال الرحمة، إنما يتحقق بالصالح الحي دون غيره، لأن غير الحي ليس متحداً في المصير مع الأحياء، ولأجل ذلك نرى الصحابة يتوسلون بالحي دون غيره، وما هذا إلا _____

١ . مجموعة الرسائل والمسائل، ج ١ ص ١٤ .

٢ . المصدر نفسه . (٢٦٧)

لأجل ذلك. وقد أشار إلى ذلك «السبكي» وقال: ليس في توسله بالعباس إنكار للتوسل بالنبي أو بالقبر، ولعل توسل عمر بالعباس لأمرين: أحدهما: ليدعو كما حكينا من دعائه . الثاني: إنه من جملة من يستسقى وينتفع بالسقيا وهو محتاج إليه، بخلاف النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في هذه الحالة فإنه مستغن عنها، فاجتمع في العباس الحاجة وقربه من النبي وشيبهه، والله يستحي من ذى الشبهة المسلم، فكيف من عم نبيه، ويجب دعاء المضطر فلذلك استسقى عمر بشيئته (١) . هذا ويصرح الذكر الحكيم بأنه ما نفع إيمان قوم بعد إشراف العذاب عليهم، إلا قوم يونس، قال سبحانه: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) (٢) .

ذكر المفسرون: إن قوم يونس لما عاينوا العذاب، أشار إليهم العالم الموجود فيهم بقوله: افزعوا إلى الله فلعلة يرحمكم ويرد العذاب عنكم، فاخرجوا إلى المفازة وفرقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوان وأولادها، ثم ابكوا وادعوا. ففعلوا فصرف عنهم العذاب (٣) . ولم يكن هذا العمل إلا - لأجل استنزال الرحمة على النحو الذي عرفت . نعم، ما ذكره في آخر كلامه من أنه أمر عبادة يحتاج إلى الدليل فهو كلام متقن، ولكنه ليس معناه أن يكون الدليل المطلوب دليلاً بالخصوص، بل لو كان هناك عام أو إطلاق حول التوسل بدعاء النبي فيؤخذ بإطلاقه، سواء أكان النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في دار التكليف أم في البرزخ، وإليك البيان:

١ . شفاء السقام: ص ١٤٣ - ١٤٤ .

٢ . سورة يونس: الآية ٩٨ .

٣ . مجمع البيان: ج ٣ ص ١٣٥ . (٢٦٨)

وهو يتوقف على بيان أمور: ١- بقاء الروح بعد الموت

دلت الآيات القرآنية على بقاء الروح بعد الموت، وأن الموت ليس بمعنى فناء الإنسان، بل هو عبارة عن انخلاع الروح عن البدن، وبقائه مستقلاً عنه، من غير فرق بين المسلم وغيره، والمقتول في سبيل الله وغيره، والآيات في ذلك متضاربة . قال سبحانه: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) (١)، وهناك آيات تشير إلى موادها، ومن أراد التوسع في الموضوع: فليرجع إليها (٢) . ٢- الحقيقة الإنسانية هي الروح

إن الإنسان وإن كان بحسب التحليل الظاهري يتركب من شيئين: المادة والمعنى، والجسم والروح، ولكن الحقيقة الإنسانية عبارة عن نفس الإنسان وروحه، ولأجل ذلك يردّ الوحي الإلهي على من زعم أن البدن الإنساني يضل في العالم بعد الموت، حيث حكى عنهم قولهم: (وَقَالُوا أَتَدْنَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتُنَا لِنَفِي خَلَقَ جَدِيد) فردّ عليهم بقوله: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (٣) .

ومعنى التوفى في الآية هو الأخذ، ومعنى الآية أن تنثر أجزاء البدن في أجواء العالم وثناياه، لا يضر بالمعاد، فإن الحقيقة الإنسانية وواقعيتها محفوظة عند الله، وأن ملك الموت يأخذكم، وليس المأخوذ إلا الروح . _____

١ . سورة البقرة: الآية ١٥٤ .

٢ . لاحظ: سورة آل عمران: الآية ١٦٩ - ١٧١، سورة يس: الآية ٢٥ - ٢٦، سورة غافر الآية ٤٦ .

٣. سورة السجدة: الآية ١٠ - ١١. (٢٦٩) ٣- إمكان الاتصال بالأرواح

إنّ الذكر الحكيم يصدق صحه اتصال الإنسان العائش في الدنيا بالأرواح المتواجدة في عالم البرزخ، ويصرّح بأنّ بعض الأنبياء كصالح وشعيب كلّموا أرواح أممهم الهالكه، ويظهر ذلك بالإمعان في الآيات التالية: يقول في حق أمه شعيب: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيِبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْيِبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ) (١).

ترى أن قوله: «فتولّى عنهم» جاء بعد الإخبار بدمارهم وهلاكهم كما هو صريح سياق الآيات، وعندئذ خاطب الهالكين بقوله: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي...». ويقول في حق أمه صالح: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَهُ رَبِّي وَنَصَيْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُجِيبُونَ النَّاصِحِينَ) (٢).

وكيفية الاستدلال واضحة بعد التدبر في ما ذكرناه، فإنّ المخاطبة والمحاورة وقعت بعد هلاكهم، فلا يمكن لنا رفض سياق الآية والقول بأنه كلمهم في حال حياتهم. إنّ الذكر الحكيم يأمر النبي بسؤال المرسلين ويقول: (وَأَسْأَلُ مَنْ _____

١. سورة الأعراف: الآية ٩١ - ٩٣.

٢. سورة الأعراف: الآية ٧٧ - ٧٩. (٢٧٠) أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن إلهة يعبدون) (١).

وتأويل الآية بإرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب تأويل بلا دليل، ولا منافاة بينهما حتى يرجع أحدهما إلى الآخر. إنّ المسلمين جميعاً يخاطبون النبي بالسلام في حال التشهد، ويقولون: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وقد اتفق الفقهاء على كونه جزءاً من التشهد (٢). وفي ضوء هذه الأمور الثلاثة تثبت إمكانية التوسل بالأرواح المقدسة، فالأولياء والأنبياء من جانب أحياء يرزقون، من جانب آخر، إنّ حقيقة الإنسان هي النفس الباقية بعد الموت أيضاً، ومن جانب ثالث، إنّ الأنبياء كلّموا أرواح أممهم الماضية. كل ذلك يدل على إمكانية الاتصال بهم ووقوعه، وأنهم يسمعون كلامنا وسلامنا ومحاورتنا. بقي الكلام في جواز التوسل شرعاً، حتى يكون تعبداً مع الدليل. إنّ الذكر الحكيم يحثّ المذنبين على المجيء إلى النبي وطلب الاستغفار منه يقول: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَعَفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) (٣) والمتبادر إلى أذهاننا في هذا الزمان اختصاص الآية بحال حياة النبي، ولكن الصحابة فهموا منه الأعم من حال الحياة والارتحال إلى الرفيق الأعلى، ويدل على ذلك ما نذكر: ١- روى البيهقي عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب فجاؤا رجل إلى قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا رسول الله. استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله في المنام وقال: ائت عمر _____

١. سورة الزخرف: الآية: ٤٥.

٢. الخلاف، للشيخ الطوسي، ج ١ ص ٤٧، وقد نقل صوراً مختلفة للتشهاد عن أئمة المذاهب والكل يشتمل على خطاب النبي بالسلام

٣. سورة النساء: الآية ٦٤. (٢٧١)

فاقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون (١). فالحديث يعرب عن أنّ التوسل بدعاء النبي بعد رحلته كان رائجاً، ولو كان عملاً محرماً أو بدعة فلماذا توسل هذا الرجل بدعائه؟ ولماذا بكى الخليفة بعد سماع كلامه، كما هو في ذيل الحديث؟ يقول السهودي بعد نقل الحديث: ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو في البرزخ، ودعاؤه لربه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا (٢). ٢- روى ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فزرته وجلست بحدائنه، وجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل! إنّ الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: (ولو أنّهم إذ

ظلموا أنفسهم - إلى قوله: رحيماً) وإنى جئتكم مستغفراً ربك من ذنوبي متشفعاً بك، وفي رواية: «وقد جئتكم مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي» ثم بكى وأنشأ يقول: ياخير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم ثم استغفر وانصرف. ٣- وقال السهودي: قال الحافظ أبو عبدالله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام»: إن الحافظ أبا سعيد السمعي ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفننا رسول الله بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي وحثا من ترابه على

١. دلائل النبوة، ج ٧ باب ما جاء في رؤية النبي في المنام، ص ٤٧.

٢. وفاء الوفاء: ج ٤ ص ١٣٧١. (٢٧٢)

رأسه وقال: يا رسول الله. قلت قسمننا قولك، ووعيت من الله سبحانه منا وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله...) وقد ظلمت وجئتكم تستغفر لي (١). شبهات للكاتب الوهابي

إن للكاتب الوهابي، الرفاعي صخباً وهياجاً حول الحديث، فقد أشكل عليه بوجه سته لا يهمننا ذكرها والإجابة عن جميعها، لأنه غفل عن كيفية الاستدلال بهذه النقول، وسنشير إليها. نعم، يهمننا أن نذكر بعض اعتراضاته: ١- يقول: إن التوسل بدعاء النبي بعد موته رهن أن يسمع الرسول أو يتكلم، أو يصدر عنه أى عمل بعد موته، مع أنه قد انقطع عمله نهائياً كما قال هو - عليه السلام -: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» ولا شك أن رسول الله يشمل هذا الحديث. عزب عن المسكين مفاد الحديث، فإنه بصدد بيان انقطاع ابن آدم عن العمل الذى يترتب عليه الثواب، بقرينه استثناء الأمور الثلاثة، وقال أمير المؤمنين فى هذا المجال: «إن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل» (٢). وقال أيضاً: «الا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقه الجنة، والغاية النار، أفلا تائب عن خطيئة قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟» (٣). فكيف يمكن القول بانقطاع عمل الميت نهائياً مع أن الشهداء فى سبيل

١. وفاء الوفاء: ج ٤ ص ١٣٤١.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٨. (٢٧٣)

الله يقومون بأعمال ينوّه بها الذكر الحكيم ويقول: (فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) (١). أو ليس الفرح بما أوتوا من فضله سبحانه، والاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم، والاستشعار بعدم الخوف والحزن، والاستبشار بنعم الله سبحانه، أفعالاً للراجلين إلى دار الآخرة؟ مضافاً إلى ما ورد من أنهم يرزقون عند ربهم (٢). ٢- يقول: إن الحياة البرزخية حياة لا يعلمها إلا الله، فهى حياة مستقلة تؤمن بها ولا نعلم ماهيتها، وإن بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتصال فيما بينهم قطعياً، وعلى هذا فيستحيل الاتصال بينهم، لا ذاتاً ولا صفاتاً والله سبحانه يقول: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (٣). عجيب والله أمر هذا الرجل، إنه يأتى بالشبه والأوهام بصورة البرهان، ويجتهد فى مقابل النص، وقد تعرفت على الآيات التى تحدثت عن محاوره الأنبياء أرواح أمهم الهالكه، وقد تعرفت على أنه سبحانه أمر النبي بالسؤال عن الأنبياء. فما هذا الاجتهاد فى مقابل النص؟ لقد تناسى الرجل حديث تكلم النبي مع أصحاب القلب المقبولين من كفره قريش، وقد ذكره أصحاب الحديث والتاريخ، وإليك نص صحيح البخارى فى ذلك: وقف النبي على قلب بدر وخاطب الذين قتلوا وألقيت أجسادهم فى القلب: لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله وطردهتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، وقد وجدت ما وعدنى ربي حقاً.

١. سورة آل عمران: الآية ١٧٠ - ١٧١.

٢. سورة آل عمران: ١٦٩.

٣. التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٢٦٧، سورة المؤمنون: الآية ١٠٠. (٢٧٤)

فقال له رجل: يا رسول الله ما خطاب لهما سيدت؟ فقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: واللَّهِ ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلا أن أعرض بوجهي - هكذا - عنهم (١). وروى ابن هشام عن أنس بن مالك، قال: لما سمع أصحاب رسول الله كلام رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من جوف الليل وهو يقول: يا أهل القلب، ويعتبه بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام - فعدّد من كان منهم في القلب - هل وجدت ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقال المسلمون: يا رسول الله. أتنادى قوماً قد جفوا؟ (٢) قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيوني (٣). لما وقعت الفتنة بالبصرة، خرج كعب بن سور، وكان قاضي البصرة لحرب خليفة رسول الله وإمام زمانه، ولما كان النصر حليفاً له - عليه السّلام - مرّ على جسد كعب بن سور، فقال لمن حوله: أجلسوا كعب بن سور، فأجلسوه بين شخصين يمساكانه، فقال - عليه السّلام - : يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال: أضجعوه، وسار قليلاً حتى مرّ بطلحة بن عبيد الله، فقال: أجلسوا طلحة، فكلمه بمثل ما كلم كعب بن سور، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟ فقال - عليه السّلام - : يا رجل واللّه لقد سمعا كلامي، كما سمع أهل القلب كلام رسول الله (٤). ٣- يقول إنّ القرآن يخبر بأنّ النبي لا يستطيع إسماع الموتى ويقول: (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى) (٥)، وقال (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي) —————

١. صحيح البخاري: ج ٥، باب قتل أبي جهل، ص ٧٦-٧٧.

٢. قد جفوا: أي قد صاروا جيفة.

٣. السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٢٩٤، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤. الجمل، للشيخ المفيد، ص ٢١٠ ط النجف، حق اليقين للسيد شبر، ج ٢، ص ٧٣.

٥. سورة النمل: الآية ٨٠. (٢٧٥) (الْقُبُورِ) (١)، والرسول بعد أن توفاه الله هو من الموتى ومن أهل القبور، فثبت انه لا يسمع دعاء أحد من أهل الدنيا (٢).

ولكنّه غفل عن أنّ طرف المحاوره ليس الأجساد الخاليه عن الأرواح، بل أرواح هذه الأبدان، فإنّ لها عيشه برزخيه مقترنه مع بدن برزخي. وأمّا الوقوف على القبر - مع أنّ التكلّم مع أرواحهم لا - مع أجسادهم - فإنما هو لأجل تحصيل حاله نفسانيه يستطيع معها الإنسان التوجه إلى أرواحهم، والالتفات إليهم حتّى يكلمهم بما يقصد. ومن عجيب الأمر أنه يقول: إنّ قوله سبحانه: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...) يختص بالمنافقين، فعلى ما ذكره يكون المنافق أعز عند الله من المؤمن، حيث يجوز للأول، طلب الاستغفار منه دون المؤمن، فهو أشمل لرحمة الله من الثاني «فاقص ما أنت قاص» مع أنّ مورد الآية لا يخصّ إطلاقها، بل الآية عامه لكل من ظلم نفسه سواء أكان منافقاً أم غيره. هذا عمده ما استدل به الكاتب على عدم صحه الاحتجاج بالروايه، وأمّا الإشكال على سنده، أو اشتمال متنه على الشذوذ فلا يضر أبداً، فلنفترض نحن أنّ السند ضعيف، وأنّ في المتن بعض الإشكال، لكن لو كان التوسل بدعاء النبي بعد رحلته شركاً يوجب الخروج عن الدين، أو أمراً محرّماً يجب أن يتوب عنه المسلم، فلماذا قامت جموع كثيره من المحدثين بنقله والاحتجاج به، أو ليس عاراً على محدث إسلامي أن ينقل في جامعه وكتابه أثراً يشتمل على الشرك والأمر المحرّم الواضح، ولا يعود عليه بشيء. ولنفترض أنّ الراوي وضع هذا الحديث ولم يكن له حقيقه، ولكن الواضح إنّما يضع الحديث لأجل إلفات الناس إليه، فلو كان ذلك الأمر موجباً للشرك أو ما يقارنه، فالدواعي تكون عن وضعه مصروفه. كل ذلك يعرب —————

١. سورة فاطر: الآية ٢٢.

٢. التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ٢٦٨. (٢٧٦)

عن أنّ هذا العمل كان أمراً مباحاً فجاء هذا الراوي ينقل هذا الأمر على عفو خاطر. والاستدلال بهذه الروايه وما يأتي بعده بهذا الوجه، ولأجل ذلك لم نحاول أن نصحح السند. ٤- روى السمهودي عن الإمام محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام

في المستغيثين بخير الأنام» عن محمد بن المنكدر: أودع رجل أبي ثمانين ديناراً وخرج للجهاد، وقال لأبي: إن احتجت أنفقها إلى أن أعود. وأصاب الناس جهد من الغلاء، فأنفق أبي الدنانير، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال أبي: عد إلي غدًا، وبات بالمسجد يلوذ بقبر النبي مرة وبمنبره مرة، حتى كاد أن يصبح يستغيث بقبر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فبينما هو كذلك فإذا بشخص في الظلام يقول: دونكها يا أبا محمد. فمدَّ أبي يده، فإذا بصرة فيها ثمانون ديناراً، فلما أصبح جاء الرجل فدفعها إليه (١). وقد نقل السهودي في هذا الفصل قصصاً كثيرة عن شخصيات إسلامية، فمن أراد فليرجع إليه (٢). وقد تعرّفت أن كيفية الاستدلال بهذه القصص ليس على أساس صحة إسنادها أو خلو متونها عن الشذوذ، وإنما هو على أساس أنه لو كان هذا الأمر شركاً أو أمراً محرماً لما اهتم المحدثون والمؤرخون بنقلها، بل ولما قام الوضّاعون بوضعها، فإن الغرض من وضع الحديث هو بثّه بين المحدثين الواعين، ومن المعلوم أنه إذا كان التوسل بدعاء النبي بعد رحلته شركاً وبدعة على ما تدعيه الوهابية، لكانت الدواعي عن وضعها ونقلها مصروفة جداً، وهذا يعرب عن ان العمل كان مشروعاً وسائغاً بين المسلمين، فلأجل ذلك قام هؤلاء بنقل

١. وفاء الوفاء: ج ٤ ص ١٣٨٠.

٢. نفس المصدر: ج ٤ ص ١٣٨٠ - ١٣٨٧. (٢٧٧)

هذه الأحاديث، وقام المتوسلون - على فرض الصحة - بهذا العمل، أو قام الوضّاعون على احتمال، بوضعها. إلى هنا تبيّنت أحكام التوسل بأقسامه الثلاثة: * التوسل بذوات الصالحين وأنفسهم. * التوسل بحقهم ومنزلتهم ومكانتهم. * التوسل بدعائهم بعد رحلتهم ووفاتهم. وأرى أن بسط الكلام في هذه المواضع أزيد من ذلك ضياع للوقت، ومن أراد الحق فيكفيه ما حررناه، فطوبى لمن يستمع القول ويتبع أحسنه، وتياً لقوم «نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون». (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (١). سورة المائدة: الآية ٣٥. (٢٧٨) (٢٧٩)

ابن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شيعياً

ابن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شيعياً

إتفق المسلمون عامة على شفاعته النبي الأكرم يوم القيامة، وإن اختلفوا في معنى الشفاعة بين كونها سبباً لغفران الذنوب كما عليه الأشاعرة والإمامية وأهل الحديث، أو لترقية الدرجة كما عليه المعتزلة. إنما الكلام في طلب الشفاعة من النبي في حال حياته ومماته، فالمسلمون إلى عهد ابن تيمية اتفقوا على جوازه حياً وميتاً، وهو من فروع طلب الدعاء من المشفوع له، إلى أن جاء ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ورفع رايه الخلاف بين المسلمين، وقال: «لا يجوز طلب الشفاعة من النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فهو يسلم بأن نبي الإسلام وسائر الأنبياء لهم حق الشفاعة في الآخرة، ولكن يقول: لا يطلب الشفاعة إلا من الله، يقول ابن تيمية: «قد ذكر العلماء وأئمة الدين الأدعية المشروعة وأعرضوا عن الأدعية المبتدعة، ثم بين مراتب الأدعية المبتدعة على النحو التالي»: ١- الدعاء لغير الله سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من الأنبياء - عليهم السلام - أم غيرهم فيقال: يا سيدي فلان أغثنى، وأنا مستجيرك ونحو ذلك، فهذا هو الشرك بالله... ٢- أن يقول للميت أو الغائب من الأنبياء: ادع الله لي، أو ادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا لا يستريب عالم أنه غير جائز... ٣- أن يقول: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمة ونحو ذلك، فهو (٢٨٠)

المدى تقدم عن أبي محمد أنه أفتى بأنه لا يجوز في غير النبي، وأفتى أبو حنيفة وأبو يوسف وغيرهما أنه لا يجوز في حق أحد من الأنبياء، فكيف بغيرهم...؟ (١) يلاحظ على مجموع ما ذكره:

أما القسم الأول، فإنَّ عدّه شركاً، عجيب جداً، هذا هو القرآن الكريم يذكر عن شيعه موسى قوله: (فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عُدُوِّهِ فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) (٢)، ومعه كيف يقول: إنَّ قول القائل «يا سيدي فلان أغثنى» شرك سواء أكان المدعو حياً أم

ميتاً، أو لم يكن موسى حياً حين استغاثه الذي من شيعته؟ ولو خصّ الشرك بصورة كون المدعو ميتاً - فمع أنه مخالف لصريح كلامه - لا يكون سبباً للشرك، إذ لا معنى لكون خطاب في حال، عين التوحيد، وفي أخرى نفس الشرك، نعم، الموت والحياة يؤثران في الجدوائية وعدمها. وأمّا القسم الثالث، أعني قول القائل: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمة، فهو داخل في القسم الثاني من التوسل الذي قدمنا الكلام فيه، وذكرنا هناك توسل شخص النبي بحقه وحق الأنبياء . نعم، الكلام في القسم الثاني، وهو أن يخاطب الأنبياء والصالحين بقوله: «ادع الله لي، أو ادع لنا ربك» وهذا هو الذي ذكر في حقه «أنه لا- يستريب عالم في أنه غير جائز» مع أن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء من الشافعين في حال حياتهم ومماتهم . ثم إن لأتباع محيي مسلك ابن تيمية في القرن الثاني عشر، أعني محمد بن عبد الوهاب، تعبيراً واضحاً في ذلك المجال يقول: «إن طلب الشفاعة يجب أن يكون من الله لا- من الشفاعة بأن يقول:

١ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ٢٢ .

٢ . سورة القصص: الآية ١٥ . (٢٨١)

اللهم شفّع نبينا محمداً فينا يوم القيامة، أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم، فلا يقال: يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها مما لا يقدر عليه إلا الله، فإذا طلبت ذلك في أيام البرزخ كان ذلك من أقسام الشرك (١) . هكذا نرى أن الاتهام بالشرك أرخص وأوفر شيء في كتب الوهابية وشيخها ابن تيمية، ولتحقيق الحال نركّز على أمرين يتنى عليهما جواز طلب الشفاعة عن الأنبياء والصالحين في هذه الدنيا وهما: ١- إن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء . ٢- إن طلب الدعاء من الصالحين أمر مستحب في الاسلام، وقد جوزته الوهابية إذا كان المدعو حياً، وإليك بيانهما: أ- طلب الشفاعة هو طلب الدعاء

إن شفاعة النبي وسائر الشفعاء هي الدعاء إلى الله وطلب المغفرة منه سبحانه للمذنبين، والله سبحانه أذن لهم في الدعاء في ظروف خاصة، فيستجاب فيما أذن، وهم لا- يدعون في غير ما أذن الله لهم . نعم، نحن لا نحيط بكنه الشفاعة في يوم القيامة، ولعل لها في ذلك اليوم مرتبة أخرى، ولكن الدعاء إلى الله من مراتبها ومن أوضح مصاديقها، فقول القائل مقابل قبر النبي «يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله» لا يقصد إلا هذا المعنى. هذا هو المفسر المعروف النيسابوري يذكر عن مقاتل في تفسير قوله تعالى: (مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا، وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)(٢):... الشفاعة إلى الله إنما هي دعوة الله لمسلم (٣) .

١ . الهدية السنية، الرسالة الثانية: ص ٤٢ والرسالة لأحد أتباعه .

٢ . سورة النساء: الآية ٨٥ .

٣ . تفسير النيسابوري: ج ٥ ص ١١٨ بهامش تفسير الطبري . (٢٨٢)

وهذا هو الإمام الرازي يفسر الشفاعة بالدعاء والتوسل إلى الله، فقد قال في تفسير قوله سبحانه: (وَيَسْتَعْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً) هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء، لا- نعقاد الإجماع على أنه لا فرق (١) . وقال أيضاً قال تعالى لمحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : (وَإِذْ تَعْفُرُ لِمَنْزِلِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) فأمر محمداً أن يذكر أولاً الاستغفار لنفسه، ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح - عليه السلام - أنه قال: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)(٢) . وعلى هذا فالشفاعة هي دعاء الشفيع للمذنب، وطلب الشفاعة منه هو طلب الدعاء منه، وقد سمي في الأحاديث: دعاء المسلم لأخيه المسلم شفاعة له، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي أنه قال: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله إلا شفعهم الله فيه (٣) . فلو أن رجلاً أوصى في حال حياته أربعين رجلاً من أصدقائه الأوفياء على أن يقوموا بالدعاء له بعد موته وفوته، فقد طلب الشفاعة منهم . وقد أفرد البخاري في

صحيحه باباً بعنوان «إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقى لهم لم يردهم» وأُفرد باباً آخر بعنوان «إذ استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط» (٤). كل ذلك يدل على أن الشفاعة بمعنى الدعاء إلى الله، وطلبها هو طلب الدعاء .

١ . مفاتيح الغيب: ج ٧ ص ٢٨٦ - طبع مصر، سورة غافر: الآية ٧ .

٢ . مفاتيح الغيب: ج ٨ ص ٢٢٠، سورة محمد: الآية ١٩ و سورة نوح: الآية ٢٨ .

٣ . صحيح مسلم: ج ٣ ص ٥٤ .

٤ . صحيح البخارى ج ٢ ص ٢٩ - أبواب الاستسقاء . (٢٨٣) ب - طلب الدعاء من المؤمن ليس شركاً ولا حراماً

لا- يتصور أن يكون طلب الدعاء من المؤمن أو الصالح أو الأنبياء العظام شركاً سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً، أما الأحياء فقد صرح القرآن الكريم بجوازه، وأمر الظالمين بالمجئء إلى النبي وطلب الاستغفار منه. قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) (١). وحكى عن ولد يعقوب أنهم قالوا لأبيهم (يا أبا ناسٍ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي) (٢) .

كما أنه لا- يكون شركاً، لا- يكون حراماً أيضاً، ونحن ننقل مجموعته من الأحاديث مما ورد فيه طلب الشفاعة: ١- هذا هو الترمذى يروى في صحيحه عن أنس أنه قال: سألت النبي أن يشفع لى يوم القيامة فقال: أنا فاعل. قلت: فأين أطلبك؟ قال: على الصراط (٣) . والعجب من الشيخ الرفاعى الذى يأتى بكل ما ذكره ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب حرفاً بحرف، لكن بثوب جديد وصبغة جديدة، استشكل على الاستدلال بهذا الحديث بقوله: ٢- إنه ليس من قبيل التوسل بالمخلوق، بل من قبيل التوسل إلى ربه بدعاء أخيه المؤمن له . ٣- طلب أنس من الرسول أن يشفع له يوم القيامة، يفيد أن أنساً

١ . سورة النساء: الآية ٦٤ .

٢ . سورة يوسف: الآية ٩٧ - ٩٨ .

٣ . سنن الترمذى: ج ٤ ص ٤٢، باب ما جاء فى شأن الصراط . (٢٨٤)

يقصد أن يدعو له الله تعالى أن يشفعه به يوم القيامة، أى يجعله فى جملة الحد الذى يحده له فيشفع فيهم (١) . يلاحظ عليه: أن الهدف من الاستدلال بالحديث هو إثبات جواز طلب الشفاعة من المخلوق، لا التوسل بذوات المخلوقين، فإنه بحث آخر، وله حجج أخرى قدمناها. هذا حول الإشكال الأول . وأمّا الثانى فهو تأويل لظاهر الحديث دعماً للمذهب الذى تبناه، فإن المتبادر من قوله: «سألت النبي أن يشفع لى يوم القيامة» أى قلت له يا رسول الله اشفع لى يوم القيامة، وأين هو من التأويل الذى يذكره الرفاعى من أنه قصد أن يدعو الله تعالى أن يشفعه به يوم القيامة؟ ولو كان المقصود هذا فإن أنساً من العرب العرباء، كان له أن يفصح عن مراده ويقول: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يشفعك فى، يوم القيامة . وليس هذا التأويل وأمثاله الذى ارتكبه ذلك الكاتب إلا تحريفاً للكلم ليروج متاعه . ثم إنه استشكل على الحديث بضعف السند، فقال: «إن فى سنده أبا الخطاب حرب بن ميمون وهو ضعف ووثق» وإليك ما ذكره الذهبى فى حقه: حرب بن ميمون، ابو الخطاب الأنصارى، بصرى صدوق يخطىء، قال أبو زرعة: لين، وقال يحيى بن معين: صالح وثقه على بن المدينى وغيره. وأمّا البخارى فذكره فى الضعفاء (٢) . وقال ابن حجر: «قال الخطيب فى المتفق والمفترق: كان ثقة . وقال الساجى فى حرب بن ميمون: الأصغر، ضعيف عنده مناكير، والأكبر ثقة، والوارد فى سند الرواية هو الأكبر، وقال ابن حبان: فى الثقات، يخطىء .

١ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٣٢٠ .

٢ . ميزان الاعتدال: ج ١ ص ٤٧٠، رقم ١٧٧٣ . (٢٨٥)

وقرأت بخط الذهبى: وثقه ابن المدينى ومات فى حدود الستين والمائة» (١) . ترى أن الأثرية الغالبة وثقته غير البخارى، وهو ذكره فى الضعفاء، ومن المعلوم أنه لا- يمكن ترك حديثه بمجرد ذكر البخارى إياه فى الضعفاء، ولم يعلم وجه كونه ضعيفاً عنده، ولعله

لأجل كونه قدرياً كما يظهر من ابن حجر في تهذيب التهذيب، أي قائلاً بالاختيار الذي هو على طرف النقيض من القول بالجبر، وهو موجب لقوته لا- لضعفه، فالرواية حجة بلا- إشكال. كيف لا يجوز طلب الشفاعة من الصالحين وهذا هو الطبراني روى في المعجم الكبير أن سواد بن قارب -رضى الله عنه - أنشد قصيدته: وأشهد أن الله لا- ربّ غيره * وأنتك مأمون على كل غائب وأنتك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله يابن الأكرمين الأطائب فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل * وإن كان فيما فيه شيب الذوائب وكن لي شفيعاً يوم لا- ذو شفاعة * بمغن فتيلاً- عن سواد بن قارب (٢) والشاهد هو البيت الأخير حيث طلب الشفاعة من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . إن الكاتب الوهابي الرفاعي لم يجد بداً عن التسليم لما يفيد البيت الأخير وقال: «إن سواد بن قارب يخاطب رسول الله ويرجوه أن يدعو الله تعالى أن يكون له شفيعاً يوم القيامة، والخطاب هذا لا شك كان في حياته، وطلب الشفاعة منه في حياته لا بأس به، لأنه طلب لدعائه لأن يكون سواد في جملة من _____

١ . تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦، رقم ٤١٨ .

٢ . دلائل النبوة: ج ٢ ص ٢٤٨ ونقله الطبراني في المعجم الكبير، ج ٧ ص ١٠٩ - ١١١ ورواه الحاكم في مستدركه، وابن كثير في تاريخه ج ١ ص ٣٤٤ والهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٥٠ . (٢٨٦)

يشفعه فيهم يوم القيامة (١) . أقول: الذي اعتذر به الرفاعي هو الذي وصفه بالشرك شيخ منهجه أحمد بن تيمية، قال: الدعاء لغير الله سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً... فهذا هو الشرك بالله (٢) . فما هذا التناقض بين كلامه وكلام شيخه، فالذي يجيزه، هو الذي يصفه شيخه بالشرك، أبهذه المناقضات تكفرون المسلمين وتدعون الناس إلى نهج الحق ومعين التوحيد؟ ثم إنه نقل عن بعض الوهابيين أعني إسماعيل الأنصاري أنه ضعف سند الحديث، وذكر وجوهاً للضعف، وقد سبقه معلق مجمع الزوائد، غير أنه غفل عن وجه الاستدلال و هو ما ذكرناه فيما سبق: إن هذا الحديث ونظائره على فرض الصدق وعدمه حجة على ما في مدلوله، إذ لو كان صادقاً فهو وإن كان مجعولاً فلماذا ذكره المحدثون الكبار في جوامعهم كالطبراني في معجم الكبير، والبيهقي في دلائل النبوة وغيرهما؟ ولا يعني من هذا أنهم لا يذكرون الأحاديث الضعاف في جوامعهم حتى يقال إن المحدثين بين ملتزم بنقل الصحيح وغيره، بل المقصود أنه إذا كان طب الشفاعة شركاً على ما ذكره أحمد بن تيمية، أو مما لا يستريب عالم في أنه غير جائز، فلماذا نقلوا الحديث الباطل من دون أن يناقشوا في مضمونه ومنتنه؟ إذ لا يصح لهؤلاء أن يمرروا على خرافة شركية في كتبهم، أو أمر محرّم لا يستريب فيه عالم، مرور الكرام . كل ذلك يعرب عن أن المضمون ليس عليه غبار، وأما ضعف السند فلا يكون دليلاً على كذبه، فإليك السند الذي رواه الطبراني به، فقد ورد فيه هؤلاء: _____

١ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٣٩٩ .

٢ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ٢٢ . (٢٨٧)

حدثنا محمد بن محمد التماره البصري، ثنا: بشر بن حجر الشامي، ثنا علي بن منصور، عن الأنباري، عن عثمان بن عبدالرحمن الواقصي، عن محمد بن كعب القرظي . ٣- كيف يكون شركاً وقد جاء في التاريخ أن رجلاً اسمه «تبع» قد بلغه أن نبي آخر الزمان سوف يظهر من مكة ويهاجر إلى المدينة، فكتب كتاباً ودفعه إلى بعض أقربائه كي يسلموه إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذكر فيه إسلامه وإيمانه، وأنه من أمه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - و مما جاء في هذه الرسالة: «فإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسني» ومات الرجل، وكان الكتاب ينتقل من واحد إلى آخر، فلما قدم النبي المدينة دفعوا إليه الكتاب فقال: مرحباً بالأخ الصالح (١) . فهل يصح للنبي أن يصف المشرك بالأخ الصالح؟ أو أن تقرّ عليه الرسالة ويقف على ما طلبه منه من الأمر المحرم دون أن يرد عليه؟ كل ذلك يعرب عن أن طلب الدعاء وطلب الشفاعة من الصالحين والأنبياء ليس شركاً في العبادة، ولا أمراً محرماً، ما هذا الجمود في فهم الإسلام؟ وما هذه الظنون والشبه التي تعتمدون عليها؟ فإن الإسلام دين حنيف سهل . نعم لهم اعتراض على ما ذكرناه من الأدلة، بأنها ترجع إلى طلب الشفاعة من الأحياء، وأن البحث إنما هو في طلبه من غيرهم، والجواب من وجهين:

الأول: قد عرفت في البحث السابق بوجوه قيمة من أن الطلب متوجه إلى الأرواح المقدسة التي لم تنقطع صلتها بنا، وقد جرت السنة على ذلك، وقد عرفت الأدلة على جواز التكلم مع الأرواح المؤمنة والمشركة، كما عرفت أن الأنبياء العظام كصالح وشعيب، والنبى الأكرم كلّموا قومهم بعد هلاكهم ودمارهم، غير أنه تكميلاً للبحث نذكر بعض ما ورد من الأثر في ذلك _____

١. المناقب، لابن شهر آشوب: ج ١ ص ١٦ . (٢٨٨)

المجال، أى طلب الدعاء بعد الالتحاق إلى رحمة الله . هذا ابن عباس يقول: لما فرغ أمير المؤمنين - عليه السلام - من تغسيل النبى، قال: «بأبى أنت وأمى، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك» (١) . ويروى أهل السنة أنه لما توفى رسول الله جاء أبو بكر من سلع، ووقف على فوته وكشف عن وجهه وقبله وقال: بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً واذكرنا عند ربك» (٢) . فما معنى المعارضة مع هذه النصوص ومعاكستها؟ (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) (٣) . أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة

لقد تعرّف فيما مضى على أن طلب الشفاعة يساوق طلب الدعاء، ولا يتصور أن يكون من أقسام الشرك في العبادة، أو يكون طلبه من المخلوق عبادة له، إلا- أن يكون طلب الدعاء من مخلوق شركاً وعبادة، وهو مما لم يقل به أحد حتى الوهابيون . نعم لهم شبهة ربما يغتر بها البسطاء، وهى أن المشركين كانوا يطلبونها من أصنامهم، فسمّاه الله عبادة لهم وقال: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٤) . والشاهد في قوله: «ويعبدون من دون الله» مع ملاحظة ما فى ذيل _____

١ . نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٣٥ ونقل السيد الأمين فى كشف الإرتياب، ص ٢٦٥ أنه قال: بأبى أنت وأمى اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك، نقلا عن مجالس المفيد .

٢ . السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٣٩٢ .

٣ . سورة الأعراف: الآية ١٨٥ .

٤ . سورة يونس: الآية ١٨ . (٢٨٩)

الآية: «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله» وكان وجه عبادتهم لهم هو قولهم: «هؤلاء شفعاؤنا» (١) . إن الاستدلال بالآية على كون طلب الشفاعة شركاً من غرائب الاستدلال وعجائبه، فإن الآية لو لم تدل على أن طلب الشفاعة يغير عبادتهم لها، لا تدل على أن طلب الشفاعة عبادة للمدعو، وذلك أنه ورد فى الآية جملتان نسبتهما إلى المشركين: ١- ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . ٢- ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . والعطف يدل على المغايرة، وأن هنا عبادة، وأن هناك أمراً آخر وهو طلب الشفاعة، وما هذا الخلط؟ ولنفترض أن طلب شفاعتهم كان عبادة لمعبوداتهم، وأن الجملة الثانية من قبيل عطف العام على الخاص ولكن أين طلب شفاعة المسلم الموحد من سيد الموحدين، من طلب شفاعة عبدة الأصنام والأوثان، فالمشركون كانوا يعتبرون الأوثان مالكة للشفاعة والمغفرة، فكان الله فى معزل عنهما تماماً، ولا شك أن طلب الشفاعة من أى موجود مقروناً بهذا الاعتقاد يعد شركاً، لأن هذا الطلب مقرون بالوهية المدعو وربوبيته، فى حين أن الإنسان المسلم يطلب الشفاعة والدعاء من الشفيع باعتباره عبداً مقرباً إلى الله، وإنساناً وجيهاً عنده، أذن الله تعالى له فى شفاعة المجرمين، وادّخرها النبى لأهل الكباثر من أمتة، كما ورد عن النبى الأكرم، ورواه الفريقان . والمصدر لهذه التهمة هو أن القوم لم يضعوا حداً منطقياً جامعاً ومانعاً للعبادة حتى يميزوا به الدعاء العبادى عن غيره، فجعلوا يخبطون خبط عشواء لا يميزون بين الصحيح والسقيم . نعم، إن الشفاعة حق خاص بالله دل عليه الذكر الحكيم وقال: (أم _____

١ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ١٥ . (٢٩٠) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً (١) .

ولأجل كونه حقاً مختصاً بالله، لا يشفع النبى الأكرم ولا الشفاعة الأخر لأحد إلا بإذنه سبحانه، ولكن قوله «لله الشفاعة جميعاً» ليس معناه أنه سبحانه هو الشفيع دون غيره، لبداهه أن الله لا يشفع لأحد عند أحد، بل معناه أنه مالك لمقام الشفاعة، لا يملكه غيره ولا

يشفع إلا- بإذنه . هذا وإنَّ المشركين كانوا على خلاف ذلك كما يعرب عنه قوله سبحانه: «قل لو كانوا لا يملكون شيئاً» . وفي الختام نذكر النقطة الأخيرة من كلامهم، وهي أنَّ النبي الأكرم بعد التحاقه بالرفيق الأعلى لا يسمع بدليل قوله سبحانه (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) (٢) . وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ) (٣)، ولكنك عرفت أن الآيتين لا تمتان إلى طلب الشفاعة عن الأنبياء بصله، فإنَّ الأجساد الراقدة تحت التراب، غير قادرة على الإدراك والسمع، ولكن المخاطب هو الروح الطاهرة والحيه التي تعيش بالجسد البرزخي في عالم البرزخ، والخطاب لتلك الأرواح النورانية والشفاعة تطلب منها، وأما السعي إلى الحضور في مقابرهم ومراقدهم فلاجل أن الحضور فيها يهيبء أنفسنا للاتصال بأرواحهم المقدسة، وعند ذلك نجد في أنفسنا دافعاً إلى التحدث معهم وهم يستمعون إلينا. هذا هو الإمام الصادق - عليه السلام - أحد الأئمة يعلم شيعته كيفية زيارة أئمة أهل البيت بقوله: _____

١ . سورة الزمر: الآية ٤٣ - ٤٤ .

٢ . سورة النمل: الآية ٨٠ .

٣ . سورة فاطر: الآية ٢٢ . (٢٩١)

«عالمًا أنك تسمع كلامي وترد سلامي... فكن لي إلى الله شفيعاً، فما لي وسيلة أوفى من قصدي إليك وتوسلي بك إلى الله» (١) . وجاء في كلام آخر له - عليه السلام - : «اللهم... وأعلم أن رسولك وخلفاءك - عليهم السلام - أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردون سلامي، وأنتك حجبت عن سمعي كلامهم، وفتحت باب فهمي بلذيت مناجاتهم» (٢) . هذا وقد قال ابن تيمية: وفي سنن أبي داود عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: ما من رجل مسلم سلم عليّ إلا ردّ الله عليّ رuchi حتى أردّ عليه السلام، وفي موطأ الإمام مالك أن عبد الله بن عمر - رضى الله تعالى عنهما - كان يقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبا، ثم ينصرف، وكذلك أنس بن مالك وغيره من الصحابة رضى الله عنهم، نقل عنهم السلام على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (٣) . فأى فرق بين التسليم على الميت وبين طلب الدعاء منه؟ وإذا كان قادراً على رد السلام، يكون قادراً على الدعاء إلى الله، والشفاعة للداعي، ولو فرضنا أنه قادر على شيء واحد وهو رد السلام، وليس قادراً على الدعاء، يكون طلبه عندئذ لغواً، لا- شركاً ولا محرماً، ويكون أشبه باعتقاد أثر في نبات مع كونه خطأ. أو كون شخص قادراً على إنجاز عمل ولم يكن كذلك. ولم يقل أحد بكون هذا النوع من الاعتقاد شركاً . _____

١ . بحار الأنوار: ج ٩٧، ص ٢٩٥ .

٢ . عدة الداعي لابن فهد الحلبي، ٨٤١ .

٣ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ٢٣ .

ابن تيمية والنذر لأهل القبور

ابن تيمية والنذر لأهل القبور

قال ابن تيمية: وإذا كان الطلب من الموتى - ولو كانوا أنبياء - ممنوعاً خشية الشرك، فالنذر للقبور أو لسكان القبور نذر حرام باطل يشبه النذر للأوثان . ويقول: ومن اعتقد أن في النذر للقبور نفعاً أو أجراً فهو ضالّ جاهل، ثم يقرر: إن ذلك نذر في معصية، وإن من يعتقد أنها باب الحوائج إلى الله، وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ العمر، فهو كافر مشرك يجب قتله (١) . أقول: إنه قد ذيل كلامه بشيء لا يعتقد به أحد من المسلمين، حتى يجعل ذلك ذريعة لقبول صدر كلامه. فأى مسلم يعتقد أن النبي يكشف الضر ويفتح الرزق ويحفظ العمر؟ بل معتقد جماهير المسلمين هو أن كل الأمور بيده سبحانه، وأن الناس هم الفقراء والله هو الغني الحميد، قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (٢) . ولو اعتقد أحد من المسلمين أن الأنبياء والصالحين ربما

يقومون بأمر خارجة عن السنن العادية فهو نفس الاعتقاد بأنهم أصحاب المعجز والكرامات، وقد تواترت النصوص على ذلك وأنهم يبرثون الأكمه والأبرص _____

١ . قاعدة جليئة في التوسل والوسيلة، ص ١٠٣ .

٢ . سورة فاطر: الآية ١٥ . (٢٩٣)

ويحيون الموتى بإذن الله (١) . ومن يصف أحداً من الصالحين بباب الحوائج فإنما يصفه بهذا المعنى، يعنى أنه سبحانه يستجيب دعاءه إذا دعاه، أو أنه سبحانه أعطاه مقدرة كبيرة مثل ما أعطى لمن كان عنده علم من الكتاب (٢) . فإذا صح ما في القرآن من أن أناساً من الأنبياء وغيرهم كانوا أصحاب مقدرة كبيرة يقومون بخوارق العادات وعجائب الأعمال بإذن الله، لصح التصديق في غيرهم ممن لم يجيء عنهم ذكر في القرآن، فما معنى الإيمان ببعض والكفر ببعض؟ وأمّا النذر للأموات، فتحقيقه يتوقف على بيان مقدمة: النذر معناه أن يلزم الإنسان نفسه بأداء شيء معين إذا تحقق هدفه وقضيت حاجته، فيقول: لله على أن أفعل كذا، إذا كان كذا. مثلاً يقول: لله على أن اختم القرآن إذا نجحت في الامتحانات الدراسية . هذا هو النذر الشرعي، ويجب أن يكون لله، فإذا قال الناذر: نذرت لفلان، ففي قوله مجاز لغاية الاختصار، والمعنى نذرت لله على أن أفعل شيئاً يكون ثوابه لفلان، وثواب النذر يقع على ثلاثة أقسام: ١- أن يكون الثواب لنفس الإنسان الناذر . ٢- أن يكون لشخص ميت . ٣- أن يكون لشخص حي . وهذه الأقسام الثلاثة كلها جائزة، ويجب على الناذر الوفاء بنذره إذا قضيت حاجته، وقد مدح الله سبحانه أهل البيت، لأجل الوفاء بالنذر. قال _____

١ . سورة آل عمران: الآية ٤٩ وسورة المائدة: الآية ١١٠ .

٢ . قال سبحانه: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ... قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) سورة النمل: الآية ٣٩ - ٤٠ . (٢٩٤)

تعالى: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً) (١)، هذا هو النذر . وقد تعارف بين المسلمين أن النذر لله وإهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين، وكانت عليه السيرة بين المسلمين، إلى أن جاء الدهر بابن تيمية فحرم ذلك كما عرفت من عبارته، وقد نقل عنه أيضاً العبارة التالية، وقال: «من نذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أو ذبح ذبيحة، كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابد لغير الله، فيكون بذلك كافراً» (٢) . عجيب جداً حكم ابن تيمية وتكفيره المسلمين بحجة أن عمل الناذر يشبه عمل المشركين، أيصح في ميزان النصفه الحكم بتكفير المسلمين الذين أرسوا قواعد التوحيد، وحملوه جيلاً بعد جيل إلى عصر ابن تيمية، بمجرد أن عمل الذابح والناذر يشبه عمل المشركين . فلو كان هذا ملاكاً للتكفير فابن تيمية والوهابيون وحماة هذه البدع من أعظم المشركين! فإن كثيراً من مناسك الحج وفرائضه (التي يقوم بها المسلمون من غير فرق بين الوهابي وغيره) تشبه في ظاهرها أعمال عبدة الأصنام، فقد كانوا يطوفون حول أصنامهم ويقبلونها، ونحن أيضاً نطوف حول الكعبة المشرفة ونقبل الحجر الأسود، ونذبح الذبائح ونقرب القرابين في منى يوم عيد الأضحى، كما كانوا يذبحون لأصنامهم، أفصح تكفير الجميع لأجل هذه المماثلة؟ أو المقياس هو النية القلبية، وأن المعيار هو النية والضمائر دون المشابهة والظواهر، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إنما الأعمال بالنيات (٣) . _____

١ . سورة الإنسان: الآية ٧ .

٢ . نقله عنه شهاب الدين ابن حجر الهيتمي في كتاب «الجواهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم» كما في فرقان القرآن للغزالي القضاعي، ص ١٣٢ .

٣ . صحيح البخاري: ج ١، كتاب الإيمان ص ١٦ . (٢٩٥)

ولا يصح التسرع في الحكم بمجرد المماثلة، لأن كل من ينذر لأحد من الأولياء فإنما يقصد النذر لله، وإهداء الثواب للولي الصالح ليس إلا، ولا تجد في أديم الأرض من يسجل اسمه في ديوان المسلمين إلا وينوي ذلك، نعم شد عنهم ابن تيمية ومن أحب مسلكه

حيث اتهموا المسلمين بغير ذلك . يقول الشيخ الخالدي رداً على ابن تيمية: «إن المسألة تدور مدار نيات الناظرين، وإنما الأعمال بالنيات، فإن كان قصد الناظر الميت نفسه، والتقرب إليه بذلك، لم يجز - قولاً واحداً - وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء بوجه من الوجوه به، وإهداء ثوابه لذلك المنذور له، وسواء عيّن وجهاً من وجوه الإنتفاع، أو أطلق القول فيه، وكان هناك ما يطرد الصرف فيه في عرف الناس، أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك، ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالندور» (١) . قال العزامي: «...ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائهم ونذورهم للأموات - من الأنبياء والأولياء - إلا الصدقة عنهم، وجعل ثوابها لهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموات، واصله إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة. فمنها: ما صحّ عن سعد أنه سأل النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: يا نبي الله إن أمتي قد افتلتت، وأعلم أنها لو عاشت لتصدقت أفان تصدقت عنها أينفعها ذلك؟ قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : نعم. فسأل النبي: أي الصدقة انفع يا رسول الله؟ قال: الماء .»

١ . صلح الأخوان: للخالدي، ص ١٠٢ وما بعده . (٢٩٦)

فحفر بئراً وقال: هذه لأُم سعد (١) . وقد أخطأ محمد بن عبد الوهاب فادّعى أن المسلم إذا قال: «هذه الصدقة للنبي أو للولي: فاللام بنفسها هي اللام الموجودة في قولنا: «نذرت لله» يراد منها الغاية» . بل العمل لله، بينما لو قال: للنبي، يريد بها الجهة التي يصرف فيها الصدقة من مصالح النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في حياته ومماته. وفي هذا الصدد يقول العزامي - بعد ذكر قصة سعد -: «اللام في هذه لأُم سعد»، هي الـم الداخلة على الجهة التي وجهت إليها الصدقة لا - على المعبود المتقرب إليه، وهي كذلك في كلام المسلمين، فهم سعديون لا وثنيون، وهي كاللام في قوله تعالى: (إنما الصّيدقات للفرقاء) لا كاللام في قوله سبحانه: (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا) (٢) أو في قول القائل: صلّيت لله ونذرت لله، فإذا ذبح للنبي أو الولي أو نذر الشيء له فهو لا يقصد إلا أن يتصدق بذلك عنه، ويجعل ثوابه إليه، فيكون من هدايا الأحياء للأموات، المشروعه، المثاب على إهدائها، والمسألة محرّرة في كتب الفقه وفي كتب الردّ على الرجل ومن شايعه» (٣) . وهكذا ظهر لك - أيها القاريء - جواز النذر للأنبياء والأولياء من دون أن تكون فيه شائبة شرك، فيثاب به الناظر إن كان لله وذبح المنذور باسم الله: فقول القائل «ذبحت للنبي» لا يريد أنه ذبحه للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - بل يريد أن الثواب له، كقول القائل: ذبحت للضيف، بمعنى أن النفع له والفائدة له، فهو السبب في حصول الذبح . ويوضح ذلك ما روى عن ثابت بن الضحاك قال:

١ . لاحظ: فرقان القرآن ص ١٣٣ .

٢ . سورة آل عمران: الآية ٣٥ .

٣ . فرقان الفرقان: ص ١٣٣ . (٢٩٧)

«نذر رجل عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن ينحر إبلا ب «بوانة» فأتى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فأخبره، فقال النبي: هل كان فيها من يعبد من أوثان الجاهلية؟ قالوا: لا . قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا . قال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للسائل: أوف بنذررك، فإنه لا وفاء في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» (١) . وروى أيضاً: «إن امرأة أتت النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - فقالت: يا رسول الله... إنني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، كان يذبح فيه أهل الجاهلية . فقال النبي: الصنم؟ قالت: لا . قال: الوثن؟ قالت: لا . قال: في بنذررك» (٢) . وعن ميمونة بنت كردم أن أبها قال لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: يا رسول الله إنني نذرت إن ولد لي ذكر، أن أنحر على رأس بوانة «في عقبه من الثنايا» عدة من الغنم.. قال «الراوى عنها»: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين .»

١ . سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨٠ .

٢ . سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨١ . (٢٩٨)

فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : هل من الأوثان شيء . قالت: لا . قال: فأوف بما نذرت به لله...» (١) . أرأيت أيها القارىء - كيف يكرر النبي -- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - السؤال عن جود الأصنام في المكان الذي تذبح فيه الذبائح؟ إن هذا دليل على أن النذر الحرام هو النذر للأصنام، حيث كان ذلك عادة أهل الجاهلية، كما قال تعالى: (وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ... ذَلِكَمْ فِشْقٌ) (٢) . ومن أطلع على أحوال الزائرين للعبات المقدسة ومراقب أولياء الله الصالحين يعلم جيداً أنهم يندرون لله تعالى ولرضاه، ويذبجون الذبائح باسمه عز وجل، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها، وبذلك تعرف سقوط كلمة محمد بن عبد الوهاب في اتهام المسلمين بأنهم ينحرون للنبي، وزان النحر لله سبحانه، حيث يلقن أتباعه الحجّة ويقول: «فقل: فإذا عملت بقول الله تعالى: «فصل لربك» وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فإن نحرت لمخلوق: نبي أو أجنبي أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلا بد أن يقرّ ويقول: نعم» (٣) . والمسلمين تخيل أن اللام في «هذا للنبي» نفس اللام في «نذرت لله» وقد عرفت أن إحداهما للغاية، والأخرى للانتفاع . وختاماً لهذا الفصل نذكر كلمة للخالدي - بعد أن ذكر ما رواه أبو داود في سننه - قال:

١ . سنن أبي داود: ج ٢ ص ٨١ .

٢ . سورة المائدة: الآية ٣ .

٣ . صلح الإخوان للخالدي، ص ١٠٩ . (٢٩٩)

«وأما استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر في أماكن الأنبياء والصالحين. زاعمين بأن الأنبياء والصالحين أوثان - والعياد بالله - وأعياد من أعياد الجاهلية، فهو من ضلالاتهم وخرافاتهم وتجاسرهم على أنبياء الله وأوليائه، حتى سمّوهم أوثاناً، وهذا غاية التحقير لهم، خصوصاً الأنبياء، فإن من انتقصهم ولو بالكناية - يكفر ولا - تقبل توبته - في بعض الأقوال - وهؤلاء المخذولون بجهلهم، يسمون التوسل بهم عبادة، ويسمونهم أوثاناً، فلا عبرة بجاهلهم هؤلاء وضلالاتهم، والله أعلم» (١) . (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (٢) .

١ . كشف الشبهات، ص ٨ .

٢ . سورة الإنسان: الآية ٧ - ٩ . (٣٠٠)

ابن تيمية والحلف بغير الله تعالى

ابن تيمية والحلف بغير الله تعالى

إن من المسائل المهمة عند الوهابيين هو الحلف بغير الله، وذهب ابن تيمية إلى كونه شركاً، اعتماداً على ما رواه الترمذي: «من حلف بغير الله فقد أشرك» وتحقيق الحق يتوقف على توضيح الأمور التالية: ١- هل اليمين الفاضل في الدعاوى هو الحلف بالله، أو يعمه وغيره؟ ٢- هل ينعقد اليمين بالحلف بالنبي مثلاً، بحيث لو حنث لزمته الكفارة أو لا؟ ٣- هل يجوز الحلف بغير الله سبحانه أولاً؟ وإليك نقل أقوال أئمة المذاهب الفقهية في المجالات المتقدمة: أ - ما هو الحلف الفاضل في الخصومات؟ أمّا فقهاء الشيعة فقد اتفقت كلمتهم على أن اليمين الفاضل في الخصومات هو الحلف بالله وأسمائه. قال المحقق الحلي: لا يستحلف أحد إلا بالله ولو كان كافراً، فلا يجوز الإحلاف بغير أسماء الله سبحانه، كالكتب المنزلة، والرسل المعظمة، والأماكن المشرفة (١) وأمّا السنة فلم أجد لهم نصاً في خصوص هذه المسألة في الكتب الفقهية، نعم يعلم حكمها مما سنذكره عنهم في المسألتين التاليتين .

١ . جواهر الكلام، في شرح شرائع الإسلام، ج ٤٠ ص ٢٢٥ . (٣٠١) ب - هل ينعقد الحلف بغيره سبحانه؟

قال ابن تيمية: وقد اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله، ولو حلف بالكعبة أو بالملائكة أو بالأنبياء - عليهم السلام - لم تنعقد يمينه، ولم يقل أحد إنه ينعقد اليمين بأحد من الأنبياء، فإن عن أحمد في انعقاد اليمين بالنبي روايتين، لكن الذي عليه الجمهور كمالك والشافعي، وأبي حنيفة أنه لا ينعقد اليمين به، كإحدى الروايتين عن أحمد، وهذا هو الصحيح (١). وقال ابن قدامة في المغنى: ولا- تنعقد اليمين بالحلف بمخلوق كالكعبة والأنبياء وسائر المخلوقات، ولا- تجب الكفارة بالحلف فيها... وهو قول أكثر الفقهاء، وقال أصحابنا: الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة، وروى عن أحمد أنه قال: إذا حلف بحق رسول الله وحنث فعليه الكفارة. قال أصحابنا: لأنه أحد شرطى الشهادة، فالحلف به موجب للكفارة، كالحلف باسم الله (٢). وبالإمعان في كلام ابن قدامة يظهر عدم صحة ما ذكره ابن تيمية من أنه «اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله» وأين هو من قول ابن قدامة: «قال أصحابنا: الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة؟ وهو وابن قدامة كلاهما حنبلين، وبما أن المسألة فقهية لا نستعرضها أزيد من ذلك، وإنما نركز البحث على المسألة الثالثة. ج - هل يجوز الحلف بغير الله أو لا؟

هذه المسألة هي التي عقدنا الفصل لبيان حكمها. قال ابن تيمية: «لا يشرع ذلك بل ينهى عنه إما نهى تحريم وإما نهى تنزيه، وإن للعلماء في ذلك قولين، والصحيح أنه نهى تحريم، وفي الصحيح عنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت، وفي الترمذي أنه قال: من _____

١. مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ٢٠٩.

٢. المغنى لابن قدامة: ج ١١ ص ١٧. (٣٠٢)

حلف بغير الله فقد أشرك (١). وقال الصنعاني: إن الحلف بغير الله شرك صغير (٢)، وقال ابن قدامة: ولا- يجوز الحلف بغير الله وصفاته، نحو أن يحلف بأبيه أو الكعبة أو صحابي أو إمام. قال الشافعي: أخشى أن يكون معصية. قال ابن عبد البر: وهذا أصل مجمع عليه، وقيل يجوز ذلك لأن الله تعالى أقسم بمخلوقاته فقال: «والصافات صفاً، والمرسلات عرفاً، والنازعات عرفاً»، وقال النبي للأعرابي السائل عن الصلاة: «أفلح وأبيه إن صدق» وفي حديث أبي الشعراء: «وأبيك لو طعنت في فخذها لأجزأك» ثم إن لم يكن الحلف بغير الله محرماً فهو مكروه، فإن حلف فليستغفر الله تعالى، أو ليذكر الله تعالى، كما قال النبي: من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله (٣). أنت ترى أن ابن تيمية وتلميذ منهجه الشيخ الصنعاني أفتيا بالحرمة، ولكن الظاهر من عبارة ابن قدامة أن المسألة مما اختلف فيه الفقهاء، فهم بين محرّم ومجوز، حتى أن الشافعي قال: أخشى أن يكون معصية، وإذ كانت المسألة على هذا المستوى من الاختلاف، فهل يجوز تكفير الحالف بمثل هذه المسألة؟ مع أن أكثر الفقهاء قائلون بالجواز. قال في الفقه على المذاهب الأربعة: «إذا قصد الحالف إشراك غير الله معه في التعظيم ففيه تفصيل في المذاهب، ثم ذكر التفصيل بالنحو الآتي»: «الحلف بالطلاق نحو: عليّ الطلاق: إن فعلت كذا، جائز بدون كراهة، ويلزمه الطلاق إذا كان الغرض منه الوثيقة، أي وثوق الخصم بصدق الحالف، جاز بدون كراهة. وإذا لم يكن الغرض منه ذلك، أو كان حلفاً على الماضي فإنه يكره، وكذلك الحلف (بنحو وأبيك ولعمرك). وقالت الشافعية: يكره الحلف بغير الله إذا لم يقصد شيئاً مما ذكر في أعلى الصحيفة، ويكره الحلف بالطلاق. _____

١. مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ١٧.

٢. تطهير الاعتقاد، ص ١٤.

٣. المغنى لابن قدامة: ج ١١ ص ١٦٣ (كتاب الأيمان) طبع دارالكتاب العربي - بيروت. (٣٠٣)

وقالت الحنابلة: يحرم الحلف بغير الله وصفاته، ولو بنبي أو ولي، ويكره الحلف بالطلاق والعتاق والمشهور الحرمة (١). فعلى ضوء هذا فقد أفتى الحنابلة من بين المذاهب الأربعة بالحرمة، وذهبت الحنفية والشافعية إلى الجواز وللمالكية قولان. هذه هي الأقوال في المسألة، وإليك تحليلها فقهياً واجتهاداً: عرض المسألة على القرآن

إن القرآن الكريم هو الثقل الأكبر والقدوة العليا والمثل الحى لكل مسلم، نرى فيه الحلف بغير الله في غير واحد من السور، فقد أقسم

تعالى في سورة الشمس وحدها بغير ذاته وصفاته، أعنى الشمس وضحاها، والقمر والنهار والليل، والسماء والأرض، والنفس الإنسانية، وأقسم سبحانه في سورة النازعات بأمرين: المرسلات والناشرات، كذلك ورد الحلف بغير الله في سورة «الطارق» و «القلم» و «العصر» و «البلد» وغيرها. وإليك نماذج من آيات الحلف بغير الله سبحانه الواردة في غير هذه السور: (وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) (٢). (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) (٣). (وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) (٤). (وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) (٥).

١. الفقه على المذاهب الأربعة، ج ٢ (كتاب اليمين)، ص ٧٥.

٢. سورة التين: الآية ١-٣.

٣. سورة الليل: الآية ١-٢.

٤. سورة الفجر: الآية ١-٤.

٥. سورة الطور: الآية ١-٦. (٣٠٤)

إذا كان القرآن كتاب هداية للبشر والناس يتخذونه قدوة وأسوة، فلو كان هذا النوع من الحلف حراماً على العباد، وأمرأً خاصاً بالله سبحانه، لكان المفروض أن يحذر منه القرآن، ويذكر بأن هذا من خصائصه سبحانه. ومن هنا يعلم أن توصيف الحلف بغير الله بكونه شركاً صغيراً يستلزم نسبة الشرك إلى الله سبحانه، وإذا كانت ماهية الحلف بغير الله ماهية شركية فلا يفرق بينه وبين عباده، فإذا كانت ماهية الشيء ظلماً وتجاوزاً على البريء، فالله وعباده فيه سيان، قال تعالى: (قُلْ إِنْ لِلَّهِ لَأَيُّمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١). إن الحلف بهذه العظائم كما يتضمن الدعوة إلى التدبر والدقة في صنعها، والنواميس السائدة عليها، واللطائف الموجودة فيها، وبالتالي يحتج بها على صانع لها عالم وقادر وحى و...، كذلك يتضمن جواز الحلف بها إذا كان موجوداً مقدساً، كما حلف سبحانه بحياة النبي وقال: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) (٢). عرض المسألة على الأحاديث

هذا بالنسبة إلى القرآن، وإليك عرض المسألة على سنة النبي الأكرم، أعنى قوله وفعله وتقريره، فقد حلف بغير الله في موارد عديدة منها: ١- روى مسلم في صحيحه: «جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما وأبيك فنبئتك: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء» (٣). ٢- روى مسلم أيضاً: _____

١. سورة الأعراف: الآية ٢٨.

٢. سورة الحجر: الآية ٧٢.

٣. صحيح مسلم، ج ٣، كتاب الزكاة - باب أفضل الصدقة، ص ٩٤. (٣٠٥)

«وجاء رجل إلى رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من نجد - يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : خمس صلوات في اليوم والليل . فقال: هل عليّ غيرهن؟ قال: لا... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان . فقال: هل عليّ غيره؟ قال: لا... إلا أن تطوع، وذكر له رسول الله الزكاة. فقال الرجل: هل عليّ غيرها؟ قال: لا... إلا أن تطوع . فأدبر الرجل وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله: أفلح وأبيه (١) إن صدق . أو قال: دخل الجنة - وأبيه - إن صدق» (٢). ٣- وروى الحديث في مسند أحمد بن حنبل، وفي نهايته: أن النبي قال له: «... فلعمري لئن تتكلم (٣) بمعروف و تنهى عن منكر، خير من أن تسكت» (٤). وهناك أحاديث أخرى لا يسع الكتاب ذكرها (٥). وقد أقسم الإمام عليّ - عليه السلام - ذلك النموذج البارع في التربية

١. أي حلفاً بأبيه، فالواو واو القسم .

٢. صحيح مسلم، ج ١ باب ما هو الإسلام، ص ٣٢ .

٣. أي تتكلم - للمخاطب - كما في قوله تعالى: «فأنت له تصدى» «أي تتصدى» .

٤ . مسند أحمد، ج ٥ ص ٢٢٥ .

٥ . راجع مسند أحمد: ج ٥ ص ٢١٢، وسنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٥٥ وج ٤ ص ٥٩٥ . (٣٠٦)

الإسلامية والقيم العالية - بنفسه الشريفة مرات في خطبه ورسائله وكلماته (١) . وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يقول للسارق الذي سرق حلتي ابنته، فقال: «وأبيك ما لي لك بليل سارق» (٢) . ولا - أرى البحث أكثر من هذا إلا تطويلا بلا طائل، وبما أن الوهابيين يتمسكون ببعض الأحاديث فلا بأس بدراستها: ١- إن رسول الله سمع عمر وهو يقول: وأبي، فقال: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت (٣) . يلاحظ على الاستدلال: بأن وجه النهي عن الحلف بالآباء، أن آباءهم في الغالب كانوا مشركين وعبدة الأصنام، فلم تكن لهم حرمة ولا كرامة حتى يحلف أحد بهم، ويؤيد ذلك ما روى عن النبي أنه قال: «ولا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد» (٤) وروى أيضاً: «لا تحلفوا بأبائكم ولا بالطواغيت» (٥) . على أنه يحتمل أن يكون النهي عن الحلف بالأب في مقام فصل الخصومات و حسم الخلافات، وقد عرفت أن الفاصل في هذا المجال هو الحلف بالله وصفاته . وأكثر ما يمكن أن يقال: إن النهي تنزيهي لا - تحريمي بشهادة ما سبق من الحلف بغير الله في حديث الرجل النجدي . ٢- جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن احلف برب الكعبة، فإن عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -

١ . نهج البلاغة: تعليق محمد عبده: الخطبة رقم ٢٢ و ٢٥ و ٥٦ و ٨٥ و ١٦١ و ١٦٨ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٧ والرسالة رقم ٦ و ٩ و ٥٤ .

٢ . الموطأ، أخرجه في باب الحدود برقم ٢٩ .

٣ . سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٧٧، سنن الترمذي: ج ٤ ص ١٠٩ وغيرهما .

٤ . سنن النسائي ج ٧ ص ٩ .

٥ . سنن النسائي: ج ٧ ص ٧، سنن ابن ماجه: ج ١ ص ٢٧٨ - والطواغيت هي الأصنام . (٣٠٧)

لا تحلف بأبيك فإن من حلف بغير الله فقد أشرك (١) . يلاحظ على الاستدلال: أن الحديث يتألف من أمور ثلاثة: ١- إن رجلاً جاء إلى ابن عمر فقال: أحلف بالكعبة؟ فأجابه بقوله: لا، ولكن احلف برب الكعبة . ٢- إن عمر بن الخطاب كان يحلف بأبيه، فنهاه النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن ذلك . ٣- إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - علل ذلك بقوله: «من حلف بغير الله فقد أشرك» . والمتبادر من كلام الرسول حيث وقع تعليلاً لنهي عمر عن الحلف بوالده - الكافر - ما إذا كان المحلوف به شيئاً غير مقدس كالكافر والصنم، وأما إذا كان المحلوف به مقدساً وذا فضيلة وكرامة كالكعبة، فكلام الرسول منصرف عنه، وإنما اجتهد ابن عمر حيث حمل كلام الرسول حتى على الحلف بالمقدس، كالكعبة، واجتهاده حجة على نفسه لا على غيره . وهناك جواب آخر، وهو أنه يحتمل وقوع التحريف في الخبر، وأن قوله فقال: «رسول الله» مصحف قوله: وقال رسول الله، وعندئذ يكون كلام الرسول مستقلاً، لا تعليلاً بشيء حتى النهي عن الحلف بالكافر، وعلى هذا فالحديث مركب من أمور ثلاثة جمعها ابن عمر في حديث واحد . والذي يعرب عن أن كلام الرسول كان كلاماً مستقلاً غير واقع في ذيل النهي عن الحلف بالأب، ما رواه إمام الحنابلة عن ابن عمر، قال: «كان يحلف أبي، فنهاه النبي وقال: من حلف بشيء دون الله فقد أشرك» (٢) فلو كان كلام الرسول مصدراً بنهي عمر عن الحلف بأبيه كان اللازم أن يقول: «فقال» مكان «قال» وعلى فرض استقلاله ووروده بدون

١ . السنن للبيهقي: ج ١ ص ٢٩، وقريب منه في مسند أحمد: ج ٢ ص ٦٩ .

٢ . مسند أحمد: ج ٢ ص ٣٤ . (٣٠٨)

«الفاء» يكون القدر المتيقن منه الحلف بالأصنام . ويشهد على ذلك ما رواه النسائي: أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله» (١) . والحديث يعرب عن أن رواه الجاهلية كانت باقية في بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم المعبودة، فأمرهم النبي أن يقولوا بعد الحلف: «لا إله إلا الله» ليقضى على تلك الرواسب الجاهلية . وحصيلة

الجوابين: إنَّ قول النبي: «من حلف بغير الله فقد أشرك» إمَّا مختص بغير المقدسات كالحلف باللائت والعزى والكافر، أو مختص بالأصنام والأوثان فقط، ولا يعم الكافر فضلاً عن المقدسات . _____
١ . سنن النسائي: ج ٧ ص ٨ . (٣٠٩)

ابن تيمية والحلف على الله بحق الأولياء

ابن تيمية والحلف على الله بحق الأولياء

إنَّ من نقاط الاختلاف بين جماهير المسلمين والوهابيين هي مسألة الحلف على الله بحق الأولياء . قال ابن تيمية: التوسل في لغة الصحابة: أن يطلب من النبي الدعاء والشفاعة فيكونون متوسلين و متوجهين بدعائه وشفاعته، ودعاؤه وشفاعته من أعظم الوسائل عند الله، وأمَّا في لغة كثير من الناس: أن يسأل بذلك، ويقسم عليه بذلك، والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات، بل لا يقسم بها بحال، فلا يقال أقسمت عليك يا رب بملائكتك، ونحو ذلك، بل إنما يقسم بالله وأسمائه وصفاته... وأمَّا أن يسأل الله ويقسم عليه بمخلوقاته، فهذا لا أصل له في الإسلام . وقال: وقوله: «اللهم إنِّي أسألك بمعاهد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك وجدك الأعلى وكلماتك التامة» مع أنَّ في جواز الدعاء به قولين للعلماء: فجوزه أبو يوسف وغيره، ومنع منه أبو حنيفة وأمثلة، فينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية المشروعة التي جاء بها الكتاب والسنة (١) . ترى أن ابن تيمية يفتي بالحرمة من دون أن يذكر لها مصدراً، بل يفتي على خلاف النص كما ستعرفه . _____
١ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ١ ص ٢١ . (٣١٠)

وجاء الرفاعي يتفلسف في تبيين حرمة الحلف على الله بمخلوقه، ويقول: إنَّ الإقسام على الله بمخلوقاته أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على الله بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنَّ الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنَّه شرك لأنه حلف بغير الله، فالحلف على الله، بمخلوقاته من باب أولى، أي جعلنا المخلوق بمرتبة الخالق، والخالق بمرتبة المخلوق، لأنَّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، ولذلك كان الحلف بالشيء دليلاً على عظمته، وأنه أعظم شيء عند المحلوف عليه (١) . ومن هنا كان الحلف بالمخلوق على الله شركاً بالله، لأننا خصصنا هذه المكانة العليا بالمخلوق، مع أنها هي بالخالق أولى (٢) . يلاحظ عليه: أن كلامه يشتمل على أمرين: ١- إنَّ الحلف بغير الله شرك . ٢- إنَّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، فلازم الحلف بالمخلوق على الله كونه أعظم من الله . وكلتا الدعويين باطلتان، أمَّا الأولى فقد عرفت في البحث السابق أن الحلف بغير الله ليس بحرام، بل هو سنة متبعة بين المسلمين، فقد حلف رسول الله ووصيه بغير الله، وأن الكتاب قدوة وأسوة، فقد حلف بعمر النبي وحلف بالقرآن الكريم وقال: «يس والقرآن الحكيم» فما هذا الإفتاء به دليل، والتشريع بلا برهان؟ (قُلْ أَللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) (٣) . _____

١ . تلاحظ أن هذا لا ينسجم مع ما سبق منه: «إنَّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه» وفي النسخة بعد لفظه «عليه» لفظه «به» .

٢ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٢١٧-٢١٨ .

٣ . سورة يونس: الآية ٥٩ . (٣١١)

و أمَّا الثانية فالمصيبة فيها أعظم، فإن لازم الحلف بشيء على الله، أن يكون المحلوف به محترماً عند الله و مقبول الشفاعة والدعاء، لا كونه أعظم من المحلوف عليه، فالرجل لم يفرق بين كونه أكرم عند الله وبين كونه أعظم من الله، والحاصل أن هذه التفلسفات لا تكون مدرراً للتشريع والإفتاء بالحرمة، فيجب اتباع النص وتعليل المسألة في ضوء القواعد الفقهية، فها هنا مقامان: ١- هل الحلف بمخلوق على الله شرك؟ ٢- هل هناك ما يدل على حكم هذا الحلف؟ أمَّا الشرك فقد حددناه ووضعنا له حداً منطقياً، وهو الخضوع عن اعتقاد بالوهية المخضوع له وربوبيته، أو كونه قائماً بفعله سبحانه، وهل ينطبق هذا الحد على الحلف بالمخلوق على الله؟ إنَّ الذكر

الحكيم يصف بعض عباد الله ويقول: (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (١) .

فلو أن إنساناً قام في هزيع من الليل وصلّى لربه ركعات، ثم تضرع إلى الله قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمُسْتَغْفِرِينَ فِي الْأَسْحَارِ، اغفر لي ذنبي» فهل يصح لنا أن نعهده مشكراً، وأنه أشرك الغير في عبادة الله، مع أنه رفع يديه إلى الله سبحانه ودعاه بالضراوة؟ إن القرآن الحكيم ذكر مقياساً للتمييز بين المشرك والموحّد فقال: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) (٢) .

١ . سورة آل عمران: الآية ١٧ .

٢ . سورة الصافات: الآية ٣٥ - ٣٦ . (٣١٢)

وقال: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ) (١) وقال سبحانه: (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) (٢) . فهل ينطبق هذا المقياس المركز عليه في الذكر الحكيم على من أحلف الله بحبيب من أحبائه، أو شهيد من شهداء دينه؟ فهل هو من الذين إذا دعى الله وحده كفر، وإن أشرك به آمن؟ كلاً - وألف كلاً . إن أرخص شيء وأوفره في سوق الوهابيين هو البذاءة في اللسان، وتكفير المسلمين واتهامهم بالشرك، فكأنهم لا يوجد في علبتهم إلا السب والكلام البذيء والاتهام بالشرك، معرضين عن قوله سبحانه: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) (٣)

وكانه سبحانه خول تفسير الشرك إلى الوهابيين ليفسروه كيف يشاؤون، فيعتبروا جماعة مشكرين وأخرى موحدين . أما المقام الثاني، أعنى استخراج حكم المسألة من الكتاب والسنة، فيكفي في ذلك : ١- ما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَبِحَقِّ مِمَشَى... (٤) . ٢- ما رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : _____

١ . سورة الزمر: الآية ٤٥ .

٢ . سورة غافر: الآية ١٢ .

٣ . سورة النساء: الآية ٩٤ .

٤ . لاحظ ص ٢٥٧، ٢٦١، ٢٣٢، ٢٥٨ من هذا الجزء . (٣١٣)

لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي... (١) . ٣- وما رواه عثمان بن حنيف عن رسول الله من دعاء الرسول للضرير وفيه «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتُوجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ...» (٢) . ٤- وما روى من دعاء النبي عند دفن فاطمة بنت أسد، قال: اغفر لفاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي» (٣) . إن هذه الأحاديث وإن خلت من لفظ القسم بعينه، لكن مضمونه موجود لمكان الباء فيها، والمعنى: أقسم عليك بحقهم . هذا ما روى عن النبي الأكرم، وإليك ما روى عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام - . ٥- هذا إمام المتقين أمير المؤمنين علي - عليه السلام - يقول في دعائه بعد صلاة الليل: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحُرْمَةِ مَنْ عَازَبَكَ مِنْكَ، وَلِجَأٍ إِلَى عِزِّكَ، وَاسْتِظْلَافِ بَيْتِكَ، وَاعْتِصَمَ بِحَبْلِكَ، وَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا بِكَ» (٤) . ٦- ويقول في دعاء علمه لأحد أصحابه... «وبحق السائلين عليك، والراغبين إليك، والمتعوذين بك، والمتضرعين إليك، وبحق كل عبد متعبد لك في كل برّ أو بحر أو سهل أو جبل، أدعوك دعاء من اشتدّت فاقته» (٥) . ٧- وهذا أبو الشهداء الإمام الحسين بن علي - عليهما السلام - يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكَلِمَاتِكَ، وَمِعَاقِدِ عِزِّكَ، وَسُكَّانِ سَمَاوَاتِكَ وَأَرْضِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ وَرَسَلِكَ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِي، فَقَدْ

رهقني من أمرى عسر، _____

(١، ٢، ٣) المصدر السابق .

(٤، ٥) الصحيفة العلوية: ص ٣٧٠ . (٣١٤)

فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تجعل من أمرى يسراً». ٨- وهذا هو الإمام زين العابدين يقول في دعائه يوم عرفه وهو يناجي ربه: «بحق من انتخب من خلقك، بمن اصطفيته لنفسك، بحق من اخترت من بريتك، ومن اجتبت لشأنك، بحق من وصلت طاعته بطاعتك، ومن نيظت معاداته بمعاداتك» (١). وهذا هو الإمام الصادق - عليه السلام - يقول عندما زار مرقد جده الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - : «اللهم استجب دعائي، واقبل ثنائي، واجمع بيني وبين أوليائي بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين» (٢). ولعل القارئ يسأل: هل للوهابيين على تحريم هذا النوع من الحلف دليل؟ والجواب: نعم، إن لهم شُبهاً وظنوناً فحسب، وإليك البيان: ١- إن الإقسام على الله بمخلوق منهي عنه باتفاق العلماء (٣). إن معنى الإجماع على حكم هو اتفاق علماء الإسلام في جميع الأعصار، أو في عصر واحد على حكم. وأيضاً نسأل من أين وقف هذا الناقل للإجماع على اتفاق علماء الإسلام على التحريم؟ ونحن نسامحه ونقول: هل أفتى خصوص أئمة المذاهب الأربعة بالحرمة؟ فأين هذه الفتاوى؟ دلونا على محلها ومصادرها وكتبها! ثم ما قيمة هذه الفتاوى المدعاة تجاه النصوص والأحاديث الصحيحة

١. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

٢. مصباح المتعبد: ص ٦٨١.

٣. الهدية السنية، المنسوب إلى عبدالعزيز بن محمد بن مسعود كما في كشف الارتباب، ص ٣٢٩. (٣١٥)

والآثار المروية عن أئمة أهل البيت - عليهم السلام -، أو ليسوا من السلف الصالح والقادة الأعلىين؟ ٢- إن المسألة بحق المخلوقين لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق. إن هذا الاستدلال عجيب جداً. هذه هي الآيات القرآنية تثبت حقوقاً على الله سبحانه لعباد الله الصالحين، وكذلك الأحاديث الشريفة: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (١). (وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) (٢). (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ) (٣).

وبالإضافة إلى ما سبق من الآيات الكريمة... هناك مجموعة كبرى من الأحاديث الشريفة في هذا المجال، وإليك نماذج منها: ألف - قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «حَقُّ عَلَى اللَّهِ عَوْنٌ مِنْ نَكْحِ التَّمَّاسِ الْعَفَافِ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ» (٤). ب - «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَكَاتِبُ الَّتِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاحِ الْوَالِدِي يُرِيدُ التَّعْفُفَ» (٥). ج - «أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادَةِ عَلَى اللَّهِ...» (٦)

نعم إن من الواضح أنه ليس لأحد بذاته حق على الله، فعندئذ، ربما يُسأل عن معنى هذا الحق؟

١. سورة الروم: الآية ٤٧.

٢. سورة التوبة: الآية ١١١.

٣. سورة يونس: الآية ١٠٣.

٤. الجامع الصغير، للسيوطي: ج ٢ ص ٣٣.

٥. سنن ابن ماجه: ج ٢ ص ٨٤١.

٦. النهاية لابن الأثير، مادة حق. (٣١٦)

الجواب: إن المقصود من الحق هو المنزلة التي يمنحها الله تعالى لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم له، وهو مزيد من التفضل والعناية منه تعالى حقاً، فهذا هو الحق الذي نقسم به على الله، حق جعله الله ومنحه لعبده، لا أن للعبد حقاً على الله ذاتاً، وهذا مثل القرض الذي يستقرضه سبحانه من عباده ويقول: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) (١).

وهذا النوع من التعبير لطف من الله سبحانه وعناية فائقة بعباده، حيث يعتبر نفسه المقدسة مدينة وعباده دُيَانًا، فلما أعظم لطفه، مع أنه سبحانه هو المالك، والعباد خلفاؤه. قال: (آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) (٢). ترى أن مالك الملوك يستقرض من خلفائه ونوابه. ٣- عن جنذب بن عبد الله قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

وسلم - : قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عزوجل: «من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك». رواه مسلم: وقد استدلل به الشيخ عبدالرحمان حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه «قره عيون الموحدين» (٣). ولم يذكر كيفية الاستدلال، وذيل كلامه بحديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود عنه قال: سمعت رسول الله يقول: كان رجلا في بني إسرائيل

١. سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

٢. سورة الحديد: الآية ٧.

٣. ص ٣٣٣، طبع لاهور. (٣١٧)

متواخين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: اقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: اقصر، فقال: خلني وربى، أبعثت علي رقيباً؟ والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكتب بي عالماً؟ أو على ما في لمدى قادراً؟ فقال للمذنب: أذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: إذهبوا به إلى النار (١). والحديث الثاني يفسر الحديث الأول، وأن المراد من قوله: «يتألى علي أن لا أغفر لفلان» هو الحلف بلا علم على الله، كما ورد في الحديث الثاني: «أكنت بي عالماً، أو على ما في يدي قادراً؟». —————

١. قره عيون الموحدين: ص ٢٣٣، والحديث في التعليقة وفي المتن إشارة إليه .

ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم

ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم

إن من المنكرات والبدع عند ابن تيمية وابن عبد الوهاب هو تكريم مولد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بالاحتفال وقراءة القرآن و إنشاد القصائد والأشعار، والإحسان إلى المؤمنين بالإطعام، إلى غير ذلك مما يعد مجلى لحب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وتكريمه ورفعته، كما رفعه الله سبحانه وقال: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) (١). وقد عرفت في ترجمته ابن تيمية أن مسلكه يشتمل على أبعاد أربعة، وأحد الأبعاد هو الحط من كرامته النبي وعظمته التي جاءت في الكتاب والسنة، فجاء يحقق بغيته بتحريم الاحتفال بالمواليد والتأبين في الوفيات، مع أنه لا يشك ذو مسكته أنه ليس عبادة للنبي، لما عرفت من أن العنصر المقوم للعبادة هو الاعتقاد بالوهية المعبود أو ربوبيته أو كونه مفوضاً إليه فعل الرب، وليس في الاحتفال شيء من ذلك. وكما أنه ليس عبادة، ليس بدعة، لأنه تجسيد للأصل الوارد في الذكر الحكيم، وهو حب النبي ومودته على وجه يكون النبي مقدماً على الإنسان ونفسه ونفيسه، وقد قام به السلف طيلة قرون، وإجماع العلماء في عصر حجة، فكيف في قرون، ومع ذلك فابن تيمية يظهر ما يضمرة عن طريق تحريم هذه الاحتفالات ويقول: —————

١. سورة الانشراح: الآية ٤. (٣١٩)

إن اتخاذ هذا اليوم عيداً محدث لا أصل له، فلم يكن في السلف لا من أهل البيت ولا من غيرهم من اتخذ ذلك عيداً، حتى يحدث فيه أعمالاً، إذا الأعياد شريعة من الشرائع، فيجب فيها الإتيان لا الابتداء، وللنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خطب وعهود، ووقائع في أيام متعددة، يذكر فيها قواعد الدين، ثم لم يوجب ذلك أن يتخذ أمثال تلك الأيام أعياداً، وإنما يفعل مثل هذا، النصرى الذين يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى - عليه السلام - أعياداً، أو اليهود، وإنما العيد شريعة، فما شرعه الله أتبع، وإلا لم يحدث في الدين ما ليس منه. وكذلك ما يحدثه بعض الناس إماماً مضاهياً للنصرى في ميلاد المسيح - عليه السلام -، وإماماً محباً للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وتعظيماً له، والله قد يشبههم على هذه المحبة، والاجتهاد، لا على البدع من اتخاذ مولد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عيداً مع اختلاف الناس في مولده، فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضى له، وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيراً محضاً أو

راجحاً لكان السلف - رضى الله عنهم - أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص (١). إن هذه البذرة التي بذرها ابن تيمية استغلها تلميذه ابن القيم وبعده الوهابية، وإليك بعض نصوصهم: قال ابن القيم: «نهى رسول الله عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أن يتخذوا عيداً» (٢). وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله، ويسمونها عيداً كمولد البدوى بمصر وغيره، بل هي أعظم لما يوجد فيها

١. اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

٢. زاد المعاد في هدى خير العباد: ج ١ ص ١٧٩. (٣٢٠)

من الشرك والمعاصي العظيمة» (١). وقال محمد حامد الفقى: «والمواليد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء، هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم» (٢). وقد استدلو بما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علىّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنت» (٣). وملاحظة هذه الكلمات تفيد أنهم يستدلون على التحريم بأمور: الأول: إنها عبادة للأولياء وأصحاب الذكريات. الثانى: إنها بدعة، وإنها مما لم يشره الشارع الشريف. الثالث: لو كان هذا خيراً لأقامه السلف. الرابع: الاستدلال برواية أبى هريرة من النهى عن اتخاذ قبر النبى عيداً.

هذه هي الوجوه المهمة التي يستدل بها ابن تيمية وأتباعه على تحريم تكريم المواليد، ونحن ندرس كل واحد من هذه الأدلة واحداً بعد آخر: أ - هل الاحتفال بالمواليد شرك؟

قد عرفت أن محمد حامد الفقى رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية أفتى بكونه شركاً، وقال: هو نوع من العبادة للأولياء وتعظيمهم. ولكنه كعامة الوهابيين لم يفرق بين التكريم والعبادة، ولذلك عطف التعظيم على العبادة، وهذا هو الداء العيى فى دعاية الوهابيين وكتبهم وخطبهم، وأرخص شىء عندهم هو الشرك فى العبادة، فلا تميل يميناً ولا يساراً

١. قره العيون، كما فى فتح المجيد: ص ١٥٤.

٢. تعليق فتح المجيد: ص ١٥٤.

٣. مسند أحمد: ج ٣ ص ٢٤٨. (٣٢١)

إلا وتسمع من الجماعة المتسمين بالأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر يصرخون فى وجهك «يا حاج! هذا شرك» وهم لم يحددوا للعبادة حداً منطقياً حتى يميزوا فى ضوءه العبادة عن التعظيم، فعادوا يستمون كل تعظيم شركاً، ولو كان تعظيم وخضوع عبادة، للزم كفر المملوك والزوجة، والولد والخادم، والأجير، والرعية، والجنود، بإطاعتهم وخضوعهم للمولى والزوج والأب والمخدوم والمستأجر والملك والأمراء، وجميع الخلق لإطاعتهم بعضهم بعضاً، بل كفر الأنبياء لإطاعتهم آباءهم وخضوعهم لهم، وقد أوجب الله طاعة أوامر الأيوين، وخفض جناح الذل لهما، وقال لرسوله: (وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (١)، وأمر بتعزيز (٢) النبى وتوقيره، وأمر بإطاعة الزوجة لزوجها، وأوجب إطاعة العبيد لمولاهم وسماهم عبيداً (٣). وقد عرفناك على أن العنصر المقوم لكون التعظيم عبادة، هو الاعتقاد بألوهية المعظم له، أو ربوبيته، أو كونه مالكاً لمصير المعظم، وأن بيده عاجله وآجله، ومنافعه ومضاره، ولا اقل مغفرته وشفاعته، وأما إذا خلا التعظيم عن هذه العناصر، وقام بالاحتفال بذكرى رجل ضحى بنفسه ونفيسه من أجل استقلال أمته وإخراجها عن نير الاستعباد، وهياً لهم أسباب الاستقلال، فلا يعد ذلك عبادة له، وإن كان هناك احتفال أو احتفالات، وألقى فيها عشرات القصائد والخطب فلا - صلة لهذا بالعبادة. نعم يدور أمر كل ذلك بين الحلال والحرام، وهل الشارع رخص ذلك أو لم يرخص، وسيوافيك أن باذر هذه الشكوك ابن تيمية، يرى أن الأصل فى العادات عدم الخطر، إلا ما حظره الله (٤). نعم، الاحتفال بمولد النبى ليس من العادات، ولا - يقام بما أنه أمر عادى بل بما هو أمر قربى له أصل فى الكتاب والسنة كما مر وسيأتى أيضاً.

١ . سورة الشعراء: الآية ٢١٥ .

٢ . إشارة إلى قوله سبحانه: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوه النور الذي أنزل معه) سورة الأعراف: الآية ١٥٧

٣ . كشف الارتياح، ص ١٠٣ وللکلام صلة مفيدة جداً فمن أراد فليرجع إليه .

٤ . المجموع من فتاوى ابن تيمية: ج ٤ ص ١٩٥ . (٣٢٢) ب - هل الاحتفال بالمواليد بدعة؟

إن القوم يعدون الاحتفال شركاً تاراً، وبدعة ثانياً، وقد عرفت أنه ليس بشرك لفقدان العنصر المقوم للشرك فيه، وأما كونه بدعة فقد عرفت بطلانه عند البحث عن أنه عبارة عن إحداث أمر باسم الدين، وليس له فيه نص أو أصل، والاحتفال، وإن لم يكن فيه نص، لكن له أصلاً في الكتاب والسنة، وهو حب النبي ومودته وإظهاره، فليست هذه الاحتفالات إلا تجسيدا للحب لا للعداء والنصب والبغضاء، نعم، المنع عنه إظهار للضعيفة الكامنة في القلوب . هلم معنا ندرس دليلهم الثالث: ج - لو كان خيراً لأقامة السلف

هذا هو الدليل الثالث الذي يركن إليه المانع، وهو من أعجب الدلائل، فكأن السلف مقياس الحق والباطل في الفعل والترك معاً، فلو تركوا شيئاً دل ذلك على أنه باطل يجب تركه، نحن نفترض أن السلف لم يقيموه ولم يحوموا حوله، ولكن الخلف أبناء الدليل، فلو كان له أصل في القرآن والسنة لا يعبا بترك السلف. على أن هذا ما يقوله القائل، ونحن إذا رجعنا إلى التاريخ نجد أن السلف أقامه عبر القرون والأجيال قبل أن يتولد باذر هذه الشكوك . هذا مؤلف تاريخ الخميس يقول: ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، يظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، يعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عميم (١) . وقال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده - عليه السلام - ، ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات،

١ . تاريخ الخميس، ج ١ ص ٣٢٣ للديار بكرى . (٣٢٣)

ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم. ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم... فرحم الله امرأ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشدَّ علةً على من في قلبه مرض وأعياء داء . ولقد أظن ابن الحاج في «المدخل» في الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء، والغناء بالآلات المحرمة في العمل بالمولد الشريف، والله تعالى يشبهه على قصده الجميل (١) . وقال ابن عباد في رسائله الكبرى: «وأما المولد فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك... أمر مباح لا منكر» (٢) . كلمة أخيرة

إن المانعين عن الاحتفال بمولد النبي يقولون: إن أول من احتفل بمولد النبي هو الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلي عام ٦٣٠ هـ ، وربما يقال: أول من أحدثه بالقاهرة، الخلفاء الفاطميون، أولهم المعز لدين الله، توجه من المغرب إلى مصر في شوال ٣٤١ هـ ، وقيل في ذلك غيره (٣) وعلى أي تقدير فقد احتفل المسلمون حقياً وأعواماً من دون أن يعترض عليهم أي ابن أنثى، وعلى أي حال فقد تحقق الإجماع على جوازه وتسويغه واستحبابه قبل أن يتولد باذر هذه الشكوك، فلماذا لم يكن هذا الإجماع حجة؟ مع أن اتفاق الأمة بنفسه أحد الأدلة، وكانت السيرة على تبجيل مولد النبي إلى أن جاء ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، وابن رجب، والشاطبي فناقشوا فيه ووصفوه بالبدعة، مع أن الإجماع انعقد قبل هؤلاء بقرون، أو ليس انعقاد الإجماع في عصر من العصور حجة بنفسه؟

١ . المواهب اللدنية: ج ١ ص ٢٧ .

٢ . لاحظ المواسم والمراسم، نقلا عن القول الفصل في الاحتفال بمولد خير الرسل ص ١٧٥ .

٣ . المواسم والمراسم: ص ٢٠ . (٣٢٤) الدليل الأخير «لا تجعل قبري وثناً يعبد»

آخر ما في كنانة القوم من نبال مرشوقة إلى المؤمنين المحتفلين بمولد النبي الأكرم، ما روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإنّ صلواتكم تبلغني حيث كنتم» . وفي الاستدلال بالحديث مجال للنظر: أولاً: إن

إمام الحنابلة رواه في مسنده عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة. عن النبي أنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً. لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (١). ورواه في كنز العمال بالنحو التالي: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يصلّي إليه، فإنه اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٢). وفي الوقت نفسه رواه إمام الحنابلة عن أبي هريرة: قال رسول الله: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا- تجعلوا بيوتكم قبوراً، وحيثما كنتم فصلوا على فإنّ صلاتكم تبلغني» (٣). وروى أبو داود في صحيحه عن أبي هريرة نفس هذا المتن (٤). ومن المتحمل جداً طروء التصحيف على الرواية، فبدل «وثناً» إلى «عيداً» ويؤيد ذلك ذيل الرواية، أعنى قوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» فإنه يناسب قوله: «لا- تجعل قبري وثناً». وثانياً: إن العيد في اللغة هو الموسم، وهو كل يوم فيه اجتماع أو تذكّار

١. مسند أحمد: ج ٢ ص ٢٤٦.

٢. كنز العمال: ج ٢ برقم ٣٨٠٢.

٣. مسند أحمد: ج ٢ ص ٣٦٧.

٤. سنن أبي داود: ج ٢ ص ٢١٨، طبع دار إحياء التراث العربي. (٣٢٥)

لذي فضل، أو حادثه مهمة، سمّي عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد. فعلى هذا لا يصح أن يقع خبراً لقوله: «قبراً» إذا لا معنى لجعل القبر عيداً، فإنما يصح جعل موسم أو يوم مشخص عيداً، فهو يقع خبراً أو صفة للزمان لا للمكان، ولو صح جعله صفة للمكان فإنما هو باعتبار اليوم الذي يجتمع الناس فيه في ذلك المكان، فالتعبير الوارد في الحديث لا يوافق الذوق العربي السليم، فكيف يمكن نسبه إلى أشرف من نطق بالضاد، ولو أريد منه ما يحاول المستدل أن يثبته كان الأولى أن يقول: لا تتخذوا مولدي عيداً، لا قبري عيداً، أو يقول: لا تتخذوا مولدي حول قبري عيداً. وحصيلة الكلام أنّ يوم العيد هو يوم الفرح ويوم الزينة، ولا يمكن تطبيق هذا المعنى على القبر، إلا- بارتكاب مجاز متكلف فيه. وثالثاً: إنّ الرواية لم يعمل بها الصحابة حيث جعلوا بيت النبي قبوراً، إذ دفن فيه النبي الأكرم، وبعده أبو بكر وعمر، فصار بيته قبوراً. وأما الاعتذار بأنّ للأنبياء خصوصية ليست لغيرهم وهي أنهم يدفنون حيث يقبضون، لا يدفع الإشكال، إذ ليست هذه الخصوصية في غيرهم كصاحبيه «أبي بكر وعمر» فلماذا جعل بيت النبي قبوراً. ورابعاً: إنّ الحديث يحتمل معاني مختلفة وراء ما يرتئيه المستدل. ١- منها ما ذكره الحافظ المنذرى من أنه يحتمل أن يكون المراد به الحث على كثرة زيارة قبر النبي، وأن لا- يهمل حتى يكون بمثابة العيد (١). ٢- ومنها ما ذكره السبكي حيث قال: «ويحتمل أن يكون المراد: لا تتخذوا وقتاً مخصوصاً لا تكون الزيارة إلا فيه، كما ترى أنّ كثيراً من المشاهد، لزيارته يوم معين كالعيد، وزيارة قبره - صلّى الله عليه وآله وسلم - ليس لها يوم بعينه، بل أي يوم كان (٢)»

١. شفاء السقام: ص ٦٧، نقلاً عن زكي الدين المنذرى (أى: يزار بين المدة الطويلة كالعيد الذي لا يكون في كل عام إلا يوماً واحداً أو يومين).

٢. المصدر نفسه. (٣٢٦)

٣- ومنها ما ذكره أيضاً من أنه يحتمل أن يراد أن يجعل كالعيد في العكوف عليه، وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك مما يعمل في الأعياد، بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه. وقال العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي: «يحتمل قوياً أن يكون المراد أن اجتماعهم عند قبره - صلّى الله عليه وآله وسلم - ينبغى أن يكون مصحوباً بالخشوع والتأمل والاعتبار، حسبما يناسب حرمة واحترامه - صلّى الله عليه وآله وسلم - فإنّ حرمة ميتاً كحرمة حياً، فلا يكون ذلك مصحوباً باللغو واللعب والغفلة والمزاح وغير ذلك مما اعتادوه في أعيادهم، ثم عقبه بقوله: ولعل هذا مراد السبكي» (١). وخامساً: إنّ الحديث بكلتا صورتيه (وثناً - عيداً) ضعيف. أما الصورة الأولى فقد وقع في السند «سهيل بن أبي صالح» وهو ليس بالقوى في الحديث، والحديث ليس بحجة، قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقد كان اعتلّ بعلّة فنسى بعض حديثه، وقال ابن المديني: مات أخ لسهيل ووجد عليه فنسى كثيراً من الحديث،

وقال ابن أبي خيثمة: ابن معين يقول: لم يزل أصحاب الحديث يثقون بحديثه، وقال مرة: ضعيف (٢). وأما الصورة الثانية فقد وردت في مسند الإمام أحمد وأبي داود «عبدالله بن نافع» قال البخاري: يعرف حفظه وينكر، وقال أحمد بن حنبل: لم يكن صاحب حديث، وكان ضعيفاً فيه، ولم يكن في الحديث بذاك، وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ، هو لين يعرف حفظه وينكر، ووثقه يحيى بن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال ابن عدى: روى عن مالك غرائب، وهو في رواياته مستقيم الحديث (٣). هذا هو حال الحديث الذي يحتج به ابن تيمية ومن يلحق قصعته من

١. المواسم والمراسم: ص ٧١.

٢. ميزان الاعتدال: ص ٢٤٣ - ٢٤٤، ونقل أقوال الآخرين في توثيقه، فالرجل مختلف فيه جداً.

٣. شفاء السقام: ص ٦٦. (٣٢٧)

الوهابية، وبذلك أفتوا بحرمة الاحتفال بذكرى النبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . وهذه هي أدلة المانعين وشواهدهم، وقد عرفت ضعفها وعدم دلالتها على ما يرتأون، ولنختم البحث بذكر أمور: الأول: إن الاحتفال بالمواليد يجب أن يكون بعنوان أنه تطبيق للأصل القرآني من لزوم تكريم النبي وتوقيره وتعظيمه، ولأجل ذلك يصح إيقاعه في كل شهر وأسبوع ويوم، وعند ما يقام الاحتفال بمولده فإنما يقام بما أنه جزئي لذلك بالتكريم بالخصوص، حتى يكون الاحتفال تجسيدا لهذا الأمر، فهو بدعة لا يصار إليها، ولا أرى أحداً يدعى أنه ورد الأمر بالخصوص بمولده. الثاني: يجب أن يكون الاحتفال مطابقاً للسنن الإسلامية، خالياً عما يستقبح فعله في الشريعة، كعزف المعازف، واتخاذ القيان، واختلاط الرجال بالنساء، فلو فرض أنه اقترنت بعض هذه الاحتفالات بالمحرمات، فلا يكون دليلاً على حرمة نفس الاحتفال، ولا يكون سبباً للمنع عنه، فالنَّ بعض الفرائض ربما تكون ذريعة لما هو أعظم من هذه المحرمات. الثالث: ليست لإقامة الاحتفال كيفية خاصة، بل ينبغي أن يكون الكل في إطار الشريعة الغراء، ويكون في طريق تكريم النبي وتعظيمه، وإظهار الحب، وأحسن الطرق هو تلاوة الآيات الواردة في حقه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ثم الإيعاز إلى الجهود التي بذلها الرسول في طريق إنقاذ البشر، وبلغ بهم إلى أعلى مراتب العز والعظمة، ثم دعوة المسلمين عن طريق إلقاء الخطب بالتمسك بالكتاب والسنة، والسعي لتطبيق وتجسيد مبادئها في الحياة، ودعم الصحو الإسلامية للنهوض والوقوف في وجه القوى الكبرى التي ترصد بهم الدوائر، إلى غير ذلك من الأمور التي فيها خير وسعادة المسلمين كافة، في عاجلهم وآجلهم.

يقول العالم الجليل السيد محمد علوي بن عباس المالكي المكي الحسني: (٣٢٨)

«إننا نرى أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ليست له كيفية مخصوصة لا بد من الالتزام وإلزام الناس بها، بل إن كل ما يدعو إلى الخير ويجمع الناس على الهدى ويرشدهم إلى ما فيه منفعتهم في دينهم ودنياهم، يحصل به تحقيق المقصود من المولد النبوي، ولذلك فلو اجتمعنا على شيء من المدائح التي فيها ذكر الحبيب - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وفضله، وجهاده، وخصائصه، ولم نقرأ قصة المولد النبوي التي تعارف الناس على قراءتها، واصطلحوا عليها حتى ظن بعضهم أن المولد النبوي لا يتم إلا بها، ثم استمعنا إلى ما يلقى المتحدثون من مواعظ وإرشادات، وإلى ما يتلوه القاريء من آيات، أقول: لو فعلناه فإن ذلك داخل تحت المولد النبوي الشريف، ويتحقق به معنى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وأظن أن هذا المعنى لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عزان» انتهى (١).

. ومن المؤسف جداً أن الوهابية قامت بشن حملة شعواء على هذا الكتاب، ولم ترع أدب الكتابة والمناظرة إلى حد اعتراف الكاتب بأسلوبه القاسي في المحاوره، وينتهي في خاتمة كتابه إلى قوله: «ونكرر أسفنا وتأثرنا من القسوة التي آثرنا أن يشتمل عليها أسلوبنا في رد ترهاته، وأباطيله، ويعلم الله أن الباعث لهذا الأسلوب القاسي، الغيرة لحق الله (٢). ويؤاخذ عليه أن الغيرة لحق الله يجب أن تكون في إطار الأدب الذي ندب إليه الذكر الحكيم وقال: (ادعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (٣).

وكان الإمام أمير المؤمنين عليّ - عليه السلام - يؤدب أصحابه عند مقابلة الشاميين من الشاميين، من أصحاب معاوية القاسطين بقوله: **إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَيْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعِذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ**

سَبِّكُمْ يَا هُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَنَا

١. حوار مع المالكي، تأليف عبدالله بن سليمان بن منيع، ص ١٦٨ .

٢. حوار مع المالكي، ص ١٩٠ .

٣. سورة النحل: الآية ١٢٥ . (٣٢٩)

الرابع: روى أهل السنة عن الإمام علي بن الحسين - عليه السلام - أن رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما انتهره عليه علي بن الحسين - عليه السلام - فقال له: ما يحملك على هذا؟ قال: حبّ التسليم على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، فقال علي بن الحسين - عليه السلام -: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟

قال: نعم، فقال له علي بن الحسين - عليه السلام -: أخبرني أبي عن جدي أنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلّوا عليّ وسلّموا حيثما كنتم فسيلغني سلامكم وصلاتكم (٢) . ولو صحّ الحديث فلعل انتهاره كان لأجل أن الرجل زاد في الحدّ وخرج عن الحد الأوسط، ولا صلة له بنفي الزيارة بتاتاً، كما لا صلة له بإقامة الاحتفال والذكريات . إن هذه الرواية ظاهرة في أنه عليه الصلاة والسلام قد لاحظ أن ذلك الرجل قد ألزم نفسه بأمر شاق، وهو المجى، يومياً للصلاة عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وزيارته، فأراد - عليه السلام - التخفيف عنه وإفهامه أن بإمكانه الصلاة و التسليم عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - حيثما كان، فسيلغنه ذلك، فلا داعي لإلزام نفسه بما فيه كلفة ومشقة، ولم ينهه عن الصلاة والدعاء عند قبره - صلى الله عليه وآله وسلم -

صلى الله عليه وآله وسلم - (٣) * * * * *

١. نهج البلاغه، الخطبة: ٢٠٦ .

٢. رواه السبكي عن عبدالرزاق عن القاضي إسماعيل في كتاب فضل الصلاة على النبي، بسنده إلى علي بن الحسين - عليه السلام - ورواه عبدالرزاق في مصنفه بسنده إلى الحسن بن علي، لاحظ شفاء السقام، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

٣. المواسم والمراسم: ص ٧٣ . (٣٣٠)

إلى هنا تمّ تبين عقائد ابن تيمية ومحبي مسلكه ابن عبد الوهاب فبقى الإلماع إلى حياة المحيي وناصره، وهو ما سيوافيك في البحث التالي . «والحمد لله رب العالمين» * * * * * (٣٣١) محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية نشأته ووفاته استشفاف بواد الضلال من كلماته اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود بدء الدعوة ونشرها صدام بين ابن عبد الوهاب وأمير عيينة تكفير محمد بن عبد الوهاب جميع المسلمين حروبه مع المسلمين (٣٣٢) (٣٣٣)

تاريخ الوهابية

تاريخ الوهابية مؤسسها، ناصرها وتطورها

قد وقفت في الفصول السابقة على العقائد الوهابية عن كتب، وأنها لم تكن شيئاً جديداً سوى ما ابتدعه أحمد بن تيمية في القرن الثامن الهجري وقد كاد أن يصير نسياً منسياً، ويذهب أدراج الرياح، غير أن بذورها لما كانت تقبع في طيات كتبه ورسائله، قام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي بتجديد العهد بها، وإحيائها مرة أخرى بفضل سيف آل سعود في الشطر الثاني من القرن الثاني عشر إلى أوليات القرن الثالث عشر الهجري، أي من سنة ١١٦٠ إلى سنة ١٢٠٧ هـ التي وافاه الأجل فيها، ثم تعاهد أبناؤه من بعده مع أبناء بيت قبيلة آل سعود فترة بعد فترة، على أن تكون الدعوة والإرشاد والتخطيط على أبنائه، والتطبيق والتنفيذ والسلطة على كاهل آل سعود، فلم تزل هذه المعاهدة باقية إلى يومنا هذا، غير أنها اتخذت في هذه الآونة لنفسها شكلاً آخر، وهو أن القوة والسلطة كانت في بدء التأسيس آله طيعه بيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكنه في عصرنا هذا تبدلت رأساً على عقب، فأصبحت السلطة الدينية أداة

طبعة في يد آل سعود، يأترون بكل ما يلقي إليهم من البلاط السعودي والملك الحاكم من قبلهم على شبه الجزيرة العربية. وهذه إحدى الصور التي تحكى لنا عن تراجع الوهابية عن مبادئها الأولية التي قامت على اعتبارها يوم تأسيسها، وسنوافيك بما يحكى لك المزيد من ذلك. (٣٣٤) نشأته ووفاته

اختلف المؤرخون في عام ولادته ووفاته، فمن قائل (١) بأنه ولد سنة ١١١١ هـ وتوفي عام ١٢٠٧ هـ فيكون عمره ستاً وتسعين ر إلى آخر (٢) بانه ولد عام ١١١٥ هـ وتوفي ١٢٠٧ هـ فيكون قد ناهز إحدى وتسعين، نشأ وترعرع في بلده «العينة» في نجد، وتلقى دروسه بها على رجال الدين من الحنابلة، ثم غادر موطنه ونزل المدينة المنورة ليكمل دروسه، يقول أحمد أمين المصري: «سافر الشيخ إلى المدينة ليتعلمه، ثم طاف في كثير من بلاد العالم الإسلامي، فأقام نحو أربع سنين في البصرة، وخمس سنين في بغداد وسنة في كردستان، وستين في همدان، ثم رحل إلى إصفهان، ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف، ثم رحل إلى «قم» ثم عاد إلى بلده، واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة» (٣). وقد ذكر كثير من المؤرخين تجواله وترحاله في هذه البلاد، منهم عبد الرزاق الدنبيلي في كتابه «مآثر سلطانية» (٤)، والشيخ أبو طالب الإصفهاني الذي كان معاصراً للشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد ذكر سفر الشيخ إلى إصبهان وإلى أكثر بلاد العراق وإيران، حتى إلى «غزني» الذي هو بلد في أفغانستان (٥). استشفاف بواد الضلال من كلماته

إن الإنسان مهما كان ذكياً مواظباً على ستر عقيدته لا يتمكن من إخفائها في الفترة التي يكون فيها الوعي غائباً والذهن خاملاً، وعند ذلك يبدو على صفحات وجهه وفتلات لسانه ما يكتمه ويخفيه في الأوعية، قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : _____

١. زيني دحلان: الدرر السنية: ص ٤٢ طبع الآستانة وغيره .
٢. أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص ١٠ بيروت، وقد أرّخ الألوسى ولادته بـ ١١١١ هـ ولكنه أرّخ وفاته بـ ١٢٠٦ هـ.
٣. نفس المصدر السابق: ص ١٠ .
٤. مآثر سلطانية: ص ٨٢ و...
٥. ميرزا أبو طالب سفرنامه: ص ٤٠٩ و... (٣٣٥)

«ما أضمر أحد شيئاً إلا في ظهر فلتات لسانه وصفحات وجهه» (١) وقد كان محمد بن عبد الوهاب ممن يتفرس مشايخه وأساتذته فيه الضلال، حيث كان عندما يتردد إلى مكة والمدينة لأخذ العلم من علمائهما، وعندما كان يدرس على الشيخ محمد بن سليمان الكردى، والشيخ محمد حيات السندى كانا يتفرسان فيه الغواية والإلحاد، بل يتفرس غيرهما فيه مثل ذلك، وكان ينطق الكل بأنه سيضل الله تعالى هذا، ويضل به من أشقاه من عباده، حتى أن والده عبد الوهاب - وهو من العلماء الصالحين - كان يتفرس فيه الإلحاد ويحذر الناس منه، حتى أن أخاه الشيخ سليمان ألف كتاباً في الرد على ما أحدثه من البدع والعقائد الزائفة، وكان محمد بن عبد الوهاب بادىء بدء كما ذكره بعض المؤلفين مولعاً بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذباً كمسيلمة الكذاب وسجاح، والأسود العنسى، وطيحة الأسدى وأضرابهم (٢). يكتب ميرزا أبو طالب الإصفهاني وهو معاصره ويقول: أخذ في أول أمره عن كثير من علماء مكة والمدينة، وكانوا يتفرسون فيه الضلال والإضلال، وكان والده عبد الوهاب من العلماء الصالحين، وكان يتفرس فيه ذلك ويذمه كثيراً، يحذر الناس منه، وكذا أخوه سليمان بن عبد الوهاب أنكر عليه ما أحدثه، وألف كتاباً في الرد عليه، وكان في أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدعى النبوة كمسيلمة و...» (٣). لو صح هذا فهو يعرب عن أن محمد بن عبد الوهاب كان يضم في مكان ذهنه شيئاً يشاكل فعل هؤلاء المتنبيين، فصب ما أضمره في الدعوة الجديدة إلى التوحيد، وعاد يكفر رجال الدين عامة في كافة العصور، وينسبهم إلى الجهل والضلال، وهذه سمة المبتدعين عامة. انتقل عبد الوهاب إلى «حريملة»

ترك أبوه «العينة» ونزل بلدة «حريملة» وبقي فيها إلى أن وافته المتيئة _____

٢ . صدقي الزهاوى: الفجر الصادق ص ١٧ والسيد أحمد زيني دحلان: فتنة الوهابية ص ٦٦ .

٣ . ميزرا أبو طالب: سفرنامه، ص ٤٠٩ . (٣٣٦)

سنة ١١٤٣ (١) ولم يكن راضياً عن ابنه، وطالما زجره ونهاه، ولما توفي الوالد تجزأ عليه أهل «حريملة» وهمموا بقتله، فلم يجد بداً من الهرب إلى «العينية» وهي مسقط راسه ودار نشأته، وقد تعاهد هو وأميرها «عثمان بن معمر» على أن يشد كل أزر الآخر، فترك الأمير للشيخ الحرية في إظهار الدعوة والعمل على نشرها، لقاء أن يقوم محمد بن عبد الوهاب بدوره بشتى الوسائل لسيطرة الأمير على نجد بكاملها، وكانت يومذاك موزعة إلى ست أو سبع إمارات منها إمارة العينية (٢) ولكن لكي تقوى الروابط بين الاثنين زوج الأمير أخته «جوهرة» من الشيخ، فقال له الشيخ: «إني لآمل أن يهبك الله نجداً وعربانها» (٣) . هكذا بدأ التآلف بين الشيخ والأمير، واحدة بواحدة... مساومة ثم أخذ وعطاء، والتمن هو الدين والشعب، أما زواج الشيخ من «جوهرة» فتشيت للتحالف، وضمن للوفاء... لقد سخر محمد بن عبد الوهاب الدين لأجل الدنيا، وتطوع لتعزيز حكمه دون أن يكون على يقين من عدله، أو يأخذ منه موثقاً لتحسين الأوضاع وراحة الناس، والعمل للصالح العام، بل على العكس، فقد وعده بملك نجد وعربانها... ولكن لا بالاقتراح وحرية تقرير المصير، بل بالحرب والغزو وبأشلاء الضحايا (٤) . أبعد ذلك يصح أن يعدد الشيخ من المصلحين المجددين، وممن له رسالته إنسانية كما عدّه نفر منهم أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ومهما كان فإن التحالف بين الشيخ والأمير لم يطل عمره ولم يتم أمره، وما تمخض إلا عن زواج الشيخ بجوهرة، وهدم قبر زيد بن الخطاب، وإثارة الفتن والقتال فقط - لم يطل عمر التحالف بين ابن عبد الوهاب والأمير ابن معمر - لأن سليمان الحميدى صاحب الأحساء والقطيف أمر عثمان بن معمر - وكان أقوى منه - أن يقتل الشيخ .

١ . محمد جواد مغنية: هذه هي الوهابية ص ١١١ .

٢ . آلوسى - السيد محمود: تاريخ نجد، ص ١١ .

٣ . فيلبى - عبد الله: تاريخ نجد، ص ٣٦ .

٤ . مغنية - محمد جواد: هذه هي الوهابية ص ١١٢ . (٣٣٧)

يقول عبد الله فيلبى في تاريخ نجد: «قرر عثمان أن يتخلص من ضيفه، فطلب منه أن يختار المكان الذى يريد الذهاب إليه، فاختار «الدرعية»، فأرسل عثمان معه رجلا اسمه فريد: وكلفه أن يقتل ابن عبد الوهاب فى الطريق، ولكن فريداً خذلته إرادته، وترك الشيخ وقفل راجعاً دون أن يمسه بسوء (١) . ويذكر السيد محمود شكرى آلوسى انتقال الشيخ من «عينية» إلى «حريملة» نحو ما مرّ ويزيد: خرج إلى «الدرعية» سنة: ١١٦٠ هـ وهى بلاد مسيلم الكذاب (٢) . اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود

ورد الشيخ إلى الدرعية فى العام الذى عرفت، وكان أميرها آنذاك محمد بن سعود جد السعوديين، وتم الاتفاق بين الأمير والشيخ على غرار ما كان قد تم بينه وبين ابن معمر فى «العينية»، فقد وهب الشيخ نجد وعربانها لابن سعود، كما وهبها من قبل لابن معمر، ووعده أن تكثر الغنائم عليه والأسلاب الحربية التى تفوق ما يتقاضاه من الضرائب (٣) على أن يدع الأمير للشيخ ما يشاء من وضع الخطط لتنفيذ دعوته . وتقول الرواة: إن الأمير سعود بايع محمد بن عبد الوهاب على القتال فى سبيل الله... ومعلوم انهما لم يفتحا بلداً غير مسلم فى الشرق أو فى الغرب، وإنما كانا يغزوان ويحاربان المسلمين الذين لم يدخلوا فى طاعة ابن سعود، ولأجل ذلك قال الأمير لابن عبد الوهاب: «أبشر بالنصر لك ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد، لكن أريد أن اشترط عليك اثنين: أولاً: إذا قمنا بنصرتك وفتح الله لنا ولك، أخشى أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا فعاهده الشيخ أن لا يفعل .

١ . فيلبى - عبد الله: تاريخ نجد، ص ٣٩٠ ط المكتبة الأهلية بيروت .

٢ . كشف الارتياح ص ١٣ - ١٤ نقلا عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكرى آلوسى .

٣ . فيلبى: تاريخ نجد ص ٣٩ . (٣٣٨) ثانياً: إننى أتقاضى من أهل «الدرعية» مالا وقت الثمار، وأخاف أن تمنع ذلك، فقال الشيخ:

لعل الله يفتح الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو أعظم منها» (١) .

وعلى هذا تم الاتفاق بين أمير «الدرعية» والشيخ . إن بعض المستشرقين مثل «فيليب حتى» (٢) و «جولد تسيهر» (٣) وغيرهما يذكرون أنه قد تقوّت الروابط بين الاثنين بمثل ما تقوّت بينه وبين أمير «عينه» وزوج محمد بن سعود ابنه عبدالعزيز من إحدى بنات محمد بن عبد الوهاب، ولا يزال العهد بين آل سعود وعائلة عبد الوهاب مستمراً إلى يومنا هذا، وإن اختلف مضمونه مع استمرار التزاوج على نطاق وسيع (٤) . بدء الدعوة نشرها

شعر محمد بن عبد الوهاب بقوته عن طريق هذا التحالف الجديد، وأن الامارة السعودية أصبحت تناصره وتؤازره، فلأجل ذلك جمع الشيخ أنصاره وأتباعه وحثهم على الجهاد، وكتب إلى البلدان المجاورة المسلمة أن تقبل دعوته، وتدخل في طاعته، وكان يأخذ ممن يطيعه عشر المواشى والنقود والعروض، ومن أبي غزاه بانصاره، وقتل الأنفس ونهب الأموال، وسبى الذراري، وكان شعارهم: «ادخل في الوهابية وإلا فالقتل لك»، والترمل لنسائكك، واليتم لأطفالك» هذا هو بالذات مبدأ الوهابية الذي لا تتنازل عنه لأية مصلحة، ومن أجله تحالف مع ابن معمر في «العينه»، ثم مع ابن سعود في «الدرعية»، وكان على أتم استعداد أن يتحالف مع أية قوة يستعين بها على ذلك (٥) .

١ . أبو علي - عبد الفتاح: محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى ص ١٣ - ١٤ .

٢ . فيليب حتى: تاريخ العرب ج ٢ ص ٩٢٦ المترجم إلى الفارسية .

٣ . العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٢٦٧ ط مصر الطبعة الثانية .

٤ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ط الرياض ص ٢٣ .

٥ . محمد جواد مغنية: هذه هي الوهابية، ص ١١٤ . (٣٣٩)

كان الشيخ يغزو بانصاره وأتباعه عربان نجد، يسلبونهم مصدر حياتهم، ثم ينتقلون إلى الدرعية بعد أن يتركوا وراءهم أشلاء الضحايا، والخرائب والأرامل والأيتام، ويوزع الشيخ عليه أربعة أخماس الغنائم والأسلاب من المسلمين الآمنين، ويخص الخمس بالخزينة التي يشرفون عليها هو و الأمير السعودي . يقول عبدالله فيليبي في تاريخ نجد: «وقد أدخل الإمام في عقول طلابه مبادئ فريضة الجهاد المقدس، فوجد الكثير منهم في الجهاد أقدس تعاليمه، إذ أنه يتفق مع ما اعتاد عليه العرب - يريد أن العرب قد اعتادوا على السلب والنهب - ، كما خصص الشيخ خمس الأسلاب لخزنته المركزية التي كان الأمير والإمام يتقاضيان منها ما يقوم بأودهما... وهكذا كان سلطان الشيخ في تصرف شؤون البلاد بعد مرور سنه أو سنتين، وقد أصبح شريكاً مؤسساً. الوهابية أو السيف

ربما يستغرب القارئ عند ما يسمع أن الوهابية تحصنت في بدء دعوتها بهذا الشعار، وطبقته في حياتها سنين، ولكنه لعمر الله حقيقة لا مريه فيها، فقد ارتفع صرح الإمارة السعودية يوم انتشارها إلى العصر الحاضر على هذا الأصل، فإن السعودية آنذاك ويوم تعاهدها مع محمد بن عبد الوهاب تعيش حياة البؤس، ولم يكن ابن سعود متمكناً حتى من تأمين الأغذية لأعز تلاميذ محمد بن عبد الوهاب، الذي يمارس تأثيره بقوة الإقناع فقط (١) . وبعد أولى غزوات الدرعيين على جيرانهم، وزعت الغنائم بالعدل طبقاً لأحكام الوهابية: الخمس لابن سعود، والباقي للجند ثلث للمشاء، وثلثان للخيانة، وكان التمسك بالوهابية يكافأ مادياً، وإذا كان الغزو في السابق مجرد حملة شجاعه، فقد تحول الآن إلى انتزاع أموال المشركين! وإحالتها إلى المسلمين الحقيقيين!

١ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ١ ص ١٣ . (٣٤٠) صدام بين ابن عبد الوهاب وأمير «العينه»

قد تعرفت أن التحالف بين الشيخ وأمير «العينه» لم يلبث إلا برهة قليلة، وأنه اعتذر عن ضيفه وسمح له أن يغادر الامارة ويذهب إلى أية نقطة شاء، ولما التحق محمد بن عبد الوهاب بأمير «الدرعية» وبزغ نجمه، أحس عثمان بن معمر أمير «العينه» بتمخض خطر من جانب السعوديين، فلم يجد مناصاً من إظهار التودد والمداراة معهم، إلى أن انتهى به الأمر إلى تزويج ابنته من ابن عبد العزيز بن محمد بن سعود، الذي بلغ الوهابيون في عهده أوج قوتهم (١) . إلا أن العداء حتى الموت بين الأقارب ظاهرة عادية تماماً في الجزيرة

العريية، فلا داعي للدهشة من تطور الأحداث لاحقاً، وكان لموقف محمد بن عبد الوهاب - الذي لم ينس أن أمير «العينية» نفاه منها - أهمية حاسمة في التنافس بين حكام «الدرعية» و «العينية»، فلم يلبث إلا يسيراً حتى اتهم أمير «العينية» بأنه أجرى مراسلات سرية مع حاكم الأحساء «محمد بن عفالق» وأعد العدة للخيانة (٢) . - ولأجل ذلك - أرسلوا بعض المرتزقة، ومنهم حمد بن راشد، وإبراهيم بن زيد إلى عثمان بن معمر حاكم «العينية» فاغتالوه أثناء أدائه لصلاة الجمعة . ومما جاء في كتاب أصدره آل سعود وآل الشيخ تحت عنوان: تاريخ نجد، ونقله عن رسائل محمد بن عبد الوهاب، الشيخ حسين بن غنا، وأشرف على طباعته عبدالعزيز بن باز مفتي الديار السعودية، العبارة التالية: إن عثمان بن معمر مشرك كافر، فلما تحقق أهل الاسلام من ذلك تعاهدوا على قتلته بعد انتهائه من صلاة الجمعة، وقتلوه وهو في مصلاه بالمسجد في رجب سنة ١١٦٣ هـ وفي اليوم الثالث من مقتله جاء محمد بن عبد الوهاب إلى «العينية» وعين عليهم مشاري بن معمر، وهو من أتباع محمد بن عبد

١ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ١ ص ٢٣ .

٢ . فاسيليف: فصول من تاريخ العربية السعودية - ص ٢٨ . (٣٤١)

الوهاب (١) . هكذا كانوا يحكمون على الموحدين المصلين في محراب العبادة بالشرك والخروج عن التوحيد «وما نقموا منهم» إلا أن قالوا ربنا الله ثم استقاموا» ولم يخضعوا للسلطة التي أسسها محمد بن عبد الوهاب . ثم إن محمد بن عبد الوهاب نحى «مشاري» عن منصبه الحكم وأسكنه «الدرعية» مع عائلته، وعين شخصاً آخر للشغال الحكم، حتى يكون الحاكم أطوع له كطوع الظل لذي الظل، ولم يكتف بذلك حتى جاء إلى قصر آل معمر وأمر بتدميره (٢) . إن هذه العلمية تسفر عن عقيدة محمد بن عبد الوهاب في حق عامة أهل نجد دون استثناء، لأنه لو كان ابن معمر كافراً فقد كان سكتة نجد كلهم على دينه، فهم حينئذ كفره تباح دماؤهم ونساؤهم وممتلكاتهم، والمسلم هو من آمن بالطريقة التي يسير عليها محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود (٣) . لم يبرح زمن على سلطة آل سعود على «العينية» حتى ثاروا على النظام الذي فرض عليهم من جانب محمد بن عبد الوهاب، ولكن لم يكتب لانتفاضتهم النجاح، فعاد السعوديون إلى «العينية» فدمروا البلد على آخره، فهدموا الجدران، وردموا الآبار، وأحرقوا الأشجار، واعتدوا على أعراضهم وبقروا بطون الحوامل من النساء، وقطعوا أيدي الأطفال، وأحرقوهم بالنار، وسرقوا المواشى وكل ما في البيوت، وقتلوا كل الرجال . هكذا خربت «العينية» وما زالت مخروبة منذ عام ١١٦٣ هـ حتى يومنا هذا، وما زالت الوهابية يبررون أعمالهم بما قاله محمد بن عبد الوهاب: إن الله سبحانه وتعالى قد صب غضبه على العينية وأهلها وأفنائهم تطهيراً لذنوبهم، وغضباً على ما قاله حاكم العينية، عثمان بن معمر، فقد قيل لحاكمها

١ . تاريخ نجد، ص ٩٧ .

٢ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ١ ص ٤٣ - ابن غنام: تاريخ نجد، ج ٢ ص ٥٧ .

٣ . تاريخ نجد، ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١ . (٣٤٢)

بأن الجراد آت إلى بلادنا ونحن نخشى أن يأكل الجراد زراعتنا، فأجاب الحاكم ساخراً من الجراد: سنخرج على الجراد دجاجاً فتأكله، وبهذا غضب الله سبحانه لسخرية الحاكم بالجراد، وهو آية من آيات الله لا يجوز السخرية منها، ولهذا أرسل الله الجراد على بلدة العينية فأهلكها عن آخرها (١) . نحن نفترض أن أمير العينية استهزأ بآية من آيات الله فكفر، فيجب ضرب عنقه بسيف الجلادين، فهل كفر الآخرون، وهل تزر وازرة وزر أخرى، وما هي إلا خدعة يموه بها الأمر على الصبيان وأشباهم. فلما قضى محمد بن عبد الوهاب وآل سعود على مناوئهم في المنطقة، قويت الإمارة السعودية من طريق الدين باتباعها محمد بن عبد الوهاب، وقويت دعوة ابن عبد الوهاب بطريق السيف باتباع ابن سعود له وانتصاره به، فكان ابن سعود الأمير الحاكم، وابن عبد الوهاب الزعيم الديني، وصارت ذرية كل منهما تتولى مرتبة سلفها. لقد قوى انتصار القبيلة السعودية على حاكم «العينية» عزيمتهم على توسيع نطاق حكومتهم، مغبة أمر محمد بن عبد الوهاب بالجهاد وحث اتباعه عليه، وأول جيش تم تأليفه له من سبع ركائب (٢) ومعلوم أن هذه الجيوش والركائب لم

تغز بلاد الكفار والمشركين، ولا الرومان، وإنما غزوا بلاد المؤمنين، بلاد القائلين بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -) ولما أحس ابن عبد الوهاب بسلطة وقدره، كتب إلى أهل نجد (وهم المسلمون بزعمهم) على الدخول في مذهب التوحيد، فأطاع بعضهم بينما امتنع آخرون، فأمر أهل «الدرعية» بالقتال، فأجابوه وقاتلوا معه أهل نجد والأحساء مراراً، حتى دخل بعضهم في طاعته طوعاً أو كرهاً، وصارت جميع إمارة نجد لآل سعود بالقهر والغلبة» (٣) .

١ . ناصر السعيد: تاريخ آل سعود، ص ٢٢ - ٢٣ .

٢ . محمد جواد مغنية: هذه هي الوهابية، ص ١١٧ نقلاً عن ابن بشر عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد .

٣ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياح ص ١٣ - ١٤ نقلاً عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكرى الآلوسى . (٣٤٣) سراب لا ماء

قد كان للحركة الوهابية في عصر مؤسسها صدى ودوى، والقريب منها يستشف الحقيقة عن كذب، ويرى أنها قد بنيت على القتل الذريع، والسفك المروع، وأن محمد بن عبد الوهاب يهتف بأنه لا عدل ولا سلم، ولا رحمة، ولا إنسانية، ولا حياة، لا شيء أبداً إلا الوهابية أو السيف . وهذه السنة التي استنّها محمد بن عبد الوهاب يتحمل وزرها منذ يومه إلى يوم القيامة، لأنها كما ترى دعوة تقوم على الحرب والضحايا، وتتطع بطابع الدم والفوضى، ويكفى في ذلك قول أخيه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب في كتاب الصواعق الإلهية مخاطباً لأخيه وأتباعه: «فانتم تكفرون بأقل القيل والقال، بل تكفرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفرون بصريح الإسلام، بل تكفرون من توقف عن تكفير من كفرتموه» (١) . ولم يكن أخوه فريداً في القضاء، فقد رجع عن طريقته بعض المنصفين المنخدعين بدعوته، وهذا هو السيد محمد بن إسماعيل الأمير لما بلغه من أحوال الشيخ النجدى، الدعوة إلى التوحيد، فأنشأ قصيدته المشهورة: سلام على نجد ومن حلّ في نجد * وإن كان تسليمى على البعد لا يجدى ثم حقق الأحوال من بعض من وصل إلى اليمن، ووجد الأمر على عكس ما روى له، فأنشأ يقول في قصيدته ثانياً عما قاله أولاً: رجعت عن القول الذى قلت في نجد * فقد صحّ لى عنه خلاف الذى عندى حكى عن محمد بن إسماعيل أنه قال فى شرح القصيدة المذكورة المسماة بـ «محو الحوبة فى شرح أبيات التوبة»: لما بلغت قصيدتى الأولى نجداً التى مدحت فيها الحركة الوهابية، جاء إلينا بعد أعوام رجل كان يعرف نفسه بـ «الشيخ مرشد بن أحمد التميمي» وذلك فى صفر سنة ألف ومائة وسبعين،

١ . الصواعق الإلهية، ص ٢٧ - ٢٩، ط ١٣٠٦ . (٣٤٤)

وحمل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه، ثم عاد إلى وطنه فى شوال تلك السنة، وكان من تلاميذ ابن عبد الوهاب الذى وجهنا إليه القصيدة، وقد قدم إلينا قبله الشيخ الفاضل عبد الرحمان النجدى، ووصف لنا من حال ابن عبد الوهاب أشياء أنكرناها عليه من سفك الدماء ونهب الأموال والتجريح على قتل النفوس، ولو بالاغتيا، وتكفيره الأمة المحمدية فى جميع الأقطار، فبقى فىنا تردد فيما نقله ذلك الشيخ، حتى قدم إلينا الشيخ «مرشد» وله نباهة، ومعه بعض رسائل ابن عبد الوهاب التى جمعها فى وجه تكفير أهل الإيمان، وقتلهم ونهبهم، وحقق لنا أحواله، فعرّفنا أحوال رجل عرف من الشريعة شطراً ولم يمعن النظر ولا قرأ على من يهديه نهج الهداية، ويدله على العلوم النافعة ويفقهه، بل طالع بعض مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقلدهما من غير إتقان، مع أنهما يحرمان التقليد (١) . يقول العلامة السيد محسن الأمين العاملى: هذا يدل على أن محمد بن إسماعيل رجع عن مغالته فى التوهب، ولعل رجوعه كان بعد تأليفه رسالة «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد» فإنّ تلك الرسالة لا تقصر عن كتب ابن عبد الوهاب فى المغالاة (٢) .

أهل البيت أدرى بما فيه

هذه لمحة خاطفة عن حياة محمد بن عبد الوهاب، جئنا بها ليكون القارىء الكريم على اطلاع بحقيقة حاله على جهة الإجمال، ولكن هناك الكثير الكثير فى الزوايا والخبايا ذكرت فى تاريخ حياته أغفلنا ذكرها روما للاختصار، ولكن ما يجب ذكره فى المقام كلمة أخيه فى حقه، وهو من أهل بيته وأدرى بحاله منّا ومن كل كاتب. يقول فى كتاب أسماها «الصواعق الإلهية» رداً على آراء أخيه: «فإنّ اليوم ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة، ويستتبط من علومهما، ولا يبالي من خلفه .

١ . كشف الارتياب، ص ٨ .

٢ . السيد محسن: كشف الارتياب: ص ١٦ - ١٩ . (٣٤٥)

وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهو لم تكن فيه خصلة واحدة من فعال أهل الاجتهاد ولا والله، ولا والله عشر واحدة، ومع هذا فراج كلامه على كثير من الجهال، فإننا لله وإنا إليه راجعون، الأمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يرد لهم في كلمة بل كلهم كفار و جهال! اللهم اهد هذا الضال وردّه إلى الحق...» (١) ويقول أيضاً: إن هذه الأمور (التي يكفر بها محمد بن عبد الوهاب) حدثت من قبل زمان الإمام أحمد في زمن أئمة الإسلام، حتى ملأت بلاد الإسلام كلها، ولم يُرَوَّ عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدون، ولا أمروا بجهادهم، ولا- سموا بلاد المسلمين بلاد شرك و حرب كما قلتم أنتم، بل كفرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها، وتمضى قرون على الأئمة من ثمانمائة عام، ومع هذا لم يُرَوَّ عن عالم من علماء المسلمين أنه كفر، بل ما يظن هذا عاقل، بل والله لازم قولكم أن جميع الأئمة بعد زمان الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -، علماؤها وأمرؤها وعامتها كلهم كفار مرتدون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، واغوثاه إلى الله! ثم واغوثاه أن تقولوا كما يقول بعض عامتكم إن الحجّة ما قامت إلا- بكم، وإلا- قبلكم لم يعرف دين الإسلام (٢) . وهذه العبارة من أخيه صريحة في أنه كان يكفر جميع طوائف المسلمين، ويعتبر بلادهم بلاد حرب . تكفير محمد بن عبد الوهاب جميع المسلمين

ولعلّ القارىء يتتابه الاستغراب مما نسبه إليه أخوه، ولكنه إذا رجع إلى مبادئ دعوته يسهل له التصديق بالنسبة، وإليك خلاصة رسالته تحت أربع قواعد: _____

١ . سليمان بن عبد الوهاب النجدى: الصواعق الإلهية، ص ٣ - ٤ .

٢ . نفس المصدر السابق، ص ٣٨ . (٣٤٦) الأولى: إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مقرّون بأنّ (الله) هو الخالق الرازق المدبر، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ... فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (١) . الثانية: إنهم يقولون: ما دعونا الأصنام وما توجهنا إليهم إلا لطلب القرب والشفاعة لقوله تعالى: (الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (٢) . وقوله: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (٣) . الثالثة: إنّه ظهر (صلى الله عليه وآله) على قوم متفرقين في عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم. الرابعة: إنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن أولئك يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى: (فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (٤) .

وهو لا يريد من قوله «إنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً...» إلا المسلمين عامة، وذلك لأنهم يتوسلون بالنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في شدتهم ورخائهم، ولذلك صاروا عنده أغلظ من مشركى عهد الرسالة . ومما يؤخذ عليه فيما ذكره في القاعدة الثانية، وهى المحور الرئيس للضلالة، أنّ هناك فرقاً جلياً بين المسلمين وعبدة الأوثان والأصنام، فإنّ _____

١ . سورة يونس: الآية ٣١ .

٢ . سورة الزمر: الآية ٣ .

٣ . سورة يونس: الآية ١٨ .

٤ . محمد بن عبد الوهاب: رسالة أربع قواعد ص ١ - ٤ ط مصر المنار، سورة العنكبوت: الآية ٦٥ . (٣٤٧)

المسلمين يعبدون الله وحده، ولا يتوجهون إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - إلا بقصد أن يدعو لهم عند الله، ويشفع لهم عنده، وأين هو من عبدة الطاغوت الذين كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله، ويتوجهون إليها على أنها آلهة تملك ضرهم ونفعهم، وما

هذه إلا مغالطة مفضوحة، وقد تكررت هذه الظاهرة في أكثر رسائله وكتبه، فإليك نتفاً منها في كتابه الآخر المسمى بكشف الشبهات الذي فرض تدريسه على علماء الحرمين في بعض الفترات التي شهد لها التاريخ، حيث يقول في حق النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : ١- «أرسله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات بينهم وبين الله، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده، مثل الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين (١). وفي هذه العبارة من المغالطة مالا- يخفى، فقد حاول تزييف الحقيقة وقال: ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، فقد ركز على التوسيط، مع أنهم عبدوهم أولاً، واتخذوهم وسائط ثانياً، فالممنوع هو عبادة الغير لا توسطه، فالشيخ يركز على مجرد الوساطة التي ليست ملاكاً لشركهم، ويترك ما هو الملاك لكفرهم، أعني عبادتهم. وعمل المسلمين على اتخاذ الوسيلة لا على عبادتها. ٢- يقول في موضع آخر ما نصه: «إن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات، أو نبياً مثل عيسى (٢). فتراه كيف يستر الحقيقة فيقول: «ثم منهم من يدعو الملائكة أو يدعو _____»

١ . كشف الشبهات: ص ٣ .

٢ . محمد بن عبد الوهاب: كشف الشبهات، ص ٤، ط مصر بتصحيح محب الدين الخطيب . (٣٤٨)

رجلاً صالحاً فيركز على الدعوة التي هي أعم من العبادة، مع أن منهم من يعبد الملائكة، أو يعبد رجلاً صالحاً، وليس كل دعوة عبادة، وإلا فلا يوجد فوق البسيطة من يصح تسجيل اسمه في ديوان الموحدين، والرجل لأجل إثبات أن المسلمين في دعوة النبي والصالحين كهؤلاء المشركين في عبادة الملائكة والصالحين، يركز على كلمة «يدعو» ويترك كلمة «يعبد» فهناك فرق بين الدعوة والعبادة، وليس كل دعوة عبادة، ولا- كل عبادة دعوة، بل بينهما من النسب عموم وخصوص من وجه، فلو كانت الدعوة تنبثق من ألوهية المدعو وربوبيته فتتسم بالعبادة، ولو كان انبثاقها من أنه عبد من عباد الله ولكنه عبد عزيز عند الله تستجاب دعوته إذا دعا، فلا تكون الدعوة عبادة، بل يدور الأمر بين كونه مفيداً إذا كان مستجاب الدعوة، وغير مفيد، إذا لم يكن كذلك . ٣- يقول أيضاً: «تحققت أن رسول الله قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله». أما كون الدعاء كله لله فإن كان المراد به العبادة فلا غبار عليه، والمسلمون على هذا عن بكرة أبيهم، وإن كان المراد هو القسم الذي لا يراد به العبادة فليس بمنحصر في الله، وما أكثر دعاء إنسان لإنسان وهذا هو الدعاء ورد في القرآن الكريم في غير مورد العبادة. قال سبحانه: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا) (١) .

وأما النذر فلا شك أن المسلمين يندرون لله سبحانه، ويذكرون لفظ الجلالة في إنشاء صيغته الدالة عليه، وقد أسهنا القول في ذلك فيما مضى، والشيخ خلط بين اللام للغاية واللام للانتفاع، فلو استعملت في بعض الموارد لفظه اللام فإنما يراد منه الانتفاع، فلو قيل هذا نذر للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أو للروضة المباركة، فالمراد هو إهداء ثوابه إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أو انتفاع الروضة به . _____

١ . سورة نوح: الآية ٥ . (٣٤٩)

٤- ويقول أيضاً: «إن المشركين يقرون بالربوبية وإن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء». يؤخذ عليه أن كفرهم إنما لعبادتهم الملائكة والأنبياء لا- لتعلقهم بها إذ ليس مجرد التعلق مع الاعتراف بعبوديتهم وعدم تفويض الأمر إليهم موجباً للتكفير . ٥- ويقول أيضاً: «إن الذين قاتلهم رسول الله مقرون بأن أوثانهم لا تدبر شيئاً وإنما أرادوا منها الجاه والشفاعة» (١). فترى أنه كيف يقرب الحقيقة، فلم يكن تكفيره لهم لأجل طلب الشفاعة، بل لعبادتهم أولاً، ثم طلب الشفاعة منهم ثانياً، قال سبحانه: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (٢) .

٦- ويقول: «إن الله كفر من قصد الأصنام، وكفر من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله». كلاً، إن رسول الله كفر من عبد

الصالحين، لا من قصدهم، فمن قصد الصالحين لطلب العلم والمال والدعاء لا يكون كافراً. ٧- ويقول أيضاً - وهو يعلم أتباعه كيف يناظرون المخالف - : اقرأ عليه: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين) فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت هذا عبادة لله؟ فلا بد أن يقول نعم، والدعاء مخ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنها عبادة، ثم دعوت تلك الحاجة نبياً أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد أن يقول نعم» (٣) .

١ . نفس المصدر السابق، ص ٦ .

٢ . سورة يونس: الآية ١٨ .

٣ . نفس المصدر السابق . (٣٥٠)

والمغالطة في كلامه واضحة، فإن الدعاء في قوله: «ادعوا ربكم» مساوق للعبادة لا بمعنى أن الدعاء بمعنى العبادة، بل معناه أن الدعوة إذا انبثقت من الاعتقاد بالألوهية والربوبية تصير مصداقاً للعبادة، وجزءاً من جزئياته، كما أن المراد من قوله: «والدعاء مخ العبادة» هو أن الدعاء مخ العبادة، أو دعاء من يعتقد أنه ند لله في جميع الشؤون أو بعضها مخ العبادة، وأين هو من دعوة الأنبياء والصالحين الذين لا يُدعَوْنَ إلاّ - بعنوان أنهم عباد صالحون لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون، ولا يملكون شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضرراً إلاّ بإذن الله، أفهل تكون الدعوات متماثلتين حتى تشتركا في الحكم؟ وإنك إذا تتبعت كلماته وجمله في هذا الكتاب يظهر لك أنه يحاول التضليل من طريق تشبيه توسل المسلمين ودعائهم، بعمل المشركين وعبدة الأوثان، بالتمسك بمشابهات ومشاركات بعيدة، وتناسي ما هو البون الشاسع بين الأمتين والدعوتين . قال زيني دحلان: كان محمد بن عبد الوهاب يخطب للجمعة في مسجد الدرعية ويقول في كل خطبة: ومن توسل بالنبي فقد كفر، وكان أخوه الشيخ سليمان ينكر عليه إنكاراً شديداً، فقال لأخيه يوماً: كم أركان الإسلام يا محمد؟ فقال: خمسة (١) فقال أنت جعلتها ستة: السادس: من لم يتبعك فليس بمسلم، هذا عندك ركن سادس للإسلام . وقال رجل آخر: كم يعشق الله كل ليلة في رمضان؟ فقال له: يعشق في كل ليلة مائة ألف، وفي آخر ليلة، يعشق مثل ما أعتق في الشهر كله، فقال له: لم يبلغ من أتبعك عشر ما ذكرت، فمن هؤلاء المسلمون الذين يعتقدهم الله تعالى، وقد حصرت المسلمين فيك وفي من أتبعك؟ فبهت الّذى كفر . ولما طال النزاع بينه وبين أخيه فخاف على نفسه، فارتحل إلى المدينة المنورة، وألّف رسالة في الرد على محمد بن عبد الوهاب وأرسلها له، فلم

١ . يشير إلى ما رواه البخارى في كتاب الإيمان . (٣٥١)

ينته، وألّف كثير من علماء الحنابلة وغيرهم رسائل في الردّ عليه وأرسلوها إليه، فلم ينته (١) . ويقول جميل صدقي الزهاوي: كان محمد بن عبد الوهاب يسمى جماعته من أهل بلده، الأنصار وكان يسمى متابعيه من الخارج، المهاجرين وكان يأمر من حج حجة الإسلام قبل أتباعه أن يحج ثانياً قائلاً إن حجّتك الأولى غير مقبولة لأنك حججتها وأنت مشرك، ويقول لمن أراد أن يدخل في دينه: اشهد على نفسك أنك كنت كافراً، واشهد على والديك أنهما ماتا كافرين، واشهد على فلان وفلان (يسمى جماعة من أكابر العلماء الماضين) أنهم كانوا كفاراً. فإن شهد بذلك قبله، وكان يصرح بتكفير الأمة منذ ستمائة سنة، ويكفر كل من لا يتبعه وإن كان من أتقى المسلمين، ويسميه مشركين، ويستحل دماءهم وأموالهم، ويثبت الإيمان لمن أتبعه . وكان يكره الصلاة على النبي بعد الأذان، وينهى عن ذكرها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنابر، ويعاقب من يفعل ذلك عقاباً شديداً، حتى أنه قتل رجلاً أعمى مؤذناً لم ينته عن الصلاة على النبي بعد الأذان، ويلبس على أتباعه أن ذلك كله محافظة على التوحيد . كان قد أحرق كثيراً من كتب الصلاة على النبي، كدلائل الخيرات وغيرها، وكذلك أحرق كثيراً من كتب الفقه والتفسير والحديث مما هو مخالف لأباطيله (٢) . قال أحمد زيني دحلان: إن الوهابيين أرسلوا في دولة الشريف مسعود بن سعيد بن زيد المتوفى سنة ١١٦٥ هـ ثلاثين نفرًا من علمائهم فأمر الشريف أن يناظرهم علماء الحرمين، فناظروهم فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضى الشرع حجة بكفرهم فأمر بسجنهم، فسجن بعضهم وفرّ الباقيون . ثم في دولة الشريف أحمد المتوفى سنة ١١٩٥ هـ أرسل أمير الدرعية بعض

١ . السيد أحمد بن زيني دحلان: الدرر السنية في الرد على الوهابية، ص ٣٩ - ٤٠ .

٢ . صدقي الزهاوي: الفجر الصادق، ص ١٧ - ١٨ . (٣٥٢)

علمائه فناظرهم علماء مكة وأثبتوا كفرهم، فلم يأذن لهم بالحج (١). وقال أيضاً: لما منع الناس من زيارة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - خرج ناس من الأحساء وزاروا النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وبلغه خبرهم، فلما رجعوا مرّوا عليه بالدرعية، فأمر بحلق لحاهم، ثم أركبهم مقلوبين من الدرعية إلى الأحساء . وبلغه مرة أن جماعة قصدوا الزيارة والحج، وعبروا على الدرعية، فسمعه بعضهم يقول لتابعيه: خلّوا المشركين يسيرون طريق المدينة، والمسلمون (أتباعه) يخلفون معنا (٢). تكفير المسلمين شعارهم الوحيد من رجع إلى كتب محمد بن عبد الوهاب وما أُلّف في الفترة المتاخمة إلى عصره يقف على أنهم اتفقوا على تكفير المسلمين قاطبة، سيّهم وشيعيهم ولم تكن المحاربة وقتل الأنفس وسفك الدماء في عصره وما بعده إلا على أساس أن غيرهم مشركون، لا حرمة لدمائهم وممتلكاتهم، يجب توبييهم قسراً، وإلا فإنه ستهدر دماؤهم، ويشهد على ذلك ما كتبه الألوّسى صاحب تاريخ نجد الذي له مع السعوديين ألفة وطيدة حيث يقول بعد التطرق لذكر سعود بن عبد العزيز (٣): إنه قاد الجيوش وأذعنت له صناديد العرب و رؤساؤهم، بيد أنه منع الناس عن الحج، وخرج على السلطان وغالى في تكفير من خالفهم، وشدّد في بعض الأحكام، وحمل أكثر الأمور على ظواهرها، كما غالى الناس في قدحه، والإنصاف، الطريق الوسطى، لا التشديد الذي ذهب إليه علماء نجد من تسمية غاراتهم على المسلمين بالجهاد في سبيل الله، ومنعهم الحج، ولا- التساهل الذي عليه عامة أهل العراق والشامات وغيرهما (٤).

١ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياح، ص ١٥ - نقلا عن خلاصة الكلام .

٢ . الشيخ أحمد بن زيني دحلان: الدرر السنية، ص ٤١ .

٣ . سعود بن عبدالعزيز بن محمد وهو حفيد أول من بايع محمد بن عبد الوهاب، وسيتم التعرض لتاريخ حياته .

٤ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياح، ص ٩ نقلا عن تاريخ نجد . (٣٥٣)

فهذا الاعتراف الصريح من موالى الوهابيين يدل على أنهم كانوا في فترة من الزمن على تكفير المخالفين، وتسمية الغارة على المسلمين جهاداً في سبيل الله . نعم في الفترة الأخيرة التي أخذ فيها أزمة الحكم في نجد والحرمين الشريفين عبد العزيز، ثم خلفه أبناؤه من بعده سعود وفيصل وخالد وفهد اليوم، تنازلوا عن تكفير المسلمين علانية، ولا ترى هذه التهمة في صفحات وسائلهم الإعلامية السمعية والبصرية، فتغير موقفهم بالنسبة إلى جميع الطوائف الإسلامية، فيرون الحرمة لبلادهم ودمائهم وممتلكاتهم، إلا الشيعية، فهم موقفهم السابق منهم، وخصوصاً بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران فقد تأججت نار أحقادهم وحميتهم العصبية عليهم، فلا تمر برهه زمنية إلا وينتشر كتاب ضد الشيعة بأقلام المأجورين في مختلف أنحاء العالم، ويبدلون مال الله ليصدوا الناس عن طريقه . سؤال وجواب

إنّ الوهابية امتداد فكري لما بذره أحمد بن تيمية في أوائل القرن الثامن وتعتبر حركتهم الهدامة انعكاساً جذرياً لمبادئ الضالّة، ويتمخض عن ذلك، سؤال يستثيره نجاح محمد بن عبد الوهاب النسبي في تطبيق وإقرار مبادئ دعوته، دون مؤسس المنهج أحمد بن تيمية، فقد أخفق في دعوته، وأخذت في بادىء بدئها، وإن كان قد تبعه بعض الناس فلم تكن متابعتهم له عن علم بمبادئه وغاياته . وهذا ابن كثير الشامي التابع لمنهج ابن تيمية يقول: كان الناس يتبركون بجزازته (١) مع أنه عنده شرك، والشرك من أعظم الجرائم عند ابن تيمية، فلم تكن متابعه جماعة من الناس له عن إحاطة ودراية، بل مخالفته للحكم السائد في الشام، وإبعاده منها إلى مصر ثم سجنه، صارت سبباً لاستمالة قلوب الناس

١ . البداية والنهاية، ج ١٤، حوادث عام ٧٢٨ . (٣٥٤)

إليه من دون وعى بمعتقده، وهذا بخلاف محمّد بن عبد الوهاب، فقد تكللت دعوته بالنجاح النسبي، فياترى ما هو السبب؟ . نجيب

بكلمة واحدة، إن ابن تيمية افتقد الأرضية الكفيلة بإنجاح دعوته لأنه بثها بين أوساط علمية، كان فيهم كبار العلماء والفقهاء، فأخذوا ضوضاءها بالاستدلال والبرهنة، فناروا في وجهه نائرة أخدمت دعوته وأبطلت كيده، وكانت السلطة أيضاً ناصرته العلماء في مجابتهم له، فلم يكن لبذرة الفساد نصيب سوى الكمون في ثنايا الكتب، أو النجاح في مرضى القلوب . وأما ما يرتبط بدعوة محمد بن عبد الوهاب فقد ساعد على إنجاحها وجود أرضية خصبة مليئة بالأمية والجهل بمبادئ الإسلام، تضاف إلى ذلك مناصرة سلطة آل سعود وتحالفهم معه في تطبيق دعوته، على أن يكون التخطيط من الشيخ، والإنجاز من السلطة بالقوة والإغارة والفتك والتخويف . يقول الزهاوي: لَمَّا رَأَى ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَنَّ قَاطِبَةَ بِلَادِ نَجْدٍ بَعِيدُونَ عَنِ عَالَمِ الْحَضَارَةِ، لَمْ يَزَالُوا عَلَى الْبَسَاطَةِ وَالسَّدَاجَةِ فِي الْفِطْرَةِ، وَقَدْ سَادَ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ حَتَّى لَمْ تَبْقَ لِلْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ مَكَانَةٌ وَلَا رَوَاجٌ، وَجَدَ هُنَالِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ مَا هُوَ صَالِحٌ لِأَنْ تَزْرَعَ فِيهِ بِذُورِ الْفُسَادِ، مِمَّا كَانَتْ نَفْسُهُ تَنْزِعُ إِلَيْهِ وَتَمْنِيهِ بِهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهُوَ الْحَصُولُ عَلَى رِثَاسَةِ عَظِيمَةٍ يَنَالُهَا بِاسْمِ الدِّينِ - إِلَى أَنْ قَالَ -: فَلَمْ يَجِدْ لِلْحَصُولِ عَلَى أَمْنِيَّتِهِ طَرِيقًا بَيْنَ أَوْلَئِكَ إِلَّا أَنْ يَدَّعَى أَنَّهُ مُجَدِّدٌ فِي الدِّينِ، مُجْتَهِدٌ فِي أَحْكَامِهِ، فَحَمَلَهُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَى تَكْفِيرِ جَمِيعِ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَعَلَهُمْ مُشْرِكِينَ بِلِأَسْوَأِ حَالٍ وَأَشَدِّ كُفْرًا وَضَلَالًا، فَعَمِدَ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ النَّازِلَةِ فِي الْمَشْرِكِينَ فَجَعَلَهَا عَامَةً شَامِلَةً لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ يَزُورُونَ قَبْرَ نَبِيِّهِمْ وَيَسْتَشْفَعُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ (١) . الرَّادُّونَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ

هذا غيض من فيض من حياة محمد بن عبد الوهاب المليئة بالإفساد والتضليل، وشق عصا المسلمين، فمن أراد التوسع في دراسة حياته

١ . جميل صدقي: الفجر الصادق، ص ١٤ . (٣٥٥)

وما جرّه على المسلمين من حروب وويلات، فليرجع إلى الكتب المؤلفة حول الوهابية ومؤسستها، وتاريخ نجد والسلطة القبلية الحاكمة فيه منذ عصر محمد بن عبد الوهاب إلى يومنا هذا . إلا أن العلماء الواعين في الحرمين الشريفين في عصره وما بعده، وفي سائر الأقطار الإسلامية، قد أدوا ما عليهم من وظائف رسالية تجاه هذه الحركة الهدامة، فترى كيف أنهم قد بذلوا الجهود المضنية في سبيل ردّ دعوتهم وإثبات بطلانها، وإليك قائمة من الردود المؤلفة في إبطالها، تأتي بأسمائها وأسماء مؤلفيها: ١- «مقدمه شيخه محمد بن سليمان الكردي الشافعي» التي قرّظ بها رسالته أخيه سليمان بن عبد الوهاب، وقع في نحو ثلاث ورقات، وقد تضمنت ما يشير إلى ضلاله ومروقه عن الدين، على نحو ما حكى في ذلك عن شيخه الآخر محمد حياة السندي، ووالده عبد الوهاب . ٢- «تجريد سيف الجهاد لمدعي الاجتهاد» لشيخه العلامة عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي . ٣- «الصواعق والعود» للعلامة عفيف الدين عبد الله بن داود الحنبلي . قال العلامة علوي بن أحمد الحداد: كتبت عليه تقارير أئمة من علماء البصرة وبغداد وحلب والأحساء وغيرهم، تأييداً له وثناء عليه . ثم قال: ولو وقفت عليه قبل هذا ما ألفت كتابي هذا . ولخصه محمد بن بشير قاضي رأس الخيمة بعجمان . ٤- «تهكم المقلدين بمن ادّعى تجديد الدين» للعلامة المحقق محمد بن عبد الرحمن ابن عفالق الحنبلي، وقد ترصد فيه لكل مسألة من المسائل التي ابتدعها وردّ عليها بأبلغ رد، وقد ضمّن كتابه هذا ملحفاً يتناول ما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية، كما أرفقه بأسئلة كان قد بعثها إلى محمد بن عبد الوهاب، منها شطر وافر حول علم البيان تتعلق بسورة «والعاديات»، (٣٥٦)

والمح في ذيلها إلى عجزه عن الجواب عن أدانها فضلاً عن أجلها . ٥- رسالة للعلامة أحمد بن علي القبانى البصرى الشافعي، وتقع في نحو عشر كرايس عقد فصولها كافة للرد على معتقداته وتزييف أباطيله . ٦- رسالة للعلامة عبد الوهاب بن أحمد بركات الشافعي الأحمدى المكي . ٧- «الصارم الهندي في عنق النجدي» للشيخ عطاء المكي . ٨- رسالة للشيخ عبد الله بن عيسى المويسى . ٩- رسالة للشيخ أحمد المصرى الأحسائى . ١٠- السيوف الصقال في أعناق من أنكر على الأولياء بعد الانتقال، لأحد علماء بيت المقدس . ١١- السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر، للسيد علوي بن أحمد الحداد، طبع في نحو مائة ورقة . ١٢- رسالة للشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عبد اللطيف الأحسائى . ١٣- تحريض الأعيان على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، للعلامة عبد الله بن إبراهيم مير غنى الساكن بالطائف . ١٤- رسالة للشيخ محمد صالح الزمزمى الشافعي، تقع في نحو عشرين كراساً، حكى السيد علوي بن أحمد الحداد أنه رآها

أمام مقام إبراهيم بمكة . ١٥- «الانتصار للأولياء الأبرار» للعلامة طاهر سنبل الحنفي، حكى السيد علوى المذكور آنفاً أنه رآه عند مؤلفه بالطائف . ١٦- مجموعة أجوبة وردود نظماً ونثراً لأكابر علماء المذاهب الأربعة، لا- يحصون، من أهل الحرمين الشريفين والأحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها. حكى عنها السيد علوى أيضاً وذكر أنه أتى بها إليه رجل من آل ابن عبد الرزاق الحنابلة، الذين يقطنون الزيارة والبحرين . (٣٥٧)

١٧- كتاب ضخيم يحتوي على جملة من الأسئلة والأجوبة، كلها من علماء أهل المذاهب الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، حدث به أيضاً السيد المذكور، كلها في الرد على محمد بن عبد الوهاب . ١٨- قصيدة للسيد المنعمي ردّ بها على ابن عبد الوهاب إثر قتله جماعة كانوا قد عفوا شعر رؤسهم، مطلعها: أفي حلق رأس بالسكاكين «الحدّ» * حديث صحيح بالأسانيد عن جدى ١٩- «مصباح الأنام وجلاء الضلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضل بها العوام» للعلامة السيد علوى بن الحداد المتقدم، طبع سنة ١٣٢٥ هـ بالمطبعة العامرية، وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه . ٢٠- «الصواعق الإلهية» لأخيه سليمان بن عبد الوهاب «مطبوع» . ٢١- كتاب لشيخ الإسلام بتونس المحقق إسماعيل التميمي المالكي المتوفى سنة ١٢٤٨، وهو في غاية التحقيق والإحكام، نقض فيه رسالة لابن عبد الوهاب طبع في تونس . ٢٢- رسالة مسجعة محكمة للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسي، طبع ضمن كتاب «سعادة الدارين في الرد على الفرقتين» نقض فيها مؤلفها رسالة لابن عبد الوهاب . ٢٣- رسالة للعلامة المحقق السيد داود البغدادي الحنفي، مطبوعة . ٢٤- قصيدة للشيخ غلبون الليبي، ردّ بها على قصيدة الصنعاني التي مدح بها ابن عبد الوهاب، تقع في أربعين بيتاً، مطلعها: سلامي على أهل الإصابة والرشد * وليس على نجد ومن حلّ في نجد وهي مذكورة في سعادة الدارين . ٢٥- قصيدة أخرى للسيد مصطفى المصري البولاقي، يرد فيها أيضاً على قصيدة الصنعاني التي ذكرت في المصدر السابق، تقع في مائة وستة وعشرين بيتاً، مطلعها: (٣٥٨)

بحمد وليّ الحمد، لا الذم أستبدي * وبالحق لا بالخلق، للحق أستهدى ٢٦- قصيدة ثالثة للسيد الطباطبائي البصري، يرد فيها على قصيدة الصنعاني، وقد كان لهذه القصائد الأثر الأكبر في إرجاع الصنعاني عن غيه الذي وقع فيه، حتى بلغ به الأمر إلى إنشاد قصيدة يعلن فيها توبته مما بدر منه: مستهلها: رجعت عن القول الذي قلت في نجد * فقد صحّ لي عنه خلاف الذي عندي ٢٧- «سعادة الدارين في الرد على الفرقتين - الوهابية والظاهرية - للعلامة الشيخ إبراهيم السمنودي المنصوري المتوفى في العقد الثاني من هذا القرن، وقد طبع في مجلدين . ٢٨- «الدرر السنية في الرد على الوهابية» لمفتي مكة السيد أحمد زيني دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ وهو مطبوع . ٢٩- «شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق» للشيخ يوسف النبهاني. طبع في مجلد . ٣٠- «الفجر الصادق» لجميل صدقي الزهاوي، مطبوع . ٣١- «إظهار العقوق ممن منع التوسل بالنبي والولي الصدوق» للشيخ المشرفي المالكي الجزائري . ٣٢- رسالة في جواز التوسل، للشيخ المهدي الوازناني مفتي فاس، ردّ فيها على محمد بن عبد الوهاب في منعه ذلك . ٣٣- «غوث العباد (في) بيان الرشاد» للشيخ مصطفى الحمامي المصري، مطبوع . ٣٤- «جلال الحق في كشف أحوال أشرار الخلق» للشيخ إبراهيم الحلبي القادري الاسكندري، وهو كتاب جيد طبع في الاسكندرية سنة ١٣٥٥ هـ . (٣٥٩)

٣٥- «البراهين الساطعة» للعلامة الشيخ سلامة العزامي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ . ٣٦- «النقول الشرعية في الرد على الوهابية» للشيخ حسن الشطى الحنبلي الدمشقي، مطبوع . ٣٧- رسالة أخرى له أيضاً في تأييد مذهب الصوفية والردّ على من ناوأهم، مطبوع . ٣٨- رسالة في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء، للشيخ محمد حسن بن مخلوف، مطبوع . ٣٩- «المقالات الوافية في الرد على الوهابية» للشيخ حسن قزبك، مطبوع . ٤٠- «الأقوال المرضية في الرد على الوهابية» وهي رسالة صغيرة للشيخ عطا الكسم الدمشقي . والردود على الوهابية أكثر مما ذكر، وقد اكتفينا بهذا العدد المبارك، وفيه غنى وكفاية، وكلها لأهل السنة والجماعة، وأما الشيعة فحدث عنها ولا حرج، وأول من ردّ عليه، الفقيه الشيخ جعفر كاشف الغطاء الأكبر بكتاب أسماه بـ «منهج الرشاد لمن أراد السداد» كتبه ردّاً على الرسالة التي بعثها سعود بن عبد العزيز إليه يشرح فيها مواقف الوهابية في المسائل الراجعة إلى التوحيد والشرك، وقد طبع في النجف الأشرف عام

١٣٤٣ هـ، ثم تولى النقد من علماء الشيعة بعد تدمير قباب البقيع عام ١٣٤٤ هـ، إلى يومنا هذا، ونشير إلى قليل من كثير مما طبع وانتشر باللغة العربية: ١- الآيات البيئات في قمع البدع والضلالات، للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (١٢٩٤-١٣٧٣ هـ) طبع بالنجف الأشرف ١٣٤٥ هـ. ٢- الآيات الجلية في ردّ شبهات الوهابية، للشيخ مرتضى كاشف الغطاء (م ١٣٤٩ هـ). (٣٦٠)

٣- إزاحة الوسوسة عن تقبيل الأعتاب المقدسة، للشيخ عبد الله بن محمد حسن المامقاني (ت ١٣٥١ هـ) طبع في النجف الأشرف مع كتابه مخزن المعاني. ٤- البراهين الجلية في دفع شبهات الوهابية، للسيد محمد حسن القزويني الحائري (ت ١٣٨٠ هـ) طبع بالنجف (١٣٤٦ هـ). ٥- التبرك، للشيخ علي الأحمدى الميانجي، طبع في بيروت. ٦- دعوى الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى، للشيخ محمد جواد البلاغى (ت ١٣٥٢ هـ). طبع في النجف الأشرف (١٣٤٤ هـ). ٧- الرد على الوهابية، للشيخ محمد علي الغروي الأردوبادي، طبع سنة (١٣٤٥ هـ). ٨- الرد على الوهابية للسيد حسن الصدر الكاظمي (ت ١٣٥٤ هـ)، طبع في بغداد (١٣٤٤ هـ). ٩- كشف الارتباب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، للسيد محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧٣ هـ) طبع في صيدا. ١٠- المواسم المراسم، للسيد جعفر مرتضى العاملي، يبحث عن مشروعية إقامة مراسم الاحتفال في الأعياد، أو مظاهر الحزن في المآتم - طبع في طهران. ١١- هذه هي الوهابية، للشيخ محمد جواد مغنية العاملي (ت ١٤٠٠ هـ) طبع في بيروت. ١٢- مع الوهابيين في خطتهم وعقائدهم، لمؤلف هذا الكتاب، طبع في طهران، عام (١٤٠٦ هـ). ١٣- الوهابية في الميزان، له أيضاً، طبع في قم المشرفة عام (١٤٠٧ هـ). (٣٦١)

١٤- وأخير الردود لا آخرها - التوحيد والشرك في القرآن الكريم، له أيضاً، استعرض فيه الآيات الواردة حولهما بإمعان ودقة، وفند جميع مستمسكات الوهابيين فيه. ولنكتف بهذا المقدار، وإلا فاردود عليها من الشيعة بألسنة مختلفة كثيرة. * * *

«فاحتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها» الإمام الصادق - عليه السلام - (٣٦٢)

تاريخ الإمارة القبلية السعودية

الفترة الأولى

الفترة الأولى

وقد تصدى للحكم فيها من عام ١١٣٧ إلى ١٢٣٣ الأمراء التالية أسماؤهم: ١- محمد بن سعود ٢- عبدالعزيز بن محمد بن سعود ٣- سعود بن عبدالعزيز ٤- عبد الله بن سعود. الفترة الثانية ١٢٤٠ - ١٣٠٩

٥- تركي ابن أخي عبد العزيز ٦- مشاري بن عبدالرحمن ٧- فيصل بن تركي ٨- خالد بن سعود ٩- عبدالله بن ثيان ١٠- فيصل بن تركي ١١- عبدالله بن فيصل التركي ١٢- سعود بن فيصل التركي ١٣- عبدالرحمن بن فيصل. الفترة الثالثة ١٣١٩ - ..

١٤- عبد العزيز بن عبدالرحمن ١٥- سعود بن عبدالعزيز ١٦- فيصل بن عبدالعزيز ١٧- خالد بن عبدالعزيز ١٨- فهد بن عبدالعزيز. ويعلم الله من سيتحكم في الديار المقدسة بعد هذا الرجل. (٣٦٣) تاريخ الإمارة القبلية السعودية

قد تعرفت على أن آل سعود وعلى رأسهم محمد بن سعود كانوا هم الحماة لدعوة محمد بن عبد الوهاب، وقد تمخض عنها إبرام اتفاقية بين ابن عبد الوهاب وأمير العائلة السعودية، وهذه الاتفاقية لا تزال باقية إلى يومنا هذا وإن تبدلت بأشكال مختلفة، غير أن الوقوف على كيفية توسع نطاق دعوة ابن عبد الوهاب يتوقف على دراسة تاريخ حياة هذه القبيلة بعد هذه الاتفاقية، كيف أنهم سلّوا سيوفهم في طريق نشرها إلى حدّ خضبوا وجه الأرض بإراقة دماء الصالحين والمؤمنين، وقتل الأطفاف في حجور أمهاتهم، وتدمير الأبنية، وإحراق الأشجار والنخيل، إلى غير ذلك ممّا يكفل البيان عن وصفه والقلم عن الإحاطة به، والقارىء إذا استطلع ما سنذكره مؤيداً بمصادر موثقة، يقف على أنه لم تكن هناك رسالة دينية ولا إنسانية، بل كانت الدعوة الوهابية واجهة وغطاء لما تربوا عليه وألفوه في حياتهم القبلية من النهب والغارة والقتل والسفك، وتوسيع نطاق السلطة، إلى غير ذلك مما كانوا يمارسونه قبل قبول

الدعوة الوهابية، التي تركز بزعمهم على رفض الشرك وزيادة رقة الموحدين، وكانت فكرةً اغترّ بها البسطاء وانطلت على عقولهم الساذجة، لأنهم كانوا يعيشون في واحات الصحارى منقطعين عن الأمم المتحضرة، فلأجل ذلك تمكنت الدعوة الوهابية من النفوذ إلى أذهانهم بيسر وسهولة، فصار البدو أداء طيعه بيد الأمير وصاحب الدعوة، فأشاعا الفساد بما أوتيا من قوة. إن تاريخ العائلة السعودية حسبما يذكره المؤرخون تتلخص في فترات ثلاث: الفترة الأولى: وهي تبتدىء من عام ١١٣٧ هـ إلى ١٢٣٣ هـ. الفترة الثانية: تبتدىء من عام ١٢٤٠ هـ إلى ١٣٠٩ هـ. الفترة الثالثة: تبتدىء من عام ١٣١٩ هـ إلى عصرنا هذا (٣٦٤).

الفترة الأولى لحياء العائلة

الفترة الأولى لحياء العائلة

١- إمارة محمد بن سعود: (١١٣٧ هـ - ١١٧٩ هـ). إن محمد بن سعود هو أول من صافح محمد بن عبد الوهاب و كان معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في العام الآنف الذكر، وقد حصل صدام بينه وبين عثمان بن معمر شيخ «العينية»، وقد خشى عثمان من امتداد السلطة السعودية فعقد حلفاً مع «ثرمدة» و «ابن سويط» شيخ الظفير، ولكنه باء بالفشل واغتيل على يد الوهابيين عند خروجه من المسجد، فانضمت «العينية» بعد ذلك إلى الحكم السعودي، وقد آل معمر دورهم السياسي في نجد (١). يقول زيني دحلان: «كان ابتداء ظهوره أمره (ابن عبد الوهاب) في الشرق سنة ١١٤٣ هـ، واشتهر أمره بعد الخمسين وألف ومئة بنجد وقراها، فتبعه وقام بنصرته أمير الدرعية محمد بن سعود، وجعل ذلك وسيلة إلى اتساع ملكه ونفاذ أمره، فأحمل أهل «الدرعية» على متابعه محمد بن عبد الوهاب فيما يقول، فتبعه أهل «الدرعية» وما حولها، وما زال يطيعه على ذلك كثير من أحياء العرب، حتى بعد حى، وقبيلة بعد قبيلة، حتى قوى أمره فخافته البادية، فكان يقول لهم إنما أدعوكم إلى التوحيد، وترك الشبرك بالله، ويزين لهم القول وهم بواد في غايه الجهل لا يعرفون شيئاً من أمور الدين، فاستحسنوا ما جاءهم به، وكان يقول لهم إنى أدعوكم إلى الدين، وجميع من هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ومن قتل مشركاً فله الجنة، فتابعوه وصارت نفوسهم بهذا القول مطمئنة، وكان محمد بن عبد الوهاب بينهم كالنبي في أمته، لا يتركون شيئاً مما يقول، والذا قتلوا إنساناً أخذوا ماله وأعطوا الأمير محمد بن سعود الخمس، واقتسموا الباقي، وكانوا يمشون حينما مشى، ويأتمرون له بما شاء، والأمير محمد بن سعود ينفذ كل ما يقول، حتى اتسع له الملك.

١. أبو عليه، عبدالفتاح: محاضرات في تاريخ الدولة السعودية، ص ١٦. (٣٦٥) البعثه الوهابية إلى مكة

تولى ولاية مكة الشريف مسعود من عام ١١٤٦ إلى عام وفاته ١١٦٥ هـ، وقد أرسل محمد بن سعود عندما استحفل أمر محمد بن عبد الوهاب ثلاثين عالماً إلى مكة يستأذنونهم في الحج، ولكن كان هدفهم هو الدعوة إلى الوهابية ونشرها في أوساط أهل الحرمين، وقد كان أهلها قد سمعوا بظهورهم في نجد وإفسادهم عقائد البوادي، ولم يعرفوا حقيقتهم بعد عن كذب، فلما وصلت بعثته أمر الشريف مسعود أن يناظرهم علماء الحرمين، فإذا بهم فوجئوا بعقائد غريبة، فأقاموا عليهم الحجج والبرهان، فقبض على جماعة منهم، بينما فر بجلدته البعض الآخر (١). الصدام مع حاكم الرياض

كان دهام بن دواس حاكماً على الرياض، وكان من ألد الأعداء للدعوة الوهابية، وقد دامت الحروب بين الرياض والدرعية زهاء سبعة وعشرين عاماً على الرغم من قرب المسافة بينهما، وكانت سجالات، فلم تمر سنة إلا وقعت فيها غزوة بين البلدين، وفي إحدى هذه الهجمات قتل ولدا محمد بن سعود، أعنى فيصل وسعوداً (٢). وظل أمير الرياض المنافس الرئيسي لمحمد بن سعود، وكانت الغزوات بين الدرعية والرياض تدور رحاها كل عام تقريباً. ففي عام ١١٧٨ هـ اتفق أبناء «يام» من أهالي نجران وقبيلتي العجمان و «بنى خالد» وتحالفوا على سحق محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب. فقد تحالف بنو يام على أن يسيروا من نجران بقيادة السيد حسن بن هبة الله، وأن يسير بنو خالد والعجمان من الأحساء بقيادة حاكمها آنذاك باسم الخالدي، وتواعد الجميع على الزحف على الدرعية،

فصارت جموع من _____

١. الدرر السنية، ص ٤٣ - بتصرف .

٢. أبو عليه، عبدالفتاح: محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص ١٩ - ٢٠. (٣٦٦)

نجران والأحساء، ولكن قائد نجران قد وصل إلى ضواحي «الدرعية» قبل وصول العجمان وبنى خالد، وبوحدتهم تمكنوا من سحق الجند السعودي واختفى محمد بن سعود، وكاد ينتهي أظلم حكم دخيل عرفته شبه الجزيرة العربية على أيدي أهالي نجران الأبطال، لو لم يلجأ محمد بن عبدالوهاب إلى المكر والخداع، فقد رفع راية الصلح على أن يقف أهالي نجران عند حدهم ويمتنعوا من دخول «الدرعية»، وأنّ يسلموا ما تحت أيديهم من الأسرى السعوديين، ويتعهد كل من محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود بدفع عشرة آلاف جنيه ذهب كتعويض لأهالي نجران عن رحلتهم هذه، وأن لا يتعدى محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب حدود «الدرعية»، وبهذا شهد محمد بن عبدالوهاب ببطلان دعوته أمام أهالي نجران. ولما وصلت قوات الخالدي المسلحة بالمدافع إلى ضواحي «الدرعية»، وكان قد انضم إليها الكثير من النجديين فوجئوا بهذا الصلح، والقبوله تمثيلاً مع ما اتّخذه أبناء عمهم من أبناء نجران، ولم يكن سبب فشلها إلا التصرفات الفردية للشيخ حسن بن هبة الله، وإلا لفضى على الوجود السعودي في ذلك الوقت، وقد كان عنف الهجوم وإيجاد الرعب على حد أصيب محمد بن سعود بإسهال، ومرض مرضاً شديداً من جراء ما انتابه من رعب شديد حينما شاهد أن أبناء يام يحاصرون «الدرعية»، بعد سحقهم للجند السعودي، وقد تسبب ذلك هلاك محمد بن سعود من جراء المرض الذي أصابه من ذلك الحادث، ومات عام ١١٧٩ هـ (١). * * * ٢- عبدالعزيز بن محمد بن سعود (١١٧٩- ١٢١٨ هـ)

اختار محمّد بن سعود ولده عبدالعزيز ولياً للعهد من بعده، باقتراح من محمد بن عبدالوهاب، فكان أول أمير يبايع بولاية العهد من السعوديين، ومنذ ذلك الحين أصبحت الإمارة تنتقل بالمبايعه بولاية العهد، تماماً كما فعل _____

١. ناصر السعيد: تاريخ آل سعود، ص ٣٠. (٣٦٧)

معاوية مع ولده يزيد، وهذه واحدة من بدع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد تزوج عبدالعزيز ابنه محمد بن عبدالوهاب، وامترج النسب بعضه ببعض أكثر من ذي قبل (١). ولم تكن سيرة عبدالعزيز خيراً من سيرة أبيه بل شراً منه، وقد نجمت في عهده حروب دامية سفكت فيها دماء الأبرياء بما يتجاوز حد الوصف، وإن كنت في شك مما نقول فعليك بقراءة ما أسجله لك من وثائق موثقة: احتلال الأحساء عام ١٢٠٧ هـ

تشكل الأحساء وسواحلها وموانئها جزءاً من البلاد المطلّة على الخليج، والتي يتنازع عليها العثمانيون وولاء العراق ومصر. كانت الأحساء في القرن الثاني عشر (١١٠٠ - ١٢٠٠) تخضع لنفوذ قبائل بني خالد، وهي قبائل نجدية كبيرة منتشرة على شاطئ الخليج تحت حكم شيخهم محمد آل حميد، الذي أئذ عثمان بن معمر شيخ العيينة بطرد محمد بن عبد الوهاب من قريته، لما أساءت تعاليمه إلى القرى المجاورة، وكان ذلك من أسباب العداء بين بني خالد وآل سعود، بالإضافة إلى رغبة هؤلاء في التوسع، وأدى ذلك إلى سقوط الأحساء في يد الوهابيين عام ١٧٨٥ م «حوالي ١٢٠٧ هـ». وفي خريف ١٧٠٣ م «حوالي ١٢١٥ هـ» توجه سعود بن عبدالعزيز مع قوات كبيرة إلى الأحساء، ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها، وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة، ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور، ورعت الماشية في الحقول، وأعربت الأحساء كلها عن خضوعها لهم، وعيّن براك بن عبدالمحسن أميراً للأحساء (٢) ولكنه حاول في ربيع ١٧٩٦ م أن يتخلص من سلطة الوهابيين، ولكنه أطلع عليه سعود بن عبدالعزيز

١. المصدر السابق، ص ٣٠.

٢. ابن غنام: تاريخ نجد، ج ٢ ص ١٥٨ - ١٦٦. (٣٦٨)

فجاء بجيش قوى إلى الأحساء وقمع الحركة فيها من جديد (١). يقول ابن بشر في كيفية إخضاع الأحساء: فلما أصبح الإصباح رحل

سعود بعد صلاة الصبح، فلما استووا على ظهور ركائبهم وقربوا من الأحساء، أطلقوا رصاص بنادقهم دفعة واحدة، فاسقط الكثير من النساء الحوامل ما في بطونهم لهول الموقف، فاحتلها، ثم نزل سعود فأمرهم بالخروج إليه، فخرج فأقام هناك مدة أشهر يقتل من أراد قتله، يجلى من أراد إجلاءه، ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، يهدم من المحال، ويبنى ثغوراً ويهدم دوراً، وضرب عليهم ألوفاً من الدراهم وقبضها منهم، وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومناذة المسلمين وأكثر فيها القتل (إلى أن يقول) فلما أراد ابن سعود الرحيل من الأحساء أمسك عدة رجال من رؤساء أهلها... فاستقدمهم إلى «الدرعية» وأسكنهم فيها، واستعمل في الأحساء أميراً باسم (ناجم) وهو رجل منهم (٢). تدمير كربلاء والتصفية الجسدية

وفي سنة ١٢١٦ هـ جهز سعود بن عبد العزيز بن محمد جيشاً جراراً من أعراب نجد، وغزا به العراق، وحاصر كربلاء ثم دخلها عنوة، وأعمل في أهلها السيف، ولم ينج منهم إلا من فرّ هارباً، أو اختفى في مخبأ من حطب ونحوه فلم يعثروا عليه، وهدم قبر الحسين - عليه السلام - واقتلع الشباك الموضوع على القبر الشريف، ونهب جميع ما في خزائنه المشهد، ولم يرع لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا لذريته أدنى حرمة، وجدد بجريمته النكراء مأساة واقعة كربلاء ويوم الحرّة، وجرائم بنى أمية وبنى العباس . ويتناول كوران سيز وصف تلك الواقعة بقوله: وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كل عام بعيد الغدير في يوم الغدير في _____

١. ابن غنام: تاريخ نجد: ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

٢. نفس المصدر: ج ٢، ص ١٧٤ - ١٧٥ - ابن بشر: عنوان المجد، ج ١، ص ١٠٥ - ١٠٦ . (٣٦٩)

النجف الأشرف، فخرج أهالي كربلاء من بلدتهم، فانتهاز الوهابيون فرصة غيابهم عن البلدة واقتحموها، وهم حوالي اثني عشر ألف جندي، ولم يكن في البلدة إلا عدد قليل من الرجال المستضعفين، قتلهم الوهابيون ولم يبقوا أحداً منهم حياً، ويقدر عدد الضحايا خلال يوم واحد بثلاثة آلاف، وأمّا السلب فكان فوق الوصف، ويقال إن مائتي بعير حملت فوق طاقاتها بالمنهوبات الثمينه، فقد استولى الوهابيون على كل الكنوز والأموال، وجردوا القبة من صفائح النحاس المطلية بالذهب (١). وقال «فيلبي» في تاريخ نجد: اقتحم سعود بجيش أبيه كربلاء، وبعد حصار قصير أعمل السيف في رقاب أهلها، ودمر ضريح الحسين - عليه السلام -، ونهب المجوهرات التي كانت تغطي الضريح، وجمع كل شيء ذا قيمة في المدينة... والحق أن يقال إن عمله هذا هز العالم كله، فضلاً عن الشيعة، فقد كان منعطفاً تاريخياً للثورة على الوهابيين، كما أدى فيما بعد إلى عواقب وخيمة على سلطة هذه الإمارة الضالة (٢). ويقول العلامة السيد جواد العاملي مؤلف مفتاح الكرامة: «... فأغار سعود بن عبدالعزيز في سنة ١٢١٦ هـ على مشهد الحسين - عليه السلام - وقتل الرجال والأطفال، وأخذ الأموال، وعاث بالحضرة المقدسة، وخرّب بنيانها وهدم أركانها، ثم إنّه بعد ذلك استولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفعل بالبقيع ما فعل، ولم يستثن من ذلك إلا قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -» (٣). _____

١. الدكتور منير العجلاني: تاريخ البلاد العربية، ص ١٢٦ - ١٢٧ . ٢. فيلبي: تاريخ نجد، ص ٩٩ .

وهذا الكاتب، أعنى فيلبي كان رجلاً إنكليزياً باسم «سنت جون فيلبي» فقد أظهر الإسلام وأقام مدة مديدة في نجد، وكان له علاقة وطيدة مع السعوديين ثم توترت علاقته معهم بسبب تسجيله هذه الحوادث التاريخية المريعة التي أصبحت وصمة عار في جبين الأسرة السعودية إلى الأبد .

٣. العاملي، السيد جواد: مفتاح الكرامة، ج ٥ ص ٥١٢ . (٣٧٠)

كان تدمير كربلاء أفدح هزيمة منى بها سليمان باشا والي بغداد، مما زاد في تدهور وضع الوالي . احتلال الطائف عام ١٢١٧ هـ قال الجبرتي: في أواخر سنة ١٢١٧ هـ أغار الوهابيون على الحجاز، فلما قاربوا الطائف خرج إليهم الشريف غالب فهزمه، فرجع إلى الطائف وأحرق داره وهرب إلى مكة، فحاربوا الطائف ثلاثة أيام حتى دخلوها عنوة، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم في من يحاربهم، وهدموا قبة ابن عباس في الطائف (١). يقول زيني دحلان: فدخلوا البلد عنوة في ذي القعدة سنة ١٢١٧ هـ فقتلوا الناس قتلاً عاماً حتى الأطفال، وكانوا يذبحون الطفل الرضيع على صدر أمه، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك

هاربين، فأدركتهم الخيل وقتلت أكثرهم، وفتشوا على من توارى في البيوت وقتلوه، وقتلوا من في المساجد - إلى أن قال -: وصارت الأعراب تدخل كل يوم إلى الطائف وتنقل المنهوبات إلى الخارج حتى صارت كأمثال الجبال، فأعطوا خمسها للأمير واقتسموا الباقي، ونشروا المصاحف وكتب الحديث والفقه والنحو في الأزقة، وأخبروا أن الأموال مدفونة في المخابىء فحفروا في موضع فوجدوا فيه مالا، وعندها حفروا جميع بيوت البلد حتى بيوت الخلاء والبالوعات . استيلاء الوهابيين على مكة في سنة ١٢١٨ هـ

عزم الوهابيون في سنة ١٢١٧ هـ على الاستيلاء على مكة المكرمة وإخضاعها لسيطرتهم ونفوذهم، فأعدوا العدة وحشدوا الحشود المكتتفة لذلك في أول الأشهر الحرم، فشاخ خبرهم في الآفاق وبلغ مسامع الناس وهم في موسم الحج، وقد كان ممن حج في ذلك العام، إمام مسقط: سلطان بن سعيد ونقباء وأمرء حجاج مصر والشام وغيرهما، فاستنجد بهم الشريف غالب _____

١ . غالب محمد أديب: أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، ص ٩٣ . (٣٧١)

أمير مكة فأبوا عليه، ودعاهم إلى الجهاد ضد الوهابية بعد انقضاء مناسك الحج فأعرضوا عنه، وتعللوا بعلل واهية، وأكثر الإلحاح عليهم فلم يجد فيهم أذناً صاغية، فاضطر إلى الجلاء عن مكة برفقة أتباعه وخزائنه وذخائره، وكثير من أهالي مكة إلى مدينة جدة، للأمن من غائلة سطوة الوهابيين . ووصل ابن سعود بقواته مشارف مكة المكرمة يومه العاشر من المحرم، فدخلها من دون مقاومة تذكر، ففعل بها وبأهلها ما فعله جنده بأهل الطائف (١) . وفرض ابن سعود على علمائها تلقي أفكار ابن عبد الوهاب ومدارسه كتهبه، كما منع مسلمي الآفاق من أداء الحج والعمرة، فانقطع عن أهل مكة والمدينة ما كان يصل إليهم من الصدقات، أو أسباب التجارة التي كانوا يتعيشون منها (٢) . وبعد استيلائهم على مكة، قدمت جموع غفيرة من نجد من الوهابيين، فتوجهت حشودهم بتخطيط مسبق إلى الأضرحة والمزارات ذات القباب التي شيدت لتكريم شخصيات صدر الإسلام فهدموها، وكذا فعلوا بدار مولد النبي وقبة السيدة خديجة وقبة زمزم (٣)، فما مضت عليهم إلا - ثلاثة أيام حتى محوا جميع آثار صدر الإسلام ومعالمه، وآثار الصالحين، فأزالوها عن بكرة أبيها (٤) . طرد الوهابيين من مكة المكرمة

كانت الوهابية مسيطرة على الحرم الشريف على نحو ما مر ذكره، فدفعت جرائمهم التي ارتكبوها بمكة الشريف غالب إلى تصميمه على تجديد العهد بها لتطهيرها من دنس الوهابيين، فسار برفقة الشريف باشا حاكم جدة _____

١ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ٦٤ - تاريخ الجبرتي، ص ٩٣ .

٢ . أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، ص ٩٣ .

٣ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ١ ص ١٢٢ .

٤ . تاريخ الجبرتي، ص ١١٨ بتصرف . (٣٧٢)

وكثير من العسكر والعييد، وتمكنوا من اقتحام متاريس الوهابيين المحيطة بها، فدخلوها وأحكموا السيطرة عليها، بعد أن طردوا منها كل ما تبقى من شرادم الوهابيين. ثم أخذ الشريف غالب يحارب كل من كان يوالى الوهابيين ممن جاور مكة من القبائل بالغارة عليهم، حتى تمكن من استئصالهم والقضاء على تبعيتهم وعمالتهم لهم. هذا غيض من فيض من جرائم عبدالعزيز بن محمد آل سعود، وهذه كلها حروب وفتن، وتدمير وتخريب وضحايا، ونهب وسلب وهتك للمقدسات الدينية، وغارات متصلة ليل نهار على المسلمين الآمنين . وظل على هذه السيرة إلى عام ١٢١٨ هـ حتى اغتاله رجل. قال جبران شامية الكاتب الوهابي: وانتقم الشيعة من غزوة كربلاء بعد سنتين باغتيال الإمام عبد العزيز وهو يصلي في المسجد عام ١٢١٨ هـ وقال فيلبي: لقد تنكر القاتل بزى «درويش» وذهب إلى «الدرعية» وبقي فيها أياماً يصلي خلف عبد العزيز، وفي ذات يوم ألقى بنفسه على عبد العزيز وهو يصلي، وطعنه بمديء في ظهره اخترقت به إلى بطنه، وعجلت به إلى مقره الأخير، وتكاثر الناس على القاتل وقتلوه (١) . وقال ابن بشر: كان مقتل أمير الدرعية عبدالعزيز ضربة جديدة للوهابيين، ففي خريف عام ١٨٠٣ م قتل في مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردى من إحدى قرى الموصل، وكان هذا الدرويش قد حلّ ضيفاً على البلاط، وعندما سجد عبدالعزيز أثناء الصلاة

هجم هذا الدرويش الذي كان في الصف الثالث على الأمير وقتله بطعنه من خنجر، ثم جرح أخاه عبدالله، وتفيد بعض المعلومات أن قاتل عبد العزيز شيعي هلك كل أفراد عائلته اثناء غزو كربلاء (٢). _____

١. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ٦٤.

٢. فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ٥٤. (٣٧٣)

وبذلك طويت صفحات حياته السوداء، وقد اقتصرنا في التعرض لتاريخ حياته على ما هو الجدير بالذكر منها، وإلا فقد قال أحمد بن زيني دحلان: إن الشريف غالباً (أمير مكة) غزا الوهابيين ما ينوف عن خمسين غزوة، من سنة ١٢٠٥ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ وكانت أكثر هذه الحروب أيام سلطة عبد العزيز آل سعود، ومن اراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام» وكتاب «كشف الارتياح» للسيد الأمين، وقد ذكر الأخير نبذاً من هذه الحروب. * * * ٣- سعود بن عبدالعزيز (١٢١٨ - ١٢٢٩ هـ)

استولى سعود على السلطة في الإمارة القبلية السعودية بعد وفاة والده، وكان أول عمل قام به غزو بلدتي الزبير والبصرة، وأعمل فيهما القتل والسلب وهدم قبرى طلحة والزبير، وتوسعت رقعة النفوذ السعودي في عهده إلى أوجها، فقد كثف الغزوات والغارات بقصد الاحتلال والسلب والنهب، بشكل رهيب لم يكن له سابقاً في تاريخ دولتهم، وقد تمخض عن تلك الأغراض التوسعية ضم جميع نواحي نجد والأحساء وسواحل البحر الأحمر إلى نفوذهم، واستمر حكمه أحد عشر عاماً (١). وإليك بعض حروبه وغاراته على جدة، والحرمين الشريفين على وجه الاختصار: محاصرة الوهابيين جدة ١٢١٩ هـ

ثم دخلت سنة ١٢١٩ هـ فاقبلت جيوش الوهابيين وعلى رأسها ابن شكبان والمضايفي باثني عشر ألف مقاتل لحصار جدة، فأراد الشريف غالب تحصين مكة لعلمه بعدم قدرتهم على جدة، فنادى بالنفير العام، فخرج الناس على طبقاتهم إلى «الزاهر» حاملين السلاح، وبقوا هناك سبع ليال. _____

١. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم ص ٦٢ - ٦٣ بتصرف. (٣٧٤)

أما الذين حاصروا جدة فبقوا ثلاثة أيام يحملون عليها حملة واحدة، فيفرقهم المدفع ويقتل منهم فينهمون إلى خيامهم، حتى قتل الكثيرون منهم وامتألت الحفر والقنوات من جيفهم، وكانوا يدفنون العشرة في محل واحد، فلما رأوا ذلك ارتحلوا، وقتلوا في طريقهم حياً من الأعراب، وأخذوا إبلا للشريف غالب، فجهز الشريف جيشاً بقيادة الشريف حسين للانتقام منهم، فهجموا عليهم في منطقة تسمى «الليث» فغلبوهم، وقتل كثير من الوهابيين في تلك الملحمة، واستشهد الشريف حسين، فعاود الشريف غالب إرسال الجند والكتائب عليهم حتى يترصدوا لهم كل موضع، فهزم موهم هزائم ساحقة، واقطعوا الكثير من رؤوسهم، وعلقت على أبواب مكة للعبرة (١). محاصرة مكة والمدينة سنة ١٢٢٠ هـ ثانياً

يقول زيني دحلان: ودخلوا مكة في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٠ هـ وتملكوا المدينة المنورة، على ساكنها أفضل السلام، وانتهبوا الحجرة (النبيهة) وأخذوا ما فيها من الأموال، وفعلوا أفعالا- شنيعة، وجعلوا على المدينة أميراً منهم يدعى «مبارك مزيان» واستمر حكمهم سبع سنين ومنعوا دخول الحاج الشامي والمصري مع المحامل مكة، وصاروا يصنعون للكعبة ثوباً من العباء، وأكروهوا الناس على الدخول في دينهم، وهدموا القباب التي على قبور الأولياء، وكانت الدولة العثمانية في تلك السنة في ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى، وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم (٢). وقال الكاتب جبران شامية: إن سعود بن عبد العزيز حاصر المدينة المنورة وفعل بها ما فعله بالطائف ومكة (٣). وقال السيد جواد العاملي: في سنة ١٢٢١ هـ في الليلة التاسعة من شهر _____

١. الأمين - السيد محسن: كشف الارتياح، ص ٢٥ - ٢٦.

٢. زيني دحلان: فتنة الوهابية ص ٧٢، تاريخ الجبرتي ص ١١٦ - ١١٨.

٣. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ٦٥ نقلا عن خطط الشام. (٣٧٥)

صفر قبل الصبح بساعة، هجم علينا بالنجف الأشرف ونحن في غفلة، حتى بعض أصحابه صعدا السور وكادوا يأخذون البلد، فظهرت

لأمير المؤمنين الكرامات الباهرة، فقتل من جيشه الكثير، ورجع خائباً، وله الحمد على كل حال (١). وقال أيضاً: جاء سعود بن عبدالعزيز عام ١٢٢٣ هـ في شهر جمادى الآخرة من نجد بما يقرب من عشرين ألف مقاتل، أو أزيد، فجاءتنا النذر بأنه يريد أن يدهمنا في النجف الأشرف غفلة، فتحذرنا منه، وخرجنا جميعاً إلى سور البلد، فأتانا ليلاً فرآنا على حذر قد أحطنا بالسور بالبنادق والأطواب، فمضى إلى الحلة فرآهم كذلك، ثم مضى إلى مشهد الحسين على حين غفلة نهاراً، فحاصروهم حصاراً شديداً فثبتوا له خلف السور، وقتل منهم وقتلوا منه، ورجع خائباً، ثم عاث في العراق فقتل من قتل، وبقينا مدةً تاركين البحث والنظر على خوف ووجل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد استولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتعطل الحج سنين وما ندرى ما يكون (٢). ويظهر من غير واحد من المؤرخين أن الحج انقطع من العراق أربع سنين، ومن الشام ثلاث سنين، ومن مصر سنتين، ولا يعلم هل انقطع بعد ذلك أو لا. غزو الوهابيين لبلاد الشام

وقد غزا سعود منطقتي عسير وتهامة، ثم انسحب منهما وغزا كربلاء مرة ثانية عام ١٢٢٣ هـ، فاستعصت عليه لأن أهلها حصنوها بعد الغزوة الأولى، ثم هاجم البصرة والزبير وغنم بعض الأموال (٣). وفي هذه السنة هجم ولد عبد الله بن سعود على بلاد حوران فنهب

١. العاملي - السيد جواد: مفتاح الكرامة، ج ٥ ص ٥١٢.

٢. نفس المصدر ج ٦ ص ٤٣٥.

٣. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم ص ٦٥. (٣٧٦)

الأموال، وأحرق الغلال، وقتل الأنفس البريئة، وسبى النساء وقتل الأطفال، وهدم المنازل وعات في الأرض فساداً (١). ويقول صلاح الدين المختار، وهو من المعجبين بآل سعود: في السادس من ربيع الثاني عام ١٢٢٥ هـ (١٨٠٩ م) سار الأمير سعود بثمانية آلاف مقاتل إلى الديار الشامية، وقد بلغه أن عشائر سوريا من عنزة وبنى صخر وغيرهما قد نزلوا في نقرة الشام، فلما وصلها لم يجد فيها أحداً، فتوجه بقواته إلى «حوران» وهاجم القرى والداكر وبصرى، واستولى على ما عثر عليه من مال ومتاع وطعام، وكان أهلها قد هربوا إلى مختلف النواحي عند ما سمعوا بقدومه، ثم هاجم الأمير قصر المزرب فاستعصى عليه، وارتحل إلى بصرى ليلاً ومنها قفل عائداً إلى بلده ومعه غنائم كثيرة. وقال السيد جواد العاملي: وفي سنة ١٢٢٥ هـ قد أحاطت الأعراب من عنيزة القائلين بمقالة الوهابي بالنجف الأشرف ومشهد الحسين - عليه السلام - وقد قطعوا الطرق ونهبوا زوار الحسين - عليه السلام - بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جمعاً غفيراً، وأكثر القتلى من العجم، وربما قيل إنهم مائة وخمسون، وقيل أقل، وبقى جملة من زوار العرب في الحلة ما قدروا أن يأتوا إلى النجف، فبعضهم صام في الحلة، وبعضهم مضى إلى الحسكة، ونحن الآن كأننا في حصار، والأعراب إلى الآن ما انصرفوا وهم من الكوفة إلى مشهد الحسين بفرسخين أو أكثر (٢). وقد بلغ تعصب الوهابيين إلى حد حملهم على قطع العلاقات التجارية مع غيرهم، وكانت التجارة إلى عام ١٢٦٩ هـ مع الشام والعراق محرمة (٣). وكانوا إذا وجدوا تاجراً في طريق يحمل متاعاً إلى المشركين صادروا ماله (٤).

١. الشهابي: لمع الشهاب، ص ٢٠١.

٢. مفتاح الكرامة.

٣. فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ١٠٥.

٤. ابن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ج ١، ص ١٢٢. (٣٧٧)

وفي سنة ١٢٢٦ هـ أرسل محمد علي باشا، والي مصر ولده طوسون لتحرير الحجاز من الوهابيين، فصدوه في الكزة الأولى، وتغلب عليهم في الثانية، واستولى على مكة والمدينة، وحاول أن يفتح نجداً، فلم يستطع. يقول ابن بشر: «وصلت النجدات المصرية عام ١٢٢٧ هـ فزحف طوسون على المدينة، وانضم إليه كثير من عرب جهينة وحرب، فحاصرها وقطع عنها المياه، وكان فيها سبعة آلاف من أهل

نجد، فدخل المصريون البلد، وقتل من النجديين نحو أربعة آلاف (١). ثم تابع طوسون حتى دخل مكة والطائف بمساعدة الشريف غالب من دون قتال عام ١٢٢٩ هـ (١٨٨٣ م). وفي سنة ١٢٢٨ هـ حج محمد علي باشا وعزل الشريف غالباً وأرسله منفياً إلى سلاويك، وعين مكانه الشريف محمد بن عون، فانتقلت الإمارة من فرع إلى آخر من أسرة الأشراف، ومحمد بن عون هو جد الشريف حسين أبي فيصل ملك العراق وعبد الله ملك الأردن. يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: إن سعود بن عبدالعزيز أقام هيئة باسم الأميرين بالمعروف ومهمتها التجول في الأسواق أوقات الصلاة، تخض الناس على أدائها، وما زالت هذه الطريقة متبعة إلى اليوم عند السعوديين، واصبحت تحمل العصا وتجول في الأسواق والشوارع تنهال ضرباً بها على حليق الذقن و من يلمس قبر الرسول، أو قبر إمام من أئمة البقيع، وغير ذلك مما يخالف العقيدة الوهابية، بل كانوا إلى الأمس القريب يضربون المدخنين علناً وإن كانوا غرباء عن الديار (٢). وقد هلك سعود في الدرعية عام ١٢٢٩ هـ وهو في الثامنة والستين من

١. ابن بشر، عثمان: عنوان المجد، ص ١٦٠.

٢. مغنية، محمد جواد: هذه هي الوهابية، ص ١٢٧. (٣٧٨)

عمره، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة أي من سنة ١٢١٨ هـ إلى سنة ١٢٢٩ هـ وبذلك طويت صحيفه عمره السوداء وكانت حياته كلها مليئة بالحرب والدمار. * * * ٤- عبدالله بن سعود (١٢٢٩ هـ- ١٢٣٤) وتولى بعد سعود ابنه عبدالله، ونازعه عمه عبدالله بن محمد، وانقسمت الأسرة على نفسها، وفي هذه السنة ارسل الباشا عساكر كثيرة إلى ناحية القنفذة براً وبحراً، فاستولوا عليها وهرب من كان فيها من الوهابيين، وفي أول سنة ١٢٣٠ هـ عاد إلى الطائف، ووقعت بينه وبين الوهابيين حروب كان النصر له فيها عليهم، واستولى عرتبة وبيش وريته، وقتل الكثير من الوهابيين، فاستسلم أهلها، ومنها استولى على تربة، وقضى فيها على آخر مقاومة وهاوية، ثم عاد إلى مكة ومنها إلى القاهرة (١). بقي طوسون في الحجاز بعد حملته إلى نجد. تدمير الدرعية

وفي أوائل سنة ١٢٣٤ هـ أرسل محمد علي باشا ولده إبراهيم باشا إلى الحجاز، لإكمال محاربة الوهابيين والاستيلاء على «الدرعية»، فتوجه بعساكر وأموال وذخائر كثيرة حتى دخل مكة، ثم خرج منها بالعساكر قاصداً «الدرعية»، وجعل يملك كل أرض وصلها بلا معارضة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم وغنم خياماً ومدفعين (٢). وفي سنة ١٢٣٣ هـ ملك بلداً من بلاد الوهابيين وقبض على أميره، ثم استولى على الشقراء، وكان بها عبدالله بن سعود، فخرج هارباً إلى «الدرعية» ليلاً، وبينها وبين الشقراء يومان، ثم استولى إبراهيم باشا على بلد كبير من

١. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ٦٨.

٢. الأمين، السيد محسن: كشف الإرتياب، ص ٤٥. (٣٧٩)

بلادهم ولم يبق بينه وبين «الدرعية»، إلا ثمان عشرة ساعة، ثم زحف على «الدرعية»، فملك جانباً منها، وحاصر الوهابيين وأحاط بهم (١). وقال جبران شامية: استمر الحصار خمسة أشهر، فكانت تتوالى على إبراهيم باشا النجيدات والذخيرة من مصر، والأرزاق والمواشي من البصرة والمدينة، وبقيت قبائل البدو التي انضمن إليه تناصره مادامت عطاياها مستمرة، وفي نهاية الشهر الخامس من الحصار، أي في سنة ١٢٣٤ هـ، استسلم عبدالله بن سعود لإبراهيم باشا فأرسله أسيراً للقاهرة ثم للآستانه، حيث طوفوه في الأسواق ثم أعدموه، وقتل في «الدرعية»، عدد كبير من آل سعود وآل الشيخ، ونفى قسم منهم إلى مصر، وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى (٢). ثم أقام إبراهيم باشا في «الدرعية» سبعة أشهر، ثم أمر بتدميرها فاصبحت أثراً بعد عين (٣). وانتهت ستة أشهر من المعارك الطاحنة، وفقد السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من اقرباء الإمام بمن فيهم ثلاثة من إخوانه، وكتب إبراهيم باشا إلى القاهرة والآستانه بأن الوهابيين خسروا ١٤ ألف من القتلى، و ٦ آلا من الأسرى، ومن بين الغنائم ٦٠ مدفعاً (٤). بسبب هزيمة الوهابيين جرت في القاهرة احتفالات بهية، أطلقت فيها نيران المدافع، وأجريت الألعاب النارية، وكان الناس يسرحون ويمرحون، وأعرب شاه

إيران (فتح على شاه) في رسالة إلى محمد علي باشا عن تقديره لدحر الوهابيين (٥). وقال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية في هذا المجال: _____

١. المصدر السابق .
٢. جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم ص ٦٩ .
٣. المصدر السابق .
٤. فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ١٣١ - نقلاً عن ارشيف السياسة الخارجية لروسيا .
٥. الجبرتي، طبع مصر، ص ٦٣٦ . (٣٨٠)

«وطغى إبراهيم باشا وبقي في البلاد، وأكثر فيها الفساد، وصادر أموال آل سعود وآل محمد بن عبد الوهاب، وأجلى الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم من الديار، ونفى الكثير منهم إلى مصر، وكان هذا جزاء وفاقاً لما فعلوه من قبل بأمة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من المظالم والمآثم، وما ارتكبه من الخيانة لله وكتابه، وللنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهكذا كل ظالم لا بد أن يبتلى بأظلم وأغشم (١). * * * (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (٢) . _____

١. الشيخ محمد جواد مغنية: هذه هي الوهابية، ص ١٢٩ .
٢. سورة الحشر: الآية ٢ . (٣٨١) الفترة الثانية للإمارة القبلية السعودية

قد هرب كثير من كبار الوهابيين عندما ملك إبراهيم باشا «الدرعية»، فلما ارتحل عنها رجعوا إليها، منهم عمر بن عبدالعزيز وتركي ابن أخي عبدالعزيز، ومشاري بن سعود، فعمروا «الدرعية» ورجع أكثر أهلها، فجهّز محمد علي باشا عسكرياً يأمرة حسين بك، فقبضوا على مشاري الذي كان قد انتخب رئيساً لـ «الدرعية» وأرسلوه إلى مصر فمات في الطريق، وتحصن الباقون في قلعة الرياض، بينها وبين «الدرعية» أربع ساعات، فحصارهم حسين بك ثلاثاً فطلبوا الأمان فأمنهم فخرجوا (إلا تركياً فهرب من القلعة ليلاً) فقيدهم وأرسلهم إلى مصر. ٥- تركي ابن أخي عبدالعزيز (١٢٣٩ - ١٢٥٠ هـ)

عاش تركي ابن أخي عبدالعزيز مختفياً طوال عدة سنوات في المناطق الجنوبية، وكان يتجول في صحراء نجد داعياً العربان إلى إحياء مجد الأسلاف، وتزوج أثناء تجواله بامرأة من آل تامر، ولدت له ذكراً أسماه جلوي، فجمع حول تركي ثلاثون رجلاً ثم انضمت إليه بعض القبائل، وفي تلك الأثناء بدأت في القسم انتفاضة ضد المصريين إلى حدّ ألجأهم إلى الجلاء إلى الحجاز، وتركوا حاميتين في الرياض ومنفوخة (١) . _____

١. ابن بشر: عنوان المجد، ج ٢، ص ١٢ . (٣٨٢)
- وانتهز تركي فرصة ضعف المواقع المصرية في نجد في عامي ١٢٣٩ و ١٢٤٠ هـ فوسّع نفوذه في المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوخة، وعزل الحاميتين المصريتين، وبعد عدة شهور سقطت الرياض بيد تركي، وتم جلاء المصريين عن نجد، وأعلنت بعض مناطق القصيم عن اعترافها بحكم تركي، فتركي إذاً هو الأمير السعودي الوهابي الأول من الفرع الثاني لمحمد بن سعود، وبه انتقلت الإمارة من سلالة عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى سلالة أخيه عبدالله بن محمد بن سعود، وما زالت فيها إلى اليوم (١). ولكنه نشب خلاف في العائلة السعودية، فتمرد مشاري بن عبدالرحمن بن مشاري بن سعود مع بعض أفخاذ قبيلة قحطان على الأمير، فكبر على نسل عبد العزيز أن تخرج الإمارة منهم، فدبر مشاري أمر اغتيال تركي، وتم له ذلك، ونادى مشاري بنفسه أميراً. ٦- مشاري بن عبدالرحمن (١٢٥٠ هـ)
- قال جبران شامية: انتهت ولاية الإمام الخامس تركي بن عبد الله اغتيلاً على يد ابن عمه مشاري بن عبد الرحمان، الذي استولى على السلطة وأصبح الإمام السادس، ودام حكم مشاري أربعين يوماً، إذ زحف فيصل بن تركي من الهفوف إلى الرياض بمساعدة عبدالله، وعبيدالله، من آل الرشيد شيوخ حائل، واستولى على المدينة وأعدم مشاري، وأصبح فيصل الإمام السابع في العائلة السعودية. ٧- فيصل بن تركي (١٢٥٠ - ١٢٥٣ هـ)

تولى فيصل بن تركي الحكم بعد أبيه وهو في حوالى الأربعين من العمر، فى أوج نضوج قابلياته الجسمانية والروحانية، وأصبح يتقبل البيعة من أهالى العاصمة، ولكن محمد على باشا لم يمهل طويلا، فأرسل حملة كبرى إلى نجد ومعها خالد بن سعود، الذى كان مع السعوديين المنفيين بمصر، فدخل جيش

١. ابن بشر: عنوان المجد، ج ٢ ص ٢٦ - ٣٠. (٣٨٣)

محمد على باشا واستولى على العاصمة بلا مقاومة، بعد أن فرّ منها فيصل، ثم أسر ونفى إلى مصر، وأقام المصريون فيها خالد بن سعود حاكماً مكان فيصل، وكان ذلك سنة ١٢٥٣ هـ. وكانت الحجاز لم تزل بيد محمد على، وكان من أعوانه خالد أصغر أبناء سعود الكبير، وأخو الإمام عبد الله الذى استسلم لإبراهيم باشا فى الحملة المصرية الأولى وأعدم فى استنبول. ٨- خالد بن سعود (١٢٥٣ - ١٢٥٥ هـ)

نشأ خالد بن سعود فى القاهرة فى كنف محمد على، الذى أعده ليتولى الحكم فى الجزيرة العربية نيابة عنه، وكان لخالد أنصاره الذين لم يرضوا عن انتقال الإمامة عن أولاد سعود الكبير إلى أولاد عبد الله بن محمد (١). وجد فيصل أن أهل الرياض وقبائل كثيرة مالت إلى الأمير خالد، لأنه كان يمثل نزعة دينية بحكم ثقفه فى القاهرة، وذلك ممّا دعا فيصل إلى ترك الرياض، ودخل الأمير خالد الرياض سنة ١٢٥٣ هـ. فأعاد الحكومة إلى فرع سعود الكبير، وأصبح الأمير الثامن، فاستمر خالد فى الإمارة سنتين. ٩- عبد الله بن ثنيان (١٢٥٥ - ١٢٥٨ هـ)

ثم ثار عليه عبد الله بن ثنيان مع النجديين، فأرادوا الفتك به فهرب إلى مكة، ثم مات (٢). ولما بلغ ذلك فيصلا وهو محبوس بمصر، استطاع أن يهرب ليلا من القلعة ومن معه، حتى وصلوا جبل شمر مقر عمارة ابن الرشيد، فأكرمهم وتوجهوا إلى القصيم فانضاف إليهم كثير منهم. إلى أن استطاع بعون أهالى عنيزة أن يقاتل ابن ثنيان فى الرياض،

١. أبو عليه، عبد الفتاح: الدولة السعودية الثانية، ص ٤١.

٢. الأمين، السيد محسن: كشف الارتباب ص ٤٧ - نقلا عن خلاصة الكلام لزينى دحلان. (٣٨٤)

فقبضوه وحصروا عليه، ثم قتل فى الحبس خنقاً فى سنة ١٢٥٨ هـ. ١٠- فيصل بن تركي (١٢٥٨ - ١٢٧٨ هـ)

صار بعد ذلك فيصل سيداً فى دياره لمدة تقرب من عشرين عاماً، وفى سنة ١٢٦٢ هـ صدر الأمر من الدولة العثمانية بتجهيز العساكر لمحاربة فيصل بن تركي أمير الرياض، لأنه استفحل أمره ويخشى أن يقع منه ما وقع من أسلافه، وأن يكون ذلك برأى الشريف محمد بن عون أمير مكة المكرمة، فتوجه الشريف مع العساكر من المدينة حتى وصل جبل شمر، فسار معه أميره ابن الرشيد بكثير من القبائل، ولما وصلوا القصيم أطاعهم أهلهم، فخاف فيصل فأرسل لأهل القصيم أن يتوسط فى الصلح على تأديه عشرة آلاف ريال فى كل سنة، فتم الصلح، ورجع الشريف بالعساكر، واستمر فيصل يدفع ذلك حتى مات سنة (١٢٨٢ هـ) (١). ولكنه بعد ما أُصيب بالشلل وقد البصر، سلم الأمور لابنه عبدالله، وبعدما مات نشبت حرب أهلية بين أولاده الأربعة، وهم عبدالله وسعود ومحمد وعبدالرحمن، وعمّت الفوضى البلاد. ١١- عبدالله بن فيصل التركي (١٢٧٨ هـ - ١٢٨٤ هـ)

كان فيصل قد بايع ولده الأكبر عبدالله بولاية العهد مطابقاً للتقاليد المتبعة فى البيت السعودى، ولكن نشبت الحروب الأهلية بين أولاده الأربعة وهم: عبدالله وسعود ومحمد وعبدالرحمن، وعمّت الفوضى فى البلاد، وقد نازع سعود أخاه عبدالله وثار عليه، واستمرت الحروب الأهلية بين الطرفين، ونشبت الفتن والقتال واستمرت ٢٥ عاماً، ممّا أدى إلى ضعف الإمارة وذهاب سلطانها، وانتفاضة حكام المقاطعات عليها، واستقلال كل بدويلته واحتل الأتراك الأحساء والقطيف (٢) واستمر الصراع داخل أسرة آل سعود، وظهر عبدالله فى الأراضى المحتلة من قبل الأتراك، وطرده سعود من الرياض مؤقتاً،

١. جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ٧٨.

٢. وهبة - حافظ: خمسون عاماً فى جزيرة العرب، ص ٢٤. (٣٨٥)

ففي سنة ١٢٨٣ هـ عاد عبدالله من جديد إلى الرياض إلا أن الوضع في الإمارة كان ميؤوساً منه فالمجاعة مستمرة، وكان الناس يأكلون جيف الحمير ويحرقون جلود الماعز ويدقونها، بل كانوا يدقون العظام ويأكلون مسحوقها، ومع هذا فمن لم يمت بالسيف مات جوعاً (١). ١٢ - سعود بن فيصل تركي (١٢٨٤ هـ - ١٢٩١ هـ)

وفي العام القادم ١٢٨٤ هـ عاد سعود مجدداً إلى الرياض، واستمرت المعارك سجالاتاً بين الأخوين واقتربت كالعادة بالنهب والقتل، ولكن عبدالله بن فيصل كان يعتمد على الأتراك، بينما يعتمد سعود على الإنجليز، حتى أنهم أرسلوا أغذية له، وبعد طائفة من الأحداث استتب الأمر إلى سعود، ودخل الرياض في محرم ١٢٩٠ هـ وتوفي بعده بعام ١٢٩١ هـ وأما عبدالله فقد تنازل عن الحكم وترك الرياض هو وأخوه محمد، ورحل إلى مقربة من الكويت واستقر في بادية قحطان، ثم تركها بعد أن رفضوا الخوض في معركة جديدة يكونون حطبا بلا فائدة، ولما توفي سعود أخذ الحكم مكانه أخوه عبد الرحمن الذي كان يميل إلى سعود بعكس محمد، فحكم لمدة عامين، ثم تلاها حرب بينه وبين أخيه محمد الذي كان يكبره سناً، ف وقعت معركة بينهما في ثرمدا في غرب الرياض، وعاد الأمر من جديد للتوتر، حتى وافق الاثنان على أن يتولى الحكم أخوهم الكبير عبدالله، فعاد هذا الأخير من البادية واستلم الحكم عام ١٢٩٣ هـ حتى عام ١٣٠٥ هـ ولم يقبل أبناء سعود أن يتولى عمهم الكبير عبدالله، فغادروا الرياض احتجاجاً على ذلك، واستقروا في «الخرج». وعندئذ توجه عبد الرحمن خوفاً من أبناء أخيه إلى عبدالله، فقرر الإخوة الثلاثة (عبدالله - محمد - عبد الرحمن) تشكيل جبهة واحدة بزعامه عبدالله ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة أسابيع، ثم فر أولاده ودخل عبدالله الرياض من جديد، وبقي فيها إلى أن مات عام ١٣٠٥ هـ.

١. الريحاني - أمين: تاريخ نجد الحديث، ص ٩٩. (٣٨٦) -١٣ عبد الرحمن بن فيصل

ولما توفي عبدالله أخذ أخوه عبد الرحمن الأمر بيده، وأعلن نفسه أميراً خلفاً لأخيه عبدالله، ولم يطل الوقت حتى اختلف عبد الرحمن مع أولاد سعود، ومن جانب آخر جنحت قبائل نجد لمحمد بن الرشيد مع أنه لم يكن وهابياً بل كان حليفاً للخليفة العثماني، الذي يتبع المذهب الحنفي ويستمد منه المال والسلاح (١). ولما رأى عبد الرحمن قوة ابن الرشيد شعر أنه بين أمرين: إما أن يحارب ابن الرشيد وإما أن يخضع له كموظف عنده، ولا طاقة له على الأولى ولا تطبيقه نفسه على الثانية، فلم يبق أمامه إلا الرحيل، فرحل عن نجد بأهله سنة ١٣٠٩ هـ وظل منتقلاً في الأمصار، فذهب أولاً إلى الأحساء، ثم إلى الكويت، ثم إلى قبائل بني مرة قرب الربع الخالي، ثم إلى قطر ومنها عاد إلى الكويت، واستقر فيها مع عائلته وأولاده، وكان عمر ولده عبدالعزيز عشر سنوات، وعين له أمير الكويت الشيخ محمد بن الصباح مرتباً إلى أن خصصت له الدولة العثمانية ستين ليرة عثمانية في الشهر (٢). ففقط ابن الصباح عنه المرتب، وعاش هو وأفراد عائلته في شدة وضيق (٣) وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية. يقول بعض المؤرخين: «إن الوهابية فقدت صيتها وبريقها لما توسعت فوق طاقتها فانهزمت، وهكذا خسروا الأرض والحركة الوهابية». لم يكرم الشيخ مبارك الصباح ضيافة آل سعود في الكويت، فسكنوا ثلاث غرف من طين في أحد أزقة الكويت، ومع ذلك كان آل سعود خلال إقامتهم في الكويت مدة سبعة أو ثمانية أعوام متعاونين مع الشيخ مبارك حسبما تمليه مصالحهم، لقد كانت مجالس الشيخ مبارك بالنسبة إلى الشاب عبدالعزيز

١. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ٨١ - ٨٢.

٢. الريحاني: تاريخ نجد الحديث، ص ٩١.

٣. مغنية - محمد جواد: هذه هي الوهابية، ص ١٣٢ - ١٣٣. (٣٨٧)

مدرسة تلقى مما يدور فيها من الأحداث، ولعل أهم درس وعاه هو الحذر عند التعامل مع القوى الدولية، والنظر بعين الاعتبار لمركز بريطانيا المتفوق (١).

١. السعدون - خالد: العلاقات بين نجد والكويت، ص ٦٧.

الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية

ذات يوم جاء الفتى عبدالعزيز إلى الشيخ مبارك وقال له: أريد أن أنقذ نجداً من ابن الرشيد فهل تساعدني بالمال والعتاد؟ فأعطاه الشيخ مائتي ريال و ثلاثين بنديقه وأربعين جملاً وبعض الزاد، فأخذها ومضى هو وأرحامه وأصحابه، ورافق عبدالعزيز أخوه محمد وابن عمه عبدالله بن جلوى وبعض أتباعهم وعددهم نحو أربعين رجلاً (١). سارت الجماعة متخفية حتى وصلت ضواحي الرياض وغافلت حراسها، وذلك في ٣ شوال سنة ١٣١٩ هـ، ودخلت المدينة خلسة، وقتلت قائد الحامية الشمري عبدالرحمن بن ضبعان، فاستسلم رجاله وخضعت الواحة لآل سعود، فأرسل عبدالعزيز ناصر بن سعود إلى الشيخ مبارك مبشراً وطالباً المدد، ثم بنى سوراً حول الرياض، ثم دامت مساعدات شيخ الكويت واستتب له الأمر. ١٤- عبدالعزيز بن عبدالرحمن (١٣١٩ - ١٣٧٣ هـ) وبعد هذا صار عبدالعزيز حاكماً للرياض وهو في الثانية والعشرين، وظل أبوه مستشاراً رئيسياً له وإماماً للمسلمين (٢).

١. السعدون خالد: العلاقات بين نجد والكويت، ص ٦٨.

٢. المصدر السابق. (٣٨٩)

اتصلت الدولة العثمانية بعبد العزيز بن سعود بواسطة الشيخ مبارك ودعته لإرسال والده عبدالرحمن لمفاوضة والي البصرة، ولبنى عبدالرحمن الدعوة ووصل إلى الكويت ومنها إلى الزبير برفقة الشيخ مبارك، حيث عقدت الجلسة الأولى من المباحثات عام ١٣٢٢ هـ وتوصل الفريقان إلى اتفاق تضمن إقرار العثمانيين بسيطرة عبدالعزيز على مناطقه بوصف أنه موظف عثمانى برتبة قائم مقام، وتعهد العثمانيون بمنع آل الرشيد عن التدخل في شؤون إمارة آل سعود (١). عبدالعزيز يتحالف مع الإنكليز

انتهز عبدالعزيز الفرصة فاجتمع لأول مرة في سنة ١٣٢٨ هـ برسمى بريطاني هو المعتمد في الكويت، أعنى «ويليم شكسبير» ونشأت بينهما مودة وتقدير متبادل، واجتمعا ثانية سنة ١٣٣٠ هـ، وكذلك في ربيع الأول ١٣٣١ هـ وشرح عبدالعزيز لمندوب بريطانيا بأن الوقت مناسب لتخليص نجد والأحساء نهائياً من السيطرة العثمانية. تمكن شكسبير من إجراء مباحثات سياسية مع عبدالعزيز، فوضع مسودة معاهدة التزم الإنكليز بموجبها بضمان مواقع أمير الرياض في نجد والأحساء، وحمايته من الهجمات العثمانية المحتملة من جهة البحر والبر إذا التزم بمساعدة الحلفاء، وتخلى الإنكليز عن سياستهم القديمة، والتزموا بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية، والتزم عبدالعزيز بعدم إقامة علاقات مع البلدان الأخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية، وتبين الدراسة التي أجراها «تلولير» لوثائق الأرشيفات الإنكليزية، أن عبدالعزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية في الجزيرة العربية (٢). وجاء في المعاهدة أن ابن سعود يتعهد أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية، وأن أمير نجد لا يمكن أن يتنازل عن

١. فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ٢١٥.

٢. الأمين، السيد محسن: كشف الارتباب، ص ٤٨. (٣٩٠)

الأراضي أو جزء منها، ولا أن يؤجرها أو يرهنها أو يتصرف بها بأي شكل، ولا أن يقدمها على سبيل الامتياز إلى أية دولة أجنبية، أو إلى أحد من رعايا دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وجاء في المادة السادسة أن ابن سعود يتعهد كما تعهد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتدخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ (قطر) وعمان وسواحلها، وكل المشايخ الموجودين تحت حماية الإنكليز، والذين لهم معاهدات معها، ولم يرد في المعاهدة شيء عن الحدود الغربية لنجد، وهكذا فرضت هذه المعاهدة، الحماية البريطانية على نجد وتوابعها، وصارت هذه المعاهدة جزءاً من شبكة النفوذ البريطاني التي أرادت لندن فرضه على القسم الأكبر من الشرق الأوسط، وعلى أية حال على الجزيرة العربية كلها بعد الحرب العالمية الأولى. ثم استلمت نجد من عام ١٣٤٤ هـ

مقابل توقيع المعاهدة مؤونة شهرية بمبلغ ٥ آلاف جنيه استرليني مع إرساليات معينة من الرشاشات والبنادق (١). وكما كان ابن الرشيد حليفاً مخلصاً للأتراك، فقد كان عبدالعزيز حليفاً دائماً وصديقاً وانياً للإنكليز، فكان يذكرها ويشكرها في خطبه وغيرها، وهذا مثال من أقواله «بحق الإنكليز» جاء في خطبه ألقاها بمكة المكرمة عام ١٣٦٢ هـ. «ولا يفوتني في هذا الموقف أن أتمثل بأن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فأثنى على الجهود التي قدمتها الحكومة البريطانية بتقديم بواخر الحجاج وتسهيل سفرهم، كما أثنى على مساعدتها ومساعدة الحلفاء القيمة، ومتابعتهم تموين البلاد بما يحتاجه الأهالي من أسباب المعيشة وغيرها، وكذلك لا بد من الإشارة إلى أن سيرة البريطانيين معنا طيبة من أول الزمن إلى آخره». يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية بعد نقل هذا الكلام:

١. فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ٢٥١ - ٢٥٢. (٣٩١)

«ويعلم الصغير والكبير أن الإنكليز والحلفاء وأية دولة استعمارية يستحيل أن تفعل شيئاً بقصد الخير والإنسانية، وإذا فعلت مع بلد أو بلدان ما يبدو كذلك فإتما تتخذ منه وسيلة إلى التسرب إلى أسواقه والسيطرة على مقدراته. إن الاستعمار يوافق ويتصنع ليمتص دماء الشعوب. وغريب أن تخفى هذه الحقيقة على الملك عبدالعزيز، وأن يقول - وهو الوهابي الذي يصلّى في أول الوقت حتى في بيت عدوه عجلان - من لم يشكر الناس (أي الإنكليز) لم يشكر الله، وهذا مع العلم بأن الوهابية تقول بفساد الصلاة عند قبر نبي أو ولي، لأنها تكون مشوبة بعبادة صاحب القبر، إذا كيف ربط الملك عبد العزيز شكر الله بشكر الإنكليز بحيث لا يقبل الأول بدون الثاني، وبعد أن ضعف الإنكليز حلّ محلهم الأمريكيون (١). التوسع السعودي بعد التعاون مع بريطانيا

ترافقت هذه الفترة مع تطورات دولية عملت لمصلحة آل سعود، فقد انتهت الحرب العالمية الأولى واستسلمت تركيا عام ١٣٣٧ هـ، وتبعها ألمانيا، فانقطع دور تركيا في الجزيرة العربية، وانفردت بريطانيا بالتحكم بشؤون المنطقة. ومن ناحية أخرى نجد بريطانيا قد خانت وعودها للهاشميين بإنشاء الدولة العربية الكبرى في الشمال، وصارت تسعى للتخلص منهم ومن وعودها لهم، فتوجه عبدالعزيز ضدهم في هذه الفترة التي شهدت احتلال آل سعود للحائل، ثم للحجاز وعسير، واختلطت السياسة بالدين (٢). هجوم الوهابيين على الحجاز

في سنة ١٣٤٠ هـ غزا الوهابيون عرب الفرع من قبيلة حرب في عقر دارهم في الحجاز، ونهبوا المواشي، فجاء النذير إلى أهل الفرع فلحقوهم

١. مغنية - محمد جواد: هذه هي الوهابية، ص ١٣٥ - ١٣٦.

٢. جبران شامية - آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ١١٤ - ١١٥. (٣٩٢)

واستخلصوا منهم ما نهبوه، وقتلوا منهم، وغنموا جميع ما معهم ولولوا منهزمين، ومن جملة ما غنموه أعلام وبيارق، فدفعوها إلى الملك حسين وانقطع مجيء أعراب نجد إلى الفرع لاكتيال التمر، فحصل بذلك ضيق على أهل الفرع بسبب كساد تمورهم التي كان يشتريها النجديون (١). قتل الوهابيون الحجاج اليمانيين سنة ١٣٤١ هـ

في هذه السنة التقى الوهابيون بالحجاج اليمانيين وهم عزل من السلاح وجميع آلات الدفاع، فسايروهم في الطريق وأعطوهم الأمان، ثم غدروا بهم لَمّا وصلوا إلى سفح جبل، مشى الوهابيون في سفح الجبل واليمانيون تحتهم، فعطفوا على اليمانيين وأطلقوا عليهم الرصاص حتى قتلوهم عن بكرة أبيهم، وكانوا ألف إنسان، ولم يسلم منهم غير رجلين هربا وأخبرا بالحال (٢). هجوم الوهابيين على الحجاز عام ١٣٤٣ هـ

وقد هجم الوهابيون في هذه السنة على الحجاز وحاصروا الطائف، ثم دخلوها عنوة وأعملوا في أهلها السيف، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى قتلوا منهم ما يقرب من الفين، بينهم العلماء والصلحاء، وأعملوا فيها النهب، وعملوا فيها من الفظائع ما تقشعر منها الجلود، نظير ما عملوه في المرة الأولى، حتى أن السلطان عبد العزيز بن سعود لما سئل عنها لم ينكر وقوعها، لكنه اعتذر بما وقع من

خالد بن الوليد يوم فتح مكة، وقول النبي: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد (٣). أصبح الحجاز بعد معركة الطائف مفتوحاً أمام عبدالعزيز، لكنه تباطأ بالزحف على مكة حتى يستكشف نوايا الإنكليز الذين كانوا أذروه وطلبوا منه التوقف عن القتال، لكن سياسة بريطانيا كانت قد تغيرت خلال هذه المدة،

١. الأمين - السيد محسن: كشف الارتياح، ص ٥٠.

٢. الأمين - السيد محسن: كشف الارتياح، ص ٥٤.

٣. الأمين - السيد محسن: كشف الارتياح، ص ٥٢. (٣٩٣)

وأصبحوا يريدون التخلص من الملك حسين وأولاده في الحجاز، حتى يكفوا عن مطالبتهم بتنفيذ تعهداتهم لعرب الشمال، وكانت وسيلتهم المفضلة أن يضربوا العرب بالعرب، وكان عبدالعزيز أدايتهم في تلك السياسة (١). هجوم الوهابيين على شرقي الأردن، وفي سنة ١٣٤٣ هـ هجمت جماعة من الوهابيين فجأة على أعراب شرقي الأردن الآمين، فهجموا على أم العمدة وجوارها، فقتلوا ونهبوا، ومالبثوا أن ارتدوا مدحورين مأسورين، وإن الدبابات والطائرات الإنكليزية اشتركت في قتالهم مع عرب شرقي الأردن، وانجبت المعركة عن قتل ثلاثمائة من الوهابيين بأمر من الإنكليز. استيلاء الوهابيين على مكة المكرمة سنة ١٣٤٣ هـ

كان الملك حسين يظن أن الإنكليز سيتدخلون لإنقاذه على نحو ما فعلوا في شرقي الأردن في الشهر الماضي، فأرسل برقية إلى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة ذكر فيها أن الحالة حرجية، وأن علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود، وتجنب ما وقع في الطائف، وهو يأمل منها النظر في طلبه بأسرع ما يمكن، فأبرق القنصل إلى حكومته في لندن فوافاه الجواب أن الحكومة البريطانية متمسكة بسياستها في عدم التدخل في الأمور الدينية - وهي لذلك - لا تريد أن تتدخل في أي نزاع بشأن امتلاك الأماكن المقدسة في الإسلام (٢). وفي الوقت نفسه كتب الدكتور «ناجي الأصيل» مندوب الحسين في لندن رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيها: «إن صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية - طبقاً لروح المعاهدة التي هي تحت المفاوضة - أن تتدخل لوضع حد للاعتداء الوحشي الذي يقوم به الوهابيون ضد الأماكن المقدسة، وإخراجهم من الطائف .

١. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ١٣٤.

٢. دائرة الوثائق العامة في لندن (أف، أو رقم ٣٧١ - ١٠٠١٤). (٣٩٤)

فوافاه الجواب: إن الحكومة البريطانية لا تريد أن تتورط في النزاع القائم بين أمراء عرب مستقلين، حول امتلاك الأماكن المقدسة في الإسلام». ثم رد ناجي الأصيل على جواب وزارة الخارجية في ٢ تشرين الأول وقال: إن ما قام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى في تأييد بريطانيا في الحرب العامة يستدعي من بريطانيا مساعدتها له في إنقاذ مكة من ويلات الحرب، وإن العالم الإسلامي لا يرضى أن تقع الأماكن المقدسة ولو لفترة قصيرة جداً في أيدي طائفة كالوهابية (١). تنازل الحسين عن العرش لصالح ولده على

ارتأت الحكومة البريطانية حفاظاً على مصالحها في المنطقة خلع الأسرة الهاشمية عن الحرمين الشريفين، حتى تحل محلها السلطة الوهابية، ولأجل ذلك استعملت بريطانيا جميع وسائل الضغط لتجبر الملك حسين على التنازل عن العرش، وعلى رأسها قطع المساعدات المالية عنه، حتى عجز عن دفع رواتب الضباط والجنود (٢). أصبح وضع الحسين ميؤوساً منه، فاجتمع أعيان الحجاز ومنهم أشرف مكة وعلماء الدين وكبار التجار في جدة، وقرروا خلع الحسين لترضية ابن سعود، وبعد أخذ ورد، وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده الذي نصب ملكاً على الحجاز في ٦ تشرين الأول (عام ١٩٢٤ م) الموافق ١٣٤٣ هـ، وبعد ثلاثة أيام أرسل الحسين مع أمتعه إلى جدة لكن الحكومة البريطانية تضايقت من وجوده هناك، فأرسلت إليه إنذاراً بمغادرة المدينة تلبية لطلب عبد العزيز، وبلغته بأن عليه أن يسافر إلى قبرص، حتى مات هناك عام ١٩٣١ م ١٣٥٠ هـ ونقلت جنازته إلى الأردن فدفن في المسجد الأقصى، وانتهت بذلك حقبة محزنة من تاريخ العرب (٣).

١. نفس المصدر .

٢. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ١٣٥ .

٣. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ١٣٥ . (٣٩٥)

دخل الوهابيون مكة بغير قتال بعدما خرج الملك حسين وولده منها إلى جدة، فنهبوا داره واستولوا على جميع ما يؤول إليه، ثم قامت الحرب بينهم وبين الملك على المتحصن في جدة، وانقطع الحج في تلك السنة، وعين خالد بن لؤى حاكماً على مكة ثم انطلق الوهابيون وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوي وزيارة القبور، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه، وربما ساقوه إلى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة (١) . دخل عبد العزيز مكة المكرمة، واستعرض الجيش، واجتمع مع العلماء وفرض عليهم اعتناق الأ-صول التي جاء بها محمد بن عبد الوهاب، وكان يقول وهو يحارب الملك علياً: إنّه ما جاء إلى الحجاز إلا لينقذه من ظلم الأشراف، ولا يريد تملكه وإنما يجعل مصيره إلى رأى عموم المسلمين . وهذا هو الأسلوب الماكر لجميع الدهاء إذا تغلبوا على قطر من الأقطار، حتى أن دولة إسرائيل الغامضة بعدما استولت على أراض جديدة عام ١٩٤٧ م كانت تقول بأنّها لا تريد الاستيلاء عليها . اكتساح قبور البقيع

لما استتب الأمر لعبد العزيز وملك الحجاز قاطبة، عمد إلى تخريب المعالم الإسلامية في مكة وجدة والمدينة، فخرّبوا في مكة قباب عبدالمطلب جدّ النبي، وأبى طالب عمّه، وخديجة أم المؤمنين، وخرّبوا مولد النبي ومولد فاطمة الزهراء - عليها السّلام - ، ولما دخلوا جدة هدموا قبة حواء، وخرّبوا قبرها بل خربوا في هذه البلاد كل القباب والمزارات والأمكنة التي يتبرك بها، ولما حاصروا المدينة هدموا مسجد حمزة ومزاره، لوقوعهما خارج المدينة المنورة (٢) . يقول الدكتور علي الوردى أستاذ علم الاجتماع في جامعة بغداد:

١. الريحاني .

٢. الأمين، السيد محسن: كشف الارتباب ص ٥٥ . (٣٩٦)

كان البقيع مقبرة المدينة في عهد النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وما بعده، دفن فيه العباس والخليفة عثمان، وزوجات النبي والكثير من الصحابة والتابعين، كما دفن فيه أربعة من أئمة أهل البيت - عليهم السّلام - هم الحسن بن علي، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي وجعفر بن محمد، وقد صنع الشيعة لقبور هؤلاء الأربعة ضريحاً باهراً يشبه الأضرحة المعروفة في العراق وإيران، لكن على نطاق أصغر، واعتاد الشيعة أن يزوروا هذا الضريح فيقبلونه ويتبركون به ويصلّون عنده، على نحو ما يفعلون في أضرحة العراق وإيران (١) . ظلت هذه القبور سليمة أكثر من أربعة أشهر دون أن يمسّها أحد بسوء، ولكن أنّهم ابن سعود في تنفيذ مبدأ الوهابية لإبقائه عليها، فاضطر ابن سعود في شهر رمضان سنة ١٣٤٤ هـ إلى إرسال كبير علماء نجد عبدالله بن بليهد من مكة إلى المدينة للعمل على هدم القبور، وعندما وصل ابن بليهد إلى المدينة اجتمع بعلمائها ووجه إليهم الاستفتاء التالي: «ما قول علماء المدينة - زادهم الله فهماً وعلماً - في البناء على القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهى عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ وإذا كان البناء في مسبله كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليها، فهل هو غضب يجب دفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ وما يفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع الله، والتقرب بالذبح والنذر لها، وإيقاد السرج عليها، هل هو جائز أم لا؟ . وما يفعل عند حجرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - من التوجه إليها عند الدعاء وغيره، والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها، وكذلك ما يفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين الأذان والإقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة، هل هو مشروع أم لا؟ - أفتونا مأجورين ويّينا لنا الأدلة المستند إليها لا زلت ملجأ للمستفيدين» (٢) . ترى أن الأسئلة طرحت بشكل أدرج فيها الجواب، وألزم المفتين على

١. الوردى - علي: لمحات اجتماعية، ملحق الجزء السادس ص ٣٠٥ .

٢. الوردى - الدكتور علي: لمحات اجتماعية، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ . (٣٩٧)

الإجابة بما يرتأيه السائل، ولأجل ذلك جاء الجواب بالشكل التالي: «أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه مستندين في ذلك بحديث عليّ قال لأبي الهياج: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته؟» (رواه مسلم). وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها وإيقاد السرج عليها فممنوع، لحديث ابن عباس: «لعن الله زائرات القبور المتخذين عليها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن، وأما ما يفعله الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب إليها بالذبايح والنذور، ودعاء أهلها مع الله فهو حرام ممنوع شرعاً لا يجوز فعله أصلاً. وأمّا التوجه إلى حجرة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف عن معتبرات كتب المذهب، ولأنّ أفضل الجهات جهة القبلة، وأمّا الطواف والتمسح بها وتقبيلها فهو ممنوع مطلقاً، وأمّا ما يفعل من التذكير والترحيم والتسليم في الأوقات المذكورة فهو محدث، هذا ما وصل إليه علمنا (١). وعلى أثر صدور هذه الفتوى هدمت القبور، فأحدثت هذه الجريمة ضجّة مدوية في أقطار العالم الإسلامي، خصوصاً الشيعة منها، فقرّر علماء الشيعة على أثر تلقّيهم هذا الخبر إعلان الحزن العام وإظهار الحداد وترك التدريس، وعقد في صحن الكاظمية إجتماع حضرته جماهير كثيرة، وتليت فيه البرقيات والرسائل الواردة في هذا الشأن، كما نظمت البرقيات التي قرّر إرسالها إلى ملوك وعلماء العالم الإسلامي في أقطارهم المختلفة، وجرى مثل ذلك في كربلاء والنجف (٢).

١. الوردى - الدكتور علي: لمحات، ص ٣٩٦ - نقلا عن كشف الإرتياب، ص ٣٤٩ - ٣٦٠ ولقد عرفت في الفصول السابقة أنها فتاوى فارغة عن البرهانية، فلاحظ.

٢. نفس المصدر السابق، ص ٣٠٨. (٣٩٨)

وفي ذلك يقول الدكتور الوردى: وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب أعماله، فقد كتبت جريدة «العراق» في مقاله افتتاحية لها تقول: «قضى الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة، فقام بأكبر خدمة لسيدته ابن سعود، ولم يعلم بأن مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الإسلامي فألمه أيما ألم» كما نشرت مقالة أخرى بقلم إسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها «الطامة الكبرى والأماكن المقدسة في الحجاز» وورد فيها ما نصّه: «أيها المسلمون، ما هذا السبات وما هذا الجمود الذي أدّى بكم إلى السكون وإلى عدم الا-كتراث بهذه القضايا المؤلمة، والأدوار المخزية التي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة؟» (١). يقول الوردى: نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلاني نقيب أشرف بغداد، أعلن فيه السيد محمود انتقاده لما قام به الوهابيون من هدم قبور البقيع وذكر أن بناء القبر على القبور ليس مخالفاً للسنّة النبوية، لأنّ النبي نفسه دفن في حجرة عائشة وهي حجرة ذات جدران وسقف كقبة، وذكر أيضاً أنّ تقبيل الأضرحة هو من باب تقبيل المحبوب، وهو أمر غير ممنوع في الإسلام. ونشرت صحيفة «العراق» بعدئذ ثلاثة أبيات من الشعر، طالبة من الشعراء تشطيرها وتخمسها وهي: لعمرى إن فاجعة البقيع * يشيب لهولها فود الرضيع وسوف تكون فاتحة الرزايا * إذا لم نصّح من هذا الهجوع أما من مسلم لله يرعى * حقوق نبيه الهادى الشفيح (٢)

١. المصدر السابق. نقلا عن عددها الصادر في ٢٩ أيار، ١٩٢٦ م.

٢. الوردى - علي: لمحات، ص ٣٠٩ ولم يذكر الوردى قائل الشعر وناظمه، وهو للعلامة الفقيه الراحل آية الله السيد صدر الدين الصدر العاملى، المتوفى عام ١٣٧٣ هـ وهو والد الإمام السيد موسى الصدر المختطف. (٣٩٩)

حلّ شهر محرّم عام ١٣٤٤ هـ فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيات المواكب الحسينية تدور في معظمها حول فاجعة البقيع، وتطالب الانتقام من ابن سعود، إنّ يوم ٨ شوال أصبح يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلاء، حيث تغلق فيه الأسواق وتخرج مواكب اللطم (١). الصراع الداخلى بين عبدالعزيز وأتباعه

بعدما استتبّ الأمر لعبد العزيز بتأييد من بريطانيا، وطرده الملك حسين وولده الأمير على من الحجاز، فصار سلطان نجد سلطان الحجاز

اليوم، كما صار الأمير ملكاً للقطرين، ولكن أتباعه الذين يعبر عنهم في تاريخ المملكة بالإخوان أورثوا له مشكلة خاصة، وهي الإصرار على تطبيق مبادئ الوهابية، فرموه بموالاة الكفار الإنكليز والتساهل في الدين، وأنكروا عليه ألقاب السلطان والملك، وتطويل شاربه وثوبه، ولبس العقال، وإرساله ولده سعود لزيارة مصر للعلاج، لأنه بلد الكفار، وإرسال ابنه فيصل لزيارة البلاد الأوربية لأنها أكثر كفرة، ورأوا أن استخدام السيارات وأجهزة اللاسلكى والهاتف بدع لأنها من صنع الفرنج، وأنه يجب محاربة الدول المجاورة كالعراق والأردن واحتلالها ونشر الوهابية بين سكانها، وقد أحرقوا أول شاحنة ظهرت في مدينة (الحوال) وكاد سائقها يلقي المصير ذاته، إلى غير ذلك مما عليه بنى المذهب الوهابي (٢). قال أمين الريحاني: إن الإخوان فيما ظهر من بسالتهم اورثوا عبدالعزيز مشكلاً آخر، فقد طغى الإخوان وتجبّروا، فضج الناس، وراح الإخوان يحاربون من لم يتبعهم من البدو، ويكفّرون وينهبون ويقتلون ويقولون أنت يا بدوى مشرك، والمشرك حلال الدم والمال، وقد انتشرت من جراء ذلك الفوضى في البلاد، وكاد يقطع حبل الأمن والسلام (٣).

١. المصدر السابق .

٢. أبو عليه: الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز، ص ١٦٠ ووهبة حافظ، الجزيرة العربية في القرن العشرين، ص ٢٢٩ .

٣. الريحاني - أمين: تاريخ نجد الحديث، ص ٢٦٠ . (٤٠٠)

كان الإخوان كارهين للعلم والتقدم، فاعتبروا أى نوع من أنواع التكنولوجيا الحديثة شراً وكفراً، كالهاتف والتلغراف والسيارات والساعات والكهرباء، وقالوا إنها سحر من عمل الشيطان، فقاوموا استخدامها ونشرها وأخروا تقدّم البلاد (١). وفي مطلع عام ١٣٤٥ هـ اجتمع رؤساء الإخوان، ومن أبرزهم فيصل الدويش وابن حثلين وابن بجاد في الغطط، وأعدّوا قائمة ذكروا فيها ما يؤخذون به عبدالعزيز ومن جملته: ١- سفره ابنه سعود إلى مصر . ٢- سفره ابنه فيصل إلى لندن للتفاوض مع الإنجليز، وهو يعنى التعاون مع بلد الشرك . ٣- استخدام التلغراف والهاتف والسيارة في أرض إسلامية . ٤- فرض رسوم جمركية على مسلمى نجد، وكان هذا في الواقع احتجاجاً على تشديد استغلال السكان عن طريق الضرائب . ٥- منع قبائل الأردن والعراق حق الرعى في أراضي المسلمين . ٦- حظر المتاجرة مع الكويت لأنهم كفّار لم يأخذوا بمبادئ الوهابية . ٧- التسامح مع الخوارج (الشيعة) في الأحساء والقطيف، فيجب عليه أن يهديهم إلى الإسلام أو يقتلهم (٢). هذه بعض القرارات التي اتخذها مؤتمر الإخوان، وكان عبدالعزيز آنذاك في الحجاز، فأسرع بالسفر إلى نجد عن طريق المدينة محاولاً علاج غضب الإخوان بالحيل والدجل، ولما وصل إلى الرياض عقد فيها مؤتمراً بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هـ وحضر الدعوة جميع زعماء الإخوان، إلا سلطان بن بجاد، وهو القائد الذي استولى على الحجاز، وبرر عدم حضوره بقوله: «إنه

١. المانع محمد: توحيد المملكة العربية السعودية، ص ١٥ .

٢. ابن هذلول: تاريخ ملوك آل سعود، ص ١٨٠ . (٤٠١)

لم يثق بعبد العزيز وأقواله، وخاصة بعد أن اتخذنا قراراتنا بتجريمه وتكفيره وعزله» وفي هذا الاجتماع قال عبدالعزيز عن نفسه إنه خادم الشريعة، يحافظ عليها أتم المحافظة، وهو الذي يعهدونه من قبل ولم يتغير كما يتوهم الناس، ولا يزال ساهراً على مصالح العرب والمسلمين . وفي عام ١٣٤٦ هـ قررت الحكومة العراقية التفاوض لإقامة مخافر للشرطة مجهزة باللاسلكى والسيارات المصفحة بالقرب من الحدود النجدية، للإشراف على تنقلات البدو، ومنع الغزو، وفي أثناء إنشاء المخافر هاجم الإخوان مخفر البصية فقتلوا عدداً من العمال والشرطة الذين كانوا فيه، ثم عادوا من حيث أتوا، وتقدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشرين كان من بينهم امرأة واحدة. كان الإخوان يشنون غاراتهم على العشائر العراقية ويعيثون فيها نهباً وقتلاً، إلى أن اضطرت الطائرات الإنجليزية بإصرار من الحكومة العراقية إلى إلقاء منشورات على البادية تنذر الإخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة أربعمئة ميل، ولكن لم يهتم الإخوان بهذه المنشورات، فانتهت بقصف تجمعاتهم وقواهم (١). إن قصف الطائرات وضع ابن سعود بين نارين: نار الإنجليز ونار الإخوان، ووجد

ابن سعود أن الأفضل أن يتفاوض مع الإنجليز بدلاً من محاربتهم، فجرت مفاوضات في جدة مرتين، وكان يمثل الجانب البريطاني (سرجلبرت كلايتون) ورجع عبدالعزيز بعد ذلك إلى الرياض واجتمع مع الإخوان، فأخذ يهدىء روعهم، وطلب منهم أن يعرضوا شكاواهم عليه، فذكروا له منها علاقته بالكفار وصداقته مع الإنجليز، واستعمال مخترعاتهم الشيطانية كالسيارات وأجهزة الهاتف، وتساهله تجاه المخافر التي يبينها الكفار على الحدود، ومنع المسلمين من الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، وفي هذا المؤتمر حاول ابن سعود أن يقنعهم بأن جهاد الكفار يجب أن يكون في حدود الطاقة، وأن هذه الآلات ليست من السحر وعمل الشيطان .

١ . فيليبي عبدالله: تاريخ نجد، ص ٣٥٩ . (٢٠٢) ثورة الإخوان

إن النتيجة التي انتهت إليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها الرؤساء الثلاثة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين، فصاروا ينشرون الإشاعات السيئة ضد ابن سعود، وأنه بصدد هدم الدين وموالاة الكفار وطلب الملك، ويقطعون الطريق على القوافل، ويهاجمون عشائر العراق . كان عدد الثائرين نحواً من خمسة آلاف رجل فأعد عبدالعزيز جيشاً كبيراً لقتالهم يربو على خمسة عشر ألفاً، ووقعت المعركة بين الفريقين في صباح ٣٥ آذار سنة ١٩٢٩ الموافق سنته ١٣٤٩ هـ وانتهت بهزيمة الإخوان وانتصار عبدالعزيز . يقول الدكتور على الوردى: إن معظم بناء الدول يقتلون من ساعدتهم على بنائها، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركون الباني في ثمره بنائه، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة، فينشأ النزاع بينهم، وربما ينتهي إلى القضاء على أولئك المساعدين، وقد صدق من قال: السياسة لا أب لها. ويبدو أن هزيمة الإخوان كانت بسبب أن المشايخ والعلماء كانوا مع عبد العزيز، وهذا مما أدى إلى الوهن في عزيمة الإخوان، وقلل من فدائيتهم وحماسهم الديني(١). لَمَّا تَخَلَّصَ عَبْدُ الْعَزِيزِ مِنْ حَرَكَةِ الْإِخْوَانِ، أَنْشَأَ جَيْشًا تَحْتَ إشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني واستورد السيارات وأجهزة اللاسلكي، وأنشأ مدارس حديثة في بلاده، وهو وإن تخلص من شرّ الإخوان لكنه ابتلى بشر علماء الدين النجديين، فقد أوجد فتح المدارس الابتدائية في الحجاز ضجة بينهم، فاحتجوا على عبد العزيز بأنه يجري تعلم الرسم أولاً، واللغات الأجنبية ثانياً، والجغرافيا ثالثاً في تلك المدارس الحديثة .

١ . صادق حسن السوداني: العلاقات العراقية السعودية، ص ٣٠٨ والوردى، على، لمحات ص ٣٣٥ . (٢٠٣)

ظل المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة التي ترد إلى البلاد، فاستنكروا الحاكي والسينما والأشغال الكشافه والطائرات، فهم يعتقدون في الطائرات مثلاً أن ركابهم يتحدون ربهم بها(١) . وحين بدأ الأمريكيون ينقبون عن النفط في منطقة الظهران، قال المشايخ لابن سعود: لا يجوز دخول الكفار البلاد لأنهم يفسدون الرجال والنساء، ويدخلون الخمر والفوتوغراف وما شاكل ذلك من الأمور الشيطانية إلى داخل البلاد، ومن الطوائف التي تروى في هذا الصدد أن جماعة من البريطانيين زاروا ابن سعود في قصره في الرياض، وبينما هم في القصر حلّ وقت الصلاة، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف إمام لهم، فقرأ الإمام في الركعة الأولى قوله تعالى: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمَسَّكُمُ النَّارُ) وأعاد قراءة الآية في الركعة الثانية، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود من مكانه نحو الإمام وأشبعه وخزاً وركلاً، وهو يؤنبه قائلاً: «ما لك بالسياسة يا حبيث، وما الذي تقصده من ترديد هذه الآية في كل ركعة؟ أفلا توجد آيات غيرها»(٢) . فلم تُجدِ اعتراضات الإخوان ومعارضة المشايخ نفعاً . وهنا يقف القارىء على تطور الوهابية في سيرها التاريخي، فمبادئ الوهابية هي التي كان الإخوان يطلبونها، ففضى عليهم عبد العزيز بالسيف والنار، ثم ما يطلبه المشايخ من تحريم العلم الحديث والاختراعات الحديثة وإيقاف المجتمع على ما كان عليه من السذاجة والبساطة، وهؤلاء يستنكرون، وعبد العزيز كان يعمل بقوة وقدره، ويسقطب الرأي العالم لصالحه، فلم يجد المشايخ بداً من السكوت. وأين هذه المبادئ التي تسوق إلى الأمية من وهابية اليوم التي يدرس مشايخها في الجامعات الحديثة وينالون الدرجات العلمية الرائجة في الغرب، ويأكلون ويلبسون ويسافرون مثل الإفرنج، حتى أن مفتي المملكة تداع خطبه مباشرة عن طريق وسائل الإعلام السمعية والبصرية، وها هنّ البنات يدرسن في الجامعات في مختلف العلوم،

١. فيلبي، عبدالله: تاريخ نجد، ص ٣٥٦.

٢. المميز، أمين: المملكة العربية السعودية كما عرفتها، ص ١٢٦ - ١٢٩. (٢٠٤).

وهذه المقاهي ودور السينما والأفلام المبتدلة الخليعة، وأشرطة الأغاني والموسيقى: هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه لم يبق من مبادئ الوهابية إلا ما يمت إلى الأولياء وقبورهم ومراسم إحياء مواليدهم، لم يبق شيء منها، سوى ما يرجع إلى الحظ من مقامات الأولياء وتوقيرهم واحترامهم، فبناء القباب على مشاهد الصالحين محرم، والتوسل بهم محذور، لكن الربا جائز والحلف مع الكفار سائغ، وتسليطهم على بلاد المسلمين لدعم عرش السلطة أمر لا بد منه، والأغاني التي تشيع الخلاعة وتدفع الشباب إلى الميوعة والتسيب الخلقى مباحة ومشروعة، وهكذا دواليك. (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (١).

١. سورة البقرة: الآية ٧٩. (٢٠٥) أزمه ثالثة يواجهها عبدالعزيز

قد قضى عبدالعزيز على فتنه الإخوان، وكافح محالفة مشايخ الدين، ولكنه قد واجه عام ١٣٤٩ هـ وما بعدها أزمة خاصة، وهذه السنوات كانت منحوسة على أمير الحجاز، حيث إن الأزمة الاقتصادية قد خيمت بكابوسها على الحجاز ونجد، وقل مجيء الحجاج إلى الحجاز، فبعد ما كان عدد الحجاج في السنوات السابقة يقدر بمائة ألف انخفض إلى أربعين ألفاً في عام ١٣٥٠ هـ وإلى ثلاثين ألفاً في عام ١٣٥١ هـ وإلى عشرين ألفاً في العام المتأخر عنها، فساد البؤس والحرمان في أنحاء الحجاز، وأصبح الكثير من سكانه على حافة المجاعة، وأينما سار الحجاج يحيط بهم المتسولون من كل جانب للاستجداء، وإذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكه تهافت عليها الأطفال متكالبين من شدة الجوع (١). وهذا فيلبي يذكر في مذكراته: بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز، فأعرب عن قلقه في ذات يوم، وقال بأننا سنواجه كارثة اقتصادية تحل بالبلاد، ويضيف فيلبي: قلت له إن بلدك مليء بالكنوز الدفينة من نفط وذهب، وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك، ولا تسمح للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك، فقال عبد العزيز: لو وجدته من يدفع لي مليون جنيه فإنني سأمنحه كل ما يريده من امتيازات في بلاد (٢).

١. خيري حماد، عبدالله فيلبي، ص ٢٠٨ - بيروت، ١٩٦١ م.

٢. نفس المصدر. (٢٠٦)

لَمَّا وقف الغرب على وجود الكنوز في أراضي نجد، حصل التنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط بين شركتين: إحداهما أمريكية والأخرى بريطانية، وقد تمكنت الشركة الأمريكية من الحصول على الامتياز عام ١٣٥٣ هـ ووقعت الانفاقية في جدة، من قبل مستر هاملتون والشيخ عبدالله سليمان ممثل الحكومة السعودية. (١) وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي مكنت الأمريكيين من السيطرة على منابع الثروة في شبه الجزيرة العربية. وبعد فترة من الزمن، وبشكل تدريجي تمكن الأمريكيون من أعمال نفوذهم، والسيطرة على جميع مصادر الثروة بالحد الذي نشاهده اليوم، ولا نطيل الكلام في ذلك، ونحيل القراء الكرام إلى مطالعة الصحف اليومية التي تصدر من أجهزة الإعلام العالمي، والتي تحكي مراراً وتكراراً أخبار خيانة آل سعود لشعوب العالم الإسلامي، وسعيهم الحثيث لاستنزاف مصادر الثروة لصالح الأمريكيين. زوجاته وأولاده

يقول الوردى: كان عبدالعزيز مزواجاً إلى درجة يندر أن يكون له مثل في عصرنا، وكان مولعاً بزيادة نسله حتى بلغ مجموع أولاده المذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً، مات منهم عشرة وبقي منهم خمسة وثلاثين، وأما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً، وقد تولد آخر ولده في عام ١٣٦٨ هـ وكان في الواحدة والسبعين من عمره، وقد ناهز عدد أولاد وأحفاده بما فيهم من البنات عند وفاته الثلاثمائة. إن هذا العدد الكبير من الأمراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير في المملكة السعودية، فقد صاروا طبعة متميزة تعيش فوق القانون، وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد لا يحصى، ولا

١. الوردى - علي: لمحات، ص ٣٥١. (٢٠٧)

حاجة إلى القول بأن اجتماع هذين العاملين - التميز الطبقي وتوافر المال - لا بد أن يؤدي بطبيعته إلى الترف الباذخ والانهماك في

الشهوات بلا حدود (١). نهاية العهد

بدأت تظهر على عبدالعزيز منذ سنة ١٣٦٧ هـ أعراض الشيخوخة والانحلال، وزاد الألم في ركبته فلم يعد يقوى على المشى، ولجأ إلى الاستعانة بكرسى متحرك، وعاد لا يميز الأشياء على الرغم من ارتداء النظارات، إلى أن لفظ أنفاسه في ثاني شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ عن سبعة وسبعين عاماً، ونودي بسعود بن عبدالعزيز ملكاً، وبفصل ولياً للعهد، وبعدهما عُزل سعود عن العرش جرت البيعة لفیصل ملكاً، ولخالد ولياً للعهد، فلما قتل فیصل جرت البيعة لخالد بن عبدالعزيز ملكاً، ولفهد ولياً للعهد، وبعد موت خالد أقيمت مقاليد الملوكية بيد فهد، وصار عبدالله بن عبدالعزيز ولياً للعهد، وإليك لمحّة خاطفة عن حياة هؤلاء إكمالاً للبحث (٢). ١٥ - سعود بن عبدالعزيز (١٣٧٣ - ١٣٨٤ هـ)

ولد سعود بن عبدالعزيز عام ١٣٢٠ هـ وهو الابن الثاني لعبد العزيز، وولد فیصل عام ١٣٢٤ هـ من الزوجة الثانية لعبد العزيز، وهي من آل الشيخ، وقد جرى بين الأخوين غير الشقيقين تنافس مستمر لم ينقطع حتى بعد موت عبدالعزيز، بالرغم من اليمين الذي أقسمه، وقد أدلى سعود في أول اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسي الأول بوصفه أنه ملك، وأن من أهدافه تعزيز الجيش ومكافحة الفقر والجوع والمرض، وتحسين الخدمات الطبية، وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة والمواصلات (٣). ولكن كان لسعود وفیصل تاريخ من المنافسة حتى دعاهما أبوهما إلى غرفته نومه التي أمضى فيها آخر شهور حياته، وقال لهما: أمسكا بأيديكما وأقسما بأن

١. الوردی، علی: لمحات، ص ٣٢٢.

٢. جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ١٦٦.

٣. أمين سعيد: تاريخ المملكة السعودية، ج ٣ ص ١٦. (٤٠٨)

تعملاً معاً حينما أموت، وأن لا تتجادلا فيما بينكما بحيث لا يسمع العالم عدم توافقكما، ولكن ما مضى شيء من موت الوالد حتى بدأت الخلافات تظهر بسرعة، وتزايدت الانشاقات بأكثر مما كان يتصور (١). سقط الملك سعود عام ١٣٨١ هـ مريضاً بسبب قرحة في الأمعاء، وأشار الأطباء الأمريكيون عليه بالذهاب للعلاج إلى أمريكا، ولما عاد سعود إلى البلاد بعد بضعة أشهر استغرقت علاجه في الخارج، وبعد أن استحوذ فیصل على كل شيء من أجهزة الدولة، وكادت أن تقع مصادمات عنيفة بين الأخوين لولا أن تدخلت العائلة، حيث أثمرت تسوية بين الأخوين على أن يتقاسما الوزارة. وفي خريف عام ١٣٨٢ هـ قصد سعود أوروبا للعلاج، فأخذ فیصل يعمل بنشاط لإحكام سيطرته على السلطة، وعين أخاه غير الشقيق قائداً للحرس الوطني، وأخيراً حاكماً للرياض، فلما عاد سعود فوجيء بالتغيرات الأخيرة، فاضطر إلى الرضوخ لما أملاه عليه أخوه من الظهور بمظهر الملك، دون صلاحية للتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد. وانتهى بعد خلافات واسعة إلى خلع سعود بن عبدالعزيز عن الملك، وحلّ فیصل بن عبدالعزيز ملكاً مطلقاً على المملكة، وصدرت الفتوى (الشرعية) اللازمة من الشيخ محمد إبراهيم مفتي الديار السعودية في ١٦ من شهر جمادى الثانية عام ١٣٨٢ هـ، واضطر سعود إلى مغادرة البلاد والانتقال إلى مصر، فحل في القاهرة ضيفاً على عبد الناصر أيام كانت العلاقات بين مصر والجزيرة العربية متوترة، إلى أن مات فيها عام يراجع المصدر وقد كان ذا ثروة طائلة بذلها لاسترداد عرشه، ولكنه خسر في هذه المحاولة. يقول جبران شامية: ما من رجل استطاع أن يبذل هذه الأموال في مثل هذا الوقت القصير، وبمثل هذه النتائج الضئيلة كسعود (٢).

١. القحطاني - فهد: صراع الأجنحة في العائلة السعودية، ص ٨٠، ط لندن.

٢. جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ١٧٩ - ١٨٠. (٤٠٩) ١٦ - فیصل بن عبدالعزيز (١٣٨٤ - ١٣٩٥ هـ)

قد تسنم فیصل منصة العرش بعد خلع أخيه سعود من الحكم وهو يعلم أن الضمان الوحيد للإبقاء عليه على منصة الحكم هو إظهار الولاء للأمريكيين، فاتصل بسفير أمريكا ورؤساء شركة آرامكو مراراً ليقنعهم بأنه أجدي لهم وأبقى لمصالحهم من سعود، وفي عام

١٣٨٥ هـ سافر إلى أمريكا ومكث مدة مبدئياً للمسؤولين الأمريكيين تدمره من سعود، واجتمع بوزير خارجية أمريكا آنذاك (جون فوستر دالاس) وبالرئيس الأمريكي السابق (أيزنهاور) شاكياً لهما سوء تصرفات سعود(١). وقال فيصل: إنني أقول لكم بصراحة: إن هناك من الأمريكيين المسؤولين عندما يكتب لكم ضدى ويزعم أن سعوداً أكثر إخلاصاً لأمريكا منى لكنهم على خطأ، فإننى أصدق صديق لأمريكا(٢). ووجهت مجلة «المصور» لفیصل الأسئلة التالية التى أقحم فيها تعبيره عن حبه لأمريكا بطريقة غير مستقيمة: س - ما سبب رحلة سموكم إلى أمريكا؟ ج - السبب هو أننى أصدق صديق لأمريكا، لكن الأمريكيين مع الأسف الشديد لم يقدرُوا هذه الصداقة حتى الآن. ونشرت له مجلة المصور أيضاً بتاريخ (١٧/٨/١٩٥٨) تصريحاً قال فيه: يعتقد الأمريكيين أنى عدو لهم، مع أنهم لو أدركوا معنى نصحى لهم لعرفوا أنى أصدق صديق لهم. وعقد «جون فوستر دالاس» وزير خارجية أمريكا مؤتمراً صحيفياً أعلن فيه بكل صراحة عندما سئل عن رأيه بتولى فيصل لمناصبه، قائلاً: إننى مطمئن كل الإطمئنان بكل ما حدث فى السعودية، نحن قد تفاهمنا مع الأمير فيصل فى ذلك عندما كان فى أمريكا(٣).

١. السعيد، ناصر: تاريخ ال سعود، ص ٦٦١ - ٦٦٢.

٢. مجلة المصور المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ١٣/٧/١٩٥٨ م.

٣. ناصر السعيد: تاريخ آل سعود نقلاً عن مجلة المصور المصرية. (٤١٠)

قد وجه وفد مبعوث عن التلفزيون البريطانى سؤالاً - عن إمكان قيام نظام ديمقراطى فى السعودية، فأجاب فيصل: فى اعتقادنا أن فى المملكة فى وقتها الحاضر أحسن وأجود نظام ديمقراطى، ونحن فى بلادنا لا نشعر بأن هناك أى فوارق أو مميزات لفئة أو لأشخاص دون أشخاص، وإن الجميع متساوون فى الحق أمام الحكم العادل، ولذلك نعتقد أننا نمثل أعلى ديموقراطية(١). وفى الوقت الذى يجب فيه عن الأسئلة بهذه الصورة بكل صلف وشراسة، نجد أن المملكة الواسعة صارت ملكاً لقليلة واحدة تملك كل شىء، وليس هناك مجلس للنواب ولا مجلس للشيوخ، ومع ذلك فهم يمثلون أجود نظام ديموقراطى، وأقصى ما عندهم مجلس الوزراء، وهم الطبقة الأولى من هذه العائلة يمثلون الوزارة! كان فيصل يملك ويحكم إلى أن قتل بيد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبدالعزيز، حيث دخل مكتبه مع الوفد النفطى الكويتى الذى قدم للقاء فيصل، وحين وصل دوره للسلام على الملك وانحنى لتقيل كفه، أخرج من معطفه مسدساً أطلق منه ثلاث رصاصات ووجهت لرأس الملك وصدره، وبذلك طويت صحيفه عمره، وقد كثرت التعاليق السياسية على هذا القتل حتى رمى القاتل بالجنون مع أنه أجرى عليه القصاص! ١٧ - خالد بن عبدالعزيز (١٣٩٥ - ١٤٠٢ هـ)

اجتمعت العائلة السعودية وأفراد الأسرة المالكة وبايعوا خالد أخاه بالملك، وفهد كولى لعهد، وقد جاءت المبايعه بسرعة لاستباق الأحداث، ولكن منذ اليوم الأول لإعلان البيعه لخالد كانت الأنظار متوجهة إلى فهد كملك غير متوج، وكان خالد يملك ولا يحكم، وهو يحكم ولا يملك، إن الأمريكيين كانوا يرغبون فى وصول فهد إلى الملك، ففهد هو الذى يلقى بيانات الملك خالد وكلماته وخطبه، وهو الذى تفرد بالزيارات الرسمية، فزار الكويت والعراق، ثم إيران وفرنسا ولندن وسوريا والأردن ومصر.

١. ناصر الشمرانى: فيصل القاتل والقتيل، نقلاً عن كتاب فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله وأعماله، صلاح الدين المجدد، ص ٢٠٤ (٤١١) زلزال جهيمان فى مكة

وفى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى فى شهر محرم، سيطرت مجموعات من الأشخاص الذين ينتمون إلى حركة «الإخوان» على الحرم المكى الشريف، يرافقه فى ذلك نساؤهم وأطفالهم، وحاول النظام السعودى إخفاء ما حدث، وقام بعدة إجراءات ابتدأت بالصمت وانتهت بغلق المطارات وقطع الاتصالات الهاتفية بالخارج، ولكن لما تسرب الخبر إلى الخارج، اضطر آل سعود إلى إعلان النبأ مشوهاً، ومنعوا الصحفيين من الدخول إلى البلاد، وقال فاسيليف: «أعلنت منظمة حركة الثوار المسلمين فى شبه الجزيرة العربية، التى لم تكن معروفة آنذاك، أنها تتولى قيادة الأنتفاضة، وأعلن الزعيم الروحى للثوار وهو محمد القحطانى الذى قال عن نفسه إنه

المهدى المنتظر، أن هدف الحركة يتمثل في تحرير البلد من زمرة الكفار (العائلة المالكة ورجال الدين المرتزقة الذين لا هم لهم سوى التمسك بمناصبهم وامتيازاتهم). أما الزعيم السياسى للحركة فهو الجهيمان العتيبي البالغ من العمر ٤٧ عاماً، فقد ندّد في خطبه بأن الحكومة تدعى من جهة أنها مركز الدين الحنيف في العالم، ولكنها من الجهة الأخرى تناصر الظلم والفساد والرشوة، وندد جهيمان بالأمرء الذين يستولون على الأراضى ويبدرون أموال الدولة، وعتهم بـ «السكيرين» الذين يعيشون حياة الفسق والفجور في البيوت والقصور الفخمة. ولم يكن في وسع العائلة المالكة القبول بشروط المنتفضين للتفاوض إذ أنها تضمنت مطالب بإجراء تعديلات في الوزارة، منها إقصاء كبار الأمرء عن مناصبهم، وإعادة النظر جذرياً في سياسة استخراج وتسويق النفط، وطلب المنتفضون بوقف بيع النفط إلى الغرب عموماً، والعودة إلى أحكام الإسلام الخالص، وطرد جميع المستشارين العسكريين الأجانب من البلد. وأضاف فاسيليف: عاد ولى العهد فهد من تونس، وأصر على قمع الأنتفاضة بالقوة، وقد استخدمت قوات الحكومة القنابل المسيلة للدروع (٤١٢)

والمدافع والطائرات لإرغام المنتفضين على الأنسحاب من المسجد الحرام، وردّ المنتفضون بإطلاق النار من السطوح والمنائر، واستمرت المقاومة الضارية التي أبداها زهاء ألف شخص أسبوعين، وأدت كما تقول السلطات، إلى مصرع عشرات الأشخاص، بينما يقول شهود العيان إن القتلى كانوا يعدون بالمئات، وكان بين القتلى «المهدى» ذاته، أما الزعيم السياسى للحركة (جهيمان العتيبي) فقد أعدم مع ٦٢ شخصاً من رفاقه، في ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ م، وكان بين من أعدموا علاوة على السعوديين مصريون ويمينيون وكويتيون وعرب آخرون... (١). فتوى وعاظ السلاطين ضد المستأمنين بحرم الله

اجتمع الملك خالد مع عدد من العلماء المتواجدين في الرياض بعد وقوع الحادث، وأطلعهم على ما جرى، فقدم لهم معلومات مصطنعة عن تعداد الرهائن وقتل المصلين والحجاج وغير ذلك، فاستفتاهم في كيفية حل الأزمة، فوافاه الجواب بالنحو التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم»: أما بعد، ففي يوم الثلاثاء اليوم الأول من شهر محرم عام أربعمائه وألف من الهجرة، دعانا نحن الموقعين أدناه جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود وأخبرنا أن جماعة في فجر هذا اليوم بعد صلاة الفجر مباشرة دخلوا في المسجد الحرام مسلحين، وأغلقوا أبواب الحرم وجعلوا عليها حراساً مسلحين، وأعلنوا طلب البيعة لمن سموه المهدي، ومنعوا الناس من الخروج من الحرم، وقتلوا من مانعهم، وأطلقوا النار على أناس داخل المسجد وخارجه، وقتلوا بعض رجال الدولة وأصابوا غيرهم، وإنهم لا يزالون يطلقون النار على الناس والمسجد، واستفتانا في شأنهم وما يعمل معهم فأفتيناه أن الواجب دعوتهم إلى الإستسلام ووضع السلاح، فإن فعلوا قبل منهم وسجنوا حتى ينظر في أمرهم شرعاً، وإن امتنعوا وجب اتخاذ كافة الوسائل للقبض عليهم ولو أدى إلى قتالهم وقتل من لم يحصل القبض عليه

١. فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ٥١٦-٥١٧. (٤١٣)

منهم، ولا يستسلم إلا بذلك، لقوله تعالى: (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ).

ولقول النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «من أتاكم جمع يريد يفرق جماعتكم ويشق عصاكم فاضربوا عنقه...». هذه الفتوى أصدرت على أساس المعلومات قدمها الخصم، وكان من واجبهم أن يتقربوا من الحرم حتى يطلعوا على الأمر، وكيف يحق للقاضي أن يصدر حكمه على أساس معلومات يقدمها أحد المتخاصمين، وبالتالي قتل من قتل وأخذ من أخذ، ثم قطعت رؤوس عدة من المقبوض عليهم وسجن النساء. وهناك سؤال يتبادر إلى الذهن وهو: لماذا التجأ هؤلاء إلى بيت الله الحرام؟ ولعله لما جاء في الروايات بأن المهدي حين يظهر في الحرم يأتي لقتاله جيش عرمرم يخسف الله به الأرض، وهذه الفكرة هي التي دفعت بالجماعة إلى الحرم. وهناك خطأ غير مغفور، وهو أن ما ورد فإنما هو في المهدي المنتظر، لا في من أسمى نفسه مهدياً. وبذلك انتهت هذه الحركة التي كانت استمراراً لحركة الإخوان، وكان الملك وأبناء العائلة فرحين مسرورين بذلك، ولم يبرح خالد يملك ولا يحكم

إلى أن وافته المنية وأخترته الأجل المحتوم عام ١٤٠٢ هـ وأصدر الديوان المكي بياناً آخر جاء فيه: «لقد قام أفراد الأسرة وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن عبدالعزيز بمبايعة ولي العهد الأمير فهد بن عبدالعزيز ملكاً على البلاد، وبعد إتمام البيعة أعلن صاحب الجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز ترشيح صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولياً للعهد. وقد أجمع أفراد الأسرة على ذلك وقاموا بمبايعة سموه... وقد تقرر أن (٤١٤)

يقوم المواطنون، بالبيعة لجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز ولسمو ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز في قصر الحكم بالرياض صباح غد». جدير ذكره أن موت الملك لم يحدث فراغاً سياسياً، لما عرفت أنه كان يملك ولا يحكم. الملك فهد واستقدمه قوى الكفر (١)

ويكفي في مساويء «فهد» المتسلط على مقدرات الحرمين الشريفين، وعدم أهليته لهذا المنصب الخطير وهذه المسؤولية المقدسة، استقدمه لقوى الفكر والشرك إلى أرض مكة والمدينة، المحرمة على المشركين، واستعانت بهم بحجة الدفاع عن الحجاز، ولكن في الحقيقة للدفاع عن مطامع الأمريكان والصهاينة الطويلة في ثروات المسلمين، من دون التفات إلى حكم المذاهب الإسلامية بحرمه دخول الكفار والمشركين مكة والمدينة وما حولهما، بل وحكم القرآن قبل ذلك بحرمه الركون إلى الكفار وتوليهم. فقد قال القرآن: (وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) (٢). وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) (٣) وقال: (وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (٤). وقال تعالى: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٥). وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ) (٦).

١. كان تقديم الملازم الأخيرة من هذا الجزء، مقارناً لهذه الحادثة المؤلمة فأثبتناها في هذا المقام لتبقى في ذاكرة التاريخ غير الناسي، وإن كان الإنسان ذهولا .
٢. سورة هود: الآية ١١٣ .
٣. سورة الممتحنة: الآية ١٣ .
٤. سورة هود: الآية ٥٢ .
٥. سورة الممتحنة: الآية ٩ .
٦. سورة المائدة: الآية ٥١ . (٤١٥)

وقال سبحانه: (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (١). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ) (٢). وقال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) (٣). وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (٤). وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في حديث متواتر: «أخرجوا اليهود من جزيرة العرب. لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» وأمر بمضايقتهم في الطرقات حتى يضطروا إلى أضيقتها (٥). وأما الفقهاء، فقال الإمام النووي في كتاب المنهاج: «ويمنع كل كافر من استيطان الحجاز، وهو مكة والمدينة واليمامة وقراها...» راجع كتاب الجزية منه . فكيف يجوز لفهد، وهو يدعى خدمه الحرمين الشريفين أن يقوم بمثل هذه الخيانة العظمى للحرمين وأهلها، وليستقدم جيوش الغزو الغربي الصليبي الصهيوني إلى بلاد الوحي والرسالة، ويتكفل مؤوتتهم، ويحمل المسلمين مليارات لاستضافتهم، كما صرح المسؤولون السعوديون الوهابيون أنفسهم بذلك، وصرح به قادة الغزو الغربي، كل ذلك بحجة الدفاع.. الدفاع عن ماذا؟ عن الحكم الوهابي الرجعي الأسود، وليس عن الشعب الحجازي المضطهد المظلوم، وليس عن

الحرمين الشريفين، اللذين يفديهما المسلمون متى

٢ . سورة المائدة: الآية ٥٧ .

٣ . سورة التوبة: الآية ٢٨ .

٤ . سورة الأنفال: الآية ٧٣ .

٥ . راجع صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى ومسنند أحمد والموطأ والدارمى . (٤١٦)

لزم الأمر بأرواحهم، وأنفسهم، وبأعز مالديهم من الأهل والولد . كل هذا بغض النظر عما يجلبه هؤلاء الكفار من فسق وفجور، بل وأمراض وعاهات خلقية إلى شعب هذه البلاد المقدسة. هذه صورة إجمالية عن حياة العائلة السعودية بسلاطينها وأمرائها وملوكها، وقد وضعناها أمام القارىء ليقف على حقيقة المذهب، وعلى نزعات حماته وجنایاتهم طيلة استيلائهم على الحكم والعرش، وأما تفصيل حياة الملك الأخير الذى يحكم على البلاد حالياً فنتركه إلى جهد القراء لكى يقفوا على حياته وأعماله وتحالفه مع الكفار عن كتب، والله يعلم إلى متى يبقى هذا ويبقى عرشه . إن إدارة الحرمين الشريفين رهن كفاءات ومؤهلات للقائمين بها، وقد قال سبحانه: (وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (١) وهل للعائلة السعودية، التقوى اللازمة لإدارة الحرمين الشريفين؟ وهل هم متقون حتى يتسمنوا هذه المنصة؟ لا أدري، ولكن القراء يدرون . (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) .

تم الجزء الرابع من هذه الموسوعة، يليه الجزء الخامس فى تبيين عقيدة الخوارج، ومبدأ تكونهم، و حياة مشايخهم بإذنه ومنه سبحانه . والحمد لله رب العالمين جعفر السبحانى ٨ جمادى الآخرة ١٤١١ هـ _____

١ . سورة الانفال: الآية ٣٤ .

الجزء الخامس (يتناول تاريخ الخوارج)

إشارة

الملل والنحل الجزء الخامس (يتناول تاريخ الخوارج، نشأتهم، عقائدهم، فرقهم وشخصياتهم)

المقدمة

المقدمة بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطاهرين، وصحبه المنتجبين . أما بعد: فهذا هو الجزء الخامس من موسوعتنا فى الملل و النحل، والمقارنة بين المذاهب الاسلامية، نقدمه إلى القراء الكرام، راجين منهم التنبية والارشاد إلى مواضع الزلّة والخطأ، فإنّ المؤمن مرآة المؤمن، وأحبّ الاخوان من أهدى إلى أخيه عيوبه (١) . ويتناول هذا الجزء دراسة إحدى الفرق الإسلامية القديمة أعنى فرقة الخوارج من خلال المواضيع التالية: الف - نشأتهم. ب - تاريخهم السياسى الذى يتضمّن المواجهات التى خاضوها مع _____

١. اقتباس عن الكلمة المروية عن الامام الصادق - عليه السلام - حيث قال: أحبّ اخوانى إلى من أهدى إلى عيوبى (لاحظ: تحف العقول ٣٦٦) . (٦)

مخالفهم أولاً، ومحاولاتهم للاستيلاء على البلاد الإسلامية ثانياً، وزوالهم والقضاء عليهم ثالثاً . ج - طوائفهم وفرقهم . د - عقائدهم و أفكارهم . هـ - شخصياتهم البارزة والآثار الأدبية التى خلفوها . والخوارج - كما قلنا - من أقدم الفرق الإسلامية بل أول فرقة ظهرت فى المجتمع الإسلامى، وهو أول اختلاف حدث بين المسلمين، بعد اختلاف الأمة فى مسألة الإمامة، وقد تكوّنت فى العقد الرابع من القرن الأول بعدما نشبت الحرب بين الإمام على - عليه السلام - ومعاوية بن أبى سفيان، وقد تحدّث عنهم و عن نشأتهم وتاريخهم

طائفتان: ١ - أصحاب التواريخ: فقد ذكروا عنهم شيئاً كثيراً حسب التسلسل الزمني كالطبري في تاريخه، والمبرد في كامله، واليعقوبي في تاريخه، والمسعودي في موجه، والجزري في كامله، وابن كثير في كتابه، ولكن اكتفوا بنقل الحوادث من دون تحليل عللها ونتائجها وغاياتها ومن دون استنتاج شيء يُعدّ درساً أو عبرة، ومن دون قضاء بشيء في حقهم، كأنهم قصاصون ليس لهم شأن سوى سرد القصّة. وبما أنهم ذكروا حوادث تلك الفرقة في فصول مختلفة - كما هو مقتضى سرد الحوادث حسب السنين والقرون - لا يمكن للإنسان أن يقف على تاريخ تلك الفرقة دفعه واحدة في موضع واحد، بل عليه السبر وتتبع الحوادث وضّم حلقة إلى حلقات أخرى، حتى يكون على اطلاع على تاريخهم عن كتب . ٢ - مؤرّخو العقائد: أعنى أصحاب علم الملل والنحل فقد اهتموا بذكر فرقهم، وبيان لفيق من عقائدهم، من دون تركيز على كفيّة نشأتهم، والحروب (٧)

التي مارسوها طيلة سنين، قرناً بعد قرن . نعم هناك جماعة من المتأخرين أفردوا تاريخهم بالتأليف، وهم بين كاتب مسلم، ومؤلف مستشرق، ولكل غاية المتوخّاه، وإليك الإشارة إلى بعض ما أُلّف في ذلك المضمار: ١ - ملخص تاريخ الخوارج: تأليف محمّد شريف سليم، المطبوع في القاهرة عام ١٣٤٩ هـ - ق . ٢ - الخوارج في الاسلام: تأليف عمر أبي النصر، المطبوع في بيروت عام ١٣٦٩ هـ - ق الموافق لعام ١٩٤٩ م . ٣ - أدب الخوارج: تأليف الكاتبة سهير القلماوي، والكتاب رسالتها الأولى لنيل درجة الماجستير وقد نشرتها عام ١٣٦٥ هـ - ق وتناولت الرسالة البحث عن شعراء الخوارج وقد ذكرت منهم عمران بن حطان و قطري بن الفجاءة، والظرماع بن حكيم وهو غير ظرماع بن عدى الذي كان موالياً لعلی - عليه السلام - . ٤ - وقعة النهروان: تأليف الخطيب الهاشمي الحائري، المطبوع في طهران عام ١٣٧٢ هـ - ق . ٥ - الخوارج في العصر الأموي: تأليف الدكتور نايف معروف، وقد طبع في بيروت مرّتين أخيرتها في عام ١٤٠١ هـ . ٦ - الخوارج و الشيعة: تأليف يوليوس فلهوزن، وقد نقله إلى العربية عبدالرحمن بدوي، طبع في الكويت للمرّة الثالثة عام ١٩٧٨ م . ومن جنيات المؤلف على تاريخ الشيعة في الكتاب قوله: «إنّ الشيعة و الخوارج تكوّنا في وقت واحد» (١) والمسكين جاهل بتاريخ الشيعة - فإنّها تكوّنت في العصر الذي تكوّن فيه الاسلام، و الشيعة عبارة عن لفيق من المسلمين الأول من المهاجرين

١. يوليوس فلهوزن: الخوارج و الشيعة ١١٢، ترجمة عبدالرحمن بدوي، من الألمانية الى العربية. (٨)

والأنصار، الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلم - فاتبعوا سنّته ولم يعدلوا عنها قيد شعرة، فأخذوا في مسألة الخلافة بالنص، وتركوا الاجتهاد في مقابله . وأما الخوارج فقد نشأت في أعقاب حرب «صقّين» كما سيوافيك بيانه، فعدهما عدلين وفي صفّ واحد جهل بتاريخ الشيعة وتاريخ الاسلام، أو تجاهل، وليس ذلك ببعيد عن المستشرقين المجتمعين على موائد الاستعمار . هذا بعض ما أُلّف حول تاريخ الخوارج والكل كما ترى أُلّف بيد خصمائهم ولا يمكن الاحتجاج بهذه الكتب عليهم إلا إذا تضافر النقل وحصل الاطمئنان بصدقها، ولأجل رفع تلك النقيصة والتزاماً منا بالموضوعية التي يجب أن يتّصف بها الباحث، بذلنا الجهد للحصول على آثار تلك الفرقة في التاريخ والعقائد والفقه والتفسير وتقف على أسمائها في «قائمة المصادر» للكتاب. فإنّ الخوارج انقرضت بعاميّة فرقها ولم يبق منهم ما يعاب به إلا فرقة الاباضية وهي الفرقة المعتدلة منهم، وهي المذهب الرسمي في عمّان، وقد قامت وزارة التراث القومي والثقافة لسلطنة عمان، بنشر آثار الاباضية في مجالات مختلفة، فلا بد للباحث من الرجوع إليها. نسأل الله سبحانه أن يوفّقنا في تبين نشأة تلك الفرقة وتاريخها وعقائدها لما هو الحق والصدق، مجانين عن كل فكرة ونظريّة مسبقه في حقهم . قم - مؤسسه الامام الصادق - عليه السلام - جعفرالسبحاني ٢٠١٢/١٤١١ هـ - (٩)

الفصل الأوّل بداية الاختلاف بعد رحلة الرسول -

الفصل الأوّل بداية الاختلاف بعد رحلة الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلم - (١٠) (١١) ارتحل النبي الأكرم - صلّى الله عليه وآله وسلم - مليّاً دعوة ربّه في العام الحادي عشر من هجرته، بعد ما بذل كل جهده لتوحيد الأمّة ورضّ صفوفها، منادياً فيهم بقول سبحانه:

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّهُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (١) وهو - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كما دعا إلى كلمة التوحيد دعا إلى توحيد الكلمة بأمر منه سبحانه في الذكر الحكيم حيث قال: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (٢) وقال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...) (٣) إلى غير ذلك من الآيات، وقد كان - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يُحذِّر المجتمع الإسلامي من التفرق و التشرذم، وقد وصف التحزب والتعصب لقوم دون قوم «دعوى منتنة» (٤). وقد خاطب معشر الأنصار بقوله: «الله الله أبدعوى الجاهلية و أنا بين

١. الأنبياء: ٩٢ .

٢. آل عمران: ١٠٣ .

٣. الحجرات: ١٠ .

٤. ابن هشام: السيرة النبوية ٣/٣٠٣ . (١٢)

أظهركم بعد أن هداكم الله بالاسلام، وأكرمكم به، وقطع به أمر الجاهلية و استنقذكم من الكفر، وألف به بين قلوبكم» (١) . ومع كل هذه الأوامر العديدة و التحذيرات الشديدة نرى - ياللاسف أن المسلمين اختلفوا بعد وفاته - وجثمانه بعد لم يُوار - إلى فرقتين يجمعهما الاتفاق في سائر الأصول و يفرقهما الخلاف في مسألة الخلافة والولاية وهاتان الفرقتان هما: ١ - فرقة تبنّت مبدأ التنصيب على الشخص المعين و قالت إن الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نصّ على خلافة علي و ولايته في مواضع عديدة و مناسبات كثيرة، أعظمها و أشهرها يوم الغدير في منصرفه عن حجة الوداع في العام العاشر، فقال في محتشد عظيم: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» وقد بلغ الحديث في كل عصر حدّ التواتر بل تجاوز حدّه، و من المتبئين لهذه الفكرة، أكابر بني هاشم و شخصياتهم البارزة كعباس بن عبدالمطلب و عقيل بن أبي طالب و غيرهما و لفي من الأصحاب، كسلمان الفارسي، و أبي ذر الغفاري، و المقداد بن الأسود الكندي، و أبي التيهان، و أبي أيوب الأنصاري و غيرهم من المهاجرين و الأنصار، الذين شايعوا علياً، و نضدوا ما أوصى به النبي الأكرم في حق وصيه، وهؤلاء هم نواة الشيعة وهم جزء من المسلمين الأول، فقد بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول . ٢ - فرقة تبنّت فكرة الشورى، و إن لها اختيار القائد، و انتهت تلك الفكرة بعد مشاجرات و مشاغبات بين متبئها إلى خلافة أبي بكر بن أبي قحافة، و تمت البيعة له في سقيفة بني ساعدة، ببيعة عدّه من المهاجرين، كعمر بن الخطاب

١. ابن هشام: السيرة النبوية ٢ / ٢٥٠ . (١٣)

و أبي عبيدة الجراح، وبيعة الأوسيين من الأنصار، وهؤلاء قد نسوا أو تناسوا النصّ النبوي يوم الغدير فقدّموا الاجتهاد على النص، و رجّحوا المصلحة المزعومة على التعيين الإلهي، والعجب أن أصحاب هذه الفكرة من بين المهاجرين و الأنصار كانوا يستدلون على مبدئهم في سقيفة بني ساعدة بأدلة و مقاييس كانت سائدة في الجاهلية، و التي لاصلة لها بالكتاب و السنة: مثلاً: إن الأنصار رأوا أنّهم أولى من غيرهم بالخلافة، لأنهم آووا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - و نصره في حروبه في زمان أخرجه قومه فيه من موطنه و خذلوه، و قال خطيبهم الحباب بن المنذر بقوله: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم فأنتم أحقّ بهذا الأمر منهم، فأنه بأسيا فكم دان الناس بهذا الدين. هذا منطلق الأنصار، و هلم معي نستمتع منطلق المهاجرين فقال أبو بكر ناطقاً عنهم: إن المهاجرين أقرباء النبي و عترته، و دعمه عمر فقال رداً لمنطق الأنصار: والله لا ترضى العرب أن تؤمركم و نبئها من غيركم و لا تمنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة منهم، من ينازعنا سلطان محمد و نحن أولياؤه و عشيرته؟ ترى أنه ليس في منطق كل من المرشّحين أيّ استناد إلى الكتاب و السنة فهذه تستدل بايوائهم رسول الله و نصرته إياه، و تلك تستند إلى قرابته منه، مع أنه كان من اللازم عليهم الفحص عن قائد لائق عارف بالكتاب و السنة، مدير و مدبّر يملك كافّة المؤهلات اللازمة في القيادة سواء أكان من المهاجرين أم من الأنصار أو من طائفة أخرى كل ذلك يعرب عن أن الفكرة كانت غير ناضجة أولاً، و إن الانتخاب و الاختيار لم يكن صادراً عن مبدأ الإسلامي ثانياً . (١٤) هذا و

ان طائفة من الأنصار أعنى الأوس بايعوا أبابكر بحجة أنهم إن لم يبايعوه ليكون للخزرج عليهم فضيلة (١). وهكذا ظهرت فرقتان بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - والمبدأ الذي اختلفتا فيه هو: مسألة الخلافة و قيادة الأمة، وكان المترقب بعد هذا الشقاق والاختلاف، طرؤ حروب دامية بين الطرفين، ولولا القيادة الحكيمة للإمام على - عليه السلام - ومساهمته مع الخلفاء في مهام الأمور، والتنازل عن حقه لمانجر الأمر في حياة الخلفاء إلى الهلاك و الدمار، خصوصاً ان المنافقين كانوا يترصون دون تلك الفرصة ويؤلبون احدى الطائفتين على الأخرى ليصطادوا في الماء العكر، وفي التاريخ شواهد تؤيد ذلك وان القيادة الحكيمة لصاحب النص أعنى الامام علياً أفشلت تلك الخطط الشيطانية نكتفى منها بما يلي: روى الطبرى: لما اجتمع الناس على بيعه أبى بكر أقبل أبوسفيان وهو يقول: «والله إنى لأرى عجاجة لا يدفها إلا دم، يا آل عبد مناف فيما أبوبكر من أموركم؟ أين المستضعفان أين الأذلان على والعباس؟ وقال: «أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك» فأبى على - عليه السلام - فجعل أبوسفيان يتمثل بشعر المثلث: ولن يقيم على خسف يراد به * إلا الأذلان غير العير و الوتد هذا على الخسف معكوس برمته * وذا يشج فلايبكى له أحدى (٢) قال: فرجره على - عليه السلام - وقال: «إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا فى نصيحتك». كان الامام معتقداً بشرعية امارته وخلافته، ويرى نفسه خليفة

١. الطبرى: التاريخ ٢/ ٤٤٦. ابن قتيبة: الامامة و السياسة ١/ ٩.

٢. الطبرى: التاريخ ٢/ ٤٤٩. ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٢٠. (١٥)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد سبقت البيعة له فى يوم الغدير وغيره، وكان يحتج به وبغيره من النصوص على استحقاقه لها و يعترف نفسه و أهل بيته بقوله: «ولهم خصائص حق الولاية وفيهم الوصية والوراثه» (١). ومع ذلك رأى أن فى مواجهه هذا الانحراف فى تلك الظروف العصبية مفسدة أعظم من فوت الولاية فتنازل عن الأمر فسدل دونه ثوباً، وطوى عنه كشحاً، وهو يصف الحال فى بعض خطبه ويقول: «ولا - يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده - صلى الله عليه وآله وسلم - عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عنى من بعده، فما راعنى إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعه الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون إلى محق دين محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم التى إنما هى متاع أيام قلائل، يزول منهما ما كان كما يزول السراب أو كما ينقش السحاب، فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمئن الدين و تنهنه» (٢). قام أبوبكر بأعباء الخلافة، وحارب أصحاب الردة، إلى أن مضى لسبيله، فأقام مكانه عمر بن الخطاب وهو أيضاً سار بسيرة من قبله، وكان المسلمون يجتازون البلاد، و يفتحون القلاع، و يسيطرون على العالم بفضل الدين والايمان، حتى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة من قريش وزعم أن رسول الله مات وهو عنهم راض وهؤلاء هم: على، و عثمان، و طلحة، و الزبير، و سعد بن أبى وقاص، و عبدالرحمن بن عوف، وقال: رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم، ثم نظر إلى كل واحد من هذه الستة إلى أن نظر إلى

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٢. الرضى: نهج البلاغة الكتاب ٦٢. (١٦)

عثمان وقال: كأتى بك قد قلبت قريش هذا الأمر لحبها إياك فحملت بنى أمية و بنى أبى معيط على رقاب الناس، آثرتهم بالفىء فثارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن ثم أخذ بناصيته فقال: فاذا كان ذلك فاذا ذكر قولى فإنه كائن (١). فلما دفن عمر، اجتمع أصحاب الشورى فى بيت فتكلموا فتنازعوا، غير أن تركيب الأعضاء منذ عينها الخليفة كان يعرب عن حرمان على و نجاح غيره و لأجل ذلك تم الأمر لصالح عثمان، فقام بالأفعال التى تتبأ بها عمر بن الخطاب، وأحدث أمراً نغم بها عليه، وأوجدت ضجة بين المسلمين ومن أبرز معالمها انحرافه عن الحق وإليك صورة من أعماله التى ثارت لأجلها ثورة الأنصار والمهاجرين: ١ - تعطيل الحدود الالهية: شرب الوليد بن عقبه الخمر فسكر فصلى بالناس الغداة ركعتين أو

أربع ركعات، فانتزع خاتمه من يده وهو لا يشعر من سكر، وقد قدم رجل المدينة وأخبر عثمان ما شهده من الوليد فضربه عثمان، فكثرت الشكوى على عامله بالكوفة ولم ير بدأً من عزله ولم يجر الحد على الوليد، فقال الناس: عطلت الحدود وضربت الشهود (٢). ٢. عطياته الهائلة لبنى أمية من بيت المال: بين ليلة وضحاها صارت جماعة من بنى أمية بفضل خلافة عثمان، _____

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١/١٨٦ .

٢. السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٠٤. أبو الفرج الاصبهاني: الاغانى ١٨٨ / ٤ . (١٧)

أصحاب الضياع العامرة والثروات الطائلة منهم: مروان بن الحكم، وعبدالله بن أبي سرح، ويعلى بن أمية، والحكم بن العاص، والوليد بن عقبة وأبي سفيان، وقد حفظ التاريخ صورة عطيات الخليفة لهم ولغيرهم، ومن أراد التفصيل فليرجع الى مظانه (١). ويكفيك أنه أعطى مروان بن الحكم - ابن عمه و صهره - خمس غنائم أفريقيا، وكانت تقدر بمليونين و نصف مليون دينار، وفي ذلك يقول الشاعر: واعطيت مروان خمس العبا * د ظلماً لهم و حميت الحمى (٢) ٣ - تأسيس حكومة أموية: كان الخليفة يبذل غاية جهده في تأسيس حكومة أموية في العواصم الاسلامية فنرى أنه عزل سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة وولاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان أخوا عثمان لأمه. وفي سنة ٢٧ من الهجرة عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر و استعمل عليه عبدالله بن أبي سرح وكان أخاه من الرضاة . وعزل أباموسى الأشعري فولّى مكانه على البصرة عبدالله بن عامر وهو ابن خال عثمان (٣). وأبقى معاوية على ولايته على الشام، ولما كثرت الشكوى على عامله _____

١. الأميني: الغدير ٩ / ٢٣٦ - ٢٩٠ .

٢. ابن قتيبة: المعارف ١١٣ ط دار الكتب العلمية. ابن كثير: التاريخ ٤/١٥٧ .

٣. الدينوري: الأخبار الطوال ١٣٩. ابن الاثير: الكامل ٣/٨٨ - ٩٩ . (١٨)

بالكوفة، الوليد بن عقبة، عزله وولّى مكانه سعيد بن العاص (١) حتى قيل إن خمساً و سبعين من ولاته كانوا من بنى أمية (٢). ٤ - مواقف العدائية تجاه الصحابة: كان للخليفة مواقف غير مرضية مع أصحاب رسول - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد سير أباذر إلى الربذة وهي أرض قاحلة ليس فيها ماء ولا كلاء، فهناك لفظ آخر أنفاسه غريباً فريداً (٣) وأمر بضرب عبدالله بن مسعود فكسر ضلع من أضلاعه (٤) كما أنه ضرب عمّار بن ياسر حتى غشى عليه بحجة أنه انتقد عمل الخليفة في بيت المال (٥). ٥ - إيواؤه طريد رسول الله: طرد رسول الله الحكيم بن عاص مع ابنه مروان إلى الطائف، فردّهما إلى المدينة أيام خلافته. يقول الشهرستاني: ردّ الحكيم بن أمية إلى المدينة بعد أن طرده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكان يستمى طريد رسول الله وبعد أن تشفّع إلى أبي بكر و عمر (رضى الله عنهما) أيام خلافتهما فما أجابا إلى ذلك، نفاه عمر من _____

١. الطبرى: التاريخ ٣ / ٣٢٥ .

٢. الندوى: المرتضى: ولا حظ للوقوف على أسماء عمال عثمان فى السنة التى قتل فيها، تاريخ الطبرى ٣ / ٤٤٥ .

٣. البلاذرى: الانساب ٥/٥٤. الطبرى: التاريخ ٣/٣٣٥ .

٤. البلاذرى: الانساب ٥/٣٦ .

٥. البلاذرى: الانساب ٥/٤٨ . (١٩)

مقامه باليمن أربعين فرسخاً (١). إلى غير ذلك من الأمور التى أغضبت جمهور المسلمين وأثارتهم، حتى اجتمع المسلمون من المصريين والكوفيين والبصريين، وجمهور المهاجرين والأنصار للاحتجاج عليه بتبيين سوء مواقفه وأعماله وجنایات عماله فى البلاد، ولكن كان ردّ فعله تجاه هاتيك الاحتجاجات، سلبياً فلم يستجب لطلباتهم، بل غضب على كل من احتج عليه بسوء فعله أو فعل ولاته، ولكن كثرة السخط والنقد على الخليفة، شحنت النفوس نعمة و غضباً، فانفجرت ثورة عارمة لم تجمد إلا بقتله فى عقدراره . قتل الخليفة عثمان: والمهاجرون والأنصار ومن تبعهم باحسان بين مجهز عليه، أو مؤلّب ضده، أو مستبشر بمقتله، أو صامت رهين بيته،

محايد عن الطرفين (٢). إن هذه الأحداث الكبيرة لو اتفقت في أي عصر من العصور التي يسود فيها الحكم الاسلامي لأثرت نفس الأثر الذي خلفته في عهد عثمان ولقبت الأمور رأساً على عقب. ومع ذلك ترى أن بعض المؤرخين يريدون تبرير عمل الخليفة وأن الثورة ضد الخليفة لم تكن ثورة شعبية دينية نابعة من أوساط المهاجرين والأنصار ومن تبعهم باحسان في مصر والعراق، ويزعمون أن عبدالله بن سبأ هو الذي جهز المصريين وكدر الصفو على الخليفة، وأنه وأتباعه كانوا وراء قتل الخليفة _____

١. الشهرستاني: الملل والنحل ١/٢٦ .

٢. الطبري: التاريخ ٣/٣٩٩. (٢٠)

ولكن هذا من مختلقات بعض المؤرخين (١) الذين جرّهم حبهم واخلاصهم للخلافة والخليفة الى اسناد هذه الثورة الى رجل مزعوم (عبدالله بن سبأ) لم يثبت وجوده أولاً، وعلى فرض وجوده لم تثبت له تلك المقدره الهائلة التي تشير الحواضر الاسلامية وعقلية المهاجرين والأنصار على الخليفة المفترض طاعته (٢). فلو كان لعبدالله بن سبأ تلك المقدره وأنه كان يجول في البلاد لتحريض الناس على الخليفة فلماذا لم يتمكن الخليفة ولا عماله من القبض عليه ليسجنوه أو يطرده من الحواضر الاسلامية الى نقطة لا ماء فيها ولا كلاء كما طردوا أباذر إلى الربذة، وسيروا صلحاء الكوفة إلى أمكنة أخرى. قال الأميني: لو كان ابن سبأ بلغ هذا المبلغ من إلفاح الفتنة، وشق عصا المسلمين وقد علم به وبعيثة أمراء الأمة وساستها في البلاد، وانتهى أمره الى خليفه الوقت، فلماذا لم يقع عليه الطلب؟ ولم يُلقَ القبض عليه، والأخذ بتلكم الجنائيات الخطرة، والتأديب بالضرب والاهانة، والزج الى أعماق السجون؟ ولا آل أمره الى الاعدام، المريح للأمة من شره وفساده، كما وقع ذلك كله على الصلحاء الأبرار الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهتاف القرآن الكريم يرن في مسامع الملأ الديني: (إنما جزاء الذين يُحاربون الله ورسوله وَيَشِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة: ٣٣)(٣).

١. الطبري: التاريخ ٣/٣٧٨.

٢. لاحظ عبدالله بن سبأ لمرتضى العسكري فقد اغرق نزاعاً في التحقيق فلم يبق في القوس منزعا.

٣. الأميني: الغدير ٩/٢١٩. (٢١) اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعه على: قتل الخليفة بمرأى و مشهد من الصحابة، وتركت جنازته في بيته، واجتمع المهاجرون والأنصار في بيت علي، وطلبوا منه بإصرار بالغ قبول الخلافة، إذ لم يكن يوم ذاك رجل يوازيه ويدانيه في السبق الى الاسلام، والزهد في الدنيا، والقراءة من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، والعلم الوافر بالقرآن والسنة، والامام يصف اجتماعهم في بيته ويقول: «فتداكوا عليّ تداك الأبل الهيم، يوم وردها، وقد أرسلها راعيها وخلعت مثنائها، حتى ظننت أنهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لدي» (١). وفي كلمة أخرى له - عليه السلام - يقول واصفاً هجوم المهاجرين والأنصار على بيته لبيعته: «وبسطم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداكتم عليّ تداك الهيم على حياضها يوم وردها حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطيء الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم آي، أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب» (٢). فلمّا عرضوا عليه مسألة الخلافة والقيادة الاسلامية أجابهم بجد وحماس: «دعوني فالتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت له العقول» (٣). فلمّا أحس منهم الإلحاح والإصرار المؤكّد وأنه لا بدّ من البيعة ورفع علم الخلافة قال - عليه السلام - : إذا كان لا بدّ من البيعة فلنخرج إلى المسجد حتى تكون بمرأى ومسمع من المهاجرين والأنصار، وجاء الى المسجد فبايعه _____

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٥٤.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٩.

٣. الطبري: التاريخ ٣/١٥٦. (٢٢)

المهاجرون والأنصار وفي مقدمتهم الزبير بن العوام و طلحة بن عبيدالله ولم يتخلف من البيعة إلا قليل لا يتجاوز عدد الأنامل كأسامة بن زيد، و عبدالله بن عمر، وسعد بن أبيوقاص ونظائرهم (١). وقد عرفه التاريخ بأنه كان رجلاً زاهداً غير راغب في الدنيا ولا مقبلاً على الرئاسة وإنما قبل البيعة لأنه تمت الحجة عليه وكان المسلمون يومذاك بحاجة إلى قيادته وخلافته وهو يصف أمره: «والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتوني إليها وحملتوني عليها» (٢). كل ذلك صار سبباً لقيام علي بالزعامة والخلافة وتدير الأمور، ولم يكن هدف المبايعين إلا إرجاع الأمة إلى عصر الرسول، ليقضى على الترف والبذخ، ويرفع راية العدل والقسط، ويهدم التفاضل المفروض على الأمة بالقهر والغلبة، وينجي المضطهدين والمقهورين من الفقر المدقع، ولما تمت البيعة خطبهم في اليوم التالي وبين الخطوط العريضة للسياسة التي ينوي الالتزام بها طيلة ممارسته للخلافة فعلى الصعيد المالي قال في قطاع عثمان التي قطعها الخليفة لأقربائه وحاشيته: «والله لو جدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق» (٣). قال الكلبي: ثم أمر علي - عليه السلام - بكل سلاح وجد لعثمان في داره مميًا تقوى به على المسلمين، فقبض وأمر بقبض نجائب كانت في داره من ابل الصدقة فقبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه، وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمين، وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير

١. الطبري: التاريخ ٣/١٥٦.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٥.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٥. (٢٣)

داره، وأمر أن ترجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، وكان بـ «ايلة» في أرض الشام، أتاه حيث وثب الناس على عثمان، فنزلها فكتب إلى معاوية: ما كنت صانعاً فاصنع اذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تُقشر عن العصا لحاها (١). ما مارسه الامام لتحقيق المساواة من خلال ردّ قطاع عثمان كان جرس الانذار في أسمع عبدة الدنيا وأصحاب الأموال المكذسة، أيام خلافة الخليفة الثالث، فوقفوا على انّ علياً لا يساومهم بالباطل، على الباطل ولا يتنازل عن الحق لصالح خلافته. وعند ذلك بدأوا يتآمرون على خلافته الفتيه في نفس المدينة المنورة وفي مكة المكرمة والشامات، وقد كان هؤلاء متفرقين في تلك البلاد. وهذا هو الموضوع الذي نظرحه في الفصل التالي، وستعرف أن ظهور الخوارج في الساحة الاسلامية من مخلفات هذا التآمر الذي رفع رايته الناكثون والقاسطون.

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١/٢٧٠. (٢٤) (٢٥)

الفصل الثاني حوادث وطوارئ مريرة في عصر

الفصل الثاني حوادث وطوارئ مريرة في عصر الخلافة العلوية (٢٦) (٢٧) نهض الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالأمر، بعد قتل الخليفة عثمان، وقد عمّت الفتن والتمزق والاضطراب الأمة الإسلامية، وحاك بهم البلاء، وصاروا شيعاً، المعنّيون منهم ذوو أهواء وميول. فمن مسلم واع يرى بنور الإيمان خروج القيادة الإسلامية عن الجادة المستقيمة، وليس لها جمالها الموجود في العهد النبوي، ولا بعده إلى وفاة الشيخين، وهم الذين ثاروا على السلطة، وقتلوا الخليفة، ولم يدفونه، حتى راحوا إلى رجل ليقوم بالأمر ويقيم الاود، ويصلح ما فسد، ولم يكن هذا الرجل إلا الإمام المعروف بالورع والتقى، وقوة القلب، ورباطة الجأش. إلى متوغل في لذائذ الدنيا وزخارفها، ادّخر من غنائمها وفراً، وجمع من بيضائها وصفرائها ثروة طائلة، واقتنى ضياعاً عامرة، ودوراً فخمة، وقصوراً شاهقة، يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع، كأنّ الدنيا خلقت لأجلهم، فهؤلاء - بعد قتل الخليفة - لا يرضون خروج الأمر من أيديهم ووقوعه في يد رجل لا تأخذه في الله لومة لائم والأمة الإسلامية عنده سواسية. (٢٨) إلى انتهازي لا يهّمه شيء سوى طعمته في الملك والمال، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسله شغلها تقمّمها. فقام الإمام بالأمر، وهذا وصف مجتمعه، وهم إلى الشدة والقسوة

أقرب إلى الصلاح والفلاح. وأول من جهر بالخلاف وألب المخالفين على عليّ، هو معاوية بن أبي سفيان فقد كان واقفاً على أن علياً لا يساومه بأية قيمة ولا يبيعه في مقامه الذي كان عليه من عصر الخليفة الثاني إلى يوم بويج عليّ بالخلافة، فقام بتأليب بعض الصحابة على الامام وإغرائهم على الخلاف، بحجة أنه أخذ البيعة لهم من أهل الشام، وهذا نص رسالته إلى الزبير بن العوام وقد وقف على أنه بايع علياً بملاً من الناس، وفيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، فأتى قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيدالله من بعدك فإظهر الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجدّ والتشمير، أظفر كما الله، وخذل مناوئكما». ولما وصل هذا الكتاب إلى الزبير، أعلم به طلحة فلم يشكك في أن معاوية ناصح لهما واجمعا عند ذلك على خلاف عليّ - عليه السلام - (١). كانت الغاية الوحيدة من أخذ البيعة من رعاي الناس في الشام للزبير وطلحة وإعلامهما لذلك، هو تشجيعهما على مخالفة الإمام - عليه السلام - بحجة أنهما خليفان متربان، وأنه يجب على عليّ أن يترك الخلافة جانباً، وبذلك أراد أن يحدث صدعاً في صفّ الذين بايعوا الإمام، ويفتح باب الخلاف ونكث البيعة، أمام الآخرين .

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١/٢٣١ . (٢٩) كانت تلك الرسالة تحمل شروطاً إلى الأمة الإسلامية وقد اغتر الشيخان بكلام ابن أبي سفيان فتأمرا على الخلاف ونكث البيعة على وجه يأتي شرحه. ولم يكن نكث البيعة منهما نهاية الخلاف، بل كانت فاتحة لشركان وهو تجرؤ معاوية على عليّ وبغيه على الإمام المفترض طاعته، بالحرب الطاحنة، وكان الإمام على أعتاب النصر والظفر حتى نجم شرّ ثالث وهو خروج طائفة من أصحاب الامام عليه بحجة واهية تحكى عن سداجة القوم وقلبه وعيهم: وهي مسألة التحكيم، وبذلك خاض الإمام في خلافته القصيرة التي لاتتجاوز عن خمسة أعوام، حروباً دامية، يحارب الناكثين تارة، والقاسطين أخرى، والمارقين ثالثة، وفي ذلك يقول الإمام: «فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) بلى والله لقد سمعوا ووعوها ولكنهم حلّيت الدنيا في أعينهم، وراقهم زيرجها (١). قام الإمام بفقاً عين الفتنة بعد انتهاء حرب صفين - وبالأسف - ولم يمض زمن إلى أن أُغتيل بيد أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود (٢) - حسب تعبير النبي الأكرم وبذلك طويت صحيفة عمره ولقى الله تعالى بنفس مطمئنة، وقلب سليم، وقد تتبأ النبي الأكرم بحروبه الثلاثة، وأنه سيقا تل طوائف ثلاثة وهم بين ناكث وقاسط ومارق من الدين. روت أم سلمة أن علياً - عليه السلام - دخل على النبي الأكرم في بيتها فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مشيراً إلى عليّ: هذا والله قاتل الناكثين

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٣.

٢. الصدوق: عيون أخبار الرضا ٢٩٧. (٣٠)

والقاسطين والمارقين من بعدى (١). وروى على - عليه السلام -، عن النبي الأكرم: أمرني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين (٢). هذا مجمل تلك الحوادث المريعة في خلافته، وكانت فتنة الخوارج نتيجة الحريين الطاحتين: الجمل وصفين، فلأجل اجلاء الحقيقة ورفع السترن وجهها نعرضهما على القارىء، على وجه خاطف، والتفصيل على عاتق التاريخ.

١. ابن كثير الشامي: البداية والنهاية ٧/٣٠٥، وقد جمع أسانيد الحديث ومتونه .

٢. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/٣٤٠.

(٣١) قتال الناكثين (١) حرب الجمل النكث في اللغة هو نقض البيعة والمراد من قتال الناكثين: قتال الشيخين: الزبير وطلحة اللذين نكثا بيعة الإمام وتبعهما طوائف من الناس، بترغيب وترهيب، وكان بدأ الخلاف ان طلحة والزبير جاءا إلى عليّ وقالا: له: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كنا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلها، وعلمت رأى عثمان في بني أمية، وقد ولاك الله الخلافة من بعده، فؤلنا

بعض أعمالكم، فقال لهما: إرضيا بقسم الله لكم. حتى أرى رأيي، واغلبنا أنني لا أشرك في أمانتي إلا من أرضى بدينه، وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته. فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس فاستأذناه في العمرة (١). _____

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١/٢٣١ - ٢٣٢. (٣٢) خرجا من عنده وهما غاضبان ويحتالان للخروج عن بيعته ونكثها، وفي ذلك الظرف القاسي، وصل إليهما كتاب معاوية يدعوهما إلى نكث البيعة وأن أهل الشام بايعوا لهما إمامين مترتين، فاغتربا بالكتاب (١) وعزما النكث بجد. ثم دخلا- على علي فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة، ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما رأيهما غير العمرة، فقال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعادها بأشد ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما فلما خرجا من عنده قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونهما إلا في فتنه يقتتلان فيها. قالوا: يا أمير المؤمنين فمُرْ برُدِّهما عليك. قال: ليقضى الله أمراً كان مفعولاً (٢). خروج عائشة إلى مكة: غادرت عائشة المدينة المنورة عندما حاصر الثوار بيت عثمان، ونزلت في مكة، ووصل خبر قتل الخليفة إليها وهي فيها، وكانت على تطلع إلى أين انتهت الثورة وإلى من آلت إليه الخلافة، فغادرت مكة إلى المدينة فلما نزلت «سرف» لقيها عبد ابن أمّ كلاب فقالت له: «مهيم»؟ قال: قتلوا عثمان فمكثوا ثمانية، قال: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على علي بن أبي طالب، فقالت: والله إن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك، رُدوني رُدوني، فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه، فقال لها ابن أمّ كلاب: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت _____

١. تقدم نص الكتاب .

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ١/٢٣١ - ٢٣٢. (٣٣) تقولين: اقتلوا نعتلاً- فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه، ثم قتلوه، ولقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول، فقال لها: ابن أمّ كلاب: منك البداء و منك الغير * و منك الرياح و منك المطر و أنت أمرت بقتل الإمام * و قلت لنا أنه قد كفر فهينا اطعناك في قتله * و قاتله عندنا من أمر و لم يسقط السيف من فوقنا * ولم تنكسف شمسنا و القمر فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت الحجز و سترت، واجتمع إليها الناس فقالت: يا أيها الناس إن عثمان قد قتل مظلوماً والله لأطلبن بدمه (١). ثم إن طلحة والزبير بعدما استأذنا علياً غادرا المدينة ونزلا مكة، وكانت بينهما وبين عائشة صلة وثيقة يتآمرون ضد علي فلما بلغ علياً مؤامرة الزبير وطلحة وأنهما نكثا إيمانهما وعلي أهبه المكافحة معه، أشار بعض أصحابه أن لا يتبعهما فأجاب علي بقوله: «والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها، ولكن أضرب بالمقبل إلى الحق، المدبر عنه، وبالسامع المطيع، العاصي المريب أبداً، حتى يأتي علي يومى» (٢). مغادرة الشيخين وعائشة مكة: اتفق المؤامرون ومعهم جماعة من أعداء الامام، على أن يرتحلوا إلى البصرة، ويتخذوها مقراً للمعارضة المسلحة. _____

١. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١/٤٩. الطبرى: التاريخ ٣/٤٧٧.

٢. الرضى: نهج البلاغة، خطبة ٦. (٣٤) وقد كان عبدالله بن عامر، عامل عثمان على البصرة، هرب منها حين أخذ البيعة لعلي بها على الناس، جارية بن قدامة السعدى، ومسير عثمان بن حنيف الأنصارى إليها على خراجها من قبل علي. وانصرف عن اليمن عامل عثمان وهو يعلى بن مته فأتى مكة وصادف بها عائشة وطلحة والزبير مروان بن الحكم فى آخرين من بنى أمية، فكان ممن حرّض على الطلب بدم عثمان وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربع مائة ألف درهم وكراماً وسلاحاً وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى «عسكراً». وكان شراؤه عليه باليمن مائتى دينار فأرادوا الشام فصدهم ابن عامر، وقال لهم: إن معاوية لا ينقاد اليكم ولا يعطيكم من نفسه النصفه، لكن هذه البصرة لى بها صنائع وعدد. فجّهزهم بألف ألف درهم، ومائة من الابل وغير ذلك، فسار القوم نحو البصرة فى ستمائة راكب، فانتهوا فى الليل إلى ماء لبنى كلاب، يعرف ب«الحواب» عليه أناس من بنى كلاب فعوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضوع؟ فقال لها السائق لجملها: «الحواب»، فاسترجعت، وذكرت ما قيل لها فى ذلك (١) وقالت: رُدوني إلى حرم رسول

الله، لاجحة لي في المسير، فقال الزبير: تالله ما هذا «الحوأب»، ولقد غلط في ما أخبرك به، وكان طلحة في ساقه الناس فلحقها فأقسم بالله إن ذلك ليس بالحوأب وشهد معهما خمسون رجلاً ممن كان معهم. فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان بن حنيف فمانعهم وجرى بينهم قتال، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب إلى قدوم علي، فلما كان في _____

١. ورد في حديث روته عائشة، قالت: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول وعنده نساؤه: ليت شعري ايتكن تبئحها كلاب الحوأب سائرة إلى الشرق في كتيبة! (٣٥)

بعض الليالي، يتتوا عثمان بن حنيف فأسروه وضربوه واتفوا لحيته، ثم إن القوم استرجعوا وخافوا على مخلفيهم بالمدينة من أخيه: سهل بن حنيف وغيره من الأنصار، فخلوا عنه وأرادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به فقتل منهم سبعون رجلاً - من غير جرح، وخمسون من السبعين ضربت أعناقهم صبراً من بعد الأسر، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى وكان من سادات عبد القيس، وزهاد ربيعة ونساکها و تشاح طلحة والزبير في الصلاة بالناس، ثم اتفقوا على أن يصلى بالناس عبدالله بن الزبير يوماً ومحمد بن طلحة يوماً في خطب طويل كان بين طلحة والزبير. مسير على إلى جانب البصرة: وقف الامام على أن المتأمرين خرجوا من مكة قاصدين البصرة، فاهتم الامام بايقافهم في الطريق قبل الدخول إليها فسار من المدينة بعد أربعة أشهر من بيعته في سبعمائة راكب، منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار، منهم سبعون بدرياً وباقيهم من الصحابة، وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصارى، فانتهى إلى الربذة بين مكة والكوفة، وكان يترقب إلقاء القبض على رؤوس الفتنة قبل الدخول الى البصرة، لكن فاته ما يترقب لأنهم سبقوا الامام في الطريق ولحق بعلى من أهل المدينة، جماعة من الأنصار، فيهم خزيمه بن ثابت ذوالشهادتين وأتاه من طي ستمائة راكب (١). خرج عثمان بن حنيف من البصرة، وقدم على علي - عليه السلام - بالربذة، وقد نتفوا رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين بعثني ذا لحيه، _____

١. المسعودى: مروج الذهب ٣/١٠٣ - ١٠٤ طبعه بيروت. الطبرى: التاريخ ٣/٤٨٥. واللفظ للأول، وفي لفظ الطبرى زيادات تركناها روماً للاختصار. (٣٦)

وجئتك أمرد، فقال: أصبت خيراً وأجراً (١). واتصلت بيعة على بالكوفة: وغيرها من الأنصار، وكانت الكوفة أسرعها إجابة إلى بيعته، وأخذ له البيعة على أهلها - على كره - أبو موسى الأشعري حين تكاثر الناس عليه، وكان عاملاً لعثمان عليها (٢). لَمَا وقف الامام على ماجرى على عثمان بن حنيف وخرسه، بعث بعض أصحابه بكتاب إلى أبي موسى الأشعري يطلب منه استنهاضه للناس، ولكنه تهاون في الأمر ولم يقيم بواجبه بعدما أخذ البيعة له، واعترف بإمامته، وقال للناس: إنها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاعمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر، وتتجلى هذه الفتنة. ولما بلغ علياً خذلان أبي موسى الأشعري، وأنه يصف محاربة الناكثين بالفتنة، بعث هاشم بن هاشم المرقال وكتب الى أبي موسى: «إنى لم أولئك الذى أنت به إلا لتكون من أعوانى على الحق....» وكان أبو موسى من أول الأمر عثمانى الهوى وقد أخذ البيعة لعلى على الناس بعد اكثار الناس عليه - كما تقدم - فلأجل ذلك بقى على ما كان عليه من الحياد، ولم ينهض الناس، واستشار السائب بن مالك الأشعري فأشار هو باتباع الإمام ومع ذلك لم يقدم عليه (٣). فكتب هاشم إلى علي، امتناع أبي موسى من الاستنفار. _____

١. الطبرى: التاريخ ٣/٤٩٥.

٢. المسعودى: مروج الذهب ٣/٩٧.

٣. الطبرى: التاريخ ٣/٥٠٣. (٣٧) ولما تمت الحجة عند الإمام ان الرجل ليس على وتيرة صحيحة، عزله عن منصبه فولى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصارى وكتب إلى أبي موسى اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموماً مدحوراً، فما هذا أول يومنا منك و ان لك فينا لهنات وهنات. وسار على فيمن معه حتى نزل بذي قار وبعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفران الناس، فسارا عنها و

معهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف، وقيل ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً منهم الأشتر. فأنتهى على إلى البصرة وراسل القوم وناشدهم فأبوا إلا قتاله (١). قد وصلنا إلى أعتاب الحرب الطاحنة المعروفة بحرب «الجملة» وقبل الخوض في تفصيلها نشير إلى نكات تستفاد فيما سردناه من المقدمات، ثم نخوض في صلب الموضوع حسب اقتضاء المقام. ١- إن الزبير وطلحة بايعا عن طوع ورضية ولكن بايعا لبغية دنيوية وطمعاً في المال و المقام، ولم يمض زمان من بيعتهما إلا وقد أتيا علياً يسألانه اشتراكهما في بعض أعماله، وكان لهما هوى في ولاية الكوفة والبصرة، وكانت ديانه على - عليه السلام - تصدّه عن الاجابة، إذ لم يكونا صالحين لما يطلبانه، وقد أثبتنا ذلك - قبل اشعال نار الحرب - بنكتهما وتحريضهما الناس على النكث وقتلهم الأبرياء من الموكلين وحرس بيت المال، وقد انتهى الأمر بسفك دماء آلاف من المسلمين. كل ذلك يعرب عن أن مقاومة علي، تجاه طلبهما كانت أمراً صحيحاً يرضى به الرب ورسوله، ولم يكن لعلي هوى إلا رضي الله سبحانه ورضى رسوله.

١. المسعودي: مروج الذهب ٣/١٠٤. (٣٨) ٢- إن أبا موسى الأشعري الذي قلب الأمور على علي في قضية التحكيم، كان من أول الأمر غير راض ببيعة الإمام ولم يأخذ البيعة له إلا بعد اكثار الناس، ولما أمره الإمام باستنهاض الناس واستنفارهم خذل الناس عن علي. والعجب أنه كان يتمسك في نفس الواقعة برواية سمعها من النبي أنه قال: ستكون فتنة: القاعد فيها خير من النائم، والنائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب (١). نحن نفترض أنه سمع من النبي ذلك الكلام، ولكنه هل يمكن له تسمية مبايعه المهاجرين والأنصار فتنة، فلو صح ذلك - ولن يصح حتى لو صححت الأحلام - لماذا لا تكون مبايعتهم السابقين من الخلفاء فتنة، يكون القاعد فيها خيراً من القائم، مع أن أبي موسى كان فيها من القائمين، وقد قبل الولاية في عصر الخليفين، الثاني والثالث، حتى اعتنق بيعة الإمام بعد اكثار الناس. ومن بايع رجلاً على الإمامة والقيادة، كان عليه الذب عن إمامه وحياض سلطته. ٣- إن الإمام - عليه السلام - أشار بقوله: «فما هذا أول يومنا منك و أن لك فينا لهنات و هنات» إلى الجناية التي سوف يرتكبها أبو موسى في قضية التحكيم حيث يخلع علياً عن الإمامة والخلافة كما سيوافيك تفصيله. ٤- إن في منازعة الشيخين: الزبير وطلحة في أمر جزئي كالإمامة في الطلاء، يعرب عن طويتهما وما جئلا عليه من التفاني في الرئاسة، انظر إلى الرجلين يريدان أن يقودا أمر الجماعة ويكونا امامان للمسلمين وهذه نزعتهما.

١. الطبري: التاريخ ٣/٤٩٨. (٣٩) على أعتاب حرب الجملة: سار علي حتى نزل الموضوع المعروف بالزاوية، فصلّى أربع ركعات، وعفر خديه على التراب وقد خالط ذلك بدموعه ثم رفع يديه يقول: اللهم ربّ السماوات وما أظلت، وربّ العرش العظيم، هذه البصرة، أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرّها، اللهم انزلنا فيها خير منزل، وأنت خير المنزلين، اللهم إن هؤلاء القوم قد بغوا علي و خلعوا طاعتي و نكثوا بيعتي، اللهم أحقن دماء المسلمين. ثم بعث إليهم من يناشدهم الله في الدماء، وقال: «علام تقاتلونني؟» فأبوا إلا الحرب، فبعث إليهم رجلاً من أصحابه يقال له مسلم، معه مصحف يدعوهم إلى الله تعالى فرموه بسهم فقتلوه، فحمل إلى علي قتيلاً. فأمر علي أصحابه أن يصفوهم ولا يبدؤهم بقتال ولا يرموهم بسهم، ولا يضربوهم بسيف، ولا يطعنوهم برمح. حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي من الميمنة بأخ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل، فقال علي: اللهم اشهد. أعذروا إلى القوم، ثم قام عمّار بن ياسر بين الصّفين فقال: أيها القوم ما أنصفتم نبيكم حين كفتكم عقائلكم في الخدور، وأبرزتم عقيلته للسيوف، وعائشته على الجملة في هودج من دفوف الخشب، قد ألبسوه المسوخ و جلود البقر، وجعلوا دونه اللبود، وقد غشى على ذلك بالدروع، فدنا عمّار من موضعها فناداها: إلى ماذا تدعين؟ قالت: إلى الطلب بدم عثمان، فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغى و الطالب غير الحق، ثم قال: أيها الناس إنكم لتعلمون أيّنا الممالي في قتل عثمان، ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبال: فمنك البكاء و منك العويل * و منك الرياح و منك المطر (٤٠) و أنت امرت بقتل الإمام * و قاتله عندنا من امر و تواتر عليه الرمي فاتصل فحرك فرسه، و زال عن موضعه و أتى علياً - عليه السلام - فقال: ما تنظر يا أمير المؤمنين وليس عند القوم إلا الحرب. خطبة علي يوم الجملة: فقام علي في الناس خطيباً ورافعاً صوته يقول: أيها الناس إذا همتموهم فلا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مُدبراً، ولا تكشفوا عورة

ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا سترًا، ولا تقربوا شيئًا من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح، أو كراع، أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث ورثتهم على كتاب الله . ثم إن عليًا نادى كلاً من الزبير وطلحة وكنة وأتم عليهما الحجة فقال للأول: أما تذكر قول رسول الله عندما قلت له: إني أحب عليًا، فأجابك إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم، وقال للثاني: أما سمعت قول رسول الله يقول: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأنت أول من بايعتني ثم نكثت، وقد قال الله عز وجل: (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) . ثم رجع علي إلى موضعه، وبعث إلى والده محمد بن الحنفية وكان صاحب رايته وقال: «احمل على القوم» فلم يرمه النجاح والظفر فأخذ الراية من يده، فحمل و حمل الناس معه فما كان القوم إلا كرماد اشتدَّت به الريح في يوم عاصف وأطاف بنوضبته بجمل عائشه وأقبلوا يرتجزون. نحن بنوضبته اصحاب الجمل * ردوا علينا شيخنا ثم بجل ننعي ابن عفان باطراف الأسل * والموت أحلى عندنا من العسل (٤١) وقطع على خطام الجمل سبعون يداً من بنى ظبئه، منهم: كعب بن سور القاضي، كلما قطعت يد واحد منهم فصرع، قام آخر فأخذ الخطام، ورمى اليهودج بالنبل، حتى صار كأنه قنفذ، وعزق الجمل ولما سقط ووقع اليهودج، جاء محمد بن أبي بكر فأدخل يده، فقالت: «من أنت؟» فقال: أخوك، يقول أمير المؤمنين هل أصابك شيء، قالت: «ما أصابني إلا سهم لم يضرنى» فجاء علي حتى وقف عليها و ضرب اليهودج بقضيب وقال: «يا حميراء أرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمرك بهذا، ألم يأمرك أن تقرى في بيتك، والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا حلائلهم، وأبرزوك» وأمر أخاها محمداً، فأنزله دار صفية بنت الحارث بن طلحة . ولما وضعت الحرب أوزارها جهز علي - عليه السلام - عائشة للخروج إلى المدينة فقالت له: «إني أحب أن أقيم معك فأسير إلى قتال عدوك عند مسيرك» فقال: «ارجعي إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله» فسألته أن يؤمن ابن اختها عبدالله بن الزبير، فأمنه، وتكلم الحسن و الحسين في مروان، فأمنه، وأمن الوليد بن عقبه، وولد عثمان وغيرهم من بنى أمية وأمن الناس جميعاً، وقد كان نادى يوم الوقعة «من ألقى سلاحه فهو آمن، و من دخل داره فهو آمن» . وكانت الوقعة في الموضع المعروف بالخريبة وذلك يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ وخطب على الناس بالبصرة بخطبة، وقد قتل فيها، من أصحاب علي - عليه السلام - خمسة آلاف و من أصحاب الجمل ثلاثة عشر ألف رجل، وكان بين خلافة علي ووقعة الجمل خمسة أشهر وواحد وعشرون يوماً . وولى علي البصرة، عبدالله بن عباس، وسار إلى الكوفة فدخل إليها في (٤٢)

الثاني عشر من رجب شهر سنة ٣٦ (١) . ولكن الإمام عبده، نقل أنه قتل سبعة عشر ألفاً من أصحاب الجمل و قتل من أصحاب علي ألف و سبعون (٢) . وعلى كل تقدير فهذه الضحايا كانت خسارة عظيمة في الإسلام، وقد عرقلت خطاه، وشلت الزحوف الإسلامية في أول عهدها في الفتوح، ولولا- هذه الحروب الداخلية، لكان للعالم حديث غير هذا، ولو كان الإمام هو القابض لزام القيادة في جو هادئ، لكان الوضع السائد على الإسلام، غير ما هو المشاهد - وبالأسف - . «ما كل ما يتمنى المرء يدركه» . وقد حفظ التاريخ من الامام يوم ذاك عواطف سامية وسماحة ورحب صدر على حد لم يسبق إليه أحد، غير النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما فتح مكة، فلم يأخذ من أهل البصرة شيئاً سوى ما حواه العسكر . و كان هناك جماعة يصرون على أن يأخذ الامام منهم، عبيداً وإماءً فاسكتهم الإمام بقول: أيكم يأخذ أم المؤمنين في سهمه (٣) . وقد علم الامام بسيرته كيفية القتال مع البغاة من أهل القبلة.

١. المسعودي: مروج الذهب ٣/١٠٧ - ١١٧. بتلخيص: لاحظ الطبري: التاريخ ٣/٥٤٣ .

٢. الإمام عبده: شرح نهج البلاغة ٤٠ .

٣. وسائل الشيعة ١١/٥٩ - ٦٠ . (٤٣) قتال القاسطين (٢) حرب صفين قد تعرفت على أن النبي الأكرم أخبر علياً بأنه سيفقاتل القاسطين بعد الناكثين، وقد وقفت على مأساة حرب الناكثين وعرفت نواياهم وجناباتهم عن كتب، التي ارتكبوها في طريق التسنم على عرش القيادة، وأراقوا دماء بريئة حتى يُسْمُوا أمير المؤمنين وما أجرأهم على حرمان الله وما أشقاهم. هلم معي نقرأ مأساة قتال القاسطين الذين حادوا عن الحق، والطريق المهيع، وحاربوا الإمام المفترض طاعته، يقودهم معاوية بن أبي سفيان ابن آكلة الأكباد، ولاغرو فإن

أباه هو العدو الأول للنبي الأكرم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الذي حَزَبَ الأحزاب على الإسلام و المسلمين . (٤٤) الخلافة كانت الامنية القصوى لمعاوية: إن الخلافة كانت أمنية في نفس معاوية، ولكن تقلد الإمام للخلافة، أفسد عليه الأمر، ولم يكن باستطاعته منافسة الإمام على - عليه السلام - ولأجل ذلك حاول إحداث الصدع في صف الأمة، فأطمع الشيخين في طلب الخلافة، وقد قُتِلَا خائبين فلم يجد مناصاً إلا أن يقوم في وجه الامام تحت ستار أخذ ثأر الخليفة المظلوم. كان معاوية - يطلب من الإمام - طول محاربتة - اقراره على ولاية الشام كإقرار الخلفيتين له حتى يُسَلِّمَ له الأمر و يعترف بخلافته، ولكن الإمام علياً لم يرض ببقائه في الحكم لعلمه بسوء عمله خلال ولايته . وقد أشار إلى ابقائه المغيرة بن شعبه، وقال: و اترك معاوية، فإن لمعاوية جراً فهو في أهل الشام يُسمع منه ولك حجة في اثباته لأن عمر بن الخطاب ولآه الشام كلها، ولكن الإمام لم يقبل اقتراحه، وقال: «لا والله لا استعمل معاوية يومين أبداً» (١) . بعث الإمام جريراً إلى ولاية الشام ليأخذ منه البيعة، فأتى معاوية جريراً في بيته فقال: يا جرير إنني قد رأيت رؤياً، فقال: هات، قال: اكتب إلي صاحبك ليجعل لي الشام و مصر، جباية، فإذا أحضرته الوفاء لم يجعل لأحد بعده بيعه في عنقي، وأسلم له هذا الأمر و اكتب إليه بالخلافة، فقال جرير: اكتب بما أردت، فكتب معاوية بذلك إلى علي، فلما وصل كتاب جرير مع كتاب معاوية، فكتب علي إلى جرير: أما بعد فإنما أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعه، وأن يختار من أمره ما أحب (٢)، وأراد أن يرثك حتى يذوق أهل الشام،

١. الطبري: التاريخ ٣/٤٦١ .

٢. سيأتي التصريح بذلك في كتاب معاوية إلى الإمام قرب ليلة الهرير، والامام تفتن بذلك بنور الله الذي ينظر به المؤمن . (٤٥) وأن المغيرة بن شعبه قد كان أشار على أن استعمل معاوية على الشام وأنا بالمدينة، فأبيت ذلك عليه ولم يكن الله يراني أتخذ المضلين عضداً، فإن بايعك الرجل، وإلا فاقبل (١) . كتب معاوية إلى علي مرة أخرى قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة يسأله اقراره على الشام، وذلك ان علياً قال: لأنا جزئهم مصباحاً، و تناقل الناس كلمته، ففزع أهل الشام لذلك، فقال معاوية: قد رأيت أن اعاد علياً وأسأله اقرارى على الشام، فقد كنت كتبت إليه ذلك، فلم يجب إليه ولأكتب ثانياً، فألقى في نفسه الشك و الرقة، فكتب إليه: «أما بعد...وقد كنت سألتك الشام على الآ- تلزمني لك بيعه و طاعة، فأبيت ذلك علي فأعطاني الله مامنت وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس...» . فكتب في جوابه: «...وأما طلبك إلي الشام فإنني لم أكن لأعطيك اليوم مامنتك أمس» (٢) . هذه الكتب وغيرهما من القرائن والشواهد، تعرب عن أن الغاية الوحيدة لابن أبي سفيان، هو الولاية على الشام وبقاؤه في الحكم، مادام علي على قيد الحياة، ثم السيطرة على جميع البلاد الاسلامية، وأما طلب ثأر عثمان، والقصاص من قتلته، فكأنها كانت واجهه لما كان يضمه ويخفيه، ولأجل ذلك نرى أنه لما تم الأمر لصالحه، تناسى قتله عثمان وتناسى الأخذ بثأره، وليس هذا ببعيد من الساسة الذين لا يتحلون بالمبدئية في سلوكهم، ويرفعون عقيرتهم بشعارات خادعة من أجل تحقيق أطماعهم الشخصية.

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٢ .

٢. ابن قتيبة: الإمامة و السياسة ١/١٠٩ . ابن مزاحم: وقعة صفين ٤٧٠ . (٤٦) وبذلك تقف على مؤامراته وخططه الشيطانية، حيث كان شعاره منذ أن خالف: يالثار عثمان. وقد رد الإمام عليه في بعض كتبه إليه وفي بعضها مائنه: «قد أكثر في قتل عثمان، فادخل فيما دخل الناس، ثم حاكم القوم إلي، أحملك وإياهم على كتاب الله» (١) . إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة أن الأمنية الكبرى لمعاوية من تسعير نار الحرب، هو البقاء على السلطة، وتقلد الخلافة العامة بعد علي، ولم يكن له أي إربة في ما يدعيه، وينشره من أخذ الثأر وغيره، فلزم عندئذ أن نتعرف على خططه في تلك الحرب الطاحنة التي سورها بأنانية . مخططات معاوية: كانت صحابة النبي الأكرم من أول يوم تقلد الإمام على الخلافة، وراه يؤيدونه بألسنتهم وأيديهم، إلا نفر قليل لم يباعوه وهم لا يتجاوزن عدد الأصابع (٢) ولم يكن لمعاوية ما كان لعلي من السبق في الإسلام، والجهاد في سبيل الله، والقراءة الوثيقة من النبي الأكرم، فلم يكن له بد من التخبطات الشيطانية حتى يقف سداً في وجه علي، وإليك تخطيطاته: ١- الاتصال بعمر بن العاص: أن عمرو بن العاص، كان داهية العرب، وقد

اتصل به معاوية وكان منحرفاً عن عثمان لأنه عزله عن ولاية مصر، وولّاه غيره، فلما بلغ إليه خبر —————

١. الرضى: نهج البلاغة، قسم الكتب برقم ٦٤. المبرّد: الكامل ١/١٩٤ .

٢. ابن الأثير: الكامل ٣/٩٨ وقد ذكر أسماءهم. (٤٧)

بيعه الناس لعلّى، كتب إلى معاوية يهّزه ويشير إليه بالمطالبة بدم عثمان، وكان فيما يكتب به إليه: «ما كت صانعاً إذا قُشِرَتْ من كل شيء تملكه؟ فاصنع ما أنت صانع» فبعث إليه معاوية فسار إليه، فقال له معاوية: بايعني، قال: «لا والله لأعطيك من ديني (١) حتى أنال من دنياك». فقال: «سل»، قال: «مصر طعمه»، فأجابه إلى ذلك وكتب له به كتاباً، فقال عمرو بن العاص في ذلك: معاوية لا أعطيك ديني ولم أنل * به منك دنياً فانظرن كيف تصنع فإن تعطنى مصراً فأربح بصفقة * أخذت بها شيخاً يضّر وينفع (٢) ٢- قميص عثمان المخضّب بالدم: قدم النعمان بن بشير بكتاب زوجته عثمان وقميصه المخضّب بالدم، إلى معاوية فلما قرأ معاوية الكتاب سعد المنبر وجمع الناس، ونشر عليهم القميص، وذكر ما صنعوا بعثمان، فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم أن تزهد، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه، فقام إليه أهل الشام، فقالوا: هو ابن عمك وأنت وليه، ونحن الطالبون معك بدمه... فبايعوه أميراً وبعث الرسل إلى كور الشام، حتى بايعه الشاميون قاطبةً إلا من عصمه الله (٣). ٣- الاستنصار بالشخصيات المرموقة: وجّه عليّ عند مغادرته البصرة إلى الكوفة كتاباً إلى معاوية يدعوه إلى —————

١. اظن أنّ الرجل باع مالا- يملكك ولم يكن له أىّ دين في ذاك اليوم، وقد نهى رسول الله عن بيع مالا- يملكه الرجل. وقال: لا تبع ما ليس عندك.

٢. المسعودى: مروج الذهب ٣/٩٨. الطبرى: التاريخ ٣/٥٦٠.

٣. ابن الأثير: الكامل ٣/١٤١. ذكر ابتداء وقعة صفين . (٤٨)

بيعه ويذكر فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ونكث طلحة والزبير، وما كان من حربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته (١). ولما قرأ معاوية كتاب على استشار عمرو بن العاص، فأشار إليه بقوله: «إنّ رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجريير المرسل إليك، فارسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أنّ علياً قتل عثمان وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً». فكتب معاوية إلى شرحبيل أنّ جريير بن عبدالله قدّم علينا من عند عليّ بن أبي طالب بأمر فطيع، فاقبل . فلما قدم كتاب معاوية على شرحبيل وهو بحمص، استشار أهل اليمن (المتواجدين في حمص) فاختلّفوا فيه ولكن عبدالرحمن بن غنم الأزدي أشار إليه بقوله: «إنّ الله لم يزل يزيدك خيراً منذ هاجرت إلى اليوم، وأنّه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس، (ولا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم)، إنّه قد ألقى إلينا قتل عثمان وإنّ علياً قتل عثمان، فإن يك قتلته فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحُكّام على الناس، وإن لم يكن قتله فعلام تصدّق معاوية عليه، لا تهلك نفسك وقومك، فان كرهت أن يذهب بحظّها جريير، فسر إلى عليّ، فبايعه على شامك وقومك، فأبى شرحبيل إلا أن يسير إلى معاوية. لم يكن عبدالرحمن بن غنم الأزدي الرجل الوحيد الذى نصحه بل اجتمع هو مع جريير، فقال له جريير أما قولك إنّ علياً قتل عثمان، فوالله ما فى —————

١. الطبرى: التاريخ ٣/٥٦٠ - ٥٦١. (٤٩)

يديك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ولكنك ملّت إلى الدنيا (١). كان مبعوث الإمام يحاول أن يرد شرحبيل عن دعم فكرة معاوية، فكتب إليه أيضاً كتاباً ضمّنه قصيدة، فلما قرأه شرحبيل ذعر وفكر وقال: هذه نصيحة لى فى ديني ودنياي، والله لأعجل فى هذا الأمر بشيء. فلما بلغ معاوية تردّد زاهد الشام وناسكه لفّف له الرجال، يدخلون إليه ويخرجون ويُعظّمون عنده قتل عثمان، ويرمون به علياً وقيمون الشهادة الباطلة، والكتب المختلفة، حتى أعادوا رأيه وشخّذوا عزمه، وصار معاوية يملك قلوب الشاميين بواسطة هذا الرجل المتخبط، ولما استنهضهم للقتال قاموا جملة واحدة. ٤- رسائل معاوية إلى الشخصيات: قام معاوية بإرسال رسائل

إلى شخصيات إسلامية كانوا محابدين، فكتب إلى عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، يدعوهم إلى الثورة على علي، فكتب إلى ابن عمر بقوله: «لم يكن أحد من قريش أحب إلي أن يجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك، ثم ذكرت خذلك إياه، وطعنتك على أنصاره، فتغيرت لك، وقد هوّن ذلك عليّ خلافك على عليّ، ومحا عنك بعض ما كان منك، فأعنا يرحمك الله - علي حق هذا الخليفة المظلوم، فإني لست أريد الإمارة عليك، ولكنني أريدها لك، فإن أبيت كانت شوري بين المسلمين. (٢) وكتب إلى سعد بن أبي وقاص: أما بعد فإن أحق الناس بنصرة عثمان، أهل الشام والذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره (٣) وقد نصره طلحة والزبير،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٥ - ٤٨ .

٢. نفس المصدر: ٨٠ .

٣. يريد بذلك سعد بن أبي وقاص حيث نصر عثمان في الشورى المعقودة لتعيين الخليفة بعد قتل عمر، بأمره . (٥٠)

وهما شريكاك في الأمر والشورى، وناظراك في الاسلام... وكتب إلى محمد بن مسلمة يتهمه بخذلان عثمان ويقول «...فهلأ نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً أوترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين...» (١) . فهذه الأمور تعرب عن تخطيطاته الخادعة التي حفظ التاريخ بعضها فكان يُعْمَى الأبصار والقلوب بأكاذيبه ورسائله، فتارة يباع الزبير وطلحة، ولما فشل أمرهما، صار يُقدّم عبدالله بن عمر في أمر الخلافة لولا أنه خذل عثمان ولم ينصره، كل ذلك لعكر الصفو وإحداث الصدع. إن ابن عمر - مع سذاجته - وقف على نوايا معاوية، فكتب إليه بكلمة صادقة، وقال: ما أنا كعلي في الإسلام، والهجرة، ومكانه من رسول الله. ويجب سعد بن أبي وقاص رسالة معاوية بقوله: إن أهل الشورى ليس منهم أحقُّ بها من صاحبه غير أن علياً كان من السابقة، ولم يكن فينا مافيه، فشاركنا في محاسننا، ولم نشاركه في محاسنه، وكان أحقنا كلنا بالخلافة. ويجب محمد بن مسلمة، كتاب معاوية ويفشى سرّه ويقول بعد كلام: «ولئن نصرت (يا معاوية) عثمان ميتاً، لقد خذلت حياً» (٢) . جهود علي ومسايعه لإخماد الفتنة: بلغ علياً سعي معاوية لإثارة الفتنة بنشر الأكاذيب بين الشاميين وتعمية القلوب، فعمد إلى إخمادها قبل اشتعالها وكان الإمام علي يئنه من ربّه، وكيف لا وهو الإمام المنتخب بيعة الأنصار والمهاجرين، والخارج عليه، خارج علي

١. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ١/٩٢ - ٩٣ .

٢. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ١/٩٣ - ٩٤ . (٥١)

الإمام المفترض الطاعة (١) فلما أراد المسير إلى الشام جمع من كان حوله من المهاجرين والأنصار فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أمّا بعد: فإنكم ميامين الرأي، ومراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم، فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، وخزيمة بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري يحثون علياً - عليه السّلام - على قطع جذور الفتنة. فقال عمار: يا أمير المؤمنين، إن استطعت أن لا تُقيم يوماً واحداً فافعل. اشخص قبل استعمار نار الفجرة، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادعهم إلى رشدهم، فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلا ضربنا، فوالله إن سفك دمائهم والجد في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة فيه. وقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين، نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت ورأينا رأيك ونحن كف يمينك. إلى كلمات محرّضة وجمل حائئة إلى الكفاح واخماد النار قبل اشتعالها. فلما سمع الإمام هذه الكلم النابعة من صميم الإيمان والنصح للإسلام، قام خطيباً على منبره فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: سيروا الى أعداء الله، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن، سيروا إلى بقية الأحزاب، قتلة المهاجرين والأنصار (٢). يقول المسعودي: كان مسير علي - عليه السّلام - من الكوفة إلى صفين

١. أين الذين يقولون «ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح، وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة» لا حظ مقالات الاسلاميين ٣٢٣، للامام الأشعري .

٢. ابن مزاحم: وقعة صفين ٩٢ - ٩٣. (٥٢)

لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين، واستخلف على الكوفة أبا مسعود، عُقبه بن عمرو الأنصاري، فاجتاز في مسيره بالمدائن، ثم أتى الأنبار حتى نزل الرقة فعدله هنالك جسر فعب إلى جانب الشام، وقد اختلف في مقدار من كان معه من الجيش، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً. وسار معاوية من الشام إلى جانب صفين، وقد اختلف من كان معه، والمتفق عليه من قول الجميع خمسة وثمانون ألفاً (١). خروج معاوية إلى صفين: خرج معاوية من الشام وقدم صفين وغلب على الماء، ووكل أبا الأور السلمي بالشرية في أربعين ألفاً، وبات على وجيشه في البر عطاشي، قد حيل بينهم وبين الورد، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن علينا لا يموت عطشاً ومعه تسعون ألفاً من أهل العراق دعهم يشربون ونشرب، فقال معاوية: لا والله أويموت عطشاً كما مات عثمان. استعادة الشريعة من جيش معاوية: دعا على بالأشتر فبعته في أربعة آلاف من الخيل والرجال، ثم سار على وراء الأشتر بباقي الجيش، فما رد وجهه أحد حتى هجم على عسكر معاوية، فأزال أبا الأور عن الشريعة، وغرق منهم بشراً وخيلاً. وتراجع جيش معاوية عن الموضع الذي كان فيه، فقال معاوية لعمرو بن العاص: أترانا ليمنعنا الماء كمنعنا إياه، فقال له عمرو: لا، لأن الرجل جاء لغير هذا، فأرسل إليه معاوية يستأذنه في ورود مشرعه واستقائه الماء في طريقه، ودخول رُسله في عسكره،

١. المسعودي: مروج الذهب ٣/١٢١. (٥٣)

فأجاب على إلى كل ما سأل وطلب منه (١). نزل الإمام على منطقة صفين في أوليات ذي الحجة عام ٣٦، والشهر من الأشهر الحرم، وبعث إلى معاوية يدعوه إلى إجتماع الكلمة والدخول في جماعة المسلمين، فطالت المراسلة بينهما فاتفقوا على المواعدة إلى آخر محرّم سنة سبع وثلاثين. ولما انقضى شهر محرّم، بعث على إلى أهل الشام إنّي قد احتججت عليكم بكتاب الله تعالى، ودعوتكم إليه، وإنّي قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يهدي كيد الخائنين. فما كان جوابهم إلا قولهم: السيف بيننا وبينك حتى يهلك الأعجز منّا. أصبح على يوم الأربعاء وكان أول يوم من شهر صفر، فعبا الجيش وأخرج الأشتر أمام الجيش، فأخرج إليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وكان بينهم قتال شديد وأسفر عن قتلى بين الفريقين جمعياً. امتدت الحرب كل يوم إلى عاشر ربيع الأول عام سبع وثلاثين وكان النصر حليفه في كل يوم إلى أن لم يبق للعدو إلا النفس الأخير، فعنداك قام على ينادي: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا الله، يا الله، اللهم إليك نقلت الأقدام، وأفضت القلوب، ورفعت الأيدي، وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وطلبت الحوائج، اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا، وكثرة عدونا وتشتت أهواننا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، ثم قال: سيروا على بركة الله، ثم لا إله إلا الله، والله أكبر، كلمة التقوى.

١. ابن مزاحم: وقعة صفين ١٥٧ - ١٦٢. (٥٤)

قال الراوي: لا والله الذي بعث محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - بالحق ماسمعنا برئيس قدم منذ خلق الله السموات والأرض، أصاب يده في يوم واحد ما أصاب. إنه قتل فيما ذكره العادون زيادة على خمسمائة من أعلام العرب (١). ثم قام على خطيباً وقال: أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعثوكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلا آخر نفس، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها، وقد صبر لكم القوم على غير دين، حتى بلغنا منهم ما بلغنا، وأنا عاد عليهم بالعداء، أحاكمهم إلى الله عزوجل. فبلغ ذلك معاوية فدعا عمرو بن العاص فقال: يا عمرو أما هي الليلة حتى يغدو على علينا بالفصل، فما ترى؟ قال: إن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله، هو يقاتلك على أمر، وأنت تقاتله على غيره. أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون علينا إن ظفر بهم، ولكن ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، اذعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم فإنّي لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه، فعرف ذلك معاوية، فقال صدقت (٢). يقول تميم بن حذيم: لما أصبحنا من ليلة الهرير، نظرنا فإذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام فلما أسفرنا فإذا هي مصاحف قد ربطت أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماع جميعاً، وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم، يمسكه عشرة رهط، وقال أبو جعفر

وأبو الطفيل: استقبلوا علياً بمائة مصحف، ووضعوا في كل مُجَنَّبَةٍ مائتي مصحف، وكان _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٧٧ .

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٤ - ٥٤٨ . (٥٥)

جميعها خمسمائة مصحف. قال أبو جعفر: ثم قام الطفيل بن أدهم حيال على وقام أبو شريح الجذامي حيال اليمينه، وقام ورقاء بن المعمر حيال الميسرة، ثم نادوا:....يا معشر العرب، الله الله في نسائك وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غداً إذا فنيتم؟ الله الله في دينكم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال علي: اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم، إنك أنت الحكيم الحق المبين. فاختلف أصحاب علي في الرأي. فطائفة قالت: القتال، وطائفة قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب وقد دُعينا إلى حكم الكتاب. فعند ذلك بطلت الحروب ووضعت أوزارها، فقال محمّد بن علي: فعند ذلك حكم الحكمان. وقد أثرت تلك المكيدة في همم كثير من جيش علي - عليه السلام - حيث زعموا أن اللجوء إلى القرآن لأجل طلب الحق ولم يقفوا على أنها مؤامرة ابن النابغة وقد تعلم منه ابن أبي سفيان، وأنها كلمة حق يراد بها باطل وأن الغاية القصوى منها، هو إيجاد الشقاق والنفاق في جيش علي وتثبيط همهم حتى تخمد نار الحرب التي كادت أن تنتهي لصالح علي وجيشه، وهزيمة معاوية وناصره. ولكن الخديعة كانت قد وجدت لها طريقاً في جيش العراق حتى سمع من كل جانب: المودعة إلى الصلح والنازل لحكم القرآن، فلما رأى علي - عليه السلام - تلك المكيدة وتأثيرها في السدج من جيشه قام خطيباً وقال: «أيها الناس إنني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص، وابن أبي معيط وحبیب ابن مسلمة، وابن أبي سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، إنهم كلمة حق يراد بها باطل: إنهم والله ما رفعوها لأنهم (٥٦)

يعرفونها ويعلمون بها، ولكنها الخديعة والمكيدة. أعيروني سواعِدكم وجماعكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا» (١). وقد كان لخطاب علي أثر إيجابي في قلوب المؤمنين الواعين حيث أدركوا ماذا خلف الكواليس من مؤامرات وفتن، وحببت البساطة فهم ذلك على قلوب القشريين من أهل البادية، الذين ينخدعون بظواهر الأمور، ولا يتعمقون ببواطنها، ففوجيء علي - عليه السلام - بمجيب زهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد شاكي سيوفهم وقد اسودت جباههم من السجود يتقدمهم مشير بن فديكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا يامرؤ المؤمنين وقالوا: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال الإمام لهم: «ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، إنني إنما قاتلتهم ليدنوا بحكم القرآن، فأنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده، ونبدوا كتابه، ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون» قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتينك، وقد كان الأشتر صبيحاً ليلة الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله. فلم يجد علي - عليه السلام - بداً من بعث رسول إلى الأشتر ليأتيه، فأرسل إليه علي، يزيد بن هاني أن اتنى، فأتاه، فأبلغه، فقال الأشتر: اتته فقل له ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن ترينني عن موقفي، أنني قد رجوت الفتح فلا تعجلني، فرجع يزيد بن هاني إلى علي - عليه السلام - فأخبره، فما هو إلا أن _____

١. ابن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٠. الطبري: التاريخ ٤/٣٤ - ٣٥ . (٥٧)

علت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والادبار لأهل الشام فقال القوم لعلي - عليه السلام - : والله ما نراك أمرته إلا بالقتال، قال علي - عليه السلام - : أرايتموني ساررت رسولي إليه؟ أليس أعلمتكم علي رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك، وإلا فوالله اعتزلناك، فقال الإمام: ويحك يا يزيد قل له اقبل فإن الفتنه قد وقعت، فأتاه فأخبره. فقال الأشتر: أرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع خلافاً وفرقةً أنها من مشورة ابن النابغة، ثم قال ليزيد بن هاني: ويحك ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا

ونصرف له؟. فقال له يزيد أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه، ويسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله، لا والله إلا أحب ذلك، قال: فأنهم قد قالوا له وحلفوا عليه لثرتن إلى الاشر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيفنا كما قتلنا عثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك. فأقبل الأشر حتى انتهى إليهم، فصاح: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم وظنوا أنكم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟ وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها، وتركوا سنه من أنزلت عليه، امهلوني فواقاً، فإني قد أحسست بالفتح؟ قالوا: لا ننهلك، فقال: امهلوني عدوة الفرس، فإني قد طمعت في النصر؟ قالوا: إذا ندخل معك في خطيتك. فسبوه وسبهم، وضربوا بسياطهم وجه دابته، وضرب بسوطه وجوه دوابهم وصاح على - عليه السلام - بهم فكفوا، وقال الأشر يا أمير المؤمنين احمل الصف على الصف، يصرع القوم، فصايحوا: إن أمير المؤمنين قد قبل الحكومة (٥٨)

ورضى بحكم القرآن، فقال الأشر: إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضى، فقد رضيت بما رضى به أمير المؤمنين. فأقبل الناس يقولون: قد رضى أمير المؤمنين، قد قبل أمير المؤمنين، وهو ساكت لا يبض بكلمه، مطرق إلى الأرض (١). ثم قام فسكت الناس كلهم فقال: «أيها الناس إن أمرى لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوك فلم تترك، إلا أتى قد كنت أمس أمير المؤمنين فصرت مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت منهيّاً، وقد أحببت البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون» (٢). قال نصر بن مزاحم: ثم تكلم رؤساء القبائل فكل قال ما يراه ويهواه، فقام كردوس بن هاني البكري يدعوا الناس إلى تسليم الأمر إلى علي، كما قام شقيق بن ثور البكري يدعوا الناس إلى الصلح والموادعة ويقول: وقد أكلتنا هذه الحرب ولا نرى البقاء إلا في الموادعة (٣). هذه الحوادث المؤلمة التي أسفرت عن مؤامرة خبيثة يراد منها ايقاع الفتنة والخلاف في جيش علي - عليه السلام - إلى النزول إلى حكم القوم كرهاً بلا اختيار، واضطراباً لا عن طيب نفس. فبعث علي قراء أهل العراق، وبعث معاوية قراء أهل الشام، فاجتمعوا بين الصفيين فنظروا فيه وتدراسوه واجمعوا على أن يحيوا ما أحيا القرآن، وأن يميثوا ما أمات القرآن، ثم رجع كل فريق إلى أصحابه، وقال الناس: «قد رضينا _____

١. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٦٠ - ٥٦٤.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢١٩ - ٢٢٠. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٥٣.

٣. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٥٤. (٥٩)

بحكم القرآن». فرض التحكيم أولاً وفرض المحكم ثانياً: ولقد بلغ القوم في قلته الحياء وشكاسة الخلق إلى حد أنهم فرضوا نفس التحكيم على الإمام المفترض طاعته بيعة المهاجرين والأنصار، ولم يبق بينه وبين الفتح والظفر على العدو إلا قاب قوسين أو أدنى أو بمقدار عدوة الفرس كما قاله الأشر. إنهم - قبح الله وجوههم - لم يكتفوا بهذا الحد في قلته الأدب، بل فرضوا عليه المحكم، فإن الإمام لما لم ير بداً من قبول التحكيم فاقترح عليهم أن يكون المحكم من جانبه أحد الرجلين: ابن عمه - عبدالله بن عباس - أو الأشر. ولكنهم رفضوا كل ذلك وأبوا إلا نيابة أبي موسى الأشعري الذي خذل علياً - عليه السلام - في بداية خلافته، ولم يبايعه إلا باكتار الناس ولم يشجع أهل الكوفة على نصره بل سكت. يقول ابن مزاحم: قال أهل الشام: فإننا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص، فقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد: فإننا قد رضينا واخترنا أبا موسى الأشعري، فقال لهم علي - عليه السلام -: «إني لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه» فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسر بن فديكي في عصابة من القراء: أنا لا نرضى إلا به، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه، قال علي - عليه السلام -: «فإنه ليس لي برضى ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك، قالوا: والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، قال علي: فإني أجعل الأشر، فقال الأشعث: وهل سحر الأرض علينا غير الأشر. (٦٠) حتى ان علياً اقترح عليهم الأحنف بن قيس فأبوا أن يقبلوه، وقالوا: لا يكون إلا أبا موسى، وقد كان معروفاً بأنه قريب القعر، كليل الشفرة، فلم ير علي - عليه السلام - بداً من قبول أبي موسى، وقد كان الإمام عارفاً ببساطته وسذاجته، وكانت في ذلك خسارة عظيمة لحزب علي - عليه السلام - وأشياعه إلى حد وصفها الشاعر بقوله: لو كان للقوم رأي يُعصمون به * من الظلال رموكم بآبن عباس لله

دُرُّ أبيه أَيْما رجل * ما مثله لفصال الخطب في الناس لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن * لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس أن يخلُ عمرو به، يقذفه في لجج * يهوى به النجمُ تيساً بين أتياس ابلغ لديك علياً غير عاتيه * قول امرئ لا يرى بالحق من بأس (١) لقد كان علي - عليه السّلام - واقفاً على انحراف أبي موسى عنه، وإنّ هواه مع غيره، ومع ذلك لم يجد بداً عن الرضا بما فرض عليه البسطاء من جيشه، وهذا هو الأحنف بن قيس من أصدقاء علي - عليه السّلام - وخلص شيعته، فقد امتحن أبا موسى بعد ما نصّب حكماً من قبل علي - عليه السّلام - فقال له ممتحناً: «فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فخيرُه أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شأوا وإناهم يولّونا الخيار فنختار من نريد، وإن أبوا فليختار أهل الشام من قريش العراق من شأوا، فإن فعلوا كان الأمر فينا، فقال أبو موسى: قد سمعت ما قلت، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علي - عليه السّلام - فرجع الأحنف إلى علي - عليه السّلام - فقال له: أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه في أول مخضه. لا أرانا إلاّ بعثنا رجلا لا ينكر خلعتك، فقال علي - عليه السّلام -: الله _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٧٥ - ٥٧٦. (٦١)

غالب علي أمره (١). إن الإمام خاطب أبا موسى - عندما بعثه إلى دومة الجندل حكماً - بقوله: احكم بكتاب الله ولا تجاوزه، ولما ودّع أبا موسى وغادر المجلس، قال الإمام: كأتى به وقد خدع، فقال عبيدالله بن أبي رافع: لماذا تبعته وهو علي هذه الفكرة؟ فقال الإمام - عليه السّلام - لو عمل الله في خلقه بعلمه، ما احتج عليهم بالرسول (٢). صياغة اتفاقية الصلح: إن القوم فرضوا على الإمام التحكيم والمحكم، ولم يكتفوا بذلك بل فرضوا عليه ما كان الخصم يطلبه في تحرير وصياغة اتفاقية الصلح، ولما اتفق الطرفان على كتابة الصلح وايقاف الحرب إلى أن يحكم الحكمان دعا علي - عليه السّلام - كاتبه ليكتب صحيفة الصلح على النحو الذي يمليه الإمام، فقال الإمام: اكتب: «هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين» فقال معاوية: بش الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته، وقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، إنما هو أميركم، وأمّا أميرنا فلا - فلمّا أعيد إليه الكتاب أمر بمحوه، فقال الأحنف: لا تمح اسم امرأة المؤمنين عنك، فإني أتخوف إن محوتها ألاّ ترجع إليك أبداً لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضاً فأبى ملياً من النهار أن يمحوها، ثمّ إن الأشعث بن قيس جاء، فقال: امح هذا الاسم. فقال علي: لا إله إلاّ الله والله أكبر، سنّه بسنّه، أما والله لعلى يدي، دار هذه الأمر يوم الحديبية حين كتبت الكتاب عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «هذا ما تصالح عليه _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٦١٧. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٤٩.

٢. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب ٢/٢٤١. (٦٢)

محمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: لا أجيبك إلى كتاب تسمى (فيه) رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك إني إذا ظلمتكم إن منعتكم أن تطوف بيت الله وأنت رسول الله ولكن اكتب «محمد بن عبد الله» أجيبك، فقال محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -: «يا علي إني لرسول الله، إني لمحمد بن عبد الله، ولن يمحو عني الرسالة كتابي إليهم «محمد بن عبد الله»، فاكتب: محمد بن عبد الله، فراجعني المشركون في هذا إلى مدة، فالיום اكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى آبائهم سنّه ومثلاً. فقال عمرو بن العاص: «سبحان الله، ومثل هذا شتهتنا بالكفار ونحن مؤمنون؟» فقال له علي - عليه السّلام -: يا ابن النابغة، ومتى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً وهل تشبه إلاّ أمك التي وضعت بك. فقام عمرو فقال: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم، فقال علي: والله إني لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك (١). اتفاقية الصلح أو وثيقة التحكيم: تنازل علي - عليه السّلام - عن حقه المشروع ورضى، كما رضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يكتب اسمه مجرداً عن توصيفه بامرأة المؤمنين فأملى علي صحيفة الصلح بالنحو التالي وفيها عبر ونكات وتشتمل على بنود ربما نرجع إليها في المستقبل: ١ - هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنّه نبيّه - صلى الله عليه وآله وسلم - قضية علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٢ - ٥٨٣. (٦٣)

معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب. إننا رضينا أن نزل عند حكم القرآن فيما حكم، وأن نقف عند أمره فيما أمر، وأنه لا يجمع بيننا إلا ذلك، وإننا جعلنا كتاب الله فيما بيننا حكماً فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحى ما أحيا ونميت ما أمات، على ذلك تقاضياً، وبه تراضياً. ٢ - إن علياً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبدالله بن قيس (١) ناضراً ومحاكماً، ورضى معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناضراً ومحاكماً. ٣ - على أنهما أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد في خلقه، ليتخذان الكتاب إماماً فيما بعثا له، لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجدها فيه مسطوراً. ومالم يجدها مسمى في الكتاب ردها إلى سنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الجامعة، لا يتعمدان لهما خلافاً، ولا يتبعان في ذلك لهما هوى، ولا يدخلان في شبهة. ٤ - وأخذ عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس لهما أن ينقضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره، وأنهما آمانان في حكومتهم على دمايتهما وأموالهما وأهلتهما ما لم يعدوا الحق، رضى بذلك راض أو أنكره منكر وإن الأئمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل. ٥ - فإن توفى أحد الحكامين قبل انقضاء الحكومة فأمر شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً، لا يألون عن أهل المعدلة والاقساط، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق، والحكم بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وله مثل شرط صاحبه، وإن مات أحد الأمرين قبل القضاء فلشيعته أن يولوا مكانه يرضون عدله. وقد وقعت القضية

١. هو أبو موسى الأشعري. (٦٤)

ومعها الأمن والتفاوض ووضع السلاح والسلام والموادعة. ٦ - وعلى الحكامين عهد الله وميثاقه ألا يألوا اجتهاداً، ولا يتعمدا جوراً، ولا يدخلوا في شبهة، ولا يعدوا حكم الكتاب وسنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . فإن لم يفعلوا برئت الأمة من حكمهما، ولا عهد لهما ولا ذممة. وقد وجبت القضية على ما قد سمي في هذا الكتاب من مواقع الشروط على الأمرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيداً، وأدنى حفيظاً، والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل والسلاح موضوع والسبل مخلاة والغائب والشاهد من الفريقين سواء في الأمن. ٧ - وللحكامين أن ينزلا - منزلاً عدلاً بين أهل الطرق وأهل الشام ولا يحضرهما فيه إلا من أحبنا، عن ملاءمتهما وتراض. وإن المسلمين قد أجلوا القاضيين إلى انقضاء رمضان (١)، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له عجلها، وإن أرادتا خيرا بعد رمضان إلى انقضاء الموسم فإن ذلك إليهما. ٨ - فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب. ولا شرط بين واحد من الفريقين. وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب. وهم يد على من أراد فيه إلحاداً وظلماً أو حاول له نقضاً. ثم إنه شهد بما في الكتاب من أصحاب الطرفين أكابرها فمن أصحاب علي، عبدالله بن عباس، والأشعث بن قيس، والأشتر مالك بن الحارث، والحسن والحسين ابنا علي وطائفة أخرى يبلغ عدد الشهود سبعاً وعشرين شخصاً وفيهم من الصحابة الكبار، نظير خباب بن الارت وسهل بن حنيف وعمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدى، كما شهد من أصحاب معاوية أبو الأعور

١. أي رمضان سنة تحرير الاتفاقية وهي سنة ٣٧، وقد كتب الكتاب في صفر هذه السنة كما سيوافيك. (٦٥)

وبسر بن أرطاة وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكتبت لثلاث عشر ليلة بقيت من صفر سنة ٣٧ (١). ونلاحظ أن في الميثاق تصريحاً بأنه من اللازم على الحكامين الإدلاء برأيهما إلى انقضاء موسم الحج من عام ٣٧ وهما أدليا برأيهما في شعبان تلك السنة كما سيوافيك. وما نقله الطبري عن الواقدي أن اجتماع الحكامين كان في شعبان سنة ٣٨ من الهجرة غير صحيح (٢). صورة أخرى لوثيقة التحكيم: ثم إن ابن مزاحم نقل صورة أخرى لوثيقة التحكيم يتحد مع ماسبق لياً ويختلف في بعض الموارد عبارة فمن أراد فليرجع إلى مصدره وفي ذيلها: «وكتب عميرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين وأتعد الحكمان (اذرح)» (٣) وأن يجيء على بأربعمئة من أصحابه، ويجيء معاوية بأربعمئة من أصحابه فيشهدون الحكومة.

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٢ .
٢. الطبري: التاريخ ٤/٥٢ .
٣. اذرح - بضم الراء - بلد في أطراف الشام مجاور لأرض الروم.

الفصل الثالث نشوء الخوارج عند مخالفتهم لمبدأ

الفصل الثالث نشوء الخوارج عند مخالفتهم لمبدأ التحكيم (٦٨) (٦٩) إن الذين حملوا علياً - عليه السلام - على المواعدة والرضوخ للتحكيم، رجعوا عن فكرتهم وزعموا أن أمر التحكيم على خلاف الذكر الحكيم حيث يقول (ان الحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) (١) فحاولوا أن يفرضوا على علي - عليه السلام - أمراً رابعاً وهو القيام بنقض الميثاق ورفض كتاب الصلح بينه وبين معاوية، فجاء هؤلاء قائلين: «لا حكم إلا لله، الحكملله يا علي لالك، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. إن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا وأن يدخلوا في حكمنا عليهم وقد كانت منا زلة حين رضينا بالحكمين، فرجعنا وتبنا، فارجع أنت يا علي كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا، وإلا برئنا منك. فقال علي: وَيَحْكُم، أبعده الرضا(والميثاق) والعهد نرجع؟ أو ليس الله تعالى قال: (أوفوا بالعقود) وقال: (وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتكم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون): فأبى علي أن يرجع، وأبت الخوارج إلا تضليل التحكيم والطعن فيه، وبرئت من علي - عليه السلام -، وبرى

١. الأنعام: ٥٧. وقد ورد في سورة يوسف أيضاً مرتين، لا حظ الآية ٤٠ و ٦٧ من هذه السورة. (٧٠)

منهم (١). وقال الطبري: لما أراد علي أن يبعث أبا موسى إلى الحكومة أتاها رجلاً من الخوارج: زرع بن البرج الطائي وحر قوص بن زهير السعدي (٢)، فدخلوا عليه فقالا: له: لا حكم إلا لله، فقال علي - عليه السلام -: لا حكم إلا لله، فقال له حر قوص: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا، فقال لهم علي: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهدنا ومواثيقنا، وقد قال الله عز وجل: (وأوفوا بعهدي الله إذا عاهدتكم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون). فقال له حر قوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه، فقال علي: ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي وضعف من الفعل وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه، فقال له زرع بن البرج: أما والله يا علي لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه، فقال له علي: بؤسا لك ما أشقاك كأتى بك قتيلاً تسفى عليك الريح. قال: وددت أن قد كان ذلك، فقال له علي: لو كنت محققاً كان في الموت على الحق تعزية عن الدنيا. إن الشيطان قد استهواكم فاتقوا الله عز وجل إنه لا خير لكم في دنيا تقاتلون عليها فخرجا من عنده يُحكمان (٣). روى ابن مزاحم عن شقيق بن سلمة قال: جاءت عصابة من القراء قد

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٩ - ٥٩٠ .

٢. إن الإباضية - الفرقة الباقية من الخوارج - يقولون المحكمة الأولى نظراء: زرع، وحر قوص، والراسبي مُحقون بحجة أنهم أرادوا أن لا يحكم الرجال فيما حكم فيه سبحانه وهو قاتل أهل البغي حتى يفيثوا، ولكنهم لا يذكرون شيئاً من أنهم كانوا هم الأساس لمسألة التحكيم، وهم الذين فرضوا على الإمام، هذا الأمر. فلتكن على ذكر من هذا النقل حتى يحين وقت دراسة الموضوع.

٣. الطبري: التاريخ ٤/٥٢ - ٥٣. (٧١)

سَلُوا سِيوفهم واضعياً على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تنظر بهؤلاء القوم إن نمشى إليهم بسيفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم بالحق؟ فقال لهم علي: قد جعلنا حكم القرآن بيننا وبينهم ولا يحل قتالهم حتى ننظر بكم يحكم القرآن. (١) وهذا يعرب عن أن الأكثرية الساحقة كانت مصرة على التصالح وإن عصابة منهم، كانوا متوقفين في بدء الأمر، ثم بدا لهم أن ينصروا الإمام في وقت، تمت الإتفاقية بين الطرفين وأعطى الإمام العهد بالعمل بها. هذه الكلمة الجارحة التي صدرت من زرع الطائي وحر قوص بن زهير السعدي

ونظائرها كانت تصدر من الخوارج آونه بعد أخرى، وذلك لأنهم يتهمون علياً بارتكاب الإثم ولزوم التوبة بنقض الصحيفة، وفي مقابل ذلك سطر التاريخ موقفاً جريئاً وحرّة صدرت عن ثلّة من أصحاب علي - عليه السّلام - . هذا هو سليمان بن صرد من أصحاب علي أتاه بعد كتابة الصحيفة ووجهه مضروب بالسيف فلما نظر إليه علي - عليه السّلام - قال: (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا) فأنت ممن ينتظر وممن لم يبدل، فقال يا أمير المؤمنين: أما لو وجدت أعواناً ما كتبت هذه الصحيفة أبداً. أما والله لقد مشيت في الناس ليعودوا إلى أمرهم الأوّل فما وجدت أحداً عنده خير إلّا قليلاً. وقام إلى علي - عليه السّلام - محرز بن جريش بن ضليح، فقال: يا أمير المؤمنين: ما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ فأني لأخاف أن يورث ذلاً، فقال علي - عليه السّلام - أبعد أن كتبناه ننقضه؟ إن هذا لا يحلّ. وقام فضيل بن خديج مخاطباً علياً لما كتبت الصحيفة: إن الأشر لم يرض بما في هذه الصحيفة ولا يرى إلّا قتال القوم، فقال علي - عليه السّلام - : _____

١. نصر بن مزاحم: وقعه صفيين ٥٦٩. (٧٢)

بلى إن الأشر ليرضى إذا رضيت، وقد رضيت ورضيتهم، ولا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار إلّا أن يعصى الله ويتعدى ما فيه كتابه. فلما رأى علي - عليه السّلام - تكرر تلك المواقف قام خطيباً ليزيل الشكوك والأوهام عن قلوب شيعته فخطب وقال: «إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق، ولا ليجيبوا إلى كلمه السواء، حتى يُزَموا بالمناسر، تتبعها العساكر، وحتى يُرجموا بالكتائب تقفوها الجلائب، وحتى يجرب بلادهم الخميس، يتلوه الخميس، وحتى يدعوا الخيل في نواحي أرضهم، وبأحشاء مساربهم ومسارحهم وحتى تشن عليهم الغارات من كل فج، وحتى يلقاتهم قوم صُِدِّقُ صُبْرٍ، لا يزيدهم هلاك من هلك من قتالهم وموتاهم في سبيل الله إلّا جداً في طاعة الله، وحرصاً على لقاء الله، ولقد كنّا مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا. ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومُضِيّاً على اللقم وصبراً على مَضَضِ الألم، وجداً في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان متصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون مرّة لنا من عدونا ومرّة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقرّ الإسلام ملقياً جِرَانَهُ، ومتبوّناً أو طانه، ولعمري لو كنّا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا اخضرّ للإيمان عود، وإيم الله لتحلبنّها دماً ولتتبعنّها ندماً(١). وقد أعرب الإمام في خطبته هذه عن السبب الحقيقي للفصل والوهن الذي واجه جيشه مع كثرة عددهم وعدّتهم، وما هذا إلّا - لأنهم عصوا إمامهم، واغترتوا بظواهر الأمور، وحسبوا أنّ اللجوء إلى كتاب الله شيء يدين به الخصم، _____

١. الرضى: نهج البلاغه، الخطبة ٥٦. نصر بن مزاحم: وقعه صفيين ٥٩٧ - ٥٩٨ وبين المنقول في المصدرين اختلاف في اللفظ، ورجحنا نقل الرضى. (٧٣)

ففرضوا على علي - عليه السّلام - التحكيم والحكم، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرناها آنفاً، فصار القائد مقوداً والإمام مأموماً والمطاع مطيعاً. تتبؤ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بفتنة الخوارج: روى ابن هشام عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّه قال: جاء رجل من بني تميم - في غزوة هوازن - يقال له ذوالخويصرة فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال: يا محمّد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أجل، فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت، قال: فغضب النبي، ثم قال: ويحك، إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا أقتله؟ فقال: لا دعه فإنّه سيكون له شيعه يتعمقون(١) في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية(٢) _____

١. المراد من التعمق كثرة السؤال والاعتراض على الأوامر الصادرة من القيادة ويؤيد ذلك الحديث المشهور: سأل رجل الإمام موسى بن جعفر - عليه السّلام - وقال: رجل يأتي السوق فيشترى جبه فراء، ولا يدرى أذكيه هي أم غير ذكيه؟ أيصلى فيها؟ فقال: نعم ليس عليكم المسألة. إن أباجعفر - عليه السّلام - كان يقول: إن الخوارج ضيقوا على أنفسهم بجهالتهم، إن الدين أوسع من ذلك. (الصدوق: من لا يحضره الفقيه ١/١٦٧، الباب ٣٩، الحديث ٣٨).

ويظهر ذلك ممّا روى عن علي من قصار الكلمات قال: الكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيغ، والشقاق، فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، نهج البلاغة قسم الحكم ٣١. فمعنى التعمق هنا لا يتنافى مع ما سنذكره من أنّ البساطة والسذاجة و الظاهرية كانت سمة من سماتهم.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٤٩٦. ابن الاثير: الكامل ٢/١٨٤. ورواه البخارى فى باب «المؤلفه قلوبهم على وجه التفصيل، فمن أراد فليرجع إلى صحيحه». (٧٤) تحليل لكارثة التحكيم: إن هناك أسئلة تطرح نفسها ونحن نجيب عنها مستنديين إلى متون الروايات الواردة حولها: الأول: لماذا اغتر المحكمه بظواهر الأمر وزعموا أنّ رفع المصاحف على رؤوس الأسنة لأجل اللجوء إلى القرآن، واجراء حكمه بين الطرفين، مع أنّ علياً وكثيراً من أصحابه تبهم على أنّ ذلك خدعة ومكيده. والجواب: أنّ الذى حملهم على قبول التحكيم فى بادىء ذى بدء أمران: ١- إنّ الخسارة البشرية الفادحة التى ألحقها الحرب بالعراقيين (مع أنّ خسائر الشاميين كانت أكثر) كانت عاملاً- نفسياً مهمّاً لقبول التحكيم ودافعاً لهم إليه وفى كلام الإمام على - عليه السلام - إشارة إلى ذلك: قال ابن مزاحم: ذكروا أنّ الناس ماجوا وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال، وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس، ولم يقل هذا إلا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة وثارَت الجماعة بالموادعة فقام على أمير المؤمنين فقال: «إنه لم يزل أمرى معكم على ما أحبّ إلى أن أخذت منكم الحرب، لقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوّكم فلم تترك، وأنها فيكم أنكى وأنهك...وقد أحببت البقاء وليس لى أن أحملكم على ما تكرهون» (١). ولعل النجاشى يشير إلى ذلك العامل فى قصيدته إذ يقول: غشيناهم يوم الهرير بعصبة * يمانية كالسيل سيل عيران فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا * عليها كتاب الله خير قرآن _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥٣ - ٥٥٤. (٧٥) ونادوا (١): علياً، يا ابن عمّ محمّد * أما تتقى أن يهلك الثقلان فمن للذرارى بعدها ونسائنا * ومن للحرّيم أيها الفتيان (٢) ٢- إنّ البساطة والسذاجة من الأمور التى تسود أهل البادية حيث لا يملكون الوعى الفكرى والتجربة الإجتماعية، وجلّ القبائل التى كانت تحارب تحت لواء عليّ من القاطنين فى البادية غير متمدّنين، فطبيعته عيشهم هو الصدق والصفاء والإيمان بظواهر الأمور دون أن يتعمقوا فيها لمعرفة ما يدور خلف الستار من خفايا، ولأجل ذلك اغتروا بظواهر الأمر وزعموا أنّ رفع المصاحف على الأسنة لأجل الاستظلال فى ظلّه والعيش تحت رايته. غير أنّ الإمام والواعين من قادة جيشه علموا أنّ خلف هذا العمل مؤامرات وتفرسوا بأنّ واره هذا ليس إلاّ الفتنة، ولأجل ذلك لمّا بعث على - عليه السلام - أحد النخعيين إلى الأشتر لإيقاف الحرب ورجوعه إلى معسكر الإمام، فسأله الأشتر عن سبب الفتنة، وقال: «ألزف هذه المصاحف؟» قال نعم، قال: أما والله لقد ظننت أنّها حين رفعت ستوقد اختلافاً وفرقة (٣). ٣- إنّ عيشة القوم كانت عيشة قبيلة والنظام القبلى يفرض على كافة أفراد القبيلة، الطاعة العمياء لرئيسها فإذا أصحر الرئيس بالرأى، فالباقون بحكم الأغنام يتبعونه من دون تفكر ووعى، ولما كان فى جيش على - عليه السلام - رؤوس البطون، وخضعوا للتحكيم، لم يبق مجال لغيرهم فى القبول والرفض، ولأجل ذلك صار التحكيم فرضاً من جانب عشرين ألفاً مقنعين بالحديد، ومن البعيد جداً أن يكون حكم كل واحد من هؤلاء صادراً عن وعى وإمعان. _____

١. يعنى أهل العراق .

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٦٠٢ .

٣. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٢. (٧٦) الثانى: لماذا رجعوا عن التحكيم بعد فرضه على على - عليه السلام - ؟: إنّ القوم لم يكونوا أهل فكر واجتهاد، وما كانوا يصدرّون عن مبدأ عقلى فى المواقف الصعبة والحرجة، فكما أنّهم اغتروا برفع المصاحف على الأسنة، اغتروا الكثير برأى بعض القراء حيث ردّ التحكيم بقوله سبحانه: (أَن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ). قال ابن مزاحم: إنّ الأشعث خرج فى الناس بذلك الكتاب يقرأه على الناس ويعرضه عليهم ويمرّ به على صفوف أهل الشام، وراياتهم، حتى مرّ برايات عترة فقرأه عليهم. قال فتیان منهم: لا حكم إلاّ لله، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما (فقاتلا) حتى قتلا على باب رواق معاوية، وهما أول من حكم (أى أنكر مبدأ التحكيم) ثم مرّ بها على مراد فقال صالح بن شقيق وكان من رؤسائهم: ما لعلى فى الدماء قد حكم * لو قاتل الأحزاب يوماً ما

ظلم لا حكم إلا لله ولو كره المشركون. ثم مرّ على رايات بنى راسب فقرأها عليهم، فقالوا: لا حكم إلا لله ولا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله، ثم مرّ على رايات بنى تميم فقرأها عليهم، فقال رجل منهم: «لا- حكم إلا لله، يقضى بالحق وهو خير الفاصلين» وخرج عروة بن أديّة فقال: أتحكمون الرجال في أمر الله؟ لا حكم إلا لله: فأين قتلانا يا أشعث؟ (١). فزعموا أولاً: أن حكم الله مضي في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمهم وأن إيقاف الحرب والتنازل إلى المواعدة خلاف حكم الله

١. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٥٨. وجاء في ذيل كلامه أن هؤلاء المخالفين أوبعضهم كانوا من المصريين على التحكيم في بدء الأمر وإنما رجعوا عن فكرتهم عند عرض الكتاب. (٧٧)

سبحانه. ثانياً: إن هذا تحكيم للرجال في دين الله، وهو يصادف النص الصريح في الذكر الحكيم أعنى قوله تعالى: (أَن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ) وكلا الوجهين موجودان في كلامهم يوم حاولوا فرض نقض الميثاق وطلبوه من علي - عليه السلام - يقول ابن مزاحم: فنادت الخوارج في كل ناحية: لا حكم إلا لله، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله. قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم (١). ثالثاً: زعموا أن قبول التحكيم يستلزم أنهم كانوا ضالين في نضالهم وجهادهم ضد معاوية طيلة شهور، ونتيجة ذلك أن ما أريقت منهم من الدماء، وما قدموا في ذلك الطريق من الشهداء كانت على غير وجه الحق ولأجل ذلك لما قرأ الأشعث صحيفة الصلح على تميم، قالوا: أتحكمون الرجال في أمر الله لا حكم إلا لله، فأين قتلانا يا أشعث (٢). رابعاً: قالوا: إنك نهيت عن الحكومة أولاً- ثم أمرت بها ثانياً، فإن كانت قبيحة كنت بنهيك عنها مصيباً، وبأمرك مخطئاً، وإن كانت حسنة كنت بنهيك عنها مخطئاً وبأمرك بها مصيباً، فلا بد من خطئك على كل حال. هذه الوجوه الأربعة مما اغتر به القوم، وأرادوا فرض نقض التحكيم والميثاق على علي - عليه السلام - وهي تكشف عن بساطة القوم في المقام، وإليك تحليل كل واحد من هذه الوجوه: أما الوجه الأول: فإنه وإن كان قد مضي حكم الله في معاوية وأصحابه أن

١. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٩٤.

٢. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٨٨. (٧٨)

يقتلوا أو يدخلوا في حكم الإمام المفترض طاعته، وكان الواجب على الإمام محاربتهم حتى تتحقق إحدى الغايتين ولكن التكليف بالمحاربة، مرهون بالقدرة وعدم المانع من تحقيق التكليف، والقوم سلبوا القدرة عن الإمام القائد، حيث جاءوا إليه في عشرين ألفاً مقنعين في الحديد، شاكي سيوفهم على عواتقهم يدعون به باسمه ويقولون: أجب إلى كتاب الله إذ دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم. أفي هذا الموقف الحرج يتصوّر أن تكون المحاربة تكليفاً شرعياً على الإمام أو يكون الحكم مرفوعاً بارتفاع قدرته على مواصلة الحرب، إذ كانت نتيجة مواصلة الحرب هو قتل الإمام أو تسليمه إلى العدو مكفوف اليدين، وكان الذل والوهن عندئذ أكبر وأفدح. نعم، رجعت القدرة إلى الإمام بعد ندامتهم على التحكيم واستعدادهم لمواصلة الحرب بعد الصلح وأخذ الموائيق، ولكن كانت الندامة في غير محلّها وندموا ولم ينفعهم الندم حيث ضاعت الفرصة الذهبية، إذ كما أن من حكمه سبحانه مواصلة حرب الطغاة وقد نطق بها الذكر الحكيم، كذلك الأيفاء بالموائيق، واحترام العقود والعهود من أحكام القرآن والسنة المطهرة. ولأجل ذلك أجب علي عن اصرارهم على مواصلة الحرب بقوله: «ويحكم، أبعده الرضا والميثاق والعهد نرجع؟ أوليس الله تعالى قال: (أوفوا بالعقود) وقال: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بغير تكليفها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون) (١). ولكن القوم كانوا بعيدين عن المنطق، قريبي القعر، سمعوا أدلة الإمام ولم يجيبوا عنها بشيء إلا بتضليله والبراءة منه. وسوف نرجع إلى تحليل هذا

١. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٨٩. (٧٩)

الوجه عند البحث عن الاباضية. وأمّا الوجه الثاني: أعنى كون هذا تحكيمياً للرجال في دين الله: وهو خطأ. إن الإمام وأصحابه لم يحكموا الرجال في دين الله بل حكموا القرآن والذكر الحكيم فيما اختلفوا فيه ولكن القرآن شجرة يانعها وحجّه صامتة لا تجتنى ثمرته

ولا- يعلم مقاصده إلا بمن ينطقه وإلى ذلك يشير الإمام في بعض خطبه: «إنا لم نحكم الرجال وإنما حكمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال، ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولى عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله سبحانه: (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنّته، فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس وأولاهم بها»(١). وفي كلام آخر له: «فإنه حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، وإحياءه الاجتماع عليه، وإماتته الافتراق عنه، فإن جرتنا القرآن إليهم، اتبعناهم، وإن جرتهم إلينا اتبعونا، فلم آت - لا أباً لكم - بُجراً ولا خلتكم عن أمركم، ولا لبستة عليكم، إنما اجتمع رأى ملتكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن (٢). وقد جاء في نفس الميثاق الذي أملاه على التصريح بأن الحكم هو القرآن، وإن دور الحكمين هو انطاق القرآن في محلّ النزاع وقد جاء في

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٥.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧. (٨٠)

الميثاق قوله: «وان كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن فان وجد الحكمان ذلك في كتاب الله اتبعناه، وإن لم يجدها أخذنا بالسنة العادلة غير المفرقة»(١). وبعد هذه الكلم الواضحة، المعربة عن حقيقة الحال، كان اصرارهم على نقض الميثاق صادراً عن جهل وعجز في الرأى. وأما الوجه الثالث: أى أنه يستلزم من قبول التحكيم كونهم ضالين في نضالهم وجهادهم طيلة شهور، وإنّ الدماء التي أريقّت، أنّما أريقّت في غير وجه الحق، فهو أوهن من الوجهين السابقين، وذلك لأنّه سبحانه كما أمر بالقتال والنضال في كتابه وقال: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر....)(٢). وقال سبحانه: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله...)(٣) كذلك أمر بالصلح والسلم في غير واحد من آياته، وقال: (وإن جنتحوا للسلم فأجتح لها وتوكل على الله....)(٤) وقال سبحانه: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فأت فأصلحوا بينهما بالعدل

١. الطبرى: التاريخ ٤/٣٨.

٢. التوبة: ٢٩.

٣. الأنفال: ٣٩.

٤. الأنفال: ٦١. (٨١) وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(١) الصلح والايقاف ليسا دليلا على أنّ الدماء التي أريقّت إنّما أريقّت في غير وجه الحق، وعلى ذلك فكل من الحرب والصلح، والنضال والموادعة حكم من أحكام القرآن، يطبق كل في مورده وذلك حسب ما يراه الحاكم الإسلامى وعلى ذلك جرت سيرة الرسول الأكرم، فقد ناضل قريشاً في بدر وأحد وقاتلهم في الأحزاب، وقد أريقّت من دماء المسلمين ما لا يستهان بها، ومع ذلك فقد صالح قريشاً في الحديبية، وكتب بينه وبينهم ميثاق الصلح على ما مرّ الإيعاز إليه في كلام على - عليه السلام - حتى ان قريشاً أبوا أن يكتب «رسول الله» إلى جانب اسمه، وألزموه بتجريد اسمه عن الرسالة كما أبى معاوية وعمرو بن العاص إلا - أن يكتب اسم على مجرداً عن الإمارة، فكان في ذلك اقتداء بالنبي، فالدماء التي أريقّت في ساحات القتال إذا كانت لوجه الله فلا تنقلب عمّا عليه، وأصحابها شهداء، أحياء عند ربهم يُرزقون، ولا يأبى ذلك أن يصلح القائد الإسلامى إذا اقتضت المصلحة لظروف مختلفة، مع العدو وكلا الحكمين حكم الله. وأما الوجه الرابع: فقد أجاب عنه الإمام بعد ما قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أى الأمرين أرشد؟ فصفق - عليه السلام - إحدى يديه على الأخرى ثم قال: «هذا جزء من ترك العقدة»(٢) أما والله لو أنّى حين أمرتكم به، حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً، فان استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومتكم، وإن ايتمت تداركتكم، لكانت الوثقى، ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن

١. الحجرات: ٩.

٢. العقدة: الرأي الوثيق. (٨٢)

أدواى بكم وأنتم دائي»(١). أقول: إن القوم كانوا بُعِدَاءَ عن التفكير الصحيح فزعموا أن هنا تناقضاً في الرأي، مع أنه لا منافاة بينهما بعد فرض اختلاف ظرف الحكيمين، ففيما كان الإمام قائداً مُطَاعاً، كان الحق هو مواصلة الحرب، ولذا كان يصبر على المواصلة، وعند ما عُصِيَ، وُخُولِفَ، لم يكن بد من التنازل إلى الحكم الآخر، فلا الإيقاف يبطل حكم القتال وأجر الشهداء ولا الحكم بالقتال يلازم بطلان الهدنة وعدم صحته إذا اقتضت المصلحة ذلك وفقاً لاختلاف الظروف. * * *

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ١٢١. (٨٣)

الفصل الرابع تحركاتهم السياسية بعد مبدأ

الفصل الرابع تحركاتهم السياسية بعد مبدأ التحكيم (٨٤) (٨٥) لما تمت الإنفاقية، وشهد عليها شهود، وقرأت على الناس، انسحب معاوية إلى جانب الشام، وتوجه الإمام نحو الكوفة مع جيشه وأصحابه ورافقه المعترضون على التحكيم الذين عرفوا بالمحكمة، فدخل الإمام الكوفة دار هجرته وامتنت المحكمة عن الدخول، وذهبوا إلى قرية «حروراء» كما ذهب قسم منهم إلى معسكر نخيلة اعتراضاً على عليّ وحكمه. وقد أعرّبوا بعملهم هذا أنهم متخلفون عنه، وعن أوامره، وخارجون عن طاعته، ولقد كان لهم ألوان متفاوتة في مخالفتهم ولكن الجميع يشتركون في كونها ردود فعل لما آل له التحكيم ونذكر أبرزها: ١- التظاهر ضد عليّ - عليه السلام - بقولهم «لا- حكم إلا- لله» في المسجد وخارجه خصوصاً عند قيام الإمام بالقاء الخطب. ٢- تكفير عليّ - عليه السلام - وأصحابه الذين وفوا بالميثاق. ٣- تأمين أهل الكتاب وارهاب المسلمين وقتل الأبرياء. وأما ما قام به الإمام في مقابل هذه المواقف فكلها ينبع عن عطفه وحنائه على الأعداء وصبره الجميل تجاه المآسى، وإليك بيانه: (٨٦) ١- قام عليّ - عليه السلام - بتبيين موقفه من كتاب الصلح وأنه ما أمضاه إلاّ باصرار منهم وإرهاب ضده. ٢- التعامل معهم كسائر المسلمين في الجوائز والعطايا. ٣- بعث شخصيات كبيرة لهدايتهم وارجاعهم عن غيهم. ٤- محاوله أخذ الثأر من قتله عبدالله بن خباب بن الارت وزوجته عندما قتلا بايدي سفلة الخوارج وإليك بيان الجميع: الف- التظاهر ضد عليّ - عليه السلام - : روى الطبري: «لما وقع التحكيم ورجع عليّ من صفين، رجعا متباينين له، فلما انتهوا إلى النهر أقاموا به، فدخل عليّ في الناس الكوفة ونزلوا بحروراء وبعث إليهم عبدالله بن عباس فرجع ولم يصنع شيئاً، فخرج إليهم عليّ فكلّمهم (١) حتى وقع الرضى بينه وبينهم، فدخلوا الكوفة، فأتاه رجل فقال، إن الناس قد تحدّثوا أنك رجعت لهم عن كفرك، فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمرهم فعابه، فوثبوا من نواحي المسجد يقولون: لا- حكم إلا- لله، واستقبله رجل منهم واضعاً إصبعه في اذنيه، فقال: «وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيُحِبِّطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ». فقال عليّ: «فأصبر إن وَعَدَ اللهُ حَقُّ ولا يَسْتَخْفَنُكَ الَّذِينَ لا يُؤَقِنُونَ»(٢). وببالي ورد في بعض المصادر: إن الرجل صاح بالآية والإمام في اثناء الصلاة، فأجابه الإمام بتلاوة الآية التي عرفتها.

١. سبوايكم ما تكلم به معهم في خاتمة المطاف .

٢. الطبري: التاريخ ٤/٥٤. (٨٧) ب- تكفير عليّ وأصحابه: أكبر كلمة كانت تصدر من أفواه الخوارج هو تكفير عليّ لأجل قبول التحكيم وكأنه خطيئة وارتكاب الخطيئة عندهم كفر، كما هو أحد أصولهم التي نبحت عنها عند عرض عقائدهم، ويكفي في ذلك ما نقله الطبري في مذاكرة علي مع حرقوص بن زهير السعدي، وزرعة بن برج الطائي ومّر النصّ في أول الفصل السابق. وإلى هذا يشير الإمام في بعض كلامه حيث قال لهم: «أصابكم حاصب (١) ولا يبقى منكم آبر (٢)، أبعث إيماني بالله، وجهادى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، فابوا شرمآب، وارجعوا على أثر الأعقاب، أما أنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً وإثرة (٣) يتخذها الظالمون فيكم سنّة»(٤). ج- قتل الأبرياء: والمدهش من أخبارهم أنهم كانوا يقتلون المسلمين ويجيرون المشركين وأهل الكتاب. روى المبرّد في كامله: إن القوم مضوا إلى النهروان، وقد كانوا أرادوا المضى

إلى المدائن فأصابوا في طريقهم مسلماً و نصرانياً، فقتلوا المسلم، لأنه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني وقالوا: _____

١. الحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء .

٢. الأبر: الذي يَأْبُر النخل أى يصلحه .

٣. الاثره: الاستبداد عليهم بالفى و الغنائم، قال: النبى للأنصار: «ستلقون بعدى إثره فاصبروا حتى تلقوني» .

٤. الرضى: نهج البلاغه، الخطبة ٥٨. (٨٨)

احفظوا ذمة نبيكم. قال المبرد: وحدث أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فاحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقة: إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإيأهم، وكانوا قد أشرفوا على العطب. فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت و أصحابك فقال: قوم مشركون مستجبرون بكم ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده. قالوا: قد أجرناكم، قال: فاعلمونا، فاجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي. قالوا: فامضوا مصاحبين فقد صرتم اخواننا. فقال: بل تبلغوننا مأمننا. لأن الله تعالى يقول: «وإن إحد من المشركين استجارك فأجزه حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» (١) فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فصاروا معهم بجمعهم حتى ابلغوهم المأمن (٢). ومع ذلك قتلوا عبد الله بن خباب بن الارت - كما سوافيك بيانه في الفصل القادم - وبقروا بطن زوجته المتم. وأما السياسة الحكيمه التي مارسها الإمام ازاء أعمالهم قبل تحركاتهم العسكريه فقد وقفت على رؤوسها، وإليك الإيعاز إليها ثانياً ليقع مقدمه للشرح والتبيين. ١ - تبيين موقفه في مسأله التحكيم، وأنه لم يكن راضياً به وفرض عليه بارهاب. ٢ - التعامل معهم كسائر المسلمين. _____

١. التوبه: ٦ .

٢. المبرد: الكامل ٢/١٢٢ مكتبة المعارف بيروت، و ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغه ٢/٢٨١، و المبرد متهم - عند ابن أبى الحديد - بالميل إليهم، و لكننا سيرنا كامله، فلم نر شيئاً يدل عليه، غير أنه سرد تاريخهم و في بعض الموارد طعن بهم. (٨٩) ٣ - بعث الشخصيات لارجاعهم عن غيرهم. و إليك بيان كل ذلك. ١ - الإمام يبين موقفه من التحكيم: قام الإمام بتبيين موقفه في مسأله التحكيم وأنه لم يكن ضاللاً في نفسه ولا - كان الإمام مخادعاً، فقال في بعض كلماته: «فلم آت لا - أباً لكم بجرأ، ولا - ختلتكم عن أمركم، ولا - لبستة عليكم، و إنما اجتمع رأى ملتكم على اختيار رجلين...» (١). هذا نموذج من كلماته حول التحكيم حيث بين فيها موقفه في هذه المسأله و أنه كان طبق الكتاب و السنه فلنكتف بذلك و لنترجع الى ما بقى من السياسة الحكيمه التي مارسها معهم. ٢ - التعامل معهم كسائر المسلمين: تعامل الإمام مع الخوارج كسائر المسلمين ولم ينقص من حقوقهم شيئاً مادام لم يشنوا الحرب عليه، روى الطبرى عن كثير الحضرمى قال: قام على في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل من جانب المسجد: لا حكم إلا لله، و قام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدّه رجال يحكمون، فقال على: الله أكبر كلمه حق يراد بها باطل أما ان لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، و لانمنعكم الفىء مادامت أيديكم مع أيدينا، ولانقاتلكم حتى تبدؤنا، ثم رجع إلى مكانه الذى كان من خطبته (٢) _____

١. الرضى: نهج البلاغه، الخطبة ١٢٧.

٢. الطبرى: التاريخ ٤/٥٣. (٩٠) ٣ - بعث الشخصيات لارجاعهم عن غيرهم: قام الإمام بإرسال أكابر أصحابه رجاء هدايه بعضهم، فبعث عبد الله بن عباس الى معسكرهم فجرى بينه و بينهم مفاوضات ذكرها المؤرخون، قال المبرد: إن أمير المؤمنين لما وجه إليهم عبد الله بن عباس لينظرهم قال لهم: ما الذى نقتم على أمير المؤمنين، قالوا له: قد كان للمؤمنين أمير، فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان، فليتبع بعد اقراره بالكفر نعيذ إليه، قال ابن عباس: ما ينبغي لمؤمن لم يشب إيمانه بشك ان يقر على نفسه بالكفر، قالوا: إنه حكم، قال: إن الله أمر بالتحكيم فى قتل صيد فقال: (يحكمم به ذوا عدل منكم) (١) فكيف فى إمامه قد أشكلت على المسلمين؟ فقالوا

إنه حكم عليه فلم يرض، فقال: إن الحكومة كالإمامة، متى فسق الإمام وجبت معصيته، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما، فقال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاج قريش حجة عليهم، فإن هذا من الذين قال الله فيهم (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) (٢) وقال جل ثناءه: (وَلْتُنذِرْ بِهِ قَوْمًا لَدًّا) (٣). إن حوار ابن عباس معهم كان حجة دامغة فقد احتج عليهم بالقرآن فما أجابوه بشيء. والعجب أنهم كانوا يرون التحكيم على خلاف الكتاب والسنة وإن الرضا به بمنزلة الكفر، ومع ذلك كانوا يصرون على أنه يجب على الإمام أن يخضع لنتيجة التحكيم، فإن الحكامين لما عزلوا عن مقام الحكومة يجب عليه التنازل. فما هذا التناقض بين المبدأ والنتيجة، والتحكيم عندهم كفر وزندقة ولكن

١. المائة: ٩٥.

٢. الزخرف: ٥٨.

٣. مريم: ٩٧. (٩١)

الأخذ بنتيجته عين التوحيد والتدين، كل ذلك يعرب عن وجود العمى في القلوب والصمم في الأسماع. ثم إن الإمام لم يكتف ببعث ابن عمه بل قام بنفسه بهذا الأمر الخطير، فركب على - عليه السلام - إلى حروراء، فخطبهم بقوله: ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف، قلت لكم إن هذه مكيدة ووهن، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لآتونى وسألونى التحكيم؟ أفتعلمون أن أحداً كان أكره للتحكيم منى؟ قالوا: صدقت، قال: فهل تعلمون أنكم استكرهتمونى على ذلك حتى أجبتمكم إليه، فاشترط أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه، فأنا وأنتم من ذلك براء، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدونى، قالوا: اللهم نعم، قال: و كان معهم فى ذلك الوقت ابن الكواء (قال: وهذا من قبل أن يذبوحوا عبدالله بن خباب، وأما ذبحوه فى الفرقة الثانية بـ «كسكره») فقالوا له: حكمت فى دين الله برأينا ونحن مقررون بأننا كنا كفرنا، ولكننا الآن تائبون فأقر بمثل ما أقرنا به، وتب ننهض معك إلى الشام، فقال: «أما تعلمون أن الله تعالى قد أمر بالتحكيم فى شقاق بين رجل وامرأته»، فقال سبحانه: (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا) وفى صيد اصيب كأرب يساوى نصف درهم فقال (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ). فقالوا له: فإن عمراً لما أبى عليك أن تقول فى كتابك: «هذا ما كتبه عبدالله على أمير المؤمنين» محوت اسمك من الخلافة و كتبت «على بن أبى طالب» فقد خلعت نفسك، فقال: لى فى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أسوة حين أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب: «هذا كتاب كتبه محمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - و سهيل بن عمرو» وقال له: لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك، ولكنى أقدمك لفضلك، فكتب «محمد بن عبدالله» (٩٢)

فقال لى: يا على، امح «رسول الله» فقلت: يا رسول الله لا تسخو نفسى على محو اسمك فى النبوة فقال: ففنى عليه، فمحاه بيده، ثم قال: «اكتب محمد بن عبدالله» ثم تبسم لى وقال: يا على، أما أنك ستسام مثلها فتعطى، فرجع معه منهم ألفان من حروراء وقد كانوا تجتمعوا بها فقال لهم على - عليه السلام - مانسميكم؟ ثم قال: أنتم الحرورية، لاجتماعكم بحروراء (١). وللامام خطبة أخرى بين فيها شبهة الخوارج و أجاب عنها بشكل واضح، فمن أراد فليرجع إلى «نهج البلاغة» (٢) هذا بعض ما مارسه الإمام تجاه غيهم و كلها تكشف عن سعة صدره، وقوة صبره، و إخلاصه فى الدين، و لكن القوم تهادوا فى طغيانهم و أعادوا فى خواتيم أمرهم، ما تظاهروا به فى بدء غوايتهم، غير أنهم لم يكتفوا به فأراقوا دماء طاهرة، فلم يكن بد للامام من قطع مادة الفساد، فما قام بالمواجهة المسلحة إلا بعدما بذل كل ما فى وسعه من النصح و الإرشاد، و بعد أن بلغ السيل الزبى، فرد الحجر من حيث جاء. ***

١. المبرّد: الكامل ١٣٥-٢/١٣٦ ط مكتبة المعارف و له كلام معهم ذكره المبرّد أيضاً فى ٢/١٥٦. نأتى به عند محاكمة الأشعث فانتظر،

ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٧٤-٢٧٥.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

الفصل الخامس موقف الإمام من رأى الحكيمين (٩٤) (٩٥) لقد صالح الامام معاوية و أوكل الأمر الى الحكيمين في ثلاثة عشر خلت من شهر صفر عام ٣٧ من الهجرة، و اتفقا على أن الحكيمين يجتمعان بدومة الجندل ليرفعا ما رفع القرآن، و يُخفّض ما خفّض القرآن، وقد اجتمعا هناك في شعبان ذلك العام، و كانت النتيجة أن خلع أبو موسى الإمام عن الخلافة، و نصب عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان إماماً للمسلمين، كل ذلك بخداع معروف في التاريخ، حيث اتفقا سرّاً على أن يخلعا علياً و معاوية عن الحكم حتى يولّى المسلمون لأنفسهم والياً، ولما أرادا الإدلاء برأيهما خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري فقال له: تقدّم وأدل برأيك، فقال: يا أيها الناس إننا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرأصلح لأمرها، و لا أئتم لشعثها من أمر قد جمع رأيي ورأى عمرو عليه، و هو أن نخلع علياً و معاوية و تستقبل هذه الأمة الأمر فيولّوا منهم من أحبّوا عليهم، و أتى قد خلعت علياً و معاوية فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً، ثم تنحّى و أقبل عمرو بن العاص فقام مقامه فحمد الله و أثنى عليه و قال: إن هذا قد قال ما سمعتم و خلع صاحبه و أنا أخلع صاحبه كما خلعه و أثبتّ صاحبي معاوية فإنّه ولى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) (٩٦)

و الطالب بدمه و أحقّ الناس بمقامه، فقال أبو موسى: مالك لا وفّقك الله غدرت و فجرت (١) إنّما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، قال عمرو: إنّما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، و حمل شريح بن هاني على عمرو فقتعه بالسوط و حمل على شريح ابن لعمر و فضربه بالسوط، و قام الناس فحجزوا بينهم، و كان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمت على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألا أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهر ما أتى، و التمس أهل الشام أبا موسى فركب راحلته و لحق بمكة، قال ابن عباس: قبح الله رأى أبي موسى حدّرتة و أمرته بالرأى فما عقل، فكان أبو موسى يقول: حدّرتني ابن عباس غدره الفاسق و لكنتي إطمأنتت اليه و ظننت أنّه لن يؤثّر شيئاً على نصيحة الأمة، ثم انصرف عمرو و أهل الشام الى معاوية و سلّموا عليه بالخلافة، و رجع ابن عباس و شريح بن هاني الى علي - عليه السّلام - و كان إذا صلّى الغداة يفتنّ فيقول: اللهمّ إلعن معاوية و عمرأ و أبا الأعرور السلمى و حبيباً و عبدالرحمن بن خالد و الضحاك بن قيس و الوليد، فبلغ ذلك معاوية فكان اذا قنت لعن علياً و ابن عباس و الأشتر و حسناً و حسيناً. و زعم الواقدي أنّ اجتماع الحكيمين كان في شعبان سنة ٣٨ من الهجرة (٢). لَمّا بلغ علياً ماجرى بين الحكيمين من الحكم على خلاف كتاب الله و سنّة رسوله و غدر عمرو بن العاص و انخداع أبي موسى قام خطيباً، رافضاً ما حكم به الحكمان الجائران، و قال:

١. هذا من الصحابة العدول عند القوم، فاقض ما أنت قاض فهذا الصحابي يصف زميله بالفجور و الغدر، و الجمهور يصفون الجميع بالتقى و العدل .

٢. الطبري: ٤/٥١-٥٢. و ما نقله عن الواقدي غير صحيح لما عرفت سابقاً: أنّه كان اللازم على الحكيمين الإدلاء برأيهما قبل انقضاء موسم الحج و قد اتفق الطرفان في صفر عام ٣٧. فكيف يكون الاجتماع عام ٣٨؟ (٩٧) «الحمد لله و إن أتى الدهر بالخطب الفادح، و الحدث الجليل، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، و أن محمّداً عبده و رسوله، صلّى الله عليه». أمّا بعد: فإنّ معصية الناصح، الشفيق العالم، المجرب، تورث الحسرة، و تعقبت الندامة، و قد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمرى، و نخلت لكم مخزون رأيى، لو كان يطاع لقصير أمرى، فأبيتم على إباء المخالفين الجفأة، و المنابذين العصاة، حتّى ارتاب الناصح بنصحه، و ضنّ الزنّد بقُدّجه، فكنت أنا و إياكم كما قال أخو هوازن: أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى * فلم تستبينوا النصح إلاّ ضحى الغد (١) صدق الإمام، أنّ من الخطب الفادح، و الحدث الجليل، خلع صديق الأمة و أوّل من آمن برسالة النبي الأكرم و صدّق به و بات في فراشه، دفعاً لريب المنون، و جاهد في سبيل الله بنفسه و نفيسه و شهد المعارك كلها إلاّ تبوك، (و كان ذلك بأمر النبي)، الى غير ذلك من فضائل و مناقب و مآثر جمّة اعترف بها الصديق و العدو و القريب و النائي . إنّ من المصائب العظام نصب معاوية بن أبي سفيان الطليق بن الطليق، ابن آكلة الأكباد، للخلافة و الزعامة الإسلامية، و أنّى هو من الإسلام، و هو ثمرة الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن، أو ليس

هذا من أدهى الدواهي؟ ولإجل ذلك نرى أن الإمام يصف تلك الحادثة المريعة، بالخطب الفادح والحديث الجليل. هذا ما يرجع الى نفس الخلع والنصب وأمياً ما كان يرجع الى الحكمين فكان عليهما قبل ادلاء الرأي في حق علي و معاوية، دراسة الأسباب التي أدت _____

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٣٥. (٩٨)

الى إشعال نار الفتنة و اراقه الدماء الطاهرة حيث أسفرت حرب صفين عن مقتل خمسة وأربعين ألف نفر من جيش معاوية، و شهادة خمسة و عشرين ألف نفر من جيش الإمام على بن أبي طالب (١) كل ذلك لأجل الأخذ بثأر شخص واحد، أفصح في ميزان العدل و النصفة أن تزهق هذه النفوس كلها مقابل ذلك؟ فهل كان الأساس لشنّ الحروب على علي - عليه السلام - هو حكم القرآن الكريم و السنة النبوية؟ وهل هما يسوّغان لأخذ ثأر انسان واحد، ارتكاب تلك الجنايات الهائلة؟ أو أنه كان أخذ الثأر واجهه لما يطمح إليه معاوية من دفع الإمام عن مقامه و ركوبه منصفه الخلافة، أو إلقاء علي إلى ابقاء ابن الطلقاء في المقام الذي كان يُشغله طيلة خلافة الخليفين كما طلبه من الإمام قبل الحرب و خلالها؟ كان على الحكمين دراسة المواضيع التالية حتى يتبين من له الحق عدن عليه و هي: ١ - دراسة الأسباب التي أدت الى قتل الخليفة عثمان، وهل كان هناك مبرر لقتله أو لا؟ ٢ - إن قيادة الإمام بعد قتل عثمان هل كانت قيادة قانونية و شرعية، حيث بايعه المهاجرون و الأنصار و تمت البيعة له في مسجد النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بمراى و مسمع من الناس من دون أى جبر و إكراه؟! و لم تكن هناك بيعه أصلاً، أو كانت البيعة عن إكراه لاعتن اختيار؟ ٣ - اذا خرج الباحث من دراسة الأمر الثانى بأن قيادة الإمام كانت قيادة شرعية هل كان هناك مبرر لمعاوية لرفض بيعه المهاجرين و الأنصار، و تأخير بيعته الى أن يقوم بأخذ الثأر، ويدفع الإمام إليه قتله الخليفة و كأنه هو الخليفة _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٦٤٣. (٩٩)

- معاوية؟ و هل يكون معاوية بعمله و رفضه و خروجه باغياً على الإمام المفترض طاعته و قد جاء حكم الباغي في الذكر الحكيم (١). أو كان على معاوية أن يدخل في جماعة المسلمين و لا يشق عصاهم بالتقاعس عنه، ثم يرفع الخصومة الى صاحب البيعة فيرى رأيه. ٤ - اذا ثبت أن عثمان قتل مظلوماً في عقر داره و أنه يجب أخذ ثاره من قتله، فعندئذ يقع الكلام في أن أخذ الثار هل هو وظيفة الخليفة أو وظيفة معاوية أو لا هذا ولا ذاك، و إنما هو راجع الى ولد عثمان؟ ٥ - نفترض أن أخذ الثار وظيفة الإمام، فهل كان - صلوات الله عليه - قادراً على تنفيذ حكم القصاص أو كانت الظروف السائدة لا تسمح بذلك؟ ٦ - اذا كان طلحة و الزبير في نكث البيعة، و فى اخراج زوجة الرسول من بيتها - وقد امرت بالمكث فيه - وفى اخراج عامل الإمام من البصرة و قتل حرسه الى غير ذلك من الأمور التي أدت الى حرب الجمل، اذا كانا فى هذه الأمور معذورين، مجتهدين، و ان كانا مخطئين، فهل يصح تبرير عمل قتله عثمان بالخطأ فى الاجتهاد أو لا؟ ٧ - و على فرض لزوم الاقتصاص و رفض اجتهادهم فهل لخليفة العصر، العفو عن القصاص و ابداله بالدية كما فعله عثمان فى حق عبيدالله بن عمر حين قتل هرمزان، و جفينة بنت أبي لؤلؤ بلا ذنب؟ (٢). هذه هى المواضيع الهامة التي كانت دراستها أمراً مفروضاً على الحكمين حتى يخرجوا مرفوعى الرأس محيين ما أحياه القرآن و مميتين ما أمات، غير أن الحكمين - يالأسف - لم يتبسأ فيها بنيت شفة و مرآ عليها مرور اللثام و لكن _____

١. الحجرات: ٩.

٢. الطبرى: التاريخ ٣/٣٠٥. (١٠٠)

لا - محيص للباحث المحقق عن قيمة رأى الحكمين من دراستها، ولأجل ذلك نبحت عنها بإيجاز، حتى يقف القارىء على أن رأى الحكمين كما وصف أمير المؤمنين كان خطباً فادحاً و اليك دراستها: إن دراستها على وجه التحقيق تحوجنا الى تأليف مفرد لا يناسب وضع الكتاب، غير أننا نشير إليها إشارة عابرة، و نلمع إليها إلماعاً بسيطاً. أولاً: قد تعرّفت على بعض الأسباب التي أدت الى قتل الخليفة و الفتك به، و ان الاستبداد بالرأى، و تسليط بنى أمية على رقاب الناس، و تخصيص كميّة هائلة من بيت المال لأصحاب الترف و

البذخ من أبناء بيته، و تسيير صلحاء الأئمة من الصحابة و التابعين عن المدينة المنورة إلى منافيتهم، و أخيراً تعدى عماله و ولايته في العراق و مصر على الطبقات الوسطى، و الفقيرة من المجتمع و... كل هذه أدت إلى انتشار السخط و الغضب على الخليفة و عماله إلى أن جنى ثمرة عمله فقتل في عقر داره و بين أبنائه و نسائه بمرأى و مسمع من المهاجرين و الأنصار، و هم بين مجهز عليه، و مؤلّب و راض و محايد. و القضاء في مثل هذه المسألة من صلاحية لجنة عارفة بالكتاب و السنة، واقفة على حياة الخليفة و ما قام به من الأعمال، و ما نقم عليه من الأفعال حتى تصدر - بعد سماع حجج الثائرين - عن مصدر قويم و مثل هذه المشكلة لا تحل عقدها في ساحة الحرب، بل في جو هادئ، يكون القاضي فيه مستقلاً في الرأي، و حرّاً في التفكير و التعبير، و نحن لاندخل في هذه المعركة الخطيرة، نترك القضاء فيها إلى تلك اللجنة الخبيرة و نعطف عنان البحث إلى الموضوع الثاني. ثانياً: إنّ من سبر التاريخ يقف على أنّ بيعه الإمام كانت بيعه شعبية جماهيرية، ولم يكن لها مثيل في تاريخ الخلافة الإسلامية، فإذا قلت: لم يكن لها مثيل في تاريخ الخلافة فإنما أقولها عن بينه و دليل فإن الخليفة (١٠١)

الأول قد خرج عن السقيفة ببيعة ليف من المهاجرين من الأنصار و تخلف عن بيعته بنو هاشم و الخزرجيون عامة. كما أنّ عمر بن الخطاب تسّم منصبه الخلافة بإيضاء من الخليفة و لم يكن هناك للناس أي رأي ولا اختيار. و قد كانت خلافة عثمان بانتخاب الشورى التي عيّنها أعضاءها الخليفة الثاني ولم يكن للمهاجرين و الأنصار أي نظر في تعيين تلك الشورى. فإذا كان كل ذلك معطياً للخلافة، الصبغة القانونية، فبيعة المهاجرين و الأنصار علياً هاتفين بأنهم لا يختارون غيره و فيهم الرعيل الأول من صحابة الرسول و التابعين لهم بإحسان، أولى بأن تكون شرعية و قانونية. و اتفق الباحثون عن كيفية انعقاد الامامة لرجل، على أنّ بيعه أهل الحل و العقد من أهل المدينة حجة على عامة المسلمين. يروي الطبري عن محمد بن الحنفية قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان (رضي الله عنه) فدخل منزله فأتاه أصحاب رسول الله فقالوا: إنّ هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، ولا أقدم سابقه ولا أقرب من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: لا تفعلوا، فإنّي أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإن بيعت لا تكون خفية، ولا تكون إلاّ عن رضی المسلمين، قال: سالم بن أبي الجعد: فقال عبدالله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه، فأبى هو إلاّ المسجد، فلما دخل، دخل عليه المهاجرون و الأنصار فبايعوه ثم بايعه الناس (١). و قد حفظ التاريخ أسماء المتخلفين عن بيعه على وهم نفر يسير لا يتجاوز

١. الطبري: التاريخ ٣/٤٥٠. (١٠٢)

العشرة و هذا يدل على أنّ جو البيعة كان هادئاً حرّاً، ولم يكن هناك أيّ ضغط و إجبار، فبايعت الجماهير، و تخلفت عدة قليلة كانت عثمانية الهوى كحسان بن ثابت، و كعب بن مالك، و مسلمة بن مخلد، و زيد بن ثابت، و النعمان بن بشير، و محمد بن مسلمة، و رافع بن خديج، و فضالة بن عبيد، و كعب بن عجرة. يقول الطبري: أمّا حسان فقد كان شاعراً لا يبالي ما يصنع، و أمّا زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان و بيت المال فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين، فقال أبو أيوب: ما تنصره إلاّ أنّه أكثر لك من العضدات، فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة المدينة و ترك ما أخذ منهم له (١) ولا أظن أنّه يوجد على أديم الأرض انتخاب جماهيري لقائد، لا يوجد فيه مخالف شاذ يابى عن البيعة لدوافع شخصية. و قد تعرفت فيما سبق على كلمات الإمام و نزيد في المقام قوله مخاطباً طلحتة و الزبير: والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتوني إليها و حملتموني عليها (٢). ثالثاً: إذا خرجنا بهذه النتيجة: إنّ بيعه الإمام كانت بيعه شرعية قانونية أطبق عليها المهاجرون و الأنصار، فلا يبرر يرفض معاوية على و يؤخر البيعة و يرفع قميص عثمان مطالباً بالثأر؟ ولأجل ذلك نرى الإمام يتدده و يبين موقفه من بيعته و يكتب إليه قائلاً: إنّ بايعي القوم الذين بايعوا أبابكر و عمر و عثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، أمّا الشورى للمهاجرين و الأنصار، فإن اجتمعوا على رجل و سمّوه إماماً كان ذلك لله رضی، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى

ما خرج منه،

١. الطبري: التاريخ ٣/٤٥٢.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠. (١٠٣)

فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى (١). رابعاً: لو خرج الباحث بهذه النتيجة و هو أن عثمان قتل مظلوماً في عقر داره، وأنه يجب أخذ ثاره من قتلته، فلاشك أن ذلك حق ولى الدم، قال سبحانه: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً) (٢) فهل كان معاوية ولى الدم، أو أن ولى الدم أولاد المقتول و إن نزلوا. إن معاوية حسب المقاييس الشرعية لم يكن ولى الدم و إنما أولياؤه ولده فلمهم حق القصاص، ولكن لا- ينالون حقهم إلا- برفع الأمر الى المحكمة الصالحة لتتظر في أمرهم. ولو عجزت المحكمة، فلمهم الاستنجد بغيرهم، لا- في بدء الأمر، ولأجل ذلك نرى أن الإمام يُنَدِّد بقيامه بأخذ الثأر ولا يراه صالحاً لهذا الأمر ويكتب الى معاوية: «زعمت أنك أنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان»: ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا، و ما كان الله ليجمعهم على ضلال، ولا ليضربهم بالعمى و بعد فما أنت و عثمان، إنما أنت رجل من بني أمية، و بنو عثمان أولى بمطالبه دمه، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إلى (٣). وفي لفظ ابن قتيبة: أميا قولك ادفع إلى قتل عثمان، فما أنت وذاك؟ وهاهنا بنو عثمان، و هم أولى بذلك منك، فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم فارجع الى البيعة التي لزمتهك و حاكم القوم إلى (٤). خامساً: إذا خرجنا بهذه النتيجة، أن أخذ الثأر و إن كان حقاً ثابتاً لأولياء

١. الرضى: نهج البلاغة قسم الكتب برقم ٦ وفي ذيل الكتاب إشارة الى قوله سبحانه (و من يشاقق الرسول... النساء: ١١٥).

٢. الاسراء: ٣٣.

٣. المبرّد: الكامل ١/١٩٤ مكتبة المعارف بيروت.

٤. ابن قتيبة: الامامة و السياسة ١/٨٨. (١٠٤)

الدم، لكنهم لا يقيمون بأخذ حقهم مباشرة، بل اللانزم عليهم رفع الشكوى الى المحاكم الصالحة التي أقامها ولى المسلمين أعنى الخليفة المفترض طاعته، وإلا فلو قام ولى الدم بالقصاص و أخذ الحق مباشرة، لزم الفوضى في المجتمع، كما هو واضح لكل من له إلمام بالمسائل الاجتماعية، فإذا كان هذا حقاً ثابتاً للإمام، فهل كان الإمام قادراً على تنفيذ حكم القصاص في حق اولئك الثائرين، أو كانت الظروف لا تساعد إجراء الحكم، ولا- تعلم حقيقة الحال إلا بدراسة الموضوع تاريخياً، فإنه يشهد على أن الثائرين لم يكونوا أشخاصاً معينين، بل كانت هناك انتفاضة شعبية مختلطة من الكوفيين والبصريين والمصريين، والمدنيين، وقد حاصروا بيت الخليفة قرابة أربعين يوماً، ولم يكن في وسع أصحاب النبي رفع هذا الحصار أو تفويضه إلى أن حدثت حوادث مريرة أدت إلى الهجوم العنيف على داره، وقد بلغ المهاجمون من الكثرة ما لا يحصى أحد، ويعلم صحّة ذلك من الأمر التالي: إن أبا مسلم الخولاني قام إلى معاوية في أناس من قراء أهل الشام قبل مسير أمير المؤمنين إلى صفين فقالوا له: يا معاوية علام تقاتل علينا وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟ قال معاوية لهم: ما أقاتل علينا وأنا أدعى أن لى في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ولكن خبروني عنكم: أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً؟ قالوا: بلى. قال: فليدع إلينا قتلته، فنقتلهم به، ولا قتال بيننا و بينه. قالوا: فاكتب إليه كتاباً يأتيه به بعضنا، فكتب إلى عليّ هذا الكتاب مع أبي مسلم الخولاني فقدم به على عليّ ثم قام أبو مسلم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنك قد قمت بأمر وتوليته، والله ما أحب أنه لغيرك، أن أعطيت الحق من نفسك، إن عثمان قتل مسلماً، محرماً، مظلوماً، فادفع إلينا قتلته، و أنت أميرنا، فإن خالفك أحد من (١٠٥)

الناس كانت أيدينا لك ناصراً، وألسنتنا لك شاهداً، و كنت ذا عذر و حجة. فقال له علي: اغد عليّ غداً، فخذ جواب كتابك، فانصرف ثم رجع من الغد ليأخذ جواب كتابه فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه، فلبست الشيعة أسلحتها ثم غدوا فملأوا المسجد و أخذوا ينادون: كلنا قتل ابن عفان، وأكثرنا من النداء بذلك، وأذن لأبي مسلم فدخل على عليّ أمير المؤمنين فدفع إليه جواب كتاب

معاوية، فقال له أبو مسلم: قد رأيت قوماً مالِك معهم أمر. قال: وما ذاك؟ قال: بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان، فضجوا و اجتمعوا و لبسوا السلاح و زعموا أنهم كلهم قتلة عثمان، فقال علي: والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفه عين، لقد ضربت هذا الأمر أنفه و عينيه، مارأيت ينبغي لى أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك. (١) نحن نفترض ان بعض من لبس السلاح فى هذه الواقعة لم يكونوا من المهاجمين، أو المؤلّيين، أو المجهزين، لكن تواجد هذه الكمية الهائلة من المتبئين لهذه الفكرة فى الكوفة، فضلا عن أبناء جلدتهم فى البصرة و المدينة، المؤيدين المتفرقين فى بلادهم، يدل على أن المسألة صارت أزمة اجتماعية معقدة، ولم يكن الإمام متمكناً من دفع من قام بالقتل إلى ولى الدم. ويعرب عن ذلك كلام الإمام للناكثين، فقد دخل طلحة و الزبير فى عدة من الصحابة، فقال: يا على إننا قد اشترطنا إقامة الحدود، و إن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم، فقال لهم: يا اخوتاه، إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكونا، ولا نملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم، يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٩٥-٩٧. (١٠٦)

والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله (١). فعلى هذا فلم تكن للإمام يوم بويح ولا بعده ولا بعد شهر، أية مقدرة على القاء القبض على القتالين، وإلا لثارت تلك الجماهير على على وخلافته الفتية، وكانت المصيبة أعظم. سادساً: لاشك ان طلحة و الزبير نكنا البيعة و أخرجوا زوجة رسول الله من بيتها، وقد دخلوا البصرة بعنف وقتلوا حرس القصر، إلى غير ذلك من الأمور التى لا يشك فيها أى ملّم بالتاريخ، ولكن القوم يذكرون الرجلين بخير و صلاح و يسترحمون عليهما و يرونهما من العشرة المبشرة بالجنة ولا يرون أعمالهم الإجرامية مخالفة لطهارتهما، ويبررون أعمالهم بالاجتهاد كما يبررون به عمل معاوية و غيرهم من المجرمين الطغاة حتى عمل مسلم بن عقبة ذلك الطاغى الذى أباح أعراض نساء المدينة لجيشه ثلاثة أيام. فلو صح ذلك التبرير فلماذا لا يصح فى حق هؤلاء الذين هاجموا بيت الخليفة و أجهزوا عليه؟ فكانوا مجتهدين فى الرأى، مخطئين فى النتيجة، فلهم أجر واحد، كما أن للمصيب أجرين؟. ولكن لانرى أية كلمة حول هؤلاء يبرر بها عملهم، فما هذا التفريق بين المتماثلين؟ ولماذا تُقِيمُ الأمور بمكيايين. سابعاً: نقل المؤرخون أنه لما قتل عمر، وثب عبيدالله بن عمر فقتل الهرمزان و ابنه أبى لؤلؤ، فلما بلغ الخبر عمر، قال: إذا أنا مت فاسألوا عبيدالله البيئنة على الهرمزان، هل هو قتلنى؟ فإن أقام البيئنة فدمه بدمى، و إن لم يقم البيئنة فأقيدوا عبيدالله من الهرمزان، فلما ولى عثمان (رضى الله عنه) قيل له: ألا تمضى وصية عمر (رضى الله عنه) فى عبيدالله؟ قال: و من ولى الهرمزان؟ قالوا:

١. الطبرى: التاريخ ٣/٤٥٨ (١٠٧)

أنت يا أمير المؤمنين قال: قد عفوت عن عبيدالله بن عمر (١). إنى لا أريد أن أحوم حول هذه القصة، كيف وقد نقم به على الخليفة حيث عطل القصاص إذ قتل عبيدالله رجلاً يصلى وصية صغيرة، ومع ذلك عفى عنه الخليفة لسبب عاطفى أو غيره، فلم لا يجوز ذلك للإمام على - عليه السلام - وقد رأى ان فى القود مفسدة عظيمة على الاسلام و المسلمين؟ وان جبر دم الخليفة بالدية أصلح من القصاص و القود. هذه هى المواضيع الهامة التى كانت من المفترض دراستها و القضاء فيها، ثم الخروج بنتيجة صحيحة عن الحكومة، غير ان الحكّمين جعلها وراء ظهورهما، ولم ينسأ فيها بنت شفة، بل كان هوى أبى موسى الأشعري مع عبدالله بن عمر، و كان هوى عمرو بن العاص مع معاوية، فلتتعرف على عبدالله بن عمر، ثم عمرو بن العاص: أما عبدالله بن عمر فكفى فى ضعف نفسه أنه لما ولى الحجاج الحجاز من قبل عبدالملك بن مروان جاءه ليلاً ليبيعه، فقال له الحجاج ما أعجلك؟ فقال: سمعت رسول الله يقول: من مات بغير امام مات ميتة جاهلية (٢) فقال له: إن يدي مشغولة عنك، و كان يكتب، فدونك رجلى، فمسح على رجله و خرج، فقال الحجاج: يا أحمق. تترك بيعه على بن أبى طالب و تأتيني مبيعاً فى ليلة؟ و ما هذا إلا ان الخوف من السيف جاءك إلى هنا (٣). وأما عمرو، و ما أدراك ما عمرو؟ ذلك الانسان الذى عرفه الامام بقوله:

١. البيهقى: السنن الكبرى ٨/٦١. ولاحظ الطبرى: التاريخ ٣/٣٠٣.

٢. الهيثمي: مجمع الزوائد ٥/٢١٨. الطيالسي: المسند ٢٥٩ وللحديث صور أخرى .

٣. أبو جعفر الاسكافى: المعيار و الموازنة ٢٤. و ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ١٣/٢٤٢. عبدالله المامقانى: تنقيح المقال برقم ٦٩٨٩. (١٠٨)

متى لم تكن للكافرين ولياً وللمسلمين عدواً (١)، فكان هواه مع معاوية لموعده و عدها إتيهاه وهى ولاية مصر و قد تحدت عنها المؤرخون فى قصية طويلة حيث قال معاوية له: وهلم فبايعنى، فقال عمرو: لا- والله لا أعطيك من دينى حتى آخذ من دنياك. قال معاوية: سل، تعط، قال: مصر طعمة (٢). وروى ابن مزاحم قال: قال معاوية لعمرو: إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذى عصى ربّه، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفزق الجماعة وقطع الرحم. قال عمرو: إلى من؟ قال: إلى جهاد على، قال: فقال عمرو: والله يا معاوية ما أنت وعلى بعكمى بعير، مالك هجرته ولا سابقته، ولا طول جهاده، ولا فقهه، ولا علمه، والله إن له ذلك حدّاً و جدّاً و حظّاً و حظوةً، و بلاءاً من الله حسناً، فما تجعل لى إن شايعتك على حربته، وأنت تعلم ما فيه من الغرر و الخطر؟ قال: حكمك. قال: مصر طعمة، قال: فتلكاً عليه معاوية. قال نصر: وفى حديث آخر، قال له معاوية: يا أبا عبد الله، إني أكره أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا. قال: دعنى عنك. قال معاوية: إني لو شئت أن أميتك وأخذعك لفعلت. قال عمرو: لا لعمرك، ما مثلى يخدع، لأنا أكيس من ذلك. قال له معاوية: أذن منى برأسك أسارك. قال: فدنا منه عمرو يسأره. فعص معاوية أذنه و قال: هذه خدعة، هل ترى فى بيتك أحداً غيرى وغيرك؟ (٣). قال ابن أبى الحديد بعد هذا: «قلت: قال شيخنا أبو القاسم البلخى (رحمهم الله): قال عمرو: «دعنا عنك» كناية عن الإلحاد بل تصريح

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٣.

٢. ابن قتيبة: الامامة و السياسة ١/٩١. مضى النص فلاحظ تعليقنا عليه.

٣. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٣. (١٠٩)

به، أى دع هذا الكلام الذى لا أصل له فإن الاعتقاد بالآخرة وأنها لا تباع بعرض من الدنيا، من الخرافات. قال (رحمهم الله): و ما زال عمرو بن العاص ملحداً ما تردّد قط فى الإلحاد و الزندقة، و كان معاوية مثله و يكفى فى تلاعبهما بالإسلام حديث السرار المروى (١) وأن معاوية عصّ أذن عمرو، أين هذا من أخلاق على - عليه السلام - و شدّته فى ذات الله، و هما مع ذلك يعيبانه بالدعابة (٢). خلاصة البحث: ما كانت دراسة جميع هذه المواضيع أمراً صعباً على الحكمين، بل فى دراسة الموضوع الأول من المواضيع السبعة كفاية للإدلاء بالحق، وذلك إنّه إذا كانت خلافة الإمام خلافة قانونية شرعية، فالخارج عليها باغ على الإمام يجرى عليه حكم البغاة أولاً و تابع لغير سبيل المؤمنين، و خارق للإجماع ثانياً، وقد قال سبحانه فى حق هؤلاء: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (٣) (و ان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احديهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله) (٤) ولا- عجب بعد ذلك أن الإمام يصف حكم الحكمين بقوله: «فقد خالفا كتاب الله و اتبعا أهواءهما بغير هدى من الله فلم يعملوا بالسنة ولم ينفذوا للقرآن حكماً». (٥) ***

١. المراد ما سبق فى كلام ابن مزاحم.

٢. ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٦٤-٦٥.

٣. النساء: ١١٥

٤. الحجرات: ٩.

٥. الطبرى: التاريخ ٤/٥٧. (١١٠) (١١١)

الفصل السادس تحركاتهم العسكرية بعد صدور رأى الحكمين (١١٢) (١١٣) ولمّا بلغ الإمام ما حكم به الحكمان من الحكم الجائر، قام خطيباً وقال ألا أن هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكيمين، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما وأحيا ما أمات القرآن، وأتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله، فحكما بغير حجة بينة، ولا سنّة ماضية، و اختلفا في حكمهما، و كلاهما لم يرشدا، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين. استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام، واصبحوا في معسكرهم إن شاء الله، ثم نزل وكتب إلى الخوارج بالنهر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين (١) وعبدالله بن وهب و من معهما من الناس. أما بعد فإن هذين الرجلين الذين ارتضينا حكمهما، قد خالفا كتاب الله، وأتبعوا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملوا بالسنّة، ولم يتفذا للقرآن حكماً، فبرئ الله ورسوله

١. وهذا الرجل من الذين فرضوا التحكيم على الإمام و جاء هو مع مسعر بن فدكي بزهاء عشرين ألفاً مقنعين في الحديد، شاكي السلاح، سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود... نادوا الامام باسمه لا يامرؤ المؤمنين: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه... لاحظ: وقعه صفيين ٥٦٠ وقد مرّ النص أيضاً. (١١٤)

منهما والمؤمنون. فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا، فإننا صائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الذي كُنا عليه، والسلام» (١). كان المترقب من الخوارج إجابة على - عليه السلام - والخروج معه إلى قتال معاوية لأنهم هم الذين كانوا يقولون لعلي - عليه السلام - : «تب من خطيتك وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا» (٢). ولكنهم - يا للأسف - لم يستجيبوا إلى دعوة على - عليه السلام - و كتبوا إليه: «أما بعد فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء. إن الله لا يحب الخائنين». فلما قرأ كتابهم آيس منهم فرأى أن يدعهم و يمضى بالناس إلى أهل الشام حتى يلقاهم فيناجزهم، فنزل بالنخيلة، وقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنه من ترك الجهاد في الله، وادهن في أمره كان على شفا هلكة، إلا - أن يتداركه الله بنعمه، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفىء نور الله. قاتلوا الخاطئين، الضالين، القاسطين، المجرمين، الذين ليسوا بقرءاء للقرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام، والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل. تسيروا وتهيؤوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى اخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله (٣). ثم إنّه لبي دعوته من البصرة وحوالي الكوفة جمع كبير وقد اجتمع تحت

١. الطبري: التاريخ ٤/٥٧ .

٢. المصدر نفسه ٥٢ .

٣. المصدر نفسه ٥٨ . (١١٥)

رايته ثمانى وستين ألفاً ومائتى رجل، واستعدّ للمسير إلى الشام. إستعدّ الإمام لمواجهة العدو بالشام، لكنّه فوجيء بما بلغ إليه من الناس أنهم يقولون: لو سار الإمام بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم. فقام في الناس وحمد الله وأثنى عليه، فأجاب دعوتهم خصوصاً بعد ما بلغ إليه أنهم ذبحوا عبدالله بن خباب على ضفة النهر، وبقروا بطن أمّ ولده، وهم على أهبة الخروج، وإليك تفصيله: إن الخوارج اجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب الراسبي، فقال في خطبة له: أمّا بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن، و ينيبون إلى حكم القرآن، أن تكون هذه الدنيا التي الرضا بها و الركون إليها والايثار إيها عناء و تباراً (١) آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق... فاخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال، أو إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضرة. ثم خطب بعده، حرقوص بن زهير و قال بمثل ما قال: وقال حمزة بن سنان الأسدي: يا قوم: إن الرأى ما رأيتم، فولوا أمركم رجلا منكم، فإنه لا بدّ لكم من عماد و سناد، وراية تحفون بها، وترجعون إليها، فعرضوها على زيد بن حصين الطائى فأبى، وعرضوها على حرقوص بن زهير فأبى، وعلى حمزة بن سنان و شريح بن أوفى العبسى فأبىا، وعرضوها على عبدالله بن وهب فقال: هاتوها، أما

والله لا آخذها رغبة في الدنيا، ولا ادعها فرقا من الموت، فبايعوه لعشر خلون من شوال و كان يقال له ذوالثغفات. ثم اجتمعوا في منزل شريح بن أوفى العبسى فقال ابن وهب: اشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فإنكم أهل الحق. قال شريح: نخرج

١. التبار: الهلاك. (١١٦)

إلى المدائن فنزلها ونأخذ بأبوابها ونخرج منها سكانها ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة، فيقدمون علينا. فقال زيد بن حصين: إنكم إن خرجتم مجتمعين أتبعتم ولكن اخرجوا وحداناً مستخفين، فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة، قالوا: هذا هو الرأي. وكتب عبدالله بن وهب إلى من بالبصرة منهم يعلمهم ما اجتمعوا عليه، ويحثهم على اللحاق بهم وأرسل الكتاب إليهم، فأجابوه أنهم على اللحاق به. فلما عزموا على المسير (١)، تعبدوا ليلتهم وكان ليلة الجمعة، ويوم الجمعة، وساروا يوم السبت فخرج شريح بن أوفى العبسى، وهو يتلو قول الله: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ) (٢). ثم إن الخوارج تقاطرت من البصرة والكوفة حتى نزلوا جسر نهروان، فصاروا جيشاً عظيم العدد والعدة، وكانت الأخبار عن أفعالهم الشنيعة تصل إلى الناس ففشى الرعب فيهم، ولأجل ذلك ألح الواعون من ضباط على على المناجزة هؤلاء ثم المسير إلى الشام، فأجابهم الإمام، وإليك بيان ما ارتكبوا من الجرائم. روى الطبرى عن أبى مخنف عن حميد بن هلال: إن الخارجه التي أقبلت من البصرة جاءت حتى دنت من إخوانها بالنهر فخرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه فدعوه فتهددوه وافزعوه وقالوا له من أنت؟ قال: أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

١. المقصود الخوارج المتواجدون في الكوفة وأطرافها أعنى الحرورية.

٢. القصص: ٢١-٢٢. الطبرى: التاريخ ٥٤-٤٥/٥٤. (١١٧)

ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض وكان سقط عنه لئما افزعوه، فقالوا له: افزعناك؟ قال: نعم. قالوا له: لاروع عليك، فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه من النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - لعل الله ينفعنا به. قال: حدثنى أبى عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن فتنة تكون، يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسى فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً، ويصبح كافراً، ويمسى فيها مؤمناً. فقالوا: لهذا الحديث سألناك. فما تقول فى أبى بكر و عمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ما تقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها؟ قال: إنه كان محققاً فى أولها وفى آخرها. قالوا: فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده؟ قال: إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقياً على دينه، وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالى الرجال على أسمائها لاعلى أفعالها. والله لنقتلنك قتله ما قتلناها أحداً، فأخذوه فكتفوه ثم أقبلوا به وبامراته وهى حبلية متهم، حتى نزلوا تحت نخلة موارق، فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فكدف بها فى فمه، فقال أحدهم: بغير حلها وبغير ثمن؟ فلفضها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه فأخذ يمينه، فمر به خنزير لأهل الذمة فضره بسيفه، فقالوا: هذا فساد فى الأرض، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره. فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، فما علّى منكم بأس إنى لمسلم ما أحدثت فى الاسلام حدثاً ولقد آمنتونى. قلت: لاروع عليك. فجاءوا به فأضجعوه فذبحوه، وسال دمه فى الماء وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: إنما أنا امرأة ألا تتقون الله؟ فبقروا بطنها. وقتلوا ثلاث نساء من طى وقتلوا أم سنان الصيداوية، فبلغ ذلك علناً و من معه من المسلمين من قتلهم عبدالله بن خباب واعتراضهم الناس، فبعث (١١٨)

إليهم الحارث بن مرة العبدى ليأتيهم فينظر فيما بلغ عنهم ويكتب به إليه على وجهه ولا يكتمه، فخرج حتى انتهى إلى النهر ليسألهم، فخرج القوم إليه فقتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، فقام إليه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء يخلفوننا فى أموالنا وعيالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينهم صرنا إلى عدونا من أهل الشام، فقبل على فنادى بالرحيل، ولما أراد على المسير إلى أهل النهر من الأنبار، قدم قيس بن سعد بن عبادة وأمره أن يأتى المدائن فينزلها حتى يأمره بأمره، ثم جاء مقبلاً إليهم ووافاه قيس

وسعد بن مسعود الثقفي بالنهر وبعث إلى أهل النهر: ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم تقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى نلقى أهل الشام، فلعن الله يقلب قلوبكم، ويردكم إلى خير ممّا أنتم عليه من أمركم، فبعثوا إليه وقالوا: كلنا قتلناهم وكلنا نستحلّ دماءهم ودماءكم. ولما وصل على جانب النهر وقف عليهم فقال: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المراء واللجاجة، وصدّها عن الحقّ الهوى... إني نذيركم ان تصبحوا تليفكم الأمة غداً صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط بغير بينة من ربكم ولا برهان بين، ألم تعلموا أنّي نهيتكم عن الحكومة، وأخبرتكم أنّ طلب القوم إياها منكم دهن ومكيدة لكم، وتبأتكم أنّ القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإنّي أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالاً ورجالا، فهم أهل المكر والغدر، وأنكم إن فارقتم رأيي، جانبتم الحزم، فعصيتموني حتى إذا أقررت بأن حكمت، فلما فعلت شرطت واستوثقت، فأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة، فنبذنا أمرهما ونحن على أمرنا الأوّل فما الذي بكم؟ ومن أين أتيتم؟ قالوا: إنّنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا وكنا بذلك (١١٩)

كافرين، وقد تبنا فإن تبنا فنحن منك ومعك وإن أبيت فاعتزلنا، فأنا منابذوك على سواء، إنّ الله لا يحب الخائنين، فقال عليّ: أصابكم حاصب، ولا يبقى منكم وابر. أبعد إيماني برسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهجرتي معه وجهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، ثم انصرف عنهم (١). ولم يكتف الإمام بهذا الأمر، بل كلّمهم في معسكرهم بما يلي: «أكلّمكم شهد معنا صفين؟ فقالوا: منّا من شهد ومنّا من لم يشهد. قال: فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد صفين فرقة، ومن لم يشهد فرقة، حتى أكلّم كلا منكم بكلامه، ونادى الناس، فقال: امسكوا عن الكلام، انصتوا لقولي، واقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها. ثم كلّمهم - عليه السّلام - بكلام طويل، من جملة: ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلةً وغيلةً ومكراً وخديعةً: اخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراموا إلى كتاب الله سبحانه، فالرأى القبول منهم، والتنفيس عنهم؟ فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان، وباطنه عدوان، وأوله رحمة، وآخره ندامة. فأقيموا على شأنكم، وألزموا طريقتكم وعضّوا على الجهاد، بنواجدكم، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق، إن أجيب أضلّ وإن ترك ذلّ (٢). ولما أتم الإمام الحجّة عليهم، ورأى أنّ آخر الدواء الكي، فعبأ الناس فجعل على ميمنته حجر بن عدى، وعلى يسرته شيب بن ربعي، أو

١. الطبري: التاريخ ٤/٦٠ - ٦٣. المسعودي: مروج الذهب: ٣/١٥٦. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٣٦.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ١٢١. (١٢٠)

معقل بن قياس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجال أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة وهم سبعمائه أو ثمانمائه رجل، قيس بن سعد بن عبادة. وعبأت الخوراج فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي، وعلى اليسرة شريح بن أوفى العبسي، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي وعلى الرجال حرقوص بن زهير السعدي. الحرص على صيانة نفوسهم: ثم إنّ الإمام توخياً لحفظ الدماء وصيانة الأنفس، بعث الأسود بن يزيد في ألفي فارس حتى أتى حمزة بن سنان وهو في ثلاثمائه فارس من خيلهم ورفع عليّ راية أمان، مع ابى أيوب فنادهم أبو أيوب: من جاء هذه الراية منكم ممّن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن و خرج من هذه الجماعة فهو آمن - أنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم. لقد كان هذا التخطيط والسياسة الحكيمه مؤثراً في تفرّق القوم وصيانة دمائهم فانصرف فروة بن نوفل الأشجعي (١) في خمسمائة فارس، وخرجت طائفة أخرى متفرّقين، فنزلت الكوفة، وخرج إلى علي - عليه السّلام - منهم نحو من مائة، وكانوا أربعة آلاف وكان الذين بقوا مع عبدالله بن وهب منهم ألفين وثمانمائه، وزحفوا إلى علي - عليه السّلام - . وقدم على الخيل دون الرجال وصفّ الناس وراء الخيل صفين، وصفّ

١. سيأتي خروجه على معاوية في الفصل الثامن فانظر. (١٢١)

المرامية أمام الصفّ الأوّل، وقال لأصحابه: كفّوا عنهم حتى يبدأوكم (١). قال المبرّد: لمّا وافقهم عليّ - عليه السّلام - بالنهران، قال:

لا تبدوهم بقتال حتى يبدأوكم. فحمل منهم رجل على صف عليّ - عليه السّلام - فقتل منهم ثلاثة، فخرج إليه عليّ - عليه السّلام - فضربه فقتله... ومال ألف منهم إلى جهة أبي أيوب الأنصاري، وكان على ميمنة عليّ، فقال عليّ - عليه السّلام - لأصحابه: احمّلوا عليهم، فوالله لا يقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة. فحمل عليهم فطحنهم طحناً قتل من أصحابه - عليه السّلام - تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية (٢). قال ابن الأثير: لما قال عليّ لأصحابه «كفّوا عنهم حتى يبدأوكم» نادى الخوارج: الرواح إلى الجنة، وحمّلوا على الناس، وافترت خيل (٣) على فرقتين، فرقة نحو الميمنة وفرقة نحو الميسرة واستقبلت الرماة وجوههم بالنبل، وعطفت عليهم الخيل. من الميمنة و الميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرمح والسيوف، فمالبثوا أن أناموهم. (٤) ثم إن علياً يحدث أصحابه قبل ظهور الخوارج أن قوماً يخرجون يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، علامتهم رجل مُخدج اليد، سمعوا ذلك منه مراراً، فلما فرغ من قتالهم، أمر أصحابه أن يلتمسوا المخدج، فوجدوه في حفرة على شاطئ النهر في خمسين قتيلاً فلمّا استخرجوه نظروا إلى عضده

١. الطبري: التاريخ ٤/٦٤.

٢. المبرّد: الكامل ٢/١٣٩ - ١٤٠. الطبري: التاريخ ٤/٦٣ - ٦٤ والمسعودي: مروج الذهب ٣/١٥٧ وقال: وكان من جملة من قتل من أصحاب عليّ، سبعة، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة وأتى على القوم وهم أربعة آلاف، ولعل لفظه «إلا» زائدة.

٣. هكذا في الأصل وقد سقط لفظ «عليّ».

٤. كلّ مشوه الخلق في أحد أعضائه فهو مخدج. (١٢٢)

فإذا لحم مجتمع كئدى المرأة، وحلمة عليها شعرات سود... فلمّا رآه قال: الله أكبر لا كذبت ولا كذبت. وقال حينما مرّ بهم وهم صرعى: بؤساً لكم لقد ضرّكم من غرّكم، قالوا: يا أمير المؤمنين: من غرّهم، قال: الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، غرّتهم بالأمانى، وزينت لهم المعاصى، تبتأتهم أنّهم ظاهرون (١) قال عليّ: خذوا ما فى عسكرهم من شىء، قال: فأما السلاح والدواب و ما شهدوا به عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأما المتاع والعبيد والاماء فإنه حين قدم، ردّه على أهله، ونقل الطبري أيضاً: انّ علياً أمر بطلب من به رمق منهم، فكانوا أربعمائه، فأمر بهم عليّ، ودفعوا إلى عشائرهم، وقال: احمّلوهم معكم فداووهم، فاذا برأوا، فوافوا بهم الكوفة (٢). ففأ عين الفتنة: كانت الخوارج من أهل القبلة وأهل الصلاة والعبادة، و كان الناس يستصغرون عبادتهم عند صلواتهم، فلم يكن قتالهم واستئصالهم أمراً هيناً، ولم يكن يجترئ عليه غير عليّ - عليه السّلام - ولأجل ذلك قام بعد قتالهم، فقال: أمّا بعد حمد الله والثناء عليه، أيها الناس فإنّي فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجتريء عليها أحد غيرى، بعد أن ماج غيبها واشتدّ كلبها (٣). (٤) قال ابن أبي الحديد: إنّ الناس كلّهم كانوا يهابون قتال أهل القبلة،

١. المسعودي: مروج الذهب ٣/١٥٨. ابن الأثير: الكامل ٣/١٧٥ - ١٧٦.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٦٦.

٣. الغيب: الظليمة والمراد بعد ما عمّ ظلالها فشمّل فكّنى عن الشمول بالتموج، لأن الظلمة إذا تموجت شملت أماكن كثيرة، كما أنّ المراد من قوله واشتدّ كلبها، أى شرّها وأذاها.

٤. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٩٣. (١٢٣)

ولا يعلمون كيف يقاتلونهم، هل يتبعون مولّيتهم أم لا؟ وهل يجهّزون على جريحهم أم لا؟ وهل يقسمون فيّهم أم لا؟ وكانوا يستعظمون قتال من يؤدّن كأذاننا، ويصلّى كصلاتنا، واستعظمو أيضاً حرب عائشة وحرب طلحة والزبير لمكانتهم فى الاسلام، وتوقّف جماعة منهم عن الدخول فى تلك الحرب، كالأحنف بن قيس وغيره، فلو لا أنّ عليّاً اجترأ على سلّ السيف فيها ما أقدم أحد عليها (١). تنبؤ للإمام بعد استئصال الخوارج: لما قتل الخوارج وأفلت منهم من أفلت، قال بعض أصحاب الإمام: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم، فقال: «كلّ والله أنّهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نجم منهم قرن قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصاً

سلايين» (٢). ذكر المؤرخون قضايا وحوادث تعرب عن أن القوم صاروا بعد ذلك لصوصاً سلايين، فإن دعوة الخوارج اضمحلت، ورجالها فنيت حتى أفضى الأمر إلى أن صار خلفهم قطاع طرق متظاهرين بالفسوق والفساد في الأرض، وإليك نماذج: خرج في أيام المتوكل، ابن عمرو الخنعمي بالجزيرة، فقطع الطريق وأخاف السبيل، فحاربه أبو سعيد الصامتي فقتل كثيراً من أصحابه، وأسر كثيراً منهم، فمدحه أبو عبادة البحتري وقال: كُنَّا نكفر عن أمية عصبه * طلبوا الخلافة فجرةً وفسوقاً _____

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٧/٤٦.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٥٩. (١٢٤) ونلوم طلحة والزبير كليهما * ونعنف الصديق والفاوقا ونقول تيم أقرب وعديها * أمراً بعيداً حيث كان صعيقا وهم قريش الأبطحون إذا انتموا * طابوا أصولاً في العلا وعروفا حتى غدت جشم بن بكر تبتغي * ارث النبي وتدعيه حقوقاً جاءوا براعيهم ليتخذوا به * عمداً إلى قطع الطريق طريقاً (١) ثم ذكر أنه خرج بأعمال كرمات وجماعة أخرى من أهل عمان لانباهة لهم، وقد ذكرهم أبو إسحاق الصابي في الكتاب «التاجي» وكلهم بمعزل عن طرائق سلفهم وإنما وكدهم، وقصدتهم، إخافة السبيل والفساد في الأرض، واكتساب الأموال من غير حلها. ثم أتى يذكر المشهورين بنظر الخوارج الذين تم بهم صدق قول أمير المؤمنين - عليه السلام - : «إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء» وأشهرهم: ١ - عكرمة مولى ابن عباس. ٢ - مالك بن أنس الأصبحي. ٣ - المنذر بن الجارود العبدى. ٤ - يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج. ٥ - صالح بن عبدالرحمن صاحب ديوان العراق. ٦ - جابر بن زيد (٢). ٧ - عمرو بن دينار. _____

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥/٧٤ - لاحظ بقية الآيات.

٢. كونه منهم موضع تأمل وإن كانت الاباضية ترى أنه الأصل لهم في الحديث والفقهاء، تولد بين عامي ١٨ - ٢٢ وتوفى في العقد الأخير من القرن الأول أو أوائل الثاني، تقرأ ترجمته في فصل خاص. (١٢٥) ٨ - مجاهد. ٩ - أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي. ١٠ - اليمان بن رباب. ١١ - عبدالله بن يزيد. ١٢ - محمد بن حرب. ١٣ - يحيى بن كامل. وهؤلاء الثلاثة الأخيرة كانوا من الأباضية، كما أن اليمان كان من البيهسية، وأبو عبيدة من الصفرية، وسيوفيك أسماء مشاهيرهم (١) في فصل خاص. كلمة أخيرة للإمام في حق الخوارج: وللإمام على كلمة في حق الخوارج ألقاها بعد القضاء عليهم وقال: «لاتقاتلوا الخوارج بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه» (٢). هذه الكلمة تعرب عن أن انحراف الخوارج عن الحق لم يكن شيئاً مدبراً من ذي قبل، وإنما سذاجة القوم وقرب قعرهم، جرهم إلى تلك الساحة، وكانوا جاحدين للحق عن جهل ممزوج بالعناد، فكانوا يطلبون الحق من أول الأمر، لكن أخطأوا في طلبه ودخلوا في حبال الشيطان والنفس الأمارة، وهذا بخلاف معاوية وجيشه، فإنهم كانوا يطلبون الباطل ويركبون الغي عن تقصير وعلم، وقد عرفت أنه لم يكن لمعاوية مرمى من أول الأمر سوى إزاحة علي عن منصبه وغصب الخلافة، وإن دم عثمان وقميصه وكونه قتل مظلوماً _____

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥/٧٤ - ٧٦.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٦٠. (١٢٦)

عقرداره كانت واجهة استخدمها لجلب العواطف، يطلب بها إغواء رعايا الناس، ولأجل ذلك لما قتل على وصالحه الحسن وأخذ بزمام الأمر، لم يبحث عن قتله عثمان. قال ابن أبي الحديد في شرحه: «مراده أن الخوارج ضلوا بشبهة دخلت عليهم، وكانوا يطلبون الحق، ولهم في الجملة تمسك بالدين، ومحاماة عن عقيدة اعتقدوها، وإن اخطأوا فيها، وأما معاوية فلم يكن يطلب الحق، وإنما كان ذا باطل لا يحامى عن اعتقاد قد بناه على شبهة، وأحواله كانت تدل على ذلك، فإنه لم يكن من أرباب الدين، ولا ظهر عنه نسك، ولا صلاح حال، وكان مترفاً يذهب مال الفئ في مآربه، وتمهيد ملكه، ويصانع به عن سلطانه، وكانت أحواله كلها مودنة بانسلاخه عن العدالة، وإصراره على الباطل، وإذا كان كذلك لم يجز أن ينصر المسلمون سلطانه، وتحارب الخوارج عليه، وإن كانوا أهل ضلال، لأنهم أحسن حالا منه، فإنهم كانوا ينهون عن المنكر ويرون الخروج على أئمة الجور واجباً (١).

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥/٧٨ .

الفصل السابع انتفاضات الخوارج بعد حرب

الفصل السابع انتفاضات الخوارج بعد حرب النهروان في العهد العلوي (١٢٨) (١٢٩) كانت حرب الإمام في النهروان، حرباً طاحنة، قتل رجال العيث والفساد، واستأصل شافتهم، وقضى على رؤوسهم، ولكن لم يكن الخوارج كلهم متواجدين فيها، بل كانوا متفرقين في البصرة، والنقاط المختلفة من العراق، فقاموا بانتفاضات ضد علي وعماله، وكانت الحسرة والخيبة نصيبهم، وإليك ما وقعت منها في العهد العلوي صلوات الله عليه. ١ - خروج الخريت بن راشد الناجي (١): جاء الخريت بن راشد الناجي إلى علي فقال له - وقد جرّده من إمارة المؤمنين -: «يا علي، والله لأطيع أمرك ولأصلي خلفك، وإني غداً مفارق لك، وذلك بعد تحكيم الحكيم». فناظره علي وحاول اقناعه، فلم

١. ذكر خروج الخريت الناجي، الطبري في تاريخه ٤/٨٦ - ١٠٠، وابن هلال الثقفي في غاراته ٢١، والمسعودي في موجه ٣/١٥٩، والجزري في تاريخه ٣/١٨٣ - ١٨٧، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٣/١٢٨ - ١٤٨، ولما كانت القصة طويلة لاتناسب بحث الملل والنحل نقلناها ملخصاً وقد لخصها الدكتور نايف معروف في كتابه: الخوارج في العصر الأموي ١٠٠ - ١٠١، وأتبعنا تلخيصه. (١٣٠)

يرتدع. وسار بجمع من أصحابه فالتقى في طريقه رجلاً مسلماً فسأله عما يقوله في علي، فأثنى عليه وقدمه. فحملت عليه عصابة من أصحاب الخريت فقطّوه بأسياقهم، بينما التقوا يهودياً فخلّوا سبيله. أرسل علي في أثرهم زياد بن خضعة البكري في عدد قليل من العساكر فأدركهم في أرض المذار، فدعا زياد صاحبهم الخريت، فسأله عما نقمه من أمير المؤمنين، فأخبره بأنه لا يرضى بعلي إماماً، فطلب إليه تسليمه قتله الرجل المسلم، فأبى عليه ذلك. فاقتتلوا قتالاً شديداً دون أن يتمكن أحدهما من الآخر، حتى جاء الليل فحجز بينهما، وتحت جنح الظلام تنكر الخريت وأصحابه واتجهوا صوب الأهواز، وكتب زياد إلى علي بما جرى بينهما. فانتدب علي معقل بن قيس الرياحي في جيش قوامه أربعة آلاف رجل، وبعث به في طلب الخريت الذي كان قد اجتمع إليه كثير من قطاع الطرق والخارجين على النظام ممن كسروا الخراج كما انضمت إليه طائفة من الأعراب كانت ترى رأيهم، وتمكنوا من بعض مناطق فارس وأخرجوا عاملها لعلي سهل بن حنيف، ثم كان اللقاء بين الفريقين قرب جبل من جبال رامهرمز، فخرج الخريت من المعركة منهزماً حتى لحق بساحل بحر فارس. ولكن الخريت لم يلق سلاحه، بل استمرّ بجمع الناس حوله، فكان يأتي من يرى رأي الخوارج فيسر إليهم: «إني أرى رأيكم، وإن علياً ما كان ينبغي له أن يحكم الرجال في دين الله» ثم يأتي لمن يرى رأي عثمان وأصحابه، فيقول لهم: «أنا على رأيكم، وإن عثمان قتل مظلوماً معقولا» كما كان يجيء مانعي الصدقة فيقول: «شدوا على صدقاتكم ثم صلوا بها أرحامكم، وعودوا إن شئتم على فقراءكم، وهكذا كان يعمل على إرضاء كل طائفة من الناس بضرب من القول يتفق وهوهم. وبذلك استطاع أن يستهوي كثيراً من الأقوام من مختلف الميول والاتجاهات. ولما علم معقل بموقعه بساحل البحر بفارس، عبأ جنده وزحف (١٣١) نحو الخريت وأصحابه، وهزمهم هزيمة منكرة قتل فيها الخريت، وتفرق من بقي من أتباعه هنا وهناك. هكذا، انتهت حياة الخريت الناجي الذي لم تعرف هويته الفكرية على حقيقتها، إذ وجدناه تارة يحارب إلى جانب علي - عليه السلام - وطوراً يخرج علي إمامته ويشدد النكير عليه، ومرة يزعم أنه من الخوارج وأخرى يتآمر على حياة زعمائهم فيستعدي علياً على عبدالله بن وهب الراسبي وزيد بن حصين ليقتلها، ويقول المسعودي: إن الخريت ارتد مع أصحابه إلى النصرانية (١). ٢ - لما خرج أهل النهروان خرج أشرس بن عوف الشيباني على علي «بالدسكرة» في مائتين ثم سار إلى الأنبار، فوجه إليه علي - عليه السلام - الأبرش بن حسان في ثلاثمائة وواقعه فقتل أشرس في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين. ٣ - ثم خرج هلال بن علفه ومعه أخوه مجالد فأتى «ماسبذان» ووجه إليه علي معقل بن قيس

الرياحي فقتله وقتل أصحابه وهم أكثر من مائتين، وكان قتلهم في جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين ٤٠ - ثم خرج الأشهب بن بشر و قيل الأشعث وهو من «بجيلة» في مائة وثمانين رجلا، فأتى المعركة التي أصيب فيها هلال وأصحابه فصلّى عليهم ودفن من قدر عليه منهم، فوجه إليهم على جارية بن قدامة السعدى وقيل حجر بن عدى، فأقبل إليهم الأشهب فاقتلاب «جرجايا» من أرض «جوخا»

١. المسعودى: مروج الذهب المطبوع في سبعة أجزاء ٣/٥٩. ويظهر منه أنه كان من أصحاب عليّ ولم يكن من الخوارج وإنما انفصل عنه، عندما عسكر الإمام بالنخيلة ليذهب بالناس إلى حرب معاوية ثانيا فعند ذلك جعل أصحابه يتسلّلون و يلحقون بأوطانهم فلم يبق منهم إلا نفر يسير، ومضى الخريت بن راشد الناجي في ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية.... (١٣٢)

فقتل الأشهب وأصحابه في جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين ٥٠ - ثم خرج سعيد بن قفل التميمي في رجب «البندجين» و معه مائتا رجل فأتى «درزجان» وهي من المدائن على فرسخين، فخرج إليهم سعد بن مسعود فقتلهم في رجب سنة ثمان وثلاثين ٦٠ - ثم خرج أبو مريم السعدى التميمي فأتى «شهرزور» وأكثر من معه من الموالى، وقيل لم يكن معه من العرب غير ستة نفر هو أحدهم، واجتمع معه مائتا رجل وقيل أربعمائة، وعاد حتى نزل على خمسة فراسخ من الكوفة، فأرسل إليه عليّ يدعوه إلى بيعته ودخول الكوفة، فلم يفعل، قال: ليس بيننا غير الحرب، فبعث إليه عليّ شريح بن هاني في سبعمائة، فحمل الخوارج على شريح وأصحابه فانكشفوا، وبقي شريح في مائتين فأنحاز إلى قرية، فترجع بعض أصحابه، ودخل الباقون الكوفة، فخرج عليّ بنفسه و قدم بين يديه جارية بن قدامة السعدى، فدعاهم جارية إلى طاعة عليّ، وحدّتهم القتل فلم يجيبوا، ولحقهم عليّ أيضاً فدعاهم فأبوا عليه وعلى أصحابه، فقتلهم أصحاب عليّ ولم يسلم منهم غير خمسين رجلا استأمنوا فأمّنهم، وكان في الخوارج أربعون رجلا جرحى فأمر عليّ بادخالهم الكوفة ومداواتهم حتى برئوا، وكان قتلهم في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين، وكانوا من أشجع من قاتل من الخوارج ولجراتهم قاربوا الكوفة (١). جريمتهم الكبرى أو آخر سهم في كنانة الخوارج: قتل الإمام رؤوس الخوارج واستأصلهم، وقد نجت فئة منهم وتواروا في البلاد كما أنّ من كان به رمق منهم، دفعهم الإمام إلى عشائريهم ليداووهم، ولكن

١. ابن الأثير: الكامل ٣/١٨٧ - ١٨٨. (١٣٣)

كان للقوم في البصرة ونواحيها أنصار وموالون في الطريقة وكان للهالكين في ساحة القتال من ينتمى إليهم بشيء من النسب والسبب، فكانوا ينتهزون الفرصة لأخذ ثأرهم من الإمام عليّ - عليه السلام - قال: المبرد: فلما قتل عليّ أهل النهروان وكان بالكوفة زهاء ألفين ممّن لم يخرج مع عبدالله بن وهب وقوم ممّن استأمن إلى أبي أيوب الأنصاري، فتجمّعوا وأمروا عليهم رجلا من طي، فوجه إليهم عليّ - عليه السلام - رجلا وهم بالنخيلة فدعاهم ورفق بهم، فأبوا فعاودهم، فأبوا فقتلوا جميعاً، فخرجت طائفة منهم نحو مكة فوجه معاوية من يقيم للناس حجّهم فناوشه هؤلاء الخوارج فبلغ ذلك معاوية، فوجه بسر بن أرطاة أحد بنى عامر بن لؤى، فتوافقوا وتراضوا بعد الحرب بان يصلّى بالناس رجل من بنى شيبة لئلا يفوت الناس الحج، فلما انقضى نظرت الخوارج في أمرها، فقالوا: إنّ عليّاً ومعاوية قد أفسدا أمر هذه الأمّة، فلو قتلناهما لعاد الأمر إلى حقّه، وقال رجل من أشجع: والله ما عمرو دونهما، وإنه لأصل هذا الفساد، فقال عبدالرحمن بن ملجم: أنا أقتل عليّاً، فقالوا: وكيف لك به؟ قال: أغتاله. فقال الحجاج بن عبدالله الصريمي وهو البرك: وأنا أقتل معاوية، وقال زادويه مولى عمرو بن تميم: وأنا أقتل عمرو، فأجمع رأيهم على أن يكون قتلهم في ليلة واحدة فجعلوا تلك الليلة ليلة احدى وعشرين (١) من شهر رمضان، وخرج كل واحد إلى ناحية، فأتى ابن ملجم الكوفة، فأخفى نفسه وتزوّج امرأة يقال لها قطام بنت علقمة من تيم الرباب وكانت ترى رأى الخوارج، ويروى أنّها قالت: لأقنع منك إلا بصدّق أسميه لك، وهو ثلاث آلاف درهم وعبّد وأمة، وأن تقتل عليّاً، فقال لها: لك ما سألت. فكيف لى به؟ قالت: تروم ذلك غيلة، فإن سلمت أرحت الناس من شرّ وأقمت مع أهللك، وإن أصبت صرت إلى

١. تفرّد المبرد بنقله، والصحيح ليلة التاسعة عشر. (١٣٤)

الجنة ونعيم لا يزول فانعم لها وفي ذلك يقول: ثلاثة آلاف وعبد وقيته * وضرب علي بالحسام المصمم فلا مهر أعلى من علي وإن علي * ولافتك إلا فتك ابن ملجم ويروي أن الأشعث نظر إلى عبدالرحمن متقلداً سيفاً في بني كندة فقال: يا عبدالرحمن أرني سيفك. فأراه فرأى سيفاً حديداً، فقال: ما تقلدك السيف وليس بأوان حرب؟ قال: فقال: إنني أردت أن أنحر به جزور القرية. فركب الأشعث بغلته و أتى علياً فخبّره، فقال له: قد عرفت بسأله ابن ملجم وفتكه، فقال علي: ما قتلني بعد. ويروي أن علياً - رضوان الله عليه - كان يخطب مرّة ويذكر أصحابه، وابن ملجم تلقاه المنبر، فسمع وهو يقول: والله لأريحنهم منك، فلما انصرف علي - صلوات الله عليه - إلى بيته أتى به ملبياً (١) فأشرف عليه، فقال علي: ماتريدون؟ فخبّروه بما سمعوا، فقال: ما قتلني بعد فخلوا عنه. ويروي أن علياً كان يتمثل إذا رآه بيت عمرو بن معدى كرب في قيس بن مكشوح المرادي: أريد حياته ويريد قتلي * عذيرك من خليلك من مراد فقيل لعلي: كأنك قد عرفته و عرفت ما يريد بك. أفلا تقتله؟ فقال: كيف اقتل قاتلي؟ . فلما كان ليلة احدى وعشرين من شهر رمضان خرج ابن ملجم وشييب الأشجعي فاعتورا الباب الذي يدخل منه علي - رضى الله عنه - وكان مغلّساً ويوقظ الناس للصلاة، فخرج كما كان يفعل فضربه شيب فأخطاه

١. أي مأخوذاً بتلايه. (١٣٥)

وأصاب سيفه الباب، وضربه ابن ملجم علي صاعته (١) فقال علي: فزت ورب الكعبة، شأنكم بالرجل. فيروي عن بعض من كان بالمسجد من الأنصار، قال: سمعت كلمة علي ورأيت بريق السيف، فأما ابن ملجم فحمل علي الناس بسيفه فأفرجوا له وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب بقطيفة فرمى بها عليه، واحتمله فضرب به الأرض، فقعد علي صدره، وأما شيب فانتزع السيف منه رجل من حضرموت وصرعه وقعد علي صدره وكثر الناس فجعلوا يصيحون: عليكم صاحب السيف، فخاف الحضرمي أن يكتنوا عليه ولا يسمعوا عذره فرمى بالسيف، وانسل شيب بين الناس فدخل علي علي فاومر فيه، فاختلف الناس في جوابه فقال علي: «إن أعش فالأمر إلي، وإن أصب فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربه بضربه وإن تعفوا أقرب للتقوى»... ومات علي - صلوات الله ورضوانه عليه ورحمته - في آخر اليوم الثالث [واتفقوا على القصاص] فدعا به الحسن - رضى الله عنه - [فقال ابن ملجم له]: إن لك عندي سرّاً فقال الحسن - رضوان الله عليه - أتدرون ما يريد؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعض أذني فيقطعها. فقال: أما والله لو أمكنني منها لاقتلعها من أصلها. فقال الحسن: كلاً والله لأضربنك ضربة تؤديك إلى النار (٢). هذا ما ذكره المبرّد في كامله ووافقه عدّه من المؤرخين غير أن أهل البيت أدري بما في البيت، والصحيح أنه قتل في المحراب وهو يصلي الفجر وأنه ضرب في ليلة التاسعة عشر من شهر رمضان واستشهد في ليلة الحادية والعشرين منه: وإليك كلمة عن الإمام الرضا - عليه السلام - في ذلك المجال

١. العبارة تعرب عن كونه مقتولاً في باب المسجد ولكنّه مردود بقول أئمة أهل البيت علي أنه قتل في محراب عبادته.

٢. المبرّد: الكامل ٢/١٤٨. الطبري: التاريخ ٤/١١٠ - ١١٢. ابن الأثير: الكامل ٣/١٩٤ - ١٩٥. الدينوري: الأخبار الطوال ٢١٤. المسعودي: مروج الذهب ٤/١٦٦. (١٣٦)

لما ضرب ابن ملجم - لعنه الله - أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كان معه آخر فوقعت ضربه علي الحائط، وأميا ابن ملجم فضربه فوقعت الضربة وهو ساجد علي رأسه (١). ***

١. الطوسي: الأمالي ٢٣٣. المجلسي: البحار ٤٢/٢٠٥ - ٢٠٦. (١٣٧) خاتمة المطاف: ماهي أسباب النكسة في أعقاب حرب صفين لم يختلف اثنان في أن النصر كان حليف الإمام طوال مدّة الحرب، ولكن لما طرأت فتنة التحكيم و اغتربها بعض قادة جيشه وخاصة قرّاهم، بدأ الضعف يدب في معسكر الإمام، واختلفوا إلى فرقتين، فرقة تنادي بالصلح والموادعة، وفرقة أخرى - وكانت في الظاهر قليلة - تصرّ علي مواصلة الحرب، ولا جرم أن الغلبة كانت للطائفة الأولى، ثم إن نفس تلك الطائفة تراجعت عن فكرتها وحاولت أن تفرض علي علي - عليه السلام - نقض ميثاق التحكيم، ولكنها لم تنجح وانتهى إلى ما عرفت من خروج المحكمة بصورة قوة معارضة

للإمام إلا- أن الإمام استأصل شأفتهم، وقطع جذورهم، فلم يبق في القوم إلا حشاشات شكّلت نواة للانتفاضات والأعمال الاجرامية حيث استطاعت اغتيال الإمام واعطاء الفرصة لمعاوية، لتحقيق طموحاته التي طالما راودته في (١٣٨) حياته السياسية. وكان من نتائج تلك الفتنة، أن الإمام لم يتمكن من عزل معاوية عن سلطته في الشام، وضمّ الشامات إلى حكومته، بل خرجت بعض المناطق التي كانت تحت يده عن سلطته، فاستولى عمرو بن العاص على مصر، وقتل عامل الإمام محمد بن أبي بكر فيها حتى أصبح العراق مطمعا لمعاوية من خلال الغارات التي قامت بها كتائبه. كل ذلك، مانصفه بالنكسة تارة، والهزيمة أخرى، ويطيب لنا بيان أسبابه في خاتمتنا هذه، وربما يتخيل القارئ أن هذا البحث خارج عن موضوع هذا الجزء (الخوارج)، ولكنه إذا اطّلع عليه يقف على أن له الصلة التامة بالموضوع وإليك البيان. إن السبب الحقيقي لوقوع النكسة كان أمرين: الأول: سيادة نزعة الاعتراض على قراء الكوفة: كان جيش الإمام خليطاً من طائفتين طائفة صالحه مطيعة لأمر القيادة إلى حدّ التضحية بكلّ ما تملك لتنفيذ أوامرها من دون أيّ اعتراض، و من نماذج تلك الطائفة مالك الأشتر، وعدى بن حاتم وعبدالله بن عباس، وعمار بن ياسر، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وحجر بن عدى الكندي، وسهل بن حنيف، وسليمان بن سرد، إلى غير هؤلاء من صلحاء الأمة وأتقيائها التابعين للإمام تبعية الضل لذي الضل. وطائفة تطغى عليها نزعة الاعتداد بالرأى والاستبداد في الأمر، والتدخل في شؤون القيادة، وكانوا يتصوّرون أنه ليس بينهم وبين القائد، فرق حتى بقدر الأنملة، وهذا الشعور كان ظاهراً منهم في جميع مواقفهم من (١٣٩)

حين انضمامهم لراية الإمام إلى خروجهم عليه، ومن نماذج هؤلاء، حرقوس بن زهير المعروف بذي الثدي، وميسر بن فدي، وزيد بن حصين، وشريح بن أوفى بن يزيد بن ظاهر العبسي، ونافع بن الأزرق، وعبدالله بن وهب الراسبي إلى غير ذلك من رؤوس تلك الطائفة الذين صاروا خوارج من بعد. وبما أن أصحاب هذه الطائفة كانوا يكثرون قراءة القرآن والصلاة والتهجد في الليل حتى اسودّت جباههم من السجود، وأصبحت لهم ثففات كثففات البعير، فكان لكلامهم نفوذ وتأثير كبير في جيش الإمام، خاصية أولئك الذين كانوا من قبائلهم وكتائبهم وهم كثيرون. والذي يدلنا على سيادة تلك النزعة فيهم (نزعة الاعتراض على القيادة والمتولين لشؤون الحكومة) ما نقرأه في تاريخ حياتهم وإليك بيانه: ١- ما سمعت من حديث النبي في حقّ رأس الخوارج (ذو الخويصرة) حيث وقف على رسول الله وهو يقسم غنائم خيبر فقال له: ما عدلت منذ اليوم، فقال رسول الله: ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟! فقال عمر: ألا أقتله يا رسول الله؟ فقال رسول الله: إنه سيكون لهذا ولأصحابه نبأ، وقال: تحقر صلاة أحدكم في جنب صلاتهم، وصوم أحدكم في جنب صيامهم، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، وقال سيخرج من ضئضىء هذا الرجل، قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (١). ٢- ما رواه الطبري عن محمد بن راشد عن أبيه في حرب الجمل قال: كان من سيرة عليّ: أن لا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترأ ولا يأخذ مالا، فقال قوم يومئذ: ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال

١. نقله أهل السير ونقله أصحاب الصحاح والمسانيد، ورواه البخاري أيضاً في صحيحه لاحظ الجزء ٦ تفسير سورة البراءة تفسير قوله سبحانه: والمؤلفة قلوبهم ص ٦٧. (١٤٠)

عليّ: القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لَجَّ حتى يصاب، فقتاله مني على الصدر والنحر، وإن لكم في خمسه لغني، فيومئذ تكلمت الخوارج (١). وقد ذكر الطبري قصية الاعتراض على وجه الإجمال ولكن غيره ذكره على وجه التفصيل، قالوا: نعمت الخوارج على عليّ عندما قرب منهم في النهروان وأرسل إليهم أن سلّموا قاتل عبدالله بن خباب، فأجابوه بأننا كلنا قتله، ولئن ظفرنا بك قتلناك، فأتاهاهم عليّ في جيشه، وبرزوا إليه بجمعهم، فقال لهم قبل القتال: ماذا نعمتم مني؟ فقالوا له: أول ما نعمنا منك أننا قاتلنا بين يديك يوم الجمل، فلما انهزم أصحاب الجمل، أبحث لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم، فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية؟ فقال: إنما أبحث لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم، والنساء والذرية لم يقاتلونا، وكان لهم حكم الإسلام، بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ولا يجوز استرقاق من لم يكفر، وبعد لو أبحث لكم النساء، أيكم يأخذ عائشة في سهمه؟ فخجل القوم من هذا (٢). وما ذكره الطبري، وإن وقع في سنده سيف

بن عمر، وهو ضعيف في الرواية، ولكن ما نقله البغدادي نقى السند مضافاً إلى أنه تضافرت الروايات على نقله من الفريقين . روى الشيخ الطوسي في تهذيبه عن مروان بن الحكم قال: لما هزمنا عليّ بالبصرة ردّ على الناس أموالهم، من أقام بينة أعطاه، ومن لم يقيم بينة أحلفه، _____

١. الطبري: التاريخ ٣/٥٤٥ .

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٧٨ . (١٤١)

قال: فقال له قائل: يا أمير المؤمنين اقسام الفى بيننا والسبى، قال: فلما أكثروا عليه، قال: أيكم يأخذ أم المؤمنين فى سهمه؟ فكفوا (١). ٣ - روى الطبري أيضاً: لما فرغ عليّ من بيعه أهل البصرة، نظر فى بيت المال فإذا فيه ستمائة ألف وزيادة، فقسّمها على من شهد معه، فأصاب كل رجل منهم خمسمائة وقال: لكم إن أظفركم الله عزّوجلّ بالشام مثلها إلى اعطياتكم، وخاض فى ذلك السبائية وطعنوا على عليّ من وراء وراء (٢). كل ذلك يعرب عن طغيان نزعة الاعتراض على القوم، وأنهم كانوا يرون لأنفسهم حق التدخل فى شؤون القيادة. ٤ - إننا نرى أنّ الأشعث لمّا قرأ وثيقة التحكيم على الشاميين، استقبلوه برضى ولمّا عرضها على رايات عترة وغيرهم من العراقيين، قابله بالاعتراض والسيف. قال ابن مزاحم: إنّ الأشعث خرج فى الناس بذلك الكتاب يقرأه على الناس ويعرضه عليهم، ويمرّ به على صفوف أهل الشام وراياتهم، فرضوا بذلك، ثم مرّ به على صفوف أهل العراق وراياتهم يعرضه عليهم حتى مرّ برايات عترة - وكان مع عليّ من عترة بصفين أربعة آلاف مجفف - فلما مرّ بهم الأشعث فقرأه عليهم، قال فتیان منهم: لا حكم إلاّ لله. ثمّ حملا على أهل الشام بسيفهما (فقاتلا) حتى قتلا على باب رواق معاوية. وهما أول من حكم، واسماهما معدان وجعد، اخوان، ثم مرّ بها على مراد، فقال صالح بن شقيق وكان من رؤسائهم: ما لعليّ فى الدماء قد حكم * لو قاتل الأحزاب يوماً ما ظلم _____

١. الحرّ العاملى: وسائل الشيعة ١١ الباب ٢٥ الحديث ٥ و ٧ ص ٥٨ .

٢. الطبري: التاريخ ٣/٥٤٤. والمراد من السبائية: الخوارج، فإنّه كثيراً ما يطلقها عليهم. (١٤٢) لاحكم إلاّ لله ولو كره المشركون. ثم مرّ على رايات بنى راسب فقرأه عليهم فقالوا: لا حكم إلاّ لله، لانرضى ولا نحكّم الرجال فى دين الله، ثم مرّ على رايات بنى تميم فقرأها عليهم فقال رجل منهم: لاحكم إلاّ لله يقضى بالحق وهو خير الفاصلين، فقال رجل منهم لآخر: أما هذا فقد طعن طعنة نافذة. وخرج عروة بن ادية أخو مرداس بن ادية التميمي، فقال: أتحكّمون الرجال فى أمر الله، لا حكم إلاّ لله، فأين قتلانا يا أشعث. ثم شدّ بسيفه ليضرب به الأشعث، فأخطأه وضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فاندفعت به الدابة وصاح به الناس: أن امسك يدك. فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه (١). ٥ - إنّ بعض من صار من الخوارج كانوا متواجدين فى الكوفة أيام خلافة عثمان، وكانوا يعترضون على عماله مثل سعيد بن العاص، فكتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان فأمر بتسييرهم من الكوفة، ونرى بين المعترضين، حرقوص بن زهير السعدى، وشريح بن أوفى بن يزيد بن ظاهر العيسى، وزيد بن حصين الطائى وهم رؤوس الخوارج وكانوا ملتفتين حول الأشتر النخعي، وكانوا يعدّون من أصحابه، حتى كتب سعيد بن العاص بذلك إلى عثمان وقال: إننى لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء - وهم السفهاء - شيئاً فكتب إليه: أن سيرهم إلى الشام (٢). نعم اجتمع مع الأشتر غيرهم، من الرجال الصالحين والعباد الناسكين كزيد وصعصعة بن صوحان وكعب بن عبده وعدى بن حاتم الطائى، ويزيد بن قيس الأرحبى (الذى كان له مواقف مشكورة فى حرب صفين)، وعمرو بن الحمق، وكميل بن زياد النخعي، وحاتم بن عبد الله الأعمور الهمداني، _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٧ - ٥٨٨ .

٢. الغدير: ٥ / ٣١ نقلاً عن الأنساب للبلاذرى: ٥/٣٩ . (١٤٣)

وغيرهم من الصلحاء، وذلك يكشف عن وجود نزعة الاعتراض فى قراء الكوفة ورؤسائهم، نعم كون هؤلاء محقّين فى اعتراضهم على عامل الخليفة الثالث وحتى الخليفة نفسه لا يكون دليلاً على أنّهم محقّون كذلك فى مسألة التحكيم وما خلّف من الآثار السيئة، ولا دليل على تلك الملازمة، فرب انسان يكون محقّقاً فى دعوى ومبطلاً فى دعوى أخرى، والامعان فى حقيقة الاعتراضين - الاعتراض

على عامل الخليفة الثالث والاعتراض على أمير المؤمنين علي يكفى في تصديق ما ذكرنا. نعم إن الإسلام لا يخالف سياسة الانتقاد وحرية التعبير عن الرأي، ولا يريد للأمة أن تكون كقطيع من الماشية بل أنه يدعو إلى النقد إذا كان لأجل طلب الحق، مثلاً إذا بدا للإنسان أن قول القائد لا يماثل عمله فله السؤال والنقاش ولكن بأسلوب بناء، لغاية الوصول إلى الحق، وهذا ما يدعو إليه الإسلام خصوصاً فيما إذا كان القائد انساناً غير معصوم، بل نجد ذلك في عصر المعصوم أيضاً، روى أصحاب السيرة لما توفي عبد الله ولد النبي بكى عليه وجرت دموعه على خديه، فاستظهر بعض الصحابة أن عمل النبي هذا ينافي ما أوصى به من عدم البكاء على الميت، فاجابه النبي وأرشده إلى الحق وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: لا، ولكني نهيت عن صوتين احمقين وآخرين: صوت عند مصيبيه، وخمش وجوه، وشق جيوب، ورنه شيطان، وصوت عند نعمه لهو، وهذه رحمة ومن لا يزحم لا يزحم (١). نعم إذا كانت الغاية مجرد إبداء الرأي، وحب الاعتراض، فهذا ما يعده الكتاب والسنة من المجادلة بالباطل (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا

١. برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبيه ٣/٣٩٥ . (١٤٤) (يَعَزُّزَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ) (١) وقال سبحانه: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ). (٢) نحن نرى تلكما النزعتين متجسديتين في الأشر والمُلتفين حوله من الصلحاء من جهة، وحر قوص وزملائه من جهة أخرى، وإن اشتركوا في حقبه من الزمن في صبغة الاعتراض. فالنزعة الأولى: كانت نابعة عن روح صادقة لاعتناق هوى نفسى، ولأجل ذلك بقوا على اعتراضهم ومخالفتهم لعامل الخليفة إلى أن قُتل عثمان، لأنهم أدركوا أن عمل الخليفة وعماله يفارق مبادئ الإسلام، وتحملوا التسيير والتباعد عن الوطن، ولكن لما واجهوا علياً ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة من أنه القائد الإلهي الذي يعمل لأجل الله، سلّموا إليه مقاليد امورهم. والنزعة الثانية: كانت نابعة عن روح مكابرة تريد فرض ما تحب وترى، سواء أكان حقاً أم باطلاً، ونذكر هنا نموذجاً للقسمين: قال ابن مزاحم: قيل لعلي لما كتبت الصحيفة: إن الأشر لم يرض بما في هذه الصحيفة ولا يرى إلا قتال القوم، فقال علي: بلى إن الأشر ليرضى إذا رضى، وقد رضى ورضيتهم، ولا يصلح الرجوع بعد الرضا، ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله ويتعدى ما في كتابه (٣). وإي تسليم أعلى وأنبل من تسليم الأشر لأمر القيادة، فقد كان النصر حليفاً له ولم يبق بينه وبين تحققه إلا عدوة الفرس، أو قاب قوسين أو أدنى، فلمّا وقف على أن مواصلة الحرب ولو فترة قليلة سيؤدى إلى القضاء

١. غافر: ٤.

٢. الكهف: ٥٦.

٣. نصر بن مزاحم: وقعه صفين ٥٩٨. (١٤٥)

على حياة الإمام، تراجع عن ساحه القتال، ورجع طائعاً مذعناً لما أمره به الإمام - عليه السلام - وخاطب أولئك الذين وقفوا بوجه الإمام، وقال خُذِعْتُمْ وَاللَّهِ فَانْخَدِعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ فَأُجِبْتُمْ، يَا أَصْحَابَ الْجَبَابَةِ السُّودِ كُنَّا نَنْظُرُ أَنْ صَلَاتِكُمْ زَهَادَةً فِي الدُّنْيَا، وَشَوْقاً إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ، فَلَا أَرَى فِرَارَكُمْ إِلَّا إِلَى الدُّنْيَا مِنَ الْمَوْتِ، أَلَا فَجَبْحاً يَا أَشْبَاهَ النَّيْبِ الْجَلَالَةِ، مَا أَنْتُمْ بِرَائِينَ بَعْدَهَا عِزّاً أَبَدًا، فَابْعَدُوا كَمَا بَعَدَ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (١). هذا هو الأشر وهذه طاعته للإمام الحق، وأمّا الخوارج فسئل عن عنادهم ولجاجهم في وجه الحق، فقد احتج عبد الله بن عباس على صحته مبدأ التحكيم بقوله: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالْتَّحْكِيمِ فِي قَتْلِ صَيْدٍ» فقال: (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ) فكيف في الامامة... فلما سمعت الخوارج تلك المعارضة قال بعضهم لبعض: اجعلوا احتجاج قريش حجة عليهم، فإن هذا من الذين قال الله فيهم: (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيْعُونَ) وقال عز وجل: (وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدْنَا) (٢). إلى هنا وقفت على العامل الأول لظهور هذه النكسة، وإليك بيان العامل الثاني: الثاني: وجود العملاء في جيش الإمام: كان في جيش الإمام عملاء لمعاوية يعملون لصالحه، حيث كانوا يضمرون العداء لعلي، ويتحينون الفرص للقضاء على حكومته وحياته، كأمثال الأشعث بن قيس، وقد عرفت أنه خطب في أوان طلوع فكرة إنهاء الحرب وقال: من لذرارينا ونسائنا إن قتلنا؟ يقول هذا والخوارج بمرأى

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٣.

٢. المبزود: الكامل ٢/١٢٢ طبع مطبعة المعارف بمصر. (١٤٦)

ومسمع منه، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: «كل فساد كان في خلافة عليّ - عليه السلام - وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث» (١). وإليك الشواهد على صحّة تلك النظرية: ١ - كان الأشعث عاملاً لعثمان على آذربايجان، وقد كان عمرو بن عثمان تزوج ابنة الأشعث بن قيس، ولما بويح عليّ - عليه السلام - كتب إليه مع زياد ابن مرحب الهمداني رسالة ذكر فيها بيعه طلحة والزبير ونقضهما البيعة وقال: «وإن عملك ليس لك بطعمه ولكنّه أمانة، وفي يدك مال من مال الله، وأنت من خزّان الله عليه حتى تسلّمه إليّ». فلما قرأ كتاب عليّ قال لبعض أصحابه: «إنّه قد أوحشني وهو آخذ بمال آذربايجان» وأراد اللحوق بمعاوية فمنعه بعض أصحابه حتى قدم عليّ عليّ، وهو معزول عن الولاية (٢). قال المسعودي: وبعث إلى الأشعث بن قيس يعزله عن آذربايجان وأرمينية وكان عاملاً لعثمان عليها، وكان في نفس الأشعث على عليّ ما ذكرنا من العزل وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال (٣). ٢ - كانت رئاسة قبيلتي كندة وربيعة للأشعث فانتزعتها عليّ - عليه السلام - منه وولّى حسان بن مخدوع عليهما، ثم بعد هن وهنات أشركه في الرئاسة (٤) وقد أثار ذلك حفيظة الأشعث على عليّ وإن لم يظهر ذلك. ٣ - كان الأشعث متّهماً بالتنسيق مع معاوية خلال فترة الحرب، يقول ابن مزاحم: إن ابن ذى الكلاع أرسل إلى الأشعث رسولا فقال له: «إن ابن عمك _____

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٧٩.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٢٩.

٣. المسعودي: مروج الذهب ٣/١١٧.

٤. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ١٥٣. (١٤٧)

ذو الكلاع يقرئك السلام ورحمة الله، وإن كان ذوالكلاع قد أصيب وهو في الميسرة، فتأذن لنا فيه» فقال له الأشعث: اقرأ صاحبك السلام ورحمة الله، وقل له: إنني أخاف أن يتهمني عليّ، فاطلبه إلى سعيد بن قيس فإنه في الميمنة، فذهب إلى معاوية فأخبره وكان منع ذلك منهم، وكانوا في اليوم والأيام يتراسلون (١). ٤ - أرسل معاوية بن ابي سفيان أخاه عتبة بن أبي سفيان، فقال: التقي الأشعث، فإنه إن رضيت العامّة، فخرج عتبة فنادى الأشعث بن قيس، فقال الناس: هذا الرجل يدعوك، فقال الأشعث: سلوه من هو؟ فقال: أنا عتبة بن أبي سفيان، فقال الأشعث: غلام مترف ولا بدّ من لقائه، فخرج إليه، فأبلغه دعوة معاوية (٢). وهذا يعرب أنّ معاوية كان يحاول إيجاد موطأ قدم له في ساحة عليّ - عليه السلام - من خلال كسب رضا الأشعث، وقد نجح الرجل في ذلك بعض النجاح وقد كانت نتيجة هذه الدعوة أنّه قال في جواب معاوية: أما البقية فلستم بأحوج إليها منّا، وسنرى رأينا فيها إن شاء الله. فلما بلغ معاوية كلام الأشعث، أيقن بأنّ الأشعث قد جنح للسلم، وشاعت نتيجة المفاوضات في صفوف الجيشين، إلى أن اجترأ الأشعث على ابداء رأيه في الحرب والطلب من عليّ أنهاها رحمة بالذراري والنساء وهذا ماتقرأه فيما يلي: ٥ - إنّ الأشعث قام ليلة الهيرير في أصحابه من كندة، فألقى خطاباً يتوخّى منه تشييط العزائم وإيقاف الحرب لصالح معاوية، وكانت امارات النصر لعليّ _____

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٣٤١.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٤٦٥. (١٤٨)

ظاهرة، وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الأسنة في نهار تلك الليلة، فقال في خطابه: «قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط، إلاّ فليبلغ الشاهد الغائب، أنا إن نحن توافقنا غداً أنّه لفناء العرب وضيعة الحرمات، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكني رجل مسنّ اخاف على النساء والذراري غداً إذا فنينا. قال صعصعة: فانطلقت عيون معاوية إليه بخطبة الأشعث، فقال: أصاب وربّ الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم على ذراريننا ونسائنا، ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق وذراريهم، وأنما يبصر هذا ذووا

الأحلام والنهي، اربطوا المصاحف على أطراف القنا. فصار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق من لذرارينا إن قتلتمونا ومن لذراريكم إن قتلناكم، الله الله في البقية. فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل... (١). ٦ - إن رفع المصاحف أوجد الفوضى في جيش علي - عليه السلام - وفرقهم إلى فرقتين، فمنهم من يطلب مواصلة الحرب كعمرو بن الحمق وغيره، ومنهم من يصرّ على إنهاؤها، ومنهم الأشعث فقام خطيباً مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحقّ به منهم، وقد أحبّ الناس البقاء وكرهوا القتال (٢). ٧ - وبعدما رضى الإمام بالتصالح لأمر تقدّمت، وتوافق الطرفان على أن يبعث كلّ واحد حكماً، اختار الإمام أن يكون الحكم من قبيله، ابن عباس،

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٩ - ٥٥٠.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٥١. (١٤٩)

فلم يقبله الأشعث، وقال: والله ما نبالي أكنت أنت أو ابن عباس ولا تريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر، قال علي: إني اجعل الأشتر، قال الأشعث: وهل سخر الأرض علينا غير الأشتر (١). ٨ - كان الأشعث يتبجح بكتاب الصلح ولما تمت كتابته وشهد عليه شهود من الطرفين أخذ به ومرّ به على صفوف أهل الشام والعراق يعرضه عليهم، واستقبله أهل الشام بالرضا، وأما أهل العراق فقد أوجد فيهم فوضى فمنهم من رضى ومنهم من حمل عليه هاتفاً بقوله: لا حكم إلا لله (٢). ومما ذكرنا يظهر أن الرجل وإن لم يكن من الخوارج لكنه إمّا كان عميلاً لمعاوية، كما هو الظاهر ممّا سردناه عليك، أو كان في نفسه شيء يجزّه إلى أن يتخذ موقفاً خاصياً مناوئاً لعليّ - عليه السلام - ولأجل ذلك كان ما ألقاه من كلام حول إيقاف الحرب فرصة لما يرومه معاوية من انتهاء الحرب وإيجاد الفوضى، وبذلك تقف على صحّة ما ذكره ابن أبي الحديد: من أن كل فساد كان في خلافة عليّ فأصله الأشعث. يقول اليعقوبي: لمّا رفعوا المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله، فقال علي: إنّها مكيدة وليسوا بأصحاب قرآن، فاعترض الأشعث بن قيس الكندي، - وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه فقال: قد دعوا القوم إلى الحقّ، فقال عليّ - عليه السلام - إنّهم إنّما كادوكم وأرادوا صرفكم عنهم، فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهم انصرفت عنك، ومالت اليمانية مع الأشعث، فقال الأشعث: والله لتجيبنهم إلى ما دعوا إليه أو لندفعنك إليهم

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٧٢.

٢. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٨٨. (١٥٠)

برمتك (١). ويؤيد ذلك ما ذكره المبرد في كامله: لمّا استقرت الخوارج في حروراء بعث عليّ - عليه السلام - إليهم صعصعة بن صوحان العبدى وزياد بن النضير الحارثي مع عبدالله بن عباس فقال لصعصعة: بأى القوم رأيتم أشدّ إطاقه؟ فقال: يزيد بن قيس الأرحبي، فركب عليّ إليهم إلى حروراء، فجعل يتخلّهم حتى صار إلى مضر بن يزيد بن قيس، فصلّى فيه ركعتين، ثم خرج فاتكأ على قوسه، وأقبل على الناس، فقال: هذا مقام من فلج (٢) فيه فلج يوم القيامة، ثم كلمهم وناشدهم، فقالوا: أنا أذنبنا ذنباً عظيماً بالتحكيم، وقد تبنا، فتب إلى الله كما تبنا نعدلك، فقال عليّ - عليه السلام -: أنا استغفر الله من كلّ ذنب، فرجعوا معه وهم ستّة آلاف، فلمّا استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليّاً - عليه السلام - رجع عن التحكيم، ورآه ضلالاً - وقالوا: إنّما ينتظر أمير المؤمنين أن يسمن الكراع (٣) وتجنّى الأموال، ثمّ ينهض بنا إلى الشام، فأتى الأشعث عليّاً - عليه السلام - فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيت الحكومة ضلالاً والاقامة عليها كفرة، فقام عليّ - عليه السلام - يخطب، فقال: من زعم أنّي رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالاً فقد ضلّ، فخرجت حينئذ الخوارج من المسجد فحكمت (٤). قال ابن أبي الحديد: إنّ الخوارج لمّا قالوا لعليّ: تب إلى الله ممّا فعلت كما تبنا، نهض معك إلى حرب الشام، فقال لهم عليّ: كلمة مجملّة مرسلّة

١. اليعقوبي: التاريخ ٢/١٧٨ طبعه النجف.

٢. فلج فيه، من الفلج: وهو الظفر.

٣. الكراع: اسم للخيل .

٤. المبرّد: الكامل ٢/١٥٥، وفي المصدر: فقال الصعصعة والصحيح ما أثبتناه . (١٥١)

يقولها الأنبياء و المعصومين وهي قوله: «استغفر الله من كل ذنب» فرضوا بها وعدّوها اجاباً لهم إلى سؤالهم، وصفت له - عليه السلام - نياتهم، واستخلص بها ضمائرهم، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب فلم يتركه الأشعث، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال وهاتكاً ستر التورية والكناية، فانتقض ما دبره، وعاد الخوارج إلى شبهتهم الأولى، وراجعوا التحكيم والمروق (١) . هل العصبية القبلية دفعت الأشعث إلى المخالفة؟: من هذا البحث انصافاً تقف على قيمة ما يذكره البعض وهو أنّ العصبية القبلية أثرت في انحراف الأشعث عن علي، بل مهّدت لنشوء الخوارج وظهورهم في الساحة، وذلك بحجة أنّ الأشعث اعترض على ترشيح عبدالله بن عباس ممثلاً لعلي، وقال: لا والله لا يحكم فيها مضرّيان حتى تقوم الساعة، ولكن اجعله من أهل اليمن، إذا جعلوا (أهل الشام) رجلاً من مضر. فقال علي: إني أخاف أن يُخدع يَمَيِّكُم، فإنّ عمراً ليس من الله في شيء إذا كان له في امر هوى، فقال الأشعث: والله لأن يحكما ببعض ما نكرهه وأحدهما من أهل اليمن أحبّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ في حكمهما وهما مضرّيان (٢) . إنّ تحليل انحراف الأشعث عن علي - عليه السلام - وایجاد الفوضى في قسم كبير من جيشه بهذا العامل النفسي ضعيف جداً، ولاننكر أن يكون لهذا العامل أيضاً رصيماً في ما كان يضمه ويعمله .

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٢٨٠ .

٢. الدكتور نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ٢٥ وما نقله عن الأشعث، ذكره ابن مزاحم في وقعة صفين ٥٠٠ . (١٥٢) وأبعد من ذلك تحليل نشوء الخوارج في ساحة القتال بالعصبية القبلية، أنّها أنجبت حركة الخوارج فصارت عصبيتهم الموجهة ضدّ قريش وسلطانها المتجسد في الحكومة العلوية يومذاك، سبباً لتلك الحركة الهدامة بشهادة أنا لانجد في صفوف الخوارج قرشياً واحداً بل على العكس من ذلك فإنّهم كانوا يحملون لواء التمرد على قيادتها (١) . إنّ تحليل هذه الحركة الكبيرة من بدئها إلى نهايتها بهذا العامل النفسي أشبه بتعليل الهزة الكبيرة الموجبة لانهدام المدن والقرى، بسقوط صخرة من أعلى الجبل إلى هوة سحيقة، نعم لا يمكن انكار العصبية القبلية بين جميع القبائل العربية، خصوصاً بين قبيلتي تميم وقريش، ولكنّه ليس بمعنى أنّه الباعث والعامل المحدث لهذه الضجة الكبيرة التي شغلت بال المسلمين والخلفاء طوال قرون، بل العامل لحدوث هذه الحركة هو ما عرفته في المقام وفي الفصل الثالث عند البحث عن نشوء الخوارج . ***

١. الدكتور نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ٢٨ .

الفصل الثامن الخوارج في عصر معاوية بن أبي

الفصل الثامن الخوارج في عصر معاوية بن أبي سفيان (١٥٤) (١٥٥) قد تعرّفت على مأساة التحكيم وما خلف من آثار ونتائج سيئة في جيش الإمام وأصحابه حيث فرّقهم وشقّ شملهم، فانقلب الاخوان أعداء، وأصبح الأنصار معارضين، إلى أن أدّى ذلك إلى حروب دامية ضدّ إمامهم أمير المؤمنين ولم يبرحوا حتى قضاوا على حياته حيلة وغيلة. لقد بذر معاوية تلك البذرة في جيش الإمام، ولم يدر بخلده أنّ هذه البذرة سوف تنمو وتكون أشواكاً تعكّر عليه صفو خلافته، وتشغل باله عشرين سنة إلى العام الذي هلك فيه، فحصد مازرع ووقع بالحفرة التي حفرها، وسوف نذكر الحروب والانتفاضات التي جرت في عهد معاوية بعد أن تسنّم عرش الخلافة من عام ٤١ إلى ٦٠ من الهجرة. نعم لم تقف انتفاضاتهم بهلاك معاوية، بل استمرّت بعد هلاكه، وعلى طول عهد بني أمية، غير أنّنا نكتفي بما جرى في عهد معاوية وبعده بقليل، ليكون نموذجاً لسائر الثورات التي قاموا بها إلى أواخر العصر الأموي. فكانوا مثلاً لقوله سبحانه: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ (١٥٦) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) . وقيل ذلك نلفت نظر القارئ إلى هذه الانتفاضات من زاوية أخرى، فالخوارج وإن قاموا في وجه الطغاة اللثام من بني أمية فثاروا عليهم هنا وهناك بصورة عشوائية ومتفرقة،

فأسهروا عيونهم وزعزعوا كيانهم، ولكنهم أيضاً ذاقوا وبال أمرهم لأنهم عصوا إمامهم، وقلّبوا الأمور عليه، وأوجدوا الفوضى في عصره، فصدق فيهم قول الامام وهو يخاطبهم: «أما أنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، يتخذها الظالمون فيكم سنة» (٢). وهذا الكلام تنبؤ من الإمام عن مستقبلهم المظلم، ويحق له هذا التنبؤ، كيف وهو باب علم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، نعم احتمال ابن أبي الحديد أن يكون دعاءً أيضاً وقال: وهذه المخاطبة لهم وهذا الدعاء عليهم، وهذه الأخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإن الله تعالى سلط على الخوارج بعده الذلّ الشامل، والسيف القاطع، والاثرة من السلطان، وما زال حالهم يضمحل حتى افناهم الله تعالى وافنى جمهورهم. ثم إن ابن أبي الحديد ذكر في أخبارهم شيئاً كثيراً وأطنب الكلام في سيف المهلب بن أبي صفرة وبنيه على الخوارج وإن نتيجته كانت الحتف القاضى، والموت الزؤوم للخوارج. إن موسوعتنا هذه موسوعة تاريخ العقائد، لا تاريخ الأوقام، ولأجل ذلك ضربنا صفحاتاً عن نقل جميع الانتفاضات التي أقامها الخوارج في الشهود المختلفة، وفي أماكن متفرقة، واكتفينا بما قاموا به في العصر الأموي، وخصّصنا بالذكر خصوص ما يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان زارع هذه

١. التغابن ٥.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨. (١٥٧)

البذرة، وحاصد نتائجها الدنيوية، وحافر تلك الحفرة والواقع فيها، وطلباً للاكمال نشير إلى الانتفاضات الواقعة بعد عهد معاوية بوجه موجز. اغتيل الإمام على - عليه السلام - بيد أشقى الأولين والآخرين على ما وصفه الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - في حديثه (١) وقضى نحبه فبويح الحسن خليفه بعد أبيه وتمت له البيعة في رمضان سنة أربعين، وكان معاوية يتحين الفرص ليسيطر على العراق كما سيطر على مصر ويأخذ بمقاليد الحكم، وقد أعطاه قتل الإمام فرصة لبسط نفوذه على العراق وخلع الحسن عن الحكم، فقدم أمامه عبدالله بن عامر ليفتح الطريق إلى معاوية، ثم غادر هو الشام متوجّهاً إلى العراق. ولما وقف الحسن على خطه معاوية وأنه بصدد مواجهته بالقوة العسكرية قدم كتائب من جيشه وعلى رأسهم كتيبة قيس بن سعد بن عباد، وخرج هو من الكوفة حتى نزل المدائن مستعداً لمواجهة معاوية، غير أن الحوادث المريرة - التي ليس المقام مناسباً لذكرها - خيّت أمله، فلم ير بداً من التنازل عن الحكم وتسليم الأمر إلى معاوية من خلال وثيقة الصلح، وكيف لا يكون مضطراً إلى التصالح وقد أعرب عن اضطهاده وتخاذه أصحابه ونهب ماله قبل مواجهة العدو، فقام خطيباً وقال: «يا أهل العراق أنه سخي بنفسى عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياى وانتهاككم متاعى» (٢). أخذ معاوية بمقاليد الحكم وكان يتبجح بأنه أزال جميع الموانع التي

١. سبط ابن الجوزى: تذكرة الخواص ١٥٨.

٢. الطبرى: التاريخ ٤/١٢٢ وقد ذكر الطبرى صورة وثيقة الصلح في ذلك المقام ولكن ما ذكره لا يشتمل على جميع بنود الصلح ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب صلح الحسن للشيخ راضى آل ياسين. (١٥٨)

كانت تقف في طريقه لتولى سدة الحكم، لكنه كان غافلاً عن أن البذرة التي بذرها في صفين لأجل إيجاد الفرقة في صفوف جيش على - عليه السلام - سوف تنمو ويأكل من ثمرها وتكون عليه ضداً، فإن تسليم الحسن الحكم لمعاوية، ومبايعة أهل العراق له قد أغضب رؤوس الخوارج المختفين في جيش الحسن والمتفرقين في البلاد، إذ شعروا أن هذا التصالح خطر على كيانهم ووجودهم، ولأجل ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم لمحاربة النظام الجديد كما حاربوا النظام السابق، فالخوارج كانوا ينظرون إلى على - عليه السلام - ومعاوية بمنظار واحد بعد قضية التحكيم وإن كان على - عليه السلام - في نظرهم إماماً عادلاً محققاً قبل التحكيم. وإليك بعض حروبهم في عصر معاوية على وجه الإجمال: ١ - خروج فروة بن نوفل: يقول الطبرى: وفي هذه السنة سنة ٤١ خرجت الخوارج التي اعتزلت أيام على - عليه السلام - بـ «شهرزور» على معاوية، فلما قدم معاوية العراق قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة فقالت الحرورية الخمسمائة التي كانت اعتزلت بـ «شهرزور» مع فروة بن نوفل الأشجعي: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية نجاهده، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة فأرسل اليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام فكشفوا أهل الشام، فقال

معاوية لأهل الكوفة: لأمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منّا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله وإن أصبنا كُنّا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله اخواننا (١٥٩)

من أهل النهر هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع (١) صاحبهم فروة وكان سيد القوم واستعمل الخوارج عليهم عبدالله بن أبي الحر (٢)، رجلا - من طي، فقاتلوهم، فقتلوا (٣). ومما يذكره المؤرخون من حديث معركة النخيلة: ان قبيلة اشجع تمكنت من أخذ فروة بن نوفل من بين أصحابه الخوارج، فولّى الخوارج عليهم عبدالله بن ابي الحرياء، فقتل في أثناء المعركة، فولّى الخوارج عليهم حوثره بن وداع بن مسعود الأسدي، فعاد إلى النخيلة، فأرسل اليه معاوية أباه، لعله يرّده وقال له: أخرج إلى ابنك فلعله يرقّ إذا رآك. فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بأبنك؟ فلعلّك إذا رأيته كرهت فراقه. فقال حوثره: إنني طعنته من يد كافر يرمح القلب فيها ساعة، أشوق منّي إلى ابني . فرجع أبوه وأخبر معاوية بقوله. فأرسل معاوية إليهم جنداً فقتلوهم جميعاً (٤) . ٢ - خروج شبيب بن بجرة: كان شبيب مع ابن ملجم حين قتل علياً، فلما دخل معاوية الكوفة أتاه شبيب المتقرب وقال: أنا و ابن ملجم قتلنا علياً، فوثب معاوية من مجلسه مذعوراً حتى دخل منزله وبعث إلى أشجع،

١. اسم قبيلة من قبائل الكوفة، والمراد أن القبيلة التي كانت تحمي معاوية أخذت فروة بن نوفل رئيس الخوارج.

٢. وفي الكامل لابن الاثير (عبدالله بن أبي الهوساء) ٣/٣٠٥ - ٣٠٦ .

٣. الطبري: التاريخ ٤/١٢٦ .

٤. عمر ابو النصر: الخوارج في الإسلام ٣١ . (١٦٠)

فقال: لئن رأيت شبيباً أو بلغني أنه بابي لأهلكنكم، أخرجه من بلدكم، وكان شبيب إذا جنّ عليه الليل خرج فلم يلق أحداً إلا قتله، فلما ولي المغيرة بن شعبة الكوفة، خرج عليه بالطفّ قريب الكوفة، فبعث إليه المغيرة خيلاً عليها خالد بن أرفطه، وقيل معقل بن قيس، فاقتتلوا فقتل شبيب وأصحابه (١) . هذه عبرة خاطفة عن ثورات الخوارج في الكوفة، قبل أن يولّى المغيرة بن شعبة من قبل معاوية، وبعدما تولّى هو الكوفة كانت لهم ثورات أحمدها المغيرة بدهائه وسيفه وإيكها مجملته: الخوارج والمغيرة بن شعبة والى معاوية في الكوفة: غادر معاوية الكوفة إلى الشام واستعمل عبدالله بن عمرو بن العاص على الكوفة، فأتاه المغيرة بن شعبة فقال له: استعملت عبدالله على الكوفة، وأباه على مصر، فتكون أميراً بين نأبي الأسد، فعزله عنها واستعمل المغيرة على الكوفة، ولما بلغ عمرو ما قاله المغيرة، دخل على معاوية فقال: استعملت المغيرة على الخراج فيغتنال المال ولا تستطيع أن تأخذه منه، استعمل على الخراج رجلا يخافك ويتقيك، فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة. فلقي المغيرة عمرو، فقال عمرو: أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به في عبدالله؟ قال: نعم. قال: هذه بتلك (٢) وكان المغيرة يمثل

١. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٠٦ .

٢. الطبري: التاريخ ٤/١٢٧ . ابن الاثير: الكامل ٣/٢٠٦ . هؤلاء هم الصحابة العدول الذين يؤخذ عنهم الدين والفتوى!! . (١٦١)

سياسة معاوية مع الخوارج فيقاتلهم تارة ويعفو عنهم أخرى، يقول الطبري: بعث معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة، فأحبّ العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى فيقال له: إن فلاناً يرى رأى الشيعة، وإن فلاناً يرى رأى الخوارج، فكان يقول: قضى الله أن لا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده في ما كانوا فيه يختلفون، فأمنه الناس (١). وإليك بعض مواجهاته مع الخوارج. ٣ - خروج معين الخارجي: بلغ المغيرة أن معين بن عبدالله يريد الخروج فأرسل إليه وعنده جماعة فأخذ وحبس، وبعث المغيرة إلى معاوية يخبره أمره، فكتب إليه: إن شهد أني خليفة فخلّ سبيله، فأحضره المغيرة وقال له: أتشهد أن معاوية خليفة و أنه أمير المؤمنين؟ فقال: أشهد أن الله عزّوجلّ حقّ وأن الساعة آتية لا ريب فيها و أن الله يبعث من في القبور، فأمر به فقتل (٢) . ٤ - خروج أبي مريم مولى بني الحرث بن كعب: ثم خرج أبو مريم مولى بني الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيله، وكان

أول من أخرج معه النساء، فعاب ذلك عليه أبو بلال بن أديه، فردّه أبو مريم بأنه قد قاتل النساء مع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ومع المسلمين بالشام، وسأردّهما، فردّهما، فوجه إليه المغيرة جابر الجعفي، فقاتله فقتل أبو مريم وأصحابه بـ «بادوريا» (٣) . ٥ - خروج أبي ليلي: وكان أبو ليلي رجلاً أسود طويلاً، فأخذ بعضادتي

١. الطبري: التاريخ ٤/١٣٢ .

٢. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٠٦ .

٣. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٠٦ - ٢٠٧ . (١٦٢)

باب المسجد بالكوفة وفيه عدّة من الأشراف، وحكم بصوت عال، فلم يعرض له أحد، فخرج وتبعه ثلاثون رجلاً من الموالي، فبعث إليه المغيرة معقل بن قيس الرياحي فقتله بسواد الكوفة سنة اثنتين وأربعين (١) . ٦ - خروج المستورد: إنّ الخوارج في أيام المغيرة بن شعبه فرغوا إلى ثلاثة نفر، ١ - المستورد بن علفه التيمي ٢ - حيان بن ظبيان السلمي ٣ - معاذ بن جوين الطائي، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان فتشاوروا فيمن يولون عليهم، فبايعوا المستورد لأنه أسنّ الثلاثة واستعدوا للخروج في غرة هلال شعبان سنة ٤٣ (٢) . ثمّ إنّ قبيصة بن الدمون أتى المغيرة وكان على شرطته، فأخبر أنّ الخوارج قد اجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان، وقد اتعدوا أن يخرجوا إليك في غرة شعبان، فقال المغيرة: ستر بالشرطة حتى تحيط بدار حيان بن ظبيان فأتني به، وهم لا يرون إلاّ أنّه أمير تلك الخوارج، فسار قبيصة بالشرطة وفي كثير من الناس، فلم يشعر حيان بن ظبيان إلاّ والرجال معه في داره نصف النهار وإذا معه معاذ بن جوين و نحو من عشرين رجلاً من أصحابهما، فاستسلموا فانطلق بهم إلى المغيرة بن شعبه، فقال لهم المغيرة: ما حملكم على ما أردتم من شقّ عصا المسلمين، قالوا له: أمّا اجتماعنا في هذا المنزل فإنّ حيان بن ظبيان أقرأنا القرآن، فنحن نجتمع عنده في منزله، فنقرأ القرآن عليه، قال: فاذهبوا بهم إلى السجن، فلم يزالوا فيه نحواً من سنة (٣) .

١. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٠٧ .

٢. الطبري: التاريخ ٤/١٣٣ - ١٣٤ .

٣. الطبري: التاريخ ٤/١٣٨ . ابن الاثير: الكامل ٣/٢١٠ - ٢١٢ . (١٦٣) وأمّا المستورد، فقد ذكر الطبري في تاريخه (١) وابن الاثير في كامله (٢) ثورته على وجه التفصيل ونحن نذكر ملخصها حسب ما قام به الدكتور نايف معروف في كتابه «الخوارج في العصر الأموي»: وأمّا المستورد، فإنّه نزل داراً في الحيرة بعيداً عن أعين الحرّاس. ولكن لما أخذت الخوارج تفد عليه، وانكشف أمره، أمر أصحابه بالرحيل عنها، فتحوّلوا إلى دار سليم بن مخدوج العبدى، في بنى سلمة من عبد القيس، وكان صهراً للمستورد لا يرى رأيه في الخروج. ولمّا شاع خبر تحرك الخوارج، أدرك المغيرة خطورة الأمر، فجمع رؤساء القبائل وخطبهم فقال: فليكفين كلّ امرئ من الرؤساء قومه، وإلاّ فوالذي لا إله غيره لأتحولنّ عمّا كنتم تعرفون إلى ما تنكرون، وعمّا تحبّون إلى ما تكرهون فلا يلم لائم إلاّ نفسه، وقد أعذر من أنذر. أخذ زعماء القبائل انذار المغيرة موضع جدّ واهتمام، فعادوا إلى قبائلهم وبادروا في البحث عن مثيري الفتنة في صفوفهم، وجاء صعصعة بن صوحان إلى عبدالقيس، فحدّثهم من إيواء هؤلاء المارقة، فترجع كثيرون عن اللحاق بالخوارج. ولمّا علم المستورد بتهديد المغيرة لرؤساء القبائل، وتجنباً لاجراح أصهاره، أمر أصحابه بالرحيل، فخرجوا عن ديار عبدالقيس، وساروا إلى الصراة ومنها إلى «بهرسير» وعزموا على دخول المدينة العتيقة التي كانت بها منازل كسرى فردّهم عنها عاملها سماك بن عبيد الأزدي العبسي. ثم حاول أن يردهم عن خروجهم، ويأخذ لهم الأمان، فأبى المستورد، وعبر «جرايرا» ومضى بأصحابه إلى أرض جوخي، حتى بلغ المذار، ونزلوا

١. الطبري: التاريخ ٤/١٣٨ - ١٦١ .

٢. ابن الاثير: الكامل ٣/٢١٢ - ٢١٧ . (١٦٤)

هناك. فبعث إليهم المغيرة جيشاً، قوامه ثلاثة آلاف رجل من نقاوة الشيعة، على رأسهم معقل بن قيس الرياحي التيمي الشيعي،

فأرسل معقل في أثرهم أبا الرواغ الشاكري في ثلاثمائة من الفرسان، فلحقهم حتى أدركهم في أرض المذار. وحينئذ اذك استشار أصحابه في قتالهم أو انتظار قدوم معقل عليه، فاختلف أصحابه بين مؤيد ومعارض. وأخيراً تنحى جانباً. ثم تقدم معقل في سبعمائة من فرسانه والتقى الخوارج فانهم كثيرون من أصحابه ولم يثبت سوى معقل وأبي الرواغ في نحو مائتين من الفرسان. ووصلت مؤخره الجيش وتوافقوا للقتال. وفي تلك الأثناء جاءت الخوارج الأخبار بأن شريك بن الأعور قد أقبل في ثلاثة آلاف من أهل البصرة، فاقترح المستورد على أصحابه أن ينحازوا ثانية، عن أرض البصرة وأن يعودوا إلى أرض الكوفة، لأن البصريين لا يحاربون خارج دائرهم، فانسحبوا من مواقعهم وتسللوا إلى أرض الكوفة حتى بلغوا جراجايا، وقد أصاب حدسهم، فإن البصريين رفضوا للحاق بهم، فمضى الخوارج في طريقهم وعبروا دجلة ونزلوا في أرض بهر سير. وهناك بالقرب من ساباط كان اللقاء الحاسم فاشتد القتال بين الفريقين، وكادت الدائرة تدور على أهل الكوفة لولا ثبات معقل في عدد من فرسانه، ونجدة أبي الرواغ الذي كان أبعد المستورد عن ساحة المعركة بحيلة حربية، أما المستورد، فإنه نادى معقلاً ودعا للمبارزة، فحاول أصحابه منعه من ذلك، فأبى وخرج إليه معقل، فاختلفا ضربتين، فقتل كل واحد منهما صاحبه. وكان قد أوصى بالامارة من بعده إلى عمرو بن محرز ابن شهاب التميمي، الذي أخذ الراية بعد مقتله وحمل على الخوارج (١٦٥)

فقتلوه ولم ينج منهم إلا بضعة رجال فرّوا من أرض المعركة (١). ٧. خروج الموالى لصالح الخوارج: إن الموالى في العصر الأموي كانوا تحت الضغط يحقرون بأنهم غير عرب، فلأجل ذلك لا عجب إذا رأينا صلة بينهم وبين الخوارج فإنهم وإن كانوا لا يتبنون مبادئ الخوارج ولكن كانوا يلتقون معهم بعدائهم للحكومة الأموية، ولأجل ذلك نجد أن عصابة من الموالى خرجت من الكوفة فبعث إليهم المغيرة رجلاً من بجيلة، فقاتلهم وقضى عليها، وهؤلاء أول خارجة خرج فيها الموالى (٢). ٨. خروج حيان بن ظبيان السلمي: وفي سنة خمسين توفي المغيرة بن شعبة، وهو ابن سبعين، وقد سجن كثيراً من الخوارج وقد أفرج عنهم بعد موته، ولما ولي على الكوفة عبدالرحمن بن عبدالله بن عثمان بن ربيعة الثقفي، وهو ابن أم الحكم، أخت معاوية بن أبي سفيان عادوا للخروج. يقول الطبري: إن حيان بن ظبيان السلمي، جمع إليه أصحابه، فدعاهم إلى الجهاد، وأدعم رأيه معاذ بن جوين الطائي، وباع القوم حيان بن ظبيان، ثم اجتمعوا في منزل معاذ بن جوين بن حصين الطائي، فقال لهم حيان: عباد الله أشيروا برأيكم أين تأمروني أن أخرج؟ فقال له معاذ: إني أرى أن تسير بنا إلى «حلوان» فلم يقبله حيان، فقال له: عدوك معاجلك قبل اجتماع الناس إليك، ورأى الخروج إلى جانب الكوفة، ولم يرض به أصحابه، فقال لهم معاذ بن جوين: سيروا بنا فلننزل بـ«انقيا» فخرجوا فبعث إليهم جيش فقتلوا جميعاً، وذلك في عام تسعة وخمسين. ويقول الطبري: وفي هذه السنة اشتد عبيدالله بن زياد على الخوارج

١. د - نايف معروف: الخوارج في العصر الأموي ١١٨ - ١١٩ .

٢. اليعقوبي: التاريخ ٢/٢٢١ . (١٦٦)

وقتل منهم صبراً جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبراً، عروة بن اديه أخو أبي بلال مرداس بن اديه (١). الخوارج في البصرة: لم تكن الكوفة وضواحيها هي المركز الوحيد لحركة الخوارج وثوراتهم في أوائل العصر الأموي، فقد كانت البصرة مثل الكوفة مركزاً لنشاطهم وخروجهم. فقد خرج حمران بن أبان على البصرة في عام ٤١ فبعث معاوية بسر بن أرطاة فقتله وأحمد الثورة، ثم عزله معاوية واستعمل مكانه عبدالله بن عامر فخرج في عصره سهم بن غالب الهجيني في سبعين رجلاً، فخرج إليه ابن عامر ففرق شملهم حتى اضطروا إلى الأمان. ولما ولي معاوية زياداً على البصرة في سنة ٤٥، فوجدها تعج من الخوارج، وكانت لهم انتفاضات واحدة بعد أخرى ولكن لم يكن النجاح حليفاً لهم (٢) ونذكر هنا أهمها على وجه الاجمال: ٩ - خروج الخطيم الباهلي وسهم بن غالب الهجيني: خرج سهم إلى الأهواز فأحدث وحكم ثم رجع فاختمى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد وطلبه حتى أخذه وقتله وصلبه على باب. وأما الخطيم فسيره إلى البحرين، ثم أذن له فقدم، ولما أخل بما أمره به زياد أمر بقتله وألقى في عشيرته (باهلة) (٣).

١. الطبري: التاريخ ٤/٢٣١ .

٢. الطبري: التاريخ ٤/١٧٢ .

٣. الطبري: التاريخ ٤/١٧٢. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٢٥ . (١٦٧) ١٠ - خروج قريب بن مرة وزخاف الطائي: خرج هذان الرجلان في أماره زياد بالبصره فاعترضا الناس فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعه فقتلاه، فخرج رجل من بني قطيعه من الأزدي وفي يده السيف، فناداه الناس من ظهور البيوت الحرورية: أنج بنفسك، فنادوه (قريب وزحاف و من معهما): لسنا حرورية، نحن الشرط، فوقف فقتلوه. ثم جعل لا يمران بقبيله إلا قتلا من وجدا. حتى مرّ على بنى على بن سود من الأزدي وكانوا مائة فرموهم رمياً شديداً فصاحوا: يا بنى على، البقياء، لارمء بيننا، قال رجل من بنى على: لا شيء للقوم سوى السهام مشحودة في غلس الظلام ففرّ عنهم الخوارج، إلى أن واجهوا بنو طاحيه من بنى سود، وقبائل من مزينه وغيرها، ووقع الحرب، فقتل الخوارج عن آخرهم، وقتل قريب وزحاف وقد كان عمل هؤلاء منفراً على حدّ، تبرأ عنهم بعض الخوارج، ونقل ابن أبي الحديد عن أبي بلال مرداس بن أدية أنه قال: قريب، لاقربه الله، وزحاف لا عفا الله عنه، ركباها عشواء مظلمة - يريد اعتراضهما الناس - ونسب الطبري هذا القول إلى سعيد بن جبير (١). وقال الجزري: واشتد زياد في أمر الخوارج فقتلهم، وأمر سمره بذلك فقتل منهم بشراً كثيراً، وخطب زياد على المنبر وقال: والله لتكفنتي هؤلاء، أو لأبدأنّ بكم، والله لإن أفلت منهم رجل، لا تأخذون العام من عطياتكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوه (٢). ١١ - خروج زياد بن خراش العجلي: خرج زياد بن خراش العجلي في

١. الطبري: التاريخ ٤/١٧٦ - ١٧٧. ابن أبي الحديد: الشرح ٤/١٣٥. المبرد: الكامل ٢/١٨٠ .

٢. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/٢٢٩. (١٦٨)

ثلاثمائة فارس فأتى أرض مسكن من السواد فسير إليه زياد خيلاً عليها سعد بن حذيفه أو غيره فقتلوه، وقد صاروا إلى مائة (١). ١٢ - خروج معاذ الطائي: وخرج على زياد أيضاً رجل من طى يقال له معاذ، فأتى نهر عبدالرحمن بن أمّ الحكم في ثلاثين رجلاً في سنة ٥١، فبعث إليه زياد من قتله وأصحابه، وقيل بل حلّ لواءه واستأمن (٢). ١٣ - خروج طواف بن غلاق: توفي زياد بن أبيه بالكوفه في شهر رمضان سنة ٥٣، ثم إن معاوية وليّ ابنه عبيدالله بن زياد على البصره عام ٥٥ فكانت سيرته مع الخوارج نفس سيره أبيه، فاشتد عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة، فقد بلغه أنّ قوماً من الخوارج بالبصره يجتمعون إلى رجل اسمه «جدار» فيتحدّثون عنده ويعيون السلطان، فأخذهم ابن زياد فحبسهم، ثم دعا بهم وعرض عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً ويخلى سبيل القاتلين، ففعلوا، فأطلقهم، فكان ممن قتل طواف، فعدلهم أصحابهم وقالوا: قتلتم اخوانكم؟ قالوا: أكرهنا وقد يكره الرجل على الكفر وهو مطمئن بالايمن، وندم طواف وأصحابه، فقال طواف: أما من توبه؟ فكانوا يبكون وعرضوا على أولياء من قتلوا، الديه، فأبوا، وعرضوا عليهم القود، فأبوا. ثم لقي طواف، ابن ثور السدوسي، فقال له: أما ترى لنا من توبه؟ فقال: ما أجد لك إلا آية في كتاب الله عزوجل: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (٣). فدعا طواف أصحابه إلى الخروج وإلى أن يفتكوا بابن زياد، فبايعوه في سنة

١. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/٢٤٤ .

٢. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٣/٢٤٤ .

٣. النحل: ١١٠. (١٦٩)

ثمان و خمسين، وكانوا سبعين رجلاً من بنى عبدالقيس بالبصره، فسعى بهم رجل من أصحابهم إلى ابن زياد فبلغ ذلك طوافاً، فعجلوا الخروج فخرجوا من ليلتهم، فقتلوا رجلاً - ومضوا إلى الجلقاء، فندب ابن زياد الشرط البخاريه، فقاتلوهم فانهمز الشرط حتى دخلوا البصره وذلك يوم عيد الفطر وكثّرهم الناس فقاتلوا فقتلوا، وبقي طواف في ستته نفر و عطش فرسه فأقحمه الماء فرماه البخاريه بالنشاب حتى قتله وصلبوه ثم دفنه أهله (١). ١٤ - خروج عروه بن أدية: إن عبيدالله بن زياد خرج في رهان له، فلمّا جلس ينتظر

الخيال، اجتمع الناس وفيهم عروه بن أدية، فأقبل على ابن زياد فقال: خمس كن في الأمم قبلنا، فقد صرن فينا (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُوثٌ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (٢). وخصلتين آخرين لم يحفظهما جرير (الراوي)، فلما قال ذلك ظنَّ ابن زياد أنه لم يجتر على ذلك إلاَّ ومعه جماعة من أصحابه، فقام وركب وترك رهانه. فليل لعروه ما صنعت، تعلمنَّ والله ليقتلنك، فتواري فطلبه ابن زياد، فأتى الكوفة، فأخذ بها، فقدم به على ابن زياد، فأمر به فقطعت يدها ورجلاه، ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال: أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها (٣). ١٥ - خروج مرداس به أدية: قال الطبري: حبس ابن زياد فيمن حبس مرداس بن أدية، فكان السجان يرى عبادته واجتهاده، وكان يأذن له في الليل فينصرف فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، ثم إنه أفرج عنه بشفاعته _____

١. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٥٤.

٢. الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

٣. الطبري: التاريخ ٤/٢٣١ - ٢٣٢. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٥٥. (١٧٠)

السجان (١). يقول المبرد: كان مرداس قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه - وأنكر التحكيم، وشهد النهر، ونجا فيمن نجا، وبعد ما خرج من حبس ابن زياد عزم الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامهم، مجانين للعدل، مفارقين للفصل، والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السيل لعظيم، ولكننا ننتبذ عنهم ولانجرد سيفاً ولانقاتل إلاَّ من قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً، فلما مضى بأصحابه لقي عبدالله بن رباح الأنصاري، وكان له صديقاً فقال له: أين تريد؟ قال: أريد أن أهرب بدينى وأديان أصحابى من أحكام هؤلاء الجورة، فقال له: أعلم بكم أحد؟ قال: لا. قال: فارجع، قال: أو تخاف عليّ مكروهاً؟ قال: نعم وأن يؤتى بك، قال: لا تخف فإنني لا أجرد سيفاً ولا أخيف أحداً ولا أقاتل إلاَّ من قاتلني، ثم مضى حتى نزل «آسك» وهي ما بين رامهرمز وارجان، فمرَّ به مال يحمل لابن زياد، وقد قارب أصحابه الأربعين، فحطَّ ذلك المال، وأخذ منه عطاءه واعطيات أصحابه، وردَّ الباقي على الرسل وقال: قولوا لصاحبكم: إننا قبضنا اعطياتنا، فقال بعض أصحابه فعلام ندع الباقي؟ فقال: إنهم يقسمون هذا الفىء، كما يقيمون الصلاة فلانقاتلهم. كل ذلك دليل على عدم تطرفه واعتداله وأنه أحسن بعقله أو بدينه أن مآل التطرف هو الموت والزوال. ومما يدل على اعتداله - خلافاً لمن سبق عليه - أن رجلاً من أصحاب ابن زياد، قال: خرجنا في جيش نريد خراسان، فمررنا بـ «آسك» _____

١. الطبري: التاريخ ٤/٢٣٢. (١٧١)

فإذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلاً وصاح بنا أبو بلال: أقاصدون لقاتلنا أتمت؟ وكنت أنا وأخي قد دخلنا زربا (١)، فوقف أخي ببابه وقال: السيلام عليكم، فقال مرداس: وعليكم السيلام، فقال لأخي: أجبتم لقاتلنا؟ فقال له: لا إنما نريد خراسان، قال: فبلغوا من لقيكم أنا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنروغ أحداً ولكن هرباً من الظلم ولسنا نقاتل إلاَّ من يقاتلنا، ولانأخذ من الفىء إلاَّ اعطياتنا، ثم قال: أندب إلينا أحد؟ قلنا: نعم، أسلم بن زرعة الكلابي. قال: فمتى ترونه يصل إلينا؟ قلنا: يوم كذا وكذا، فقال أبو بلال: حسبنا الله ونعم الوكيل. فلما سار إليهم أسلم، صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم، فإننا لا نريد قتالاً، ولا نحتجن فينا، فما الذى تريد؟ قال: أريد أن أردكم إلى ابن زياد، قال مرداس: إذاً يقتلنا، قال: وإن قتلتم؟ قال: تشركه في دمائنا، قال: إني أدين بأنه محق وأنكم مبطلون، فصاح بن حريث بن جحل (من أصحاب أبي بلال): أهو محق وهو يطيع الفجرة وهو أحدهم، ويقتل بالظنَّة، ويخص بالفىء، ويجور في الحكم؟ أما علمت أنه قتل بابين سيء عباد، أربعة براء؟ ثم حملوا عليه حملة رجل واحد وكان معبد أحد الخوارج قد كاد يأخذه فانهمزم هو وأصحابه من غير قتال، فلما ورد أسلم على ابن زياد، غضب عليه غضباً شديداً، قال: ويلك أتمضى في ألفين فنهمزم لحملة أربعين؟... وكان إذا خرج إلى السوق، أو مرَّ بصبيان، صاحوا به: أبو بلال وراءك، وربما صاحوا به: يا معبد خذه، حتى شكك ذلك إلى ابن زياد، فأمر ابن زياد الشرط أن يكفوا الناس عنه، ففي ذلك يقول عيسى بن فاتك من بنى تميم: _____

١. الزرب: جمع الزرب و هو مسيل الماء، حظيرة المواشى وعرين الأسد. (١٧٢) أألفا مؤمن فيما زعتم * ويهزمهم بأسك أربعونا كذبتهم ليس ذاك كما زعتم * ولكن الخوارج مؤمنونا هم الفئة القليلة غير شك * على الفئة الكثيرة ينصروننا ثم ندب لهم عبدالله بن زياد الناس واختار عباد بن أخضر، فوجهه في أربعة آلاف وكان التقاؤهم في يوم الجمعة فناده أبو بلال: اخرج إلى يا عباد فإني أريد أن أحاورك، فخرج إليه، فقال: ما الذى تبغى؟ قال: آخذ بأفئتك فأرذككم إلى الأمير عبيدالله بن زياد، قال: أو غير ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: أن ترجع، فإنا لانخيف سيلا- ولا- نحارب إلا- من حاربنا، ولا نجبي إلا ما حمينا، فقال له عباد: الأمر ما قلت لك، فقال له حريث بن حجل: أتحاول أن ترد فئت من المسلمين إلى جبار عنيد؟ قال لهم: أنتم أولى بالضلال منه، وما من ذاك بد. وقدم القعقاع بن عطية الباهلى من خراسان يريد الحج فلما رأى الجمعين، قال: ما هذا؟ قالوا: الشراء فحمل عليهم، فأخذ القعقاع أسيراً، فأتى به أبو بلال، فقال: ما أنت؟ قال: لست من أعدائك، وأنا قدمت للحج فجهلت وغررت، فأطلقه... فلم يزل القوم يجتلدون، حتى جاء وقت الصلوة يوم الجمعة، فناداهم أبو بلال: يا قوم هذا وقت الصلاة، فوادعونا حتى نصلى و تصلوا، قالوا: لك ذاك، فرمى القوم أجمعون أسلحتهم وعمدوا للصلوة، فأسرع عباد ومن معه، والحروريه مبطون، فهم من بين راعع وقائم وساجد فى الصلوة وقاعد، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعاً، وأتى برأس أبى بلال (١). هذا أبو بلال وهذه مرونته واعتداله، فعَدَّ الاباضية مبدأ الاعتدال ليس بقوى، بل الحق أنه مبدأ للطريق الذى سلكه عبدالله بن اباض، ولأجل ذلك نرى

١. المبرد: الكامل ٢/١٨٦. الطبرى: التاريخ ٤/٢٣٢. ابن الاثير: الكامل ٣/٢٥٦. (١٧٣)

لما خرج قريب وزحاف الطائى فاعترضا الناس فقتلا شيخاً ناسكاً إلى آخر مامر في خروجهم، أنه لما بلغ أعمالهم أبا بلال اعترض عليهم، فقال: قريب لا- قربه الله، وزحاف لا- عفا الله عنه، ركبها عشواء مظلمة (يريد اعتراضهما الناس). مخطط زياد لاستئصال الخوارج: كان لزياد بن أبيه أسلوباً فى استئصال الخوارج وهو يتلخص فى أمرين: ١- إذا وقف على خارجى فى قبيلة وثب على جميعهم، وقد خطب يوماً وقال: ألا- ينهى كل قوم سفهاءهم يا معشر الأزدي لولا أنكم أطفأتم هذه النائرة لقلت إنكم أرثتموها (١). فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فيهم شدتهم وأتت بهم زياداً. ٢- خرجت طائفة من الخوارج وأخرجوا معهم امرأة، فظفر بها فقتلها، ثم عزاها، فلم تخرج النساء بعد على زياد، وكُنَّ إذا دعين إلى الخروج قلن: لولا- التعرية لسارعنا. كان الحافر لتلك الثورات والانتفاضات - التى كانت تتضمن التضحية بالنفس والنفس - هو الاعتقاد الجدى، بأن الحكومات القائمة، حكومات كافرة، أسست باسم الإسلام ولكن انحرفت عن الخط الصحيح له، فالأمويون باعتبار اشاعة الظلم والفساد بينهم، خرجوا عن ربة الإسلام، ودخلوا فى الكفر، وهم كافرون، كما أن المؤيدىين لهم مثلهم أيضاً كفرة، فالخلافات والحكومات كلها كافرة، والدار دار كفر، ويجب عليهم جهاد الكفار (٢).

١. أرث: أوقد نار الفتنة .

٢. يعلم ذلك من خطب أمرائهم ورؤسائهم . (١٧٤) كان هذا هو الحافر لتلك الثورات والانتفاضات الفاشلة، فلو وجدنا فى صحيفة حياة الخوارج نقطة بيضاء فهذه النقطة المشعة التى اعترف بها الإمام على عند توصيفهم بقوله، «لا تقتلوا الخوارج من بعدى، فإنه ليس من طلب الحق فأخطاه كمن طلب الباطل فأصابه» (١). فإنهم كانوا يرون بأهم أعينهم، كيف شاع الفساد، ودب العيث بين الحكام، فركبت اغيلمه بنى أمية على رقاب الناس، واستأثروا بالفىء، فكان ذلك هو السبب لقيام لفيهم ضد الحكومات، وأما مسألة التحكيم التى كانت هى المستمسك الأول للمخالفة فكانها صارت منسية أو تناسها القوم، فكانوا يبررون قيامهم بأنهم بصدد بسط العدل والقسط وازالة الظلم والجور عن المجتمع وإعادة الصلاح والفلاح إلى الساحة الاسلامية . ولكن لم يكن النجاح حليفاً لهم، لأنهم راهنوا فى الساحة السياسية على جوادين خاسرين. أحدهما: الاعتماد على الأساليب الاجرامية للنيل بالهدف، وكأنهم كانوا ينتحلون مبدأ «الغايات تبرر الوسائل» . الثانى: المظاهرة بالعداء لعلى وأهل بيته . أما الأول: فكانوا يستعرضون الناس ويفتشون عن عقائدهم، ثم يقتلون الأبرياء، بحجة أنهم لم يكفروا عثمان وعليا، أو غيرهما ممن كانوا يخالفونهم، وهذا هو الذى صار سبباً لرغبة

الناس عنهم، وعدم ايوائهم بل طردهم والتعاون مع الحكومات ضدّهم في بعض الموارد، إذ كيف يصحّ لمسلم أن يشهر سيفه، ويعترض الطريق، ويفتش عن العقائد التي لاصلة لها بالإسلام الذي جاء به النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -، ولا الإسلام معقود بها، ولا هي حد الكفر

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٦١. (١٧٥)

والإسلام، فاتخاذ هذه الأساليب الشريرة، التي تعرّفت عليها في بعض الانتفاضات، صار سبباً لخسرانهم وخيبتهم وإن كان بعض الفرق بريئاً منها، لكن الكل أخذ بجرم الجزء، والجار بذنب الجار. وقد خلّفت هذه الأعمال الاجرامية آثار سيئة فصار لفظ «الحرورية» مساوياً لسفك الدم وقطع الطريق، وكان الناس يتوسّلون للاخافة بهذا اللفظ ويقولون: حروري!! مكان الحرامى!! وأما الثاني: فلأنّ المظاهرة ضدّ عليّ، ونصب عدائه و أهل بيته ليس بأمرهين، وكيف لا يكون كذلك، وقد عجت دماء و نفوس المسلمين بحبهم فهم كانوا يتلون قول الله سبحانه في الذكر الحكيم: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (١). فهل يمكن لجماعة تتظاهر بكفر عليّ وأولاده، وتنصب عدائهم، ان يكون لهم رصيد شعبي؟ كلاً، ولا، فلأجل ذلك خسروا في انتفاضاتهم، حتى بوجه الطغاة. تعرب انتفاضاتهم عن أن الحكومة الأموية كانت تستخدم شيعة العراق في بعض الأحيان لقتال الخوارج، فكأنها كانت تضرب عصفورين بحجر واحد، فإن الطائفتين كانا من أعداء الحكومة الأموية، فضرب أحدهما بالأخرى كان متنفساً لها (٢). ومع الاعتراف ببراعتهم في النقد والاعتراض، وتملكهم القدرة على التنظيم والتخطيط، لكن كانت انتفاضاتهم المتفرقة والمبعثرة في الرقعة الإسلامية، كانت أشبه بالثورات العشوائية، إذ لم تكن هناك قيادة موحدة تنبثق منها الثورات، وتستثمر هذا الجمهور لتحقيق النصر النهائي، فالحجر الأساس

١. الشورى: ٢٣.

٢. لا حظ خروج فروة بن نوفل في تاريخ الطبرى ٤/١٢٦. (١٧٦)

في نجاح الثورة و الانتفاضة وإن طالت مدّتها، هو وجود قيادة موحّدة سرّية، ينبعث منها الأمر والنهي، وقد كان القوم يفقدون ذلك الأمر المهم. هذه نبذة خاطفة عن انتفاضات هؤلاء في عصر معاوية، وأما ما قاموا به في عصر عبدالله بن الزبير، وخلافة عبدالملك، وخلافة هشام بن عبدالملك، إلى أواخر العهد الأموي، فحدّث عنه ولا حرج، فهي مليئة بالانتفاضات والمعارك الدموية المريرة بين فترة وأخرى، ومن أراد الاحاطة بها فليرجع إلى مظانها في كتب التاريخ. إلا أنا نشير إلى بعض الانتفاضات التي قام بها بعض رؤسائهم بعد عصر معاوية كنافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفي، وغيرهم ممن صاروا من رؤساء المذهب، وأصحاب المنهج بين الخوارج، فإن هؤلاء وإن كانوا قادة عسكريين إلا أنهم كانوا أيضاً مرشدين لأتباعهم، ولهم آراؤهم في المذهب، وندرس كل ذلك ببيان فرقهم الكثيرة في الفصل القادم. وبذلك بينا الظروف التي كانت سبباً لنشوء المذاهب في هذه الفرقة. *** (١٧٧)

الفصل التاسع ألقاب الخوارج وفرقهم

الفصل التاسع ألقاب الخوارج وفرقهم (١٧٨) (١٧٩) للخوارج ألقاب عديدة فمن ألقابهم «الخوارج» لخروجهم على علي بن أبي طالب، و«المحكّم» لكون شعارهم: «لا حكم إلا لله»، و«الحرورية» لنزولهم بحروراء في أول أمرهم، و«الشّراة» لقولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنّة، و«المارقة» لأنهم مرقوا من الدين كما يَمُرُق السهم من الرميّة - حسب توصيف الرسول لهم - وخرجوا منه، والفرقة الباقية اليوم أعنى الاباضية يفسّرون الخروج بالخروج عن الدين ويخصّون اللقب بالطوائف المنحرفة الذين خرجوا في عصر الأمويين، وكانوا يعترضون الطريق ويقتلون الأبرياء من غير جرم وسيوافيك أن التخصيص بلاوجه. وأمّا فرقهم، فقد ذكر البغدادي لهم عشرين فرقة، بل أزيد، وهذه أسماؤهم: ١ - المحكّم ٢ - الأزارقة ٣ - النجدات ٤ - الصفرية ٥ - العجاردة، المفترقة إلى: ٦ - الخازنية ٧ - الشيعية ٨ - المعلومية ٩ - المجهولية ١٠ - أصحاب طاعة لا يراى الله تعالى بها ١١ - والصلتية ١٢ - الاخنسية ١٣ - الشيبية

١٤ - الشيبانية ١٥ - المعبدية ١٦ - الرشيديّة (١٨٠) ١٧ - المكرمية ١٨ - الحمزية ١٩ - الشراخية ٢٠ - الإبراهيمية ٢١ - الواقفية ٢٢ - الاباضية (١) . ولا يخفى أنّ الفرق حسب ما ذكرها تزيد على عشرين، ولو لم تعد العجاردة فرقةً مستقلةً باعتبار أنّها مقسّمةٌ لأقسام كثيرةً يكون عدد الفرق «٢١» فرقةً. ثمّ قال البغدادي: «الاباضية» منهم افتقرت فرقةً، معظمها فريقان «حفصية» و«حارثية»، وقال: فأما «اليزيدية» من الاباضية، و«الميمونية» من العجاردة، فهما فرقتان من غلاة الكفر الخارجين عن فرق الأمة . وأما الأشعري فقد ذكر لهم خمس عشرة فرقةً ثم ذكر الفرق المتشعبة منها وهي فرق كثيرة (٢). وقد ذكر المقرئ في خطه للقوم ستاً وعشرين فرقةً (٣) . وذكر الشهرستاني لهم ثمانية فرق، وإليك أسماؤها: ١ - المحكّمة الأولى ٢ - الأزارقة ٣ - النجدات ٤ - البيهسية ٥ - العجاردة ٦ - الثعالبية ٧ - الاباضية ٨ - الصفرية (٤) . ولكن الحق، إنّ أصول الفرق قليلةٌ جدّاً، وقد ذكر الأشعري أنّ أصول أربعةً وهي: الأزارقة، النجدية، الاباضية، والصفرية، والأصناف الأخرى تفرّعوا من الصفرية (٥). ويظهر من المبرّد في كامله، أنّ أصول الفرق هي ثلاثة:

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ٧٢ .

٢. الأشعري: المقالات ١/٨٦ - ١٣١ .

٣. تقي الدين المقرئ: الخطط ٢/٢٥٤ - ٢٥٥ .

٤. الشهرستاني: الملل و النحل ١/١١٤ - ١٣٨ .

٥. الأشعري: المقالات: ١ / ١٠١ . (١٨١) الأزارقة، الاباضية، البيهسية، وأما الصفرية والنجدية فكانوا يقولون بقول ابن أباض (١) . ولعلّ ما ذكره الأشعري في بيان أصول فرقهم أقرب، كما يظهر من دراسته مذهبهم ونحن نذكر الفرق الأربعة التي ذكرها الأشعري، ونحيل بيان سائر الفرق إلى كتب المقالات والفرق، خصوصاً المقالات للأشعري، والفرق بين الفرق للبغدادي، والملل و النحل للشهرستاني، وأنا ضربنا الصّفح عن بيان فرقهم عامّةً لأنهم قد هلكوا ولم يبق منهم على أديم الأرض سوى فرقة واحدة هي الاباضية وأقاربها أقرب إلى أقارب سائر المسلمين. ولأجل ذلك نرى أنّ أبابيهس يصف نافعاً بأنّه عليّ، ويصف عبد الله بن أباض بأنّه قصّر، وسوف يظهر غلوّ الأوّل وتقصير الثاني حسب تعبير أبي بيهس، وسيوافيك نصّه في محلّه. والعجب أنّ هذه الفرق ظهرت في زمان واحد، فصار للقوم أئمّة أربعة، كلّ يدعو إلى نفسه . وكانت الخوارج على رأي واحد إلى عصر ابن الزبير وبعد افتراقهم عنه حصل هناك اختلاف بين الأزارقة والنجدية كما ستعرف وصارت فرقتين ذاتي أمامين، ولم يكن لهم إلى عهد عبد الله بن الزبير إلاّ أصول بسيطة وهي: ١ - اكفار مرتكب الكبيرة. ٢ - انكار مبدأ التحكيم . ٣ - تكفير عثمان وعليّ ومعاوية وطلحة والزبير ومن سار على دربهم ورضى بأعمال عثمان وتحكيم عليّ، على هذه الأصول نشأوا إلى عهد ابن الزبير. —————

١. المبرّد: الكامل ٢/٢١٤ . (١٨٢) قال الكعبي: إنّ الذي يجمع الخوارج إكفار عليّ و عثمان و الحكمين وأصحاب الجمل وكلّ من رضى بتحكيم الحكمين، والخروج على الإمام الجائر وإكفار من ارتكب الذنوب (١) . وقال الأشعري: أجمعت الخوارج على إكفار عليّ بن أبي طالب - رضى الله عنه - لأنّه حكّم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا. وأجمعوا على أنّ كلّ كبيرة كفرٌ إلاّ النجدات، فإنّها لا تقول بذلك، وأجمعوا على أنّ الله سبحانه يعذب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلاّ النجدات (٢) . وما ذكره من الاستثناء دليل على أنّ أكثر هذه الأصول برزت بينهم في العصر الزبيرى وما بعده، لا في عهد الإمام عليّ ولا في عهد معاوية. إذا وقفت على ذلك فلنشرع في بيان الفرق الأربعة التي ذكرها الأشعري ونترك بيان عداها إلى الكتب المعدّة لذلك. *** —————

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ١/٧٣ نقلا عن الكعبي.

٢. الأشعري: مقالات الاسلاميين ١/٨٦ . (١٨٣) الفرقة الأولى: الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق المقتول سنة ٦٥: لما هلك معاوية، تنفس أهل الكوفة الصعداء، فاجتمعت شيعتهم على تسليم مقاليد الخلافة للحسين - عليه السّلام - فبايعوه وكاتبوه، واستقدموه حتى يتسلّم الأمر، فلما غادر الحسين المدينة و مكّة، متوجّهاً إلى العراق خذلته الشيعة وقصّروا في نصرته، فلما بلغهم قتل الحسين واستشهاده، قام

أهل المدينة بخلع يزيد عن الخلافة وأخرجوا واليه مروان بن الحكم عن المدينة، ثم إنَّ عبدالله بن الزبير استغلَّ الظروف، فدعا إلى البيعة لنفسه من داخل البيت الحرام، وكانت نتيجة ذلك أن طرد عمال يزيد من أرض الحجاز، فحضعت المنطقة كلها لعبدالله بن الزبير، ثم إنَّ يزيد بن معاوية لما وقف على خطورة الموقف بعث بأشقى عماله وأغلظهم «مسلم بن عقبة» إلى المدينة فلما (١٨٤) ورد مدينة الرسول، استباح أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ثلاثة أيام، فقتل في ذلك آلاف من الأبرياء ونهبت الأموال واستبيحت الأعراض إلى درجة لم يذكر التاريخ إلى يومه مثيلاً لها، ثم توجه مسلم إلى مكة للسيطرة عليها، فلم يصل إليها حياً. ومات في أثناء الطريق، فتولَّى القيادة بعده الحصين بن النمير السكوني، وحاصر مكة، وفي أثناء المحاصرة ورد نعي يزيد في ربيع الآخر عام ٦٤، فاضطرَّ الحصين إلى العودة إلى الشام، ولما هلك يزيد، قام بأعباء الخلافة معاوية بن يزيد، ولكنه مات بعد أن خلع نفسه عن الخلافة، فرأى البيت الأموي خطورة الموقف، فأجمعوا على البيعة لمروان بن الحكم، وانتقل الملك من البيت السفيناني إلى البيت المرواني عام ٦٥، وكان ابن الزبير مستولياً على الحجاز عامة وفي ضمن ذلك، الحرمان الشريهان . استغلال الخوارج الظروف الحرجة: وقد استغلت الخوارج تلك الظروف الحرجة بعدما لاقوا من عبيدالله بن زياد مالا يقوا وقرروا الانضمام لعبدالله بن الزبير لمحاربة الشاميين: قال الطبري: لما ركب ابن زياد من الخوارج بعد قتل أبي بلال ماركب، وقد كان قبل ذلك لا يكف عنهم ولا يستبقيهم، غير أنه بعد ما قتل أبا بلال، تجرد لاستئصالهم وهلاكهم واجتمعت الخوارج حينئذ ابن الزبير بمكة... فقال نافع بن الأزرق للخوارج: إن الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم، وأولوا العدى والغشم، وهذا من قد ثار بمكة، فاخرجوا بنا نأتى البيت، ونلقى هذا الرجل فإن يكن على رأينا جاهداً معه العدو، وإن كان على غير رأينا، دافعنا عن البيت ما استطعنا، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا، فخرجوا حتى قدموا على (١٨٥)

عبدالله بن الزبير، فسرى بمقدمهم وثبأهم أنه على رأيهم، وأعطاهم الرضا من غير توقّف ولا- تفتيش، فقالتوا معه حتى مات يزيد بن معاوية وانصرف أهل الشام عن مكة . ثم إنَّ القوم لقي بعضهم بعضاً فقالوا: إن الذي صنعتكم أمس بغير رأى ولا صواب من الأمر، تقاتلون مع رجل لاتدرون لعله ليس على رأيكم، إنما كان أمس يقاتلكم هو وأبوه ينادى: بالثارات عثمان، وسلوه عن عثمان، فإن برئ منه كان وليكم، وإن أبى كان عدوكم. فمشوا له فقالوا له: أيها الإنسان إننا قاتلنا معك ولم نفتش عن رأيك، أمنا أنت أم من عدونا فأخبرنا: ما مقاتلتك في عثمان؟ فنظر فإذا من حوله من أصحابه قليل، فقال لهم: إنكم أتيتموني، فصادفتموني حين أردت القيام، ولكن روحوا إلى العشيّة، حتى اعلمكم من ذلك الذى تريدون، فانصرفوا، وجاءت الخوارج وقد أقام أصحابه حوله وعليهم السلاح، وقامت جماعة منهم عظيمة على رأسه، بأيديهم الأعمدة، فقال ابن الأزرق لأصحابه: خشى الرجل غائلكم وقد ازمع بخلافكم، واستعد لكم ماترون. فدنا منه ابن الأزرق فقال له: يا ابن الزبير أتق الله ربك وابتغض الخائن المستأثر، وعاد أول من سن الضلالة وأحدث الأحداث، وخالف حكم الكتاب، فإنك إن تفعل ذلك، ترضى ربك، فتنتج من العذاب الأليم نفسك، فإن تركت ذلك، فأنت من الذين استمتعوا بخلاقهم وأذهبوا في الحياة الدنيا طيباتهم. ثم أمر ابن الأزرق عبيدة بن هلال أن يتكلم عنهم بما يريدون، فقال: إنَّ الناس استخلفوا عثمان بن عفان فحمى الحمى، فأثر القربى، واستعمل الفتى، ورفع الدرّة، ووضع السوط، ومزق الكتاب، وحقر المسلم، وضرب منكرى (١٨٦)

الجور، وآوى طريد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وضرب السابقين بالفضل وسيرهم وحرّمهم، ثم أخذ في الله الذى آفاه عليهم فقسمه بين فسّاق قريش، ومّجان العرب، فصارت إليه طائفة من المسلمين أخذ الله ميثاقهم على طاعته، لا يبالون في الله لومة لائم، فقتلوه، فنحن لهم أولياء، ومن ابن عفان وأوليائه براء، فما تقول أنت يا ابن الزبير؟ وروى المبرّد في الكامل: ان ابن الأزرق سأل ابن الزبير في الغداة الذى جاء إليه وقال: ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً، قالوا: فما تقول في عثمان الذى أحمى الحمى، وآوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئاً، وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين؟ وما تقول في الذى بعده، الذى حكّم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولانادم؟ وما تقول في أبيك وصاحبه وقد باعاً علياً وهو إمام عادل مرضى لم

يظهر منه كفر، ثم نكتا بَعَرَض من أعراض الدنيا و أخرجنا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة، فإن أنت كما نقول فلك الزلفة عند الله . ثم إن ابن الزبير ترك التقيّة وأصحر بالعقيدة بما يخالف عليه الخوارج في حق عثمان وحق أبيه، فلما سمع ذلك الخوارج تفرّقوا عنه (١) . فأقبل نافع بن الأزرق الحنظلي و عبد الله بن صفار السعدي من بني صريم، و عبد الله بن اباض أيضاً من بني صريم، وحنظلة بن بهس، و بنو الماحوز، و عبد الله و عبيد الله و الزبير من بني سليط، حتى أتوا البصرة. و انطلق أبو طالوت و عبد الله بن ثور (أبو فديك) و عطية بن الأسود _____

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٦ - ٤٣٨. المبرد: الكامل: ٢/٢٠٣ - ٢٠٨. (١٨٧)

اليشكري إلى اليمامة فوثبوا باليمامة مع أبي طالوت، ثم أجمعوا بعد ذلك على إمارة نجدة بن عامر الحنفي وذلك في سنة ٦٤ (١) . وقال الشهرستاني: كان نجدة بن عامر و نافع بن الأزرق قد اجتمعا بمكة مع الخوارج على ابن الزبير ثم تفرّقوا عنه، فذهب نافع إلى البصرة ثم الأهواز، وذهب نجدة إلى اليمامة. قال نافع: التقيّة لاتحلّ، و القعود عن القتال كفر، فخالفه نجدة، و قال بجواز التقيّة متمسكاً بقوله تعالى: (إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً) (٢). وبقوله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) (٣) و قال: القعود جائز و الجهاد إذا أمكنه أفضل. قال الله تعالى: (وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (٤). (٥) و لمّا أظهر نافع آراء شاذة عن الكتاب و السنة و الفطرة الإنسانية، فارقت جماعته كانوا معه، منهم «أبو فديك» و عطية الحنفي و راشد الطويل، و توجهوا شطر اليمامة، فأخبروا نجدة باحداثة و بدعه. فكتب إليه نجدة بكتاب نَقَم عليه احداثة و استدللّ بآيات واضحة المعنى، و أجاب نافع بكتاب و أوّل ما استدللّ به زميله من الآيات، و كان هو هذا انشقاقاً عظيماً بين الخوارج، و يعرب عن وحشيّة الأزارقة، و جمود قلبهم، و نزع الرحمة منهم، فكأنهم جمادات متحرّكة شريرة سجّلوا لأنفسهم في التاريخ أكبر العار، و أفضع الأعمال إلى حدّ تبرأ عنهم، سائر الفرق و ليس ذلك ببعيد، فهؤلاء أتباع المحكّمة الأولى الذين ذبحوا عبد الله بن خباب و بقروا بطن زوجته المقرب المتم، تلمس حدّ الشقاء _____

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨ .

٢. آل عمران: ٢٨ .

٣. غافر: ٢٨ .

٤. النساء: ٩٥ .

٥. الشهرستاني: الملل و النحل ١/١٢٥ . (١٨٨)

من كتاب نجدة إلى نافع و من اجابته الثاني. قال المبرد: إن أصحاب «نجدة» رأوا أن نافعاً قد كفر القعدة و رأى الاستعراض و قتل الأطفال، انصرفوا مع نجدة، فلما صار نجدة باليمامة كتب إلى نافع. كتاب نجدة إلى نافع: أما بعد: فإنّ عهدي بك و أنت لليتيم كالأب الرحيم، و للضعيف كالأخ البئر - تعاضد قوى المسلمين، و تصنع للأخرق منهم - لا تأخذك في الله لومة لائم، و لا ترى معونه ظالم، كذلك كنت أنت و أصحابك. أو ما تذكر قولك: لولا أنّي أعلم أنّ للإمام العادل أجر رعيتيه، ماتولّيت أمر رجلين من المسلمين. فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء مرضاته، و أصبت من الحق فضّه (١)، و ركبت مژه، تجرّد لك الشيطان، و لم يكن أحد أثقل عليه و طأة منك و من أصحابك، فاستمالك و استهواك و أغواك، فُغَويت، و أكفرت الذين عذرهم الله تعالى في كتابه، من قعدة المسلمين و ضَعَفْتهم، قال الله عزّ و جلّ، و قوله الحق، و وعده الصدق: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) (٢): ثمّ سَمَّاهم تعالى أحسن الأسماء فقال: (ما على المحسنين من سبيل) (٣) ثم استحللت قتل الأطفال، و قد نهى رسول الله - صلى الله عليه و آله و سلم - عن قتلهم، و قال الله جلّ ثناؤه: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (٤)، و قال سبحانه في القعدة خيراً، فقال: _____

١. فضّه: كنهه .

٢. التوبة: ٩١ .

٣. التوبة: ٩١.

٤. الاسراء: ١٥. (١٨٩) (وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) (١) فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزله من هو دون المجاهدين، أو ماسمعت قوله تعالى: (لَا يَشْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ) (٢) فجعلهم من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم، ثم إنك لا تؤدى أمانةً إلى من خالفك، والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها، فاتق الله في نفسك، واتق يوماً لا يجزى فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل، والسلام. اجابه نافع عن كتاب نجدة: أما بعد: أتاني كتابك تعظني فيه، وتذكّرني وتنصح لي وتزجرني، وتصف ما كنت عليه من الحق، وما كنت أوتره من الصواب، وأنا أسأل الله أن يجعلني من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وعبت على مادنت، من إكفار القعدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وأسفّر لرك لِمَ ذلك إن شاء الله.... أما هؤلاء القعدة، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنهم كانوا بمكة مهجورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً، وهؤلاء قد تفقهوا في الدين، وقرأوا القرآن، والطريق لهم نهج واضح. وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم، قالوا: (كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) (٣). فقال: (أَلَمْ _____

١. النساء: ٩٥.

٢. النساء: ٩٥.

٣. النساء: ٩٧. (١٩٠) (تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) (١) وقال سبحانه: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (٢) وقال: (وَجَاءَ الْمُعَذِّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ) (٣) فحبر بتعذيبهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال: (سَيَصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٤) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم. وأما الأطفال، فإن نوحاً نبى الله، كان أعلم بالله متى ومنك، وقد قال: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (٥) فسماهم بالكفر وهم أطفال، وقيل أن يولدوا، فكيف كان ذلك في قوم نوح، ولا تقوله في قومنا، والله تعالى يقول: (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) (٦) وهؤلاء كمشركى العرب، لا يقبل منهم جزية وليس بيننا وبينهم إلا السيف، والإسلام. وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم، كما أحل دماءهم لنا، فدمائهم حلال طلق (٧) وأموالهم فيء للمسلمين، فاتق الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا وترك ما نهجناه لك من مقاتلتنا، والسلام على من أقر بالحق وعمل به (٨). _____

١. النساء: ٩٧.

٢. التوبة: ٨١.

٣. التوبة: ٩٠.

٤. التوبة: ٩٠.

٥. نوح: ٢٦ - ٢٧.

٦. القمر: ٤٣.

٧. يقال: حلال طلق، أى حلال طيب.

٨. المبرد: الكامل ٢/٢١٠ - ٢١٢، ونقلهما ابن أبي الحديد في الشرح لاحظ ٤/١٣٧ - ١٣٩. (١٩١) هذا هو نافع بن الأزرق، وهذا غلو منهجه وتطرّفه الفكرى، حيث يجوز استعراض الناس والتفتيش عن عقائدهم وقتل الأطفال إلى غير ذلك. وأما خروجه فقد بسط الكلام فيه المؤرخون (١) على وجه لا يسعنا نقله وإنما نكتفى بما لخصه البغدادي. قال البغدادي: ثم الأزارقة بعد اجتماعها على البدع التي حكيناها عنهم بايعوا نافع بن الأزرق وسموه أمير المؤمنين، وانضم إليهم خوارج عمان واليمامة فصاروا أكثر من عشرين ألفاً،

واستولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس و كرمان وجبوا خراجها. رسالة نافع إلى محكمة البصرة (٢): وكتب إلى من بالبصرة من المحكمة: أما بعد فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون، إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة، والدين واحد، ففيه المقام بين أظهر الكفار، ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله عزوجل إلى الجهاد، فقال: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) (٣) ولم يجعل لكم في التخلف عذراً في حال من الأحوال فقال: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) (٤) وإنما عذر الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون، ومن كانت اقامته لعامة، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (٥)، فلا تغتروا وتطمئنوا إلى الدنيا، فإنها غزارة

١. ذكر ابن أبي الحديد مفصل حروب الأزارقة في شرحه، لاحظ ٤/١٣٦ - ٢٧٨ .

٢. المبرّد: الكامل ٢/٢١٣ .

٣. التوبة: ٣٦ .

٤. التوبة: ٤١ .

٥. النساء: ٩٥ . (١٩٢)

مكارة، لذتها نافذة، ونعيمها بائد، حُفَّتْ بالشهوات اغتراراً، وأظهرت حيرة (١) وأضمرت عبرة، فليس آكل منها أكله تسره، ولا شارب منها شربة تونقه (٢) إلا دنابها درجة إلى أجله، وتباعد بها مسافة من أمله، وإنما جعلها الله دار المتروّد منها، إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، فليس يرضى بها حازم داراً ولا- حليم قراراً، فاتقوا الله وتزوّدوا، فإن خير الزاد التقوى، والسلام على من أتبع الهدى. قال المبرّد: لينا ورد كتابه عليهم وفي القوم يومئذ أبوبيهم هيصم بن جابر الضبّعي، وعبدالله بن اباض المري، فأقبل أبوبيهم على ابن اباض فقال: إن نافعاً غلا- فكفر، وأتتك قصيرت فكفرت تزعم أن من خالفنا ليس بمشرك، وإنما كفار النعم، لتمسكهم بالكتاب، وإقرارهم بالرسول، تزعم أن مناكحهم ومواريتهم والاقامة فيهم حلّ طلق، ثم أدلى أبوبيهم برأيه وسيوافيك في محله . ويظهر من هذا الكتاب والكتاب الذي كتبه إلى عبدالله بن الزبير (٣): إن نافع بن الأزرق كان من المتطرّفين بين الخوارج، ولم نجد في تاريخ الخوارج أشدّ تطرفاً منه. ثم إن عامل البصرة يومئذ عبدالله بن الحارث الخزاعي من قبل عبدالله بن الزبير، فأخرج عبدالله بن الحارث جيشاً مع مسلم بن عيسى بن كرز بن حبيب بن عبد شمس لحرب الأزارقة، فاقتتل الفريقان بدولاب الأهواز، فقتل مسلم بن عيسى وأكثر أصحابه، فخرج إلى حربهم من البصرة عمر بن عبيدالله بن معمر التميمي في ألفى فارس، فهزمت الأزارقة، فخرج إليهم حارثة بن بدر الغداني

١. الحبرة: النعمة .

٢. تونقه: تعجبه .

٣. المبرّد: الكامل ٢/٢١٢ . (١٩٣)

في ثلاثة آلاف من جند البصرة، فهزمتهم الأزارقة، فكتب عبدالله بن الزبير من مكة إلى المهلب بن أبي صفرة (١) وهو يومئذ بخراسان يأمره بحرب الأزارقة وولاه ذلك، فرجع المهلب إلى البصرة، وانتخب من جندها عشرة آلاف، وانضم إليه قومه من الأزد فصار في عشرين ألفاً، وخرج وقاتل الأزارقة وهزمهم عن دولاب الأهواز إلى الأهواز، ومات نافع ابن الأزرق في تلك الهزيمة وبايعت الأزارقة بعده عبيدالله بن مأمون التميمي، وقاتلهم المهلب بعد ذلك بالأهواز فقتل عبدالله بن مأمون في تلك الواقعة، وقتل أيضاً أخوه عثمان بن مأمون مع ثلاثمائة من أشد الأزارقة، وانهمز الباكون منهم إلى أيدج وبايعوا قطري بن الفجاءة (٢) وسموه أمير المؤمنين، وقاتلهم المهلب بعد ذلك حروباً سجالات (٣)، وانهمز الأزارقة في آخرها إلى سابور من أرض فارس، وجعلوها دار هجرتهم، وثبت المهلب وبنوه وأتباعهم على قتالهم تسع عشرة سنة، بعضها في أيام عبدالله بن الزبير، وبقية في زمان خلافة عبدالملك بن مروان وولاية الحجاج على العراق، وقرّر الحجاج المهلب على حرب الأزارقة، فدامت

١. هو أبو سعيد: المهلب بن أبي صفرة - واسم أبي صفرة ظالم بن سراق، الأزدي، من أزد العتيك. كان المهلب من أشجع الناس. وهو الذي حمى البصرة من الخوارج حتى سماها الناس بصره المهلب. ولأه عبدالله بن الزبير خراسان في سنة ٦٥، فحارب الأزارقة وأفنى منهم عدداً كثيراً، ثم ولى قتالهم في عهد عبدالملك ابن مروان، وفي شهر ذي الحجة من سنة ٨٢ مات (المعارف ٣٩٩، العبر: ١/٧٢ - ٧٥ - ٧٧ - ٨٨ - ٩٢ - ٩٥).

٢. هو أبو نعامه: قطرى بن الفجاءة، أحد بنى حرقوص بن مازن بن مالك ابن عمرو بن تميم، خرج في أيام عبدالله بن الزبير وبقي عشرين سنة يسلم عليه بالخلافة، وفي أيام عبدالملك بن مروان وجه إليه الحجاج جيشاً بعد جيش، وكان آخرها بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى، فقتله - ويقال: عثرت به فرسه فمات - وأتى الحجاج برأسه، وذلك في سنة ٧٩ (المعارف ٤١١، العبر: ١/٩٠).

٣. تقول «كانت الحرب بين الفريقين سجالا» تعنى أن النصر يكون لهذا الفريق مرةً ولذلك مرةً أخرى، وأصل السجال جمع سجل و هو الدلو. (١٩٤)

الحرب في تلك السنين بين المهلب وبين الأزارقة وفروا فيما بين فارس والأهواز، إلى أن وقع الخلاف بين الأزارقة وفارق عبد ربّه الكبير قطرياً وصار إلى واد بجيرفت كرمان في سبعة آلاف رجل، وفارقه عبد ربّه الصغير في أربعة آلاف، وصار إلى ناحية أخرى من كرمان، وبقي قطرى في بضعة عشر ألف رجل بأرض فارس، وقاتله المهلب بها، وهزمه إلى أرض كرمان و تبعه وقاتله بأرض كرمان وهزمه منها إلى الرى، ثم قاتل عبد ربّه الكبير فقتله، وبعث بابنه يزيد بن المهلب إلى عبد ربّه الصغير فأتى عليه وعلى أصحابه، وبعث الحجاج سفيان ابن الأبرد الكلبى في جيش كثيف إلى قطرى بعد أن انحاز من الرى إلى طبرستان فقتلوه بها، وأنفذوا برأسه إلى الحجاج وكان عبيدة بن هلال الشكرى (١) قد فارق قطرياً وانحاز إلى قومس، فبعثه سفيان بن الأبرد وحاصره في حصن قومس إلى أن قتله وقتل أتباعه، وطهر الله بذلك الأرض من الأزارقة، والحمد لله على ذلك (٢). وفى الختام نقول: يظهر من كتبه ورسائله أن الرجل كان حافظاً للقرآن، ومقرئاً له، ويؤيد ذلك ما نقله السيوطى أن نافع بن الأزرق لما رأى عبدالله بن عباس جالساً بفناء الكعبة، وقد اكتنفه الناس ويسألونه عن تفسير القرآن، فقال لنجدة بن عويمر الحرورى: قم بنا إلى هذا الذى يجترى على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسيرها لنا وتأيتنا بمصادقه من كلام العرب، فإن الله تعالى أنزل القرآن بكتاب عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدالكم، فقال نافع: أخبرنى عن قول

١. عبيدة بن هلال: أحد بنى يشكر بن بكر بن وائل .

٢. الطبرى: التاريخ ٤/٤٧٦. والجزرى: الكامل ٣/٣٤٩. ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/٩٥ - ١٢١. (١٩٥)

الله تعالى: (عن اليمين و عن الشمال عزين) (١). قال: العزون حلق الرقاق، فقال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول: فجاءوا يهرعون إليه حتى * يكونوا حول منبره عزينا ثم سألاه عن أشياء كثيرة عن لغات القرآن الغريبة، ففسر لها مستشهداً بالشعر الجاهلى، وربما تبلغ الأسئلة والأجوبة إلى مائتين، ولو صحت تلك الرواية لدلت على صلة السائلين بالقرآن صلة وثيقة، كما تدل على نبوغ ابن عباس فى الأدب العربى وإمامه بشعر العرب الجاهلى حيث استشهد على كل لغة فسرها بشعر عنهم، فجاءت الأسئلة والأجوبة فى غاية الاتقان (٢). إن ابن الأزرقة كان يتعلم من ابن عباس ما يجله من مفاهيم القرآن، نقل عكرمة عن ابن عباس أنه بينما كان يحدث الناس إذ قام إليه نافع بن الأزرقة، فقال له: يا ابن عباس تفتى الناس فى النملة والقملة؟ صف لى إلهك الذى تعبد، فأطرق ابن عباس إعظماً لقوله، وكان الحسين بن على جالساً ناحية فقال: إلى يا ابن الأزرقة، قال ابن الأزرقة: لست إياك أسأل، قال ابن عباس: يا ابن الأزرقة، إنّه من أهل بيت النبوة وهم ورثه العلم، فأقبل نافع نحو الحسين، فقال له الحسين: يا نافع إن من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر فى الالتباس، سائلاً ناكباً عن المنهاج، ظاعناً بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلًا غير الجميل. يا ابن الأزرقة أصف إلهى بما وصف به نفسه وأعرّفه بما عرّف به نفسه: لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منقوص،

١. المعارج: ٢٧ .

٢. السيوطي الاتقان ١/٣٨٢ - ٤١٦ ط دار ابن كثير دمشق بيروت، تحقيق الدكتور مصطفى . (١٩٦)

يؤخّر ولا- يتبعّض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال. فبكى ابن الأزرق، وقال: يا حسين ما أحسن كلامك؟ قال له الحسين: بلغني أنك تشهد على أبي وعلى أخى بالكفر وعلى؟ قال ابن الأزرق: أما والله يا حسين لئن كان ذلك لقد كنت منار الإسلام ونجوم الأحكام. فقال له الحسين: إنني سائلك عن مسألة. قال: أسأل، فسأله عن هذه الآية: (وَأَمَّا الْجِدَارَ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) (١) . يا ابن الأزرق من حفظ في الغلامين؟ قال ابن الأزرق: أبوهما. قال الحسين: فأبوهما خير أم رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال ابن الأزرق: قد أنبأنا الله تعالى أنكم قوم خصمون (٢) . آراء الأزارقة وعقائدهم: إن للأزارقة أهواء متطرّفة وبدعاً فظيعة وقد تشترك في بعضها مع سائر الفرق: ١ - قولهم: إن مخالفيهم من هذه الأمة مشركون، وكانت المحكمة الأولى يقولون: إنهم كفره لامشركون. ٢ - قولهم: إن القعدة - ممن كان على رأيهم - عن الهجرة إليهم مشركون. ٣ - اوجبوا امتحان من قصد عسكرهم إذا ادعى أنه منهم: أن يدفع إليه أسيراً من مخالفيهم ويأمره بقتله، فإن قتله صدّقوه في دعواه أنه منهم، وإن لم

١. الكهف: ٨٢ .

٢. ابن عساکر: تاريخ مدينة دمشق. قسم حياة الإمام الحسين: ١٥٨. بتحقيق محمد باقر المحمودي، والمجلسي: بحار الأنوار ٤/٢٩٧

(ذيل الحديث يحتاج إلى توضيح). (١٩٧)

يقتله قالوا: هذا منافق مشرك، وقتلوه. ٤ - اباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم، والمقصود: المسلمون، وزعموا أن الأطفال مشركون، وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلّدون في النار مع آبائهم. ٥ - اسقاط الرجم عن الزاني، إذ ليس في القرآن ذكره، واسقاط حد القذف عمّن قذف المحصنين من الرجال (١) مع وجوب الحدّ على قاذف المحصنات من النساء. ٦ - إن التقيّة غير جائزة في قول ولا عمل. ٧ - تجويزهم أن يبعث الله نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته، أو كان كافراً قبل البعثة. ٨ - اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب الكبيرة كفر كفر مله، خرج به عن الاسلام جملة، ويكون مخلّداً في النار مع سائر الكفّار، واستدلّوا بكفر ابليس وقالوا: ما ارتكب إلا كبيرة، حيث أمر بالسجود لآدم - عليه السلام - فامتنع، وإلا فهو عارف بوحدانيّة الله تعالى (٢) . ٩ - إن دار مخالفيهم دار كفر، وقالوا: إن مخالفيهم مشركون فلا يلزمنا اداء أماناتهم إليهم، وسيوافيك تحليل عقائدهم في فصل خاص. ***

١. بحجّه أنّه سبحانه قال: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) (النور: ٤) ولم يقل: والذين يرمون المحصنين.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٨٣، الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢١ - ١٢٣ . (١٩٩) الفرقة الثانية: النجديّة وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي، ومن الغريب أنه كان للخوارج إمامان في وقت واحد، إمام في البصرة وهو نافع بن الأزرق، وإمام في اليمامة وأطرافها وهو نجدة بن عامر، وذلك أنه لمّا أظهر نافع آراءه المستهجنة الشاذة كالبراءة من القعدة حتّى سمّاهم مشركين، واستحلّ قتل أطفال مخالفيه ونسائهم، تبرأ منه عدّه من الخوارج، منهم أبو فديك، وعطيّة الحنفي، وراشد الطويل، ومقلاص، وأيوب الأزرق، فذهبوا إلى اليمامة، فاستقبلهم نجدة بن عامر في جند من الخوارج يريدون اللحق بعسكر نافع، فأخبروهم باحداث نافع وردّوهم إلى اليمامة، وبايعوا بها نجدة بن عامر، وكفّروا من قال بإكفار القعدة منهم عن الهجرة إليهم، وأكفروا من قال بإمامة نافع، وأقاموا على إمامة نجدة إلى أن اختلفوا عليه في أمور نغموها منه. (٢٠٠) ثمّ الذين اختلفوا عليه بعد ما اجتمعوا حوله صاروا ثلاث فرق: ١ - فرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفي ففارقهم إلى سجستان، وتبعهم خوارج سجستان، ولهذا قيل لخوارج سجستان في ذلك الوقت: عطويّة. ٢ - فرقة صارت مع أبي فديك وهم الذين قتلوا نجدة. ٣ - وفرقة عذروا نجدة في ما أحدثه من البدع وأقاموا على إمامته. والذين خالفوه نغموا عليه الأمور التالية: الف - إنّه بعث جيشاً في غزو التبر وجيشاً في غزو البحر، ففضّل الذين بعثهم في التبر على الذين بعثهم في البحر في الرزق والعتاء. ب - بعث جيشاً فأغاروا على مدينة الرسول - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وأصابوا منها جارية من بنات عثمان، فكتب

إليه عبدالملك في شأنها، فاشتراها نجدة من الذي كانت في يديه، وردّها إلى عبدالملك بن مروان، فقالوا له: إنك رددت جارية لنا على عدونا. ج - عذر أهل الخطأ في الاجتهاد إذا كان سببه الجهل وذلك يعود إلى الحادثة التالية: بعث ابنه المضرج مع جند من عسكره إلى القظيف، فأغاروا عليها، وسبوا منها النساء والذرية وقوموا النساء على أنفسهم، فنكحوهن قبل اخراج الخمس من الغنيمه، وقالوا: إن دخلت النساء في قسمنا فهو مرادنا، وإن زادت قيمتهن على نصيبنا من الغنيمه غرنا الزيادة من أموالنا، فلما رجعوا إلى «نجدة» وسألوه عما فعلوا من وطء النساء، ومن أكل طعام الغنيمه قبل اخراج الخمس منها، وقبل قسمه أربعة أخماسها بين الغانمين، قال لهم: لم يكن لكم ذلك، فقالوا: لم نعلم أن ذلك لا يحل لنا، فعذّرهم بالجهالة. ثم قال: إن الدين (٢٠١)

أمران: أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة رسله - عليهم الصلاة والسلام -، وتحريم دماء المسلمين - يعنون موافقيهم - والاقرار بما جاء من عند الله جملة، فهذا واجب على الجميع، والجهل به لا يعذر فيه. والثاني: ما سوى ذلك، فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليه الحجة في الحلال والحرام. قالوا: ومن جوز العذاب على المجتهد المخطئ في الأحكام قبل قيام الحجة عليه فهو كافر. د - تولّى أصحاب الحدود من موافقيه وقال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم في غير نار جهنم ويدخلهم الجنة، وزعم أن من خالفه في دينه يدخل النار. هـ - أسقط حدّ الخمر (١). و - من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة، وأصرّ عليها فهو مشرك، ومن زنى وسرق وشرب الخمر غير مصرّ عليه فهو مسلم، إذا كان من موافقيه على دينه. ولهذه البدع، استتابه أكثر أتباعه وقالوا: أخرج إلى المسجد، وتب من احداثك في الدين، ففعل ذلك. ثم إن قوماً منهم ندموا على استتابته، وانضّموا إلى العاذرين له، وقالوا له: أنت الإمام ولك الاجتهاد ولم يكن لنا أن نستبيحك، فتب من توبتك، واستتب الذين استتابوك وإلا نابدناك، ففعل ذلك، فافترق عليه أصحابه، وخلعه أكثرهم، وقالوا له: اختر لنا إماماً، فاختر «أبافديك». وصار «راشد الطويل»

١. هذا ما يقوله البغدادي، ويقول الشهرستاني: غلظ على الناس من حد الخمر تغليظاً شديداً، والظاهر صحّة الثاني لكون نجدة من الخوارج. (٢٠٢)

(أحد رؤساء الخوارج) مع «أبي فديك» يداً واحدة، فلما استولى أبو فديك على اليمامة علم أن أصحاب نجدة إذا عادوا من غزواتهم أعادوا نجدة إلى الإمارة فطلب نجدة ليقبله فاختمى نجدة في دار بعض عاذريه، ينتظر رجوع عساكره الذين كان قد فرّقهم في سواحل الشام ونواحي اليمن، ونادى منادى «أبي فديك»: من دلّنا على «نجدة» فله عشرة آلاف درهم، وأى مملوك دلّنا عليه فهو حر، فدلت عليه أمه، فأنفذ أبوفديك «راشد الطويل» في عسكر إليه فكبسوه وحملوا رأسه إلى «أبي فديك». ولما قتل نجدة فصارت النجدات بعده ثلاث فرق: ١ - فرقة اكفرته وصارت إلى أبي فديك، كراشد الطويل، وأبي بيهس، وأبي الشماخ وأتباعهم. ٢ - فرقة عدّته فيما فعل، وهم النجدات. ٣ - وفرقة من النجدات هاجروا من اليمامة، وكانوا بناحية البصرة شكوا فيما حكى من احداث نجدة وتوقفوا في أمره وقالوا: لاندرى هل أحدث تلك الاحداث أم لا؟ فلانبرأ منه إلا باليقين. وبقي أبوفديك بعد قتل نجدة إلى أن بعث إليه عبدالملك بن مروان، عمر بن عبيدالله بن معمر التميمي في جند فقتلوا أبا فديك، وبعثوا برأسه إلى عبدالملك بن مروان، فهذه قصة النجدات (١). وبالامعان فيما نقلنا عنه من الآراء يظهر مذهب النجدية، وأنهم كانوا أخف وطأه من الأزارقة وتتلخص الأفكار التي امتازوا بها عن غيرهم من فرق الخوارج في الأمور التالية:

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ٨٧ - ٩٠؛ الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/٨٩؛ الشهرستاني: الملل و النحل ١/١٢٢ - ١٢٥. (٢٠٣) ١ - التقيّة جائزة (١). ٢ - تعذير قعدة المسلمين وضعفتهم. ٣ - تحريم قتل الأطفال. ٤ - لزوم رد أمانة المخالف (٢). ٥ - لا حاجة للناس إلى إمام قط، وإنما عليهم أن يتناصحوا فيما بينهم، فإن هم رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه، جاز (٣). ٦ - تولّى أصحاب الحدود والجنايات من موافقيه. ٧ - من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة وأصرّ عليها فهو مشرك (ولعله في حق مخالفينهم) ومن زنى، وسرق، وشرب الخمر غير مصرّ عليه فهو مسلم، إذا كان من موافقيه على دينه (٤). هذه آراؤهم وسوف نرجع إلى دراسة هذه الموضوعات في فصل خاص. وأخيراً نعيد ما ذكرناه: انقسمت النجدية بعد «نجدة» إلى ثلاث فرق هم: النجدية والفديكية، والعطوية

(٥). وهذا يدل على أن كثيراً من الفرق كانت فرقاََ سياسية، لادينية. _____

١. ولو صحَّ ذلك كما هو صريح كتاب نجدة لا يصحَّ ما نسب إليهم الأشعري في مقالاته من أنهم استحلوا دماء أهل المقام وأموالهم في دار التقيّة وبرأوا ممّن حرّمها، الأشعري: مقالات الاسلاميين ١/٩١ .

٢. لاحظ في هذا الأصول الأربعة كتاب نجدة إلى نافع تجد فيه تلك الآراء.

٣. الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٤ .

٤. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/٩١ .

٥. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/٩٢ . (٢٠٤) (٢٠٥) الفرقة الثالثة: البيهسية البيهسية من الخوارج ينسبون إلى أبي بيهس واسمه هيصم بن جابر وهي فرقة مستقلة، لاصلة لها بالإبراهيمية والميمونية، وإنما تدخلت في الخلاف الذي حدث بين تلك الفرقتين، والفرقتان من الاباضية كما سنبيّن: قد وقفت عند الكلام في الأزارقة على أن أبيبهبس هيصم بن جابر الضبعي وعبدالله بن اباض كانا في وقت واحد، وكان لنافع قيادة روحية متلما كان لعبدالله بن اباض أو أقوى، وإنما خرج أبو بيهس بمنهج عندما ظهر له غلو نافع و تقصير عبدالله بن اباض، حيث إن نافع غلا في البراءة من المسلمين وجوّز استعراضهم والتفتيش عن عقائدهم واستحلّ أماناتهم وقتل أطفالهم . بينما عبدالله بن اباض قد قصّر (أى في التطرف) حيث إن المخالفين عندهم كفّار ولكن كفّار في النعم كما عدّ سبحانه وتعالى تارك الحج مع (٢٠٦)

الاستطاعة كافراً وقال: (وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلًا وَمِنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (١) وجوّز مناكحهم ومواريتهم والاقامة في بلدهم. عند ذلك أدلى أبو بيهس بأول رأيه حيث اعتبر أن هناك إفراطاً وتفريطاً والحق الوسط، يقول: إن أعداءنا كأعداء رسول الله، تحلّ لنا الاقامة فيهم، خلافاً لنافع كما فعل المسلمون خلال اقامتهم بمكة وأحكام المسلمين تجرى عليهم، وزعم أن مناكحهم ومواريتهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام، وإن حكمهم عند الله حكم المشركين. قال المبرّد: فصارت الخوارج في هذا الوقت على ثلاثة أقاويل: ١- قول نافع في البراءة والاستعراض واستحلال الأمانة وقتل الأطفال. ٢- قول أبي بيهس الذي ذكرناه. ٣- وقول عبدالله بن اباض وهو أقرب الأقوال إلى السنّة من أقاويل الضلال (٢). ثم إن البيهسية انقسمت إلى فرق: ١- العوفية. ٢- أصحاب التفسير. ٣- أصحاب السؤال، وهم أصحاب شبيب النجراني . ولنذكر المشتركات بين هاتيك الفرق، ثم نذكر المميّزات، أمّا الأولى فقال أبو بيهس: لا يسلم أحد حتّى يقرّ بمعرفة الله، ومعرفة رسوله، ومعرفة ما جاء به محمّد جملةً، والولاية لأولياء الله سبحانه، والبراءة من أعداء الله وما _____

١. آل عمران: ٩٧ .

٢. المبرّد: الكامل ٢/٢١٤ وأضاف ان الصفرية والنجدية في ذلك الوقت يقولون بقول ابن اباض . (٢٠٧)

حزّم الله سبحانه ممّا فيه الوعيد ، فلا يسع الإنسان إلاّ علمه ومعرفة بعينه، وتفسيره . ومنه ما ينبغي أن يعرفه باسمه ولايالي أن لايعرف تفسيره وعينه حتى يتلى به، وعليه أن يقف عند ما لا- يعلم، ولا- يأتي شيئاً إلاّ بعلم. وفي مقابل البيهسية من قال: قد يسلم الإنسان بمعرفة وظيفة الدين، وهي شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً - صلّى الله عليه وآله وسلم - عبده ورسوله، والاقرار بما جاء من عندالله جملةً (١)، والولاية لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله وإن لم يعرف ما سوى ذلك فهو مسلم. ثم إنّه مسلم حتى يتلى بالعمل، فمن واقع شيئاً من الحرام، ممّا جاء فيه الوعيد، وهو لا يعلم أنّه حرام، فقد كفر، ومن ترك شيئاً من كبير ما افترضه الله سبحانه عليه وهو لا يعلم فقد كفر، فإن حضر أحد من أوليائه موقعةً من واقع الحرام وهو لا يدرى أحلال أم حرام، أو اشتبه عليه، وقف فيه، فلم يتولّه ولم يبرأ منه حتى يعرف أحلال ركب أم حرام؟ . قالت البيهسية: الناس مشركون بجهل الدين (٢)، مشركون بموقعة الذنوب، وإن كان ذنب لم يحكم الله فيه حكماً مغلظاً ولم يوقفنا على تغليظه فهو مغفور، ولا يجوز أن يكون أخفى أحكامه عنّا في ذنوبنا، ولو جاز ذلك جاز في الشرك (٣) . وقالوا: التائب في موضع الحدود، وفي موضع القصاص، والمقرّ على _____ ١. الفرق بين الفرقتين: هو أن

اليهسية التزموا بالمعرفة جملة، وهؤلاء اكتفوا بالاقرار جملة، والفرق بينهما واضح، فإن المعرفة تستلزم المعرفة التفصيلية دون الاقرار .

٢. ذلك لازم الأصل الأول من اشتراط تحقق الإسلام بمعرفة ما جاء به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

٣. يريد أن المعاصي الكبيرة لا تكون خفية علينا، ولو جاز خفاؤها لجاز خفاء حكم الشرك. (٢٠٨)

عندالله (١) . هذه هي الأحكام المشتركة بين جميع فرق البيهسية ولب الجميع عبارة عن أمرين: ١ - لزوم معرفة ما جاء به النبي على وجه التفصيل . ٢ - إن مرتكب الكبائر مشرك خصوصاً فيما إذا كان في موضع الحد. نعم هناك فرق من البيهسية اختصوا ببعض الأحكام، نذكر منها ما يلي: الف - العوفية: وهم فرقتان: فرقة تقول: من رجع من دار هجرتهم ومن الجهاد إلى حال القعود نبأ منهم. وفرقة تقول: لا نبأ منهم، لأنهم رجعوا إلى أمر كان حلالاً لهم. وكلا الفريقين من العوفية يقولون: إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد. والبيهسية يبرأون، منهم وهم جميعاً يتولون أبا بيهس، وقالت العوفية: السكر كفر، ولا يشهدون أنه كفر حتى يأتي معه غيره كترك الصلاة، وما أشبه ذلك، لأنهم إنما يعلمون أن الشارب سكر إذا ضم إلى سكره غيره مما يدل على أنه سكران (٢) . ب - أصحاب التفسير: كان صاحب بدعتهم رجل يقال له الحكم بن مروان من أهل الكوفة، زعم أنه من شهد على المسلمين لم تجز شهادتهم إلا بتفسير الشهادة كيف هي. قال: ولو أن أربعة شهدوا على رجل منهم بالزنا لم تجز شهادتهم حتى يشهدوا كيف هو، وهكذا قالوا في سائر الحدود، فبرأت

١. وهذا مبنى على كون ارتكاب الكبائر كفراً.

٢. إن العلم بالسكر يعلم بأدنى شيء ولا يتوقف على ترك الصلاة. (٢٠٩)

منهم البيهسية على ذلك وسموهم أصحاب التفسير. ج - أصحاب السؤال: وهم الذين زعموا أن الرجل يكون مسلماً إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - عبده ورسوله، وتولى أولياء الله وتبرأ من أعدائه، وأقر بما جاء من عندالله جملة، وإن لم يعلم سائر ما افترض الله عليه مميماً سوى ذلك، أفرض هوأم لا؟ فهو مسلم حتى يبتلى بالعمل به (فيسأل)(١) . وقالوا: في أطفال المؤمنين: إنهم مؤمنون أطفالاً - وبالغين، حتى يكفروا، وإن أطفال الكفار كفار، أطفالاً وبالغين حتى يؤمنوا. وقالوا بقول المعتزلة في القدر (أى كون الأفعال منسوبة إلى الإنسان دونه سبحانه). هذه هي البيهسية وهذه الفرق المتشعبة عنها. وهاهنا آراء تنسب إلى بعض البيهسيين ولم يعرف قائلها. منها قول بعض البيهسية: من واقع زنا، لم يشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الإمام أو الوالى ويحد، فوافقهم على ذلك طائفة من الصفرية، إلا - أنهم قالوا: نقف فيهم ولا - نسميهم مؤمنين ولا كافرين . منها قول بعضهم: إذا كفر الإمام كفرت الرعية، وإن الدار دار شرك وأهلها جميعاً مشركون، ولا يصلح إلا خلف من يعرف، وقالوا: بقتل أهل القبلة وأخذ الأموال واستحلال القتل والسبى على كل حال. ١. قد عرفت أن القدر المشترك بين البيهسية هو لزوم معرفة ما جاء به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - تفصيلاً، ولكن أصحاب السؤال اكتفوا بالاقرار الإجمالى، فعدهم من البيهسية موضع تأمّل، وإن عدّه منهم الأشعري في مقالاته.

ثم إن الفرق بينهم وبين الفرقة المخالفة للبيهسية التي أوعزنا إليها في صدر البحث هو أنهم يحكمون بالكفر إذا ابتلى بالعمل وهو لا يعلم أنه حرام، وهذا بخلاف أصحاب السؤال فهم لا يحكمون بكفره بل يحكمون عليه بالسؤال . (٢١٠) منها: السكر من كل شراب، حلال موضوع عمّن سكر منه، وكل ما كان في السكر من ترك الصلاة أو شتم الله سبحانه موضوع فيه، لاحد فيه، ولا حكم، ولا يكفر أهله بشيء من ذلك ماداموا في سكرهم، وقالوا: إن الشراب حلال الأصل، ولم يأت فيه شيء من التحريم لا في قليله ولا في اكثره أو سكر(١). وأما تدخل أبي بيهس في الخلاف الذى حدث بين الإبراهيمية والميمونية فحاصله أن رجلاً من الاباضية يعرف بإبراهيم، دعا قوماً من أهل مذهبه إلى داره، وأمر جارية له كانت على مذهبه بشيء، فأبطأت عليه فحلف لبيعتها في الأعراب، فقال له رجل منهم اسمه ميمون: كيف تبيع جارية مؤمنة إلى الكفرة؟ فقال له إبراهيم: إن الله تعالى قد أحل البيع وقد مضى أصحابنا وهم يستحلون

ذلك، فثبّرأ منه ميمون وتوقّف آخرون منهم في ذلك وكتبوا بذلك إلى علمائهم، فأجابوهم بأنّ بيعها حلال، وبأنّه يستتاب ميمون، ويستتاب من توقّف في إبراهيم، فصاروا في هذا ثلاث فرق: أبراهيمية، وميمونية، وواقفة. ثمّ إنّ البيهسية قالوا: إنّ ميموناً كفر بأن حرم الأمة في دار التقيّة من كفّار قومنا، وكفرت الواقفة بأن لم يعرفوا كفر ميمون وصواب أبراهيم، وكفر إبراهيم بأن لم يبرأ من الواقفة (٢). وأمّا مصير أبي يهس، فقد طلبه الحجاج أيام الوليد فهرب إلى المدينة فطلبه بها عثمان بن حيّان المزني فظفره وحبسه، وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله، ففعل ذلك به (٣). ***

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/١١٣ - ١١٨، والشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٥ - ١٢٧.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق ١٠٧ - ١٠٨.

٣. الشهرستاني: الملل والنحل ١/١٢٥. (٢١١) الفرقة الرابعة: الصفرية اختلفت كلمة أصحاب المقالات في مؤسس هذه الفرقة، ففرى أنّ المبرّد يعرفهم بأنهم أصحاب ابن صفار، وأنهم إنّما سمّوا بصفرة لصفرة علّتهم ويستشهد على ذلك بقول ابن عاصم الليثي، وكان يرى رأى الخوارج وصار مرجئاً. فارتقت نجدة والذين تزرقوا* وابن الزبير وشيعة الكذاب والصفرة الآذان (١) الذين تخيروا* ديناً بلائقة ولا بكتاب بينما الأشعري والشهرستاني ينسبونها إلى زياد بن أصفرة (٢). _____

١. قال المبرّد: خفف الهمزة من الآذان ولولاه لانكسر الشعر. (المبرّد: الكامل ٢/٢١٤).

٢. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١٠١، والشهرستاني: الملل والنحل ١/١٣٧. (٢١٢) ولكن يقول المقرئ: إنّهم أتباع زياد بن الأصفر ويضيف، ربّما يقال: إنّهم أتباع النعمان بن الصفر، وقيل: بل نسبوا إلى عبدالله بن صفار، ويقال لهم أيضاً: الزبادية... ويقال لهم أيضاً: النكّار من أجل أنّهم ينقصون نصف على وثلاث عثمان وسدس عائشة (١). وعمل كل تقدير فهم كالأباضية أقرب الفرق إلى المسلمين: ١ - يخالفون الأزارقة في عذاب الأطفال، فإنّهم لا يجيزون ذلك ولا يكفرونهم ولا يخلّدونهم في النار. ٢ - لم يكفروا القعدة عن القتال والمراد قعدة الخوارج. ٣ - لم يسقطوا الرجم. ٤ - التقيّة جائزة في القول دون العمل عندهم. ٥ - وأمّا إطلاق الكافر والمشرك على مرتكبي الكبائر، فقد قالوا فيه بالتفصيل الآتي: ما كان من الأعمال عليه حدّ واقع فلا يتعدى بأهله، الاسم الذي لزمه به الحدّ كالزنا والسرقه، والقذف، فيسمّى زانياً سارقاً، قاذقاً، لا كافراً مشرّكاً. وما كان من الكبائر ممّا ليس فيه حدّ لعظم قدره مثل ترك الصلاة والفرار من الزحف، فإنّه يكفّر بذلك. ٦ - ونقل عن الضحّاك منهم أنّه جوّز تزويج المسلمات من كفّار قومهم (يريد سائر المسلمين) في دار التقيّة دون دار العلانية. ٧ - ونقل عن زياد بن الأصفر أنّ الزكاة سهم واحد في دار التقيّة (٢). _____

١. المقرئ: الخطط ٢/٣٥٤، والنكّار جمع ناكر.

٢. يريد أنّه لا يجب صرف الزكاة على الأصناف الثمانية الواردة في آية الصدقات، لعدم بسط اليد في دار التقيّة بل تصرف في مورد واحد. (٢١٣) ٨ - ويحكى عنه أنّه قال: نحن مؤمنون عند أنفسنا ولاندرى أنّنا خرجنا من الإيمان عند الله! ٩ - الكفر كفران، كفر بانكار النعمة، وكفر بانكار الربوبية. ١٠ - البراءة براءتان: براءة من أهل الحدود، سنّة، وبراءة من أهل الجحود، فريضة (١). وعلى ما ذكره الشهرستاني فهم لا يرون ارتكاب الكبيرة موجباً للمشرك والكفر إلاّ فيما إذا لم يرد فيه حدّ كترك الصلاة. لكن الظاهر ممّا نقله البغدادي في الفرق أنّ بين الصفرية قولين آخرين: الف - إنّ صاحب كل ذنب مشرك، كما قالت الأزارقة. ب - إنّ صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي فيحدّه (٢). وكل الصفرية بل جميع فرق الخوارج حتى الاباضية الذين يتحرّجون من تسميتهم خوارج، يقولون بموالاة عبدالله بن وهب الراسبي وحر قوص بن زهير وأتباعهما من المحكّمة الأولى. ويقولون بإمامة أبي بلال مرداس، الخارج بعد المحكّمة الأولى، وإمامة عمران بن حطان السدوسي بعد أبي بلال. أمّا أبو بلال فقد مرّت ترجمته وأنّه خرج في أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، فبعث إليه عبيدالله بن زياد، عبّاد بن أخضر التميمي، فقتله مع أتباعه. وأمّا الثاني فهو من شعراء الخوارج وخطبائهم، مات سنة ٨٤، وبلغ من خبثه في بغض علي - عليه السّلام - أنّه رثا عبدالرحمن بن ملجم وقال في ضربه

١. الشهرستاني: الملل و النحل ١/١٣٧. البغدادي: الفرق بين الفرق ٩٠. الأشعري: المقالات ١٠١ .

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق ٩١ . (٢١٤) علياً: يا ضربه من منيب ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا إنني لأذكره يوماً فأحسبه * أوفى الربية عند الله ميزانا قال عبدالقاهر (البغدادي): وقد اجنبا عن شعره هذا بقولنا: يا ضربه من كفور ما استفاد بها * إلا الجزاء بما يصلية نيرانا إنني لألعه دينا، وألعن من * يرجو له أبداً عفواً وغفرانا ذاك الشقي لأشقي الناس كلهم * أخفهم عند رب الناس ميزانا(١) أصول الفرق للخوارج: هذه هي أصول فرق الخوارج المتطرفين وأما سائر الفرق فكلها مشتقة منها بسبب اختلاف غير هام في التخطيط والتطبيق، لا- في المبدأ والأصل، وأما الاباضية، فلم يكونوا بهذا التطرف، ولأجل ذلك أسماهم سائر الفرق باسم «القعدة» لأنهم قعدوا عن الجهاد في سبيل الله بمحاربة الولاة والحكام الظالمين. يقول «الدكتور رجب محمد»: قد تطورت الأحوال في جماعة المحكّمة الذين ظلوا على عدائهم وصدامهم مع الدولة الأموية إلى الانقسام إلى فرق ثلاث: هي الأزارقة، والنجدة، والبيهسية منذ عام ٦٤، وأضيفت إليها الفرقة الرابعة وهي الفرقة المعروفة باسم الصفرية منذ عام ٧٥، واتفقت هذه الفرق الأربع فيما بينهم على آراء، وكفر بعضهم بعضاً، واصطدموا بالدولة الأموية مرّات عديدة، وتصدّت لهم قوات الخلافة وأخضعت شوكتهم وقضت على زعمائهم، وكان ذلك على يد المهلب بن أبي صفرة المعاني وعلى يد قومه من _____

١. البغدادي: الفرق بين الفرق ٩٣ . (٢١٥)

الأزد العمانيين، وعندما حاول بعض زعمائهم اللجوء إلى عمان، تصدّى لهم العمانيون وقتلوهم وقتلوهم (١). وعلى كل تقدير فالفرقة الباقية من الخوارج تلحن الفرق الأربع وتبترأ منها، وإليك نصّ بعضهم في هذا الشأن: لقد حرص ابن اباض في رسالته إلى عبدالملك بن مروان أن يقزّر رأيه بصراحة في ابن الأزرق... فذكر فيها قوله: «أنا براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه. لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنه أحدث وارتدّ وكفر بعد اسلامه فنبراً إلى الله منهم» (٢) . وقد عرض القلهاتي بالتحليل لآراء الأزارقة: «الأزارقة إمامهم أبو راشد نافع بن الأزرق، وهو أول من خالف اعتقاد أهل الاستقامة، وشقّ عصي المسلمين، وفرّق جماعتهم، وانتحل الهجرة، وسبى أهل القبلة، وغنم أموالهم، وسبى ذراريهم، وسنّ تشريك أهل القبلة، وتبرأ من القاعد ولو كان عارفاً لأمره تابعاً لمذهبه، واستحلّ اعتراض الناس بالسيف، وحرّم مناكحتهم وذبائحهم وموارثهم، وابتدع اعتقادات فاسدة وآراء حائدة خالف فيها المسلمين أهل الاستقامة في الدين» (٣) . وقد تعرّض كذلك لسائر فرق الخوارج الأخرى فقال: «وجميع أصناف الخوارج - غير أهل الاستقامة (الاباضية) - اجتمعوا _____

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم (استاذ التاريخ بجامعة القاهرة وجامعة السلطان قابوس): الاباضية في مصر و المغرب: ١٤ .

٢. البرادي: الجواهر المنتقاء (رسالة ابن اباض) ١٥٦ - ١٦٧. ويأتي نصّ الرسالة في محلّها.

٣. القلهاتي: الكشف والبيان ٢/٤٢٣ . (٢١٦)

على تشريك أهل القبلة، وسبى ذراريهم، وغنيمه أموالهم، ومنهم من يستحلّ قتل السريرة والعلانية، واعتراض الناس بالسيف على غير دعوة، ومنهم من يستحلّ قتل السريرة، وهم مختلفون فيما بينهم، يقتل بعضهم بعضاً، ويغنم بعضهم مال بعض، ويبرأ بعضهم من بعض، وانتحلوا الهجرة، وحرّموا موارثهم، ومناكحتهم، وأكل ذبائحهم» (١) . الخوارج قد شوّها محاسن الدين: إن الخوارج قد شوّها محاسن الدين الإسلامي تشويهاً غريباً، فإنّ هذا الاغراق في التأويل والاجتهاد أخرجهم عن روح الإسلام وجماله واعتداله، وهم في تعمّتهم قد سلكوا طريقاً ما قال به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا دعا إليه القرآن، وأما التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العمياء، والصلاح، الذي كانوا يتزينون به في الظاهر، كان ظاهر التأويل بادئ الزخرفة، وقد طمعوا في الجنة وأرادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين، غلواً أخرجهم منه، ومجاوزه الحدّ، تُوقع في الضد(٢).*** _____

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢١٥ - ٢١٦ .

٢. عمر ابو النصر: الخوارج في الاسلام: ١١١ . (٢١٧) الفرقة الخامسة: الاباضية أتباع عبدالله بن اباض (١) م ٨٦ وصفت الاباضية في

كلام غير واحد بأنهم أقرب الناس إلى أهل السنة (٢) وأنهم هم الفرقة المعتدلة من الخوارج، ولأجل هذا أتيح لهم البقاء إلى يومنا هذا، فهم متفرقون في عمان وزنجبار وشمال أفريقيا، فإذا كان البحث في سائر الفرق بحثاً في طوائف أبادهم الدهر وصاروا خيراً لكان، فالبحث عن الاباضية بحث عن فرقة موجودة من الخوارج ويعتبر مذهبهم، المذهب الرسمي في عمان، وقد ذكرنا في بداية الكتاب النشاط الثقافي التي تقوم به وزارة الأوقاف عندهم. فنبحث أولاً عما يقول عنهم أصحاب المقالات والتاريخ، ثم نرجع إلى

١. إن اباضية عمان يقرأونه - بالفتح - خلافاً لاباضية شمال أفريقيا فيقرأونه - بالكسر - وعلى كل تقدير اباض - بضم الهمزة - فهي قرية أو واحة باليمامة.

٢. المبرّد: الكامل ٢/٢١٤. (٢١٨)

كتبهم المنتشرة في هذه الأيام لغاية التعريف بهم. الاباضية في كتب المقالات والتاريخ: عبدالله بن اباض المقاعسي المرّي التميمي من بني مرّة بن عبيد بن مقاعس، رأس الاباضية وإليه نسبتهم، وقد عاصر معاوية وعاش إلى أواخر أيام عبدالملك بن مروان، وكان ممن خرج إلى مكة لمنع حرم الله من مسلم بن عقبة المرّي (١) عامل يزيد بن معاوية. اتفق عبدالله بن اباض مع نافع وأصحابه على أن يسألوا - عبدالله بن الزبير عن رأيه في عثمان، لأنّ الخوارج يومذاك كانوا ملتفتين حول عبدالله بن الزبير، فلما سأله وجدوه، مخالفاً للعقيدة فتفرقوا من حوله، وذهبت طائفة من الخوارج إلى اليمامة وعدة أخرى إلى البصرة، منهم ابن الأزرق وعبدالله بن اباض وعبدالله بن الصفار (٢). ثم إن ابن الأزرق خرج على ثلاثمائة رجل عند وثوب الناس بعبيدالله بن زياد، وتخلّف عنه عبدالله بن صفار وعبدالله بن اباض ورجال معهما على رأيه، وكتب إليهما ما ألقاه لأصحابه في خطابته وهو: «إن الله قد أكرمكم بمخرجكم، وبصّركم ما عمى عنه غيركم. أستم تعلمون أنكم إنما خرجتم تطلبون شريعته وأمره، فأمره لكم قائد، والكتاب لكم إمام، وإنما تتبعون سنته وأثره؟ فقالوا: بلى، فقال: أليس حكمكم في وليكم حكم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في وليه، وحكمكم في وعدكم حكم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في عدوه، وعدكم اليوم وعد الله وعدوكم وعدو الله وعدوكم وعدوكم»

١. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨. (٢١٩)

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كما أن عدو النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يومئذ هو عدو الله وعدوكم اليوم؟ فقالوا: نعم، قال: فقد أنزل الله تبارك وتعالى: (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وقال: (لا تتكفروا للمشركين حتى يؤمنوا) فقد حرم الله ولايتهم، والمقام بين أظهرهم، واجازة شهادتهم، وأكل ذبائحهم، وقبول علم الدين عنهم، ومناكحتهم ومواريتهم. قد احتج الله علينا بمعرفة هذا، وحق علينا أن نعلم هذا الدين الذين خرجنا من عندهم، ولانكتم ما أنزل الله، والله عزوجل يقول: (إن الذين يكتفون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) (١). فبعث بالكتاب إلى عبدالله بن صفار وعبدالله بن اباض، فأتيا به، فقرأه عبدالله بن صفار، فأخذه، فوضعه خلفه فلم يقرأه على الناس خشية أن يتفرقوا ويختلفوا، فقال له عبدالله بن اباض: مالك لله أبوك؟ أي شئ أصبت؟ أن قد أصيب اخواننا؟ أو أسر بعضهم؟ فدفعت الكتاب إليه، فقرأه، فقال: قاتله الله، أي رأى رأى. صدق نافع بن الأزرق (لكن) لو كان القوم مشركين، كان أصوب الناس رأياً وحكماً فيما يشير به، وكانت سيرته كسيرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في المشركين. ولكنه قد كذب وكذبنا فيما يقول: إن القوم كفار بالنعمة والأحكام، وهم براء من الشرك، ولا يحل لنا إلا دماؤهم، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام (٢). ثم إن المبرّد نقل كتاب

ابن الأزرق إليهما بغير هذه الصورة، والنقلان

١. البقرة: ١٥٩.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٤٣٨ - ٤٤٠. (٢٢٠)

متفقان في المادة، وأضاف أن الكتاب ورد إلى أبي يهس وعبدالله بن اباض، فأقبل أبو يهس على ابن اباض فقال: إن نافعاً غلا فكفر وأنتك قصرت فكفرت (١). هذا هو عبدالله بن اباض، وهذه زمالته مع نافع بن الأزرق وهذا فراقه له في مسأله تكفير المسلمين كفر مله ودين، وهذه اباحتهم دماء المسلمين (بعد اتمام الحج) ولأجل هذه المرونة بين الاباضية، يقول المبرّد: إن قول عبدالله بن اباض أقرب الأقاويل إلى أهل السنّة من أقاويل الضلال. أو هام حول مؤسس المذهب: ثم إن هناك أو هاماً حول الرجل في كتب الفرق والتواريخ: ١ - خرج ابن اباض في أيام مروان بن محمّد (٢) وهذا وهم فقد مات قبل أيام مروان بأربعين عاماً. ٢ - وقال الزبيدي: كان مبدأ ظهوره في خلافة مروان الحمار (٣). ٣ - وقال المقرئ: إنه من غلاة المحكمه وأنه خرج في أيام مروان، ثم قال: ويقال: إن نسبة الاباضية إلى اباض - بضم الهمزة - وهي قرية باليمامة نزل بها نجده بن عامر (٤). وكلا - الأمرين يدلان على أنه ظهر بين سنتي ١٢٧ - ١٣٢، أيام حكم مروان وهو لا يتفق مع ما عليه الاباضية على أن وفاته كانت في أيام عبدالملك بن مروان. _____

١. المبرّد: الكامل ٢/٢١٣ - ٢١٤ وقد مرّ - كتاب ابن الأزرق - إليهما عند البحث عن البيهسيه، فلاحظ.

٢. نقله خير الدين الزركلي في الاعلام ٤/١٨٤، عن هامش الأغاني: ٣٣٠ من المجلد السابع.

٣. الزبيدي: تاج العروس، مادة ابض.

٤. المقرئ: الخطط ٢/٣٥٥. (٢٢١) وقال الشهرستاني: عبدالله بن اباض الذي خرج في أيام مروان بن محمّد (١). ولعل وجه اشتباههم هو: وقوع فتنه الاباضية في أواخر حكومة مروان بن محمّد، وكان في رأس الفتنه عبدالله بن يحيى الجندی الكندي الحضرمي طالب الحق وكان اباضياً. قال ابن العماد: وفي سنة ١٣٠ كانت فتنه الاباضية وهم المنسوبون إلى عبدالله بن اباض. قال: مخالفونا من أهل القبلة كفار، ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن، بناءً على أن الأعمال داخله في الإيمان، وكفروا علياً وأكثر الصحابة، وكان داعيتهم في هذه الفتنه عبدالله بن يحيى الجندی الكندي الحضرمي (طالب الحق)، وكانت لهم وقعة بقديد مع عبدالعزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان فقتل عبدالعزيز ومن معه من أهل المدينة، فكانوا سبعمائة أكثرهم من قريش منهم: تخرمه بن سليمان الوالبي، روى عن عبدالله بن جعفر وجماعه، وبعدها سارت الخوارج إلى وادي القرى ولقيهم عبدالملك السعدي فقتلهم ولحق رئيسهم إلى مكّه فقتله أيضاً، ثم سار إلى تبالة - وراء مكّه بست مراحل - فقتل داعيتهم الكندي (٢). ومن الأوهام ما ذكره ابن نشوان الحميري عن أبي القاسم البلخي المعتزلي: إن عبدالله لم يمت حتى ترك قوله أجمع، ورجع إلى الاعتزال (٣)، والرجل توفي ولم يكن للاعتزال أي أثر، فإن رأس الاعتزال هو واصل بن عطاء الذي ولد عام ٨٠. ثم إن الاباضية انقسمت إلى فرق خرجوا عن الاعتدال والمرونة ومالوا _____

١. الشهرستاني: الملل و النحل ١/١٣٤.

٢. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب ١/١٧٧.

٣. ابن نشوان الحميري: الحور العين ١٧٣. (٢٢٢)

إلى التطرف والشدة، ولكن جمهور الاباضية على الاعتدال. يقول الأشعري: وجمهور الاباضية يتولّى المحكمه كلها إلا من خرج، ويزعمون أن مخالفهم من أهل الصلاة كفار، وليسوا بمشركين، حلال مناصحتهم وموارثتهم حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكرع عند الحرب، حرام ما وراء ذلك، وحرام قتلهم وسبيهم في السر، إلا - من دعا إلى الشرك في دار التقيّة ودان به، وزعموا أن الدار - يعنون دار مخالفهم - دار توحيد إلا عسكر السلطان، فإنه دار كفر - يعني عندهم - . وحكى عنهم أنهم أجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم، وحرموا الاستعراض إذا خرجوا، وحرموا دماء مخالفهم حتى يدعوهم إلى دينهم، فبرأت الخوارج منهم على ذلك، وقالوا: إن كل طاعة إيمان ودين، وإن مرتكبي الكبائر موحدون وليسوا بمؤمنين (١). وقريب من ذلك ما ذكره البغدادي في كتابه، يقول: افرقت الاباضية فيما بينها فرقا يجمعها القول بأن كفار هذه الأمة - يعنون بذلك مخالفهم من هذه الأمة - براء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا بمؤمنين ولا - مشركين ولكنهم كفار، وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم في السر واستحلّوها في العلانية، وصحّحوا

مناكحتهم، والتوارث منهم، وزعموا أنهم في ذلك محاربون لله ولرسوله، لا يدينون دين الحق، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض، والذي استحلوه الخيل والسلاح، فأما الذهب والفضة فإنهم يردونهما إلى أصحابهما عند الغنيمه . ثم افرقت الاباضية فيما بينهم أربع فرق: الحفصية، والحارثية، واليزيدية، وأصحاب طاعة لايراد الله بها. _____

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين ١٠٤ - ١٠٥ . (٢٢٣) ثم قال: واليزيدية، منهم غلاة لقولهم بنسخ شريعة الإسلام في آخر الزمان (١) . ولأجل تصريح عبدالله بن اباض بأن المراد من الكفر هو الكفر بالنعم لا محيص عن تفسير الكفر فيما نقله البغدادي عنه بالكفر بالنعم، نعم بعض الفرق منهم خرجوا عن الاعتدال وحكموا بكفر المسلمين كفرةً حقيقياً . هذا ما يقوله أصحاب المقالات عنهم ولكنهم في كتبهم المنتشرة في السنوات الأخيرة يقولون خلاف ذلك، وأنهم لا يختلفون مع جماهير المسلمين إلا في مسألة التحكيم، وأما ما سواه فهم وغيرهم سواسية، وينكرون وجود هذه الفرق التي نسبتها إليهم الأشعري ثم البغدادي (٢) . ولأجل ذلك يجب دراسة مذهبهم من كتبهم . الاباضية في كتب اعلامهم: قد تعرّف على المذهب الاباضي وترجمه مؤسسه على ما في كتب الفرق والتاريخ، غير أن كتاب الاباضية في العصر الحاضر وماقبله يتحرّجون من أن يُعَدُّوا من فرق الخوارج، وإن كانوا يتفقون معهم في بعض المبادئ ولكن يخالفونهم في كثير من المبادئ والعقائد، ويعتقدون أنه مذهب نجم في أواخر القرن الأول بيد مؤسسه عبدالله بن اباض وجابر بن زيد العماني، فكان الأول قائداً مخططاً والثاني قائداً دينياً، وأن الخوارج هم المتطرفون كالأزارقة الذين كانوا يكفرون المسلمين ويعدونهم مشركين ويستبيحون أموالهم ويستحيون _____

١. البغدادي: الفرق بين الفرق: ١٠٣، ثم ذكر عقائد فرق الاباضية تبعاً للشيخ الأشعري في المقالات ١٠٢ - ١١١، ومن أراد التفصيل فليرجع إليهما.

٢. الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/٢١ - ٢٨ . (٢٢٤)

نسائهم ويقتلون أولادهم، وأما غيرهم الذين لايعتقدون هذا المبدأ وماشابهه فليسوا من الخوارج . وقد بذلت الاباضية في هذه العصور الأخيرة جهوداً في تنزيههم عن كونهم من هذه الطائفة وإن المقصود منه غيرهم، وإليك بعض نصوصهم وتحليلاتهم: هل الاباضية من الخوارج؟: ١ - قد عمد البعض من الخوارج بعد وقعة النهروان إلى سلوك طريق لايتفق مع الأصول الصحيحة للشريعة الغراء وأحد ثواب في الإسلام حدثاً كبيراً بما استحلوا من استعراض المسلمين بالسيف وتكفير أهل القبلة الذين لا يذهبون مذهبهم، وتفترق هؤلاء الخارجون إلى فرق عديدة كان منها الأزارقة والنجدات والصفريه... وهؤلاء هم الذين أصبحوا يعرفون بالخوارج، ويعنى وصفهم بذلك أنهم خارجون عن الدين ومارقون بما استحلوا من المحرّمات وما خالفوا فيه من الأحكام الصحيحة للإسلام . أما الاباضية - وهم عرفوا بجماعة المسلمين أهل الحق والاستقامة - فهم لا يرون رأى هؤلاء الخوارج بل يرونهم مارقين خارجين عن الدين، ورغم أنهم يوالون المحكّمه الأولى - وعلى رأسهم عبدالله بن وهب الراسبي - إلا أنهم لم يوافقوا الأزارقة و من والاهم من بعده بل تبرأوا منهم ولم يذهبوا مذهبهم . وعلى ذلك فالخوارج هم غير الاباضية ولا يمكن اعتبار الاباضية احدى فرقهم، وإلا فكيف نجعل بين النقيضين في صعيد واحد، وكيف نصف من يتمسك بصحيح الإسلام، ولا يكفر أصحاب القبلة، ولا يستحلّ دماء المسلمين ولا أموالهم إلا دفعاً لبغى أو ردّاً لعدوان؟... كيف نصف هؤلاء بأنهم من (٢٢٥)

الخوارج الذين أبوا إلا - مفارقة الجماعة والخروج عليهم واستعراض المسلمين بالسيف، واستحلال دمائهم وأموالهم بغير حقّها، وذهابهم إلى تكفير هؤلاء، وإذا كانت الاباضية قد والوا المحكّمه الأولى إلا أن ولاءهم لم يكن لمن خرج من بعد ذلك على الدين، وكان سلوكهم مروفاً وعصياناً (١) . ٢ - الاباضية لم يجمعهم جامع بالصفريه والأزارقة ومن نحا نحوهم إلا انكار الحكومه بين على ومعاوية، وأما استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد، والحكم بكفرهم كفر شرك، فقد انفرد به الأزارقة والصفريه والنجدية، وبه استباحوا حمى المسلمين ولما كان مخالفونا لايتورعون، ولا يكلفون أنفسهم مؤونه البحث عن الحق، ليقفوا عنده، خلطوا بين الاباضية الذين لا يستبيحون قطرة من دم موحد بالتوحيد الذى معه، وبين ما استحلوا الدماء بالمعصية الكبيرة حتى قتلوا الأطفال تبعاً لأبائهم، مع

أن الفرق كبير جداً كالفرق بين المستحل والمحرم . ثم قال: إن تسمية الخوارج لم تكن معهودة في أول الأمر، وإنما هي انتشرت بعد استشراف أمر الأزارقة ولم تعرف هذه التسمية في أصحاب علي، المنكرين للتحكيم والراضين به، ولعل أول ما ظهر هذا اللفظ بعد ثبوت الأمر لمعاوية والاستقرار ولم يفرقوا في ذلك بين المتطرف وغيره (٢). ٣- إن الإباضية رغم اعتدالهم من الناحية المذهبية والفقهية إلا أنهم كانوا في عداوة سياسية مع دولة بني أمية ودولة بني العباس لأنهم كانوا يقولون بأن الإمامة أو الخلافة حق لأي مسلم صالح، فلا- تكون قاصرة على قريش، ولا- على بطونها المختلفة من الأمويين أو العباسيين أو العلويين، ولمّا كان هذا الموقف

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢١٢ .

٢. أبو إسحاق السالمي: تحفة الأعيان: هامش الجزء الأول كما في الإمام جابر بن زيد العماني . (٢٢٦)

السياسي للإباضية يلتقي من الناحية النظرية ومن الناحية الفكرية البحث مع الخوارج: الأزارقة والنجدات والصفريه، فقد عمم كتاب الفرق القول ووضعوا الإباضية ضمن هؤلاء الخوارج واعتبروهم فرقة رابعة من فرقهم، والإباضية أنفسهم كما هو موجود في كتبهم القديمة والحديثة يتبرأون من هؤلاء الخوارج كل البراءة بل ويقاثلونهم بأشد قتال. إن المذهب الإباضي لم يعرف بهذا الاسم إلا منذ الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة حينما غلب على أصحابه هذا الاسم واشتهروا به، وإنما أصحابه قبل ذلك يعرفون باسم جماعة القعدة وهو اسم له دلالة السياسية، وقد أطلقه عليهم جماعات الخوارج من الأزارقة وغيرهم احتقاراً لهم ورفضاً لمبدئهم: ذاك في القعود، فقد وضع هؤلاء القعدة لأنفسهم مبدأ المسالمة وعدم اشتها السيف في وجه اخوانهم من المسلمين، وأجازوا لأنفسهم البقاء تحت حكم الجبابرة، وقالوا بعدم جواز قتل أطفال مخالفيهم ولا قتل نسائهم ولا استحلال أموالهم وأخذوا يعملون على نشر مبادئهم السياسية في سرية وكتمان، ودخلوا في مرحلة كتمان طويلة امتدت منذ أن تأسس المذهب على يد جابر بن زيد في أواخر القرن الأول للهجرة حتى هاجر معظم علماء المذهب وآخر أئمة الكتمان أبو سفيان محبوب بن الرحيل إلى عمان في أواخر القرن الثاني للهجرة (١) . ٤- إن مذهب الإباضية لم يعرف بهذا الاسم في المصادر الإباضية إلا في الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة وقد قبلت الإباضية بهذا الاسم منذ ذلك التاريخ لأنه غلب عليهم بمرور الزمن وصار علماء يلتقون حوله، وإنما يطلقون على أنفسهم قبل ذلك اسم «جماعة المسلمين» أو «أهل الدعوة» أو «أهل الاستقامة» وقد سماهم أعداؤهم من الخوارج المتطرفين باسم «القعدة»

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الإباضية في مصر والمغرب: ٥٤- ٥٦ . (٢٢٧)

احتقاراً لهم، لأنهم طبقاً لوجه نظر هؤلاء الخوارج، قعدوا عن الجهاد في سبيل الله بمحاربة الولاة والحكام الظالمين. وكان هؤلاء القعدة قد رأوا القعود عن الحرب، وعن رفع السيف ضد اخوانهم المسلمين عقب موقعة النهروان التي وقعت بين الإمام علي بن أبي طالب وجماعة المحكمه الذين عارضوه لقبوله التحكيم، وقالوا: «لاحكم إلا الله» واشتهروا باسم «المحكمه» أو «الشراء» أو «الحرورية» وأطلق عليهم خصومهم من أرباب الدولة الأموية اسم الخوارج (١). ٥- إن الصفريه اتخذت الخروج بالسيف على الدولة وسيلة لتحقيق أهدافهم، فإن الصفريه في بلاد المغرب اتبعوا هذا الاسلوب في هذه المنطقه النائية، ولذلك رفعوا لواء الثورة ضد بني أمية منذ عام ١٢٢ . وقد أظهر هؤلاء الصفريه من تطرف شديد في معاملتهم لخصومهم سواء كانوا من العرب أم من البربر، فكانوا يستحلون سبي النساء، ويستحلون الأموال، يسفكون الدماء، وكانوا في حركتهم في بلاد المغرب أقسى على الناس من حركة الأزارقة في بلاد المشرق، وقد وصل تطرف البربر الصفريه إلى غايته عندما داهموا القيروان في عام ١٣٩، واحتلوا وفعلوا بأهلها وبمساجدها ما تقشعر له الأبدان على يد قبيلة «ورفجومه» التي كان أهلها من غلاة الصفريه . ثم بعد فترات تنقلت قيادة البربر من الصفريه إلى الإباضية بعد أن ضاق البربر بعنف الصفريه وتطرفهم المقيت، فضعف أمر الصفريه منذ ذلك الحين وذاب أغلبهم في الإباضية (٢) .

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ١٢ - ١٣ .

٢. نفس المصدر: ٥٣ . (٢٢٨) ٦ - المذهب الاباضى يعتمد فى أصوله على الكتاب والسنة ويتفق فى كثير من أصوله وفروعه مع مذهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا فى مسائل قليلة، اختلاف مذاهب السنة فيما بينها، فلا يخلو منها مذهب لا يخالف غيره فى قليل أو كثير من المسائل، وما كان اعتماد المذهب الاباضى على الكتاب والسنة وعدم تباعده عن مذاهب السنة إلا لأن مؤسس جابر بن زيد قد أخذ عن الصحابة الذين أخذ عنهم أصحاب هذه المذاهب من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، بل أنه يمتاز على أصحاب هذه المذاهب، فى أنه أخذ عن الصحابة مباشرة بينما هم لم يأخذوا فى معظمهم إلا من التابعين، كما أن الأحاديث التى جمعها هو وغيره من علماء وفقهاء وجماع الأحاديث من الاباضية كالربيع بن حبيب وغيره، ليست إلا أحاديث وردت عند البخارى ومسلم وغيرهم من أئمة الحديث كأبى دواد والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والطبرانى والبيهقى وغيرهم من أهل السنة والجماعة (١). ٧ - اطلاق لفظ الخوارج على الاباضية من الدعايات الفاجرة التى نشأت عن التعصب السياسى أولاً ثم عن المذهبي ثانياً، لما ظهر غلاة المذاهب وقد خلطوا بين الاباضية والأزارقة والصفريه والنجديه. إن لاطلاق الخوارج على الاباضية سببين: الف - اشتراكهم مع سائر الخوارج فى انكار التحكيم، فصار ذلك سبباً للجمع بين كل منكر للتحكيم فى صعيد واحد. ب - إن تسمية الخوارج لم تكن معهوده فى أول الأمر وإنما انتشرت بعد استثناء أمر الأزارقة، ولم تعرف هذه التسمية فى أصحاب علي المنكرين للتحكيم والراضين به، ولعل أول ما ظهر هذا الأمر بعد ثبوت الأمر لمعاوية، فإن

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية فى مصر و المغرب: ٦٠ . (٢٢٩)

الأمويين أطلقوا هذه التسمية على كل من يعارض ملكهم العضوض (١) ولم يفرقوا بين الاباضية وبين سواهم من متطرفى الخوارج (٢) . ٨ - إن ابن اباض تبرأ من الأزارقة فى الرسالة التى كتبها إلى عبد الملك وجاء فيها: أنا براء إلى الله من ابن الأزرق وضيعه وأبقاعه، لأنه خرج عن مبادئ الإسلام فيما ظهر لنا و أحدث و ارتد و كفر بعد إسلامه فنبأ إلى الله منهم (٣) . نطرننا فى الموضوع: هذه كلمات القوم وهى تعبر عن كونهم مصرين على أنهم ليسوا بخوارج ومن سماهم بذلك فقد ظلمهم، وبما أن الخوارج لم يكونوا ذوى سمعه حسنه، وكان المسلمون يتبرأون من عقائدهم وأعمالهم، صار هذا هو الحافز لعلماء الاباضية على السعى البالغ من اخراج أنفسهم عن صفوفهم، وأنهم فرقة مستقلة لاصلة لهم بالخوارج إلا كونهم مشتركين فى أصل واحد وهو انكار التحكيم . ولعل القارىء، يتعجب من الاطناب والافاضة فى المقام وما هذا إلا لأجل اراءه منطلق القوم فيما يتبنونه لثلاث خس حقوقهم، فإنهم كما عرفت يتهمون المخالفين بعدم التورع فى البحث وعدم تكليف الأنفس مؤونه الفحص عن الحق، ولكنها غير لاصقة بنا، فإننا كلفنا مؤونه البحث ويشهد بذلك نقل كلماتهم، ومع هذا كل ما ذكره أشبه بالخطابه، وذلك:

١. لازم ذلك أن يسموا الشيعة أيضاً باسم الخوارج .

٢. صالح بن أحمد الصوافى، الإمام جابر بن زيد العماني: ٢١٣ - ٢١٤، والكاتب غفل عن القريض المعروف فى شأن أبى بلال المنتصر كما سيوافيك، وكانت الحادثه سنة ٦٠ قبل فتنه الأزارقة .

٣. الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٢٤، ونقله عن الجواهر المنتقاء للبرادى: ١٥٦ - ١٦٧ . (٢٣٠) أولاً: إن هذه الكلمات تحكى أن الاباضية أول من خط خط الاعتدال ومشى على ضوئه، واكتفى بالجزلة والقعود ولم يحارب الناس، ولم يعترضهم، ولكنه فى غير محله إذ لو صح كل ذلك فى عبدالله بن اباض فراسم هذا الخط هو أبو بلال مرداس بن جدير، فإنه أول من ندّد بعمل الخوارج فى اعتراضهم الناس و نهب أموالهم، وكان ينادى بأعلى صوته بأنه لا يحارب إلا من حاربه ولا يروّع أحداً ولا... ولا... فعلى ذلك يجب أن يقال: إن مبدىء هذه الكفرة هو أبو بلال المقتول عام ٦٠، وقد كان أبو بلال قد شهد صفين مع على بن أبى طالب - صلوات الله عليه - وأنكر التحكيم وشهد النهر ونجا فيمن نجا (١) . ثانياً: إن الحجر الأساس لفرقة الخوارج هو التطرف والخروج عن الاعتدال، وإن كان للتطرف مدارج ومراحل، فالقوم من بدو الخروج على على وانكار التحكيم عليه بعدما فرضوه عليه، كانوا متطرفين، لا يحترمون دماً

ولاعراضاً. إن تخصيص التطرف بالأزارقة، والنجادات، والصفريه بزعم أنهم هم الذين كانوا يستعرضون المسلمين، ويستحلون دماءهم، ويكفرون أهل القبلة، كلام فارغ عن الحجّة، بل الحجّة على خلافه، فإنّ المحكّمه الأولى وعلى رأسهم عبدالله بن وهب الراسبي أيضاً كانوا من المتطرفين، ويظهر ذلك من خطب هذا الراسبي وكلماته التي ألهاها في الحروراء، وقد نقلنا بعض كلماته في الفصل السادس، وإليك لقطات منها: قال مخاطباً إخوانه عند الشخوص من الحروراء إلى النهروان: فاخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضرة (٢). _____

١. المبرّد: الكامل ٢/١٨٣ ومرّ تفصيله.

٢. مرّ المصدر في الفصل السادس . (٢٣١) ماذا يريد من قوله: الظالم أهلها، وهل يريد بلدة الكوفة وأهلها الملتقيين حول الإمام على بن أبي طالب - عليه السلام - ؟ والحال أنّ الآية نزلت في حق المشركين قال سبحانه: (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا) (١). إنّ المحكّمه الأولى هم الذين بقروا بطن زوجة عبدالله بن خباب بن الأرت، ذلك التابعي العظيم، ولم يكتفوا بذلك، فذبخوا زوجها كما يذبح الكبش، بعدما أعطوه الأمان، وهم الذين قتلوا ثلاث نسوة من طي، وقتلوا أمّ سنان الصيداوية، كل ذلك ارتكبه بعد ما انتقلوا من الحروراء إلى النهروان، ولما بلغ علياً هذه الجنايات المرّوعة عمد إلى مقاتلتهم بعد ما أتمّ الحجّة عليهم . وأى دليل على تطرفهم أتقن من توصيف الإمام إياهم بقوله: «سيوفكم على عواتقكم، تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب» (٢). أبعده هذا يصحّ للأستاذ صالح بن أحمد الصوافي تخصيص التطرف بالخوارج الذين جاءوا بعدهم. هذا هو شبيب، مساعد ابن ملجم في قتل علي، دخل على معاوية في الكوفة بعد قتل علي، ولما وقف معاوية على أنه فيها، بعث إلى الأشجع لأن يخرج من الكوفة، وكان شبيب إذا جنّ عليه الليل خرج فلم يلق أحداً إلا قتله. (٣) _____

١. النساء ٧٥.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٣. ابن الأثير: الكامل ٣/٢٠٦ . (٢٣٢) وهذا هو قريب بن مرّة وزحاف الطائي قد خرجا في اماره زياد بن أبيه فاعترضوا الناس، فلقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعه فقتلاه، فخرج رجل من بني قطيعه من الأزدي وفي يده السيف، فناداه الناس من ظهور البيوت: «الحرورية!!!» انج بنفسك، فنادوه (قريب وزحاف ومن معهما): لسنا حرورية، نحن الشرط، فوقف فقتلوه، ثم جعلوا لا يمرّان بقبيلة إلا قتلوا من وجدا حتى مرّا على بني علي بن سود من الأزدي، وكانوا رماة فرموهم رمياً شديداً، فصاحوا: يا بني علي! البقيا! لارماء بيننا. قال رجل من بني علي: لا شيء للقوم سوى السهام * مشحودة في غلس الظلام ففرّ عنهم الخوارج إلى ان واجهوا بنو طاحية من بني سود، وقبائل من مزينة وغيرها، ووقعت الحرب فقتل الخوارج عن آخرهم، وقتل قريب وزحاف (١). ما ذكرنا نماذج من استعراضهم للناس وقتلهم الأبرياء، قبل قيام ابن الأزرق بالدعوة، فإنّ ما ذكرنا يرجع إلى عهد علي وما بعده بقليل، وأما فتنة الأزارقة والنجادات فهي راجعة إلى عصر ابنه يزيد بن معاوية فهي من حوادث بعد الستين. ثالثاً: إنّ تخصيص اسم الخوارج بالمتطرفين منهم كالأزارقة والنجادات تخصيص بلاوجه، فقد أطلق هذا اللفظ في عصر عليّ على هؤلاء أي علي عبدالله بن وهب الراسبي وذو الخويصرة ومن قتل معهما في وقعة النهروان: هذا هو الإمام علي بن أبي طالب - بعد ما خرج من قتال الخوارج في ضفة النهر مرفوع الرأس - قال: لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فأخطاه _____

١. المبرّد: الكامل ٢/١٨٠ . (٢٣٣)

كمن طلب الباطل فأدرکه (١). فلو كانت هذه الكلمة لعلي كما هو المقطوع لكان دليلاً على أنّ القوم في بدء نشوئهم كانوا مسلمين بهذا الاسم، وإن كان لغيره فالظاهر أنّ ذلك الغير هو الموالى للخوارج بقرينة مدحهم في ذيل الجملة، فكان شاهداً على أنّ القوم كانوا مسلمين بهذا الاسم منذ البداية. ويظهر ممّا نظمه نفس الخوارج من الأشعار أنّ تسميتهم بها كان رائجاً في عصر معاوية أي قبل

الستين وقبل أن يتسنم الأزارقة والنجدات منصية القيادة يقول عيسى بن فاتك من بنى تميم تأييداً لموقف أبي بلال مرداس به اديئة الذي قتل عام ٦٠ في أبيات: أألفا مؤمن فيما زعمتم * ويهزمهم بأسك أربعونا؟ كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا هم الفئة القليلة غير شك * على الفئة الكثيرة ينصروننا (٢) ويستنتج من ذلك الأمرين: أن الخوارج أطلق يوم أطلق على من خرج عن طاعة أمير المؤمنين وأنكروا التحكيم عليه من غير فرق بين أوائلهم ومن بعدهم. رابعاً: لاشك إن المحكمه الأولى كانوا يبغضون علياً ويكفرونه، وتشهد بذلك كلماتهم وأشعارهم خصوصاً في مفاوضاتهم مع علي، وقد تضافرت الروايات أن حبه آية الإيمان وبغضه آية النفاق، ولا يمكن لعالم ملّم بالأحاديث انكار ذلك. هذا هو مسلم روى في صحيحه عن زر بن حبيش قال: قال علي: والذي

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٦٠.

٢. المبرّد: الكامل ٢/١٨٦، ابن سلام (٢٧٣م) بدء الاسلام وشرائع الدين: ١١١، مرّت قصة أبي بلال. (٢٣٤)

خلق الجنّة وبرأ النسمة أنه لعهد النبي الأمي إلى لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (١). وروى الإمام أحمد في فضائل الصحابة عن زر بن حبيش، عن علي قال: عهد النبي إلى أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (٢). ورواه النسائي في خصائصه بعدة طرق (٣). ورواه الحافظ ابن عساكر في تاريخه بأسانيد تربو على ١٨ طريقاً (٤). وعلى ضوء ذلك فهؤلاء محكومون بالنفاق والخلود في النار، فيشملهم قول النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في شأن ذي الخويصرة الذي كان في الرعيل الأول من المحكمه: فإنه سيكون له شيعه يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّة (٥). روى المبرّد في الكامل أن علياً (رضي الله عنه) وجه إلى رسول الله مذهب من اليمن فقسمت أرباعاً فأعطى ربعاً للأقرع بن جالس المجاشعي، وربعاً لزيد الخيل الطائي، وربعاً لعينيه بن حصن الغزاري، وربعاً لعلقمة بن علاثة الكلابي، فقام إليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين ناتئ الجبهة فقال: لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى تورّد خداه، ثم قال: أيأمنني الله عز وجلّ على أهل الأرض ولا تأمنوني؟ فقام إليه عمر فقال: أقتله يا رسول الله؟ فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - إنه سيكون من

١. مسلم: الصحيح ١، كتاب الايمان ٦٠.

٢. أحمد بن حنبل: المسند ١/١٢٧. الحديث ٩٤٨، وفضائل الصحابة ٢/٥٦٣، ونقله في كتابه الأخير في غير واحد من المواضع، لاحظ الأحاديث ٩٧٩، ١٠٥٩، ١٠٨٦، ١١٤٦.

٣. الحافظ أبو عبدالرحمان النسائي: الخصائص ١٨٧.

٤. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ٢/١٩٠ - ١٩٩.

٥. ابن هشام: السيرة النبوية ٤/٤٩٦. ابن الأثير: الكامل ٢/١٦٤. (٢٣٥)

ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة تنظر في النصل فلا ترى شيئاً، وتنظر في الرصاص فلا ترى شيئاً، وتتمارى في الفوق (١). إن المحكمه الأولى كفّروا من طهره الله سبحانه في كتابه وقال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً) (٢) وقد اصفقت الأمة إلا الشواذ من الخوارج كعكرمة على نزول الآية في حق العترة الطاهرة، هذا هو مسلم يروى في صحيحه عن عائشة، قالت: خرج النبي غداً وعليه مرط من رجل من شعر أسود وجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين بن علي فأدخله، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً) (٣). وروى إمام الحنابلة في مسنده نزول الآية في شأن الخمسة الطاهرة، فمن أراد فليرجع إلى مظانّه (٤). إلى غير ذلك من الآيات النازلة في حق أهل البيت. أفيصح لنا الحكم باسلام من يكفر ويبغض ويقاتل من طهره الله في نص كتابه، ومحكم ذكره؟ ولأجل ذلك فالمحكمه الأولى محكومون بالكفر والنفاق وإن افترضنا أنهم اكتفوا بانكار التحكيم فقط، ولم يستعرضوا المسلمين بالسيف ولم يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا كفّروا المسلمين. وفي كلمات أئمّة أهل بيت اشارة إلى هذا النوع.

١. الميزد: الكامل ٢/١٤٢ .

٢. الأحزاب: ٣٣ .

٣. مسلم: الصحيح ٧/١٣٠ .

٤. أحمد بن حنبل: المسند: ٤/١٠٧ و ٦/٢٩٢ و ٢٩٦ و ٣٢٣ . (٢٣٦) كان عبدالله بن نافع بن الأزرق يقول: لو عرفت أن بين قطريها أحداً تبلغني إليه الإبل يخصمني بأن علياً - عليه السلام - قتل أهل النهروان وهو غير ظالم، لرحلتها إليه، فقيل له: إئت ولده محمد الباقر - عليه السلام - فأتاه فسأله، فقال بعد كلام: الحمد لله الذي أكرمنا بنوبته، واختصنا بولايته، يامعشر أولاد المهاجرين والأنصار من كان عنده منقبة في أمير المؤمنين، فليقم وليحدث، فقاموا ونشروا من مناقبه فلما انتهوا إلى قوله: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله، سأله أبو جعفر عن صحته فقال: هو حق لاشك فيه، ولكن علياً أحدث الكفر بعد. فقال أبو جعفر - عليه السلام - : أخبرني عن الله أحب علي بن أبي طالب يوم أحبه وهو يعلم أنه يقتل أهل النهروان، أم لم يعلم، إن قلت: لا، كفرت، فقال: قد علم، فقال: فأحبه علي أن يعمل بطاعته أم علي أن يعمل بمعصيته؟ قال: علي أن يعمل بطاعته، فقال أبو جعفر: قم مخصوماً، فقام عبدالله بن نافع ابن الأزرق وهو يقول: حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، الله يعلم حيث يجعل رسالته (١) . روى الشريف المرتضى عن الشيخ المفيد: أحب الرشيد أن يسمع كلام هشام بن الحكم مع الخوارج، فأمر بإحضار هشام بن الحكم وإحضار عبدالله بن يزيد الاباضي (٢) وجلس بحيث يسمع كلامهما ولا يرى القوم شخصه، وكان بالحضرة يحيى بن خالد، فقال يحيى لعبدالله بن يزيد: سل أبا محمد - يعني هشاماً - عن شيء، فقال هشام: لا مسألة للخوارج علينا، فقال

١. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب: ٢/٢٨٩ كما في البحار ١٠/١٥٨ .

٢. ترجمه ابن حجر في لسان الميزان ٣ / ٣٨٧ بقوله: عبدالله بن يزيد الفزاري الكوفي المتكلم، ذكره ابن حزم في النحل: ان الاباضية من الخوارج أخذوا مذهبهم عنه . (٢٣٧)

عبدالله بن يزيد، وكيف ذلك؟ فقال هشام: لأنكم قوم قد اجتمعتم معنا على ولاية رجل وتعديله والإقرار بإمامته وفضله، ثم فارقتمونا في عداوته والبراءة منه، فنحن على إجماعنا وشهادتكم لنا، وخلافكم علينا غير قادح في مذهبنا، ودعواكم غير مقبولة علينا، إذ الاختلاف لا يقابل الاتفاق، وشهادة الخصم لخصمه، مقبولة، وشهادته عليه مردودة. قال يحيى بن خالد: لقد قربت قطعه يا أبا محمد، ولكن جاره شيئاً، فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يحب ذلك، قال: فقال هشام: أنا أفعل ذلك، غير أن الكلام ربما انتهى إلى حد يغمض ويدق على الأفهام، فيعاند أحد الخصمين أو يشتهبه عليه، فإن أحب الإنصاف فليجعل بيني وبينه واسطة عدلاً، إن خرجت عن الطريق ردني إليه، وإن جار في حكمه شهد عليه، فقال عبدالله بن يزيد: لقد دعا أبو محمد إلى الإنصاف، فقال هشام: فمن يكون هذه الواسطة؟ وما يكون مذهبه؟ أيكون من أصحابي، أو من أصحابك، أو مخالفاً للملة أو لنا جمعياً؟ قال عبدالله بن يزيد: اختر من شئت فقد رضيت به، قال هشام: أما أنا فأرى أنه إن كان من أصحابي لم يؤمن عليه العصية لي، وإن كان من أصحابك لم آمنه في الحكم علي، وإن كان مخالفاً لنا جمعياً لم يكن مأموناً علي ولا عليك، ولكن يكون رجلاً من أصحابي، ورجلاً من أصحابك، فينظران فيما بيننا ويحكمان علينا بموجب الحق ومحض الحكم بالعدل، فقال عبدالله بن يزيد: فقد أنصفت يا أبا محمد، وكنت أنتظر هذا منك. فأقبل هشام على يحيى بن خالد فقال له: قد قطعت أيتها الوزير، ودمرت (١) على مذهبها كلها بأهون سعي، ولم يبق معه شيء، واستغيت عن مناظرته، قال: فحرك الرشيد الستر، فأصغى يحيى بن خالد فقال له: هذا متكلم الشيعة وافق

١. دمر عليه: هجم عليه هجوم الشر. دمر عليه: أهلكه . (٢٣٨)

الرجل موافقة لم تتضمن مناظرة، ثم ادعى عليه أنه قد قطعه وأفسد عليه مذهبه، فمره أن يبين عن صحته ما ادعاه على الرجل، فقال يحيى بن خالد لهشام: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تكشف عن صحته ما ادعيت على هذا الرجل، قال: فقال هشام رحمه الله: إن هؤلاء القوم لم يزالوا معنا على ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - حتى كان من أمر الحكمين ما كان، فأكفروه بالتحكيم

وضلّوه بذلك، وهم الذين اضطّروه إليه، والآن فقد حَكَمَ هذا الشيخ وهو عماد أصحابه مختاراً غير مضطّرّ رجلين مختلفين في مذهبهما: أحدهما يكفّره، والآخر يعدّله، فإن كان مصيباً في ذلك فأمر المؤمنين أولى بالصواب، وإن كان مخطئاً كافراً فقد أراحنا من نفسه بشهادته بالكفر عليها، والنظر في كفره وإيمانه أولى من النظر في إكفاره عليّاً - عليه السّلام - قال: فاستحسن ذلك الرشيد و أمر بصلته وجائزته (١). إنّ عداء القوم بالنسبة إلى الإمام أمير المؤمنين كانت ظاهرة في كتب أوائلهم، هذا هو محمّد بن سعيد الكدّمي أحد علماء المذهب الاباضي بعمان، حتى لُقّب بإمام المذهب في القرن الرابع الهجري يذكر عليّاً في كتابه ويقول: «إنّ علي بن أبي طالب استخلف على الناس، ونقض عهد الله وحكم في الدار غير حكم كتاب الله، وقتل المسلمين وسار بالجور في أهل رعيته، فعلى الذي قد صحت منه سعادة عليّ بن أبي طالب أن يتولّى الله على بن أبي طالب على سفكه لدماء المسلمين وعلى تحكيمه في الدماء غير حكم كتاب الله، وسيرته القبيحة، لا- يحلّ له الشك في ولايته، وعليه أن يبرأ الله من باطله ومن سفك دمه إن قدر على ذلك، وليس له أن ينكر على المسلمين

١. الشريف المرتضى: الفصول المختارة ١/٢٦ . (٢٣٩)

البراءة منه» (١). وهذا هو ابن سلام الاباضي المتوفى بعد عام ٢٧٣ يقول: «وحكّموا الحكمين خلافاً لكتاب الله، وحكّموا الحكمين في أمر قضاة الله، واختلفت الأئمة وتفرقت الكلمة، وصار الناس شيعتين مفترقتين، وظهر أهل الباطل من أصحاب معاوية على أهل الحق، فاختلف المسلمون بالحق الذي تمسكوا به فاختلفت عليهم كلمة المختلفين، يقتلونهم على دين الله الحنيف والملة الصادقة (ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) (٢). يبصرون الناس دينهم في السرّ ويصبرون في الله على الأذى والقتل، واحتقروا ذلك في ذات الله» (٣). ياليت ابن سلام يشير إلى الذين حكّموا الحكمين خلافاً لكتاب الله، إلى الذين فرضوا التحكيم على الإمام المفترض طاعته في أمر قضاة الله. أو ليس هؤلاء أشياخه وأولياؤه الذين كانوا مقنعين في الحديد يدعون إمامهم باسم عليّ لا بإمرة المؤمنين، ويقولون: «أجب القوم إلى كتاب الله وإلا- قتلناك كما قتلنا ابن عفان». إنّ الكاتب نسي أو تناسى الجرائم المريعة التي ارتكبتها المحكّمه الأولى حين تنقلهم من حروراء إلى النهروان. فكان الأولى له التنويه بذلك، لكنّه شطب على هذه الحقائق التاريخية بقلم عريض، وإلى الله المشتكى. يقول بعض فقهاءهم في مسألة «الولاية والبراءة». فإن قالوا: فما تقولون في علي بن أبي طالب؟ قلنا له: إنّ علي بن أبي طالب مع المسلمين في منزلة البراءة.

١. الكدّمي - محمّد بن سعيد: المعتمد ٢/٤١ .

٢. البقرة: ١٣٥ .

٣. ابن سلام الاباضي: بدء الاسلام وشرائع الدين ١٠٦ . (٢٤٠) فإن قال: من أين وجبت عليه البراءة وقد كان إماماً للمسلمين وهو ابن عم رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - وختنه (١)، مع فضائله المشهورة وقاتله بين يدي النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - المشركين؟ قلنا له: أوجبت عليه البراءة من وجوه شتى، أحدها أنّه ترك الحرب التي أمر الله بها للفئة الباغية قبل أن تفي إلى الله، و أحدها تحكيم الحكمين في دماء المسلمين وفيما لم يأذن الله به المضلّين الذين كان النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - يحذّرهما ويخوّفهما أصحابه. وأحدهما بقتله أهل النهروان وهم الأفضلون من أصحاب النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - وهم الأربعة آلاف رجل من خيار الصحابة رحمهم الله. والأخبار بذلك تطول ويضيق بها الكتاب ويتسع بها الجواب ولم نعد كتابنا هذا لشرح جميع أخبارهم، وإنّما أردنا أن نلّوَح لكم ونذكر بعض الذي كان من أحداثهم، لتكونوا من ذلك على علم ومعرفة لتعلموا ضلال من ضلّ وخالف وشغب عليكم وبالله التوفيق. فإن قالوا: فما تقولون في طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام؟ قلنا له: إنّهما عند المسلمين بمنزلة البراءة. فإن قال: من أين وجبت عليهما البراءة؟ قلنا له: بخروجهما على علي بن أبي طالب والمسلمين وطلبهما بدم عثمان بن عفان بإرادتهما إزالة علي بن أبي طالب عن إمامته، وقالوا: حتى يكون الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم إماماً غيره، بعد رضائهما به وبيعتهما له وأعطيا صفقة أيديهما (٢) على طاعة الله وطاعة رسوله وعلى قتال من خرج يطلب بدم

١. الختن: الصهر، زوج الابنة، والجمع: أختان .

٢. صفقة الأيدي تعنى تأكيد البيعة . (٢٤١)

عثمان بن عفان . فإن قال: فما تقولون في الحسن والحسين ابني علي؟ قلنا له: هما في منزلة البراءة، فإن قال: من أين أوجبتم عليهما البراءة وهما ابنا فاطمة ابنة رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم -؟! قلنا له: أوجبنا عليهما البراءة بتسليمهما الإمامة لمعاوية بن أبي سفيان وليس قرابتهما من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تغنى عنهما من الله، لأن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال في بعض ما أوصى به قرابته: يا فاطمة بنت رسول الله، ويا بنى هاشم، اعملوا لما بعد الموت، فإنني ليس أغنى عنكم شيئاً، أو نحو ذلك من الخطاب. فلو كانت القرابة من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - تغنى عن العمل لم يقل ذلك لهم النبي. فهذا نقض لقول من يقول: إن القرابة من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مغفور لها. وقد وجدنا الله يهدد نبيه بقوله: (وَإِذْ تَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)(١). فقد بطل ما خاصمت به أيها الخصم واحتججت به من قبل القرابة للنبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (٢) . إن الخوارج في مصطلح القوم مفهوم سياسى وفي الوقت نفسه مفهوم دينى، فيراد من الأول خروجهم عن طاعة الإمام المفترض طاعته، ويحكم عليهم بما يحكم على البغاة، ويراد من الثانى خروجهم من الدين والملء، وصيرورتهم كفّاراً. وعلى كلا-المفهومين، فالمحكّمه الأولى خوارج، حيث خرجوا عن

١. الحاقه: ٤٤ - ٤٧ .

٢. السير والجوابات لبعض فقهاء الاباضية: تحقيق الاستاذة الدكتورة «سيدة إسماعيل كاشف، استاذة التاريخ الاسلامى فى كلية البنات جامعه عين شمس القاهرة ط ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م، ص ٣٧٥ - ٣٧٧ . (٢٤٢)

طاعة الإمام وبقوا عليه فى أثناء المعركة، وخارجون عن الدين حيث أبغضوا من بغضه نفاق وكفر وحب دين وإيمان. وقال عمر أبوالنظر: وتعاليم الخوارج منذ ظهورهم مزيج من السياسة والدين، ف شعارهم «الحكم لله» شى يمتزج بالدين والسياسة معاً، فلا يصح والحالة هذه أن يقال: إن دعوتهم هذه كانت ديتية محضة أو سياسية محضة، وظلت دعوتهم بسيطة حتى خلافة عبدالملك بن مروان حيث خرجوا فيها كثيراً عن التعاليم الجديدة، وذهبوا يتأولون الأحكام الدينية تأويلاً فيه كثير من الاغراق والتعقيد، فقالوا: إن العمل بأوامر الدين من الايمان، فمن اعتقد التوحيد والرسالة وارتكب الكبائر فهو كافر(١) . هذا ما يرجع إلى المحكّمه الأولى ومن جاء بعدهم من الأوائل المنتمين إلى الاباضية . وأما اباضية اليوم المنتشرة فى عمان والمغرب العربى أعنى ليبيا والجزائر وتونس وكذلك مصر، فلم يظهر لنا من كتبهم المنتشرة اليوم إلا تخطئة التحكيم وتصويب المحكّمه الأولى من دون نصب عداء للوصى أو بذاءة فى اللسان بالنسبة إليه - إلا ما نقلناه أخيراً - فلا يمكن الحكم فى حقهم إلا بالمقدار الذى ظهر لنا ولكن لا يمكن الوثوق به لأن للقوم فى الدين مسالك أربعة، منها مسلك الكتمان كما سيوافيك توضيحه عند البحث عن التقيّة، فإن القوم من أصحابها ومجوزيها والعاملين بها طيلة قرون، وفى ظلها عاشوا ومهدت لهم الطريق، وقامت لهم دول فى عمان، وفى أقصى المغرب العربى .

١. عمر أبو النضر: الخوارج فى الإسلام ١٠٢ . (٢٤٣) نظرية أخرى فى مفهوم الخوارج : المتبادر من الخوارج لدى المسلمين هو المحكّمه الأولى الذين ثاروا على على فى ثنايا حرب صفين وخرجوا عن الطاعة بوجه وعن الدين بوجه آخر، غير أن بعض الاباضيين فى العصر الحاضر يفسّره بالخروج عن الدين ويصر على أن المراد منه هو أصحاب الردة بعد وفاة رسول الله أو الثورات الأخرى التى وقعت إلى انتهاء خلافة الإمام على - عليه السلام - (١) . قال على يحيى معمر: «كان الأمويون والشيعة يحاولون بكل ما استطاعوا أن يلصقوا هذا اللقب لقب الخوارج - بعد أن فسّر بالخروج من الدين - بهؤلاء الثائرين الذين ينادون فى اصرار وشدة بالمبادئ العادلة فى الخلافة، وكان الشيعة يحاولون بما أوتوا من براعة أن يحصروها فى بيت على، كما كان غير هم من الطامعين فيها، يشترط لها الهاشمية أو القرشية أو العروبة، حسب المصلحة السياسية لأصحاب الآراء فى ذلك الحين، وكلّ هذه الأنجاهات تجتمع على محاربة

الاتجاه الذي اتجه إليه أتباع عبدالله بن وهب الراسبي. ذلك الاتجاه العادل الذي يرى أن المسلمين متساوون في الحقوق والواجبات. (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ). «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى». يلاحظ عليه: أن النبي الأكرم لم يتكلم عن الخوارج بوصف كلي وإنما عين إمامهم وأشار إلى قائدهم، وقد رواه المحدثون في صحاحهم ومسانيدهم وأطبق على نقله الفريقان، فلا يمكن لمحدث واع انكاره، ولا التشكيك في صحته أسانيد، فما ظنك بحديث رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد بن حنبل وغيرهم،

١. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٢٧. (٢٤٤)

ولأجل إيقاف القارىء على نص الرواية نذكرها عن تلك المصادر ونشير إلى محلها: ١ - روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: بينا النبي يقسم ذات يوم قسماً، فقال ذو الخويصرة - رجل من بني تميم - يا رسول الله أعدل. قال: ويلك! من يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: إئذن لي فلاضرب عنقه؟ قال: لا إن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم. يمرقون من الدين كمروق السهم من الرمية ينظر إلى نصله (١) فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصيه (٢) فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه (٣) فلا يوجد فيه شيء سبق الفرث والدم، يخرجون على حين فرقة من الناس آيتهم رجل إحدى يديه مثل ثدى المرأة، أو مثل البضعة تدردر (٤). قال أبو سعيد: أشهد لسمعتة عن النبي وأشهد أنني كنت مع علي حين قاتلهم فالتمس في القتلى فأتى به على النعت الذي نعت النبي (٥). ورواه بنصه بلا تفاوت مسلم في صحيحه (٦). ٢ - روى ابن ماجه عن جابر بن عبدالله، قال: كان رسول الله بالجعرانة، وهو يقسم التبر والغنائم، وهو في حجر بلال، فقال رجل: أعدل يا محمّد، فإنك لم تعدل، فقال: ويلك ومن يعدل بعدى إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعني يا رسول الله حتى أضرب عنق هذا المنافق؟ فقال رسول الله: إن هذا في

١. هي عصية تلوى فوق مدخل النصل .

٢. هو القدح في عود السهم .

٣. جمع القذة وهي ريش السهم .

٤. تضطرب وتتحرك .

٥. البخاري: الصحيح ٨/٧٠ رقم الحديث ١٨٦ من باب ما جاء في قول الرجل ويلك.

٦. مسلم: الصحيح ٣/١١٢ طبعه محمّد على صبيح . (٢٤٥)

أصحاب أو اصحاب له يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (١). والرسول وإن لم يسم الرجل أو لم يجيء اسمه في الرواية، ولكن علم المقصود منه بفضل الروايتين السابقتين. ٣ - روى أحمد بن حنبل في مسنده بالنص الذي رواه البخاري ومسلم بتفاوت طفيف في آخره، حيث جاء فيه: رجل أسود في إحدى يديه أو قال إحدى يديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس فنزلت فيهم: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...) ثم نقل ما ذكره أبو سعيد من سماعه عن رسول الله و مشاهدته في عصر علي (٢). كيف يفسر حديث ذي الخويصرة بأصحاب الردة، فقد أشار النبي الأكرم إليه، وقال: «سيخرج من ضئىء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين...» ولم يكن هو من أصحاب الردة، بل كان من المحكمّة الأولى. كيف يفسر هذا المفهوم بالثورات التي وقعت إلى انتهاء خلافة الإمام علي - عليه السلام - مع أن النبي الأكرم قال: أنت يا علي قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، ولم يقاتل الإمام بعد أصحاب الجمل (الناكثين) وأصحاب معاوية (القاسطين) إلا المحكمّة الأولى. أظن أن هذه الاستدلالات الواهية أشبه بتمسيك الغريق بالطحلب، فالأولى على علماء الاباضية المفكرين، والعائشين في عصر ظهرت البواطن، وطلعت الحقائق، وانقشع غمام الجهل عن سماء المعرفة، أن يعرضوا عقائدهم على الكتاب والسنة، وعلى المقاييس الصحيحة من

الاجماع و

١. أبو عبدالله بن ماجه (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ): السنن ١/١٧١ الباب ١٢، باب في ذكر الخوارج .
٢. أحمد بن حنبل: المسند ٣/٥٦. وسيوافيكك مجموع ما رواه اهل السنه عن النبي والصحابة والتابعين في آخر الكتاب فانتظر . (٢٤٦) العقل، فلربما عادوا إلى الطريق المهيع، وتنكبوا عن سبيل الغواية، فلهم أن يعملوا بما وصل إليهم من الكتاب والسنه في ضوء الاجتهاد الصحيح، ويجددوا النظر في مسأله التحكيم كما لهم أن يجددوا النظر في حق المحكمه، وربما اختاروا طريقاً واضحاً لاتعصب فيه ولا تساهل . (وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدُّ تَنبِيئًا) ***

الفصل العاشر عقائد الاباضيه وأصولهم الثمانية

الفصل العاشر عقائد الاباضيه وأصولهم الثمانية (٢٤٨) (٢٤٩) إن الاباضيه تشترك مع سائر فرق الخوارج في أمرين بلاشك ولاشبهه، ولا- يمكن لأحد منهم انكاره . ١ - تخبطه التحكيم . ٢ - عدم اشتراط القرشيه في الإمام . وفي ظل الأصل الأول يوالون المحكمه الأولى كعبدالله بن وهب الراسبي وحر قوص بن زهير السعدى وغيرهما، ولأجل الأصل الثانى، اعترفوا بإمامه عبدالله بن وهب الراسبي ومن جاء بعده من المحكمه . ثم إن لهم أصولاً خاصه يميزون بها عن أهل السنه (الأشاعره) وإن كانوا يلتقون فيها مع غيرهم، فتجب علينا دراسه تلك الأصول التى يعتقدون بها، وربما يكون بعضها أصلاً لامعاً ورسيناً يدعمه الكتاب والعقل . ١ - صفات الله ليست زائده على ذاته: إذا كانت الأشاعره قائلة بأن صفات الله تعالى غير ذاته، وكان المنسوب إلى الماتريديه من أهل السنه ان الصفات ليست شيئاً غير الذات، فهى ليست (٢٥٠)

صفات قائمه بذاتها ولا منفكه عن الذات فليس لها كينونه مستقله عن الذات، فهذا هو ما يقوله الاباضيه فى الصفات أيضاً، وربما يلتقى الاباضيه والماتريديه فى هذه المسأله حتى فى التعبير واختيار الكلمات (١) . إن البحث عن الصفات من أهم المسائل الكلاميه، فقد طال النقاش فيها قروناً، وأول من أصرح بالحقيقه، وصور التوحيد بأعلى مظهره هو الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - فنفى زياده صفاته على ذاته، وإنه عين ذاته، لا بمعنى نفى صفاته، تعالى عنه علواً كبيراً، بل بمعنى أن الذات بلغت من الكمال والعلو مرتبه صارت نفس العلم، والقدرة، والحياه، وليس هناك صفات قديمه وراء الذات حتى يناقض التوحيد ويكون هناك قدماء كثيره وراء الذات، وكون العلم والقدرة والحياه فينا أموراً قائمه بالماده أو بالموضوع، لا يكون دليلاً على كونها كذلك فى جميع المراتب، إذ كما أن من العلم ممكناً، فكذا منه واجباً، فلولم يكن الممكن قائماً بالذات، فلا يكون دليلاً على كونه كذلك عند ما كان واجباً، والحكم بالتوحيد وإنه لا واجب سواه، يجزنا إلى القول بعينيه صفاته مع ذاته، وقد أوضحنا الحال فيها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعه عند البحث عن عقائد المعتزله، ولا يبعد أن يتأثر الخوارج فى هذه المسأله بالمعتزله كما أن المعتزله اخذت هذا الأصل من خطب الإمام أمير المؤمنين وكلماته، بل لا يبعد أن يكون الجميع قد أخذوا من الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - . والعجب أن هذه النقطه من النقاط الوضاه فى عقائد الاباضيه، مع أنهم لا يركزون على ذلك الأصل خوفاً من مخالفه الأشاعره، وطفقوا يبحثون بين الكتب الإسلاميه حتى يجدوا موافقاً لهم من أهل السنه حتى استبان لهم أن الماتريديه من أهل السنه يوافقونهم .

١. على يحيى معمر: الاباضيه بين الفرق الإسلاميه ١/٢٩٥ . (٢٥١) إن الرجل الواعى الطالب للحقيقه لا يخاف من لومه لائم، ولا من مخالفه فئه، فكان على الاباضيه أن يرفعوا علم المخالفه فى هذه المسأله، وفى مسأله الرؤيه، وخلق القرآن، وينددوا بالمخالفين سواء أكانوا من السنه أو غيرهم، فالحق أحق أن يتبع، كيف يصح لموحد أن يقيس الواجب بالممكن فيصور له ذاتاً وصفه قائمه بها، ويحكم بالتعدد ويخرج فى النتيجة بالقدماء الثمانية ثم يدعى التوحيد ويخطىء النصارى القائلين بالتثليث. ثم إن من يرى أن مرجع عينيه الصفات إلى نفى حقائقها عن ذاته، (كما عليه الزنادقه) رأى باطل صدر ممن لا قدم له فى المباحث العقليه، وليس له مصدر إلا قياس الممكن بالواجب، فإذا رأى أن القول بالعيثيه ينتج نفيها فى الممكنات، عاد يخطىء القائل بالعيثيه فى الواجب بأن معناها نفى حقائقها عن ذاته سبحانه . ٢ - امتناع رؤيه الله سبحانه فى الآخرة: إن امتناع رؤيه الله سبحانه من الأصول التى استقاها الوعاة من

المسلمين من القرآن الكريم وخطب سيد الموحدين أمير المؤمنين - عليه السلام - إذ قال عز من قائل: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (١). وهذا الأصل أيضاً من الأصول اللامعة في عقائد الاباضية، والأسف أن الكتاب المتأخرين منهم يُقلِّلون من أهمية هذا الأصل، توخياً لتقريب عقائدهم من أهل السنة. حتى أن علي يحيى معمر يُعنون المسألة بقوله: هل رؤية الباري جلّ وعلا في الآخرة ممكنة؟ والعنوان يحكى عن وجود تردد وشك في نفس الكاتب، ولا أقل يطرح المسألة على شكل غير قطعي وعلى خوف ووجل،

١. الأنعام: ١٠٣. (٢٥٢)

وليس كتابه كتاباً دراسياً يطلب فيه طرح المسائل على وجه السؤال والاستفهام. ثم إنه يكتب: قد كان في الرؤية طرفان متطرفان ووسط معتدل هو كان اللقاء بين المذهبين، وذلك إن طرف الاثبات يبالغ حتى يصل به التطرف إلى حد التشبيه والتمثيل والتحديد، وطرف النفي يبالغ حتى يصل به التطرف إلى حد نفي حصول كمال العلم، وبينهما يقف أصحاب التحقيق في الجوانب المتقاربة التي تلتقي في المعنى الواحد لقاءً كاملاً أو لقاءً متقارباً، وهذه الصورة تتمثل فيما ذهب إليه بعض علماء أهل السنة من أن الرؤية معناها حصول كمال العلم بالله تبارك وتعالى، وعبر عنها آخرون منهم بأن الرؤية تقع بحاسية سادسة هي كمال العلم، واختلفت تعابير الكثير منهم ولكنها تتلاقى في النهاية على نفي كامل الصورة التي يتخيلها الإنسان لصورة راء ومرئى وما تستلزمه من حدود وتشبيه، وتتفق في النهاية على الابتعاد عما يشعر بأى تشبيه في أى مراتبه، وبالمحدودية في أى أشكالها، وليس لنا أن نخوض فيه بغير القدر التي جاءت به النصوص. والمعتدلون من الاباضية لا يمتنعون أن يكون معنى الرؤية هو كمال العلم به تعالى ويمنعون الرؤية بالصورة المتخيلة عند الناس (١). عزب عن الكاتب أن محل النزاع من القرن الأول إلى القرون المتأخرة ليس إلا الرؤية بالأبصار لابحاسية سادسة سماها كمال العلم، فإن القائلين بالرؤية يستندون إلى ما رواه البخارى وأمثاله من أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر غير متضامين»، فليس للمحقق الكلامي إلا موافقة هذا الأصل أو طرده من الرأس، فاللجوء إلى الرؤية بحاسية سادسة بمعنى كمال العلم تفسير بأمر بائن وخروج عن محط البحث.

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/٢٩١ - ٢٩٢. (٢٥٣) وأظن وظن الألمي يقين أن الكاتب توخياً لإيجاد القرب بين الاباضية وأهل السنة تنازل إلى حد غير مطلوب، ولم يقيم بالدفاع عن مذهبه بحماس. نعم قد أحسن في المقام صالح بن أحمد الصوافي، فقد طرح المسألة بشكل رصين، ودفع شبهة القائلين في المقام، ترى أنه قام بتفسير قوله سبحانه: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (١)، الذى هو من أهم أدلة القائلين بالرؤية، فقال: «أولاً: النظر في اللغة غير الرؤية، ولذا يقال: نظرت إلى الهلال فلم أراه، ولا يصح أن يقال رأيت فلم أراه، وإطلاقه على الرؤية مجاز، لا يصح إلا لقرينه، والعدول عن الحقيقة إلى المجاز خلاف الظاهر. ثانياً: إن سياق الآية دال على انتظار رحمة الله تعالى بدليل أنه عطف عليها قوله: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) (٢) فلو فسّر النظر في الآية بالرؤية لارتفعت المناسبة بين الجملتين ولتداعى بناؤها واختل نظمها، إذ لا مناسبة بين عيون رائية ربها ووجوه باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة (٣). ثالثاً: إن النظر في الآية انتظار ما لهم عند الله من الثواب، ومنه قول الشاعر: فإن يك صدر هذا اليوم ولى * فإن غداً لناظره قريب وقول الآخر: كلّ الخلائق ينظرون سجالة * نظر الحجيج إلى طلوع هلال

١. القيامة: ٢٢ - ٢٣.

٢. القيامة: ٢٤ - ٢٥.

٣. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٣٨ وقد أوضحنا هذا الوجه في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (لاحظ ص ٢٠٢ - ٢٠٨). (٢٥٤) وقول الآخر: وكنا ناظريك بكل فحج * كما للغيث ينتظر الغماما وقال امرؤ القيس: وقد نظرتكم أعشى بخامسة * للورد طال بها حبي وتبساسي (١) *** ٣ - القرآن حادث غير قديم: إن المترقب من الأباضية الذين رفضوا القشريه، وخضعوا للعقل، أن يكون موقفهم في خلق القرآن موقف العدلية ويصرّحوا بأن القرآن مخلوق لله سبحانه وحادث بعد أن لم يكن، لكونه حادثاً

ومخلوقاً لله سبحانه غير أن الظاهر من بعض كتابهم أنهم يتحرجون من التصريح بخلق القرآن وإن كانوا بعداء عن القول بكونه قديماً غير مخلوق. وننقل في المقام نصين من كتابهم، حتى تلمس الحقيقة. ١ - يقول الدكتور رجب: وبالنسبة لمشكلة خلق القرآن نراهم يقفون أمام هذا القول الذي فرضه المأمون على العالم الإسلامي فرضاً بتأثير من المعتزلة، مما أدى إلى تمزيق وحدة الأمة الفكرية، وإلى اضطهاد كثير من العلماء والفقهاء، ولذلك توقف العمانيون عن القول بخلق القرآن، وقالوا في صراحة واضحة في واحد من أهم كتبهم الفقهية: «لا يلزم الناس معرفة هذه المسألة» وكتب أبو عبدالله القلهاشي الذي عاش في القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد - أكثر من عشرين صفحة في مناقشة القول بخلق القرآن والرد على من قال بذلك، كما كتب أحمد بن نظر العماني الذي عاش في القرن الخامس للهجرة _____

١. المصدر نفسه، وقد اغرق نزاعاً في التحقيق في اثبات القول بالحق وتنزيهه، والتبساس: هو الشوق الشديد. (٢٥٥)

- الحادي عشر للميلاد- في كتابه دعائم الإسلام خمسة وسبعين بيتاً من الشعر، فندد القول بهذه المسألة واستنكرها كل الاستنكار. وفي العصر الحديث نجد الشيخ نورالدين السالمي يعبر عن هذا الموقف قائلاً: «إنّ الأشياخ توقّفوا عن اطلاق القول بخلق القرآن وأمروا بالشدة على من أطلق القول في هذه المسألة، حتى لايفتن الناس في دينهم» (١). ترى في هذا الكلام التناقض، فبينما ينقل عن بعضهم الرد على من قال بخلق القرآن ينقل عن الأشياخ أنهم توقّفوا عن اطلاق القول بخلق القرآن، وأمروا بالشدة على من أطلق القول في هذه المسألة. لاشك إن القرآن ليس بمخلوق أى ليس بمخلوق للبشر كما قال سبحانه حاكياً عن بعض المشركين: (إن هذا إلا قولُ البَشْرِ) (٢) ولكنه مخلوق لله سبحانه، إذ لايتجاوز كون القرآن فعله، وفعله كله حادث غير قديم، وإلا- يلزم تعدّد القدماء وأما علمه سبحانه بما في القرآن من المضامين والمعارف والحوادث فلاشك إنّه قديم، وهو غير كلامه. فاللائق بمن يصف نفسه بأنه أهل تقييد لا تقليد أن يصرّح بموقفه في مسألة خلق القرآن، اللهم إلا إذا كان موجباً للفتنة أو كانت عقول الناس بعيدة عن درك الحقيقة، فحينئذ الأولى عدم البحث والطرح. وثوكد من جديد أن القول بعدم قدم القرآن هو من الأصول الوضّاءة في عقائد الاباضية، وهم في الاعتقاد بها عيال على المعتزلة، فاللائق بالكاتب الواعي أن يجهر بالحق ويحدّد محل النزاع، ويالأسف انّ بعضهم - مثل الكاتب السابق - بدل أن يخرج من المسألة مرفوع الرأس، ويحقّقها على ضوء _____

١. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: الأباضية في مصر والمغرب: ٧٠ - ٧١.

٢. المدثر: ٢٥. (٢٥٦)

القرآن والعقل، طفق يطلب من يقول بكون القرآن مخلوقاً من بين أهل السنّة. ٢ - يقول على يحيى معمر: إن من علماء أهل السنّة من يقول دون تحرج أو احتراز: «القرآن مخلوق» فقد ذكر الخطيب البغدادي من طرق متعدّدة عن أبي يوسف انّ أبا حنيفة كان يقول: القرآن مخلوق، أمّا أبو منصور الماتريدي، فقد كان يقول: إنّه محدث، ولم يحفظ عنه أن قال: مخلوق، وقد كان أبو النصر العماني من أئمة الاباضية يقول: إن القرآن غير مخلوق، وأنكر انكاراً شديداً على من يقول بخلق القرآن، وذهب القطب من أئمة الاباضية انّ هذه المسألة ليست من الأصول، وقال أبو إسحاق طفيش: إنّ الخلاف فيها لفظي، وهذا القدر كاف للدلالة على اللقاء بين المذهبين، ويكفي أن يلتقى المسلمون على حقيقتين في هذا الموضوع: هي أن الله تبارك و تعالي سميع بصير متكلم وانّ القرآن الكريم كلام الله عزّوجلّ أنزله على رسوله (١). يلاحظ عليه: أن ما ذكره ناش من توخّي ايجاد اللقاء بين المذهبين: الأشاعرة والاباضية، فلأجل ذلك ذهب ليجد من أهل السنّة من يقول بأنّ القرآن مخلوق، ومن أئمة الاباضية من يقول: بأنّ القرآن غير مخلوق، وهذا يعرب عن أنّه لم يتخذ الكاتب في هذا الموقف رأياً حاسماً وليس للأباضية فيه رأى جازم، مع أنّ المنقول منهم كونه حادثاً أو غير قديم أو مخلوقاً بمعنى أنّه أنزله الله سبحانه وأوجده من العدم. فكان من الواجب على الكاتب أن يدافع عقيدته وعقيدة طائفته وي طرحها بوضوح ويذبّ عنها ذباً علمياً تحقّقياً متحرّياً للواقع. ثمّ إنّ ما ذكره في ذيل كلامه من أنّه «يكفي أن يلتقى المسلمون على أنّ القرآن الكريم كلام الله عزّوجلّ أنزله على رسوله». وإن كان كلاماً صحيحاً، _____

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/٢٩١ . (٢٥٧)

إذ ليس الاعتقاد بالحدوث والقدم في القرآن من الأصول العقائدية التي يناط بها الإسلام والكفر، غير أنه لو كان هذا هو الأصل الثابت في جميع المواقف فليضرب هذا الكاتب الاباضي صفحاً على الأصول التي اتخذها أصولاً لمذهبه كمسألة التحكيم وولاء المحكّمه الأولى، أو ليس ذلك أوفق بالتقريب و توحيد الأمية وجعلهم صفاً واحداً في مقابل الأعداء؟ إن البحث عن التحكيم و المحكّمه وخلق القرآن وعدمه ومايأتي من الأصول الأخرى للاباضية من خلود الفاسق في النار وعدمه، وكونه كافراً كفر النعمة، بحوث علمية يختص فهمها بالتحققين والوعاء من علماء الإسلام، فالتحيز إلى هذه الأصول وجعلها محاور للحق والباطل والإسلام والكفر، لايدعمه الكتاب ولا يوافق العقل، فليكن شعار الجميع ما سمحت به قريحة شاعر الأهرام: إنا لتجمعنا العقيدة أمة * ويضمنا دين الهدى أتباعا ويؤلف الإسلام بين قلوبنا * مهما ذهبنا في الهوى أشياعا والحق إن الخوارج بالمعنى العام الذي يعم الاباضية لم يكن يوم ظهورها إلا حزباً سياسياً يهدف إلى تخطئه مسألة التحكيم مع عزل على عن الحكومة والدعوة إلى بيعه رئيس المحكّمه الأولى عبدالله بن وهب، ولم يكن لهم يومذاك أي شأن في المسائل العقائدية الماضية، ولمّا قضى على نجه واستولت الطغمة الغاشمة من الأمويين والمروانيين على منصّة الحكم، صار الخوارج يكافحون الحكومات، ويصارخون في وجوههم للقضاء عليهم ولم يكن لهم في هذه الأيام أيضاً إلا هذا الأصل، غير أن مرور الزمن وتلاقى الخوارج مع المعتزلة وغيرهم من الطوائف الإسلامية، ألجأهم إلى أن يتخذوا في بعض المسائل موقفاً فكرياً، فعند ذلك أصبحوا جمعيتهم دينية وفرقة كلامية بعد ما كانوا حزباً سياسياً بحتاً (٢٥٨)

فتلاقوا في هذه المسائل مع المعتزلة بل تأثروا بهم كما هو الحال في المسألة التالية، فقد تأثرت الاباضية فيها عن المعتزلة وخالفوا الشيعة وغيرهم من الطوائف الإسلامية. ٤- الشفاعة: دخول الجنة بسرعة: إن مرتكبي الكبيرة عند الاباضية إذا ماتوا بلا توبة، محكومون بالخلود في النار، فلأجل هذا الموقف المسبق في هذه المسألة فسروا الشفاعة بدخول المؤمنين الجنة بسرعة، وفي الحقيقة خصّوها بغير المذنبين من الأمية، وهذا التفسير يوافق ما عليه المعتزلة من أن الغاية من الشفاعة هو رفع الدرجة لامغفرة الذنوب . إن الشفاعة أمر مسلم عند جميع المسلمين غير أنهم اختلفوا في تفسيرها، وهؤلاء كالمعتزلة ذهبوا إلى أن شفاعته النبي بل شفاعته جميع الشفعاء لانتال أهل الكبائر متمسكاً بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمتي» . يقول السالبي في كتابه شرح أنوار العقول: «فإن قيل: المؤمنون مستوجبون للجنة بأعمالهم فلا معنى للشفاعة، فالجواب أن الشفاعة لهم هي طلب تنقلهم من المحشر، ودخولهم الجنة بسرعة» (١) . يلاحظ عليه: أن الشفاعة مسألة قرآنية، وفي الوقت نفسه مسألة روائية وحديثية، فلا يجوز لمسلم الإدلاء برأى إلا بعد الرجوع إلى المصدرين الرئيسيين مجرداً عن كل رأى، وأما تفسيرها على ضوء الرأى المسبق فهو من قبيل التفسير بالرأى الذي حذر عنه النبي في الحديث المتواتر عنه وقال: «من _____

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٥٦، نقلا عن مشارق أنوار العقول: ٢٩٤ . (٢٥٩)

فسر القرآن برأيه فليتوء مقعده من النار» (١) . إن مسألة الشفاعة ليست مسألة جديدة ابتكرها الإسلام وانفرد بها، بل كانت فكرة رائجة بين أمة العالم من قبل، وخاصية بين الوثنيين واليهود، فلو ذكرها القرآن فإنما يذكرها بالمفهوم الراجح عندهم، لا بمفهوم مغاير، فلو أمضاها، فإنما أمضاها بهذا المفهوم، ولو هذبها من الخرافات وحددها في اطار خاص فإنما هذب ذلك المفهوم وحدده، ومن المعلوم أن الشفاعة عندهم إنما هو لغفران الذنوب لالرفع الدرجة أو سرعة التنقل إلى الجنة، ولأجل ذلك كانوا يرجون لصلتهم بالأنبياء حطّ ذنوبهم، وغفران آثامهم، وكان المتطرفون منهم يرتكبون الذنوب تعويلاً على الشفاعة. وفي هذا الموقف ورداً على ذلك التطرف الباعث للجرأة، يقول سبحانه: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (٢) ويقول أيضاً رفضاً لتلك الشفاعة المقترنة بالخرافة: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (٣) . ومن تدبر في الآيات الواردة حول الشفاعة أيجاباً وسلباً، يقف على أن الإسلام قبل الشفاعة بنفس المفهوم الراجح بين الأمم، لكن حددها بشروط وجعل لها إطاراً خاصاً، وعلى ضوء ذلك فتفسير الشفاعة بدخول الجنة بسرعة، نبع من العقيدة بخلود العصاة في النار إذا ماتوا بلا توبة، فلأجل ذلك إلتجأوا إلى تفسير الشفاعة بغير المعنى المعروف . نعم يجب إلفات نظر القارىء

إلى أمر هام: إن بعض الذنوب الكبيرة ربما تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه كما

١. حديث متفق عليه. رواه الفريقان .

٢. البقرة: ٢٥٥ .

٣. الأنبياء: ٢٨ . (٢٦٠)

تقطع الأواصر الروحية بالشفيع فمثل هذا الشخص لا ينال الشفاعة، ولا يرضى الرب بشفاعة الشفيع في حقه، وقد أوضحنا حقيقة الشفاعة وشروطها في موسوعتنا التفسيرية، وقمنا بالذّب عن الاشكالات التي تثار حولها من جانب المعتزلة أو بعض المفكرين الجدد (١) . ٥ - مرتكب الكبيرة كافر نعمه لا كافر ملته: اتفقت الخوارج حتى الاباضية على أن ارتكاب الكبيرة موجب للكفر، ولكن المتطرفين يرونه خروجاً عن الملته، ودخولاً في الكفر والشرك، ولكن الاباضية لا عندنا، يرونه كفر النعمة، فالمسلم الفاسق كافر عندهم لكن كفر النعمة، ولأجل التعرّف على حقيقة مرامهم نأتى بنص بعض كتّابهم، وإن كان طويلاً مفصّلاً: يقول على يحيى معمر: «يحسب كثير ممن لا - علم له أن الاباضية ممن يتفقون مع الخوارج في تكفير العصاة كفر شرك، ولا يعرفون أن الاباضية يطلقون كلمة الكفر على عصاة الموحّدين الذين ينتهكون حرّات الله، ويقصدون بذلك كفر النعمة، أخذاً من الآيات الكريمة التي أطلقتها في أمثال هذه المواضيع واستناداً إلى أحاديث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (٢) . (لِيُثْبِتُوا أَمْ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي

١. لا حظ: مفاهيم القرآن ٤/١٥٦ - ٢٧٩ .

٢. آل عمران: ٩٧ . (٢٦١) غَنِيٌّ كَرِيمٌ (١) . (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (٢) . سأل الأقرع بن حابس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «الحج علينا كل عام يا رسول الله؟ فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : لو قلت نعم لوجب، ولو لم تقدرتم عليه، ولو لم تفعلوا لكفرتم، وقال: من ترك الصلاة كفر، وقال: ليس بين العبد والكفر إلا ترك الصلاة، وقال: ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض وقال: الرشا في الحكم كفر». وخلاصة البحث انّ الاباضية عندما يطلقون كلمة الكفر على أحد من أهل التوحيد فهم يقصدون كفر النعمة، وهو ما يطلق عليه غيرهم كلمة الفسوق والعصيان، والمعنى الذي يطلق عليه الاباضية كفر النعمة ويطلق عليه المعتزلة (٣) الفسوق، ويطلق عليه غيرهم النفاق أو العصيان فهو معنى واحد. والسبب الذي دعا الاباضية إلى اطلاقهم هذه الكلمة على العصاة بدلا من كلمة النفاق أو الفسوق أمران: أولهما: إنّها الكلمة التي أطلقها الكتاب الكريم والسنة القويمه عليهم في كثير من المواضيع والمناسبات . ثانيهما: إنّ لكلمة النفاق أثراً خاصاً في تاريخ الإسلام، فقد اشتهر بها عدد من الناس في زمن رسول الله، آمنوا ظاهراً، ولكن قلوبهم لم تطمئن بالإيمان، فكان القرآن الكريم ينزل بتفريعتهم، ويفضح بعضهم، ويتوعدهم بالعذاب الأليم

١. النمل: ٤٠ .

٢. المائدة: ٤٤ .

٣. اطلاق الفاسق على مرتكب الكبيرة غير مختص بالمعتزلة، بل الأشاعرة والإمامية في ذلك أيضاً سواء، بل الفرقتان الاخيرتان أولى بهذا الاصطلاح من المعتزلة، لأنه عندهما مؤمن، لا كافر ولا مشرك بخلاف المعتزلة فإنه عندهم لا كافر ولا مؤمن بل منزلة بين المنزلتين. (٢٦٢)

في الدنيا والآخرة حتى اشتهروا بهذا الاسم وعرفوا به، قال الله تعالى: (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (١) حتى صارت هذه الكلمة تشبه أن تكون علماً لهم فإذا اطلقت انصرف إليهم . والنقاش في هذا الموضوع نقاش لغوي والاختلافات لفظي، والنتيجة انّ من يصرّ على معصية الله يلاقى نفس الجزاء الذي يلاقيه من يكفر بالله، أمّا معاملة المسلمين لمن يفسق عن أمر الله، أو ينافق في دين الله، أو يكفر بنعمة الله، فإنها معاملة

للعاصي المنتهك الذي تجب محاولة ارشاده إلى وجوب الاستمسك بدينه ورجوعه إلى أوامر ربه، واقلاعه عن محادة الله ورسوله، فإن أصر واستكبر وتغلب عليه الشيطان، بُرئ منه (٢). يلاحظ عليه أولاً: ان المحكممة الأولى كانوا لا يريدون من الكفر إلا الخروج عن الدين، وكانوا يقولون للإمام أمير المؤمنين: تب من كفرك، وكان يجيبهم: أبعث إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين (٣). فلما أحسَّ عبدالله بن اباض أو من قبله بتطرف هذه الفكرة عاد بتأويله إلى كفر النعمة تحزناً عن رد فعل للنظرية الأولى. ثانياً: لو فرضنا ان القرآن الكريم استعمل الكفر في كفر النعمة أو استعمله الحديث في حق تارك الصلاة، ولكن هذا الاستعمال طفيف جداً، فقد ورد لفظ الكفر ومشتقاته في القرآن قريباً من ٤٥٠ مرة وأريد في أغلبها كفر الملة

١. التوبة: ٦٧.

٢. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٨٩-٩٢.

٣. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨. (٢٦٣)

والخروج عن الدين، ولو استعمل في كفر النعمة فأنما استعمل مورد أو موردين، هذا من جانب، ومن جانب آخر ان لفظ الكفر والكافر يعطيان مفهوماً خاصاً يهز القلوب ويروّعها، إذ لا يقصد منه إلا الخروج عن الدين فاستعمال ذلك في كل معصية كبيرة، يقلل من شدة خطره ويصغر أمره العظيم. والأثر الخاص الذي ادعاه لكلمة النفاق، موجود في كلمة الكفر بوجه أشد. فلو عدلوا عن إعماله، فليعدلوا عن اطلاق كلمة الكفر لأجله والكلمتان مشتركتان في أثر السيء. أوليس الأولى للاباضية أن ينتهجوا نهج جميع المسلمين فيختاروا لفظاً غيره في مورد ركوب الكبيرة؟ وقد تنبه لما ذكرناه الكاتب الاباضى حيث علق على ما ينسب إلى الاباضية: «المخالفون كفار نعمه لا- كفار في الاعتقاد» قوله: لا شك ان أى مسلم إذا قيل له: «ان الاباضية يعتبرونك غير مسلم، ويرونك كافراً» يملكه الغضب ويعتبرهم فرقة ضالمة ظالمة تستحق اللعن، ولن ينتظر منك أن تشرح له الفرق بين معانى الكفر (١). ولكن اللوم متوجه عليه وعلى أسلافه لا لأصحاب المقالات فإنهم استعملوا لفظ الكفر في حق المخالفين غير أن المتطرفين فسروه بالكفر في الاعتقاد وغيرهم فسروه بكفر النعمة مستشهدين بأنه ورد لفظ الكفر في مورد المرتكبين للكبائر، ونقلوا عن الرسول الأعظم أنه قال: الرشوة في الحكم كفر، وقوله من أتى كاهناً أو عزافاً فصدقه فيما يقال فقد كفر بما أنزل على محمد (٢).

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/١٠٣.

٢. صالح بن أحمد الصوافى: الإمام جابر بن زيد: ١٢٣. (٢٦٤) ٦- الخروج على الإمام الجائر: يقول أبو الحسن الأشعري: «والاباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف لكنهم يرون ازاله أئمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأى شىء قدروا عليه بالسيف أو بغيره» (١). وربما ينسب إليهم أمر غير صحيح، وهو أن «الاباضية لا يرون وجوب اقامة الخلافة» (٢). إن وجوب الخروج على الإمام الجائر أصل يدعمه الكتاب والسنة النبوية وسيرة أئمة أهل البيت إذا كانت هناك قدرة ومنعة، وهذا الأصل الذى ذهب إليه الاباضية بل الخوارج عامية، هو الأصل العام فى منهجهم، ولكن نرى أن بعض الكتاب الجدد من الاباضية الذين يريدون ايجاد اللقاء بينهم وبين أهل السنة يطرحون هذا الأصل بصورة ضئيلة. يقول على يحيى معمر: إن الاباضية يرون أنه لا بد للأئمة المسلمة من اقامة دولة ونصب حاكم يتولى تصريف شؤونها، فإذا ابتليت الأمة بأن كان حاكمها ظالماً، فإن الاباضية لا يرون وجوب الخروج عليه لاسيما إذا خيف أن يؤدى ذلك إلى فتنه وفساد أو أن يترتب على الخروج ضرر أكبر مما هم فيه، ثم يقول: إذا كانت الدولة القائمة جائرة وكان فى امكان الأمة المسلمة تغييرها بدولة عادلة دون احداث فتن أكبر تضر بالمسلمين فإنهم ينبغي (٣) لهم تغييرها. أما إذ كان ذلك لا يتسنى إلا بقتن واضرار فإن البقاء مع الدولة الجائرة ومناصرتها فى حفظ الثغور ومحاربة أعداء الاسلام، وحفظ

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٨٩.

٢. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية: ٥٣ / ٢ - ٥٤.

٣. إن الرجل لتوحي المماشاة مع أهل السنة يعبر عن مذهبه بلفظ لا يوافق، بل عليه أن يقول مكان «ينبغي» «يجب». (٢٦٥)

الحقوق، والقيام بما هو من مصالح المسلمين واعزاز كلمتهم، أوكد وأوجب (١). إن ما ذكره لاتدعمه سيرة الأباضية في القرون الأولى ويكفي في ذلك ما ذكره المؤرخون في حق أبي يحيى عبدالله بن يحيى طالب الحق، قالوا: إنه كتب إلى عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة وإلى غيره من الأباضية بالبصرة يشاورهم بالخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت ألا تقيم إلا يوماً واحداً فافعل، فأشخص إليه عبيدة بن مسلم أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي في رجال من الأباضية فقدموا عليه حضرموت، فحثوه على الخروج، وأتوه بكتب أصحابه، فدعا أصحابه فبايعوه فقصدوا دار الامارة إلى آخر ما سيوافيك بيانه من حروبه مع مروانيين وتسلطه على مكة والمدينة. وأظن أن ما يكتبه على يحيى معمر في هذا الكتاب وفي كتاب «الاباضية في موكب التاريخ» دعايات و شعارات لصالح التقارب بين الاباضية وسائر الفرق خصوصاً أهل السنة، ولأجل ذلك يريد أن يطرح أصول الاباضية بصورة خفيفة حتى يتجاوب مع شعور أهل السنة، تلك الأثرية الساحقة، وأوضح دليل على أنهم يرون الخروج واجباً مع القدرة والمنعة بلا اكتراث، إنهم يوالون المحكمة الأولى ويرون أنفسهم اخلافهم والسائرين على دربهم، وهم قد خرجوا على عليّ بزعم أنه خرج بالتحكيم عن سواء السبيل. وأظن أن هذا الأصل لامع في عقيدة الخوارج والاباضية بشرطها وشروطها، وأن التخفيض عن قوة هذا الأصل دعاية بحتة. والعجب أنه يعترف بهذا الأصل في موضع آخر من كتابه ويقول: إن الثورة على الضلم والفساد والرشوة وما يتبع ذلك من البلايا والمحن، إنما هو المنهج الذي جاء به الإسلام ودعا إليه المسلمين، ودعا المسلمون إليه، وقاموا

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢ / ٥٣ - ٥٤. (٢٦٦)

به في مختلف أدوار التاريخ، ولم تسكت الألسنة الأمر بالمعروف، الناهية عن المنكر، ولم تكف الأيدي النائرة في أي فترة من فترات الحكم المنحرف... وقد استشهد في هذا السبيل عدد من أفذاذ الرجال، ويكفي أن أذكر الأمثلة لأولئك الثائرين على الانحراف و الفساد: شهيد كربلاء الإمام الحسين سبط رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعبدالله بن الزبير نجل ذات النطاقين، وسعيد بن جبيرة، وزيد بن علي بن الحسين، وكل واحد من هؤلاء يمثل ثورة عارمة من الأمة المسلمة على الحكم الظالم، والخروج عليه ومدافعتة حتى الاستشهاد (١). ٧ - التولي والتبري والوقوف: قد اتخذ الاباضيون «التولي» و«التبري» نحلة ولهما أصل في الكتاب والسنة وهما مما يعتنقه كل مسلم اجمالاً، ولكن التفسير الاباضي لهذين المفهومين يختلف تماماً مع تفسير الجمهور، وإليك بيانه بنقل نصوصهم من كتبهم: «أصل الولاية، الموافقة في الدين، فكل من وافقك في الدين فهو وليك، سواء علمت بموافقتة أو جهلتها، أو برئت منه بالظاهر، لحدث عرفته منه وهو قد تاب ورجع عنه، فالملائكة عليهم السلام أولياؤنا لأنهم موافقونا في أصل الامتثال، وكذلك أهل الطاعة من الأمم السالفة، فإنه وإن اختلفت الأوامر بالنظر لاختلاف الشرائع، فالدين عند الله الإسلام أي الانقياد لأحكامه مطلقاً. فاعلم أن مما يدين به المسلمون وهو لازم لهم، الولاية لأولياء الله والحب لهم، والبغض لأعداء الله والبراءة منهم. فولايه من أتصف بالإيمان فرض

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/١٨٣. (٢٦٧)

واجب، ثبت وجوبه بأدلة قطعية، وأما البراءة فهي مثل الولاية فتجب البراءة من الفاسقين مطلقاً سواء كانوا من المشركين أو كانوا أهل كفر نعمه، فالبراءة منهم واجب بنص الكتاب العزيز والسنة المطهرة. ثم إنهم ذكروا للولاية والبراءة أقساماً نوردها فيما يلي: ١ - أن يرد الكتاب بما يوجب ولاية أحد، أو البراءة منه، كالأنبياء المذكورين بأسمائهم في الولاية وكأبليس في البراءة. ٢ - ما نطق فيه رسول من رسل الله أن فلاناً من أهل السعادة، أو من أهل الشقاء، بشرط أن يسمع السامع من لسان الرسول ذلك الكلام حين نطقه. ٣ - ولاية الجملة وبراءة الجملة، وصورتها أن يعتقد المكلف ولاية أهل طاعة الله من الأولين والآخرين إنسهم وجنهم وملائكتهم، وأن يعتقد البراءة من جميع أهل معصية الله من الأولين والآخرين إنسهم وجنهم إلى يوم الدين. وهذا القسم هو الذي يعتبر عنه بعقيدة الإنسان لأنه لا بد لكل مكلف أن يعتقد ديناً. ٤ - نعم يجب الوقوف فيمن لم يعلم فيه موجب الولاية ولا البراءة لقوله تعالى: (وَ لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ (١)، وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «المؤمن وقَّاف، والمنافق وثَّاب (٢) . قال أبو سعيد الكدَمي: واعملوا رحمتنا الله وإياكم: انَّ الولاية والبراءة فريضتان وقد نطق بذلك القرآن وأكده السنَّة، ونسخته آثار الأئمَّة الذين هم _____
١. الاسراء: ٣٦ .

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد: ٢٥٨ - ٢٦٣ بتلخيص، وكان عليه أن يذكر قسماً خامساً وهو تولَّى شخص معين لكونه مطيعاً والتبري منه لكونه عاصياً إذا لمسنا شخصياً منهما الطاعة أو العصيان، ولعلَّه لم يذكره لكونه مستفاداً من القسم الأوَّل. (٢٦٨)

حِجْرَةُ اللهِ فِي دِينِهِ، فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُ وَآءٍ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ) (١) . ويقول أيضاً: لا يجوز له أن يتولَّى أحداً من علماء أهل الخلاف ولا من أفضلهم، ولو جهل أمرهم، ولو ظنَّ أنَّهم أهل الحقِّ وأهل الفضل، ما جاز أن يتولَّى أحداً منهم بدين (٢) . ويقول أيضاً: البراءة حكم من أعظم أحكام الإسلام (٣) . ويقول: واعلموا أنَّه ممَّا يلزم المسلمون ويدينون به: الولاية لأولياء الله والحبُّ لهم، والبغض لأعداء الله والبراءة منهم، ومن أحبَّ عبداً في الله فكأتمَّ أحبَّ الله، وذلك من أشرف أعمال البر (٤) . وقد حرَّز هذه المسألة أحد المعاصرين من علماء الاباضية وقال: ولاية الجملة وبراءتها فريضتان بالكتاب والسنَّة والاجماع على كلِّ مكلف عند بلوغه إن قامت عليه الحجة، وأما ولاية الأشخاص وبراءتها فواجبتان قياساً عليهما. إنَّ محبة المؤمن الموفى بدينه، الحرص على واجباته، المبتعد عن المحارم، المتخلِّق بأخلاق الإسلام، المتَّبِع لهدى محمَّد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وجبت محبته على المؤمنين، وأُعلِنَت ولايته بين المسلمين، وطلبت له المغفرة والرحمة من ربِّ العالمين . فإذا نزع أحدهم من الشيطان نزع، ولم يستعدَّ بالله من الشيطان، فأقدم على المعصية ولم يُسارع إلى التوبة، انفصم هذا الرباط الذي يربطه _____

١. أبو سعيد الكدَمي: المعتبر ٢/١٣٤. والآية من سورة الممتحنة: ٤ .

٢. المصدر نفسه ١/٩٥ .

٣. المصدر نفسه: ١ / ١٣٥ .

٤. المصدر نفسه: ١ / ١٣٧ . (٢٦٩)

بالمؤمنين، وتهدمت هذه الأخوة التي قامت على الدين حتى يجدد إيمانه بربه، ويستغفر الله من ذنبه، ويصل حبال قلبه بفاطر السموات والأرض، فإذا فعل ذلك، رجعت منزلته بين اخوانه كما كانت، وعزَّت نفسه بينهم بعد أن هانت (وللَّهِ الْعِزَّةُ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) . إنَّ المسلم الذي يعلن بين الملأ قول «لا إله إلاَّ الله، محمَّد رسول الله»، ثمَّ يجترئ على أوامر الله فيتخلَّى عن واجباته، أو يقدم على ارتكاب المحظورات... لا يحقُّ أن يكرم بالتساوي مع الصادقين ولا يمكن أن تشمله المحبة في الدين، بل يجب أن يجد الغلظة من المؤمنين وأن يسمع التقرير والتوبيخ، وأن يُطلب الابتعاد عنه، وأن يُغلَّن البراءة منه، ويُقلَّل التعامل معه حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، ولا يجد ملجأ من الله إلاَّ إليه، فأما أن يشرح الله صدره للإسلام، وأن يفتح قلبه للإيمان وأن يسخر أعضائه للعبادة، وأن يباعد بينه وبين المعصية فيتوب ممَّا ارتكب ويعود إلى حظيرة الإسلام بالعمل الصالح، والجهاد المتواصل، جهاد النفس والهوى، فترتبط أواصره حينئذ بأواصر الناس، ويصبح بعد الهداية والتوفيق أخاً في الله . وأما أن يرتكس إلى الشيطان، ويصّر على العصيان، ويتعد عن محاسبته النفس، ويستمر في الغواية والضلال، وحينئذ لا يمكن لأولياء الله أن يحبوا عدوَّ الله، ولا أن يرضوا عمَّن جاهره بالمعصية، وإنَّ القلوب المؤمنة لتستحي أن تتجه إلى المليك الديان لتطلب منه الرحمة والغفران، لعبيد الشهوات وأغوياء الشيطان . إنَّ العصاة الذين يصرون على ما فعلوا ويجاهرون الله والناس بما ارتكبوا، انفصلوا بكبريائهم عن ربِّهم، وابتعدوا عن محبة إخوانهم، وحادوا الله ورسوله. (٢٧٠)
(لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...) (١) . (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ) (٢) .
(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (٣) . إنَّ المجتمع الاسلامي أنظف من أن تقع فيه المعصية من مسلم،

ثم يسكتون عنه، فيدعونهم محبواً قبل أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والتكفير إن كانت المعصية مما يتحلل منه بالتكفير. إن هذه القضية من القضايا التي يكاد ينفرد بها الاباضية (٤) عن غيرهم من الفرق الإسلامية فلم يساوا بين مؤمن تقى وعاص شقى في المعاملة، وقالوا: يجب على المجتمع المسلم أن يُعَلِّقَ كلمة الحق في كل فرد من أفرادها، وأن يتولّى تهذيب الناشزين، وتقويم المنحرفين وتربية المتذرّعين بالوسائل التي شرعها الإسلام للتربية الجماعية من أمر بمعروف ونهي عن منكر، واعراض عن يتولّى عن الله. وليس من الحق أبداً أن نتغاضى عن أولئك الذين يرتكبون المعاصي، ونضعهم في صف واحد مع المؤمنين الموفين، بل يجب أن نزرع العاصي عن معصيته، وأن نعلّنه بالعداوة، مادام منحرفاً عن سبيل الله، وأن لانسأوى في المعاملة بينه وبين الموفى، وأن لانعطيه من المحبة وطلب المغفرة، وحسن التعامل، مانعته للذي يراقب الله في الخفاء والعلانية، ويرجع إليه في كل كبيرة وصغيرة، ويقف عند حدوده التي رسمها لايخطأها، (وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ

١. المجادلة: ٢٢ .

٢. المجادلة: ٢٠ .

٣. المجادلة: ٥ .

٤. ستعرف ضعفه وأنه مما أصفقت عليه الأئمة الإسلامية اجمالاً، نعم انفردت الاباضية بالغلظة والشدة في المسألة. (٢٧١) غلظة، والاباضية لا يخرجون العصاة من الملة ولا يحكمون عليهم بالشرك، ولكن يوجبون البراءة منهم و بغضهم و اعلان ذلك لهم حتى يقلعوا عن معصيتهم ويتوبوا إلى ربهم (١). هذا عصارة ما ذكره في هذه المسألة، أي الولاية والبراءة والوقوف . يلاحظ عليه: لا أظن أن من أحاط بالكتاب والسنة أو ألم بهما أن ينكر وجوب التولّى والتبري فإن المصدرين الأساسيين مملوءان بالأمر بتولّى الرسول، والمؤمنين، والتبري من المشركين وأهل الكتاب والعصاة، وإليك رشحة من ذلك فيكفي فيه قوله سبحانه: (لا- يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) (٢) وقوله عز وجل: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (٣) وقوله عز وجل: (فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ) (٤) وقوله عز وجل: (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). (٥) وأما السنة فيكفي في ذلك الأحاديث التالية: قال علي بن أبي طالب - عليه السلام - : من ترك انكار المنكر بقبله و لسانه

١. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٨٣- ٨٧ .

٢. آل عمران: ٢٨ .

٣. التوبة: ٧١ .

٤. الأحزاب: ٥ .

٥. المجادلة: ٢٢ . (٢٧٢)

فهو ميت بين الأحياء (١) . وقال - عليه السلام - : أمرنا رسول الله أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة (٢). وقال - عليه السلام - : أدنى الانكار أن تلقى أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة. وعن الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - : حسب المؤمن غيره إذا رأى منكراً أن يعلم الله عز وجل من قلبه انكاراً. (٣) إن الحب والبغض من الظواهر والحالات النفسية، ولهما آثار على الأعضاء والجوارح في حياة الإنسان، فلقاء أهل المعاصي بوجوه مكفّهرة من آثار تلك الظاهرة، هذا كله مما لا اشكال فيه. إنّما الكلام في موضع آخر يجب إلفات النظر إليه وهو أنّ التبري من عصاة المسلمين ليس شيئاً مطلوباً بالذات، وإنّما الغاية منه ارجاع العاصي إلى حظيرة الطاعة، وإلحاقه بأصفياء الأمة، وعلى ذلك فهو من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيدور وجوبه مدار وجود شرائطهما: منها كون التبري مؤثراً في كبح جماح العاصي وتماديته في الغي، ولأجل ذلك جوّز الإسلام غيبة المتجاهر بالفسق وربّما أوجب الوقعة في أهل

البدع، واكثر الوقيعة فيهم، وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «أربعة ليس غيبتهم غيبة: الفاسق المعلن بفسقه، والإمام الكذاب إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، والمتفكّهون بالأثمات، والخارج من الجماعة الطاعن على أمتي، الشاهر عليها بسيفه» (٤). وقال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «لا غيبة لثلاث: سلطان جائر، وفاسق معلن، _____»

١. الحرّ العاملي: وسائل الشيعة ١١/٤٠٤ .

٢. المصدر نفسه: ١١ / ٤٠٩ .

٣. المصدر نفسه: ١١ / ٤١٣ .

٤. حسين النوري: المستدرک، الجزء ٩، الباب ١٣٤ من أبواب أحكام العشرة، الحديث ٢ (٢٧٣)

وصاحب بدعة» (١). فعلى ذلك فوجوب التبرّي رهن شروط نشير إليها: ١- أن يحتمل كون التبرّي مؤثراً في ارجاعه عن المعصية كما عرفت، وإلا فلا يجب كما هو الحال في جميع مراتب الأمر بالمعروف . ٢- إن لا يكون اظهار التبرّي موجبا لتماديته في الغي، وانكبابه على الإثم، فإن إيجاب التبرّي في ذلك ينتج نقيض المطلوب . ٣- يكفي في التبرّي، الاعراب عمّا في ضمير المتبرّي من كونه كارهاً لعمله، بلا حاجة إلى اعمال الغلظة والشدة كما في كلام القائل. ثم الآيات والروايات الدالة على التبرّي واردة في حقّ الكفار والعصاة المتمادين في الغي، لا من عصي مرّة واحدة ويبدو أنه سوف يرجع ويستغفر. وأما ما ذكره القائل في كيفية التبرّي فليس عليه دليل بل الدليل على خلافه، لأنّ المعاملة مع العصاة على النحو الذي ذكره القائل لم يكن رائجاً في عصر الرسول، إلا في حقّ العتاة المتمادين في الغي، أو المتخلفين عن الزحف، وقد ورد في حقهم قوله سبحانه: (وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَيْتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (٢). ترى أنّ الغلظة والشدة كانت في حقّ هؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد في الوقت الذي كان الرسول في أشدّ حاجة إلى المجاهد الصادق، فنزل الوحي بالضغط وايجاد الضيق عليهم حتى يصلوا إلى مرتبة تضيق عليهم أرض المدينة بما رحبت. وأما المعاملة لكلّ عاص ولو مرّة واحدة بهذا النحو والضغط عليه حتى _____

١. حسين النوري: المستدرک، الجزء ٩، الباب ١٣٤ من أبواب أحكام العشرة، الحديث ١ .

٢. التوبة: ١١٨ . (٢٧٤)

تضيق عليه الأرض، فهو بعيد عن سماحة الإسلام، كيف وقد قال سبحانه حاكياً عن حملة العرش الذين يستغفرون للذين تابوا واتبعوا سبيله: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً) (١) وقال سبحانه: (وَلَا تَيَأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (٢) وقال سبحانه: (قَالَ وَمَنْ يَفْتِنُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (٣) وقال سبحانه: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (٤) . فأين هذه الوعود ودعوة العصاة إلى حظيرة الغفران والنهي عن اليأس من روح الله ممّا جاء في كلام هذا القائل؟ فالاباضية وإن كانوا غير متطرّفين في مسلكهم لكن في التبرّي عن العاصي في جميع الأحوال والظروف على النحو الذي سمعت نوع تطرّف كما لا يخفى. على أنّ هذا النحو من التبرّي الوارد في كلام القائل يناسب العيشة القبلية، والاجتماعات الصغيرة، ولا يتمشى أبداً مع الاجتماعات الكبيرة التي تضمّ الفسّاق، إلى العدول في جميع الأندية والمجالس كما لا يخفى. اكمال: ثم إنّه لو ثبت كون رجل عدواً من أعداء الله لارتكابه الكبائر أو لإرتداده عن الدين، فليس لآحاد الأمة القيام بإجراء الحدّ عليه، وإنما واجب الآحاد هو التبرّي منه، ومن فعله، روحاً وجسداً، وأما إجراء الحدّ عليه فإنما هو على _____

١. غافر: ٧ .

٢. يوسف: ٨٧ .

٣. الحجر: ٥٦ .

٤. الزمر: ٥٣ . (٢٧٥)

القوى المطاع في الأمة وهو الحاكم الإسلامي، ولأجل ذلك ينقسم الأمر بالمعروف الى قسمين: قسم يُعَدُّ واجباً فردياً، يقوم به آحاد الأمة، وقسم يعدّ رسالته اجتماعية تقوم به القوة التنفيذية في الدولة الإسلامية، وهنا كلمة قيمة للإمام الصادق - عليه السلام - نذكرها: سئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوجب هو على الأمة جميعاً؟ فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: إنما هو على القوى المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لاعلى الضعيف الذي لا يهتدى سبيلا إلى أيّ، من أيّ؟ يقول من الحق إلى الباطل، والدليل على ذلك من كتاب الله عزوجل قوله: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) فهذا خاص غير عام. (١) ٨ - آراء الاباضية في الصحابة: قد طرحنا مسألة عدالة الصحابة في الجزء الأول من هذه الموسوعة عند البحث عن عقائد أهل الحديث، والمعروف بين كتاب الفرق ان الاباضية يحبون الشيخين ويغضون الصهرين، غير أن كتاب الاباضية في هذا العصر ينكرون هذه النسبة ويقولون إنّ الدعاية التي سلطها المغرضون على الاباضية نبذتهم بهذه الفرية، وذهب على يحيى معمر في نقد النسبة وترفيفها إلى نقل الكلمات التي فيها الثناء البالغ على الصهرين، ينقل عن أبي حفص عمرو بن عيسى قوله: وعلى الهادي صلاة نشرها * عنبر ماخب ساع ورمل وسلام يتوالى وعلى * آله والصحب ما الغيث هطل سيما الصديق والفاروق والجامع * القرآن والشهم البطل

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة ١١/٤٠٠. والآية من سورة آل عمران: ١٠٤. (٢٧٦) وينقل عن ديوان البدر الثلاثي مايلي: بنت الرسول زوجها وابناها * أهل لبيت قد فشى سناها رضى إلاله يطلب الثلاثي * لهم جميعاً ولمن عناها (١) نحن نرحب بهذا الود الذي أمر الله سبحانه به في كتابه بالنسبة إلى العترة الطاهرة إذ قال: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (٢). ولكن لا يمكننا التجاهل بأنهم يحبون المحكمه الأولى، ويعتبرونهم أئمة، وهم قُتلوا بسيف على، وهل يمكن الجمع بين الحسين والودين؟ قد قال الله سبحانه: (ما جعلَ اللهُ لِرِجْلِ مَن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) (٣) وهل يجتمع حبّ على وودّه وحبّ من كان يكفرّ عليّاً ويطلب منه التوبة؟ كيف وهؤلاء هم الذين قلبوا له ظهر المجنّ وضعفوا أركان حكومته الراشدة. نرى أن الاباضية يعدّون عمران بن حطان من القعدة، وهو إمام لهم بعد أبي بلال، وهو القائل في حق عبدالرحمن بن ملجم قاتل الإمام على، شقيق عاقر ناقه ثمود، قوله: ياضربه من تقى ما أراد بها * إلا ليلغ من ذى العرش رضوانا إنّي لأذكره يوماً فأحسبه * أوفى البريّة عندالله ميزانا (٤) ومع هذا السعي لكتمان الحقيقة فالظاهر أن للشهرة حقيقة: أمّا حبهما للشيخين فليس مجال شك وأما بغضهما للصهرين فقد وقفت في الفصل التاسع على نظر قدمائهم في حق الإمام على - عليه السلام - وإليك نظرهم في حق عثمان، ليعلم

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢/٥٠.

٢. الشورى: ٢٣.

٣. الاحزاب: ٤.

٤. مرّ مصدر البيتين. (٢٧٧)

مدى صحّة النسبة: فإن قال: فما قولكم في عثمان بن عفان؟ قلنا له: في منزلة البراءة عند المسلمين. فإن قال: من أين وجبت البراءة من عثمان بن عفان وقد تقدمت ولايته وصحّت عقدة إمامته مع فضائله المعروفة في الإسلام، وفي تزويج النبي له - عليه السلام - بابنتيه واحدة بعد واحدة؟ قلنا: إن الولاية والبراءة هما فرضان في كتاب الله لا عذر للعباد في جهلها، وقد أمرنا الله تبارك وتعالى أن نحكم وندين له في عبادته بما يظهر لنا في أمورهم ولم يكلفنا علم الغيب. ثم وجدنا أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد قدّموا عثمان إماماً لهم بعد عمر بن الخطاب - رحمه الله -، ثم قصدوا إليه فقتلوه على ما استحقّ عندهم من الأحداث التي زایل بها الحق وسبيله، فمن قال إن عثمان قتل مظلوماً كان قد أوجب على أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - البراءة بقتلهم لعثمان بن عفان وألزام البراءة من على بن أبي طالب لأنّه وضعه المسلمون بعد عثمان إماماً لهم. وعلى الإمام إقامة الحدود و لم يغيّر ذلك على بن أبي طالب ولم ينكره ولم يقم الحد على من قتل عثمان، وحارب من طلب بدمه وهو طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام، ولو لم يكن

مستحقاً للقتل وأنه مظلوم لكان على قد كفر لقتاله لمن طلب بدم عثمان بن عفان. فلما قاتل على والمسلمون من طلب بدم عثمان وصوبوا من قتله وأقرهم على بين يديه وكانوا أعوانه وأنصاره، كان دليلاً على أنهم محققون في قتله لأن إجماعهم على ذلك حجة لغيرهم ودليل. وأما قولك زوجة النبي بابتية واحدة بعد واحدة فإننا لانكر ذلك ولا يكون عثمان مستوجباً للولاية بتزويج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - له بابتية. ولو كان عقد النبي له بالنكاح موجباً للرجل المشرك الذي كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (٢٧٨)

قد زوجة بابتية زينب قبل التحريم بين المسلمين والمشركين مع قوله الله تبارك وتعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) (١)، فهذا مبطل لاحتجاجك علينا بتزويج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - له بابتية. وأما قولك: إنه كانت له فضائل في الإسلام متقدمة، فإن الأعمال بالخواتم في الآخرة، لا بالفضائل الأولى (٢). وعلى كل تقدير فما يذكره هذا الكاتب وغيره هو الحق الذي يجب أن تمشى عليه الاباضية في حياتهم الدينية ويجب علينا احترام الصحابة وودهم على الموازين التي وردت في الكتاب والسنة، ولا أظن مسلماً على أديم الأرض يبغض الصحابي بما هو صحابي أو بما أنه رأى النبي أو بما أن له صلته به، ولو كان هناك استنكار فأنما لبعض الصحابة أمثال المغيرة بن شعبه وبسر بن أرطاة، وعمرو بن العاص، وسمرة بن جندب لما قاموا به من سفك الدماء البريئة والظلم في الأحكام، والطلب الحث بلذائذ الدنيا، كيف لا يصح التبري منهم؟ وقد قال عمرو بن العاص لمعاوية عندما دعاه للمشاركة في الحرب ضد علي أبياتاً أولها: معاوية لا اعطيك ديني ولم أنل * به منك دنياً فانظرن كيف تصنع فإن تعطني مصرأ فأريح بصفقة * أخذت بها شيخاً يضرب وينفع (٣) ***

١. النساء: ٤٨ و ١١٦ .

٢. السير و الجوابات لعلماء وأئمة عمان ١/٣٧٤ - ٣٧٥ طبع وزارة التراث القومي والثقافة، تحقيق سيده إسماعيل كاشف.

٣. الطبري: التاريخ ٣/٥٥٨. اليعقوبي: التاريخ ٢/١٧٥ طبع النجف الاشرف . (٢٧٩) الفتاوى الشاذة عن الكتاب والسنة المذهب الاباضى يدعى أنه يعتمد في أصوله على الكتاب والسنة ويتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة، ولا يختلف معها إلا في مسائل قليلة اختلاف مذاهب السنة نفسها في ما بينها. وما كان اعتماد المذهب الاباضى على الكتاب والسنة وعدم تباعده عن مذاهب السنة إلا لأن مؤسسها جابر بن زيد قد أخذ عن الصحابة الذين أخذ عنهم أصحاب هذه المذاهب من الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة، بل أنه يمتاز على أصحاب هذه المذاهب في أنه أخذ عن الصحابة مباشرة بينما هم لم يأخذوا في معظمهم إلا من التابعين . كما أن الأحاديث التي جمعها هو وغيره من علماء وفقهاء وجماع الأحاديث من الاباضية كالربيع بن حبيب وغيره، ليست إلا أحاديث وردت عن البخارى ومسلم وغيرهم من أئمة الحديث كأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والطبرانى والبيهقى وغيرهم من أهل السنة والجماعة. (٢٨٠) إن الاباضية لا يعترفون بالتقليد فيما يأخذون أو يدعون حتى لفقهاءهم أنفسهم، والمشهور عنهم أنهم يقولون: إنهم رجال تقييد لا تقليد، أى أنهم يتقيدون بالكتاب والسنة، وبما تقيّد والتزم به السلف الصالح، ولا يقلدون أصحاب المذاهب أو أصحاب الأقوال إلا إذا كانت أقوالهم موافقة للكتاب والسنة (١) . إن المذهب الاباضى كما وصفه الكاتب يستند إلى الأدلة الشرعية والعقلية، فالعقل عندهم حجة كالكتاب والسنة، وليس ذلك أمراً خفياً على من سبر كتبهم العقائدية والفقهية، وقد كان ذلك معروفاً عنهم في القرون الأولى حتى بين مخالفهم على وجه قالوا: باغناء العقل عن السمع في أول التكليف. يقول المفيد شيخ الشيعة في القرن الرابع: «اتفقت الإمامية على أن العقل يحتاج في علمه ونتائجه إلى السمع وأنه غير منفك عن سمع يتبه الغافل على كيفية الاستدلال، وأنه لا بد في أول التكليف وابتدائه في العالم من رسول، ووافقهم في ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة والخوارج والزيدية على خلاف ذلك، وزعموا أن العقول تعمل بمجرد ما من السمع والتوقف، إلا أن البغداديين من المعتزلة خاصة يوجبون الرسالة في أول التكليف» (٢). وهذا النحو من الاعتماد على العقل يعد نوع مغالاة في القول بحجتيته إلا في مورد لزوم أصل المعرفة، لاستقلاله عليه دفعا للضرر المحتمل وغيره ما حرر

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بأباضية عمان والبصرة: ٥٨ - ٦١ .

٢. الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ): أوائل المقالات ١١ - ١٢ . (٢٨١)

في محلّه (١) إنّ القول بحجّية العقل لا يعنى منها إلّا- حجّيته في موارد يستقلّ بحكمها العقل على وجه اللزوم والقطع كالملازمات العقلية، مستقلة كانت أو غير مستقلة، والأوّل كاستقلاله بالبراءة عن أىّ تكليف فيما إذا لم يرد من الشارع فيه بيان، ولزوم الفحص عن بينة مدعى النبوة، والنظر في دعواه وبرهانه، والثاني كالمسائل المعروفة بباب «الملازمات العقلية» في أصول الفقه، كادعاء الملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته، أو نقيضه (الضد العام) إلى غير ذلك ممّا هو مذكور في محلّه، ولا يحتجّ به إلا فيما إذا لم يرد من الشرع حكم في مورده، وإلّا- فلا- يقام له وزن، ولأجل الغلّوا الموجود في كلماتهم التي ترتبط بالعقل نجد لهم فتاوى فقهية لاتوافق الكتاب و السنّة، وقد أعطوا للعقل العاطفي فيها قيمة أكثر ممّا أعطوه للكتاب والسنّة، فقدّموا حكم العقل الظنّي على الحكم الشرعي القطعي، وإليك نماذج: ١- قد بلغت السماحة وحب السلام لدى الاباضية أنّ فقهاءهم فضّلوا الصلح بين أيّ فئتين من المؤمنين وقع القتال بينهما، وأنّه لا ينبغي لأحد أن يفصل أيّ فئة منهما على الأخرى، حتى لاتحدث فتنة، وفي ذلك قال أحد شيوخهم من المغاربة: «إنّه إذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالأحبّ إلى أن يصلحوا، فإن لم يفعلوا فالأحبّ إلى أن لاتغلب فئة فتنة، فإنّ من أحبّ أن تغلب أحدهما الأخرى فقد دخل في الفتنة ولزمه ما لزمه أهل تلك، وكان سيفه يقطر دماً، والسلامة عندي أن يكونا في البراءة سواء، لا يربح احدي الطائفتين، فإنّه متى ربح أثم» (٢). _____

١. لا حظ محاضراتنا في الالهيات بقلم الشيخ حسن مكّي العاملي ١/٢٤ .

٢. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٦١، نقلا عن الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب ٢/٤٩١ . (٢٨٢)
لاشك ان هذه الفتوى صدرت عن عاطفة القائل وكونه محباً للوثام والسلام، لكنّها عاطفة في غير محلّها وربّما تتم لصالح الظالمين والفئات الباغية، والذكر الحكيم يصرّح بخلافه وأنّه يجب مقاتلة الباغي إن لم يرجع إلى أمر الله، قال سبحانه: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (١) . وعلى ضوء ما ذكره القائل، فالواجب على المسلمين في الفتنة التي أثارها طلحة والزبير في خلافة علي - عليه السّلام - أو الفتنة التي أثارها ابن أبي سفيان بعد حرب الجمل، أن لاتفضل أيّ فئة على الأخرى حتى لاتحدث فتنة، وهذا النوع من حبّ الصلح والسلام أشبه بالخضوع لعاطفة عشواء ولو كان في ذلك ركوب الباطل. ٢ - اتفقت الأمة الإسلامية على أنّ الزنا بمجردّه لاينشر الحرمه بين الفاعلين إلّا في موارد خاصية كما إذا كانت الزانية مزوّجة، ويسمى في مصطلح الفقه «الزنا بذات الاحصان» وروت عائشة: أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال الحرام، لا يحرم الحلال. ومع ذلك فقد جاءت الاباضية بفتوى شاذة حسبها أنّها صيانة لكرامة المرأة حتى أنّ بعض المتأخرين منهم صاغها في قالب اجتماعي حسب أنّه ينطلي على أصحاب الفقه، قال: «لقد كانت بيئة الحياة في الأمة المسلمة لا تبيح للمرأة أن تخلى برجل أجنبي ولا تبيح لرجل أن يختلي بامرأة أجنبية عنه، وذلك خوفاً من الفتنة، لأنّ الدوافع الجنسية قد تتغلّب على النفس عند الرجل أو عند المرأة وهما مختليان، _____

١. الحجرات: ٩ . (٢٨٣)

فيصلان إلى المحذور، ويقع سوء الذي منه يحذران. ولقد درس الاباضية هذه المشكله منذ خير القرون وانتهوا فيها إلى رأيهم الذي ينفردون به فيما أعرف، فحرّموا الزواج بين من ربطت بينهما علاقة إثم، وقد كانوا في تحريمهم لهذا الزواج يستندون إلى روح الإسلام الذي يحارب الفاحشه . روت أم المؤمنين عائشة - رضی الله عنها- عن رسول الله أنّه قال: «أيما رجل زنا بامرأة ثم تزوّجها فهما زانيان إلى يوم القيامة» (١) . يلاحظ عليه أولاً: أنّ الخضوع للعاطفة والتمسك بهذه الذرائع إنّما يجوز إذا لم يكن في المسألة دليل من الشرع وإلّا- فيضرب بها عرض الجدار، وإن نبع عن مبدأ عقلي!!! أو عاطفي، فإذا كان الكتاب والسنّة واجماع الأمة حاكماً بجواز التزويج فلايسوغ لنا التمسك بهذه الوجوه، ويكفي في ذلك اطلاق قوله سبحانه: (وَاحِلَّ لَكُمْ مَاوَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ

مُحَصِّينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ(٢)، نعم عن بعض الفقهاء اشتراط الجواز بالتوبة، وعلى كل تقدير فليس في الآية من يحرم إلا-الحسن البصرى، وقوله شاذ مخالف للكتاب واتفاق الأمة. قال الشيخ الطوسى: إذا زنى بامرأة جاز له نكاحها فيما بعد، وبه قال عامة أهل العلم، وقال الحسن البصرى: لا يجوز، وقال قتادة ومحمد (وفى نسخة أحمد): إن تابا جاز وإلا لم يجز، وروى ذلك فى أخبارنا(٣). وقال ابن قدامة: «وإذا زنت المرأة لم يحل لمن يعلم ذلك نكاحها إلا بشرطين: _____

١. على يحيى معمر: الاباضية فى موكب التاريخ، الحلقة الأولى ١١١ - ١١٢.

٢. النساء: ٢٤.

٣. الشيخ الطوسى: الخلاف ج ٢، كتاب النكاح، المسألة ٧١ ص ٣٧٨. (٢٨٤) ١ - انقضاء العدة. ٢ - التوبة: وإذا وجد الشرطان حل نكاحها للزانى وغيره فى قول أكثر أهل العلم، منهم: أبو بكر وعمر و ابنه و ابن عباس وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة والزهرى والثورى والشافعى و ابن المنذر و أصحاب الرأى، وروى عن ابن مسعود والبراء بن عازب وعائشة: أنها لا تحل للزانى بحال، ويحتمل أنهم أرادوا بذلك ما كان قبل التوبة أو قبل استبرائها فيكون كقولنا، فأما تحريمها على الاطلاق فلا يصح لقول الله تعالى: (وَ أَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ...)، لأنها محللة لغير الزانى فحلّت له كغيرها(١). ثانياً: إن صيانة كرامة المرأة إنما هو فى تجويز الزواج لافى التحريم لأن الزواج - بعد الإثم - يغطى الفاحشة التى صدرت منهما عن جهالة، ويصير الفاعلان فى المجتمع الإسلامى كزوجين شرعيين يتعامل الناس معهما معاملة صحيحة وواقعية، وأما إذا أفتينا بحرمه الزواج، فالمرأة المخدوعة المحكومة بحكم العاطفة ربّما تلتحق بالغانيات إذا انتشر أمرها وظهر سرّها، ورجب عنها كل شابّ غيور. ٣ - «قد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن الاستجداء والمسألة، واعتمد الاباضية تلك الأحاديث الشريفة فمنعوا المسلم من إراقة ماء الوجه والتعرض لمذلة السؤال، فإذا هانت عليه كرامته، وذهب يسأل الناس الزكاة، حرم منها عقاباً له على هذا الهوان، وتعيداً له على الاستغناء عن الناس، والاعتماد على الكفاح»(٢). لاشك ان السؤال و الاستجداء حرام شرعاً ومكروه فى بعض الموارد، _____

١. عبد الله بن قدامة: المغنى ٧ / ٦٤ - ٦٥.

٢. على يحيى معمر: الاباضية فى موكب التاريخ، الحلقة الأولى ١١٦. (٢٨٥)

غير أن الافناء بتحريم الزكاة بحجة صيانة ماء وجه السائل فتوى على خلاف الكتاب والسنة، ولو كان ذلك موجبا للتحريم لصدر فيه نص عن رسول الله لكثرة الابتلاء بها. أضف إلى ذلك أنه سبحانه يأمر باعطاء السائل وعدم نهره، يقول سبحانه: (وَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (١). وقال سبحانه: (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) (٢). وقال سبحانه: (وَ آتَى الْمِالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ) (٣)، والآية مطلقة تعم مورد الزكاة وغيره لولم نقل بورودها فيها. *** _____

١. المعارج: ٢٤ - ٢٥.

٢. الضحى: ١٠.

٣. البقرة: ١٧٧. (٢٨٦) (٢٨٧) خاتمة المطاف قد تعرّفت فى ماسبق على عقائد الاباضية وخصائصهم وقد اخترنا منها أموراً ثمانية بقى هنا أمر طيب لنا أن نلفت نظر القارىء إليه: أ - إن الاباضية لتجويزهم التقية جعلوا مسالك الدين أربعة تنتهى فى المرحلة الرابعة إلى الكتمان المساوق للتقية، فقالوا: مسالك الدين أربعة: ١ - الظهور ٢ - الدفاع ٣ - الشراء ٤ - الكتمان. إن لاباضية لجنة تقوم بالاشراف الكامل على شؤون المجتمع الاباضى تسمى بـ «العزابة» ولأجل إيقاف القارىء على خصوصيات وصلاحيات هذه اللجنة وشؤونها نأتى بنص كتابهم، فإليك البيان: مسالك الدين عند الباضية: إن المجتمع الإسلامى إما أن يكون ظاهراً على أعدائه، حرّاً فى أراضيه، مستقلاً بأحكامه، عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله، منفذاً لأحكام الدين، لا يخضع (٢٨٨)

لأجنبى بوجه من الوجوه، ولا يستبد به حاكم، ولا يطغى عليه ذو سلطان، فهذه الحالة هى حالة الظهور، وهى أكمل الحالات للمجتمع

المسلم، و عليها يجب أن تكون الأمة، لأنها المنزلة التي ارتضاها الله للمؤمنين (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ). فإذا انحدر المسلمون عن هذا المقام، وتضاءلوا عن هذا الشرف، ونزلوا عن هذه المرتبة التي رفعهم إليها الإيمان بالله، والثقة فيه، فيجب أن لا يهادنوا الظلم، وأن لا يستكينوا للطغيان، وأن لا يسمحوا للأيدى العابثة، أن تعبت بمقدرات الأمة، فتنتهك حرمتهم، وتحول دون أمور دينهم، وتتحكم في أعمالهم وعباداتهم، وتتصرف في أموالهم بغير التشريع الذي وضعه عالم الغيب والشهادة، والهدى الذي تركه محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - لأبناء الإسلام. إذا انحدرت الأمة إلى هذه الوهدة، فيسيطر عليها عدو أجنبي، أو تخلى - من أولته الأمة ثقته، وأسلمته مقاليدها، ووضعت بين يديه رعايتها - عن الأمانة، وحاد بها عن الطريق، وخان الله ورسوله والمسلمين فيما وضع بين يديه، وجب حينئذ أن يقف المسلمون في طريق تلك الدولة الباغية، يأمرونها بالمعروف، وينهونها عن المنكر، ويلزمونها أن تسلك بهم طريق الصواب، فإذا اعتزت بالإثم، واستمر أن طعم الظلم، واستكبرت أن تخضع لأمر الله، وأن ترجع إلى سبيل الله، فحينئذ يأتي القسم الثاني من التنظيم الإسلامي وهو الدفاع، والدفاع في مسالك الدين يرادف ما يعبر عنه في العصر الحاضر بالثورة... الثورة على الاستعمار الأجنبي، أو الثورة على الاستعمار الداخلي: كالثورة على الظلم، والثورة على الاقطاع، والثورة على الفساد، والثورة على الانحراف عن دين الله في كل مظاهره وأشكاله. والزعيم الذي يقود هذه الثورة يسمى «إمام الدفاع» وله على الأمة الثائرة حق الطاعة والامتثال، مادامت (٢٨٩)

الثورة قائمة، فإذا استقرت الأمور، ورجعت إلى الهدوء والاستقرار، أصبح واحداً من أفراد الأمة، له حقوقهم، وعليه واجباتهم، ورجوع الأمور إلى نصابها يكون بأحد أمرين: إما نجاح الثورة، وإما فشلها، ونجاحها يكون بأحد أمرين: إما استجابة الدولة لمطالب الأمة، ورجوعها إلى أحكام الله، وفي هذه الحالة ينتهي عمل الثورة إلى هذا الحد. وإما الإطاحة بالنظام الفاسد، وقلب الحكم الظالم، وتغييره إلى نظام إسلامي، يتمشى مع التشريع الذي جاء به كتاب الله الكريم، وعندئذ أيضاً لا يكون لزعيم الثورة أو أمير الدفاع، أي حق في الحكم، إلا إذا اختارته الأمة، لشروط توفرت فيه بعد الهدوء والاجتماع والتفكير والمفاضلة، حسب الشروط المتبعة في اختيار أمير للمؤمنين. فإذا ضعف المسلمون حتى عن هذا الموقف، وأصبحوا لا يستجيبون لداعي الثورة، ويفضلون طريق السلامة، ويركنون إلى الدعة والاستراحة، جاء المسلك الثالث من مسالك الدين، وهو الشراء: فحق لقلّة منهم إذا بلغوا أربعين شخصاً أن يعلنوا الثورة على الفساد، وبما أنّ هذه الثورة التي يقوم بها عدد قليل، لا يتوقع لها النجاح في كفاحها ضدّ دولة ظالمة مسلّحة، وأمة مسالمة راضية بالذل، فإن هذا التنظيم يشبه أن يكون شغباً على دولة ظالمة حتى لا تطمئنّ إلى تنفيذ خططها الجائرة، وقد لا تكون لها نتائج غير هذا القلق الذي يخيم على الظالمين، والتوجس والخوف الذي يسود أعمالهم وحركاتهم، ولذلك فقد اشترط لهذا التنظيم، شروط قاسية لا يقبلها إلاّ الفدائيون، الذين وهبوا حياتهم لحياة الأمة، وذلك أنّه لا يحلّ لهم بعد أن ينخرطوا في هذه المؤسّسة، أن يعودوا إلى بلادهم، أو يستقرّوا في أمكنتهم، أو يتخلّوا عن رسالتهم، حتى ينتهي بهم الأمر إلى النجاح أو القتل، والقتل أقرب الأمرين إليهم، وعندما تضطرّ الظروف أحدهم إلى منزله لشأن من شؤون تمديد الثورة، (٢٩٠)

كالتزوّد، فإنّه يعتبر في منزله غريباً مسافراً يقصر الصلاة. ولكنّه عندما يكون في شعف الجبال، أو بطون الأدوية، يقطع المواصلات على الطغاة، أو يهدم الجسور التي تمرّ بها القطر الظالمة، أو يقتلع أسس القلاع التي تجمع ذخيرة الجبابرة، حينئذ يعتبر في منزله وبين أهله، وهم في كلّ ذلك لا يحلّ لهم أن يروّعوا الأمنين، أو أن يسيئوا إلى المسالمين. إنّ تنظيم رائع للفدائية في الإسلام عندما يتحكم الظلم، ويستعلى عبيد الشيطان، وتعطل أحكام الله بأحكام الإنسان، يقول أبو إسحاق: «الشراء من أخص أوصاف الاباضية». فإذا رضيت الأمة بالذل، واستسلمت للظلم، وجرى عليها حكم الطغاة، ولم يبق فيها من يثور لكرامة الإسلام المهدرة، وللشرف الرسالة التي أعزت الإنسانية، وتغلب حبّ الدعة على كلّ فرد، وركن الجميع إلى الراحة، فلم تتكوّن حتى الفدائية التي تقصّ مضاجع الظالمين، وتذكّرهم أنّ حكمهم لن يقر، وأنّ كراسيهم لن تستقر، وأنّ المقاومة لا تزال هي أمل المؤمنين، وأنهم سوف يحاسبون أمام الله، والأمة حساباً عسيراً. إذا ضعفت الأمة حتى عن هذه المرتبة، أصبحت تحت التنظيم الأخير، تنظيم الكتمان. وعندئذ يجب أن يتعد المؤمنون عن

مساعدته الظالمين بتولى الوظائف الظالمة ، وأن تتولى شؤونهم جمعيات تبث فيهم هداية الله، وتملاً قلوبهم بالإيمان بالله، وتنتشر فيهم المعرفة والثقافة الإسلامية التي تبصيرهم بدين الله، فلا تكون علاقتهم بالظالمين إلا في أيسر طريق، وأضيق مجال، فيما يتعلق بجباية الأموال المفروضة عليهم للحاكمين، وهي الجمعيات، أو ما يسمى في التنظيم الاباضي «بحلقة العزابة» (١) .

١. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٩٣ - ٩٦ . (٢٩١) العزابة: تعريف العزابة: العزابة هيئة محدودة العدد، تمثل خيرة أهل البلد علماً وصلاًحاً، وهذه الهيئة تقوم بالاشراف الكامل على شؤون المجتمع الاباضي، الشؤون الدينية، والشؤون التعليمية، والشؤون الاجتماعية، والشؤون السياسية. وهي في زمن الظهور والدفاع تمثل مجلس الشورى للإمام أو عامله ومن ينوب عنه. أما في زمنى الشراء أو الكتمان فهي تمثل الإمام وتقوم بعمله. تختار هيئة العزابة من بينها شيخاً يسمى «شيخ العزابة» يكون أعلمهم وأكثرهم كفاءة، ولا يشترط فيه أن يكون أكبر هم سنّاً، والشيخ يرأس الهيئة في جلساتها، ويمثلها في جميع أعمالها، ويتكلم باسمها، وينفذ قراراتها، ويتولى الاشراف المباشر على جميع شؤون البلد أو الأمة، ويجب أن تعرض عليه جميع المشاكل والأحداث، وحكمه بعد قرار الهيئة نافذ في جميع الأحكام. اشتقاق كلمة العزابة: اشتقت هذه الكلمة من العزوب أو العزابة، وهي تعنى العزلة، والغربة، والتصوف والتهجد، والانقطاع في رؤوس الجبال، ويقصد بها في هذا الاستعمال الانقطاع إلى خدمة المصلحة العامة، والاعراض عن حظوظ النفس، والبعد عن مشاغل الحياة، من أهل ومال وولد، فإن العزابي لا يعطى لهؤلاء من جهده ووقته إلا القليل، أما أعظم طاقته فيجب أن يصرفها لله في خدمة المسلمين، دون مقابل يتقاضاه على عمله، أو أجر يروحه منهم، لأن أجره وحسابه على الله. معنى كلمة الحلقة: كلمة الحلقة استعمال ثان يقصد به هيئة العزابة، فهي مرادفة لها، وقد أخذت هذه الكلمة من التحليق، وهو الاستدارة، وذلك ان العزابة في اجتماعاتهم الرسمية يجلسون على هيئة حلقة أو دائرة، وهو أنسب وضع لتبادل الآراء، ودارسة وجهات النظر المختلفة. (٢٩٢) كما أن الجلوس على هذا الوضع أفضل حال عند الدراسة، أو تلاوة القرآن الكريم، والاتجاه إلى الله بالدعاء . مقر العزابة: المقر الرسمي للعزابة يكون في المسجد، ولذلك فلزام أن يكون في جانب من جوانب المسجد بيت خاص بالعزابة، ويستحسن أن يكون بعيداً عن مجالس الناس، حتى لا تسمع المداولات التي تجرى فيه، وهذا البيت الخاص بهم لا يجوز لغيرهم الدخول إليه مطلقاً، ويتحتم على الجدد منهم أن يقوموا بتنظيفه ومراقبته وفرشه وملاحظة جميع ما يلزمه، وفيه تحفظ وثائقهم فلا يطلع عليها أحد غيرهم. وجميع المداولات والمناقشات والمباحث التي تجرى داخله تعتبر سرية، لا يجوز اخراجها وافشاؤها لأى سبب من الأسباب، ماعدا القرارات التي تتخذ للتنفيذ فيتولى الشيخ اعلانها، وقد ينوب عنه أحد الأعضاء الآخرين، ولا يجوز للعزابة أن يناقشوا أى موضوع في غير مقرهم الرسمي، وبعد أن ينتهوا إلى قرار في أى موضوع يحق لهم أن ينتقلوا إلى مكان آخر لتنفيذ ذلك القرار، إذا كان تنفيذه يقتضى منهم الانتقال، وإذا أصدروا أمراً في شأن من الشؤون الاجتماعية للبلد، كتحديد المهور، أو تحديد الأسعار، أو بدء العمل في المواسم الزراعية، أو ما شاكل ذلك، فلم يستجب الجمهور لقرارهم، اعتصموا في مقرهم، ولزموا المسجد دون أن يقوموا بأعمالهم المعتادة، وامتنعوا من دخول الأسواق والبلد، حتى يستجيب الناس للحكم، ويقوموا بتنفيذ الأمر، ولم تحدث مثل هذه الحالة عند الاباضية في ليبيا، إلا عدداً قليلاً من المرات، استجاب فيها الناس لأمر العزابة بأسرع ما يمكن، بل لقد كان الناس يسارعون حين يسمعون بمثل هذا الموقف من العزابة، فيقنعون بعضهم، ويبلغون موافقتهم إلى المجلس قبل حضور وقت الصلاة الثانية، فتسير الأمور في معتادها. (٢٩٣) عدد أعضاء الحلقة: يتراوح عدد أعضاء الحلقة بين عشرة أعضاء وستة عشر عضواً، يوزع عليهم العمل كما يأتي: ١ - شيخ العزابة: ويكون أعلم القوم، وأقواهم شخصية، وأقدرهم على حل المشاكل. ٢ - المستشارون: ويكون عددهم أربعة لا يزيدون ولا ينقصون، ويلزمون الشيخ، ولا يقطع أمراً دون موافقتهم. ٣ - الإمام: شخص واحد، يقوم بصلاة الجماعة، ويجوز أن يكون أحد الأربعة المستشارين. ٤ - المؤذن: وهو شخص واحد مسؤول عن تحرى أوقات الصلاة، والقيام بمهمة الأذان، ويصح أن يكون أحد الأربعة المستشارين. ٥ - وكلاء الأوقاف: يخصيص عضوان للاشراف على الأوقاف، وعلى ميزانية الحلقة، وضبط الواردات والصادرات، وطريقة اصلاح وتميمه الأوقاف، ويشترط في هذين العضوين بالاضافة إلى الشروط العامة لأعضاء الحلقة، أن لا يكونا من الأغنياء

المكثرين، ولامن الفقراء المعوزين، ولكن من متوسّطي الحال المستورين. ٦- المعلمون: يخصّص ثلاثة أعضاء أو أكثر أو أقل حسب الحاجة، للاشراف على التربية والتعليم، وتنظيم الدراسة، ومراقبة التلاميذ في المحاضر، وهي دور التعليم، أو في الأقسام الداخلية، وما إلى ذلك من شؤون التعليم. ٧- حقوق الموتى: يخصّص أربعة أعضاء أو خمسة للاشراف على حقوق الموتى، فيتولون الاشراف على غسلهم، وتجهيزهم، والصلاة عليهم، ودفنهم ومراقبة تنفيذ وصاياهم، وتقسيم تركاتهم حسب الفرائض في أحكام (٢٩٤)

الإسلام. وإذا توفّي شخص وهو في براءة المسلمين بأن مات على معصية، فإنّ هؤلاء العزّابة لا يقومون بحقوقه، لأنّ العاصي لاحق له على المؤمنين، ولكنهم يسمحون لمن شاء من غير أعضاء الحلقة أن يقوم بتلك الحقوق، ذلك أنّ القيام بأمر الميت فرض على الكفاية، إذا قام به البعض أجزى عن الباقيين. شروط العضوية: يشترط في أعضاء العزّابة عدّة شروط، منها: ١- أن يكون حافظاً لكتاب الله. ٢- أن يمرّ بمراحل الدراسة مرحلة مرحلة، ويستوفى الدراسة فيها. ٣- أن يكون محافظاً على الزّي الرسمي للطلبة عندما كان في الدراسة، وللزّي الرسمي للعزّابة عندما يدخل الحلقة. ٤- أن يكون أديباً كيساً فطناً، ذا لباقة ومهارة في تصريف الأمور. ٥- أن يكون محبباً للدراسة راغباً فيها، مواصلاً للتعلّم والتعليم. ٦- أن لا تكون له مشاغل دنيوية كثيرة تحمله على كثرة التردّد على الأسواق، والاختلاط بالعاميّة والسوق، واختلاطاً يزرى بمقامه، ويذهب بهيته. ٧- أن يغسل جسده بماء ويغسل قلبه بماء وسدر، وهذه عبارة اصطلاحية، يقصد منها أن يكون الإنسان نظيف اليد، والبطن، والعين من أموال الناس، وأن يكون نظيف القلب من جميع أمراض القلوب، أي أن يكون طاهر الباطن والظاهر. وقد شرح أبو عمار عبد الكافي هذه العبارة، بقوله: «أما الجسد فيغسله من الدنس في الناس، وأما القلب فيغسله من الغش والتكبر وما أشبه ذلك ممّا يوجب حبط العمل» والعبارة كماترى في غاية الدقّة، وهي تحتل أكثر ممّا أشرت إليه وأشار إليه العلامة أبو عمار فتأملها، فكلمّا تأملتها وجدت فيها (٢٩٥)

معنى جديداً.... ولقد شدّد المشايخ في تنظيف المؤمن لقلبه، لأنّ أدران القلوب أشدّ قذاراً من أدران الأبدان، ولذلك أوجبوا عليه أن يغسل جسده بالماء، وأن يغسل قلبه بماء وسدر، وهي كناية تفيد الحرص الشديد على نظافة الباطن أكثر من نظافة الظاهر، فإنّ من طهرت سريره حسنت سيرته، واستقامت أموره، وكثرت محاسبته لنفسه، ورعايته لسلوكه، وفي ذلك النجاح. واجبات الحلقة: على هيئة العزّابة واجبات أكيدة هي مسؤولة عنها باعتبارها هيئة، وتتلخّص هذه الواجبات فيما يلي: ١- الاشراف على التعليم وتهيئة الوسائل لذلك، وتيسير السبل أمام جميع الأطفال لينالوا قسطاً من الدراسة، ويتعلّموا جزءاً من القرآن الكريم وما يعرفون به أمور دينهم، وهذا أقل ما يمكن أن يتاح للطفل، فإذا كانت أسرة الطفل فقيرة بحيث لا تستغنى عن مجهوده الضعيف، أو ليس لها ما تمّونه به أوقات الدراسة، وجب أن تقدّم له مساعدة، وذلك بالانفاق عليه. ٢- مراعاة الحالة الاجتماعية للناس، وتيسير سبل الحياة للفقير والضعيف وإيجاد العمل للجميع، وذلك بمطالبة الأغنياء وأصحاب اليسار أن يستعينوا بالفقراء في انجاز أعمالهم مقابل أجور، كثيراً ما يعينها أعضاء العزّابة. ٣- حلّ المشاكل التي تنجم بين الناس، والفصل في قضاياهم، والحكم بينهم في خصوماتهم وإيصال الحقوق إلى أصحابها. ٤- الاشراف على أوقاف المساجد، وعلى ميزانية الحلقة أو ضبط المصادر والوارد، وانفاق جميع ذلك في وجوهه، والعمل على تنمية الأوقاف الثابتة، وإصلاحها، واستغلالها أحسن استغلال. ٥- حفظ الأسواق ومراقبتها من أن تقع فيها معاملات لا يبيحها الشرع، أو (٢٩٦)

أن ترد إليها أموال مسترابة أو مشبوهة. ٦- تنظيم الحراسة البلدية على أموال الناس من زراعته وماشيه حتى لاتصل إليها أيدي الغارة والسرقة والاضرار. ٧- الحكم على العصاة والمجرمين وتأديبهم، وإعلان البراءة منهم، وقطع التعامل معهم حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الله. ٨- القيام بالعلاقات الخارجية وتنظيمها، سواء كانت علاقات حرب أو سلام. هذه بعض المهام التي تناط بمجلس العزّابة باعتباره هيئة مسؤولة عن المجتمع أمام الله وأمام الناس، وعلى الهيئة أن توزّع الأعمال على الأعضاء حسب الكفاءة والمقدرة، والذي يقوم بذلك إنّما هو الشيخ بعد اتّفاق الحلقة. أين تنشأ حلق العزّابة: تنشأ حلق العزّابة في كل بلد أو قرية، وحلقه العزّابة هم الذين يشرفون على أمور البلد أو القرية الخاصّة، فإذا كان هنالك أمر هام، أو حدث أكبر من مستوى القرية أو البلد رفع إلى المجلس الأعلى للعزّابة الذي

يرأسه الشيخ الأ-كبر، أو حاكم الجبل حسبما كان في جبل نفوسة، وذلك كمسائل ايقاع الحدود، وما يتعلّق بالأمن العام، وما إلى ذلك من المشاكل التي تكون أكبر من المستوى المحلي للقريّة، والهيئة الكبرى للعزّابة أو الهيئة العامّة لهم هي الهيئة التي يرأسها الشيخ الأكبر، ولا بدّ أن يكون شيخاً للعزّابة في بلده ويقوم مقام الإمام في أزمته الكتمان، أمّا أعضاء العزّابة الذين يكونون معه فهم المستشارون، ويكونون من شيوخ حلق العزّابة في بلدانهم. ومقرّهم هو مركز البلاد وعاصمتها، ولهم مع الشيخ اجتماعات دورية، مرّة في كلّ ثلاثة أشهر، ومتى دعت الحاجة. وأحكام هذا المجلس نافذة على جميع البلاد، وكلّ الحلق خاضع مادياً وأدبياً لهذا المجلس، ويعتبر السلطة الحقيقية للمجتمع (٢٩٧)

الاباضي، أمّا بقية الحلق فهي مساعدة له، منقّذة لأعماله، ويجب على الشيخ الأكبر للعزّابة ان يكون مقرّ حكمه في مركز البلاد، فإذا اختار السكن في غير ذلك المكان فعليه أن يباشر الأحكام في مركز الحكم لا في محل السكن كما كان يفعل أبو هارون موسى بن هارون، وأبو عبدالله بن جلداسن اللالوتي، وأبو يحيى الارجاني، وغيرهم. إنّ شيخ العزّابة في المجتمع الاباضي يمثل سلطة الإمام العادل، ويقوم بجميع مهامه في النطاق الذي تسمح به ظروف الحياة في زمن كل واحد منهم. وهو مقيد بمجلس الشورى الذي لا يحق له أن يصدر رأياً قبل موافقته، اللهمّ إلا في الأحكام الثابتة في الدين الإسلامي، وله أن يستعين بشخص يقوم له مقام المفتي، والقصد من هذا المفتي هو تحرير نصوص الحكم المستمّدة من الشرع الشريف، أو المساعدة على ترجيح الأقوال في المسائل الخلافية التي تتعدّد فيها وجهات أنظار الفقهاء. وليس المقصود من وجود المفتي أن يبصر الشيخ بأحكام لا يعرفها، لأنّ شيخ العزّابة يشترط فيه أن يكون من أعلم المشايخ، إذا لم يكن أعلمهم. وفي الاجتماعات الدورية التي تعقد في ثلاثة أشهر، أو في ستّة أشهر، يحضر ممثلون عن جميع حلق العزّابة، ويستعرضون ما لديهم من مشاكل، ويدرسون معاً وضع المجتمع، ويتخذون في ذلك القرارات اللازمة، يرسمون خطط السير في المستقبل، على أنّه يحق لكل حلقة أن تتصل بالمجلس الأعلى وتدعوه للانعقاد إذا كانت هنالك أسباب تدعو إلى ذلك، كما أنّ لها الحق أن تعرض مشاكلها الخاصة على الشيخ الأكبر، وتقتبس منه الرأي والنصيحة. ويمثّل كلّ حلقة من حلق العزّابة شيخها وبعض مستشاريه، إلا في أحوال الضرورة التي يتعدّر فيها عليه أن يقوم بهذه المهمة. (٢٩٨) اختيار أعضاء الحلقة: يراعى في اختيار العزّابة بالإضافة إلى الشروط التي يجب أن تتوفر في كل شخص أن يكونوا ممثلين للقبائل أو الجهات التي يشتمل عليها البلد، ولا يشترط تساوى العدد، كما أنّه إذا لم يوجد في قبيلة ما، من تتوفر فيه الشروط الشخصية أخذ من غيرها، وعندما يحتاج العزّابة إلى اضافة عضو جديد إلى الحلقة يأخذونه عن أحد طريقين: إمّا أن يطلبوا من القبيلة التي يراد أخذ العضو منها أن ترشّح عدداً من تتوفّر فيهم شروط العضوية والكفاءات المطلوبة مع الشهرة بالصلاح، والتقوى، والعفاف، والنزاهة، وحب الخير، والايثار، والتضحية، والعمل للصالح العام، فتختار الهيئة واحداً منهم، وإمّا أن يطلبوا إلى منظمة «إيزوان» أن يقدّموا إليهم واحداً ممن يملأ ذلك الفراغ. حين يتعيّن العضو لأن يشغل مركزاً في العزّابة، يدعى إلى مقرّهم الرسمي ويتولّى الشيخ تعريفه بالسيّرة التي يجب عليه أن يسيرها، وبالأدب الذي يلتزمه، ويؤكد عليه أن يعرف أنّ من أوكد الواجبات عليه أن يحافظ على آداب الإسلام، ويتخلّق بأخلاقه الحميدة، من الاستقامة والنزاهة، والعفة، والانقطاع إلى خدمة الأمة، والتزام المسجد، والاعراض عن حظوظ الدنيا إلا بمقدار الضرورة، والاجتهاد في العبادة، والتواضع للمؤمنين، والغلظة على العصاة والمجرمين، وأن يكون قدوة حسنة للناس في قوله وفي عمله، وأن يتحرّى في رزقه التحرّي الكامل، ويختار له أن يكون مجال احترافه الزراعة، لأنّ التجارة تسبّب له احتكاكاً مباشراً بالناس، فيغلب أن لا يسلم منها بالحق أو بالباطل، وهم يلخّصون هذا الموقف في عبارة مشهورة متداولة هي: «أن لا يكون في مسجده، أو حقله أو بيته» وبعد أن يعرّف بجميع ما يترتب عليه من حقوق وواجبات، وما يلقي عليه من مهام ومسؤوليات، يطلب (٢٩٩)

إليه أن يعلن عن قبوله أو رفضه، فإذا أعلن قبوله - وهذا ما يحدث فعلاً - أسندت إليه المهام العملية، كأن يقوم بالتدريس أو وكالة المسجد، أو الاشتراك في الاشراف على حقوق الموتى، ثم اعلم أنّه يعتبر أصغر العزّابة، ولو كان أكبر من بعضهم سنّاً، وعليه أن يتولّى خدمتهم، ويطلب إلى سلفه - أي العزّابي الذي كان أصغرهم قبل هذا العضو الجديد - أن يبقى معه ثلاثة أيام، يدربّه فيها على آداب

خدمة العزابة، لأنه يعتبر رئيسه المباشر، وعندما يجلس العزابة يتحتم أن يكون مجلسه بعده... وترتيب مجالس العزابة ضروري، فلا يجوز للمتأخر أن يسبق المتقدم، والعزابي يعتبر رئيساً في أي مكان يوجد فيه، وله وحده حق افتتاح الكلام في المجالس العامة، وكذلك اختتامه، وإدارة المناقشات، وما إلى ذلك، فلا يجوز لتلميذ أو عامي أن يتولى شيئاً من ذلك إلا بإذنه. عقوبة العزابي: المطلوب من العزابي أن يكون قدوة ومثلاً للاستقامة، ولذلك فإن ما يعتبر من غير أخطاء صغيرة يعتبر منه أخطاء كبيرة يجب عليه الاحتراس منها، والابتعاد عنها، وهذا حتى في مكارم الأخلاق، ومعاملة الناس، فإذا قدر عليه فأخطأ، نظر مجلس العزابة في موضوعه: فإن كان الخطأ كبيراً يتصل بمعصية الله، ويسىء إلى سمعة العزابة، أو يلحق إهانة بالمسجد أو استخفافاً بالحق، أو ما أشبه ذلك، وجب عليهم أن يحكموا عليه بالبراءة على الأَشهاد، كما يقع بالنسبة لغيره من الناس، ولا يرفع عنه حكم البراءة حتى يتوب علناً، وليس له بعد ذلك حق الرجوع إلى مجلس العزابة أبداً، فإن من أخرج من هذا المجلس بطريق البراءة لا يحق له دخوله مرة (٣٠٠)

ثانية، وإن تاب ونصحت توبته، ويبقى كسائر المسلمين له حقوقهم وعليه واجباتهم. أما إذا كان الخطأ صغيراً لا يقتضي التوبة، فإنهم يعقدون له مجلس تأديب سري، وقد يحكمون عليه بالابتعاد عن مجلس العزابة لمدة طويلة أو قصيرة حسب الخطأ الذي ارتكبه، وستروا عليه ذلك عن الناس. وبسبب هذا الحكم كان العزابة من أشد المحافظين على الإسلام وآدابه، وقد لخص أحد المشايخ هذه السيرة في عبارة لطيفة فقال: «إن متولّي الناس مثل اللين يغيره أي شيء يقع عليه». كيف تكون نظام العزابة: في أواخر القرن الثالث الهجري وقعت حادثتان كبيرتان، وكان لهما أثر كبير على الاباضية، في ليبيا وتونس والجزائر: الأولى: الحرب الطاحنة بين الأغالبة والاباضية في قصر مانو، وقد تلقى فيها الاباضية ضربة عنيفة من يد الطاغية أحمد بن الأغلب. أما الثانية: فهي تغلب الشيعة على الدولة الرستمية في الجزائر، وقضائهم على هذه الدولة. وإذا كانت كلتا الدولتين الأغلبية والشيعة لا تتبعان أحكام الإسلام، ولا تعلمان بها، فقد فكر علماء الاباضية في جعل نظام يسيرون عليه، يحفظون به أحكام الله في مواطنهم، ويسيروا به الأمة في الوجهة الصالحة، دون أن يلتفتوا إلى إعلان دولة جديدة، أو تعلقوا بدولة ظالمة مستبدّة. فاهتدوا إلى وضع هذا النظام، وقد كان في أول الأمر عرفاً يسيرون عليه الناس، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن بكر في أواخر القرن الرابع، (٣٠١)

فحرّره على شكل قانون يشتمل على مواد، ثم طبّقه تطبيقاً كاملاً- في مواطن الاباضية، في ليبيا، ثم في تونس، ثم في الجزائر، حيث لا يزال يطبق بدقّة، وعلى هذا الأساس اعتبر المؤرّخون أنّ الإمام أبا عبد الله هو واضع نظام العزابة، والحق أنّه يعتبر واضعاً لهذا النظام، فولاه لما وصل إلينا على تلك الطريقة المنسيقة، وقد جاء بعد أبي عبد الله عدد من العلماء الكبار عنوا بدراسة هذا النظام عناية خاصّة، وأضافوا إليه بعض المواد، وأطلق عليه بعضهم لفظ «سيرة العزابة» ومن العلماء الذين عنوا به، وكتبوا عنه: أبو زكريا يحيى بن بكر، وأبو عمّار عبد الكافي، وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وقد حرص المتأخرون منهم أن يضيفوا إليه جملاً في آداب العالم والمتعلّم، وآداب حلقة العزابة وما يجب أن تنتزه عنه. والذي يدرس هذا النظام كما شرّحه أولئك الأئمّة الأعلام يخرج بقانون فدّ لنظم التربية والتعليم من جهة، وللسيرة الصالحة التي يجب أن يسيروا عليها المسلمون، فتحفظ عليهم خلقهم ودينهم، عندما تسيطر عليهم دول البغي والعدوان. هذا ملخص يسيروا عليه عن نظام العزابة الذي بقي يسيروا به الاباضية في المغرب الإسلامي مُدّة طويلة. وقد ارتفع حكم العزابة من مواطن الاباضية، في ليبيا وتونس في القرن الأخير، ومنذ ارتفع نظام العزابة في هذه المواطن تسرّب الفساد إلى المجتمع، ولن يستطيع الاباضية أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من دين وخلق واستقامة مالم يعودوا إلى الاستمسك بدين الله واللياذ به، وإن المسلمين جميعاً ما أصيبوا به إلا لانحرافهم عن دين الله، وخروجهم عن منهاجه. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. *** (٣٠٢) نصيحة للاباضية أظن أنّ العالم الاباضي إذا قرأ فصول هذا الجزء لا يرمينا بالبخس لحقّه، والتجاهل لمذهبه، والتساهل في نقل عقائده بعدم الرجوع إلى المصادر الأصلية لهم، كما أنّهم به غيرنا من كتيّاب المقالات (١). وذلك لأننا كما رجعنا إلى كتب المخالفين رجعنا إلى مصادرهم أيضاً، ولنا هنا موقف خاص وهو موقف الناصح الشفيق لآخوانه في الدين، لا يريد من لقاء هذا النصح سوى وجه الله - تبارك و تعالی - ودعم وحدة الأمة وقطع جذور الاختلاف بقدر الامكان. إنّ كتاب الاباضية اليوم وأمس

خرجوا بهذه النتيجة أنه لا فرق بينهم وبين جميع فرق المسلمين إلا في أمرين: ١ - تخطئه التحكيم. ٢ - نفى لزوم القرشية في الإمام.

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/١٩ - ٢٠. (٣٠٣) وأما سائر الأصول التي يعتقدون بها فهم يلتقون فيها مع بعض الفرق الإسلامية، مثلاً يلتقون في القول بعدم زيادة صفاته على ذاته، وامتناع رؤية الله سبحانه في الآخرة، وتزيهه سبحانه عن وصمه التشبيه بتأويل الصفات الخبرية تأويلاً تؤيد قواعد الأدب والمحاورة وحدث القرآن، ففي هذه الأصول يلتقون مع المعتزلة والشيعة الإمامية، وفي تفسير الشفاعة بمعنى ترفيع الدرجة، أو سرعة الدخول إلى الجنة وخلود أهل المعاصي في النار يلتقون مع المعتزلة، وفي تفسير القدر وكون أفعال الإنسان مخلوقة لله سبحانه فهو خالق و العبد كاسب يلتقون مع الأشاعرة (١). إذا سلمنا أن هذه الأصول من عقائدهم وسلمنا أن ما كتبه كتاب الفرق ورموهم به فريه بلا مريمه، نرى أن من الواجب أن تقوم الطائفة الاباضية بالأمور التالية حتى يدعم الوثام ويملاً الفراغ وتصبح الأمة يداً واحدة، وهي: ١ - إن الإيمان بصحة كل ما يكتبونه عن منهجهم ويفسرون به عقائدهم مشكلاً جداً لما وافاك من أن لهم في تبيين الدين مسالك أربعة ومن بين تلك المسالك: «الكتمان والسر» فعندئذ أنه من المحتمل أن تكون كل هذه المناشير مستقاة من هذا المبدأ وأنها دعايات بررتها التقية، وسوغتها المصالح الزميتية. فلأجل استقطاب قلوب الناس، حان حين الشطب على هذه المسالك في تبيين الدين، خصوصاً أن القوم يعيشون في عصر الحرية، وعندئذ لا مبرر لهم للتقية لأن التقية شأن من يخفي عقيدته من مخالفه، ويخاف من ابداء موقفه من الهجوم والقتل والضرب، وأنتم بحمد الله أيها الاباضيون ملتقون مع الفرق الإسلامية في جميع المسائل إلا مسألتين غير هامتين، فأجهروا بالحقيقة واشطبوا على هذه المسالك واتخذوا مسلكاً واحداً.

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/٢٨٩ - ٢٩٧. (٣٠٤) ٢ - إذا كان الحد الفاصل بينكم وبين سائر المسلمين هو الأمران المذكوران، فمن الجدير شطب القلم على هذين الأمرين أيضاً: أما مسألة القرشية فلو كان شرطاً فإتما هو شرط في الخلافة الإسلامية والإمامة الدينية، وأين المسلمون من هذه المنى؟ وأين هم به من إقامة صرح الإمامة، وهم يعيشون في سحيق القومية البغيضة النامية في أقوام المسلمين، والعجب أن الشيخ على يحيى معمر قد تبّه بما ذكرنا، وقال: «والآن قد ألغت الحياة بعض تلك الاعتبارات التي أدخلتها السياسة على الموضوع، واتضح للناس جميعاً أن الصراع الذي وقع بسبب اشتراط الوصية، أو الهاشمية أو القرشية، أو العروبة أو اعتبار الإمام معصوماً، أو لا يجوز اسقاطه ولو كان منحرفاً، كل هذه الجوانب التي كان الخلاف بسببها بين فرق الأمة ثبت اليوم أنه صراع على تفصيلات لا تدخل في أصل الموضوع» (١). إن فيما ذكره وإن كان إغراقاً حيث أن البحث عن الوصاية ليس بالمرتبة التي تخيلها، لأنه كان يجب على المسلمين بعد رحلة النبي أن يبحثوا عن كيفية الاستخلاف وأنه هل هو أوصى برجل أو أدلى الأمر إلى الأمة، ولكن وراء ذلك كله مشاغبات حدثت بين المسلمين، لا تمت إلى الإسلام بصله، فإذا كان شرط القرشية وعدمها هذا فما هو المبرر لجعله أصلاً دينياً. أما مسألة التحكيم، فقد عرفت الحق فيه، ولكنه ليس أصلاً من أصول الدين يناط به الإسلام والإيمان وقد عاش المسلمون في عصر النبي وبعده إلى أواسط خلافة الإمام على - عليه السلام - ولم تكن هذه المسألة مطروحة. أفهل يصح أن نتخذ شعاراً وأصلاً أصيلاً من الأصول كالتوحيد، والنبوة، والمعاد، وما جاء به النبي في مجال المعاش والحياة؟

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢/١٥٠. (٣٠٥) إن مسألة التحكيم مسألة تاريخية اختلف فيها الناس من حيث التصويب والتخطئة، فإذا لم تكن الإمامة عند أهل السنة، أصلاً من الأصول فكيف يكون فرعه أصلاً منها؟ وأقصى ما عند أهل السنة قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» وهو لا يدل على مزيد من لزوم معرفة الإمام الحي، فالاعتقاد بوصف فعل الإمام (صحة التحكيم وعدمه) الذي مضى قبل أربعة عشر قرناً لا يكون أصلاً من الأصول حتى تلزم الأمة بالاعتقاد بأحد الطرفين. نعم إن ذلك لا يمنع عن طرح الموضوع على بساط البحث بين العلماء وبين المدارس والصفوف العلمية من دون أن يكون تحيز كل فئة في المسألة سبباً للفرقة. ٣ - إن الاباضية يثنون على المحكمة الأولى كعبدالله بن وهب، وحر قوص بن

زهير السعدى، وزيد بن الحصين الطائى، ومن لفّ لفّهم من المحكّمه الأولى ولا يذكرون عنهم شيئاً سوى أنّهم خالفوا التحكيم، وأنّ علياً حكّم الرجال فى موضوع له حكم فى الكتاب والسنة وهو قتال أهل البغى... يذكرون ذلك ويظرون عليهم ولا يذكرون من عملهم الإجماعى شيئاً وهو أنّ هؤلاء هم الذين فرضوا التحكيم على الإمام، وأنّ زيد بن الحصين الطائى جاء مع زهاء عشرين ألف رجل مّنعين فى الحديد و نادوا الإمام باسمه لا يامرؤ المؤمنين، وقالوا له: لا بد من الموافقة على وضع الحرب، وإلاّ نقتلك كما قتلنا عثمان، فاضطرّ الإمام إلى التنازل والموافقة بعد ما خالفهم واحتجّ عليهم بأنّ رفع المصاحف خدعة ومكيدة، وأنّه يعرف هؤلاء وأنّهم كانوا شرّ أطفال فصاروا شرّ رجال . هذا هو زيد بن الحصين الطائى فهو بعد فترة قصيرة أصبح مخالفاً للتحكيم إلى حدّ كان هو المرشّح الأوّل للخوارج فى قضية سوق المحكّمه إلى النهروان، (٣٠٦)

ولمّا امتنع من قبول القيادة اقترح على حرقوص بن الزهير السعدى، ثمّ على غيره فقبل القيادة فى النهاية عبدالله بن وهب الراسبى (١). فكيف يتولّون جماعة متسرّعين فى القضاء تسمّونهم أئمة وشهداء ولا تذكرون من عملهم الاجرامى شيئاً؟! شهد الله انى لم أر كلمة فى كتبهم تذكر عملهم الاجرامى فى أمر التحكيم. ٤ - إنّ الاباضية وصلت فى ضوء الاجتهاد المطلق مرتبة جديرة بالذكر وآية ذلك أنّهم التقوا فى مسألة الرؤية، وعيية الصفات، وحدث القرآن، وتفسير الصفات الخبرية، مع أهل الوعى والعقل والتفكير من المسلمين، ولا شكّ إنّهم وصلوا إلى هذه الأصول بعد موت عبدالله بن اباض، وجابر بن زيد، ومسلم بن أبى كريمه، والربيع بن حبيب، لأنّ هذه الأصول إنّما صفت وتوّرت وتلاّلت بفضل البحوث الجبارة من أهل الفكر والتحقيق و من فضل ماورث علماء أهل البيت من خطب الإمام أمير المؤمنين على - عليه السّلام - حتى صقلوها ببراهينهم الجليّة، فإذا كان هذا حال مذهبهم فلاى مبرر يسندون مذهبهم إلى واحد من التابعين كعبدالله بن اباض وجابر بن زيد وتلاميذه؟ مع أنّهم لم يكونوا بالنسبة إلى هذه المسائل فى حلّ ولا مرتحل. أضف إلى ذلك أنّ الرجلين كانا من التابعين أخذوا عن الصحابة وبلغوا إلى ما بلغوا من العلم، ولكن بين علماء الأئمة من كان أعلم منهما أعنى أستاذة ابن عباس، ذلك البحر الموّاج - حسب تعابير القوم - بل وبينهم الإمامان الحسن والحسين، وباقر العلوم، وجعفر الصادق (عليهم السلام) وغيرهم فلو كان هناك ملزم للانتساب، فالانتساب إلى الأئمة والأئمة ومن نصّ الكتاب على وجوب ودّه، أولى وأزرم، فإن كان هذا الانتماء غير ممكن فالانتماء إلى

١. الطبرى: التاريخ ٤/٥. (٣٠٧)

جميع الصحابة والتابعين بلا- رفع واحد و خفض آخر، أولى وأحق . ٥ - إذا كان الكتاب و السنة هما المصدران الرئيسيان لدى المسلمين ولديكم فنحن نحيّد لكم دراسة حال حياة الإمام على - عليه السّلام - ومناقبة الواردة فى السنة النبوية، ولعلكم عند ذلك سترجعون عن ولاء المحكّمه الأولى، وتخطّون منهجهم وأعمالهم. هذه أمنيّة وأمنيّة كل ناصح مشفق، عسى الله أن يجمع كلمة المسلمين ويلمّ شعّتهم، ويجعلهم يداً واحدة قبال المعتدين والمستعمرين، والله رؤوف رحيم. ***

الفصل الحادى عشر مؤسس المذهب الاباضى

الفصل الحادى عشر مؤسس المذهب الاباضى ودعائه فى العصور الأولى (٣١٠) (٣١١) قد تعرّفت على عقائد الاباضية وشيئاً من أصولهم وفقههم وسيرتهم والمسالك الأربعة عندهم، فحان التعرّف على أئمتهم و دعائهم فى القرون الأولى، خصوصاً أنّ الاباضية هى الفرقة الوحيدة الباقية من الخوارج المنتشرة فى مناطق مختلفة أعنى عمان، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر، المغرب وزنجبار. ١ - عبدالله بن اباض، مؤسس المذهب: هو عبدالله بن اباض المقاعسى، المرمى، التميمى - من بنى مرّة - ابن عبيد ابن مقاعس من دعاء الاباضية بل هو مؤسس المذهب. قد اشتهرت هذه الفرقة بالاباضية من أوّل يوم، وهذا يدل على أنّه كان لعبدالله بن اباض دور فى نشوء هذه الفرقة وازدهارها، وإن كانت الفرقة يطلقون على أنفسهم أسماء أخرى يشترك فيها سائر المسلمين كأهل الإسلام وأهل الحق أو جماعة المسلمين، وغير ذلك، غير أنّ هذه الأسماء لم تكن وافية بالتعرّف عليهم بل كان المعرّف لهم عنوانين: ١ - القعدة ٢ - الاباضية. كل

ذلك يشرف الإنسان على الاطمئنان بأن لابن اباض تأثيراً هاماً في (٣١٢)

نشوء هذه الفرقة، وإليك البيان: ظهور خط الاعتدال بعد مقتل الإمام: قد عرفت أن علياً - عليه السلام - قد قضى على الخوارج الذين كانوا يثيرون الشغب، ويستعرضون الناس بالسيف، فلما مضى على - عليه السلام - وضع معاوية بن أبي سفيان السيف في الخوارج واستأصل شأفتهم لما كانوا يرتكبون من الأعمال الإجرامية التي عبر عنها على - عليه السلام - في خطبه له: «كلاً والله إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء. كلما نجم منهم قرن قطع، حتى يكون آخرهم لصوصاً سلايين» (١). وقال - عليه السلام - مخاطباً لهم: «أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة» (٢). ففي هذه الظروف القاسية وجد بينهم رجل يملك شيئاً من العقل ورأى أن تلك الأعمال الإجرامية تسقطهم عن العيون ولا تبلغهم إلى الهدف، وهو «أبو بلال مرداس بن حدير» ونقطة البداية في دعوة أبي بلال كانت هي انكار مسلك العنف وما يذهبون إليه من قتل المخالفين واستعراض الناس، فأمر أتباعه أن لا يُجرّدوا سلاحاً، ولا يقاتلوا مسلماً إلا - إذا تعرّضوا لعدوان، أو واجهوا قتالاً، فكان عليهم حمل السلاح دفاعاً عن النفس، وينقل البلاذري عنه قوله: «إن تجريد السيف واخلافه السبيل لأمر عظيم، ولكننا نشدّ عنهم ولا نجرّد سيفاً»

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٦٠.

٢. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ٥٨. (٣١٣)

ولا- نقاتل إلا من قاتلنا» (١). ويؤيد الكاتب أن خط الاعتدال، ظهر بعد مقتل الإمام على - عليه السلام - بقوله: «إن هذا المسلك (التطرف) منهم، دعا بعض من كانوا يوازرونهم، إلى مخالفتهم، والافتراق عنهم، بل وتوجيه شديد النقد عليهم،... هذا البعض - الذي تشدّد بعد أن كانوا لهم مؤيدين - بدا لهم رأى غير الذى ارتأوه جميعاً ورأوا أن علياً وإن أخطأ في قبول التحكيم، وإن لم ينزل عند طلبهم عليه التوبة ممّا فعل، وكذلك سائر أهل القبلة الذين مازالوا على الشهادتين، إنّما هم مسلمون لا يجوز قتالهم، ولا سبى نساءهم، وليست أموالهم غنيمته، وإن قتالهم لا يكون إلا في حالة بغى وعدوان منهم، فهنا يجب القتال بمقدار ما يلزم لدفع العدوان وردّ البغى (٢). ويقول: إن المحكمه بعد واقعه النهروان افتقدوا وحدة الصف، وشاعت فيهم الفرقة، وساد الاضطراب، ممّا دفع بعضهم إلى الغلو في التطرف، وتنكّب الطريق السوى، ووجد بينهم من استنكره ولم يجد بداً من الافتراق عن هؤلاء الذين عرفوا بالخوارج، إيماناً منهم بأن طريق الاستعراض بالسيف، ليس هو طريق الإسلام، وقد كان على رأس هؤلاء - الذين عرفوا بالقعدة - أبو بلال مرداس ومن خلفه من الدعاة الذين عرفوا فيما بعد بالاباضية (٣). وقد تأثرت عدّة من الخوارج بهذه الفكرة واستفحلت دعوة أبي بلال، وظهرت معالمها، غير أن بنى أمية لم يكونوا يرضون بوجود قدرة ماثلة أمامهم،

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٣٨ وما نقله عن البلاذري مذكور في الأنساب ٥/٩٤.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٠٥ و ١٣١ - ١٣٢.

٣. نفس المصدر. (٣١٤)

فلأجل ذلك استعمل ابن زياد (والى البصرة) بعد موت أبيه زياد بن أبيه، الشدّة والقسوة على جميع المحكمه متطرفيهم ومعتدليهم، فقتل أبا بلال مرداس بن حدير في منطقة نائية عن البصرة (١) كما قتل أخاه عروة بن اديه (٢) في البصرة فقطع أيديه ثم صلبه. ففي البصرة أتبع عمال الأمويين سياسة البطش والتعذيب والنفي والقتل ضدّ معارضيههم بصفه عامه، ولم يستثنوا من هذه السياسة جماعة القعدة، ورغم أن هذه الجماعة لم تأخذ بأسلوب الخوارج في التطرف والعدوان، وترويع الآمنين، ورفع السيف في وجه الدولة، إلا أن عمال بنى أمية في بلاد العراق، شدّدوا عليها خوفاً من دعوتها التي كانت تستسرى بين الناس، وتحاشياً للشرق قبل وقوعه، وقمعاً للنفاق قبل أن ينجم. وازاء هذا الإضطهاد لجأت القعدة إلى السريّة والكتمان، وظلّوا على هذا الأمر (إلا في فترة ثورة ابن الزبير) حتى جاء عصر الحجاج بن يوسف الذى قام بدوره في اضطهاد من ينكشف لديه أمره (٣). وبعد ما ثار عبدالله بن الزبير على عمال يزيد، ودانت له الحجاز والعراق، فعند ذلك اجتمعت الخوارج وعلى رأسهم نافع بن الأرقق وعبدالله بن صفار وعبدالله بن اباض، فزعّموا أنّه ربّما

يوجد عنده أمنيتهم، ولكن بعدما وقفوا على عقائده في حق عثمان وأصحاب الجمل تفرقوا عنه، وغادروا مكة المكرمة فمنهم من ذهب إلى البصرة ومنهم من ذهب إلى حضرموت. وفي هذه اللحظة الحساسة بدأ الخلاف بين ابن الأزرقي وعبدالله بن اباض

١. قتل أوائل خلافة «يزيد» في منطقة «آسك» قريبة من الأهواز عام ٦٠.

٢. وهو الذي سلّ السيف على الأشعث بعد عقد التحكيم كما عرفت تفصيله.

٣. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: الاباضية في مصر والمغرب: ٣٢ - ٣٣. (٣١٥)

فاختار الأوّل الخروج وسلّ السيف، وقتل المخالفين وسبى النساء وأنكر الثاني هذا التطرف، كل ذلك حوالي عام ٦٤ إلى ٦٥ من الهجرة، فقتل الأوّل بسبب تطرفه في ناحية الأهواز وبقي الثاني يعيش في ظل الاعتدال والتقوية. كل ذلك يعرب عن أن عبدالله بن اباض كان في تلك الفترة رجلاً كاملاً لا يقلّ عمره عن عمر الدعاء الذين يقودون أمه ويتأثرون عليهم، ولعله كان في تلك الأيام من أبناء الأربعين لو لم يكن أكثر، فعلى ذلك نخرج بهذه النتيجة أنه كان من مواليد سنة ٢٤ من الهجرة فيكون أصغر بستين من جابر بن زيد على رواية أو ست سنوات على رواية أخرى. هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى أنه يخاطب عبدالملك بن مروان في رسالته إليه بقوله: «فلا تسأل عن معاوية ولا عن عمله ولا عن صنعته غير أنا قد أدركناه ورأينا عمله وسيرته في الناس، ولا نعلم أحداً اترك للقسمه التي قسم الله، ولا لحكم حكمه الله، ولا أسفك لدم حرام منه» (١). كل ذلك يعرب عن أن عبدالله بن اباض كان رجلاً كاملاً وداعياً قوياً إلى خط الاعتدال وكان هو الناطق باسم هذه الجماعة، فنسب المذهب إليه لأجل ذلك، فكونه هو المؤسس للمذهب أو الداعي القوي إلى خط الاعتدال الذي أسسه أبو بلال هو الأقوى بالنظر إلى النصوص التاريخية، والناظر إلى رسالته التي كتبها إلى عبدالملك بن مروان يجده مناظراً قوياً ينقض دليل خصمه بحجة أقوى من حجته، ونذكر منه نموذجاً: احتج عبدالملك على صلاح معاوية بقوله: «إن الله قام معه وعجل نصره وبلج حجته وأظهره على عدوه بالطلب لدم عثمان....» فأجابه في ذلك

١. الحارثي: العقود الفضية: ١٢٢ كما في «الإمام جابر بن زيد» وسيوافيك نصّ الرسالة برمتها عن مصدر آخر. (٣١٦)

عبدالله بن اباض بقوله: «فإن كنت تعتبر الدين من قبل الدولة والغلبة في الدنيا فإننا لانعتبره من قبل ذلك، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعملون (١) وظهر المشركون على المؤمنين ليبلو المؤمنين ويعلو الكافرين... فلا تعتبر الدين من قبل الدولة...». ولو كان هو الكاتب لتلك الرسالة (٢) ولم تكن مملأة عليه لدل على احاطته بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. كل ذلك يؤيد أنه هو المؤسس الثاني للمذهب بعد انطماس خط أبي بلال. وبما أن في تلك الرسالة احتجاجات على الطغمة الأموية، وفي الوقت نفسه، تعكس الأحوال السائدة في تلك الأيام، تأتي بنصّها في آخر هذا الفصل وهي من الموثيق التاريخية. هذا ما وقفنا عليه بعد الغور في التاريخ. رأى آخر في المؤسس: هناك رأى آخر هو أن المؤسس هو جابر بن زيد التابعي، تلميذ ابن عباس وغيره كما سيوافيك، وأن عبدالله بن اباض كان ناطقاً عن الجماعة التي كان يرأسها ويقودها ذلك التابعي سرّاً وخفاء. يقول على يحيى معمر: «وبعد وفاة جابر بن زيد ظهر عبدالله بن اباض بأجلى مظاهر الغيرة الدينية ولقّن أصحابه مبدأ الإقدام في تقرير الحق، وقمع أهل الجور والظلم،

١. لعلّه إشارة إلى قوله سبحانه في حقّ بني اسرائيل قال: (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَيْدُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) - الاعراف ١٢٩ -.

٢. قد نقل البرّادي في كتاب الجواهر المنتقاة رسالة ابن اباض في ١٥٦ - ١٦٧ والكتاب مطبوع بمصر طبعه حجرية، كما نقلها مؤلف

السير والجوابات لبعض أئمة الاباضية. (٣١٧)

المنحرفين عن جادة الصواب، حتى ظهرت هذه الفرقة الناجية المحققة الصادقة في أدوارها الوجودية في حالتي الكتمان والظهور» (١). وقال أيضاً: «فقد كان يحضر مجلس جابر بن زيد عدد من الطلاب كقتادة، وأيوب، وابن دينار، وحيان الأعرج، وأبي المنذر تميم بن

حويص، ومنهم من يأخذ عنه أكثر ممّا يأخذ من غيره، أو يكاد يختصّ بمجلسه، كأبي عبيدة بن مسلم، وضمام، وأبي نوح الدهان، والربيع بن حبيب، وعبدالله بن اباض، ومن هؤلاء الطلاب من كان يشتغل أثناء التحصيل وبعده بالشؤون العامة، ومنهم من اشتغل بالمسائل السياسية ومطاراتها مع حكام الدولة الأموية في ميدان الكلمة دون استعمال السيف كعبدالله بن اباض، ومنهم من جلس للتدريس وأخذ مكان الإمام كأبي عبيدة أبي نوح الدهان وقام بنفس الدور وتخصّص فيه (٢). إن ما ذكره بصورة أمر قاطع غير ثابت في التاريخ، كيف وأغلب الظن أن عبدالله بن اباض مات قبل جابر وأنه كان يقود أمر القعدة في حياة جابر، وإن كانت الأقوال في زمان حياته مختلفة، فمن قائل إنه مات عام ٨٠ إلى آخر إنه مات قرابة ٨٦، إلى ثالث بأنه مات سنة ١٠٠ بالمغرب ودفن في جبل نفوسه، كما أنه اختلفت الأقوال في حق جابر وأكثر الأقوال إنه مات عام ٩٤، ذكر بعض المؤرخين أنه مات عام ١٠٤، فكيف يمكن أن يكون عبدالله هو القائم بالأمر بعد وفاة جابر؟ ويظهر تقدّم قيادة عبدالله بن اباض على جابر، من الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: قال: إن القعدة أو جماعة المسلمين هم الذين انظموا إلى جابر بن

١. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ١٥١.

٢. الاباضية بين الفرق الاسلامية ٢/١٣٥ - ١٣٦. (٣١٨)

زيد، وانصوا تحت قيادته بعد أن انتهى دور عبدالله بن اباض، فبعد أن رأوا مدى القوّة التي ينعم بها هذا الفقيه الأزدي بسبب مساندة الأزدي له، لدرجته أن الحجاج المشهور بالبطش والعنف لم يجرأ على قتله عندما عرف صلته بالاباضية واكتفى بنفيه إلى بلدة عمان ولم يلبث أن عاد منها إلى البصرة مرّة أخرى، ولم يتعرّض له الحجاج في كثير أو قليل (١). ويقول في موضع آخر: ولتيا أحسن الحجاج بنشاط جابر بن زيد الذي تولى أمر جماعة القعدة بعد عبدالله بن اباض، ألقى به في السجن ثم نفاه إلى عمان، ولما عاد منها، ألقى به في السجن مرّة ثانية، كما سجن قيادات القعدة الآخرين (٢). وهناك نظرية ثالثة وهي أن الرجلين كانا متعاصرين، غير أن المصلحة الزمنية كانت توجب اختفاء جابر وظهور عبدالله بن اباض في الساحة. يقول الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: «لقد آثرت الجماعة أن يظل أمر جابر مستورا ولعل مرجع ذلك مارأوه من عظم الخسارة فيما لو اشتهر أمر جابر وأخذوه بالشدة، فإن ذلك يفقد الجماعة عقلها المدبّر وزعيمها الحقيقي، ولقد بالغ جابر في التخصّي حتى قدّم سواه للتحدّث باسم الجماعة ومناظرة خصومه، وكان عبدالله بن اباض أحد أولئك الذين تحدّثوا كثيراً باسمهم حتى لقد ظن أنه الزعيم الحقيقي للجماعة فنسبها الآخرون إليه، وعرفوها بأنها جماعة الاباضية مع أن عبدالله بن اباض لم يكن إلا واحداً من أفرادها قدّمه زعيمها - جابر بن زيد - للتحدّث عنهم ومناظرة خصومهم» (٣).

١. الاباضية في مصر والمغرب: ٢٠٠.

٢. الاباضية في مصر و المغرب: ٣٣.

٣. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني ١٥٣. (٣١٩) يلاحظ عليه: أنه مجرد استحسان وتحليل حدسي لم يقترن بدليل، وقد عرفت اقتران الرجلين في الولادة والوفاة وظهور عبدالله بن اباض في الدعوة أيام يزيد بن معاوية، ولم يكن يومذاك اسم من جابر ولاخير. ثم إن الكاتب لما رأى أن المذهب منتم إلى ابن اباض طيلة قرون، حاول أن يصحّح وجه النسبة إليه وإنه كان فرداً واحداً من القعدة، وذلك بوجهين: ١ - إن هذه الجماعة لم تطلق على نفسها اسم الاباضية بل كانوا يسمّون أنفسهم أهل الدعوة أو جماعة المسلمين. ٢ - إن تسمية الاباضية إنما أطلقها على هذه الجماعة مخالفوهم في فترات تالية، وربما كان الأمويون كما يرى البعض هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم نسبة إلى عبدالله بن اباض لأن الأخير كان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم، كما أن الأمويين لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر حتى لا يجذبوا إليه الأنظار، ولا يبدؤوا في حياة جابر المشرقة، فتميل إليهم النفوس، فنسبواهم إلى عبدالله بن اباض وهو أقل منزلة من جابر في العلم وإن كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح (١). ولا يخفى ضعف الوجهين: أمّا الأوّل فلأنّ الهدف من التسمية هو التعرّف على المسمّى، ومن المعلوم أن اللفظين المذكورين لفظان عامّان

لا يكونان مشيرين إليه. وأما الثاني: فمجرد حدس لادليل عليه، ولم يكن جابر بن زيد من المشاهير والأعلام بين العلماء والمحدثين حتى تكون التسمية باسمه موجباً للانجذاب، بشهادة أنه ليس لجابر روايات وافرة في الصحاح والمسانيد. _____

١. الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد ١٦١ - ١٦٢ نقلًا عن تاريخ المغرب الكبير، لمحمد علي دبور ٢/٢٩٨. (٣٢٠) ولعل القول الحق ما يذكره الصوافي في آخر كلامه ويقول: إن جماعة الاباضية كانت حريصة على التخفي والتستر ولم تبد كجماعة خارجة، وكان أول ظهور لها عندما راح عبدالله بن اباض يتحدث باسمها ويبعث برسائل إلى الأمير الأموي عبدالله بن مروان، فكان من الطبيعي أن تنسب هذه الجماعة إلى من أبدى للخليفة نفسه على أنه صاحب الرأي والكلمة (١). أضف إلى ذلك أنه لم يثبت كون جابر بن زيد من الاباضية، وسيوافيك أنه كان يصلي خلف الحجاج ويأخذ جوائزه. ٢ - جابر بن زيد العماني الأزدي: وهو الشخصية الثانية التي تتبناها الاباضية زعيماً ومؤسساً لمذهبهم وقد أطروه في كتبهم، وقد تعرفت على الاختلاف في ميلاده ووفاته، فهو من رجال النصف الثاني من القرن الأول، وقد طلع نجمه في هذه الفترة، وهو عماني عاش في العراق وأمضى أكثر عمره في البصرة إحدى عواصم العراق العلمية، وإليك كلمات أهل الرجال في حقه. ١ - قال أبو حاتم الرازي: جابر بن زيد أبو الشعثاء الأزدي اليماني روى عن ابن عباس والحكم بن عمرو وابن عمر، روى عنه عمرو بن دينار وقتادة وعمرو بن هرم. سمعت أبي يقول ذلك. وعن عطاء ابن عباس قال: لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عن كتاب الله عز وجل، وقال عكرمة: كان ابن عباس يقول: هو أحد العلماء، وعن تميم بن حدير عن الرباب قال: سألت ابن عباس عن شيء، فقال: تسألونني وفيكم ابن زيد؟

١. الدكتور صالح بن أحمد الصوافي، الإمام جابر بن زيد: ١٦٢ - ١٦٣. (٣٢١) وعن أبي هلال، عن داود، عن عذرة قال: دخلت على جابر بن زيد، فقلت: إن هؤلاء القوم ينتحلونك - يعني الاباضية -، قال: أبرأ إلى الله عز وجل من ذلك، وعن يحيى بن معين يقول: أبو الشعثاء جابر بن زيد روى عنه قتادة، بصري، ثقة. وقال أبو زرعة: إنه بصري أزدي، ثقة (١). ٢ - وقال أبو زكريا النووي بمثل ما قاله الرازي وأضاف: قال أحمد بن حنبل وعمرو بن علي والبخاري: توفي سنة ثلاث وتسعين، وقال محمد بن سعد: سنة ثلاث ومائة، وقال الهيثم: سنة أربع ومائة (٢). ٣ - وقال ابن حجر العسقلاني بمثل ما قاله، وأضاف: وقال العجلي: تابعي ثقة، وفي تاريخ البخاري عن جابر بن زيد قال: لقيني ابن عمر فقال: جابر! إنك من فقهاء أهل البصرة، وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً، ودفن هو وأنس بن مالك في جمعة واحدة، وكان من أعلم الناس بكتاب الله، وفي كتاب الزهد لأحمد: لما مات جابر بن زيد، قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق. وقال اياس بن معاوية: أدركت الناس ومالهم مفت غير جابر بن زيد. وفي تاريخ ابن أبي خيثمة: كان الحسن البصري إذا غزا أفتى الناس جابر بن زيد. وفي الضعفاء للساجي: عن يحيى بن معين: كان جابر اباضياً، وعن عكرمة: صفيياً، وأغرب الأصيلي فقال: هو رجل من أهل البصرة لا يعرف، انفرد عن ابن عباس بحديث: «من لم يجد إزاراً فليلبس السراويل» ولا يعرف هذا الحديث بالمدينة (٣). _____

١. أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ٢/٤٩٤، رقم ٢٠٣٢.

٢. أبو زكريا النووي (ت ٦٧٦)، تهذيب الأسماء واللغات ١/١٤٢، رقم ٩٨.

٣. تهذيب التهذيب ٢/٣٤، رقم ٦١. (٣٢٢) ٤ - وقال أيضاً: جابر بن زيد، أبو الشعثاء الأزدي الجوفى (١) - بفتح الجيم وسكون الواو بعدها فاء - البصري، مشهور بكنيته، ثقة فقيه، من الثالثة، مات سنة ٩٣، ويقال: ومائة (٢). ولم يذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ولا ابن حجر في لسانه، وقال الأول في سير أعلام النبلاء: روى جابر عن ابن عباس، قال: أخى النبي بين الزبير وابن مسعود. وفي موضع آخر منه روى قتادة، قال: سمعت جابر بن زيد يحدث عن ابن عباس قال: تقطع الصلاة الحائض (٣). هذا ما وقفت عليه في كتب الرجال من أحوال الرجل، وقد قامت الاباضية في العصور الأخيرة بترجمته ترجمة وافية، وقد أطروه وإليك نبذاً من كلماتهم في حقه: كلمات الاباضية في حق جابر: هذه نصوص علماء الرجال من أهل السنة ولاعتب علينا أن نشير إلى كلمات اتباع الرجل وإن طال بنا

المقام. ١- لم يكن جابر بن زيد مَمَّن عرف عنهم الميل إلى التمرد أو الثورة، فلم يُعرف عنه أنه كان ضمن الذين خرجوا على الإمام على بن أبي طالب، أو اعتزلوه أو تمردوا عليه، إذ أنه ولد في عمان في الفترة ما بين عامي ١٨ و ٢٢ هـ، ثم رحل إلى البصرة يطلب العلم، وهو شاب في زمن لا- نعرفه، ولا يمكن تحديده، وغلب أنه رحل إليها بعد سنّ العشرين حيث كان شاباً يستطيع تحمّل مشقّة

١. ينسب إلى درب الجوف وهي محلّة بالبصرة.

٢. ابن حجر العسقلاني: تقريب التهذيب ١/١٢٢، رقم ٥.

٣. الذهبى: سير أعلام النبلاء ١/٤٩٠ و ١٠/٢٥٢. (٣٢٣)

السفر و الترحال. والمعروف أنّ التحكيم الذى أدّى إلى انفصال جزء من جيش على عنه، وقيامهم بمعارضته والخروج عليه، كان فى رمضان من عام ٣٧، وحدثت معركة النهروان التى أكّدت هذا الانفصال وكوّنته فى عام ٣٨ هـ. وعلى ذلك فإنّ جابر بن زيد أمّا أنّه لم يكن موجوداً فى البصرة عند وقوع هذه الأحداث، أو أنّه كان موجوداً، ولكنّه لم يشارك فيها على أى نحو من الأنحاء، لأنّ كتب التاريخ السنيّة والشيعيّة والاباضيّة لم يرد فيها ذكر لأى شىء يتعلّق به، أو حتى مجرّد ذكر اسمه فى تلك الفترة، ولم يسمع أحد شيئاً عن جابر بن زيد إلّا بعد انتهاء هذه الأحداث لحوالى أربعين عاماً عندما أتى الحجاج بن يوسف الثقفى إلى العراق والياً عليه من قبل عبدالمملك بن مروان فى عام ٧٥ (١). ٢- إنّ مؤسس مذهب الاباضى لم يكن مَمَّن شهدوا حرب الجمل أو صفين أو النهروان، ولم يكن ضمن هؤلاء الذين رفعوا السيف فى وجه الدولة أو حاربوها من الخوارج وغيرهم، بل كان يأترف معها، فقد كان يأخذ عطاءه من الحجاج بن يوسف الثقفى، كما كان يأخذ جائرته ويحضر مجلسه ويصلّى خلفه. ولذلك كان من مبادئ الاباضية بعد جابر، جواز الصلاة خلف أهل القبلة كلّهم، وخلف الجبابرة فى أى بلد غلب عليه الجبابرة، ويجيزون الغزو معهم أيضاً، كما كانوا يأخذون بأحكامهم، ولا يرون فى ذلك بأساً طالما أنّ أحكامهم كانت موافقة للحقّ والعدل، وكانوا يستحسنون أفعالهم إذا جاءت على هذه الصفة. من ذلك: ما حدث عندما عرض على عبدالمملك بن مروان أمر رجل

١. الدكتور رجب محمّد عبدالحليم: الاباضية فى مصر والمغرب: ١٥. (٣٢٤)

تزوّج من امرأة أبيه ظناً منه أنّها تجوز له، فأمر عبدالمملك بقتله على جهله فيما لايجوز الجهل به، وقال: لاجهل فى الإسلام ولاجاهل، فاستحسن جابر بن زيد هذا العمل من عبدالمملك وقال عنه: إنّّه أحسن وأجاد. وما ذاك إلّا لما تميّز به هذا الفقيه الكبير، تميّز مذهبه من صفة التسامح والاعتدال، ولما قام عليه هذا المذهب من أسس وأصول (١). ٣- إنّ جابراً كان يصلّى الجمعة فى المسجد الجامع فى البصرة خلف عبيدالله بن زياد، وكان يقول لهم: إنّها صلاة جامعة وسنة متّبعة. وذكروا: أنّه كان يتناول من الحجاج عطاء مقداره ستمائة أو سبعمائة درهم ويصلّى خلفه، وعرض عليه الحجاج أن يولّيه القضاء ولكن جابراً رفض هذا العرض (٢). ٤- إنّ العلم مثله مثل طائر باض فى المدينة المنورة، وفرخ بالبصرة، وطار إلى عمان (٣). يريد أنّه فرخ بالبصرة بيد جابر، ولما مات جابر انتقل العلم إلى عمان و ذلك قبيل نهاية القرن الثانى للهجرة حيث قامت الإمامة الاباضية فى عمان عام ١٧٧، وصارت هذه البلاد حجر الزاوية ومركز الثقل السياسى بالنسبة إلى المذهب و الدعوة. ٥- إنّ جابر بن زيد الأزدي من أهل البصرة، يروى عن عبدالله بن عباس، وقد لقي جابر بن زيد عائشة أمّ المؤمنين وسألها عن بعض مسائل، فلمّا خرج عنها قالت: لقد سألتنى عن مسائل لم يسألنى عنها مخلوق قط، وإنّما توفّى

١. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية فى مصر والمغرب: ٥٧ - ٥٨.

٢. الدكتور رجب محمد عبدالحليم: الاباضية فى مصر والمغرب: ١٦ - ١٩ - ٣٢.

٣. يكرّرون هذا التعبير فى غير واحد من كتبهم وهو من المغالاة فى القول. (٣٢٥)

جابر - رضى الله عنه - سنة ثلاث سنين ومائة (١). ٦- اشتهر أنّه لايماكس فى ثلاث: فى كراء إلى مكّة، وفى عبد يشترى ليعتق، وفى

شاه التضحية، وكان يقول: لانما كس في شيء نتقرب إليه. روى أنه رأى أحد الحجبة يصلّى فوق الكعبة، فنادى: يا من يصلّى فوق الكعبة لاقبله لك (٢). ٧ - إن جابراً أحد المؤلفين في الإسلام وقد كان لديوانه رنة، وكان موضع تنافس بين دور الكتب الإسلامية، واستطاعت مكتبة بغداد أن تحصل عليه و أن تبخل به عن غيرها من المكتبات. يقول على يحيى معمر: كان لهذا الكتاب قيمة كبرى لما فيه من علم وهدى، ولقربه من عصر النبوة، ولأخذ مؤلفه عن الصحابة - رضوان الله عليهم -، وكانت له قيمة أخرى أثرية وهي أنه أول كتاب ضخّم ألف في الإسلام. وإنه لمن المؤسف أن يضيع هذا التراث العظيم من مكتبة بغداد عندما أحرقت تلك المكتبة العظيمة. وضاعت منها آلاف النفاثس، كما أنه من المؤلم المر أن تضيع النسخة التي وصلت إلى ليبيا، فيما ضاع من التراث الإسلامي العظيم بسبب الجهل والحقد وطلب الرفعة عند الناس، وليس أعظم محنة من ضياع التراث العلمي والخلقي والديني لأمة مسلمة لا يستقيم حاضرها إلا على القواعد المتينة التي ابنتى عليها ماضيها، ولن يصلح حاضر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها (٣).

١. ابن سلام الاباضي: بدء الاسلام وشرائع الدين: ١٠٨.

٢. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ١٤٨.

٣. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ١٥٠. (٣٢٦) ٨ - إن جابراً أخذ عن عبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وأبي سعيد الخدرى، وقال: كان جابر بن زيد يلتقى بأمة المؤمنين عائشة ويأخذ عنها العلم ويسألها عن سنة الرسول، وقد سألها يوماً عن جماع النبي وكيف كان يفعل، وإن جبينها يتصبّب عرقاً وتقول عائشة: سل يا بُنى، ثم قالت له ممن أنت؟ قال: من أهل المشرق من بلد يقال لها عَمَان. ولما كان هذا السؤال بظاهره بمعزل عن الوقار علق عليه صاحب «تحفة الأعيان» بقوله: المراد أنه سألها عن مقدمات الجماع التي يجوز السؤال عنها حرصاً منه - رضى الله عنه - على نقل السنة وجمعها كي يكون المسلم مقتدياً برسول الله في كل أعماله دقيقها وجليلها. يلاحظ عليه: أنه لو صحّ السؤال لما نفع هذا التعليق وأمثاله مما حشدها مؤلف الكتاب وهو يعرب عن سداجة الرجل و عدم عرفانه بموضع السؤال والمسؤول، والعجب ان جواب أم المؤمنين لم يذكر في هذه الكتب ولم تصل السنة إلى أيديهم، ولعلّ تكذيب أصل القضية أولى من توجيهها. وهناك ملاحظة حول حياة جابر وهو أن صلواته خلف الحجاج تبرّرها التقيّة، وأما أخذ الجوائز الذي هو بمعنى دعم ولايته واضفاء المشروعية عليها، فهل تبرّره التقيّة؟ أو كان من واجبه التخلّي عنها كما تخلّى عن قبول القضاء؟ إن ما جاء في هذه الكلمات من كون الرجل اباضياً مدعماً لمبدئه قاصر عن افادة الاطمئنان و الاذعان، فإنّ التقيّة أمر مشترك بين الاباضية وغيرهم، فالذى يوجب تقدير الرجل بل تقدير تلك الطائفة، أنهم يملكون الشجاعة الأدبية في الاجهار بجواز التقيّة والسلوك عليها في حياتهم، بينما يفقدها غيرهم من فرق أهل السنة، فهم يعملون بالتقيّة في حياتهم السياسية والاجتماعية ولكن لا يجاهرون بجوازها لو لم يكونوا مجاهرين بحرمتها!

(٣٢٧) فقه جابر بن زيد: قد قام «يحيى محمّد بكوش» بجمع أقوال وآراء جابر من بطون الكتب، وهو يقول في مقدّمه الكتاب: «فقد وجدت في بطون الكتب أقوالاً عديدة للإمام جابر بن زيد سواء ذلك في كتب الاباضية أو في غيرها، من كتب المذاهب الأخرى، ثم رجعت إلى كتب الحديث فالتقيت برواياته منبّهة من هنا وهناك فانقدحت في ذهني فكرة أجمع ما يتيسّر لى جمعه وضمّه في مجموعة أخرجها للناس... وفي أثناء بحثي ظهر للأستاذ الصوافى كتاب يتناول هذا الجانب فأطلعت عليه واستفدت منه كما أطلعت أثناء ذلك على كتاب للأستاذ «عوض خليفات» الذي درس نشأة الحركة الاباضية في المشرق فاستفدت منه أيضاً... وقد قسّمت الكتاب إلى أبواب بلغت أحد عشر باباً، وكل باب يشتمل على مسائل متفرّفة قد لا يجمع بينها سوى أنها تنسب إلى ذلك الباب، وإليك فهرس الأبواب: ١ - في حياة الإمام جابر بن زيد، فيه ١٣ مسألة. ٢ - في مسائل القرآن وعلومه، فيه ٤١ مسألة. ٣ - في الطهارات، فيه ١٩ مسألة. ٤ - في الصلاة، فيه ٤٤ مسألة. ٥ - في الزكاة، فيه ١٢ مسألة. ٦ - في مسائل الصوم، فيه ١٨ مسألة. ٧ - في مسائل الحج، فيه ٣٠ مسألة. ٨ - في مسائل النكاح والطلاق، فيه ٦١ مسألة. ٩ - في المعاملات، فيه ٢١ مسألة. ١٠ - في الأفضية والأحكام، فيه ١٥ مسألة. (٣٢٨) ١١ -

في الزكاة والأطعمة والكفارات والنذور والوصايا والمواريث، فيه ٣١ مسألة (١). ثم إن الكتاب خرج في ٧٢٨ صفحة، وربما يتخيل القارئ في بادية النظر أن أكثر ما جاء فيها يرجع إلى آراء جابر وأقواله وأفكاره، ولكنه بعد ما سبر الكتاب سرعان ما يرجع ويقف أن مجموع ما روى عنه في تلك الأبواب - لو جمع في محل واحد - لا يتجاوز عن عشر صفحات، ولكن المؤلف اتخذ طريقة المقارنة الفقهية وطلب لآراء المذاهب دليلها، فجاء الكتاب كتاباً ضخماً في الفقه، هو لا يمت إلى جابر بصله إلا قليلاً. هذا وقد بسط المؤلف الكلام في ترجمة جابر في الباب الأول، ومن أراد التبسط فليرجع إليه. ٣- أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة (ت حوالي ١٥٨ هـ): هذا هو الشخصية الثالثة لفرقة الإباضية وله ترجمة في كتب الرجال والتاريخ كما له ترجمة مفصلة في كتب الإباضية، ونذكر ما وقفنا عليه في القسم الأول ثم نردفه بكلمات الإباضية. قال الحافظ الرازي: «مسلم بن أبي كريمة روى عن علي - رضى الله عنه -، روى عنه... (كذا)، سمعت أبي يقول ذلك ويقول: هو مجهول (٢). ولو كان المقصود من العنوان هو المترجم فيروى عن علي - عليه السلام - بواسطة أو واسطتين كما لا يخفى. وعنونه ابن حبان في الثقات، واكتفى بنقل اسمه فقط وقال: مسلم بن _____

١. يحيى محمد بكوش: فقه الإمام جابر بن زيد: ٧-٨ وفهرس الكتاب .

٢. الرازي: الجرح والتعديل ٨/١٩٣ برقم ٨٤٥. (٣٢٩)

أبي كريمة (١). وقال ابن الجوزي: مسلم بن أبي كريمة، قال الرازي: مجهول (٢). ولم أجد له ترجمة في الكتب الرجالية، وأما كلمات الإباضية في حقه، فإليك بيانها: يقول علي يحيى معمر: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي توفي في ولاية أبي جعفر المنصور المتوفى سنة ١٥٨ هـ، وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد، فروايتيه عن جابر رواية تابعي عن تابعي. وقد روى أبو عبيدة أيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأبي هريرة وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين (٣) - رضى الله عنها - وروايتيه هذه عنهم موجودة في هذا المسند الصحيح (٤) وهي رواية تابعي عن تابعي. شيوخه: أخذ أبو عبيدة العلم عن لقيه من الصحابة وعن الجابرين: جابر بن عبد الله وجابر بن زيد، وعن ضمارة السعيدى وجعفر السماك وغيرهم. تلاميذه: وحمل العلم عن أبي عبيدة خلق كثير، منهم الربيع بن حبيب الفراهيدى صاحب المسند، وفيهم: حملة العلم إلى المغرب وهم: أبو الخطاب _____

١. محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: الثقات ٥/٣٥٤ و ٤٠١.

٢. عبدالرحمان بن الجوزي: كتاب الضعفاء والمتروكين ٣/١١٨ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦، ولاحظ بدء الاسلام: ٢٦، ٩٩، ١١٠، ١١٤، ولسان الميزان ٦/٣٢.

٣. سماعه عن أم المؤمنين عائشة وأبي هريرة بعيداً جداً إلا أن يكون الرجل من المعمرين .

٤. إشارة إلى مسند الربيع بن حبيب، والصحيح أن يقال: الجامع الصحيح، كما سيوافيك . (٣٣٠)

المعافري، وعبدالرحمن بن رستم وعاصم السدراتي، وإسماعيل بن درار العذامسى، وأبو داود القبلى النفاوى، وكان الإمام أبو الخطاب المعافري قد جاء من اليمن فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم إلى بلادهم، فنصّبوه عليهم بأمر شيخهم أبي عبيدة. وبأمره نُصّب الإمام عبد الله بن يحيى الكندى في أرض اليمن، وجمعت إمارته اليمن والحجاز، وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله إسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام. فقال له أبو عبيدة: «أتريد أن تكون قاضياً مع ابن درار؟ قال: أرايت ان ابتليت بذلك» (١). وقد روى عنه أنه قال: من لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين، وقد من الله علينا بعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام (٢). ٤- أبو عمرو ربيع بن حبيب الفراهيدى: إن الربيع من أئمة الإباضية وهو صاحب المسند المطبوع، ولم نجد له ترجمة وافية في كتب الرجال لأهل السنة (٣) ونكتفى في المقام بما ذكره الأستاذ التنوخى في مقدمته على شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب: «ومن يمن الطالع عن الحديث أن يكون الربيعان: الربيع بن صبيح والربيع بن حبيب في طليعة ركب الجامعين للحديث، والمصنّفين فيه، ومن _____

١. على يحيى معمر: الإباضية بين الفرق الإسلامية ١/١٦٦ - ١٦٧.

٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني، وقد ترجم له ترجمة مفصلة وذكر مواقفه في تنظيم الدعوة ومجالها، والانتهاز من مواسم الحج لنشر المذهب واعمال السياسة السرية والأخذ بالتقية، فمن أراد فليرجع إليه (١٦٩ - ١٧٥).

٣. له ترجمة في بدء الاسلام ١١٠، والاعلام ٣/١٣. (٣٣١)

الأسف أن لاندري شيئاً عن مصير مسند ابن صبيح وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات، ومن لطف البارى أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب، ثم من نعمه عليّ أن وفقني لإعادة نشره مع شرح علامة عمان عبدالله بن حميد السالمي ولم يطلع على المسند وشرحه في علماء مصر والشام والعراق إلا قليلاً. الثلاثيات: قد ذكر أئمة الحديث أن رتب الصحيح تتفاوت تفاوت الأوصاف المقتضية للصحيح، وإن المرتبة العليا ما اطلق عليه بعض رجال الحديث أنه أصح الأسانيد الثلاثية كسند الزهري عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه، وسند إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر، وهو قول البخارى لأن هذه الأسانيد قصيرة السند وقريبة الاتصال بالينبوع المحمدي - صلى الله عليه وآله وسلم - . ويشبه هذه الثلاثة الذهبية سلسلة مسند الربيع بن حبيب وثلاثياته... أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس، ورجال هذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأحفظهم وأصدقهم، لم يشب أحاديثها شائبة انكار ولا ارسال ولا انقطاع ولا اعضاء. ولمزايا هذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات . ١ - ثلاثيات الإمام أحمد المطبوعة أخيراً بدمشق سنة ١٣٨٠ هـ، وشرحها في جزأين الإمام محمد السفاريني، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث. ٢ - ثلاثيات البخارى وهي في صحيحه ثمان وعشرون حديثاً. (٣٣٢) ٣ - ثلاثيات الدارمي وهي خمسة عشر حديثاً وقعت في مسنده بسنده. ٤ - ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدي، وأحاديثها في مسنده، ورجال سلسلتها الثلاثية هم أبو عبيدة التميمي، وجابر بن زيد الأزدي، والبحر عبدالله بن عباس - شيخ جابر - ، وغيره من الصحابة . وقد طبع هذا المسند القديم مع شرحه للإمام عبدالله السالمي في أربعة مجلدات طبع اثنان منها في مصر والثالث بدمشق، ولقد سبرته ولمست أن الرجل كان يملك شيئاً من الانصاف، فلا بأس بالاشارة إلى بعض خصوصياته. انطباعات عن الجامع الصحيح: هذا الجامع: مسند الربيع بن حبيب الأزدي البصري رتبته أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني وطبع في أربعة أجزاء تبلغ عدد صفحاته ٣٠٢ صفحة، طبع بدمشق سنة ١٣٨٨ هـ بتقديم عبدالله بن حميد السالمي وأشرف على طبعه محمود غيران. أكتير المؤلف في هذا المسند الروايات عن ضمام بن السائب البصري العثماني عن جابر. ثم عن أبي عبيدة (مسلم بن أبي كريمة). ثم عن أبي نوح (صالح بن نوح). ثم عن سائر مشايخه . وأكثر الروايات في الكتاب موقوفات تنتهي إلى الصحابة الأ قليل منها مسند إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومما يشهد على كون الرجل موضوعياً أنه نقل الروايات عن علي بن أبي طالب - عليه السلام - وإليك رواياته عنه: (٣٣٣) «الباب (٩) ما روى عن علي بن أبي طالب»: «في التعظيم لله عزّ وجلّ ونفى التشبيه له سبحانه عن الأشباه» قال الربيع: بلغني عن أبي مسعود، عن عثمان بن عبدالرحمن المدني، عن أبي إسحاق والشعبي قال: كان علي بن أبي طالب يقول في تمجيد الله عزّ وجلّ: الحى القائم الواحد الدائم فكأك المقادم ورزاق البهائم، القائم بغير منصبه، الدائم بغير غاية، الخالق بغير كلفه، فأعرف العباد به الذى بالحدود لا يصفه ولا بما يوجد فى الخلق يتوهمه، لا تدرکه الأبصار وهو يدك الأبصار . «الباب (١٠) خطبة علي»: قال الربيع: وأخبرنا أبان قال: حدثنا يحيى بن إسماعيل، عن الحارث الهمداني قال: بلغ علياً أن قوماً من أهل عسكره شبّهوا الله وأفرطوا، قال: فخطب على الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس اتقوا هذا العارقه (١) فقالوا: يا أمير المؤمنين وما العارقه؟ قال: الذين يشبهون الله بأنفسهم، فقالوا: وكيف يشبهون الله بأنفسهم؟ قال: يضاؤون بذلك قول الذين كفروا من أهل الكتاب إذ قالوا: خلق الله آدم على صورته، سبحانه وتعالى عمياً يقولون، سبحانه وتعالى عمياً يشركون، بل هو الله الواحد الذى ليس كمثل شىء، استخلص الوحداية والجبروت، وأمضى المشيئة والارادة والقدرة والعلم بما هو كائن، لامنازع له فى شىء، ولا كفؤ له يعادله، ولا ضد له ينازعه، ولا سمى له يشبهه، ولا مثل له يشاكله، ولا تبدو له الأمور، ولا تجرى عليه الأحوال، ولا تنزل به الأحداث، وهو يجرى الأحوال وينزل الأحداث على المخلوقين، لا يبلغ الواصفون كنه حقيقته ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته لأنه ليس له فى

١. وفي نسخة الفارقة. (٣٣٤)

الخلق شبيه ولا له في الأشياء نظير، لا تدركه العلماء بألبابها ولا أهل التفكير بتدبيرها وتفكيرها إلا بالتحقيق إيماناً بالغيب لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين و هو الواحد الذي لا كفؤ له (وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). «الباب (١١) قصة اليهودى مع على بن أبى طالب»: قال: وأخبرنا إسماعيل بن يحيى قال: حدثنا سفيان (١) عن الضحّاك قال: جاء يهودى إلى على بن أبى طالب فقال: يا على متى كان ربّنا؟ فقال على إنّما يقال متى كان لشيء لم يكن فكان، وهو كائن بلا كينونة، كائن بلا كيفية، ولم يزل بلا كيف، ليس له قبل وهو قبل القبل، بلا غاية ولا منتهى غاية تنتهى إليها غايته انقطعت الغايات عنده وهو غاية الغايات. «الباب (١٢) قصة القصاب مع على بن أبى طالب»: أخبرنا أبو قبيصة، عن عبد الغفار الواسطى، عن عطاء: أنّ على بن أبى طالب مرّ بقصاب يقول: لا والذي احتجب بسبع سموات لأزيدك شيئاً، قال: فضرب على بيده على كتفه فقال: يا لحام إنّ الله لا يحتجب عن خلقه ولكن (٢) حجب خلقه عنه، فقال: أكفر عن يميني؟ فقال: لا، لأنك إنّما حلفت بغير الله (٣). _____

١. خ سنان.

٢. خ ولكنّه .

٣. قوله: إنّما حلفت بغير الله، هذا منه اعتبار بظاهر اللفظ انكاراً لما سمع وتغليظاً على القائل، وإلا فإنّ الحالف إنّما قصد الحلف بالله عزّوجلّ وإن أخطأ في وصفه والله أعلم . (٣٣٥) وقال على بن أبى طالب لما وجه رسله إلى معاوية بن أبى سفيان: صلّوا في رحالكم واجعلوا صلاتكم معهم سبحة فإنّ الله لا يتقبل إلا من المتّقين. قال: وحدثني موسى بن جبير، عن عبدالمجيد والفضيل بن عياض، عن منصور بن المعتمر، عن الحكم بن عيينة، عن على بن أبى طالب قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ). قال: غرفه من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب (١) . ٥ - أبو يحيى عبدالله بن يحيى الكندى (طالب الحق): كان عبدالله بن يحيى بن عمر الكندى من حضرموت، وكان قاضياً لإبراهيم بن جبلة عامل القاسم بن عمر على حضرموت، وهو عامل مروان على اليمن (٢) . إنّ عبدالله بن يحيى الكندى أحد بنى عمرو بن معاوية كان من حضرموت، وكتب إلى ابى عبيدة مسلم بن أبى كريمة وإلى غيرهم من الاباضية بالبصرة، يشاورهم بالخروج، فكتبوا إليه: إنّ استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل، وأشخص إليه ابو عبيدة، أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي في رجال من الاباضية فقدموا عليه حضرموت، فحثّوه على الخروج وأتوه بكتب أصحابه، فدعا أصحابه فبايعوه فقصدوا دار العمارة وعلى حضرموت، إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندى، فأخذوه فحبسوه يوماً ثم أطلقوه، فأتى صنعاء وأقام عبدالله بن يحيى بحضرموت، وكثر جمعهم، وسّموه «طالب الحق»، ثم استولى على صنعاء فأخذ الضحّاك بن الزمل وإبراهيم بن _____

١. مسند ربيع بن حبيب: ص ٢١٧ - ٢١٩ و ص ٢٠٥ .

٢. صالح بن أحمد الصوافى: الإمام جابر بن زيد: ١٧٦، نقلا عن الحارثى: العقود الفضية: ١٨٧ . (٣٣٦)

جبلة بن مخرمة فحبسهما، وجمع الخزائن والأموال فأحرزها ثم أرسل إلى الضحّاك وإبراهيم فأرسلهما، وقال لهما: حبستكما خوفاً عليكم من العامة وليس عليكم ما كروه فأقيما إن شئتما أو أشخصا، فخرجا. فلما استولى عبدالله بن يحيى على بلاد اليمن خطب الناس وقال: إنّنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما. الإسلام ديننا، ومحمّد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالاً - لا نبتغى به بدلاً، ولا نشترى به ثمناً قليلاً، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله وإلى الله المشتكى وعليه المعول، من زنا فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر، فهو كافر، ومن شكّ في أنّه كافر، فهو كافر، ندعوكم إلى فرائض بينات، وآيات محكمات، وآثار مقتدى بها، ونشهد أنّ الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعوكم إلى توحيد الرب واليقين بالوعد والوعد، واداء الفرائض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله. كلّ ذلك كان في سنة ثمان وعشرين ومائة (١). ثم إنّ استولى على مكة ثم المدينة وذلك في الوقت الذى بدأت ثورة بنى العباس في خراسان، فكانت الدولة المركزية المروانية مشغولة باخماد الثورة، فانتهز طالب الحق الفرصة وبسط سيطرته على الحجاز كلّ، ولكن

في سنة ثلاثين ومائة جهز مروان بن محمد جيشاً مع عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي فلقى الخوارج بوادي القرى فقتل بلج بن عقبه، وفر أبو حمزة في بقيتهم إلى مكة، فلحقهم عبدالملك فكانت بينهم وقعة قتل فيها أبو حمزة وأكثر من كان معه من الخوارج، وصار عبدالملك في جيش مروان من أهل الشام يريد

١. أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني ٢٣/٢٢٤ - ٢٥٦، وقد بسط الكلام في خبر عبدالله بن يحيى وخروجه ومقتله. (٣٣٧)

اليمن. وخرج عبدالله بن يحيى الكندي الخارجي من صنعاء فالتقوا بناحية الطائف وأرض جرس فكانت بينهم حرب عظيمة قتل فيها عبدالله بن يحيى وأكثر من كان معه من الاباضية، ولحق بقيّة الخوارج ببلاد حضرموت. يقول المسعودي: فأكثرها اباضية إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢ هـ ولا فرق بينهم وبين من بعمان من الخوارج في هذا المذهب (١). أئمة الاباضية في القرون الأولى: قد تعرّف على الشخصيات البارزة للاباضية في القرن الأول وبداية القرن الثاني، غير أنّ أئمتهم وشخصياتهم لا تحصر فيما ذكرنا، ونحن نأتي بقائمة أسمائهم فمن أراد التوسّع فليرجع إلى تراجمهم في الكتب المعدة، فقد ذكروا أنّ لهم وراء من ذكرنا ترجمتهم، أئمة بالأسماء التالية: القرن الأول: ١ - جعفر بن السماك العبدى . ٢ - أبوسفيان قنبر. ٣ - الصحار العبدى. القرن الثاني: ٤ - صمام بن السائب . ٥ - أبو نوح صالح الدهان.

١. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣/٢٤٢ طبع دار الأندلس. الطبري: التاريخ ٦/٤١ و ٧/٣٩٤ - ٤٠٠. وابن الأثير: الكامل ٥/٣٥١ دار صادر. (٣٣٨) ٦ - الجلندي بن مسعود العماني . ٧ - أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري . ٨ - هلال بن عطية الخراساني . ٩ - أبو سنيان محبوب بن الرحيل . ١٠ - أبو صفرة عبدالملك بن صفرة. ١١ - عبدالرحمن بن رستم . ١٢ - محمّد بن يانس. ١٣ - أبو الحسن الأيدلاتي . القرن الثالث: ١٤ - أفلح بن عبدالوهاب . ١٥ - عبدالخالق القراني. ١٦ - محمّد الهواري. ١٧ - المهتا بن جيفر. ١٨ - موسى بن علي. ١٩ - أبو عيسى الخراساني. ٢٠ - محمّد بن محبوب . ٢١ - محمّد بن عباد. ٢٢ - الصلت بن مالك . ٢٣ - أبو اليقظان بن أفلح . ٢٤ - أبو منصور الياس . ٢٥ - عمرو بن فهد . (٣٣٩) ٢٦ - هود بن محمّد. القرن الرابع: ٢٧ - أبو الخضر يعلى بن أيوب. ٢٨ - أبو القاسم يزيد بن مخلد. ٢٩ - أبو هارون موسى بن هارون (١). إنّ الكاتب المعاصر علي يحيى معمر، ترجم جابر بن زيد و أبا عبيدة مسلم في الجزء الأول من كتابه «الاباضية في موكب التاريخ» تحت عنوان الاباضية في قيادة الأئمة ١٤٥ - ١٥٥، ثمّ خصّ الجزء الثاني بترجمة أئمتهم وذكر كثيراً منهم القاطنين في «ليبيا» بعد البحث عن «دخول المذهب الاباضي الى ليبيا» ومن اراد الوقوف فليرجع الى هذا الجزء ٢١ - ١٩٧. دول الاباضية: قد قام باسم الاباضية عدد من الدول في أربعة مواضع من البلاد الإسلامية: ١ - دولة في عمان استقلت عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفّاح سنة ١٣٢، ولاتزال إلى اليوم. ٢ - دولة في ليبيا سنة ١٤٠ ولم تعمر طويلاً فقد انتهت بعد نحو ثلاث سنوات. ٣ - دولة قامت في الجزائر سنة ١٦٠، وقد بقيت إلى حوالي ١٩٠، ثمّ قضت عليها الدولة العبيدية.

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية: ١ / ٢٧ - ٢٨ . (٣٤٠) ٤ - دولة قامت في الأندلس ولا سيّما في جزيرتي «ميورقة» و «مينورقة»، وليس لدينا من أخبارهم الكثير وقد انتهت يوم انتهت الأندلس وأطفأ التعصّب الغربي شعله الإسلام في تلك الديار (١). هذه الاباضية، وهذا ماضيهم وحاضرهم، وقد قدّمنا إليك صورة موجزة من تاريخهم، ونشوتهم وحروبهم وشخصياتهم وعقائدهم، وقد جرّدنا أنفسنا عن كل نزعة نفسانية تعرقلنا عن الوصول إلى الحق، والله وراء القصد. وقد حان لنا انجاز الوعد الذي سبق منّا، وهو نشر ما كتبه «عبدالله بن اباض» إلى عبدالملك بن مروان، وإليك نصّه: رساله عبدالله بن اباض إلى عبدالملك بن مروان بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله بن اباض إلى عبدالملك بن مروان: سلام عليك. فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأصويك بتقوى الله فإنّ العاقبة للتقوى والمرد إلى الله، واعلم أنّه إنّما يتقبل الله من المتّقين . أمّا بعد، جاءني كتابك مع سنان بن عاصم، وإنّك كتبت إليّ أن أكتب إليك بكتاب، فكبت به إليك، فمنه ما تعرف ومنه ما تنكره، زعمت أنّما عرفت منه ما ذكرت به من كتاب الله وحضضت عليه من طاعة الله، وأتباع أمره، وسنة نبيه، وأمّا الذي أنكرت منه فهو عندالله غير منكرو. وأمّا ما ذكرت من عثمان والذي

عرضت به من شأن الأئمة وأن الله ليس ينكر عليه أحد شهادته في كتابه بما أنزله على رسوله أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون

١. على يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الاسلامية ١/٩٢ - ٩٣ . (٣٤١)

والكافرون والفسقون (١). واتي لم أكن أذكر لك شيئاً من شأن عثمان و الأئمة إلا والله يعلمه أنه الحق، وسأتزع لك من ذلك البيئته من كتاب الله الذي أنزله على رسوله، وسأكتب إليك في الذي كتبت به، وأخبرك من خبر عثمان والذي طعنا عليه فيه، وأبين شأنه والذي أتى عثمان. لقد كان كما ذكرت من قدم في الإسلام وعمل به ولكن الله لم يجر العباد من الفتنة والردة عن الإسلام، وإن الله بعث محمداً بالحق - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنزل الكتاب فيه بينات كل شيء يحكم بين الناس فيما اختلفوا (هدى و رحمة لقوم يؤمنون) (٢). فأحل الله في كتابه حلالاً - وحرم حراماً وفرض فيه حكماً وفضيل فيه قضاءه وبين حدوده فقال: (تلک حُدودُ اللهِ فلا تُقرَّبوا) (٣). وقال: (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٤). وقسم ربنا قسماً وليس لعباده فيه الخيرة، ثم أمر نبيه باتباع كتابه، فقال للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) (٥). وقال: (فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قَوْلَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ) (٦). فعمل محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بأمر ربه ومع عثمان ومن شاء الله من أصحابه لا يرون رسول الله يتعدى من قبله شيئاً، ولا يبدل فريضته، ولا يستحل شيئاً حرمه الله، ولا يحرم شيئاً أحله الله، ولا يحكم بين الناس إلا بما

١. قال الله تعالى في سورة المائدة ٤٤ - ٤٥ و ٤٧ . (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ). (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ). ٢. الأعراف: ٥٢، ويوسف ١١١ .

٣. البقرة: ١٨٧ .

٤. البقرة: ٢٢٩ .

٥. الأحزاب: ٢ .

٦. القيامة: ١٨ - ١٩ . (٣٤٢)

أنزل الله، فكان يقول: (إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (١). فسر - صلى الله عليه وآله وسلم - ما شاء الله تابعا لما أمر الله، يتبع ما جاء من الله، والمؤمنون معه يعلمهم وينظرون إلى عمله حتى توفاه الله عليه الصلاة والسلام وهم عنه راضون، فنسأل الله سبيله وعملا بسنته. ثم أورت الله عباده الكتاب الذي جاء به محمداً وهداه ولا يهتدى من اهتدى من الناس إلا باتباعه ولا يضل من ضل من الناس إلا بتركه. ثم قام من بعده أبو بكر على الناس فأخذ بكتاب الله وسنته نبيه ولم يفارقه أحد من المسلمين في حكم حكمه، ولا قسم قسمه حتى فارق الدنيا وأهل الإسلام عنه راضون وله مجامعون. ثم قام من بعده عمر بن الخطاب قوياً في الأمر، شديداً على أهل النفاق، يهتدى بمن كان قبله من المؤمنين، يحكم بكتاب الله، وابتلاه الله بفتوح من الدنيا ما لم يتبل به أصحابه، وفارق الدنيا والدين ظاهر وكلمة الإسلام جامعة وشهادتهم قائمة، والمؤمنون شهداء الله في الأرض. وكذلك قال الله: (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (٢). ثم أشار المؤمنون فولوا عثمان، فعمل ماشاء الله بما يعرف أهل الإسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض ما شاء الله. ثم أحدث أموراً لم يعمل به أصحابه قبله، وعهد الناس يومئذ قريب بنبيهم حديث. فلما رأى المؤمنون ما أحدث عثمان أتوه فكلموه وذكروه بكتاب الله وسنته من كان قبله من المؤمنين. وقال الله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

١. الأنعام: ١٥، ويونس: ١٥ .

٢. البقرة: ١٤٣ . (٣٤٣) مُتَّفِقُونَ (١). فسقته أن ذكروه بآيات الله وأخذهم بالجبروت، وضرب منهم من شاء الله وسجن ونفاهم في أطراف الأرض من شاء الله منهم نفيماً أن ذكروه بكتاب الله وسنته نبيه ومن كان قبله من المؤمنين، وقال الله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ) (٢). وإني أبين لك يا عبد الملك بن مروان الذي أنكر المؤمنون على عثمان وفارقناه

عليه فيما استحل من المعاصي عسى أن تكون جاهلاً- عنه غافلاً- وأنت على دينه وهواه!! لا يحملنك يا عبد الملك هوى عثمان أن تجحد آيات الله وتكذب بها!!! فإن عثمان لا يغني عنك من الله شيئاً، فالله، الله يا عبد الملك بن مروان قبل التناوش من مكان بعيد، وقبل أن يكون لزاماً، وأجل مسمى!! وإنه كان مما طعن المؤمنون عليه وفارقوه وفارقناه فيه، فإن الله قال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسِعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (٣). فكان عثمان أول من منع مساجد الله أن يقضى فيها بكتاب الله. ومما نقمناه عليه وفارقناه عليه أن الله قال لمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - (لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (٤). فكان أول (٥) هذه الأئمة طردهم ونفاهم، فكان مدين نفاهم من أهل المدينة

١. السجدة: ٢٢.

٢. الكهف: ٥٧.

٣. البقرة: ١١٤.

٤. الأنعام: ٥٢.

٥. في نسخة «خيار». (٣٤٤)

أبوذر الغفاري، ومسلم الجهني، ونافع بن الحطام (١)، ونفى من أهل الكوفة كعب بن أبي الحلمة، وأبي الرحل الوجاج، وجندب بن زهير (٢)، وجندب هو الذي قتل الساحر الذي كان يلعب به الوليد بن عقبة (٣)، ونفى عمرو بن زرارة، وزيد بن صوحان (٤)، وأسود بن ذريح، ويزيد بن قيس الهمداني، وكردوس بن الحضرمي، في ناس كثير من أهل الكوفة. ونفى من أهل البصرة عامر بن عبد الله القشري، ومذعور العبدى ولا أستطيع لك عددهم من المؤمنين. ومما نقمنا عليه أنه أمر أخاه الوليد بن عقبة على المؤمنين، وكان يلعب بالسحرة ويصلى بالناس سكران، فاسق في دين الله، أمره من أجل قرابته، على المؤمنين المهاجرين والأنصار، وإنما عهدهم حديث بعهد الله ورسوله والمؤمنين. ومما نقمنا عليه إمارته قرابته على عباد الله وجعل المال دولة بين الأغنياء، وقال الله: (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ) (٥). وبدل كلام الله وبدل القول واتبع الهوى.

١. ورد الاسم أيضاً: «نافع بن الحطامي».

٢. جندب بن زهير الأزدي: ذكر الطبري أنه قتل في صفين وهو يحارب مع علي بن أبي طالب.

٣. الوليد بن عقبة، أخ عثمان بن عفان لأمه، وروى أنه وهو أمير على الكوفة، صلى بالناس الصبح وهو سكران، ثم قال لهم: إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم، فلما بلغ عثمان ذلك لم يسرع إلى إقامة الحد عليه، بل أخر ذلك. (انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٦).

٤. زيد بن صوحان: قتل شهيداً يوم الجمل.

٥. الحشر: ٧. (٣٤٥) ومما نقمنا عليه أنه انطلق إلى الأرض ليحميها لنفسه ولأهله (١) حمى حتى منع قطر السماء والرزق الذي أنزله الله لعباده، لأنفسهم وأنعامهم. وقد قال الله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ ءَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ *) وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة (٢). ومما نقمنا عليه أنه أول من تعدى في الصدقات وقد قال الله: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (٣). وقال الله: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مبيناً) (٤). وأحدث عثمان منه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رحمه الله عليه -، وانتقص أصحاب بدر ألفاً من عطائهم، وكنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وقال الله: (وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا

يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ

١. يقال حمى فلان الأرض يحميها حمى حتى لا يقرب. والحمى موضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرمى. وقال الإمام الشافعي في تفسير قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - «لا - حمى إلا - الله ولرسوله»: كان الشريف من العرب في الجاهلية إذا نزل بلدًا في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلب لا يشركه فيه غيره، فلم يرمعه معه أحد، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله، فنهى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون. (انظر: دكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ١ هامش صفحة ٢٧٣).

٢. يونس: ٥٩ - ٦٠.

٣. التوبة: ٦٠.

٤. الأحزاب: ٣٦. (٣٤٦) وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(١). وَمِمَّا نَقَمْنَا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَضُمُّ كُلَّ ضَالَّةٍ إِلَى إِبِلِهِ وَلَا يَرُدُّهَا وَلَا يَعْرِفُهَا، وَكَانَ يَأْخُذُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ مِمَّنْ وَجَدَ مَا عِنْدَهُ مِنَ النَّاسِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوا عَلَيْهَا(٢)، وَكَانَ لَهُمْ فِي حُكْمِ اللَّهِ أَنْ لَهُمْ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ. وَقَالَ اللَّهُ: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(٣). وَقَالَ: (لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)(٤). وَمِمَّا نَقَمْنَا عَلَيْهِ أَنَّهُ أَخَذَ خَمْسَ اللَّهِ لِنَفْسِهِ وَيُعْطِيهَا أَقْرَابِهِ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ عَمَلًا عَلَى أَصْحَابِهِ وَكَانَ ذَلِكَ تَبْدِيلًا لِفَرَاغِ اللَّهِ، وَفَرَضَ اللَّهُ الْخَمْسَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ: (وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٥). وَمِمَّا نَقَمْنَا عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنَعَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَهْلَ عُمَانَ أَنْ يَبِيعُوا شَيْئًا مِنْ طَعَامِهِمْ حَتَّىٰ يَبَاعَ طَعَامُ الْإِمَارَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ تَحْرِيمًا لِمَا أَحَلَّ اللَّهُ: (وَاحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)(٦). فَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَخْبِرَ بِكَثِيرٍ مِنْ مَظَالِمِ عُمَانَ لَمْ نَحْصِهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَكُلَّ مَا عَدَدْتَ عَلَيْكُمْ مِنْ عَمَلِ عُثْمَانَ يُكْفِّرُ الرَّجُلَ أَنْ يَعْمَلَ بَعْضَ هَذَا.

١. التوبة: ٣٤ - ٣٥.

٢. أسلموا عليها: تصالحوها عليها.

٣. هود: ٨٥.

٤. النساء: ٢٩ - ٣٠.

٥. الأنفال: ٤١.

٦. البقرة: ٢٧٥. (٣٤٧) وَكَانَ مِنْ عَمَلِ عُثْمَانَ أَنَّهُ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَخَالَفَ سُنَّةَ نَبِيِّ اللَّهِ وَالْخَلِيفَتَيْنِ الصَّالِحَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)(١). وَقَالَ: (وَمِنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(٢). (٢) أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ(٣)، (وَمِنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)(٤)، وَقَالَ: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)(٥)، وَقَالَ: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)(٦). وَقَالَ: (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، وَالْفَاسِقُونَ (٧) وَالْكَافِرُونَ(٨) وَقَالَ: (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ). وَقَالَ: (وَمَنْ يَلْعَنُ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا). وَقَالَ: (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ). وَقَالَ: (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)(٩). فَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْهَدُ عَلَى عُثْمَانَ، وَإِنَّمَا شَهِدْنَا بِمَا شَهِدَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ: (اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

١. النساء: ١١٥.

٢. المائدة: ٤٥.

٣. هود: ١٨ .
٤. النساء: ٥٢ .
٥. البقرة: ١٢٤ .
٦. هود: ١١٣ .
٧. وفي سورة المائدة: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) آية ٤٧ .
٨. وفي سورة المائدة: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) آية ٤٤ .
٩. يونس ٣٣ . (٣٤٨) شهيداً. (١) وقال: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ) (٢) . فلما رأى المؤمنون الذي نزل به عثمان من معصية الله، والمؤمنون شهداء الله ناظرون أعمال الناس، وكذلك قال الله: (اعْمَلُوا فَمَا يَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٣) . وترك خصومه الخصمين في الحق والباطل ودفع ما وعد الله من الفتن، وقال الله: (الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (٤) . فعلم المؤمنون أن طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليس، فساروا إلى عثمان من أطراف الأرض، واجتمعوا في ملأ من المهاجرين والأنصار وعامة أزواج النبي عليه الصلاة والسلام - فأتوه فذكروه الله وأخبروه الذي أتى من معاصي الله، فزعم أنه يعرف الذي يقولون، وأنه يتوب إلى الله منه و يراجع الحق فيقبلوا منه الذي اتقاهم به من اعتراف الذنب والتوبة والرجوع إلى أمر الله، فجامعوه وقبلوا منه، وكان حقاً على أهل الإسلام إذا اتقوا بالحق أن يقبلوه ويجامعوه ما استقام على الحق. فلما تفرق الناس على ما اتقاهم به من الحق نكث عن الذي عاهدهم عليه وعاد فيما تاب منه، فكتب في أديبارهم أن تقطع أيدهم وأرجلهم من خلاف. فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه على العهد الذي عاهدهم عليه رجعوا فقتلوه بحكم الله، وقال الله: (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

١. النساء: ١٦٦ .

٢. الذاريات: ٢٣ .

٣. التوبة: ١٠٥ .

٤. العنكبوت: ١ - ٣ . (٣٤٩) مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) (١) . فجامع أهل الاسلام ما شاء الله، وعمل بالحق، وقد يعمل الإنسان بالاسلام زماناً ثم يرتد عنه. وقال الله: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) (٢) . فلما استحل معصية الله وترك سنه من كان قبله من المؤمنين، علم المؤمنون أن الجهاد في سبيل الله أولى، وأن الطاعة في مجاهدة عثمان على أحكامه. فهذا من خبر عثمان والذي فارقناه فيه، ونظعن عليه اليوم، ووطن عليه المؤمنون قبلنا، وذكرت أنه كان مع رسول الله وختته (٣)، فقد كان علي بن أبي طالب أقرب إلى رسول الله وأحب إليه منه، وكان ختته ومن أهل الإسلام. وأنت تشهد عليه بذلك وأنا بعد على ذلك، فكيف تكون قرابته من محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - نجاهً إذا ترك الحق وضل كفراً (٤) . واعلم، إنما علامة كفر هذه الأمة كفرها بالحكم بغير ما أنزل الله، ذلك بأن الله قال: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (٥) . فلا - أصدق من الله قبيلا - وقال: (فَبِأَيِّ حَىٰ دِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ) (٦) .

١. التوبة: ١٢ .

٢. محمد: ٢٥ .

٣. الختن: زوج الابنة. الجمع أختان .

٤. قال سبحانه لنبيه: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الزمر / ٦٥، ولكن الكلام في وقوع الشرط. إن الإمام لم يشرك، ولم يضل أبداً.

إنما ترك الحق أولئك الذين ألبأوه إلى إجابة دعوة الشاميين، وحدروهم من مواصلة الحرب وقد كان الامام على أعتاب النصر، وقد بلغوا في اللجاج والعناد إلى حد لم يمهلوا القائد لقواته - الأشر - عدوة فرس أو فواق نافئة، فلاحظ .
٥. المائدة: ٤٤ .

٦. الجاثية: ٦. (٣٥٠) فلا- يغزتك يا عبدالملك بن مروان، عثمان عن نفسك، ولا تسند دينك إلى الرجال يتمنون ويريدون ويستدرجون من حيث لا يعلمون، فإن أملك الأعمال بخواتمها، وكتاب الله جديد ينطق بالحق أجارنا الله باتباعه أن نضل أو نبغى (١) فاعتصم بحبل الله يا عبدالملك واعتصم بالله، وإنه من يعتصم بالله يهده صراطاً مستقيماً. وهو حبل الله الذي أمر المؤمنين أن يعتصموا به ولا يتفرقوا. وليس حبل الله الرجال من أيهم حسن يهبون ويطعنون، فأذكرك الله لما أن تدبرت القرآن فإنه حق. وقال الله: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٢). فكن تابعاً لما جاء من الله تهتدي، وبه تخاصم من خاصمك من الناس، وإليه تدعو وبه تحتج، فإنه من يكن القرآن حجته يوم القيامة به يخاصم من خاصمه ويفلح في الدنيا والآخرة. فإن الناس فقد اختصموا (إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) (٣) فتعمل لما بعد الموت ولا يغزتك بالله الغرور. وأما قولك في شأن معاوية بن أبي سفيان أن الله قام معه وعجل نصره وأفلح حجه وأظهره على عدوه بطلب دم عثمان، فإن يكن يعتبر الدين من قبل الدولة أن يظهر الناس بعضهم على بعض في الدنيا فإننا لانعتبر الدين بالدولة، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعملون، وقد ظهر الكفار على المسلمين ليتلى المسلمين بذلك ويعلى الكافرين (٤). وقال: (و تملك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (٥).
١. وفي نسخة: «أن نبغى أو نضل».

٢. محمد: ٢٤.

٣. الزمر: ٣١.

٤. وفي نسخة «ويملاً الكافرين».

٥. آل عمران ١٤٠ - ١٤١ . (٣٥١) فإن كان الدين إذا ظهر الناس بعضهم على بعض فقد سمعت الذي أصاب المشركون من يوم أُحُد، وقد ظهر الذين قتلوا ابن عفان عليه وعلى شيعته يوم الدار (١) وظهر أيضاً على أهل البصرة وهم شيعه عثمان (٢)، وظهر المختار على ابن زياد (٣)، وأصحابه وهم شيعتهم، وظهر معصب الخبيث على المختار (٤) وظهر ابن السجف على أحنس بن دلجة وأصحابه، وظهر أهل الشام على أهل المدينة (٥)، وظهر ابن الزبير على أهل الشام بمكة يوم استفتحوا منها ما حرم الله عليكم وهم شيعتكم. فإن كان هؤلاء على الدين فلا يعتبر الدين من قبل الدولة، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض ويعطى الله رجلاً ملكاً في الدنيا، فقد أعطى فرعون ملكاً وظهر في الأرض، وقد أعطى الذي حاج إبراهيم في ربه، وقد أعطى فرعون ما سمعت. ثم إنما اشترى معاوية (٦) الإمارة من الحسن بن علي، ثم لم يف له بالذي

١. اقتحم الثوار على عثمان بن عفان داره، بعد أن نشب القتال بينهم وبين من تصدى للدفاع عنه وذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ وقتلوه وعرف ذلك اليوم بـ «يوم الدار» .

٢. يشير إلى انتصار الإمام علي بن أبي طالب في وقعة الجمل، التي دارت بينه وبين عائشة وطلحة والزبير وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ .

٣. أرسل المختار بن أبي عبيدة الثقفي، جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد عامل الأمويين. وسار إبراهيم بن الأشتر حين لقي ابن زياد ومن معه من أهل الشام على نهر الخازر (نهر بين اربيل و الموصل ويصب في دجلة) فدارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وكثير من أهل الشام وحمل رأسه إلى المختار.

٤. هزم المختار وقتل في الكوفة سنة ٦٧ هـ في الحرب التي دارت بينه وبين مصعب بن الزبير .

٥. حاضر مسلم بن عقبة المري، المدينة المنورة، من ناحية الحره وفتحها وأباحها، وذلك في أثناء حكم يزيد بن معاوية.

٦. تعبير خاطئ والصحيح: تصالح الإمام مع معاوية بعد ما أتم الحجة على الأمة. (٣٥٢)

عاهده عليه، وقال: (وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوَكُّدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةً أَنْكَاثًا تَتَحَدُّونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (١). فلا تسأل عن معاوية ولا عن عمله ولا صنيعه، غير أنا قد أدرنا ورأينا عمله وسيرته في الناس ولا نعلم من الناس أحداً (٢) أترك للقسمه التي قسمها الله، ولا لحكم حكمه الله، ولا أسفك لدم حرام منه، فلو لم يصب من الدماء إلا دم ابن سمية (٣) لكان في ذلك ما يكفره. ثم استخلف ابنه يزيد فاسقاً من الناس لعيناً يشرب الخمر المكفر فيكفيه من السوء، وكان يتبع هواه بغير هدى من الله وقال الله: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (٤). فلم يخف عمل معاوية ويزيد على كل ذي عقل من الناس، فاتق الله يا عبد الملك ولا تخادع من نفسك في معاوية!! فقد بلغنا أن أهل البيت يطعنون على معاوية ويزيد وعملهما وما رأى من خبر معاوية من بعدهما، فالذي طعنا عليهما وعليه وفارقناه عليه، فإن منهم فتنه كمن يكون يتولى عثمان ومن بعده. فإننا نشهد الله والملائكة أنا منهم

١. النحل: ٩١-٩٢.

٢. كتب في المخطوطة: «شيئاً لأحد».

٣. يشير إلى ما عمله معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٥ هـ حين رد اعتبار زياد بن سمية في نسبه فأحب أن يجعله أخاه وأتى بشهود شهدوا بأنه ابن أبي سفيان، وهذا ما يعبر عنه بالاستلحاق. وأصبح زياد يعرف باسم زياد بن أبي سفيان بعد أن كان يعرف باسم زياد بن سمية أو زياد بن أبيه. وقد دفع معاوية إلى ذلك الاعتبار السياسية، ومنذ أن اعترف معاوية بن أبي سفيان بزياد أخاه وابناً غير شرعي لأبيه، تفانى زياد في خدمة البيت الأموي.

٤. القصص: ٥٠. (٣٥٣)

براء ولهم أعداء، بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا، ونبعث عليه إذا بعثنا، نحاسب بذلك عند الله. وكتبت إلى تحذرنى الغلو في الدين، وإني أعوذ بالله من الغلو في الدين، وسأبين لك ما الغلو في الدين إذا جهلته، فإنه ما كان يقال على الله غير الحق ويعمل بغير كتابه الذي بين لنا وسنة نبيه الذي بين لنا، اتباعك قوماً قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل. فذلك عثمان والأئمة من بعدهم وأنت على طاعتهم وتجامعهم على معصية الله، والله يقول: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) (١). فهذا سبيل أهل الغلو في الدين فليس من دعا إلى الله وإلى كتابه ورضى بحكمه، وغضب الله حين عصى أمره، وأخذ بحكمه حين ضيع وتركت سنة نبيه. وكتبت إلى تعرض على الخوارج، تزعم أنهم يغلون في دينهم ويفارقون أهل الإسلام، وتزعم أنهم يتبعون غير سبيل المؤمنين، وإني أبين لك سبيلهم، إنهم أصحاب عثمان، والذي أنكروا عليه ما أحدث من تغيير السنة، فارقوه حين أحدث وترك حكم الله، وفارقوه حين عصى ربه، وهم أصحاب علي بن أبي طالب حين حكم عمرو بن العاص (٢) وترك حكم الله، فأنكروه عليه وفارقوه فيه وأبوا أن يقرؤا لحكم البشر دون حكم كتاب الله، فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة. كانوا يتولون في دينهم وسنتهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبا بكر وعمر بن الخطاب، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون بسنتهم على ذلك، كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يفارقون. وقد علم من عرفهم من الناس ورأى عملهم أنهم كانوا أحسن الناس

١. النساء: ١٧١.

٢. لم يحكم عمرو بن العاص، وإنما حكم القرآن كما تشهد على ذلك وثيقة التحكيم. فلاحظ. (٣٥٤)

عملا- وأشد قتالا في سبيل الله. وقال الله: (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (١). فهذا

خير الخوارج، نشهد الله والملائكة أننا لمن عاداهم أعداء وأنا لمن والاهم أولياء، بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، على ذلك نعيش ما عشنا، ونموت على ذلك إذا متنا، غير أننا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إيمانهم (٢) فبرأ إلى الله منهم. أما بعد فإنك كتبت إلي أن أكتب إليك بجواب كتابك، وأجهد في النصيحة، وإني أبين لك إن كنت تعلم وأفضل ما كتبت إليك به، وذكرتني بالله أن أبين لك فإني قد بينت لك بجهد نفسي، وأخبرتكم خبر الأئمة، وكان حقاً علي أن أنصح لكم وأبين لكم ما قد علمت. إن الله يقول: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (٣). فإن الله لم يتخذني عبداً وأن أكفر بربي، ولا أخدع الناس بشيء ليس في نفسي، وأخالف إلى ما أنهى عنه، فأمرى علانية غير سر، أَدْعُو إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَلِيَحْلُوا حلاله ويحرموا حرامه ويرضوا بحكمه ويتوبوا إلى ربهم ويراجعوا كتاب الله، ولئن أَدْعُوكم إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُم بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَنَحْرَمَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَنَحْكُمَ بِمَا حَكَّمَ اللَّهُ، وَنَبْرَأُ مِمَّنْ بَرِيَ اللَّهُ مِنْهُ وَرَسُولِهِ، وَتَوَلَّى مِنْ يَتَوَلَّاهُ اللَّهُ، وَنَطِيعٌ مِنْ أَحَلَّ لَنَا طَاعَةَ فِي كِتَابِهِ، وَنَعَصِي

١. التوبة: ١٢٣ .

٢. يشيرنا إلى تبرئ الاباضية من نافع بن الأزرق والأزارقة وذلك لغلوهم وتطرفهم في الدين.

٣. البقرة: ١٥٩ - ١٦٠ . (٣٥٥)

من أمر الله بمعصيته. أن نطيعه فهذا الذي أدركنا عليه نبينا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . وإن هذه الأمة لم تحرم حراماً ولم تسفك دماءً إلا - حين تركوا كتاب ربهم الذي أمرهم أن يعتصموا به، ويأمنوا عليه، وأنهم لا يزالون مفترقين مختلفين حتى يراجعوا كتاب الله وسنة نبيه، ويتصالحوا كتاب الله على أنفسهم، ويحكموه إلى ما اختلفوا فيه. فإن الله يقول: (وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (١). وإن هذا هو السبيل الواضح لا يشبه به شيء من السبل، وهو الذي هدى الله به من كان قبلنا، محمداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - والخليفين الصالحين من بعده، فلا يضل من اتبعه ولا يهتدي من تركه، وقال: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (٢). فاحذر أن تفرق بك السبل عن سبيله، ويزين لك الضلالة باتباعك هواك فيما جمعت إليه الرجال، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، إنما هي الأهواء والدين. إنما يتبع الناس في الدنيا والآخرة إمامين، إمام هدى، وإمام ضلالة. أما إمام الهدى فهو يحكم بما أنزل الله ويقسم بقسمه ويتبع كتاب الله، وهم الذين قال الله: (وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (٣) وهؤلاء أولياء المؤمنين الذين أمر الله بطاعتهم، ونهى عن معصيتهم. وأما إمام الضلالة فهو الذي يحكم بغير ما أنزل الله ويقسم بغير ما قسم الله، ويتبع هواه بغير سنة من الله فذلك كفر كما سمى الله، ونهى عن طاعتهم وأمر بجهادهم، وقال: (فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (٤).

١. الشورى: ١٠ .

٢. الأنعام: ١٥٣ .

٣. السجدة: ٢٤ .

٤. الفرقان: ٥٢ . (٣٥٦)

فإنه حق أنزله بالحق وينطق به، وليس بعد الحق إلا الضلال فإني تصرفون. ولا يضرين الذكر عنك صفحاً، ولا تشككن في كتاب الله، ولا حول ولا قوة إلا - بالله، فإنه من لم ينفعه كتاب الله، لم ينفعه غيره. كتبت إلي أن أكتب إليك بمرجوع كتابك، فإني قد كتبت إليك، وأنا أذكرك بالله العظيم إن استطعت بالله لما قرأت كتابي ثم تدبر فيه وأنت فارغ ثم تدبره، فقد كتبت إليك بجواب كتابك وبينت لك ما علمت ونصحت لك. فإني أذكرك بالله العظيم لما قرأت كتابي وتدبرته، واكتب إلي إن استطعت بجواب كتابي إذا كتبت

إليك، إنما أتنازع فيه أنا وأنت، انزع عليه بينة من كتاب الله أُصدّق فيه قولك، فلا تعرض لي بالدنيا فإنه لارغبة لي في الدنيا، وليست من حاجتي، ولكن لتكن نصحتك لي في الدين، ولما بعد الموت، فإنّ ذلك أفضل النصيحة، فإنّ الله قادر أن يجمع بيننا وبينك على الطاعة، فإنه لاخير لمن لم يكن على طاعة الله. وبالله التوفيق وفيه الرضى، والسلام عليه، والحمد لله، وصلى الله على نبيه محمّد وآله وسلّم تسليمًا (١). ***

١. السير والجوابات لعلماء وأئمّة عمان ٢/٣٢٥ - ٣٤٥ تحقيق الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، ط وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان، والجواهر المنتقاء ١٥٦ - ١٦٢، وازالة الوعناء عن اتباع أبي الشعثاء ٨٦ - ١٠١.

الفصل الثاني عشر في عقائد فرق الخوارج

الفصل الثاني عشر في عقائد فرق الخوارج ومخططاتهم في الحياة (٣٥٨) (٣٥٩) ظهرت الخوارج في الساحة الإسلامية بصورة تيار سياسى لا يتبنون إلا تطبيق الحكم الشرعى الوارد فى الكتاب والسنة فى أمر البغاة (الشاميين) وكان الجميع يحملون شعار «لا حكم إلا لله» يريدون بذلك أن حكم الله فى حق البغاة هو القتال، لا تحكيم الرجال، ولم يكن لهم يومذاك منهج كلامى، ولما قضى على - عليه السلام - نجبه، ركز الخوارج جهدهم على مكافحة الحكام الظالمين ك معاوية وآله، ومروان بن الحكم وأولاده، وقد حفظ التاريخ انتفاضاتهم فى وجه خلفاء بنى أمية وعمّ الهمة كما تعرّفت على لفيف منها. فلا- عجب عندئذ إذا رأينا أن خارجياً يقتضى أصحاب الحديث فى العقائد، أو يتبنى عقيدة المعتزلة فى غير مورد من الأصول وما هذا إلا لأنّ القوم فى القرنين الأولين كانوا مقاتلين، قبل أن يكونوا أصحاب فكر، وكانوا ثوراً فى وجه الحكومات، قبل أن يكونوا فرقة دينية تتبنى أصولاً عقائدية، والامعان فى المبدأ الذى اتّخذوه كحجر زاوية (تخطئة التحكيم) أو الأسس التى تبناها فى العهد الاموى، أى بعد استيلاء معاوية على الحكم، إلى عهد عبدالملك بن مروان (ت ٧٥) إلى آخر الدولة المروانية (١٣٢ هـ) يعرب عن أن (٣٦٠)

القوم لم يكن لهم يوم ذاك فكر كلامى ولا- فقهى، وأنّ الغاية من تبني الأسس المذكورة فى هذا الفصل (تكفير مرتكبي الكبيرة وحرمة مناكحتهم ولزوم الخروج على الطغاة و...) إنما هو تمهيد لأساليب توصلهم إلى القضاء على الخلفاء وحكام الجور، والاستيلاء على منصّة الحكم. ولذلك لم يورثوا سوى الشغب والثورة والأخذ بزمام الحكم. نعم الفرقة الباقية منهم - كالأباضية - لما استشعروا أنّه لا يصحّ بفريق سياسى أن يعيش بلا مبدأ كلامى أو فقهى، تداولوا بعض الموضوعات الكلامية والفقهية بالبحث والتمحيص. ويبدو من خلال الرجوع إلى آثار تلك الفرقة أنّ أكثر ما يتبنونه فى مجال العقائد إنما هو نتاج متأخر لم يفكر به مؤسس الفرقة كعبدالله بن اباض ولا التابعى الآخر كجابر بن زيد، وأكثر ماورثوا من الأول شجاعته الروحية، وصراحته فى بيان الحقائق، ومن الثانى أحاديث موقوفة، نقلها جابر عن عدّة من الصحابة، وأين هذا من منهج كلامى منسجم، وفقه واسع يتكفل بيان تكاليف العباد فى الحياة فى عامّة المجالات. وهذا يؤيد أنّ الخوارج - ظهرت يوم ظهرت - كفرقة سياسية ثم آلت إلى فرقة دينية. ونحن نمّر فى هذا الفصل على عقائدهم وأسسهم التى تعرّفت على سماتها والغايات المتوخّاه منها. *** (٣٦١) ١ - حكم التحكيم فى حرب صفين إن تخطئة التحكيم هو الحجر الأساس لقاطبة الخوارج، وقد اتّخذوه شعاراً أيام حياة الامام على - عليه السلام - وبعده، والخوارج كلّهم، المتطرّف منهم وغيره، أصفقوا على أن قبول التحكيم فى حرب صفين كان أمراً مخالفاً للكتاب، وما كان لعلى - عليه السلام - أن يحكم الرجال فى موضوع ورد فيه حكم إلهى فى مصدرين رئيسيين - أعنى الكتاب والسنة -، وبما أنّا ألمحنا إلى الموضوع وأوضحنا حاله فى الفصل الثالث تحت عنوان «تحليل لكارثة التحكيم» فنحيل القارئ الكريم إلى ذاك الفصل وقد ذكرنا هناك وجوهاً مختلفة يحتملها ذلك الشعار، إلا أنّ الامعان فى كتب القوم يعرب عن أنّهم لا يهدفون منه إلاّ احد الوجهين: (٣٦٢) الف - تحكيم الرجال فيما نزل فيه حكم الله، كفر (١). ب - لا- إمرة إلاّ الله تبارك وتعالى. أمّا الأول فيشترك فيه جميع فرقهم، وأمّا الثانى فإنما يعود إلى بعض فرقهم كما سنذكر، وبما أنّه اعتمد على الوجه الأول جميع مفكرهم ومشايخهم، وبالغ القوم فى توضيحه وتنقيحه وتثبيته، فنأتى فى المقام

ببعض نصوصهم ثم نقوم بتحليله حتى يتبين الحق بأجلى مظاهره. التحكيم والتدخل في موضوع له حكم سماوي: إن للكاتب المعاصر: على يحيى معمر، مؤلف كتاب «الاباضية في موكب التاريخ» بياناً مفصلاً حول الموضوع وقد بذل جهده في اثبات أن التحكيم كان تدخلًا في موضوع فيه حكم الله، وهو مواصلة الحرب والقتال ومكافحة أهل البغي، وأن إيقاف القتال وإدلاء الأمر إلى الحكيم كان مخالفاً للتشريع السماوي، يقول: «بايع المسلمون علي بن أبي طالب أميراً للمؤمنين، وكان أول من بايع طلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، ولكن ما كادت تتم البيعة، حتى كان طلحة والزبير يحملان لواء الثورة مع جماعة من كبار الصحابة، وقد استظهروا بأمر المؤمنين عائشة، ووقف الخليفة في وجه الثائرين موقفاً حازماً صلباً، وقتل في هذه الثورة الطاحنة عدد غير قليل من المسلمين ذهب فيمن ذهب فيها»

١. هذا هو الوجه الأول من بين الوجوه المذكورة في الفصل الثالث ووجدنا هناك القارىء أن نرجع إلى تفصيله وتحليله وما نذكره هنا إنجاز له. (٣٦٣)

طلحة والزبير، ورجع بقیة الثائرين إلى حظيرة الإمامة والأمة. لم تكد تنتهي هذه الحرب الطاحنة، ويعود إلى البلاد الهدوء والاستقرار، ويعرف معاوية أن الثورة فشلت، وأنه معزول عن ولاية الشام لامحالة، حتى أعلن الثورة في الشام وهو حينئذ عامل من عمال الخليفة، وأظهر أنه يطالب بدم عثمان وقد استعد أمير المؤمنين لإطفاء هذه الثورة كما أطفأ الثورة التي سبقتها و جهز جيشه القوى وسار به نحو الشام حيث التقى بالجند الثائر في الموضع المعروف بـ «صفين»، وبدأت المعركة ثم استمر القتال حتى ظهرت طلائع النصر وأشرف جيش الخليفة على امتلاك زمام المعركة، ولم يبق للقضاء على هذه الثورة الجامحة إلا لحظات عبر عنها الأشتر «بفوق الناقه»، إلتجأ الثائرون إلى الحيلة والخدعة، ولجأوا إلى المكر والمكيده ورفعوا المصاحف وهم يصيحون يا أهل العراق بيننا وبينكم كتاب الله. طلب الثائرون هدنة، ودعوا الخليفة الشرعي وجيشه إلى تحكيم حكيم، وقد فطن أمير المؤمنين وبعض من جيشه إلى هذه الخدعة، وعرفوا القصد من هذه الهدنة، ولكنه بدلا من أن يقف موقفه الحازم، ويوالى حربه ضد الثائرين، حتى يتحقق النصر، وقد تحققت بشائره، ويُلقي البغاة أسلحتهم، ويعودوا إلى صف الأمة الذي انشقوا عنه، وبغوا عليه - بدلا من أن يقف موقفه الحازم ذلك - استجاب لدعاء الهزيمة وأخذ بنصيحة طلاب الخدعة وأكثرهم موعود من معاوية أو من عمرو بن العاص، ورضى بالتحكيم وقبّل الهدنة وأمر بإيقاف القتال في الحال. وهكذا انتهت هذه الثورة إلى هذا الموقف المائع الذي جعل حقّ عليّ في الخلافة، يتساوى مع حقّ معاوية، وجعل نصيب البغاة الثائرين من الثواب، يساوي نصيب جيش الأمة الذي يدافع عن خلافة شرعية تمت بالشورى (٣٦٤)

وانعقدت بالبيعة. وتداعى الذين فطنوا إلى خدعة الهدنة من أصحاب عليّ وحذروه من قبولها، وأخبروه أن قبولها يعنى الشك في خلافته، والتنازل عنها، وكانوا مصرّين ان الخلافة الشرعية حق لا يتطرق إليه الشك، ولا يجوز فيها الرجوع ولا تقبل فيها المساومة. وإذا خطر لعلي أن يستجيب لدعاء الهزيمة من جيشه، والماكرين من عدوه، وأن يشك في نفسه والحق الذي بيده، ويتنازل عن الشرف الذي أولاه المسلمون، ويساوى بينه وبين أحد عماله، في قضية أخذ فيها عهداً من الأمة وأخذت منه فيها موثقاً وعهداً، ورضخ إلى تحكيم رجال فيما نزل فيه حكم الله. حين فعل عليّ ذلك، تداعى أولئك الذين لم يرتضوا التحكيم وحذروا علياً من قبوله، وهم يرون أن معاوية باغ لا حق له، وأن بيعه على قد انفسخت بموافقة علي الهدنة، ورضاه بالتحكيم جبراً، فلم تبق لأحد في أعناقهم بيعة، وليس لأحد عليهم ميثاق، تداعوا إلى أن يعتزلوا جيش عليّ، وركنوا إلى موقع يسمى حروراء، فانعزلوا فيه ينتظرون تجدد الحوادث، واتجاه الأمة في قضية الخلافة، وقد جرت الأمور بأسرع مما يتوقع لها، فما بلغ الموعد الذي حدده الطرفان لانتهاه الهدنة، حتى اجتمع الناس وأعلن أبو موسى الأشعري مندوب علي، عزل عليّ عن الخلافة وترك الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يشاؤون. كان هؤلاء المحايدون ينظرون إلى معاوية نظرهم إلى باغ، يحاول أن يفرض نفسه بالمكر والحيلة، ولذلك فهم لا يقيمون أى وزن لدعوى عزله، فهو لم يتولّ أمر الخلافة إلى ذلك الحين، لا بالإكراه، ولا بالشورى، فلما عني لعزله من منصب ليس هو فيه، كما لا يقيمون أى وزن لتولية عمرو بن العاص له، لأنّ (٣٦٥)

عمرًا لم يفوضه المسلمون في تولية أمير المؤمنين، أمّا نظرهم إلى علي فقد كانوا يتوقعون أن يتفق الحكمان على إقراره في الحكم، وحينئذ ترجع إلى علي الصبغة الشرعية التي تنازل عنها لإثباتها، ويجب على المسلمين حينئذ أن يوحدوا صفوفهم، تحت طاعته، ما قام فيهم بكتاب الله، ولكنّ المندوب الذي اختاره على ليمثله في هذه القضية الظالمة، أعلن أنّه عزل عليًا عن أمر المسلمين، وأنّ الأمر أصبح للشورى والاختيار، وتأييد موقف هؤلاء المحايدون وانضمّ إليهم عدد آخر ممن كانوا يقفون إلى جانب علي حتى ذلك الحين، وبحوث الأمر فيما بينهم على أساس أنّ المسلمين أصبحوا دون خليفه. فهذا معاوية باغ ظالم لا يمكن أن يتولّى أمر المسلمين، وهذا عليّ عزله المندوب الذي اختاره للتحكيم، واذن فليختاروا، واختاروا عبدالله بن وهب الراسبي، فبايعوه أميراً للمؤمنين وخليفه للمسلمين بعد علي بن أبي طالب، فهو الخليفة الشرعي الخامس في نظرهم» (١). غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم! لم أجد عنواناً يعرب عن مظلومية الإمام أمير المؤمنين في مسألة التحكيم الذي فرضه عليه الخوارج، ثم جاءوا يطالبونه بالجريمة، أحسن من هذا المصراع، وبما أنا فرضنا على أنفسنا في بدء الكتاب الـ نقضى على قوم بما كتبه غيرهم في حقهم، فقد نقلنا هذا الكلام بتفصيله والإمعان في أوله وثناياه وآخره يدل على أنّ الكاتب أخذ موقفاً مسبقاً في مسألة التحكيم، فأخذ من التاريخ فقرات متناثرة تلائم موقفه، وترك كل ما يخالفه. وإليك تحليل مذكوره. ١ - كان من واجبه - قبل كل شيء - التعريف بالذين فرضوا التحكيم على

١. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى ٢١ - ٣٤. (٣٦٦)

عليّ - عليه السّلام - وأجبروه على قبوله، فمن هم الذين أجبروه على التحكيم وعلى التنازل عن الشرف الذي أولاه المسلمون، وبالتالي ساووا بينه وبين أحد عمّاله؟ فإنّ التعرّف عليهم أساس القضاء الحق فيما رسمه الكاتب وحرّره. الذين فرضوا التحكيم على عليّ - عليه السّلام - لم يكونوا إلّا رؤوس المحكّمة الأولى الذين اتّخذهم الكاتب أثنيّة وأولياء، فإنّ الإمام عليّ - عليه السّلام -، فوجيء بمجئ زهاء عشرين ألفاً، مقتنعين في الحديد، شاكين سيوفهم، وقد اسودّت جباههم من السجود يتقدّمهم مشعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادون باسمه، لا يأمرة المؤمنين، وقالوا: يا عليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذا دُعيت، وإلّا - قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم، فقال الإمام لهم: ويحكم أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله، وأوّل من أجاب إليه، وليس يحلّ لي ولايسه مني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله، فإنّي إنّما قاتلتهم ليدنوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا إليه فيما أمرهم، ونقضوا عهده ونبذوا كتابه، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنهم ليس العمل بالقرآن يريدون (١). إنّ حرقوص بن زهير السعدي الذي يُعدّ من الطبقة العليا للمحكّمة الأولى وكان مرشّحاً للبيعة في بيت عبدالله بن وهب الراسبي قبله، كان من المصرّين على قبول التحكيم، لكنّه رجع عن رأيه وتاب عن كفره بزعمه، ولتّما دخل على عليّ - عليه السّلام - ومعه زرع بن برج الطائي، فقال له: أخرج بنا إلى عدوّنا نقاتلهم، فعاتبه الإمام وقال: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبت بيننا وبينهم كتاب... (٢).

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٦٠ - ٥٦٤ وغيرها.

٢. الطبري: التاريخ ٤/٥٣. (٣٦٧) وقد وصل اصرار القوم إلى حدّ هدّدوا حياة الإمام بأنهم يقضون عليها كما قضوا على حياة عثمان، فلم يجد الإمام بدّاً من قبول التحكيم، وقد بلغ القوم في قلّة الحياء وشكاسة الخلق إلى حدّ فرضوا التحكيم على الإمام أوّلاً، ثمّ فرضوا عليه صيغة الحكم، ولم يرضوا بمن كان هوى عليّ - عليه السّلام - معه، وقد كان الإمام يصرّ على بعث عبدالله بن عباس أو الأشتر، ولكنهم ما رضوا إلّا - بأبي موسى الأشعري الذي كان يكرّ عداً عليّ في خُلده لما عزله من ولايته. أبعده هذا يصحّ للكاتب أن يقول «ولكنّه - الإمام - بدل أن يقف موقفه الحازم ويوالى حربته ضد الثائرين حتى يتحقّق النصر، وقد تحققت بشائره، ويُلقى البغاة أسلحتهم، ويعودوا إلى صفّ الأئمة... بدلا من أن يقف موقفه الحازم ذلك، استجاب لدعاة الهزيمة وأخذ بنصحية طلاب الخدعة...». إنّ رؤوس الخوارج هم الذين كانوا يشكّلون دعاة الهزيمة، وطلاب الخدعة، فلو كان التحكيم جنائية فهم أولى بأن يجتنوا ثماره، ويحملوا أوزاره، لا الإمام الذي أعطى لهم نصحة الخالص، وتبهم على أنّها خديعة، ظاهره الصلاح وباطنه الفساد و... أو ليس عاراً

على جماعة، فرضوا على إمامهم التحكيم، وإدلاء الأمر إلى الحكيمين وكتابة ميثاق بين الطرفين، أن يجيئوا شاهرين سيوفهم، يطلبون منه نقض الميثاق ورفض العهد الذي كان عنه مسؤولاً، وكأنَّ الخلافة آلة طيعة بأيديهم يلعبون بها كيف شاءوا. هؤلاء لم يقدروا علياً، ولا عرفوا مكانته وصموده في طريق العهد والميثاق، فما دام الحكمان لم يخرجوا عن الطريق المستقيم، لا ينقضُ قوله وعهده، وإن بلغ ما بلغ، وإن شهرت الخوارج سيوفهم عليه وعلى الخُلص من جيشه. ٢ - إنَّ علياً لم يستجب لدعاء الهزيمة ولم يأخذ بنصيحة طلاب الخدعة، (٣٦٨)

إلا بعد ما تحقَّق عجزه عن القيام بمواصله الحرب، وتطبيق حكم الله على البغاة - أعنى معاوية وأتباعه -... لاشكَّ أنَّ حكم الله في حق البغاة هو قتالهم إلى أن يرجعوا إلى صفِّ الأئمة الذي انشقوا عنه، وبغوا عليه، إلا أنَّ التكليف فرع القدرة وهي فرع طاعة الجيش لرأى قائده الحازم الباسل، الذي عرفه التاريخ بالبطولة والبسالة والصمود والوقوف في وجه الظالمين، ولكن يا للأسف أنَّ أغلبية الجيش اتخذوا بخدعة معاوية، وأخذوا بمخالفته على حسب ما عرفت، وعندئذ لا تثير على الإمام أن يُسلم الأمر إلى الحكيمين ويقف عن القتال قائلا: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلاَّ وشدَّ عَها)، (ولا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلاَّ ما آتاها) ويقول: «لقد كنت أمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً، فأصبحت اليوم منهياً» (١). إنَّ بعض الكتاب الجدد من الاباضية يصرِّح بأنَّ علياً قبل التحكيم مضطراً ويقول: «إنَّ هذه الخدعة لم تكن لتجوز على علي بن أبي طالب، وقد أدركها وأدرك حقيقة ما وراءها من الوهله الأولى، وأعلن على الفور رفضه لها وعدم قبوله للتحكيم. إنَّ علي بن أبي طالب إنما قبل التحكيم مضطراً ورضى به مكرهاً ازاء ضغط من ضعف أفراد جماعته، ومن نهضوا بينهم يدعون إلى قبول التحكيم، وإنَّ الدعوة التي دعا بها معاوية أحدثت أثرها في خداع الجند، كما أنَّها كانت نكأة لبعض من ضعفت أنفسهم للجهر بها والدعوة إلى الكف عن القتال، ازاء ذلك كله لم يكن في وسع علي إلا أن يرضى بالتحكيم وإن لم يقتنع به ولم تخف نتائجه» (٢).

١. الرضى: نهج البلاغة قسم الخطب، الخطبة ٢٠٨.
٢. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٠٠. (٣٦٩) وقال علي يحيى معمر: «كان التحكيم خدعة سياسية يراد بها تفرغ جيش أمير المؤمنين علي - عليه السلام - وأنه أول من أوائل من تفتنوا للمكيدة، ولم يقبل التحكيم إلا مكرهاً، وأنه أنكره بشدة وأبان لجيشه - الذي عمل فيه الطابور الخامس عمله - عواقب تلك المكيدة وأنه لم يقبل التحكيم إلا مضطراً عندما وجد جيشه معرضاً للتفرق والتمزق وربما للتناحر، وكان علي رأى الامام علي - عليه السلام - وعلى رأى أصحابه في اعتبار التحكيم مكيدة لا ينبغي قبولها، أكثر أئمة المسلمين منهم الإمامان العظيمان الحسن البصرى ومالك بن أنس حسب ما أورده المبرد في كامله وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بل أستطيع أن أزعم أننا اليوم وفي هذا العصر - وقد مضى على تلك الأحداث ثلاثة عشر قرناً ونصف - عندما نقرأ أخبارها نشعر بالأسف والحسرة، لأنَّ تلك الخدعة الجريئة قد انطلت على أكثرية جيش علي حتى اضطرَّ للاستجابة لها، رغم معرفته القصد منها وتقديره لنتائجها وعلمه علم اليقين أنَّ القصد من تلك العملية لم يكن مراعاة للمصلحة العامة ولا نظراً لخير الأئمة، ولا تحكماً للكتاب في شيء جهل فيه حكم الكتاب» (١). وقال أيضاً: «واختلف أصحاب علي اختلافاً شديداً بين موافق علي الطلب، ومعارض له، واضطرَّ الإمام إلى الموافقة نزولاً عند رأى الأغلبية وإن كان رأيه هو خلاف ذلك» (٢). نحن نسأل الكاتبين عن مسألة التحكيم المفروض على علي من جانب جيشه، فقد اعترفنا بأنَّ الإمام قبله بعدما عرفه، دفعاً للتفرقة والتخزق، بل

١. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ١/١٩٠ - ١٩١.

٢. علي يحيى معمر: الاباضية بين الفرق الإسلامية ٢/١٦٦. (٣٧٠)

للتناحر وأنه لولا - بقوله لثاروا على الإمام وقضوا على حياته، وعندئذ يصبح ابن أبي سفيان مالكا لأئمة الأمور ومنتسماً على عرش الخلافة من دون منازع، ويصير الطريق لسيط سلطته وسيطرته مُعَبِّداً ومذلاً بأيدي خصمائه وأعدائه - أعنى الذين قبلوا التحكيم

وفرضوه على إمامهم. وأين ذلك الفرض من فرض قبول التحكيم حتى يرجع الطرفان إلى كتاب الله فيما اختلفا فيه.... وإن كان حكم الكتاب في ذلك واضحاً - والخصم وأنصاره الأغبياء كانوا يتخيلون أنهم جاهلون بحكمه فيجب أن يرجع إليه بحكمين من الطرفين. فإذا كان هذا موقف عليّ والمسلمين فلم يكن بُدّ من قبول التحكيم دفعاً للأفسد بالفاسد وهو ليس شيئاً خفياً على الكاتبين، وعند ذلك فلماذا يؤخذان عليّاً بقبول التحكيم وعدّه ذنباً يحتاج إلى التوبة والاستغفار. إذا كان قبول التحكيم عن إكراه واضطرار، وقد قال سبحانه: (فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١) أفيصح للمغفلين الذين انتبهوا عن غفلتهم، وضيعوا الفرص الذهنية للقضاء على الطغمة الأموية، أن يصروا على عليّ بالتوبة والاستغفار وإلا فبالانزعال والخروج عن تحت رايته بعد ما أخبر سبحانه أنه غفور رحيم لكلّ مضطّر ارتكب عملاً لا عادياً ولا باغياً؟ أفيصح لهؤلاء وفي رأسهم المحكّمه الأولى الذين كانوا أداة طيعة - بلاوعى - بيد رأس الطايبور الخامس الأشعث بن قيس، أن يحتفلوا في الكوفة ويختاروا لأنفسهم أميراً وخليفة، ويتهموا عليّاً بأنه عزل نفسه عن الخلافة، ثم يخرجوا عن الكوفة وينزلوا ضفة النهر مزيهين ومرعبين ونار الفتنة بعد لم تطفأ والعدو الغاشم - معاوية بن أبي سفيان - على أهبة الهجوم وبسط السيطرة

١. الأنعام: ١٤٥. (٣٧١)

والقضاء على الخلافة الشرعية. إن النصوص التاريخية تضافرت على أنّ عليّاً أتمّ عليهم الحجّة قبل نشوب نار الحرب، وقد كان رؤساء المحكّمه أعنى عبدالله بن وهب الراسبي وحر قوص بن زهير السعدى ومن في رتبتهما من المحكّمه، يسمعون كلام عليّ وهو يخاطبهم بأنهم هم الذين فرضوا على عليّ التحكيم، فلما ندّموا طلبوا منه نقض العهد والميثاق المحرّم بنص الذكر الحكيم، وقد ذكرنا نص على عند عرض التاريخ. يقول صالح بن أحمد الصوافي: إنّ علي بن أبي طالب قد مضى بنفسه إلى أولئك الخارجين عنه وقال لهم: من زعيمكم؟! قالوا: ابن الكواء. قال علي: فما أخرجكم عنّا؟ قال: حكومتكم يوم صفين. قال: أنشدكم بالله أنعلمون أنهم حين رفعوا المصاحف، فقلت: نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إنّي أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن إنّي صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالا، فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال. أمضوا على حقكم وصدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهناً ومكيده، فردّتم عليّ، وقتلتم: لا، بل نقيبل منهم، فقلت لكم: اذكروا قولي لكم ومعصيتكم إياي، فلما أبيتتم إلا الكتاب اشترطت على الحكّمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن، فليس لنا أن نخالف حكماً يحكم به بما في القرآن. وإن أبيا فنحن من حكمهما براء، قالوا له: فخيرنا، أترأه عدلاً تحكيم الرجل في الدماء؟.... فقال: إنّا لم نُحكّم الرجال، إنّا حكّمنا القرآن، وهذا القرآن هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق، إنّا يتكلّم به الرجل... قالوا: فخيرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل، ويثبت العالم، ولعلّ الله - عزّوجلّ - يصلح في هذه الهدنة هذه الأئمّة... ادخلوا مصركم، رحمكم الله... (٣٧٢) قالوا: صدقت، قد كنّا كما ذكرت... وفعلنا ما وصفت، ولكن ذلك كان منّا خلاف القرآن، فقد تبنا إلى الله عزّوجلّ منه، فتب كما تبنا، نبايعك، وإلا فنحن مخالفين. فقال علي: ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجيء المال، ويسمن الكراع، ثم نخرج إلى عدونا ولسنا نأخذ بقولهم وقد كذبوا... (١). فهذا الكلام سواء ألقى في الحروراء أو في ضفة النهر يعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة من الخارجين عن طاعة علي - لولا كلهم - كانوا هم الذين فرضوا التحكيم على عليّ - عليه السّلام - وألجأوه إلى الرضوخ لمكيدتهم، فماذا يطلبون من عليّ بعد ذلك؟ ٣ - إنّ ابن أبي سفيان قام لأجل أخذ الثأر من قتله عثمان ولم يبايع عليّاً بحجّة أنّه كان يحمي الخارجين على عثمان، والثائرين عليه، وكان الإمام يصير عليه أن يدخل أولاً فيما دخل فيه المسلمون، ثم يعرض المسألة عليه (٢) وبما أنّ معاوية اتخذ جانباً سلبياً في هذا الموضوع، قام الإمام بتأديب الباغي، وارجاعه إلى صفوف المسلمين وانتهى الأمر إلى نشوب الحرب بين الطرفين، ولجوء معاوية إلى الخدعة والمكر، وتحكيم الرجلين في الموضوع الذي اختلف فيه الفريقان، فلم تكن الغاية من اتفاقية الصلح إلاّ تحكيم الكتاب في الموضوع الذي تنازع فيه الطرفان، وأما عزل الإمام عن الخلافة ونصب معاوية مكانه فلم يكن في صلاحية الحكّمين وإنّا دخلا في موضوع لم يُفوّض إليهما أمره. فأيهما فيها بالعزل والنصب رأى ساقط. ٤ - إنّ الإمام لما رأى لجاج العدو وعناده في صياغة

اتفاقية الصلح حيث لم يرض به إلا بمحو لقب إمره المؤمنين عن جنب اسمه، رضى بذلك اقتداءً

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١١٠ - ١١١ .

٢. الرضى: نهج البلاغة، قسم الرسائل برقم ٦٤ . (٣٧٣)

بالنبي الأكرم في صلح الحديبية حيث رضى أن يكتب اسمه ويمحى لفظ رسول الله، ولم يسمع لقول الأحنف حيث قال: «لا تمح اسم إمره المؤمنين عنك فإني أتخوف إن محوتها ألاً- ترجع إليك أبداً لاتمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً، فأبى ملياً من النهار أن يمحوها» (١) ولكنه - عليه السلام - لم يَرِ بدأً من القبول ورضى بالمحو تحت ضغط الأشعث والمنخدعين من جيشه، والمقتنعين في الحديد. وبذلك تقف على قيمة قوله: «وإذ خطر لعلي أن يستجيب لدعاء الهزيمة في جيشه، والماكرين من عدوه أن يشك في نفسه، والحق الذي بيده، ويتنازل عن الشرف الذي أولاه المسلمون، ليساوى بينه وبين أحد عماله في قضيه أخذ فيها عهداً من الأمة، وأخذت منه فيها موثقاً وعهداً ورضخ إلى تحكيم رجال فيما نزل فيه حكم الله». إن فرض التحكيم على علي وقبوله ومحو لقبه، تحت ضغط قسم كبير من جيشه، لايعنى شكه في نفسه والحق الذي بيده، والتنازل الاختياري عن الشرف الذي أولاه المسلمون، بل يعنى فسح المجال للتفكر والتدبر فيما كان يدعيه معاوية على الإمام من تقدم أخذ الثأر على البيعة، حتى يقضيا الحكمان فيه برأى بات، ولو دل محو اللقب على الشك في الإمرة، فهل يظن الكاتب أن رسول الله شك في رسالته عندما رضى بمحو لقبه عن جنب اسمه؟ نعم توهم ذلك بعض أصحابه وتصور أن ذلك يساوى اعطاء الدنية في أمر الدين (٢) ولكن رسول الله استقبال الحادث بصدر رحب، وقبل الصلح على النحو الذي كان المشركون يطلوبونه، وقد أثبت مرور الزمان صواب رأيه في الصلح، وأنه كان

١. نصر بن مزاحم: وقعة صفين: ٥٨٢ .

٢. لاحظ السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٣١ . (٣٧٤)

لصالح المسلمين كما هو المحقق في السيرة النبوية. والحاصل: لم يكن قبول التحكيم والموافقة على الهدنة لغاية عزل الإمام نفسه عن الخلافة وإدلاء الأمر إلى الحكامين حتى يُختار للأمة الإسلامية خليفه بل كانت الغاية من قبوله هو فسح المجال للحكامين حتى يقضوا في ضوء الكتاب والسنة في حق الباغي الوارد في الكتاب العزيز (١) وفيما يدعيه ابن أبي سفيان في حق علي، حيث كان يقول لايباع الأ بعد أخذ الثأر من قتلة عثمان كما صرح به في بعض رسائله إلى الإمام، يقول الإمام: «وقد أكثر في قتله عثمان فادخل فيما دخل فيه الناس، ثم حاكم القوم إلى أحملك وإياهم على كتاب الله، وأما تلك التي تريد فإنها خدعة الصبي عن اللبن في أول الفصال». وقد جاء في رسالة معاوية إلى الإمام قوله: «وادفع إلى قتلة عثمان، فإنهم خاصيتك وخلصاؤك والمحدقون بك» (٢). فإن ابن أبي سفيان كان يطلب في الظاهر قتلة عثمان، ولكنه في الباطن كان يمهّد الطريق إلى الخلافة، وربما كان قانعاً لأن يقره الإمام على الشام (٣). وبذلك ظهر بطلان قوله: «إن بيعه الإمام قد انفسخت بموافقتة على الهدنة، ورضائه بالتحكيم جبراً، فلم يبق لأحد في عنقه بيعته» فإنه تفسير لموقف الإمام بما يتجاوب هوى الكاتب، فإن الإمام لم يخلع نفسه عن الخلافة أبداً ولا- تردّد في كونه الخليفة الشرعي والقانوني للأمة، ولو صح ما ذكره الكاتب وأن الإمام خلع نفسه عن الخلافة بمرأى ومسمع من جيشه وجيش عدوه، لما

١. الحجرات: ٩.

٢. ابن أبي الحديد، شرح النهج ١٧ / ٢٥٣.

٣. المصدر نفسه، ومرّ تفصيله. (٣٧٥)

قام أبو موسى بخلعه عن الخلافة، إذ لا معنى لخلع المخلوع لاسيما من خلع نفسه واعترف به. ولو كان قبول التحكيم ملازماً للخلع عن الإمامة فلماذا كتب الإمام - عندما وصل إليه نبأ الحكامين وخيانتهم في مورد الوكالة - إلى زعماء الخوارج: زيد بن حصين وعبد الله بن وهب الراسبي ومن معهما من الناس وقال: أما بعد فإن هذين الرجلين الذين ارتضينا حكمهما، قد خالفا كتاب الله وآتبعوا هواهما

بغير هدى من الله، فلم يعملوا - بالسنة - ولم يُنفذوا للقرآن حكماً، فبرأ الله ورسوله منهما والمؤمنون، فإذا بلغكم كتابي هذا فاقبلوا فإننا صائرون إلى عدونا و عدوكم، ونحن على الأمر الذي كنا عليه (١). الحق إن من قرأ تاريخ مأساة التحكيم يقف على مدى الضغط الوارد عليه من جانب أصدقائه الحمقاء، ثم يرجع ويترحم على الإمام ويبكى عليه ببيكاء عال ويقول: «رحم الله الإمام عاش بين عدو غادر، وصديق انوك». ٥ - والعجب العجيب أن يصبح عبدالله بن وهب الراسبي الخليفة الشرعي والقانوني للمسلمين فيجب على الأمة في جميع الأقطار و الأصفاع، إطاعة أمره، بحجة أن نفرأ من الخوارج اجتمعوا في منزله فبايعوه، ولعل عدد المبايعين لا يتجاوز عن عدد الأصابع أو يزيد بقليل (٢). إن البيعة الشرعية وانعقاد الإمامة لواحد من المسلمين رهن شروط وصلاحيات، ذكرها المعنويون من علماء علم الكلام في كتبهم، ولم يذكر أحد أنه إذا بايع عدو من المسلمين شخصاً في صقع من الأصفاع يجب على عامتهم الاعتراف بإمامته وخلافته. _____

١. الطبري: التاريخ ٤ / ٥٧.

٢. نفس المصدر. (٣٧٦) إن معنى ذلك أنه يجوز لأحد من المسلمين في البدو والقرى، أن يختاروا رجلاً فبايعوه على الخلافة وإن كان المبايعون بعداء عن العاصمة الإسلامية التي فيها أهل الحل و العقد. لو صح أن الإمام خلع نفسه - ولن يصح حتى ولو صحت الأحلام - فالواجب على المسلمين طرح الخلافة في شوري إسلامية عالمية تضم إليها أكابر العلماء والفقهاء، وأهل الحل و العقد من المهاجرين والأنصار، و من أتبعهما بإحسان، حتى يختاروا لأنفسهم إماماً، لا طرحها في بيت مسدود ليس فيه إلا أناس خرجوا على إمامهم الذي تمت البيعة له في مثل تلك الشوري، لأن تصحيح ذلك بمعنى تصحيح الفوضى في صفوف المسلمين، وشق عصاهم، وفصم عراهم، وغير ذلك مما لا يخفى على القارئ الكريم بطلانه. ٦ - والعجب أن الكاتب نقض ما كتبه هنا بما ذكره في الحلقة الثالثة من ذلك الكتاب، فإذا وصف الإمام في المقام، بأنه استجاب لدعاة الهزيمة وأخذ بنصيحة طلاب الخدعة، فقد صرح في المقام الآخر بأن الإمام «عرف أنها إحدى المكائد التي تفتن إليها ذهن عمرو بن العاص، وأصر هو وأصحابه على الجهاد، وكان الإمام والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقيته الجيش بصواب موقفهم (مواصله الحرب) ونبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الحربية» وإن كنت في شك مما نقلناه عنه فاقرأ نصه: خالف معاوية بن أبي سفيان اجماع الأمة و أشعل نار الفتنة و جهز جيشاً لمحاربة الخليفة الشرعي الذي اختاره المسلمون، و قابله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بما يقابل به خليفه شرعي فنه باغيه، فجهز جيشاً من أبطال الإسلام وقاده بنفسه، و التقى الجيشان في صفين، وابتدأ القتال و عرف معاوية أنه إذا لم يكن يلجأ إلى الحيلة فإنه سوف يخسر القضية في (٣٧٧)

أقرب مما يتوقع، ومهيد لذلك بتكوين طاور خامس في جيش علي ثم دعا إلى التحكيم. و عرف علي و عرف أصحابه مقصد معاوية من التحكيم، وأنها إحدى المكائد التي تفتن عنها ذهن عمرو بن العاص، ولذلك قال علي: إنما قاتلناهم بكتاب الله، وأصر هو وأصحابه على الجهاد، ولكن الطاور الخامس الذي كان يقوده أكبر صنایع معاوية: الأشعث بن قيس، كان قد عمل في الجيش، ومالت الأغلبية إلى قبول التحكيم، وحينما كان علي والمخلصون من أصحابه يكافحون لإقناع بقيته الجيش بصواب موقفهم (مواصله الحرب) ونبذ الاستماع إلى هذه الخدعة الحربية التي لجأ إليها الفريق الباغي، لخص أحد أصحابه موقفهم هذا في هذه الكلمة المشهورة «لا-حكم إلا-الله» وكانوا يصيحون بها في جوانب الجيش و يرددها أنصار علي في كل موقف وكان علي يستمع إليها راضياً بها وهو يناقش الناس ويدعوهم إلى التمسك بمضمون هذه الكلمة وعدم الانخداع بحيل معاوية لأن قضيتهم واضحة وقد حكم فيها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات... و شاءت إرادة المولى سبحانه وتعالى - لحكمه يعلمها - أن لا تستجيب الإغلبية لعلي وأن تميل أكثرية الجيش إلى دعاة الهزيمة، وأن يتغلب الأشعث ابن قيس صنيعه معاوية على المناضلين من أجل الحق، فيجد الإمام نفسه مضطراً إلى التخلي، وترك الصفوة من أصحابه ليحافظ على الأغلبية ويسير معها، فرضى بالتحكيم مرغماً، وإذا هذه اللحظة التي رضى علي فيها بالتحكيم، وموافقه الأغلبية، كانت كلمة «لا حكم إلا الله» تعبيراً عن موقفه و شعاراً لمبدئه بل انها تعبير و شعار لكل مؤمن يحكم

كتاب الله فيما شجر بينه خلاف وبين (٣٧٨)

الناس (١). ٧- إن التعبير عن الخروج على الإمام المفترض طاعته بـ«الخلافة»، كما أن التعبير عن التمرد والشغب بـ«تشكيل الدولة» مصادرة على المطلوب والمشى على الدعوى المسبقة بلا برهان، فيطيب لى أن أذكر نصّ الكاتب الذى يصوّر أنه كان للخوارج دولة بعد رفض التحكيم. قال: «أصبحت الأئمة الإسلامية منقسمة إلى ثلاث دول: دولة أسسها معاوية وإن لم يبايعه عليها أحد إلى ذلك الحين، ودولة يرأسها على بن أبى طالب بعد أن فشلت فى نظره حكومة الحكيم، عاد فاستمسك بالبيعة الأولى (٢) دون أن يعترف بعزل أبى موسى الأشعري له مندوبه فى قضية التحكيم، و دولة يرأسها عبد الله بن وهب الراسبي بعد أن بايعه جمع كبير من الذين انفصلوا عن على، عند قبول التحكيم، ثم عند اعلان الحكم بعزل على عن الخلافة، ومع كل فرقة من هذه الفرق جمع غير قليل من كبار الصحابة وفيهم بعض المشهود لهم بالجنة . على أن هناك فريقاً رابعاً اعتزلوا هذا النقاش الذى وقع بين المسلمين وبعثوا عن قضية الخلافة فلم يطلبوها لأنفسهم، ولم يؤيدوا واحداً من طالبيها، و من هذا الفريق السادة سعد بن أبى وقاص و عبد الله بن عمر، و محمد بن مسلمة الأنصارى وأسامة بن زيد» (٣). إن الكاتب ادعى لابن وهب مقاماً ليس له أثر فى التاريخ ولا فى كلمات الخوارج حتى فى نفس المجلس الذى بايعوه، فإن البيعة لم تكن إلا لأن يكون

١. على يحيى معمر: الاباضية فى موكب التاريخ، الحلقة الثالثة: ٢٨٣ - ٢٨٣.

٢. فأى معنى للاستمسك بالبيعة الأولى إذا خلع نفسه بمرأى ومنظر من الناس ياترى، أو ليس هذا دليلاً على أن الإمام لم يخلع نفسه فى وجدان الكاتب؟

٣. على يحيى معمر: الاباضية فى موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ٢٤. (٣٧٩)

الرجل أميراً للجهاد وقائداً عسكرياً فى القتال لاختلافه شرعية يملأ الفراغ الحاصل من العزل المزعوم، والشاهد على ذلك أن حمزة بن سنان الأسدى أول من اقترح هذه الفكرة وقال: «فولوا أمركم رجلاً منكم فإنه لا بد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها...». ولما قبلها عبد الله بن وهب، قال: أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت (١). ٨ - لم يكن محاربة الإمام للخوارج وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي إلا لأجل أعمالهم لإرهابية التى بلغت الإمام، فقال بعض المخلصين له: على ما ندع هؤلاء يخلفوننا فى أموالنا و عيالنا؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم صرنا إلى عدونا من أهل الشام، فقبل على، فنادى بالرحيل. كان من المظنون جداً أن يقوم عبد الله بن وهب الراسبي بسبى النساء وقتل الدرارى، إذا رأوا أن العاصمة الإسلامية (الكوفة) خالية من زعيمها وجيشها خصوصاً أن علياً و مواليه كانوا عندهم مشركين كافرين تحل أموالهم وتجوز إراقة دمائهم وسبى نساءهم، فلأجل ذلك قلع الإمام عين الفتنة قبل أن يبادر بمحاربة عدو الله فى الشام. كل ذلك يدل على بطلان قول الكاتب «بعد أن جمع الإمام على جيشه ومن بقى تحت طاعته من الجند، فكر فى إعادة الكربة على معاوية واخماد ثورته ومحاوله اخضاعه من جديد، ولكن بعض أصحابه أشاروا عليه بمحاربة عبدالله ابن وهب الراسبي هذا الخليفة الجديد الذى وصل إلى منصب الخلافة عن طريق البيعة، وهو الطريق الشرعى للخلافة. واقتنع على بصواب هذا الرأى و عدل عن محاربة معاوية إلى محاربة عبد الله بن وهب، وكان أتباع عبدالله

١. الطبرى: التاريخ ٤ / ٥٥. (٣٨٠)

يعتقدون أن إمامهم هو الإمام الحق وإن كلاً - من على - بعد التحكيم والعزل - ومعاوية، ثائران يجب عليهما الرجوع إلى حظيرة الإمامة» (١). ٩ - روايات شاذة فى أمر التحكيم: الف - اعتمد الدكتور صالح الصوافى فى تحليله مسألة التحكيم على رواية شاذة ذكرها ابن قتيبة فى تاريخ الخلفاء وقال: «لما لم يبق إلا الكتاب، قال الأحنف بن قيس لعلى: يا أمير المؤمنين ان أباً موسى رجل يمانى وقومه مع معاوية فابعثنى معه فوالله لا يجل لك عقدة إلا عقدت لك أشد منها، فإن قلت انى لست من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فابعث ابن عباس وابعثنى معه، فقال على: إن الأنصار أتونى بأبى موسى فقالوا: ابعث هذا فقد رضينا ولا نريد سواه والله

بالغ أمره» (٢). إن هذه الرواية شاذة غير معروفة وقد اتفق المؤرخون على أن علياً كان يصبر على بعث ابن عباس أو الاشر و لم يكن له أى هوى مع أبى موسى الأشعري، لما كان يستشف منه أن هواه مع غيره وكيف لا وهو الذى خذل الناس عن مساعدة الإمام القائم يوم كان واليا على الكوفة، وتقاعد عن نصرته، ولم ينفر الناس إلى ساحة قتال الناكثين بل دعاهم إلى البقاء فى منازلهم بحجة أنها فتنه، القاعد فيها خير من القائم (٣). كيف يعتمد على تلك الرواية الشاذة مع أن ابن قتيبة، نقل خلافها فى موضع آخر عند البحث عن ظهور المحكمه، ونقلها الدكتور أيضاً فى كتابه،

١. على يحيى معمر: الاباضية فى موكب التاريخ، الحلقة الأولى: ٢٤ - ٢٥.

٢. صالح بن أحمد الصوافى: الإمام جابر بن زيد العماني: ٩٩ نقلاً عن الإمامة والسياسة: ١١٤.

٣. الطبرى: التاريخ ٣ / ٤٩٧. (٣٨١)

قال: اتضحت معالم المسألة واضحة، و بدا لكل ذى عينين أن التحكيم لم يكن سوى خديعة لم يبع من طلبها سوى العدول عن الطريق السوى، وصح كل ما توقعه على بن أبى طالب حتى حق له أن يقول وقد وقع ما وقع: «أما أتى قد أخبرتكم أن هذا يكون بالأمس، و جهدت أن تبعثوا غير أبى موسى فأبىتم علي» (١). أفيصح بعد هذا، قوله إن الأنصار أتوني بأبى موسى فقالوا: ابعث هذا فقد رضينا ولا نريد سواه؟! مع أنه لم يرده أبداً وإنما فرض عليه من فرض. ب - إن الكتاب الجدد لما واجهوا أن التحكيم سيئ من سيئات المحكمه وأنهم هم المسؤولون عن عواقبه الوبيله، عمدوا إلى الروايات الشاذة ومخالفات أعداء الإمام. قالوا: إن علياً ظل يكاتب معاوية سراً من دون المسلمين، فكتب إلى معاوية: من علي أمير المؤمنين إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: لو أعلم أنك أمير المؤمنين لم أقاتلك، فامح اسم أمير المؤمنين، ففعل على ذلك فبلغ ذلك المسلمين، فقالوا له: يا على ما حملك أن تخلع نفسك من اسم سماك به المسلمون؟ ألت أمير المؤمنين ومعاوية أمير المخالفين؟ فتب عدياً صنعت...، ثم إنهم يذكرون أنه بعد أن تاب عدل عن توبته و أمضى الحكومه أى التحكيم (٢). إن ما ذكره من المكاتبه السريه ليس له مسحه من الحق ولا لمسة من الصدق ولا يوجد فى كتب القصاصين فضلاً عن التواريخ والسير، وما ذكره ليس إلا قصة التحكيم الذى شهد عليه الطرفان على وجه التفصيل، والإمام امتنع عن

١. صالح بن أحمد الصوافى: الإمام جابر بن زيد: ١٠٢ نقلاً عن الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١١٩.

٢. صالح بن أحمد الصوافى: الإمام جابر بن زيد: ١١٢ نقلاً عن القلهاتى: الكشف والبيان: ٢ / ٢٣٧. (٣٨٢)

محو إمرة المؤمنين عن نفسه، وقد أمضى ملياً من النهار، وهو يدفع ذلك الاقتراح غير أن المحكمه والطبور الخامس الذين فرضوا على علي نفس التحكيم، فرضوا عليه صيغته أيضاً، ولم يكن شيئاً خفياً من الناس بل كان على مشهد منهم، وقد ذكر الإمام ما جرى على النبي الاكرم فى صلح الحديبيه وأنه سيبلى بما أبلى به رسول الله، وأما قصة التوبه فقد مضى الكلام فيها. ج - روى عن على - عليه السلام - أنه بعد ما قتل الخوارج جعل يمر عليهم وهو يستغفر لهم و يقول: بئس ما صنعنا قتلنا خيارنا وفقهاءنا... فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين قتلنا المشركين. قال: من الشرك فزوا. قال: أمن المنافقين؟ قال إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً (١). إن ما ذكره إنما هو من مخاريق الخوارج، حاولوا أن يبرروا أعمال أسلافهم فاقوم كانوا بغاه على الإمام المفترض طاعته، ومن حبه إيمان وبغضه كفر (٢) والقوم لم يكونوا مشركين ولا منافقين، ولكن كانوا بغاه، ولم يكونوا خيار القوم ولا فقهاء هم بل كانوا من أهل البادية الذين تسيطر عليهم السذاجه ويغترون بالظواهر من دون التعمق فى البواطن. وأسوأ من ذلك ما نقله فى ذيل كلامه ونحن نظهر قلمنا عن ذكره والرد عليه، فلم يكن الإمام نادماً من عمله لأنه حقق ما تتبأ به النبي الأكرم فى حقه وأنه سيقاتل الناكثين والقاسطين و المارقين (٣) وآية ذلك أنه كانت للخوارج انتفاضات بعد وقعة النهروان، فلم يزل على - عليه السلام - يبعث سرايا لإطفاء فتنهم، و اخماد تاثرتهم إلى أن أعتيل

١. الدكتور صالح بن أحمد الصوافى: الإمام جابر بن زيد: ١٢٥، نقلاً عن القلهاتى فى الكشف والبيان: ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٤.

٢. مَرَّ مصدره.

٣. مَرَّ مصدره. (٣٨٣)

بيد أشقايم شقيق عاقر ناقة ثمود (١). ١٠ - لا إمرة إلا لله: هذا هو الوجه الثاني لتفسير شعارهم «لا حكم إلا لله» ولكن الخوارج رفضوه عملاً واختاروا عبد الله بن وهب خليفة لهم إلا أنه كانت توجد بين المتطرفين منهم تلك النظرية. يقول الكاتب المعاصر على يحيى معمر: «انزعول معارضوا التحكيم إلى جانب، واستمسكوا بموقفهم الذي كانت تعبر عنه هذه الكلمة أصدق تعبير، ونشأ عن هذا الموقف موقف آخر متطرف كل التطرف، فإن الكلمة حينما اطلقت وقصد منها أنه لا يجوز للناس أن يحكموا فيما نزل فيه حكم الله، وذلك ما فهمه الإمام على ورضى به، وفهمه المعارضون وعملوا به». ولكن أناساً من المتطرفين فيما بعد زعموا أنه لا حاجة إلى الإمارة وأنه لا داعي لأن يكون للمسلمين حكومة وحملوا كلمة «لا حكم إلا لله» هذا المقصد الهدام، وهذا التطرف هو ما سخطته الأمة وردته عنهم، وتولى الإمام على شرحه بأسهاب وإيضاح لا يبقى بعده اشكال. قال الإمام على وهو يرد على أولئك المتطرفين الذين خرجوا بكلمة «لا-حكم إلا-الله» عن معناها الذي وضعت له: «كلمة حق يراد بها الباطل، نعم لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وأنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في امرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، يبلغ الله فيها الأجل، ويجمع بها الفىء، ويقاقل العدو، وتؤمن به السبل، و يؤخذ به للضعيف من —————

١. مَرَّ مصدره. (٣٨٤)

القوى حتى يستريح برّ و يستراح من فاجر» (١). الخوارج أنصار على وشيعته؟! إن الخوارج يعدّون أنفسهم شيعة الإمام على - عليه السلام - وأنصاره وأنهم كانوا سواعده القويّة في قتال الناكثين والفاستين، وأنهم هم الذين أعاروا جماجمهم لعلى في القتالين ثم يشكون عليّاً بأنّه ما أنصف في حق أنصاره وأعوانه، حيث قتلهم وهم براء من الذنب. وممن صبّ الشكوى في قالب الشعر، هو أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم الرواحي يقول في قصيدته له: ارتقت دماء المؤمنين بريئة * لهن بزيزاء (٢) الحراء (٣) خريير (٤) عليّاً أمير المؤمنين بقيّة! * كأنّ دماء المؤمنين خمور سمعناك تنفى شركهم و نفاقهم * فأنت على أيّ الذنوب نكير؟! وما الناس إلا مؤمن أو منافق * ومنهم جحود بالإله كفور وقد قلت ما فيهم نفاق ولا- بهم * جحود وهذا الحكم منك شهير فهل أوجب الإيمان سفك دمايمهم؟ * وأنت بأحكام الدماء بصير! تركتهم جزر السباع، عليهم * لفائف من إيمانهم و ستور مصاحفهم مصبوغة بدمائهم * عليهن من كتب السهام سطور و كنت حفيّاً يا بن عمّ محمّد * بحفظ دماء مالهن خطير —————

١. على يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثالثة: ٢٨٤.

٢. الزيزاء: الاكمة الصغيرة.

٣. الحراء: الحرّة: أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار.

٤. صوت الماء. (٣٨٥) و كنت حفيّاً أن يكونوا بقيّة * لنصرك حيث الدائرات تدور أما و الذي لا حكم من فوق حكمه * على خلقه ورد به و صدور تنادى: أعيروني الجماجم كزّة * فقد قدموها و الوطيس سعير لقتماً أعاروك الجماجم خشعاً * عليهن من قرع الصفاح فتور فقصعتها إذ حكمت حكم ربّها * فما بقيت عارية و معير (١) والحق إن هذه الأبيات تثير العواطف العمياء ضد الإمام، ويتخيل صاحبها أن الإمام قد جحد حقهم و تساهل، و لكنّه إذا رجع إلى غضون التاريخ، سرعان ما يرجع عن قضائه و يلوم نفسه على التسرع، وإن كنت في شكّ من ذلك فارجع إلى ما ذكرناه من تاريخهم و أعمالهم الإجرامية حين التحكيم وبعده، وهنا نشير إلى نكات: ١ - إن قوله: سمعناك تنفى شركهم و نفاقهم يشير إلى ما رواه عن على أنه قال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين قتلنا المشركين. قال: من الشرك فزوا. قال: أمن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً و هؤلاء يذكرون الله كثيراً (٢). يلاحظ عليه أولاً: إن المروى عن على - عليه السلام - في حق هؤلاء هو ما ذكره الطبري بقوله: بؤساً لكم لقد ضرّكم من غزكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين من غرهم؟ قال: الشيطان، و أنفس بالسوء أمّارة، غرّتهم بالأمانى، و زينت لهم المعاصى و نبأتهم أنهم ظاهرون (٣).

١. صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٢٧ - ١٢٨.

٢. الدكتور صالح بن أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ١٢٥، نقلًا عن القلهاتي في الكشف والبيان: ٢ / ٢٥١ - ٢٥٤.

٣. الطبري ٤ / ٦٦ (٣٨٦) ثانياً: نفترض صحّة الحديث ولكن القوم كانوا عصاة وبغاة، خارجين على الإمام المفترض عليهم طاعته، والعصاة عندكم كفّار، وعندنا فساق ولا حرمة للكافر، والفساق يقتل في ظروف خاصّة، خصوصاً إذا بغى على الإمام الذي أصفقت الأُمَّة على إمامته وخلافته، قال سبحانه: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلُوهَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصِلُوهَا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (١). فقد برّر سفك دمائهم بغيهم و خروجهم على الإمام المفترض طاعته، و على ضوء ذلك فلا معنى لقوله: «فهل أوجب الإيمان سفك دمائهم؟...» ٢ - إن الشاعر في قوله: تركتهم جزر السباع...» يشير إلى أنّ الإمام قتلهم ثم تركهم مثل من تفتكه السباع وتركه، ولكن التاريخ يشهد على خلافه. يقول الطبري: «طلب عدّي بن حاتم ابنه طرفه فوجده فدفنه، ثم قال: الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي إليك، و دفن رجال من الناس قتلهم...» بل الإمام قام بعطف إنساني قدير. يقول الطبري: «و طلب من به رمق منهم فوجدوهم أربعمائه رجل، فأمر بهم على فدفنوا إلى عشائرهم، وقالوا: احموهم معكم، فداووهم، فإذا برأوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء، قال: وأمّا السلاح والدواب وما شهدوا عليه الحرب فقسّمه بين المسلمين، وأمّا المتاع والعبيد والإماء فإنّه حين قدم رده على أهله» (٢).

١. الحجرات: ٩.

٢. الطبري: التاريخ ٤ / ٦٦ (٣٨٧) ٣ - يشير الشاعر بقوله: «تنادى اعيروني الجماجم كزّة - فقد قدّموها والوطيس سعير» إلى ما خدموا عليّاً - عليه السلام - في الجمل وفي صفين قبل رفع المصاحف وهو صادق في هذا العزو والنسبة، ولكنهم يا للأسف بخلوا بها في الموقف الحاسم الذي كان بينه وبين النصر خطوة، وذلك عندما رفع أهل الشام المصاحف. قال الإمام: «عباد الله، إنّي أحق من اجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمر بن العاص و ابن أبي معيط و حبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنّي أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً و صحبتهم رجالاً، فكانوا شرّ أطفال و شرّ رجال. إنّها كلمة حق يراد بها باطل. أنّهم و الله ما رفعوها أنّهم يعرفونها و يعملون بها، و لكنّها الخديعة والوهن و المكيدة. اعيروني سواعدكم و جماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعة، ولم يبق إلّا أن يقطع دابر الذين ظلموا» فجاء زهاء عشرين ألفاً مقتعين في الحديد شاكي السلاح، سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودّت جباههم من السجود، يتقدمهم مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا يامرؤ المؤمنين: يا علي، أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، و إلّا قتلناك كما قتلنا ابن عفّان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم فقال لهم: ويحكم، أنا أوّل من دعا إلى كتاب الله و أوّل من أجب إليه، وليس يحلّ لي ولا يسعني في ديني أن أدعي إلى كتاب الله فلا أقبله، إنّي أنّما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم، وأنّهم ليسوا بالعمل بالقرآن يريدون. قالوا: فابعث إلى الأشتر ليأتيك وقد كان الأشتر صبيحة ليل الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله... وقد بلغ بخلهم وضنتهم باعارة جماجمهم إلى حد طلب منهم الأشتر أن (٣٨٨)

يمهلوه فواق ناقه أو عدوة الفرس فما أمهلوه. قال لهم: امهلوني فواقاً فإنّي قد أحسست بالفتح. قالوا: لا. قال: فامهلوني عدوة الفرس، فإنّي قد طمعت في النصر، قالوا: اذن ندخل معك في خطيتك. قال: وحدثوني عنكم - وقد قتل أمثالكم وبقى أرذالكم (١). فالحق إنّ الخوارج كانوا أنصار عليّ في البداية وإلى أثناء حرب صفين ثم انقلبوا. ومما يندى الجبين أنّ زيد بن حصين الطائي قد قدم إلى عليّ و معه عصابة من القرّاء فنادوه كما عرفت (٢) لا يامرؤ المؤمنين بل باسمه وفرضوا عليه قبول التحكيم، وهو بعد أيام قلائل كان المرشّح الأوّل في أخذ البيعة لواحد من المحكّمة في الحروراء، يقول الطبري: قال حمزة بن سنان الأسدي: إنّ الرأي ما رأيتم، فولّوا أمركم

رجلاً منكم فإنه لا بد لكم من عماد و سنان، وراية تحفون بها و ترجعون إليها، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي فأبى، و عرضها على حرقوص بن الزهير فأبى، و على حمزة بن سنان و شريح بن أوفى العبسى فأبىا، و عرضوها على عبد الله بن وهب، فقال: هاتوها... (٣) فالرجل ذو طبيعة متسرعة في القضاء، فيوماً يفرض التحكيم على علي و يوماً آخر يستنكر التحكيم و يُرشح لقيادة الثورة على علي لأجل قبول التحكيم!! ٤- قد جادت قريحه العلامة الفقيه الشيخ محمود البغدادي - دامت معاليه - بقصيدة ضافية فند فيها ما جاء في الأبيات السابقة نفتطف منها مايلي: _____

١. ابن مزاحم: وقعة صفين ٤٩٩.

٢. ابن مزاحم: وقعة صفين ٤٩٩.

٣. تاريخ الطبري: ٤ / ٥٥. (٣٨٩) تراءت (١) فقلت الشمس حيث تنير * ففي القلب منها لوعة و سعير و لست ترى في الخلق مثل عقيدة * جمالاً يرد الطرف و هو حسيّر ادافع عنها من أراد مساءة * واقمع من قد صد و هو جسور و ليس محباً من يخلي عداته * تشن على أحبابه و تغير أمثل على في عداله حكمه * يرد... و عشاق الجمال حضور على علي باب علم محمّد * و ذاك حديث كالبدر شهر أ إن زار بالجيش العرمم ثلثه * يعب زائر أو يمدح مروز و قد فارقه بعد نصر مؤزر * ولم يلف منهم بعد ذاك ظهير و قدماً أعاروه الجماجم خشعاً * و ما كل من وافى الحروب يعير و هل ينفع النصر القديم إذا أمحي * بحق، و فارت بالعداء قدور هم قد أثاروا الحرب حين تنكبوا * سلاحاً كثيفاً و السلاح يثير و هم مرقوا كالسهم من دين أحمد * و ذلك أمر ما عليه ستور لعمري لنعم الصخب كانوا لصاحب * ولكننا الدنيا الفتون غرور إذا هم بعد الحب لبدأ تألبوا * و دارت رحاهم و الزمان يدور أ إن رفع القرآن خدعه خادع * أجب صغيّر و اسئضل كبير فقال علي لا تجيبوه للتي * أراد فدعوى من دعاكم زور أ إن قد حملتم حملة حيدريّة * و رفر لى نصر و قام بشير؟! يردكم للإذلال بعد تعزّز * و هل عزة كالنصر حين يمور أعيروني لله الجماجم ساعه * فإن عدوى حين ذاك فرور ألا تمهلوني - يا رفاق مسيرة - * فواق انتصار و الفواق يسير؟! إذا كنت بالأحكام أبصر باصر * دعوني و ما قد أرتاي و أشير

١. ضمير التأنيث يرجع إلى العقيدة المعلومه من سياق القصيدة. (٣٩٠) ولا خير في نسك بغير بصيرة * وأجدر من خاض الحروب بصير فقالوا أجهم للتي قد دعوا لها * فتم كتاب حاكم و أمير و إلا تجهم يا علي فإننا * عداة اشداء عليك نسور و ساروا إلى أرض الحروراء و أعتدوا * لحرب علي و الزمان عمدور فقال لهم هيا أنيبوا إلى الهدى * وهيا معي نحو العداة فسيروا أطيعوني ما كنت التبع لأحمد * فإن أنا لم اتبع خطاه فتوروا فقالوا له أنت الكفور فتب و تب * فما قادنا نحو الجهاد كفور و حجوني بالقرآن إن كنتم على * مقاطع حق فالحقيقة نور و لمّا تنادوا للقتال تقدّموا * كآساد خفان لهن زبير فأرداهم صينو النبي محمّد * بلا ندم و العزم منه مريم فياعجبا كيف ابن وهب (١) يثيرها * ولم تختصر و الرأي منه أسير و كان قولاً: خمروا الرأي تفلحوا * فأكرم آراء الرجال خمير (٢) فإن له في عتبه بن ربيعة * مشابه حال تلتقى و تجور (٣) الأ أنها الأقدار إن حان حينها * يُغلب فكير (٤) بها و خطير و يا رب علم مثل جهل مركب * قليل به الإنسان و هو كثير و يا رب علم يُحمّد الجهل عنده * و تُعزى له تمجيد و شكور * * * _____

١. المراد: عبد الله بن وهب الراسبي رأس المحكمة.

٢. اشارة إلى ما اثر عنه: دعوا الرأي حتى يختمر فلا خير في الرأي الفطير.

٣. تميل.

٤. فكير: كثر التفكير. خطير: عظيم الشأن. (٣٩١) ٢ - حكم مرتكب الكبيرة من الجهات الثلاث إن أول مسأله - بعد الإمامه - أثار ت ضجة كبرى بين المسلمين و فرقتهم إلى فرقتين بل إلى فرق: مسأله حكم مرتكب الكبيرة، فقد وقع البحث فيها في جهات ثلاث: الجهة الأولى: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو مشرك؟ الجهة الثانية: هل مرتكب الكبيرة مؤمن أو كافر؟ الجهة الثالثة: هل مرتكب الكبيرة محكوم بالخلود في النار أو لا؟ و أساس المسأله هو أن العمل هل هو جزء من الإيمان أو لا؟ فعلى الأول فإذا أخل بحكم من أحكام

الإسلام كما إذا ارتكب الحرام أو ترك الواجب لا جاحداً لحرمة أو وجوبه، بل لغلبة هواه على عقله، يخرج عن دائرة الإيمان، و على الثاني يبقى مؤمناً و يوصف بالفسق و الخروج عن الطاعة، ولأجل ايضاح المقام نشير إلى الآراء المختلفة في هذا الباب: ذهبت الأزارقة إلى أن مرتكب المعاصي مشرك فضلاً عن كونه كافراً من (٣٩٢)

غير فرق بين الكبيرة والصغيرة، وذهبت النجدية إلى أن مرتكب الكبيرة مشرك، وأمّا الصغائر فلا فهاتان الطائفتان من متطرفه الخوارج، تتفقان في كون ارتكاب الكبائر موجبا للشرك و الكفر، ويختلفان في الصغائر، فتراها الأزارقة مثل الكبائر دون النجدية. و ذهبت الاباضية إلى كون الارتكاب كفراً لا شركاً، و الكفر عندهم أعم، من كفر الجحود و كفر النعم، فمرتكبها من المؤمنين كافر كفر النعمة لا كفر الجحود. و ذهبت المعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر فضلاً عن كونه مشركاً. نعم اتفقت المعتزلة و الخوارج على كونه مخلداً في النار إذا مات غير تائب، وذهبت الإمامية والأشاعرة و أهل الحديث إلى كون مرتكب الكبيرة مؤمناً فاسقاً غير مخلد في النار. هذه هي الأقوال و الآراء البارزة في المقام، ولتركز البحث في الجهات الثلاثة ونجعل الجميع مسألة واحدة، فإن كل واحدة، وجه لعملة واحدة، وإن كان للعملة الرائجة وجهان: الجهة الأولى - هل مرتكب المعاصي مشرك؟ قد عرفت أن الأزارقة ذهبت إلى أن المعاصي كلها شرك و مرتكبها مشرك(١) ولأجل تحليل هذا القول نذكر ما هو حد الشرك و محققه، فنقول: لو افترضنا أن مرتكب الكبيرة كافر، لا يصح لنا توصيفه بالشرك، فإن للشرك معنى محدداً لا ينطبق على مرتكب الكبيرة إلا في ظروف خاصة و هي خارجة عن موضوع البحث، وتوضيح ذلك بوجهين: —————

١. صالح أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٥٢. (٣٩٣) ١ - إنه سبحانه قسم الكافر إلى مشرك وغيره و قال: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) (١) وقال سبحانه: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) (٢) كل ذلك يدل على أن للمشرك معنى محدداً لا ينطبق على الكافرين من أهل الكتاب فضلاً على المسلم المعتقد بكل ما جاء به الرسول، إذا ارتكب كبيرة لا لاستهانته بالدين بل لغلبة الهوى على العقل، فكيف يمكن أن نعد كل كافر مشركاً، فضلاً أن نعد المسلم المرتكب للكبيرة مشركاً؟ ثم لو افترضنا صحه كون أهل الكتاب مشركين في الحقيقة و في الواقع، كما هو غير بعيد لقوله سبحانه: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ) (٣) ولكنه اصطلاح ثانوي لا يكون منافياً لما جرى عليه القرآن من عد أهل الكتاب في مقابل المشركين. و يظهر ذلك من الروايات الواردة حول الرياء فإن المرابي، قد وصف بالشرك، ولكنه شرك خفي لا صلة له بالشرك المصطلح في القرآن الكريم. روى على بن إبراهيم في تفسيره عن أبي جعفر الباقر قال: سئل رسول الله عن تفسير قوله الله عز وجل: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (٤) فقال من صلى وراءه الناس فهو مشرك - إلى أن قال - ومن عمل عملاً ممياً أمر الله به وراءه الناس، فهو مشرك، ولا يقبل الله عمل وراءه (٥).

١. البينة: ١.

٢. المائدة: ٨٢.

٣. المائدة: ٧٣.

٤. الكهف: ١١٠.

٥. الحر العاملي: وسائل الشيعة ١، الباب الحادي عشر من أبواب مقدمات العبادات ١٣ - ٥٠. (٣٩٤) ولكن ذلك مصطلح آخر، أو استعاره له للمورد لتأكيد الأمر لما عرفت من أن المشرك في القرآن الكريم يطلق على غير المعتنقين لاحدى الشرائع السماوية، من غير فرق بين اليهود والنصارى وغيرهم. ٢ - إن الشرك عبارة عن تصوّر ندّ وثنان لله سبحانه في ذاته أو صفاته أو أفعاله، قال سبحانه: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١) وقال سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) (٢) وقال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) (٣) إلى غير ذلك من الآيات التي تشرح لنا حقيقة الشرك و خصوصياته(٤). ولأجل تصوّر الندّ و

المثل لله سبحانه في الذات أو الصفات أو الأفعال، كانوا يعبدون الأصنام بحكم أنها أنداد لله تبارك و تعالی، فكانوا يساؤونها بالله تعالى في العقيدة و العبادة، قال تعالى: (تَاللّٰهِ اِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اِذْ نُسُوۡيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِيۡنَ) (٥). فعلى ضوء ذلك فلا يصح لنا توصيف إنسان بالشرك و عدّه من المشركين إلا إذا اعتقد بندّ الله تبارك و تعالی و لو في مرحلة من المراحل، ولأجل هذه العقيدة كان المشركون يفرون من كلمة (لا إله إلا الله) لكونها على جانب النقيض من عقيدتهم، قال سبحانه: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ) (٦).

١. البقرة: ٢٢.

٢. البقرة: ١٦٥.

٣. إبراهيم: ٣٠.

٤. لاحظ: سورة سبأ / ٣٣، الزمر / ٨، فصلت / ٩.

٥. الشعراء: ٩٧ - ٩٨.

٦. الصفات ٣٥ - ٣٦ (٣٩٥) وقال تعالى: (وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (١) وقال تعالى: (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ) (٢). فهذه الآيات تحدّد حقيقة الشرك و تُعرّف المشرك بمضامينها، فهل يمكن توصيف المسلم المؤمن الموحد، بالشرك مع أنه لم يتخذ أى ندّ و مثل في مجال الذات و الصفات و الأفعال، ولم يعبد غيره، وإنما وحده في الذات، والصفات، والأفعال، و في مقام القيام بوظائف العبودية لم يعبد إلا الله سبحانه. نعم غلبت عليه - أحياناً - شقوته، وسيطرت عليه نفسه الأمارة فركب الحرام مع وجل و خوف. وبذلك ظهر أن الكفر أعم من الشرك، فمن لم يتخذ ندّاً و مثلاً لله سبحانه، و لكنّه كفر برسله و كتبه و ما نزل الله سبحانه، فهو كافر لا مشرك، و أوضح منه من آمن بالله ولم يكفر بشيء مما أنزله و أرسله غير أنه صار مقهوراً فارتكب شيئاً حرّمه الله أو ترك فريضه أوجبها الله سبحانه. فاتضح بذلك بطلان قول الأزارقة من أن المعاصي كلّها شرك كبطلان قول النجدية بأن الكبائر كلّها شرك و أما الصغائر فلا، إذ لا ينطبق معيار الشرك على مجرّد ارتكاب المعصية، صغيرة كانت أو كبيرة. أدلّة الأزارقة على أن المعاصي شرك: استدلت الأزارقة على أن المعاصي كلّها شرك بآيات و المهم فيها آيتان وإليك البيان:

١. الزمر: ٤٥.

٢. غافر: ١٢. (٣٩٦) ١ - (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ظَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (١). يلاحظ عليه: أن ظاهر الآية أن المشرك ممن «ضلّ ضلالاً بعيداً»، فلو فرضنا أن مرتكب الكبيرة من مصاديق تلك الضابطة فلا تدلّ الآية على أنه مشرك لأن ظاهر الآية أن المشرك من مصاديق «فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» لا أن «كلّ من ضلّ ضلالاً بعيداً فهو مشرك» إذ من المحتمل أن تكون الضابطة أعم من الشرك، فمثل الآية مثل قولنا: «كل جوز مدور لا أن كل مدور جوز». أضف إلى ذلك: أن مرتكب الكبيرة إذا كان موحداً مؤمناً بما أنزل الله تعالى، ليس من جزئيات قوله: «ضلّ ضلالاً بعيداً» لأن القرآن إنما يستعمله في المشرك والكافر الجاحد، لا المؤمن المعتقد الذي غلبه هواه، و يعلم ذلك بالتتابع في موارد وروده في الذكر الحكيم. قال سبحانه (وَإِنَّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَجِبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (٢). وقال سبحانه: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) (٣). وقال تعالى: (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَصُرُّهُ وَ مَالًا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) (٤) وقال تعالى: (يَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ) (٥).

١. النساء: ١١٦.

٢. إبراهيم: ٢ - ٣.

٣. إبراهيم: ١٨.

٤. الحج: ١٢.

٥. سبأ: ٨. (٣٩٧) وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)(١). وقال (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ... وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)(٢). فظهر من ذلك أن الضلال البعيد مفهوم ينطبق على الجاحد مشركاً كان أم كافراً غير مشرك، ولا ينطبق على المؤمن بكل ما أنزل الله غير أنه غلب عليه هواه فركب الكبيرة. ٢- قال سبحانه: (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِشْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)(٣). قالوا: إن معنى الآية أنكم إن أطعتموهم بأكل الميتة فأنتم أيضاً مشركون. يلاحظ عليه: أن المراد هو الإطاعة في استحلال الميتة لا في أكلها، ولا شك أن المستحل لما حرم الله مشرك و ذلك لما قررنا في محلّه أن التقنين والتشريع من فعله سبحانه وليس في عالم التشريع مشرّع سواه، فالمستحل للميتة يصور ندأ لله سبحانه، لا في الذات والصفات بل في الأفعال ويشرك الغير معه في اعطاء فعله لغيره. ويوضحه قوله سبحانه: (اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ) (٤) فقد ورد في تفسيره أنهم ما صلّوا ولا صاموا للأخبار والرهبان، بل أطاعوهم في تحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال(٥). * * *

١. الشورى: ١٨.

٢. ق: ٢٦- ٢٧.

٣. الأنعام: ١٢١.

٤. التوبة: ٣١.

٥. الطبرسي: مجمع البيان ٣ / ٢٣. (٣٩٨) الجهة الثانية - هل مرتكب المعاصي مؤمن أو كافر؟ قد عرفت أن الأزارقة والنجدية قالوا إن المعاصي شرك، وخالفهم الاباضية، فوصفوها بالكفر، ومرتكبها بالكافر، ويقع الكلام في الجهة الثانية في هذا الجانب، وقبل الخوض في تحليل دلائلهم نذكر ما هو حقيقة الإيمان والكفر، فنقول: إن حقيقة الإيمان هو التصديق القلبي، والقلب هو مرتكز لوائه، وأما العمل فهو من مظاهره لا من مقوماته و يظهر ذلك من غير واحد من الآيات. قال سبحانه: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ)(١)، وقال سبحانه: (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)(٢)، وقال تعالى: (وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)(٣). وتؤكد آيات الطبع والختم على أن محل الإيمان هو القلب، قال سبحانه: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأَلْبَتَّكَ هُمُ الْعَاقِلُونَ)(٤)، وقال سبحانه (وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)(٥) والختم على السمع والبصر لكونهما من أدوات المعرفة التي يستخدمها القلب. نعم كون القلب مركزاً للإيمان وخروج العمل عن كونه عنصراً مقوماً للإيمان، لا يعني أن التصديق القلبي يكفي في نجاه الإنسان في الحياة الأخرى بل يعني أنه يكفي في خروج الإنسان عن زمرة الكافرين - الذين لهم خصائص

١. المجادلة: ٢٢.

٢. الحجرات: ١٤.

٣. النحل: ١٠٦.

٤. النحل: ١٠٨.

٥. الجاثية: ٢٣. (٣٩٩)

وأحكام - التصديق القلبي، فيحرم دمه وماله و تحل ذبيحته و تصح مناكحته إلى غير ذلك من الأحكام التي تترتب على التصديق القلبي إذا أظهره بلسانه أو وقف عليه الغير بطريق من الطرق، و أميا كون ذلك موجبا للنجاه يوم الحساب فلا، فإن للنجاه في الحياة الأخرى شروط أخرى تكفل ببيانها الذكر الحكيم و السنه الكريمة. وبذلك يفترق عن قول المرجئة الذين اكنفوا بالتصديق القلبي أو

اللساني واستغنوا عن العمل، وبعبارة أخرى قدّموا الإيمان و أخرّوا العمل، فهذه الطائفة من أكثر الطوائف خطراً على الإسلام و أهله، لأنهم بإذاعة هذا التفكير بين الشباب، يدعونهم إلى الإباحية و التجرد عن الأخلاق و المثل الإسلامية، و يعتقدون أن الوعيد خاص بالكفار دون المؤمنين، فالجحيم و نارها و لهيبها لهم دون المسلمين، و معنى هذا أنه يكفي في النجاة الإيمان المجرد عن العمل، و أيّ خطر أعظم من ذلك؟ و على ضوء ذلك يظهر المراد ممّا رواه البخارى عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه و آله و سلم -: بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله و أنّ محمداً رسول الله، و إقامة الصلاة و آيتاء الزكاة و الحج و صوم رمضان (١) فإنّ المراد من الإسلام، ليس هو الإسلام المقابل للإيمان في قوله سبحانه: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَوَدُّوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (٢) و لا الإسلام و الإيمان بأقل درجاتهما المذمى له أحكاماً خاصّة، بل الإيمان المنجى لصاحبه من العذاب الأليم. و هذا لا يضر بما قلنا من أنّ مقوم الإيمان، هو العقيدة القلبية. و إليه ينظر ما روى عن الإمام الصادق من _____

١. البخارى: الصحيح ١٤ / ١ كتاب الإيمان.

٢. الحجرات: ١٤. (٤٠٠)

أنّ الإسلام يحقن به الدم و تؤدّى به الأمانة، و يستحلّ به الفرج، و الثواب على الإيمان (١). و بالجملة انّ كون التصديق القلبي مقياساً للإيمان غير القول بأنّ التصديق القولى أو القلبي المجردين عن العمل كاف للنجاة، و لأجل ذلك تركّز الآيات على العمل بعد الإيمان و تقول: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) (٢) و قال تعالى: (وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ) (٣) و قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (٤) فلو كان العمل عنصراً مقوماً لحقيقته الإيمان فما معنى الامر بالتقوى بعد فرض الإيمان لأنّه يكون أشبه بطلب الأمر الموجود و تحصيل الحاصل. أدلّة الخوارج على أنّ ارتكاب المعاصى كفر: هناك آيات تتمسك بها الخوارج على أنّ العمل عنصراً مقوماً لحقيقته الإيمان حتى المرتبة الضعيفة، نشير إلى بعضها: ١ - (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا - وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (٥) فسّمى سبحانه تارك الحج كافراً. يلاحظ عليه: أنّ المراد كفر النعمة، حيث إنّ ترك فريضة الحج مع الاستطاعة كفران لنعمته سبحانه و قد استعمل الكفر في مقابل شكر النعم إذ قال

١. البرقى: المحاسن ١ / ٢٨٥.

٢. البينة: ٧.

٣. طه: ١١٢.

٤. التوبة: ١١٩.

٥. آل عمران: ٩٧. (٤٠١)

سبحانه: (وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (١). على أنّه يحتمل أن يكون المراد من توصيف تارك الحج بالكفر، هو كونه كافراً لجحد و جوبه، فيرجع الأمر إلى جحد الرسالة و يؤيّده صدر الآية (وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ) فأباً عن اللزوم ثمّ قال: (وَ مَنْ كَفَرَ) بلزوم ذلك و من المعلوم أنّ من أنكر لزومه فهو كافر. ٢ - (فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (٢) قيل: إنّ سبحانه أقسم بنفسه أنّهم لا يؤمنون إلاّ بتحكيم النبي و التسليم بحكمه، و عدم وجدان الحرج في قضائه، و التحكيم غير التصديق بل هو عمل خارجي (٣). يلاحظ عليه: أنّ الآية وردت في شأن المناققين، فإنّهم كانوا يتركون النبي و يرجعون في دعاويهم إلى الأحبار، و هم مع ذلك يدعون الإيمان بالنبي و الإذعان و التسليم له - صلى الله عليه و آله و سلم - فنزلت الآية بأنّه لا يقبل منهم ذلك الإذعان حتى يرى أثر الإيمان في حياتهم، و هو تحكيم النبي، في المرافعات و المنازعات و التسليم المحض أمام قضائه، و عدم احساسهم بالحرج، و هذا هو الظاهر من الآية، لا أن التحكيم بما أنّه عمل، جزء من الإيمان و هذا نظير ما إذا ادعى إنسان حباً لرجل فيقال له: إن كنت صادقاً فيجب أن يرى أثر الحب في

حياتك، فاعمل له كذا وكذا. ٣- (إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (٤) بادعاء أن الفاسق بنفسه

١. إبراهيم: ٧.

٢. النساء: ٦٥.

٣. ابن حزم الظاهري: الفصل ٣ / ١٩٥.

٤. يوسف: ٨٧. (٤٠٢)

واصراره عليه، آيس من روح الله فكان كافراً. والجواب: ان المدعى ممنوع: فَإِنَّ فَسَاقَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسُوا بِأَيْسِينَ بَلْ يَرْجُونَ رَحْمَةَ رَبِّهِمْ بِالتَّوْبَةِ أَوْ الشَّفَاعَةِ، أَضْفَ إِلَيْهِ: المراد من «الروح» هذا، الفرج بعد الشدة، ومثل هذا اليأس من الكبائر الموبقة، ولكنه لا يوجب كفراً، وذلك لأن النهي في الآية نهى تشريعي ومعناه أن اليأس من روح الله شأن الكافر دون المؤمن، نظير قوله سبحانه: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً) (١) أى ليس شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا عن خطأ خارجاً عن اختياره لا أن المؤمن لا يقتل المؤمن عمداً أبداً، وعلى ضوء ذلك فلو حصل اليأس من مؤمن فهو ركب الكبيرة الموبقة، ومع ذلك فليس بكافر. ٤- (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (٢). يلاحظ عليه: أنه سبحانه وصف من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة: أ- (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (٣). ب- (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٤). ج- (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (٥). والآيتان الأوليتان نزلتا في حق اليهود، كما هو لائح من صدريهما. والآية الثالثة في مورد النصارى ومع ذلك لا يكون المورد مخصياً صلاً للآيات بهما والمقصود هو أن من لم يحكم بما أنزل الله سواء أكان من أهل الكتاب أو غيرهم، فهو ظالم و فاسق و كافر، أما كونه ظالماً، فلأنه تعدى عن

١. النساء: ٩٢.

٢. المائدة: ٤٤.

٣. المائدة: ٤٤.

٤. المائدة: ٤٥.

٥. المائدة: ٤٧. (٤٠٣)

الحق، فترك حكم الله، و حكم بحكم الجاهلية، فإن الحكم حكمان أما إلهي وأما جاهلي، فإذا ترك الأول يكون من قبيل الثانى، قال سبحانه: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (١). و أما كونه فاسقاً، فإن الفسق هو الخروج عن طاعة الله، يقال: فسقت التمرة: إذا خرجت قشرتها، فالحاكم بغير ما أنزل الله خرج عن طاعة الله. وأما كونه كافراً، فلأن الآية حسب شأن نزولها وردت في قوم ينكرون الرجم فى توراتهم، ولأجله يحكمون بغير ما أنزل الله، فيكون هذا قرينه على أن الكفر لأجل انكار ما أنزل الله فى الكتب السماوية، وإلى ذلك ينظر ما نقله الرازى عن بعضهم: ان قوله (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه، أمياً من عرف بقلبه كونه حكم الله، وأقر به بلسانه، إلا أنه أتى بما يضاده، فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية (٢). وعلى ضوء ذلك فالآية تختص بالجاحد لحكم الله الوارد فى كتابه، المستلزم لانكار رسوله الذى أتى به فى الكتاب. ٥- (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) (٣). وجه الاستدلال، ان الآية تحصر الداخل فى النار فى الكافر، حيث يقول: (إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) فيما أن المسلمين اتفقوا على دخول الفاسق فى النار، يلزم أن يكون الفاسق كافراً. يلاحظ عليه: أن الآية تحصر الخلود فى النار و المقيم فيها فى المكذب

١. المائدة: ٥٠.

٢. الرازى: مفاتيح الغيب ٣ / ٤٢١.

٣. الليل: ١٤- ١٦. (٤٠٤)

المتوَلَّى لامجرّد الداخل فيها و تقول: (لا يصلها إلاّ الأَشقى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) وذلك لأنّ قوله (لَا يَصْلَاهَا)، من قوله صلى الرجل النار، يصلها أى لزمها(١) وهى عبارة أخرى عن الخلود فى النار فالآية لاتدل إلاّ على أنّ الخلود فى النار من خصائص الكافر المكذّب المتوَلَّى وأمرى المؤمن الفاسق فخرج عن حدود و دلالة الآية. هذا و ربّما يستدلّ بالآية على قول المرجئة القائلة بالنار للكافرين دون المؤمنين، وذلك لأنّه سبحانه يقول: لا يدخل النار إلاّ الكافر، والمؤمن الفاسق ليس كافراً، وأجاب عنه القاضى المعتزلى على ما نقل عنه: بأنّ (ناراً) نكرة فى سياق الاثبات، و إنّما تعمّ النكرة فى سياق النفي نحو قولك: ما فى الدار رجل، و غير ممتنع أن تكون فى الآخرة نار مخصوصة لا يصلها إلاّ الذين كذبوا و تولّوا ويكون للفَساق نار أخرى غيرها(٢). وأوضحه الطبرسى فى مجمعه و قال: إنّهُ سبحانه نكّر النار المذكورة ولم يُعرّفها، فالمراد بذلك أنّ ناراً من جملة النيران لا يصلها إلاّ من هذه حاله، والنيران درجات على ما بيّنه سبحانه فى سورة النساء (٣)، فمن أين عرف أنّ غير هذه النار لا يصلها قوم آخرون(٤). و لكن الاستدلال و الجواب مبنيان على أنّ «الصلى» بمعنى الدخول و لكنه غير صحيح لما عرفت من أنّه الدخول الملازم للبقاء. أضف إلى ذلك: أنّه لودلّ على أنّ النار مختصّة بالكافرين يلزم منه الاغراء بالمعاصى لأنّه بمنزلة أن يقول الله تعالى لمن صدّق بالله و رسوله ولم يكذب

١. يقال صلى فلاناً النار: أدخله إياها و أتواها فيها.

٢. ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ٨ / ١١٥.

٣. النساء: ١٤٥: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً).

٤. الطبرسى: مجمع البيان ٥ / ٥٠٢. (٤٠٥)

ولم يتولّ: أى معصية اقدمت عليها فلن يضرّك. و هذا هو الاغراء الذى لا يصدر من الحكيم. على أنّه سبحانه يقول بعدها(وَسَيَجْزِيهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)(١) و يحصر المجتب عن النار فى الأتقى، و معلوم أنّ الفاسق ليس بأتقى لأنّ «أتقى» مبالغة فى التقوى و من يرتكب عظام الكبائر لا يوصف بأنّه أتقى . ٦- (إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)(٢). قالوا: و الفاسق تحيط به جهنّم فوجب أن يكون كافراً. يلاحظ عليه: أنّه من غرائب الاستدلالات، فإنّه لم يقل سبحانه: و إنّ جهنّم لاتحيط إلاّ بالكافرين، حتّى يلزم أن يكون الفاسق من أقسام الكافر، باعتبار كونها محيطه به أيضاً ولا يلزم من كونها محيطه بقوم، ألا تحيط بقوم سواهم. ٧- (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعِيدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)(٣). وجه الاستدلال: أنّ الفاسق لا يجوز أن يكون ممّن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممّن اسودت و إذا دخل فيه يكون كافراً لقوله: (بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ). يلاحظ عليه: أنّ الآية تخبر عن وجود صنفين: صنف تبيض وجوههم، و صنف تسود وجوههم، فالاول من سمات المؤمن الذى لم يخالط إيمانه بإثم، والثانى من سمات الكافر الذى لم يؤمن بالله أو صفاته أو أفعاله، فى النبوة

١. الليل: ١٧ - ١٨.

٢. التوبة: ٤٩.

٣. آل عمران: ١٠٦. (٤٠٦)

والخاتميّة. و أمّا أنّه ليس هنا صنف ثالث و يحشرون بغير هاتين السمتين، فلا تدلّ الآية عليه، والمؤمن الذى ركب الكبيرة هو من هذا القسم الثالث الذى لم تتكفّل الآية ببيان حكمه. والحاصل انّ الآية تبحث عن المؤمن الخاص، و الكافر المطلق، و تذكر سماتهما وحالاتهما، و أمّا القسم الثالث فهو خارج عن تقسيم الآية و لعلّ له سمّه و علامة أخرى غير بياض الوجه و سواده لم تذكرها الآية. قال الطبرسى: استدلت الخوارج بذلك على أنّ من ليس بمؤمن فلا بد أن يكون كافراً فإنّ الله سبحانه قسّم الوجوه إلى هذين القسمين. ولا تعلّق لهم به، لأنّه سبحانه ذكر هنا قسمين من الوجوه متقابلين، وجوه المؤمنين (غير العاصين) و وجوه الكفار، ولم يذكر وجوه الفساق من أهل الصلاة، فيجوز أن يكون لها صفة أخرى بأن يكون عليها غبرة لاتغشاها قتره أو يكون عليها صفرة أو لون آخر(١). ٨-

(فَاعْرَضُوا فَارِسَيْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِحَنَنِيهِمْ جَنَّتِينَ ذَوَاتِي أَكَل خَمَطٌ وَأَثَلٌ وَشَيْءٌ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكُفُورَ) (٢). والفساق لابد أن يجازى، فوجب أن يكون كفوراً. يلاحظ عليه: أن المراد من قوله (وَهَلْ نُجْزِي) ليس مطلق المجازاة، بل مجازاة الاستئصال، والآية وردت في قصة أهل سبأ وهم استؤصلوا بالعقوبة، فالمجازاة المقترنة بالاستئصال من خصائص الكفار، لا كل مجازاة.

١. الطبرسي: مجمع البيان ٥ / ٤٤١.

٢. سبأ: ١٦ - ١٧. (٤٠٧) ٩ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) (١). وفسر الغاوين في آية أخرى بالمشركين قال سبحانه (إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (٢). وعلى ضوء هذا فمرتكب الكبائر من الغاوين لأجل سلطة الشيطان عليه وهو حسب تعبير الآية الثانية من المشركين فينتج أن مرتكب الكبيرة مشرك يلاحظ عليه: أن الآية فسرت الغاوين بصنفين: صنف يتولونه، و صنف به مشركون، ومرتكب الكبيرة داخل في الصنف الأول لافي الصنف الثاني. ١٠ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ) (٣). وجه الدلالة أنه سبحانه جعل الفاسق مكذباً. يلاحظ عليه: أن الاستدلال مبني على تفسير الفاسق بالمعنى الرائج في أعصارنا أي المؤمن بالله و صفاته و رسالاته المرتكب لكبيرة، وهو غير صحيح إذ ليس كل فاسق بهذا المعنى مكذباً، فتعين أن يكون المراد من الفاسق في الآية من خرج عن الطاعة بتكذبه، ومن المعلوم أن مثله كافر، قال سبحانه (أَقْمَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ) (٤) وبالجملة: المقصود من الفاسق في الآية من عصى عن طريق التكذيب الذي يساوق الكفر، لا - من فسق - وهو مؤمن بقلبه ولسانه - بالخروج عن الطاعة لارتكابه المعاصي.

١. الحجر: ٤٢.

٢. النحل: ١٠٠.

٣. السجدة: ٢٠.

٤. السجدة: ١٨. (٤٠٨) ١١ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ) (١). وجه الدلالة أن من لم يكن مؤمناً فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن فوجب أن يكون كافراً. يلاحظ عليه: أن الفاسق، أي المسلم المعتقد بالله سبحانه ورسوله وكتبه، المرتكب لبعض المحرمات، مؤمن ليس بكافر، فقوله: الفاسق ليس بمؤمن، ممنوع، فإن الفاسق على قسمين، قسم يخرج عن طاعة الله سبحانه بالتكذيب والانكار، وقسم يؤمن به، ولكن لا يقوم في مقام العمل ببعض الوظائف، فالأول كافر دون الثاني. وأما الشارح ابن أبي الحديد فيما أنه من المعتزلة، ومرتكب الكبيرة عندهم لامؤمن ولا - كافر بل في منزلة بين المنزلتين، أجاب بأن (من) هاهنا للتبعيض وليس في ذكر التبعض نفى الثالث (ولعل هنا من ليس بمؤمن ولا كافر) (٢) وهو كما ترى، لأن الآية في مقام الحصر. ١٢ - (قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيُخْزِنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (٣). وجه الدلالة أن مرتكب الكبائر ظالم، والظالم بحكم الآية جاحد والجاحد كافر، وإلى ذلك يرجع استدلالهم حيث يقولون:

١. التغابن: ٢.

٢. ابن أبي الحديد: شرح النهج ٨ / ١١٨.

٣. الأنعام: ٣٣. (٤٠٩) ١٣ - الفاسق ظالم لغيره، أو لنفسه، وكل ظالم كافر، قال تعالى: (أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) (الأعراف / ٤٤ - ٤٥) (١). يلاحظ عليه: أن الكبرى ممنوعة وهي أن كل ظالم جاحد بآيات الله كما استظهره المستدل من الآية الأولى أو أن كل ظالم كافر كما استظهره من الآية الثانية، وذلك لأن المراد من الظالمين في كلتا الآيتين ليس هو مطلق الظالم ولو بمجرد ارتكاب الكبيرة فقط، بل المراد هو المكذب بقاء الآخرة. أما الآية الأولى: فيشهد على ذلك سياق الآية: قبلها وبعدها حيث جاء في الآية المتقدمة قوله (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ...) وجاء في الآية المتأخرة عنها:

(وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ). وأما الآية الثانية: فذليها شاهد على أن المراد هو الجاحد بالآخرة. أضف إلى ذلك: أنه كيف يمكن أن يعد كل ظالم و لو ظلم نفسه كافراً؟ هذا هو نبينا آدم يقول: (قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا) (٢) وقال تعالى حكاية عن موسى: (إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) (٣) وقال حكاية عن يونس: (إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (٤). (١٤ - (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرُ مَا حِسَابِيهِ) (٥)... إلى قوله (إِنَّهُ كَانَ لَآ- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) (٦) والفاسق لا-يؤتى كتابه بيمينه بل يؤتى بشماله، إذ لا ثالث فيدخل تحت قوله (إِنَّهُ كَانَ

١. صالح أحمد الصوافي: الإمام جابر بن زيد العماني: ٢٥٣.

٢. الأعراف: ٢٣.

٣. القصص: ١٦.

٤. الأنبياء: ٨٧.

٥. الحاقة: ٢٥ - ٢٦.

٦. الحاقة: ٣٣. (٤١٠) لا- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) الذي هو وصف عام لكل من أوتى كتابه بشماله، ولو أردنا صوغ الاستدلال في قالب علمي نقول: مرتكب الكبيرة يؤتى كتابه بشماله، و كل من كان كذلك فهو ممن لا يؤمن بالله العظيم، فينتج: أن مرتكب الكبيرة ممن لا- يؤمن بالله العظيم. يلاحظ عليه: أن الاستدلال مبني على أن المراد من الموصول في قوله: (وَأَمَّا مَنْ...) كل من يؤتى كتابه بشماله سواء كان جاحداً أو غير جاحد ليشمل المسلم المؤمن المرتكب للكبيرة، ولكن المراد منه القسم الخاص من هذه الطائفة أعنى الجاحد بالله العظيم، أي من لم يوحد الله سبحانه في دار التكليف، والدليل على ذلك هو التعليل الوارد في الآية الأخرى أعنى قوله: (إِنَّهُ كَانَ لَآ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) فذيل الآية قرينه على اختصاص الموصول مع صلته، بالجاحد، لا المؤمن المدعن بكل الشرائع، لوضوح أنه ليس كل مرتكب الكبيرة غير مؤمن بالله العظيم وليس ارتكاب الكبيرة دليلاً على عدم الإيمان به لقضاء الضرورة على بطلانه. ويؤيد ذلك أنه علل دفع الكتاب إلى الظهر في بعض الآيات الذي هو بمنزلة دفعه إلى شماله بأنه كان غير مؤمن بالآخرة قال سبحانه: (وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا... إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ) (١) ومعنى قوله «لن يحور» إنه لا- يرجع إلى الحياة في الآخرة. ١٥ - (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءآيَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمْتُمْ بِهَا تَكَذُّبُونَ) (٢).

١. الانشقاق: ١٠ - ١١ و ١٤.

٢. المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٥. (٤١١) وجه الاستدلال أن الفاسق ممن خفت موازينه، و من خفت موازينه فهو مكذب حسب ظاهر الآية، و المكذب كافر بالاتفاق. يلاحظ عليه: أن المراد من الموصول في قوله «ومن خفت موازينه» ليس كل من خفت موازينه سواء كان مكذباً بآيات الله أم مصداقاً بها حتى يعم المؤمن الفاسق، بل المراد هو القسم الخاص أعنى الذين خفت موازينهم لأجل التكذيب، للأجل أمر آخر، أعنى ارتكاب الكبيرة مع التصديق، و يوضح هذا الجواب، ما ذكرناه في الآية المتقدمة، فلاحظ (١). ١٦ - (وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (٢). يلاحظ عليه: أن الآية، دليل على أن كل كافر فاسق، ولا تدل على العكس كما هو واضح. ثم إن الإمام على - عليه السلام - رد على قول الخوارج بأن المسلم بارتكاب المعصية يصير كافراً بكلام منه موضع الحاجة: قال مخاطباً الخوارج: «فإن أبيتتم إلا- أن تزعموا أنني أخطأت و ضللت، فلم تُضلمون عامية أمية محميد - صلى الله عليه وآله وسلم -، بضلالتي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع السارق، و جلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكح المسلمات، فأخذهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من

١. راجع الآية ٩ - ١١ من سورة القارعة.

٢. النور: ٥٥. (٤١٢)

بين أهله» (١). و حاصل كلام الإمام: أنه لو كان صاحب الكبيرة كافراً لما صلى عليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا ورثته من المسلم، ولا- مكنه من نكاح المسلمات، ولا- قسّم عليه من الفىء ولأ- خرج عن لفظ الإسلام (٢). إلى هنا تمّ البحث عن كون مرتكب الكبيرة مؤمناً أو كافراً، فحان الآن البحث عن الجهة الثالثة و هي: أن مرتكب الكبيرة هل هو مخلّد في النار - إن لم يتب - أو أنه يخرج منها بعد دخوله فيها وإنما التأييد للكافرين؟ * * * الجهة الثالثة - صاحب الكبيرة و خلوده في النار: ذهب جمهور المسلمين إلى أن الخلود يختص بالكافر دون المسلم وإن أثم وركب الكبيرة، وذهبت الخوارج و المعتزلة د إلى خلوده في النار إذامات بلا توبة. وبما أن المقام مختص بدراسة أدلّة الخوارج في المسألة، نكتفي ببيان أدلّتهم وأما ما استدللّ به جمهور المسلمين على عدم الخلود فيطلب من محلّه. فنقول: استدّلوا بآيات: ١ - قوله سبحانه: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ) (٣) ولا- شكّ أن الفاسق ممّن عصى الله و رسوله بترك الفرائض وإرتكاب المعاصى. يلاحظ عليه: أن الموضوع ليس مطلق العصيان، بل العصيان المنضم إليه

١. الرضى: نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٢. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨ / ١١٣ - ١١٤.

٣. النساء: ١٤. (٤١٣)

التعدى عن حدود الله، و من المحتمل جداً أن يكون المراد من التعدى، رفض أحكامه سبحانه و عدم قبولها. بل يمكن أن يقال: إن قوله (وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ) ظاهر في تعدى جميع حدود الله و هذه صفة الكفار، فالآية خاصّة بهم لا بمرتكب الكبيرة. وأما المؤمن الفاسق فإنما يتعدى بعض الحدود. ٢ - (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (١) فعّد قاتل المؤمن من المخلمدين في النار من غير فرق بين أن يكون القاتل مسلماً أو كافراً. يلاحظ عليه: أن الآية ناظرة إلى القاتل المستحل قتل المؤمن أو قتله لأجل إيمانه و مثله كافر و يدلّ عليه ما قبلها، قال سبحانه: (سَتَجِدُونَ ءآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَيَّا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) (٢). ثم يقول: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا - خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً... (٣). ثم يقول: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ... (٤) فالآية حسب السياق تختص بالمستحل الكافر، خصوصاً بالنظر إلى قوله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا) والنفي وإن كان نفياً تشريعياً (ليس شأن المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) لا تكوينياً (لا يصدر من المؤمن قتل المؤمن) ولكنه يصحّ أن يقع قرينه

١. النساء: ٩٣.

٢. النساء: ٩١.

٣. النساء: ٩٢. (٤١٤)

على اختصاص الآية الثالثة بالكافر. ٣ - (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (١). يلاحظ عليه: أن الموضوع للحكم بالخلود ليس مطلق من كسب السيئة، بل من اكتسب السيئة و أحاطت به خطيئته، والمسلم المؤمن مهما كان عاصياً لا تحيط به خطيئته، فإن في قلبه نقاطاً بيضاء يشع منها إيمانه و اعتقاده بالله سبحانه و أنبيائه و كتبه. ٤ - (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) (٢). بحجّة أن المجرم أعم من الكافر و المؤمن الفاسق، وقد حكم عليه على وجه الاطلاق، بالخلود في النار. يلاحظ عليه: أن الآية واردة في حقّ الكفار بشهادة سياقها، قال سبحانه قبل هذه الآية: (الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) ثم يقول (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ

جَهَنَّمَ خَلِدُونَ) فبحكم المقابلة مع قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) فالمقصود من المجرمين هو الكفار. هذه هي الآيات استدلت بها الخوارج ثم المعتزلة على تأييد صاحب الكبيرة في النار. فلنكتف بهذا المقدار، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محاضراتنا الكلامية (٣).

١. البقرة: ٨١.

٢. الزخرف: ٧٤ - ٧٦.

٣. محاضرات الاستاذ العلامة جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن محمد مكي: الالهيات ٢ / ٩١٠ - ٩١٢. (٤١٥) المخالفون عند الخوارج: إن الخوارج يعدون جميع المسلمين كفاراً، لارتكابهم الكبائر ولا أقل لتصويبهم مبدأ التحكيم، وأكثرهم على أن الكفر كفر الملة، أي الخروج عن الدين إلا القليل منهم، كالأباضية فإنهم يعدونه كفراً لنعمه مثلما مر في قوله سبحانه في مورد الحج: (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)(١). فإذا كانت سائر الفرق محكومة بالكفر، فتكون دارهم دار الكفر، لا دار الإسلام وقد أوجبت بعض الفرق منهم (كالأزارقة) لزوم الهجرة عنها، للمعتنقين لمبادئ الخوارج. وعلى كل تقديره فهذه المسألة من شعب المسألة الثانية وهي أن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق، أو كافر، ولما ذهب الخوارج إلى كونه كافراً فيكون جميع المسلمين المخالفين لهم في المبادئ، كفاراً. وبما أنك عرفت أن مقوم الإيمان عنصر قلبي، فلا يضرب ارتكاب الكبيرة بالإيمان، لا بمعنى أن الإيمان القلبي وإن لم يقترن بالعمل موجب للنجاة في الآخرة، بل بمعنى أنه يكفي في خروج الانسان من عداد الكافرين والدخول في عداد المسلمين: الإيمان القلبي بوحداية الله سبحانه، وكتبه، ورسله، ولهذا الإيمان آثار في الدنيا والآخرة، وكان النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - يكتفي بالحكم في إيمان الرجل باظهار الشهادتين وهناك روايات متواترة بل متضاربة تدل على ذلك. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «قاتل أهل خيبر حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك، فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله»(٢).

١. آل عمران: ٩٧.

٢. مسلم: الصحيح ٧ / ١٢١، ابن عساکر: ترجمة الإمام علي ١ / ١٥٩ ح ٢٢٢، النسائي: خصائص أمير المؤمنين: ٥٧. (٤١٦) روى الشافعي في كتاب الأم عن أبي هريرة: أن رسول الله قال: «لا أزال أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». ثم قال: فأعلم رسول الله أن فرض الله أن يقاتلهم حتى يظهروا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها يعني بما يحكم الله عليهم فيها، وحسابهم على الله بصدقهم وكذبهم وسرائرهم، الله العالم بسرائرهم، المتولى الحكم عليهم، دون أنبيائه وحكام خلقه، وبذلك مضت أحكام رسول الله فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلمهم أن جميع أحكامه على ما يظهرون، وأن الله يدين بالسرائر(١). نعم ورد في بعض الروايات، إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان: روى البخاري عن عبد الله بن عمر: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»(٢) ولكنها من مظاهر العلم بالإيمان لا من مقوماته لأن إيمان الانسان يتوقف على مظهر له في حياته، والواجبات الواردة فيها مظاهر لهذا الإيمان. الإيمان يزيد وينقص: ثم إنه مع القول بأن العنصر المقوم للإيمان هو الاعتقاد القلبي - نقول: الإيمان يزيد وينقص في كلا الجانبين: العقيدة، والعمل، أما من جانب العقيدة: فأين إيمان الأولياء والأنبياء بالله ورسوله من إيمان سائر الناس، وأما

١. الشافعي: الأم: ٦ / ٤ انظر موسوعة الإمام الشافعي: ٧ / ٢٤١.

٢. البخاري: الصحيح ١، كتاب الإيمان: ٩. (٤١٧)

من جانب العمل، فأين إيمان من لا يعصى الله سبحانه طرفه عين بل لا يخطر بباله العصيان، من المؤمن التارك للفرائض والمرتكب للكبائر. نعم لا ننكر أنه ربما يؤدي ترك الفرائض، وركوب المعاصي، مدة طويلة إلى الالحاد والانكار والتكذيب والجحد قال

سبحانه: (ثُمَّ كَانَ عَقِبَهُ الَّذِينَ أَسَاءُوا الشُّوْأَى أَنْ كَذَبُوا بِنَيْتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) (١). إنَّ وزان «العقيدة و العمل الصالح» وزان الجذور و السيقان في الشجرة فكما أنَّ تقوية الجذور مؤثرة في قوَّة السيقان، و كمال الشجرة وجود ثمرتها، فكذلك تهذيب السيقان و رعايتها بقطع الزوائد عنها و تشذيبها، و تعرُّضها لنور الشمس، مؤثرة في قوَّة الجذور، إنَّها علاقة تبادلية بين العمل و العقيدة كالعلاقة التبادلية بين الجذور و السيقان. أجل ذلك هو الحال بالنسبة إلى تأثير الإيمان في العمل، و هكذا الحال بالنسبة إلى تأثير العمل في الاعتقاد، فإنَّ الذي ينطلق في ميدان الشهوة بلا قيد، و يمضى في اشباع غرائزه إلى أبعد الحدود، يستحيل عليه أن يبقى محافظاً على أفكاره و اعتقاداته الدينية و قيمه الروحية. إنَّه كلما ازداد توغلاً في المفساد ازداد بعداً عن قيم الدين لأنَّها تمنعه عن المضى في سبيله و التماهى في عصيانه، و هكذا يتحرَّر عن تلك المعتقدات شيئاً فشيئاً و ينسلخ منها و ينبذها وراء ظهره. و قد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة أيضاً. و بهذا يعتبر الفصل بين العمل، و الكفر، بين العقيدة و السلوك، نظرية خاطئة ناشئة من الغفلة عن التأثير المتقابل بين هذين البعدين.

١. الروم: ١٠. (٤١٨) و لهذا يسعى المستعمرون دائماً إلى افساد الأجواء الاجتماعية بهدف افساد الأخلاق و السلوك تمهيداً لتغيير الأفكار و القضاء على المعتقدات (١). * * *

١. محاضرات الاستاذ جعفر السبحاني بقلم جعفر الهادي: الله خالق الكون ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٤١٩) ٣- في الخروج على الحاكم الجائر اتفقت الخروج على لزوم الخوارج على الحاكم الجائر، و جعلوه فرعاً من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، بشرط القدرة و المنعة عليه، و يظهر ذلك من خطبهم و رسائلهم أو ان قيامهم، و هذا عبد الله بن وهب الراسبي عندما غارد مع جماعته الحرورية، متوجهاً إلى النهروان، خطب قومه و قال «أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن، و ينيبون إلى حكم القرآن، أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها و الركون إليها و الإيثار إيَّاها عناء و تبار- آثر عندهم من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و القول بالحق، إلى أن قال: فاخرجوا بنا اخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع». و قال حرقوص بن زهير: «إنَّ المتاع بهذه الدنيا قليل، و إنَّ الفراق لها و شيكك، فلا تدعونكم زينتها و بهجتها إلى المقام بها، و لا تلتفتكم عن طلب (٤٢٠)

الحق و إنكار الظلم، فإنَّ الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون» (١). و هذا نافع بن الأزرق يقول لأصحابه عند خروجه: «إنَّ الله قد أكرمكم بمخرجكم، بصيركم عمّا عمى عنه غيركم، أستم تعلمون أنما خرجتم تطلبون شريعته و أمره، فأمره لكم قائد، و الكتاب لكم إمام، و إنما تتبعون سننه و أثره...» (٢). إلى غير ذلك من كتب القوم و رسائلهم و خطبهم التي يرون فيها الخروج على الإمام غير العادل واجباً. أقول: الكلام في الإمام الجائر يقع في مقامين: الأول: في لزوم إطاعته و عدمه. الثاني: في وجوب الخروج عليه و عدمه. أمَّا الأول: لا شكَّ أنَّ إطاعة الإمام العادل من صميم الدين فلا يشكُّ في وجوب إطاعته اثنان، إنَّما الكلام في إطاعة الحاكم الجائر، فقد ذهب أهل السنَّة إلى وجوب طاعته مطلقاً سواء أمر بالمعروف أو أمر بالمنكر، أو في خصوص ما لم يأمر بالمعصية، و لكلِّ من القولين قائل و نذكر بعض كلماتهم في المقام: ١ - قال أحمد بن حنبل في رسالة ألفها لبيان عقائد أهل السنَّة: «السمع و الطاعة للأئمة و أمير المؤمنين البرِّ و الفاجر، و من ولى الخلافة، فأجمع الناس و رضوا به، و من غلبهم بالسيف، و يُسمَّى أمير المؤمنين» (٣). ٢ - و قال الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي (م - ٣٢١) في رسالته المسماة بيان السنَّة و الجماعة، المشهورة بالعقيدة الطحاوية: «و نرى الصلاة

١. الطبري: التاريخ ٤ / ٥٤ - ٥٥.

٢. الطبري: التاريخ ٤ / ٤٣٩.

٣. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ٢ / ٣٢٢ نقلاً عن إحدى رسائل إمام الحنابلة، و كلامه مطلق يعم ما إذا أمر بالطاعة أو بالمعصية. (٤٢١)

خلف كل برّ و فاجر من أهل القبلة.. إلى أن قال: ولا ننزع يداً من طاعتهم، و نرى طاعتهم من طاعات الله عزوجلّ فريضة علينا مالم يأمرنا بمعصية» (١). ٣- وقال أبو اليسر محمّد بن عبد الكريم البزدوى: «الإمام إذا جار أو فسق لا ينزل عند أصحاب أبي حنيفة و أجمعهم، و هو المذهب المروي» (٢). إلى غير ذلك من الكلمات التي وقفت على بعضها في الجزء الأول - من هذه الموسوعة - عند البحث عن طاعة السلطان الجائر و هي بين مطلق و مقيد فيما إذا لم يأمر بمعصية. وهذه النظرية حيكت على طبق الروايات الواردة في الصحاح والمسائيد، و إليك بعضها: أ - روى مسلم في صحيحه: بسنده عن حذيفة بن اليمان قال: قلت: «يا رسول الله، إنّا كنّا بشرّاً فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شرّ؟ قال: نعم قلت: هل واره ذلك الشرّ خير؟ قال: نعم قلت: فهل وراء ذلك الخير شرّ؟ قال: نعم قلت: كيف؟ قال: يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهدای ولا يستنون بسنتي و سيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع و تطيع للأمر، وإن ضرب ظهرك و أخذ مالك فاسمع و أطع» (٣). ب - روى أيضاً عن سلمة بن يزيد الجعفي، أنّه سأله رسول الله، فقال: «يا نبيّ الله، رأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم و يمنعوننا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثمّ سأله فأعرض عنه، ثمّ سأله في الثانية أو في الثالثة فجنّبه

١. أبو جعفر الطحاوي: شرح العقيدة الطحاوية ١١٠ طبع دمشق.

٢. الإمام البزدوى (إمام الفرقة الماتريديّة): أصول الدين ١٩٠ طبع القاهرة.

٣. مسلم: الصحيح ٣ / ١٤٧٦، كتاب الإمارة، الباب ١٣، الحديث ١٨٤٧. (٤٢٢)

الأشعث بن قيس و قال: «اسمعوا و أطيعوا، فإنّما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم» (١). و في رواية أخرى فيه: «فجنّبه الأشعث بن قيس فقال رسول الله - صلّى الله عليه و آله و سلم - : «اسمعوا و أطيعوا، فإنّما عليهم ما حملوا و عليكم ما حملتم» (٢). ج - و روى عن عبادة بن الصامت «قال: دعانا رسول الله - صلّى الله عليه و آله و سلم - فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع و الطاعة في منشطنا و مكرهنا و عسرنا و يسرنا و ائره علينا و أن لا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» (٣). تحليل هذه النظرية: إنّ هذه النظرية لا يصدّقها الكتاب العزيز و لا السنّة النبويّة و لا سيرة أئمة المسلمين، كيف يجوز إطاعة أمر الجائر مطلقاً، أو فيما إذا لم يأمر بمعصيته، و قال سبحانه: (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (٤) و قد نقل سبحانه اعتذار بعض أهل النار بقوله: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا) (٥) و قد تضافر عن رسول الله أنّه قال: «لا طاعة

١. مسلم الصحيح ٣ / ١٤٧٤، كتاب الامارة، الباب ١٢، الحديث ١٨٤٦.

٢. مسلم: الصحيح ٣ / ١٤٧٥، كتاب الامارة، الباب ١٢، ذيل حديث ١٨٤٦.

٣. مسلم الصحيح ٣ / ١٤٧٠، كتاب الامارة، الباب ٨ ذيل حديث ١٨٤٠ (الرقم ٤٢). ولاحظ في الوقوف على سائر الروايات في هذا المجال كتاب دراسات في فقه الدورة الإسلامية ١ / ٥٨٠ - ٥٨٧ فإنّه بلغ النهاية في جمع الروايات و الكلمات الصادرة عن الفقهاء في المقام.

٤. الشعراء: ١٥١ - ١٥٢.

٥. الأحزاب: ٦٧. (٤٢٣)

لمخلوق في معصية الخالق» (١). و روى الإمام الرضا عن آباءه قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه و آله و سلم - : «من أراضى سلطاناً بما أسخط الله خرج عن دين الله» (٢). و روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر أنّه قال: «على المرء المسلم السمع و الطاعة فيما أحبّ و كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة» (٣). إلى غير ذلك من الروايات الناهية عن إطاعة الإمام الجائر مطلقاً أو فيما يأمر بمعصية. و الإمامان فيها و في غيرها يعرب عن حرمة الاطاعة مطلقاً، كيف و روى المتقي الهندي في كتر العمال عن أنس قال: «لا طاعة لمن لم يطع الله» (٤) نعم كل ما ذكرنا من حرمة الطاعة، مشروط بالقدرة و المنعة، وإلا ففيه كلام آخر ليس المقام محل تفصيله. و أمّا السيرة

فتظهر حالها عند الكلام في المقام الثاني: الثاني: في لزوم الخروج على الحاكم الجائر: ١- ذهب أكثر أهل السنة إلى حرمة الخروج، وهذا هو إمام الحنابلة يقول في رسالته السابقة: «و الغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البرّ و الفاجر، وإقامة الحدود إلى الأئمة، وليس لأحد أن يطعن عليهم و ينازعهم» (٥). ٢- وقال الشيخ أبو جعفر الطحاوي: «ولا- نرى الخروج على أئمتنا ولا

١. الحر العاملي: الوسائل ١١، الباب الحادي عشر من أبواب الأمر بالمعروف ٧، ونقله الرضى في نهج البلاغة قسم الحكمة برقم ١٦٥.
٢. المصدر نفسه برقم ٩.
٣. مسلم: الصحيح ٣، كتاب الامارة، الباب الثامن، الحديث ١٨٣٩.
٤. المتقى الهندي: كنز العمال ٦ / ٦٧، الباب ١ من كتاب الامارة، الحديث ١٤٨٧٢.
٥. تقدم مصدره. (٤٢٤)

ولاء أمرنا و إن جاروا» (١). ٣- وقال الإمام الأشعري عند بيان عقيدة أهل السنة: «و يرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح و أن لا يخرجوا عليهم بالسيف» (٢). ٤- وقال الإمام البزدوى: «إذا فسق الإمام يجب الدعاء له بالتوبة، ولا يجوز الخروج عليه لأن في الخروج إثارة الفتن و الفساد في العالم» (٣). ٥- وقال الباقلاني بعدما ذكر فسق الإمام و ظلمه بغصب الأموال، و ضرب الأبخار، و تناول النفوس المحرمة، و تضييع الحقوق، و تعطيل الحدود: «لا-ينخلع بهذه الامور ولا يجب الخروج عليه، بل يجب و عظه و تخويفه، و ترك طاعته في شىء مما يدعو إليه من معاصي الله» (٤). إلى غير ذلك من الكلمات التي فيما ذكرنا غنى عنها. نعم هناك شخصيات لامعة أضحروا بالحقيقة و جاءوا بكلام حاسم، وإليك بعض من ذهب إلى وجوب الخروج على الحاكم الجائر: ١- قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: «كان مذهب أبي حنيفة مشهوراً في قتال الظلمة و أئمة الجور، ولذلك قال الأوزاعي: احتملنا أبا حنيفة على كل شىء حتى جاءنا بالسيف - يعنى قتال الظلمة - فلم نحتلمه، و كان من قوله: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض بالقول، فإن لم يؤتمر له بالسيف على ما روى عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . وسأله إبراهيم الصائغ و كان من فقهاء أهل خراسان ورواه الأخبار

١. أشرنا إلى مصدره.
 ٢. أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين ٣٢٣.
 ٣. الامام البزدوى: أصول الدين ١٩٠.
 ٤. الباقلاني: التمهيد ١٨٦ طبع القاهرة. (٤٢٥)
- و نساكهم عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فقال: هو فرض، و حدّثه بحديث عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: «أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب و رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف و نهاه عن المنكر فقتل» (١). ٢- و قال ابن حزم: «والواجب إن وقع شىء من الجور و إن قل، أن يكلم الإمام في ذلك و يمنع منه، فإن امتنع و راجع الحقّ و أذعن للقيود من البشرية أو من الاعضاء، و لإقامة حدّ الزنا و القذف و الخمر عليه فلا سبيل إلى خلعه، و هو إمام كما كان، لا يحلّ خلعه. فإن امتنع من انفاذ شىء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع، و جب خلعه و اقامه غيره ممّن يقوم بالحقّ، لقوله تعالى: (تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدُّونَ) و لا يجوز تضييع شىء من واجبات الشرائع» (٢). ٣- و قال ابن أبي الحديد المعتزلى في شرح قول أمير المؤمنين - عليه السلام - : «لا تقاتلوا الخوارج بعدى» قال: «و عند أصحابنا انّ الخروج على أئمة الجور واجب، و عند أصحابنا أيضاً انّ الفاسق المتعلّب بغير شبهة يعتمد عليها، لا يجوز أن يُنصر على من يخرج عليه ممّن ينتمى إلى الدين، و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، بل يجب أن ينصر الخارجون عليه، و إن كانوا ضالّين في عقيدة اعتقدوها بشبهة دينية دخلت عليهم، لأنهم أعدل منه و أقرب إلى الحقّ، و لاريب في تلزم الخوارج بالدين، كما لاريب في أن معاوية لم يظهر عنه مثل ذلك» (٣).

١. الجصاص: أحكام القرآن ١ / ٨١ .
 ٢. ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤ / ١٧٥ .
 ٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥ / ٧٨ . (٤٢٦) ٤ - وقال إمام الحرمين: «إن الامام إذا جار، وظهر ظلمه وغيه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعه فلاهل الحل والعقد، التواطؤ على ردعه و لو بشهر السلاح ونصب الحروب» (١). إذا وقفت على هذه النقول، فالحق هو وجوب الخروج على الحاكم الجائر إذا كان في ركوبه منيعة الحكم خطراً على الإسلام والمسلمين. ويكفي في ذلك ما ورد حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الخروج على السلطان الجائر من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يقوم به إلا أصحاب القدرة والمنعة، الذين لديهم امكانية الكفاح المسلح . وأما الروايات فيكفي في ذلك ما نذكر: ١ - روى الطبري في تاريخه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال، إني سمعت علياً - عليه السلام - يقول - يوم لقينا أهل الشام - : «أيها المؤمنون، إنّه من رأى عدواناً يعمل به و منكراً يُدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم و برئ، و من أنكره بلسانه فقد أجر، و هو أفضل من صاحبه، و من أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العلياً وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى و قام على الطريق و تور في قلبه اليقين» (٢). ٢ - و في مسند أحمد عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة و العامة» (٣). _____

١. التفتازاني: شرح المقاصد ٢ / ٢٧٢ نقلاً عن امام الحرمين.

٢. الحر العاملي: الوسائل ١١ / ٤٠٥، الباب ٣ من أبواب الأمر والنهي و... الحديث ٨، و رواه أيضاً في نهج البلاغة: فيض ١٢٦٢، عبدة ٣ / ٢٤٣، صالح ٥٤١، الحكمة ٣٧٣.

٣. أحمد المسند ٤ / ١٩٢ . (٤٢٧) والقدرة، فمنطق القوة يستعان به إذا لم تثمر المراتب السابقة، وفي بعض الروايات إلماعات إليه، و هي بين كونها نقيّة السند و ضعيفته، و لكن المجموع يفيد اليقين بالمقصود. ٣ - قال أبو جعفر الباقر - عليه السلام - : «فانكروا بقلوبكم و الفظوا بالسننكم و صكّوا بها جباههم، و لا تخافوا في الله لومة لائم» (١). ٤ - إن الحسين خطب أصحابه و أصحاب الحرّ، فحمد الله و أثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعمل في عباد الله بالاثم و العدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان و تركوا طاعة الرحمن، و أظهروا الفساد و عطّلوا الحدود، و استأثروا بالفيء، و أحلّوا حرام الله و حرّموا حلاله، و أنا أحقّ من غير» (٢). ٥ - روى الصدوق باسناده عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد - عليه السلام - قال: قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : «إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة إذا عملت الخاصة بالمنكر سرّاً من غير أن تعلم العامّة، فإذا عملت الخاصّة بالمنكر جهاراً فلم تغتبر ذلك العامّة، استوجب الفريقان العقوبة من الله - عز وجلّ - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «إن المعصية إذا عمل بها العبد سرّاً لم يُضَرَّ إلا عاملها، فإذا عمل بها علانية ولم يغيّر عليه أضرت بالعامّة». و قال جعفر بن محمد - عليه السلام - : «و ذلك أنّه يدلّ _____

١. الحرّ العاملي: الوسائل ١١ / ٤٠٣، الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف ١.

٢. الطبري: التاريخ ٤ / ٣٠٤ . (٤٢٨)

بعمله دين الله و يقتدى به اهل عداوة الله» (١). و فيما ذكرنا من الروايات كفاية. أمّا السيرة فحدّث عنها ولا حرج، ففي ثورة الإمام الطاهر الحسين سيّد الشهداء، و ثورة أهل المدينة على زيد الطاغية، و ثورة أهل البيت في فترات خاصّة، كفاية لطالب الحق و كلّها تؤيّد نظرية لزوم الخروج على الحاكم الجائر بشروط خاصّة مبيّنة في الفقه. و نكتفي في المقام بما ذكره صاحب المنار قال: «و من المسائل المجمع عليها قولاً و اعتقاداً: «إنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، و إنّما الطاعة في المعروف»، و إنّ الخروج على الحاكم المسلم إذا ارتدّ عن الإسلام واجب، و إنّ اباحة المجمع على تحريمه كالزنا و السكر و استباحة ابطال الحدود و شرع مالم يأذن به الله،

كفر وردة، وأنه إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطله، وجب على كل مسلم نصر الأولى ما استطاع، وأنه إذا بغت طائفة من المسلمين على أخرى، وجردت عليها السيف، وتعدت الصلح بينهما، فالواجب على المسلمين قتال الباغية المعتدية حتى تفيء إلى أمر الله. وما ورد في الصبر على أثمة الجور إلا- إذا كفروا، معارض بنصوص أخرى، والمراد به اتقاء الفتنة وتفريق الكلمة المجتمعة، وأقواها حديث: «و أن لاتنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا». قال النووي: المراد بالكفر هنا المعصية. ومثله كثير. و ظاهر الحديث أن منازعة الامام الحق في إمامته نزعها منه لا يجب إلا إذا كفر كفراً ظاهراً وكذا عماله وولاته. و أما الظلم و المعاصي فيجب إرجاعه عنها مع بقاء امامته و طاعته في _____

١. الحز العاملي: الوسائل ١١ / ٤٠٧، الباب ٤ من أبواب الأمر و النهي و... الحديث ١. (٤٢٩)

المعروف دون المنكر، وإلا خلع و نصب غيره. و من هذا الباب خروج الحسين سبط رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - على امام الجور و البغي، المذى ولي أمر المسلمين بالقوة والمكر: يزيد بن معاوية خذله الله، وخذل من انتصر له من الكرامية و النواصب الذين لا يزالون يستحبون عبادة الملوك و الظالمين، على مجاهدتهم لإقامة العدل و الدين. وقد صار رأى الأمم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدين المفسدين. وقد خرجت الأمة العثمانية على سلطانها عبد الحميد خان فسلبت السلطة منه و خلعتة بفتوى من شيخ الإسلام» (١). * * *

١. السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٦ / ٣٦٧، وياليت صاحب المنار (ت ١٣٥٤) يمشى على هذا الخط إلى آخر عمره والقصة ذو شجون، و من أراد التفصيل فليرجع إلى المناظرات التي دارت بينه و بين السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١) فقد أمارت الستر عن حياته و تلونه فيها، ولاحظ أيضاً كشف الارتياح ٦٤ - ٧٧. (٤٣٠) (٤٣١) ٤ - التقيّة قولاً و عملاً ذهب الأزارقة إلى حرمة التقيّة في القول و العمل، بينما ذهب النجديّة إلى جوازها (١) وربما تنسب حرمة التقيّة إلى جميع الخوارج وإن أكره المؤمن و خاف القتل (٢). يلاحظ عليه: أن التقيّة تنقسم حسب انقسام الأحكام إلى خمسة، فمنها واجب، و منها حرام، فإنها تجب لحفظ النفوس، و الأعراس، و الأموال الطائلة، كما إنها تحرم إذا ترتبت عليها مفسدة أعظم كهدم الدين و خفاء الحقيقة على الأجيال الآتية. قال الشيخ المفيد: التقيّة جائزة في الدين عند الخوف على النفس، و قد يجوز في حال دون حال للخوف على المال، و لضروب من الاستصلاح. _____

١. لاحظ فصل عقائد الخوارج و آرائهم.

٢. الامام عبده: المنار ٣ / ٢٨٠، بقلم تلميذه السيد محمد رشيد رضا، و ما ذكره إنما هو مذهب الأزارقة لا النجديّة و ستعرف أن التقيّة من تعاليم الاباضية و كانت هي السبب في بقائهم. (٤٣٢) و أقول: إنها قد تجب أحياناً و يكون فرضاً، و تجوز أحياناً من غير وجوب، و تكون في وقت أفضل من تركها، و يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذوراً و معفوياً عنه، متفضلاً عليه بترك اللوم عليها. و أقول: إنها جائزة في الأقوال كلها عند الضرورة، و ربما وجبت فيها لضرب من اللطف و الاستصلاح و ليس يجوز من الأفعال في قتل المؤمنين ولا فيما يُعلم أو يُغلب أنه استفساد في الدين، و هذا مذهب يخرج عن أصول أهل العدل و أهل الامامة خاصة دون المعتزلة و الزيدية و الخوارج و العامة المتسمية بأصحاب الحديث (١). و يكفي في جواز ذلك: ١ - قوله سبحانه: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (٢). فقوله: (إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا) استثناء من أهم الأحوال، أي أن ترك موالات الكافرين حتم على المؤمنين في كل حال، إلا في حال الخوف من شيء يتقونه منهم، فلمؤمنين حينئذ أن يوالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشيء لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. والاستثناء منقطع، فإن التقرب من الغير خوفاً، بإظهار آثار التوكل، ظاهراً من غير عقد القلب على الحب و الولاية، ليس من التوكل في شيء، لأن الخوف

١. الشيخ المفيد: أوئل المقالات ٩٦ - ٩٧. قوله «و العامة المتسمية بأصحاب الحديث» يعرب عن أن غير المعتزلة من أهل السنة كانوا معروفين في عصر الشيخ (٣٢٦ - ٤١٣) بأصحاب الحديث، و أما تسمية طائفة منهم بالأشاعرة فإنما حدث بعد ذلك العصر.

٢. آل عمران: ٢٨. (٤٣٣)

والحب أمران قليبان و متنافيان أثراً في القلب، فكيف يمكن اجتماعهما، فاستثناء الأتقاء استثناء منقطع. ٢- قوله سبحانه: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ * وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (١) فترى أنه سبحانه يجوز إظهار الكفر كرهاً و مجاراة الكافرين خوفاً منهم، بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان. فلو كانت مداراة الكافرين في بعض الظروف حراماً، فلماذا رخصه الإسلام و أباحه، وقد اتفق المفسرون على أن الآية نزلت في جماعة أكرهوا على الكفر، و هم عمار و أبوه «ياسر» و أمه «سمية»، و قتل أبو عمار و أمه، و أعطاهم عمار بلسانه، ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله، فقال قوم: كفر عمار، فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «كلا، إن عماراً ملئى إيماناً من قرنه إلى قدمه، و اختلط الإيمان بلحمه و دمه». وجاء عمار إلى رسول الله و هو يبكي، فقال: «ما وراءك؟» فقال: «سر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، و ذكرت آلهتم بخير». فجعل رسول الله يمسح عينيه و يقول: «إن عادوا فعدلهم بما قلت» فنزلت الآية (٢). و بذلك يظهر، أن تحريم التقيّة على وجه الإطلاق اجتهاد في مقابل النص، فإن الآية تصرّح بأن من نطق بكلمة الكفر مكرهاً و قاية لنفسه من الهلاك، لا شارحاً بالكفر صدرأ، ولا مستحسناً للحياة الدنيا على الآخرة، لا يكون كافراً، بل يعذر. ٣- (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا

١. النحل: ١٠٦.

٢. الطبرسي: مجمع البيان ٣ / ٣٨٨ و نقله غير واحد من المفسرين. (٤٣٤) يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (١) و يقول أيضاً: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَشْعُرُ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) (٢). نعم لوجوب التقيّة أو جوازها شروط و أحكام ذكرها العلماء في كتبهم الفقهية و لأجل ذلك حرّموا التقيّة في موارد، كقتل المؤمن تقيّة، أو ارتكاب محرّم يوجب الفساد الكثير، و لأجل ذلك نرى أن كثيراً من عظماء الشيعة و أكابرهم رفضوا التقيّة في بعض الأحيان و تهيأ وللشوق على حبال الجور، و الصلب على أخشاب الظلم. و كل من استعمل التقيّة أو رفضها، له الحسنى، و كل عمل بوظيفته التي عينتها ظروفه. إن التاريخ يحكى لنا عن الكثير من رجال الشيعة الذين تركوا التقيّة و قدّموا نفوسهم المقدّسة قرايين للحق، و منهم شهداء «مرج العذراء» و قائدهم الصحابي العظيم الذي أنهكته العبادة و الورع، حجر بن عدى الكندي، الذي كان من قادة الجيوش الاسلامية الفاتحة للشام. و منهم ميثم التمار، و رشيد الهجري، و عبد الله بن يقطر الذين شققتهم ابن زياد في كناسة الكوفة، هؤلاء و المئات من أمثالهم هانت عليهم نفوسهم العزيزة في سبيل الحق، و نطحوا صخرة الباطل، بل وجدوا العمل بالتقيّة حراماً، لو سكتوا و عملوا بها و أصبح دين الإسلام دين معاوية و يزيد و زياد و ابن زياد، دين المكر، و دين الغدر، و دين النفاق، و دين الخداع، دين كل رذيلة، و أين هو من دين الإسلام الحق، الذي هو دين كل فضيلة، أولئك هم أصحاب الإسلام و قرايين الحق.

١. غافر: ٢٨.

٢. القصص: ٢٠. (٤٣٥) و فوق أولئك، امام الشيعة، أبو الشهداء الحسين و أصحابه الذين هم سادة الشهداء و قادة أهل الإباء. و بذلك ظهر أن إيجاب التقيّة على الإطلاق و تحريمها كذلك، بين الإفراط و التفريط. و القول الفصل هو تقسيم التقيّة إلى الواجب و الحرام، أو إلى الجائر - بالمعنى الأعم - و الحرام. و بما أن الشيعة اشتهرت بالتقيّة بين سائر الفرق، و ربّما تُزرى بها و تُتهم بالنفاق فقد أشبعنا الكلام فيها، و بينا، الفرق بين التقيّة و النفاق في أبحاثنا الكلامية (١). و هناك كلمة للعلامة المحقق السيد الشهرستاني نأتى بها هنا: قال: المراد من التقيّة إخفاء امر ديني لخوف الضرر من إظهاره، و التقيّة بهذا المعنى، شعار كل ضعيف مسلوب الحرية، إلا أن الشيعة قد اشتهرت بالتقيّة أكثر من غيرها، لأنها منيت باستمرار الضغط عليها أكثر من أي أمة أخرى، فكانت مسلوبه الحرية في عهد الدولة الأموية كلّها، و في عهد العباسيين على طوله و في أكثر أيام الدولة العثمانية و لأجله استشعروا شعار التقيّة أكثر من أي قوم، ولما

كانت الشيعة تختلف عن الطوائف المخالفة لها في قسم مهم من الاعتقادات في أصول الدين، وفي كثير من المسائل الفقهية، و تستجلب المخالفة (بالطبع) رقابة و حزاة في النفوس، و قد يجز إلى اضطهاد أقوى الحزبين لأضعفه، أو اخراج الأعزّ منهما الأذلّ كما يتلوه علينا التاريخ و تصدّقه التجارب، لذلك أضحت شيعة الأئمة من آل البيت تضطرّ في أكثر الأحيان إلى الكتمان لصيانة النفس و النفيس، و المحافظة على الوداد و الأخوة مع سائر اخوانهم المسلمين،

١. لاحظ الإلهيات ٢ / ٩٢٥ - ٩٣٣ بقلم حسن محمد مكي العاملي . (٤٣٦)

لثلاً تنشق عصا الطاعة، و لكيلا يحسّ الكفار بوجود اختلاف ما في الجامعة الاسلامية فيوسّعوا الخلاف بين الأمة المحمّدية (١). * * *

١. محمّد علي الشهرستاني (ت ١٣٨٦): تعاليق أوائل المقالات ٩٦ نقلاً عن مجلّة المرشد ٢٥٢ - ٢٥٦ . (٤٣٧) ٥ - ما تجب معرفته بالتفصيل إنّ هذه المسألة تفتقر عن المسألة الثانية أعني تحديد حقيقة الإيمان و أنّ العمل هل هو مقوم لأقلّ مراتب الإيمان أو لا (وجه الفرق)؟ إنّ روح البحث في المقام عن تحديد ما تجب معرفته في مجالى العقيدة و الشريعة، بخلاف المسألة السابقة فإنّ موضوعه تحديد مفهوم الإيمان و أنّه هل هو مقوم بالعقيدة فقط، أو مرّكب منها و من العمل؟ فالمسألان مختلفتان جوهرًا فنقول: الإسلام عقيدة و شريعة، و المطلوب من الأولى، المعرفة ثم الالتزام القلبي، كما أنّ المطلوب من الثانية المعرفة ثم الالتزام العملي، و هذا ممّا لم يختلف فيه اثنان، إلاّ أنّه وقع الاختلاف في تحديد المقدار الذي تجب معرفته تفصيلاً مقدّمه للالتزام القلبي، كما وقع الخلاف في المقدار الأدنى الذي تجب معرفته تفصيلاً مقدّمه للالتزام العملي، و نحن نبحت عن كلا الأمرين. (٤٣٨) الأمر الأول: ما تجب معرفته في مجال العقيدة: الذي يظهر من الطائفة البيهسية من الخوارج، لزوم معرفة جميع العقائد الاسلامية تفصيلاً و أنّه لولا هذه المعرفة لما دخل الانسان في عداد المسلمين، قالوا: لا يسلم أحد حتى يُقر بمعرفة الله، و بمعرفة رسوله - صلّى الله عليه وآله وسلم - و بمعرفة ما جاء به محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلم - جملة، و الولاية لأولياء الله سبحانه، و البراءة من أعداء الله - جلّ و علا - و ما حرّم الله سبحانه ممّا جاء فيه الوعيد فلا يسع الانسان إلاّ علمه و معرفته بعينه و تفصيله (١). و يظهر هذا القول من بعض علمائنا الامامية. قال العلامة الحلّي: أجمع العلماء على وجوب معرفة الله و صفاته الثبوتية و ما يصحّ عليه و ما يمتنع عنه و النبوة و الامامة و المعاد بالدليل لا بالتقليد (٢). و في الوقت نفسه هناك من قال منهم بكفاية الاقرار (الا المعرفة) بما جاء من عند الله جملة (٣). و يظهر هذا القول من الاباضية، قال محمّد بن سعد الكدومي - وهو من علماء الاباضية في القرن الرابع - : «اعلموا أنّ الجملة التي دعا إليها محمّد - صلّى الله عليه وآله وسلم - وكذلك من دعا إلى دين الله بعد موت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ، ممّا لا يسع الناس جهله، و هو الاقرار بالله، أنّه واحد، و أنّه ليس كمثل شىء، و إنّ محمّداً عبده و رسوله، و إنّ جميع ما جاء

١. يراجع الفصل التاسع: الفرقة الثالثة: البيهسية.

٢. العلامة الحلّي: الباب الحادى عشر ٢.

٣. لاحظ عقائد الفرقة البيهسية المنسوبة لأبى بيهس في هذا الفصل و يحتمل أن يكون المراد من «جملة» هو الاعتقاد الاجمالي بما جاء به الرسول فلا يدل على لزوم المعرفة التفصيلية و لكن يخالفه ذيله الصريح في لزومها. (٤٣٩)

به محمّد عن الله فهو الحق، فهذا الذي لا يسع جهله في حال من الاحوال (١). و أضاف البعض الآخر من الاباضية تبعاً لأهل الحديث ثم الأشاعرة، الإيمان بالقدر خيره و شرّه (فيجب معرفتهما) قال ابن سلام: الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و البعث و اليوم الآخر و الموت و القدر خيره و شرّه من الله عزّ و جلّ (٢). و لأجل وجود التطرّف في القول الأوّل قال شيخنا المرتضى الأنصارى عند البحث عن حجّية الظن في أصول الدين: «لقد ذكر العلامة (قدس سره) في الباب الحادى عشر في ما يجب معرفته على كلّ مكلف من تفاصيل التوحيد و النبوة و الامامة و المعاد أموراً لا دليل على وجوبها مطلقاً، مدعيّاً أنّ الجاهل بها عن نظر و استدلال خارج عن رتبة الإسلام مستحقّ للعقاب الدائم و هو في غاية الاشكال» (٣). و لأجل تحقيق الحال نبحت عن الموضوع على وجه الايجاز فنقول: إنّ

المسائل الأصولية التي لا يطلب فيها أولاً وبالذات إلا الاعتقاد، على قسمين: الأول: ما وجب على المكلف الاعتقاد والتدين به غير مشروط بحصول العلم، فيكون تحصيل العلم من مقدمات ذلك الواجب المطلق فيجب تحصيل مقدماته (المعرفة). الثاني: ما يجب الاعتقاد والالتزام إذا اتفق حصول العلم به، وهذا كبعض تفاصيل المعارف الاسلامية الراجعة إلى المبدأ والمعاد. أما القسم الأول: أعني ما يجب الاعتقاد به مطلقاً ولأجل كون وجوبه غير

١. أبو سعيد الكدومي: المعبر ١ / ١٤٥ من منشورات وزارة التراث القومي والثقافة لسلطنة عمان.

٢. ابن سلام (ت ٢٧٣): بدء الإسلام و شرائع الدين ٦٠.

٣. مرتضى الأنصاري: الرسائل ١٧٠. (٤٤٠)

مشروط بشيء يجب تحصيل مقدماته. فهذا لا يتجاوز عن الاعتقاد بالشهادتين: بشهادة أن لا إله إلا الله و شهادة أن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهذه الشهادة تتضمن الاعتقاد الاجمالي بصحة كل ما جاء به النبي في مجال العقيدة. والدليل على كفاية ذلك مايلي: إن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يقبل إسلام من أقر بالشهادتين لفظاً حاكياً عن الاعتقاد به، وهذا يدل على أنه يكفي في دخول الانسان في عداد المسلمين، الاقرار بهما و لا تجب معرفة تفاصيل المعارف والعقائد. قال أبو جعفر الباقر - عليه السلام -: إن الله عزوجل بعث محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - و هو بمكة عشر سنين (١) ولم يمت بمكة في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا أدخله الله الجنة باقراره و هو إيمان التصديق (٢). فهذا الاستدلال يعطى أن حقيقة الإيمان التي يخرج الانسان بها عن حد الكفر، الموجب للخلود في النار، لم تتغير بعد إنتشار الشريعة، و بعد هجرة النبي إلى المدينة المنورة. نعم ظهرت في الشريعة أمور صارت ضرورية الثبوت من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيعتبر في تحقق الإسلام عدم انكارها (لا لزوم التصديق بها تفصيلاً) و لكن هذا لا يوجب التغير في ما يقوم الإيمان به، فإن المقصود أنه لا يعتبر في الإيمان أزيد من التوحيد و التصديق

١. يريد الدعوة العلنية فإنها كانت عشر سنين و كانت في السنين الثلاثة الأولى سرية.

٢. الكليني: الكافي ٢ / ٢٩ برقم ١٥١٠. (٤٤١)

بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - و أنه كان رسولاً صادقاً فيها يبلغ، و لا تلزم معرفة تفاصيل ذلك و إلا لزم أحد الأمرين: ١ - أن لا يكون من آمن بمكة من أهل الجنة لعدم إيمانهم. ٢ - أن تكون حقيقة الإيمان بعد انتشار الشريعة تختلف عن صدر الإسلام و كلا الأمرين كما ترى. نعم لما كان الاعتقاد بالمعاد و الحياة الآخرة بمثل البنية التحتية للدعوة الاسلامية بل لجميع الشرائع السماوية على وجه لا تتصف الدعوة بالالهيّة بدون الاعتقاد بها. لا بد من الاعتقاد بها في إطار الشهادتين فإنه ينطوي في طياتهما يوم بعث النبي الأكرم بالهداية. و يؤيد ما ذكرنا ما رواه البخاري في ذلك المجال وإليك نصه: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم خبير: لأعطين غداً هذه الراية رجلاً يحب الله و رسوله يفتح الله على يديه. قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الامارة إلا يومئذ، قال: فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على بن أبي طالب فأعطاه إياها و قال: امش و لا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار على شيئاً ثم وقف و لم يلتفت و صرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال - صلى الله عليه وآله وسلم -: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم و أموالهم إلا بحقها، و حسابهم على الله (١). فإذا كان الاقرار بالشهادتين كافياً في توصيف المقر مسلماً و مؤمناً، فيدل

١. مسلم: الصحيح ٧ / ١٢١، ابن عساكر: ترجمة الإمام على ١ / ١٥٩ ح ٢٢٢، النسائي: خصائص أمير المؤمنين ٥٧. (٤٤٢)

بالملازمة على عدم لزوم معرفة ما سواهما. و يوضح ذلك أيضاً ما رواه الامام الرضا - عليه السلام - عن آبائه عن علي - عليه السلام -: قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ن فإذا قالوها فقد حرم عليّ دماءهم و أموالهم (١). و روى أبو هريرة: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا

الآ- الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا- بحقها وحسابهم على الله (٢). والاستدلال بالروايتين حسب مامر في غيرهما من الدلالة الالتزامية على عدم لزوم معرفة غيرهما. وأما معرفة ما عدا ذلك من المعارف فلم يدل دليل على وجوب معرفتها بل الأصل المحكم عدم الوجوب إلا ما دلّ الدليل الثانوي على وجوبه (٣). هذا كله في المعارف التي تجب معرفتها بلا قيد، ولأجل ذلك يجب تحصيل معرفتها. أما القسم الثاني: أعني ما يجب الاعتقاد به لو وصل العلم به، فهذا كمعرفة صفات الربّ وأوصافه والمعرفة التفصيلية للمعاد والحياة الآخروية، كلّ ذلك يجب الاعتقاد به إذا حصل العلم والمعرفة ولكن لا- يكون ذلك دليلاً على اعتباره في الإسلام أو الإيمان بأدنى مراتبه. _____

١. المجلسي: البحار ٦٨ / ٢٤٢.

٢. المجلسي: البحار ٦٨ / ٢٤٢ نقله عن مشكاة المصابيح في التعليقة.

٣. كمعرفة الامام التي دلت الأدلة على وجوب معرفته. نعم إن ما رواه البخاري: الصحيح: ١ / ١٤ كتاب الإيمان عن النبي الأكرم من بناء الإسلام على خمس وأضاف بعد الشهادتين: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج، وصوم شهر رمضان، فهو خارج عن موضوع البحث و داخل في البحث الآتي: «ما يجب تعلمه في مجال الشريعة». (٤٤٣) ما يجب تعلمه في مجال الشريعة: هذا كله في مجال العقيدة و أما مجال الشريعة فتجب معرفة ما يتلى به المكلف في حياته من الأحكام الفرعية. فالحق، التفصيل بين ما تعم البلوى بها و غيره، أما الأول فتجب معرفة أحكامه فلا يجوز للمكلف الدخول في العمل مع الظن بالابتلاء بما لا يعلم حكمه كأحكام الخلل، الشائع وقوعه في الصلاة. و أمّا الثاني أعني ما لا يتفق الابتلاء به إلا نادراً فلا يجب تعلم حكمه قبل الابتلاء للوثوق بعدم الابتلاء به غالباً و على ذلك جرت السيرة بين المسلمين مضافاً إلى أنّ إيجاب معرفة جميع الأحكام تفصيلاً ممّا يوجب العسر والجرح و يوجد الفوضى في الحياة. و هذا هو الظاهر أيضاً من بعض علماء الإباضية: قال: إذا لزمه شيء من ذلك ممّا يفوت مثل الصلاة، و الصوم، أو ممّا يفوت وقته من جميع الفرائض اللازمة له، ممّا يفوت وقته و يبطل و حضر وقته و وجب العمل به، فمعنى أنّه قيل إنّ عليه طلب العلم، من جميع ما جهل من ذلك (١). فما ورد في الشريعة الإسلامية من الحق الأكيد على تحصيل العلم كآية أهل الذكر (النحل: ٤٦). و الأخبار الدالة على وجوب طلب العلم و التفقه كلها منصرفه إلى الموارد المبتلى بها، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى محلّه (٢). * * *

١. أبو سعيد الكدومي: المعتبر ١ / ٧٠.

٢. لاحظ الرسائل للشيخ مرتضى الأنصاري ٤٠٠ آخر مبحث الاشتغال. (٤٤٤) (٤٤٥) ٦ - حكم الدار وصف الدار بكونها دار اسلام أو إيمان، أو دار كفر، هو من جهة لحوق بعض الأحكام الشرعية بالمقيمين فيها، مثل جواز المناكحة و التوارث إذ لم يعرف حاله، و الصلاة خلفه أو عليه إذا مات، و الدفن في مقابر المسلمين، و موالاته و معاداته، إلى غير ذلك من الأحكام، و قد اختلفت الآراء في الأمر الذي يصير سبباً لوصف الدار بكونها دار إسلام أو كفر. منهم من اعتبر الكثرة، فإذا كان الأكثر من أهل الدار على دين الإسلام فهي دار إسلام و إلا فدار كفر. و منهم من اعتبر مع الكثرة، الغلبة أيضاً، بأن يكون غالبين قاهرين على الأمور. و منهم من اعتبر زوال التقيّة، فمتى لم يكن أهل الدار في تقيّة من السلطان في اظهار شعائر الدين فهي دار إسلام. و منهم (كثير من الزيدية و المعتزلة) ذهب إلى أنّ المناط في ذلك، بما (٤٤٦)

يظهر في الدار و يوجد المقيم بها من الحال، فإذا كانت الدار بحيث يظهر فيها الشهادتان ظهوراً، لا يمكن المقام فيها إلا بإظهارهما أو الكون في ذمّة و جوار من مظهرهما، ولا يتمكّن المقيم من اظهار خصلة من خصال الكفر فهي دار إسلام، و إن لم تكن الدار بهذا الوصف الذي ذكرناه فهي دار كفر. ولا اعتبار عندهم مع ذلك بما يكون عليه أهلها من المذاهب المختلفة بعد تحقّق ما ذكرناه (١). و قال شيخنا المفيد: إنّ الحكم في الدار على الأغلب فيها، و كلّ موضع غلب فيه الكفر فهو دار كفر، و كلّ موضع غلب فيه الإيمان فهو دار إيمان، و كلّ موضع غلب فيه الإسلام فهو دار إسلام، قال الله تعالى في وصف الجنة: (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) (٢) و إن كان فيها أطفال

و مجانيين (٣). وقال في وصف النار: (سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ) (٤) و إن كان فيها ملائكة الله مطيعون. فحكم على كلتا الدارين حكم الأغلب فيها (٥). هذه هي الأقوال الدارجة في حكم الدار، و المعروف عن الخوارج رأيان: ١ - كل بلد ظهر فيه الحكم بغير ما أنزل الله فهو دار كفر. ٢ - إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعية، الغائب منهم و الشاهد (٦). و في الرأي الثاني تطرف واضح، إذ كيف يكون كفر الإمام سبباً لكفر الرعية، أما سمعوا قول الله سبحانه: (الَّذِينَ تَزَوَّجُوا زَوَاجَهُمْ وَ زَرَّهُمْ فَزَوَّجَهُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ وَ كَانُوا يُقْرَبُونَ) (٧). و كان يقول _____

١. العلامة الزنجاني: التعليقه على أوائل المقالات ٧٠.

٢. النحل: ٣٠.

٣. فيه و ما بعده تأمل واضح.

٤. الأعراف: ١٤٥.

٥. المفيد: أوائل المقالات ٧٠ - ٧١.

٦. لاحظ ما ذكرناه في حق البيهسيه.

٧. النجم: ٣٨. (٤٤٧)

على - عليه السلام - في هذا الشأن مخاطباً الخوارج: فإن أبيتتم إلا أن تزعموا أنني أخطأت، وضللت، فلم تُضللون عامّة أمّه محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بضلالتي و تأخذونهم بخطئي، و تكفرونهم بذنوبي (١). * * * _____

١. الرضى: نهج البلاغه، الخطبة ١٢٧. (٤٤٩) ٧ - في حكم الزاني المحصن قد عرفت أن الأزارقة لاتقول برجم الزاني إذا كان محصناً بحجة أنه ليس في ظاهر القرآن، و لا - في السنة المتواترة، و لكن المسألة من المسائل الفقهية، و اتفق الفقهاء، على رجم الزاني المحصن بلا فرق بين الرجل و المرأة، و إنما اختلفوا من جهة أخرى. ١ - قال داود و أهل الظاهر عليهما الجلد و الرجم من غير فرق بين الشاب و الشيخ، و الشابة و الشيخة، و هو احدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، كما في «المغني» لابن قدامة. ٢ - قالت الإمامية - بالتفصيل و هو أنه - إذا كان المحصن شيخاً أو شيخه فعليهما الجلد و الرجم، و إن كانا شابين فعليهما الرجم بلا جلد. ٣ - قال فقهاء أهل السنة: ليس عليهما إلا الرجم دون الجلد، و به قال بعض الامامية (١). _____

١. الشيخ الطوسي: الخلاف ج ٣، كتاب الحدود، المسألة ١ و ٢، ابن قدامة: المغني ٩ / ٥ كتاب الحدود. (٤٥٠) ولسنا بصدد تحقيق المسألة من حيث السعة و الضيق و إنما نبحت عن ثبوت الرجم في الإسلام على وجه الاجمال، و ذلك لثبوته بفعل النبي و الخلفاء و الصحابة، أما النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد زنى ما عزر فرجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، و رجم العامرية، كما رجم يهوديين زنيا (١)، و روى عن عمر، أنه قال: «إن الله بعث محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - بالحق و أنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأتها و عقلتها و وعيتها، و رجم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - و رجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، فالرجم حق على من زنى إذا أحسن من الرجال و النساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف و قد قرأ بها» الشيخ و الشيخة إذا زنيا فأرجموهما البتة نكالا من الله و الله عزيز حكيم» (٢). نحن لا نوافق الخليفة على كون آية الرجم من كتاب الله العزيز، فكيف يمكن لنا أن نعدّ كلاماً تعلق عليه الصناعات البشرية - و قد سرق جزءاً من الذكر الحكيم الوارد في حد السرقة و ركب مع كلامه فعاد كلاماً مغسولاً عن الفصاحة - من كلام الله العزيز، لكننا نوافق الخليفة على ثبوت الرجم في الإسلام، هذا هو الامام على بن أبي طالب جلد سراجة يوم الخميس و رجمها يوم الجمعة و قال: جلدها بكتاب الله، و رجمتها بسنة رسول الله. و أما قوله سبحانه: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) (٣).

١. لاحظ تفسير قوله سبحانه: (وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ) - المائدة: ٤٣ - .

٢. ابن قدامة: المغني ٩ / ٤.

٣. النور: ٢. (٤٥١)

فلا ينافى ثبوت الرجم مع الجلد في بعض الموارد، فإنه لا ينفى غير الجلد من سائر العقوبات، هذا إذا قلنا بثبوت الجلد و الرجم مطلقاً على المحصن، و أما إذا خصصنا الجمع بالشيخ و الشيخة، و أخرجنا الشاب و الشابة، فتكون السنّة مخصّصاً لأيّة الجلد، فإنّ عموم القرآن يخصّص بالدليل القطعي، و ليس هذا نسخاً بل تخصيصاً و كم من فرق بين التخصيص و النسخ يقف عليه المعنيون بعلم الأصول. و أما الخوارج فقالوا بالجلد دون الرجم و احتجوا بالوجهين التاليين: ١ - قوله سبحانه: (الرَّائِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً) قالوا: لا يجوز ترك كتاب الله الثابت بطريق القطع و اليقين لأخبار آحاد يجوز الكذب فيها. ٢ - إن هذا يفضى إلى نسخ الكتاب و السنّة و هو غير جائز (١). يلاحظ على كلا الوجهين: أما الأوّل: فلأنّ القول بالرجم مضافاً إلى الجلد لا يستلزم ترك كتاب الله، لأنّ إثبات الشىء أى الجلد لا يكون دليلاً على نفي غيره، فأى مانع من أن تكون العقوبة في مطلق الزنا هى الجلد، و فى خصوص المحصن، الجلد مع الرجم؟ هذا إذا قلنا بجلد المحصن مطلقاً، و أما إذا خصصنا الجمع بالشيخ و الشيخة، و قلنا بكفاية الرجم فى غير الشاب و الشابة، فأقصى ما يلزم تخصيص الكتاب بالسنّة القطعية و هو ليس بأمر شاذ، كيف لا يكون كذلك و قد اشتهر «و ما من عام إلا و قد خصّ». أما الثانى: فلأنّه خلط بين نسخ حكم الكتاب و تخصيصه، و الفرق بينهما واضح لا يخفى. —————

١. ابن قدامة: المغنى ٩ / ٤. (٤٥٢) هذا وقد نقل ابن قدامة: أن رسل الخوارج جاءوا عمر بن عبد العزيز فكان من جملة ما عابوا عليه الرجم و قالوا: ليس فى كتاب الله إلا الجلد، و قالوا: الحائض أو جئتم عليها قضاء الصوم دون الصلاة، و الصلاة أو كد. فقال لهم عمر: و أنتم لا تأخذون إلا بما فى كتاب الله؟ قالوا: نعم، قال: فأخبروني عن عدد الصلوات المفروضات و عدد أركانها، و ركعاتها، و مواقيتها، أين تجدونه فى كتاب الله تعالى؟ و أخبروني عمّا تجب الزكاة فيه و مقاديرها و نُصَبُها؟ فقالوا: انظرنا، فرجعوا يومهم ذلك فلم يجدوا شيئاً ممّا سألهم عنه فى القرآن، فقالوا: لم نجده فى القرآن. قال: فكيف ذهبتم إليه؟ قالوا: لأنّ النبى - صلّى الله عليه وآله وسلم - فعله، و فعله المسلمون بعده، فقال لهم: فكذلك الرجم و قضاء الصوم فإنّ النبى - صلّى الله عليه وآله وسلم - رجم و رجم خلفاؤه بعده و المسلمون، و أمر النبى - صلّى الله عليه وآله وسلم - بقضاء الصوم دون الصلاة، و فعل ذلك نساؤه و نساء أصحابه (١). *

* * *

١. ابن قدامة: المغنى ٩ / ٥. (٤٥٣) خاتمة المطاف إلى هنا قد تعرّفت على عقائد الخوارج معتدليهم و متطرّفهم، غير أنّ هناك مسائل فقهية ثلاث نظرناها فى المقام: ١ - حكم أولاد المشركين. ٢ - حكم تزويج المشركات. ٣ - حكم تزويج الكافرة غير المشركة. و لعل القارئ الكريم يتعجّب من طرح هذه المسائل فى الموسوعة التاريخية للعقائد قائلًا بأنّ البحث عن مثل هذه الموضوعات من واجبات الفقيه لا مؤرّخ العقائد، ولكنّه يزول تعجبه إذا وقف على أنّ الخوارج المتطرّفين، يزعمون أنّ مخالفهم من المسلمين مشركون أو كافرون، لا رتكاب الكبيرة من المعاصى، و بما أنّ للمشرك و الكافر الواقعيين أحكاماً خاصّة فى الفقه الإسلامى من حيث صيانة الدماء و إراقتها و جواز تزويجهم و حرمة، فهؤلاء كانوا يرتّبون على المسلمين و أولادهم، أحكام المشركين و الكافرين و أولادهم، فيبيحون (٤٥٤)

قتل أولاد المخالفين، و يحرمون مناكحتهم بحجّة أنّهم مشركون، فناسب البحث عن هذه الأحكام الكلية مع غضّ النظر عن عدم الموضوع فى المقام لأنّ أهل القبلة و القرآن كلّهم موحدون لا مشركون، مؤمنون لا كافرون، إلاّ من قام الدليل على شركه و كفره كالغلاة و النواصب. و بما أنّ الأزارقة و أمثالهم أخطأوا فى حكم المسألة حتى فى موارد الواقعية فجزوا قتل أولاد المشركين و حرّموا انكاح الكافر غير المشرك، فلأجل إيقاف القارئ على مظان خطأهم فى هذه المسائل نوالى البحث فيها واحدة بعد أخرى و نقول: ١ - أولاد المشركين: إنّ الأصل الرصين فى الدماء هو الحرمة، و لزوم صيانتها من الأراقه، فالإنسان - على وجه الإطلاق - هو خليفة الله فى أرضه يحرم دمه و عرضه و ماله للغير، فلا يجوز التعدى على شىء منها إلاّ بدليل، و لأجل ذلك يقول سبحانه حاكياً عن نبى موسى: (أَقْتَلَمْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) (١) و قال سبحانه: (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَسِرِينَ (٢) وقال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) (٣) وقال سبحانه: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (٤) وقال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) (٥) و: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

١. الكهف: ٧٤.

٢. المائدة: ٣٠.

٣. الأنعام: ١٤٠.

٤. الأنعام: ١٥١.

٥. الأنعام: ١٥١. (٤٥٥) النَّاسَ جَمِيعًا (١)، إلى غير ذلك من الآيات الناصية على أن الأصل القويم والمرجع، في الدماء هو الحرمه، فلا يجوز قتل الانسان على الاطلاق إلا- بمسوغ شرعى ورد النص بجواز قتله في الذكر الحكيم والسنة النبوية. وعلى ضوء ذلك فالاسلام حرم دم المسلم، و دم الذمى، و الكافر المهادن، و من يمت إليهم بصله، فإن أولادهم و إن كانوا غير محكومين بشيء من التكاليف إلا أن الولد يتبع الوالدين في الأحكام، و هذا مما لا يختلف فيه اثنان من الفقهاء. وأما الكافر الحربى فهو مهدور الدم لا دم أطفاله و ذراريه، إلا في مواضع خاصه. قال ابن قدامة: إن من أسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب: النساء و الصبيان، فلا يجوز قتلهم و يصيرون رقيقاً للمسلمين بنفس السبى، لأن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - نهى عن قتل النساء، والولدان، (متفق عليه) و كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يسترقهم إذا سباهم (٢). هذا فقيه أهل السنة، و أما الشيعة، فقال الشيخ الطوسى: الآدميون على ثلاثة أضرب: نساء و ذرية و مشكل و بالغ غير مشكل، فأما النساء و الذرية فإنهم يصيرون مماليك بنفس السبى (٣). و قال المحقق الحلى: الطرف الرابع فى الأسارى و هم ذكور و اناث، فالاناث يملكن بالسبى و لو كانت الحرب قائمة، وكذا الذرارى (٤).

١. المائدة: ٣٢.

٢. ابن قدامة الحنبلى: المغنى ١٠ / ٤٠٠.

٣. الطوسى: المبسوط ٢ / ١٩.

٤. المحقق: شرائع الإسلام ١ / ٣١٧. (٤٥٦) إلى غير ذلك من الفتاوى المستفيضة من فقهاء الإسلام، وهم يتبعون فى ذلك، النصوص الواردة عن النبى و خلفائه. روى الكلينى عن معاوية بن عمار عن أبى عبد الله قال: كان رسول الله إذا أراد أن يبعث سرية، دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: سيروا بسم الله و بالله وفى سبيل الله و على ملة رسول الله، لا تغلوا، و لا تمثلوا و لا تغدروا، و لا تقتلوا شيخاً فانياً، و لا صبيّاً، و لا امرأة، و لا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها (١). وقد تضافت الروايات عن أئمة الشيعة فى ذلك. روى البيهقى بسنده عن ابن عمر: أجلي رسول الله بنى النضير، وأقر قريظة و ممن عليهم حتى حاربت قريظة بعد ذلك فقتل رجالهم، و قسم نساءهم، و أولادهم، و أموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحقوا برسول الله فآمنهم وأسلموا (٢). و روى أيضاً النافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن امرأة وجدت فى بعض مغازى رسول الله مقتولة، فانكر رسول الله قتل النساء والصبيان (٣). هذا هو حكم الإسلام فى صبيان الكفار و المشركين و نسائهم، فهلم معى ندرس فتوى الأزارقة فى نساء الكفار و أولادهم فقد استحل زعيمهم قتل الأطفال... قائلاً: إن نوحاً نبى الله كان أعلم بأحكام الله قال: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلْتَدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (٤) فسماهم بالكفار و هم أطفال، و قبل أن يولدوا، فكيف ذلك فى قوم

١. الحر العاملى: الوسائل ١١، الباب ١٥ من أبواب جهاد العدو، الحديث ٢.

٢. البيهقى: السنن ٦ / ٣٢٣، كتاب قسم الفى والغنيمه.

٣. المصدر نفسه: ٩ / ٧٧ كتاب السير.

٤. نوح: ٢٦ - ٢٧. (٤٥٧)

ولا في قومنا؟ والله تعالى يقول: (أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ) (١) وهؤلاء كمشركي العرب، لا يقبل منهم جزية و ليس بيننا و بينهم إلا السيف أو الإسلام (٢). عزب عن المسكين، أولاً: إن تسميتهم بالكفار ليس باعتبار أنهم في حال كونهم معدومين كفاراً فإن ذلك باطل بالاتفاق، إذ كيف يوصف الشيء المعدوم بوصف من الأوصاف الوجودية، بل المراد ان الأبناء بعد خروجهم إلى عالم الوجود سيصيرون كفاراً لنشوتهم في أحضان آبائهم الكافرين و أمهاتهم الكافرات، فللورثة و البيئه تأثيرهما في الأولاد، فلا يلدون في المستقبل إلا أناساً يصيرون كفاراً نظير توصيف الأشجار بالثمره في فصل الشتاء، والمراد: المثمره في فصل الثمر. و ثانياً: إن الذراري و النساء و إن كانت محكومات بالكفر و لكن علمت أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - حرم دماءهم و إنما سوغ سبيهم و استرقاقهم، فليس كل كافر يجوز قتله. فما ذكره من الاستدلال أوهن من بيت العنكبوت. و ثالثاً: إن كل ذلك في حق المشركين و الكفار الحقيقيين، فما معنى تسريه هذه الأحكام إلى أهل القبلة و المسلمين الذين يشهدون بتوحيده و رساله نبيه و يقيمون الصلاه و يعطون الزكاه و يصومون شهر رمضان و يحجون البيت. أفصح لنا تسميه هؤلاء كفاراً، بحججه ارتكابهم معصيه كبيره؟! _____

١. القمر: ٤٣.

٢. لاحظ رساله ابن الأزرق في جواب رساله نجاه بن عامر، وقد مرت في الفصل التاسع. (٤٥٨) ٢ - في نكاح المشركات: قد تعرّفت على أن الخوارج يعدّون مخالفهم مشركين و كافرين، فعلى قول الأزارقه جماهير المسلمين رجالاً و نساءً مشركون و مشركات، و على قول غيرهم فهم كفارون و كافرات، فحكم تزويج حرائرهم حكم تزويج الوثنيات و الكتابيات، ولأجل ذلك نذكر بعض كلماتهم ثم نعرض المسأله على الكتاب والسنة. كتب ابن الأزرق إلى عبد الله بن صفار و عبد الله بن اباص كتاباً جاء فيه: و قال تعالى (لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ) فقد حرم الله ولايتهم و المقام بين أظهرهم و اجازة شهادتهم و أكل ذبائحهم و قبول علم الدين عنهم و مناكحتهم و مواريتهم (١). و قد تقدّم في بيان عقائد الصفرية أنه نقل عن الضحاك الذي هو منهم أنه جوز تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار التقية دون دار العلانية. و يريد من المسلمات: الحرائر من الخوارج. و من «كفار قومهم»: رجال سائر الفرق الاسلاميه. و يظهر من الخلاف الذي حدث بين الابراهيميه و الميمونيه أنه يجوز بيع الجارية المؤمنه (الخارجيه) من الكفرة أى المسلمون من سائر الفرق. هذا ما وقفنا عليه من كلماتهم و نبحت عن المسأله بكتلي صورتها: الأولى - نكاح المشركه: اتفق علماء الإسلام على تحريم تزويج المشركات. قال ابن رشد: «و اتفقوا على أنه لا يجوز للمسلم أن ينكح الوثنيه لقوله تعالى: (وَلَا تُنكِحُوا

١. الطبري: التاريخ ٤ / ٤٣٨ - ٤٤٠. (٤٥٩) بِعَصَمِ الْكُوفِرِ (١) و اختلفوا في نكاحها بالملك» (٢). و قال الشيخ الطوسي في المبسوط: «الضرب الثاني، الذين لا كتاب لهم ولا شبهه كتاب، و هم عبده أو ثان فلا يحل نكاحهم و لا أكل ذبائحهم و لا يقرون على أديانهم ببذل الجزية و لا يعاملون بغير السيف أو الإسلام بلا خلاف» (٣). هذا كله حول المشركات، فلو صح كون جماهير المسلمات من الفرق الاسلاميه مشركات عند الأزارقه، لصح ما قال و لكنّه لم يصح - وإن صحّت الأحلام - لما عرفت أن للشرك حداً منطقياً في القرآن الكريم، و ابن الأزرق و أتباعه و إن كانوا قراء و لكنّه لم يتجاوز القرآن - حسب تنصيص النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - عن تراقيهم و لم يصل إلى دماغهم و مراكز أفعالهم، فكيف يصح تسميه من ارتكب الكبيره مشركاً و لو صحّ لما وجد في أديم الأرض مسلماً إلا إذا كان معصوماً. ٣ - نكاح الكافره غير المشركه: اختلف كلمه فقهاء الإسلام في نكاح الكافره غير المشركه و يراد منها الكتابيه لأنها كافره غير مشركه، قال ابن رشد: اتفقوا على أنه يجوز أن ينكح الكتابيه الحره (٤). هذا مالدي السنه و أما ما لدى الشيعة فالمشهور عدم الجواز دواماً. قال الشيخ الطوسي: عند المحصّلين من أصحابنا لا يحلّ أكل ذبائح أهل الكتاب

١. الممتحنه: ١٠، و الأولى أن يستدل بآيه صريحه أعنى قوله سبحانه: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ...) - البقره: ٢٢١ - .

٢. ابن رشد: بداية المجتهد ٢ / ٤٣.

٣. الطوسي: المبسوط ٤ / ٢١٠.

٤. ابن رشد: بداية المجتهد ٢ / ٤٣. (٤٦٠)

كاليهود والنصارى، ولا تزوج حرائرهم، بل يقرون على أديانهم إذا بذلوا الجزية، وفيه خلاف بين أصحابنا، وقال جميع الفقهاء (أهل السنة): يجوز أكل ذبائحهم ونكاح حرائرهم (١). وقال في الخلاف: المحصون من أصحابنا يقولون لا- يحل نكاح من خالف الإسلام، لا اليهود، ولا النصارى، وقال قوم من أصحاب الحديث من أصحابنا: يجوز ذلك، وأجاز جميع الفقهاء الترويج بالكتابات وهو المروى عن عمر و عثمان و طلحة و حذيفة، و جابر، و روى أن عمارة نكح نصرانية، و نكح حذيفة يهودية، و روى عن ابن عمر كراهة ذلك و إليه ذهب الشافعي (٢). قال ابن قدامة: ليس بين أهل العلم - بحمد الله - اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب، و ممن روى عنه ذلك، عمر و عثمان و طلحة و حذيفة و سلمان و جابر و غيرهم (٣). و على ضوء ذلك إن فقهاء أهل السنة ذهبوا إلى الجواز، وأمّا الشيعة فهم بين مانع و مجوز، و نحن نعرض المسألة على الكتاب. استدلال المانع بآيات: ١ - قال تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَا مَؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُكْفِرُكَ وَلَا تَكْفُرُكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا يُعْجِبُكُمْ أُولَئِكَ يُدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٤). _____

١. الطوسي: المبسوط ٤ / ٢١٠.

٢. الطوسي: الخلاف ٢ / ٢٨٢، المسألة ٨٤ من كتاب النكاح، و قد نسب إلى فقهاء الشيعة أقوال أخرى ذكرناها في محاضراتنا الفقهية في النكاح، لاحظ: الحلي، مختلف الشيعة: ٨٢.

٣. ابن قدامة: المغني ٥ / ٥٢.

٤. البقرة: ٢٢١. (٤٦١) ٢ - قال تعالى: (وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً - أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ فَمَنْ نَكَحَهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (١). استدلال بالآية على المنع بوجهين: أ - إن الآية تأمر من لم يجد ما يتزوج به الحرائر المؤمنات من المهر و النفقة، أن ينكح الإماء المؤمنات فإن مهور الإماء أقل و معونتتهن أخف عادة، فلو جاز نكاح الكافرة في هذه الحالة لزم جواز نكاح الأمة المؤمنة مع الحرّة الكافرة، و لم يقل به أحد، لأنه من قبيل الجمع بين الحرّة و الأمة. ب - إن التوصيف بالمؤمنات في قوله: (مَنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) يقتضى أن لا يجوز نكاح الفتيات الكافرات مع انتفاء الطول، و ليس إلا - لامتناع نكاحهنّ مطلقاً، للاجماع على انتفاء الخصوصية بهذا الوجه (٢). يلاحظ على الوجه الأول: أن أقصى ما يستفاد من الآية على القول بمفهوم الوصف أنه لا يجوز عند عدم الطول، نكاح الأمة الكافرة مع وجود الأمة المسلمة، و أمّا عدم جواز ترويج الحرّة الكافرة مع الطول أو عدمه، فلا تدلّ عليه الآية، لأن المفهوم ينفي الحكم عن الموضوع الفاقد للوصف لا عن موضوع آخر، و الموضوع للجواز هو ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات، فمقتضى المفهوم عدم جواز نكاح الأمة الكافرة في هذه الحال، و أمّا الحرّة الكافرة، فهو خارج عن موضوع البحث نفيّاً و اثباتاً. و يلاحظ على الوجه الثاني: أن التوصيف بالمؤمنات يقتضى أن لا يجوز نكاح الكافرة من الاماء مع انتفاء الطول و لكن لم يعلم أن وجه حرمتها هو امتناع _____

١. النساء: ٢٥.

٢. الشيخ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام ٣ / ٢٨. (٤٦٢)

نكاحها مطلقاً، سواء كانت أمه أم حرّة، و من أين يدعى الاجماع على انتفاء خصوصية في الأمة؟ إذ من الممكن أن لا يجوز نكاح الأمة الكافرة مع وجود الأمة المسلمة دون الكافرة الحرّة فيجوز نكاحها حتى مع التمكّن من الأمة المسلمة. ٣ - قال تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) (١). يلاحظ عليه: أن الآية واردة في حق الضعفاء من المسلمين، و لا صلة لها بالكفرة، فهؤلاء كانوا يوالون

اليهود و يفسون إليهم أسرار المؤمنين، و يجتمعون معهم على ذكر مساءة النبي وأصحابه، ففي هذه الظروف نزل قوله سبحانه: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) أي لا- تجتمع موالاة الكفار مع الإيمان، أي موالاتهم بما هم كفار، وأما حبهم لأجل أمور أخرى فلاصلة له بالآية، و لا يتزوج المسلم من الكافرة لأجل موالاة الكافرة، بل لأجل دفع الشهوة أو تعبته وسائل الحياة. و أضعف منه الا- استدلال بقوله سبحانه: ٤- قال تعالى: (لَا يَشْتَرِي بِهَا نَفْسًا وَأَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) (٢) إذ لاصله بين الآيه و موضوع البحث فإنها تنفي كون المؤمن و الكافر عند الله سيان، وأما عدم جواز المعاملة و المناكحة فلا تدل عليه . ٥- استدلال أيضاً: ان أهل الكتاب مشركون لقوله سبحانه: (وَقَالَتِ

١. المجادلة: ٢٢.

٢. الحشر: ٢٠. (٤٦٣) الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ (١) حيث جعلوا الابن المزعوم شريكاً للأب في الألوهية، و قال سبحانه: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ تَلْثَةٍ) (٢). و قال: (اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٣) فهذه الآيات تثبت الصغرى، أي كونهم مشركين، وأما ما يدل على الكبرى أي عدم جواز نكاح المشركات، فقد مر في كلام المانع. يلاحظ عليه أن هنا أمرين: أ - كون النصارى و اليهود مشركين في عقيدتهم، و هذا لا كلام فيه. ب - كون المشرك الوارد في قوله (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) عاماً يعم الوثنيين و غيرهم، و لكن هذا غير ثابت فإن عنوان المشرك في القرآن يختص بغير أهل الكتاب بشهادة المقابلة في كثير من الآيات بينهم وبين أهل الكتاب، وإليك بعضها: (مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّنْ رَبُّكُمْ) (٤)، و قد عرفت تحقيق ذلك عند البحث عن حد الشرك و الإيمان، فلانعيد (٥). فهذه الآيه و غيرها تثبت أن الشرك المتخذ موضوعاً لكثير من الأحكام

١. التوبة: ٣٠.

٢. المائدة: ٧٣.

٣. التوبة: ٣١.

٤. البقرة: ١٠٥.

٥. لاحظ الآيات: آل عمران ١٨٦. المائدة ٨٢ و غيرهما أيضاً. (٤٦٤)

لا يشمل أهل الكتاب في مصطلح القرآن و إن كانوا مشركين حسب الواقع، فالكلام في سعة موضوع الحكم (تحريم نكاح المشركات) و ضيقه حسب اصطلاح القرآن. ٦- قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَ سِئَلُوا مَّا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَّا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (١). و وجه الاستدلال ان الكوافر جمع كافرة، و العصمة المنع، و سمي النكاح عصمة لأن المنكوحه تكون في حبال الزوج و عصمته، و يكون اطلاقها دليلاً على حرمة عقد الكافرة مشرکه أو ذميه. يلاحظ عليه: أن الآيه ظاهره في الوثنيه بشهادة سياق الآيات، و سبب نزولها فإنها نزلت بعد التصالح في الحديبيه حيث تصالح رسول الله أن يرد كل من أتى من قريش إلى جانب المسلمين من دون عكس، و بعد ما ختم الكتاب جاءت سبيعه بنت الحرث الأسلميه و قد أسلمت، فأقبل زوجها في طلبها و كان كافراً، فنزلت الآيه، فكان رسول الله يرد من جاءه من قريش من الرجال، و لا يرد من جاءته من النساء قائلاً بأن التصالح لا يشمل إلا الرجال. على أن ظاهر الآيه هو المنع من الاقامة مع الزوجه الكافرة و هذا لا يتم في الذميه لصحة نكاحهن استدامه إذا أسلم أحد الزوجين، اجماعاً و إن لم نقل بالصحة ابتداء، و هذا قرينه على انصراف الآيه عن الذميه إلى الوثنيه، و بذلك يظهر ضعف ما أفاده الطبرسي حيث ادعى دلالة الآيه على عدم جواز العقد

١. الممتحنة: ١٠. (٤٦٥)

على الكافرة مطلقاً، بحجة أن الآية عام و ليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأن المعبر عموم اللفظ، لا السبب (١). إلى هنا تم ما يمكن الاستدلال به من الآيات على تحريم نكاح الكافرات، وإليك ما استدلل به القائل بالجواز من الذكر الحكيم أعني قوله سبحانه: (اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ) (٢). الآية صريحة في جواز نكاح المحصنات من أهل الكتاب، والمتيقن منها هو الذميمة أو من هو في حكمها كالمهادنة، لا الحريية. و حمل الآية على النكاح الموقت بقرينة ورود لفظ «الأجور» في الآية مكان «المهور» ليس بتمام لأنها وردت في غير موضع من القرآن، و أريد منه المهر في النكاح الدائم. قال سبحانه في تزويج الاماء عند عدم الطول: (فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (٣) و قال تعالى و هو يخاطب النبي: (إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ) (٤) و من المعلوم أن المراد هو التزويج الدائم إذ لم يكن بين أزواج النبي من تزوج بها متعة. نعم المراد من قوله سبحانه: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً) (٥) هو النكاح الموقت، بقرينة قوله: (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ) مضافاً إلى الروايات المتضاربة في المقام. و ربما يحتمل كون الآية منسوخة لما ورد من النهي في آيتي البقرة

١. الطبرسي: مجمع البيان ٥ / ٢٧٤.

٢. المائدة: ٥.

٣. النساء: ٢٥.

٤. الأحزاب: ٥٠.

٥. النساء: ٢٤. (٤٦٦)

و الممتحنة، و لكن قد عرفت عدم دلالة الآيتين على مورد البحث فضلاً عن كونهما ناسختين. على أن سورة المائدة آخر ما نزل على رسول الله، فهي تنسخ ما قبلها، و لا تُنسخ، روى العياشي عن علي قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً و إنما يؤخذ من أمر رسول الله بآخره، و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ما قبلها و لم ينسخها شيء (١). إلى هنا تم ما يرجع إلى المسألة من القرآن الكريم، و أما البحث عنها من جانب السنة فهو موكول إلى محلّه، و قد أوضحنا الكلام فيها في مسفوراتنا الفقهية. هذا آخر الكلام في عقائد الخوارج و أصولهم. بقى الكلام في التعرّف على شخصياتهم في العصور الأولى و هذا ما يوافقك في البحث الآتي الذي عقدناه بعنوان «خاتمة المطاف».

١. الحويزي: نور الثقلين ١ / ٤٨٣. (٤٦٧) خاتمة المطاف: رجال الخوارج في العصور الأولى قد تعرّف فيما سبق على الشخصيات البارزة للاباضية، و لا بد من التطرّق إلى رجال الخوارج من غيرهم، و نذكر في المقام المعروفين منهم، و إن كان الحكم بكونهم من الخوارج يحتاج الى تتبع وافر، فإن الشهرة في المقام لا تنفيذ إلا الظن. و ربما يكون رميهم بأنهم منهم صدر من غير أهله تعنتاً و حقدًا، و على كل تقدير فقد ذكر ابن ابي الحديد لفيماً ممن كان يرى رأى الخوارج، و نذكر بعض ما ذكر (١): ١ - عكرمة البربري (ت / ١٠٥): و صفه الذهبي بقوله «أحد أوعية العلم، تُكلم فيه لرأيه لالحفظه، فاتهم

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٥ / ٧٦. (٤٦٨)

برأى الخوارج، و قد وثقه جماعة و اعتمده البخاري، و أما مسلم فتجنّب و روى له قليلاً مقروناً بغيره، و أعرض عنه مالك، و تحايده إلا في حديث أو حديثين. و عن عمرو بن دينار، قال: رُفِعَ إلى جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة، فجعل جابر بن زيد يقول: هذا مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه. و قد وصفه شهر بن حوشب و جابر بن زيد بأنه حبر هذه الأمة و أعلم الناس، و مع ذلك فقد ضعّفه يحيى بن سعيد الأنصاري و أيوب و ذكرا عكرمة، فقال يحيى: كذاب، و قال أيوب، لم يكن بكذاب. و عن زيد بن أبي زياد، عن عبد

الله بن الحارث قال: دخلت على علي بن عبد الله فإذا عكرمة في وثاق عند باب الحش، فقلت له: ألا تتق الله، فقال: إن هذا الخبيث يكذب علي أبي. وقال محمد بن سيرين عن عكرمة، فقال: ما يسوءني أن يكون من أهل الجنة ولكنه كذاب. وقال ابن أبي ذئب: رأيت عكرمة، وكان غير ثقة. وقال محمد بن سعد: كان عكرمة كثير العلم والحديث، بحرًا من البحور، وليس يُحتج بحديثه، ويتكلم الناس فيه. هذه أقوال الناس في حقه، وإليك قول نفسه في حقه: قال: كان ابن عباس يضع في رجلي الكنب على تعليم القرآن والفقهاء، وقال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس في الدار. وهذا قوله في حق نفسه، ولا يحتج بقول الإنسان في حقه إذا كان مدحًا، ويؤيد كون الرجل خارجيًا ما رواه خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم فقال: وددت أن بيدي حربة فأعترض بها من شهد الموسم يمينًا وشمالًا، وعن يعقوب الحضرمي عن جدّه قال: وقف عكرمة على باب المسجد فقال: ما فيه إلا كافر، قال: وكان يرى رأى الاباضية. وعن يحيى بن بكير قال: قدم عكرمة مصر وهو يريد المغرب، قال: فالخوارج (٤٦٩)

الذين هم بالمغرب عنه أخذوا. قال ابن المديني: كان يرى رأى نجدة الحروري. وقال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأى الخوارج. قال: وأدعى علي بن عباس أنه كان يرى رأى الخوارج. وعن خالد بن نزار: حدثنا عمر بن قيس، عن عطاء بن أبي رباح: إن عكرمة كان اباضياً، وعن أبي طالب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان عكرمة من أعلم الناس، ولكنه كان يرى رأى الصفرية، ولم يدع موضعاً إلا خرج إليه: خراسان والشام واليمن ومصر وإفريقيا، كان يأتي الأمراء فيطلب جوائزهم، وأتى الجنيد إلى طاوس، فأعطاه ناقه. وقال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأى الخوارج فطلبه متولّي المدينة فتعيب عند داود بن الحصين حتى مات عنده. وروى سليمان بن معبد السنجي قال: مات عكرمة وكثير عزة في يوم، فشهد الناس جنازة كثير، وتركوا جنازة عكرمة. وقال عبد العزيز الدراوردي: مات عكرمة وكثير عزة في يوم، فما شهدهما إلا سودان المدينة. وعن إسماعيل بن أبي أويس، عن مالك، عن أبيه، قال: أتى بجنازة عكرمة مولى ابن عباس وكثير عزة بعد العصر، فما علمت أن أحداً من أهل المسجد حلّ حوته إليهما. وقال جماعة: مات سنة خمس ومائة، وقال الهيثم وغيره: سنة ست، وقال جماعة: سنة سبع ومائة. وعن ابن المسيب أنه قال لمولاه بُرد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. وروى ذلك عن ابن عمر قاله لنافع(١). وقد روى شيء كثير منه في التفاسير وهي مليئة بأقواله، ويظهر ممّا نقل عنه أنه يرى الحلف بالطلاق باطلاً، روى الذهبي عن عاصم الأحول، عن عكرمة _____

١. الذهبي: ميزان الاعتدال ٣ / ٩٣ - ٩٧ برقم ٥٧١٤. (٤٧٠)

في رجل قال لغلامه: إن لم أجلك مائة سوط فامرأتى طالق. قال: لا يجلد غلامه ولا تطلق امرأته، هذه من خطوات الشيطان(١). و ترجمه أبو حاتم الرازي في الجرح والتعديل بذكر نقول مختلفه عنه(٢). وقد ترجمه ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب مفصلاً، وذكر أيضاً الأقوال المتضاربة في حقه(٣). ومما قال فيه، قال علي بن المديني: كان عكرمة يرى رأى نجدة، وقال يحيى بن معين: إنما لم يذكر مالك بن أنس عكرمة لأن عكرمة كان ينتحل رأى الصفرية، وقال عطاء: كان اباضياً، وقال الجوزجاني: قلت لأحمد: عكرمة كان اباضياً؟ فقال: يقال إنه كان صفرياً. وقال خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبي عمران: دخل علينا عكرمة أفريقيا وقت الموسم فقال: وددت أني اليوم بالموسم بيدي حربة أضرب بها يميناً وشمالاً. قال: فمن يومئذ رفضه أهل أفريقيا، وقال مصعب الزبيري: كان عكرمة يرى رأى الخوارج وزعم أن مولاه كان كذلك، وقال أبو خلف الخزاز عن يحيى البكاء: سمعت ابن عمر يقول لنافع: أتق الله ويحك يا نافع، ولا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس(٤). ٢ - قطري بن الفجاءة (ت / ٧٨): أبو نعامه: قطري بن الفجاءة، واسمه جعونه، المازني الخارجي، خرج _____

١. الذهبي: ميزان الاعتدال ٣ / ٩٧ برقم ٥٧١٤، اشارة إلى قوله تعالى (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) - البقرة: ٢٠٨ - .

٢. أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ٦ / ٧ - ١١ .

٣. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٧ / ٢٣٤ - ٢٤٢ برقم ٤٧٦، ولكنه لم يترجمه في لسان الميزان مع وروده في الميزان للذهبي

كما عرفت.

٤. المصدر نفسه: ٧ / ٢٣٧. (٤٧١)

في زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق نيابة عن أخيه: عبد الله بن الزبير، وكانت ولاية مصعب في سنة ست و ستين للهجرة، قيل: بقي قطري عشرين سنة يقاتل و يسلم عليه بالخلافة و هو يستظهر عليهم. و لم يزل إلى أن توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبى فظهر عليه و قتله في سنة ثمان و سبعين للهجرة. و هو معدود في جملة الخطباء العرب المشهورين بالبلاغة و الفصاحة (١). نقل الجاحظ خطبة واحدة منه، و التأمل فيها يعرب أنه كان منطيقاً ذلق اللسان، قال فيها: أما بعد فإنني أهدركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفَّت بالشهوات، و راقت بالقليل، و تحببت بالعاجلة، و حُلِيَتْ بالآمال، و تزينت بالغرور، لاتدوم حيرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضرارة، خوانة غدارة (٢). روى أن الحجاج قال لأخيه: لأقتلنك، فقال: لم ذلك؟ قال: لخروج أخيك، قال فإن معي كتاب أمير المؤمنين (يريد عبد الملك) أن لا تأخذني بذنب أخى، قال: هاته، قال: فمعى ما هو أو كد منه، قال: ما هو؟ قال: كتاب الله عزوجل يقول: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (٣) فعجب منه و خلّى سبيله (٤). و ترجمه خير الدين الزركلى فى الأعلام (٥) و يظهر فيما نقله من تاريخ الطبرى أنه توفي سنة ٧٧ هـ و الله العالم. ٣ - عمران بن حطان السدوسى البصرى (ت / ٨٤): عمران بن حطان السدوسى البصرى الخارجى، روى عن عائشة، و عنه

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤ / ٩٤ - ٩٥.

٢. الجاحظ: البيان والتبيين ٢ / ١١٢.

٣. الأنعام: ١٦٤.

٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤ / ٩٤ - ٩٥.

٥. الأعلام: ٥ / ٢٠٠. (٤٧٢)

صالح بن سرج، لا يتابع على حديثه، قاله العقيلي، قال: و كان خارجياً. روى موسى بن إسماعيل عن عمرو بن العلاء ولقيه جرز، حدثنا صالح بن سرج، عن عمران بن حطان، عن عائشة في حساب القاضى العادل. قلت كان الأولى أن يلحق الضعف فى هذا الحديث بصالح أو بمن بعده، فإن عمران صدوق فى نفسه، قد روى عنه يحيى بن ابى كثير، و قتادة، و محارب بن دثار. و قال العجلي: تابعى ثقة. و قال أبو داود: ليس فى أهل الأهواء، أصح حديثاً من الخوارج، فذكر عمران بن حطان و أبا حسان الأعرج. و قال قتادة كان لا يتهم فى الحديث. و روى يعقوب بن شيبه أنه بلغه أن عمران بن حطان كانت له بنت عم كانت ترى رأى الخوارج فتزوجها ليردّها عن ذلك فصرفته الى مذهبها. و كان عمران من نظراء جرير و الفرزدق فى الشعر، و هو القائل: حتى متى تُسقى النفوس بكأسها * ريب المنون وأنت لاه ترتع الأبيات. مات سنة أربع و ثمانين (١). و ترجمه ابن حجر فى تهذيب التهذيب و قال: ذكر أبو زكريا الموصلى فى تاريخ الموصول عن محمد بن بشر العبدى الموصلى قال: لم يمت عمران بن حطان حتى رجع عن رأى الخوارج انتهى، هذا أحسن ما يعتذر به عن تخريب البخارى له، و أما قول من قال: إنه خرج ما حمل عنه قبل أن يرى ما رأى ففيه نظر، لأنه اخرج له من رواية يحيى بن أبى كثير عنه، و يحيى إنما سمع منه فى حال هربه من الحجاج و كان الحجاج يطلبه ليقتله من أجل المذهب، و قصته فى هربه مشهورة. و قال العقيلي: عمران بن حطان لا يتابع و كان يرى رأى الخوارج يحدث عن عائشة و لم يتبين سماعه منها.

١. الذهبى: ميزان الاعتدال ٣ / ٢٣٥ - ٢٣٦ برقم ٦٢٧٧. (٤٧٣) و قال ابن حبان فى الثقات: كان يميل إلى مذهب الشراة. و قال ابن البرقي: كان حرورياً. و قال الدارقطنى: متروك لسوء اعتقاده و خبث مذهبه. و قال المبرد فى الكامل: كان رأس القعد من الصفرية و فقيهم و خطيبهم و شاعرهم، و القعدة: الخوارج، كانوا لا يرون بالحرب بل ينكرون امراء الجور حسب الطاقة و يدعون إلى رأيهم و يزيتون مع ذلك الخروج و يحسبونونه. لكن ذكر أبو الفرج الاصبهاني أنه إنما صار قعدياً لما عجز عن الحرب والله أعلم، قلت: و كان

من المعروفين في مذهب الخوارج، و كان قبل ذلك مشهوراً بطلب العلم و الحديث ثم ابتلى، و أنشد له من شعره: لا يعجز الموت شيء دون خالقه * و الموت يفنى إذا ما ناله الأجل و كل كرب أمام الموت منقشع * و الكرب و الموت مما بعده جلال (١) و في الأغاني إنما صار ابن حطان من القعدية لأن عمره طال و كبر و عجز عن الحرب و حضورها، فاقصر على الدعوة و التحريض بلسانه، و كان أولاً مشتمراً بطلب العلم و الحديث ثم بلى بذلك المذهب، و قد أدرك صدراً من الصحابة و روى عنهم و روى عنه أصحاب الحديث. وله شعر في مدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي - لعنه الله - قاتل أمير المؤمنين و قائد الغر المحجلين زوج البتول و صهر الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم -: لله در المرادي الذي سفكت * كفاه مهجته شر الخلق إنسانا أمسى عشية غشاه بضربته * معطى مناه من الآثام عربانا يا ضربة من تقى ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا إنني لأذكره حيناً فأحسبه * أوفى البرية عند الله ميزانا

١. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ٨ / ١١٣ - ١١٤ برقم ٢٢٣. راجع الاصابة ٣ / ١٧٨. (٤٧٤) و قد أجابه عنها السيد الحميري الشيعي و هي: قل لابن ملجم والأقدار غالبه * هدمت و يلك للإسلام أركاناً قتلت أفضل من يمشى على قدم * و أول الناس إسلاماً وإيماناً و أعلم الناس بالإيمان ثم بما * سن الرسول لنا شرعاً و تبياناً صهر الرسول و مولاه و ناصره * أضحت مناقبه نوراً و برهاناً الايات (١). و قد ناضله أصحاب الولاة لآل الرسول باشعار كثيرة مضت بعضها فلا - حظ . و في الختام: من أراد التبسط في ترجمة الرجال فليرجع إلى «الخوارج في العصر الأموي» للدكتور نايف معروف فقد ذكر قسماً كثيراً من أشعاره و حياته قبل أن يلحق بالخوارج فلا حظ. ٤ - الطرماح بن حكيم (ت ١٢٥): الطرماح بن حكيم الطائى الخارجى. و صفه الجاحظ في البيان و التبيين أنه كان خارجياً من الصفرية، ولد ونشأ في الشام، و انتقل إلى الكوفة، فكان معلماً فيها. و اتصل بخالد بن عبد الله القصرى فكان يكرمه و يستجيد شعره، و كان هجاءً، معاصراً للكفيت صديقاً له لا يكادان يفترقان، و ذكر شيخنا في الذريعة أن المرزبانى عمل كتاباً باسم «أخبار الطرماح» كما عمل كتاباً آخر باسم «أخبار ابى تمام» (٢).

١. البغدادي: خزائن الأدب ٢ / ٤٣٦ - ٤٣٧.

٢. الزركلى: الأعلام ٣ / ٢٢٥، و آغا بزرك الطهراني: الذريعة ١ / ٢٣٨ برقم ١٧٦٤. (٤٧٥) ٥ - الضحاك بن قيس: الضحاك بن قيس مذکور في التاريخ بما أنه قائد عسكري قد دوخ الدولة الأموية في عصره، ولم يوصف بشيء من العلم والشعر والأدب سوى القيادة، و قد نقل ابن الأثير حروبه مع الأمويين و إليك خلاصه ما ذكره في تاريخه على نحو يوقفه على ترجمة الرجل على نحو الاجمال: أرسل مروان بن محمد - آخر الخلفاء الأمويين - جيشاً لحرب الضحاك سنة سبع و عشرين و مائه، فالتقوا بالنخيلة فاقتتلوا قتالاً شديداً و انتصر الضحاك عليهم، و دخل ضحاك الكوفة مستولياً عليها (١). ثم سار الضحاك من الكوفة إلى واسط يريد حرب فلول المنهزمين، و كانوا قد استعدوا لحربه، فتحاربوا شعبان و شهر رمضان و شوال و القتال بينهم متواصل. ثم اصطلحوا و ذهب الضحاك إلى الكوفة (٢)، و كاتب أهل الموصل ليقدم عليهم ليتمكنوا منها فسار بجماعة من جنوده بعد عشرين شهراً حتى انتهى إليها ففتح أهل البلد، فدخلها الضحاك و قتل الوالى عليها من قبل مروان و عدده يسيروا كانوا معه و ذلك بعد أن حاربوه. و بلغ مروان خبره و هو محاصر حمص، مشغل بقتال أهلها، فكتب إلى ابنه عبد الله و هو خليفته في الجزيرة، يأمره أن يسير إلى نصيبين في من معه يمنع الضحاك من توسط الجزيرة، فسار إليها في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف، و سار الضحاك و معه ما يزيد على مائة ألف. و وجه قائدين من قواده إلى السرقة في أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فقاتله بها، فوجه إليهم مروان من أبعدهم عن

١. ابن الاثير: الكامل ٥ / ٣٣٢ - ٣٣٦.

٢. ابن الاثير: الكامل ٥ / ٣٤٩. (٤٧٦)

السرقة. و سار مروان إلى الضحاك فالتقوا بنواحي كفر قوتا من اعمال ماردين فقاتله يومه أجمع، فلما كان عند المساء ترجل الضحاك و معه من ذوى الثبات والبصائر نحو من ستة آلاف، ولم يعلم أكثر أهل عسكره بما كان، فأحدثت بهم خيول مروان و ألحوا

عليهم في القتال حتى قتلوهم عند العتمة. و انصرف من بقي من أصحاب الضحاك عند العتمة إلى معسكرهم و لم يعلموا بقتل الضحاك و لم يعلم به مروان أيضاً، و جاء بعض من عاينه من أصحابه فبكوا وناحوا عليه، و جاء قائد من قواده إلى مروان فأخبره بقتله فأرسل معه النيران و الشمع، فطافوا عليه فوجدوه قتيلاً و في وجهه و رأسه أكثر من عشرين ضربة فكبوا فعرف عسكر الضحاك أنهم قد علموا بقتله. و بعث مروان رأسه إلى مدائن الجزيرة فطيف به فيها(١). ٦- معمر بن المثنى (١١٠ - ٢١٣): أبو عبيدة، التيمي(٢) البصرى، يصفه الخطيب في تاريخه بالنحوي العلامة، يقال: إنه ولد سنة ١١٠ في الليلة التي ولد فيها الحسن البصرى، و نقل عن الجاحظ أنه قال: لم يكن في الأرض خارجي و لاجمعي أعلم بجميع العلوم منه(٣). قال ابن قتيبة: كان الغريب(٤) أغلب عليه و اخبار العرب و أيامها، و كان

١. ابن الاثير: الكامل ٥ / ٣٤٩.

٢. كان تيمياً بالولاء.

٣. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣ / ٢٥٢ برقم ٧٢١٠.

٤. المراد غريب اللغة أو غريب القرآن و الحديث. (٤٧٧)

مع معرفته ربما لا يقيم البيت إذا أشده، حتى يكسره، و كان يخطأ إذا قرأ القرآن الكريم نظراً، و كان يبغض العرب، و ألف في مثالبها كتباً، و كان يرى رأى الخوارج(١). و نقل ابن خلكان عن بعضهم: أن هارون الرشيد أقدمه من البصرة إلى بغداد سنة ١٨٨، و قرأ عليه بها أشياء من كتبه، و أسند الحديث إلى هشام بن عروة و غيره و روى عنه على بن المغيرة الأثرم، و أبو عبيد القاسم بن سلام، و أبو عثمان المازني، و أبو حاتم السجستاني و عمر بن شبة و غيرهم. و لأجل إمام القارئ على نموذج من تفسيره نأتى بما يلي: سأله رجل عن قوله سبحانه: (أَذِكَّ خَيْرٌ نُزْلاً - أَمْ شَجَرَةُ الرَّقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ * فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ)(٢). سأله عن قوله: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ) و قال: إنما يقع الوعد و اليعاد بما عرف مثله، و هذا لم يعرف فأجاب: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس: أيقنتلى و المشرفى مضاجعى * و مسنونه زرق كأياب أغوال و هم لم يروا الغول قط، و لكنّه لما كان أمر الغول يهولهم، أو عدوا به. ثم يقول: و أزمعت منذ ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن لمثل هذا و أشباهه و لما يحتاج إليه من علمه، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سمّيته المجاز(٣).

١. ابن قتيبة: المعارف ٢٤٣.

٢. الصافات: ٦٢ - ٦٦.

٣. ابن خلكان: و فيات الاعيان ٥ / ٢٣٦ تحقيق الدكتور احسان عباس. و لاحظ: مجاز القرآن لأبي عبيدة ج ٢. (٤٧٨) و قد ذكر ابن خلكان أنه لم يزل يصنّف حتى مات، و تصانيفه تقارب مائتي تصنيف، فمنها كتاب «مجاز القرآن الكريم» و كتاب «غريب القرآن» و كتاب «معاني القرآن» و كتاب «غريب الحديث»... (١) و يبدو من فهرس تصانيفه أن أكثرها يدور بين اللغة و الشعر و التاريخ و ما يشابهها، و الملى آثار عواطف الأمية العربية ضده أنه ألف كتاب «لصوص العرب» و كتاب «فضائل الفرس»، و من المعلوم أن العصبية العمياء لا تحبّ كلا- التأليفين. يقول ابن خلكان: لمّا جمع كتاب المثالب، و لعلّ مراده هو «لصوص العرب»، قال له رجل مطعون النسب: بلغنى أنك عبت العرب جميعها، فقال: «و ما يضرك، أنت من ذلك برىء!»! يعنى أنه ليس منهم، و يذكر ابن خلكان أيضاً: أنه لا يقبل أحد من الحكام شهادته لأنه كان يتهم بالميل إلى الغلمان. قال الأصمعي: دخلت أنا و أبو عبيدة يوماً المسجد فإذا على الاسطوانة التي يجلس إليها أبو عبيدة مكتوب على نحو من سبعة أذرع. صلى الإله على لوط و شيعته * أبا عبيدة قل بالله آمينا فقال لى: يا أصمعي! امح هذا، فركبت على ظهره و محوته بعد أن أثقلته إلى أن قال: أثقلتني و قطعت ظهري، فقلت له: قد بقى الطاء. فقال: هي شرّ حروف هذا البيت! (٢). أقول: إن الأصمعي كان ممن ينصب العدا على علي، و أبا عبيدة كان من الخوارج، و الجنس إلى

الجنس يميل «والمراء على دين خليله و قرينه» و قال سبحانه حاكياً عن المجرمين (يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) (٣) و قال

١. ابن خلكان: و فيات الاعيان ٥ / ٢٣٨ تحقيق الدكتور احسان عباس.

٢. المصدر نفسه: ٢٤٢.

٣. الفرقان: ٢٨. (٤٧٩)

سبحانه: (الْاِخْلَافُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ اِلَّا الْمُتَّقِينَ) (١)، و مع ذلك كله فيحتمل أن تكون القصيدة مختلفة من جانب الأعداء لأنهم كانوا يرون أمثال أبي عبيدة من المبتدعة الذين تجوز مباحثتهم إبعاداً للناس عن ضلالهم. مجاز القرآن لأبي عبيدة: لم يصل إلينا من كتب أبي عبيدة مع كثرتها غير كتاب مجاز القرآن، و قد عرفت أن ابن خلكان ذكر له أسماء كتب ثلاثة حول القرآن و زاد ابن النديم كتاب «اعراب القرآن» و هل ألف أبو عبيدة كتباً بهذه الأسماء أو هي أسماء متعدده و المسمى واحداً؟ فقد رجح محقق كتاب مجاز القرآن الثاني و قال: «و الأذى نظنه أن ليس هناك لأبي عبيدة غير كتاب المجاز»، و أن هذه الأسماء أخذت من الموضوعات التي تناولها «المجاز» فهو يتكلم في معاني القرآن، و يفسر غريبه، و في أثناء هذا يعرض لآراءه، و يشرح أوجه تعبيره، و ذلك ما عتبر عنه أبو عبيدة بمجاز القرآن، فكل سمي الكتاب بحسب أوضح الجوانب التي تولي الكتاب تناولها، و لفتت نظره أكثر من غيرها، و لعل ابن النديم لم ير الكتاب، و سمع هذه الأسماء من أشخاص متعددين فذكر لأبي عبيدة في موضوع القرآن هذه الكتب المختلفة الأسماء. ثم إن التأليف في غريب القرآن كثير، و ربما يعبر عن بعضه بمعاني القرآن، كما هو الحال في كتاب الفراء، و ربما يعبر عنه بمجازات القرآن كما هو الحال في تأليف الشريف الرضي، و أما الفرق بين كتاب أبي عبيدة و كتاب الرضي و قد اشتهر الأول بمجاز القرآن، و الثاني بمجازات القرآن، هو أن الأول يستعمل لفظ المجاز بمعنى مفهوم الكلمة و الآية، بخلاف الثاني فإنه يستعمله في

الجامع بين

١. الزخرف: ٦٧. (٤٨٠)

المجاز اللغوي و الكناية و الاستعارة، و لكل مزية، و على كل تقدير فأثر أبي عبيدة أثر متقن مفيد جداً، و قد قام بتحقيقه الدكتور محمّد فؤاد سزكين في جزئين، و قد طبع للمرة الثانية في سنة ١٤٠١ هـ. و قد اختلفت الأقوال في تاريخ و فاته، فنقل الخطيب عن بعضهم أنه مات سنة ٢٠٩ هـ، و عن آخر سنة ٢١١ هـ، و عن ثالث ٢١٠ هـ و قيل سنة ٢١٣ هـ، و الله العالم. و لنكتف بما ذكر من رجال الخوارج في العصور الأولى و قد تعرّفت على عدّة من رجالهم في ثنايا الكتاب لاسيما القادة العسكريين. بقيت هنا كلمة و هي أن نعطف نظر القارئ إلى ما روى عن النبي الأكرم في حق المحكمّة الأولى و أثر في حقهم عن الصحابة و التابعين لهم باحسان، و قد جميعها إمام الحنابلة أحمد بن حنبل و رواه عنه ابنه عبد الله في كتاب «السنة» (١) واليك متونها مع أسانيدها: بما أن الاباضية لا يرون أنفسهم خوارج و نحن أيضاً نرى بهم عن كونهم منهم على الشروط التي قدّمناها في الكتاب، فلا أراهم متضايقين من هذه الآثار التي لو تدبر فيها القارئ يراها من قسم المتواتر المعنوي و لا يحق لأحد أن يشك في ما يهدف إليه جمعها: المأثور حول الخوارج: ١ - حدثني أبي، حدثنا وكيع جريز بن حازم و أبو عمرو بن العلاء، عن ابن سيرين سمعاه عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - : «يخرج قوم فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، و لولا أن تبطروا لأبأتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان نبيّه» قال عبيدة: قلت لعلي: _____

١. عبد الله بن أحمد بن حنبل: السنة ٢٦٧ - ٢٨٦. (٤٨١)

أنت سمعته من رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: أي وربّ الكعبة، أي وربّ الكعبة، أي وربّ الكعبة. ٢ - حدثني أبو محمّد بن عبد الرحيم البزار، قال: و أنا شاباً أخبرني أبو عمرو بن العلاء، حدثنا ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي، قال: و الله لولا أن تبطروا لحدّثتكم على لسان نبيكم، الذين يقتلونهم علامتهم رجل مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد، قال: فقلت: أنت سمعته من

رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: نعم سمعته من النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع.

٣ - حدثني عبيدالله بن عمر القواريري، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، قال ذكر على أهل النهروان فقال: فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد، أو مخدج اليد، لولا أن تبطروا لتبأتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال قلت: أنت سمعته منه؟ قال: أي ورب الكعبة. ٤ - حدثني إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، حدثنا وكيع، حدثنا جرير بن حازم، عن ابن سيرين، عن عبيدة، عن علي قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : (إنه سيخرج قوم فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، و لولا أن تبطروا لأنبأتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان نبيّه، قال عبيدة: قمت إلى علي فقلت: أنت سمعته من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة. قال وكيع: مودن اليد: ناقص اليد، و المخدج: ضامره، و مثدون اليد: فيها شعرات زائدة. ٥ - حدثني أبي و أبو خيثمة قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، (٤٨٢)

(حدثنا أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي قال: ذكر الخوارج فقال: فيهم رجل مخدج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد، لولا أن تبطروا لحدثتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان محمد، قلت: أنت سمعته من محمد - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة. ٦ - حدثني أبي، حدثني وكيع، حدثنا جرير بن حازم وأبو عمرو بن العلاء سمعاه من ابن سيرين، فذكر الحديث إلا أنه قال: مثدون. ٧ - حدثني سويد بن سعيد، حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، عن أيوب، عن محمد، عن عبيدة، عن علي قال: لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما أعد الله لمن قتلهم، فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، قال عبيدة: أنت سمعتها من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة ثلاثاً. ٨ - حدثني محمد بن أبي بكر بن علي المقدمي، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب و هشام، عن محمد، عن عبيدة: أن علياً ذكر أهل النهروان فقال: فيهم رجل مودن اليد أو مثدون اليد أو مخدج اليد، لولا أن تبطروا لتبأتكم بما وعد الله الذين يقتلونهم على لسان محمد، فقلت لعلي: أنت سمعته؟ قال: أي ورب الكعبة. ٩ - حدثني أبي، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن علي قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «يكون في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، قتالهم حقّ على كل مسلم». ١٠ - حدثني أبي، حدثنا محمد بن أبي عدى عمرو دكين من الرجال ما أشبهه بالشيخوخ، عن ابن عون، عن محمد قال: قال عبيدة: لا أحدثك إلا ما (٤٨٣)

سمعت منه، قال محمد: فحلف لي عبيدة ثلاث مرار و حلف له علي قال: لولا أن تبطروا لتبأتكم بما وعد الله الذين يقاتلونهم على لسان محمد. قلت أنت سمعته منه؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة، فيهم رجل مخدج اليد أو مثدون اليد، قال: قال محمد بن سيرين: فطلب ذاك الرجل فوجدوه في القتلى رجل عند أحد منكبيه كهيشة الثدى عليه شعرات. ١١ - حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي: قال حماد بن يحيى - يعني الأبح - قال: حدثنا ابن عون، عن محمد، عن عبيدة، قال: لما قتل على أهل النهروان، قال: التمسوا في القتلى رجلاً - مخدج اليد، فالتمسوه فوجدوه في حفرة تحت القتلى فاستخرجوه، فأقبل علي أصحابه، فقال: لولا أن تبطروا لأخبرتكم بما وعد الله من يقتل هؤلاء على لسان محمد، قلت: أنت سمعته من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: أي ورب الكعبة، أي ورب الكعبة ثلاث مرات. ١٢ - حدثني أبي، حدثنا محمد بن أبي عدى، عن سليمان، عن التيمي، عن أبي نصر، عن أبي سعيد: أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحالط و هم شرّ الخلق أو من شرّ الخلق يقتلهم أذى الطائفتين من الحق، قال: فضرب لهم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - مثلاً أو قال قولاً: الرجل يرمى الرميّة أو الغرض فينظر في الفصل فلا يرى بصيرة، و ينظر في النضى فلا يرى بصيرة، و ينظر في الفوق فلا يرى بصيرة قال: قال أبو سعيد: و أنتم قتلتموهم يا أهل العراق. ١٣ - حدثني أبو معمر الهذلي إسماعيل بن إبراهيم بن معمر الهروي، حدثنا عبد الله بن إدريس، أنا عاصم بن كليب، عن أبيه، قال كنت جالساً عن علي إذ جاء رجل عليه ثياب السفر فاستأذن علي و هو يكلم الناس فشغل (٤٨٤)

عنه، فأقبلنا فسألناه من أين قدمت؟ ما خبرك؟ قال: خرجت معتمراً فلقيت عائشة، فقالت ما هؤلاء الذين خرجوا من بلادكم يسمون حروراً؟ قال: قلت: خرجوا من أرضنا إلى مكان يسمى حروراً به يدعون، قالت طوبى لمن قتلهم، أما والله لو شاء ابن أبي طالب لخبرهم خبرهم، قال: فأهل على و كبر ثم أهل و كبر ثم أهل و كبر، فقال لي: إني دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعنده عائشة فقال لي «كيف أنت و قوم كذا وكذا» قال عبد الله بن ادريس: وصف صفتهم، قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «قوم يخرجون من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فيهم رجل مخدج اليد كأن يده ثدى حبشيّة، أنشدكم الله هل أخبرتكم أنه فيهم فاتيتموني فأخبرتموني أنه ليس فيهم، فحلفت بالله لكم إنه فيهم، فاتيتموني تسحبونه كما نعت لكم؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فأهل على و كبر. ١٤ - حدثني أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، قال: كنت جالساً عن علي و هو في بعض أمر الناس إذ جاء رجل عليه ثياب السفر، ثم قال علي: كنت عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس عنده إلا عائشة فقال: «يا علي» كيف، مرتين أو ثلاثة، فذكر الحديث بطوله. ١٥ - حدثني زهير بن حرب أبو خيثمة، حدثنا القاسم بن مالك المزني، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، قال: كنت جالساً عند علي فقال: إني دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس عنده أحد إلا عائشة، فقال: «يا ابن أبي طالب كيف أنت و قوم كذا وكذا» قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «قوم يخرجون من المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فيهم رجل مخدج اليد كأن يده ثدى حبشيّة». (٤٨٥) ١٦ - حدثني علي بن حكيم الأودي، حدثنا شريك، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، قال: خطبنا علي، فقال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «يخرج في آخر الزمان شباب أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فمن لقيهم فليقتلهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم عند الله يوم القيامة». ١٧ - حدثني أبي و أبو خيثمة قالوا: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة قال: قال علي: ما حدثتكم عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حديثاً فلائن آخر من السماء أحب إليّ من أن أكذب عليه و إذا حدثتكم عن غيره فإنما أنا محارب و الحرب خدعة سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة». ١٨ - حدثني محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني، حدثنا يعلى و وكيع، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، عن علي، قال: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «سيخرج قوم في آخر الزمان قوم الرواسي بالبصرة جاء إلى عبادان، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة قال: علي: إذا حدثتكم فيما بيني و بينكم فإن الحرب خدعة، و إذا حدثتكم عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فإنّي و الله لأن آخر من السماء فتخطفني الطير أو تهوى بي الريح في مكان سحيق أحب إليّ من أن أكذب عليه، وإنّي سمعته يقول: «سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث (٤٨٦)

الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية ثم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فمن لقيهم فليقتلهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة. ٢٠ - حدثني أبو كريب محمد بن العلاء الهمداني، حدثنا إبراهيم بن يوسف بن أبي إسحاق، عن أبيه، عن أبي إسحاق عن أبي قيس الأودي، عن سويد بن غفلة، عن علي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «يخرج في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة قتالهم حقّ على كلّ مسلم». ٢١ - حدثني أبي، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سويد بن غفلة، عن علي قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «يكون في آخر الزمان قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، قتالهم حقّ على كلّ مسلم». ٢٢ - حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش: قال أبي و عبد الرحمن، عن سفيان، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة قال: قال علي: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً فلائن آخر من السماء أحب إليّ من أن أكذب عليه و إذا حدثتكم فيما بيني و بينكم فإن

الحرب خدعة، سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يقول: «يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء»، وقال عبد الرحمن في آخر حديثه: أسفاه الأحلام، فذكر الحديث بطوله إلى آخره. ٢٣ - حدثنا أحمد بن جميل أبو يوسف، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن حميد بن أبي غنيمة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سلمة بن كهيل، عن زيد بن وهب قال: لما خرجت الخوارج بالنهروان قام علي في أصحابه فقال: إن هؤلاء القوم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، وهم أقرب العدو (٤٨٧)

إليكم وإن تسيروا إلى عدوكم فأنا أخاف أن يخلفكم هؤلاء في أعقابكم أتى سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يقول: يخرج خارجة من أمتي ليس صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، ولا قرآنكم إلى قرآنهم بشيء، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وآية ذلك إن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع عليها مثل حلمة الثدي عليها شعرات بيض، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم مالهم على لسان نبيهم، لا تكلوا عن العمل فسيروا على اسم الله والله إنني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، قال: فما زال أبو سليمان يسيّرنا منازل على منزلاً منزلاً حتى قال: أخذنا على قنطرة الديزجان، قال فلما التقينا قام فيهم أميرهم عبد الله بن وهب الراسبي قال: إنني أذكركم بالله الآ القيتم رماحكم وأشرعتم السيوف وحملتكم حمله رجل واحد لا - تناشدوا كما تناشدتم يوم حروراء فترجعوا، قال: فحملوا علينا حمله رجل واحد فشجرهم الناس برماحهم فقتلوا بعضهم قريباً من بعض ولم يقتل من الناس يومئذ إلا رجلاً، فقال علي: التمسوا هذا الرجل، قال فالتمسوه فلم يجدوه، قال: فقام علي وأنا لنرى على وجهه كآبه حتى أتى كبكبه منهم قد ركب بعضهم بعضاً، فأمر بهم ففرجوا يميناً وشمالاً فوجدوه ممّا يلي الأرض فقال: الله أكبر، صدق الله وبلغ رسوله، فقام إليه عبيدة السلمان فاستحلفه ثلاثة إيمان: أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ؟ وكل ذلك يحلف له علي. ٢٤ - حدثني محمد بن عبيد بن محمد المحاربي بالكوفة، حدثنا أبو مالك الخثلي عمرو بن هاشم، عن إسماعيل بن أبي خالد، حدثني عمرو بن قيس، عن المنهال بن عمرو، عن زر بن حبيش أنه سمع علياً يقول: أنا فقأت عين الفتنة، ولولا أنا ما قوتل أهل النهر ولا أهل الجمل، ولولا أتى أخشى أن (٤٨٨)

تتركوا العمل لأخبرتكم بالذي قضى الله على لسان نبيكم لمن قاتلهم مبصراً لضاللتهم عارفاً للهدى الذي نحن فيه. ٢٥ - حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن معاوية بن قره، قال: هلكت الخوارج والأهواء. ٢٦ - حدثني أبي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب قال: لَمَّا كان يوم النهر لعن علي الخوارج، فلم يبرحوا حتى شجروا بالرماح، فقتلوا جميعاً، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت أطلبوا ذا الثدي، قال: فطلبوه فلم يجدوه، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت أطلبوه، فوجدوه في وهدة من الأرض عليه ناس من القتلى، فإذا رجل على ثديه مثل سبله السنور، قال: فكبر علي وأعجبه ذلك والناس. وقال أبو معاوية مرة: وكبر علي وكبر الناس. ٢٧ - حدثني عباد بن زياد بن موسى الأسدي، حدثنا شريك، عن محمد بن قيس، عن أبي موسى شيخ لهم شهد مع علي قال: قال علي يوم النهر: اطلبوا ذا الثدي، فطلبوه فلم يجدوه، فجعل يعرق جبينه ويقول: والله ما كذبت ولا كذبت، قال: فوجد فاستخرج من ساقية من تحت قتلى فسجد سجدة الشكر. ٢٨ - حدثني أبي، حدثنا القاسم بن الوليد الهمداني، حدثنا إسرائيل، حدثنا إبراهيم - يعني ابن عبد الأعلى - عن طارق بن زياد قال: خرجنا مع علي إلى الخوارج فقتلهم، ثم قال: انظروا فإن نبي الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال: سيخرج قوم يتكلمون بالحق ولا يجوز حلقهم، يخرجون من الحق كما يخرج السهم من الرمية، سيماهم أن منهم رجلاً أسود مخدج اليد، في يده شعرات سود، إن كان هو فقد قتلتم شر الناس، وإن لم يكن هو فقد قتلتم خير الناس، فبكينا، ثم قال: اطلبوا، فوجدنا المخدج فخرنا سجوداً وخرّ علي معنا (٤٨٩)

ساجداً غير أنه قال: يتكلمون بكلمة الحق. ٢٩ - حدثني عبد الله بن عمر القواريري، حدثنا عبد الرحمن بن العريان الحارثي، حدثنا الأزرق بن قيس، عن رجل من عبد القيس قال: شهدت علياً يوم قتل أهل النهروان قال: قال علي حين قتلوا: عليّ بذي الثدي أو المخدوج، ذكر شيئاً من ذلك لا أحفظه قال: فطلبوه فإذا هم بحبشي مثل البعير في منكبته مثل ثدي المرأة عليه. قال عبد الرحمن: أراه شعراً ولو تخرج روح انسان من الفرح لخرج روح علي يومئذ، قال: صدق الله ورسوله من حدثني من الناس أنه رآه قبل مصرعه هذا

فإنه كذاب. ٣٠- حدثني علي بن حكيم الأودي، حدثنا شريك، عن عثمان بن أبي زرعة، عن زيد بن وهب، قال قدم علي على قوم من أهل البصرة من الخوارج فيهم رجل يقاله له الجعد بن بعجة، فقال له: أتق الله يا علي فإنك ميت، فقال علي: بل مقتول قتلاً ضربته علي هذا يخضب هذه - يعني لحيته من رأسه - عهد معهود وقضاء مقضى وقد خاب من افتري، و عاتبه في لباسه، فقال: مالكم و للباسي هو أبعد من الكبر و أجدر أن يقتدى بي المسلم. ٣١- حدثني أبي حدثنا يزيد بن هارون، أنا هشام عن محمد، عن عبيدة، قال: قال علي لأهل النهروان: فيهم رجل مشدون اليد، أو مخدج اليد، و لولا أن تبطروا لأنباتكم بما قضى الله على لسان نبيه لمن قتلهم، قال عبيدة: فقلت لعلي: أنت سمعته؟ قال: نعم ورب الكعبة، يحلف عليها ثلاثاً. ٣٢- حدثني أبي، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن عاصم الأحمول، عن عون بن عبد الله، قال: بعثني عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج أكلهم فقلت لهم: هل تدرون ما علامتكم في وليكم التي إذا لقيكم بها أمن بها عندكم و كان بها وليكم، و ما علامتكم في عدوكم التي إذا لقيكم بها خاف عندكم و كان بها (٤٩٠)

عدوكم؟ قالوا: ما ندري ما تقول؟ قلت: فإن علامتكم عند وليكم التي إذا لقيكم بها أمن بها عندكم و كان بها وليكم أن يقول: أنا نصراني أو يهودي أو مجوسي، و علامتكم عند عدوكم التي إذا لقيكم بها خاف بها عندكم و كان بها عدوكم أن يقول: أنا مسلم. ٣٣- حدثني وهب بن بقیة الواسطي، حدثنا خالد بن عبد الله، عن عطاء بن السائب، عن ميسرة، قال: قال أبو جحيفة: إن علياً حين فرغ من الحرورية قال: إن فيهم رجلاً - مخدج اليد ليس على عضده عظم، في عضده حلمة كحلمة الثدى عليها شعرات طوال عقف، فالتمس فلم يوجد، ثم التمس فلم يوجد، قال: و أنا فيمن يلتمس فما رأيت علياً جزع قط أشد من جزعه يومئذ، قالوا: ما نجده يا أمير المؤمنين. قال: ما اسم هذا المكان؟ قالوا: النهروان. قال كذبتم أنه فيهم فالتمسوه، قال: فتورنا القتلى فلم نجده، فعدنا إليه فقلنا: يا أمير المؤمنين ما نجده، فسأل عن المكان، فأخبر، فقال: صدق الله و رسوله و كذبتم أنه فيهم فالتمسوه، فالتمسناه فوجدناه في ساقية فجننا به فنظرت إلى عضده ليس فيها عظم عليها حلمة كحلمة ثدى المرأة عليها شعرات طوال عقف. ٣٤- حدثني أبي، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال خرجت أنا و تليد بن كلاب الليثي حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص و هو يطوف بالبيت معلقاً نعله بيده فسألته: هل حضرت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - حين كلمه التميمي يوم حنين؟ قال: نعم، أقبل رجل من بني تميم يقال له ذى الخويصرة فوقف على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - و هو يعظ الناس، فقال: يا محمد قد رأيت ما (٤٩١)

صنعت في هذا اليوم. فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «و كيف رأيت؟» قال: لم أرك عدلت. قال: فغضب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ثم قال: «ويحك إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا نقتله؟ قال: «لا، دعوه فإنه سيكون له شيعه يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّة، فينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القدح فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء سبق الفرث الدم». ٣٥- حدثني أبي، حدثني يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، قال: و حدثني محمد بن علي بن الحسين أبو جعفر مثل حديث أبي عبيدة و سمّاه ذا الخويصرة. ٣٦- حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثنا إسرائيل، عن ابن أبي إسحاق، عن رجل: أن عائشة لما بلغها قتل المخدج، قالت: لقد قتل شيطان جان الردهة. قال و قال سعد ابن أبي وقاص: لقد قتل جان الردهة. ٣٧- حدثني أبو الربيع الزهراني سليمان بن داود، حدثنا داود العطار المكي، حدثنا موسى بن عقبه، عن نافع، قال: خرج ابن عمر من المدينة يريد الحج، فقليل له: إن الحرورية قد خرجت، فقال: أشهدكم أنني قد جعلتها عمرة، فلمّا انتهى إلى البيداء، قال: أشهدكم أنني قد كنت جعلتها عمرة و أنني قد أضفت إليها حجّة. ٣٨- حدثني أبي، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا حرام بن إسماعيل العامري، عن أبي إسحاق الشيباني، عن يسير بن عمرو، قال: دخلت على سهل بن حنيف بالمدينة فقلت: حدثني بما سمعت من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - في الحرورية، فقال: أحدثك ما سمعت من رسول الله في الحرورية لا أزيدك عليه: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - (٤٩٢)

يذكر قوماً يخرجون من هاهنا: وأشار بيده نحو العراق - يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، قال: قلت: هل ذكر لهم علامة؟ قال: هذا ما سمعته لا أزيدك . ٣٩ - حدّثني أبي، حدّثنا أبو كامل، حدّثنا حماد - يعني ابن سلمة - حدّثني سعيد ابن جمهان، قال: كانت الخوارج تدعوني حتى كدت أن أدخل معهم، فرأت أخت بلال في النوم أن أبا بلال كلب أسود عيناه تذرّفان، فقالت: بابي أنت يا أبا بلال ما شأنك أراك هكذا؟ قال: جعلنا بعدكم كلاب النار، و كان أبو بلال من رؤوس الخوارج . ٤٠ - حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن أبي زائدة، عن عكرمة بن عمار، حدّثني عاصم بن شميخ الغيلاني، قال: رأيت أبا سعيد الخدري يصلّي عند الزوال و هو معتمد على جريدة إذا قام اعتمد عليها و إذا ركع أسندها إلى الحائط و إذا سجد اعتمد عليها . ٤١ - حدّثنا هديّة بن خالد الأزدي، حدّثنا ديلم أبو غالب، عن ميمون الكردي، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - قال: تمرق مارقة من فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق . ٤٢ - حدّثني أبي حدّثنا وكيع، حدّثنا عكرمة بن عمار، عن عاصم بن شميخ، عن أبي سعيد الخدري، قال: كان رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - إذا حلف باليمين قال: «و الذي نفس أبي القاسم بيده ليخرجن قوم تحقرون أعمالكم عند أعمالهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة» قالوا: فهل من علامة يعرفون بها؟ قال: «فيهم رجل ذو ثديّة محلقي رؤوسهم» قال أبو سعيد: فحدّثني عشرون أو بضع و عشرون من (٤٩٣)

أصحاب النبي - صلّى الله عليه وآله وسلم - : أن علياً ولي قتلهم، قال فرأيت أبا سعيد بعد ما كبر و يدها ترتعشان يقول: إن قتالهم أجلّ عندي من قتال عدّتهم من الترك . ٤٣ - حدّثني أبي، حدّثنا إسحاق بن يوسف - يعني الأزرق - عن الأعمش، عن ابن أبي أوفى، قال: سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يقول: «الخوارج هم كلاب النار» . ٤٤ - حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد - أو قال: سمعت أنا سعيد الخدري يحدث - أنه سمع رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يقول: «لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتتان عظيمتان دعواهما في الدين واحدة، تمرق بينهما مارقة، يقتلها أولاهما بالحق» . ٤٥ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثني سويد بن عبيد العجلي، عن أبي مؤمن الوائلي، قال: شهدت علياً حين فرغ من قتالهم، قال: انظروا فإن فيهم رجلاً مخدج اليد، فطلبوه فلم يجدوه، فقال علي: ما كذبت ولا كذبت، قال: فقام علي فأخرجه من تحت ساقية، فخر علي ساجداً . ٤٦ - حدّثني أبي حدّثنا وكيع، حدّثنا بسام، عن أبي الطفيل، قال: سألت ابن الكواء علياً (رضي الله عنه) عن الأخسرين أعمالاً، قال: منهم أهل حروراء . ٤٧ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع حدّثنا حسن - يعني ابن صالح - عن أبي نعامه الأسدي، عن خال له، قال: سمعت ابن عمر يقول: إن نجدة و أصحابه عرضوا لغيرنا و لو كنت فيهم لجاهدتهم . ٤٨ - حدّثني أبي، حدّثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن أيوب، عن نافع: أخبرني ابن عمر أن نجدة لاقاه فحلّ شرح سيفه فأشرحته، ثم مرّ به فحلّه أيضاً (٤٩٤)

فأشرحته، ثم مرّ به الثالثة، فقال: من أشرح هذا كأنه ليس في أنفسكم ما في أنفسنا؟ ٤٩ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا عثمان الشحام أبو سلمة، حدّثني مسلم ابن أبي بكر، عن أبيه، قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - : «سيخرج قوم أحداً أشداء، ذلقة ألسنتهم بالقرآن، يقرأونه لا يجاوز تراقيهم، إذ ليقتموهم فاقتلوهم، فإنه يؤجر قاتلهم» . ٥٠ - حدّثني أبي، حدّثنا بهز و عفان قالوا: حدّثنا حماد - يعني ابن سلمة - حدّثني سعيد بن جمهان، قال: كنّا مع عبد الله بن أبي أوفى نقاتل الخوارج و قد لحق غلام لابن أبي أوفى بالخوارج فناديناه يا فيروز هذا ابن أبي أوفى فقال: نعم الرجل لو هاجر، قال: ما يقول عدوّ الله؟ قال: يقول: نعم الرجل لو هاجر، فقال: أهجرة بعد هجرتي مع رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال بهز في حديثه، يردّها ثلاثاً: سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - يقول: «طوبى لمن قتلهم»، و قال عفان و يونس: «لمن قتلهم و قتلوه» ثلاثاً . ٥١ - حدّثني أبي، حدّثنا روح بن عبادة، حدّثني عثمان الشحام، حدّثنا مسلم بن أبي بكر. و سألته هل سمعت في الخوارج شيئاً، فقال: سمعت والدي أبا بكره يقول عن نبي الله: «ألا أنه سيخرج من أمتي أقوام أشداء أحداً، ذليقة ألسنتهم بالقرآن لا يجاوز تراقيهم، ألا فإذا رأيتموهم ثم إذا رأيتموهم فأنيموهم فالمأجور قاتلهم» . ٥٢ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن عبد الأعلى، عن زياد بن طارق، قال: رأيت علياً حين

أخرج المخدج - على يده ثلاث شعرات - خزّ ساجداً، قال عبد الله بن طارق بن زياد: و لكن كذا قال وكيع. (٤٩٥) ٥٣ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا سفيان، عن محمّد بن قيس الهمداني، عن شيخ لهم يكنى أبا موسى قال: رايت علياً سجد حين أتى بالمخدج. ٥٤ - حدّثني أبي، حدّثنا يزيد بن هارون، انا حماد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب، قال: الذي يقتله الخوارج له عشرة أنور، فضّل ثمانية أنور على غيره من الشهداء. ٥٥ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، حدّثنا ابن أبي خالد، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: ذكر عنده الخوارج قال: هم قد زاغوا فأزاع الله قلوبهم. ٥٦ - حدّثني أبي، حدّثنا حماد بن مسعدة، عن يزيد - يعني ابن أبي عبيد - قال: لما ظهر نجدة الحروري أخذ صدقات، قيل لسلمة: ألا تباعد منهم؟ قال: فقال: والله لا أبأيعه ولا أتبعه أبداً، قال: و دفع صدقته إليهم. ٥٧ - حدّثني أبي، حدّثنا عفان، حدّثنا جويرية بن أسماء، قال: زعم نافع أن ابن عمر كان يرى قتال الحرورية حقاً واجباً على المسلمين. ٥٨ - حدّثني أبي، حدّثنا محمّد بن بشر، حدّثنا عبيدالله، عن نافع: ان ابن عمر أراد أن نقاتل نجدة حين أتى المدينة يغير على ذراريهم، فقيل له: إن الناس لا يبأيعونك على هذا، قال: فتركه. ٥٩ - حدّثني أبي، حدّثنا محبوب بن الحسن، حدّثنا خالد - يعني الحداء - عن أبي اياس معاوية بن قرّة، قال: خرج حروري محكّم، فخرج إليه ناس من أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - من مزينة بأسياهم منهم عائذ بن عمرو. ٦٠ - حدّثني أبي، حدّثنا عفان، حدّثنا يزيد بن زريع، حدّثنا خالد الحداء، عن معاوية بن قرّة: خرج محكّم في زمان أصحاب (٤٩٦)

رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - فخرجوا عليه بالسيف رهط من أصحاب رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - منهم عائذ بن عمرو. ٦١ - حدّثني أبي، حدّثنا عفان، حدّثنا سلام أبو المنذر، عن عاصم بن بهدلة قال: خرج خارجي بالكوفة، فقيل: يا أبا وائل هذا خارجي خرج فقتل، فقال: والله ما أعزّ هذا الله من دين ولا دفع عن مظلوم، هذا و أبيك الخير. ٦٢ - حدّثني أبي، حدّثنا أبو كامل مظفر بن مدرّك، حدّثنا حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس، قال: كنّا بالأهواز نقاتل الخوارج و فينا أبو برزة الأسلمي فجاء إلى نهر فتوضّأ ثمّ قام يصلّي. ٦٣ - حدّثني أبي، حدّثنا يزيد بن هارون، انا ابن إسحاق، عن أبي الزبير، عن أبي العباس مولى بنى الدليل، عن عبد الله بن عمرو، قال: ذكر عند رسول الله - صلّى الله عليه وآله وسلم - قوم يجتهدون في العبادة اجتهاداً شديداً، فقال: «تلك ضراوة في الإسلام و شرّه و لكلّ شرّه فترة، فمن كانت فترته إلى الاقتصاد فلاوم (١) ما هو و من كانت فترته إلى غير ذلك فأولئك هم الهالكون». ٦٤ - حدّثني أبي، حدّثنا هشيم، انا حصين، عن مصعب بن سعد، عن سعد في قوله: (يُحْسِنُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (٢) قال: قلت له: أهم الخوارج؟ قال: لا، و لكنّهم أصحاب الصوامع، و الخوارج الذين زاغوا فأزاع الله قلوبهم. ٦٥ - حدّثني أبي، حدّثنا هشيم، انا العوام، حدّثنا أبو غالب، عن أبي أمامة: زاغوا فأزاع الله قلوبهم. قال: هم الخوارج. ٦٦ - حدّثني أبي، حدّثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن حصين - و كان صاحب شرطة على - قال: قال علي: قاتلهم الله أي حديث

١. كذا في الأصل، و في أصل آخر: فلا ذم، و لعله لازم.

٢. الكهف: ١٠٤. (٤٩٧)

شانوا، يعني الخوارج. ٦٧ - حدّثني أبي، حدّثنا ابن نمير، انا عبيدالله، عن نافع، قال: لما سمع ابن عمر بنجدة قد أقبل و أنّه يريد المدينة و أنّه يسبى السبأ و يقتل الولدان، قال: إذا لا ندعه و ذاك، وهم بقتاله و حرّض الناس، فقيل له: إن الناس لا يقاتلون معك و تخاف أن تترك فتقتل، فتركه. ٦٨ - حدّثني أبي، حدّثنا أبو بكر بن عياش، قال: سمعت أبا إسحاق، عن أبي الأحوص، قال: خرج خوارج فخرج إليهم، فقتلوه. ٦٩ - حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، أخبرني عبد الملك، عن عطاء، عن ابن عباس: انّ علياً أخرجه إلى الخوارج فكلّمهم، ففرّق بينهم، فقالت الخوارج: بل هم قوم خصمون. ٧٠ - حدّثني أبي، حدّثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، أخبرني عاصم الأحول، عن عون بن عبد الله: انّ عمر بن عبد العزيز أخرجه إلى الخوارج فكلّمهم. ٧١ - حدّثني أبي، حدّثنا يزيد - يعني ابن هارون - انا هشام بن حسان، حدّثني أبو الوضى القيسي، قال كنت في أصحاب على لما فرغ من أهل النهر، قال: اطلبوا فيهم ذا التديّة، فطلبوه فلم يجدوه، فأتوه فقالوا: لم نجده. قال: اطلبوه فإنّه فيهم. قال فطلبوه فوجدوه فأتى به فأتى لأنظر إليه وله في أحد

منكبيه مثل ثدى المرأة ليس له يد غيرها عليها شعرات. ٧٢ - حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا وَكَيْع، عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: أَنَّهُ رَأَى رُؤُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: كِلَابُ النَّارِ - ثَلَاثًا - شَرَّ قَتِيلٍ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرٌ قَتْلٍ مِنْ قَتْلُوهُ، ثُمَّ (٤٩٨)

قرأ: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) (١) قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال: لو لم أسمعته إلا مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً أو ستاً أو سبعاً ما حدثتكم به. ٧٣ - حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا غَالِبٍ يَقُولُ: لَمَّا أَتَى بَرُؤُوسَ الْأَزَارِقَةِ فَنُصِبَتْ عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، جَاءَ أَبُو أُمَامَةَ فَلَمَّا رَأَاهُمْ دَمَعَتْ عَيْنُهُ، قَالَ: كِلَابُ النَّارِ، كِلَابُ النَّارِ، كِلَابُ النَّارِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - هَؤُلَاءِ شَرَّ قَتْلَى قَتَلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، وَخَيْرٌ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ هَؤُلَاءِ، قُلْتَ: فَمَا شَأْنُكَ دَمَعْتَ عَيْنَكَ؟ قَالَ: رَحِمَهُ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ قُلْتَ: أِبْرَأَيْكَ قُلْتَ هُمْ كِلَابُ النَّارِ أَوْ شَيْئاً سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ؟ قَالَ: إِنِّي إِذَا لَجَرِي بَلِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثَةً، قَالَ: فَعَدَّ مَرَاراً قَالَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) حَتَّى بَلَغَ (هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ) ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى آخِرِهِ. ٧٤ - حَدَّثَنِي أَبُو خَيْثَمَةَ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ بْنُ عَيْنَةَ، عَنْ أَبِي غَالِبٍ سَمِعَ أَبَا أُمَامَةَ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَهُ فَرَأَى رُؤُوسًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، فَقَالَ كِلَابُ النَّارِ، كِلَابُ النَّارِ، شَرَّ قَتْلَى، وَخَيْرٌ قَتْلَى مِنْ قَتْلُوهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا أُمَامَةَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ؟ قَالَ: نَعَمْ غَيْرَ مَرَّةٍ. ٧٥ - حَدَّثَنِي أَبُو خَيْثَمَةَ زَهْرِبْنُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا عَمَّارُ بْنُ يُونُسَ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا شَدَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: وَقَفَ أَبُو أُمَامَةَ وَأَنَا مَعَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْحَرُورِيَّةِ بِالشَّامِ عِنْدَ بَابِ مَسْجِدِ حَمَصٍ أَوْ دِمَشْقَ، فَقَالَ لَهُمْ: كِلَابُ النَّارِ - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - شَرَّ قَتْلَى تَظَلُّ السَّمَاءَ، وَخَيْرٌ قَتْلَى مِنْ قَتْلُوهُمْ

١. آل عمران: ١٠٦. (٤٩٩)

- وَدَمَعَتْ عَيْنَا أَبِي أُمَامَةَ - قَالَ رَجُلٌ: أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ شَرَّ قَتْلَى تَظَلُّ السَّمَاءَ، وَخَيْرٌ قَتْلَى قَتَلُوهُمْ، أَشَيْءٌ مِنْ قَبْلِ رَأْيِكَ أَوْ شَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ؟ قَالَ: مِنْ قَبْلِ رَأْيِي إِنِّي إِذَا لَجَرِي لَوْلَمْ أَسْمِعْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ - حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَارٍ - مَا حَدَّثْتُمْ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: رَأَيْتَكَ دَمَعْتَ عَيْنَاكَ؟ فَقَالَ: رَحِمَهُ رَحْمَتُهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) (١) الْآيَةُ. ٧٦ - حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ وَهُوَ أَبُو ضَمْرَةَ الْمَدِينِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ صَفْوَانَ بْنَ سَلِيمٍ يَقُولُ: دَخَلَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ دِمَشْقَ فَرَأَى رُؤُوسَ حَرُورَاءٍ قَدْ نُصِبَتْ فَقَالَ: كِلَابُ النَّارِ - ثَلَاثًا - شَرَّ قَتْلَى تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ مِنْ خَيْرِ قَتْلَى مِنْ قَتْلُوهُ، ثُمَّ بَكَى، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ هَذَا الَّذِي تَقُولُ مِنْ رَأْيِكَ أَوْ سَمِعْتَهُ؟ فَقَالَ: إِنِّي إِذَا لَجَرِي كَيْفَ أَقُولُ هَذَا عَنْ رَأْيِي وَ لَكِنْ قَدْ سَمِعْتَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ. قَالَ: فَمَا يَبْكِيكَ؟ قَالَ أَبْكِي لَخُرُوجِهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاتَّخَذُوا دِينَهُمْ شِيعًا. ٧٧ - حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ - يَعْنِي ابْنَ عَلِيَّةٍ - أَنَا سَلِيمَانُ التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: ذَكَرَ لِي أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ: إِنَّ فِيكُمْ قَوْمًا يَعْبُدُونَ وَيَدِينُونَ حَتَّى يَعْبُجُوا النَّاسَ وَتَعْجَبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ. ٧٨ - حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا رَبَاحٌ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «يَكُونُ

١. آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦. (٥٠٠)

فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وَفِرْقَةٌ يَخْرُجُونَ فِيهِمْ قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا- يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، سِيَمَاهُمُ الْحَلْقُ وَالتَّسْبِيْتُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَأَنِيمُوهُمْ» - قَوْلُهُ التَّسْبِيْتُ يَعْنِي اسْتِئْصَالَ الشَّعْرِ - . ٧٩ - حَدَّثَنِي أَبُو بَشْرٍ بَكْرُ بْنُ خَلْفِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَقْرِيُّ وَ سَأَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ غِيْلَانَ، عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِمَكَّةَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مَرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» . ٨٠ - حَدَّثَنِي أَبِي

حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي سعيد الخدري، قال: بينا رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «و يلكك و من يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله أتأذن لي أن أضرب عنقه، فقال النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم -: «دعه فإنَّ له أصحاباً يحقِّق أحدهم صلواته مع صلواته، و صيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في نصيبه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، و قد سبق الفرث و الدم، آيتهم رجل أسود في إحدى يديه أو قال إحدى ثديه كشدى المرأة، و مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فترة من الناس، فنزلت فيهم: (وَمَنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) الآية (١) قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله، و أشهد أن علياً حين قتلهم و أنا معه جيئ بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله. _____

١. التوبة: ٥٨. (٥٠١) ٨١ - حدَّثني أظفر بن حماد بن واقد، حدَّثنا مهدي بن ميمون، عن محمد بن سيرين، عن معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - قال: «ليخرج قوم بالمشرك يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم على فوقه» قال: قيل: ما سيماهم؟ قال: «سيماهم الحلق أو التسييت». ٨٢ - حدَّثني نصر بن علي، حدَّثنا غسار بن مضر حدَّثنا أبو مسلمة سعيد بن يزيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم -: «تمرق مارقة من هذه الأمية مروق السهم من الرميَّة، ان الرجل ليرمي رميته فينفذها سهمه فتطلق الرميَّة حائطه، قال: فيتحرك هنيهة ثم يقع فيه فيتبع سهمه فينظر في النصل فلا يجد بينه قال: فيحدِّث نفسه لئن كنت أصبت لأجدن بينه في القذذ و الفوقتين، قال: فينظر في القذذ و الفوقتين فلا يجد بينه، قال: فلا يعلقون من الإسلام إلا كما يعلق ذلك السهم من رميته، قال: و لا يعودون فيه، ثم يقرأون كتاب الله لا يعدو تراقيهم، قال: يحتقر أو يزدرى عمله عند عملهم، سيماهم التحليق، هم شر الخلق و الخليفة - مرتين - يتولَّى قتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق - يعني أصحاب النهروان - فقال أبو سعيد: الحمد لله الذي ولَّى قتلهم أهل العراق. ٨٣ - حدَّثني أبي، حدَّثنا هشام بن القاسم، حدَّثنا حشرج بن نباتة العبسي، حدَّثني سعيد بن جمهان، قال: لقيت عبد الله بن أبي أوفى و هو محجوب البصر فسلمت عليه، فقال لي: من أنت؟ قال: قلت: أنا سعيد بن جمهان. قال: فما فعل والدك؟ قال: قلت: قتلته الأزارقة. قال لعن الله الأزارقة، لعن الله الأزارقة. (٥٠٢) ٨٤ - حدَّثنا رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم -: «أنهم كلاب النار، قال: قلت: الأزارقة و حدهم أم الخوارج كلها؟ قال: لا، بل الخوارج كلها. و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين * * *

الجزء السادس (يتناول تاريخ الشيعة)

إشارة

الملل والنحل الجزء السادس (يتناول تاريخ الشيعة نشأتهم، عقائدهم، فرهم و شخصياتهم)

مقدمة المؤلف

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه وآله وعلى رواة سنته وحمله أحاديثه وحفظه كلمه (٥)

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنى بطوله، والصلاة والسلام على سيد رُسله وخاتم أنبيائه، الذي بعثه لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، وعلى آله الذين هم موضع سره، وملجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، صلاة دائمة مادام الفرقان، وكرّ الجديان . أما بعد: فهذا هو الجزء السادس من موسوعتنا في دراسة تاريخ المذاهب الإسلامية وقد درسنا الفرق المشهورة، ولم تبق إلا الشيعة بفرقها الثلاث

المنتشرة في العالم: الإمامية، والزيدية، والإسماعيلية. نسال الله سبحانه أن يوقفنا في دراسة مذهب الشيعة، الذين جنى عليهم كثير من المؤرخين وكتّاب المقالات و الفرق، و كتبوا عنهم أشياء كثيرة هم برآء منها. ولم يرجعوا عند البحث عن عقائد هذه الفرقة إلى مؤلفاتهم و كتبهم و آثارهم، وإنما اعتمدوا على أفواه الرجال و نقله الأخبار، فصاروا كحاطب ليل يجمع في حزمته كل رطب و يابس، و الحق كما يقول بعض الأساتذة: «إنه تطوّر كل شيء إلا الكتابة عن الشيعة، و لكلّ بداية نهاية إلا الافتراء على الشيعة، و لكلّ حكم مصدره و دليله إلا الأحكام على الشيعة» (١). _____

١. عبدالله بن سبأ ١ / ٩ (مقدمة الطبعة الثالثة بقلم الأستاذ المغفور له محمد جواد مغنية).

(٦)

و نشكر القراء الكرام الذين شجّعونا برسائلهم على مواصلة بحث و دراسة هذه المواضيع الهامة في تاريخ أمتنا المجيدة، و نتقدّم بالشكر إلى العلماء الذين يقدّمون لنا النقد البناء، فإنّ العصمة لله و لمن عصمه. قم - جعفر سبحاني ٢٨ شعبان المعظم ١٤١٢ هـ

الشيعة لغةً و اصطلاحاً

الشيعة لغةً و اصطلاحاً

الشيعة لغةً هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد في قضاياهم، يقال تشايح القوم إذا تعاونوا، و ربّما يطلق على مطلق التابع، قال سبحانه: (فَأَسِيغَآئُهُ الَّذِي مِنْ شِيَعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) (١) و قال تعالى: (وَإِنْ مِنْ شِيَعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (٢) فالشيعة هم الجماعة التابعة لرئيس لهم . و أمّا اصطلاحاً فلها إطلاقات عديدة بملاكات مختلفة: ١- الشيعة: من أحبّ علياً و أولاده باعتبارهم أهل بيت النبي الذين فرض الله سبحانه مودّتهم قال عزّوجلّ: (قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (٣) و الشيعة بهذا المعنى تعمّ كلّ المسلمين إلا النواصب، بشهادة أنّهم يصلّون على نبيهم و آله في صلواتهم و أدعيتهم و يتلون الآيات النازلة في حقّهم صباحاً و مساءً، و هذا هو الإمام الشافعي يصفهم بقوله: _____

١. القصص / ١٥ .

٢. الصافات / ٨٣ - ٨٤ .

٣. الشورى / ٢٣ . (٨)

يا أهل بيت رسول الله حبّكم * فرض من الله في القرآن أنزله كفأكم من عظيم الشأن أنكم * من لم يصلّ عليكم لا صلاة له (١) و أمّا النواصب فهم الذين نصبوا العلى و أهل بيته العدا و تلقّوه فريضة دينية و أعانهم على ذلك مرتزقة أصحاب البلاط، و ترجع جذور هذه الفكرة إلى معاوية حيث سنّ سبّ عليّ على المنابر و تبعه أولاده و عشيرته إلى أواخر الدولة الأموية، و كتب ابن أبي سفيان إلى عمّاله في جميع الآفاق: «أنظروا إلى من أقيمت عليه البيّنة أنّه يحبّ علياً و أهل بيته، فامحوه من الديوان و أسقطوا عطاءه و رزقه» ثمّ كتب نسخة أخرى إلى عمّاله و شدّد الأمر فيها و قال: «من أهتمّمه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به و اهدموا داره» . و على هذا المنشور قام الخطباء في كل كورة و على كل منبر يلعنون علياً و يبرأون منه و يقعون فيه و في أهل بيته... (٢). ٢- من يفضّل علياً على عثمان أو على الخلفاء عامية مع اعتقاده بأنّه رابع الخلفاء و إنّما يقدّم لاستفاضته مناقبه و فضائله عن الرسول الأعظم، و التي دونها أصحاب الحديث في صحاحهم و مسانيدهم و هي تلزم الإنسان الاعتقاد بأنّه أفضل الصحابة، و على ذلك معتزلة بغداد و قليل من أهل الحديث، و على ذلك الاصطلاح جرى أكثر من كتب في الرجال و التراجم و المقالات حيث يصفون قليلاً من الصحابة و كثير من التابعين بأنّه يتشيع أو أنّه شيعي، و ربّما يعدّونه من أسباب الجرح و كأنّ حبّ أهل البيت عمل اجرامي أو أنّ تقدّم الخلفاء على عليّ أصل من أصول الدين لا يجوز تجاوزه، مع أنّ الإمامة من الفروع عند أهل السنّة فكيف درجات الخلفاء و رتبهم . و ربّما يختلط الأمر على من ليس له إمام بالاصطلاح، فلا يفرّق بينهما، _____

١ . الصواعق ١٤٨ ط ١٣٨٥ الطبعة الثانية .

٢ . وسيوافيك مصدره وبيان عداة ابن أبي سفيان للإمام وعترته وشيعته . (٩)

وأكثر من يستعمل هذا الاصطلاح هو الذهبي في «ميزان الاعتدال» و «سير أعلام النبلاء» فيصف بعض التابعين و المحدثين بالتشيع مملحاً بذلك إلى ضعفهم، وقد رُمى أبو عبدالله الحاكم النيسابوري بالتشيع كمتعزلة بغداد، والمقصود تفضيلهم علياً على سائر الخلفاء لا أنه الإمام المنصوص بالخلافة . ٣- الشيعة: من يشايح علياً وأولاده باعتبار أنهم خلفاء الرسول و أئمة الناس بعده، نصبهم لهذا المقام بأمر من الله سبحانه، وذكر أسماءهم وخصوصياتهم، والشيعة بهذا المعنى هو المبحوث عنها في المقام، وقد اشتهر بأن علياً هو الوصي حتى صار من ألقابه، وذكره الشعراء بهذا العنوان في قصائدهم (١) وهو يقول في بعض خطبه: «لا يقاس بآل محمد من هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً. هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والورثة...» (٢) . ومجمل القول: إن هذا اللفظ يشمل كل من قال: إن قيادة الأمة لعلي بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنه يقوم مقامه في كل ما يمت إليه سوى النبوة ونزول الوحي عليه. كل ذلك بتنصيب من الرسول، وعلى ذلك فالمقوم للتشيع وركنه الركين هو القول بالوصاية والقيادة بجميع شؤونها للإمام - عليه السلام - فالتشيع هو الاعتقاد بذلك، وأما ما سوى ذلك فليس مقوماً لمفهوم التشيع ولا يدور عليه اطلاق الشيعة .

١ . خطب الإمام أبو محمّد: الحسن السبط حين قتل أمير المؤمنين خطبته الغراء فقال: أنا ابن النبي وأنا ابن الوصي أخرجه الحاكم في مستدرکه ١ / ١٧٢، وقد ذكر ابن أبي الحديد أشعاراً وأراجيز تضمن توصيف الإمام بالوصاية عن الصحابة والتابعين، لاحظ شرح النهج ١ / ١٤٣ - ١٥٠ باب ما ورد في وصاية علي من الشعر .

٢ . نهج البلاغة، الخطبة الثانية . (١٠)

لا شك أن للشيعة عقائد وآراء في مجارى الأصول والفروع وربما يشاركون غيرهم فيها وربما يخالفونهم، ولكنها ليست من سماتهم وأعرافهم وإنما هي أصول وأحكام دعاهم الدليل إلى تبنيها من الكتاب والسنة والعقل . مثلاً إن الشيعة تقول باتحاد الصفات الذاتية لله سبحانه معها، وكونه سبحانه غير مرئي في الدارين، وأن كلامه مخلوق له، وأنه لا يكلف ما لا يطاق، وأن حقيقة الأمر في أفعال العباد لا- جبر ولا- تفويض بل أمر بين الأمرين، وأن الأنبياء معصومون إلى غير ذلك من الآراء، ولكنها آراء كلامية للشيعة لا أنها المقوم للتشيع بحيث لو خالف فيها رجل منهم، ولكنه قال بالوصاية لعلي وبالقدرة لعترته، لخرج عن اطار التشيع وأصوله. إن التشيع بهذا المعنى عبارة عن الاعتقاد باستمرار القيادة الإسلامية في قالب الوصاية لعلي وعترته، والشيعة تدعى أن هذه الفكرة غرست بيد النبي في أيام حياته، وتبناها لفيف من المهاجرين في عصره، وبقوا عليها بعد حياته واقتدى بهم لفيف من التابعين لهم بإحسان وتواصل الاعتقاد به من تلك العصور إلى زماننا الحاضر، وهذا هو الذي تدعيه الشيعة وعليه بُني صرح التشيع ونحن في غنى عن الاتيان بنصوص أعلامهم وأكابرهم في المقام التي تدل على أن الوصاية للإمام بعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فالأولى طرح الموضوع على بساط البحث وعرضه على المرتكزات العقلية، ولأجل تسليط الضوء على المسائل المهمة نبحت عن الجهات التالية وكل واحدة منها في فصل خاص بها: ١- في تبين متطلبات الظروف في عصر النبي، فهل كانت تقتضى أن تكون صيغة الحكم هي التنصيب أو كانت تقتضى تفويض الأمر إلى اختيار الأئمة لنتخب الحاكم والقائد عليها؟ ٢- ما هو المرتكز في الأذهان في عصر الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وبعده في أمر القيادة؟ (١١)

٣- ما هو مقتضى الكتاب والسنة في القيادة بعد الرسول؟ ٤- ما هو السر في مخالفة الجمهور لنص الرسول وتصريحه؟ ٥- مبدأ التشيع وتاريخه ورواد التشيع في عصر الرسول والصحابة والتابعين. ٦- افتراضات وهمية حول تاريخ الشيعة . ٧- صيغة الحكومة الإسلامية عند أهل السنة . ٨- نصوص الخلافة والركون إلى الأمر الواقع . ٩- الشيعة في عصر الدولتين الأموية والعباسية. ١٠- عقائد الشيعة الامامية الاثنا عشرية . ١١- أئمة الشيعة الاثنا عشر ونبذة عن حياتهم . ١٢- دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية وتطوير العلوم . ١٣-

دول الشيعة وبلدانهم عبر التاريخ . ١٤- مصادر علوم الشيعة . فالذي نعتقد أن تحليل هذه الجهات يكشف الواقع للمحقق ولا يُبقى له شكاً في أصالة التشيع وأنه استمرار للإسلام عبر الحقب والأعوام . (١٢) (١٣)

الفصل الأول بيان متطلبات الظروف في عصر

الفصل الأول بيان متطلبات الظروف في عصر الرسول في مجال القيادة الإسلامية (١٤) (١٥)

لاشك أن الدين الإسلامي دين عالمي، وشريعة خاتمة، وقد كانت قيادة الأمة من شؤون النبي الأكرم مادام على قيد الحياة، ثم إنه وقع الاختلاف بين أصحاب المقالات والفرق في صيغتها بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - فهل كانت متبلورة في صيغة النص أو في انتخاب الأمة . الشيعة ترى أن القيادة منصب تنصيبى والذى ينص على خليفه الرسول هو الله سبحانه عن طريقه - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بينما يرى أهل السنة غير ذلك ولكل من الاتجاهين دلائل وبراهين، و المقصود هنا دراسة متطلبات الظروف وتقييمها في عصر الرسالة، فهل كانت المصالح تكمن في تعيين القائد أو كانت تكمن في خلافه؟ فدراستها تُسلط الضوء على البحث الثالث و هو وجود النص من الرسول وعدمه، وإليك بيان ذلك: إن الظروف السياسية التي كانت سائدة في المنطقة كانت توجب على الرسول أن يعين القائد، وكانت المصلحة الإسلامية تقتضى ذلك، لأن المجتمع الإسلامي كان مهدداً على الدوام بالخطر الثلاثي، الروم، الفرس، المنافقين، وخطرهم يتمثل بشن هجوم مفاجيء كاسح أو إلقاء بذور الفساد والاختلاف بين المسلمين . فمصالح الأمة كانت توجب توحيد صفوف المسلمين في مواجهة الخطر (١٦)

الخارجى والداخلى، وذلك بتعيين قائد سياسى من بعده، وبذلك يسد الطريق على نفوذ العدو في جسم الأمة الإسلامية والسيطرة عليها، وعلى مصيرها، وبذلك يخسر الذين كانوا يتآمرون على ضرب الإسلام بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . أما العدو الأول فقد كان الامبراطورية الرومانية التي كانت تشكل إحدى أضلاع الخطر المثلث الذى كان يحيط بالكيان الإسلامى ويهدده من الخارج . وكانت هذه القوة الرهيبة تتمركز في شمال الجزيرة العربية، وكانت تشغل بال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على الدوام، حتى ان التفكير في أمر الروم لم يغادر ذهنه وفكره حتى لحظة الوفاء، والالتحاق بالرفيق الأعلى . وكانت أول مواجهة عسكرية بين المسلمين والجيش المسيحى الرومى في السنة الثامنة من الهجرة في أرض فلسطين، وقد أدت هذه المواجهة إلى مقتل القادة العسكريين البارزين الثلاثة وهم «جعفر الطيار» و «زيد بن حارثة» و «عبدالله بن رواحة» . ولقد أدى انسحاب الجيش الإسلامى بعد مقتل القادة المذكورين إلى تزايد جراءة الجيش القيصرى المسيحى، فكان يخشى بصورة متزايدة أن تتعرض عاصمة الإسلام للهجوم الكاسح من قبل هذا الجيش . من هنا خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في السنة التاسعة للهجرة (غزوة تبوك) على رأس جيش كبير جداً إلى حدود الشام ليقود بنفسه المواجهة العسكرية، وقد استطاع الجيش في هذه الرحلة الصعبة المضنية أن يستعيد للأمة الإسلامية هيبتها من جديد . غير أن هذا الانتصار المحدود لم يُقنع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فأعد قبيل ارتحاله جيشاً كبيراً من المسلمين . وأمر عليهم «أسامة بن زيد» وكلفهم بالتوجه إلى حدود الشام والحضور في تلك الجبهة. (١٧)

أما الضلع الثانى من المثلث الخطير الذى كان يهدد الكيان الإسلامى، فكان الامبراطورية الايرانية (الفارسية) وقد بلغ غضب هذه الامبراطورية على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعاداتها لدعوته، أن أقدم امبراطور إيران، «خسرو پرويز» على تمزيق رسالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتوجيه الاهانة إلى سفيره باخراجه من بلاطه، والكتابة إلى واليه وعميله في اليمن بأن يوجه إلى المدينة من يقبض على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو يقتله إن امتنع. و«خسرو» هذا و إن قتل زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يغب عن نظر ملوك إيران آنذاك، وكان غرور أولئك الملوك وتجبرهم وكبرياؤهم لا يسمح بتحمل منافسة القوة الجديدة (القوة الإسلامية) لهم . والخطر الثالث وهو الأعظم (لأن القلعة الحصينة لا تهزم إلا من داخلها) كان هو خطر حزب النفاق الذى كان يعمل بين صفوف

المسلمين كالتابور الخامس، على تفويض دعائم الكيان الاسلامى من الداخل، إلى درجة أنهم قصدوا اغتيال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في طريق العودة من تبوك إلى المدينة. فقد كان بعض عناصر هذا الحزب الخطر يقول في نفسه: إن الحركة الاسلامية سينتهى أمرها بموت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ورحيله، وبذلك يستريح الجميع (١). ولقد قام أبو سفيان بن حرب بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمكيدة مشؤومة لتوجيه ضربة إلى الأمة الإسلامية من الداخل، وذلك عندما أتى علياً - عليه السلام - وعرض عليه أن يبايعه ضدَّ عيَّن في السقيفة، ليستطيع بذلك

١. الطور / ٣٠ .

(١٨)

شطر الأمة الإسلامية الواحدة إلى شطرين متحاربين متقاتلين، فيتمكّن حينها من الصيد في الماء العكر . ولكن الإمام علياً - عليه السلام - أدرك بذلك المفرد نوايا أبي سفيان الخبيثة فرفض مطلبه وقال له كاشفاً عن دوافعه ونواياه الشريرة: «والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً. لاجاه لنا في نصيحتك» ومع أن الإمام رده خائباً لكنّه استمرّ في فتنته لشق عصا الأئمة فأخذ يتردد في أزقة المدينة منادياً: بنى هاشم لا تطعموا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرّة أو عدى فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن علي (١) ولقد بلغ دور المنافقين الهدام في الشدة بحيث تعرّض القرآن الكريم لذكرهم في سور عديدة هي: سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والعنكبوت، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والمجادلة، والحديد، والمنافقون، والحشر . فهل مع وجود مثل هؤلاء الأعداء الأقوياء الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر، ويتحينون الفرص للقضاء عليه، يصح أن يترك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمته الحديثة العهد بالإسلام، الجديدة التأسيس من دون أن يعين لهم قائداً دينياً سياسياً؟ إن المعطيات الاجتماعية توحى بأنه كان من الواجب أن يدفع رسول الإسلام - بتعيين قائد للأمة - ظهور أى اختلاف وانشقاق فيها من بعده، ويضمن بذلك استمرار وبقاء الأمة الإسلامية وإيجاد حصن قوى وسياج دفاعى متين حولها.

١. الكامل ٢ / ٣٢٥، العقد الفريد ٢ / ٢٤٩ .

(١٩)

إنّ تحصين الأمة وصيانتها من الحوادث المشؤومة والحيلولة دون مطالبه كل فريق الزعامة لنفسه دون غيره وبالتالي التنازع على مسألة الخلافة والزعامة، لم يكن متحققاً إلا بتعيين قائد للأمة وعدم ترك الأمور للأقدار . إن هذه المحاسبة الاجتماعية تهدينا إلى صحة نظرية «التنصيب على القائد بعد الرسول» ولعل لهذه الجهة ولجهات أخرى طرح الرسول مسألة الخلافة في بدء الدعوة واستمر بذلك إلى آخر ساعة من عمره الشريف كما ستوافيك نصوصها.***

ثم إنى بعد ما حرّرت ذلك في سالف الأيام وأوردته في بعض محاضراتي الكلامية (١) وقفت على تقرير للمحقق الشهيد السيد الصدر المغفور له فقد بين متطلبات الظروف في تقديمه على كتاب تاريخ الشيعة للدكتور عبدالله فياض بنحو آخر وهو تقرير رصين نكتطف منه ما يلي: كان النبي الأكرم يدرك منذ فترة أن أجله قد دنى وأعلن ذلك بوضوح في حجّة الوداع ولم يفاجئه الموت مفاجأة، وهذا يعنى أنه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة، وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ أنه كانت أمام النبي ثلاثة طرق بالإمكان انتهاجها تجاه مستقبل الدعوة. الطريق الأول: أن يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً ويكتفى بممارسة دوره في قيادة الأمة وتوجيهها فترة حياته ويترك مستقبلها للظروف والصدف، وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنها إنما تنشأ من أحد أمرين كلاهما لا ينطبقان عليه .

١. الإلهيات ٢ / ٥٥٤ - ٥٨٤، لولدنا الفاضل الروحاني الشيخ حسن مكى العاملى - حفظه الله . .

(٢٠)

١- «الاعتقاد بأن هذه السلبية والاهمال لا تؤثر على مستقبل الدعوة، وأن الأمة قادرة على التصرف بالشكل المذموم يحمى الدعوة،

ويضمن عدم الانحراف». وهذا الاعتقاد لا- مبرر له من الواقع اطلاقاً، لأن الدعوة الإسلامية بما أنها كانت تغييراً انقلابياً في بدايته، تستهدف بناء أمة، واستتصال كل جذور الجاهلية منها، تتعرض لأخطر الأخطار إذا خلت الساحة من قائدها، وتركها دون أي تخطيط. فهناك الأخطار تنبع عن طبيعة مواجهة الفراغ دون أي تخطيط سابق، فإن الرسول إذا ترك الساحة دون تخطيط لمصير الدعوة، فسوف تواجه الأمة لأول مرة، مسؤولية التصرف بدون قائدها، تجاه مشاكل الدعوة وهي لا تملك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد. وسوف يتطلب منها الموقف تصرفاً سريعاً آتياً بالرغم من خطورة المشكلة، لأن الفراغ لا يمكن أن يستمر. فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي شيئاً يمكن أن يخفى على أي قائد ممارس للعمل العقائدي فضلا عن خاتم الأنبياء. ٢- الذي يمكن أن يفسر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومسيرها بعد وفاته، أنه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضد ذلك الخطر، لأنه ينظر إلى الدعوة نظرة مصلحة فلا يهتم إلا أن يحافظ عليها مادام حياً ليستفيد منها ويستمتع بمكاسبها ولا يعنى بحماية مستقبلها بعد وفاته. وهذا التفسير لا يمكن أن يصدق على النبي حتى لو لم نلاحظه بوصفه نبياً ومرتباً بالله سبحانه وتعالى في كل ما يرتبط بالرسالة، وافترضناه قائداً للقائد الرسول، في اخلاصه لدعوته، وتفانيه فيها، وتضحيته من أجلها إلى آخر لحظة من حياته، وكل تاريخه يبرهن على ذلك. الطريق الثاني: أن يخطط الرسول القائد لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتخذ (٢١)

موقفاً إيجابياً يجعل القيمومة على الدعوة ممثلة على أساس نظام الشورى الذي يضم مجموع المهاجرين والأنصار، فهذا الجيل الممثل للأمة هو الذي سيكون قاعدة للحكم ومحوراً لقيادة الدعوة في خط نؤها. وفيما يلي ما يرد تلك الفكرة: ١- لو كان النبي قد اتخذ من مستقبل الدعوة بعده موقفاً إيجابياً يستهدف وضع نظام الشورى موضع التطبيق بعد وفاته مباشرة، واسناد زعامة الدعوة إلى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام، لكان من أبده الأشياء التي يتطلبها هذا الموقف الإيجابي، أن يقوم الرسول القائد بعملية توعية للأمة والدعاة، على نظام الشورى وحدوده وتفصيله واعطائه طابعاً دينياً مقدساً، واعداد المجتمع الإسلامي اعداداً فكرياً وروحياً لتقبل هذا النظام، وهو مجتمع نشأ من مجموعة من العشائر لم تكن قد عاشت قبل الإسلام وضعاً سياسياً على أساس الشورى وإنما كانت تعيش في الغالب وضع زعامات قبليّة وعشائريّة تتحكم فيها القوة والثروة وعامل الوراثة إلى حد كبير. ونستطيع بسهولة أن نذكر أن النبي لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية لأن هذه العملية لو كانت قد أنجزت لكان من الطبيعي أن تنعكس وتتجسد في الأحاديث المأثورة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، وفي ذهنية الأمة وعلى أقل تقدير في ذهنية الجيل الطبيعي منها، الذي يضم المهاجرين والأنصار بوصفه، وهو المكلف بتطبيق نظام الشورى، مع أننا لانجد في الأحاديث المأثورة عن النبي أي صورة تشريعية محددة عن نظام الشورى، وأما ذهنية الأمة أو ذهنية الجيل الطبيعي منها فلا نجد فيها أي ملامح أو انعكاسات محددة لتوعية من ذلك القبيل. ثم إنه (- رحمه الله -) استشهد بفعل الخليفة الأول حيث لم يمارس نظام الشورى في حال حياته وقام بتنصيب عمر مكانه، كما فعل ذلك أيضاً الخليفة الثاني في نطاق (٢٢)

خاص فجعله محصوراً في ستة أشخاص، وسيوافيك تفصيل ذلك في الفصل الثاني. الطريق الثالث: وهو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة الأشياء ومعقولا على ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبي. وهو أن يقف النبي من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفاً إيجابياً فيختار بأمر من الله سبحانه وتعالى شخصاً يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة، فيعده اعداداً رسالياً وقيادياً خاصاً تتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية، وليواصل بعده (بمساندة القاعدة الشعبية الواعية من المهاجرين والأنصار)، قيادة الأمة وبناءها عقائدياً وتقريبها باستمرار نحو المستوى الذي يؤهلها لتحمل المسؤوليات القيادية.

وهكذا نجد أن هذا هو الطريق الوحيد الذي كان بالامكان أن يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة الحكم من الانحراف في خط نموها وهكذا كان (١). وعلى ذلك فالقول بالتشيع عبارة عن القول بوجود ضمان لاستمرار الدعوة بتعيين الوصي من جانب الرسول بأمر من الله، وقد عرفت أن طبيعة الظروف في عصر الرسول كانت تقتضي ذلك على الوجه الكلي، أي كان يتطلب تعيين القائد وأن لا يترك الأمر إلى الأمة، وعدم اهماله وتركه للصدف، واستعرف في الفصل الثالث أنه قد صدق الخبر الخبر، وأن الرسول قد قام

بتلك الوظيفة التي تضمن استمرار الدعوة وسلك هذا الطريق سلوكاً واضحاً. * * *

وهناك بيان ثالث يعطى نفس ما أعطاه الوجهان وهو دراسة طبيعة الحكم من زاوية طروء الفراغ الهائل بعد رحلة الرسول فيما يمت إلى صلب الدين وهداية الأمة إلى الحق والحقيقة: _____

١. مقدمه تاريخ الامامية ١٦ / ٥ بتلخيص .

(٢٣)

لقد درسنا متطلبات الظروف ومقتضيات عصر النبي في مجال القيادة وإدارة دفة الحكم ووصلنا إلى أن مصالح المسلمين كانت تكمن في تعيين القائد دفعا للأخطار المحدقة بالإسلام والمسلمين بوفاة النبي، ومفاجأة الأمة بفراغ مكانه القيادي. ويمكن لنا دراسة طبيعة الحكم من زاوية أخرى وهي ملاحظة الفراغات الهائلة الحاصلة بعد رحلة القائد، لا من جهة القيادة السياسية والاجتماعية، بل في جانب حاجة الأمة إلى قائد رسالي يسد تلك الفراغات المعنوية فيما يمت إلى صلب الدين وأمر هداية الأمة في مجال تفسير الكتاب وشرح مقاصده أولاً، وتبيين ما لم يبينه الرسول في مجال الأحكام ثانياً، وصيانة الدين الحنيف من محاولات التحريف ثالثاً فالأمة تواجه وتفاجيء هذه الفراغات الثلاثة، فمن المذى يسدها، فهل الأمة جميعاً أو المهاجرون والأنصار أو أهل الحل والعقد؟ والجواب: لا، لأن المفروض - كما سيأتي - قصورهم عن ملء الفراغ، فما هو الحل لهذا المشكل؟ وهذا هو الذي يستهدفه هذا البحث. فنقول: إن الرسول الأكرم لم تقتصر مسؤولياته على تلقى الوحي الإلهي وإبلاغ الآيات النازلة عليه بل كانت تتجاوز عن ذلك كثيراً فقد كانت وظائف ثلاث تقع على عاتقه بالإضافة إلى ما يقوم به من سائر الوظائف: ١- كان النبي الأكرم يفسر الكتاب العزيز ويشرح مقاصده ويبين أهدافه ويكشف رموزه وأسراره. ٢- وكان يبين أحكام الحوادث الجديدة الطارئة على المجتمع الاسلامي عن طريق القرآن الكريم وسنته. ٣- وكان يصون الدين من التحريف والدرس، فكان وجوده مدار الحق وتميزه عن الباطل، وكانت حياته ضماناً لعدم تطرق الدس والتحريف إلى دينه. (٢٤)

ولا شك أن موت النبي وفقدانه سيوجدان فراغات هائلة في المجالات الثلاثة فيجب اعداد قائد له القابلية والصلاحية في سد تلك الفراغات، ولا يقوم به إلا- من كان يتمتع بما كان يتمتع به الرسول عدا خصيصة النبوة وتلقى الوحي، فيكون وعاء علم النبي ومخزن أسراره، ومودع حكمته، حتى يقوم بتلك الوظيفة العظيمة. ومن الواضح أن هذه الكفاءات والمؤهلات المعنوية لا تحصل لشخص بطريق عادي ولا بالتربية البشرية المتعارفة، بل لابد من اعداد إلهي خاص وتربية إلهية خاصة هذا من جانب، ومن جانب آخر لا يمكن للأمة أن تتعرف بنفسها على هذا الشخص وتكتشف من تتوفر فيه تلك المؤهلات والكفاءات بالطرق العادية. كل ذلك يثبت نظرية التنصيب وأنه لا محيص عن تعيين القائد بتنصيب الرسول بأمر من الله سبحانه، أي تنصيب من يتصف بتلك الكفاءات التي لا يكتسبها إلا- من تربى في حضن الرسالة والرسول. وإليك تفاصيل هذه المفراغات، ونكتفي في كل مورد بموجز القول: ١- القرآن الكريم والابهامات الطارئة:

إن الله سبحانه يصف القرآن بأنه نزل إلى النبي لبيّن للناس ما نزل إليهم فيقول: (وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (١) وقال: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ) (٢) فقد وصف النبي في هاتين الآيتين بأنه مبين بما في الكتاب لا قارئ فقط، فكم فرق بين أن يقول: «لتقرأ» _____

١. النحل / ٤٤ .

٢. النحل / ٦٤ . (٢٥)

للناس» وبين: (لتبين لهم). إن هذه الآيات تكشف لنا عن أن القرآن رغم وضوحه من حيث اللفظ والمعنى ورغم أنه منزّه عن مشابهة كتب الألغاز والطلاسم، يحتاج إلى مبين ومفسر بسببين: ١- وجود المجملات في أحكام العبادات والمعاملات الواردة في آياته. ٢- غياب القرائن الحالية التي كانت الآيات محفوفة بها حين النزول، وكانت معلومة للمخاطبين في ذلك الوقت. وقد كان النبي بنفسه

يقوم بتفسير القرآن الكريم وتبيين مجمله وتقييد مطلقه وما أشبه ذلك. وكانت القرائن الحالية معلومة وواضحة لدى الأصحاب. ولما ارتحل النبي الأكرم إلى الرفيق الأعلى وحصل الفصل الطويل بينه وبين أمته، حدث هناك فراغ هائل في تفسير القرآن فلا ترى آية من الآيات إلا وفي تفسيرها آراء متضاربة إلى حدّ اختلافوا في تفسير الآيات التي تتعلق بأعمالهم اليومية: ١- قال سبحانه في آية الوضوء: (فَاعْسِلْوا وُجُوهُكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) (١) وقد تضاربت الآراء في فهم هذه الآية وصارت الأمة إلى قولين: فمن عاطف لفظ «أرجلكم» على الرؤوس فيحكم على الأرجل بالمسح، ومن عاطف له على الأيدي فيحكم على الأرجل بال غسل . ومن المعلوم أنّ إعراب القرآن الكريم إنّما حدث بعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فأى الرأيين هو الصحيح؟ ٢- لقد حكم الله تعالى على السارق والسارقة بقطع الأيدي حيث قال: _____

١. المائدة / ٦ .

(٢٦) (وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) (١) وقد اختلفت الأمة في مقدار القطع وموضعه: فمن قائل إنّ القطع من أصول الأصابع دون الكف وترك الابهام كما عليه الإمامية، وجماعة من السلف. ومن قائل إنّ القطع من الكوع، وهو المفصل بين الكف والذراع كما عليه أبو حنيفة ومالك والشافعي. ومن قائل إنّ القطع من المنكب كما عليه الخوارج (٢) .

٣- سئل أبو بكر عن الكلاله في قوله تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ) (٣) فقال: إنّني سأقول فيها برأبي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان، أراه ما خلا الولد والوالد. فلما استخلف عمر قال: إنّني لأستحبي الله أن أردّ شيئاً قاله أبو بكر. ٤- أمر الله سبحانه الورثة باعطاء السدس للكلالة في قوله سبحانه: (وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ) (٤) وفي الوقت نفسه يحكم سبحانه باعطاء الكلاله النصف أو الثلثين كما قال: (إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ

١. المائدة / ٣٨ .

٢. راجع الخلاف للطوسي (كتاب السرقة) ١٨٤. أحكام القرآن للجصاص ٤٢١: روى عن أبي هريرة أنّ رسول الله قطع يد سارق من الكوع. ونقل ابن قدامة الخلاف إذا سرق ثانياً: فعن عطاء وربيعة وداود أنّه تقطع يده اليسرى، وعن الآخرين: تقطع رجله اليسرى. المغنى ١٠ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٣. النساء / ١٧٦ .

٤. النساء / ١٢ . (٢٧) يَكُنْ لَهَا وَ لَدَّ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ) (١) .

فما هو الحل وكيف الجمع بين هاتين الآيتين؟ لا شك أنّه لم يكن ثمة ابهام في مورد هاتين الآيتين، بل حدث الابهام في ذلك فيما بعد . ألا يدل هذا على ضرورة من يخلف النبي حتى يرفع الستار عن وجه الحق بما عنده من علوم مستودعة . ٢- الرسالة الإسلامية والحوادث المستجدة:

إنّ اتساع رقعة الدولة الإسلامية ومخالطة المسلمين للشعوب والأقوام المختلفة جعلهم أمام موضوعات مستجدة ومساائل مستحدثة، لم تكن معهودة ولا معروفة في عهد النبي الأكرم الذي لم تكن فيه الدولة الإسلامية قد توسّعت كما توسّعت بعد وفاته، والتحاقه بالرفيق الأعلى . وكان من الأمر المشكل أن يتحدّث النبي عن أحكام موضوعات لم يعرف المسلمون شيئاً من ماهياتها وتفصيلاتها، ولم يشاهدوا لها نظيراً في حياتهم، ولأجل ذلك كانوا يجهلون أحكام الموضوعات المستجدة من دون أن يجدوا لها حلولاً وأجوبة، هذا من جانب . ومن جانب آخر أنّ الأحاديث التي رواها الصحابة والتابعون عن النبي الأكرم في مجال الأحكام لا تتجاوز عن خمسمائة حديث (٢) حتى قال الإمام الرازي: إنّ المنصوص حكمه من الموضوعات قليل جداً (٣) ولنذكر للموضوع نماذج: _____

١. النساء / ١٧٦ .

٢. الوحي المحمدي ٢١٢ الطبعة السادسة .

٣. المنار ٥ / ١٨٩ . (٢٨)

١- شغلت مسألة العول بال الصحابة فترة من الزمن وكانت من المسائل المستجدة بعد الرسول التي واجهها جهاز الحكم، ويعنى منه قصور التركة عن سهام ذوى الفروض. مثال ذلك: إذا ترك الميِّت زوجةً وأبوين وبتنين، ولما كان سهم الزوجة - حسب نص القرآن - الثمن وفرض الأبوين الثلث، وفرض البنتين الثلثين، والتركة لا تسع للثمن والثلث والثلثين، فلما عرضت المسألة على عمر ابن الخطاب قال: والله ما أدري أيكم قدم الله وأيكم آخر ما أجد شيئاً هو أوسع لى من أن أقسم المال عليكم بالحصص، وأدخل على كل ذى حق ما أدخل عليه من عول الفريضة (١). رجل طلق امرأته قبل الإسلام مرتين وفى الإسلام مرة فهل تحرم عليه أو لا؟ فقال عمر بن الخطاب للسائل: لا أمرك ولا أنهاك، وقال عبدالرحمان بن عمر: ولكنى أمرك ليس طلاقك قبل الإسلام بشيء (٢). ٢- إن الجيل المعاصر للرسول لم يكن يملك تصوّرات واضحة محدّدة حتى فى مجال القضايا الدينية التي كان يمارسها النبي مئات المرات وعلى مرأى ومسمع من الصحابة ونذكر على سبيل المثال لذلك، الصلاة على الميِّت، فإنها عبادة، كان النبي قد مارسها عادة مئات المرات وأداها فى مشهد عام من المشييعين والمصلين وبالرغم من ذلك يبدو أن الصحابة كانوا لا يجدون ضرورة لضبط صورة هذه العبادة مادام النبي يؤذيها وما داموا يتابعون فيها النبي فصلاً بعد فصل، ولهذا وقع الاختلاف بينهم بعد وفاة النبي فى عدد التكبيرات فى صلاة الميِّت، فقد أخرج الطحاوى عن إبراهيم قال: قبض رسول الله والناس مختلفون فى التكبير على الجنازة لا تشاء أن تسمع رجلاً يقول:

سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

١. أحكام القرآن للخصاص ٢ / ١٠٩، مستدرک الحاكم ٤ / ٣٤٠ .

٢. كنز العمال ٥ / ١٦١ . (٢٩)

يكبر سبعاً، وآخر يقول: سمعت رسول الله يكبر خمسا، وآخر يقول: سمعت رسول الله يكبر أربعاً، فاختلّفوا فى ذلك حتى قبض أبوبكر، فلمّا ولى عمر ورأى اختلاف الناس فى ذلك شقّ عليه جداً فأرسل إلى رجال من أصحاب رسول الله، فقال: إنكم معاصر أصحاب رسول الله متى تختلفون على الناس يختلفون من بعدكم ومتى تجتمعون على أمر يجتمع الناس عليه فانظروا أمراً تجتمعون عليه، فكأنما أيقظهم، فقالوا: نعم ما رأيت يا أمير المؤمنين الخ (١). فقد لمس الخليفة أن الكتاب والسنة النبوية غير وافية بالحاجات الفقهية ولهذا كان يعمد إلى الأخذ بالرأى والمقاييس المصطنعة لاستنباط حكم الموضوع. فهذه تكشف بوضوح عن أن الصحابة يواجهون وقائع وحوادث جديدة لا يجدون لها حلاً فى الكتاب والسنة أو فيما تلقوه من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ولذلك كانوا يحاولون استنباط قواعد ومقاييس لا تستند على أى دليل، فهل يصح هذا؟ مع أنه سبحانه يصرّح بأنه أكمل دينه، وأتم نعمته فكيف يجتمع هذا الفراغ الفقهى فى المسائل المستجدة مع الإكمال؟

١. عمدة القارىء ٤ / ١٢٩، ولاحظ مقدمة السيد الصدر على كتاب تاريخ الإمامية، للدكتور عبدالله فياض .

(٣٠) ٣- المسلمون وصيانة الدين من التحريف:

إنّ أبرز ما كان يتمتع به المسلمون فى عصر الرسول هو صيانة الدين من الدسّ والتحريف وهو الخطر الذى تعرّضت له جميع المذاهب السالفة، قال سبحانه: (مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا) (١). إنّ الأمة الإسلامية قد وصلت عند رحله الرسول بفضل جهود صاحب الدعوة إلى درجة مرموقة من الوعى حفظت كتابها عن محاولات الزيادة والنقصان، نرى أن الصحابي الجليل أبى بن كعب له موقف عظيم من عثمان فى كيفية كتابه آية الكثر أعنى قوله: (وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (٢) فإنّ عثمان اراد اثبات الآية فى المصحف بلا واو فقال أبى: «لتلحقنّها أو لأضعنّ سيفى على عاتقى»، فألحقوها (٣). ومع هذه المقدره لم تستطع حفظ مفاهيمه وصيانته دينها عن الدسّ والتحريف ففرقت إلى مشبهه، تتخيل أن لربها أعضاء كأعضاء الإنسان، إلى جبرى يرى الإنسان مسيراً لامخيراً، ويصوّر بعث الأنبياء أمراً لاجدوى فيه، إلى مرجئه لا ترى للعمل قيمة

وتعطي للإيمان تمام القيمة، إلى ناصبي ينصب العداء للعترة الطاهرة، إلى إلى...، حتى تفرقت أمة النبي الأكرم كتفرق الأمم السالفة، وهذا دليل واضح على أن الأمة الإسلامية ما بلغت يومذاك في الكفاءة والمقدرة العلمية إلى المستوى الذي يؤهلها لحفظ الإسلام أصله ولبيته، وقد مرّ في الجزء الأول من هذه الموسوعة أن الوضّاعين والدجالين من الأبحار والرهبان، والمغتربين بهم

١ . النساء / ٤٦ .

٢ . التوبة / ٣٤ .

٣ . الدر المنثور / ٣ / ٢٣٢ . (٣١)

دسوا بين المسلمين أحاديث موضوعه واسرائيليات ومسيحيات ومجوسيات كثيرة، ولقد عرفت الموضوعات الهائلة في عصر البخارى وشيوخه وتلاميذه، حتى أنه أخرج صحيحه من ستمائة ألف حديث (١). جاء في مسند أحمد ثلاثون ألف حديث وقد انتخبها من سبعمائة وخمسين ألف حديث وكان يحفظ ألف ألف حديث. (٢). نحن نفترض أن متوسط عدد الكلمات في الحديث عشرون كلمة فيكون مجموع ما صدر عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عشرين مليون كلمة في هذه الفترة القصيرة أى العشرة أعوام بالإضافة إلى ما كان لديه من أعمال ووظائف، وحروب وغزوات، واتفاقيات مع شيوخ القبائل، وارتداد إلى الأرياف، وتسيير دفة الحكم، فهل كان بإمكانه أن يتكلم بهذا العدد من الكلمات، سبحان الله، ما أجراهم على البهتان! ولو رجعت أنت إلى قائمة الموضوعات والمقولات التي عرضناها لك في الجزء الأول (٣) لجزمت بعدم كفاءة الأمة لصيانة الدين من الدس والتحريف. هذه هي الفراغات الحاصلة بعد وفاة النبي الأكرم، فمقتضى الحكمة وتجسيد اكمال الدين الذي جاء به الكتاب الكريم في قوله: (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (٤) أن تعالج هذه المشاكل أى تفسير الكتاب العزيز برفع الستار والابهامات الطارئة على مفاهيمه، والإجابة على المسائل المستجدة، والدفاع عن حمى الشريعة ولا تحل عقدة المشكلة ولا

١ . الهدى السارى، مقدمة فتح البارى ٥٤ .

٢ . طبقات الذهبى ١٧ / ٩ .

٣ . الجزء الأول من هذه الموسوعة / ٧٤ .

٤ . المائة / ٣ . (٣٢)

تسد تلك الفراغات إلا بإمام تتمتع بتربية إلهية، وإعداد غيبى، ولا تصل إليه الأمة إلا بتعيين الرسول أو بتعيين من عينه كما فى الأئمة الباقين، فعندئذ يتجسد قوله سبحانه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) وإلا لبقيت تلك الفراغات الهائلة وجرت على الأمة الويل والويلات كما جرت لها - وللأسف - لأجل اعراض الأمة عن الإمام المنصوب . هذا هو الذى نفهمه من معنى الإمام وهو ميزان الحق والباطل وأنه يرجع إليه فى التعرف على الصحيح والزائف. وأما إذا كان الرجل على حدّ يقول: وليتكم ولست بخيركم فإن استقمت فأعينونى وإن زغت فقومونى فلا- يصلح أن يكون إماماً بل يكون مأموماً فتصبح الرعية إماماً، والامام ماموماً، ونعم ما يقول الشاعر الشيعى ابن حماد العبدى: وقالوا رسول الله ما اختار بعده إماماً ولكننا لأنفسنا اخترنا أقمنا إماماً إن أقام على الهدى أطعنا وإن ضلّ الهداية قومنا فقلنا إذا أنتم إمام إمامكم بحمد من الرحمن تُهتّم وما تُهنا ولكننا اخترنا الذى اختار ربنا لنا يوم خم ما اعتدنا ولا جُرنا وهناك كلمة قيمة للفيلسوف ابن سينا تشير إلى فائدة تنصيب الإمام فيقول: «ثم إن هذا الشخص الذى هو النبي ليس ممّا يتكرّر وجود مثله فى كل وقت، فإنّ المادّة التى تقبل كمال مثله يقع فى قليل من الأمزجة، فيجب لا محالة أن يكون النبي قد دبر لبقاء ما يسّنه ويشرّعه فى أمور المصالح الإنسانية تدبيراً عظيماً (١) - إلى أن قال - والاستخلاف بالنص أصوب، فإنّ ذلك

لا يؤدّى إلى التشعب (٢) والتشاغب

١ . اشارة إلى سدّ الفراغات الحاصلة بعد وفاته .

٢ . اشارة إلى أن مصالح الإسلام تكمن في النص . (٣٣)

والاختلاف»(١) . إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة: أن مصالح الإسلام والمسلمين كانت تكمن في تعيين الإمام، لا تفويض الأمر إلى الأمة، وترك الأمر للظروف والصدف لترسيه على أي شاطئ تختاره .
١ . الشفاء ٢ (الفن الثالث عشر من الالهيات الفصل الثالث والخامس) ٥٥٨ - ٥٦٤ طبع ايران .

الفصل الثاني ماهو المركز في أمر القيادة في

الفصل الثاني ماهو المركز في أمر القيادة في ذهن الرسول والأمة (٣٦) (٣٧)

قد عرفت أن مقتضيات الظروف ومتطلباتها كانت تستدعي تعيين الإمام من جانب الرسول، كما أن كمال الدين في أبعاده الثلاثة المختلفة المذكورة آنفاً تستدعي ذلك أيضاً، فهلمّ معي ندخل في الموضوع الثاني الذي ألمحنا إليه في بداية البحث ضمن الأمور التي لا- مناص للمحقق إلا- دراستها، وهو تبين المركز في الأذهان في أمر الزعامة يوم بعث الرسول وبعده. إن النصوص التاريخية تشهد بأن الرسول الأكرم خيب آمال الطامحين في تولي الخلافة من بعده وقال بأنه بيد الله، يعني لا يبدى ولا بيد الناس، ويكفي في ذلك ما تتلوه: ١- لَمَّا عَرَضَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نَفْسَهُ عَلَى بَنِي عَامِرٍ فِي مَوْسَمِ الْحَجِّ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ قَالَ لَهُ كَبِيرُهُمْ: «أَرَأَيْتَ إِنْ نَحْنُ بَايَعْنَاكَ عَلَى أَمْرٍ كَثُرَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيَكُونُ لَنَا الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟» فَقَالَ النَّبِيُّ: «الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»(١) .

١ . السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٢٤ فلو كان الأمر ملقى على عاتق الأمة فما معنى كون الأمر إلى الله؟

(٣٨)

ولم يكن ذلك الأمر مختصاً بالنبي الأكرم، بل الامعان في تاريخ أصحابه والخلفاء الذين تعاقبوا على مسند الحكومة بعد النبي يدل على أنهم انتهجوا أيضاً نهج تنصيب الخليفة، لا تفويض أمره إلى الأمة. فلو أغمضنا النظر عن خلافة أبي بكر وما جرى حولها من لغط وشغب، وضرب وشتيم وارعاب وارهاب وغير ذلك من الأمور التي تجعلها بعيدة كل البعد عن الشورى والانتخاب النزيه، فلنا في انتخاب الخلفيتين الآخرين دليل واضح على أن المتصور من الخلافة عندهم هو تعيين الخليفة شخصاً لا تفويض أمر انتخابه للظروف والأمة . ٢- قال ابن قتيبة: دعا أبو بكر عثمان بن عفان فقال: اكتب عهدي، فكتب عثمان وأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا نازحاً عنها و أول عهده بالآخر داخلها، أتى أستخلف عليك عمر بن الخطاب... (١) . ويظهر من ابن الأثير في كامله أنه غشى على الخليفة أثناء الاملاء وإنما أكمله عثمان وكتب فيه استخلاف عمر من عند نفسه، ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ، فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن متّ في غشيتي(٢). فهل يمكن للخليفة أن يلتفت إلى الخطر الكامن في ترك الأمة دون خليفة، ولا يلتفت إليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . ٣- وأما استخلاف عثمان، فقد اتّفت كلمه المؤرخين على أن عمر طلب ستة أشخاص من أصحاب النبي وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص،

١ . الامامة والسياسة لابن قتيبة ١ / ١٨ طبع مصر .

٢ . الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٢٩٢، الطبقات الكبرى ٣ / ٢٠٠ طبع بيروت . (٣٩)

وعبدالرحمان بن عوف، وكان طلحة غائباً. فقال: يا معشر المهاجرين الأولين، أتى نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم، فتشاوروا ثلاثة أيام فإن جاءكم طلحة إلى ذلك، وإلا فأعزم عليكم بالله أن لا تتفرقوا في اليوم الثالث حتى تستخلفوا(١). حتى قال لصهيب: «صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما... وإن رضى ثلاثة رجالاً وثلاثة رجالاً، فحكّموا

عبدالله بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمان بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس» (٢). وهناك كلمات صدرت من الصحابة في ثانيا خلافة الخلفاء وبعدهم تعرب عن أن الرأي السائد والمرتكز في أذهانهم هو تعيين الخليفة وأن مسألة نظام الشورى شعار رفعه معاوية مقابل علي - عليه السلام - على الرغم من أنه استخلف عندما مات، ولم يعتد بمنطقه وإنما جرده سلاحاً على علي، وإن كنت في ريب من هذا الأمر نتلو عليك كلماتهم التي صدرت عفواً وارتجالاً عند موت الخليفة وارتحاله: ٤- نقل أن عمر بن الخطاب لما أحس بالموت قال لابنه عبدالله: اذهب إلى عائشة وأقرأها مني السلام، واستأذن منها أن أقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر، فأتاها عبدالله بن عمر فأعلمها... فقالت: نعم وكرامة. ثم قالت: يا بني أبلغ عمر سلامي فقل له: لا تدع أمة محمد بلا راع، استخلف عليهم، ولا تدعهم

١. الامامة و السياسة ١ / ٢٣ .

٢. الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٥ . (٤٠)

بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة (١) فأتى عبدالله (إلى أبيه) فأعلمه (٢) . ٥- نقل الحافظ أبو نعيم الاصفهاني المتوفى عام ٤٣٠ أن عبدالله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته فقال: إني سمعت الناس يقولون مقالة، فأليت أن أقولها لك، وزعموا أنك غير مستخلف، وأنه لو كان لك راعي إبل - أو راعي غنم - ثم جاءك وتركها لرأيت أن قد ضيع، فرعاية الناس أشد (٣) . ٦- قدم معاوية المدينة ليأخذ من أهل المدينة البيعة ليزيد، فاجتمع مع عدة من الصحابة إلى أن أرسل إلى ابن عمر فأتاه و خلا به فكلمه بكلام وقال: إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدى كالضأن لاراعي لها (٤) . هذه النصوص تدل بجلاء على أن ادعاء انتخاب الخليفة عن طريق الاستفتاء الشعبي أو بمراجعة أهل الحل والعقد، أو اتفاق الأنصار والمهاجرين لم يكن له أصل ولا ذكر في دراسات المتقدمين من أعلام التاريخ و كتاب السيرة و علماء المسلمين، وسيوافيك الكلام في استخلاف الصحابة بعضهم لبعض. ولو دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على أن الأصل الذي كان يعتقد به جميع الصحابة والخلفاء في مسألة الخلافة والقيادة كان هو التنصيب والتعيين وعدم ترك الأمر إلى نظر الأمة وانتخابها.

١. وهل يمكن أن تلتفت أم المؤمنين إلى هذه النكتة ولا يلتفت إليها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -!

٢. الامامة و السياسة للدينوري ١ / ٣٢ .

٣. حلية الأولياء ١ / ٤٤ .

٤. الامامة و السياسة ١ / ١٦٨ طبع مصر. (٤١)

الفصل الثالث ماهو مقتضى الكتاب والسنة

الفصل الثالث ماهو مقتضى الكتاب والسنة في صيغة الخلافة بعد الرسول (٤٢) (٤٣)

إن مقتضى الكتاب والسنة في صيغة القيادة بعد الرسول هو التنصيب لا التفويض إلى الأمة ولا ترك الأمر إلى الظروف والصدف، فنقدم الكلام في السنة فإنها صريحة في التعيين وأما الكتاب فسيأتي البحث عنه. فنقول: إن سيرة النبي الأكرم ونصوصه في مواقف مختلفة تثبت بوضوح أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - غرس النواة الأولى في أمر القيادة منذ أن أصرح بالدعوة وتعاهدا إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. وهذه النصوص من الكثرة والوفرة بحيث إنه لا يمكن استيعابها ولا ذكر كثير منها، ويكفيها مؤونة ذلك، الموسوعات الحديثية في المناقب والفضائل والمؤلفات الكلامية في أمر الولاية، ونحن نكتفي بالقليل من الكثير . ١- التنصيب على الخليفة في حديث بدء الدعوة:

بعث الرسول الأكرم لهداية الناس وإخراجهم من الوثنية إلى التوحيد، ومن الشر إلى الخير، ومن الشقاء إلى السعادة، و كانت الظروف المحدقة به قاسية جداً، لأنه بعث في أمة عريقة في الوثنية، ويخاطبهم سبحانه: (لَتُنذِرَ قَوْمًا (٤٤) ما أُنذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) (١)،

فأخذ بالدعوة سرّاً ونشر دينه خفاءً سنوات عديدة إلى أن نزل قوله سبحانه: (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (٢) فعند ذلك أمر الرسول على بن أبي طالب وهو شاب يافع يتراوح عمره بين (١٣ سنة إلى ١٥) أمره رسول الله أن يعد طعاماً ولبناً ثم دعا (٤٥) رجلاً من شراً بنى هاشم ووجههم، وبعد أن فرغوا من الطعام قال رسول الله: «إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله المذنب لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وأنّها الجنّة أبدأ والنار أبدأ - ثم قال: - يا بنى عبدالمطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، انّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله عزّوجل أن أدعوكم إليه، فأيتكم يؤمن بي ويؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم». ولما بلغ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى هذا الموضوع وقد أمسك القوم وسكتوا عن آخرهم، قام على - عليه السلام - فجأه وقال: أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله، فقال له رسول الله: اجلس، ثم كرر دعوته ثانية وثالثة، ففي كلّ مرّة يحجم القوم عن تلبية دعوته ويقوم على ويعلن استعداداه لمؤازرة النبي ويأمره رسول الله بالجلوس حتّى إذا كان في المرّة الثالثة، أخذ رسول الله بيده والتفت إلى الحاضرين من عشيرته الأقربين وقال: «إنّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا» (٣).

١. يس / ٦ .

٢. الشعراء / ٢١٤ .

٣. مسند أحمد ١ / ١١١، تاريخ الطبرى ٢ / ٦٢ - ٦٣، تاريخ الكامل ٢ / ٤٠ - ٤١، إلى غير ذلك من المصادر المتوفّرة يقف عليها من سبر كتب السيرة - عند سرد حوادث بدء الدعوة - وكتب التفسير فى تفسير الآية الآنفه فى سورة الشعراء . (٤٥) نحن لا- نريد أن نحوم حول الرواية ونعرض عن الإشارة إلى ماجنى عليها بعض المؤرّخين والكتاب الجدد (١) ولكن نذكر نكتة أنّ النبي أعلن وزيره وخليفته ووصيّه يوم أعلن رسالته وكأتهما فرقدان فى سماء الوحي لا- يفترقان، وما القيادة بعد النبي إلا استمرار لوظائف النبوة، وإن كانت النبوة مختومة ولكن الوظائف والمسؤوليات كانتا مستمرّتين. ٢- حديث المنزلة: روى أصحاب السير والحديث أنّ رسول الله خرج إلى غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال له على: «أخرج معك؟» فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لا»، فبكى على فقال له رسول الله: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبى بعدى، أنّه لا ينبغي أن أذهب إلا- وأنت خليفتى»، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) والاستثناء يدل على ثبوت ما لهارون من المناصب لعلى سوى النبوة سيأتى توضيحه. وروى مسلم فى صحيحه أنّ إمام الفئه الباغية قال لسعد بن أبى وقاص: ما منعك أن تسب أبا تراب فقال: أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله فلن أسبّه لأن تكون لى واحده منها أحبّ إلى من حمر النعم، سمعت رسول الله يقول له وقد خلفه فى بعض مغازيه بعد ما شكى إليه على بقوله: «يا رسول الله خلقتنى مع النساء والصبيان»: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه

١. كالدكتور محمد حسين هيكلى فى حياة النبي، لاحظ محاضراتنا فى سيرة النبي وقد طبعت باسم (سيد المرسلين ١ / ٣٩٤ - ٣٩٧).

٢. صحيح البخارى ٥ باب فضائل أصحاب النبي باب مناقب على ٢٤ وغيره . (٤٦)

لا نبوة بعدى». وسمعتة يقول يوم خبير: «الأعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله» قال: فتناولنا لها، فقال: «ادعوا لى علياً، فأتى به أرمدا العين، فبصق فى عينه ودفع الراية إليه ففتح عليه. ولما نزلت هذه الآية: (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) دعا رسول الله علياً وفاطمه وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلى» (١). ٣- حديث الغدير:

إنّ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة رواه الصحابة والتابعون والعلماء فى كل عصر وجيل، ولسنا بصدد اثبات تواتره وذكر مصادره فقد قام غير واحد من المحققين بهذه المهمّة، وأنما الهدف ايقاف القارىء على نصوص الخلافه فى حقّ على حتّى يقف على أنّ النبي الأعظم هو البادر الأول لبذرة التشيع والدعوة إلى على بالامامة والوصاية، وعلى أنّ مسألة التشيع قد نشأت قبل رحلته، ونذكر

في المقام ما ذكره ابن حجر وقد اعترف بصحة سنده، يقول: إنه - صلى الله عليه وآله وسلم - خطب بغدير خم تحت شجرات، فقال: «أيها الناس أنه قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبى إلا - نصف عمر الذي يليه من قبله، وأنى لأظن أنى يوشك أن أدعى فأجيب وأنى مسؤول وأنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيراً، فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن

١. صحيح مسلم ٦ باب فضائل علي ١٢٠ - ١٢١ طبعه محمد علي صبيح .

(٤٧)

الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد» ثم قال: «يا أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا - يعنى علياً - مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» ثم قال: «يا أيها الناس أنى فرطكم وأنكم واردون على الحوض، حوض أعرض ممياً بين بصرى إلى صنعاء فيه عدد النجوم قدحان من فضة وأنى سائلكم حين تردون على الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما الثقل الأكبر كتاب الله عزوجل سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا ولا - تبدلوا، وعترتى أهل بيتى، فإنه نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا على الحوض» (١). وأخرجه غير واحد من أئمة الحديث منهم الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم قال: نزلنا مع رسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بواد يقال له وادى خم، فأمر بالصلاة فصلاًها بهجير، قال: «فخطبنا وظلل لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بثوب على شجرة سمره من الشمس، فقال: «ألستم تعلمون، أو لستم تشهدون، أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: «فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٢). وأخرجه الحاكم في مناقب علي من مستدركه عن طريق زيد بن أرقم من طريقين صححها على شرط الشيخين قال: لما رجع رسول الله من حجة الوداع ونزل غدیر خم، أمر بدوحات فقممن، فقال: «إنى دعيت فأجبت، قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله وعترتى، فانظروا كيف تخلفوني فيهما،

١. الصواعق ٤٣ - ٤٤، وأخرجه من طريق الطبراني وغيره، وحكم بصحته.

٢. مسند الامام أحمد ٤ / ٣٧٢، وأخرجه الامام أيضاً فى مسنده من حديث البراء بن عازب من طريقين، لاحظ الجزء الرابع الصفحة ٢٨١ . (٤٨)

فأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض - ثم قال: - إن الله عزوجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن - ثم أخذ بيد علي فقال: - من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...» (١). وأخرجه النسائي فى خصائصه عن زيد بن أرقم قال: لما رجع النبى من حجة الوداع ونزل غدیر خم أمر بدوحات فقممن ثم قال: «كأنى دعيت فأجبت، وأنى تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وأهل بيتى، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض - ثم قال: - إن الله مولاي وأنا ولى كل مؤمن - ثم أخذ بيد علي فقال: - من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال أبو الطفيل: فقلت لزيد: سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ؟ فقال: وإنه ما كان فى الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه (٢). إن سؤال أبى الطفيل يعرب عن حقيقة مرّة، وهو أنه يرى التنافى بين مضمون الحديث وعمل الأمة، فإن الحديث نص على ولايته وخلافته والأمة صرفتها عن علي، فلاجل ذاك عاد يتعجب ويسأل، وليس التعجب مختصاً به، فهذا هو الكميّت يصرّح به فى هاشمياته ويقول: ويوم الدوح دوح غدیر خم أبان له الخلافة لو أطيعا ولكن الرجال تابعوها فلم أر مثلها خطراً مبيعا ولم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً

أضيعا (٣)

١. المستدرک ٣ / ١٠٩، مع أن الذهبى فى تعليقه على المستدرک يعلّق على مواضع من تصحيحات الحاكم صرّح فى هذا المقام بصحة الحديث .

٢. الخصائص العلوية ٢١ .

٣. الهاشميات طبعت غير مرّة وشرحها غير واحد من أدباء العصر كالرافعي المصري، والأستاذ محمد شاكر الخياط وقد دبّ إليها الدس والتحرير، لاحظ الغدير ٢ / ١٨١ . (٤٩)

ولو أردنا استقصاء مصادر الحديث ومسانيده ورواته من الصحابة والتابعين والعلماء لأحوجنا ذلك إلى تأليف مفرد، وقد قام بحمد الله أعلام العصر ومحققوه بذلك المجهود (١). والمهم هو دلالة الحديث على الولاية العامة والخلافة الكبرى لعلی بعد الرسول، ويكفي في ذلك التدبر في الأمور التالية: ١- إنه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال في خطبته: «أنا أولى بهم من أنفسهم - ثم قال: - فمن كنت مولاه» وهذا قرينة لفظية على أنّ المراد من المولى هو الأولى، فالمعنى أنّ الله أولى بي من نفسي، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن كنت أولى به من نفسه، فعلى أولى به من نفسه. وهذا هو معنى الولاية الكبرى للإمام. ٢- ذيل الحديث وهو قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وفي بعض الطرق «وانصر من نصره واخذل من خذله» فإنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما نصبه إماماً على الأمة بعده، كان يعلم أنّ تطبيق هذا الأمر رهن توفر الجنود والأعوان وطاعة أصحاب الولايات والعمال، مع علمه بأنّ في الملام من يحسده وفيهم من يحقد عليه، وفي زمرة المنافقين من يضم له العدا، فعاد يدعو لمن والاه ونصره، وعلى من عاداه وخذله، ليتّم أمر الخلافة، وليُعلم الناس أنّ مولاته موالاة لله وأنّ عداؤه عداؤه، والحاصل أنّ هذا الدعاء لا يناسب إلا من نصب زعيماً للإمامة والخلافة. ٣- إنه - صلى الله عليه وآله وسلم - أصدر كلامه بأخذ الشهادة من الحضار بأن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ثم قال: إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا _____

١. العباقت للسيد مير حامد حسين (ت ١٣٠٦)، والغدير للعلامة الفذ عبدالحسين الأميني (ت ١٣٩٠)، وكلاهما من حسنات الدهر . (٥٠)

أولى بهم من أنفسهم، فقال: «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه». ٤- إنه - صلى الله عليه وآله وسلم - ذكر قبل بيان الولاية قوله: «كأنّي دعيت فأجبت» أو ما يقرب من ذلك، وهو يعرب أنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يبق من عمره إلا قليل يحاذر أن يدركه الأجل، فأراد سد الفراغ الحاصل بموته ورحلته بتنصيب عليّ إماماً وقائداً من بعده . هذه القرائن وغيرها الموجودة في كلامه، توجب اليقين بأنّ الهدف من هذا النبأ في ذلك المحتشد العظيم ليس إلا إكمال الدين وتمام النعمة من خلال ما أعلن عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - أنّ علياً قائد وإمام الأمية، ومن أراد التوسع في الاطلاع على هذه القرائن فليرجع إلى الأثر القيم الغدير (١). لا يشك من درس مضمون حديث الغدير وما حوله من القرائن يقف على أنّ المراد منه هو نصب عليّ للإمامة والخلافة وهذا هو الذي فهمه الحضار من المهاجرين والأنصار في ذلك المحفل كما فهمه من بلغه النبأ بعد حين ممّن يُحتجّ بقوله في اللغة، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء ورجال الأدب إلى العصر الحاضر، وهذا هو حسّان بن ثابت الحاضر مشهد الغدير وقد استأذن رسول الله أن ينظم الحديث في أبيات منها قوله: وقال له قم يا علي فأننى رضيتك من بعدى إماماً وهادياً (٢) حتّى ان عمرو بن العاص الذي لا يخفى عداؤه لعلی على أحد يقول في قصيدته التي أرسلها إلى معاوية شاكياً إياه: وكم قد سمعنا من المصطفى وصايا مخصّصة في علي _____

١. الغدير ١ / ٣٧٠، وقد ذكر هناك ما يقرب من عشرين قرينة على ما هو المراد من الحديث .

٢. رواه غير واحد من حفاظ الفريقين لاحظ الغدير ٢ / ٣٥-٣٧ . (٥١)

وفي يوم خم رقى منبراً * وبلغ والصحب لم ترحل فأمنحه إمرة المؤمنين * من الله مستخلف المنحل وفي كفه كفه معلناً * ينادى بأمر العزيز العلي وقال: فمن كنت مولى له * علي له اليوم نعم الولي (١) شهبان واهيتان: وقد توالى فهم الأدباء والعلماء على ذلك في طيات القرون عبر النظم والنثر. غير أنّ هناك لقيفاً من الناس ممّن يعاند الحقيقة ولا يرضى بقبولها، أبدى شبهتين ضعيفتين نذكرهما على وجه الإجمال: الشبهة الأولى:

إنّ المولى يراد به معان مختلفة فمنها، المحبّ والناصر، فمن أين علم أنّ المراد بها المتولّى والمالك للأمر والأولى بالتصرف؟ يلاحظ

عليه: أن لفظ المولى ليس له إلا معنى واحد وهو: الأولى. قال سبحانه: (فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا وَأَكْم النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (٢) وقد فسّره غير واحد من المفسّرين بأن المراد أن النار أولى بكم، غير أن الذي يجب التركيز عليه هو أن الأولى هو المعنى الوحيد للمولى

١. والقصيدة تربو على ٦٦ بيتاً، نقل قسماً منها ابن أبي الحديد في شرحه ١٠ / ٥٦ - ٥٧ ونقلها برمتها الأميني في الغدير ٢ / ١١٥ - ١١٧ .

٢. الحديد / ١٥ . (٥٢)

وإنّ كلّما ذكر من المعاني المختلفة له إنّما هي من موارد استعماله ومتعلقاته، فقد ذكروا له من المعاني سبعة وعشرين معنى، خلطوا فيها المتعلّق بالمعنى، ومورد الاستعمال بالموضوع له، فقد قيل إنّ من معانيه الرب، والعم، والمعنى، والعبد، والمالك، والتابع، والمحِب، والناصر وكلّها متعلّقات للمعنى، وليس له إلا معنى واحد وهو الجامع لهاتيك المعاني جمعاء، ومأخوذ في كل منها بنوع من العناية، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلا بمناسبة. ١- فالربّ سبحانه هو أولى بخلقه من أي قاهر عليهم، خلق العالمين كما شاءت حكمته يتصرّف فيه بمشيئته. ٢- والعم أولى الناس بكلاءة ابن أخيه والعطف عليه وهو القائم مقام والده الذي كان أولى به. ٣- و«المعنى» أولى بالتفضّل على من أعتقه، كما أنّ المعتق أولى بأن يعرف جميل من أعتقه عليه. ٤- والمالك أولى بالتصرّف في ماله وكلاءة ممالكه. ٥- والتابع أولى بمناصرة متبوعه ممّن لا يتبعه. ٦- والمحِب والناصر أولى بالدفاع عمّن أحبّه أو التزم بنصرته. فإذن ليس للمولى إلا معنى واحد، وتختلف هذه الأولوية بحسب الاستعمال في الموارد المختلفة. الشبهة الثانية:

المراد أنّه أولى بالإمامة مآلاً وإلا كان هو الإمام مع وجود النبي ولا تعرض فيه لوقت المآل، فكان المراد حين يوجد عقد البيعة له، فلا ينافي حينئذ تقديم الأئمة (٥٣)

الثلاثة عليه (١). وهذه الشبهة من الوهن بمكان، وذلك لأنّه لا- يجتمع مع حكمه المتكلم وبلاغته ولا مع شيء من أفعاله العظيمة وأقواله الجسيمة، وهو يستلزم أن لا تعم ولايته جميع الناس والحضّار، فيخرج عن ولايته الخلفاء الثلاثة، مع أنّ الشيخين - حينما سمعا قول رسول الله - قالوا له: يخ بخ لك يا علي، أمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة (٢). حصيلة البحث:

إنّ من سبر غضون السير والتواريخ يقف على أنّ النبي الأكرم لم يبرح يدعو الناس إلى علي بالتصريح تارة، والاشارة أخرى من بدء الدعوة إلى ختامها. فتارة يعرفه بأنّه خليفته ووصيه ووزيره، وأخرى بأنّ منزلته منه منزلة هارون من موسى، وأنّ له كل المناصب الثابتة لهارون إلا منصب واحد وهو النبوة، والدليل على ذلك هو الاستثناء «إلا أنّه لا نبي بعدى» وقد كان هارون وزيراً لموسى وشريكاً له في النبوة قال سبحانه: (وَ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعِلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِدُّونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ) (٣) وقال سبحانه حاكياً عن موسى: (وَاجْعَل لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشُدُّ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كُنِ نَسِيْبِحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنْتَ

١. الصواعق المحرقة ٤٤ .

٢. مسند أحمد ٢٨١ / ٤ .

٣. القصص / ٣٤ - ٣٥ . (٥٤) بنا بصيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (١).

وثالثه ينصبه قائداً وإماماً في هواء حار وارض جافه في محتشد عظيم مبتدئاً كلامه بما يرجع إلى أصول الدين من أخذ الشهادة من الناس على ولاية الله و ولاية الرسول ثم يأخذ بيد علي وهو على المنبر محرّكاً شعور الحاضرين وليشد القلوب نحو علي ويقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه». ودلاله هذه الأحاديث على خلافة من عينه الرسول على وجه لا ينكره إلا مكابر ولا يرده إلا معاند، وكفانا في الموضوع ما ألفه أصحابنا حول هذه الأحاديث الثلاثة. * * * مرجعية أهل البيت الفكرية بعد الرسول:

دلّت الأحاديث السابقة على أنّ الزعامة السياسية والخلافة بعد الرسول تتمثل في علي وعترته، وهناك أحاديث متوفرة تسوقنا إلى مرجعيتهم الفكرية وأنهم الأئمة والأوصياء بعد الرسول وأنه لا بدّ للمسلم أن يرجع إليهم في دينه، ويأخذ عنهم أصوله وفروعه، وأنّ النبي الأكرم جعلهم المنزع بعده، والعتره والكتاب توأمان لا يفترقان، وإليك بعض ما ورد عن الرسول في المقام: ٤- حديث الثقلين: إنّ النبي الأكرم أيقظ الغافلين ويبيّن مرجع الأئمة بعد رحلته بهتافه الدوى وقال: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي _____

١. طه / ٢٩ - ٣٦ .

(٥٥)

أهل بيتي» (١). وقال: «إني تركت ما إن تمسّكتكم به لن تضلّوا بعدى: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (٢). وقال: «إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله جبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» (٣). وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» (٤). وقال: «إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي، كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (٥). وقال في منصرفه من حجّة الوداع ونزوله غدِير خم: «كأنّي دعيت فأجبت، أني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض» (٦) . _____

١. كنز العمال ١ / ٤٤، أخرجه الترمذى والنسائى عن جابر.

٢. كنز العمال ١ / ٤٤، أخرجه الترمذى عن زيد بن أرقم .

٣. مسند أحمد ٥ / ١٨٢، ١٨٩ .

٤. المستدرک للحاكم ٣ / ١٤٨ .

٥. مسند أحمد ٣ / ١٧ - ٢٦، أخرجه من حديث أبي سعيد الخدرى .

٦. المستدرک للحاكم ٣ / ١٠٩، أخرجه من حديث زيد بن أرقم . (٥٦) - ٥- حديث السفينة:

إنّ النبي الأكرم يشبّه أهل بيته بسفينة نوح ويقول: «ألا- إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجي ومن تخلف عنها غرق» (١). وفي حديث آخر يقول: «إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطّة في بنى إسرائيل من دخله غفر له» (٢) وفي حديث ثالث: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس» (٣). ومن المعلوم أنّ المراد ليس جميع أهل بيته على سبيل الاستغراق لأنّ هذه المنزلة ليست إلاّ لحجج الله ولفيف من أهل بيته، وقد فهمه ابن حجر وقال: يحتمل أنّ المراد بأهل البيت الذين هم أمان، علماؤهم، لأنّهم الذين يهتدى بهم كالنجوم، والذين إذا فقدوا جاء أهل الأرض من الآيات ما يوعدون، - وقال في مقام آخر - أنّه قيل لرسول الله: «ما بقاء الناس بعدهم؟» قال: «بقاء الحمار إذا كسر صلبه» (٤). والمراد من تشبيههم - عليهم السلام - بسفينة نوح: أنّ من لجأ إليهم في الدين فأخذ فروعه وأصوله عن أئمّتهم الميامين نجا من عذاب الله، ومن تخلف عنهم كمن أوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر الله غير أنّ ذاك غرق في الماء، وهذا غرق في الحميم. والوجه في تشبيههم بباب حطّة هو أنّ الله تعالى جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله، والبخوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة، وقد جعل انقياد _____

١. مستدرک الحاكم بسنده إلى أبي ذر ٣ / ١٥١ .

٢. الأربعون حديثاً للنبهاني ٢١٦، نقله عن الطبراني في الأوسط .

٣. مستدرک الحاكم بسنده إلى ابن عباس ٣ / ١٤٩ .

٤. الصواعق لابن حجر (الباب الحادى عشر): ٩١، ١٤٢ . (٥٧)

هذه الأئمة لأهل بيت نبيها وأتباعهم، مظهرًا من مظاهر التواضع لجلاله والبخوع لحكمه، وبهذا كان سببًا للمغفرة. ثم إن ابن حجر قد أوضح حقيقة التشبيه في كلامه وقال: «ووجه تشبيهم بالسفينه أن من أحبهم وعظّمهم شكرًا لنعمه مشرفهم، وأخذ بهدى علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعيم، وهلك في مفاوز الطغيان - إلى أن قال: - وباب حطه - يعنى ووجه تشبيهم بباب حطه - إن الله جعل دخول ذلك الباب الذى هو باب أريحا أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سببًا للمغفرة، وجعل لهذه الأئمة مودّة أهل البيت سببًا لها» (١). وفى هذه الأحاديث الخمسة غنى وكفاية لطلاب الحق . *** الأئمة الاثنا عشر فى حديث الرسول:

إنّ هناك روايات تحدّد وتعيّن عدد الأئمة بعد الرسول، وإن لم تذكر أسماءهم، ولكنّها تذكر سماتهم وهذه هى أحاديث الأئمة الاثني عشر رواها أصحاب الصحاح والمسانيد نذكرها إكمالاً للبحث، وهى على وجه لا ينطبق إلا على من عينهم الرسول ووصفهم بالخلافة والزعامه، ولذلك نذكرها فى عداد أدلّة التنصيص على الخلافة. والإمعان فيها يرشد القارىء إلى الحق، ويأخذ بيده حتّى يرسى مركبه على شاطئ الأمان والحقيقة.

١. لاحظ الصواعق (الباب الحادى عشر): ٩١، وقد علّق سيّدنا الإمام شرف الدين على كلام ابن حجر وقال: قل لى لماذا لم يأخذ بهدى أئمتهم فى شىء من فروع الدين و عقائده، ولا شىء من أصول الفقه وقواعده، ولا شىء من علوم السنّه والكتاب، ولا فى شىء من الأخلاق والسلوك والآداب فلماذا تخلف عنهم فأغرق نفسه فى بحار كفر النعم، وأهلكها فى مفاوز الطغيان (المراجعات ٢٥) . (٥٨)

ويطيب لى أن أذكر مجموع هذه النصوص فإنّها تؤكّد بعضها بعضاً وإليك البيان: الأئمة الاثنا عشر:

١- روى البخارى عن جابر بن سمره قال: سمعت رسول الله يقول: «يكون اثنا عشر أميراً» فقال كلمه لم اسمعها، فقال أبى: أنّه قال: «كلهم من قريش» (١) . ٢- روى مسلم عنه أيضاً قال: دخلت مع أبى على النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فسمعته يقول: «إنّ هذا الأمر لا ينقضى حتّى يمضى فيهم اثنا عشر خليفه» قال ثمّ تكلم بكلام خفى علىّ، قال فقلت لأبى: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش» . ٣- و روى مسلم عنه أيضاً قال: سمعت النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «لا يزال أمر الناس ماضياً ماويلهم اثنا عشر رجلاً» ثمّ تكلم النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - بكلمه خفيت علىّ فسألته أبى: ماذا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -؟ فقال: «كلهم من قريش» . ٤- وروى عنه أيضاً نفس الحديث إلا أنّه لم يذكر: «لا يزال أمر الناس ماضياً» . ٥- و روى مسلم عنه أيضاً يقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفه» ثمّ قال كلمه لم أفهمها فقلت لأبى: ما قال؟ فقال: «كلهم من قريش» (٢) .

١. صحيح البخارى ٩ / ١٠١، كتاب الأحكام، الباب ٥١ (باب الاستخلاف) .

٢. صحيح مسلم ٦ / ٣ . (٥٩)

٦- وروى مسلم عنه أيضاً قال: انطلقت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعى أبى فسمعته يقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفه» فقال كلمه صمّنيها الناس، فقلت لأبى: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش» . ٧- وروى مسلم عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم جمعه عشيه رجم الأسمى يقول: «لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعه أو يكون عليكم اثنا عشر خليفه كلهم من قريش» (١) . ٨- روى أبو داود عن جابر بن سمره قال: سمعت رسول الله يقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر» فكبر الناس وضجّوا، ثمّ قال كلمه، خفيت، قلت لأبى: يا أبه ما قال؟ قال: «كلهم من قريش» (٢) . ٩- روى الترمذى عن جابر بن سمره قال: قال رسول الله: «يكون من بعدى اثنا عشر أميراً» ثمّ تكلم بشىء لم أفهمه فسألته الذى يلينى، فقال: قال: «كلهم

من قريش» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن جابر، ثم ذكر طريقاً آخر إلى جابر (٣) . ١٠- روى أحمد في مسنده عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي يقول: «يكون لهذه الأمة اثنا عشر خليفة» ورواه عن ٣٤ طريقاً (٤) . ١١- روى الحاكم في المستدرک على الصحيحين في كتاب معرفة الصحابة عن عون بن جحيفة عن أبيه قال: كنت مع عمى عند النبي فقال: «لا يزال أمر أمتي _____

١ . صحيح مسلم ٦ / ٣ - ٤ .

٢ . صحيح أبي داود ٢، كتاب المهدي ٢٠٧ (طبع مصر) وروى أيضاً نحوه بطريقتين آخرين .

٣ . صحيح الترمذى ٢ / ٤٥ (طبع عام ١٣٤٢) .

٤ . مسند أحمد ٥ / ٨٦ - ١٠٨ . (٦٠) .

صالحاً حتى يمضى اثنا عشر خليفة» ثم قال كلمة وخفض بها صوته، فقلت لعمى - وكان أمامي - : ما قال يا عم؟ قال: قال: «كلهم من قريش» (١) . ونحن نكتفي في حديث «الأئمة الاثنا عشر» بالأحاديث الاثنا عشر ولا نتجاوز عنها تيمناً وتبركاً، ورواه كثير من أعلام الأئمة في مجامعهم الحديثية والتاريخية. ١- رواه أحمد بسنده عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن هم سألتهم رسول الله كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألتنا رسول الله فقال: «اثنا عشر كعدة نساء بني إسرائيل» (٢) . ٣- وقال المتقي الهندي في منتخب كنز العمالي: يملك هذه الأمة اثنا عشر خليفة كعدد نساء بني إسرائيل، وأخرجه عن أحمد والطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرک (٣) . _____

١ . المستدرک على الصحيحين (كتاب معرفة الصحابة) ٣ / ٦١٧ - ٦١٨ (طبع الهند) .

٢ . مسند أحمد ١ / ٣٩٨ .

٣ . منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٥ / ٣١٢ . (٦١) .

٤- قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: وعند أحمد والبخاري بسند حسن عن ابن مسعود، أنه سئل كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: سألتنا عنها رسول الله فقال: «اثنا عشر كعدة نساء بني إسرائيل» (١) . ٥- قال ابن حجر في الصواعق: أخرج الطبراني عن جابر بن سمرة أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «يكون بعدى اثنا عشر أميراً كلهم من قريش» (٢) . إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على أن الأئمة بعد النبي الأكرم اثنا عشر، وقد جاء فيها سماتهم وصفاتهم وعددهم، غير أن المهم هو تعيين مصاديقها والاشارة إلى أعيانها وأشخاصها، ولا- تعلم إلا- بوجود السمات الواردة في هذه الأحاديث فيهم، وأما السمات الواردة فيها فإليك مختصرها: ١- لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة . ٢- لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً . ٣- لا يزال الدين قائماً . ٤- لا يزال أمر أمتي صالحاً . ٥- لا يزال أمر هذه الأمة ظاهراً . ٦- حتى يمضى فيهم اثنا عشر . ٧- ما وليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش . ٨- عددهم كعدد نساء بني إسرائيل . وهذه السمات والخصوصيات لا توجد مجتمعة إلا في الأئمة الاثني عشر المعروفين عند الفريقين، وتلك الأحاديث من أبناء الغيب ومعجزات النبي الأكرم _____

١ . تاريخ الخلفاء ١٠ .

٢ . الصواعق ١٨٩ ط تخريج عبد الوهاب وعبد اللطيف . (٦٢) .

خصوصاً إذا ضُمَّت إليها أحاديث الثقلين والسفينه وكون أهل بيت النبي أماناً لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، وسيوافيك تفصيل هذه الأحاديث الثلاثة . فالأئمة الاثنا عشر المعروفون بين المسلمين، أولهم على أمير المؤمنين، وآخرهم المهدي تنطبق عليهم تلك العلام، ومن وقف على حياتهم العلمية والاجتماعية والسياسية يقف على أنهم هم المثل العليا في سماء الاخلاق وفي القمية والذروة في العلم والاحاطة بالقرآن والسنة، وأنه سبحانه بهم حفظ دينه عن التحريف وبهم اعترت الدين . وأما ما ورد في

بعض هذه الطرق: «كلهم تجتمع عليهم الأئمة» على فرض الصّحة، فالمراد تجتمع على الاقرار بإمامتهم جميعاً وقت ظهور آخرهم، و - على فرض الابهام - لا تمنع عن الأخذ بمضامين الحديث . هلمّ معي نقرأ ماذا يقول غير الشيعة في حق هذه الأحاديث، فكيف يفسرها بالخلفاء القائمين بالأمر بعد النبي الأكرم؟ وإليك نقل كلامهم: ١- إن قوله اثنا عشر اشارة إلى عدد خلفاء بنى أمية وأول بنى أمية يزيد بن معاوية وآخرهم مروان الحمار وعدتهم اثنا عشر ولا يعد عثمان ومعاوية ولا ابن الزبير لكونهم صحابة، ولا مروان بن الحكم لكونه صحابياً أو لأنه كان متغلباً بعد أن اجتمع الناس على عبدالله بن الزبير، وليس على المدح بل على استقامة السلطنة وهم يزيد بن معاوية وابنه معاوية ثم عبدالملك ثم الوليد ثم سليمان ثم عمر بن عبدالعزيز ثم يزيد بن عبدالملك ثم هشام بن عبدالملك ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد، ثم إبراهيم بن الوليد ثم مروان بن محمد (١) .

١ . فتح الباري في شرح صحيح البخارى ١٣ / ٢١٢ ط دار المعرفة . وفي المصدر: عدتهم ثلاثة عشر .

(٦٣) يلاحظ عليه: إذا كان الرسول أراد هذا ولم يكن في مقام مدحهم فأى فائدة في الأخبار بذلك. ثم كيف يقول أنها صدرت على غير سبيل المدح مع ما عرفت من السمات الواردة الصريحة في المدح فيقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً قائماً»، أو «أمر أمتي صالحاً» والعجب أنه جعل أول الخلفاء يزيد بن معاوية بحجة أنه استقامت له السلطنة مع أنه كيف استتبت له السلطنة وقد ثار عليه العراق في السنة الأولى وثار عليه أهل المدينة في السنة الثانية وكان مجموع أيامه مؤلفه من حروب دامية بين قتل ونهب وتدمير.

٢- «إن المراد أنه يملك اثنا عشر خليفة بهذه السمات بعد وفاة المهدي» وهذا من أغرب التفاسير لأنها ظاهرة في اتصال خلافتهم بعصر النبي الأكرم ولأجل تبادل ذلك سأل الناس عبدالله بن مسعود عن عدد من يملك أمر هذه الأمة (١) . ٣- ما نقله ابن حجر في فتح الباري عن القاضي عياض أن المراد الخلفاء الذين اجتمع عليهم الناس وهم أبو بكر، وعثمان، وعلي، ومعاوية، ويزيد، وعبدالملك، وأولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وعمر بن عبدالعزيز بين سليمان ويزيد، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك (٢) . ولا يكاد ينقضى تعجبي من القاضي عياض وابن حجر كيف يعرفان هؤلاء بمن عز بهم الإسلام والدين وصار منيعاً وفيهم يزيد بن معاوية ذلك السكر المستهتر الذي كان يشرب الخمر ويدع الصلاة، ولم يكتف بذلك بل ضرب الكعبة بالمنجنيق

١ . فتح الباري في شرح صحيح البخارى ١٣ / ٢١٣ ومثله ما نقله أيضاً: اثنا عشر خليفة في جميع مدة الإسلام إلى يوم القيامة .

٢ . المصدر نفسه ولاحظ تاريخ الخلفاء ١١ . (٦٤)

وأباح المدينة ثلاثة أيام بأعراضها وأموالها وأنفسها. وهل اعتر الإسلام بعبد الملك وكفى في مساويه تنصيه الحجاج على العراق فقتل من الصحابة والتابعين ما لا يخفى (١) . كيف اعتر الدين بالوليد بن يزيد بن عبدالملك المنتهك لحرمة الله الذي حاول أن يشرب الخمر فوق ظهر الكعبة ففتح المصحف فخرج (فَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد) فألقاه ورماه بالسهم وقال: تهددني بجبار عنيد * فما أنا ذاك جبار عنيد إذا ماجت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزفتي الوليد ومن أراد أن يقف على جنایات الرجل وأقربائه وأجداده فليقرأ التاريخ المسمى اسودت صفحاته بسبب أفعالهم الشنيعة. إن للكاتب القدير السيد محمد تقى الحكيم كلاماً في هذه الأحاديث يطيب لى نقله. قال: والذي يستفاد من هذه الروايات: ١- أن عدد الأمراء أو الخلفاء لا يتجاوز الاثنى عشر وكلهم من قريش . ٢- أن هؤلاء الأمراء معينون بالنص كما هو مقتضى تشبيههم بنقاء بنى إسرائيل لقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً) (٢) . ٣- أن هذه الروايات افترضت لهم البقاء ما بقى الدين الاسلامى أو حتى تقوم الساعة كما هو مقتضى روايه مسلم «ان هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة» وأصرح من ذلك روايته الأخرى في نفس الباب: «لا يزال هذا الأمر في قريش

١ . تاريخ الخلفاء ٢٥٠ وغيره .

٢ . المائدة / ١٢ . (٦٥)

فدتك نفوس القوم يا خير راعع بخاتمك الميمون يا خير سيّد * ويا خير شار ثم يا خير بايع —————

١ . المائدة / ٥١ - ٥٦ .

(٦٨)

فأنزل فيك الله خير ولاية * وبينها في محكمات الشرايع (١) وإليك تفصيل الآية حرفياً: ١- الولي والمولى والأولى بمعنى واحد، قال رسول الله: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل...» (٢) وقال: «يا على أنت ولي كل مؤمن من بعدى» (٣) ولو أطلق على الناصر والمحب فهو كإطلاق المولى عليهما، وقد عرفت أنه ليس للمولى إلا معنى واحد وهو الأولى، فلو أطلق على الناصر والمحب فلأجل أن المحب أولى بالدفاع عن محبوبه والتزامه بنصرته، والصديق أولى بحماية صديقه، فتفسير الولي بالمحب والناصر والصديق من باب خلط المتعلق بالمفهوم . ٢- لو كان المراد من الولي هو الناصر وما أشبهه يلزم الاكتفاء بقوله (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) من دون حاجة إلى التقييد بإيتاء الزكاة حال الركوع . ٣- لو كان الولي بمعنى الناصر أو المحب يلزم وحدة الولي والمولى عليه في قوله: (والذين آمنوا) وما هذا إلا لأن كل مؤمن ناصر لأخيه المؤمن ومحب له (٤). مع أن ظاهر الآية أن هناك أولياء ثلاثة: ١- الله، ٢- رسوله، ٣- المؤمنون بالشروط الثلاثة، وأن هناك مولى عليه، وهو غير الثلاثة ولا يتحقق

١ . رواه الطبري في تفسيره ١٨٦ / ٦ والجصاص في أحكام القرآن ٢ / ٤٤٦ والسيوطي في الدر المنثور ٢ / ٢٩٣ وغيرهم .

٢ . مسند أحمد ٦ / ٦٦ روتها عائشة عن النبي الأكرم .

٣ . مسند أحمد ٤ / ٤٣٧، مستدرک الحاكم ٣ / ١١١ .

٤ . اللهم إلا أن يقول القائل أن المؤمنين الموصوفين بالأوصاف الثلاثة أولياء المؤمنين غير الموصوفين بها وهو كما ترى تفسير ساقط .

(٦٩)

ذلك المعنى إلا بتفسير الولي بالزعيم والمتصرف في شؤون المولى عليه، فهؤلاء الثلاثة أولياء وغيرهم مولى عليهم . ٤- فإذا كانت الحال كذلك فلماذا أفرد الولي ولم يجمعه؟ والجواب عنه واضح، وهو أنه أفرد لإفادة أن الولاية لله على طريق الأصالة وللرسول والمؤمنين على سبيل التبعية، ولو قيل إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع . ٥- إن قوله (الذين يقيمون) بدل من (الذين آمنوا) كما أن الواو في قوله (وهم راععون) للحال، وهو حال من قوله (يؤتون الزكاة) معنى ذلك أنهم يؤتونها حال ركوعهم في الصلاة . ٦- إذا كان المراد من قوله: (الذين آمنوا) هو الإمام على بن أبي طالب - عليه السلام - فلماذا جيء بلفظ الجماعة؟ والجواب: جيء بها ليرغب الناس في مثل فعله لينالوا مثل ثوابه، وليتبه على أن سجنه المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان وتفقد الفقراء حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروا إلى الفراغ منها (١) . وهناك وجه آخر، وهو أنه أتى بلفظ الجمع دون المفرد لأجل أن شائتي على وأعداء بني هاشم، وسائر المنافقين من أهل الحسد والحقد، لا يطيقون أن يسمعوها بصيغة المفرد، إذ لا يبقى لهم حينئذ مطمع في تمويهه، ولا ملتصق في التضليل، فيكون منهم - بسبب بأسهم - حينئذ ما تخشى عواقبه على الإسلام، فجاءت الآية بصيغة الجمع مع كونها للمفرد اتقاء من معزتهم، ثم كانت النصوص بعدها تترى عبارات مختلفة ومقامات متعددة وبت فيهم أمر الولاية تدريجاً تدريجاً

١ . الكشاف ١ / ٦٤٨ طبع مصر الحلبي .

(٧٠)

حتى أكمل الله الدين وأتم النعمة، جرياً منه - صلى الله عليه وآله وسلم - على عادة الحكماء في تبليغ الناس ما يشق عليهم (١) . وهناك وجه ثالث أشار إليه الشيخ الطبرسي في تفسير الآية، وهو أن النكتة في إطلاق لفظ الجمع على أمير المؤمنين، تفخيمه وتعظيمه، وذلك أن أهل اللغة يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التعظيم، وذلك أشهر في كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه (٢) . ٧- إنما ذكر من صفات الولي من الذين آمنوا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لأنهما ركنان عظيمان للإسلام

وظيفتان رئيسيتان للقائد، وهو أن يقيم الصلاة (لا- أن يصلى وحده) ويؤتى الزكاة . وعلى كل تقدير فتقيد الولي من المؤمنين بالأوصاف الثلاثة، وتقيد إيتاء الزكاة بحال الركوع يجعل الكلى مخصّصاً في فرد واحد، وهو مثل قولك: «رأيت رجلاً سَلَّمَ عَلَيَّ أمس قبل كل أحد» وهو وإن كان كلياً قابلاً للانطباق على كثيرين قبل التطبيق، لكنّه بعده ينحصر في فرد . ثم إن إمام المشككين فخر الدين الرازي استشكل على الاستدلال بالآية بوجوه رديئة ساقطة نذكر بعضها وترك الباقي صيانة للوقت عن الضياع، ولعلّه لأجل هذه التشكيكات لما دنا أجله أملى على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الاصفهاني وصيته في الحادي والعشرين من محرّم سنة ٦٠٦هـ، وجاء في الوصية قوله: فاعلموا أنّي كنت رجلاً محباً للعلم، فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كميته وكيفيته، _____

١ . المراجعات ١٤٦ .

٢ . مجمع البيان ٢ / ٢١١ . (٧١)

سواء أكان حقّاً أو باطلاً أو غثاً أو سميناً... (١). ألف - إن المراد من الولي في الآية ليس هو المتصرّف، بل المراد الناصر والمحب، بشهادة ما قبلها وما بعدها، أما ما قبل هذه الآية فلاّته تعالى قال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وليس المراد لا تتخذوا اليهود والنصارى أئمة متصرّفين في أرواحكم وأموالكم، لأنّ بطلان هذا كالمعلوم. بل المراد لا تتخذوا اليهود والنصارى أحبّاء وأنصاراً ولا تخالطوهم ولا تعاضدوهم، ثمّ لما بالغ في النهي عن ذلك قال: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتّخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتّقوا الله إن كنتم مؤمنين) - المائدة/٥٧ (٢). حاصل التشكيك هو أنّ الولي في الآية المتقدّمة والمتأخّرة بمعنى المحب والناصر فلو فسّرت في الآية بالمتصرّف يلزم التفكيك . والجواب أنّ الولي في الآية المتقدّمة عليها والمتأخّرة عنها، وفي نفسها بمعنى واحد ليس له في جميع المقامات إلا معنى واحد وهو الأولي، غير أنّه يختلف متعلّق الولاية جوهرأً أو لا- وسعةً وضيقةً ثانياً، حسب اختلاف موصوفها ومن قامت به الولاية. فلو كان الولي هو الله والرسول فيكون متعلّق الولاية هو النفس والنفس، فهم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فكيف بأموالهم، فهما أولى بالتصرّف في كل ما يمت إلى المؤمن . ولو كان الولي من الأب والجد، يكون المتعلّق شؤون الصغير ومصالحه ، _____

١ . دائرة المعارف لفريد وجدى ٤ / ١٤٨ .

٢ . مفاتيح الغيب ١٢ / ٢٨ . (٧٢)

من حفظ نفسه وعرضه وماله. فيكون أولى بالتصرّف من الصغير في أمواله وشؤونه، ومنها تزويجه بالغير . ولو كان الموصوف رئيس القبيلة، حيث كان الرائج في عهد الجاهلية، عقد ولاء الدفاع بين القبيلتين، فيكون هو أولى بالدفاع عن المنتمى في النوازل، إلى غير ذلك من الموارد المختلفة حسب الموصوف. وبذلك يظهر أنّ المراد من الأولياء في قوله (لا- تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) هو الأولي لما استعرف من أنّها نزلت في حق (عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبي) واليهود، وكان بينهما وبين اليهود عقد ولاء الدفاع فكان كل من الطرفين ولياً للآخر، أي أولى بالدفاع والذب عن المولى عليه من غيره. قال المفسّرون: نزلت في حق عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبي بعد غزوة بدر، حيث لَمَّا انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود: آمنوا قبل أن يُصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن ضيف (اليهودي): أعزكم أن اصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أمرونا العزيمة أن نستجمع عليكم، لم يكن لكم يدان لقتالنا، فجاء عبادة بن الصامت الخزرجي إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إنّ لي أولياء من اليهود، كثير عددهم قويّة أنفسهم، شديدة شوكتهم، وائي أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، ولا مولى لي إلاّ الله ورسوله. فقال عبدالله بن أبي: لكنّي لا- أبرأ من ولاية اليهود، لأنّي أخاف الدوائر فلا بد لي منهم. فقال رسول الله: «يا أبا الحباب ما نفست به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه» قال: اذن اقبل، وأنزل الله الآية (١) . فقد اتّخذ الرجلان اليهود أولياء ليتفرّع عليه النصر والذب كما أنّه سبحانه _____

١ . مجمع البيان ٢ / ٢٠٦ وغيره .

(٧٣)

جعل الأب والجد أولياء ليتفرع عليه حفظ شؤون المولى عليه، وعلى ضوء ذلك فالولى فى جميع المقامات بمعنى واحد، والاختلاف إنما هو فيما يتفرع على الولاية، لا أنه تارة بمعنى الأولى وثانياً بمعنى الناصر وثالثاً بمعنى المحب . ب - والذى يرشدك على أن الولى فى قوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) ليس بمعنى الحب والمحبة كما احتمله الرازى، أنه ورد نظير هذا النص فى قوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون) (١) وليس الولى بمعنى المحبوب. وذلك لأن حب الآباء والاخوان أمر فطرى، فطرناس عليه من غير فرق بين الكافر والمسلم، ولو كان المراد من التولى هو الحب يلزم النهى عن أمر جبلى ولأجل ذلك لا محيص عن تفسيره باتخاذهم أولياء على غرار اتخاذ الرسول والإمام أولياء، بأن تكون ولايتهم على أعناق المؤمنين، كما أنه ليس أيضاً بمعنى النصره لجواز طلب النصره من الكافر وهذا هو القرآن يجعل شيئاً من الزكاة للمؤلفة قلوبهم . ج - إن قوله (ومن يتولهم منهم فإنه منهم) يحكى عن أن التولى على وجه يلحق المتولى باليهود والنصارى، وهو لا ينطبق على مجرد الحب وطلب النصره والحب لا لأجل كونهم كافرين، بل لأسباب أخرى من حسن الجوار وغيره . د - إنه سبحانه يندد ببعض المؤمنين بقوله: (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه...) وهذا يعرب عن أن التولى كان على وجه ينتهى إلى ارتداد المتولى .

١ . التوبة / ٢٣ .

(٧٤)

أبعد هذه القرائن يصح للرازى أن يفسر التولى فى هذه الآيات بالحب والنصره. على أن تفسير ولاية الله والرسول بالحب والنصره تفسير بأمر واضح لا يحتاج إلى زيادة تأكيد . هذه هى الشبهة المهمه فى كلامه، وأما باقى الشبهات، فليس بشىء ذى بال. مثلاً يقول: لو نزلت الآية فى حق على، يجب أن يكون نافذ التصرف حال حياة الرسول، والآية تقتضى كون هؤلاء المؤمنين موصوفين بالولاية فى الحال (١). والجواب: إن هذا المقام كان ثابتاً لعلى كنبوته لله سبحانه والرسول، غير أنه لا يقوم بتطبيقه على سعيد الحياة إلا عند الحاجة، وهو عند ارتحال الرسول ومفارقتها الأتمه، وهذا هو المفهوم من تعيين ولى العهد عند الأمم . وأنت إذا قارنت الآية وما ورد حولها من شأن النزول، وما نزل فى حق على من الآيات التى تعرف طهارته من الذنب (٢)، وكون حبههم ومودتهم أجراً للرسالة (٣)، وأنه نفس النبى الأكرم (٤)، أن بيته من أفضل البيوت التى قال فى حقها سبحانه: (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) - النور / ٣٦ - (٥) لوقفت على أن الذكر الحكيم يواكب السنه فى تعيين مصير الأتمه الإسلاميه فى مجال القيادة

١ . مفاتيح الغيب ١٢ / ٢٨ .

٢ . إشارة إلى نزول قوله سبحانه: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فى حق على وأهل بيته - الأحزاب / ٣٣ - .

٣ . إشارة إلى قوله سبحانه: (قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) - الشورى / ٢٣ - .

٤ . إشارة إلى قوله سبحانه فى أمر المباهلة مع نصارى نجران: (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) - آل عمران / ٦١ - .

٥ . إشارة إلى ما رواه السيوطى فى الدر المنثور من قول أبى بكر للنبي بعد نزول الآية: قال يا رسول الله أهذا البيت منها - أى بيت على وفاطمه -؟ قال: هم من أفاضلها ٥ / ٥٠ . (٧٥)

والخلافة وأنه سبحانه ألقى مقاليد الزعامة إلى الإمام أمير المؤمنين، وبذلك أخرج الأتمه من التنازع والاحتكاك بعد الرسول الأعظم . ونحن نكتفى من البرهنه على خلافة الإمام بهذه الآية، وهناك آيات استدلل بها الأصحاب على ولاية الإمام، ونفى ولاية الغير، وأوضحنا مداليلها فى مؤلفاتنا الكلاميه، فمن أراد فليرجع (١) .

١ . الإلهيات ٢ / ٦١٨ - ٦٣٢ .

الفصل الرابع ما هو السرّ

الفصل الرابع ما هو السرّ في مخالفة الجمهور نص الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - (٧٨) (٧٩)
لقد ظهرت الحقيقة بأجلى صورها وثبت أنّ الرسول لم يرحل عن أمته إلا بعد أن نصّب علياً للخلافة والقيادة، ولكن هناك سؤال يطرح نفسه وهو أنّه لو كان الحق كما نطقت به النصوص كتاباً وسنّة، فلماذا أعرض الجمهور عن ما أمروا أن يتمسّكوا به؟ وهذه هي الشبهة المهمّة في الباب وهذا هو السؤال الذي ترك العقول متحيرة تبحث عن جواب مقنع، وقد اعتمد على ذلك بعض المنصفين من أهل السنّة في ردّه لمذهب أهل البيت - عليهم السلام - ، فقال: أنظر إلى جمهور أهل القبلة والسواد الأعظم من ممثلي هذه الملة فإذا هم مع أهل البيت على خلاف ما توجه ظواهر تلك الأدلّة، فإنا أوامر منّي نفسي، نفساً تنزع إلى متابعة الأدلّة وأخرى تفزع إلى الأكثرية من أهل القبلة (١) . والاجابة عن الشبهة سهلة لمن راجع التاريخ وسيرة الصحابة في عصر الرسول وبعده. فإنّ القرآن الكريم رغم أمره باتباع الرسول وعدم التقدّم عليه (٢)، ورغم أمره

١ . من كلام شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري في رسالته إلى السيد شرف الدين، لاحظ المراجعات ص ٢٥، رقم المراجعة ١١ .

٢ . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) - الحجرات ١ / - (٨٠)

بالسليم له وأنّ الايمان رهنه (١)، ورغم أنّه يندد ببعض المسلمين الذين كانوا يتمنّون طاعة الرسول لهم في بعض المواقف وقال: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ) (٢). رغم كل ذلك نشاهد رجالا يقفون أمام النبي في غير واحد من المواقف ويخالفونه بعنف وقوة ويقدمون الاجتهاد والمصالح الشخصية على أوامر الرسول في مواطن كثيرة، وإليك نزرًا يسيرًا منها وباللامم بها تسهل عليك الاجابة عن السرّ في مخالفة عدّه من الأصحاب لأمر النبي في مسألة الوصاية والقيادة: ١- اختلافهم مع النبي في الأنفاق والأسرى:

انتصر المسلمون في غزوة بدر وجمع غير واحد من المسلمين ما في معسكر العدو فاختلف المسلمون فيه، فقال من جمعه: هو لنا، وقال الذين يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم، وقال الذين يحرسون رسول الله: ما أنتم بأحقّ به منّا والله لقد رأينا أن نقتل العدو إن منحنا الله كره العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ به منّا. فنزل قوله سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) - الأنفال ١ / - (٣) . وأما اختلافهم في الأسرى فيكفي في ذلك قوله سبحانه: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ

١ . (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) - النساء ٦٥ / - .

٢ . الحجرات ٧ / .

٣ . السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٦٤١ - ٦٦٢ . (٨١) يَكُونُ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١). نحن نضرب الصّحح عمّا ذكره المفسّرون حول الآية من القصص غير أنّ قوله سبحانه (لولا كتاب...) يعرب عن أنّهم اختلفوا إلى حدّ كانوا مستحقّين لنزول العذاب لولا سبق كتاب من الله، ومن الجراة ما يظهر عن بعض المفسّرين (٢) من أنّ العتاب يعم النبي أيضاً مع أنّ نبيّ العظمة أجلّ من أن يشاركهم في العتاب فضلاً عن العقاب وحاشا ساحة الحق أن يهدّد نبيّه بعذاب عظيم وقد عصمه من المعاصي، والعذاب العظيم لا ينزل إلا على عمل اجرامى كبير، ونحن لا نفيسر الآية ولا نريد أن نخوض في خصوصيات القصة ويكفيها أنّها تكشف عن تباعد المؤمنين على النبي في مسألة الأسرى إلى حدّ استحقّوا هذا التنديد . ٢- مخالفتهم الأمر الرسول في أحد:

ورد رسول الله أحد حين بلغه أنّ أباسفيان يريد شنّ هجوم على المدينة، واستقبل الرسول المدينة وجعل جبل عينين عن يساره،

ونصب خمسين رجلاً نبأ على جبل عينين وأمر عليهم عبدالله بن جبير وقال له: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك». ولما صار الانتصار حليف المسلمين وأخذ العدو بالانسحاب عن ساحة القتال مؤبياً نحو مكة، خالف الرماة أمر الرسول وأخلوا مكانهم طمعاً في الغنائم، فكلما نصحهم أميرهم بالبقاء وعدم ترك العينين خالفوه.

١. الأنفال / ٦٧ - ٦٨.

٢. لاحظ الأقوال في الميزان ٩ / ١٣٧. (٨٢)

ولما رأى العدو المنهزم أن جبل العينين قد أضحى خالياً من الرماة، وكان جبل العينين يقع على ضفتين يتخللهما معبر، فاستغل العدو الفرصة فأدار خالد بن الوليد من معه من وراء المسلمين، فورد المعسكر من هذا المعبر على حين غفلة منهم، فوضع السيوف فيهم فقتل منهم لفيماً إلى أن تحول النصر إلى هزيمة، وكان ذلك نتيجة مخالفة المسلمين لوصية الرسول، وتقديماً للاجتهاد على النص، والرأى الخاطيء على الدليل، وكم له من نظير في حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبعد وفاته. ٣- مخالفتهم في صلح الحديبية:

دخلت السنة الثالثة للهجرة واشتاق النبي إلى زيارة بيت الله فأعد العدة للعمرة ومعه جمع من أصحابه وليس معهم من السلاح إلا سلاح المسافر فلما وصلوا إلى أرض الحديبية، منعوا من مواصلة السير، فبعد تبادل الرسل بينه وبين رؤساء قريش اصطلحوا على وثيقة ذكرها أصحاب السيرة في كتبهم. فكانت نتيجة تلك الوثيقة رجوع النبي إلى المدينة ومجيئه في العام القابل للزيارة، وقد ذكر فيها شروط للصلح اثار حفيظة بعض المسلمين، حتى أن عمر بن الخطاب وثب فأتى أبا بكر فقال: «أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلان نعطي الدية في ديننا» (١). فقد زعم الرجل أن البنود الواردة في صلح النبي تعني اعطاء الدية في الدين، حتى أن النبي أخبرهم حين الشخوص من المدينة أن الله سبحانه أراه في المنام أن المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فلما انصرفوا ولم يدخلوا مكة، قالوا: ما حلقتنا ولا

١. السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٣١٦ - ٣١٧.

(٨٣)

قصرنا ولا دخلنا المسجد الحرام، فأنزل الله سبحانه قوله: (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) (١). ولو أراد المتتبع أن يتعمق في السيرو التفاسير يجد أن مخالفة القوم للرسول لم تكن مختصة بموضوع دون موضوع، فكان تقديم الاجتهاد على النص شيئاً رائجاً عندهم ولنكتف في المقام بالمخالفتين الأخيرتين أيام مرض وفاته. ٤- مخالفتهم في تجهيز جيش أسامة:

اتفق المؤرخون على أن النبي الأكرم أمر بتجهيز جيش أسامة فقال: «جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه» فقال قوم: «يجب علينا امتثال أمره» وأسامة قد برز من المدينة، وقال قوم: «قد اشتد مرض النبي فلا تسع قلوبنا مفارقتة والحال هذه، فنصبر حتى ننظر أي شيء يكون من أمره» (٢). هذا ما يذكره الشهرستاني ملخصاً، وذكره المؤرخون على وجه التفصيل، فقال الطبري في أحداث سنة إحدى عشرة: «وضرب على الناس بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد، وأمره أن يوطيء من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن، فقال المنافقون في ذلك، ورد عليهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «إنه لخلق لها أي حقيق بالامارة وإن قلمت فيه لقد قلمت في أبيه من قبل، وإن كان لخليقاً لها» فطار الأخبار بتحليل السير بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (٣). ويقول أيضاً: «لقد ضرب بعث أسامة، فلم يستتب لوجع رسول الله وقد أكثر

١. الفتح / ٢٧.

٢. الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢٩ - ٣٠ (تحقيق محمد بن فتح الله بدران).

٣. تاريخ الطبري ٢ / ٤٢٩. (٨٤)

المنافقون في تأمير أسامة، فخرج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على الناس عاصباً رأسه من الصداع لذلك وقال: «وقد بلغني أن

أقواماً يقولون في أماره أسامة، ولعمري لئن قالوا في أمارته لقد قالوا في أماره أبيه من قبله، وإن كان أبوه خليفاً للامارة وأنه لخليق لها بعد أسامة» وقال: «لعن الله الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» (١) فضرب بالجرف وأنشأ الناس في العسكر، ونجم طليحة وتمهل الناس وثقل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلم يستتم الأمر ينظرون أولهم آخرهم حتى توفي الله نبيه» (٢). وقد ذكر القصة ابن سعد في طبقاته (٣)، والحلبى في سيرته (٤)، ومن أراد التوسع فليرجع إليهما. ٥- مخالفتهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فى احضار القلم والدواة:

عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وجعه، قال: «اثنونى بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» قال عمر: إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسينا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال - صلى الله عليه وآله وسلم - «قوموا عني ولا ينبغي عندى التنازع» فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين كتابه (٥).

١. لا- يخفى أنه لاصله لهذه الجملة لما قبل القصة وما بعده ولعله تحريف لما نقلناه عن الشهرستاني من أنه لعن المتخلفين فبدله الراوى بهذا.

٢. تاريخ الطبرى ٢ / ٤٣٠.

٣. الطبقات ٢ / ١٨٩ - ١٩٠.

٤. السيرة ٣ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

٥. صحيح البخارى ١ باب كتابه العلم ٣٠، الطبقات الكبرى ٢ / ٢٤٢ وجاء فيه: فقال بعض من كان عنده ان نبي الله ليهجر . (٨٥) إن الراوى نقل الرواية بالمعنى كى يخفف من شدة الصدمة التى تحصل فيما لو نقل الرواية بألفاظها والشاهد على ما نقول أن البخارى نفسه روى الرواية بشكل آخر أيضاً، فروى عن ابن عباس إنه كان يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس ثم بكى حتى بل دمه الحصى قلت: يا ابن عباس ما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله وجعه فقال: «اثنونى بكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً» فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: ما له؟ أهجر، استفهموه، فقال: «ذرونى فالذى أنا فيه خير مما تدعوننى إليه» فأمرهم بثلاث قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» والثالثة خير إماماً أن سكت عنها وإماماً أن قالها فنسيتها» (١). ولعل الثالثة التى نسيها الراوى هو الذى كان أراد النبي أن يكتبه حفظاً لهم من الضلال ولكن ذكره شفاهاً عوض كتابته، لكن السياسة اضطرت المحدثين إلى ادعاء نسيانه. ولعل النبي أراد أن يكتب فى مرضه تفصيل ما أوجه عليهم فى حديث الثقلين وتشهد بذلك وحده لفظهما، حيث جاء فى الثانى: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى». وقد فهم الخليفة ما يريد رسول الإسلام وحديث به بعد مدة من الزمن لابن عباس فقال له يوماً: يا عبد الله إن عليك دماء البدن إن كتمتها، هل بقى فى نفس على شىء من الخلافة؟ قال ابن عباس: قلت: نعم، قال: أو يزعم أن رسول الله نص عليه؟ قلت: نعم، فقال عمر: لقد كان من رسول الله فى أمره ذروة من قول لا تثبت حجة، ولا تقطع عذراً ولقد كان يربع فى أمره وقتاً ما، ولقد أراد فى مرضه أن يصرح باسمه

١. صحيح البخارى ٤ باب اخراج اليهود من جزيرة العرب ٩٩.

(٨٦)

فمنعت من ذلك اشفاقاً وحيطة على الإسلام، فعلم رسول الله انى علمت ما فى نفسه فأمسك (١). والعجب أن أحمد أمين مع ما يكن على الشيعة من عداة وقسوه يعترف بما ذكرنا بصراحة. أراد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى مرضه الذى مات فيه أن يعين من يلى الأمر بعده فى الصححين: البخارى ومسلم أن رسول الله لئما اصفر قال: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، وكان فى البيت رجال منهم عمر بن الخطاب فقال عمر: إن رسول الله قد غلب عليه الوجع (٢) وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله فاختلف القوم

واختصموا فمنهم من قال: قَرَّبُوا إِلَيْهِ يَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضَلُّوا بَعْدَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ الْقَوْلَ مَا قَالَهُ عَمْرٌ فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ (٣) وَالْاِخْتِلَافَ عِنْدَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: قَوْمُوا قِفَا مَوَا. وترك الأمر خصوصاً لمن جعل المسلمين طوال عصرهم يختلفون على الخلافة حتى عصرنا هذا بين السعوديين والهاشميين (٤). هذه نماذج من مخالفة القوم لصريح النصوص الصادرة عن النبي الأكرم، وكل ذلك يعرب عن فقدانهم روح التسليم للنبي ولأحكامه، فلم يكونوا ملتزمين بما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم من النصوص، نعم، ربّما يوجد بينهم من كان أطوع _____

١. شرح نهج البلاغة ٣ / ١٧، وكأنَّ الرجل كان أشفق على الإسلام من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

٢. وفي موضع آخر في صحيح البخاري: أنه قال «إنَّ الرجل ليهجر» .

٣. والصحيح: اللغظ .

٤. أحمد أمين يوم الإسلام: ٤١ . (٨٧)

للنبي من الظل لدى الظل، ولكن المتنفذين لم يكونوا متعبدين بالنصوص فضلا عن تعبدهم بالاشارات والرموز، وربّما كانوا يقابلون النبي بكلمات عنيفة يقابل بها من هو أقل منه شأنًا. وياليت أنهم اكتفوا في مجال المخالفة للنصوص أثناء حياته، ولكنهم خالفوها بعد وفاته أكثر ممّا خالفوها أيام حياته، يقف على ذلك من سبر التاريخ وسيرة الخلفاء في غير واحد من المجالات . ولقد حاول الشهرستاني في ملله ونحله (١)، والسيد الشريف في شرح المواقيف (٢) تحديد بدء الخلاف بين المسلمين بأيام مرض النبي عندما كان طريح فراشه. ولكن ذلك التحديد من حسن ظنهما بالصحابه وأنهم كلهم عدول، غير أنك عرفت أن تاريخ الخلاف يرجع إلى بدايات الهجرة، وقد اكتفينا بموارد خمسة و ضربنا الصفح عن ذكر موارد أخرى . هذا كله يرجع إلى مخالفتهم الرسول فيما يامر وينهى أيام حياته، وأما مخالفتهم لنصوص الرسول بعد رحلته فحدّث عنها ولا حرج . ١- التصرف في أذان الفجر:

أخرج الإمام مالك في موطنه: ان المؤذن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه بصلاة الصبح، فوجده نائماً فقال: الصلاة خير من النوم. فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح . وقال الزرقاني في تعليقه على هذه الكلمة من شرحه للموطأ ما هذا لفظه: هذا

١. الملل و النحل ١ / ٢٩، ولاحظ التبصير في الدين للسفرائيني ١٩ .

٢. شرح المواقيف ٨ / ٣٧٢ . (٨٨)

البلاغ أخرجه الدارقطني في السنن من طريق وكيع في مصنفه عن العمري عن نافع عن ابن عمر عن عمر أنه قال لمؤذنه: إذا بلغت حتى على الفلاح في الفجر فقل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم (١) . ٢- الحيلولة بين فاطمة وميراثها:

استفاضت الآيات باطلاقاتها تارة ونصوصها تارة أخرى على أن أولاد الأنبياء يرثون آباءهم كسائر الناس أما الاطلاقات فيكفي في ذلك قوله سبحانه: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ) (٢) وأمّا النصوص فيكفي في ذلك قوله سبحانه: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) (٣) وقال سبحانه ناقلاً عن زكريا: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) (٤) . إن طلب زكريا من الله سبحانه أن يهبه ولداً وأن يجعله رضيعاً لأوضح دليل على أن المراد من الوراثة، والوراثة في المال لا النبوة، لبداهة أن الإنسان لا يكون نبياً إلا أن يكون رضيعاً، على أن لفظ الوراثة وما يشتق منه ظاهر في الوراثة في المال ولا يستعمل في غيره إلا توسعاً ومجازاً ومع ذلك فقد خالفت القيادة بعد رسول الله هذا النص وحرمت فاطمة من ميراث أبيها بحجة أنه سمع من النبي قوله: نحن الأنبياء لا نورث، مع أنه لو صح هذا الحديث لكان على النبي أن يذكره لورثته حتى لا يقعوا في الخطأ ولا يطلبوا شيئاً ليس لهم، فهل أن النبي أهمل هذا البيان اللازم وذكره لغير _____

١. الموطأ باب ما جاء من النداء في الصلاة الحديث ٨، والموطأ مع شرح الزرقاني ١ / ١٥٠ طبع مصر .

٢. النساء / ١١ .

٣. النمل / ١٦ .

٤. مريم / ٥-٦ . (٨٩)

وارثه؟ روى البخارى عن عائشة: ان فاطمة - عليها السلام - بنت النبي أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقى من خمس خبير، فقال أبو بكر: «إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «لا نورث ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمّد من هذا المال»، وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها فى عهد رسول الله، ولأعملنّ فيها بما عمل به رسول الله» فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر، فهجرت، فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ستّة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها على ليلا، فلم يؤذن بها أبابكر، وصلى عليها(١) . وقال ابن قتيبة: قال عمر لأبى بكر (رضى الله عنهما): انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها فانطلقا جميعاً فاستأذنا على فاطمة، فلم تأذن لهما، فأتيا عليّاً فكلّماه، فأدخلهما عليها، فلما قعدا عندها حوّلت وجهها إلى الحائط، فسلمنا عليها فلم ترد السلام، فتكلم أبو بكر وقال: يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحبّ إلى من قرابتى، وأنتك لأحبّ إلى من عائشة ابنتى، ولوددت يوم مات أبو بكر أتى متّ ولا ابقى بعده، أفتراى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنّحك حقك وميراثك من رسول، إلا أتى سمعت أباك رسول الله يقول: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»(٢) . يلاحظ عليه أولاً: أن الرسول الأعظم وكذا كل من يتولّى الحكومة الإسلامية تكون له ملكيتين: ملكية شخصية تتعلق بنفسه ويتصرّف فيها بما أنها ماله الشخصى، وملكية تتعلق بمقام الرسالة ويتصرّف فيها بما أنه رسول وممثّل

١. صحيح البخارى ٥ باب غزوة خبير ١٣٩ .

٢. الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١٣ / ١ . (٩٠)

الدولة الإلهية، والقسم الثانى من الملكيتين لا تورث بل تنتقل إلى من يمارس المسؤولية بعده. ونحن نربأ بفاطمة أن تطالب أبابكر بالأموال التى تعد من شؤون الدولة الإسلامية وإنما جاءت لتطلب ما كان ملكاً خاصاً لأبيها، بما أنه أحد الناس والمسلمين، يملك ما شاء باحدى الطرق الشرعية ويورثه أولاده بعده . ثانياً: أن ما يرويه البخارى عن الخليفة أنه قال: «وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها» واقع فى غير محلّه لأن حبيبة رسول الله لم تطلب منه صدقات أبيها حتى تجاب بأن الصدقة لا تغيّر ولا تبدل و إنما سألته أن يدفع لها ما ملكه رسول الله ونحله لبتته أعنى فدك أيام حياته عندما نزل قوله سبحانه: (وَآتِ ذَالِقُرْبَى حَقَّهُ وَ الْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ)(١) .

نحن نفترض أن الرسول قال: لا- نورث ما تركناه صدقة، ولكن من المحتمل جداً، أن الفعل «لا نورث» فعل معلوم لا مجهول ومعناه نحن معاشر الأنبياء لا نورث الأشياء التى تركناها صدقة، فيكون لفظه ما مفعولاً للفعل المبني على الفاعل وعند ذلك لاصلة للحديث بكل ما يتركه النبي حتى أمواله الشخصية والمقصود النهائى هو أن الصدقة لا تورث كالزكاة وأمثالها. ٣- النهى عن متعة الحج: قال سبحانه: (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ (٢) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ تَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةَ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ

١. الاسراء / ٢٦ .

٢. أى فعليه ما يتيسر من الهدى، ومن لم يجد الهدى ولا ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج، وهى يوم السابع من ذى الحجة وتنتهى بيوم عرفة، والتمتع بالعمرة إلى الحج ليس لأهل مكة ومن يجرى مجراهم فى القرب إليها. (٩١) لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ(١) .

إنّ صفة التمتع بالعمرة إلى الحج عبارة عن الاحرام فى أشهر الحج من احدى المواقيت، ثم الدخول إلى مكة للطواف بالبيت والصلاة بعده، والسعى بين الصفا والمروة ثم التقصير وعندئذ يحلّ له كل ما كان محرماً عليه، فيقيم على هذه الحالة حتى ينشأ فى تلك السنة

احراماً آخر للحج ويخرج إلى عرفات ثم يفيض إلى المشعر الحرام، إلى آخر الأعمال، هذا هو التمتع بالعمرة إلى الحج، وإنما أضيف الحج بهذه الكيفية إلى التمتع وقال سبحانه: (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ) لما فيه من المتعة واللذة بأباحة محرمات الاحرام في المدة المتخللة بين الاحرامين من غير فرق بين محرّم و آخر حتّى مسّ النساء . هذا هو الذى شرّعه القرآن وخالفه بعض أصحاب السلطة، روى مالك عن سعد بن أبي وقاص والضحاك بن قيس: لا يفعل ذلك إلا من جهل أمر الله عزّ وجلّ، فقال سعد: بس ما قلت يا ابن أخي، فقال الضحاك: فإنّ عمر قد نهى عن ذلك، فقال سعد: قد صنعها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصنعناها معه (٢) . روى أحمد بن حنبل عن أبي موسى: أنه كان يفتى بالتمتع، فقال له رجل: رويدك ببعض فتياك فإنّك لا تدري ما أحدث أمير المؤمنين فى النسك بعدك، حتّى لقيه بعد فسأله، فقال عمر - رضى الله عنه - : قد علمت أنّ النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قد فعله وأصحابه ولكن كرهت أن يظّلوا بهن معرسين فى الاراك ثم يروحون بالحج _____

١ . البقرة / ١٩٦ .

٢ . موطأ مالك ٢٣٥ باب ما جاء فى التمتع برقم ٧٦٧ . (٩٢) .

تقطر رؤوسهم (١) . وروى أيضاً عن طريق آخر عنه: انّ عمر - رضى الله عنه - قال: هى سنّة رسول الله - يعنى المتعة - ولكن أخشى أن يعرسوا بهنّ تحت الاراك، ثم يروحوا بهنّ حجّاجاً (٢) . وقد استفاض القول عن الخليفة أنّه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما (٣) . قال القرطبي: لا - خلافاً بين العلماء فى أنّ التمتع جائز وأنّ الإفراق جائز، وأنّ القرآن جائز لأنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رضى كلاً ولم ينكره فى حجّته على أحد من أصحابه، بل أجازهم لهم ورضيه منهم... احتجّ من فضّل التمتع بما رواه مسلم عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله - يعنى متعة الحج - وأمرنا بها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم لم تنزل آية تنسخ آية متعة الحج، ولم ينعها رسول الله حتّى مات، قال رجل برأيه بعد ما شاء (٤) . ٤ - اسقاط سهم ذوى القربى من الخمس بعد وفاة الرسول :

ورد النص فى الذكر الحكيم على أنّ لذى القربى سهم من الخمس قال سبحانه: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِلذِي _____

١ . مسند أحمد ١ / ٤٩ - ٥٠ .

٢ . مسند أحمد ١ / ٤٩ - ٥٠ .

٣ . تفسير الامام الرازى ٥ / ١٦٧ وفسّر الآية بالتمتع بمحظورات الاحرام، وشرح التجريد للمحقّق القوشجى (وهو من أئمة الأشاعرة): وقد عدّه من اجتهاد الخليفة. نعم هو من اجتهاده مقابل النص .

٤ . الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٣٨٨ . (٩٣) القُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعِيَّانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١). وقد أجمع أهل القبلة على أنّ الرسول كان يختصّ بسهم من الخمس ويخصّ أقاربه بسهم آخر. وأنّه لم يعهد تغيير ذلك حتّى دعاه الله إليه. غير أنّ أصحاب السلطة بعد الرسول أسقطوا سهم بنى هاشم من الخمس، وجعلوهم كغيرهم من يتامى النساء و مساكينهم وأبناء السبيل منهم، وقد عرفت فى المخالفة الثالثة أنّ فاطمة - عليها السلام - طلبت من أبى بكر ما بقى من خمس خبير .

ويشهد بذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس أنّه كتب إليه نجدة يسأله عن سهم ذى القربى، وعن اليتيم متى ينقضى يتمه، وعن المرأة والعبد يشهدان الغنيمة، وعن قتل أطفال المشركين، فكتب إليه ابن عباس: أنّك كتبت إلىّ تسأل عن سهم ذى القربى لمن هو؟ وأنا كُنّا نراها لقرباه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأبى ذلك علينا قومنا. وعن اليتيم متى ينقضى يتمه؟ قال: إذا احتلم... (٢) . هذا وقد نقل القرطبي أقوالاً فى كيفية تقسيم الخمس، وهى بين من يأخذ بنص الآية ويجعل سهماً لذى القربى ومن يجتهد أمام النص. ونقلها صاحب المنار فى تفسيره (٣) . ٥ - قطع سهم المؤلفه قلوبهم:

قال سبحانه: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا

١ . الأنفال / ٤١ .

٢ . مسند أحمد ١ / ٢٤٨ .

٣ . تفسير القرطبي ٨ / ١٠، المنار ١٠ / ١٧ - ١٨ . (٩٤) والمؤلفه قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم(١)، الآية صريحة في أن لكل واحد من الأصناف المذكورة سهم ودلت كتب السيرة والفقهاء على أن الرسول يعطى سهم المؤلفة قلوبهم، فيؤلف بذلك قلوبهم، وهذه سيرته المستمرة معهم، لكن لما ولي أبو بكر جاء المؤلفة قلوبهم لاستيفاء سهمهم جرياً على عاداتهم مع رسول الله فكتب أبو بكر لهم بذلك، فذهبوا بكتابه إلى عمر ليأخذوا خطه عليه فمزقه وقال: لا حاجة لنا بكم، فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا فالسيف بيننا وبينكم، فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا له: أنت الخليفة أم هو؟ فقال: بل هو إن شاء الله تعالى، وأمضى ما فعله عمر(٢) .

فاستمر الأمر على ذلك بعدهم، وأقصى ما عند المحققين من تبرير عمل الخليفة ما ذكره الدواليبي في كتابه أصول الفقه وقال: ولعل اجتهاد عمر - رضى الله عنه - في قطع العطاء الذي جعله القرآن الكريم للمؤلفة قلوبهم كان في مقدمه الأحكام التي قال بها عمر تبعاً لتغيير المصلحة بتغيير الأزمان رغم أن النص القرآني لا يزال ثابتاً غير منسوخ(٣) . وما ذكره الأستاذ يعارض ذيله صدره، فما معنى أن النص القرآني لا يزال ثابتاً غير منسوخ، فإذا كان غير منسوخ فما معنى الاجتهاد في مقابل النص، لأن معنى ذلك إبطال القرآن في فترة خاصة، ولو صح لأصحاب السلطة هذا النمط من العمل لما بقي من الإسلام أثر، فالنص لا يتغير ولا يتبدل ولا تنقيد اطلاقاته ولا عموماته بالمصالح المرسله .

١ . التوبة / ٦٠ .

٢ . الجوهرة النيرة ١ / ١٦٤ وهي في الفقه الحنفي ونقله في المنار ١٠ / ٥٧٦ .

٣ . أصول الفقه للدواليبي: ٢٣٩ . (٩٥)

نعم يجوز على القول بعدم لزوم الاستيعاب في تقسيم الزكاة، دفعها إلى صنف دون صنف، لكنه إنما يجوز مؤقتاً لا دائماً، غير أن الخليفة قام بقطع سهم المؤلفة قلوبهم من رأس، وهذا هو الذي فهمه أبو حنيفة، والشافعي(١) بحجة أن الله أعز الإسلام وهو اجتهاد من عمر بأنه ليس من المصلحة استمرار هذا الأمر. ولا نريد من الاجتهاد في مقابل النص إلا هذا . هذه نماذج خمسة من مخالفتهم للنصوص والعمل وفق اجتهادات ذوقية، غير أن أصحاب السلطة قدموها على النصوص بقوة وحماس، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن النصوص كانت أداة طيعة للتغيير حسب الأهواء والميول الشخصية سواء أكانوا مقصّرين في هذا التأويل أم قاصرين . والهدف إيقاف القارىء على أن مخالفة النصوص لأصحاب النفوذ لم يكن أمراً عسيراً أو شيئاً نادراً . وبذلك تبين أن إعراضهم عن أدلة تنصيب الإمام للخلافة، لم يكن أمراً عجبياً، وذلك لجريان سيرة الصحابة على تقديم المصالح المزعومة على النصوص وبذلك يقطع العذر على من زعم أنه لو كان في مسألة الخلافة وامامة الامام أمير المؤمنين، نص، لما خالفه الصحابة العدول وتلقوه بالقبول. فيقال أوما أمرهم النبي، بإحضار القلم والدواة، فحالوا بينه وبين منيته، أو ما حثهم على تجهيز جيش أسامة ولعن المتخلفين عنه، ولكنهم أثقلوا إلى الأرض أو ما.. أوما... وهناك كلمة لابن ابى الحديد، وهو يقارن بين سياستي على وعمر و سياستي على ومعاوية وإليك نصه . اعلم ان السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى

١ . المنار ١٠ / ٥٧٦ .

(٩٦)

فيه صلاح ملكه وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته، سواء أوافق الشريعة أم لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه، وإلا- فبعيد أن ينتظم أمره أو يستوثق حاله . وأمير المؤمنين - عليه السلام - كان مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها، ورفض ما

يصلح اعتماده من آراء الحرب والكييد والتدبير، إذا لم يكن للشرع موافقا، فلم تكن قاعدته في خلافته، قاعده غيره ممن لم يلتزم بذلك ولسنا بهذا القول ضارين على عمر بن الخطاب ولا ناسين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان، والمصالح المرسله، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط، من أصول، تقتضى خلاف ما يقتضيه عموم النص، ويكييد خصمه، ويأمر أمراه بالكييد والحيله، ويؤدّب بالدرّة والسوط من يغلب على ظنّه أنّه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجتمروا ما يستحقّون به التأديب. كل ذلك بقوة اجتهاده وما يؤدّيه إليه نظره. ولم يكن أمير المؤمنين - عليه السلام - يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعدّها إلى الاجتهاد والأقيسه، ويطبّق أمور الدنيا على الدين ويسوق الكل مسافاً واحداً، فاختلفت طريقتاهما في الخلافه والسياسه (١). وقال الجاحظ: وربما رايت بعض من يظن بنفسه العقل والتحسين والفهم والتمييز، وهو من العامه وهو يظن أنّه من الخاصه يزعم أنّ معاويه كان أبعد غوراً، وأصحّ فكراً، وأجود رؤيه وأبعد غايه، وأدق مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأومى إليك بجملة تعرف بها موضع غلظه، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله .

١. شرح نهج البلاغه ١٠ / ٥٧٢ .

(٩٧)

كان على - عليه السلام - لا يستعمل في حربيه، إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاويه يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة (١). وفي حياه الخليفه عشرات الشواهد على اجتهاده تجاه النص، وأي اجتهاد تجاهه أظهر وأولى من منع تدوين الحديث وكتابه البدي هو المصدر الثاني الرئيسي للمسلمين بعد الذكر الحكيم، وقد بلغت السنة من الكمال مكانه حتى صار لفظ السنّي شعاراً لجمهور المسلمين . ولعلّ في قوله سبحانه: (يا أيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يديّ الله ورسوله واتّقوا الله إنّ الله سميع عليم) (٢). إشارة إلى بعض هذه الأمور، ومعنى الآية: لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتى، ولا تقطعوا أمراً حتى يقطع، بالتالي: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة فأنه تقدّم على الله ورسوله. فإذا كان هذا حال الخليفه وعمله طيله حياته، فلا عجب أن يجتهد أمام نصوص الولايه والخلافه ويسدل عليها الستار، ولا يلتفت إليها ويندفع إلى تتبع مظان المصالح المزعومه في مجال الخلافه بعد عصر الرسول، وفي ما ذكرنا من مظان الاجتهاد أمام النص كفايه لطالب الحق .

١. شرح نهج البلاغه ١٠ / ٥٧٨، نقلًا عن أبي عثمان الجاحظ .

٢. الحجرات / ١ .

الفصل الخامس مبدأ التشيع و تاريخ تكوّنه

الفصل الخامس مبدأ التشيع و تاريخ تكوّنه (١٠٠) (١٠١)

زعم غير واحد من الكتاب القدامى والجُدّد، أنّ التشيع كسائر المذاهب الإسلاميه، من إفرزات الصراعات السياسيه وذهب بعض آخر إلى القول أنّه نتيجة الجدال الكلامي والصراع الفكري، فأخذوا يبحثون عن تاريخ نشوئه وظهوره في الساحة الإسلاميه وكأنّهم يتلقّون التشيع كظاهرة طارئه على المجتمع الاسلامي، ويظنون أنّ القطاع الشيعي من جسم الأُمَّه الإسلاميه باعتباره قطاعاً تكوّن على مرّ الزمن لأحداث وتطوّرات سياسيه أو اجتماعيه فكريه أدّت إلى تكوين ذلك المذهب كجزء من ذلك الجسم الكبير ثمّ اتّسع ذلك الجزء بالتدريج . وبعد أن افترض هؤلاء أنّه أمر طارئ، أخذوا بالفحص والتفتيش عن علته أو علله، فذهبوا في تعيين المبدأ إلى كونه ردّه فعل سياسيه أو فكريه كما سيوافيك، ولكنّهم لو كانوا عارفين أنّ التشيع ولد منذ عهد النبيّ الأكرم لما تسرّعوا في ابداء الرأي في ذلك المجال، ولعلموا أنّ التشيع والإسلام وجهان لعمله واحده، وليس للتشيع تاريخ ولا مبدأ، سوى تاريخ الإسلام و مبدئه. وأنّ النبيّ الأكرم هو الغارس لبذره التشيع في صميم الإسلام من أوّل يوم أمر بالصدع واطهار الحقيقه، إلى ان لبّى دعوة ربّه . فالتشيع ليس إلاّ عبارة عن استمرار قيادة النبيّ بعد وفاته عن طريق من نصبه (١٠٢)

إماماً للناس، وقائداً للامة حتى يرشدها إلى النهج الصحيح والهدف المنشود، وكان هذا المبدأ أمراً ركز عليه النبي في غير واحد من المواقف الحاسمة، فإذا كان التشيع متلبوراً في استمرار القيادة بالوصى، فلا نجد له تاريخاً سوى تاريخ الإسلام والنصوص الواردة عن رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - . وقد عرفت في الفصل الثالث نصوصاً متوفرة في وصاية الامام أمير المؤمنين، فتاريخ صدورها عن النبي هو نفس تاريخ التشيع، والشيعه هم المسلمون المهاجرين والأنصار ومن تبعهم باحسان في الأجيال اللاحقه، هم الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسول في أمر القيادة ولم يُعَيَّرُوهُ ولم يتعدوا عنه إلى غيره، ولم يأخذوا بالمصالح المزعومه في مقابل النصوص، وصاروا بذلك المصدق الأبرز لقوله سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١) ففزعوا في الأصول والفروع إلى على وعترته الطاهرة، وانحازوا عن الطائفة الأخرى الذين لم يتعبدوا بنصوص الخلافة والولاية وزعامه العتره حيث تركوا النصوص، وأخذوا بالمصالح . إن الآثار المرويّه في حقّ شيعة الامام عن لسان النبي الأكرم ترفع اللثام عن وجه الحقيقه وتعرب عن التفاف قسم من المهاجرين حول الوصى، فكانوا معروفين بشيعة على في عصر الرسالة، وإن النبي الأكرم وصفهم في كلماته بأنهم هم الفائزون، وإن كنت في شك من هذا الأمر فسأتلوا عليك بعض ما ورد من النصوص في المقام .

١- أخرج ابن مردويه عن عائشه، قالت: قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: «يا عائشه، أما تقرّين (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات

١ . الحجرات / ١ .

(١٠٣) (أُولَئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) - البينه / ٧ - (١) .

٢- أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كنّا عند النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فأقبل على فقال النبي: «والذي نفسى بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) فكان أصحاب النبي إذا أقبل على قالوا: جاء خير البرية (٢) . ٣- أخرج ابن عدى وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً: عليّ خير البرية (٣) . ٤- وأخرج ابن عدى عن ابن عباس قال: لما نزلت (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلي: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين» . ٥- أخرج ابن مردويه عن على قال: قال لى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «ألم تسمع قول الله: (إنّ الذين آمنوا وعلموا الصالحات أولئك هم خير البرية) أنت وشيعتك وموعدى وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غزاً محجلين» (٤) . ٦- روى ابن حجر في صواعقه عن أم سلمه: كانت ليلتى، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عندي فأنته فاطمه فتبعها على (رحمهما الله) فقال النبي: يا على أنت وأصحابك في الجنة، أنت وشيعتك في الجنة (٥) . ٧- روى ابن الأثير في نهايته: قال النبي مخاطباً علياً: يا على إنك ستقدم على

١ . الدر المنثور للسيوطى ٥٨٩ / ٦ .

٢ . الدر المنثور للسيوطى ٥٨٩ / ٦ .

٣ . الدر المنثور للسيوطى ٥٨٩ / ٦ .

٤ . الدر المنثور للسيوطى ٥٨٩ / ٦ .

٥ . الصواعق: ١٦١ طبع مكتبة القاهرة . (١٠٤)

الله أنت وشيعتك راضين مرضيين، ويقدم عليه عدوك غضابا مقمحين، ثم جمع يده إلى عنقه يريهم كيف الإقماح. قال ابن الأثير: الإقماح: رفع الرأس وغض البصر (١) . ٨- روى الزمخشري في ربيعه: أنّ رسول الله قال: «يا على إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزه الله تعالى، وأخذت أنت بحجزتى، وأخذ ولدك بحجزتك، وأخذ شيعة ولدك بحجزهم، فترى أين يؤمر بنا» (٢) . ٩- روى أحمد في المناقب: أنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لعلي: «أما ترضى أنّك معى فى الجنة والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذريتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائنا» (٣) . ١٠- روى الطبرانى: أنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لعلي: «أول أربعة يدخلون

الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذريتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائنا» (٤). ١١- أخرج الديلمي: «يا على إن الله قد غفر لك ولدك ولولدتك ولأهلك ولشيعتك، فابشر أنك الأنزع البطين» (٥). ١٢- أخرج الديلمي عن النبي أنه قال: «أنت وشيعتك تردون الحوض رواء مرويين، بيضة وجوهكم وإن عدوك يردون الحوض ظماء مقمحين» (٦). ١٣- روى المغازلي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: _____

١. النهاية مادة قمع ١٠٦ / ٤، ورواه ابن حجر في الصواعق ١٥٤ .

٢. ربيع الأبرار .

٣. الصواعق ١٦١ .

٤. الصواعق ١٦١ .

٥. الصواعق ١٦١ .

٦. الصواعق ١٦١ . (١٠٥)

«يدخلون من أمتي الجنة سبعون ألفاً لا حساب عليهم - ثم التفت إلى علي فقال: - هم شيعتك وأنت إمامهم» (١). ١٤- روى المغازلي عن كثير بن زيد قال: دخل الأعمش على المنصور فلما بصر به، قال له: يا سليمان تصدّر، قال: أنا صدر حيث جلست - إلى أن قال في حديثه: - حدّثني رسول الله قال: «أتاني جبرئيل - عليه السلام - آنفاً فقال: تختّموا بالعقيق، فإنه أول حجر شهد لله بالوحدانية، ولي بالنبوة، ولعلي بالوصية، ولولده بالامامة، ولشيعته بالجنة» (٢). ١٥- وروى أيضاً بسنده إلى سلمان الفارسي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «يا علي تختّم باليمين تكن من المقرّبين، قال: يا رسول الله ومن المقرّبون؟ قال: جبرئيل وميكائيل، قال: فيما أتختّم يا رسول الله؟ قال: بالعقيق الأحمر، فإنه جبل أقرّ لله بالوحدانية، ولي بالنبوة، ولك بالوصية، ولولدتك بالامامة، ولمحبّيك بالجنة، ولشيعتك وشيعه ولدك بالفردوس» (٣). ١٦- روى ابن حجر: أنه مرّ على علي جمع فأسرعوا إليه قياماً، فقال: هؤلاء ما لي لا أرى فيكم سمه شيعتنا وحليه أحبّتنا» فأمسكوا حياءً، فقال له من معه: نسألك بالذي أكرمكم أهل البيت وخصّكم وحاكم، لما أنبأنا بصفه شيعتكم _____

١. مناقب المغازلي ٢٩٣ .

٢. مناقب المغازلي ٢٨١، ورواه السيد البحراني في غايه المرام عنه، وأنت إذا تدبّرت في الآيات الدالّة على سريان العلم والشعور في عامّة الموجودات مثل قوله: (وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) - البقرة / ٧٤ - تستطيع أن تُصدّق ما جاء في الحديث من شهادة العقيق بوحدانية الله .

٣. علل الشرائع ١٥٨ طبع النجف . (١٠٦)

فقال: «شيعتنا هم العارفون بالله، العاملون بأمر الله» (١). ١٧- روى الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ): أن ابن عباس قال: سمعت رسول الله يقول: «إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعدّ الله تبارك وتعالى لشيعه على من الثواب والزلفى والكرامة...» (٢). وهذه النصوص المتضافرة الغنيّة عن ملاحظه...، تعرب عن كون علي - عليه السلام - متميّزاً بين أصحاب النبي بأن له شيعه وأتباعاً، ولهم مواصفات وسمات كانوا مشهورين بها، في حياة النبي وبعدها. فبعد هذه النصوص لا يصحّ لباحث أن يلتجئ إلى فروض ظنيّة أو وهمية في تحديد تكوّن الشيعه وظهورها. الشيعه في كلمات المؤرّخين وأصحاب الفرق:

قد غلب استعمال الشيعه بعد عصر الرسول تبعاً له فيمن يوالي عليّاً وأهل بيته ويعتقد بإمامته ووصايته ويظهر ذلك من خلال كلمات المؤرّخين وأصحاب المقالات نشير إلى بعضها. ١- روى المسعودي في حوادث وفاة النبي: أن الإمام عليّاً أقام ومن معه من شيعته في منزله بعد أن تمّت البيعه لأبي بكر (٣). ٢- قال الامام عند تنديده بأعمال طلحة والزبير: «إن أتباع طلحة والزبير في البصرة قتلوا شيعتي

وعمالي» (٤). _____

١. الصواعق ١٥٤ .
٢. علل الشرايع ١٥٦ طبع النجف .
٣. الوصية للمسعودي ١٢١ طبع النجف .
٤. وقعة صفين ٧ طبع مصر . (١٠٧)
- ٣- روى أبو مخنف عن الحجاج: اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد فذكرونا هلاك معاوية فحمدنا الله عليه فقال: إن معاوية قد هلك وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببيعته وقد خرج إلى مكة وأنتم شيعته وشيعة أبيه (١) . ٤- وقال محمد بن أحمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤ هـ): إن أصحاب علي ينقسمون إلى الأصحاب ثم الأصفياء ثم الأولياء، ثم شرطة الخميس... ومن الأصفياء سلمان الفارسي، والمقداد، وأبوذر، وعمار، وأبو ليلى، وشبير، وأبو سنان، وأبو عمر، وأبو سعيد الخدري، وأبو برزة، وجابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، وطرقة الأزدي (٢) . ٥- وقال النوبختي (ت ٣١٣ هـ): إن أول الفرق الشيعة، وهم فرقة علي بن أبي طالب، المسمون شيعة علي في زمان النبي وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته (٣) . ٦- وقال أبو الحسن الأشعري: وأما قيل لهم الشيعة، لأنهم شايعوا علياً، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله (٤) . ٧- ويقول الشهرستاني: الشيعة هم الذين شايعوا علياً على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصياً ووصية (٥) . ٨- وقال ابن حزم: ومن وافق الشيعة في أن علياً أفضل الناس بعد رسول الله

١. مقتل الامام الحسين لأبي مخنف: تحقيق حسن الغفاري ١٥ ولاحظ ١٦ .
٢. الرجال للبرقي: (طبع طهران) / ٣، ولاحظ فهرست ابن النديم ٢٦٣ (طبع القاهرة) وعبارته قريبة من عبارة البرقي.
٣. فرق الشيعة ١٥ .
٤. مقالات الاسلاميين ١ / ٦٥ طبع مصر .
٥. الملل والنحل ١ / ١٣١ . (١٠٨)

وأحقهم بالإمامة وولده من بعده، فهو شيعي، وإن خالفهم في ما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون. فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً (١). هذا غيظ من فيض وقليل من كثير مما جاء في كلمات المؤرخين وأصحاب المقالات، تعرب عن أن لفيماً من الأمية في حياة الرسول وبعده إلى عصر الخلفاء وبعدهم، كانوا مشهورين بالتشيع لعلى وأن لفظة الشيعة مما نطق بها الرسول وتبعته الأمة عليه . «إن الامام وإن تسامح وتساهل في أخذ حقه تبعاً لمصالح عظيمة مكنونه في مثل هذا التصرف الحكيم، لكن أخذت فكرة استخلاف النبي علياً طريقها في النفوس والقلوب، وتضاعف عدد المتشيعين له على مرور الأيام، ورجع الكثير من المسلمين إلى الماضي القريب، واحتشدت في أذهانهم صور عن مواقف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك المواقف التي كان يصرح فيها باستخلاف علي من بعده تارة، ويلمخ فيها أخرى، فالتفتوا حول علي - عليه السلام - وأصبحوا من الدعاة الأوفياء له في جميع المراحل التي مر بها، وما زال التشيع ينمو وينتشر بين المسلمين في الأقطار المختلفة، يدخلها مع الإسلام جنباً إلى جنب، واستحكم أمره في السنين التي استولى فيها على الحكم، فشاعت بين المسلمين أحاديث استخلافه، ووجد الناس من سيرته وزهده وحكمته ما أكد لهم صحة تلك المروييات، وأنه هو المختار لقيادة الأمة وحماية القرآن ونشر تعاليمه ومبادئه» (٢) . والعنصر المقوم لإطلاق عبارة الشيعة هو مشايعة علي بعد النبي الأكرم في الزعامة والوصاية أولاً، وفي الفعل والترك ثانياً، ومع هذا لا يصح لأي كاتب

١. الفصل في الملل والنحل ٢ / ١١٣ طبع بغداد .
 ٢. الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة ٢٨ - ٢٩ . (١٠٩)
- افتراض علّة اجتماعية أو سياسية أو كلامية لتكوّن هذه الفرقة . ولأجل أن نتعرف على شيعة علي من الصحابة نأتي باسماء رواد الشيعة على وجه الاجمال ومن أراد التفصيل فليرجع إلى ما كتب حولهم من المؤلفات، وسنأتي بأسماء تلك الكتب في آخر البحث: رواد

التشييع في عصر النبي:

إنّ الاحالة للتعرف على رواد التشيع إلى الكتب المؤلفة في ذلك المضمار لا تخلو من عسر وغموض، فلأجل ذلك نأتي باسماء لفييف من الصحابة الشيعة المعروفين بالتشييع: ١- عبدالله بن عباس، ٢- الفضل بن العباس، ٣- عبيدالله بن العباس، ٤- قثم بن العباس، ٥- عبدالرحمان بن العباس، ٦- تمام بن العباس، ٧- عقيل بن ابى طالب، ٨- أبوسفيان بن الحرث بن عبدالمطلب، ٩- نوفل بن الحرث، ١٠- عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، ١١- عون بن جعفر، ١٢- محمد بن جعفر، ١٣- ربيعة بن الحرث بن عبدالمطلب، ١٤- الطفيل بن الحرث، ١٥- المغيرة بن نوفل بن الحرث، ١٦- عبدالله بن الحرث بن نوفل، ١٧- عبدالله بن أبى سفيان بن الحرث، ١٨- العباس بن ربيعة بن الحرث، ١٩- العباس بن عتبة بن ابى لهب، ٢٠- عبدالمطلب بن ربيعة بن الحرث، ٢١- جعفر بن أبى سفيان بن الحرث. هؤلاء من مشاهير بنى هاشم، وأما غيرهم فإليك أسماء لفييف منهم: ٢٢- سلمان المحمدي، ٢٣- المقداد بن الأسود الكندي، ٢٤- أبوذر الغفاري، ٢٥- عمّار بن ياسر، ٢٦- حذيفة بن اليمان، ٢٧- خزيمه بن ثابت، ٢٨- أبو أيوب الأنصاري مضيف النبي، ٢٩- أبو الهيثم مالك بن التيهان، (١١٠)

٣٠- أبى بن كعب(١)، ٣١- سعد بن عباده، ٣٢- قيس بن سعد بن عباده، ٣٣- عدى بن حاتم، ٣٤- عباده بن الصامت، ٣٥- بلال بن رباح الحبشي، ٣٦- أبو رافع مولى رسول الله، ٣٧- هاشم بن عتبة، ٣٨- عثمان بن حنيف، ٣٩- سهل بن حنيف، ٤٠- حكيم بن جبلة العبدى، ٤١- خالد بن سعيد بن العاص، ٤٢- ابن الحبيب الأسلمي، ٤٣- هند بن أبى هالة التميمي، ٤٤- جعدة بن هبيرة، ٤٥- حجر بن عدى الكندي، ٤٦- عمرو بن الحمق الخزاعي، ٤٧- جابر ابن عبدالله الأنصاري، ٤٨- محمّد بن الخليفة أبى بكر، ٤٩- أبان بن سعيد بن العاصي، ٥٠- زيد بن صوحان الزيدي. هؤلاء خمسمون صحابياً من الطبقة العليا للشيعة، فمن أراد التفصيل والوقوف على حياتهم وتشيعهم فليرجع إلى الكتب المؤلفة في الرجال ولكن بعين مفتوحة وبصيرة نافذة. وفي الختام نذكر ما ذكره محمّد كرد على في كتابه «خطط الشام» قال: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة على في عصر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مثل سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلى بن ابى طالب والموالاة له، ومثل أبى سعيد الخدرى الذى يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولمّا سئل عن الأربع، قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحج، قيل: فما الواحدة التى تركوها؟ قال: ولاية على بن أبى طالب، قيل له: وأنها مفروضة معهن؟ قال: نعم هى مفروضة معهن، ومثل أبى ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان،

١. نقل سيدنا شرف الدين عن تاريخ ابن شحنة أنّه ممّن تخلف عن بيعه السقيفة مع على - عليه السلام - .

(١١١)

وذو الشهادتين خزيمه بن ثابت، وأبى أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد، وقيس ابن سعد بن عباده(١). الكتب المؤلفة حول رواد التشيع:

إنّ لفييفاً من أصحابنا الإمامية قاموا بافراد كتاب أو رساله حول رواد التشيع ونذكر في المقام ما وقفنا عليه . ١- صدر الدين السيد على المدنى الحسينى الشيرازى، صاحب كتاب سلافه العصر في أعيان أهل العصر، وأنوار الربيع في علم البديع، وطراز اللغة. توفى عام (١١٢٠)، أفرد تاليفاً في ذلك المجال أسماه بـ «الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية»، فخصّ الطبقة الأولى بالصحابة الشيعة، وخصّص الباب الأوّل لبنى هاشم من الصحابة، والباب الثانى في غيرهم منهم. وجاء في الباب الأوّل بترجمه (٢٣) صحابياً من بنى هاشم لم يفارقوا عليّاً قط، كما جاء في الباب الثانى بترجمه (٤٦) صحابياً(٢). ٢- ذكر الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه «أصل الشيعة وأصولها» أسماء جماعة من الصحابة الذين كانوا يشايعون عليّاً في حلّه وترحاله وقال معلقاً على قول أحمد أمين الكاتب المصرى «والحق إنّ التشيع كان مأوى يرجع إليه كل من أراد هدم الإسلام»: ونحن لولا محافظتنا على مياه الصفا أن لا تتعكّر، ونيران البغضاء أن لا تتسعر، وأن تنطبق علينا حكمه القائل: «لا تنه عن خلق وتأتى مثله» لعرفناه من الذى يريد هدم قواعد الإسلام بمعاول

الاحاد والزندقة،

١. خطط الشام ٥ / ٢٥١ .

٢. الدرجات الرفيعة ٧٩ - ٤٥٢ طبع النجف . (١١٢)

ومن الذي يسعى لتمزيق وحدة المسلمين بعوامل التقطيع والتفرقة، ولكننا نريد أن نسال ذلك الكاتب أى طبقة من طبقات الشيعة أرادت هدم الإسلام؟ هل الطبقة الأولى وهم أعيان صحابة النبي وأبرارهم كسلمان المحمدي أو الفارسي، وأبي ذر، والمقداد، وعميار، وخزيمة ذى الشهادتين، وابن التيهان، وحذيفة بن اليمان والزيبر، والفضل بن العباس وأخيه الحبر عبدالله، وهاشم بن عتبة المرقال، وأبي أيوب الأنصاري وأبان وأخيه خالد بن سعيد بن العاص، وأبي بن كعب سيد القراء، وأنس بن الحرث بن نبيه، الذي سمع النبي يقول: «إنّ ابني الحسين - عليه السلام - يقتل في ارض يقال لها كربلاء فمن شهد ذلك منكم فلينصره» فخرج أنس وقتل مع الحسين. راجع الاصابة والاستيعاب وهما من أوثق ما ألف علماء السنة في تراجم الصحابة، ولو أردت أن أعد عليك الشيعة من الصحابة واثبات تشييعهم من نفس كتب السنة لأجوزني ذلك إلى افراد كتاب ضخمة (١) . ٣- قام الإمام السيد عبدالحسين شرف الدين (١٢٩٠ - ١٣٧٧) بجمع أسماء الشيعة في الصحابة حسب حروف الهجاء، وقال: وإليك اكمالاً للبحث بعض ما يحضرني من أسماء الشيعة من أصحاب رسول الله لتعلم أنّ بهم اقتدينا وبهديهم اهتدينا، وسأفرد لهم إن وفق الله كتاباً يوضح للناس تشييعهم ويحتوي على تفاصيل شؤونهم، ولعل بعض أهل النشاط من حملة العلم وسدنة الحقيقة يسبقني إلى تأليف ذلك الكتاب فيكون لي الشرف إذ خدمته بذكر أسماء بعضهم في هذا الباب وهي على ترتيب حروف الهجاء، ثم ابتداءً بأبي رافع القبطي مولى رسول الله، وختمهم بيزيد بن حوثة الأنصاري ولم يشير من حياتهم إلى شيء، وإنما ألقى ذلك على الأمل أو على من يسبقه من بعض أهل النشاط .

١. أصل الشيعة وأصولها ٥٣ - ٥٤ مطبعة العرفان .

(١١٣)

وقد ذكر السيد شرف الدين من أسمائهم ما يربو على مائتين (١) . ٤- قام الخطيب المصقع الدكتور الشيخ أحمد الوائلي «حفظه الله» بذكر أسماء رواد التشيع في عصر الرسول في كتابه المطبوع «هوية التشيع» فجاء باسم مائة وثلاثين من خلص أصحاب الإمام من الصحابة الكرام، يقول بعد ما يذكر تنويه النبي باستخلاف علي في غير واحد من المواقف: ولا يمكن أن تمر هذه المواقف والكثير الكثير من أمثالها من دون أن تشد الناس لعلي، ودون أن تدفعهم للتعرف على هذا الإنسان الذي هو وصي النبي، ثم لا بد للمسلمين من اطاعة الأوامر التي وردت في النصوص، والاتفات حول من وردت فيه، ذلك معنى التشيع الذي نقول ان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الذي بذر بذرتة، وقد أينعت في حياته وعرف جماعة بالتشيع لعلي والاتفات حوله، وللتدليل على ذلك سأذكر لك أسماء الرعيال الأول من الصحابة الذين عرفوا بتشيعهم للإمام علي (٢) . ٥- آخرهم وليس أخيرهم كاتب هذه السطور حيث قام مجيباً دعوة السيد شرف الدين فألف كتاباً في ذلك المجال في عدة أجزاء، نشر منه جزءان، وانتهينا في الجزء الثاني من ترجمة أبي ذر (جندب بن جنادة) ذلك الصحابي العظيم، والكتاب باللغة الفارسية ونقله إلى العربية الشيخ المحقق البارع جعفر الهادي وطبع ونشر . ومن أراد أن يقف على رواد التشيع في كتب الرجال لأهل السنة فعليه أن يرجع إلى الكتب التالية:

١. الفصول المهمة في تأليف الأئمة ١٧٩ - ١٩٠ .

٢. هوية التشيع ٣٤ . (١١٤)

١- الاستيعاب لأبي عمرو (ت ٤٥٦) . ٢- أسد الغابة للجزري (٦٠٦) . ٣- الاصابة لابن حجر (٨٥٢) . إلى غير ذلك من أمهات كتب الرجال . (١١٥)

الفصل السادس افتراضات وهمية حول تاريخ الشيعة (١١٦) (١١٧)

قد تعرّف على تاريخ التشيع، وأنه ليس وليد الجدال الكلامي، ولا إنتاج السياسات الزمنية وإنما هو وجه آخر للاسلام وهما وجهان لعمله واحدة؛ إلا- أن هناك جماعة من المؤرخين وكتّاب المقالات ظنوا أن التشيع أمر حادث وطارىء على المجتمع الاسلامي، فأخذوا يُفتشون عن مبدئه ومصدره، وأشد تلك الظنون عدوانية ما تلو كه أشدق بعض المتقدمين والمتأخرين، هو كونه وليد عبدالله بن سبأ ذلك الرجل اليهودي، الذي - بزعمهم - طاف الشرق والغرب، وأفسد الأمور على الخلفاء والمسلمين وألب الصحابة والتابعين على عثمان، فقتل في عقر داره، ثم دعا إلى علي بالإمامة والوصاية، وإلى النبي بالرجعة، وكوّن مذهباً باسم الشيعة، فهو صنيع ذلك الرجل اليهودي المتظاهر بالاسلام وبما أن للموضوع أهمية خاصة لا نكتفي ببيان توهم واحد بل نأتى على ذكر كل تلك الإدعاءات واحدة بعد الأخرى، مع رعاية التسلسل الزمني . (١١٨) (١١٩) الافتراض الأول: الشيعة ويوم السقيفة

إنّ مأساة السقيفة جديدة بالقراءة والتحليل، وسوف نتطرّق إليها في فصل خاص عند البحث عمّا تنعقد به الامامة لدى السنة والشيعة، ولكن نذكر هنا موجز ما ذكره الطبري وغيره الذي صار سنداً لمن تخيل أن الشيع تكوّن في ذلك اليوم . قال الطبري: اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبيعوا سعد بن عبادة، فبلغ ذلك أبابكر فاتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فقال: ما هذا؟ فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، فقال أبوبكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء - إلى أن قال - فبايعه عمر، وبايعه الناس، فقالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلاّ علياً. ثم قال: أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة، فخرج عليه الزبير مسلطاً بالسيف فعثر، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه، وقال أيضاً: وتخلّف علي والزبير واخترط الزبير سيفه وقال: لا أعمدته حتّى يبايع علي، فبلغ ذلك أبابكر وعمر فقالا: خذوا سيف الزبير... (١) .

١ . تاريخ الطبري ٢ / ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(١٢٠)

وقال يعقوبى: ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم، العباس بن عبدالمطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب... (١) . يلاحظ على تلك النظرية: أنّ هذه النصوص تدل على أنّ فكرة التشيع لعلّي كانت مختمرة في أذهانهم منذ عهد الرسول إلى وفاته، فلمّا رأّت الجماعة أنّ الحق خرج عن محوره، عمدوا إلى التمسك بالحق بالاجتماع في بيت علي الذي أوصاهم النبي به طيلة حياته، إذ من البعيد جداً أن يجتمع رأيهم على علي في يوم واحد في ذلك اليوم العصيب. فالمعارضة كانت استمراراً لما كانوا يلتزمون به في حياة النبي، ولم تكن فكرة خلقتها الظروف والأحداث . كان أبوذر وقت أخذ البيعة غائباً ولمّا جاء قال: أصبتم قناعه، وتركتم قرابه، لو جعلتم الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم الاثنان (٢) وقال سلمان: أصبتم ذا السن، وأخطأتم المعدن، أما لو جعلتموه فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رغدا . وروى الزبير بن بكار في الموقفيات: أنّ عامّة المهاجرين وجلّ الأنصار كانوا لا يشكّون أنّ علياً هو صاحب الأمر . وروى الجوهرى في كتاب السقيفة: أنّ سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هواهم أن يبايعوا علياً. وروى أيضاً: أنّه لمّا بويع أبوبكر واستقرّ أمره، ندم قوم كثير من الأنصار

١ . تاريخ يعقوبى ٢ / ١٠٣ طبع النجف .

٢ . ابن قتيبة: الامامة والسياسة ١٢ . (١٢١)

على بيعته ولايم بعضهم بعضاً، وهتفوا باسم الامام علي ولكنّه لم يوافقهم (١). ومن المستحيل عادةً اختمار تلك الفكرة بين هؤلاء في يوم واحد، بل يعرب ذلك عن وجود جذور لها، قبل رحلة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويؤكد ذلك نداءاته التي ذكرها في حق عليّ وعترته في مواقف متعدّدة، فامتناع الصحابة عن بيعته الخليفة ومطالبتهم بتسليم الأمر إلى علي أنّما هو لأجل مشايعتهم لعلّي زمن

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وما هذا إلا إخلاص ووفاء منهم للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو أين هو من تكوّن التشيع يوم السقيفة . ويؤيد ذلك ما رواه الصدوق: أنه بعد ما استتب الأمر لأبي بكر اعترض عليه (لفيف) من الصحابة في مسجد النبي وكلّ يذكر وصايا النبي في حق علي بالوصاية من بعده، وسيوافيك نصوصهم في فصل مأساة السقيفة على وجه موجز .

١ . ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٦ / ٤٣ - ٤٤ . (١٢٣) الافتراض الثاني: التشيع صنع عبد الله بن سبأ «إن يهودياً باسم عبد الله بن سبأ المكنى بابن الأُمّة السوداء في - صنعاء - أظهر الإسلام في عصر عثمان واندس بين المسلمين، وأخذ ينتقل في حواضرهم وعواصم بلادهم: الشام، والكوفة، والبصرة، ومصر، مبشراً بأنّ للنبي الأكرم رجعة كما أنّ لعيسى بن مريم رجعة، وأنّ عليّاً هو وصي محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - كما كان لكل نبي وصي، وأنّ عليّاً خاتم الأوصياء كما كان محمّداً خاتم الأنبياء، وأنّ عثمان غاصب حق هذا الوصي وظالمه، فيجب مناهضته لارجاع الحق إلى أهله» . «إنّ عبد الله بن سبأ بتّ في البلاد الإسلامية دعائه، وأشار عليهم أن يظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطعن في الأمراء، فمال إليه وتبعه على ذلك جماعات من المسلمين، فيهم الصحابي الكبير والتابعي الصالح من أمثال أبي ذر، وعمار بن ياسر، ومحمد بن حذيفة، وعبد الرحمان بن عديس، ومحمّد بن أبي بكر، وصعصعة بن صوحان العبدى، ومالك الأشتر، إلى غيرهم من أبرار المسلمين وأخبارهم فكانت السبائية تثير الناس على ولائهم، تنفيذاً لخطة زعيمها، وتضع كتباً في عيوب الأمراء وترسل إلى غير مصرهم من الأمصار، فتتج عن ذلك قيام جماعات (١٢٤)

من المسلمين بتحريض السبائين، وقدومهم إلى المدينة وحصرهم عثمان في داره، حتّى قتل فيها، كل ذلك كان بقيادة السبائين ومباشرتهم». إنّ المسلمين بعدما بايعوا عليّاً، ونكث طلحة والزبير بيعته، وخرجا إلى البصرة رأى السبائيون أنّ رؤساء الجيشين أخذوا يتفاهمون، وأنّه إن تمّ ذلك سيؤخذون بدم عثمان، فاجتمعوا ليلاً - وقرّروا أن يندسوا بين الجيشين ويشيروا الحرب بكره دون علم غيرهم، وأنهم استطاعوا أن ينفذوا هذا القرار الخطير في غلس الليل قبل أن ينتبه الجيشان المتقاتلان، فناوش المندسّون من السبائين في جيش علي من كان بازائهم من جيش البصرة ففرع الجيشان وفرع رؤسائهما، وظنّ كلّ بخصمه شرّاً، ثمّ إنّ حرب البصرة وقعت بهذا الطريق، دون أن يكون لرؤساء الجيشين رأى أو علم. إلى هنا انتهت قصة السبائية، ولا يذكر منهم شيء بعد ذلك في التواريخ هذا هو الّذى يذكره الطبري في تاريخه، ويقول: فيما كتب به إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن عطية، عن يزيد الفقعي قال: كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمّه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثمّ تنقل في بلدان المسلمين يحاول اضلالهم فبدأ بالحجاز، ثمّ البصرة، ثمّ الكوفة، ثمّ الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام، فأخرجوه حتّى أتى مصر فاعتمر فيهم، فقال لهم فيما يقول: لعجب فمن يزعم أنّ عيسى يرجع ويكذب بأنّ محمّداً يرجع، وقد قال الله عزّ وجلّ: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) (١)، فمحمّد أحق بالرجوع من عيسى قال: فقبّل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة فتكلّموا فيها، ثمّ قال لهم بعد ذلك: إنّ كان ألف

نبي ولكل نبي وصي،

١ . القصص / ٨٥ .

(١٢٥)

وكان على وصي محمّد. ثم قال: محمّد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء. ثمّ قال بعد ذلك: من أظلم ممّن لم يجز وصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ووُثب على وصي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتناول أمر الأُمّة ثمّ قال لهم بعد ذلك: إنّ عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فانفضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدأوا باللعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر. فبتّ دعائه وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها

في عيوب ولا-تهم، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون... إلى آخر ما يذكره الطبري في المقام، وفي أحداث السنوات التالية إلى سنة ٣٦ التي وقعت فيها حرب الجمل. ولا يأتي بعد بشيء عن السبائية (١). ثم إنك قد تعرّفت على كبار السبائية وأنهم كانوا من أكابر الصحابة والتابعين، كأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي حذيفة، الذين عرفهم المسلمون بالزهد والتقوى والصدق والصفاء، وأما عبدالرحمان بن عديس البلوي فهو ممن بايع النبي تحت الشجرة وشهد فتح مصر، وكان رئيساً على من سار إلى عثمان من مصر (٢). _____

١. الطبري ٣ / ٣٧٨.

٢. أسد الغابة ٣ / ٣٠٩ قال: وشهد بيعه الرضوان وبايع فيها وكان أمير الجيش القادمين من مصر لحصر عثمان بن عفان - رضي الله عنه - لما قتلوه روى عنه جماعة من التابعين بمصر... (١٢٦)

وأما محمد بن أبي بكر، فأمه أسماء بنت عميس الخثعمية تزوجها أبو بكر بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً في حجة الوداع بطريق مكة، ثم نشأ في حجر علي بعد أبيه، وشهد معه حرب الجمل، كما شهد صفين، ثم ولي مصر عن علي، إلى أن قتل فيها بهجوم عمرو بن العاص عليها (١). وأما صعصعة بن صوحان العبدي، أسلم على عهد رسول الله، كان خطيباً فصيحاً شهد صفين مع علي. ولما استشهد علي، واستولى معاوية على العراق، نفاه إلى البحرين ومات فيها (٢). وأما الأشتر، فهو مالك بن الحرث النخعي، وهو من ثقات التابعين، شهد وقعة اليرموك، صحب علياً في الجمل وصفين، ولآه على مصر سنة (٣٨) ثم وصل إلى القلزم، دس إليه معاوية عميلاً له، فتوفى بالسم (٣). هذا هو الذي يذكره الطبري وقد أخذه من جاء بعده من المؤرخين وكتاب المقالات حقيقة راهنة، وبنوا عليه ما بنوا من الأفكار والآراء فصارت الشيعة وليدة السبائية في زعم هؤلاء عبر القرون والأجيال، وإليك من ذكرها مغمض العينين: _____

١. كان أحد من توثب على عثمان حتى قتل ثم انضم إلى علي: أسد الغابة ٤ / ٣٢٤، والاستيعاب ٣ / ٣٢٨، والجرح والتعديل ٧ / ٣٠١.

٢. أسد الغابة ٣ / ٣٢٠ قال: تقدم نسبه في أخيه زيد وكان صعصعة مسلماً على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم يره وصغر عن ذلك وكان سيدياً من سادات قومه عبد القيس وكان فصيحاً بليغاً لسنناً ديناً فاضلاً يعد في أصحاب علي - رضي الله عنه - وشهد معه حروبه.

٣. ملك العرب، أحد الأشراف والأبطال: الطبقات الكبرى ٦ / ٢١٣، الاصابة ٣ / ٤٥٩، سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٤. (١٢٧)

١- ابن الأثير (ت ٦٣٠)، فقد أورد القصة منبثه بين حوادث (٣٠ - ٣٦) وهو وإن لم يذكر المصدر في المقام، لكنّه يصدر عن تاريخ الطبري في حوادث القرون الثلاثة الأولى (١). ٢- ابن كثير الشامي (ت ٧٧٤) فقد ذكر القصة في تاريخه «البداية والنهاية» وأسندها عند ما انتهى من سرد واقعة الجمل، إلى تاريخ الطبري، وقال: هذا ملخص ما ذكر أبو جعفر بن جرير (٢). ٣- ابن خلدون (ت ٨٠٨)، في تاريخه «المبتدأ والخبر» أورد القصيدة في حادثه الدار والجمل وقال: هذا أمر الجمل ملخصاً من كتاب أبي جعفر الطبري (٣). وأما المتأخرون، وأخص الكتاب الجدد فإنهم يذكرون القصة، فنذكر منهم مايلي: ٤- محمد رشيد رضا، منشئ مجلة المنار (ت ١٣٥٤)، ذكره في كتابه _____

١. لاحظ مقدمة تاريخ الكامل يقول فيه: فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الامام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه فأخذت ما فيه جميع تراجمه، لم أخل بترجمة واحدة منها لاحظ ١ / ٣ طبع دار صادر.

٢. البداية والنهاية ٧ / ٢٤٦ طبع دار الفكر بيروت.

٣. تاريخ ابن خلدون يقول: «وبعث (عثمان) إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر: محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى

البصرة، وعبدالله بن عمر إلى الشام و عمار بن ياسر إلى مصر وغيرهم إلى سوى هذه، فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عواقبهم إلاّ عماراً فإنه استماله قوم من الأشرار انقطعوا إليه، منهم عبدالله بن سبأ ويعرف بابن السوداء كان يهودياً وهاجر أريام عثمان فلم يحسن اسلامه وأخرج من البصرة... تاريخ ابن خلدون أو كتاب العبر ٢ / ١٣٩، وقال ١٦٦: هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدها للوثوق به ولسلامته من الأهواء . (١٢٨)

«السنة والشيعة» وقال: وكان مبتدع أصوله (التشيع) يهودى اسمه عبدالله بن سبأ، أظهر الإسلام خداعاً، ودعا إلى الغلو في على كرم الله وجهه، لأجل تفريق هذه الأمة، وافساد دينها وديناها عليها، ثم سرد القصة وقال: ومن راجع أخبار واقعة الجمل في تاريخ ابن الأثير مثلاً يرى مبلغ تأثير افساد السبائيين دون ما كاد يقع من الصلح (١). ٥- أحمد أمين (ت ١٣٧٢)، وهو الذي استبطل عبدالله بن سبأ في كتابه «فجر الإسلام» وقال: إن ابن السوداء كان يهودياً من صنعاء أظهر الإسلام في عهد عثمان، وحاول أن يفسد على المسلمين دينهم وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة، وقد طاف في بلاد كثيرة، في الحجاز، والبصرة، والكوفة، والشام، ومصر، ثم ذكر أن أبازر تلقى فكرة الاشتراكية من ذلك اليهودى، وهو تلقى هذه الفكرة من مزدكى العراق أو اليمن. وقد كان لكتاب «فجر الإسلام» عام انتشاره (١٩٥٢ م) دوى واسع النطاق في الأوساط الإسلامية، فإنه أول من ألقى الحجر فى المياه الراكدة بشكل واسع، وقد ردّ عليه أعلام العصر بأنواع الردود، فألف الشيخ المصلح كاشف الغطاء «أصل الشيعة وأصولها» رداً عليه، كما ردّ عليه العلامة الشيخ عبدالله السبتي بكتاب أسماه «تحت راية الحق». ٦- فريد وجدى مؤلف دائرة المعارف (ت ١٣٧٠) فقد أشار إلى ذلك فى كتابه عند ذكره لحرب الجمل ضمن ترجمة الإمام على بن ابى طالب (٢). ٧- حسن إبراهيم حسن، وذكره فى كتابه (تاريخ الإسلام السياسى) وقد ذكر فى آخريات خلافة عثمان قوله: «فكان هذا الجؤ ملائماً تمام الملائمة ومهيئاً لقبول دعوة (عبدالله بن سبأ) ومن لفّ لفه والتأثر بها إلى أبعد حد» وقد أذكى نيران هذه

١ . السنة والشيعة ٤ - ٦ - ٤٥ - ٤٩ - ١٠٣ .

٢ . دائرة المعارف ٦ / ٦٣٧ . (١٢٩)

الثورة صحابى قديم اشتهر باللورع والتقوى - وكان من كبار أئمة الحديث - وهو أبوذر الغفارى الذى تحدى سياسة عثمان ومعاوية واليه على الشام بتحريض رجل من أهل صنعاء وهو عبدالله بن سبأ، وكان يهدياً فأسلم، ثم أخذ ينتقل فى البلاد الإسلامية، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة فالكوفة والشام ومصر... الخ (١). هذا حال من كتب عن الشيعة من المسلمين، وأما المستشرقون المتطفلون على موائد المسلمين فحدث عنهم ولا حرج، فقد اتبعوا تلك الفكرة الخاطئة فى كتبهم الاستشراقية التى تؤلف لغايات خاصية، فم أراد الوقوف على كلماتهم فليرجع إلى ما ألفه الباحث الكبير السيد مرتضى العسكرى فى ذلك المجال، فإنه - دام ظله - حقق المقال ولم يبق فى القوس منزعاً (٢). نظر المحقق فى الموضوع

١- إن ما جاء فى تاريخ الطبرى من القصة، على وجه لا يصح نسبته إلاّ إلى عفاريت الأساطير ومردة الجن، إذ كيف يصح لإنسان أن يصدق أن يهودياً جاء من صنعاء وأسلم فى عصر عثمان، واستطاع أن يغرى كبار الصحابة والتابعين، ويخدعهم ويطوف بين البلاد واستطاع أن يكون خلايا ضد عثمان ويستقدمهم على المدينة ويؤلبهم على الخلافة الإسلامية، فيهاجموا داره ويقتلوه، بمرأى ومسمع من الصحابة العدول ومن تبعهم باحسان، هذا شىء لا يحتمله العقل وإن وطّن على قبول العجائب والغرائب . إن هذه القصة تمس كرامة المسلمين والصحابة والتابعين، وتصورهم أمة

١ . تاريخ الإسلام السياسى ٣٤٧ .

٢ . عبدالله بن سبأ ١ / ٤٦ - ٥٠، وكتابه هذا من أنفس الكتب وحسنات الزمان . (١٣٠)

ساذجة يغترون بفكر يهودى وفيهم السادة والقادة والعلماء والمفكرون . ٢- إن القراءة الموضوعية للسيرة والتاريخ توقفنا على سيرة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان، فإنهما كانا يعاقبان المعارضين لهم، وينفون المخالفين ويضربونهم، فهذا أبوذر الغفارى نفاه

عثمان من المدينة إلى الربذة لاعتراضه عليه في تقسيم الفىء وبيت المال بين أبناء بيته، كما أن غلمانه ضربوا عمّار بن ياسر حتى انفتق له فتق في بطنه وكسروا ضلعاً من أضلعه(١). إلى غير ذلك من مواقفهم من مخالفيهم ومعارضهم التي يقف عليها المتتبع، ومع ذلك نرى أن رجال الخلافة وعمّالها يغضون الطرف عن يؤلّب الصحابة والتابعين على اخماد حكمهم، وقتل خليفتهم في عقر داره، ويجر الولايات على كيانهم. وهذا شيء لا يقبله من له أدنى إمام بتاريخ الخلافة وسيرة معاوية . يقول العلامة الأميني: لو كان ابن سبأ بلغ هذا المبلغ من إلقاء الفتن، وشق عصا المسلمين وقد علم به وبعيثة أمراء الأمة وساستها في البلاد، وانتهى أمره إلى خليفة الوقت، فلماذا لم يقع عليه الطلب؟ ولم يبلغه القبض عليه، والأخذ بتلكم الجنايات الخطرة والتأديب بالضرب والاهانة، والزج إلى أعماق السجون؟ ولا آل أمره إلى الاعدام المريح للأمة من شره وفساده كما وقع ذلك كله على الصلحاء الأبرار الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟ وهتاف القرآن الكريم يرنُّ في مسامع الملأ الديني: (إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(٢)

١ . الاستيعاب ٢ / ٤٢٢ .

٢ . المائدة / ٣٣ . (١٣١)

فهلّا اجتاح الخليفة جرثومة تلكم القلاقل بقتله؟ وهل كان تجهّمه وغلظته قصراً على الأبرار من أمة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ففعل بهم ما فعل (١) . وهناك لفيق من الكتاب ممّن حضر أو غبر، بدل أن يفتحوا عيونهم على الواقع المير، ليقفوا على الأسباب المؤدية إلى قتل الخليفة حاولوا التخلص من أوزار الحقيقة، ففتحوا فروضاً وهمية سببت قتل الخليفة وأودت به . وفي حق هؤلاء يقول الكاتب المعاصر: «وفي الشرق كتّاب لا يعينهم من التاريخ واقع ولا من الحياة حال أو ظرف، فإذا بهم يعللون ثورة المظلومين على أيام عثمان، ويحصرون أحداث عصر بل عصور، بإرادة فرد يطوّف في الأمصار والأقطار ويؤلّب الناس على خليفة ودولة! إن النتيجة العملية لمثل هذا الزعم وهذا الافتراء هي أن الدولة في عهد عثمان ووزيره مروان إنما كانت دولةً مثاليّة، وأنّ الأمويين والولاء والأرستقراطيين إنّما كانوا رُسلَ العدالة الاجتماعية والإخاء البشري في أرض العرب. غير أنّ رجلاً فرداً هو عبدالله بن سبأ أفسد على الأمويين والولاء والأرستقراطيين صلاحهم وبزهم إذ جعل يطوف الأمصار والأقطار مؤلّباً على عثمان وأمرائه وولاته الصالحين المصلحين. ولولا هذا الرجل الفرد وطوائفه في الأمصار والأقطار لعاش الناس في نعيم مروان وعدل الوليد وحلم معاوية عيشاً هو الرغادة وهو الرخاء . وفي مثل هذا الزعم افتراء على الواقع واعتداء على الخلق ومسايرة ضئيلة الشأن لبعض الآراء، يلف ذلك جميعاً منطقاً ساذجاً وحبّة مصطنعة واهية. وفيه ما هو أخطر من ذلك: فيه تضليل عن حقائق اساسية في بناء التاريخ، إذ يحاول صاحب هذا المسعى الفاشل أن يحصر أحداث عصر بكامله، بل عصور كثيرة، بإرادة فرد يطوف

١ . الغدير ٩ / ٢١٩ - ٢٢٠ .

(١٣٢)

في الأمصار ويؤلّب الناس على دولة فيثور هؤلاء الناس على هذه الدولة لا لشيء إلا لأنّ هذا الفرد طاف بهم وأثارهم! أمّا طبيعة الحكم وسياسة الحاكم وفساد النظام الاقتصادي والمالي والعمراني، وطغيان الأثرة على ذوى السلطان، واستبداد الولاء بالأرزاق، وحمل بنى أمة على الأعناق، والميل عن السياسة الشعبية الديمقراطية إلى سياسة عائلية أرستقراطية رأسمالية، وإذلال من يضمّر لهم الشعب التقدير والاحترام الكثيرين أمثال أبي ذرّ وعمّار بن ياسر وغيرهما، أمّا هذه الأمور وما إليها جميعاً من ظروف الحياة الاجتماعية، فليست بذات شأن في تحريك الأمصار وإثارتها على الأسرة الأموية الحاكمة ومن هم في ركابها، في نظر هؤلاء! بل الشأن كلّ الشأن في الثورة على عثمان لعبدالله بن سبأ الذي يلفت الناس عن طاعة الأمة ويلقى بينهم الشر. أليس من الخطر على التفكير أن ينشأ في الشرق، من يعللون الحوادث العامة الكبرى، المتصلة اتصالاً وثيقاً بطبيعة الجماعة وأسس الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية، بارادة فرد

من عامة الناس يطوف في البلاد باذراً للضلالات والنساء في هذا المجتمع السليم . أليس من الخطر على التفكير أن نعلل الثورات الاصلاحية في التاريخ تعليلاً صيبانياً نستند فيه إلى رغبات أفراد في التاريخ شاءوا أن يحدثوا شغباً فطافوا الأمصار وأحدثوه (١) . ٣- إن رواية الطبري نقلت عن أشخاص لا- يصح الاحتجاج بهم: أ: السري: إن السري الذي يروي عنه الطبري، إنما هو أحد رجلين:

١ . الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ٤ / ٨٩٤ - ٨٩٦ وللكلام صلة من أراد فليرجع إليه .

(١٣٣)

١- السري بن إسماعيل الهمداني الذي كذبه يحيى بن سعيد، وضعفه غير واحد من الحفاظ (١) . ٢- السري بن عاصم بن سهل الهمداني نزيل بغداد المتوفى عام (٢٥٨) وقد أدرك ابن جرير الطبري شطراً من حياته يربو على ثلاثين سنة، كذبه ابن خراش، وواه ابن عدى، وقال: يسرق الحديث، وزاد ابن حبان: ويرفع الموقوفات، لا يحل الاحتجاج به، وقال النقاش في حديث وضعه السري (٢) فالاسم مشترك بين كذايين لا يهمنّا تعيين أحدهما. واحتمال كونه السري بن يحيى الثقة غير صحيح، لأنه توفى عام (١٦٧) مع أن الطبري من مواليد عام (٢٣٤) فالفرق بينهما (٥٧) عاماً، فلا مناص أن يكون السري، أحد الرجلين الكذابين . ب - شعيب، والمراد منه شعيب بن إبراهيم الكوفي المجهول، قال ابن عدى: ليس بالمعروف، وقال الذهبي: راويه، كتب سيف عنه: فيه جهالة (٣) . ت - سيف بن عمر، قال ابن حبان: كان سيف بن عمر يروي الموضوعات عن الاثبات، وقال: قالوا: إنه كان يضع الحديث واتهم بالزندقة. وقال الحاكم: اتهم بالزندقة وهو في الرواية ساقط، وقال ابن عدى: بعض أحاديثه مشهورة، وعامتها منكرة لم يتابع عليها. وقال ابن عدى: عامية حديثه منكر. وقال البرقاني عن الدارقطني: متروك. وقال ابن معين: ضعيف الحديث فليس خير منه. وقال أبو حاتم: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي. وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال النسائي: ضعيف، وقال السيوطي: وضاع، وذكر حديثاً من طريق السري بن _____

١ . قال يحيى القطان: استبان لي كذبه في مجلس واحد، وقال النسائي: متروك، وقال غيره: ليس بشيء، وقال أحمد: ترك الناس حديثه لاحظ ميزان الاعتدال ٢ / ١١٧ .

٢ . تاريخ الخطيب ٩٩٣، ميزان الاعتدال ٢ / ١١٧، لسان الميزان ٣ / ١٢ .

٣ . ميزان الاعتدال ٢ / ٢٧٥، لسان الميزان ٣ / ١٤٥ . (١٣٤)

يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف فقال: موضوع، فيه ضعفاء أشدهم سيف (١) . ج - فإذا كان هذا حال السند، فكيف نعتد في تحليل تكوّن طائفة كبيرة من طوائف المسلمين تشكّل خمسهم أو ربعهم على تلك الرواية مع أن هذا هو حال سندها ومنتها، فالاعتماد عليها خداع وضلال . ٤- عبدالله بن سبأ، أسطورة تاريخية:

إنّ القرائن والشواهد والاختلاف الموجود في حق الرجل ومولده، وزمن إسلامه ومحتوى دعوته يشرف المحقق على القول، بأنّ مثل عبدالله بن سبأ مثل مجنون بنى عامر وبنى هلال وأمثال هؤلاء الرجال والأبطال كلّها أحاديث خرافة وضعها القصاصون وأرباب السمر والمجون، فإنّ الترف والنعيم قد بلغ أقصاه في أواسط الدولتين: الأموية والعباسية، وكلّما اتسع العيش وتوفرت دواعي اللهو، اتسع المجال للوضع وراج سوق الخيال وجعلت القصص والأمثال كى تأنس بها ربّات الحجال، وأبناء الترف والنعمة (٢) . هذا هو الذي ذكره المصلح الكبير كاشف الغطاء، ولعلّ ذلك أورث فكرة التحقيق بين أعلام العصر، فذهبوا إلى أنّ عبدالله بن سبأ أقرب ما يكون إلى الأسطورة منه إلى الواقع. وفي المقام كلام للكاتب المصري الدكتور طه حسين، يدعم كون الرجل أسطورة تاريخية استبطلها أعداء الشيعة نكايّة بالشيعة، ولا بأس في الوقوف على كلامه حيث قال: _____

١ . ميزان الاعتدال ١ / ٤٣٨، تهذيب التهذيب ٤ / ٢٩٥، اللثالي المصنوعة ١ / ١٥٧ - ١٩٩ - ٤٢٩ .

٢ . أصل الشيعة وأصولها ٧٣ . (١٣٥)

وأكبر الظن أن عبدالله بن سبأ هذا - إن كان كل ما يروى عنه صحيحاً - إنما قال ودعا إلى ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة، وعظم الخلاف، فهو قد استغلَّ الفتنة ولم يثرها. إنَّ خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبدالله بن سبأ هذا، ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان، وولاته من ناحية، وليشنعوا على علي وشيعته من ناحية أخرى، فيردّوا بعض أمور الشيعة إلى يهودى اسلم كيداً للمسلمين، وما أكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة؟ وما أكثر ما شنع الشيعة على خصومهم في أمر عثمان وفي غير أمر عثمان؟ فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرّج والاحتياط، ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعثب بدينهم وسياساتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء وكان أبوه يهودياً وكانت أمه سوداء، وكان هو يهودياً ثم أسلم لا رغياً ولا رهباً ولكن مكرراً وكيداً وخداعاً، ثم أتيج له من النجاح ما كان يتغنى، فحرّض المسلمين على خليفتهم حيث قتلوه، وفرّقه بعد ذلك أو قبل ذلك شيعاً وأحزاباً. هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغي أن تقام عليها أمور التاريخ، وإنما الشيء الواضح الذي ليس فيه شك هو أن ظروف الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الراي، وافتراق الأهواء ونشأة المذاهب السياسية المتباينة، فالمستمسكون بنصوص القرآن وسنة النبي وسيرة صاحبه كانوا يروون أموراً تطرأ، ينكرونها ولا يعرفونها، ويريدون أن تواجه كما كان عمر يواجهها في حزم وشدة وضبط للنفس وضبط للرعية، والشباب الناشئون في قريش وغير قريش من أحياء العرب كانوا يستقبلون هذه الأمور الجديدة بنفوس جديدة، فيها الطمع، وفيها الطموح، وفيها الاثرة، وفيها الأمل البعيد، وفيها الهَم الذي لا يعرب حدّاً يقف عنده، وفيها من أجل هذا كله التنافس والتراحم لا على (١٣٦)

المناصب وحدها بل عليها وعلى كل شيء من حولها. وهذا الأمور الجديدة كانت خليقة أن تدفع الشيوخ والشباب إلى ما دفعوا إليه، فهذه أقطار واسعة من الأرض تفتح عليهم، وهذه أموال لا تحصى تجبى لهم من هذه الأقطار فأى غرابه في أن يتنافسوا في إدارة هذه الأقطار المفتوحة، والانتفاع بهذه الأموال المجموعة؟ وهذه بلاد أخرى لم تفتح، وكل شيء يدعوهم إلى أن يفتحوها كما فتحوا غيرها، فمالهم لا يستبقون إلى الفتح؟ ومالهم لا يتنافسون فيما يكسبه الفاتحون من المجد والغنيمة إن كانوا من طلاب الدنيا، ومن الأجر والثوبة إن كانوا من طلاب الآخرة. ثم ما لهم جميعاً لا يختلفون في سياسة هذا الملك الضخم وهذا الثراء العريض؟ وإى غرابه في أن يندفع الطامعون الطامحون من شباب قريش هذه الأبواب التي فتحت لهم ليلجوا منها إلى المجد والسلطان والثراء؟ وإى غرابه في أن يهم بمنافستهم في ذلك شباب الأنصار وشباب الأحياء الأخرى من العرب؟ وفي أن تمتلىء قلوبهم موجدة وحفيظة وغيظاً إذا رأوا الخليفة يحول بينهم وبين هذه المنافسة، ويؤثر قريشاً بعظائم الأمور، ويؤثر بنى أمية بأعظم هذه العظائم من الأمور خطراً وأجلها شأناً. والشيء الذي ليس فيه شك هو أن عثمان قد ولّى الوليد وسعيداً على الكوفة بعد أن عزل سعداً، وولّى عبدالله بن عامر على البصرة بعد أن عزل أبا موسى. وجمع الشام كلها لمعاوية وبسط سلطانه عليها إلى أبعد حد ممكن بعد أن كانت الشام ولايات تشارك في ادارتها قريش وغيرها من أحياء العرب، وولّى عبدالله بن أبي سرح مصر، بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص، وكل هؤلاء الولاة من ذوى قرابة عثمان، منهم أخوه لأمه، ومنهم أخوه في الرضاعة، ومنهم خاله، ومنهم من يجتمع معه في نسبه الأدنى إلى أمية بن عبد شمس. كل هذه حقائق لا سبيل إلى انكارها، وما نعلم أن ابن سبأ قد أغرى عثمان (١٣٧)

بتوليته من ولّى وعزل من عزل، وقد أنكر الناس في جميع العصور على الملوك والقيصرة والولاة والأمراء إثارة ذوى قرابتهم بشؤون الحكم وليس المسلمون الذين كانوا رعية لعثمان بدعاً من الناس، فهم قد أنكروا وعرفوا ما ينكر الناس ويعرفون في جميع العصور (١). إنَّ الجهات التي استنتج منها كون ابن سبأ شخصية وهمية خلقها خصوم الشيعة ترجع إلى الأمور التالية: ١- إنَّ كل المؤرّخين الثقات لم يشيروا إلى قصة عبدالله بن سبأ، كابن سعد في طبقاته، والبلاذري في فتوحاته. ٢- إنَّ المصدر الوحيد عنه هو سيف بن عمر، وهو رجل معلوم الكذب، ومقطوع بآئه وضّاع. ٣- إنَّ الأمور التي أسندت إلى عبدالله بن سبأ، تسلّتم معجزات خارقة لفرد عادى كما تسلّتم أن يكون المسلمون الذين خدعهم عبدالله بن سبأ، وسخّروهم لمآربه، وهم ينفذون أهدافه بدون اعتراض، في منتهى البلاهة والسخف. ٤- عدم وجود تفسير مقنع لسكوت عثمان وعماله عنه، مع ضربهم لغيره من المعارضين كمحمد بن أبي حذيفة، ومحمد

بن أبي بكر، وغيرهم . ٥- قصة الاحراق، إحراق على إتياءه وتعيين السنة التي عرض فيها ابن سبأ للاحراق تخلو منها كتب التاريخ الصحيحة، ولا- يوجد لها في هذه الكتب أثر. ٦- عدم وجود أثر لابن سبأ وجماعته في واقعة صفين وفي حرب النهروان .

١ . الفتنة الكبرى ١٣٤ لاحظ الغدير أيضاً ٩ / ٢٢٠ - ٢٢١ .

(١٣٨)

وقد انتهى الدكتور بهذه الأمور إلى القول: بأنه شخص اذخره خصوم الشيعة للشيعة ولا وجود له في الخارج (١) . وقد تبعه غير واحد من المستشرقين، وقد نقل آراءهم الدكتور أحمد محمود صبحي في نظرية الإمامة (٢) . إلى أن وصل الدور إلى المحقق البارع السيد مرتضى العسكري - دام ظله - فألف كتابه «عبدالله بن سبأ» ودرس الموضوع دراسة عميقة، وهو الكتاب الذي يحلل التاريخ على أساس العلم، وقد أدى المؤلف كما ذكر الشيخ محمد جواد مغنیه: «إلى الدين والعلم وبخاصة إلى مبدأ التشيع خدمة لا يعادلها أي عمل في هذا العصر، الذي كثرت فيه التهجّمات والافتراءات على الشيعة والتشيع، وأقفل الباب في وجوه السماسرة والدسائس الذين يتشبثون بالطحلب لتمزيق وحدة المسلمين واضعاف قوتهم» (٣) . ولنفترض أن للرجل حقيقة وليس أسطورة تاريخية لكن لا شك أن ما نقل عنه في ذلك المجال سراب وخداع، يقول الدكتور أحمد محمود صبحي: وليس ما يمنع أن يستغل يهودى الأحداث التي جرت في عهد عثمان، ليحدث فتنة وليزيدها اشتعالا، وليؤلب الناس على عثمان، بل أن ينادى بأفكار غريبة، ولكن السابق لأوانه أن يكون لابن سبأ هذا الأثر الفكري العميق، فيحدث هذا الانشقاق العقائدى بين

١ . طه حسين: الفتنة الكبرى: فصل ابن سبأ، وقد لخص ما ذكرنا من الأمور من ذلك الفصل الدكتور الشيخ أحمد الوائلى في كتابه «هوية التشيع» ١٤٦ .

٢ . نظرية الإمامة لأحمد محمود صبحي ٣٧ .

٣ . عبدالله بن سبأ ١ / ١١، والكتاب يقع في جزأين وصل فيهما إلى النتيجة التي تقدّمت، وقد استفدنا من هذا الكتاب في هذا الفصل . (١٣٩)

طائفة كبيرة من المسلمين (١) . إلى هنا تبين أن تحليل تكوّن الشيعة عن هذا الطريق تحليل خيالى خادع، وسراب لا ماء ويتضح الحق إننا إذا راجعنا كتب الشيعة نرى أن أنتمهم وعلماهم يتبرأون منه أشدّ التبرؤ . ١- قال الكشى، وهو من علماء القرن الرابع: عبدالله بن سبأ كان يدعى النبوة وأنّ علياً هو الله فاستتابه ثلاثة أيام فلم يرجع، فأحرقه بالنار في جملة سبعين رجلا (٢) . ٢- قال الشيخ الطوسى (٣٨٥ - ٤٦٠) في رجاله في باب أصحاب أمير المؤمنين: عبدالله بن سبأ الذي رجع إلى الكفر وأظهر الغلو (٣) . ٣- وقال العلامة الحلى (٦٤٨ - ٧٢٦): غال ملعون، حرقه أمير المؤمنين بالنار، كان يزعم أنّ علياً إله وأنه نبي، لعنه الله (٤) . ٤- وقال ابن داود (٦٤٧ - ٧٠٧): عبدالله بن سبأ رجع إلى الكفر وأظهر الغلو (٥) . ٥- وذكر الشيخ حسن (ت ١٠١١) في التحرير الطاووسى: غال ملعون حرقه أمير المؤمنين - عليه السلام - بالنار (٦) . ومن أراد أن يقف على كلمات أئمة الشيعة في حق الرجل، فعليه أن يرجع

١ . نظرية الامامة ٣٧ .

٢ . رجال الكشى ٩٨ برقم ٤٨ .

٣ . رجال الطوسى: باب أصحاب على برقم ٧٦ / ٥١ .

٤ . الخلاصة للعلامة: القسم الثانى الباب الثانى: عبدالله ٢٣٦ .

٥ . رجال ابن داود: القسم الثانى ٢٥٤ برقم ٢٧٨ .

٦ . التحرير الطاووسى ١٧٣ برقم ٢٣٤ . (١٤٠)

إلى رجال الكشى فقد روى في حقه روايات كلّها ترجع إلى غلوّه في حق على، وأما ما نقله عنه سيف بن عمر فليس منه أثر في تلك

الروايات، فأقصى ما يمكن التصديق به أن الرجل ظهر غالباً فقتل أو أحرق، والقول بذلك لا يضر بشي، وأما ما يذكره الطبري عن الطريق المتقدم فلا- يليق أن يؤمن ويعتقد به من يملك أدنى إلمام بالتاريخ والسير. وأخيراً فلنفترض أن كل ما ساقوه في القصة صحيح ولكن السؤال الذي نطرحه هو أنه لا ملازمة بين التصديق بها وبين أن ذلك الحدث هو منشأ مذهب الشيعة فإن التشيع حدث في عصر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واعتنقته أمة مسلمة ورعه من الصحابة والتابعين، وأما ما قام به ابن سبأ على فرض صحته وقوعه فإنه يعبر عن موقف فردي وتصرف شخصي خارج عن إطار المذهب ومن تبعه، فقد أدخل نفسه دار البوار، وأين هؤلاء من الذين لا يخالفون الله ورسوله وأولى الأمر ولا يتخلفون عن أوامره قيد أنملة كالمقداد وسلمان وحجر بن عدي ورشيد الهجري ومالك الأشتر وصعصعة وأخيه وعمر بن الحمق ممن يستدر بهم الغمام وتنزل بهم البركات. إلى هنا تم تحليل النظرية الثانية في تكون الشيعة فلنرجع إلى تحليل النظرية الثالثة. (١٤١) الافتراض الثالث: التشيع فارسي المبدأ أو الصبغة وهناك فرضية ثالثة اخترعها المستشرقون لتكون مذهب الشيعة في المجتمع الاسلامي، وهؤلاء كالباحثين السابقين اعتقدوا أن التشيع ظاهرة حدثت بعد النبي الأكرم، فأخذوا يفتشون عن علتها وسبب حدوثها حتى انتهوا إلى أن التشيع فارسي المبدأ أو الصبغة، والترديد بين الأمرين لأجل أن لهم في المقام رأيين. ١- أن التشيع من مخترعات الفرس، اخترعوه لأغراض سياسية ولم يعتنقه أحد من العرب قبل الفرس، ولكنهم لما أسلموا اخترعوا تلك الفكرة لغاية خاصة. ٢- أن التشيع عربي المبدأ، وإن لفيماً من العرب اعتنقوه قبل أن يدخل الفرس في الإسلام ولما أسلموا اعتنقوه وصبغوه صبغة فارسية لم يكن له ذلك من قبل. وهذان الرأيان هما اللذان عبرنا عنهما في العنوان بما عرفت، وإليك التفصيل. أما الأولى: فقد اخترعها المستشرق دوزي وحاصله أن للمذهب الشيعي نزعة فارسية لأن العرب كانت تدين بالحرية، والفرس تدين بالملك، والوراثه، (١٤٢)

ولا يعرفون معنى الانتخاب، ولما انتقل النبي إلى دار البقاء ولم يترك ولداً، قالوا على أولى بالخلافة من بعده. وحاصله: أن الإنسجام الفكري بين الفرس والشيعة أعنى كون الخلافة أمراً وراثياً، دليل على أن التشيع وليد الفرس. يلاحظ عليه: أولاً: أن التشيع حسب ما عرفت ظهر في عصر النبي الأكرم وهو الذي سمي أتباع على بالشيعة، وكانوا متواجدين في عصر النبي وبعده، إلى زمن لم يدخل أحد من الفرس سوى سلمان، في الإسلام.

إن رواد التشيع في عصر الرسول والوصي كانوا كلهم عرباً ولم يكن بينهم أي فارسي سوى سلمان المحمدي، وكلهم يتبنون فكرة التشيع. وكان لأبي الحسن أمير المؤمنين على بن أبي طالب - عليه السلام - أيام خلافته ثلاثه حروب، حرب الجمل، وصفين، والنهروان. وكان جيشه كله عرباً أقحاحاً بين عدنانية وقحطانية، فقد انضم إلى جيشه زرافات من قريش والأوس والخزرج، ومن قبائل مذحج، وهمدان، وطى، وكنده، وتميم، ومضر، وكان زعماء جيشه من رؤوس هذه القبائل كعمار بن ياسر، وهاشم المرقال، مالك الأشتر، صعصعة بن صوحان وأخوه زيد، قيس بن سعد بن عبادة، عبدالله بن عباس، محمد بن أبي بكر، حجر بن عدي، عدي بن حاتم، وأضرابهم، وبهذا الجند وأولئك الزعماء فتح أمير المؤمنين البصرة وحارب القاسطين معاوية وجنوده يوم صفين، وبهم قضى على المارقين. فأين الفرس في ذلك الجيش وأولئك القواد كي نحتمل أنهم كانوا الحجر الأساس للتشيع. ثم لم يعتنق الفرس التشيع دون غيرهم، بل اعتنقه الأتراك والهنود وغيرهم من غير العرب. (١٤٣) شهادة المستشرقين على أن التشيع عربي المبدأ:

إن لفيماً من المستشرقين وغيرهم صرحوا بأن العرب اعتنقت التشيع قبل الفرس وإليك نصوصهم: ١- قال الدكتور أحمد أمين: إن الفكر الفارسي استولى على التشيع لقدمه على دخول الفرس في الإسلام وقال: والذي أرى كما يدلنا التاريخ أن التشيع لعلى بدأ قبل دخول الفرس إلى الإسلام ولكن بمعنى ساذج، ولكن هذا التشيع أخذ صبغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام وحيث أن أكبر عنصر دخل في الإسلام الفرس فلهم أكبر الأثر في التشيع (١) وسيوافيك الكلام ما في ذيل كلامه من أن التشيع أخذ صبغة جديدة بعد فترة من حدوثه. ٢- قال المستشرق: «فلهوزن»: كان جميع سكان العراق في عهد معاوية خصوصاً أهل الكوفة شيعة ولم يقتصر هذا على الأفراد، بل شمل القبائل ورؤساء العرب (٢). ٣- وقال المستشرق «جولد تسيهر»: «إن من الخطأ القول بأن التشيع في

منشئه ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الأمم الإيرانية في الإسلام بعد أن اعتنقته، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا الوهم الشائع مبنى على سوء فهم الحوادث التاريخية، فالحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحثة (٣). ٤- يقول المستشرق «آدم متر»: إن مذهب الشيعة ليس كما يعتقد البعض رد فعل من جانب الروح الإيرانية يخالف الإسلام فقد كانت جزيرة العرب شيعة كلها

١. فجر الإسلام ١٧٦ .

٢. الخوارج والشيعة ١١٣ .

٣. العقيدة والشريعة ٢٠٤ . (١٤٤)

عدا المدن الكبرى، مثل مكة وتهمامة وصنعاء وكان للشيعة غلبة في بعض المدن أيضاً مثل عمان، وهجر وصعدة، أما إيران فكانت كلها سنة، ما عدا قم وكان أهل اصفهان يغالون في معاوية حتى اعتقد بعض أهلها أنه نبي مرسل (١). هذه الكلمات من هؤلاء الذين يفقدون الاخلاص غالباً في قضائهم، أوضح شاهد على أنهم لم يجدوا لهذه النظرية أى مصدر صحيح . ٥- يقول الشيخ أبو زهرة: إن الفرس تشيعوا على أيدي العرب وليس التشيع مخلوقاً لهم، ويضيف: وأما فارس وخراسان وماوراءهما من بلدان الإسلام فقد هاجر إليها الكثير من علماء الإسلام الذين كانوا يتشيعون فراراً بعقيدتهم من الأمويين أولاً، ثم العباسيين ثانياً وأن التشيع كان منتشرًا في هذه البلاد انتشاراً عظيماً قبل سقوط الدولة الأموية بفرار أتباع زيد ومن قبله إليها (٢). ٦- قال السيد الأمين: إن الفرس الذين دخلوا الإسلام لم يكونوا شيعة في أول الأمر إلا القليل وجل علماء السنة وأجلاؤهم من الفرس، كالبخارى والترمذى والنسائي وابن ماجه والحاكم النيسابورى والبيهقى وهكذا غيرهم ممن أتوا في الطبقة التالية (٣). وثانياً: إن التاريخ يدلنا إلى أن الفرس دخلوا في الإسلام يوم دخلوا، بالصبغة السنية، وهذا هو البلاذرى يحدثنا في كتابه ويقول:

كان ابرويز وجه إلى الديلم فأتى بأربعة آلاف، وكانوا خدمه وخاصته، ثم كانوا على تلك المنزلة بعده، وشهدوا القادسية مع رستم، ولما قتل وانهمز

١. آدم متر: الحضارة الإسلامية ١٠٢ .

٢. الامام جعفر الصادق ٥٤٥ .

٣. أعيان الشيعة ١ / ٣٣ ط الخامسة . (١٤٥)

المجوس اعترفوا، وقالوا: ما نحن كهؤلاء ولا لنا ملجأ، وأثرنا عندهم غير جميل، والرأى لنا أن ندخل معهم في دينهم، فاعترفوا فقال سعد: ما لهؤلاء، فأتاهم المغيرة ابن شعبة فسألهم عن أمرهم، فأخبروه بخبرهم، وقالوا: ندخل في دينكم، فرجع إلى سعد فأخبره فأمنهم، فأسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد، وشهدوا فتح جلولاء، ثم تحولوا، فزولوا الكوفة مع المسلمين (١). لم يكن اسلامهم يوم ذاك، إلا كاسلام سائر الشعوب، فهل يمكن أن يقال: إن اسلامهم يوم ذاك كان اسلاماً شيعياً. وثالثاً: إن الإسلام كان يمشى بين الفرس بالمعنى الذي كان يمشى في سائر الشعوب ولم يكن بلد من بلاد إيران معروفاً بالتشيع إلى أن انتقل قسم من الأشعرين الشيعة إلى قم و كاشان، فبذروا بذرة التشيع وكان ذلك في أواخر القرن الأول مع أن الفرس دخلوا في الإسلام في عهد الخليفة الثانى أى من سنة ١٧ وهذا يعنى أنه قد انقضى عشرات الأعوام ولم يكن عندهم أثر من التشيع. هذا هو ياقوت الحموى يحدثنا في معجم البلدان ويقول: «قم، مدينة تذكر مع قاشان، وهى مدينة مستحدثة اسلامية لا اثر للأعاجم فيها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعري، وكان بدو تمصيرها في أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣، وذلك أن عبدالرحمان بن محمد بن الأشعث بن قيس، كان أمير سجستان من جهة الحجاج، ثم خرج عليه وكان في عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين، فلما انهزم ابن الاشعث ورجع إلى كابل منهزماً كان في جملته إخوة يقال لهم عبدالله، والأحوص، وعبدالرحمان، وإسحاق، ونعيم، وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري، وقوعوا إلى ناحية قم، وكان هناك سبع قرى

١. البلاذري: فتوح البلدان ٢٧٩ .

(١٤٦)

اسم احدهما « كمندان » فنزل هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى افتتحوها واستولوا عليها، وانتقلوا إليها واستوطنوها، واجتمع عليهم بنوعهم وصارت السبع قرى، سبع محال بها، وسميت باسم احدها، « كمندان » فأسقطوا بعض حروفها، فسميت بتعريبهم قمًا وكان متقدم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد، وكان له والد قد ربي بالكوفة، فانتقل منها إلى قم، وكان إمامياً فهو الذي نقل التشيع إلى أهلها، فلا يوجد بها سني قط» (١). هذا كله راجع إلى تحليل النظرية من منظار التاريخ، وأما دليله فهو أوهن من بيت العنكبوت فإنّ الفرس وإن كانوا لا يعرفون معنى الإنتخاب والحرية، ولكن كانت العرب أيضاً مثلهم، فإنّ العربي الذي كان يعيش في البادية عيشة فردية كان يحب الحرية ويمارسها، وأما العربي الذي يعيش عيشة قبلية، فقد كان شيخ القبيلة يملك زمام أمورهم وشؤونهم، فما معنى الحرية بعد هذا، وإذا مات شيخ القبيلة، يقوم أبناؤه وأولاده مكانه واحداً بعد الآخر . تحليل النظرية الثانية:

إنّ هذه النظرية وإن كانت تتعرف بأنّ التشيع عربي المولد والمنشأ، ولكنها تدعى أنه اصطبغ بصبغة فارسية بعد دخول الفرس في الإسلام وهذا هو الذي اختاره الدكتور أحمد أمين كما عرفت ولغيف من المستشرقين ك «فلهاوزن»، يقول الثاني إن آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين، أمّا كون هذه الآراء قد انبثقت من الإيرانيين فليست تلك الملاءمة دليلاً عليه، بل الروايات التاريخية تقول

١ . معجم البلدان ٤ / ٣٩٦، مادة قم، ويقول في مراد الاطلاع بأنّ أهل قم وكاشان كلهم شيعة إمامية ولاحظ رجال النجاشي ترجمة الرواة الأشعريين فيه .

(١٤٧)

بعكس ذلك، إذ تقول انّ التشيع الواضح الصريح كان قائماً أولاً في الأوساط العربية، ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالي، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الأوساط. ولكن لما ارتبطت الشيعة العربية بالعناصر المضطهدة تخلت عن تربيته القومية العربية، وكانت حلقة الإرتباط هي الإسلام ولكنه لم يكن ذلك الإسلام القديم، بل نوعاً جديداً من الدين (١) . أقول: إن مراده أن التشيع كان في عصر الرسول وبعده بمعنى الحب والولاء لعلّي لكنه انتقل بيد الفرس إلى معنى آخر وهو كون الخلافة أمراً وراثياً في بيت علي - عليه السلام - هذا هو الذي يصرح به الدكتور أحمد أمين ويقول: إن الفكر الفارسي استولى على التشيع، والمقصود من الاستيلاء هو جعل الخلافة أمراً وراثياً كما كان الأمر كذلك بين الفرس في عهد ملوك بني ساسان وغيرهم. يلاحظ عليه: أن كون الحكم والملك أمراً وراثياً لم يكن من خصائص الفرس، بل وراثية الحكم كان سائداً في جميع المجتمعات، فالنظام السائد بين ملوك الحيرة وغسان وحمير في العراق والشام واليمن كان هو الوراثة، والحكم في الحياة القبلية في الجزيرة العربية كان وراثياً، والمناصب المعروفة لدى قريش من السقاية والرفادة وعمارة المسجد الحرام والسدانة كانت أموراً وراثية حتى أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يغيّر بل أنه أمضاها ومن هنا نرى أنه قد دفع مفاتيح البيت لبنى شيبه لما كانت السدانة منصباً لهم أيام الجاهلية، فتخصيص الفرس بالوراثة وغمض العين عن غيرهم أمر عجيب، فعلى ذلك يجب أن نقول، انّ التشيع اصطبغ بصبغة فارسية وغسانية وحميرية وأخيراً عربية، فما معنى تخصيص فكرة الوصاية بالفرس مع كونها آنذاك فكرة عامة عالمية؟! —————

١ . الخوارج والشيعة ١٦٩ .

(١٤٨)

إنّ النبوة والوصاية من الأمور الوراثة في الشرائع السماوية، لا بمعنى أن الوراثة هي الملاك المعين بل بمعنى أنه سبحانه جعل نور النبوة والامامة في بيوتات خاصة، فكان يتوارث نبي نبياً، ووصى وصياً، يقول سبحانه: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) (١). (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا- يَنَالُ عَهْدِي

الظالمين(٢). (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً)(٣). فلماذا لا يكون سبب تشيع الفرس مفاد هذه الآيات والروايات التي تصرح بأن الوصاية بين الأنبياء كانت أمراً وراثياً؟ وإن هذه سنة الله في الأمم كما هو ظاهر قوله سبحانه (لا ينال عهدى الظالمين) فسمى الامامة عهد الله لا عهد الناس. ثم إن من زعم أن التشيع من صنع الفرس مبدأً وصبغاً فهو جاهل بتاريخ الفرس وذلك لأن التسنن كان هو السائد عليهم إلى أوائل القرن العاشر حتى غلب عليهم التشيع في عصر الصفويين، نعم كانت الري وقم وكاشان معقل التشيع ومع ذلك يقول أبو زهرة: إن أكثر أهل الفارس إلى الآن من الشيعة وأن الشيعة، الأولين كانوا من أهل فارس(٤). أمياً غلبه التشيع عليهم في الآونة الأخيرة فلا ينكره أحد، إنما الكلام كونهم

١. الحديد / ٢٦ .

٢. البقرة / ١٢٤ .

٣. النساء / ٥٤ .

٤. تاريخ المذاهب الإسلامية ١ / ٤١ ط دار الفكر العربي . (١٤٩)

كذلك في بداية دخولهم إلى الإسلام، وكأن الرجل جاهل بتاريخ بلاد إيران، وما نحن ننقل كلام «أحسن التقاسيم» لتقف على أن المذهب السائد في ذلك القرن، هل كان هو التشيع أم التسنن يقول: «اقليم خراسان للمعتزلة والشيعة، والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلا في كورة الشاش فإنهم شوافع وفيهم قوم على مذهب عبدالله السرخسي، واقليم الرحاب مذاهبهم مستقيمة إلا أن أهل الحديث حنابلة والغالب بدييل - لعله يريد أردبيل - مذهب أبي حنيفة وبالجمال، أما بالري فمذاهبهم مختلفة، والغلبة فيهم للحنفية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة والدينور غلبه مذهب سفيان الثوري، واقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف أهل الأهواز شيعة، وفيه من أصحاب أبي حنيفة كثير، وبالأهواز مالكيون، اقليم فارس العمل فيه على أصحاب الحديث وأصحاب أبي حنيفة، اقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي، اقليم السند مذاهبهم أكثرها أصحاب الحديث، وأهل الملتان شيعة يهيعلون في الأذان - أي يقولون: حي على خير العمل - ويشنون في الاقامة - أي يقولون: الله أكبر مرتين، وأشهد أن لا إله إلا الله مرتين أيضاً وهكذا - ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة(١). ذكر ابن بطوطة «كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر - يعنى العلامة الحلبي (٦٤٨ - ٧٢٦) - فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزین له مذاهب الروافض وفضله على غيره... فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك إلى العراقيين وفارس وآذربايجان واصفهان وكرمان

١. أحسن التقاسيم لشمس الدين محمد بن أحمد المقدسي / ١١٩ (ألفه عام ٣٧٥) .

(١٥٠)

وخراسان وبعث الرسل إلى البلاد، فكان أول بلاد وصل إليها الأمر بغداد وشيراز واصفهان، فأما أهل بغداد فخرج منهم أهل باب الازج يقولون لاسمعاً ولا طاعة، وجاءوا للجامع وهددوا الخطيب بالقتل إن غير الخطبة وهكذا فعل أهل شيراز وأهل اصفهان(١). وقال القاضي عياض في مقدمه - ترتيب المدارك - وهو يحكى انتشار مذهب مالك: وأما خراسان وما وراء العراق من بلاد المشرق فدخلها هذا المذهب أولاً - بيحيى بن يحيى التميمي، وعبدالله بن المبارك، وقتيبة بن سعيد، فكان له هناك أئمة على مر الأزمان، وتفشى بقزوين وماولاها من بلاد الجبل. وكان آخر من درس منه بنيسابور أبو إسحاق بن القطان وغلب على تلك البلاد مذهباً أبي حنيفة والشافعي(٢). قال «بروكلمان»: إن شاه إسماعيل الصفوي بعد انتصاره على «الوند» توجه نحو تبريز فأعلمه علماء الشيعة التبريزيون أن ثلثي سكان المدينة الذين يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف، من السنة(٣). هذه النصوص تعطينا أن السنة كانت هي المذهب السائد إلى القرن العاشر بين الفرس، فكيف يمكن أن يقال: إن بلاد فارس كانت هي الموطن الأصلي للتشيع. هذا هو ابن الأثير يؤكد

على أن أهل طوس كانوا سنة إلى عصر محمود بن سبكتكين، قال: إن محمود بن سبكتكين جدد عمارة المشهد بطوس الذي فيه قبر

١. رحلة ابن بطوطة ٢١٩ - ٢٢٠ .

٢. ترتيب المدارك ١ / ٥٣ .

٣. تاريخ المذاهب الإسلامية ١ / ١٤٠ . (١٥١)

على بن موسى الرضا وأحسن عمارته، وكان أبوه سبكتكين أخربه، وكان أهل طوس يؤذون من يزوره فمنعهم ابنه عن ذلك، وكان سبب فعله ذلك أنه رأى في المنام أمير المؤمنين على بن أبي طالب وهو يقول: إلى متى هذا؟ فعلم أنه يريد أمر المشهد يأمر بعمارته (١). ويؤيد ذلك ما رواه البيهقي: إن المأمون العباسي هم بأن يكتب كتاباً في الطعن على معاوية، فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين! العامة لا تتحمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة (٢). فقد بان مما ذكر أمران:

١- إن التشيع ليس فارسي المبدأ، وإنما هو حجازي المولد، والمنشأ اعتنقه العرب فترة طويلة لم يدخل فيها أحد من الفرس - سوى سلمان المحمدي - وإن الإسلام دخل بين الفرس مثل دخوله بين سائر الشعوب وأنهم اعتنقوا الإسلام - لا التشيع - مثل اعتناق سائر الأمم وبقوا عليه قروناً وكان التشيع بينهم قليلاً - إلى أن ظهر بينهم، في عهد بعض ملوك المغول أو عهد الصفوية عام ٩٠٥ هـ - إن كون الامامة منحصرة في علي وأولاده، ليس صبغة عارضة على التشيع، بل هو جوهر التشيع وحقيقته ولولاه، فقد التشيع روحه وجوهره، فجعل الولاء لآل البيت أو تفضيل علي، على سائر الخلفاء أصله وجوهره، وجعل الامامة في علي ونسله أمراً عرضياً فكر خاطئ ليس له دليل . قال المفيد: الشيعة من دان بوجوب الامامة ووجودها في كل زمان وأوجب

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥ / ١٣٩ .

٢. البيهقي: المحاسن والمساوي ١ / ١٠٨ . (١٥٢)

النص الجلي والعصمة والكمال لكل امام ثم حصر الامامة في ولد الحسين بن علي - عليهما السلام - وساقها إلى الرضا علي بن موسى - عليهما السلام - . (١)

١. اوائل المقالات / ٧ . (١٥٣) الافتراض الرابع: الشيعة ويوم الجمل

إن الشيعة تكونت يوم الجمل لما ذكر ابن النديم: أن علياً قصد طلحة والزبير ليقاتلها حتى يفينا إلى أمر الله جل اسمه وتسمى من أتبعه على ذلك الشيعة. وكان يقول: شيعتي وسماهم - عليه السلام - الأصفياء، الأولياء، شرطة الخميس، الأصحاب (١). وعلى ذلك جرى المستشرق «فلهوزن» حيث يقول: بمقتل عثمان انقسم الإسلام إلى فئتين: حزب علي، وحزب معاوية، والحزب يطلق عليه في العربية اسم «الشيعة» فكانت شيعة علي في مقابل شيعة معاوية، لكن لما تولي معاوية الملك في دولة الاسلام كلها... أصبح استعمال لفظ «شيعة» مقصوراً على أتباع علي (٢). يلاحظ عليه: أن ما ذكره ابن النديم نفس ما ذكره البرقي قبله بقول (٣) في رجاله وإليك نصه .

١. ابن النديم: الفهرست ٢٦٣ طبع القاهرة .

٢. الخوارج والشيعة ١٤٦ (ترجمة عبدالرحمان بدوي، طبع القاهرة) .

٣. توفي البرقي عام (٢٧٤) أو (٢٨٠) وألف ابن النديم كتابه عام (٣٧٧) وتوفي عام (٣٧٨) . (١٥٤) أصحاب أمير المؤمنين:

من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الأصحاب، ثم الأصفياء، ثم الأولياء، ثم شرطة الخميس: من الأصفياء من أصحاب أمير المؤمنين - عليه السلام - : سلمان الفارسي، المقداد، أبوذر، عمار، أبو ليلى، شبير، أبو سنان، أبو عمرة، - أبو سعيد الخدري (عربي أنصاري) - أبو برزة، جابر بن عبد الله، البراء بن عازب (أنصاري)، عرفة الأزدى، وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دعا له فقال: اللهم بارك (له) في صفته . وأصحاب أمير المؤمنين، الذين كانوا شرطة الخميس كانوا سنة آلاف رجل، وقال علي بن الحكم

(أصحاب) أمير المؤمنين الذين قال لهم: تشرطوا أنما أشارتكم على الجنة ولست أشارتكم على ذهب وفضة ان نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لأصحابه فيما مضى: تشرطوا فأتى لست أشارتكم، إلا على الجنة (١). ترى أنه عد من أصحاب الامام رجلا ماتوا، قبل أيام خلافته كسلمان، وأبوذر والمقداد، وكلهم كانوا شيعة الامام، فكيف يكون التشيع وليد يوم الجمل والظاهر وجود التحريف في عبارة ابن النديم . وعلى كل تقدير فما تلونا عليك من النصوص في وجود التشيع في عصر الرسول وبعده وقبل أن تشب نار الحرب في البصرة، دليل على وهن هذا الرأي - على تسليم دلالة كلام ابن النديم - بل كان ذلك اليوم يوم ظهور التشيع . فإن الامام وشيعته بعد خروج الحق عن محوره، واستتباب الأمر لأبي بكر، رأوا أن مصالح الإسلام والمسلمين تكمن في السكوت ومماشاة القوم، بينما كان نداء

١ . البرقي: الرجال ٣ .

(١٥٥)

التشيع يعلو بين آونه وأخرى من جانب المجاهرين بالحقيقة، كأبي ذر الغفاري وغيره، ولكن كانت القاعدة الغالبة هو إدلاء الأمر للمتقنين بالخلافه والاشتغال برفع مشاكلهم العلميه، ولكن عندما تم الأمر للامام علي، ورجع الحق إلى محله اهتزت الشيعة فرحاً، وارتفع كابوس الضغط عنهم، واستنشقوا نسيم الحرية - وإن كانت أياماً قصيرة - ففي تلك الأحيين ظهرت المعارضة بين المتشيعين وغيرهم . (١٥٦) (١٥٧) الافتراض الخامس: الشيعة ويوم صفين

إن بعض المستشرقين (١) زعم أن الشيعة تكوّنت يوم افترق جيش علي في مسألة التحكيم إلى فرقتين فلتما دخل على الكوفة وفارقتة الحرورية وثبت إليه الشيعة، فقالوا: في أعناقنا بيعه ثانية، نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت . إن رمى الشيعة بالتكون يوم صفين اعتماداً على هذه العبارة باطل وأنما ذهب إليه ذلك المستشرق لأنه افترض لتكون الشيعة، تاريخاً مفصلاً عن تاريخ الإسلام فأخذ يتمسك بهذه العبارة، مع أن تعبير الطبري، أعنى قوله: وثبت إليه الشيعة (٢) دليل على سبق وجودهم على ذلك . نعم كانت للشيعة بعد تولي الإمام الخلافة الحرية حيث ارتفع الضغط فالتف حوله مواليه من الصحابة والتابعين، نعم لم يكن كل من في جيشه من الشيعة بالمعنى المصطلح، وإنما كانوا يقتدون به لأجل مبايعته .

١ . تاريخ الامامية للدكتور عبدالله فياض ٣٧ .

٢ . تاريخ الطبري ٤ / ٤٦ طبع مصر . (١٥٨) (١٥٩) الافتراض السادس: الشيعة والبويهيون

تلقي آل بويه مقاليد الحكم والسلطة من عام ٣٢٠ - ٤٤٧، فكانت لهم السلطة في العراق وبعض بلاد إيران كفارس وكرمان وبلاد الجبل وهمدان وإصفهان والري، وقد أقصوا عن الحكم في الأخير بهجوم الغزاة عليه عام ٤٢٠ وقد ذكر المؤرخون خصوصاً ابن الأثير في الكامل وابن الجوزي في المنتظم شيئاً كثيراً من أحوالهم، وخدماتهم، وافساحهم المجال للعلماء من غير فرق بين طائفة وأخرى. وقد أفرد المستشرق «استانلي لين بول» كتاباً في حياتهم ترجم باسم طبقات سلاطين الإسلام . يقول ابن الأثير وكان عضد الدولة عاقلاً، فاضلاً، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة، ثاقب الرأي، محباً للفضائل وأهلها، باذلاً في مواضع العطاء... إلى أن قال: وكان محباً للعلوم وأهلها، مقرباً للعلماء، محسناً إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل. فقصدته العلماء من كل بلد وصنّفوا له الكتب ومنها الايضاح في النحو، والحجّة في القراءات، والمكلى في (١٦٠)

الطب، والتاجي في التاريخ إلى غير ذلك (١). وهذا يدل أنهم كانوا محبين للعلم ومرّوجين له من غير فرق بين كون العالم من الشيعة أو السنة. وكان في عصرهم يغلب التسنن على أكثر البلاد ومع ذلك لم يحاربوا التسنن خلافاً لملوك السنة، فكلما كانت لهم السلطة والقوة استأثرت الشيعة، ولو وقعت في أيامهم حوادث بين الشيعة والسنة في الطرق كان التحرش فيها من طرف السنة، ومن الحوادث المؤلمة في نهاية حكمهم بعد دخول طغرل بك مدينة دار السلام (بغداد) عام ٤٤٧، إحراق مكتبة الشيخ الطوسي وكرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس (٢). نعم راج مذهب الشيعة في عصرهم واستنشقوا نسيم الحرية بعد أن تحمّلوا الظلم والاضطهاد طيلة حكم

العباسيين خصوصاً في عهد المتوكل ومن بعده. غير أن تكون مذهب الشيعة في أيامهم شيئاً وكونهم مروّجين ومعاضدين له شيء آخر، والمسكين لم يفرّق بينهما .

١ . الكامل في التاريخ ٩ / ١٩ - ٢١ طبع دار صادر .

٢ . لاحظ المنتظم: لابن الجوزي ١٦ / ١٠٨ الطبعة الحديثة بيروت . (١٦١) الافتراض السابع: الشيعة والمغول

لما أقصى آل بويه عن الحكم في العراق وإيران، لم تقم للشيعة دولة قويّة ذات حول وطول بعدهم، وعاد الضغط على أتباع أهل البيت إلى أن استولى «هولاكو» على إيران وقضى على الخلافة العباسية عام (٦٦٥) فأعطى الحرية للمذاهب ومنها مذهب أهل البيت وعلى ذلك نهج أولاده، ثم أسلم من ملوك المغول أربعة ثالثهم محمد خدابنده، ورابعهم سعيد بن محمد خدابنده. فأما الأول منهما فقد كان حنيفياً ولما وفد عليه نظام الدين عبدالملك الشافعي جعله قاضي القضاة في المملكة وكان يناظر الحنيفة في محضر السلطان فيفحمهم، ولما ظهرت له الغلبة حسن للسلطان المذهب الشافعي فعدل إليه، ولما كثرت المناظرات بين نظام الدين وعلماء الحنيفة، وكان ينسب كل منهم إلى مذهب الآخر ما لا تستحسنه العقول، ظهر عليه الملل والضجر، وقد ورد إليه في هذا الآونة السيد تاج الاوى مع جماعة من الشيعة وقعت بينه وبين نظام الدين محاضرات بمحضره، ثم بعد آونة حضر عنده العلامة الحلّي الحسن بن يوسف بمناسبة خاصية يذكرها التاريخ، فأمر قاضي القضاة بمناظرته، وأعدّ لهم مجلساً حافلاً للعلماء وأهل الفضل، فوعدت المناظرة بينهم في المسائل العقائدية والفقهية، فظهرت غلبة العالم الشيعي، فأظهر السلطان (١٦٢)

التشيع من حينه، وصارت تلك المناظرة سبباً لانتشار التشيع (١) وقد استنشقت الشيعة في عصر المغوليين على وجه الاطلاق عطر الحرية ونسيمها، فازدحمت المراكز العلمية بعلمائهم ومفكرهم، كنصير الدين الطوسي والمحقق الحلّي. وازدهرت بيوتات الشيعة كبيت آل طاووس وآل سعيد وغيرهما. وقد كان للشيعة كيان ونشاط في عصرهم أعادوا مجدهم في عصر البويهيين .

١ . لاحظ منتخب التواريخ لمعين الدين النظري المؤلف عام ٨١٦-٨١٧ طبع عام ١٣٣٦ .

(١٦٣) الافتراض الثامن: الشيعة والصفوية

والكلام في هذه الأسرة هو الكلام في البويهيين والمغوليين . إن الصفويين أسرة الشيخ صفى الدين العارف المشهور في أردبيل المتوفى عام (٧٣٥) ولما انقرضت دولة المغول، انقسمت البلاد إلى دويلات صغيرة شيعية وغير شيعية إلى أن قام أحد أحفاد صفى الدين، الشاه إسماعيل عام (٩٠٥) واستلم مقاليد الحكم وسيطر على بلاد فارس والطرق، واستمر في الحكم إلى عام (٩٣٠)، ثم ورثه اولاده إلى أن أقصوا عن الحكم بسيطرة الأفغان على إيران عام (١١٣٥) فكان الصفويون خير الملوك لقلّة شرورهم وكثرة بركاتهم، وقد راج العلم والأدب والفنون المعمارية أثناء حكمهم، ولهم آثار خالدة إلى الآن في إيران والعراق، ومن وقف على أحوالهم ووقف على تاريخ الشيعة يقف على أن عصرهم كان عصر ازدهار التشيع لا تكوّن . هذه هي الآراء الساقطة في تحليل تاريخ الشيعة ومبدأ تكوّنهم، وكلها كانت أموراً افتراضية بنوها على أساس خاطيء وهو أن الشيعة ظاهرة طارئة على المجتمع الاسلامي بعد عهد النبي، سامحهم الله وغفر الله لنا ولهم . (١٦٤) زلّة لاستقلال:

إنّ الدكتور عبدالله فياض زعم أن التشيع بمعنى مولاة على نضج في مراحل ثلاث: ١- التشيع الروحي، يقول: إنّ التشيع لعلى بمعناه الروحي زرعت بذرته في عهد النبي وتمت قبل توليه الخلافة، ثم ساق الأدلة على ذلك وجاء بأحاديث يوم الدار أوبدء الدعوة وأحاديث الغدير وما قال النبي في حق على من التسليم على على بإمرة المؤمنين. ٢- التشيع السياسي، ويريد من التشيع السياسي، كون على أحق بالإمامة لا- لأجل النص بل لأجل مناقبه وفضائله، ويقول: إنّ التشيع السياسي ظهرت بوادره - دون الالتزام بقضية الاعتراف بإمامته الدينية (يريد النص) - في سقيفة بني ساعدة، حين أسند حق على بالخلافة عدد من المسلمين أمثال الزبير، والعباس، وغيرهما، وبلغ التشيع السياسي أقصى مداه حين بويغ على بالخلافة بعد مقتل عثمان . ٣- ظهوره بصورة فرقة، فإنما كان ذلك بعد فاجعة كربلاء سنة (٦١) ولم يظهر التشيع قبل ذلك بصورة فرقة دينية تعرف بالشيعة. ثم استشهد بكلام المقدسي حيث قال: إنّ أصل مذاهب

المسلمين كلها منشعبة من أربع: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة. وأصل افتراقهم قتل عثمان، ثم تشعبوا (١) وأريد نظريته بما ذكره المستشرق «فلهوزن» قال: تمكن الشيعة أولاً في العراق ولم يكونوا في الأصل فرقة دينية، بل تعبيراً عن الرأي السياسي في هذا الاقليم كله، فكان جميع سكان العراق خصوصاً أهل الكوفة شيعة على تباين (٢). —————

١. أحسن التقاسيم ٣٨ طبع ليدن ١٩٠٦ .
٢. تاريخ الإمامية ٣٨ - ٤٧ . (١٦٥) يلاحظ عليه، أولاً: أنّ التفكيك بين المرحلتين الأوليتين وأنّ الأولى منهما كانت في عصر النبي وظهرت بوادر المرحلة الثانية بعد رحلة النبي قد نقضه نفس الكاتب في كلامه حيث قال: كان رواد التشيع الروحي يلتزمون بآراء على الفقهية إلى جانب الالتزام باسناده سياسياً (١). وثانياً: إنّ ما ذكره من النصوص في مجال التشيع الروحي كما يدل على أنّ علياً القائد الروحي، يدل بوضوح على أنّه القائد السياسي، وقد نقل الكاتب جل النصوص، فمعنى التفكيك بينهما هو أنّ الصحابة الواعين أخذوا ببعض مضامينها وتركوا بعضها، ولو صحّ اسناد ذلك إلى بعض الصحابة فلا يصحّ اسناده إلى سلمان، وأبي ذر، وعمّار، الذين لا يتركون الحق وإن بلغ الأمر ما بلغ .

وبما أنّ النبي كان هو القائد المحنك للمسلمين لم تك هناك حاجة لظهور التشيع السياسي في حياته، بل كان المجال واسعاً لظهور التشيع الروحي ورجوع الناس إلى على في القضايا والأحكام الفقهية، وهذا لا يعني عدم كونه قائداً سياسياً وأنّ وصايا النبي لم تكن هادفة إلى ذلك الجانب . وثالثاً: إنّ التشيع السياسي ظهر في أيام السقيفة في ظل الاعتراف بإمامته الروحية، فإنّ الطبري وغيره وإن لم يذكروا مصدر رجوع الزبير والعباس إلى على، ولكن هناك نصوص عن طرق الشيعة وردت في احتجاج جماعة من الصحابة على أبي بكر مستندين إلى النصوص الدينية.

روى الصدوق عن زيد بن وهب أنّه قال: كان الذين أنكروا على أبي بكر في تقدّمه على على بن أبي طالب اثنا عشر رجلاً - من المهاجرين والأنصار، فمن المهاجرين خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وأبي بن كعب، —————

١. تاريخ الإمامية ٤٥ .
(١٦٦)

وعمّار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود، وبريدة الأسلمي، ومن الأنصار زيد بن ثابت، وذو الشهادتين، وابن حنيف وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الهيثم بن التيهان. وبعدهما صعّد أبو بكر على المنبر قال خالد ابن سعيد: يا أبا بكر اتق الله... ثم استدّل على تقدم على بما ذكره النبي فقال: معاشر المهاجرين والأنصار، أوصيكم بوصية فاحفظوها، وأتى مؤدّ إليكم أمراً فأقبلوه على أنّ علياً أميركم من بعدى وخليفتي فيكم - إلى آخر ما ذكره - ثمّ قام أبو ذر وقال: يا معاشر المهاجرين والأنصار... طرحتم قول نبيكم وتناسيتهم ما أوعز إليكم، ثمّ ذكر مناشدة كل منهم مستندين في حججهم على أبي بكر بالأحاديث التي سمعوها من النبي الأكرم (١) وهذا يعرب أنّ التشيع السياسي - الذي كان ظرف ظهوره حسب طبع الحال - بعد الرحلة، كان مستفاداً من نصوص النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . رابعاً: ماذا يريد من الفرقة وأنّ الشيعة تكوّنت بصورة فرقة بعد مقتل الامام الحسين فهل يريد الفرقة الكلامية التي تبتنى على آراء في العقائد تخالف فيها الفرق الأخرى، فهذا لم يكن منه أثراً إلى أواسط العقد الثالث من الهجرة، ولم يكن يومذاك أيّة مسألة كلامية مطروحة حتّى تأخذ شيعة على بجانب والآخرون بجانب آخر، بل كان المسلمون متسامين في العقائد والأحكام حسب ما بلغ إليهم من الرسول، ولم يكن يومذاك أيّ اختلاف إلاّ مسألة القيادة، فالفرقة بهذا المعنى لم تكن موجودة في أواسط المسلمين .

وإن أراد من الفرقة الجماعة المتبينة ولاية على روحياً وسياسياً وأنّه أحق بالقيادة على جميع الموازين، فكانت موجودة في يوم السقيفة وبعدها . —————

١. الخصال ٤٦١ طبع مكتبة الصدوق لاحظ المناشدة إلى آخرها ترى فيها دلائل كافية لاثبات الخلافة للامام أمير المؤمنين - عليه

السلام - .

(١٦٧)

نعم إن احتكاك المسلمين مع الأجانب واستيراد آرائهم وعقائدهم في المسائل الكلامية والدينية أوجد فروغاً كلامية، وبما أن الشيعة حسب حديث الثقلين رجعوا إلى أئمة أهل البيت فصاروا فرقة كلامية متشعبة الأفنان، ضاربه جذورها في الكتاب والسنة والعقل . الآن حصص الحق وأسفر الصبح لدى عيين فليس التشيع ظاهرة طارئة على الإسلام، وإنما هو نفس الإسلام في إطار ثبوت القيادة لعل بعد رحلة النبي بتنصيبه. وتبناه منذ بعثه النبي الأكرم لفائف من الصحابة والتابعين وامتد ذلك حسب الأجيال والقرون وظهر بفضل التمسك بالثقلين علماء مجاهدون، وشعراء مجاهرون، وعباقره في الحديث، والفقهاء والتفسير والفلسفة والكلام واللغة والأدب، وشاركوا جميع المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية بجوانبها المختلفة، يتفقون مع جميع الفرق في أكثر الأصول والفروع وإن اختلفوا معهم في بعضها كاختلاف بعض الفرق مع بعضها الآخر. وسيوافيك تفصيل عقائدهم في الفصل العاشر باذن الله . وبذلك يظهر وهن ما ذهب إليه الدكتور عبدالعزيز الدوري من أن التشيع باعتباره عقيدة روحية ظهر في عصر النبي وباعتباره حزباً سياسياً قد حدث بعد قتل علي (١) . هذه الفروض الوهمية تبنت على أساس باطل وهو أن التشيع بجميع أو بعض أبعاده أمر طارئ على الإسلام والأمة، فراحوا يتبنون الفروض الذهنية .

١ . لاحظ الصلة بين التصوف والتشيع ١٨ .

(١٦٨) (١٦٩)

الفصل السابع صيغة الحكومة عند أهل السنة

الفصل السابع صيغة الحكومة عند أهل السنة (١٧٠) (١٧١)

قد تعرّف على صيغة الحكومة عند الشيعة، وحان البحث عن صيغتها لدى أهل السنة، وأنهم يختلفون عن الشيعة في شكل الحكومة بعد رسول الله، في أمرين: الأول: فيما يتعلق بجوهرها وصلبها وأساسها، فإن الخلافة عند الشيعة إمرة إلهية، واستمرار لوظائف النبوة كلها، سوى تلقى الوحي الإلهي، والامام نفس الرسول في الصلاحيات والوظائف غير أنه ليس بنبي لأن النبوة أوصدت وختمت بالرسول... فلا- نبي ولا- رسول بعده، ولكن الوظائف كلها مستمرة فلأجل ذلك يجب أن يكون الامام قائماً بوظائفه - صلى الله عليه وآله وسلم - المعنوية والمادية والعلمية والاجتماعية، ويسد الفراغات الحاصلة بوفاة، وقد عرفت قسماً منها، وكان الامام على وعترته الطاهرة على هذا الوصف فكانوا خلفاء إلهيين عينهم الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لكن لم تسمح الظروف للقيام بجميع وظائفهم إلا لعل بعد حرمانه من حقه سنين متتالية، فلما استتبت له الأمور قام بنفس ووظائف النبي، من غير فرق بين الاجتماعية منها والعلمية، وسد الفراغات الهائلة.

ولكن الخلافة عند أهل السنة رئاسة دينية لتنظيم أمور الأمة من تدبير الجيوش، وسد الثغور، وردع الظالم، والأخذ للمظلوم، وقسمه الفيء بين (١٧٢)

المسلمين، وقيادتهم في حجبهم وغزوهم (١) . ولأجل اختصاص وظائف الامام بهذه الأمور السياسية لا تشترط فيه العصمة، ولا الاحاطة بالشرع أصوله وفروعه، بل يكفي فيه المقدره لتدبير الأمور، وقطع كيد الأعداء، وتسهيل الحياة للأمة فعلى ذلك، فلا تتجاوز وظائفه عن الوظائف المخولة للحكومات الحاضرة، غير أنه يجب أن يكون مؤمناً بالله ورسوله وقائماً بالوظائف الفردية، ولا يعزل عن مقامه بالخروج عن الطاعة واقتراف المعصية حسب ما ذكره في محله (٢) . وهذا الاختلاف بين الفريقين يرجع إلى تفسير جوهر الامامة وحقيقتها ويتفرع على ذلك خلاف آخر وهذا هو الذي نذكره في الأمر التالي . الثاني: ان الامام عند الشيعة يعين من جانب الله سبحانه ويبلغ بواسطة الرسول، وأما الامام عند أهل السنة، فقد فوض أمر انتخابه إلى الأمة على وجه الاجمال ولم تذكر خصوصياته

على وجه التفصيل، والذي يظهر من مجموع كلامهم، ان الامامة تنعقد عن طريق الشورى، واختيار أهل الحل والعقد أولاً، وبتعيين الامام السابق ثانياً، وبالغلبة ثالثاً (٣).

قال الماوردي: الامامة تنعقد بوجهين: أحدهما: باختيار أهل الحل والعقد. والثاني: بعهد الامام من قبل (٤). _____

١. قد لخص الماوردي مسؤوليات الامام في عشرة، لاحظ الأحكام السلطانية ١٥ - ١٦.

٢. التمهيد للباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ١٨١.

٣. الماوردي: الأحكام السلطانية ٦ والتفتازاني: شرح مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين ٢٧٢ طبع مصر.

٤. الأحكام السلطانية ٤. (١٧٣)

وقال العضدي: إنها تثبت بالنص من الرسول، وفي الامام السابق بالاجماع، وتثبت ببيعة أهل العقد والحل (١). ثم إنهم اختلفوا في عدد من تنعقد بهم الامامة على مذاهب شتى، فقالت طائفة: لا تنعقد الامامة إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضا به عاماً. وقالت طائفة: اقل ما تنعقد به منهم خمسة، بشهادة أن بيعة أبي بكر انعقدت بخمسة وهم عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة الجراح، واسيد بن حضير، وبشر بن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة. وقال آخرون: تنعقد بثلاثة، يتولأها أحدهم برضا الاثنين، ليكونوا حاكماً وشاهدين، كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين. وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد، لأن العباس قال لعلي: امدد يدك أباعك، فيقول الناس عم رسول الله بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان، ولأنه حكم وحكم الواحد نافذ (٢). إن هذا الاختلاف الهائل فيما تنعقد به الامامة، ناجم عن القول بأن أمر الخلافة مفوض إلى الأمة مع عدم النص على أصل التفويض ولا على خصوصياته. وهذا من عجيب الأمر، حيث إن النبي يفوض ذلك الأمر الحيوي إلى الأمة، ولا يتكلم بأصل التفويض ولا خصوصياته، فيترك الأمة في حيرة. وقد وقف على ذلك، الكاتب المصري الخضري، قال: لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفه لرسول الله، اللهم تلك الأوامر العامة التي تتناول _____

١. شرح المواقف ٣ / ٢٦٥.

٢. الأحكام السلطانية ٤. (١٧٤)

الخلافة وغيرها، مثل وصف المسلمين بقوله تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (١). وكذلك لم يرد في السنة بيان نظام لانتخاب الخليفة، إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق، كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم، ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله، كما أوضحت سبل الصلاة والصيام (٢). إن ما ذكره الخضري لا يسمن ولا يغنى من جوع، لأن الحكومة بعد النبي الأكرم كانت من عظام الأمور فلا يخطر ببال أحد أن يكتفى الرسول بجميع تفاصيلها وخصوصياتها التي لم تمارسها الأمة ولا ذاقها طوال حياته بآية الشورى وهذا أشبه بالاكْتفاء في إقامة الصلاة بالمجملات الواردة في نص الكتاب. «كيف يخطر ببال أحد أن يهمل الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - القيادة السياسية للدولة الإسلامية التي أسسها، وثبت عناصرها، ومرتكزاتها، فلم يضع قاعدة معينة للخلافة كما زعموا، مع العلم بأن القيادة بالنسبة للدولة كالرأس من الجسد، وكالقلب من سائر الأعضاء والجوارح. أيهمل القيادة والرئاسة للدولة، ولا يتكلم عنها بنفى أو اثبات؟ أيهملها ويتركها نهياً لأصحاب المطامع، والمطامح، والأهواء، ولشبهوات أصحاب القوة والفساد في الأرض؟ فتعود بذلك بعد موته، الجاهلية، وعبادة الطواغيت، بعد أن عان وأصحابه ما عانوا من متاعب، ومشقات، وما قدّموه من تضحيات غالية وعزيزة للخلاص من أوبائها وتحرير العباد من فحشائها؟ أتركها لتكون سبباً لإراقة الدماء وازهاق الأرواح؟ وهو المرسل رحمة لا نعمة للعالمين، ونوراً وهدى للحائرين والضالين. _____

١. الشورى / ٣٨.

٢. محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ٢ / ١٦١. (١٧٥)

حاشاه حاشاه لقد وضع لأمته وبوحى من ربه العليم الخبير كل قواعد وأسس الحياة الإنسانية بمجالاتها الواسعة، ولم يهمل حتى آداب

الأكل والشرب ولبس النعال وحتى آداب التبول والتبرز، ووضح لأمته معالم الحياة الرفيعة الراقية وفي مقدمتها الحياة السياسية، ورأسها المفكر وقلبها النابض، هو القيادة المعروفة في لغة القرآن والسنة باسم - الامامة و الخلافة - والملك والسلطان - وبذلك نزلت البشرية من عالم الغيب والشهادة باكمال الدين، واتمام النعمة، والرضى بالاسلام قال تعالى: (اليَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ اَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمُ الْاِسْلَامَ دِينًا) - المائدة / ٣ - (١). لو كانت صيغة الحكومة قائمة على أساس الشورى، وكانت هي طريقاً لتعيين الحاكم، كان من الضروري أن يقوم النبي بتوعية الأمة، وايقافها بصورة واسعة على حدود الشورى وتفصيلها وخطوطها العريضة، حتى لا تتخثر الأمة ولا - تختلف في أمرها، ولكننا رغم هذه الأهمية القصوى، لا نجد لهذه التوعية الضرورية أى اثر فى الكتاب والسنة فى مجال انتخاب الحاكم. أجل إن مقتضى كون الدين الاسلامى ديناً خاتماً هو التعرض لصلب الموضوع موكلاً شكله إلى نظر الأمة، حتى يتماشى مع جميع العصور. ولا نعى من هذا أنه يجب على الشارع اعطاء كل التفاصيل والخصوصيات الراجعة إلى الشورى، غير أن هناك أموراً ترجع إلى جوهر الشورى وصميمها، فلا يصح للشارع أن يترك بيانها، إذاً هناك أسئلة تطرح نفسها فى المقام لا يمكن الوقوف على أجوبتها، إلا عن طريق الشرع، وهى: ١- من هم المشاركون فى الشورى، فهل العلماء وحدهم أو السياسيون وحدهم أو الضباط والعساكر وحدهم، أو المختلط منهم؟

١. الزيدية نظرية وتطبيق تأليف على بن عبدالكريم ١٠٢-١٠٣ طبع عمان ١٤٠٥ .

(١٧٤)

٢- من هم الذين يختارون أهل الشورى؟ ٣- لو اختلف أهل الشورى فى شخص أو أمر، ما هو الملاك لتقديم رأى على آخر؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المطروحة التى ترتبط بنظام الشورى المجمل، ولا يستطيع أحد أن يجيب عنها إلا رجماً بالغيب . ثم إن القوم ربما يعتبرون عن صيغة الحكومة باتفاق أهل الحل والعقد، وهذه الكلمة أشد غموضاً من السابقة إذ لا يعرف الإنسان من هم أهل الحل والعقد، وماذا يُحلون وماذا يعقدون؟ أهم أصحاب الفقه والرأى الذين يرجع إليهم الناس فيما ينوبهم من حوادث؟ وهل هناك درجة معينة من الفقه والعلم إذا بلغها الإنسان صار من أهل الحل والعقد؟ ما هى تلك الدرجة؟ وبأى ميزان توزن؟ ولأجل هذه الابهامات حول نظام الشورى أولاً، وأهل الحل والعقد ثانياً، تتبعض دكاترة العصر إلى وهن هذه النظرية . قال الدكتور طه حسين: لو كان للمسلمين هذا النظام المكتوب أى نظام الشورى، لعرف المسلمون فى أيام عثمان ما يأتون من ذلك، وما يدعون، دون أن تكون بينهم فرقة أو اختلاف . وقال الخطيب: إن كلمة أهل العقد والحل لأغمض غموضاً من كلمة الأفراد المسؤولين (١) . كل ذلك يعرب عن أن مسألة نظام الشورى إنما اخترعها المتقّمصون للخلافة فى أيام الأمويين .

١. الخلافة والامامة للخطيب عبدالكريم ٢٧١ .

(١٧٧) آيتان حول الشورى:

إنّ القائلين بكون صيغة الحكم بعد رحلة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الشورى، استدّلوا بأمرين: ١- الآيتان الواردتان حول الشورى . ٢- أنّ خلافة الخلفاء تمت بالشورى . ونحن نبحث عن كلا الموضوعين بوجه موجز، ونحيل التفصيل إلى الموسوعات الكلامية، وإليك الآية الأولى وتحليلها: ١- (فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (١) . إنّ الاستدلال بها سببه الغفلة عن موردها ومضمونها فإنّ الخطاب فيها موجه إلى الحاكم الذى فرضه سبحانه حاكماً على الأمة، فإمره أن يشاور أفراد الأمة فلا صلة للآية بالمدعى. فإن أقصى ما تفيده الآية هو أن لا يكون الحاكم الاسلامى الذى تمت سلطته، مستبدّاً فى أعماله، وأما أنّ الامام، يتعين عن طريق الشورى فالآية لا- تدل عليه، والذى يؤكّد ما قلناه أنه يأمر النبى بعد المشاورة. بالتوكّل عند العزم. وأنّ له الرأى النهائى والأخير . والحاصل: أنّ الآية خطاب للحاكم الاسلامى وأنّ عليه المشورة أولاً وأخذ التصميم النهائى ثانياً، وأما أنّ الحاكم الاسلامى يتعين من جانب الشورى، فالآية أجنبية عنه فإنّ الخطاب فى الآية للحاكم لا لغيره . وأما الآية الثانية: أعنى قوله سبحانه فى صفات

المؤمنين: (وأمرهم)

١. آل عمران / ١٥٩ .

(١٧٨) (شُورَى بَيْنَهُمْ) (١) فهي تحثّ المؤمنين إلى المشورة في جميع الأمور المرتبطة بهم وأما أنّ أمر الخلافة والولاية، من الأمور المرتبطة بهم فلا- تظهر من الآية. والتمسك بها في مثل هذا المقام المرّد بين كونه من أمور المؤمنين أو ممّا يرجع إلى الله ونبيه تمسك بالعام عند الشبهة المصادقية.

وبعبارة أخرى: إنّ الامامة لو كانت أمراً إلهياً. متوقفاً على ولاية مفاضة من الله سبحانه إلى الولي يكون من الأمور المربوطة بالله ورسوله، وأمّا لو كانت امره عرفية وولاية شعبية تكون من الأمور المتعلقة بالمؤمنين وفي مثله حيث الأمر مرّد لا يمكن التمسك بالعموم واثبات أنّ الولاية من شؤون المؤمنين . أضف إلى ذلك أنّه لو كان أساس الحكم في الإسلام هو الشورى لوجب على الرسول الأكرم بيان تفاصيلها وخصوصياتها وخطوطها العريضة. على ما عرفت تفصيلاً . ولأجل عدم وجود أيّ إيضاح من قبل النبيّ حول النظام المذكور، التجأ الكاتب المصري إلى رفض أن يكون ذلك أساساً للحكم وأما كانت تجربة من المسلمين بعد رحلة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - . يقول: «ينظر بعضهم إليه على أنّه (أى تعيين الامام بالشورى) نواة صالحة لأول تجربة، وإنّ الأيام كفيّلة بأنّ تنميها وتتكامل ما يبدو فيها من نقص فلم تكن الأحوال التي تمتّ فيها هذه التجربة تسمح بأكثر ممّا حدث، إذ لم يكن من المستطاع - حينذاك الوقوف على رأى الأمة كلّها، فرداً فرداً - فيمن يخلف النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وينظر بعض آخر إلى هذا الاسلوب بأنّه أسلوب بدائي عالج أهم مشكلة في الحياة وقد كان لهذا الاسلوب أثر في تعطيل القوى المفكرة

١. الشورى / ٣٨ .

(١٧٩)

للبحث عن اسلوب آخر من أساليب الحكم التي جربتها الأمم» (١) . ومعنى ذلك أنّ الرسالة العالمية الخاتمة لجميع الرسالات قد أهملت هذا الجانب المصيري في حياة الأمة، وأنّه اهتمّ بكل صغير وكبير سوى هذا الأمر الخطير الذي به يناط بقاء الإسلام واستمراره. علماً أنّ الظروف كانت مساعدة لوصول ذلك ولا مانع يعترض الطريق . خلافة الخلفاء ومسألة الشورى:

هذا كلّه حول الدليل الأول وأمّا الدليل الثاني. وهو أنّ خلافة الخلفاء تمتّ عن هذا الطريق فهو أوهن وأضعف من الأول فمن قرأ تاريخ السقيفة وانتخاب الخلفاء الثلاثة يقف على أنّه لم يكن هناك أي مشورة ولا استشارة وأما تمتّ خلافة الأول في جوّ إرهابي وفي محفل ساد فيه، السب والشتم والضرب. إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة التي لا تليق بمجلس كهذا . كما أنّ خلافة الثاني تمتّ بتنصيب من الخليفة الأول وأنّه استبدّ بالأمر ولم يدع مجالاً للأمة . وأمّا خلافة الثالث فهي وإن كانت مصبوغة بصبغة الشورى ولكن الخليفة هو الذي عين اعضاء الشورى واستبدّ بالأمر وعين المرشحين للخلافة بل كان ما قام به يؤدي إلى تعيين الخليفة. ومثل ذلك لا ينطبق عليه شروط الشورى وأنما كان استبداداً في لباس الحرية . وإن كنت في شك ممّا تلوناه عليك فلندرس تاريخ انتخاب الخلفاء عن كتب.

١. الخلافة والامامة: عبدالكريم الخطيب ٢٧٢ . (١٨٠) -١- السقيفة وخلافة أبي بكر:

توفّي رسول الله وكان أبو بكر خارج المدينة فقام عمر بن الخطاب فقال: إنّ رجلاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله قد توفّي، وإنّ رسول الله مات، ولكن ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل أنّه قد مات فوالله ليرجع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عيّا رجع موسى وليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مات فما زال عمر يتكلّم حتّى أزيد شذواه. فقال العباس: إنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يأسن كما يأسن البشر. وإنّ رسول الله قد مات فادفنوا صاحبكم أيميت أحدكم إماتة وييميته إماتتين؟ هو أكرم على الله من ذلك فان كان

كما تقولون فليس على الله بعزير أن يبحث عنه التراب فيخرجه إن شاء الله . وما زال الجدل مستمراً بين عمر والعباس وشاركهم سائر المسلمين إلى أن نزل أبو بكر من السّيح فسمع مقالة عمر فدخل البيت فكشف عن وجه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقنبله وقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً وألذى نفسي بيده لا يذيقك الله الموتين أبداً (١). ثم خرج فقال: على رسيك يا عمر. فجلس عمر. فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه ثم قال: ألا من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت وقال: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وقال: (وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسلُ أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين) فتشج الناس. فقال عمر: والله ما هو إلا أن

١. أين الوهايون من موقف الخليفة هذا، حيث أخذ يخاطب النبي وهو ميت، ويقبله ويتبرك به، ويقول بأبيه وأمه له . (١٨١)

سمعت أبا بكر تلاها فدهشت حتى وقعت إلى الأرض، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد مات (١). نقاش مع الخليفة:

هناك تساؤلات تطرح نفسها ولعله كان عند الخليفة أجوبة لها أو أن القارئ، يتفطن للاجابة عنها وهي: ١- أن موت النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن فجائياً بل كان بعد مرض ألم به عدّة أيام فكانت القرائن والشواهد تدل على أنه قد دنى فراقه للأمة وقد صرح بذلك في غير واحد من أصحابه، آخرها طلبه للقلم والدواة وكتابة الصحيفة والوصية للأمة حتى لا تضل الأمة من بعده وقد حال الخليفة الثاني بين النبي وأمينته وقال ما قال (٢). وعندئذ فكيف أذعن بأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ما مات وإنما غاب كغيبة موسى وقد أصرّ على ذلك حتى ازبد شذوقه ولم يكن بين الصحابة من يدافع عن تلك العقيدة. سوى نفسه. فهل كان الخليفة موقفاً بذلك جداً أو أنه كان له في تبني هذه الفكرة (لساناً لا قلباً) هدفاً سياسياً يخبيء فيه مصالحه أو مصالح الأمة؟ ٢- هل كانت الغيبة سنة رائجة بين جميع الأنبياء أو كانت من مختصات بعض الأنبياء كالكليم ونحوه. ولو صحّ الثاني كما هو الحق فما هو الوجه في الحاقه بالنادر؟

١. السيرة النبوية: ابن هشام ٦٥٥، الطبقات الكبرى ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩.

٢. البخاري: الصحيح، كتاب العلم ١ / ٢٢ وح ١٤ / ٢. (١٨٢)

٣- نرى أن عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - العباس، واجهه بما واجه به أبو بكر وهو أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أكرم من أن يميت سبانه موتين. مع أنه لم يقتنع بكلامه بل اقتنع بما ذكره أبو بكر. ٤- أنه مصرّاً على الغيبة مادام أبو بكر غائباً عن المدينة، فلما نزل من السّيح وأدلى بمقاله سرعان ما تراجع عن موقفه، وأتى سرّ كان في هذا الرجوع السريع عن فكرة كان يستميت في الدفاع عنها؟ ٥- كيف يقتنع القارئ بأن الخليفة لم يكن ذاكرةً قوله سبحانه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) وقوله سبحانه: (وما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرسل) وغيرهما؟ هذه الأسئلة لم نجد لها أجوبة شافية ومن المحتمل جداً أن يكون وراء الكواليس شيئاً ما. وأن تكون اطروحة الغيبة مناورة سياسية، الغاية منها منع المسلمين من اتّخاذ أيّ موقف في المسائل المصيرية للأمة حتى يجيء أبو بكر من السّيح ويجمع على رأى واحد. ولأجل ذلك تنازل عن موقفه بعد ما جاء أبو بكر من خارج البلد. فاتخذنا موقفاً واحداً، تجاه المسائل المصيرية . مأساة السقيفة:

كان على بن أبي طالب وجمهور المهاجرين منهمكين في تجهيز النبي فوقف الخليفتان على اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة للتداول في مسألة الخلافة. فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى اخواننا هؤلاء من الأنصار ما هم عليه فدخلا ومعهما بعض المهاجرين كأبي عبيدة بن الجراح وكان خطيب الأنصار ونقيهم سعد بن عبادة يخطب ويحث الأنصار على الأخذ بمقاليد الخلافة بحجة أنهم آووا النبي الأكرم عندما أخرجهم قومه. وضحو في سبيل دعوته بكل غال ورخيص. (١٨٣)

فلما أتمّ كلامه ابتداء أبو بكر بالبحث والكلام فاستند إلى أن اللاتق بالخلافة هو قوم النبي وقبيلته بحجة أنهم أوسط العرب داراً

وأحسنهم احساباً ولم يكتف بذلك حتى أخذ بيد عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ورشحهما للبيعة . ترى أن الطائفتين اتخذوا في حل مشكلة الخلافة قواعداً كانت سائدة في عصر الجاهلية فالأنصار ترى نفسها أحق بالخلافة لحمايتها النبي الأكرم وتقديم المأوى له، وأمياً هؤلاء الحاضرون من المهاجرين فاحتجوا بمثل ما احتجت به الأنصار وهو أن قريش أوسط داراً وأحسن نسباً . ولم يكن هناك من يذكر ويوقفهم على أن الإسلام عصف بهذه الأساليب من الاحتجاجات وحطم أحكام الجاهلية (١) فلو كان هناك مشورة اسلامية كان عليهم أن يتفحصوا عن أعلم القوم بالكتاب والسنة وأكثرهم دراية بهما . وأسوسهم وأحسنهم في ذات الله وأسبقهم إلى الايمان والإسلام . كما هو الوارد عن الكتاب والسنة قال سبحانه: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (٢) . وقال النبي الأكرم لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه خصال ثلاث: ١- ورع يحجزه عن معاصي الله . ٢- وحلم يملك به غضبه . ٣- وحسن الولاية على من يلي حتى يكون كالأب الرحيم (٣) .

١ . لاحظ: في الوقوف على احتجاج الطائفتين، السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٥٩، والطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٢٦٩ وتاريخ الطبري ٢ / ٤٤٢ - ٤٤٦ .

٢ . الحج / ٤١ .

٣ . الكافي للكليني ١ / ٤٠٧ . (١٨٤)

وقال الامام على: «أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر الله فإن شغب شاغب استعجب فإن أبي قوتل» (١) . وقال - صلوات الله عليه - أيضاً عندما قال قائل كلام «إنك على هذا الأمر يابن أبي طالب لحريص، فقلت: بل أنتم والله لأحرص وأبعد، وأنا أخص وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي وأنتم تحولون بيني وبينه وتضربون وجهي» (٢) . وقال الامام السبط الطاهر الحسين بن على - عليهما السلام - فما الامام إلا الحاكم بالكتاب، الدائن بدين الحق، القائم بالقسط، الحابس نفسه على ذات الله (٣) . وأين هذه الملاكات والضوابط مياً جاء في احتجاجات المهاجرين والأنصار وكأنتهم لم يسمعوا قول الله سبحانه: (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (٤) . ما سمعت من الكلمات، كانت احتجاجاتهم وشعاراتهم في نادى السقيفة وأما ما قاموا به من الأعمال المخزية أو ما صدر منهم من الضرب والسباب، فحدث عنه ولا حرج . وبذلك تقف على أنه لم تكن هنا أى مشورة، ولا تلاحق فكرى وإنما كان أشبه بملعب يتسابق فيه الجميع لأخذ كرة الخلافة بأي طريق حص وإن كنت في شك منها فاستمع لما نتلوه عليك من المصادر الموثقة . هذا الحباب بن المنذر الصحابي البدرى الأنصارى قد انتضى سيفه على أبي بكر وكان داعياً إلى قيادة الأنصار وقال: «والله لا يرد على أحد ما أقول إلا»

١ . نهج البلاغة، قسم الخطب برقم ١٧٣ .

٢ . نهج البلاغة، قسم الخطب برقم ١٧٢ .

٣ . روضة الواعظين ٢٠٦ .

٤ . الأنبياء / ١٠٥ . (١٨٥)

حطمت أنفه بالسف، أنا جدي لها المحكك (أصل الشجرة) وعيذيقها المرجب (النخلة المشتملة بالتمر) أنا أبو شبل في عرينه الأسد، يعزى إلى الأسد» (١) . وهو بكلامه هذا يتهدد كل من يحاول اخراج القيادة من الأنصار واقرارها لغيرهم . وها هو آخر (وهو سعد بن عباد) يخالف مبايعه أبي بكر وينادى: «أنا أرميكم بكل سهم في كنانتي من نبل، وأخضب منكم سناني ورمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي وأقاتلكم مع من معي من أهلي وعشيرتي» (٢) . وها هو ثالث يتذمر من تلك البيعة ويشب نار الحرب بقوله: «إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم» (٣) . وهذا هو سعد بن عباد أمير الخزرج الذي طلب أن تكون الخلافة في الأنصار يداس بالأقدام، وينزى عليه وينادى عليه بغضب: «اقتلوا سعداً قتله الله إنه منافق أو صاحب فتنه» وقد قام عمر على رأسه ويقول: «لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك أو تندر عيونك» (٤) . فإذا بقيس بن سعد يأخذ بلحية عمر ويقول: «والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك

واضحة! أو لخفضت منه شعرة ما رجعت وفي فيك جارحة» (٥). وهذا نفس عمر بن الخطاب يصف تلك المشاجرة بقوله: «كث

اللغظ _____

١. شرح ابن أبي الحديد ٢ / ١٦ .

٢. الغدير ٧ / ٧٦ .

٣. الامامة والسياسة ١ / ١١، تاريخ الطبري ٣ / ٢١٠ .

٤. مسند أحمد ١ / ٥٦، تاريخ الطبري ٣ / ٢١٠، وغيرهما .

٥. تاريخ الطبري ٣ / ٢١٠، السيرة الحلبية ٣ / ٣٨٧ . (١٨٦)

وارتفعت الأصوات حتى تخوّفت الاختلاف، فقلت: ابسط يديك يا أبابكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ونزونا على سعد بن عباد، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عباد، فقلت: قتل الله سعد بن عباد» (١). إن الشورى الإسلامية حسب ما توحى كلمتها السامية، لا تتعدد إلا بدارسة الموضوع دراسة موضوعية واقعية، وأن تكون هناك حزية في الرأي والنظر، ونزاهة في الكلام، ويقوم مندوب كل جماعة بإدلاء رأيه بدليل وبرهان، وربما تتطلب دراسة مثل ذلك الموضوع الحيوى عقد مجالس متعدّدة حتى يصل من خلالها المسلمون إلى الأمثل فالأمثل في موضوع القيادة، وأمّا المجلس الذى تسل فيه السيوف على المخالف، ويداس المقابل بالأقدام، فهذا أشبه بميدان الحرب والقتال لا المفاهمة والمشاورة، بل أشبه... هذا حال السقيفة وأما ما جرى بعد السقيفة فحدث عنه ولا حرج، فقد خرج الخليفة من السقيفة مع من بايعوه فلم يلاقوا أحداً فى الطريق إلا وضعوا يده على يد الخليفة بيعه له . ثم إن علياً وجماعة معه كانوا متخلفين عن البيعة، ولمّا كان تخلفه ومن معه من أصحابه اخلاقاً بالبيعة، بعث أبوبكر عمر بن الخطاب إلى بيت علي وفاطمة، ليتهدّدا اللاندين به، الممتنعين عن مبايعته، وقال له: إن أبوا فقاتلهم، وأتى عمر إلى بيت فاطمة وهو يقول: والله لنحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة، فقالت فاطمة لما سمعت ذلك صائحة منادية: «يا أبت يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة» (٢) .

١. السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٦٠ .

٢. تاريخ الطبري ٣ / ٢١٠، الامامة و السياسة لابن قتيبة ١ / ١٣ . (١٨٧)

ثم بعد هنّ وهنات أخرج الامام من بيته، وقادوه إلى البيعة كما يقاد البعير المخشوش، وسبق سوقاً عنيفاً، وقالوا له: بايع، فيقول: «إن أنا لم أفعل فمه؟» فيقال: والله الذى لا إله إلا هو نضرب عنقك، فقال علي: «إذن تقتلون عبد الله وأخا رسول الله» (١). ولم يكن الضغط منحصرأ فى علي، بل لمّا سمع الزبير ما جرى فى السقيفة سلّ سيفه وقال: لا أغمده حتى يبايع علي، فيقول عمر: عليكم الكلب، فيؤخذ سيفه من يده، ويضرب به الحجر فيكسر (٢). هذه صورة اجمالية وضعناها أمام القارئ ليقف على مدى صحّة الشورى التى بنيت عليها خلافة الخليفة الأول، ثم هو عقد الخلافة بنفسه لعمر من دون أى مشاورة للمسلمين (٣) كما فوّض الثانى أمر الخلافة إلى ستّة وقد استبدّ فى تعيينهم من دون مشورة، وليس هذا شيئاً ينكر أو يشك فيه (٤). وقد بلغت فضاحة الأمر فى السقيفة إلى حدّ يصفه عمر بقوله: كانت بيعة أبى بكر فلتة كفلته الجاهلية وقى الله المسلمين شرّها. أو قال: كانت بيعة أبى بكر فلتة فتمّت، وأنها قد كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرّها، فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فأنه لا بيعه له (٥) .

١. الامامة والسياسة ١ / ١٣ .

٢. تاريخ الطبري ٣ / ١٩٩، الامامة والسياسة ١ / ١١ .

٣. سيأتى مصدره .

٤. سيأتى مصدره .

٥. السيرة النبوية ٢ / ٦٥٨، تاريخ الطبري ٢ / ٤٤٦ . (١٨٨) الخلفاء وتناسى الشورى:

قد درسنا كيفية انعقاد الامامة لأول الخلفاء هلمّ معي ندرس خلافة غيره، فسوف ترى أنّه لم يكن هناك أيّ مشورة ولا أيّ استفتاء شعبي، ولا أيّ ديمقراطية كما يدّعيها بعض الكتّاب المعاصرين . روى المؤرخون: أنّه دعا أبو بكر عثمان بن عفان، فقال: اكتب عهدى، فكتب عثمان وأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدين، نازحاً عنها، وأول عهده بالآخرة داخلها فيها، إني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب... (١). والإنسان عندما يقرأ هذه الصفحة من التاريخ، يقف على قيمة ما ذكره الامام، عندما رفعوا السيف على رأسه ليبيع أبا بكر، فقال: «احلب يا عمر حلباً لك شطره، أشدد له اليوم أمره، ليرده عليك غداً، ألا- والله لا- أقبل قولك ولا أبيع» (٢) فوالله، لقد تحقّق قول الامام حيث ردّ عليه الأمر من بعد، كما عرفت . وهذا عمر بن الخطاب، فبعدما جرح ودنا أجله قال: سأستخلف النفر الذين توفّي رسول الله وهو عنهم راض، فأرسل إليهم فجمعهم وهم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان ابن عوف، وكان طلحة غائباً . فقال: يا معشر المهاجرين الأولين، إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم فتشاوروا ثلاثة أيّام، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم أن لا تتفرّقوا من اليوم الثالث حتى

١ . الامامة والسياسة لابن قتيبة ١٨، الكامل في التاريخ ٢ / ٢٢٥ .

٢ . الامامة والسياسة ٢٣، الكامل ٣ / ٣٥ . (١٨٩)

تستخلفوا أحدكم. ثم قال لصهيب: «صلّ بالناس ثلاثة أيّام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وجم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف... وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما... فإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً، فحكّموا عبدالله بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمان بن عوف واقتلوا الباقيين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس» (١). «فلما دفن عمر جمعهم أبو طلحة ووقف على باب البيت بالسيف في خمسين من الأنصار، حاملي سيوفهم ثم تكلم القوم وتنازعوا فأول ما عمل طلحة أنّه أشهدهم على نفسه أنّه قد وهب حقه من الشورى لعثمان، وذلك لعلمه أنّ الناس لا يعدلون به عليّاً وعثماناً، وإنّ الخلافة لا تخلص له وهما موجودان فأراد تقوية أمر عثمان وإضعاف جانب علي - عليه السلام - بهبه أمر لا انتفاع له به ولا تمكّن له منه. ولما رأى الزبير أنّ عليّاً قد ضعف، وانخذل بهبه طلحة حقه لعثمان دخلته حميّة النسب فوهب حقه من الشورى لعلي. لأنّه ابن عمته، وهي صفيّة بنت عبدالمطلب وأبو طالب خاله . وقال سعد بن أبي وقاص: أنا قد وهبت حقي من الشورى لابن عمي عبدالرحمان وذلك لأنّهما من بنى زهرة ولعلمه أنّ الأمر لا يتم له . فلما لم يبق إلاّ الثلاثة: علي وعثمان وعبدالرحمان ولكل واحد صوتان وبما أنّ عمر بن الخطاب قال في وصيته لأبي طلحة الأنصاري: بأنّه إذا تساوت الآراء فرجّح الفئه التي فيها عبدالرحمان بن عوف. ومن المعلوم أنّ عبدالرحمان ما كان يميل إلى علي ويترك نفسه أو صهره عثمان، ولأجل ذلك قام بلعبة أخرى يريد بها

١ . تاريخ الطبري ٣ / ٢٩٤ .

(١٩٠)

حرمان علي . فقال عبدالرحمان لعلي وعثمان: أيكما يخرج نفسه من الخلافة ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين؟ فلم يتكلّم منهما أحد، فقال عبدالرحمان: اشهدكم أنّي قد أخرجت نفسي من الخلافة علي أن أختار أحدكما، فامسكاً فبدأ بعلي - عليه السلام - وقال له: أبأيّك علي كتاب الله وسنة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر، فقال: بل علي كتاب الله وسنة الرسول واجتهاد رأيي، فعدل عنه إلى عثمان فعرض عليه ذلك، فقال: نعم فعاد إلى علي - عليه السلام - فأعاد قوله، وفعل ذلك عبدالرحمان ثلاثاً، فلمّا رأى أنّ عليّاً غير راجع عمّا قاله وأنّ عثمان ينعّم له بالاجابة صقّق علي يد عثمان، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فيقال: إنّ عليّاً - عليه السلام - قال له: والله ما فعلتها إلاّ لأنك رجوت منه ما رجاه صاحبكما من صاحبه دقّ الله بينكما عطر «منشم» . قيل: ففسد ذلك بين عثمان وعبدالرحمان فلم يكلم أحدهما صاحبه حتى مات عبدالرحمان (١) . شوري سداسية أو لعبة سياسية؟

إذا أُلقيت نظرة على كيفية تشكيل الشورى وأعضائها أدركت أنها كانت لعبة سياسية وكان الهدف منها تسليم الخلافة إلى عثمان ولكن بصيغة شرعية وقانونية. إذ لم تكن الظروف تسمح بتنصيبه أو الايحاء به صريحاً. فدق الخليفة باب الشورى —————
 ١ . الطبرى: التاريخ ٣، الجزرى: الكامل ٣ وشرح ابن أبى الحديد ١ / ١٨٨، و«منشم» اسم امرأة عطارة بمكة وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا بطيها وكانوا إذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فكان يقال أشأم من عطر منشم، لاحظ الصحاح للجوهري .
 (١٩١)

حتى يسد به أفواه المعترضين بالقدر الميسور. وكانت الغاية واضحة لدى المطلعين على خبايا الأمور. منهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - حيث قال لعمة العباس: عُبدل بالأمر عني يا عم قال: وما عيبك، قال: قرن بى عثمان، وقال عمر: كونوا مع الأكثر فان رضى رجلا من رجلا، ورجلا من رجلا فكونوا مع عبدالرحمان بن عوف، فسعد لا- يخالف ابن عمه (عبدالرحمان بن عوف) وعبدالرحمان صهر عثمان لا يختلفان (١). وقال ابن عباس: الرجل يريد أن يكون الأمر فى عثمان (٢). وقد نال الخليفة بغيته من خلال الأمور التالية: ١- إن الشخصيات المشاركة فى الشورى فرضت من جانب الخليفة وقد احتكر ذلك الحق لنفسه وسلبه عن الأمة، ولو كان الانتخاب بيد الأمة ربما كان المصير على خلاف ما أراد. فأدخل فى الشورى رجلا يسرون على الخط الذى رسمه الخليفة فى نفسه. وبّر الخليفة حصر أعضاء الشورى فيهم بأن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - مات وهو راض عنهم وهو تبرير تافه، فإن النبى مات وهو راض عن غير هؤلاء أيضاً ولقد أثنى على عدة من أصحابه كأبى ذر الغفارى وعمار بن ياسر وجابر بن عبدالله الأنصارى، وأبى أيوب مضيّفه - صلى الله عليه وآله وسلم - وغيرهم بيد أن هؤلاء لما كانوا لا يحققون مطامع الخليفة أعرض عنهم وأدلى بأسماء هؤلاء الذين يتجاوبون مع ما يريد . ٢- انتخب رجلا لعضوية الشورى كانوا مختلفى النزعة والهوى ولكن —————
 ١ . شرح النهج ١ / ١٩١ .
 ٢ . شرح النهج ١ / ١٨٩ . (١٩٢)

الجامع بين أغلبهم هو الانحراف عن على - عليه السلام - واضمار العداء له. فعند ذلك أصبح اقضاء على أمراً محتوماً إن لم نقل ان تعيين عثمان أضحى أمراً مفروضاً وذلك لأن طلحة بن عبيدالله كان معروفاً بعدائه لعلى وانحرافه عنه. فلأجل ذلك وهب حقه لعثمان تضعيفاً لجانب على . إن سعد بن أبى وقاص كان ابن عم عبدالرحمان بن عوف وكلاهما من بنى زهرة فلا- يميل إلى على وفى الشورى واحد من عشيرته . وعبدالرحمان بن عوف كان صهر عثمان. لأن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط كانت زوجته وهى أخت عثمان من أمه . على هذا كانت تشهد القرائن على أن الخليفة كان يضم حرمان على من الخلافة. ولم يكن فى الشورى منافس لعلى سوى عثمان، فطبع الحال كان يوحى بأن عثمان هو الذى سيأخذ بمقاليد الحكم. إذ لم يكن لسائر الأعضاء الأربعة مكانة اجتماعية مثل على وعثمان بل لم يكن لهم إربة فى الخلافة وإنما أطمعهم فيها الخليفة للتوصل إلى مأربه . ٣- أنه لما كان من المحتمل أن تتساوى الأصوات بين على وعثمان جعل الرجحان والتقديم للفئة التى فيها عبدالرحمان بن عوف فكأنه جعل صوته صوتين. وأما عبدالرحمان بن عوف (وهو ذلك الرجل الثرى الذى ترك كمية هائلة من الذهب والفضة وقد كسرت بالفؤوس عند تقسيمها) فهل يترك عثمان ويميل إلى على وإن الطيور على أشكالها تقع . وبالتالي لم يفسد الخليفة على فى هذه الواقعة فحسب بل أفسده على بعد رحيل عثمان حيث إن ادخال هؤلاء فى الشورى أطمعهم فى الخلافة وجعلهم يعتقدون فى أنفسهم بأنهم مؤهلين لها وأنهم أعدل على وأقرانه. ولأجل ذلك قاموا فى وجه الامام على يدعون الخلافة لأنفسهم تحت غطاء أخذ الثأر لعثمان . (١٩٣)

إن الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - قد أفصح بما يكفه ضميره حول وصية الشورى، فقال فى بعض خطبه: «فيا لله والشورى، متى اعتراض الريب فى مع الأوّل حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر، لكننى أسففت إذ أسقوا. وطرت إذ طاروا. فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره مع هن وهن» (١). هذا كلام على فى أواخر أيامه. فقد اعترض هو أيضاً فى أيام الشورى وكذلك فعل أصحابه فروى الطبرى أن عبدالرحمان قال: أيها الناس أشيروا على فى هذين الرجلين؟ فقال عمار بن ياسر: إن أردت أن لا يختلف الناس فبايع

علياً. فقال المقداد: صدق عمّار، وإن بايعت علياً سمعنا وأطعنا، فقال عبدالله بن أبي سرح: إن اردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان، وقال عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي: صدق، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا، فشمّ عمّار بن أبي سرح وقال له: متى كنت تنصح الإسلام؟! فتكلّم بنو هاشم وبنو أمية وقام عمّار وقال: أيها الناس إن الله أكرمكم بنبيه وأعزكم بدينه فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم. فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها. فقال سعد: يا عبدالرحمان أفرغ من أمرك قبل أن يفتتن الناس فحينئذ عرض عبدالرحمان على علي - عليه السلام - العمل بسيرة الشيخين . فقال: بل أجتهد برأيي فبايع عثمان بعد أن عرض عليه فقال: نعم، فقال علي - عليه السلام - ليس هذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما

١ . نهج البلاغة، قسم الخطب / الخطبة ٣ .

(١٩٤)

تصفون والله ما وليته الأمر إلا ليرده إليك والله كل يوم في شأن(١) . وبهذا تبين أن الشورى كانت نظرية بدون تطبيق وكانت اسماً بلا مسمى . إجابة عن سؤال:

إذا لم تكن الشورى مبدأ للحكم في الإسلام فماذا يعني الامام علي من قوله في رسالته إلى معاوية حيث يقول: إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، إنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاً(٢) . نقول: إن ابن أبي الحديد أول من احتج بهذه الخطبة، على أن نظام الحكومة بعد وفاة النبي هو نظام الشورى، وتبعه البعض غفلة عن حقيقة المراد، وذلك لأن ملاحظة أسلوب الكلام، وما صدر به الامام رسالته، أعنى قوله: «أنه بايعني الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان» تدل بوضوح على أن الامام كان في مقام الاحتجاج بمسلم الخضم - أعنى معاوية - على قاعده «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، فإنه خرج عن طاعة الامام مع اعتناقه إمامة من تقدم، فالامام يحتج عليه بأنه بايعني الذين بايعوا الثلاثة فما وجه البغي علي والطاعة لهم، ولو لم يكن في مقام الجدل وافحام الخضم، لما كان لذكر خلافة الخلفاء في صدر الرسالة وجه، مع أن للامام كلمات في تخطئه الشورى التي تمت بها، أو بادعائها خلافة الخلفاء، ومن تصفح نهج البلاغة يقف عليها .

١ . شرح النهج: لابن أبي الحديد ١ / ١٩٣ - ١٩٤ .

٢ . الامامة والسياسة ٢٣، ونهج البلاغة قسم الرسائل، برقم ٤٥ . (١٩٥)

والعجب أن أحداً من المهاجرين والأنصار لم يستند في مأساة السقيفة، إلى نظام الشورى بل استند كل من اللفيين بأمر لا تمت إلى هذا الأصل، فادعى أبوبكر أن المهاجرين من أقوام النبي وعشيرته، واحتج الأنصار بأنهم هم الذين آووا الرسول، وضخوا بأنفسهم ونفائسهم لحراسته وحفظه، فانظر ماذا ترى قاتل الله الأنانية، وحيّا الله الحقيقة وحمايتها. (١٩٦) (١٩٧)

الفصل الثامن نصوص الخلافة والركون إلى الأمر

الفصل الثامن نصوص الخلافة والركون إلى الأمر الواقع (١٩٨) (١٩٩)

دلّت نصوص الخلافة الماضية، بوضوح على أن الامام علياً كان هو الخليفة الشرعي والقائم بالأمر بعد الرسول وأنه كان من واجب للمسلمين الرجوع إليه فيما يمت إلى حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية، غير أن رجالاً بعد النبي تناسوا النص بعد تلبية النبي نداء ربه، واثالوا على أبي بكر، وبعده على عمر وعثمان، إلى أن عاد الحق إلى نصابه، ودار الأمر على مداره. وهناك سؤال يطرحه كل من يؤمن بتواتر النصوص ووضوح دلالتها، لما يشاهد المعارضه بينها وبين الأمر الواقع في السقيفة وما بعدها، واثيال كثير من المهاجرين والأنصار إلى غير علي، فيقع في الحيرة والتعجب، فيقول: لو كانت النصوص النبوية على هذا المستوى، فلماذا أعرض عنها المسلمون؟

ولماذا لم يطلب الامام حقه الشرعي؟ ولماذا رضى بالأمر الواقع، ولم ينسب فيه بنت شفة؟ وهذا هو الذى نجيب عنه فى المقام، فنقول: إن المهم هو بيان السر الذى دفع الامام إلى ترك المطالبة بحقه بالقدرة والعنف، وأما إعراض المهاجرين والأنصار، أو فى الحقيقة - إعراض الرؤوس منهم عن النص، وانثيال غيرهم إليهم، فليس هذا أمراً عجباً، فقد أعرضوا عن كثير من النصوص، واجتهدوا تجاهها كما تقدم البحث عن مواده - . وإليك تشريح ما هو المهم: (٢٠٠)

إن الامام لم يسكت طول حياته عن بيان حقه وارشاد الناس إليه، بل أظهر عدم رضاه بالأمر الواقع وأنه تعبير آخر عن غضب حقه، يقف عليه كل من قرأ مأساة السقيفة فى كتب التاريخ، فلا يفوتك قراءة طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى، والسيرة النبوية لابن هشام، ولا العقد الفريد، ولا الامامة والسياسة لابن قتيبة، فكلها مفعمة بشكوى الامام وعدم قبوله بالأمر الواقع، غير ان التكليف حسب القدرة، - وبعدها - فى ظل المصالح العامة، فلم يكن للامام قدرة على المطالبة بحقه، وعلى فرض وجودها كانت المصلحة تكمن يومذاك فى ادلاء الأمر إلى متقاضيها وعدم المطالبة بها بالقهر والقوة، وإليك ما يدل على ذينك الأمرين من خلال دراسة التاريخ . ١- هذا ابن قتيبة يسرد تاريخ السقيفة، وما فيه من مآسى، يقول: إن علياً كرم الله وجهه أتى به إلى أبى بكر وهو يقول: «أنا عبد الله وأخو رسول الله» فقيل له: بايع، فقال: «أنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم أولى بالبيعة لى، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقراءة من النبى، وتأخذوه من أهل البيت غضبا! أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد فيكم فسلموا إليكم الإمارة، فإذا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار. نحن أولى برسول الله حياً وميتاً، فأنصفوا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون. فقال له عمر: إنك لست متروكاً حتى تباع، فقال له على: «احلب حلباً لك شطره، وشد له اليوم، يردده عليك غداً - ثم قال: - والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أباعه» فقال أبو بكر: فإن لم تباع فلا أكرهك، فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلى كرم الله وجهه: يا ابن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمر ولا أرى أبابكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً واستطلاعاً، فسلم لأبى بكر فإنك إن تعش ويطل لك بقاء، (٢٠١)

فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك. فقال على كرم الله وجهه: «اللله الله يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمّد فى العرب من داره، وقعر بيته إلى دوركم وقور بيوتكم، وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس، وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأننا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم، ما كان فينا القارىء لكتاب الله، الفقيه فى دين الله، العالم بسنن رسول الله، المتطلع لأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنّه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتصلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعداً» (١) . فأى بيان أروع من هذا البيان، وأى بلاغ أصرح منه، فقد فند خلافة المتقاص بيان فقد مؤهلاتها وهى الأمور التالية: «١- ما كان فينا القارىء لكتاب الله، ٢- الفقيه فى دين الله، ٣- العالم بسنن رسول الله، ٤- المتطلع لأمر الرعية، ٥- الدافع عنهم الأمور السيئة، ٦- القاسم بينهم بالسوية» ومعنى ذلك ان المتقاص ومؤيديه فاقدون لهذه الصلاحيات . ٢- لما انتهت إلى أمير المؤمنين انباء السقيفة قال - عليه السلام - : «ما قالت الأنصار؟» قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير، فقال: «فهلّا احتججتم عليهم بأن رسول الله وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟» قالوا: وما فى هذا من الحجّة عليهم؟! فقال - عليه السلام - : «لو كانت الامامة فيهم، لم تكن الوصية بهم - ثم قال: - فماذا قالت قريش؟» قالوا: احتجّت بأنها شجرة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقال - عليه السلام - : «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة» (٢) .

١ . الامامة والسياسة ١ / ١١ - ١٢ .

٢ . نهج البلاغة، الخطبة ٦٧ . (٢٠٢)

وروى الرضى فى المقام شعراً للإمام: فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم * فكيف بهذا والمشيرون غيب وإن كنت بالقربى حججت خصيمهم * فغيرك أولى بالنبى وأقرب (١) ٣- الامام لم يكتف بهذه الجمل فى بادئ الأمر، بل استمر على بيان الحق بأساليب مختلفة منها إحتجاجه بحديث الغدير فى يوم الشورى سنة ٢٣، قال عمر بن وائل: كنت على الباب يوم الشورى مع على - عليه السلام - فى

البيت، فسمعتة يقول: «الأحتمن عليكم بما لا يستطيع عربيتكم ولا أعجميتكم تغيير ذلك - ثم قال: - أنشدكم الله، أفيكم من وحيده الله قبلي؟» قالوا: لا... إلى أن قال: - «فأنشدكم بالله، هل فيكم أحد قال له رسول الله: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، ليبلغ الشاهد الغائب غيري؟» قالوا: اللهم لا (٢). ٤- كما ناشد يوم الرحبة سنة ٣٥، روى الأصمغ قال: نشد على الناس في الرحبة: «من سمع النبي يوم غدير خم ما قال، إلا قام ولا يقوم إلا من سمع رسول الله» يقول: فقام بضعة عشر رجلاً، فيهم أبو أيوب الأنصاري، وسهل بن حنيف، وخزيمة بن ثابت، وعبدالله بن ثابت الأنصاري... فقالوا: نشهد أنا سمعنا رسول الله يقول: «الأ- من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبته، وابغض من أبغضه، وأعن من أعانه» (٣). ولم تكن المناشدة، منحصرة بهذين الموردين، بل ناشد الامام في غير واحد من المواقف الأخرى كما ناشدت زوجته الصديقة الطاهرة بحديث الغدير، وبعده

١. نهج البلاغة (قسم الحكم) برقم ١٩٠ .

٢. الصواعق لابن حجر ٧٥، المناقب للخوارزمي ١٣٥ برقم ١٥٢ طبع النشر الاسلامي .

٣. أسد الغابة ٣/ ٣٠٧ و ٥/ ٢٠٥. (٢٠٣)

الحسان السبطان، وعبدالله بن جعفر وعمير بن ياسر، حتى ناشد به عدوه عمرو بن العاص عند احتجاجه على معاوية (١). وهذه شواهد باهرة على عدم سكوتة ولا رضاه، بالأمر الواقع بل استمر على هذا إلى أخريات حياته، ويتح هذا بالرجوع إلى خطبته المعروفة الشقشقية التي ألقاها في آخر خلافته. وأما عدم القيام بأخذ الحق بالقوة، فلأجل أن القيام فرع القدرة، ولم يكن يومذاك أي منعه وقدرة للإمام، ويكفي في ذلك كلامه في خطبته الأخيرة: «فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتنى بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكده فيها مؤمن حتى يلقي ربه» (٢). ولو افترضنا وجود القدرة، لكن مصالح الإسلام كانت تكمن في المسالمة وادلاء الأمر إليهم، يشير إليه الامام تارة بالكناية وأخرى بالتصريح، أما الأول فيقول: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح. هذا ماء آجن، ولقمة يغص بها أكلها، ومجنتى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه. فإن أقل، يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت، يقولوا: جزع من الموت، هيهات بعد اللتي والتى والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم لو بُحُت به، لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى

١. راجع للوقوف على هذه المناشادات كتاب الغدير ١/ ١٥٩ - ٢١٣ .

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٣. (٢٠٤)

البعيدة» (١). وقد خطب بها الامام لما قبض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبایعا له بالخلافة. وذلك بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة، فيشير الامام إلى ما لديه من العلم المكنون، وهو إشارة إلى الوصية التي خص بها - عليه السلام - وأنه كان من جملتها الأمر بترك النزاع في مبدأ الاختلاف عليه (٢). وقد أوضح ما ذكره مجملاً في هذه الخطبة التي ألقاها بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بخطبته التي ألقاها بعد رجوع الناس إليه وصرح بأن لمسالمة الخلفاء لأجل أخطار كانت تحدى بالمسلمين بعد موت النبي، فقال - عليه السلام - : «إن الله سبحانه بعث محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين، فلما مضى - عليه السلام -، تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تززع هذا الأمر من بعده - صلى الله عليه وآله وسلم - عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عنى من بعده! فما راعنى إلا انتيال الناس على فلان يبایعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه تلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتفشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث

حتى زاح الباطل

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥.

٢. شرح نهج البلاغة ١ / ٢١٥. (٢٠٥)

وزهق، واطمان الدين وتنهنه» (١). ورواه أبو الحسن علي بن محمد المدائني عن عبد الله بن جنادة، قال: قدمت من الحجاز أريد الطرق في أول إمارة علي - عليه السلام - فمررت بمكة فاعتمرت، ثم قدمت المدينة فدخلت مسجد رسول الله، إذ نودي: الصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس وخرج علي - عليه السلام - متقلداً سيفه، فشخصت الأبصار نحوه، فحمد الله وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد، فلما قبض الله نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - قلنا: نحن أهله وورثته، وعترته، وأولياؤه دون الناس، لا ينازعنا سلطانه أحد، ولا يطمع في حقنا طامع، إذ انبرى لنا قومنا، فغصبونا سلطان نبينا، فصارت الإمرة لغيرنا - إلى أن قال: - وأيم الله، لولا مخافة الفرقة بين المسلمين، وأن يعود الكفر ويبور الدين، لكتنا على غير ما كنا لهم عليه فولى الأمر ولأهله لم يألو الناس خيراً» (٢). كان الامام - عليه السلام - يرى أن الدعوة إلى نفسه تؤدي إلى تعرض الإسلام إلى الأخطار المهلكة. روى الزبير بن بكار، قال: روى محمد بن إسحاق أن أبا بكر لما بويج افتخرت تيم بن مرة، قال: وكان عامة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال بعض بني هاشم شعراً مدح فيه الامام وعاب المتقصرين وقال: ما كنت أحسب أن الأمر منصرف * عن هاشم ثم منها عن أبي حسن أليس أول من صلى لقبلكم * وأعلم الناس بالقرآن والسنة؟ وأقرب الناس عهداً بالنبى * من * جبريل عون له في

الغسل والكفن

١. نهج البلاغة، قسم الكتب ٦٢.

٢. شرح نهج البلاغة ١ / ٣٠٧، والكلمتان متقاربتان. (٢٠٦)

ما فيه ما فيهم لا - يمترون به * وليس في القوم ما فيه من الحسن ماذا الذى ردهم عنه فعلمه؟ * ها إن ذا غبنا من أعظم الغبن! قال الزبير: فبعث إليه علي فنهاه، أمراً لا يعود وقال: لسلامة الدين أحب إلينا من غيره. فهذه الكلم والخطب عن علي تعرب عن إخلاصه للدين وحبّه لحفظ الوثام والسلام بين المسلمين وأنه لولا خوف محق الدين لما ترك الأمر إلى الغير، ولقام بالسلاح والكرام على أخذ حقه. «ولو لا مراعاة علي للأوضاع والظروف التي احاطت بالإسلام في تلك الفترة من تاريخه، لحدثت تطورات في تاريخ الإسلام لاستطيع أن نقدر مدى أثرها السيئ على جهود الرسول والوصى والمخلصين من الصحابة، ولكنه أدرك ذلك، وأحصى ما سيجزه تصلبه في موقفه من الغنائم على المرتدين والمنافقين الذين أضمروا الدمار للإسلام» (١). كان الامام ينظر إلى أن طوائف من العرب على عتبة الارتداد عن الإسلام، وأن بين المسلمين في المدينة طابور خامس يتحين الفرص للقضاء على الإسلام وإحياء الجاهلية، فلم ير بداً من التسليم للأمر الواقع ومماشاة الخلفاء، ورفع مشاكل المسلمين في المسائل المستجدة والمستعصية والاجابة على أسئلة الوافدين إلى المدينة، وتعليم القرآن للفيء من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، والادلاء بالرأى الحق عند المشاورة، إلى غير ذلك من الأمور التي استغرقت قرابة خمس وعشرين سنة من حياته، إلى عام ٣٥ الذى قتل فيه عثمان بمراى ومسمع من المهاجرين والأنصار. وقد أحدث في الإسلام أموراً أدت إلى الفتك به، وكان

١. الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة ٢٨.

(٢٠٧)

الخليفة الثانى متبناً به، فقال له: لئن وليتها (الخلافة) لتحملن بنى أبى معيط على رقاب الناس فحمل بنى أبىه على رقابهم، يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع، فأدى ذلك وغيره إلى قتله في عقر داره. تسنم الامام مقاليد الحكم بعد ربع قرن: كان الامام قرابة ربع قرن جليس بيته، يشتغل ببعض الأمور لما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، إلى أن قُتل عثمان واثال الناس على الامام من كل جانب هاتفين: لا يصلح للخلافة إلا علي. فقال لهم: «دعوني والتمسوا غيرى». روى الطبرى نقلاً عن محمد بن الحنفية:

كنت مع أبي، حين قتل عثمان فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، ولا أقدم سابقه، ولا أقرب من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: «لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً» فقالوا: «والله ما نحن فاعلين حتى نباعك» فقال: «ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين»، قال سالم بن أبي الجعد: فقال عبدالله بن عباس: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه، وأبي هو إلا المسجد. فلما دخل، دخل المهاجرون والأنصار، فبايعوه، ثم بايعه الناس (١). وفي رواية أخرى: غشى الناس علياً، فقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالاسلام وما ابتلينا به من ذوى القربى، فقال علي: «دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه، وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول» فقالوا: نشدك الله، ألا ترى ما نرى، ألا ترى الإسلام، ألا ترى الفتنة، ألا تخاف الله،

١. تاريخ الطبري ٣ / ٤٥٠ .

(٢٠٨)

فقال: «قد أجبتمكم لما أرى، واعلموا إن أجبتمكم ركبتمكم بما أعلم، وإن تركتموني، فأنما أنا كأحدكم، إلا أنني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم» (١). هذا ما يذكره الطبري، وأما الامام فهو يصف كيفية هجوم الناس على بيته لمبايعته فيقول: «فتداكوا علي، تداكوا الإبل الهيم يوم وردها، وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثنائها، حتى ظننت أنهم قاتلي، أو بعضهم قاتل بعض ولدي» (٢). وفي خطبة أخرى: «فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، يتالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم» (٣). ولم تشهد ساحة الخلافة احتشاداً جماهيرياً إلى يومنا هذا، مثلما شهدته في ذلك الزمان، فقد اتفق المهاجرون والأنصار، والتابعون لهم بإحسان على المبايعه، ولم يتخلف إلا قليل من الناس لا يتجاوز عدد الأنامل. وقد جاء الطبري بأسمائهم يقول: بايعت الأنصار علياً إلا نفرأ سيراً، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة وكانوا عثمانية. فقال رجل لعبدالله بن حسن: كيف أبي هؤلاء بيعه علي وكانوا عثمانية، فقال: أميا حسان، فكان شاعراً لايبالي ما يصنع، وأميا زيد بن

١. تاريخ الطبري ٣ / ٤٥٦ .

٢. نهج البلاغه، الخطبة ٥٣، تداكوا: ازدحموا، والهيم: العطاش، يوم وردها: يوم شربها، والمثنى: الجبال.

٣. نهج البلاغه، الخطبة ٣، عُرِف الضبع: ما كثر على عنقها من الشعر، يضرب به المثل الكثرة، يتالون: يتتابعون، شق عطفاي: خدش جانبا من الاصطكاك . (٢٠٩)

ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال، فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله - مرتين - فقال أبو أيوب: ما تنصره إلا إنه كثر لك من العضدان (١) فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة «مُرِينة» وترك ما أخذ منهم له (٢). قام الامام بواجبه، وهم بالاصلاح، وحوله حُساد حاقدون، وأعداء يترقبون الفرص، وعمال للخليفة يسألونه البقاء على مناصبهم، فعند ذلك حاقت به الأزمات والشدائد، وهو يصف ذلك بقوله: «فلما نهضت بالأمر نكث طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه يقول: (تَمَكَّ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (٣) بلى! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها. أما والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة (٤) ظالم، ولا سغب (٥) مظلوم، لألقت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهدي عندي من عطفة عنز» (٦). فقد أشار الامام بكلامه هذا إلى حروبه الثلاثة مع طوائف ثلاث، فالناكثون هم أصحاب الجمل، الذين لم يجدوا عند الامام إلا الحق، فطلبوا منه من المناصب ما كان فوق شأنهم وأمانتهم فاجتمعوا في

مكة تحت غطاء المطالبة بدم عثمان مع _____

١. العضاد: كل ما يحيط بالعضد من حلى وغيرها .
٢. تاريخ الطبرى ٣ / ٤٥٢ .
٣. القصص / ٨٣ .
٤. الكظة: البطنة (ما يعترى الآكل عند امتلائه بالطعام) والمراد: استئثار الظالم بالحقوق .
٥. السغب: شدة الجوع .
٦. نهج البلاغة، الخطبة ٣ . (٢١٠)

أنهم هم المحرضون على قتله، ومولهم جماعة من بنى أمية ولم يكتفوا بذلك، وإنما غزوا بأمر المؤمنين عائشة، وأرکبوا على الجمل يقطعون بها الفيافي والقفار، حتى نزلوا البصرة، فقتلوا من شيعة على ومحبيه ما استطاعوا. فلما لاقوا علياً بجيوشهم أبوا إلا الحرب فدارت الدوائر على الناكثين، فقتل رؤوس الفتنة، وأرسلت أم المؤمنين إلى المدينة بتكريم واحترام. ولكن لم يقف الأمر على هذا الحد، فقام ابن آكلة الأكباد، الطليق ابن الطليق الذي خذل عثمان، ولم ينصره، ثم انتحل دمه وطلب ثأره، فجمع حوله الهمج والرعا، وتحالف مع عمرو بن العاص الذي عزله عثمان عن ولاية مصر، فألب عليه كل راع رآه في البادية، وساومه معاوية على ولاية مصر، فقابلهم الامام في أرض صفين، وقد كادت الحرب تنتهي لصالح الحق والمسلمين لولا أنهم رفعوا المصاحف على الرماح، وانطلت الحيلة على عسكر الامام، وقالوا له: أجب القوم، فحذرهم الامام بأنه مكر وخداع، والقوم ليسوا أهل قرآن وسنة، فطلب منهم المهلة فما أجابوه، قل هددوا بإراقه دمه وقتاله إن لم يوقف الحرب، ولم يسترجع قائده من ساحة القتال حتى أن الأشتر قائد القوات طلب منهم المهلة ولو بقدر فواق ناقة أو عدوة فرس، فما وافقوه، فاضطر الامام إلى إيقاف الحرب، وادلاء الأمر إلى الحكيم بشرط أن لا يخرجوا عن حكم الكتاب والسنة، وكانت نهاية الأمر، عزل مندوب الامام (أبو موسى الأشعري) خليفة المسلمين، ونصب عمرو بن العاص معاوية للخلافة، كل ذلك بمكر وخداع واحتيال على أبي موسى، فقام الحكمان ومن حولهما يشتمان ويتسابان . ثم أولئك الذين فرضوا قبول التحكيم على على، ندموا على ذلك، وطفقوا يطالبونه بنقض الميثاق قبل حكم الحكيم، فخرجوا عن طاعة على، وعن جيشه، فنزلوا حروراء ولم يرجعوا إلى الطاعة حتى بعد ما دعاهم الامام لا عادة الحرب على (٢١١)

معاوية، لما ظهر لهم كون قول حكم الحكيم على خلاف الكتاب والسنة، بل أصبحوا يطالبون علياً أن يتوب من كفره، كما هم تابوا من كفرهم، لأجل تحكيمه الرجال في أمر الدين، ولم يكتفوا بذلك، فصاروا كقطع الطريق يقتلون البريء، ويسفكون الدماء فأوجدوا دهشة ورعباً في قلوب المسلمين، فلم يجد الامام بداً من قتالهم، وإن كان قتالهم أمراً عظيماً، لأنهم كانوا أصحاب الجباه السود، يصومون النهار ويقومون الليل، وفي الوقت نفسه هم المارقون، المعاندون لله ورسوله، وفي حقهم يقول الامام: «إني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليحتريء عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيبتها (١)، واشتد كلبها (٢)» (٣) . هذه حياة الامام على وجه الاجمال، حياة من ولد في الكعبة ولم يسجد لصنم ورافق النبي منذ صباه في موطنه ومهجره، ولم يتخلف عنه في غزوة من غزواته إلا غزوة تبوك، حيث خلفه في المدينة لإدارة شؤونها في غيابه . ومع الأزمات التي خلفت عثمان وعماله، وسودوا وجه التاريخ وقطعوا عرى الوحدة بين الخلافة والناس «استطاع أن يجعل من نظامه السياسي المثل الكامل للنظام السياسي للدولة التي أسسها ورفع كيانها رسول الله، وأن يجعل من أعماله وأقواله في السلم والحرب، التجسيد الكامل للشرعة الإسلامية وأن يجعل من سلوكه وأخلاقه الصورة الكاملة لأخلاق الرسول وسلوكه، وبذلك ربط كل مسيرة عهده بمسيرة العهد النبوي الشريف، وثبت للاسلام دعائمه، وأعاد إلى النفوس

١. الغييب: الظلمة، وموجها: شمولها وامتدادها .

٢. الكلب - محرکه - داء معروف يصيب الكلاب، فكل من عظه أصيب به فجبن ومات إن لم يبادر بالدواء .

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٩٣. (٢١٢)

المؤمنه أمنها ويقينها بالرسالة الإسلامية الخالدة» (١). قام الامام بالخلافة، وتقدمها بعد مقتل عثمان، وقد ترك ولاه يمتصون دماء الناس، ولم يكن الامام ممن يساوم ويداهن ويترك الحق جانباً، وأول ما قام به، هو أنه أزال الظلم عن الناس بازالة العمال والولاة الظالمين، الذين اكتسروا الذهب والفضة، وملكوا العقارات والمواشي، فعند ذلك قامت قيامة هؤلاء فهم بين ناكث، وقاسط، وضم إليهم أعداء يترقبون الفرص للوثوب، والانتقام، لأنه قتل آباءهم واستأصل شأفتهم في الحروب والغزوات، كل ذلك صار سبباً لانشغال الامام بالحروب الداخلية. ولو كان الامام آخذاً مقاليد الخلافة بعد الرسول، بل حتى بعد خلافة الشيخين لما وجد الانحراف عن الدين وتعاليمه في الحياة مجالاً ولكنه - بالأسف - أخذ بها والمجتمع مثقل بالأزمات والانحرافات. إغارة معاوية على البلاد الآمنة:

هذا ابن سفيان، لما رأى ان الأمصار الإسلامية ما عدا الشام في طاعة الامام، جمع حوله الأشقياء والبغاة، يغيرون على البلاد الآمنة، وينشرون الفوضى والفساد واحداً بعد واحد. ١- فأرسل سفيان بن عوف الغامدي، وقال: إنني موجهك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات، حتى تمر بهيت (٢) فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليها، وامض، حتى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جنداً، فامض حتى توغل المدائن، فكأنك غرت على الكوفة، إن هذه الغارة يا سفيان على أهل العراق _____

١. الزبدي نظريه وتطبيق ١٩.

٢. هيت: بلد على الفرات فوق الأنبار. (٢١٣)

ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال فإن حرب الأموال - أي سلبها - شبيهة بالقتل، وهو أوجع للقلب» (١). ولما بلغ علياً جنابات الرجل، خطب خطبته المعروفة وقال: «فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة - إلى أن قال: - وهذا أخو غامد، وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبيها وقلاندها ورعشها، ما تمتع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرین ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً» (٢). ٢- هذا بسر بن أرطاة، بعثه معاوية إلى اليمن في جيش كثيف وأمره أن يقتل كل من كان في طاعة علي - عليه السلام -، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبيدالله بن العباس بن عبدالمطلب، وكانا غلامين صغيرين، فقالت أمهما ترضيها: يا من أحسّ بابني اللذين هما كالدريتين تشظي عنهما الصدف (٣) وقد خطب الامام بعد ما بلغه النبأ بقوله: «أنبئتُ بسرّاً قد أطلع اليمن، واتي والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفترقكم

١. شرح نهج البلاغة ٢ / ٨٥.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

٣. شرح نهج البلاغة ١ / ٣٤٠، تشظأ: تفرق شظايا، راجع للوقوف على بقية الأبيات الكامل للمبرد وقد ذكره ابن أبي الحديد في شرحه ٢ / ١٣. (٢١٤)

عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم بالحق، وطاعتهم إمامهم بالباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وخياتكم، وبصلاحهم في بلادهم، وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم على قعب، لخشيت أن يذهب بعلاقتك» (١). ٣- دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري، وقال له: سر حتى تمر بناحية الكوفة، وترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي، فأغر عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً، فأغر عليها، وإذا أصبحت في بلد فامس في أخرى، ولا تقيمن لخيّل بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها، ثم جهزه بثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف. فاقبل الضحاك، فنهب الأموال، وقتل من لقي من الأعراب، حتى مرّ بالنعليبة (٢)، فأغار على الحاج، فأخذ أمتعتهم، ثم

أقبل فلقى عمرو بن مسعود الهذلي، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقتله في طريقه الحاج عند القطقانة (٣). وقتل معه ناساً من أصحابه (٤). ٤- ولم يكتف معاوية بهذه الهجمات العنيفة على البلاد الآمنة، بل جهّز بسر بن أرطاة مرة ثانية، لإراقة الدماء في حرم الرسول. ويقول ابن أبي الحديد: كان بسر بن أرطاة قاسي القلب فظاً سفاكاً للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة، وقد جهّزه معاوية في ثلاثة آلاف، وقال له: سر حتى تمرّ بالمدينة، فاطرد الناس، وأخف من مررت به، وانهب أموال كل من أحصيت له مالا، فمن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم أنك تريد أنفسهم، واخبرهم أنه لا براءة لهم عندك _____

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٥.

٢. الثعلبية: من منازل طريق مكة إلى الكوفة.

٣. بالضم ثم السكون: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف.

٤. شرح نهج البلاغة ٢ / ١١٦ - ١١٧. (٢١٥)

ولا عذر. ووصل بسر إلى المدينة المنورة، فشتّم أهلها وتهدّمهم وتوعدّهم وأحرق دوراً كثيرة، منها دار زرارة بن حرون، ودار عمرو بن عوف، ودار رفاعه بن رافع الرزقي ودار أبي أيوب الأنصاري صاحب منزل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (١). وقال المسعودي: قتل بسر بالمدينة وبين المسجدين خلقاً كثيراً من خزاعة وغيرها، وكذلك بالجرف قتل خلقاً كثيراً من رجال همدان، وقتل بصنعاء خلقاً كثيراً. ولما بلغ الخبر علياً أنفذ جارية بن قدامة في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين، وحين علم بسر بخبر حارثه فرّ هاربا (٢). وكانت هذه العصابات الاجرامية، تأتي إلى العراق فقتل وتحرق وتدمر، إلى آخر حياة الامام، الذي قضى نحبه في الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠. وأصبحت شيعته كختم غاب عنها راعيها، يفترسهم أعداؤهم عندما استتب الأمر لآل أبي سفيان وآل مروان وهذا هو الذي نظرته في الفصل التالي: _____

١. شرح نهج البلاغة ٢ / ١٠، وما ذكرناه ملخص ما ذكره مفضلاً.

٢. مروج الذهب ٣ / ٣١ طبعة ١٩٤٨.

الفصل التاسع الشيعة في العصرين الأموي

الفصل التاسع الشيعة في العصرين الأموي والعباسي (٢١٨) (٢١٩)

لبي الامام دعوة ربّه في ليلة الحادي والعشرين من رمضان على يد أشقى الأولين والآخرين، شقيق عاقر ناقه ثمود، وهو يصلّي في محراب عبادته، فلما بلغ عائشة قتل علي، فرحت وقالت: فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالاباب المسافر ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فقالت: فان يك نائياً فلقد نعاه نعي ليس في فيه التراب فقالت زينب بنت أبي سلمة: أتقولين هذا لعلّي؟ فقالت: إني أنسى، فإذا نسيت فذكروني...!! (١). ولما بلغ خبر قتله إلى معاوية قال: إن الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في الحرب قد قضى نحبه. ثم أنشد: قل للأرانب ترعى أينما سرحت وللظبا بلا خوف ولا وجل (٢) فلما مات الامام، خطب الحسن في مسجد الكوفة، وقال: «ألا أنّه قد مضى، في هذه الليلة، رجل لم يدركه الأولون، ولن ير مثله الآخرون. من كان يقاتل _____

١. الكامل لابن الاثير ٣ / ٣٩٤ طبع دار صادر.

٢. ناسخ التواريخ، القسم المختص بحياة الامام ٦٩٢. (٢٢٠)

وجبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله. والله لقد توفي في هذه الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران، ورفع فيها عيسى بن مريم وأنزل القرآن. الا- وانه ما خلف صفراء ولا- بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله» (١). ثم بويع الحسن في نهاية خطبته، وأول من بايعه قيس بن سعد الأنصاري، ثم تتابع الناس على بيعته وكان أمير المؤمنين بايعه أربعون ألفاً من

عسكره على الموت. فبينما هو يتجهز للمسير قُتل - عليه السلام - . وباع هؤلاء ولده الحسن، فلما بلغهم مسير معاوية في أهل الشام إليه، تجهز هو والجيش الذين كانوا قد بايعوا علياً. وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية (٢). وهل وفي هؤلاء للحسن - عليه السلام - وكانوا صادقين في بيعتهم؟ كلاً بل خانوه كما خانوا أباه فلم ير الامام بدءاً عن التصالح، لأجل تخاذل أهل العراق أولاً وكون الشيوخ الذين بايعوا علياً والتفوا حوله كانوا من عبدة الغنائم والمناصب، ولم يكن لهؤلاء نصيب في خلافة الحسن إلا ما كان لهم عند أبيه من قبل ثانياً. وإن عدداً غير قليل ممن بايع الحسن كانوا من المنافقين، يرسلون معاوية بالسمع والطاعة ثالثاً، وإن لفيماً من جيشه كانوا من الخوارج أو أبنائهم رابعاً، إلى غير ذلك من الأسباب التي دفعت الامام إلى قبول الصلح مع معاوية، تحت شروط خاصة تضمنت لشيعته على الأمن والأمان ولكنه بعد ما وافق معاوية على الصلح ووقع عليه، قام وخطب: إني والله ما قاتلتكم لنصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وأنكم لتفعلون ذلك ولكن قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون ألا وأني قد كنت منيت الحسن أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء

١. تاريخ يعقوبى ٢١٣ / ٢ .

٢. الكامل ٣ / ٤٠٤ طبع دار صادر . (٢٢١)

منها له (١). فعند ذلك فسح المجال لمعاوية في قتل الشيعة واستئصالهم، تحت كل حجر ومدبر. وجاءت المجازر تترى بعد معاوية إلى آخر عهد الدولة الأموية، فلم يكن للشيعة في تلك الأيام نصيب سوى القتل والنفي والحرمان. وهذا هو الذي نستعرضه في هذا الفصل على وجه الاجمال، حتى يقف القارئ على أن بقاء التشيع في هذه العصور المظلمة، كان معجزه من معجز الله سبحانه كما يقف على أن الصمود والكفاح والرد على الظلمة وأعاونهم، كان شعار الشيعة منذ عصر الامام إلى يومنا هذا. وإليك بعض الوثائق من جرائم معاوية : ١- رسالة الامام الحسين إلى معاوية:

«أمياً بعد فقد جاني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظنني بها رغبة بي عنها، وأن الحسنات لا يهدى لها ولا يسد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنه رمى إليك عني، فإنما رقاها الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفروقون بين الجمع، وكذب الغاؤون المارقون، ما أردن حرباً ولا خلافاً وأني لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المحلين حزب الظالم وأعاون الشيطان الرجيم. ألسنت قاتل حجر وأصحابه العابدين المختبين الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعدما أعطيتهم الموائيق الغليظة والعهود المؤكدة جرأة على الله واستخفافاً بعهده. أولست بقاتل عمرو بن الحمق الذي اخلقت وأبليت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من سقوف الجبل .

١. الارشاد للشيخ المفيد ١٩١ .

(٢٢٢)

أو لست المدعى زياداً في الإسلام فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان الولد للفراش وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويصلبهم على جذوع النخل؟ سبحان الله يا معاوية! لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك، أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب إليك في حقه زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه، ودين علي هو دين ابن عمه - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولو لا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعها الله عنكم بنا منه عليكم، وقلت فيما قلت: لا تردن هذه الأمة في فتنه وأني لا أعلم لها فتنه أعظم من امارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدنيك ولأمة محمد. وأني والله ما أعرف فضلاً من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني. وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى فكنتي أكدك، تكذني يا معاوية ما بدا لك، فلعمري لقد يمماً يكاد الصالحون وأني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ولا تمحق إلا

عملك فكذني ما بدالك، وأتق الله يا معاوية! واعلم ان لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنّة، وأخذك بالتهمة، وإمارتك صبيّاً يشرب الشرب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا قد أوبقت نفسك، وأهلك دينك، وأضعت الرعية، والسلام» (١). هذه رسالة أبي الشهداء، الحسين بن علي - عليهما السلام -، وتكفيك بياناً _____

١. الامامة والسياسة ١ / ١٦٤، جمهرة الرسائل ٢ / ٦٧ ورواه الكشي في رجاله ٤٨ - ٥١، والمجلسي في البحار ٢١٢ / ٤٤ - ٢١٤.

(٢٢٣)

وبلاغاً لما جنت به يدا معاوية وعماله على شيعة أبيه، من فتك وقتل ذريع، للأبرياء وصحابة النبي الأكرم ونردفها بكلام حفيده الامام محمّد الباقر - عليه السلام -، قال لبعض أصحابه: إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبض وقد أخبر أنا أولى الناس بالناس فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه واحتجّت على الأنصار بحقنا وحجتنا. ثم تداولتها قريش، واحد بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كثود، حتى قتل، فبويح الحسن ابنه وعوهد ثم غدر به وأسلم ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه، ونهب عسكره، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليل حق قليل. ثم بايع الحسين من أهل العراق عشرون ألفاً، ثم غدروا به، وخرجوا عليه، وبيعته في أعناقهم وقتلوه. ثم لم نزل - أهل البيت - نستذل ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعّة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله ولم نفعله، ليعضّونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن - عليه السلام -، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيدالله بن زياد قاتل الحسين - عليه السلام - ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتله، وأخذهم بكل ظنّة وتهمة، حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر، أحبّ إليه من أن يقال: شيعة علي، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير - ولعله يكون ورعاً صدوقاً - يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل (٢٢٤)

بعض من قد سلف من الولاة ولم يخلق الله تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنّها حقّ لكثرة من قد رواها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع (١). ولعلّ في رسالة الامام أبي الشهداء، وما قاله حفيده الامام الباقر - عليه السلام - غنى وكفاية لمن اراد أن يعرف الأمر عن كتب ويقف على مظالم الامويين في حق شيعة الامام، غير أنّه ايضاحاً لحقيقته نوّكد ذلك بكلام غيرهما لتتم الحجة على الجميع. كان سعيد بن سرح مولى حبيب بن عبد شمس من شيعة علي بن أبي طالب، فلما قدم زياد الكوفة والياً عليها، طلبه وأخافه، فأتى الحسن بن علي مستجيراً به، فوثب زياد على أخيه وولده وامرأته، فحبسهم وأخذ ماله وهدم داره، فكتب الحسن إلى زياد: «من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد: فإنك عمدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، فهدمت داره وأخذت ماله، وحبست أهله وعياله، فإذا أتاك كتابي هذا، فابن له داره، واردد عليه عياله وماله، وشفّعي فيه فقد أجرته» فكتب إليه زياد: من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة، أما بعد: فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبلي وأنت طالب حاجة وأنا سلطان وأنت سوقه، كتبت إلى في فاسق آويته إقامة منك على سوء الرأي ورضاً منك بذلك، وأيم الله لا - تسبقني به، ولو كان بين جلدك ولحمك، وإن نلت بعضك فغير رفيق بك ولا مرع عليك، فإن أحبّ لحم إليّ أن آكل منه، اللحم الذي أنت منه، فسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك، فإن عفوت عنه لم أكن شفّعتك فيه، وإن قتلته لم _____

١. شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٣ - ٤٤.

(٢٢٥)

أقتله إلا لحبه أباك الفاسق، والسلام (١). «كان زياد جمع الناس بالكوفة بباب قصر يحرضهم على لعن عليّ أو البراءة منه، فملا منهم المسجد والرحبة، فمن أبي ذلك عرضه على السيف» (٢)، وفي المنتظم لابن الجوزي: إن زياداً لما حصبه أهل الكوفة وهو يخطب

على المنبر قطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرب دورهم ويحرق نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة يعرضهم على البراءة من علي، وعلم أنهم سيمتنعون، فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراجهم (٣). بيان معاوية إلى عماله: روى أبو الحسن علي بن محمّد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء، في كل كورة، وعلى كل منبر، يلغون علماً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي - عليه السلام - فاستعمل عليها زياد بن سمّية، وضم إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام علي - عليه السلام -، فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: _____

١. شرح ابن أبي الحديد ١٦ / ١٩٤ .

٢. مروج الذهب ٣ / ٢٦ .

٣. المنتظم ٥ / ٢٦٣ طبع بيروت . (٢٢٦)

ألا- يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة. وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان و محبيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم، واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته . ففعلوا ذلك، حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحجاء القطائع، ويفيضة في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية، فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه. فلبثوا بذلك حيناً . ثم كتب إلى عماله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتونى بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ إليهم من مناقب عثمان وفضله . فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقى إلى معلّمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله . ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحبّ علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه وشفّع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به، واهدموا داره . (٢٢٧)

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة، حتى ان الرجل من شيعة علي - عليه السلام - ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقى إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القراء والمرأون، والمستضعفون، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولايتهم، ويقربوا مجالسهم، ويصيبوا الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الاخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حقّ، ولو علموا أنها باطلّة لما رووها، ولا تدّينوا بها . وذكر ابن أبي الحديد: فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي - عليه السلام - فزاد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض . ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين - عليه السلام -، وولّى عبدالملك بن مروان، فاشتدّ على الشيعة، وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه، وموالاة من يدعى من الناس أنهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا

من البغض من على - عليه السلام - وعييه، والطعن فيه، والشنان له حتى أن انساناً وقف للحجاج - ويقال أنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب - فصاح به: أيها الأمير أن أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً، وأنى فقير بائس، وأنا إلى صله الأمير محتاج . فتضاحك له الحجاج، وقال: لطف ما توسّلت به، قد وليتك موضع كذا. وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تاريخه ما يناسب هذا الخبر، وقال: إن أكثر الأحاديث الموضوعه في (٢٢٨)

فضائل الصحابه افتعلت في أيام بنى أمية تقريباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بنى هاشم (١) . فمن أراد أن يقف على الضغط الشديد الذي تعرض له الشيعة في عصر الامويين فليقرأ حياة الصحابه والتابعين الذين قتلوا بسيف عمال معاوية وآل مروان، وهؤلاء الأبطال: ١- حجر بن عدى الذي قبض عليه زياد بعد هلاك المغيرة سنة (٥١) وبعثه مع أصحابه إلى الشام بشهادة مزورة، وأنه يجتمع عليه شيعة على ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه . يقول المسعودي: «في سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية حجر بن عدى الكندي - وهو أول من قتل صبراً في الإسلام - وحمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من أصحابه من أهل الكوفة وأربعة من غيرها فلما صار على أميال من الكوفة يراد به دمشق أنشأت ابنته تقول - ولا عقب له من غيرها - : ترفع أيها القمر المنير * لعلك ان ترى حجراً يسير إلى معاوية بن حرب * ليقتله كذا زعم الأمير ويصلبه على بابي دمشق * وتأكل من محاسنه النسور فقتله مع أصحابه في مرج العذراء (٢) . ٢- عمرو بن الحمق ذلك الصحابي العظيم الذي وصفه الامام الحسين سيد

١ . شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٤ - ٤٦ .

٢ . مروج الذهب ٣ / ٣ - ٤ ، سير أعلام النبلاء ٣ / ٤٦٢ - ٤٦٦ برقم ٩٥ . (٢٢٩)

الشهداء بأنه: أبلت وجهه العبادة. قتله بعد ما أعطاه الأمان (١) . ٣- مالك الأشتر ملك العرب، أحد الأشراف والأبطال كان شهماً مطاعاً وكان قائد القوات العلوية قتله بالسم في مسيره إلى مصر بيد أحد عماله (٢) . ٤- رشيد الهجري كان من تلاميذ الامام وخواصه عرض عليه زياد البراءة واللعن فأبى، فقطع يديه ورجليه ولسانه، وصلبه خنقاً في عنقه (٣) . ٥- جويرية بن مهر العبدى أخذه زياد وقطع يديه ورجليه وصلبه على جذع نخلة (٤) . ٦- قنبر مولى أمير المؤمنين إذ قال الحجاج لبعض جلاوزته: أحب أن أصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب، فقالوا: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة له من مولاه قنبر، فبعث في طلبه، فقال له: أنت قنبر؟ قال: نعم، قال له: إبرأ من دين على، فقال له: هل تدلني على دين أفضل من دينه؟ قال: إني قاتلك فاختر أي قتله أحب إليك، قال: أخبرني أمير المؤمنين: ان ميتتي تكون ذبحاً بغير حق. فأمر به فذبح كما تذبج الشاة (٥) . ٧- كميل وهو من خيار الشيعة وخاصه أمير المؤمنين طلبه الحجاج فهرب منه، فحرم قومه عطاءهم فلما رأى كميل ذلك قال: أنا شيخ كبير وقد نفذ عمري ولا ينبغي أن أكون سبياً في حرمان قومي، فاستسلم للحجاج، فلما رآه قال له: كنت أحب أن أجد عليك سيلاً فقال له كميل: لا- تبرق ولا- ترعد، فوالله ما بقى من عمري

١ . سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٤ - ٣٥ برقم ٦ .

٢ . شذرات الذهب ١ / ٩١ .

٣ . شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .

٤ . شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٩٠ - ٢٩١ .

٥ . رجال الكشي ٦٨ - ٦٩ برقم ٢١، الشيعة والحاكمون ٩٥ . (٢٣٠)

إلا- مثل الغبار، فاقض فإن الموعد الله عزوجل، وبعد القتل الحساب. وقد أخبرني أمير المؤمنين أنك قاتلي، فقال الحجاج: الحجّة عليك إذن، فقال: ذلك إن كان القضاء لك، قال: بلى، اضربوا عنقه (١) . ٨- سعيد بن جبير التابعي المعروف بالعفة والزهد والعبادة وكان يصلي خلف الامام زين العابدين فلما رآه الحجاج قال له: أنت شقي بن كسير، فقال: أمي أعرف بإسمى منك، ثم بعد رد وبدل أمر الحجاج بقتله، فقال سعيد: وجهي وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين. فقال الحجاج: شدوه

إلى غير القبلة، فقال: أينما تولّوا فثمّ وجه الله، فقال: كبوه على وجهه، قال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى، ثم ضربت عنقه (٢). وسيوافيك ما جرى على زيد بن علي من الصلب أيام خلافة هشام بن عبد الملك عام (١٢٢) عند الكلام عن فرق الزيدية فتربّص حتى حين. هذه صورة مصغّرة من جنایات البيت الأموي وقد جئنا بها كنموذج يوقفك على كثير وذكرا له لتقف على أنّ بقاء التشيع مع هذه المجازر أشبه بالمعجزة. الشيعة في خلافة العباسيين:

دار الزمان على بني أمية، وقامت ثورات عنيفة ضدهم، أثناء خلافتهم إلى أن قضت على آخر ملوكهم (مروان الحمار) (فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (٣) وولى الأمر العباسيون، وكان الأمر في القتل

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧ / ١٤٩، الشيعة والحاكمون ٩٦.

٢. سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٢١ - ٣٢٨، الجرح والتعديل ٤ / ٩ برقم ٢٩.

٣. الأنعام / ٤٥. (٢٣١)

والتشريد والسفك والحبس في عهدهم نفس ما كان في عهد الامويين بل أسوأ بكثير. قال الشاعر: والله ما فعلت أمية فيهم * معشار ما فعلت بنو العباس ١- وأول من تولّى منهم أبو العباس السفّاح ببيع سنة (١٣٢) ومات سنة (١٣٦)، قضى وقته في تتبع الامويين والقضاء عليهم، وهو وإن لم يتعرّض للعلويين، لكنّه تنكّر لهم وشيعتهم ويوعز إلى الشعراء أن يتعرّضوا لأولاد علي ويمحوا عنهم حقّ الخلافة. هذا محمّد أحمد براق يقول في كتابه «أبو العباس السفّاح»: «إنّ أصل الدعوة كان لآل علي، لأنّ أهل خراسان كان هواهم في آل علي لا- آل العباس، لذلك كان السفّاح، ومن جاء بعده مفتحة عيونهم لأهل خراسان حتى لا يتفشى فيهم التشيع لآل علي: ... وكانوا يستجلبون الشعراء ليمدحهم، فيقدّمون لهم الجوائز، وكان الشعراء يعرضون بأبناء علي و ينفون عنهم حقّ الخلافة، لأنهم ينتسبون إلى النبي عن طريق ابنته فاطمة، أمّا بنو العباس فإنهم أبناء عمومة» (١). ٢- ثمّ جاء بعده أبو جعفر المنصور، وقد شيّد مجد الأسرة العباسية، وكانت خلافته مزيجاً من الخير والشرّ وصار في أخريات أيامه شراً كلّه، ويكفي للإمام بجرائمه وقسوته ما كتبه ابن عبد ربّه في العقد الفريد قال: إنّ المنصور كان يجلس ويجلس إلى جانبه واعظاً، ثمّ تأتي الجلاوزة في أيديهم السيوف يضربون أعناق الناس، فإذا جرت الدماء حتى تصل إلى ثيابه، يلتفت إلى الواعظ ويقول: عظني! فإذا ذكره الواعظ بالله، أطرق المنصور كالمنكسر، ثمّ يعود الجلاوزة إلى ضرب الأعناق، فإذا ما أصابت الدماء ثياب المنصور ثانياً، قال لواعظه:

١. أبو العباس السفّاح ٤٨، كما في الشيعة والحاكمون ١٣٩.

(٢٣٢)

عظني!! (١). فماذا يريد المنصور من قوله للواعظ، وهل يريد الاستهزاء بالدين الذي نهى عن قتل النفس وسفك الدماء أو يريد شيئاً آخر والله العالم. وأمّا ما جرى منه على العلويين، فنذكر ما يلي حتى يكون كنموذج لأعماله: يقول المسعودي: جمع المنصور أبناء الحسن، وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وحملهم في محامل مشكوفة وبغير وطاء تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين، ثمّ أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار وأشكلت أوقات الصلاة عليهم، فجزّأوا القرآن خسمه أجزاء، فكانوا يصلّون على فراغ كل واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضرورية في مواضعهم، فاشتدّت عليهم الرائحة، وتورّمت أجسادهم ولا- يزال الورم يصعد من القدم حتى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه مرضاً وعطشاً وجوعاً (٢). وقال ابن الأثير: دعا المنصور محمّد بن عبد الله العثماني، وكان أخاً لأبناء الحسن من أمّهم، فأمر بشقّ ثيابه، حتى بانت عورته، ثمّ ضرب مائة وخمسون سوطاً، فأصاب سوط منها وجهه فقال: ويحك اكفف عن وجهي، فقال المنصور للجلاذ: الرأس الرأس، فضربه على رأسه ثلاثين سوطاً، وأصاب إحدى عينيه فسالت على وجهه، ثمّ قتله - ثمّ ذكر - وأحضر المنصور محمّد بن إبراهيم بن الحسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصفر، لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً، ثمّ أمر به، فبنى عليه اسطوانة، وهو حي، فمات فيها (٣).

١ . العقد الفريد ١ / ٤١ .

٢ . مروج الذهب ٣ / ٣١٠ طبع ١٩٤٨ .

٣ . الكامل ٤ / ٣٧٥ . (٢٣٣)

٣- ثم ولي بعده المهدي ولد المنصور، وبقي في الحكم من سنة (١٥٨) إلى سنة (١٦٩) وكفى في ظلمه للعلويين، أنه أخذ على بن العباس بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فسجنه فسدس إليه السم فتفسخ لحمه وتباينت أعضاؤه . ٤- ولما توفي المهدي بويع ولده الهادي، وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكفى في ظلمه - بالرغم من قصر أيامه - ما يذكره أبو الفرج الأصفهاني: إن أم الحسين صاحب فخ هي زينب بنت عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قتل المنصور أباهما واخوتها وعمومتها وزوجها علي بن الحسن، ثم قتل الهادي حفيد المنصور، ابنها الحسين، وكانت تلبس المسوح على جسدها، لا تجعل بينها وبينه شيئاً حتى لحقت بالله عزوجل (١) . ٥- ثم تولى بعده الرشيد سنة (١٧٠) ومات (١٩٣) ونذكر من جرائمه شيئاً واحداً، ما نقله صاحب مقاتل الطالبين عن إبراهيم بن رباح، قال: إن الرشيد حين ظفر بيحيى بن عبدالله بن الحسن، بنى عليه اسطوانة وهو حي، وكان هذا العمل الاجرامى موروثاً من جدّه المنصور (٢) الكاظم فنذكره في الفصل الحادي عشر عند ذكر أئمة الشيعة . ٦- ثم جاء بعده ابنه الأمين، فكان على الحكم أربع سنين وأشهر، يقول أبو الفرج: كانت سيرة الأمين في أمر آل أبي طالب خلاف من تقدم لتشاغله بما كان فيه من اللهو ثم الحرب بينه وبين المأمون، حتى قتل فلم يحدث على أحد منهم في أيامه حدث . ٧- وتولى الحكم بعده المأمون، فقد كان من أقوى الحكام العباسيين بعد

١ . مقاتل الطالبين ٢٨٥ طبع النجف .

٢ . مقاتل الطالبين ٣٢٠ طبع النجف، وروى في مقتله أمراً آخر . (٢٣٤)

أبيه الرشيد. فلما رأى المأمون إقبال الناس على العلويين وعلى رأسهم الإمام الرضا، ألقى عليه القبض بحيلة الدعوة إلى بلاطه، ثم دس السم للإمام الرضا، وسوفايك تفصيله . ٨- مات المأمون سنة (٢١٨) وجاء إلى الحكم ابنه المعتصم فسجن محمد ابن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن أبي طالب فتغلب عليه وسجنه ثم فر من السجن . ٩- ولي الحكم بعده الواثق وقد سجن الإمام الجواد بن الإمام الرضا - عليه السلام -، ودس له السم بيد زوجته الأئمة أم الفضل بنت المأمون . ١٠- وولى الحكم بعد الواثق، المتوكل وإليك نموذجاً من حقه علي آل البيت وهو ما ذكره أبو الفرج قال: كان المتوكل شديد الوطأة على آل أبي طالب غليظاً في جماعتهم، شديد الغيظ والحقد عليهم، وسوء الظن والتهمة لهم، واتفق له أن عبید الله بن يحيى بن خاقان وزيره يسيء الرأي فيهم، فحسن له القبيح في معاملتهم، فبلغ فيهم ما لم يبلغه أحد من خلفاء بني العباس قبله، وكان من ذلك أن كرب (١) قبر الحسين وعفى آثاره، ووضع على سائر الطرق، مسالح له لا يجدون أحداً زاره إلا أتوه به وقتله أو أنهكه عقوبة . وقال: بعث برجل من أصحابه (يقال له «الدينج» وكان يهودياً فأسلم) إلى قبر الحسين وأمره بكره قبره ومحوه وإخراجه ما حوله، فمضى ذلك، فخرّب ما حوله وهدم البناء وكرب ما حوله نحو مأتى جريب، فلما بلغ إلى قبره لم يتقدم إليه أحد فأحضر قوماً من اليهود فكبوه، وأجرى الماء حوله، ووكل به مسالح، بين كل مسلحتين ميل، لا يزوره زائر إلا أخذوه ووجهوا به إليه . وقال: حدثني محمد بن الحسين الأشناني: بعد عهدي بالزيارة في تلك

١ . الكرب: إثارة الأرض للزرع .

(٢٣٥)

الأيام خوفاً، ثم عملت على المخاطرة بنفسى فيها، وساعدنى رجل من العطارين على ذلك، فخرجنا زائرين، نكمن النهار ونسير الليل حتى أتينا نواحي الغاضرية، وخرجنا نصف الليل فصرنا بين مسلحتين، وقد ناموا، حتى أتينا القبر فخفى علينا فجعلنا نشمه (نتسمه) ونتحرى جهته حتى أتيناها، وقد قلع الصندوق المذى كان حوالبه وأحرق وأجرى الماء عليه، فانخسف موضع اللبن وصار كالخندق،

فزرناه وأكبيننا عليه... فودّعناه وجعلنا حول القبر علامات في عدّة مواضع، فلما قتل المتوكّل اجتمعنا مع جماعة من الطالبين والشيعة حتى صرنا القبر فأخرجنا تلك العلامات وأعدناه إلى ما كان عليه . وقال: واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرّج فمنع آل أبي طالب من التعرّض لمسألة الناس ومنع الناس من البرّ بهم، وكان لا يبلغه أنّ أحداً أبرّ أحداً منهم بشيء، وإنّ قلّ إلاّ أنهكه عقوبة، وأثقله غمّاً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة، ثم يرقعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر إلى أن قتل المتوكّل فعطف المنتصر عليهم وأحسن إليهم بمال فرقه بينهم، وكان يؤثر مخالفة أبيه في جميع أحواله ومضادة مذهبه (١) . وولي بعده المنتصر ابنه وظهر منه الميل إلى أهل البيت وخالف أباه - كما عرفت - فلم يجر منه على أحد منهم قتل أو حبس أو مكروه فيما بلغنا . وأول ما أحدثه أنّه لما ولي الخلافة عزل صالح بن علي عن المدينة، وبعث علي بن الحسين مكانه فقال له - عند المواعدة - : يا علي: إنني أوجهك إلى لحمي ودمي فانظر كيف تكون للقوم وكيف تعاملهم - يعني آل أبي طالب - فقلت: أرجو أن أمثّل رأي أمير المؤمنين - أيده الله - فيهم، إن شاء الله. قال: إذا تسعد _____

١ . مقاتل الطالبين ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٢٣٦)

بذلك عندي (١) . وقام بعده المستعين بالأمر، فنقص كلّما غزله المنتصر من البرّ والإحسان، ومن جرائمه أنّه قتل يحيى بن عمر بن الحسين، قال أبو الفرّج: وكان - رضى الله عنه - رجلاً فارساً شجاعاً شديد البدن، مجتمع القلب، بعيداً من رهق الشباب وما يعاب به مثله، ولما أدخل رأسه إلى بغداد جعل أهلها يصيحون من ذلك إنكاراً له، ودخل أبو هاشم علي محمّد بن عبد الله بن طاهر، فقال: أيها الأمير، قد جئتكم مهتّباً بما لو كان رسول الله حيناً يعزّي به . وأدخل الأسارى من أصحاب يحيى إلى بغداد ولم يكن روى قبل ذلك من الأسارى لحقه ما لحقهم من العسف وسوء الحال، وكانوا يساقون وهم حفاة سواقاً عنيفاً، فمن تأخر ضربت عنقه . قال أبو الفرّج: وما بلغني أنّ أحداً ممّن قتل في الدولة العباسية من آل أبي طالب رثى بأكثر مما رثى به يحيى، ولا قيل فيه الشعر بأكثر ممّا قيل فيه . هذا قليل من كثير من المجازر الدامية، التي قام بها بنو العباس وأتو بجرائمهم لم يسبقهم أحد من الامويين ولا من جاء بعدهم إليها وهم كما قال الشاعر: تالله إن كانت بنو أمية قد أتت * قتل ابن بنت نبيها مظلوما فلقد أتاه بنو أبيه بمثلها * هذا لعمر ك قبره مهدوما أسفوا على أن لا- يكونوا شايعوا * في قتله فتتبعوه رميما ومن أراد أن يقف على سجلّ جرائم الدولتين (الاموية والعباسية) وملف مظالمهم فعليه قراءة القصائد الثلاث التي نظمها رجال مؤمنون مخلصون، عرضوا أنفسهم للمخاوف والأخطار طلباً لرضى الحق:

١ . مقاتل الطالبين ٦٣٦ .

(٢٣٧)

١- تائية دعبل الخزاعي الشهيد عام ٢٤٦ هـ، فإنّها وثيقة تاريخية خالدة تعرب عن سياسة الدولتين تجاه أهل البيت - عليهم السلام - ، وقد أنشدها الشاعر للإمام الرضا، فبكى وبكت معه النسوة. أخرج الحموي عن أحمد بن زياد عن دعبل الخزاعي قال: أنشدت قصيدة لمولاي على الرضا - رضى الله عنه - : مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات قال دعبل: ثم قرأت باقى القصيدة، فلما انتهيت إلى قولي: خروج إمام لا محاله واقع * يقوم على اسم الله والبركات بكى الرضا بكاءً شديداً. ومن هذه القصيدة قوله: هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه * ما حكمه بالزور والشبهات تراث بلا قربى وملك بلا هدى * وحكم بلا شورى بغير هدايات وفيه أيضاً قوله: لآل الرسول بالخيف من منى * وبالبيت والتعريف والجمرات ديار على والحسين وجعفر * وحمزة والسجاد ذى الثغفات ديار عفاها جور كل منابذ * ولم تعف للآثام والسنوات ودار لعبدالله والفضل صنوه * سليل رسول الله ذى الدعوات منازل كانت للصلاة وللتقى * وللصوم والتطهير والحسنات منازل وحى الله معدن علمه * سبيل رشاد واضح الطرقات وحى الله ينزل حولها * على أحمد الروحات والغدوات إلى أن قال: ديار رسول الله أصبحن بلقعا * ودار زياد أصبحت عمرات (٢٣٨)

وآل رسول الله غُلَّتْ رقابهم * وآل زياد غُلِّطَ القصرات وآل رسول الله تُدْمَى نحورهم * وآل زياد زَيْنُوا الحجلات وفيها أيضاً: أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً * وقد مات عطشاناً بشطّ فرات إذاً للطمت الخد فاطم عنده * وأجريت دمع العين في الوجنات أفاطم قومي يا ابنة الخير واندبى * نجوم سماوات بأرض فلات (١) ٢- ميمية الأمير أبي فراس الحمداني (٣٢٠-٣٥٧ هـ)، هذه القصيدة تعرف بالشافية وهي من القصائد الخالدة، وعليها مسحة البلاغة، وروثق الجزالة، وجودة السرد، وقوة الحجّة، وفخامة المعنى، أنشدها ناظمها لماً وقف على قصيدة ابن سكره العباسي التي مستهلها: بنى على دعوا مقاتلكم * لا ينقض الدر وضع من وضعه فقال الأمير في جوابه ميمية المعروفة وهي: الحق مهتضم والدين مخترم * وفي آله رسول الله مقتسم إلى أن قال: يا للرجال أما لله منتصر * من الطغاة؟ أما لله منتقم؟ بنو علي رعايا في ديارهم * والأمر تملكه النسوان والخدم! (٢) ٣- جيمية ابن الرومي التي رثى بها يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد، وهي: _____

١. لاحظ للوقوف على هذه القصيدة: المناقب لابن شهر آشوب ٢ / ٣٩٤، وروضه الواعظين للفتال النيسابوري ١٩٤، وكشف الغمة للاربلي ٣ / ١١٢-١١٧، وقد ذكرها أكثر المؤرخين .

٢. نقلها في الغدير برمتها وأخرج مصادرها، لاحظ ٣ / ٣٩٩-٤٠٢ . (٢٣٩)

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج * طريقان شتى مستقيم وأعوج ألا أي هذا الناس طال ضريركم * بآل رسول الله فآخشوا أو ارتجوا أكل أوان للنبي محمد * قتيل زكي بالدماء مضرّج (١) «والله لا يعرف التاريخ أسرة كأسرة أبي طالب بلغت الغاية من شرف الأرومة، وطيب النجار، ضلّ عنها حقها، وجاهدت في سبيل الله حقّ الجهاد من الاعصار، ثم لم تظفر من جهادها المرير إلا بالحسرات ولم تعقب من جهادها إلا العبرات، على ما فقدت من أبطال أسألوا نفوسهم في ساحة الوغى، راضية قلوبهم مطمئنة ضمائرهم، وصافحوا الموت في بسالة فائقة وتلقوه في صبر جميل يثير في النفس الاعجاب والاكبار ويشيع فيها ألوان التقدير والاعظام . وقد أسرف خصوم هذه الأسرة الطاهرة في محاربتها وأذقوها ضروب النكال، وصبوا عليها صنوف العذاب، ولم يرقبوا فيها إلا ولا ذمة ولم يرعوا لها حقاً ولا حرمة وأفرغوا بأسهم الشديد على النساء والأطفال، والرجال جميعاً في عنف لا يشوبه لين، وقسوة لا تمازجها رحمة، حتى غدت مصائب أهل البيت مضرب الأمثال، في فظاعة النكال، وقد فجرت هذه القسوة البالغة ينايع الرحمة والموودة في قلوب الناس وأشاعت الأسف الممض في ضمائرهم، وملأت عليهم أقطار نفوسهم شجنا، وصارت مصارع هؤلاء الشهداء حديثاً يروى وخبراً يتناقل، وقصصاً يقص، يجد فيه الناس إرضاء عواطفهم وإرواء مشاعرهم فتطلبوه وحرصوا عليه» (٢) . كانت الشيعة حليف الضغط والكبت، لم ير الامويون والعباسيون ولا الملوك _____

١. مقاتل الطالبين ٦٣٩-٦٤٤ .

٢. مقدمة مقاتل الطالبين، بقلم السيد أحمد صفر: الصفحة ٥ - ك، طبع دار المعرفة . (٢٤٠)

الغزائوة ولا- السلاجقة ولا- من أتى بعدهم أي حرمة لنفوسهم واعراضهم وعلومهم ومكتباتهم، وكانت اليهود والنصارى أحراراً في الرقعة الإسلامية وكانت الشيعة تعيش في التقية ولا يتوجه أي ذنب على الشيعة في أن يتقى أخاه المسلم، ويظهر له خلاف ما يعتقد. إنما التقصير على من حملهم على التقية، وأباح دمهم وعرضهم وأموالهم فلم ير بداً لصيانة نفسه ونفيسه من التقية . هذا هو طغرل بيك أول ملك من السلاجقة ورد بغداد سنة ٤٤٧ وشنّ على الشيعة حملة شعواء وأمر بإحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر سابور بن اردشير، وزير بهاء الدولة البويهى وكانت من دور العلم المهمة في بغداد بناها هذا الوزير الجليل في محلة بين السورين في الكرخ سنة ٣٨١ على مثال بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد، وكانت مهمة للغاية وقد جمع فيه هذا الوزير ما تفرّق من كتب فارس والعراق واستكتب تأليف اهل الهند والصين والروم، كما قاله محمد كرد علي، وناقت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ومهام الأسفار، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلفين (١) . قال ياقوت الحموي: وبها كانت خزائنة الكتب التي أوقفها الوزير أبو نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة، ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة وأصولهم

المحرزة (٢). وكان من جملتها مصاحف بخط ابن مقله على ما ذكره ابن الأثير (٣). وحيث كان الوزير سابور من أهل الفضل والأدب، أخذ العلماء يهدون إليه _____

١. خطط الشام ٣ / ١٨٥ .

٢. معجم البلدان ٢ / ٣٤٢ .

٣. الكامل في التاريخ ١٠ / ٣ (٢٤١)

مؤلفاتهم، فأصبحت مكتبته من أغنى دور الكتب ببغداد، وقد احترقت هذه المكتبة العظيمة فيما احترق من محال كرخ عند مجيء طغرل بيك وتوسعت الفتنة حتى اتجهت إلى شيخ الطائفة وأصحابه فأحرقوا كتبه وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام . وقال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٤٨: وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩: وفي صفر هذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة في الكرخ، وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسيه يجلس إليه للكلام، وأخرج إلى الكرخ وأضيف إليه ثلاث سناجيق بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم إن قصدوا زيارة الكوفة، فأحرق الجميع (١) . وأنت إذا سبرت غضون التاريخ المؤلف في عصور الامويين والعباسيين ومن بعدهم - مع أنه قد لعبت به الهوى ودس فيها أشياء وأشياء - تقف على أن بقاء الشيعة إلى العصر الحاضر من المعاجز والكرامات وخوارق العادات، وكيف وان تاريخهم هو الذبح، والقتل، والقمع، والاستئصال، والسحق، والإبادة، قد تضافرت قوى الكفر والفسق على إهلاكهم وقطع جذورهم ومع ذلك فقد كانت لهم دول ودويلات، ومعاهد وكتليات، وبلدان وحضارات، وأعلام ومفاخر وعباقرة وفلاسفة، وفقهاء ومحدثون ووزراء وسياسيون، ويشكلون اليوم خمس المسلمين أو ربعهم، إن ذلك من فضله سبحانه لتعلق مشيئته على إبقاء الحق _____

١. المنتظم ٨ / ١٧٣ - ١٧٩، نقلنا ما يتعلق بمكتبة أبي نصر سابور والشيخ الطوسي عن مقدمته شيخنا الطهراني على التبيان وذكرنا المصادر التي أوما هو إليها في الهامش، لاحظ الصفحة هـ - و ومن المقدمة .

(٢٤٢)

و إزهاق الباطل في ظل قيام الشيعة طيلة القرون بواجبها وهو الصمود أمام الظلم، والتضحية والتفدية للمبدأ والمذهب وقد قال سبحانه: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (١) . ولا يفوتك ان ثوراتهم المتعاقبة أدت إلى تشريدهم وقتلهم والفتك بهم، ولو أنهم ساوموا السلطة الأموية والعباسية، لكانوا في أعلى المناصب والمدارج، لكن ثوراتهم لم تكن عنصريه أو قومييه أو طلباً للرئاسة، بل كانت لإزهاق الباطل ورفع الظلم عن المجتمع، والدعوة إلى اعلاء كلمة الله وغير ذلك مما هو من وظائف العلماء العارفين . _____

١. الأنفال / ٦٥ .

الفصل العاشر في عقائد الشيعة الإمامية

الفصل العاشر في عقائد الشيعة الإمامية

(٢٤٤) (٢٤٥)

إن المناهج الكلامية التي فرقت المسلمين إلى مذاهب حدثت في أواخر القرن الأول الهجري، واستمرت في القرون التالية، نجمت عنها فرق اسلامية كالمرجئه، والجهمية، والمعتزلة، والحشوية، والأشعرية، والكرامية بفرقهم المتشعبة، فأكثر الفرق الإسلامية أو جميعها نتاج البحث والمذاكرة بالاضافة إلى الإحتكاك الفكري بين المسلمين والأمم الأخرى التي حملت إليهم مسائل وموضوعات جديدة، فلا تجد لأكثرها أو جميعها تاريخاً متصلاً بزمان النبي الأكرم، ويقف على صدق ما ذكرنا من سير أجزاء كتابنا هذا . مثلاً الخوارج - مضافاً إلى أنها كانت فرقة سياسية نجمت عام ٣٧ من الهجرة أثناء حرب صفين - تبدلت إلى فرقة دينية في أواخر القرن الأول وأوائل

القرن الثاني . والمرجئ ظهرت على الأوساط الإسلامية عند اختلاف الناس في الخليفتين عثمان وعلي، ثم تطورت إلى معنى آخر وكانت حصيلة التطور هو تقديم الإيمان و تأخير العمل . والجهمية نتيجة أفكار «جهم بن صفوان» المتوفى سنة ١٢٨، والمعتزلة تستمد من واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري المتوفى عام ١٣٠، وهكذا القدرية (٢٤٦)

والكرامية والظاهرية والأشعرية كلها فرق نتجت عن البحث الكلامي وصلها الجدال عبر القرون، فلا تجد لهذه الفرق سنداً متصلاً بالنبي الأكرم . وأما عقائد الشيعة الإمامية، فليست حصيلة الاحتكاك بالثقافات الأجنبية ولا ما أنتجت البحوث الكلامية طوال القرون، وإنما هي عقائد مأخوذة من الذكر الحكيم أولاً، والسنة النبوية ثانياً، وخطب الامام على وكلمات العترة الطاهرة المأخوذة من النبي الأكرم ثالثاً. فلأجل ذلك يحدّد تاريخ عقائدهم بتاريخ الإسلام وحياء أئمتهم الطاهرين . وهذا لا يعنى أن الشيعة تتعبّد بالنصوص في أوصلها من دون تحليل وتفكير، بل يعنى أن أصول العقائد الواردة في المصادر المذكورة، أخذها علماؤهم منها، وحزروها بأوضح الوجوه، ودعموها بالبرهنة، نعم لا يعتمدون في مجال العقيدة على آحاد الروايات بل يشترط فيها أن تكون متواترة، أو محفوفة بالقرائن المفيدة للعلم واليقين، إذ ليس المطلوب في باب الاعتقاد مجرد العمل، بل المطلوب هو الاذعان والإيمان ولا يحصل بآحاد الروايات . وهنا نكتة جديرة بالتنبيه، وهي أن قوام التشيع عبارة عن الاعتقاد بأن الإمام علياً منصوص عليه بالوصاية على لسان النبي الأكرم، وأنه وعترة الطاهرة هم المرجع الوحيد بعد الذكر الحكيم. هذا هو العنصر المقوم للتشيع وأما سائر الأصول فإنها عقائد اسلامية لا تتصل بالتشيع دون غيرهم . وها نحن نذكر قصاصات من عقائد الشيعة الامامية، الواردة في أحاديث أئمتهم تارة، وكلمات علمائهم الأقدمين ثانياً، حتى يقف القارئ على جذور تلك العقائد وأنها مأخوذة عن أئمتهم الطاهرين، وفي مقدّماتهم خطب الامام على - عليه السلام - . (٢٤٧) ١- ما كتبه الامام الرضا - عليه السلام - للمأمون في محض الإسلام:

روى الصدوق بسنده عن الفضل بن شاذان قال: سألت المأمون على بن موسى الرضا أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار، فكتب - عليه السلام - له: «إن محض الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً فرداً صمداً قيوماً، سميعاً، بصيراً، قديراً، قديماً، قائماً، باقياً، عالملاً لا يجهل، قادراً لا يعجز، غنياً لا يحتاج، عدلاً لا يجور، وأنه خالق كل شيء، ليس كمثل شيء، لا شبه له ولا ضد له ولا ند له ولا كفو له، وأنه المقصود بالعبادة والدعاء والرغبة والرغبة. وإن محمداً عبده ورسوله وأمينه وصفته وصفوته من خلقه، وسيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل العالمين، لا نبي بعده ولا تبديل لمملكته ولا تغيير لشريعته، وإن جميع ما جاء به محمداً بن عبد الله هو الحق المبين، والتصديق به وبجميع من مضى قبله من رسل الله، وأنبيائه، وحججه، والتصديق بكتابه، الصادق العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (١) وأنه المهيم على الكتب كلها، وأنه حق من فاتحته إلى خاتمته، تؤمن بمحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ووعدته ووعدته، وناسخه ومنسوخه، وقصصه واخباره، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله . وإن الدليل بعده والحجة على المؤمنين والقائم بأمر المسلمين، والناطق عن القرآن، والعالم بأحكامه، أخوه وخليفته ووصيه ووليّه، والذي كان منه بمنزلة هارون من موسى: على بن أبي طالب - عليه السلام - أمير المؤمنين، وإمام

١ . فضلت / ٤٢ .

(٢٤٨)

المتقين، وقائد الغر المحجلين، وأفضل الوصيين ووارث علم النبيين والمرسلين، وبعده الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ثم على بن الحسين زين العابدين، ثم محمداً بن علي باقر علم النبيين، ثم جعفر بن محمداً الصادق وارث علم الوصيين، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم على بن موسى الرضا، ثم محمداً بن علي، ثم على بن الحسن بن علي، ثم الحجّة القائم المنتظر - صلوات الله عليهم أجمعين - . أشهد لهم بالوصية والإمامة، وأن الأرض لا تخلو من حجة لله تعالى على خلقه في كل عصر وأوان، وأنهم العروة الوثقى، وأئمة الهدى، والحجة على أهل الدنيا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإن كل من خالفهم ضال، مضل، باطل، تارك

للحق والهدى، وأنهم المعبرون عن القرآن، والناطقون عن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بالبيان، ومن مات ولم يعرفهم مات ميتة جاهلية، وإن من دينهم الورع، والفقه، والصدق والصلاة والاستقامة والاجتهاد، واداء الأمانة إلى البر والفاجر، وطول السجود وصيام النهار وقيام الليل واجتناب المحارم، وانتظار الفرج بالصبر، وحسن العزاء وكرم الصحبة (١). ثم ذكر الامام فروعاً شتى من مختلف أبواب الفقه وأشار إلى بعض الفوارق بين مذهب أهل البيت وغيرهم لا- يهتمنا في المقام ذكرها ومن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى المصدر. * * * ٢- عرض السيد عبدالعظيم الحسنى عقائده على الإمام الهادى:

روى الصدوق عن عبدالعظيم الحسنى (٢) قال: دخلت على سيدى على بن محمّد بن على بن موسى بن جعفر بن محمّد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب - عليهم السلام - فلتماً بصُورِى، قال لى: «مرحباً بك يا أبا القاسم أنت ولينا حقاً» قال: فقلت له: يا ابن رسول الله إنى أريد أن أعرض عليك دينى، فإن كان مرضياً ثبتّ عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ. فقال: «هاتها أبا القاسم». فقلت: إنى أقول: إن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثلته شىء، خارج من الحدّين: حدّ الأبطال، وحدّ التشبيه، وأنه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا- جوهر، بل هو مجسّم الأجسام ومصوّر الصور، وخالق الاعراض والجواهر، وربّ كل شىء ومالكه وجاعله ومحدثه، وإن محمّداً عبده

١. عيون أخبار الرضا ٢ / ١٢١ - ١٢٢.

٢. عبدالعظيم بن عبد الله بن على بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب - عليهم السلام - من أصحاب الإمام الهادى، قال النجاشى: له كتاب خطب أمير المؤمنين ورد الرى هارباً من السلطان وسكن سرباً فى دار رجل من الشيعة فى سكة الموالى، فكان يعبد الله فى ذلك السرب ويصوم نهاره ويقوم ليله، فكان يخرج مستتراً، فيزور القبر المقابل قبره وبينهما الطريق ويقول هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر - عليه السلام - فلم يزل يأوى إلى ذلك السرب ويقع خبره إلى الواحد بعد الواحد من شيعة آل محمّد - عليهم السلام - حتى عرفه اكثرهم رجال النجاشى ٢ / ٦٥ - ٦٦، ومات عبدالعظيم بالرى وقبره مزار. يزوره الناس. وذكره الشيخ الطوسى فى رجاله فى أصحاب الإمام الهادى والعسكرى تحت رقم ١ و ٢٠. وذكره أيضاً عمدة الطالب ٩٤. (٢٤٩)

ورسوله خاتم النبيين، فلا نبى بعده إلى يوم القيامة، وأقول: إن الامام والخليفة وولى الأمر بعده أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم على بن الحسين، ثم محمّد بن على، ثم جعفر بن محمّد، ثم موسى بن جعفر، ثم على بن موسى، ثم محمّد بن على، ثم أنت يا مولاي. فقال - عليه السلام - : «ومن بعدى الحسن ابنى، فكيف للناس بالخلف من بعده؟ قال: فقلت: وكيف ذلك يا مولاي؟ قال: لأنه لا يرى شخصه ولا يحل (٢٥٠)

ذكره باسمه حتى يخرج فيملاً- الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. قال: فقلت: أقررت وأقول: إن وليهم ولّى الله، وعدوهم عدو الله، وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله، وأقول: إن المعاد حق، والمساءلة فى القبر حق، وإن الجنة حق، والنار حق، والميزان حق، وإن الساعة آتية لا- ريب فيها وإن الله يبعث من فى القبور، وأقول: إن الفرائض الواجبة بعد الولاية الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال على بن محمّد - عليه السلام - : يا أبا القاسم: «هذا والله دين الله الذى ارتضاه لعباده، فاثبت عليه ثبتك الله بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» (١). وقد اکتفينا بهذين النصين من الإمامين الطاهرين، أحدهما قولى، والآخر امضائى، وقد أخذوا عقائدهم عن آبائهم الطاهرين. * * * ٣- رساله الصدوق «٣٠٦ - ٣٨١» فى عقائد الإمامية:

إن لمشايعنا الإمامية قصاصات فى بيان عقائد الشيعة ومعارفهم، ونختار فى المقام رسائل موجزة، من المتقدمين: صنّف الشيخ الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١) رساله موجزة فى عقائد الإمامية، قال: اعلم ان اعتقادنا فى التوحيد، أن الله تعالى واحد، أحد، ليس كمثلته شىء، قديم لم يزل ولا- يزال، سميعاً بصيراً، عليمًا حكيمًا، حيًا قيومًا، عزيزاً قَدُوسًا، عالماً قادراً، غنيًا، لا يوصف بجوهر ولا جسم ولا صورة ولا- عرض - إلى أن قال: - وأنه تعالى متعال عن جميع صفات خلقه، خارج عن الحدّين، حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه،

١ . التوحيد: باب التوحيد والتشبيه ٨١ رقم الحديث ٣٧ .

(٢٥١)

وأنة تعالى شىء لا كالأشياء، أحد صمد لم يلد فيورث، ولم يولد فيشارك، ولم يكن له كفواً أحد، ولا ند ولا ضد، ولا شبه ولا صاحبه، ولا مثل ولا نظير ولا شريك له، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا الأوهام وهو يدركها، لا تأخذه سنة ولا نوم وهو اللطيف الخبير، خالق كل شىء لا إله إلا هو، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . ومن قال بالتشبيه فهو مشرك، ومن نسب إلى الإمامية غير ما وصف في التوحيد فهو كاذب، وكل خبر يخالف ما ذكرت في التوحيد فهو موضوع مخترع، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو باطل، وإن وجد في كتب علمائنا فهو مدلس... ثم إنه قدس الله سره ذكر الصفات الخبرية في الكتاب العزيز وفسرها، وبين حداً خاصاً لصفات الذات وصفات الأفعال، وما هو معتقد الإمامية في أفعال العباد، وأنه بين الجبر والتفويض، كما ذكر عقائدهم في القضاء والقدر، والفطرة والاستطاعة إلى غير ذلك من المباحث الهامة، التي تشكل العمود الفقري للمعارف الإلهية. حتى أنه قال: اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس ١١٤ سورة، وعندنا أن الضحى والانشراح سورة واحدة، كما أن الإيلاف والفيل سورة واحدة. ومن نسب إلينا أننا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب... إلى آخر الرسالة (١) . ثم إن الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣) قد شرح تلك الرسالة بكتاب أسماه شرح عقائد الصدوق، أو تصحيح الاعتقاد ناقش فيها أستاذه الصدوق في بعض المواضع التي

١ . لاحظ رسالة الصدوق في الاعتقادات، وقد طبعت غير مرّة، وعليها شروح وتعليق العلماء منهم العلامة المجلسي .

(٢٥٢)

استند فيها الصدوق على روايات غير جامعة للشرائط في باب العقائد (١) . ٤- ما أملاه هو أيضاً على جماعة في المجلس الثالث والتسعون، وجاء فيه: واجتمع في هذا اليوم إلى الشيخ الفقيه أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه أهل مجلسه والمشايخ، فسألوه أن يملئ عليهم وصف دين الإمامية على الإيجاز والاختصار، فقال: دين الإمامية هو الإقرار بتوحيد الله تعالى ذكره ونفى التشبيه عنه، وتنزيهه عمياً لا- يليق، والإقرار بأنبياء الله ورسله وحججه وملائكته وكتبه، والإقرار بأن محمداً هو سيد الأنبياء والمرسلين، وأنه أفضل منهم ومن جميع الملائكة المقرّبين، وأنه خاتم النبيين فلا نبي بعده... إلى آخر ما ذكر (٢) . * * * ٥- جمل العلم والعمل للسيد الشريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦):

ألّف السيد الشريف المرتضى رسالة موجزة في العقائد أسماها جمل العلم والعمل. وفيه عقائد الشيعة على وجه الإيجاز نذكر خصوص ما يرجع إلى التوحيد فعلى القارئ الكريم مطالعة نفس الرسالة ونقتطف ما يلي: بيان ما يجب اعتقاده في أبواب التوحيد: الأجسام محدثة لأنها لم تسبق الحوادث، فلها حكمها في الحدوث، ولا بدّ لها من محدث، لحاجة كل محدث في حدوثه إلى محدث كالصناعة والكتابة. ولا بدّ من كونه (تعالى) قادراً لتعدّد الفعل على من لم يكن قادراً وتيسره على

١ . طبع الكتاب مع كتاب أوائل المقالات للشيخ المفيد في تبريز عام ١٣٧١ .

٢ . الأمل للشيخ الصدوق - أملاه يوم الجمعة الثاني عشر من شعبان سنة ٣٦٨ - لاحظ ٥٠٩ طبع بيروت . (٢٥٣)

من كان كذلك . ولا بدّ من كون محدثها عالماً لأنّ الإحكام ظاهر في كثير من العالم، والمحكم لا يقع إلا من عالم . ولا بدّ من كونه موجوداً، لأنّ له تعلقاً من حيث كان قادراً عالماً، وهذا الضرب من التعلق لا يصحّ إلا مع الوجود . ويجب كونه قديماً، لانتهاء الحوادث إليه . ويجب كونه حيّاً، وإلا لم يصحّ كونه قادراً، عالماً، فضلاً عن وجوبه. ويجب أن يكون مدرّكاً إذا وجدت المدرّكات، لاقتضاء كونه حيّاً. ذلك، وواجب كونه سميعاً بصيراً، لأنه ممّن يجب أن يدرك المدرّكات إذا وجدت، وهذه فائدة قولنا سميع بصير . ومن صفاته - وإن كانتا عن علمه - كونه تعالى مريداً وكارهاً لأنّه تعالى، قد أمر وأخبر ونهى، ولا يكون الأمر والخبر، أمراً ولا خبراً إلا

بالإرادة. والنهي لا يكون نهياً إلا بالكراهة. ولا يجوز أن يستحق هاتين الصفتين لنفسه، لوجوب كونه مريداً، كارهاً للشئ الواحد، على الوجه الواحد. ولا لعلمه قديمه، لما سنبتل به الصفات القديمة. ولا لعلمه محدثه في غير حي لا فتقار الإرادة إلى تنبيهه. ولا لعلمه موجودة في حي، لوجوب رجوع حكمها إلى ذلك الحي. فلم يبق إلا- أن توجد لا- في محل. ولا يجوز أن يكون له في نفسه صفة زائدة على ما ذكرناه لأنه لا- حكم لها معقول. وإثبات ما لا حكم له معقول من الصفات، يفضي إلى الجهالات. ويجب أن يكون قادراً فيما لم يزل، لأنه لو تجدد له ذلك لم يكن إلا لقدرة (٢٥٤)

محدثه، ولا يمكن اسناد احداثها إلا إليه، فيؤدى إلى تعلق كونه قادراً بكونه محدثاً، وكونه محدثاً بكونه قادراً. وثبوت كونه قادراً فيما لم يزل، يقتضى أن يكون فيما لم يزل حياً موجوداً. ويجب أن يكون عالمياً فيما لم يزل لأن تجدد كونه عالمياً، يقتضى أن يكون بحدوث علم، والعلم لا يقع إلا ممن هو عالم. ووجوب هذه الصفات، لم تدل على أنها نفسية، وادعاء وجوبها لمعان قديمه، تبطل صفات النفس. ولأن الاشتراك في القدم، يوجب التماثل والمشاركة في سائر الصفات. ولا يجوز خروجه تعالى عن هذه الصفات لإسنادها إلى النفس. ويجب كونه تعالى غيباً غير محتاج، لأن الحاجة تقتضى أن يكون ممن ينتفع ويستضر وتؤدى إلى كونه جسمياً. لا يجوز كونه تعالى (متصفاً) (١) بصفة الجواهر والأجسام والاعراض لقدمه وحدوث هذه أجمع، ولأنه فاعل الأجسام. والجسم يتعدر عليه فعل الجسم. ولا- يجوز عليه تعالى الرؤية لأنه كان يجب مع ارتفاع الموانع وصحة أبصارنا أن تراه. ولمثل ذلك يعلم أنه لا يدرك بسائر الحواس. ويجب أن يكون تعالى واحداً لا ثانى له في القدم، لأن إثبات ثان يؤدى إلى إثبات ذاتين لا حكم لهما يزيد على حكم الذات الواحدة ويؤدى أيضاً إلى تعدد الفعل على القادر من غير جهة منع معقول. وإذا بطل قديم ثان بطل قول الثنوية

١. أضفناها من عندنا لاقتضاء السياق.

(٢٥٥)

والنصارى والمجوس... إلى آخرها (١). ٦- البيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان للكراچكى «ت ٤٤٩»:

كتب الإمام أبو الفتح الشيخ محمد بن علي الكراچكى الطرابلسي رسالة موجزة في عقائد الإمامية وأسمائها «البيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان». قال: سألت يا أخي أسعدك الله بألطافه، وأيدك باحسانه واسعافه، أن اثبت لك جملاً من اعتقادات الشيعة المؤمنين، وفصولاً في المذهب يكون عليها بناء المسترشدين لتذاكر نفسك بها، وتجعلها عدّة لطالبيها، وأنا أختصر لك القول وأجمله، وأقرب الذكر وأسهله وأورده على سنن الفتيا في المقالة، من غير حجة ولا دلالة، وما توفيقى إلا بالله. في توحيد سبحانه:

إعلم أن الواجب على المكلف: أن يعتقد حدوث العالم بأسره، وأنه لم يكن شيئاً قبل وجوده، ويعتقد أن الله تعالى هو محدث جميعه، من أجسامه، واعراضه، إلا أفعال العباد الواقعة منهم، فإنهم محدثوها دونه سبحانه. ويعتقد أن الله قديم وحده، لا قديم سواه، وأنه موجود لم يزل، وباق لا- يزال، وأنه شئ لا- كالأشياء. لا- شبه الموجودات، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات وإن له صفات يستحقها لنفسه لا لمعان غيره، وهي كونه حياً، عالمياً،

١. جمل العلم والعمل قسم العقائد، الطبعة الثانية تحقيق رشيد الصفار، طبعة النجف طالع الرسالة بأجمعها، نعم رأيه في اعجاز القرآن من القول بالصرف رأى شخصي له ولا يمثل رأى جمهور الامامية وفيها وراء النصوص، آراء كلامية.

(٢٥٦)

قديمياً، باقياً، لا يجوز خروجه عن هذه الصفات إلى ضدها، يعلم الكائنات قبل كونها، ولا يخفى عليه شئ منها. في عدله سبحانه: وإن له صفات أفعال، لا- يصح اضافتها إليه في الحقيقة، إلا بعد فعله، وهي ما وصف به نفسه من أنه خالق، ورازق، ومعط، وراحم، ومالك، ومتكلم، ونحو ذلك. وإن له صفات مجازات وهي ما وصف به نفسه، من أنه يريد، ويكره، ويرضى، ويغضب. فارادته لفعل هي الفعل المراد بعينه، وارانته لفعل غيره هي الأمر بذلك الفعل، وليس تسميتها بالارادة حقيقة، وإنما هو على مجاز اللغة، وغضبه هو

وجود عقابه، ورضاه هو وجود ثوابه، وأنه لا يفتقر إلى مكان، ولا يدرك بشيء من الحواس . وأنه منزّه من القبائح، لا يظلم الناس وإن كان قادراً على الظلم، لأنه عالم بقبحه، غنى عن فعله، قوله صدق، ووعدته حق، لا يكلف خلقه على ما لا يستطيع، ولا يحرمهم صلاحاً لهم فيه الانتفاع، ولا- يأمر بما لا- يريد، ولا- ينهى عمياً يريد. وأنه خلق الخلق لمصلحتهم، وكلفهم لأجل منازل منفعتهم، وأزاح في التكليف عنهم، وفعل أصلح الأشياء بهم. وأنه أقدرهم قبل التكليف، وأوجد لهم العقل والتمييز . وأن القدرة تصلح أن يفعل بها وضده بدلا منه. وأن الحق الذي يجب معرفته، يدرك بشيئين، وهما العقل والسمع، وأن التكليف العقلي لا- ينفك عن التكليف السمعي. وأن الله تعالى قد أوجد (للناس) في كل زمان مسمعاً (لهم) من أنبيائه، وحججه بينه وبين الخلق، يتبهم على طريق الاستدلال في العقليات ويفقههم على ما لا يعلمونه إلا به من السمعيات. وأن جميع حجج الله تعالى محيطون (٢٥٧)

علماء بجميع ما يفتقر إليهم في العباد. وأنهم معصومون من الخطأ والزلل عصمة اختيار. وأن الله فضّلهم على خلقه، وجعلهم خلفاء القائمين بحقه. وأنه أظهر على أيديهم المعجزات، تصديقا لهم فيما ادّعوه من الأنبياء والاعخبار. وأنهم - مع ذلك - بأجمعهم عباد مخلوقون، بشر مكلفون، يأكلون ويشربون، ويتناسلون، ويحيون بإحيائه، ويموتون بإماتته، تجوز عليهم الآلام المعترضات فمنهم من قتل، ومنهم من مات، لا يقدر على خلق، ولا رزق، ولا يعلمون الغيب إلا ما أعلمهم إله الخلق. وأن أقوالهم صدق، وجميع ما أتوا به حق . في النبوة العامة والخاصة:

وأن أفضل الأنبياء أولوا العزم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، وأن محمداً بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أفضل الأنبياء أجمعين، وخير الأولين والآخرين. وأنه خاتم النبيين وأن آباءه من آدم - عليه السلام - إلى عبد الله بن عبدالمطلب - رضوان الله عليهم - كانوا جميعاً مؤمنين، وموحّدين لله تعالى عارفين، وكذلك أبوطالب - رضوان الله عليه - . ويعتقد أن الله سبحانه شرف نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - بباهر الآيات، وقاهر المعجزات، فسبح في كفه الحصاء، ونبع من بين أصابعه الماء، وغير ذلك ممّا قد تضمّنته الأنبياء، وأجمع على صحّته العلماء، وأتى بالقرآن المبين، الذي بهر به السامعين، وعجز من الاثيان بمثله سائر الملحدين . وأن القرآن كلام ربّ العالمين، وأنه محدث ليس بقديم. ويجب أن يعتقد أن جميع ما فيه من الآيات الذي يتضمّن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه، وأنه يجبرهم على طاعته أو معصيته، أو يضل بعضهم عن طريق هدايته، فإن ذلك كلّه لا يجوز حمله على ظاهرها، وأن له تأويلا، يلائم ما تشهد به العقول ممّا قدّمنا ذكره في (٢٥٨)

صفات الله تعالى، وصفات أنبيائه . فإن عرف المكلف تأويل هذه الآيات فحسن، وإلا أجزأ أن يعتقد في الجملة أنها متشابهات، وأن لها تأويلا- ملائماً، يشهد بما تشهد به العقول والآيات المحكمات، وفي القرآن المحكم والمتشابه، والحقيقة والمجاز، والناسخ والمنسوخ والخاص والعام . ويجب عليه أن يقر بملائكة الله أجمعين، وأن منهم جبرئيل وميكائيل، وأنهما من الملائكة الكرام، كالأنبياء بين الأنام، وأن جبرئيل هو الروح الأمين، الذي نزل بالقرآن على قلب محمد خاتم النبيين، وهو الذي كان يأتيه بالوحي من ربّ العالمين . ويجب الاقرار بأنّ شريعة الإسلام التي أتى بها محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ناسخة لما خالفها من شرائع الأنبياء المتقدمين . وأنه يجب التمسك بها والعمل بما تضمّنته من فرائضها، وأن ذلك دين الله الثابت الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا- حلال إلا- ما أحلت، ولا حرام إلا ما حرّمت، ولا فرض إلا ما فرضت، ولا عبادة إلا ما أوجبت. وأن من انصرف عن الاسم، وتمسك بغيره، كافر ضال، مخلف في النار، ولو بذل من الاجتهاد في العبادة غاية المستطاع . وأن من أظهر الاقرار بالشهادتين كان مسلماً، ومن صدق بقلبه، ولم يشك في فرض أتى به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - كان مؤمناً. ومن الشرائط الواجبة للإيمان، العمل بالفرائض اللازمة، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن . وقوله تعالى: (٢٥٩) (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (١) .

إنما أراد به الإسلام الصحيح التام، الذي يكون المسلم فيه عارفاً، مؤمناً، عالماً بالواجبات طائعاً . في الإمامة والخلافة: ويجب أن يعتقد أن حجج الله تعالى بعد رسوله الذين هم خلفاؤه، وحفظه شرعه، وأئمة أمته، اثنا عشر أهل بيته، أولهم أخوه وابن عمه، وصهره بعل فاطمة الزهراء ابنته، ووصيه على أمته: علي بن ابي طالب أميرالمؤمنين، ثم الحسن بن علي الزكي، ثم الحسين بن

على الشهيد، ثم على بن الحسين زين العابدين، ثم محمّد بن علي باقر العلوم، ثم جعفر بن محمّد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم على بن موسى الرضا، ثم محمّد بن علي التقى، ثم على بن محمّد المنتجب، ثم الحسن بن علي الهادي، ثم الخلف الصالح بن الحسن المهدي - صلوات الله عليهم أجمعين - . لا إمامة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا لهم - عليهم السلام - ولا يجوز الاقتداء في الدين إلا بهم، ولا أخذ معالم الدين إلا عنهم . وأنهم في كمال العلم والعصمة من الآثار نظير الأنبياء - عليهم السلام - . وأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . وأن إمامتهم منصوص عليها من قبل الله على اليقين والبيان . وأنه سبحانه أظهر على أيديهم الآيات، وأعلمهم كثيراً من الغائبات، والأمر المستقبليات، ولم يعطهم من ذلك إلا ما قارن وجهاً يعلمه من اللطف

١ . آل عمران / ١٩ .

(٢٦٠)

والصلاح . وليسوا عارفين بجميع الضمائر والغائبات على الدوام، ولا يحيطون بالعلم بكل ما علمه الله تعالى . والآيات التي تظهر على أيديهم هي فعل الله دونهم، أكرمهم بها، ولا صنع لهم فيها . وأنهم بشر محدثون، وعباد مصنوعون، لا يخلقون، ولا يرزقون، ويأكلون ويشربون، وتكون لهم الأزواج، وتناهم الآلام والاعلال، ويستضامون، يخافون فيتقون، وأن منهم من قتل، ومنهم من قبض . وأن إمام هذا الزمان هو المهدي ابن الحسن الهادي، وأنه الحجّة على العالمين، وخاتم الأئمة الطاهرين، لا إمامة لأحد بعد إمامته، ولا دولة بعد دولته، وأنه غائب عن رعيته، غيبة اضطرار وخوف من أهل الضلال، وللمعلوم عند الله تعالى في ذلك الصلاح . ويجوز أن يعرف نفسه في زمن الغيبة لبعض الناس، وأن الله عزّ وجلّ سيظهره وقت مشيئته، ويجعل له الأعوان والأصحاب، فيمهد الدين به، (و) يظهر الأرض على يديه، ويهلك أهل الضلال، ويقوم عمود الإسلام ويصير الدين كله لله . وأن الله عزّ وجلّ يظهر على يديه عند ظهوره، الأعلام، وتأتيه المعجزات بخرق العادات، ويحيى له بعض الأموات، فإذا (أ) قام في الناس المدّة المعلومه عند الله سبحانه قبضه إليه، ثم لا يمتد بعده الزمان، ولا تتصل الأيام حتى تكون شرائط الساعة، واماتة من بقى من الناس، ثم يكون المعاد بعد ذلك . ويعتقد أن أفضل الأئمة - عليهم السلام - أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأنه لا يجوز أن يسمّى بأمر المؤمنين أحد سواه . وأن بقيّة الأئمة - صلوات الله عليهم - يقال لهم: الأئمة، والخلفاء، (٢٦١)

والأوصياء، والحجج، وإن كانوا في الحقيقة أمراء المؤمنين، فإنهم لم يمنعوا من هذا الاسم لأجل معناه، لأنّه حاصل لهم على الاستحقاق، وإنما منعوا من لفظه، حشمةً لأمر المؤمنين - عليه السلام - . وأن أفضل الأئمة بعد أمير المؤمنين، ولده الحسن، ثم الحسين، وأفضل الباقيين بعد الحسين، إمام الزمان المهدي - صلوات الله عليه - ثم بقيّة الأئمة بعده على ما جاء به الأثر وثبت في النظر . وأن المهدي - عليه السلام - هو الذي قال فيه رسول الله: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله تعالى ذلك اليوم، حتى يظهر فيه رجل من ولدي يواطئ اسمه اسمي، يملأها عدلاً، وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً» (١) . فاسمه يواطئ اسم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكنيته تواطئ كنيته، غير أن النهي قد ورد عن اللفظ، فلا يجوز أن يتجاوز في القول أنه المهدي، والمنتظر، والقائم بالحق، والخلف الصالح، وإمام الزمان، وحجّة الله على الخلق . ويجب أن يعتقد أن الله فرض معرفة الأئمة - عليهم السلام - بأجمعهم، وطاعتهم، ومواليتهم والاقتداء بهم، والبراءة من أعدائهم وظالمهم... وأنه لا يتم الايمان إلا بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، وأن أعداء الأئمة - عليهم السلام -

١ . روى هذا الحديث وأمثاله ابن خلدون في المقدمة في الفصل الثاني والخمسين عن الترمذي، وأبي داود باختلاف بعض ألفاظه، وروى حوالى اثنين وثلاثين حديثاً، وقال في ص ٣١١ من المقدمة:

«إن جماعة من الأئمة خرجوا أحاديث المهدي، منهم: الترمذي، وأبوداود، والبخاري، وابن ماجه، والحاكم، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، واسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي، وابن عباس، وابن عمر، وطلحة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأنس، وأبي سعيد

الخدري، وأم حبيبة، وأم سلمة، وثوبان، وقرة بن اياس، وعلى الهلالي». (٢٦٢)

كفار ملحدون في النار، وإن أظهروا الإسلام، فمن عرف الله ورسوله والأئمة الاثني عشر وتولاهم وتبرأ من أعدائهم فهو مؤمن، ومن أنكرهم أو تولّى أعداءهم فهو ضال هالك لا ينفعه عمل ولا اجتهاد، ولا تقبل له طاعة ولا تصح له حسنات... (١). في التوبة والحشر والنشر:

ويعتقد أن الله يزيد وينقص إذا شاء في الأرزاق والآجال. وأنه لم يرزق العبد إلا ما كان حلالاً طيباً. ويعتقد أن باب التوبة مفتوح لمن طلبها، وهي الندم على ما مضى من المعصية، والعزم على ترك المعادة إلى مثلها. وأن التوبة ماحية لما قبلها من المعصية التي تاب العبد منها. وتجاوز التوبة من زلّة، إذا كان النائب مقيماً على زلّة غيرها لا تشبهها، ويكون له الأجر على التوبة، وعليه وزر ما هو مقيم عليه من الزلّة. وأن الله يقبل التوبة بفضله وكرمه، وليس ذلك لوجوب قبولها في العقل قبل الوعد، وإنما علم بالسمع دون غيره. ويجب أن يعتقد أن الله سبحانه، يميت العباد ويحييهم بعد الممات ليوم المعاد. وأن المحاسبة حق والقصاص، وكذلك الجنة والنار والعقاب. وأن مرتكبي المعاصي من العارفين بالله ورسوله، والأئمة الطاهرين، المعتقدين لتحرّيمها مع ارتكابها، المسوّفين التوبة منها، عصاة فساق، وأن ذلك

١. مكان النقاط كلمات غير واضحة.

(٢٦٣)

لا يسلبهم اسم الايمان كما لم يسلبهم اسم الاسلام (١). وأنهم يستحقون العقاب على معاصيهم، والثواب على معرفتهم بالله تعالى، ورسوله، والأئمة من بعده - صلى الله عليه وآله وسلم - . وما بعد ذلك من طاعتهم، وأمرهم مردود إلى خالقهم، وإن عفا عنهم بفضله ورحمته، وإن عاقبهم فبعده وحكمته، قال الله سبحانه: (وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرٍ اللَّهُ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) (٢).

وأن عقوبة هؤلاء العصاة إذا شاءها الله تعالى، لا تكون مؤبّدة، ولها آخر، يكون بعده دخولهم الجنة وليسوا من جملة من توجه إليهم الوعيد بالتخليد. والعفو من الله تعالى يرجى للعصاة المؤمنين. وقد غلظت المعتزلة فسّمت من يرجو العفو مرجئاً، وإنما يجب أن يسمّى راجياً، ولا طريق إلى القطع على العفو، وإنما هو الرجاء فقط. ويعتقد أن لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والأئمة من بعده - عليهم السلام - شفاعه مقبولة يوم القيامة، ترجى للمؤمنين من مرتكبي الآثام. ولا يجوز أن يقطع الإنسان على أنه مشفوع فيه على كل حال، ولا سبيل له إلى العلم بحقيقته هذه الحال، وإنما يجب أن يكون المؤمن واقفاً بين الخوف والرجاء. ويعتقد أن المؤمنين الذين مضوا من الدنيا وهم غير عاصين، يؤمر بهم يوم

١. صرّح بهذا المفيد أستاذ المؤلف في كتابه أوائل المقالات ص ٤٨ ونسبه إلى اتفاق الإمامية، أما الخوارج فتسمّى مرتكب الكبيرة مشركاً وكافراً، والحسن البصري أستاذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، سمّاهم منافقين، وأما واصل بن عطاء فوضعهم في منزلة بين منزلتين، وقال إنهم فساق ليسوا بمؤمنين، ولا كفار، ولا منافقين.

٢. التوبة / ١٠٦. (٢٦٤)

القيامة إلى الجنة بغير حساب. وأن جميع الكفار والمشركين، ومن لم تصح له الأصول من المؤمنين يؤمر بهم يوم القيامة إلى الجحيم بغير حساب، وإنما يحاسب من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم العارفون بالعصاة. وأن أنبياء الله تعالى وحججه - عليهم السلام - هم في القيامة المسؤولون للحساب باذن الله تعالى، وأن حجّة أهل كل زمان يتولّى أمر رعيته الذين كانوا في وقته. وأن سيّدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والأئمة الاثنا عشر من بعده - عليهم السلام - هم أصحاب الأعراف وهم الذين لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ويدخل النار من أنكرهم وأنكروه. وأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يحاسب أهل وقته وعصره، وكذلك كل إمام بعده. وأن المهدي - عليه السلام - هو المواقف لأهل زمانه، والمسائل للذين في وقته. وأن الموازين (التي) توضع في القيامة، هي إقامة العدل في الحساب، والانصاف في الحكم والمجازاة، وليست في الحقيقة موازين بكفات وخيوط كما يظن العوام. وأن الصراط

المستقيم في الدنيا دين محمد وآل محمد - عليه وعليهم السلام - وهو في الآخرة طريق الجنان . وأن الأطفال والمجانين والبله من الناس، يتفضل عليهم في القيامة، بأن تكمل عقولهم، ويدخلون الجنان . وأن نعيم أهل الجنة متصل أبداً بغير نفاذ، وأن عذاب المشركين والكفار (٢٦٥)

متصل في النار بغير نفاذ . ويجب أن يؤخذ معالم الدين في الغيبة من أدلة العقل، وكتاب الله عزوجل، والأخبار المتواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعن الأئمة - عليهم السلام - (١) وما أجمعت عليه الطائفة الإمامية، واجماعها حجة . فأما عند ظهور الإمام - عليه السلام - فإنه المفزع عند المشكلات، وهو المتبني على العقلية، والمعرف بالسمعيات، كما كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . ولا يجوز استخراج الأحكام في السمعيات بقياس ولا اجتهاد (٢) . فأما العقلية فيدخلها القياس والاجتهاد، ويجب على العاقل مع هذا كله ألا يقنع بالتقليد في الاعتقاد وأن يسلك طريق التأمل والاعتبار، ولا يكون نظره لنفسه في دينه أقل من نظره لنفسه في دنياه، فإنه في أمور الدنيا يحتاط ويحترز، ويفكر ويتأمل، ويعتبر بذهنه، ويستدل بعقله، فيجب أن يكون في أمر دينه على أضعاف هذه الحال، فالغرر في أمر الدين أعظم من الغرر في أمر الدنيا .

١ . ما ذكره هو رأى جماعة من علماء الإمامية، كالشريف المرتضى، وابن زهرة، وابن البراج، والطبرسي، وابن إدريس وغيرهم، فقد ذهب هؤلاء إلى عدم اعتبار الخبر الواحد إذا لم يكن مقطوع الصدور عن المعصوم وخصوا اعتباره بما إذا كان قطعي الصدور، سواء أكان محتقناً بقريته عقلية أو نقلية أخرى، فالمهم لدى هؤلاء في اعتبار الخبر أن يفضى إلى العلم، ولو كان ذلك لاجماع أو شاهد عقلي، بل صرح المفيد في أوائل المقالات بأنه لا يجب العمل بخبر الواحد .

أما المشهور بين الإمامية بل المجمع عليه بين المتأخرين منهم فاعتبار الخبر الواحد لقيام الدليل على حجتيه، ولكل من الفريقين أدلة على دعواه مذكورة في كتب الأصول .

٢ . المراد بالاجتهاد هنا ليس هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وإنما المراد به الاعتماد على الرأى والاستحسان والقياس، من دون الرجوع إلى القواعد والأصول التي ثبتت حجيتها شرعاً . (٢٦٦)

فيجب أن لا يعتقد في العقلية إلا ما صح عنه حقه، ولا يسلم في السمعيات إلا لمن ثبت له صدقه . نسأل الله حسن التوفيق برحمته، وألا يحرمنا ثواب المجتهدين في طاعته . قد اثبت لك يا أخى - أيديك الله - ما سألت، اقتصرت وما أطلت . والذي ذكرت أصل لما تركت، والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم (١) . * * * ٧- العقائد الجعفرية تأليف الشيخ الطوسي «٣٨٥ - ٤٦٠»:

الشيخ الطوسي، هو شيخ الطائفة على الاطلاق تلميذ المفيد والمرضى وقد ورد بغداد عام ٤٠٨ وحضر في أندية دروس أستاذه المفيد، فلما لبى الأستاذ دعوة ربه حضر لدى المرتضى إلى أن اشتغل بالتدريس والافتاء في عصره وبعده، وله رسائل وكتب كلامية مفعمه بالتحقيق، نأتى في المقام بموجز ما دونه في عقائد الشيعة في خمسين مسألة . بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلوة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وآله المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وجعل كل واحد منهم على الخلق بعد الرسول أميراً . قال الإمام شيخ الطائفة أبو جعفر محمد الطوسي: _____

١ . أدرج المصنف الرسالة في كتابه القيم: كنز الفوائد لاحظ ٢٤٠ - ٢٥٢ .

(٢٦٧)

«المسألة ١» معرفة الله واجبه على كل مكلف، بدليل أنه منعم، فيجب معرفته . «المسألة ٢» الله تعالى موجود، بدليل أنه صنع العالم، وأعطاه الوجود، وكل من كان كذلك فهو موجود . «المسألة ٣» الله تعالى واجب الوجود لذاته، بمعنى أنه لا يفتقر في وجوده إلى غيره، ولا يجوز عليه العدم، بدليل أنه لو كان ممكناً لا فتقر إلى صانع، كافتقار هذا العالم، وذلك محال على المنعم المعبود . «المسألة ٤» الله تعالى قديم أزلي، بمعنى أن وجوده لم يسبقه العدم . باق أبدي، بمعنى أن وجوده لن يلحقه العدم . «المسألة ٥» الله تعالى قادر مختار، بمعنى أنه إن شاء أن يفعل فعل، وإن شاء أن يترك ترك، بدليل أنه صنع العالم في وقت دون آخر . «المسألة ٦» الله تعالى

قادر على كل مقدور، وعالم بكل معلوم، بدليل أن نسبة جميع المقدورات والمعلومات إلى ذاته المقدسة المتزّهة على السوية، فاختصاص قدرته تعالى وعلمه ببعض دون بعض ترجيح بلا مرجح، وهو محال. «المسألة ٧» الله تعالى عالم، بمعنى أن الأشياء منكشفة واضحة له، حاضرة عنده غير غائبة عنه، بدليل أنه تعالى فعل الأفعال المحكّمة المتقنة، وكل من فعل ذلك فهو عالم بالضرورة. «المسألة ٨» الله تعالى يدرك لا بجارحة، بل معنى أنه يعلم ما يدرك بالحواس، لأنه منزّه عن الجسم ولوازمه، بدليل قول تعالى: (لا تُدْرِكُهُ) (٢٦٨) الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (١) فمعنى قوله تعالى: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (٢) أنه عالم بالمسموعات لا بأذن، وبالمبصرات لا بعين.

«المسألة ٩» الله تعالى حي، بمعنى أنه يصحّ منه أن يقدر ويعلم. بدليل أنه ثبت له القدرة والعلم وكل من ثبت له ذلك فهو حي بالضرورة. «المسألة ١٠» الله تعالى متكلم لا بجارحة، بل معنى أنه أوجد الكلام في جرم من الأجرام، أو جسم من الأجسام، لا يصال عظمته إلى الخلق، بدليل قوله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (٣) ولأنه قادر، فالكلام ممكن. «المسألة ١١» الله تعالى صادق، بمعنى أنه لا يقول إلا الحق الواقع، بدليل أن كل كذب قبيح، والله تعالى منزّه عن القبيح. «المسألة ١٢» الله تعالى مريد، بمعنى أنه رجح الفعل إذا علم المصلحة (يعنى أنه غير مضطر وأن ارادته غير واقعة تحت ارادة أخرى، بل هي الارادة العليا التي إن رأى صلاحاً فعل، وإن رأى فساداً لم يفعل، باختيار منه تعالى) بدليل أنه ترك ايجاد بعض الموجودات في وقت دون وقت، مع علمه وقدرته - على كل حال - بالسوية. ولأنه نهى وهو يدل على الكراهة. «المسألة ١٣» الله تعالى واحد، بمعنى أنه لا شريك له في الالهية، بدليل قوله (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (٤) ولأنه لو كان له شريك لوقع التمانع، ففسد النظام، كما قال: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (٥).

١. الأنعام / ١٠٣ .

٢. الإسراء / ١، غافر / ٥٦ .

٣. النساء / ١٦٤ .

٤. الإخلاص / ١ .

٥. الأنبياء / ٢٢ . (٢٦٩)

«المسألة ١٤» الله تعالى غير مركب من شيء، بدليل أنه لو كان مركباً لكان مفتقراً إلى الأجزاء، والمفتقر ممكن. «المسألة ١٥» الله تعالى ليس بجسم، ولا عرض، ولا جوهر، بدليل أنه لو كان أحد هذه الأشياء لكان ممكناً مفتقراً إلى صانع، وهو محال. «المسألة ١٦» الله تعالى ليس بمزني بحاسة البصر في الدنيا والآخرة، بدليل أنه تعالى مجرّد، ولأن كل مرئي لابد أن يكون له الجسم والجهة، والله تعالى منزّه عنهما ولأنه تعالى قال: (لَنْ تَرَانِي) (١) وقال: (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) (٢). «المسألة ١٧» الله تعالى ليس محلاً للحوادث، وإلا لكان حادثاً، وحدوثه محال. «المسألة ١٨» الله تعالى لا يتّصف بالحلول، بدليل أنه يلزم قيام الواجب بالممكن وذلك محال. «المسألة ١٩» الله تعالى لا يتّحد بغيره، لأنّ الاتحاد صيرورة الشيء واحداً من غير زياده ونقصان، وذلك محال، والله لا يتّصف بالمحال. «المسألة ٢٠» الله تعالى منفي عنه المعاني والصفات الزائدة، بمعنى أنه ليس عالماً بالعلم، ولا قادراً بالقدرة (بل علم كلّ، وقدرة كلّها)، بدليل أنه لو كان كذلك لزم كونه محلاً للحوادث لو كانت حادثه، وتعدّد القدماء لو كانت قديمة، وهما محالان، وأيضاً لزم افتقار الواجب إلى صفاته المغايرة له، فيصير ممكناً وهو ممتنع. «المسألة ٢١» الله تعالى غني، بمعنى أنه غير محتاج إلى ما عداه،

١. الأعراف / ١٤٣ .

٢. الأنعام / ١٠٣ . (٢٧٠)

والدليل عليه أنه واجب الوجود لذاته، فلا يكون مفتقراً. «المسألة ٢٢» الله تعالى ليس في جهة، ولا مكان، بدليل أن كل ما في الجهة

والمكان مفتقر إليهما، وأيضاً قد ثبت أنه تعالى ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، فلا يكون في المكان والجهة . «المسألة ٢٣» الله تعالى ليس له ولد، ولا صاحبة، بدليل أنه قد ثبت عدم افتقاره إلى غيره، ولأن كل ما سواه تعالى ممكن، فكيف يصير الممكن واجباً بالذات، ولقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (١) و (مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) (٢) . «المسألة ٢٤» الله تعالى عدل حكيم، بمعنى أنه لا يفعل قبيحاً ولا يخل بالواجب بدليل أن فعل القبيح قبيح، والاخلال بالواجب نقص عليه، فالله تعالى منزّه عن كل قبيح واخلال بالواجب . «المسألة ٢٥» الرضا بالقضاء والقدر واجب، وكل ما كان أو يكون فهو بالقضاء والقدر ولا يلزم بهما الجبر والظلم، لأنّ القدر والقضاء هاهنا بمعنى العلم والبيان، والمعنى أنه تعالى يعلم كل ما هو (كائن أو يكون) (٣) . «المسألة ٢٦» كل ما فعله الله تعالى فهو أصلح، وإلا لزم العبث، وليس تعالى بعبث، لقوله: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا) (٤) . «المسألة ٢٧» اللطف على الله واجب، لأنه خلق الخلق، وجعل فيهم الشهوة، فلو لم يفعل اللطف لزم الاغراء، وذلك قبيح، (والله لا يفعل القبيح) _____

١ . الشورى / ١١ .

٢ . آل عمران / ٥٩ .

٣ . الاضافة منّا لإكمال العبارة .

٤ . المؤمنون / ١١٥ . (٢٧١)

فاللطف هو نصب الأدلّة، واكمال العقل، وارسال الرسل في زمانهم، وبعد انقطاعهم ابقاء الإمام، لئلا ينقطع خيط غرضه . «المسألة ٢٨» نبينا «محمّد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف» رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حقاً صدقاً. بدليل أنه ادعى النبوة، وأظهر المعجزات على يده، فثبت أنه رسول حقاً، وأكبر المعجزات «القرآن الحميد» والفرقان المجيد الفارق بين الحق والباطل، باق إلى يوم القيامة، حجّة على كافّة النسمة . ووجه كونه معجزاً: فرط فصاحته وبلاغته، بحيث ما تمكّن أحد من أهل الفصاحة والبلاغة حيث تحدّوا به، أن يأتوا ولو بسورة صغيرة، أو آية تامّة مثله. «المسألة ٢٩» كان نبينا نبياً على نفسه قبل البعثة، وبعده رسولا إلى كافّة النسمة لأنّه قال «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وإلا لزم تفضيل المفضول، وهو قبيح . «المسألة ٣٠» جميع الأنبياء كانوا معصومين، مطهّرين عن العيوب والذنوب كلّها، وعن السهو والنسيان في الأفعال والأقوال، من أوّل الأعمار إلى اللحد، بدليل أنّهم لو فعلوا المعصية أو يطرأ عليهم السهو لسقط محلّهم من القلوب، فارتفع الوثوق والاعتماد على أقوالهم وأفعالهم، فتبطل فائدة النبوة، فما ورد في الكتاب (القرآن) فيهم فهو واجب التأويل . «المسألة ٣١» يجب أن يكون الأنبياء أعلم وأفضل أهل زمانهم، لأنّ تفضيل المفضول قبيح . «المسألة ٣٢» نبينا خاتم النبيين والمرسلين، بمعنى أنه لانبى بعده إلى يوم القيامة، يقول تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ (٢٧٢) وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (١) .

«المسألة ٣٣» نبينا أشرف الأنبياء والمرسلين، لأنه ثبتت نبوته، وأخبر بأفضليته فهو أفضل، لما قال لفاطمة - عليها السلام - : «أبوك خير الأنبياء، وبعلك خير الأوصياء، وأنت سيده نساء العالمين، وولدك الحسن والحسين - عليهما السلام - سيّد شباب أهل الجنّة، وأبوهما خير منهما» (٢) . «المسألة ٣٤» معراج الرسول بالجسم العنصرى علانية، غير منام، حق، والأخبار عليه بالتواتر ناطقة، صريحة، فمنكره خارج عن الإسلام وأنه مر بالأفلاك من أبوابها من دون حاجة إلى الخرق والالتيام، وهذه الشبهة الواهية مدفوعة مسطورة بمحالها . «المسألة ٣٥» دين نبينا ناسخ للأديان السابقة، لأنّ المصالح تبدل حسب الزمان والأشخاص كما تبدل المعاجلات لمريض بحسب تبدل المزاج والمرض . «المسألة ٣٦» الإمام بعد نبينا على بن أبي طالب - عليه السلام - بدليل قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «يا على أنت أخى ووارث علمى وأنت الخليفة من بعدى، وأنت قاضى دينى، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى» (٣) . وقوله: «سَلِّمُوا عَلَى عَلَى بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، واسمعوا له وأطيعوا له، وتعلّموا منه ولا تعلّموا» (٤)، وقوله: «من كنت مولاه فهذا على مولاه اللهم وال من والاه وعاد من _____

١ . الأحزاب / ٤٠ .

٢ . راجع ينابيع المودة ٤٣٤ - ٤٣٦ .

٣ . راجع صحيح مسلم ٧ / ١٢٠ - ١٢١ ، باب فضائل علي - عليه السلام - ، وصحيح البخاري ٥ / ١٩ باب مناقب علي - عليه السلام - و ٣ / ٦ باب غزوة تبوك ، ومسند أحمد ١ / ١٧٤ - ١٧٧ و ٣ / ٣٢ ، و ٦ / ٣٦٩ .

٤ . راجع البحار ٣٧ / ٢٩٠ - ٣٤٠ . (٢٧٣)

عاداه» (١) . «المسألة ٣٧» الأئمة بعد علي - عليهم السلام - أحد عشر من ذريته، الأول منهم ولده الحسن، ثم الحسين، ثم علي بن الحسين، ثم محمّد بن علي، ثم جعفر بن محمّد الصادق، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمّد بن علي، ثم علي بن محمّد، ثم الحسن بن علي، ثم الخلف الحجة القائم المهدي الهادي بن الحسن صاحب الزمان فكلمهم أئمة الناس واحد بعد واحد، حقاً، بدليل أن كل إمام منهم نصّ علي من بعده نصّاً متواتراً بالخلافة، وقوله: «الحسين إمام، ابن إمام، أخو الامام، ابو الأئمة التسعة، تاسعهم قائمهم، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» . «المسألة ٣٨» يجب أن يكون الأئمة معصومين مطهرين من الذنوب كلّها، صغيرة وكبيرة، عمداء وسهواً، ومن السهو في الأفعال والأقوال، بدليل أنّهم لو فعلوا المعصية لسقط محلهم من القلوب، وارتفع الوثوق، وكيف يهدون بالضالين المضلّين، ولا معصوم غير الأئمة الاثنى عشر اجمعاً، فثبت إمامتهم . «المسألة ٣٩» يجب أن يكون الأئمة أفضل وأعلم، ولو لم يكونوا كذلك للزم تفضيل المفضول، أو الترجيح بلا مرجح، ولا يحصل الانقياد به، وذلك قبيح عقلاً ونقلاً، وفضل أئمتنا وعلمهم مشهور، بل أفضليتهم أظهر من الشمس وأبين من الأمس . «المسألة ٤٠» يجب أن نعتقد أن آباء نبينا وأئمتنا مسلمون أبداً، بل أكثرهم كانوا أوصياء، فالأخبار عند أهل البيت على إسلام أبي طالب مقطوعة

١ . راجع مسند أحمد ١ / ٨٤ - ١٥٢ و ٤ / ٢٨١ و ٣٧٠ و ٣٧٢ و ٥ / ٣٦٦ - ٤١٩ ، سنن الترمذي ٥ / ٦٣٣ .

(٢٧٤)

وسيرته أدلّة عليه، ومثله مؤمن آل فرعون . «المسألة ٤١» الإمام المهدي المنتظر محمّد بن الحسن قد تولّد في زمان أبيه، وهو غائب حتى باق إلى بقاء الدنيا، لأنّ كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم، لما انعقد عليه اجماع الأئمة على أنّه لا يخلو زمان من حجة ظاهرة مشهورة، أو خافية مستورة، ولأنّ اللطف في كل زمان واجب، والإمام لطف، فوجوده واجب . «المسألة ٤٢» لا استبعاد في طول عمره، لأنّ غيره من الأمم السابقة قد عاش ثلاثة آلاف سنة فصاعداً، كشعيب ونوح ولقمان وخضر وعيسى - عليهم السلام - وابليس والدجال، ولأنّ الأمر ممكن، والله قادر على جميع الممكنات . «المسألة ٤٣» غيبة المهدي لا تكون من قبل نفسه، لأنّه معصوم، فلا يخل بواجب، ولا من قبل الله تعالى، لأنّه عدل حكيم فلا يفعل القبيح، لأنّ الإخفاء عن الأنظار وحرمان العباد عن الافادات قبيحان. فغيبته لكثرة العدو والكافر، ولقلّة الناصر . «المسألة ٤٤» لا بد من ظهور المهدي، بدليل قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لو لم يبق من الدنيا إلا ساعة واحدة لطول الله تلك الساعة حتى يخرج رجل من ذريتي، اسمه اسمي وكنيته كنيته يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» (١). ويجب على كل مخلوق متابعته . «المسألة ٤٥» في غيبة الامام فائدة، كما تنير الشمس تحت السحاب، والمشكاة من وراء الحجاب .

١ . راجع سنن أبي داود ٤ / ١٠٦ - ١٠٧ ، كنز العمال ١٤ / ٢٦٤ - ٢٦٧ .

(٢٧٥)

«المسألة ٤٦» يرجع نبينا وأئمتنا المعصومون في زمان المهدي مع جماعة من الأمم السابقة واللاحقة، لظهور دولتهم وحقهم، وبه قطعت المتواترات من الروايات والآيات لقوله تعالى: (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا) (١) فالاعتقاد به واجب . «المسألة ٤٧» إنّ الله يعيد الأجسام الفانية كما هي في الدنيا، ليوصل كل حق إلى المستحقين، وذلك أمر ممكن، والأنبياء أخبروا به، لا سيّما القرآن المجيد مشحون به ولا مجال للتأويل، فالاعتقاد بالمعاد الجسماني واجب . «المسألة ٤٨» كل ما أخبر به النبي أو الإمام فاعتقاده واجب، كما أخبرهم عن نبوة الأنبياء السابقين، والكتب المنزلة، ووجود الملائكة، وأحوال القبر وعذابه، وثوابه وسؤال منكر ونكير، والاحياء فيه،

وأحوال القيامة وأهوالها، والنشور، والحساب والميزان، والصراط، وانطاق الجوارح، ووجود الجنة والنار والحوض الذي يسقى منه أمير المؤمنين العطاشى يوم القيامة، وشفاعة النبي والأئمة لأهل الكبائر من محبيه إلى غير ذلك، بدليل أنه أخبر بذلك المعصومون . «المسألة ٤٩» التوبة - وهي الندم على القبيح في الماضي، والترك في الحال، والعزم على عدم المعادة إليه في الاستقبال - واجبة، لدلالة السمع على وجوبها، ولأن دفع الضرر واجب عقلا . «المسألة ٥٠» الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجبان، بشرط تجويز التأثير والأمن من الضرر (٢). * * *

١ . النمل / ٨٣ . أصل الرجعة اجماعى والكيفية الواردة في المتن ليست كذلك .
٢ . طبعت الرسالة مع جواهر الفقه للقاضى ابن البراج وفي ضمن الرسائل العشر للشيخ الطوسى - قدس سره - . (٢٧٦) ماهو الهدف من نقل هذه الرسائل:

١- إن هذه الرسائل لدليل واضح على أن جل عقائد الشيعة، مأخوذة من الكتاب والسنة وكلمات أئمتهم، وأن الشيعة كانت في أواخر القرن الثانى ذات عقائد منتظمة ومستوعبة لجميع ما يرتبط بالمعارف الإلهية فترى أن ما كتبه الإمام الرضا، وما عرضه السيد عبدالعظيم الحسنى على الإمام الهادى، هو السائد في هذه الرسائل . ٢- يوجد في ثانيا هذه الرسائل آراء خاصة لمؤلفيها، ربما يقع فيها النقاش والجدال والخلاف مع غيرهم من علماء الشيعة، فليس كل ما جاء فيها عقيدة لجميع علماء الشيعة ومؤلفيهم ولكن المجموع من حيث المجموع تمثل عقائد الشيعة في مجال صفاته سبحانه وأفعاله، وما يرجع إلى النبوة والإمامة، والحياة الأخروية، خصوصاً فيما يرجع إلى الاعتقاد بمقامات الأئمة وصفاتهم. فمن يريد أن يتعرف على عقائد الشيعة فليرجع إليها بدل الرجوع إلى الكتب المؤلفة من قبل أعدائهم وخصمائهم . ٣- إن الإمعان في الأصول التي جاءت في هذه الكتب والرسائل يعرب عن موافقة الشيعة في أكثر المسائل العقائدية لعامة المسلمين. وربما يختلفون عنهم في أصول تختص بمجال الإمامة والقيادة بعد الرسول. وبما أن الأشاعرة والمعتزلة كانتا تمثلان جمهور المسلمين في العصور المتقدمة. نذكر في المقام الفوارق الجوهرية بين الشيعة والمعتزلة أولاً، وبين الشيعة والأشاعرة ثانياً، ثم نكمل البحث عن الفوارق الموجودة بينهم وبين سائر الفرق الإسلامية . الفوارق بين الشيعة والمعتزلة:

إن هناك فوارق بين الطائفتين ربما أشبعنا الكلام فيها في الجزء الرابع من هذه (٢٧٧)

الموسوعة، وذكرنا بأن من يتهم الشيعة بأنهم أخذوا عقائدهم من المعتزلة فهو خاطيء، فنشير في المقام إلى هذه الفوارق على وجه الاجمال، وإن كانت بين الطائفتين أصول مشتركة ربما تقف عليها عند بيان الفوارق بين الشيعة والأشاعرة. ١- الشفاعة: أجمع المسلمون كافة على ثبوت أصل الشفاعة وأنها تقبل من الرسول الأكرم واختلفوا في تعيين المشفع، فقالت الإمامية والأشاعرة: إن النبي يشفع لأهل الكبائر باسقاط العقاب عنهم أو باخراجهم من النار، وقالت المعتزلة، لا يشفع إلا للمطيعين، المستحقين للثواب وتكون نتيجة الشفاعة ترفيع الدرجة. ٢- مرتكب الكبيرة: عند الامامية والأشاعرة مؤمن فاسق، وقالت المعتزلة: بل منزلة بين المنزلتين . ٣- الجنة والنار: قالت الإمامية والأشاعرة أنهما مخلوقتان الآن بدلالة الشرع على ذلك، وأكثر المعتزلة على أنهما غير موجودتين . ٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اتفق المسلمون على وجوبهما، فقالت الإمامية والأشاعرة: يجبان سمعاً، ولولا النص لم يكن دليل على الوجوب، خلافاً للمعتزلة الذين قالوا بوجوبهما عقلا . ٥- الأحباط: اتفقت الإمامية والأشاعرة على بطلان الاحباط، وقالوا: لكل عمل حسابه الخاص، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصى ولا المعاصى بالطاعات، والاحباط يختص بذنوب خاصة كالشرك وما يتلوه، بخلاف المعتزلة حيث قالوا: إن المعصية المتأخرة تسقط الثواب المتقدم، فمن عيّد الله طول عمره ثم كذب فهو كمن لم يعبد الله أبداً . ٦- الشرع والعقل: غالت المعتزلة في تسميهم بالعقل وغال أهل الظاهر في جمودهم على ظاهر النص وخالفهما الإمامية والأشاعرة، فأعطوا للعقل سهماً فيما (٢٧٨)

له مجال القضاء نعم أعطت الإمامية للعقل مجالاً أوسع مما أعطته الأشاعرة. وسيوافيك تفصيله عند ذكر اختلاف الإمامية مع الأشاعرة . ٧- اتفقت الإمامية والأشاعرة على أن قبول التوبة بفضل من الله ولا يجب عقلا اسقاطها للعقاب. وقالت المعتزلة: إن التوبة مسقطه

للعقاب على وجه الوجوب . ٨- اتفقت الإمامية على أن الأنبياء افضل من الملائكة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك . ٩- اتفقت الإمامية على أن الإنسان غير مسير ولا مفوض إليه، بل هو في ذلك المجال بين أمرين، بين الجبر والتفويض، وأجمعت المعتزلة على التفويض . ١٠- اتفقت الامامية والأشاعرة أنه لا بد في أول التكليف وابتدائه من رسول، وخالفت المعتزلة وزعموا أن العقول تعمل بمجردا عن السمع (١) . هذه هي الأصول التي خالفت الإمامية فيها المعتزلة ووافقت الأشاعرة، وهناك أصول أخرى تجد فيها موافقة الإمامية للمعتزلة ومخالفتها للأشاعرة، وإليك بعضها: الفوارق بين الإمامية والأشاعرة:

هناك أصول خالفت الإمامية فيها، الأشاعرة، مخالفة بالدليل والبرهان وتبعاً لأئمتهم، ونذكر المهم منها: ١- اتحاد الصفات الذاتية مع الذات: إن لله سبحانه صفاتاً ذاتية كالعلم

١ . لاحظ للوقوف على هذه الأصول التي خالفت الامامية والأشاعرة فيها المعتزلة الجزء الرابع من هذه الموسوعة ص ١٨٠ تجد فيه الفوارق الأخر لم نذكرها اختصاراً .

(٢٧٩)

والقدرة فهي عند الأشاعرة صفات قديمة مغايرة للذات زائدة عليها، وهي عند الإمامية والمعتزلة متحدة مع الذات. وقد ذكرنا مضاعفات القول بالزيادة في الجزء الثاني من هذه الموسوعة . ٢- الصفات الخبرية الواردة في الكتاب والسنة، كالوجه والأيدى والاستواء وأمثالها، فالشيعة الإمامية يؤولونها تأويلاً مقبولاً لا تأويلاً مرفوضاً، أى تأخذ بالمفهوم التصديقي للجمله، لا بالمفهوم التصوري للمفردات، فيقولون إن معنى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) (١) معناه: أنه برىء من البخل، بل هو باذل وسخي، وقادر على البذل. وأمياً الأشاعرة فهم يفسرونها بالمفهوم التصوري ويقولون إن لله سبحانه يدين غير أنهم يتهربون عن التجسيم والتشبيه بقولهم: بلا كيف، وقد أوضحنا مضاعفات هذا القول عند البحث عن عقائدهم في الجزء الثاني . ٣- أفعال العباد عند الامامية صادرة من نفس العباد، صدوراً حقيقياً بلا مجاز أو توسع، فالإنسان هو الضارب، هو الآكل، هو القاتل، هو المصلّي، هو القارئ وهكذا، وقد قلنا: إن استعمال كلمة «الخلق» في أفعال الإنسان، استعمال غير صحيح فلا يقال: خلقت الأكل والضرب والصوم والصلوة، وإنما يقال: فعلتها فالصحيح أن يقال: إن الإنسان هو الفاعل لأفعاله بقدرة مكتسبة من الله، وإن قدرته المكتسبة هي المؤثرة باذن من الله سبحانه . وأمياً الأشاعرة فذهبوا إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، فليس للإنسان فيها صنع ولا دور، وليس لقدرة أى تأثير فى تحقق الفعل، وأقصى ما عندهم أن إرادة الإنسان للعقل تقارن ايجاد الله سبحانه فعله فى عالم التكوين والوجود .

١ . المائدة / ٦٤ .

(٢٨٠)

ولمّا رأى الشيخ الأشعري وأتباعه أن ذلك عبارة عن نفس القول بالجبر، واقصاء الإنسان عن أفعاله، وبالتالي براءته من مسؤوليتها، ابتدعوا نظرية الكسب المعقدة فقالوا: إن الله هو الخالق والإنسان هو الكاسب، وقد ذكرنا أن نظرية الكسب من الألباز التي لم يفهما مخترعوها . ٤- إن الاستطاعة فى الإنسان على فعل من الأفعال تقارنه تارة، وتتقدم عليه أخرى. فلو أريد من القدرة العلة التامة فهي مقارنه، ولو أريد العلة الناقصة فهي متقدمة خلافاً للأشاعرة، فقد قالوا بالتقارن مطلقاً . ٥- رؤية الله بالأبصار فى الآخرة، فهي مستحيلة عند الإمامية والمعتزلة، ممكنة عند الأشاعرة . ٦- كلامه سبحانه عند الامامية هو فعله، فهو حادث لا قديم، وهذا خلافاً للأشاعرة: فكلامه عبارة عن الكلام النفسى القائم بذاته، فهو قديم كقدم الذات . ٧- التحسين والتقييح العقليان، ذهبت الامامية إلى أن العقل يدرك حسن بعض الأفعال أو قبحها، بمعنى أن نفس الفعل من أى فاعل صدر، سواء أكان الفاعل قديماً أو حادثاً، واجباً أو ممكناً، يتصف بأحدهما فيرى مقابلة الإحسان بالإحسان أمراً حسناً، ومقابله بالاساءة أمراً قبيحاً، ويتلقاه حكماً مطلقاً سائداً على مَرّ الحقب والأزمان، لا يغيّره شىء، وهذا خلافاً للأشاعرة، فقد عزلوا العقل عن إدراك الحسن والقبيح وبذلك خالفوا الامامية والمعتزلة فى الفروع المترتبة عليه (١) . هذه هي الأصول التي تخالف الامامية فيها الأشاعرة وربما توافقهم المعتزلة فى جميعها أو أكثرها. كل ذلك

يثبت أن للشيعة الامامية منهجاً كلامياً خاصاً نابعاً من _____

١ . لاحظ للوقوف على هذه الأصول المترتبة على القول بالتحسين والتقيح العقليين الجزء الثاني من هذه الموسوعة ٢٨٩ - ٢٩٢ .
(٢٨١)

الكتاب والسنة، وكلمات العترة الطاهرة والعقل فيما له مجال القضاء وليست الشيعة متطفلة في منهجها الكلامي على أية من الطائفتين. وأنت إذا وقفت على الكتب الكلامية المؤلفة في العصور المتقدمة من عصر الفضل بن شاذان (ت ٢٦٠) إلى عصر شيخنا الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) ومن بعده بقليل، تجد منهجاً كلامياً مبرهنًا مترنًا واضحاً لا تعقيد فيه ولا غموض، وعلى تلك الأصول وذلك المنهج درج علماءهم المتأخرون في الأجيال التالية، فألف الشيخ الحلبي (٣٧٤ - ٤٤٧) «تقريب المعارف» والشيخ سديد الدين الحمصي (ت ٦٠٠) كتابه «المنقذ من التقليد» وتوالى بعدهم التأليف على يد الفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢) ومعاصره ابن ميثم البحراني (ت ٥٨٩) وتلميذه العلامة الحلبي (٦٤٨ - ٧٢٦) وهكذا... كل ذلك يكشف عن أن الأئمة طرخوا أصول العقائد، وغدوا أصحابهم وتلاميذهم بمعارف سامية، أعتبر الحجر الأساس للمنهج الكلامي الشيعي، وتكامل المنهج من خلال الجدل الكلامي والنقاش العلمي في الظروف المتأخرة فوصل إلى الذروة والقمة فالناظر في الكتب الكلامية للسيد الشريف المرتضى ك «الشافعي» (١) و «الذخيرة» (٢) يجد منبعاً غنياً بالبحوث الكلامية كما أن الناظر في كتب العلامة الحلبي المختلفة ك «كشف المراد» (٣) و «نهاية المرام» (٤) وغيرهما يقف على أفكار سامية أنضجها البحث والنقاش عبر القرون، فبلغت غايتها القصوى . وقد توالى التأليف في عقائد الشيعة وأصولهم من العصور الأولى إلى يومنا هذا، ولا يحصيها إلا محصى قطرات المطر وذرات الرمال . _____

١ . المطبوع في بيروت في أربعة أجزاء .

٢ . المطبوع في إيران في جزأين .

٣ . الكتاب الدراسي في الجامعات الشيعية .

٤ . مخطوط نحتفظ منها بنسخة وهي في يد التحقيق . (٢٨٢)

هذا وإن الشيعة وإن خالفوا في هذه الأصول طائفة من الطوائف الإسلامية ووافقوا طوائف أخرى، ولكن هناك أصول اتفق الجميع فيها دون استثناء، وهو ظاهر لمن قرأ ما أثبتناه من الرسائل والكتيبات . أفما آن للمسلمين أن يتحدوا في ظلال هذه الأصول المؤلفة لقلوبهم، ويتظلموا بظلالها، ويتمسكوا بالعروة الوثقى، ويكون شعارهم: أنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، وأن لا يصغوا إلى النعرات المفترقة، المفترية على الشيعة وأئمتهم، وليكن شعارنا في التأليف: التحقيق والتأكد من عقائد الآخرين، ثم التدوين . الفوارق بين الشيعة وسائر الفرق:

إذا تعرّف على الفوارق الموجودة بين الشيعة وبعض طوائف المسلمين، فهلمّ معي إلى الفوارق الجوهرية بينهم وبين سائر الطوائف التي صيرتهم إلى فرقتين متميزتين، وأكثرها يرجع إلى مسألة القيادة والخلافة بعد الرسول الأكرم، فنأخذ بالبحث عنها على وجه الإجمال: (٢٨٣) المسألة الأولى: وجوب تنصيب الإمام على الله سبحانه

اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب نصب الامام، سوى العجاردة من الخوارج، ومعهم حاتم الأصم أحد شيوخ المعتزلة (٢٣٧) (١) فذهب المسلمون إلى وجوب نصب الإمام، إمّا على الله سبحانه كما عليه الشيعة، وإمّا على الأمة كما عليه غيرهم، فوجوب نصب الامام لا خلاف فيه بين المسلمين، وإنما الكلام في تعيين من يجب عليه ذلك . وليس المراد من وجوبه على الله سبحانه، هو إصدار الحكم من العباد على الله سبحانه، حتى يقال (إن الحكم إلا لله) (٢) بل المراد كما ذكرنا غير مرّة، أن العقل _____

١ . ادّعت العجاردة بأن الواجب على الأمة التعاون والتعاقد لإحياء الحق وإماتة الباطل، ومع قيام الأمة بهذا الواجب لا يبقى للإمام فائدة تستدعي تسلطه على العباد، أمّا إذا اختلفت الأمة ولم تتعاون على نشر العدل وإحقاق الحق فيجب عليها تعيين من يقوم بهذه المهمات، وعلى ذلك فالإمامة لا تجب بالشرع ولا بالعقل، وإنما تجب للمصلحة أحياناً، وقد تعرّف على عقيدة الخوارج في

الموضوع في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

٢ . يوسف / ٤٠ . (٢٨٤)

حسب التعرّف على صفاته سبحانه، من كونه حكيماً غير عابث، يكشف عن كون مقتضى الحكمة هو لزوم النصب أو عدمه، وإلا فالعباد أقصر من أن يكونوا حاكمين على الله سبحانه . ثم إن اختلافهم في كون النصب فرضاً على الله أو على الأمة، ينجم عن اختلافهم في حقيقة الخلافة والامامة عن رسول الله . فمن ينظر إلى الامام كرئيس دولة ليس له وظيفة إلا تأمين الطرق والسبل، وتوفير الأرزاق، واجراء الحدود، والجهاد في سبيل الله، إلى غير ذلك مما يقوم به رؤساء الدول باشكالها المختلفة، فقد قال بوجوب نصبه على الأمة، إذ لا يشترط فيه من المواصفات إلا الكفاءة والمقدرة على تدبير الأمور وهذا ما يمكن أن تقوم به الأمة الإسلامية، وأما على القول بأن الإمامة استمرار لوظائف الرسالة (لا لنفس الرسالة فإن الرسالة والنبوة مختومتان بالتحاق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى) فمن المعلوم إن تقلد هذا المقام يتوقف على توفر صلاحيات عالية لا ينالها الفرد إلا إذا حظى بعناية إلهية خاصة فيخلف النبي في علمه بالأصول والفروع، وفي سد جميع الفراغات الحاصلة بموته، ومن المعلوم أنه لا تتعرف عليه الأمة إلا عن طريق الرسول، ولا يتوفر وجوده إلا بتربية غيبية . فقد ظهر من ذلك ان كون القيادة الإسلامية بعد النبي بيد الله أو بيد الأمة، أو ان التعيين هل هو واجب عليه سبحانه أو عليهم، ينجم عن الاختلاف في ماهية الخلافة . فمن جعلها سياسة زمنية وقتية يشغلها فرد من الأمة بأحد الطرق، قال في حقه: «لا ينخلع الامام بنفسه وظلمه بغصب الأموال وضرب الابشار، وتناول النفوس المحرمة، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب (٢٨٥)

وعظه وتخويفه، وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله» (١) . فمن قال: بأن الإمام بعد الرسول أشبه برئيس الدولة والوزراء، تنتخبه الأمة الإسلامية قال في حقه: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاء أمورنا وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافة. والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين، برّهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، ولا يبطلهما شيء ولا ينقضهما» (٢) . وقد درج على هذه الفكرة متكلمو السنة ومحدثوهم، حتى قال التفتازاني: «ولا ينزل الامام بالفسق، أو بالخروج عن طاعة الله تعالى، والجور (الظلم على عباد الله) لأنه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسلف كانوا يتقادون لهم، ويقيمون الجمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم، ونقل عن كتب الشافعية: ان القاضي ينزل بالفسق بخلاف الامام، والفرق ان في انزاله ووجوب نصب غيره اثاره الفتنة، لما له من الشوكة، بخلاف القاضي» (٣) . ومن فسر الامامة بأنها عبارة عن إمرة إلهية واستمرار لوظائف النبوة كلها سوى تحمّل الوحي الإلهي، فلا مناص له عن القول: بوجوب نصبه على الله سبحانه .

١ . التمهيدي للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣): ١٨١ .

٢ . العقيدة الطحاوية ٣٧٩ - ٣٨٧ .

٣ . شرح العقائد النسفية: وهي لأبي حفص عمرو بن محمد النسفي (ت ٥٧٣) والشرح لسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩١): ١٨٥ - ١٨٦، ولاحظ في هذا المجال مقالات الاسلاميين للأشعري: ٣٢٣، وأصول الدين لمحمد بن عبدالكريم البزدوي إمام الماتريدي: ١٩٠ . (٢٨٦)

وقد استدلت الامامية على وجوب نصب الامام على الله سبحانه: بأن وجود الامام الذي اختاره الله سبحانه، مقرب من الطاعات، ومبعد عن المعاصي وقد أوضحوه في كتبهم الكلامية. والمراد من اللطف المقرب هنا ما عرفت من أن رحلة النبي الأكرم تترك فراغات هائلة بين الأمة في مجال العقيدة والشريعة، كما تترك جدالا ونزاعاً عنيفاً بين الأمة في تعيين الامام. فالواجب على الله سبحانه من باب اللطف هو سدّ هذه الفراغات بنصب من هو صنو النبي الأكرم في علمه بالعقيدة والشريعة، وفي العدالة والعصمة، والتدبير والحنكة، وحسم مادة النزاع المشتعل برحلة الرسول، ولمّ شعث الأمة، وجمعهم على خط واحد . والعجب ان المعتزلة ممن تقول:

بوجوب اللطف والأصلح على الله سبحانه، ولكنهم لم يلتزموا بها في المقام، مع العلم بأن المورد من جزئياته، والذى منعهم عن الالتزام بالقاعدة في المقام بأنهم لو قالوا بها في هذه المسألة لزمهم أن يقولوا بعدم صحة خلافة الخلفاء المتقدمين على علي، لأن قاعدة اللطف تقتضى أن يكون الخليفة منصوصاً عليه من الله سبحانه. ثم إنك تعرّف على أن الرسول الأكرم بوحى من الله سبحانه، قام بتطبيق القاعدة، ونصب إماماً للأمة، ليقود أمرهم ويسد جميع الفراغات الحاصلة بلحوقه بالرفيق الأعلى، وبذلك حسم مادة النزاع، وقطع الطريق على المشاغبين، ولكنّه - وللأسف - تناست الأمة وصية الرسول وأمره، فانقسموا إلى طوائف وأحزاب، وقامت بينهم المعارك والحروب التي أريقت فيها الدماء واستبيحت الأعراض، وتبدلت المفاهيم، واختلفت القيم، وما زال ولم تزل معاناة الأمة من هذا الانشقاق، وأصبح التقريب فضلاً عن الوحدة أمراً متعسراً على المفكرين، نسأل الله سبحانه أن يسد تلك الفجوة العميقة بايقاظ شعور علماء الأمة ومصلحيهم في المستقبل. (٢٨٧) المسألة الثانية: عصمة الإمام

تفرّدت الامامية من بين الفرق الإسلامية بوجود عصمة الامام من الذنب والخطأ، مع اتفاق غيرم على عدمه. قال الشيخ المفيد: إن الأئمة معصومون كعصمة الأنبياء، ولا تجوز عليهم صغيرة إلا ما قدم ذكر جوازه على الأنبياء، ولا تجوز عليهم صغيرة إلا ما قدم ذكر جوازه على الأنبياء، ولا ينسون شيئاً من الأحكام، ولا يدخل في مفهوم العصمة سلب القدرة عن المعاصي، ولا كون المعصوم مضطراً إلى فعل الطاعات، فإن ذلك يستدعى بطلان الثواب والعقاب، هذه هي عقيدة الامامية في الامامة، وقد استدّلوا عليه بوجوه من العقل والسمع. أمّا العقل فقالوا: إن الامام منفذ لما جاء به الرسول، وحافظ للشرع، وقائم بمهام الرسول كلّها، فلو جاز عليه الخطأ والكذب، لا يحصل الغرض من إمامته. (٢٨٨) حقيقة العصمة:

العصمة قوة تمنع صاحبها من الوقوع في المعصية والخطأ، حيث لا يترك واجباً، ولا يفعل محرماً مع قدرته على الترك والفعل، وإلا لم يستحق مدحاً ولا ثواباً، وإن شئت قلت: إن المعصوم قد بلغ من التقوى حداً لا تتغلب عليه الشهوات والأهواء، وبلغ من العلم في الشريعة وأحكامها مرتبة لا يخطأ معها أبداً. وليست العصمة شيئاً ابتدعتها الشيعة، وإنما دلّهم عليها في حق العترة الطاهرة، كتاب الله وسنة رسوله. قال سبحانه: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) (١) وليس المراد من الرجس إلا الرجس المعنوي وأظهره هو الفسق. وقال الرسول: «على مع الحق والحق مع عليّ يدور معه كيفما دار» (٢) ومن دار معه الحق كيفما دار، محال أن يعصى أو أن يخطأ، وقول الرسول في حق العترة: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، ما إن تمسّ بكم بهما لن تضلّوا أبداً» (٣) فإذا كانت العترة عدل القرآن تصبح معصومة كالكتاب، لا يخالف أحدهما الآخر، وليس القول بعصمة العترة بأعظم من القول بكون الصحابة كلّهم عدول. وليس للقول بالعصمة في حق العترة منشأ سوى الكتاب والسنة، وسيوافيك بعض دلائلهم. نعم شدّ من قال إن عقيدة العصمة تسرّبت إلى الشيعة من الفرس الذين نشأوا

١. الأحزاب / ٣٣.

٢. حديث مستفيض، رواه الخطيب في تاريخه ١٤ / ٣٢١ والهيتمي في مجمعه ٧ / ٢٣٦ وغيرهما.

٣. حديث متواتر أخرجه مسلم في صحيحه، والدارمي في فضائل القرآن وأحمد في مسنده ٢ / ١١٤ وغيرهم. (٢٨٩)

على تقدّيس الحاكم، لهذا أطلق عليها العرب النزعة الكسروية، ولا أعرف أحداً من العرب قال ذلك في حدود اطلاعي، ولعلّ غالبية الشيعة كانت ترمي من وراء هذه الفكرة إلى تنزيه علي من الخطأ حتى يتّضح للملأ عدوان بني أمية في اغتصاب الخلافة. هذا وفي اليهودية كثير من المذاهب التي تسرّبت إلى الشيعة (١). هب أنّ عصمة الامام تسرّبت إلى الشيعة من الطريق الذي أشار إليه الكاتب فمن أين تسرّبت عصمة النبي التي يقول بها أهل السنة جميعاً في التبليغ وبيان الشريعة، فهل هذه الفكرة تسرّبت إلى أهل السنة من اليهود. لا والله إنّها عقيدة اسلامية واقتبسها القوم من الكتاب والسنة من دون أخذ من اليهود والفرس، فما ذكره الكاتب تحرّص على الغيب، بل فريضة واضحة. إنّ الاختلاف في لزوم توصيف الامام وعدمه، ينشأ من الاختلاف في تفسير الامامة بعد الرسول وماهيتها وحقيقتها فمن تلقى الامامة - بعد الرسول - بأنها مقام عرفى لتأمين السبل، وتعمير البلاد واجراء الحدود، فشأنه شأن سائر الحكام

العرفيين. وأما من رأى الامامة بأنها استمرار لتحقيق وظيفة الرسالة وأن الامام ليس بنبي ولا يوحى إليه، لكنه مكلف بملاء الفراغات الحاصلة برحلة النبي، فلا محيص له عن الالتزام بها، لأن الغاية المنشودة لا تحصل بلا تسديد إلهي كما سيوافيك، نعم إن أهل السنة يتحرّجون من توصيف الامام بالعصمة ويتخيّلون أن ذلك يلزم النبوة وما هذا إلا- أنهم لا- يفزقون بين الإمامتين ولكل معطياته والتفصيل موكول إلى محله .

١ . الدكتور نبيه حجاب: مظاهر الشعبوية في الأدب العربي ٤٩٢، كما في هوية التشيع ١٦٦ .

(٢٩٠) الدليل على لزوم عصمة الامام بعد النبي:

استدل على لزوم العصمة في الامام بوجوه نأتى بها. الأول: ان الامامة إذا كانت استمراراً لوظيفة النبوة والرسالة، وكان الامام يملأ جميع الفراغات الحاصلة جُزاء رحلة النبي الأكرم، فلا مناص من لزوم عصمته، وذلك لأن تجويز المعصية يتنافى مع الغاية التي لأجلها نصبه الله سبحانه إماماً للأمة، فإن الغاية هي هداية الأمة إلى الطريق المهيع، ولا يحصل ذلك إلا بالوثوق بقوله، والاطمئنان بصحة كلامه، فاذا جاز على الامام الخطأ والنسيان، والمعصية والخلاف، لم يحصل الوثوق بأفعاله وأقواله، وضعفت ثقة الناس به، فتنفى الغاية من نصبه، وهذا نفس الدليل الذي استدل به المتكلمون على عصمة الأنبياء، والامام وإن لم يكن رسولا ولا نبياً ولكنه قائم بوظائفهما .

نعم لو كنت وظيفة الامام مقتصرة بتأمين السبل وغزو العدو والانتصاف للمظلوم وما أشبه ذلك، لكفى فيه كونه رجلاً عادلاً قائماً بالوظائف الدينية، وأما إذا كانت وظيفته أوسع من ذلك كما هو الحال في مورد النبي، فكون الامام عادلاً قائماً بالوظائف الدينية، غير كاف في تحقيق الهدف المنشود من نصب الامام . فقد كان النبي الأكرم يفسر القرآن الكريم ويشرح مقاصده وأهدافه ويبين أسرارها . كما كان يجب على الأسئلة في مجال الموضوعات المستحدثة وكان يردّ على الشبهات والتشكيكات التي كان يلقيها أعداء الإسلام . وكان يصون الدين من محاولات التحريف والتغيير . وكان يربّي المسلمين ويهدّ بهم ويدفعهم نحو التكامل . فالفراغات الحاصلة برحلة النبي الأكرم لا تسدّ إلا بوجود انسان مثالي تقوم (٢٩١)

بتلك الواجبات وهو فرع كونه معصوماً عن الخطأ والعصيان (١) . الثاني: قوله سبحانه: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (٢) .

والاستدلال مبنى على دعامين: ١- إن الله سبحانه أمر بطاعة أولى الأمر على وجه الاطلاق، إى فى جميع الأزمنة والأمكنة، وفى جميع الحالات والخصوصيات، ولم يقيّد وجوب امتثال أوامرهم ونواهيهم بشيء كما هو مقتضى الآية . ٢- إن من البديهي أنه سبحانه لا يرضى لعباده الكفر والعصيان (ولا يرضى لعباده الكفر) (٣) من غير فرق بين أن يقوم به العباد ابتداءً من دون تدخل أمر أو نهى ناه، أو يقومون به بعد صدور أمر ونهى من أولى الأمر . فمقتضى الجمع بين هذين الأمرين (وجوب اطاعة أولى الأمر على وجه الاطلاق، وحرمة طاعتهم إذا أمروا بالعصيان) أن يتّصف أولى الأمر الذين وجبت اطاعتهم على وجه الاطلاق، بخصوصية ذاتية وعناية إلهية ربانية، تصدّهم عن الأمر بالمعصية والنهى عن الطاعة. وليس هذا إلا- عبارة أخرى عن كونهم معصومين، وإلا فلو كانوا غير واقعين تحت تلك العناية، لما صحّ الأمر بطاعتهم على وجه الاطلاق ولما صحّ الأمر بالطاعة بلا قيد وشرط. فتستكشف من إطلاق الأمر بالطاعة، اشتمال المتعلّق على خصوصية تصدّه عن الأمر بغير الطاعة . وممّن صرّح بدلالة الآية على العصمة الامام والرازي فى تفسيره، ويطيب لى

١ . هذا اجمال ما أوضحناه فى بحثنا الكلامية فلاحظ الإلهيات ٢ / ٥٢٨ - ٥٣٩ .

٢ . النساء / ٥٩ .

٣ . الزمر / ٧ . (٢٩٢)

أن أذكر نصّه حتّى يمعن فيه أبناء جلدته وأتباع طريقته قال: إن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم فى هذه الآية، ومن

أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع، لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير اقدمه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأ منهي عنه، فهذا يفرض إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنه محال، فثبت أن الله تعالى أمر بطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم، وثبت أن كل من أمر الله بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أن أولى الأمر المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون معصوماً (١). ولما وقف الرازي على تمامية دلالة الآية على عصمة أولى الأمر، وهي لا توافق مذهبه في الامامة حاول أن يؤول الآية بما يوافق مع أن الواجب على أمثاله، أن يتعرف على «أولى الأمر» الذي استظهر من الآية كونهم معصومين، ولكنه زلت قدمه، ولم يستغل هذه الفكرة، ولم يستثمرها، فأخذ يتهرّب من نتائج الفكرة بالقول بأننا عاجزون عن معرفة الامام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليه، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منه، فإذا كان الأمر كذلك فالمراد ليس بعضاً من أبعاض الأئمة، بل المراد هو أهل الحل والعقد من الأئمة. يلاحظ عليه: بأنه إذا دلت الآية على عصمة أولى الأمر فيجب علينا التعرف عليهم، وادعاء العجز، هروب من الحقيقة فهل العجز يختص بزمانه أو كان يشمل زمان نزول الآية، لا أظن أن يقول الرازي بالثاني فعليه أن يتعرف على المعصوم في زمان النبي وعصر نزول الآية، فبالتعرف عليهم، يعرف معصوم زمانه، حلقة بعد

١. مفاتيح الغيب ١٠ / ١٤٤.

(٢٩٣)

أخرى، ولا يعقل أن يأمر الوحي الإلهي بطاعة المعصوم ثم لا يقوم بتعريفه حين النزول، فلو آمن الرازي بدلالة الآية على عصمة أولى الأمر، لكان عليه أن يؤمن بقيام الوحي الإلهي على تعريفهم بلسان النبي الأكرم. إذ لا معنى أن يأمر الله سبحانه بطاعة المعصوم، ولا يقوم بتعريفه. ثم إن تفسير «أولى الأمر» بأهل الحل والعقد، تفسير للغامض - حسب نظر الرازي - بالأغمض إذ هو ليس بأوضح من الأول، فهل المراد منهم: العساكر والضباط، أو العلماء والمحدثون، أو الحكام والسياسيون أو الكل. وهل اتفق اجماعهم على شيء، ولم يخالفهم لغير من المسلمين. إذا كانت العصمة ثابتة للأئمة عند الرازي كما علمت، فهناك من يرى العصمة لجماعة من الأئمة كالقراء والفقهاء والمحدثين، هذا هو ابن تيمية يقول في رده على الشيعة عند قولهم: إن وجود الامام المعصوم لا بد منه بعد موت النبي يكون حافظاً للشريعة ومبيناً أحكامها خصوصاً أحكام الموضوعات المتجددة، يقول: إن أهل السنة لا يسلمون أن يكون الامام حافظاً للشرع بعد انقطاع الوحي، وذلك لأن ذلك حاصل للمجموع، والشرع إذا نقله أهل التواتر كان ذلك خيراً من نقل الواحد، فالقراء معصومون في حفظ القرآن وتبليغه، والمحدثون معصومون في حفظ الأحاديث وتبليغها، والفقهاء معصومون في الكلام والاستدلال (١). يلاحظ عليه: كيف يدعى العصمة لهذه الطوائف مع أنهم غارقين في الاختلاف في القراءة والتفسير، والحديث والأثر، والحكم والفتوى، والعقيدة والنظر، ولو أغمضنا عن ذلك فما الدليل على عصمة تلك الطوائف خصوصاً على قول القائل بأن القول بالعصمة تسرب من اليهود إلى الأوساط الإسلامية.

١. ابن تيمية: منهاج السنة كما في نظرية الامامية ١٢٠.

(٢٩٤) الثالث: قوله سبحانه: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (١).

والاستدلال بالآية على عصمة الامام، يتوقف على تحديد مفهوم الامامة الواردة في الآية والمقصود منها غير النبوة وغير الرسالة، فأما الأول فهو عبارة عن منصب تحمّل الوحي، والثاني عبارة عن منصب ابلاغه إلى الناس. والإمامة المعطاة للخليل في أخريات عمره غير هذه وتلك، لأنه كان نبياً ورسولاً وقائماً بوظائفهما طيلة سنين حتى خوطب بهذه الآية، فالمراد من الإمامة في المقام هو منصب القيادة، وتنفيذ الشريعة في المجتمع بقوة وقدرة. ويعرب عن كون المراد من الامامة في المقام هو المعنى الثالث، قوله سبحانه: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (٢). فالإمامة التي أنعم بها

الله سبحانه على الخليل وبعض ذريته، هي الملك العظيم الوارد في هذه الآية. وعلينا الفحص عن المراد بالملك العظيم، إذ عند ذلك يتضح أن مقام الامامة، وراء النبوة والرسالة، وإنما هو قيادة حكيمة، وحكومة إلهية، يبلغ المجتمع بها إلى السعادة. والله سبحانه يوضح حقيقة هذا الملك في الآيات التالية: ١- يقول سبحانه - حاكياً قول يوسف - عليه السلام -: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) (٣) ومن المعلوم أن الملك الذي من به

١. البقرة / ١٢٤ .

٢. النساء / ٥٤ .

٣. يوسف / ١٠١ . (٢٩٥)

سبحانه على عبده يوسف، ليس النبوة، بل الحاكمية حيث صار أميناً مكيناً في الأرض. فقوله: (وعلمتني من تأويل الأحاديث) إشارة إلى نبوته، والملك إشارة إلى سلطته وقدرته . ٢- ويقول سبحانه في داود - عليه السلام -: (وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ) (١) ويقول سبحانه: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ) (٢) . ٣- ويحكى الله تعالى عن سليمان أنه قال: (وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِيذٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (٣) . فملاحظة هذه الآيات يفسر لنا حقيقة الامامة، وذلك بفضل الأمور التالية: أ - إن إبراهيم طلب المامه لذريته، وقد أجاب سبحانه دعوته في بعضهم. ب - إن مجموعة من ذريته، كيوسف وداود وسليمان، نالوا - وراء النبوة والرسالة - منصب الحكومة والقيادة . ج - إنه سبحانه أعطى آل إبراهيم الكتاب، والحكمة، والملك العظيم . فمن ضم هذه الأمور بعضها إلى بعض، يخرج بهذه النتيجة: أن ملاك الإمامة في ذرية إبراهيم، هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع، وهذه هي حقيقة الامامة، غير أنها ربما تجتمع مع المقامين الآخرين، كما في الخليل، ويوسف، وداود، وسليمان، وغيرهم، وربما تنفصل عنهما كما في قوله سبحانه: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنْتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

١. البقرة / ٢٥١ .

٢. ص / ٢٠ .

٣. ص / ٣٥ . (٢٩٦) بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسِيطَةً فِي الْعِلْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١) .

والامامة التي يتبناها المسلمون بعد رحلة النبي الأكرم، تتحد واقعيتها مع هذه الامامة . ما هو المراد من الظالم:

قد تعرّف على المقصود من جعل الخليل اماماً اماماً للناس، وأن المراد هو القيادة الإلهية، وسوق الناس إلى السعادة بقوة وقدره ومنعه. بقى الكلام في تفسير الظالم الذي ليس له من الإمامة سهم، فنقول: لما خلع سبحانه ثوب الامامة على خيله، ونصبه للناس، ودعا إبراهيم أن يجعل من ذريته اماماً، أُجيب بأن الامامة منصب إلهي، لا يناله الظالمون، لأن الإمام هو المطاع بين الناس، المتصرّف في الأموال والنفوس، فيجب أن يكون على الصراط السوي، والظالم المتجاوز عن الحد لا يصلح لهذا المنصب . إن الظالم الناكث لعهد الله، والناقض لقوانينه وحدوده، على شفا جرف هار، لا يؤتمن عليه ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة، لأنه على مقربة من الخيانة والتعدي، وعلى استعداد لأن يقع أداؤه للجائرين، فكيف يصح في منطق العقل أن يكون اماماً مطاعاً، نافذ القول، مشروع التصرف. وعلى ذلك، فكل من ارتكب ظلماً وتجاوز حداً في يوم من أيام عمره، أو عبد صنماً، أو لاذ إلى وثن، وبالجملة ارتكب ما هو حرام فضلاً عما هو شرك وكفر، ينادى من فوق العرش في حقه: (لا ينال عهدي الظالمين) من غير فرق بين صلاح حالهم بعد تلك الفترة، أو البقاء على ما كانوا عليه .

١. البقرة / ٢٤٧ .

(٢٩٧)

نعم اعترض «الجصاص» على هذا الاستدلال وقال: «إن الآية إنما تشمل من كام مقيماً على الظلم وأما النائب منه فلا يتعلق به الحكم،

لأن الحكم إذا كان معلّقاً على صفة، وزالت تلك الصفة، زال الحكم. ألا ترى أن قوله: (وَلَا تَزْكُونُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) (١) إنّما ينهي عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم، فقوله تعالى: (وَلَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) لم ينف به العهد عمّن تاب عن ظلمه، لأنّه في هذه الحالة لا يسمّى ظالماً، كما لا يسمّى من تاب من الكفر كافراً (٢). يلاحظ عليه: أنّ قوله «الحكم يدور مدار وجود الموضوع» ليس ضابطاً كلياً، بل الأحكام على قسمين، قسم كذلك، وآخر يكفى فيه اتّصاف الموضوع بالوصف والعنوان آنأما، ولحظة خاصة، وإن انتفى بعد الاتّصاف، فقوله: «الخمير حرام»، أو: «في سائمة الغنم زكاة» من قبيل القسم الأوّل، وأمّا قوله: «الزاني يحد»، و «السارق يقطع» فالمراد منه أنّ الإنسان المتلبّس بالزنا أو السرقة يكون محكوماً بهما وإن زال العنوان، وتاب السارق والزاني، ومثله: «المستطيع يجب عليه الحج» فالحكم ثابت، وإن زالت عنه الاستطاعة عن تقصير لا عن قصور.

وعلى ذلك فالمدعى أنّ «الظالمين» في الآية المباركة كالسارق والسارقة والزاني والزانية والمستطيع وأمهات نسائك في الآيات الراجعة إليهم. نعم المهم في المقام، اثبات أنّ الموضوع في الآية من قبيل الثاني، وأنّ التلبس بالظلم ولو آنأما، يسلب عن الإنسان صلاحية الامامة، وإن تاب من ذنبه، فإنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أقسام أربعة: ١- من كان طيلة عمره ظالماً. —————

١. هود / ١١٣ .

٢. تفسير آيات الأحكام ١ / ٧٢ . (٢٩٨)

٢- من كان طاهراً ونقيّاً في جميع فترات عمره. ٣- من كان ظالماً في بداية عمره، وتائباً في آخره. ٤- من كان طاهراً في بداية عمره، وظالماً في آخره. عند ذلك يجب أن نقف عن أنّ إبراهيم - عليه السلام -، الذي سأل الإمامة لبعض ذريته أيّ قسم منها أراد؟ حاشا إبراهيم أن يسأل الإمامة للقسم الأوّل، والرابع من ذريته، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره، أو المتّصف به أيام تصدّيه للإمامة، لا- يصلح لأن يؤتمن عليها. بقي القسمان الآخران، الثاني والثالث، وقد نص سبحانه على أنّه لا ينال عهده الظالم، والظالم في هذه العبارة لا ينطبق إلّا على القسم الثالث، أعنى من كان ظالماً في بداية عمره، وكان تائباً حين التصدي. فإذا خرج هذا القسم، بقي القسم الثاني، وهو من كان نقيّاً في البداية عمره، ولم ير منه لا- قبل التصدي ولا بعده أي انحراف عن جادة الحق، ومجاوزة للصراط السوي. وهو يساوي المعصوم. العصمة في القول والرأي:

إنّ الأئمة معصومون عن العصيان والمخالفة أوّلاً، وعن الخطأ والزلة في القول ثانياً وما ذلك إلّا لأنّ كلّ إمام من الأوّل إلى الثاني عشر، قد أحاط إحاطة شاملة كاملة بكل ما في هذين الأصلين بحيث لا يشذ عن علمهم معنى آية من آي الذكر الحكيم تنزيلاً وتأويلاً ولا- شيء من سنّة رسول الله قولاً وفعلاً وتقريباً وكفى بمن أحاط بعلوم الكتاب والسنة فضلاً وعلماً. ومن هنا كانوا قدوة الناس جميعاً بعد جدّهم الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - . (٢٩٩)

وقد أخذ أهل البيت علوم الكتاب و السنّة وفهموها عن رسول الله تماماً (١) كما أخذها ووعاها رسول الله عن جبرائيل، وكما وعها جبرائيل عن الله، ولا فرق أبداً في شيء إلّا بالواسطة، وقال الشاعر الإمامي في هذا المعنى: إذا شئت أن تبغي لنفسك مذهباً * ينجيك يوم البعث من لهب النار فدع عنك قول الشافعي ومالك * وأحمد والمروى عن كعب أحبار و وال أناساً نقلهم وحديثهم * روى جدنا عن جبرئيل عن الباري أخذ عليّ عن النبي، وأخذ الحسنان عن أبيهما، وأخذ علي بن الحسين عن أبيه، وهكذا كل إمام يأخذ العلم عن إمام، ولم ترو أصحاب السير والتواريخ أنّ أحداً من الأئمة الإثنا عشر أخذ عن صحابي أو تابعي، فقد أخذ الناس العلم عنهم، ولم يأخذوه عن أحد، وقال الامام الباقر - عليه السلام - : لو كنّا نحدّث الناس برأينا وهوانا لهلكنا ولكن نحدّثهم بأحاديث نكتزها عن رسول الله كما يكتز هؤلاء ذهبهم وفضتهم. (٢) —————

١. أو الهاماً غيبياً لأنّهم محدّثون، كما أنّ مريم كانت محدّثة، وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): لقد كان فيمن قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فان كان من أمتي منهم أحد فعمر. صحيح البخاري ٢ / ١٩٤ باب مناقب عمر بن الخطاب .

٢ . محمد جواد مغنية: الشيعة والتشيع ٤٤ . (٣٠٠) (٣٠١) المسألة الثالثة: الإمام المنتظر

إن الاعتقاد بالامام المهدي المنتظر عقيدة مشتركة بين جميع المسلمين، إلا من أصمّه الله، فكل من كان له إمام بالحديث يقف على تواتر البشارة عن النبي وآله واصحابه، بظهور المهدي في آخر الزمان لا زالة الجهل والظلم، ونشر اعلام العلم والعدل، واعلاء كلمة الحق واطهار الدين كله، ولو كره المشركون، وهو باذن الله ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله، ويبطل القوانين الكافرة التي سنتها الأهواء، ويقطع أوامر التعصبات القومية والعنصرية، ويميت أسباب العدا والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأمة واضطراب الكلمة، واشتعال نيران الفتن والمنازعات، ويحقق الله بظهوره وعده الذي وعده به المؤمنين بقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَ لَكُمْ دِينَكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَكَيْفَ يُشْرِكُونَ) (١) .

وقال سبحانه (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (٢) هذا ما اتفق عليه المسلمون في الصدر الأول والأزمة اللاحقة، وقد تضافر مضمون قول الرسول الأكرم: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي، فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً» . ولو وجد هناك خلاف بين أكثر السنة والشيعة، فالاختلاف في ولادته، فإن الأكثرية من أهل السنة يقولون بأنه سيولد في آخر الزمان، والشيعة بفضل هذه الروايات، تذهب إلى أنه ولد في «سر من رأى» عام ٢٥٥، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده، عام ٢٦٠، وهو يحيى حياة طبيعية كسائر الناس، غير أن الناس يرونه ولا يعرفونه، وسوف يظهره الله سبحانه ليحقق عدله . وهذا المقدار من الاختلاف لا يجعل العقيدة بالمهدي عقيدة خلافية، ومن أراد أن يقف على عقيدة السنة والشيعة في مسألة المهدي فعليه أن يرجع إلى الكتب التالية لمحققى السنة ومحدثيهم: ١- «صفة المهدي» للحافظ أبي نعيم الاصفهاني . ٢- «البيان في أخبار صاحب الزمان» للكنجي الشافعي . ٣- «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» لملا على المتقي . ٤- «العرف الوردى في أخبار المهدي» للحافظ السيوطي .

١ . النور / ٥٥ .

٢ . الأنبياء / ١٠٥ . (٣٠٣)

٥- «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر . ٦- «عقد الدرر في أخبار الامام المنتظر» للشيخ جمال الدين الدمشقي . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى «منتخب الأثر في الامام الثاني عشر» للعلامة الصافي - دام ظلّه - . ولم ير أحد الضعف في أخبار الامام المهدي، إلا ابن خلدون في مقدمته، وقد فتد مقالته محمد صديق برسالة أسماها «إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون» وقد كتب أخيراً الدكتور عبد الباقي كتاباً قيماً في الموضوع أسماه «بين يدي الساعة» فيقول في تضافر الأخبار الواردة في حق المهدي: «إن المشكلة ليست في حديث أو حديثين أو راو أو راويين، أنها مجموعة من الأحاديث والأخبار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع على تناقلها مئات الرواة، وأكثر من صاحب كتاب صحيح . فلماذا نرد كل هذه الكمية؟ أكلها فاسدة؟ لو صح هذا الحكم لانهار الدين - والعياذ بالله - نتيجة تطرق الشك والظن الفاسد إلى ما عداها من سنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . ثم إنني لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي، أو حول حاجة العالم إليه، وإنما الخلاف حول من هو، حسني أو حسيني؟ سيكون في آخر الزمان، أو موجود الآن، خفي وسيظهر؟ ظهر أو سيظهر؟ ولا عبرة بالمدعين الكاذبين، فليس لهم اعتبار . ثم إنني لا أجد مناقشة موضوعية في متن الأحاديث، والذي أجده، إنما هو مناقشة وخلاف حول السند، واتصاله وعدم اتصاله، ودرجة روايته، ومن خرّجوه، ومن قالوا فيه . وإذا نظرنا إلى ظهور المهدي، نظرة مجردة، فإننا لا نجد حرجاً من قبولها (٣٠٤)

وتصديقها، أو على الأقل عدم رفضها. فإذا ما تؤيد ذلك بالأدلة الكثيرة، والأحاديث المتعددة، وروايتها مسلمون مؤتمنون، والكتب التي نقلتها إلينا كتب قيمة، والترمذي من رجال التخريج والحكم، بالإضافة إلى أن أحاديث المهدي لها، ما يصح أن يكون سنداً لها في البخاري ومسلم، كحديث جابر في مسلم الذي فيه: «يقول أميرهم (أى لعيسى): تعال صل بنا» (١)، وحديث أبي هريرة في

البخارى، وفيه: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم» (٢)، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير، وهذا الامام هو المهدي. يضاف إلى هذا أن كثيراً من السلف رضى الله عنهم، لما يعارضوا هذا القول، بل جاءت شروحاتهم وتقريراتهم موافقة لا ثبات هذه العقيدة عند المسلمين» (٣). _____

١. صحيح مسلم ١ (باب نزول عيسى) ٥٩.

٢. صحيح البخارى ١٤ / ٣٣٤.

٣. بين يدي الساعة للدكتور عبدالباقى ١٢٣ - ١٢٥.

(٣٠٥) المسألة الرابعة: القول بالبداء

إن من العقائد الثابتة عند الشيعة الامامية، هو القول بالبداء، ومن الكلمات الدارجة بين علمائهم انّ النسخ والبداء صنوان، غير أن الأول في التشريع والثاني في التكوين، وقد اشتهرت بالقول به، كاشتهارها بالقول بالتقية وجواز متعة النساء وصار القول بهذه الأمور الثلاثة من خصائصهم وقد أنكرت عليهم السنة أشد الانكار خصوصاً في مسألة البداء ولكنهم لو كانوا واقفين على مراد الشيعة من تجويز البداء على الله لتوقفوا عن الاستنكار، ولأعلنوا الوفاق، وأقول عن جد: لو أتيحت الفرصة لعلماء الفريقين للبحث عن النقاط الخلافية بعيداً عن التعصب والأنحياز لتجلى الحق بأجلى مظهره، ولا عترفوا بصحة مقالة الشيعة، غير أن تلك أمنية لا تتحقق إلا في فترات خاصة، وقد سألتني أحد علماء أهل السنة عن حقيقة البداء، فأجبتة باجمال ما أفصّله في هذا المقام، فتعجب عن اتقان معناه، غير أنه زعم أن ما (٣٠٦)

ذكرته نظرية شخصية لا صلة لها بنظرية الامامية في البداء فطلب مني كتاباً لقدماء علماء الشيعة، فدفعت إليه أوائل المقالات، وشرح عقائد الصدوق لشيخ الأمة محمد بن النعمان المفيد (٣٣٦ - ٤١٣) فقرأهما بدقة، وجاء بالكتاب بعد أيام وقال: لو كان معنى البداء هو الذي يذكره صاحب الكتاب فهو من صميم عقيدة أهل السنة ولا يخالفون الشيعة في هذا المبدأ أبداً. ولتوضيح حقيقة البداء نأتى بمقدمات: الأولى: اتفقت الشيعة على أنه سبحانه عالم بالحوادث كلها غابرها وحاضرها، ومستقبلها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فلا يتصور فيه الظهور بعد الخفاء، ولا العلم بعد الجهل، بل الأشياء دقيقتها وجليلها، حاضرة لديه ويدل عليه الكتاب والسنة المروية عن طريق أئمة أهل البيت - مضافاً إلى البراهين الفلسفية المقررة في محلها - أما الكتاب:

فقوله سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (١). وقوله تعالى (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (٢). وقوله سبحانه: (إِنْ تَبُدُّوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً) (٣) كيف وهو محيط بالعالم صغيره وكبيره، ماديه ومجرده، والأشياء كلها قائمة به قياماً قيوماً كقيام المعنى الحرفي بالاسمى والرابطى بالطرفين ويكفى في ذلك قوله سبحانه: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (٤). _____

١. آل عمران / ٥.

٢. إبراهيم / ٣٨.

٣. الأحزاب / ٥٤.

٤. الحديد / ٢٢. (٣٠٧)

وقوله سبحانه: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (١). وأما الأخبار فنكتفى بالقليل منها: قال الامام موسى الكاظم - عليه السلام - : «لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء» (٢). وقال الامام على - عليه السلام - : «كل سر عندك علانية، وكل غيب عندك شهادة» (٣). وقال - عليه السلام - : «لا يعزب عنه عدد قطر الماء، ولا نجوم السماء، ولا سواقي الرياح في الهواء، ولا ديب النمل على الصفا، ولا مقيل الدرّ في الليلة الظلماء، يعلم مساقط الأوراق، وخفي طرف الأحداق» (٤). إلى غير ذلك من الروايات (٥) التي تدل على احاطة علمه بكل شيء قبل خلقه وحينه

وبعده، وأنه لا يخفى عليه شيء ابداً. وقال الصادق - عليه السلام - في تفسير قوله: (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب): «فكل أمر يريد الله، فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه، إن الله لا يبدو له من جهل. وقال: من زعم أن الله عزوجل يبدو له من _____

١. هود / ٦ .

٢. الكافي ج ١، باب صفات الذات، الحديث ٤ .

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٥ .

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٣، طبعه عبده .

٥. لاحظ في العثور على الروايات حول علمه سبحانه، البحار ٤ / ١٢١ والكافي ١ / ١١١ . (٣٠٨)

شيء لم يعلمه أمس، فابراً وامنه» (١) إلى غير ذلك من الروايات التي تدل على إحاطة علمه بكل شيء قبل خلقه وحينه وبعده وأنه لا يخفى عليه شيء ابداً. وأما العقل فقد دل على تنزهه من وصمة الحدوث والتغيير، وأنه تقدست أسماؤه، أعلى من أن يقع معرضاً للحوادث والتغيرات، ولأجل ذلك ذهبوا إلى امتناع البداء عليه بمعنى الظهور بعد الخفاء والعلم بعد الجهل، لاستلزامه كون ذاته محلاً للتغير والتبدل، والمستلزم للتركيب والحدوث، إلى غير ذلك مما يستحيل عليه سبحانه. فالآيات وكذلك الأحاديث المروية عن أئمة الشيعة - عليهم السلام - تشهد على علمه الذي لا يشوبه جهل، وعلى سعته لكل شيء قبل الخلق وبعده، وأنه يستحيل عليه الظهور بعد الخفاء، والعلم بعد الجهل. وعليه فمن نسب إلى الشيعة الإمامية ما يستشمن منه خلاف ما دلت عليه الآيات والأحاديث فقد افترى كذباً ينشأ من الجهل بعقائد الشيعة، أو التزلف إلى حكام الوقت الحاقدين لهم أو التعصب المقيت. وبذلك يعلم بطلان ما قاله الرازي في تفسيره عند البحث عن آية المحو والاثبات حيث يقول: قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسكوا فيه بقوله (يمحوا الله ما يشاء ويثبت): ثم قال: إن هذا باطل لأن علم الله من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك، كان دخول التغير والتبدل فيه باطلاً (٢). وما حكاه الرازي عن «الرافضة» كاشف عن جهله بعقيدة الشيعة وإنما سمعه

١. البحار ٤ / ١١١ باب البداء، الحديث ٣٠، والبرهان ٢ / ٣٠٠ حديث ٢١ .

٢. تفسير الرازي ٤ / ٢١٦ تفسير سورة الرعد . (٣٠٩)

عن بعض الكذابين الأفاكين الذين يفتعلون الكذب لغايات فاسدة، وقد قبله من دون امعان ودقة، مع أن موطنه ومسقط رأسه (بلدة رى) كانت مزدحم الشيعة ومركزهم وكان الشيخ محمود بن علي بن الحسن سديد الدين الحمصي الرازي، علامة زمانه في الأصوليين معاصراً وموطناً للرازي وهو مؤلف كتاب «المنقذ من التقليد والمرشد إلى التوحيد» (١) ولو كان الفخر الرازي رجلاً منصفاً لرجع إليه في تبين عقائد الشيعة، ولما تهاجم عليهم بسباب مقذع، وربما ينقل عنه بعض الكلمات في تفسيره. وليس الرازي فريداً في التقول في هذا المجال بل سبقه البلخي (ت ٣١٩) في هذه النسبة (٢)، ونقله الشيخ الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤) في مقالات الاسلاميين (٣) ونقله أبو الحسن النوبختي في فرق الشيعة عن بعض فرق الزيدية (٤). * * * الثانية: كما دلت الآيات والأحاديث (٥) على أنه سبحانه لم يفرغ من أمر الخلق والايجاد، والتدبير والتربية، دلت على أن مصير العباد يتغير، بحسن أفعالهم وصلاح أعمالهم من الصدقة والاحسان وصله الأرحام وبرّ الوالدين، والاستغفار والتوبة وشكر النعمة واداء حقها إلى غير ذلك من الأمور التي تغير المصير وتبدل القضاء وتفترج الهموم والغموم وتزيد في الأرزاق، والأمطار، والأعمار _____

١. الطهراني آغا بزرك: الثقات العيون في سادس القرون ٢٩٥ وطبع الكتاب أخيراً .

٢. الطوسي: التبيان ١ / ١٣ .

٣. مقالات الاسلاميين ١٠٧ .

٤. فرق الشيعة ٧٦ نقله عن سليمان بن جرير الذي كَفَرَهُ أهل السنَّة أيضاً لتكفيره عثمان فهل يصح الاعتماد على قول مثله .

٥. البحار ١٠٤ / ٤ الحديث ١٧ وغيره . (٣١٠)

والآجال كما أن لمحرم الأعمال وسيئها من قبيل البخل والتقصير، وسوء الخلق، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، والطيش، وعدم الانابة، وكفران النعمة وما شابهها تأثيراً في تغيير مصيرهم بعكس ذلك من اكثار الهموم، والقلق، ونقصان الأرزاق، والأمطار، والأعمار، والآجال، وما شاكلها . فليس للانسان مصير واحد، ومقدر فارد، يصيبه على وجه القطع والبت، ويناله، شاء أو لم يشأ، بل المصير أو المقدر يتغير ويتبدل بالأعمال الصالحة والطالحة وشكر النعمة وكفرانها، وبالإيمان والتقوى، والكفر والفسوق. وهذا مما لا يمكن (لمن له أدنى علاقة بالكتاب والسنَّة) انكاره إلا من كان مؤمناً بالقلب، ومنكراً باللسان . ونحن نأتى في المقام بقليل من كثير ممّا يدل على ذلك من الآيات والروايات. منها: قوله سبحانه حاكياً عن شيخ الأنبياء: (اشيِّتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً) (١). ترى أنه - عليه السلام -، يجعل الاستغفار، علّة مؤثرة، في نزول المطر، وكثرة الأموال والبنين، وجريان الأنهار إلى غير ذلك. وأمّا بيان كيفية تأثير عمل العبد في الكائنات الطبيعية، فيطلب عن محلّه . وقوله سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (٢). وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى

١. نوح / ١٠ - ١٢ .

٢. الرعد / ١١ . (٣١١) يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . (١).

وقوله سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (٢). وقوله سبحانه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ). (٣) وقوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ). (٤) وقوله سبحانه: (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ). (٥) وقال تعالى: (وَإِيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ). (٦) وقال سبحانه: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ). (٦) وقال تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَتَبَدَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَعِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ). (٧) وقال تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ). (٨) وقال سبحانه: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا

١. الأنفال ٥٣ .

٢. الأعراف ٩٦ .

٣. الطلاق ٢ - ٣ .

٤. إبراهيم ٧ .

٥ و ٦ - الأنبياء ٧٦ و ٨٣ - ٨٤ .

٦. الأنفال ٣٣ .

٧. الصافات ١٤٣ - ١٤٦ .

٨. الأنبياء ٨٨ . (٣١٢) آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١) .

وهذه الآيات بالاضافة إلى كثير من الأحاديث التي سيوافيك بيان نزر منها تعرب على أن الأعمال الصالحة مؤثرة في مصير الإنسان وأنه يقدر بعمله الصالح على تغيير القدر، وتبديل القضاء وليس هناك مقدر محتوم فيما يرجع إلى أفعاله الاختيارية حتى يكون العبد في مقابلة مكتوف الأيدي والأرجل . وأمّا الأحاديث التي تدل على هذا المطلب فكثيرة جداً، مبعثرة في كتب الحديث تحت عناوين مختلفة من قبيل الصدقة، والاستغفار، والدعاء، وصله الرحم، وما أشبه ذلك، وسنذكر فيما يلي نموذجاً من الأحاديث لكل من الأمور

الآنفة . الف - الصدقة وأثرها في دفع البلاء:

روى الصدوق في الخصال عن أنس: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «أكثر من صدقة السر، فإنها تطفىء غضب الرب جلّ جلاله». وروى في عيون الأخبار عن الرضا عن آبائه، قال: قال رسول الله: «باكروا بالصدقة فمن باكر بها لم يتخطاها البلاء». وروى الشيخ الطوسي في أماليه عن الباقر - عليه السلام - قال: قال أمير المؤمنين: «أفضل ما توسل به المتوسلون الإيمان بالله... وصدقة السر، فإنها تذهب الخطيئة وتطفىء غضب الرب، وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء وتقى مصارع الهوان». وروى الصدوق في ثواب الأعمال عن الصادق - عليه السلام - قال: «الصدقة _____»

١ . يونس / ٩٨، وقد استشهد الامام أمير المؤمنين ببعض هذه الآيات عند الاستسقاء، فقال: «إن الله يبتلى عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات...» نهج البلاغة، الخطبة ١٤٣ .

(٣١٣)

باليد تدفع ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء». إلى غير ذلك من الروايات التي جمعها العلامة المجلسي في كتاب الزكاة والصدقة(١). ب - أثر الاستغفار في الرزق:

روى الصدوق في الخصال عن أمير المؤمنين قال: «الاستغفار يزيد في الرزق». وروى أيضاً فيها عن أمير المؤمنين - عليه السلام - : «أكثروا الاستغفار، تجلبوا الرزق»(٢). ج - الدعاء وآثاره :

روى الحميري في قرب الاسناد عن الصادق - عليه السلام - : «إن الدعاء يرد القضاء وإن المؤمن ليذنب فيحرم بذنبه الرزق». وروى أيضاً عنه - عليه السلام - : «أكثروا الاستغفار، تجلبوا الرزق»(٢). ج - الدعاء وآثاره :

عليه السلام - : «ادفعوا أمواج البلاء عنكم بالدعاء قبل ورود البلاء»(٣). _____

١ . بحار الأنوار: الجزء ٩٣ الباب ٢١، الأحاديث ٤ - ٧ - ٩ - ٢٦ (وروى هناك أحاديث أخرى) .

٢ . المصدر نفسه كتاب الذكر والدعاء باب الاستغفار وفضله وأنواعه، الحديث ٤ - ١٧ (وروى أحاديث حول الاستغفار من الفريقين) .

٣ . البحار الجزء ٩٣ كتاب الذكر والدعاء، أبواب الدعاء. الباب ١٦ - الحديث ٢ - ٣ - ٥ (وروى أحاديث من الفريقين) . (٣١٤)

وقد عقد الكليني في الكافي باباً أسماه «إن الدعاء يرد البلاء والقضاء» ومن جملة أحاديث هذا الباب عن حماد بن عثمان قال: سمعته يقول: «إن الدعاء يرد القضاء ينقضه كما ينقض السلك وقد أبرم إبراهيم»(١). وروى عن أبي الحسن موسى - عليه السلام - : «عليكم بالدعاء فإن الدعاء لله والطلب إلى الله يرد البلاء وقد قدر وقضى ولم يبق إلا امضاؤه فإذا دعى الله عزوجل وسئل، صرف البلاء صرفة»(٢) . وأخرج الحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنه - ، قال: لا ينفع الحذر عن القدر ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر .

قال: وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي الدنيا في الدعاء عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: ما دعا عبد بهذه الدعوات إلا وسع الله له في معيشته: «يا ذا المنّ ولا- يمنّ عليه، يا ذا الجلال والاکرام يا ذا الطول، لا إله إلا أنت ظهر اللاجين وجار المستجيرين، ومأمن الخائفين إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً فامح عني اسم الشقاء واثبتني عندك سعيداً، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروماً مقترراً على رزقي، فامح حرمانى ويسر رزقى واثبتني عندك سعيداً موفقاً للخير فإنك تقول في كتابك الذى أنزلت: (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(٣) . وروى أيضاً في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: (يسأله من فى

١ . الكافي ج ٢ باب ان الدعاء يرد القضاء ص ٤٦٩ الحديث ١ .

٢ . المصدر نفسه ص ٤٧٠ الحديث ٨ .

٣ . السيوطي، الدر المنثور ٤ / ٦٦ . (٣١٥) (السّموات) ما يقرب من هذا، فلاحظ(١) . د - أثر صلة الرحم:

روى الكليني عن أبي الحسن الرضا قال: «يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة

ويفعل الله ما يشاء» (٢). روى أيضاً عن أبي جعفر قال: «صلة الأرحام تزكى الأعمال ونمى الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسىء في الآجال» (٣). وروى أهل السنة نظير هذه الروايات فنكتفى بما رواه السيوطى فى الدر المنثور عن على - رضى الله عنه - : أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن هذه الآية (يَمْحُوا اللَّهُ لَكَ الْكُفْرَ وَالْإِسْوَءَ الَّذِي كُنْتَ تُفْعِلُ فِي الْأَعْمَالِ) فقال له: «لأقرن عينيك بتفسيرها ولأقرن عين أمتى بعدى بتفسيرها: الصدقة على وجهها وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف يحول الشقاء سعادة، ويزيد فى العمر، وتقى مصارع السوء». وكما أن للأعمال الصالحة أثراً فى المصير وحسن العاقبة، وشمول الرحمة وزيادة العمر وسعة الرزق، كذلك الأعمال الطالحة والسيئات فى الأفعال فإن لها تأثيراً ضد اثر الأعمال الحسنة. ويدل على ذلك من الآيات قوله سبحانه: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ أُمَّتُهُمْ مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا

١. الدر المنثور ٦ / ١٤٣ .

٢. الكافى ج ٢، باب صلة الرحم، الحديث ٣ .

٣. المصدر نفسه، الحديث ٤ ولاحظ البحار ج ٤ باب البداء، الحديث ٦٦ . (٣١٦) يَصْنَعُونَ (١) .

وقال سبحانه: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٢) . وقال سبحانه: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ) (٣) . وأما الروايات فى ذلك فحدث عنها ولا حرج فنكتفى بما عن أمير المؤمنين أنه قال فى خطبة: «أعوذ بالله من الذنوب التى تعجل الفناء» فقام إليه عبدالله بن الكواء يشكرى، فقال: يا أمير المؤمنين أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: «نعم، ويلك قطعة الرحم». وقال أيضاً: «إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال فى أيدى الأشرار» (٤) . وقد وردت فى الآثار الوضعية للأعمال، روايات يطول الكلام بنقلها. فلاحظ ما ورد فى الزنا من أن فيها ست خصال ثلاث منها فى الدنيا وثلاث منها فى الآخرة أما التى فى الدنيا فيذهب بالبهاء ويعجل الفناء ويقطع الرزق (٥) . أيضاً ما ورد فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل ما روى عن أبى الحسن الرضا - عليه السلام - أنه قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو لتستعملن عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم» (٦) وعن أمير المؤمنين - عليه السلام - : —————

١. النحل / ١١٢ .

٢. الأنفال / ٥٣ .

٣. الأعراف / ١٣٠ .

٤. الكافى ج ٢ كتاب الايمان والكفر، باب قطعة الرحم، الحديث ٧ - ٨ .

٥. سفينة البحار ١ / ٥٦٠ مادة (زنا) .

٦. الوسائل ج ١١ كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الباب ١ الحديث ٤ . (٣١٧)

«إنهم لما تمادوا فى المعاصى ولم ينههم الربانيون والأخبار نزلت بهم العقوبات» (١) وورد: «لا تزال أمتى بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزلت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر فى الأرض ولا فى السماء» (٢) إلى غير ذلك من درر الكلمات التى نقلت عن معدنها . * * *

فقد تحصل ممّا ذكرنا: أولاً: إن علمه سبحانه يعم كل الأشياء ماضيتها وحاضرها ومستقبلها . وثانياً: إنه سبحانه كل يوم هو فى شأن . وثالثاً: إن لأفعال العباد، تأثيراً فى حسن العاقبة وسوءها، ونزول الرحمة والبركة، أو العقاب والنقمة .

إذا وقفت على هذه المقدمات الثلاث فاعلم أنه يقع الكلام فى البداء فى مقامين: ١- البداء فى مقام الثبوت: أى تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة . ٢- البداء فى مقام الاثبات: أى الاخبار عن تحقق الشىء علماً بالمقتضى مع خفاء المانع . —————

١. الوسائل ج ١١ كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الباب ١ الحديث ٧ .

٢. المصدر نفسه، الحديث ١٨ . (٣١٨) (٣١٩) البداء فى مقام الثبوت والاثبات

حقيقة البدء هو أنه سبحانه (على خلاف ما اعتقده اليهود والنصارى في حقه من فراغه عن أمر الخلق والتدبير، والاحياء والاماتة، والتوسيع والتقدير في الرزق، والتعمير والتنقيص إلى غير ذلك مما يرجع إلى الكون والإنسان) هو القائم دائماً بالأمر، والتدبير، وهو القيوم على كل شيء، وكل يوم في شأن وليست يده مغلولتان، بل يده مبسوطتان (في كل شيء) يمحو ويثبت حسب مشيئته الحكيمه وارادته النافذة فهو المتجلى في كل زمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا كالخالقية والرازقية والاحياء والامامة إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى . ومن شعب هذا الأمر، هو أنه سبحانه: يزيد في الرزق والعمر وينقص منهما، وينزل الرحمه والبركه، كما ينزل البلاء والنقمه، حسب مشيئته الحكيمه، النافذة، ولا تصدر عنه الأمور جزافاً واعتباطاً بل حسب ما تقتضيها حال العباد من حسن الأفعال وقبحها وصالح الأعمال وطالحها. فربما يكون الإنسان مكتوباً في الأشقياء ثم يمحي فيكتب من السعداء أو على العكس بسبب ما يقوم به من أعمال . (٣٢٠)

وبالجملة: فالبدء في عالم الثبوت يضاد مزعمه اليهود والنصارى المشار إليها في قوله سبحانه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا) (١)، وقد رد سبحانه تلك العقيدة اليهودية الباطلة في هذه الآية كما هو واضح . ولأجل أن يديه سبحانه مبسوطتان، يزيد في الخلق ما يشاء، وفي العمر، وينقص منه، حسب مشيئته الحكيمه قال سبحانه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٢) وقال سبحانه: (وَمَا تُحْمِلُ مِنْ أَثْقَالٍ وَلَا تَتَّخِذُ الْإِلَهَ لِمِثْلِهِ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (٣) . وبناء على ذلك فالبدء بهذا المعنى، مما يشترك فيه كل المسلمين، على مذاهبهم المختلفة من دون اختصاص بالشيعة، فليس أحد من المسلمين ينكر أنه سبحانه كل يوم هو في شأن، وأنه جلّ وعلا. بيدئ ويعيد، ويحيى ويميت، كما أنه سبحانه يزيد في الرزق والعمر وينقص إلى غير ذلك حسب المشيئة الحكيمه والمصالح الكامنه في أفعاله . وكما أنه سبحانه: يده مبسوطتان، كذلك العبد مختار، في أفعاله لا مسير، وحر في تصرفاته (٤) -لا- مجبور، له أن يغير مصيره ومقدّره بحسن فعله، وجودة عمله ،

١ . المائدة / ٦٤ .

٢ . فاطر / ١ .

٣ . فاطر / ١١ .

٤ . لا- يخفى أن المقصود من أفعال الإنسان التي نثبت اختياره فيها هي الأفعال التي تتعلق بها التكاليف لا الأفعال القهرية التي تصدر من جهازه الهضمي مثلاً . (٣٢١)

ويخرج اسمه من الأشقياء، ويدخله في السعداء، كما أن له أن يخرج اسمه من السعداء ويدخله في الأشقياء بسوء عمله . فالله سبحانه كما يمحو ويثبت في التكوين، فيحيى ويميت، كذلك يمحو مصير العبد، ويغيره حسب ما يغير العبد بنفسه (فعله وعمله) لقوله سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (١)، كل ذلك لأجل أن يديه مبسوطتان وأن العبد حرّ مختار، قادر على تغيير القضاء، وتبديل القدر، بحسن فعله أو سوءه، كما دلّت عليه الآيات والروايات . وليس في ذلك أي محذور ولا مخالفة للعقل ولا الكتاب والسنة بل تغيير القضاء بحسن الفعل وتغيير القدر بسوءه، هو أيضا من قدره وقضائه وسننه التي لا تبدل لها ولا تغيير، فالله سبحانه إذا قدر لعبده شيئا وقضى له بأمر، فلم يقدره ولم يقضه به على وجه القطع والبت، بحيث لا يتغير ولا يتبدل، بل قضى به على وجه خاص وهو أن القضاء والقدر يجري عليه، ما لم يغير العبد حاله، فإذا غير حاله بحسن فعله أو سوءه، يتغير القضاء ويتبدل القدر ويخلف قضاء وقدر آخر مكانهما الأول، وكل هذه أيضا قضاء وقدر منه، كما لا يخفى . وهذا (البدء في الثبوت) أولى بالتسمية بالمحو والاثبات، والتغيير والتبديل في الكون وفي مصير الإنسان غير أن المحو والاثبات في الكون بيد الله سبحانه، يتصرف فيه حسب مشيئته، ولا دخل لارادة الإنسان ولصلاح فعله ولا فساد فيه، وأما التغيير في مصير الإنسان فيتوقف تعلق المشيئة عليه، على كيفية حال

العبد وكيفية عمله من حسن أو قبح .

١ . الرعد / ١١ .

(٣٢٢) البداء في الذكر الحكيم:

هذا الأصل - الذي يعدّ من المعارف العليا تجاه ما عرف من اليهود، من سيادة القدر على كل شيء حتى إرادته سبحانه - يستفاد بوضوح من قوله سبحانه (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (١) وهذه الآية هي الأصل في البداء في مقام الثبوت ويكفي في إيضاح دلالتها، نقل كلمات المحققين من المفسرين، حتى يقف القارئ على أن القول بالبداء بالمعنى الصحيح، مما أصفقت عليه الأمة. ١- روى الطبري (٣١٠ هـ) في تفسير الآية عن لقيف من الصحابة والتابعين أنهم كانوا يدعون الله سبحانه بتغيير المصير واخراجهم من الشقاء - إن كتب عليهم - إلى السعادة مثلاً، كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول وهو يطوف بالكعبة: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني على الذنب [الشقاوة] فامحني وأثبتني في أهل السعادة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . وروى نظير هذا الكلام عن ابن مسعود، وابن عباس وشقيق وأبي وائل (٢) . وروى عن ابن زيد أنه قال في قوله سبحانه: (يمحو الله ما يشاء) بما يُنزّل على الأنبياء، ويثبت ما يشاء مما ينزل على الأنبياء قال: وعنده أم الكتاب لا يُغيّر ولا يُبدّل (٣) . ٢- قال الزمخشري (٥٢٨ هـ): (يمحو الله ما يشاء) ينسخ ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته أو

ينزله غير منسوخ (٣) .

١ . الرعد / ٣٩ .

٢ . الطبري: التفسير (جامع البيان) الجزء ١٣ / ١١٢ - ١١٤ .

٣ . الزمخشري: الكشاف: ٢ / ١٦٩ . (٣٢٣)

٣- ذكر الطبرسي (٥٤٨ - ٤٧١ هـ) لتفسير الآية وجوهاً متقاربة وقال: «الربيع أنه عامٌّ في كل شيء فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ومن الأجل، ويمحو السعادة والشقاوة ويثبتهما. (روى ذلك) عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود وأبي وائل وقتادة: وأم الكتاب أصل الكتاب الذي أثبت فيه الحادثات والكائنات . وروى أبو قلابه عن ابن مسعود أنه كان يقول: «اللهم إن كنت كتبتني في الأشفياء فامحني من الأشفياء...» (١) . ٤- قال الرازي (٦٠٨ هـ) إن في هذه الآية قولين: القول الأول: إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا: إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر وهو مذهب عمر وابن مسعود، والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء. وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . والقول الثاني: إن هذه الآية خاصة في بعض الأشفياء دون البعض . ثم قال: فإن قال قائل: ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جفّ بها القلم وليس الأمر بأنف فكيف يستقيم مع هذا المعنى، المحو والإثبات؟ قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضاً مما جف به القلم فلأنه لا- يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه (٢) . ٥- قال القرطبي (٦٧١ هـ) - بعد نقل القولين وإن المحو والإثبات هل يعمّان جميع الأشياء أو يختصّان ببعضها - : مثل هذا لا يدرك بالرأى والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفاً فإن صحّ فالقول به يجب أن يوقف عنده، وإلا- فتكون الآية عامة في جميع الأشياء وهو الأظهر - ثم نقل دعاء عمر بن الخطاب في حال الطواف ودعاء

عبدالله

١ . الطبري مجمع البيان ٦ / ٣٩٨ .

٢ . الرازي: ١٠ / ٦٤ - ٦٥ . (٣٢٤)

ابن مسعود ثم قال: روى في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : «من سرّه أن يبسط له في رزقه ويُنيباً له في أثره (أجله) فليصل رحمه» . (١) ٦- قال ابن كثير (٧٧٤ هـ) بعد نقل قسم من الروايات: ومعنى هذه الروايات أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يُستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - : «إنَّ الرجلَ لِيُحْرَمَ الرزقَ بالذنبِ يصيبه ولا يردُ القَدْرُ إلاَّ بالدعاء، ولا يزيدُ في العمرِ إلاَّ البرَّ» ثم نقل عن ابن عباس: الكتاب كتابان، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت عنده ما يشاء، وعنده أم الكتاب (٢) . ٧- روى السيوطي (٩١١ هـ) عن ابن عباس في تفسير الآية: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله تعالى وقد سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله سبحانه وتعالى. ثم نقل ما نقلناه من الدعاء عن ليف من الصحابة والتابعين (٣) . ٨- ذكر الآلوسي (١٢٧٠ هـ) عند تفسير الآية قسماً من الآثار الواردة حولها وقال: أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليّ - كرم الله وجهه - أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء...) الآية فقال: له عليه الصلاة والسلام. لا قرّن عينك بتفسيرها ولا قرّن عين أمّتي بعدى بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبر الوالدين واصطناع المعروف، محو الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقى مصارع السوء، ثم قال: دفع الإشكال عن استلزام ذلك، بتغيير علم الله سبحانه ومن شاء فليرجع (٤) . ٩- قال صديق حسن خان (١٣٠٧ هـ) في تفسير الآية: وظاهر النظم —————

١ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٣٢٩ .

٢ . ابن كثير: التفسير ٢ / ٥٢٠ .

٣ . السيوطي: الدر المنثور ٤ / ٦٦٠ لاحظ ما نقله في المقام من المأثورات كلها تحكى .

٤ . الآلوسي: روح المعاني ١٣ / ١١١ . (٣٢٥)

القرآني العموم في كل شيء مما في الكتاب فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر أو خير أو شرّ ويبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا . لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبو وائل وقتادة والضحاك وابن جريح وغيرهم... (١) . ١٠- قال القاسمي (١٣٣٢ هـ): تمسّك جماعة بظاهر قوله تعالى: (يمحو الله ما يشاء ويثبت) فقالوا: إنها عامّة في كل شيء كما - يقتضيه ظاهر اللفظ قالوا - يمحو الله من الرزق ويزيد فيه وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر (٢) . ١١- قال المراغي في تفسير الآية: وقد أثر عن أئمة السلف أقوال لا تناقض بل هي داخله فيما سلف ثم نقل الأقوال بإجمال (٣) . وهذه الجمل والكلم الدرية المضيئة عن الصحابة والتابعين لهم باحسان، والمفسرين تعرب عن الرأي العام بين المسلمين في مجال إمكان تغيير المصير بالأعمال الصالحة والطالحة ومنها الدعاء والسؤال وأنه ليس كل تقدير حتمياً لا يغيّر ولا يبدل وأنّ لله سبحانه لوحيّن: لوح المحو والإثبات ولوح «أم الكتاب» والذي لا يتطرق التغيير إليه هو الثاني دون الأول، وإنّ القول بسيادة القدر، على اختيار الإنسان في مجال الطاعة والمعصية، قول بالجبر الباطل بالعقل والضرورة، ومحكمات الكتاب. ومن جنح إليه لزمه القول بلغوية إرسال الرسل وإنزال الكتب (ذلك ظنّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار) (٤) .

١ . صديق حسن خان: فتح البيان ٥ / ١٧١ .

٢ . القاسمي: محاسن ٩ / ٣٧٢ .

٣ . المراغي: التفسير ٥ / ١٥٥ - ١٥٦ .

٤ . سورة «ص» الآية ٢٧ . (٣٢٦) الأثر التربوي للاعتقاد بالبداء:

الاعتقاد بالمحو والاثبات، وأنّ العبد قادر على تغيير مصيره بأفعاله وأعماله، يبعث الرجاء في قلب من يريد أن يتطهر، وينمي نواة الخير الكامنة في نفسه، فتشريع البداء، مثل تشريع قبول التوبة، والشفاعة، وتكفير الصغائر بالاجتناب عن الكبائر. كلّها لأجل بعث الرجاء وإيقاد نوره في قلوب العصاة والعتاة، حتى لا يياسوا من روح الله ولا يتولّوا بتصور أنّهم من الأشقياء وأهل النار تقديراً، فلا فائدة في السعي والعمل، فلو علم الإنسان أنّه سبحانه لم يجفّ قلمه في لوح المحو والاثبات، وله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، يسعد من يشاء، ويشقى من يشاء «وليست مشيئته جزافية غير تابعة لضابطة عقلية» وتاب، وعمل بالفرائض وتمسّك بالعروة الوثقى، يخرج من سلك الأشقياء، ويدخل في صنف السعداء، وبالعكس وهكذا كل ما قدر في حقّه من الموت والمرض والفقر، والشقاء يمكن تغييره

بالدعاء، والصدقة وصلة الرحم، وإكرام الوالدين، وغير ذلك، فالكل لأجل بث الأمل في قلب الإنسان، وعلى هذا فالاعتقاد بذلك من ضروريات الكتاب وصريح آياته وأخبار الهداة. وبهذا يظهر أن البداء من المعارف العليا التي اتفقت عليه كلمة المسلمين وإن غفل عن معناه الجمهور (ولو عرفوه لأذعنوا به). وأميا اليهود - خذلهم الله - فقالوا باستحالة تعلق المشيئة بغير ما جرى عليه القلم، ولأجل ذلك قالوا: يد الله مغلولة عن القبض والبسط، والأخذ والاعطاء، وبعبارة أخرى عندهم أن للإنسان مصيراً واحداً لا يمكن تغييره ولا تبديله وأنه ينال ما قدر له من الخير والشر. ولو صح ذلك لبطل الدعاء والتضرع ولبطل القول بأن للأعمال الصالحة وغير الصالحة مما عدناها تأثيراً في تغيير مصير الإنسان. (٣٢٧)

وعلى ضوء هذا البيان تتمكن من فهم ما جاء في فضيلة البداء وأهميته في الروايات مثل ما روى زرارة عن أحدهما (الباقر أو الصادق - عليهما السلام -): «ما عبد الله عزوجل بشيء مثل البداء» (١). وما عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله - عليه السلام -: «ما عظم الله عزوجل بمثل البداء» (٢). إذ لولا الاقرار بالبداء بهذا المعنى ما عرف الله حق المعرفة، ويتجلى سبحانه في نظر العبد (بناء على عقيدة بطلان البداء) أنه مكتوف الأيدي، لا يقدر على تغيير ما قدره، ولا محو ما أثبتته. ومن الروايات في هذا المعنى ما روى عن الصادق - عليه السلام - أنه قال: «لو يعلم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا من الكلام فيه» (٣). وذلك لأن الاعتقاد بالبداء مثل الاعتقاد بتأثير التوبة والشفاعة يوجب رجوع العبد عن التمداد في الغي والضلالة، والانبأه إلى الصلاح والهداية. البداء في مقام الاثبات:

إذا عرفت ما ذكرنا فاعلم أن المراد من البداء في مقام الاثبات هو، وقوع التغيير في بعض مظاهر علمه سبحانه فإن لعلمه سبحانه مظاهر، منها: ما لا يقبل التغيير ومنها ما يقبل ذلك. أما الأول: فهو المعبر عنه بـ «اللوح المحفوظ» تارة وبـ «أم الكتاب» أخرى قال سبحانه: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) (٤) وقوله تعالى: _____

١. البحار ٤ / ١٠٧ باب البداء، الحديث ١٩ - ٢٠.

٢. التوحيد للصدوق باب البداء، الحديث ٢.

٣. الكافي ١ / ١١٥، والتوحيد للصدوق، باب البداء، الحديث ٧.

٤. البروج ٢١ - ٢٢. (٣٢٨) (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ) (١) وقال سبحانه: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (٢) فاللوح المحفوظ وأم الكتاب وذلك الكتاب الذي كتب فيه ما يصيب الإنسان من مصائب مما لا يتطرق إليها المحو والاثبات قدر شعرة، ولأجل ذلك لو أمكن الإنسان أن يتصل به، لوقف على الحوادث على ما هي عليه بلا خطأ ولا تخلف. وأمما الثاني: فهو لوح المحو والاثبات الذي أشار إليه سبحانه، بقوله (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (٣) فالأحكام الثابتة فيه، أحكام معلقة على وجود شرطها أو عدم مانعها، فالتغير فيها لأجل اعواز شرطها أو تحقق مانعها وربما يكتب فيه الموت نظراً إلى مقتضياته، ولكنه ربما يمحي ويكتب فيه الصحة لفقدان شرط التقدير الأول أو طرؤ مانع من تأثير المقتضى.

فالتقدير الأول يفرض لأجل قياس الحادث إلى مقتضيه، كما أن التقدير الثاني يتصور بالنسبة إلى جميع أجزاء علته، فإن الشيء إذا قيس إلى مقتضيه (الذي يحتاج الصدور منه إلى وجود شرائط وعدم موانع) يمكن تقدير وجوده، ولكنه بالنظر إلى مجموع أجزاء علته التي منها الشرائط وعدم الموانع، يقدر عدمه لفرض عدم وجود شرائطه، وتحقق موانعه. إذا علمت ذلك، فاعلم أنه ربما يتصل النبي أو الولي بلوح المحو والاثبات، فيقف على المقتضى من دون أن يقف على شرطه أو مانعه، فيخبر عن وقوع شيء _____

١. الزخرف / ٤.

٢. الحديد / ٢٢.

٣. الرعد / ٣٩. (٣٢٩)

ولكنه ربما لا يتحقق لأجل عدم تحقق شرطه أو عدم تحقق وجود مانعه وذلك هو البداء في عالم الاثبات وإن شئت قلت: إن موارد وقوع البداء حسب الاثبات من ثمرات البداء في عالم الثبوت، ولم يرد في الأخبار من هذا القسم من البداء إلا موارد لا تتجاوز عن عدد الأصابع، نشير إليه بعد الفراغ عما ورد في الذكر الحكيم . تلميحات إلى البداء في الذكر الحكيم:

١- قال سبحانه: (فَبَشِّرْهُ بِبُحْبُوحِ مَوْلَاكَ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (١) . أخبر إبراهيم - عليه السلام - ولده إسماعيل - عليه السلام - بأنه رأى في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء (كما ورد في الحديث) من أقسام الوحي (٢)، فكانت رؤياه صادقة حاكية عن حقيقة ثابتة، وهي أمر الله إبراهيم بذبح ولده، وقد تحقق ذلك الأمر، أي أمر الله سبحانه به . ولكن قوله: (إني أرى في المنام أنني أذبحك) يكشف عن أمرين: الف: الأمر بذبح الولد وهو أمر تشريعي كما عرفت وقد تحقق . ب: الحكاية عن تحقق ذلك في الواقع الخارجي وإن إبراهيم سيمثل ذلك، والحال أنه لم يتحقق لفقدان شرطه، وهو عدم النسخ ويحكي عن كلا الأمرين قوله: (و قدينا بذبح عظيم) . وعندئذ يطرح هذا السؤال نفسه بأنه كيف أخبر خليل الرحمن بشيء من

١ . الصافات / ١٠١ - ١٠٢ .

٢ . السيوطي: الدر المنثور / ٥ / ٢٨٠ . (٣٣٠)

الملاحم والمغيبات، ثم لم يتحقق، وما هذا إلا لأجل أنه وقف على المقتضى، فأخبر بالمقتضى، ولكنه لم يقف على ما هو العلة التامة، وليس لعلمه هذا مصدر سوى اتصاله بلوح المحو والاثبات . ٢- أخبر يونس قومه بأنهم إن لم يؤمنوا فسوف يصيبهم العذاب إلى ثلاثة أيام (١) ولكن العذاب لم يصيبهم، فما هذا إلا لأن النبي، وقف على المقتضى ولم يقف على المانع وهو أن القوم سيتوبون عند رؤية العذاب توبة نصوحاً رافعة للعذاب، وإليه يشير قوله سبحانه: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (٢) . ٣- أخبر موسى قومه بأنه سيغيب عنهم ثلاثين ليلة، كما روى عن ابن عباس حيث قال: إن موسى قال لقومه: إن ربي وعدني ثلاثين ليلة أن ألقاه واخلف هارون فيكم، فلما فصل موسى إلى ربه زاده الله عشرًا، فكانت فنتهم في العشر التي زاده الله (٣) . وإليه يشير قوله سبحانه: (وَ وَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) (٤) . فلا شك أن موسى أطلع على الخبر الأول ولم يطلع على نسخه وإن التوقيت سيزيد ولا مصدر لعلمه إلا الاتصال بلوح المحو والاثبات .

١ . الطبرسي: مجمع البيان / ٣ / ١٣٥ .

٢ . يونس / ٩٨ .

٣ . الطبرسي: مجمع البيان / ٢ / ١١٥ .

٤ . الأعراف / ١٤٢ . (٣٣١)

هذه جملة الأخبار التي تحدث بها الذكر الحكيم ولكنها لم تحقق، فلا محيص لتفسيرها إلا القول بوقوفهم على المقتضى دون العلة التامة، فعندما يظهر عدم التحقق يطلق عليه البداء، والمراد أنه بدا من الله لئيبه وللناس ما خفى عليهم، على غرر قوله سبحانه: (وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (١) فالبداء إذا نسب إلى الله سبحانه فهو بداء منه، وإذا نسب إلى الناس فهو بداء لهم، وبعبارة أخرى، البداء من الله هو اظهار ما خفى على الناس، والبداء من الناس بمعنى ظهور ما خفى لهم، وهذا هو الحق القراح الذي لا يرتاب فيه أحد . وأما ما ورد في الروايات، فهو بين خمسة أو أزيد بقليل: ١- إن المسيح - عليه السلام - مر بقوم مجلسين، فقال: ما لهؤلاء؟ قيل: يا روح الله فلانة بنت فلانة تهدي إلى فلان في ليلته هذه. فقال: يجلبون اليوم ويكون غداً، فقال قائل منهم: ولم يا رسول الله؟ قال: لأن صاحبته ميتة في ليلتها هذه... فلما أصبحوا وجدوها على حالها، ليس بها شيء، فقالوا: يا روح الله إن التي أخبرتنا أمس أنها ميتة لم تمت. فدخل المسيح دارها فقال: ما صنعت ليلتك هذه؟ قالت: لم أصنع شيئاً إلا وكنت أصنعه فيما مضى، أنه كان يعترينا سائل في

كل ليلة جمعة فنيبه ما يقوته إلى مثلها. فقال المسيح: تنح عن مجلسك فإذا تحت ثيابها أفعى مثل جذعة، عاص على ذنبه، فقال - عليه السلام - : بما صنعت، صرف عنك هذا(٢) . ٢- روى الكليني عن الامام الصادق - عليه السلام - : إنه مرّ يهودى بالنبي فقال: السام عليك. فقال النبي عليك. فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت فقال: _____
١. الزمر / ٤٧ .

٢. المجلسي: بحار الأنوار ٩٤ / ٤ . (٣٣٢)

الموت عليك. فقال النبي: وكذلك رددت. ثم قال النبي: إن هذا اليهودى يعضه أسود في ففاه فيقتله، قال: فذهب اليهودى فاحتطب حطباً كثيراً فاحتلمه، ثم لم يلبث أن انصرف، فقال له رسول الله: ضعه، فوضع الحطب فإذا أسود في جوف الحطب عاص على عود، فقال: يا يهودى ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلا حطبي هذا حملته فجنث ومعى كعكتان، فأكلت واحدة وتصدقت بواحدة على مسكين، فقال رسول الله: بها دفع الله عنه، قال: إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الانسان(١) . ولا يمكن لأحد تفسير مضامين الآيات الماضية وهذين الحديثين إلا- عن طريق البداء بالمعنى الذى تعرّف عليه، وهو اتصال النبي بلوح المحو والاثبات والوقوف على المقتضى والاخبار بمقتضاه دون الوقوف على العلّة التامة . ٣- عرض الله عزوجل على آدم أسماء الأنبياء وأعمارهم، فمرّ بآدم اسم داود النبي - عليه السلام - فإذا عمره في العالم أربعون سنة، فقال آدم: يا رب ما أقل عمر داود وما أكثر عمري يا رب إنى أنا زدت داود من عمري ثلاثين سنة أثبت ذلك له؟ قال الله: نعم يا آدم، فقال آدم: فأتى قد زدته من عمري ثلاثين سنة، فأثبت الله عزوجل لداود في عمره ثلاثين سنة(٢) . ترى أنه سبحانه أثبت شيئاً، ثم محاه بدعاء نبيه، وهذا هو المراد من قوله سبحانه: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فلو أخبر نبي الله عن عمر داود بأربعين سنة لم يكن كاذباً في إخباره، لأنه وقف على الاثبات الأول ولم يقف على محوه . _____

١. المجلسي: بحار الأنوار ١٢١ / ٤ .

٢. المجلسي: بحار الأنوار ٩٥ / ٤ - ١٠٢ . (٣٣٣)

٤- أخبر الله نبياً بأن يخبر ملكاً بأنه تعالى متوفيه إلى كذا وكذا، فأخبره بذلك ولما دعا الملك وقال: ربّ أجلنى حتى يشب طفلى وأقضى أمرى، فأوحى الله عزوجل إلى ذلك النبي أن ائت فلاناً الملك واخبره أنّى قد زدت في عمره خمس عشرة سنة(١) . ٥- روى عمرو بن الحمق، قال: دخلت على أمير المؤمنين - عليه السلام - حين ضرب على قرنه، فقال لى: يا عمرو إنى مفارقكم، ثم قال: سنة السبعين فيها بلاء - قالها ثلاثاً - فقلت: فهل بعد البلاء رخاء؟ فلم يجبنى وأغمى عليه، فبكت أمّ كلثوم فأفاق... فقلت: بأبى أنت وأمى قلت: إلى السبعين بلاء، فهل بعد السبعين رخاء؟ قال: نعم يا عمرو إن بعد البلاء رخاء و (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(٢) . هذه جملة ما ورد في البداء في مقام الاثبات وإن شئت قلت في ثمرات البداء في الثبوت ولا تجد في الأحاديث الشيعية بداء غير ما ذكرنا، ولو عثر المتتبع على مورد، فهو نظير ما سبق من الموارد، والتحليل فى الجميع واحد . إذا وقفت على ذلك تعرفت قيمة ما ذكره الرازى فى ختام محصّله، وقال: إن أئمة الرافضة وضعوا مقاتلين لشيعتهم، لا يظهر معهما أحد عليهم . الأول: القول بالبداء، فإذا قال: إنه سيكون لهم قوّة وشوكه، ثم لا يكون الأمر على ما أخبروا، قالوا: بدا الله فيه(٣) . _____

١. المجلسي: بحار الأنوار ١٢١ / ٤ (وفى رواية أخرى أن ذلك النبي هو حزقيل، البحار ١١٢ / ٤ وذكر مثله فى قضية شعيا ص ١١٣ .

٢. المجلسي: بحار الأنوار ١١٩ / ٤، برقم ٦٠ .

٣. الرازى: نقد المحصل ٤٢١، نقله عن سليمان بن جرير الزيدى، والأثر الثانى هو التقيّة كما ستعرف . (٣٣٤)

إنّ الذى نقله أئمة الشيعة هو ما تعرّف عليه من الروايات فليس فيها ما يدعم ذلك، فقد نقلوا قصة رسول الله مع اليهودى وقصة المسيح مع العروس، كما نقلوا قصة عمر داود وعمر الملك، فهل ورد فيها ما أشار إليه الرازى؟ وأمّا ما رواه عمرو بن الحمق فإنما هو خبر واحد فإنّ الامام ذليل كلامه بالآية قائلاً: بأنّ هذا ليس خبراً قطعياً وأنه فى مظان المحو والاثبات. أفيصح لأجل مثله رمى أئمة

الشيعة «بأنهم وضعوا قاعدتين وأنهم كلّموا يقولون سيكون لهم قوّة ثم لا يكون، قالوا بدا لله تعالى فيه؟». وقد سبق الرازي في هذا الزعم، أبو القاسم البلخي المعتزلي على ما حكاه شيخنا الطوسي في تبيانته (١) ثم إنّ اكمال البحث يتوقّف على ذكر أمور: الأمر الأول: إنّ البداء بالمعنى المذكور يجب أن يكون على وجه لا يستلزم تكذيب الأنبياء ووحيمهم بان تدلّ قرائن على صحّة الإخبار الأوّل كما صحّ الخبر الثاني، كما هو واضح لمن قرأ قصة يونس وإبراهيم الخليل فإنّ القوم قد شاهدوا طلائع العذاب فأذعنوا بصحّة خبر يونس كما أنّ التنفيذ بدبح عظيم دلّت على صحّة اخبار الخيل، وهكذا وجود الأفعى تحت الثياب أو في جوف حطب اليهودى يدلّان على صحّة اخبار النبي الأعظم. كل ذلك يشهد على أنّ الخبر الأوّل كان صحيحاً ومقدّراً، غير أنّ الإنسان يمكن له أن يغيّر مصيره بعلمه الصالح أو الطالح كما في غير تلك المقامات. _____

١. الطوسي: التبيان ١ / ١٣ - ١٤، طبع النجف، وقد عرفت بعض المتشدقين بهذه الكلمة الكاذبة.

(٣٣٥)

وبالجملة يجب أن يكون وقوع البداء مقروناً بما يدلّ على صحّة اخبار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا يكون البداء على وجه يعد دليلاً على كذبه، ففي هذه الموارد دلّت القرائن على أنّ المخبر كان صادقاً في خبره. الأمر الثاني:

إنّ البداء لا يتحقّق فيما يتعلّق بنظام النبوة والولاية والخاتمية والملاحم الغيبية التي تعدّ شعاراً للشريعة فإذا أخبر المسيح بمجيئ نبي اسمه أحمد أو أخبر النبي بكونه خاتماً للرسل أو أنّ الخلافة بعده لوصيه أو أنّه يخرج من ولده من يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ونظير ذلك، فلا يتحقّق فيه البداء قطعاً، لأنّ احتمال البداء فيه ناقض للحكمة، وموجب لضلال العباد، ولو كان احتمال هذا الباب مفتوحاً في تلك المسائل الأصولية، لما وجب لأحد أن يقتفى النبي المبشر به، ولا يوالى الوصى المنصوص ولا يتلقى دين الإسلام خاتماً ولا ظهور المهدي أمراً مقضياً بحجّه أنّه يمكن أن يقع فيها البداء، ففتح هذا الباب في المعارف والعقائد والأصول والسنن الإسلامية مخالف للحكمة وموجب لضلالة الناس. وهذا ما يستحيل على الله سبحانه وأنما مصبّ البداء هو القضايا الجزئية أو الشخصية، كما هو الحال في الأخبار الماضية. الأمر الثالث:

إنّ اطلاق البداء في هذه الموارد، إنّما هو بالمعنى الذي عرفت، وإنّ حقيقته بداء من الله للناس واطهار منه ولو قيل بدا لله، فإنّما هو من باب المشاكلة والمجاز، والقرآن ملئ به، فقد نسب الذكر الحكيم إليه سبحانه المكر وقال: (وَمَكَرُوا) (٣٣٦) وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١) وليست المناقشة في التعبير من دأب المحقّقين، فلو كان أهل السنّة لا يروقه فهم التعبير عن هذا الأصل بلفظ البداء لله. فليغيروا التعبير ويعبروا عن هذه الحقيقة الناصعة بتعبير يرضيهم.

ولكن الشيعة تبعت النبي الأكرم في هذا المصطلح وهو أوّل من استعمل تلك اللفظة في حقّه سبحانه، روى البخاري في كتاب النبوة «قصة بدء الخليفة» وفيها هذه اللفظة التي يستوحش منها أهل السنّة، روى أبو هريرة: أنّه سمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: إنّ ثلاثة في بني إسرائيل ابرص وأقرع واعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قدرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسناً وجلداً حسناً، فقال: أيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر - هو شك في ذلك أنّ الأبرص والأقرع قال أحدهما: الإبل وقال الآخر: البقر - فأعطى ناقه عشراء، فقال: يبارك الله لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا قدرني الناس. قال: فمسحه، فذهب، أعطى شعراً حسناً، قال: فأبى المال أحبّ إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: يرد الله إليّ بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فردّ الله إليه بصره. قال: فأبى المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاةً والداً فأنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من الغنم. _____

١. آل عمران / ٥٤، وهنا آيات أخرى يستدل بها على المشاكلة في التعبير عن الحقائق العلوية.

(٣٣٧)

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلغ عليه في سفري فقال له: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذررك الناس. فقيراً فأعطاك الله؟ فأجابه: لقد ورثت لكابر عن كابر؟ فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثلما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل وتقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله، ثم بك. أسألك بالذي رد عليك بصرك، شاء أتبلغ بها في سفري فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري وفقيراً فقد أغنانى فخذ ما شئت، فوالله لا أجدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: امسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبك (١). * * *

هذه حقيقة البداء، وهذا هو مفهومه في الثبوت والاثبات، قد دعمه الذكر الحكيم والسنة النبوية فماذا بعد الحق إلا الضلال.

١. البخارى: الصحيح ٤ / ١٧٢، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بنى اسرائيل .

(٣٣٩) المسألة الخامسة : التقيّة

التقيّة من المفاهيم القرآنية التي وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وفي تلك الآيات إشارات واضحة إلى الموارد التي يلجأ فيها المؤمن إلى استخدام هذا المسلك الشرعي خلال حياته أثناء الظروف العصيبة، ليصون بها نفسه وعرضه وماله، أو نفس من يمت إليه بصله وعرضه وماله، كما استعملها مؤمن آل فرعون لصيانته الكليم عن القتل والتنكيل (١) ولاذ بها عمّار عندما أخذ وأسير وهُدّد بالقتل (٢) إلى غير ذلك من الموارد الواردة في الكتاب والسنة، فمن المحتّم علينا أن نتعرف عليها، مفهوماً وغايةً ودليلاً وحداً، حتّى نتجنّب الإفراط والتفريط في مقام القضاء والتطبيق. إن التقيّة، إسم لـ «إتقى يتقى» (٣) والتاء بدل من الواو وأصله من الوقاية،

١. القصص / ٢٠ .

٢. النحل / ١٠٦ .

٣. قال ابن الأثير في النهاية ٥ / ٢١٧: وأصل اتقى: أوتقى فقلبت الواو ياء لكسرة قبلها ثم أبدلت تاء وأدغمت. ومنه حديث علي - عليه السلام - : كُنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، أى جعلناه وقايةً من العدو. ولاحظ السان العرب مادة «وقى» . (٣٤٠)

ومن ذلك اطلاق التقوى على اطاعة الله، لأن المطيع يتخذها وقايةً من النار والعذاب. والمراد هو التحفظ عن ضرر الغير بموافقه في قول أو فعل مخالف للحق . مفهومها:

إذا كانت التقيّة هي اتخاذ الوقاية من الشرّ، فمفهومها في الكتاب والسنة هو: إظهار الكفر وإبطال الإيمان، أو التظاهر بالباطل وإخفاء الحق. وإذا كان هذا مفهومها، فهي تُقابل النفاق، تُقابل الإيمان والكفر، فإنّ النفاق ضدها وخلافها، فهو عبارة عن إظهار الإيمان وابطان الكفر، والتظاهر بالحق وإخفاء الباطل، ومع وجود هذا التباين بينهما فلا يصحّ عدّها من فروع النفاق . نعم: من فسر النفاق بمطلق مخالفة الظاهر للباطن، وبه صوّر التقيّة - الواردة في الكتاب والسنة - من فروعه، فقد فسره بمفهوم أوسع ممّا هو عليه في القرآن، فإنّه يُعرّف المنافقين بالمظاهرين بالإيمان والمبطنين للكفر بقوله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) (١) فإذا كان هذا حدّ المنافق فكيف يعمّ من يستعمل التقيّة تجاه الكفار والعصاة فيخفي إيمانه ويظهر الموافقة لغاية صيانة النفس والنفيس، والعرض والمال من التعرض؟! ويظهر صدق ذلك إذا وقفنا على ورودها في التشريع الإسلامي، ولو كانت من قسم النفاق، لكان ذلك أمراً بالقبح ويستحيل على الحكيم أن يأمر به: (قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٢) .

١. المناقون / ١ .

٢. الأعراف / ٢٨ . (٣٤١) غايتها:

الغاية من التقيّة: هي صيانة النفس والعرض والمال، وذلك في ظروف قاهرة لا يستطيع فيها المؤمن أن يعلن عن موقفه الحق صريحاً خوفاً من أن يترتب على ذلك مضار وتهلكة من قوى ظالمة غاشمة كلجوء الحكومات الظالمة إلى الارهاب، والتشريد والنفي، والقتل والتنكيل، ومصادرة الأموال، وسلب الحقوق الحقة، فلا يكون لصاحب العقيدة الذي يرى نفسه محقاً محيص عن إبطانها، والتظاهر بما يوافق هوى الحاكم وتوجهاته حتى يسلم من الاضطهاد والتنكيل والقتل، إلى أن يُحدث الله أمراً . إنّ التقيّة سلاح الضعيف في مقابل القوى الغاشم، سلاح من يتلى بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا لشيء إلا لأنه لا يتفق معه في بعض المبادئ والأفكار . إنّما يمارس التقيّة من يعيش في بيئة صودرت فيها الحرية في القول والعمل، والرأى والعقيدة فلا ينجو المخالف إلا بالصمت والسكوت مرغماً أو بالتظاهر بما يوافق هوى السلطة وأفكارها، أو قد يلجأ إليها البعض كوسيلة لابد منها من أجل اغائة الملهوف المضطهد والمستضعف البذى لا- حول له ولا قوة، فيتظاهر بالعمل إلى جانب الحكومة الظالمة وصولاً إلى ذلك كما كان عليه مؤمن آل فرعون البذى حكاة سبحانه في الذكر الحكيم . إنّ أكثر من يعيب التقيّة على مستعملها، يتصور أو يصوّر أن الغاية منها هو تشكيل جماعات سرية هدفها الهدم والتخريب، كما هو المعروف من الباطنيين والأحزاب الإلحادية السرية، وهو تصور خاطئ ذهب إليه أولئك جهلاً أو عمداً دون أن يركزوا في رأيهم هذا على دليل ما أو حجة مقنعة، فإين ما ذكرناه من هذا الذي يذكره، ولو لم تلجئ الظروف القاهرة والأحكام المتعسفة هذا الجموع المستضعفة من (٣٤٢)

المؤمنين لما كانوا عمدوا إلى التقيّة، ولما تحمّلوا عبء اخفاء معتقداتهم ولدعوا الناس إليها علناً ودون تردد، إلا أن السيف والنطع صالح لا تترد كل الحكومات الفاسدة من التلويح بها أمام من يخالفها في معتقداتها وعقائدها . أين العمل الدفاعي من الأعمال البدائية التي يرتكها أصحاب الجماعات السرية للإطاحة بالسلطة امتطاء ناصية الحكم، فأعمالهم كلها تخطيطات مدبرة لغايات ساقطة . وهؤلاء هم الذين يحملون شعار «الغايات تبرر الوسائل» فكل قبيح عقلي أو ممنوع شرعي يستباح عندهم لغاية الوصول إلى المقاصد المشؤومة . إنّ القول بالتشابه بين هؤلاء وبين من يتخذ التقيّة غطاءً، وسلاحاً دفاعياً ليسلم من شر الغير، حتى لا يُقتل ولا يُستأصل، ولا تُنهب داره وماله، إلى أن يُحدث الله أمراً، من قبيل عطف المبائن على مثله . إنّ المسلمين القاطنين في الاتحاد السوفيتي السابق قد لاقوا من المصائب والمحن ما لا يمكن للعقول أن تحتملها ولا أن تتصورها، فإن الشيوعيين وطيلة تسلطهم على المناطق الإسلامية قبلوا لهم ظهر المِجَن، فصادروا أموالهم وأراضيهم، ومسكنهم، ومساجدهم، ومدارسهم، وأحرقوا مكاتبهم، وقتلوا كثيراً منهم قتلاً ذريعاً ووحشياً، فلم ينج منهم إلا من اتقاهم بشيء من التظاهر بالمرونة، واخفاء المراسم الدينية، والعمل على اقامة الصلاة في البيوت إلى أن نجّاهم الله سبحانه بانحلال تلك القوة الكافرة، فبرز المسلمون إلى الساحة من جديد، فملكوا أرضهم وديارهم، وأخذوا يستعيدون مجددهم وكرامتهم شيئاً، وما هذا إلا- ثمرة من ثمار التقيّة المشروعة التي أباحها الله تعالى لعباده بفضله وكرمه سبحانه على المستضعفين . فإذا كان هذا معنى التقيّة ومفهومها، وكانت هذه غايتها وهدفها، فهو أمر (٣٤٣)

فطرى يسوق الإنسان إليه قبل كل شيء عقله وثبته، وتدعوه إليه فطرته، ولأجل ذلك يستعملها كل من ابتلى بالملوك والساسة الذين لا- يحترمون شيئاً سوى رأيهم وفكرتهم ومطامعهم وسلطتهم ولا يترددون عن التنكيل بكل من يعارضهم في ذلك، من غير فرق بين المسلم - شيعياً كان أم سنيّاً - وغيره، ومن هنا تظهر جدوى التقيّة وعمق فائدتها. ولأجل دعم هذا الأصل الحيوي ندرس دليله من القرآن والسنة . دليلها في القرآن والسنة:

شرّعت التقيّة بنص القرآن الكريم حيث وردت جملة من الآيات الكريمة(١) سنحاول استعراضها في الصفحات التالية: الآية الأولى:
قال سبحانه: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(٢) . ترى أنه سبحانه يجوز إظهار الكفر كرهاً ومجاراةً للكافرين خوفاً منهم، بشرط أن يكون القلب مطمئناً بالإيمان،

مخالفة ومعاشرة ظاهرة، والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع (٢). ٣- قال الرازي في تفسير قوله تعالى: (إلا أن تتقوا منهم تقاة): المسألة الرابعة: اعلم: إن للتقية أحكاماً كثيرة ونحن نذكر بعضها: أ: إن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار، ويخاف منهم على نفسه، وحاله، فيداريهم باللسان وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهوم للمحبة والموالاة، ولكن بشرط أن يضمم خلافه وأن يعرض في كل ما يقول، فإن للتقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب. ب: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة: لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه» ولقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من قتل دون ماله فهو شهيد» (٣). ٤- وقال النسفي: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) إلا- تخافوا جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، أي ألا يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك فحينئذ يجوز لك اظهار الموالاة وإبطان المعادة (٤). ٥- وقال الألويسي: وفي الآية دليل على مشروعيتها التقية وعرفوها بمحافظه _____

١. الطبري: جامع البيان ٣ / ١٥٣ .

٢. الزمخشري: الكشاف ١ / ٤٢٢ .

٣. مفاتيح الغيب ٨ / ١٣ .

٤. النسفي: التفسير بهامش تفسير الخازن ١ / ٢٧٧ . (٣٤٧)

النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء. والعدو قسمان: الأول: من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين، كالكافر والمسلم. الثاني: من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية، كالجمال والمتاع والملك والامارة (١). ٦- وقال جمال الدين القاسمي: ومن هذه الآيات: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) استنبط الأئمة مشروعيتها التقية عند الخوف، وقد نقل الاجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه (ايتار الحق على الخلق) (٢). ٧- وفسر المراغي قوله تعالى: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) بقوله: أي ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم، فلهم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يبقى ذلك الشيء، إذ القاعدة الشرعية «إن درء المفسد مقدم على جلب المصالح». وإذا جازت موالاةهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين، إذاً فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة، وليس لها أن توالياها في شيء يضر المسلمين، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف، بل هي جائزة في كل وقت. وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق، لأجل التوقي من ضرر يعود من الأعداء إلى النفس، أو العرض، أو المال. فمن نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقايةً لنفسه من الهلاك، وقلبه مطمئن بالإيمان، _____

١. الألويسي: روح المعاني ٣ / ١٢١ .

٢. جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل ٤ / ٨٢ . (٣٤٨)

لا يكون كافراً يُعذر كما فعل عمار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرهاً وقلبه مطمئن بالإيمان وفيه نزلت الآية: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (١).

هذه الجمل الوافية والعبارات المستفيضة لا تدع لقائل مقالاً إلا أن يحكم بشرعية التقية بالمعنى الذي عرفته بل قد لا يجد أحد مفسراً أو فقيهاً وقف على مفهومها وغايتها يتردد في الحكم بجوازها، كما أنك أخي القارئ لا تجد انساناً واعياً لا يستعملها في ظروف عصيبة، ما لم تترتب عليها مفسدة عظيمة، كما سيوافيك بيانها عند البحث عن حدودها. وإنما المعارض لجوازها أو المغالط في مشروعيتها، فإنما يفسرها بالتقية الرائجة بين أصحاب التنظيمات السرية والمذاهب الهدامة كالنصيرية والدروز، والباطنية كلهم، إلا أن المسلمين جميعاً بريئون من هذه التقية الهدامة لكل فضيلة رابية. الآية الثالثة: قوله سبحانه: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (٢).

وكانت عاقبه أمره أن: (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) (٣) . وما كان ذلك إلا لأنه بتقوته استطاع أن ينجي نبي الله من الموت: (قَالَ) _____

١ . تفسير المراعى ٣ / ١٣٦ .

٢ . غافر / ٢٨ .

٣ . غافر / ٤٥ . (٣٤٩) يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (١) .

وهذه الآيات تدل على جواز التقيه لانقاذ المؤمن من شرّ عدوه الكافر . اتقاء المسلم من المسلم فى ظروف خاصة:

إنّ مورد الآيات وإن كان هو اتقاء المسلم من الكافر، ولكن المورد ليس بمخصص لحكم الآية فقط، إذ ليس الغرض من تشريع التقيه عند الابتلاء بالكفار إلا- صيانة النفس والنفس من الشر، فإذا ابتلى المسلم بأخيه المسلم الذى يخالفه فى بعض الفروع ولا يتردد الطرف القوى عن إيذاء الطرف الآخر، كأن ينكل به أو ينهب أمواله أو يقتله، ففى تلك الظروف الحرجه يحكم العقل السليم بصيانة النفس والنفس عن طريق كتمان العقيدة واستعمال التقيه، ولو كان هناك زور إنما يتوجه على من يتقى منه لا- على المتقى، فلو سادت الحرية جميع الفرق الإسلاميه، وتحملت كل فرقه آراء الفرقه الأخرى بصدر رحب، وفهمت بأن ذلك هو قدر اجتهادها، لم يضطر أحد من المسلمين إلى استخدام التقيه، ولساد الوائم مكان النزاع . وقد فهم ذلك ليف من العلماء وصرّحوا به، وإليك نصوص بعضهم: ١- يقول الإمام الرازى فى تفسير قوله سبحانه: (إلا أن تتقوا منهم تقاه) ظاهر الآية على أن التقيه إنما تحل مع الكفار الغالبين، إلا أن مذهب الشافعى - رضى الله عنه - : إنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلت التقيه محاماه عن النفس، وقال: التقيه جائزه لصون النفس، وهل هى جائزه لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه»، وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « من قتل دون ما له فهو شهيد» (٢) _____

١ . القصص - ٢٠ .

٢ . الرازى: مفاتيح الغيب ٨ : ١٣ فى تفسير الآية . (٣٥٠)

٢- ينقل جمال الدين القاسمى عن الإمام مرتضى اليمانى فى كتابه «إيثار الحق على الخلق» ما هذا نصه: «وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين - مع قتلهم - من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقيه عند ذلك بنص القرآن، واجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، ولا برح المحق عدواً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبى هريره - رضى الله عنه - أنه قال فى ذلك العصر الأوّل: حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعاءين، أما أحدهما فبثته فى الناس وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم (١) . ٣- وقال المراعى فى تفسير قوله سبحانه: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) : ويدخل فى التقيه مداراة الكفرة والظلمة الفسقه، وإلانة الكلام لهم، والتبسم، فى وجوههم وبذل المال لهم، لكف أذاهم وصيانته العرض منهم، ولا يعد هذا من الموالاة المنهى عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبرانى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «ما وقى المؤمن به عرضه فهو صدقه» (٢) . إنّ الشيعة تتقى الكفار فى ظروف خاصة لنفس الغايه التى لأجلها يتقيهم السنّى، غير أن الشيعى ولأسباب لا تخفى، يلجأ إلى اتقاء أخيه المسلم لالقصور فى الشيعى، بل فى أخيه الذى دفعه إلى ذلك لأنه يدرك أن الفتك والقتل مصيره إذا صرّح بمعتقده الذى هو موافق لأصول الشرع الإسلامى وعقائده، نعم كان الشيعى وإلى وقت قريب يتحاشى أن يقول: إنّ الله ليس له جهة، أو أنه تعالى لا يرى يوم القيامة، وإنّ المرجعيه العلميه والسياسيه لأهل البيت بعد رحله النبى الأكرم، أو أن حكم المتعه غير منسوخ. إنّ الشيعى إذا صرّح بهذه الحقائق - التى استنبطت من _____

١ . جمال الدين القاسمى: محاسن التأويل: ٤ / ٨٢ .

٢ . مصطفى المراعى: التفسير ٣ / ١٣٦ . (٣٥١)

الكتاب والسنة - سوف يعرض نفسه ونفيسه للمهالك والمخاطر. وقد مر عليك كلام الرازى وجمال الدين القاسمى والمراعى الصريح

في جواز هذا النوع من التقية، فتخصيص التقية بالتقية من الكافر فحسب جمود على ظاهر الآية وسد لباب الفهم، ورفض للملاك الذي سُرعَت لأجله التقية، واعداد لحكم العقل القاضى بحفظ الأهم إذا عارض المهم . والتاريخ بين أيدينا يحدثنا بوضوح عن لجوء جملة معروفة من كبار المسلمين إلى التقية في ظروف عصيبة أوشكت أن تؤدى بحياتهم وبما يملكون، وخير مثال على ذلك ما أورده الطبرى في تاريخه (٧ / ١٩٥ - ٢٠٦) عن محاولة المأمون دفع وجوه القضاء والمحدثين في زمانه إلى الإقرار بخلق القرآن قسراً حتى وإن استلزم ذلك قتل الجميع دون رحمة، ولما أبصر أولئك المحدثين حد السيف مشهراً عمدوا إلى مصانعة المأمون في دعواه وأسروا معتقدتهم في صدورهم، ولما عوتبوا على ما ذهبوا إليه من موافقة المأمون برروا عملهم بعمل عمار بن ياسر حين أكره على الشرك وقلبه مطمئن بالإيمان، والقصة شهيرة وصريحة في جواز اللجوء إلى التقية التي دأب البعض على التشنيع فيها على الشيعة وكأنهم هم الذين ابتدعوها من بنات أفكارهم دون أن تكون لها قواعد وأصول إسلامية ثابتة ومعلومة . الظروف العصبية التي مرت بها الشيعة:

الذى دفع بالشيعة إلى التقية بين اخوانهم وأبناء دينهم إنما هو الخوف من السلطات الغاشمة فلو لم يكن هناك في غابر القرون - من عصر الأمويين ثم العباسيين والعثمانيين - أى ضغط على الشيعة، ولم تكن بلادهم وعقر دارهم مخضبة بدمائهم والتاريخ خير شاهد على ذلك، كان من المعقول أن تنسى الشيعة كلمة التقية وأن تحذفها من ديوان حياتها، ولكن بالأسف إن كثيراً من اخوانهم كانوا أداة (٣٥٢)

طبيعة بيد الأمويين والعباسيين الذين كانوا يرون في مذهب الشيعة خطراً على مناصبهم، فكانوا يؤلبون العامة من أهل السنة على الشيعة يقتلونهم ويضطهدونهم وينكلون بهم، ولذا ونتيجة لتلك الظروف الصعبة لم يكن للشيعة، بل لكل من يملك شيئاً من العقل وسيلة إلا اللجوء إلى التقية أو رفع اليد عن المبادئ المقدسة التي هي أعلى عنده من نفسه وماله . والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى أو أن تعد، إلا أنا سنستعرض جانباً مختصراً منها: فمن ذلك ما كتبه معاوية بن أبي سفيان باستباحة دماء الشيعة أينما كانوا، وإليك نص ما ذكرته المصادر عن هذه الواقعة لتدرك محنة الشيعة: بيان معاوية إلى عماله:

روى أبو الحسن على بن محمّد بن أبي سيف المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً وبراءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة على - عليه السلام - فاستعمل عليها زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام على - عليه السلام -، فقتلهم تحت كل حجر ومدبر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة . ثم كتب إلى عامه نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البينة (٣٥٣)

أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكلوا به، واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة على - عليه السلام - ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقى إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه، ويحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمن عليه . وأضاف ابن أبي الحديد: فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن على - عليهما السلام - فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه، أو طريد في الأرض . ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين - عليه السلام -، وولى عبد الملك بن مروان، فاشتد على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض على وموالاة أعدائه، وموالاة من يدعى من الناس أنهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من البغض من على - عليه السلام - وعيبه، والعطن فيه، والشنآن له، حتى إن إنساناً وقف للحجاج - ويقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريش - فصاح به: أيها الأمير، إن أهلي

عقوني فسموني علياً، وإنّي فقير وبائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج، فتضحك له الحجاج، وقال: للطف ما توسلت به، قد وليتك موضع كذا(١). ونتيجة لذلك شهدت أوساط الشيعة مجازر بشعة على يد السلطات الغاشمة، فقتل الآلاف منهم، وأما من بقي منهم على قيد الحياة فقد تعرض إلى شتى صنوف التنكيل والارهاب والتخويف، والحق يقال إن من الأمور العجيبة أن يبقى لهذه الطائفة باقية رغم كل ذلك الظلم الكبير والقتل الذريع، بل العجب العجاب أن

١. شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٤ - ٤٦.

(٣٥٤)

تجد هذه الطائفة قد ازدادت قوة وعدة، وأقامت دولا وشيدت حضارات وبرز منها الكثير من العلماء والمفكرين. فلو كان الأخ السنّي يرى التقيّة أمراً محرّماً فليعمل على رفع الضغط عن أخيه الشيعي، وأن لا يضيق عليه في الحرية التي سمح بها الإسلام لأبنائه، وليعذوه في عقيدته وعمله كما هو عذر أناساً كثيراً خالفوا الكتاب والسنة وأراقوا الدماء ونهبوا الدور فكيف بطائفة تدين بدينه وتتفق معه في كثير من معتقداته، وإذا كان معاوية وأبناء بيته والعباسيون كلهم عنده مجتهدين في بطشهم وإراقه دماء مخالفيهم فماذا يمنعه عن إعدار الشيعة باعتبارهم مجتهدين. وإذا كانوا يقولون - وذاك هو العجيب - أن الخروج على الإمام علي - عليه السلام - غير مضر بعدالة الخارجين والتأثرين عليه، وفي مقدمتهم طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، وإن إثارة الفتن في صفين - التي انتهت إلى قتل كثير من الصحابة والتابعين وإراقه دماء الآلاف من العراقيين والشاميين - لا تنقص شيئاً من ورع المحاربين وهم بعد ذلك مجتهدون معذورون لهم ثواب من اجتهاد وأخطأ فلم لا يتعامل مع الشيعة ضمن هذا الفهم ويذهب إلى أنهم معذورين ومثابنين!! نعم كانت التقيّة بين الشيعة تزداد تارة وتتضائل أخرى، حسب قوة الضغط وضآلته، فشتان بين عصر المأمون الذي يجيز مادحي أهل البيت، ويكرم العلويين، وبين عصر المتوكل الذي يقطع لسان ذاكرهم بفضيلة. فهذا ابن السكيت أحد أعلام الأدب في زمن المتوكل، وقد اختاره معلماً لوالديه فسأله يوماً: أيهما أحب إليك ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ قال ابن السكيت: والله إن قبر خادم علي - عليه السلام - خير منك ومن ابنك. فقال المتوكل: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا ذلك به فمات. وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع (٣٥٥)

وأربعين ومائتين، وقيل ثلاث وأربعين، وكان عمره ثمانية وخمسين سنة. ولما مات سير المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم وقال: هذه دية والدك!!(١). وهذا ابن الرومي الشاعر العبقرى يقول في قصيدته التي يرثي بها يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي: اكل أوان للنبي محمّد * قتيل زكيّ بالدماء مضرّج بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم * لبواكم عمّا قليل مفرّج أبعاد المكنتى بالحسين شهيدكم * تضىء مصابيح السماء فتسرّج(٢) فإذا كان هذا هو حال أبناء الرسول، فما هو حال شيعتهم ومقتضى آثارهم؟! قال العلامة الشهرستاني: إن التقيّة شعار كل ضعيف مسلوب الحرية. إن الشيعة قد اشتهرت بالتقيّة أكثر من غيرها لأنها منيت باستمرار الضغط عليها أكثر من أية أمة أخرى، فكانت مسلوبه الحرية في عهد الدولة الأموية كلّها، وفي عهد العباسيين على طوله، وفي أكثر أيام الدولة العثمانية، ولأجله استشعروا بشعار التقيّة أكثر من أي قوم، ولما كانت الشيعة، تختلف عن الطوائف المخالفة لها في قسم مهم من الاعتقادات في أصول الدين وفي كثير من الأحكام الفقهيّة، والمخالفة تستجلب بالطبع رقابة وتصدقه التجارب، لذلك أضحت شيعة الأئمة من آل البيت مضطرة في أكثر الأحيان إلى كتمان ماتخص به من عادة أو عقيدة أو فتوى أو كتاب أو غير ذلك،

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣ / ٣٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢ / ١٦.

٢. ديوان ابن الرومي ٢ / ٢٤٣. (٣٥٦)

تبتغي بهذا الكتمان صيانة النفس والنفس، والمحافظه على الوداد والاخوة مع سائر اخوانهم المسلمين، لئلا تنشق عصا الطاعة، ولكي لا يحس الكفار بوجود اختلاف ما في المجتمع الإسلامي فيوسع الخلاف بين الأئمة المحمديّة. لهذه الغايات التزيهه كانت الشيعة

تستعمل التقيّة وتحافظ على وفاقها في الظواهر مع الطوائف الأخرى، متبعه في ذلك سيرة الأئمة من آل محمد وأحكامهم الصارمه حول وجوب التقيّة من قبيل: «التقيّة ديني ودين آبائي»، إذ أنّ دين الله يمشی على سنّه التقيّة لمسلوبي الحرية، دلّت على ذلك آيات من القرآن العظيم (١). روى عن صادق آل البيت - عليهم السلام - في الأثر الصحيح: «التقيّة ديني ودين آبائي» و: «من لا تقيّة له لا دين له» وكذلك هي. لقد كانت التقيّة شعاراً لآل البيت - عليهم السلام - دفعاً للضرر عنهم، وعن أتباعهم، وحقناً لدمائهم، واستصلاحاً لحال المسلمين، وجمعاً لكلمتهم، ولمّا لشعثهم، وما زالت سمه تُعرف بها الإمامية دون غيرها من الطوائف والأئم. وكل انسان إذا أحسّ بالخطر على نفسه، أو ماله بسبب نشر معتقده، أو النظار به لا بد أن يتكتم ويتقى مواضع الخطر. وهذا أمر تقتضيه فطرة العقول . من المعلوم أنّ الإمامية وأئمتهم لا قوا من ضرور المحن، وصنوف الضيق على حرياتهم في جميع العهود ما لم تلاقه أية طائفه، أو أمّة أخرى، فاضطروا في أكثر عهودهم إلى استعمال التقيّة في تعاملهم مع المخالفين لهم، وترك مظاهرهم، وستر عقائدهم، وأعمالهم المختصة بهم عنهم، لما كان يعقب ذلك من الضرر في الدنيا . ولهذا السبب امتازوا بالتقيّة وعرفوا بها دون سواهم . وللتقيّة أحكام من حيث وجوبها وعدم وجوبها، بحسب اختلاف مواقع خوف

١ . غافر / ٢٨، النحل / ١٠٦ .

(٣٥٧)

الضرر، مذكورة في أبوابها في كتب العلماء الفقهيّة (١) . حدّها:

قد تعرّف على مفهوم التقيّة وغايتها، ودليلها، بقى الكلام في تبين حدودها، فنقول: عرفت الشيعة بالتقيّة وأنهم يتقون في أقوالهم وأفعالهم، فصار ذلك مبدأ لوهم عالق بأذهان بعض السطحيين والمغالطين، فقالوا: بما أنّ التقيّة من مبادئ التشيع فلا يصحّ الاعتماد على كلّ ما يقولون ويكتبون وينشرون، إذ من المحتمل جداً أن تكون هذه الكتب دعايات والواقع عندهم غيرها. هذا ما نسمعه منهم مرّة بعد مرّة، ويكرره الكاتب الباكستاني «إحسان إلهي ظهير» في كتبه السقيمة التي يتحامل بها على الشيعة . ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ مجال التقيّة إنّما هو في حدود القضايا الشخصية الجزئية عند وجود الخوف على النفس والنفس، فإذا دلّت القرائن على أنّ في إظهار العقيدة أو تطبيق العمل على مذهب أهل البيت - يحتمل أن يدفع بالمؤمن إلى الضرر يصبح هذا المورد من مواردها، ويحكم العقل والشرع بلزوم الاتقاء حتّى يصون بذلك نفسه ونفيسه عن الخطر. وأمّا الأمور الكليّة الخارجة عن إطار الخوف فلا تتصور فيها التقيّة، والكتب المنتشرة من جانب الشيعة داخله في هذا النوع الأخير، إذ لا خوف هناك حتّى يكتب خلاف ما يعتقد، حيث ليس هناك لزوم للكتابة أصلاً في هذه الحال فله أن يسكت ولا يكتب شيئاً . فما يدعيه هؤلاء أنّ هذه الكتب دعايات لا واقعيات ناشئة عن عدم معرفتهم بحقيقة التقيّة عند الشيعة . والحاصل: أنّ الشيعة إنّما كانت تتقى في عصر لم تكن لهم

١ . مجلة المرشد ٣ / ٢٥٢، ٢٥٣، ولاحظ: تعليقه أوائل المقالات ص ٩٦ .

(٣٥٨)

دولة تحميهم، ولا قدره ولا منعه تدفع عنهم الأخطار. وأمّا هذه الأعصار فلا مسوغ ولا مبرر للتقيّة إلا في موارد خاصه . إنّ الشيعة وكما ذكرنا لم تلجأ إلى التقيّة إلا بعد أن اضطرت إلى ذلك، وهو حق لا اعتقد أن يخالفها فيه أحد ينظر إلى الأمور بله لا بعواطفه، إلا أنّ من الثوابت الصحيحة بقاء هذه التقيّة - إلا في حدود ضيقة - تنحصر في مستوى الفتاوى ولم تترجم إلا قليلاً على المستوى العملي، بل كانوا عملياً من أكثر الناس تضحية، وبوسع كل باحث أن يرجع إلى مواقف رجال الشيعة مع معاوية وغيره من الحكام الأمويين، والحكام العباسيين، أمثال حجر بن عدى، وميثم التمار، ورشيد الهجري، وكميل بن زياد، ومئات من غيرهم، وكمواقف العلويين على امتداد التاريخ وثوارتهم المتتالية . التقيّة المحرمة:

إنّ التقيّة تنقسم حسب الأحكام الخمسة، فكما أنّها تجب لحفظ النفوس والأعراض والأموال، فإنّها تحرم إذا ترتب عليها مفسدة أعظم،

كهدم الدين وخفاء الحقيقة على الأجيال الآتية، وتسلب الأعداء على شؤون المسلمين وحرمانهم ومعابدهم، ولأجل ذلك ترى أنّ كثيراً من أكابر الشيعة رفضوا التقيّة في بعض الأحيان وقدّموا أنفسهم وأرواحهم أضاحي من أجل الدين، فللتقيّة مواضع معينة، كما أنّ للقسم المحرم منها مواضع خاصة أيضاً. إنّ التقيّة في جوهرها كتم ما يحذر من إظهاره حتّى يزول الخطر، فهي أفضل السبل للخلاص من البطش، ولكن ذلك لا- يعني أنّ الشيعي جبان خائر العزيمة، خائف متردد الخطوات يملاً حناياه الذل، كلاً إنّ للتقيّة حدوداً لا تتعداها، فكما هي واجبة في حين، هي حرام في حين آخر، فالتقيّة أمام الحاكم الجائر كيزيد بن معاوية (٣٥٩)

مثلاً- محرّمة، إذ فيها الذل والهوان ونسيان المثل والرجوع إلى الوراء، فليست التقيّة في جوازها ومنعها تابعة للقوّة والضعف، وإنّما تحددها جوازاً ومنعاً مصالح الإسلام والمسلمين. إنّ للإمام الخميني - قدس سره - كلاماً في المقام نقله بنصه حتّى يقف القارئ على أنّ للتقيّة أحكاماً خاصة وربّما تحرم لمصالح عالية. قال - قدس سره -: تحرم التقيّة في بعض المحرمات والواجبات التي تمثل في نظر الشارع والمتشرعة مكانة بالغه، مثل هدم الكعبة، والمشاهد المشرفة، والرد على الإسلام والقرآن والتفسير بما يفسر المذهب ويطابق الالحاد وغيرها من عظام المحرمات، ولا تعمها أدلة التقيّة ولا الاضطرار ولا الاكراه. وتدل على ذلك معتبرة مسعدة بن صدقة وفيها: «فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقيّة مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنّه جائز» (١). ومن هذا الباب ما إذا كان المتقي ممن له شأن وأهميّة في نظر الخلق، بحيث يكون ارتكابه لبعض المحرمات تقيّة أو تركه لبعض الواجبات كذلك مما يعد موهنًا للمذهب وهاتكاً لحرمة، كما لو أكره على شرب المسكر والزنا مثلاً، فإنّ جواز التقيّة في مثله، تمسّكاً بحكومة دليل الرفع (٢) وأدلة التقيّة مشكل بل ممنوع، وأولى من ذلك كلّ في عدم جواز التقيّة وفيه ما لو كان أصل من أصول الإسلام أو المذهب أو ضروري من ضروريات الدين في معرض الزوال والهدم والتغيير، كما لو أراد المنحرفون الطغاة تغيير أحكام الارث والطلاق والصلاة والحج وغيرها من أصول الأحكام فضلاً عن أصول الدين أو المذهب، فإنّ التقيّة في مثلها غير جائزة، ضرورة أنّ تشريعها

١. الوسائل كتاب الأمر بالمعروف الباب ٢٥ الحديث رقم ٦.

٢. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «رفع عن أمّتي ما اضطروا إليه وما استكروهوا عليه». (٣٦٠)

لبقاء المذهب وحفظ الأصول وجمع شتات المسلمين لإقامة الدين وأصوله، فإذا بلغ الأمر إلى هدمها فلا تجوز التقيّة، وهو مع وضوحه يظهر من الموثقة المتقدمة (١). وهكذا فقد بينا للجميع الأبعاد الحقيقة والواقعية للتقيّة، وخرجنا بالنتائج التالية: ١- إنّ التقيّة أصل قرآني مدعم بالسنة النبوية، وقد استعملها في عصر الرسالة من ابتلى بها من الصحابة لصيانته نفسه فلم يعارضه الرسول بل أيده بالنص القرآني كما في قضية عمّار بن ياسر، حيث أمره - صلى الله عليه وآله وسلم - بالعودة إذا عادوا. ٢- إنّ التقيّة بمعنى تشكيل جماعات سرية لغاية التخريب والهدم، مرفوضة عند المسلمين عامة والشيعة خاصة، وهو لا يمت للتقيّة المتبناة من قبل الشيعة بصله. ٣- إنّ المفسرين في كتبهم التفسيرية عندما تعرضوا لتفسير الآيات الواردة في التقيّة اتفقوا على ما ذهب إليه الشيعة من إباحتها للتقيّة. ٤- إنّ التقيّة لا تختص بالاتقاء من الكافر، بل تعم الاتقاء من المسلم المخالف، الذي يريد السوء والبطش بأخيه. ٥- إنّ التقيّة تنقسم حسب انقسام الأحكام إلى أقسام خمسة، فبينما هي واجبة في موضع فهي محرّمة في موضع آخر. ٦- إنّ مجال التقيّة لا يتجاوز القضايا الشخصية، وهي فيما إذا كان الخوف قائماً، وأمّا إذا ارتفع الخوف والضغط، فلا موضوع للتقيّة لغاية الصيانة.

١. الإمام الخميني: الرسائل: ١٧١ - ١٧٨. (٣٦١) وفي الختام نقول:

نفترض أنّ التقيّة جريمة يرتكبها المتقي لصيانته دمه وعرضه وماله ولكنّها في الحقيقة ترجع إلى السبب الذي يفرض التقيّة على الشيعي المسلم ويدفعه إلى أن يتظاهر بشيء من القول والفعل الذي لا يعتقد به، فعلى من يعيب التقيّة للمسلم المضطهد، أن يسمح له الحرية في مجال الحياة ويتركه بحاله، وأقصى ما يصحّ في منطق العقل، أن يسأله عن دليل عقيدته ومصدر عمله، فإن كان على حجة بينة يتبعه، وإن كان على خلافها يعذره في اجتهاده وجهاده العلمي والفكري. نحن ندعو المسلمين للتأمل في الدواعي التي دفعت بالشيعة

إلى التقيّة، وأن يعملوا قدر الإمكان على فسخ المجال لاخوانهم في الدين فإن لكل فقيه مسلم، رأيه ونظره، وجهده وطاقته . إن الشيعة يقتفون أثر الأئمة أهل البيت في العقيدة والشريعة، ويرون رأيهم، لأنهم هم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأحد الثقلين اللذين أمر الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بالتمسك بهما في مجال العقيدة والشريعة، وهذه عقائدهم لا تخفى على أحد، وهي حجة على الجميع . نسأل الله سبحانه: أن يصون دماء المسلمين وأعراضهم عن تعرض أى متعرض، ويؤخذ صفوفهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويجمع شملهم، ويجعلهم صفواً واحداً في وجه الأعداء إنه بذلك قدير وبالإجابة جدير . (٣٦٢) (٣٦٣) المسألة السادسة: الرجعة

إن فكرة الرجعة التي تحدت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المرويّة عن أهل بيت الرسالة ممّا يشنع بها على الشيعة، فكأن من قال بها، رأى رأياً يوجب الخروج عن الدين، غير أن هؤلاء نسوا أو تناسوا أنّ أول من أبدى نظرية الرجعة هو الخليفة عمر بن الخطاب فقد أعلن عندما شاعت رحله النبي الأكرم بأنّه ما مات وليعودن فيقطعن أيدي وأرجل أقوام... عن أبي هريرة قال: لما توفى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قام عمر بن الخطاب، فقال: إن رجلاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - توفى، وإن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والله ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قدمات، والله ليرجعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا إنّ (٣٦٤)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مات (١) . ولا يخفى أنّ كلام الخليفة لو كان كلاماً حقيقياً لا بد أن يحمل على أنّ النبي ما مات موتاً لا رجوع فيه وإنما يرجع فيقوم بما أخبر عنه الخليفة، ولو أراد من نفى موته أنّه ما زال حياً فهو خلاف رأى جميع الصحابة الذين اتفقوا على موته، ولم يكن موت النبي أمراً يدركه جميع الناس ولا يدركه الخليفة . إنّ الرجعة بمعنى عود جماعة قليلة إلى الحياة الدنيوية قبل يوم القيامة ثم موتهم وحشرهم مجدداً يوم القيامة ليس شيئاً يصاد أصول الإسلام، وليس فيه انكار لأى حكم ضروري، وليس القول برجعتهم إلى الدنيا ينفي بعثهم يوم القيامة، وكيف لا يكون كذلك وقد أخبر سبحانه عن رجوع جماعة إلى الحياة الدنيوية، نظير: ١- إحياء جماعة من بنى إسرائيل (٢) . ٢- إحياء قتيل بنى إسرائيل (٣) . ٣- موت ألو ف من الناس وبعثهم من جديد (٤) . ٤- بعث عزيز بعد مائة عام من موته (٥) . ٥- إحياء الموتى على يد عيسى - عليه السلام - (٦) . فلو كان الاعتقاد برجوع بعض الناس إلى الدنيا قبل القيامة أمراً محالاً، فما معنى هذه الآيات الصريحة في رجوع جماعة إليها؟

١ . السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٣٠٥ .

٢ . البقرة / ٥٥ - ٥٦ .

٣ . البقرة / ٧٢ - ٧٣ .

٤ . البقرة / ٢٤٣ .

٥ . البقرة / ٢٥٩ .

٦ . آل عمران / ٤٩ . (٣٦٥)

ولو كان الرجوع إلى الدنيا على وجه الاطلاق تناسخاً فكيف تفسر هذه الآيات؟ إنّ الاعتقاد بالذکر الحكيم يجزنا إلى القول بأنّه ليس كل رجوع إلى الدنيا تناسخاً وأنما التناسخ الباطل عبارة عن رجوع الانسان إلى الدنيا عن طريق النطفة والمرور بمراحل التكوّن البشرى من جديد ليصير انساناً مرّة أخرى وأين هذا من الرجعة وعود الروح إلى البدن الكامل من جميع الجهات من دون أن يكون فيها رجوع من القوة إلى الفعلية، أو دخول روح في بدن آخر، إنساناً كان أو حيواناً؟! اتفقت الشيعة على بطلان التناسخ وامتناعه وقد كتبوا فيه مقالات ورسائل يقف عليها من كان له إلمام بكتبهم وعقائدهم، وقد ذكروا أنّ للتناسخ أنواعاً وأقساماً، غير أنّ الرجوع إلى الدنيا من خلال دخول الروح إلى البدن الذي فارقه عند الموت لا يعد تناسخاً، وأنما هو إحياء للموتى، الذي كان معجزه من معجزات المسيح . كل

ذلك يدل على أنه ليس أمام القول بالرجعة عراقيل وموانع وإنما هو أمر ممكن لو دلّ عليه الدليل القطعي نأخذ به وإلا فنذر في سبيله، والحال أن بعض الآيات والروايات تدل على أنه سيتحقق الرجوع إلى هذه الدنيا قبل يوم القيامة لبعض الناس على وجه الاجمال، وأما من هم؟. وفي أي وقت يرجعون؟. ولأى غرض يعودون إلى الدنيا؟ فليس هنا مقام بيانها، إنما نكتفي ببيان بعض الآيات الدالّة على وقوعه قبل البعث، وإليك الآيات . قال سبحانه: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ (٣٦٦) يُوزَعُونَ(١) .

لا- يشك من أمعن النظر في سياق الآيات وما ذكره المفسرون حولها، في أن الآية الأولى تتعلق بالحوادث التي تقع قبل يوم القيامة، وعليه تكون الآية الثانية مكتملة لها، وتدلل على حشر فوج من كل جماعة قبل يوم القيامة، والحال أن الحشر في يوم القيامة يتعلّق بالجميع لا بالبعض، يقول سبحانه (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا لَهُمْ فَلَمَّ نَغَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا(٢) . أبعده هذا التصريح يمكن تفسير الآية السابقة بيوم البعث والقيامة؟ وهذه الآية تعرب عن الرجعة التي تعتقد بها الشيعة في حق جماعة خاصية وأما خصوصياتها فلم يحدث عنها القرآن الكريم وجاء التفصيل في السنة . وقد سأل المأمون العباسي الامام الرضا - عليه السلام - عن الرجعة، فأجابه بقوله: إنها حق قد كانت في الأمم السالفة ونطق بها القرآن وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: يكون في هذه الأمة كل ما كان في الأمم السالفة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة(٣) . وأما من هم الرجعون؟ وما هو الهدف من إحيائهم؟ فيرجع فيه إلى الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، واجمال الجواب عن الأول أن الرجوعين لفيق من المؤمنين ولقيف من الظالمين . وقال المفيد ناقلاً عن أئمة أهل البيت: إنما يرجع إلى الدنيا عند قيام القائم، من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، وأما ما سوى هذين فلا رجوع

١ . النمل / ٨٢ - ٨٣ .

٢ . الكهف / ٤٧ .

٣ . بحار الأنوار ٥٣ / ٥٩ الحديث ٤٥ . (٣٦٧)

لهم إلى يوم المآب(١) . وقال أيضاً في المسائل السروية: والرجعة عندنا تختص بمن محض الإيمان، ومحض الكفر دون ما سوى هذين الفريقين(٢) . وإجمال الجواب عن الثاني ما ذكره السيد المرتضى، قال: إن الله تعالى يعيد عند ظهور المهدي - عجل الله تعالى فرجه الشريف - قومًا ممن كان تقدّم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ومشاهدة دولته ويعيد أيضاً قومًا من أعدائه لينتقم منهم . ذكر نكات:

١- إن الرجعة وإن كانت من مسلمة عقائد الشيعة، ولكن التشيع ليس منوطاً بالاعتقاد بها فمن أنكرها فقد أنكر عقيدة مسلمة، بين أكثر الشيعة، ولكن لم ينكر ركناً من أركان التشيع، ولأجل ذلك نرى ان جماعة من الشيعة أولوا الأخبار الواردة في الرجعة إلى رجوع الدولة إلى شيعتهم وأخذهم بمجاري الأمور دون رجوع أعيان الأشخاص، والباعث لهم على هذا التأويل هو عجزهم عن تصحيح القول بها نظراً واستدلالات، ولكن المحققين من الامامية، أخذوا بظواهرها وبينوا عدم لزوم استحالة عقلياً على القول بها لعموم قدره الله على كل مقدور، أجابوا عن الشبه الواردة عليها، وإلى هذا الاختلاف يشير الشيخ المفيد بقوله: وانفقت الإمامية على رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة وإن كان بينهم في معنى الرجعة اختلاف .

١ . الشيخ المفيد: تصحيح الاعتقاد ٤٠ .

٢ . الشيخ المفيد: تصحيح الاعتقاد ٤٠ . (٣٦٨)

ويشير إلى الاختلاف، تلميذه الجليل الشريف المرتضى في المسائل التي وردت عليه من الرى ومنها حقيقة الرجعة، فأجاب بأن الذي تذهب إليه الشيعة الإمامية بأن الله تعالى يعيد عند ظهور المهدي قومًا ممن كان تقدّم موته من شيعته، وقومًا من أعدائه، وأن من الشيعة، تأولوا الرجعة على أن معناها رجوع الدولة والأمر والنهي إلى شيعتهم، من دون رجوع الأشخاص وحياء الأموات(١) . ٢-

كيف يجتمع اعادة الظالمين مع قوله سبحانه: (و حرامٌ على قَورِيَهٗ اَهْلَكْنَاهَا اَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (٢) فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَنْفِي رَجوعِهِمْ بِنَاتًا، وحشر لفيق من الظالمين، يخالفها . والاجابة عن السؤال واضحة، فَإِنَّ الْآيَةَ مَخْتَصَّةٌ بِالظالمين الذين اهلَكوا في هذه الدنيا ورأوا جزاء عملهم فيها، فالآية تحكم بأنهم لا يرجعون، وأما الظالمون الذين رحلوا عن الدنيا بلا مؤاخذه فيرجع لفيق منهم ليروا جزاء عملهم فيها ثم يردون إلى أشد العذاب في الآخرة، فالآية تنفي رجوع لفيق من الظالمين الذين ماتوا حتف الأنف . ٣- إن الظاهر من قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (٣) هو نفى الرجوع إلى الدنيا بعد مجيء الموت لأي أحد . والاجابة عنها واضحة. ان الآيه كسائر السنن الإلهية الواردة في حق الإنسان، فهي تفيد أن الموت بطبعه ليس بعده رجوع وهذا لا ينافي رجوع البعض

١ . بحار الانوار ٥٣ / ١٣٨ .

٢ . الأنبياء / ٩٥ .

٣ . المؤمنون / ١٠٠ - ١٠١ . (٣٦٩)

استثناء ولمصالح عليا، كما مرّت الآيات الواردة في هذا المضممار . أضف إلى ذلك أن عود بعض الظالمين إلى الدنيا - على القول بالرجعة - إنما هو لأجل عقابهم والانتقام منهم، وأين هذا من طلب هؤلاء الكفار الرجوع لأجل تصحيح عملهم والقيام بما تركوه من الصالحات، وردّ هذا الفرع من الرجوع لا يكون دليلا على نفى النوع الأول منه .

(٣٧١) المسألة السابعة: زواج المتعة

ومما يشنّع به على الشيعة: قولهم بجواز نكاح المتعة، ويعدّون القول بتشريعه أو بعدم نسخه مخالفاً للكتاب والسنة. والمسألة فرعية فقهية لا- يناسب البحث عنها في كتب تاريخ العقائد، غير أنه لما كانت من شعائر فقه الشيعة، آثرنا أن نبث عنها في اطار الكتاب والسنة على وجه الاجمال حتى يقف القارئ على أن القول باصل تشريعها وعدم نسخها، مما يشبه الكتاب والسنة. وإن القول بعدم تشريعها بتاتا أو ادعاء نسخها يصادهما. وسيوافيك ان لفيقا من الصحابة والتابعين كانوا يفتون بجوازها وعدم نسخها وإنما منع عنها عمر بن الخطاب لحافر نفسى أو اجتهاد شخصى لا دليل عليه وليس حجة على الآخرين . وقد أبدى بنظيره فى متعة الحج فى زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (١) .

١ . لاحظ الفصل الرابع من هذا الجزء، المورد الثالث من الموارد التي اجتهدوا فيها مقابل النص .

(٣٧٢)

وأما زواج المتعة: وهو عبارة عن تزويج المرأة الحرة الكاملة إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع من نسب أو سبب أو رضاع أو احصان أو عدّة أو غير ذلك من الموانع الشرعية، بمهر مسمّى إلى أجل مسمّى بالرضا والاتفاق، فإذا انتهى الأجل تبين منه من غير طلاق. ويجب عليها مع الدخول بها إذا لم تكن يائسة أن تعتد عدّة الطلاق إذا كانت ممّن تحيض وإلا فبخمسة وأربعين يوما (١) . وولد المتعة ذكراً كان أو أنثى يلحق بالأب ولا- يُدعى إلاّ به، وله من الارث ما أوصانا الله سبحانه به فى كتابه العزيز. كما يرث من الأم وتشمله جميع العمومات الواردة فى الآباء والأبناء والأمهات وكذا العمومات الواردة فى الاخوة والأخوات والأعمام والعّمات . وبالجملة: المتمتع بها زوجة حقيقة وولدها ولد حقيقة ولا فرق بين الزوجين: الدائم والمنقطع إلاّ أنه لا توارث هنا ما بين الزوجين ولا قسم ولا نفقة لها. كما ان له العزل عنها وهذه الفوارق الجزئية فوارق فى الاحكام لا فى الماهية والماهية واحدة غير ان أحدهما مؤقت والآخر دائم. وإنّ الأوّل ينتهى بانتهاء الوقت والآخر ينتهى بالطلاق أو الفسخ . وقد أجمع أهل القبلة على أنه سبحانه شرّع هذا النكاح فى صدر الإسلام ولا- يشك أحد فى أصل مشروعيته وإنما وقع الكلام فى نسخه أو بقاء مشروعيته . والأصل فى مشروعيته قوله سبحانه: (وحلائلُ أبنائكم الذين من أضيالكم وأن تجتمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان عفورا رحيمًا * والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأجل لكم

١ . لاحظ الكتب الفقهية للشيعة الامامية في ذلك المجال .

(٣٧٣) ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحَصَّة نِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(١) .

والآية ناظرة إلى نكاح المتعة وذلك لوجه: ١- الحمل على النكاح الدائم يستلزم التكرار بلا وجه:

إن هذه السورة - سورة النساء - تكفلت ببيان أكثر ما يرجع إلى النساء من الأحكام والحقوق، فذكرت جميع أقسام النكاح في أوائل السورة على نظام خاص، أما الدائم فقد أشار إليه سبحانه بقوله: (وإن خفتن ألا تؤمنن في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء منى وثلاث ورباع وإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة...) (٢) . وأما أحكام المهر فقد جاءت في الآية التالية: (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) (٣) . وأما نكاح الاماء فقد جاء في قوله سبحانه: (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أهدان...) (٤) .

١ . النساء / ٢٣ - ٢٤ .

٢ . النساء / ٣ .

٣ . النساء / ٤ .

٤ . النساء / ٢٥ . (٣٧٤)

فقوله سبحانه: (فمن ما ملكت أيمانكم) إشارة إلى نكاح السيد لأمته، الذي جاء في قوله سبحانه أيضاً: (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين...) (١) . وقوله سبحانه: (فانكحوهن بإذن أهلهن) إشارة إلى الزواج من أمه الغير. فالى هنا تم بيان جميع أقسام النكاح فلم يبق إلا نكاح المتعة وهو الذي جاء في الآية السابقة، وحمل قوله سبحانه: (فما استمتعتم) على الزواج الدائم وحمل قوله: (فآتوهن أجورهن) على المهور والصدقات يوجب التكرار بلا وجه، وحمله على وجوب الصداق كله بالدخول، خلاف المتبادر على أنه يجب الكل بالعقد والطلاق قبله منصف. فالناظر في السورة يرى ان آياتها تكفلت ببيان أقسام الزواج على نظام خاص ولا يتحقق ذلك إلا بحمل الآية على نكاح المتعة كما هو ظاهرها أيضاً . ٢- تعليق دفع الأجرة على الاستمتاع:

إن تعليق دفع الأجرة على الاستمتاع في قوله سبحانه: (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) يناسب نكاح المتعة الذي هو زواج مؤقت لا النكاح الدائم، فإن المهر هنا يجب بمجرد العقد ولا ينتج وجوب دفع الكل إلا بالمس . ٣- تصريح جماعة من الصحابة على شأن نزولها:

ذكرت أمية كبيرة من أهل الحديث نزولها فيها وينتهي نقل هؤلاء إلى أمثال ابن عباس وأبي بن كعب وعبدالله بن مسعود وجابر بن عبدالله الأنصاري

١ . المؤمنون / ٦ .

(٣٧٥)

وحبيب بن أبي ثابت وسعيد بن جبير إلى غير ذلك من رجال الحديث الذين لا يمكن اتهامهم بالوضع والجعل . وقد ذكر نزولها من المفسرين والمحدثين: امام الحنابلة في مسنده (١) وأبو جعفر الطبري في تفسيره (٢) وأبو بكر الجصيص الحنفي في أحكام القرآن (٣) وأبو بكر البيهقي في السنن الكبرى (٤) ومحمود بن عمر الزمخشري في الكشاف (٥) وأبو بكر بن سعدون القرطبي في تفسير جامع أحكام القرآن (٦) وفخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب (٧)، إلى غير ذلك من المحدثين والمفسرين الذين جاءوا بعد ذلك إلى عصرنا هذا ولا نطيل الكلام بذكرهم . وليس لأحد أن يتهم هؤلاء الأعلام بذكر ما لا يتقون به. فبملاحظة هذه القرائن لا يكاد يشك في ورودها في نكاح المتعة . ونزيد بياناً بقوله سبحانه: (وأجل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحَصِّنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ) . إن قوله

سبحانه: (أن تبتغوا) مفعول له لفعل مقدر، أى يبين لكم ما يحلّ ممّا يحرم لأجل أن تبتغوا بأموالكم، وأمّا مفعول قوله: (تبتغوا) فيعلم من القرينة وهو النساء أى تطلبوا النساء، أى يبين الحلال والحرام لغاية ابتغائكم النساء

١ . مسند أحمد ٤ / ٤٣٦ .

٢ . تفسير الطبرى ٥ / ٩ .

٣ . أحكام القرآن ٢ / ١٧٨ .

٤ . السنن الكبرى ٧ / ٢٠٥ .

٥ . الكشاف ١ / ٣٦٠ .

٦ . جامع أحكام القرآن ٥ / ١٣ .

٧ . مفاتيح الغيب ٣ / ٢٦٧ . (٣٧٦)

من طريق الحلال لا- الحرام. وقوله سبحانه: (محصنين) وهو من الاحصان بمعنى العفة وتحصين النفس من الوقوع فى الحرام، وقوله سبحانه: (غير مسافحين) هو جمع مسافح بمعنى الزانى مأخوذ من السفح بمعنى صبّ السائل، والمراد هنا هو الزانى بشهادة قوله سبحانه فى الآية المتأخرة فى نكاح الإماء (وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف محصنات غير مسافحات) أى عفائف غير زانيات . ومعنى الآية: انّ الله تبارك وتعالى شرّع لكم نكاح ماوراء المحرّمات لأجل أن تبتغوا بأموالكم ما يحصنكم ويصون عفتكم ويصدّكم عن الزنا. وهذا المناط موجود فى جميع الأقسام: النكاح الدائم، والمؤقت والزواج بأمة الغير، المذكورة فى هذه السورة من أولها إلى الآية ٢٥ . هذا هو الذى يفهمه كلّ إنسان من ظواهر الآيات غير أنّ من لا يروقه الأخذ بظاهر الآية (فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهنّ) لرواسب نفسية أو بيئية حاول أن يطبق معنى الآية على العقد الدائم وذكر فى المورد شبّهات نشير إليها . الشبهة الأولى: إنّ الهدف فى تشريع النكاح هو تكوين الأسرة وإيجاد النسل وهو يختصّ بالنكاح الدائم دون المنقطع الذى لا يترتب عليه إلاّ إرضاء القوّة الشهوية وصبّ الماء وسفحه .

يجاب عنها بأنّه خلط بين الموضوع والفائدة المترتبة عليه. وما ذكر أنّما هو من قبيل الحكمة، وليس الحكم دائراً مدارها، ضرورة أنّ النكاح صحيح وإن لم يكن هناك ذلك الغرض. كزواج العقيم واليائسة والصغيرة. بل أغلب المتزوجين فى سن الشباب بالزواج الدائم لا يقصدون إلاّ قضاء الوطر واستيفاء الشهوة من طريقها المشروع، ولا يخطر ببالهم طلب النسل أصلاً وإن حصل لهم قهراً، ولا يقدر ذلك فى صحّة زواجهم . (٣٧٧)

ومن العجب حصر فائدة المتعة فى قضاء الوطر مع أنّها كالدائم قد يقصد منها النسل والخدمة وتدير المنزل وتربية الأولاد والارضاع والحضانة . ونسأل المانعين الذين يتلقون نكاح المتعة، مخالفاً للحكمة التى من أجلها شرّع النكاح، نسألهم عن الزوجين الذين يتزوجان نكاح دوام، ولكن نيوان الفراق بالطلاق بعد شهرين فهل هذا نكاح صحيح أو لا؟ لا أظن أنّ فقيهاً من فقهاء الإسلام يمنع ذلك، وإلاّ فقد أفتى بغير دليل ولا برهان فيتعين الأول. فأى فرق يكون حينئذ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى انّ المدّة المذكورة فى الأول دون الثانى؟ يقول صاحب المنار: إنّ تشديد علماء السلف والخلف فى منع المتعة يقتضى منع النكاح بتية الطلاق، وإن كان الفقهاء يقولون انّ عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت، ولم يشترطه فى صيغة العقد، ولكن كتمانها إيّاه يعدّ خداعاً وغشاً وهو أجدر بالبطان من العقد الذى يشترط فيه التوقيت (١) . أقول: نحن نفترض انّ الزوجين رضيا بالتوقيت لبناً، حتّى لا يكون هناك خداع وغش، فهو صحيح بلا اشكال . الشبهة الثانية: إنّ تسويغ النكاح المؤقت ينافى ما تقرّر فى القرآن كقوله عزّ وجلّ فى صفة المؤمنين: (والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)(٢).

والمراد من الآية أن من ابتغى وراء ذلك، هم المتجاوزون ما أحله الله لهم إلى ما حرّمه عليهم، والمرأة المتمتّع بها ليست زوجته

فيكون لها على الرجل مثل الذي

١. المنار ٥ / ١٧ .

٢. المؤمنون ٥ / ٧ - (٣٧٨)

عليها بالمعروف . يلاحظ عليه: أنها دعوى بلا دليل، فأنها زوجة ولها أحكام وعدم وجود النفقة وعدم وجود القسم، لا يخرجها عن الزوجية فإن الناشزة زوجة ليست لها النفقة وحق القسم. ومثلها الصغيرة. والعجب أن يستدل بعدم وجود الأحكام على نفى الماهية، فإن الزوجية رابطة بين الزوجين يترتب عليها أحكام وربما تختص بعض الأحكام ببعض الأقسام . الشبهة الثالثة: إن المتمتع في النكاح المؤقت لا يقصد الاحصان دون المسافحة، بل يكون قصده مسافحة، فإن كان هناك نوع ما من احصان نفسه ومنعها من التنقل في زمن الزنا، فإنه لا يكون فيه شيء ما من احصان المرأة التي توجب نفسها كل طائفة من الزمن لرجل فتكون كما قيل:

كرة حُذِفَتْ بصوالجته * فتلقفها رجل رجل (١) يلاحظ عليه: أنه من أين وقف على أن الاحصان في النكاح المؤقت، يختص بالرجل دون المرأة، فإننا إذا افترضنا كون العقد شرعياً، فكل واحد من الطرفين يُحصن نفسه من هذا الطريق، وإلا فلا محيص عن التنقل في زمن الزنا. والذي يصون الفتاة عن البغي أحد الأمور الثلاثة:

١- النكاح الدائم . ٢- النكاح المؤقت بالشروط الماضية . ٣- كبت الشهوة الجنسية . فالأول ربما يكون غير ميسور خصوصاً للطالب والطالبة الذين يعيشان بمنح ورواتب مختصرة يجريها عليهما الوالدان أو الحكومة، وكبت الشهوة الجنسية أمر

١. المنار ٥ / ١٣ .

(٣٧٩)

شاق لا يتحمّله إلا الأمثل فالأمثل من الشباب والمثلى من النساء، وهم قليلون، فلم يبق إلا الطريق الثاني، فيحصنان نفسيهما عن التنقل في بيوت الدعارة . إن الدين الإسلامي هو الدين الخاتم، ونبية خاتم الأنبياء، وكتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع فلا بد أن يضع لكل مشكلة اجتماعية، حلاً شرعياً، يصون بها كرامة المؤمن والمؤمنة، وعندئذ يطرح هذا السؤال نفسه : ماذا يفعل هؤلاء الطلبة والطالبات الذين لا يستطيعون القيام بالنكاح الدائم، وتمنع كرامتهم ودينهم عن التنقل في بيوت الدعارة والفساد، والحياة المادية بجماها توجب نار الشهوة في نفوسهم، فمن المستحيل عادة أن يصون نفسه أحد إلا من عصمه الله، فلم يبق طريق إلا ما ذكره الإمام علي بن أبي طالب، حيث قال: «لولا نهى عمر عن المتعة لما زنى إلا شقى أو شقية» . وأما تشبيه المتعة بما جاء في الشعر فهو يعرب عن جهل الرجل بحقيقة نكاح المتعة وحدودها، فإن ما جاء فيه هي المتعة الدورية التي ينسبها الرجل (١) وغيره إلى الشيعة، وهم براء من هذا الإفك إذ يجب على المتمتع بها بعد انتهاء المدّة، الاعتداد على ما ذكرنا، فكيف يمكن أن توجب نفسها كل طائفة من الزمن لرجل؟! سبحان الله ما أجرأهم على الكذب على الشيعة والفرية عليهم، وما مضمون الشعر إلا جسارة على الوحي والتشريع الإلهي، وقد اتفقت كلمة المحدثين والمفسرين على التشريع، وأنه لو كان هناك نهى أو نسخ فأنما هو بعد التشريع والعمل . الشبهة الرابعة: إن الآية منسوخة بالسنة، واختلفوا في زمن نسخه إلى أقوال شتى:

١- أبيحت ثم نهى عنها عام خبير .

١. لاحظ كتابه: السنة والشيعة ٦٥ - ٦٦ .

(٣٨٠)

٢- ما أخلت إلا في عمرة القضاء . ٣- كانت مباحة ونهى عنها في عام الفتح . ٤- أبيحت عام أو طاس ثم نهى عنها (١) . وهذه الأقوال تنفي الثقة بوقوع النسخ، على أن نسخ القرآن بأخبار الاحاد ممنوع جداً، وقد صحّ عن عمران بن الحصين أنه قال: «إن الله أنزل المتعة وما نسخها بأية أخرى وأمرنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالمتعة وما نهانا عنها، ثم قال رجل برأيه»، يريد به عمر بن الخطاب . إن الخليفة الثاني لم يدع النسخ وإنما أسند التحريف إلى نفسه، ولو كان هناك ناسخ من الله عزوجل أو من رسوله، لأسند

التحریم إليهما، وقد استفاض قول عمر وهو على المنبر: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء، بل نقل متكلم الأشاعرة في شرحه على شرح التجريد أنه قال: أيها الناس ثلاث كنّ على عهد رسول الله، وأنا أنهى عنهنّ، وأحرّمهنّ، وأعاقب عليهنّ: متعة النساء ومتعة الحج وحيّ على خير العمل (٢). وقد تقدم في الفصل الرابع بعض الكلام في ذلك أن ابن عباس قال لبعض المناظرين الذين كانوا يحتجون بنهي أبي بكر وعمر: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر، حتّى أن ابن عمر لما سئل عنها، أفتى بالاباحة، فعارضوه بقول أبيه، فقال لهم: أمر رسول الله أحقّ أن _____

١. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الأقوال: مسائل فقهية ٦٣ - ٦٤، الغدير ٦ / ٢٢٥، أصل الشيعة وأصولها ١٧١، والأقوال في النسخ أكثر مما جاء في المتن .

٢. مفاتيح الغيب ١٠ / ٥٢ - ٥٣، شرح التجريد للقوشجي ٤٨٤ طبع ايران . (٣٨١)

يتبع أم أمر عمر؟ كل ذلك يعرب عن أنه لم يكن هناك نسخ ولا نهى نبوي وإنما كان تحريماً من جانب الخليفة. لبعض المصالح المزعومة التي عبّر عنها في غير واحد من كلماته في المقام وفي متعة الحجّ، وقال:.... ورؤوسنا تقطر ماءً (١). المنكرون للتحريم: إن هناك لفيماً من الصحابة والتابعين أنكروا التحريم بحماس: ١- على أمير المؤمنين، في ما أخرجه الطبري بالاسناد إليه أنه قال: لولا أن عمر نهى عن المتعة مازنى إلا شقي (٢). ٢- عبد الله بن عمر، أخرج الامام أحمد من حديث عبد الله بن عمر، قال: قد سئل عن متعة النساء والله ما كنا على عهد رسول الله زانين ولا مسافحين، ثم قال: والله لقد سمعت رسول الله يقول: ليكوننّ قبل يوم القيامة المسيح الدجال وكذابون ثلاثون وأكثر (٣). ٣- عبد الله بن مسعود، روى البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نغزو مع رسول الله وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل معين، ثم قرأ علينا: (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المّعتردين) (٤)(٥). _____

١. المفيد: الارشاد ٩٣ طبع النجف .

٢. الطبري التفسير ٩ / ٥ .

٣. مسند أحمد ٢ / ٩٥ .

٤. صحيح البخاري، كتاب النكاح ٧ / ٤، الباب ٨، الحديث ٣ .

٥. المائدة / ٨٧ . (٣٨٢)

٤- عمران بن حصين، أخرج البخاري في صحيحه عنه، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله، ولم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتّى مات. قال رجل برأيه ما شاء (١). أخرج أحمد في مسنده عن أبي رجاء عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله وعملنا بها مع رسول الله، فلم تنزل آية تمنعها، ولم ينه عنها النبيّ حتّى مات (٢). ٥- وقد عمد المأمون الخليفة العباسي، أن يعلن بتحليل المتعة، ولكنّه خوفاً من الفتنة توقّف عن الاعلان قال ابن خلكان، نقلا عن محمد بن منصور: قال: كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لى ولأبى العيناء: بكرّا غداً إليه فإن رأيتما للقول وجهاً فقولاً، وإلا فاسكتا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو معتاض: متعتان كانتا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلى عهد أبي بكر - رضى الله عنه - وأنا أنهى عنهما، ومن أنت يا جعل حتّى تنهى عمّا فعله رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وآله وسلم - وأبو بكر - رضى الله عنه -؟! فأوما أبو العيناء إلى محمد بن منصور وقال: رجل يقول من عمر بن الخطاب نكلمه نحن؟ فأمسكنا، فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: مالي أراك متغيّراً؟ فقال: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عزّ وجلّ، وحديث _____

١ . صحيح البخارى ٦ / ٢٧، كتاب التفسير، تفسير سورة البقرة قول (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج).

٢ . مسند أحمد. لاحظ مسائل فقهية للسيد شرف الدين ٧٠ . (٣٨٣)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال الله تعالى: (فَدَأَلِمْ الْمُؤْمِنُونَ) إلى قوله: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)(١). يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملكة يمين؟ قال: لا، قال: فهي، الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين(٢). عزب عن ابن أكرم - وهو كان ممن يكنى العدا لآل البيت - أن المتعة داخله في قوله سبحانه (إلا على أزواجكم) وأما عدم الوراثة، فهو تخصيص في الحكم، وهو لا - ينافى ثبوتها، وكم لها من نظير، فالكافرة لا ترث الزوج المسلم، وبالعكس، كما أن القاتلة لا ترث وهكذا العكس، وأما الولد، فيلحق قطعاً ونفى اللحق ناشئاً من الجهل بحكمها أو التجاهل به . وما أفيح كلامه حيث فسّر المتعة بالزنا وقد أصفقت الأمة على تحليلها عصر الرسول والخليفة الأول، فحسب ابن أكرم أن الرسول حلل الزنا ولو مدّة قصيرة. كبرت كلمة تخرج من أفواههم:

وهناك روايات مأثورة عن الخليفة نفسه، تعرب عن أن التحريم كان صميم رأيه، من دون استناد إلى آية أو رواية . روى مسلم في صحيحه: عن ابن أبي نضرة قال: كان ابن عباس يامر بالمتعة وكان ابن الزبير ينهى عنها فذكر ذلك لجابر، فقال: على يدي دار

الحديث: تمتعنا مع _____

١ . المؤمنون / ١ - ٧.

٢ . ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦ / ١٤٩ - ١٥٠ . (٣٨٤)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلما قام عمر قال: إن الله كان يحلّ لرسوله ما شاء بما شاء فأتموا الحج والعمرة وابتوا نكاح هذه النساء فلئن أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمت بالحجارة(١). وروى الامام أحمد في مسنده عن ابن أبي نضرة: قلت لجابر: إن ابن الزبير ينهى عن المتعة وإن ابن عباس يأمر بها، فقال لي: على يدي جرى الحديث: تمتعنا مع رسول الله ومع أبي بكر فلما ولي عمر خطب الناس فقال: إن القرآن هو القرآن، وإن رسول الله هو الرسول، وإنهما كانتا متعتان على عهد رسول الله إحداهما متعة الحج والأخرى متعة النساء(٢). وهذه المأثورات تعرب أولاً: عن أن المتعة كانت باقية على الحل إلى عهد الخليفة ولم تكن محرمة إلى زمان تولى عمر الأمر فنهى ومنع . وثانياً: أنه باجتهاده قام بتحريم ما أحله الكتاب والسنة، ومن المعلوم أن اجتهاده - لو صحّت تسميته بالاجتهاد - حجّه على نفسه لا على غيره .

وفى الختام نقول: إن الجهل بفقهاء الشيعة أدى بكثير من الكتاب إلى القول أن من أحكام المتعة عند الشيعة أنه لا نصيب للولد من ميراث أبيه، وإن المتمتع بها لا - عدّة لها، وأنها تستطيع أن تنتقل من رجل إلى رجل إن شاءت. ومن أجل هذا استقبحوا المتعة واستنكروها وشنعوا على من أباحها . وقد خفي الواقع على هؤلاء، وإن المتعة عند الشيعة كالزواج الدائم لا تتم إلا بالعقد الدال على قصد الزواج صراحة، وإن المتمتع بها يجب أن تكون خالية من _____

١ . مسلم: الصحيح ٤ / ١٣٠ باب نكاح المتعة الحديث ٨، طبع محمد على صبيح .

٢ . أحمد: المسند ١ / ٥٢ . (٣٨٥)

جميع الموانع، وإن ولدها كالولد من الدائمة من وجوب التوراث، والانفاق وسائر الحقوق المادية وإن عليها أن تعتد بعد إنتهاء الأجل مع الدخول بها، وإذا مات زوجها وهي في عصمته اعتدّت كالدائمة من غير تفاوت، إلى غير ذلك من الآثار(١) .

١ . الاثنا عشرية وأهل البيت تأليف مغنية ٤٦ .

(٣٨٦) (٣٨٧) المسألة الثامنة: مسح الأرجل في الوضوء

اختلف المسلمون في غسل الرجلين ومسحهما، فذهب الأئمة الأربعة إلى أن الواجب هو الغسل وحده، وقالت الشيعة الامامية أنه المسح، وقال داود بن علي والناصر للحق من الزيدية يجب الجمع بينهما وهو صريح الطبري في تفسيره: ونقل عن الحسن البصري أنه مخير بينهما (١). ومما يثير العجب اختلاف المسلمين في هذه المسألة، مع أنهم رأوا وضوء رسول الله كل يوم ليلة في موطنه ومهجره، وفي حضره وسفره ومع ذلك اختلفوا في أشد المسائل ابتلاءً وهذا يعرب عن أن الاجتهاد لعب في هذه المسألة دوراً عظيماً، فجعل أوضح المسائل أبهما. إن الذكر الحكيم تكفل لبيان المسألة وما أبقى فيها ابهاماً واعضالاً، وكان الحاضرون في عصر النزول فهموا من الآية معنى واحداً. إما المسح أو الغسل،

١. الطبري: التفسير ٦ / ٨٦ ومفاتيح الغيب ١١ / ١٦٢ والمنار ٦ / ٢٢٨.

(٣٨٨)

ولم يترددوا في حكم الرجلين أبداً. ولو خفي حكم هذه المسألة بعد رحلة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - على الأجيال الآتية فلا غرو في أن يخفي على المسلمين حكم أكثر المسائل. وليس فيها شيء أوثق من كتاب الله فعلينا دراسة ما جاء فيه، قال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلوة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) (١) وقد اختلف القراء في قراءة (وأرجلكم إلى الكعبين) فمنهم من قرأ بالخفض، ومنهم من قرأ بالكسر. ومن البعيد أن تكون كل من القراءتين موصولة إلى النبي، فإن تجويزهما يضمنى على الآية ابهاماً واعضالاً، ويجعل الآية لغزاً، والقرآن كتاب الهداية والارشاد، وتلك الغاية تطلب لنفسها الوضوح وجلاء البيان، خصوصاً فيما يتعلق بالأعمال والأحكام التي يتلى بها عامية المسلمين، ولا تقاس بالمعارف والعقائد التي يختص الامعان فيها بالأمثل فالأمثل. وعلى كل تقدير فممن حقق مفاد الآية وبينها الامام الرازي في تفسيره، نقل كلامه بتلخيص: قال: حجة من قال بوجوب المسح مبنى على القراءتين المشهورتين في قوله (وأرجلكم) وهما: الأول: قرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم - في رواية أبوبكر عنه - بالجر. الثاني: قرأ نافع وابن عامر وعاصم - في رواية حفص عنه - بالنصب.

أما القراءة بالجر فهي تقتضى كون الأرجل معطوفة على الرؤوس، فكما وجب المسح في الرأس، فكذلك في الأرجل.

١. المائة / ٦.

(٣٨٩)

فإن قيل لم لا يجوز أن يكون الجر على الجوار؟ كما في قوله: «جُحِرُ ضَبُّ حَرْبٍ» وقوله: «كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مَرْمَلٍ». قيل: هذا باطل من وجوه: ١- إن الكسر على الجوار معدود من اللحن الذي قد يتحمل لأجل الضرورة في الشعر، وكلام الله يجب تنزيهه عنه. ٢- إن الكسر على الجوار إنما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما في قوله: «جُحِرُ ضَبُّ حَرْبٍ» فإن «الحَرْب» لا يكون نعتاً للضَبِّ بل للبحر، وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل. ٣- إن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب. وأما القراءة بالنصب فهي أيضاً توجب المسح، وذلك لأن «برؤوسكم» في قوله (فامسحوا برؤوسكم) في محل النصب (١) بامسحوا لأنه المفعول به ولكنها مجرورة لفظاً بالباء فإذا عطفت الأرجل على الرؤوس جاز في الأرجل النصب عطفاً على محل الرؤوس، وجاز الجر عطفاً على الظاهر. ونزيد بيانا أنه على قراءة النصب يتعين العطف على محل برؤوسكم ولا يجوز العطف على ظاهر (أيديكم) لاستلزامه الفصل بين العاطف والمعطوف عليه بجملة أجنبية وهو غير جائز في المفرد، فضلا عن الجملة، هذا هو الذي يعرفه المتدبر في الذكر الحكيم، ولا يسوغ لمسلم أن يعدل عن القرآن إلى غيره فإذا كان هو المهيمن

١. يقال ليس هذا بعالم ولا عاملا. قال الشاعر:

معاوى أننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

لاحظ: المغنى لابن هشام: الباب الرابع. (٣٩٠)

على جميع الكتب السماوية فأولى أن يكون مهيمناً على ما في أيدي الناس من الحقّ والباطل والمأثورات التي الحديث فيها ذو شجون(١) مع كونها متضاربة في المقام، فلو ورد فيها الأمر بالغسل، فقد جاء فيها الأمر بالمسح. رواه الطبري عن الصحابة والتابعين نشير إليه على وجه الاجمال: ١- ابن عباس، قال: الوضوء غسلتان ومسحتان. ٢- كان أنس إذا مسح قدميه بلهما. ولما خطب الحجاج وقال: ليس شيء من ابن آدم أقرب إلى خبثه في قدميه فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما، قال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله (واسمحو برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما. ٣- عكرمة، قال: ليس على الرجلين غسل وإنما نزل فيهما المسح. ٤- الشعبي قال: نزل جبرائيل بالمسح وقال: ألا ترى أنّ التيمم أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً. ٥- عامر: أمر أن يمسح في التيمم ما أمر أن يغسل بالوضوء وأبطل ما أمر أن يمسح في الوضوء: الرأس والرجلان. وقيل له: إنّ أناساً يقولون: إنّ جبرائيل نزل بغسل الرجلين فقال: نزل جبرائيل بالمسح. ٦- قتادة: في تفسير الآية: افترض الله غسلتين ومسحتين. ٧- الأعمش: قرأ «وأرجلكم» مخفوضه اللام. ٨- علقمة: قرأ «أرجلكم» مخفوضه اللام. ٩- الضحاك: قرأ «وأرجلكم» بالكسر.

١. لاحظ الجزء الأول من هذه الموسوعة: فصل «علل تكوّن المذاهب وأسبابه».

(٣٩١)

١٠- مجاهد: مثل ما تقدّم(١). وهؤلاء من أعلام التابعين وفيهم الصحابيان: ابن عباس وأنس وقد أصفقوا على المسح وقراءة الجر الصريح في تقديم المسح على الغسل، وجمهور أهل السنّة يحتجّون بأقوالهم في مجالات مختلفة، ولماذا، أعرض عنهم الأئمة الأربعة؟ أنا لا- أدري. إنّ القول بالمسح هو المنصوص عن أئمة أهل البيت وهم يُسندون المسح إلى النبي الأكرم ويحكون وضوءه به قال أبو جعفر الباقر - عليه السلام -: «ألا- أحكى لكم وضوء رسول الله؟ ثم أخذ كفاً من الماء فصبها على وجهه... إلى أن قال: ثم مسح رأسه وقدميه. وفي رواية أخرى ثم

مسح ببقية ما بقى في يديه، رأسه ورجليه ولم يعدهما في الاناء(٢). وفي ضوء هذه الروايات والمأثورات اتفقت الشيعة الامامية على أنّ الوضوء غسلتان ومسحتان وقال السيد بحر العلوم في منظومته الموسومة بالدرّة النجفية: إنّ الوضوء غسلتان عندنا ومسحتان والكتاب معنا فالغسل للوجه ولليدين والمسح للرأس وللرجلين وبعد وضوح دلالة الآية، واجماع أئمة أهل البيت على المسح، لا يبقى مجال للاستدلال على الغسل، وإليك ما ذكروا من وجوه باطله. ١- أنّ الأخبار الكثيرة وردت بإيجاب الغسل، والغسل مشتمل على المسح ولا ينعكس فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط فوجب المصير إليه ويكون غسل

١. الطبري: التفسير ٦ / ٨٢ - ٨٣.

٢. الحرّ العاملي: الوسائل ١، الباب ١٥ من أبواب الوضوء، الحديث ٩ و ١٠. (٣٩٢)

الأرجل يقوم مقام مسحها(١). يلاحظ عليه: أنّ أخبار الغسل معارضة بأخبار المسح، وليس شيء أوثق من كتاب الله فلو دلّ على لزوم المسح، لا يبقى مجال لترجيحه على روايات الغسل، والقرآن هو المهيم على الكتب والمأثورات، والمعارض منها للكتاب لا يقام لها وزن.

وأعجب من ذلك قوله: إنّ الغسل مشتمل على المسح، مع أنّهما حقيقتان مختلفتان، فالغسل إمرار الماء على المغسول، والمسح إمرار اليد على الممسوح(٢). وهما حقيقتان مختلفتان لغوً وعرفاً وشرعاً ولو حاول الاحتياط لوجب الجمع بين المسح والغسل، لا الاكتفاء بالغسل. ٢- ما روى عن علي أنّه كان يقضى بين الناس فقال «وأرجلكم» هذا من المقدم والمؤخر في الكلام فكأنه سبحانه قال: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق واغسلوا أرجلكم واسمحو برؤوسكم». يلاحظ عليه: أنّ أئمة أهل البيت كالباقر والصادق - عليهما السلام - أدري بما في البيت وهم اتفقوا على المسح وهل يمكن الاتفاق على المسح، مع اعتقاد كبيرهم بالغسل. وما روى موضوع عن لسان الامام ليشروا الشك بين أتباعه وشيعته. ولا نعلّق على احتمال التقديم والتأخير شيئاً، سوى أنّه يجعل معنى الآية شيئاً

مبهماً في المورد الذي يطلب فيه الوضوح، إذ هي المرجع للقروي والبدوي، وللحاضر عصر النزول، والغائب عنه، فيجب أن يكون على نسق ينتقل منه إلى المراد، ثم إنه _____

١. الرازي: مفاتيح الغيب ١١ / ١٦٢ .

٢. قال سبحانه حاكياً عن سليمان: (رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) - ص / ٣٣ - أي مسح بيده على سوق الصافنات الجياد وأعناقها. (٣٩٣)

أي ضرورة اقتضت هذا التقديم والتأخير، مع أنه كان من الممكن ذكر الأرجل بعد الأيدي من دون تأخير؟ ولو كان الدافع إلى التأخير هو بيان الترتيب، وإن غسل الأرجل بعد مسح الرأس، فكان من الممكن أن يُذكر فعله ويقال «فامسحوا برؤوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين». كل ذلك يعرب عن أن هذه محاولات فاشلة لتصحيح الاجتهاد تجاه النص وما عليه أئمة أهل البيت من الاتفاق على المسح. ٣- ما روى عن ابن عمر في الصحيحين قال: تخلف عنا رسول الله في سفره، فأدركنا وقد أرهقنا العصر، وجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، قال: فنادى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» - مرتين أو ثلاث - (١). يلاحظ عليه: أن هذه الرواية على تعيين المسح أدل من دلالة على غسل الرجلين فإنها صريحة في أن الصحابة كانوا يمسحون، وهذا دليل على أن المعروف عندهم هو المسح. وما ذكره البخاري من أن الإنكار عليهم كان بسبب المسح لا بسبب الاقتصار على بعض الرجل، اجتهاد منه، وهو حجة عليه لا على غيره، فكيف يمكن أن يخفى على ابن عمر حكم الرجلين حتى يمسح رجله عدّة سنين إلى أن ينكر عليه النبي المسح؟! على أن للرواية معنى آخر تؤيده بعض المأثورات، فقد روى أن قوماً من أجلاف العرب، كانوا يبولون وهم قيام فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سبباً لذلك الوعيد (٢) ويؤيد ذلك ما يوصف به بعض الأعراب بقولهم: بوال على عقبه، وعلى فرض كون المراد ما ذكره البخاري، فلا تقاوم الرواية نص الكتاب. _____

١. صحيح البخاري ج ١ كتاب العلم ص ١٨ باب من رفع صوته، الحديث ١ .

٢. مجمع البيان ٢ / ١٦٧. (٣٩٤)

٤- روى ابن ماجه القزويني عن أبي إسحاق عن أبي حية، قال: رأيت علياً توضأ فغسل قدميه إلى الكعبين ثم قال: أردت أن أريكم ظهور نبيكم (١). يلاحظ عليه: أن أبا حية مجهول لا يعرف، ونقله عنه أبو إسحاق المذني شاخ ونسي واختلط وترك الناس روايته (٢) أضف إليه أنه يعارض ما رواه عنه أهل بيته، وأئمة أهل بيته، خصوصاً من لازمه في حياته وهو ابن عباس كما مرّ .

٥- قال صاحب المنار: وأقوى الحجج اللفظية على الامامية جعل الكعبين غاية طهارة الرجلين وهذا لا يحصل إلا باستيعابهما بالماء، لأن الكعبين هما العظمان الناتان في جانبي الرجل. يلاحظ عليه: أننا نفترض أن المراد من الكعبين هو ما ذكره، لكن نسأله: لماذا لا تحصل تلك الغاية إلا باستيعابهما بالماء؟ مع أنه يمكن تحصيل تلك الغاية بمسحهما بالنداوة المتبقية في اليد، والاختبار سهل، فها نحن من الذين يمسحون الأرجل إلى العظمين الناتئين بنداوة اليد ولا نرى في العمل اعضالا وعسراً .

٦- الامامية يمسحون ظاهر القدم إلى معقد الشراك عند المفصل بين الساق والقدم، ويقولون هو الكعب، ففي الرجل كعب واحد على رأيهم، فلو صح هذا لقال إلى الكعاب كما قال في اليمين إلى المرافق (٣). يلاحظ عليه: إن المشهور بين الامامية هو تفسير الكعب بقتية القدم التي هي معقد الشراك، وهناك من يذهب إلى أن المراد هو المفصل بين الساق والقدم وذهب قليل منهم إلى أن المراد هما العظمان الناتان في جانبي الرجل وعلى كل تقدير، يصح _____

١. سنن ابن ماجه ١ / ١٧٠ باب ما جاء في غسل القدمين الحديث الأول .

٢. لاحظ التعليق لسنن ابن ماجه ١٧٠ وميزان الاعتدال للذهبي ٤ / ٥١٩، برقم ١٠١٣٨ و ص ٤٨٩ باب «أبو إسحاق» .

٣. المنار ٦ / ٢٣٤. (٣٩٥)

إطلاق الكعبين، وإن كان حدّ المسح هو معقد الشراك أو المفصل، فيكون المعنى «فامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين منكم» إذ لا شك

أن كل مكلف يملك كعبين في رجله . أضف إلى ذلك أنه لو صحّ التفسير بما ذكره يجب أن يوسع الممسوح ويحدّد بالعظمين الناتئين لا أن يبذل المسح بالغسل، وكأنه تخيل أن المسح بالنداوة المتبقية في اليد لا يتحقق إليهما وتجفّ اليد قبل الوصول إليهما . ولعمري أنّ هذه اجتهادات واهية، وتخزّصات لا قيمة لها في مقابل الذكر الحكيم . ٧ - آخر ما عند صاحب المنار في توجيه غسل الأرجل هو التمسك بالمصالح، حيث قال: لا يعقل لإيجاب مسح ظاهر القدم باليد المبللة بالماء حكمه، بل هو خلاف حكمه الوضوء، لأنّ طروء الرطوبة القليلة على العضو الذي عليه غبار أو وسخ، يزيده وساخه، وينال اليد الماسحة حظ من هذه الوساخة . يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره استحسان لا- يُعَرَّج عليه مع وجود النص، فلا شك أنّ الأحكام الشرعية تابعة للمصالح الواقعية ولا يجب علينا أن نقف عليها، فأى مصلحة في المسح على الرأس ولو بمقدار اصبع أو اصبعين حتّى قال الشافعي: إذا مسح الرجل باصبع واحدة أو بعض اصبع أو باطن كفه، أو أمر من يمسح له أجزاء ذلك، وهناك كلمة قيمة للامام شرف الدين الموسوي تأتي بنصها، فقال: نحن نؤمن بأنّ الشارع المقدّس لاحظ عباده في كل ما كلفهم به من أحكامه الشرعية، فلم يأمرهم إلاّ بما فيه مصلحتهم، ولم ينههم إلاّ عمّا فيه مفسدة لهم، لكنّه مع ذلك لم يجعل شيئاً من مدارك تلك الأحكام منوطاً من حيث المصالح والمفاسد بآراء العباد، بل تعبدهم بأدلة قويّة عيّنهم لهم، فلم يجعل لهم مندوحة عنها إلى ما سواها. وأوّل تلك الأدلّة الحكيمه كتاب الله عزّوجلّ، وقد حكم بمسح الرؤوس والأرجل في الوضوء، (٣٩٦)

فلا مندوحة عن البخوع لحكمه، أمّا نقاء الأرجل من الدنس فلا يبدّ من احرازه قبل المسح عليها عملاً بأدلة خاصّة دلّت على اشتراط الطهارة في أعضاء الوضوء قبل الشروع فيه (١) ولعلّ غسل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رجله - المدعى في أخبار الغسل - أنّما كان من هذا الباب ولعلّه كان من باب التبرّد، أو كان من باب المبالغة في النظافة بعد الفراغ من الوضوء والله أعلم (٢) .

١ . ولذا ترى حفاة الشيعة والعمال منهم كأهل الحرث وأمثالهم وسائر من لا يبالون بطهارة أرجلهم في غير أوقات العبادة المشروطة بالطهارة، إذا أرادوا الوضوء غسلوا أرجلهم ثمّ توضّأوا فمسحوا عليها نقيّة جافّة .
٢ . مسائل فقهية ٨٢ .

(٣٩٧) المسألة التاسعة: عقيدة الشيعة الإمامية في الصحابة

صحابه النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - هم الذين رأوا النبي الأكرم وتشرفوا بكرامة الصحبة وبذل ليف منهنم النفس والنفس في نشر الإسلام حتّى ضرب بجرانه وأتسع نطاقه. فشادوا بنيانه، ورفعوا قواعده بجهادهم المتواصل، وبلغوا ذروة المجد باستسهال المصاعب، فلولا بريق سيفهم، وقوّة سواعدهم، وخوضهم عباب المنايا، لما قام للدين عمود، ولا اخضر له عود. إنّ الكتاب والسنة هما المصدران الرئيسيان عند المسلمين جميعاً، والشيعة خاصة، ولا يجوز لمسلم أن يحكم بأمر شرعيّ إلاّ بالرجوع إليهما. ولا يخالفهما إلاّ منافق أو تاجر بالدين . والكتاب والسنة يثيان على الصحابة، ومن تلى آيات الذكر الحكيم حول (٣٩٨)

المهاجرين والذين اتّبعوهم بإحسان (١) يغبط هؤلاء ويتمنى من صميم قلبه أن يكون أحدهم. ويدرك شأنهم، ومن استمع للآيات النازلة في المبايعين تحت الشجرة (٢) أو أصحاب سورة الفتح (٣) فاضت عيناه دموعاً من الشوق إلى هؤلاء الذين ركبوا الطريق، ومضوا، وتعاقدوا على المتيّة . فإذا كان هذا حال الصحابة في الذكر الحكيم فكيف يتجرّأ مسلم على تكفير الصحابة ورميهم بالردّة والزندقه أو تفسيقهم جميعاً. (سبحانك هذا بهتان عظيم) . وكيف يستطيع أن يصوّر دعوة النبي ضئيّلة الفائدة أو يتهمه بعدم النجاح في هداية قومه وارشاد أمته وأنّه لم يؤمن به إلاّ - شردمة قليلة لا- يتجاوزون عدد الأصابع وإنّ ما سواهم كانوا بين منافق ستر كفه بالتظاهر بالايمان، أو مرتدّ على أدباره القهقري بعد رحلة النبي الأكرم . كيف يجوز لمسلم أن يصف دعوته ويقول: أنّه لم يهتد ولم يثبت على الإسلام بعد مرور (٢٣) عاماً من الدعوة إلاّ ثلاثة أو سبعة أو عشرة. وأي شيعي واع ادعى ذلك؟ ومتى قال؟ وأين ذكره؟ إنّ هو إلاّ جزء من الدعايات الفارغة ضدّ الشيعة أثارها الأمويّون في أعصارهم، ليسقطوا الشيعة من عيون المسلمين وتلقفتها أقلام

المستأجرين لتمزيق الوحدة الإسلامية وفصم عرى الاخوة. وترى تلك الفرية في هذه الأيام في كتيب نشره الكاتب أبو الحسن الندوى أسماه بـ «صورتان متعارضتان». وهو يجتز ذلك مرة بعد أخرى يجتره صنائع الوهاية في المنطقة. نعم وردت روايات في ذلك ولكنها لا تكون مصدراً للعقيدة ولا تتخذ مقياساً

١. التوبة: ١٠٠: (والذين اتبعوهم بإحسان...).

٢. الفتح: ١٨: (لقد رضى الله عن المؤمنين...).

٣. الفتح: ٢٩: (محمد رسول الله والذين معه...). (٣٩٩)

لها لأنها روايات آحاد لا تفيد علماً في مجال العقائد، وستوافيك دراسة متنها وسنراها. إننا لو أحصينا المهتدين في عصر الرسول من بني هاشم لتجاوز عددهم العشرات بدءاً من عمه أبي طالب ومروراً بصفية عمته، وفاطمة بنت أسد، وبحمزة والعباس وجعفر وعقيل وطالب وعبيدة بن الحارث «شهيد بدر» وأبي سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وجعدة بن أبي هبيرة وأولادهم وزوجاتهم، وانتهاءً بعلى - عليه السلام - وأولاده وبناته وزوجته سيده نساء العالمين. أما الذين استشهدوا في عهد النبي الأكرم فهم يتجاوزون المئات ولا يشك أي مسلم في أنهم كانوا من المؤمنين الصادقين الذين حولهم الإسلام وأثر فيهم، وضربوا في حياتهم أروع الأمثلة في الايمان والتوحيد والتضحية، بالغالي والرخيص، خدمة للمبدأ والعقيدة. ابتداءً من ياسر وزوجته سمية أول شهيد وشهيدة في الإسلام وكان الرسول يقول لهم وهو يسمع أنينهم تحت سياط التعذيب: «صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة» (١) مروراً بمن توفى في مهجر الحبشة إلى شهداء بدر وأحد، وقد استشهد في معركة أحد سبعون صحابياً دفنهم النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وصلى عليهم وكان يزورهم ويسلم عليهم، ثم شهداء سائر المعارك والغزوات حتى قال النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في حق سعد بن معاذ شهيد غزوة الخندق: اهتز العرش لموته، وشهداء بئر معونة ويتراوح عدد الشهداء بين ٤٠ حسب رواية أنس بن مالك أو ٧٠ حسب رواية غيره، إلى غير ذلك من الأصحاب الصادقين الأجلاء الذين: (صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

١. السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٢٠ طبعة الحلبي .

(٤٠٠) قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(١)، (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخَظُوهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(٢)، (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغُونَ فُضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤِثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٣) .

أولست هذه الآيات تثبت نجاح النبي في دعوته، وأنه اجتمع حوله رجال صالحون ومخلصون فكيف يمكن رمي مسلم يتلو الذكر الحكيم ليل نهار باعتقاده بخيبة النبي الأكرم في دعوته وتهالكه في هداية أمته. إن الموقف الصحيح من الصحابة، هو ما جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - : «أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمارة؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظرائهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على الميتة وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟ أوه على اخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه وتدبروا الفرض فأقاموه. أحيوا السنة وأماتوا البدعة دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه» (٤). وليس ما جاء في هذه الخطبة فريداً في كلامه، فقد وصف أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم صفين، يوم فرض عليه الصلح بقوله:

١. الأحزاب / ٢٣ .

٢. آل عمران / ١٧٣ .

٣. الحشر / ٨ - ٩ .

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢ . (٤٠١)

«ولقد كنّا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نقلت آباءنا وأبناءنا وأخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم، وجدداً في جهاد العدو، ولقد كان الرجل منا والآخرون من عدونا يتصاولون يتصاولون الفحلين، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كاس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام ملقياً جرائه ومتبوّناً أوطانه، ولعمري لو كنّا نأتى ما أتيتم ما قام للدين عمود، ولا اخضرّ للإيمان عود» (١). هذه كلمة الامام قائد الشيعة وامامهم أهل يجوز لمن يؤمن بإمامته أن يكفر جميع صحابة النبي أو يفسقهم أو ينسبهم إلى الزندقة والالحاد أو الارتداد، من دون أن يقسمهم إلى أقسام ويصنّفهم اصنافاً ويذكر تقاسيم القرآن والسنة في حقهم؟ كلاً ولا، وهذا هو الامام علي بن الحسين يذكر في بعض أدعيته صحابة النبي ويقول: اللهم وأصحاب محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء احسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في اظهار كلمته، وقتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته وانتفت منهم القربات إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاء لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخرجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في اعزاز دينك من مظلومهم، اللهم واوصل التابعين

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥٦.

(٤٠٢)

لهم باحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا... (١). فإذا كان الحال كذلك، وأتفق الشيعة والسني على اطراء الذكر الحكيم للصحابة والثناء عليهم فما هو موضع الخلاف بين الطائفتين كي يعد ذلك من أعظم الخلاف بينهما؟ إن موضع الخلاف ليس إلا في نقطة واحدة وهي أن أهل السنة يقولون بأن كل من رأى النبي وعاشه ولو يوماً أو يومين فهو محكوم بالعدالة منذ اللقاء إلى يوم أدرج في كفه، ولو صدر منه قتل أو نهب أو زنا أو غير ذلك، محتجين بما نسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم. ولو تليت عليهم التواريخ المتضاربة يقولون بما ذكره الحسن البصري: اولئك الذين طهر الله سيوفنا عن دمائهم فلنظهر ألسنتنا عن أعراضهم. ولا أظن أن الحسن البصري يعتقد بما قال. وقد تدرع بهذه الكلمة وصان بها نفسه عن هجمات الأميين الذين كانوا يروجون عدالة الصحابة في جميع الأزمنة بل يلبسونهم ثوب العصمة، إلى حدّ كان القدر بالصحابي أشد من القدر برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فنفي العصمة عن النبي واتهامه بالذنب قبل بعثه وبعده كان أمراً سهلاً يطرح بصورة عقيدة معقولة ولا يؤاخذ القائل به، وأما من نسب صغيرة أو كبيرة إلى صحابي فأهون ما يواجهونه به هو الاستتابة وإلا فالقتل.. فإذا كان هذا هو محلّ النزاع أي عدالة الكل بلا استثناء أو تصنيفهم إلى مؤمن وفاسق ومثالي وعادي، إلى زاهد ومتوغل في حب الدنيا، إلى عالم بالشرعية وعامل بها وجاهل لا يعرف منها إلا شيئاً طفيفاً، فيجب تحليل المسألة على ضوء الكتاب والسنة مجردين عن كل رأى مسبق لا النزول على العاطفة التي تحمل المسلم

١. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤.

(٤٠٣)

على الحكم بنزاهة الصحابة كلهم، ورفض ما خلفته الحوافز. ولأجل اماطة الستر عن وجه الحقيقة نذكر أموراً: الصحابة في القرآن الكريم:

١- إن القرآن الكريم يصنّف الصحابة إلى اصناف مختلفة، فهو يتكلم عن السابقين الأولين، والمبايعين تحت الشجرة، والمهاجرين المهجرين عن ديارهم وأموالهم، وأصحاب الفتح، إلى غير ذلك من الأصناف المثالية، الذين يثنى عليهم ويذكرهم بالفضل والفضيلة،

وفي مقابل ذلك يذكر أصنافاً أخرى يجب أن لا- تغيب عن أذهاننا وتلك الأصناف هي التالية: ١- المنافقون المعروفون (١) . ٢- المنافقون المتسترون الذين لا يعرفهم النبي (٢) . ٣- ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب (٣) . ٤- السماعون لأهل الفتنة (٤) . ٥- المجموعة الذين خطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً (٥) . ٦- المشرفون على الارتداد عندما دارت عليهم الدوائر (٦) .

١ . المنافقون / ١ .

٢ . التوبة / ١٠١ .

٣ . الأحزاب / ١١ .

٤ . التوبة / ٤٥ - ٤٧ .

٥ . التوبة / ١٠٢ .

٦ . آل عمران / ١٥٤ . (٤٠٤)

٧- الفاسق أو الفساق الذين لا يصدق قولهم ولا فعلهم (١) . ٨- المسلمون الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم (٢) . ٩- المؤلف قلوبهم الذين يظهرون الإسلام ويتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم (٣) . ١٠- المولون أمام الكفار (٤) . هذه الأصناف إذا انضمت إلى الأصناف المتقدمه، تعرب عن أن صحابه النبي الأكرم لم يكونوا على نمط واحد، بل كانوا مختلفين من حيث قوة الإيمان وضعفه، والقيام بالوظائف والتخلي عنها، فيجب اخضاعهم لميزان العدالة الذي توزن به أفعال جميع الناس، وعندئذ يتحقق ان الصحبة لا تعطى لصحابها منقبة إلا إذا كان أهلاً لها، ومع ذلك فكيف يمكن رمي الجميع بسهم واحد واعطاء الدرجة الواحدة للجميع، وهذا هو رأى الشيعة فيهم، وهو نفس النتيجة التي يخرج بها الإنسان المتدبر للقرآن الكريم . ٢- إن الآيات التي تناولت المهاجرين والأنصار، وغيرهم بالمدح والثناء، لا تدل على أزيد من أنهم كانوا حين نزول القرآن مثلاً للفضل والفضيلة ولكن الأمور إنما تعتبر بخواتيمها، فيحكم عليهم - بعد نزول الآيات - بالصلاح والفلاح إذا بقوا على ما كانوا عليه من الصفات، وأما لو ثبت عن طريق السنة أو التاريخ الصحيح أنه صدر عن بعضهم ما لا تحمد عاقبته، فحينئذ لا مندوحة لنا إلا الحكم بذلك، ولا يعد مثل ذلك معارضاً للقرآن الكريم لأنه ناظر إلى أحوالهم في

١ . الحجرات / ٦، السجدة / ١٨ .

٢ . الحجرات / ١٤ .

٣ . التوبة / ٦٠ .

٤ . الأنفال / ١٥ - ١٦ . (٤٠٥)

ظروف خاصة، لافي جميع فصول حياتهم، فليس علينا رفع اليد عن السنة والتاريخ الصحيح بحجة أن القرآن الكريم مدحهم وأن الله رضى عنهم، لما عرفت من أن المقياس القاطع للقضاء هو دراسة جميع أحوالهم، فكم من مؤمن زل قدمه في الحياة، فعاد منافقاً، أو مرتدداً، وكم من ضال شملته العناية الإلهية فبصر الطريق وصار رجلاً إلهياً، وبالجملة فمن ثبت عن طريق الدليل الصحيح انحرافه وزيغه عن الصراط المستقيم وشوب ايمانه بالظلم والعيث والفساد، فيؤخذ بما هو الثابت في ذينك المصدرين، وأما من لم يثبت زيغه فلا نتكلم في حقه بشيء سوى ما أمر الله به سبحانه من طلب الرحمة لهم حيث قال: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) (١) . ٣- ومن سوء الحظ ان شردمة قليلة من الصحابة، زلت أقدامهم وانحرفوا عن الطريق، فلا تمس دراسة أحوال هؤلاء القليلين، وتبيين مواقفهم، وانحرفهم عن الطريق المستقيم بكرامه الباقين، ولعل عدد المنحرفين (غير المنافقين) لا يتجاوز العشرة إلا بقليل . أفسوخ في ميزان النصفه رمى الشيعة بأنهم يكفرون الصحابة ويفسقونهم بحجة أنهم يدرسون حياة عدده قليلة منهم ويذكرون مساوي أعمالهم، وما يؤاخذ عليهم على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ الصحيح . وما نسب إلى الحسن البصري فهو أولى بالاعراض عنه إذ لو كانت النجاة في ترك ذكرهم فلماذا اهتم ببيان أفعالهم وصفاتهم التاريخ المؤلف بيد السلف الصالح الذين كانوا يحترمون الصحابة مثلما

يحترمهم الخلف، فلو كان الحق ترك التكلم فيهم واعذارهم بالاجتهاد، فلماذا وصف النبي الأكرم بعضهم بالارتداد، كما رواه

١. الحشر / ١٠ .

(٤٠٦)

البخارى وغيره (١). وإذا دار الأمر بين كون القرآن أو النبي أسوء، أو الكلمة المأثورة عن الحسن البصرى، فالأول هو المتعين، ويضرب بالثاني عرض الجدار . الردة بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - :

بقيت هنا كلمة وهي: إذا كان موقف الشيعة وأئمتهم من الصحابة ما ذكر آنفاً فما معنى ما رواه أبو عمرو الكشى من أنه ارتد الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا ثلاثة. إذ لو صح ما ذكر، وجب الالتزام بأن النبي الأكرم لم ينجح في دعوته ولم تتخرج من مدرسته إلا قلائل لا يعتد بهم في مقابل ما ضحى به من النفس والنفيس. والاجابة على هذا السؤال واضحة لمن تفحص عنها سنداً ومنتأ. فإن ما رواه لا يتجاوز السبع روايات. وهي بين ضعيف لا يعرج عليه، وموثق - حسب اصطلاح علماء الامامية في تصنيف الأحاديث - وصحيح قابلين للتأويل، ولا يدلان على الارتداد عن الدين، والخروج عن الإسلام بل يريان إلى أمر آخر . أما الضعيف فهو ما رواه الكشى عن حمدويه وإبراهيم أبناء نصير قال: حدثنا محمد بن عثمان عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر - عليه السلام - قال: كان الناس أهل الردة بعد النبي إلا ثلاثة... (٢). وكفى في ضعفها وجود محمد بن عثمان في سنده وهو من المجاهيل . وما رواه أيضاً عن علي بن الحكم عن سيف بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي

١. صحيح البخارى ٥ / ١١٨ - ١١٩ في تفسير سورة النور .

٢. رجال الكشى ١٢ الحديث ١ . (٤٠٧)

قال: قال أبو جعفر - عليه السلام - : ارتد الناس إلا ثلاثة نفر: سلمان و أبوذر والمقداد (١). وكفى في ضعفها ان الكشى من أعلام القرن الرابع الهجرى القمري فلا يصح أن يروى عن علي بن الحكم سواء أكان المراد منه الأنبارى الراوى عن ابن عمير المتوفى عام ٢١٧ أو كان المراد الزبيرى الذى عدّه الشيخ من أصحاب الرضا - عليه السلام - المتوفى عام ٢٠٣ . وما نقله أيضاً عن حمدويه بن نصير قال: حدثني محمد بن عيسى ومحمد ابن مسعود قال: حدثنا جبرئيل بن أحمد. قال: حدثنا محمد بن عيسى عن النضر بن سويد عن محمد بن البشير عن حدثه قال: ما بقى أحد إلا وقد جال جولته إلا المقداد بن الأسود فإن قلبه كان مثل زبر الحديد (٢) . والرواية ضعيفة بجبرئيل بن أحمد فإنه مجهول كما أنها مرسله فى آخرها. وأما الروايات الباقية فالموثق عبارة عمّا ورد فى سنده على بن الحسن بن فضال والثلاثة الباقية صحيحة ومن أراد الوقوف على اسنادها ومتونها فليرجع إلى رجال الكشى (٣) . ومع ذلك كله فإن هذه الروايات لا يحتج بها أبداً لجهات عديدة نشير إلى بعض منها . ١- كيف يمكن أن يقال أنه ارتد الناس بعد رسول الله ولم يبق إلا ثلاثة تمسكوا بولاية على ولم يعدلوا عنها مع أن ابن قتيبة والطبرى رويان جماعة من

١. رجال الكشى ١٦ الحديث ١٣ .

٢. رجال الكشى ١٦ الحديث ١١ .

٣. رجال الكشى ١٣ الحديث ٣ - ٤ - ٦ و ٧ . (٤٠٨)

بنى هاشم وغيرهم تحصنوا فى بيت على معترضين على ما آل إليه أمر السقيفة. ولم يتركوا بيت الامام إلا بعد التهديد والوعيد واضرام النار أمام البيت. وهذا يدل على أنه كان هناك جماعة مخلصين بقوا أوفياء لما تعهدوا به فى حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وإليك نص التاريخ. قال ابن قتيبة: «إن بنى هاشم اجتمعت عند بيعة الأنصار إلى على بن أبى طالب، ومعهم الزبير ابن العوام - رضى الله عنه - ... (١). وقال فى موضع آخر: إن أبابكر - رضى الله عنه - تفصد قوماً تخلفوا عن بيعته عند على - كرم الله وجهه - فبعث إليهم عمر فجاء فناداهم وهم فى دار على فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال: والذى نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقن على من فيها،

ف قيل به: يا ابا حفص ان فيها فاطمة فقال: وإن... (٢). وقال الطبري: قال: أتى عمر بن الخطاب منزل على وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة. فخرج عليه الزبير مصلاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه (٣). وقال ابن واضح الاخباري: وتخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم العباس بن عبدالمطلب، والفضل ابن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبوذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب وأبي بن كعب. فأرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح والمغيرة

١. الامامة والسياسة ١ / ١٠ - ١٢ .

٢. الامامة والسياسة ١ / ١٠ - ١٢ .

٣. تاريخ الطبري ٢ / ٤٤٢ . (٤٠٩)

ابن شعبه فقال: ما الرأي؟ قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبدالمطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيباً... (١). كل ذلك يشهد على أنه كان هناك أمة بقوا على ما كانوا عليه، في عصر الرسول الأعظم، ولم يغتروا بانثيال الأثرية إلى غير ما كان الحق يدور مداره. وكيف يمكن ادعاء الردّة لعامة الصحابة إلا القليل . ٢- كيف يمكن أن يقال ارتدّ الناس إلا ثلاثة مع أن الصدوق - رضی الله عنه - ذكر عدة من المنكرين للخلافة في أوائل الأمر وقد بلغ عددهم اثنا عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار وهم خالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن الأسود، وأبي ابن كعب، وعمار بن ياسر، وأبوذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود، وبريدة الأسلمي، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو هيثم ابن التيهان وغيره . ثم ذكر اعتراضاتهم على مسألة الخلافة واحداً بعد واحد (٢). ٣- إن وجود الاضطراب والاختلاف في عدد من استثناءهم الامام يورث الشك في صحّتها ففي بعضها «إلا ثلاثة» وفي البعض الآخر إلا سبعة وفي ثالث «إلا ستة» فإن التعارض وإن كان يمكن رفعه بالحمل على اختلافهم في درجات الايمان غير أنه على كل تقدير يوهن الرواية . ٤- كيف يمكن انكار ايمان اعلام من الصحابة مع اتفاق كلمة الشيعة والسنة على علو شأنهم كأمثال بلال الحبشي، وحجر بن عدي، واويس القرني، ومالك بن نويرة المقتول ظلماً على يد خالد بن الوليد، وعباس بن عبدالمطلب

١. تاريخ يعقوبي ٢ / ١٢٤ .

٢. الخصال: الشيخ الصدوق أبواب الاثني عشر ٤٦١ - ٤٦٥ . (٤١٠)

وابنه حبر الأمة وعشرات من أمثالهم، وقد عرفت أسماء المتخلفين عن بيعة أبي بكر في كلام يعقوبي، أضف إلى ذلك أن رجال البيت الهاشمي كانوا على خط الامام ولم يتخلفوا عنه وإنما عمدوا سيوفهم اقتداءً بالامام لمصلحة عالية ذكرها في بعض كلماته (١). واقصى ما يمكن أن يقال في حق هذه الروايات هو أنه ليس المراد من الارتداد، الكفر والضلال والرجوع إلى الجاهلية وإنما المراد عدم الوفاء بالعهد. الذي أخذ منهم في غير واحد من المواقف وأهمها غدير خم. ويؤيد ذلك: ما رواه وهب بن حفص عن ابي بصير عن أبي جعفر: جاء المهاجرون والأنصار وغيرهم - بعدما بويع أبو بكر - إلى علي وقالوا له: أنت والله أمير المؤمنين، أنت والله أحقّ الناس وأولاهم بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هلّم يدك لنا ببعك فوالله لنموتنّ قدامك. فقال علي - عليه السلام - : إن كنتم صادقين فاعدوا غداً عليّ محلّقين. فحلق أمير المؤمنين وحلق سلمان وحلق مقداد وحلق أبوذر ولم يحلق غيرهم (٢). وهذه الرواية قرينة واضحة على أن المراد هو نصره الامام - عليه السلام - لأخذ الحق المغتصب فيكون المراد من الردّة هو عدم القتال معه . ومما يؤيد ذلك أيضاً الرواية التي جاء فيها أن قلب المقداد بن الأسود كزبر الحديد، فهي وإن كانت ضعيفة السند، لكن فيها اشعار على ذلك لأن وصف قلب المقداد اشارة إلى ارادته القوية وثباته في سبيل استرداد الخلافة . وظنّي ان هذه الروايات صدرت من الغلاة والحشوية دعماً لأمر الولاية وتفتاناً في الاخلاص غافلين عن أنها تضاد القرآن الكريم وما روى عن

١ . نهج البلاغة، قسم الرسائل برقم ٦٢ .

٢ . لاحظ الرجال للكشي ١٤ الحديث ٧ من هذا الباب . (٤١١)

أمير المؤمنين وحفيده سيد الساجدين، من الثناء والمدح لعدّة من الصحابة. وهناك كلمة قيمة للعلامة السيد محسن الأمين العاملي نذكر نصّه وهو يمثل عقيدة الشيعة فقال: وقالت الشيعة حكم الصحابة في العدالة حكم غيرهم ولا يتحمّن الحكم بها بمجرد الصحبة وهي لقاء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مؤمناً به ومات على الإسلام. وإنّ ذلك ليس كافياً في ثبوت العدالة بعد الاتفاق على عدم العصمة المانعة من صدور الذنب فمن علمنا عدالته حكمنا بها وقبلنا روايته، لزمننا له من التعظيم والتوقير، بسبب شرف الصحبة ونصرة الإسلام والجهاد في سبيل الله ما هو أهله، ومن علمنا منه خلاف ذلك لم تقبل روايته، أمثال مروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة والوليد بن عقبة وبسر بن أرطاة وبعض بني أمية وأعوانهم، ومن جهلنا حاله في العدالة توقّفنا في قبول روايته . ومما يمكن أن يذكر في المقام أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - توفّي ومن رآه وسمع عنه يتجاوز مائة ألف إنسان من رجل وامرأة على ما حكاه ابن حجر في الاصابة عن أبي زرعة الرازي: «وقيل مات - صلى الله عليه وآله وسلم - عن مائة وأربعة عشر ألف صحابي» ومن الممتنع عادة أن يكون هذا العدد في كثرته وتفريق أهوائه وكون النفوس البشرية مطبوعة على حبّ الشهوات كلّهم قد حصلت لهم ملكة التقوى المانعة عن صدور الكبائر، والاصرار على الصغائر بمجرد رؤية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والايان به، ونحن نعلم أنّ منهم من أسلم طوعاً وورغبة في الإسلام ومنهم من أسلم خوفاً وكرهاً، ومنهم المؤلّفة قلوبهم، وما كانت هذه الأمية إلاّ كغيرها من الأمم التي جبلت على حبّ الشهوات وخلقت فيها الطباع القائدة إلى ذلك إن لم يردع رادع والكل من بني آدم وقد صحّ عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - أنّه قال: «لتسلكن سنن من قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتّى لو دخل أحدهم (٤١٢)

جحر ضب لدخلموه». ولو منعت رؤية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من وقوع الذنب لمنعت من الارتداد الذي حصل من جماعة منهم كعبدالله بن جحش، وعبيدالله بن خطل، وربيع بن أمية بن خلف والأشعث بن قيس (١) وغيرهم. هذا مع ما شوهد من صدور أمور من بعضهم لا تتفق مع العدالة كالخروج على أئمة العدل، وشق عصا المسلمين، وقتل النفوس المحترمة، وسلب الأموال المعصومة، والسب والشتم وحرب المسلمين وغشهم، والقاح الفتن والرغبة في الدنيا، والتراحم على الامارة والرئاسة وغير ذلك ممّا تكفّلت به كتب الآثار والتواريخ وملاء الخافقين. وأعمال مروان بن الحكم في خلافة عثمان معلومة مشهورة، وكذلك بسر بن أرطاة والمغيرة بن شعبة والوليد بن عقبة وكلّهم من الصحابة (٢) . وحصيلة البحث: أنّ موضع الاختلاف، ومصبّ النزاع ليس إلاّ - كون عدالة الصحابة قضية كلية، أو جزئية، فالسنة على الأولى والشيعة على الثانية وأما ما سواها من سبّ الصحابة ولعنهم، أو ارتدادهم عن الدين بعد رحلة الرسول أو عدم حجية رواياتهم على وجه الاطلاق فإنّها تهم اموية ناصبية، اتّهم بها شيعة آل محمد وهم برآء منها. ونعم الحكم الله. فالشيعة يعطون لكل ذي حقّ حقه، فيأخذون معالم دينهم عن ثقاة الصحابة، ولا يتكلمون في حقّ من لم يتعرّفوا على حاله، ويحكمون على القسم الثالث على ضوء الكتاب والسنة . إنّ هناك رجالاً من السلف لا يجوز حبّهم ولا يصحّ الترخّم عليهم - حسب الموازين الشرعية -، منهم:

١ . الثلاثة الأوّلون ارتدوا وماتوا على الردّة، والأشعث ارتدّ فأتى به إلى أبي بكر - رضی الله عنه - أسيراً فعاد إلى الإسلام وزوجه أخته، وكانت عوراء فأولدها محمّداً أحد قتلة الحسين - عليه السلام - .

٢ . الأمين: أعيان الشيعة ١ / ١١٣ - ١١٤ . (٤١٣)

١- معاوية بن أبي سفيان ويكفي في حقه ما ذكره الجاحظ في رسائله: قال في رسالته في بني أمية والآثام التي اقترفوها: استوى معاوية على الملك، واستبدّ على بقيّة أهل الشورى، وعلى جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار في العام الذي سمّوه عام الجماعة، وما كان عام جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة، والعام الذي تحوّلت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً، ثمّ مازالت معاصيه من جنس ما حكيناه، وعلى منازل ما ربّناه، حتّى ردّ قضية رسول الله رداً مكشوفاً وجحد حكمه جحداً ظاهراً (١)،

فخرج بذلك من حكم الفجار إلى حكم الكفار . أو ليس قتل حجر بن عدى واطعام عمرو بن العاص خراج مصر، وبيعته يزيد الخليل، والاستشارة بالفقيه واختيار الولاة على الهوى، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراية، من جنس الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنة المنصوبة، وسواء جحد الكتاب، ورد السنة إذا كانت في شهرة الكتاب وظهوره، وإلا أن أحدهما أعظم وعقاب الآخرة عليه أشد (٢) . وقد أربت نابتة عصرنا ومبدعة دهرنا فقالت: لا تسبوه فإن له صحبة وسب معاوية بدعة، ومن بغضه فقد خالف السنة، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة (٣) . ٢- عمرو بن العاص الذي ألب على عثمان وسير بقتله، ثم اجتمع مع معاوية يطالب بدمه من كان من أشد المدافعين عنه، وأعطفهم عليه يوم أمر طلحة بمنع الماء _____

١ . إشارة إلى استلحاق زياد بن أبيه وليد فراش غير أبي سفيان .

٢ . أي رد السنة مثل رد الكتاب إذا بلغت السنة في الشهرة، شهرة الكتاب .

٣ . الجاحظ: رسائل الجاحظ ٢٩٤ طبع مصر . (٤١٤)

عنه وتعجيل قتله. كل ذلك كان من ابن العاص حباً بخراج مصر، لا بعثمان ولا بمعاوية أيضاً، والعجب أن الرسول تنبأ بذلك وصرح بأنهما لا يجتمعان إلا على غدر (١) . ٣- يزيد الخليل المستهتر خليفة معاوية الذي ولي ثلاث سنين بعده، فقتل في الأولى الحسين، وفي الثانية أغار على المدينة وقتل من الصحابة والتابعين ما لا يحصى وأباح أعراضهم، وفي الثالثة رمى الكعبة (٢) وكفى في كفره وإلحاده جهره بقول ابن الزبير: لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحى نزل ٤- مروان بن الحكم الذي كان من أشد الناس بغضاً لأهل البيت. قال ابن حجر: ومن أشد الناس بغضاً لأهل البيت مروان بن الحكم (٣) . روى الحاكم أن عبدالرحمان بن عوف - رضى الله عنه - قال: كان لا يولد لأحد بالمدينة ولد إلا أتى به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فأدخل عليه مروان بن الحكم، فقال: هو وزغ بن الوزغ، الملعون بن الملعون (٤) . ٥- الوليد بن عقبه شارب الخمر، والزائد في الفريضة (٥) . ٦- عبدالله سعد بن أبي سرح الذي أهدر النبي دمه (٦) . ٧- الوليد بن يزيد بن عبدالملك الذي يخاطب كتاب الله العزيز بعد أن ألقاه _____

١ . ابن حجر: تطهير الجنان ١٠٢، المطبوع على هامش الصواعق المحرقة .

٢ . ابن الجوزي: تذكرة الخواص، فصل يزيد بن معاوية ٢٥٧ .

٣ . ابن حجر: الصواعق المحرقة .

٤ . الحاكم: المستدرک ٤ / ٤٧٩ .

٥ . البلاذري: الانساب ٣٣ / ٥ وأحمد بن حنبل: المسند ١ / ١٤٤ .

٦ . الطبري: التاريخ، الجزء ٣ / ٢٩٥، فصل: ذكر الخبر عن فتح . (٤١٥)

ورماه بالسهم بقوله: تهذني بجبار عنيد * فما أنا ذاك جبار عنيد إذا ماجئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مرقني الوليد (١) هؤلاء وأضرابهم، هم الذين تنبأ الشيعه منهم وتحكم عليهم بما حكم الله به عليهم. أفصح تكفير الشيعه وتفسيقهم لأجل سب هؤلاء والتبري منهم . ويقول السيوطي: إن الوليد هذا كان فاسقاً خميراً لواطاً، راود أخاه سليمان عن نفسه ونكح زوجات أبيه (٢) . إلى غير ذلك من رجال العيث والفساد، أفصح في ميزان العدل والنصفه مؤاخذه الشيعه لأجل رفض هؤلاء الفسقة. الخارجين عن ولاية الله ودينه . _____

١ . ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥ / ١٠٧ .

٢ . جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء ٩٧ . (٤١٦) (٤١٧) المسألة العاشرة: الالتزام بالسجدة على الأرض أو ما أنبتته

السجدة في الصلاة وغيرها، من مظاهر العبودية أمام المسجود له، ومن أركان الصلاة وفي بعض المأثورات «أقرب ما يكون العبد إلى ربه حال سجوده» فمهما أتى بالتذلل والخضوع كان أوقع وفضل في العبودية، فالسجود على التراب والرمل والحجر والحصى أبين لبيان العبودية والتصاغر، من السجود على الحصر والبوارى، فضلا عن السجود على الألبسة الفاخرة والفرش الغالية والذهب والفضة،

وإن كان الكل سجوداً، لكن العبودية تتجلى في الأول بما لا تتجلى في غيره . والامامية ملتزمة بالسجدة على الأرض في حضرهم وسفرهم، ولا يعدلون عنها إلاّ - إلى ما أثبت منها من الحصر والبوارى بشرط أن لا يؤكل ولا يلبس . ولا يرون السجود على غيرهما صحيحاً في حال الصلاة أخذاً بالسنة المتواترة عن النبي الأكرم وأهل بيته وصحبه . وسيظهر - في ثنايا البحث - أن الالتزام بالسجود على الأرض أو (٤١٨)

ما أثبتت، كانت هي السنة بين الصحابة وإنّ العدول عنها حدث في الأزمنة المتأخرة، ولأجل توضيح المقام نقدم أموراً: ١- اختلاف الفقهاء في شرائط المسجود عليه:

اتفق المسلمون على وجوب السجود في الصلاة في كل ركعة مرتين، ولم يختلفوا في المسجود له فإنه هو الله سبحانه الذي له يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً (١) وشعار كل مسلم قوله سبحانه: (لا- تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ولا- لِلْقَمَرِ واشْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ) (٢) وأما اختلفوا في شروط المسجود عليه - أعني ما يضع الساجد جبهته عليه - فالشيعة الامامية على أنه يشترط أن يكون المسجود عليه أرضاً أو ما ينبت منها غير مأكول ولا- ملبوس كالحصر والبوارى، وما أشبه ذلك. وخالفهم في ذلك غيرهم من المذاهب وإليك نقل الآراء . قال الشيخ الطوسي (٣) وهو يبين آراء الفقهاء: لا يجوز السجود إلاّ على الأرض أو ما أنبتته الأرض ممّا لا يؤكل ولا يلبس من قطن أو كتان مع الاختيار. وخالف جميع الفقهاء في ذلك وأجازوا السجود على القطن والكتان والشعر والصوف وغير ذلك - إلى أن قال -: لا يجوز السجود على شىء هو حامل له ككور العمامة، وطرف الرداء، وكم القميص، وبه قال الشافعي، وروى ذلك عن علي - عليه الصلاة والسلام - وابن عمرو عبادة بن الصامت، ومالك، وأحمد بن حنبل،

١ . إشارة إلى قوله سبحانه: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَضُلَّالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) - الرعد / ١٥ .
٢ . فصلت / ٣٧ .

٣ . من أعلام الشيعة في القرن الخامس صاحب التصانيف والمؤلفات ولد ٣٨٥ توفى عام ٤٦٠ من تلاميذ الشيخ المفيد ٣٣٦ - ٤١٣، والسيد الشريف المرتضى ٣٥٥ - ٤٣٦- رضى الله عنهم . - (٤١٩)

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا سجد على ما هو حامل له كالثياب التي عليه، أجزاءه، وإن سجد على ما لا ينفصل منه مثل أن يفترش يده ويسجد عليها أجزاءه لکنه مكروه، وروى ذلك عن الحسن البصرى (١) . وقال العلامة الحلى (٢) - وهو يبين آراء الفقهاء فيما يسجد عليه - : لا- يجوز السجود على ما ليس بارض ولا من نباتها كالجلود والصوف عند علمائنا أجمع، وأطبق الجمهور على الجواز . وقد اقتفت الشيعة في ذلك أئمتهم الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه في حديث الثقلين نكتفى بالنزر القليل: روى الصدوق باسناده عن هشام بن الحكم أنه قال لأبي عبد الله - عليه السلام - : أخبرني وعمّا يجوز السجود عليه، عمّا لا يجوز؟ قال: السجود لا يجوز إلاّ على الأرض، أو على ما أنبتت الأرض إلاّ ما أكل أو لبس . فقال له: جعلت فداك ما العلة في ذلك؟ قال: لأنّ السجود خضوع لله عزّوجلّ فلا- ينبغى أن يكون على ما يؤكل ويلبس، لأنّ أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون ويلبسون، والساجد في سجوده في عبادة الله عزّوجلّ، فلا ينبغى أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدنيا الذين اغتروا لغرورها (٣) . فلا- عتب على الشيعة إذا التزموا بالسجود على الأرض أو ما أنبتته إذا لم يكن مأكولاً ولا ملبوساً اقتداءً بأئمتهم، على أنّ ما رواه أهل السنة في المقام،

١ . الخلاف / ١ - ٣٥٧ - ٣٥٨ كتاب الصلاة، المسألة ١١٢ - ١١٣ .

٢ . الحسن بن يوسف بن المطهر الحلى ٦٤٨ - ٧٢٦ وهو أستاذ الشيعة في قرن السابع لا يسمع الدهر بمثله إلاّ في فترات خاصة .

٣ . الوسائل ٣ الباب ١ من أبواب ما يسجد عليه، الحديث ١، وهناك روايات بمضمونه. والكل يتضمن أنّ الغاية من السجود التي هي التذلل لا تحصل بالسجود على غيرهما فلاحظ . (٤٢٠)

يدعم نظرية الشيعة وسيظهر لك فيما سيأتي من سرد الأحاديث من طرقهم، ويتضح أنّ السنة كانت هي السجود على الأرض، ثم جاءت الرخصة في الحصر والبوارى فقط، ولم يثبت الترخيص الآخر بل ثبت المنع عنه كما سيوافيك . ٢- الفرق بين المسجود له

والمسجود عليه:

كثيراً ما يتصور أنّ الالتزام بالسجود على الأرض أو ما أنبتت، بدعة، ويتخيل الحجر المسجود عليه، وثناً، وهؤلاء هم الذين لا يفرّقون بين المسجود له، والمسجود عليه، ويزعمون أنّ الحجر أو التربة الموضوعه أمام المصلّي، وثناً يعبد المصلّي بوضع الجبهة عليه. ولكن لا عيب على الشيعة إذا قصر فهم المخالف، ولم يفرّق بين الأمرين وزعم المسجود عليه، مسجوداً له، وقاس أمر الموحّد، بأمر المشرك بحجّة المشاركة في الظاهر، فأخذ بالصور والظواهر مع أنّ الملاك هو الأخذ بالبواطن والضمان، فالوثن عند الوثني معبود ومسجود له يضعه أمامه ويركع ويسجد له، ولكن الموحّد الذي يريد أن يصلّي في أظهار العبودية إلى نهاية مراتبها، يخضع لله سبحانه ويسجد له، ويضع جبهته ووجهه على التراب والحجر، والرمل والحصى، مظهراً بذلك مساواته معها عند التقييم قائلًا: أين التراب وربّ الأرباب .

٣- السنّة في السجود في عصر الرسول وبعده:

إنّ النبيّ الأكرم وصحبه كانوا ملتزمين بالسجود على الأرض مدّة لا يستهان بها، متحمّلين شدّة الرمضاء وغبار التراب ورطوبة الطين، طيلة أعوام. ولم يسجد أحد يوم ذاك على الثوب وكور العمامة بل ولا على الحصر والبوارى والخمر، وأقصى ما كان عندهم لرفع الأذى عن الجبهة، هو تبريد الحصى بأكفّهم ثمّ السجود (٤٢١)

عليها، وقد شكى بعضهم رسول الله من شدّة الحر، فلم يجبه، إذ لم يكن له أن يبدل الأمر الإلهي من تلقاء نفسه، إلى أن ورد الرخصة بالسجود على الخمر والحصر فوسع الأمر للمسلمين لكن في اطار محدود، وعلى ضوء هذا فقد مرّت في ذلك المجال على المسلمين مرحلتان لا غير: ١- ما كان الواجب فيها على المسلمين، السجود على الأرض بأنواعها المختلفة من التراب والرمل والحصى والطين، ولم تكن هناك أية رخصة. ٢- المرحلة التي ورد فيها الرخصة بالسجود على نبات الأرض من الحصر والبوارى والخمر، تسهيلاً للأمر، ورفعاً للحرج والمشقّة ولم تكن هناك أية مرحلة أخرى توسع الأمر للمسلمين أكثر من ذلك كما يدّعيه أهل السنّة وإليك البيان: المرحلة الأولى: السجود على الأرض:

١- روى الفريقان عن النبيّ الأكرم أنّه قال: «وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» (١). والمتبادر من الحديث أنّ كل جزء من الأرض مسجود وطهور يُسجد عليه ويُقصد للتيمّم، وعلى ذلك فالأرض تقصد للجتهتين: للسجود تارة والتيمّم أخرى. وأمّا تفسير الرواية بأنّ العبادة والسجود لله سبحانه لا يختص بمكان دون مكان، بل الأرض كلّها مسجود للمسلمين بخلاف غيرهم حيث خصّوا العبادة بالبيع والكنائس، فهذا المعنى ليس مغايراً لما ذكرناه، فأنّه إذا كانت الأرض على وجه الاطلاق مسجوداً للمصلّي فيكون لازمه كون الأرض كلّها صالحه للعبادة، فما ذكر

١. صحيح البخارى ١ / ٩١ كتاب التيمّم الحديث ٢ وسنن البيهقي ٢ / ٤٣٣ باب: أينما أدركت الصلاة فصل فهو مسجود، ورواه غيرهما من أصحاب الصحاح والسنن .

(٤٢٢)

معنى التزامى لما ذكرناه، ويعرب عن كونه المراد ذكر «طهوراً» بعد «مسجداً» وجعلهما مفعولين لـ «جعلت» والنتيجة هو توصيف الأرض بوصفين كونه مسجداً وكونه طهوراً، وهذا هو الذى فهمه الجصاص وقال: إنّ ما جعله من الأرض مسجداً هو الذى جعله طهوراً (١). ومثله غيره من شراح الحديث . تبريد الحصى للسجود عليها:

٢- عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: كنت أصلى مع النبيّ الظهر، فأخذ قبضة من الحصى، فأجعلها فى كفى ثمّ أحولها إلى الكف الأخرى حتّى تبرّد ثمّ أضعها لجبيني حتّى أسجد عليها من شدّة الحر (٢). وعلّق عليه البيهقي بقوله: قال الشيخ: ولو جاز السجود على ثوب متّصل به لكان ذلك أسهل من تبريد الحصى بالكف ووضعها للسجود (٣). ونقول: ولو كان السجود على مطلق الثياب سواء كان متصلاً أم منفصلاً جائزاً لكان أسهل من تبريد الحصى ولأمكن حمل مندبل أو ما شابه للسجود عليه. ٣- روى أنس قال: كنّا مع رسول الله فى شدّة الحرّ فيأخذ أحداً الحصباء فى يده فإذا برد وضعه وسجد عليه (٤). ٤- عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول

اللَّه شدة الرضاء في جباهنا _____

١. احكام القرآن للجصاص ٢ / ٣٨٩ نشر بيروت .

٢. مسند أحمد ٣ / ٣٢٧ من حديث جابر وسنن البيهقي ١ / ٤٣٩ باب ما روى في التعجيل بها في شدة الحرّ .

٣. سنن البيهقي ٢ / ١٠٥ .

٤. السنن الكبرى ٢ / ١٠٦ . (٤٢٣)

وأكفنا فلم يشكنا(١) . ٥- قال ابن الاثير في معنى الحديث: إنهم لما شكوا إليه ما يجدون من ذلك لم يفسح لهم أن يسجدوا على طرف ثيابهم(٢) . هذه المأثورات تعرب عن أن السنّة في الصلاة كانت جارية على السجود على الأرض فقط حتّى انّ الرسول لم يفسح للمسلمين العدول عنها إلى الثياب المتّصلة أو المنفصلة وهو - صلى الله عليه وآله وسلم - مع كونه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً أوجب عليهم مس جباههم الأرض، وإن آذتهم شدة الحر . والذى يعرب عن التزام المسلمين بالسجود على الأرض وعن اصرار النبي الأكرم بوضع الجبهة عليها لا على الثياب المتصلة ككور العمامة أو المنفصلة كالمناديل والسجاجيد، ما روى من حديث الأمر بالترتيب في غير واحد من الروايات . الأمر بالترتيب:

٦- عن خالد الجهنى قال: رأى النبي صهيياً يسجد كأنه يتقى التراب فقال له: تَرَبَّ وجهك يا صهيب(٣) . ٧- والظاهر أن صهيياً كان يتقى عن التريب بالسجود على الثوب المتّصل والمنفصل، ولا- أقل بالسجود على الحصر والبوارى والأحجار الصافية، وعلى كل تقدير، فالحديث شاهد على أفضلية السجود على التراب في مقابل السجود على _____

١. سنن البيهقي ٢ / ١٠٥ باب الكشف عن الجبهة .

٢. ابن الاثير: النهاية ٢ / ٤٩٧ مادة «شكى» .

٣. المتقى الهندي: كنز العمال ٧ / ٤٦٥ برقم ١٩٨١٠ . (٤٢٤)

الحصى لما دل من جواز السجدة على الحصى في مقابل السجود على غير الأرض . ٨- روت أم سلمة - رضى الله عنها - رأى النبي غلاماً لنا يقال له «افلح» ينفخ إذا سجد، يا افلح تَرَبَّ(١) . ٩- وفي رواية: يا رباح تَرَبَّ وجهك(٢) . ١٠- روى أبو صالح قال: دخلت على أم سلمة، فدخل عليها ابن أخ لها فصلّى في بيتها ركعتين فلما سجد نفخ التراب، فقالت أم سلمة: ابن أخي؟! لا تنفخ، فإنّي سمعت رسول الله يقول لغلام له يقال له يسار - ونفخ -: تَرَبَّ وجهك لله(٣) . الأمر بحسر العمامة عن الجبهة:

١١- روى أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إذا سجد رفع العمامة عن جبهته(٤) . ١٢- روى عن علي أمير المؤمنين أنه قال: إذا كان أحدكم يصلّى فليحسر العمامة عن وجهه، يعنى حتّى لا يسجد على كور العمامة(٥) . ١٣- روى صالح بن حيوان السبائي أن رسول الله رأى رجلاً يسجد بجنبه وقد اعتمّ على جبهته فحسر رسول الله عن جبهته(٦) . ١٤- عن عياض بن عبد الله القرشى: رأى رسول الله رجلاً يسجد على كور _____

١. المتقى الهندي: كنز العمال ٧ / ٤٥٩ برقم ١٩٧٧٦ .

٢. المصدر نفسه برقم ١٩٧٧٧ .

٣. المتقى الهندي كنز العمال ٧ / ٤٦٥، برقم ١٩٨١٠ ومسند أحمد ٦ / ٣٠١ .

٤. الطبقات الكبرى ١ / ١٥١ كما في السجود على الأرض ٤١ .

٥. منتخب كنز العمال المطبوع في هامش المسند ٣ / ١٩٤ .

٦. البيهقي: السنن الكبرى ٢ / ١٠٥ . (٤٢٥)

عمامته فأوماً بيده: ارفع عمامتك وأوماً إلى جبهته(١) . هذه الروايات تكشف عن أنه لم يكن للمسلمين يوم ذاك تكليف إلا السجود على الأرض ولم يكن هناك أى رخصة سوى تبريد الحصى ولو كان هناك ترخيص لما فعلوا ذلك، ولما أمر النبي بالتريب، وحسر

العمامة عن الجبهة . المرحلة الثانية: الترخيص في السجود على الخمر والحصر:

هذه الأحاديث والمأثورات الموثوقة في الصحاح والمسانيد وسائر كتب الحديث تعرب عن التزام النبي وأصحابه بالسجود على الأرض بأنواعها، وأنهم كانوا لا يعدلون عنه وإن صعب الأمر واشتد الحر لكن هناك نصوص تعرب عن ترخيص النبي - بإيحاء من الله سبحانه إليه - السجود على ما أنبت الأرض، فسهل لهم بذلك أمر السجود، ورفع عنهم الاصر والمشقة في الحر والبرد وفيما إذا كانت الأرض مبتلة، وإليك تلك النصوص : ١- عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يصلي على الخمرة (٢) . ٢- عن ابن عباس: كان رسول الله يصلي على الخمرة وفي لفظ: وكان النبي يصلي على الخمرة (٣) . ٣- عن عائشة: كان النبي يصلي على الخمرة (٤) .

١ . البيهقي: السنن الكبرى ١٠٥ / ٢ .

٢ . أبو نعيم الاصفهاني: ذكر أخبار اصفهان ١٤١ / ٢ .

٣ . مسند أحمد ١ / ٢٦٩ - ٣٠٣ - ٣٠٩ و ٣٥٨ .

٤ . مسند أحمد ٦ / ١٧٩ وفيه أيضاً قال للجارية وهو في المسجد: ناوليني الخمرة . (٤٢٦)

٤- عن أم سلمة: كان رسول الله يصلي على الخمرة (١) . ٥- عن ميمونة: ورسول الله يصلي على خمرته فإذا أصابني طرف ثوبه (٢) . ٦- عن أم سليم قالت: وكان يصلي الخمرة (٣) . ٧- عن عبد الله بن عمر: كان رسول الله يصلي على الخمر (٤) . السجود على الثياب لعذر:

قد عرفت المرحلتين الماضيتين ولو كان هناك مرحلة ثالثة فأنما مرحلة جواز السجود على غير الأرض وما ينبت منها لعذر وضرورة. ويبدو أن هذا الترخيص جاء متأخراً عن المرحلتين لما عرفت أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يجب شكوى الأصحاب من شدة الحر والرمضاء وراح هو وأصحابه يسجدون على الأرض متحمّلين الحر والأذى ولكنّ البارئ عزّ اسمه رخص لرفع الحرج السجود على الثياب لعذر وضرورة وإليك ما ورد في هذا المقام . ١- عن أنس بن مالك: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُنَا أَنْ يَمُكِّنَ جَبْهَتَهُ مِنَ الْأَرْضِ، طَرَحَ ثَوْبَهُ ثُمَّ سَجَدَ عَلَيْهِ . ٢- وفي صحيح البخاري: كُنَّا نَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَيَضَعُ أَحَدُنَا طَرَفَ الثَّوْبِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ. فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُنَا أَنْ يَمُكِّنَ جَبْهَتَهُ مِنَ الْأَرْضِ، بَسَطَ ثَوْبَهُ . ٣- وفي لفظ ثالث: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

١ . مسند أحمد ٦ / ٣٠٢ .

٢ . مسند أحمد ٦ / ٣٣١ - ٣٣٥ .

٣ . مسند أحمد ٦ / ٣٧٧ .

٤ . مسند أحمد ٢ / ٩٢ - ٩٨ . (٤٢٧)

فيضع أحدنا طرف الثوب من شدة الحر مكان السجود (١) . وهذه الرواية التي نقلها أصحاب الصحاح والمسانيد تكشف الغطاء عن بعض ما روى في ذلك المجال الظاهر في جواز السجود على الثياب في حالة الاختيار أيضاً. وذلك لأنّ رواية أنس نص في اختصاص الجواز على حالة الضرورة، فتكون قرينة على المراد من هذه المطلقات وإليك بعض ما روى في هذا المجال . ١- عبد الله بن محرز عن أبي هريرة: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يصلي على كور عمامته (٢) . إن هذه الرواية مع أنّها معارضة لما مرّ من نهى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن السجود عليه، محمولة على العذر والضرورة وقد صرح بذلك الشيخ البيهقي في سننه، حيث قال: قال الشيخ: «وأما ما روى في ذلك عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من السجود على كور العمامة فلا يثبت شيء من ذلك وأصح ما روى في ذلك قول الحسن البصري حكاية عن أصحاب النبي (٣) . وقد روى عن ابن راشد: قال: رايت مكحولاً يسجد على عمامته فقلت: لم تسجد عليها؟ قال: أتقى البرد على أسناني (٤) . ٢- ما روى عن أنس: كُنَّا نَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى

الله عليه وآله وسلم - فيسجد -

١. صحيح البخارى ١ / ١٠١، صحيح مسلم ٢ / ١٠٩، مسند أحمد ١ / ١٠٠، السنن الكبرى ٢ / ١٠٦.

٢. كنز العمال ٨ / ١٣٠ برقم ٢٢٢٣٨.

٣. البيهقي: السنن ٢ / ١٠٦.

٤. المصنف لعبد الرزاق ١ / ٤٠٠ كما في سيرتنا وستننا، والسجدة على التربة ٩٣. (٤٢٨)

أحدنا على ثوبه (١). والرواية محمول على صورة العذر بقريته ما رويناها عنه، وبما رواه عنه البخارى: كُناصلي مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في شدة الحرّ فاذا لم يستطع أحدنا أن يمكن وجهه من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه (٢). ويؤيده ما رواه النسائي: كُنّا إذا صلينا خلف النبي بالظواهر سجداً على ثيابنا اتقاء الحرّ (٣). وهناك روايات قاصرة الدلالة حيث لا تدل إلا على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - صلى على الفرو. وأما أنه سجد عليه فلا دلالة لها عليه. ٣- عن المغيرة بن شعبه: كان رسول الله يصلي على الحصى والفرو المدبوغة (٤). والرواية مع كونها ضعيفة بيونس بن الحرث، ليست ظاهرة في السجود عليه. ولا ملازمة بين الصلاة على الفرو والسجدة عليه ولعله - صلى الله عليه وآله وسلم - وضع جبهته على الأرض أو ما ينبت منها وعلى فرض الملازمة لا تقاوم هي وما في معناها، ما سردناه من الروايات في المرحلتين الماضيتين. حصيلته البحث:

إن الناظر في الروايات يجد أنه مرّ على المسلمين مرحلتان أو مراحل ثلاثة ففي المرحلة الأولى كان الفرض السجود على الأرض ولم يُرخص للمسلمين السجود على غيرها، وفي الثانية جاء الترخيص فيما تنبت الأرض وليست وراء هاتين

١. البيهقي السنن الكبرى ٢ / ١٠٦، باب من بسط ثوباً فسجد عليه.

٢. البخارى ٢ / ٦٤ كتاب الصلاة باب بسط الثوب في الصلاة للسجود.

٣. ابن الأثير: الجامع للأصول ٥ / ٤٦٨ برقم ٣٦٦٠.

٤. أبو داود: السنن / باب ما جاء في الصلاة على الخمرة برقم ٣٣١. (٤٢٩)

المرحلتين، مرحلة أخرى إلا جواز السجود على الثياب لعذر وضرورة فما يظهر من بعض الروايات من جواز السجود على الفرو وأمثاله مطلقاً، فمحمولة على الضرورة أو لا دلالة لها على السجود عليها بل غايتها الصلاة عليها. فاللزام على فقهاء أهل السنة إعادة النظر في هذه المسألة حتى يحيوا السنة ويميتوا البدعة. فإنّ الرائج في بلادهم هو افتراض المساجد بالسجاد، والسجود عليها. كما أنّ السائد هو السجود على كل شيء. من البسط المنسوجة من الصوف والوبر، والحريز، وطرف الثوب فإنّ هذا العمل حسب مامرّ من الروايات بدعة حدثت بعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وكانت السنة غيرهما فلا عتب على الشيعة إذا ما تمسّكوا بالسنة ولم يسجدوا إلا على الأرض وما أنبتته تبعاً للسنة النبوية والأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت. ما هو السر في اتّخاذ تربة طاهرة:

بقي هنا سؤال يطرحه اخواننا أهل السنة يقولون ما هو السر في اتّخاذ تربة طاهرة في السفر والحضر والسجود عليها دون غيرها. وربما يتخيل البسطاء أنّ الشيعة يسجدون لها لا عليها، ويعبدون الحجر والتربة ولكن المساكين لا يفرّقون بين السجود على التربة، والسجود لها وعلى أى تقدير فالاجابة عنها واضحة فإنّ المستحسن عند الشيعة هو اتّخاذ تربة طاهرة طيبة ليتيقن من طهارتها من أى أرض أخذت، من أى صقع من أرجاء العالم كانت، وهى كلّها فى ذلك سواء. وليس هذا الالتزام إلا مثل التزام المصلي بطهارة جسده وملبسه ومصلاه وأما سرّ الالتزام فى اتّخاذ التربة هو أنّ الثقة بطهارة كل أرض يحل بها، ويتّخذها مسجداً لا تتأتى له فى كل موضع من المدن والرساتيق والفنادق والخانات ومحال المسافرين ومحطّات وسائل السير والسفر ومهابط فئات الركاب ومنازل (٤٣٠)

الغرباء، أنّى له ذلك وقد يحل بها كل إنسان من الفئه المسلمة وغيرها ومن أخلاط الناس الذين لا يبالون ولا يكثرثون لأمر الدين فى موضوع الطهارة والنجاسة. فإى مانع من أن يحتاط المسلم فى دينه، ويتّخذ معه تربة طاهرة يطمئن بها وبطهارتها يسجد عليها لدى صلاته حذراً من السجدة على الرجاسة والنجاسة، والأوساخ التى لا يتقرّب بها إلى الله قط ولا تجوز السنة السجود عليها ولا يقبله

العقل السليم، خصوصاً بعد ورود التأكيد التام البالغ في طهارة أعضاء المصلّي ولباسه والنهي عن الصلاة في مواطن منها: المزبلة، والمجزرة، وقارعة الطريق، والحمام، ومواطن الابل والأمر بتطهير المساجد وتطبيها (١). وهذه القاعدة كانت ثابتة عند السلف الصالح وإن غفل التاريخ عن نقلها فقد روى أن التابعي الفقيه مسروق بن الأجدع المتوفى عام ٦٢ كان يصحب في أسفاره لنبه من المدينة يسجد عليها كما أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه المصنف باب من كان حمل في السفينة شيئاً يسجد عليه. فأخرج بإسنادين أن مسروقاً كان إذا سافر حمل معه في السفينة لنبه يسجد عليها (٢). إلى هنا تبين أن التزام الشيعة باتخاذ التربة مسجداً ليس إلا تسهيل الأمر للمصلّي في سفره وحضره عسى أن لا يجد أرضاً طاهرة أو حصيراً طاهراً فيصعب الأمر عليه وهذا كادخار المسلم تربة طاهرة لغاية التيمم عليه. وأما السر في التزام الشيعة استحباباً بالسجود على التربة الحسينية فأنما هو من

١. العلامة الأميني: سيرتنا وستتنا ١٥٨ - ١٥٩.

٢. أبو بكر بن أبي شيبة: المصنف ١ / ٤٠٠ كما في السجدة على التربة ٩٣. (٤٣١)

جهة الأغراض العالیه والمقاصد السامیه منها، أن يتذكر المصلّي حين يضع جبهته على تلك التربة، توضيحاً ذلك الإمام بنفسه وأهل بيته والصفوة من أصحابه في سبيل العقيدة والمبدأ ومقارعة الجور والفساد. ولما كان السجود أعظم أركان الصلاة وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد إلى ربه حال سجوده» فيناسب أن يتذكر بوضع جبهته على تلك التربة الزاكية أولئك الذين جعلوا أجسامهم ضحايا للحق، وارتفعت أرواحهم إلى الملأ الأعلى، ليخشع ويخضع ويتلازم الوضع والرفع، وتحتقر هذه الدنيا الزائفة وزخارفها الزائلة ولعل هذا هو المقصود من أن السجود عليها يخرق الحجب السبع كما في الخبر فيكون حينئذ في السجود سر الصعود والعروج من التراب إلى ربّ الأرباب (١). وقال العلامة الأميني: نحن نتخذ من تربة كربلاء قطعاً لمعاً، وأقراصاً نسجد عليها كما كان فقيه السلف مسروق بن الأجدع يحمل معه لنبه من تربة المدينة المنورة يسجد عليها، والرجل تلميذ الخلافة الراشدة، فقيه المدينة، ومعلم السنّة بها، وحاشاه من البدعة. فليس في ذلك أي حزازة وتعسف أو شيء يضاد نداء القرآن الكريم أو يخالف سنّة الله وسنّة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو خروج من حكم العقل والاعتبار. وليس اتّخاذ تربة كربلاء مسجداً لدى الشيعة من الفرض المحتّم ولا من واجب الشرع والدين ولا - ممّا ألزمه المذهب ولا - يفترق أي أحد منهم منذ أول يومها بينها وبين غيرها من تراب جميع الأرض في جواز السجود عليها خلاف ما يزعمه الجاهل بهم بأرائهم، وإن هو عندهم إلا استحسان عقلي ليس إلا، واختيار لما هو الأولى بالسجود لدى العقل والمنطق والاعتبار فحسب كما سمعت وكثير من رجال

١. الأرض والتربة الحسينية ٢٤.

(٤٣٢)

المذهب يتخذون معهم في أسفارهم غير تربة كربلاء ممّا يصحّ السجود عليه كحصير طاهر نظيف يوثق بطهارته أو خمره مثله ويسجدون عليه في صلواتهم (١). هذا إمام اجمالي بهذه المسألة الفقهية والتفصيل موكول إلى محلّها وقد أغنانا عن ذلك ما سطره أعلام العصر وأكابرهم وأخص بالذكر منهم . ١- المصلح الكبير الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء ١٢٩٥ - ١٣٧٣ في كتابه الأرض والتربة الحسينية . ٢- العلامة الكبير الشيخ عبدالحسين الأميني مؤلف الغدير ١٣٢٠ - ١٣٩٠ فقد دون رسالة في هذا الموضوع طبع في آخر كتابه سيرتنا وستتنا . ٣- السجود على الأرض للعلامة الشيخ علي الأحمدي - دام عزّه - فقد أجاد في التتبع والتحقيق . فما ذكرنا في هذه المسألة اقتباس من أنوار علومهم . رحم الله الماضين من علمائنا وحفظ الله الباقيين منهم .

١. سيرتنا وستتنا ١٦٦ - ١٦٧ طبع النجف الأشرف .

الفصل الحادي عشر في الأئمة الإثني عشر

الفصل الحادي عشر في الأئمة الإثني عشر (٤٣٤) (٤٣٥)

إنَّ الشيعة الامامية هي الفرقة المعروفة بالاثني عشرية. فهم يعتقدون باثني عشر إماماً من بني هاشم وقد نصَّ الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - على إمامتهم وقيادتهم واحداً بعد الآخر كما نصَّ كل إمام على إمامة من بعده نصّاً يخلو من الابهام . وقد عرفت فيما مضى أنه تضافر عن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه يملك هذه الأمة اثنا عشر خليفة كعدد نساء بني إسرائيل . وذكرنا هناك أن هذه الروايات مع ما فيها من المواصفات لا تنطبق إلا على أئمة الشيعة والعترة الطاهرة «وإذا كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الشجرة وهم أغصانها، والدوحة وهم أفنانها، ومنبع العلم وهم عيبته، ومعدن الحكم وهم خزائنه، وشارع الدين وهم حفظته وصاحب الكتاب وهم حملته» (١) فيلزم علينا معرفتهم، كيف وهم احد الثقلين اللذين تركهما الرسول، قدوة للأمة ونوراً على جبين الدهر . ونحن نعرض في هذا الفصل، موجزاً عن أحوالهم وحياتهم حتى يكون القارئ ملماً بهم عن كتب. ونعيد كلمتنا بأن الغرض هو الامام والايجاز بل الاشارة والالماح لا التفصيل والتطويل. وإلا فإن بسط الكلام عنهم يحتاج إلى تدوين _____

١ . اقتباس مما ذكره أمين الاسلام الطبرسي في مقدمته كتابه إعلام الوري بأعلام الهدى ٣ .

(٤٣٦)

موسوعة كبيرة. وقد قام بذلك شطر كبير من علماء الإسلام ونحن نستضيئ من أنوار كلامهم فنقول: (٤٣٧) الامام الأول: الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام -

إنَّ الامام علي بن أبي طالب أشهر من أن يعرّف ولقد قام لفيف من السنّة والشيعة بتأليف كتب وموسوعات عن حياته، ومناقبه، وفضائله، وجهاده، وعلومه وخطبه وقصار كلماته. وسياسته وحروبه مع النكاثين والقاسطين، فالأولى لنا الاكتفاء بهذا المقدار واحالة القارئ إلى تلك الموسوعات بيد أننا نكتفي هنا بذكر أوصافه الواردة في السنّة فنقول: هو أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وقائد الغر المحجلين، وخاتم الوصيين، وأول القوم إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأعظمهم مزيّة، وأقومهم بأمر الله، وأعلمهم بالقضية، وراية الهدى، ومنار الايمان، وباب الحكمة، والممسوس في ذات الله، خليفة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، الهاشمي، وليد الكعبة المشرفة ومُطهرها من كل صنم ووثن، الشهيد في البيت الإلهي (٤٣٨)

(جامع الكوفة) في محرابه حال الصلاة سنة ٤٠ . كل من هذه الجمل الخمس عشر، كلمة قدسية نبوية أخرجها الحفاظ من أهل السنّة (١) . وكفى في حقه ما قاله رسول الله: «عنوان صحيفة المؤمن حبّ علي بن أبي طالب» (٢) . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «من سرّه أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن غرسها ربّي، فليوال علياً بعدى، وليوال ولّيه، وليقتد بالأئمة من بعدى، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي، رزقوا فهماً وعلماً. وويل للمكذّبين بفضلهم، القاطعين فيهم صلتى، لا أنالهم الله شفاعتي» (٣) . وقال الامام أحمد: ما لأحمد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلّي - رضی الله عنه - (٤) . وقال الامام الرازي: من اتّخذ علياً إماماً لدينه، فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه (٥) . ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، لقول النبي: «اللهم أدر الحق مع علي حيث دار» (٦) . وقال شبلي شمّيل: «الامام علي بن أبي طالب، عظيم العظماء، مسخّة مفردة،

١ . راجع مسند أحمد ١ / ٣٣١ ، ١٨٢ / ٥ - ١٨٩ ، حلية الأولياء ١ / ٦٢ - ٦٨ ، ولاحظ الغدير ٢ / ٣٣ .

٢ . الخطيب البغدادي التاريخ ٤ / ٤٠ .

٣ . أبو نعيم: حلية الأولياء ١ / ٨٦ .

٤ . ابن الجوزي الحنبلي: مناقب أحمد ١٦٣ .

٥ و ٦ الرازي: التفسير ١ / ٢٠٧ . (٤٣٩)

لم ير لها الشرق والغرب صورة طبق الأصل، لا قديماً ولا حديثاً» (١) . وقال جورج جرداق: «وماذا عليك يا دنيا لو حشدت قواك فأعطيت في كل زمن علياً بعقله، وقلبه، ولسانه وذى فقاره» (٢) . فصول حياته الخمسة:

إنّ الامام - عليه السلام - ولد في الكعبة بعد مضي ثلاثين عاماً من واقعة الفيل وفي الحقيقة ولد بعشر سنين قبل البعثة وتوفى في العام الأربعين من الهجرة فيكون عمره الشريف ثلاثة وستين عاماً. فلو أردنا أن نقسم حياته إلى فصول نجد أنّ هناك فصولا خمسة تشكّل مجموع حياته - عليه السلام - . ١- حياته قبل البعثة وهي لا تتجاوز عن عشر سنين، وقد تكفّله النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو حين ذاك لا يتجاوز عمره عن أربعة أو خمسة سنين وجاء به إلى داره وعاش في بيته، وقد لازمه طيلة تلك الأعوام حتّى الأيام التي كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعتكف فيها في غار حراء كما هو المحقق في التاريخ . ٢- حياته بعد البعثة وقبل هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة المنورة، ولقد هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي لا تزيد على ثلاثة عشر عاماً . ٣- حياته بعد الهجرة وقبل وفاة النبي الأكرم وهي عشر سنوات حافلة بالجهاد والتضحيات . ٤- حياته بعد رحلة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقبل الخلافة وتبلغ

١ و ٢ . الإمام على صوت العدالة الإنسانية ١ / ٣٧ - ٤٩ .

(٤٤٠)

٢٥ سنة ولقد قدّم خدمات ثقافية عظيمة للأمة خلالها. ولم تكن خالية عن الحوادث المريرة . ٥- حياته بعد الخلافة إلى شهادته في محراب مسجد الكوفة، وهي حافلة بحروبه مع الناكثين والقاسطين والمارقين. ولقد أخذ بمقاليد الخلافة بعد أن صارت أموية. وبعد أن سلط عثمان بن أمية، على العباد والبلاد وسادت عبادة الدينار والدرهم وملأ حبّ الدنيا قلوب كثير من الناس فسعى - عليه السلام - في اخراج الأمية من هذه الأزمة وارجاعهم إلى ما كانوا عليه في عصر النبي الأكرم. ولقى في طريق أمنيته ما لقي إلى أستشهد في محراب عبادته لشدة عدله . فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم بيعت حيا . وقد كتب حول حياة الإمام ما لا تعد ولا تحصى من الكتب والرسائل والموسوعات، فلا محيص، عن احالة القراء إليها غير أنّا نشير هنا إلى بعض خصائصه. بعض خصائصه:

يطيب لى أن أشير إلى بعض خصائصه قياماً ببعض الوظيفة تجاه ما له من الحقوق على الإسلام والمسلمين عامة، فنقول: إنّ له خصائص لم يشترك فيها أحد: ١- السابق إلى الإسلام . ٢- ولد في الكعبة . ٣- تربى منذ صغره في حجر رسول الله . ٤- مؤاخاته مع النبي . ٥- إنّ النبي حمله حتّى طرح الأصنام من الكعبة . ٦- إنّ ذريته رسول الله منه . ٧- إنّ النبي تفل في عينيه يوم خبير، ودعا له بأن لا يصيبه حرّ ولا قرّ . (٤٤١)

٨- إنّ حبه إيمان، وبغضه نفاق . ٩- إنّ النبي باهل النصارى به وبزوجته وأولاده دون سائر الأصحاب . ١٠- بلغ سورة براءة عن النبي . ١١- إنّ النبي خصّه يوم الغدير بالولاية . ١٢- أنّه القائل: «سلوني قبل أن تفقدوني» . ١٣- إنّ النبي خصّه بتغسيله وتجهيزه والصلاة عليه . ١٤- إنّ الناس جميعاً من أرباب الأديان وغيرهم ينظرون إليه كأعظم رجل عرفه التاريخ (١) .

١ . وقد استخرج هذه الخصائص الكاتب القدير محمد جواد مغنیه في كتابه: الشيعة والتشيع ٢٣٤ .

(٤٤٢) (٤٤٣) الامام الثاني أبو محمد الحسن بن على - عليه السلام -

هو ثاني أئمّة أهل البيت الطاهر وأول السبطين وسيد شباب أهل الجنّة، ربحانة رسول الله، وأحد الخمسة من أصحاب الكساء أمّه فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سيّدة نساء العالمين . ولد في المدينة ليلة النصف من شهر رمضان سنة ثلاث أو اثنتين من الهجرة وهو أول أولاد على وفاطمة - عليهما السلام - . نسب كان عليه من شمس الضحى نور ومن فلق الصباح عمودا وروى عن أنس بن مالك قال: لم يكن أحد أشبه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الحسن بن على - عليهما السلام - . (١)

١ . الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي (ت ٨٥٥): ١٥١ - ١٥٢، وأعيان الشيعة ١ / ٥٦٢ .

(٤٤٤)

فلما ولد الحسن قالت فاطمة لعلى: سمّه فقال: ما كنت لأسبق باسمه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فجاء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - فأخرج إليه فقال: اللهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم. وأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى. أشهر ألقابه: التقى والزكى والسبط. أما علمه فيكفى أنه كان يجلس في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويجتمع الناس حوله فيتكلم ما يشفى غليل السائل ويقطع حجج المجادلين. من ذلك ما رواه الامام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدى فى تفسير الوسيط: أن رجلاً دخل إلى مسجد المدينة فوجد شخصاً يحدث عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والناس حوله مجتمعون فجاء إليه الرجل قال: أخبرنى عن شاهد ومشهود: فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة والمشهود فيوم عرفة. فتجاوزه إلى آخر غيره يحدث فى المسجد، فسأله عن شاهد ومشهود قال: أما الشاهد فيوم الجمعة وأما المشهود يوم النحر. قال: فتجاوزهما إلى ثالث، غلام كان وجهه الدينار وهو يحدث فى المسجد فسأله عن شاهد ومشهود فقال: نعم أما الشاهد فرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأما المشهود فيوم القيامة أما سمعته عزوجل يقول: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) (١) وقال تعالى: (ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ) (٢). فسأل عن الأول فقالوا ابن عباس، وسأل عن الثانى فقالوا ابن عمر، وسأل عن الثالث فقالوا الحسن بن علي بن أبى طالب - عليهما السلام - (٣). وأما زهده فيكفى فى ذلك ما نقله الحافظ أبو نعيم فى حليته بسنده أنه قال - عليه السلام - : _____

١. الأحزاب / ٤٥ .

٢. هود / ١٠٣ .

٣. الفصول المهمة: ١٥٥ . (٤٤٥)

إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته فمشى عشرين مرة من المدينة إلى مكة على قدميه. وروى عن الحافظ أبى نعيم فى حليته أيضاً أنه - عليه السلام - خرج من ماله مرتين، وقاسم الله تعالى ثلاث مرات ماله وتصدق به. وكان - عليه السلام - من أزهده الناس فى الدنيا ولذاتها، عارفاً بغرورها وآفاتها، وكثيراً ما كان - عليه السلام - يتمثل بهذا البيت شعراً: يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها * إن غتراراً بظلل زائل حَمَقُ (١) وأما حلمه فقد روى ابن خلكان عن ابن عائشة أن رجلاً من أهل الشام قال: دخلت المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - فرأيت رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسن وجهاً ولا سمتاً ولا ثوباً ولا دابةً منه، فمال قلبى إليه فسألت عنه فقيل: هذا الحسن بن علي بن أبى طالب، فامتلاً قلبى له بغضاً وحسدت عليه أن يكون له ابن مثله فصرت إليه وقلت له: أنت ابن علي بن أبى طالب؟ قال: أنا ابنه. قلت: فعل بك وبأبيك - اسبهما، فلما انقضى كلامى - قال لى: أحسبك غريباً؟ قلت: أجل، قال: مل بنا فإن احتجت إلى منزل أنزلناك أو إلى مال آتيناك أو إلى حاجة عاوناك قال: فانصرفت عنه وما على الأرض أحب إليّ منه، وما فكرت فيما صنع وصنعت إلا شكرته وخزيت نفسى (٢). وأما إمامته. فيكفى فى ذلك ما صرح به النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - : هذان ابناى إمامان قاما أو قعدا... روت الشيعة بطرقهم عن سليم بن قيس الهلالي قال: شهدت أمير المؤمنين - عليه السلام - حين أوصى إلى ابنه الحسن - عليه السلام - وأشهد على وصيته الحسين _____

١. الفصول المهمة: لابن الصباغ المالكي ١٥٦ .

٢. وفيات الأعيان: ابن خلكان ٢ / ٦٨ . (٤٤٦) - عليه السلام - ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته؟ ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال له: يا بنى إنّه أمرنى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن أوصى إليك، وأدفع إليك كتبي وسلاحى كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرنى أن آمرك إذا حضرت الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين، ثم أقبل على ابنه الحسين - عليه السلام - فقال: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك هذا ثم أخذ بيد علي بن الحسين وقال: وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي فافقرئه من رسول الله ومنى السلام (١) .

روى أبو الفرج الاصفهاني أنه خطب الحسن بن علي بعد وفاة أمير المؤمنين علي - عليه السلام - وقال: قد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل، ولا يدركه الآخرون بعمل، ولقد كان يجاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيقيه بنفسه، ولقد كان يوجهه برايته فيكتفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه، ولقد توفى هذه الليلة التي عرج فيها بعيسى

بن مريم ولقد توفى فيها يوشع بن نون وصى موسى وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله . ثم خنفته العبرة فبكى وبكى الناس معه . ثم قال: أيها الناس من عرفنى، فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا الحسن ابن محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله عزوجل بإذنه، وأنا ابن السراج المنير وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم

١ . إعلام الورى بأعلام الهدى للشيخ الطبرسى ٢٠٧ - ٢٠٨ ومن أراد الوقوف على نصوص إمامته فعليه أن يرجع إلى الكافى ١ / ٢٩٧ واثبات الهداة ٢ / ٥٤٣ - ٥٦٨ فقد نقل: خمسة نصوص فى المقام. (٤٤٧)

الرجس وطهرهم تطهيراً، والذين افترض الله مودتهم فى كتابه إذ يقول: (وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسِينَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسِيناً) (١) فاقتراف الحسنه مودتنا أهل البيت . قال أبو مخنف عن رجاله: ثم قام ابن عباس بين يديه فدعا الناس إلى بيعته فاستجابوا له وقالوا: ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة فبايعوه (٢) . وقال المفيد: كانت بيعته يوم الجمعة ٢١ من شهر رمضان سنة ٤٠ (٣) . ونقل عن أبى الفرج أنه نزل عن المنبر فرتب العميال وأمر الأمراء ونظر فى الأمور، وأنفذ عبد الله بن العباس إلى البصرة وأول شىء أحدثه أنه زاد فى المقاتلة مائة مائة . وقد كان على أبوه فعل ذلك يوم الجمل وهو فعله يوم الاستخلاف فتبعه الخلفاء بعد ذلك (٤) . قال المفيد: فلما بلغ معاوية وفاة أمير المؤمنين وبيعة الناس ابنه الحسن، دس رجلا من حمير إلى الكوفة ورجلا من بنى القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور، فعرف ذلك الحسن فأمر باستخراج الحميرى من عند لحام فى الكوفة فأخرج وأمر بضرب عنقه . وكتب إلى البصرة باستخراج القينى من بنى سليم فأخرج وضربت عنقه (٥) .

١ . الشورى / ٢٣ .

٢ . مقاتل الطالبين ٥٢ .

٣ . الإرشاد للمفيد ١٨٨ .

٤ . فى رحاب أئمة أهل البيت للأمين العاملى ١٥ وما نقله عن أبى الفرج ليس موجوداً فى النسخة المطبوعة المحققة على يد السيد أحمد صفر ولعله سقط من نسخته .

٥ . مقاتل الطالبين: ٥٢، الارشاد: للمفيد ١٨٨ - ١٨٩ . (٤٤٨)

ثم إنه استمرت المراسلات (١) بين الحسن ومعاوية وانجرت إلى حوادث مريرة إلى أن أدت إلى الصلح واضطر إلى التنازل عن الخلافة لصالح معاوية . فعقدا صلحاً وإليك صورته . بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه الحسن بن على بن أبى طالب معاوية بن أبى سفيان صالحه على أن يسلم إليه ولاية المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله، وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً على أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله تعالى فى شامهم ويمنهم وعراقهم وحجازهم . وعلى أن أصحاب على وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا وعلى معاوية بذلك عهد الله وميثاقه، وعلى أن لا يبغى للحسن بن على ولا لأخيه الحسين غايلاً ولا لأحد من أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، غائلة سوء سراً وجهراً ولا يخيف أحداً فى أفق من الآفاق شهد عليه بذلك فلان وفلان وكفى بالله شهيداً (٢) . ولما تم الصلح سعد معاوية المنبر وقال فى خطبته: إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك، ولكنى قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون . ألا وإنى كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي هاتين لا أفى به (٣) .

١ . ومن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى مقاتل الطالبين ٥٣ إلى ٧٢ وبالامعان فيها وما أظهر أصحابه من التخاذل، يتضح سر صلح الامام وتنازله عن الخلافة فلم يطاع إلا أنه أتم الحجة عليهم ومن أراد التفصيل فليرجع إلى صلح الحسن للشيخ راضى آل ياسين .

٢ . الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ١٦٣ .

٣ . المفيد: الارشاد ١٩١ طبع النجف . (٤٤٩) شهادته: انصرف الحسن - رضى الله عنه - إلى المدينة فأقام بها، وأراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي فُدس إليه السم فمات منه .

أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث: إني مزوجك بيزيد ابني علي أن تسمى الحسن ابن علي وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن فسوغها المال ولم يزوجها منه (١) . فلما دنى موته أوصى لأخيه الحسين - عليه السلام - وقال: إذا قضيت نحبي غسلني وكفني واحملني علي سريري إلى قبر جدّي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم ردني إلى قبر جدتي فاطمة بنت أسد فادفني هناك بالله أقسم عليك أن لا تهرق في أمري محجمة دم . فلما حملوه إلى روضة رسول الله لم يشك مروان ومن معه من بني أمية أنهم سيدفونوه عند جدّه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فتجمّعوا له ولبسوا السلاح ولحقتهم عائشة علي بغل وهي تقول: مالي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب وجعل مروان يقول: يا رب هيجاء هي خير من دعة، ايدفن عثمان في اقصى المدينة ويدفن الحسن مع النبي وكادت الفتنة تقع بين بني هاشم وبين أمية . ولأجل وصية الحسن مضوا به إلى البقيع ودفنوه عند جدته فاطمة بنت أسد (٢) . توفى الحسن وله من العمر ٤٧ وكانت سنة وفاته سنة ٥٠ من الهجرة النبوية . والعجب ان مروان بن الحكم حمل سريره إلى البقيع فقال له الحسين: أتحمل سريره أما والله لقد كنت تجرّعه الغيظ فقال مروان: إني كنت أفعل ذلك بمن يوازن

١ . مقاتل الطالبين ٧٣ .

٢ . كشف الغمة ١ / ٢٠٩ / ١ ومقاتل الطالبين ٧٤ - ٧٥ . (٤٥٠)

حلّمه الجبال (١) . هذه لمحّة عن حياة الحسن المشحونة بالحوادث المريرة . وتركنا الكثير ممّا يرجع إلى جوانب حياته خصوصاً ما نقل عنه من الخطب والرسائل والكلم القصار ومن أراد التفصيل فليرجع إلى تحف العقول (٢) فقد ذكر قسماً كبيراً من كلماته . ولما بلغ معاوية موت الحسن - عليه السلام - سجد و سجد من حوله وكبّروا معه، ذكره الزمخشري في ربيع الأبرار وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهما . فقال بعض الشعراء: أصبح اليوم ابن هند شامتا * ظاهر النخوة إذ مات الحسن يا ابن هند إن تذق كأس الردى * تكّ في الدهر كشيء لم يكن لست بالباقي فلا تشمت به * كل حيّ للمنايا مرتهن (٣)

١ . مقاتل الطالبين ٤٦ .

٢ . الحرّاني، حسن بن شعبة: تحف العقول ٢٢٥ - ٢٣٦ .

٣ . في رحاب أئمة أهل البيت ٤٣ . (٤٥١) الإمام الثالث: الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهما السلام - سيّد الشهداء

هو ثالث أئمة أهل البيت الطاهر، وثاني السبطين، وأحد سيدي شباب أهل الجنة، وريحانتي المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأحد الخمسة أصحاب الكساء، وسيد الشهداء، وأمه فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . ولد في المدينة المنورة في الثالث من شعبان سنة ٣ أو ٤ من الهجرة ولما ولد جيئ به إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاستبشر به، وأذن في أذنه اليمنى واقام في اليسرى، فلما كان اليوم السابع سمّاه حسيناً . وعقّ عنه بكبش وأمر أن يحلق رأسه ويتصدّق بوزن شعره فضة . كما فعلت بأخيه الحسن فامتلت أمه ما أمرها . (٤٥٢)

ولقد استشهد يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم سنة ٦١ من الهجرة وقيل يوم السبت . أدرك من حياة النبي الأكرم ٥ أو ٦ سنوات وعاش مع أبيه ٣٦ سنة . ومع أخيه ٤٦ سنة . إنّ حياة الامام الحسين من ولادته إلى شهادته حافلة بالحوادث، والاشارة فضلاً عن الاحاطة إلى كل ما يرجع إليه يحتاج إلى تأليف مفرد، فقد أغنانا في ذلك ما كتبه المؤلّفون حول النصوص الواردة من جدّه وأبيه في حقّه، وحول علمه ومناظراته، حول خطبه وكتبه وقصار كلمه، حول فصاحته وبلاغته، حول مكارم أخلاقه وكرمه وجوده، وزهده وعبادته، ورأفته بالفقراء والمساكين، حول أصحابه والرواة عنه، والجبل الذي تربى علي يديه . كل ذلك ألف حوله رسائل ومؤلفات

وموسوعات . غير أن للحسين - عليه السلام - وراء ذلك، خصيصة أخرى، وهي كفاحه وجهاده الرسالي والسياسي الذي عُرفَ به، وصار شعاراً له بل مدرسةً سياسيةً دينيةً، وأسوةً وقدوةً مدى أجيال وقرون، ولم يزل منهجه يُؤثر في ضمير الأمة ووعيتها ويحرك العقول المتفتحة، والقلوب المستنيرة إلى التحرك والثورة ومواجهة طواغيت الزمان بالعرف والشدّة. وها نحن نقدم إليك نموذجاً من غرر كلماته في ذلك المجال حتى تقف على كفاحه وجهاده أمام التيارات اللاحادية والانهياري الخلقى . إباؤه للضميم ومعاندة الجور:

لَمَّا توفّي أخوه الحسن في العام الخمسين من الهجرة أوصى إليه بالإمامة فاجتمعت الشيعة حوله، يرجعون إليه في حلّهم وترحالهم وكان لمعاوية عيون في المدينة يكتبون إليه ما يكون لأمر الناس مع الحسين - عليه السلام - ولقد كتب مروان (٤٥٣)

ابن الحكم وهو عامل معاوية على المدينة أن رجلاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي وأنه لا يأمن وثوبه، ولقد بحثت عن ذلك فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا . ولما بلغ الكتاب إلى معاوية كتب رسالته إلى الحسين وهذه نصّها: أما بعد: فقد انتهت إلى أمور عنك إن كانت حقاً فإنّي أرغب بك عنها، ولعمر الله أن من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء وأنّ أحقّ الناس بالوفاء من كان في خطرِك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله لها... (١) . ولما وصل الكتاب إلى الحسين بن علي كتب إليه رسالته مفصّلة ذكر فيها جرائمه ونقضه ميثاقه وعهده، نقبتس منه ما يلي . «ألست قاتل حجر بن عدى أخا كنده وأصحابه المصلين، العابدين، الذين ينكرون الظلم، ويستفطعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة، ولا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، جرأة على الله واستخفافاً بعهده. أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفرّ لونه، فقتلته بعد ما أمنته وأعطيته العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال . أولست المدعى زياد بن سمية المولود على فراش عبيد بن ثقيف فزعمت أنه ابن أبيك وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : الوالد للفراش وللعاشر الحجر، فتركت سنّة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تعمداً وتبعته هواك بغير

١ . الامامة والسياسة ١ / ١٤٣ .

(٤٥٤)

هدى من الله، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويُسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك. أولست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية أنهم على دين علي - صلوات الله عليه - فكتبت إليه أن أقتل كل من كان على دين عليّ، فقتلهم ومثّل بهم بأمرِك، ودين علي هو دين ابن عمّه - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي أنت فيه ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجسّم الرحلتين رحلة الشتاء وال الصيف (١) . هذا هو الحسين وهذا هو إباؤه للضميم ودفاعه عن الحق ونصرتة للمظلومين في عصر معاوية. وذكرنا هذه المقتطفات كنموذج من سائر خطبه ورسائله التي ضبطها التاريخ . رفضه البيعة ليزيد:

لَمَّا توفّي معاوية في منتصف رجب سنة ٦٠ كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة والي المدينة أن يأخذ الحسين - عليه السلام - بالبيعة له فأنفذ الوليد إلى الحسين - عليه السلام - فاستدعاه فعرّف الحسين ما أراد، فدعا جماعة من مواليه وأمرهم لحمل السلاح وقال: اجلسوا على الباب فإذا سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليه ولا تخافوا عليّ وصار - عليه السلام - إلى الوليد فنعى الوليد إليه معاوية فاسترجع الحسين - عليه السلام - ثم قرأ عليه كتاب يزيد بن معاوية فقال الحسين - عليه السلام - : فنصبح ونرى في ذلك، فقال الوليد: انصرف على اسم الله تعالى، فقال مروان: والله لئن فارقتك الساعة ولم يبايع لا - تقدر منه على مثلها أبداً حتى يكسر القتل بينكم وبينه

١ . الامامة والسياسة ١ / ١٤٤ وبحار الأنوار ٤٤ / ٢١٣ .

(٤٥٥)

فلا يخرج من عندك حتى يبيع أو تضرب عنقه فوثب عند ذلك الحسين - عليه السلام - وقال: أنت يابن الزرقاء تقتلني أو هو؟ كذبت والله وأثمت فخرج (١). وأصبح الحسين من غده يستمع الأخبار فإذا هو بمروان بن الحكم قد عارضه في طريقه فقال: أبا عبد الله إنني لك ناصح فأطعني ترشد وتسدد، فقال: وما ذاك قل أسمع، فقال: إنني أرشدك لبيعة يزيد فإنها خير لك في دينك وفي دنياك، فاسترجع الحسين وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وعلى الإسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد، ثم قال: يا مروان أترشدني لبيعة يزيد. ويزيد رجل فاسق لقد قلت شططاً من القول وزللاً، ولا ألومك فإنك اللعين الذي لعنك رسول الله وأنت في صلب أبيك الحكم بن العاص ومن لعنه رسول الله، فلا ينكر منه أن يدعو لبيعة يزيد. إليك عنى يا عدو الله. فإننا أهل بيت رسول الله الحق فينا ينطق على ألسنتنا. وقد سمعت جدى رسول الله يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء. فإذا رأيتم معاوية على منبرى فابقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا به ما أمروا فابتلاهم بانه يزيد (٢). ثم إن الحسين غادر المدينة إلى مكة. ولما بلغ أهل الكوفة هلاك معاوية اجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد فاتفقوا أن يكتبوا إلى الحسين رسائل وينفذوا رسلا طالبيين منه مغادرته مكة إلى الكوفة وهذا نموذج من رسائلهم. «فقد اخضرت الجنات، وأينعت الثمار فإذا شئت فاقدم على جند لك مجتدة». ولما جاءت رسائل أهل الكوفة ترى كتب إليهم الحسين: أنه قد اجتمع رأى —————

١. الشيخ المفيد: الارشاد ٢٠٠ طبع النجف .

٢. الخوارزمي: مقتل الحسين ١ / ١٨٤ - ١٨٥ . (٤٥٦)

ملائكم وذووا الحجي والفضل منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأته في كتبكم أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله فلعمري ما الامام إلا الحاكم بالكتاب، القائم بالقسط، الدالين بدين الحق، الحابس نفسه على ذات الله (١). خرج الامام من مكة متوجها إلى الكوفة يوم التروية أو يوماً قبله فقطع المنازل حتى نزل بمقربة من الكوفة وعند ذاك استقبله الحر بن يزيد الرياحي بألف فارس مبعوثاً من الوالي عبيد الله بن زياد لاستقدامه مقبوضاً إلى الكوفة، فعند ذلك قام الامام وخطب أصحابه وأصحاب الحر بقوله: أيها الناس! إن رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً حرم الله ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحزّموا حلاله، وأنا أحق من غيري (٢). الدافع الواقعي للهجرة إلى العراق: إن الدافع الظاهري لهجرته إلى العراق، وإن كانت رسائل أهل الكوفة ورسولهم حتى أن الامام احتج بها عندما واجه الحر بن يزيد الرياحي وعمر بن سعد عندما سألاه عن سر مجيئه إلى العراق فقال: ما أتتني إلا رسل القوم ورسائلهم (٣) ولكن هذا الدافع كان أمراً ظاهرياً وكان وراء ذلك سر آخر لهجرته —————

١. الارشاد ٢٠٤ .

٢. الطبري: التاريخ ج ٤، حوادث سنة ٦١، ص ٣٠٤، وأما ما جرى على الامام وأهل بيته حتى نزل أرض كربلاء فراجع المقاتل .

٣. الارشاد ٢٢٤ - ٢٢٥ . (٤٥٧)

يكتشفه من قرأ وتمعن في حياته منذ ولادته إلى شهادته وعند ذلك سيخذ موقفاً آخر. وهو أنه ما هاجر من الحجاز إلى العراق إلا وقد وطن نفسه للشهادة والتضحية لأجل بقاء الإسلام واصلاح أمر الأمة وفضح أعدائهما. إن الدافع الحقيقي للامام إلى الثورة والتضحية بالنفس والنفس هو شعوره الديني بأن السلطة وسياستها العامة لا تلتزم بالمبادئ الدينية وأنها بيد من يشرب الخمر ويلعب بالكلاب ويمارس الفسق والفجور ليله ونهاره، فلو دامت السلطة على هذه الحال لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولأجل ذلك لما طلب مروان بن الحكم مبايعة الامام ليزيد، قال: فعلى الإسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد كما عرفت . إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: صنّفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله ومن هما؟ فقال: الفقهاء والأمرء (١)، فإذا كان صلاح الأمة وفسادها رهن صلاح الخلافة وفسادها فقيادة مثل يزيد لا يزيد الأمر إلا عتياً وفساداً . إن القيادة

الإسلامية بين التنصيب والشورى فلم يملك يزيد السلطة لا بتنصيب من الله سبحانه ولا بشورى من الأئمة وقد وقف على ذلك أعلامهم، ولأجل ذلك كتبوا إلى الحسين - عليه السلام - في رسالة جاء فيها: أما بعد فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغضبها فيأها وتأمر عليها بغير رضی منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها (٢). ولم يكن الولد (يزيد) فريداً في غضب حق الأمة بل سبقه والده معاوية إليه

١. القمي: سفينة البحار ٢ / ٣٠ مادة أمر .

٢. الجزري الكامل ٢ / ٢٦٦ - ٢٦٧ والأرشاد ٢٠٣ . (٤٥٨)

كما أشار إليه الامام في كتابه إليه وقال: «فقد آن لك أن تنتفع باللمح الباصر، من عيان الأمور، وقد سلك مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل واقتحامك غرور المين والأكاذيب، وبانتحالك ما قد علا عنك، وابتزازك لما قد اخترن دونك فراراً من الحق» (١). هذا ونظائره المذكورة في التاريخ دفع الحسين إلى الثورة، وتقديم نفسه وأهل بيته إلى المجزرة مع العلم بأنه لا ينجح في ثورته نجاحاً ظاهرياً ولا يغلب على العدو بالسيف والقوة، لكن كان يقف على أن شجرة الإسلام ستنمو بدمه الطاهر، وأن مصباحه سيتوقد بدماء أهل بيته وأصحابه، وأن الأمة ستتخذ من تلك الثورة دروساً وعبراً حتى قيام الساعة. وإليك ما يدل على أن الإمام خاض المعركة مع العلم بأنه سيقتل ويستشهد . كان المعروف منذ ولادة الامام الحسين - عليه السلام - أنه سيستشهد في العراق في أرض كربلاء وعرف المسلمون ذلك في عصر النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - ووصيته لذا كان الناس يترقبون حدوث تلك الفاجعة وإليك بعض ما يدل على ذلك مما يرجع إلى زمان خروجه . ١- روى غير واحد من المحدّثين عن أنس بن الحارث الذي استشهد في كربلاء أنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «إن ابني هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء فمن شهد ذلك منكم فلينصره» فخرج أنس بن الحارث فقتل بها مع الحسين - عليه السلام - (٢). ٢- إن أهل الخبرة والسياسة في عصر الإمام كانوا متفقين على أن الخروج

١. نهج البلاغة، قسم الكتب، برقم ٦٥ .

٢. الاصابة ١ / ٨١، برقم ٢٦٦ . (٤٥٩)

إلى العراق يشكّل خطراً كبيراً على حياة الامام - عليه السلام - وأهل بيته ولأجل ذلك أخلصوا له النصيحة، وأصروا عليه عدم الخروج ويتمثل ذلك في كلام أخيه محمّد بن الحنفية، وابن عمّه ابن عباس، ونساء بنى عبدالمطلب ومع ذلك اعتذر لهم الامام وأفصح عن عزمه على الخروج (١). ٣- لما عزم الإمام المسير إلى العراق خطب وقال: الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا ألقه، كأني بأوصالي يتقطّعها عسلان الفلوات، بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خط بالقلم. رضى الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه. ويوفينا أجور الصابرين لن تشذ عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّبهم عينه، وينجز لهم وعده ألا- ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنني راحل مصباحاً إن شاء الله (٢). ٤- لما بلغ عبدالله بن عمر ما عزم عليه الحسين - عليه السلام - دخل عليه فلامه في المسير ولما رآه مصراً عليه قبل ما بين عينيه وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل (٣). ٥- لما خرج الحسين - عليه السلام - في مكة لقيه الفرزدق الشاعر فقال له: إلى أين يا بن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما أعجلك عن الموسم قال: لو لم أعجل لأخذت أخذاً فأخبرني يا فرزدق عما وراءك فقال: تركت الناس بالعراق،

١. لاحظ المحاورات التي جرت بين الامام وهؤلاء في الارشاد ٢٠١ - ٢٠٢ طبع النجف ومقاتل الطالبين ١٠٩، اللهوف ٢٠ طبع بغداد .

٢. اللهوف ٤١ طبع بغداد .

٣. تذكرة الخواص ٢١٧ - ٢١٨ . (٤٦٠)

قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أمية. فاتق الله في نفسك (١). ٦- لَمَّا أتى إلى الحسين خبر قتل مسلم بن عقيل وهانى بن عروة وعبدالله بن يقطر. قال لأصحابه: لقد خذلنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس معه زمام، فتفرق الناس عنه، وأخذوا يميناً وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة نفر يسير ممن انضموا إليه «ومع ذلك فلَمَّا أصبح سار نحو الكوفة فقال له شيخ من بني عكرمة يقال له عمر بن لوزان: أين تريد؟ فقال له الحسين - عليه السلام - : الكوفة، فقال الشيخ: أنشدك لَمَّا انصرفت فوالله ما تقدّم إلا على الأستة وحد السيوف فقال له الحسين: ليس يخفى على الرأي وأن الله تعالى لا يغلب على أمره (٢). وفي نفس النص دلالة على أن الامام كان يتفرس ما كان يتفرسه غيره وأن مصيره لو سار إلى الكوفة هو القتل ومع ذلك أكمل السير طلباً للشهادة التي كان المولى سبحانه كتبها إياه لأجل احياء الدين وهتك الأعداء، وايقاظ الأمة من سباتها حتى يضحو في طريق الدين بكل غال ورخيص. إلى غير ذلك من الشواهد والقرائن المتواترة، الدالة على أنه كان من الواضح أن الامام لا ينجح في ثورته نجاحاً ظاهرياً ومع ذلك واصل طريقه إلى أن لقي عدوه وضحي بنفسه وأهل بيته، كل ذلك لأجل ايقاظ ضمير الأمة، وفضح أعداء الإسلام ولقد أفصح عن هدفه عندما طلب منه الحر بن يزيد ترك المخاصمة وقال: فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن فقال له الحسين: أباالموت تخوفني وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصره رسول الله فخوفه ابن عمه .

١. الارشاد ٢١٨، نفس المهموم ٩١ .

٢. الارشاد ٢٢٣ . (٤٦١)

سأضحي فما في الموت عار على الفتى * إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً وآسى الرجال الصالحين بنفسه * وفارق مثبوراً وخالف مجرماً وإن عشت لم أندم، وإن مت لم ألم * كفى بك ذلاً- أن تعيش وترغماً (١) ثم إنّه كان لشهادة الحسين - عليه السلام - أثر كبير في ايقاظ شعور الأمة وتشجيعهم على الثورة ضدّ الحكومة الاموية التي اصبحت رمزاً للفساد والانحراف عن الدين، ولأجل ذلك توالى الثورات بعد شهادته من قبل المسلمين في العراق والحجاز، وهذه الانتفاضات وإن لم تحقق هدفها في وقتها ولكن كان لها الدور الأساسي في سقوط الحكومة الاموية بعد زمان . ولقد أجاد من قال لولا نهضة الحسين - عليه السلام - وأصحابه - رضى الله عنه - يوم الطف لما قام للإسلام عمود ولا اخضر له عود، ولأماته معاوية وأتباعه ولدنوه في أول عهده في لحدّه. فالمسلمون جميعاً بل الإسلام من ساعة قيامه إلى قيام الساعة رهين شكر للحسين - عليه السلام - وأصحابه - رضى الله عنه - (٢) على ذلك الموقف، يقال فيه أنّ الإسلام محمدي الحدوث حسيني البقاء والخلود . وكيف يجوز لأبي الشهداء السكوت تجاه تسلّم يزيد مقاليد الخلافة وهو يقول: وعلى الإسلام السلام إذ بليت الأمة براع مثل يزيد. ويزيد هو الّذى أنشد، حين حضر رأس الحسين بين يديه: ليت أشياخي بدر شهدوا * جزع الخرج من وقع الأسل قد قتلنا القرم من ساداتهم * وعدلنا قتيلاً بدر فاعتدل فأهلوا واستهلوا فرحا * ثم قالوا: يا يزيد لا تثل

١. المفيد: الارشاد ٢٢٥ والطبري في تاريخه ٢٠٤ / ٥ .

٢. جنة المأوى ٢٠٨ للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء . (٤٦٢)

لست من خندف إن لم أنتقم * من بني أحمد ما كان فعل لعبت هاشم بالملك فلا * خبر به جاء ولا وحى نزل (١) وأما بيان خروجه من مكة متوجّهاً إلى العراق والحوادث التي واجهها في المسير إلى أن نزل بأرض كربلاء، واستشهد فيها مع أولاده وأصحابه البالغ عددهم ٧٢ شخصاً، ظمناً وعطشاً، لهو خارج عن موضوع البحث وقد أُلّف فيه مئات الكتب وعشرات الموسوعات. فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يبعث حياً .

١. البيتان الأوّلان لابن الزبير، والثلاثة الأخيرة ليزيد لاحظ تذكّره الخواص ٢٣٥ . (٤٦٣) الإمام الرابع: على بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - زين العابدين

هو رابع أئمّة أهل البيت الطاهر. المشهور بزین العابدين أو سيّدهم، والسجّاد، وذو الثنّات. ولد في المدينة سنة ٣٨ أو ٣٧ وتوفّي بها

عام ٩٥ أو ٩٤ يوم السبت ١٢ من محرم . قال ابن خلكان: هو أحد الأئمة الإثني عشر ومن سادات التابعين، قال الزهري: ما رايت قرشياً أفضل منه، وفضائله ومناقبه أكثر من أن تحصى وتذكر، ولما توفى دفن في البقيع في جنب عمه الحسن في القبة التي فيها قبر العباس - رضى الله عنه - (١). ومن أراد الأطلاع على مناقبه وكراماته وفضائله في مجالات شتى كالعلم، _____

١. وفيات الأعيان ٣ / ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٤٦٤)

والحلم، والصفح، ومقابلة الاساءة بالاحسان، والشجاعة، وقوة القلب، وثبات الجنان، والجرأة، والكرم والسخاء، وكثرة الصدقات، وعتق العبيد، والفصاحة والبلاغة، والورع والتقوى والعبادة وتربية صفوة جليله من الأعلام وايصالهم إلى القمة في العلم والعمل من الذين يُسَيِّدُ بغير الغمام وكثرة البرِّ بأمره والرفق بالحيوان وهيبته وعظمته في أعين الناس وغير ذلك فعليه الرجوع إلى الموسوعات . ونكتفي بأمور: ١- إيصال الحسين إليه في أمر الامامة . ٢- زهده وعبادته ومواساته للفقراء . ٣- هيبته وعظمته . ٤- ما تركه من الثروة العلمية من الأدعية والمناجاة . أما إيصال الحسين له، فقد تكفل لذكره كتب الحديث والعقائد، وأخص بالذكر، الكافي للكليسي (١) وإثبات الهداة للحر العاملي (٢) . وأما هيبته ومكانته في القلوب، فاستمع ما يلي: لَمَّا حَجَّ هشام بن عبد الملك قبل أن يلي الخلافة اجتهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يمكنه، وجاء على بن الحسين - عليهما السلام - فتوقف له الناس، وتنحوا حتى استلم فقال جماعة لهشام: من هذا؟ فقال: لا- أعرفه (مع أنه كان يعرفه أنه على بن الحسين - عليهما السلام -) فسمعه الفرزدق، فقال: لكتني أعرفه، هذا على بن الحسين زين العابدين، وأنشد هشاماً قصيدته التي منها هذه الأبيات . _____

١ . الكافي ٣٠٣ .

٢ . إثبات الهداة ٣ / ١ - ٥ . (٤٦٥)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم إذا رأته قريش قال قائلها * إلى مكارم هذا ينتهي الكرم إن عُجِدَ أهل التقى كانوا أئمتهم * أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله * بجده أنبياء الله قد ختموا وليس قولك من هذا بضائه * العرب تعرف من أنكرت والعجم إلى آخر القصيدة التي حفظتها الأمة وشطرها جماعة من الشعراء وقد ثقل ذلك هشاماً فأمر بحبسه، فحبسه بين مكة والمدينة. فقال معترضاً على عمل هشام: أيجسني بين المدينة والتي * إليها قلوب الناس يهوى منيها يقبل رأساً لم يكن رأس سيد * وعيناً له حواء باد عيوبها فأخرجه من الحبس فوجه إليه على بن الحسين - عليهما السلام - عشرة آلاف درهم وقال: اعذرنا يا أبا فراس، فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به، فردّها الفرزدق وقال: ما قلت ما كان إلا لله، فقال له على - عليه السلام - : قد رأى الله مكانك فشكرك، ولكننا أهل بيت إذا أنفدنا شيئاً لم نرجع فيه وأقسم عليه فقبلها . أما زهده وعبادته ومواساته للفقراء، وخوفه من الله فغنى عن البيان كان على بن الحسين إذا توضأ اصفرّ لونه فيقال: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ قال: أتدرون بين يدي مَنْ أُريد أن أقف . ومن كلماته: أن قوماً عبدوا الله رياضة فتلك عبادة العبيد، وأن قوماً عبدوه رغبة، فتلك عبادة التجار، وأن قوماً عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار . وكان إذا أتاه سائل يقول: مرحباً بمن يحمل زادي إلى الآخرة . (٤٦٦)

وكان ينحل فلماً مات وجدوه يعول مائة من أهل بيت المدينة. وفي رواية لا يدرون من يأتيهم بالرزق لأنه يبعث به إليهم في الليل فلما مات على فقدوه، وفي رواية كان يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به ويقول: صدقة السر تطفئ الرب، وفي رواية كان أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات على بن الحسين - عليه السلام - (١) . وقال رجل لسعيد بن المسيب: ما رأيت رجلاً أروع من فلان - وسمى رجلاً - فقال له سعيد: أما رأيت على بن الحسين؟ فقال: لا، فقال: ما رأيت أروع منه. وقال الزهري: لم أر هاشمياً أفضل من على بن الحسين - عليه السلام - . وقال أبو حازم كذلك أيضاً: ما رأيت هاشمياً أفضل من على بن الحسين . وقال طاووس: رأيت على بن الحسين - عليهما السلام - ساجداً في الحجر فقلت: رجل صالح من أهل بيت طيب لأسمعن ما يقول، فاصغيت

إليه فسمعتة يقول: عبدك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك، فوالله ما دعوت بهنّ في كرب إلا كشف عني . وكان يصلّي في كل يوم وليلة ألف ركعة، فإذا أصبح سقط مغشياً عليه، وكانت الريح تميله كالسنبله، وكان يوماً خارجاً فلقه رجل فسبّه فنارت إليه العبيد والموالي فقال لهم علي: مهلاً- كفوا، ثم أقبل على ذلك الرجل فقال له: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، الك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل فالقى إليه على خميصه كانت عليه، وأمر له بألف درهم فكان ذلك الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسل(٢). _____

١ . تذكرة الخواص ٢٩٤ .

٢ . كشف الغمة ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣ . (٤٦٧) الثروة العلمية للامام:

أما الثروة العلمية والعرفانية، فهي أدعيته التي رواها المحدثون باسنادهم المتضافرة، المعروفة بالصحيفة السجادية المنتشرة في العالم فهي زبور آل محمّد، ومن الخسارة الفادحة، أن اخواننا أهل السنّة إلا- النادر القليل منهم غير واقفين على هذا الأثر القيم الخالد. وفصاحة ألفاظها، وبلاغه معانيها، وعلو مضامينها وما فيها من أنواع التذلل لله تعالى والثناء عليه، والأساليب العجيبة في طلب عفوه وكرمه والتوسّل إليه، أقوى شاهد على صحته نسبتها إليه - عليه السلام - وإن هذا الدر من ذلك البحر، وهذا الجوهر من ذلك المعدن، وهذا الثمر من ذلك الشجر، مضافاً إلى شهرتها شهرة لا تقبل الريب وتعدّد أسانيد المتصلة إلى منشئها فقد رواها الثقات بأسانيدهم المتعدّدة المتصلة، إلى زين العابدين(١) . وقد أرسل أحد الأعلام نسخة من الصحيفة مع رساله إلى العلامة الشيخ الطنطاوي (ت ١٣٥٨) صاحب التفسير المعروف فكتب في جواب رسالته «ومن الشقاء إننا إلى الآن لم نقف على هذا الأثر القيم الخالد في موارث النبوة وأهل البيت وإنّي كلّما تأملتّها رأيتها فوق كلام المخلوق، دون كلام الخالق»(٢) . والمعروف بين الشيعة هو الصحيفة الأولى التي تتضمّن على أحد وستين دعاء في فنون الخير وأنواع السؤال من الله سبحانه وهي تعلّم الإنسان كيف يلجأ إلى ربه في الشدائد والمهمات، وكيف يطلب منه حوائجه، وكيف يتذلل ويتضرّع له وكيف يحمّد ويشكر له غير أن لفيفا من العلماء استدرکوا عليها فجمعوا _____

١ . في رحاب أئمة أهل البيت ٣ / ٤١٤ .

٢ . مقدمة الصحيفة بقلم العلامة المرعشي - قدس سره - ٢٨ . (٤٦٨)

من شوارد أدعيته صحائف خمس أخيرتها ما جمعه العلامة السيد محسن الأمين العاملي - رضى الله عنه - . ولقد قام العلامة الحجّة السيد محمّد باقر الأبطحي - دام ظله - بجمع جميع أدعية الامام الموجودة في هذه الصحف في جامع واحد وقال في مقدمته: وحرى بنا القول ان أدعيته - عليه السلام - كانت ذات وجهين: وجهاً عبادياً، وآخر اجتماعياً يتّسق مع مسار الحركة الاصلاحية التي قادها الامام - عليه السلام - في ذلك الظرف العصب. فاستطاع بقدرته الفائقة المسدّدة أن يمنح أدعيته - إلى جانب روحها التعبديّة - محتوي اجتماعياً متعدّد الجوانب، بما حملته من مفاهيم خصبة، وأفكار نابضة بالحياة فهو - عليه السلام - صاحب مدرسة إلهية، تارة يعلم المؤمن كيف يمجّد الله ويقدّسه، وكيف يلجج باب التوبة، وكيف يناجيه وينقطع إليه، وأخرى يسلك به درب التعامل السليم مع المجتمع فيعلّمه اسلوب البر بالوالدين، ويشرح حقوق الوالد والولد، والأهل، والأصدقاء، والجيران، ثم يبيّن فاضل الأعمال وما يجب أن يلتزم به المسلم في سلوكه الاجتماعي كل ذلك باسلوب تعليمي رائع وبلغ . وصفوة القول أنّها كانت اسلوباً مبتكراً في إيصال الفكر الاسلامي والمفاهيم الإسلامية الأصلية إلى القلوب الضمأى، والأفئدة التي تهوى إليها لترتزق من ثمراتها، وتنهل من معينها، فكانت بحق علمية تربوية نموذجية من الطراز الأول، لأسس بناها الامام السجاد - عليه السلام - مستلهماً جوانبها من سير الأنبياء وسنن المرسلين(١) . _____

١ . الصحيفة السجادية الجامعة ١٣ .

(٤٦٩) رسالة الحقوق:

إنّ للإمام علي بن الحسين رسالة معروفة باسم رسالة الحقوق أوردتها الصدوق في خصاله (١) بسند معتبر، ورواها الحسن بن شعبة في تحف العقول (٢) مرسلًا، وبين النقلين اختلاف بالزيادة والنقيصة وهي من جلائل الرسائل في أنواع الحقوق، فيذكر الامام فيها حقوق الله سبحانه على الإنسان وحقوق نفسه عليه وحقوق أعضائه من اللسان والسمع، والبصر والرجلين واليدين والبطن والفرج ثم يذكر حقوق الأفعال، من الصلاة والصوم والحج والصدقة والهدى... يبلغ خمسين حقًا، آخرها حق الذمّة. روى الحفّاظ وتلاميذ مدرسته أحاديث عنه أوردتها الشيخ الحر العاملي في جامع «وسائل الشيعة» كما أنّ له - عليه السلام - حكمًا في مختلف أبواب الفقه، جمعها الشيخ الحسن الحراني في تحفه (٣) فلاحظ . الراون عنه:

ذكر الشيخ في رجاله الرواة عنه - عليه السلام - : ورثبها على حروف المعجم فبلغ ١٧٥، شخصاً (٤) وهم بين صحابي وتابعي - رضى الله عنهم - . قال ابن شهر آشوب: ومن رجاله من الصحابة جابر بن عبدالله الأنصاري، وعامر بن واثلة الكنانى وسعد بن المسيب بن حزن، وسعيد بن جهان الكنانى مولى أم هانى... ومن التابعين أبو محمّد سعيد بن جبير مولى بنى أسد، ومحمّد _____

١ . الخصال ٥٦٤ - ٥٧٠ فى أبواب الخمسين .

٢ . تحف العقول ١٨٤ - ١٩٥ .

٣ . تحف العقول ١٨٠ - ٢٠٥ .

٤ . الشيخ الطوسى الرجال ٨١ - ١٠٢ . (٤٧٠)

ابن جبير بن مطعم، وأبو خالد الكابلي، والقاسم بن عوف، وإسماعيل بن عبدالله بن جعفر، وإبراهيم والحسن ابنا محمّد بن الحنفية، وحبیب بن أبى ثابت، وأبو يحيى الأسدى وأبو حازم الأعرج وسلمة بن دينار المدنى الاقرن القاص . ومن أصحابه أبو حمزة الثمالى بقى إلى أيام موسى بن جعفر، و فرات بن أحنف بقى إلى زمان الصادق وجابر بن محمّد بن أبى بكر، وأيوب بن الحسن، وعلى بن رافع، وحמיד بن موسى الكوفى، وأبان بن تغلب، وأبو الفضل سدير ابن حكيم بن صهيب الصيرفى، وقيس بن رمانه، وعبدالله البرقى... (١) . قال الشيخ أبو زهرة: «فى بيت الامام زين العابدين نشأ زيد وتكوّنت ميوله، ومنازعه فى الحياة، واتجاهاته وكان زين العابدين فقيهاً كما كان محدثاً، وكان له شبه بجده على بن أبى طالب فى قدرته على الاحاطة بالمسائل الفقهية من كل جوانبها والتفرغ عليها، وكان إذا رأى الشباب الذين يطلبون العلم أدناهم إليه، وقال: مرحباً بكم أنتم ودائع العلم، ويوشك - إذ أنتم صغار قوم - أن تكونوا كبار قوم آخرين، وإذا جاءه طالب علم، رحب به وقال: أنت وصية رسول الله إنّ طالب العلم لم يضع رجله على رطب ولا يابس من الأرض إلاّ سبّحت له الأرض إلى السابعة (٢) . يقول الكاتب محمّد جواد مغنیه: «وكان يحسن إلى من يسئ إليه، من ذلك أنّ هشام بن إسماعيل كان أميراً على المدينة وكان يتعمّد الإساءة إلى الامام وأهل بيته، ولما عزله الوليد، أمر أن يوقف للناس: فى الطريق العام ليقنصوا منه، _____

١ . المناقب ١٧٤ / ٤ طبع قم .

٢ . المقرّم: الامام زيد ٣١ . (٤٧١)

وكان لا يخاف أحداً كخوفه من الامام السجاد، ولكن الامام أوصى أهله وأصحابه أن لا يسيئوا إليه، وذهب إليه بنفسه، وقال له: لا بأس عليك منّا، وأية حاجة تعرض لك فعلينا قضاؤها (١) . _____

١ . محمّد جواد مغنیه: الشيعة والتشيع ٢٤٤ .

(٤٧٢) (٤٧٣) الامام الخامس: أبو جعفر محمّد بن على بن الحسين - عليهم السلام - الباقر

هو خامس أئمّة أهل البيت، الطاهر، المعروف بالباقر، وقد اشتهر به لبقرة العلم وتفجيره له. قال ابن منظور فى لسان العرب: لُقّب به لأنّه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه وتوسّع فيه (١) وقال ابن حجر: سمى بذلك لأنّه من بقر الأرض أى شقّها، وإثارة مخبّاتها، ومكافئها. فكذلك هو أظهر من مخبّات كنوز المعارف وحقائق الأحكام، والحكم واللطائف ما لا يخفى إلاّ على منظمس البصيرة أو

فاسد الطوية والسريرة ومن ثم قيل فيه هو باقر العلم وجامعه وشاهر علمه ورافعه (٢) _____

١. لسان العرب ٤ / ٧٤ .

٢. الصواعق المحرقة ٢٠١ . (٤٧٤)

قال ابن خلكان: أبو جعفر محمّد بن زين العابدين، الملقّب بالباقر أحد الأئمّة الاثني عشر في اعتقاد الامامية وهو والد جعفر الصادق. كان الباقر عالماً سيّداً كبيراً وأنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أى توسّع وفيه يقول الشاعر: يا باقر العلم لأهل التّقى * وخير من لبيّ على الأجل (١) ولد بالمدينة غرة رجب سنة ٥٧ وقيل ٥٦ وتوفّي في السابع من ذى الحجّة سنة ١١٤ وعمره الشريف ٥٧ سنة. عاش مع جدّه الحسين - عليه السلام - ٤ سنين ومع أبيه - عليه السلام - بعد جدّه - عليه السلام - تسعاً وثلاثين سنة وكانت مدة إمامته - عليه السلام - ١٨ سنة (٢). وأقيا النصوص الدالّة على إمامته من أبيه وأجداده التي ذكرها المحدثون والمحقّقون من علمائنا الأعلام فهي مستفيضة نقلها الكليني وغيره (٣). قال ابن سعد: محمّد الباقر من الطبقة الثالثة من المدينة كان عالماً عابداً ثقة وروى عنه الأئمّة أبو حنيفة وغيره . قال أبو يوسف: قلت لأبي حنيفة: لقيت محمّد بن علي الباقر؟ فقال: نعم وسألته يوماً فقلت له: أراد الله المعاصي؟ فقال: أفيعصى قهراً؟ قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً أفحم منه . وقال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه مغلوب ويعنى الحكم بن عيينه، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه . وذكر المدائني: عن جابر بن عبد الله أنّه أتى أبا جعفر محمّد بن علي إلى _____

١. وفيات الأعيان ٤ / ١٠٧٤ .

٢. إعلام الوري بأعلام الهدى ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٣. الكافي ١ / ٣٠٥ - ٣٠٦، اثبات الهداة ٣ / ٣٣ - ٣٥ . (٤٧٥)

الكتاب وهو صغير فقال له: رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يسلم عليك، فقيل لجابر: وكيف هذا؟ فقال: كنت جالساً عند رسول الله والحسين في حجره وهو يداعبه فقال: يا جابر يولد مولود اسمه عليّ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليقيم سيد العابدين فيقوم ولده، ثم يولد له ولد، اسمه محمّد، فإن أدركته يا جابر فاقرأه مني السلام . وذكر ابن الصبّاح المالكي بعد نقل القصّة قوله: إنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لجابر: وإن لاقيته فاعلم أنّ بقاءك في الدنيا قليل فلم يعيش جابر بعد ذلك إلا ثلاثة أيّام. ثم قال: هذه منقبة من مناقبه باقية على ممر الأيّام وفضيلة شهد له بها الخاص والعام (١). وقال عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر لقد رايت الحكم عنده كأنه متعلّم (٢). وقال المفيد: لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين - عليهما السلام - في علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيره وفنون الآداب ما ظهر من أبي جعفر الباقر - عليه السلام - (٣). وروى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين وفقهاء المسلمين وسارت بذكر كلامه الأخبار وأنشدت في مدائحه الأشعار... (٤) . قال ابن حجر: صفا قلبه، وزكاه علمه وعمله، وطهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلم عنه السنّة _____

١. تذكرة الخواص لابن الجوزي ٣٠٢ - ٣٠٣، الفصول المهمّة ٢١٥ - ٢١٦ .

٢. كشف الغمّة ٢ / ٣٢٩ .

٣. الارشاد ٢٦١ .

٤. الفصول المهمّة ٢١٠ نقله عن ارشاد الشيخ المفيد: ٢٦١ - ٢٦٢ . (٤٧٦)

الواصفين وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحتملها هذه العجالة (١). وأمّا مناظراته مع المخالفين فحدّث عنها ولا حرج فقد جمعها العلامة الطبرسي في كتاب الاحتجاج (٢). قال الشيخ المفيد في الارشاد: وجاءت الأخبار: أنّ نافع بن الأزرق (٣) جاء إلى محمّد بن علي فجلس بين يديه يسأله عن مسائل الحلال والحرام. فقال له أبو جعفر في عرض كلامه: قل لهذه المارقة بم استحللتهم

فراق أمير المؤمنين، وقد سفكتم دماءكم بين يديه في طاعته والقربة إلى الله بنصرته، فسيقولون له أنه حكم في دين الله فقل لهم قد حكم الله تعالى في شريعة نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - رجلين من خلقه فقال: (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِضْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) (٤). وحكم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم فيهم بما أمضاه الله. أو ما علمتم أن أمير المؤمنين إنما أمر الحكيم أن يحكما بالقرآن ولا يتعدياه، واشترط رد ما خالف القرآن في أحكام الرجال وقال حين قالوا له حكمت على نفسك من حكم عليك، فقال: ما حكمت مخلوقاً وإنما حكمت كتاب الله فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن، واشترط رد ما خالفه لولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان؟ فقال: نافع بن الأزرق هذا والله كلام ما مرّ بسمعي قط ولا خطر مني ببال وهو الحق إن شاء الله (٥). _____

١. الصواعق المحرقة ٣٠١.

٢. الاحتجاج ٢ / ٥٤ - ٦٩ طبع النجف.

٣. ولعل المناظر هو عبدالله بن نافع بن الأزرق، لأن نافع قتل عام ٦٥ من الهجرة وللإمام عندئذ من العمر دون العشرة وقد نقل ابن شهر آشوب بعض مناظرات الإمام مع عبدالله بن نافع فلاحظ المناقب ٤ / ٢٠١.

٤. النساء / ٣٥.

٥. الارشاد: ٢٦٥. (٤٧٧) الراوون عنه:

وقد روى بعض الصحابة وأكثر التابعين - عليه السلام - وقد نهلوا من معين علمه، وقد جمع الشيخ الطوسي أسماء من روى عنه من العلماء والحفاظ مبتدئاً بإبراهيم بن مناف الأسدي ومنتهياً بحبابة الوالبي بلغ عددهم ٤٦٦ شخصاً. وقال ابن شهر آشوب بعد نقل كلام المفيد: فمن الصحابة نحو جابر بن عبدالله الأنصاري ومن التابعين جابر بن يزيد الجعفي، وكيسان السخيتاني صاحب العوفية. ومن الفقهاء نحو ابن مبارك، والزهرى، والأوزاعي وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وزيد بن منذر النهري. ومن المصنفين نحو الطبري والبلاذرى... (١). ثم إن الشيعة الامامية أخذت كثيراً من الأحكام الشرعية عنه وعن ولده البار جعفر الصادق وحسب الترتيب المتداول في الكتب الفقهية وأما ما روى عنه في الحكم والمواعظ فقد نقلها أبو نعيم الاصفهاني في حلية الأولياء والحسن بن شعبة الحراني في تحفه (٢). ثم إن الامام محمد الباقر توفى عام ١١٤ ودفن في جنب قبر أبيه في البقيع ومن أراد البحث عن فصول حياته في شتى المجالات فليراجع الموسوعات. _____

١. المناقب ٤ / ١٩٥ ومن المعلوم أن المقصود هو الأعم ممن روى عن الإمام مباشرة أو مع الواسطة ولاحظ حلية الأولياء ٣ / ١٩٨.

٢. حلية الأولياء ٣ / ١٨٠ - ٢٣٥ وفي بعض ما نقل عنه تأمل ونظر. والحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول ٢٨٤ - ٣٠٠. (٤٧٨) (٤٧٩) الامام السادس: جعفر بن محمد - عليهما السلام - الصادق

هو الإمام السادس من أئمة أهل البيت الطاهر - رضى الله عنه - أجمعين ولقب بالصادق لصدقه في مقاله، وفضله أشهر من أن يذكر. ولد عام ٨٠ وتوفى عام ١٤٨ ودفن في البقيع جنب قبر أبيه محمد الباقر وجدّه عليّ زين العابدين وعمّ جدّه الحسن بن علي - رضى الله عنهم أجمعين - فلله درّه من قبر ما أكرمه وأشرفه (١). وقال محمد بن طلحة: هو من عظماء أهل البيت وساداتهم وذو علوم جمة، وعبادة موفورة، وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة، يتبع معاني القرآن الكريم، _____

١. وفيات الأعيان ١ / ٣٢٧ رقم الترجمة ٣١.

(٤٨٠)

ويستخرج من بحره، جواهره، ويستنتج عجائبه، ويقسم أوقاته على أنواع الطاعات بحيث يحاسب عليه نفسه، رؤيته تذكّر الآخرة، واستماع كلامه يزهّد في الدنيا، والافتداء بهداه يورث الجنة، نور قسماته شاهد أنّه من سلالة النبوة، وطهارة أفعاله تصدع أنّه من ذرية الرسالة. نقل عنه الحديث واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأئمة وأعلامهم. مثل يحيى بن سعيد الأنصاري وابن جريج، ومالك بن

أنس، والثوري، وابن عيينة، وأبي حنيفة، وشعبة وأبو أيوب السجستاني (١) وغيرهم وعدوا أخذهم عنه منقبه شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها. وأما مناقبه وصفاته فتكاد تفوق عدد الحاصر، ويحار في أنواعها فهم يقظ الباصر حتى ان من كثرة علومه المفاضة على قلبه من سجل التقوى، صارت الأحكام التي لا تدرك عللها، والعلوم التي تقصر الأفهام عن الاحاطة بحكمها، تضاف إليها وتروى عنه (٢). وقال ابن الصباغ المالكي: كان جعفر الصادق - عليه السلام - من بين اخوته، خليفة أبيه، ووصيه والقائم بالامامة من بعده، برز على جماعة بالفضل، وكان أنبهم ذكراً، وأجلهم قدراً، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته وذكره في البلدان، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقلوا عنه من الحديث. وروى عنه جماعة. من أعيان الأئمة مثل يحيى بن سعيد، وابن جريج، ومالك بن أنس، والثوري، وأبو عيينة، وأبو حنيفة، وشعبة وأبو أيوب السجستاني وغيرهم (٣).

١. وفي الأصل أيوب السخيتاني والصحيح ما ذكرناه.

٢. كشف الغمة ٢ / ٣٦٨.

٣. الفصول المهمة ٢٢٢. (٤٨١)

إنك إذا تتبعت كتب التاريخ والتراجم والسير تقف على نظير هذه الكلمات وأشباهها، كلها تعرب عن اتفاق الأئمة على إمامته في العلم والقيادة الروحية وإن اختلفوا في كونه إماماً منصوباً من قبل الله عز وجل، فذهبت الشيعة إلى الثاني نظراً إلى النصوص المتواترة المذكورة في مظانها (١). إن الامام قام بهداية الأئمة إلى النهج الصواب في عصر تضاربت فيه الآراء والأفكار، واشتعلت فيه نار الحرب بين الامويين ومعارضيه من العباسيين ففي تلك الظروف الصعبة والقاسية استغل الامام الفرصة فنشر من أحاديث جده، وعلوم آباءه ما سارت إليه الركبان وتربى على يديه آلاف من المحدثين والفقهاء. ولقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلاف آرائهم ومقالاتهم فكانوا أربعة آلاف رجل (٢) وهذه فضيلة رابية لم تكتب لأحد من الأئمة قبله ولا بعده. إن الامام - عليه السلام - قام بالتحديث عن جده وآبائه عندما اندفع المسلمون إلى تدوين أحاديث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد الغفلة التي استمرت إلى عام ١٤٣ (٣) وقد اختلط الصحيح بالضعيف وتسرب إلى السنة الاسرائيليات والمسيحيات والمجوسيات بالاضافة إلى المختلقات والمجعولات على يد علماء السلطة ومرترقة البلاط الاموي. وبالامام عرفوا الصحيح من الزائف، والحقيقة من الباطل فأخذوا عنه الحكم والأحاديث النبوية ولو نهلت الأئمة من مناهل علمه وتركوا الروايات التي رواها الوضاعون والكذابين. لما ابتلت الأمة بمصائب الحديث التي تركها الرواة على جبين الدهر وترى كثيراً من هذه المصائب في الصحاح والمسانيد

١. لاحظ الكافي ١ / ٣٠٦ - ٣٠٧ وإثبات الهداة للحر العاملي ٥ / ٣٢٢ - ٣٣٠.

٢. الارشاد ٢٧٠ والمناقب لابن شهر آشوب ٤ / ٢٤٧.

٣. تاريخ الخلفاء للسيوطي، خلافة المنصور الدوانيقي فقد حدد تاريخ التدوين بسنة ١٤٣. (٤٨٢)

خصوصاً في صحيح البخاري. والعجب ان الامام البخاري، احتج بمثل مروان بن الحكم، وعمران بن حطان وحريز بن عثمان الرحبي وغيرهم ولم يرو عن الامام الصادق - عليه السلام - . أما الأول فهو الوزغ ابن الوزع، اللعين ابن اللعين على لسان رسول الله، وأما الثاني فهو الخارجي المعروف الذي أثنى على ابن ملجم بشعره لا بشعوره، وأما الثالث فكان ينتقص علياً وينال منه ومع ذلك لم نجد رواية للبخاري عن الامام الصادق ونعم ما قال القائل: قضية أشبه بالمرزئ * هذا البخاري إمام الفئه بالصادق الصديق ما احتج في * صحيحه واحتج بالمرجئه ومثل عمران بن حطان أو * مروان وابن المرأة المخطئه مشكله ذات عوار إلى * حيره أرباب النهي ملجئه ان الامام الصادق المجتبي * بفضل الآي أنت منبئه أجل من في عصره رتبته * لم يقترف في عمره سيئه قلامه من ظفر ابهامه * تعدل من مثل... مئة (١) إن للامام الصادق وراء ما نشر عنه من الأحاديث في الأحكام التي تتجاوز عشرات الآلاف، مناظرات مع الزنادقة والملحدون في عصره والمتقشفين من الصوفية ضبط المحققون كثيراً منها وهي في حد ذاتها ثروة علمية تركها الامام - عليه السلام - أما الرواية عنه في الأحكام فقد روى عنه أبان بن تغلب ٣٠ ألف حديث. حتى ان الحسن بن علي الوشاء قال: أدركت في هذا المسجد (مسجد

(الكوفة)

١. النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، كما في أعيان الشيعة ١ / ٦٦٧ .

(٤٨٣)

تسعمائه شيخ كل يقول حدّثني جعفر بن محمّد. (كان - عليه السلام - يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحديث رسول الله قول الله عزّوجلّ) (١). وأما ما اثر عنه في المعارف والعقائد فحدّث عنه ولا حرج ولا يسعنا نقل حتّى القليل منه ومن اراد فليرجع إلى مظانّه (٢). وأمّا حكمه وقصار كلمه. فلاحظ تحف العقول. وأمّا رسائله فكثيرة منها رسالته الى النجاشي، والى الأهواز، ومنها رسالته في شرائع الدين نقلها الصدوق في الخصال، ومنها ما أملاه في التوحيد للمفضل بن عمر إلى غير ذلك من الرسائل التي رسمها بخطّه (٣). ولمّا توفّي الامام شيعه عامّة الناس في المدينة وحمل إلى البقيع وقد أنشد فيه أبو هريرة العجلي قوله: أقول وقد راحوا به يحملونه * على كاهل من حامله وعاتق أتدرون ماذا تحملون إلى الثرى * ثبيراً ثوى من رأس علياء شاهق غداة حثا الحاثون فوق ضريحه * ترابا وأولى كان فوق المفارق فسلام الله عليه يوم يولد ويوم مات ويوم يبعث حيا .

١. الرجال للنجاشي ١٣٩ برقم ٧٩ .

٢. الاحتجاج ٢ / ٦٩ - ١٥٥ والتوحيد للصدوق وقد بسطها على أبواب مختلفة .

٣. ولقد جمع أسماء هذه الرسائل السيد الأمين في أعيانه ١ / ٦٦٨ . (٤٨٤) (٤٨٥) الإمام السابع: أبو الحسن موسى بن جعفر - عليهما السلام - الكاظم

سابع أنميّة أهل البيت الطاهر. ولد بالأبواء بين مكّة والمدينة يوم الأحد في ٧ صفر سنه ١٢٨ واستشهد بالسم في سجن الرشيد عام ١٨٣ ودفن في بغداد في الجانب الغربي في المقبرة المعروفة بمقابر قريش المشهورة في أيامنا هذه بالكاظمية. يعرف بالعبد الصالح، وبالكاظم، والصابر، والأمين . هو الإمام الكبير القدر والأوحد الحجّة الحبر، الساهر ليله قائما، القاطع نهاره صائما، المسمّى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظما. قال الشيخ المفيد: هو الإمام بعد أبيه، والمقدّم على جميع بنيه لاجتماع خصال الفضل فيه، وورود صحيح النصوص وجلى الأقوال عليه من أبيه بأنّه ولي (٤٨٦)

عهده والإمام القائم من بعده (١). إنّ الكلام في خلقه، وحلمه، وكظمه الغيظ، وفي مناقبه وفضائله، وفي تواضعه ومكارم أخلاقه، وكرمه وسخائه، وشدّة خوفه من الله سبحانه، وكثرة صدقاته، وأخباره مع الرشيد وأخيراً في القاء القبض عليه من قبله، وحبسه في ظلم السجون قرابة سبع سنين واستشهاده، يحتاج إلى تأليف مفرد قام به المحققون ونحن نترك البحث في جميع ذلك ونشير إلى بعض الجوانب خصوصاً في ما يتعلق بعلمه والذين تخرّجوا على يده من الشيعة والسنة حتّى يقف القارئ على أنّه إمام الكل. ١- روى الخطيب في تاريخ بغداد بسنده قال: حجّ هارون الرشيد فأتى قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - زائراً وحواله قريش ومعه موسى بن جعفر ولمّا انتهى إلى القبر قال: السلام عليك يا رسول الله يابن عمّي - افتخاراً على من حوله - ، فدنني موسى بن جعفر فقال: السلام عليك يا أبة، فتغيّر وجه الرشيد وقال: هذا الفخريا أبا الحسن حقاً (٢). ٢- ذكر الزمخشري في ربيع الأبرار أنّ هارون كان يقول لموسى بن جعفر: خذ فدكاً - وهو يمتنع عليه - ، فلما ألحّ عليه قال: ما أخذها إلّا بحدودها قال: وما حدودها؟ قال: الحد الأول عدن - فتغيّر وجه الرشيد - قال: والحد الثاني؟ قال: بسمرقند - فأربد وجهه - قال: والحد الثالث؟ قال: أفريقيا قال: والحد الرابع؟ قال: سيف البحر ممّا يلي الخزر وأرمينيا فقال هارون: فلم يبق لنا شيء فتحول من

١. لاحظ للوقوف على تلك النصوص الكافي ١ / ٣٠٧ - ٣١١، إثبات الهداة ٣ / ١٥٦ - ١٧٠ فقد نقل في الأخير ٦٠ نصّاً على إمامته.

٢. وفيات الأعيان ٥ / ٣٠٩ . (٤٨٧)

مجلسي فقال موسى: قد أعلمتكم أنّي إن حدّدتها لم تردّها. فعند ذلك عزم على قتله واستكفى أمره (١). ٣- كان يصلّي نوافل الليل

ويصلها بصلاة الصبح ثم يعقب حتى تطلع الشمس ويختر لله ساجداً فلا يرفع رأسه من الدعاء والتحميد حتى يقرب زوال الشمس وكان يدعو كثيراً. فيقول: اللهم إني أسألك الراحة عند الموت، والعفو عند الحساب، ويكرّر ذلك، وكان من دعائه - عليه السلام - :
عظم الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك وكان يبكي من خشية الله حتى تخضل لحيته بالدموع وكان أوصل الناس لأهله ورحمه وكان يتفقد فقراء المدينة في الليل فيحمل إليهم الزبيب فيه العين والورق والادقة والتمور فيوصل إليهم ذلك ولا يعلمون من أي جهة هو (٢) . ٤- في تحف العقول للحسن بن علي بن شعبة: قال أبو حنيفة: حججت في أيام أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - فلما أتيت المدينة دخلت داره فجلست في الدهليز أنتظر إذ خرج صبي فقلت: يا غلام أين يضع الغائب من بلدكم؟ قال: على رسلك. ثم جلس مستنداً إلى الحائط، ثم قال: توقّ شطوط الأنهار، ومساقط الثمار، وأفنية المساجد، وقارعة الطريق، وتوار خلف جدار، وشل ثوبك ولا تستقبل القبلة ولا تستدبرها وضع حيث شئت، فأعجبني ما سمعت من الصبي فقلت له: ما اسمك؟ فقال: أنا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فقلت له: يا غلام ممن المعصية؟ فقال: إن السيئات لا تخلو من إحدى ثلاث: إما أن تكون من الله وليست من العبد فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد على ما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك فلا ينبغي

١. الزمخشري: ربيع الأبرار، كما في أعيان الشيعة ٨ / ٢ .

٢. المفيد: الإرشاد ٢٩٦ . (٤٨٨)

للشريك القوى أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا فكرمه وجوده وإن عاقب فبذنب العبد وجريته، قال أبو حنيفة: فانصرفت ولم ألق أبا عبد الله واستغيت بما سمعت. ورواه ابن شهر آشوب في المناقب نحوه إلا أنه قال: يتوارى خلف الجدار ويتوقى أعين الجار وقال: فلمّا سمعت هذا القول منه نبيل في عيني، وعظم في قلبي. وقال في آخر الحديث: فقلت: ذرية بعضها من بعض (١) . ٥- روى أبو الفرج الاصفهاني: حدثنا يحيى بن الحسن قال: كان موسى من جعفر إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرّة دنانير. وكان صراره ما بين الثلاثمائة وإلى المائتين دينار، فكانت صرار موسى مثلاً. وقال: إن رجلاً من آل عمر بن الخطاب كان يشتم علي بن أبي طالب إذا رأى موسى بن جعفر، ويؤذيه إذا لقيه، فقال له بعض مواليه وشيعته: دعنا نقتله، فقال: لا، ثم مضى راكباً حتى قصده في مزرعة له فتواطأها بحماره، فصاح: لا تدس زرعنا. فلم يصغ إليه وأقبل حتى نزل عنده فجلس معه وجعل يضاحكه، وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟ قال: مائة درهم، قال: فكم ترجو أن تربح؟ قال: لا أدري، قال: إنمّا سألتك كم ترجو. قال: مائة أخرى. قال: فأخرج ثلاثمائة دينار فوهبه له فقام فقبل رأسه، فلمّا دخل المسجد بعد ذلك وثب العمري فسلم عليه وجعل يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته . وكان بعد ذلك كلما دخل موسى خرج وسلم عليه ويقوم له. فقال موسى لجلسائه الذين طلبوا قتله: أيما كان خيراً ما أردتم أو ما أردت؟ (٢) .

١. تحف العقول ٣٠٣، المناقب لابن شهر آشوب ٣١٤ / ٤ .

٢. مقاتل الطالبين ٤٩٩ - ٥٠٠، تاريخ بغداد ٢٨ / ١٣ . (٤٨٩)

٦- حكى أنّ الرشيد سأله يوماً: كيف قلتم نحن ذرية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنتم بنو علي وأنما ينسب الرجل إلى جدّه لأبيه دون جدّه لأمه؟ فقال الكاظم - عليه السلام - : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: (ومن ذرّيته داودَ و سلیمانَ و أيوبَ و يوسفَ و موسى و هرونَ و كذلك نجزي المحسنين * و زكريّا و يحيى و عيسى و إلياس...) وليس لعيسى أب إنمّا الحق بذرية الأنبياء من قبل أمه وكذلك ألقنا بذرية النبي من قبل أمنا فاطمة الزهراء، وزيادة أخرى يا أمير المؤمنين: قال الله عزّ وجلّ: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ جَاءِكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَ كُمْ وَنِسَاءَ كُمْ وَنُفْسَنَا وَنُفْسَكُمْ ثُمَّ نَنْتَهِلْ...) ولم يدع - صلى الله عليه وآله وسلم - عند مباهلة النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين وهما الأبناء (١) . ٧- أمّا علمه واحديث عنه فقد روى عنه العلماء في فنون العلم ما ملأ الكتب وكان يعرف بين الرواة بالعالم. وقد روى الناس عنه فأكثرُوا وكان أفقه أهل زمانه وأحفظهم

لكتاب الله (٢). وقد ذكر الشيخ الطوسي أسماء الرواة عنه في رجاله فبلغ عددهم مائتين واثنين وستين شخصاً وقام الزميل المتتبع الشيخ العطاردي بجمع اسماء من رواوا عنه الأحاديث في مجالات شتى فبلغ ستمائة وثمانية وثلاثين رجلاً وأسماء بمسند الامام موسى الكاظم فجمع ذلك في أجزاء ثلاثة. ولقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنه استشهد مسموماً في سجن السندی ابن شاهك بأمر من الرشيد وكان الخليفة يخاف من أن ينتشر خبر شهادته في بغداد

١. الفصول المهمة ٢٣٨، والآيات من سورتي الأنعام ٨٤ وآل عمران ٦١.

٢. المفيد: الارشاد ٢٩٨. (٤٩٠)

ولأجل ذلك لما مات أدخل عليه الفقهاء ووجوه بغداد وفيهم الهيثم بن علي وغيره حتى يشهدوا على أنه مات بأجله، وأخرج ووضع على الجسر ببغداد فنودي هذا موسى بن جعفر قد مات فانظروا إليه فجعل الناس يتفسرون في وجهه وهوميت (١). وأمّا الكلام في شهادته وأخباره ممّا يطول بنا الكلام إذا أردناه ذكره فليرجع إلى محلها. ومن أحسن كلماته ما وصّي به هشام بن الحكم (٢).

١. مقاتل الطالبيين ٥٠٤.

٢. لاحظ الكافي ١ / ١٣ - ٢٠ وتحف العقول ٢٨٣ - ٢٩٧. (٤٩١) الإمام الثامن: علي بن موسى بن جعفر - عليهم السلام - الرضا هو الإمام الثامن من أئمة أهل البيت القائم بالإمامة بعد أبيه موسى بن جعفر - عليهما السلام - وقد اجتمع أهل البيت في عصره على علمه وورعه وكفاءته لنصب الإمامة مضافاً إلى النصوص الواردة في حقّه من أبيه علي إمامته (١). ولد في المدينة سنة ١٤٨ واستشهد في طوس من أرض خراسان في صفر ٢٠٣ وله يومئذ ٥٥ سنة وكانت مدّة إمامته بعد أبيه ٢٠ سنة (٢). قال الواقدي: علي بن موسى سمع الحديث من أبيه وعمومته وغيرهم وكان ثقة يفتي بمسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ابن نيف وعشرين سنة وهو

١. لاحظ للوقوف على النصوص: الكافي ١ / ٣١١ - ٣١٩ والارشاد ٣٠٤ - ٣٠٥ واثبات الهداة ٣ / ٢٢٨، وروى فيه ٦٨ نصاً على إمامته.

٢. الارشاد ٣٠٤. (٤٩٢)

من الطبقة الثامنة من التابعين من أهل المدينة (١). قال الشيخ كمال الدين بن طلحة: ومن أمعن نظره وفكره، وجدته في الحقيقة وارثهما (المراد علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين - عليهم السلام -) نما إيمانه، وعلا شأنه، وارتفع مكانته، وكثر أعوانه، وظهر برهانه، حتى أدخله الخليفة المأمون، محل مهجته، وأشركه في مملكته، وفوض إليه أمر خلافته، وعقد له على رؤوس الأشهاد عقد نكاح ابنته، وكانت مناقبه عليه، وصفاته ثنية، ونفسه الشريفة زكية هاشمية، وارومته النبوية كريمة (٢). وقد عاش الامام في عصر ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية وكثرت الترجمة لكتب اليونانيين والرومانيين وغيرهم وازداد التشكيك في الأصول والعقائد من قبل الملاحدة وأحبار اليهود، وبطارقة النصارى ومجسمة أهل الحديث. وفي تلك الأزمنة أتيحت له - عليه السلام - الفرصة للمناظرة مع المخالفين على اختلاف مذاهبهم فظهر برهانه وعلا شأنه. يقف على ذلك من أطلع على مناظراته واحتجاجاته مع هؤلاء (٣). ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من احتجاجاته نذكر ما يلي: دخل أبو قرّة المحدث علي أبي الحسن الرضا - عليه السلام - فقال: روي أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيين، فقسم لموسى - عليه السلام - الكلام ولمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - الرؤية. فقال أبو الحسن - عليه السلام - فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين الجن والإنس: أنه (لا - تدركه الأبصار) و (لا - يحيطون به علماً) و (ليس

١. تذكرة الخواص ابن الجوزي ٣١٥.

٢. الفصول المهمة ٢٤٣ نقلاً عن مطالب السؤول.

٣. لقد جمع الشيخ الطبرسي قسماً من هذه الاحتجاجات في كتابه الاحتجاج ٢ / ١٧٠ - ٢٣٧ طبع النجف. (٤٩٣) كمثلته (شي) أليس

محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: بلى. قال: فكيف يجيء رجل إلى الخلف جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: (لا تدركه الأبصار) و (ولا يحيطون به علماً) و (ليس كمثله شيء).

ثم يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر. أما تستحيون؟! ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر. قال أبو قرّة: فأنه يقول: (ولقد رآه نزلةً أخرى) فقال أبو الحسن - عليه السلام - إن بعده هذه الآية ما يدل على ما رأى حيث قال: (ما كذب الفؤاد ما رأى) يقول: ما كذب فؤاد محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فآيات الله غير الله. وقال (لا يُحيطون به علماً) فإذا رآته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة. فقال أبو قرّة: فتكذب الروايات؟ فقال أبو الحسن: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كدّبتها وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء (١). انتشر علم الامام وفضله فأخذت الأفتدة والقلوب تشدّ إليه وفي الأمة الإسلامية رجال واعون يميزون الحق من الباطل، فكانت تأتي الأخبار المرعبة إلى مركز الخلافة العباسية بمرور. فحاول المأمون الرشيد القاء القبض على الامام من خلال لعبه سياسية لقتل الثورة في مهدها، فأنفذ رجالاً إلى المدينة حتى يحملوا الطالبين وفيهم على بن موسى الرضا - عليه السلام - إلى مرو. فساروا بالامام عن طريق البصرة حتى وصلوا به إلى مرو. فأنزلوه داراً وأكرموا. واجتمع المأمون معه في مجلس ليس فيه غيرهما وقال له: إنني أريد أن أخلع

١. الاحتجاج للطبرسي ٢ / ١٨٤، البحراني: البرهان ٤ / ٢٢٨.

(٤٩٤)

نفسى من الخلافة وأقلدك إياها فما رأيك؟ فأنكر الرضا - عليه السلام - هذا الأمر وقال له: أعيدك بالله يا أمير المؤمنين من هذا الكلام وأن يسمع به أحد، فرد عليه الرسالة فإذا أبيت ما عرضت عليك فلا بد من ولاية العهد بعدى فرد عليه الرضا اباءً شديداً، ثم استدعاه إليه ثانياً وخلا به ومعه الفضل بن سهل ذو الرياستين ليس في المجلس غيرهم وقال له: إنني قد رايت أن أقلدك أمر المسلمين وافسخ ما في رقبتي واضعه في رقبتك فقال له الرضا - عليه السلام - : الله الله يا أمير المؤمنين أنه لا طاقة لي بذلك ولا قوة لي عليه قال له: فأنى موليك العهد من بعدى فقال له: اعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين فقال له المأمون كلاماً فيه التهديد له على الامتناع عليه وقال في كلامه: إن عمر بن الخطاب جعل الشورى في سته أحدهم جدك أمير المؤمنين - عليه السلام - وشرط في من خالف منهم أن يضرب عنقه ولا بد من قبولك ما أريد منك فأنى لا أجد محيصاً عنه فقال له الرضا - عليه السلام - : فأنى أجيئك إلى ما تريد من ولاية العهد على أننى لا آمر ولا أنهى ولا أفتى ولا أقضى ولا أولى ولا أعزل ولا أغير شيئاً ممّا هو قائم فأجابه المأمون إلى ذلك كله (١). بعد قبول على بن موسى الرضا - عليهما السلام - بولاية العهد قام بين يديه الخطباء والشعراء فخفقت الألوية على رأسه وكان فيمن ورد عليه من الشعراء دعبل ابن على الخزاعي فلمّا دخل عليه قال: قلت قصيدة وجعلت على نفسى أن لا أنشدها أحداً قبلك فأمره بالجلوس حتى خف مجلسه ثم قال له: هاتها. فأنشد قصيدته المعروفة: ذكرت محل الربع من عرفات * فأجريت دمع العين على

الوجنات

١. الارشاد للمفيد ٣١٠.

(٤٩٥)

وقد خاننى صبرى وهاجت صبابتى * رسوم ديار اقفرت وعرات مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات حتى أتى على آخرها. فلمّا فرغ من إنشادها قام الرضا - عليه السلام - فدخل إلى حجرته وأنفذ إليه صيرةً فيها مائة دينار واعتذر إليه فردّها دعبل وقال: والله ما لهذا جئت وإنما جئت للسلام عليك والتبرّك بالنظر إلى وجهك الميمون وأننى لفي غنى فإن رأيت أن تعطيني شيئاً من ثيابك للتبرّك فهو أحب فأعطاه الرضا جبةً خز وردّ عليه الصرة (١). كان الامام في مرو يقصده البعيد والقريب من مختلف الطبقات وقد انتشر صيته في بقاع الأرض وعند ذلك أحسّ المأمون أن اعطائه ولاية العهد ربّما يؤدى إلى الاطاحة بخلافته، وقوى

ذلك الظن أن المأمون بعث إليه يوم العيد في أن يصلّي بالناس ويخطب فيهم فأجابه الرضا - عليه السلام - : إنك قد علمت ما كان بيني وبينك ما كان من الشروط في دخول الأمر فاعفني في الصلاة بالناس فقال له المأمون: إنما أريد بذلك أن تطمئن قلوب الناس، ويعرفوا فضلك، ولم تزل الرسل تتردد بينهما في ذلك حتى ألحّ عليه المأمون. فارسل إليه الرضا: إن أعفيتني فهو أحبّ إليّ وإن لم تعفني خرجت كما خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأمير المؤمنين - عليه السلام - فقال له المأمون: أخرج كيف شئت وأمر القواد والحجاب والناس أن يبكروا إلى باب الرضا قال: فعقد الناس لأبي الحسن - عليه السلام - في الطرقات والسطوح واجتمع النساء والصبيان ينتظرون خروجه فاغتسل أبو الحسن ولبس ثيابه وتعمّم بعمامة بيضاء من قطن، ألقى طرفاً منها على صدره وطرفاً بين كتفه ومسّ _____

١ . ابن الصباغ: الفصول المهمة ٢٤٦ والمفيد: الارشاد ٣١٦ وللقصة صلةً ومن أراد فليرجع إلى المصدرين المذكورين .
(٤٩٦)

شيئاً من الطيب وأخذ بيده عكازة وقال لمواليه افعلوا ما فعلت فمشى قليلاً ورفع رأسه إلى السماء وكبر وكبر مواليه معه، فلما رآه الجند والقواد سقطوا كلهم عن الدواب إلى الأرض ثم كبر وكبر الناس فخيّل إلينا أن السماء والحيطان تجاوبه وتزعزعت مرو بالبكاء والضجيج لما رآه فبلغ المأمون ذلك فقال له الفضل بن سهل: إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل فتن به الناس، وخفنا كلنا على دماننا، فأنفذ إليه أن يرجع فرجع الرضا - عليه السلام - واختلف أمر الناس في ذلك اليوم (١) . وقد أشار الشاعر البحترى إلى تلك القصة بأبيات: ذكروا بطلعتك النبي فهللوا * لما طلعت من الصفوف وكبروا حتى انتهيت إلى المصلى لابساً * نور الهدى يبدو عليك فيظهر ومشيت مشية خاشع متواضع * لله لا يزهى ولا يتكبر (٢) إن هذا وأمثاله وبالأخص خروج أخ المأمون زيد بن موسى بالبصرة على المأمون. لأنه فوض ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا وبالتالي سيؤدي إلى خروج الأمر من بيت العباسيين - كل ذلك - دفع المأمون إلى أن يريح نفسه وقومه من هذا الخطر فدسّ إليه السم على النحو المذكور في التاريخ . ومن لطيف ما نقل عن أبي نواس أنه كان ينشد الشعر في كل جليل وطيف ولم يمدح الامام فاعتذر عنه بالأبيات التالية.

قيل لى أنت أحسن الناس طراً * في فنون من الكلام النبيه لك من جوهر الكلام بديع * يثمر الدر في يدي مجتنيه فعلام تركت مدح ابن موسى * والخصال التي تجتمع فيه _____
١ . المفيد: الارشاد ٣١٢ .

٢ . أعيان الشيعة ٢ / ٢١ - ٢٢ . (٤٩٧)

قلت لا - أستطيع مدح إمام * كان جبرئيل خادماً لأبيه ولما لم يقبل هذا العذر منه أنشد قصيدة مطولة فيها مايلي: مطهرون نقيات جيوبهم * تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا من لم يكن علويًا حين تنسبه * فما له في قديم الدهر مفتخر الله لما برأ خلقاً فأتقنه * صفاكم واصطفاكم أيها البشر فأنتم الملاء الأعلى وعندكم * علم الكتاب وما جاء به السور (١) وأما من روى عن الرضا - عليه السلام - فحدّث عنه ولا حرج فقد ذكر الشيخ الطوسي في رجاله (٢) والسيد الأمين في أعيانه أسماء من روى عنه. وقد قام الفاضل المعاصر الشيخ العطاردي بجمع ما روى عنه من الأحاديث والخطب والمواعظ والمناظرات وأسماء مسند الامام الرضا - عليه السلام - ورتّب أسماء الراويين عنه حسب حروف المعجم فجاء ٣١٢ رجلاً - فسلام الله عليه يوم ولد، ويوم استشهد ويوم يبعث حياً .

١ . ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣ / ٢٧٠ .

٢ . رجال الشيخ ٣٦٦ - ٣٩٧ ذكر فيه ٣١٥ رجلاً . (٤٩٩) الإمام التاسع: محمّد بن علي بن موسى - عليهم السلام - الجواد هو من أئمة أهل البيت، تاسع الأئمة عند الشيعة، ولد عام ١٩٥ . ورث الشرف من آبائه وأجداده، واستسقت عروقه من منبع النبوة وارتوت شجرته من منهل الرسالة. قام بأمر الولاية بعد شهادة والده الرضا - عليه السلام - عام ٢٠٣ واستشهد ببغداد عام ٢٢٠ . أدرك

خلافه المأمون وأوائل خلافة المعتصم. أمّا إمامته ووصايته فقد وردت فيها النصوص الوافرة (١). لَمَّا توفّي الرضا - عليه السلام - كان الامام الجواد في المدينة وقام بأمر الامامة بوصية من أبيه وله من العمر تسع أو عشر سنين غير أنّ المأمون قد مارس معه نفس السياسة التي مارسها مع أبيه - عليه السلام - خلافاً لأسلافه من العباسيين،

١. الكافي ١ / ٣٢٠ - ٣٢٣، اثبات الهداة ٣ / ٣٢١ - ٣٢٨.

(٥٠٠)

حيث أنّهم كانوا يتعاملون مع أئمّة أهل البيت بالقتل والسجن وكان ذلك يزيد في قلوب الناس حباً لأهل البيت وبغضاً للخلفاء، ولَمَّا شعر المأمون بذلك بدّل ذلك الاسلوب بأسلوب آخر وهو استقدام أئمّة أهل البيت من موطنهم إلى دار الخلافة لكي يشرف على حركاتهم وسكناتهم، وقد استمرت هذه السياسة في حقهم إلى الامام الحادي عشر كما ستعرف. ولَمَّا جيئ بالامام الجواد إلى مركز الخلافة، شغف به المأمون، لما رأى من فضله مع صغر سنّه وبلوغه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقل ما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان، فزوَّجه ابنته أم الفضل وحملها معه إلى المدينة وكان حريصاً على اكرامه وتعظيمه واجلال قدره، ونكتفى في المقام بذكر أمرين: ١- لَمَّا توفّي الامام الرضا - عليه السلام - وقدم المأمون بغداد. اتّفق أنّ المأمون خرج يوماً يتصيّد فاجتاز بطرف البلدة وصبيان يلعبون ومحمّد الجواد واقف عندهم فلَمَّا أقبل المأمون فرّ الصبيان ووقف محمّد الجواد وعمره آنذاك تسع سنين. فلَمَّا قرب منه الخليفة فقال له: يا غلام ما منعك أن لا تفرّ كما فرّ أصحابك؟! فقال له محمّد الجواد مسرعاً: يا أمير المؤمنين فرّ أصحابي فرقا والظن بك حسن أنّه لا يفر منك من لا ذنب له، ولم يكن بالطريق ضيق فأنّحتي. فأعجب المأمون كلامه. وحسن صورته قال: ما اسمك يا غلام؟ قال: محمّد بن علي الرضا - عليه السلام - فترخّم على أبيه (١). ٢- لَمَّا أراد المأمون تزويج ابنته أم الفضل من الامام الجواد ثقل ذلك على العباسيين وقالوا له: نشدك الله أن تقيم على هذا الأمر الذي عزمت عليه من تزويج ابن الرضا - عليه السلام - فأنّا نخاف أن يخرج به عنّا أمراً، قد ملكناه الله وينزع عنّا

١. الفصول المهمة ٢٦٦.

(٥٠١)

به عزّاً. قد ألبسناه الله وقد كُنّا في وهلة من عملك مع الرضا حتّى كفى الله المهم من ذلك، وأضافوا: أنّه صبي لا معرفة له فامهله حتى يتأدّب ويتفقه في الدين ثم اصنع ماترى. قال المأمون: ويحكم إني أعرف بهذا الفتى منكم وإنّ أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى والهامة. ولم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب من الرعايا الناقصة عن حد الكمال، فإن شئتم فامتحنوا ابا جعفر حتّى يتبين لكم ما وصفت لكم من حاله، قالوا: رضينا فخرجوا واتّفق رأيهم على أن يحيى بن أكثم يسأله مسألة وهو قاضي الزمان فأجابهم المأمون على ذلك، واجتمع القوم في يوم اتّفقوا عليه وأمر المأمون أن يفرش لأبي جعفر دست ففعل ذلك وجلس يحيى بن أكثم بين يديه وقام الناس في مراتبهم والمأمون جالس في دست متّصل بدست أبي جعفر - عليه السلام - فقال يحيى بن أكثم للمأمون: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر؟ فقال: إستأذنه في ذلك، فأقبل عليه يحيى وقال: أتأذن لي جعلت فداك في مسألة؟ فقال: سل إن شئت. فقال: ما تقول جعلت فداك في مُحرم قتل صيدا؟ فقال أبو جعفر - عليه السلام -: في حل أو حرم؟ عالمًا كان المحرم أو جاهلاً؟ قتله عمداً أو خطأ؟ حرّاً كان المحرم أو عبداً؟ صغيراً كان أو كبيراً؟ مبتدئاً كان بالقتل أو معيداً؟ من ذوات الطير كان الصيد أم غيرها؟ من صغار الصيد أم كبارها؟ مصرّاً كان على ما فعل أو نادماً؟ ليلاً كان قتله للصيد أم نهاراً؟ محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟ فتحيّر يحيى وبان في وجهه العجز والانقطاع وتلجج حتّى عرف أهل المجلس أمره. فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي، ثمّ قال لأبي جعفر - عليه السلام -: اخطب لنفسك فقد رضيتك لنفسى وانا مزوّجك (٥٠٢)

أم الفضل ابنتي (١). ولَمَّا تمّ الزواج قال المأمون لأبي جعفر: إن رأيت جعلت فداك أن تذكر الجواب فيما فضّلته من وجوه قتل المحرم الصيد لتعلمه ونستفيده فقال أبو جعفر - عليه السلام -: إنّ المحرم إذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير وكان

من كبارها فعليه شاء، فإن اصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً، فإذا قتل فرخاً في الحل فعليه حمل قد فطم من اللبن، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ، وإن كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقره، وإن كان نعامه فعليه بدنه وإن كان طيباً فعليه شاء، فإن قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبه وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدى فيه وكان إحرامه بالحج نحره بمنى، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمدة له المأثم وهو موضوع عنه في الخطأ، والكفارة على الحر في نفسه، وعلى السيد في عبده، والصغير لا كفارة عليه وهي على الكبير واجبة، والنادم يسقط بندمه عنه عقاب الآخرة، والمصر يجب عليه العقاب في الآخرة. فقال له المأمون: أحسنت يا أبا جعفر... (٢). رجوع الجواد إلى المدينة: ثم إن أبا جعفر بعد أن أقام مدة في بغداد هاجر إلى المدينة وسكن بها مدة إلى أن توفي المأمون وبويع المعتصم، ولم يزل المعتصم متفكراً في أبي جعفر يخاف من اجتماع الناس حوله ووثوبه على الخلافة فلأجل ذلك مارس نفس السياسة التي

١. الارشاد ٣١٩ - ٣٢١ وإعلام الوري ٣٥٢ وللقصة صلة فراجع .

٢. المفيد: الارشاد ٣٢٢. (٥٠٣)

مارسها أخوه المأمون من قبله فاستقدمه إلى بغداد سنة ٢٢٠ (١) وتوفي في بغداد آخر ذي القعدة من تلك السنة وله من العمر ٢٥ سنة وأشهر. ودفن عند جدّه موسى بن جعفر في مقابر قريش . وأما الرواة عنه فقد ذكرهم ابن شهر آشوب في مناقبه فقال: من ثقافته أيوب ابن نوح بن دراج الكوفي، وجعفر بن محمد بن يونس الأ-حول، والحسين بن مسلم بن الحسن، والمختار بن زياد العبدي البصري، ومحمد بن الحسين أبي الخطاب الكوفي . ومن أصحابه شاذان بن الخليل النيسابوري، ونوح بن شعيب البغدادي، ومحمد بن أحمد المحمودي، وأبو يحيى الجرجاني، وأبو القاسم إدريس القمي، وعلي بن محمد بن هارون بن الحسن بن محبوب، وإسحاق بن إسماعيل النيسابوري، وأبو حامد أحمد بن إبراهيم المراغي، وأبو علي بن بلال وعبدالله بن محمد الحضيبي، ومحمد بن الحسن بن شمعون البصري وقال في موضع آخر: وقد روى عنه المصنفون نحو أبي بكر أحمد بن ثابت في تاريخه وأبي إسحاق الثعلبي في تفسيره، ومحمد بن منده بن مهربذ في كتابه (٢). هذا فقد قام الفاضل المعاصر الشيخ العطاردي بجمع ما روى عن الامام الجواد - عليه السلام - أسماء «مسند الامام الجواد» وقد ذكر أسماء الرواة عنه من

١. وفي الارشاد ٣٢٦ وفي إعلام الهدى ٣٠٤. وكان سبب ورود الامام إلى بغداد وإشخاص المعتصم له من المدينة فورد بغداد لليلتين بقيتا من محرّم الحرام سنة ٢٢٥... ثم يقول: وكان له يوم قبض ٢٥ سنة .

ولا يخفى أنه لو كان تاريخ وروده إلى بغداد هي سنة ٢٢٥ يكون له يوم وفاته ٣٠ سنة من العمر لأنه ولد عام ١٩٥ .

٢. ابن شهر آشوب: المناقب ٤ / ٢٥٨ . (٥٠٤)

المحدثين والفقهاء الذين يربو عددهم على ١٢١ شخصاً. شكر الله مساعيه. وسلام الله على إمامنا الجواد يوم ولد ويوم مات أو استشهد بالسم ويوم بيعت حيا. (٥٠٥) الامام العاشر: أبو الحسن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا - عليهم السلام - الهادي الامام علي الهادي، هو الامام العاشر، والنور الزاهر، ولد عام ٢١٢ هـ وتوفي بسامراء سنة ٢٥٤ هـ وهو من بيت الرسالة والامامة ومقر الوصاية والخلافة، وثمره من شجرة النبوة، قام بأمر الامامة بعد والده الامام الجواد، وقد عاصر خلافة المعتصم فالوائق، فالمتوكل فالمنتصر، والمستعين، والمعتز، وله مع هؤلاء قضايا لا يقتضى المقام ذكر البعض فكيف الكل . قال ابن شهر آشوب: كان أطيّب الناس مهجته، وأصدقهم لهجة، وأملحهم من قريب، وأكملهم من بعيد، إذا صمت، علته هيبه الوقار، وإذا تكلم سماه البهاء (١).

١. مناقب آل أبي طالب ٤ / ٤٠١ طبع قم.

(٥٠٦)

وقال عماد الدين الحنبلي: كان فقيهاً إماماً متعديداً (١). وقال المفيد: تقلد الإمامة بعد أبي جعفر ابنه أبو الحسن علي بن محمد، وقد

اجتمعت فيه خصال الإمامة وثبت النص عليه بالإمامة، والاشارة إليه من أبيه بالخلافة (٢). وقد تضافرت النصوص على إمامته عن طرقنا، فمن اراد فليرجع إلى الكافي واثبات الهداة وغيرهما من الكتب المعده لذلك (٣). وقد مارس المتوكل نفس الاسلوب الخبيث الذي رسمه المأمون ثم أخوه المعتصم من إشخاص أئمة أهل البيت من موطنهم وإجبارهم على الإقامة في مقر الخلافة وجعل العيون والحراس عليهم حتى يطلعوا على دقيق حياتهم وجليلها، وكان المتوكل من أحبب الخلفاء العباسيين وأشدهم عداً لعلّى فبلغه مقام على الهادي بالمدينة ومكانته هناك، وميل الناس إليه، فخاف منه، فدعى يحيى بن هرثمة، وقال: اذهب إلى المدينة، وانظر في حاله وأشخصه إلينا. قال يحيى: فذهبت إلى المدينة. فلما دخلتها ضجّ أهلها ضججاً عظيماً ما سمع الناس بمثله، خوفاً على علي الهادي، وقامت الدنيا على ساق، لأنه كان مُحسبنا اليهم، ملازماً للمسجد لم يكن عنده ميل إلى الدنيا. قال يحيى: فجعلت أُسكنهم وأخلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه، وأنه لا بأس عليه، ثم فتشت منزله فلم أجد فيه إلا مصاحف وأدعية وكتب العلم، فعظم في عيني وتوليت خدمته بنفسى وأحسنست عشرته، فلما قدمت به بغداد، بدأت بإسحاق بن _____

١. شذرات الذهب ٢ / ١٢٨ في حوادث سنة ٢٥٤.

٢. الارشاد ٣٢٧.

٣. الكليني، الكافي ١ / ٣٢٣ - ٣٢٥، الشيخ الحر العاملي: اثبات الهداة ٣ / ٣٥٥ - ٣٥٨. (٥٠٧)

إبراهيم الطاهري وكان والياً على بغداد، فقال لي: يا يحيى إن هذا الرجل قد ولده رسول الله، والمتوكل من تعلم، فإن حرّضته عليه قتله، وكان رسول الله خصمك يوم القيامة. فقلت له: والله ما وقعت منه إلا على كل أمر جميل، ثم صرت به إلى «سر من راي»، فبدأت بـ «وصيف» التركي، فأخبرته بوضوئه، فقال: والله لئن سقط منه شعرة لا يطالب بها سواك، فأخبرته بحسن سيرته وسلامه طريقه وورعه وزهادته وأتى فتشت داره ولم أجد فيها إلا المصاحف وكتب العلم وأن أهل المدينة خافوا عليه، فأكرمه المتوكل وأحسن جائزته وأجزل برّه، وأنزله معه سامراء (١). ومع ان الامام كان يعيش في نفس البلد الذي يسكن فيه المتوكل، وكانت العيون والجواسيس يراقبونه عن كثب، وشي إلى المتوكل بعلي بن محمد أن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعة من أهل قم وأنه عازم بالوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهاجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه وعليه مدرعة من صوف وهو جالس على الرمل والحصى وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك، إلى المتوكل، قالوا للمتوكل: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشراب فأدخل عليه والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده، فقال: والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني، فأعفاه، فقال له: أنشدني شعراً، فقال علي: أنا قليل الرواية للشعر، فقال: لا بد، فأنشده وهو جالس عنده: باتوا على قتل الأجدال تحرسهم * غلب الرجال فما أغنتهم القتل واستلذوا بعد عز من معاقلمهم * وأسكنوا حفراً يابئس ما نزلوا _____

١. سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص ٣٢٢.

(٥٠٨)

ناداهم صارخ من بعد دفنهم * أين الأسرّة والتيجان والحلل أين الوجوه التي كانت منعمة * من دونها تضرب الأستار واللكل فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم * تلك الوجوه عليها الدود يقتتل (١) قد طال ما أكلوا دهرًا وما شربوا * فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا فبكي المتوكل حتى بلّت لحيته دموع عينه وبكى الحاضرون ورفع إلى علي أربعة آلاف دينار ثم رده إلى منزله مكرماً (٢). آثاره العلمية:

روى الحفاظ والرواة عن الامام أحاديث كثيرة في شتى المجالات من العقيدة والشريعة، وقد جمعها المحدثون في كتبهم وبثها الحر العاملي في وسائل الشيعة على أبواب مختلفة، ومما نلفت إليه النظر ان للإمام رسائل ١ - رسالته في الرد على الجبر والتفويض واثبات العدل والمنزلة بين المنزلتين أوردتها بتمامها الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في كتابه (٣) . ٢ - أجوبته ليحيى بن أكتهم عن مسائله،

وهذه أيضا أوردتها في تحف العقول . ٣- قطعة من أحكام الدين، ذكرها ابن شهر آشوب في المناقب . ولأجل إيقاف القارئ على نمط خاص من تفسير الامام نأتى بنموذج من تفسيره: _____

١ . ربما يروى «ينتقل» .

٢ . المسعودى: مروج الذهب ١١ / ٤ .

٣ . تحف العقول ٣٣٨ - ٣٥٢ . (٥٠٩)

قدم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: الايمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكل إلى الامام الهادي يسأله، فلما قرأ الكتاب، كتب: يضرب حتى يموت، فأنكر الفقهاء ذلك فكتب إليه يسأله عن العلة، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) (١)، فأمر به المتوكل فضرب حتى مات (٢) . وفاته:

توفى أبو الحسن - عليه السلام - في رجب سنة أربع وخمسين ومائتين ودفن في داره بسر من رأى، وخلف من الولد أبا محمد الحسن ابنه هو الإمام من بعده والحسين ومحمد وجعفر وابنته عايشة، وكان مقامه بسر من رأى إلى أن قبض عشر سنين وأشهر، وتوفى سنة يومئذ على ما قدمناه إحدى وأربعون سنة (٣) . وقد ذكر المسعودى في اثبات الوصية، تفصيل كيفية وفاته وتشيعه وإبصاء الإمامة لابنه أبي محمد العسكري. فمن أراد فليراجع . _____

١ . غافر / ٨٤ - ٨٥ .

٢ . ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب ٤ / ٤٠٣ - ٤٠٥ .

٣ . الإرشاد ٣٢٧ . (٥١٠) الرواة عن الامام الهادي:

ذكر ابن شهر آشوب في المناقب مشاهير الرواة عنه (١)، وذكر الشيخ الطوسي أسماء الرواة عنه في رجاله فبلغ عددهم ١٨٥ شخصاً (٢) ثم إن الشيخ المعاصر العطاردي قام بجمع ما روى عنه في مجالات شتى فأسماه «مسند الإمام الهادي» شكر الله سعيه .

١ . المناقب ٤ / ٤٠٢ .

٢ . رجال الشيخ الطوسي ٤٠٩ - ٤٢٧ . (٥١١) الإمام الحادي عشر: أبو محمد الحسن بن علي الهادي - عليهما السلام - العسكري أبو محمد: الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد، أحد أئمة أهل البيت، والإمام الحادي عشر، الملقب بالعسكري ولد عام ٢٣٢ (١)، وقال الخطيب في تاريخه (٢) وابن الجوزي في تذكرته (٣) أنه ولد عام ٢٣١، وأشخص بشخص والده إلى العراق سنة ٢٣٦، وله من العمر أربع سنين وعدة شهور وقام بأمر الامامة والقيادة الروحية بعد شهادة والده، وقد اجتمعت فيه خصال الفضل، وبرز تقدمه

١ . الكليني: الكافي ١ / ٥٠٣ .

٢ . الخطيب: تاريخ بغداد ٧ / ٣٦٦ .

٣ . سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ٣٢٢ . (٥١٢)

على كافة أهل العصر، واشتهر بكمال الفعل والعلم والزهد والشجاعة (١) روى عنه لفيق من الفقهاء والمحدثين ما يربو على ١٥٠ شخصاً (٢) وتوفى عام ٢٦٠، ودفن في داره التي دفن فيها أبوه بسامراء . وخلف ابنه المنتظر لدولة الحق، وكان قد أخفى مولده وستر أمره لصعوبة الوقت، وشدة طلب السلطة، واجتهادها في البحث عن أمره ولكنه سبحانه حفظه من شرار أعدائه كما حفظ سائر أوليائه كإبراهيم الخليل وموسى الكليم، فقد خابت السلطة في طلبهما والاعتداء عليهما . وقد اشتهر الإمام بالعسكري لأنه منسوب إلى عسكري

ويراد به سر من رأى الذى بناها المعتصم، وانتقل إليها بعسكره، وأما نسبة الإمام لأن المتوكل أشخص اباه علياً إليها وأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر فنسب هو وولده إليها (٣). وقال السبط ابن الجوزي: كان عالماً ثقة روى الحديث عن أبيه عن جدّه ومن جملة مسانيد حديث في الخمر عزيز. ثم ذكر الحديث عن جدّه أبي الفرج الجوزي في كتابه المسمى بتحريم الخمر ثم ساق سند الحديث إلى الحسن العسكري وهو يسند الحديث إلى ابائه إلى علي بن أبي طالب وهو يقول: أشهد بالله لقد سمعت محمداً رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: أشهد بالله لقد سمعت جبرائيل يقول: أشهد بالله لقد سمعت ميكائيل يقول: أشهد بالله لقد سمعت إسرئيل يقول: أشهد بالله على اللوح المحفوظ أنه قال: سمعت الله يقول: «شارب الخمر كعابد الوثن» (٤). _____

١. المفيد: الارشاد ٣٣٥.

٢. العطاردي: مسند الامام العسكري وقد جمع فيه كل ما روى عنه وأسند إليه.

٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢ / ٩٤.

٤. تذكرة الخواص ٣٢٤. (٥١٣)

إن الإمام أسند الحديث إلى النبي الأكرم ولعلّ السبط ابن الجوزي زعم أنه مختص بهذا المورد، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإنّ أحاديث أئمة أهل البيت مروية كلها عن النبي الأكرم، فهم لا يروون في مجال الفقه والتفسير والأخلاق والدعاء إلا ما وصل إليهم عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق آبائهم وأجدادهم، ومروياتهم لا - تعبّر عن آرائهم الشخصية، فمن قال بذلك وتصوّر كونهم مجتهدين مستنبطين، فقد قاسهم بالآخرين ممن يعتمدون على آرائهم الشخصية وهو في قياسه خاطئ، فهم منذ نعومة أظفارهم إلى أن لبوا دعوة ربهم لم يختلفوا إلى أندية الدروس، ولم يحضروا مجلس أحد من العلماء ولا تعلموا شيئاً من غير آبائهم فما يذكرونه من علوم ورثوها من رسول الله وراثته غيبية لا يعلم كنهه إلا الله سبحانه والراسخون في العلم. وهذا جابر الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر الباقر - عليه السلام - : إذا حدثني بحديث فأسنده لك؟ فقال: حدثني أبي عن جدّي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن جبرئيل عن الله تبارك وتعالى، فكل ما أحدثك بهذا الإسناد. ثم قال: لحديث واحد تأخذه من صادق عن صادق خير لك من الدنيا وما فيها (١). وروى حفص ابن البخترى، قال: قلت لأبي عبد الله الصادق - عليه السلام - : أسمع الحديث منك فلا أدري منك سماعه أو من أبيك؟ فقال: ما سمعته منّي فاروه عن أبي، وما سمعته منّي فاروه عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (٢). فائمة المسلمين على حد قول القائل: _____

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة ج ١٨، الباب الثامن من أبواب صفات القاضي الحديث ٦٧.

٢. المصدر نفسه، الحديث ٨٦. (٥١٤)

ووال اناسا نقلهم وحديثهم * روى جدنا عن جبرئيل عن البارى ولقد عاتب الامام الباقر - عليه السلام - سلمه بن كهيل والحكم بن عتيبة حيث كانا يأخذان الحديث من الناس ولا يهتمان بأحاديث أهل البيت، فقال لهما: شرقاً وغرباً فلا تجدان عالماً صحيحاً إلا أشياء خرج من عندنا أهل البيت. رغم أنّ الخلفاء وضعوا الامام تحت الاقامة الجبرية وجعلوا عليه عيوناً وجواسيساً ولكن روى عنه الحفاظ والرواة أحاديث جمة في شتى المجالات نذكر أسماء الرواة عنه: قال ابن شهر آشوب: من ثقاته على بن جعفر، وأبو هاشم، داود بن القاسم الجعفرى وقد أدرك خمسة من الأئمة - عليهم السلام - وداود بن أبي يزيد النيسابورى، ومحمد بن على بن بلال، وعبد الله بن جعفر الحميرى القمى، وأبو عمر عثمان ابن سعيد العمري، وإسحاق بن ربيع الكوفى، وأبو القاسم جابر بن يزيد الفارسى، وإبراهيم بن عبده بن إبراهيم النيسابورى... (١). ثم إن الكلام في أخلاقه وأطواره، ومناقبه وفضائله، وكرمه وسخائه، وهيبته، وعظمته، ومجاوبته للخلفاء العباسيين بكل جرأة وعزة. وما نقل عنه من الحكم والمواعظ والآداب، يحتاج إلى تأليف مفرد وكفانا في ذلك علماؤنا الأبرار بيد أنّا نشير هنا إلى لمحة من علومه: ١- لقد شغلت الحروف المقطعة بال المفسرين فضربوا يميناً ويساراً وقد أنهى الرازى أقوالهم فيها في أوائل تفسيره الكبير إلى قرابة عشرين قولاً، ولكن الامام - عليه السلام - يعالج تلك المعضلة بأحسن الوجوه

وأقربها للطبع، فقال: كذبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا سحر مبين تقوله. _____

١. المناقب ٤ / ٢٢٣ .

(٥١٥)

فقال الله: (الم ذلك الكتاب) (فقل) يا محمّد، هذا الكتاب الذي نزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها «الف»، «لام»، «ميم» وهو بلغتكم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم، ثم بين أنه لا يقدر على قوله: (قُلْ لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) - الإسراء / ٨٨ - (١) . وقد روى هذا المعنى عن أبيه الامام الهادي - عليه السلام - (٢) . ٢- كان أهل الشغب والجدل يلقون حبال الشك في طريق المسلمين فيقولون: إنكم تقولون في صلواتكم: (اهدنا الصراط المستقيم) أولستم فيه؟ فما معنى هذه الدعوة؟ أو أنكم متكبرون عنه فتدعون ليهديكم إليه؟ ففسّر الامام الآية قاطعاً لشغبهم فقال: «أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضى أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمالنا» . ثم فسّر الصراط بقوله: الصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا وصراف في الآخرة أما الأول فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، وأما الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم، لا يعدلون عن الجنة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة (٣) . وقد استفحل أمر الغلاة في عصر الامام العسكري ونسبوا إلى الأئمة الهداء أموراً هم عنها براء، ولأجل ذلك يركّز الامام على أن الصراط المستقيم لكل مسلم هو التجنب عن الغلو والتقصير .

١. الصدوق: معانى الأخبار ٢٤، والحديث ذيل فمن أراد فليرجع إلى الكتاب .

٢. الكليني: الكافي ج ١ كتاب العقل والجهل الحديث ٢٠ / ٢٤ - ٢٥ .

٣. الصدوق: معانى الأخبار ٣٣ . (٥١٦)

٣- ربّما يغتر الغافل بظاهر قوله سبحانه: (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) ويتصوّر أنّ المراد من النعمة هو المال والأولاد وصحة البدن، وإن كان كل هذا نعمة من الله، ولكن المراد من الآية بقرينه قوله: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) هو نعمة التوفيق والهداية . ولأجل ذلك نرى أنّ الامام يفسّر الأنعام بقوله: «قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك وهم الذين قال الله عزّ وجلّ: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) ثم قال: ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحة البدن وإن كان كلّ هذا نعمة من الله ظاهرة» (١) . ٤- لقد تفتّت فكرة عدم علمه سبحانه بالأشياء، قبل أن تخلق استلهاماً من بعض المدارس الفكرية الفلسفية الموروثة من اليونان، فسأله محمّد بن صالح عن قول الله: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (٢) فقال: هل يمحو إلا ما كان وهل يثبت إلا ما لم يكن؟ فقلت في نفسي: هذا خلاف ما يقوله هشام الفوطى . إنه لا يعلم الشيء حتى يكون، فنظر إلى شزرا، وقال: «تعالى الله الجبار العالم بالشيء قبل كونه، الخالق إذ لا مخلوق، والربّ إذ لا مربوب، والقادر قبل المقدور عليه» (٣) . _____

١. الصدوق: معانى الأخبار ٣٦ .

٢. الرعد / ٣٩ .

٣. المسعودى: اثبات الوصية ٢٤١ . (٥١٧) حصيلة البحث:

هؤلاء هم أئمة الشيعة وقادتهم بل أئمة المسلمين جميعاً، وكيف لا يكونون كذلك وقد ترك رسول الله بعد رحلته الثقلين وحثّ الأئمة على التمسك بهما وقال: إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً (١) . ولكن المؤسف أنّ أهل السنة والجماعة لم يعتمدوا في تفسير كتاب الله العزيز على أقوال أهل البيت وهم قرناء القرآن وأعداله والثقل الآخر من الثقلين وإنّما استعانوا في تفسيره بأناس لا يبلغون شأوهم ولا يشقون غبارهم، نظراء مجاهد بن جبر (ت ١٠٤) وعكرمة

البربري (ت ١٠٤) وطاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦) وعطاء بن أبي رباح (ت ١١٤) ومحمد بن كعب القرظي (ت ١١٨) إلى غير ذلك من أناس لا يبلغون في الوثاقة والمكانة العلمية معشار ما عليه أئمة أهل البيت - صلوات الله عليهم -.. فالإسلام عقيدة وشريعة، فالنجاة عن الضلال - حسب مفاد حديث الثقلين هو الرجوع إليهما وأما غيرهما فإن رجع إليهما فنعم المطلوب وإلا فلا قيمة له - أما الصحابة والتابعون، فلا يعتد برأيهم إلا إذا كان مأخوذاً عن كتابه سبحانه أو سنة نبيه، وليس حديث أئمة أهل البيت إلا إشارات خالداً لحديث جدّهم الأكرم وسنته .

١ . رواه غير واحد من أصحاب الصحاح والمسانيد وهو من الأحاديث المتواترة، (لاحظ نشرة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية. حول هذا الحديث، ترى اسنادها موصولة إلى النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(٥١٨) (٥١٩) الإمام الثاني عشر: الخلف الصالح المهدي صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه)

هو أبو القاسم محمد بن الحسن العسكري الحجة، الخلف الصالح، ولد عليه السلام بسرّ من رأى ليلة النصف من شعبان، سنة خمس وخمسين ومائتين، وله من العمر عند وفاء أبيه خمس سنين، آتاه الله الحكيم صبيّاً كما حدث ليحيى قال سبحانه: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً) (١) وجعله إماماً وهو طفل، كما جعل المسيح نبياً وهو رضيع قال سبحانه: (إني عبد الله آتاني الكتاب و جعلني نبياً) (٢) وقد تواتر النص عليه من النبي الأكرم وآبائه

١ . مريم / ١٢ .

٢ . مريم: ٣٠ . (٥٢٠)

الكرام . اتفق المسلمون على ظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم، والجور، ونشر أعلام العدل وإعلاء كلمة الحق، وإظهار الدين كله ولو كره المشركون، فهو بإذن الله ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله، ويلغي الأخلاق والعادات الذميمة، ويبطل القوانين الكافرة التي سنتها الأهواء، ويقطع أوامر التعصبات القومية والعنصرية، ويمحى أسباب العدا، والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأمية، وافتراق الكلمة، ويحقق به سبحانه بظهوره، وعده المذموم وعد به المؤمنين بقوله: ١- (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسَّخِلَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسَّخَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ لِيُخَلِّفُوا فِيهَا وَنَجْعَلَنَّهُمْ الْأُمَمَ) (٢) . ٢- (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (٢) . ٣- (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (٣) . ويأتي عصر ذهبي لا يبقى فيه على الأرض بيت إلا ودخلته كلمة الإسلام ولا تبقى قرية إلا وينادي فيها بشهادة «لا إله إلا الله» بكرة وعشيا .

١ . النور / ٥٥ .

٢ . القصص / ٥ .

٣ . الأنبياء / ١٠٥ . (٥٢١)

١- روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ولو لم يبق من الدهر إلا يوم واحد لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً (١) . ٢- أخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: لا تنقض الدنيا حتى يملكك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي (٢) . ٣- أخرج أبو داود عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: المهدي من عترتي من ولد فاطمة (٣) . ٤- أخرج الترمذي عن ابن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي (٤) . إلى غير ذلك من الروايات المتضاربة التي بلغت أعلى مراتب التواتر على وجه يقول الدكتور عبد الباقي: إن المشكلة ليست مشكلة حديث أو حديثين أو راو أو راويين أنها مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع على تناقلها مئات الرواة وأكثر من صاحب كتاب صحيح (٥) . هذا هو

- المهدي الذي اتفق المحدثون والمتكلمون عليه، وإنما الاختلاف بين الشيعة والسنة في ولادته، فالشيعة ذهبت إلى أن المهدي الموعود هو الامام الثاني عشر الذي ولد بسامراء عام ٢٥٥ هـ واختفى بعد وفاة أبيه عام ٢٦٠ هـ، وقد تضافرت _____
١. مسند أحمد ١ / ٩٩، ٣ / ١٧ - ٧٠.
 ٢. جامع الأصول ١١ / ٤٨ برقم ٧٨١٠.
 ٣. المصدر نفسه برقم ٧٨١٢.
 ٤. المصدر نفسه برقم ٧٨١٠.
 ٥. الدكتور عبدالباقى: بين يدي الساعة ١٢٣. (٥٢٢)

عليه النصوص من آبائه، على وجه ماترك شكاً ولا شبهة (١) ووافقتهم جماعة من علماء أهل السنة، وقالوا بأنه ولد وأنه محمّد بن الحسن العسكري. نعم كثير منهم قالوا بأنه سيولد في آخر الزمان، وبما أن أهل البيت أدري بما في البيت، فمن رجح إلى روايات أئمة أهل البيت في كتبهم يظهر له الحق، وأن المولود للامام العسكري هو المهدي الموعود. وممن وافق من علماء أهل السنة بأن وليد بيت الحسن العسكري هو المهدي الموعود: ١- كمال الدين محمد بن طلحة بن محمد القرشي الشافعي في كتابه «مطالب السؤل في مناقب آل رسول». وقد أثنى عليه من ترجم له مثل الياقعي في «مرآة الجنان» في حوادث سنة ٦٥٠. قال بعد سرد اسمه ونسبه: «المهدي الحجة الخلف الصالح المنتظر، فأما مولده فبسر من رأى، وأما نسبه أبا فابوه الحسن الخالص» ثم أورد عدّة أخبار واردة في المهدي من طريق أبي داود، والترمذي، ومسلم والبخاري وغيرهم ثم اعترض بأنها لا تدل على أنه محمّد بن الحسن العسكري وأجاب بأن الرسول لما وصفه وذكر اسمه ونسبه وجدنا تلك الصفات والعلامات موجودة في محمّد بن الحسن العسكري علمنا أنه هو المهدي.

٢- أبو عبدالله محمّد بن يوسف بن محمّد الكنجي الشافعي في كتابه: «البيان في اخبار صاحب الزمان» و «كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب». ٣- نور الدين علي بن محمّد بن الصباغ المالكي في كتابه الفصول المهمة في معرفة الأئمة. _____

١. اقرأ هذه النصوص في كتاب كمال الدين للشيخ الصدوق ٣٠٦ - ٣٨١ ترى فيه النصوص المتضاربة على أن المهدي الموعود هو ولد الامام أبو محمّد الحسن العسكري وان له غيبة.

(٥٢٣)

٤- الفقيه الواعظ شمس الدين المعروف بالسبط ابن الجوزي «في تذكرة الخواص». إلى غير ذلك من علماء وحفاظ ذكر أسماءهم وكلماتهم السيد الأمين في أعيان الشيعة وأنهاء إلى ثلاثة عشر، ثم قال: والقائلون بوجود المهدي من علماء أهل السنة كثيرون وفيما ذكرناه منهم كفاية ومن أراد الاستقصاء فليرجع إلى كتابنا «البرهان إلى وجود صاحب الزمان» ورسالته «كشف الأستار» للشيخ حسين النوري (١). وقد كان الاعتقاد بظهور المهدي في عصر الأئمة الهداة أمراً مسلماً حتى أن دعبل الخزاعي ذكره في قصيدته التي أنشدها لعلي بن موسى الرضا - عليه السلام - فقال: خروج إمام لا محالة قائم يقوم على اسم الله والبركات يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمة ولما وصل دعبل إلى هذين البيتين بكى الرضا - عليه السلام - بكاءً شديداً ثم رفع رأسه، فقال له: يا خزاعي نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الامام ومتى يقوم؟، فقلت: لا يا مولاي، إلا أنني سمعت بخروج إمام منكم يطهر الأرض من الفساد، ويملاؤها عدلاً كما ملئت جوراً، فقال: يا دعبل، الامام بعدى محمّد ابني (الجواد) وبعد محمّد ابنه علي (الهادي) وبعد علي ابنه الحسن (العسكري) وبعد الحسن ابنه الحجة القائم المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً، وأما متى؟ فاخبار عن الوقت، ولقد حدّثني أبي عن أبيه

عن _____

١. أعيان الشيعة ٢ / ٦٤ - ٧٥.

(٥٢٤)

آبائه عن علي - عليه السلام - إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قيل له: يا رسول الله متى يخرج القائم من ذريتك؟ فقال: مثله مثل الساعة لا يجليها لوقتها إلا هو. ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة (١). ثم إن للمهدي - عجل الله تعالى فرجه - غيبتين صغرى وكبرى، كما جاءت بذلك الأخبار عن أئمة أهل البيت، أما الغيبة الصغرى فمن ابتداء إمامته إلى انقطاع السفارة بينه وبين شيعته بوفاء السفراء وعدم نصب غيرهم، وقد مات السفير الأخير علي بن محمد السمرى عام ٣٢٩ هـ، ففي هذه الفترة كان السفراء يرونه وربما رآه غيرهم ويصلون إلى خدمته وتخرج على أيديهم توقعات منه إلى شيعته في أمور شتى. وأما الغيبة الكبرى فهي بعد الأولى إلى أن يقوم بإذن الله تعالى. وأما من رأى الحجية في زمان أبيه وفي الغيبة الصغرى وحتى بعد الكبرى، فحدث عنه ولا حرج فقد أُلّف في ذلك كتب أحسنها وأجملها: كمال الدين للصدوق والغيبة للشيخ الطوسي. ثم إن حول الامام المهدي أسئلة وشبهات ربما يتجاوز العشرة، وقد ذكرها المحققون من علماء الإمامية في كتبهم وأجابوا عنها بوضوح (٢).

١. الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة ٢ / ٣٧٢.

٢. لاحظ محاضراتنا: الإلهيات: بقلم الشيخ الفاضل حسن مكى ٢ / ٦٤١ - ٦٥٣ وفي كتاب منتخب الأثر في الامام الثاني عشر لشيخنا: لطف الله الصافي - دام ظله - غنى وكفاية لطالب الحق.

الفصل الثاني عشر دور الشيعة في بناء الحضارة

الفصل الثاني عشر دور الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية وازدهار العلوم (٥٢٦) (٥٢٧)

الحضارة تقابل البداوة، وتطلق على الإقامة في الحضر وهي الكلمة الدارجة في أيامنا هذه على ألسن الخطباء وقلم الكتاب وكلمة التمدن هي التي كانت رائجة سابقاً. ولقد شهدت الحياة البشرية على هذا الكوكب (الأرض) حضارات متعددة، لكل مميزات وخصائصها التي ضبطها التاريخ، وأفصحت عنها الاكتشافات الأثرية. ومن مشاهير هذه الحضارات: الحضارة الصينية - المصرية - البابلية - اليونانية الرومانية - الفارسية - وأخيراً الحضارة الغربية ولكل انطباعاتها الخاصة. وأما الحضارة الإسلامية فهي التي تتوسط بين الحضارة الأخيرة (الغربية) وما تقدمها. وهي أكبر الحضارات في تاريخ الإنسان وأكثرها اهتماماً بالعلم والفلسفة والأدب والفنون. وهي الأساس الوطيد الذي قامت عليه حركة النهضة الأوروبية. ولقد وضع عشرات من العلماء موسوعات وكتب لبيان ما قدمته الحضارة الإسلامية من خدمات جليلة إلى المجتمع البشري في المجالات المختلفة. وليست الحضارة الإسلامية حضارة عربية ابتدعتها العرب، بمواهبها وتجاربها بل حضارة الشعوب الإسلامية من عرب و فرس وترك وغيرهم من القوميات، الذين ذابوا في الإسلام ونسوا قومياتهم ومشخصاتهم العنصرية والبيئية. وكلما (٥٢٨)

تستخدم الحضارة العربية يراد منها الحضارة الإسلامية. التي انبثقت بطول فجر الإسلام في الجزيرة العربية وانتشرت بانتشاره بسرعة عجيبة فخفقت راياتها في بقاع واسعة من العالم فامتدت من حدود الصين شرقاً، إلى المحيط الأطلسي غرباً. إن الحضارة الحقيقية تتميز بانعدام الهمجية والفوضى الاجتماعية، وباستغلال الموارد الطبيعية والموهب البشرية إلى أقصى الحدود. كما تتميز بتقدم العلوم وازدهار الآداب والفنون، وسمو المطامح الإنسانية وحلول التنظيم الاجتماعي. إن الحضارة تتألف من عناصر أربعة: ١- الموارد الاقتصادية. ٢- النظم السياسية. ٣- التقاليد الخلقية. ٤- متابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطوع وعوامل الابداع والانشاء وبعده لا تنفك الحوافر الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها (١). وما ذكره ذلك العالم الباحث من أسس الحضارة وأركانها يرجع إلى تفسير الحضارة بالمعنى الجامع الشامل للحضارة الإلهية والمادية. وأما بالنظر إلى الحضارة المرتكزة على الأسس الدينية فمن أهم أركانها توعية الإنسان في ظلال الاعتقاد بالله سبحانه واليوم الآخر. حتى يكون هو الدافع إلى العمل والالتزام بالسلوك الأخلاقي والديني. فالحضارة المنقطعة عن التوعية الدينية حضارة صناعية

١. ويل دورانت: قصة الحضارة ١ / ٣ .

(٥٢٩)

لا إنسانية، وتمدّن مادى وليس بالهوى . إن مؤسس الحضارة الإسلامية هو النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد جاء بسنن وقوانين دفعت البشرية إلى مكارم الأخلاق ومتابعة العلوم والفنون، واستغلال الموارد الطبيعية وتكوين مجتمع تسود فيه النظم الاجتماعية المستقيمة. ولا يشك في ذلك من قرأ تاريخ الإسلام وتاريخ النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - خصوصاً إذا قارن بين حياة البشرية بعد بزوغ شمس الإسلام بما قبلها . ثم إن المسلمين شيدوا أركان الحضارة الإسلامية في ظل الخطوط التي رسمها النبي الأكرم من خلال القرآن والسنة فأصبح لهم قوة اقتصادية، ونظم سياسية، وتقاليدي دينية وخلقية وأصبحت العلوم والفنون تتطور وتتقدم. وقد قاموا بترجمة كتب اليونانيين والفرس وغيرهم إلى لغتهم فصارت الحضارة الإسلامية مزدهرة. بفضل هذه العلوم وتطويرها. فصارت المكتبات عامرة بالآلاف الكتب المتنوعة . إن لكل حضارة طابعاً خاصاً. فلبعضها طابع اقتصادي ولأخرى طابع عسكري، ولثالث طابع فني معماري وهكذا، ولكن الحضارة الإسلامية تتمتع بمجموع هذه المميزات فلم تترك ميزة دون أخرى . والذى يطيب لنا في هذا الفصل، ذكر مشاركة الشيعة في بناء هذه الحضارة خصوصاً فيما يرجع إلى الركن الرابع وهو متابعة العلوم والفنون، وأمّا الأركان الثلاثة الباقية فغير مطلوبة لنا في هذا الفصل وذلك: لأن الموارد الاقتصادية شارك فيها المسلمون انطلاقاً من

دوافعهم النفسية من خلال الاهتمام بالأمور التالية: ١- التنمية الزراعية بأنواعها المختلفة من الحبوب والفاكهة وغيرهما. (٥٣٠)

٢- استخراج المعادن الذهبية، والفضية، والأحجار، النفيسة الكريمة، كالفيروز، والعقيق، والزمرد واللؤلؤ والمرجان. ٣- إحداث القنوات المائية وبناء السدود. وتقسيم الماء، ومحاربة طغيانه. ٤- تربية الحيوانات الأليفة وصيد السمك والطيور. ٥- صناعة الألبسة والأقمشة والستور والسجاد . ٦- صناعة الورق وكتابة الكتب ونشرها في العالم . ٧- إيجاد المواصلات البرية والبحرية، وتنظيم حركة الملاحة، ومحاربة قطاع الطرق واللصوص في البحر والبر . ٨- العناية الفائقة بالتجارة وعقد الاتفاقيات التجارية مع البلدان المجاورة، إلى غير ذلك مما يوجب ازدهار الوضع الاقتصادي، فلا يصح إبعاد قوم عن تلك الساحة وتخصيص الازدهار الاقتصادي بطائفة دون أخرى فإنّ الإنسان حسب الفطرة والدافع الغريزي، ينساق إلى ذلك . وأمّا النظم السياسية فقد نضجت في الدولتين الاموية والعباسية في حقول شتى: الادارة والعسكرية البرية منها والبحرية، فقد قامت كل دولة في مصر الخلفاء بواجبها من غير فرق بين الدول الشيعية منها كالحمدانيين والبويهيين والفاطميين وغيرهم كالسامانية والسلاجقة والغزوانة وهكذا . وأمّا التقاليد الخلقية فقد كانت منبثقة من صميم الإسلام ومأخوذة من الكتاب والسنة وأمّا التقاليد القومية لقد افسح الإسلام لها المجال إذا لم تكن معارضة لمبادئ الشريعة والمثل الأخلاقية الإسلامية . فلأجل ذلك نركز على الركن الرابع من هذه الأركان الأربعة للحضارة، وهو متابعة العلوم والفنون فهي الطابع الأساسي للحضارة الإسلامية وبها تتميز عن ما تقدّم عليها وعن ما تأخر عنها، فنأتي بموجز عن دور الشيعة في بناء هذا الركن أي ازدهار (٥٣١)

العلوم والفنون ليظهر أنّهم كانوا في الطليعة وكان لهم الدور الأساسي . إن الحضارة الإسلامية تستمد من الكتاب والسنة فكل من قدّم خدمة للقرآن لفظاً ومعنى، صورة ومادة فقد شارك في بناء الحضارة الإسلامية ومثله السنة وإليك البيان . ١- قدماء الشيعة وعلم النحو:

إنّ دراسة القرآن بين الأمة ونشر مفاهيمه، يتوقف على معرفة العلوم التي تعد مفتاحاً له إذ لولا تلك العلوم لكانت الدراسة ممتنعاً، ونشرها في ربوع العالم غير ميسور، جداً. بل لولا هذه العلوم ونضجها لحرم جميع المسلمين حتى العرب منهم من الاستفادة من القرآن الكريم. لأنّ الفتوحات فرضت على المجتمع العربي الاختلاط مع بقية القوميات وسبب ذلك خطراً على بقاء اللغة العربية وكان العرب عند ظهور الإسلام يعربون كلامهم على النحو الذي في القرآن إلا من خالطهم من الموالي والمتعربين، ولكن اللحن لم يكثر إلا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق فشارع اللحن في قراءة القرآن فمست الحاجة الشديدة إلى ضبط قواعد اللغة (١). فقام أبو الأسود

الدؤلى بوضع قواعد نحوية بأمر الامام أمير المؤمنين - عليه السلام - فأبو الأسود إمياً واضع علم النحو أو مدوونه وكان من سادات التابعين، صاحب علياً وشهد معه صفين. ثم أقام في البصرة. يقول الشيخ أبو الحسن سلامة الشامي النحوى: إن علياً دخل عليه أبو الأسود يوماً. قال: فرأيتك مفكراً، فقلت له: مالي أراك مفكراً يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت من بعض الناس لحناً وقد هممت أن أضع كتاباً أجمع فيه كلام العرب. فقلت: إن فعلت ذلك أحييت

١. جرجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢١٩.

(٥٣٢)

أقواماً من الهلاك فألقى إليّ صحيفة فيها: الكلام كله إسم وفعل وحرف. فالإسم ما دلّ على المسمى، والفعل ما دلّ على حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى وليس بإسم ولا فعل وجعل يزيد على ذلك زيادات قال: واستأذنته أن اصنع فى النحو ما صنع فأذن وأتيت به فزاد فيه ونقص، وفى رواية أنه ألقى إليه الصحيفة وقال له: انح نحو هذه فلماذا سمى النحو نحواً (١). ومن المعلوم أن هذه القواعد لم تكن تسد الحاجة الملحة. ولكن أبا الأسود قام باكمالها وضبطها وبتميز المنصوب من المرفوع والاسم من الفعل بعلامات نسميها الاعراب فالروايات مجمعة على أن أبا الأسود (وهو شيعى المذهب توفى سنة ٦٩) إمياً مدوّن علم النحو أو واضعه وأضحى ما دوّنه مصدراً لهذا العلم فى العصور اللاحقة وهناك كلام لابن النديم دونك لفظه. يقول: قال محمد بن إسحاق: زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبى الأسود الدؤلى وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - . ثم نقل عن الطبرى وقال: إنما سمى النحو نحواً لأن أبا الأسود الدؤلى قال لعلى - عليه السلام - وقد ألقى عليه شيئاً من أصول النحو قال أبو الأسود: واستأذنته أن اصنع نحو ما صنع، فسمى ذلك نحواً (٢). ٢- وإذا كان أبو الأسود الدؤلى واضعاً للنحو فالخليل بن أحمد الفراهيدى هو المنقح له والباسط له. قال أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى: والخليل بن أحمد، أوحد العصر، وفريد الدهر، وجهبذ الأمة وأستاذ أهل الفطنة الذى لم ير نظيره ولا

١. حسن الصدر: تأسيس الشيعة ٥١ ولقد بلغ الغاية فى ذلك المجال فنقل كلمات المؤرخين فى ما قام به الأمام وتلميذه فى تأسيس علم النحو.

٢. ابن النديم: الفهرست ٦٦ وللکلام صلة من أراد فليرجع إلى المصدر. (٥٣٣)

عرف فى الدنيا عديلة، وهو الذى بسط النحو ومدّ اطنابه وسبب علله وفق معانيه وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى ابعده غاية... وسيوافيك أن الخليل من أصحاب الامام الصادق ومن شيعته. ثم إن علماء الفريقين شاركوا فى نضج هذا العلم وايصاله إلى القمة. وليس للمصنف بخس حق طائفة لمصالح أخرى ولكن لِمَا كان الهدف هو بيان دور الشيعة فى تطوير العلوم وتتبعها نذكر من خدم علم النحو من قدماء الشيعة فقط منهم. ١- عطاء بن أبى الأسود: قال الشيخ الطوسى فى باب أصحاب الحسين بن على: ومنهم ابن أبى الأسود الدؤلى. وقال الحافظ السيوطى فى الطبقات: عطاء، استاذ الأصمعى وأبو عبيدة (١). ٢- أبو جعفر محمّد بن الحسن بن أبى سارة الرواسى الكوفى: قال السيوطى: هو أول من وضع من الكوفيين كتاباً فى النحو وسمّاه الفيصل وهو أستاذ الكسائى والفراء (٢). قال النجاشى: روى هو وأبوه عن أبى جعفر وأبى عبدالله - عليهما السلام - وله كتاب الوقف والابتداء، وكتاب الهمز، وكتاب اعراب القرآن (٣). ٣- حمران بن أعين أخو زرارة بن أعين: كان نحوياً إماماً فيه، عالماً بالحديث واللغة والقرآن، أخذ النحو والقراءة عن (ابن) أبى الأسود، وأخذ عنه الفراء وحمزة أحد السبعة وأخذ الحديث عن الامام السجاد والباقر والصادق. وآل أعين بيت كبير بالكوفة من أجل بيوت الشيعة ولأبى غالب الزرارى

١. تأسيس الشيعة ٦٥.

٢. تأسيس الشيعة ٦٧.

٣. النجاشى: الرجال ٢ / ٢٠٠ برقم ٨٨٤. (٥٣٤)

رسالة في ترجمة آل أعين قال: كان حمران من أكابر مشايخ الشيعة وكان عالماً بالنحو واللغة (١). ٤- أبو عثمان المازني: بكر بن محمد: قال النجاشي: كان سيد أهل العلم بالنحو والعربية واللغة ومقدمته بذلك مشهورة، وكان من علماء الإمامية، قد تأدب على يد إسماعيل بن ميثم (٢) له في الأدب كتاب التصريف، كتاب ما يلحن فيه العامة، التعليق. مات سنة ٢٤٨ (٣). ٥- ابن السكيت: يعقوب بن إسحاق السكيت: كان مقدماً عند أبي جعفر (الجواد) وأبي الحسن (الهادي) - عليهما السلام - وكانا يختصانه. وله عن أبي جعفر - عليه السلام - رواية ومسائل، وقتله المتوكل لأجل تشييعه، وأمره مشهور، وكان وجيهاً في علم العربية واللغة، ثقة، مصداقاً، لا يطعن عليه. وله كتب: إصلاح المنطق، كتاب الألفاظ، كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه، كتاب الأضداد، كتاب المذكر والمؤنث، كتاب المقصور والممدود، و... (٤). وسبب قتله: انّ المتوكل سأله يوماً وهو يعلم ابنيه وقال: يا يعقوب أيهما أحب إليك، ابناي هذان، أم الحسن والحسين؟ فأجابته: «انّ قنبراً خادماً على خير منك ومن ابنيك» فأمر المتوكل فسألوا لسانه من قفاه فمات، وقد خلف بضعة وعشرين أثراً في النحو واللغة والشعر (٥) واستشهد سنة ٢٤٤. _____

١. أبو غالب: رسالة في آل أعين ٢ - ٣ بتلخيص .
٢. وهو من أئمة المتكلمين في الشيعة .
٣. النجاشي: الرجال ١ / ٢٧٢ برقم ٢٧٧ وذكره ابن النديم في أخبار النحويين واللغويين ٩٠ والخطيب البغدادي في تاريخ مدينة بغداد ج ٧ برقم ٣٥٢٩ .
٤. النجاشي: الرجال ٢ / ٤٢٥ برقم ١٢١٥ .
٥. جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٤٢٤ وترجمه ابن خلكان: في وفياته، وياقوت في طبقات الادباء وغيرهما . (٥٣٥)
- ٦- ابن حمدون: أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن حمدون: قال النجاشي: الكاتب النديم، شيخ أهل اللغة ووجههم. أستاذ أبي العباس (١) وكان خصيصاً بسيدنا أبي محمد العسكري وأبي الحسن قبله. له كتب ثم ذكر كتبه (٢). ٧- أبو إسحاق النحوي: ثعلبة بن ميمون: قال النجاشي: كان وجهاً في أصحابنا، قارئاً، فقيهاً، نحوياً، لغوياً، راوياً، وكان حسن العمل، كثير العبادة والزهد، روى عن الصادق والكاظم (٣). وبما أنّ الامام الكاظم توفى عام مائة وثلاث وثمانين، فهو من أهل المائة الثانية . ٨- قتيبة النحوي، الجعفي، الكوفي: قال النجاشي: المؤدب المقرئ، ثقة، عين، روى عن الصادق (٤) وذكره السيوطي في بغية الوعاة ووصفه في تأسيس الشيعة بأنه إمام أهل النحو واللغة (٥). ٩- إبراهيم بن أبي البلاد: قال النجاشي: كان ثقة، قارئاً، أديباً، روى عن الصادق والكاظم - عليهما السلام - (٦). ١٠- محمد بن سلمة الشكري: قال النجاشي: جليل من أصحابنا الكوفيين، عظيم القدر، فقيه، قارئ، لغوي، راوياً، خرج إلى البادية، ولقى العرب وأخذ _____
١. يريد ثعلب (٢٠٠ - ٢٩١ م) .
٢. النجاشي: الرجال ١ / ٢٣٧ برقم ٢٢٨ .
٣. النجاشي الرجال ١ / ٢٩٤ برقم ٣٠٠ وذكره ابن حجر في لسان الميزان ج ٢ برقم ٣٣٢ .
٤. النجاشي: الرجال ٢ / ١٨٥ برقم ٨٦٧ .
٥. تأسيس الشيعة ٧٦ .
٦. النجاشي: الرجال ١ / ١٠٢ برقم ٣١ . (٥٣٦)

عنهم، وأخذ عنه: يعقوب بن السكيت، ثم ذكر كتبه (١) وبما أنه شيخ ابن السكيت فهو أهل المائة الثانية وأوائل الثالثة . ١١- أبو عبدالله النحوي: الحسين بن أحمد بن خالويه، سكن حلب ومات بها، وكان عارفاً بمذهبننا، مع علمه بعلوم العربية، واللغة، والشعر، وله كتب ومن كتبه: مستحسن القراءات والشواذ، كتاب في اللغة (٢). ووصفه السيوطي في الطبقات إنه إمام اللغة والعربية، وغيرهما من العلوم الأدبية، دفن ببغداد سنة ٣١٤ هـ . ١٢- أبو القاسم التنوخي: قال الشيخ رشيد الدين ابن شهر آشوب: أنه من جملة الشعراء

المجاهرين بالشعر في مدح أهل البيت، وقال ياقوت: كان في النحو وحفظ الأحكام وعلم الهيئة والعروض قدوة، وكان يحفظ من اللغة والنحو شيئاً عظيماً (٣). ما ذكرناه نماذج من أئمة اللغة من الشيعة الامامية في القرون الأولى، وأما من وليهم من الأئمة فحدث عنهم ولا حرج، فإن ذكر أسمائهم ونبد من حياتهم يدفعنا إلى تأليف مفرد، وقد كفانا في ذلك ما كتبه السيد الصدر في هذا المجال، فقد بلغ النهاية، وقد ذكر أئمة النحو من الشيعة إلى القرن السابع (٤) فبلغ ١٤٠ إماماً وأستاذاً ومؤلفاً في الأدب العربي ولا سيما النحو وبينهم شخصيات بارزة كالشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) والشريف الرضى وابن الشجري الذي يقول في حقه السيوطي: كان أوحد زمانه، وفرد أوانه في علم العربي ومعرفة اللغة وأشعار العرب توفي ٥٤٢. _____

١. النجاشي: الرجال ٢ / ٢١٨ برقم ٨٩٧.

٢. النجاشي: الرجال ١ / ١٨٨ برقم ١٥٩.

٣. تأسيس الشيعة ٩١.

٤. لاحظ تأسيس الشيعة ٣٩ - ١٣٧. (٥٣٧)

ونجم الأئمة الرضى الالستر آبادي، إلى غير ذلك من الشخصيات البارزة. ٢- قدماء الشيعة وعلم الصرف:

إن أول من دون الصرف أبو عثمان المازني وكان قبل ذلك مندرجاً في علم النحو، كما ذكره في كشف الظنون، وشرحه أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى في ٣٩٢ هـ (١) وأبسط كتاب في الصرف، ما كتبه نجم الأئمة أعني محمد بن الحسن الالستر آبادي الغروي، له شرح الشافية في الصرف، كما له شرح الكافية في النحو وكلا كتابيه جليل الخطر محمود الأثر، قد جمع بين الدلائل والمباني، قال في كشف الظنون: للكافية شروح أعظمها شرح الشيخ رضى الدين محمد بن الحسن الطوسي الالستر آبادي النحوي قال السيوطي: لم يؤلف عليها، بل ولا في غالب كتب النحو مثله جمعاً وتحقيقاً فتداوله الناس واعتمدوا عليه وله فيه أبحاث كثيرة ومذاهب ينفرد بها فرغ من تأليفه سنة ٦٨٣. أقول: فرغ من شرح الكافية سنة ٦٨٦ في النجف الأشرف، كما هو مذكور في آخر الكتاب.

ولنكتف بهذا المقدار في مساهمة الشيعة، مع غيرهم في بناء الأدب العربي وتجديد قواعده وارسائها في مجالى النحو والصرف، وفيما ذكرنا غنى وكفاية. ٣- قدماء الشيعة وعلم اللغة:

ونريد بعلم اللغة، الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث أصولها، واشتقاقها، ومعناها وهو يطلب لنفسه تأليف معاجم لغوية إما في موضوعات خاصة كالخيل _____

١. كشف الظنون ١ / ٢٤٩ مادة «كافية».

(٥٣٨)

والشاة والوحوش والإنسان فقد ألف حولهما كتب تحتوي كل منها أسماء الحيوانات وأعضائها، ومن الإنسان أعضائه وأسماءه. أو موضوعات عامة وأول من ألف في القسم الثاني هو: ١- أبو عبدالرحمان الخليل بن أحمد البصرى الفراهيدى الأزدي: سيد أهل الأدب، هو أول من ضبط اللغة وأول من استخراج علم العروض إلى الوجود، فهو أسبق العرب إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم فألف كتابه «العين» جمع فيه ما كان معروفاً في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها، وقواعدها، ورتب ذلك على حروف الهجاء، لكنّه رتب الحروف حسب مخارجها من الحلق، فاللسان، فالأسنان، فالشفتين، وبدأ بحرف العين وختمها بحروف العلة «واي» وسُمي الكتاب بأول لفظ من ألفاظه (١). وكان الكتاب مخطوطاً عزيز النسخة، لكنّه رأى النور أخيراً وطبع محققاً. لم يشك أحد من علمائنا أن الخليل كان شيعياً وعن المرزبانى أنه ولد عام مائة من الهجرة وتوفى سنة ١٧٠ أو ١٧٥ وقال ابن قانع أنه توفي سنة ١٦٠ (٢) قد ألف كتاباً في الإمامة، أورده بتمامه محمد بن جعفر المراغى في كتابه واستدرك عليه ما لم يذكره وأسماء «الخليلي» قال النجاشي محمد بن جعفر بن محمد: أبو الفتح الهمداني الوداعي المعروف بـ «المراغى» كان يتعاطى الكلام، له كتاب مختار الأخبار، كتاب الخليلي في الإمامة، وكتاب ذكر المجاز من القرآن (٣). قال العلامة في الخلاصة: كان خليل بن أحمد أفضل الناس في الأدب

١. آداب اللغة العربية ٤٢٧ - ٤٢٨ .
 ٢. المامقاني: تنقيح المقال ١ / ٤٠٣ برقم ٣٧٣٩ .
 ٣. النجاشي: الرجال ٢ / ٣١٨ برقم ١٠٥٤ . (٥٣٩)
 وقوله حجة فيه واخترع علم العروض، وفضله أشهر من أن يذكر وكان إمامي المذهب (١) . وقال ابن داود: الخليل بن أحمد شيخ الناس في علوم الأدب فضله وزهده أشهر من أن يخفى، كان إمامي المذهب (٢) . ٢- أبان بن تغلب بن رباح الجريري: من أصحاب الباقر والصادق، قال النجاشي: كان قارئاً من وجوه القراء، فقيهاً، لغوياً، سمع من العرب وحكى عنهم (٣) وقال ياقوت: ذكره أبو جعفر الطوسي في مصنفي الامامية. وقال: هو ثقة جليل القدر عظيم المنزلة وقال: كان قارئاً، فقيهاً، لغوياً، نبهاً ثبناً (٤) . ٣- ابن حمدون النديم: شيخ أهل اللغة ووجههم وأستاذ أبي العباس ثعلب (٥) . ٤- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: الأديب اللغوي، صاحب الجمهرة في اللغة مات هو وأبو هاشم الجبائي في يوم واحد فقال الناس: مات علم اللغة والكلام. أُلّف كتاب «جمهرة اللغة» على منوال «العين» واختصره الصحاح وسمّاه «جوهره الجمهرة» (٦) . ٥- الصحاح بن عباد: عظيم الشأن، جليل القدر في العلم والأدب، وأُلّف الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١) كتابه عيون أخبار الرضا - عليه السلام - لأجله، ومن كتبه في اللغة: «المحيط» عشر مجلدات وقد عرفت تلخيص

الجوهرة. وأما تشييعه فحدث

١. العلامة الحلّي: الخلاصة، القسم الأول ٦٧ .
 ٢. ابن داود الحلّي: الرجال، القسم الأول ٨٨ برقم ٥٧٤ .
 ٣. النجاشي: الرجال ١ / ٧٣ برقم ٦ .
 ٤. ياقوت: معجم الأدباء ١ / ١٠٧ .
 ٥. الطوسي: الفهرست ١١ / ٥٦ .
 ٦. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢ / ١٩٥ . (٥٤٠)

عنه ولا- حرج . وكم له من قصائد في مدح أهل البيت نذكر منها ما يلي: ألم تعلموا أنّ الوصي هو الذي * أتى الزكاة وكان في المحراب ألم تعلموا أنّ الوصي هو الذي * حكم الغدير له على الأصحاب (١) ولنكتف بهذا المقدار فإنّ المقصود اراءه نماذج من كبار القدماء الذين شاركوا المسلمين في تأسيس العلوم العربية وتطويرها وأما التفصيل فيرجع إلى محاله (٢) . ٤- قدماء الشيعة وعلم العروض:

إذا كانت الشيعة هي التي ابتكرت علم النحو بهداية من باب علم النبي الأكرم - عليه السلام - ولحسن الحظ أنّها المبتكرة أيضاً لعلم العروض واستخراجه إلى الوجود وإليك المؤسسين والمؤلفين فيه بوجه موجز . ١- الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري قال ابن خلّكان: هو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً (٣) . ٢-

كافي الكفاة الصحاح بن عباد الطائر الصيت، له كتاب الاقناع في

١. الغدير ٤ / ٦٦ وله قصائد أخرى مذكورة فيه .
 ٢. لاحظ تأسيس الشيعة للسيد الصدر فقد ترجم فيه ٢٤ شخصاً كلّهم من أقطاب علم اللغة وللمناقشة في بعض ما ذكره وان كان مجالاً لكنّه لا ينقص عن عظم الجهد الذي بذله في طريق منشوده .
 ٣. وفيات الأعيان ٢ / ٢٤٤ برقم ٢٢٠ . (٥٤١)

العروض (١) وقد توّلى التأليف بعده إلى عصرنا هذا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المعاجم حول مصنفات الشيعة . ومن أبرز ما أُلّف في العروض أخيراً أثران: أحدهما: للسيد الشريف هبة الدين الشهرستاني ١٣٠١ - ١٣٨٦ أسماه: رواشح الفيوض في علم العروض وقد

طبع في طهران ١٣٢٤. ثانيهما: منظومة رصينه قيمه قلما رأى الدهر مثلها للشيخ مصطفى التبريزي (١٢٩٨ - ١٣٣٨) شرحها العلامة أبو المجد الشيخ محمد رضا الاصفهاني (١٢٨٦ - ١٣٦٢) وأسماها «اداء المفروض في شرح ارجوزه العروض» وإليك مستهلها:

الحمد لله على اسباغ ما * أولى لنا من فضله وأنعمنا وخصنا منه بواف وافر * من بحر جوده المديد الزاخر صلى على نبينا المختار * ما عاقب الليل على النهار وآله معادن الرسالة * بهم يداوى علل الجهالة خذها ودع عنك رموز الرامزة * كعادة تجلى عليك بارزة تجمع كل ظاهر وخاف * في علمي العروض والقوافي (٢) ولنكتف بهذا المقدار والمقصود عرض موجز من مشاطرتهم غيرهم في تتبع العلوم وتطويرها .

١. كشف الظنون / ١ / ١٣٢ .

٢. نحتفظ منها بنسخة بخط السيد الامام الخميني - قدس سره - وفرغ من نسخها عام ١٣٤٦ . (٥٤٢) ٥ - قدماء الشيعة وطرائف الشعر: لا- نريد من الشعر في المقام، الألفاظ المسبوكة، والكلمات المنصدة على أحد الأوزان الشعرية. وإنما نريد منه ما يحتوي على المضامين العالیه، في الحياه وبيث روح الجهاد في الإنسان أو الذي يشتمل على حجاج في الدين أو تبليغ للحق. وعلى مثل هذا الشعر بنيت الحضارة الإنسانية وهو مقياس ثقافه الأمية ورقيتها وله خلود عبر القرون لا تطمسه الدهور والأيام . فلو نرى في الذكر الحكيم، تنديداً بالشعراء لقوله عزوجل: (والشعراء يتبعهم الغاؤون)(١) فأنما يريد بها الشعراء الماجورين الذين يتغافرون بالأباطيل فيجعلون من الشعر تجارة، ويصنعون من الظالم مظلوماً، ومن المظلوم ظالماً ولأجل ذلك قال سبحانه: (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون)(٢) . فإذا كان المراد من الشعراء هذه الطائفة المثلى، الذين لا يقصدون بشعرهم وأدبهم وطرائفهم إلا ترويج الحق ودعمه ونشره في الملاء، فنرى في الشيعة طبقه راقية منهم في القرون الأولى وكان أئمة أهل البيت يقدرون جهودهم ويرحبون بهم بكل حفاوة كما نطق به التاريخ في حق الفرزدق وميمته وهاشميات الكميت، وعينيه الحميري وتائيه دعبل، لقد حظوا جميعاً بتقدير واحترام الأئمة وصار عملهم في هذا المجال اسوة الشيعة . وإليك أسماء قليل من شعراء الشيعة مع ذكر ابيات من شعرهم الخالد .

١. الشعراء / ٢٢٤ .

٢. الشعراء / ٢٢٥ - ٢٢٦ . (٥٤٣) ١ - قيس بن سعد بن عباده:

وهو سيد الخزرج، الصحابي الجليل، كان زعيماً مطاعاً، كريماً ممدوحاً، وكان من شيعة علي - عليه السلام - بعثه علي أميراً على مصر سنة ٣٦ وهو وأبوه وأهل بيته من الذين لم يبايعوا ابابكر وقالوا لا نبايع إلا علياً (١) . ومن أشعاره التي أنشدها بين يدي أمير المؤمنين - عليه السلام - : قلت لما بغى العدو علينا * حسبنا ربنا ونعم الوكيل حسبنا الذي فتح البصر * ه بالأمس والحديث الطويل يوم قال النبي من كنت مولا * ه فهذا مولاه خطب جليل أنما قاله النبي على الأمة * حتم ما فيه قال وقيل (٢) ٢ - الكميت (٦٠ - ١٢٦):

وهو الكميت بن زيد شاعر مقدم، عالم بلغات العرب، خبير بأيامها من شعراء مضر. وكان معروفاً بالتشيع لبنى هاشم مشهوراً بذلك وقد حظى بتقدير الأئمة لا صحاره بالحق، ولجهاده في سبيله، وهاشمياته المقدرة بـ ٥٧٨ بيتاً أخلد ذكره في التاريخ وهي مشتملة على ميمية وبائية ورائية وغيرها . وإليك أبياتاً من عينته: ويوم الدوح دوح غدیر خم * أبان له الولاية لو أطيعا ولكن الرجال تبايعوها * فلم أر مثلها خطراً ميبعا

١. الطبري: التاريخ / ٣ / ٤٦٢ .

٢. المفيد: الفصول المختارة ٨٧، الكراجكي: كنز الفوائد ٢٣٤، سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص ٢٠ . (٥٤٤)

إلى أن قال: أضاعوا أمر قائدهم فضلوا * وأقومهم لدى الحدثان ريعا تناسوا حقه وبغوا عليه * بلا ترة وكان لهم قريبا فقل لنبي أمية حيث حلوا * وإن خفت المهند والقطيعا ولقد طبع ديوان الكميت غير مرة وشرحه الأستاذ محمد شاکر الخياط والأستاذ الرافعي (١) .

٣- السيد الحميري (ت ١٧٣):

أبو هاشم إسماعيل بن محمد الملقب بالسيد، الشاعر المعروف، ومن المكثرين المجيدين، ومن الثلاثة الذين عدوا أكثر الناس شعراً في الجاهلية والإسلام وهم «السيد» و«بشار» و«أبو العتاهية» وكان متفانياً في حب العترة الطاهرة فلم يكن يرى لمناوئهم حرمة وقدراً وكان يشدد النكير عليهم في كل موقف ويهجوهم بالسنة حداد في كل حول طول . ومن قصائده المعروفة، عينيته وقد شرحها عدة من الأدباء ومستهلها: لأم عمرو باللوى مربع * طامسة أعلامها بلقع تروع عنها الطير وحشيّة * والوحش من خيفته تفرع (٢) ٤- دعبل الخزاعي (ت ٢٤٦):

أبو علي دعبل بن علي الخزاعي وهو من بيت علم وفضل وأدب، يرجع نسبه _____

١. إقرأ حياة الكميت في الغدير ٢ / ١٨٠ - ٢١٢ .

٢. إقرأ ترجمة السيد في الغدير ٢ / ٢١٣ - ٢٨٩ . (٥٤٥)

إلى بدليل بن ورقاء الخزاعي الذي دعا في حقّه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . قال النجاشي: أبو علي الشاعر المشهور في أصحابنا، صنّف كتاب طبقات الشعراء ومن أراد التوغل في حياته وسيرته، فليقرأ النواحي الأربعة من حياته: ١- تهالكه في ولائه لأهل البيت - عليهم السلام - . ٢- نبوغه في الشعر والأدب والتاريخ وتآليفه . ٣- روايته للحديث والرواية عنه ومن يروى عنهم . ٤- سيرته مع الخلفاء ثم ملحه ونوادره ثم ولادته ووفاته (١) . وإليك نزراً من تائيته المعروفة: تجاوبن بالأرنان والزفرا * نوائح عجم اللفظ والنطق إلى أن يقول: هم نقضوا عهد الكتاب و * فرضه ومحكمه بالزور والشبهات ولم تك إلا محنة قد كشفتهم * بدعوى ضلال من هن وهنات تراث بلا قربي وملك بلا هوى * وحكم بلا شوري بغير هدات ٥- أبو فراس (٣٢٠ - ٣٥٧):

أبو فراس الحرث ابن أبي العلاء قال الثعالبي: كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً وفضلاً وكرماً ونبلاً ومجداً وبلاغه وبراعة وفروسيه وشجاعه وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة (٢) . _____

١. لاحظ حياته في الغدير ٢ / ٣٦٩ - ٣٦٨ .

٢. يتيمة الدهر ٢٧٠ . (٥٤٦)

وتبعه في اطرائه والثناء عليه ابن عساكر. ومن قصائده المعروفة الميمية. التي مستهلها . الحق مهتضم والدين محترم * وفي آل رسول الله مقتسم والناس عندك لا ناس فيحفظهم * سوم الرعاة ولا شاء ولا نعم إلى أن قال: بالرجال أما لله منتصر * من الطغاة أما لله منتقم بنو علي رعايا في ديارهم * والأمر تملكه النسوان والخدم إلى أن قال: ابلغ لديك بنى العباس مالكة * لا يدعوا ملكها ملاكها العجم أيّ المفاخرا أمست في منازلكم * وغيركم أمر فيها ومحتكم أتى يزيدكم في مفخر علم * وفي الخلاف عليكم يخفق العلم يا باعة الخمر كّفوا عن مفاخركم * لمعشر يتبعهم يوم الهياج دم (١) ويطيب لي في المقام أن أشير إلى أسماء بعض من أنجبتهم مدرسة أهل البيت في حلبة الشعر والأدب في القرن الرابع والخامس من اناس معدودين في القمة فعلى القارئ الكريم أن يطالع عن حياتهم ويقرأ دواوينهم . ١- ابن الحجاج البغدادي المتوفى ٣٢١ صاحب القصيدة المعروفة: يا صاحب القية البيضاء على النجف * من زار قبرك واستشفى لديك شفى ٢- الشريف الرضى ٣٥٧ - ٤٠٦ الغنى عن كل تعريف وبيان . ٣- الشريف المرتضى ٣٥٥ - ٤٣٦ وهو كأخيه أشهر من أن يعرف . ٤- مهيار الديلمي المتوفى ٤٤٨ الذي هو في الرعيّل الأوّل من شعراء القرن _____

١. الغدير ٣ / ٣٩٩ - ٤٠١ .

(٥٤٧)

الرابع وله غديريات كثيرة منها: هل بعد مفترق الأظغان مجتمع * أم هل زمان بهم قد فات يرتجع هذا عرض موجز لبعض الشعراء البارزين من الشيعة وفيه كفاية لمن أراد الاجمال وأميا من أراد التوسيع فليرجع إلى الكتب التالية: ١- الأدب في ظلّ التشيع للشيخ عبدالله نعمه . ٢- تأسيس الشيعة: للسيد حسن الصدر. الفصل السادس . ٣- الغدير للعلامة الأميني بأجزائه الأحد عشر . ٤- قدماء الشيعة وعلم التفسير:

إن القرآن هو المصدر الرئيسي للمسلمين في مجالى العقيدة والشريعة، وهو المعجزة الخالدة للنبي الأكرم، وقد قام المسلمون بأروع الخدمات لهذا الكتاب الإلهي على وجه لا تجد له مثيلاً بين أصحاب الشرائع السابقة، حتى أسسوا لفهم كتابهم علوماً قد بقي في ظلها القرآن مفهوماً للأجيال، كما قاموا بتفسيره وتبيين مقاصده بصور شتى، لا يسع المقام لذكرها. فأدوا واجبه تجاه كتاب الله العزيز - شكر الله مساعيهم - من غير فرق بين الشيعة والسنة . إن مدرسة الشيعة منذ أن ارتحل النبي الأكرم إلى يومنا هذا، أنتجت تفاسيراً على أصعده مختلفة، وخدمت الذكر الحكيم بصور شتى، فأتى بوجه موجز، لما أُلّف في القرون الإسلامية الأولى . إن أئمة أهل البيت - بعد الرسول الأكرم - هم المفسرون للقرآن الكريم حيث فسّروا القرآن، بالعلوم التي نحلهم الرسول بأقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم التي لا تشذ عن قول الرسول وفعله وحجته، ومن الظلم الفادح أن نذكر الصحابة والتابعين في عداد المفسرين ولا نعترف بحقوق أئمة أهل البيت إلا شيئاً لا يذكر. (٥٤٨)

هذا هو الدكتور محمّد حسين الذهبي، جعل علياً - وهو الوصى وباب علم النبي - في الطبقة الثالثة من حيث نقل الرواية عنه، وجعل تلميذه ابن عباس في الدرجة الأولى (١) ولم يذكر عن بقية الأئمة شيئاً مع ما نقل عنهم في مجال التفسير من الروايات الوافرة . ارتحل النبي الأكرم وعكف المسلمون على دراسة القرآن وأول ما فوجئوا به، هو قصور باع لفيف منهم عن فهم بعض ألفاظ القرآن. والقرآن وإن نزل بلغة الحجاز، لكن يوجد فيه ألفاظ غير رائجة فيها وربما كانت رائجة بين القبائل الأخرى، وهذا النوع من الألفاظ ما سمّوه «غريب القرآن» وقد سأل ابن الأرزق - رأس الخوارج - ابن عباس عن شيء كثير من غريب القرآن وأجاب عنه مستشهداً بشعر العرب الأقياح وقد جمعها السيوطي في اتقانه (٢) . وبما أن تفسير غريب القرآن كان الخطوة الأولى لتفسيره، أُلّف أصحابنا في أبان التدوين كتباً في ذلك المضمار، نذكر قليلاً من كثير . ١- غريب القرآن: لأبان بن تغلب بن رباح البكري (ت ١٤١) (٣) . ٢- غريب القرآن: لمحمّد بن السائب الكلبى من أصحاب الامام الصادق - عليه السلام - (٤) . ٣- غريب القرآن: لأبى روق، عطية بن الحارث الهمداني الكوفي التابعى، قال ابن عقدة: كان ممن يقول بولاية أهل البيت (٥) .

١ . الذهبي: التفسير والمفسرون ١ / ٨٩ - ٩٠ .

٢ . السيوطي: الاتقان ٤ / ٥٥ - ٨٨ .

٣ . النجاشي: الرجال ١ / ٧٣ برقم ٦ .

٤ . النجاشي: الرجال ١ / ٧٨ برقم ٦ .

٥ . ابن النديم: الفهرست ٥٧، النجاشي: الرجال ١ / ٧٨ . (٥٤٩)

٤- غريب القرآن: لعبد الرحمان بن محمّد الأزدي الكوفي، جمع فيه ما ورد في الكتب الثلاثة المتقدمة (١) . ٥- غريب القرآن: للشيخ ابن جعفر أحمد بن محمّد الطبرى الأملى الوزير الشيعى المتوفى عام ٣١٣ (٢) . وقد توالى التأليف حول غريب القرآن في القرون الماضية، فبلغ العشرات أخيراً - لا آخرها - ما أُلّفه السيد محمّد مهدى الخراسان فى جزأين (٣) . مجازات القرآن:

إذا كان الهدف من هذه الكتب بيان معانى مفرداته وألفاظه، هناك لون آخر من التفسير يهدف لبيان مقاصده ومعانيه إذا كانت الآية مشتملة على المجاز والكناية والاستعارة. ونأتى بنماذج قليلة ممّا أُلّف فى ذلك المجال بيد أعلام الشيعة: ١ - مجاز القرآن: لشيخ النحاة الفراء يحيى بن زياد الكوفى المتوفى عام ٢٠٧، وقد طبع أخيراً فى جزأين (٤) . ٢- مجاز القرآن: لمحمّد بن جعفر أبو الفتح الهمداني. قال النجاشي: له كتاب «ذكر المجاز من القرآن» (٥) . ٣- مجازات القرآن: للشريف الرضى المسمى بتلخيص البيان فى مجازات القرآن، وهو أحسن ما أُلّف فى هذا الباب وهو مطبوع .

١ . النجاشي: الرجال ١ / ٧٨ .

٢ . ابن النديم: الفهرست ٥٨ .

٣ . الطهرانى آغا بزرك: الدرعية ١٦ / ٥٠ برقم ٢٠٨ .

٤. الطهراني آغا بزرك: الذريعة ١٦ / ٥٠ برقم ٢٠٨ .

٥. النجاشي: الرجال ٢ / ٣١٩ برقم ١٠٥٤ . (٥٥٠) التفسير بصور متنوّعة:

وهناك لون آخر من التفسير، يندفع المفسّر إلى توضيح قسم من الآيات تجمعها صلة كالمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، وآيات الاحكام، وقصص الأنبياء، وأمثال القرآن، وأقسامه، والآيات الواردة في مغازي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والنازلة في حق العترة الطاهرة - عليهم السلام - إلى غيرها من الموضوعات التي لا - تعم جميع آيات القرآن، بل تختص بموضوع واحد. فقد خدمت الشيعة كتاب الله العزيز بهذه الأنواع من التفاسير، ومن أراد أن يقف عليها فعليه أن يرجع إلى المعاجم، وأخص بالذكر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة . الشيعة والتفسير الموضوعي

إنّ نزول القرآن نجومًا وتوزّع الآيات الراجعة إلى موضوع واحد، في سور متعدّدة، يطلب لنفسه نمطًا آخر، غير النمط المعروف بالتفسير الترتيبي، فإنّ النمط الثاني، يتّجه إلى تفسير القرآن سورة بعد سورة، وآية بعد آية، وأمّا النمط الأوّل فيحاول فيه المفسّر إيراد الآيات الواردة في موضوع خاص، في مجال البحث، وتفسير الجميع جملة واحدة وفي محل واحد . فيستمدّ المفسّر من المعاجم المؤلّفة حول القرآن، ومن غيرها في الوقوف على الآيات الواردة، مثلًا في خلق السماء والأرض، أو الإنسان أو أفعاله وحياته الأخرى، فيفسّر المجموع مرة واحدة، ويرفع ابهام آية، بآية أخرى، ويخرج بنتيجة واحدة وهذا النوع من التفسير وإن لم يهتم به القدماء واكتفوا منه بتفسير بعض الموضوعات كآيات الاحكام، والناسخ والمنسوخ، إلا أنّ المتأخّرين منهم، بذلوا جهدهم في طريقه، ولعلّ العلامة المجلسي (١٠٣٧ - ١١١٠) أوّل من فتح (٥٥١)

هذا الباب على مصراعيه في موسوعته «بحار الأنوار»، حيث يورد في أوّل كل باب الآيات الواردة حوله ثمّ يفسرها اجمالاً، وبعد الفراغ منها، ينتقل إلى الأحاديث التي لها صلة بالباب . وقد قام كاتب هذه السطور بتفسير الآيات النازلة حول العقائد والمعارف وخرج منه حتّى الآن سبعة أجزاء وانتشر باسم «مفاهيم القرآن» ولقى اقبالا واسعا، أسأله سبحانه أن يوفّقني لا تمامه . الشيعة والتفسير الترتيبي:

قد تعرّف على أنّ المنهج الراسخ بين القدماء وأكثر المتأخّرين هو التفسير الترتيبي، وقد قام فضلاء الشيعة من صحابة الامام على والتابعين له إلى العصر الحاضر، بهذا النمط من التفسير إمّا بتفسير جميع سورة، أو بعضها والغالب على التفاسير المعروفة في القرون الثلاثة الأولى، هو التفسير بالأثر، ولكن انقلب النمط إلى التفسير العلمي والتحليلي من أواخر القرن الرابع. فأوّل من ألف من الشيعة على هذا المنهج هو الشريف الرّضى (٣٥٧ - ٤٠٦) مؤلّف كتاب «حقائق التأويل» في عشرين جزءاً (١) ثمّ جاء بعده أخوه الشريف المرتضى فسلك مسلكه في أماليه المعروفة بالدرر والغرر. ثمّ توالى التأليف على هذا المنهج من عصر الشيخ الأكبر الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) مؤلّف «التيان في تفسير القرآن» في عشرة أجزاء كبار، إلى عصر هذا . فقد قامت الشيعة في كل قرن بتأليف عشرات التفاسير وفق أساليب متنوّعة،

١ . وللأسف لم توجد منه نسخة كاملة في عصرنا الحاضر إلاّ الجزء الخامس وهو يكشف عن عظمة هذا السفر ويدل على جلاله المؤلف .

(٥٥٢)

ولغات متعدّدة. لا- يحصيها إلاّ المتوغّل في المعاجم ورفوف المكتبات. ولقد فهرسنا على وجه موجز أسماء مشاهير المفسّرين من الشيعة وأعلامهم في ١٤ قرناً، وفصلنا كل قرن عن القرن الآخر واكتفينا بالمعروفين، لأنّ ذكر غيرهم عسير ومحوج إلى تأليف حافل. فبلغ عددهم ١٢٢ مفسّراً. ومن أراد الامام بذلك فعليه الرجوع إلى المقدمة التي قدّمناها لتفسير التبيان للشيخ الطوسي ولأجل ذلك نظوى الكلام في المقام ٧- قدماء الشيعة وعلم الحديث:

إنّ السنّة هو المصدر الثاني للثقافة الإسلامية بجميع مجالاتها ولم يكن شيء أوجب بعد كتابة القرآن وتدوينه وصيانته من نقص وزيادة، من كتابة حديث الرسول وتدوينه وصيانته من الدس والدجل وقد أمر به الرسول غير مرة، روى الامام أحمد عن عمر بن

شعيب عن أبيه عن جدّه أنّه قال للنبي: يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: في الرضا والسخط؟ قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : نعم فإنه لا ينبغي لى أن أقول في ذلك إلّا حقاً (١). إنّ الله سبحانه أمر بكتابة الدّين حفظاً له، واحتياطاً عليه واشفاقاً من دخول الريب فيه فالعلم الّذى حفظه أصعب من حفظ الدّين أحرى بأن يكتب ويحفظ من دخول الريب والشك فيه (٢). فإذا كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لا ينطق عن الهوى وأتما ينطق عن _____

١. مسند أحمد ٢ / ٢٠٧ .

٢. الخطيب البغدادي: تقييد العلم ٧٠. (٥٥٣)

الوحي الّذى يوحي إليه (١) فيجب حفظ كلمه وأفعاله وتقريره. حتّى تصدر الأمة عنها ويستغنى المسلم عن المقاييس الظنيّة والاستنباطات الذوقية . وبالرغم من وضوح الأمر وأنّه كان من واجب ووظيفه المسلمين الاهتمام بدراسة سنّه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وتدوينها. حالت الخلافة دون ذلك فأصبحت كتابة السنّه جريمة لا تغتفر حتّى إنّ الخليفة الثاني قال لأبي ذرّ وعبدالله بن مسعود وأبي الدرداء: «ما هذا الحديث الّذى تفشون عن محمّد؟» (٢). ولقد أضحي عمل الخليفة سنّه فاتّبعه عثمان ومشى على خطاه معاوية، فأصبح ترك كتابة الحديث سنّه إسلامية وعوّدت الكتابة شيئاً منكراً مخالفاً لها . إنّ الرزيّة الكبرى هي المنع عن التحدّث بحديث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكتابته وتدوينه، وفسح المجال في نفس الوقت للرهبان والأخبار للتحدّث بما عندهم من صحيح وباطل، ولقد أذن عمر لتميم الداري النصراني الّذى استسلم في عام ٩ من الهجرة أن يقص (٣). ولتّما تسنّم عمر بن عبدالعزيز منصب الخلافة، أدرك ضرورة تدوين الحديث فكتب إلى أبي بكر بن حزم في المدينة، أن يقوم بتدوين الحديث قائلا: إنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سراً (٤). ومع ذلك فلم يقدر ابن حزم على القيام بما أمر به الخليفة. لأنّ روايب الحظر

١. اقتباس عن قوله سبحانه: (ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إنّ هو إلّا وحيّ يوحي) - النجم ٢ / ٤ .

٢. كنز العمال ١٠ / ٢٩٣ برقم ٢٩٤٧٩. وفيه: ما هذه الأحاديث الّتي قد أفشيتم عن رسول الله الآفاق؟

٣. كنز العمال ١٠ / ٢٨١ .

٤. صحيح البخارى ١ / ٢٧. (٥٥٤)

السابق المؤكد من قبل الخلفاء، حالت دون أمنيته إلى أن زالت دولة الأمويين وجاءت دولة العباسيين. فقام المسلمون بتدوين الحديث في عصر أبي جعفر المنصور سنة ١٤٣. وأنت تعلم أنّ الخسارة الّتي لحقت بالتراث الاسلامى من منع تدوين السنّه لا تجبر بتدوينه بعد مضى قرن وتيف، وبعد موت الصحابة وكثير من التابعين الذين رأوا النور وسمعوا منه الحديث. ولم يحدثوا ما سمعوه إلّا سراً ومن ظهر القلب إلى مثله . أضف إلى ذلك أنّ الأخبار والرهبان والمأجورين للبلاد الأموى نشروا كل كذب وافتراء بين المسلمين . اهتمام الشيعة بتدوين الحديث:

قام الامام أميرالمؤمنين على - عليه السلام - بتأليف عدة كتب في زمان النبي، فقد أملى رسول الله كثيراً من الأحكام عليه وكتبها الامام واشتهر بكتاب على وقد روى عنه البخارى في صحيحه في باب «كتابة الحديث» (١) وباب «أثم من تبرّأ من مواليه» (٢) وقد تبعه ثلّة من الصحابة الذين كانوا شيعة الامام وإليك أسماء من اهتمّ بتدوين الآثار وما له صلة بالدين وإن لم يكن حديث الرسول . ١- قام أبو رافع صحابى الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بتدوين كتاب السنن والأحكام والقضايا (٣). ٢- قام الصحابى الكبير سلمان الفارسى المتوفى سنة ٣٤ بتأليف كتاب حديث _____

١. صحيح البخارى ١ / ٢٧ كتاب العلم .

٢. صحيح البخارى ٨ كتاب الفرائض الباب ٢٠ ص ١٥٤ .

٣. النجاشى: الرجال ٦٤ برقم ١. (٥٥٥)

الجائليق الرومي الذي بعثه ملك الروم بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قال الشيخ الطوسي: روى سلمان حديث الجائليق الذي بعثه ملك الروم بعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (١). ٣- وألف الصحابي الورع أبو ذر الغفاري المتوفى سنة ٣٢ كتاب الخطبة يشرح فيها الأمور بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (٢). هذا ما يرجع إلى الصحابة من الشيعة وأما الشيعة من غير الصحابة أعنى التابعين وتابعى التابعين منهم، فقد قام ليف منهم بتدوين السنّة إلى عصر الغيبة الكبرى، قد تكفل بذكرهم وتآليفهم معاجم الرجال قديماً وحديثاً وإليك عرضاً موجزاً من محدثي الشيعة ومؤلفيهم في القرن الأول وبداية الثاني. الطبقة الأولى:

١- الأصمغ بن نباتة المجاشعي، كان من خاصة أمير المؤمنين - عليه السلام - روى عنه - عليه السلام - عهد الأشر، ووصيته إلى ابنه محمّد (٣). ٢- عبيدالله بن أبي رافع، المدني، مولى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، كان كاتب أمير المؤمنين - عليه السلام -، له كتاب قضايا أمير المؤمنين - عليه السلام - وتسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان (٤). ٣- ربيعة بن سميع، له كتاب في زكاة النعم عن أمير المؤمنين - عليه السلام - (٥).

١. الطوسي: الفهرست ٨.

٢. الطوسي: الفهرست ٥٤.

٣. النجاشي: الرجال ١ / ٧٠ برقم ٤.

٤. الطوسي: الفهرست ١٠٧.

٥. النجاشي: الرجال ١ / ٦٧ برقم ٢. (٥٥٦)

٤- سليم بن قيس الهلالي: أبو صادق، له كتاب وهو مطبوع باسم كتاب سليم بن قيس. ٥- علي بن أبي رافع، قال النجاشي: ولا بن أبي رافع كتاب آخر، وهو علي بن أبي رافع، تابعي من خيار الشيعة، كانت له صحبة من أمير المؤمنين - عليه السلام -، وكان كاتباً له، حفظ كثيراً، وجمع كتاباً في فنون من الفقه: الوضوء، والصلاة، وسائر الأبواب (١). ٦- عبيدالله بن الحر الجعفي، الفارس، الفاتك، الشاعر، له نسخة يرويها عن أمير المؤمنين - عليه السلام - (٢). ٧- زيد بن وهب الجهني، له كتاب خطب أمير المؤمنين - عليه السلام - على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها (٣). الطبقة الثانية:

١- الامام السجاد زين العابدين - عليه السلام -، له الصحيفة الكاملة، المشتهرة بزبور آل محمّد - عليهم السلام - (٢). ٢- جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، أبو عبدالله، المتوفى سنة ١٢٨، له كتب (٤). ٣- زياد بن المنذر، الضعيف، كان مستقيماً ثم انحرف، له أصل،

١. النجاشي: الرجال ١ / ٦٥ برقم ١.

٢. النجاشي: الرجال ١ / ٧١ برقم ٥.

٣. الطوسي: الفهرست ٧٢.

٤. النجاشي: الرجال ١ / ٣١٣ برقم ٣٣٠. (٥٥٧)

وله كتاب التفسير (١). ٤- لوط بن يحيى بن سعيد، شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، له كتب كثيرة، أورده الشيخ في رجاله (٢) في أصحاب الحسن والصادق - عليهما السلام - (٥). ٥- جارود بن منذر الثقة، أورده الشيخ في أصحاب الحسن والباقر والصادق - عليهم السلام -، له كتب (٣). الطبقة الثالثة:

وهم من أصحاب السجاد والباقر - عليهما السلام -: ١- برد الاسكاف، من أصحاب السجاد والصادقين - عليهم السلام -، له كتاب (٤). ٢- ثابت بن دينار، أبو حمزة الثمالي الأزدي، الثقة، المتوفى سنة ١٥٠ روى عنهم - عليهم السلام -، له كتاب، وله النوادر والزهد، وله تفسير القرآن (٥). ٣- ثابت بن هرمز، الفارسي، أبو المقدم العجلي، مولاهم الكوفي، روى نسخة عن علي بن الحسين - عليهما السلام - (٦). ٤- بسام بن عبدالله، الصيرفي، مولى بني أسد، أبو عبدالله، روى عن

- ١ . الطوسى: الفهرست ٧٢ .
- ٢ . الطوسى: الرجال ٢٧٩ من أصحاب الصادق - عليه السلام - ولاحظ تعليقه المحقق .
- ٣ . الطوسى: الرجال ١١٢ فى أصحاب الباقر - عليه السلام - .
- ٤ . النجاشى: الرجال ١ / ٢٨٤ برقم ٢٨٩ .
- ٥ . النجاشى: الرجال ١ / ٢٨٩ برقم ٢٩٤ .
- ٦ . النجاشى: الرجال ١ / ٢٩٢ برقم ٢٩٦ . (٥٥٨)
- أبى جعفر وأبى عبدالله - عليهما السلام - ، له كتاب (١) . ٥- محمد بن قيس البجلي، له كتاب قضايا أمير المؤمنين - عليه السلام - (٢) .
- ٦- حجر بن زائدة الحضرمى، روى عن الباقر والصادق - عليهما السلام - ، له كتاب (٣) . ٧- زكريا بن عبدالله الفياض، له كتاب (٤) .
- ٨- ثوير بن أبى فاختة «أبو جهم الكوفى»، واسم أبى فاختة: سعيد بن علاقة (٥) . ٩- الحسين بن ثور بن أبى فاختة سعيد بن حمران، له كتاب نوادر (٦) . ١٠- عبدالمؤمن بن القاسم بن قيس، الأنصارى، المتوفى سنة ١٤٧، عدّه الشيخ فى رجاله من أصحاب السجّاد والصادقين - عليهم السلام - ، له كتاب (٧) . ولقد خصّص أبو عمرو الكشّى باباً للمحدّثين المتقدّمين من الشيعة وجعله فى صدر رجاله، وتبعه النجاشى فى رجاله فخصّص الطبقة الأولى بباب ثمّ أورد أسماء الرواة على حسب الأحرف الهجائية . ولقد أجاد الشيخ الطوسى فى التعرّف على طبقات الشيعة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عصره فذكر الأئمة الاثني عشر، وذكر أصحاب كل إمام

١ . النجاشى: الرجال ١ / ٢٨٢ برقم ٢٨٦ .

٢ . الطوسى: الفهرست ١٣١ .

٣ . النجاشى: الرجال ١ / ٣٤٧ برقم ٣٨٢ .

٤ . النجاشى: الرجال ١ / ٣٩١ برقم ٤٥٢ .

٥ . النجاشى: الرجال ١ / ٢٩٥ برقم ٣٠١ .

٦ . النجاشى: الرجال ١ / ١٦٦ برقم ١٢٤ .

٧ . النجاشى: الرجال ٢ / ١٦٨ برقم ٦٥٣ . (٥٥٩)

وفق الترتيب الزمنى، ثمّ ذكر باباً آخر باسم من لم يرههم ولكن روى عنهم بالواسطة. وأحسن كتاب ألف فى هذا المجال هو ما ألفه أستاذنا الجليل السيد التحرير المحقق البروجردى الذى أخرج رجال الشيعة فى ٣٤ طبقة، من عصر الصحابة إلى زمانه (١٢٩٢ - ١٣٨٠) فهذا الكتاب يكشف عن سبق الشيعة فى نظم الحديث وتدوينه، وأنهم لم يقيموا لمنع الخلفاء وزناً ولا قيمة. وبذلك حفظوا نصوص النبى الأكرم وأهل بيته وقدّموها إلى المجتمع الاسلامى، فعلى جميع علماء المسلمين أن يتمسكوا بهذا الجبل الذى هو أحد الثقلين . هذا عرض موجز لمحدّثى الشيعة إلى عصر السجّاد والباقر - عليهما السلام - وأما الطبقات الأخرى فيأتى الكلام فى فصل قدماء الشيعة والفقهاء لأنهم تجاوزوا عن التحديث إلى درجة الاجتهاد . ٨- قدماء الشيعة والفقهاء الاسلامى:

إنّ الفقه الشيعى هو الشجرة الطيبة، الراسخة الجذور، المتصلة الأسس بالنبوة، امتازت بالسعة والشمولية، والعمق، والدقّة، والقدرة على مسايير العصور المختلفة، والمستجدّات من دون أن تتخطى عن الحدود المرسومة فى الكتاب والسنة . إنّ الفقه الامامى يعتمد فى الدرجة الأولى على القرآن الكريم ثمّ على السنة المحمدية المنقولة عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق العترة الطاهرة - عليهم السلام - أو الثقات من أصحابه والتابعين لهم باحسان . وكما يعتمد الفقه الشيعى على الكتاب والسنة كذلك يتخذ من العقل مصدراً فى المجال الذى له الحق فى ابداء الرأى. كأبواب الملازمات العقلية أو قبح التكليف بلا بيان أو لزوم البراءة اليقينية عند الاشتغال اليقيني . (٥٦٠)

ولا- يكتفى بذلك بل يستفيد من الاجماع فى الاستنباط ولكن الاجماع المفيد هو الكاشف عن وجود النص فى المسألة أو موافقة الامام المعصوم مع المجمعين فى عصر الحضور . إن الشيعة الامامية قدّمت فى ظلّ هذه الأسس الأربعة فقهاً يتناسب مع المستجدات، جامعاً لما تحتاج إليه الأئمة ولم يقفل باب الاجتهاد، منذ رحلة النبي إلى يومنا هذا. بل فتح بابه طيلة القرون فأنتج عبر العصور فقهاءً عظاماً، وموسوعات كباراً. لم يشهد التاريخ لها ولهم مثيلاً وإليك عرضاً موجزاً لمشاهير فقهاءهم والايعاز إلى بعض كتبهم فى القرون الأولى . فقهاء الشيعة فى القرنين الأولين:

تخرّجت من مدرسة أهل البيت وعلى أيدي أئمة الهدى عدّة من الفقهاء العظام لا يستهان بهم فبلغوا الذروة فى الاجتهاد كزرارة بن أعين، ومحمّد بن مسلم الطائفى، وبريد بن معاوية، والفضيل بن يسار، وكلّهم من أفاضل خريجي مدرسة أبي جعفر الباقر وولده الصادق - عليهما السلام - . فأجمعت العصابة على تصديق هؤلاء وانقادت لهم فى الفقه والفقاهة . ويليهما فى الفضل لفيف آخر، هم أحداث خريجي مدرسة أبي عبدالله الصادق نظراء جميل بن دراج، وعبدالله بن مسكان، وعبدالله بن بكير، وحمام بن عثمان، وحمام بن عيسى، وأبان بن عثمان . وهناك ثلّة أخرى يعدّون من تلاميذ مدرسة الامام موسى الكاظم وابنه أبي الحسن الرضا - عليهما السلام - نظراء يونس بن عبدالرحمان، ومحمّد بن أبي عمير، وعبدالله بن المغيرة، والحسن بن محبوب، والحسين بن على بن فضال، وفضالة (٥٤١)

ابن أيوب (١) . أكثر هؤلاء من فقهاء أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . هؤلاء أعلام الشيعة فى الفقه والحديث فى القرنين الأولين وكلّهم خريجو مدرسة أهل البيت - عليهم السلام - ولقد خلّفوا آثاراً علمية باسم الأصل، والكتاب، والنوادر، والجامع، والمسائل وعناوين أخرى. أصحاب الجوامع الفقهية فى القرن الثالث:

لم تزل تنجب مدرسة أهل البيت - عليهم السلام - فى القرن الثالث فقهاءً كباراً ألّفوا جوامع فقهية. نشير إلى بعضهم: ١- يونس بن عبدالرحمان، ولقد وصفه ابن النديم فى فهرسته بعلامة زمانه، له جوامع الآثار والجامع الكبير، وكتاب الشرائع. ٢- صفوان بن يحيى البجلي، الذى كان أوثق أهل زمانه وصنّف ٣٠ كتاباً. ٣ و ٤- الحسن والحسين ابنا سعيد بن حماد الأهوازي، صنّفا الكتب الثلاثين. ٥- أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، المتوفّى ٢٧٤ صاحب كتاب المحاسن وغيره. ٦- محمّد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمى، صاحب نوادر الحكمة المتوفّى حوالى ٢٩٣. صاحب الجامع المعروف . ٧- أحمد بن محمّد بن نصر البزنطى، المتوفّى ٢٢١، صاحب الجامع

١ . أبو عمرو الكشى: الرجال ٢٠٦ - ٢٢٢ - ٤٦٦، وراجع رجال النجاشى فى ترجمتهم وذكر آثارهم ومنزلتهم فى الفقه .

(٥٤٢)

المعروف . فقهاء الشيعة فى القرن الرابع:

هؤلاء هم فقهاء الشيعة فى القرن الثالث ويليهم عدّة أخرى فى القرن الرابع نذكر أسماءهم على وجه الاجمال: ١- الحسن بن على بن أبى عقيل شيخ الشيعة وفقهها صاحب كتاب المتمسك بحبل آل الرسول . ٢- على بن الحسين بن بابويه، المتوفّى ٣٢٩، صاحب كتاب الشرائع . ٣- محمّد بن الحسن بن الوليد القمى، جليل القدر، شيخ القميين وفقههم ومتقدّمهم مات سنة ٣٤٣ ولقد بلغ فى الوثاقة والدقة على حد يسكن إليها الشيخ الصدوق فى تصحيحاته وتضعيفاته . ٤- جعفر بن محمّد بن قولويه. أستاذ الشيخ الصدوق مؤلّف كامل الزيارات، يقول النجاشى: إنّه من ثقات أصحابنا وأجلّائهم فى الفقه والحديث. توفّى عام ٣٦٩. ٥- محمّد بن على بن الحسين الصدوق ٣٠٦ - ٣٨١، مؤلّف من لا- يحضره الفقيه والمقنع والهداية . ٦- محمّد بن أحمد بن الجنيد المعروف بالاسكافى، المتوفّى سنة ٣٨٥ . قال النجاشى: وجه فى أصحابنا ثقة جليل القدر صنّف فأكثر، ثم ذكر فهرس كتبه ومنها كتاب تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة. وكتاب الأحمدي للفقه المحمّدى . مشاهير الفقهاء فى القرن الخامس:

وفى القرن الخامس نبغ فقهاء كبار، احتفل الفقه الشيعى بل الاسلامى (٥٤٣)

بأسمائهم وآرائهم كالشيخ المفيد ٣٣٦ - ٤١٣ والسيد المرتضى ٣٥٥ - ٤٣٦ والشيخ الكراچي ٤٤٩ والشيخ الطوسي ٣٨٥ - ٤٦٠ وسألا الديلمى مؤلف المراسم، وابن البراج ٤٠١ - ٤٨٩ مؤلف المهذب، وغيرهم الذين ملأت أسماؤهم كتب التراجم والرجال، ومن أراد الوقوف على حياتهم وكتبهم فعليه بالرجوع إلى الموسوعات الرجالية وأخص بالذكر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة. هذا عرض موجز لمشاركة الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية على المستوى الفقهي. وبعين الله أن علماء الشيعة قاموا بهذه الجهود في ظروف قاسية ورهيبة، وكانت الحكومات ومرزقة البلاط تطاردهم وتسجنهم وتقتلهم ومع ذلك نرى هذا الانتاج العلمى الهائل في مجال الفقه. ولو وقف عليها علماء الإسلام لا ندهشوا من سعة الفكر، وعمق النظر، وغزارة الانتاج. هذا هو الشيخ الطوسي الذى ألف المبسوط فى الفقه المقارن فى ٨ أجزاء فى زمن كانت نار الحرب مشتعلة على الشيعة ولقد أحرقت داره، ومكتبته فى كرخ بغداد فالتجأ سراً إلى النجف الأشرف تاركاً بلده الذى عاش فيه قرابة نصف قرن، وأين هؤلاء من الفقهاء الذين تنعموا بالهدوء والاستقرار، واستقبلتهم السلطات الحاكمة بصدور رحب، وأجيزوا بازاء شعر أو كتيب أو رسالة صغيرة بالهبات والعطايا. ٩- قدماء الشيعة وعلم أصول الفقه:

إنَّ السَّنة النبوية بعد القرآن الكريم هي المصدر للتشريع، وقد سبق أن الخلاقه - بعد رحلة الرسول - حالت دون تحديث ما تركه بين الأمة، وكتابه وتدوينه. فلم تدوّن السنة إلى عصر أبى جعفر المنصور إلا صحائف غير منظمه ولا مرتبة إلى أن (٥٦٤) شرع علماء الإسلام فى التدوين سنة ٥٣(١). إنَّ الحيلولة بين السنة وتدوينها ونشرها أدت إلى نتائج سلبية عظيمة منها قصور ما وصل إلى الفقهاء فى ذلك العصر صحيحاً من الرسول، عن تلبية متطلباتهم فى مجال الأحكام. حتى اشتهر عن امام الحنفية أنه لم يثبت عنده من أحاديث الرسول فى مجال التشريع إلا سبعة عشر حديثاً. نحن لا نوافق مع ما حكى عن النعمان ولكن نؤكد على شىء آخر، وهو أن ما ورد فى مجموع الصحاح والمسانيد والسنن الأعم من الصحيح والضعيف فى مجال الأحكام الشرعية، لا يتجاوز ٥٠٠ حديثاً، قال السيد محمّد رشيد رضا: إنَّ أحاديث الأحكام الأصول لا تتجاوز ٥٠٠ حديثاً تمدّها أربعة آلاف فيما أذكر (٢). ويقول أيضاً فى تفسيره: يقولون إنَّ مصدر القوانين، الأمة، ونحن نقول بذلك، فى غير المنصوص فى الكتاب والسنة. كما قرره الامام الرازى والمنصوص قليل جداً (٣). وما ذكره من قضية الامداد، يوحى إلى الموقوفات عن الصحابة من دون أن يثبت صدورها عن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فهذه الموقوفات تعرب عن اجتهادات الصحابة فى المسألة. ومن المعلوم ان قول الصحابي لا يكون حجّة إلا إذا نُسب إلى الرسول. هذا وأنَّ الحافظ ابن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ جمع كل ما ورد فى

١. جلال الدين السيوطى: تاريخ الخلفاء ٢٦١.

٢. الوحي المحمّدى، الطبعة السادسة ٢١٢، نعم أنهاه ابن حجر فى كتابه «بلوغ المرام» إلى ١٥٩٦ لكن كثيراً منها لا يتضمّن حكماً شرعياً وإنما هي أحاديث أخلاقية وغيرها فلاحظ.

٣. المنار ١٨٩ / ٥. (٥٦٥)

مجال التشريع فى كتاب أسماه بلوغ المرام من أدلّة الأحكام (١) وهو كتاب صغير جداً. إنَّ افتقاد النص فى مجال التشريع الذى واجه فقهاء أهل السنة بعد رحلة الرسول، هو الذى دعاهم إلى التفحص عن حلول لهذه الأزمة حتى تسد حاجاتهم الفقهية فعكفوا على المقاييس الظنية التى ما أنزل الله بها من سلطان كالقياس، والاستقراء، والاستحسان، وسد الذرائع، وسنة الخلفاء، أو سنة الصحابة، أو رأى أهل المدينة إلى غير ذلك من القواعد وأسسوا عليها فقههم عبر قرون متتالية، وقد جاء ذلك نواة لتأسيس علم أصول الفقه بصورة مختصرة نمت ونضجت فى الأجيال. وأما الشيعة حيث إنهم لم يفتقدوا سنة الرسول بعد وفاته لوجود باب علم النبى، على - عليه السلام - والأئمة المعصومين بين ظهرانيهم فلم تكن هناك أية حاجة للعمل بتلك المقاييس وبالتالي لم يكن هناك أى دافع للاتجاه نحو أصول الفقه. نعم لَمَّا كان الإسلام ديناً عالمياً والنبى - صلى الله عليه وآله وسلم - خاتم الأنبياء، والأصول والسنن مهما كثرت لا يمكن أن تلبى بحرفيتها حاجات المسلمين إلى يوم القيامة، انبرى أئمة أهل البيت إلى املاء ضوابط وقواعد يرجع إليها الفقيه

عند فقدان النص أو اجماله أو تعارضه إلى غير ذلك من الحالات التي يواجه بها الفقيه. وتلك الأصول هي التي تشكل أساساً لعلم أصول الفقه ولقد جمعها عدّة من الأعلام في كتاب خاص أفضلها الفصول المهمّة في أصول الأئمّة للشيخ المحدث الحر العاملي المتوفّي ١١٠٤. فلو تأخّرت الشيعة في تدوين مسائل أصول الفقه فأنما لأجل ذاك الغنى الذي

١. بلوغ المرام من أدلة الأحكام، طبع مصر تحقيق محمّد حامد الفقي .

(٥٦٦)

عرفت، ومع ذلك نرى انّ لفيفاً من صحابه الأئمّة درسوا بعض مسائل أصول الفقه نظير: ١- هشام بن الحكم المتوفّي سنة ١٩٩، صنّف كتاب الألفاظ (١). ٢- يونس بن عبد الرحمان، صنّف كتاب اختلاف الحديث ومسائله. وهو مبحث تعارض الحديثين (٢). ٣- إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت ٢٣٧ - ٣١١. قال النجاشي: كان شيخ المتكلّمين من أصحابنا وذكر مصنفاته وعدّها منها كتاب الخصوص والعموم (٣) وذكره ابن النديم في فهرسته وعدّها من مصنفاته كتاب ابطال القياس. وكتاب نقض اجتهاد الرأي على ابن الراوندي (٤). ٤- أبو محمّد الحسن بن موسى النوبختي من علماء القرن الثالث له كتاب الخصوص والعموم والخبر الواحد والعمل به (٥). ٥- أبو منصور صرام النيشابوري من علماء القرن الثالث وأوائل الرابع له ابطال القياس (٦). ٦- محمّد بن أحمد بن داود بن علي المتوفّي عام ٣٦٨ قال النجاشي: شيخ

١. النجاشي: الرجال ٢ / ٣٩٨ برقم ١١٦٥ وهو مردد بين كونه كتاب لغة أو أدب، أو كونه باحثاً عن الألفاظ التي يستخدمها الفقيه في استنباط الأحكام لكون الأمر للوجوب والمرة والتكرار أو الفورية والتأخير إلى غير ذلك .

٢. الطوسي: الفهرست ٢١١ برقم ٨١٠ والنجاشي ٢ / ٤٢٠ .

٣. النجاشي: الرجال ١ / ١٢١ برقم ٦٧ .

٤. ابن النديم: الفهرست ٢٦٥ طبع مطبعة الاستقامة القاهرة .

٥. النجاشي: الرجال ١ / ١٨٠ - ١٨١ برقم ١٤٦ .

٦. الطوسي: الفهرست قسم الكنى ٣٨١ برقم ٥٨٨ . (٥٦٧)

هذه الطائفة وعالمها له كتاب الحديثين المختلفين (١). ٧- محمّد بن أحمد بن الجنيد المتوفّي سنة ٣٨١ له كتاب كشف التمويه والالتباس في ابطال القياس (٢). والطابع السائد على هذه الكتب هو دراسة بعض المسائل الأصولية كحجّية خبر الواحد، أو حل مشكلة اختلاف الحديثين أو نقد بعض الأساليب الرائجة في تلك الأجيال في استنباط الأحكام، كالتقياس وغيره ولا يصحّ عدّها كتباً أصولية بالمعنى المصطلح، نعم يمكن عدّها مرحلة أولى، ونواة بالنسبة إلى المرحلة الثانية. وأمّا المرحلة الثانية فقد امتازت، بالسعة والشمول، بادخال كثير من المسائل الأدبية والكلامية في علم أصول الفقه وأول من فتح هذا الباب على وجه الشيعة بمصراعيه: معلم الأئمّة الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣) فألّف رسالته في هذا المضمار وأدرجها تلميذه العلامة الكراچكي في كتابه كنز الفوائد (٣). وألّف بعده تلميذه الجليل علم الهدى المعروف بالسيد المرتضى كتابه القيم الذريعة إلى أصول الشريعة طبع في جزأين، وقد رأيت منها نسخة مخطوطة في مدينة قزوین جاء فيها تاريخ فراغ المؤلف منه عام ٤٠٠. الشيخ الطوسي: (٣٨٥ - ٤٦٠) ألّف عدّة أصول وطبع مرات، وعن طريق هذه الكتب، انتشرت آراء الشيعة في علم الأصول. ثم دخلت المرحلة الثالثة فقد ألّف فيها كتب منها:

١. النجاشي: الرجال ٢ / ٣٠٥ برقم ١٠٤٦ .

٢. النجاشي: الرجال ٢ / ٣٠٤ برقم ١٠٤٨ .

٣. كنز الفوائد ٢ / ١٥ - ٣٠ طبع بيروت . (٥٦٨)

١- التقريب في أصول الفقه للشيخ أبي ليلى المعروف بسلار بن عبدالعزيز الديلمي صاحب المراسم توفّي عام ٤٤٨ . ٢- غنية النزوع إلى علمي الأصول والفروع تأليف أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة المعروف بابن زهرة المتوفّي عام ٥٨٥ . ٣- المصادر تاليف

الشيخ سديد الدين الحمصي المتوفى حدود سنة ٦٠٠. هذه هي المراحل الثلاثة التي مرّ بها علم الأصول، وقد تلتها مراحل أخرى إلى أن بلغت في القرن الرابع عشر ذروتها وقمتها وبلغ أعلى مراحل كمالها، ويتّضح ذلك من ملاحظة ما ألف من عصر الأستاذ الأكبر المحقق البهبهاني (١١١٨ - ١٢٠٦) إلى يومنا، فقد راج التحقيق في المسائل الأصولية من عصره إلى عصر الشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٢ - ١٢٨١) وعصر تلميذه الشيخ محمد كاظم الخراساني (١٢٥٥ - ١٣٢٩) ففي هذه الفترة: أي القرون الثلاثة، ألف مئات الكتب والرسائل في ذاك المجال، ولا أغالي إذا قلت: أنه لم تبلغ طائفة من الطوائف الإسلامية تلك الدرجة التي وصلت إليها الشيعة في علمي الفقه والأصول من جانب كثرة الانتاج والاستيعاب ودقه النظر، شكر الله مساعيمهم. ١٠- قدماء الشيعة وعلم المغازي والسير:

مغازي النبي الأكرم جزء من تاريخ حياته وسيرته، والرسول قدوة وأسوة وفعله كقوله حجّة بلا اشكال وقد وضع بعضهم كتباً في فقه السيرة (١) فكان على المسلمين ضبط دقيقها وجليلها، وقد قاموا بذلك لولا أن الخلافة حالت دون الأمانة. ولكن قيص الله سبحانه، رجالاً في الشيعة في ذلك المجال ضبطوا سيرة الرسول

١. كزاد المعاد لابن القيم، وفقه السيرة للشيخ الغزالي المعاصر .

(٥٦٩)

ومغازيه: ١- منهم محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١): عدّه الشيخ الطوسي في رجاله (١) من أصحاب الإمام الصادق. ولأجل ولائه لأهل بيت النبوة وصفه ابن حجر في التقریب «بأنه امام المغازي، صدوق، يدلّس ورمى بالتشيع والقدرة» (٢) وفي مختصر الذهبي: أنه كان صدوقاً من بحور العلم، وعن تاريخ الياقعي عن شعبة بن الحجاج أنه قال: محمّد بن إسحاق أمير المؤمنين في الحديث، وعن الشافعي: من اراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال محمّد بن إسحاق (٣). لما كان المترجم شيعياً مجاهراً في ولائه لأهل البيت عمد ابن هشام (ت ٢١٢) بتلخيص كتابه على أساس حذف ما لا يلائم نزعتة فحذف أكثر ما له صلة بفضائل الامام علي وأهل بيته. فعلى الشيعة الغياري التفحص في مكنتات العالم وفهارسها، حتّى يعثروا على نسخة الأم، وينشروا هذا الكثر الدفين، وقد أذعن بعض المستشرقين أنه عثر على الأصل ونشره باسم سيرة ابن إسحاق، لكنّه جزء من السيرة لا كلّها. ومن حسن الحظ أنّ سيرة ابن إسحاق وإن لم تكن موجودة بصورتها لكنّها موجودة بمادتها فقد بثّها الطبرسي (٤٧٠ - ٥٤٨) في أجزاء مجمع البيان، وابن الجوزي (١٥٩٥) في المنتظم، وابن كثير في تاريخه وغيرهم، فعلى المحققين العظام، استخراج مادة السيرة عن هذه الكتب، وملخصها المعروف بالسيرة النبوية لابن هشام .

١. الطوسي: الرجال ١٨١ .

٢. ابن حجر: التقریب ٢ / ١٤٤ برقم ٤٠ .

٣. المامقاني: تنقيح المقال ٣ / ٧٩ برقم ١٠٣٨ . (٥٧٠)

٢- نعم سبق ابن إسحاق، عبيدالله بن أبي رافع من أصحاب الامام أمير المؤمنين، فقد عمل كتاباً أسماه تسمية من شهد مع أمير المؤمنين، الجمل وصفين والنهروان من الصحابة، ذكره الشيخ في الفهرس (١) لكنّه في مغازي الوصي لا النبي . ٣- كما ألف جابر الجعفي (ت ١٢٨) كتاباً في ذلك المجال: قال النجاشي: جابر عربي قديم. ثم ذكر نسبه وعدّد من كتبه: كتاب الجمل وكتاب صفين، وكتاب نهروان، وكتاب مقتل أمير المؤمنين - عليه السلام - وكتاب مقتل الحسين (٢) . ٤- وألف في ذلك المجال: أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي الذي ربّما يسكن البصرة وقد أخذ عنه أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢٠٩) وأبو عبدالله بن القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤) وأكثرها الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام، له كتاب حسن يجمع المبتدأ والمغازي والوفاء والردة (٣) . وقد جمع فيه أخبار ابتداء أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مبعثه ومغازيه ووفاته وأخبار يوم السقيفة وارتداد بعض القبائل . ٥- ومن مشاهير هذا الفن من الشيعة أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، روى عن جعفر بن محمد - عليهما السلام - . وصنّف كتاباً منها كتاب المغازي، كتاب السقيفة، كتاب الردة، كتاب فتوح الإسلام... (٤) . ٦- ومن أعلامه، نصر بن

- مزاحم (٢١٢) ألف كتباً كثيرة في ذلك
١. الطوسي: الفهرست ٢٠٢ .
 ٢. النجاشي: الرجال ١ / ٣١٣ برقم ٣٣٠ .
 ٣. النجاشي: الرجال ١ / ٨٠ برقم ٧ .
 ٤. النجاشي: الرجال ٢ / ٣٨٤ برقم ١١٤٩ . (٥٧١)
- المجال (١) . ٧- هشام بن محمد بن السائب الكلبى (٢٠٦) أعلم علماء النسب والسير والآثار، ذكره النجاشى وقال: الناسب، العالم بالأيام، المشهور بالفضل والعلم وكان يختص بمذهبا ثم ذكر كتبه (٢) . هذا عرض موجز لمن شارك المسلمين من قدماء الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية عن طريق تدوين السيرة والمغازى والمقاتل والتاريخ، وأما المتأخرون فسل عنهم ولا حرج، وراجع المعاجم: كأعيان الشيعة للسيد الأمين العاملى، والذريعة لشيخنا المجيز الطهرانى . ١١- قدماء الشيعة وعلم الرجال:
- اهتم علماء الشيعة بعد عصر التابعين بعلم الرجال، نذكر المؤلفين الأوائل: ١- عبدالله بن جبله الكنانى (٢١٩) قال النجاشى: وببيت جبله مشهور بالكوفة وكان واقفاً، وكان فقيهاً ثقة مشهوراً. له كتب، منها كتاب الرجال... (٣) . ٢- على بن الحسن بن فضال كان فقيه أصحابنا بالكوفة ووجههم وثقتهم وعارفهم بالحديث، من أصحاب الامام الهادى والعسكرى له كتب منها كتاب الرجال (٤) . وهذا المعروف بابن فضال الصغير، وأبوه الحسن هو ابن فضال الكبير وكلاهما فطحيان .
١. النجاشى: الرجال ٢ / ١٩١ - ١٩٢ برقم ٨٧٣ .
 ٢. النجاشى: الرجال ٢ / ٣٩٩ برقم ١١٦٧ .
 ٣. النجاشى: الرجال ٢ / ١٣ برقم ٥٦١ .
 ٤. النجاشى: الرجال ٢ / ٨٢ برقم ٦٧٤ . (٥٧٢)
- ٣- الحسن بن محبوب السراد (١٥٠ - ٢٢٤) الراوى عن ستين رجلاً، من أصحاب الصادق له كتاب «المشيخة» وكتاب «معرفة رواة الأخبار» (١) . ٤- أبو عمرو الكشى البصير بالأخبار والرجال، تلميذ الشيخ العياشى، وكتابه المعروف بـ «معرفة الرجال» هو الذى لخصه الشيخ الطوسى وأسماه بـ «اختيار معرفة الرجال» وهو الموجود فى الاعصار الأخيرة . ٥- الشيخ أبو العباس أحمد بن على النجاشى (٣٧٢ - ٤٥٠) من نقاد هذا الفن ومن أجلائه وأعيانه حاز قصب السبق فى ميدان علم الرجال، له كتاب فهرس مصنفى الشيعة المعروف برجال النجاشى وقد طبع أخيراً محققاً فى مؤسستنا «الامام الصادق - عليه السلام -» . ٦- والشيخ الطوسى (٣٨٥ - ٤٦٠) الغنى عن التعريف عمل كتابين أحدهما الفهرست والآخر الرجال ويعدان من أمهات الكتب الرجالية، وتوالى التأليف فى علم الرجال وأخيه علم الدراية إلى عصرنا هذا، وقد أنهى الشيخ الطهرانى المؤلفين من الشيعة فى علم الرجال فبلغ قرابة خمسمائة مؤلف شكر الله مساعى الجميع . هذا عرض موجز من مشاركة علماء الشيعة فى بناء الحضارة الإسلامية عن طريق تأسيس العلوم واكمالها وتطويرها، وأنت إذا وقفت على جهودهم الجيارة فى القرون الأولى وما بعدها إلى عصرنا الحاضر، تقف على طائفة كبيرة من عمالقة العلم وجهابذة الفضل، كرسوا حياتهم الثمينه فى ارساء صرح الحضارة الإسلامية ورفع قواعدها فأخلدوا لأنفسهم صحائف بيضاء ولصالح أمتهم حضارة انسانية، كل ذلك فى ظروف قاسية وسلطات شديدة الكلب، وأضغان محتدمة، إلا فى فترات
١. الطوسي: الفهرست ٧١، برقم ١٦٢، ابن شهر آشوب: معالم العلماء ٣٣٣ برقم ١٨٢، الطهرانى: مصفى المقال ١٢٨ . (٥٧٣)

يسيرة . ١٢- قدماء الشيعة والعلوم العقلية:

جاء الإسلام ليحرر عقل الإنسان وتفكيره من الأغلال المتركمة الموروثة التى خلقتها له الأجيال الماضية وهو يخاطب العقل ويدعوه إلى التأمل والتفكير، ويخاطب القلب والضمير بما حوله من الأدلة الناطقة، ويكفيك أن الذكر الحكيم استعمل مادة «العقل» بمختلف

صورها ٤٧ مرة، و «التفكير» ١٨ مرة و«اللب» ١٦ مرة، و «التدبر» ٤ مرات و «النهى» مرتين. فبذلك نهى عن التقليد وحث على التعقل ببيانات مختلفة. فتارة فتح عيون الإنسان إلى الكائنات لما فيها من دلائل ناطقة على وجوده سبحانه وصفاته. قال سبحانه: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (١). وأخرى دعاه إلى التفكير والاستدلال المنطقي، فقال سبحانه: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يوقِنُونَ) (٢). فعالج المشاكل العلمية والفلسفية تارة بالدعوة إلى النظر في الكون نظرة فاحصة، وأخرى بالحث على التفكير في المعارف بأسلوب منطقي وبرهاني، وبذلك أيقظ عقول المسلمين وبعثهم إلى اعمال الحس والتعقل وأعطى لكل قدره

١. النازعات / ٢٧ - ٣٣ .

٢. الطور / ٣٥ - ٣٦ . (٥٧٤)

وقيمته غير أن المسلمين سوى قليل منهم تنكبوا عن هذا الطريق، خصوصاً في ما يرجع إلى المعارف العليا، فصاروا بين مشبهه ومعطل، فالبسطاء منهم بنوا عقائدهم على الجمود بالمفردات الواردة في الكتاب والسنة، وبذلك استغنوا عن أي تعقل وتفكير، إلى أن بلغت جرأتهم إلى حد قال بعضهم في الخالق: اعفوني عن الفرج واللحية وأسألوني عما وراء ذلك (١)، فهؤلاء هم المجسمه والمشبهه، وأما غيرهم فاختاروا تعطيل العقول عن التفكير في الله سبحانه، فقالوا: أعطينا العقل لاقامة العبودية لا لادراك الربوبية، فمن شغل ما أعطى لاقامة العبودية بادراك الربوبية فاتته العبودية، ولم يدرك الربوبية (٢). فالأكثرية الساحقة في القرون الأولى كانوا بين مشبهه ومعطل، غير أنه سبحانه شملت عنايته أمة من المسلمين رفضوا التشبيه والتعطيل، وسلكوا طريقاً ثالثاً، وقالوا بأنه يمكن للإنسان التعرف على ما وراء الطبيعة بما فيها من الجمال والكمال عن طريقين: ١- النظره الفاحصة إلى عالم الوجود وجمال الطبيعة كما وردت في القرآن الكريم. ٢- ترتيب الأقيسه المنطقية للوصول إلى الحقائق العليا، وهذا هو الخط الذي رسمه القرآن الكريم، ومشى على هذا الخط أئمة أهل البيت - عليهم السلام - من أولهم إلى آخرهم. ترى ذلك في كلام الامام علي - عليه السلام - بوضوح، في أحاديثه وخطبه، ورسائله وكلمه ولا يمكن لنا نقل معشار منه، ونكتفي بحديث واحد .

١. الشهرستاني: الملل والنحل / ١ / ١٠٥ ط دار المعرفة لبنان .

٢. علاقة الاثبات والتفويض نقلا عن الحجته في بيان المحجته ٣٣ . (٥٧٥)

سأله سائل: هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضه من غير أن يصغر الدنيا أو يكبر البيضة؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز والذى سألتني لا يكون (١). إن خطب الامام - عليه السلام - ورسائله وقصار حكمه صار هو الحجر الأساس لكلام الشيعة وآرائهم في العقائد والمعارف، ولم يقف نشاط الشيعة في ذلك المجال، بل جاءت الأئمة بعد الامام، ففتحوا عقول شيعتهم بالدعوة إلى التدبر والتفكير في المعارف، حتى تربى في مدرستهم عمالقة الفكر من عصر سيد الساجدين إلى عصر الامام العسكري، تجد أسماءهم وتآليفهم وافكارهم في المعاجم وكتب الرجال، وقد نبغ في عصر أئمة أهل البيت مفكرون بارزون افادوا الأجيال من بعدهم، نأتى بأسماء البارزين بعد استفحال علم الكلام في أوائل القرن الثاني . متكلموا الشيعة في القرن الثاني:

١- زرارة بن أعين بن شيشن: مولى (بنى عبدالله بن عمرو السمين بن اسعد بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان)، أبو الحسن. شيخ أصحابنا في زمانه، ومتقدمهم، وكان قارئاً، فقيهاً، متكلماً، شاعراً، أديباً، قد اجتمعت فيه خصال الفضل والدين، صادقاً في ما يرويه. قال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه: رأيت له كتاباً في الاستطاعة والجبر (٢) وقال ابن النديم: وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً

١. الصدوق: التوحيد ١٣٠ باب «القدرة» برقم ٩ .

٢. النجاشي: الرجال ١ / ٣٩٧ برقم ٤٦١، الطوسي الفهرست برقم ٣١٤، الكشي: الرجال برقم ٦٢، الذهبي: ميزان الاعتدال ٢ برقم ٢٨٥٣

(٥٧٦) .

ومعرفة بالكلام والتشيع (١) وهو من الشخصيات البارزة للشيعة التي اجتمعت العصابة على تصديقهم، وهو غني عن التعريف والتوصيف . ٢- محمّد بن علي بن النعمان بن أبي طريفه البجلي: مولى الأحوّل «أبو جعفر»، كوفي، صيرفي يلقب بـ «مؤمن الطاق» و «صاحب الطاق»، ويلقبه المخالفون بـ «شيطان الطاق»... وكان دكانه في طاق المحامل، بالكوفة، فيرجع إليه في النقد فيردّ رداً فيخرج كما يقول، فيقال «شيطان الطاق». أما منزلته في العلم وحسن الخاطر، فاشهر وقد نسب إليه أشياء لم تثبت عندنا. وله كتاب «افعل لا تفعل» رأيت عند أحمد بن الحسين بن عبيدالله رحمه الله، كتاب حسن كبير، وقد أدخل فيه بعض المتأخرين أحاديث تدل فيه على فساد، ويذكر تباين أقاويل الصحابة. وله كتاب «الاحتجاج في إمامة أمير المؤمنين - عليه السلام -» وكتاب كلامه على الخوارج، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة والمرجئة... (٢) فقد توفي الامام الصادق عام ١٤٨، وأبو حنيفة عام ١٥٠، فالرجل من متكلمي القرن الثاني . وقال ابن النديم وكان متكلماً حاذقاً وله من الكتب كتاب الامامة، كتاب المعرفة، كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضل، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة (٣) . ٣- هشام بن الحكم: قال ابن النديم: هو من متكلمي الشيعة الإمامية وبطانتهم، وممن دعا له الصادق - عليه السلام - ، فقال: أقول لك ما قال رسول الله لحسان: لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك. وهو الذي فتق الكلام في

١ . ابن النديم: الفهرست ٣٢٣ .

٢ . النجاشي: الرجال ٢ / ٢٠٣ برقم ٨٨٧، الطوسي: الرجال أصحاب الكاظم برقم ١٨ والفهرست للطوسي برقم ٥٩٤، الكشي: الرجال برقم ٧٧ .

٣ . ابن النديم: الفهرست ٢٦٤ وأيضاً ٢٥٨ . (٥٧٧)

الإمامة وهذب المذهب وسهّل طريق الحجاج فيه، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب (١) . يقول الشهرستاني: وهذا هشام بن الحكم، صاحب غور في الأصول، لا ينبغي أن يغفل عن الزماتة على المعتزلة، فإن الرجل وراء ما يلزم به على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه، وذلك أنه ألزم الغلاة... (٢) . وقال النجاشي: هشام بن الحكم أبو محمّد مولى كنده، وكان ينزل بني شيان بالكوفة، انتقل إلى بغداد سنة ١٩٩، ويقال أنّ في هذه السنة مات. له كتاب يرويه جماعة. ثم ذكر أسماء كتبه على النحو التالي: ١- علل التحريم، ٢- الفرائض، ٣- الإمامة، ٤- الدلالة على حدوث الأجسام، ٥- الرد على الزنادقة، ٦- الرد على أصحاب الاثنين، ٧- التوحيد، ٨- الرد على هشام الجواليقي، ٩- الرد على أصحاب الطبائع، ١٠- الشيخ والغلام في التوحيد، ١١- التدبير في الإمامة، ١٢- الميزان، ١٣- الإمامة المفضولة، ١٤- الوصية والرد على منكريها، ١٥- الميدان، ١٦- اختلاف الناس في الإمامة، ١٧- الجبر والقدر، ١٨- الحكمين، ١٩- الرد على المعتزلة وطلحة والزبير، ٢٠- القدر، ٢١- الألفاظ، ٢٢- الاستطاعة، ٢٣- المعرفة، ٢٤- الثمانية أبواب، ٢٥- على شيطان الطاق، ٢٦- الاخبار، ٢٧- الرد على المعتزلة، ٢٨- الرد على ارسطاطاليس في التوحيد، ٢٩- المجالس في التوحيد، ٣٠- المجالس في الإمامة (٣) .

١ . ابن النديم: الفهرست ٢٥٧ .

٢ . الشهرستاني: الملل والنحل ١ / ١٨٥ .

٣ . النجاشي: الرجال ٢ / ٣٩٧ برقم ١١٦٥ . (٥٧٨)

يقول أحمد أمين: أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان جداً قويّ الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة تدل على حضور بديهته وقوة حججه . إنّ الرجال كان في بداية أمره من تلاميذ أبي الشاكر الديصاني، صاحب النزعة اللاحادية في الإسلام ثم تبع الجهم بن صفوان، الجبري المتطرف المقتول بترمز عام ١٢٨ هـ، ثم لحق بالإمام الصادق - عليه السلام - ودان بمذهب الإمامية، وما تنقل منه من الآراء التي لا توافق أصول الامامية، فأنما هي راجعة إلى العصرين اللذين كان فيهما على

النزعة الالحادية أو الجهمية، وأما بعد ما لحق بالإمام الصادق - عليه السلام - فقد انطبعت عقلية بمعارف أهل البيت إلى حد كبير، حتى صادر أحد المناضلين عن عقائد الشيعة الامامية (١). ٤- قيس الماصر: أحد أعلام المتكلمين، تعلم الكلام من علي بن الحسين - عليه السلام - روى الكليني أنه أتى شامى إلى أبي عبدالله الصادق لينظر أصحابه، فقال - عليه السلام - ليونس بن يعقوب: أنظر من ترى بالباب من المتكلمين... إلى أن قال يونس: فأدخلت زرارة بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحوال وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن الحكم وهو يحسن الكلام، وأدخلت قيس الماصر وكان عندي أحسنهم كلاماً وقد تعلم الكلام من علي بن الحسين - عليهما السلام - (٢). ٥- عيسى بن روضة، حاجب المنصور: كان متكلماً، جيد الكلام، وله _____

١. إن للعلامة الحجة الشيخ عبدالله نعمه كتاباً في حياة هشام بن الحكم، فقد أغرق نزاعاً في التحقيق وأغنانا عن كل بحث وتنقيب .
٢. الكليني الكافي ١ / ١٧١ . (٥٧٩)

كتاب في الإمامة. وقد وصفه أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد، وذكر أنه رأى الكتاب. وقال بعض أصحابنا رحمهم الله: أنه رأى هذا الكتاب. وقرأت في بعض الكتب: أن المنصور لما كان بالحيرة، تسمع على عيسى بن روضة، وكان مولاه، وهو يتكلم في الإمامة فأعجب به واستجاد كلامه (١) وبما أن المنصور توفي عام ١٥٨، فالرجل من متكلمي القرن الثاني . ٦- الضحاك، أبو مالك الحضرمي: كوفي، عربي، أدرك أبا عبدالله - عليه السلام - وقال قوم من أصحابنا: روى عنه وقال آخرون: لم يرو عنه. وروى عن أبي الحسن، وكان متكلماً ثقة في الحديث. وله كتاب: في التوحيد، رواية على بن الحسن الطاطري (٢) فالرجل من متكلمي القرن الثاني. وقال ابن النديم: من متكلمي الشيعة وله مع أبي علي الجبائي مجلس في الإمامة وتشبثها بحضرة أبي محمد القاسم بن محمد الكوفي وله من الكتب كتاب الإمامة، نقض الإمامة على أبي علي ولم يتمه (٣). ٧- علي بن الحسن بن محمد الطائي: المعروف بـ «الطاطري» كان فقيهاً ثقة في حديثه له كتب منها: التوحيد، الامامة، الفطرة، المعرفة، الولاية (٤) وغيرها وعده ابن النديم من متكلمي الامامية وقال: ومن القدماء: الطاطري وكان شيعياً واسمه... وتنفق في التشيع وله من الكتب كتاب الإمامة حسن (٥) وبما أنه من أصحاب الإمام الكاظم فهو من متكلمي القرن الثاني . _____

١. النجاشي: الرجال ٢ / ١٤٥ برقم ٧٩٤ .
٢. النجاشي: الرجال ١ / ٤٥١ برقم ٥٤٤ .
٣. ابن النديم: الفهرست ٢٦٦ .
٤. النجاشي: الرجال ٢ / ٧٧ برقم ٦٦٥ .
٥. ابن النديم: الفهرست ٢٦٦ . (٥٨٠)
- ٨- الحسن بن علي بن يقطين بن موسى: مولى بني هاشم، وقيل مولى بني أسد، كان فقيهاً متكلماً روى عن أبي الحسن والرضا - عليهما السلام -، وله كتاب مسائل أبي الحسن موسى - عليه السلام - (١) وبما أن أبا الحسن الأول توفي عام ١٨٣، والثاني توفي عام ٢٠٣، فالرجل من متكلمي القرن الثاني وأوائل الثالث، وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الرضا (٢) وهو المذنب سأل الإمام الرضا - عليه السلام - بأنه لا يقدر على لقائه في كل وقت فعمّن يأخذ معالم دينه؟ فأجاب الامام - عليه السلام - خذ عن يونس بن عبدالرحمان (٣). ٩- حديد بن حكيم: أبو علي الأزدي المدائني، ثقة، وجه، متكلم، روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن - عليهما السلام - له كتاب يرويه محمد بن خالد (٤) وبما أنه من تلاميذ الصادق والكاظم - عليهما السلام - فالرجل من متكلمي الشيعة في القرن الثاني . ١٠- فضال بن الحسن بن فضال: وهو من متكلمي عصر الصادق - عليه السلام - وذكره الطبرسي في احتجاجه ومناظرته مع أبي حنيفة فلاحظ (٥). وما ذكرناه نماذج من مشاهير المتكلمين في عصر الصادق والكاظم، وهناك من لم نذكرهم ولهم مناظرات واحتجاجات احتفلت بهم الكتب التاريخية والكلامية كحمران بن أعين الشيباني، وهشام بن سالم الجواليقي، والسيد الحميري، والكميت الاسدي (٦) . _____

- ١ . النجاشي: الرجال ١ / ١٤٨ برقم ٩ .
 - ٢ . الشيخ الطوسي: الرجال برقم ٧ .
 - ٣ . النجاشي: الرجال ٢ / ٤٢١ برقم ١٢٠٩ .
 - ٤ . النجاشي: الرجال ١ / ٣٧٧ برقم ٣٨٣، وذكره الخطيب في تاريخه ج ٨ برقم ٤٣٧٧ .
 - ٥ . التستري: قاموس الرجال ٤ / ٣١٣ .
 - ٦ . لاحظ أعيان الشيعة ١ / ١٣٤ - ١٣٥ .
- (٥٨١) متكلموا الشيعة في القرن الثالث:

١- الفضل بن شاذان بن الخليل أبو محمد الأزدي النيشابوري: كان أبوه من أصحاب يونس، وروى عن أبي جعفر الثاني وقيل الرضا - عليهما السلام - وكان ثقةً، أحد اصحابنا الفقهاء، والمتكلمين، وله جلاله في هذه الطائفة وهو في قدره أشهر من أن نصفه وذكر الكنجي أنه صنف مائة وثمانين كتاباً . وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الهادي والعسكري، وقد توفي عام ٢٦٠ فهو من متكلمي القرن الثالث. وقد ذكر النجاشي فهرس كتبه نقبتس منه ما يلي: كتاب النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، كتاب الوعيد، كتاب الرد على أهل التعطيل، كتاب الاستطاعة، كتاب مسائل في العلم، كتاب الاعراض والجواهر، كتاب العلل، كتاب الايمان، كتاب الرد على الثنوية، كتاب اثبات الرجعة، كتاب الرد على الغالية المحمدية، كتاب تبيان اصل الضلالة، كتاب الرد على محمد بن كرام، كتاب التوحيد في كتب الله، كتاب الرد على أحمد بن الحسين، كتاب الرد على الأصم، كتاب في الوعد والوعيد آخر، كتاب الرد على بيان ايمان ابن رباب (الخارجي)، كتاب الرد على الفلاسفة، كتاب محنة الإسلام، كتاب الأربع مسائل في الامامة، كتاب الرد على المنيانية، كتاب الرد على المرجئة، كتاب الرد على القرامطة، كتاب الرد على البائسة، كتاب اللطيف، كتاب القائم عليه السلام، كتاب الإمامة الكبير، كتاب حذو النعل بالنعل، كتاب فضل أمير المؤمنين - عليه السلام -، كتاب معرفة الهدى (٥٨٢)

والضلالة، كتاب التعري والحاصل، كتاب الخصال في الإمامة، كتاب المعيار والموازنة، كتاب الرد على الحشوية، كتاب الرد على الحسن البصري في التفضيل، كتاب النسبة بين الجبرية والبترية (١) . ٢- حكم بن هشام بن الحكم: أبو محمّد، مولى كنده، سكن البصرة، وكان مشهوراً بالكلام، كلّم الناس، وحكى عنه مجالس كثيرة، ذكر بعض أصحابنا أنه رأى له كتاباً في الامامة (٢) وقد توفي والده ٢٠٠ أو ١٩٩، فهو من متكلمي أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث . ٣- داود بن أسد بن أعفر: أبو الأحوص البصري - رحمه الله - شيخ جليل، فقيه متكلم من أصحاب الحديث ثقة ثقة، وأبوه من شيوخ أصحاب الحديث الثقات، له كتب منها، كتاب في الإمامة على سائر من خالفه من الأمم، والآخ مجرد الدلائل والبراهين (٣). وذكره الشيخ الطوسي في الفهرست في باب الكنى وقال: أنه من جملة متكلمي الإمامية، لقيه الحسن بن موسى النوبختي، وأخذ عنه، واجتمع معه في الحائر على ساكنه السلام، وكان ورد للزيارة (٤). فيما أنه من مشايخ الحسن بن موسى النوبختي المعاصر للجبائي (ت ٣٠٣) فهو من متكلمي القرن الثالث المعاصر . ٤- محمد بن عبد الله بن مملك الاصبهاني: أصله جرجان، وسكن اصبهان، جليل في أصحابنا، عظيم القدر والمنزلة كان معتزلاً ورجع على يد عبدالرحمان بن أحمد بن جبرويه - رحمه الله - . له كتب منها، كتاب الجامع في سائر أبواب الكلام كبير، وكتاب المسائل والجوابات في الإمامة، كتاب مواليد الأئمة

١ . النجاشي: الرجال ٢ / ١٦٨ برقم ٨٣٨، والطوسي: الرجال برقم ١ و ٢ في أصحاب الهادي والعسكري - عليهما السلام -، والكشي: الرجال برقم ٤١٦ .

٢ . النجاشي: الرجال ١ / ٣٢٨ برقم ٣٤٩ .

٣ . النجاشي: الرجال ١ / ٣٦٤ برقم ٤١٢ .

٤ . الطوسي: الفهرست ٢٢١ برقم ٨٧٥ . (٥٨٣) - عليهم السلام -، كتاب مجالسه مع أبي علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣) (١) .

٥- ثبت بن محمد، أبو محمد العسكري: صاحب أبي عيسى الوراق (محمد بن هارون) متكلم حاذق، من أصحابنا العسكريين، وكان أيضاً له اطلاع بالحديث والرواية، والفقهاء. له كتب، منها: ١- كتاب توليدات بنى أمية في الحديث وذكر الأحاديث الموضوعية. ٢- الكتاب الذي يعزى إلى أبي عيسى الوراق في نقض العثمانية له. ٣- كتاب الأسفار. ٤- دلائل الأئمة - عليهم السلام - (٢). وبما أنه من أصحاب أبي عيسى الوراق، وقد توفى هو في ٢٤٧، فالرجل من متكلمي القرن الثالث. ٦- إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن هلال المخزومي: أبو محمد، أحد أصحابنا، ثقة فيما يرويه، قدم العراق، وسمع أصحابنا منه، مثل أيوب بن نوح، والحسن بن معاوية، ومحمد بن الحسين، وعلي بن الحسن بن فضال، له كتاب التوحيد، كتاب المعرفة، كتاب الإمامة. وبما أن الراوي عنه كعلي بن الحسن بن فضال من أصحاب الهادي والعسكري - عليهما السلام - وقد توفى الامام العسكري عام ٢٦٠، فهو في رتبة الحسن بن علي بن فضال، الذي هو من أصحاب الإمام الرضا - عليه السلام - فيكون من متكلمي القرن الثالث (٣).

١. النجاشي: الرجال ٢ / ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.

٢. النجاشي: الرجال ١ / ٢٩٣ برقم ٢٩٨، وثبت على وزان زبير.

٣. النجاشي: الرجال ١ / ١٢٠ برقم ٦٦. (٥٨٤)

٧- محمد بن هارون: أبو عيسى الوراق: له كتاب الإمامة، وكتاب السقيفة، وكتاب الحكم على سورة لم تكن وكتاب اختلاف الشيعة والمقالات. قال ابن حجر: له تصانيف على مذهب المعتزلة، وقال المسعودي له مصنفات حسان في الإمامة وغيرها وكانت وفاته سنة ٢٤٧ (١). ٨- إبراهيم بن سليمان بن أبي داحه المزني: مولى آل طلحة بن عبيدالله، «أبو إسحاق»، وكان وجه أصحابنا البصريين في الفقه والكلام والأدب والشعر. والجاحظ يحكى عنه، وقال الجاحظ: «حدثني إبراهيم ابن داحه، عن محمد بن أبي عمير» (٢). وبما أن أستاذه ابن أبي عمير توفى عام ٢١٧، والجاحظ، الراوي عنه توفى عام ٢٥٥، فهو من متكلمي القرن الثالث يروي عنه الجاحظ في البيان والتبيين (٣). ٩- الشكّال: قال ابن النديم: صاحب هشام بن الحكم وخالفه في اشيء إلا في اصل الإمامة وله من الكتب كتاب المعرفة، كتاب في الاستطاعة، كتاب الامامة، كتاب علي من أبي وجوب الإمامة بالنص (٤) وبما أن هشاماً توفى عام ١٩٩، فالرجل من متكلمي أوائل القرن الثالث. ١٠- الحسين بن اشكيب: شيخ لنا، ثقة مقدم، ذكره أبو عمرو في كتاب الرجال في أصحاب أبي الحسن، صاحب العسكر - عليه السلام - ووصفه بأنه عالم متكلم مؤلف للكتب، المقيم بسمرقند وكش. له من الكتب، كتاب الرد على من

١. النجاشي: الرجال ٢ / ٢٨٠ برقم ١٠١٧، ابن حجر: لسان الميزان ج ٥ برقم ١٣٦٠، المحقق الداماد: الرواشح السماوية ٥٥ ومر ذكره في ترجمته تثبت وما في كلام ابن حجر من عده من المعتزلة، ناشئ عن الخلط بين المعتزلة والامامية.

٢. النجاشي: الرجال ١ / ٨٧ برقم ١٣، و ٢ / ٢٠٥ برقم ٨٨٨.

٣. البيان والتبيين ١ / ٦١.

٤. ابن النديم: الفهرست ٢٦٤. (٥٨٥)

زعم أن النبي كان على دين قومه، والرد على الزيدية، وبما أنه من أصحاب أبي الحسن المتوفى عام ٢٦٠، فهو من متكلمي القرن الثالث (١). وعده الشيخ في رجاله من أصحابه الامام الهادي - عليه السلام - (٢). ١١- عبدالرحمان بن أحمد بن جبرويه، أبو محمد العسكري: متكلم من أصحابنا، حسن التصنيف، جيد الكلام، وعلي يده رجح محمد بن عبدالله بن مملك الاصبهاني عن مذهب المعتزلة إلى القول بالإمامة، وقد كَلَّم عباد بن سليمان، ومن كان في طبقتة، وقع إلينا من كتبه: كتاب الكامل في الإمامة، كتاب حسن (٣). وبما أن محمد بن عبدالله معاصر للجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣) وله مجالس معه (٤) فالرجل من متكلمي القرن الثالث، ولعله أدرك أوائل القرن الرابع. ١٢- علي بن منصور، أبو الحسن: كوفي سكن بغداد، متكلم، من أصحاب هشام، له كتب، منها كتاب التدبير في التوحيد والإمامة (٥). وقال النجاشي في ترجمته هشام بن الحكم: كتاب التدبير في الإمامة، وهو جمع على بن منصور من

كلامه (٦) وبما أن هشام توفي عام ١٩٩، فالرجل من متكلمي القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث . ١٣- علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار: أبو الحسن مولى بنى أسد، كوفى، سكن البصرة، وكان من وجوه المتكلمين من أصحابنا، _____

١ . النجاشي: الرجال ١ / ١٤٦ برقم ٨٧ .

٢ . الشيخ الطوسي: الرجال برقم ١٨ .

٣ . النجاشي: الرجال ٢ / ٤٧ برقم ٦٢٣ .

٤ . النجاشي: الرجال ٢ / ٢٩٧ برقم ١٠٣٤ .

٥ . النجاشي: الرجال ٢ / ٧١ برقم ٦٥٦ .

٦ . النجاشي: الرجال ٢ / ٣٩٧ برقم ١١٦٥ . (٥٨٦)

كلم أبا الهذيل (١٣٥ - ٢٣٥) والنظام (١٦٠ - ٢٣١) له مجالس وكتب منها كتاب الإمامة، كتاب مجالس هشام بن الحكم وكتاب المتعة (١). وعده الشيخ في رجاله من أصحاب الرضا برقم ٥٢ فهو من متكلمي القرن الثاني. وقال ابن النديم: أول من تكلم في مذهب الإمامة علي بن إسماعيل بن ميثم التمار، وميثم (جده) من أجله أصحاب علي - رضی الله عنه - ولعلي من الكتب كتاب الإمامة، كتاب الاستحقاق (٢). متكلموا الشيعة في القرن الرابع:

١- الحسن بن علي بن أبي عقيل: أبو محمّد العماني الحذاء، فقيه متكلم ثقة، له كتب في الفقه والكلام، منها كتاب المتمسك بحبل الرسول. قال النجاشي: وقرأت كتابه المسمّى: الكثر والفز، على شيخنا أبي عبدالله المفيد - رحمهم الله - وهو كتاب في الإمامة، مليح الوضع . وذكره الشيخ في الفهرست والرجال (٣)، وبما أنه من مشايخ أبي القاسم جعفر ابن محمّد المتوفى عام ٣٦٨ فالرجل من أعيان القرن الرابع، المعاصر للكيني، المتوفى عام ٣٢٩ . ٢- إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت: كان شيخ المتكلمين من أصحابنا وغيرهم، له جلاله في الدنيا والدين، يجرى مجرى الوزراء في جلاله الكتاب، صنف كتباً كثيرة، منها كتاب الاستيفاء في الإمامة، التنبيه في الإمامة. قال النجاشي: قرأته على شيخنا أبي عبدالله (المفيد) - رحمهم الله - ، _____

١ . النجاشي: الرجال ٢ / ٧٢ برقم ٦٥٩ .

٢ . ابن النديم: الفهرست ٢٦٣ .

٣ . النجاشي: الرجال ١ / ١٥٣ برقم ٩٩ ولاحظ فهرست الشيخ رقم ٢٠٤، ورجاله في باب من لم يرو عنهم برقم ٥٣ . (٥٨٧)

كتاب الجمل في الإمامة، كتاب الرد على محمّد بن الأزهر في الإمامة، كتاب الرد على اليهود، كتاب في الصفات للرد على أبي العتاهية (١٣٠ - ٢١١) في التوحيد في شعره، كتاب الخصوص والعموم والأسماء والأحكام، كتاب الإنسان والرد على ابن الراوندي، كتاب التوحيد كتاب الارزاء، كتاب النفي والاثبات، مجالسه مع أبي علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣) بالأهواز، كتاب في استحالة رؤية القديم، كتاب الرد على المجبرة في المخلوق، مجالس ثابت بن أبي قره (٢٢١ - ٢٨٨)، كتاب النقض على عيسى بن أبان في الاجتهاد، نقض مسألة أبي عيسى الوراق في قدم الاجسام، كتاب الإحتجاج لنبوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، كتاب حدوث العالم (١) . وقال ابن النديم أبو سهل: إسماعيل بن علي بن نوبخت من كبار الشيعة وكان أبو الحسن الناشئ يقول إنه أستاذه وكان فاضلاً، عالماً، متكلماً، وله مجالس بحضرة جماعة من المتكلمين... وذكر فهرس كتبه (٢) . ٣- الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه (أخو الصدوق) القمي أبو عبدالله، ثقة روى عن أبيه اجازة، وله كتب منها: ١- كتاب التوحيد ونفى التشبيه . ٢- كتاب عمله للصاحب أبي القاسم بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٥) وقد توفي أخوه عام ٣٨١ فهو من أعيان القرن الرابع، وهو وأخوه ولدا بدعوة صاحب الأمر - عليه السلام - ، ترجمه ابن حجر في لسان الميزان (٣) . _____

١ . النجاشي: الرجال ١ / ١٢١ برقم ٦٧ (وهو خال الحسن بن موسى مؤلف فرق الشيعة) .

٢ . ابن النديم: الفهرست ٢٦٥ .

٣. النجاشي: الرجال ١ / ١٨٩ برقم ١٦١، ابن حجر: لسان الميزان ٢ / ٣٠٦ برقم ١٢٦٠. (٥٨٨)

٤- محمد بن بشر الحمدوني «أبو الحسين السوسنجردى»: متكلم جيد الكلام، صحيح الاعتقاد، كان يقول بالوعيد، له كتب، منها كتاب المقنع في الإمامة، كتاب المنقذ في الإمامة (١) وقال ابن النديم: السوسنجردى من غلمان أبي سهل النوبختي. ويكنى أبا الحسن، ويعرف بالحمدوني منسوباً إلى آل حمدون، وله من الكتب كتاب الانقاذ في الامامة (٢) وقال ابن حجر: كان زاهداً ورعاً متكلماً، على مذهب الإمامية وله مصنفات في نصره مذهبه (٣). ٥- يحيى أبو محمد العلوى من بنى زبارة: علوى، سيد، متكلم، فقيه، من أهل نيشابور. قال الشيخ الطوسى: جليل القدر، عظيم الرياسة، متكلم، حاذق، زاهد، ورع، لقيت جماعة ممن لقوه وقرأوا عليه، له كتاب ابطال القياس، وكتاب في التوحيد (٤)، وعلى هذا فالرجل في درجة شيخ مشايخ الطوسى، فهو من متكلمى القرن الرابع. ٦- محمد بن القاسم، أبوبكر، بغدادى: متكلم عاصر بن همام، له كتاب في الغيبة، كلام (٥). وابن همام هو محمد بن أبي بكر بن سهيل الكاتب الاسكافى الذى ترجم له النجاشى فى رجاله برقم ١٠٣٣ وذكره الخطيب فى تاريخه ٣ / ٣٦٥ وقال أحد شيوخ الشيعة، ولد عام ٢٥٨ وتوفى عام ٣٣٨ وعلى هذا فالمرجع من متكلمى أوائل القرن الرابع.

١. النجاشى: الرجال ٢ / ٢٩٨ برقم ١٠٣٧.

٢. ابن حجر: لسان الميزان ٥ / ٩٣ برقم ٣٠٤.

٣. ابن النديم: الفهرست ٢٦٦.

٤. النجاشى: الرجال ٢ / ٤١٣ برقم ١١٩٢، وقد جاءت ترجمته أيضاً برقم ١١٩٥، الشيخ الطوسى: الفهرست برقم ٨٠٣.

٥. النجاشى: الرجال ٢ / ٢٩٨ برقم ١٠٣٦. (٥٨٩)

٧- محمد بن عبد الملك بن محمد التبان: يكنى أبا عبدالله، كان معتزلاً، ثم أظهر الانتقال، ولم يكن ساكناً، له كتاب فى تكليف من علم الله أنه يكفر، وله كتاب فى المعدوم، ومات لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٩ (١). ٨- محمد بن عبدالرحمان بن قبة الرازى أبو جعفر: متكلم، عظيم القدر حسن العقيدة، قوى فى الكلام، كان قديماً من المعتزلة، وتبصر وانتقل، له كتب فى الكلام، وقد سمع الحديث، وأخذ عنه ابن بطه وذكره فى فهرسته الذى يذكر فيه من سمع منه فقال: وسمعت من محمد بن عبدالرحمان بن قبة. له كتاب الانصاف فى الامامة، وكتاب المستثبت نقض كتاب أبى القاسم البلخى (ت ٣١٩)، وكتاب الرد على الزيدية، وكتاب الرد على ابى على الجبائى، المسألة المفردة فى الامامة. قال النجاشى: سمعت أبا الحسين السوسنجردى - رحمه الله - وكان من عيون أصحابنا وصالحهم المتكلمين، وله كتاب فى الإمامة معروف به، وقد كان حج على قدميه خمسين حجة يقول: مضيت إلى أبى القاسم البلخى إلى بلخ بعد زيارتى الرضا - عليه السلام - بطوس فسلمت عليه وكان عارفاً بى ومعنى كتاب أبى جعفر بن قبة فى الإمامة المعروف بالانصاف، فوقف عليه، ونقضه بالمسترشد فى الإمامة فعدت إلى الرى، فدفع الكتاب إلى ابن قبة فنقضه بالمستثبت فى الامامة، فحملته إلى أبى القاسم فنقضه بنقض المستثبت، فعدت إلى الرى فوجدت أبا جعفر قدماء - رحمه الله - (٢). وقال ابن النديم: أبو جعفر بن محمد بن قبة من متكلمى الشيعة وحدائقهم

١. النجاشى: الرجال ٢ / ٣٣٣ برقم ١٠٧٠.

٢. النجاشى: الرجال ٢ / ٢٨٨ برقم ١٠٢٤. (٥٩٠)

وله من الكتب: كتاب الانصاف فى الإمامة، كتاب الإمامة (١). وقال العلامة: وكان حاذقاً شيخ الإمامية فى عصره (٢). ٩- على بن وصيف، أبو الحسن الناشى: (٢٧١ - ٣٦٥) الشاعر المتكلم، ذكر شيخنا - رضى الله عنه - ان له كتاباً فى الإمامة (٣). قال الطوسى: وكان شاعراً مجوداً فى أهل البيت - عليهم السلام - ومتكلماً بارعاً وله كتب (٤). قال ابن خلكان: من الشعراء المحبين وله فى أهل البيت قصائد كثيرة، وكان متكلماً بارعاً، أخذ علم الكلام عن أبى سهل إسماعيل بن على بن نوبخت المتكلم، وكان من كبار الشيعة، وله تصانيف كثيرة، وقال ابن كثير: إنه كان متكلماً بارعاً من كبار الشيعة (٥)، فهو من متكلمى القرن الرابع. ١٠- الحسن بن موسى، ابو

محمّد النوبختي: شيخنا المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة وبعدها، له على الأوائل كتب كثيرة، منها: ١- كتاب الآراء والديانات، يقول النجاشي: كتاب كبير حسن يحتوي على علوم كثيرة قرأت هذا الكتاب على شيخنا أبي عبدالله (المفيد) - رحمه الله - . ٢- كتاب فرق الشيعة . ٣- كتاب الرد على فرق الشيعة ما خلا الإمامية . ٤- كتاب الجامع في الإمامة . ٥- كتاب الموضوع في حروب أمير المؤمنين - عليه السلام - .

١ . ابن النديم: الفهرست ٢٦٢ .
 ٢ . العلامة: الخلاصة - القسم الأول - ١٤٣ .
 ٣ . النجاشي: الرجال ٢ / ١٠٥ برقم ٧٠٧ .
 ٤ . الطوسي: الفهرست ٢٣٣ طبع ليدن .
 ٥ . المامقاني: تنقيح المقال ٢ / ٣١٣ برقم ٨٥٤٩ . (٥٩١)
 ٦- كتاب التوحيد الكبير . ٧- كتاب التوحيد الصغير . ٨- كتاب الخصوص والعموم . ٩- كتاب الأرزاق والآجال والأسعار . ١٠- كتاب كبير في الجزء . ١١- مختصر الكلام في الجزء . ١٢- كتاب الرد على المنجمين . ١٣- كتاب الفرد على أبي علي الجبائي في رده على المنجمين . ١٤- كتاب النكت على ابن الراوندي . ١٥- كتاب الرد على من أكثر المنازلة . ١٦- كتاب الرد على أبي الهذيل العلاف في أن نعيم أهل الجنة منقطع . ١٧- كتاب الإنسان غير هذه الجملة . ١٨- كتاب الرد على الواقفة . ١٩- كتاب الرد على أهل المنطق . ٢٠- كتاب الرد على ثابت بن قره . ٢١- الرد على يحيى بن أصفح . ٢٢- جواباته لأبي جعفر بن قبه . ٢٣- جوابات أخر لأبي جعفر . ٢٤- شرح مجالسه مع أبي عبدالله بن مملك . ٢٥- حجج طبيعية مستخرجة من كتاب أرسطاطاليس في الرد على من زعم أن الفلك حي ناطق . ٢٦- كتاب في المرايا وجهه الرؤية فيها . (٥٩٢)

٢٧- كتاب في خبر الواحد والعمل به . ٢٨- كتاب في الاستطاعة على مذهب هشام وكان يقول به . ٢٩- كتاب في الرد على من قال بالرؤية للباري عزوجل . ٣٠- كتاب الاعتبار والتميز والانتصار . ٣١- كتاب النقض على أبي الهذيل في المعرفة . ٣٢- كتاب الرد على أهل التعجيز، وهو نقض كتاب أبي عيسى الوراق . ٣٣- كتاب الحجج في الإمامة . ٣٤- كتاب النقض على جعفر بن حرب (١٧٧ - ٢٣٦) في الإمامة . ٣٥- مجالسه مع أبي القاسم البلخي (ت ٣١٩) . ٣٦- كتاب التنزيه وذكر متشابه القرآن . ٣٧- الرد على أصحاب المنزلة بين المنزلتين في الوعيد . ٣٨- الرد على أصحاب التناسخ . ٣٩- الرد على المجسّم . ٤٠- الرد على الغلاة . ٤١- مسائله للجبائي في مسائل شتى (١) . والرجل من أكابر متكلمي الشيعة، عاصر الجبائي (ت ٣٠٣) والبلخي (ت ٣١٩) وأبو جعفر بن قبه المتوفى قبل البلخي فهو من أعيان متكلمي الشيعة في أواخر القرن الثالث، وأوائل القرن الرابع . وقال ابن النديم: أبو محمّد الحسن بن موسى بن أخت أبي سهل بن نوبخت،

١ . النجاشي: الرجال ١ / ١٧٩ برقم ١٤٦ ترجمه ابن حجر في لسان الميزان ٢ / ٢٥٨ برقم ١٠٧٥ وترجمه هبه الدين الشهرستاني في مقدمة فرق الشيعة .

(٥٩٣)

متكلم، فيلسوف كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق وثابت وغيرهم وكانت المعتزلة تدعيه، والشيعة تدعيه ولكنّه إلى حيز الشيعة ما هو (كذا) لأن آل نوبخت معروفون بولاية علي وولده - عليهم السلام - في الظاهر، فلذلك ذكرناه في هذا الموضوع... وله مصنفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها ثم ذكر فهرس كتبه ولم يذكر إلا القليل من الكثير (١). إن بيت نوبخت من أرفع البيوتات الشيعية خرج منه فلاسفة كبار، متكلمون عظام، وقد آثرنا الاقتصار ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب المؤلفة حول هذا البيت . هؤلاء أعلام الشيعة ومتكلموهم في القرون الأربعة فهم الذين زادوا عن حياض الإسلام والتشيع بيانهم وبنانهم وأتينا بأسمائهم في المقام ليكونوا كنموذج لما لم نذكره أو لم يحتفل بذكرهم التاريخ فإنّ الإستقصاء يخرجنا

إلى تأليف منفرد . ونختم هذا الفصل بمتكلم فحل وبارع لا يسمع الدهر بمثله إلا في فترات يسيرة أعنى أستاذ الشيعة وشيخ الأمة الشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٤) الذي أنطق علمه وفضله وورعه وتقاه، لسان كل موافق ومخالف وإليك نموذج مما ذكره أصحاب التذكرة وعلماء الرجال في كتبهم على وجه الإيجاز ونركز على كلمات أهل السنة ونذكر القليل من كلمات الشيعة في حقه . ١- هذا هو ابن النديم (ت ٣٨٨) معاصره ويعرفه في الفهرست بقوله:

«ابن المعلم، أبو عبدالله، في عصرنا انتهت رياسته متكلمي الشيعة إليه، مقدم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطرة، شاهدته _____»

١ . ابن النديم: الفهرست ٢٦٥ - ٢٦٦ الفن الثاني من المقالة الخامسة .
(٥٩٤)

فرايته بارعا... (١) والمعروف أنه ألف الفهرست عام ٣٧٧، وتوفي حوالي ٣٨٨، وعلى ضوء هذا فالمفيد انتهت إليه رياسته متكلمي الشيعة وله من العمر ما لا يجاوز الخمسين . ٢- وقال الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣):
أبو عبدالله المعروف بابن المعلم، شيخ الرافضة، والمتعلم على مذهبهم، صنف كتباً كثيرة في ضلالتهم والذب عن اعتقاداتهم (٢) .
٣- وقال عبدالرحمان ابن الجوزي (ت ٥٩٧):

شيخ الإمامية وعالمها، صنف على مذهبه، ومن أصحابه المرتضى، كان لابن المعلم مجلس نظر بداره، بدرج رباح، يحضره كافة العلماء، له منزلة عند أمراء الأطراف، لميلهم إلى مذهبه (٣) . ٤- وقال أبو السعادات عبدالله بن أسعد الياضي (ت ٧٦٨):
وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة توفي عالم الشيعة وإمام الرافضة صاحب التصانيف الكثيرة شيخهم المعروف بالمفيد، وابن المعلم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقهاء، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية. قال ابن أبي طي: وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وقال غيره: كان عضد الدولة ربما زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربيعاً نحيفاً أسمر، عاش ستاً وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنف، وكانت جنازته مشهورة وشيعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة (٤) . _____

١ . ابن النديم: الفهرست ٢٦٦ في فصل أخبار متكلمي الشيعة .

٢ . الخطيب البغدادي: ٣ / ٣٣١ برقم ١٧٩٩ .

٣ . ابن الجوزي: المنتظم ١٥ / ١٥٧ .

٤ . الياضي: مرآة الجنان ٣ / ٢٨ طبع الهند . (٥٩٥) ٥- ووصفه أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤) بقوله:

شيخ الإمامية الروافض، والمصنف لهم، والمحامي عن حوزتهم، وكان يحضر ملجسه خلق كثير من العلماء وسائر الطوائف (١) . ٦- وقال الذهبي (ت ٧٤٨):

محمّد بن محمد بن النعمان، الشيخ المفيد، عالم الرافضة، أبو عبدالله ابن المعلم، صاحب التصانيف البدعية، وهي مائتا مصنف (٢) . عالم الشيعة، وإمام الرافضة وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طي في تاريخه - تاريخ الإمامة -: هو شيخ مشايخ الطائفة ولسان الإمامية ورئيس الكلام والفقهاء والجدل، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة العظيمة في الدولة البويهية (٣) . ٧- قال ابن حجر (ت ٨٥٢) بعد نقل ما ذكره الذهبي :

وكان كثير التعقيب والتخشع والاكباب على العلم، تخرج به جماعة، وبرع في المقالة الإمامية حتى يقال: له على كل إمام منه، وكان أبوه معلماً بواسطة وما كان المفيد ينام من الليل إلا هجعة ثم يقوم يصلي أو يطالع أو يدرس أو يتلو القرآن (٤) . ٨- وقال ابن العماد الحنبلي: (ت ١٠٨٩):

«وفيها توفي المفيد، ابن المعلم، عالم الشيعة، وإمام الرافضة، وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طي في تاريخ الإمامية: هو شيخ

مشايخ الطائفة ولسان _____

١. ابن كثير: البداية والنهاية ١١ / ١٥ .
 ٢. الذهبي ميزان الاعتدال ٤ / ٣٠ .
 ٣. الذهبي: العبر ٢ / ٢٢٥ .
 ٤. ابن حجر: لسان الميزان ٥ / ٣٦٨ برقم ١١٩٦ . (٥٩٦)
- الإمامية، رئيس الكلام، والفقه والجدل وكان يناظر اهل كل عقيدة مع الجلاله والعظمة في الدولة البويهية» (١) . هذا بالنسبة للسنة، وأما الشيعة فنقتصر على كلام تلميذه: الطوسي والنجاشي وترك الباقي لمترجمي حياته . ١- يقول الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) في الفهرست :

المفيد يكتي أبا عبدالله المعروف بابن المعلم، من جملة متكلمي الإمامية، انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، وكان مقدماً في العلم، وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب وله قريب من مائتي مصنف كبار وصغار وفهرست كتبه معروف، ولد سنة ٣٣٨ وتوفي لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٤١٣، وكان يوم وفاته يوماً لم ير أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف والموافق (٢) . ٢- ويقول تلميذه الآخر، النجاشي (٣٧٢ - ٤٥٠):

شيخنا وأستاذنا -رضى الله عنه - فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والوثاقة والعلم ثم ذكر تصانيفه (٣) . وهذه الكلم تعرفنا منزلته الرفيعة وأنه لم يكن يومذاك للشيعة متكلم أكبر منه، وكفى في ذلك أنه تخرج على يديه لفيف من متكلمي الشيعة نظير: السيد المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦) والشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) وهما كوكبان في سماء الكلام، وحاميان عظيمان عن حياض التشيع، بيانهم وبنانهم . _____

١. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣ / ١٩٩ وفيه مكان الطائفة: الصوفية. وهو لحن .
٢. الشيخ الطوسي: الفهرست برقم ٧١٠ .
٣. النجاشي: الرجال ٢ / ٣٢٧ برقم ١٠٦٨ . (٥٩٧)

ولنكتف في سرد أسماء أئمة الكلام بهذا المقدار ولنترك الباقي من القرن الخامس إلى عصرنا هذا غير أنه يطيب لي أن اشير إلى بعض أساتذة الفلسفة منهم . مشاهير أئمة الفلسفة بعد القرن الرابع:

١- إذا كان الشيخ المفيد أكبر متكلم للشيعة ظهر في العراق، فإن الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٨٠ - ٤٢٤) أكبر فيلسوف إسلامي شيعي ظهر في المشرق، وهو من الذين دفعوا عجلة الفكر والعلم إلى الأمام في خطوات كثيرة وقد طار صيته شرقاً وغرباً، وكتبت عنه دراسات ضافية من المسلمين والمستشرقين ونحن في غنى عن افاضة القول في ترجمه حياته، وآثاره التي خلفها، والتلاميذ الذين تربوا في مدرسته ولكن نشير إلى كتابين من كتبه لأنهما كوكبان . الف - الشفاء وهو يشتمل على المنطق، والطبيعات والإلهيات والرياضيات وقد طبع أخيراً في مصر في أجزاء، وبالامعان فيما ذكره في مبحث النبوة يعلم مذهبه قال: والاستخلاف بالنص أصوب فإن ذلك لا يؤدي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف (١). باء - الاشارات وهو يشتمل على المنطق والطبيعات والإلهيات وهو من أحسن مؤلفاته وفيه آراؤه النهائية وقد وقع موقع العناية لمن بعده، فشرحه الامام الرازي (٥٤٣ - ٦٠٦) والمحقق الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢) والشرح الثاني، كان محور الدراسة في الحوزات العلمية . ٢- نصير الدين الطوسي: الخواجه نصير الدين الطوسي، سلطان المحققين وأستاذ الحكماء والمتكلمين (٥٩٧ - ٦٧٢) وهو أشهر من أن يذكر، شارك في _____

١. الشفاء قسم الإلهيات ٢ / ٥٦٤ طبع ايران .

(٥٩٨)

جميع العلوم النظرية فاصبح أستاذاً محققاً مؤسساً أثنى عليه الموافق والمخالف . ٣- الشيخ كمال الدين: الشيخ كمال الدين ميثم بن

على بن ميثم البحراني (٦٣٦ - ٦٩٩) الفيلسوف المحقق، والحكيم المدقق، قدوة المتكلمين، تظهر جلاله شأنه وسطوع برهانه من الامعان في شرحه لنهج البلاغة في أربعة أجزاء وله «قواعد المرام في الكلام» وكلاهما مطبوعان . ٤- العلامة الحلي: شيخ الشيعة جمال الدين المعروف بالعلامة الحلي (٦٤٨ - ٧٢٨) له الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، وكشف المراد في الكلام، وكتبه في المنطق والكلام والفلسفة تنوف على العشرين . ٥- الرازي: قطب الدين الرازي (ت ٧٦٦)، تلميذ العلامة الحلي وأستاذ الشهيد الأول، له شرح المطالع في المنطق والمحاكمات بين العلمين: الرازي ونصير الدين الطوسي.

إلى غير ذلك من أدمغه كبيرة ظهرت في الحوزات الشيعية، كالفاضل المقداد (ت ٨٠٨) مؤلف نهج المسترشدين في الكلام، والشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣ - ١٠٣٠)، والسيد محمد باقر المعروف بالدواماد (ت ١٠٤٠)، وتلميذه المعروف بصدر المتألهين مؤلف الأسفار الأربعة (٩٧١ - ١٠٥٠) وغيرهم ممن يتعبر علينا احصاء أسمائهم فضلاً عن تحرير تراجمهم . هذه لمحة عابرة عن مشاركة الشيعة في بناء الحضارة الإسلامية في مجال العلوم العقلية واقتصرنا على المشاهير منهم إلى أواسط القرن الحادي عشر، وتركنا أسماء الكثيرين. هذا وقد قام المتتبع المتضلع الشيخ عبدالله نعمه بتأليف كتاب حول فلاسفة الشيعة ومتكلميهم أسماه «فلاسفة الشيعة» وسد بذلك بعض الفراغ حياه الله وبياه . ومن حسن الحظ أن ركب التفكير والبرهنة والاستدلال لم يقف، بل توالى (٥٩٩)

إلى عصرنا، فترى في حقول الكلام والفلسفة شخصيات بارزة ومؤلفات لا تحصى في الكلام والفلسفة والمنطق، وقد عاش كثير من هؤلاء في الظروف السياسية الصارخة بالدم والرعب، وقد صار ذلك سبباً في اختفاء آثارهم وضيعاها، بل وتراكم الأساطير حولها . وبذلك تقف على قيمة ما ذكره المستشرق «آدم متز» في حق كلام الشيعة: «أما من حيث العقيدة والمذهب، فإن الشيعة هم ورثة المعتزلة، ولا بد أن يكون قلبه اعتداد المعتزلة بالأخبار المأثورة مما لاءم أغراض الشيعة ولم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلامي خاص به» (١) . إن الشيعة منذ بكرة أبيهم، كانوا مقتفين أثر أئمتهم، ولم يكونوا ورثة المعتزلة، وإنما أخذت المعتزلة أصول مذهبهم عن أئمة أهل البيت، كما أوضحنا حاله في الجزء الثالث من هذه الموسوعة، والعجب أن الشيعة كانت تناظر المعتزلة من عصر الامام الصادق - عليه السلام - إلى عصر المفيد وبعدهم حتى أن الشيخ المفيد وضع كتاباً في نقد المعتزلة، كما وضع قبلهم بعض أئمة المتكلمين من الشيعة ردوداً على المعتزلة، فكيف يكون الشيعة ورثة للمعتزلة، نعم وأن القائل خلط مسألة الاتفاق في بعض المسائل بالتبعية والافتناء، فالشيعة والمعتزلة تتفقان في بعض الأصول، لا أن أحدهما عيال على الآخر . ١٣- قدماء الشيعة والعلوم الكونية:

لم يكن اتجاه الشيعة مختصاً بالعلوم العقلية كالكلام والفلسفة والمنطق،

١ . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تعريب محمد عبدالهادي أبو ريده ١ / ١٠٦ الطبعة الثالثة .

(٦٠٠)

بل امتد نشاطهم وحركتهم الفكرية إلى العلوم الرياضية، والكونية، فتجد هذا النشاط بارزاً في مؤلفاتهم طيلة القرون، ونحن نأتي هنا بذكر موجز عن مشاهير علمائهم ومؤلفاتهم في القرون الأولى تاركين غيرهم للمعاجم: ١- هشام بن الحكم (ت ١٩٩) له آراء في الاعراض كاللون والطعم والرائحة، وقد أخذ منه إبراهيم بن سيار النظام، وحاصل هذا الرأي أن الرائحة جزئيات متبخرة من الأجسام تتأثر بها الغدد الأنفية وأن الأطعمة جزئيات صغيرة تتأثر بها الحليمات اللسانية (١) . ٢- إن بيت بنى نوبخت بيت شيعي عريق، فقد قاموا بترجمة الكتب الفارسية إلى العربية وقد خدموا بذلك العلوم الكونية . قال ابن النديم: آل نوبخت معروفون بولاية علي وولده، وقال الأفيدي في رياض العلماء: بنو نوبخت طائفة من متكلمي الإمامية منهم . الف - أبو الفضل بن نوبخت قال ابن النديم: كان في خزانه الحكمة لهارون الرشيد، وقال ابن القطفي في تاريخ الحكماء: إنه مذكور مشهور من أئمة المتكلمين وذكر في كتب المتكلمين وكان في زمن هارون الرشيد وولاه القيام بخزانه كتب الحكمة، وهو من متكلمي أواخر القرن الثاني . ب - ولده إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت من متكلمي القرن الثالث . ج - يعقوب بن اسحاق بن أبي سهل بن نوبخت متقدم في الحكمة والكلام والنجوم (٢) .

٣- أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، من أعيان الشيعة

١ . عبدالله نعمة: فلاسفة الشيعة ٥٦ .

٢ . العاملي: أعيان الشيعة ١ / ١٣٥ . (٦٠١)

وأعلام فلاسفتهم، صنّف في علوم الأوائل وله تعليقات في المنطق ومقالات جليّة في أقسام الحكمة والرياضة (١) . ٤- من أشهر علماء الشيعة واقدمهم الذين برزوا بالكيمياء هو جابر بن حيان، فهو الذي ظهر في حقل الكيمياء، وهو أوّل من أشار إلى طبقات العين قبل يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣) وقبل حنين بن إسحاق (ت ٢٦٤) وأوّل من أثبت إمكان تحويل المعدن الخسيس إلى الذهب والفضة، فلم تقف عبقريته في الكيمياء، عند هذا الحد بل دفعته إلى ابتكار شيء جديد في الكيمياء فأدخل فيها ما سمّاه بعلم الميزان، والمقصود منه معادلة ما في الأجسام والطباع، وجعل لكل جسم من الأجسام، موازين خاصة (٢) وقد ألّف حول جابر وعبقريته كتب كثيرة، فمن أراد فليرجع إليها، وقد اتفق الكل على أنّه تلميذ الامام الصادق - عليه السلام - . ٥- الشريف أبو القاسم علي بن القاسم القصرى، وهو من علماء القرن الرابع، ذكره ابن طاووس في فرج المهموم في عداد منجمي الشيعة (٣) . وهذه نماذج من علماء الشيعة في الطبيعيات والفلكيات، وأمّا المتأخرون، فحدّث عنهم ولا حرج، وقد أتى بقسم كبير منهم الشيخ عبدالله نعمة في كتابه «فلاسفة الشيعة» فمن أراد فليرجع، غير أنّنا نذكر هنا المحقق الطوسي الذي له حقّ على الأئمة جمعاء تقول في حقّه المستشرق الألمانيّة: «وحصل نصير الدين الطوسي على مرصده، فكان معهداً لأبحاث لا مثيل له، وزوّده بالآلات الفلكية التي زادت في شهرة المعهد، ورفعت مكانته... ويحكى أنّ

١ . محمّد باقر الخونساري: روضات الجنات ١ / ٢٥٤ .

٢ . فلاسفة الشيعة ١ / ٥٧ .

٣ . فرج المهموم . (٦٠٢)

زائراً قصد ابن الفلكي نصير الدين في مرصده في مراغه فلمّا رأى الآلات الفلكية المتنوّعة ذهل، وقد زاد دهشة حين رأى «المحلقة» ذات الخمس حلقات والدوائر من النحاس: اولها تمثل خطّ الطول الذي كان مركزاً في الأسفل، وثانيها خطّ الاستواء، وثالثها الخطّ الاهليلجي، ورابعها دائرة خطّ الأرض، وخامستها دائرة الانقلاب الصيفي والشتوي، وشاهد أيضاً دائرة السمّ التي يمكن للمرء بواسطتها أن يُحدّد سمّ النجوم، أي الزاوية الناتجة على خطّ أفقيّ ثابت وخطّ أفقيّ آخر صادر عن كوكب في السماء . وتقول أيضاً: إنّ نصير الدين أحضر إلى مكتبة المعهد أربعمئة ألف مجلّد كانت قد سرقت من مكاتب بغداد وسوريا وبلاد بابل، وقد استدعى علماء ذوى شهرة طائفة من اسبانيا ودمشق وتفليس والموصل إلى مدينته مراغه لكي يعملوا على وضع الازياج بأسرع وقت يمكن» (١) . ويناسب في المقام ذكر اجمالى عمّا قدموا من الخدمة في مجال الجغرافية وعلم البلدان فنقول: الجغرافية وتقويم البلدان:

نذكر في المقام، رحالتين طافا في البلاد الإسلامية وكتبا ما يرجع إلى جغرافية البلدان، وقد صار كتابهما أساساً للآخرين: ١- أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى المتوفى في أواخر القرن الثالث، فهو أوّل جغرافي بين العرب، وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته

١ . السيدة زبيريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ١٣٣ والصحيح أن يسمى: شمس الإسلام...

(٦٠٣)

الخاصة، ومتوخياً قصد ما أراد من وصف البلد وخصائصها وهو يقول عن نفسه: أنّه عنى في عنفوان شبابه، وحده ذهنه بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنّه سافر حديث السن وأتصلت أسفاره ودام تغرّبه، وقد طاف في بلاد المملكة الإسلامية كلّها، فنزل أرمينية وورد خراسان وأقام بمصر والمغرب بل سافر إلى الهند، وكان متى لقي رجلاً سأله عن وطنه ومصره وعن زرعه ما هو؟ وساكنيه منهم؟ عرب أو عجم؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم من غير أن يلحقه من ذلك ملال ولا فتور، وقد وصف المملكة الإسلامية مبتدئاً ببغداد وصفاً منظماً مع اصابة جديرة بالثقة والاعجاب (١) . ٢- أبو الحسن علي بن الحسين المسعودى (ت

٣٤٦) فقد أُلّف في ذلك المصنوع كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهرة» وكتابه الآخر «التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم» وكتابه الثالث «التبهي والاشراف» فقد اشتمل وراء التاريخ على الجغرافية وتقويم البلدان، وقد جرّه حُبّه للاستطلاع إلى بلاد بعيدة، فكتب ما رآه وشاهده .

١ . آدم متر: الحضارة الإسلامية ٢ / ٣٤ وكتاب يعقوبى فى الجغرافية هو كتاب «البلدان» المنشور .
(٦٠٤) (٦٠٥)

الفصل الثالث عشر فى بلدان الشيعة وجامعاتهم

الفصل الثالث عشر فى بلدان الشيعة وجامعاتهم العلمية (٦٠٦) (٦٠٧)

قد عرفت الخطوط العريضة فى التشيع وأنه ليس شيئاً سوى الإسلام على أساس كون القيادة والخلافة - بعد رحلة النبى - لعلى - عليه السلام - وأهل بيته، كما تعرّف على حياة الأئمة الاثنى عشر، وعلى عمالقة الفكر والعلم والفلسفة، والأدب والشعر، من شيعتهم، الذين شاركوا المسلمين فى بناء حضارة قامت على العلم، والثقافة. ولكن - اكتمالا للبحث - نذكر بلدان الشيعة أولاً، والجوامع والمعاهد العلمية التى أنشأوها ثانياً ودورهم ثالثاً وعددهم رابعاً. حتى يتم التعرف عليهم، على القدر المستطاع . ١- بلدان الشيعة:

تواجد الشيعة فى جميع أنحاء العالم بنسب مختلفة وربما يعدّ بعض البلدان معقل الشيعة ومزدهمها ويكون المذهب السائد عليه هو التشيع. وإليك أسماء بعضها وهى إيران، والعراق، والحجاز، والشامات، وتركيا، وأفغانستان، والباكستان، والهند، واليمن، ومصر، والامارات المتحدة العربية، والبحرين، والاحساء، والقطيف، والكويت، ومسقط، وعمان، والتبت، والصين، (٦٠٨)

وجمهورية آذربايجان، وطاجيكستان والجمهوريات المتحررة بانحلال الاتحاد السوفيتى، وماليزيا، وأندونيسيا، وسيلان، وتايلند، وسنغافورة، والأفريقية الشمالية، والصومال، والأرجنتين، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وألبانيا، والولايات المتحدة، وكندا وغيرها ممّا يعسر عدّها. ولا بأس بالإيعاز إلى خصوصيات بعض البلدان إذ فيه تسليط لبعض الضوء للتعرف على ماضى التشيع وما لاقه أتباعه من العدوان والويلات والمصائب . التشيع حجازى المحتد والمولد:

التشيع حجازى المحتد والمولد، إذ فيه نشأ، وفى تربته غرست شجرته ثم نمّت وكبرت، فصارت شجرة طيبة ذات أغصان متسقة وثمار يانعة. وفيه حثّ النبى الأكرم على ولاء الإمام وسمى أوليائه شيعة، وحدّث بحديث الثقلين وجعل أئمة أهل البيت قرناء الكتاب فى العصمة ولزوم الاقتفاء والطاعة، وفيه رقى النبى المنبر الذى صنعه من رحال الابل وأخذ بيد وصيه وولى عهده على المرتضى وحمد الله وأثنى عليه وقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» فقالوا: اللهم بلى، ولما أخذ من الجمع المحتشد، الاقرار بأولويته على النفس والنفس عرّف علياً خليفته عنه وقال: «من كنت مولاه فهذا على مولاه» ونزل من المنبر ثم نزلت آيات، وتبودلت التهانى والتحيات بين الامام والصحابة (١). وقد أشار إلى بعض ما ذكر مؤلف خطط الشام وقال: «إن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الذى حثّ على ولاء على وأهل بيته - عليهم السلام -

١ . لاحظ الفصل الثالث من هذا الجزء .

(٦٠٩)

وهو أول من سُمى أوليائه بالشيعة وفى عهده ظهر التشيع وسمى جماعة بالشيعة (١). ولما ارتحل النبى الأكرم إلى دار البقاء تناسى أولوا القوة والمنعة من الصحابة عهد النبى الأكرم فحالوا بين النبى وأمنيته كما حالوا بين أمته وإمامها، فتداولوا كرة الخلافة بينهم، وأخذوا بمقاليد الحكم واحداً بعد آخر، والإمام منعزل عن الحكم، لا عمل له إلا هداية الأمة وارشادها بلسانه وبيانه وقلمه وبنانه . إنّ البذى دعا علياً إلى السكوت والانحياز، هو مشاهدة ظاهرة الردّة، الطارئه على المجتمع الاسلامى عن طريق مسيلمة الكذاب، وطليحة بن خويلد الأفاك، وسجاح بنت الحرث الدجالة، واصحابهم الهمج الرعاع فكانوا مهتمين بمحق الإسلام وسحق المسلمين. ويحدّث

عنه الامام في رسالته إلى أهل مصر التي أرسلها مع مالك الأشتر يقول: «فأمسكت يدي حتى رأيت راجعاً الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم» (٢). رأى الامام أن صيانة الإسلام وردّ عادية الأعداء تتوقفان على المسالمة والموادعة فألقى حبل الخلافة على غاربها، تقديماً للأهم على المهم، وتبعته شيعته صابرين على مفضض الحياة ومّرها . بقى الامام منعزلاً عن الحكم قرابة ربع قرن إلى أن قتل عثمان في عقر داره واثال الناس إلى دار علي من كلّ جانب مجتمعين حوله كربيضة الغنم، يطلبون منه القيام بالأمر وأخذ مقاليد الحكم، وفيهم شيعته المخلصون الأوفياء، فلم ير بدأً من —————

١ . محمد كرد علي: خطط الشام ٥ / ٢٥١ .

٢ . الرضى: نهج البلاغة قسم الكتب برقم ٦٢ . (٦١٠)

قبول دعوتهم لقيام الحجّة بوجود الناصر (١) . ولما نكت الناكثون البيعة، وقادوا حبيسة رسول الله «عائشة»، معهم إلى البصرة، ارتحل الإمام بأنصاره وشيعته إلى العراق إلّا- قليلاً- بقوا في الحجاز لقلع مادة الفساد قبل أن تستفحل، ولما قلع عين الفتنة، استوطن الإمام الكوفة واستوطنها معه شيعته وصارت الكوفة عاصمة التشيع، ومعقله، وفيها نما وأينع وأثمر ومنها انحدر إلى سائر البلدان، بعدما كان الحجاز مهبط التشيع ومغرسه ومحتده. فكان حجازي المحتد والمغرس عراقى النشوء والنمو. ولم يكن يوم ذاك يتظلل في ظلال التشيع، إلّا عربى صميم، من عدنانى وقحطانى ولم يكن بينهم فارسى المحتد ولا بربرى الأصل ولا شعوبى العقيدة . ومضت على التشيع في مغرسه (الحجاز) قرون ومّرت به أجواء قاسية، وظروف رهيبه كادت تقضى على الشيعة - مع ذلك - نرى اليوم تواجدهم في مكة والمدينة وحضرموت ونجران، الحدود اليمنية، وقبائل الأطراف رغم العدوانية السائدة في هذه الآونة الأخيرة ضدّهم ورغم سيادة السيف والوحشية الكاسرة فيها، فبنو جهم، وبنو علي، وبعض بنى عوف، ونخاولة المدينة والفلاحون في رساتيقاها كلّهم شيعة . وأمّا المنطقة الشرقية كالأحساء والقطيف والدمام، فالأكثرية الساحقة فيها هي الشيعة، ولأجل سحق هذه الأكثرية عمدت السلطة الوهابية بزرع السنّة في بلادهم باستيطان بعض القبائل والموظفين فيها والله من وراء القصد . —————

١ . إشار إلى قوله - عليه السلام - : «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر... لأقيت حبلها على غاربها» نهج البلاغة، الخطبة ٣ . (٦١١) التشيع عراقى النشوء والنمو:

قد عرفت أنّه لما غادر الامام المدينة المنورة متوجّهاً إلى العراق واستوطن الكوفة هاجر كثير من شيعته معه واستوطنوا العراق، فصار ذلك أقوى سبب لنشوء التشيع ونموه، في العراق ولا سيما في الكوفة، فصارت معقل الشيعة، ولما قضى الامام نحبه حاولت السلطة الاموية وعمّالها استئصال التشيع منها بأبشع صورة مذكورة في التاريخ. بالرغم من أنّ العراق وأخص منه الكوفة كان علوى النزعة هاشمى الولاء، إلّا أنّ الحسين، ابن الإمام قتل بسيف الكوفيين، وسقط عطشاناً وحوله أجساد أبناءه وأبناء أخيه وأصحابه ولكن ذلك لا يدل على انسلاخهم عن التشيع لأنّ الشيعة يوم ذاك كانوا بين مسجون في زنزانات الامويين، ومرعوب فاقد للتصميم والحمية وخاذل، ومنتظر لما تؤول إليه الأمور، وناصر التحق بالحسين في أحلك الظروف . هؤلاء هم الشيعة . وأمّا الذين شاركوا في قتل الحسين فلم يكونوا من الشيعة أبداً بل كانوا أتباع الامويين والمنضوين تحت راياتهم. ولما قتل الحسين أثار قتله أعمق الأشجان وأعنف العواطف في الشيعة وبعد اطلاق سراح المسجونين قاموا بجد وحماس بأخذ الثار بقيادة المختار، باكين ليلا ونهاراً على ما أصاب الحسين من مصيبة. وقد حاول الامويون جعل العراق أموياً، وبذلوا جهودهم، لكن عادت الجهود فاشلة فهو إلى اليوم هاشمى وعلوى وحتى أنّ دعوة العباسيين نجحت في بداية الأمر في العراق في ظل طلب ثار الحسين وأهل بيته وكانت الدعوة للرضا من آل محمد . تبلور التشيع بعد حادثة الطف بقليل واتسع نطاقه وصار العراق مركزه، وكانت القوافل من أنحاء العراق وغيرها تؤمّ قبر الحسين - عليه السلام - وأصحابه، (٦١٢)

فصارت مشاهد أهل البيت فيها معمورة بالزائرين والمجاورين، وكانت المآتم تقام في حواضرها واتخذت الشيعة مشاهد أئمّتهم،

حوزات علمية ومعاهد فكرية، فازدهر العراق بعمالقة الفكر، وأساتذة الفقه وأساطين الكلام، وأعان على نشر التشيع ونموه في العراق نشوء دول وإمارات للشيعة في القرن الرابع وما بعده. يقول الشيخ المظفر: وساعد على نمو التشيع وانتشاره في العراق، أن تكونت من الشيعة فيه سلطنات دول وإمارات كسلطنة آل بويه، وامارة بني مزيد في الحلة والنيل، وبني شاهين في البطائح، وبني حمدان وآل المسيب في الموصل، ونصيبين، وكدولة بعض المغول أمثال محمد خدابنده وابنه أبي سعيد، وأمّا محمود غازان فقد قيل بتشييعه وهناك امارات عليه إلا أنه لم يصارح به، وكدولة الجلائرية التي أسسها الشيخ حسن الجلائري أحد قواد المغول وابن أخت محمود غازان ومحمد خدابنده، وكانت بغداد عاصمته ملكه، وكالدولة الصفوية التي ناصرته التشيع ونشرته في البلاد بشتى الطرق، فكأنما هي دولة دينية تأسست لنشر مذهب أهل البيت. وأيد مذهب التشيع أيضاً أن انعقدت عدّة وزارات من رجاله فقد استوزر السفاح أول ملوك بني العباس: ابا سلمة الخلال الكوفي الهمداني داعية أهل البيت وقتله على التشيع. واستوزر المنصور: محمد بن الأشعث الخزاعي. واستوزر المهدي: ابا عبدالله يعقوب بن داود وحبسه لتشييعه. واستوزر الرشيد: علي بن يقطين، وجعفر بن الأشعث الخزاعي. والمأمون: الفضل بن سهل ذا الرياستين لجمعه بين القلم والسيف وقتله عند ما أحسّ بميله إلى الرضا - عليه السلام - . واستوزر من بعده أخاه الحسن بن سهل. واستوزر المعتز والمهدي: ابا الفضل جعفر بن محمود الاسكافي. واستوزر المقتدى: ابا شجاع ظهر الدين محمد بن الحسين الهمداني وعزله لتشييعه. واستوزر المستظهر: ابا المعالي هبة الدين بن محمد بن المطلب (٦١٣)

وعزله لتشييعه ثم أعاده على أن لا يخرج من مذهب أهل السنة ثم تغير عليه وعزله، واستوزر الناصر والظاهر والمستنصر: مؤيد الدين محمد بن عبدالكريم القمي من ذرية المقداد - رضوان الله عليه - واستوزر المستعصم آخر ملوك بني العباس: ابا طالب محمد بن أحمد العلقي الأسدي وأقره هولاء على الوزارة، ولما مات - رحمه الله - استوزر: ولده ابا الفضل عز الدين، إلى ما سوى هؤلاء. وأمّا الإمارات، والقيادات، والكتابة، والخزانة، فما أكثرها، أمثال اماره آل قشمر، آل أبي فراس الشيباني، وآل ديبس كما أشرنا إليهم، وقيادة طاهر بن الحسين الخزاعي وقيادة أولاده كابنه عبد الله، ومحمد بن عبد الله وغيرهما، وتوليهم اماره هرات، وكان عبد الله بن سنان خازناً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد، وكان من ثقاة الرواة لأبي عبد الله الصادق - عليه السلام -، إلى ما يعسر استقصاؤه. وكفاك برهاناً على أن التشيع كان ضارباً أطنابه على بسيطة العراق، ما كان من نقابة الطالبين في بغداد، فما أكثر ما كان يتولّاها الشيعة، أمثال الشريف الرضي وأبيه وابنه وأخيه المرتضى، وقد تولّوا المظالم أيضاً، وتولّى الشريف الرضي وأبوه أيضاً اماره الحاج، كما تولّاها ثلاث عشرة حجة حسام الدين أبو فراس جعفر بن أبي فراس الشيباني. وتولّى آل طاووس نقابة الطالبين في العراق عامه، تولّاها منهم السيدان العلمان رضى الدين وغيث الدين عبدالكريم (١) كما تولّى الأوقاف في العراق

١. أنظر - الحوادث الجامعة - في حوادث عام ٦٦١ وما ذكره فيها من تولّى السيد رضى الدين بن طاووس نقابة الطالبين بالعراق، وذكر أن وفاته عام ٦٦٤، وفي حوادث عام ٦٩٣ قال: وفيها توفى النقيب غياث الدين عبدالكريم بن طاووس .

(٦١٤)

وغيرها ممّا كان تحت حكم المغول الخواجا نصير الدين الطوسي - طاب ثراه - وعندما قبض عليها، أقام ببغداد وتصفّح الأوقاف وأدار أخبار الفقهاء والمدرسين وقرر القواعد في الوقف وأصلحها بعد اختلالها (١) ومن بعده تولّاها ابنه أحمد فخر الدين، ولما وليها حذف الحصّة الديوانية في الوقوف، ووفرت على أربابها (٢). ثم إن شيخنا المظفر - وهو عراقى المحدث والمنشأ - عارف بخصوصيات بلده وما جرى على الشيعة فيها طيلة القرون خصوصاً بعد ما نشبت فيها مخالبا آل عثمان، خرج بالنتيجة التالية: «أن جنوب العراق شيعة خالصة ولو وجد فيه غيرهم فهو نادر وأمّا البلاد الشمالية، فسكانها على العموم من أهل السنة إلا أن الشيعة فيها ليسوا بالقليل، ولو أمنوا الغوائل من اظهارهم لولاء أهل البيت، كما يأمن العدد القليل من أهل السنة في الجنوب، لعجت من كثرتهم في تلك البلاد لا سيما في لواء الموصل وكر كوك. وأمّا البلاد الوسطى كالحلة فهي شيعية خالصة سوى افراد معدودين في نفس القصبه، ولواء بغداد فأكثرته من الشيعة، ومثله لواء ديالى، بعكس لواء الديلم ففيه من الشيعة عدد قليل. وعليه، فالعراق اليوم سبعة من ألوته شيعة وفيها

شوب من غيرهم، وخمسة سنة وفيها خليط من الشيعة ولواءان مختلطان يغلب التشيع عليهما، هذا ما يعرفه المستقرئ، لبلاد العراق . ومن ثم لا- نحتاج إلى استقراء لجميع بلاد الجنوب أمثال الكوت والعمارة والغراف وما سواها من بلاد دجلة، والسماءة والديوانية والناصرية وما سواها من _____

١ . أنظر تاريخ - مختصر الدول - للعبري ٥٠٠ و - الحوادث الجامعة - في حوادث عام ٢٧٢ .

٢ . أنظر - الحوادث الجامعة - في حوادث عام ٦٨٣ . (٦١٥)

بلاد الفرات (١) . الشيعة في اليمن:

دخل التشيع في اليمن منذ أن أسلموا بيد علي - عليه السلام - يحدثنا التاريخ ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعث خالد بن الوليد إلى اليمن ليدعوهم إلى الإسلام فأقام هناك ستة أشهر فلم يجيبوه إلى شيء . فبعث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - علي بن أبي طالب - عليه السلام - وأمره أن يرجع خالد بن الوليد ومن معه . قال البراء: فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له فصلى بنا على الفجر، فلما فرغ صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله فأسلمت همدان كلها في يوم واحد وكتب بذلك إلى رسول الله، فلما قرأ كتابه خرّ ساجداً ثم جلس فقال: السلام على همدان، السلام على همدان ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام (٢) فكان تمسكهم بعري الإسلام على يد علي وصار هذا أكبر العوامل لصيرورتهم علويين مذهباً ونزعة . وفي ظل هذه النزعة ضحوا بأنفسهم ونفيسهم بين يدي علي في حروبه . أضف إليه أنهم سمعوا من المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - فضائل إمامهم ومناقبه غير مرّة وهذا مما زادهم شوقاً وملاً قلوبهم حباً وولاءً له، روى المحدثون: ان اليمانيين طلبوا من النبي أن يبعث إليهم رجلاً يفقههم في الدين ويعلمهم السنن ويحكم بينهم بكتاب الله، فبعث النبي علياً وضرب على صدره وقال: «اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه». قال الامام - عليه السلام - : فما شككت في قضاء بين اثنين حتى _____

١ . محمد حسين المظفر: تاريخ الشيعة ٦٩ - ٧١ و ١١٠ - ١١١ .

٢ . ابن الأثير: الكامل ٢ / ٣٠٠ في حوادث السنة العاشرة . دار صادر . (٦١٦)

الساعة (١) . بقي بينهم مدة يفقههم في الدين، ويقضى بكتاب الله، ويحلّ المشاكل القضائية، بما يبهر العقول . انّ هذا وذاك، والقتل الذريع الذي ارتكبه عمال معاوية كبسر بن أرطاة، سبب اتجاه اليمانيين نحو صاحب الولاية من يومهم إلى يومنا هذا وقد خامر التشيع قلوبهم وعقولهم ولأجل وجود أوامر الحب والولاء بين اليمانيين والامام علي - عليه السلام - ذكرهم علي في شعره وقال: فلو كنت بواباً على باب جنة * لقلت لهمدان ادخلوا بسلام ومما يدل على فرط حبهم وولائهم لعلي - عليه السلام - ما قاله سيدهم سعيد بن قيس الهمداني - رضوان الله عليه - في وقعة الجمل: قل للوصي أقبلت فخطأتها * فادع بها تكفيكها همدانها هم بنوها وهم اخوانها (٢) نعم رحل يحيى بن الحسين الرسي العلوي من العراق إلى اليمن في القرن الثالث ودعا إلى المذهب الزيدي في ظل ولاء أهل البيت وأخذ بمجامع القلوب وانتشرت دعوته فانتموا إلى زيد، فالشيعة إلى اليوم في اليمن زيديو المذهب يهتفون في الأذان بـ «حى علي خير العمل» . ويوجد هناك شيعة إماميون قليلون . كانت الحكومة منذ دعوة الرسي العلوي بيد الزيدية وكان آخر حاكم مقتدر زيدي يحكم البلاد هو حميد الدين يحيى المتوكل على الله، ولما اغتيل هو وولده _____

١ . كنز العمال ٦ / ١٥٨ و ٣٩٢ باب فضائل علي .

٢ . ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١ / ١٤٤ - ١٤٥ . (٦١٧)

الحسن والمحسن، وحفيده الحسين بن الحسن بيد بعض وزرائه عام ١٣٦٧ هـ ق في ظل مؤامرة أجنبية، قام مكانه ولده الامام بدر الدين ولم يكن له نصيب من الحكم إلا مدة قليلة حتى أزيل عن الحكم عن طريق انقلاب عسكري، وبذلك انتهى الحكم الزيدي في اليمن ولكن اليمانيين بقوا على انتمائهم إلى التشيع . نعم إن السلطة الوهابية في هذه الآونة بصدد تصدير التوهب وفرضها عليها في ظل تزويد الدولة بامكانيات مالية . والله من وراء القصد... الشيعة في سوريا ولبنان:

ظلّ التشيع سائداً في الشام وحلب وبلبك وجبل عامل منذ القرن الأوّل إلى يومنا هذا، ومن المعروف أنّ أبازر هو الذي بذر بذرته، أو غرس شجرته عندما نفاه عثمان من المدينة إلى الشام، وكان يجول في الشام وضواحيه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، من دون أن يخاف قوة أو سطوة، أو إهانة أو قسوة، وطبع الحال يقتضى أن يبوح بما انطوت عليه جوانحه من الولاء لعلی وأهل بيته، يدعو له على القدر المستطاع، وقد نمت البذرة في ظل التستر والتقية وأما اليوم فالشيعة مجاهرون ولهم شأن عند الدولة ولهم مظاهر في الشام وضواحيه، ترى اسم علي والحسين مكتوبين تحت قبة المسجد الأموي، وفي الجانب الشرقي مسجد خاص باسم راس الحسين وفي نفس البلد قباب مشيدة لأهل البيت وفي الوقت نفسه لاتجد أثراً لمعاوية (١) ويزيد والحكام الأمويين. إنّ في ذلك لعبرة لأولي الألباب .

١ . نعم في داخل البلد بيت يقال فيه قبر معاوية لا يزوره أحد إلاّ للعبرة، والاطلاع على ما آل إليه أعمال الامويين من مصير بائس بعد مماتهم.
(٦١٨)

قويت شوكة التشيع في سوريا حين ما قامت دولة الحمدانيين في الشام والجزيرة فليسيف الدولة أيدي بيضاء في رفع منارة التشيع، كيف وأبو فراس صاحب القصيدة الميمية هو ابن عمّه الذي يقول: الحق مهتضم والدين مخترم * وفي آل رسول الله مقتسم وأما جبل عامل فقد انتشر فيه التشيع منذ دخل إلى الشام، وقد خرج منها علماء طبقوا البلاد شهرة وصيتاً أخص منهم بالذكر: ١- محمّد بن مكّي المعروف بالشهيد الأوّل (٧٣٤ - ٧٨٦) وكان إماماً في الفقه ولكنه صلب بيد الجور، ثمّ رجم، ثمّ أحرق، بذنب أنّه شيعي موال لأهل البيت ولا يفتي بفتوى أئمّة المذاهب الأربعة . وله كتب فقهية أشهرها اللمعة الدمشقية ألفها في السجن خلال اسبوع ولم يكن عنده من الكتب الفقهية سوى المختصر النافع للمحقّق الحلّي (٦٠٠ - ٦٧٦) . ٢- زين الدين بن علي الجبعي (٩١١ - ٩٦٦) صاحب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية والمسالك في شرح الشرائع الذي يتضمّن مجموع الكتب الفقهية مع ذكر المستند والدليل. وهو قدس الله سرّه استشهد قرب شاطئ البحر وفصل رأسه عن جسده وأرسل إلى السلطان. ولا ذنب له إلاّ كذنب الشهيد الأوّل . ولعمري الحق أنّ هذه المواقف من الحكومات السنية عبر القرون، تقشعّر منها الجلود، ويندى منها جبين الإنسانية ويرفضها الدين والعقل فأين الكرامة والحريّة؟ أين السماحة، والرأفة؟ أقول: إذا كان هذا مصير الشيعة مع كونهم سائرين خلف حُجب التقية، فما ظنّك لو لم يتخذوا من التقية ستاراً؟

ولقد خرج من جبل عامل وراء هذين الشخصين علماء كبار، فقهاء عظام ولم يزل منار التشيع مرتفعاً ولواؤه خفّاقاً بهم، ولقد تحمّلوا عبر القرون وخصوصاً في (٦١٩)

عهد السلطنة العثمانية، المصاعب الجسام والتي ذكرها التاريخ وقرأ في هذا المجال جرائم أحمد باشا الجزار، ممثّل الدولة العثمانية في بلاد الشام من (١١٩٥ - ١١٩٨). ولقد ألف الشيخ الحرّ العاملي كتاباً أسماه أمل الآمل في علماء جبل عامل طبع في جزأين واستدرك عليه السيد الجليل حسن الصدر . بعلبك: إنّ بعلبك تعد من المدن الشيعية العريقة ولقد ظهر بها التشيع منذ دخل بلاد الشام وراج في ظلّ الدولة الحمدانية. والعيشة فيها كالعراق، عيشة قبلية وأهلها معروفون بالبسالة والبطولة والجود والكرم . الشيعة في مصر:

دخل التشيع مصر في اليوم الذي دخل فيه الإسلام ولقد شهد جماعة من شيعة عليّ فتح مصر منهم المقداد بن الأسود الكندي، وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع، وأبو أيوب الأنصاري، وزارها عمّار بن ياسر في خلافة عثمان (١) وهؤلاء ما كانوا يبطنون فكرة التشيع التي كانوا يؤمنون بها منذ عهد رسول الله . ولأجل ذلك حين قتل عثمان باجهاز المصريين عليه، بايعوا عليّاً كما بايع أهلها طوعاً ورضية . لمّا بعث عليّ قيس بن سعد أميراً على مصر بايع أهلها طوعاً إلاّ قرية يقال لها خربتا (٢) . كان هذا نواة لمذهب التشيع في تلك البلاد وإن تغلّب عليها الأمويون بعد عليّ، وقتل عمرو بن العاص والي عليّ محمّد بن أبي بكر. وجعلوا جثته في جيفة

٢ . الخطط المقرريية ١٤٩ / ٤ ، الجزري: الكامل ٣ / ٦١ حوادث عام ٣٦ . (٦٢٠)

حمار وأحرقوه بالنار ولكن للحق دولة وللباطل جوله، فهذه الأعمال الاجرامية وما ارتكبه العباسيون من الجرائم صارت سبباً لابتعاد الناس عن السلطات وتعاطفهم مع العلويين، خصوصاً عندما ذهب إليها بعض السادة الحسينيين، إلى أن قامت دولة الفاطميين وبثوا الدعاة في أفريقيا فاعتنق المصريون التشيع برغبة وجهروا بحى على خير العمل. وتفضيل على غيره، وكما جهروا بالصلاة على النبي وآله . لقد قامت في عهد الفاطميين مراسم عاشوراء وعيد الغدير، ولم تزل هذه المراسم إلى يومنا هذا. وكان التشيع مخيماً على مصر في عهد الفاطميين وضارباً أطنا به في القرى والبلدان لولا أن صلاح الدين يوسف الأيوبي أزال سلطتهم ومذهبهم من مصر بقوة السيف والنار . وهذه الصفحة في تاريخ مصر صفحة مليئة بالأسى والحزن ومع ذلك تتواجد في هذه الأيام الشيعة، وأما السنة فهم علويون روحاً وعاطفة يتفاخرون بالحب والميل لأهل البيت ويعتبرون عن ذلك بزيارتهم للمشاهد المعروفة برأس الحسين ومرقد السيدة زينب والسيدة سكينة . وبذلك يعلم حال التشيع بأفريقيا الشمالية فإن حكومة الفاطميين امتدت إلى الجزائر ومراكش وتونس وليبيا والسودان، أضف إلى ذلك أن كثيراً من العلويين ارتحلوا إلى تلك البلاد وأسسوا دويلات وكان ذلك سبباً لانتشار التشيع . الشيعة في إيران:

إن التشيع هو المذهب الساحق في إيران من أوائل القرن العاشر (٩٠٥) إلى يومنا هذا إن الدولة الصوفية هم الذين أشاعوا التشيع في إيران، بعد ملوك المغول فلو كان نجاح الثاني قليلاً، كان نجاح الصفويين كبيراً، فلو بلغ عدد النفوس في إيران الإسلامية قرابة ستين مليوناً، فالأكثرية هم الشيعة، ولا تتجاوز سائر الطوائف عن (٦٢١)

أربع ملايين والجميع يعيشون في حرية وسلام. يلمسها كل من ورد الجمهورية الإسلامية . إن هنا أموراً لا- محيص، عن طرحها وتحليلها لأنها من المواضيع التي كثر فيها اللغظ وقد أكثر المستشرقون وغيرهم فيها الصخب والهياج وهي: ١- ما هو السبب الحقيقي لدخول الفرس في الاسلام؟ ٢- ما هو السبب الحقيقي لجنوحهم إلى آل البيت؟ ٣- سببان مزعومان: الاصحار، وإرادة هدم الإسلام وإليك تحليل تلك النقاط . ١- ما هو السبب لدخول الفرس في الإسلام

إن الفرس دخلوا في الإسلام كدخول سائر الشعوب والعلّة في الجميع واحدة أو متقاربة وحاصلها أنهم وقفوا على أن في هذه الشريعة الغراء، من سمات العدل والمساواة، ورفض التمييز العنصري، والنظام الطبقي، وأن الناس فيه كأسنان المشط لافضل لعجمي على عربي، ولا- لعربي على عجمي إلا- بالتقوى، وكانت الثورة الإسلامية تحمل يوم تفجرها رايات العدل، وكان ذلك هو الدافع المهم للشعوب للدخول في الإسلام والانضواء تحت رايته، من غير فرق بين قوم دون قوم وشعب دون شعب. ٢- ما هو السبب الحقيقي لولائهم آل البيت:

إن السبب الحقيقي لولائهم و جنوحهم إلى أهل البيت هو أنهم شاهدوا أن علياً وأهل بيته - خلافاً للخلفاء عامتهم - يكافحون فكرة القومية ويطبقون المساواة فأخذوا يتحننون إليهم حيناً بعد حين، وشيراً بعد شبر، فكان ذلك نواة لبذر الولاء في (٦٢٢)

قلوب بعضهم، يرثه الأبناء من الآباء وإن لم يكن الحب - يوم ذاك - ملازماً للقول بخلافتهم عن الرسول وامامتهم بعده، بل كان حباً ووداً خالصاً لأسباب نفسية لا قيادية، ويدل على ذلك عشرات من القضايا نذكر بعضها . ١- روى الفضل بن أبي قره عن الامام الصادق - عليه السلام - قال: أتت الموالى أمير المؤمنين - عليه السلام - فقالوا: نشكوا إليك هؤلاء العرب. إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعطينا معهم العطايا بالسوية وزوج سلمان، وبلالا- وصهيباً، وأبوا علينا هؤلاء، وقالوا: لا- نفعل، فذهب إليهم أمير المؤمنين - عليه السلام - فكلّمهم فيهم فصاح الأعراب: أينا ذلك يا أبا الحسن، أينا ذلك، فخرج وهو مغضب يجزّ رداءه وهو يقول: يا معشر الموالى إن هؤلاء قد صيروكم بمنزلة اليهود والنصارى يتزوجون إليكم ولا يزوجونكم ولا يعطونكم مثل ما يأخذون، فاتّجروا بارك الله لكم، فأنى قد سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: الرزق عشرة أجزاء، تسعة أجزاء في التجارة وواحدة في غيرها(١) . ٢- روى أبو إسحاق ابراهيم بن محمّد بن سعيد الثقفي في غاراته: عن عباد ابن عبد الله الأسدي، قال: كنت

جالساً يوم الجمعة، وعلى - عليه السلام - يخطب على منبر من آجر، وابن صوحان جالس فجاء الأشعث فقال: يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على وجهك، فغضب، فقال ابن صوحان: لبيّن اليوم من أمر العرب ما كان يخفى، فقال على - عليه السلام -: من يعذرني من هؤلاء الضيافة يقبل أحدهم يتقلب على حشاياه، ويهجد قوم لذكر الله، فيأمرني أن أطردهم فأكون من الظالمين؟ والذى فلق الحبة وبرأ النسمة لقد سمعت محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: ليضربنكم والله على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً.

١ . الكلينى: الكافى ٥ / ٣١٨ .

(٦٢٣)

قال مغيرة: كان على - عليه السلام - أميل إلى الموالى وألطف بهم، وكان عمر أشدّ تباعداً منهم (١) . ٣- روى ابن شهر آشوب: لما ورد بسبى الفرس إلى المدينة أراد عمر بيع النساء، وأن يجعل الرجال عبيد العرب، وعزم على أن يحملوا العليل والضعيف، والشيخ الكبير فى الطواف وحول البيت على ظهورهم، فقال أمير المؤمنين - عليه السلام - : إنّ النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: أكرموا كريم قوم، وإن خالفوكم، وهؤلاء الفرس حكماء كرماء، فقد ألقوا إلينا بالسلم، ورغبوا فى الإسلام وقد أعتقت منهم لوجه الله حتى وحقّ بنى هاشم، فقالت المهاجرون والأنصار: وقد وهبنا حقنا لك يا أبا الرسول الله فقال: اللهم فاشهد أنّهم قد وهبوا، وقبّلت وأعتقت، فقال عمر: سبق إليها على بن أبى طالب - عليه السلام - ونقض عزمى فى الأعاجم (٢) . ٤- روى الصدوق عن الامام الصادق، قال: قال رجل له: إنّ الناس يقولون: من لم يكن عربياً صلباً، أو مولى صريحاً، فهو سفلى فقال: وأى شىء المولى الصريح، فقال له الرجل: من ملك أبواه، فقال: ولم قالوا هذا؟ قال: يقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مولى القوم من أنفسهم فقال سبحان الله: أما بلغك أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: أنا مولى من لا مولى له، أنا مولى كل مسلم، عربياً وعجمياً، فمن والى رسول الله أليس يكون من نفس رسول الله؟ ثم قال: أيهما أشرف، من كان من نفس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو من كان

١ . الثقفى الغارات ٣٤٠ طبع بيروت، الحمراء: الموالى، الضيافة جمع الضياطر: الضخام الذين لا عناد عندهم.

٢ . ابن شهر آشوب: مناقب آل أبى طالب ٤ / ٤٨ . (٦٢٤)

من نفس أعرابى جلف بايل على عقبيه؟ ثم قال: من دخل فى الإسلام رغبة، خير ممن دخل رهبة، ودخل المنافقون رهبة، والموالى دخلوا رغبة (١) . ٥- روى الفضل بن شاذان (ت ٢٦٠) أنّ عمر بن الخطاب نهى عن أن يتزوج العجم فى العرب وقال: لأنعنّ فروجهنّ إلا من الأكفاء (٢) . ٦- روى المفيد أنّ سلمان الفارسى - رضى الله عنه - دخل مسجد رسول الله ذات يوم فعظموه وقدموه وصدّروه اجلالاً لحقه، واعظاماً لشيبته واختصاصه بالمصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - فدخل عمر فنظر إليه، فقال: من هذا العجمى المتصدّر فيما بين العرب؟ فصعد رسول الله المنبر وخطب، فقال: إنّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربى على العجمى، ولا للأحمر على الأسود إلا بالتقوى، سلمان بحر لا يتزف، وكتر لا ينفذ، سلمان من أهل البيت، سلسل يمنح الحكمة ويؤتى البرهان (٣) . ٧- روى الثقفى فى «الغارات» عن مغيرة أنّه قال: كان على أميل إلى الموالى وألطف بهم، كان عمر أشدّ تباعداً منهم (٤) . ٨- وروى أيضاً: إنّ امرأتين أتتا علياً - عليه السلام - عند القسمة، إحداهما من العرب، والأخرى من الموالى، فأعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهماً، وكراً من الطعام، فقالت العربية: يا أمير المؤمنين! إننى امرأة من العرب، وهذه امرأة من العجم، فقال على - عليه السلام - إننى لا أجد لبنى إسماعيل فى هذا

١ . الصدوق: معانى الأخبار كما فى سفينة البحار ٢ مادة ولى .

٢ . الايضاح ٢٨٠ .

٣ . المفيد: الاختصاص ٣٤١ .

٤ . الغارات ٤٦ . (٦٢٥)

الفىء فضلاً على بنى إسحاق (١) . ٩- روى المفيد عن ربيعة وعمارة وغيرهما: ان طائفه من أصحاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب مشوا إليه عند تفرق الناس عنه، وفرار كثير منهم إلى معاوية، طلباً لما فى يديه من الدنيا، فقالوا له: يا أمير المؤمنين اعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب، وقريش على الموالى والعجم، ومن يخاف خلافه عليك من الناس، وفراره إلى معاوية، فقال لهم أمير المؤمنين - عليه السلام - : أتأمرنى أن أطلب النصر بالجور؟! لا والله ما أفعل ما طلعت شمس ولاح فى السماء نجم (٢) . ١٠- روى المبرد: قال الأشعث بن قيس لعلى بن أبى طالب - رحمه الله - وأتاه يتخطى رقاب الناس وعلى على المنبر، فقال: يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قريك، قال: فركض على المنبر برجله، فقال صعصعة بن صوحان العبدى: ما لنا ولهذا؟! - يعنى الأشعث - ليقولن أمير المؤمنين اليوم فى العرب قولاً - لا يزال يذكر، فقال على: من يعذرني من هذه الضياطرة يتمرغ أحدهم على فراشه تمرغ الحمار، ويهجر قوم للذكر، فأمرنى أن أطردهم، ما كنت لأطردهم فأكون فأكون من الجاهلين، والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة ليضربنكم على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً (٣) . هذه الشواهد الكثيرة توقفنا على السبب الحقيقى لتوجه الفرس والموالى إلى آل البيت وأنه لم يكن إلا لصمودهم فى طريق تحقيق العدل والمساواة، والمكافحة

١ . الغارات ٣٤١ .

٢ . المفيد: المجالس ٥٧ طبع النجف .

٣ . الكامل ٢ / ٥٣ طبع مصر سنة ١٣٣٩ هـ . (٦٢٦)

ضد العنصرية . ١- هل الاصهار كان سبباً للولاء:

روى الزمخشري فى ربيع الأبرار وغيره: ان الصحابة جاءوا بسبى فارس فى خلافة الخليفة الثانى كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا وأمر الخليفة ببيع بنات يزدجرد فقال الامام على: «ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن» فقال الخليفة: كيف الطريق إلى العمل معهن؟ فقال: «يقومن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن» «فقومن فأخذهن» على فدفع واحدة لعبدالله بن عمر وأخرى لولده الحسين وأخرى لمحبيد بن أبى بكر، فأولد عبدالله بن عمر ولده سالمًا، وأولد الحسين زين العابدين، وأولد محمد ولده القاسم، فهؤلاء أولاد خالة وأمهاتهم بنات يزدجرد (١) . وقد استند إلى هذه القصة أحمد أمين فى فجر الإسلام والدكتور حسن إبراهيم فى التاريخ السياسى للإسلام (٢) وذهب إلى أن الاصهار صار سبباً لتشيع الفرس . نحن لا نقوم حول هذه القصة وأنها هل هى صادقة أو ممّا وضعها أصحاب الأساطير، وكفانا لتكذيب هذه القصة من رأسها ما ألفه زميلنا العزيز الدكتور السيد جعفر شهيدى (٣) ولو وقفنا إلى جانب هذه القصة وسلمنا بها نساء: أى صلة بين دخول الفرس فى التشيع ومصاهرة الامام الحسين يزدجرد، فلو كانت تلك علة فليكن

تسنن

١ . ربيع الأبرار .

٢ . التاريخ الإسلام السياسى ٧ / ٢ .

٣ . الامام على بن الحسين - باللغة الفارسية - . (٦٢٧)

الفرس لاصهار عبدالله بن عمرو ومحبيد بن أبى بكر لهم، فانّ الرجلين من أبناء الخليفتين، على أن هناك من الخلفاء الأمويين والعباسيين ينسبون من جانب الأم إلى البلاط الايرانى، والحق أن تفسير إنتماء التشيع وجنوحهم إلى آل البيت على هذا الحدث منطق ضئيل أشبه بمنطق الصبيان . ٣- إرادة هدم الإسلام :

دخل الفرس فى المذهب الشيعى وتستر بحب أهل البيت لغاية هدم الإسلام تحت ذلك الغطاء وقد اعتمد عليه أحمد أمين وقال: والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آباءه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً (١) .

وقد استغلَّ الفكرة الكاتب الأمريكي «لو تروب ستودارد» في كتابه «حاضر العالم الاسلامي» الذي نقله إلى العربيَّة الأمير شكيب أرسلان، وتجد الفكرة أيضاً عند صاحب المنار ومحبَّ الدين الخطيب وغيرهم من كتَّاب العصر . وهذا الكلام أشبه بكلام من أعمى الله بصره وبصيرته، فإنَّ من نظر إلى تاريخ الفرس وجد أنَّهم خدموا الإسلام بنفسهم ونفيسهم وأقلامهم وآرائهم من غير فرق بين الشيعي والسني، وهؤلاء أصحاب الصحاح فإنَّ أكثرهم فارسي الأصل والمنشأ فقد نصَّ من بينهم على أنَّ مسلم بن الحجاج القشيري عربي وما عداه فارسي، وقد كفانا في ذلك كتب الرجال والتراجم. على أنَّ المذهب السائد بين الفرس يوم أسلموا، إلى أوائل القرن العاشر، كان هو التسنن فلو كانت الفرس أسلموا لغاية هدم الاسلام _____

١ . فجر الإسلام: فصل الشيعة .

(٦٢٨)

فقد تستروا بالسنة لا بالشيعة . دول الشيعة:

حاول الأمويون القضاء على التشيع وأراد العباسيون الوقوف في وجه انتشاره بعد اليأس عن استئصاله. ولكن نما وازدهر عبر القرون بالرغم من تلك العوائق بل قامت لهم هنا وهناك دول ودويلات نظير: ١- دولة الأدراسة في المغرب ١٩٤ - ٣٠٥ . ٢- دولة العلويين في الديلم ٢٠٥ - ٣٠٤ . ٣- دولة البويهيين في العراق وما يتصل به من بلاد فارس ٣٢١ - ٤٤٧ . ٤- دولة الحمدانيين في سوريا والموصل وكركوك ٢٩٣ - ٣٩٢ . ٥- دولة الفاطميين في مصر ٢٩٦ - ٥٦٧ . ٦- دولة الصفويين في إيران ٩٠٥ - ١١٣٣ . ٧- دولة الزندين ١١٤٨ - ١١٩٣ . ٨- دولة القاجاريين ١٢٠٠ - ١٣٤٤. أضف إلى ذلك وجود امارات للشيعة في نقاط مختلفة . إنَّ افاضة القول في مؤسسي هذه الدول وترجمة أحوالهم وما آل إليه مصيرهم يحوجنا إلى تأليف كتاب مستقل في ذلك (١) فترك المقال في ذلك فعلى القراء مراجعة الكتب المؤلفة في هذه المواضيع . _____

١ . ومن أراد الامام على وجه الايجاز فعليه الرجوع إلى كتاب «الشيعة والتشيع» للكتاب القدير محمد جواد مغنية - رضوان الله عليه . - (٦٢٩) الجامعات العلمية للشيعة:

الإسلام دين العلم والمعرفة، دفع الإنسان من حضيض الجهل والأمية إلى أعلى مستويات العلم والكمال من خلال تشجيعه على القراءة والكتابة (١)، والتدبر في آثار الكون ومظاهر الطبيعة ونبد التقليد في تبنى العقيدة فأراد للانسان حياة نابضة بالفكر والثقافة. وقد كانت للشيعة خلال القرون الماضية جامعات وحوزات علمية نشير إلى بعضها اجمالاً: ١- المدينة المنورة :

إنَّ المدينة المنورة هي المنطلق العلمي الأول، لنشر العلم والثقافة فهي المدرسة الأولى للمسلمين نشأ فيها عدَّة من الأعلام من شيعة أمير المؤمنين وعلى رأسهم ابن عباس حبر الأمة، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وأبو رافع. الذي هو من خيار شيعة الامام على مؤلَّف كتاب السنن والأحكام والقضاء (٢) وغيرهم . جاءت بعدهم طبقة من التابعين تخرَّجوا من تلك المدرسة على يد الامام على بن الحسين زين العابدين - عليهما السلام - ولقد روى الكليني عن الامام الصادق أنه قال: كان سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد بن أبي بكر وأبو خالد الكابلي من _____

١ . قال سبحانه: (إفْرَأْ يَا سَمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) وهي أول سورة نزلت على النبي الأ-كرم. وأقسم الله عزوجلَّ بالقلم وقال سبحانه: (ن والقلم). وبذلك أوقف المجتمع الانساني، على قيمة وعلو شأنه .

٢ . النجاشي: الرجال ٦٤ برقم ١ . (٦٣٠)

ثقات على بن الحسين - عليهما السلام - (١). وازدهرت تلك المدرسة في عصر الامامين الصادق والباقر - عليهما السلام - وزخرت بطالِب العلوم ووفود الأقطار الإسلامية فكان بيتهما، جامعة إسلامية يزدحم فيها رجال العلم وحملة الحديث، يأتون إليها من كل فج عميق، وقد عرفت دور الامامية في بسط العلوم في الفصل الثاني عشر . ٢- الكوفة وجامعها الكبير:

قد سبق أنَّ الامام أمير المؤمنين هاجر من المدينة إلى الكوفة واستوطن معه خيار شيعته ومن تربي على يديه من الصحابة والتابعين .

ولقد أتى ابن سعد في طبقاته الكبرى على ذكر جماعة من التابعين الذين سكنوا الكوفة (٢) ولقد أعان على ازدهار مدرسة الكوفة مغادرة الامام الصادق المدينة المنورة إلى الكوفة أيام أبي العباس السفاح حيث بقي فيها مدة سنتين . اغتم الامام فرصة ذهبية أو جدتها الظروف السياسية آنذاك وهي أن الحكومة العباسية كانت جديدة العهد وقد سقطت الحكومة الاموية . فلم يكن للعباسيين يومذاك قدرة على الوقوف في وجه الامام لانشغالهم بأمور الدولة . بالاضافة إلى أنهم كانوا قد رفعوا شعار العلويين للوصول إلى السلطة وقد نشر زمن اقامته بها علوماً جمّة . ولما انتشر نبأ وروده الحيرة تقاطرت وفود للارتواء من منهله العذب . وهذا الحسن بن علي بن زياد الوشاء يحكى لنا ازدهار مدرسة الكوفة في تلك الظروف ويقول: _____

١ . الكليني الكافي، كما في تأسيس الشيعة ٢٩٩ .

٢ . الطبقات الكبرى ٦٠ وقسمهم على تسع طبقات . (٦٣١)

أدركت في هذا المسجد - يعنى مسجد الكوفة - تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد . ويضيف النجاشي: كان هذا الشيخ عيناً من عيون هذه الطائفة وله كتب ثم ذكر اسماءها (١) . وكان من خريجي هذه المدرسة لفيف من الفقهاء الكوفيين نظراء أبان بن تغلب بن رباح الكوفي، ومحمد بن مسلم الطائفي، وزرارة بن أعين إلى غير ذلك ممن تكفل ذكرهم كتب الرجال وقد وقفت على أسماء عدّة منهم سابقاً باسم تلاميذ الامام الباقر والصادق - عليهما السلام - . ولقد ألف فقهاء الشيعة ومحدثوهم في هذه الظروف في الكوفة ٦٦٠٠ كتاب ولقد امتاز من بينها ٤٠٠ كتاب اشتهرت بالأصول الأربعمائة (٢) فهذه الكتب هي التي أدرجها أصحاب الجوامع الحديثية في كتبهم كما مرّ آنفاً . ولم تقتصر الدراسة آنذاك على الحديث والتفسير والفقهاء بل شملت علوماً أخرى ولأجل ذلك خرج منها مؤلفون كبار صنّفوا كتباً كثيرة في علوم مختلفة ومنوعه كهشام بن محمد بن السائب الكلبي ألف أكثر من مائتي كتاب (٣) وابن شاذان ألف ٢٨٠ كتاباً (٤) وابن عمير صنّف ١٩٤ وابن دول الذي صنّف ١٠٠ كتاباً (٥) وجابر بن حيان أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية إلى غير ذلك من المؤلفين العظام، في كافة العلوم الإسلامية . _____

١ . النجاشي: الرجال ١ / ١٣٧ رقم ٧٩ .

٢ . وسائل الشيعة ج ٢٠ الفائدة الرابعة وقد بينا الفرق بين الكتاب والأصل في كتابنا «كليات في الرجال» .

٣ . الطهراني: الذريعة ١ / ١٧ .

٤ . المصدر نفسه .

٥ . المصدر نفسه . (٦٣٢) -٣- مدرسة قم والري:

دخل الفرس الإسلام وكان أكثرهم على غير مذهب الشيعة نعم كانت قم والري وكاشان وقسم من خراسان مركزاً للشيعة وقد عرفت انّ الاشعريين هاجروا - خوفاً من الحجاج - إلى قم وجعلوها موطنهم ومهجرهم، وكانت تلك الهجرة نواة للشيعة في ايران . كانت مدرسة الكوفة مزدهرة بالعلم والثقافة، ولكن ربّما كانوا يعانون من الضغط العباسي . ففي هذه الفترة إلى حوالي سنة ٢٥٠ هاجر إبراهيم بن هاشم الكوفي تلميذ يونس بن عبدالرحمان وهو من أصحاب الامام الرضا - عليه السلام - إلى قم ونشر فيها حديث الكوفيين فصارت مدرسة قم والري مزدهرة بعد ذاك بالمحدثين والرواة الكبار . وساعد على ذلك، بسط الدولة البويهية نفوذهم على تلك البلدان ولقد خرج من تلك المدرسة علماء ومحدثون نظراء: ١- علي بن إبراهيم شيخ الكليني . الذي كان حياً سنة ٣٠٧ (١) . ٢- محمد بن يعقوب الكليني . المتوفى سنة ٣٢٩ . مؤلف الكافي في الفروع والأصول . ٣- علي بن الحسين بن بابويه والده الشيخ الصدوق صاحب الشرائع المتوفى ٣٢٩ . ٤- ابن قولويه أبو القاسم جعفر بن محمد (٢٨٥ - ٣٦٨) من تلامذة الكليني وأستاذ الشيخ المفيد . والذي يدل على وجود النشاط الفكرى في أوائل القرن الثالث ما رواه الشيخ في كتاب الغيبة أنه أنفذ الشيخ حسين بن روح - رضى الله تعالى عنه - النائب الخاص للإمام المنتظر - عجل الله تعالى فرجه الشريف - كتاب التأديب إلى فقهاء _____

١ . الطهراني: الذريعة ٤ / ٣٠٢ برقم ١٣١٦ .

(٦٣٣)

قم. وقال لهم: أنظروا ما في هذا الكتاب. وانظروا فيه شيء يخالفكم (١). فهذه الرواية وغيرها تعرب عن وجود نشاط فكري وفقهي في دينك البلدين في القرن الثالث والرابع، وكفى في فضلها أن كتاب «الكافي» وكتاب «من لا يحضره الفقيه» وكتب محمد بن أحمد بن خالد البرقي ت ٢٧٤ من ثمار هذه المدرسة العظيمة . ٤- مدرسة بغداد:

كانت مدرسة الكوفة تزدهر بمختلف النشاطات العلمية عندما كانت بغداد عاصمة الخلافة. ولما دبّ الضعف في السلطة العباسية وصارت السلطة بيد البويهيين تنفس علماء الشيعة في أكثر مناطق العراق فأُسِّست مدرسة رابعة للشيعة في العاصمة أنجبت شخصيات مرموقة تفتخر بها الإنسانية ومن نتائجها ظهور أعلام نظير: ١- الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣) تلك الشخصية الفذة الذي اعترف الموافق والمخالف بعلمه، ترجم له الياضي في مرآة الجنان بقوله: عالم الشيعة وإمام الرافضة، صاحب التصانيف الكثيرة، المعروف بالمفيد، وبابن المعلم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقهاء، وكان ينازع كل عقيدة بالجلالة والعظمة ومقدماً في الدولة البويهية وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة، والصوم، خشن اللباس وكان عضد الدولة ربّما زار الشيخ المفيد وكان شيخاً رابعاً، نحيفاً أسمر، عاش ستاً وسبعين سنة وله أكثر من ٢٠٠ مصنف وكان يوم وفاته مشهور وشيعة ٨٠ ألفاً من الرافضة والشيعة وأراح الله منه (٢).

١. الطهراني: الذريعة ٣ / ٢١٠ برقم ٧٧٥.

٢. مرآة الجنان ٣ / ٢٨ حوادث عام ٤١٣. (٦٣٤)

٢- السيد المرتضى . ٣- السيد الرضى وهما كوكبان في سماء العلم والأدب غنيان عن التعريف . ٤- الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) وهو شيخ الطائفة ومن أعلام الأئمة، تربى على يد شيخه المفيد والسيد المرتضى وله كتاب «التبيان في تفسير القرآن» و«التهديب» و«الاستبصار» وهما من المصادر المهمة عند الشيعة وكانت مدرسة بغداد زاهرة في عهد هذه الأعلام الثلاثة واحد بعد الآخر، وقام كل منهم بدور كبير في تطوير العلوم وتقدمها، وكان يحضر في حلقات دروسهم مئات من المجتهدين والمحدثين من الشيعة والسنة . إلى أن ضعفت سلطة البويهيين، ودخل طغرل بك الحاكم التركي بغداد، وأشعل نار الفتنة بين الطائفتين السنة والشيعة، وأحرق دوراً في الكرخ ولم يكتف بذلك حتى كبس دار الشيخ الطوسي وأخذ ما وجد من دفاتره وكتبه، وأحرق الكرسي الذي كان الشيخ يجلس عليه (١). ٦- مدرسة النجف الأشرف:

إنّ هذه الحادثة المؤلمة التي أدت إلى ضياع الثروة العلمية للشيعة وقتل الأبرياء، فدعت الشيخ لمغادرة بغداد واللجوء إلى النجف الأشرف وتأسيس مدرسة علمية شيعية في جوار قبر أمير المؤمنين - عليه السلام -، وشاء الله تبارك وتعالى أن تكون هذه المدرسة مدرسة كبرى أنجبت خلال ألف سنة من عمرها، عشرات الآلاف من العلماء والفقهاء والمتكلمين والحكماء . المعروف أن الشيخ هو المؤسس لتلك الجامعة العلمية المباركة. وهو حق

١. ابن الجوزي: المنتظم حوادث عام ٤٤٧ - ٤٤٩، ج ١٦ / ٨ و ١٦ ط بيروت .

(٦٣٥)

لا غبار عليه، ومع ذلك يظهر من النجاشي وغيره أن الشيخ ورد عليها وكانت غير خالية من النشاط العلمي. يقول في ترجمته الحسين بن أحمد بن المغيرة: له كتاب عمل السلطان. أجازنا بروايته أبو عبدالله بن الخمرى الشيخ صالح في مشهد مولانا أمير المؤمنين سنة ٤٠٠ عنه (١). ولقد استغلّ الشيخ تلك الأرضية العلمية وأعانه على ذلك، الهجرة العلمية الواسعة التي شملت أكثر الأقطار الشيعية فتقاطرت الوفود إليها، من كل فجّ، فصارت حوزة علمية وكلية جامعة في جوار النبا العظيم على أمير المؤمنين - من عصر تأسيسها ٤٤٨ - إلى يومنا هذا. ولقد مضى على عمرها قرابة ١٠٠٠ سنة. وهي بحق شجرة طيبة أصلها في الأرض وفرعها في السماء آتت أكلها كل حين باذن ربّها . إنّ لجامعة النجف الأشرف حقوقاً كبرى على الإسلام والمسلمين عبر القرون، فمن أراد الوقوف على تاريخها

والبيوتات العلمية التي أنجبتها، فعليه الرجوع إلى كتاب «ماضى النجف وحاضرها» في ثلاثة أجزاء (٢)، وقد قام الباحث، وهو الشيخ هادي الأميني بتخريج أسماء لفييف من العلماء الذين تخرّجوا من هذه المدرسة الكبرى . ٧- مدرسة الحلة: في الوقت الذي كانت جامعة النجف تزدهر وتنجب أفذاذاً، إذ أسّست الشيعة في الحلة الفيحاء جامعة كبيرة أخرى كانت تحتفل بكبار العلماء، وتزدهر بالنشاط

١ . النجاشي: الرجال ١ / ١٩٠ برقم ١٤٣ .

٢ . تأليف الشيخ جعفر آل محبوبه طبع النجف . (٤٣٦)

الفكري عقدت فيها ندوات البحث والجدل، وحلقات الدراسة والمدارس والمكاتب، وظهر في هذا الدور فقهاء كان لهم الأثر الكبير في تطوير الفقه الشيعي وأصوله نأتي بأسماء بعضهم: ١- المحقق الحلي: نجم الدين أبو القاسم جعفر بن سعيد، من كبار فقهاء الشيعة يصفه تلميذه ابن داود بقوله: الامام العلامة واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه وأقواهم بالحجة وأسرعهم استحضارا (١) توفي عام ٤٧٦ هـ . له من الكتب «شرائع الإسلام» في جزأين، وهو أثر خالد شرحة العلماء وعلقوا عليه. واختصره في كتاب أسماه «المختصر النافع» وشرحه أيضاً وأسماه «المعتبر في شرح المختصر» . ٢- العلامة الحلي، جمال الدين حسن بن يوسف (٤٤٨ - ٧٢٦ هـ) تخرّج على يد خاله المحقق الحلي في الفقه، وعلى يد المحقق الطوسي في الفلسفة والرياضيات، وعرف بالنبوغ، وهو بعد لم يتجاوز سن المراهقة، وقد بلغ الفقه الشيعي في عصره القمة، وله موسوعات فيه أجلبها «تذكرة الفقهاء» ولعله لم يؤلف مثله . ٣- فخر المحققين، محمد بن الحسن بن يوسف (٤٨٢ - ٧٧١ هـ) ولد العلامة الحلي، تتلمذ على يد أبيه ونشأ تحت رعايته وعنايته، وألف والده لفييفاً من كتبه بالتماس منه، وقد تتلمذ عليه امام الفقه الشهيد الأول (٧٣٤ - ٧٨٦ هـ) . إلى غير ذلك من رجال الفكر كابن طاووس وابن ورام، وابن نما وابن أبي الفوارس الحليين، الذين احتلفت بهم مدرسة الحلة، ولهم على العلم وأهله أيادي بيضاء لا يسعنا ذكر حياتهم .

١ . ابن داود: الرجال / القسم الأول ٤٢ برقم ٣٠٤ .

(٤٣٧) ٨- الجامع الأزهر:

امتد سلطان الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ونافت الدولة الفاطمية الشيعية، خلافة الحكام العباسيين في بغداد، وكان المعز لدين الله أحد الخلفاء الفاطميين بمصر رجلاً مثقفاً ومولعاً بالعلوم والآداب وقد اتخذ بفضل تدبير قائده العكسرى القاهرة عاصمة للدولة الجديدة، وبنى الجامع الأزهر، وعقدت فيه حلقات الدرس، وكان يركز على نشر المذهب الشيعي بين الناس وقد أمر أن يؤذن في جميع المساجد بـ «حي على خير العمل» ومنع من لبس السواد شعار العباسيين . إن المسلمين عامة وفي طليعتهم المصريين مدينون في ثقافتهم وازدهار علومهم وتقدمهم في مجال العلم والصنعة للفاطميين وهمهم العالية، فإن الجامع الأزهر لا يزال مزدهراً من يوم بنى إلى يومنا هذا كأعظم الجامعات العلمية (١) وهي كانت جامعة شيعية من بدء تأسيسها إلى قرنين . وإن شئت أن تقف على صورة صغيرة من خدماتهم الجليلة فاقراً ما كتبه السيد مير علي: «كان الفاطميون يشجعون على العلم، ويكرمون العلماء فشيّدوا الكليات والمكاتب العامة، ودار الحكمة، وحملوا إليها مجموعات عظيمة من الكتب في سائر العلوم والفنون، والآلات الرياضية، لتكون رهن البحث والمراجعة، وعينوا لها أشهر الأساتذة، وكان التعليم فيها حرّاً على نفقة الدولة كما كان الطلاب يمنحون جميع الأدوات الكتابية مجاناً، وكان الخلفاء يعقدون المناظرات في شتى فروع العلم، كالمنطق والرياضيات والفقه والطب، وكان الأساتذة يتشحون بلباس خاص عرف بالخلعة، أو العباءة الجامعية - كما هي الحال

١ . بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ / ١٠٨ .

(٤٣٨)

اليوم - وأرصدت للانفاق على تلك المؤسسات وعلى أسانذتها، وطلّابها وموظفيها أملاك بلغ إيرادها السنوي ٤٣ مليون درهم،

ودعى الأساتذة من آسيا والأندلس لالقاء المحاضرات في دار الحكمة، فازدادت بهم روعة وبهاء (١). وقد ألّف غير واحد من المؤرخين كتباً ورسائل حول الأزهر الشريف ومن أراد التفصيل فليرجع إليه . مدارس الشيعة في الشامات: كانت الشيعة تعيش تحت الضغط والارهاب السياسي من قبل الأمويين والعباسيين، ولما دبّ الضعف في جهاز الخلافة العباسي وظهرت دول شيعية في العراق خصوصاً دولة الحمدانيين في الموصل وحلب، استطاعت الشيعة أن تجاهر بنشاطها الثقافي، وفي ظل هذه الحرية أسست مدارس شيعية في جبل عامل، وحلب فقد خرج من مدرسة حلب شخصيات كبيرة كأبناء زهرة وغيرهم. الذين احتفل تاريخ حلب الشهباء بذكرهم، وأما مدرسة جبل عامل فقد كانت تتراوح بين القوة والضعف، إلى أن رجع الشهيد الأوّل من العراق إلى مسقط رأسه تتراوح بين القوة والضعف، إلى أن رجع الشهيد الأوّل من تلك المدرسة في نفسها نشاطاً، واسعاً، وقد خرج من تلك المدرسة منذ تلك العهود إلى يومنا هذا مئات من الفقهاء والعلماء لا يحصيها إلاّ الله سبحانه، ومن أكبر الشخصيات المنتجة في هذه المدرسة المحقق الشيخ علي الكركي (ت ٩٤٠) مؤلف «جامع المقاصد» وبعده الشيخ زين الدين المعروف بالشهيد الثاني (٩١١ - ٩٦٦) الذي كان منذ صباه تظهر منه ملامح النبوغ والذكاء، وله الأثر الخالد الروضة البهية في شرح اللمعة دمشقية» .

١. السيد مير علي: مختصر تاريخ العرب ٥١٠ ط ١٩٣٨ .

(٦٣٩)

هذا غيض من فيض وقليل من كثير ممّن أنجبته هذه التربة الخصبة بالعلم والأدب. ولنكتف بهذا المقدار من الإشارة إلى الجامعات الشيعية فإنّ الاحصاء يحوجنا إلى بسط في المقال، ويطيب لنا الإشارة إلى أسماء المعاهد الأخرى مجردة. جامعات أخر للشيعة في أقطار العالم:

كانت للشيعة جامعات في أقطار العالم ولم تزل بعضها زاهرة إلى اليوم. إنّ الشرق الاسلامي كافغانستان والباكستان والهند تزخر بالشيعة ولهم هناك جامعات وكليات في هرات وبمباي ولكهنو، كما أنّ للشيعة نشاطات ثقافية في آسيا الجنوبية الشرقية كماليزيا وتايلند، ومن أراد الوقوف على الخريجين من هذه المدارس فعليه أن يقرأ تاريخ هذه البلاد خصوصاً بلاد الهند . فمذ تسّم الصفويون منيّة الحكم أسست في ايران حوزات فقهية، كلامية، فلسفية زاهرة، وقد تخرج منها آلاف من العلماء كجامعة اصفهان، وطهران، وخراسان، وتبريز، وقزوين، وزنجان، وشيراز وأخيراً الجامعة الكبرى للشيعة في قم المحمية بجوار الحضرة الفاطمية التي أسسها رجل العلم والزهد الشيخ عبدالكريم اليزدي (١٢٧٤ - ١٣٥٥) سنه ١٣٤٠ هـ، ولم تزل هذه الجامعة مشعّة زاهرة، وقد تقاطرت إليها الأساتذة ووفود الطلاب من نقاط شتى، من جنسيات مختلفه منذ أوّل يومها ويتجاوز عدد الطلاب فيها في هذه السنين ٢٥٠٠٠ وفيها مكاتب زاخرة، ومؤسّسات علمية، ومراكز تحقيقية، ومطابع حديثة، وعمالقة الفكر وأساتذة القلم، ومنها تفجّرت الثورة الإسلامية على يد أحد خريجها الامام الخميني - قدس سره - فانبثقت أنوارها على ربوع العالم وأيقظت الأمة من سباتها العميق . (٦٤٠) عدد الشيعة:

إنّ مراكز الاحصائيات في العالم تخضع لنفوذ أعداء الإسلام خصوصاً الصهاينة، وقد صار ذلك سبباً لعدم وجود احصاء دقيق بأدينا عن عدد المسلمين وعامة طوائفهم ومنهم الشيعة. ولكن القرائن تشهد على أنّ الشيعة بطوائفها الثلاث: الإمامية والزيدية والاسماعيلية يشكّلون خمس أو ربع المسلمين، فلو كان عدد المسلمين - على ما يقولون - مليار نسمة فالشيعة تبلغ ٢٠٠ مليون، وأكثرهم عدداً هم الإمامية المعروفة بالاثني عشرية أو الجعفرية . نسأله سبحانه أن يرفع كلمة التوحيد في ربوع العالم، ويوفّق المسلمين لتوحيد الكلمة وحرص الصفوف إنّه على ذلك لقدير .

الفصل الرابع عشر مصادر الأصول والفروع عند

الفصل الرابع عشر مصادر الأصول والفروع عند الإمامية (٦٤٢) (٦٤٣)

إنّ بعض المتعصّبين يحاولون التشكيك في انتهاء الشيعة الامامية في مذهبهم إلى أئمة أهل البيت وقد نقل هذه المحاولة السيد عبدالحسين شرف الدين في مراجعته (١). ولا شك أنّ هذه المحاولة فاشلة، ولا نحتاج إلى بسط في الجواب وربما يتّضح استناد مذهبهم إلى أئمة أهل البيت - عليهم السلام - ممّا مضى في الفصل الحادى والثانى عشر . يقول السيد شرف الدين: إنّ الشيعة الامامية في الفروع والأصول وسائر ما يؤخذ من الكتاب والسنة أو يتعلّق بهما من جميع العلوم، لا يعولون في شيء من ذلك إلاّ عليهم ولا يرجعون فيه إلاّ إليهم، فهم يدينون الله تعالى ويتقرّبون إليه بمذهب أئمة أهل البيت - عليهم السلام - لا يجدون عنه حولا ولا يرتضون به بدلا. على ذلك مضى سلفهم الصالح في عهد أمير المؤمنين والحسن والحسين. والأئمة التسعة من ذريّة الحسين - عليهم السلام - إلى زماننا هذا وقد أخذ الفروع والأصول عن كل واحد منهم جمّة من ثقات الشيعة وحفّاظهم (٢).

١ . راجع المراجعات ١٠٩ .

٢ . المراجعات ٣٠٣ المراجعة ١١٠ . (٦٤٤)

إنّ الشيعة يتّخذون الكتاب مصدراً رئيسياً في العقيدة والتشريع كما يتّخذون سنة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مصدراً رئيسياً ثانياً ويعملون بحكم العقل في المجال الذي له صلاحية القضاء، ويتّخذون من الاجماع دليلاً فيما لو كشف عن الدليل الشرعى وهذا ممّا لا شك فيه . ولكن انّ في الكتاب عمومات ومطلقات وقد خصّصت في السنة كما أنّ فيه مجملات تطلب لنفسها بياناً من السنة، والشيعة ترجع إلى أئمة أهل البيت في هاتيك الموارد لأجل أنّ كلامهم وقولهم هو كلام وقول النبي الأكرم وهناك مسائل مستحدثة وأمور طارئة لا يجد لها الفقيه حولا في السنة النبوية. لأنّها طرأت بعد رحلة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقام أئمة أهل البيت بالاجابة عنها من غير فرق بين مجالى الالتزام والعمل . هذا هو مذهب الامامية وعلى ذلك جرى سلفهم وخلفهم من عصر أمير المؤمنين إلى يومنا هذا . إنّ انتماء الشيعة الامامية إلى أئمة أهل البيت أظهر من الشمس، وقد تعرّفت على الرواة الثقات الذين أخذوا الأصول والفروع عن الباقر والصادق والكاظم والرضا - عليهم السلام - ، كما تعرّفت على الجوامع التي دونها أصحابهم في تلك العصور وكانت الجوامع مفزعا للشيعة في عصر الأئمة، حتّى عصر الغيبة لأنها تحتوى علوم أهل البيت - عليهم السلام - . ولما كانت هذه الجوامع غير خالية عن النقص الفنّى في التبويب وغير جامع لما تركه أئمة أهل البيت من العلوم والمعارف قام المحمّدون الثلاثة بتأليف جوامع ثانوية أحسن ترتيباً وتبويباً وأكثر شمولاً . ١- محمّد بن يعقوب الكليني ولد في عهد امامة العسكري (٢٥٤ - ٢٦٠) وتوفى عام ٣٢٩ فهو أوثق الناس في الحديث وأعرفهم به، صنّف كتاب الكافي (٦٤٥)

وهذبه في عشرين سنة (١) ولقد حصروا أحاديثه في ستة عشر الف حديث ومائة وتسعة وتسعين حديثاً (١٦١٩٩) والصحيح منها باصطلاح المتأخرين خمسة آلاف واثنان وسبعون حديثاً، والحسن مائة وأربعة وأربعون حديثاً، والموثق مائة حديث وألف حديث وثمانية عشر حديثاً، والقوى منها اثنان وثلاثمائة، والضعيف منها أربعمائة وتسعة آلاف وخمسة وثمانون حديثاً (٢) . وقال الشهيد في الذكري: «إنّ ما في الكافي يزيد على ما في مجموع الصحاح الستة للجمهور وعدّه كتب الكافي اثنان وثلاثون كتاباً» (٣) . وقال في كشف الظنون نقلاً عن الحافظ «ابن حجر»: إنّ جميع أحاديث صحيح البخارى بالمكرّر سوى المعلقات والمتابعات على ما حرّرتة وحققته سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثاً، والخالص من ذلك بلا تكرير الفا حديث وستمائة وحديثان، وإذا انضم إليه المتون المعلقة المرفوعة وهى مائة وخمسون حديثاً، صار مجموع الخالص ألفى حديث وسبعائة وواحد وستون حديثاً . وروى ايضاً عن مسلم أنّ كتابه أربعة آلاف حديث دون المكررات وبالمكررات سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون حديثاً . وقال أبو داود فى أوّل سننه: «وجمعت فى كتابى هذا أربعة آلاف حديث وثمانية أحاديث فى الصحيح وما يشبهه وما يقاربه» (٤) . ٢- محمّد بن على بن الحسين الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١) مؤلّف «من

١ . النجاشى: الرجال برقم ١٠٢٧ .

٢ . لؤلؤة البحرين للمحدث البحرانى وما ذكره عند الجمع يتقص ٧٨ حديثاً فلا حظ .

٣. الذكرى ٦.

٤. كشف الظنون كما في مستدرک الوسائل ٣ / ٥٤١، لاحظ فتح الباری فی شرح أحادیث البخاری ١ / ٤٦٥. (٦٤٦)
لا يحضره الفقيه» وهو الجامع الثاني للشيعة. إن أحاديث كتاب الفقيه لا تتجاوز عن ٥٩٦٣ حديثاً منها ألفان وخمسون حديثاً مراسلاً.
٣- محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠) مؤلف تهذيب الأحكام والاستبصار وعدد أحاديث الأول ١٣٥٩٠ (١) وعدد أحاديث الثاني ٥٥١١ حديثاً كما ذكره المؤلف في آخر الكتاب. هذه هي الكتب الأربعة، المصادر المهمة عند الشيعة. الجوامع الحديثية الأخيرة:
إن هناك لفيفاً من العلماء قاموا بجمع روايات الكتب الأربعة وإليك ايعاز إلى أسماء مؤلفيها. ١- محمد بن الحسن الحر العاملي توفي ١١٠٤ مؤلف كتاب تفصيل وسائل الشيعة طبع في عشرين جزءاً في الفروع والأحكام فقط، ولم يجمع ما يرجع إلى الأصول والعقائد. ٢- محمد بن المرتضى المعروف بالفيض ١٠٩١ مؤلف الوافي في ١٤ جزء في الفروع والأصول والسنن والأحكام ولو طبع الكتاب طبعه حديثه بلغ ٣٠ جزءاً. ٣- المجلسي محمد باقر ١٠٢٧ - ١١١٠ مؤلف بحار الأنوار في ١١٠ أجزاء وهو من أبسط الجوامع وأكثرها شمولاً. وهناك جوامع أخرى طوينا الكلام عنها فمن أراد فليرجع إلى مظانها. _____
١. المستدرک ٣ / ٧٥٦.

(٦٤٧)

هذه هي المصادر التي تفرع إليها الشيعة في أصولها وفروعها أتينا على ذكرها على وجه الاجمال ليكون القارئ على بصيرة. هذا هو مذهب الشيعة وهؤلاء هم خلفهم وسلفهم، ومبدأ نشوتهم، وهذه آراؤهم وعقائدهم، وهؤلاء أئمتهم، وهذه بلدانهم ودولهم، وعدد نفوسهم، وهذه جامعاتهم وحوزاتهم، فهم أمة منتشرة في العالم وبلادهم مفتوحة لكل قاصد، وهذه كتبهم المعبرة عن تاريخهم وعقائدهم وعقائدهم وكيانهم وشرفهم وهذا تاريخهم المأساوي جزاءً للخدمات الجليلة التي قدموها للحضارة الإسلامية بأفكارهم وآرائهم وأقلامهم وكتبهم. (٦٤٨) (٦٤٩) خاتمة المطاف: بيان لكتابات المقالات ومؤرخي العقائد
لقد حصص الحق وبانت الحقيقة لذوي النصفة ونختم الكتاب بذكر أمور مهمة ربما مضى البحث عن بعضها في الفصول السابقة وإليك البيان. الأول: إن التشيع لم يكن فكرة سياسية ابتدعتها الأهواء، وطبعته بطابع الدين، ولا عقيدة دينية لا تمت إلى الإسلام بصله، بل هو نفس الإسلام في مجالى العقيدة والتشريع، جاء به النبي الأكرم في كتابه وسنته، وليس التشيع إلا تعبيراً آخر عن الإسلام، في إطار ولاء أهل بيته الطاهرين وتتبع آثارهم وأقوالهم وآرائهم. الثاني: إن كل ما تدين به الشيعة التزاماً وعملاً، له مصدر متسالم على صحته عند أهل السنة، وأنهم لو نظروا إليه بعين الانصاف وطلب الحقيقة، وابتعدوا عن كل رأى مسبق، لوجدوا الفوارق الموجودة بين الطائفتين أموراً واقعية لها دليل في الكتاب والسنة، حتى في الأمور التي يستنكرونها في بدء الأمر، كالقول بالبداء، (٦٥٠)
وعصمة الامام وميلاد المهدي المنتظر، وحياته فعلاً وكون الأئمة محصورين في اثني عشر. الثالث: إن الشيعة ليست من الفرق البائدة التي خيم الظلام عليها، وعلى آثارهم وصارت مستورة تحت أطباق الثرى، حتى لا يعاب فيه التقول والحدس والتخمين، وإنما هي فرقة حية منتشرة في العالم ولهم بلاد واسعة، وحكومات قائمة، وجامعات وكليات، ومعاهد وحلقات، ومكتبات غاصة بالكتب، فعلى طالب الحقيقة ومؤرخ العقائد أن يتصل بعلمائهم عن كتب أو أن يرجع إلى الكتب المؤلفة بأيدي علمائهم الذين اجتمعت كلمتهم على وثاقته وعلمه ومعرفته ويجتنب عن الرجوع إلى كتب المتطفلين على موائد العربية من مستشرق حاقد، أو كاتب متحامل، بل يجتنب عن الجروع إلى كتاب عالم من الشيعة إذا لم تجتمع كلمتهم على وثاقته وعلمه أو صحته نظريته، إذ في كل طائفة غال متنكب عن الصراط، خابط خبطة عشواء، رفض العلماء كتابه وكلامه.

إن بين كل طائفة ومنهم الشيعة كاتب غال خلط الغث بالسمين، والصحيح بالزائف، وربما تكون له مكانة علمية و - مع ذلك - لا يصح الاستناد إلى مثل ذلك الكاتب ولا إلى كتابه، بل يطرح الشاذ، ويؤخذ بالمجمع عليه أو المشهور بينهم. إن المستند لرمى التشيع بالاعتقاد بالتحريف في هذه الأيام هو كتاب «فصل الخطاب» الذي ألفه الشيخ المحدث النوري، وجمع مواده من هنا وهناك من غير

تحقيق في السند ولا تحليل في الدلالة، ولكن الاستناد إلى هذا الكتاب ورمى طائفة كبيرة بهذه التهمة الشائنة تقوّل بالباطل، لأن علماء الشيعة أنكروا هذا الكتاب (٦٥١)

على المؤلف من أول يوم نشره، وأخذوا بالردّ عليه رداً عنيفاً (١) ولو كان تأليف ذلك الكتاب دليلاً على قول الشيعة بالتحريف فليكن كتاب «الفرقان» الذي عرّفه أحد الأزهرين المعاصرين دليلاً على قول السنّة بها . الرابع: التعرّف الصحيح على المبادئ التي تعتمد عليها كل طائفة في مجال الالتزام القلبي يحصل من خلال السبر في الكتب العقائدية الكلامية المؤلّفة بيد عمالقة الفكر منهم، وأمّا الكتب الحديثية المعتمدة فيما أنّ فيه الصحيح والسقيم، والمشهور والشاذ، والمحكم والمتشابه، فلا يصحّ الاستناد إلى رواية رويت في كتب الحديث في مجال تبين عقائد الفرق، فلو وجد في الكافي الذي هو من أتمن الكتب الحديثية عند الشيعة ما يصاد المشهور بين العلماء، لما صحّ لنا الاعتماد عليه وترك ما ذهب إليه المشهور من علمائهم، فليس معنى كون الكتاب معتبراً أنّ جميع ما ورد فيه قابل للالتزام والعمل، وهذا أمر واضح لدى الشيعة عامة، وإن غفل عنه كتاب تاريخ الفرق . الخامس: إنّ هناك فرقاً بين الجوامع الحديثية عند الشيعة والصحيح عند السنّة، فإنّ الأولى لديهم كتب معتبرة بمعنى أنّها صالحة للرجوع إليها بعد تمحيصها وتمييز الجيد من الرديء فيها. وعلى ضوء ذلك لا يكون وجود الحديث فيها دليلاً على كون مضمونه حجّة في مفاده. وأمّا الصحيح عند السنّة فيما أنّ أكثرهم أضفى على الجميع وصف الصحة فللقائل أن يتصوّر أنّ وجود الحديث فيها دليل على كون مضمونه مذهباً لأهل السنّة .

١ . ردّ عليه في حياته وبعده لفيف من العلماء أخص بالذكر العلامة الحجة: الشيخ محمد هادي معرفة بكتاب أسماء صيانة القرآن عن التحريف وقد طبع وانتشر .

(٦٥٢) السادس: إنّ المطلوب في العقائد، غير المطلوب في الأحكام فالغاية من الثانية هي العمل وإن لم يكن اذعان بصحّته وكونه مطابقاً للواقع، بل يكفي قيام الدليل على جواز تطبيق العمل عليه. بخلاف الأولى فإنّ الغرض المنشود منها هو الاعتقاد والايمان، ومن المعلوم أنّ اليقين رهن مقدّمات مفيدة لليقين ومجرد وجود خبر حتّى الصحيح في الجوامع الحديثية لا يؤدّي إلى اليقين فلا يمكن أن يحتجّ بها في مجال العقيدة إلّا إذا كانت مفضية إلى اليقين، والاذعان، والخبر الواحد، وإن صحّ، حال من هذا الشأن . السابع: عرفت الشيعة بالتقيّة وأنهم يتقون في أقوالهم وأفعالهم، فصار ذلك مبدأ لوهم عالق بأذهان بعض المشاغبين والمغالطين فيقولون: بما أنّ التقيّة من مبادئ التشييع فلا يصحّ الاعتماد بكل ما يقولون ويكتبون وينشرون إذ من المحتمل جداً أن تكون هذه الكتب دعايات والواقع عندهم غيرها. هذا ما نسمعه منهم مرّة بعد مرّة، ويكرّره الكاتب الباكستاني «إحسان إلهي ظهير» في كتبه الرديّة على الشيعة . ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ مجال التقيّة أنّما هي القضايا الشخصية الجزئية أي عند وجود الخوف على النفس والنفس، فإذا دلّت القرائن على أنّ في اظهار العقيدة أو تطبيق العمل على مذهب إمام من أئمة أهل البيت احتمال توجّه الضرر، يصير المورد من مواردها ويحكم العقل والشرع بلزوم الاتقاء حتّى يصون بذلك نفسه ونفيسه عن الخطر. وأمّا الأمور الكليّة الخارجة عن إطار الخوف فلا يتصوّر فيها التقيّة، والكتب المنتشرة من جانب الشيعة داخله في النوع الثاني إذ لا خوف هناك حتّى يكتب خلاف ما يعتقد، بل لا ملزم للكتابة أصلاً فله أن يسكت ولا يكتب شيئاً . (٦٥٣)

فما يدعيه هؤلاء أنّ هذه الكتب دعايات لا واقعات ناش عن عدم عرفانهم لحقيقة التقيّة عند الشيعة . والحاصل: أنّ الشيعة أنّما كانت تتقى في عصر لم تكن لهم دولة تحميهم، ولا قدرة ومنعه تدفع عنهم، وأمّا هذه الأعصار فلا مسوغ ولا مبرر للتقيّة إلّا في موارد خاصة .

إنّ الشيعة منذ أن تعرضوا للضغط، عاشت عندهم التقيّة على مستوى الفتاوى، ولم تعش على المستوى العملي، بل كانوا عملياً من أكثر الناس تضحية، وبوسع كل باحث أن يرجع إلى مواقف الشيعة مع معاوية وغيره من الحكام الامويين، والحكام العباسيين، كحجر بن عدى، وميثم التمار، ورشيد الهجري، وكميل بن زياد، ومئات من غيرهم، وكمواقف العلويين على امتداد التاريخ وثوراتهم المتتالية (١)

. إن القول بالتقية ليس شيئاً مختصاً بالشيعة، بل يقول به المسلمون جميعاً هذا أبو الهذيل العلاف رئيس المعتزلة يقول: إن المكره إذا لم يعرف التعريض والتورية فيما أكره عليه فله أن يكذب ويكون وزر الكذب موضوعاً عنه (٢). بل يقول به كل مسلم واع، وكل كاتب قدير وناطق مصقع، يعيش في بلاد يسود عليه الاستبداد وسلب الحريات الاجتماعية والسياسية بمختلف اشكاله وصوره. الثامن: لم يزل أهل السنة يصفون المسانيد والسنن بالصحاح وربما يغالون في حق بعض الصحاح كالبخاري بأنه أصح الكتب بعد كتاب الله. أو ليس هذا مغالاةً

١. الدكتور أحمد الوائلي: هوية التشيع ٢٠٣.

٢. أبو الحسن الخياط: الانتصار ١٢٨. (٦٥٤)

في القول؟ وإن كنت في شك من ذلك فاستمع لما نتلوه عليك عن ذلك الكتاب الذي هو الأصح في زعمهم بعد كتاب الله. ١- روى في تفسير سورة الاسراء ان جبرائيل ليلة أسرى بالنبي إلى السماء جاءه بقدرين، أحدهما من لبن وآخر من خمر، وخيره بين شرب واحد منهما (١). أفيصح في منطق العقل أن يأتي جبرئيل في تلك الليلة بقدر من الخمر التي وصفها رسول الله بأمر الخبائث ووصفه الكتاب العزيز بأنه من عمل الشيطان؟! ولا يصح لمتقو أن يفسرها بخمر الجنة التي لا سكر فيها وهو بعد في الدنيا؟ ٢- روى عن عائشة أنها قالت: سحر النبي حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله (٢). فعلى ذلك لا يحصل أي ثقة بكلام النبي وقوله، ولأجل ذلك نرى ان الجصاص يقول في حق هذه الروايات: ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين (٣). ٣- وأخرج في صحيحه في كتاب الغسل باب إذا جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد عن أنس بن مالك قال: كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يدور على نسائه في الساعة الواحدة في الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قال: قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين (٤). إن النبي الأكرم كان يقضى ليلة بالتهجد والعبادة، قال سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ أَوْ نِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) (٥)

١. البخاري ج ٤ باب صفة إبليس وجنوده.

٢. أحمد بن حنبل: المسند ٥ / ٦.

٣. الجصاص: احكام القرآن ١ / ٥٥.

٤. البخاري: الصحيح ٦ / ١٣.

٥. المزمل / ٢٠. (٦٥٥)

وما جاء في الرواية إنما يلائم حال الخلفاء الامويين والعباسيين الذين كانت قصورهم تزخر بالجوارى والنساء وحاشا النبي الأكرم الذي عبد الله سبحانه حتى تورمت قدماه ونزل قوله سبحانه: (طه) * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى (١). إن الرواية وضعت لتبرير أعمال هؤلاء الذين يعرفهم الامام في كتابه إلى عامله بالبصرة، عثمان بن حنيف ويقول: «كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسله شغلها تقمّمها» (٢) ولا يهمهم سوى ارضاء البطن والفرج. ٤- والعجب أنه روى عن عائشة خلاف ذلك وأنه لم يكن للنبي الأكرم الطروقة وقوة النكاح وكثرة الجماع قالت: إن رجلا سأل رسول الله، عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل (لا ينزل منه المنى) هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل (٣). حاشا نبي العظمة والقداسة أن يتفوه بحضرة زوجته ما لا يتكلم به إلا الإنسان الماجن، المنهمك في الشهوات البهيمية، والله سبحانه يصف حياته بقوله: (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ مِنَ الْحَقِّ) (٤). هذه نماذج من الأحاديث الواردة في أصح الكتب عند أهل السنة، لا أظن أن من يملك شيئاً من الدراية يحتمل صحتها، وهذا يدفع كل مسلم واع إلى دراسة هذه الكتب من جديد، وتنزيه الحديث النبوي عن هذه الأباطيل، ولعلك إذا رجعت إلى

١. طه / ١ - ٢ .

٢. الرضى: نهج البلاغة، قسم الكتب ٤٥ .

٣. مسلم: الصحيح ١ / ١٨٦ باب وجوب الغسل بالتقاء الختانين .

٤. الأحزاب / ٥٣ . (٤٥٦)

الجزء الأول من موسوعتنا في مجال التوحيد والتنزيه تجد هناك أحاديث لا يصدقها العقل ولا النقل . التاسع: لقد ذكر أبو زهرة سبب نمو المذهب الامامي، وقال:

«لقد نما هذا المذهب وانتشر لأسباب: ١- إن باب الاجتهاد مفتوح عند الشيعة، وهذا يفتح باب الدراسة لكل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية . ٢- كثرة الأقوال في المذهب - أى فى المسائل الفقهية النظرية - واتساع الصدر للاختلاف مادام كل مجتهد يلتزم المنهاج المسنون، ويطلب الغاية التي يبتغيها من يريد محص الشرع الاسلامي، خالصاً غير مشوب بأية شائبة من هوى . ٣- إن المذهب الجعفرى قد انتشر فى أقاليم مختلفة الألوان من الصين إلى بحر الظلمات حيث اوربا وما حولها، وتفريق الأقاليم التي تتباين عاداتهم وتفكيرهم وبيئاتهم الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية. إن هذا يجعل المذهب كالنهر الجارى فى الأرضين المختلفة الألوان، يحمل فى سيره، ألوانها وأشكالها من غير أن تتغير فى الجملة عدوبته . ٤- كثرة علماء المذهب الذين يتصدون للبحث والدراسة وعلاج المشاكل المختلفة، وقد آتى الله ذلك المذهب من هؤلاء العلماء عدداً وفيراً عكفوا على دراسة وعلاج المشاكل على مقتضاه (١) . العاشر: نجد بعض المشاغبين يتهمون الشيعة بالقول بالتحريف، بحجة أن لدى الشيعة مصحفاً باسم «مصحف فاطمة» واختصاصه بها كاشف عن مغايرته مع المصحف الراجح .

١. أبو زهرة: الامام الصادق، بتلخيص محمد جواد مغنية فى كتابه الشيعة والتشيع ٢٢٥ .

(٤٥٧)

إن هذا المشاغب، لم يقرأ تاريخ الشيعة ولم يقف على كلمات أئمتهم حول هذا المصحف. وزعم أن المصحف بمعنى القرآن، وغفل عن أن المقصود منه، هو الكتاب قال سبحانه: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) (١) وقد أملى النبي الأكرم فى مجالى العقيدة والتشريع والملاحم أموراً على ابنته وزوجها فجمعت فى «صحف مكرمة»، سميت مصحف فاطمة. وهذا هو الامام الصادق حفيد فاطمة الطاهرة وهو من أهل البيت، وهم أدرى بما فى البيت، يحدثنا عن هذا المصحف ويقول: عندنا مصحف فاطمة أما والله ما فيه حرف من القرآن ولكنه املاء من رسول الله . روى الكليني أن المنصور سأل فقهاء أهل المدينة عن مسألة فى الزكاة فما أجابه عنها إلا الإمام الصادق ولما سُئل من أين أخذ هذا؟ قال: من كتاب فاطمة (٢) . نرى ان الامام يعبر عن مصحف فاطمة بكتاب، مشيراً إلى أنه كتاب لا قرآن يختص به . فإذا كان الغرض هو التعرف على الواقع فهذا هو الواقع. وإن كان الهدف هو الشغب فالأولى بهذه النسبة هى عائشة، روى السيوطى أنه قالت حميدة بنت أبى يونس: قرأ أبى وهو ابن ثمانين سنة فى مصحف عائشة: ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وعلى الذين يصلون فى الصفوف الأولى (٣) . * * *

١. التكوير / ١٠ .

٢. الكليني الكافي ٣ / ٥٠٧ ط طهران .

٣. الاتقان ٢ / ٢٥ . (٤٥٨)

هذه من الشيعة الامامية وهذا تاريخها المشرق وهؤلاء أئمتها أهل البيت وهذه عقائدها الوضاعة، وهؤلاء علماءها وأبطالها المشاركون فى بناء الحضارة الإسلامية وهذه وهذه وهذه . فماذا بعد الحق إلا الضلال. نسأله سبحانه أن يتفضل علينا بتوحيد الكلمة كما أولانا بكلمة التوحيد إنه خير مدعو وخير مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . قم - مؤسسة الإمام الصادق - عليه السلام - جعفر السبحاني

فهرس مصادر الكتاب

- فهرس مصادر الكتاب القرآن الكريم حرف الألف: ١- أبو العباس السفاح: محمد أحمد براق . ٢- الاتقان: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) دار ابن كثير، بيروت . ٣- اثبات الهداة: الحر العاملي: محمد بن الحسن (م ١١٠٤ هـ) المطبعة العلمية، قم . ٤- اثبات الوصية: المسعودي: علي بن الحسين بن علي (م ٣٤٥ هـ) قم - ١٤٠٤ هـ . ٥- الإثنا عشرية وأهل البيت: محمد جواد مغنية . ٦- الإحتجاج: أبو منصور: أحمد بن علي الطبرسي (من اعلام القرن السادس)
- مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ٧- أحسن التقاسيم: شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، طبع ليدن - ١٩٠٦ م . ٨- الأحكام السلطانية: الماوردى: علي بن محمد البصري (م ٤٥٠ هـ) دار الكتب العلمية، بيروت . ٩- أحكام القرآن: الجصاص: أحمد بن علي (م ٣٧٠ هـ) دار الكتب العربي، بيروت - ١٤٠١ هـ . (٦٧٢) ١٠- أخبار اصبهان: أبو نعيم الاصفهاني: أحمد بن عبدالله (م ٤٣٠ هـ) انتشارات جهان، طهران . ١١- أخبار النحويين واللغويين: ابن النديم (م ٣٨٥ هـ) . ١٢- الاختصاص: الشيخ المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦ - ٤١٣ هـ)
- مؤسسه النشر الاسلامي، قم . ١٣- الأربعون حديثاً: النبهاني . ١٤- الارشاد: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (م ٤١٣ هـ) طبع قم - ١٤٠٢ هـ . ١٥- الأرض والتربة الحسينية: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (م ١٣٧٣ هـ) . ١٦- الاستيعاب: أبو عمرو: يوسف بن عبدالله بن عبدالبز، دار نهضة مصر، القاهرة . ١٧- أسد الغابة: ابن الأثير: علي بن أبي الكرم (م ٦٣٠ هـ) دار احياء التراث العربي بيروت . ١٨- الإصابة: ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت . ١٩- أصل الشيعة وأصولها: الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ) مطبعة العرفان، صيدا - ١٣٥٥ هـ . ٢٠- أصول الدين: محمد بن عبدالكريم البزدوي (٤٢١ - ٤٩٣ هـ) دار احياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٨٣ هـ . ٢١- أصول الفقه: الدواليبي . ٢٢- اعتقادات الإمامية: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (٣٨١ هـ) طبعه حجر . ٢٣- إعلام الوري: الطبرسي: الفضل بن الحسن (٤٧١ - ٥٤٨ هـ) طبع إيران . ٢٤- أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين العاملي (م ١٣٧١ هـ) دار التعارف، بيروت . ٢٥- الإلهيات: محمد مكي العاملي من محاضرات الأستاذ جعفر السبحاني، الدار الإسلامية، بيروت - ١٤١٠ هـ . (٦٧٣) ٢٦- الأمالي: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (م ٣٨١ هـ) المكتبة الإسلامية، طهران . ٢٧- الأمالي: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (م ٤١٣ هـ) قم - ١٤٠٤ هـ . ٢٨- الامام جعفر الصادق: محمد أبو زهرة (م ١٣٩٦ هـ) . ٢٩- الامام علي صوت العدالة الإنسانية: جورج جرداق، دار الروائع، بيروت . ٣٠- الامامة والسياسة: ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم الدينوري (م ٢٧٦ هـ) مطبعة مصطفى محمد، مصر . ٣١- الانتصار: ابو الحسين الخياط المعتزلي، تحقيق د. نبيرج، طبع مصر - ١٣٤٤ هـ . ٣٢- أنساب الأشراف: البلاذري: أحمد بن يحيى (من اعلام القرن الثالث الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٣٩٤ هـ . ٣٣- أوائل المقالات: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (م ٤١٣ هـ) مكتبة الحقيقة، تبريز - ١٣٧١ هـ . ٣٤- الإيضاح: الفضل بن شاذان (م ٢٦٠ هـ) انتشارات جامعة طهران، طهران - ١٤٠٤ هـ . * حرف الباء: ٣٥- بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي (م ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ٣٦- البداية والنهاية: ابن كثير: الحافظ أبو الفداء (م ٧٧٤ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٤٠٢ هـ . ٣٧- البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم التولي البحراني (م ١١٠٧ هـ) قم - ١٣٧٥ هـ . ٣٨- البلدان: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (من اعلام القرن الثالث) . ٣٩- بلوغ المرام: ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) دار النهضة، مصر . (٦٧٤) ٤٠- البيان والتبيين: أبو عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥ هـ) دار الفكر للجميع، بيروت - ١٩٦٨ م . ٤١- بين يدي الساعة: الدكتور عبدالباقى المعاصر . * حرف التاء: ٤٢- تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة - ١٩٣١ م . ٤٣- تاريخ ابن خلدون: عبدالرحمان بن خلدون (م ٨٠٨ هـ) بيروت - ١٩٥٦ م . ٤٤- تاريخ الإسلام السياسي: الدكتور حسن إبراهيم حسن (المعاصر) مصر - ١٩٣٥ م . ٤٥- تاريخ الإمامية: الدكتور عبدالله فياض، مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٣٩٥ هـ . ٤٦- تاريخ الأمم والملوك: الطبري: محمد بن جرير (م

٣١٠ هـ) مؤسسه الأعلمی بیروت . ٤٧- تاریخ بغداد: الخطیب البغدادی: أحمد بن علی (م ٤٦٣ هـ) المكتبة السلفية، المدينة المنورة .
 ٤٨- تاریخ الخلفاء: جلال الدین السیوطی (٨٤٩ - ٩١١ هـ) مطبعة المدني، القاهرة - ١٣٨٣ هـ . ٤٩- تاریخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان، طبع بیروت - ١٩٦٥ م . ٥٠- تاریخ الشيعة: محمد حسين المظفر (م ١٣٧٥ هـ) منشورات مكتبة بصيرتي، قم . ٥١- تاریخ المذاهب الإسلامية: محمد أبو زهرة (م ١٣٩٦ هـ) دارالفكر العربي، بیروت . ٥٢- تاریخ مختصر الدول: ابن العبري: العلامة غريغوريوس الملطى (م ٦٨٥ هـ) مؤسسه منابع الثقافة الإسلامية، قم . ٥٣- تاریخ اليعقوبی: أحمد بن أبي يعقوب (من علماء القرن الثالث الهجرى) (٦٧٥)

المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف - ١٣٤٨ هـ . ٥٤- تأسيس الشيعة: السيد حسن الصدر (١٢٧٢ - ١٣٥٤ هـ)، مطبعة المعارف، بغداد - ١٣٧٠ هـ . ٥٥- التبيان في تفسير القرآن: الطوسي: محمد بن الحسن (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بیروت . ٥٦- التبصير في الدين: أبو المظفر الاسفرائيني (م ٤٧١ هـ) بیروت - ١٤٠٣ هـ . ٥٧- التحرير الطاووسي: الشيخ حسن بن زين الدين العاملي (م ١٠١١ هـ) . ٥٨- تحف العقول: الحرّاني: الحسن بن علی (من أعلام القرن الرابع الهجرى) مؤسسه الأعلمی، بیروت - ١٣٩٤ هـ . ٥٩- تذكرة الخواص: سبط ابن الجوزي (٥٨١ - ٦٥٤ هـ) مؤسسه أهل البيت، بیروت - ١٤٠١ هـ . ٦٠- ترتيب المدارك: القاضي عياض، بیروت - ١٩٧٦ م . ٦١- تصحيح الاعتقاد: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (م ٤١٣ هـ) مكتبة الحقيقة، تبريز - ١٣٧١ هـ . ٦٢- تطهير الجنان: ابن حجر الهيتمي (م ٩٧٤ هـ) دار الفكر، بیروت - ١٤٠٣ هـ . ٦٣- تفسير ابن كثير: إسماعيل الدمشقي (م ٧٧٤ هـ) دار الفكر، بیروت - ١٤٠٣ هـ . ٦٤- تفسير الخازن: الشيخ علاء الدين محمد البغدادي، طبع القاهرة . ٦٥- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): محمد بن عمر الخطيب (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) دار احياء التراث العربي، بیروت . ٦٦- تفسير روح البيان: إسماعيل حقي . ٦٧- تفسير الطبري (جامع البيان): محمد بن جرير (م ٣١٠ هـ) دار المعرفة، بیروت . ٦٨- تفسير القرطبي (جامع أحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري (م ٦٧١ هـ) (٦٧٦)

دار احياء التراث العربي، بیروت - ١٤٠٥ هـ . ٦٩- تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار احياء التراث العربي، بیروت - ١٤٠٦ هـ .
 ٧٠- تفسير المنار: محمد رشيد رضا (م ١٣٥٤ هـ) دار المنار، مصر - ١٣٧٣ هـ . ٧١- تفسير النسفي: المطبوع بهامش تفسير الخازن، طبع القاهرة، مصر . ٧٢- التفسير والمفسرون: الدكتور محمد حسين الذهبي (م ١٣٩٦ هـ) دار الكتب الحديثة، مصر - ١٣٩٦ هـ . ٧٣- تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ)، بیروت - ١٩٧٥ م . ٧٤- تقييد العلم: الخطيب البغدادي (م ٤٦٣ هـ) نشر دار السنّة - ١٩٧٤ م . ٧٥- التمهيد: الباقلاني: محمد بن الطيب (م ٤٠٣ هـ) القاهرة - ١٣٦٦ هـ . ٧٦- تنقيح المقال: عبد الله المامقاني (١٢٩٠ - ١٣٥١ هـ) النجف الأشرف - ١٣٥٠ هـ . ٧٧- تهذيب التهذيب: العسقلاني: أحمد بن علی بن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ) دار الفكر، بیروت - ١٤٠٤ هـ .
 ٧٨- التوحيد: الصدوق: محمد بن بابويه القمي (٣٠٦ - ٣٨١ هـ) مكتبة الصدوق، طهران . * حرف الثاء: ٧٩- الثقات العيون: آغا بزرك الطهراني (١٢٩٣ - ١٣٨٩ هـ) . * حرف الجيم: ٨٠- جامع الأصول: ابن الأثير الجزري: المبارك بن محمد (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) دارالفكر، بیروت - ١٤٠٣ هـ . (٦٧٧) ٨١- الجرح والتعديل: أبو حاتم الرازي (م ٣٢٧ هـ) دار احياء التراث العربي، بیروت - ١٣٧١ هـ . ٨٢- جمل العلم والعمل: الشريف المرتضى: علی بن الحسين الموسوي (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) . ٨٣- جنة المأوى: محمد حسين كاشف الغطاء (م ١٣٧٣ هـ) مكتبة الحقيقة، تبريز ١٣٨٠ هـ . * حرف الحاء: ٨٤- الحضارة الإسلامية: آدم متر، ترجمة الدكتور عبدالهادي أبو ريده، مصر - ١٣٦٧ هـ . ٨٥- حقائق التنزيل: الشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٤ هـ) مؤسسه البعثة، طهران - ١٤٠٦ هـ . ٨٦- حلية الأولياء: أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الاصبهاني (م ٤٣٠ هـ) دار الكتاب العربي، بیروت - ١٣٨٧ هـ . ٨٧- الحوادث الجامعة: ابن الفوطي: عبدالرزاق بن أحمد (م ٧٣٣ هـ) تحقيق الدكتور مصطفى جواد، بغداد - ١٣٥١ هـ . * حرف الخاء: ٨٨- الخصائص العلوية: النسائي: أبو عبدالرحمان: أحمد (م ٣٠٣ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف - ١٣٨٨ هـ . ٨٩- الخصال: الشيخ الصدوق: محمد بن بابويه (م ٣٨١ هـ) منشورات دارالنشر الاسلامي، قم - ١٤٠٣ هـ . ٩٠- خطط الشام: محمد كرد علي، مصر - ١٩٦٣ م . ٩١- الخطط المقرزية: تقى الدين المقريزي (م

٨٤٥ هـ) دار صادر، بيروت . (٦٧٨) ٩٢- الخلاصة: العلامة الحلبي (٦٤٨ - ٧٢٦ هـ) النجف الأشرف . ٩٣- الخلاف: الشيخ الطوسي (م ٤٦٠ هـ) دارالكتب العلمية، قم . ٩٤- الخلافة والإمامة: عبدالكريم الخطيب (م ١٣٩٦ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٣٩٥ هـ . ٩٥- الخوارج والشيعة: يوليوس فلهوزن، ترجمة الدكتور عبدالرحمان بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت . * حرف الدال: ٩٦- دائرة المعارف: فريد وجدى، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين - ١٣٨٦ هـ . ٩٧- الدرجات الرفيعة: صدر الدين السيد علي خان المدني الحسيني (م ١١٢٠ هـ)

منشورات المكتبة، الحيدرية، النجف الأشرف - ١٣٨١ هـ . ٩٨- الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) دارالفكر، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ٩٩- ديوان ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العباس بن جريج (م ٢٨٣ هـ) تحقيق كامل الكيلاني، طبعة مصر ١٩٢٤ م . * حرف الذال: ١٠٠- الذخيرة: الشريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) طبع إيران . ١٠١- الذريعة: آغا بزرك الطهراني (م ١٣٨٩ هـ) دارالأضواء، بيروت . ١٠٢- الذكري: الشهيد الأول: محمد بن مكى العاملي (٧٣٣ - ٧٨٦ هـ) طبعة حجر، إيران . * حرف الراء: ١٠٣- ربيع الأبرار: الزمخشري: محمود بن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) منشورات (٦٧٩)

الشريف الرضى، قم - ١٤١٠ هـ . ١٠٤- الرجال: ابن داود: الحسين بن علي الحلبي (من علماء القرن السابع الهجرى) طهران - ١٣٤٢ هـ . ١٠٥- الرجال: البرقي: أحمد بن عبدالله (٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ) طهران - ١٣٨٣ هـ . ١٠٦- الرجال: الطوسي: محمد بن الحسن (م ٤٦٠ هـ) النجف الأشرف - ١٣٨١ هـ . ١٠٧- الرجال: الكشي: أبو عمرو (من علماء القرن الرابع) مؤسسة الأعلمي، كربلاء - العراق . ١٠٨- الرجال: النجاشي: أحمد بن علي (٣٧٢ - ٤٥٠ هـ) بيروت - ١٤٠٩ هـ . ١٠٩- الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار): ابن بطوطة: محمد بن عبدالله (م ٧٧٩ هـ) دارالكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٧ هـ . ١١٠- الرسائل: الإمام الخميني (١٣٢٠ - ١٤٠٩ هـ) مؤسسة إسماعيليان، قم - ١٣٨٥ هـ . ١١١- الرسائل: أبو عثمان عمرو الجاحظ (م ٢٥٥ هـ) طبع مصر . ١١٢- رسالة في آل أعين: أبو غالب الزراري (م ٣٦٨ هـ) مطبعة ربّاني، اصفهان - ١٣٩٩ هـ . ١١٣- الرواشح السماوية: المحقق الداماد (م ١٤٠١) طبعة حجر، إيران . ١١٤- روح المعاني: الآلوسى: أبو الفضل: شهاب الدين السيد محمود البغدادي (م ١٢٧٠ هـ) دار إحياء التراث العربى، بيروت . ١١٥- روضات الجنات: محمّد باقر الخوانسارى (م ١٣١٣ هـ) طهران - ١٣٩٠ هـ . ١١٦- روضة الواعظين: الفتال النيسابورى: محمّد بن علي (من علماء القرن السادس الهجرى) تبريز - ١٣٣٠ هـ . * حرف الزاى: ١١٧- الزيدية نظرية وتطبيق: علي عبدالكريم فضيل، شرف الدين، طبع عمان - ١٤٠٥ هـ . (٦٨٠) * حرف السين: ١١٨- السجدة على التربة . ١١٩- السجود على الأرض: العلامة على الأحمدي، مؤسسة في طريق الحق، قم . ١٢٠- السراج المنير: الخطيب الشربيني، دار المعرفة، بيروت . ١٢١- سفينة البحار: الشيخ عباس القمي (١٢٩٤ - ١٣٥٩ هـ) طبعة حجر، النجف الأشرف . ١٢٢- السنة والشيعة: محمد رشيد رضا (م ١٣٥٤ هـ) . ١٢٣- السنن: ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥ هـ) داراحياء التراث العربى، بيروت - ١٣٥٩ هـ . ١٢٤- السنن الكبرى: البيهقي: أحمد بن الحسين (م ٤٥٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت ١٤٠٦ هـ . ١٢٥- سيد المرسلين: محاضرات جعفر السجاني (مؤلف هذا الكتاب تولد ١٣٤٧ هـ) بقلم: جعفر الهادي، مؤسسة النشر الاسلامي، قم - ١٤١٢ هـ . ١٢٦- سير أعلام النبلاء: الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد (م ٨٤٨ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٩ هـ . ١٢٧- السيرة الحلبية: الحلبي: برهان الدين علي بن ابراهيم (م ١٠٤٤ هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت . ١٢٨- سيرتنا و سنتنا: العلامة عبدالحسين الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠ هـ) طبع النجف الأشرف . ١٢٩- السيرة النبوية: ابن هشام: عبدالملك بن أيوب الحميري (م ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) دارالتراث العربى، بيروت . * حرف الشين: ١٣٠- الشافي في الإمامة: الشريف المرتضى (م ٤٣٦ هـ) مؤسسة الصادق، (٦٨١)

طهران - ١٤١٠ هـ . ١٣١- شذرات الذهب: ابن عماد الحنبلي (١٠٣٢ - ١٠٨٩ هـ) دارالفكر، بيروت - ١٣٩٩ هـ . ١٣٢- شرح التجريد: القوشجي: علاء الدين، طبعة حجر، تبريز . ١٣٣- شرح العقائد النسفية: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (م ٧٩٢ هـ) مكتبة المثني، بغداد . ١٣٤- شرح مقاصد الطالبين: سعد الدين التفتازاني (م ٧٩٢ هـ) طبع مصر . ١٣٥- شرح نهج البلاغة: ابن ابى الحديد (م ٦٥٥ هـ)

(دار احياء الكتب العربيّة، القاهرة - ١٣٧٨ هـ . ١٣٦ - الشفاء: الشيخ الرئيس ابن سينا (م ٤٢٨ هـ) انتشارات بيدار، إيران . ١٣٧ - شمس العرب تسطع على الغرب: المستشرق الألمانية زيغريد هونكه، الترجمة العربيّة، دار الآفاق الجديدة، بيروت - ١٤١٠ هـ . ١٣٨ - الشيعة بين الأشاعرة و المعتزلة: هاشم معروف الحسيني (م ١٤٠٧ هـ) دار القلم، بيروت - ١٩٧٨ م . ١٣٩ - الشيعة والتشيع: محمّد جواد مغنيّة، مكتبة المدرسة ودارالكتاب العربي، بيروت . ١٤٠ - الشيعة والحاكمون: محمّد جواد مغنيّة، دار و مكتبة الهلال، بيروت - ١٤٠٤ هـ *
 حرف الصاد: ١٤١ - الصحيح: أبو داود السجستاني (م ٢٧٥ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤٢ - الصحيح: البخاري: محمّد بن اسماعيل (م ٢٥٦ هـ) مكتبة عبدالحميد أحمد حنفي، مصر - ١٣١٤ هـ . ١٤٣ - الصحيح: الترمذي: محمّد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت . (٦٨٢) ١٤٤ - الصحيح: مسلم بن الحجاج القشيري (م ٢٦١ هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت . ١٤٥ - الصحيفة السجادية الجامعة: الإمام زين العابدين علي بن الحسين - عليه السلام - مؤسسة الإمام المهدي - عجل الله فرجه الشريف - قم - ١٤١١ هـ . ١٤٦ - الصلوة بين التصوّف والتشيع: الدكتور كامل مصطفى الشيبلي، دار المعارف، مصر - ١٩٦٩ م . ١٤٧ - الصواعق المحرقة: أحمد بن حجر الهيتمي (م ٩٧٤ هـ) مكتبة القاهرة، مصر - ١٣٨٥ هـ . * حرف الطاء: ١٤٨ - الطبقات الكبرى: محمّد بن سعد (م ٢٣٠ هـ) دار صادر، بيروت - ١٣٨٠ هـ . * حرف العين: ١٤٩ - عبدالله سبأ: السيد مرتضى العسكري (المعاصر) النجف الأشرف . ١٥٠ - العبر في خبر من غير: الذهبي: أبو عبدالله محمّد بن أحمد (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) دار الكتب العلميّة، بيروت . ١٥١ - عباقات الأنوار: السيد مير حامد حسين الهندي (ت ١٣٠٦ هـ) مؤسسة الامام المهدي - عجل الله فرجه الشريف - قم - ١٤٠٦ هـ . ١٥٢ - العقائد الجعفرية: الطوسي: محمّد بن الحسن (م ٤٦٠ هـ) طبعت على شكل رسالة مع كتاب جواهر الفقه، مؤسسة النشر الإسلامي، قم - ١٤١٢ هـ . ١٥٣ - العقد الفريد: ابن عبد ربه الاندلسي (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) دارالكتب العلميّة، بيروت - ١٤٠٤ هـ . ١٥٤ - العقيدة والشريعة في الإسلام: المستشرق اجناس جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) دارالكتاب العربي، مصر . ١٥٥ - العقيدة الطحاوية: أبو جعفر الطحاوي (٣٢١ هـ) . (٦٨٣) ١٥٦ - علل الشرائع: الشيخ الصدوق (م ٣٨١ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤٠٨ هـ . ١٥٧ - عمدة الطالب: ابن مهنا: جمال الدين أحمد بن علي (م ٨٢٨ هـ) النجف الاشرف - ١٣٨٠ هـ . ١٥٨ - عمدة القارئ: محمود بن أحمد العيني الحنفي، طبع مصر . ١٥٩ - عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق (م ٣٨١ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٤٠٤ هـ . * حرف الغين: ١٦٠ - الغارات: ابن هلال الثقفي (م ٢٨٣ هـ) دارالكتاب الإسلامي، قم - ١٤١١ هـ . ١٦١ - غاية المرام: السيد هاشم البحراني (م ١١٠٧ هـ) طبعة حجر، إيران . ١٦٢ - الغدير: العلامة عبدالحسين أحمد الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠ هـ) دارالكتاب العربي، بيروت - ١٣٨٧ هـ . * حرف الفاء: ١٦٣ - فتح الباري: ابن حجر: شهاب الدين أحمد العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت . ١٦٤ - فتح البيان: صديق حسن خان . ١٦٥ - الفتنة الكبرى: الدكتور طه حسين، القاهرة - ١٩٥١ م . ١٦٦ - فتوح البلدان: البلاذري: أبو الحسن (م ٢٧٩ هـ) المكتبة التجارية، مصر - ١٩٥٩ م . ١٦٧ - فجر الإسلام: أحمد أمين (م ١٣٨٨ هـ) نشر دارالكتاب العربي . ١٦٨ - فرج المهوم: علي بن موسى بن طاووس (م ٦٦٤ هـ)، النجف الأشرف - ١٣٦٨ هـ . (٦٨٤) ١٦٩ - فرق الشيعة: النوبختي: الحسن بن موسى (من أعلام القرن الثالث الهجري) دارالأضواء، بيروت - ١٤٠٤ هـ . ١٧٠ - الفصل في الملل والأهواء والنحل: ابن حزم الأندلسي (م ٤٥٦ هـ) دارالمعرفة، بيروت - ١٣٩٥ هـ . ١٧١ - الفصول المختارة: الشيخ المفيد (م ٤١٣ هـ)، مكتبة الداوري، قم - ١٣٩٦ هـ . ١٧٢ - الفصول المهمة: ابن الصبّاغ المالكي (م ٨٥٥ هـ) المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف - ١٣٨١ هـ . ١٧٣ - فضائل القرآن: الدارمي . ١٧٤ - فلاسفة الشيعة: الشيخ عبدالله نعمّة (المعاصر)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت . ١٧٥ - الفهرست: ابن النديم: محمّد بن اسحاق (٢٩٦ - ٣٨٥ هـ) القاهرة - ١٣٤٨ هـ . ١٧٦ - الفهرست: محمّد بن الحسن الطوسي (م ٤٦٠ هـ) جامعة مشهد، إيران - ١٣٥١ هـ . ١٧٧ - في رحاب أئمة أهل البيت: السيد محسن الأمين العاملي (م ١٣٧١ هـ) دار التعارف، بيروت - ١٤٠٠ هـ . * حرف القاف: ١٧٨ - قاموس الرجال: التستري: محمّد تقي (المعاصر) طهران - ١٣٩٧ هـ . ١٧٩ - قصة الحضارة: ويل دورانت، دارالجيل، بيروت - ١٤٠٨ هـ . * حرف الكاف: ١٨٠ - الكافي: الكليني: محمّد بن يعقوب (م ٣٢٩ هـ) دارالكتب الإسلامية، طهران - ١٣٩٧ هـ . ١٨١ - الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري: محمّد

بن محمد (م ٦٣٠ هـ) (٦٨٥)

دارالكتاب العربي، بيروت . ١٨٢-الكشاف: الزمخشري: محمود بن عمر (م ٥٣٨ هـ) مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة - ١٣٦٧ هـ .
 ١٨٣- كشف الظنون: حاج خليفة مصطفى بن عبدالله (م ١٠٦٧ هـ) طبع استانبول - ١٣٦٢ هـ . ١٨٤- كشف الغمة: الأربلي: علي بن عيسى (م ٦٩٣ هـ) دارالأضواء، بيروت - ١٤٠٥ هـ . ١٨٥- كمال الدين: الشيخ الصدوق (م ٣٨١ هـ) طهران - ١٤٠٥ هـ . ١٨٦- كنز العمال: المتقى الهندي (م ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٥ هـ . ١٨٧- كنز الفوائد: الكراچكي: محمّد بن علي بن عثمان (م ٤٤٩ هـ) دارالأضواء، بيروت - ١٤٠٥ هـ . * حرف اللام: ١٨٨- اللثالي المصنوعة: جلال الدين السيوطي (م ٩١١ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ١٨٩- لسان العرب: العلامة ابن منظور: محمّد بن مكرم (م ٧١١ هـ) قم - ١٤٠٥ هـ . ١٩٠- لسان الميزان: العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (م ٨٥٢ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت . ١٩١- لؤلؤة البحرين: المحدث البحراني: الشيخ يوسف، النجف الأشرف - ١٣٨٦ هـ * حرف الميم: ١٩٢- ماضي النجف وحاضرها: الشيخ جعفر آل محبوبه (م ٣٧٧ هـ) دارالأضواء، بيروت - ١٤٠٦ هـ . (٦٨٦) ١٩٣- مجمع البيان: الطبرسي: الفضل بن الحسن (٤٧١ - ٥٤٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت - ١٤٠٨ هـ . ١٩٤- مجمع الزوائد الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر (٧٣٥ - ٨٠٧ هـ) دارالكتاب العربي، بيروت - ١٤٠٢ هـ . ١٩٥- محاسن التأويل: جمال الدين القاسمي (١٣٣٢ هـ) . ١٩٦- المحاسن والمساوي: البيهقي: أحمد بن الحسين (م ٤٥٨ هـ) مكتبة النهضة، مصر . ١٩٧- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: محمد الخضري، دار احياء الكتب العربية - ١٣٤٩ هـ . ١٩٨- مختصر تاريخ العرب: السيد أمير علي، طبع مصر - ١٩٣٨ م . ١٩٩- مرآة الجنان: أبو محمّد، عبدالله بن أسعد اليافعي (م ٧٦٨ هـ) دائرة المعارف العثمانية، الهند - ١٣٣٧ هـ . ٢٠٠- المراجعات: السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (١٢٩٠ - ١٣٧٧ هـ) طبع مصر . ٢٠١- مروج الذهب: المسعودي: علي بن الحسين (م ٣٤٥ هـ) منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت - ١٩٦٥ م . ٢٠٢- مسائل فقهية: السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (م ١٣٧٧ هـ) منظمة الاعلام الإسلامي، طهران - ١٤٠٧ هـ . ٢٠٣- المستدرک: الحاكم النيسابوري: محمّد بن عبدالله (م ٤٠٥ هـ) دارالمعرفة، بيروت . ٢٠٤- مستدرک الوسائل: الشيخ النوري: الحسين بن محمّد تقى (١٢٥٤ - ١٣٢٠ هـ) مؤسسة آل البيت، قم - ١٤٠٧ هـ . ٢٠٥- المسند: أحمد بن حنبل (م ٢٤١ هـ) دارالفكر، بيروت . ٢٠٦- مصفى المقال: آغا بزرك الطهراني (م ١٣٨٩ هـ) دار العلوم، بيروت - (٦٨٧) ١٤٠٨ هـ . ٢٠٧- المصنف: أبوبكر بن أبي شيبة . ٢٠٨- المصنف: عبدالرزاق، تحقيق حبيب الرحمان الأعظمي، ١١ مجلدًا، دار الكتب السلفية، القاهرة . ٢٠٩- مظاهر الشعوبية في الأدب العربي: الدكتور محمّد نبيه حجاب، طبع مصر - ١٩٦١ م . ٢١٠- معالم العلماء: ابن شهر آشوب: محمّد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ - ٥٨٨ هـ) النجف الأشرف - ١٣٨٠ هـ . ٢١١- معاني الأخبار: الصدوق: محمّد بن بابويه القمي (م ٣٨١ هـ) دارالمعرفة، بيروت - ١٣٩٩ هـ . ٢١٢- معجم الادباء: الحموي: ياقوت بن عبدالله (م ٢٦٢ هـ) دارالفكر، بيروت - ١٤٠٠ هـ . ٢١٣- معجم البلدان: الحموي: ياقوت بن عبدالله (م ٢٦٢ هـ) دار احياء التراث العربي، بيروت - ١٣٩٩ هـ . ٢١٤- المغنى: عبدالله بن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) مطبعة الإمام، مصر . ٢١٥- مقاتل الطالبين: أبو الفرج الاصفهاني (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ) مؤسسة دار الكتاب، قم . ٢١٦- مقالات الإسلاميين: الأشعري: علي بن اسماعيل (م ٣٢٤ هـ) الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ . ٢١٧- مقتل الامام الحسين: أبو مخنف: لوط بن يحيى الغامدي (م ١٥٨ هـ) المكتبة العلمية، قم . ٢١٨- الملل والنحل: الشهرستاني: محمّد بن عبدالكريم (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت - ١٤٠٢ هـ . ٢١٩- المناقب: الخوارزمي: أحمد بن محمّد (م ٥٦٨ هـ) مؤسسة النشر الاسلامي، قم - ١٤١١ هـ . (٦٨٨) ٢٢٠- مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب: محمّد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ - ٥٨٨ هـ) المطبعة العلمية، قم . ٢٢١- مناقب علي بن أبي طالب - عليه السلام - : ابن المغازلي: علي بن محمّد الشافعي الواسطي (م ٤٨٣ هـ) المكتبة الإسلامية، طهران - ١٤٠٣ هـ . ٢٢٢- منتخب كنز العمال (هامش مسند أحمد): المتقى الهندي (م ٩٧٥ هـ) دار الفكر . ٢٢٣- المنتظم: ابن الجوزي: عبدالرحمان بن علي البغدادي (م ٥٩٧ هـ) حيدرآباد ١٣٥٧ هـ وأخيراً في لبنان . ٢٢٤- منهاج السنة: أحمد بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) طبع مصر . ٢٢٥- الموطن: مالك بن أنس (م ١٧٩ هـ) دارالآفاق الجديدة، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ٢٢٦- الميزان في تفسير القرآن: العلامة

الطباطبائي (١٣٢١ - ١٤٠٢ هـ) مؤسسهُ الأعلمي، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ٢٢٧- ميزان الاعتدال: محمّد بن أحمد الذهبي (م ٧٤٨ هـ) دارالمعرفة، بيروت . * حرف النون: ٢٢٨- نظرية الإمامية: أحمد محمود صبحي (المعاصر) دارالمعارف، مصر . ٢٢٩- نقد المحصل: فخر الدين الرازي (م ٦٠٦ هـ) . ٢٣٠- النهاية: ابن الأثير: مبارك بن محمّد الجزري (م ٦٠٦ هـ) مؤسسهُ اسماعيليان، قم - ١٤٠٥ هـ . ٢٣١- نهاية المرام: العلّامة الحلّي: الحسن بن يوسف (م ٧٢٦ هـ) مخطوط . ٢٣٢- نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (٣٥٩ - ٤٠٤ هـ) بيروت - ١٣٨٧ هـ . * حرف الهاء: ٢٣٣- الهدى الساري مقدمة فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) (٦٨٩) دار احياء التراث العربي، بيروت . ٢٣٤- هشام بن الحكم: عبدالله النعمة، دارالفكر العربي، بيروت - ١٤٠٥ هـ . ٢٣٥- هوية التشيع: الدكتور الشيخ أحمد الوائلي (المعاصر) دارالكتبي، بيروت - ١٤٠٧ هـ . * حرف الواو: ٢٣٦- الوحي المحمّدي: محمّد رشيد رضا (م ١٣٥٤ هـ) طبع مصر . ٢٣٧- وسائل الشيعة: الحر العاملي: محمّد بن الحسن (١٠٣٣ - ١١٠٤ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٣ هـ . ٢٣٨- وفيات الأعيان: ابن خلّكان، أحمد بن أحمد (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) منشورات الشريف الرضي، قم ١٣٦٤ هـ . ٢٣٩- وقعة صفين: نصر بن مزاحم المنقري (م ٢١٢ هـ) دار احياء الكتب العربيّة، القاهرة - ١٣٦٥ هـ * حرف الياء: ٢٤٠- تيممة الدهر في محاسن أهل العصر: أبو منصور: عبدالملك بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري (م ٤٢٩ هـ) دارالفكر، بيروت - ١٣٩٢ هـ . ٢٤١- ينابيع المودة: القندوزي: سليمان بن إبراهيم البلخي (م ١٢٩٤ هـ) مطبعة اختر، اسلامبول، ١٣٠١ هـ . ٢٤٢- يوم الإسلام: أحمد أمين (م ١٣٨٨ هـ) .

الجزء السابع (الزيدية)

مقدمة

مقدمة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه وصفيّه محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

أمّا بعد: فهذا هو الجزء السابع من موسوعتنا في الملل والنحل نقدّمه إلى القراء الكرام راجين منهم النقد والإصلاح، فإنّ العصمة لله ولمن عصمه.

ونخصّ هذا الجزء ببيان مذهب الزيدية المنتميه إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - ذلك الإمام الثائر الذي ضمّ إلى ثورته العارمة بوجه الظلم والطغيان، التجافى عن الدنيا، والزهد في صفرها وبيضها، والتهجّد آناء الليل وغيابهه بالصلاة وتلاوة القرآن، وكان فقيهاً في الدين، محدّثاً في الإسلام، مفسّراً للقرآن، ولم يكن له في الفقه منهج كما لم يكن له في مجال الأصول والعقائد مذهب خاص سوى ما عليه العترة الطاهرة - عليهم السلام - عامة، من أصول التوحيد والعدل وبطلان الجبر والتشبيه، وقد نشرت منه آثار في الحديث والتفسير والفقه وسيوافيك تفصيلها.

نعم تأثر المذهب الزيدي الحاضر بمبادئ الاعتزال كثيراً كما تأثر بفقه بعض المذاهب الأربعة، وأمّا ما هو السبب لتأثره بآراء المعتزلة في العقائد،

(٤)

وتفتّحه مع مدرسة الرأي في الفقه، فيحتاج إلى بسط في الكلام وسنوقفك على جليته الحال في المستقبل.

وبما أنّ لزيد الشهيد بين الأمة الإسلامية، وعند أئمة العترة الطاهرة مكانة خاصة، ومنزلة كبيرة لم تكن لسائر أئمة الزيدية، من الحسينيين والحسينيين الذين شايعوا زيدا في الخروج على الخلفاء، ومارسوا خطّه في الجهاد، - وكانت مساعي الجميع مشكورة - لم نجد بداً من فتح بابين، يتكفّل أحدهما، لبيان حياة زيد وآثاره وجهاده ونضاله، ويختص الآخر، ببيان حياة أئمة الزيدية والإيعاز إلى الدول التي أسّسوها، والأصول التي اختاروها في مجال العقيدة، والمنهج الذي سلكوه في استنباط الأحكام الشرعية إلى غير ذلك من

مباحث جانبية، تسلط الضوء على الموضوع.

ولأجل إيضاح تاريخ زيد وأتباعه قسمنا الكتاب إلى قسمين:

١- ما يرجع إلى زيد من ولادته إلى شهادته وذلك في ضمن أربعة عشر فصلاً.

٢- يتكفل ببيان السائرين على دربه وما يمت إليهم بصله .

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع نشير إلى بعض الفرق التي خلقتها السياسة في أوساط الشيعة في عصر الأئمة الثلاثة: السجاد والباقر

والصادق - عليهم السلام - بوجه موجز، مع الإشارة إلى الفرق الواقعية وإن كانت قليلة. المؤلف

٢٩ ربيع الثاني ١٤١٥ (٥)

القسم الأول:

وإليك مجمل ما فيه من فصول:

الفصل الأول: فرق الشيعة بين الحقائق والأوهام.

الفصل الثاني: في حياة زيد في عصر الأئمة الثلاثة _ عليهم السلام _.

الفصل الثالث: في خطبه، وكلماته، وأشعاره، ومناظراته، وعبادته.

الفصل الرابع: في مشايخ زيد وتلاميذه في الحديث والتفسير.

الفصل الخامس: الآثار العلمية الباقية عن زيد.

الفصل السادس: دراسة مسند الإمام زيد سنداً ومضموناً.

الفصل السابع: هل كان زيد معتزلي المبدأ والفكرة.

الفصل الثامن: هل كان زيد أمماً في الأصول والعقائد، والفروع والأحكام.

الفصل التاسع: هل دعا إلى نفسه أو دعا إلى الرضا من العترة.

الفصل العاشر: موقف أئمة أهل البيت من خروج زيد وجهاده.

الفصل الحادي عشر: الخط الثوري المدعم من قبل أئمة أهل البيت.

الفصل الثاني عشر: موقف علماء الشيعة من زيد الشهيد.

الفصل الثالث عشر: الثورات الناجمة عن ثورة الإمام الحسين _ عليه السلام _.

الفصل الرابع عشر: ثورة زيد كانت استمراراً لثورة الحسين _ عليه السلام _ . (٦) (٧)

القسم الأول : فهرس إجمالي لفصول القسم

إشاره

القسم الأول : فهرس إجمالي لفصول القسم الأول، الأربعة عشر

الفصل الأول فرق الشيعة بين الحقائق والأوهام

الفصل الأول فرق الشيعة بين الحقائق والأوهام إن من ثمرات وجود النبي المعصوم بين الأمة هو رأب الصدع بعد ظهوره بينهم، وفصل

القول، عند اندلاع النزاع، والقضاء على الفتنة في مهدها، وكان رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ يلتم الشمل، ويُزيل الخلاف

عند بروزه فلأجل ذلك كان اختلاف الصحابة في عصره _ صلى الله عليه وآله وسلم _ غير مؤثر في تفرق الأمة، لأنه صلوات الله

عليه وآله بحنكته، واعتقاد الأمة بعصمته، كان يأخذ بزمام الأمور، ويكسح أسباب الشقاق من جذوره.

فعندما اعترض عليه ذو الخويصرة عند توزيع الغنائم بين المسلمين بقوله: إعدل يا محمد فإنك لم تعدل، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن لم أعدل، فمن يعدل» ثم أعاد اللعين وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فعند ذاك لم يجد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بُدّاً من أن يعرّفه للأمة الإسلامية وقال: «سيخرج من ضئضى هذا الرجل قوم يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية» (١)

(١) مضت اسناد الرواية في: ٥/ ٤٨٠ - ٥٠٢، من هذه الموسوعة

(٨)

ولست قصة ذي الخويصرة وحيدة في بابها، فقد حدثت حوادث وكوارث في زمانه كادت تفرق الأمة ولكنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - قضى عليها بعلمه وحلمه وحكمته، ولا يقصر حديث الإفك (١) عن قصة ذي الخويصرة، أو قعود بعض الصحابة عن الخروج مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في جيش العسرة، أو ما حدث في أيام مرضه، حيث طلب دواء وقرطاساً حتى يكتب كتاباً لاتصل الأمة بعده، فخالف بعضهم، ووافق البعض الآخر، فقضى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على الاختلاف وقال: «قوموا عني، لا ينبغي عندي التنازع» (٢). إلى غير ذلك من حوادث مريّة في عصر الرسالة، فقد استقبلها القائد الكبير برحابة صدر في غزواته وفي إقامته في المدينة.

وقد كانت وحدة الأمة الإسلامية رهن قائد مطاع معصوم، لا يخضع لموثرات الهوى، وتكون الأمة مأمورة باتباعه قال تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا" (الأحزاب - ٣٦).

ولئن تفرقت الأمة إلى فرقتين أو أكثر فإنما تفرقوا بعد رحيله، وسرّ الاختلاف يكمن في تناسي الأمة الإمام المعصوم الذي نصبه النبي مرجعاً عند الخلاف، غير أنّ المهتمين بأمر الرسول ونصوصه تعلقوا به تعلقاً دينياً ولأجل ذلك قلّ الاختلاف بينهم أو لم يتحقق إلى عصر الصادقين - عليهما السلام - وما يذكر من الفرق في عهدهما، لا صلة لهم بالإسلام فضلاً عن التشيع وإنما كان التفرق آنذاك ارتداداً عن الإسلام وخروجاً عن الدين كما سيتضح.

(١) اقرأ تفصيل القصة وتشاجر الحيين: الأوس والخزرج في مسجد النبي بحضرته في صحيح البخارى: ٥/ ١١٩ باب غزوة بنى المصطلق، والسيرة النبوية: لابن هشام: ٣/ ٣١٢. وذكرها الشهرستاني في الملل والنحل في فصل بدايات الخلاف: ٢١/ ٢١.

(٢) لاحظ صحيح البخارى: ١/ ٢٢، كتاب العلم، ٢/ ١٤، والملل والنحل: للشهرستاني: ١/ ٢٢ عند البحث في بدايات الخلاف.

(٩)

يقول أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي صاحب كتاب الزينة: «كانت طائفة من (١) الشيعة قبل ظهور زيد بن علي مجتمعين على أمر واحد، فلما قتل زيد انحازت منهم طائفة إلى جعفر بن محمد وقالوا بإمامته» (٢).

إنّ الشيعة هم الذين شايعوا علياً وولديه الحسن والحسين - عليهم السلام - وكانوا متمسكين بإمامتهم وقيادتهم ولم يبرز أيّ اختلاف ديني بينهم إلى زمن الإمام الصادق - عليه السلام -، لأنّ الاعتقاد بوجود المعصوم، كان يدفعهم إلى سؤاله ورفع الإبهام عن الملابس في وجوه المسألة، وأما تاريخ الكيسانية الناجمة في عصر الإمام السجاد - عليه السلام - فسندرسها حسب التاريخ وكلمات أصحاب المقالات.

هذا ما يلمسه الإنسان من قراءة تاريخ الشيعة، ولكن نرى أنّ أصحاب المقالات يذكرون للشيعة فرقا كثيرة، وهم بين غلاة وغيرها. قال الشهرستاني تبعاً لعبد القاهر البغدادي (٣): والشيعة خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة وإسماعيلية (٤). ثم ذكر لكل فرقة طوائف كثيرة ولعل الغاية من إكثار الفرق تطبيق حديث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - في انقسام أمته إلى ثلاث وسبعين

فرقة، عليهم.

ونحن نقف أمام هذا التقسيم وقفه غير طويله، فنذكر أمرين:

الأول: إن الغلاة ليسوا من الشيعة، ولا من المسلمين، وإن عددهم من الطوائف الإسلامية جناية على المسلمين والشيعة، وعلى فرض كونهم فرقة، فلم يكن لهم أتباع ولم يكتب لهم البقاء إلا أياماً قلائل.

(١) كذا في النسخة، ولعل لفظه «من» زائدة أو بيانية.

(٢) أبو حاتم الرازي: كتاب الزينة: ٢٠٧.

(٣) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢١. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٤٧.

(١٠)

الثاني: إن الكيسانية لم تكن فرقة نجمت بين الشيعة، وإنما خلقتها أعداء أئمة أهل البيت، ليستغلوها ويقضوا بها على تماسك الشيعة ووحدهم، وأكثر ما يمكن أن يقال في المقام: إنه كانت هناك شكوك وأوهام عرت بعض البسطاء ثم أزيلت، فتجلى الصبح لدى عينين، وإليك الكلام في كلا المقامين:

الغلاة ليسوا من المسلمين:

قد ذكر أصحاب الفرق فرقة للشيعة باسم الغلاة ومع أنهم يصرحون بأنهم ليسوا من فرق المسلمين ولكن يذكرونها فرقة للشيعة ويحملون أوزار الغلاة على الشيعة. والشيعة طائفة من المسلمين فكيف يصح عد الغلاة منهم !!

قال البغدادي: «فأما غلاتهم الذين قالوا بالهية الأئمة وأباحوا محرّمات الشريعة وأسقطوا وجوب فرائض الشريعة كالبيانية، والمغيرية، والجناحية، والمنصورية، والخطابية، والحلولية، ومن جرى مجراهم فمأهم من فرق الإسلام وإن كانوا منتسبين إليه» (١).

وقال أيضاً: الكلام في ذلك (الفرق الإسلامية) يدور على اختلاف المتكلمين فيمن يعد من أمة الإسلام وملته - إلى أن قال: - فإن كان على بدعة الباطنية، أو البيانية، أو المغيرية، أو المنصورية، أو الجناحية، أو السبئية، أو الخطابية من الرفض، أو كان على دين الحلولية أو على دين أصحاب التناسخ أو على دين الميمونية، أو اليزيدية من الخوارج أو على دين الخطابية، أو الحمارية من

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٣-٢٤.

(١١)

القدرية، أو كان ممن يحرم شيئاً ممن نص القرآن على إباحته باسمه، أو أباح ما حرم القرآن باسمه فليس هو من جملة أمة الإسلام - إلى أن قال: - فالفرق المنتسبة إلى الإسلام في الظاهر مع خروجها عن جملة الأمة، عشرون فرقة هذه ترجمتها:

سبئية، وبيانية، وحرية، ومغيرية، ومنصورية، وجناحية، وخطابية، وغرابية، ومفوضية، وحلولية، وأصحاب التناسخ، وخابطية، وحمارية، ومقتعية، ورزامية، ويزيدية، وميمونية، وباطنية، وحلاجية، وعذافية، وأصحاب إباحة، وربما انشعبت الفرقة الواحدة من هذه الفرق أصنافاً كثيرة (١).

أقول: إن البحث في هذا الفصل في كتب الملل والنحل هو التحدث عن الفرق الإسلامية ولا تكون الفرقة، إسلامية إلا إذا كان المقسم (الإسلام) موجوداً فيها، فالإسلام هو الشهادة على توحيد ورسالة نبيه وحشر الخلق يوم المعاد، والتصديق بما جاء به النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - على وجه الإجمال، فمن أنكر واحداً من هذه، فليس بمسلم ولا يحمل عقيدة إسلامية، وهذه الفرق التي جاء بها الأشعري في كتاب مقالات الإسلاميين وتبعه البغدادي في الفرق بين الفرق ليسوا من الإسلام ولا الشيعة بشيء وإنما هي فرق

مرتدة عن الإسلام ولا يمكن الحكم عليهم بالإسلام، فالأولى حذف هؤلاء المرتدين عن كتب الملل والنحل، والبحث عنهم تاريخياً فقط.

لا شك أن هؤلاء تنزلوا من علياء الإسلام إلى حضيض الكفر وما جرّتهم إلى ذلك إلا مطامع وشهوات استهوتهم إلى هذه المقالات الباطلة ومن حسن الحظ أنه لم تكتب عليهم حياة معروفة إنما كانت أياماً قلائل قطعت معرتهم حمامهم فلم يبق منهم ذكر إلا بين أسطر التاريخ.

على أن قسماً منهم قاموا بهذه الدعايات من قبل السياسات الزمنية روماً _____
(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٣٢.

(١٢)

لتشتيت كلمة الشيعة أو المسلمين، لكن سرعان ما قلب عليهم الدهر ظهر المجنّ لما تمكنت السياسة من الحصول على غاياتها المنشودة فأخذوا وقتلوا تقتيلاً.

هكذا يعامل مع كل عميل يعمل لصالح المستكبر. على أنه لم يكن لمنهجهم معتق قابل للذكر إلا شذاذ الآفاق أو ساقه الناس فمن مال إليهم لغاية دنوية أو لشكوك وأوهام عرت لهم لا يتجاوز عددهم عدد الأصابع إلا شيئاً طفيفاً حتى أصبح الجميع في حديث الأمس الدابر.

والذي يتحمل وزر ذكر هؤلاء من الفرق الإسلامية الشيعية هو الشيخ المتكلم الجليل الحسن بن موسى النوبختي (١) الشيعي من أعلام القرن الثالث المتوفى حوالى عام ٣١٠هـ في كتابه «فرق الشيعة» ثم الشيخ الأشعري (٢) في كتابه «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»، وتبعهما من جاء بعدهما كالبغدادي في «الفرق بين الفرق» (٣) والإسفرائيني في «التبصير» (٤) والشهرستاني في «الملل والنحل» (٥).

وإنّي لأضن بالحبر والورق على تسطير عقائد هؤلاء وكفرياتهم الذين قضى عليهم الدهر وشرب، ولكن لأجل إيقاف القارى على إجمال ما كانوا يعتقدونه نذكر أسماء الفرق مع التعريف الإجمالى لمبادئهم حتى يقف على صدق ما قلناه.

قال الأشعري: فمنهم الغالية وإنما سموا الغالية لأنهم غلوا في على - عليه السلام - وقالوا فيه قولاً عظيماً وهم خمسة عشرة فرقة:

(١) الحسن بن موسى النوبختي: فرق الشيعة: ٣٦، وما بعدها.

(٢) الإمام الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ٥، وما بعدها.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٢٥، وما بعدها.

(٤) الإسفرائيني: التبصير: ١٢٣، وما بعدها.

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ١٥٠، وما بعدها.

(١٣)

الأولى: البيانية:

وهؤلاء يزعمون أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (١) نص على إمامة بيان بن سمعان التميمي ونصبه إماماً، يقولون بأنّ الله عزّ وجلّ على صورة الإنسان وأنه يهلك كلّه إلا وجهه وأدعى «بيان» أنه يدعو (كوكب) الزهرة فتجيبه وأنه يفعل ذلك بالاسم الأعظم فقتله خالد بن عبد الله القسري، وقيل: إن كثيراً منهم يثبت لبيان بن سمعان، النبوة (٢).

وقال النوبختي: فكان «بيان» تباناً يتبن التبن في الكوفة وأخذه خالد بن عبد الله القسري هو وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فشدهم بأطنان القصب وصبّ عليهم النفط في مسجد الكوفة وألهب فيهم النار فأفلت منهم رجل فخرج بنفسه ثم التفت فرأى أصحابه تأخذهم

النار فكر راجعاً إلى أن ألقى نفسه في النار فأحرق معهم (٣).

أقول: إنَّ البيانية - على فرض صحّة وجودها - مشتقة من القول بإمامة محمد ابن الحنفية بعد شهادة السبط الأكبر الحسين بن علي سلام الله عليهما وانتقال الإمامة منه إلى ابنه أبي هاشم، فلما مات أبو هاشم اختلفوا في وصيته إلى أقوال فمن قائل بأنّه ابن أخيه الحسن بن علي بن محمد الحنفية، إلى آخره بأنّه أخوه علي بن محمد، وعليّ أوصى إلى ابنه الحسن فالإمامة عندهم في بني الحنفية لا تخرج إلى غيرهم، إلى ثالث أنّه عبد الله بن عمرو بن الكندي، وأنَّ الإمامة خرجت من بني هاشم وتحركت روح أبي هاشم إلى عبد الله الكندي، إلى رابع بأنّه أوصى إلى بيان ابن سمعان التميمي (٤) _____.

(١) كل فرقة تنتمي إلى أبي هاشم فهي من فروع الكيسانية الممسوخة والفرق الثلاث الأولى: البيانية، الجناحية، والحربية، من هذا الصنف.

(٢) الإمام الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٥ - ٦.

(٣) النوبختي: فرق الشيعة: ٢٨، طبع بيروت، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، ولاحظ الفرق بين الفرق: ٢٣٦.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ١٥١ - ١٥٢.

(١٤)

الثانية: الجناحية:

أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذي الجناحين، يزعمون أنّ عبد الله بن معاوية كان يدعى أنّ العلم ينبت في قلبه كما ينبت الكماء والعشب وأنَّ الأرواح تناسخت وأنَّ روح الله جلَّ اسمه كانت في آدم ثم تناسخت حتى صارت فيه، قال: وزعم أنّه ربّ وأنه نبي فعبده شيعته وهم يكفرون بالقيامه ويدعون أنّ الدنيا لا تفنى ويستحلّون الميتة والخمر وغيرهما من المحارم ويتأولون قول الله عزَّ وجلَّ: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا (١)".

هذا ولم يذكر الأشعري اشتقاقهم من أي فرقة ولكن جاء به النوبختي، وقال: «فرقة قالت أوصى أبو هاشم عبد الله بن محمد الحنفية إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الخارج بالكوفة، وهو يومئذ غلام صغير فدفع الوصية إلى صالح بن مدرك وأمره أن يحفظها حتى يبلغ عبد الله بن معاوية فيدفعها إليه فهو الإمام وهو العالم بكل شيء حتى غلوا فيه وقالوا: إنّ الله عزَّ وجلَّ نور وهو في عبد الله بن معاوية قتله أبو مسلم في حبسه» (٢)

الثالثة: الحربية:

هم أصحاب عبد الله بن عمر بن حرب، ويسمّون الحربية، يزعمون أنّ روح أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية تحولت فيه وأنَّ أبا هاشم نصَّ على إمامته (٣). ويرجع جذور هذه الفرق إلى القول بإمامة محمد الحنفية ثم أبي هاشم كما تقدم.

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٦. والآية ٩٣ من سورة المائدة.

(٢) النوبختي: فرق الشيعة: ٣٢، ولاحظ الفرق بين الفرق: ٢٤٥.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٦، لاحظ الفرق بين الفرق: ٢٤٣.

(١٥)

الرابعة: المغيرية:

هؤلاء أتباع المغيرة بن سعيد العجلي وكان يظهر في بدء أمره موالة الإمامية ويزعم أنّ الإمامة بعد علي والحسن والحسين - عليهم السلام - إلى سبط الحسن محمد (المعروف بالنفس الزكية الذي توفي عام ١٤٥هـ) وزعم أنّه المهدي المنتظر، ثم إنّه أظهر مقالات فاسدة منها دعواه النبوة، دعواه علمه بالاسم الأعظم، وزعم أنّه يحيى بها الموتى ويهزم بها الجيوش ومنها إفراطه في التشبيه وذلك أنّه

زعم أن معبوده رجل من نور وله أعضاء وقلب ينبع منه الحكمة - إلى أن قال: - وكان المغيرة مع ضلالاته يأمر بانتظار محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي (١).

ويظهر من النوبختي أنه كان يقول بإمامة الأئمة إلى أبي جعفر الباقر - عليهم السلام - (٥٧ - ١١٤هـ) فلما توفي أبو جعفر محمد بن علي، دعا المغيرة إلى إمامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم وأظهر ما أظهر فبرئت منه أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد - عليهما السلام - ورفضوه فزعم أنهم رافضة وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم وقال: إن خالد بن عبد الله القسري أخذ المغيرة فسأله عن عقائده فأقر بها ودعا خالداً إليها فاستتابه خالد فأبى أن يرجع عن قوله فقتله وصلبه (٢).

الخامسة: المنصورية:

أصحاب أبي منصور، يزعمون أن الإمام بعد أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين - عليهم السلام - أبو منصور وأن أبا منصور، قال: آل محمد هم السماء _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٩.

(٢) النوبختي: فرق الشيعة: ٦٣، وفيما ذكره تأمل واضح على أن خالد بن عبد الله القسري من عمال آل أمية، فكيف قتل من كان يدعو بالنفس الزكية الذي خرج في أوائل العباسيين وقتل عام ١٤٥هـ؟! إلا أن تكون له دعوة خفية بعد استشهاد زيد وابنه يحيى عام ١٢٦ هـ.

(١٦)

والشيعة هم الأرض وأنه هو الكسف الساقط من بني هاشم تأويلاً لقوله سبحانه: "وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سيحاب مَرَكُومٍ" (الطور - ٤٤) وقد ذكر الأشعري عقائدهم الفاسدة التي لا تمت صلة بالديانات الإلهية (١).

قال البغدادي: وكفرت هذه الطائفة بالقيامة والجنة والنار وتأولوا الجنة على نعيم الدنيا والنار على محن الناس في الدنيا واستحلوا مع هذه الضلالة خنق مخالفيهم، واستمرت فتنتهم على عاداتهم إلى أن وقف يوسف بن عمر الثقفي والي العراق في زمانه على عوارت المنصورية فأخذ أبا منصور العجلي وصلبه، وهذه الفرقة كالمقدمة عليها غير معدودة من فرق الإسلام لكفرها بالقيامة والجنة والنار (٢).

السادسة: الخطابية المطلقة:

أصحاب أبي الخطاب بن أبي زينب، يقولون: إن الإمامة في أولاد علي إلى أن انتهت إلى جعفر الصادق، ويزعمون أن الأئمة كانوا آلهة، وكان أبو الخطاب يزعم أولاً أن الأئمة أنبياء، ثم زعم أنهم آلهة، وأن أولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه، وكان يقول: إن جعفرًا إله، ولما بلغ ذلك جعفرًا - عليه السلام - لعنه وطرده. وكان أبو الخطاب يدعى بعد ذلك، الإلهية لنفسه وزعم أتباعه أن جعفرًا إله غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من علي (٣).

وخرج أبو الخطاب على أبي جعفر فقتله عيسى بن موسى في سبخة الكوفة، ثم إن الذين جاءوا بعد أبي الخطاب انقسموا إلى فرق ذكرها الأشعري وقد عبر عن مؤسس الفرقة بالخطابية المطلقة لتمييز عن الفرق اللاحقة _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٩ - ١٠.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٤٣.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٤٧.

(١٧)

السابعة: الخطابية المعمرية:

يزعمون أن الإمام بعد أبي الخطاب رجل يقال له «معمر» وعبدوه كما عبدوا أبا الخطاب. قال: واستحلوا الخمر والزنا واستحلوا سائر

المحرمات ودانوا بترك الصلاة (١) وقد لعنه الإمام الصادق _ عليه السلام _ وسيأتيك نصه.

الثامنة: الخطيئة البزيعية:

أصحاب بزيع بن موسى يزعمون أن جعفر بن محمد _ عليه السلام _ هو الله، وزعموا أن كل ما يحدث في قلوبهم وحى، وأن كل مؤمن يوحى إليه، وزعموا أن منهم من هو خير من جبرئيل وميكائيل وأن أحدهم إذا بلغت عبادته، رفع إلى الملكوت (٢).

التاسعة: الخطيئة العميرية:

أصحاب عمير بن بيان العجلي، وهذه الفرقة تكذب من قال منهم: إنهم لا يموتون ويزعمون أنهم يموتون ولا يزال خلف منهم في الأرض أئمة أنبياء وعبدوا جعفرًا كما عبده اليعمريون وزعموا أنه ربهم وقد كانوا ضربوا خيمة في كناسة الكوفة ثم اجتمعوا إلى عبادة جعفر فأخذ يزيد بن عمر بن هبيرة «عمير بن البيان» فقتله في الكناسة وحبس بعضهم (٣).

العاشر: الخطيئة المفضلية:

لأن رئيسهم كان صيرفيًا يقال له المفضل يقولون بربوبية جعفر كما قال _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١١، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ٨٧، البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٤٨.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٢، النوبختي: فرق الشيعة: ٤٣.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٢، النوبختي: فرق الشيعة: ٤٤.

(١٨)

غيرهم من أصناف الخطيئة وانتحلوا النبوة والرسالة وإنما خالفوا في البراءة من أبي الخطاب لأن جعفرًا أظهر البراءة منه (١).
الحادية عشرة:

من أصناف الغالية يزعمون أن روح القدس هو الله عز وجل وكانت في النبي ثم في علي ثم في باقي الأئمة الاثني عشر، ولم يذكر الإمام الأشعري اسم مؤسس الفرقة كالفرقة التالية (٢).

الثانية عشرة:

يزعمون عليًا هو الله، ويكذبون النبي ويشتمونه ويقولون: إن عليًا وجه به ليين أمره فادعى الأمر لنفسه (٣).

الثالثة عشرة:

هم أصحاب «الشريعي» يزعمون أن الله حل في خمسة أشخاص في النبي وفي علي والحسن وفي الحسين وفي فاطمة فهؤلاء آلهة عندهم وليس يطعن أصحاب الشريعي على النبي _ صلى الله عليه وآله وسلم ... (٤).

الرابعة عشرة: السبائية:

أصحاب عبد الله بن سبأ، يزعمون أن عليًا لم يمت وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً (٥).

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٣، البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٥٠.

(٢) ٤-٣-٥ الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٤، ١٥، ١٦، ولاحظ في الوقوف على عقائد هذه الفرق كتب أصحاب المقالات والملل والنحل، وكأن المتأخرين عن الأشعري عمدوا إلى تحرير ما ذكره، ولانطيل المقام بذكر المصادر.

(١٩)

وقد تعرفت في الجزء السادس على أن عبد الله بن سبأ على النحو الذي يذكره أصحاب التواريخ والمقالات أسطورة تاريخية.

الخامسة عشرة: المفوضة:

يزعمون أن الله عز وجل وكل الأمور وفوضها إلى محمد _ صلى الله عليه وآله وسلم _ وأنه أقدره على خلق الدنيا فخلقها ودبرها

وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ الْأُمَّةَ يَنْسَخُونَ الشَّرَائِعَ وَيَهْبِطُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ... (١).

ونحن بدورنا نعلق على هذه الفرق التي ذكرها فرقاً للشيعة وبالتالي فرقاً للإسلام بأمرين:

الأول: من المظنون جداً - أن هذه الفرق على فرض التأكد من وجودها في عصورها مما صنعتها يد السياسة الأثيمة لتثويش سمعة الأئمة الطاهرين - عليهم السلام - بين المسلمين ومحق روعتهم، وقد استعانت في ذلك، برجال كانوا غامرين في حب التصدر والفخفة، وجنون العظمة، ولما كانت دعوتهم على خلاف العقل والنقل، والفترة الإنسانية، لم يُقم المجتمع الإسلامي لهم وزناً ولم يعيشوا إلا أياماً قلائل وقد قامت أئمة أهل البيت بدورهم على إيقاظ الأمة عند استفحال الفساد وتبرأوا من أصحاب هذه المقالات وعقائدهم. وسيوافيك كلامهم في حق هؤلاء الغلاة فانظر.

الثاني: نحن نعاب المشايخ: النوبختي والأشعري والبغدادى والإسفرائينى، والشهرستاني والرازي وغيرهم من كتاب تاريخ العقائد، وأصحاب المقالات، حيث نسبوا هؤلاء إلى الشيعة مع تصريحهم بأنهم غلاة كفار، لا يمتون إلى الإسلام والمسلمين بصله، وأقل، كلمة يمكن أن يقال في حقهم إن الجنون _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٦.

(٢٠)

والمجون، وحب الجاه والمقام أسفت بهؤلاء إلى هوة المذلة واللعنة ثم الفناء المطلق فليس لأحد أن يطعن الشيعة بانتفاء هؤلاء إليهم، فما أحسن قول القائل:

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم * فكأننى سبابة المتندم " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (يوسف - ١٠٨) .

وليس انتماؤهم إلى الشيعة إلا كانتاء النصارى القائلين بالتثليث إلى المسيح - عليه السلام - وهل يؤخذ البريء بجرم المعتدى؟! لا والله.

موقف الأئمة من الغلاة:

إن موقف أئمة أهل البيت من هؤلاء المرتدين موقف النبي الأكرم من مشركى عصره والأعصار الآتية فقد طردوهم، ولعنوهم وكفروهم وحدروا شيعتهم من مكائدهم ومصائدهم، وإليك قسماً من الروايات الواردة في حق سعيد بن المغيرة، وأبى الخطاب، ولقيفاً من رجال العيث والفساد الذين كانوا يتظاهرون بالانتماء إلى أهل البيت - عليهم السلام - ولم يكونوا منهم بشيء.

وبما أن كتاب الرجال للشيخ الكشى الذى يعد من علماء القرن الرابع أحسن كتاب وضع في مجال التوثيق والجرح على أساس الروايات الواردة عن المعصومين - عليهم السلام - في حق الرواة، نقتبس الروايات من هذا الكتاب وإن كان لها مصادر أخرى.

(٢١)

المغيرة بن سعيد في روايات أئمة أهل البيت - عليهم السلام:

١- روى الكشى عن جعفر بن عيسى وأبى يحيى الواسطى قال: قال أبو الحسن الرضا - عليه السلام: « كان المغيرة بن سعيد يكذب على أبى جعفر - عليه السلام - فأذاه الله حرّ الحديد».

٢- أخرج الكشى عن عبد الله بن مسكان عمّن حدثه من أصحابنا عن أبى عبد الله - عليه السلام - قال: سمعته يقول: لعن الله المغيرة بن سعيد إنه كان يكذب على أبى، فأذاه الله حرّ الحديد. لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله، الذى خلقنا وإليه ما بنا ومعادنا ويده نواصينا.

٣- أخرج الكشى عن محمد بن عيسى بن عبيد: أن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرحمن وأنا حاضر، فقال له: يا أبا محمد ما أشدك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا فما الذى يحملك على رد الأحاديث؟ فقال: حدثنى هشام بن الحكم أنه سمع

أبا عبد الله _ عليه السلام _ يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فإننا إذا حدثنا قلنا قال الله عز وجل وقال رسول الله.

٤ - أخرج الكشي عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله _ عليه السلام _ يقول: «كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي يأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون في أصحاب أبي، يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة فكان يدس فيها الكفر والزندقه ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه فيأمرهم أن يثبتوها في الشيعة فكل ما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك مما دسه المغيرة في كتبهم».

(٢٢)

٥ - أخرج الكشي عن علي بن الحسان عن عمه عبد الرحمن بن كثير قال: قال أبو عبد الله _ عليه السلام _ يوماً لأصحابه: «لعن الله المغيرة بن سعيد ولعن الله يهوديه كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي فسلبه الله الإيمان وإن قوماً كذبوا علي، ما لهم، أذاقهم الله حر الحديد، فو الله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، مانقدر على ضر ولا نفع إن رُحمتنا فبرحمته وإن عذبنا فبذنوبنا، والله مالنا على الله من حجة ولا معنا من الله براءة وإنما لميتون ومقبورون، ومنشرون، ومبعوثون، وموقوفون، ومسؤولون، ويلهم مالهم، لعنهم الله آذوا الله وآذوا رسوله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ في قبره وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي، وها أنا ذا بين أظهركم، لحم رسول الله وجلد رسول الله، أبيت على فراشي خائفاً وجللاً مرعوباً، يأمنون وأفزع، وينامون على فرشهم، وأنا خائف ساهر، وجل اتقلقل بين الجبال والبراري أبرأ إلى الله مما قال في الأجدع البراد عبد بنى أسد أبو الخطاب، لعنه الله، والله لو ابتلوا بنا وأمرناهم بذلك لكان الواجب ألا تقبلوه فكيف وهم يروني خائفاً وجللاً استعدى الله عليهم وأتبرأ إلى الله منهم أشهدكم إنني امرؤ ولدني رسول الله وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً أو أشد عذابه».

٦ - أخرج الكشي عن سلمان الكناني: قال: قال لي أبو جعفر _ عليه السلام _ هل تدري ما مثل المغيرة؟ قال: قلت: لا، قال: مثله مثل بلعم بن باعور، قلت: ومن بلعم قال: الذي قال الله عز وجل: "الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١)".

إلى غير ذلك من الروايات التي وردت في ذمه ونقلها الكشي في رجاله (٢) _____

(١) الأعراف: ١٧٥.

(٢) الكشي: الرجال: ١٩٤ - ١٩٨.

(٢٣)

أبو زينب وأتباعه في روايات أئمة أهل البيت :

قال الكشي في رجاله: محمد بن أبي زينب اسمه مقلاص بن الخطاب البراد الأجدع الأسدي ويكنى أبا إسماعيل ويكنى أيضاً أبا الضبيان:

١ - أخرج الكشي عن عيسى بن أبي منصور قال: سمعت أبا عبد الله _ عليه السلام _ يقول وذكر أبا الخطاب فقال: اللهم العن أبا الخطاب فإنه خوفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي، اللهم أذقه حر الحديد.

٢ - أخرج الكشي عن بريد العجلي عن أبي عبد الله _ عليه السلام _ قال: سألته قول الله عز وجل " هل أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (١)" قال: هم سبعة: المغيرة بن سعيد، وبيان، والصائد النهدي، والحارس الشامي، وعبد الله بن حارث، وحمزة بن عمار البربري وأبو الخطاب (٢).

٣ - أخرج الكشي عن بشير الدهان عن أبي عبد الله _ عليه السلام _ قال: كتب أبو عبد الله _ عليه السلام _ إلى أبي الخطاب بلغني

أنتك تزعم أن الزنا رجل، وأن الخمر رجل، وأن الصراط رجل، وأن الصيام رجل، والفواحش رجل، وليس هو كما تقول، أنا أصل الحق، وفروع الحق طاعة الله، وعدونا أصل الشر وفروعهم الفواحش، وكيف يطاع من لا يعرف وكيف يعرف من لا يطاع؟
 ٤- أخرج الكشي عن الحمادي رفعه إلى أبي عبد الله أنه قيل له: روى عنكم أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجال؟ فقال: «ما كان الله عز وجل ليخاطب خلقه بما لا يعلمون _____».
 (١) الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) جرى الإمام _ عليه السلام _ في تفسير الآية بهؤلاء السبعة، مجرى الجرى وتطبيق الكل على مصاديقه الكثيرة.
 (٢٤)

٥- أخرج الكشي عن سدير عن أبي عبد الله _ عليه السلام _ قال: كنت جالساً عند أبي عبد الله وميسر عنده ونحن في سنة ثمان وثلاثين ومائة فقال ميسر بياع الزطى: جعلت فداك عجبت لقوم كانوا يأتون معنا إلى هذا الموضع فانقطعت آثارهم وفنيت آجالهم، قال: «ومن هم؟» قلت: أبو الخطاب وأصحابه، فكان متكئاً فجلس فرفع اصبعه إلى السماء ثم قال: «على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فاشهدوا بالله أنه كافر، فاسق مشرك وأنه يحشر مع فرعون في أشد العذاب غدواً وعشيا، ثم قال: أما والله إنى لانفس (١) على أجساد أصيبت معه النار».

٦- أخرج الكشي عن المفضل بن يزيد قال: قال أبو عبد الله _ عليه السلام _ وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة فقال لى: «يامفضل لاتقاعدوهم ولا تواركوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا توارثوهم».

٧- أخرج الكشي عن مرزم قال: قال أبو عبد الله: «قل للغالية توبوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون».

٨- أخرج الكشي عن أبي بصير قال: قال لى أبو عبد الله _ عليه السلام _ «يا أبا محمد ابرأ ممن يزعم أنا أرباب» قلت: برى الله منه، فقال: «ابرأ ممن زعم أنا أنبياء» قلت: برى الله منه.

٩- أخرج الكشي عن قاسم الصيرفى قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «قوم يزعمون أنى لهم إمام والله ما أنا لهم إمام، ما لهم لعنة الله كلما سترت ستراً هتكوه، هتك الله ستورهم».

١٠- أخرج الكشي عن الحسن الوشاء عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله _ عليه السلام _ قال: «من قال بأننا أنبياء فعليه لعنة الله ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله _____».

(١) نفس به وعليه: ضن به.

(٢٥)

١١- أخرج الكشي عن زرارة عن أبي جعفر قال: سمعته يقول: «لعن الله «بيان التبان» وأن «بياناً» لعنه الله يكذب على أبى أشهد أن أبى على بن الحسين كان عبداً صالحاً».

١٢- أخرج الكشي عن أبى يحيى الواسطى قال: قال أبو الحسن الرضا _ عليه السلام _: «كان بيان يكذب على على بن الحسين _ عليه السلام _ فأذاه الله حر الحديد، وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبى جعفر _ عليه السلام _ فأذاه الله حر الحديد».

وكان محمد بن بشير يكذب على أبى الحسن موسى فأذاه الله حر الحديد.

وكان أبو الخطاب يكذب على أبى عبد الله فأذاه الله حر الحديد والذى يكذب على، محمد بن فرات» قال أبو يحيى: وكان محمد بن فرات من الكتاب فقتله إبراهيم بن شكلة.

١٣- أخرج الكشي عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله _ عليه السلام _: «إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ أصدق البرية لهجة وكان مسيلمه يكذب عليه، وكان أمير المؤمنين _ عليه السلام _ أصدق من برأ الله، من بعد رسول الله وكان الذى يكذب عليه ويعمل فى تكذيب صدقه بما

يفترى عليه من الكذب عبد الله ابن سبأ لعنه الله».

ذكر أبو عبد الله _ عليه السلام _ الحارث الشامي وبيان فقال: كانا يكذبان على علي بن الحسين _ عليه السلام، _ ثم ذكر المغيرة بن سعيد وبزيعاً والسري وأبا الخطاب ومعمراً وبيشار الأشعري وحمزة البريري وصائد النهدي فقال: «لعنهم الله إنا لا نخلو من كذاب يكذب علينا أو عاجز الرأي، كفانا الله مؤنه كل كذاب، وأذاقهم الله حر الحديد».

(٢٤)

١٤ - أخرج الكشي عن ابن أبي يعفور قال: كنت عند أبي عبد الله _ عليه السلام _ فاستأذن عليه رجل حسن الهيئة، فقال: اتق السفلة فما تقارّت في الأرض حتى خرجت فسألت عنه فوجدته غالباً.

إلى غير ذلك من الروايات التي جمعها الكشي في رجاله

(١) وقد اكتفينا بهذا المقدار وإلا- فالروايات التي تدم هولاء الغلاة الكفار كثيرة. وقد أشار الإمام في ثانيا كلامه أنهم كانوا بصدد تشويه سمعة الأئمة بالكذب عليهم حيث قال: فيسقط صدقنا بكذبهم علينا عند الناس _____.

(١) الكشي: الرجال: ٢٩٠ - ٣٠٨، ولقد قابلنا الأحاديث مع الطبعة التي حقّقها العلامة المصطفوي، ومع ذلك لا تخلو أيضاً من هفوات.

(٢٧) الكيسانية والإبهامات المحدقة بها قد علمت أنّ الغلاة ليسوا من المسلمين ولا من الشيعة ولا يصح عدّهم من الفرق الإسلامية، وإنّ هذا الخطأ صدر من النوبختي والأشعري وجاء الباقيون فساروا على سيرتهما. نعم يظهر من كتب الفرق أنّ فرقةً للشيعة برزت إلى حيز الوجود قبل ثورة زيد بن علي. وفرقةً أخرى ظهرت بعد ثورته. ولعل القسم الأول منحصر في الكيسانية التي يدعى أصحاب المقالات أنّها ظهرت بعد ثورة الحسين _ عليه السلام _ أيام إمامة ولده زين العابدين _ عليه السلام، _ وبدورنا نذكر بعض نصوصهم حول الكيسانية. ثم نرجع إلى تحرير المتحصل منها، ولأجل ذكر النصوص في بدء البحث نستغني عن الإرجاع إلى المصادر عند التحليل فنقول:

١ - قال الأشعري: الكيسانية وهي إحدى عشرة فرقة، وإنّما سمّوا كيسانية لأنّ المختار الذي خرج وطلب بدم الحسين بن علي ودعا إلى محمد ابن الحنفية كان يقال له كيسان، ويقال إنّّه مولى لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .

الفرقة الأولى من الكيسانية يزعمون أنّ علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ نصّ علي إمامة ابنه محمد ابن الحنفية، لأنّه دفع إليه الراية بالبصرة.

والفرقة الثانية: منهم يزعمون أنّ علي بن أبي طالب نصّ علي إمامة ابنه الحسن بن علي وأنّ الحسن بن علي نصّ علي إمامة أخيه الحسين بن علي وأنّ الحسين بن علي نصّ علي إمامة أخيه محمد بن علي وهو محمد ابن الحنفية.

والفرقة الثالثة: من الكيسانية هي الكريية أصحاب أبي كرب الضرير

(٢٨)

يزعمون أنّ محمد ابن الحنفية حيّ بجبال رضوى، أسد عن يمينه ونمر عن شماله يحفظانه، يأتيه رزقه غدوة وعشية إلى وقت خروجه. ومن القائلين بهذا القول كُتِبَ الشاعر وفي ذلك يقول:

ألا إنّ الأئمة من قريش * ولاه الحقّ أربعة سواء

علي والثلاثة من بنيه * هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط، سبط إيمانٍ وبرّ * وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يدوق الموت حتى * يقود الخيل يقُدُّها اللواء

تغيب لا- يُرى فيهم زمان * برضوى عنده غسل وماء الفرقة الرابعة: يزعمون أنّ محمد ابن الحنفية إنّما جعل بجبال رضوى عقوبة

لركونه إلى عبد الملك بن مروان وبيعه إياه.

والفرقة الخامسة: يزعمون أن محمد ابن الحنفية مات وأن الإمام بعده ابنه أبو هاشم: عبد الله بن محمد الحنفية (١).

والفرقة السابعة: قالت إن الإمامة بعد موت أبي هاشم لابن أخيه الحسن بن علي بن محمد ابن الحنفية.

والفرقة الثامنة: قالت إن أبا هاشم أوصى إلى أخيه علي بن محمد، وعلّي أوصى إلى ابنه الحسن، فالإمامة عندهم في بني الحنفية لا تخرج إلى غيرهم (٢).

والفرقة التاسعة: يزعمون أن الإمام بعد أبي هاشم محمد بن علي بن عبد _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٨ - ٢٠، وقد سقط من الطبع الفرقة السادسة من الكيسانية ولذلك ابتدأنا بالسابعة، ولما كانت نسخة مقالات الإسلاميين مشوشة في بيان الفرقة السابعة والثامنة أخذناهما من كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

(٢) هاتان الفرقتان نقلناهما من الملل والنحل للشهرستاني ثم نتابع النقل من مقالات الإسلاميين.

(٢٩)

الله ابن العباس قالوا: وذلك أن أبا هاشم مات بأرض الشراء (١) منصرفاً من الشام فأوصى هناك إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وأوصى محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم بن محمد، ثم أوصى إبراهيم بن محمد إلى أبي العباس، ثم أفضت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور بوصية بعضهم إلى بعض، ثم رجع بعض هؤلاء عن هذا القول وزعموا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نصّ على العباس بن عبد المطلب ونصبه إماماً، ثم نصّ العباس على إمامة ابنه عبد الله ونصّ عبد الله على إمامة ابنه علي بن عبد الله، ثم ساقوا الإمامة إلى أن انتهوا بها إلى أبي جعفر المنصور.

الفرقة العاشرة: يزعمون أن أبا هاشم أوصى إلى بيان بن سمعان التميمي وأنه لم يكن له أن يوصى بها إلى عقبه.

الفرقة الحادية عشرة: يزعمون أن الإمام بعد أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية وعلّي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٢) وقال النوبختي: وفرقة قالت بإمامة محمد ابن الحنفية، لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة دون أخويه فسّموا الكيسانية، وإنما سمّوا بذلك لأن المختار ابن أبي عبيدة الثقفي كان رئيسهم وكان يلقب «كيسان» وهو الذي طلب بدم الحسين بن علي صلوات الله عليهم وتأثره حتى قتل من قتلته وغيرهم من قتل، وادّعى (المختار) أن محمد ابن الحنفية أمره بذلك وأنه الإمام بعد أبيه، وإنما لقب المختار كيسان لأن صاحب شرطته المكنتى بأبي عمره كان اسمه كيسان، وكان أفرط في القول والفعل والقتل من المختار جداً، وكان يقول: إن محمد ابن الحنفية وصّى علي بن أبي طالب، وأنه الإمام وأن المختار قيمه وعامله ويكفر من تقدّم _____

(١) كذا في النسخة المطبوعة والصحيح «السراء» وهي موضع بالشام.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٠ - ٢١.

(٣٠)

علياً ويكفر أهل صفين والجمل، وكان يزعم أن جبرئيل - عليه السلام - يأتي المختار بالوحي من عند الله عزّ وجلّ فيخبره ولا يراه. وروى بعضهم أنه سمّى بكيسان مولى علي بن أبي طالب - عليه السلام - وهو الذي حمله على الطلب بدم الحسين بن علي - عليهما السلام - ودلّه على قتلته، وكان صاحب سرّه وموآمرته والغالب على أمره (١)

وقالت فرقة من الكيسانية إن محمد بن الحنفية - رحمه الله تعالى - هو المهدي، وهو وصّى علي بن أبي طالب - عليه السلام - ليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا يخرج عن إمامته ولا يشهر سيفه إلا بإذنه، وإنما خرج الحسن بن علي - عليهما السلام - إلى معاوية محارباً له بإذن «محمّد» وأودعه وصالحه بإذنه، وأن الحسين إنما خرج لقتال يزيد بإذنه، ولو خرجا بغير إذنه هلكتا وضلاً وأن من خالف محمد ابن الحنفية كافر مشرك وأن محمد استعمل المختار بن أبي عبيدة على العراقيين بعد قتل الحسين وأمره بالطلب بدم الحسين - عليه السلام - وتأثره وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا، وسمّاه كيسان لكيسه ولما عرف من قيامه ومذهبه فيهم فهم يستمّون

(المختارية) ويدعون (الكيسانية) (٢).

معتقد هم :

إن الكيسانية على كثرة فرقههم يجمعهم شيان:

أحدهما: القول بإمامة محمد ابن الحنفية.

والثانية: القول بالبداة على الله عز وجل، وقالت طائفة منهم بأنه المهدي المنتظر في الرضوى (٣) _____).

(١) النوبختي: فرق الشيعة: ٢٢ - ٢٤.

(٢) النوبختي: فرق الشيعة: ٢٦.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٥٢.

(٣١)

الإبهامات حول هذه الفرقة :

قد عرفت كلمات أصحاب المقالات وكتاب العقائد والظاهر منهم ومن غيرهم افتراض فرقة إسلامية شيعية نجمت بعد وقعة الطف (٦١هـ - ٦٧هـ) والتفت عدّة من الشيعة حول محمد ابن الحنفية واتّخذوه قائداً (في حياة الإمام زين العابدين - عليه السلام) - وقد لبي هو وولده أبو هاشم ووصيه، ولم يكن هناك أى اعتراض واستنكار من رجالات البيت الهاشمي فاستتب الأمر لابن الحنفية وابنه ومن بعده واستفحل أمرهم إلى عصر أبي جعفر المنصور العباسي، وقد كان العباسيون يستمدون شرعية دولتهم وخلافتهم من انتمائهم إلى تلك الفرقة وكانت لهم أصول عقائد يتميزون بها عن سائر الفرق.

لكن الإبهامات التي تحديق بهذه الفرقة من جوانب شتى يدفع الإنسان إلى التأكد الكثير من وجود هذه الفرقة الإسلامية في الساحة وبروزهم إليها باسم الدين وإليك بيانها:

١- الاختلاف في المسمى بكيسان :

إن الكيسانية منسوبة إلى «كيسان» وقد اختلفوا في المسمى به إلى أقوال فمن قائل: إنّه اسم محمد ابن الحنفية، إلى آخر: إنّه اسم مولى لعلی، إلى ثالث: إنّه اسم نفس المختار بن أبي عبيدة الثقفي، إلى رابع: إنّه اسم صاحب شرطته المكنى بـ «أبي عمرة» وكان اسمه كيسان (١).

٢- الاختلاف فيمن نصب محمداً الحنفية للإمامة :

إنّ القائل الذي تنتهى إليه تلك الفرقة هو محمد الحنفية، فقد _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٨، والبغدادي: الفرق بين الفرق: ٣ و ٣٨، والنوبختي: فرق الشيعة: ٢٢.

(٣٢)

اختلفوا في مرشحه للإمامة إلى قولين: فمن قائل بأنّ المعين، هو الإمام علي، إلى آخر أنّه الإمام الحسين وهو الذي نصبه للخلافة.

٣- الاختلاف في مبدأ قيادته :

كما اختلفوا في الموصى والمعين، اختلفوا في مبدأ قيادته، فمن قائل بأنّه الإمام المنسوب من جانب الإمام علي وهو الإمام بعد رحيل والده دون أخويه، إلى آخر بأنّه الإمام بعد استشهاد الحسين - عليه السلام -.

٤- الاختلاف في كونه حياً أو ميتاً :

اختلفوا في كونه حياً أو ميتاً، فقد نسب إلى جماعة أنّهم قالوا بكونه المهدي المنتظر وأنّه حي بجبال رضوى، يصونه الأسد والنمر، معه العسل والماء، وفي مقابلهم من قال بموته، وأنّ الإمامة انتقلت إلى فرد آخر.

٥- اختلافهم في كونه حياً كرامة أو عقوبة :

اختلف القائلون بكونه حياً، فهل هو حي كرامة، بشهادة أنه يسان بالأسد والنمر عن اليمين والشمال ويأتيه رزقه غدواً وعشياً إلى وقت خروجه كما قال به كثير الشاعر، أو أنه حي عقوبة لركونه إلى عبد الملك بن مروان وبيعه إياه.

٦- الاختلاف في الإمام بعد أبي هاشم:

توفي محمد الحنفية عام ثمانين أو واحد وثمانين وتوفي ابنه أبو هاشم «عبد الله ابن محمد الحنفية» سنة ثمان أو تسع وتسعين وعرفه ابن شهر آشوب بأنه كان ثقة جليلاً من علماء التابعين روى عنه الزهري وأثنى عليه وعمرو بن دينار وغيرهما (١)

وقد اختلفت الأقوال في وصيه إلى قائل بأنه أوصى إلى الحسن بن علي بن _____

(١) المامقاني: تنقيح المقال: ٢/٢١٢ برقم ٧٠٤٢.

(٣٣)

محمد الحنفية، إلى آخر بأنه أوصى إلى أخيه، علي بن محمد الحنفية، وأنه أوصى إلى ابنه الحسن، إلى ثالث أنه أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، إلى رابع بأنه أوصى إلى بيان بن سمعان، إلى خامس أنه أوصى إلى عبد الله بن عمرو بن حرب.

٧- الاختلاف في المعتقد:

إن الكيسانية على كثرة فرقه يجمعهم شيان: أحدهما: القول بإمامة محمد ابن الحنفية والثانية: القول بأنه المهدي المنتظر مضافاً إلى القول بالبداء (١).

أقول: إن القول بالبداء ليس من عقائد هذه الطائفة وإنما هو عقيدة إسلامية جاء بها القرآن الكريم ونصت به السنة النبوية (٢) ولو فسرت على وجه صحيح لعلم أن المسلمين بأجمعهم متفقون على القول بها.

وإنما نشأ النزاع من تفسيره على وجه باطل، أعنى: الظهور بعد الخفاء على الله تعالى، ولا- يقول به أحد من المسلمين، وتفسيره الصحيح قائم بكلمتين: إحداهما يرجع إلى مقام الثبوت، والأخرى إلى مقام الإثبات، أمّا الأولى، فالبداء عبارة عن تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة، كما كان الحال كذلك في قوم يونس، وأمّا الثانية فهي الإظهار بعد الإخفاء، وأمّا علمه سبحانه فلا يتغير ولا يتبدل وأوضحنا حقيقتها في الجزء السادس من هذه الموسوعة (٣).

قد نقل في كتب الملل والنحل أنهم استدلوا على كون محمد ابن الحنفية إماماً بقول علي _ عليه السلام _ له يوم البصرة وقد أقدم بالراية: «أنت ابني حقاً _____»!

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٥٢.

(٢) الإمام البخاري: الصحيح: ٤/٢٠٨، كتاب الأنبياء، باب ٥١ حديث أبرص وأعمى وأقرع.

(٣) بحوث في الملل والنحل: ٦/٣٠٤-٣٢٧.

(٣٤)

وأنت خير بأن أحقية النبوة هو كونه شبيه والده في الشجاعة لا أنه إمام بعده أو بعد السبطين.

كما نقل أنهم استدلوا على كونه مهدياً غائباً بقول النبي _ صلى الله عليه وآله وسلم: «_ لن تنقضي الأيام والليالي حتى يبعث الله رجلاً من أهل بيتي اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي».

ولكن الاستدلال في غاية الضعف لأن اسم والد محمد هو علي لا عبد الله. نعم كان علي صلوات الله عليه عبداً لله وصفيّاً لا علمياً.

علي أنه لو صح الاستدلال فالنفس الزكية، أعنى: محمد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن المثنى، أولى منه.

واستدلوا أيضاً على أن خروج المختار كان بإذنه.

يلاحظ عليه: أن الإذن بالخروج لا يدل على أنه ادعى الإمامة ودعا الناس إليها، وقد روى الشيخ المفيد أنه سئل محمد ابن الحنفية عن ظهور المختار وادعائه أن خروجه بأمره فأجاب:

والله ما أمرته بذلك لكن لا أبالي أن يأخذ بثأرنا كل أحد، وما يسوءني أن يكون المختر هو الذي يطلب بدمائنا. فاعتمد السائلون على ذلك وكانوا كثيرين. وقد رحلوا إليه بهذا المعنى بعينه، فنصروا المختر على الطلب بدم الحسين _ عليه السلام _

وأخيراً نقول إن الإمامة إما بالنص أو بالبيعة، فإن كان الأول فأين النص؟ وإن كانت بالبيعة فأين بايعه أهل الحل والعقد؟ وتوضيح المقال بذكر أمرين:

الأول: أن محمد الحنفية وليد البيت العلوي وربيته الذي وصفه أمير المؤمنين، بقوله: «إن المحامدة تأبى أن يعصى الله عز وجل» قال الراوي، قلت: (٣٥)

ومن المحامدة؟ قال _ عليه السلام: _ «محمد بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أمير المؤمنين ابن الحنفية» (١) وكان أعرف الناس بعظم مقام الإمامة وخطورتها وأنها لا تصلح إلا لمن ثبت في حقه النص، من صاحب الرسالة أو من بايعه الناس، أو خصوص أهل الحل والعقد ومع ذلك كيف يلبي دعوة نفر أو نفرين للقيام بأعباء الإمامة ولم يكن هناك تنصيب ولا بيعة من وجوه المسلمين ولم يكن الرجل من الانتهازيين أو من أبناء البيت الساقط الذين كانوا يدوسون كل الأصول الإسلامية، للحصول على الغايات ويستهوهم النهمة والشره لاختلاس الأموال أو حيازة جاه.

ونحن نجل محمد ابن الحنفية عن الرغبة إلى حيازة المقام الذي لا يصلح إلا لمن اجتمع لديه الشرط من التنصيب أولاً، أو البيعة ثانياً. والذي يؤيد ذلك أنه لم تشاهد منه دعوة إلى نفسه، بإلقاء الخطابة والمحاضرة، أو بعث الرسل إلى الأطراف والأكناف، أو تصدى أمر، يعد من شؤون الحكومة، ولو كان كذلك لكان له أنصار وأعوان، ولما ألقى عليه القبض، ابن الزبير لغاية أخذ البيعة والتهديد بالإحراق عند رفضها. كما أنه كان يتعاطف مع عبد الملك بن مروان - عملاً بواجبه - حتى أدركته المنية عام ثمانين أو واحد وثمانين. الثاني: لو أغمضنا عن ذلك فهل كان هناك جماعة، مؤمنون بإمامته وقيادته؟ وأن الفراغ الذي حصل، لدى الشيعة بشهادة السبط، ملئ ببيعة أهل العراق وليف من أهل المدينة ومكة له، أو لا؟.

والحق هو الثاني وأن كثير من الشيعة كانوا حيارى في أمر الإمامة لأجل الضغط من جانب الحكومة الأموية إلا الأخصاء ولكن كانت الشيعة بأجمعهم

(١) المامقاني: تنقيح المقال: ٥٧/٢ برقم ١٠٢٣٠، نقلاً عن رجال الكشي.

(٣٦)

يتعاطفون مع أهل البيت وعلى مقدمتهم الشخصيتان البارزتان: محمد ابن الحنفية، و على بن الحسين زين العابدين _ عليه السلام _ من دون أن يتخذ ابن الحنفية إماماً وقدوة للشيعة.

ففي هذه الظروف نهض إنسان غيور، وشجاع مقدم، وسيف بثار، لأخذ ثار الإمام الحسين ألا وهو المختر بن أبي عبيدة الثقفي الذي كان يحب أهل البيت - عليهم السلام - منذ نعومة أظفاره إلى أن ألقى حمامه في طريق أخذ ثارهم، ونال أمنيته باجتثاث جذور أعدائهم، وسفك دمائهم، فأشفي صدور قلوب المؤمنين وعلى رأسهم أئمة أهل البيت والهاشميون والهاشميات بأجمعهم.

لقد كان الاتصال الوثيق مع أكابر أهل البيت يوم ذاك رصيلاً كبيراً للتأثر لغاية التفاف شيعة العراق حول المختر ولولا ذلك لما تمكن من إنهاضهم إلى ميادين القتال. وبما أن محمد ابن الحنفية - رض - كان كبير العلويين في السن لم يكن له بد من التعاطف معه وكان له مثل ذلك سيد الساجدين، ولأجل المواصلة والمكاتبه مع العظيمين جلب اهتمام الشيعة لنفسه، وأقام نهضة كبيرة أخذ بها ثار الحسين _ عليه السلام _ لا بل كانت ناراً أحرقت أمنيته بني أمية وأبادت آثارهم واجتثت جذورهم.

ولما كانت ثورته ثقيلة على منائى أهل البيت _ عليهم السلام _ أرادوا إسقاطه من أعين الناس فتحاملوا عليه من جانب العقيدة فرموه

باختراع المذهب حتى رموه بادعاء النبوة ونزول الوحي حتى صاغوا له جملاً مضاهيةً لجمل الكهنه، ونسبوا إليه (١). ولم يكن لهم غاية إلا القضاء على نهضته وثورته.

يقول البغدادي: «فلما تمت للمختار ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين _____،
(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٤٦.

(٣٧)

تكهن بعد ذلك وسجع كإسجاع الكهنه، وحكى أيضاً أنه ادعى نزول الوحي عليه» (١).

لم يكن المترقب من البيت الأموي وحماته الذين شربوا كأس المنون بيد الثائر المتفاني في حب أهل البيت، إلا رميه بادعاء النبوة ونزول الوحي، ولنفترض أن الثائر الثقفي لم يكن رجلاً دينياً، ولم ينهض بدافع إلهي، وإنما ثارت ثورته، بدافع نفسى مادي، ولكنه كان رجلاً عملاقاً وسياسياً عبقرياً، قاد أعظم الثورات التي شاهدها التاريخ في ذلك العصر وامتدت سلطته إلى أرمينيا، وهل مثله - وهو يحكم باسم الإسلام والدين، وبتأييد من أئمة أهل البيت - عليهم السلام - يدعى النبوة ونزول الوحي ويتكلم بكلام الكهنه مع أن التاريخ ضبط خطبه وكلامه حتى نقلها البغدادي (٢) كلا، ولا، وما جاء به البغدادي، ليس إلا نسبة مفتعلة.

«من يتحقق في سيرة المختار وحره للامويين ودكه لجيش قائدهم عبيد الله ابن زياد، وفي عداته للزبيريين ابتداء من انتزاع الحكم منهم في أول ثورته حتى قتاله لمصعب الذي سيطر على الحكم بعد المختار، - من يتحقق في هذا - يستطع تحليل اتهام المختار بالكذب والانحراف واستغلال الإسلام وقتل الإمام الحسين - عليه السلام - من أجل مصالحه الشخصية، وأن تنسب له أقاويل مضادة للإسلام. وكيف لا يتهم بالأمور السالفة وأضرابها وقد أطبقت على عداته دولتان، دولة ابن الزبير ودولة الأمويين؟» (٣).

وهناك بعض التساؤلات على صعيد البحث نشير إليها:

الأول: روى الشيخ الكليني بسند صحيح عن أبي جعفر - عليه السلام - مناشدة محمد ابن الحنفية لعلى بن الحسين في مسألة الوصاية والإمامة حتى اتفقا _____

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٤٥ و ٤٦.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٤٥ و ٤٦.

(٣) محمود البغدادي: النظرية السياسية: ٢٨٤.

(٣٨)

على تحكيم الحجر الأسود وطلب الشهادة منه على أحدهما، فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال على بن الحسين لمحمد ابن الحنفية: «إبدأ أنت فابتهل إلى الله عز وجل وسله أن ينطق لك الحجر ثم سل» فابتهل محمد في الدعاء وسأل الله ثم دعا الحجر فلم يجبه، فعند ذلك تقدم على بن الحسين وقال: «أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق الناس أجمعين لما أخبرتنا من الوصي والإمام بعد الحسين بن على - عليهما السلام؟» - فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه ثم أنطقه الله عز وجل بلسان عربى مبين فقال: اللهم إن الوصى والإمام بعد الحسين بن على - عليهما السلام - هو على بن الحسين بن على بن أبى طالب وابن فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم، - قال فانصرف محمد بن على وهو يتولى على بن الحسين - عليهما السلام (١).

لكن الإجابة عن هذا السؤال واضحة، فإننا لو افترضنا صحة المضمون، واكتفينا في مثل هذه الواقعة الخطيرة بالخبر الواحد، لنا أن نقول بأن المناشدة كانت لأجل إفهام الآخرين بإمامة على بن الحسين حتى يوجه نظر الجماهير إلى الإمام الحقيقي.

إن محمد ابن الحنفية أجل من أن لا- يعرف شروط الإمامة وإنها لم تكن متوفرة في حقه. إذ لو كانت بالنص فلم يكن هناك نص عليه، ولو كانت بالمبايعة والتصفيق بالأيدى فلم تكن هناك مبايعة. ومع ذلك فهل يحتمل أن يشهد له الحجر بالإمامة.

الثاني: إذا لم تكن هناك دعوة باسم الكيسانية وإنما خلقها أعداء المختار لإسقاطه من أعين الناس فيماذا يفسر ما أنشأه الشاعر كثير عزة _____.

(١) الكليني: الكافي: ١/٣٤٨ ح ٥، كتاب الحجّة.

(٣٩)

ألا إن الأئمة من قريش * ولاة حق أربعة سواء

على والثلاثة من بنيه * هم الأسباط ليس بهم خفاء (١) أو ما أنشأه السيد الحميري:

ياشعب رضوى ما لمن بك لا يرى * وبنا إليه من الصباة أولق

حتى متى؟ وإلى متى؟ وكم المدى * يابن الرسول وأنت حتى ترزق (٢) والأجابة عن هذا السؤال واضحة لأننا أيضاً نرافق القارى في حكاية هذه الأشعار عن ظهور عقيدة خاصة في حق محمد ابن الحنفية، ولكنها لم تكن تتجاوز عن حدوث فتنة دينية أثارت شكوكاً تارة وأواماً أخرى على بعض الناس ولم يمض شيء حتى ذهبت أدراج الرياح، ولاتعد مثل ذلك فرقة إسلامية لها دور على بعض الناس على أن شعر السيد لا يثبت هذا المطلب لأنه يقول: يا ابن الرسول ولم يكن محمد ابن الحنفية ابناً للرسول _ صلى الله عليه وآله وسلم _.

الثالث: روى أن السيد الحميري كان كيسانياً وله شعر في هذا المذهب ولكنه رجع إلى الحق بفضل الإمام جعفر الصادق _ عليه السلام _ وقال:

تجعفرتُ باسم الله والله أكبر * وأيقنتُ أن الله يعفو ويغفر

ودنتُ بدين غير ما كنتُ دايماً * به ونهاني سيد الناس جعفر

فقلت هب أتى قد تهودتُ برهه * وإلا فديني دين من يتنصر

فلست بغال ما حييتُ وراجع * إلى ما عليه كنت أخفى وأضمر

ولا قائل قولاً لكيسان بعدها * وإن عاب جهال مقالى وأكثروا

ولكنه من قد مضى لسبيله * على أحسن الحالات يقضى ويؤثر (٣) _____)

١ - المسعودي: مروج الذهب: ٧٨ - ٧٩، طبعة دار الاندلس .

٢ - المسعودي: مروج الذهب: ٧٨ - ٧٩، طبعة دار الاندلس .

٣ - السيد المرتضى: الفصول المختارة: ٥٩٨ .

(٤٠)

إن شعره هذا يحكى عن وقوع شبهة لبعض أولياء أهل البيت - عليهم السلام - فتصوروا المجاز حقيقة، ولكنهم رجعوا إلى شرعة الحقيقة وشربوا من مائها العذب المعين.

وقد اتضح بهذا البحث الضافى على أن المذهب الكيسانى تحدقه إبهامات وغموض فى مؤسسه وأتباعه وأهدافه تكاد تدفع الإنسان إلى أنه مذهب مختلف من جانب الأعداء، ملصق بشيعة أهل بيت النبى _ صلى الله عليه وآله وسلم _ لغاية تشويش أذهان الشيعة أولاً وتحطيم سمعة السيف الثبار المختار بن أبى عبيدة ثانياً.

وهناك كلمة تدعم ما ذكرنا بأحسن وجه وهى أن الباعث الوحيد لترويج هذا المسلك هو العباسيون فى بداية أمرهم لأنهم كانوا يستمدون شرعية خلافتهم من هذا الطريق إذ يدعون أن أباهم أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس.

قال الأشعري: قالوا إن أباهم مات بأرض السراء منصرفاً من الشام فأوصى هناك إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وأوصى محمد بن على، إلى ابنه إبراهيم بن محمد ثم أوصى إبراهيم بن محمد إلى أبى العباس ثم أفضت الخلافة إلى أبى جعفر المنصور

بوصية بعضهم إلى بعض (١).

فالعباسيون لأجل إضفاء الشرعية على خلافتهم كانوا يدعمون هذا المذهب ويصوّرونه أمراً واقعياً وصل إليهم من أئمة أهل البيت فمن الحسين - عليه السلام - إلى أخيه محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس إلى أن وصل إلى المنصور ذلك الحاكم الطاغى قاتل العلويين.

قال ابن خلدون في مقدمته: وآخرون يزعمون أنّ أبا هاشم لما مات بأرض السراء منصرفاً من الشام، أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأوصى _____

(١) الأشعري: مقالات الاسلاميين: ٢١، وفي النسخة «الشراء».

(٤١)

محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارث الملقب بالسفاح، وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر الملقب بالمنصور، وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد آخر إلى آخرهم، وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس، وكان منهم: أبو مسلم وسليمان بن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية وربما يعضدون ذلك بأنّ حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس، لأنّه كان حياً وقت الوفاة وهم أولى بالوراثة بعصبيّة العمومة (١).

والجدير بالفات نظر القارى هو قول ابن خلدون: «وربما يعضدون ذلك بأنّ حقهم في هذا الأمر يصل إليهم من العباس» فإن ظاهره أنّ العباسيين يعضدون الكيسانية ويروجونها إذ من ذلك الطريق يصلون إلى شرعية حكمهم (٢).

وفي الختام نأتى بكلمتين للشيخ المفيد، قال:

١ - أنّ جميع ما حكيناه من اعتقادات القوم، أمر حادث ألجأ القوم إليه الاضطرار، عند الحيرة، وفراقهم الحق، والأصل المشهور ما حكيناه من قول الجماعة المعروفة بإمامة أبي القاسم - محمد الحنفية - بعد أخويه والقطع على حياته وأنه القائم (وأما غير هذا القول فقد حدث بعد زمن، ألجأهم الاضطرار إليه).

٢ - انقضت الكيسانية حتى لا يعرف منهم في هذا الزمان أحد إلا ما يحكى ولا تُعرف صحته، ويقول في مورد آخر: «إنّ الكيسانية في وقتنا هذا لا بقية لهم ولا يوجد عدد منهم، يقطع العذر بنقله، بل لا يوجد أحد منهم يدخل في جملة أهل العلم بل لا نجد أحداً منهم جملة، وإنّما تقع مع الناس الحكاية عنهم خاصة (٣) _____» .

(١) ابن خلدون: المقدمة: ١ | ٢٥٠، طبع دار الفكر، بيروت.

(٢) لاحظ البغدادى: الفرق بين الفرق: ٤٠ - ٤١.

(٣) الشيخ المفيد: الفصول المختارة: ٢٩٧ - ٣٠٥.

(٤٢) حول سائر فرق الشيعة قد ذكر أصحاب المقالات للشيعة فرقا بصورة عامة وللزيدية والإمامية بصورة خاصة، أما فرق الزيدية فسوف نتناولها في مستقبل الكتاب ونثبت أنّ زيدا الشائر لم يكن إماماً في العقائد ولا فقيهاً صاحب منهج في الفقه ولم يكن له أى ادعاء في دينك المجالين حتى يكون إماماً في أحدهما ويشكل فرقة خاصة باسم الزيدية، نعم بعدما قتل زيد في المعركة وأدى واجبه تفرّق أصحابه إلى فرق ومذاهب لا-تمت بالثائر بصله، فانتماء الفرق الزيدية إلى اتباع زيد الصق بهم من زيد -رضى الله عنه - وسوايكم التفصيل في محله.

إنّما الكلام عن الفرق التي ذكروها فرقا للإمامية وقد كبروها وعدّوها خمس عشرة فرقة وهي:

١ - الكاملية ٢ - المحمدية ٣ - الباقرية ٤ - الناوسية ٥ - الشمطية ٦ - العمارية ٧ - الإسماعيلية ٨ - المباركية ٩ - الموسوية ١٠ - القطعية ١١ - الاثنا عشرية ١٢ - الهشامية ١٣ - الزرارية ١٤ - اليونسية ١٥ - الشيطانية (١).

وهؤلاء الذين ذكرهم البغدادى تبعاً للأشعري، وتبعهما الإسفرائيني في كتابه «التبصير في الدين» والشهرستاني في «الملل والنحل»

والرازي في «اعتقادات المسلمين والمشركين» تدور بين الصحيح والمختلف، فإن كثيراً منها

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٣٥٠.

(٤٣)

فرق في عالم الوهم والخيال نسجها مناوئوا أهل البيت لتشويه سمعة الشيعة الإمامية، ولتأتي بنموذج عنها وهم الفرق الأربعة الأخيرة، أعني: الهشامية والزرارية واليونسية والشيطنية فإنك لا ترى أثراً من هذه الفرق في كتب الشيعة الإمامية.

أما الأولى: أي المنسوبة إلى هشام بن الحكم فمختلفة، فإن هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة الإمامية وبطانتهم وممن دعا له الإمام الصادق _ عليه السلام _ فقال: « ماتزال مويداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

قال الشهرستاني: هذا هشام بن الحكم صاحب غور في الأصول لا يجوز أن يغفل عن إزماته على المعتزلة، فإن الرجل وراء ما يلزم به على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه!! و ذلك أنه أزم العلاف (١).

سيوافيك أن ما نقله عنه من التشبيه يرجع إلى زمن شبابه قبل اتصاله بالإمام الصادق _ عليه السلام _ ويعتبر الرجل بخواتيم أعماله ومعتقداته.

يقول أحمد أمين: أكبر شخصية شيعية في الكلام وكان جداً قوى الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه ونقلت له في كتب الأدب مناظرات كثيرة متفرقة تدل على حضور بديهته وقوة حجته.

إن الشيخ الأشعري قد أطنب الكلام عنه وذكر له عقائد خرافية في تجسيمه سبحانه وعطف عليه هشام بن صادق الجواليقي واشتركا في التجسيم ومضاعفاته (٢) وذكره البغدادي بنفس النص مع تلخيص (٣)، وتبعهما من جاء بعدهما كالشهرستاني غير أن هؤلاء لابتعادهم عن التعرّف برجال الشيعة لم يعرفوا هشام بن الحكم حق المعرفة واشتبه عليهم الأمر، فإن هشام كان بداية أمره

(١) الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ١٨٥.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٣١ | ٣٤.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٦٥ - ٦٩.

(٤٤)

من تلامذة أبي شاعر الديصاني صاحب النزعة الإلحادية، ثم تبع جهم بن صفوان الجبري المتطرف المقتول بـ «ترمذ» عام ١٢٨ هـ ولما التحق بالإمام الصادق _ عليه السلام _ ودان بمذهب الإمامية ترك ما كان يعتقد به من تجسيم وتشبيه فقد تطبعت عقلته على معارف أهل البيت إلى حد كبير، ولا يخفى على إنسان ملّم بالحديث والكلام أن التنزيه شعار أهل البيت _ عليهم السلام _ ولقد كفانا الشيخ عبد الله نعمة في رسم حياة هشام رسماً واقعياً منزهاً عن كل رأى مفتعل (١).

وأما الثانية: أعني الزرارية فهذه الفرقة المختلفة منسوبة إلى زرارة بن أعين من أجلاء تلاميذ الإمامين الباقر والصادق _ عليهما السلام _ . يقول النجاشي في حقه: شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم وكان قارئاً، فقيهاً، متكلماً، شاعراً، أديباً، قد اجتمعت فيه خصال الفضل والدين (٢) وقد ذكرنا له ترجمته ضافية طبع في مقدمته مسنده، مات رحمه الله عام ١٥٠ هـ ولم يكن له أي شطح في العقيدة أو عوجاج في الفكر، وإنما كان يسير على ضوء إماميه الباقر والصادق _ عليهما السلام _ وقد أثنا عليه بجمال ضافية، ومسنده المطبوع لأصدق دليل على براءته في الكلام واضطلاعه في الفقه.

نعم أن الضغائن والحقده على هذا المتكلم وعلى من سبقه - هشام بن الحكم - دفع المخالفين على رميهم بالانحراف الفكري، قال البغدادي: ومنهم الزرارية أتباع زرارة بن أعين الراضى، في دعواها حدوث جميع صفات الله عز وجل وإنها من جنس صفات الله عز وجل وزعموا أن الله تعالى لم يكن في الأزل حياً، ولا عالماً ولا قادراً ولا مريداً ولا اسمياً، ولا بصيراً وإنما استحق هذه الأوصاف حين

أحدث لنفسه حياة وقدرة وعلماً وأرادةً وسمعاً وبصراً. (٣) _____

(١) لاحظ كتابه حياة هشام بن الحكم، طبع بيروت.

(٢) النجاشي: الرجال: ١/٣٩٧ برقم ٤٦١. ولاحظ مقدمة المؤلف على مسنده.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٣٠.

(٤٥)

ما عزى إليه، نسبة مفتعلة، والرجل ممن برع في الفقه الأكبر والأصغر في أحضان الإمامين الباقر والصادق _ عليهما السلام _ وحاشا أن يقول مثله بحدوث الأوصاف الثبوتية لله.

وأمّا الثالثة: فهي اليونسية المنسوبة إلى يونس بن عبد الرحمن مولى علي بن يقطين بن موسى، مولى بني أسد، فقد كان حافظاً للحديث، فقيهاً في الدين، متكلماً على مذهب أهل البيت. يقول النجاشي:

كان وجهاً في أصحابنا، متقدماً، عظيم المنزلة، ولد في أيام هشام بن عبد الملك ورأى جعفر بن محمد _ عليهما السلام _ بين الصفا والمروة ولم يرو عنه، وروى عن أبي الحسن موسى والرضا _ عليهما السلام _ وكان الرضا - عليه السلام - يشير إليه في العلم والفتيا له كتاب يوم وليلة وقد قال في حقّه الإمام العسكري - عليه السلام - : «أتاه الله بكل حرف نوراً يوم القيامة» وكتب أخرى ذكرها النجاشي (١).

وقد نسب إليه البغدادي من أنّه كان يقول: إنّ الله تعالى يحمله حملة عرشه وإن كان هو أقوى منها (٢).

وأمّا الرابعة: فهولاء يريدون من الشيطان، محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفه البجلي، كوفي صيرفي يلقب بـ «مؤمن الطاق» و«صاحب الطاق»، وإتّما لقبه المخالفون بشيطان الطاق، وكان دكانه في طاق المحامل بالكوفة فيرجع إليه في النقد فيرد رداً فيخرج كما يقول فيقال شيطان الطاق. له كتاب الاحتجاج في إمامة أمير المؤمنين، وكتاب رد فيه على الخوارج، ومناظرات مع أبي حنيفة والمرجئة.

وقال ابن النديم: كان متكلماً حاذقاً. وله من الكتب: الإمامة وكتاب المعرفة _____

(١) النجاشي: الرجال: ٢/٤٢١ - ٤٢٢.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٢٨، والنسبة مفتعلة، والعدل والتنزيه من شعار أئمة أهل البيت، وما نقل أشبهه بكلام المجسّمة من الحنابلة والحشوية.

(٤٦)

وكتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضل، وكتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة (١).

نسب إليه البغدادي من أنّ الله تعالى إنّما يعلم الأشياء إذا قدرها وأرادها، ولا يكون قبل تقديره الأشياء عالماً بها، وإلا ما صحّ تكليف العباد (٢)

إنّ دراسة حياة هولاء الأكابر تشهد على أنّهم من حفاظ أحاديث أهل البيت ومن مقتفى آثارهم، فعقيدتهم لا تختلف قدر شعرة مما كان عليه الإمام الصادق والإمام الكاظم _ عليهما السلام _.

هولاء كانوا صواعق تنزل على روّس المنافقين وتدمر أوكار أفكارهم، فلم يجد الخصوم بداً من الازدراء بهم حتى لقبوا بعضهم بالشیطانية تنازراً باللقاب.

نحن نسلم أنّ له رأياً فيما ترجع إلى الاستطاعة كما زعمها الأشعري في مؤمن الطاق ومن تقدّمه (٣)

أفيصح أن يعد هولاء مؤسسين لفرق إسلامية بحجة أنّ لهم رأياً في مسألة كلامه ولو صلح ذلك لبلغت عدد الفرق الإسلامية المائة بل المئات، إذ ما من مسألة كلامية إلا فيها خلاف بين علماء الكلام.

هذا ما يرجع إلى الفرق الأربعة التي ذكرها البغدادي في آخر الفرق للإمامية، ولنرجع إلى ماصدر به فرق الإمامية ونشرحها بالمشراط العلمي.

(١) ابن النديم: الفهرست: ٢٦٤، وأيضاً: ٢٥٨.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٧١.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٤٣.

(٤٧)

قالوا: منهم الكاملة:

يقول البغدادي: هؤلاء أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبي كامل، وكان يزعم بأن الصحابة قد كفروا بتركهم بيعة علي، وكفر علي، بتركه قتالهم، وكان يلزمه قتالهم كما لزمه قتال أصحاب صفين، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب، وروى أنه قيل: له ماتقول في الصحابة؟ قال: كفروا، فقيل له: فماذا تقول في علي؟ فتمثل بقول الشاعر:

وما شر الثلاثة أم عمرو * بصاحبك الذي لا تصحبنا

وحكى أصحاب المقالات عن بشار أنه ضم إلى ضلالتة في تكفير الصحابة وتكفير علي معهم ضلالتين أخريتين.

إحداهما: قوله برجعته إلى الدنيا قبل يوم القيامة، كما ذهب إليه أصحاب الرجعة من الرافضة.

الثانية: قوله بتصويب إبليس في تفضيل النار على الأرض، واستدلوا في ذلك بقول بشار في شعر له:

الأرض مظلمة والنار مشرقة * والنار معبودة مذ كانت النار (١) يلاحظ عليه: بما ذكرنا في أول الفصل من أن عد فرقة من المذاهب الإسلامية مشروط بوجود المقسم في القسم فلو لم يشم القسم رائحة المقسم فلا يصح عدّه قسماً منه، فإن التشيع بالمعنى الاصطلاحى هو الاعتقاد بأن علياً - عليه السلام - هو المنصوب للقيادة بعد رحيل الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعنى ذلك لزوم متابعتة والافتقار بأثره، وأنه الرجل الأمثل والأفضل بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فإذا كان الرجل مبغضاً

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٥٤، والإسفرائيني، التبصير: ٣٥، تحقيق كمال يوسف الحوت.

(٤٨)

ومكفراً على وإن كان مكفراً لسائر الخلفاء، فهل يصح عدّه من الشيعة وعدّ مذهبه فرقة من فرق الشيعة الإمامية؟!.

لا أدري ولا المنجم يدري ولا القراء يدرون!!

على أن الرجعة ليست بمعنى رجوع جميع الناس إلى الدنيا المستلزم لانكار البعث، بل المقصود رجوع عدد قليل من الصلحاء والطواغيت عند ظهور المهدي - عليه السلام - ولعل عددهم لا يتجاوز عدد الأصابع، وقد أوضحنا معناها في الجزء السادس من هذه الموسوعة (١).

ومنهم المحمديّة:

هؤلاء ينتظرون محمد (النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ولا- يصدّقون بقتله ولا- بموته، ويزعمون أنه في جبل حاجز من ناحية نجد إلى أن يؤمل بالخروج، وكان المغيرة بن سعيد العجلي مع ضلالاته في التشبيه يقول لأصحابه: إن المهدي المنتظر، محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، ويستدل على ذلك بأن اسمه كاسم رسول الله واسم أبيه عبد الله كاسم أبي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قوله في المهدي: «إن اسمه يوافق اسمي، واسم أبيه اسم أبي» فلما أظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي دعوته بالمدينة

واستولى على مكة والمدينة، واستولى أخوه إبراهيم بن عبد الله على البصرة، واستولى أخوهما الثالث - وهو إدريس بن عبد الله - على بلاد المغرب، وكان ذلك في زمان الخليفة أبي جعفر المنصور فبعث المنصور إلى حرب «محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن» بعيسى بن موسى في جيش كثيف قاتلوا محمداً بالمدينة وقتلوه في المعركة، ثم أنفذ بعيسى بن موسى أيضاً إلى حرب «إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي» مع جنده، فقتلوا إبراهيم باب

(١) السبحاني: موسوعة بحوث في الملل والنحل: ٣٦٣|٦.

(٤٩)

حمرين على الستة عشر فرسخاً من الكوفة، ومات في تلك الفتنة إدريس بن عبد الله بن الحسن بأرض المغرب، وقيل: إنه سُمِّ بها، ومات عبد الله بن الحسن بن الحسن والد أولئك الإخوة الثلاثة في سجن المنصور، وقبره بالقادسية، وهو مشهد معروف يزار (١).
يلاحظ عليه: من سبر تاريخ العلويين يدعن بأنه كانت في عصر الإمام الصادق - عليه السلام - وأيام إمامته (١١٤ - ١٤٨هـ) فكرتان تسودهم، فمن معتقد بأن طريق إنقاذ الأمة الإسلامية من أيدي الأمويين ثم العباسيين يكمن في الكفاح المسلح، إلى آخره بأن الظروف لاتسمح للكفاح المسلح وإنما الواجب توعية الناس وثقيفهم وتعليمهم وإعدادهم إلى الظرف المناسب.

وقد سلك زيد الثائر الدرب وفق المعتقد الأول، وأعقبه أبناؤه: يحيى بن زيد وعيسى بن زيد، ثم الحسينون عامة، ولذلك قام محمد بن إبراهيم بن الحسن المشني بطرق هذا الباب وأثار ثورة مع إخوته كما عرفت، ولم يكن له ولا لإخوته أو غيره أي دعوة إلى شخصهم وإنما فرضوا على أنفسهم إزالة الحكومة الجائرة ثم تفويض الأمر إلى الأليق والأمثل من أئمة أهل البيت - عليهم السلام -، وعلى ضوء ذلك فلا يصح لنا عد ثائر على الظلم مؤسساً لمذهب ومكوناً لفرقة، وأما أن أمثال المغيرة بن سعيد من رجال العبث والفساد الذين استبطلوه بتعريفهم إياه للملا على أنه المهدي المنتظر فلا يمت إلى الثائر بصله، وقد تقدم أن أئمة أهل البيت تبرأوا من ابن سعيد وأذنبه عملاء الفسق والفساد.

ومنهم: الباقرية والجعفرية:

إن الإمامية عن بكره أبيهم يعتقدون بأن الأئمة اثنا عشر خلفاء الله بعد وفاه

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٥٧ - ٥٨، وقد بسط الكلام في هذه الفرقة الإسفرائينية في التبصير: ٣٥ - ٣٦.

(٥٠) الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد ذكر الرسول الأكرم أسماءهم لخص أصحابه، منهم جابر بن عبد الله الأنصاري وغيره (١) وقد تضافر عن الرسول حسب ما رواه أحمد في صحيحه أنه يملك هذه الأئمة اثنا عشر خليفة كعدد نساء بني إسرائيل (٢) وروى البخاري عن جابر بن سمرة، قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «يكون اثنا عشر أميراً» فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: «كلهم من قريش» (٣) وروى مسلم عنه أيضاً يقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» ثم قال كلمة لم أفهمها فقلت لأبي: ما قال؟ فقال: كلهم من قريش (٤).

إلى غير ذلك من الروايات الناصه على أن خلفاء الرسول اثنا عشر خليفة، وقد ذكرنا متون الروايات في الجزء السادس من هذه الموسوعة

(٥).

وقد اتفقت الإمامية على أن محمداً الباقر وجعفر الصادق - عليهما السلام - من الأئمة الاثني عشر بلا ريب أو شك، كما اتفقت الأمة على فضلها وجلالتهما بلا ريب أو شك.

قال ابن خلكان: أبو جعفر محمد بن زين العابدين الملقب بـ «الباقر» أحد الأئمة الاثني عشر في اعتقاد الإمامية، وهو والد جعفر الصادق، كان الباقر عالماً سيّداً كبيراً، وإنما قيل له الباقر، لأنه تبقر في العلم، أي توسع، وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى * وخير من لبي على الأجل

(٤)

(١) الحويزي: نور الثقلين: ١/٤١٤، في تفسير قوله تعالى: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) (النساء - ٥٩).

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: ١/٣٩٨.

(٣) البخاري: الصحيح: ٩/١٠١، كتاب الأحكام الباب ٥١ (باب الاستخلاف)

(٤) مسلم: الصحيح: ٣/٦.

(٥) السبحاني: بحوث في الملل والنحل: ٦/٥٨ - ٦٢.

(٦) ابن خلّكان: وفيات الأعيان: ٤/١٧٤.

(٥١)

وهذا هو الشهرستاني يعرف الإمام جعفر الصادق _ عليه السلام _ بقوله: وهو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدّة يفيد الشيعة المنتمين إليه، ثم دخل العراق وأقام بها مدّة (١).

نعم كان الاعتقاد بظهور المهدي أمراً مسلماً بين المسلمين عامّة والشيعة خاصّة، وربما تطرأ الشبهة للعوام في حقّ بعض الأئمة، وقد نقل البغدادي أنّ من بين الشيعة من يقول: إنّ الإمام الباقر هو المهدي المنتظر، ويستدل بما روى عن النبي أنّه قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «إنّك تلقاه فاقرئه مني السلام» وكان جابر آخر من مات بالمدينة من الصحابة، وكان قد عمى في آخر عمره، وكان يمشى في المدينة ويقول: ياباقر، ياباقر، متى ألقاك؟ فمرّ يوماً في بعض سكك المدينة فناولته جارية صبيّاً كان في حجرها، فقال لها: من هذا؟ فقالت: هذا محمد ابن علي بن الحسين بن علي، فضمه إلى صدره وقبل رأسه ويديه ثم قال: يا بني، جدك رسول الله يقرئك السلام. ثم قال جابر: قد نعت إلى نفسي، فمات في تلك الليلة (٢).

وتبعه الإسفرائيني في «التبصير»، ونسباً إلى بعض الشيعة أنّهم اعتقدوا بأنّ المهدي المنتظر هو أبو جعفر الباقر _ عليه السلام _ وليس في كتب الشيعة من هذه الفرقة من أثر، ولعله كانت هنا شبهة لبعض الناس فماتت الشبهة بموتهم ومنهم: الناوسية:

قال الأشعري: وهؤلاء يسوقون الإمامة إلى أبي جعفر محمد بن علي، وأنّ _____

(١) الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٦٦.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق: ٦٠.

(٥٢) أبا جعفر نصّ على إمامة جعفر بن محمد، وأنّ جعفر بن محمّد حيّ لم يمّت ولا يموت حتى يظهر أمره، وهو القائم المهدي وهذه الفرقة تسمّى الناوسية، لقبوا برئيس لهم يقال له: «عجلان بن ناووس» من أهل البصرة (١). وفي الحور العين: إنّهم أتباع رجل يقال له «ناووس» وقيل: نسبوا إلى قرية ناووس (٢).

إذا تردّد أمر مؤسس المذهب من أنّه هو «ناووس» أو ابنه عجلان، أو شخص ثالث منسوب إلى «ناووس» يكون أولى بأن يشك الإنسان في أصله وغاية ما يمكن أن يقال طرّوء شبهة لشخص أو شخصين في أمر المهدي فرعموا أنّه الإمام الصادق _ عليه السلام _ لكن ماتت الشبهة بموت أصحابها ولا يعد مثل ذلك فرقة، غير أنّ حبّ أصحاب المقالات لتكثير فرق الشيعة أولاً، وفرق المسلمين ثانياً لتجسيد حديث افتراق الأمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة، جرّهم إلى عدّه هولا فرقة.

والحاصل بما أنه لم يذكر لهم دور في الحياة، ولا حركة في المجتمع، يظن أنه حصلت شبهة في مسألة المهدي، فزعم الرجل أنه الإمام الصادق وتبعه واحد أو اثنان، ثم ماتت الفرقة بموت المشتبه فلا يعد مثل ذلك فرقة.

نحن نطلق الفرقة على جماعة لهم منهج في العقيدة أو مذهب في الفقه أو لهم دعايات وبلاغات وحركات في المجتمع. إلى هنا لم نجد للشيعة الإمامية فرقة صحيحة قابلة للذكر فهي بين خارجة عن الدين من رأس كالغلاة، ومغمورة في أطباق الإبهام كالكيسانية، أو طارئه عليها الشبهة ولم يكتب لها البقاء إلا أياماً قلائل، والمظنون أن الشيعة الإمامية إلى عصر الإمام الصادق _ عليه السلام _ كانوا متماسكين غير منفصلين _____.

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٥.

(٢) الحاكم الجشمي: الحور العين: ١٦٢.

(٥٣)

قال الشهرستاني: إن الإمامية متفقون في الإمامة وسوقها إلى جعفر بن محمد الصادق _ عليه السلام _ ومختلفون في المنصوص عليه من أولاده، إذ كانت له خمسة أولاد، وقيل ستة: محمد وإسحاق وعبد الله وموسى وإسماعيل (١).

الفرق الواقعية للشيعة بعد رحيل الإمام الصادق _ عليه السلام _

لقد عرفت أن جماهير الشيعة كانوا متماسكين غير مختلفين، ولو طرأت هناك شبهة فلوحد أو اثنين فلم تكن مؤثرة على التحامهم. نعم، توفي الإمام الصادق _ عليه السلام _ وكان الضغط على الشيعة شديداً وكان أبو جعفر المنصور ذلك الحاكم الطاغى يقتل العلويين بقسوة شديدة، ففي هذه الظروف أي عام ١٤٨هـ لبي الإمام الصادق _ عليه السلام _ دعوة ربه ولم يكن في إمكانه التصريح العام بالإمام الذي بعده، حتى أنه لما مات أوصى إلى خمسة أشخاص منهم أبو جعفر المنصور ومنهم حاكم المدينة وثالثهم زوجته، وبذلك جعل الأمر مخفياً على الأعداء. وعند ذلك نشأ اختلاف بين الشيعة وتفرقوا إلى فرق ثلاث: الأولى: السميطة:

قالوا بأن الإمام هو محمد بن جعفر والإمامة في ولده، نسبت تلك العقيدة إلى رئيس لهم باسم يحيى بن سميطة

(٢) ولم يكتب البقاء لهذه الفرقة وليس لها رسم ولا اسم بين كتب الشيعة الذين هم أعرف بفرقهم _____.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ١٦٧.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٧، البغدادي: الفرق بين الفرق: ٦١، الإسفرائيني: التبصير: ٢٣.

وفي الحور العين: يحيى بن أبي سميطة.

(٥٤) الثانية: الفطحية:

وهم القائلون بإمامة الاثنى عشر مع عبد الله الأفتح ابن الصادق _ عليه السلام _ يدخلونه بين أبيه وأخيه (الإمام الكاظم _ عليه السلام _)، وعن الشهيد - رحمه الله - أنهم يدخلونه بين الكاظم والرضا _ عليهما السلام _ وقد كان أفتح الرأس، وقيل: أفتح الرجلين، وإنما دخلت عليهم الشبهة مما رواه عن الأئمة: الإمامة في الأ-كبر من ولد الإمام، ثم منهم من رجع عن القول بإمامته لما امتحنوه بمسائل من الحلال والحرام ولم يكن عنده جواب، ولما ظهرت منه الأشياء التي لا ينبغي أن تظهر من الإمام، ثم إن عبد الله مات بعد أبيه بسبعين يوماً، فرجع الباقون - الشذاذ منهم - عن القول بإمامته إلى القول بإمامة أبي الحسن موسى _ عليه السلام _.

وقد أسماهم أبو الحسن الأشعري بـ «العمارية» وقال: وأصحاب هذه المقالة منسوبون إلى زعيم منهم يسمى: عماراً، ولعل المراد منه هو: عمار بن موسى الساباطي من رؤساء الفطحية. قال: الشيخ الطوسي: عمار بن موسى الساباطي وكان فطحياً له كتاب كبير جيد

معتمد

(١).

الثالثة: الإسماعيلية:

وربما يعبر عنهم بالقرامطة: وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر ولما مات إسماعيل في حياة أبيه صارت الإمامة في ابنه محمد بن إسماعيل، وهم فرقة كبيرة موجودة في العصر الحاضر.

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٧، والبغدادى: الفرق بين الفرق: ٦٢. والنوبختي: فرق الشيعة: ٦٨، والطوسي: الفهرست: برقم ٥٢٧. (٥٥) الرابعة: الواقفية:

إن الشيعة الإمامية القائلة بإمامة الاثنى عشر قالت بأن الإمام بعد جعفر الصادق _ عليه السلام _ هو ابنه موسى بن جعفر _ عليه السلام _ ولهم على إمامته براهين وحجج مقنعة، فلما توفي وقفت عدّة على إمامة موسى _ عليه السلام _ ولم يقولوا بإمامة ولده على بن موسى الرضا _ عليه السلام _.

قال الأشعري: وهذا الصنف يدعون الواقفة لأنهم وقفوا على موسى بن جعفر ولم يجاوزوه إلى غيره، وبعض مخالفى هذه الفرقة يدعونهم بالممطورة، وذلك أن رجلاً منهم ناظر يونس بن عبد الرحمن فقال له يونس: أنتم أهون على من الكلاب الممطورة، فلزمهم هذا النيز وربما يطلق عليهم: الموسوية (١).

هذه الفرق الأربعة، السميطة، الفطحية، الإسماعيلية والواقفية هي الفرق الواقعية للشيعة بعد الإمام الصادق _ عليه السلام _ وقد هلكت جميعها ولم يبق منهم إلا الإسماعيلية وأمّا النصيرية، أعنى: أصحاب محمد بن نصير الفهرى، فهم من الغلاة الذين لا يمتون إلى الإسلام والتشيع بصله، ظهرت في عصر الإمام الهادى _ عليه السلام _ وهم أصحاب محمد بن نصير النيميرى وقيل فيهم غير ذلك ومثلهم المفوضة ببعض معانيها. بما أن نطاق هذا الجزء يضيق عن التبسط سنبحث عن هذه الفرق في مقدّمه الجزء الثامن المختص بالإسماعيلية بفضل من الله تبارك وتعالى.

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٨ - ٢٩.

الفصل الثانى حياة زيد فى عصر الأئمة الثلاثة

الفصل الثانى حياة زيد فى عصر الأئمة الثلاثة

_ عليهم السلام _ بخس المورخون حقوق آل البيت جميعاً، وحقوق زيد الثائر الشهيد خصوصاً ولم يذكروا من أحواله شيئاً كثيراً، مع أنهم استقصوا بيان حياة الجائرين من بنى أمية والعباس وذكروا مجالس المجون والخلاعة لهم، وما جرى بينهم وبين المغنّيات وسائر الأجلاف فيها. من القصص والهزلات وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على اضطهاد أهل البيت حتى عند أهل القلم والبيان، فأخفوا آثارهم ومناقبهم. ولأجل ذلك نذكر فى المقام ما وقفنا عليه فى طيات الكتب معتذرين عن قلة ما نهدي إلى سدنّه ثائرنّا - قدس الله نفسه الزكية - .

فبقول:

حياته فى عصر الإمام زين العابدين _ عليه السلام _:

أدرک زيد بن على من الأئمة الاثنى عشر، ثلاثة:

١- والده على بن الحسين بن على بن أبى طالب _ عليه السلام _ (٣٨ - ٩٤ هـ).

(٥٨)

٢- أخوه الأكبر أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين _ عليه السلام (_ ٥٧- ١١٤هـ).

٣- ابن أخيه الإمام جعفر بن محمد الصادق _ عليه السلام (_ ٨٣- ١٤٨هـ).

فلنذكر فيما يرجع إلى المحور الأول من المحاور الثلاثة، نسبه وميلاده ومواصفاته الخلقية وما يمت إليه بصلته. نسبه الوضاح :

هو زيد الشهيد، بن زين العابدين علي، بن سيد الشهداء الحسين، بن مولى الموحدین وسيد الوصيين علي، بن حامى الرسول والذائد عن حريمه _ صلى الله عليه وآله وسلم _ أبى طالب، هولاء آباؤه فله أن يفتخر ويقول:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم * إذا جمعنا يا جرير المجامع

وأماً أمه فاسمها حورية أو حوراء اشتراها المختار بن أبى عبيدة الثقفى وأهداها إلى علي بن الحسين _ عليهما السلام _ روى أبو الفرج فى مقاتل الطالبين: ان المختار بن أبى عبيدة اشترى جارية بثلاثين ألفاً. فقال لها: أدبرى، فأدبرت، ثم قال لها: أقبلى، فأقبلت، ثم قال: ما أرى أحداً أحق بها من علي بن الحسين، فبعث بها إليه، وهى أم زيد بن علي _ عليه السلام _ وأنجبت له زيدا وعمراً، وعلياً وخديجة (١) .

روى ابن قولويه (م ٣٦٩ هـ) قال: روى بعض أصحابنا، قال: كنت عند علي بن الحسين _ عليه السلام _ فكان إذا صلى الفجر لم يتكلم حتى تطلع الشمس فجاءه يوم ولد فيه زيد، فبشروه به بعد صلاة الفجر، قال: فالتفت إلى أصحابه وقال: «أى شىء ترون أن أسمى هذا المولود؟» فقال كل رجل منهم: سمّه كذا، سمّه كذا. قال: فقال: «يا غلام على بالمصحف»، فجاءوا بالمصحف، فوضعه على _____

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٨٦، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م) .

(٥٩)

حجره. قال: ثم فتحه، فنظر إلى أول حرف فى الورقة، فإذا فيه: "فَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا" (النساء - ٩٥) قال: ثم طبقه، ثم فتحه، فنظر فإذا فى أول الورقة: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَظِيمًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (التوبة - ١١١) ثم قال: «هو والله زيد، هو والله زيد». فسَمَى زيدا (١).

وفى الروض النضير بعد نقل الآيتين، قال الإمام: «عزيت عن هذا المولود وأنه لمن الشهداء» (٢) وإتاما اختار الإمام هذا الاسم بعد التفاؤل بالقرآن والمفاجأة بالآيتين، فى صدر الورقة لما تضافر عن النبى والوصى والحسين بن علي - عليهم السلام - أنه قال مشيراً إلى الحسين _ عليه السلام: «_ إنه يخرج من ولده رجل يقال له زيد، ويقتل بالكوفة، يصلب بالكناسة، ويخرج من قبره نبشاً، تفتح لروحه أبواب السماء وتبهج به أهل السماوات» (٣) فأيقن أن المولود هو الذى تتبأ به الرسول الأعظم _ صلى الله عليه وآله وسلم _ . ميلاده :

اختلف المورخون فى ميلاده، ويرجع بعض الاختلاف فى ميلاده، إلى الاختلاف فى مقتله، وأنه هل استشهد سنة مائة وعشرين، أو مائة وإحدى وعشرين، أو مائة وثلثين وعشرين، أو مائة وثلاث وعشرين، وبما أن المشهور أنه _____

(١) ابن إدريس: السرائر: ٣/٦٣٨، قسم المستطرفات، فيما استطرفه من روايات أبى القاسم بن قولويه وحفيد بن أحمد المحلى (٥٨٢ - ٦٥٢هـ) : الحدائق الوردية: ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) السياغى: الروض النضير: ١/١٠٠.

(٣) الصدوق: عيون أخبار الرضا _ عليه السلام : ١/٢٥٠، الباب ٢٥، وحفيد بن أحمد المحلى: الحدائق الوردية: ١٣٨ - ١٣٩، وسيوافيك تفصيل التنبؤات فى محلها.

(٦٠)

استشهد عن عمر يناهز (٤٢ سنة)، وتلك الشهرة منضمة إلى الاختلاف في نفس الميلاد، صاراً سبباً للاختلاف الأكثر في ميلاده، وما أننا نسرد أقوال المؤرخين والمترجمين، وعلى جميع الأقوال يدور ميلاده بين سنة (٧٥) و (٧٩) وربما يبدو أن الحق غير ذلك، وسيوافيك آخر البحث:

- ١- قال محمد بن سعد: قتل يوم الاثنين لليلتين خلتا من صفر سنة عشرين ومائة ويقال: سنة اثنتين وعشرين ومائة (١).
- ٢- وقال البخاري: زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي عن أبيه، روى عنه عبد الرحمن بن الحارث ويقال: كنيته أبو الحسين، أخو محمد بن علي، وحسين بن علي قتل سنة ثنتين وعشرين ومائة (٢).
- ٣- وقال ابن حبان في الثقات: رأى جماعة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وروى عنه ولده، وقتل سنة ثنتين وعشرين ومائة (٣).
- ٤- وعن مصعب بن عبد الله الزبيري: قتل زيد بن علي بالكوفة. قتله يوسف بن عمر في زمن هشام بن عبد الملك وقتل يوم الاثنين ثلاث خلت من صفر سنة عشرين ومائة، وهو يوم قتل، ابن اثنتان وأربعين سنة (٤).
- ٥- وقال الذهبي: اختلف في تاريخ مصرعه على أقوال: فقال مصعب الزبيري: قتل في صفر سنة عشرين ومائة وله اثنتان وأربعون سنة. وقال أبو نعيم: قتل يوم عاشوراء سنة اثنتين وعشرين ومائة، رواه ابن سعد. وقال الزبير بن بكار: قال محمد بن الحسن: قتل زيد يوم الاثنين ثاني صفر

(١) ابن سعد: الطبقات: ٣٢٦|٥.

(٢) البخاري: التاريخ الكبير: ٢|٤٠٣ برقم ١٣٤١.

(٣) ابن حبان: الثقات: ٤|٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) المزي: تهذيب الكمال: ١٠|٩٨.

(٦١)

سنة اثنتين وعشرين ومائة (١)

- ٦- وقال الصفدي: وكانوا قد صلبوه بالكناسة سنة إحدى واثنتين أو ثلاث وعشرين ومائة، وله اثنتان أو أربع وأربعون سنة ثم حرقوه بالنار، فسُمي زيد النار، ولم يزل مصلوباً إلى سنة ست وعشرين ثم أنزل بعد أربع سنين من صلبه (٢).
 - ٧- وروى السياغي عن الإمام المرشد بالله في أماليه أنه ولد سنة ٧٥ واستشهد سنة ١٢٢هـ (٣).
- وسيوافيك عن الطبري والجزري في الفصل المختص بثورته أنهما ذكرا تاريخ خروجه واستشهاده عام ١٢٢هـ القول الحق في ميلاده :

ولكن هنا احتمالاً آخر لا يتفق مع جميع الأقوال لكن تويده القرائن والروايات وهي أن أم زيد كما تقدم - كانت أمه أهداها المختار إلى الإمام زين العابدين - عليه السلام - وقد خرج المختار عام ٦٦هـ وقتل عام ٦٧هـ وطبع الحال يقتضي أنه أهداها إلى الإمام في أحد العامين، ولا يمكن تأخره عنهما، وبما أن زيدا كان أول ولد أنجبت فلا محيص عن القول بأن زيدا من مواليد سنة ٦٧هـ أو بعدها، ولو قلنا بتأخر ولادة زيد إلى عام ٧٥هـ وما بعده فلازم ذلك أن لا يمسه الإمام إلى ذلك العام أو كانت لا تلد إلى تلك السنة أو أولدت ولكن لم يكن له حظ من البقاء والكل بعيد. وعلى ضوء ذلك يحتمل قويا أن يكون ميلاد زيد هو

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ١٠٧ - ١٠٨ (حوادث سنة ١٢١ - ١٤٠هـ).

- (٢) الصفدي: الوافي بالوفيات: ١٥|٣٤. (إن «زيد النار» لقب زيد بن موسى بن جعفر الذي خرج في عصر «المأمون» وأحرق بيوت بني العباس: والظاهر أن الصفدي قد سها في تسمية زيد بن علي به).

(٣) السياغي: الروض النضير: ١/٩٦.

(٦٢)

عام قتل المختار، أعنى: ٦٧هـ أو عام بعده، فلو أخذ في مقتله بالقول المشهور، وأنه استشهد عام ١٢٢هـ يكون عمره عند ذاك حوالي ٥٥ سنة.

هذا وتؤيد ذلك روايات تنص على أن أمه حملت زيدا عام الأهداء وإليك نصها:

١- روى الشيخ أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي - من أعلام أوائل القرن الرابع - في تفسيره عن الجعفي عن أبيه، قال: كنت أدمن الحجّ فأمر علي بن الحسين - عليهما السلام - فأسلم عليه ففى بعض حججى غدا علينا علي بن الحسين - عليهما السلام - ووجهه مشرق فقال: «جاءنى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى ليلتى هذه حتى أخذ بيدي فأدخلنى الجنة، فزوجنى حوراء فواقعته فعلقته، فصاح بى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يا علي بن الحسين سمّ المولود منها زيدا».

قال: فما قمنا من مجلس على بن الحسين ذلك اليوم، وعلى بن الحسين - عليهما السلام - يقصّ الرويا حتى أرسل المختار بن أبى عبيدة بأم زيد أرسل بها إليه المختار ابن أبى عبيدة هدية إلى علي بن الحسين - عليهما السلام - شراها بثلاثين ألفاً، فلما رأينا إشغافه بها تفرّقنا من المجلس، فلما كان من قابل حججت ومررت على علي بن الحسين - (عليهما السلام -) لأسلم عليه فأخرج يزيد على كتفه الأيسر وله ثلاثة أشهر وهو يتلو هذه الآية ويومى بيده إلى زيد وهو يقول: "هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً" (١)

٢- روى أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفى وقال: وعن أبى حمزة الثمالى قال: كنت أزور علي بن الحسين - عليهما السلام - فى كل سنة مرّة فى وقت الحجّ، فأنته سنة وإذا على فخذه صبى، فقام الصبى فوق على عتبة الباب فانشج رأسه، فوثب إليه على بن الحسين - عليهما السلام - مَهْرُوْلاً فجعل ينشف دمه بثوبه _____

(١) فرات بن إبراهيم: التفسير: ٢٠٠، تحقيق محمد الكاظم. والآية ١٠٠ من سورة يوسف.

(٦٣)

ويقول له: «يابنى أعيدك بالله أن تكون المصلوب فى الكناسة!» قلت: بأبى أنت وأمى أى كناسة؟ قال: «كناسة الكوفة». قلت: جعلت فداك ويكون ذلك؟ قال: «أى والله إن عشت بعدى لترين هذا الغلام فى ناحية من نواحي الكوفة مقتولاً مدفوناً منبوشاً مسلوباً مسحوباً مصلوباً فى الكناسة ثم ينزل فيحرق ويدق ويذرى فى البر».

قلت: جعلت فداك وما اسم هذا الغلام؟ قال: «زيد». ثم دمعت عيناه، ثم قال: «ألا أحدثك بحديث ابنى هذا، بينما أنا ليله ساجد وراكع، ذهب بى النوم فرأيت كأتى فى الجنة، وكأن رسول الله وعلياً وفاطمة والحسن والحسين - صلوات الله عليهم أجمعين - قد زوجونى جارية من الحور العين، فواقعته واغتسلت عند سدره المنتهى ووليت، وهاتف يهتف بى: ليهنك زيد، ليهنك زيد. فاستيقظت فأصبت جنابة، فقممت فطهرت وصليت صلاة الفجر، فدق الباب وقيل لى: على الباب رجل يطلبك. فخرجت فإذا أنا برجل معه جارية ملفوف كمها على يده، مخمرة بخمار، فقلت: ما حاجتك؟ فقال: أريد على بن الحسين. فقلت: أنا على بن الحسين. قال: أنا رسول المختار بن أبى عبيدة الثقفى وهو يقرئك السلام ويقول: وقعت هذه الجارية فى ناحيتنا فاشتريتها بستمائه دينار وهذه ستمائه دينار فاستعن بها على دهرك (١) ودفع إلى كتاباً، فأدخلت الرجل والجارية وكتبت له جواب كتابه، وقلت للجارية: ما اسمك؟ قالت: حوراء. فهيوها لى وبث بها عروساً فعلقت بهذا الغلام فسميته زيدا، وهو هذا، وسرى ما قلت لك _____».

(١) روى ابن الأثير: أن المختار وجد فى بيت المال تسعة آلاف ألف فقسمها بين أصحابه (الكامل: ٢٢٦/٤) ولعله عند ذاك بعث بهذه الدنانير إلى على بن الحسين - عليهما السلام - فىكون عام الإهداء هو عام الخروج.

(٦٤)

قال أبو حمزة: فما لبثت إلا برهة حتى رأيت زيدا بالكوفة فى دار معاوية بن إسحاق فسلمت عليه. ثم قلت: جعلت فداك ما أقدمك

هذا البلد؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فكنت أختلفُ إليه فجئته ليلة النصف من شعبان فسلمت عليه وجلست عنده. فقال: يا أبا حمزة تقوم حتى تزور قبر أمير المؤمنين علي _ عليه السلام ؟ _ قلت: نعم جعلت فداك.

ثم ساق أبو حمزة الحديث حتى قال:

أتينا الذكوات البيض فقال: هذا قبر علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ ثم رجعنا فكان من أمره ما كان. فوالله لقد رأيته مقتولاً مدفوناً منبوشاً مسلوباً مسحوباً مصلوباً بالكناسة ثم أُحرق ودق وذُرى في الهواء (١)

٣- ما رواه أبو القاسم علي الخزاز قال: عن زيد بن علي _ عليه السلام _ قال: كنت عند أبي علي بن الحسين _ عليه السلام _ إذ دخل عليه جابر بن عبد الله الأنصاري، (م ٧٨هـ) فبينما هو يحدثه إذ خرج أخى محمد من بعض الحجر، فأشخص جابر ببصره نحوه ثم قام إليه فقال: يا غلام أقبل، فأقبل، ثم قال: أدبر، فأدبر، فقال: شمائل كشمائل رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ ما اسمك يا غلام؟ قال: «محمد». قال: ابن من؟ قال: «ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»، قال: أنت إذاً الباقر. قال: فأبكي (فانكب) عليه وقبل رأسه ويديه ثم قال: يا محمد إن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ يقرئك السلام. قال: «علي رسول الله أفضل السلام وعليك يا جابر بما أبلغت السلام».

ثم عاد إلى مصلاه، فأقبل يحدث أبي ويقول: إن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ قال لي يوماً: يا جابر إذا أدركت ولدى الباقر فاقرأه مني السلام فإنه سمى وأشبه الناس بي، علمه علمي وحكمه حكمي، سبعة من ولده أمناء _____

(١) الثقفى: الغارات: ٢ | ٨٦٠ - ٨٦١؛ وابن طاووس: فرحة الغرى: ٥١، المطبوع في ذيل مكارم الأخلاق.

(٦٥)

معصومون أئمة أبرار، والسابع مهديهم الذي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. ثم تلا رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ" (١).

المشهور أن جابر، توفي بين السبعين والثمانين من الهجرة (٢)

وهذه الروايات المسندة، التي رواها الأثبات من العلماء، مع ما ذكرنا من القرينة يدفع جميع الأقوال ويثبت أن ميلاده كان متقدماً على عقد السبعين كما عرفت.

إكمال :

ولعل ما يرويه الكليني في كافيهِ من تعبير عبد الملك تزويج الإمام السجاد، أمته راجع إلى أم زيد التي كانت أمه وتزوجها الإمام بعد الاعتاق، وإليك النص:

كان لعبد الملك بن مروان عين بالمدينة يكتب إليه بأخبار ما يحدث فيها، وإن علي بن الحسين _ عليه السلام _ أعتق جارية له ثم تزوجها، فكتب العين إلى عبد الملك.

ثم كتب عبد الملك إلى علي بن الحسين _ عليه السلام _ «أما بعد: فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر، وتستنجه في الولد، فلا لنفسك نظرت، ولا علي ولدك أبقيت والسلام.

فكتب إليه علي بن الحسين _ عليه السلام _ «أما بعد: فقد بلغني كتابك تعفني بتزويجي مولاتي وتزعم أنه قد كان في نساء قريش من أتمجد به في _____

(١) الخزاز: كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ٢٩٨. والآية ٧٣ من سورة الأنبياء.

(٢) قال الشيخ الطوسي في رجاله: أنه توفي عام ٧٨، وبه قال ابن قتيبة في معارفه، والطبري في ذيلوله لاحظ: قاموس الرجال لشيخنا التستري: ٥١٩ | ٢.

(٦٦)

الصهر، واستنجه في الولد، وأنه ليس فوق رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ مرتقاً في مجد، ولا مستزاد في كرم. وإنما كانت ملك يميني خرجت مني، أراد الله عز وجل مني بأمر التمس به ثوابه، ثم ارتجعتها على سنة، ومن كان زكياً في دين الله فليس يخل به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسه، وتمم به النقيصه، وأذهب اللوم، فلا لوم على أمرى مسلم إنما اللوم لوم الجاهليه والسلام».

فلما قرأ، الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان فقراه، فقال: يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك على بن الحسين!! فقال: يا بني لا تقل ذلك فإنها ألسن بنى هاشم التي تفلق الصخر، وتغرف من بحر، أن على بن الحسين _ عليه السلام _ يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس (١). مواصفاته الخلقية:

نقل السياغى عن الشيخ أبى محمد يحيى بن يوسف بن محمد الحجورى الشافعى: أن زيداً كان أبيض اللون، أعين، مقرون الحاجبين، تام الخلق، طويل القامة، كث اللحية، عريض الصدر، أقى الأنف، أسود الرأس واللحية، إلا أنه خالطه الشيب فى عارضيه.

كان مثل جده _ عليه السلام _ فى شجاعته وسخاوته وفصاحته وبلاغته وعلمه وحلمه _ إلى أن قال: - وما أشبه حاله بقول من قال:

فما إن براه الله إلا لأربع * يقر له القاصى بهن مع الدانى

إمام لأخيار، وقلب لجحفل * وفارس ميدانٍ وصدراً لايوان

(١) الكليني: الكافي: ٥/٣٤٤.

(٦٧)

إلى أن قال: ونحن نعلم بأن من بنى أمية من خطب له فى ثمانين ألف منبر، فإذا مات، مات ذكره معه، وكان من بنى العباس من كانت دولته خمسين سنة وملك أقطار الأرض من شرق وغرب فما كان ذكرهم إلا مدّة حياتهم (١).

روى أبو الفرج عن مولى آل الزبير، قال: كنا عند على بن الحسين _ عليه السلام _ فدعا ابناً له يقال له: زيد، فكبا لوجهه، وجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «أعيدك بالله أن تكون زيداً المصلوب بالكناسة من نظر إلى عورته متعمداً أصلى الله وجهه النار» (٢).

وعن أبى خالد الواسطى وأبى حمزة الثمالى عن أبى جعفر _ عليه السلام _ أنه قال لهما: «يا أبى خالد، وأنت يا أبى حمزة إن أبى دعا زيداً فاستقرأه القرآن، فقرأ عليه، فسأله عن المعضلات ثم دعا له وقبل بين عينيه»، ثم قال أبو جعفر _ عليه السلام _: «يا أبى حمزة إن زيداً أعطى من العلم علينا بسطة» (٣).

والظاهر أن الراوى صحّف كلمة الإمام وأضاف لفظه «علينا» وأنّ أبى جعفر قال: إن زيداً أعطى من العلم بسطة مشيراً إلى قوله سبحانه: "وزادَهُ بَسْطَةً فى العِلْمِ والجِسْمِ" (البقرة - ٢٤٧).

ولو صح ما ذكره السياغى فيرجع كونه ذا قراءة خاصة إلى عصره والده السجاد _ عليه السلام _ فقال أبو سعيد الحميرى أنه ضليع بعدة علوم منها علم القرآن، ووجوه القراءات وله قراءة خاصة مفردة مروية عنه (٤).

ونقل الشيخ الطوسى فى الفهرست أن قراءته هى عين قراءة جده الإمام

(١) السياغى: الروض النضير: ١/٩٧، حميد بن أحمد المحلى: الحقائق الوردية: ١٣٨.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٨٩.

(٣) السياغى: الروض النضير: ١/١٠٢، حميد بن أحمد المحلى: الحقائق الوردية: ١٤٢.

(٤) الحور العين: ١٨٦.

(٦٨)

على ابن أبى طالب _ عليه السلام _ (١).

قال محقق تفسيره فى مقدمته: «ولعل أول من جمع قراءته بكتاب مستقل عمر بن موسى الوجيهى الذى كان معاصراً لزيد فقال عنها:

«إن هذه القراءة سمعتها عن زيد بن علي _ عليه السلام _ وكان هذا الكتاب موجوداً بعد سنة إحدى وستين ومائتين فقد استنسخها إبراهيم بن مسكين في السنة ذاتها ونقل عنه بعد ذلك يحيى بن كهمش.

وقد جمع قراءته أيضاً الحسن بن علي الأهوازي. ولعل أبا حيان قد أطلع عليها أو على قسم منها على الأقل، فقد استشهد منها في كتابه البحر المحيط فذكر «أن الأهوازي... في قراءة زيد بن علي أنه قرأ رب العالمين الرحمن الرحيم بنصب الثلاثة».

وجمعها أيضاً أبو حيان في كتاب سماه: «النير الجلي في قراءة زيد بن علي».

ووردت قراءة زيد أيضاً كاملة في كتب القراءة والتفسير لكنها مقرونة بغيرها من القراءات حسب ورود كل منها على الآية القرآنية الكريمة.

فقد جاءت بهذه الطريقة في كتب القراءات كما في كتاب «شواذ القراءة» للكرمانى، وأيضاً في كتاب «معجم القراءات القرآنية».

وكذلك وردت كاملة في كتب التفسير كما في كتاب «البحر المحيط» لأبي حيان وكذلك ضمها الألوسى لكتابه في التفسير المسمى «روح المعاني» (٢).

وقال الكاتب الجلبى: كتاب «النير الجلي في قراءة زيد» لأبي علي الأهوازي المقرئ (٣) _____.

(١) الطوسى: الفهرست: ١٤٠.

(٢) الدكتور حسن محمد تقى الحكيم: تفسير الشهيد زيد بن علي: ٣٧، المقدمة.

(٣) الكاتب الجلبى: كشف الظنون: ٢ | ٦٢٤.

(٦٩)

وفى الختام:

نقل المقرئى عن عاصم بن عبيد الله أنه قال: لقد أصيب عندكم رجل ما كان في زمانكم مثله، ولا أراه يكون بعده مثله (زيد بن علي) لقد رأيتوه وهو غلام حدث، وأنه لسمع الشيء من ذكر الله فيغشى عليه، حتى يقول القائل ما هو بعائد إلى الدنيا... (١).

حياته في عصر الإمام الباقر _ عليه السلام _:

التحق الإمام زيد العابدين _ عليه السلام _ بالرفيق الأعلى، ونص على إمامة ولده البار، أبى جعفر محمد الباقر _ عليه السلام _ الذى دان بفضله وعلمه وورعه الدانى والقاصى، والمؤلف والمخالف قال ابن حجر: سمى الإمام باقراً، لأنه من بقر الأرض أى شقها وإثارة مخباتها ومكائنها، فكذلك هو أظهر من مخبات كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكم واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة أو فاسد الطوية والسريرة، ومن ثم قيل هو باقر العلم وشاهر علمه ورافعه (٢).

لقد استنارت بقية الصحابة ووجوه التابعين، من نوره، وارتوا من منهل علمه، فكان الاحتفال بمجالسه أكبر احتفال، يوم ذاك. توفى الإمام زين العابدين _ عليه السلام _ وزيد بن علي فى أوان حلمه، أو بعده بقليل فضمه الإمام الباقر إلى أولاده فكان يعطف عليه ويحنو إليه كالوالد الرؤوف بالنسبة إلى أولاده إلى أن شب وترعرع، وبلغ فى العلم والعمل ما بلغ، وقد نص بذلك أكثر من كتب عن زيد _____:

(١) السياغى: الروض النضير: ١ | ٩٨، لاحظ الخطط للمقرئى: ٢ | ٤١٩.

(٢) ابن حجر: الصواعق المحرقة: ٢٠٠، ط ٢، مكتبة القاهرة (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م).

(٧٠)

١ - قال الشيخ فى فصل أصحاب الإمام الباقر _ عليه السلام _: «زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب أبو الحسن، أخوه _ عليه السلام _ ذكره أيضاً فى أصحاب أبيه زين العابدين _ عليه السلام _ (١)

٢- قال المزني: روى عن: أبان بن عثمان، وعبيد الله بن أبي رافع، وعروة بن الزبير وأبيه علي بن الحسين وأخيه أبي جعفر محمد بن علي الباقر (٢).

٣- وذكره بهذا النص ابن حجر في تهذيب التهذيب (٣).

٤- وقال الذهبي: زيد بن علي بن الحسين... الهاشمي العلوي أخو أبي جعفر... روى عن: أبيه وأخيه أبي جعفر وعروة وكان أحد العلماء الصلحاء بدت منه هفوة (٤) فاستشهد فكانت سبباً لرفع درجته في آخرته (٥).

لقد عاش زيد تحت رعاية أخيه الكبير البار الحنون فتلقى منه الحديث والتفسير والأصول والمعارف حتى فاق وبرع أقرانه. قال ابن زهرة: وقد مات أبوه (زيد) عام ٩٤هـ أي وهو في الرابعة عشرة من عمره فتلقى الرواية عن أخيه محمد الباقر - عليه السلام - الذي يكبره بسن تسمح بأن يكون له أباً إذ إن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر - عليهما السلام - كان مثل سن الإمام زيد رضي الله عنهم أجمعين _____.

(١) الشيخ الطوسي: الرجال: باب الزاي: ٨٩ - ١٢٢.

(٢) جمال الدين المزي: تهذيب الكمال: ١٠ | ٩٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب: ٣ | ٤١٩.

(٤) أنظر إلى كلام الرجل، وتسميته الخروج على الظلم والعدوان هفوة والمداراة مع الظالمين ثباتاً على الدين. ولا عتب لأنه من الذين رأوا الخروج على الظالمين حراماً، على خلاف قول رسول الله من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً حرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عبادته بالإثم والعدوان، فلم يُغير عليه بفعل أو قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله (الطبري: التاريخ: ٣٠٤ | ٤) وسيوافيك الكلام في هذا المجال في المستقبل.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام: ١٠٥ (حوادث سنة ١٢١ - ١٤٠هـ).

(٧١)

وما كان من المعقول أن يجمع الإمام زيد وهو في سن الرابعة عشرة كل علم آل البيت فلا بد أن يكمل أشطراً من أخيه الذي تلقى علم أبيه كاملاً، وقد كان الباقر - عليه السلام - إماماً في الفضل والعلم، وأخذ عنه كثيرون من العلماء ورووا عنه ومن هؤلاء أبو حنيفة شيخ فقهاء العراق، وقد نال الباقر - عليه السلام - فضل الإمامة العلمية، حتى أنه كان يحاسب العلماء على أقوالهم وما فيها من خطأ وصواب (١).

كان الإمام الباقر - عليه السلام - ينظر إليه نظر أخ عطوف ويثنى عليه أحياناً ويطريه، ويأمر بعض أصحابه بإنشاء طرائف تمثل شخصيته زيد ونفسيته وإليك بعض ما وقفنا عليه:

٥- روى الصدوق في الأمالي عن أبي الجارود قال: إنني لجالس عند أبي جعفر محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - إذ أقبل زيد فلما نظر إليه وهو مقبل، قال: «هذا سيد أهل بيته والطالب بأوتارهم لقد أنجبت أم، ولدتك يا زيد» (٢).

٦- وعن جابر الجعفي قال سمعت أبا جعفر - عليه السلام - وقد نظر إلى أخيه زيد بن علي فتلا هذه الآية: «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا... الآية»، وقال: هذا والله من أهل ذلك» (٣).

٧- وعنه أيضاً سألت محمد بن علي - عليهما السلام - عن أخيه زيد فقال: «سألتني عن رجل ملئ إيماناً وعلماً من أطراف شعره وقدمه وهو سيد أهل بيته» (٤).

دخل زيد على الإمام الباقر - عليه السلام - فلما رآه تلا: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط» ثم قال: «أنت والله يا زيد من أهل ذلك» (٥) _____.

(١) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢ | ٤٦٥.

(٢) الصدوق: الآمالى: ٣٣٥، الحديث ١١.

(٣) السياغى: الروض النضير: ١٠٤/٤. والآيتان من سورة آل عمران: ١٩٥ وسورة المائدة: ٨.

(٤) السياغى: الروض النضير: ١٠٤/٤. والآيتان من سورة آل عمران: ١٩٥ وسورة المائدة: ٨.

(٥) السياغى: الروض النضير: ١٠٤/٤. والآيتان من سورة آل عمران: ١٩٥ وسورة المائدة: ٨.

(٧٢)

٨- روى الصدوق عن جابر الجعفى، قال: دخلت على الباقر _ عليه السلام _ وعنده زيد أخوه، فدخل عليه معروف بن خربوذ المكى،

قال له أبو جعفر - عليه السلام - : «يا معروف أنشدنى من طرائف ما عندك»، فأشدد:

لعمر ك ! ما إن أبو مالك * بوان، ولا بضعيف قواه

ولا بالذ «لدى قوله» (١) * يعادى الحكيم إذا ما نهاه

ولكنه سيد بارع * كريم الطبايع حلو نثاه (٢) إذا سُدتَه، سُدتَ مطواعه * ومهما وكلت إليه كفاه

قال: فوضع أبو جعفر _ عليه السلام _ يده على كتفى زيد، وقال: هذه صفتك يا أبا الحسين! (٣).

٩- روى أبو الفرج عن أبى جعفر _ عليه السلام _ أنه قال له بعد التمثيل بالآيات السابقة: «ولقد أنجبت أم ولدتك يا زيد. اللهم أشدد

أزرى يزيد» (٤).

_____ * * *

(١) ورواه فى الأغانى بالنحو التالى:

ولا- بالذ، له فارغ * يعادى أخاه إذا ما نهاه (الأغانى: ١٠٦/٢٤). (٢) بتقديم النون على التاء المثلثة لاحظ تعليقه المحقق على

البحار: ١٦٩/٤٦.

(٣) عيون أخبار الرضا _ عليه السلام _ : ١ | ٢٥١ ح ٥ الباب ٢٥، أبو الفرج: الأغانى: ١٠٦/٢٤، ورواه فى الأغانى بالنحو التالى:

ولكنه هين لئن * كعالية الرمح عرد نساها قال المعلق: عرد نساها شديد ساقه. (الأغانى: ١٠٦/٢٤)

(٤) أبو الفرج: الأغانى: ١٠٧/٢٤ ومر صدره فى حديث الصدوق.

(٧٣)

حياته فى عصر الإمام الصادق _ عليه السلام _:

١- لم يذكر التاريخ شيئاً من حياته فى عصر الإمام الصادق _ عليه السلام _ غير تجواله فى البلاد، لدعم الخروج، وجمع العيَّة

والعِدَّة، الذى سيمر عليك فى الفصول الآتية غير أنه لو صح ما يرويه أبو الفرج الاصفهاني عن عبد الله بن جرير أنه رأى أن جعفر بن

محمد _ عليه السلام _ «يمسك لزيد بن على بالركاب ويسوى ثيابه على السرج» (١) لدل على أن الإمام _ عليه السلام _ كان يكرمه

لكونه عمه - وهو بمنزلة الأب - ولأنه أكبر منه سنًا، خصوصاً على ما حققنا من أنه من مواليد عام ٦٧ أو ٦٨، فيدل على تواضعه

وكمال أدبه، وقد كان ذلك رائجاً بين بنى هاشم.

وقد كان بين زيد، وعبد الله بن الحسن المثنى مناظرة فى صدقات على - عليه السلام - فكانا يتحاكمان إلى قاض، فإذا قاما من عنده

أسرع عبد الله إلى دابة زيد فأمسك له بالركاب (٢).

وقد كانت أوامر الحب والود بين الإمام وعمه متبعية إلى يوم حمامه، ولما بلغ نعيه إلى المدينة أخذ الناس يفدون إلى الإمام ويعزونه.

٢- روى أبو الفرج عن فضيل بن رسام: دخلت على جعفر بن محمد - عليهما السلام - أعزَّيه عن عمه ثم قلت له: ألا أنشدك شعر

السيد (الحميرى) فقال: «أنشد» فأشددته قصيدته (العينية المعروفة) التى يقول فيها:

الناس يوم البعث راياتهم * خمس فمنها هالك أربع (٣)

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٨٧.

(٢) سيوافيك شرح المحاكمة بينهما.

(٣) أبو الفرج: الأغاني: ٧|٢٥١، وللقصة صلة، فمن أراد فليرجع إلى مصدرها.

(٧٤)

٣- لَمَّا توفى الإمام أبو جعفر الباقر _ عليه السلام _ أنشد زيد قصيدة - سنوافيك بها في فصل خطبه وأشعاره - عزى فيها الإمام الصادق _ عليه السلام _ وقال:

أبا جعفر الخير أنت الإمام * وأنت المرجى لبلوى غدى (١)

ويظهر من بعض الروايات أنه استشار الإمام الصادق _ عليه السلام _ في خروجه فقال له: «يا عم إن رضيت أن تكون المقتول (المصلوب) بالكناسة فشأنك» فلَمَّا ولى، قال جعفر بن محمد _ عليهما السلام _: «ويل لمن سمع واعيته فلم يجبه» (٢).

روى الصدوق عن معمر بن خيثم: كنت جالساً عند الصادق _ عليه السلام _ فجاء زيد بن علي بن الحسين فأخذ بعضادتي الباب، فقال له الصادق - عليه السلام - «أعيزك أن تكون المصلوب بالكناسة» (٣).

كل ذلك يدل على ود عميق للعم، وأدب لائق بأهل البيت.

(١) ابن شهر آشوب: المناقب: ٤|١٩٧، طبعه دار الأضواء، بيروت.

(٢) عيون أخبار الرضا _ عليه السلام _: ١|٢٤٨ ح ١، عنه البحار: ٤٦|١٧٤ ح ٢٧.

(٣) الصدوق: العيون: ١، الباب ٢٥، الحديث: ٤، طبعه قم. وسنوافيك ببقية الرواية.

الفصل الثالث في خطبه، وكلماته

الفصل الثالث في خطبه، وكلماته وأشعاره، ومناظراته وعبادته كان زيد الشهيد فصيحاً، بليغاً يأخذ بجوامع الكلم ويستعملها في مواردنا وقد شهد به الصديق والعدو، قال الواقدي: وبلغ هشام بن عبد الملك مقام زيد بالكوفة، فكتب إلى يوسف بن عمر: أشخص زيداً إلى المدينة فإنني أخاف أن يخرج أهل الكوفة لأنه حلوا الكلام، شديد البيان، خليق بتمويه الكلام (١) وإليك بعض ما أثر عنه من المواعظ والحكم والأدب ونحوها:

١- روى أبو المؤيد موفق بن أحمد المدعو بـ «أخطب خوارزم»: «قيل لزيد ابن علي: الصمت خير أم الكلام؟ فقال: قبح الله المساكته، ما أفسدها للبيان، وأجلبها للعي والحصر، والله للممارة أسرع في هدم الفتى من النار في يبس العرفج، ومن السيل إلى الحدور (٢) (٣)».

(١) سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص: ٣٠٠، يعقوبي: التاريخ: ٢|٣٢٥ الخوارزمي: مقتل الحسين: ٢|١١٩.

(٢) الحدور على وزن رسول هو المكان ينحدر منه. (لسان العرب: ٤|١٧٢، مادة «حدر»).

(٣) محسن الأمين: أعيان الشيعة: ٧|١٢٣، نقلاً عن مقتل الحسين للخوارزمي.

(٧٤)

فقد فضل الكلام على السكوت، وذم الممارة، فالكلام أفضل بشرط أن لا يكون مماراة.

٢- إذا تلا زيد بن علي قوله سبحانه: "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" (محمد - ٣٨).

يقول: «إن كلام الله هذا تهديد وتخويف، ثم يقول: اللهم لا تجعلنا ممن تولّى عنك فاستبدلت به بدلاً» (١).

٣- قال زيد بن علي لأصحابه: «أوصيكم بتقوى الله، فإن الموصى بها لم يدخر نصيحة، ولم يقصر في الإبلاغ، فاتقوا الله في الأمر

الذى لا- يفوتكم منه شىء وإن جهلتموه وأجملوا في الطلب، ولا تستعينوا بنعم الله على معاصيه، وتفكروا، وأبصروا هل لكم قبل خالقكم من عمل صالح قدمتموه فشكره لكم، فبذلك جعلكم الله تعالى من أهل الكتاب والسنة، وفضلكم على أديان آبائكم، ألم يستخرجكم نطفاً من أصلاب قوم، كانوا كافرين، حتى بثكم في حجور أهل التوحيد، وبث من سواكم في حجور أهل الشرك، فبأى سوابق أعمالكم طهركم إلا بمته وفضله الذى يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٢).

٤- وقال مبيناً لما هو الغاية من الخروج: «وإنما خرجت على بنى أمية الذين قتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرء، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار» (٣).

٥- روى عبد الله بن مسلم بن بابك قال: خرجنا مع زيد بن علي إلى مكة، كان نصف الليل واستوت الثريا فقال: «يا بابكى، ما ترى هذه الثريا أترى أن _____»

(١) محسن الأمين: أعيان الشيعة: ٧/١٢٣.

(٢) الأمير أسامة بن مرشد، لباب الآداب نقلاً عن المدائن كما فى زيد الشهيد للسيد الأمين العاملى: ٩٢.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق: ٣٥ - ٣٦.

(٧٧)

أحداً ينالها؟» قلت: لا، قال: «والله لو ددت أن يدي ملصقة بها فأقع إلى الأرض أو حيث أقع، فأقطع قطعة قطعة وإن الله أصلح بين أمة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم» (١).

٦- إن زيدا كتب كتابه، فلما خفت راياته رفع يده إلى السماء فقال: «الحمد لله الذى أكمل لى دينى، والله ما يسرنى إني لقيت محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم أمر أمته بمعروف ولم أنههم عن منكر».

وفى رواية أخرى: «والله إنى لأستحيى من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا لقيته ولم أمر أمته بالمعروف ولم أنههم عن المنكر والله ما أبالي إذا أقمت كتاب الله وسنة رسول الله إن أوجت لى نار وقذفت فيها ثم صرت بعد ذلك إلى رحمة الله عز وجل، والله لا ينصرنى أحد إلا كان فى الرفيق الأعلى مع محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين - صلوات الله عليهم - ويحكم أما ترون هذا القرآن بين أظهركم جاء به محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ونحن بنوه، يا معشر الفقهاء وأهل الحجى أنا حجة الله عليكم هذه يدي مع أيديكم، على أن نقيم حدود الله ونعمل بكتابه...» (٢).

٧- كانت بيعته التى يبايع عليها الناس هى: «إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفىء بين أهله بالسوية ورد الظالمين، وإقفال المجرم ونصرتنا أهل البيت على من نصب لنا، وجهل حقنا. أتبايعون على ذلك؟» فإذا قالوا نعم، وضع يده على يده ثم يقول: «عليك عهد الله وميثاقه وذمته أو ذمه رسول الله لتفبين بيعتى، ولتقاتلن عدوى، ولتصحن لى فى السر والعلانية» فإذا قال نعم مسح يده على يده، ثم قال: «اللهم اشهد» (٣).

(١) المجلسى: البحار: ٤٤/٣٢٩.

(٢) أخطب خوارزم: مقتل الحسين: ٢/١٠٨.

(٣) الطبرى: التاريخ: ٥/٤٩٢، ابن الأثير: الكامل: ٤/٢٣٣، باختلاف يسير فى الكلمات.

(٧٨)

٨- ومن كلامه: «إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى السنن أن تحبى، وإلى البدع أن تدفع، فإن أنتم أجبتمونا سعدتم، وإن أنتم أبيتتم فلست عليكم بوكيل» (١).

٩- ومن كلامه المعروف قاله لهشام أنه: «لم يكره قوم قط حد السيف إلا ذلوا» (٢).

١٠- وروى ابن عساكر أنه قال: «والله ما كره قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله تعالى بالذل» (٣).

١١- وقال أيضاً لهشام: «أنه ليس أحد يكبر عن تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله» (٤)

إلى غير ذلك من الكلمات التي سيمر بعضها عليك في المستقبل. غير أن كل ذلك حكم قصيرة يبارى فيها، ما ورثه عن مطلع الفصاحة والبلاغة جدّه الإمام أمير المؤمنين.

ثم لزيد خطب، ورسائل، نكتفي من كل منهما بواحد، والإمعان فيهما يعرف مقدرته على إنشاء الكلام البليغ، وإبداعه المعاني السامية، في جمل قصيرة وإليك الخطبة ثم الرسالة:

١٢ - خطبته التي، يعرف فيها موقفه من الخروج وأنه ليس إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنهاض المسلمين لإزالة المروءتين عن منصة الحكومة الإسلامية ورد الأمر إلى أهل بيت النبي وإليك نصها:

«يا أيها الناس إن الله قد بعث في كل زمان خيرة، ومن كل خيرة منتجياً _____»

(١) الطبري: التاريخ: ٥ | ٤٩٨؛ ابن الأثير: الكامل: ٥ | ٢٤٣.

(٢) المفيد: الإرشاد: ٢٦٩.

(٣) مختصر تاريخ دمشق: ٩ | ١٥١.

(٤) المسعودي: مروج الذهب: ٣ | ٢٠٦، طبعه دار الأندلس، بيروت.

(٧٩)

خيرة منه قال: "الله أعلم حيث يجعل رسالته" (الأنعام - ١٢٤) فلم يزل الله يتناسخ خيرته حتى خرج محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - من أفضل تربة وأطهر عتره أخرجت للناس، فلمّا قبض الله محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا- عارف أمخركم (١) بعد زخورها وحصن حصونك على سائر الأحياء بأن محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قريشياً، ودانت العجم للعرب بأن محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - كان عربياً حتى ظهرت الكلمة وتمت النعمة فاتقوا الله عباد الله وأجيبوا إلى الحق وكونوا أعواناً لمن دعاكم إليه، ولا تأخذوا سنّة بنى إسرائيل، كذبوا أنبياءهم، وقتلوا أهل بيت نبيهم.

ثم أنا أذكركم أيها السامعون لدعوتنا، المتفهمون لمقالتنا، بالله العظيم الذي لم يذكر المذكورون بمثله، إذا ذكروه وجلت قلوبكم واقشعرت لذلك جلودكم، أستم تعلمون أنا ولد نبيكم المظلومون المقهورون، فلا سهم وفينا، ولا تراث أعطينا، وما زالت بيوتاً تهدم وحرمتنا تنتهك وقائلنا يعرف، يولد مولودنا في الخوف، وينشأ ناشئنا بالقهر ويموت ميتنا بالذل؟

ويحكم إن الله قد فرض عليكم جهاد أهل البغي والعدوان من أمتكم على بغيهم، وفرض نصره أوليائه الداعين إلى الله وإلى كتابه قال: "ولينصرن الله من ينصره إن الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" (الحج - ٤٠).

ويحكم إننا قوم غصّة بنا لله ربنا، ونقمنا الجور المعمول به في أهل ملتنا، ووضعنا من توارث الإمامة والخلافة، وحكم بالهوى ونقض العهد، وصلى الصلاة لغير وقتها، وأخذ الزكاة من غير وجهها ودفعها إلى غير أهلها، ونسك المناسك بغير هديها، وأزال الأفياء والأخماس والغنائم ومنعها الفقراء والمساكين وابن السبيل، وعطل الحدود وأخذ منه الجزيل، وحكم بالرشا والشفاعات والمنازل، وقرب الفاسقين ومثل بالصالحين، واستعمل الخيانة وخون أهل الأمانة _____،

(١) وفي نسخة: أنجزكم.

(٨٠)

وسلّط المجوس وجهاز الجيوش، وخلد في المحابس وجلد المبين وقتل الوالد، وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف بغير مأخوذ من كتاب الله وسنّة نبيه.

ثم يزعم زاعمكم الهزاز على قلبه، يطمع خطيئته إن الله استخلفه يحكم بخلافته، ويصد عن سبيله وينتهك محارمه ويقتل من دعا إلى أمره، فمن أشر عند الله منزلة ممن افتري على الله كذباً أو صد عن سبيله أو بغاه عوجاً، ومن أعظم عند الله أجراً ممن أطاعه وأدان

بأمره وجاهد في سبيله وسارع في الجهاد، ومن أشرَّ عند الله منزله ممن يزعم أن بغير ذلك يحقَّ عليه ثم يترك ذلك استخفافاً بحقِّه وتهاوناً في أمر الله وإيثاراً لديناه"، وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ("فصلت - ٣٣)(١)

١٣ - روى حميد بن أحمد المحلي (٥٨٢ - ٦٥٢هـ) بالإسناد المنتهى إلى أبي الجارود أن زيداً لما ظهر، خطب وقال: «الحمد لله الذي منَّ علينا بالبصيرة وجعل لنا قلوباً عاقلة، وأسماعاً واعية، وقد أفلح من جعل الخير شعاره، والحقَّ دثاره - إلى أن قال: - فمن سمع دعوتنا هذه الجامعة غير المفترقة، العادلة غير الجائرة، فأجاب دعوتنا وأناب إلى سبيلنا وجاهد بنفسه ومن يليه من أهل الباطل، ودعائم النفاق، فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن ردَّ علينا دعوتنا وأبى إجابتنا واختار الدنيا الزائلة الآفلة، على الآخرة الباقية، فالله من أولئك برىء، وهو يحكم بيننا وبينكم.

إذا لقيتم القوم فادعوهم إلى أمركم، فلأن يستجيب لكم رجل واحد خير ممَّا طلعت عليه الشمس من ذهب وفضة، وعليكم بسيرة أمير المؤمنين على بن طالب - عليه السلام - بالبصرة والشام: لا - تتبعوا مُدبراً ولا تُجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً، والله على ما أقول وكيل _____.

(١) فرات بن إبراهيم الكوفي: التفسير: ١٣٦ - ١٣٧، ط ١، تحقيق محمد الكاظم، مؤسسه الطبع والنشر التابعة لوزارة الإرشاد، طهران (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م).

(٨١)

عباد الله لا - تقاتلوا على الشك فتضلوا عن سبيل الله، ولكن البصيرة ثم القتال، فإنَّ الله يجازي عن اليقين أفضل جزاء يجزي به على حقِّ. عباد الله: البصيرة» قال أبو الجارود: يابن رسول الله، يبذل الرجل نفسه عن غير بصيرة؟ قال: «نعم أن أكثر من ترى عشقت نفوسهم الدنيا فالطمع أراهم إلا القليل الذين لا تخطر الدنيا على قلوبهم، ولا لها يسعون فأولئك منى وأنا منهم» (١).

١٤ - وها نحن ننشر في المقام رسالته إلى علماء الأمة قبيل خروجه، فحاول فيها بكل وسيلة تشجيع الناس على رفض الظلم والمطالبة بالحرية والعدالة.

قام بتحقيقها وتصحيحها محمد يحيى سالم عزان عن أربع نسخ، نوّه بخصوصيتها في مقدمتها ونشرها دار التراث اليمنى صنعاء عام ١٤١٢هـ

وإليك نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حتى يرضى وصلى الله وسلم وبارك وترحم وتحنن وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد. إلى علماء الأمة الذين وجبت لله عليهم الحجَّة.

من (زيد بن علي) ابن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

سلام على أهل ولاية الله وحزبه.

ثم إنِّي أوصيكم معشر العلماء بحظكم من الله في تقواه وطاعته، وأن لا تبعوه بالمكس (٢) من الثمن، والحقير من البدل، واليسير من العوض، فإنَّ كلَّ _____

(١) حميد المحلي: الحقائق الوردية: ١٤١، الطبعة الثانية - ١٤٠٥هـ ق. وقد جئنا بخلاصة الخطبة ومن أراد الوقوف على الجميع فعليه الرجوع الى المصدر.

(٢) المكس: النقص والظلم.

(٨٢)

شئ آثرتموه وعملتكم له من الدنيا ليس بخلف ممَّا زين الله به العلماء من عباده الحافظين لرعايته ما استرعاهم واستحفظهم من أمره

ونهي، ذلك بأن العاقبة للمتقين، والحسرة والندامة والويل الدائم للجائرين الفاجرين.

[الاعتبار من الأمم السابقة]

فتفكروا عباد الله واعتبروا، وانظروا وتدبروا وازدجروا بما وعظ الله به هذه الأمة من سوء ثنائه على الأخبار والرهبان.

إذ يقول: "لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَائِيُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ" (١).

وإنما عاب ذلك عليهم بأنهم كانوا يشاهدون الظلمة الذين كانوا بين ظهرانيهم يأمرون بالمنكر، ويعملون الفساد فلا ينهونهم عن ذلك، ويرون حق الله مضيعاً، ومال الله دونه يواكل بينهم ظلماً ودولة بين الأغنياء، فلا يمنعون من ذلك رغبة فيما عندهم من العرض الآفل، والمنزل الزائل، ومداهنة (٢) منهم على أنفسهم.

وقد قال الله عز وجل لكم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصِيءُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (٣) كما تحذروا.

وإذا رأيتم العالم بهذه الحالة والمنزلة فأنزلوه منزلة من عاث في أموال الناس بالمصانعة (٤)، والمداهنة، والمضارعة (٥) لظلمة أهل زمانهم، وأكابرهم

(١) المائدة: ٦٣.

(٢) المداهنة: المداراة والملاينة، وداهن على نفسه أبقى عليها.

(٣) التوبة: ٣٤.

(٤) المصانعة: الرشوة والمداراة.

(٥) المضارعة: التقرب والمقارنة.

(٨٣)

قومهم، فلم ينهوهم عن منكر فعلوه. رغبة فيما كانوا ينالون من السحت (١) بالسكوت عنهم.

وكان صدودهم عن سبيل الله بالإتباع لهم، والاعتزاز بإدهانهم (٢) ومقارنتهم الجائرين الظالمين المفسدين في البلاد. ذلك بأن أتباع

العلماء يختارون لأنفسهم ما اختار علماءهم. فحذروا علماء السوء الذين سلكوا سبيل من ذم الله وباعوا طاعة الله الجائرين.

إن الله عز وجل قال في كتابه: "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَائِيُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" (٣).

فعاب علماء التوراة والإنجيل بتركهم ما استحفظهم من كتابه، وجعلهم عليه شهداء خشية الناس، ومواتاة (٤) للظالمين، ورضاً منهم

بأعمال المفسدين. فلم يؤثروا الله بالخشية فسخط الله عليهم لما اشتروا بآياته ثمناً قليلاً، ومتاعاً من الدنيا زائلاً. والقليل عند الله الدنيا

وما فيها من غضارتها (٥) وعيشتها ونعيمها وبهجتها، ذلك بأن الله هو علام الغيوب.

قد علم بأن ركوب معصيته، وترك طاعته، والمداهنة للظلمة في أمره ونهيه، إنما يلحق بالعلماء للرغبة والرغبة من عند غير الله، لأنهم

علماء بالله، وبكتابه وبسننه نبيته — صلى الله عليه وآله وسلم — .

(١) السحت: ما خبث من المكاسب.

(٢) الأدهان والمداهنة بمعنى: المصانعة واللين، وقيل: الأدهان الغش.

(٣) المائدة: ٤٤.

(٤) المواتاة: حسن المطاوعة والموافقة.

(٥) غضارة الدنيا: النعمة والسعة والخصب.

(٨٤)

[الامر بالمعروف والنهي عن المنكر]

ولعمري لو لم يكن نال علماء الأزمنة من ظلمتها، وأكبرها، ومفسديها، شدة وغلظة وعداوة، ما وصّاهم الله تعالى وحذّره. ذلك أنّهم ما ينالون ما عند الله بالهويناء ولا يخلدون في جنته بالشهوات.

فكره الله تعالى للعلماء - المستحفظين كتبه وسنته وأحكامه - ترك ما استحفظهم، رغبة في ثواب من دونه، ورهبة عقوبه غيره. وقد ميزكم الله تعالى حقّ تميز، ووسمكم سمه (١) لا- تخفى على ذي لب، وذلك حين قال لكم: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (٢).

فبدأ بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بفضيلة الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر عنده، وبمنزلة القائمين بذلك من عباده.

ولعمري لقد استفتح الآية في نعت المؤمنين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاعتبروا عباد الله وانتفعوا بالموعظة.

وقال تعالى في الآخرين: "الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ" (٣).

فلعمري لقد استفتح الآية في ذمهم بأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف فاعتبروا عباد الله وانتفعوا _____.

(١) السمة: العلامة.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) التوبة: ٦٧.

(٨٥)

واعلموا أنّ فريضة الله تعالى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أُقيمت له استقامت الفرائض بأسرها هيئتها وشديدها. وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو:

الدعاء إلى الإسلام، والإخراج من الظلمة، ورد الظالم، وقسمة الفىء والغنائم على منازلها، وأخذ الصدقات ووضعها في مواضعها، وإقامة الحدود، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهد، والإحسان، واجتناب المحارم، كل هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الله تعالى لكم: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (١) فقد ثبت فرض الله تعالى فاذكروا عهد الله الذي عاهدتموه وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" (٢).

[دور العلماء ومكانتهم]

عباد الله فإنما تصلح الأمور على أيدي العلماء وتفسد بهم إذا باعوا أمر الله تعالى ونهيه بمعاونة الظالمين، الجائرين، فكذلك الجهال والسفهاء إذا كانت الأمور في أيديهم، لم يستطيعوا إلا بالجهل والسفه إقامتها فحينئذ تصرخ المواريث، وتضج الأحكام، ويفتضح المسلمون (٣).

وأنتم أيها العلماء عصابة مشهورة، وبالورع مذكورة، وإلى عبادة الله _____

(١) المائدة: ٢.

(٢) المائدة: ٧.

(٣) يفتضح المسلمون بمعنى يفرط المسلمون. قال الزمخشري: سمعتمهم يقولون: افتضحنا فيك أي فرطنا في زيارتك وتفقدك.

(٨٦)

منسوبة، وبدراسة القرآن معروفة، ولكم في أعين الناس مهابة، وفي المدائن والأسواق مكرمة، يهابكم الشريف، ويكرمكم الضعيف، ويرهبكم من لا فضل لكم عليه. يُبدأ بكم عند الدعوة، والتَّحْفَةُ (١)، ويشار إليكم في المجالس، وتشفعون في الحاجات، إذا امتنعت على الطالبين. وآثاركم متبعة، وطرقكم تسلك.

كل ذلك لما يرجوه عندكم من هو دونكم من النجاة في عرفان حقَّ الله تعالى. فلا تكونوا عند إيثار (٢) حقَّ الله تعالى غافلين، ولأمره مضيئين، فتكونوا كالأطباء الذين أخذوا ثمن الدواء وأعطوا المرضى. وكرعاه استوفوا الأجر وضلوا عن المرعى. وكحراس مدينه أسلموها إلى الأعداء، هذا مثل علماء السوء.

لا- مالا- تبذلونه لله تعالى، ولا نفوساً تخاطرون بها في جنب الله تعالى، ولا داراً عطلموها، ولا زوجةً فارقتوها، ولا عشيرةً عاديتوها. فلا تتمنوا ما عند الله تعالى وقد خالفتموه.

فترون أنكم تسعون في النور، وتتلقاكم الملائكة بالبشارة من الله عزَّ وجلَّ؟ كيف تطمعون في السلامة يوم الطامة؟! وقد أخرجتم الأمانة، وفارقتم العلم، وأدهنتم في الدين. وقد رأيتم عهد الله منقوضاً، ودينه مبغوضاً، وأنتم لا تفزعون ومن الله لا ترهبون. فلو صبرتم على الأذى، وتحملتُم المَوْنَةَ في جنب الله لكانت أمور الله صادرة عنكم، وواردةً إليكم _____.

(١) التحفة: بضم المثناة وتسكين المهملة: البر واللفظ.

(٢) الإيثار: التقديم والتفضيل، والمعنى هنا: فلا تكونوا غافلين عند إيثار وتقديم حقَّ الله تعالى والدفاع عنه.

(٨٧)

عباد الله لا-تمكَّنوا الظالمين من قيادكم (١) بالطمع فيما بأيديهم من حطام الدنيا الزائل، وتراثها الآفل، فتخسروا حظكم من الله عزَّ وجلَّ.

عباد الله استقدموا إلى الموت بالوثيقة في الدين، والاعتصام بالكتاب المتين، ولا تعجبوا بالحياء الفانية فما عند الله هو خير لكم، وإن الآخرة هي دار القرار.

عباد الله اندبوا الإيمان ونوحوا على القرآن، فو الذي نفس «زيد بن علي» بيده لن تنالوا خيراً لا يناله أهل بيت نبيكم _ صلى الله عليه وآله وسلم، _ ولا أصبتم فضلاً إلا أصابوه فأصبتم فضله.

[إلى علماء السوء]

فيا علماء السوء أكببتم على الدنيا وإنها لناهيئة لكم عنها، ومحذرة لكم منها، نصحت لكم الدنيا بتصرفها فاستغششتموها، وتفتحت لكم الدنيا فاستحسنتموها، وصدقتم عن نفسها فكذبتموها.

فيا علماء السوء هذا مهادكم الذي مهدتموه للظالمين، وهذا أمانكم الذي أتمتموه (٢) للخائنين، وهذه شهادتكم للمبطلين. فأنتم معهم في النار غداً خالدون". ذلِّكم بما كُنتُم تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُم تَمْرَحُونَ (٣)

فلو كنتم سلَّمتم إلى أهل الحقِّ حقهم، وأقررتُم لأهل الفضل بفضلهم لكنتم أولياء الله، ولكنتم من العلماء به حقاً، الذين امتدحهم الله عزَّ وجلَّ في كتابه بالخشية منهم _____.

(١) القيادة كالمقود: ما يقاد به، واستعماله هنا مجاز، والمعنى: لا تمكَّنوا الظالمين من قودكم كما تقاد البهائم.

(٢) أتمتموه بمعنى أتمتموه، حكاة في اللسان عن ثعلب وقال: وهي نادرة.

(٣) غافر: ٧٥.

(٨٨)

فلا- أنتم علمتم الجاهل، ولا أنتم أرشدتم الضال، ولا أنتم في خلاص الضعفاء تعملون، ولا بشرط الله عليكم تقومون، ولا في فكاك رقابكم [ولا السلب إلا سلبكم].

يا علماء السوء اعتبروا حالكم، وتفكروا في أمركم، وستذكرون ما أقول لكم.

يا علماء السوء إنما أمنتكم عند الجبارين بالإدهان، وفزتم بما في أيديكم بالمقاربة، وقربتم منهم بالمصانعة (١)، قد أبحتم الدين، وعظمت القرآن، فعاد علمكم حجة لله عليكم، وستعلمون إذا حشرج الصدر، وجاءت الطامة، ونزلت الداهية.

يا علماء السوء أنتم أعظم الخلق مصيبة، وأشدهم عقوبة، إن كنتم تعقلون، ذلك بأن الله قد احتج عليكم بما استحفظكم إذ جعل الأمور ترد إليكم، وتصدر عنكم.

الاحكام من قبلكم تلتمس، والسنن من جهتكم تختبر. يقول المتبعون لكم: أنتم حجتنا بيننا وبين ربنا. فبأي منزلة نزلتم من العباد هذه المنزلة؟

فوالذي نفس «زيد بن علي» بيده لو بينتم للناس ما تعلمون ودعوتموهم إلى الحق الذي تعرفون، لتضعض بنيان الجبارين، ولتهدم أساس الظالمين، ولكنكم اشترتكم بآيات الله ثمناً قليلاً، وأدهنتم في دينه، وفارقتم كتابه.

هذا ما أخذ الله عليكم من العهود والمواثيق، كي تتعاونوا على البر والتقوى، ولا-تعاونوا على الإثم والعدوان، فأمكنتم الظلمة من الظلم، وزينتم لهم الجور، وشدتكم لهم ملكهم بالمعونة والمقارنة، فهذا حالكم.

فيا علماء السوء فمحوتم كتاب الله محواً، وضربتم وجه الدين ضرباً _____،

(١) المصانعة: المداراة والمداهنة.

(٨٩)

فند(١) والله نديد البعير الشارد، هرباً منكم.

فبسوء صنيعكم سفكت دماء القائمين بدعوة الحق من ذرية النبي _ صلى الله عليه وآله وسلم، _ ورفعت رؤوسهم فوق الآسنة، وصفدوا في الحديد، وخلص إليهم الذل، واستشعروا الكرب وتسربلوا الأحزان، يتنفسون الصعداء (٢)، ويتشاكون الجهد.

فهذا ما قدمتم لأنفسكم، وهذا ما حملتموه على ظهوركم، فالله المستعان، وهو الحكم بيننا وبينكم، يقضى بالحق وهو خير الفاصلين.

[دعوة إلى الجهاد]

وقد كتبت إليكم كتاباً بالذي أريد من القيام به فيكم. وهو: العمل بكتاب الله، وإحياء سنة رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم. _ فبالكتاب قوام الإيمان، وبالسنة يثبت الدين. وإنما البدع أكاذيب تخترع، وأهواء تتبع، يتولى فيها وعليها رجال رجالاً صدوهم عن

دين الله، وذادوهم عن صراطه، فإذا غيرها المؤمن، ونهى عنها المؤمن، قال المفسدون: جاءنا هذا يدعوننا إلى بدعة!!

وأيم الله ما البدعة إلا التي أحدث الجائرون، ولا الفساد إلا الذي حكم به الظالمون.

وقد دعوتكم إلى الكتاب. فأجيبوا داعي الله، وانصروه، فوالذي يآذنه دعوتكم، وبأمره نصحت لكم، ما ألتمس أثره على مؤمن، ولا

ظلماً لمعاهد، ولوددت أنني قد حميتكم مراتع (٣) الهلكة، وهديتكم من الضلالة، ولو كنت أوقد _____

(١) ند البعير: شرد ونفر.

(٢) في القاموس: بالضم بعده سكون، وفي لسان العرب: بالضم بعده تحريك بالفتح: النفس بتوجع، وفي شرح القاموس الأول أصح.

(٣) مراتع: مواضع.

(٩٠)

ناراً فأقذف بنفسى فيها، لا يقربني ذلك من سخط الله، زهداً في هذه الحياة الدنيا، ورغبة مني في نجاتكم، وخلاصكم. فإن أجبتونا إلى دعوتنا كنتم السعداء والموفورين حظاً ونصيياً.

عباد الله انصحوا داعي الحق وانصروه إذ قد دعاكم لما يحييكم. ذلك بأن الكتاب يدعو إلى الله، وإلى العدل والمعروف، ويزجر عن المنكر.

فقد نظرنا لكم وأردنا صلاحكم، ونحن أولى الناس بكم. رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ «جدنا»، والسابق إليه المؤمن به «أبونا»، وبنته سيدة النسوان «أمتنا»، فمن نزل منكم منزلتنا. فسارعوا عباد الله إلى دعوة الله، ولا تنكروا عن الحق، فبالحق يكتب (١) عدوكم، وتمنع حريمكم، وتأمّن ساحتكم.

وذلك أننا ننزع الجائرين عن الجنود، والخزائن، والمدائن، والفيء، والغنائم، ونثبت الأمين المومن، غير الراشى والمرتشى، الناقض للعهد. فإن يظهر فهذا عهدنا، وإن نستشهد فقد نصحنا لربنا، وأدينا الحق إليه من أنفسنا، فالجنة مثوانا ومنقلبنا، فأى هذا يكره المؤمن، وفي أى هذا يهرب المسلم، وقد قال الله عز وجل لنبى _ صلى الله عليه وآله وسلم _ : "وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" (٢).

وإذا بدأت الخيانة، وخربت الأمانة، وعمل بالجور، فقد افتضح الوالى. فكيف يكون إماماً على المومنين من هذا نعته وهذه صفته؟! اللهم قد طلبنا المعذرة إليك، وقد عرفتنا إنك لاتصلح عمل المفسدين، فأنت اللهم ولينا، والحاكم فيما بيننا وبين قومنا بالحق. هذا ما نقول، وهذا ما ندعو إليه، فمن أجابنا إلى الحق فأنت تشبهه وتجازيه _____، (١) يكتب: يرد العدو ويغيضه.

(٢) النساء: ١٠٧.

(٩١)

ومن أبى إلا عتواً وعناداً فأنت تعاقبه على عتوه وعناده.

فأله الله عباد الله أجيوا إلى كتاب الله، وسارعوا إليه، واتخذوه حكماً فيما شجر بينكم، وعدلاً فيما فيه اختلافنا، وإماماً فيما فيه تنازعنا، فإننا به راضون، وإليه منتهون، ولما فيه مسلمون، لنا وعلينا. لانريد بذلك سلطاناً فى الدنيا، إلا سلطانك، ولانلتمس بذلك أثره على مؤمن، ولا مؤمنة، ولا حر، ولا عبد.

عباد الله فأجيونا إجابة حسنة تكن لكم البشرى.

يقول الله عز وجل فى كتابه: "فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" (١).

ويقول: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (٢).

[مكانة أهل البيت _ عليهم السلام _]

عباد الله فاسرعوا بالإنابة وأبدلوا النصيحة، فنحن أعلم الأمة بالله، وأوعى الخلق للحكمة، وعلينا نزل «القرآن»، وفينا كان يهبط «جبريل» _ عليه السلام، _ ومن عندنا اقتبس الخير. فمن علم خيراً فمنا اقتبس، ومن قال خيراً فنحن أصله، ونحن أهل المعروف، ونحن الناهون عن المنكر، ونحن الحافظون لحدود الله.

عباد الله فأعينونا على من استعبد أمتنا، وأحرب أمانتنا، وعطل كتابنا، وتشرف بفضل شرفنا. وقد وثقنا من نفوسنا بالمضى على أمورنا، والجهاد فى سبيل خالقنا، وشريعة نبينا _ صلى الله عليه وآله وسلم _ صابرين على الحق، لا نجزع من نائبة من ظلمنا، ولا نرهب الموت إذا سلم لنا ديننا _____.

(١) الزمر: ١٧ - ١٨.

(٢) فصلت: ٣٣.

(٩٢)

فتعاونوا، وانصروا، يقول الله عز وجل فى كتابه: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (١).

ويقول الله عز وجل: "وَلْيُنْصِرْ رَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصِرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِذْ مَكَتْنَا فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ" (٢).

عباد الله فالتمكين قد ثبت بإثبات الشريعة، وبإكمال الدين يقول الله عز وجل: "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ" (٣).
 وقال الله عز وجل فيما احتج به عليكم: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا" (٤).
 عباد الله فقد أكمل الله تعالى الدين، وأتم النعمة، فلا تنقصوا دين الله من كماله، ولا تبدلوا نعمة الله كفرًا فيحل بكم بأسه وعقابه.
 عباد الله إن الظالمين قد استحلوا دماءنا، وأخافونا في ديارنا، وقد اتخذوا خذلانكم حجة علينا فيما كرهوه من دعوتنا، وفيما سفهوه من
 حقنا، وفيما أنكروه من فضلنا عناداً لله، فأنتم شركاؤهم في دماننا، وأعاونهم في ظلمنا، فكل مال لله أنفقوه، وكل جمع جمعوه، وكل
 سيف شحذوه (٥)، وكل عدل تركوه، وكل جور ركبوه، وكل ذمة لله تعالى أخفروها (٦) وكل مسلم أذلوه، وكل كتاب نبذوه، وكل

(١) محمد: ٧.

(٢) الحج: ٤٠-٤١.

(٣) الذاريات: ٥٤.

(٤) المائدة: ٣.

(٥) شحذوه: أحدوه.

(٦) أخفروها: نقض عهده.

(٩٣)

حكم لله تعالى عطلوه، وكل عهد لله تعالى نقضوه، فأنتم المعينون لهم على ذلك بالسكوت عن نهيهم عن السوء.
 عباد الله إن الأجار والرهبان من كل أمة مسؤولون عما استحفظوا عليه، فأعدوا جواباً لله عز وجل على سؤاله.
 اللهم إني أسألك بنبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - تثبتاً منك على الحق الذي ندعو إليه وأنت الشهيد فيما بيننا، الفاصل
 بالحق فيما فيه اختلفنا، ولا تستوى الحسنه ولا السيئه.
 والسلام على من أجاب الحق، وكان عوناً من أعوانه الدالين عليه.
 تم ذلك بحمد الله ومنه.

مناظراته :

إن يزيد الشهيد مناظرات جرت بينه وبين هشام وأناس آخر وفيها دلالة واضحة على قوة منطقته، ونضاجه فكره وبالأخص على حضور
 بديهته نقتطف ما يلي:

١ - روى موفق الدين عن معمر بن خيثم: قال لى زيد بن علي: كنت أبارى هشام بن عبد الملك وأكايده في الكلام، فدخلت عليه
 يوماً فذكر بنى أمية، فقال: والله هم أشد قريش أركاناً، وأشد قريش مكاناً، وأشد قريش سلطاناً، وأكثر قريش أعواناً، كانوا رووس
 قريش في جاهليتها، وملوكهم في إسلامها فقلت له: علي من تفخر؟ أعلى بنى هاشم، أول من أطعم الطعام وضرب الهام وخضعت لها
 قريش يارغام، أم علي بنى المطلب سيد مضر جميعاً، وإن قلت معد كلها صدقت، إذا ركب مشوا، وإذا انتعل احتفوا، وإذا تكلم
 سكتوا، وكان يطعم الوحوش في رووس

(٩٤) الجبال والطير، والسباع والإنس في السهل، حافر زمزم، وساقى الحجيج، أم علي بنيه أشرف رجال، أم علي نبي الله ورسوله
 حمله الله على البراق، وجعل الجنة عن يمينه، والنار عن شماله فمن تبعه دخل الجنة، ومن تأخر عنه دخل النار، أم علي أمير المؤمنين
 وسيد الوصيين علي بن أبي طالب - عليه السلام - أخي رسول الله وابن عمه المفرج الكرب عنه وأول من قال لا إله إلا الله بعد
 رسول الله لم يبارزه فارس قط إلا قتله، وقال فيه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مالم يقله في أحد من أصحابه ولا لأحد من

أهل بيته، قال: فاحمر وجهه (١).

٢- دخل زيد على هشام بن عبد الملك، وقد جمع له هشام أهل الشام وأمر أن يتضايقوا في المجلس حتى لا يتمكن من الوصول إلى قربه، فقال له زيد: إنه ليس من عباد الله أحد فوق أن يوصى بتقوى الله، ولا- من عباد الله أحد دون أن يوصى بتقوى الله، وأنا أوصيك بتقوى الله يا أمير المؤمنين فاتقه، فقال له هشام: أنت الموهل نفسك للخلافة، الراجي لها؟ وما أنت وذاك لا أم لك وإنما أنت ابن أمه، فقال له زيد: إني لا أعلم أحداً أعظم منزلة عند الله من نبي بعثه وهو ابن أمه، فلو كان ذلك يقصر عن منتهى غايه، لم يبعث، وهو إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - فالنبوة أعظم منزلة عند الله أم الخلافة يا هشام؟ وبعد فما يقصر برجل أبوه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ابن علي بن أبي طالب، فوثب هشام عن مجلسه (وزيد في عمدة الطالب ووثب الشاميون) ودعا قهرمانه فقال: لا يبيتن هذا في عسكري (الليلة) فخرج زيد وهو يقول: إنه لم يكره قط أحد حد السيوف إلا ذلوا (٢).

٣- قد وشى يزيد إلى هشام، فسأله عن ذلك فقال: أحلف لك. قال هشام: فإذا حلفت أفأصدقك؟! قال: إتق الله. قال هشام: أو مثلك يا زيد يأمر مثلي بتقوى _____

(١) موفق الدين الخوارزمي: مقتل الحسين: ٢ | ١١٧ .

(٢) المفيد: الإرشاد: ٢٦٨، طبعه النجف الأشرف.

(٩٥) الله، قال: لا أحد فوق أن يوصى بتقوى الله، ولا أحد دون أن يوصى بتقوى الله. قال هشام: بلغني أنك تريد الخلافة وأنت لا تصلح لها لأنك ابن أمه قال: قد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمه وإسحق ابن حرة، فأخرج الله من صلب إسماعيل النبي الكريم، فعندها قال له هشام: قم، قال: إذا لا تراني إلا حيث تكره (١).

٤- روى خالد بن صفوان اليمامي، قال: أتينا زيد بن علي وهو يومئذ بالرصافة، رصافة هشام بن عبد الملك، فدخلنا عليه في نفر من أهل الشام وعلماهم وجاءوا معهم برجل انقاد له أهل الشام في البلاغة، والبصر بالحجج، وكلمنا زيد بن علي في الجماعة وقلنا: إن الله مع الجماعة وأن أهل الجماعة حجة الله على خلقه، وأن أهل القلة هم أهل البدعة والضلالة، قال: فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم تكلم بكلام ما سمعت قرشياً ولا عربياً أبلغ موعظة، ولا أظهر حجة ولا أفصح لهجة منه، قال: ثم أخرج إلينا كتاباً قاله في الجماعة والقلة، ذكر من كتاب الله فلم يذكر كثيراً إلا ذمه ولم يذكر قليلاً إلا مدحه، والقليل في الطاعة هم أهل الجماعة، والكثير في المعصية هم أهل البدع. قال خالد بن صفوان: فيئس الشامي فما أحلى ولا أمر (كذا) وسكت الشاميون فما يجيئون بقليل ولا- كثير، ثم قاموا من عنده فخرجوا وقالوا لصاحبهم: فعل الله بك وفعل، غررتنا وفعلت، زعمت أنك لا تدع له حجة إلا كسرتها فخرست، فلم تنطق، فقال لهم: ويلكم كيف أكلم رجلاً إنما حاجني بكتاب الله أفأستطيع أن أرد كلام الله؟! فكان خالد بن صفوان يقول بعد ذلك: ما رأيت في الدنيا رجلاً قرشياً ولا عربياً يزيد في العقل والحجج غير زيد بن علي - عليهما السلام - (٢).

(١) مختار البيان والتبيين كما في زيد الشهيد للأمين: ٤٨ - ٤٩.

(٢) حميد المحلي: الحقائق الوردية: ١٤٢ - ١٤٣؛ السياغي: الروض النضير: ١ | ١٠٠.

(٩٦) أشعاره :

هذه نتف من مناظراته وفيها غنى وكفاية، فلنعطف عنان البحث إلى ما جادت به قريحته في مواقف مختلفه ويبدو أنه لا ينظم الشعر إلا في مجالات قليلة، يصب ما في نفسه من جوى وشكوى، وحماس في قالب النظم وإليك بعض ما وقفنا عليه:

١- روى أبو الفرج عن زكريا قال: أردت الخروج إلى الحج فمررت بالمدينة، فقلت: لو دخلت على زيد بن علي، فدخلت فسلمت عليه فسمعته يتمثل:

ومن يطلب المال الممنوع بالقنا * يعيش ماجداً أو تخترمه المخارم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً * وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
و كنت إذا قوم غزوني غزوتهم * فهل أنا في ذا يالهمدان ظالم
يقول: فخرجت من عنده وظننت أن في نفسه شيئاً وكان من أمره ما كان
(١)

٢- روى الخزاز عن ابن بكير أنه قال لزيد: يا بن رسول الله هل عهد إليكم رسول الله متى يقوم قائمكم؟ قال: يا بن بكير، إنك لن تلحقه، وإن هذا الأمر يليه ستة أو سبعة بعد هذا، ثم يجعل الله خروج قائمنا فيملاها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، قلت يا بن رسول الله ألسنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: أنا من العترة، فعدت فعاد إلي، فقلت: يا بن رسول الله هذا الذي قلته عنك أو عن رسول الله؟ فقال: لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، لا- ولكن عهد، عهدنا إينا رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ ثم أنشأ يقول _____:

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبيين: ٨٩.

(٩٧)

نحن سادات قريش * وقوام الحق فينا
نحن الأنوار التي من * قبل كون الخلق كنا
نحن من المصطفى ال * مختار والمهدى منا
فبنا قد عرف الله * وبالحق أقمنا
سوف يصلاه سعيراً * من تولى اليوم عنا
(١)

٣- روى ابن شهر آشوب في المناقب أنه رثى الإمام الباقر _ عليه السلام _ بأبيات وقال:
ثوى باقر العلم في ملحد * إمام الورى طيب المولد
فمن لى سوى جعفر بعده * إمام الورى الأوحى الأمجد
أبا جعفر الخير أنت الإمام * وأنت المرجى لبلوى غد
(٢)

٤- اجتمع مع هشام فأهانته، فخرج عن مجلسه وهو يقول: «من أحب الحياة ذل» ثم أنشأ يقول:
مهلاً بنى عمنا عن نحت أثلتنا * سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم * وان نكف الأذى عنكم وتؤذونا
والله يعلم أننا لا نحبكم * ولانلومكم أن لا تحبونا
كل امرئ مولع في بغض صاحبه فنحمد الله نقلوكم وتقلونا
(٣)

(١) الخزاز القمي: كفاية الأثر: ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) ابن شهر آشوب: المناقب: ٤/١٩٧، طبعة دار الأضواء، بيروت.

(٣) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق: ٩/١٥٦.

(٩٨)

٥- روى ابن الأثير لما أهانه هشام، وقال: أخرج، قال: أخرج ثم لا أكون إلا حيث تكره، فقال له سالم: يا أبا الحسين لا يظهرن هذا منك، فخرج من عنده وسار إلى الكوفة ولما خرج من مجلس هشام أنشد:

شَرَّده الخوف وأزرى به * كذاك من يكره حرّ الجلاذ
منخرق النعلين يشكو الوجى * تنكته أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة * والموت حتم في رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة * تترك آثار العدا كالرماد

(١)

٦- روى السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة نقلاً عن الخوارزمي في مقتله: إن أبا الحسين لما رأى الأرض قد طوقت جوراً ورأى قلة الأعوان، وتخاذل الناس، كانت الشهادة أحب الميئات إليه فخرج وهو يتمثل بهذين البيتين:

إن المحكم ما لم يرتقب حسداً * لو لم يرهب السيف أو وخز القنا صفا
من عاذ بالسيف لاقى فرجه عجباً * موتاً على عجل أو عاش فانتصفا

(٢)

٧- روى ابن الأثير، قال محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب لزيد: أذكرك الله يا زيد، لما لحقت بأهلك ولا تأتي أهل الكوفة، فإنهم لا يفون لك، فلم يقبل، فقال له: خُرج بنا أسراء على غير ذنب من الحجاز، إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق، إلى قيس ثقيف يلعب بنا ثم قال _____:

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣/٢٠٦.
(٢) الأمين: أعيان الشيعة: ٧/١١٦.

(٩٩)

بكرت تخوفني الحتوف كأنني * أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبتها إنّ المنية منهل * لا بد أن أسقى بكأس المنهل
إنّ المنية لو تمثّل مُثَلَّت * مثلى (كذا) إذا نزلوا بضيق المنزل
فاقتى حياءك لا أبا لك وأعلمي * إنّي امرؤ سأموت إن لم أقتل

(١)

٨- روى المرتضى في الفصول المختارة عن الحسين بن زيد، قال: حدثني مولاى قال: كنت مع زيد بن علي _ عليه السلام _ بواسط فذكر قوم الشيخين وعلياً فقدّموهما عليه، فلما قاموا قال لى زيد: قد سمعت كلام هؤلاء وقد قلت أبياتاً فادفعها إليهم وهي:

من شرف الأقسام يوماً برأيه * فإنّ علياً شرفته المناقب
وقول رسول الله والحقّ قوله * وإن رغمت منهم أنوف كواذب
بأنك منى يا على معالنا * كهارون من موسى أخ لى وصاحب
دعاه بيدر فاستجاب لأمره * وما زال فى ذات الإله يضارب
فما زال يعلوهم به وكأنه * شهاب تلقاه القوايس ثاقب

(٢)

٩- قال السيد الأمين: ومما نسب إليه قوله:

لو يعلم الناس ما في العرف من شرف * لشرفوا العرف في الدنيا على الشرف
وبادروا بالذى تحوى أكفهم * من الخطير ولو أشفوا على التلف
(٣)

(١) ابن الأثير: الكامل: ٥/٢٣٣، طبعه دار صادر.

(٢) المرتضى، الفصول المختارة من العيون والمحاسن: ٢٥.

(٣) تاريخ ابن عساكر: ٦/٢٠.

(١٠٠)

١٠ - روى عن نسمة السحر أن هذين البيتين له:

يقولون زيدا لا يزكى بما له * وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم يكن فى أكفنا * من المال إلا رسمه وفواضله
(١)

١١ - روى الديلمى: أنه لما جرى بينه وبين هشام كلام خرج _ عليه السلام _ وهو يقول:

حكم الكتاب وطاعة الرحمن * فرضا جهاد الجائر الخوان
كيف النجاة لأمه قد بدلت * ما جاء فى الفرقان والقرآن
فالمسرعون إلى فرائض ربهم * برئوا من الآثام والعدوان
والكافرون بحكمه وبفرضه * كالساجدين لصورة الأوثان
(٢) لكل أناس مقبر بفنائهم * فهم ينقصون والقبور تزيد
فما إن تزال دار حى قد أخرت * وقبر بأفناء البيوت جديد
هم جيرة الأحياء أما مزارهم * فدان وأما الملتقى فبعيد
(٣)

١٢ - تمثل زيد بالآيات التالية وقد تمثل بها على بن أبى طالب - عليه السلام - يوم صفين والحسين بن على - عليهما السلام - يوم
قتل وهى لضرار بن الخطاب الفهرى _____:

(١) الأمين العاملى: زيد الشهيد: ٩٤، نقلاً عن نسمة السحر فيمن تشيع وشعر.

(٢) السياغى، الروض النضير: ١/١٠٧.

(٣) ابن عبد ربّه: العقد الفريد: ٣/٢٣٦.

(١٠١)

مهلاً بنى عمنا ظلامتن * إن بنا سورة من الفلق
لمتلکم نحمل السيوف ولا * تغمز أحسابنا من الدق
إنى لأنمى إذا انتميت إلى * عز عزيز ومفتر صدق
بيض بساط كان أعينهم * تكحل يوم الهياج بالعلق
(١)

لما خرج زيد بن على كتب للكميت: اخرج عنا يا أعيمش ألت القائل :
ما أبالى إذا حفظت أبا القا * سم فيكم ملامه اللوام فكتب إليه الكمي:

تجود لكم نفسى بما دون وثبة * تظل بها الغربان حولى تحجل

(٢)

هذا زيد، وهذه كلمه وخطبه، وحججه ومناظراته، وشعره وقريضه وعند ذاك تقف على صدق ما رواه الخوارزمي في مقتله عن خالد بن صفوان قال: انتهت الفصاحة والخطابة والزهادة والعبادة في بنى هاشم إلى زيد بن علي - رضى الله عنه - (٣).

أما الفصاحة والخطابة فقد عرفت نماذج من كلامه، وأما العبادة، فيكفى في _____

(١) الأغاني: ١٩ | ١٩١.

(٢) الأغاني: ١٧ | ٣٤.

(٣) الخوارزمي: المقتل: ٢ | ١١٩.

(١٠٢) تهالكة فيها: ما رواه فرات بن إبراهيم عن رجل: قال صحبت زيدا ما بين مكة والمدينة وكان يصلى الفريضة ثم يصلى ما بين الصلاة إلى الصلاة ويصلى الليل كله ويكثر التسبيح ويكرر هذه الآية: "وجاءت سكره الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد"، فصلى ليلة معي وقرأ هذه الآية إلى قريب نصف الليل فانتبهت من نومي فإذا أنا به ماد يديه نحو السماء وهو يقول:

إلهي عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة، ثم انتحب، فقمتم إليه وقلت: يا بن رسول الله لقد جزعت في ليلتك هذه جزعا ما كنت أعرفه، فقال: ويحك يا نازلي أنى نمت هذه الليلة وأنا ساجد فرأيت جماعة عليهم لباس لم أر أحسن منه فجلسوا حولى وأنا ساجد فقال رئيسهم: هل هو هذا؟ فقالوا: نعم. فقال: أبشر يا زيد فإنك مقتول في الله ومصلوب ومحروق بالنار ولا تمسك النار بعدها أبداً، فانتبهت وأنا فرع

(١).

روى الخزاز عن يحيى بن زيد أنه قال له في حديث: يا أبا عبد الله إننى أخبرك عن أبى - عليه السلام - وزهده وعبادته إنه كان يصلى في نهاره ما شاء الله، فإذا جن الليل عليه نام نومة خفيفة ثم يقوم فيصلى في جوف الليل ما شاء الله، ثم يقوم قائماً على قدميه يدعو الله تبارك وتعالى ويتضرع له ويبكى بدموع جارية حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر سجد سجدة ثم يصلى الفجر ثم يجلس للتعقيب حتى يرتفع النهار، ثم يذهب لقضاء حوائجه، فإذا كان قريب الزوال أتى وجلس في مصلاه واشتغل بالتسبيح والتمجيد للرب المجيد، فإذا صار الزوال صلى الظهر وجلس، ثم يصلى العصر ثم يشتغل بالتعقيب ساعة ثم يسجد سجدة، فإذا غربت الشمس صلى المغرب والعشاء، فقلت: هل كان يصوم دائماً؟ قال: لا _____

(١) فرات بن إبراهيم: التفسير: ٤٣٥. والآية ١٩ من سورة ق.

(١٠٣) ولكنه يصوم في كل سنة ثلاثة أشهر، وفي كل شهر ثلاثة أيام ثم أخرج إلى صحيفه كاملة فيها أدعية على بن الحسين - عليه السلام (١)

روى أبو الفرج بسند عن محمد بن الفرات: رأيت زيد بن علي وقد أثر السجود بوجهه أثراً خفيفاً وكان في خاتمه «اصبر توجر وتوق تنج»

(٢) _____.

(١) الخزاز القمي: كفاية الأثر: ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٨٧ و ٨٩.

الفصل الرابع مشايخه وتلاميذه في الحديث والتفسير إن أئمة أهل البيت _ عليهم السلام _ كانوا في غنى عن الحضور لدى الغير، والرجوع إليهم في مجال العقائد والأصول، والأحكام والفروع، والأخلاق والسلوك وكل ما يمت إلى الدين بصلته، وتحتاج إليه الأمة. وذلك لا للمبالغة في مقامهم، أو الغلو في علومهم. بل لأجل تنصيب النبي الأكرم _ صلى الله عليه وآله وسلم _ عليهم، حيث إنه _ صلى الله عليه وآله وسلم _ تارة يصورهم بأنهم أعدال القرآن وقرناؤه، من تمسك بهما لن يضل أبداً (١)، وأخرى بأن مثلهم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق (٢)، وثالثة بأنهم كالنجوم، فكما أن الكواكب أمان لأهل الأرض من الغرق، فكذلك أئمة أهل البيت _ عليهم السلام _ أمان للأمة من الاختلاف (٣)، إلى غير ذلك من الأحاديث المتواترة أو المتصافرة الدالة على أن أئمة أهل البيت مراجع الأمة، ومصادر الأحكام، وهم عن _____

(١) حديث الثقلين: اتفق الفريقان على نقله وتصحيحه لا يشك فيه إلا العدو الغاشم.

(٢) تلويح إلى قول النبي الأكرم _ صلى الله عليه وآله وسلم _: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

(٣) قوله _ صلى الله عليه وآله وسلم _: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف في الدين» لاحظ في الوقوف على مصادرها المراجعات للسيد شرف الدين العاملي المراجعة الثانية: ٤٠ - ٤٦ طبعه الأعلمي، لبنان.

(١٠٦)

علومهم ومعارفهم يصدرن، وإلى أقوالهم وأفعالهم يسكنون. ومن كان هذا وصفه ومقامه فيحتل من مخروط الأمة مكان الرأس والقمة، ونعم ما قال القائل:

فوال أناساً قولهم وكلامهم * روى جدنا عن جبرئيل عن الباري وما ربما يرى من أن أحد الأئمة، يروى حديثاً عن صحابي أو تابعي كالإمام الباقر _ عليه السلام _ إذا روى مثلاً عن جابر، فإنما هو لأجل إقناع السائل الذي اعتاد بقبول الرواية إذا أسند إلى النبي الأكرم وإلا فالإمام الباقر _ عليه السلام _ في غنى عن الإسناد إليه وهو معدن علم النبي وموئله وهكذا أبنائه المعصومون.

هذا هو حال أئمة أهل البيت وأما العلماء المنتمون إليهم بالنسب كالحسينيين والحسينيين فيصدرن عن معارفهم ويحتجون بأقوالهم وأفعالهم أيضاً وربما ينقلون عن الغير ويسكنون إليهم وذلك لا للإعراض عن أئمتهم، بل اقتداء بقول نبيهم _ صلى الله عليه وآله وسلم _: «الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها أخذها» ولأجل ذلك نرى أن زيد التائر أخذ الحديث عن غيرهم، كما أخذ عنه الكثيرون من المحدثين والفقهاء. وإليك بيان هذا الفصل من فصول حياته.

مشايخه :

كان لزيد التائر تنقلات وسفرات كثيرة بين المدن الإسلامية بين المدينة ومكة، والحجاز والشام والعراق، ففي هذه الرحلات أخذ العلم والحديث عن لفيف، وإليك أسماء مشايخه أولاً، ثم تلامذته.

روى عن: أبان بن عثمان بن عفان، وعبيد الله بن أبي رافع، وعروة بن الزبير، وأبيه علي بن الحسين زين العابدين _ عليه السلام _، وأخيه أبي جعفر محمد بن علي الباقر _ عليه السلام _ (_ ١ _____).

(١) المزي: تهذيب الكمال: ٩٦/١٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٣٨٩/٥، تاريخ الاسلام القسم المختص بحوادث (سنه ١٢١-١٤١) ص ١٠٥، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب: ٣/٤١٩.

(١٠٧)

تلامذته:

روى عنه: الأجلح بن عبد الله الكندي، وآدم بن عبد الله الخنعمي، وإسحاق بن سالم، وإسماعيل بن عبد الرحمان السدي، وبسام الصيرفي، وأبو حمزة ثابت بن أبي صفية الثمالي، وابن أخيه جعفر بن محمد بن علي الصادق، وابنه حسين بن زيد بن علي، وخالد بن

صفوان، وأبو سلمة راشد بن سعد الصائغ الكوفي، وزبيد الياي، وزكريا بن أبي زائدة، وزيد بن علافة، أبو الجارود زياد بن المنذر الهمداني، وسعيد بن خثيم الهلالي، وسعيد بن منصور المشرفي الكوفي، وسليمان الأعمش، وشعبة بن الحجاج، وعبد بن كثير، وعبد الله بن عمر بن معاوية، وعبد الله بن عيسى بن عبد الرحمان بن أبي ليلي، وعبد الرحمان بن الحارث ابن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وعبد الرحمان بن أبي الزناد، وعبيد الله بن محمد ابن عمر بن علي بن أبي طالب، وعبيد بن اصطفى، وأبو هريرة عريف بن درهم، وعمر بن موسى، وأبو خالد عمرو بن خالد الواسطي، وابنه عيسى بن زيد بن علي، وفضيل بن مرزوق، وكثير النواء، وكيسان أبو عمر القصار الكوفي، ومحمد ابن سالم، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، والمطلب بن زياد، وأبو الزناد موح ابن علي الكوفي، وهارون بن سعد العجلي، وهاشم بن البريد (١).

ثم إنَّ علامته صنعاغى فصل من يروى عنه من أولاده عمّن ليس منهم، فقال:
تلامذته: أولاده السادة الأبرار:

عيسى بن زيد، ومحمد بن زيد، وحسين بن زيد، ويحيى بن زيد _____.

(١) جمال الدين المزي: تهذيب الكمال: ١٠|٩٦. هذا ما ذكره جمال الدين، ونذكر المشهورين منهم في قائمة خاصة.
(١٠٨)

فعيسى بن زيد الأوح الذي أخذ عنه سفيان الثوري، وكان زاهد أهل زمانه وهو جد العراقيين.

ومحمد بن زيد، جد الذين ببلاد العجم.

وحسين بن زيد، جد المشهورين من ذرية زيد بن علي.

ويحيى بن زيد هو القائم بالإمامة بعده.

مشاهير أصحابه الذين أخذوا عنه العلم:

ما نقلناه عن جمال الدين المزي يهدف إلى مطلق من أخذ عنه العلم، سواء اشتهر بالأخذ عنه أم لا وفي هذه القائمة نخص المشهورين وبين المذكورين في القائمتين من النسب الأربع عموم وخصوص من وجه.

١- منصور بن المعتمر بن عبد الله السلمى الكوفي مات سنة ١٣٢ هـ احتج به البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى.

٢- هارون بن سعد العجلي أو الجعفى الكوفي وهو من شيوخ مسلم.

٣- معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى استشهد مع الإمام زيد وصلب معه.

٤- أبو الجارود زياد بن المنذر الهمداني وهو الذى تنسب إليه الجارودية الزيدية.

٥- الحسن بن صالح وأخوه.

٦- على بن صالح وكلاهما بترينان، لاحظ رجال الكشى برقم ١٠٨.

٧- هاشم صاحب البريد وقد جاء فى سند الكافى فى باب معرفة الأئمة يروى عن الصادق _ عليه السلام _ لاحظ تنقيح المقال:
٢٨٨|٣

(١٠٩)

٨- محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلي من أصحاب الإمام الصادق - عليه السلام - لاحظ تنقيح المقال: ٣|١٣٦.

٩- سلمة بن كهيل أحد المبايعين لزيد له ترجمة فى رجال الكشى برقم: ٢٠٥.

١٠- عمرو بن خالد الواسطى راوى مسنده وستوافيك ترجمته عند البحث عن آثار زيد العلمية.

١١- إسماعيل بن عبد الرحمان السدى من كبار علماء الكوفة مات سنة ١٢٧ هـ.

١٢- أبو الزناد: موح بن علي الكوفي. له ترجمة فى تهذيب الكمال: ١|٤٥٦.

١٣- سليمان بن مهران الأعمش من كبار علماء الكوفة ولد سنة ستين وتوفي عام ١٤٨هـ.

١٤- الأجلح بن عبد الله الكندي. لاحظ تنقيح المقال: ١/٢٦٦.

١٥- معمر بن خثيم الهلالي له ترجمة في تنقيح المقال: ٣/٢٣٤.

١٦- سعيد بن خثيم الهلالي له ترجمة في تنقيح المقال: ٢/٢٦.

١٧- شعبه بن الحجاج بن ورد (٨٣-١٦٠هـ) من العلماء كان ينتقل بين الكوفة والبصرة وواسط.

١٨- قيس بن الربيع من أصحاب الصادقين - عليهما السلام - . تنقيح المقال: ٣/٣١.

١٩- سفيان بن أبي السمط، اقرأ ترجمته في تنقيح المقال: ٢/٣٨، بسقوط «أبي» من العبارة.

٢٠- محمد بن الفرات الجرمي. له ترجمة في رجال الكشي، برقم: ٤٢٨.

(١١٠)

٢١- فضيل بن الزبير الرسان له ترجمة في تنقيح المقال: ٢/١٣.

٢٢- عبد الله بن الزبير: أخو فضيل بن الزبير لاحظ رجال الكشي برقم: ٢٨٧.

٢٣- سالم بن أبي حفصة ترجمه الكشي برقم ١٠٩.

٢٤- عبد الله بن عتيبة.

٢٥- زييد اليامي (١) وهو من صغار التابعين توفي عام ٢٢١ أو ٤٢١هـ.

هؤلاء مشاهير تلامذته، وأما غيره فقد أتى بأسمائهم العلامة السياغي في كتابه، فمن أراد فليرجع إليه، وقد تعرفت على ما ذكره جمال

الدين المزي في ذلك المجال (٢)

ثم إن أولاد عبد الله بن الحسن بن الحسن المثنى الذين أخذوا من زيد عبارة عن:

١- محمد بن عبد الله: النفس الزكية.

٢- إبراهيم بن عبد الله: النفس الرضية.

٣- إدريس بن عبد الله.

٤- يحيى بن عبد الله.

٥- السيد موسى بن عبد الله.

فهؤلاء أخذوا العلم عن أبيهم وعن زيد وبعض أصحابه أيضاً (٣).

_____ * * *

(١) السياغي: الروض النضير: ١/١١٤-١١٥.

(٢) جمال الدين المزي: تهذيب الكمال: ١٠/٩٦.

(٣) السياغي: الروض النضير: ١/١١٥.

(١١١)

إن العلامة السياغي وغيره عدواً كثيراً من فقهاء أهل السنة ونسأهم من أتباع الإمام زيد، وحاولوا بذلك شيوع إمامته والاقتداء به يوم

ظهوره وخروجه، ولكن المؤيد لثورة زيد، غير كونه تابعاً لزيد في الأصول والفروع.

وهناك كلمة قيمة لنشوان الحميري قد رفع بها الستر عن وجه الحقيقة وقال: «اجتمع طوائف الناس على اختلاف آرائهم على مبايعته،

فلم يكن المعتزلي أسرع إليها من المرجي، ولا المرجي من الخارجى، فكانت بيعته - عليه السلام - مشتملة على فرق الأمة على اختلافها

(١).

إنَّ أبا حنيفةً إمام السنَّة دعم خروج زيد بالمال، وأفتى بوجود نصره زيد وقد أرسل المال إليه، كما هو مذكور في غير واحد من المعاجم، مع أنه لم يكن تابعاً لزيد لا في الأصول ولا في الفروع.

حديث المتيمين إلى زيد :

إنَّ لفيفاً من فقهاء أهل السنَّة، كانوا يعانون من جور بني أمية وطغيانهم، لما وقفوا على خروج زيد قاموا بدعوه وإمداده بالقول والعمل، فصاروا معروفين بالزيدية وما هم من الزيدية بشيء إلا تصويب خروج زيد، وإمداده، والزيدى عندنا، من يقتفيه في العقيدة والعمل.

وبذلك يظهر التأمل في بعض ما ذكره الحاكم الجشمى البيهقي (٤١٣ - ٤٩٤هـ) في جلاء الأبصار.

قال: وعن محمد بن زيد قال: بعث أبو حنيفة - رحمه الله - إلى زيد بن علي - عليهما السلام - بمال، وقال: استعن به علي ما أنت فيه.

وعن فضيل ابن الزبير قال: كنت رسول زيد بن علي إلى أبي حنيفة، فسألني من يأتيه من الفقهاء؟ فقلت: _____:

(١) نشوان الحميري: الحور العين: ١٨٥. ولكلامه صلة سيوافيك.

(١١٢)

سلمة بن كهيل ويزيد بن أبي زياد وهارون بن سعد وأبو هاشم الرماني وحجاج ابن دينار وغيرهم كثير. وعن شعبه قال: سمعت الأعمش يقول: والله لولا ضلالة بني لخرجت معه، والله ليخذلنَّه والله لئيسلمنَّه كما فعلوا بجده وعمه. وعن عقبه بن إسحاق السلمى قال: كان منصور بن المعتمر يدور على الناس يأخذ البيعة لزيد ابن علي. وعن ليث قال: جاءنا منصور يدعونا إلى الخروج مع زيد بن علي. وعن حماد بن زيد وذكر سفيان الثوري فقال: كان ذاك زيدياً، وعن أبي معاوية وذكر عنده سفيان فقال: نحن أعرف بهذا منكم، كان سفيان من هذه الشيعة وكان منصور يأخذ البيعة لزيد بن علي. وذكر السيد أبو طالب بإسناده عن أبي عوانة قال: كان سفيان زيدياً، وكان إذا ذكر زيد بن علي يقول: بذل مهجته لربه، وقام بالحق لخالفه، ولحق بالشهداء المرزوقين من آباءه. وقال أبو عوانة: كان زيد بن علي يرى الحياة غراماً، وكان ضجراً بالحياة. وعن الواقدي قال: كان سفيان زيدياً. وعن النضر بن حميد الكندي قال: شهدت سعد بن إبراهيم بالمدينة حين نعى إليه زيد بن علي - عليهما السلام - فبكى واشتد حزنه واشتد جزعه، وتخلف في منزله يعزى بعد سبعة أيام، فسمعتة يقول: ما خلف مثله. وعن الصادق - يعني جعفر بن محمد - عليهما السلام - « عمى زيد خرج علي ما خرج عليه آباؤه، ووددت أنى استطعت أن أصنع كما صنع عمى، فأكون مثل عمى، من قتل مع زيد كمن قتل مع الحسين ابن علي - عليهما السلام - » (١).

وعلى هذا الغرار قول ابن العماد الحنبلي، قال: وكان ممن بايعه منصور بن المعتمر، ومحمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى، وهلال بن

خباب بن الارت وابن شبرمة ومسعر بن كدام وغيرهم (٢) _____)

(١) السياغى: الروض النضير: ١٠٤ | ١.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: ١ | ١٥٨.

(١١٣)

إنَّ القول بالتشيع يجمعه الاعتقاد، بخلافه الإمام على أمير المؤمنين عن النبي الأكرم نصاً جلياً أو خفياً كما يدعيه بعض الزيدية، ولم يكن هؤلاء متشيعين بهذا المعنى نعم كانوا مؤيدين ثورة زيد ومدعين لها بألوان مختلفة.

حتى إنَّ بعض المؤيدين لثورته، والمبايعين له، قد استقال بعد البيعة كما روى في حق كثير النواء حيث بايع فاستقال وأقاله زيد وقال:

للحرب أقوام لها خلقوا * وللتجارة والسلطان أقوام

خير البرية من أمسى تجارته * تقوى الإله، وضرب يجتلى الهام (١) الثناء عليه ممزوجاً مع المغلاة:

١ - روى المقرئى عن أحمد بن محمد بن الحسين بن زيد بن علي، قال: حدثنا أهلى أنَّ زيداً - عليه السلام - ماتوسد القرآن منذ

احتلم حتى قتل، وأما الصيام فكان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

ولعله أراد بقوله: «ماتوسد القرآن» الكناية عن قيام الليل واستكمال قراءة القرآن في صلاة التهجد (٢).

٢- قال نشوان الحميري في شرح «رسالة الحور العين»: فلما شهر فضله وتقدمه وبراعته وعرف كماله الذي تقدم به أهل عصره اجتمع طوائف الناس على اختلاف رأيهم على مبايعته، فلم يكن الزيدى أحرص عليها من المعتزلى، ولا المعتزلى أسرع إليها من المرجى، ولا المرجى من الخارجى، فكانت بيعته - عليه السلام - مشتملة على فرق الأمة مع اختلافهم. ولم يشذ عن بيعته إلا هذه الفرقة

(١) المفيد: الاختصاص: ١٢٨، ط ١٣٧٩؛ المجلسى: البحار: ٤٦/١٨١.

(٢) المقرئى: الخطط: ٢/٤١٩، كما فى الروض النضير: ١/٩٩.

(١١٤)

القليلة التوفيق - أخزاهم الله تعالى - قال: ومن الواضح الذى لا أشكال فيه أن زيد بن على - عليه السلام - يُذكر مع المتكلمين إن ذكروا، ويُذكر مع الزهاد، ويُذكر مع الشجعان، وأهل المعرفة بالضبط والسياسة، فكان أفضل العترة لأنه كان مشاركاً لجماعتهم فى جميع خصال الفضل، وامتيازاً عنهم بوجوه لم يشاركوه فيها، فمنها اختصاصه بعلم الكلام (١)، الذى هو أجل العلوم، وطريق النجاة، والعلم الذى لا ينتفع بسائر العلوم إلا معه، والتقدم فيه والاشتهار عند الخاص والعام. هذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ يصفه فى صنعه الكلام ويفتخر به ويشهد له بنهاية التقدم، وجعفر بن حرب فى كتاب «الديانة» وكثير من معتزلة بغداد كمحمد بن عبد الله الإسكافى وغيره ينتسبون إليه فى كتبهم، ويقولون نحن زيدية، وحسبك فى هذا الباب انتساب المعتزلة إليه، مع أنها تنظر إلى سائر الناس بالعين التى تنظر بها ملائكة السماء إلى أهل الأرض مثلاً. فلولا ظهور علمه وبراعته وتقدمه على كل أحد فى فضيلته لما انقادت إليه المعتزلة (٢).

المغلاة فى علمه وفقهه :

إن الغلو هو الخروج عن الحد، قال سبحانه: "يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق" (النساء - ١٧١). وقال سبحانه: "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق" (المائدة - ٧٧). وقال الإمام على - عليه السلام - وهو يصف الغلو وخلافه يقول: الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق، والتقصير عن الاستحقاق عى أو حسد" (٣ _____).

(١) سيوايك أنه لم يؤثر من زيد، أى رأى كلامى وإن تتلمذه على واصل غير ثابت.

(٢) السياغى: الروض النضير: ١/١٠١، لاحظ شرح رسالة الحور العين: ١٨٥.

(٣) الرضى: نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ٣٤٧.

(١١٥)

المغلاة فى أى موضوع من الموضوعات تلازم الكذب أولاً، والإغراء بالجهل ثانياً، وبخس الحق ثالثاً إلى غير ذلك من المضاعفات، من غير فرق بين أن يتعلق بأمر دينى أو غيره، وهنا نذكر شيئاً مما قيل فى حقه من المغلاة:

١- اتفقت كلمة أصحاب المعاجم على أن زيدا، أخذ عن والده وأخيه محمد الباقر - عليهما السلام - ولم ينكر أحد ذلك وقد تخرج من مدرسة أخيه عشرات المحدثين والفقهاء والمتكلمين، لا يشق غبارهم ولا يدرك شأوهم غير أن هناك من يروقه الحط عن مكانة أئمة أهل البيت، أو الخضوع للعاطفة، أو الحسد لمنزلة أبى جعفر الباقر - عليه السلام - فلا يرضى إلا بترفع زيد عليه، يقول: لقد علم زيد، القرآن من حيث لم يعلمه أبو جعفر، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأن زيدا علم القرآن، وأوتى فهمه. وأبو جعفر أخذ من أفواه الرجال. قال الديلمى: وقد قيل لأبى جعفر: باقر علم الأنبياء والعالم ورأس الشيعة فى زمانه. وعنه: والله لقد علمت أهل بيتى فما علمت أفضل من زيد بن على ولقد استوسقت له الفضائل، واجتمع له الخير، وكمل فيه الحق فما يساميه أحد إلا والحق ينكسه ويزهقه

(١).

يلاحظ عليه أولاً: أن زيدا من علماء أهل البيت وأفاضلهم، وهو علم القرآن وأوتى فهمه، ولكنه من أين أخذ علمه هل أخذ عن أبيه زين العابدين، وأخيه باقر العلوم _ عليهما السلام _ فإذا تنفَى المغالاة، أو من غيرهما، ومن هو ذاك الغير الذي علم زيدا، وصار زيد في علم القرآن عيالاً عليه، وبرع وترعرع وتقدم على أئمة أهل البيت _ عليهم السلام؟! _
وثانياً: ما مصدر هذه الأكدوبة من أن أبا جعفر _ عليه السلام _ أخذ من أفواه الرجال، إذ لم يأت في أى مصدر من المصادر، إن الأئمة الاثنى عشر _ عليهم السلام _

(١) الروض النضير: ١٠١/١ وهذا القضاء الجائر نسبة الديلمي في مشكاة الأنوار إلى عبد الله بن محمد ابن علي بن الحنفية.

(١١٦)

السلام _ حضروا مجلس درس أحد من الصحابة والتابعين والعلماء، نعم ربما روى بعضهم حديثاً عن الرسول مسنداً إلى بعض الصحابة أو التابعين وهو غير الدراسة والتعلم لديهم. وقد مضى وجه النقل عنهم.
هذا هو ابن سعد يعرفه بقوله: «محمّد الباقر من الطبقة الثالثة من التابعين كان عالماً عابداً ثقة، روى عنه الأئمة أبو حنيفة وغيره. وقال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر، لقد رأيت الحكم عنده كأنه مغلوب، ويعنى بالحكم، الحكم بن عتيبة، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه» (١).

أفمن يسلم عليه النبي عن طريق جابر يقول جابر: كنت جالساً عند رسول الله والحسين في حجره وهو يداعبه فقال _ صلى الله عليه وآله وسلم: _ «يا جابر يولد مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقوم سيد العابدين فيقوم ولده، ثم يولد له ولد اسمه محمد، فإن أدركته يا جابر فاقرأه مني السلام» (٢).

يقول المفيد: لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين _ عليهما السلام _ في علم الدين والآثار والسنة وعلم القرآن والسيره وفنون الآداب ما ظهر من أبي جعفر الباقر _ عليه السلام _ وروى عنه معالم الدين، بقايا الصحابة ووجوه التابعين وفقهاء المسلمين، وسارت بذكر كلامه الأخبار وانشدت في مدائحه الأشعار (٣).

وبذلك يظهر حال ما رواه الذهبي وغيره عن الإمام الصادق _ عليه السلام _ أنه عرف عمه بقوله: «كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا في دين الله، وأوصلنا»

(١) سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواص: ٣٠٢/١.

(٢) المصدر نفسه: ٣.٣، أخرجه أيضاً ابن حجر في لسان الميزان: ١٩٨/٥، وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: ١٩٩، والمناوى في الكواكب الدررية: ١/١٦٤ وغير ذلك.

(٣) المفيد: الارشاد: ٢٦١ - ٢٦٢.

(١١٧)

لرحم ما تركنا وفيما مثله» (١) ولو صح الحديث لحمل على التفضيل النسبي بالنسبة إلى سائر الهاشميين.
تطرف بعد تطرف:

ومن ذلك ما يرويه حميد بن أحمد المحلى قال: روي بالاسناد الموثوقة أيضاً أن زيد بن علي _ عليهما السلام _ سأل محمد بن علي الباقر _ عليهما السلام _ كتاباً كان لأبيه، قال: فقال له محمد بن علي: نعم، ثم نسي ولم يبعث إليه، فمكث سنة ثم ذكر، فلقى زيدا فقال: أي أخي ألم تسأل كتاب أبيك؟ قال: بلى. قال: والله ما معنى أن أبعث به إلا النسيان. قال: فقال له زيد: وقد استغيت عنه. قال: تستغني عن كتاب أبيك؟ قال: نعم استغيت عنه بكتاب الله، قال: فاسألك عما فيه؟ قال له زيد: نعم، قال: فبعث محمداً إلى الكتاب، ثم أقبل فسأله عن حرف حرف وأقبل زيد يجيبه حتى فرغ من آخر الكتاب، فقال له محمد: والله ما حرمت منه حرفاً واحداً (٢).

يلاحظ عليه أولاً: أنّ ظاهر الحديث أنّ اللقاء بين الأخوين كان بعيداً بشهور غير متقارب كما هو ظاهر قوله: فمكث سنه ثم ذكر فلقي زيدا، وهذا ما لا تعطيه ظروف الحياة في المدينة المنورة.

وثانياً: أنّ ما نقله عن زيد من حديث الاستغناء إنّما يصح لو كان الكتاب، كتاباً عادياً غير مرتبط بتفسير القرآن وحل معضلاته ومشكلاته، أو مبيناً لمخصصاته ومقيداته، ولكن الظاهر أنّ الكتاب كان على خلاف ذلك ومع ذلك كيف يمكن الاستغناء عنه بالقرآن_____.

(١) جمال الدين المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ١٠/٩٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٥/٣٩٠ وتاريخ الإسلام (حوادث - ١٢١ - ١٤٠هـ) ص ١٠٦.

(٢) الحدائق الوردية: ١٤٠.

(١١٨) (١١٩)

الفصل الخامس الآثار العلمية الباقية عن زيد

الفصل الخامس الآثار العلمية الباقية عن زيد كان وليد البيت العلوي، مفسّراً للقرآن، عارفاً بالسنة، ترك آثاراً علمية إمّا أملاها على تلاميذه، أو حرّرها بقلمه ويراعه ونأتى في المقام بما وقفنا عليه من الآثار:

١- المجموع الفقهي.

٢- المجموع الحديثي.

نسب إلى زيد المجموع الفقهي تارةً والحديثي أخرى، والمسند ثلثة. روى الجميع أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي غير أنّ الكتب الثلاثة هي المطبوعة باسم المسند، وأمّا تسميته بالحديثي والفقهي فلاجل أنّ الكتاب يتضمّن روايات عن زيد عن آبائه كما يتضمّن آراء له فلو كان الكتابان في بدء الأمر مختلفين فهو في المطبوع كتاب واحد، وأمّا توصيفه بالمسند لأنّ ما في الكتاب يحتوي رواياته عن آبائه، وقد جمع - ما رواه أبو خالد عن زيد - عبد العزيز بن إسحاق بلا تبويب شأن المسانيد، وبوبه بعد قرون الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي في سنة ١٢٠١هـ وكان قبل التبويب مجزأً على ستة أبواب على أصل الجامع له، والمطبوع

(١٢٠)

هو ما بوبه الديلمي.

والناظر في المجموع الحديثي يميز الحديث عن المجموع الفقهي فنرى في كتاب الطهارة باب ذكر الوضوء لونيّن من الكلام. أ: حدثني زيد بن علي بن الحسين (عن أبيه سقط عن المطبوع) عن جده الحسين بن علي إلى أن قال: رأيت رسول الله توضع فغسل وجهه.

ب: وسألت زيدا بن علي عن الرجل ينسى مسح رأسه حتى يجفّ وضوؤه.

ومثل الثاني إذا قال: وقال زيد بن علي رضي الله عنه «المضمضة والاستنشاق سنه...»

والقسم الأوّل حديث، ولكن الثاني وما يليه، من المجموع الفقهي.

وأخبار المجموع النبويّة المرفوعة مائتا حديث وثمانية وعشرون حديثاً.

والعلوية ثمانمائة وعشرون خبراً.

وقد تلقاها أئمّة الزيدية بالقبول وقالوا: هو أوّل كتاب جمع في الفقه وقال منهم:

زيد يزيد علي الوري * في أصله وفروعه

فالفضل مجموع به * والعلم في مجموعيه وقد شرحه لفيف من الزيدية أوسعها شرح القاضي العلامة شرف الدين الحسين بن أحمد

السياغى الحيمى اليمنى الصناعى، ولد بصنعاء سنة ١١٨٠ هـ وتوفى سنة ١٢٢١ هـ أسماه «الروض النضير فى شرح مجموع الفقه الكبير»، وقد طبع طبعين، الطبعة الثانية محققة طبع عام ١٣٨٨ هـ وشرحه هذا يشتمل على تخريج الأحاديث وشرحها واستنباط الأحكام المأخوذة منها مع ذكر أقوال العلماء (١٢١)

فى مسائل الخلاف والتكلم فى ما عارضها من الأحاديث بالجمع أو الترجيح، والكتاب يدل على سعة باعه واتقانه الفقه والأصول (١). والشارح وإن جعل المحور، مسند الإمام زيد، لكنه يستدل على ما ورد فيه شىء بالطرق المألوفة فى الفقه السننى من الاحتجاج بما ورد فى الصحاح والمسائيد من مراسيل وموقوفات للصحابة وبأمر لا تعترف بها أئمة أهل البيت من القياس وغيره، ولذلك أصبح الكتاب أشبه بفقه أهل السنة، ولأجل ذلك يقول الشيخ محمد بخيت المطيعى الحنفى المصرى فى تقريره على الكتاب: «وهو موافق فى معظم أحكامه لمذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان وماذا عنى أن تقول فى كتاب يوافق ما فيه، ما بكتبنا ومذاهبننا» (٢) وسوف ندرس المجموع من حيث الاعتبار فى الفصل القادم.

٣- تفسير غريب القرآن :

الغريب من الغرابة وهى الغموض والخفاء، فالغريب هو الغامض من الكلام وكان النبى الأكرم _ صلى الله عليه وآله وسلم _ والإمام على _ عليه السلام _ وتلميذه ابن عباس وغيرهم من الصحابة يفسرون غريب القرآن الكريم وقد جاء فى أسئلة نافع بن الأزرق (٢٧٧) سؤالاً وجهها هو وزميله إلى ابن عباس، وأجاب عنها (٣).

ولعل أول من ألف فى غريب القرآن هو أبان بن تغلب بن رياح البكرى (ت _____)

(١) لاحظ ما كتب حول الكتاب بقلم عدّه من الأعلام فى مقدمته، ط ٢، مكتبة المويد، الطائف، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

(٢) الروض النضير: ١٧، المقدمة.

(٣) السيوطى: الاتقان: ٢ | ٤٩ - ١٠٤.

(١٢٢)

١٤١ هـ) من أصحاب الإمام السجاد والباقر والصادق _ عليهم السلام _ وكانت له عندهم منزلة، وله قراءة مفردة مشهورة عند القراء (١).

لكن لو صحت نسبة تفسير غريب القرآن المطبوع حديثاً لزيد، المحقق على يد فضيلة الدكتور حسن محمد تقى الحكيم، لسبقه زيد فى التأليف، فهو أول باكورة فى هذا النوع ظهر فى الصعيد الإسلامى، ويظهر من مقارنة هذا الكتاب مع كتاب المجاز لأبى عبيدة (ت ٢١٢ هـ) الذى ألفه فى غريب القرآن أنه كان لهذا الكتاب تأثير بالغ فى كتاب أبى عبيدة مباشرة أو بالوساطة (٢). والكتاب يتبدى من سورة الفاتحة وينتهى بسورة الناس ويركز فى التفسير على الغريب ولذلك لا يذكر من آيات السورة إلا ما هو موضع نظره.

وردت نسبة الكتاب إليه فى بعض الكتب مثلاً:

١ - جاء فى كتاب الامالى لابن الشجرى: قال الإمام أبو الحسين زيد بن على _ عليهما السلام _ فى تفسير الغريب.

٢ - جاء فى طبقات الزيدية لصارم الدين فى ترجمة حياة أبى خالد قوله: وروى عن أبى خالد تفسير الغريب للإمام زيد بن على، عطاء بن السائب.

٣ - جاء فى كتاب الروض النضير: روى عن أبى خالد تفسير الغريب للإمام زيد بن على، عطاء بن السائب (٣).

ونستطيع أن نويد نسبة الكتاب إلى الإمام الثائر بالرجوع إلى المواضع التى يمكن أن يظهر فيها مذهبه وعقيدته _____.

(١) النجاشي: الرجال: ١ | ٧٣ برقم ٦، السيوطي: بغية الوعاة: ٧٦.

(٢) عن مقدمه المحقق ص ٥٥، ثم ذكر دلائل التأثير بشكل واضح.

(٣) تفسير غريب القرآن، مقدمه المحقق ص ٤٨ وذكر مصادر ما نقل.

(١٢٣)

ومن تلك الآيات آية البلاغ، فهو يقول في تفسير قوله: "يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" قال زيد بن علي _ عليهما السلام: _ هذه لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه خاصة: "والله يعصمك من الناس" أي يمنعك منهم (١).

ومنها آية الذكر، قال في تفسير قوله سبحانه: "فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ" ("النحل - ٤٣) قال الإمام زيد بن علي _ عليهما السلام: _ نحن أهل الذكر (٢).

فالتفسيران يؤيدان أن الكتاب لشيعة يرى النص لعلي يوم الغدير، ويرى أن المرجع بعد الكتاب والرسول، هو عترته.

كما يعلم كونه نافياً للروية التي كانت يوم ذاك عقيدة أصحاب الحديث. يقول في تفسير قوله: "وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ" ("القيامة: ٢٢ - ٢٣) معناه مشرقة وناصرة: منتظرة للثواب (٣).

هذه نظرة عابرة إلى التفسير، ولو قرى بإمعان ودقة، يتبين أن التفسير لمن تربى في أحضان أئمة أهل البيت والعترة الطاهرة _ عليهم السلام _.

٤ - الصفوة:

والكتاب، دراسة قرآنية هادئة يتبنى بيان فضائل أهل البيت - عليهم السلام - وتقديمهم على سائر الناس في مختلف المجالات، وإن السبب لديب الفساد بين المسلمين صرف القيادة عنهم، ودفعها إلى غيرهم. حققه الكاتب ناجي حسن، طبع في مطبعة الآداب في النجف الأشرف بلا تاريخ، اعتمد في التصحيح _____

(١) تفسير غريب القرآن، ص ١٢٩، ط بيروت، ١٤١٢هـ

(٢) تفسير غريب القرآن: ص ١٨ و ٣٥٩.

(٣) تفسير غريب القرآن: ص ١٨ و ٣٥٩.

(١٢٤)

على تصوير نسخه واحدة محفوظة بمكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٢٠٣ زبديّة.

رواها أبو الطيب علي بن محمد بن مخلد الكوفي:

قال: حدثني إسماعيل بن يزيد العطار.

قال: حدثنا حسين بن نصر بن مزاحم المنقري

قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن الحكم بن ظهير الفزاري

قال: حدثني أبي وحماد بن يعلى الثمالي

عن أبي الزناد، وأصحاب زيد بن علي عن زيد بن علي _ عليه السلام _ أوله:

أما بعد فإنني أوصيك بتقوى الله الذي خلقك ورزقك.

٥ - رسالته إلى علماء الأمة:

نشرت - مؤخراً - رسالته بهذا الاسم عن دار التراث اليمني في صنعاء، حققها محمد يحيى سالم غفران وهي الرسالة التي بعثها الإمام

الثائر إلى علماء الأمة مبيناً فيها تفاصيل دعوته وبيان أهدافه التي خرج مجاهداً من أجلها وهي تعطى صورة واضحة من روح ثورية

للإمام، وتمرد على الحكم الأموي، وصياح على علماء السوء الذين كان لهم الدور البارز في تخدير حماس الجماهير، وتشويه مفاهيم الدين، وتثبيت ملك الظالمين.

وبما أن للرسالة أثرها الرسالي الجهادي الحماسي وتمثل الهدف الأمثل لنضال الإمام وكفاحه وتمرده على الحكم الأموي نشرناها في الفصل الثالث مشفوعاً بالشكر للناشر والمحقق، وقد حققها عن نسخ أربع، قدّم تفاصيلها في المقدمة، وشفعها بذكر موارد اقتبس العلماء من هذه الرسالة مع نسبة ما اقتبسوه إلى الإمام.

(١٢٥)

٦- منسك الحج أو مناسك الحج

رسالة في بيان أعمال الحج ومناسكه نشره العلامة السيد محمد علي الشهرستاني ببغداد سنة ١٣٤٢هـ و يوجد من الكتاب نسخ مخطوطة في مكتبة برلين برقم ١٠٣٦٠ وغيرها (١).

هذه هي الآثار المنشورة التي وقفنا على نشرها وطبعها وقرأناها وهناك آثار له لم تنشر إلى الآن أو نشرت ولم نقف على نشرها ومنها نسخ في المكتبات والمتاحف، وقد بذل الدكتور حسن محمد تقي الحكيم محقق تفسير غريب القرآن لزيد جهداً في الوقوف على تلك الآثار نفتس من مقدمته ما يلي:

٧- رسالة في أثبات وصية أمير المؤمنين وإثبات إمامته وإمامة الحسن والحسين وذريتهما، توجد نسخة منها في مكتبة برلين برقم ٩٦٨١ (الأوراق ١٦-١٩، من سنة ٨٥٠هـ تقريباً) (٢) وقال: توجد عندي صورة منها.

٨- رسالة في أجوبة زيد بن علي، على مسائل لآخ له من أهل المدينة، توجد في مكتبة وهبي ٤/٤٥٧ (الأوراق ٨١-٨٤، من القرن العاشر الهجري) (٣).

٩- رسالة في الإمامة إلى واصل بن عطاء. توجد في مكتبة وهبي ٢/٤٥٧ (الأوراق ٧٧-٧٨، من القرن العاشر الهجري) (٤).

١٠- تثبيت الإمامة. مخطوطة المتحف البريطاني ملحق ٣٣٦، مخطوطات شرقية رقم ٣٩٧١ (الأوراق ٢٥-٢٨، من سنة ١٢١٥هـ) وتوجد أيضاً في مكتبة _____

(١) لاحظ مقدمة تفسير غريب القرآن لمحققها الدكتور حسن محمد تقي الحكيم: ٤٣.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/٣٢٤؛ وتاريخ التراث العربي: الجزء ٣ من المجلد ١/٣٢٤؛ والروض النضير: ١/١١٧.

(٣) انظر تاريخ التراث العربي: ج ٣ من المجلد ١/٣٢٦، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

(٤) انظر تاريخ التراث العربي: ج ٣ من المجلد ١/٣٢٦، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

(١٢٦) أمبروزيانا في ميلانو بإيطاليا رقم ٧٤ (الأوراق ٧٨-١٨٨، من سنة ١٠٣٥هـ) (١).

١١- تفسير سورة الفاتحة وبعض آيات القرآن. يوجد في مكتبة برلين رقم ١٠٢٢٤ (الأوراق ٩-١٦، من حوالي سنة ٨٥٠هـ) (٢).

١٢- رسالة في حقوق الله. توجد في مكتبة الفاتيكان رقم ١٠٢٧ (الورقتان ١٣٠-١٣١، من سنة ١٣٣٢هـ) وتوجد أيضاً في مكتبة وهبي رقم ٣/٤٥٧ (الأوراق ٧٨-٨١، القرن العاشر الهجري) (٣).

١٣- الرد على المرجئة. يوجد هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة برلين رقم ١٠٢٦٥ (الأوراق من ١-١١٦، من حوالي سنة ٨٥٠هـ) (٤).

١٤- قراءة زيد بن علي. يوجد الكتاب في مكتبة امبروزيانا في (ميلانو) في إيطاليا، رقم ٢٨٩ف.

هذه هي الكتب الباقية من ثأرنا ولعل الله سبحانه يقيض رجال العلم لنشر ما بقي من آثاره وربما يذكر له رسائل، عفى عليها الزمان

فالأولى عطف عنان البحث، على دراسة مجموعته الفقهي والحديثي، حتى نقومهما سنداً ومنتناً في الفصل الآتي.

(١) أنظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/٣٢٤؛ وتاريخ التراث العربي: الجزء ٣ من المجلد ١/٣٢٤.

(٢) أنظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/٣٢٣؛ وتاريخ التراث العربي: الجزء ٣ من المجلد: ١/٣٢٣.

(٣) أنظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/٣٢٤؛ وتاريخ التراث العربي: المجلد ١ الجزء ٣/٣٢٤ و ٣/٣٢٣؛ وتفسير غريب القرآن: ٤١، المقدمة.

(٤) أنظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان: ٣/٣٢٤؛ وتاريخ التراث العربي: المجلد ١ الجزء ٣/٣٢٤ و ٣/٣٢٣؛ وتفسير غريب القرآن: ٤١، المقدمة.

الفصل السادس دراسة مسند الإمام زيد

الفصل السادس دراسة مسند الإمام زيد سنداً ومضموناً لقد وقفت على الآثار الباقية من الإمام زيد، والمهم منها هو مجموعته الفقهي والحديثي الذي اشتهر باسم المسند للإمام زيد، فتلزم علينا دراسته من حيث الاعتبار، وما فيه بعض المخالفة لفقهاء أهل البيت، أعني: الصادقين ومن بعدهم فنقول:

روى المجموع عن الإمام زيد بالسند التالي:

١ - حدثني (١) عبد العزيز بن إسحاق بن جعفر بن الهيثم القاضي البغدادي قال:

٢ - حدثنا أبو القاسم علي بن محمد النخعي الكوفي. قال:

٣ - حدثنا سليمان بن إبراهيم بن عبيد المحاربي. قال:

٤ - حدثني نصر بن مزاحم المنقري العطار قال:

٥ - حدثني إبراهيم بن الزبرقان التيمي قال:

٦ - حدثني أبو خالد الواسطي رحمه الله تعالى قال _____:

(١) والقائل هو علي بن العباس الذي هو أحد الرواة عن عبد العزيز جامع المجموع.

(١٢٨)

٧ - حدثني زيد بن علي بن الحسين عن أبيه: علي بن الحسين، عن جده الحسين بن علي، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليهم السلام -.

وقد وصلنا المجموع بهذا السند وهو مذكور في صدره (١) وفي الصفحة التي تلي آخر الكتاب (٢).

وقد ذكر شارح المجموع شرف الدين الحسين بن أحمد السياغي (١١٨٠ - ١٢٢١هـ) سنده إلى الكتاب، فأخذ أولاً بذكر أستاذه وشيخه أبي يوسف الحسين ابن يوسف (٣) إلى أن انتهى إلى أبي القاسم علي بن محمد النخعي الآنف ذكره، غير أن المهم دراسة وثاقه هؤلاء المشايخ الذين تنتهي إليهم رواية المسند في جميع الأعصار فبتدئ بدراسة حال من وقع في أول السند.

أ - عبد العزيز بن إسحاق بن البقال:

قال الذهبي: كان في حدود الستين وثلاثمائة قال ابن أبي الفوارس الحافظ: له مذهب خبيث، ولم تكن في الرواية بذاك، سمعت منه أحاديث رديّة.

قلت: له تصانيف على رأي الزيدية عاش تسعين عاماً. ثم روى الذهبي عنه بإسناده الحديث التالي:

قال: إن نزول الله إلى الشيء إقباله عليه من غير نزول، ثم وصفه بأن إسناده مظلم ومنتنه مختلق (٤).

لاستطيع أن نسائر ابن أبي الفوارس في قوله: «له مذهب خبيث» ولم يكن مذهبه سوى محبته لآل البيت أو دعمه مبدأ الخروج على بنى أمية الذي لا يروق _____

(١) مسند الإمام زيد: ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٢.

(٣) توفي بصنعاء سنة ١٢٣١هـ عن ثمانين سنة.

(٤) الذهبي: ميزان الاعتدال: ٢/٦٢٣ برقم ٥٠٨٣.

(١٢٩)

السلفيين ومن لف لَقَّهم، فإنَّ مذهبهم هو المماشاة مع الظالمين و السكوت أمام ظلمهم، وعدم الخروج عليهم.

كما لا نستطيع أن نسائر الذهبي حيث وصف اسناد حديثه بالظلمة ومنتنه بالاختلاق، وما هذا إلا لأنَّ الذهبي يتظاهر بالتنزيه، ولكن يعتنق لبناً التجسيم بشهادة أن كتبه تمدح المجسمه ومن يثبت لله الحركة والجهه من أوصاف الجسم وإذا ذكر المشبهه أطال الكلام فيهم بالمدح والوصف، وربما سود صحائف في حقهم خصوصاً في كتابه «سير أعلام النبلاء» وأما إذا بلغ إلى أهل التوحيد والتنزيه فلا يخرج إلا بالهمز واللمز وهو دأبه يلمسه كل دووب على مطالعة رجاله وتاريخه.

والحديث لما كان على طرف النقيض من عقيدته، وصف اسناده بالظلمة ومنتنه بالاختلاق، صدق الله العلي العظيم حيث قال: "كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ".

وأما الشيعة فقد ورد في كتبهم ذكر في حقَّ عبد العزيز بن إسحاق البقال فعنونه الشيخ في رجاله في باب من لم يرو عنهم _ عليهم السلام _ قال: عبد العزيز بن إسحاق بن جعفر الزيدى البقال الكوفي وكان زيدياً يكنى أبا القاسم سمع منه التلعكبرى سنة ست وعشرين وثلاثمائة (١).

وقال في الفهرست: عبد العزيز بن إسحاق له كتاب في طبقات الشيعة، وعنونه ابن داود في القسم الثاني (٢) من رجاله، ومعنى كونه من القسم الثاني أنه ممن ورد فيه ذم وإن كان ورد فيه مدح عن آخرين. كما عنونه العلامة في هذا القسم (٣) من كتابه الخلاصة، ومعناه أنه لا يعمل برواياته _____.

(١) الطوسي: الرجال: ٤٨٣، باب من لم يرو عنهم، برقم ٣٧.

(٢) القسم الثاني من كتابه مختص بمن ورد فيه أدنى جرح، ولو كان أوثق الثقات وعمل بخبره.

(٣) القسم الثاني: من كتابه مختص بمن لا يعمل بروايته ومن لا يعمل بروايته أعم من كونه مطعوناً أو لا.

(١٣٠)

ومع ذلك نرى أن الشيخ أبا زهرة يقول: إنَّ الرجل موضع طعن جمهور المحدثين من أهل السنَّة كما أنَّه موضع طعن الإمامية، لكنه موضع تقدير وتوثيق الزيدية أجمعين (١).

وما ذكره أخيراً حقَّ لا غبار عليه لكن ما نسبه إلى الإمامية لا مصدر له سوى أنه ورد في القسم الثاني من رجال العلامة وابن داود وقد عرفت في التعليقة معنى ذلك.

وأما الزيدية فقد اتفقوا على وثاقته وقالوا: أبو القاسم عبد العزيز بن إسحاق بن جعفر البغدادي البقال شيخ الزيدية ببغداد. قال في الطبقات: روى مجموع الإمام زيد بن علي _ عليه السلام _ الفقهى الكبير المرتب المبوب عن علي بن محمد النخعي، وقد سمع منه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن الحسن الحسنى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة. وقال في مطلع البدور: هو شيخ الزيدية ببغداد، والعراق، وكان عالماً محدثاً حافظاً، وقال في غيره: كان علامة كبيراً وفاضلاً شهيراً، سمحاً، عالماً زاهداً، سعيداً ولياً لآل محمَّد، رأساً في العلوم، مهيمناً على المظنون والعلوم، له كتاب في إسناد مذهب الزيدية وتعدادهم، وذكر تلامذة زيد بن علي وأصحابه الذين

أخذوا عنه العلم (٢).

ب: أبو القاسم علي بن محمد النخعي الكوفي:

وهو أستاذ عبد العزيز بن إسحاق، ولم نجد له عنواناً في كتب الرجال للشيعة، وأما أهل السنة فقال الذهبي: علي بن محمد: أبو القاسم الشريف

(١) الإمام زيد: ٢٦٢.

(٢) السياغي: الروض النضير: ١/٦١، ثم ذكر ترجمة الذهبي ونقده.

(١٣١)

الزيدى الحرانى شيخ الفراء وتلميذ النقاش وثقه أبو عمرو الدانى، واتهمه عبد العزيز الكتانى، ذكرته فى طبقات الفراء (١) وهى الترجمة للشيخ النخعي أو لغيره المشترك معه فى الكنية والاسم واسم الأب؟ احتمالان، نعم ذكر الذهبي فى ترجمة عثمان بن أبى شيبه وقال: «يحيى» (٢) بن محمد بن كاس النخعي قال: حدثنا: إبراهيم بن عبد الله الحصاف، قال: قرأ علينا عثمان بن أبى شيبه تفسيره فقال: وجعل السفينة فى رجل أخيه فقيل إنما هو السقاية، فقال: أنا وأخى أبو بكر لا نقر لعاصم (٣).

وقال فى تذكرة الحفاظ: وفيها «سنة أربع وعشرين وثلاثمائة» توفى شيخ الحنفية على بن كاس النخعي الكوفي (٤).

وذكره فى طبقات الحنفية فقال: على بن محمد بن الحسن بن كاس الكاسى النخعي القاضى الكوفي، روى عن محمد بن على بن عفان، وعنه أبو القاسم المطرزي والمستكى أستاذ الضميرى وله «الأركان الخمسة» توفى أربع وعشرين وثلاثمائة (٥).

وعند ذلك يظهر لنا سر تلاقى الفقه الزيدى والفقه الحنفى إلى حد كبير، فإن الفقه الموروث من زيد لم يكن على حد يتجاوز مع متطلبات المجتمع الإسلامى آنذاك، فلم يكن بد من بسطه فى ضوء القواعد الأصولية، فإذا كان المفتى حنفياً يبسطه حسب الضوابط التى يعتبرها دليلاً على الحكم فيدخل فيه القياس، والاستحسان، والمصالح المرسله، وسد الذرائع، ولا- تهمة مخالفة

(١) الذهبي: ميزان الاعتدال: ٣/١٥٥ برقم ٥٩٣٥.

(٢) وفى التعليقة: على وهو الصحيح.

(٣) الذهبي: ميزان الاعتدال: ٣/٣٧ - ٣٨ برقم ٥٥١٨.

(٤) الذهبي: تذكرة الحفاظ: ٣/٨٢١ فى ضمن ترجمة ابن الشرقى.

(٥) السياغي: الروض النضير: ١/٦٤.

(١٣٢)

أئمة أهل البيت، الذين جاءوا إلى الساحة بعد مقتل زيد، وقد بين الشيخ الكوثرى هذا التلاقى بشكل آخر فقال: «إن ذلك التوافق العظيم بين آل زيد وبين فقهاء العراق فى ثلاثة أرباع المسائل إنما نشأ من اتحاد مصدر علوم الفريقين، لأن فقهاء الكوفة والعراق إنما توارثوا الفقه طبقه فطبقه عن على وابن مسعود وسائر كبار فقهاء الصحابة الذين نشروا العلم بالكوفة ولاسيما الذين تدبروها (١) بعد انتقال على كرم الله وجهه إليها، واستمروا بها فى عهد الأمويين ثم عن فقهاء أصحابهم وأصحاب عمر، وابن عباس ومعاذ الذين انتقلوا إليها واستقروا بها ابتعاداً عن معاقل الأمويين، ثم عن أصحاب أصحابهم الفقهاء رضى الله عنهم الذين بهم صارت الكوفة مصدر العلم الناضج فى ذلك العهد وكانت علوم الحجاز والمدينة المنورة يتشارك فيها فقهاء الأمصار لكثرة حجهم عاماً فعاماً فى تلك الأعصار (٢)

ج - سليمان بن إبراهيم بن عبيد المحاربى :

هو جد علي بن محمد النخعي أبو أمه، قال في الطبقات: يروي عن نصر بن مزاحم المنقري سمع منه مجموعي الإمام زيد بن علي - عليه السلام - الحديثي «الفقهى» وسمعهما عليه علي بن محمد بن كاس (أى النخعي) وكان سماعه عليه سنة خمس وستين ومائتين (٣) ولم أجد له عنواناً في كتب الرجال لأصحابنا الإمامية.

د - نصر بن مزاحم المنقري العطار :

قال الذهبي: نصر بن مزاحم الكوفى، عن قيس بن الربيع وطبقته، رافضى، جلد، تركوه. مات سنة اثنتى عشرة ومائتين، حدث عنه: نوح بن حبيب وأبو

(١) من الدير: أخذوه مكاناً.

(٢) الروض النضير: ص ٢٨، المقدمة.

(٣) السياغى: الروض النضير: ١ | ٦٤.

(١٣٣)

سعيد الأشج وجماعة، قال العقيلي: شيعى فى حديثه اضطراب وخطأ كثير . وقال أبو خيثمة: كان كذاباً، وقال أبو حاتم: واهى الحديث، متروك، وقال الدارقطنى: ضعيف وروى أيضاً عن شعبة (١).

ما ذكره الذهبى وشيوخه، شنشنة أعرفها من كل من يكرّ لأهل البيت غيظاً وعداء وإن كان يتجنب عن إظهاره، فمن روى فضيلة فيهم أو أنشد قريضاً فهو عندهم رافضى، كذاب، خبيث، متروك الحديث إلى غير ذلك، وأما المجتمة والمشبهة ومن يتولّى آل أمية وسلاطينهم، فهو جليل، ثقة، يكتب حديثه ويحتج به.

وأما أصحابنا فقد اتفقوا على وثاقته قال النجاشى: نصر بن مزاحم مستقيم الطريقة، صالح الأمر، غير أنه يروى عن الضعفاء كتبه. حسان، منها: كتاب الجمل (٢) بل وذكره الشيخ الطوسى فى رجاله من أصحاب الإمام الباقر - عليه السلام - (٣).

إنّ الرجل مع كونه شيعياً، علوى الولاء، لكنه عندما يسرد وقائع صفين يسرده بشكل كاتب محايد فهو حين يذكر مثالب معاوية، يذكر شعر الشاميين فى الطعن على الإمام وحزبه، وهذا يدل على أنه كان رجلاً رحب الصدر لا يستفزه المذهب إلى الاكتفاء بذكر كلام طرف واحد، ويذكر كلام المبطل بتمامه أيضاً.

هـ - إبراهيم بن الزبرقان :

قال الذهبى: وثقه ابن معين. وقال أبو حاتم: لا يحتج به روى عنه أبو نعيم (٤) _____).

(١) الذهبى: ميزان الاعتدال: ٢٥٣ - ٢٥٤، لاحظ تاريخ بغداد: ج ١٣ برقم ٧٢٤٥.

(٢) النجاشى: الرجال: ٢ | ٣٨٤ برقم ١١٤٩.

(٣) الشيخ الطوسى: الرجال: برقم: ٣ باب أصحاب الإمام الباقر - عليه السلام - ولكنه بعيد لأنّ الإمام توفى سنة ١١٤ هـ وتوفى نصر عام ٢١٢ هـ.

(٤) ميزان الاعتدال: ١ | ٣١.

(١٣٤)

وقال فى طبقات الزيدية: روى عن أبى خالد الواسطى مجموعى الإمام زيد ابن علي، وله رواية عن مجاهد، وعنه نصر بن مزاحم، وقال: حدثنى المجموع الكبير المرتب جميعه، عن أبى خالد، وروى عنه أبو نعيم الحافظ، واحتج به أئمتنا، ووثقه المؤيد بالله ووثقه من المحدثين ابن معين، وقال نصر بن مزاحم: كان من خيار المسلمين، وكان خاصاً بأبى خالد الواسطى، وقال ابن أبى الحديد: هو فى رجال الحديث وقال غيره من رجال الشيعة المحدثين، وعيب عليه بالتشيع. وقال أبو حاتم: لا يحتج به (١).

وأما أصحابنا الإمامية فذكره الشيخ فى رجاله من أصحاب الإمام الصادق - عليه السلام - وقال: إبراهيم بن الزبرقان التيمى الكوفى،

أسند عنه (٢) فقد أهملوه من حيث التوثيق وعدمه.

و - أبو خالد، عمرو بن خالد :

لقد اضطربت كلمة الرجاليين في حقه فأهل السنة على تضعيفه. قال الذهبي: عمرو بن خالد القرشي، كوفي، أبو خالد، تحول إلى واسط.

قال وكيع: كان في جوارنا، يضع الحديث، فلما فطن له تحول إلى واسط.

وقال معلى بن منصور عن أبي عوانة: كان عمرو بن خالد يشتري الصحف من الصيادلة ويحدث بها.

وروى عباس، عن يحيى، قال: كذاب غير ثقة. حدث عنه أبو حفص الأبار وغيره، فروى عن زيد بن علي، عن آبائه.

وروى عثمان بن سعيد، عن يحيى، قال: عمرو بن خالد الذي يروى عنه _____

(١) السياغي: الروض النضير: ١/٦٦.

(٢) الطوسي: الرجال: ١٤٤ برقم ٤٠.

(١٣٥)

الأبار كذاب. وروى أحمد بن ثابت، عن أحمد بن حنبل، قال: عمرو بن خالد الواسطي كذاب.

وقال النسائي: روى عن حبيب بن أبي ثابت، كوفي ليس بثقة. وقال الدارقطني: كذاب.

وروى إبراهيم بن هراسه أحد المتروكين، عن أبي خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن علي، قال: لعن رسول الله _ صلى الله عليه

وآله وسلم _ الذكرين أحدهما يلعب بصاحبه (١).

وأظن أن هذا الصخب والهياج حول الرجل لأجل أنه من موالى أئمة أهل البيت والمجاهرين بولائهم، وهذا يكفي في التضعيف

وصب القارعات عليه.

وأعجب منه ما ذكره الذهبي في آخر كلامه من الحكم بوضع لعن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ الذكرين أحدهما يلعب

بصاحبه، فإنه مروى عن الفريقين.

كيف يشك الذهبي في صحة الحديث مع أن الكتاب يصدقه حيث يخص جواز الالتذاذ بالجنس بموردين ويقول: "والذين هم

لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ" (المؤمنون: ٥ - ٦) وما ورد في الحديث ليس منهما فجاز لعنه.

روى السيوطي في مسنده من كتاب جمع الجوامع من قسم الأفعال فقال: عن الحرث، عن علي: «قال رسول الله _ صلى الله عليه وآله

وسلم: _ سبعة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ويقال لهم أدخلوا النار مع الداخلين إلا أن يتوبوا: الفاعل والمفعول به، والناكح

يده...».

أخرج البيهقي عن ابن عباس: «أن النبي قال: لعن الله من وقع على بهيمة _____،

(١) الذهبي: ميزان الاعتدال: ٣/٢٥٧. وفي المتن يغلب أحدهما صاحبه.

(١٣٦)

ولعن الله من عمل قوم لوط، إلى غير ذلك من الروايات التي رواها أهل السنة (١) وأما الشيعة فحدث عنه ولا حرج، فقد عدّه

الكشي في ترجمة الحسين بن علوان، من رجال أهل السنة الذين لهم ميل ومحبة شديدة (٢).

وظاهر النجاشي أنه إمامي حيث ألقه لذكر رجال الإمامية ولو ذكر من غيرهم لأشار إلى مذهبه وهو عنوانه وذكر سنده إلى كتابه من

دون إيعاز إلى مذهبه (٣) إلا إذا قيل إنه ترك ذكر مذهبه في المقام لكونه معروفاً.

وعده الشيخ في الفهرست من مؤلفي الشيعة وقال: أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي له كتاب ذكره ابن النديم (٤) فعده من أصحاب

الإمام الباقر وعمرو بن خالد الواسطي بترى.

وستعرف كلامه عند سرد الروايات المروية عن زيد في الكتب الأربعة عند الكلام على رواية زيد أن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ غسل رجله، والقرائن تشهد أنه شيعي زيدي، ويدل عليه مضافاً إلى إطباق الزيدية عليه ما رواه الكشي في ذيل ترجمه محمد بن سالم ببيع القصب: محمد بن مسعود، قال: حدثني أبو عبد الله الشاذاني - وكتب به - إلى أن قال: حدثني الفضل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أبو يعقوب المقرئ وكان من كبار الزيدية، قال: أخبرنا عمرو بن خالد وكان من رؤساء الزيدية عن أبي الجارود وكان رأس الزيدية قال: كنت عند أبي جعفر _ عليه السلام _ جالساً إذ أقبل زيد بن علي فلمَ نظر إليه أبو جعفر قال:

(١) السياغي: الروض النضير: ١ | ٨٥ - ٨٦؛ ولاحظ وسائل الشيعة: ١٨، الأبواب الستة من أبواب اللواط: ٤١٦ - ٤٢٤، والباب الثالث من أبواب نكاح البهائم ووطء الأموات والاستمناء: ٥٧٤. هذا إذا فهمنا من الحديث الناكح بيده أو لعب أحد الذكزين بالآخر، وإلا يكون الحديث مجملاً.

(٢) الكشي: الرجال: ٣٣٣، برقم ٢٥٢، وما ذكره هنا ينافي ما ذكره برقم ١٠٦ من كونه من رؤساء الزيدية.

(٣) النجاشي: الرجال: ٢، برقم ٧٦٢.

(٤) الطوسي: الفهرست: برقم ٨٤٩.

(١٣٧)

«هذا سيد أهل بيتي والطالب بأوتارهم» ومنزل عمرو بن خالد كان عند مسجد سماك وذكر ابن فضال أنه ثقة (١). وإذا كان لبعض هذه النقاشات في هؤلاء، مظنة صدق، غير أن الشيخ النجاشي (٣٧٢ - ٤٥٠هـ) يرويه بسند آخر نأتى بنصه حتى يتبين أن للكتاب سندين أو أكثر .

أخبرنا محمد بن عثمان (النصيبي) قال: حدثنا علي بن محمد بن الزبير، عن علي بن الحسن بن فضال، عن نصر بن مزاحم عنه (أبي خالد) بكتابه (٢).

ولأجل إيقاف القارئ على عناية الإمامية بروايات زيد، نأتى بما وقفنا عليه في الكتب الأربعة بعد حذف المكررات فنقول:

الرواية عن زيد بن علي في الكتب الأربعة :

احتجت الإمامية بالروايات المروية عن زيد بن علي عن آبائه - عليهم السلام - إذا لم تكن مخالفة لما اتفقت عليه روايات أئمة أهل البيت - عليهم السلام - وروى عنه في الكتب الأربعة تسعة وثلاثون حديثاً - بعد حذف المكررات - وأكثر ما روى فيها موجود في مسنده كما سنشير إليه في مواضعه:

والرأوى عنه:

إما عمرو بن خالد - غالباً -

أو أبو خالد الواسطي. في موردين وكلاهما واحد.

أو هاشم بن يزيد. في مورد واحد.

أو الحسين بن علوان _____.

(١) الكشي: الرجال: ٢٣١ برقم ٤١٩.

(٢) النجاشي: الرجال: برقم ٧٦٩.

(١٣٨)

والظاهر وقوع السقط في الأخير والصحيح الحسين بن علوان عن عمرو بن خالد عن زيد فإن الحسين بن علوان يروى عن زيد بواسطة عمرو بن خالد كثيراً.

ولأجل إيقاف القارى على اهتمام محدثي الامامية بما روى عنه نأتى في هذا الفصل بخصوص ما روى عنه في الكتب الأربعة و نترك الباقي لوقت آخر، وقد استعنا في تخريج رواياته بالحاسب الآلى، ورتبنا الروايات حسب ترتيب أبواب الفقه المألوف بين أصحابنا وربما يكون، بين ما روى فيها والموجود في مسنده اختلاف يسير في اللفظ. كتاب الطهارة روى الشيخ الطوسى:

١ - روى محمد بن الحسن الصفار عن عبد الله بن المنبه (١) عن الحسين بن علوان عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي عن آبائه عن علي - عليهم السلام - قال: «جلست أتوضأ وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين ابتدأت في الوضوء فقال لى: تمضمض واستنشق واستن، ثم غسلت وجهى ثلاثاً، فقال: قد يخرجك من ذلك المرتان، قال: فغسلت ذراعى ومسحت برأسى مرتين، فقال: قد يجزيك من ذلك المرة، وغسلت قدمى، فقال لى: «يا على خلل ما بين الأصابع لا تخلل بالنار» (٢).
وعلق عليه الشيخ قال: هذا الخبر موافق للعادة قد ورد مورد التقيّة، لأنّ المعلوم من مذهب الأئمة - عليهم السلام - مسح الرجلين فى الوضوء دون غسلهما _____.

(١) والظاهر وقوع التصحيف فى السند، والصحيح المنبه بن عبيد الله كما فى كثير من الأسانيد.
(٢) الطوسى: محمد بن الحسن: (ت ٤٦٠ هـ)، التهذيب: ١/٩٣، الباب: ٤ باب صفة الوضوء الحديث ٩٧ و رواه الإمام المهدي لدين الله محمد بن المطهر فى المنهاج الجلى، (لاحظ تعليقه مسند زيد ص ٥٣).
وراجع أيضاً: الطوسى: الاستبصار: ١/٦٥، الباب ٣٧، الحديث ٨.
(١٣٩)

روى الشيخ الطوسى:

٢ - أخبرنى الشيخ (محمد بن النعمان) عن أبى القاسم جعفر بن محمد عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن المنبه بن عبيد الله، عن الحسين بن علوان الكلبى، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي - عليهم السلام - قال: «سألت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن الجنب والحائض يعرقان فى الثوب حتى يلصق عليهما؟ فقال: إن الحيض والجنبه حيث جعلهما الله عز وجل ليس فى العرق، فلا يغسلان ثوبهما» (١).
روى الشيخ الطوسى:

٣ - سعد، عن أبى الجوزاء المنبه بن عبيد الله، عن الحسين بن علوان الكلبى، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليهم السلام - قال: «الغسل من سبعة من الجنابة وهو واجب، ومن غسل الميت وإن تطهرت أجزاك» وذكر غير ذلك (٢).
فى غسل الميت والصلاة عليه :

روى الشيخ الطوسى:

٤ - سعد بن عبد الله، عن أبى الجوزاء المنبه بن عبد الله (٣) عن الحسين _____
(١) الطوسى: التهذيب: ١/٢٦٩، الباب ١٢ (باب تطهير الثوب) الحديث: ٧٩، زيد بن علي: المسند: ص ٦١ وراجع: الطوسى: الاستبصار: ١/١٨٥، الباب ١١٠، الحديث: ٥.

(٢) الطوسى: التهذيب: ١/٤٦٤، الباب ٢٣، الحديث ١٦٢، وعلق الشيخ والطوسى على قوله: وإن تطهرت أجزاك، أنه محمول على التقيّة لوجوب الغسل وعدم كفاية التطهير.

(٣) هكذا فى النسخة والظاهر عبيد الله بقريته سائر الروايات.

(١٤٠)

بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه عن علي - عليهم السلام - قال: «إذا مات الرجل فى السفر مع النساء ليس فيهن امرأته ولا- ذو محرم من نسائه، قال: يوزرنه إلى الركبتين، ويصب عليه الماء صباً، ولا ينظرن إلى عورته، ولا يلمسنه بأيديهن

ويطهرنه، فإذا كان معه نساء ذوات محرم يوزرنه ويصبين عليه الماء صباً ويمسسن جسده ولا يمسسن فرجه (١).

روى الشيخ الطوسي:

٥- سعد بن عبد الله، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه عن علي _ عليهم السلام _ قال: أتى رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ نفر فقالوا إن امرأة توفيت معنا وليس معها ذو محرم، فقال: «كيف صنعتم؟» فقالوا: صببنا عليها الماء صباً، فقال: «أما وجدتم امرأة من أهل الكتاب تغسلها؟» قالوا: لا، قال: «أفلا يمتموها؟» (٢)

روى الشيخ الطوسي:

٦- وبهذا الإسناد (٣)، عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي بصير، عن أيوب ابن محمد الرقي، عن عمرو بن أيوب الموصلي، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق السبيعي، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي _ عليهم السلام _ قال: «إن قوماً أتوا رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فقالوا: يارسول الله مات صاحب لنا وهو _____»

(١) الطوسي: التهذيب: ١/٤٤١، الباب ٢٣، الحديث ٧١: زيد بن علي: المسند: ص ١٤٥ ورواه أيضاً في التهذيب: ١/٣٤٣، الباب ١٣، الحديث ١٦٨، باختلاف يسير. والاستبصار: ٢/٢٠١، الباب ١١٨، الحديث ٧.

(٢) الطوسي: التهذيب: ١/٤٤٣، الباب ٢٣، الحديث ٧٨؛ والاستبصار: ١/٢٠٣، الباب ١١٨، الحديث ١٤.

(٣) أي أخبرني الشيخ المفيد عن أبي جعفر محمد بن علي عن محمد بن الحسن.

(١٤١)

مجدور فإن غسلناه انسلخ، فقال: يمتموه» (١).

٧- عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه عن علي - عليهم السلام - أنه سئل عن رجل يحترق بالنار، فأمرهم أن يصبوا عليه الماء صباً وأن يصلّوا عليه (٢).

روى الشيخ الطوسي:

٨- روى علي بن الحسين، عن محمد بن يحيى، عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي الجوزاء المنبه بن عبد الله (٣)، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي _ عليهم السلام _ في الصلاة على الطفل أنه كان يقول: «اللهم اجعله لأبويه ولنا سلفاً وفرطاً وأجرأ» (٤).

روى الشيخ الطوسي:

٩- علي بن الحسين، عن سعد، عن أبي الجوزاء المنبه بن عبيد الله، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ قال: «يسل الرجل سلاً ويستقبل المرأة استقبالاً، ويكون أولى الناس بالمرأة في مؤخرها» (٥).

(١) الشيخ الطوسي: التهذيب: ١/٣٣٣، الباب ١٣، الحديث ١٤٥.

(٢) الكليني: الكافي: ٣/٢١٣؛ الحديث ٦؛ زيد بن علي: المسند: ١٤٧؛ الطوسي: التهذيب: ١/٣٣٣، الباب ١٣، الحديث ١٤٤.

(٣) الظاهر عبيد الله.

(٤) الطوسي: التهذيب: ٣/١٩٥، الباب ١٣، الحديث ٢١؛ زيد بن علي: المسند: ١٥٠.

(٥) الطوسي: التهذيب: ١/٣٢٦، الباب ١٣، باب تلقين المحتضرين، الحديث ١١٩؛ زيد بن علي: المسند، باب ١٥٢، باختلاف يسير.

(١٤٢)

أحكام الشهيد

روى الكليني:

١٠ - عدّه من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه - عليهم السلام - قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «ينزع عن الشهيد الفرو والخف والقلنسوة والعمامة والمنطقة والسراويل إلا أن يكون أصابه دم فإن أصابه دم ترك ولا يترك عليه شيء معقود إلا حل» (١).
روى الطوسي:

١١ - محمد بن الحسن الصفار عن عبد الله بن المنبه (٢) عن الحسين بن علوان عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي عن أبيه عن آبائه - عليهم السلام - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: «- للشهيد سبع خصال من الله: أول قطرة من دمه مغفور له كل ذنب، والثانية: يقع رأسه في حجر زوجته من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه تقولان مرحباً بك ويقول هو مثل ذلك لهما، والثالثة: يكسى من كسوة الجنة، والرابعة: يتدره خزنة الجنة بكل ريح طيبة أيهم يأخذه معه، والخامسة: أن يرى منزلته، والسادسة: يقال لروحه أسرح في الجنة حيث شئت والسابعة: أن ينظر في وجه الله وإنها لراحة لكل نبي وشهيد» (٣) _____.
(١) الكليني: الكافي: ٣/٢١١، الحديث ٤؛ زيد بن علي: المسند: ١٤٦ (باب الشهيد) الطوسي، التهذيب: ١/٣٣٢، الحديث ١٤٠.
(٢) الظاهر وقوع التصحيف في السند، والصحيح عن المنبه بن عبيد الله كما في كثير من الأسانيد.
(٣) الطوسي: التهذيب: ٦/١٢١، الباب ٢٢، الحديث ٣؛ زيد بن علي، المسند: ٣٥١. وقد ورد أبسط مما في المتن هنا.
(١٤٣)

روى الشيخ الطوسي:

١٢ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه - عليهم السلام - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: «- إذا مات الشهيد من يومه أو من الغد فواره في ثيابه، وإن بقي أياماً حتى تتغير جراحته غسل» (١). كتاب الصلاة قال الصدوق:
١٣ - روى عن زيد بن علي بن الحسين - عليه السلام - أنه قال: «سألت أبي سيد العابدين - عليه السلام - فقلت له: يا أبا عبد الله أخبرني عن جدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما عرج به إلى السماء وأمره ربه عز وجل بخمسين صلاة كيف لم يسأله التخفيف عن أمته حتى قال له موسى بن عمران - عليه السلام: - إرجع إلى ربك فأسأله التخفيف فأنت أمتك لا تطيق ذلك؟ فقال: «يأبئني أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يقترح على ربه عز وجل فلا يراجعه في شيء يأمره به، فلما سأله موسى - عليه السلام - ذلك وصار شفيحاً لأمته إليه لم يجز له أن يرد شفاعته أخيه موسى - عليه السلام - فرجع إلى ربه عز وجل فسأله التخفيف إلى أن ردها إلى خمس صلوات» قال: فقلت له: يا أبا عبد الله لم يرجع إلى ربه عز وجل ولم يسأله التخفيف من خمس صلوات وقد سأله موسى - عليه السلام - أن يرجع إلى ربه عز وجل ويسأله التخفيف؟ فقال: «يا بئني أراد - عليه السلام - أن يحصل _____
(١) الطوسي: التهذيب: ٦/١٦٨، الباب ٢٢، الحديث ٧؛ زيد بن علي: المسند: ١٤٦. وللشيخ الطوسي تعليقه على الرواية فإنها غير معمول بها عند الأصحاب؛ أيضاً الشيخ الطوسي: الاستبصار: ١/٢٥، الباب ١٢٥، الحديث ٦.
(١٤٤)

لأمته التخفيف مع أجر خمسين صلاة لقول الله عز وجل: "مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا" ألا ترى أنه - عليه السلام - لما هبط إلى الأرض نزل عليه جبرئيل - عليه السلام - فقال: يا محمد إن ربك يقربك السلام ويقول (لك): "إنها خمس بخمسين" ما يُبدل القول لبدى وما أنا بظلام للعبيد" قال: فقلت له: يا أبا عبد الله جلا ذكره لا يوصف بمكان؟ فقال: «بلى تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً» قلت: فما معنى قول موسى - عليه السلام - لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: - إرجع إلى ربك؟ فقال: «معناه معنى قول إبراهيم - عليه السلام: - "إني ذاهب إلى ربي سيهدين" ومعنى قول موسى - عليه السلام - "وعجلت إليك رب لترضى" ومعنى قوله عز وجل: "ففرؤوا إلى الله" يعني حجوا إلى بيت الله، يابني إن الكعبة بيت الله فمن حج بيت الله فقد قصد إلى الله، والمساجد

بيوت الله فمن سعى إليها فقد سعى إلى الله وقصد إليه، والمصلّى ما دام في صلاته فهو واقف بين يدي الله عزّ وجلّ، فإنّ لله تبارك وتعالى بقاعاً في سماواته، فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ" ويقول (الله) عزّ وجلّ في قصة عيسى بن مريم _ عليهما السلام: " _ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ " ويقول الله عزّ وجلّ: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ" (١)

روى الشيخ الطوسي:

١٤ - محمد بن الحسن الصفار، عن عبد الله بن المنبه (٢)، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن آبائه، عن علي - عليه _____

(١) الصدوق: من لا يحضره الفقيه: ١ | ١٩٨، الحديث ٦٠٣، وفي الحديث نكات بديعة ولم نجده في مسنده.

(٢) الصحيح: المنبه بن عبيد الله كما في سائر الأسانيد.

(١٤٥)

السلام - أنه أنه رجل فقال: يا أمير المؤمنين والله إنني لأحبك لله فقال له: «ولكنني أبغضك لله» قال: ولم؟ قال: «لأنك تبغى في الأذان، وتأخذ على تعليم القرآن أجراً (١) ، سمعت رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ يقول: من أخذ على تعليم القرآن أجراً كان حظّه، يوم القيامة» (٢).

روى الشيخ الطوسي:

١٥ - محمد بن علي بن محبوب، عن محمد بن الحسين، عن الحسن بن علي، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي _ عليهم السلام _ قال: دخل رجلان المسجد وقد صلّى الناس، فقال: لهما علي _ عليه السلام _ «إن شئتما فليوم أحدكما صاحبه ولا يؤذن ولا يقيم» (٣).

روى الشيخ الطوسي:

١٦ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليه السلام - قال: «الأغلف لا يوم القوم وإن كان أقرأهم، لأنه ضيع من السنّة أعظمها، ولا تقبل له شهادة ولا يصلّي عليه إلا أن يكون ترك ذلك خوفاً على نفسه» (٤) _____ .

(١) الطوسي: الاستبصار: ٣ | ٦٥ الباب ٣٨، الحديث ٢.

(٢) الطوسي: التهذيب: ٦ | ٣٧٦، الباب ٩٣، الحديث ٢٢٠؛ زيد بن علي: المسند: ٨٥، وفي المسند تتغنى مكان تبغى وهو الأصح.

(٣) الطوسي: التهذيب: ٢ | ٢٨١، الباب ١٣، الحديث ٢١، و ٣ | ٥٥، الباب ١٣، الحديث ١٠٣؛ زيد بن علي: المسند: ١١٣ باختلاف.

(٤) الطوسي: التهذيب: ٣ | ٣٠، الباب ٣، الحديث ٢٠؛ زيد بن علي: المسند: ١٥١ باختلاف يسير.

(١٤٦)

روى الشيخ الطوسي:

١٧ - سعد، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي _ عليه السلام _ قال: «صلّى بنا رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ الظهر خمس ركعات ثم انفتل فقال له بعض القوم: يا رسول الله هل زيد في الصلاة شيء؟ فقال: وماذا؟ قال: صليت بنا خمس ركعات قال: فاستقبل القبلة وكبر وهو جالس ثم سجد سجدين ليس فيهما قراءة ولا ركوع ثم سلم وكان يقول: هما المرغمتان».

قال محمد بن الحسن: هذا خبر شاذ لا يعمل عليه لأننا قد بينا أن من زاد في الصلاة وعلم ذلك، يجب عليه استئناف الصلاة، وإذا شك في الزيادة فإنه يسجد السجدين المرغمتين، ويجوز أن يكون _ عليه السلام _ إنما فعل ذلك لأنّ قول واحد له لم يكن مما يقطع به،

ويجوز أن يكون كان غلطاً منه وإنما سجد السجدين احتياطاً (١)

روى الشيخ الطوسي:

١٨ - روى سعد بن عبد الله، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي - عليه السلام - قال: صليت مع أبي - عليه السلام - المغرب ففسى فاتحة الكتاب في الركعة الأولى فقرأها في الثانية (٢)

(١) الطوسي: التهذيب: ٣٤٩/٢، الباب ١٤، الحديث ٣٧؛ الاستبصار: ٣٧٧/١، الباب ٢١٩، الحديث ٥؛ زيد بن علي: المسند: ١٠٩.

(٢) الطوسي: التهذيب: ١٤٨/٢، الباب ٢٣، الحديث ٣٦؛ زيد بن علي: المسند: ٩٤. والرواية مطروحة لتضمنها نسبة السهو إلى الإمام المعصوم مع بعد مضمونها لعدم طروء النسيان في الركعة الأولى بالنسبة إلى فاتحة الكتاب. وراجع أيضاً: الطوسي: الاستبصار: ٣٥٤/١، الباب ٢٠٦، الحديث ٧.

(١٤٧) في الضمان روى الشيخ الطوسي:

١٩ - عنه

(١)، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه - عليهم السلام - أنه أتى بحمال كانت عليه قارورة عظيمة كانت فيها دهن فكسرها فضمنها إياه، وكان يقول: كل عامل مشترك إذا أفسد فهو ضامن، فسألته ما المشترك؟ فقال: الذي يعمل لي ولك ولذا (٢).

روى الشيخ الطوسي:

٢٠ - روى محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه - عليهم السلام - أنه أتاه رجل تكارى دابة فهلكت، فأقر أنه جاز بها الوقت فضمنه الثمن ولم يجعل عليه كراء (٣).

روى الشيخ الطوسي:

٢١ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليه السلام - أنه كان يضمن صاحب الكلب إذا عقر نهاراً ولا يضمنه إذا عقر بالليل، وإذا دخلت دار قوم بإذنتهم فعقر كلبهم فهم ضامنون، وإذا دخلت بغير إذنتهم فلا ضمان عليهم (٤).

(١) أي عن محمد بن أحمد بن يحيى.

(٢) الطوسي: التهذيب: ٢٢٢/٧، الباب ٢٠، الحديث ٨٥؛ زيد بن علي: المسند: ٢٥٤.

(٣) الطوسي: الاستبصار: ١٣٥/٣، الباب ٨٨، الحديث ٣. قال الشيخ: الوجه في هذه الرواية ضرب من التقية لأنها موافقة لمذهب كثير من العامة.

(٤) الطوسي: التهذيب: ٢٢٨/١٠، باب الاثني إذا قتلا، الحديث ٣١.

(١٤٨) في الربا روى الشيخ الطوسي:

٢٢ - عنه

(١)، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليه السلام - قال: «لعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الربا وأكله وبائعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه» (٢). في الخمر روى الكليني:

٢٣ - عدّه من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين بن سعيد، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن

على، عن آباءه - عليهم السلام - قال: لعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الخمر وعاصرها ومعتصرها وباعها ومشتريها وساقبها وأكل ثمنها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه
(٣) في النكاح روى الشيخ الطوسي:

٢٤ - روى محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آباءه، عن علي - _____ -

(١) أي عن الحسين بن سعيد الأهوازي.

(٢) الطوسي: التهذيب: ١٥/٧، الباب ١، الحديث ٦٤؛ زيد بن علي: المسند: ٢٢٩ باختلاف يسير.

(٣) الكليني: الكافي: ٣٩٨/٦، الحديث ١٠.

(١٤٩) عليه السلام - : إن امرأة أته ورجل قد تزوجها ودخل بها وسمى لها مهراً وسمى لمهرها أجلاً فقال له علي - عليه السلام - :
«لا أجل لك في مهرها إذا دخلت بها فأد إليها حقها» (١).

روى الشيخ الطوسي:

٢٥ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آباءه، عن علي - عليه السلام - أنه قال: «الرضعة الواحدة كالمائة رضعة لاتحل له أبداً»
(٢).

روى الشيخ الطوسي:

٢٦ - روى محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آباءه، عن علي - عليهم السلام - قال: «حرم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم خبير لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة»
(٣). في الطلاق روى الشيخ الطوسي:

٢٧ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي الجوزاء، عن الحسين [بن علوان] _____

(١) الطوسي: التهذيب: ٣٥٨/٧، الباب ٣١ من أبواب النكاح، الحديث ٢٠؛ الاستبصار: ٢٢١/٣، الباب ١٣٨، الحديث ٤؛ زيد بن علي: المسند: ٢٧.

(٢) الطوسي: التهذيب: ٣١٧/٧، الباب ٢٧ من أبواب النكاح، الحديث ١٧، والرواية مطروحة لدى الإمامية لعدم كفاية الرضعة الواحدة بالاتفاق عندهم، وفي المسند: ٢٨٢: سألت زيدا عن المصة والمصتين، قال: تحرم.

(٣) الطوسي: التهذيب: ٢٥١/٧، الباب ٢٤، الحديث ١٠؛ زيد بن علي المسند: ٢٧١، وفي المسند: نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن نكاح المتعة عام خبير. والرواية وردت مورد التقيّة.

(١٥٠) عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آباءه، عن علي - عليه السلام - في رجل أظهر طلاق امرأته وأشهد عليه وأسّر رجعتها ثم خرج فلما رجع وجدها قد تزوجت قال: «لاحقّ له عليها من أجل أنه أسّر رجعتها وأظهر طلاقها» (١). في الحدود روى الشيخ الطوسي:

٢٨ - عنه

(٢)، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آباءه - عليهم السلام - قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن الساحر؟ فقال: إذا جاء رجلان عدلان فيشهدان عليه فقد حل دمه (٣)
روى الشيخ الطوسي:

٢٩ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن

آبائه، عن علي - عليهم السلام - قال: «إذا أسلم الأب جر الولد إلى الإسلام، فمن أدرك من ولده دعى إلى الإسلام فإن أبي قتل، وإذا أسلم الولد لم يجر أبويه ولم يكن بينهما ميراث» (٤) _____ .

(١) الطوسي: التهذيب: ٨/٤٤، الباب ٣ من أبواب الطلاق، الحديث ٥.

(٢) أي عن محمد بن أحمد بن يحيى.

(٣) الطوسي: التهذيب: ٦/٢٨٣، الباب ٩١، الحديث ١٨٥؛ وج ١٠/١٤٧، الباب ١٠ من الزيادات، الحديث ١٦؛ زيد بن علي: المسند: ٣٠٣، وفي المسند: حد الساحر القتل.

(٤) الطوسي: التهذيب: ٨/٢٣٦، العتق الباب ١، الحديث ٨٥. أن لا يرث الأب، ويرث الولد، لأن الإسلام يزيد عزاً لا حرماناً. (١٥١) روى الصدوق:

٣٠ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه - عليهم السلام - عن علي - عليه السلام - في رجل قذف امرأته ثم خرج فجأه وقد توفيت قال: «يخير واحدة من ثنتين يقال له: إن شئت ألزمت نفسك الذنب فيقام عليك الحد وتعطى الميراث، وإن شئت أقررت فلاعنت أدنى قرابتها إليها ولا ميراث لك» (١)

. في الدييات روى الشيخ الطوسي:

٣١ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن _____

(١) الطوسي: التهذيب: ٨/١٩٤، الباب ٨ باب اللعان، الحديث ٣٨؛ الصدوق: من لا يحضره الفقيه: ٣/٥٣٩، الباب ٢ الحديث ٤٨٥٦. (١٥٢) الحسين ابن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه - عليهم السلام - قال: لاتعقل العاقلة إلا ما قامت عليه البينة، قال: وأتاه رجل فاعترف عنده فجعله في ماله خاصة ولم يجعل على العاقلة شيئاً (١). روى الشيخ الطوسي:

٣٢ - محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين ابن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليه السلام - قال: «المعتق على دبر فهو من الثلث وما جنى هو والمكاتب وأم الولد فالمولى ضامن لجنايتهم» (٢). في القصاص روى الشيخ الطوسي:

٣٣ - عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليهم السلام - قال: «ليس بين الرجل والنساء قصاص إلا في النفس» (٣).

روى الشيخ الطوسي:

٣٤ - عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي عن آبائه، عن علي - عليه السلام - قال: «ليس بين الرجال والنساء قصاص إلا في النفس، وليس بين الأحرار والمماليك قصاص إلا في النفس عمداً، وليس بين الصبيان قصاص في شيء إلا في النفس» (٤) _____ .

(١) الطوسي: التهذيب: ١٠/١٧٥، باب البيئات على القتل، الحديث ٢٤؛ والاستبصار: ٤/٢٦٢، الباب ١٥٢، الحديث ٥؛ لاحظ المسند: ٣٠٦.

(٢) الطوسي: التهذيب: ٨/٢٦٢، التدبير الباب ٢، الحديث ١٧؛ والاستبصار: ٤/٣١، الباب ١٥، الحديث ١٩.

(٣) الطوسي: الاستبصار: ٢٦٦/٤، الباب ١٥٤، الحديث ٧.

(٤) الطوسي: التهذيب: ١٠/٢٧٩، باب القصاص، الحديث ١٨؛ لاحظ المسند: ٣٠٧.

(١٥٣) ما لا يختص بباب روى الشيخ الطوسي:

٣٥- عن محمد بن أحمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليه السلام - قال: أتى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رجل فقال: يا رسول الله أن أبي عمد إلى مملوك لي فاعتقه كهيئته المضرة لي فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « أنت ومالك من هبة الله لأبيك، أنت سهم من كنانته يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيماً، جازت عتاقه أبيك، يتناول والدك من مالك وبدنك، وليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا بإذنه»

(١).

روى الشيخ الطوسي:

٣٦- محمد بن الحسن الصفار، عن الحسن بن علي بن النعمان، عن الحسن ابن الحسين الأنصاري، عن يحيى بن معلى الأسلمي، عن هاشم بن يزيد قال: سمعت زيد بن علي - عليه السلام - يقول: كان علي - عليه السلام - في حربه أعظم أجراً من قيامه مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في حربه قال: قلت بأى شيء تقول أصلحك الله؟ قال: فقال لي: لأنه كان مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تابعاً ولم يكن له إلا أجر تبعيته وكان في هذه متبوعاً وكان له أجر كل من تبعه

(٢).

روى الكليني:

٣٧- عنه [أى عن علي بن إبراهيم]، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن أبي _____

(١) الطوسي: التهذيب: ٨/٢٣٥، كتاب العتق الباب ١، الحديث ٨٢.

(٢) الطوسي: التهذيب: ٦/١٧٠، الباب ١٧٩، الحديث ٤.

(١٥٤) خالد الواسطي، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما» (١).

روى الشيخ الطوسي:

٣٨- محمد بن أحمد بن يحيى، عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين ابن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي - عليه السلام - قال: «أتيت أنا ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رجلاً من الأنصار فإذا فرس له يكيد بنفسه، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : انحره يضعف لك به أجران: بنحرك إياه واحتسابك له، فقال: يا رسول الله إلى منه شيء؟ قال: نعم كل وأطعمني قال: فأهدى للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فخذاً منه فأكل منه وأطعمني»

(٢).

روى الشيخ الطوسي:

٣٩- عنه

(٣) عن أبي جعفر، عن أبي الجوزاء، عن الحسين بن علوان، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه - عليهم السلام - قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إذا التقى المسلمان بسيفهما على غير سنة، القاتل والمقتول في النار» فقيل: يا رسول الله القاتل فما بال المقتول؟! قال: «لأنه أراد قتلاً» (٤)

هذه هي ٣٩ حديثاً نقلها مصنفو الكتب الأربعة عن الإمام زيد التي نقلها عن أبيه عن آبائه _____.

(١) الكليني: الكافي: ٦ | ٤٨، الحديث ٥. الطوسي: التهذيب: ٨ | ١٢، الباب ٥ من أبواب الطلاق، الحديث ٣٥.

(٢) التهذيب: ٩ | ٤٨، كتاب الصيد والذبائح، الباب ١، الحديث ١٠١.

(٣) أي عن محمد بن أحمد بن يحيى.

(٤) الطوسي: التهذيب: ٦ | ١٧٤، الباب ٧٩، الحديث ٢٥.

الفصل السابع هل كان زيد معتزلي المبدأ والفكرة

الفصل السابع هل كان زيد معتزلي المبدأ والفكرة ولما كان أحد الأمور الدافعة إلى القول بأن زيداً كان ذا منهاج كلامي خاص، هو صلته بواصل رئيس المعتزلة، مطرح الموضوع على طاولة البحث ليتبين مدى صحة ذلك الوهم.

هل كانت الصلة بين زيد وواصل بن عطاء على أساس أنهما يذهبان إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو أحد الأصول الخمسة لدى المعتزلة (١) أو أن الصلة بينهما كانت على أساس أن زيداً تتلمذ على واصل وتخرج عليه في الأصول. المعروف هو الثاني، والحق هو الأول لوجوه:

أولاً: كانت العاصمة العلمية للمسلمين يوم ذاك (أوائل القرن الثاني الهجري) هي المدينة المنورة، فكانت تزدهم بالعلماء والمفكرين، وعلى رأسهم محمد الباقر _ عليه السلام _ وبعده شيخ الهاشميين عبد الله بن الحسن بن الحسن وغيرهما من مشاهير المحدثين والمفسرين وعلى ضوء ذلك فلم يكن في ذلك أي حافز لمغادرة المدينة إلى العراق ثم البصرة. ولم تكن البصرة يوم ذاك إلا

(١) الانتصار: ٥؛ ومقالات الإسلاميين: ١ | ٢٧٨.

(١٥٦)

مركزاً أدبياً لغوياً ثم مركز الآهواء والملل والآراء والنحل.

ثانياً: قد عرفت فيما سبق أن زيداً النائر من مواليده عام ٦٧ هـ وواصل بن عطاء من مواليده ٨٠ هـ فهو أكبر منه بكثير. فلو صح أن يتلمذ على أحد في العراق فيجب أن يتلمذ على شيخ واصل، الحسن البصري، في البصرة أو يتلمذ على شيخه في المدينة المنورة وهو أبو هاشم ابن محمد الحنفية أستاذ واصل. وبعد ذلك كله، فلم يكن عند واصل شيء بديع قصرته عنه يد زيد. فإنه أخذ ما أخذ عن أبي هاشم، كما حققناه في الجزء الثالث (١) من تلك الموسوعة، فالذي شهّر واصل في الأوساط الإسلامية هو القول بالتوحيد والعدل والتركيز على كون الإنسان مختاراً، ورد القضاء والقدر بالمعنى السالب عن الإنسان الاختيار والحريّة وهو قد أخذه من أبي هاشم وهو عن أبيه، وهو عن وصي الرسول _ صلى الله عليه وآله وسلم _ أمير المؤمنين على بن أبي طالب _ عليه السلام، _ فريب البيت الهاشمي، أعنى: زيداً، كان غنياً عن التوسل بواصل في معرفته ما كان يجده في بيته العامر بالعلم والمعرفة.

وثالثاً: لم يذكر أحد من المؤرخين ولا أصحاب المقالات تتلمذ زيد على واصل قبل الشهرستاني وإنما انفرد هو بذلك وتبعه غيره، فلا تجد منه أثراً في فرق الشيعة للنوبختي، ولا في مقالات الإسلاميين للشعري، ولا الفرق بين الفرق للبغدادى ولا لابن حزم في الفصل. وعلى ذلك فلا يركن إلى كلام تفرد به الشهرستاني البعيد عن بيئته زيد وعصره، وقد استشهد الإمام في أوائل القرن الثاني، وتوفي الشهرستاني عام ٥٤٨ هـ.

هذا هو الحق القراح الذي لا مريّة فيه، ولا أظن بزید ولا يانسان دونه تربى في أحضان البيت النبوي، أن يتلمذ في الأصول والعقائد على أمثال واصل، صنيع أبي هاشم في المدينة، ثم الحسن البصري في البصرة، والمتفرد بآراء وعقائد لا

(١) السبحاني: بحوث في الملل والنحل: ٣ | ١٨٩.

(١٥٧)

يساندها علماء أهل البيت وأئمتهم. وأظن أن المصدر لما ذكره، هو تعاطف الزيديين مع المعتزلة في العصور اللاحقة علي وجه صارت الأصول الخمسة مقبولة لدى الزيديين، فصار ذلك سبباً لحدس الشهرستاني أن زيدا تتلمذ علي واصل، ومنه أخذ الأصول وسرى إلى أتباعه ومفتفيه، غافلاً عن عدم الملازمة بين الاعتقادين، ولو خضعت الزيدية لهذه الأصول فلجته أخرى سيوافيك بيانها. ولنذكر عبارة الشهرستاني ثم نذكر ما ذكره بعض المحققين من السنة والزيدية.

يقول: «وزيد بن علي لما كان مذهبه هذا المذهب: (كل فاطمي عالم زاهد شجاع، سخى خرج بالإمامة يكون إماماً واجب الطاعة) أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم، فتتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزال الأثغ رأس المعتزلة ورئيسهم. مع اعتقاد واصل أن جده علي بن أبي طالب (رض) في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ما كان علي يقين من الصواب. وأن أحد الفريقين منهما كان علي الخطأ لابعينه وصارت أصحابه كلهم معتزلة» (١).

وقد سرى هذا الخطأ إلى غير واحد ممن كتب عن زيد فاتخذ حقيقه رهنه.

قال ابن أبي الدم في «الفرق الإسلامية»: الزيدية أصحاب زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان زيد قد أثر تحصيل علم الأصول. فتتلمذ لواصل بن عطاء رئيس المعتزلة ورأسهم وأولهم فقرأ عليه واقتبس منه علم الاعتزال وصار زيد وجميع أصحابه معتزلة في المذهب والاعتقاد، وكان أخوه الباقر محمد بن علي يعيب عليه كونه قرأ علي واصل بن عطاء وتتلمذ له واقتبس منه مع كونه يجوز الخطأ على جده علي بن أبي طالب - عليه السلام - بسبب خروجه إلى حرب الجمل والنهروان، ولأن واصلاً كان يتكلم

(١) الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ١٣٨.

(١٥٨)

في القضاء والقدر على خلاف مذهب أهل البيت - عليهم السلام - (١).

كلام الشيخ أبو زهرة:

لقد تلقى الشيخ أبو زهرة ما ذكره الشهرستاني أمراً صحيحاً واستنتج من كلامه أموراً ثلاثة ولكنه تنظر فيه بما يلي:

«ولكن أيصح أن نقول إن زيدا تتلمذ علي واصل في هذه المرحلة؟ إن الرجلين كانا في سن واحدة فقد ولد كلاهما في سنة ٨٠ (٢) من الهجرة النبوية أو قريباً من ذلك ويظهر أنهما عندما التقيا كان زيد في سن قد نضجت لأن واصل لا يمكن أن يكون في مقام من يدرس مستقلاً إلا إذا كان في سن ناضجة.

ولهذا نرى أن التقاء زيد - رضى الله عنه - بواصل بن عطاء كان التقاء مذاكرة علمية وليس التقاء تلميذ عن أستاذ، فإن السن متقاربة وزيد كان ناضجاً فهو قد أراد أن يعرف النواحي المختلفة حول أصول العقائد، كما تلقى فروع الأحكام عن أسرته وفي المدينة مهد علم الفروع - إلى أن قال - وقبل رحلة زيد إلى البصرة أيسوغ لنا أن نقول إنه ما كان من قبل، على علم بأصول المعتزلة؟ لعل الإجابة عن هذا السؤال توجب علينا أن نرجع إلى علماء آل البيت قبل زيد والذين عاصروه وهنا نجد من الأخبار، ما يذكر أن علماء آل البيت تكلموا في العقائد وكانوا قريبين مما قاله واصل بن عطاء بل إننا نجد من يقول إن واصل تلقى عقيدة الاعتزال عن آل البيت فقد كانوا على علم به وخصوصاً محمد ابن الحنفية ابن علي رضى الله عنهما، فقد كان عالماً غواصاً في العلوم، وقد قال فيه الشهرستاني: «وكان كثير العلم، غزير المعرفة، وقاد الفكر، مصيب الخواطر، قد أخبره أمير المؤمنين (أى علي) عن أحوال الملاحم وأطلعته على مدارج المعالم، قد اختار العزلة، وآثر

(١) الصفدى: الوافي بالوفيات: ١٥ | ٣٥.

(٢) عرفت ما هو الحق في ميلاده.

(١٥٩)

الخمول على الشهرة» (١).

هذا كلامه وياليت الأستاذ رافق كلامه بذكر المصادر، ولا يقضى في الموضوع بشكل قاطع. وهذا ما نلمسه من كتب الأستاذ أبي زهرة مع كثرة ما كتب. وعلى كل تقدير فلا دليل على تتلمذ زيد لواصل، لو لم يكن دليل على عدمه، وكون اتباعه معتزليين في العقيدة لا يكون دليل على كون إمامهم كذلك. كلام بعض المعاصرين من الزيدية :

إن لبعض المعاصرين من علماء الزيدية تحقيقاً رائعاً في المقام نأتى بنصه - مع طوله - :

«من الأغلاط الشائعة نسبة الزيدية إلى المعتزلة- في أصول الدين والتوحيد وعلم الكلام - والقول بأن الإمام زيد بن علي قد تتلمذ على رئيس المعتزلة واصل ابن عطاء.

ولعل الشهرستاني المتوفى ٥٤٨هـ هو أول من سجل هذه الغلطة في كتابه (الملل والنحل) ثم تابعه أكثر من بحث عن الاعتزال والمعتزلة. إنا لا همالهم الفحص والتمحيص لما يروونه، وإنا لأنه قد وافق ما يريدون قوله عن الزيدية والزيديين.

ولا أعتقد أن للشهرستاني أي دليل قوى على قوله. وربما أنه جعل من التوافق بين الزيدية والمعتزلة في أكثر مسائل الأصول الدينية دليلاً على قوله، ولكن هذا غير كاف قطعاً لإلحاق فرقة بأخرى. لأنه لو اعتبر التوافق في رأى ما، دليلاً على توحيد فرقة مع أخرى لما تميزت فيما بينها كل المذاهب الإسلامية المعروفة اليوم وقبل اليوم، لأنها تتوافق في كثير من المسائل وبالأخص الفقهية الفرعية منها.

(١) أبو زهرة: الإمام زيد: ٣٩ - ٤٠.

(١٤٠)

أمّا القول بأن الإمام زيداً قد تتلمذ لواصل بن عطاء. من أجل أن يحصل على علم الأصول والفروع حتى يتحلّى بالعلم كما يقول الشهرستاني - فهو أغرب وأعجب. ذلك لأنّ المعلوم عند جميع المورخين والباحثين والعالمين - أنّ المدينة المنورة - وليست البصرة - هي معدن العلم ومدينته، كما قال الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - لمن سأله عن تلقى علمه فقال: كنت في معدن العلم ولزمت فقيهاً من فقهاءهم. وهو يعنى الإمام جعفر الصادق - رحمه الله - حيث لازمه عامين، وكان يقول: لولا السنتان لهلك النعمان» (١).

فهل من المعقول أن يخرج الإمام زيد من معدن العلم وينبوعه ومدينته ليذهب إلى البصرة ليحصل على علم الفروع والأصول حتى يتحلّى بالعلم كما قال الشهرستاني؟ إنه لأمر غريب وعجيب حقاً!! وهو مع ذلك قول مخالف لما أجمع عليه المورخون فقد قالوا إن واصل بن عطاء هو الذى أخذ العلم من معدن العلم ومدينته، ولازم أهل البيت النبوى الشريف الذى يعد من مشاهيره فى عصره الإمام زيد بن على. وأجمعوا على أن واصل بن عطاء كان مولى آل محمد بن على بن أبى طالب - عليهم السلام - - أى آل محمد بن الحنفية - وأخذ العلم عن ابنه أبى هاشم عبد الله بن الحنفية. وأنه بعد ٢١ عاماً من عمره سافر إلى البصرة سنة ١٠١ هـ حيث التقى فيها بالزاهد عمرو بن عبيد فزامله فى حلقة الحسن البصرى حتى حدث الخلاف بين واصل وأستاذه الحسن البصرى فى تسمية مرتكب الكبيرة من المسلمين حيث قالت الخوارج هو كافر. وقالت المرجئة: هو مؤمن. فقال الحسن البصرى: هو منافق. فقال واصل: هو فاسق. والفسق منزلة بين المنزلتين: منزلة الكفر والنفاق. ومنزلة الإيمان، وبعد أن رجع عمرو بن عبيد إلى قوله وفارقاً حلقة الحسن، أطلق عليهما لاعتزالهما الحلقة (اسم المعتزلة) ثم صار

(١) أبو زهرة: الإمام الصادق - عليه السلام: - ٢٨.

(١٤١)

اسماً لمن تابعهم فى مسائل علم الكلام، بل لقد نصّ المحققون من المعتزلة والزيدية على أن مسألة المنزلة بين المنزلتين هذه قد أخذها واصل بن عطاء من أستاذه أبى هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية (١).

وإذا كان لابد من نسبه إلى فرقة من الفرق فينسب إلى الفرقة (العدلية) والعدلية كلمة تطلق على كل من يقول بالعدل والتوحيد وينفي الجبر والتشبيه والتجسيم لله، تعالى الله عن ذلك، ولهذا صح للقاضي عبد الجبار بن أحمد المتوفى ٤١٥ هـ وللإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى، ان يجعلوا من رجال الطبقة الأولى للعدلية كل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة ممن صرح بالعدل ونفى الجبر. وقد جعلوا الإمام زيد بن علي وأبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية أستاذ واصل من رجال الطبقة الثالثة وجعلوا واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد من رجال الطبقة الرابعة.

وقد توهم البعض من المتأخرين أن الطبقات التي أشرت إليها هي طبقات المعتزلة والصحيح غيره. لأن البحث في طبقات القاضي وفي الملل والنحل للمهدي كان عن العدلية، وليس عن المعتزلة، ولفظه في الملل والنحل (٢) مسألة (له) أي قالت المعتزلة: وأجمعت العدلية على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالمياً حياً... حتى قال: وقد رتب القاضي - أي عبد الجبار - طبقاتهم ونحن نشير إلى جملتها. ثم أشار في المسألة التي تلتها إلى طبقاتهم.

فالإمام المهدي حكى عن المعتزلة روايتهم لما اجمعت عليه العدلية. ثم رتب طبقاتهم كما فعل القاضي عبد الجبار مستدلاً بأقوالهم في العدل ونفى الجبر (٣) _____).

(١) شرح الأصول الخمسة: ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) البحر الزخار: ١/٤٤ - ٤٥.

(٣) علي بن عبد الكريم شرف الدين: الزيدية نظرية وتطبيق: ٢١.

(١٦٢)

وبعد هذا البيان الضافي من العلمين، لا يبقى أي شك في أنه لم يكن لوليد البيت النبوي أية دراسة لدى واصل بن عطاء، وأقصى ما يمكن أن يقال: كانت بينهما مزاملة أو محادثة في تطبيق أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على الساحة الإسلامية. ونضيف في المقام أمرين:

١ - أنه لو تلمذ زيد على واصل أو كان معتزلياً في العقائد، لانعكست آراء أستاذه في الكتب الموروثة منه، مع أنه ليس من تلك الأصول فيها عين ولا أثر، غير التركيز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي استنتجته من الكتاب والسنة واختمر به منذ شبابه إلى التحاقه بربه.

٢ - أن ابن المرتضى، جعل زيد بن علي في طبقاته مقدماً على طبقه واصل ابن عطاء (١) ولو صح الزعم المعروف كان عليه أن يجعله متأخراً عنه، لكونه في الاعتزال عيال عليه.

(١) ابن المرتضى: المنية والأمل: ١٧ و ٢٨، تحقيق سوسنة ديفلدفلزر، بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م؛ والقاضي عبد الجبار الهمداني: فرق وطبقات المعتزلة: ٣٢ و ٤١، تحقيق الدكتور علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي، دار المطبوعات الجامعية، القاهرة، ١٩٧٢ م.

(١٦٣)

الفصل الثامن هل كان زيد إماماً

الفصل الثامن هل كان زيد إماماً في الأصول والعقائد، والفروع والأحكام؟ إن للمذهب الزيدي السائد حالياً في اليمن وغيرها بعدين: بعداً فقهياً - يلحقه بالمذاهب الفقهية المعروفة، وهذا ما يبحث عنه في تاريخ الفقه وطبقات الفقهاء - وبعداً عقائدياً، وهذا هو المسوغ لطرحة في كتب الملل والنحل، ولاشك أن المذهب الزيدي الذي تبناه أئمة الزيدية طيلة قرون، من عهد أحمد بن عيسى ابن زيد مؤلف الأمالي (ت ٢٤٧ هـ) إلى عهود الأقطاب الثلاثة كان يتمتع ببعدين متميزين العقيدة والفقه، وهؤلاء الأقطاب عبارة عن:

١ - الإمام القاسم الرسى.

٢ - الإمام الهادي يحيى بن الحسين.

٣ - الإمام الناصر الأطروش.

فكان عندهم الفقه والعقيدة ولكل ميزة وسمه، تضى له صبغة خاصة في مجاله إنما الكلام في المذهب الموروث عن نفس الإمام أى زيد الثائر، فهل كان لمذهبه بعدان، فقهي وعقائدي؟ أو كان لمذهبه بعد واحد؟ أو لم يكن هذا ولا ذاك (١٦٤)

بل كان رجلاً ثورياً وإماماً للجهاد والنضال ومفسراً للقرآن، ومحدثاً للسنة النبوية، ومفتياً في ضوئها أحياناً؟ وتظهر حقيقة الحال فيما يأتي ولنقدم البحث في العقائد ثم نتبعه بالبحث في الفقه.

إن ريب البيت العلوي زيدا الثائر قد تعلم الأصول والعقائد، من أئمة أهل البيت وعلى رأسهم والده الإمام زين العابدين وأخيه الإمام الباقر - عليهما السلام - فكان القول بالتوحيد ورفض التجسيم والجهة، والعدل وتزيهه سبحانه عن كل سوء وشين، والقول بعصمة الأنبياء ومصونيتهم عن الخطأ والزلل، ونفى القدر بمعنى السالب للاختيار والحرية والموجب للغوية بعث الأنبياء والرسل، إلى غير ذلك من الأصول الرائجة في باب الإمامة والمعاد - كان القول بهذه الأصول - أمراً واضحاً لدى الهاشميين والعلويين ورثها كابر عن كابر، فلو قال به زيد، فلا يجعله ذا منهج كلامي خاص.

إنما الكلام فيما ينسب مناسب إليه من الآراء حول سائر الموضوعات، وسيوافيك إن شاء الله آراء الزيدية، لاصلة لها بزيد، وأن ربطها ونسبتها إليه، خال عن الدليل.

قال الحاكم أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي (٤١٣ - ٤٩٤هـ) في كتابه جلاء الأبصار :

وإذ قد بينا المذاهب المحدثه والبدع المولده، بقي ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه وعلماء أهل البيت، وهو القول بتوحيد الله، ونفى التشبيه، والقول بعدله، وبراءته من كل سوء، والقول بعصمة أنبيائه، وصدق ما جاءوا به على ما نطق به الكتاب، ومشايخ العدل، أخذوها من علماء أهل البيت. أخذها واصل بن عطاء عن محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم وكان مع ذلك من أصحاب النفس الزكية، وكان عمرو بن عبيد قد تأهب للخروج إلى زيد بن علي -

(١٦٥)

عليه السلام - فورده الخبر بقتله. وكان مطر الوراق، وبشير الرحال من أصحاب إبراهيم بن عبد الله، وكان حكيم المعتزلي من أصحاب عيسى بن زيد، والروايات بذلك من علماء أهل البيت - عليهم السلام - ظاهرة، وكتب القاسم ويحيى والناصر والمهدي - يعنى أبا عبد الله الداعي - وأحمد بن عيسى وغيرهم من أئمتهم عليهم السلام مشحونه بذكر العدل والتوحيد.

وروى أن أبا الخطاب وجماعة دخلوا على زيد بن علي - عليهما السلام - فسأله عن مذهبه، فقال: إنني أبرأ، إلى الله من المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه، ومن المجبرة الذين حملوا ذنوبهم على الله، ومن المرجئة الذين طمّعوا الفساق في عفو الله، ومن المارقة الذين كفروا أمير المؤمنين، ومن الرافضة الذين كفروا أبا بكر وعمر، وهذا عين مذهب أهل العدل، وكان إمام هذه الطائفة بعد أمير المؤمنين والحسن والحسين ومحمد بن علي (١) وعلى بن الحسين، زيد بن علي بن الحسين عليه السلام ورحمة الله وبركاته وجميع أولاد أمير المؤمنين، إلا أن زيدا تقدمهم بالفضل والعلم والجهاد في سبيل الله (٢).

هذا مجمل القضاء في الموضوع وقد «شهد شاهد من أهلها» على ما ذكرنا غير أن البرهنة على المختار، وأن ما نسب إلى زيد من الآراء فإنما هي آراء الزيدية، لا الإمام القائل ولأجل ذلك، لانجد أثراً من هذه الآراء المعزوة إليه في الكتب الموروثه منه. حتى لو وجدنا أن أئمة الزيدية لهجوا بها - كالقاسم الرسى - رأس القاسمية (١٧٠-٢٤٢هـ) والناصر الأطروش - رأس الناصرية (٢٣٠ - ٣٠٤هـ) مؤسس المذهب الزيدي في بلاد الديلم والجبل، والإمام الهادي إلى الحق به رأس الهاديوية في اليمن (٢٤٥ - ٢٩٨هـ) لا يكون ذلك

دليلاً على ثبوته من إمامهم، لأنَّ

(١) يريد محمد بن الحنفية بقرينة تقديمه على والد زيد: علي بن الحسين _ عليهما السلام _.

(٢) السياغي: الروض النضير: ١/ ٩٩ - ١٠٠.

(١٦٦)

الأئمة المتأخرين عن زيد، اجتهدوا في الأصول والفروع فضموا ما ورثوه من إمامهم إلى ما حصلوه بمساعيهم فيهما، فلا يسوغ لباحث أن ينسب شيئاً إلى زيد، بحجة تواجده في كتب هؤلاء الأئمة المتأخرين. وإن أردت التفصيل في الآراء المعزوة إليه عن كتب فلاحظ ما يلي:

١ - مرتكب الكبيرة :

كانت الخوارج تصفه بالكفر والشرك. والمرجئة بالإيمان، وكان الحسن البصري يصفه بالفاق، وذهب واصل إلى أنه لا كافر ولا مؤمن بل في منزله بين المنزلتين (١).

واستظهر الشيخ أبو زهرة أن زيدا يوافق المعتزلة في هذا الرأي غير أنه لا يراه مخلداً في النار على خلاف المعتزلة واستظهره من كتاب أوائل المقالات، مع أنه نسبه إلى الزيدية دون زيد حيث قال: وأجمعت المعتزلة وكثير من الخوارج والزيدية على خلاف ذلك وزعموا أن مرتكب الكبائر ممن ذكرناه فاسق ليس بمؤمن ولا مسلم (٢) ولا يصح القضاء البات بهذا المقدار.

٢ - رأيه في القدر :

لقد استنبط أبو زهرة مما ذكره ابن المرتضى في المنية والأمل خصوصاً من الرسالة التي كتبها ابن عباس إلى جبرية أهل الشام، أن عقيدة زيد في القدر، هو أنه يجمع بين الإيمان بالقضاء والقدر، واعتبار الإنسان مختاراً في طاعته ومعاصيه، وأن معاصيه ليس قهراً عن الله تعالى، ولا غلبه عليه (٣) _____).

(١) لاحظ دليله حول هذا الأصل: الجزء الثالث: ٢٢٥.

(٢) الظاهر أن يقول ولا كافر لينطبق على عقيدة المعتزلة.

(٣) أبو زهرة: الإمام زيد: ٢٠٩.

(١٦٧)

يلاحظ عليه: أن ما ذكره إنما هو عقيدة كل آل البيت أخذوه من مستقى الوحي وكلام الوصي على _ عليه السلام _ وقد أوضح الحال عندما سأله رجل عند منصرفه من صفين بما هو معروف (١) وقد اشتهر عنهم: «لا- جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين» وزيد وغيره وجميع الشيعة أمام هذا الأصل سواسية.

٣ - رأيه في البداء :

لقد كثر اللغط والجدلية حول البداء فمن طاعن عليه بأن معنى قولهم بدا لله، هو ظهور ما خفى عليه، وهو يستلزم جهله سبحانه بالمستقبل وتغيير إرادته المستلزمة لحدوث ذاته إلى غير ذلك من المضاعفات، ومن قائل بأن المقصود من بدا لله، هو أنه بدا للناس من الله والإطلاق من باب المشاكلة، والنبى الأكرم هو الأسوة في الإطلاق فقد وصفه سبحانه بهذا في كلامه ونقلها البخارى (٢) وإلا فأى مسلم واع يلهج بتجويز الجهل أو تغيير إرادته، فمن المأسوف عليه جداً أن الناقلين من الشيعة في قولهم بالبداء تساهلوا في بيان عقيدتهم وراجعوا في تبين مواقفهم إلى كتاب خصمائهم.

نعم ذكر الشيخ المفيد على أن الإمامية اتفقوا على أن إطلاق لفظ البداء في وصف الله تعالى وإن كان ذلك من جهة السمع دون القياس وأضاف: وأجمعت المعتزلة والخوارج والزيدية والمرجئة وأصحاب الحديث على خلاف الإمامية (٣).

وما ذكره المفيد إنما هو عقيدة الزيدية، لا الإمام زيد، ولا ملازمة بين الرأيين والمخالف لو وقف على مقصود الإمامية من البداء لما

خالفه وتلقاه أمراً صحيحاً، ولأجل أن الشيخ أبا زهرة وقف على مقاصدهم البداء بعد الاحتكاك بعلمائهم

(١) الرضى: نهج البلاغة: قصار الحكم برقم ٧٨.

(٢) البخارى: الصحيح: ٤/١٧١، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع.

(٣) المفيد: أوائل المقالات: ١٣/٥٣.

(١٤٨)

وكتبهم صرح بما ذكرناه فلاحظ (١).

٤- الرجعة والمهدى:

ذهبت الإمامية إلى القول بالرجعة وإن الله سبحانه يرد قوماً من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها فيعزّز منهم فريقاً، ويذلّ فريقاً وقد ذكرنا دليلهم من الكتاب والسنة في الجزء السادس من هذه الموسوعة فلاحظ، غير أن الشيخ المفيد ذكر مخالفة الزيدية لهذا الأصل في كلامه السابق، وجعله الشيخ أبا زهرة دليلاً على كونه معتقد زيد والأصل الذي نشأ عليه (٢).

والعجب أنه عطف القول بالمهدى على فكرة الرجعة ونسب إلى الإمام الجليل نفى فكرة المهدى وقال: الإمام زيد قد نفى فكرة المهدى المنتظر، فنفي معها فكرة الرجعة، لأن الرجعة كما تصورها الإمامية ومن قبلهم الكيسانية تقتضى وجود المهدى، وبما أن لا مهدى في نظر الإمام زيد، لأن الإمام يجب أن يكون غير مستور وأن يدعو لنفسه فلا يوجد إمام مكتوم ولا مغيب (٣).

إن ما ذكره الشيخ أبو زهرة زلة لاستتقال، فكيف يمكن أن يستدل على عقيدة إنسان مثل زيد، بكلمة لم يثبت كونه قائلها، وعلى فرض كونه قائلها فإنما قال بها في ظروف خاصة، لا في الإمام الذي اتفقت الشرائع السماوية عليه، ولا سيما مسانيد السنة وصحاحها.

أقول: لقد تواترت النصوص الصحيحة والأخبار المروية من طريق أهل السنة والشيعه الموكدة على إمامة أهل البيت _ عليهم السلام _ والمشيئة صراحة إلى أن عددهم كعدد نقباء بنى إسرائيل، وأن آخر هؤلاء الأئمة هو الذى يملأ

(١) أبو زهرة: الإمام زيد: ٢١٢.

(٢) أبو زهرة: الإمام زيد: ٢١٢.

(٣) أبو زهرة: الإمام زيد: ٢١٢.

(١٤٩)

الأرض - فى عهده - عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وأن أحاديث الإمام الثانى عشر الموسوم بالمهدى المنتظر قد رواها جملة من محدثى السنة فى صحاحهم المختلفة كأمثال الترمذى (المتوفى عام ٢٩٧هـ) وأبى داود (المتوفى عام ٢٧٥هـ) وابن ماجه (المتوفى عام ٢٧٥هـ) وغيرهم، حيث أسندوا رواياتهم هذه إلى جملة من أهل بيت رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ وصحابته، أمثال على بن أبى طالب _ عليه السلام _ وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأم سلمة زوجة الرسول الأكرم _ صلى الله عليه وآله وسلم _ وأبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة وغيرهم:

١- روى الإمام أحمد فى مسنده عن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ «لو لم يبق من الدهر إلا يوم واحد لبعث الله رجلاً من أهل بيتى يملأها عدلاً كما ملئت جوراً» (١).

٢- أخرج أبو داود عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ قال: «لا تنقضى الدنيا حتى يملكك العرب رجل من أهل بيتى يواطى اسمه اسمى» (٢).

٣- أخرج أبو داود عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت: سمعت رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ يقول: «المهدى من عترتى من ولد فاطمة» (٣).

٤- أخرج الترمذى عن ابن مسعود: أن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ قال: «يلى رجل من أهل بيتى يواطى اسمه اسمى» (٤).

إلى غير ذلك من الروايات المتضاربة التي بلغت أعلى مراتب التواتر على وجه. يقول الدكتور عبد الباقي: إن المشكلة ليست مشكلة حديث أو حديثين أو راو أو راويين، إنها مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً، اجتمع

(١) مسند أحمد: ١/٩٩ و ٣/١٧، ٧٠.

(٢) جامع الأصول: ١١/٤٨ برقم ٧٨١٠.

(٣) جامع الأصول: ١١/٤٨ برقم ٧٨١٢.

(٤) المصدر نفسه: برقم ٧٨١٠.

(١٧٠)

على تناقلها مئات الرواة وأكثر من صاحب كتاب صحيح (١).

٥- لا معجزة للائمة :

إذا كانت الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، وإمرة إلهية (لاشعبية) واستمراراً لوظائف النبوة كلها، سوى تحمل الوحي الإلهي، ومحتاجاً إلى تنصيب النبي الأكرم بأمر من الله سبحانه، فالتعرف على الإمام المنسوب، يتوقف على دليل يعرفه كالنبي الأعظم، وهو أحد الأمور التالية:

١- نص صريح متواتر لا يدع شكاً للإنسان أنه خليفة الرسول.

٢- أو كرامه خارقة للعادة مقارنة لدعوى الإمامة والخلافة عن الرسول مورثة لليقين بصلته بالله سبحانه.

٣- أو وجود قرائن وشواهد تفيد القطع أنه منسوب من الله سبحانه لهداية الأمة.

نعم لو كانت الإمامة مقاماً شعبياً، تختاره الأمة الإسلامية لقيادتها وتنظيم أمرها. فهو لا يحتاج إلى شيء من النص، والكرامة الخارقة للعادة، ولا إلى العلم المفاض من الله سبحانه.

وبما أن الإمامة عند الشيعة إنما هي بالمعنى، الأول، وهي عندهم من الأصول اشترطوا فيها: النص، والعلم بما تحتاج إليه الأمة في مجال الدين والقيادة، أو الكرامة الخارقة للعادة المورثة لليقين بكونه رجلاً إلهياً صادقاً فيما يدعى من الخلافة والإمامة. وهذا على خلاف ما يذهب إليه أهل السنة فإنها عندهم حكومة عرفية، وإمارة زمنية، يُنصب ويعزل بأمر الشعب وإرادته وعزله ونصبه. أو يُنصب بإرادة الحاكم السابق.

(١) الدكتور عبد الباقي: بين يدي الساعة ١٢٣.

(١٧١)

غير أن أبا زهرة زعم أن الإمام زيد لا يرتضى شيئاً من هذا وذلك لأنه يرى أن الإمام من بني فاطمة رجل ككل الناس ليس بمعصوم عن الخطأ وليس علمه فيضاً ولو إشراقاً، بل علمه بالدرس والبحث ويُخطى ويصيب كغيره من الناس ومادام كذلك فإنه لا يحتاج إلى خارق العادات (١).

يلاحظ عليه: أن ما ذكره إنما هو عقيدة أئمة الزيدية الذين جاءوا إلى الساحة، شاهرين سيوفهم. فقاموا بالأمر في اليمن وغيره ولولاه لما استقرت إمامتهم، - بعد كونهم أفراداً عاديين - وأمياً كونه معتقد زيد فلم يبق عليه دليل، مع كونه معتقداً بإمامة الإمام على والسبطين وأبيه وأخيه - عليهم السلام - بالنص، وهو واضح لمن تتبع شوارد النصوص.

أضف إلى ذلك أن ظهور الكرامات على الأولياء والأبرار مما جوزه أكثر الفرق وإنما خالف فيه المعتزلة بشبهه أنه تبطل دلالة المعجزة على النبوة. لكن جوزه من المعتزلة ابن الأخشيد، وأبو الحسين البصري وكذا محققو الأشعرية كالجويني والغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم، وأمياً الزيدية فالمذكور في كلام الشيخ المفيد، أنهم يوافقون المعتزلة في نفي صدورهما لكن في كلام المتأخرين منهم ما يدل على العكس، فقد نقل العلامة الشيخ فضل الزنجاني في تعليقه على أوائل المقالات عن الإمام أبي الحسين يحيى بن

حمزة بن علي الحسيني الذي كان من أفاضل الزيدية ومن القائمين بالأمر باليمن (٢) في كتابه الكبير المسمى بالشامل إلى ذهاب الزيدية إلى جواز ظهورها (٣).

وياحبذا راجع أبا زهرة الكتب الفلسفية كالأشارات والشفاء للشيخ _____

(١) أبو زهرة: الإمام زيد: وكان عليه أن يلاحظ أوائل المقالات: ٤١، ٤٢ كما لاحظ سائر الموارد.

(٢) ولد بصنعاء سنة ٦٦٩ وتوفي عام ٧٤٧ وكانت مدة خلافته ٥١ سنة.

(٣) الزنجاني (١٣٠١ - ١٣٦٠): تعليقه أوائل المقالات: ٤١، طبعه تبريز.

(١٧٢)

الرئيس (١)، حتى يقف على أن صدور الكرامات من الأولياء ليس أمراً معضلاً، بل الأصول العقلية تؤيده والكتاب والسنة يوافقانه.

٦- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأصول المسلمة لدى المسلمين عامة من غير فرق بين الفرق: المعتزلة والأشاعرة والإمامية.

قال القاضي عبد الجبار: «لا خلاف بين الأمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٢). قال الشيخ المفيد: «إن الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان فرض على الكفاية بشرط الحاجة إليه لقيام الحجة على من لا علم لديه إلا بذكره...» (٣).

وهو مشروط بشروط مذكورة في كتب القوم، غير أن الشيخ أبا زهرة زعم أن الأصل المذكور، لا يجتمع مع القول بالتيقن، وزعم أن أبا

الشهداء وحفيده زيد الثائر أخذوا بالأصل الأول، وأما أباه أعني: علي زين العابدين رأى من الحكمة ألا يخرج إلا مع العدد والقوة،

ولأن تلك الحوادث (حوادث كربلاء) جعلته يشك في وجود النصراء الأقوياء في اعتقادهم، فانصرف إلى العلم غير راض ولا مطمئن

للباطل.

- ثم قال: - ومن هنا تولد عند الشيعة مبدأ التيقن وهي السكوت عن مقاومة الباطل من غير رضا به - إلى أن قال: - إن زيدا آمن بالأصل

الأول وروى إنه رخص في التيقن لكنه كان في أول حياته وفي وقت انصرافه للدراسة كان يأخذ بمبدأ التيقن، لكنه بعد أن درس الفرق

المختلفة والتقى بأهل العراق غلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤) _____).

(١) أبو علي: الإشارات: ٣/٤٩٧.

(٢) القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة: ٧٤١.

(٣) المفيد: أوائل المقالات: ٩٨.

(٤) أبو زهرة: الإمام زيد: ٢١٥ - ٢١٧.

(١٧٣)

يلاحظ عليه: أن هذا أشبه بكلام من لا يعرف موضع الأصلين ومركزهما (وأجل الشيخ أبا زهرة من أن يكون من تلك الزمرة) ويزعم

أن بين الأصلين مطاردة، وأن الزعيم الإسلامي إقياً أن يختار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يلتجئ إلى التيقن، وأنت إذا

راجعت إلى ما أسلفناه في الجزء الثالث حول الأصل الأول وفي الجزء السادس حول التيقن لعرفت أن الأصلين من الأصول الإسلامية

المتقنة ولكل موردٍ وموقفٍ حسب شروطهما وضوابطهما، فلو أن أبا الشهداء وحفيده زيد بن علي قاما بالأمر وأمرًا بالمعروف والنهي

عن المنكر لأجل ظروف فرضته عليهما، ولو كانت تلك الشروط مهياً في زمن ابنه زين العابدين وأخيه محمد بن الحنفية لقاما مثل

ما قاما، فلو نرى أن الأخيرين التزما البيت وصارا جليسيه فلظروف فرضت عليهما، ولعمر الحق أن مثل هذا الكلام من شيخ المصريين

غريب جداً إذ كيف يقول: «ومن هنا - أي قعود الإمام السجاد ومحمد الحنفية عن الأمر بالمعروف - تولد عند الشيعة مبدأ التيقن؟! أو ما

يذكر قول الله سبحانه: "إلا أن تتقوا منهم ثقاه" (آل عمران - ٢٨) أو قوله سبحانه: "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه

مطمئن بالإيمان" (النحل - ٢٨) .

أو ما قرأ كلمات المفسرين حولهما حتى عمّوا مفادهما إلى اتقاء المسلم من المسلم الظالم؟ والحق أن الشيخ أبا زهرة مع كونه كاتباً ذا صدر رحب وإطلاع وسيع وقلم سيال، لكنه يخرج الظنون بصورة الأمور الواضحة القطعية ويضفي على حدسياته صبغة الجزم.

٧- الصفات ليست غير الذات :

ذهبت العدلية - من غير فرق بين المعتزلة والإمامية والزيدية - إلى أن صفات الله الذاتية كالعلم والقدرة والحياء غير ذاته مفهوماً، وعينها مصداقاً، دفعاً لوصمة التركيب، الملازم للإمكان، المنزه عنه سبحانه، قال الشيخ المفيد: «إن الله (١٧٤)

عز وجل اسمه حتى لنفسه لا بحية وأنه قادر لنفسه، وعالم لنفسه، لا بمعنى كما ذهب إليه المشبهة من أصحاب الصفات - إلى أن قال: وهذا مذهب الإمامية كافة والمعتزلة إلا من سميناه (أبا هاشم الجبائي) وجمهور الزيدية وجماعه من أصحاب الحديث والحكمة (١). وقد تبع هؤلاء خطب الإمام علي - عليه السلام - وكلماته، فإنه أول من شق هذا الطريق، وأوضح المنهج، وحكم بحكم بات على توحيد الصفات مع الذات. قال: «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيدة، وكمال توحيدة الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه» (٢).

والعجب أن الشيخ أبا زهرة نسب عينية الصفات إلى زيد وصوره أنه من آرائه، والحق أنه من آرائه، لكنه لا بمعنى أنه ذو منهج كلامي بل كل ما نسب إليه لا يخلو من أمرين: إما أنه ليس من زيد وإنما هو من أتباعه ومقتفى أثره، أو هو من زيد ولكنه أخذه من أئمة أهل البيت - عليهم السلام -.

فقد حصص الحق وبان أن زيدا لم يكن مفكراً كلامياً غارقاً في البحوث الكلامية نظير واصل بن عطاء، أو عمرو بن عبيد أو أبي جعفر مؤمن الطاق وهشام بن الحكم، بل كان زيد رجلاً ثورياً له صلة بتفسير القرآن وجمع الروايات وعظته الناس وهدايتهم إلى الطريق المهيع.

ثم إن الشيخ أبا زهرة استخراج عقائده الكلامية - حسب ما عرفت - من _____

(١) المفيد: أوائل المقالات: ١٨.

(٢) الرضى: نهج البلاغة: الخطبة ١.

(١٧٥)

أسباب عقيمة غير منتجة وبما أنه أشار إليها في آخر كلامه نأتى بنصه، ثم بملاحظتنا، يقول:

«حاولت استخراج عقائده الكلامية من الأمور التالية:

١- أن يكون ذلك رأياً لواصل بن عطاء الذي صاحبه، وقدّر علماء النحل أنه اختار منهاجه وطريقه، أو كان كلاهما على منهاج واحد ورأى واحداً، فاعتبر كل كلام لواصل في هذه المسائل آراء للإمام زيد إلا ما ثبت أنه لم يقله، أو لم يكن من المعقول أن يكون قد قاله، كقول واصل: إن علياً في قتال معاوية لم يكن على حقّ يقيين، فليس ذلك نظر أهل البيت بالاتفاق.

٢- إن ما ينسب إلى الزيدية من أقوال ونراه في ذاته معقولاً وقريباً من منطق الإمام زيد وتفكيره فإننا نقرر أنه رأى زيد - رضى الله عنه - لأن الزيدية إذا استثنينا الجارودية منهم، يتلاقون في أكثر آرائهم مع الإمام زيد، فهم له في الجملة متبعون.

٣- إن ما يقوله بعض المتصلين به أو الذين ثبت اتصالهم به نعتبه إذا اتفق ما يقوله الزيدية أو ينسب مزيماً لنسبة تلك الأقوال إليه.

(١).

يلاحظ عليه: أن القياس الأول عقيم جداً إذ لا نعلم مدى تعاطف زيد مع واصل وزمالاته معه، حتى نتخذ عقيدة الجليس دليلاً على

عقيدة المجلس الآخر.

وأضعف منه الطريق الثاني فإنّ الزيدية كسائر الفرق، مارسوا علم الكلام وحضروا محافل البحث والنقاش ثمّ اتّخذوا موقفاً في كل مسألة، وكيف يمكن أن ينسب وليد فكر هؤلاء لزيد المحدث المفسّر غير المهتمّ إلاّ بإنهاض المسلمين ضد الطغاة وإزالتهم عن منصّة الحكم واستغلال الصلحاء بالحكم!؟

ومنه يظهر حال الطريق الثالث فلا نطيل الكلام_____.

(١) أبو زهرة: الإمام زيد: ٢٢٢ - ٢٢٤.

(١٧٤)

كل ما ذكرنا يرجع إلى زيد، وأما الزيدية فلهم عندنا حساب خاص سوف نرجع إلى إرائهم وعقائدهم في مجال الأصول والفقهاء في فصل مستقل.

زلة بعدها زلة :

قد عرفت مدى صحّة كلام الشيخ أبو زهرة في نسبه هذه الآراء إلى زيد وقد تبعه من جاء بعده، من دون ترو وتحقيق، ففرى أنّ الدكتور «أحمد محمود صبحي» يتبعه عشوائياً وينسب تلك الآراء إلى زيد حرفاً بحرف، فنسب إليه إنكار القول بالبداء، والتقية، والعصمة، والعلم اللدني، والمهدوية، وذكر أنّ آراء زيد في ذلك المجال متعارضة وآراء الإمامية وذكر أنّ مصدر كلامه هو كتاب «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» للدكتور علي سامي النشار، وأظنّ أنّه ذكره بعنوان أحد المصادر، وإلاّ فالمصدر الواقعي لكلامه هو كتاب أبي زهرة ووحده الصياغة تعرب عن عيولتهما على الشيخ وعلى كل تقدير فقد خبطوا خبطه عشواء وبذلك أفسدوا الأمر على المجتمع الإسلامي وصوروا أنّ الإمام زيد كان يخالف الرأي العام لسائر الأئمة الاثني عشر، ولعله كان هذا هو المقصد من إلقاء الحجر في الماء الراكد. وإيجاد الفرقة أو توسيعها بين الطائفتين.

قد أسفر وجه الحقيقة وبيان أنّ زيداً كان علويّ المبدأ والفكرة، ولم يكن له في الأصول والعقائد سوى ما عند العترة الطاهرة بقي الكلام من كونه صاحب مذهب فقهي خاص، على أساس منهج معين وهذا هو الذي نأخذه بالبحث.

(١٧٧)

هل كان لزيد مذهب فقهي خاص ؟

هل كان لزيد مذهب فقهي خاص كسائر المذاهب الفقهية الذائعة في عصره وبعده؟

وهل كان لزيد منهاج خاص يسير عليه في استنباطه وافتائه؟

وهل الأئمة الزيدية - وأخص بالذكر أئمة الاجتهاد منهم - مشوا على ضوء آرائه ولم يخالفوه، والفقهاء الزيدية الموجود، تبسيط لفقهاء ورأيهم؟

هذه موضوعات ثلاثة جديرة بالبحث والدراسة على ضوء ما ورثناه من زيد من الكتب، والفقهاء الزيدية الراجح اليوم.

فلنشرح الموضوع الأول فنقول:

كان زيد رجلاً عابداً زاهداً، حليف القرآن والعبادة، وتعلّم ما تعلم في أحضان والده وأخيه الإمام الباقر - عليه السلام - وروى عن عدّة من التابعين، ولم يكن موطنه يوم ذاك، مهدياً لمذهب فقهي خاص يتميز بسماته عن المذاهب الأخر حتى يكون الإمام أحدهم، ويكون له مذهب متميز عن الآخرين، وأقصى ما كان يتمتع به التابعون والراوون عنهم، هو الإفتاء في ضوء الروايات الواصلة إليهم، وتجريدها عن الاسناد، أو استثمار الضوابط التي تلقوها عن الرسول الأعظم واستخراج أحكام الجزئيات منها أو التخريج على أقوال الصحابة وغيره، وأين هذا من كونه إمام مذهب خاص له سمات وميزات، تميزه عن سائر المذاهب الفقهية، كما هو الحال في

المذاهب المعروفة ولاسيما المذاهب الأربعة؟ هذا حال زيد في موطنه، وأمّا حاله في غيره، فقد غادر المدينة كراراً، ونزل الشام والكوفة، إمّا بالجبر والاضطرار، أو بالحرية والاختيار، ولم تكن الغاية له في تلك الرحلات إلاّ إجابة الجبر، أو دعم المبدأ وإنهاض المسلمين ضد الأمويين وبالتالي، دعم الجهاد (١٧٨)

والنضال المسلح، وأين هذا من الاختلاف في أندية الدروس، ومحافل البحث والدراسة، لاستثمار ما تلقاه وصبغه بصبغة خاصة تعطى له سمة وميزة؟! وهذا ما يعطيه الامعان في حياته، والغور في الآثار الباقية منه وأقصى ما يمكن أن يقال: إنّه كان يفتي عند السؤال، بمضمون الرواية، أو ببسط الضوابط الكلية.

وبذلك يعلم حال السؤال الثاني، فإنّ المراد من المنهاج الخاص، هو القواعد الكلية الأصولية التي منها يستمد الفقه، وبها ينصبغ، فالفقه المستمد من القياس والاستحسان غير الفقه المستنبط من الكتاب والسنة والوقوف فيما لا نص فيه، ومن المعلوم أنّه لم يكن لزيد ذلك المنهاج ولو كان لسان في آثاره العلمية، أو نقله طلابه وملازمه كما هو الحال في أبي حنيفة، فقد انعكست آراؤه على فقه تلاميذه كالشيباني وأبي يوسف وغيرهما.

وأما الموضوع الثالث فالإجابة عنه سهلة، بعد الوقوف على اعتبار الاجتهاد المطلق عند الزيدية فقد فتحوا - كالإمامية - باب الاجتهاد المطلق في الفروع والأصول فخالقوا زيدا في قسم من الفروع، وركنوا إلى أصول لم يعلم الركون به من إمامهم. وإن شئت قلت: هناك فرق بين اجتهاد الأحناف، والشوافع واجتهاد أئمة الزيدية فالطائفة الأولى كانوا مجتهدين لكن مقيدين بأصول إمامهم ومناهجه. وكانوا يبذلون مساعيهم لاستكشاف آراء إمامهم في ضوء الأصول الواصلة إليهم منه. وأمّا أئمة الزيدية، فلأجل فتح باب الاجتهاد المطلق صاروا مجتهدين مستقلين ربما وافقوا إمامهم، وأحياناً خالفوه ولذلك ترى بعداً شاسعاً بين المجموع الفقهي المنقول عن الإمام زيد وكتاب الأحكام للإمام الهادي المطبوع المنتشر في جزئين، ومثله الروض النضير فالمؤلف وإن كان زيدياً، لكن كتابه هذا،

(١٧٩)

ألف على ضوء الاجتهاد المطلق، فيستهدى من روايات الصحاح والمسانيد والقواعد الدارجة بين المذاهب الأربعة التي رفضها أئمة أهل البيت أولاً ولم يثبت حجيتها عند الإمام زيد ثانياً.

يقول أبو زهرة: « يجب أن يعلم أنّ الفقه الزيدي ليس كله فقه الإمام زيد، بل هو فقه طائفة كبيرة من آل البيت كالهادي والناصر وغيرهم ممن جاءوا بعده وخصوصاً أنّ باب الاجتهاد فيه كان مفتوحاً لم يغلق (١)».

ويقول في موضع آخر في سبب انتشار المذهب الزيدي وأنّ من أسبابه: «فتح باب الاختيار من المذاهب الأخرى فقد صار هذا المذهب بهذا الاختيار حديقه غناء تلتقى فيها أشكال الفقه الإسلامي المختلفة، وأغراسه المتبائنة وجناه المختلف الألوان والطعوم، وإن كان ذلك نتيجة لفتح باب الاجتهاد فيه، فقد اختاروا باجتهادهم من المذاهب الأخرى ما يتفق مع منطق المذهب أو أصوله، وأصوله متحدة أو على الأقل متقاربة مع جملة الأصول التي قررها فقهاء المسلمين» (٢).

والحقيقة هي: أنّ المذهب الفقهي المعروف بالمذهب الزيدي في اليمن، نسبةً إلى الإمام زيد أو المذهب الهادي كما يروق للبعض اليوم أن يسميه وينسبه إلى الإمام الهادي يحيى بن الحسين ولا فارق بين الإمامين إلاّ في مسائل يسيرة جداً، نتيجة الاجتهاد المفتوح بابه في المذهب الزيدي حتى اليوم وإلى الأبد إن شاء الله - هذا المذهب لم يكن مذهب إمام معين، ولكنّه خلاصة أبحاث عميقة، ودراسات واسعة مختلفة في كل مجالات الفقه الإسلامي العظيم، وجهود مضيئة استمرت في البحث والتنقيب والتصنيف أكثر من سبعة قرون، وقام بتلك الأبحاث

(١) أبو زهرة: الإمام زيد: ٣٣١.

(٢) أبو زهرة: الإمام زيد: ٤٨٨.

(١٨٠)

والدراسات أئمة أعلام من أهل البيت النبوي الشريف ومن تابعهم من الفقهاء المجتهدين، معتمدين في كل ذلك على المحكم من كتاب الله، والصحيح من سنة رسول الله، وعلى القياس، والإجماع، وأحياناً على الاستصحاب، والاستحسان، والمناسب المرسل - المصالح المرسله - وهي التي تتفق مع المقاصد الشرعية فيما لا يوجد له نص في الكتاب أو السنة إثباتاً أو نفيًا كما سيأتي في موضعه إن شاء الله. وبسبب ذلك تصارع الأئمة وأتباعهم أزماناً عديدة مع دسائس الملحدين وأفكار المندسين، كما تعاركوا مع جبايرة الأهواء السياسية والأحقاد العنصرية، جاعلين الاخلاص رائدهم، والحق مقصدهم، ورضوان الله غايتهم (١).

ولعل حقيقة الحال تعلم من دراسة ما بقي منه من الآثار وأخص بالذكر ما طبعت وانتشرت منها فإنها مرآة ضمير الرجل، والمرء بآرائه وأفكاره_____.

(١) علي بن عبد الكريم: الزيدية نظريته وتطبيق: ١٤.

الفصل التاسع هل دعا إلى نفسه

الفصل التاسع هل دعا إلى نفسه أو دعا إلى الرضا من العترة

إن هناك فرقاً واضحاً بين إمام الثورة والجهاد - الذي يقابل الظالمين والغاصبين بالطرد والقتل، ويُعبّد الطريق لصلحاء الأمة في المستقبل حتى يتفكروا في أمرهم بعد قمع الظالمين - والإمام الذي فرضت طاعته من قبل إماماً بتنصيب من الله ورسوله أو بإتفاق من أهل الحل والعقد أو ما أشبه ذلك. وزيد الثائر لم يكن من قبيل الثاني، وإنما كان إمام الثورة والجهاد. قام بأخذ الثأر والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة العدل، وإزاحة الظلم وتدمير عرش الأمويين، فهو بهذا المعنى كان إماماً لا شك فيه، وقد أطبقت الزيدية والإمامية على كونه إماماً بهذا المعنى ومن نسب غير ذلك إلى الإمامية فهو باهت كاذب إنما الكلام في كونه الإمام المنصوص عليه بلسان النبي الأكرم وأوصيائه فلم يكن زيد إماماً بهذا المعنى ولا إماماً مختاراً من قبل الأمة ولا ادعاه هو ولا أحد من أتباعه ومقتفيه، والذي يوضح ذلك ما نص عليه الشيخ المفيد وهو من متكلمي الشيعة في القرن الرابع. روى تلميذه المرتضى:

قال: حضر المفيد مسجد الكوفة، فاجتمع إليه أكثر من خمسمائة فقال له

(١٨٢)

رجل من الزيدية - أراد الفتنة - بأى شيء استجزت إنكار إمامة زيد؟ فقال: ظننت عليّ باطلاً وقولي في زيد لا يخالفني فيه أحد من الزيدية. فقال: وما مذهبك فيه؟ قال: إنني أثبت من إمامة زيد ما تثبته، وأنفي ما تنفيه وأقول كان إماماً في العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنفي عنه الإمامة الموجبة لصاحبها العصمة والنص والمعجزة، وهذا ما لا يخالفني عليه أحد من الزيدية، فلم يتمالك من حضر من الزيدية أن شكره ودعوا له وبطلت حيلة الرجل (١).

ولعل الجوّ السائد على مجلس المناظرة - كما يظهر من كلام تلميذه الجليل السيد المرتضى - لم يسمح للشيخ المفيد، أن ينفي حتى الشق الثاني وهو كونه إماماً مفترضة طاعته باختيار الأمة.

نعم تصافرت الروايات على بيعه جماعة كثيرة معه لكن متعلق البيعة، هو الجهاد والنضال، وكونه أميره ورائده لا على الإمامة بعد النجاح واكتساح الأشواك.

نعم أن الطائفة الزيدية المتشكلة بعد رحيل الإمام الثائر زعموا أنه ادعى الإمامة لنفسه وكان الجهاد، لرفع الموانع عن طريق إمامته وحاكميته وقد اغتروا بظواهر الأمر، ولم يتدبروا في القرائن الحافّة به.

وبذلك الزعم - صارت الإمامة عند الإمامية غيرها عند الزيدية وذلك:

إن مفهوم الإمامة لدى الشيعة الإمامية غيرها لدى الزيدية، فالطائفة الأولى تشترط في الإمام النص والعصمة والمعجزة وكونه أعلم الأمة وأفضلها سواء أقام بالسيف أم لا، وإنما يتبع في القيام والجهد مصالح الأمة الإسلامية فهي بين ما يفرض عليه القيام والجهد أو يفرض عليه إرشاد الأمة عن طريق آخر_____.

(١) المرتضى: الفصول المختارة: ٢٧٧.

(١٨٣)

وهذا بخلاف الإمامة لدى الزيدية فلا يشترط فيها ما ذكرنا، قال الشيخ المفيد: الإمامة علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان، وأوجب النصّ الجلي والعصمة والكمال لكل إمام، ثم حصر الإمامة في ولد الحسين بن علي - عليهما السلام - وساقها إلى الرضا علي بن موسى الرضا.

وأما الزيدية فهم القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والحسن والحسين وزيد بن علي - عليهم السلام، - وبإمامة كل فاطمي دعا إلى نفسه وهو علي ظاهر العدالة، ومن أهل العلم والشجاعة وكانت بيعته على تجريد السيف للجهد (١).

وقال ابن المرتضى: «الزيدية منسوبة إلى زيد بن علي - عليه السلام - يجمع مذهبهم تفضيل علي - عليه السلام - وأولويته بالإمامة وقصرها في البطنين، واستحقاقها بالفضل والطلب لا بالوراثة ووجوب الخروج على الجائرين (٢).

والذي يعرب عن موقفه في الإمامة ما جاء في خطبه وفيها هذه الجمل التالية:

كلمات لزيد تعرب عن موقفه:

١ - الحمد لله الذي أكمل لي ديني بعد أن كنتُ استحيى من رسول الله أن أردد عليه ولم أمر أمته بمعروف ولم أنه عن منكر (٣)

٢ - واعلموا أنه ماترك قوم الجهاد قط إلا حُفروا وذُلوا (٤) _____

(١) المفيد: أوائل المقالات: ٨.

(٢) ابن المرتضى: البحر الزخار: ١/٤٠ وسيوافيك تفصيل عقيدتهم في الإمامة فانتظر.

(٣) السياغي: الروض النضير: ١/١٠٢.

(٤) المصدر نفسه.

(١٨٤)

٣ - أيها الناس أعينوني على أنباط الشام فوالله لا يعينني عليهم منكم أحد إلا رجوت أن يأتيني يوم القيامة آمناً... (١).

ولأجل ذلك تضافرت الروايات من طرقنا على أن زيدا ما دعا إلى نفسه وإنما دعا إلى الرضا من آل محمد، وأنه لو ظفر لوفى، ومعنى

هذه الروايات أنه كان يمهد الطريق لولاية الإمام المنصوص عليه في لسان النبي والأئمة الصادقين، وإليك بعض النصوص:

١ - قال الصادق - عليه السلام: - إن زيدا كان مؤمناً وكان عارفاً وكان صدوقاً أما إنه لو ظفر لوفى، أما إنه لو ملك عرف كيف يضعها (٢).

٢ - وقال - عليه السلام: - إن زيدا كان عالماً وكان صدوقاً ولم يدعكم إلى نفسه وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر

لوفى بما دعاكم إليه، وإنما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه (٣).

٣ - وقال الإمام الرضا - عليه السلام - في جواب سؤال المأمون عن ادعاء زيد ما لم يكن له بحق:

إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق، وإنه كان أتقى لله من ذلك أنه قال: ادعوكم إلى الرضا من آل محمد، وإنما جاء ما جاء

فيمن يدعى أن الله نصّ عليه ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم وكان زيد بن علي والله ممن خوطب بهذه الآية!

"وجاهدوا في الله حق جهاده (٤)".

إن الإمام الرضا _ عليه السلام _ نصَّ على موقف زيد من الإمامة وهو أنه كان _____

(١) المصدر نفسه: ١٢٧/١ - ١٢٨، والأنباط: أخلاط الناس وعوامهم.

(٢) الكليني: الكافي: الروضة الحديث ٣٨١.

(٣) الكشي: الرجال: ترجمه السيد إسماعيل الحميري: برقم ١٤٤ ص ٢٤٢.

(٤) عيون أخبار الرضا، الباب ٢٥، ص ٢٤٩. وسوافيك تفصيل المذاكرة بينهما ص ١٩٩ فلاحظ.

(١٨٥)

إمام الجهاد وقد جسّد قوله سبحانه: «وجاهدوا في الله حقّ جهاده» (١) وأين هو من الإمامة المنصوص عليها من جانب الله بلسان نبيه وأوصيائه السابقين أو الإمام المختار من جانب الأمة. ولو كان زيد يتظاهر بالإمامة فإنما كان لغاية كسح الأشواك عن طريقها ثم تسليم الأمر إلى الإمام المنصوص.

إنّ هناك نكتة اجتماعية وهي أنّ زيدا قام موطناً نفسه على الشهادة، ومستميماً متيقناً بأنّه سوف يقتل ويستشهد، وقد سمع من أبيه وأخيه وابن أخيه أنه سوف يقتل ويصلب في الكناسة، وأنّه لم يكن شاكاً ولا متردداً في هذا الأمر ومن كان هذا مآله ومستقبله فهل يمكن أن يدعى الإمامة بالمعنى المعروف بين المتكلمين أي قيادة الأمة في جوانب شتى إلى الصلاح والفلاح، فإنّ القيام بهذا الواجب فرع الحياة وهو كان على الطرف الخلاف من هذا، فلم يبق إلا أن يكون أميراً في الجهاد قائداً في النضال، وإن قصرت حياته، وقلّ بقاؤه.

اعترافه بإمامة الإمام الصادق _ عليه السلام _:

١- إنّ زيدا كان معترفاً بإمامة ابن أخيه جعفر الصادق _ عليه السلام _ بلا كلام، وكان يقول: من أراد الجهاد فإليّ، ومن أراد العلم فإليّ ابن أخى جعفر (٢).

٢- روى الصدوق في الأمالي: عن عمرو بن خالد: قال زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: في كل زمان رجل منّا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، حجّة زماننا ابن أخى جعفر بن محمد لا يضل من تبعه ولا يهتدى من خالفه (٣).

(١) سيأتي نصّ الإمام: في ص ١٩٩ - ٢٠٠ في ضمن الرواية الثالثة عشرة.

(٢) الخزاز القمي: كفاية الأثر: ص ٣٠٢.

(٣) الصدوق: الأمالي: ٥٤٢ بحار الأنوار: ١٧٣/٤٦.

(١٨٦)

٣- روى الكشي عن عمار الساباطي، قال: كان سليمان بن خالد خرج مع زيد بن علي، قال: فقال له رجل ونحن وقوف في ناحية وزيد واقف في ناحية: ماتقول في زيد أهو خير من جعفر؟ قال سليمان: قلت والله ليوم من جعفر خير من زيد أيام الدنيا، فحرّك رأسه وأتى زيدا وقصّ عليه القصة فمضيت فانتهيت إلى زيد وهو يقول: جعفر إمامنا في الحلال والحرام (١).

٤- إنّ يحيى بن زيد سأل أباه عن الأئمة، فقال: الأئمة اثنا عشر، أربعة من الماضين وثمانية من الباقيين فقلت: فسّمهم يا أبة. فقال: أمّا الماضون فعلى بن أبي طالب والحسن والحسين، وعلى بن الحسين، ومن الباقيين أخى الباقر وبعده جعفر الصادق ابنه، وبعده موسى ابنه، وبعده علي ابنه، وبعده محمد ابنه، وبعده علي ابنه، وبعده الحسن ابنه، وبعده المهدي ابنه، فقلت له يا أبة: ألسنت منهم؟

قال: لا، ولكنى من العترة، فقلت: فمن أين عرفت أساميهم؟ قال: عهد معهود عهدنا رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ (٢)

٥- روى محمد بن مسلم: دخلت على زيد بن علي وقلت: إنّ قوماً يزعمون أنّك صاحب هذا الأمر، قال: لا ولكنى من العترة، قلت: فلمن يكون هذا الأمر بعدكم؟ قال: سبعة من الخلفاء المهدي منهم.

قال محمد بن مسلم: دخلت على الباقر محمد بن علي _ عليهما السلام _ فأخبرته بذلك فقال: صدق أخى زيد، سبيل هذا الأمر

بعدي سبعة من الأوصياء والمهدي منهم، ثم بكى _ عليه السلام _ وقال: وكأني به وقد صُلب في الكناسه. يابن مسلم حدثني أبي عن أبيه الحسين: قال: وضع رسول الله يده على كتفي، قال: _____:

(١) الكشي: الرجال: ترجمه سليمان بن خالد برقم: ٢٠٥ ص ٣٠٨.

(٢) الخزاز: كفاية الأثر: ٣٠٠ وسيوافيك تذييل الخزاز بعد هذا الحديث، ورواياتها مسانيد، لا مراسيل اقتصرنا على نقل المتون روماً للاختصار.

(١٨٧)

ياحسين يخرج من صلبك رجل يقال له زيد، يُقتل مظلوماً إذا كان يوم القيامة حشر أصحابه إلى الجنة (١).

٦- روى الخزاز عن عبد العلاء ... قلت: فأنت صاحب الأمر؟ قال: لا- ولكني من العتره، قلت: فإلى من تأمرنا؟ قال: عليك بصاحب الشعر وأشار إلى الصادق - عليه السلام - (٢).

٧- روى الخزاز قال: عن المتوكل بن هارون قال: لقيت يحيى بن زيد بعد قتل أبيه وهو متوجه إلى خراسان، فما رأيت رجلاً في عقله وفضله، فسألته عن أبيه _ عليه السلام _ فقال: إنه قتل وصلب بالكناسه ثم بكى وبكى حتى غشى عليه. فلما سكن قلت له: يا ابن رسول الله وما الذي أخرجه إلى قتال هذا الطاغى وقد علم من أهل الكوفه ما علم؟ فقال: نعم لقد سألته عن ذلك فقال: سمعت أبي - عليه السلام - يحدث عن أبيه الحسين بن علي _ عليهما السلام _ قال: وضع رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ يده على صليبي فقال: ياحسين يخرج من صلبك رجل يقال له: زيد يقتل شهيداً إذا كان يوم القيامة يتخطى هو وأصحابه رقاب الناس ويدخل الجنة، فأحببت أن أكون كما وصفني رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _.

ثم قال: رحم الله أبي زيدا، كان والله أحد المتعبدين، قائم ليله، صائم نهاره يجاهد في سبيل الله عز وجل حق جهاده. فقلت: يا ابن رسول الله هكذا يكون الإمام بهذه الصفة. فقال: يا أبا عبد الله إن أبي لم يكن إماماً ولكن كان من سادات الكرام وزهادهم، وكان من المجاهدين في سبيل الله، وقد جاء عن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فيمن ادعى الإمامه كاذباً، فقال: مه يا أبا عبد الله إن أبي - عليه السلام - كان أعقل من أن يدعى ما ليس له بحق وإنما قال: «أدعوكم إلى الرضا _____»

(١) الخزاز: كفاية الأثر: ٣٠٦.

(٢) الخزاز: كفاية الأثر: ٣٠٧.

(١٨٨)

من آل محمد» عنى بذلك عمي جعفر. قلت: فهو اليوم صاحب هذا الأمر؟ قال: نعم هو أفقه بني هاشم.

ثم قال: يا أبا عبد الله إنني أخبرك عن أبي _ عليه السلام _ وزهده وعبادته، إنه كان يصلي في نهاره ما شاء الله، فإذا جنّ عليه الليل نام نومه خفيفه، ثم يقوم فيصلّي في جوف الليل ما شاء الله، ثم يقوم قائماً على قدميه يدعو الله تبارك وتعالى ويتضرع له ويبكي بدموع جارئة حتى يطلع الفجر. فإذا طلع الفجر سجد سجدة. ثم يقوم يصلي الغداة إذا وضح الفجر، فإذا فرغ من صلاته قعد في التعقيب إلى أن يتعالى النهار، ثم يقوم في حاجته ساعة، فإذا قرب الزوال قعد في مصلاه فسبح الله تعالى ومجده إلى وقت الصلاة، فإذا حان وقت الصلاة قام فصلّي الأولى وجلس هنيهة وصلى العصر وقعد تعقبه ساعة، ثم سجد سجدة فإذا غابت الشمس صلى العشاء والعتمة. قلت: كان يصوم دهره؟ قال: لا ولكنه كان يصوم في السنة ثلاثة أشهر ويصوم في الشهر ثلاثة أيام. قلت: فكان يفتي الناس في معالم دينهم؟ قال: ما أذكر ذلك عنه. ثم أخرج إليّ صحيفة كاملة فيها أدعية علي بن الحسين _ عليهما السلام _ (١)

٨- روى الخزاز في حديث طويل عن محمد بن بكير قال: دخلت على زيد بن علي وعنده صالح بن بشر فسلمت عليه وهو يريد الخروج إلى العراق فقلت له: يا بن رسول الله... هل عهد إليكم رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ متى يقوم قائمكم؟ قال: يا ابن بكير إنك لن تلحقه، وإن هذا الأمر تليه ستة من الأوصياء بعد هذا ثم يجعل الله خروج قائمنا، فيملأها قسطاً وعدلاً، كما ملئت

جوراً وظلماً، فقلت: يا ابن رسول الله ألسنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: أنا من العترة، فعدت فعاد إليّ فقلت: هذا الذي تقول، عنك أو عن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم؟ _ فقال: لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، لا ولكن عهد عهده إلينا رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم، _ ثم أنشأ يقول _____:

(١) الخزاز: كفاية الأثر: ٣٠٣.

(١٨٩)

نحن سادات قريش * وقوام الحقّ فينا
نحن أنوار التي من * قبل كون الخلق كُنّا
نحن منّا المصطفى المختار * والمهدى منّا
فبنا قد عرف الله * وبالحق أقمنا
سوف يصلاه سعيراً من * تولى اليوم عنّا (١) ٩- روى ابن شهر آشوب قال: ونسب إلى زيد أنّه رثا الباقر _ عليه السلام _ بهذه الآيات:

ثوى باقر العلم في ملحد * إمام الورى طيب المولد
فمن لى سوى جعفر بعده * إمام الورى الأوحد الأمجد
أيا جعفر الخير أنت الإمام * وأنت المرجى لبلوى غد (٢)
نصوص الإمامية في تفسير خروجه:

نعم تفرقت الشيعة بعد استشهاده إلى فرقتين فرقة تقتفى زيد بن على وتراه إماماً وفرقة أخرى تقتفى الإمام الصادق _ عليه السلام _ وكان بينهما نقاشات وخلافات نشبت من الجهل بموقف زيد، ولو كان لهم علم به لما كان لهذا الانقسام وجه، وقد أوضحه أعلام الإمامية في كتبهم وإليك بعض كلماتهم:

١- قال شيخنا المفيد في إرشاده وقال: واعتقد كثير من الشيعة فيه بالإمامة وكان سبب اعتقادهم ذلك فيه خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمد _____
(١) الخزاز: كفاية الأثر: ٢٩٧.

(٢) ابن شهر آشوب: المناقب: ١٩٧/٤ طبعه بيروت. وقد مرّت الأشعار في الفصل الثالث أيضاً بمناسبة بيان خطبه وأشعاره.
(١٩٠)

فظنّوه يريد بذلك نفسه، ولم يكن يريد بها لمعرفته باستحقاق أخيه - عليه السلام - للإمامة من قبله ووصيته عند وفاته إلى أبى عبد الله (١).

٢- قال أبو القاسم القمي الخزاز - بعد نقل كلام يحيى بن زيد - الذى تعرفت عليه: فإن قال قائل: فزيد بن على إذا سمع هذه الأخبار وهذه الأحاديث من الثقات المعصومين وآمن بها واعتقدها. فلماذا خرج بالسيف وادّعى الإمامة لنفسه وأظهر الخلاف على جعفر بن محمد وهو بالمحل الشريف الجليل، معروف بالستر والصلاح، مشهور عند الخاص والعام بالعلم والزهد، وهذا ما لا يفعله إلا معاند أو جاحد، وحاشا زيداً أن يكون بهذا المحل؟

فأقول في ذلك وبالله التوفيق: إنّ زيد بن على بن الحسين _ عليهم السلام _ خرج على سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا على سبيل المخالفة لابن أخيه جعفر بن محمد _ عليهما السلام _، وإنّما وقع الخلاف من جهة الناس، وذلك أنّ زيد بن على _ عليه السلام _ لما خرج ولم يخرج جعفر بن محمد - عليهما السلام - توهم من الشيعة أنّ امتناع جعفر كان للمخالفة وإنّما كان لضرب من التدبير، فلمّا رأى الذين صاروا للزيدية سلفاً قالوا: ليس الإمام من جلس فى بيته وأغلق بابه وأرخصى ستره وإنّما الإمام من خرج بسيفه

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فهذا كان سبب وقوع الخلاف بين الشيعة، وأمّا جعفر وزيد - عليهما السلام - فما كان بينهما خلاف.

والدليل على صحة قولنا قول زيد بن علي - عليه السلام: «من أراد الجهاد فإلى ومن أراد العلم فإلى ابن أخي جعفر» ولو ادعى الإمامة لنفسه لم ينف كمال العلم عن نفسه إذ الإمام يكون أعلم من الرعية، ومن المشهور قول جعفر - عليه السلام - «رحم الله عمي زيدا لو ظفر لوفاه إنّما دعا إلى الرضا من آل محمد وأنا الرضا» (٢) _____).

(١) الإرشاد: ٢٦٨، طبعه النجف الأشرف.

(٢) الخزاز القمي: كفاية الأثر: ٣٠١ - ٣٠٢.

(١٩١)

٣- قال شيخنا المجلسي: أعلم أنّ الأخبار اختلفت وتعارضت في أحوال زيد وأضرابه كما عرفت لكن الأخبار الدالة على جلالته زيد ومدحه، وعدم كونه مدعياً لغير الحق أكثر، وقد حكم أكثر الأصحاب بعلو شأنه (١).

وقال أيضاً: «وكان يدعو إلى الرضا من آل محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنّه كان عازماً على أنّه إن غلب على الأمر فوضه إلى أفضلهم وإليه ذهب أكثر أصحابنا ولم أر في كلامهم غيره (٢).

٤- وقال الزنوزي في رياض الجنّة: إنّ زيد بن علي كان دائماً في فكر الانتقام والأخذ بثأر جده الحسين - عليه السلام - ومن هذه الجهة توهم بعضهم أنّه ادعى الإمامة وهذا الظن خطأ لأنّه كان عارفاً برتبة أخيه وكان حاضراً في وقت وصية أبيه ووضع أخيه في مكانه وكان متيقناً أنّ الإمامة لأخيه وبعده للصادق - عليه السلام - (٣).

٥- وعن السيد الجليل بهاء الدين علي بن عبد الحميد النبلي النجفي رضوان الله عليه في كتابه الأنوار المضيئة أنّه قال: زعم طوائف ممن لا رشد لهم أنّ زيد بن علي بن الحسين - عليهم السلام - خرج يدعو لنفسه وقد افتروا عليه الكذب، وبهتوه بما لم يدعه لأنّه كان عين إخوته بعد أبي جعفر - عليه السلام - وأفضلهم ورعاً وفقهاً وسخاءً وشجاعاً وعلماً وزهداً وكان يُدعى حليف القرآن وحيث إنّّه خرج بالسيف ودعا إلى الرضا من آل محمد زعم كثير من الناس لا سيما جهال أهل الكوفة هذا الزعم، وتوهموا أنّه دعا إلى نفسه ولم يكن يريد لها لمعرفته باستحقاق أخيه الإمامة من قبله وابن أخيه لو وصية أخيه إليه بها من بعده - إلى أن قال: - وقد انتشرت الزيدية فكثروا وهم الآن طوائف كثيرة في كل صقع أكثرهم باليمن ومكة وكيان (٤) _____).

(١) المجلسي: البحار: ٢٠٥|٤٦ ومرآة العقول: ٢٦١|١.

(٢) المجلسي: البحار: ٢٠٥|٤٦ ومرآة العقول: ٢٦١|١.

(٣) السيد الأمين: زيد الشهيد: ٣٥، نقلاً عن رياض الجنّة وهي بعد مخطوطة.

(٤) المصدر نفسه: ٣٥ - ٣٦.

(١٩٢)

٦- وقال السيد صدر الدين: «لو لم يظهر الصادق - عليه السلام - عدم الرضا بخروجه، ويصوب أصحابه في معارضتهم وإسكاتهم إياه، ولم يجب بالإبهام والاعجام عند السؤال عن خروجه، لكان في ذلك نقض الغرض والتعريض بهلاك الإمام (١).

٧- قال السيد علي خان المشعشي الحويزي في كلام له: «ولا ريب أنّ قصده ونيته إن استقام له الأمر إرجاع الحق إلى أهله ويدلّ على ذلك رضاهم عنه، وإنّما لم يمنعه أبو عبد الله الصادق - عليه السلام - من الخروج مع علمه بأنّ هذا الأمر لا يتم له وأنّه يقتل لأنّهم - عليهم السلام - يعلمون ما يقع بهم وبذريتهم، وما قدر لهم لأنّ عندهم علم ما كان وما يكون، وكان يعلم أن لا مفر مما قدر فلا وجه للمنع (٢).

أ.

٨- وقال المحقق المامقاني: «إنما ادعى الإمامة ليتبعوه فيستنقذ الحق من المتغلبين، ثم يسلمه إلى أهله والظاهر أن هذا هو الضرب من التدبير الذي أشار إليه العياشي في كتابه مقتضب الأثر (٣)

لما كانت الروايات المروية عن زيد على قسمين، قسم ورد التصريح فيه بأسماء الأئمة الاثني عشر كالرواية الرابعة وقسم أجمل فيه الكلام، كسائر الروايات التالية، علّق عليها السيد عبد الرزاق المقرم بما يلي:

٩ وقال السيد المقرم: وهذه الأحاديث وإن لم تصرح بأسماء الأئمة الذين يلون الخلافة من عتره النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لكن تفيدنا القطع ببراءته _____

(١) السيد صدر الدين بن الفقيه السيد محمد العاملي في تعليقه على ترجمة زيد من منتهى المقال وهي مخطوطة. لاحظ زيد الشهيد للسيد المقرم: ٨٧.

(٢) الحويزي: نكت البيان: كما في وقائع الأيام لشيخنا الخياباني قسم الصيام: ٤٤.

(٣) المامقاني: تنقيح المقال: ١/ ٤٦٩ - ٤٧٠. ما نقله من كتاب مقتضب الأثر للعياشي فإنما هو الخزاز في كتابه: كفاية الأثر، وليس في الكتاب الأول عين ولا أثر ممّا نقله.

(١٩٣)

من تلك الدعاوى الفارغة من كل حقيقة، وأنه طاهر الضمير، قابل لايداع أسرار الإمامة فيه ومع ملاحظة رواية ابنه يحيى (الرابعة) يتضح المراد مما أجمل في هذه الأحاديث.

ولو أعرضنا عن جميع ذلك لأفادنا اعترافه باستحقاق الصادق - عليه السلام - للخلافة بعد الباقر - عليه السلام - وأنه الحجية التي لا يضل من تبعه، ولا - يهتدى من خالفه، سلوكه المحجّية البيضاء والطريق اللائح في الإمامة. وهل يقع الشك في اعترافه بإمامة الصادق - عليه السلام - وهو يقول لعبد الله بن أبي العلاء (الرواية السادسة) وقد قال له: «أنت صاحب هذا الأمر، قال: لا ولكنني من العتره - قال له: - فإلى من تأمرني، قال: عليك بصاحب الشعر».

روى الكشي عن سورة بن كليب قال: قال لي زيد بن علي: يا سورة كيف علمتم أن أصحابكم على ما تذكرونه؟ قال: قلت علي الخبير سقطت. قال فقال: هات! فقلت له: كُنّا نأتي أخاك محمد بن علي - عليه السلام - نسأله فيقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال الله عزّ وجلّ في كتابه حتى مضى أخوك فأتيناكم وأنت فيمن أتينا، فتخبرونا ببعض ولا تخبرونا بكل الذي نسألكم عنه، حتى أتينا ابن أخيك جعفرًا فقال لنا كلما قال أبوه قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال تعالى، فتبسّم وقال: أما والله إن قلت بذا فإنّ كتب علي صلوات الله عليه عنده (١)

ثم إن السيد المقرم - بعد المناقشة في دلاله أو سند الروايات الدائمة ونقدها نقداً علمياً - يقول: «من جميع ما مر فقد تجلّى الحق، وانكشف بطلان دعواه الإمامة لنفسه عن جد وعقيدة، وما هي إلا أساطير لفقهاء دعاة الباطل للحط من كرامة تلك الذات الطاهرة بغضاً وعدواناً، وإن تكن تلك الدعاوى، فإنما الغرض منها استنقاذ الحق من أيدي المتغلبين عليه، ولأه الجور وأرباب الباطل وإعادته

(١) الكشي: الرجال: ترجمه سورة بن كليب برقم ٢٤٠.

(١٩٤)

إلى أهله كما يفصح عنه قول الصادق - عليه السلام: «كان زيد عالماً وصدوقاً ولم يدعكم إلى نفسه وإنما دعاكم إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى بما دعا إليه» وهذا من أهم الوسائل إلى استحصال الحق المغصوب، وإعادة سلطان العدل إلى أهله، ولو أعلن الدعوة للإمام الصادق - كما يريد ضعيف النظر، قاصر البصيرة، لرأيت هناك الأضرار البالغة التي تلحق الإمام من أئمة الجور " تكاد السموات يتفطرن منه وتتسقى الأرض وتخرّ الجبال " (١).

(١) السيد المقرم: زيد الشهيد: ٦٣ و ٨٦.

(١٩٥)

الفصل العاشر موقف أئمة أهل البيت

الفصل العاشر موقف أئمة أهل البيت من خروج زيد وجهاده إن موقف أئمة أهل البيت _ عليهم السلام _ من خروج ثائرهم، كان إيجابياً، لا- سلبياً وكانوا يرون أن خروجهم ونضاله، مطابق للكتاب والسنة، بمعنى أن الخروج حين ذاك لم يكن تكليفاً إلزامياً على الإمام ولا على غيره، ولكنه لو خرج مسلم لإزالة الطغاة عن منصبة الحكم، وتبديد هياكل الفساد والظلم، من دون أن يدعو إلى نفسه، كان على المسلمين عونهم ومناصرته، وإجابة دعوته.

وكان خروج زيد على هذا الخط الذي رسمناه وهذا ما يستفاد من الروايات المستفيضة، وإليك بعض ما وقفنا عليه:

١- لما بلغ قتل زيد إلى الإمام الصادق _ عليه السلام _ قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحسب عمي إنه كان نعم العم. إن عمي كان رجلاً لديانا وآخرتنا، مضى والله عمي شهيداً كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلى والحسين صلوات الله عليهم» (١).

(١) الصدوق: عيون أخبار الرضا _ عليه السلام: ١/ ٢٥٢ ح ٦، الباب ٢٥.

(١٩٦)

٢- وقال أيضاً في حديث: «إن الباكي على زيد فمعه في الجنة، فإما الشامت فشريك في دمه» (١)

٣- وقال الشيخ المفيد: لما قتل زيد بلغ ذلك من أبي عبد الله - عليه السلام - كل مبلغ، وحزن له حزناً عظيماً حتى بان عليه وفزق من ماله في عيال من أصيب معه من أصحابه ألف دينار. روى ذلك أبو خالد الواسطي قال: سلم إلى أبو عبد الله _ عليه السلام _ ألف دينار أمرني أن أقسمها في عيال من أصيب مع زيد، فأصاب عيال عبد الله بن الزبير أخى فضيل الرسان أربعة دنانير (٢).

٤- روى ابن سيابة قال: دفع إلى أبو عبد الله الصادق جعفر بن محمد - عليهما السلام - ألف دينار وأمرني أن أقسمها في عيال من أصيب مع زيد بن علي - عليه السلام - فقسمتها فأصاب عبد الله بن الزبير أخا فضيل الرسان أربعة دنانير (٣).

٥- روى الصدوق عن عبد الله بن سيابة أنه أتى رسول بسام الصيرفي بكتاب فيه: أما بعد، فإن زيد بن علي قد خرج يوم الأربعاء غرة صفر، ومكث الأربعاء والخميس وقتل يوم الجمعة، وقتل معه فلان وفلان، فدخلنا على الصادق _ عليه السلام _ فدفعنا إليه الكتاب، فقرأه وبكى، ثم قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون. عند الله أحسب عمي، إنه نعم العم، إن عمي كان رجلاً لديانا وآخرتنا...» إلى آخر ما مر في الحديث الأول (٤).

٦- روى ابن شهر آشوب بلغ الصادق _ عليه السلام _ قول الحكيم بن عباس الكلبي: _____:

(١) بحار الأنوار: ٤٦/ ١٩٣ ح ٦٣.

(٢) المفيد: الإرشاد: ٢٦٩، الباب ١٧٥، حياة الإمام علي بن الحسين، لاحظ الحديث العاشر أيضاً.

(٣) الصدوق: عيون أخبار الرضا _ عليه السلام: ١/ ٢٤٩، بحار الأنوار: ٤٦/ ١٧٠.

(٤) الصدوق: عيون أخبار الرضا _ عليه السلام: ١/ ٢٤٩؛ الباب ٢٥.

(١٩٧)

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة * ولم أر مهدياً على الجذع يصلب

وقستم بعثمان علياً سفاهة * وعثمان خير من علي وأطيب فرفع الصادق _ عليه السلام _ يديه إلى السماء وهما يرعشان. فقال: «اللهم

إن كان عبدك كاذباً فسلط عليه كلبك»، فبعثه بنو أمية إلى الكوفة فينما هو يدور في سببها افترسه الأسد واتصل خبره بجعفر - عليه السلام، - فخر لله ساجداً، ثم قال: «الحمد لله الذي أنجزنا وعده» (١).

٧- روى الصدوق في معاني الأخبار، قال: كنا عند أبي عبد الله فذكر زيد، ومن خرج معه، فهم بعض أصحاب المجلس أن يتناوله، فانتهره أبو عبد الله، وقال: «مهلاً ليس لكم أن تدخلوا فيما بيننا إلا بسبيل خير، إنه لم تمت نفس منا إلا وتدركه السعادة قبل أن تخرج نفسه ولو بفواق الناقة» قلت: وما فواق الناقة؟ قال: «حلابها» (٢).

٨- روى الحلبي: قال قال أبو عبد الله - عليه السلام: «إن آل أبي سفيان: قتلوا الحسين بن علي - صلوات الله عليه - فنزع الله ملكهم، وقتل هشام زيد بن علي فنزع الله ملكه، وقتل الوليد يحيى بن زيد فنزع الله ملكه» (٣).

٩- روى الصدوق بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: انتهيت إلى زيد بن علي صبيحة يوم خرج بالكوفة، فسمتعه يقول: من يعينني منكم على قتال أنباط أهل الشام؟ فوالذي بعث محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - بالحق بشيراً ونذيراً لا يعينني على قتالهم منكم إلا أخذت بيده يوم القيامة، فأدخلته الجنة بإذن الله تعالى، فلما قتل - رضى الله عنه - اكرتت راحله وتوجهت نحو المدينة فدخلت

(١) المناقب: ٣/٣٦٠، بحار الأنوار: ٤٦/١٩٢.

(٢) معاني الأخبار: ٣٩٢، بحار الأنوار: ٤٦/١٧٩.

(٣) الصدوق: ثواب الأعمال وعقابها: ١٩٨، بحار الأنوار: ٤٦/١٨٢.

(١٩٨)

على أبي عبد الله فقلت في نفسي والله لا أخبرته بقتل زيد فيخرج عليه، فلما دخلت عليه قال: «ما فعل بعمي زيد؟! فخنقتني العبرة، فقال: «قتلوه؟» قلت: أي والله قتلوه، قال: «فصلبوه؟» قلت: أي والله فصلبوه، فأقبل يبكي ودموعه تنحدر من جانب خده كأنها الجمان ثم قال: «يا فضيل شهدت مع عمي زيد قتال أهل الشام؟» قلت: نعم، قال: «فكم قتلت منهم؟» قلت: ستة، قال: «فلعلك شاك في دمائهم؟» فقلت: لو كنت شاكاً في دمائهم ماقتلتهم، فسمتعه يقول: «أشركني الله في تلك الدماء، مضى والله عمي وأصحابه مثل ما مضى عليه علي بن أبي طالب - عليه السلام - وأصحابه» (١).

١٠- وروى الصدوق عن حمزة بن حرمان قال: دخلت على الصادق - عليه السلام - فقال لي: «يا حمزة من أين أقبلت؟» فقلت: من الكوفة، فبكي حتى بليت دموعه لحيته! فقلت له: يا بن رسول الله! مالك أكثرت من البكاء؟ فقال: «ذكرت عمي زيد وما صنع به فبكيته» فقلت له: وما الذي ذكرت منه؟ قال: مقتله وقد أصاب جبينه سهم، فجاءه ابنه يحيى فانكب عليه وقال له: أبشر يا أبتاه! فإنك ترد على رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين - عليهم السلام - قال: أجل يابني! ثم دعا بحداد فنزع السهم من جبينه، فكانت نفسه معه، فجيء به إلى ساقية تجرى عند بستان زائدة، فحفر له فيها ودفن وأجرى عليه الماء، وكان معهم غلام سندی لبعضهم، فذهب إلى يوسف بن عمر - لعنه الله - من الغد، فأخبره بدفنه وإياه، فأخرجه يوسف وصلبه في الكناسة أربع سنين، ثم أمر به فأحرق بالنار وذرى في الرياح، فلعن الله قاتله وخاذله، وإلى الله جل اسمه أشكو ما نزل بنا أهل بيت نبيه بعد موته، وبه نستعين على عدونا وهو خير مستعان (٢) _____.

(١) عيون أخبار الرضا - عليه السلام: ١/٢٥٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٣٢١، المجلس: ٦٢ ح ٣؛ وأمالي الطوسي: ٢/٤٨؛ والمجلسي: البحار: ٤٦/١٧٢.

(١٩٩)

١١- قال الصادق - عليه السلام - لأبي ولأد الكاهلي: «رأيت عمي زيدا؟» قال: نعم رأيت مصلوباً، ورأيت الناس بين شامت وبين محزون محترق، فقال: «أما الباكي فمعه في الجنة وأما الشامت فشريك في دمه» (١).

١٢- روى الراوندى عن الحسن بن راشد قال: ذكرت زيد بن علي فتتقّصته عند أبي عبد الله - عليه السلام - فقال: «لاتفعل، رحم الله عمي أتى أبي، فقال: إنني أريد الخروج على هذا الطاغية. فقال: لاتفعل، فإنني أخاف أن تكون المقتول المصلوب على ظهر الكوفة - إلى أن قال الإمام - عليه السلام - للحسن: - يا حسن إننا أهل بيت لا يخرج أحدنا من الدنيا حتى يقر لكل ذي فضل فضله» (٢).

١٣- روى الصدوق عن أبي عبدون عن أبيه قال: لما حمل زيد بن موسى بن جعفر إلى المأمون، وكان قد خرج بالبصرة، وأحرق دور ولد العباس، ووهب المأمون جرمه لأخيه علي بن موسى الرضا - عليه السلام - وقال له: لئن خرج أخوك وفعل ما فعل، لقد خرج من قبله زيد بن علي فقتل ولولا مكانتك لقتلته فليس ما أتاه بصغير! فقال: - عليه السلام - له:

«لا- تقس أخى زيدا إلى زيد بن علي فإنه كان من علماء آل محمد - عليهم السلام - غضب له، فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: رحم الله عمي زيدا فإنه دعا إلى الرضا من آل محمد ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلت له: يا عم إن رضيت أن تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشأنك، فلما ولي قال جعفر بن محمد - عليه السلام - ويل لمن سمع واعيته فلم يجبه».

فقال المأمون: أليس قد جاء في من ادعى الإمامة بغير حقها ما _____

(١) الأربلي: كشف الغمة: ٢/٤٤٢.

(٢) الخرائج والجرائح: ٢٣٢، البحار: ٤٦/١٨٥.

(٢٠٠)

جاء؟ فقال: - عليه السلام: «- إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق، وإنه كان أتقى من ذلك، إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد - عليهم السلام - إنما جاء ما جاء في من يدعى أن الله نصّ عليه، ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم، وكان زيد بن علي والله ممن خوطب بهذه الآية:

"وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ" (١).

١٤- روى الشيخ الطوسي عن مهزم بن أبي بردة الأسدي قال: دخلت المدينة حدثان صلب زيد - رضى الله عنه - فدخلت على أبي عبد الله - عليه السلام - فسأعته رأيتي قال: «يامهزم ما فعل بزید؟» قال: قلت: صلب، قال: «أين؟» قال: قلت: في كناسة بني أسد، قال: «أنت رأيت مصلوباً في كناسة بني أسد؟» قال: قلت: نعم، قال: فبكي حتى بكت النساء خلف الستور ثم قال: «أما والله لقد بقي لهم عنده طلبه ما أخذوها منه بعد» قال فجعلت أفكر وأقول أى شيء طلبتهم بعد القتل والصلب؟ قال: فودعته وانصرفت حتى انتهيت الكناسة، فإذا أنا بجماعة فأشرفت عليهم، فإذا زيد قد أنزلوه من خشبته يريدون أن يحرقوه قال قلت: هذه الطلبة التي قال لي (٢).

١٥- روى الكليني عن سليمان بن خالد قال: قال لي أبو عبد الله - عليه السلام - «كيف صنعتكم بعمي زيد؟» قلت: إنهم كانوا يحرسونه فلما شفّ الناس أخذنا خشبته فدفناه في جرف على شاطئ الفرات فلما أصبحوا جالت الخيل يطلبونه فوجدوه فأحرقوه فقال: «أفلا أوقرتموه حديداً وألقيتموه في الفرات - صلى الله عليه - ولعن قاتله (٣) _____».

(١) الصدوق: عيون الأخبار: ١/٢٤٩، الباب ٢٥.

(٢) الطوسي: الأمالي: ٦٨٢.

(٣) الكليني: الكافي: ٨/١٦١.

(٢٠١)

١٦- روى الكليني عن الحسن بن الوشاء عن ذكره عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «إن الله عزّ وجلّ أذن في هلاك بني أمية بعد إحراقهم زيدا بسبعة أيام» (١).

١٧- روى أيضاً عن أبي هاشم الجعفرى قال: سألت الرضا عن المصلوب؟ فقال: «أما علمت أن جدى صلى على عمه» (٢).

١٨ - روى الكشي في ترجمة السيد الحميري عن فضيل الرسان، قال: دخلت على أبي عبد الله _ عليه السلام _ بعد ما قتل زيد بن علي _ عليه السلام _ فدخلت بيتاً في جوف بيت، وقال لي: «يا فضيل، قتل عمي زيد بن علي؟» قلت: نعم جعلت فداك، فقال: «رحمه الله، أما إنّه كان مؤمناً وكان عارفاً وكان عالماً، وكان صدوقاً، أما إنّه لو ظفر لوفى، أما إنّه لو ملك لعرف كيف يضعها، قلت: ياسيدي ألا أنشدك شعراً؟ قال: «أمهل» ثم أمر بستور فسدلت، وبأبواب فتحت، ثم قال: «أنشد» فأنشده:

لأم عمرو باللوى مربع * طامسه أعلامها بلقع (٣) هذه نماذج مما ورد عن أئمة أهل البيت حول جهاد زيد واستشهاده، ولو ضمت إليها ما ورد عنهم من المدائح حال حياته وقبل ميلاده، مما تقدم لما بقي شك في أن نائر أهل البيت كان رجلاً مثالياً متقياً، عادلاً، مخالفاً لهواه، لايهمه سوى تجسيد الإسلام بين الوري، وتبديد هياكل الظلم والطغيان.

يقول السيد المقدم - بعد نقل الأحاديث المادحة - «على ضوء هذه _____»

(١) الكليني: الكافي: ٨/١٦١.

(٢) الكليني: الكافي: ٣/٢١٥.

(٣) الكشي: الرجال: ٢٤٢ برقم ١٣٣، وذكر قسماً من عينه السيد الحميري المعروفة.

(٢٠٢)

الأحاديث الكريمة نعرف من الحقيقة أنصعها ويتجلى من أعماق الأصداف لؤلؤها، وإن تلك الشخصية الشامخة على سبب وثيق من معادن الحق، وذات كرامة قدسية تهبط من الملأ الأعلى، وأن الأئمة الهداة يتفألون من غرة تلك النهضة الهاشمية أن يعود الحق إلى نصابه، وهي القوة التي تتحطم بها هياكل الباطل وتعدد عليها الآمال، وهي التي أظهرت مظلومية الأئمة، ومثلت للملأ - أحقيتهم بالخلافة، من غيرهم ذوى الأطماع وأرباب الشهوات، وانكشف لنا بكل وضوح امتاله أمر الإمام في نقض دعائم الإلحاد وتبديد جيش الظلم والباطل، وتفريق جماهير الشرك وأحزاب الضلال، وعبدة المطامع والأهواء، خصوصاً إذا قرأنا قول الباقر - عليه السلام - «ويل لمن سمع واعيته فلم يجبه» وقول الصادق - عليه السلام - «إذا دعاكم فأجيبوه وإذا استنصركم فانصروه» وقوله: «أشركني الله في تلك الدماء» وقوله عندما سئل عن مبايعته: «بايعوه» وقوله: «خرج علي ما خرج عليه آباؤه» وقوله: «بري الله ممن تبرأ من عمي زيد». فإن هذه الأحاديث تدلنا على أنه لم يقصد إلا إصلاح أمة جده - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم يدع إلا إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهناك جملة أخرى من الأحاديث حكّت لنا مقياسه الإمام - عليه السلام - شهادة زيد بالشهداء الذين استشهدوا مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلى والحسين - عليهما السلام - وقد استشهد هنالك رجال كانت لهم منازل عالية ومقامات رفيعة يغبطهم عليها جميع الشهداء، وقد نال زيد بذلك التشبيه والمقايسة تلك المراتب العالية وحاز ذلك الشرف الباهر، فحقيق إذاً قال الباقر - عليه السلام - في دعائه: «اللهم أشدد أزرى بزيد»، وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - «يأتي زيد وأصحابه يوم القيامة يتخطون رقاب الناس غزاً محجلين يدخلون الجنة بغير حساب، وكانوا فرحين مسرورين بما أوتى لهم من النعيم الدائم» (١).

(١) المقدم: زيد الشهيد: ٥٩.

الفصل الحادى عشر الخط الثورى

الفصل الحادى عشر الخط الثورى المدعم من قبل أئمة أهل البيت كان الإمام الصادق - عليه السلام - يعيش في جو مفعم بالمراقبة والملاحقة من جانب الحكومة الأموية وكانت عيون النظام ترصده عن كذب وترفع تقارير عن حياته اليومية إلى العاصمة، ولأجل ذلك كان الإمام يتجنب عن التظاهر بأية ثورة ضد النظام إذ نتيجة ذلك هو إلقاء القبض على الإمام، وإنهاء حياته، وإطفاء نور الإمامة

والقضاء على الجامعة العلمية التي أسسها الإمام في عاصمة الإسلام وربّي في حجره وحضنه مئات المفسرين والمحدثين وقد أعاد بذلك، السنّة النبوية والأحكام الشرعية إلى الساحة الإسلامية بعد اندراسها، كما فعل أبوه الإمام الباقر _ عليه السلام _ كذلك، وفي القضاء على حياته أو الحيلولة بينه وبين الأمة خساره كبرى لا تجبر بشهادته.

ومن جانب آخر، كان خروج زيد الثائر مورد الرغبة من الإمام فكيف لا يرضى بذلك وهو يثير المسلمين ضد النظام ويحرضهم على تقويضه وقلبه، وهي خطوة كبرى للمنية العظيمة.

(٢٠٤)

وبملاحظة هذين الأمرين يعلم أنه لم يكن للإمام بد من الإبهام في الكلام بشكل تفهم البطانة موقفه من استشهاده ويتحير الأجانب فيه، وهذا هو السبب لوجود الإبهام والإعجاب في كلامه.

ففي موقف يبكي على عمّه ويسيل دموعه على خديه، وتبكي من كانت وراء الستار من الهاشميات، يُعرّف عمّه شهيداً ويعرّف الشهداء في موكبه كالشهداء الذين أراقوا دماءهم مع رسول الله وعلى والحسين _ عليهم السلام _ وربما يزيد على ذلك ويقول: «إنّ الباكي على زيد معه في الجنة والشامت له شريك في دمه» إلى غير ذلك من الإطراء والثناء على عمّه والذين استشهادوا في طريقه (١)

وفي موقف آخر يتظاهر بالابتعاد عن خروج زيد واستشهاده، فكل من يرد عليه من الكوفة يسأله عن عمه ويكرر السؤال، وكأنّه لم يكن مطلعاً عما جرى عليه من المصائب، كل ذلك كان ضرباً من التدبير للإمام _ عليه السلام _ فأى رضى أولى من دعائه على الحكيم بن عباس الذي أنشأ شعراً في حقّ زيد، وقال:

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة * ولم أر مهدياً على الجذع يصلب فرغ الصادق _ عليه السلام _ يديه إلى السماء وهما ترتعشان، وقال: «اللهم إن كان عبدك كاذباً فسلط عليه كلبك» (٢).

إنّ بقاء الإسلام رهن دعامتين:

الأولى: التعليم والتربية وتنقيف الأمة ووعيها وتعليم الكتاب والسنة وغير ذلك مما يرجع إلى الثقافة الإسلامية العامة.

الثانية: إصلاح المجتمع والحفاظ على البيئة وتفويض الأمر إلى صلحاء _____

(١) أنظر إلى الروايات الواردة تحت «عنوان موقف الأئمة من استشهاد» في هذا الجزء.

(٢) مضى مصدره في ص ١٩٧، الرواية السادسة، فراجع.

(٢٠٥)

الأئمة الذين عليهم تجسيد الإسلام في الساحة الاجتماعية ولا يتم ذلك إلا بالكفاح ضدّ الظالمين وإبادتهم وتسليم الأمر إلى صلحاء الأمة.

وكانت المصالح الزمنية تفرض الأمر الأول على عاتق الإمام الصادق - عليه السلام - إذ كان هو عالم الأمة وراعيتها، والواقف بأسرار الكتاب والسنة، ولولاها لما قامت هذه الدعامه وسقطت يومذاك، وأما الدعامه الثانية فكان على عاتق زيد الثائر، والثائرون بعده على خط الإمام زيد كحبيبي بن زيد، وعيسى بن زيد، والحسين بن زيد، ومحمد بن زيد (دون الحسينيين الذين ثاروا في عصر العباسيين) وكانوا هم القائمون بهذه الفريضة فكيف يمكن للإمام أن يُخطئهم من صميم ذاته لذلك يرى أنّه يصف الزيدية، وقاء، ويقول لأصحابه: كفوا ألسنتكم والزموا بيوتكم فإنّه لا يصبكم أمر تخصون به أبداً ولا تزال الزيدية لكم وقاءً أبداً (١).

إنّ بعض المتحمسين من الشبان في عصر الإمام الصادق _ عليه السلام _ كانوا يفرضون عليه أن يودع زيدا عند الوفود إلى العراق، ويدعو له ويتظاهر بدعم نضاله وجهاده وعندما بلغه استشهاده، يعلن الحداد العام ويجلس في بيته للجزاء وما أشبه ذلك، لكن كانت هذه أفكاراً فوضوية تختمر في صدور أناس لم يكن لهم إمام بالظروف المحددة بالإمام، فما قام به الإمام من السير بين الخطين كان

هو المؤمن لحياته، ونضاله العلمي وخدماته المشكورة ولم يكن القضاء على حياة الإمام الصادق _ عليه السلام _ وجامعته العلمية عند الخلفاء أشد من القضاء على حياة زيد الثائر.

وفي نهاية المطاف نقول: لم يكن قيام زيد وخروجه أقل قيمة من خروج المختار الثائر، نرى أن الإمام علي بن الحسين وعمه محمد بن الحنفية والهاشميات يخرجون من حداهم على الإمام الحسين _ عليه السلام _ عندما _____

(١) الكليني: الكافي: ٢ | باب التقيّة، الحديث ١٣.

(٢٠٦)

بعث المختار برؤوس الخونة وقتل الإمام الحسين _ عليه السلام _ حتى أن الإمام السجاد _ عليه السلام _ يخر ساجداً ويعد عمل المختار مشكوراً، فأين المختار من زيد الثائر وإن كان عمل الجميع مشكوراً.

ومع أن الإمام الصادق _ عليه السلام _ قام بمواقف مشكورة في عيال زيد، ومن أصيب معه، ولكن لما كان المتطرفون غير راضين بهذا الحد، وكانوا يطلبون من الإمام نضالاً باهراً مثل زيد، فقاموا بوجه الإمام _ عليه السلام _ في مواقف عديدة لم تكن محموداً، ولو نرى في بعض الأحاديث أن الإمام يتبرأ من الزيدية فإتماً تبرأ من المتطرفين غير العارفين بالمواقف الصحيحة في تلك الأيام الخطيرة لا من زيد الثائر، ولا المستشهدين بين يديه ولا المقتفين أثره بعد استشهاده، عارفين بواجباتهم وواجبات أئمة أهل البيت، وبذلك تقدر على فهم الروايات الواردة في ذم بعض الزيدية فليس الذم راجعاً إلى زيد الطاهر، ولا إلى المقتفين أثره في ميدان النضال، ولا إلى مجيئه بل راجع إلى المتطرفين المنتمين إليه، وكان هو - قدس الله سره - بريئاً عنهم. فلنذكر بعضها إيقافاً للقارىء بمفادها:

١ - عن عمر بن يزيد قال: سألت عن الصدقة على النصاب وعلى الزيدية؟ فقال: «لا تصدق عليهم بشيء ولا تسقمهم من استطعت» وقال: «الزيدية هم النصاب» (١).

٢ - قد كان من المعروف أن الإمام من كان عنده سلاح رسول الله ومتاعه وكان ذلك كله عند الإمام الصادق _ عليه السلام _ كما سنذكر، وقد كان ذلك الأمر ثقيلاً على بعض الزيدية، فكانوا يحاجون الإمام الصادق _ عليه السلام _ وينكرون وجود السلاح ومتاع رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ عنده ويقولون: إنه عند عبد الله بن الحسن المثنى _____.

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة: ٦ | كتاب الزكاة، الباب ٥ من أبواب المستحقين، الحديث ٥، لاحظ التهذيب: ٤ | ٥٤، الحديث ١٢.

(٢٠٧)

روى الكليني عن سعيد السمان، قال: كنت عند أبي عبد الله _ عليه السلام _ إذ دخل عليه رجلان من الزيدية، فقالا له: أفيكم إمام مفترض الطاعة؟ قال: فقال: «لا» (١)، قال: فقالا له: قد أخبرنا عنك الثقات إنك تفتي، وتقر وتقول به (بأن فيكم إماماً مفترض الطاعة) ونسميهم لك فلان وفلان وهم أصحاب ورع وتشمير وهم ممن لا يكذب، فغضب أبو عبد الله _ عليه السلام _ فقال: «ما أمرتهم بهذا» (بوجود إمام مفترض الطاعة) فلما رأيا الغضب في وجهه خرجا، فقال لي: «أتعرف هذين؟» قلت: نعم هما من أهل سوقنا، وهما من الزيدية، وهما يزعمان أن سيف رسول الله عند عبد الله بن الحسن، فقال: «كذبا لعنهما الله والله ما رآه عبد الله بن الحسن بعينه ولا بواحدة من عينيه ولا رآه أبوه. اللهم إلا أن يكون رآه عند علي بن الحسين _ عليه السلام _...» (٢).

ترى أن موقف الرجلين أمام الإمام الصادق _ عليه السلام _ هو موقف أخذ الإقرار منه بإمامة زيد ومن بعده وتكذيب إمامته وقيادته وأنه ليس عنده سلاح رسول الله ولا متاعه فلم يكن بد من الإمام _ عليه السلام _ من التعرض عليهم.

والذي يدل على ذلك ما رواه الكليني عن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين _ عليه السلام _ عن أبي جعفر _ عليه السلام _ قال: لما حضر علي بن الحسين الوفاة قبل ذلك أخرج سفظاً أو صندوقاً عنده قال: يا محمد احمل هذا الصندوق. قال: فحمل بين أربعة فلما توفي جاء إخوته يدعون [ما] في الصندوق، فقالوا: أعطنا نصيباً من الصندوق، فقال: والله مالكم فيه شيء، ولو كان لكم

فيه شيء ما دفعه إليّ، فكان في الصندوق سلاح رسول الله وكتبه (٣) _____).

(١) قاله _ عليه السلام _ تقيه أو توريه اتقاء شرهما.

(٢) الكليني: الكافي: ١/ ٢٣٢ - ٢٣٣، كتاب الحجّة، باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله ومتاعه.

(٣) الكافي: ١/ ٣٠٥، كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي جعفر _ عليه السلام _، الحديث ١.

(٢٠٨)

وفي رواية أخرى: التفت علي بن الحسين إلى ولده وهو في الموت وهم مجتمعون عنده، ثم التفت إلى محمد بن علي، فقال: «يا محمد هذا الصندوق، اذهب به إلى بيتك، قال: أما إنّه لم يكن فيه دينار ولا درهم ولكن كان مملوءاً علماً» (١).

٣- روى الكليني عن عبد الله بن المغيرة قال: قلت لأبي الحسن - عليه السلام - إن لي جارين أحدهما ناصب، والآخر زبدي ولا بد من معاشرتهما فمن أعاشر؟ فقال: «هما سيان، من كذب بآية من آيات الله فقد نبذ الإسلام وراء ظهره، وهو المكذب بجميع القرآن والأنبياء والمرسلين» قال: ثم قال: «إنّ هذا نصب لكم، وهذا الزبدي نصب لنا» (٢).

فكما أنّ المتشابه من الآيات تردّ على المحكمات وتستوضح بها، فهكذا الخبر المتشابه يفسر بالمحكم منه، فأين استرحامه لعمه وبكائه عليه، ودعاءه على شاعر السوء، من هذه التعرضات والنقاشات، فتحمل الطائفة الثانية، على المتطرفين غير العارفين بمقام الإمام الصادق _ عليه السلام _ مضافاً إلى أنّ في مضمونهما من القرائن المثبتة. فلاحظ.

الخط الثوري الثابت لأئمة أهل البيت _ عليهم السلام _:

كان لزيد عند الإمام الصادق _ عليه السلام _ حساب خاص لا يعدل به إلى غيره، ويفضّله على الهاشميين ويتلقاه عالماً صدوقاً، غير متجاوزٍ عن طريق الحقّ وكان يعلن على أصحابه، أنّه لو ظفر لوفى بما نوى ودعا إليه، ولأجل ذلك ليس من البعيد أن يقال إنّه كان مأذوناً من قبل الإمام سراً كما نقله شيخنا المجلسي (٣)

(١) الكليني: الكافي: ١/ ٣٠٥، كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي جعفر - عليه السلام -، الحديث ٢.

(٢) الكليني: الكافي: ٨/ ٢٣٥، برقم ٣١٤.

(٣) المجلسي: مرآة العقول: ١/ ٢٦١.

(٢٠٩)

ويكفي في المقام ما يرويه الكليني: عن عيص بن القاسم، عن أبي عبد الله - عليه السلام -: «فانظروا على أي شيء تخرجون ولا تقولوا خرج زيد، فإنّ زيدا كان عالماً وكان صدوقاً ولم يدعكم إلى نفسه إنّما دعاكم إلى الرضا من آل محمد - عليهم السلام - ولو ظهر لوفى بما دعاكم إليه، إنّما خرج إلى سلطان مجتمع لينقضه فالخارج منا اليوم إلى أي شيء يدعوكم، إلى الرضا من آل محمد - عليهم السلام - فنحن نشهدكم أنّا لسنا نرضى به وهو يعصينا اليوم» (١).

ولم يكن له ذلك الموقف مع الحسينيين الذين خرجوا، بعد زيد وابنه يحيى، وصاروا أئمة للزيدية للفرق الواضح بين زيد وابنه، وبين بني عبد الله بن الحسن، أعنى:

١ - محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية خرج بالمدينة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من سنة خمسة وأربعين ومائة وقتل في شهر رمضان تلك السنة قتله أبو جعفر المنصور.

٢ - إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، خرج بالبصرة وقتل هناك في نفس السنة التي قتل فيها أخوه محمد بن عبد الله، وأخذ رأسه وحمل إلى أبي جعفر المنصور ودفن بباخمري.

وسيوافيك ترجمتهم في القسم الثاني من الكتاب.

والذى يعرب عن ذلك ما رواه أبو الفرج في كتابه عن عبد الله بن محمد بن علي، قال: إن جماعة من بني هاشم اجتمعوا بالأبواء وفيهم:

١- إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

٢- وأبو جعفر المنصور _____.

(١) الكليني: الكافي: ٨/٢٦٤، برقم ٣٨١.

(٢١٠)

٣- وصالح بن علي.

٤- وعبد الله (١) بن الحسن بن الحسن بن علي.

٥- ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي.

٦- وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي.

٧- ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان.

فقال صالح بن علي: قد علمتم أنكم الذين تمد الناس أعينهم إليهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعه لرجل منكم، تعطونه إياها من أنفسكم وتوافقوا على ذلك، حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين.

فحمد الله عبد الله بن الحسن وأثنى عليه ثم قال: قد علمتم أن ابني هذا هو المهدي فهلم لنبايعه.

وقال أبو جعفر: لأي شيء تخذعون أنفسكم، والله لقد علمتم ما الناس إلى أحدٍ أصور (٢) أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى، يريد به محمد بن عبد الله (٣)، قالوا: قد والله صدقت، إن هذا الذي نعلم، فبايعوا محمداً جميعاً ومسحوا على يده.

قال عيسى (٤): وجاء رسول عبد الله بن الحسن إلى أبي: أن أئتنا، فإننا مجتمعون لأمر، وأرسل بذلك إلى جعفر بن محمد _ عليه السلام _.

وقال غير عيسى: إن عبد الله بن الحسن قال لمن حضر: لا تريدوا جعفرأ _____

(١) وعبد الله بن الحسن كان أكبر سنًا من الإمام الصادق _ عليه السلام _ وكان من مواليد عام سبعين من الهجرة.

(٢) أصور: بمعنى (أميل) كما في مكان آخر من مقاتل الطالبين ص ٢٥٧ وفي الإرشاد (أطول).

(٣) أنظر إلى هذا الخداع السياسي والنفاق المبطن فيصوره المنصور في هذا المجلس بما سمعت، ثم بعد تصدّره منصّة الحكم يقتله.

(٤) عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي.

(٢١١)

فإننا نخاف أن يفسد عليكم أمركم.

قال عيسى بن عبد الله بن محمد: فأرسلني أبي أنظر ما اجتمعوا له؟ فجتتهم فإذا بمحمد بن عبد الله يصلي على طنفسه رجل مثنية فقلت لهم: أرسلني أبي إليكم أسألکم لأي شيء اجتمعتم؟ فقال عبد الله: اجتمعنا لنبايع المهدي محمد ابن عبد الله.

قال: وجاء جعفر بن محمد _ عليه السلام _، فأوسع له عبد الله بن الحسن إلى جنبه فتكلم بمثل كلامه.

فقال جعفر _ عليه السلام _: «لا تفعلوا فإن هذا الأمر لم يأت بعد، إن كنت ترى - يعني عبد الله - أن ابنك هذا هو المهدي فليس به، ولا- هذا أوانه، وإن كنت إنما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإننا والله لاندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك في هذا الأمر» (١).

فغضب عبد الله بن الحسن، وقال: لقد علمتُ خلاف ما تقول، [والله ما أطلعك على غيبه] ولكن يحملك على هذا الحسد لابني.

فقال: «والله ما ذاك يحملني، ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم» وضرب بيده على ظهر أبي العباس (٢)، ثم ضرب بيده على كتف

عبد الله بن الحسن، وقال: «إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك، ولكنها لهم، وإن ابنيك لمقتولان». ثم نهض فتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال: رأيت صاحب الرداء الأصفر - يعني أبا جعفر - فقال له: نعم، قال: قال: «إنا والله نجده يقتله» قال له عبد العزيز: أيقتل محمداً؟ قال: «نعم»، فقلت في نفسي: حسده ورب الكعبة، ثم قال: والله ما خرجت من الدنيا حتى رأته قتلها.

(١) بما أنه أمير الجهاد، لا إمام الفقه والاجتهاد ولا الإمام المفترض الطاعة.

(٢) إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

(٢١٢)

قال: فلما قال جعفر - عليه السلام - ذلك ونهض القوم وافترقوا، تبعه عبد الصمد وأبو جعفر فقالا: يا أبا عبد الله أتقول هذا؟ قال: «نعم أقوله والله وأعلمه» (١).

قال أبو الفرج: وحدثني علي بن العباس المقانعي قال: أخبرنا بكار بن أحمد قال: حدثنا الحسن بن الحسين، عن عنبسة بن نجاد العابد قال: كان جعفر بن محمد - عليهما السلام - إذا رأى محمد بن عبد الله بن الحسن تغرغت عيناه ثم يقول: «بنفسى هو، إن الناس ليقولون فيه، وإنه لمقتول، ليس هو في كتاب علي - عليه السلام - من خلفاء هذه الأمة» (٢).

والإمعان في هذه الرواية يعرب عن أمرين:

الأول: أن محمد بن عبد الله اتخذ موقفاً غير موقف زيد بن علي، حيث إن عبد الله بن الحسن يريد أن يصف، ابنه بأنه هو المهدي الموعود كما قال: اجتمعنا لنبايع المهدي محمد بن عبد الله ولم يرده ابنه وكأنه قبله.

فيردعه الإمام بقوله: «إن ابنك هذا ليس هو المهدي ولا أخاه».

ولكنه رافقهم إذا خرجوا مثلما خرج زيد وقال مخاطباً أباه: «وإن كنت إنما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإننا والله لا ندعك وأنت شيخنا، ونبايع ابنك في هذا الأمر».

ولما كان كلام الإمام مخالفاً لما يهواه عبد الله غضب عليه وقال: والله ما أطلعك على غيبه ولكن يحملك على هذا الحسد لابني.

ورغم هذا الموقف الجافي كيف يمكن للإمام - عليه السلام - أن يرافقهم _____،

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٢٠٦.

(٢) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٢٠٨، الإرشاد: ٢٩٤.

(٢١٣)

ويؤيدهم، ويساندهم، ولكن في نهاية المجلس تنبأ بما وجده في الكتب الموروثة، أن محمد بن عبد الله وأخاه يقتلان ويكون الرابع هو أبو جعفر المنصور صاحب الرداء الأصفر، وقد وقع ما وقع، وراه الناس حسب ما أخبر به الإمام.

وبذلك يعرف مفاد الأحاديث التي ترفض عمل الزيدية في العصور اللاحقة لحركة زيد فلا يرفض زيدا، ولا ابنه يحيى ولا ثورته ونضاله، وإنما يرفض أتباعه في العصور بعد استشهادهم حيث كانوا يعاندون أئمة أهل البيت - عليهم السلام - ونذكر منها ما يلي:

١- روى الشيخ الطوسي عن عبد الملك أنه قال لأبي عبد الله: قلت: فإن الزيدية تقول ليس بيننا وبين جعفر خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد، فقال: «إني لا أرى!! بلى والله إني لا أراه ولكني أكره أن أدع علمي إلى جهلهم» (١).

٢- روى الكليني عن عبد الملك بن أعين قال لأبي عبد الله - عليه السلام - إن الزيدية والمعتزلة قد أطافوا بمحمد بن عبد الله (٢) فهل له سلطان؟ فقال: «والله إن عندي لكتابين فيهما تسمية كل نبي وملك يملك الأرض لا والله ما محمد بن عبد الله في واحد منهما» (٣) وبذلك يعلم مفاد سائر الأحاديث (٤) فلاحظ.

وحصيلة البحث أن الخط الرائج لأئمة أهل البيت - عليهم السلام - بالنسبة للثورات والانتفاضات التي تحققت على يد الحسينيين

والحسينين إنما كان هو خط العدل والاقتصاد_____.

(١) الكليني: الكافي: ١٩/٥، باب من يجب عليه الجهاد: الحديث ١، ٢.

(٢) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية من أئمة الزيدية.

(٣) الكليني: الكافي: ١/٢٤٢ باب ذكر الصحيفة، رقم ٧.

(٤) لاحظ الكافي: ٣٧٦/٧، كتاب الديات باب فيما فيه نصاب من البهائم، الحديث ١٧.

(٢١٤)

فلو كان الحافظ عند الثائر هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإنكار على الظلم والعدوان، وتخليص المجتمع الإسلامي من الفساد والدمار فالإمام الصادق _ عليه السلام _ ومن بعده كانوا يويدون ذلك العمل، ويكون الثائر حينئذ مأذوناً من قبل الإمام وتأخذ الثورة لنفسها صفة المشروعية.

وأما إذا كان الحافظ عند الثائر إلى الثورة هو دعوة الناس إلى إمامة نفسه، وأدعاء الخلافة عن رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ وإنه _ والعياذ بالله _ المهدي الموعود فلا يكون هناك أي مبرر لموافقتهم ومساندتهم. (٢١٥)

الفصل الثاني عشر موقف علماء الشيعة

الفصل الثاني عشر موقف علماء الشيعة من جلاله ووثاقه زيد الشهيد إن موقف علماء الشيعة الإمامية نفس موقف النبي وعترته الطاهرة _ عليهم السلام _ وإن كنت في شك من ذلك فاقراً كلماتهم في حقه:

١ - قال المفيد: كان عين إخوته بعد أبي جعفر _ عليه السلام _ وأفضلهم، وكان ورعاً، عابداً فقيهاً، سخياً، شجاعاً، وظهر بالسيف يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويطلب بثارات الحسين _ عليه السلام _ (١).

٢ - وقال النسابة أبو الحسن علي بن محمد العمري: كان زيد أحد سادات بني هاشم فضلاً وفهماً خرج أيام هشام الأحول ابن عبد الله (٢) فقتل وصلب ست سنين، وقيل أُحرق وذرى في الفرات _ لعن الله ظالميه _ (٣).

٣ - وقال الطبرسي: إن زيدا كان من علماء آل محمد، غضب لله فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله (٤)_____.

(١) الإرشاد: ٢٦٨، ط النجف.

(٢) والظاهر عبد الملك.

(٣) المجدي في الأنساب: ١/١٥٦.

(٤) أنظر: رياض العلماء: ٢/٣٣٨.

(٢١٦)

٤ - وقال ابن داود: زيد بن علي بن الحسين قتل سنة إحدى وعشرين ومائة، وله اثنتان وأربعون سنة شهد له الصادق _ عليه السلام _ بالوفاء وترحم له (١).

٥ - قال الشهيد الأول في القواعد: وجزاز أن يكون خروجهم بإذن إمام واجب الطاعة كخروج زيد بن علي _ عليه السلام _ وغيره من بني علي _ عليه السلام _ (٢).

٦ - قال الشيخ عبد الله الأفندي التبريزي: السيد الجليل الشهيد أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين، إمام الزيدية وكان سيداً كبيراً عظيماً في أهله وعند شيعته أبيه، ولكن اختلفت الأخبار وتعارضت الآثار بل كلام العلماء الأخير أيضاً في مدحه وقدحه، والروايات في فضله كثيرة، وقد ألفت جماعة من متأخري علماء الشيعة ومتقدميهم كتباً عديدة مقصورة على ذكر فضائله كما يظهر من مطاوي كتب الرجال ومن غيرها أيضاً.

ومن المتأخرين ميرزا محمد الأسترآبادي فله رسالة في أحوال زيد بن علي. هذا وأورد فيه كلام المفيد في الإرشاد بتمامه، ونقل فيها أيضاً ما رواه الطبرسي في أعلام الوري، وما رواه ابن طاووس في ربيع الشيعة ونحوهما، وبالجملة فقد أورد فيها روايات كثيرة في مدحه.

قال بعض أفاضل السادات المعاصرين ضوعف قدره في أوائل شرح الصحيفة: هو أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - أمه أم ولد كان جمّ الفضائل عظيم المناقب، وكان يقال له: حليف القرآن. روى أبو نصر البخاري عن أبي الجارود، قال: قدمت المدينة، فجعلت كلما سألت عن زيد بن علي. قيل لي: ذلك حليف القرآن. ذاك أسطوانة المسجد من كثرة صلاته.

(١) ابن داود: الرجال: ١٠/١ (ذكره في القسم الأول الذي خصّه بالموثوقين بخلاف القسم الثاني فقد خصّه بالمجروحين والمهملين).
(٢) القواعد: ٢/٢٠٧ (ضمن القاعدة: ٢٢١).

(٢١٧)

وقال الشيخ بهاء الدين العاملي في آخر رسالته المعمولة في إثبات وجود القائم - عليه السلام - الآن أيضاً إنّنا معشر الإمامية لا نقول في زيداً - رضى الله عنه - إلاّ خيراً وكان جعفر الصادق - عليه السلام - قد قال لأصحابه: «إنّ زيداً يتخطى يوم القيامة أهل المحشر حتى يدخل الجنة» والروايات عن أئمتنا في هذا المعنى كثيرة (١).

٧- قال الكاظمي: اتفق علماء الإسلام على جلالته وثقته وورعه وعلمه وفضله، وقد روى في ذلك أخبار كثيرة حتى عقد ابن بابويه في العيون باباً لذلك (٢).

٨- قال المحدّث النوري: وأما زيد بن علي فهو عندنا جليل القدر عظيم الشأن، كبير المنزلة، وما ورد مما يوهّم خلاف ذلك مطروح أو محمول على التقيّة (٣).

٩- قال المحقّق المامقاني: إنّني أعتبر زيداً ثقةً وأخباره صحاحاً اصطلاحاً بعد كون خروجه ياذن الصادق - عليه السلام - لمقصد عقلائي عظيم وهو مطالبه حقّ الإمامة إتماماً للحجّة وقطعاً لعذرهم بعدم مطالب له وقول جمع فيه بالإمامة بتسويل الشيطان مع نفيه إياها من نفسه، وإثباته إياها لابن أخيه الصادق لا يزرى فيه كعدم إزاء نسبة القائلين بإمامته إليه أحكاماً فقهية مخالفة للحق (٤)

١٠- وقال المحقّق الخوئي: وقد استفاضت الروايات غير ما ذكرناه في مدح زيد وجلالته وأنه طلب بخروجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إلى أن قال: - وإنّ استفاضة الروايات أغنتنا عن النظر في أسنادها (٥).

(١) رياض العلماء وحياض الفضلاء: ٢/٣١٨، وقد ترجم زيد بن علي ترجمته وافية، طالع هذا الجزء ص ٣١٨ - ٣٥٢.

(٢) راجع تكملة الرجال: ٣٥٢، تنقيح المقال: ١/٤٦٧.

(٣) المستدرک: ٣/٥٩٩.

(٤) تنقيح المقال: ١/٤٦٩، ٤٧٠.

(٥) معجم رجال الحديث: ٧/٣٤٧ - ٣٤٩.

(٢١٨)

ثم إنّّه أفرد غير واحد من أعلام الإمامية تأليفاً في زيد وفضله وآثره، فمنهم:

١- إبراهيم بن سعيد بن هلال الثقفى (م ٢٨٣ هـ) له كتاب أخبار زيد.

٢- محمد بن زكريا مولى بنى غلاب (م ٢٩٨ هـ) له أخبار زيد.

٣- عبد العزيز بن يحيى الجلودى (م ٣٦٨ هـ) له أخبار زيد.

٤- محمد بن عبد الله الشيباني (م ٣٧٢ هـ) له كتاب فضائل زيد.

٥- الشيخ الصدوق أبو جعفر القمي (م ٣٨١هـ) له كتاب في أخباره.

٦- ميرزا محمد الاسترابادي صاحب الرجال الكبير (م ١٠٢٨هـ) له رسالة في أحوال زيد.

٧- السيد محسن الأمين العاملي أحد كبار علماء الإمامية في القرن الرابع عشر (م ١٣٧٣هـ) له كتاب أبو الحسين زيد الشهيد وقد طبع في الشام.

٨- السيد عبد الرزاق الموسوي المقرم، له كتاب زيد الشهيد وفي ذيله كتاب تنزيه المختار، وقد طبع عام ١٣٥٥هـ.

هذه كلمات علماء الشيعة الإمامية في حق زيد وليس هناك من الشيعة الإمامية من يبغضه أو يذمه ولو ورد فيه روايات ذم فإنما هي مطروحة أو مؤولة لاتعادل ماتواترت عليه من الروايات الدالة على وثاقته، وجلالة قدره فمن أراد رمي الشيعة الإمامية بغير هذا فهو كذاب يُعدُّ من رماة القول على عواهنه.

نعم بعدما خرج زيد، وجاهد وناضل وقتل وصلب وأحرق اتخذته أعداء الشيعة ذريعة للطعن على إمام الوقت جعفر الصادق _ عليه السلام _ وتوهم بعض الشيعة أن الإمام من قام ونهض وجاهد، دون غيره وهذا لا صلة له بزيد الثائر.

وبذلك تقف على قيمة كلام رجلين يُعدّان من رماة القول على عواهنه:

أحدهما: أحمد بن تيمية في كتاب «منهاج السنة».

ثانيهما: الآلوسي البغدادي.

(٢١٩)

قال ابن تيمية: إن الرافضة رفضوا زيد بن علي بن الحسين ومن والاه، وشهدوا عليه بالكفر والفسوق (١).

وقال الآلوسي: الرافضة مثلهم كمثل اليهود، الرافضة يبغضون كثيراً من أولاد فاطمة - رضی الله عنها - بل يسبونهم كزيد بن علي (٢). أقول: إن الرافضة - حسب تسمية الآلوسي - يقتفون أثر أئمتهم في كل صغيرة وكبيرة، فإذا كان هذا موقف أئمتهم فكيف يمكن للشيعة التخطي عنه، والعجب أن الكاتبين كتبا ما كتبا ولم يرجعا إلى معاجم الرجال للشيعة وقد أطبقت معاجمهم على تزكيتهم وترفيح مقامه وتبجيله بكل كلمة.

بين أباة الضيم وحماة الذل :

لم أجد أحداً ممن كتب عن زيد، وكفاحه وجهاده الرسالي الذي عرف به، من القدامى والجدد من يغمطه حقه ويزدرى به، ويتكلم فيه بهمز أو لمز، غير الكاتب السلفي: الشيخ شمس الدين الذهبي، ومع أنه يصف زيدا بأنه كان أحد العلماء والصلحاء، لكنه يصف جهاده سقطه وزلّة يقول في موضع من كتبه: «بدأت منه هفوة فاستشهد، فكانت سبباً لرفع درجته في آخرته» (٣) وفي كتاب آخر: «خرج متأولاً، قتل شهيداً وليته لم يخرج» (٤) _____.

(١) ابن تيمية: منهاج السنة: ٢ | ١٢٦.

(٢) السنة والشيعة: ٥٢.

(٣) تاريخ الإسلام: حوادث (١٢١ - ١٤١هـ) ص ١٠٥. انظر إلى التناقض في كلامه إذ لو كان خروجه زلّة فكيف صار سبباً لرفع درجته في الآخرة.

(٤) سير أعلام النبلاء: ٥ | ٣٩١.

(٢٢٠)

أقول: ما ذكره شنشنة أعرفها من كل سلفي يرى الجهاد والكفاح على الظلم والعدوان، أمراً محرّماً، والحياء مع الظالمين ومهادنتهم أمراً مشروعاً وسعادة، فهم حماة الذلّ، ودعاة الهوان، وأين هم من أباة الظلم والضيم.

ومن أصول الطائفة الأولى: الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منهم، من عدل أو جور، ولا يخرج عليهم بالسيف وإن جاروا (١) وما ذكره على طرف الخلاف مع ما حدثه السبط الشهيد عن جده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك عندما اقترب من الكوفة استقبله الحر بن يزيد الرياحي بألف فارس مبعوثاً من الوالي عبيد الله ابن زياد لإكراه الحسين على إعطاء البيعة ليزيد، وإرساله قهراً إلى الكوفة، فعند ذلك قام الإمام وخطب بأصحابه وأصحاب الحُرِّ بقوله: أيها الناس إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً حُرِّمَ الله ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله...» (٢).

كيف يكون جهاده هفوة، مع أن الرسول الأعظم تنبأ به وأثنى عليه عندما نظر يوماً إلى زيد بن حارثة وبكى وقال: المظلوم من أهل بيتي، سمى هذا، المقتول في الله، المصلوب من أمتي سمى هذا، ثم قال: ادن مني يا زيد - زادك الله حباً عندي - يأنك سمى الحبيب من ولدي (٣). وقد بكى الوصي وأبكى، أفيصح العزاء والبكاء على السقطة والزلة _____.

(١) أبو الحسين الملقب: التنبيه والرد: ١٥.

(٢) الطبري: التاريخ: ٣٠٤/٤.

(٣) أخرجه السيوطي في الجامع الكبير كما في الروض النضير: ١٠٨/١.

(٢٢١)

وما أحسن قول أخى الأوس لابن عمه وهو يريد نصره رسول الله فخوفه ابن عمه وقال: أين تذهب فإنك مقتول؟ فقال:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى * إذا مانوى حقاً وجاهد مسلماً

و واسبى الرجال الصالحين بنفسه * وفارق مثبوراً وخالف مجرماً

فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم * كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً (١) ما عشت أراك الدهر عجبا :

لا أظن من قرأ صحائف حياة الملك الأموي «هشام بن عبد الملك» يشك في أنه كان دموياً سفاكاً، لا يرى لدم الإنسان أية قيمة إذا ظن ولو واحداً بالمائة، إنه يريد خلفه، وقتل زيد وصلبه وإبقاء جثمانه الطاهر على الخشبة أربع أو ست سنوات، ثم حرقه ونسفه وذروه في الرياح والمياه، دليل واضح على أن الرجل بلغ في القسوة غايتها.

ومع ذلك كله ترى أن ابن سعد جاء في الطبقات ما يضيق به الإنسان ذرعاً يقول: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا سحبل بن محمد قال: ما رأيت أحداً من الخلفاء أكره إليه الدماء ولا أشد عليه من هشام بن عبد الملك وقد دخله من مقتل زيد بن علي ويحيى بن زيد أمر شديد وقال: وددت أني كنت افتديتهما.

ثم ينقل عن أبي الزناد: ما كان فيهم أحد أكره إليه الدماء من هشام بن عبد الملك ولقد ثقل عليه خروج زيد بن علي، فما كان شياً حتى أتى برأسه، وصلب بدنه بالكوفة. ولى ذلك يوسف بن عمر في خلافة هشام بن عبد الملك (٢).

أقول: نعم ولى ذلك يوسف بن عمر لكن بأمر منه حتى أن عامله في الكوفة _____

(١) المفيد: الإرشاد: ٢٢٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٣٢٤/٥.

(٢٢٢)

والحيرة كان غافلاً عما يجري فيها من وثوب الناس على زيد ومبايعتهم له، إلى أن كشف عنه هشام، وأمره بما أمره.

روى أبو الفرج قال: لما قتل زيد رثاه الكمييت بقصيدة هجا فيها بنى أمية يقول فيها:

فيا رب هل إلا بك النصر يُبتغى * ويارب هل إلا عليك المعول وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي، والحسين بن زيد ويمدح بنى

هاشم فلما قرأها هشام بن عبد الملك أكبرها وعظمت عليه واستنكرها وكتب إلى خالد يُقسم عليه أن يقطع لسان الكميته ويده، فلم يشعر الكميته إلا والخيل محدقةً بداره فأخذ وحبس في المخيس... (١).

يقول ابن العماد الحنبلي في حوادث سنة ١٢٥: _____

وفيهما مات في ربيع الآخر، الخليفة أبو الوليد هشام بن عبد الملك الأموي، وكانت خلافته عشرين سنة إلا شهراً، وكانت داره عند الخواصين بدمشق فعمل منها السلطان نور الدين مدرسه، وكان ذا رأى وحزم وحلم وجمع للمال. عاش أربعاً وخمسين سنة، وكان أبيض سميناً أحول، سديداً حسن الكلام، شكس الأخلاق، شديد الجمع للمال قليل البذل، وكان حازماً متيقظاً لا يغيب عنه شيء من أمر ملكه، قال المسعودي: كان هشام أحول، فظاً، غليظاً، يجمع الأموال ويعمر الأرض، ويستجيد الخيل، وأقام الحلبه. اجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ولم يعرف ذلك في جاهليه ولا إسلام لأحد من الناس، وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له من الخيل واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب، ولامتها، واصطنع الرجال، وقوى الثغور واتخذ القنى، والبرك بمكة وغير ذلك من الآبار التي أتى عليها داود بن علي في صدر الدولة العباسية، وفي أيامه عمل الحرز فسلك الناس جميعاً في أيامه مذهبه، ومنعوا ما في أيديهم فقل الأفضال وانقطع _____

(١) الأغاني: ١٧/٤.

(٢٢٣)

الرفد ولم ير زمان أصعب من زمانه.

ودخل هشام بستاناً له ومعه ندماءه فطافوا به وفيه من كل الثمار، فجعلوا يأكلون ويقولون: بارك الله لأمير المؤمنين فقال: وكيف يبارك لي فيه وأنتم تأكلونه ثم قال: أدع قيمه فدعى به فقال له: أفلح شجره واغرس فيه زيتوناً حتى لا يأكل أحد منه شيئاً، وكان أخوه مسلمة مازحه قبل أن يلي الأمر فقال له: ياهشام أتومل الخلافة وأنت جبان بخيل قال: أي والله العليم الحليم.

ومن نوادره ما روى أنه تمادى في الصيد فوقع على غلام فأمر ببعض الأمر! فأبى الغلام وأغلظ له في القول وقال له: لا قرب الله دارك ولا حيا مزارك - في قصة طويلة فيها - أنه أمر بقتله وقرب له نطع الدم فأنشأ الغلام يقول:

نبئت أن الباز علق مرّة * عصفور بز ساقه المقدور

فتكلم العصفور في أظفاره * والباز منهمك عليه يطير

ما في ما يغنى لبطنك شبعه * ولئن أكلت فإنتى لحقير

فتعجب الباز المدل بنفسه * عجباً وأقلت ذلك العصفور فضحك هشام وقال: يا غلام أحش فاه دراً وجواهر (١).

أقول: إذا كان هذا أكره الخلفاء للدماء وأشدهم عليه فمن هو أحرصهم عليها وعلى إراقتها، وكأني بشاعر المعرة يخاطب ابن سعد صاحب الطبقات ومن لفّ لفته ويقول:

إذا وصف الطائي بالبخل مادر * وعير قساً بالفهاهة باقل

وقال السهي للشمس أنت خفيه * وقال الدجى للصبح لونك حائل

وطاولت الأرض، السماء ترفعاً * وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فياموت زُر إن الحياة ذميمة ويانفس جدى، إن دهرك هازلاً _____

(١) عماد الدين الحنبلي: شذرات الذهب: ١٦٢ - ١٦٤.

الفصل الثالث عشر الثورات الناجمة عن ثورة

الفصل الثالث عشر الثورات الناجمة عن ثورة الإمام الحسين _ عليه السلام _ ١ - ثورة أهل المدينة ومأساة الحرّة.

٢ - ثورة عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة أيام خلافة يزيد وبعدها.

٣ - ثورة التوابين المستميتين في الكوفة.

٤ - ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي.

٥ - ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أيام عبد الملك.

(٢٢٤)

أبأه الضيم وأخبارهم

قال ابن أبي الحديد:

سيد أهل الإباء الذي علم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف، اختياراً له على الدية، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب _ عليهما السلام _ عرض عليه الأمان، فأنف من الذل، وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان؛ إن لم يقتله، فاختر الموت على ذلك (١)

الثورات الناجمة عن ثورة الإمام الحسين _ عليه السلام _

أرى أن اللانزاه قبل كل شيء تبين جذور ثورة الإمام زيد، وما دفعه إلى الخروج وهل كان هناك حافز نفساني دفعه إلى القيام واكتساح الأشواك عن طريق الخلافة التي كان يتبناها، أو كان هناك دافع خارجي يحضه ويشوقه إلى قبض الخلافة والزعامه، أو لا هذا ولا- ذاك بل كان مستلهماً من ثورة جده الإمام الحسين - عليه السلام - وكانت ثورته استمراراً لثورته، تلك الثورة التي أنارة الدرب لكل من يطلب الحق ويضحى في سبيله.

إن ثورة الحسين _ عليه السلام _ منذ تفجرها صارت أسوء وقوده للمضطهدين على وجه البسيطة، والمعذبين تحت نير الطغاة، وعلى المعانين من حكومات الجور والتعسف في الأوساط الإسلامية وانحراف الدول والحكومات عن خط العدل والاقتصاد.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣/٢٤٩.

(٢٢٧)

وقد لمس الثائرون أن ثورة الحسين _ عليه السلام _ كانت ثورة مبدئية إلهية، لأجل صيانة الدين عن التحريف والمجتمع عن الانحراف والاعتساف، فلأجل إيقاف القارى على مبادئ ثورته وغاياتها نذكر الحافز أو الحوافز التي دفعت الإمام الحسين _ عليه السلام _ إلى الثورة والتضحية بشيخه، وكهله، وطفله الرضيع، حتى يتبين عمق الثورة وملامحها وآثارها. سلام الله عليه وعلى الثائرين المتأثرين التابعين لخطه.

الخصومة بين الحسين _ عليه السلام _ والحاكم الأموي كانت مبدئية :

كانت الخصومة بين الهاشميين والأمويين قائمة على قدم وساق منذ عصور قبل الإسلام، وكانت الخصومة عند ذاك تتسم بالقبلية وإن كان العداء السائد يتغذى من أمور تمت إلى المعنوية والمثالية بصله، حيث إن الهاشمي كان عنوان الفضل والفضيلة ومثالاً للتقى على عكس ما كان أمية وبنوه عليه، فكانوا منغمرين في الانهيار الخلقى، والانكباب على المادة والماديات وقد ألف المورخ الشهير المقريزي كتاباً خاصاً أسماه بـ «النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم» نقتطف شيئاً قليلاً منه، حتى يتبين أن التخاصم في ذلك العصر وإن كان متسماً بالنزاع القبلي ولكنه كان مبنياً على تمتع بنى هاشم بنفسيات كريمة وروحيات طيبة حيث كانوا رافلين في حل الفضائل والفضائل على جانب الخلاف مما كانت عليه بنو أمية.

مناشدة هاشم وأميه :

نافر أمية هاشماً على خمسين ناقة سود الحدق، تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحمق

وكان منزله بعسفان وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب بن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحارث

(٢٢٨)

بن فهر ابن مالك الفهري، فقال الكاهن: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر أول منه وآخر، وأبو همهمة بذلك خابر».

فأخذ هاشم الأبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر، وخرج أمية إلى الشام فأقام به عشر سنين فكان هذا أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية، ولم يكن أمية في نفسه هناك وإنما يرفعه أبوه وبنوه وكان مضعوفاً وكان صاحب عهار، ويدل على ذلك قول نفييل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدامه عليه وقال:

أبوك معاهر وأبوه عفّ * وذاد الفيل عن بلد حرام

وذلك أن أمية كان يعرض لامرأة من بني زهرة، فضربه رجل منهم، ضربه بالسيف وأراد بنو أمية ومن تابعهم إخراج زهرة من مكة فقام دونهم قيس بن العدي السهمي وكانوا أخواله... (١)

جاء نبي الإسلام بدين سمح قد شطب على جميع ما كان في الجاهلية من أحقاد وضغائن، وقال في خطبة حجة الوداع: ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» (٢).

وبعد حروب ومعارك دامية قتل فيها أبطال قريش وصناديدهم، كما استشهد لقيف من المهاجرين والأنصار، دخل بنو أمية في حظيرة الإسلام متظاهرين به ولكن مبطنين الكفر والنفاق شأن كل حزب منهزم أمام تيار جارف، فكانوا ينتهزون الفرص ليقضوا على الإسلام باسم الإسلام، وعلى العدل والتقوى

(١) النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم: ٢٠ - ٢١.

(٢) الصدوق: الخصال: ٤٨٧.

(٢٢٩)

باسم الخلافة عن رسول الله وقد ظهرت بوادر ذلك في مجلس الخليفة عثمان بن عفان عندما بويح من جانب شوري سداسية أشبه بمسرحية سياسية حيث دخل عثمان بيته ومعه بنو أمية، جالسين حوله، يتبحرون بإناخة جمل الخلافة على بابهم، وقد تلقاها رئيس القبيلة أبو سفيان إنها إمرة سياسية أو سلطة بشرية وصلت إليهم، وإنه كان كذلك في عصر الخليفين السابقين وحتى الرسول الأكرم وأنه لم تكن هناك أية إمرة إلهية وخلافة دينية وليس هناك جنة ولا نار.

يقول أبو بكر الجوهري: إن أبا سفيان، قال لما بويح عثمان: كان هذا الأمر في تيم، وأتى لتيم هذا الأمر. ثم صار إلى عدي فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقر الأمر قراره، فتلقفوها تلقف الكرة.

وقال أيضاً: إن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت. أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يابني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار، وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: أغرب، فقال: يابني أها هنا أحد؟ قال الزبير: نعم والله لا كتمتها عليك (١)

أسيس عثمان حكومة أموية بحتة عزل سعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة فولاه الوليد بن عقبه وكان أخاً لعثمان من أمه، كما أنه عزل عمرو بن العاص عن خراج مصر عام ٢٧هـ واستعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أخاه من الرضاعة، وهو ابن خال عثمان، وأبقى معاوية على ولايته على الشام ولما كثرت الشكوى على عامله بالكوفة: الوليد بن عقبه، عزله فولى مكانه سعيد بن العاص، حتى قيل إن سبعا وخمسين من ولاته وعماله الكبار كانوا من بني أمية (٢)

إن هذه الحوادث المريرة وأضعافها التي حفظها التاريخ وجئنا بقليل منها

(١) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ٢/٤٥ نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري.

(٢) لاحظ: الدينوري: الأخبار الطوال: ١٣٩، ابن الأثير: الكامل: ٣/٨٨ - ٨٩، الطبري: التاريخ: ٣/٣٣٩ و ٤٤٥ وغيرها.

(٢٣٠)

في الجزء الخامس من هذه الموسوعة أغضبت جمهور المسلمين وأثارتهم ضد الخليفة حتى انتهت إلى قتله في داره، والمهاجرون والأنصار، بين مجهز عليه، أو مؤلّب ضده، أو مستبشر بمقتله أو صامت رهين بيته محايد عن الطرفين (١) قُتل عثمان بسيف مروان بن الحكم الذي سلّه عليه بأعماله المأساوية في بلاطه، وجاء بعده الإمام علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ بإلحاح من الجماهير وبايعوه على أن يرد الإسلام إلى عصر الرسول، وقد امتنع في بدء الأمر عن قبول الخلافة وتزهد فيها كما تزهد في عصر الخلفاء، غير أنه لما تمت الحجّة عليه ورأى أن في التقاعس عن قبولها ضرراً على الإسلام والمسلمين أخذ بزمام الخلافة بيد من حديد وقد خضعت له الأوساط الإسلامية بعمالها وأمرائها قاطبة إلا معاوية بن أبي سفيان، فقد استمر على العناد، واقفاً على أنه لو بايع الإمام للحقه العزل عن العمل، ومصادرة الأموال الطائلة. فبقى على المخالفة وألّب بعض المهاجرين والأنصار على الإمام حتى بايعهم خفاء إلى أن يبايعهم جلياً بعد سحب الإمام عن ساحة الخلافة، إلى أن آل الأمر إلى تأجيج نار حروب ثلاثة (الجمل وصفين والنهروان) قد عرفت تفاصيلها في الجزء الخامس، فلو قتل في الجمل قرابة أربعة عشر ألف مقاتل من الطرفين، أو قتل في صفين سبعين ألف مقاتل من العراقيين والشاميين، أو نشبت حروب دامية بين أنصار علي والخارجين على بيعته، طوال سنين، فكلها من جرائم وآثام ذلك الخلاف والعناد والخروج على الإمام.

التحق الإمام علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ إلى الرفيق الأعلى وقتل بيد أشقى الأولين والآخرين عبد الرحمن بن ملجم عام أربعين، ومعاوية بعد قابع على كرسية، وقد صفا له الجوّ برحيل علي _ عليه السلام _ فلم ير في الساحة إنساناً منافساً ولا مخالفاً سوى، الحسن بن علي _ عليه السلام _ لأنّ الجماهير من المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع علي في العراق بايعوه بالخلافة والإمامة ولكن معاوية خالفه ولم يبايعه كما _____

(١) الطبري: التاريخ: ٣/٣٩٩.

(٢٣١)

خالف أباه ولم يبايعه بل حاربه.

نشبت الخلاف بين معاوية والحسن بن علي وانجر الأمر إلى تجنيد الجنود ونفرهم إلى ميادين الحرب وبعد حوادث مريرة رأى الإمام الحسن _ عليه السلام _ أن الأصلح هو التنازل والتصالح تحت شروط ومبادئ خاصة حفظها التاريخ، ومن أهم الشروط التي وقّع عليها كل من معاوية والحسن بن علي، هو أنه ليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً (١) ولكن معاوية لم يكن ممن يعتمد على قوله وعهده ولا على حلفه ويمينه.

إنّ معاوية من الفئة الذين يقولون ولا يفعلون وقد أظهر نواياه بعدما تم التصالح فقال: إنّي والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا- لتزكّوا أنكم لتفعلون ذلك ولكني قاتلتكم لتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون ألا وإنّي كنت منيت الحسن أشياء وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي هاتين لا أفي بشيء منها له. (٢)

رجع الحسن بن علي إلى مدينته جده، ومع أخوه الحسين وبنو هاشم وكان يتجرع الغصص من آل أمية طيلة حياته إلى أن سمّه معاوية بتغريير زوجته فوافاه الأجل عام خمسين من الهجرة النبوية، وكان يضرب به المثل في الصبر والحلم. قال أبو الفرج: لما مات الحسن بن علي _ عليهما السلام _ وأخرجوا جنازته حمل مروان سريره، فقال له الحسين _ عليه السلام _ : أتحمل سريره أما والله كنت تجرعه الغيظ، فقال: مروان إنّي كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال (٣)

لم يكن معاوية يجترى على نقض ما وقع من عدم العهد إلى أحد ما دام الحسن في قيد الحياة، وكان يتحين الفرص لنقض العهد واليمين وقد نقض أكثر _____

(١) ابن صباغ المالكي: الفصول المهمة: ١٦٣.

(٢) المفيد: الإرشاد: ١٩١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل، لطالبيين: ٤٩، طبعة النجف الأشرف.

(٢٣٢)

ما عهد ولم يبق إلا شيء واحد وهو أن لا يعهد إلى أحد وكان ولده يزيد أمنيته وقره عينه، ولما مات الحسن رأى الجو صافياً، فمهد الطريق لتنصيبه والياً من بعده، وقد بذل في طريق أمنيته أموالاً طائلة لأصحاب الدنيا من الصحابة والتابعين حتى أَرْضَى طائفةً بترغيه ونقوده، وطائفةً أُخرى بتخويفه وترهيبه. نعم بقي هناك لفيف قليل اشتروا سخط المخلوق برضا الخالق فلم يبايعوه بل ثاروا عليه ووبخوا معاوية على نقض عهده، منهم: أبو الشهداء الحسين بن علي فقد جاهر وطرده بيعته وذلك عندما أراد معاوية أخذ البيعة ليزيد فقام وحمد الله وصلى على الرسول، فقال بعد كلام: «وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتوته بعلم خاص. وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به ومن استقراته الكلاب المهارشة عند التحارش، والحمام السابق لأترابهن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهى، تجده ناصراً، ودع عنك لما تحاول فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية» (١)

تسبم معاوية منصفه الحكومة فكان يحكم كالقيصرة والأكاسرة إلى ان أدركته المنية عام ستين وجلس مكانه وليده وربيه، ونظيره في الخلق والخلق، واهتز العالم الإسلامي حينذاك حيث أحسوا أن إنساناً خمييراً وسكياً لاعباً بالكلاب والقرده، تصدى للإمارة وفي الحقيقة للقضاء على الإسلام والمسلمين باسم الخلافة عن النبي الأكرم، فعند ذاك تمت الحجّة على الحسين بن علي - عليه السلام - فجاهر بالخلاف والصمود أمامه حيث تجسد في الزمان قول جده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم: «_ إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه وإلا فعليه لعنة الله» (٢) _____

(١) ابن قتيبة: الإمام والسياسة: ١١/١٦٩.

(٢) الكليني: الكافي: ١١/٥٤، ط الغفاري.

(٢٣٣)

وكان يزيد يحس بذلك عن كذب فكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عقبه أن يأخذ الحسين بالبيعة له، فلما اجتمع مع عامله فعرض عليه البيعة فرفض بعد جدال عنيف بحضور مروان بن الحكم، وأصبح الحسين من غده يستمع الأخبار فإذا هو بمروان بن الحكم قد عارضه في طريقه ونصحه بالبيعة ليزيد فعندئذ ارتجّ الحسين وثار ثورته وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذا بليت الأمة براع مثل يزيد»، ثم قال: «يا مروان أترشدني لبيعة يزيد، يزيد رجل فاسق لقد قلت شططاً من القول وزلاً ولا ألوئك، فإنك اللعين الذي لعنك رسول الله وأنت في صلب أبيك الحكم بن العاص، ومن لعنه رسول الله، فلا ينكر منه أن يدعو لبيعة يزيد، إليك عنى ياعدو الله فإننا أهل بيت رسول الله، الحقّ فينا ينطق على ألسنتنا وقد سمعت جدي رسول الله يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان الطلقاء وأبناء الطلقاء، فإذا رأيتم معاوية على منبرى فابقروا بطنه. ولقد رآه أهل المدينة على منبر رسول الله فلم يفعلوا به ما أمروا فابتلاهم بابنه يزيد» (١)

دوافعه نحو الثورة :

هذه الكلمة المباركة من الحسين بن علي - عليهما السلام - في أعتاب تفجير الثورة تعرب عن أنّ خلفه مع يزيد لم يكن خلافاً قليلاً ولا- استمراراً له، وإنّما كان يشور عليه لأجل أنّ الحاكم يتسم بمبادئ هدامه للدين، ولو أتيت له الفرصة لقضى على الإسلام والمسلمين، فلأجل ذلك قام عن مجلس الوليد ولم يبايعه وترك مدينة جده والتجأ إلى مكة المكرمة، وليست هذه الكلمة كلمة وحيدة معربة عن نواياه وحوافره التي دفعته إلى الثورة فكم لها من نظير في حياته.

وإليك كلمته الثانية عندما نزل منطقة البيضة من العراق واعترضه الجيش الأموي بقيادة الحر بن يزيد التميمي اليربوعي، فقال واقفاً بعد

أن حمد الله وأثنى _____

(١) الخوارزمي: مقتل الحسين: ١/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٢٣٤)

عليه: «أيها الناس أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفىء وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله» (١) ترى أن الإمام يعلل ثورته على يزيد في البيان الأول بأنه رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة مععلن للفسق، وإن هذه الصفات لا تتفق مع شروط الخلافة كما أنه يعلل ثورته في البيان الثاني بأنه سلطان جائر، مستحل لحرام الله ناكث لعهد، مخالف لسنة رسوله عامل في عباده بالإثم والعدوان. كل ذلك يعرب عن أن ثورته لم تكن ثورة قبلية ولا عنصرية، بل مبدئية بحتة.

وهناك للإمام بيان ثالث ورابع وخامس و... يعرّف موقفه من الحاكم الأموي، يعرف دافعه إلى النضال والكفاح نأتى بثالث:

كتب الإمام إلى رؤساء الأحماس والأشراف بالبرصرة كتاباً جاء فيه: «وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت وأسيرة جدى وأبى على بن أبى طالب، فمن قبلنى بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يقضى الله بينى وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين» (٢)

وفي هذه المقطعات من خطب ورسائل الإمام أدلة واضحة على أن الثورة لم تكن ثورة قبلية ولا عنصرية بل كانت ثورة دينية عقائدية بحتة، وكان الدافع المهم للتضحية ترسيم خط الشهادة والفداء لكل من يطلب رضى الحق، وبالتالي _____

(١) ابن الأثير: الكامل: ٣/ ٢٨٠، الطبرى: التاريخ: ٤/ ٣٠٠.

(٢) الخوارزمي: المقتل: ١/ ٨٨، الفصل ٩.

(٢٣٥)

قطع جذور الشر وتحطيم قوى الكفر والمنكر، وإن طال سنين، وقد نجح الإمام في ثورته هذه إلى أن انتهى الأمر إلى اجتثاث جذور بنى أمية عن أديم الأرض وغلق ملفهم بقتل حمارهم مروان عام ١٣٢هـ ق.

نجاح الإمام الحسين - عليه السلام - في ثورته :

لقد درسنا الحافز أو الحوافز التي دفعت الإمام إلى الثورة غير أنه بقى هنا أن نتحدث عن نتائجها وعن عطائها، إذ بالوقوف عليها يعلم أنه كان في ثورته ناجحاً أو فاشلاً، إن هناك من ينظر إلى ثورة الحسين من منظار سياسى ضيق أو مادي بحت أضيق، فيظن أن ثورته كانت فاشلة حيث إن الإمام استشهد ولم ينل الخلافة، والمسلمون بقوا بعد الثورة على ما كانوا عليه قبلها، فكان الإرهاب والتشريد حليفهم، وكانت الحكومة الأموية هي الحاكمة في البلاد الإسلامية قرابة سبعين سنة.

هذا ما يتصوره بعض الكتاب في ثورة الحسين، وكأن نجاح الثورة في منطقتهم، هو نجاحها في يومها أو بعد أيام، وهذا الزعم من هؤلاء ناش من الجهل بالحق أو التجاهل به، فلأجل قلع هذا التعقيم نركّز من عطاء الثورة في المقام على أمرين مهمين وتترك الباقي لأقلام الكاتبين في ثورة الحسين:

١ - إن الإمام بتضحية نفسه ونفيسه، أعلم الأمة فظاظه الأميين وقسوة سياستهم، وابتعادهم عن الناموس البشرى فضلاً عن الناموس الدينى وتوغلهم في الغلظة الجاهلية، وعادات الكفر الدفين.

ثار في وجه الحكم السائد ليعلم الملا الدينى أنهم لم يوقروا كبيراً ولم يرحموا صغيراً، ولم يرقبوا على رضيع ولم يعطفوا على امرأة فقدم إلى ساحات المفاداة، أغصان الرسالة وأوراد النبوة، وأنوار الخلافة، ولم تبق جوهره من هاتيك

(٢٣٦)

الجواهر الفريدة، فلم يعتم هو ولا هؤلاء إلا وهم ضحايا في سبيل تلك الطلبة الكريمة.

سل كربلا كم من حشاً لمحمّد * نهبت بها وكم استجذت من يد

أقمار تمّ غالها خسف الردى * وانثالها بصروفها الزمن الردى (١) ٢- لم يكن الحسين _ عليه السلام _ يطلب ملكاً عضواً ولا سلطة بشرية وإنما يطلب إيقاظ الأمة بواجبه الحتمي، وما هو إلا إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكأنّ الأمة نسيت ذينك العمادين وذلك لعوامل خلفت رفض ذينك الأمرين المهمين.

كانت الأمية تعيش بين الترغيب والترهيب فصارت محايدة عن كل عمل إيجابي يغير الوضع الحاضر وهم بين راضٍ بما يجري، وبين مبغض صامت، يترك الأمر إلى الله تبارك وتعالى، فكانت القلوب مشفقة والأيدي مغلولة وعلى الألسن أوكية.

وكيف يصح لمسلم واع، التساهل أمام عريضة يزيد بالكفر الصريح في شعره ونثره، وإنكار الوحي والرسالة وهذا هو التاريخ يحكي لنا: أنّه لما ورد على يزيد نساء الحسين وأطفاله، والرووس على الرماح وقد أشرفوا ثنية جيرون نعب الغراب فأنشأ يزيد يقول:

لما بدت تلك الحمول وأشرق * تلك الشمس على ربي جيرون

نعب الغراب فقلت صح أو لاتصح * فلقد قضيت من الغريم ديوني (٢) يعني أنّه قتل بمن قتل رسول الله يوم بدر كجده عتبه وخاله وليد بن عتبه، وغيرهما وهذا كفر صريح لا يلهج به إلا المنكر للرسالات والنبوات ورسالة سيد الرسل _____.

(١) الأميني: الغدير: ٣/٢٦٤.

(٢) ابن الجوزي: تذكرة الخواص: ٢٣٥.

(٢٣٧)

ولم يقتصر بذلك بل أخذ ينشد شعر ابن الزبيري حين حضر رأس الحسين بين يديه وقال:

ليت أشياخي ببدر شهدوا * جزع الخرج من وقع الأسل

قد قتلنا القرم من ساداتهم * وعدلنا قتل بدر فاعتدل

فأهلوا واستهلوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لاتشل

لست من خندف إن لم أنتقم * من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحي نزل (١) وليس ذلك ببعيد عن ابن معاوية فإنّ أباه كان يشتم من سماع الشهادة الثانية على رساله محمد فكان يقول: لله أبوك يا ابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة ما رضيت لنفسك إلا أن تقرن اسمك مع اسم رب العالمين (٢)

ولما قال له المغيرة بن شعبه: لقد كبرت فلو أظهرت عدلاً لإخوانك من بني هاشم فإنه لم يكن عندهم شيء تخافه قال: هيهات ملك أخو تيم، وفعل ما فعل، فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل أبو بكر، ثم ملك أخو عدى، فاجتهد وشم فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عمر، ثم ملك أخونا عثمان، فعمل ما عمل فوالله ما غدا أن هلك فهلك ذكره إلا أن يقول قائل عثمان.

وانّ أخا هاشم يصرخ باسمه في كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فأى عمل يبقى مع هذا لا أم لك والله إلا دفنا دفنا _____.

(١) البيتان الأولان لابن الزبيري، والثلاثة الأخيرة ليزيد، لاحظ تذكرة الخواص: ٢٣٥.

(٢) شرح النهج الحديدي: ٢/٥٣٧.

(٢٣٨)

ولمّا سمع المؤمنون بهذا الحديث كتب إلى الآفاق بلعنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة فأشير عليه بالترك

فأعرض عما كان عليه (١).

فلما قام الحسين في وجه الحكومة بأولاده وأصحابه القليلين، فقد نفث في جسم الأمة روح الكفاح والنضال وحطمت كل حاجز نفسى واجتماعى كان يوقفهم عن القيام، وأثبت أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الظروف الحرجة ليس رهن العدة والعدة بل إذا حاق الخطر بالأمة من ملوكها وأمرائها وزعمائها وأصبحوا يسوقون الناس بأفعالهم وأعمالهم، والمجتمع إلى العيش الجاهلى، وجب على المؤمن الاستنكار بقلبه ولسانه ويده فكان في قيامه تحطيم السدود المزعومة الممانعة عن القيام بالفريضة، ولأجل ذلك استتبت ثورته، ثورات عديدة تترى من غير فرق بين من ثار وهو على خط الإمام وبين من ثار في وجه الطغمة الأموية ولم يكن على خطه وفكره ولكن الكل كانوا مستلهمين من تلك الثورة العارمة، ولولا حركة الحسين _ عليه السلام _ لما كان لهذه الحركات أى أثر في المجتمع الإسلامى، وإن كنت في ريب من ذلك فعليك بدراسة الثورات المتتابعة بعد قيامه ونهضته.

قضى الإمام نجبه في اليوم العاشر من محرم الحرام عام ٦١هـ والرضاء بقضاء الله وقدره بين شفثيه (٢) وهو ظمان لم يشرب الماء منذ ثلاثة أيام، والفرات يموج بمياهه وحيثانه «سبيل على الرواد منهله العذب» دون الحسين وأولاده وأصحابه حتى يموتوا عطشى. ولم يقتصر عدوه الغاشم بقتله حتى هم.

(١) مروج الذهب: ٢/٣٤٣. آخر أخبار المأمون.

(٢) قال _ عليه السلام _ وهو طريح مصرعه: «رضاءً بقضائك، وتسليماً لأمرك، لا معبود سواك، يا غياث المستغيثين».

(٢٣٩)

برض صدره وظهره بالخيل، ليقتضى بذلك على جسم الإمام كله. لكنّه فاته أن شهداء طريق الحق، أحياء عند ربهم يرزقون، أحياء بين الشعوب الحية، وأنه سوف ينقلب الأمر لصالح الإمام وضد العدو حتى في اليوم الذى قضى عليه وأنه - عليه السلام - سيجعل من أعدائه الذين وجهوا إليه سيوفهم ورماحهم، أنصاراً صامدين، وثوراً مناضلين.

روى المورخون: لما قتل الحسين وتسابق العسكر إلى نهب خيام آل الرسول ونهبوا ما فيها أولاً، وأضرموا النار ثانياً وبنات الزهراء حواسر مسلبات، باقيات فنظرت امرأة من آل بكر بن وائل، كانت مع زوجها، إلى بنات رسول الله بهذا الحال فصاحت: يا آل بكر بن وائل أتسلم بنات رسول الله لا حكم إلا لله، يالثرات رسول الله فردها زوجها إلى رحله (١)

كان ذلك الهتاف من ذلك الوقت، نواة للثورة على العدو، وإن لم يشعر به العدو، واكتفى بجرها إلى رحله.

كان الحسين فاتحاً في نهضته، إذ لم يكن يتبني شيئاً سوى إيقاظ شعور الأمة بلزوم القضاء على دعاة الضلال، وكسح أشواك الباطل، عن طريق الشريعة، وتعريف الملاء بالذين هم الأحق بالخلافة والقيادة.

إن أئمة أهل البيت _ عليهم السلام _ غدوا الأمة بتحريضهم على عقد المحافل والمجالس لذكر حادثه الطف، وما جرى على الحسين من مصائب تدك الجبال الرواسى، وتذيب القلوب القاسية وقد اتخذوا أساليب مختلفة في إحياء حديث الطف بتشكيل أندية العزاء في بيوتهم تارة، ودعوة الناس إليها ثانياً، فقال الإمام الباقر _ عليه السلام _ «رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكر أمرنا» (٢) فكان

(١) ابن نما: مثير الأحزان: ٤، ابن طاووس: اللهوف: ٧٤.

(٢) المجلسى: البحار: ٧٤/٣٥٤ ح ٣١.

(٢٤٠)

لتلك الذكريات أثراً باهراً في تخليد الثورة في نفوس الأمة حتى اتخذها الأحرار مقياساً للسير في ضوئه مصباحاً وإليك نزرًا يسيراً من الثورات التالية لثورة الإمام - عليه السلام - (٢٤١) ثورة أهل المدينة وإخراج عامل يزيد لما ولى الوليد الحجاز أقام يريد غرة عبد الله بن الزبير فلا يجده إلا محترزاً ممتنعاً، وثار نجدة بن عامر النخعي باليمامة حين قتل الحسين، وثار ابن الزبير بالحجاز ... فعزل يزيد

الوليد، وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان فبعث إلى يزيد وفداً من أهل المدينة، فيهم: عبد الله بن حنظلة، غسيل الملائكة وعبد الله ابن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، والمنذر بن الزبير ورجالاً كثيراً من أشرف أهل المدينة، فقدموا على يزيد فأكرمهم وأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة، وكان شريفاً فاضلاً عابداً سيدياً، مائة ألف درهم، وكان معه ثمانية بنين، فأعطى كل ولد عشرة آلاف.

فلما رجعوا قدموا المدينة كلهم إلا المنذر بن الزبير فإنه قدم العراق على ابن زياد وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف دينار، فلما قدم أولئك نفر الوفد، المدينة قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الحراب وهم اللصوص وإننا قد خلعناه.

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل فقال: جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا

(٢٤٢)

بنى هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت منه عطاءه إلا لا تقوى به فخلعه الناس، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل على خلع يزيد وولوه عليهم (١)

ولما دخل عام ٦٣هـ أخرج أهل المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد، وحصروا بنى أمية بعد بيعتهم عبد الله بن حنظلة، فاجتمع بنو أمية ومواليهم ومن يرى رأيهم في ألف رجل حتى نزلوا دار مروان بن الحكم فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فبعث إلى عمرو بن سعيد فأقرأه الكتاب وأمره أن يسير إليهم فرد وقال: لا أحب أن أتولى ذلك.

وبعث إلى عبيد الله بن زياد يأمره بالمسير إلى المدينة ومحاصرة ابن الزبير بمكة فقال: والله لا جمعتهما للفاقد، قتل ابن رسول الله وغزو الكعبة. ثم أرسل إليه يعتذر.

فبعث إلى مسلم بن عقبة المري، وهو الذي سمي مسرفاً، وهو شيخ كبير فاستجاب، فنادى في الناس بالتجهز إلى الحجاز، وأن يأخذوا عطاءهم ومعونة مائة دينار، فانتدب لذلك اثنا عشر ألفاً، وخرج يزيد يعرضهم، فأقبل مسلم إلى المدينة ودخل من ناحية الحرة وضرب فسطاطه بين الصفيين واقتتل الصفيان قتالاً شديداً وانتهى الأمر، إلى غلبة قوات الشام على أهل المدينة بعدما قتل من الطرفين أناس كثير، ولم يقتصر المسرف بذلك بل أباح المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال... (٢)

(١) ابن الأثير الجزري: الكامل: ١٠٣/٤.

(٢) المصدر نفسه: ١١١/٤-١١٧، الطبري: التاريخ: ٣٧٢/٤ - ٣٨٠، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٢٤٣) ٢ ثورة عبد الله بن الزبير عبد الله بن الزبير بن العوام ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً، وكان أبوه ابن عمه علي - عليه السلام - وهو ابن خاله، وهو ممن سل سيفه يوم السقيفة لصالح علي وقال: لا أعمد سيفي حتى يبايع علي، ولكن - و للأسف - كان ولده علي الطرف النقيض من ذلك فهو كما قال علي - عليه السلام: ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ عبد الله فأفسده (١) وهو الذي دفع أباه إلى محاربة الإمام في وقعة الجمل بعد ما ندم وأراد التصالح والتراجع.

ومع هذا هو ممن اتخذ ثورة الإمام حجة على خروجه في وجه الحاكم الأموي وروى الطبري بسنده إلى عبد الملك بن نوفل قال: حدثني أبي: قال لما قتل الحسين - عليه السلام - قام ابن الزبير في أهل مكة وعظم مقتله، وعاب أهل الكوفة خاصة ولأم أهل العراق عامة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم: - إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلاً، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق وأنهم دعوا حسيناً لينصروه ويولوه عليهم، فلما قدم عليهم صاروا إليه، فقالوا له: إنما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية، فيمضى فيك حكمه وإيّا أن تحارب فرأى والله أنه هو مقتول ولكنّه اختار

(١) تنقيح المقال: ١٨٤/٢، مادة «عبد الله بن الزبير».

(٢٤٤)

الميتة الكريمة على الحياة الذميمة فرحم الله حسيناً، وأخزى قاتل حسين - إلى أن قال: - أبعده الحسين نظمناً إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً لا ولا نراهم لذلك أهلاً. أما والله لقد قتلوه، طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل.

أما والله ما كان يبدل بالقرآن، الغناء، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في تطلاب الصيد (يعرض بذلك يزيد) فسوف يلقون غياً.

فثار إليه أصحابه فقالوا له: أيها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد (إذ هلك حسين) ينازعك هذا الأمر وقد كان يبيع الناس سراً ويظهر أنه عائد بالبيت (١)

لما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها شخص بمن معه نحو مكة يريد ابن الزبير ومن معه، واستخلف على المدينة رُوْح بن زُبَاع الجُذَامِي، وقيل: استخلف عمرو بن مخزوم الأشجعي، فلما انتهى إلى المشلل نزل به الموت، وقيل: مات بثنية هُرْشَى، فلما مات سار الحصين بالناس فقدم مكة لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين وقد بايع أهلها وأهل الحجاز عبد الله بن الزبير واجتمعوا عليه، ولحق به المنهزمون من أهل المدينة فحمل أهل الشام عليهم حملةً انكشف منها أصحاب عبد الله، ثم نزل فصاح بأصحابه، وصبرهم ابن الزبير إلى الليل ثم انصرفوا عنه.

هذا في الحصر الأول ثم أقاموا يقاتلونه بقيه المحرم وصفر كله حتى مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، ولأجل القضاء على ابن الزبير

(١) الطبري: التاريخ: ٣٦٤/٤، ابن الأثير: الكامل: ٩٨/٤ - ٩٩.

(٢٤٥)

المتحصن في المسجد الحرام رموا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار، وكانت الحرب طاحنة إذ بلغهم نعي يزيد بن معاوية لهلال ربيع الآخر ولم يكن أمامهم إلا طريق واحد وهو الرجوع إلى الشام واختار الرجوع إليها (١)

كان ابن الزبير يسوس الحجاز والعراق وفيهما عماله إلى أن استولى عبد الملك على العراق عام إحدى وسبعين من الهجرة وانحصرت إمارة ابن الزبير بالحجاز وعند ذاك وجه عبد الملك، الحجاج بن يوسف الثقفي في ألفين وقيل في ثلاثة آلاف من أهل الشام لقتال عبد الله بن الزبير، وقدم مكة وحصر ابن الزبير والتجأ هو وأصحابه إلى المسجد الحرام، ونصب الحجاج المنجنيق على أبي قبيس ورمى به الكعبة إلى أن خرج أصحابه إلى الحجاج بالأمان، وقتل ابن الزبير يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة عام ثلاث وسبعين من الهجرة (٢)

(١) ابن الأثير: الكامل: ١٢٣/٤ - ١٢٤، الطبري: التاريخ: ٣٨١/٤ - ٣٨٤.

(٢) الطبري: التاريخ: ٢٤/٥، ابن الأثير: الكامل: ٣٤٩/٤ - ٣٥٦.

(٢٤٦) ٣ ثورة التوابين في الكوفة إن ثورة أهل المدينة على عامل يزيد وإخراجه من المدينة، وحركة ابن الزبير واستيلائه على الحجاز والعراق، لم يكن رد فعل مباشر لقتل الحسين - عليه السلام - وإن كانا متأثرين من ثورته وحركته، وهذا بخلاف حركة التوابين فقد كانت رد فعل مباشر لقتله، حيث أحسوا أنهم قصروا في حق إمامهم، إذ دعاهم فلم يجيبوا، وذلك عار عليهم. يتبعهم عذاب أليم، وأنه لا يغسل العار والآثم عنهم إلا بالثورة على قاتليه وعلى رأسهم، النظام الحاكم.

يقول الطبري: «لما قتل الحسين بن علي ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة فدخل الكوفة، تلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً، بدعائهم الحسين إلى النصره، وتركهم إجابته ومقتله إلى جانبهم، لم ينصروه، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والآثم

عنهم في مقتله إلا يقتل من قتله أو القتل فيه ففزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة:

١- سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

٢- المسيب بن نجبة الفزاري، وكان من أصحاب علي - عليه السلام - وخيارهم.

٣- عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي.

٤- عبد الله بن وال التيمي.

٥- رفاعه بن شداد البجلي.

إن هؤلاء النفر الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد وكانوا من خيار

(٢٤٧)

أصحاب علي ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجههم قال: فلما اجتمعوا إلى منزل سليمان بن صرد بدأ المسيب بن نجبة القوم بالكلام وقال:

١- قد ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن، فرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً: "أولم نَعْمَرُكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وجاءكم النذير" (١).

فإن أمير المؤمنين - عليه السلام - قال:

العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا، وتفريط شيعتنا حتى بلا الله أختيارنا فوجدنا كاذبين، في مواطن من مواطن ابن ابنه نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه وقدمت علينا رسله، وأعذر إلينا، يسألنا نصره عوداً وبدءاً، وعلاية وسراً فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألستنا ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصره إلى عشائرننا، فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله، لا- والله لا- عذر دون أن تقتلوا قاتله، والمواين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا ذلك، وما أنا بعد لقائه، لعقوبته بآمن.

أيها القوم ولوا عليكم رجلاً منكم فإنه لا بد لكم من أمير تفرعون إليه، وراية تحفون بها أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم.

٢- وتكلم رفاعه بن شداد وقال: إن الله قد هداك لأصوب القول ودعوت إلى أرشد الأمور، ودعوت إلى جهاد الفاسقين، وإلى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك، مستجاب لك، مقبول قولك قلت: ولوا أمركم رجلاً منكم، تفرعون إليه، وتحفون برايته وذلك رأى قد رأينا مثل الذي رأيت، فإن تكن أنت

(١) فاطر: ٣٧.

(٢٤٨)

ذلك الرجل تكن عندنا مرضياً، وفينا متصيحاً وفي جماعتنا محباً، وإن رأيت ورأى أصحابنا ذلك ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذا السابقة والقدم، سليمان بن صرد المحمود في بأسه ودينه، الموثوق بحزمه. ثم تكلم كل من عبد الله بن وال، وعبد الله بن سعد وتكلمنا بنحو من كلام رفاعه بن شداد فذكر المسيب بن نجبة بفضلته، وذكرنا سليمان بن صرد بسابقته ورضاهما بتوليته.

٣- تكلم سليمان بن صرد وقال: فإنني والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر الذي نكدت فيه المعيشة، وعظمت فيه الرزية وشمل فيه الجور أولى الفضل من هذه الشيعة لما هو خير، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنئهم النصر ونحثهم على القدوم، فلما قدموا ونينا وعجزنا، وأدهنا وتربصنا وانتظرنا ما يكون، حتى قتل فينا، ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارتته وبضعة من لحمه ودمه، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطاه، إتخذته الفاسقون غرضاً للنبيل، ودرية للرماح حتى أقصدوه، وعدوا عليه فسلبوه. ألا انهضوا

فقد سخط عليكم ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَنْ قتله أو تبيروا، ألا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل، كونوا كالاولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم " إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ " فما فعل القوم جثوا على الركب والله ومدوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا- ينجيهم من عظيم الذنب إلا- الصبر على القتل، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه، أشحدوا السيوف وركبوا الأسنة وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حتى تدعوا حين تدعوا وتستنفروا:

٤- فقام خالد بن سعد بن نفيل فقال: أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى

(٢٤٩)

يخرجنى من ذنبى ويرضى عني ربي لقتلتها، ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا، ونهينا عنه فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحي الذى أقاتل به عدوى، صدقه على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين.

٥- وقام أبو المعتمر حنش بن ربيعة الكنانى فقال: وأنا أشهدكم على مثل ذلك، فقال سليمان بن صرد: حسبكم من أراد من هذا شيئاً، فليات بماله عبد الله ابن وال التيمى تيم بكر بن وائل، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم، جهزنا به ذوى الخلة والمسكنة من أشياعكم (١)

٦- ثم أخذ سليمان بن صرد يكتب وجوه الشيعة فى الأطراف وكتب سليمان بن صرد: إلى سعد بن حذيفة اليمان (٢) يعلمه بما عزموا عليه، ويدعوه إلى مساعدتهم، ومن معه من الشيعة بالمدائن، فقرأ سعد بن حذيفة الكتاب على من بالمدائن من الشيعة فأجابوا إلى ذلك فكتبوا إلى سليمان بن صرد يعلمونه أنهم على الحركة إليه والمساعدة له.

وكتب سليمان أيضاً كتاباً إلى المثنى بن مخزبة العبدى بالبصرة مثل ما كتب إلى سعد بن حذيفة فأجابه المثنى: إننا معشر الشيعة حمدنا الله على ما عزمتم عليه، ونحن موافقك إن شاء الله للآجل الذى ضربت وكتب فى أسفله آياتاً (٣)

لم يزل القوم فى جمع آله الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس - فى السر - إلى الطلب بدم الحسين فكان يجيهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر ولم يزالوا على ذلك إلى أن هلك يزيد بن معاوية سنة أربع وستين.

فلما مات يزيد جاء إلى سليمان أصحابه فقالوا: قد هلك هذا الطاغية _____،

(١) الطبرى: التاريخ: ٤/٤٢٦ - ٤٢٨.

(٢) لاحظ نص الكتاب: تاريخ الطبرى: ٤/٤٢٩ - ٤٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ٤/١٥٨ - ١٦٢، الطبرى: التاريخ: ٤٣١.

(٢٥٠)

والأمر ضعيف فإن شئت وثبنا على عمرو بن حريث، وكان خليفة ابن زياد على الكوفة ثم أظهرنا الطلب بدم الحسين وتبعنا قتله ودعونا الناس إلى أهل هذا البيت المستأثر عليهم، المدفوعين عن حقهم.

فقال سليمان بن صرد: لاتعجلوا، إنى قد نظرت فيما ذكرت ف رأيت أن قتله الحسين هم أشرف الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون كانوا أشد الناس عليكم، ونظرت فيمن تبغى منكم فعلتم أنهم لو خرجوا لم يدرخوا تأرهم، ولم يشفوا نفوسهم، وكانوا جرزاً لعدوهم ولكن بثوا دعواتكم وادعوا إلى أمركم هذا، شيعتكم وغير شيعتكم فإنى أرجو أن يكون الناس اليوم

حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابة منهم قبل هلاكه، ففعلوا واستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد، وهم يريدون قتال أهل الشام الذين أقاموا دعائم عرش يزيد، وعدم التعرض بمن فى الكوفة من قتله الحسين - عليه السلام - على جانب الخلاف من

ثورة المختار.

مسير التوابين:

لما أراد سليمان بن صرد الخزاعي الشخوص سنة خمس وستين بعث إلى رؤوس أصحابه فأتوه، فلما أهل ربيع الآخر خرج في وجوه أصحابه وكانوا تواعدوا للخروج في تلك الليلة، فلما أتى النخيلة دار في الناس فلم يعجبه عددهم فأرسل حكيم بن منقذ الكندي، والوليد بن عصير الكنانى في الكوفة فناديا: يا ثارات الحسين فكانا أول (١) خلق الله دعوا يا ثارات الحسين. فأصبح من الغد وقد أتاه نحو مما في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفاً ممن بايعه فقال: سبحان الله ما وافانا من ستة عشر ألفاً إلا أربعة

(١) لقد سبق أنه أول من دعا به، هو امرأة من بنى بكر بن وائل يوم عاشورا عند إضرام النار في الخيام.

(٢٥١)

آلاف. فأقام بالنخيلة ثلاثاً يبعث إلى من تخلف عنه فخرج إليه نحو من ألف رجل. ثم قام سليمان في أصحابه فقال: أيها الناس من كان خرج، يريد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منّا، ونحن منه، ومن كان يريد الدنيا فوالله ما نأتى شيئاً نأخذُه وغنيمه نغنمها ما خلا رضوان الله. فتنادى أصحابه من كل جانب: إنا لا نطلب الدنيا وإنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبينا _ صلى الله عليه وآله وسلم _.

فسار سليمان عشية يوم الجمعة لخمس ماضين من ربيع الآخر سنة خمس وستين فوصل دار الأهواز، ثم ساروا فانتهاوا إلى قبر الحسين فلما دخلوا صاحوا صيحة واحدة فما رثى أكثر باكياً من ذلك اليوم فترحموا عليه وتابوا عنده من خذلانه، وترك القتال معه، وأقاموا عنده يوماً وليلاً يبكون ويتضرعون ويطرحون عليه وعلى أصحابه، وكان قولهم عند ضريحه: «اللهم إرحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد المهدي ابن المهدي، الصديق ابن الصديق، اللهم إنا نشهدك إنا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم. اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا _ صلى الله عليه وآله وسلم _ فاعفر لنا ما مضى، منّا وتب علينا وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين وإنا نشهدك إنا على دينهم، وعلى ماقتلوا عليه. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. وزادهم النظر إليه حقاً.

ثم ساروا بعد أن كان الرجل يعود إلى ضريحه كالمودع له، فازدحم الناس عليه أكثر من ازدحامهم على الحجر الأسود، ثم أخذوا على الأنبار وكتب إليهم عبد الله بن يزيد كتاباً يثبطهم عن السير إلى الشام وقاتل العدو ولما وصل الكتاب إلى سليمان قرأه على أصحابه، فكتب إليه جواباً - بعد أن شكره وأثنى عليه - أن القوم قد استبشروا ببيعهم أنفسهم من ربهم، وأنهم قد تابوا من عظيم ذنبهم وتوجهوا إلى الله وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى الله عليهم.

(٢٥٢)

ثم ساروا حتى انتهوا إلى «قرقيسيا» على تعبته وبها زفر بن الحارث الكلابي وقد فتح باب حصنه بعد ما عرف أن فيهم المسيب بن نجبة فأخرج لهم سوقاً وأمر للمسيب بألف درهم وفرس، فرد المال وأخذ الفرس وقال: لعلى أحتاج إليه إن عرج فرسى، وبعث «زفر» إليهم، بخبز كثير وعلف ودقيق حتى استغنى الناس عن السوق.

ثم ارتحلوا من الغد، وخرج «زفر» يشيعهم وقال لسليمان أنه قد سار خمسة أمراء من الرقة هم: الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذى الكلاع، وأدهم بن محرز، وجبله بن عبد الله الخثعمي، وعبيد الله بن زياد، في عدد كثير مثل الشوك والشجر، ثم اقترح عليهم أن ينزلوا بديهم حتى يكونوا يد واحدة على العدو الشاميين، فإذا جاءنا هذا العدو، قاتلناهم جميعاً. فلم يقبل سليمان وقال: قد طلب أهل مصر ذلك منّا فأبينا عليهم. ثم ساروا مجددين فانتهاوا إلى عين الوردة فنزلوا غربيها وأقاموا خمساً فاستراحوا وأراحوا.

وأقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عين الوردة على مسيرة يوم وليلة، فقام سليمان في أصحابه وذكر الآخرة ورجب فيها ثم قال: أتميا بعد فقد أتاكم عدوكم الذى دأبتم إليه فى السير آناء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فأصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين ثم قال: إن أنا قتلت فأمير الناس مسيب بن نجبة، فإن قتل، فالأمير عبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل، فالأمير عبد الله بن وال، فإن قتل، فالأمير رفاعه بن شداد، رحم الله امرئاً صدق ما عاهد الله عليه.

كان أدنى عسكر من عساكر الشام هو عسكر شرحبيل بن ذي الكلاع، وكان على رأس ميل فسار المسيب ومن معه مسرعين فأشرفوا عليهم وهم غازون، فحملوا في جانب عسكرهم فانهمز العسكر وأصحاب المسيب منهم رجالاً فأكثرُوا فيهم الجراح وأخذوا الدواب وخلقى الشاميون عسكرهم وانهمزوا، فغنم (٢٥٣)

منه أصحاب المسيب ما أرادوا ثم انصرفوا إلى سليمان موفورين.

وبلغ الخبر ابن زياد فسرح الحصين بن نمير مسرعاً حتى نزل في اثني عشر ألفاً، فخرج أصحاب سليمان إليه لأربع بقين من جمادى الأولى، وعلى ميمتهم عبد الله بن سعد، وعلى ميسرتهم المسيب بن نجبة وسليمان في القلب، وجعل الحصين على ميمته جملة بن عبد الله (١) وعلى ميسرته ربيعة بن المخارق الغنوي فلما دنا بعضهم من بعض دعاهم أهل الشام إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان، ودعاهم أصحاب سليمان إلى خلع عبد الملك وتسليم عبيد الله بن زياد إليهم وأنهم يخرجون من بالعراق من أصحاب ابن الزبير ثم يرد الأمر إلى أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فأبى كل منهم، فحملت ميمته سليمان على ميسرة الحصين، والميسرة أيضاً على الميمنة، وحمل سليمان في القلب على جماعتهم، فانهمز أهل الشام إلى عسكرهم، وما زال الظفر لأصحاب سليمان إلى أن حجز بينهم الليل.

فلما كان الغد صبح الحصين جيش مع ابن ذي الكلاع ثمانية آلاف، أمدهم بهم عبيد الله بن زياد، وخرج أصحاب سليمان فقاتلهم قتالاً لم يكن أشد منه جميع النهار، لم يحجز بينهم إلا الصلاة، فلما أمسوا تحاجزوا وقد كثرت الجراح في الفريقين، وطاف القصاص على أصحاب سليمان يحرضونهم.

فلما أصبح أهل الشام أتاهم أدهم بن محرز الباهلي في نحو من عشرة آلاف من ابن زياد، فقاتلوا يوم الجمعة قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضحى، ثم إن أهل الشام كثروهم وتعطفوا عليهم من كل جانب، ورأى سليمان ما لقي أصحابه، فنزل ونادى: عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإلى. ثم كسر جفنه سيفه ونزل معه ناس كثير وكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه، فقاتلهم، فقتل من أهل الشام مقتله عظيمة وجرحوا فيهم فأكثرُوا الجراح. فلما رأى الحصين صبرهم _____ (١) كذا في النسخة.

(٢٥٤) وبأسهم، بعث الرجال ترميهم بالنبل واكتفتهم الخيل والرجال، فقتل سليمان، رحمه الله، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ثم وثب ثم وقع.

فلما قتل سلمان أخذ الراية المسيب بن نجبة وترحم على سليمان ثم تقدم فقاتل بها ساعة ثم رجع ثم حمل. فعل ذلك مراراً، ثم قتل، رحمه الله، بعد أن قتل رجالاً.

فلما قتل أخذ الراية عبد الله بن سعد بن نفييل وترحم عليهما، ثم قرأ: "فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا" وحف به من كان معه من الأزد. فبينما هم في القتال أتاهم فرسان ثلاثة من سعد بن حذيفة، يخبرون بمسيرهم في سبعين ومائة من أهل المدائن، ويخبرون أيضاً بمسير أهل البصرة مع المثني بن مخربة العبدى في ثلاثمائة، فسرى الناس فقال عبد الله بن سعد: ذلك لو جاءونا ونحن أحياء.

فلما نظر الرسل إلى مصارع إخوانهم ساءهم ذلك واسترجعوا وقاتلوا معهم، وقتل عبد الله بن سعد بن نفييل، قتله ابن أخى ربيعة بن مخارق، وحمل خالد بن سعد بن نفييل على قاتل أخيه قطعنه بالسيف، واعتنقه الآخر فحمل أصحابه عليه فخلصوه بكثرتهم وقتلوا خالداً، وبقيت الراية ليس عندها أحد، فنادوا عبد الله بن وال فإذا هو قد اصطلى الحرب في عصابة معه، فحمل رفاعه بن شداد فكشف أهل الشام عنه، فأتى فأخذ الراية وقاتل ملياً ثم قال لأصحابه: من أراد الحياة التي ليس بعدها موت، والراحة التي ليس بعدها نصب، والسرور الذي ليس بعده حزن، فليقترب إلى الله بقتال هؤلاء المحلين، والروح إلى الجنة، وذلك عند العصر فحمل هو وأصحابه

فقتلوا رجالاً وكشفوهم.

ثم إنَّ أهل الشام تعطفوا عليهم من كل جانب حتى ردوهم إلى المكان الذي كانوا فيه، وكان مكانهم لا يوتى إلا من وجه واحد، فلما كان المساء تولى قتالهم

(٢٥٥) أدهم بن محرز الباهلي فحمل عليهم في خيله ورجله، فوصل ابن محرز إلى ابن وال وهو يتلو: "ولا تحسبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً" الآية، فغاض ذلك أدهم بن محرز فحمل عليه، فضرب يده فأبانها ثم تنحى عنه وقال: إني أظنك وددت أنك عند أهلك. قال ابن وال: بس ما ظننت، والله ما أحب أن يدك مكانها إلا أن يكون لي من الأجر مثل ما في يدي ليعظم وزرك ويعظم أجرى. فغاضه ذلك أيضاً، فحمل عليه وطعنه فقتله وهو مقبل ما يزول. وكان ابن وال من الفقهاء العبادة.

فلما قتل أتوا رفاعه بن شداد البجلي وقالوا: لتأخذ الراية. فقال: إرجعوا بنا لعلَّ الله يجمعنا ليوم شرهم. فقال له عبد الله بن عوف بن الأحمر: هلكننا والله، لئن انصرفت ليركبن أكتافنا فلا- نبلغ فرسخاً حتى نهلك عن آخرنا، وإن نجا منا نأج أخذته العرب يتقربون به إليهم فقتل صبراً، هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا، فإذا غسق الليل ركبنا خيولنا أول الليل وسرنا حتى نصبح ونسير على مهل، ويحمل الرجل صاحبه وجريحه ونعرف الوجه الذي نأخذه. فقال رفاعه: نعم ما رأيت، وأخذ الراية وقاتلهم قتالاً شديداً، ورام أهل الشام إهلاكهم قبل الليل فلم يصلوا إلى ذلك لشدة قتالهم، وتقدم عبد الله بن عزيز الكناني فقاتل أهل الشام ومعه ولده محمد وهو صغير، فنادى بنى كنانة من أهل الشام وسلّم ولده إليهم ليوصلوه إلى الكوفة، فعرضوا عليه الأمان، فأبى ثم قاتلهم حتى قتل.

وتقدم كرب بن يزيد الحميري عند المساء في مائة من أصحابه فقاتلهم أشد قتال، فعرض عليه وعلى أصحابه ابن ذى الكلاع الحميري الأمان، قال: قد كنا آمينين في الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة، فقاتلوهم حتى قتلوا وتقدم صخر ابن هلال المزني في ثلاثين من مزينة فقاتلوا حتى قتلوا.

فلما أمسوا رجع أهل الشام إلى معسكرهم، ونظر رفاعه إلى كل رجل قد

(٢٥٦) عُقره فرسه وجرح فدفعه إلى قومه ثم سار بالناس ليلته، وأصبح الحصين ليلتهم فلم يرههم، فلم يبعث في آثارهم، وساروا حتى أتوا قرقيسيا فعرض عليهم زفر الإقامة، فأقاموا ثلاثاً، فأضافهم ثم زودهم وساروا إلى الكوفة. ثم أقبل سعد بن حذيفة بن اليمان في أهل المدائن فبلغ «هيت» فأتاه الخبر، فرجع فلقى المثنى بن مخزبة العبدى في أهل البصرة بصندوداء، فأخبره، فأقاموا حتى أتاهم رفاعه فاستقبلوه، وبكى بعضهم إلى بعض وأقاموا يوماً وليلته ثم تفرقوا، فسار كل طائفة إلى بلدهم.

ولما بلغ رفاعه الكوفة كان المختار محبوساً، فأرسل إليه: أما بعد فمرحبا بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر، حين انصرفوا ورضى فعلهم حين قتلوا، أما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة، ولا ربا ربوة، إلا كان ثواب الله له أعظم من الدنيا. إن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفاه الله، وجعل وجهه مع أرواح النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، إني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون، وقاتل الجبارين، والمنتقم من أعداء الدين، المقيّد من الأوتار، فأعدوا واستعدوا وأبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيه، والطلب بدم أهل البيت، والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلّين، والسلام»

(١)

هذه هي ثورة التوابين، المشرقة، وهمهمم العالية، وتفاديهم في سبيل الهدى، وقد بُذل لهم الأمان فلم يقبلوا فقد: صدقوا ما عاهدوا الله عليه"

(٢) فقد قاموا بواجبهم فما رجع منهم إلا قليل بعد اليأس من الغلبة على العدو فرجعوا إلى أوطانهم ولحقوا بعشائرتهم وبذلك ابتغوا أن الوظيفة بعد باقية، على عاتقهم.

وهناك كلمة قيمة للمحقق شمس الدين نات بها: «لقد اعتبر التوابون أن»

(١) الجزري: الكامل: ١٧٥/٤ - ١٨٦.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

(٢٥٧) المسؤول الأول والأهم عن قتل الحسين _ عليه السلام _ هو النظام، وليس الأشخاص وكانوا مصييين في هذا الاعتقاد ولذا نراهم توجَّهوا إلى الشام ولم يلقوا بالألإ إلى من في الكوفة من قتله الحسين _ عليه السلام _ (١) إن هذه الثورة قد انبعثت عن شعور بالإثم والندم، وعن رغبة في التكفير فمن يقرأ أقوالهم وكتبهم وخطبهم، يلمس فيها الشعور العميق بالإثم والندم، والرغبة الحارة عن التكفير، وكونها صادرة عن هذه البواعث، جعلها ثورة انتحارية فالثائرون يريدون الانتقام والتكفير - ومع ذلك - إنها أثرت في مجتمع الكوفة تأثيراً عميقاً فقد عبأت خطب قادات هذه الثورة وشعاراتهم، الجماهير في الكوفة للثورة على الحكم الأموي.

(١) محمد مهدي شمس الدين: ثورة الحسين: ٢٦٤. (٢٥٨) ٤ ثورة المختار المختار هو ابن أبي عبيدة بن مسعود بن عمرو بن عوف بن عبدة بن عوف ابن ثقيف الثقفي، ولد عام الهجرة وقد جاء أبوه به إلى علي _ عليه السلام _ وهو صغير وأجلسه على فخذه وقال له وهو يمسح على رأسه: «يا كيس! يا كيس!» ولذا لُقّب بالكيسان (١)

إن ثورة المختار الثقفي من الثورات الانتقامية التي أثلجت قلوب بني هاشم إذ ما امتشطت هاشمية ولا اختضبت، حتى أخذ المختار ثأر الحسين من قتلته، ولما وقف الإمام علي بن الحسين _ عليهما السلام _ على ما جرى على أعداء أبيه بيد المختار خرّ ساجداً وقال: الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من أعدائي وجزى المختار خيراً (٢)

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو أن المختار كان من أهل الولاء لأهل البيت - عليهم السلام - فلماذا لم يُشارك في جيش الإمام _ عليه السلام _ ولم يقاتل أمامه ولكن التاريخ يجيبك عن هذا السؤال، وهو أن الرجل جاء لنصرة الإمام لكن قبض عليه وحيل بينه وبين أمنتيه _____.

(١) الكشي: الرجال: ١١٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٢٥٩)

يذكر المورخون أن مسلم بن عقيل _ عليه السلام _ خرج قبل الأجل الذي كان بينه وبين أصحابه منهم المختار بن أبي عبيدة، وكان في قرية تدعى «لقفا» فبلغه ما جرى على مسلم فجاء بمواليه إلى الكوفة يحمل راية خضراء ومعه عبد الله بن الحارث رافعاً لواء أحمر، فانتهى إلى باب الفيل ووضح لديهما قتل مسلم وهانئ وأشير عليهما بالدخول تحت راية عمرو بن حريث ليسلما على دمه، ففعلاً وحفظ دمهما ابن حريث بشهادته عند ابن زياد باجتنبهما مسلم بن عقيل، فقبل منه بعد أن شتم المختار واستعرض وجهه بالقضيب فشر (١) عينه، ثم أمر بهما فسجنا وبقيا في السجن إلى أن قتل الحسين _ عليه السلام _ فكتب المختار إلى عبد الله بن عمر ابن الخطاب وكان زوج أخته (صفية) أن يشفع له عند يزيد بن معاوية ففعل وشفعه يزيد وأمر ابن زياد بإطلاقه من السجن بعد أن أجله بالكوفة ثلاثاً ليخرج إلى الحجاز وإلا أعاده إلى السجن (٢)

خرج المختار إلى الحجاز وأقام هناك خمسة أشهر واجتمع مع ابن الزبير لخروجه على يزيد وكفاحه ضد الأمويين وهذه هي النقطة التي كان المختار وعبد الله بن الزبير وكثير من المعارضين يشتركون فيها حتى الخوارج. مكث عنده شهوراً وأياماً ولكن لم يجد بغيته فيه، ومع ذلك كلّه قاتل الشاميين جنود الطاغية تحت راية عبد الله بن الزبير، وهذا يدل على خلوصه في مكافحته الأمويين وقد ذكر الطبري شيئاً كثيراً من بطولته وقاتله ضد الشاميين نقتطف منه ما يلي:

مكث المختار مع عبد الله بن الزبير حتى شاهد الحصار الأول حين قدم الحُصين بن النمير السكوني مكة فقاتل في ذلك اليوم، فكان من أحسن الناس يومئذ بلاء وأعظمهم عناء، ولما قتل المنذر بن الزبير والمسور بن مخرمة _____
(١) شتر: قلب جفنه.

(٢) اليعقوبي: التاريخ: ٢/٢٥٨، ط دار صادر - بيروت، الطبري: التاريخ: ٤/٤٤١ - ٤٤٢.

(٢٦٠)

ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، نادى المختار: يا أهل الإسلام! إني إني أنا ابن أبي عبيد بن مسعود، وأنا ابن الكرار لا الفرار، أنا ابن المقدمين غير المحجمين. إني يا أهل الحفاظ وحماة الأوتار، فحمى الناس يومئذ وأبلى وقاتل قتالاً حسناً ثم أقام مع ابن الزبير في ذلك الحصار حتى كان يوم أحرق البيت، فإنه أحرق يوم السبت لثلاث مضي من شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ فقاتل المختار يومئذ في عصابة معه نحواً من ثلاثمائة أحسن قتال قاتله أحد من الناس إن كان ليقاتل حتى يتبدل ثم يجلس ويحيط به أصحابه، فإذا استراح نهض فقاتل، فما كان يتوجه نحو طائفة من أهل الشام إلا ضاربهم حتى يكشفهم (١)
وقد ذكر الطبري شيئاً كثيراً من هذه البطولات أيام إقامته في مكة مع ابن الزبير قبل مهلك يزيد وبعده.
مغادرته مكة إلى الكوفة:

ولما بلغ نعي يزيد إليه غادر مكة إلى الكوفة للطلب بدم شهيد الطف وإنما اختار الكوفة لأن هناك مجتمع أنصاره وأعدائه، ولما نزل الكوفة اجتمع حوله كثير من الشيعة، يقول المسعودي: نزل ناحية من الكوفة وجعل يظهر البكاء على الطالبين وشتيتهم، ويظهر الحنين والجزع لهم ويحث على أخذ الثار فمالت إليه الشيعة وانضافوا إلى جملته (٢) ولما بلغ إلى ابن الزبير التفاف الشيعة حول المختار وأنه بصدد الخروج أحس خطراً وأنه سوف يخرج العراق من يده، وقد كان العراق تحت قدرته، فرأى أن التفاف الناس حول المختار يرجع إلى عدم كفاءة عامله، فحاول إبداله بعامل آخر لم يكن في اللباقة أحسن منه فاستعمل عبد الله بن مطيع بالكوفة، وكان قدومه في رمضان لخمس بقين منه، ولما قدم صعد _____

(١) الطبري: التاريخ: ٤/٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب: ٣/٧٣ - ٧٤.

(٢٦١)

المنبر وخطبهم وقال: أما بعد فإن أمير المؤمنين (ابن الزبير) بعثني على مصركم وثوركم وأمرني بجباية فينكم وأن لا أحمل فضل فينكم عنكم إلا برضا منكم، وأن أتبع وصية عمر ابن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرة عثمان بن عفان فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا وخذوا على أيدي سفهائكم فإن لم تفعلوا فلو موأ أنفسكم ولا تلوموني، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي، ولأقيم درع الأصغر المرتاب (١)

ولو كان كلامه مقياساً لشعوره ودهائه وسياسته، فهذه الخطابة التي ألقاها، دليل على عدم تعرفه على بيئته، والنفسيات الحاكمة على سكانها فإن ما ذكره إنما كان يتجاوب مع أفكار قليل من أهل الكوفة الذين كانوا يتجاوبون مع بني أمية ويحبون خطبهم، وأما الأكثرية الساحقة، فكانوا على خلاف تلك الفكرة.

ولأجل ذلك قام السائب بن مالك الأشعري ولم يمهل لتمام كلامه وقال: «أما حمل فيننا برضانا فإننا نشهد أننا لا نرضى أن يحمل عنا فضله، وأن لا يقسم إلا فينا، وأن لا يسار فينا إلا بسيرة علي بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيننا ولا في أنفسنا، ولا في سيرة عمر بن الخطاب فينا وإن كانت أهون السيرتين علينا وكان يفعل بالناس خيراً».

فقال يزيد بن أنس: صدق السائب وبّر، وعندئذ تنبه عبد الله بن مطيع أن كلامه لم يكن بليغاً مطابقاً لمقتضى الحال فعاد بتلطيف ما سبق وقال: نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها ثم نزل (٢)

لمس المختار ما تتبناه الأكثرية الساحقة من أهل الكوفة والعراق ولم يكن آنذاك في وسعه تحقيق العدل الاجتماعي الذي سار به على _ عليه السلام _ في أيامه، ولكن كانت فيه مقدرة عظيمة على أخذ الثأر حتى يتمكن من الأخذ بمجامع القلوب.

(١) الجزري: الكامل في التاريخ: ٢١١|٤ - ٢١٣.

(٢) الجزري: ٢١٣|٤.

(٢٤٢)

ميزة ثورة المختار :

وتتميز ثورة المختار عن ثورة التوابين بأن ثورة هؤلاء كانت متوجهة على النظام الأموي بالذات دون الذين ارتكبوا الجرائم بالمباشرة، وذلك لاعتقادهم بأن النظام هو الأساس لقتل الحسين _ عليه السلام _ دون الأشخاص العملاء، فلا بد من السعي لقطع جذور السبب قبل مكافحته المسبب، فلأجل ذلك تركوا الكوفة وفيها قتل الحسين _ عليه السلام _ فتوجهوا إلى الشام وقد استشهد كثير منهم في معركة الحرب مع الشاميين وتراجع القليل منهم إلى الكوفة وعلى رأسهم رفاعه بن شداد الأمير الأخير لهم، وتفرقوا في عشائهم. أما المختار فقد كانت ثورته متوجهة بالذات إلى القتل، وتطهير أرض العراق من جرائم العيث والفساد من الأمويين، وأما الذي حداه إلى اتخاذ هذا الأسلوب في ثورته هو أن العراقيين قد استجابوا لابن الزبير وبايعوه وطرودوا عامل الأمويين من الكوفة باسم عمرو بن حريث، وذلك قبل خروج المختار، وكانت أمنيته من تلك البيعة أمرين:

١ - تحقيق العدل الاجتماعي والسير وراء الإصلاح الذي قام به الإمام علي _ عليه السلام -

٢ - أخذ الثأر من قاتل الإمام الحسين _ عليه السلام -.

أمّا الأمر الأوّل فلم يتحقّق منه شيء واضح حتى يقنع العراقيين، وأما الثاني فكان على طرف النقيض من أمنيته حيث كانت هياكل الإثم كعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وغيرهم مقرّبين إلى السلطة، فصار ذلك سبباً لتسرّب الضعف إلى سلطان ابن الزبير في القلوب فكانوا يتحينون الفرص للخروج عن بيعته وإقامه نظام جديد يحقّق العدل الاجتماعي الذي مارسوه في

(٢٤٣)

عهد الإمام علي وأخذ الثأر من قتل الإمام.

نهض المختار والشيعة هم الأغلبية الساحقة على الكوفة - غير راضين من سلطة ابن الزبير وعامله في الكوفة عبد الله بن مطيع واجتمعت الشيعة حول المختار واتفقوا على الرضا به ولم يزل أصحابه يكثرون، وأمره يقوى.

إنّ ثورة المختار كانت ثورة وهاجّة أُنارت الطريق للثائرين الآتين بعده، غير أنّ حولها إبهامات وتأمّلات أهمها كونها مبعوثة أو مدعومة من جانب ابن الحنفية مع أنّ الإمام القائم مقام الحسين ووليه وسلطان دمه هو علي بن الحسين زين العابدين _ عليهما السلام _ ولعلّ اتصاله بابن الحنفية لأجل أنّه قام بالأمر وقد مضت خمس سنين من شهادة الإمام وكان محمد الحنفية شخصية معروفة من عصر الإمام علي ويعد من علماء أهل البيت فاستجاز منه حتى يتخذ رصيلاً لثورته ولا يعد ذلك دليلاً على أنّه كان معتقداً بإمامته على أنّه لم يظهر لابن الحنفية أية دعوة لنفسه، ولو رمى بالدعوة فإنّما هو من أساطير المخالفين لأجل تشويه سمعته والتشكيك في قلوب الشيعة، مع أنّ المختار أرسل الرسل وروّس القتل إلى علي بن الحسين _ عليه السلام _ أثناء ثورته كما سيوافيك.

خرج المختار بعد مناوشات واشتباكات بينه وبين عبد الله بن مطيع، عامل ابن الزبير في الكوفة حتى غلب عليه المختار، فدخل المختار القصر وبات فيه وأصبح أشرف الناس في المسجد وعلى باب القصر وخرج المختار فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«الحمد لله الذي وعد وليه النصر، وعدّوه الخسر، وجعله فيه إلى آخر الدهر وعداً مفعولاً، وقضاً مقضياً وقد خاب من افتري، أيها الناس إنّنا رفعت لنا راية ومدّت لنا غاية فليل لنا في الراية إنّ إرفعوها، وفي الغاية أن أجروا إليها ولا تعدوها، فسمعنا دعوة الداعي

ومقاله الواعى.

(٢٤٤)

- وقال فى نهايه كلامه: - فلا والذى جعل السماء سقفاً محفوظاً والأرض فجاءاً سبلاً، ما بايعتم بعد بيعه على بن أبى طالب وآل على، أهدي منها».

ثم نزل ودخل عليه أشرف الكوفه فبايعوه على كتاب الله وسنة رسول الله والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا (١)

وأقبل المختار يمنى الناس ويستجّر مودة الأشرف ويحسن السيرة، وقيل له: إن عبد الله بن مطيع فى دار أبى موسى، فسكت فلما أمسى بعث له بمائة ألف درهم وقال: تجهّز بهذه فقد علمت مكانك وأنتك لم يمنعك من الخروج إلا عدم النفقه وكان بينهما صداقه (٢)

نهض المختار بالكوفه لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٦هـ وبقي إلى شهر رمضان من سنة ٦٧هـ وكانت ولايته ما يقارب ١٨ شهراً فجدّ فى الأمر وبالغ فى النصره وتتبع أولئك الأرجاس وقد أخذ الثأر من قتله الحسين - عليه السلام - ونذكر هنا شيئاً قليلاً من قتاله وكفاحه فى ساحة الأخذ بالثأر :

كان عامل المختار على الموصل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني فزحف إليه عبيد الله بن زياد بعد قتله سليمان بن سرد (الأمير الأول للتوابعين)، فحاربه عبد الرحمن وكتب إلى المختار بخبره. فوجه إليه يزيد بن أنس، ثم وجه إبراهيم بن مالك بن الحارث الأشتر، فلقى عبيد الله بن زياد فقتله، وقتل الحصين ابن نمير السكوني، وشرحيل بن ذى الكلاع الحميري، وحرقت أبدانهم بالنار وأقام والياً على الموصل وأرمينية وآذربيجان من قبل المختار وهو على العراق _____

(١) ابن الأثير: الكامل: ٤/٢١١ - ٢٢٦ بتلخيص.

(٢) الجزرى: الكامل: ٤/٢٢٥ - ٢٢٦.

(٢٤٥)

وال، ووجه برأس عبيد الله بن زياد إلى على بن الحسين إلى المدينة مع رجل من قومه، وقال له: قف بباب على بن الحسين فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل الناس فذاك الوقت الذى يوضع فيه طعامه، فادخل إليه، فجاء الرسول إلى باب على بن الحسين - عليهما السلام - فلما فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام، نادى بأعلى صوته: يا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومهبط الملائكة ومنزل الوحي أنا رسول المختار بن أبى عبيد معى رأس عبيد الله بن زياد، فلم تبق فى شىء من دور بنى هاشم امرأة إلا صرخت، ودخل الرسول فأخرج الرأس فلما رآه على بن الحسين قال: أبعد الله إلى النار.

وروى بعضهم أن على بن الحسين - عليهما السلام - لم يَرِ ضاحكاً يوماً قط، منذ قتل أبوه، إلا فى ذلك اليوم، وأنه كان له إبل تحمل الفاكهه من الشام، فلما أتى برأس عبيد الله بن زياد أمر بتلك الفاكهه ففرقت فى أهل المدينة، وامتشطت نساء آل رسول الله، واختضبن، وما امتشطت امرأة ولا اختضبت منذ قتل الحسين بن على - عليهما السلام -

وتتبع المختار قتله الحسين فقتل منهم خلقاً عظيماً، حتى لم يبق منهم كثير أحدٍ، وقتل عمر بن سعد وغيره، وحرقت بالنار، وعذب بأصناف العذاب (١)

وقد جاء الجزرى بتفصيل قتل قادة الجيش الأموى فى كربلاء. قال:

وكان عمرو بن الحجاج الزبيدى ممن شهد قتل الحسين فركب راحلته، وقيل أدركه أصحاب المختار وقد سقط من شدة العطش فذبحوه وأخذوا رأسه.

وبعث المختار غلاماً له يدعى زربى فى طلب شمر بن ذى الجوشن ومعه أصحابه أحاطوا بالبيت الذى فيه شمر، وقام شمر وقد أتز

بيرد وكان أبرص فظهر بياض برصه من فوق البرد وهو يطاعنهم بالرمح وقد عجلوه عن لبس ثيابه _____
(١) اليعقوبي: التاريخ: ٢/٢٥٩.

(٢٦٦)

وسلحه، وكان أصحابه قد فارقه فلما أبعدها عنه، سمعوا التكبير وقائلاً يقول: قتل الخبيث، قتله ابن أبي الكنود وألقيت جثته للكلاب
(١)

ثم أرسل إلى خولي بن يزيد الأصبحي وهو صاحب رأس الحسين - عليه السلام - فاخفى في مخرجه فدخل أصحاب المختار يفتشون عنه، فخرجت امرأته، واسمها العيوف بنت مالك، وكانت تعاديه منذ جاء برأس الحسين فقالت لهم: ماتريدون؟ فقالوا لها: أين زوجك؟ قالت: لا أدري، وأشارت بيدها إلى المخرج فدخلوا فوجدوه وعلى رأسه قَوْصِرَةٌ فأخرجوه وقتلوه إلى جانب أهله وأحرقوه بالنار.

وبعث المختار أبا عمرة إلى عمر بن سعد فأتاه وقال: أجب الأمير فقام عمر، فعثر في جبه له، فضربه أبو عمرة بسيفه فقتله وأخذ رأسه فأحضره عند المختار، فقال المختار لابنه «حفص بن عمر» وهو جالس عنده: أتعرف من هذا؟ قال: نعم ولا خير في العيش بعده فأمر به فقتل، وقال المختار: هذا بحسين، وهذا بعلي بن الحسين ولا سواء، والله لو قتلتُ به ثلاثة أرباع قريش، ما وفوا أنملة من أنامله، ثم بعث برأسه ورأس ابنه إلى ابن الحنفية وكتب إليه يعلمه أنه قد قتل من قدر عليه وإنه في طلب الباقيين ممن حضر القتل (٢)
ثم إن المختار أرسل إلى حكيم بن طفيل الطائي، وكان أصاب سلب العباس بن علي ورمى الحسين بسهم. كما بعث إلى قاتل علي بن الحسين وهو مرة ابن منقذ فأحاطوا بداره، فخرج إليهم على فرسه وبيده رمحه فطاعنهم فضرب علي يده وهرب منهم فنجوا ولحق بمصعب بن الزبير وشلت يده بعد ذلك.

وطلب المختار سنان بن أنس الذي كان يدعى قتل الحسين فرآه قد هرب إلى البصرة فهدم داره، كما أرسل إلى محمد بن الأشعث ولم يجده وقد كان هرب _____

(١) الجزري: الكامل: ٢٣٦/٤ - ٢٣٧ باختصار .

(٢) الجزري: الكامل: ٢٤١/٤ - ٢٤٢.

(٢٦٧)

إلى مصعب، فهدم المختار داره وبنى بلبنها وطينها دار حجر بن عدى الكندي، كان زياد قد هدمها (١)

وفى الختام نذكر عمله القيم الذي أنجى به لفيماً من أهل بيت النبي الأكرم من الإحراق بالنار.

إن عبد الله بن الزبير حبس محمد الحنفية وأصحابه بزمن وتوعدهم بالقتل والإحراق وإعطاء الله عهداً إن لم يُبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به، وضرب لهم في ذلك أجلاً.

فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية عليه، أن يبعث إلى المختار يعلمه حالهم فكتب إلى المختار بذلك وطلب منه النجدة فقرأ المختار الكتاب على الناس، فبكى الناس وقالوا: سرّحنا إليه، وعجل، فبعث إليهم ثمانمائة راكب من أهل القوة، حتى دخلوا المسجد الحرام ومعهم الرايات وهم ينادون بالثارات الحسين حتى انتهوا إلى زمزم، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم، وكان قد بقي من الأجل يومان، فكسروا الباب، ودخلوا على ابن الحنفية يستأذنون القتال وهو يقول: إنني لا أستحل القتال في الحرم. فخافهم ابن الزبير وتركهم. وخرج محمد بن الحنفية ومن معه إلى شعب علي وهم يسبون ابن الزبير ويستأذنون محمداً فيه فأبى عليهم فاجتمع في الشعب أربعة آلاف رجل فقسّم بينهم المال وعزوا وامتنعوا (٢).

ونقل الجزري أن ابن عباس كان أيضاً محبوساً مع محمد الحنفية فأزال جيش المختار الضرر عن كليهما، ولما قتل المختار قوى عليهما ابن الزبير فخرجا إلى الطائف ولما وصل ابن عباس إلى الطائف توفي به وصلى عليه ابن الحنفية (٣) _____).

(١) الجزرى: الكامل: ٢٤٢/٤ - ٢٤٤.

(٢) الجزرى: الكامل: ٢٥٠/٤ - ٢٥٤.

(٣) الجزرى: الكامل: ٢٥٠/٤ - ٢٥٤.

(٢٤٨)

قتل المختار بجيش مصعب بن الزبير :

كان المختار يسيطر على قسم كبير من اراضى العراق من الكوفة إلى الموصل وغيرهما وكان أمامه عدوين غاشمين: أحدهما عبد الله بن الزبير حيث كان يحكم على العراق كله غير أنه أخرج المختار عامله من الكوفة وبقيت البصرة بيد عامله مصعب بن الزبير، ثانيهما عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى الذى كانت بيده مفاتيح الأقطار الإسلامية غير العراق والحجاز.

وكان مصعب يتحين الفرصة للهجوم على الكوفة وعزل المختار وكان عبد الله يشجعه على ذلك ناسياً عمله المشرق عند ما ضرب جيش الشام الحصار على ابن الزبير، فقد حارب المختار ذلك الجيش المكثف أياماً عديدة، ولكن الملك عقيم. هذا من جانب. ومن جانب آخر أن المختار تتبع قتله الحسين - عليه السلام - بيتاً بيتاً وجد في الأمر، وقتل أولئك الأرجاس، ولأجل فتكه وقاتله، هرب قسم من أشرف الكوفة الذين كان لهم يد في قتل الحسين - عليه السلام - منهم شيب بن ربيعى، حيث ورد البصرة على هيئة خاصة يحرض والى البصرة على قتال المختار وهو فى عمله هذا اتبع ضمضم بن عمرو الغفارى عند ما أرسله أبو سفيان ليخبر قريشاً بالخطر الذى يحدق بتجارتهن، فاستأجر ذلك الرجل وأمره بأن يجده بعيره، ويقطع رحله ويشق قميصه من قبله ودبره، ويصيح: الغوث الغوث.

قام شيب بن ربيعى بنفس ذلك العمل (والجنس إلى الجنس يميل) جاء راكباً بغلة قد قطع ذنبها وقطع أطراف أذنها فى قباء مشقوق وهو ينادى: وا غوثاه، فقال الأشرف الهاربون إلى البصرة لمصعب: سر بنا إلى محاربة هذا الرجل الذى هدم دورنا وأخذوا يحرضونه على ذلك.

(٢٤٩)

فجاء مصعب بجيش كثيف وقد وقعت بينهما حروب طاحنة فى أقطار متعددة إلى أن انحسر المختار إلى الكوفة، وتخبأ بالقصر. فحاصره ابن الزبير بقصر الإمارة مع أربع مائة رجل من أصحابه أياماً، وقد كان المختار يخرج من القصر فيقاتل ويرجع إلى أن قتل لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، خرج بمن معه مستميتين فقتلوا وقتل المختار وجاء القاتل برأسه إلى مصعب بن الزبير فأجازه بثلاثين ألف درهم، ثم ابتداء الجيش بقتل الناهضين معه وقتلوا رجالاً - كثيراً، ثم بعث مصعب على حرم المختار ودعاهن إلى البراءة فرجعت ابنة سمرة بن جندب ولعنته وتبرأت منه فأطلق سراحها وأبت زوجته الأخرى ابنة النعمان بن بشير وقالت: شهادة أرزقها ثم أتركها، كلا إنها موتة ثم الجنة والقدوم على الرسول وأهل بيته، فأمر بها مصعب وقتلت صبراً.

(٢٧٠) ٥ ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لا- يهمنى فى المقام بيان تفاصيل الثورة التى جاءت فى تاريخ الطبرى والكامل وغيرهما وإنما يهمنى الإلماع إلى النقطة الحساسة فى خطب الثائرين على النظام الأموى، فقد ترى فيها محاكات عن خطب الإمام أبى الشهداء وبذلك صاروا مستلهمين ثورتهم من ثورته، وفكرتهم من فكرته، وقد نعموا من النظام بنفس ما نقم به الإمام منهم، وإليك بيانها على وجه موجز:

أرسل الحجاج، عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى سجستان على رأس جيش عراقى وقد فتحوا من البلاد شيئاً كثيراً وكتب القائد فى النهاية إلى الحجاج أن رأيه إيقاف الحرب فى هذه البلاد حتى يعرفوا طريقها، ويجبوا خراجها، ولما وصل الكتاب إلى الحجاج كتب إليه كتاباً وبّخه فيه على إيقاف الحرب، ثم أردفه بكتاب ثانٍ وثالث يأمره بالتوغّل فى الحرب وأنه إن أظهر العجز فالأمير أخوه إسحاق بن محمد.

ولما وصلت كتب الحجاج إلى عبد الرحمن جمع أصحابه وقال: أيها الناس! إنني لكم ناصح ولصالحكم محب، ثم ذكر ما دار بينه وبين الحجاج عن طريق الكتب، وأنه أمره بالتوغل في الحرب في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس. وقال: إنما أنا رجل منكم أمضى إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم. فثار إليه الناس فقالوا: لا بل نأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع. (٢٧١)

وقد تكلم فيمن تكلم عامر بن وائل الكناني، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: إحمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك وإن نجا فلك، إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهب والصبوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد، وحاز المال، وكان ذلك زيادةً في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عندهم ولا يبقى عليهم، اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا عبد الرحمن فإنني أشهدكم أنني أول خالع، فنادى الناس من كل جانب: فعلنا، فعلنا قد خلعنا عدو الله.

وقام عبد المؤمن بن شيبان بن ربيعي التميمي ثانياً وكان على شرطته حين أقبل فقال: عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمركم تجمير فرعون الجنود فإنه بلغني أنه أول من جمّر البعوث، ولن تعانوا الأحبة فيما أرى أو يموت أكثركم. بايعوا أميركم وانصرفوا إلى عدوكم فانفوه عن بلادكم، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه فقال: تبايعوني على خلع الحجاج عدو الله وعلى النصر لى وجهاده معى حتى ينفيه الله من أرض العراق فبايعه الناس ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشيء. ثم إنه خرج عبد الرحمن من سجستان مقبلاً إلى العراق فلما دخل فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض وقالوا: إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك، فاجتمعوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحليين.

ثم بعد وقوع اشتباكات عنيفة بين عبد الرحمن وجنود الحجاج، دخل عبد الرحمن البصرة، وبايعه الناس من كهولها وقراها على حرب الحجاج وخلع عبد الملك وكان ذلك في آخر ذي الحجة من سنة ٨١هـ فصارت الحرب في (٢٧٢)

الحقيقة بين الشاميين يرأسهم الحجاج، والعراقيين يقودهم عبد الرحمن.

مضى ابن الأشعث إلى جانب الكوفة والحجاج خلف عبد الرحمن إلى أن حصل التقابل بين الجندين في دير الجماجم (١) فلما حمل أهل الشام على العراقيين ناداهم عبد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه، فقال: يا معشر القراء إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم، إنى سمعت علياً رفع الله درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصدّيقين، يقول يوم التقينا أهل الشام: «أيها المؤمنون إنّه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم، وبرى، ومن أنكر بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكر بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور قلبه باليقين، فقاتلوا هؤلاء المحليين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه.

وقال أبو البختري: أيها الناس قاتلوهم على دينكم وديناكم، فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدنّ عليكم دينكم وليغلبنّ على دنياكم. وقال الشعبي: يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم فوالله ما أعلم قوماً على بساط الأرض أعمل بظلم، ولا أجور منهم فى الحكم فليكن بهم البدار.

وقال سعيد بن جبیر: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بتيةً وبقين وعلى آثامهم، قاتلوهم على جورهم فى الحكم وتجبّرهم فى الدين واستذلّاهم الضعفاء وإماتتهم الصلاح (٢) _____

(١) دير الجماجم: بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البرّ للسالك إلى البصرة قال أبو عبيدة: الجمجمة: القدر من الخشب وبذلك سمى دير الجماجم لأنه يعمل فيه الأقداح من الخشب (معجم البلدان: ٢/٥٠١).

(٢) الطبري: التاريخ: ١٤٥/٥ - ١٤٣.

(٢٧٣)

إلى غير ذلك من الخطب التي أُلقيت في ذلك المقام وإن تمت الحرب لصالح الحجاج وقضى على ثورة ابن الأشعث يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الأخرى عام ٨٣هـ ولكنها كانت ثورة وهاجه في وجه العدو استتبع ثورات أخرى حتى قضت على بني أمية من رأس.

وأعلق على ثورة عبد الرحمن بأمر:

١- إن الامعان في هذه الكلم الموجزة يقتضى بأن القوم كانوا مستلهمين من خطب الإمام أمير المؤمنين وخطب سيد الشهداء يوم عاشوراء وغيره، ويظهر ذلك بمقارنه خطب أبي الشهداء منذ غادر المدينة إلى أن استشهد في الطف، وبهذا يظهر أن هذه الثورات كانت نابعة عن ثورة الحسين ولولاها لما تابعت هذه الثورات وبالتالي كان الحكم بيد الأمويين إلى قرون كما كان الأمر كذلك بيد العباسيين ولم يكونوا أحسن سلوكاً من الأمويين.

٢- نرى أن سعيد بن جبير ذلك التابعي العظيم وكميل بن زياد النخعي، ممن شاركوا في هذه الثورة وجاهدوا تحت رايه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مع أن بين المقود والقائد بعد المشرقين، فهؤلاء كانوا علويين وعبد الرحمن وأبوه محمد ابن الأشعث كانا عثمانيين الهوى، فإن محمد بن الأشعث هو الذي قضى على ثورة مسلم في الكوفة وقتله وشارك في قتل الحسين. وما هذا إلا لأن رؤساء الشيعة آنذاك استثمروا الفرصة وشاركوا في هذه الثورة ليقضوا على العدو الغاشم بيد غيرهم، ولأجل ذلك لما وضعت الحرب أوزارها دعا الحجاج بكميل بن زياد النخعي فقال له: أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين قد كنت أحب أن أجد عليك سيلاً. فقال: والله ما أدري على أيننا أنت أشد غضباً عليه حين أقاد من نفسه أم على حين عفوت عنه؟ ثم قال: أيها الرجل من ثقيف لا تصرف على أيابك ولا تهدم على تهدم الكتيب، ولا تكسر كسران الذئب، والله ما بقي من

(٢٧٤)

عمرى إلا ضم الحمار فإنه يشرب غدوة ويموت عشية، ويشرب عشية ويموت غدوة، إقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب. قال الحجاج: فإن الحجة عليك. قال: ذلك إن كان القضاء إليك، قال: بلى كنت فيمن قتل عثمان وخلعت أمير المؤمنين. أقتلوه، فقدم فقتل، قتله أبو الجهم بن كنانة (١)

٣- إن الحجاج كان ممن نكست فطرته فالمعروف كان عنده منكرًا والمنكر معروفًا، وكان قتل الأبرياء وتعذيبهم بألوان العذاب شيئاً سهلاً عنده. يقول المورخون: لما أسرف الحجاج في قتل أسارى دير الجماجم واعطائه الأموال بلغ ذلك عبد الملك فكتب إليه: أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطاء الدية وفي العمد القود، وفي الأموال ردّها إلى مواضعها...

فلما بلغ كتاب عبد الملك إليه كتب إليه في الجواب: والله ما على من عقل ولا قود، ما أصبت القوم فأديهم، ولا ظلمتهم فأقاد بهم، ولا أعطيتهم إلا لك، ولا قتلت إلا فيك... (٢)

وكان سعيد بن الجبير وكميل بن زياد ومئات من التابعين الأبرياء كانوا ممن تستباح دماؤهم وأموالهم فخضب وجه الأرض بسيول الدماء... وإلى الله المشتكى.

٤- وإن من العجب العجاب مشاركة الحسن المثني في انتفاضة ابن الأشعث ولأجل ذلك يعدّه ابن المرتضى سلفاً للزيدية، ولم يكن زيد يوم ذاك إلا طفلاً أو مراهقاً، وبما أن أهل البيت كانوا يعانون من النظام الأموي المتمثل يوم

(١) الطبري: التاريخ: ١٦٩/٥ - ١٧٠.

(٢) المسعودي: مروج الذهب: ١٣٤/٣ - ١٣٥.

(٢٧٥)

ذلك في بنى مروان، شاركوا في مثل هذه الانتفاضة لاتفاقهم معه في الهدف المؤقت أعنى إزالة عبد الملك عن الحكم (١) إلى هنا تمت الثورات المتقدمة على ثورة الإمام زيد وقد اتضح كونها مستلهمة من ثورة الحسين بوجه وحان حين الكلام في ثورة زيد الشهيد التي أنارت الطريق للتأثرين المتأخرين الذين أنهضهم بثورته، للقضاء على النظام السائد في مدة لا تتجاوز عشر سنين وإليك البيان.

(١) البحر الزخار: المقدمة | ٢٢٥، وسيوافيك الكلام عند ذكر أئمة الزيدية.

(٢٧٦) (٢٧٧)

القسم الثاني : فهرس إجمالي لفصول القسم

إشاره

القسم الثاني : فهرس إجمالي لفصول القسم الثاني ، العشرة

الفصل الأول عرض إجمالي للتأثرين بعد الإمام زيد

الفصل الأول عرض إجمالي للتأثرين بعد الإمام زيد وهم بين داع وإمام إن ثورة زيد بن علي كانت ثورة عارمة بوجه الظالمين هزت وضععت أركان الدولة الأموية وساعدت على إزالتهم عن أديم الأرض، وقد استغلها العباسيون في تنظيم حركتهم لإقامة دولتهم وقد تركت ثورته في القلوب محبة للتأثر ومن حبا حبه بشكل قل نظيره، حتى أن يحيى بن زيد لما أطلق سراحه اتخذ الخراسانيون من قيد قدميه فصوصاً لخواتيمهم، يتبركون بها، وهذا يدل على عمق تأثير ثورة زيد في قلوب المسلمين. ولإيقاف القارى على الأحداث التي وقعت بعد ثورته، نذكر الذين نهجوا منهجه وساروا على دربه، أخذوا بزمام الثورة وقادوها، واحداً بعد الآخر، وإليك أسماءهم أولاً، ثم الإدلاء بحياتهم وثورتهم، ثانياً:

١ - يحيى بن زيد، الذى اشترك مع أبيه فى الثورة وبقى بعد مقتل أبيه.

٢ - محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية المستشهد عام ١٤٥ هـ خرج بالمدينة مطالباً بإرجاع الحقوق إلى أصحابها الشرعيين، وكان

(٣٣٠)

محمد قد شارك في ثورة زيد بن علي ولما فشلت عاد إلى المدينة، وسيوافيك أن يحيى بن زيد قد فوض الأمر إلى النفس الزكية.

٣ - لما قتل محمد بن عبد الله قام أخوه إبراهيم بن عبد الله فى نفس العام فى البصرة، التحق به أنصار زيد بن علي، لمواصله القتال من جديد. إلى أن قضى عليه أبو جعفر المنصور فى نفس العام.

٤ - ولما قتل محمد بن عبد الله، مضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه خلق من الناس وبعث المنصور من اغتاله بالسهم وقام ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن مقامه، وأسّس دوله الأدارسة فى المغرب. ذكر تفصيله المسعودى فى مروج الذهب (١) وسيوافيك الكلام فيه فى محله.

٥ - عيسى بن زيد بن علي، أخو يحيى بن زيد، وقد توارى بعد ثورة أخيه فمات متوارياً عام ١٦٦ هـ

٦ - محمد بن إبراهيم (طباطبا)، فقد خرج فى خلافة المأمون ودعا إلى الرضا من آل محمد وكانت له أتباع وغلب على بلاد العراق

وهزمت جيوش المأمون التي أرسلت للقضاء عليه، وصلت سيطرة ابن طباطبا إلى الحجاز حتى أن الحسين بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي المعروف بـ «الأفطس» دعا له بالمدينة، وتوفي عام ١٩٩هـ.

٧- محمد بن محمد بن زيد بن علي، وكان أبو السرايا قائداً عاماً لجيشه وكان قبل ذلك داعية لابن طباطبا.

لما توفي محمد بن إبراهيم (طباطبا) هرب أخوه القاسم بن إبراهيم _____

(١) المسعودي مروج الذهب: ٣/٢٩٦، قال: وقد أتينا على خبرهم عند ذكرنا بخبر عبيد الله صاحب المغرب، وبنائه المدينة المعروف بالمدينة.

(٣٣١)

(طباطبا) إلى الهند وتوفي هناك عام ٢٥٤هـ فعاد ابنه الحسين بن القاسم إلى اليمن، وعند ذلك تواصلت قيادة الثورة بابنه الآخر أعني:

٨- محمد بن القاسم بن علي بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، فقد ظهر في الطالقان عام ٢١٩هـ ودعا إلى الرضا من آل محمد، ولكن ألقى القبض عليه فجاء به إلى المعتصم فسجن.

٩- يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، خرج بالكوفة عام ٢٥٠هـ غير أن ثورته فشلت.

١٠- يحيى بن الحسين بن القاسم، المعروف بالزاهد وقد دعا لنفسه بصعده وبويع للإمامة عام ٢٨٨هـ.

ثم إن الإمام يحيى بن الحسين أسس دولة زيدية باليمن وقامت بالإمامة واحد بعد الآخر وكلهم من أبناء القاسم إلى أن أقصيت الزيدية عن الحكم في اليمن بحلول الجمهورية، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٨٢هـ وسيوافيك أسماء أئمتهم إلى المنصور بالله محمد البدر بن أحمد بن يحيى حميد الدين. في محله.

١١- قامت دولة زيدية أخرى في طبرستان بين ٢٥٠ - ٣٦٠هـ.

وفي عام ٢٥٠هـ ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب في طبرستان أيام المستعين، واستطاع السيطرة على طبرستان وجرجان بعد قتال مرير ضد محمد بن طاهر أمير خراسان وتوفي عام ٢٧٠هـ.

١٢- قام مقامه أخوه محمد بن زيد ودخل بلاد الديلم عام ٢٧٧هـ وامتلكها وتمت بيعه رافع له.

(٣٣٢)

وفي عام ٢٨٧هـ سار محمد بن زيد نحو خراسان للاستيلاء عليها، فاصطدم بإسماعيل الساماني المتوفى عام ٢٩٥هـ ومات متأثراً بجراحه.

١٣- ثم ملك طبرستان بعد ذلك الناصر للحق الحسن بن علي المعروف بـ «الأطروش» وقد كان يدعو الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، وكانوا على دين المجوسية فاستجابوا له واستطاع عام ٣٠١هـ، أن يستولي على طبرستان والديلم إلى أن وافته المنية عام ٣٠٤هـ.

١٤- وجاء بعده الحسن بن القاسم (الملقب بالداعي) بن الحسن بن علي ابن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط.

١٥- وقام مقامه محمد بن الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط المتوفى سنة ٣٦٠هـ.

هذه جدولته موجزة وضعتها أمام القارئ للثائرين المشهورين، وإلا الثوار الداعون إلى منهج الإمام زيد أكثر من ذلك، وقد ذكر الإمام الأشعري منهم اثنين وعشرين نفرًا كلهم من العلويين، حيث ضرجوا بدمائهم، أو أقصوا من ديارهم، لارجاع العدالة والدين إلى الساحة الإسلامية، ولعل بين قراء الكتاب من له رغبة في الوقوف على أسماء الجميع، - ولذلك - نذكر نصّ الشيخ الأشعري بتلخيص.

قائمة الثائرين بعد زيد الشهيد :

قال الأشعري: هذا ذكر من خرج من آل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فذكر أولاً خروج أبي الشهداء الحسين بن علي - عليهما السلام، - ثم خروج زيد بن علي علي وجه التفصيل، وأوجز الكلام فيما يأتي، أعنى بهم: (٣٣٣)

- ١ - يحيى بن زيد...
- ٢ - محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، ذو النفس الزكية.
- ٣ - إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، أخو محمد.
- ٤ - الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن، قتييل فخر.
- ٥ - يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، صار إلى الديلم.
- ٦ - محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى خرج بـ «تاهرت».
- ٧ - محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي.
- ٨ - محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.
- ٩ - إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، - قدس سره - خرج مرة باليمن وبالعراق أخرى.
- ١٠ - محمد بن القاسم من ولد الحسين بن علي، بخراسان، خرج ببلدة يقال لها طالقان.
- ١١ - محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الملقب بـ «الديباج» لحسن وجهه، خرج داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم، فلما مات محمد بن إبراهيم دعا لنفسه.
- ١٢ - الأقطس خرج بالمدينة داعياً لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، فلما مات محمد بن إبراهيم دعا إلى نفسه.
- ١٣ - علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين، خرج في خلافة المعتصم.
- ١٤ - الحسن بن زيد بن الحسن بن علي أبي طالب، خرج بطبرستان في سنة ٢٥٠هـ (٣٣٤)

- ١٥ - وخرج بقزوين، الكوكبي وهو من ولد الأرقط، واسمه: الحسن بن أحمد بن إسماعيل، من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب.
- ١٦ - وخرج بالكوفة أيام المستعين، أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.
- ١٧ - وخرج في أيامه أيضاً، الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله من ولد الحسين بن علي.
- ١٨ - خرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين، ابن الأقطس.
- ١٩ - وخرج بسواد المدينة سنة ٢٥٠هـ، إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم من ولد الحسن بن علي فغلب عليها وتوفي عام ٢٥٢هـ.
- ٢٠ - خلف أخوه محمد بن يوسف وجاء به أبو الساج، وقتل كثيراً من أصحابه وهرب محمد فمات في هربه.
- ٢١ - خرج بالكوفة في آخر أيام بني أمية، عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وحرابه عبد الله بن عمر فغادر الكوفة عازماً إلى فارس، فمات فيها.
- ٢٢ - وخرج صاحب البصرة وكان يدعى أنه علي بن محمد بن علي بن عيسى ابن زيد بن علي وأنصاره الزنج وغلب على البصرة سنة ٢٥٧هـ وقتل سنة ٢٧٠هـ.

٢٣ - وخرج بأرض الشام المقتول على الدكة، فظفر به المكتفى بالله بعد حروب ووقائع كانت (١)

والنسبة بين ما ذكرناه وما ذكره الأشعري عموم وخصوص من وجه، وهو _____

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٧٥ - ٨٥.

(٣٣٥)

بعد لم يذكر الثائر الطائر الصيت يحيى بن الحسين الذي أقام الدولة في اليمن، كما ترك بعض الثائرين المؤسسين للدولة في طبرستان.

والجدير بالدراسة، هو البحث عن الحافظ أو الحوافر التي كانت تدفع هؤلاء الأماثل الأشراف نحو القتال في الساحة، فكانوا يرون بأمر أعينهم، أنه لا يقوم واحد منهم إلا ويقتل أو يسجن ويعذب بألوان العذاب، ومع ذلك كانوا يبادلون هدوء الحياة وملاذها بالشهادة في المعارك، والصلب على المشائق، وقتل الأولاد والأصحاب، ونهب الأموال.

وهذه هي النقطة الحساسة في حياة العلويين التي تحتاج إلى دراسة معمقة بحياد ورحابة صدر وبما أن موسوعتنا، موسوعة تاريخ العقائد، لا- تاريخ الشخصيات والحوادث، نرجى البحث عنها إلى آونة أخرى، وفي نهاية المطاف نقول: يُقسّم الثائرون بعد زيد الشهيد إلى أصناف أربعة:

١ - أصحاب الانتفاضة: الذين قاموا بوجه الظلم، بعد استشهاد زيد في أقطار مختلفة وعلّموا أن أعواد المشائق نصب أعينهم وكان نصيبهم من القيام هو الشهادة، وإيقاظ الأمة وأداء الواجب من دون أن يؤسسوا دولة في قطر من الأقطار، وإنما كانت أعمالهم أشبه بما يعبر عنها اليوم بالانتفاضة.

الذين ساروا على درب الإمام زيد وصار التوفيق نصيبهم، فأسسوا دولة في قطر من الأقطار امتدت قرناً أو قرونًا، وهؤلاء عبارة عن:

٢ - أئمة الزيدية في اليمن: ابتداءً بالإمام يحيى بن الحسين الذي قام بالأمر عام ٢٨٤ هـ وتوفي عام ٢٩٨ هـ وانتهاءً بحياة المنصور بالله محمد البدر الذي أُزيل عن الحكم بقيام الجمهورية عام ١٣٨٢ هـ

٣ - أئمة الزيدية في طبرستان: ابتداءً من الحسن بن زيد بن محمد بن

(٣٣٦)

إسماعيل الذي قام بالحكم وأسس الدولة سنة ٢٥٠ هـ وانتهاءً بمحمد بن الحسن ابن القاسم الذي توفي سنة ٣٦٠ هـ

٤ - دعاة الزيدية في المغرب: ابتداءً بإدريس بن عبد الله المحض وانتهاءً بأحد أحفاده، وسيوافيك تفصيله.

فذكرهم على وجه التفصيل في فصول: (٣٣٧)

الفصل الثاني أصحاب الانتفاضة

الفصل الثاني أصحاب الانتفاضة

استشهد زيد بن علي - رضى الله عنه - وهو في طريق دعوته إلى كسح الظلم ونشر العدل، وأشعل فتيل الثورة وبقيت نارها بعد استشهاده متأججة بين أولاده وأصحابه، بيد كابر بعد كابر. وإليك من نهج منهاجه: ١ يحيى بن زيد بن علي (١٠٧ - ١٢٥ هـ) هو يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليه السلام - وأمه «ريطة» بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وإياها عنى أبو ثميلة الآبار بقوله:

فلعل راحم أم موسى والذي * نجاه من لجج خضم مزبد

سيسر «ريطة» بعد حزن فوادها * يحيى، ويحيى في الكتاب يرتدى

وأم «ريطة» هي بنت الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، أمها ابنة المطلب بن أبي وادعه السهمي.

شرف تتابع كابر عن كابر * كالرمح انبوب على انبوب

(٣٣٨)

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني ثورته واستشهاده على وجه مبسط، وجاء الجزرى باختصاره في الكامل ونذكر نص الثاني:

لما قتل زيد بن علي ودفنه يحيى ابنه، سار بعد قتل أبيه، إلى خراسان، فأتى «بلخ» فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود حتى هلك هشام، وولى الوليد بن يزيد. فكتب يوسف بن عمر إلى «نصر» بمسير يحيى بن زيد وبمنزله عند الحريش، وقال له: خذ أشد الآخذ، فأخذ «نصر» الحريش، فطالبه يحيى، فقال: لا علم لي به. فأمر به فجلد ستمائة سوط. فقال الحريش: والله لو أنه تحت قدمي ما رفعتها عنه. فلما رأى ذلك قريش بن الحريش قال: لا تقتل أبي وأنا أدلك على يحيى، فدلّه عليه، فأخذه «نصر» وكتب إلى الوليد يُخبره، فكتب الوليد يأمره أن يؤمّنه ويخلّى سبيله وسبيل أصحابه. فأطلقه «نصر» وأمره أن يلحق بالوليد وأمر له بألفي درهم، فسار إلى «سرخس» فأقام بها، فكتب «نصر» إلى عبد الله بن قيس بن عباد يأمره أن يسير عنها، فسير عنها، فسار حتى انتهى إلى «بيهق»، وخاف أن يغتاله يوسف بن عمر فعاد إلى نيسابور، وبها عمرو بن زرارة، وكان مع يحيى سبعون رجلاً فرأى «يحيى» تجاراً، فأخذ هو وأصحابه دوابهم وقالوا: علينا أثمانها، فكتب عمرو بن زرارة إلى «نصر» يخبره، فكتب «نصر» يأمره بمحاربتهم، فقاتله عمرو، وهو في عشرة آلاف ويحيى في سبعين رجلاً فهزمهم يحيى وقتل عمراً وأصاب دواب كثيرة وسار حتى مرّ بهرات فلم يعرض لمن بها وسار عنها.

وسرح «نصر بن سيار» سالم بن أخوز في طلب يحيى، فلحقه بالجوزجان فقاتله قتالاً شديداً، فرمى يحيى بسهم فأصاب جبهته، رماه رجل من عزة يقال له عيسى، فقتل أصحاب يحيى من عند آخرهم وأخذوا رأس يحيى وسلبوه قميصه. فلما بلغ الوليد قتل يحيى، كتب إلى يوسف بن عمر: خذ عجيل أهل العراق فأنزله من جذعه، - يعني زيداً -، وأحرقه بالنار ثم انسفه باليمّ نسفاً. فأمر

(٣٣٩)

يوسف به فأحرق، ثم رصّه وحمله في سفينة ثم ذرّاه في الفرات.

وأما يحيى فإنه لما قتل صلب بالجوزجان، فلم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو مسلم الخراساني واستولى على خراسان، فأنزله وصلّى عليه ودفنه وأمر بالنياحه عليه في خراسان، وأخذ أبو مسلم ديوان بني أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى، فمن كان حياً قتله، ومن كان ميتاً خلفه في أهله بسوء (١)

وقال السيد المدني في شرح الصحيفة:

«لما قتل أبوه زيد بن علي، خرج يحيى حتى نزل بالمدائن، فبعث يوسف بن عمر في طلبه، فخرج إلى الرى ثم إلى نيسابور من خراسان، فسألوه المقام بها فقال: بلدة لم تُرفع فيها لعلى وآله راية لا حاجة لي في المقام بها، ثم خرج إلى «سرخس» وأقام بها عند يزيد بن عمر التميمي ستة أشهر، حتى مضى هشام بن عبد الملك لسبيله، وولى بعده الوليد بن يزيد فكتب إلى «نصر بن سيار» في طلبه فأخذه ببلخ وقيدته وحبسه، فقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه، لما بلغه ذلك:

أليس بعين الله ما تفعلونه * عشية يحيى موثق بالسلاسل

كلاب عوت لا قدس الله سرها * فجئن بصيد لا يحل لأكل

وكتب نصر بن سيار إلى يوسف بن عمر، يخبره بحبسه وكتب يوسف إلى الوليد، فكتب الوليد إليه بأن يحذره الفتنة ويخلّى سبيله فخلّى سبيله وأعطاه ألفي درهم وبغليين، فخرج حتى نزل الجوزجان (٢) فلحق به قوم من أهلها ومن الطالقان، زهاء خمسمائة رجل، فبعث إليه «نصر بن سيار»، سالم بن أخوز فاقتتلوا

(١) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين: ١٠٣ - ١٠٨، والجزري: الكامل: ٥ | ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) الجوزجان: بزاي بين الجيمين المفتوحتين: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان.

(٣٤٠)

أشد قتال ثلاثة أيام حتى قتل جميع أصحاب يحيى وبقي وحده فقتل عصر يوم الجمعة سنة خمس وعشرين ومائة، وله ثمانى عشرة

سنة، وبعث برأسه إلى الوليد، فبعث به الوليد إلى المدينة، فوضع في حجر أمه «ريضة» فنظرت إليه، وقالت: شردتموه عنّي طويلاً، وأهديتموه إليّ قتيلاً، صلوات الله عليه وعلى آبائه بكره وأصيلاً.

فلما قتل عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، مروان بن محمد بن مروان، بعث برأسه حتى وضع في حجر أمه فارتاعت. فقال: هذا يحيى بن زيد، وكان الذي احتز رأس يحيى بن زيد، سورة بن أبحر، وأخذ العنبري سلبه، وهذان أخذهما أبو مسلم المروزي فقطع أيديهما وأرجلها وصلبهما. ولا عقب ليحيى بن زيد (١).

هذا ما يذكره المؤرخون وقد كان ليحيى عند الإمام الصادق _ عليه السلام _ مكانة عالية، وقد استشهد ولم يكمل العقد الثاني من عمره الشريف حيث تولد عام ١٠٧هـ واستشهد في عام ١٢٥هـ ولما سمع الإمام الصادق شهادته وصلبه حزن حزناً عظيماً ومن كلامه في حقّ يحيى فيما بعد قال: «إنّ آل أبي سفيان قتلوا الحسين ابن علي صلوات الله عليه فنزع الله ملكهم، وقتل هشام، زيد بن علي فنزع الله ملكه، وقتل الوليد، يحيى بن زيد رحمه الله فنزع الله ملكه» (٢)

أما أعلام الإمامية فقد عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام الصادق _ عليه السلام _ وقال: يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المدني، ومن غرائب الكلام عدّه من أصحاب الكاظم _ عليه السلام _ مع أنّه ولد عام ١٢٨هـ بعد ثلاثة سنين من استشهاد يحيى بن زيد _____.

(١) السيد علي خان المدني: رياض السالكين: ١/ ٦٩ - ٧٠.

(٢) المجلسي: البحار: ١٨٢/ ٤٦ ح ٤٦.

(٣٤١)

يحيى بن زيد والصحيفة السجادية :

إنّ الصحيفة السجادية نسخة من علوم أئمة أهل البيت، وهي أدعية للإمام السجاد تهز كل إنسان إذا قرأها بدقه وإمعان، وقد أودع فيها الإمام كنوزاً من المعارف، وعلم الإنسان كيفية الدعاء والابتهاج إلى الله سبحانه، انشأها سيد الساجدين في عصر الظلم والقتل والتشريد وقد كانت نسخة منها عند زيد النائر، وقد أوصى بها إلى ولده يحيى، وهو أيضاً أوصى إلى: محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وذكر تفصيله عمير بن المتوكل الثقفي البلخي عن أبيه متوكل بن هارون قال:

لقيت يحيى بن زيد بن علي _ عليه السلام _ وهو متوجه إلى خراسان فسلمت عليه، فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت: من الحج، فسألني عن أهله وبنى عمّه بالمدينة وأحفي السوّال عن جعفر بن محمد فأخبرته بخبره وخبرهم وحزنهم على أبيه زيد بن علي _ عليه السلام _ فقال لي: قد كان عمي محمد بن علي _ عليه السلام _ أشار إلى أبي بترك الخروج وعرفه أنّه إن هو خرج وفارق المدينة ما يكون إليه مصير أمره، فهل لقيت ابن عمي جعفر بن محمد _ عليه السلام _؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمرى؟ قلت: نعم، قال: بم ذكرني؟ قلت: جعلت فداك ما أحبّ أن أستقبلك بما سمعته منه، فقال: أبا الموت تخوفني؟ هات ما سمعته، فقلت سمعته يقول:

إنّك تقتل وتصلب كما قتل أبوك وصلب، فتغير وجهه وقال: "يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ" يا متوكل إنّ الله عزّ وجلّ أريد هذا الأمر بنا، وجعل لنا العلم والسيوف، فجمعنا لنا وخصّ بنو عمنا بالعلم وحده، فقلت: جعلت فداك إني رأيت الناس إلى ابن عمك جعفر _ عليه السلام _ أميل منهم إليك وإلى أبيك، فقال: إنّ عمي محمد بن علي وابنه جعفر _ عليهما السلام _ دعوا الناس إلى الحياة ونحن دعوناهم إلى الموت، فقلت: يا بن رسول الله أهم أعلم أم أنتم؟

(٣٤٢)

فأطرق إلى الأرض ملياً ثم رفع رأسه وقال: كلنا له علم غير أنّهم يعلمون كلّ ما نعلم ولا نعلم كلّ ما يعلمون.

ثم قال لي: أكتب من ابن عمي شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أرينه، فأخرجت إليه وجوهاً من العلم وأخرجت له دعاء أملاه عليّ أبو عبد الله

_ عليه السلام _ وحدثني أن أباه محمد بن علي _ عليهما السلام _ أملاه عليه، وأخبره أنه من دعاء أبيه علي بن الحسين _ عليهما السلام _ من دعاء الصحيفة الكاملة، فنظر فيه يحيى حتى أتى علي آخره وقال لي: أتأذن في نسخه فقلت: يابن رسول الله أتستأذن فيما هو عنكم، فقال: أما أتى لأخرجن إليك صحيفة من الدعاء الكامل ممّا حفظه أبي عن أبيه، وإنّ أبي أوصاني بصونها ومنعها غير أهلها، قال عمير: قال أبي: فمتمت إليه فقبلت رأسه، وقلت له: والله يابن رسول الله إنني لأدين الله بحبكم وطاعتكم وأتّى لأرجو أن يسعدني في حياتي ومماتي بولايتكم. فرمى صحيفتي التي دفعتها إليه إلى غلام كان معه وقال: أكتب هذا الدعاء بخط يّين وحسن وأعرضه عليّ لعلّي أحفظه، فإني كنت أطلبه من جعفر حفظه الله فيمنعني قال المتوكل: فندمت علي ما فعلت ولم أدر ما أصنع ولم يكن أبو عبد الله _ عليه السلام _ تقدم إليّ إلا أدفعه إلى أحد.

ثم دعا بعبية فاستخرج منها صحيفة مقلقة مختومة فنظر إلى الخاتم وقبله وبكى ثم فضّه وفتح القفل، ثم نشر الصحيفة ووضعها على عينيه وأمّرها علي وجهه، وقال: والله يامتوكل لولا ما ذكرت من قول ابن عمي إنني أقتل وأصلب لما دفعتها إليك ولكنت بها ضنيناً ولكني أعلم أنّ قوله حقّ أخذه عن آبائه وأنه سيصح، فخفت أن يقع مثل هذا العلم إلى بني أمية فيكتموه ويدّخروه في خزائنهم لأنفسهم، فاقبضها واكفينها وتربص بها، فإذا قضى الله من أمرى وأمر هؤلاء القوم ما هو قاض، فهي أمانة لي عندك حتى توصلها إلى ابني عمي: محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي _ عليهما السلام _ فإنهما القائمان في

(٣٤٣)

هذا الأمر بعدى.

قال المتوكل: فقبضت الصحيفة، فلما قتل يحيى بن زيد صرت إلى المدينة فليقت أباً عبد الله _ عليه السلام _: فحدثته الحديث عن يحيى فبكي واشتد وجده به، وقال: «رحم الله ابن عمي وألحقه بآبائه وأجداده، والله يا متوكل مامنعي من دفع الدعاء إليه إلا الذي خافه علي صحيفة أبيه، وأين الصحيفة؟» فقلت: ها هي، ففتحها، أو قال: «هذا والله خط عمي زيد ودعاء جدي علي بن الحسين - عليهما السلام -» ثم قال لابنه: «قم يا إسماعيل فأنتي بالدعاء الذي أمرتك بحفظه وصونه» فقام إسماعيل فأخرج صحيفة كأنها الصحيفة التي دفعها إليّ يحيى بن زيد فقبلها أبو عبد الله ووضعها على عينه وقال: «هذا خط أبي وإملاء جدي - عليهما السلام - بمشهد مني» فقلت: يابن رسول الله إن رأيت أن أعرضها مع صحيفة زيد ويحيى، فأذن لي، وقال: «قد رأيتك لذلك أهلاً» فنظرت وإذا هما أمر واحد ولم أجد حرفاً منها يخالف ما في الصحيفة الأخرى، ثم استأذنت أباً عبد الله - عليه السلام - في دفع الصحيفة إلى ابني عبد الله بن الحسن، فقال: «إنّ الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها، نعم فأدفعها إليهما» فلما نهضت للقائهما قال لي: «مكانك» ثم وجه إلى محمد وإبراهيم فجاءا، فقال: هذا ميراث ابن عمكما يحيى من أبيه قد خصّيه كما به دون إخوته ونحن مشرطون عليكم فيه شرطاً، فقالا: رحمك الله قل فقولك المقبول، فقال: «لا تخرجا بهذه الصحيفة من المدينة» قالوا: ولم ذاك؟ قال: «إنّ ابن عمكما خاف عليهما أمراً أخافه أنا عليكما» قالوا: إنّما خاف عليها حين علم أنه يقتل، فقال: أبو عبد الله _ عليه السلام _: «وأنتما فلاتأمنوا فوالله إنني لأعلم أنّكما ستخرجان كما خرج وستقتلان كما قتل» فقاما وهما يقولان: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فلما خرجا قال لي أبو عبد الله _ عليه السلام _: «يامتوكل كيف قال لك يحيى إن عمي محمد بن علي وابنه جعفر دعوا الناس إلى الحياة ودعوناهم إلى

(٣٤٤)

الموت» قلت: نعم أصلحك الله قد قال لي ابن عمك يحيى ذلك، فقال: «يرحم الله يحيى إنّ أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي _ عليه السلام _ إنّ رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ أخذته نعسه وهو على منبره، فرأى في منامه رجالاً ينزون على منبره نزو القردة، يردّون الناس على أعقابهم القهقري، فاستوى رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ جالساً والحزن يُعرف في وجهه، فأتاه جبريل - عليه السلام - بهذه الآية: "وما جعلنا الرّوياً التي أريتناك إلا فتنّة للنّاس والشّجرة الملعونة في القرآن ونحوهم فما يزيدهم إلا

طُغِياناً كَبِيراً (١) يعنى بنى أمية قال: يا جبريل أعلى عهدي يكونون وفي زمني، قال: لا ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشراً، ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمسة وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمساً ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها ثم ملكك الفراعنة قال وأنزل الله تعالى في ذلك: "إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر (٢) يملكها بنو أمية ليس فيها ليلة القدر، قال: فأطلع الله عز وجل نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن بنى أمية تملك سلطان هذه الأمة وملكها طول هذه المدة فلو طاولتهم الجبال لطالوا عليها حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم، وهم في ذلك يستشعرون عداوتنا أهل البيت وبغضنا، أخبر الله نبيه بما يلقي أهل بيت محمد وأهل مودتهم وشيعتهم منهم في أيامهم وملكهم قال وأنزل الله تعالى فيهم: "الْم تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارِ (٣) ونعمة الله محمد وأهل بيته، جبههم إيمان يدخل الجنة وبغضهم كفر ونفاق يدخل النار، فأسر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك إلى على وأهل بيته" (٤) _____)

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) القدر: ١ - ٣.

(٣) إبراهيم: ٢٨.

(٤) الصحيفة السجادية: قسم المقدمة، لاحظ رياض السالكين: ١/ ٦٩ - ١٨٧ قسم المتن.

(٣٤٥)

وسيوافيك خبر أخيه: عيسى بن زيد بعد أخبار محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن المثنى وذلك حفظاً للتسلسل الزمنى، فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يعث حياً.

وقد رثى يحيى بن زيد لفيق من الشعراء منهم دعبل الخزاعي بتأيته المعروفة المشهورة التي تبلغ مائة وعشرين بيتاً رائعاً وفيها من مناقب أهل البيت ومصائبهم الجم الغفير ومطلعها قوله:

تجاوبن بالآرنان والزفرات * نوائح عجم اللفظ والنطقات

يخبرن بالأنفاس عن سر أنفس * أسارى هوى ماضٍ وآخر آت
إلى أن انتقل عن كل ما يوشح به أوائل القصائد إلى قوله:

فكيف ومن أنى بطالب زلفه * إلى الله بعد الصوم والصلوات

سوى حب أبناء النبي ورهطه * وبغض بنى الزرقاء والعبلات

وهند وما أدت سميء وابنها * أولو الكفر فى الإسلام والفجرات

هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه * ومحكمه بالزور والشبهات

ثم إلى أن جدد المطلع بقوله:

بكيت لرسم الدار من عرفات * وأجريت دمع العين بالعبرات

وبان عرى صبرى وهاجت صبابتى * رسوم ديار قد عفت وعرات

مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفر العرصات

لآل رسول الله بالخيف من منى * وبالبيت والتعريف والجمرات

(٣٤٦)

ثم إلى أن قال عطر الله مرقداه وفاه:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً * وقد مات عطشاناً بشط فرات

إذاً للطم الخد فاطم عنده * وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير فاندبى * نجوم سماوات بأرض فلاة
قبور بكوفان وأخرى بطيبة * وأخرى بفخ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوزجان محلها * وقبر بباخمرى لدى الغربات
وقبر ببغداد لنفس زكية * تضمنها الرحمن في الغرفات
قبور ببطن النهر من جنب كربلا * معرسهم منها بشط فرات
توفوا عطاشا بالفرات فليتني * توفيت فيهم قبل حين وفاتي (١) * * *

(١) ذكرها غير واحد من الأدباء والمؤرخين، ومن أراد أن يقف على جميعها فليرجع إلى: روضات الجنات: ٣/ ٣٠٢ - ٣٠٤ والغدير: ٣٤٩ | ٢

(٣٤٧)

أصحاب الانتفاضة ٢ عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (٧٠ - ١٤٥ هـ) إن عبد الله بن الحسن والد محمد النفس الزكية وإبراهيم اللذين استشهدا في عصر المنصور بطيبة والبصرة.

فلا بد من الإشارة إلى حياة الوالد قبل الولدين.

يطلق عليه عبد الله المحض، لأن أباه هو الحسن بن الحسن السبط، وأمه فاطمة بنت الحسين السبط، فهو منسوب إلى رسول الله، من كلا الطرفين وكان قوى النفس شجاعاً، ولما قدم أبو العباس السفاح وأهله سراً على أبي سلمة الخلال الكوفة ستر أمرهم، وعزم أن يجعل الخلافة شوري بين ولد علي والعباس حتى يختاروا من أرادوا، فكتب إلى ثلاثة نفر منهم: جعفر بن محمد - عليهما السلام - وعمر بن علي بن الحسين، وعبد الله بن الحسن، ووجه بالكتب مع رجل من مواليهم من ساكني الكوفة فبدأ بجعفر بن محمد - عليهما السلام - ولقيه ليلاً وأعلمه أنه رسول أبي سلمة وأن معه كتاباً إليه منه، فقال: «ما أنا وأبو سلمة وهو شيعة لغيري» فقال الرسول: تقرأ الكتاب وتجب عليه بما رأيت، فقال جعفر لخادمه: «قدم مني السراج» فقدمه فوضع عليه كتاب أبي سلمة فأحرقه فقال: ألا تجيبه؟ فقال: «قد رأيت الجواب» (١) _____

(١) ذكر الشهرستاني أن الإمام الصادق - عليه السلام - قال له: «مأنت من رجالي، ولا الزمان زمانى» الملل والنحل: ١/ ١٥٤، ط ١٤٠٢.

(٣٤٨)

فخرج من عنده وأتى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الحسين بن علي جعفر بن محمد، فقال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني لأمر، ويراني أحق الناس به وقد جاءته شيعتنا، من خراسان فقال له جعفر الصادق - عليه السلام - «ومتى صاروا شيعتك؟ أنت وجهت أبا سلمة إلى خراسان؟ وأمرته بلبس السواد؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه ونسبه؟ كيف يكونون من شيعتك وأنت لا تعرفهم إلا يعرفونك؟ فإن هذه الدولة ستتم إلى هؤلاء القوم ولا تتم لأحد من آل أبي طالب وقد جاءني مثل ماجاءك» فانصرف غير راض بما قاله.

وأما عمر بن علي بن الحسين فرد الكتاب وقال: ما أعرف كاتبه فأجيبه.

ومات عبد الله المحض في حبس أبي جعفر الدوانيقي مخنوقاً وهو ابن خمس وسبعين سنة.

وقد ذكر المسعودي كيفية القبض عليه وقال: وكان المنصور قبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي - عليه السلام - وكثير من أهل بيته وذلك في سنة أربع وأربعين ومائة في منصرفه من الحج، فحملوا من المدينة إلى الربذة من جادة العراق وكان ممن

حملة مع عبد الله بن الحسن: إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن، وعلي الخير، وأخوه العباس، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن، ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن علي، وجدتهما فاطمة بنت رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم. _
فجرد المنصور بالربذة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فضربه ألف سوط، وسأله عن ابني أخيه محمد وإبراهيم فأنكر أن يعرف مكانهما، فسألت جدته العثمانى فى ذلك الوقت، وارتحل المنصور عن الربذة وهو فى قبء، وأوهن القوم بالجهد، فحملوا على المحامل المكشوفة، فمر بهم المنصور فى قبته على الجمازة، فصاح به عبد الله بن الحسن يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر،
(٣٤٩)

فصيرهم إلى الكوفة، وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفترقون بين ضياء النهار وسواد الليل، وخلّى منهم: سليمان وعبد الله ابني داود بن الحسن بن الحسن، وموسى بن عبد الله بن الحسن، والحسن بن جعفر، وحبس الآخريين ممن ذكرنا حتى ماتوا وذلك على شاطئ الفرات من قنطرة الكوفة، ومواضعهم بالكوفة تزار فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد هدم عليهم الموضع، وكانوا يتوضّون فى مواضعهم فاشتدت عليهم الرائحة، فاحتال بعض مواليهم حتى أدخل عليهم شيئاً من الغالية، فكانوا يدفون بشمها تلك الروائح المنتنة، وكان الورم فى أقدامهم، فلا يزال يرتفع حتى يبلغ الفواد فيموت صاحبه.
وذكر أنّهم لما حبسوا فى هذا الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاة، فجزّأوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلّون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من جزئه وكان عدد من بقى منهم خمسة، فمات اسماعيل بن الحسن فترك عندهم فجيف، فصعق داود بن الحسن فمات، وأتى برأس إبراهيم بن عبد الله فوجه به المنصور مع الربيع إليهم فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلّى، فقال له إدريس أخوه: اسرع فى صلاتك يا أبا محمد، فالتفت إليه وأخذ الرأس فوضعه فى حجره، وقال له: أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم، والله لقد كنت من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم:

"الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذْ وَقَعُوا عَلَيْهِ أَيْمَانَهُمْ سَبِيحًا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِّلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فقال له الربيع: كيف أبو القاسم فى نفسه؟ قال: كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذلّ سيفه * ويكفيه أن يأتى الذنوب اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع: فقال: قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام؟ والملتقى، القيامة. قال الربيع: فما رأيت المنصور قطّ أشدّ انكساراً منه

(٣٥٠)

فى الوقت الذى بلغته الرسالة... (١)

وكان يتولى صدقات أمير المؤمنين على _ عليه السلام _ بعد أبيه الحسن، ونازعه فى ذلك زيد بن علي بن الحسين، وأعقب عبد الله المحض من ستة رجال:

١ - محمد ذى النفس الزكية، المقتول بقرب المدينة.

٢ - إبراهيم قتيل باخمري، قريب الكوفة.

٣ - موسى الجون.

٤ - يحيى بن عبد الله صاحب الديلم.

٥ - سليمان بن عبد الله.

٦ - إدريس بن عبد الله (٢)

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣/٢٩٨. والآيتان ٢٠ و ٢١ من سورة الرعد.

(٢) النسابة ابن عنبه: عمده الطالب في أنساب آل أبي طالب: ١٠١ - ١٠٣.

(٣٥١)

أصحاب الانتفاضة ٣ محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب النفس الزكية (١٠٠ - ١٤٥ هـ) محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية المقتول عام ١٤٥ هـ في أيام أبي جعفر المنصور، هو الشائر الثاني، وقد ذكر الشهرستاني أن يحيى بن زيد أوصى إليه، ولذلك يعد إماماً ثانياً بعده.

وتقدم أن أباه عبد الله من أكابر بني هاشم وكان الجميع يكن له الاحترام، وكان أكبر سنًا من الإمام الصادق - عليه السلام - كما تقدم - ومع ذلك كان يدعو الناس لبيعه ولده محمد، وهذا وما سبق من قبول دعوة أبي سلمة الخلال يكشفان عن روح ثورية أوّلاً، وسداجة في الأمور السياسية ثانياً.

ولما قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك إثر خلاعته ومجانته عام ١٢٦ هـ تهيأت الظروف المناسبة للدعوة إلى بني هاشم، ففي هذا الظرف الهاديء جمع عبد الله بن الحسن، بني هاشم وألقى فيهم خطبة نقلها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه وقال: إنكم أهل البيت قد فضلكم الله بالرسالة واختاركم لها وأكثركم بركة ياذريه محمد بن عبد الله بنو عمه وعترته، وأولى الناس بالفزع في أمر الله، من

(٣٥٢)

وضعه الله موضعكم من نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد ترون كتاب الله معطلاً، وسنة نبيه متروكة، والباطل حياً، والحق ميتاً، قاتلوا لله في الطلب لرضاه بما هو أهله قبل أن ينزع منكم اسمكم وتهونوا عليه كما هانت بنو إسرائيل وكانوا أحب خلقه إليه، وقد علمتهم أننا لم نزل نسمع أن هؤلاء القوم إذا قتل بعضهم بعضاً خرج الأمر من أيديهم، فقد قتلوا صاحبهم - يعني الوليد بن يزيد -، فهلم نبايع محمداً، فقد علمتم أنه المهدي.

فقالوا: لم يجتمع أصحابنا بعد، ولو اجتمعوا فعلنا، ولسنا نرى أبا عبد الله جعفر بن محمد.

وبعد محاولات حضر الإمام الصادق - عليه السلام - مجلس القوم فاطلع على أمر القوم وأنهم يريدون بيعه محمد بن إبراهيم، فقالوا: قد علمت ما صنعوا بنا بنو أمية وقد رأينا أن نبايع لهذا الفتى.

فقال: لا تفعلوا فإن الأمر لم يأت بعد، فغضب عبد الله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول، ولكنه يحملك على ذلك الحسد لابني، فقال: لا - والله، ما ذاك يحملني، ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم و ضرب يده على ظهر أبي العباس (السفاح) ثم نهض واتبعه عبد الصمد وأبو جعفر المنصور فقالا: يا أبا عبد الله أتقول ذلك؟ قال: «نعم والله أقوله وأعلمه».

وفي رواية قال لعبد الله بن الحسن: «إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ولكنها لهؤلاء وإن ابنيك لمقتولان» ففرق أهل المجلس ولم يجتمعوا بعدها.

وقال عبد الله بن جعفر بن المسور، فخرج جعفر بن محمد يتوكأ على يدي فقال لي: «أرأيت صاحب الرداء الأصفر؟» يعني أبا جعفر المنصور، قلت: نعم، قال: «فإننا والله نجده يقتل محمداً»، قلت: أو يقتل محمداً؟! قال: «نعم» فقلت في نفسي: حسده ورب الكعبة. ثم ما خرجت والله من الدنيا حتى رأيته قتله (١) _____

(١) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين: ١٧١ - ١٧٢.

(٣٥٣)

حكى ابن عنبه أن محمد بن عبد الله بن الحسن ولد سنة ١٠٠ هـ بلا خلاف، وقيل مات سنة ١٤٥ هـ في رمضان، وقيل في الخامس والعشرين من رجب، وقال البخاري: وهو ابن خمس وأربعين سنة وأشهرًا، وكان المنصور قد بايع له ولأخيه إبراهيم مع جماعة من بني هاشم، فلما بويع لبني العباس اختفى محمد وإبراهيم مدة خلافة السفاح فلما ملك المنصور (١٣٦ هـ) وعلم أنهما على عزم الخروج

جدّ في طلبهما وقبض على أبيهما وجماعة من أهلها فيحكي أنّهما أتيا أباهما وهو في السجن وقالاه: يقتل رجلان من آل محمد خير من أن يقتل ثمانية، فقال لهما: إن منعكما أبو جعفر أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين. ولما عزم «محمد» على الخروج واعد أخاه إبراهيم على الظهور في يوم واحد، وذهب محمد إلى المدينة وإبراهيم إلى البصرة، فاتفق أن إبراهيم مرض فخرج أخوه بالمدينة وهو مريض بالبصرة، ولما خلص من مرضه وظهر أتاه خبر أخيه أنه قتل وهو على المنبر يخطب.

ومن عجيب ما يروى عن محمد بن عبد الله أنه لما أحس بالخذلان دخل داره وأمر بالتور فسجّر ثم عمد إلى الدفتر الذي أثبت فيه أسماء الذين بايعوه فألقاه في التور فاحترق، ثم خرج فقاتل حتى قتل بأحجار الزيت، قريباً من المدينة.

وكان مالك بن أنس الفقيه قد أفتى بالخروج مع محمد وبايعه ولذلك تغير المنصور عليه فقال: إنّه خلع أكتافه (١)

وقد ذكر المورخون دعوته وشهادته بين موجز في القول ومعتدل في البيان ومفصل في القصة وبما أنّ في كلامهم ما يلقي الضوء على حياة القائد، نذكر بعض نصوصهم _____.

(١) النسابة ابن عنبه: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ١٠٤ - ١٠٥.

(٣٥٤)

وممن أوجز فيه الكلام أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢هـ) في «الأخبار الطوال» قال: وفي ذلك العام (١٤٥هـ) خرج على المنصور، محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب _ عليه السلام _ الملقب بالنفس الزكية فوجه إليه أبو جعفر - المنصور - عيسى بن موسى بن علي في خيل فقتل رحمه الله، وخرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن فقتل رضوان الله عليه (١).

وقال اليعقوبي: «وظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بالمدينة مستهل رجب سنة ١٤٥هـ فاجتمع معه خلق عظيم وأتته كتب أهل البلدان ووفودهم، فأخذ رياح بن عثمان بن حيان المري عامل أبي جعفر، فأوثقه بالحديد وحبسه، وتوجه (أخوه) إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن إلى البصرة وقد اجتمع جماعة فأقام مستتراً، وهو يكاتب الناس ويدعوهم إلى طاعته، فلما بلغ أبا جعفر أراد الخروج إلى المدينة ثم خاف أن يدع العراق مع ما بلغه من أمر إبراهيم، فوجه عيسى بن موسى الهاشمي، ومعه حميد بن قحطبة الطائي في جيش عظيم فصار إلى المدينة، وخرج محمد إليه في أصحابه فقاتلهم في شهر رمضان ومضى أصحابه إلى الحبس فقتل رياح بن عثمان وكانت أسماء ابنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بالمدينة وكانت معادية لمحمد بن عبد الله، فوجهت بخمار أسود قد جعلته مع مولى لها حتى نصبه على مأذنة المسجد، ووجهت بمولى لها يقال له: مجيب العامري إلى عسكر محمد، صاح: الهزيمة الهزيمة قد دخل المسودة المدينة، فلما رأى الناس العلم الأسود انهزموا وأقام محمد يقاتل حتى قتل، فلما قتل محمد بن عبد الله بن الحسن، وجه عيسى بن موسى، كثير بن الحصين العبدى إلى المدينة فدخلها، فقتل أصحاب محمد فقتلهم وانصرف إلى العراق (٢) _____

(١) الدينوري الأخبار الطوال: ٣٨٥، طبع مصر، الحلبي، وممن أوجز الكلام فيه النسابة العلوي العمري صاحب المجدي: ٣٧.

(٢) ابن واضح الإخباري: تاريخ اليعقوبي: ٣٧٦|٢.

(٣٥٥) وقال المسعودي: وفي سنة خمس وأربعين ومائة كان ظهور محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم بالمدينة، وكان قد بُويغ له من كثير من الأنصار وكان يدعى بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان مستخفياً من المنصور ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته، وكثير من أهله وعدتهم، ولما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة، استشار إسحاق بن مسلم العقيلي وكان شيخاً ذا رأى وتجربة فأشار إلى ما لم يستحسنه أبو جعفر وبينما كان يتفكر في كيفية المقابلة مع محمد بن إبراهيم بلغه أنّ إبراهيم أخا محمد خرج بالبصرة يدعو إلى أخيه، فبعث عيسى بن موسى في أربعة آلاف فارس

وألفى راجل وأتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة ولما اتصل بإبراهيم قتل أخيه، محمد بن عبد الله وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه وتمثل:

أبالمنازل ياخير الفوارس من * يفجع بمثلك في الدنيا فقد فجعا
الله يعلم أنى لو خشيتهم * وأوجس القلب من خوف لهم فزعا
لم يقتلوه ولم أسلم أخى لهم * حتى نموت جميعاً أو نعيش معا
تفرق إخوة محمد في البلاد :

وقد كان تفرق إخوة محمد وولده في البلدان يدعون إلى إمامته فكان فيمن توجه ابنه، علي بن محمد إلى مصر فقتل بها، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان فهرب لما طلب، إلى السند فقتل هناك، وسار ابنه الحسن إلى اليمن فحبس فمات في الحبس، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحيى إلى الري، ثم إلى طبرستان، ومضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه خلق من الناس

- (٣٥٦) فبعث المنصور من اغتاله بالسم وقام ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بمقامه (١)
هؤلاء من المورخين قد أوجزوا الكلام في دعوته وشهادته، وقد فصل أبو الفرج الأصفهاني
(٢) في المقامين وابن الأثير في الكامل وقد ذكر كتاب المنصور إلى محمد بن إبراهيم، كما ذكر جوابه إليه (٣)
* * *

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣/٢٩٤ - ٢٩٦، وسيوافيك ذيل هذا النص في البحث عن تأسيس دولة زيدية في المغرب باسم الأدارسة.

(٢) راجع: مقاتل الطالبين: ١٧٦ - ٢٠٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ٥/٥٢٢ - ٥٥٤، وفيه لما قتل محمد صادر عيسى أموال بني الحسن وحتى أموال الإمام الصادق، لاحظ ص ٥٥٣. (٣٥٧)

أصحاب الانتفاضة ٤ إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (١٠٣ - ١٤٥ هـ)
إبراهيم بن عبد الله بن الحسن أخو محمد ذو النفس الزكية الثائر الثالث بعد يحيى بن زيد والنفس الزكية، وقد تقدم اتفاق الأخوين على الثورة في يوم واحد في قطرين مختلفين، وقد عرفت تأخر إبراهيم عن أخيه في الخروج.
قال المسعودي: مضى إبراهيم أخوه إلى البصرة وظهر بها، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار وسار من البصرة في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة ممن يذهب إلى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم، ومعه عيسى بن زيد بن علي ابن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فسير إليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بن سلم في العساكر، فحارب حتى قتل في الموضع المعروف ب«باخمرى» وذلك على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطف، وهو الموضع الذي ذكرته الشعراء ممن رثى إبراهيم. فممن ذكر ذلك:

دعبل بن علي الخزاعي، في قصيدته الرائعة التائية التي نقل قسم منها عند ذكر شهادة أخيه محمد النفس الزكية وفيها قوله:

قبور بكوفان وأخرى بطيبة * وأخرى بفتح نالها صلوات

وأخرى بأرض الجوزجان محلها * وقبر بباخمرى لدى الغربات

(٣٥٨)

وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل، وقيل: خمسمائة رجل (١)

وقال صاحب المجدى: وكان إبراهيم يكنى أبا الحسن، قتل بأرض «باخمري» وهي قرية تقارب الكوفة وظهر ليلة الإثنين غرة شهر رمضان سنة ١٤٥هـ وذلك بالبصرة وكان مقتله بعد مقتل أخيه محمد (رضي الله عنهما) في ذى الحجة من السنة المذكورة. وبايع إبراهيم وجوه المسلمين منهم بشير الرحال، وأبو حنيفة الفقيه، والأعمش، وعباد بن المنصور القاضي صاحب مسجد عباد بالبصرة، والمفضل بن محمد وشعبة الحافظ إلى نظائرهم (٢)

وقال النسابة ابن عنبه: كان إبراهيم من كبار العلماء في فنون كثيرة، يقال إنه كان أيام اختفائه في البصرة قد اختفى عند المفضل بن محمد الضبي، فطلب منه دواوين العرب ليطالعهما فأتاه بما قدر عليه فأعلم إبراهيم على ثمانين قصيدة. فلما قتل إبراهيم استخرجها المفضل وسماها بـ (المفضليات) وقرئت بعده على الأصمعي فزاد بها، وظهر إبراهيم ليلة الإثنين غرة شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة بالبصرة وبايعه وجوه الناس - إلى أن قال: - ويقال: إن أبا حنيفة الفقيه بايعه أيضاً وكان قد أفتى الناس بالخروج معه، فيحكي أن امرأة أخته فقالت: إنك أفتيت ابني بالخروج مع إبراهيم فخرج فقتل. فقال لها: ليتني كنت مكان ابنك. وكتب إليه أبو حنيفة: أما بعد: فإنني قد جهزت إليك أربعة آلاف درهم ولم يكن عندي غيرها، ولولا أمانات الناس عندي للحقت بك، فإذا لقيت القوم وظفرت بهم فافعل كما فعل أبوك في أهل صفين، أقتل مدبرهم وأجهز على جريحهم، ولا تفعل كما فعل أبوك في أهل الجمل فإن القوم لهم فئته. ويقال: إن _____

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) النسابة العلوي العمري: المجدى في أنساب الطالبين: ٤٢.

(٣٥٩)

هذا الكتاب وقع إلى الدوانيقي وكان سبب تغييره على أبي حنيفة - إلى أن قال: - وجيء برأس إبراهيم فوضعه في طشت بين يديه والحسن بن زيد بن الحسن بن علي واقف على رأسه عليه السواد فخنقته العبرة والتفت إليه المنصور وقال: أتعرف رأس من هذا؟ فقال: نعم:

فتى كان تحميه من الضيم نفسه * وينجيه من دار الهوان اجتنابها

فقال المنصور: صدقت ولكن أراد رأسي فكان رأسه أهون علي ولوددت أنه فاء إلى طاعتي، ويقول أيضاً: وحمل ابن أبي الكلام الجعفرى رأسه إلى مصر (١).

_____ * * *

(١) ابن المهنا: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ١٠٩ - ١١٠، ولعله دفنه في المحل المعروف برأس الحسين - عليه السلام -.

(٣٦٠)

أصحاب الانتفاضة ٥ عيسى بن زيد الثائر (... - ١٦٨ هـ) أحد أولاد زيد الثائر المعروف بـ «موتم الأشبال»، وكان وصى إبراهيم - قتل باخمري - بن عبد الله المحض وحامل رايته، فلما قتل إبراهيم اختفى عيسى إلى أن مات، وكان أبو جعفر المنصور قد بذل له الأمان وأكده وكان شديد الخوف منه لم يأمن وثوبه عليه، فقيل لعيسى في ذلك فقال: والله لئن بيئت ليلة واحدة خائفاً مني أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. وإنما يسمي موتم الأشبال لأنه قتل أسداً له أشبال فسمي موتم الأشبال. فخرج عيسى مع محمد بن عبد الله النفس الزكية ثم مع أخيه إبراهيم، وكان إبراهيم قد جعل له الأمر بعده وكان حامل رايته فلما قتل إبراهيم استتر ولم يتم له الخروج فبقى مستتراً أيام المنصور وأيام المهدي وأيام الهادي وصلى عليه الحسن بن صالح سرّاً ودفنه.

وقد ذكر النسابة ابن عنبه من حياته شيئاً كثيراً يوجب الفؤاد ومما ذكره أنه كان في أيام اختفائه يستقى الماء على جمل، وقال: حكى لي الشيخ النقيب تاج الدين بإسناده عن محمد بن زيد الشهيد: قال محمد بن محمد: قلت لأبي محمد بن زيد: أريد أن أرى عمي عيسى، فقال: اذهب إلى الكوفة فإذا وصلتها اذهب إلى الشارع الفلاني واجلس هناك فإنه سيمر عليك رجل آدم طويل، له سجادة

بين عينيه، يسوق جملاً عليه مزادتان، كلما خطا خطوة كبر الله سبحانه، وسبحه وهلله

(٣٦١)

وقدسه، فذلك عمك عيسى فقم إليه فسلم عليه، قال محمد بن محمد بن زيد فذهبت إلى الكوفة فلما وصلتها جلست حيث أمرني أبي فلم ألبث أن جاء الرجل الذي وصفه لي أبي وبين يديه جمل عليه راوية فقامت إليه وأكبت على يديه أقبلهما فذعر مني فقلت: أنا محمد بن زيد (١) فسكن ثم أناخ جملة وجلس إلي في ظل حائط هناك وحدثني ساعة، وسألني عن أهلي وأصحابه ثم ودعني وقال لي: يا بني لاتعد إلي بعد هذا فإنني أخشى الشهرة (٢)

وقال صاحب المجدى: وكان من أصحاب محمد بن عبد الله قتيل «أحجار الزيت» فاختم عيسى من يد المهدي ومات في الاستتار على أيام الرشيد وكان شيخنا أبو الحسن يقول: كان ابن دينار يزعم أنه قتل زيد ولابنه الحسين أربع سنين ولابنه عيسى سنة ولابنه محمد أربعون يوماً (٣) وعلى ذلك فقد توفي عيسى حوالي عام ١٦٧ للهجرة.

_____ * * *

(١) كذا في النسخة المطبوعة والصحيح محمد بن محمد بن زيد ولعل الحذف للسهولة.

(٢) ابن عنبه: عمدة الطالب، في أنساب آل أبي طالب: ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) أبو الحسن العلوي العمري: المجدى في أنساب الطالبين: ١٨٦ - ١٨٧.

(٣٦٢)

أصحاب الانتفاضة ٦ الحسين بن علي الفخري (... - ١٦٩ هـ) هو الحسين بن علي بن الحسن المثلث أي الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - عليه السلام - قال صاحب المجدى: ومن ولد علي زين العابدين الحسن المثلث، الحسين بن علي وهو الشهيد صاحب فخ، خرج ومعه جماعة من العلويين زمن الهادي موسى بن المهدي بن المنصور بمكة، وجاء موسى بن عيسى ابن علي ومحمد بن سليمان بن المنصور فقتلهم بفخ يوم التروية سنة تسع وستين ومائة. وقيل: سنة سبعين، وحمل رأسه إلى الهادي، فأنكر الهادي فعلهما وأمضاءهما حكم السيف فيهم دون رأيه، ونقل أبو نصر البخاري عن محمد الجواد ابن علي الرضا - عليهما السلام - أنه قال: لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ (١)

_____ * * *

(١) النسابة ابن عنبه: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ١٨٢ - ١٨٣.

(٣٦٣)

أصحاب الانتفاضة ٧ محمد بن إبراهيم طباطبا (١٧٣ - ١٩٩ هـ) هو محمد بن إبراهيم (طباطبا) بن إسماعيل بن علي الغمر بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١)

قال صاحب المجدى: أما إبراهيم بن إسماعيل بن الغمر فهو طباطبا ولقب بذلك لأنه أراد أن يقول قبا فقال طباطبا، لردة في لسانه، وكان له خطر وتقدم وأبرز صفحاته ودعا إلى الرضا من آل محمد. فولد إبراهيم بن إسماعيل بن الغمر ثلاثة عشر ولداً، منهم: بنتان وهما: لبابة وفاطمة، والذكور: جعفر، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وعلي، وعبدالله، ومحمد.

هذا هو الوالد وأما الولد أي محمد، يقول في حقه: «إنه صاحب أبي السرايا يكنى أبا عبد الله، خرج بالكوفة فجاء وانقرض ولده غير أن رجلاً منهم يقال له محمد بن الحسين بن جعفر بن محمد هذا، صاحب أبي السرايا خرج إلى بلاد الحبشة فما نعرف له خيراً (٢)

(١) سيوافيك في الفصل القادم أن الإمام يحيى مؤسس الدولة الزيدية في اليمن عام ٢٨٤ من أحفاد إبراهيم إذ نسبه: يحيى بن الحسين، بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

(٢) النسابة العلوى العمري: المجدي: ٧٢.

(٣٦٤)

وقال ابن عنبه: ومن ولد إبراهيم طباطبا أيضاً محمد بن إبراهيم ويكنى أبا عبد الله أحد أئمة الزيدية، خرج بالكوفة داعياً إلى الرضا من آل محمد، وخرج معه أبو السرايا (السرى بن منصور) الشيباني في أيام المنصور، فغلب على الكوفة ودعا بالآفاق ولقب بأمر المؤمنين وعظم أمره ثم مات فجأة، وانقرض عقبه، وكان من ولده محمد بن الحسين بن جعفر بن محمد هذا، خرج إلى الحبشة فما يعرف له خبر. وفي بعض النسخ مات ١٩٩هـ وقيل: سمّاه أبو السرايا سماً ومات منه والله أعلم (١).

وقال الطبري في حوادث سنة ١٩٩هـ وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة يدعو إلى الرضا من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة وهو الذي يقال له ابن طباطبا وكان القيم بأمره في الحرب وتديورها وقيادة جيوشه أبا السرايا واسمه السرى بن منصور (٢)

وبما أن أبا السرايا جاء اسمه في ذكر لفيف من الثائرين، نذكر عنه شيئاً.

يقول خير الدين الزركلي: السرى بن منصور الشيباني ثائر شجاع من الأمراء العصاميين فجمع عصابة كان يقطع بها الطريق، ثم لحق بيزيد بن يزيد الشيباني بأرمينيا ومعه ثلاثون فارساً فجعله في القواد فاشتهرت شجاعته، ولما نشبت فتنة الأمين والمأمون انتقل إلى عسكر هرثمة بن أعين وسار معه نحو ألفي مقاتل وخوطف بالأمير، ولما قتل الأمين نقص هرثمة من أرزاقه وأرزاق أصحابه فخرج في نحو مائتي فارس فحصر عامل عين التمر وأخذ ما معه من المال ففرقه في أصحابه، ثم استولى على الأنبار وذهب إلى الرقة وقد كثر جمعه فلقية بهما ابن

(١) ابن عنبه: عمدة الطالب: ١٧٢.

(٢) الطبري: التاريخ: ١١٧|٧.

(٣٦٥)

طباطبا العلوى (محمد بن إبراهيم) وكان قد خرج على بنى العباس، فبايعه أبو السرايا وتولّى قيادة جنده، واستوليا على الكوفة، فضرب بها أبو السرايا الدرهم، وسير الجيوش إلى البصرة ونواحيها، وعمل على ضبط بغداد، وامتلك المدائن وواسطاً، واستفحل أمره، وأرسل العمال والأمراء إلى اليمن والحجاز وواسط والأهواز، وتوالت عليه جيوش العباسيين فلم تضععه إلى أن قتله الحسن بن سهل وبعث برأسه إلى المأمون ونصبت جثته على جسر بغداد (١)

وقد فصل أبو الفرج الكلام حول خروج أبو السرايا ولقائه مع محمد بن إبراهيم يرجع ملخصه إلى ما ذكره خير الدين، ولذلك اقتصرنا عليه (٢)

و ليعلم أن القاسم الرسى الذي يعتبر الإمام الثاني للزيدية من فريق الأئمة المجتهدين هو أخو محمد بن إبراهيم، كما أن الإمام الهادي الذي أسس دولته فيها هو حفيد القاسم الرسى، فالكل من أغصان الشجرة الطيبة العلوية.

* * *

(١) خير الدين الزركلي: الأعلام: ٨٢|٣ نقلاً عن البداية والنهاية: ١٠|٢٤٤ ومقاتل الطالبين: ٣٣٨، والطبري: التاريخ: ١٠|٢٢٧.

(٢) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين: ٥١٨ - ٥٣٦. تحقيق سيد أحمد صقر.

(٣٦٦)

أصحاب الانتفاضة ٨ محمد بن محمد بن زيد بن علي (١٨٢ - ٢٠٢ هـ)

يحدث صاحب المجدي عن أبيه فيقول: محمد بن زيد الشهيد بن علي بن الحسين - عليه السلام - وكان بليغاً، وله أحد عشر ولداً، منهم: محمداً الأكبر وكان على عهد المأمون وهو صاحب أبي السرايا بعد ابن طباطبا قبره بمرو، وكان سقى سماً (١).

وقال ابن عنبه: وكان لمحمد بن زيد الشهيد عدة بنين، منهم محمد بن محمد بن زيد. ولما خرج أبو السرايا وأخذ البيعة لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل (المذكور آنفاً) وتوفي «محمد» فجأة نصب أبو السرايا مكانه محمد بن محمد بن زيد هذا، ولقبه «المويد» فندب الحسن بن سهل إليه هرثمة بن أعين، فحاربه وأسرته وحمله إلى الحسن بن سهل فحمله الحسن إلى المأمون، فتعجب المأمون من صغر سنه وقال: كيف رأيت الله في الصنع بآبن عمك؟ فقال محمد بن محمد بن زيد:

رأيت أمين الله في العفو والحلم * وكان يسيراً عنده أعظم الجرم

فأعرض عن جهلي وداوى سقامه * بعفو جرى عن جلده هبوه السقم

وتوفي محمد بن محمد بن زيد بمرو وسقاه المأمون السم ٢٠٢ هـ وهو ابن عشرين سنة، فيقال: إنه كان ينظر كبده يخرج من حلقة قطعاً فيلقيه في طشت ويقبله بخلال في يده (٢) _____

(١) النسابة العلوي العمري: المجدي: ١٨٤.

(٢) ابن عنبه: عمدة الطالب: ٣٠٠، لاحظ أيضاً مقاتل الطالبين: ٣٤٣ و ٥١٧ من الطبعة الأخرى.

(٣٦٧)

أصحاب الانتفاضة ٩ محمد بن القاسم بن علي بن عمر ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (... - بعد ٣١٩ هـ) قال صاحب المجدي: أمّا الوالد أي القاسم بن علي بن عمر فهو يكنى بـ «أبي علي» وكان شاعراً وقد اختفى ببغداد، وأمّا الولد فقد أشخصه الرشيد من الحجاز وحبسه وأفلت من الحبس (١)

وقال ابو الفرج: محمد بن القاسم يكنى أبا جعفر، وكانت العامة تلقبه الصوفي، لأنه كان يُدمن لبس ثياب من الصوف الأبيض، وكان من أهل العلم والفقه والدين والزهد وحسن المذهب، وكان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد ويرى رأى الزيدية الجارودية، خرج في أيام المعتصم بالطالقان، فأخذه عبد الله بن طاهر ووجه به إلى المعتصم (٢)

يقول المسعودي: وفي هذه السنة أي ٢١٩ هـ أخاف المعتصم، محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهم الله، وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع في نهاية الوصف، فلما خاف على نفسه هرب فصار إلى خراسان، فتنقل في مواضع كثيرة من كورها كمرو، وسرخس والطالقان ونسا، فكانت له هناك حروب وكوائن وانقاد إليه وإلى إمامته خلق كثير

(١) النسابة العلوي: المجدي: ١٤٩.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين: ٣٨٢.

(٣٦٨)

من الناس، ثم حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم، فحبسه في أزج اتخذه في بستان بسر من رأى. وقد تنوزع في محمد بن القاسم، فمن قائل يقول: إنه قتل بالسم، ومنهم من يقول: إن ناساً من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتأتوا للخدمة فيه من غرس وزراعة، واتخذوا سلالم من الجبال واللبود والطالقانية ونقبوا الأزج وأخرجوه، فذهبوا به فلم يعرف له خبر إلى اليوم، وقد انقاد إلى إمامته خلق كثير من الزيدية إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٣ هـ (١) _____

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣/٤٦٤ - ٤٦٥.

(٣٦٩)

الفصل الثالث أئمة الزيدية ودولتهم في اليمن

الفصل الثالث أئمة الزيدية ودولتهم في اليمن

قد تعرفت على أسماء وحياءة الثائرين بعد زيد الشهيد إجمالاً، وهؤلاء الأمثال قاموا في وجه الظلم في مناطق مختلفة، بصورة انتفاضات ناجحة وغير ناجحة.

ويأتي الآن دور الثائرين الأفاضل، المؤسسين دولاً في قطر كبير من الأقطار الثلاثة وهؤلاء عبارة عن:

أئمة الزيدية وتأسيس الدولة في اليمن.

أئمة الزيدية وتأسيس الدولة في طبرستان.

أئمة الزيدية وتأسيس الدولة في المغرب.

وإليك البيان ابتداء من أئمتهم في اليمن وأول ثائريهم وفي الحقيقة مؤسس دولتهم هو: ١ يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا قال صاحب المجدي في حق والده: الحسين بن القاسم الرسى كان سيداً كريماً ولد له يحيى، وهو أبو الحسين الهادي، الجليل، الفارس، الدين، إمام الزيدية وكان مصنفًا، شاعرًا، ظهر باليمن مات سنة ٢٩٨هـ وكان يتولى الجهاد بنفسه (٣٧٠)

ويلبس جبة صوف وكان قشفاً رحمه الله (١)

وقال ابن عنبه: أما أبو عبد الله الحسين بن القاسم الرسى وكان سيداً كريماً، فأعقب من رجلين:

١- أبو الحسين يحيى الهادي.

٢- أبو محمد عبد الله السيد العالم.

أما يحيى الهادي بن الحسين بن القاسم الرسى يكنى أبا عبد الله، كان إماماً من أئمة الزيدية، جليلاً فارساً، ورعاً، مصنفًا، شاعرًا، ظهر باليمن ويلقب بالهادي إلى الحق، وكان يتولى الجهاد بنفسه ويلبس جبة صوف، له تصانيف كبار في الفقه قريبة من مذهب أبي حنيفة، وكان ظهوره باليمن أيام المعتضد سنة ٢٨٠هـ وتوفي هناك عام ٢٩٨هـ وخُطب له بمكة سبع سنين، وأولاده أئمة الزيدية وملوك اليمن وقد ولي الحكومة بعد رحيل الهادي ولداه:

١- أبو القاسم محمد المرتضى، قام بالأمر بعد أبيه.

٢- أحمد الناصر قام بالأمر بعد تنازل أخيه.

وسيوافيك ترجمة الوالد والولدين في الفصل السادس المختص ببيان أعلامهم المجتهدين، وإليك أسماء الأئمة الذين كان لهم الحكم إلى قيام الجمهورية عام ١٣٨٢هـ

وقد توالى الإمامة من عقب الإمام يحيى بعد الولدين إلى قيام الجمهورية العربية في أرض اليمن إلا في فترات قليلة، فلأجل إيقاف القاري على أسمائهم تأتي بالقائمة التالية ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب المعده لذلك _____.

(١) النسابة العلوي العمري: المجدي: ٧٨.

(٣٧١)

سلسلة أئمة الزيدية في اليمن:

قد قام غير واحد من الزيدية بذكر أئمتهم حسب التسلسل الزمني، وتصديهم لأمر الإمامة منهم:

أحمد بن يحيى بن المرتضى (ت ٨٤٠هـ) في مقدمة البحر الزخار قال: «باب في تعداد أئمة الزيدية» والمقصود الدعاء دون المقتصددين هو مرتب على مراتبهم في القيام - عليهم السلام - أولهم على بن أبي طالب كرم الله وجهه بويج له في المدينة...

ثم ولده الحسن بن علي قام يوم الاثنين لثمان بقين من شهر رمضان...

ثم أخوه الحسين بن علي قام حين أتى نعي معاوية...

ثم الحسن بن الحسن قام ودعا وبايعه خلق كثير...

ثم زيد بن علي قام يوم الأربعاء...

ثم يحيى بن زيد قام ودعا ...

ثم ساق أسماء الأئمة إلى والده الإمام المهدي علي بن محمد بن علي بن منصور بن يحيى بن مفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم بن الإمام يوسف الداعي بن يحيى بن أحمد الناصر بن الهادي إلى الحق ولد سنة ٧٠٥ هـ وتوفي سنة ٧٧٤ هـ (١) ولا تعجب من ذكر الإمام علي بن أبي طالب والحسين، والحسن بن الحسن، وزيد بن علي دون الإمام زين العابدين، من أئمة الزيدية مع أن زيدا تولد وقام بالدعوة بعد قرن وربع وذلك لأجل أن المراد من الزيدية هي يتبع المنهج (١) البحر الزخار: ٢٢٥ - ٢٣١، آخر كتاب الجواهر والدرر في سيرة سيد البشر. (٣٧٢)

الخاص في باب الإمامة وهو الذي قام ودعا إلى إمامته وبويع وخرج، وله من المؤهلات والمواصفات المذكورة في بابها، والإمام والسبطان مشوا على هذا الدرب دون الإمام السجاد _ عليه السلام _.

وممن قام بتدوين أسماء وحياء أئمة الزيدية مؤلف كتاب «التحف شرح الزلف» فقد نظم أسماء الأئمة نظماً وشرحها شرحاً، والمؤلف أنموذج السلف السيد مجد الدين بن محمد بن منصور الحسن المويدي شيخ الزيدية في العصر الحاضر باليمن فقد أتى بأسمائهم وقليلاً من حياتهم إلى الإمام المتوكل على الله يحيى بن الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى الذي قام بعده وفاءً أبيه سنة ١٣٢٢ هـ قال: فجند الجنود وخفقت له الرايات، وصفت البنود، وفي أيامه النعمة الكبرى والمنة العظمى إخراج الأتراك وإجلالهم من اليمن وفي هذا التاريخ (١٣٦٥ هـ) أوامره ونواهيته في أرض اليمن جارية (١)

وقد سبق زمن تأليف الكتاب على دعوة الإمامين بعد المتوكل ولم يذكر منهما شيئاً أعني:

١ - الناصر لدين الله أحمد بن يحيى حميد الدين (ت ١٣٨٢ هـ).

٢ - المنصور بالله محمد البدر بن أحمد بن يحيى حميد الدين.

حيث لم يحكم الثاني إلا أياماً قلائل وأزيل عن الحكم بقيام الثورة وإعلان الجمهورية بقيام أحد العسكريين باسم السلالة عام ١٣٨٣ هـ

وبما أننا استوفينا ذكر الأئمة الدعاء حتى عصر الإمام يحيى الهادي نذكر سلسلة الزيدية بعد عصره إلى زماننا هذا، وقد استخرجت القائمة من عدة مصادر ولم نذكر فيها الدعاء الذين ليسوا بأئمة بل هم حسب مصطلح الزيدية مقتصدون _____، (١) التحف شرح الزلف: ١٩٤ ولاحظ أيضاً كتاب اليمن عبر التاريخ: ٢٥٠ - ٢٥٩ تأليف أحمد حسين شرف الدين وهو يذكر أئمة الزيدية باليمن فقط.

(٣٧٣)

وقد عقد في البحر الزخار باباً لأسماء هؤلاء أيضاً (١)

وقد استعنت في تنظيم القائمة، أحد الفضلاء أعني الشيخ علي اليمني دامت إفاضاته.

١ - الإمام المرتضى لدين الله محمد بن يحيى وهو ابن الهادي يحيى بن الحسين، بويع له بالإمامة في غرة محرم سنة ٢٩٩ هـ بعد وفاة الهادي واستمر في الحكم عشرة أشهر ثم تنازل عن الحكم لما رأى من تخاذل بعض الناس، وتوفي في أيام أخيه الناصر أحمد سنة عشر وثلاثمائة وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان يلقب بجبريل الأرض لسنكه، ودفن بجوار الهادي في مدينته صعده في اليمن.

٢ - الإمام الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين، بويع له بعد تنازل المرتضى محمد وكان حين وفاة الهادي في الحجاز ثم قدم بعد ذلك، وكانت له حروب مع القرامطة وهزمهم في جميعها وصفت له أكثر اليمن، واستمر في الحكم حتى توفي سنة ثلاثمائة وخمسة وعشرين ودفن بجوار أبيه وأخيه.

٣- المنصور بالله القاسم بن علي بن عبد الله العياني قام ببلاد خثعم من أرض الشام ثم خرج إلى اليمن وتوفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة بقرية عيان شمال اليمن وهو من ذرية محمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

٤- الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي وهو أبو الفتح بن الحسين بن محمد من ذرية علي بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قام في بلاد الديلم شمال إيران في عام ثلاثين وأربعمائة، ثم خرج إلى اليمن فاستولى على أكثر اليمن واستشهد سنة نيف وأربعين أو خمسين وأربعمائة في وقعه بينه وبين علي بن محمد الصليحي_____.

(١) البحر الزخار: المقدمة | ٢٢٥، والمراد من المقتصدین هم الذين لم يتمكنوا من الخروج وإن كانت لهم دعوة. (٣٧٤)

٥- الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان من ذرية الناصر أحمد بن الهادي، استولى على جميع اليمن وخطب له بينبع وخيبر وتوفي في ربيع سنة ست وخمسين وخمسمائة عن ست وستين سنة.

٦- الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ينتهي نسبه إلى عبد الله بن الحسين ابن القاسم بن إبراهيم طباطبا، دعوته سنة أربع وتسعين وخمسمائة ويعتبر مجدد المذهب الزيدي في القرن السابع الهجري، توفي في محرم سنة أربع عشرة وستمائة عن عمر يناهز الثانية والخمسين.

٧- الإمام المهدي أحمد بن الحسين من ذرية محمد بن القاسم بن إبراهيم طباطبا، دعا إلى الله سنة ست وأربعين وستمائة وقتل سنة ست وخمسين وستمائة.

٨- الإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين دعا في الخامس والعشرين من شوال سنة سبع وخمسين وستمائة وتوفي سنة سبعين وستمائة عن أربع وسبعين عاماً.

٩- الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى وكانت دعوته سنة ست وسبعين وستمائة وتوفي في سنة سبع وتسعين وستمائة.

١٠- الإمام المهدي محمد بن المطهر وكانت دعوته سنة إحدى وسبعمائة وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة عن سبعين عاماً، ويعتبر من المجددين للمذهب الزيدي في القرن الثامن.

١١- الإمام المويد بالله يحيى بن حمزة ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن موسى الرضا من جهة الإمام الجواد - عليه السلام - ثم الإمام علي الهادي - عليه السلام - وكان قيامه سنت تسع وعشرين وسبعمائة وتوفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

١٢- الإمام المهدي لدين الله علي بن محمد، كانت ولادته سنة سبعمائة وخمسة للهجرة ودعوته سنة سبعمائة وخمسين للهجرة وتوفي في جمادى

(٣٧٥)

الآخرة سنة سبعمائة وأربعة وسبعين للهجرة وقيل في ربيع الأول من نفس العام.

١٣- الإمام الهادي لدين الله علي بن المويد، كانت دعوته سنة ست وسبعمائة وتوفي في العاشر من محرم سنة ست وثلاثين وثمانمائة عن ثمانين سنة، ومدّه حكمه ما يقرب من أربعين سنة.

١٤- الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى، ولادته سنة سبعمائة وأربعة وستين وكانت دعوته سنة سبعمائة وثلاثة وتسعين فأسر وحبس فلما آيس الهادي علي بن المويد من خروجه من الحبس دعا لنفسه، وتوفي المهدي في سنة ثمانمائة وأربعين للهجرة.

١٥- الإمام المتوكل على الله المطهر بن محمد وهو من ذرية عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا.

كان قيامه في سنة ثمانمائة وإحدى وأربعين وتوفي في صفر سنة تسع وسبعين وثمانمائة.

١٦- الإمام الهادي عز الدين بن الحسن، كانت دعوته في تسعة شوال سنة ثمانين وثمانمائة ويعتبر مجدداً للدين في القرن التاسع الهجري، وحكم اليمن ومكّة وكانت وفاته في رجب سنة تسعمائة عن خمس وخمسين عاماً.

١٧- الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، كانت بيعته في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وتسعمائة وفي أيامه خرج الجراكسة والأتراك من اليمن وتوفي سنة خمس وستين وتسعمائة وهو ابن سبع وثمانين سنة.

١٨- الإمام الهادي الحسن بن عز الدين، كانت دعوته أواخر أيام الإمام شرف الدين وذلك بإشارة من الإمام شرف الدين بعد ذهاب بصره، فبيع له سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وتوفي سنة سبع وثمانين وتسعمائة عن سبع وسبعين سنة. (٣٧٤)

١٩- الإمام الناصر لدين الله الحسن بن علي بن داود، بويغ له سنة أربع وثمانين وتسعمائة، أسره الأتراك سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة في سادس عشر من شهر رمضان وسجن في اليمن سنة ثم أرسل إلى القسطنطينية وبقي مسجوناً إلى أن توفي سنة أربع وعشرين وألف للهجرة.

٢٠- الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي، بويغ له في محرم سنة ألف وستة هجرية، وهو مجدد القرن الحادي عشر، وهو وأولاده الذين أخرجوا الأتراك من اليمن وتوفي سنة ألف وتسعة وعشرين هجرية.

٢١- الإمام المويد بالله محمد بن القاسم بن محمد، بويغ له بعد وفاة أبيه القاسم بن محمد وتوفي بعد صلاة الجمعة في اليوم الثامن من شهر رجب في سنة ألف وأربع وخمسين للهجرة، وفي أيامه تم خروج الأتراك نهائياً من اليمن.

٢٢- الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد، بويغ له بعد وفاة المويد سنة أربع وخمسين وألف وتوفي في جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وألف وامتد حكمه إلى ظفار عمان.

٢٣- الإمام المنصور بالله القاسم بن المويد بالله محمد بن القاسم بن محمد، بويغ له بعد وفاة عمه المتوكل على الله إسماعيل وتوفي سنة ألف وسبعة وعشرين للهجرة النبوية على صاحبها وآله السلام.

٢٤- الإمام المويد بالله محمد بن المتوكل على الله إسماعيل، دعا بعد وفاة المويد وتوفي سنة سبع وتسعين وألف للهجرة.

٢٥- الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الكبسي المغلس دعوته سنة إحدى وعشرين ومائتين وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائتين ويعتبر مجدداً للمذهب الزيدي في القرن الثاني عشر.

٢٦- الإمام المنصور بالله أبو محمد أحمد بن هاشم بن المحسن، كانت (٣٧٧)

دعوته سنة ألف ومائتين وأربع وستين وتوفي سنة ألف ومائتين وتسع وستين.

٢٧- الإمام المنصور بالله محمد بن عبد الله الوزير، كانت دعوته سنة ألف ومائتين وسبعين ثم اعتزل بعد سنة من قيامه وتوفي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة.

٢٨- الإمام المتوكل على الله المحسن بن أحمد الحوثي، كانت دعوته في سنة ألف ومائتين وإحدى وسبعين وتوفي سنة ألف ومائتين وخمس وتسعين.

٢٩- الإمام المهدي لدين الله أبو القاسم محمد بن إسماعيل الحسيني يرجع نسبه إلى الإمام يحيى بن حمزة الحسيني، كانت دعوته سنة ألف ومائتين وثمان وتسعين للهجرة ثم أخذ بعد ذلك وسجنه الأتراك وتوفي سنة ألف وثلاثمائة وتسعة عشر للهجرة.

٣٠- الإمام الهادي لدين الله شرف الدين بن محمد الحسيني، يرجع نسبه إلى الإمام يحيى بن حمزة الحسيني خرج أواخر القرن الثالث عشر أثناء سجن الإمام المهدي وتوفي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة.

٣١- الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى بن محمد حميد الدين وهو من ذرية الإمام القاسم بن محمد، دعا سنة سبع وثلاثمائة وهو

وابنه الإمام يحيى حميد الدين من أخرج الأتراك من اليمن وتوفي سنة ألف وثلاثمائة واثنين وعشرين. ٣٢- الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين، دعا بعد وفاة والده المنصور بالله محمد في سنة ألف وثلاثمائة واثنين وعشرين، وهو الذي أخرج الأتراك نهائياً من اليمن وله المنه الكبرى في إبقاء اليمن بعيداً عن الاستعمار والأجانب، واستمر حكم الإمام يحيى حتى استشهد سنة ألف وثلاثمائة وسبع وستين.

هؤلاء هم الأئمة الذين حكموا اليمن بعد الهادي يحيى بن الحسين وهم

(٣٧٨)

الذين أجمعوا على إمامتهم وكان هناك غيرهم ممن حكم اليمن إلا- أنهم لم يصلوا إلى درجة الإمامة عندهم وهم إمياً دعاء أو محتسبون، وجاء بعد الإمام يحيى من أخذ بثأره الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين كان عالماً جليلاً وفارساً شجاعاً وكان عادلاً في حكمه إلا أنه لم تكتمل شروط الإمامة فيه واستمر حكمه إلى سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وثمانين للهجرة.

*** (٣٧٩)

الفصل الرابع أئمة الزيدية ودولتهم في طبرستان

الفصل الرابع أئمة الزيدية ودولتهم في طبرستان

وقد أسس بعض الثائرين على منهج زيد الثائر دولة زيدية في طبرستان، وهم بين داع وإمام، أو بين إمام جهاد، وإمام اجتهاد، نعم هنا مشكلة وهو اجتماع إمامين في عصر واحد وإن كانا في قطرين، وسيوافيك أن الناصر الأطروش من أئمة الزيدية في طبرستان كان معاصراً مع الإمام الهادي يحيى بن الحسين الذي توفي ٢٩٨هـ وإليك أسماءهم وقليلاً من حياتهم:

١- الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت ٢٧٠هـ).

قال المسعودي: وفي خلافة المستعين وذلك في سنة ٢٥٠هـ ظهر ببلاد طبرستان الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل، بن الحسن، بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضى الله عنهم - فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة وقتال شديد وما زالت في يده إلى أن مات سنة سبعين ومائتين (١).

وقال الجزري: وفيها توفي الحسن بن زيد العلوي، صاحب طبرستان، في رجب وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام، وولي مكانه أخوه _____

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٤/٦٨.

(٣٨٠)

محمد بن زيد.

وكان الحسن جواداً مدحه رجل فأعطاه عشرة آلاف درهم، وكان متواضعاً لله تعالى.

حكى عنه أنه مدحه شاعر فقال: الله فرد، وابن زيد فرد، فقال: فبيك الحجر، ياكذاب، هلا قلت الله فرد، وابن زيد عبد. ثم نزل عن مكانه، وخرّ ساجداً لله تعالى، وألصق خده بالتراب وحرّم الشاعر (١)

٢- أخوه: محمد بن زيد بن محمد بن إسماعيل، فقام مكانه أخيه «الحسن» وحاربه رافع بن هرثمة ودخل محمد بن زيد إلى الديلم في سنة ٢٧٧هـ فصارت في يده وبإيعه بعد ذلك رافع بن هرثمة، وصار في جملته وانقاد لدعوته والقول بطاعته (إلى أن توفي سنة ٢٨٧هـ بعد ما أُتخن في معركة الحرب مع السامانيين) وكان الحسن بن زيد ومحمد بن زيد يدعوان إلى الرضا من آل محمد وكذلك من طراً بعدهما ببلاد طبرستان (٢)

٣- الإمام الناصر للحق الأطروش، أبو محمد: الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف (٣) بن علي بن الحسين بن علي بن

أبي طالب (٣٢ - ٣٠٤هـ) وستوافيك ترجمته في الفصل القادم.

٤- الحسن بن القاسم بن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط (ت ٣١٦هـ).

قال المويدي: هو الإمام الداعي إلى الله أبو محمد الحسن بن القاسم بن _____

(١) الجزري: الكامل: ٧/٤٠٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب: ٤/٦٨.

(٣) إنما يوصف بالأشرف لكونه من جانب الأب والأم علويًا في مقابل عمر الأطراف إذ كان علويًا من جانب الأب.

(٣٨١)

الحسن بن علي بن عبد الرحمن الشجري: كان هذا الإمام من أركان الناصر للحق الحسن بن علي الاطروش، وكان يضرب بعدله المثل، واستشهد سنة ست عشرة وثلاثمائة وله اثنتان وخمسون سنة، وأقام أود الدين الحنيف في نيسابور والرى ونواحيهما وفي الجبل والديلم.

وقال المويدي في الزلف:

كذا الحسن بن القاسم بن الفرد بعده * فلم يبق في جيلان للحق مانع (١) ٥- محمد بن الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط (ت ٣٦٠هـ).

قال المويدي: هو الإمام أبو عبد الله المهدي لدين الله محمد بن الإمام الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن الشجري بن القاسم بن الحسن بن زيد ابن الحسن السبط.

وهذا الإمام الذي جمع بين القاسمية والناصرية بعد التباين العظيم بسبب الاختلاف في الاجتهاد فأظهر القول بأن كل مجتهد يصيب في الاجتهادات وهو الذي قيل فيه لو مادت الأرض لشيء لعظمه لمادت لعلم أبي عبد الله الداعي ووالده الإمام الحسن بن القاسم الذي تقدم بعد الإمام الناصر الاطروش.

قام ببغداد ثم وصل الديلم وبايعه من علماء الأئمة أربعة آلاف، سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة قبضه الله بـ «هوسم» سنة ٣٦٠هـ روى عن الإمام أبي طالب أنه مات مسموماً (٢)

وبذهاب هؤلاء، ذهب الدولة الزيدية في طبرستان ولهم إلى الآن آثار وقبور تزار _____.

(١) مجد الدين المويدي: التحف شرح الزلف: ٧٢ - ٧٣.

(٢) التحف شرح الزلف: ٨٣ - ٨٤.

الفصل الخامس الدولة الزيدية في المغرب

الفصل الخامس الدولة الزيدية في المغرب الادارسة :

كان لعبد الله المحض أي عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط - عليه السلام - ستة أبناء قد ذكرنا أسماءهم عند ذكر ثورة محمد بن عبد الله النفس الزكية، منهم: ١ - إدريس بن عبد الله المحض: قال المسعودي: لما خرج محمد بن عبد الله المحض المعروف بالنفس الزكية تفرق إخوته في البلاد، يدعون إلى إمامته، فكان فيمن توجه، ابنه علي بن محمد إلى مصر، فقتل هناك، وسار ابنه الحسن إلى اليمن فحبس فمات في الحبس، وسار إخوة موسى إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحيى إلى الرى، ثم إلى طبرستان، ومضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه خلق من الناس فبعث المنصور من اغتاله بالسلم فيما احتوى عليه من مدن المغرب

(١)

قال العلوي العمري النسابة: كان إدريس بن عبد الله مع الحسين صاحب _____

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣/٣٩٦.

(٣٨٣) الفخ (١)، فلما قتل الحسين انهزم حتى لحق بالمغرب فسمّ هناك (٢).

وقال ابن عنبه: لما قتل الحسين انهزم إدريس حتى دخل المغرب فسمّ هناك بعد أن ملك، وكان قد هرب إلى فاس وطنجة ومعه مولاه راشد ودعاهم إلى الدين فأجابوه وملكوه، فاغتم الرشيد (هارون) لذلك حتى امتنع من النوم ودعا سليمان ابن جرير الرقي متكلم الزيدية وأعطاه سمّاً، فورد سليمان بن جرير متوسماً بالمذهب فسّر به إدريس بن عبد الله ثم طلب منه عزة ووجد خلوة من مولاه راشد فسقاه السم فهرب، فخرج راشد خلفه فضربه على وجهه ضربة منكرة وفاته، وعاد وقد مضى إدريس لسبيله.

كانت بيعه إدريس بن عبد الله في شهر رمضان سنة ١٧٢هـ واستمر بالأمر إلى ست سنين إلاّ ست شهر (٣)

وقال الزركلي: إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب: مؤسس دولة الأدارسة في المغرب وإليه نسبتها، أول ما عرف عنه أنّه كان مع الحسين بن علي بن الحسن المثلث، في المدينة أيام ثورته على الهادي العباسي سنة ١٦٩هـ ثم قتل الحسين، فانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ ونزل بمدينة ويلي (على مقربة من مكناس وهي اليوم مدينة قصر فرعون) وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد فعزّفه إدريس بنفسه، فأجاره وأكرمه، ثم جمع البربر على القيام بدعوته، وخلع طاعة بني العباس، فتم له الأمر (يوم الجمعة ٤ رمضان ١٧٢هـ) فجمع جيشاً كثيفاً وخرج به غازياً فبلغ بلاد تاذلة

(١) فخ - بفتح أوله وتشديد ثانيه - واد بمكة قتل فيه الحسين بن علي بن الحسن العلوي يوم التروية سنة ١٦٩هـ وقتل معه جماعة من أهل بيته وفيه دفن عبد الله بن عمرو جماعة من الصحابة، انظر مراصد الإطلاع، ما دة فخ.

(٢) النسابة العلوي العمري: المجدي: ٦٢.

(٣) ابن عنبه: عمدة الطالب: ١٥٧ - ١٥٨.

(٣٨٤) (قرب فاس) ففتح معاقلها، وعاد إلى ويلي، ثم غزا تلمسان فباع له صاحبها، وعظم أمر إدريس فاستمر إلى أن توفي مسموماً في ويلي في عام ١٧٧هـ وهو أول من دخل المغرب من الطالبين، ومن نسله الباقي إلى الآن في المغرب شرفاء العلم (العلميون) والشرفاء الوزانيون، والريسيون، والشيبهيون، والطاهريون الجوطيون، والعمرانيون، والتونسيون (أهل دار القيطون) والطاليون، والغاليون، والدباغيون، والكتانيون، والشفاويون، والودغيريون، والدرقاويون، والزكاريون(١).

٢ - إدريس بن إدريس بن عبد الله المحض :

يقول ابن عنبه: وأعقب إدريس بن عبد الله المحض من ابنه إدريس وحده، وكان إدريس بن إدريس لما مات أبوه حملاً، وأمّه أم ولد بربرية، ولما مات إدريس ابن عبد الله وضعت المغاربة التاج على بطن جاريته أم إدريس فولدته بعد أربعة أشهر، قال الشيخ أبو نصر البخاري: قد خفي على الناس حديث إدريس لبعده عنهم ونسبوه إلى مولاه راشد، وقالوا: «إنه احتال في ذلك لبقاء الملك له، ولم يعقب إدريس بن عبد الله وليس الأمر كذلك فإنّ داود بن قاسم الجعفري وهو أحد كبار العلماء وممن له معرفة بالنسب، حكى أنّه كان حاضراً قصة إدريس بن عبد الله وسمّه وولادة إدريس بن إدريس، قال: وكنت معه بالمغرب فما رأيت أشجع منه ولا أحسن وجهاً، وقال الرضا بن موسى الكاظم - عليهما السلام: - «إدريس بن إدريس ابن عبد الله من شجعان أهل البيت والله ماترك فينا مثله» وقال أبو هاشم داود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر الطيار: أنشدني إدريس بن إدريس لنفسه - أبياتاً شعريّة - .

(١) الزركلي: الأعلام: ١ | ٢٧٩.

(٣٨٥)

وكان لإدريس بن إدريس بن عبد الله المحض أحد عشر رجلاً وبنيتين: رقية وأم محمد، ولكنه أعقب من سبعة، وهم:
 ١- القاسم ٢- عيسى ٣- عمر ٤- داود ٥- يحيى ٦- عبد الله ٧- حمزة.
 وقد قيل: إنه أعقب من غير هؤلاء أيضاً ولكل منهم ممالك في بلاد المغرب هم بها ملوك إلى الآن
 (١)

وفي تعليقه الكتاب: والذي أولدهم إدريس بن إدريس أحد عشر رجلاً، وبنيتين: رقية وأم محمد، والذي أعقب فيهم سبعة، والذي ملك الأمر منهم في بلاد المغرب محمد واستمر بالأمر ثمانين سنين ثم توفي في شهر ربيع الأول سنة ٢٢١ هـ وقام بعده أولاده ثم أحفاده وكان آخرهم الحسن بن القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس الذي تولى الملك سنة ٣٤٨ وقاتل سنة ٣٧٥ وبموته انقرضت دولة الأدارسة من بلاد المغرب وقد ملكوا الأمر ٢٠٠ سنة تقريباً.

وقال ابن عذارى المراكشي: أخذت الهجرات العربية تنثال على مراكش من أفريقية والأندلس، فقرر إدريس الثاني تأسيس عاصمته له وشرع في إنشاء مدينة فاس عام ١٩٢ هـ حيث سكن البربر المنطقة الشرقية والعرب المنطقة الغربية، وقد أصبحت هذه المدينة مركزاً من أكبر مراكز الإسلام علمياً ودينياً وتجارياً وصناعياً.

قام إدريس الثاني بحملات عسكرية في جبال أطلس وظل يتنقل بعدها بين فاس وتلمسان ووليله إلى أن مات مسموماً عام ٢١٣ هـ في ظروف غامضة.

ترك اثني عشر ولداً هم: محمد وأحمد وعبد الله وعيسى وإدريس وجعفر

(١) ابن عنبه: عمدة الطالب: ١٥٩ ومعنى ذلك بقاء حكمهم وسلطتهم إلى أوائل القرن التاسع.

(٣٨٦) ويحيى وحمزة وعبد الله والقاسم وداود ويحيى، ولّى منهم: محمد بن إدريس، ففرق البلاد على إخوته بأمر جدته البربرية «كنزة» ولكن الخلاف نشأ بين بعض الإخوة ولم تستقر بعدها دولة الأدارسة بسبب منازعة الخوارج لهم برئاسة عبد الرزاق الخارجي الصفري إلى أن انتهت عام ٣٢٣ هـ (١)

وقال الزركلي: إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى، أبو القاسم: ثاني ملوك الأدارسة في المغرب الأقصى، وباني مدينة فاس. ولد في ويلي (بجبل زرهون. على نحو ٣٠ كم من مكناس) وتوفي أبوه وهو جنين، فقام بشؤون البربر راشد (مولى أبيه إدريس الأول وأمينه) وقتل راشد سنة ١٨٦ هـ فقام بكفالة إدريس أبو خالد العبدى، حتى بلغ الحادية عشر، فبايعه البربر في جامع ويلي سنة ١٨٨ هـ فتولى ملك أبيه وأحسن تدبيره وكان جواداً فصيحاً حازماً، أحبته رعيته. واستمال أهل تونس وطرابلس الغرب والأندلس إليه (وكانت في يد العباسيين بالمشرق، يحكمها ولاتهم) وغصت ويلي بالوفود والسكان فاختلفت مدينة «فاس» سنة ١٩٢ هـ وانتقل إليها. وغزا بلاد المصامدة فاستولى عليها، وقبائل نفزة (من أهل المغرب الأوسط) فانقادت إليه، وزار تلمسان - وكان أبوه قد افتتحها - فأصلح سورها وجامعها وأقام فيها ثلاث سنوات، ثم عاد إلى فاس. وانتظمت له كلمة البربر وزناته، واقتطع المغربيين (الأقصى والأوسط) عن دولة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف. وصفا له ملك المغرب وضرب السكة باسمه وتوفي بفاس

(٢) في ٣١٢ هـ وكان قد ولد عام ٧٧١ هـ وبذلك يكون عمره ٣٦ عاماً

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٢١٠ كما في الزيدية للدكتور أحمد محمود صبحي: ١١٣.

(٢) الزركلي: الأعلام: ١ | ٢٧٨.

الفصل السادس الأعلام المجتهدون من الزيدية

الفصل السادس الأعلام المجتهدون من الزيدية إن أعلام الزيدية بين إمام جهاد واستشهاد وإمام فقه واجتهاد، فمن الطبقة الأولى:

١ - يحيى بن زيد.

٢ - محمد النفس الزكية.

٣ - إبراهيم بن عبد الله.

٤ - عيسى بن زيد.

٥ - الحسين الفخري.

٦ - يحيى بن عبد الله .

٧ - ابن طباطبا.

٨ - محمد بن محمد بن زيد، وغيرهم.

وقد تعرفت على موجز أحوالهم وجهادهم واستشهادهم.

نعم هناك أئمة فقه واجتهاد أشادوا هذا المذهب بتفكيرهم وجهادهم العلمي المتواصل عبر القرون منضمماً إلى حروبهم مع المتمردين والظالمين، وها

(٣٨٨)

نحن نأتي على ذكر لفيف منهم مع الإشارة إلى حياتهم وتأليفاتهم، وأفضل مرجع لدراسة أحوالهم إلى القرن السابع، كتاب «الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية»، تأليف أبي الحسن حسام الدين حميد بن أحمد المحلى (٥٨٢-٦٥٢هـ).

وقد أُلّف في ذلك المجال كتب تتضمن حياة أئمة الزيدية نشير إلى أسمائها:

١ - «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون» لوجيه الدين عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ) نشرها القاضي محمد بن علي الآكوع.

٢ - «مصادر الفكر العربي الإسلامي» في اليمن لعبد الله الحبشي، طبع بيروت - ١٩٧٨ م.

٣ - «اتحاف المهتدين بذكر الأئمة المجّدين» لمحمد بن محمد بن يحيى «زبارة» (ت ١٣٨٠هـ).

٤ - «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني (ت ١٢٥٠هـ).

٥ - «حكام اليمن المجتهدون» لعبد الله محمد الحبشي، طبع بيروت.

٦ - «مطلع البدور، ومجمع البحور» لابن أبي الرجال صفى الدين (ت ١٠٩٢هـ) مخطوط.

٧ - «طبقات الزيدية» تأليف إبراهيم بن القاسم الشهاري (ت ١١٥٣هـ) مخطوط.

إلى غير ذلك ممّا يقف عليه المتتبع في آثار الزيدية.

* * * (٣٨٩) ١ أحمد بن عيسى بن زيد بن علي (١٥٧ - ٢٤٧هـ) الإمام أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي

طالب - عليهم السلام - يكنى أبا عبد الله، وأمّه عاتكة بنت الفضل بن عبد الرحمن بن العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

ولد يوم الثاني من شهر محرم الحرام سنة ١٥٧هـ توفي والده وهو صغير السن.

قال أبو الفرج الأصفهاني: إنّه وُشِيَ إلى هارون بأحمد بن عيسى والقاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين فأمر بإشخاصهما إليه

من الحجاز فلما وصلوا إليه، أمر بحبسهما فحبسا في سعة عند الفضل بن الربيع مكاناً عنده قال: فاحتال بعض الزيدية فسدس إليهما

فالزوجا في حاجات أحدهما مُبْنَج فأطعما المُبْنَج الموكّلين فلما علما إلى ذلك قد بلغ فيهم خرجا، - إلى أن قال: - ولم يزل مدّة ببغداد

مستتراً، وقد بلغ الرشيد خبره، فوضع الرصد في كل موضع، وأمر بتفتيش كل دار، يتّهم صاحبهما بالتشيع وطلب أحمد فيها، فلم يزل

ذلك دأبه حتى أمكنه التخلص فمضى إلى البصرة فأقام بها (١)

وقال الذهبي: أحمد بن عيسى بن زيد له كتاب «الصيام» روى عن حسين (يريد الحسين بن علوان) روى عنه محمد بن منصور الكوفي

(٢)

وقال السيد المويدي: الإمام أبو عبد الله أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن _____

(١) أبو الفرج: مقاتل الطالبين: ٤٠٨ - ٤٠٩.

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال: ١/١٢٧ برقم ٥١٢.

(٣٩٠)

الحسين السبط _ عليهم السلام _ فقيه آل محمد، وله الأمالي المعروفة بعلوم آل محمد سمّاها الإمام المنصور بالله «بدائع الأنوار» توفي وقد جاوز الثمانين سنة ٢٤٧هـ وقد كان حبسه الرشيد ثم أخرجه الله تعالى وبقي في البصرة إلى أن توفي.

أولاده: محمد وعلي (١)

أقول: يروى عن حسين بن علوان كثيراً ومحمد بن بكر العلائى، وعن محمد ابن بكر عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر _ عليه السلام _.

وروى عنه: ابنه: علي ومحمد، ومحمد بن المنصور المرادى بواسطة ابنه المذكورين وبلا واسطة ولم يرو عن أبيه.

وأما كتاب الأمالي فهو الذى طبع باسم «رأب الصدع» فى ثلاثة أجزاء بتحقيق العلامة على بن إسماعيل بن عبد الله المؤيد الصنعانى

وصدر عن دار النفائس ببيروت عام ١٤١٠هـ وقال محقق الكتاب إنه كصحيح البخارى عند أهل البيت النبوى الشريف (٢)

وقد أخرج المؤلف فيه ٢٧٩٠ حديثاً عن الرسول وأئمة أهل البيت والباقر والصادق _ عليهم السلام _، وقد أكثر النقل عن النبى

الأكرم _ صلى الله عليه وآله وسلم _ عن غير طريق على وأبنائه _ عليهم السلام _، كما حدّث عن أبي جعفر الباقر _ عليه السلام _

والكتاب جدير بالمطالعة والدراسة والاستفادة والاعتماد عليه، عند صحّة السند، فلا يتمّ جامع حديثى للشيعة إلاّ بنقل ما ورد فيه عن

أئمة أهل البيت _ عليهم السلام _.

وقد استخرج المحقق _ المغفور له _ مصادر ما رواه عن النبى _ صلى الله عليه وآله وسلم _ عن طريق الصحابة والتابعين، وقصرت يده

عن استخراج ما رواه عن أئمة أهل البيت _ عليهم السلام _ عن المصادر الحديثية الشيعة، ليكون آية للصحة والإتقان. وذيل الجزء

الثالث برسالة أسماها: «تعريف برواة الأحاديث والآثار الواردة فى الكتاب» وهى ممتعة.

الجامع لأحاديثه هو أبو جعفر محمد بن منصور بن يزيد المرادى. وإليك

(١) المؤيدى: التحف شرح الزلف: ٤٥.

(٢) رأب الصدع: ١/١١١.

(٣٩١)

سند الحديث الأول:

أخبرنا أبو جعفر محمد بن منصور بن يزيد، قال: حدثنى أحمد بن عيسى بن زيد عن حسين بن علوان، عن أبى خالد، عن زيد عن

آبائه عن على _ عليه السلام _ وإليك ترجمتهم:

١ - محمد بن منصور بن يزيد (١) ولقد رجعت فى ترجمة محمد بن منصور المرادى إلى العلامة بدر الدين أحد العلماء الكبار فى

اليمن والذى يزور حالياً الجمهورية الإسلامية فى إيران، وحزّر شيئاً ما هذا ملخصه:

ترجمة محمد بن منصور الكوفى المرادى مؤلف الامالى:

قال العلامة أحمد بن صالح ابن أبى الرجال أحد كبار علماء الزيدية فى كتابه مطلع البدور:

شيخ العترة والشيعة، عذب الشريعة، لمن أراد بحار الشريعة محمد بن منصور المقرئ المرادى كان الأئمة يجلبونه إجلال الأب الكريم

وهو ينزلهم فى منزلهم الشريف العظيم، وكان شيخاً معمراً قد ذكر فى عمره بخط بعض الطلبة كلام لم يتفق عندى فانقله.

وهو الذى جمع أمالى أحمد بن عيسى، وهو أحد الأربعة الذين اعتمد عليهم فى الجامع الكافى، لأنّ مؤلف الجامع الكافى وهو

صاحب «المقنع» وهو الذى قال الذهبى فيه: الامام المحدث الثقة العالم مسند الكوفة أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن بن عبد

الرحمن العلوي جمع كتاباً فيه علم الأئمة بالعراق فاجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره.

وقال السيد العلامة صارم الدين إبراهيم بن محمد _ عليه السلام _ لمحمد بن منصور، تفسير، قلت: وذكر بعض شيوخنا رضي الله عنه أن لمحمد بن منصور _____

(١) لم يترجمه الذهبي في سير أعلام النبلاء، ولا في ميزان الاعتدال، ولا جمال الدين المزي في تهذيب الكمال.
(٣٩٢)

كتاب التفسير الكبير، وكتاب التفسير الصغير، وكتاب أحمد بن عيسى - عليه السلام - لعله يريد الأمالي وسيرة الأئمة العادلة، وكتاب رسالة بخراسان، وبعض ينسبها إلى الحسن بن زيد بطبرستان. انتهى.

وقال ابن النديم: المرادي من الزيدية وهو أبو جعفر محمد بن منصور المرادي الزيدى وله من الكتب: كتاب التفسير الكبير، كتاب التفسير الصغير، كتاب أحمد بن عيسى، كتاب سيرة الأئمة العادلة، وله كتب في الاحكام مثل طهارة وصلاة وغير ذلك على تلاوة كتب الفقه، وله كتاب الخميس. كتاب رسالته على لسان بعض الطالبين إلى الحسن بن زيد بطبرستان (١)

٢ - أحمد بن عيسى بن زيد، وقد مرت ترجمته.

٣ - حسين بن علوان، قال النجاشي: الكلبي ولأء كوفي عامي (غير شيعي) وأخوه الحسن يكتني أبا محمد، ثقته، روي عن أبي عبد الله _ عليه السلام _ وليس للحسن كتاب، والحسن أخص بنا وأولى، روى الحسين عن الأعمش، وهشام بن عروة، وللحسين كتاب تختلف رواياته (٢)

٤ - أبو خالد: قال النجاشي: عمرو بن خالد الواسطي عن زيد بن علي له كتاب كبير رواه عنه نصر بن مزاحم المنقري وغيره (٣) روى الصدوق في أماليه بإسناده عن عمرو بن خالد قال: قال لي زيد بن علي بن الحسين: في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحقبة زماننا ابن أخي جعفر بن محمد _ عليه السلام _ لا يضل من تبعه ولا - يهتدى من خلفه (٤) وضعفه الذهبي تبعاً لعادته من تضعيف شيعه أهل البيت _ عليهم السلام _ ومواليهم (٥) _____

(١) ابن النديم: الفهرست: ٢٤٤.

(٢) النجاشي: الرجال: برقم ١١.

(٣) النجاشي: الرجال: برقم ٧٦٩.

(٤) المامقاني: تنقيح المقال: ٢ | ٣٣٠ برقم ٨٦٩١.

(٥) الذهبي: ميزان الاعتدال: ٣ | ٢٥٧ برقم ٦٣٥٩.

(٣٩٣) ٢ القاسم الرسي (١٦٩ - ٢٤٦هـ)

القاسم بن إبراهيم (طباطبا) بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى المعروف بالقاسم الرسي، فهو الحجر الأساس لظهور الأئمة في اليمن وهو جد الإمام الهادي يحيى بن الحسين الذي خرج في اليمن وأسس حكومة زيدية فيها طالت قرناً.

وممن ترجمه: أبو الحسن حسام الدين حميد الدين المحلي فقد ذكر نسبه، وصفاته، وطرفاً من مناقبه وأحواله وزهده وقسماً من الوصايا والحكم والآداب المنقولة منه، ثم شرح دعوته وقال: لما استشهاد أخوه محمد بن إبراهيم - عليه السلام - وهو بمصر دعا إلى نفسه وبث الدعاء وهو على حال الاستتار فأجابه عالم من الناس من بلدان مختلفه، وجاءته بيعة أهل مكة، والمدينه، والكوفه، وأهل الرى، وقزوین، وطبرستان وتخوم الديلم، وكتبه أهل العدل من البصرة والأهواز، وحثوه على الظهور وإظهار الدعوة.

وأقام _ عليه السلام _ بمصر نحو عشر سنين واشتد الطلب له هناك من عبد الله ابن طاهر فلم يمكنه المقام، فعاد إلى بلاد الحجاز وتهامة وخرج جماعة من دعائه من بنى عمه وغيرهم إلى بلخ والطالقان والجوزجان، فبايعه كثير من أهلها وسألوه أن ينفذ إليهم بولد له ليظروا الدعوة، فانتشر خبره قبل التمكن من ذلك، فوجهت الجيوش في طلبه فانحاز إلى حى من البدو، واستخفى فيهم وأراد

الخروج بالمدينة في وقت من الأوقات فأشار عليه أصحابه بأن لا يفعل ذلك - إلى أن قال: - ولم يزل على هذه الطريقة، مثابراً على الدعوة، صابراً على التغرّب والتردد في النواحي والبلدان متحملاً للشدة مجتهداً في إظهار دين الله. ولما تهيأت مقدمات ظهوره وكانت له بيعات كثيرة في أوقات مختلفة أولها (٣٩٤)

(سنة ١٩٩هـ) والبيعة الجامعة كانت سنة ٢١٩هـ في منزل محمد بن منصور المرادي بالكوفة. فشلت دعوته ولم تساعده المقادير إلى كل ما أراد، فانتقل إلى الرس في آخر أيامه، وهي أرض اشتراها وراء جبل أسود بالقرب من ذي الحليفة، وبنى هناك لنفسه ولولده وتوفي بها سنة ٢٤٦هـ وله سبع وسبعون سنة، ودفن فيها ومشهده معروف يزوره من يريد زيارته. وله من المؤلفات:

- ١ - الدليل الكبير، وقد بالغ فيه في الكلام على الفلاسفة.
- ٢ - الدليل الصغير.
- ٣ - كتاب العدل والتوحيد الكبير، وفيه من أصول العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعد والمبالغة في الكلام على الجبرية على لطافة حجمه، ما يشهد بغزارة علمه، ووفور فهمه.
- ٤ - الرد على ابن المقفع.
- ٥ - الرد على النصارى.
- ٦ - كتاب المسترشد.
- ٧ - كتاب الرد على المجبرة.
- ٨ - كتاب تأويل العرش والكرسى.
- ٩ - كتاب المسألة وفيها مناظرته مع الملحد.
- ١٠ - كتاب تثبيت الإمامة وتقديم أمير المؤمنين على المشايخ.
- ١١ - كتاب الفرائض والسنن.
- ١٢ - كتاب الطهارة.
- ١٣ - كتاب صلاة اليوم واللييلة.
- ١٤ - كتاب مسائل على بن جهشيار.
- ١٥ - كتاب الناسخ والمنسوخ.
- ١٦ - كتاب سياسة النفس (١_____).

(١) حسام الدين المحلى: الحقائق الوردية: ٢/٢ - ٦؛ ولاحظ الأعلام للزركلي: ٥/١٧١. التحف شرح الزلف ٦٣ - ٧٠.

(٣٩٥) ٣ يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى (٢٤٥ - ٢٩٨هـ)

هو الإمام الهادي إلى الحق المبين، أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم ابن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد بالمدينة المطهرة سنة ٢٤٥هـ وحمل إلى جده القاسم فوضعه في حجره المبارك وعوّذه، وقال لابنه: بم سمّيته؟ قال: يحيى، وقد كان للحسين أخ يسمى يحيى توفي قبل ذلك، فبكى القاسم حين ذكره وقال: هو والله، يحيى صاحب اليمن. - إلى أن قال: - أقام الله به الدين في أرض اليمن وأحيا به رسوم الفرائض والسنن، فجدد أحكام خاتم النبيين، وآثار سيد الوصيين.

قيامه سنة ٢٨٠هـ وله مع القرامطة الخارجين عن الإسلام نيف وسبعون وقعة كانت له اليد فيها كلها، ومع بني الحارث نيف وسبعون وقعة - إلى أن قال: - وخطب له بمكة المشرفة سبعة سنين كما ذكر ذلك في عمدة الطالب وغيره، وقبضه الله إليه شهيداً بالسم وهو

في ثلاث وخمسين سنة ليلة الأحد لعشر بقين من ذى الحجة سنة ٢٩٨هـ ودفن يوم الإثنين في قبره الشريف المقابل لمحراب جامعه الذي أسسه بصعدة (١)

ذكر حسام الدين المحلى طرفاً من مناقبه وأحواله وسيرته، وأنه المؤسس للدولة الزيدية في اليمن، وإليك فهرساً من أسماء كتبه التي ذكرها المحلى وقال: وصنف التصانيف الفائقة والكتب البديعة _____:

(١) مجد الدين المويدي: شرح الزلف: ٦٢ - ٧٠ بتلخيص.

(٣٩٤)

١ - كتاب المنتخب في الفقه، وهو من جلائل الكتب وفيه فقه واسع وعلم رائع. ٢ - كتاب الفنون في الفقه، مهذب ملخص. ٣ - كتاب المسائل. ٤ - كتاب مسائل محمد بن سعيد. ٥ - كتاب الرضاع. ٦ - كتاب المزارعة. ٧ - كتاب أمهات الأولاد. ٨ - كتاب الولاء. ٩ - كتاب القياس.

ومنها في التوحيد كتب جلييلة القدر: ١ - كتاب التوحيد ٢ - كتاب المسترشد ٣ - كتاب الإرادة والمشيهة ٤ - الرد على ابن الحنفية في الكلام على الجبرية ٥ - نواذر القرامطة ٦ - كتاب أصول الدين ٧ - كتاب الإمامة ٨ - كتاب إثبات النبوة والوصية ٩ - كتاب الرد على الإمامية ١٠ - كتاب البالغ المدرك ١١ - كتاب المتزلة بين المتزلتين ١٢ - كتاب الحملة ١٣ - كتاب الديانة ١٤ - كتاب الخشية ١٥ - كتاب تفسير خطايا الأنبياء ١٦ - كتاب الرد على ابن جرير ١٧ - كتاب التفسير في ٦ أجزاء ١٨ - كتاب معان القرآن في ٩ أجزاء ١٩ - كتاب الفوائد جزءان إلى غير ذلك، وقد ذكر عبد الله بن محمد الحبشى له ٧٧ أثراً أتى بأسمائها وخصوصياتها ومحل نسخها المخطوطة.

وقد طبع منه كتابان:

الأول: كتاب الأحكام وقد طبع في جزأين وهو يشمل الكتب التالية:

١ - الطهارة. ٢ - الصلاة. ٣ - الجنائز. ٤ - الزكاة. ٥ - الصيام. ٦ - الحج. ٧ - النكاح. ٨ - الطلاق. ٩ - الرضاع. ١٠ - النفقات. ١١ - البيوع. ١٢ - الشفعة. ١٣ - الشركة. ١٤ - المضاربة. ١٥ - الرهن. ١٦ - الكفالة، والضمان، والحوالة، والوكالة. ١٧ - الغصب والإقرار. ١٨ - التفليس. ١٩ - الصلح. ٢٠ - الإيمان، والندور، والكفارات. ٢١ - الدعوى. ٢٢ - المزارعة. ٢٣ - الهبة، والصدقة، والعمرى، والرقي، والعارية، والوديعة. ٢٤ - الضالة، واللقطة، واللقيط. ٢٥ - الحدود. ٢٦ - الديات، والجراحة، والجنايات. ٢٧ - الفرائض. ٢٨ - الصيد.

(٣٩٧)

٢٩ - الذبائح. ٣٠ - الأطعمة والأشربة واللباس. ٣١ - الوصايا. ٣٢ - القاضى، والقضاء، والشهادات. ٣٣ - السير. ٣٤ - الزهد، والآداب، وغيره من محاسن الأخلاق.

الثانى: كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية أجاب فيه على ثلاث وأربعين سؤالاً وجهه الحسن على القائلين بالاختيار.

قال الإمام، في صدر الكتاب: فإنه وقع إلينا كلام الحسن (١) بن الحنفية، يؤكد فيه الجبر، ويشدد في ذلك منه الأمر، ويزعم فيه أن الله سبحانه جبر العباد أجمعين من الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع الثقلين على كل الأعمال من صالح أو طالح فرأينا أن نجيبه في ذلك وننقض عليه ما جاء به من المهالك ونثبت عليه في ذلك كله لربنا وسيدنا وخالقنا ما هو أهله مما هو عليه وما لا يجوز لخلق الله، أن يقول بغيره فيه، فاختصرنا له في قوله الجواب، وتركنا خشية التطويل، كثيراً من الأسباب، فلينظر من نظر في قولنا وقوله، وجوابنا لسؤاله بلب حاضر ورأى حياً صادراً، بين له الحق إن شاء الله ويثبت في قلبه الصدق (٢)

طبعت الرسالة ضمن رسائل العدل والتوحيد في ١٧٧ صفحة.

وطبعته معها، رسائل آخر عام ١٤٠٠هـ في بيروت بإشراف سيف الدين الكاتب المجاز من جامعة الأزهر.

وقد خرج مرتين، مرة سنة ٢٨٠ هـ حتى بلغ موضعاً يقال له الشرفه بالقرب من صنعاء وأذعن له الناس بالطاعة، وأقام مدة يسيرة، حتى خذله أهل البلاد، فعاد إلى الحجاز ثم وصلت كتبهم إليه سنة ٢٨٣ هـ فأجاب طلبهم _____.

(١) وهو من أحفاد محمد الحنفية، أعنى: الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن محمد الحنفية، ألف رسالة يؤكد فيها الجبر، طبعت الرسالة في ضمن البدايات الكلامية من جانب المستشرقين.

(٢) الإمام الهادي يحيى بن الحسين: الرد والاحتجاج ضمن رسائل العدل والتوحيد: ١٩.

(٣٩٨)

وقد ذكر المويدي قسماً من أشعاره وقصائده، ومما قال:

نحن الفواطم لهونا طعن القنا * ومدامنا حرب يدور رحاها

ومما كتب إلى بني حرث مع كتاب:

خذوا حذركم مني فأني مسير * إليكم جيوش الله والله غالب (١)

(١) حسام الدين المحلي: الحدائق الوردية: ١٣/٢ - ٢١، عبد الله محمد الحبشي: حكام اليمن المؤلفون المجتهدون ٢١ - ٤٥.

(٣٩٩) ٤ الناصر للحق، الأطروش أبو محمد الحسن بن علي (٢٣٠ - ٣٠٤هـ)

هو أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن، بن علي بن عمر الأشرف بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - .
أحد الأئمة الزيديين، مؤسس دولتها في طبرستان، صاحب التأليف والتصانيف، وقد كان مع محمد بن زيد إلى أن قتل محمد بجرجان فجزه القضاء إلى بلاد الديلم وهم كفار فأسلموا على يديه، وظهروا وذلك سنة ٢٨٧ هـ بعد ظهور الهادي في اليمن بسبع سنين (١) واستنقذهم من الضيم وبقي على هذه الحالة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلى أن استولى على أهلها سنة ٣٠١ هـ.

ذكره حسام الدين المحلي وحكى طرفاً من مناقبه فقال: وحكى أنه - عليه السلام - حضر لغذاء بعض الأشراف فلما سمع البكاء من داره، قال: هذا الميت الذي يبكي عليه مات حتف أنفه على فراشه وبين أهله وعشيرته، وإنما الأسف على أولئك النفوس الطاهرة التي قتلت تحت أديم السماء، وفزق بين الأجساد والرووس، وعلى الذين قتلوا في الجبوس وفي القيود والكبول.
وله تأليف نذكرها:

١ - كتاب «البساط» ٢ - كتاب في التفسير احتج فيه بألف بيت من الشعر _____

(١) التقدير بالسبع باعتبار القيام الأول، لأنه قام أولاً سنة ٢٨٠ هـ ولم يكن ناجحاً، وقام ثانياً عام ٢٨٣ هـ

(٤٠٠)

٣ - كتاب «الحجاج الواضحة»، وفيه دلائل حسنة على إمامة أمير المؤمنين. ٤ - كتاب «الأمالي»، إلى غير ذلك مما يبلغ إلى أربعة عشر كتاباً واسعاً وألف في فقهه كتاب «الحاصر لفقه الناصر» للسيد المويدي بالله، وكتاب «الناظم» للسيد أبي طالب، وكتاب «الموجز» للشيخ أبي القاسم البستي، وكتاب «الإبانة» للشيخ العالم أبي جعفر محمد بن يعقوب الهوسمي، (هذه الكتب الأربعة ألفت في فقه الناصر وجميع أهل الجبل من الزيدية كلهم على مذهبه في الفروع) توفي ليلة الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة ٣٠٤ هـ وله أربع وسبعون سنة. ومن أحسن شعره قصيدة أولها:

أناف على السبعين ذا الحول رابع * ولابد لي إلا إلى الله راجع

وصرت تقومنى العصا * أدب كآني كلما قمت راع (١)

وكانت مدة ظهوره بـ «أمل» ثلاث سنين وأشهرها ودفن فيها ومشهده هناك معروف. وعلى ضوء ذلك فلو كانت إمامته مختصة بهذه

السنين الأخرى فلا- يكون في وقت واحد إمامان. ولكن المعروف أنه دعا إلى نفسه قبل ذلك كما عرفت حيث دخل بلاد ديلم عام ٢٨٧هـ داعياً إلى نفسه.

قال مجد الدين المويدى: وكان يرد بين الصنفين متقلداً مصحفه وسيفه، ويقول: أنا ابن رسول الله وهذا كتاب الله، فمن أجاب إلى هذا وإلا فهذا. قال محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه، ولم ير الناس مثل عدل الأطروش وحسن سيرته وإقامته الحق. وقال ابن حزم: كان الأطروش، فاضلاً حسن المذهب، عدلاً فى أحكامه، ولى طبرستان.....

(١) حسام الدين المحلى: الحقائق الوردية: ٢/ ٢٨ - ٤٠. والتحف شرح الزلف: ٧٠ - ٧٣. (٤٠١)

وقال الإمام أبو طالب: وكان يحث الناس على نصره الهادى يحيى بن الحسين (١) ويقول من يمكنه أن ينصره وقرب منه فنصرته واجبة عليه. ومن تمكن من نصرته وقرب منى فلينصرنى. كان طويل القامة يضرب إلى الأدمه، به طرش من ضربة. أولاده:

أبو الحسن الأديب الشاعر، وأبو القاسم جعفر وأبى الحسين أحمد وقد أشار، مؤلف التحف إلى تعاصر الإمامين: الهادى والناصر فى قطرين بقوله:

وعاصره فى الجيل أفضل قائم * وأبسل من يدعى إذا انحاز هالع (٢) * * *

(١) فى المصدر الحسن وهو مصحف الحسين.

(٢) المويدى: التحف شرح الزلف: ٧٠ - ٧٣. الهالع: الجبان

(٤٠٢) ٥ الإمام المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى (٢٧٨ - ٣١٣هـ)

هو ابن الإمام الهادى بايعه الناس بعد وفاة والده سنة ٢٩٩هـ وأقام بصعدة وفى يده بلاد همدان ونجران وخولان، وسير جنوده لقتال القرامطة، فقتلوا فى كل فج واستقامت له الأمور، وبويع يوم الخميس لإحدى وعشرين ليلة مضت من ذى القعدة من سنة ٢٩٩هـ وكان ورعاً متقلداً من المعاش كثير العبادة مؤثراً للعلم والعمل وقد تخلّى عن الحكم بعد سنتين لأخيه الناصر بعد أن رأى أشياء ساءته من عشيرته وله من العمر ٣٢ سنة.

مؤلفاته:

١- الأصول فى العدل والتوحيد ٢- تفسير القرآن ٧ أجزاء ٣- جواب ابن فضل القرمطى ٤- جواب مسائل ابن مهدى ٤ أجزاء ٥- رسالة الإمام المرتضى إلى أهل طبرستان ٦- الرسائل السبع المنتقاة ٧- الرد على الروافض ٨- الرد على القرامطة أتباع على بن فضل ٩- الشرح والبيان فى تفسير القرآن. وله شعر جيد، وله قصيدة مطلعها:

ياحى همدان ان الله فضلكم * بنصر آل رسول الله فى الكتب (١) ولما تنازل ورثه فى الحكم أخوه الآتى:

* * *

(١) حسام الدين المحلى: الحقائق الوردية: ٢ | ٤١ - ٤٦، الحبشى: حكام اليمن: ٤٦.

(٤٠٣) ٦ الناصر لدين الله أحمد بن يحيى ابن الحسين

ولد الإمام الهادى (... - ٣٢٠هـ) ذكر حسام الدين المحلى طرفاً من مناقبه وشعره وظهوره وأجمل الكلام فى سبب تنازل أخيه الإمام المرتضى عن الحكم لصالحه، وقد كانت بيعته سنة ٣٠١هـ يقول: وبويع له بالخلافة يوم الجمعة فى مسجد الهادى إلى الحق (والده)

واجتمع إليه خلق كثير من الناس، ثم أقبلت نجران وأهل همدان فبايعوه على الطاعة، فأرسل قواده واعماله إلى جميع مخالفيه وساس الأمور أحسن سياسة، وكانت أكثر حروبه مع الباطنية، إلى أن وافته المنية سنة ٣٢٠هـ وكانت مدة ظهوره نحو عشرين سنة ودفن بصعده إلى جنب أخيه وأبيه ومشاهدهم معروفة مزورة (١).

(١) حسام الدين المحلي: الحدائق الوردية: ٢/٤٦ - ٥٣، وحكام اليمن للحبشي: ٥٤ وفيه أنه توفي عام ٣٢٥ هـ.

(٢) الإمام السيد المؤيد أبو الحسين أحمد بن الحسين بن هارون (٣٣٣ - ٤١١ هـ)

من أئمة الزيدية في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس، ترجمه حسام الدين المحلي في الحدائق الوردية وقال: نسب تعنو له الأنوار، وتغض من شعاعها الشمس والأقمار، ينتهي إلى جوهر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - جواهره، ونمت إلى عنصره الكريم عناصره، وهذا هو الفضل الرائق، والحسب الفائق.

كان وحيد عصره وفريد دهره، والحافظ لعلوم العترة - عليهم السلام - والناصر لفقهِ الذرية الكرام فأخذ عنه مذهب الزيدية، وقرى عليه الكلام على طريقة البغدادية وكان في الأصل إمامياً فوضح له الحق فانقاد له أحسن انقياد واختلف أيضاً إلى أبي الحسين علي بن إسماعيل بن إدريس. وقرأ عليه فقه الزيدية والحنفية وروى عنه الحديث عن الناصر للحق - عليه السلام -.

وكان أبو الحسين هذا من أجله أهل طبرستان رئاسة وسترأً وفضلاً وعلماً، قال مصنف سيرته: وكان - عليه السلام - في الورع والتقشف والاحتياط والتفرد إلى حد يقصر العبارة عنه، والفهم عن الإحاطة وتصوّف في عنفوان شبابه حتى بلغ في علومهم مبلغاً منيعاً وحلّ التصوف والزهد محلاً رفيعاً وصنف سياسة المريدين.

وكان يحمل السمك من السوق إلى داره، وكانت الشيعة يتشبثون ويتبركون بحمله فلا يمكن أحداً من حمله، ويقول: أنا أحمله قسراً للهوى وتركاً للتكبر لا لاعواز من يحمله.

(٤٠٥)

وكان قدس الله روحه يجالس الفقراء وأهل المسكنة ويكابر أهل السير والعفة ويميل إليهم، وكان يرد الهدايا والوصايا إلى بيت المال وكان يكثر ذكر الصالحين وإذا خلى بنفسه يتلو القرآن بصوت حزين إلى آخر ما ذكره (١)

وقال الزركلي: أحمد بن الحسين بن هارون الأقطع، من أبناء زيد بن الحسن العلوي الطالب القرشى، أبو الحسين: إمام زيدى، من أهل طبرستان. مولده بها في آمل، ودعوته الأولى سنة ٣٨٠ بويج له بالديلم ولقب بالسيد «المؤيد بالله» ومدته ملكه عشرون سنة. وكان غزير العلم، له مصنفات في الفقه والكلام، منها «الأمالي» و«التجريد» في علم الأثر، و«شرح» في أربعة مجلدات (٢) أقول: له ترجمة ضافية في مقدمة الجزء الأول من كتابه «شرح التجريد في فقه الزيدية».

وما ذكره حسام الدين المحلي من أنه كان إمامياً، ثم صار زيدياً، حق، وقد نبه بذلك الشيخ الطوسي في أوائل كتاب التهذيب ناقلاً عن الشيخ المفيد أنه قال: إن أبا الحسين الهاروني العلوي كان يعتقد الحق ويدين بالإمامة فرجع عنها لما التبس عليه الأمر في اختلاف الأحاديث وترك المذهب، ودان بغيره لما لم يتبين له وجوه المعاني فيها. وهذا يدل على أنه دخل فيه على غير بصيرة واعتقد المذهب من جهة التقليد، لأن الاختلاف في الفروع لا يوجب ترك ما ثبت بالأدلة من الأصول (٣).

أقول: قد ذكرنا علل اختلاف الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت وذكرنا أسبابها المختلفة، مقرونا بالشواهد في محاضراتنا في الأصول (٤) وكان الشيخ أبا

(١) حسام الدين المحلي: الحدائق الوردية: ٢/٤٥ - ٤٦.

(٢) الزركلي، الأعلام: ١/١١٦.

(٣) الطوسي: التهذيب: ١/٢-٣.

(٤) المحصول: ٤/٢٩٩-٤٣٧.

(٤٠٦)

الحسين لم يكن واقفاً عليها عن كذب، وإلا لما ترك المذهب، وقد وصل إلينا من كتبه، كتابه «شرح التجريد في فقه الزيدية» في ثلاثة أجزاء كبار - على القطع الرحلى، نشرته مكتب عنبر بدمشق عام ١٤٠٥ والكتاب شرح لفتاوى الإمامين: القاسم بن إبراهيم الرسى، والهادى يحيى بن الحسين بوجه مبسط، وقد تجلّى فيه تبحره في الفقه الزيدى بعيداً عن الفقه الحنفى كما هو ظاهر لمن طالع الكتاب بالإمعان والدقة ولأبى الحسين الهارونى، شعر رائق منه ما يمدح به الصاحب بن عباد نقتبس منه ما يلى:

سقى عهدها، صوب من المزن الهاطل * يحيى بها تلك الربا والمنازل

منازل نجم الوصل فيهن طالع * يضىء ونجم الهجر فيهن آفل

إلى أن يقول:

ألا أيها ذا الصاحب الماجد الذى * أنا مله العليا غيوث هواطل

أنامل لو كنت تشير إلى الصفا * تفجر للعافين منها جداول

إليك عميد المجد سارت ركابهم * وليس لهم إلا علاك وسایل

وأسعدتهم والنحس لولاك نجم * وأعدرتهم والذل لولاك شامل

فكل زمان لم تزينه عاطل * وكل مديح غير مدحك باطل (١)

(١) شرح التجريد: قسم المقدمة: بقلم يوسف بن السيد محمد المؤيد الحسن: ٧١ - ٧٢.

(٤٠٧) ٨ الحاكم الجشمى (٤١٣ - ٤٩٤هـ)

المحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى، المعروف بـ «الحاكم الجشمى»، أحد المفسرين العظام المتبحرين في علم الكلام، شيخ الزمخشري. قرأ بنيسابور وغيرها. واشتهر بصنعاء «اليمين» وتوفى مقتولاً بمكة. له تأليف يبلغ إلى اثنين وأربعين، وإليك بعضها:

١ - «التهذيب» في تفسير القرآن، في ثمانية أجزاء، ويوجد منها الجزء ٤، ٦، ٨ في مكتبة الفاتيكان تاريخ كتابتها سنة ٥٦٥هـ

٢ - شرح عيون المسائل في علم الكلام.

٣ - التأثير والمؤثر في الكلام.

٤ - المنتخب في فقه الزيدية .

٥ - السفينة في التاريخ إلى زمانه في أربعة أجزاء.

٦ - تحكيم العقول في الأصول.

٧ - الإمامة على مذهب الزيدية.

٨ - الرسالة التامة في نصيحة العامة.

٩ - جلاء الأبصار في علم الحديث.

١٠ - «تفسيران» بالفارسية، مبسوط وموجز (١)

إنّ الكعبى المعتزلى ألف كتاباً باسم «ذكر المعتزلة» وأكمله عبد الجبار القاضى المعتزلى بكتاب أسماه «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» وقد استدركه الحاكم الجشمى بطبقتين من طبقات المعتزلة: الحادية عشرة، والثانية عشرة، وقد طبعه فؤاد السيد، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية عام ١٤٠٦هـ

(٢)

(١) الزركلي، الأعلام: ٥/٢٨٩.

(٢) لاحظ: بحوث في الملل والنحل: ٣/٤٠٨ - ٤٠٩.

(٤٠٨) أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميري (... - ٥٧٣هـ) كان أوحده أهل عصره، وأعلم أهل زمانه في اللغة والنحو والإنسان والتاريخ وسائر ما يتصل بفنون الأدب، شاعراً، كاتباً خطيباً مفوهاً. وكانت له في الفرائض اليد الطولى.

قال السيوطي: الفقيه العلامة المعتزلي النحوي اللغوي، كذا ذكره الخزرجي، وقال: كان أوحده أهل عصره، وأعلم أهل دهره، فقيهاً نبياً، عالماً متفتناً، عارفاً بالنحو واللغة والأصول والفروع والأنساب والتواريخ وسائر فنون الأدب، شاعراً فصيحاً بليغاً مفوهاً. صنف: شمس العلوم في اللغة، ثمانية أجزاء.

قال في البلغة: سلك فيها مسلكاً غريباً، يذكر الكلمة من اللغة، فإن كان لها نفع من جهة الطلب ذكره، فاختصره ولده في جزأين وسماه «ضياء الحلوم».

وقال ياقوت: استولى نشوان على تلاح وحصون وقدمه أهل جبل صبر، حتى صار ملكاً.

وقال غيره: مات بعد عصر يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وخمسائة

(١)

وكان نشوان ذا نفس وثأبه، طموحة إلى المعالي، لا ترضى إلا بالوصول إلى قمة المجد والجمع بين شرف العلم وشرف الملك.

(١) بغية الوعاة: ٢/٣١٢ برقم ٢٠٥٧.

(٤٠٩) مؤلفاته:

١ - شمس العلوم ودواء كلام العرب من العلوم، وهو من كتب الأدب الهامة ألفه في ثمانية أجزاء ورتبه على حروف المعجم، وهو أشبه بدائرة المعارف الرائجة في عصرنا، وقد اختصر هذا الكتاب ابنه في جزأين وسماه «ضياء الحلوم» كما مرّ وقد نشرت منتخبات منه في أخبار اليمن بعناية عظيم الدين أحمد مطبوعة في مطبعة بريد في مدينة ليدن في سنة ١٩١٦م.

٢ - القصيدة الحميرية أو النشوانية، وهي خلاصة السيرة لملوك حمير، والإذواء والإقبال، مطلعها.

الأمير جد وهو غير مزاح * فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

٣ - كتاب القوافي

٤ - التبيان في تفسير القرآن

٥ - أحكام صنعاء وزبيد

٦ - أرجوزة في الشهور الرومية

٧ - رسالة على التصريف

آخرها رسالة «الحوار العين وتبيينه السامعين». وقد طبعت عام ١٣٦٧هـ بتحقيق كمال مصطفى وذكر ترجمة المؤلف في أوله شكر الله مساعيه. وقدم له المحقق محمد زاهد الكوثري. ومن قرأ الكتاب يقف على أنه كان زدياً، ومع ذلك ربما لا يصرح بمذهبه.

ومن ذلك ما يذكره في باب الإمامة عدّة نظريات، منها: نظرية إبراهيم بن سيار النظام، وهي إمامة أكرم الخلق وخيرهم عند الله، فمن كان أتقى الناس لله،

(٤١٠) وأكرمهم عند الله، وأعلمهم بالله، وأعملهم بطاعته، كان أولاهم بالإمامة، والقيام في خلقه، كائناً من كان منهم، عربياً كان أو أعجمياً، ثم يقول: قال مصنف الكتاب: وهذا المذهب الذي ذهب إليه النظام هو أقرب الوجوه إلى العدل وأبعدها عن المحاباة (١).

ومن المعلوم أن الضابط الذي أعطاه النظام وقبله المؤلف لا ينطبق إلا على علي - عليه السلام، - مع ذلك لم يصرح المؤلف بالاسم.

وقد خص فصلاً لفضل زيد

(٢) وذكر خروجه: ويظهر منه أن باليمن في عصره كان فرقتين فقط:

الجارودية من الزيدية، والمباركية من الإسماعيلية

(٣)

وفي الكتاب بحوث واسعة حول الفرق الإسلامية، ولأجل ذلك صار الكتاب ممتعاً.

وقد ترجمه الزركلي

(٤) ولم يزد شيئاً عما جاء في مقدمة ذلك الكتاب _____.

(١) الحور العين: ٢٥٢.

(٢) الحور العين: ١٨٨.

(٣) نفس المصدر: ١٥٦.

(٤) الأعلام: ٢٠/٨ (٤١١). الإمام المنصور بالله: عبد الله بن حمزة بن سليمان (٥٦١ - ٦١٤هـ)

عبد الله بن حمزة بن سليمان المنتهى نسبه إلى إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الحسن بن المثنى، كان آية في الحفظ، قرأ الأصولين على حسام الدين أبي محمد الحسن بن محمد الرصاص. وألف كتباً كثيراً وله شعراً رائعاً نقلها حسام الدين المحلي في الحدائق الوردية وترجم له، ترجمه ضافية استغرق خمسين صفحة ذكر أنه دعا لنفسه عام ٥٩٣هـ وببيع عام ٥٩٤هـ وتوفي عام ٦١٤هـ بأرض حولان، قال عبد الله الحبشي: تسلم الإمامة بتكليف من أهل عصره. وكان يأمل في دعوة الأمير عماد الدين بن يحيى فاعتذر عنها وتحملها الإمام عبد الله، على مشقة. وفي بداية دعوته جاءت رسائل من أهل حصن «ميتك» يطلبونه لتخليصهم من نفوذ بني حاتم. وكانوا قد استولوا على ناحيتهم فاعتذر فلم يقبلوا عذره وما زالوا به حتى أقبل عليهم وخلصهم من بني حاتم. ويقول المؤرخون: إنه قبل أن يدخل حصن «ميتك» أرسل إلى أهله يقول: «قد ملكت هذا الحصن ولكم فيه حق العمارة ولست أقدم إلا برضاكم، فإن تأذنوا لي وإلا خرجت عنه» فقالوا بأجمعهم: رضينا بك، فأقام بين ظهرانيهم سنتين وثلاثة أشهر.

وأكثر أخباره معارك مع سلاطين بني حاتم، وكان قد أتى من مصر إلى اليمن سيف الإسلام «طغتكين» سنة ٥٧٩هـ ف وقعت بينه وبين الإمام بعض المعارك كتلك الواقعة التي قتل فيها أخوه الإمام محمد بن حمزة.

وما زالت الحروب بينهم حتى مات «طغتكين» سنة ٥٩٣هـ وتم الصلح

(٤١٢)

بينه وبين السلطان على بن حاتم بعد أن جدد لنفسه الدعوة.

وله كتب في شتى المواضيع من الفقه وأصوله والكلام والحديث والأدب:

- ١- صفوة الأختيار في أصول الفقه ٢- حديقه الحكم النبويه شرح الأربعين السلفية ٣- الشافي في أصول الدين أربعة أجزاء ٤- الرسالة الهادية بالأدلة البادية في السبى ٥- الأجوبة الكافية بالأدلة الوافية ٦- الدرّة اليمينية في أحكام السبى والغنيمة ٧- الاختيار المنصورية في المسائل الفقهيّة ٨- الإيضاح لعجمه الإفصاح أكثره يتعلق بالسير ٩- كتاب الفتاوى مرتب على كتب الفقه ١٠- الرسالة القاهرة بالأدلة الباهرة في الفقه ١١- الرسالة الحاكمة بالأدلة العالمه ١٢- الرسالة الناصحة المشيرة بترك الاعتراض على السيرة ١٣- العقيدة النبويه في الأصول الدينيه ١٤- الرسالة الفارقة بين الزيدية والمارقة ١٥- الرسالة النافعة بالأدلة القاطعة ١٦- الرسالة الكافية إلى أهل العقول الوافية ١٧- الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة ١٨- الجوهرة الشفافة الرادعة للرسالة الطوافه ١٩- الأجوبة الرافعة للإشكال ٢٠- الزبدة في أصول الدين ٢١- العقد الثمين في الإمامة ٢٢- القاطعة للأوارد في الجهاد ٢٣- كتاب تحفة الإخوان ٢٤- الرسالة التهامية ٢٥- ديوانه.

ومن شعره الرائع قوله في حق الوصي:

بنى عمنا! إنَّ يوم «الغدیر» * يشهد للفارس المعلم
أینا علی وصی الرسول * ومن خصه باللوا الأعظم
لكم حرمة بانتساب إليه * وها نحن من لحمه والدم
لأن كان یجمعنا هاشم * فأین السنام من المنسم؟
وإن كنتم كنجوم السماء * فنحن الأهل للأنجم
ونحن بنو بنته دونكم * ونحن بنو عمه المسلم
حماء أبونا أبو طالب * وأسلم والناس لم تسلّم
(٤١٣)

وقد كان یکنتم إیمانه * فأما الولاء فلا یکنتم
وأی الفضائل لم نحوها * ببذل النوال وضرب الکنمی؟
قفونا محمد فی فعله * وأنتم قفوتم أبا مجرم (١)
هدی الملك هدی العروس * فكافتتموه بسفك الدم
ورثنا الكتاب وأحكامه * علی مفصح الناس والأعجم
فإن تفرعوا نحو بارتکم * فرعنا إلى آیه المحکم
أشرب الخمر وفعل الفجور * من شیم نفر الأكرم؟
قتلتهم هداة الوری الطاهرین * كفعل یزید الشقی العمی
فخرتم بملككم لکم زائل * یقصر عن ملكنا الأدم
ولابد للملك من رجعه * إلى مسلك المنهج الأقوم

إلى نفر الشم أهل الكسا * ومن طلب الحق لم یظلم (٢) وقد ترجمه الزركلی فی الأعلام وذكر صورة تألیفه مشيراً إلى المخطوط منه
والمطبوع وذكر «العقد الثمین» ورمز بعلامه «خ» مشيراً إلى أنه مخطوط (٣) مع أنه طبع فی الثمانینات بعد قیام الجمهوریة وهو رد علی
الإمامیة، ولأجل إیقاف القاری علی نماذج من نقده علی الإمامیة نأتی بنظره فی النص علی إمامه علی، وهو ممن یقول بأن النص كان
خفياً لا جلياً، قال:

الخلاف بین الشیعة فی علی بن أبی طالب أمير المومنین فی وجوه:

أحدها: فی کیفیة النص علی _ علیه السلام _ بعد اتفاقهم علی ثبوت إمامته بالنص _____.

(١) یعنی أبا مسلم الخراسانی، عبد الرحمن القائم بالدعوة العباسیة سنة ١٢٩هـ.

(٢) مصادر الترجمة: الحدائق الوردیة: ٢/١٣٢ - ١٨٢. الغدیر: ٥/٣٩٦ - ٤٠٠، حکام الیمن: ٨٢.

(٣) الزركلی: الأعلام: ٤/٨٣ | لاحظ: التحف شرح الزلف: ١٠٣ - ١٠٥.

(٤١٤)

ثانیها: فی حاله بعد ظهور قتله وإخبار الرسول _ صلی الله علیه وآله وسلم _ بذلك وإخبار علی _ علیه السلام _ بذلك من بعده
وكون ذلك معلوماً بالضرورة.

وثالثها: فی حکم المتقدمین علیه، المخالفین له:

ونحن نترك كلامه فی الأمرین الآخرین ونقتصر بكلامه فی الأمر الأول، وقد اختار أن النص علی إمامته لم یكن جلياً بل كان خفياً
ولكن الإمامیة تقول بكونه جلياً قال: وأما الإمامیة فقد ادعوا أن النص جلی بحيث نعلم أن الجميع اضطروا إلى العلم بالمراد، وان الكل

علموا أن قصد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كون على إمام الأمة بعده بلا فصل.....

ثم أشكل عليه بقوله: إنه لو كان المراد من النص معلوماً بالضرورة لاستغنوا عن الكشف والبيان كما هو الحال في الأمور الضرورية، مثلاً إننا لا نصب لأهل الإسلام الدليل على أن الصلوات خمس، وأن الزكاة مفروضة في الأموال، وأن الحج إلى بيت الله، وأن نبي هذه الأمة محمد رسول الله، لما كانت هذه معلومة ضرورية، لم تفتقر إلى بيان ولا كشف. ولما رأى علماءهم المبرزين كالشريف المرتضى الموسوي ومن تقدمه وتأخر عنه من أهل الكلام، بالغوا في تبیین معنى الآية والخبر بل الأخبار علمنا أنهم من اعتقاد الضرورة، على شفا جرف هار، لأن من تحمل المشقة في إظهار الظاهر كان عابثاً وكيف يكشف المكشوف أو مجتهد في صفة المشاهد المعروف.

ولأننا قد اتفقنا نحن وإياهم ونحن الجهم الغفير والعدد المتعذر الانحصار الكثير، فكيف لم يحصل العلم لكلنا أو بعضنا. ونحن وإياهم قد اتفقنا على أن الإمام بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بلا فصل على بن أبي طالب وأن من تقدم عليه فقد أخطأ وعصى، فلو كان ما ذكروا من النص يوصل إلى الضرورة لوصلنا لاتفاقنا نحن وإياهم على العلم بالدليل وكيفيه ترتيب الاستدلال فلو حصل العلم لهم، لحصل

(٤١٥)

لنا ضرورة (١).

يلاحظ عليه: أولاً: أن الإمامة - حسب عقيدة الشيعة - من الأصول التي يعتبر فيها العلم، ولا يكفي فيها الظن والحدس ولا خبر الآحاد، والمراد من العلم، هو العلم بما صدر عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - فإذا كان المطلوب فيها العلم، ثم الاعتقاد وعقد القلب فهو يطلب لنفسه أن يكون النص الوارد في ذلك المجال جلياً مورثاً للعلم واليقين، ذاتياً للشك والريب عن أذهان المكلفين حاضرهم وغائبهم، وكل من وصل إليه خطابه إلى يوم القيامة، وإلا فلا ينتج إلا الظن والشك غير المفيد في ذلك الباب.

وبعبارة أخرى: إذا كان الإعلام بإمامة علي واجباً على النبي من الله سبحانه، إذاً لا يخلو الأمر من حالتين: إما أن يكون مع تمكنه من النص الجلي، أو لا - معه، والثاني لا - تصدقه حياة النبي خصوصاً القسم الأخير منها، عندما استقر الاسلام ملقياً جراحه ومتبوتاً أوطانه (٢) فكان النبي، مطاعاً ومهاباً، منذ وعى الوحي الإلهي بملا قلبه "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا أَبَدًا وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا" (الأحزاب - ٣٩) وعلى ضوء ذلك فكان في وسع النبي، التنصيص الواضح بولاية الإمام في أنه سبحانه جعله إماماً للناس بعد رحيله. إذاً العدول عنه إلى النص الخفي، تعريض للأمة، للتفرقة والنزاع، وزرع لبذر الخلاف والنقاش ومع أنه سبحانه يقول: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" (آل عمران - ١٠٣).

ثانياً: أن القضايا البديهية في المنطق تنقسم إلى أقسام، بعضها غنية عن

(١) الإمام المنصور بالله حمزة بن عبد الله بن سليمان: العقد الثمين: ٧ - ٨.

(٢) اقتباس من كلام الإمام علي نهج البلاغة: الخطبة ٥٦.

(٤١٦)

الكشف والبيان والبرهنة والاستدلال دون البعض الآخر والمجموع عبارة عن:

١ - الأوليات ٢ - المشاهدات ٣ - المتواترات ٤ - التجريبات ٥ - الحدسيات ٦ - الفطريات.

ولكل تعريف واحد، والثلاثة الأول وإن كانت غنية عن البرهنة والاستدلال، لكن الثلاثة الأخيرة، بحاجة إليها. مع كونها من أصول اليقينية والبديهيات لدى المنطقيين.

مثلاً كون نور القمر مستفاداً من الشمس من الحدسيات، لكن الإذعان بالحكم المذكور غير غني عن البيان، ولأجل ذلك يستدل عليه بتشكيل القمر عند اعتراض الأرض بينه وبين الشمس، ومثلها التجريبات التي لا تفارق عن بذل الجهد، في طريق المطلوب أريماً

وشهوراً. وأما الفطريات فمصطلح المنطقيين فيها غير مصطلح القرآن، فهي عندهم عبارة عما لا يصدق العقل بمجرد تصور طرفيها - كالأوثيات - بل لا بد من وسيط إلا أن هذا الوسيط ليس مما يذهب عن الذهن حتى يحتاج إلى الفكر. وعلى ذلك فليس كل قضية ضرورية، غنية عن الكشف والبيان.

إن الإمام ابن حمزة جعل القضايا الضرورية مساوية للأوثيات التي يصدقها العقل لذاتها وبدون سبب خارج عن ذاتها مثل قولنا، الكل أعظم من الجزء وغفل عن أن المراد من النص الجلي هو المفيد للعلم بالضرورة وإن كانت الإفادة متوقفة على أمور بسيطة، لو التفت إليها، لحصل العلم، فبذل الجهد في الاستدلال بحديث الغدير، سنداً ومضموناً لا ينافي كونها من القضايا اليقينية المفيدة لليقين ولو بعد التأمل في أمور حوله.

وثالثاً: أن النبي الأكرم ألقى حديث الغدير الذي هو من أوضح الأدلة على إمامة علي - عليه السلام - في منصرفه عن حجة الوداع في أرض تسمى بـ«غدير» (٤١٧)

خم، ألقاه في محتشد عظيم ضم إلى نفسه أزيد من ثمانين ألف صحابي من أقطار مختلفة. وقد وقف من شهد الواقعة على مقاصد النبي وآربه، من غير شك ولا تردد فيها، ولكن ابتعاد الأجيال اللاحقة، عن عصر الرسول، صار سبباً، لاختفاء كثير من القرائن اللفظية والحالية التي كان لها دور في تبيين المقصود فمست الحاجة بجمعها وترصيفها على وجه، تحكى لنا الواقعة على ما هي عليها، بلا زيادة ولا نقيصة حتى يصير الغائب كالحاضر في فهم المراد، وينتقلا بالضرورة إلى معنى واحد.

وبعبارة أخرى: الغرض من البيان والكشف إحضار الواقعة بمالها من الخصوصيات المسموعة والمرئية في عقليته الغائب حتى يكون هو والحاضر في رحاب الخطاب سيان، وهذا طبيعة كل قضية حصل الفصل الزمني بينها والجيل اللاحق، فليس للقائل بصحة الواقعة إلا مسير واحد، وهو إخراج الواقعة عن ملف التاريخ وتصويرها على وجه كأن الجيل اللاحق، يرى نفس ما رآه السابق حتى يكون الجيلان أمام التاريخ سواسية، ومثل ذلك لا يخرج الواقعة عن كونها جلية. * * * (٤١٨) ١١ المويد بالله يحيى بن حمزة بن علي (٦٦٩ - ٧٤٩هـ)

هو الإمام المويد بالله، أبو إدريس يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن يوسف بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن إدريس بن جعفر بن علي التقى ابن محمد الجواد بن الإمام علي الرضا.

وهو المعروف بعلمه الجرم، وأطلاعه الواسع، وتوغله في علم الكلام وبروزه في أسرار البلاغة والفصاحة، يعرّفه المويدى بقوله: هذا الإمام من منن الله على أرض اليمن، وأنواره المضيئة في جبين الزمن، نفع الله بعلمه الأئمة وأفاض من بركاته على هذه الأمة، قام بالحكم بعد وفاة الإمام محمد بن المطهر سنة ٧٢٩هـ وتوفي ٧٤٩هـ عن عمر يناهز ٨٢ سنة. وأما مؤلفاته فهي كثيرة جداً وقد وصل إلينا منها الكتاب الآتي:

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، فرغ منه مؤلفه سنة ٧٢٨هـ طبع بالقاهرة عام ١٣٣٢هـ بمطبعة المقتطف في ثلاثة أجزاء وهذا الكتاب من حسنات الدهر، وقد أفادنا كثيراً عند البحث عن إعجاز القرآن في محاضراتنا في الإلهيات. ومن تأليفاته المهمة أيضاً:

الشامل لحقائق الأدلة العقلية وأصول المسائل الدينوية، ومنه نسخة في المكتبة العربية في اليمن برقم ٨٨ وهذا هو الكتاب الذي استخرجه الدكتور أحمد

(٤١٩)

محمود صبحي آراء المؤلف الكلامية منه وضم إليه آراء مختلف المتكلمين الذين أدلوا بأرائهم حول مختلف الموضوعات.

غير أن الذي أبرزه بين العلماء هو كتابان:

الأول: كتاب الطراز على ما عرفت.

الثاني: كتاب الانتصار في الفقه، وهو ينبوع الذي نهل منه ابن المرتضى (وستوافيك ترجمته) وهو المادة الأولى لكتاب البحر الزخار. ويذكر أنه في ١٨ مجلداً، وقد ذكر غير واحد من المترجمين له كتاب:

الديباج الوضى في الكشف عن أسرار كلام الوصى، وهو شرح لكتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضى (١)

(١) المويدي: التحف شرح الزلف: ١٢٠ - ١٢٣، وانظر حكاه اليمين: ١٣٣ - ١٤٨، ولاحظ الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراءه الكلامية تأليف الدكتور أحمد محمود صبحي، نشره عام ١٤١٠هـ.

(٢٢٠) ١٢ أحمد بن يحيى بن المرتضى المهدي لدين لله (٧٦٤ - ٨٤٠ هـ) مؤلف البحر الزخار ابن المرتضى أحد الأئمة الزيديين اللامعين، لا يشق غباره، فهو بحر لا يبارى في الفقه والأصول ولنذكر شيئاً من حياته: قال مجد الدين المويدي:

الإمام المهدي لدين الله، أحد من ارتضع من العلوم لبابها، واكترع من لجاج البحار عباها، هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن المرتضى بن أحمد بن المرتضى بن المفضل بن منصور بن المفضل الكبير بن عبد الله الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم بن يوسف بن الإمام يحيى بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الحسين بن القاسم الرسي.

تلقي العلوم الأدبية واللغوية والدينية من أسرته وبلغ إلى حد بايعه العلماء بالإمامة بعد وفاة الإمام الناصر صلاح الدين بن محمد عام ٧٩٣ هـ بينما بايع الوزراء ابن الإمام الناصر يعني علي بن صلاح. فصارت الغلبة نصيب الثاني فسجن ابن المرتضى، ولقد كان التوفيق حليفه في السجن فتنفرغ للتأليف واثراً لها مكانة كبرى في الأوساط العلمية لا سيما الزيدية إلى أن وافته المنية عام ٨٤٠ هـ. وينقل المويدي أن الهادي بن إبراهيم يستعطف علي بن صلاح الذي سجن (٢٢١)

ابن المرتضى ويطلب منه إطلاق سراحه بالآيات الشعرية التالية:

فقلت له فداك أبي وأمي * تلتف بالقراة والرحامة

فإن السيد المهدي منكم * بمنزلة تحق له الفخامة

ألم يكن جدك المهدي خالاً * له وكفى بذاك في الرحامة

أخاف إذا استمر القيد فيه * تجيء مقيداً يوم القيامة

فيسألك الإله بأى ذنب * تقيده وتحبسه ظلاماً (١) أعتقل ابن المرتضى في سجن صنعاء سبع سنوات ثم أفرج عنه فتوجه إلى «ثلاء» سنة ٨٠١ هـ إلى صعده سنة ٨٠٢ هـ وفي سنة ٨١٦ هـ رحل إلى بلاد حجة وتزوج هناك وعكف إلى التأليف وترك الترقب بالمهدي وأراح قلبه من مشاكل السياسة، وقد ترجمه غير واحد من الأعلام منهم: الشوكاني، قال:

(ولد) بمدينه ذمار يوم الاثنين لعله سابع شهر رجب سنة ٧٧٥ هـ خمس وسبعين وسبعمائه (٢) قرأ في علم العربية فلبث في قراءة النحو والتصريف والمعاني والبيان قدر سبع سنين. وبرع في هذه العلوم الثلاثة وفاق غيره من أبناء زمانه ثم أخذ في علم الكلام على صنوه الهادي، وعلى القاضي يحيى بن محمد المدحجي فسمع على الآخر الخلاصة وحفظ الغياضة ثم شرح الأصول للسيد مانكديم، ثم أخذ في علم اللطيف فقرأ تذكرة ابن متويه على القاضي المذكور مرة. ثم على القاضي علي بن عبد الله بن أبي الخير مرة أخرى ثم قرأ عليه المحيط والمعتمد لأبي الحسين البصري ومنتهى السؤل. وسمع على الفقيه علي بن صالح السيرة النبوية ونظام الغريب، ومقامات الحريري. وعلى المقرئ المعروف بابن _____

(١) التحف شرح الزلف: ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) ويروى أنه ولد ٧٧٤ هـ كما عليه المقدم للكتاب البحر الزخار.

(٤٢٢)

النساج الكشاف، وعلى أخيه الهادي المتقدم علم الفقه وقرأ غير ذلك وتبحر في العلوم واشتهر فضله وبعد صيته وصنف التصانيف. ففي أصول الدين: «نكت الفرائد في معرفة الملك الواحد» و«القلائد وشرحها الدرر الفرائد» و«الملل وشرحها الأمانة والأمل» و«رياضة الأفهام في لطيف الكلام» وشرحها «دامغ الأوهام» وفي أصول الفقه: «كتاب الفصول في معاني جوهره الأصول» و«معيار العقول وشرحه منهاج الوصول» وفي علم النحو: «الكوكب الزاهر شرح مقدمه طاهر» و«الشافيه شرح الكافية» و«المكمل بفرائد معاني المفصل» و«تاج علوم الأدب في قانون كلام العرب» و«أكليل التاج وجوهرة الوهاج» وفي الفقه: «الآزهار» وشرحه «الغيث المدرار» في أربعة مجلدات «والبحر الزخار» في مجلدين.

وفي الحديث: كتاب «الأنوار في الآثار الناصه على مسائل الأزهار» في مجلد لطيف وكتاب «القمر النوار في الرد على المرخصين في الملاهي والمزمار».

وفي علم الطريقة: «تكملة الأحكام» وفي الفرائض: «كتاب الفاض».

وفي المنطق: «القسطاس» وفي التاريخ: «الجواهر» و«الدرر» وشرحها يواقيت السير. وقد انتفع الناس بمصنفاته لاسيما الفقهية فإن عمدة

زيدية اليمن في جميع جهاته على الأزهار وشرحه والبحر الزخار (١)

وقد بسط الكلام في سيره وآثاره على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين.

قال: فلاحظ من سيرة المهدي _ عليه السلام _ أنه بعد أن خرج من سجن صنعاء جند نفسه للجهاد والجلاد، ولكن جهاده وجلاده في

هذه الفترة لم يكن مع المنصور على بن صلاح ولا مع غيره وإنما كان مع الجهل والبدع والضلالات _____،

(١) الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع: ١٢٢/١.

(٤٢٣)

جاهد هذا الثالوث الرهيب بلسانه، وبيانه، وسلوكه، وخرج بنفسه من أجل ذلك إلى القرية وتجول في السهول حيثما تسكن القبائل وتأوى إليها النسور القشاعم من أحفاد الأنصار وأشبال أحفاد الأنصار، وفيها حمل راية الجهاد ونادى بوجوب الاجتهاد وبحرية وقدسية الفكر والرأى للانتقاد الحر والاستنباط الحر من مصادر الإسلام الأولى كتاب الله وسنة رسوله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ والاستفادة من الثروات الفكرية التي خلفها الأئمة الهادون، والعلماء المجتهدون في كل أصقاع الأرض، ومن أجل ذلك ألف المؤلفات الشاملة وحرر الرسائل الصاعدة وبدد الشبهات بالحجج النيرات، ولذا ظهرت بعض مؤلفاته في هذه الفترة على النحو التالي: في «ثلاث» وبعد خروجه من السجن ألف كتاب (البحر الزخار) الجامع لمذاهب علماء الأمصار وفيه تظهر آراؤه وأنظاره الخاصة في كل المسائل التي اشتمل عليها الكتاب.

وفي سنة ٨١٦ هـ سافر من «ثلاث» إلى بلاد مسور وفيه مكث ما شاء الله وبدأ في كتابة «غايات الأفكار» وهو شرح لما تضمنه كتاب «البحر الزخار» من العلوم.

وبعد أن سافر إلى الأهنوم وأصلح أحوال أهله رجع إلى «الحيمة» لنفس الغرض، ومنها استدعاه أهل حراز لإصلاح شأنهم ومكث في «حراز» ما شاء الله وفيه ألف «الدامغ» و«منهاج الوصول لمعيار العقول» وكتاب «علوم الأدب» و«القسطاس في المنطق» و«القاموس الفاضل في الفرائض» ثم رجع إلى «مسور» لزيارة أولاده وفي هذه الفترة ألف «القمر النوار».

ثم نزل «الدقائق» من بلاد «لاعة» وفيها ألف «حياة القلوب».

وفي سنة ٨٣٦ هـ توفي الإمام الهادي على بن المؤيد وأوصى بتسليم ما كان بيده من الحصون إلى الإمام المهدي صاحب الترجمة فأمر

ابنه الحسن بن المويد بتعهدا وافتقادها، أما الإمام نفسه فقد رحل إلى ظفير حجة، حيث اتخذها وطناً له (٤٢٤)

وذلك في سنة ٨٣٨ هـ وفي سنة ٨٤٠ هـ توفاه الله شهيداً بالطاعون وقبره بالظفير مشهور رحمه الله وجزاه خيراً وألحقنا به صالحين (١) آثاره المعروفة:

ثم إن الذي شهّر الإمام ابن المرتضى هو آثاره القيمة نذكر منها ما يلي:

١- البحر الزخار الجامع لمذاهب أهل الأمصار:

وقد طبع مرة واحدة عام ١٣٦٨ مبتوراً مشتملاً على أربعة فنون:

١- الأحكام الفقهية ٢- الفرائض الشرعية ٣- الغرائب من فقه السيرة النبوية المسمى بالدره ٤- تكملة الأحكام والتصفيه عن بواطن الآثار.

ثم طبع ثانياً عام ١٣٩٣ هـ منضمّاً إلى الكتب التالية:

١- أصول الدين، ٢- أصول الفقه، ٣- علم اللطيف (الفلسفة) ٤- الملل والنحل ٥- آيات الأحكام ٦- تاريخ سيرة سيد البشر وأصحابه العشرة الغر، وعترة المنتجبين الزهر.

وقد طبع الكتاب في سبعة أجزاء، والجزء الأول باسم المقدمة، والكتاب مشتمل على عشرة فنون، وهو موسوعه كبيرة أحتفل بها العلماء في الأوساط المتنورة.

٢- كتاب الأزهار في فقه الأئمة الأطهار:

وقد حظى الكتاب بالاهتمام البالغ من قبل المقلّدين والمجتهدين وربما يقال نظمت ونضدت فيه مسائل الفقه، أو ثمانية وعشرين ألفاً من مسائل الشريعة منظوقاً ومفهوماً وعليه اعتمدت الزيدية حتى عصرنا هذا _____.

(١) البحر الزخار، ج ١: المقدمة بقلم علي بن عبد الكريم بن محمد الفضيل شرف الدين: ١٩-٢٦.

(٤٢٥)

والحق أنه لم يحظ متن فقهه من متون الأئمة بمثل ما حظى به متن الأزهار من عناية العلماء واهتمامهم بتعليقاتهم، وهو بين الزيدية، كالعروة الوثقى عند الإمامية.

ولقد ألف بعده كتابان: الآثار، والهداية على غرار الأزهار، ولكن لم يحرزوا القبول والأول لحفيد المؤلف شرف الدين المتوفى سنة ٩٦٥ هـ والثاني لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير المتوفى سنة ٩٢٤ هـ.

وهناك من قام بمناقشة المضمون وكيفية الاستنباط كالعلامة الجلال في كتابه ضوء النهار، ورد عليه، ابن الأمير في كتابه «منحة الغفار».

إلى أن وصلت النوبة للشوكانى فقام بالتعليق عليه مع النقد اللاذع وسمى كتابه بـ«السييل الجرار المتدفق على حداثق الأزهار» والاسم يعرب عن المسمى وهو بصدد هدم ما بناه الإمام، وتخريب ما أرساه وقد أثار هذا النوع من التأليف مشاعر أكثر رجالات العلم المتحررين، فكتبوا ردوداً عليه.

وأما تصانيفه فيبلغ عدد الجمع ٣٣ وقد طبع قسم منها ضمن البحر الزخار وتعرفت على فهرسته في ترجمة الشوكانى له.

ولم يكتف الإمام بالرسائل والمواظع والمؤلفات في نشر علومه وأفكاره، بل قرض الشعر ونظم القصائد الهادفة، وله قصيدة تذكر أبناء فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - ويقول:

إذا ما رأيت الفاطمي تمرداً * أقام على كسب المعاصي وأخلدا

فذاك الذي لما أكتسى ثوب عزة * تبدل أثواب الدناءة وارتدا

المرقاة - في أصول الفقه.

(٤٢٩)

الإرشاد والتحذير وغير ذلك.

والأساس في أصول الدين الذي يقول فيه الآيات البليغة من البحر الكامل.

هذا الأساس كرامة فتلقه * يا صاحبي بكرامة الإنصاف

واحرز نفيساً من نفائس نثره * جمعت بغوض في خضم صاف

جمع المهيمين بيننا في دينه * جمعاً يفى بإصابة وتصادف (١) وله شروح.

وقال مجد الدين في مقدمة كتاب الاعتصام: هو الذي أَلَفَ الله به الدين بعد شتاته، ووصل به حبل الاسلام بعد انبتاته، ورفع بدعوته

من الملة الحنفيه اعلامها، وأنفذ بجهاده من الشريعة المطهرة في الأقطار أحكامها، وجلى الظلم، وكشف به البهم، ذو الآيات الظاهرة

والبراهين الزاهرة، والأخلاق النبوية، والعلوم العلوية، الذي كشف به غياهب ظلم الظالمين، الإمام الأعظم الداعي إلى التي هي أقوم،

أبو محمد مولانا الإمام أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، والصادق بالحق المبين، المحيي لطريقه سلف الأئمة السابقين، المنصور بالله

القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن الأمير علي بن يحيى العالم البر بن محمد العالم

التقى بن يوسف الأصغر الأشل بن الإمام الداعي إلى الله القاسم بن الإمام الداعي إلى الله يوسف الأكبر بن الإمام المنصور بالله يحيى

بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الحافظ بن الإمام ترجمان الدين القاسم بن إبراهيم

الغمر بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الشبه بن الحسن الرضى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين وسيد الوصيين وأفضل الصديقين

علي بن أبي طالب وابن فاطمة البتول الزهراء _____،

(١) مجد الدين: التحف في شرح الزلف:

(٤٣٠)

والصديقة الكبرى، سيدة نساء الأعاجم والأعارب ابنة سيد المرسلين، وختم النبيين أحمد الأمين، صلوات الله وسلامه وتحياته وإكرامه

عليهم أجمعين ما أنهلت السحاب، وأنارت الكواكب وانزاحت بأنوار هدايتهم الغياهب (١)

هذا وكتابه الأكياس خير دليل على شجاعته الأدبية في بيان الحق، وترك التقيّة أو المماشاة مع أهل السنّة قال في فصل «حكم أبي

بكر في فدك».

«قال الإمام يحيى والإمام المهدي _ عليهما السلام : _ وحكم أبي بكر في فدك صحيح، لأنّه حكم باجتهاده.

قلنا: هو المنازع، وأيما منازع حكم لنفسه فحكمه باطل إجماعاً، ولو لم يخالف اجتهاده قال الشاعر:

ومن يكن القاضي له من خصومة * أضّر به إقراره وجحوده

وأيضاً فإن الإمام عندهما _ (عليهما السلام) _ على _ عليه السلام ، _ وهو لم يرض ولايته، فكيف يصح قضاؤه.

وأيضاً كانت اليد لفاطمة _ عليها السلام ، _ لأنّ في الرواية أنّها _ (عليها السلام) _ أتمت تطلب حقها بعد أن رفع عاملها، فايجاب البينة

عليها خلاف الإجماع.

وأيضاً اعتمد على خبره وهو: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما خلفناه صدقة» مع احتمال أن يكون معناه: أنّ الصدقة (أى الزكاة التي لا

تحلّ لبنى هاشم غير موروثه بل تصرف في مصرفها).

ولفاطمة _ عليها السلام _ أن تعتمد على خبرها وخبر علي والحسن والحسين _ عليهم السلام . _ صح لنا ذلك من رواية الهادي _

عليه السلام _ في كتاب «تثبيت الإمامة» (أم أيمن) أنّه _ صلى الله عليه وآله وسلم _ (أنحلها) مع أنّه نصّ صريح لا يحتمل التأويل

(٢) _____

(١) الاعتصام بحبل الله المتين، المقدمة: ١ ، بقلم مجد الدين بن محمد المويدي. مفتى الزيدية في اليمن حالياً.

(٢) القاسم بن محمد: الأساس لعقائد الأكياس: ١٦٥.

(٤٣١)

ومع ذلك نرى أنه يتتبع ويتلثم في بيان حكم من تقدم الوصى.

ولا يجترى أن يحكم بأنهم بغوا على الإمام وعصوه قال:

واختلف في حكم من تقدم الوصى _ عليه السلام _.

والحق أنهم إن لم يعلموا استحقاقه _ عليه السلام _ دونهم بعد التحرى فلا إثم عليهم، وإن أخطأوا لقوله تعالى: "وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ" (الأحزاب - ٥) ولم يفصل.

وقوله _ صلى الله عليه وآله وسلم: (_ رفع عن أمتي الخطأ والنسيان) ولم يفصل.

وإن علموا فخطيئتهم كبيرة للإجماع على أن منع إمام الحق من تناول الواجب أو منع الواجب منه بغى عليه، والإجماع على أن البغى عليه فسق، لأنه اتباع لغير سبيل المؤمنين والله تعالى يقول:

"وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُضَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا" (النساء - ١١٥) ولعل توقف من أئمتنا _ عليهم السلام _ لعدم حصول العلم بأنهم علموا أو جهلوا (ذلك) ومعارضه إبقائهم على الأصل من الجهل باستحقاقه (_ عليه السلام -) ، بأن الأصل في أعمال المكلفين التي تعلق بالحقوق العمدة، ألا نرى أن رجلاً قتل رجلاً، ثم ادعى الخطأ أنه لا يقبل قوله بالإجماع.

وبوجوب حمل علماء الصحابة على السلامة، وعدم الإخلال بتعريفهم، إذ مثل ذلك واجب لقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ" (البقرة - ١٥٩) ولنقل تعريفهم إياهم نقلاً لم يبلغ حد التواتر وجب الوقف في حقهم دون علماء الصحابة لحصول العلم بتلبسهم بالمعصية، وهو اغتصاب إمامته _ عليه السلام - ، ولم يحصل مثل ذلك في حق علماء الصحابة (١) _____

(١) القاسم بن محمد: الأساس لعقائد الأكياس: ١٦٢ - ١٦٣.

(٤٣٢) (٤٣٣)

الفصل السابع شخصيات زيدية ذات اتجاهات خاصة

الفصل السابع شخصيات زيدية ذات اتجاهات خاصة الطابع الفريد للمذهب الزيدى، هو أنه عقلي في الأصول والعقائد، يقتفى أثر الدليل والبرهان ويتعرض للشكوك والشبهات، ويجب عنها، وهو يرافق المعتزلة في أكثر المسائل إلا ما يرجع إلى الإمامة، ويناضل الأشاعرة في غالبها. ومع أن المذهب الأشعري، هو المذهب المعتدل بين المذهب العقلي المحض (الاعتزال) والنقلي المحض (الحشوية) فالمذهب الزيدى لا يرافقه إلا في الأقل القليل في مجال العقائد.

وأما اتجاهه في الفقه فهو نفس ذلك الاتجاه، فالفقه الرائج بين الزيدية هو فقه الإمام يحيى الهادى (٢٤٥ - ٢٩٨ هـ) ، مؤلف «الأحكام» ولكنه حنفى الاتجاه، يعمل بالقياس والاستحسان، ويرجح بالعقل عند تعارض الأدلة.

هذا هو طابع المذهب الزيدى، ومع ذلك ترى أن شخصيات بارزة نقضوا ذلك الإطار، وتحزروا عن القيد الذى ضربه المذهب عليهم، وهم بين:

متفتح مع السلف وأهل الحديث، أو مؤيد للحركة الوهابية المدمرة لآثار الرسالة باسم مكافحة الشرك.

والممثل للاتجاه الأول، هو ابن الوزير فى القرن الثامن، كما أن الممثل للاتجاه الثانى، الأمير الصناعى فى القرن الثانى عشر، والجامع بين الاتجاهين فى القرن الثالث عشر هو الشوكانى وبما أنه كان لهم دور فى تطوير المذهب الزيدى فى بعض الأدوار، وإن غاب

نجمهم بعد حين، ناسب أن نشير إلى زوايا من حياتهم وتفكيراتهم حسب التسلسل الزمني.

(٤٣٤)

زيدى تستن ١ ابن الوزير محمد بن إبراهيم (٧٧٥ - ٨٤٠ هـ)

هو محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن المنصور، بن محمد، بن العفيف، بن مفضل بن الحجاج، بن علي، بن يحيى بن القاسم، ابن الإمام الداعي يوسف، ابن الإمام المنصور بالله يحيى بن الناصر أحمد ابن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً، ولد في رجب عام ٧٧٥ هـ وتوفي في محرم عام ٨٤٠ هـ مجتهد باحث، من أعيان اليمن وهو أخو الهادي بن إبراهيم تعلم بصنعاء وصعدة ومكة، وأقبل في أواخر عمره على العبادة (١)

يعرفه ابن حجر العسقلاني: أنه مقبل على الاشتغال بالحديث، شديد الميل إلى السنة بخلاف أهل بيته (٢)

ويقول الشوكاني: «وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده بل هو نمط من كلام ابن حزم وابن تيمية وهو في عداد أئمة الزيدية المجتهدين الذين لا يرفعون إلى التقليد رأساً ولا يشوبون دينهم بشيء من البدع الذي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب شيء منها» (٣)

وكلامه في كتاب «إيثار الحق على الخلق» يعرف موقفه من المذاهب _____

(١) الشوكاني: البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع: ٢ | ٨١ برقم ٣٩، وقد ذكر نسبة الزركلي بغير ما ذكرناه، وما ذكرناه هو المعتمد، لأن الشوكاني من أهل البيت.

(٢) المصدر نفسه: ٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ٨٣.

(٤٣٥)

الكلامية يقول فيه:

لقد رأيت مصنفى كتب المذاهب ينتصر فيها المصنف لمذهب واحد في القوى والضعيف، ولم يسلك أحد منهم مسلك مصنفى كتب الفقه التي تذكر فيها مذاهب أهل الملة الإسلامية، ويقوى فيها ما قوته الدلائل البرهانية سواء أكانت لقريب أم بعيد، لصديق أم بغيض، وكتب العقائد أحق بسلوك هذا المسلك من كتب الفروع، أما كون الحق واحداً فصحيح، ولكن لا يستلزم أن يكون الصواب في جميع المواضع المتفرقة قد اجتمع لفرقة منها إلا ما حصل فيه إجماع من الأمة والعترة، وإن من أندر الأشياء أن يحرص المتكلم على معرفة الحق في أقوال المخالفين.

والذى وسع دائرة المرء والضلال هو البحث عما لا يُعلم والسعى فيما لا يُدرك والاشتغال بالبحث عن الدقائق التي لا طريق إلى معرفتها، السير في الطريق التي لا توصل إلى المطلوب. وليس طلب أى علم بجحود ولا كل مطلوب بموجود.

إن المحتاج إليه من المعارف الإسلامية في الأصول سبعة أمور كلها فطرية جليئة وهي:

١ - إثبات العلوم الضرورية التي يبنى الإسلام على ثبوتها.

٢ - ثبوت الرب عز وجل.

٣ - توحيد سبحانه وتعالى.

٤ - كماله بأسمائه.

٥ - ثبوت النبوات.

٦ - الإيمان بجميع الأنبياء وعدم التفريق بينهم.

٧- ترك الابتداع في الدين بالزيادة على ما جاء به الأنبياء أو النقص عنه.

(٤٣٦)

هذه الأمور السبعة تكفي العامي فإن تعرض فيها لشبهة قادحة تمكن من حلها عن طريق القرينة الجلية (١) إن ما ذكره ابن الوزير من أنه يكفي العامي الاعتقاد بالأمور وإن كان أمراً صحيحاً، لكن إلزام الجميع بالعمل على نمط واحد، أمر لا يقبله العقل وهل يصح إيقاف البحث على وجوه أصحاب العقول والأدمغة الكبيرة، كالفارابي وابن سينا، وابن رشد والرازي ونصير الدين الطوسي ومن جاء بعدهم بحجة أنه يكفيهم تحصيل البرهان على الأمور المذكورة. إن تحريم الحوار الصحيح والمناظرة المبتدئة على الأسس الصحيحة مما دعى إليه الذكر الحكيم، وأحاديث العترة الطاهرة وقد قدّمتنا شيئاً من ذلك في غضون الأجزاء السابقة.

أظن أن الوزير تأثر بالتيار السلفي الذي أثاره ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) وتلميذه ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) قريباً من عصره وبلغ إلى أرض الحجاز واليمن، ولقد كانت الأذهان الساذجة، أرضاً خصبة لتلك الفكرة فإنها كانت تحمل حقاً وباطلاً فمن جانب تدعو إلى الاجتهاد الحر وترك التقليد، لإمام من أئمة الفقه، ومن جانب آخر، يدعو إلى إغلاق العقل وإعدامه في مجال المعارف وتقليد حرفة النصوص الواردة فيها. وإن انتهى إلى القول بالتشبيه والتجسيم والجهه، غاية الأمر يتبرأون من مضاعفاتها، بلفظ «بلا كيف». إن ابن الوزير مع ذكائه وتوقده، تأثر بموجة الفكر السلفي، وابتدع من حيث لا يشعر، فزعم أن السلفية مذهب، مع أنه ليس بمذهب وليس السلف خيراً من الخلف، ولا الخلف بأقصر منهم عقلاً ووعياً، والحجة هو الكتاب والسنة الصحيحة والعقل الصريح الذي لولاه، لانسد باب المعرفة، فما معنى ترجيح

(١) إثبات الحق على الخلق.

(٤٣٧) السلف على الخلف، ورفض تقليد الأئمة الفقهية، ووضع قيد السلفية على العقول والأفئدة مكان تقليدهم.

يقول الشوكاني: إن صاحب الترجمة لما ارتحل إلى مكة وقرأ علم الحديث على شيخه ابن ظهيرة قال له: ما أحسن يا مولانا لو انتسبت إلى الإمام الشافعي أو أبي حنيفة؟ فغضب وقال: لو احتجت إلى هذا النسب والتقليدات، ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم (الرسى) أو حفيده الهادي.

ثم إنه أتى بأسماء كتبه: وإليك ما ذكره:

١- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم.

٢- الروض الباسم وهو مختصر كتاب العواصم (وقد طبع في مصر في إدارة الطباعة المنيرية).

٣- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، يقول الشوكاني: وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله إلا مثله، طبع بمصر عام ١٣٤٩ هـ.

٤- نصر الأعيان على شر العميان، ردّ فيه على المعري.

٥- البرهان القاطع في معرفة الصانع ألفه عام ٨٠١ هـ وطبع بمصر عام ٨٠١ هـ.

٦- التنقيح في علوم الحديث.

٧- إثبات الحق على الخلق، المطبوع بمصر عام ١٣١٨ هـ.

إلى غير ذلك مما ذكره الشوكاني وغيره

(١)

(١) البدر الطالع: ٢ | ٩٠، الأعلام للزركلي: ٥ | ٣٠٠. (٤٣٨)

زيدى تسنن وتوهب ٢ ابن الأمير: محمد بن إسماعيل (١٠٩٩ - ١١٨٦ هـ)

مؤلف سبل السلام هو محمد بن إسماعيل بن صلاح، ينتهي نسبه إلى الأمير يحيى بن حمزة الحسنى، الذى تعرفت عليه. ولد بكحلان، ثم انتقلت أسرته عام ١١١٠هـ إلى صنعاء عاصمة اليمن، وتعلم النحو والبيان وعلوم الفقه وأصول الدين، ثم سافر إلى الحجاز مرتين، وأخذ علوم الحديث هناك وبرع فى العلوم المختلفة حتى برع أقرانه وتفرد بالرئاسة العلمية فى صنعاء وأظهر الاجتهاد والوقوف مع الأدلة ونفر من التقليد وزيف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية.

ومن كتبه النافعة كتاب «سبل السلام فى شرح بلوغ المرام» لابن حجر.

أمّا بلوغ المرام فقد ألّفه الحافظ ابن حجر العسقلانى، وجمع فيه كل الأحاديث التى استنبط الفقهاء منها الأحكام الفقهية مبيّناً عقب كل منها، من أخرجها من أئمة الحديث كالبخارى ومسلم، ومالك، وأبى داود، وغيرهم موضعاً درجة الحديث من صحة أو حسن أو ضعف، مرتباً له على أبواب الفقه، وضمّ إلى ذلك فى آخر الكتاب قسماً مهماً فى الآداب والأخلاق والذكر والدعاء.

أمّا الشرح فالأصل كما يقوله الشوكانى هو «البدر التمام» للمغربى، اختصره

(٤٣٩)

محمد بن إسماعيل الأمير، فبين لغته وسبب الضعف فيما ضعفه الحافظ ابن حجر، إذ أنكره، أو وهمه أو أعله، وذكر ما يدل عليه الحديث من الأحكام الفقهية ومن قال بها من كبار المجتهدين صحابه وتابعين وأئمة المذاهب - رض - ومن خالفها مبيّناً نوع المخالفة ودليلها، ثم يقضى بالكتاب والسنة غير متحيز إلى مذهب من المذاهب (١)

قال الشوكانى: وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن: منها فى أيام المتوكل على الله القاسم بن الحسين، ثم فى أيام ولده الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم، ثم فى أيام ولده الإمام المهدي العباس بن الحسين، وتجمع العوام لقتله مرة بعد مرة حفظه الله من كيدهم، وكفاه شرهم وولاه الإمام المنصور بالله، الخطابة بجامع صنعاء فاستمر كذلك إلى أيام ولده المهدي - إلى أن قال: - وكانت العامة ترميه بالنصب مستدلين على ذلك بكونه عاكفاً على الأمهات، وسائر كتب الحديث، عاملاً بما فيها، ومن صنع هذا الصنع رمته العامة بذلك لا سيما إذا تظاهر بفعل شيء من سنن الصلاة كرفع اليدين وضمهما (القبض والتكف) (٢).

هنا ملاحظات:

١ - إن ابن الأمير بلغ درجة الاجتهاد المطلق، فرفض الالتزام بمذهب خاصّ وقام يعمل برأيه وهو بغية كل طالب داع. لكن المظاهرة على مخالفة العامة لماذا؟! إن رفع اليد وضمها الذى يعبر عنه فى الفقه الإمامى بالتكف أو قبض اليد اليسرى باليمنى، كما هو التعبير الراجح اليوم، سنّه وليس بفرض - لو لم يكن بدعته أمويّه - (٣) أو ما كان من واجب ابن الأمير عقلاً - ترك السنّه، لدفع الفتنة.

(١) سبل السلام مقدمة المحقق: محمد بن عبد العزيز الخولى الطبعة الرابعة - ١٣٧٩، والبدر الطالع: ٢/١٣٧، برقم ٤١٧.

(٢) الشوكانى: البدر الطالع: ٢/١٣٤.

(٣) لاحظ: الاعتصام بالكتاب والسنة للمؤلف: ٦١.

(٤٤٠)

وقد روى أن الإمام الشافعى زار مرقد الإمام أبى حنيفة وصلى فيه ولم يقنّت، ثم سئل عن ترك القنوت مع أنه مذهبه، قال توقيراً للإمام فإنه لا يرى القنوت سائغاً.

هذا هو عقل الإمام الشافعى وتدييره وليكن لنا أسوة:

٢ - إن الاقتصار بما فى بلوغ المرام من الروايات، فى مقام الإفتاء شاهد صدق على أن الرجل ترك مذهب أهل البيت تماماً، وتفتح على روايات أهل السنّه وصار ينقض ويبرم فى ظل أحاديثهم. ومن المعلوم أن التظاهر بتلك الفكرة فى الأوساط الزيدية يثير حفيظة الأكثرين وليس المرورى عن أئمة أهل البيت، بأدنى مما روى عن الصحابه والتابعين.

٣- يبدو أن ابن الأمير كان إنساناً ساذجاً متأثراً بكل تيار يصل إليه إذا رافق نفسيته، ولما بلغ إليه خروج محمد بن عبد الوهاب في نجد، ووقف على رأيه من تدمير آثار الرسالة والنهي عن التوسل والزيارة أخذ بترويج أفكاره ولم يقتصر بذلك وقد ألف كتاباً في ذلك المضممار أسماه «تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد» واسمه يحكى عن مدى تعصبه بالتوهُب، قد أكثر عنه النقل السيد الأمين - قدس سره - في كتاب كشف الارتياب (١) وهذا يعرب عن ان ابن الأمير اغترّ بمنهجه من دون دراسة وتحليل ثم إنه أنشأ قصيدة في مدح الداعي وهنأ به وقال:

سلام على نجد ومن حلّ في نجد * وإن كان تسليمي على البعد، لا يُجدي
إلى أن يقول:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه * يُعيد لنا الشرع الشريف بما يبدى

ثم هو يتعاطف مع مقولة الحركة ومحتواها، ويقول في مدح محمد بن عبد الوهاب _____:

(١) كشف الارتياب: ١٠.

(٤٤١)

ويعمر أركان الشريعة، هادماً * مشاهد ضلّ الناس فيه عن الرشد

أعادوا بها معنى «سواع» ومثله * « يغوث» و «ود» بنس ذلك من ودّ

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها * كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وقد سرّني ما جاءني من طريقة * وكنت أرى هذه الطريقة لي وحدي

ولما أتته الأنباء عن قائد الحركة بأنه يسفك الدماء، وينهب الأموال، ويكفر الأمة المحمدية في جميع الأقطار، تراجع عن التأييد شكلياً

لا من حيث المحتوى، وقال في قصيدة نقض فيها، قصيدته الأولى، مستهلهما:

رجعت عن القول الذي قلت في النجدي * وقد صحّ لي عنه خلاف الذي عندي

ظننت به خيراً وقلت عسى عسى * نجد ناصحاً يهدى الأنام ويستهدى

فقد خاب فيه الظنّ لا خاب نصحننا * وما كل ظنّ للحقائق لي مهدي

ثم أخذ في ردّ شكل تطبيق المبدأ، فقال:

أبن لي أبن لي لماذا سفكت دماءهم * لماذا نهبت المال قصداً على عمد

وقد عصموا هذا وهذا بقول: لا * إله سوى الله المهيمن ذى المجد

وهذا لعمرى غير ما أنت فيه من * تجاريك في قتل لمن كان في نجد

فمالك في سفك الدماء قطّ حجّة * خف الله واحذر ما تسرّ وما تبدى

(٤٤٢)

لقد عذب عن ابن الأمير أنه هو الذي أحلّ سفك دمائهم حيث شبههم في قصيدته الأولى عبّاد «سواع» و «ود» وهل يكون دم الوثني ! محترماً مصوناً.

إن الأمير ندم حين ما لا ينفعه الندم، وقد أظهر الندامة بعد سفك الدماء الطاهرة، وقتل النفوس الأبرياء، ونهب الأموال، وتدمير البيوت

والخيام، بحجّة أنهم يتوسلون بالنبي، أو يزورون قبره الشريف ومن قرأ تاريخ الوهابية الأثيمة يقف على أنه أسس على قتل الآف من

الرجال والنساء والأطفال، الذين كانوا يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، يصلّون، يزكون، ويحجون ومانقمو منهم إلا أنهم

كانوا يعزّرون النبي الأكرم، ويمجدون نبي التوحيد، ويتبرّكون بآثاره، كما كانت الصحابة متبركين بها.

وعلى كل تقدير فقد تحلّى ابن الوزير عن المذهب الزيدي وتحول إلى سلفي وهابي، وتسرع في تأييد موقف ابن عبد الوهاب، فلو

كان مذهب السلف، الإخافة وسلّ السيف، وضرب الرقاب، وتدمير آثار الرسالة، وإنساء الأنبياء والأولياء عن الأذهان، وإثبات جهة الفوق والاستواء على العرش الذي هو فوق السموات والأرض، والجسمية والغضب والضحك واليد اليمنى والشمال، والأصابع والكف لله سبحانه بمعانيها اللغوية، فألف سلام الله على الخلف مع بدعه المزعومة، وتوسلاته المختلفة بزعمهم.

(٤٤٣)

زيدى تسنن وتوهب ٣ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني (١١٧٢ - ١٢٥٠هـ) أحد الشخصيات البارزة في اليمن الخضراء قد ترجم لنفسه في كتابه البدر الطالع وقال:

نشأ بصنعاء فقرأ القرآن على جماعة من المعلمين، وختمه على الفقيه حسن ابن عبد الله الهبل، وجوّده على جماعة من مشايخ القرآن، بصنعاء ثم حفظ الأزهار للإمام المهدي، ومختصر الفرائض للعصيفري، والملحة للحريري، والكافية والشافية لابن الحاجب، والتهذيب للتفتازاني، والتلخيص للقزويني، والغاية لابن الإمام، وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب، ومنظومة الجزري، ومنظومة الجزاز في العروض وآداب البحث للعضدي ورسالة الوضع له أيضاً. وكان حفظه لهذه المختصرات قبل الشروع في الطلب، وبعضها بعد ذلك، ثم قبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التواريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب فطالع كتباً عدّة، ومجاميع كثيرة، ثم شرع في الطلب وقرأ على والده رحمه الله شرح الأزهار، إلى آخر ما ذكره من الكتب التي قرأها على مشايخه أو سمعها من أساتذته و - ذكر - أنه سمع البخاري من أوله إلى آخره على السيد العلامة علي بن إبراهيم، وسمع صحيح مسلم جميعاً وسنن الترمذي جميعاً وبعض موطأ مالك وبعض شفاء القاضي عياض على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع منه بعض جامع الأصول، وبعض سنن النسائي وبعض سنن

(٤٤٤)

ابن ماجه، وسمع جميع سنن أبي داود وتخريجها للمنذري، وبعض المعالم للخطابي - إلى أن قال: - وكذلك بعض المنتقى لابن تيمية على السيد القادر بن أحمد وكذلك سمع شرح بلوغ المرام (١)

لقد ترك الشوكاني آثاراً في التفسير والفقه والحديث والكلام وهنا نذكر من آثاره ما يلي:

- ١ - فتح القدير في التفسير، وقد طبع في خمسة أجزاء جمع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.
- ٢ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار في الحديث، والمنتقى تأليف الشيخ أبو البركات شيخ الحنابلة مجد الدين عبد السلام بن عبد الله الحرّاني (٥٤٢ - ٦٢١ هـ) جد ابن تيمية.
- ٣ - القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد.

٤ - إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات، ردّ به على موسى بن ميمون الأندلسي اليهودي.

إنّ الإمام بحياة الشوكاني دراسة وقراءة، أستاذاً وشيخاً، تعرب عن أنّه كان سلفي المذهب، متحرراً عن التقيد بمذهب أحد الأئمة، وكتابه «نيل الأوطار» يشهد على ذلك. وقد أوجد هزة في الأوساط اليمنية، وهو وإن أخذ من السلفية، بهذا الجانب، الجميل، ولكنّه تورّط في معبّة لوازم التجسيم والتشبيه، وتتلخص عقائده في الأمور التالية:

أولاً: يرى حمل صفات الله تعالى الواردة في القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل، وقد ألف رسالته في ذلك سمّاها: «التحرف بمذهب السلف» ويذكر في تفسير قوله سبحانه: "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (البقرة - ٢٥٥) أن

(١) الشوكاني: البدر الطالع: ٢/ ٢١٤ - ٢١٧.

(٤٤٥)

الكرسي جسم وردت به الآثار بصفته. ثم ذكر الأقوال الأخر.

وقال: والحقّ هو الأوّل، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقي إلى مجرد خيالات وضلالات (١).

والمتبع في تفسيره يجد أنه يقوى مذهب السلف في غالب المواضع حتى رويته الله في الآخرة لو سلم كونها مذهب السلف. ثانياً: لا يرى للمجتهد تقليد أئمة المذاهب الفقهية، وهو في تلك الفكرة مصيب مشكور، لكنه أفرط في تطبيق الآيات الدائمة للمشركين في تقليدهم الآباء، على مقلدى أئمة المذاهب (٢)

نحن نقدر كسر قيد الالتزام بالمذاهب الفقهية للمستطيع استخراج الأحكام عن أدلتها الشرعية، لكن المجتهد المطلق عبارة عن استوعب الأدلة واستقصاها ومنها الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت التي رواها شيعتهم من زبيدئ وإسماعيلية وإمامية، لكن الأسف أن المتخرجين في حقول الفقه إما مقلد لأئمة الفقه أو خارج عن هذا الإطار، ولكنه ضارب عن أحاديث العترة، مع أنها أحد الثقلين. ثالثاً: إن الرجل جمع بين القولين المتضادين، فمن جانب يرى أن الشهداء أحياء حقيقة لا مجازاً.

قال في تفسير قوله تعالى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ" (آل عمران - ١٥٤):

(١) الشوكاني: فتح القدير: ١/ ٢٧٧ - ٣٧٣، ط، دار المعرفة بالأفست بيروت، لبنان وكل ما نقله فهو من هذه الطبعة.

(٢) لاحظ فتح القدير، سورة الأعراف، تفسير قوله سبحانه: (وإذا فعلوا فاحشاً قالوا وجدنا آباءنا عليها...) (الآية ٢٨).

(٤٤٤)

أى لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هم أموات بل هم أحياء، ولكن لا تشعرين بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم، لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر بحسب ما يبلغ إليه علمكم، الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ (١)

ومن جانب آخر يرى التوسل بالأنبياء مخالفاً للذكر الحكيم وقد أفاض الكلام في الإنكار على التوسل عند تفسير قوله سبحانه: "قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ" (يونس - ٤٩) فقد ذكر في تفسير الآية نفس ما ورثه من ابن تيمية ولاعق قصعته محمد بن عبد الوهاب (٢) ولولا- خوف الإطالة لآتيت بنص كلامه ليقف القارى على وحدة النسج، وبما أننا أفضنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة الكلام في التوسل، نظوى الكلام غير أنا نذكر هنا نكته وهي:

إن المتوسل لا يدعى أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يملك نفعه أو ضرره، حتى يقال: إنه لا يملك نفع نفسه ولا ضرره، فكيف بغيره، وإنما يقول: إن الأنبياء والصديقين والشهداء أحياء حسب ما قرره الشوكاني، والصلة بيننا وبينه موجودة، فنطلب منهم الدعاء كما نطلبه منهم في حال الحياة، وربما توسل بذواتهم ومقاماتهم، وذلك لاستمطار رحمته سبحانه، وطلب رضوانه، والمخاطب الحقيقي لقضاء الحاجة هو الله سبحانه والركائب مناخه على أبوابه سبحانه.

رابعاً: إن الشوكاني وإن كسر قيد الالتزام بمذهب الزبيدي، ولكنه لم يتخل عنه تماماً في بعض الموارد من تفسيره فربما يذكر بعض الروايات الدالة على

(١) فتح القدير: ١/ ١٥٩.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٤٤٦ - ٤٥٠.

(٤٤٧)

إمامه على عليه الصلاة والسلام، لكن بشكل هادئ، حيث ذكر في تفسير قوله سبحانه: "إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" (المائدة - ٥٥) قولين:

أحدهما: إنها نزلت في حق عبادة بن الصامت، وثانيهما: أنها نزلت في حق علي، وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس، قال: تصدق علي بخاتم وهو راع. فقال: النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للسائل: «من أعطاك هذا الخاتم؟» قال: هذا الراكع،

فأنزل الله فيه: "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، قال: نزلت في علي بن أبي طالب إلى آخر ما ذكره (١)

ويذكر في تفسير قوله سبحانه: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا" (الأحزاب - ٢٣) قولين: الأول: أنها نزلت في زوجات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم، - ثم قال: قال أبو سعيد الخدرى ومجاهد، وقتادة إن أهل البيت المذكورين في الآية على وفاطمة والحسن والحسين خاصة، ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: «عنكم، وليطهركم» ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن، يطهركن. وأجاب الأولون عن هذا التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه: "أَتَعْجِبِينَ مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرَكَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ" وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته أو زوجاته، فيقول: هم بخير. ثم إنه ذكر أدلة القولين وخرج بأن الحق شموله للطائفتين (٢) ولعل هذا الجمع الذى لجأ إليه، كان مقتضى ظروفه، وإلا فكيف يمكن

(١) فتح القدير: ٢/٣٥٠.

(٢) فتح القدير: ٤/٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤٤٨)

القول بالجمع، وهو خرق للإجماع المركب أولاً ومخالف للروايات المتضاربة من أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - جمع علياً وابنيه وزوجته تحت الكساء وقال: هؤلاء أهل بيت، ولم يجز لأم سلمة أن تدخل تحت الكساء. لكنه قد قصر في بعض المواضع، حيث لم يذكر نزول قوله سبحانه: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا" (المائدة - ٣) في حق علي مع تضافر الروايات. وفسر إكمال الدين بإكمال ظهوره على الأديان كلها، وغلبته لها (١) نعم، ذكر في تفسير قوله سبحانه: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" (المائدة - ٦٧) قال: أخرج ابن حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدرى، قال: نزلت هذه الآية على رسول الله يوم غدير خم في علي بن أبي طالب رضى الله عنه، وقال: وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ "أَنْ عَلِيًّا مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ" وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" (٢) وعلى كل تقدير فما يذكره في حق أئمة أهل البيت أثر من آثار نشأته بين الزيدية، ولكنه في مجال العقيدة سلفى، يتمسك بحرفية القرآن ويجوز الروية في الآخرة (٣). ويذهب في مجال الفقه إلى حجية كل صحابي من غير فرق بين المعلوم والمجهول، حتى ألف كتاباً باسم «القول المقبول في ردّ خبر المجهول من غير صحابة الرسول» (٤) ويصدر عن الصحاح والمسائيد ويخالف مذهب الزيدية

(١) فتح القدير: ٢/١١.

(٢) فتح القدير: ٢/٦٠.

(٣) فتح القدير: ١/٨٦ في تفسير قوله سبحانه: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً).

(٤) نيل الأوطار: المقدمة (و).

(٤٤٩)

كثيراً. وكتابه المعروف «السييل الجرار المتدقق على حدائق الأزهار» يعد ثورة عارمة على الزيدية في المجالات الفقهية. وإليك الكلام في هذا الكتاب.

قصة «السييل الجرار المتدقق»:

ألف أحمد بن يحيى بن المرتضى (٧٧٥ - ٨٤٥هـ) كتاباً باسم «الأزهار في فقه الأئمة الأطهار».

ثم شرحه باسم «الغيث المدرار». أَلْفَه على مذهب الإمام الهادي الزيدي في الفروع، يقول المقدم لكتاب البحر الزخار في مقدمته: «والكتاب لشموله وتحقيقه، وبلاغته أسلوبه، وحسن تبويبه يعدّ من آيات الإمام (أحمد بن يحيى بن المرتضى) التي اختصه الله بها ومنحه إياه لنفع المومنين وانتشال الجاهلين من ظلام الحيرة إلى نور المعرفة والهدى» (١)

وقد أَلْفَه الإمام في السجن بين عام (٧٩٤ - ٨٠١هـ) وبما أنّ الكتاب باقاً أزهار من الفقه الهادوي فيظن أنّه راجع إليه بعد الخروج من السجن إلا إذا كانت المصادر فيه متوفّرة وقد كان العمل عليه في المحاكم والأوساط العلمية.

ومن المعلوم أنّ فكرة التحرير من الفقه الهادوي، الذي غرس بذرتها ابن الوزير، وسقاها ابن الأمير، على طرف النقيض من محتويات الكتاب واشتهاره بين العلماء ولأجل ذلك قام الشوكاني بنقده بكتاب أسماه «السييل الجرار، المتدفق على حدائق الأزهار» فأثار بكتابه هذا، والاسم الذي سمّاه به حفيظة كثير من الزيديين قال في مقدمة الكتاب:

فإنّ مختصر الأزهار لما كان مدرس طلبه هذه الديار في هذه الأعصار ومعتمد هم الذي عليه في عباداتهم ومعاملاتهم المدار، وكان قد وقع في كثير من _____

(١) مقدمة البحر الزخار: ١٨.

(٤٥٠)

مسائله الاختلاف بين المختلفين من علماء الدين والمحققين من المجتهدين: أحببت أن أكون حكماً بينه وبينهم ثم بينهم أنفسهم عند اختلافهم في ذات بينهم، فمن كان أهلاً للترجيح ومتأهلاً للتقسيم والتصحيح فهو إن شاء الله سيعرف لهذا التعليق قدره ويجعله لنفسه مرجعاً ولما ينوبه ذخراً، وأمياً من لم يكن بهذا المكان ولا بلغ مبالغ أهل هذا الشأن ولا جرى مع فرسان هذا الميدان فهو حقيق بأن يقال له: «ماذا يغشك يا حمامة فادرجي» وقد طبع الكتاب في مجلدات أربعة قام بطبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بعد قيام الجمهورية العربية في اليمن. وذلك أيضاً في طريق أهدافه من هدم آثار الإمامة في اليمن ولو بيد علمائها.

وفي الختام نذكر تأليفه المفيد وهو «البدور الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»، أَلْفَه لغاية خاصة وهو أنّ الخلف ليس بأقل من السلف، ولا مسوغ للتقليد لأنّهم الفقه بل يجب التحرر عن الالتزام بفقه إمام خاص، قال في مقدمته: فإنّه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع، اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها. حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعدّر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون. وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم، وأنزرت نصيب من عرفان، وأحقر حصّة من فهم، لأنّها قصر للتفضّل الإلهي، والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عصر دون عصر، وأبناء دهر دون دهر بدون برهان ولا قرآن على أنّ هذه المقالة المخدولة والحكاية المرذولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله، ومترجم عن كتابه وسنّه رسوله، ومبين لما شرعه لعباده، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مريء، وذهاب الدين بلا شك وهو تعالى قد تكفّل بحفظ دينه

(٤٥١)

وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر، بل إيجاد من يبيّنه للناس في كل وقت وعند كل حاجة.

حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة أنّ الله وله المنة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف، بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها، من يقلّ نظيره من أهل العصور المتقدمة كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب وحلّ عن عنقه، عرى التقليد وقد ضمنت إلى العلماء من بلغني خبره من العباد والخلفاء والملوك والروساء والأدباء ولم أذكر منهم إلا من له جلاله قدر ونباله ذكر وفخامة شأن دون من لم يكن كذلك (١)

وطبع الكتاب في جزئين يشتمل الجزء الأول على ٣٥٤ ترجمة للشخصيات العلمية والسياسية، وقد وقع الخطأ في أرقام تراجم الجزء

الثاني فالظاهر منه أن الجزئين يحتوي على ترجمة ٥٩٦ شخصية وقد فرغ من تأليف الكتاب عام ١٢١٣هـ.

ثم إن النسابة المعروف اليمنى محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة، ذيله بملحق، أتى فيه بترجمة ٤٤٠ شخصية من مشاهير اليمن لكن على وجه الاختصار، وقد ترجم من عثر عليه من تراجم من بعد القرن السابع إلى أثناء القرن الثاني عشر من رجال اليمن الميمون، ولم يسجل فيه تراجم الرجال الذين ذكروا في كتاب «نيل الأوطار من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث» ألفه في القاهرة عام ١٣٤٨ هـ شكر الله مساعيه.

(١) الشوكاني: البدر الطالع: ٢/١.

(٤٥٢) (٤٥٣)

الفصل الثامن فرق الزيدية في كتب تاريخ العقائد

الفصل الثامن فرق الزيدية في كتب تاريخ العقائد قد ذكر مورخو العقائد، للزيدية فرقاً بين مقتصر على الثلاثة، وإلى مفيض إلى ستة، وثمانية، وإليك نصوصهم حسب التسلسل الزمني في التأليف:

١- قال الأشعري: «والزيدية» ست فرق:

فمنهم: الجارودية: أصحاب «أبي الجارود» وإنما سُموا «جارودية» لأنهم قالوا بقول: «أبي الجارود» يزعمون أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نص على بن أبي طالب بالوصف لا بالتسمية، فكان هو الإمام من بعده وأن الناس ضلوا وكفروا بتركهم الاقتداء به بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم «الحسن» من بعد علي هو الإمام ثم «الحسين» هو الإمام من بعد الحسن.

وافترقت الجارودية فرقتين: فرقة زعمت أن علياً نص على إمامة «الحسن» وأن الحسن نص على إمامة «الحسين» ثم هي شوري في ولد الحسن وولد الحسين فمن خرج منهم يدعو إلى سبيل ربّه وكان عالماً فاضلاً فهو الإمام، وفرقة زعمت أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نص على «الحسن» بعد علي وعلى «الحسين» بعد الحسن ليقوم واحد بعد واحد.

وافترقت الجارودية في نوع آخر ثلاث فرق: فزعمت فرقة أن «محمد بن عبد الله بن الحسن» لم يمت وأنه يخرج ويغلب، وفرقة أخرى زعمت أن «محمد

(٤٥٤)

بن القاسم» صاحب الطالقان حتى لم يمت وأنه يخرج ويغلب، وفرقة قالت مثل ذلك «يحيى بن عمر» صاحب الكوفة.

والفرقة الثانية من الزيدية، «السليمانية»: أصحاب «سليمان بن جرير الزيدى» يزعمون أن الإمامة شوري وأنها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنها قد تصلح في المفضل وإن كان الفاضل أفضل في كل حال، ويثبتون إمامة الشيخين أبي بكر وعمر.

وحكى «زرقان» عن سليمان بن جرير أنه كان يزعم أن بيعه أبي بكر وعمر خطأ لا يستحقان عليها اسم الفسق من قبل التأويل، وإن الأمة قد تركت الأصلح في بيعتهم أياهما، وكان سليمان بن جرير يقدم على عثمان ويكفره عند الأحداث التي نقت عليه، ويزعم أنه قد ثبت عنده أن علي بن أبي طالب لا يضل ولا تقوم عليه شهادة عادلة بضلاله، ولا يوجب علم هذه النكتة على العامة إذ كان إنما تجب هذه النكتة من طريق الروايات الصحيحة عنده.

والفرقة الثالثة: من الزيدية: «البترية»: أصحاب «الحسن بن صالح بن حي» وأصحاب «كثير النواء» وإنما سُموا «بترية» لأن «كثيراً» كان يلقب بالآبتر، يزعمون أن علياً أفضل الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأولاهم بالإمامة، وأن بيعه أبي بكر وعمر ليست بخطأ، لأن علياً ترك ذلك لهما، ويقفون في عثمان وفي قتلته ولا يقدمون عليه بالكفار، وينكرون رجعة الأموات إلى الدنيا، ولا يرون لعلي إمامة إلا حين بويج، وقد حكى أن «الحسن بن صالح بن حي» كان يتبرأ من عثمان رضوان الله عليه بعد الأحداث التي نقت عليه.

والفرقة الرابعة من الزيدية: «النعيمية»: أصحاب «نعيم بن اليمان» يزعمون أن علياً كان مستحقاً للإمامة وأنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن الأمة ليست بمخطئة خطأ أثم في أن ولت أبا بكر وعمر رضوان الله (٤٥٥)

تعالى عليهما، ولكنها مخطئة خطأ بيناً في ترك الأفضل وتبرأوا من عثمان ومن محارب علي وشهدوا عليه بالكفر.

والفرقة الخامسة من الزيدية: يتبرأون من أبي بكر وعمر ولا ينكرون رجعة الأموات قبل يوم القيامة.

والفرقة السادسة من الزيدية: يتولون أبا بكر وعمر، ولا يتبرأون ممن برىء منهما، وينكرون رجعة الأموات ويتبرأون ممن دان بها وهم «اليقويبة» أصحاب رجل يدعى «يعقوب» (١)

٢- قال المسعودي: إن الزيدية كانت في عصرهم ثمانية فرق: أولها الفرقة المعروفة بـ «الجارودية» وهم أصحاب أبي الجارود زياد بن المنذر العبدى، وذهبوا إلى أن الإمامة مقصورة في ولد الحسن والحسين دون غيرهما، ثم الفرقة الثانية المعروفة بـ «المرئية»، ثم الفرقة الثالثة المعروفة بـ «الأبرقية»، ثم الفرقة الرابعة المعروفة بـ «اليقويبة» وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفى. ثم الفرقة الخامسة المعروفة بـ «العقبيية» ثم الفرقة السادسة المعروفة بـ «الأبتريية» وهم أصحاب كثير الأبتري والحسن بن صالح بن حى. ثم الفرقة السابعة المعروفة بـ «الجريرية» وهم أصحاب سليمان بن جرير. ثم الفرقة الثامنة المعروفة بـ «اليمانية» وهم أصحاب محمد بن يمان الكوفى، وقد زاد هؤلاء في المذاهب وفرعوا مذاهب على ما سلف من أصولهم (٢)

٣- قال نشوان الحميرى: افتردت الزيدية ثلاث فرق: بتريية وجريرية _____

(١) الأشعري: مذاهب الإسلاميين: ٦٦ - ٦٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب: ١٨٣/٢.

(٤٥٦)

وجارودية. فقالت البتريية: إن علياً عليه السلام كان أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأولاهم بالإمامة، وأن بيعه أبي بكر وعمر ليست بخطأ، لأن علياً عليه السلام سلم لهما ذلك، بمنزلة رجل كان له حق على رجل فتركه له، ووقفت في أمر عثمان، وشهدت بالكفر على من حارب علياً، وسموا البتريية، لأنهم نسبوا إلى كثير النواء، وكان المغيرة بن سعيد يلقب كثيراً بـ «الأبتري».

وقالت الجريرية: إن علياً كان الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن بيعه أبي بكر وعمر كانت خطأ لا يستحق عليه اسم الكفر، ولا اسم الفسوق، وأن الأمة قد تركت الأصلح، وبرئت من عثمان سبب أحداثه، وشهدت عليه وعلى من حارب علياً بالكفر.

وقالت الجارودية: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نص على علي عليه السلام بالإشارة والوصف دون التسمية والتعيين، وإنه أشار إليه ووصفه بالصفات التي لم توجد إلا فيه، وإن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نص على الحسن والحسين - عليهما السلام - بمثل نصه على علي، ثم إن الإمام بعد هؤلاء الثلاثة ليس بمنصوص عليه، ولكن الإمامة شورى بين الأفاضل من ولد الحسن والحسين، فمن شهر منهم سيفه ودعا إلى سبيل ربه وباين الظالمين، وكان صحيح النسب من هذين البطينين، وكان عالماً زاهداً شجاعاً، فهو الإمام.

وافترقت الجارودية في نوع آخر ثلاث فرق:

أ- فرقة زعمت أن محمد بن عبد الله النفس الزكية بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب لم يموت ولا يموت، حتى يملأ الأرض عدلاً، وأنه القائم المهدي المنتظر عندهم، وكان محمد بن عبد الله خرج على المنصور فقتل بالمدينة.

ب - وفرقة زعمت أن محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن

(٤٥٧)

الحسين ابن علي بن أبي طالب، حتى لم يموت ولا يموت، حتى يملاً الأرض عدلاً، وأنه المهدي المنتظر عندهم، وكان محمد بن القاسم هذا خرج على المعتصم بالطالقان فأسره المعتصم، فلم يدر بعد ذلك كيف خبره.

وفرقة زعمت أن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حتى لم يموت، وأنه القائم المنتظر عندهم، ولا يموت حتى يملاً الأرض عدلاً، وكان يحيى بن عمر هذا خرج على المستعين، فقتل بالكوفة. هذه رواية أبي القاسم البلخي عن الزيدية، وليس باليمن من فرق الزيدية غير الجارودية، وهم بصنعاء وصعدة وما يليهما (١) دراسة حول فرق الزيدية :

قد تعرفت على كلمات المؤرخين في فرق الزيدية، فهي بين ما يحصرهم في ثلاث، إلى آخر يعدهم ست فرق، إلى ثالث يحسبهم ثمانى فرق، وهذا الاختلاف يكشف عن وجود غيوم تلبّد سماء الواقع، ولكن الذى يهمنا هنا، مسألة أخرى، أن هذه الفرق، كلها قد بادت وزهبت أدراج الرياح مع بقاء الزيدية في اليمن، والذى يميز الزيدية عن سائر الفرق الإسلامية ليس شيء مما ورد في عقائد هذه الفرق وإنما هو عبارة عن القول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ووجوب الخروج - الثورة - على الظلمة، واستحقاق الإمامة بالفضل والطلب لا بالوراثة مع القول بتفضيل على كرم الله وجهه وأولويته بالإمامة وقصرها من بعده في البطين الحسن والحسين (٢) _____

(١) نشوان الحميرى: الحور العين: ١٥٥.

(٢) على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين: الزيدية نظريته وتطبيق: ١١ المطبوع عام ١٤٠٥ هـ ط. عمان.

(٤٥٨)

ولا يوجد اليوم في اليمن بين الزيدية من المفاهيم الكلامية المنسوبة إلى الفرق كالجارودية، أو السلمانية، أو البترية أو الصالحية، إلا مفهوم واحد، وهو المفهوم العام الذى تعرفت عليه وهو القول بإمامة زيد والخروج على وجه الظلمة واستمرار الإمامة في بطن الحسين، وأنها بالطلب والفضل وأما أسماء تلك الفرق والعقائد المنسوب إليهم فلا توجد اليوم إلا في بطون الكتب والمؤلفات في الفرق الإسلامية كالممل والنحل ونحوها.

فإذا كانت الحال في اليمن كما ذكره الفضيل شرف الدين فالبحث عن هذه الفرق من ناحية إيجابياتها وسلبياتها ليس مهماً بعد ما أبادهم الدهر، وإنما اللازم دراسة المفهوم الجامع بين فرقهم، نعم هناك أمرين هامين يجب التنبيه عليهما:

١ - فى تسميتهم بالزيدية:

إن مؤرخى العقائد يسمونهم بالزيدية شأنهم شأن سائر الفرق التابعة لإمامها من غير فرق بين كونه إماماً فى الأصول والعقائد كالشيخ الأشعري، أو إماماً فى الفقه والأحكام كالحنفى والشافعى، فتصور لنا هذه التسمية (الزيدية) أن هذه الفرق تلقت أصولها وفروعها من إمامهم زيد الشهيد، كما أخذت الأشاعرة أصولها من الشيخ الأشعري، والحنفية من إمامها أبى حنيفة.

ولكن هذه التسمية بهذا المفاد خاطئة جداً، لأنه لم تكن لزيد عقيدة خاصة فى المسائل الكلامية حتى يكون أتباعه عيالاً له فى هذا المجال، كما أنه لم يكن له كتاب فقهى استدلالى حتى يرجع المقلدون، إليه فى الفروع.

نعم إن الثابت عن زيد الشهيد، أنه كان يقول بالتوحيد والعدل شأن كل علوى يقتفى أثر الإمام على بن أبى طالب - عليه السلام - فليس القول بهذين الأصلين دليلاً على أنهم اقتفوا زيدا فى هذين الأصلين.

(٤٥٩)

كما أن الثابت عنه فى مجال الفقه يعود إلى المسند الذى تعرفت عليه، وهو لا يتجاوز عن نقل أحاديث فقهية، ولا يعلم منه مدى

فقاوته واستطاعته في استخراج الفروع من الأصول، وعلى فرض التسليم بذلك فالفقهاء المعروفون بالزيدية ابتداء من الإمام أحمد بن عيسى، إلى الإمام القاسم الرسى، إلى الإمام يحيى الهادي، إلى الناصر الأطروش، حتى تصل النوبة إلى الإمام المجتهد يحيى بن حمزة والإمام المهدي بن المرتضى مؤلف «البحر الزخار» إلى غيرهم من فقهاء كبار، فهؤلاء لم يعلم من أحوالهم أنهم اعتمدوا في فتاواهم على فتوى إمام مذهبهم زيد، بل المعلوم خلافه، فإن الفقه المعروف بالفقه الزيدي إنما وصل إلى ما وصل من السعة نتيجة جهد هؤلاء الفقهاء الكبار، فهذا الفقه عطاء بحوثهم الشخصية التي ليس لها صلة بزيد.

ويؤيد ذلك: إن المذهب الزيدي يحرم التقليد على كل متمكن من أخذ الحكم من كتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو غيرهما من الأدلة الشرعية، ولا يبيحه في الفروع إلا لغير المتمكن من الاجتهاد، لقوله تعالى: "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (النحل - ٤٣) (١)

فإذا كان الأمر كذلك فالعطاء الموجود في الفقه الزيدي وأصوله يرجع إلى رجال المذهب الزيدي على اختلاف طبقاتهم، وهم بين إمام في المذهب كالإمام القاسم بن إبراهيم المتوفى عام ٢٤٢ هـ وحفيده الإمام الهادي يحيى بن الحسين المتوفى عام ٢٩٨ هـ والإمام الناصر الأطروش الحسن بن علي المتوفى عام ٣٠٤ هـ -

(١) علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين: الزيدية نظريته وتطبيق: ١١.

(٤٦٠)

إلى مخزج للمذهب وهم الذين استخرجوا من كلام الأئمة أو احتجاجاتهم أحكاماً لا تتعارض مع الكتاب والسنة ومن رجال هذه الطبقة:

١- العلامة محمد بن منصور المردى المتوفى حوالي عام ٢٩٠ هـ

٢- العلامة أبو العباس أحمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٥٣ هـ

٣- العلامة أحمد بن الحسين بن هارون الحسنى المتوفى عام ٤١٦ هـ

٤- العلامة أبو طالب يحيى بن الحسين بن هرون الحسنى المتوفى سنة ٤٢٤ هـ

إلى محصل، وهم الذين اهتموا بتحصيل أقوال الأئمة وما استخرج منها، ونقلوها إلى تلامذتهم بطريق الرواية أو المناولة لمؤلفاتهم، منهم:

العلامة القاضي زيد بن محمد الكلاوى الجبلى الملقب بحافظ أقوال العتره.

وسياتى تفصيل طبقات رجال المذهب الزيدي في خاتمة المطاف ضمن الأمر الثامن (١)

فإذا كان المذهب الزيدي قد نضج في هذه الأعصار وتبلور في ظل جهود هؤلاء الفطاحل الأعلام، فهو عطاء علمائهم ومفكرهم في الكتاب والسنة وسائر القواعد الاجتهادية، ولا يمت إلى إمامهم زيد بصله.

فعلى ذلك، فإن هؤلاء في فقههم قبل كونهم زيديين، رسيون، انتساباً إلى الإمام الأول القاسم بن إبراهيم، وهادويون انتساباً إلى الإمام الثانى يحيى بن الحسين، أو ناصريون انتساباً إلى الإمام الناصر الأطروش الحسن بن علي.

وممن يدعم تلك الفكرة عالم اليمن الحالى السيد مجد الدين المويدي في تقديمه على كتاب «الزيدية نظرية وتطبيق» يقول: فأما المذهب الفقهي المعروف المتداول بين أهل الفقه في اليمن فليس المراد به المذهب الزيدي كما يتوهم ولا مذهب جملة أهل البيت، بل المراد به في الأصل كما نص عليه الأعلام المحققون قواعد وأصول أخذوها من أقوال الإمام القاسم بن إبراهيم وأولاده وحفيده

الهادي

(١) لاحظ ص ٥٢٤.

(٤٦١)

إلى الحقّ وولديه المرتضى والناصر عليهم السلام نصّاً أو تخريجاً، ثم توسعوا في ذلك فصاروا يذهبون على ما ترجح عندهم على مقتضى تلك القواعد وإن خالف نصّ الإمام الهادي إلى الحقّ - عليه السلام -، الذي هو إمام المذهب على التحقيق فضلاً عن غيره، ولهذا رجّح كثير من الأئمة الأعلام للمتابع أن يأخذ بالنص ويترك التخريج المخالف له ومنهم الإمام المجدد للدين المنصور بالله القاسم بن محمد فإنه ضعف التخارج غاية التضعيف وبسط القول في ذلك بما فيه الكفاية في كتابه الإرشاد وكذا غيره من الأئمة - عليهم السلام - (١)

والذي يثبت أنّ المذهب الزيدي حصيلة التفكير الحرّ في الكتاب والسنة ولا يمت إلى الإمام زيد، هو وجود الاجتهاد وعدم غلق بابه خلال العصور المتقدمة، من دون أن يتخذوا آراء الإمام الواحد حقاً غير قابل للخدش كما عليه الأحناف والشوافع والحنابلة والمالكية. يقول الفضيل شرف الدين: العلم المميز للمذهب الزيدي على امتداد التاريخ الإسلامي هو التجديد المستمر دون التقيد باجتهاد فرد واحد من أئمة أو علمائه أو التمحور الفكري حول ما توصلوا إليه من اجتهادات. فإنّ المطّلع المتتبع لتاريخ الفكر الزيدي يعلم بأنّه بقي منفتحاً على جميع المذاهب الإسلامية المعتمدة يأخذ منها ماله أساس ومستند من كتاب الله والصحيح من سنّة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دونما تعصب، أو جمود، أو انغلاق، بل أنّ من قواعد المذهب عدم جواز التقليد عند المتمكنين من العلماء القادرين على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة. وبذلك بقي المذهب وعلماؤه روّاد تجديد وإصلاح يعملون لإيجاد حلول لمختلف قضايا الحياة المتجدّدة في كل العصور إيماناً منهم بأنّ الدين الإسلامي الحنيف الذي أنزل على خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وآله وسلم - ليبلّغه إلى البشرية جمعاء هذا الدين قد

(١) تقديم السيد مجد الدين على كتاب الزيدية نظرية وتطبيق | و - ز .

(٤٤٢)

جاء واسعاً رحباً ليستوعب مختلف قضايا البشرية في مختلف المجتمعات والعصور ويضع لها الحلول الإيجابية الناجعة، وإلا لما كان القرآن آخر الكتب السماوية المنزلة، ولما كان محمد خاتم الرسل والأنبياء وآخرهم حتى قيام الساعة (١) فإذا كان هذا هو الطابع الأوّل للمذهب الزيدي فمن المستحيل نسبه إلى الإمام الثائر زيد الشهيد الذي لم ترث منه الزيدية إلا بضع أحاديث من غير تحليل.

والكلام الحقّ إنّ الزيدي عبارة عن من يقول بالعدل والتوحيد وإمامة زيد ابن علي بعد الأئمة، الثلاثة على والسبطين - عليهم السلام - ووجوب الخروج على الظلمة، واستحقاق الإمامة بالفضل والطلب، هذا هو العنصر المقوم في كون الرجل زيدياً، وأما سوى ذلك مما يوجد في كتبهم فهو عطاء علمائهم المفكرين طيلة القرون.

وهناك من أعلام الزيدية من يصرّ على خلاف تلك النظرية، فيرى أنّ إطلاق اسم الزيدية على أتباع الإمام زيد يرجع إليه مستدلاً بقول الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية: «أما والله لقد أحيا زيد بن علي ما دثر من سنن المرسلين، وأقام عموداً إذا اعوج ولم ننحو إلا أثره ولم نقتبس إلا من نوره» (٢)

يلاحظ عليه: أنّ النص لا يدلّ على وجود التسمية، كما لا يدلّ على أنّ هناك منهجاً كلامياً أو فقهيّاً لزيد الثائر، وإنما يدلّ على اتباع أثره في أصل واحد وهو الثورة على الظالمين لإحياء ما اندثر من السنن، ونحن بدورنا نجلّ زيد الشهيد عن أن يفرق وحدة المسلمين وبالأخص شيعة جده أمير المؤمنين ويقسمهم إلى زيدي وغير زيدي فيوسع الصدع بدل رأبه، قال سبحانه: "قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ

(١) الفضيل شرف الدين: الزيدية نظرية وتطبيق | أ.

(٢) تقديم السيد مجد الدين على كتاب الزيدية نظرية وتطبيق | د.

(٤٤٣)

يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِّن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ يَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ("الأنعام - ٦٥) .

وفي نهاية المطاف إنني أرحب قول من يقول إن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على أتباعه ولا أطلقها في البداية أتباعه على أنفسهم، ولما جاء الثائرون بعد زيد، ناهجين منهجه، صارت اللفظة إشارة لمن يسلك مسلكه في مجال الخروج على الظلمة وإنقاذ المسلمين من كابوس الأمويين أو العباسيين، من دون أن يكون فيه دلالة على مذهب كلامي أو فقهي. وعلى ذلك فالزيدية شعار حرية وعزة وكرامة، وجهاد وتضحية في سبيل الله وليس شعاراً لمذهب خاص سوى ما عرفت من الإيمان بإمامة الإمام علي وسبويه _ عليهم السلام. * * *

الفصل التاسع في عقائد الزيدية

الفصل التاسع في عقائد الزيدية قد ساقنا الغور في حياة زيد الثائر الشهيد، إلى الحكم بأنه لم يكن صاحب منهج كلامي، ولا فقهي فلو كان يقول بالعدل والتوحيد، ويكافح الجبر والتشبيه، فلاجل أنه ورثهما عن أبيه وجده عن علي _ عليهم السلام _ وإن كان يفتي في مورد أو موارد فقد كان يصدر عن الحديث الذي يرويه عن الرسول الأعظم عن طريق آبائه الطاهرين وهذا المقدار من المؤهلات لا يصير الإنسان، من أصحاب المناهج في علمي الكلام والفقهاء.

نعم جاء بعد زيد، مفكرون وعاء، وهم بين دعاء للمذهب، أو بناء للدولة في اليمن وطبرستان، فساهموا في إرساء مذهب باسم المذهب الزيدي، متفتحين في الأصول والعقائد مع المعتزلة، وفي الفقه وكيفية الاستنباط مع الحنفية، ولكن الصلة بين ما كان عليه زيد الشهيد في الأصول والفروع وما أرسوه هؤلاء في مجال العقيدة والشريعة منقطعة إلا في القليل منهما. أين زيد ريب البيت العلوي، من القول بالأصول الخمسة التي تبناها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، ومن جاء بعدهما من أعلام المعتزلة، حتى صارت مندسة في مذهب الزيدية، بلا زيادة ونقيصة إلى يومنا هذا؟ أين زيد الذي انتهل من المعين العذب العلوي الذي رفض العمل بالقياس والاستحسان، من القول بأنهما من مصادر التشريع الإسلامي كما عليه المذهب

(٤٦٦)

الفقهي للزيدية؟

ومن ألم بحياة أئمة أهل البيت ابتداءً بالإمام علي _ عليه السلام _ وانتهاءً إلى حياة الأئمة كالمصدقين والكاظم والرضا، يقف على أنهم _ عليهم السلام _ في متناى من القول بهذا وذاك، كيف وكان النزاع بينهم وبين مشايخ المعتزلة قائماً على قدم وساق وقد حفظت كتب الحديث والسير، لفيها منها، وكان الرفض للقياس والاستحسان والظنون التي ما أنزل بها من سلطان، شعار مذهبهم، به كانوا يُعرفون وبه كانوا يُميزون لكن - للأسف - نجد دخول هذه العناصر في مذهب الزيدية الذي ينتمي إلى أئمة أهل البيت، علي _ عليه السلام _ ومن بعده.

اتفقت الأئمة الإسلامية ولا سيما الإمامية والزيدية على أن الرسول أوصى بالتمسك بالثقلين وأنه لا يعدل بهما إلى غيرهما، وشبه الرسول الأعظم _ صلى الله عليه وآله وسلم _ أهل بيته بسفينته وقال: «مثل أهل بيتي كسفينته نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق». وبالتالي أمر بركوبها في تمام الطريق، ولا يشك أحد في أن الباقرين والكاظمين من أئمة أهل البيت، ومع ذلك فقد فارقت الزيدية هؤلاء في حياتهم العلمية والعملية وبالتالي اقتدوا ببعض الأئمة دون البعض الآخر، وركبوا السفينة في بعض الطريق لا في جميعها وصار هذا وذاك سبباً لحدوث شقة كبيرة بين المذهب الزيدي، وما كان عليه متأخرو أئمة أهل البيت الذي وعاه عنهم شيعتهم من عصر الإمام علي إلى آخر الأئمة الاثني عشر _ عليهم السلام _ واشتهر باسم المذهب الإمامي.

ولا أعالى إذا قلت: إن المذهب الزيدي مذهب ممزوج ومنتزع من مذاهب مختلفة في مجالى العقيدة والشريعة ساقطهم إلى ذلك، الظروف السائدة عليهم وصار مطبوعاً بطابع مذهب زيد، وإن لم يكن له صلة بزيد إلا في القسم القليل. ومن ثم التقت الزيدية في العدل والتوحيد، مع شيعة أهل البيت جميعاً، إذ (٤٦٧)

شعارهم في جميع الظروف والأدوار، رفض الجبر، والتشبيه، والجميع في التدين بدينك الأصليين عيال على الإمام على بن أبى طالب -عليه السلام-

كما أنهم التقوا في الأصول الثلاثة:

١- الوعد والوعد.

٢- المنزلة بين المنزلتين.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مع المعتزلة حيث أدخلوا هذه الأصول في مذهبهم، وحكموا بخلود مرتكب الكبيرة في النار إذا مات بلا توبة، وحرمانه من الشفاعة لأنها للعدول دون الفساق، فهي إذاً بمعنى ترفيع الدرجة لا الحط من الذنوب كل ذلك أخذاً بالأصل الأول، كما جعلوا الفاسق، في منزلة بين المنزلتين فهو عندهم لا- مؤمن ولا- كافر بل هو فاسق، أخذاً بالأصل الثانى، ولكنهم تخبطوا في الأصل الثالث وزعموا أنه أصل مختص بالمعتزلة والزيدية، مع أن الإمامية يشاركونهم في هذه الأصول عند اجتماع الشرائط، أى وجود دولة إسلامية يرأسها الإمام المعصوم أو النائب عنه بإسم الفقيه العادل.

إن الزيدية التقت في القول بحجية القياس والاستحسان والإجماع بما هو هو، دون كونه كاشفاً عن قول المعصوم، وحجية قول الصحابي وفعله، مع أهل السنة ولذلك صاروا أكثر فرق الشيعة اعتدالاً - عند أهل السنة - وميلاً إلى التفتح معهم.

ولكن العلامة الفارقة والنقطة الشاخصة التي تميز هذا المذهب عما سواه من المذاهب، ويسوقهم إلى التفتح مع الإمامية والإسماعيلية هو القول بإمامة على والحسين بالنص الجلى أو الخفى عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

(٤٦٨)

والقول بأن تقدم غيرهم عليهم كان خطأ وباطلاً.

هذا هو واقع المذاهب، وعموده الفقرى، فقد أخذوا من كل مذهب ضغناً.

نعم كانت عناية مشايخ الزيدية في العصور الأولى، بالنقل عن الصادقين والأخذ بقولهما أكثر من الذين جاءوا بعدهم. وهذا أحمد بن عيسى بن زيد، مؤلف الأمالي فقد أكثر فيها النقل عنهما وعن غيرهما من أئمة أهل البيت - عليهم السلام -، ولكن أين هو من البحر الزخار لابن المرتضى (٧٦٤ - ٨٤٠هـ) أو سبل السلام للإمير محمد بن إسماعيل الأمير اليمنى الصنعانى (١٠٥٩ - ١١٨٢هـ) أو الروض النضير للسباعى، أو نيل الأوطار فى شرح منتقى الأخبار للشوكانى (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ)، فإنهم لا يصدرون فى عامة المسائل إلا ما شذ، إلا عما يصدر عنه فقهاء أهل السنة، فالمصادر الحديثية هى الصحاح والمسانيد، والحجج الفقهية بعد الكتاب والسنة، هى القياس والاستحسان، وكأنه لم يكن هنا باقر ولا صادق، ولا كاظم ولا رضا - عليهم السلام - ونسوا وتناسوا مقاماتهم وعلومهم.

نحن نأتى فى هذه العجالة بأصول عقائدهم مستدين إلى ما ألفه الإمام المرتضى فى مقدمه البحر الزخار، مقتصرين على الرووس دون الشعب المتفرقة منها. وفى هذه القائمة لعقائدهم يتجلى مدى انتمائهم، للمعتزلة أو للسنة والشيعة، والنص لابن المرتضى بتلخيص منّا.

١- صفاته عين ذاته، ويستحق بها صفاته لذاته لا لمعان (زائدة) خلافاً للأشعرية حيث يقول: «لمعان قديمة بذاته ليست إياه ولا بعضه ولا غيره».

وقد أشار بذلك إلى المعانى الزائدة التي أثبتها الأشعري وهي ثمانية مجموعة في قول بعضهم:

حياة، وعلم، وقدرة، وإرادة * كلام وإبصار وسمع مع البقاء
 ٢- لا يرى سبحانه، ولا يجوز عليه الروية وإلا لرأيناه الآن لارتفاع الموانع
 (٤٦٩)

الثمانية (١). ولا اختص بجهة يتصل بها الشعاع.

٣- ليس بذى ماهية: وعليه المعتزلة والزيدية وأكثر الخوارج والمرجئة.

٤- حسن الأشياء وقبحها عقليان، وأكثر الزيدية على أنه يقبح الشيء لوقوعه على وجه من كونه ظلماً أو كذباً أو مفسدة إذ متى علمناه كذلك، علمنا قبحه.

٥- مرید بإرادة حادثه: هو سبحانه مرید بإرادة حادثه. خلافاً للكلاية والأشعرية حيث قالوا بإرادة قديمة، وقالت النجارية بإرادة نفس ذاته، قلنا: إذاً لزم إيجاد جميع المرادات، إذ لا اختصاص لذاته ببعضها.

٦- متكلم بكلام: وكلام الله تعالى فعله الحروف والأصوات.

٧- فعل العبد غير مخلوق فيه: وخالفت الجهمية وجعلت نسبته إلى العبد مجازاً كطال وقصر.

وقالت النجارية والكلاية وضرار، وحفص: خلق لله وكسب للعبد، لنا وقوعه بحسب دواعيه وانتفاؤه بحسب كراهيته مستمراً بذلك يعلم تأثير الموثر (العبد) سلمنا لزوم سقوط حسن المدح والذم، وسببه لنفسه، تعالى الله عن ذلك.

٨- تكليف ما لا يطاق قبيح: وكانت المجبرة لا تلتزمه حتى صرح الأشعري بجوازه، لنا تكليف الضرير بنقط المصحف ومن لا جناح له بالطيران، معلوم قبحه ضرورة وقوله تعالى: "إلا وسعها".

٩- المعاصي ليس بقضاء الله.

١٠- لا يطلق على الله أنه يضل الخلق.

١١- الوعد والوعيد: وهو أصل في كلام المعتزلة والزيدية وقد عقد ابن المرتضى باباً وفرع عليه فروعاً والغاية المتوخاة منها، الحكم بخلود المسلم الفاسق في النار، وإن شئت قلت: خلود مرتكب الكبيرة الذي مات بلا توبة فيها _____

(١) أشار في التعليقة إلى الموانع الثمانية فلاحظ.

(٤٧٠)

ولم أعثر على نص في كلام ابن المرتضى، ولكن صرح به غير واحد من علمائهم ونأتى بنص العالم المعاصر الزيدى في كتابه «الزيدية نظرية وتطبيق» قال:

أمّا الزيدية وسائر العدلية فقالوا: من مات مؤمناً فهو من أصحاب الجنة خالداً فيها أبداً، ومن مات كافراً أو عاصياً لم يتب فهو من أصحاب السعير خالداً فيها أبداً لقوله تعالى: "وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا" (الجن - ٢٣) وقوله: "وإنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصِلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ" (الانفطار - ١٦) وقوله تعالى: "بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة - ٨١) (١)

١٣- مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر: بل فاسق وفي منزله بين المنزلتين وهذا أحد أصول المعتزلة لكن الزيدية أدخلوه في الأصل السابق الوعد والوعيد، قال ابن المرتضى:

والفاسق (مرتكب الكبيرة) ليس بكافر، خلافاً للخوارج، ولا مؤمن خلافاً للمرجئة إذ هو مدح والفسق ذم فلا يجتمعان (٢)

١٤- الإمامة تجب شرعاً لا عقلاً وعليه إجماع الصحابة.

١٥- النص على إمامة عليّ والحسينين: الأشعرية: لم ينص _ صلى الله عليه وآله وسلم _ على إمام بعده، وقالت الزيدية: بل نص على عليّ والحسينين (٣) وقالت البكرية على أبي بكر.

١٦ - عقد الإمامة: وتعد الإمامة بالدعوة مع الكمال ولا تنعقد بالغلبة.

(١) على بن عبد الكريم: الزيدية نظرية وتطبيق: ٧٦ وقد أوضحنا عدم دلالة الآيات على ما يروونه في الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند البحث عن هذا الأصل عند المعتزلة فلاحظ.

(٢) عزب عن المرتضى إنما لا يجوز الجمع بين المدح والذم إذا كان المبدأ واحداً أى إذا ذم ومدح لأجل ملاك واحد. دونما إذا كان المبدأ مختلفاً والحديث، متعددة فهو من حيث إيمانه في القلب ممدوح ومن حيث اقترافه المعصية مذموم.

(٣) وقال محقق الكتاب: ومنها قوله _ صلى الله عليه وآله وسلم: «_ الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا وأبوهما خير منهما» رواه الأمير الحسين في كتاب الشفا ورواه الأمير الحسن بن بدر الدين في العقد الثمين. (٤٧١)

خلاف الحشوية.

وأوضحه المحقق في هامش الكتاب وقال مع عدم المنازع فيفوز بذلك أو بأن تحصل له البيعة من الأكثرية مع وجود المنازع، وكل ذلك بعد سبق ترشيحه من ذوى الحل والعقد لمعرفة حصوله على الشروط الموهلة له.

١٧ - معدن الإمامة البطان: الزيدية: على أن معدن الإمامة البطان، للإجماع على صحتها ولا دليل على غيرها، وقالت الإمامية: بل أولاد الحسين وقالت الأشعرية بل قريش.

١٨ - الإمامان في زمان واحد: أكثر الزيدية لا يصلح إمامان في زمان فقالت الكرامية والزيدية: يصح، لنا إجماع الصحابة بعد قول الأنصار: منّا أمير ومنكم أمير وإذا عقد لاثنين في وقت واحد بطلا ويستأنف كنيكاح ولئين.

١٩ - ومن اعتبر العقد: كفى بيعه واحد برضا أربعة من أهل الحل والعقد وقال أبو القاسم البلخي: يكفى واحد وإن لم يرض غيره، لنا لم يعقد عمر و أبو عبيدة لأبى بكر إلا برضا سالم وبشير وأسيد وبايع عبد الرحمن عثمان، برضا الباقيين (١).

٢٠ - الإمام بعد الرسول عليّ، ثم الحسن ثم الحسين _ عليهم السلام _ للأخبار المشهورة.

٢١ - القضاء في فدك صحيح خلافاً للإمامية وبعض الزيدية. لنا: لو كان باطلاً لنقضه على ولو كان ظلاماً لأنكره بنو هاشم والمسلمون. (٢)

٢٢ - خطأ المتقدمين على عليّ في الخلافة قطعي، لمخالفتهم، ولا يقطع

(١) أنظر كيف يستدل بفعل من ترك وصية الرسول حسب اعترافه على مسألة أصولية.

(٢) ولعله لم يبلغه قول عليّ _ عليه السلام _ في فدك: «نعم قد كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلمت السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عليها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله» كما تبلغه خطبة الصديقة الطاهرة حول فدك التي كان بنو هاشم يحفظونها ويعلمونها أولادهم.

(٤٧٢)

لفسقتهم إذ لم يفعلوه تمرداً بل لشبهة فلا تمنع الترضية عليهم لتقدم القطع بإيمانهم فلا يبطل بالشك فيه.

٢٣ - خطأ طلحة والزبير وعائشة قطعي لبغيهم على إمام الحق.

٢٤ - توبة الناكثين: الأكثر أنه قد صحت توبتهم، وقالت الإمامية وبعض الزيدية: لا.

٢٥ - الأكثر أن معاوية فاسق لبغيه، لم تثبت توبته فيجب التبري منه.

٢٦ - يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بالقول والسيف مع اجتماع الشروط قالت الحشوية: لا وقالت الإمامية: بشرط وجود الإمام لنا: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ" ("آل عمران - ١٠٤") فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي ("الحجرات - ١٠").

هذه رووس عقائد الزيدية استخرجناها من كتاب الفلاندي في تصحيح الاعتقاد، المطبوع في مقدمة البحر الزخار ص ٥٢ - ٩٦ والمؤلف

ممن يشار إليه بين علماء الزيدية، وهو مؤلف البحر الزخار، ومن أحد أئمة الفقه والاجتهاد في القرن التاسع.

النص بالجلي أو الخفي على إمامة علي - عليه السلام -:

إن كتب تاريخ العقائد طفحت بهذا العنوان، فمثلاً نقلوا بأن الجارودية ذهبت إلى أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نص على إمامة علي بالوصف دون النص (١) ومعنى هذا أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - قد بين الملامح العامة للإمام، وكان علي - عليه السلام - هو المصدق الوحيد لهذه الملامح.

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٦٧، البغدادي: الفرق بين الفرق: ٣٠.

(٤٧٣)

وقال النوبختي عن الجارودية: إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نص على علي - عليه السلام - بالوصف دون التسمية، والناس مقصرون إذا لم يعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف (١)

وربما يعبرون بأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نص على ولاية الإمام نصاً خفياً غير جلي.

هذه الكلمات ونظائرها توجد، في التعبير عن المذهب الجارودي في مقام الإمامة.

وأما السليمانية أو الجريرية فأظهروا المرونة أكثر من الجارودية، فقد قالوا: إن الإمامة شورى وأنها تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمة، وأجازوا إجازة المفضول وأثبتوا إمامة أبي بكر وعمر، وزعموا أن الأمة تركت الأصل في البيعة لها، لأن علياً كان أولى بالإمامة منهما، إلا أن الخطأ في بيعتهما لم يوجب كفرة ولا فسقاً (٢).

والذي أظن - وظن الأعمى صواب - أن النظرتين قد صدرتا تقيّة وحيانة لوجودهم بين أهل السنّة. ومع أن الزيدية يرفضون التقيّة كما سيوافيك، ولكنهم عملوا بها حيث لا يشاؤون، فإنهم قد عاشروا أهل السنّة في بيئته واحدة ومجتمع واحد تربطهم أحكام واحدة، حيث رأوا أن التعبير عن واقع المذهب أي وجود النص على الاسم وإن شئت قلت: وجود النص الصريح يستلزم تفسيق الصحابة، وهذا لا يتلائم وطبيعة حياتهم، فلذلك جعلوا من هذا التعبير واجهة لعقيدتهم الواقعية فجمعوا - حسب زعمهم - بين العقيدة والهدف في الحياة. كيف وأئمة أهل البيت - عليهم السلام - عن بكرة أبيهم يرون النص على خلافة علي - عليه السلام - وهذا المميز لشيعة أئمة أهل البيت عن غيرهم. والذي يميز الشيعة عن غيرهم من الفرق هو هذا العنصر فقط، وما سوى ذلك عقائد كلامية مستخرجة

(١) النوبختي: فرق الشيعة: ٧٤.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٦٨، البغدادي: الفرق بين الفرق: ٣٢.

(٤٧٤)

من الكتاب والسنّة.

فإن كان ما ذكرناه مقبولاً - لدى القارئ وإلا فإن هذا النوع من التفكير تطرّق إلى المذهب الزيدي في العصور السابقة عن طريق معاشرتهم مع معتزلة بغداد، الذين قالوا بأفضلية الإمام علي - عليه السلام - وجواز تقديم المفضول على الفاضل. وقد مرّ تحقيق القول

في ترجمه حمزة بن عبد الله فلا حظ. (٤٧٥) العقد الثمين في معرفة رب العالمين تأليف الأمير الحسين بن بدر الدين محمد

(٥٨٢ - ٦٦٢) بعد أن أخرجت عقائد الزيدية من كتاب البحر الزخار، وقفت على رسالته مختصرة باسم العقد الثمين في معرفة رب

العالمين لمؤلفه العلامة الأمير الحسين بن بدر الدين محمد المطبوع باليمن، نشرته دار التراث اليمنى صنعاء، ومكتبة التراث الإسلامي بصعده وهي من أوائل الكتب الدراسية في حقل أصول الدين والمؤلف من أجل علماء الزيدية، وأكثرهم تأليفاً وتعد كتبه من أهم

الأصول التي يعتمد عليها علماء الزيدية ويدرسونها كمناهج (١) وإليك نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المختص بصفات الإلهية والقدم، المتعالى عن الحدوث والعدم، الذي لم يسبقه وقت ولا زمان، ولا تحويه جهة ولا مكان، جلّ سبحانه. دلّ على ذاته بما ابتدعه من غرائب مصنوعاته، وعجائب مخلوقاته، حتى نطق صامتتها بالإقرار بربوبيته بغير مَدُّود، وبرز مجادلاً لكل من عطلّ وألحد.

وصلواته وسلامه على سيدنا محمد الذي هو بالمعجزات مؤيد، وفي المرسلين مرّجّب ومسوّد، وعلى آله الغرّ الهداء، والولاءة على جميع الولاءة، وعلى _____

(١) إقرأ ترجمته في: تاريخ اليمن الفكرى: ٣/ ٢٨٩ و ٣٠٨، والاعلام: ٢/ ٢٥٥، التحف شرح الرلف: ١٧٨. (٤٧٦)

صحابته المكرّمين المؤيدين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: التوحيد [الدلالة على أن الله تعالى خالق العالم]

أيها الطالب للرشاد، والهارب بنفسه عن هُوّة الإلحاد.

فإذا قيل لك: من ربك؟

فقل: ربي الله.

فإن قيل لك: بم عرفت ذلك؟

فقل: لأنه خلقني، ومن خلق شيئاً فهو ربه.

فإن قيل لك: بم عرفت أنه خلقك؟

قل: لأنني لم أكن شيئاً ثم صرت شيئاً، ولم أكن قادراً ثم صرت قادراً، و [كنت] صغيراً ثم صرت كبيراً، ولم أكن عاقلاً ثم صرت عاقلاً، وشاهدت الأشياء تحدث بعد أن لم تكن؛ فرأيت الولد يخرج ولا يعلم شيئاً، ثم يصير رضيعاً، ثم طفلاً، ثم غلاماً، ثم بالغاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً. ثم رأيت نحو ذلك من هبوب الرياح بعد أن لم تكن، وسكونها بعد هبوبها، وطلوع الكواكب بعد أفلها، وأفلها بعد طلوعها، وظهور السحاب وزواله، وكذلك المطر والنبات والثمار المختلفة. وكل ذلك دلائل الحدوث.

وإذا كانت محدثه فلا بد لها من محدث، لأنها قد اشتركت في الجسميّة، ثم افترقت هيئاتها وصورها؛ فننظر سماءً، وأرضاً، وثماراً، وأشجاراً، وآباراً، وبحوراً، وأنهاراً، وإنائاً، وذكوراً، وأحياءً، وأمواتاً، وجمعاً، وأشتاتاً.

(٤٧٧)

وكذلك ننظر إلى الأعراض الضروريات المعلومات، فإنها اشتركت في كونها أعراضاً، ثم افترقت وانقسمت بين شهوة ونفرة، وحياة وقدره، ويبوسة ورطوبة، وطعوم مكروهة ومحبوبة، وروائح شتى، وحرّ وبرد، ووجاء وفناء، وألوان متضادة على المحل، وموت يقطع الرزق والأمل.

فنعرف أنه لا بد من مخالف خالف بينها، وأحدث ما شهدنا حدوثه منها، وأنه غير لها، لأنها لا تحدث نفسها، إذ الشيء لا يحدث نفسه، لأنه يُودى إلى أن يكون قبل نفسه، وغيراً لها، وكذلك لا تصوّر أنفسها، ولا تخالف بين هيئتها، ولا يقع ذلك بشيء مما يقوله الجاهلون، من طبع أو مادة، أو فلک، أو نجم، أو علمه، أو عقل، أو روح، أو نفس، أو غير ذلك مما يقولونه؛ لأن ذلك إن كان من قبيل الموجبات لم تخل: أن تكون موجودة، أو معدومة. والموجودة لا تخل: أن تكون قديمة، أو محدثة. ولا يجوز ثبوت ذلك لعلّة قديمة ولا معدومة، لأنه لو كان كما زعموا لكان يلزم وجود العالم بما فيه في الأزل، واستغناؤه عن تلك العلل.

ولا يجوز أن يكون ثبوت ذلك لعلّة محدثة، لأنها لا تخلو: إما أن تكون مماثلة لما تقدم [منها]، أو مخالفة [له]، إن كانت مماثلة وجب أن يكون معلولها متماثلاً، وفي علمنا باختلاف ذلك العالم دلالة على بطلان القول بأنه عن علّة مماثلة أو علل متماثلات.

ولا يجوز أن يكون لعلّه مخالفة، ولا علل مخالفة، لأنها حينئذ تكون قد شاركت العالم في الاختلاف؛ الذي لأجله احتاج إليها، فيدور الكلام إلى ما لا يعقل ولا ينحصر من العلل.

فيجب الاقتصار على المحقق المعلوم، والقضاء بأنّ الذي أحدثها وصوّرها، وخالف بينها هو الفاعل المختار، وهو الحي القيوم. (٤٧٨)

فصل [في أنّ الله تعالى قادر]

فإن قيل: ربك قادر، أم غير قادر؟

فقل: بل هو قادر؛ لأنه أوجد هذه الأفعال التي هي العالم، والفعل لا يصح إلا من قادر. أوجده تعالى لا بمماسه، ولا بآله: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" [يس: ٨٢].

فصل [في أنّ الله تعالى عالم]

فإن قيل: أربك عالم، أم غير عالم؟

فقل: بل هو عالم، وبرهان ذلك ما نشاهده فيما خلقه من بدائع الحكمة، وغرائب الصنعة؛ فإنّ فيها من الأحكام والترتيب، ما يعجز عن وصفه اللبيب، [وكل ذلك لا يصح إلا من عالم، كما أنّ الكتابة المحكّمة لا تصح إلا من عالم بها، وهو تعالى لا يختص بمعلوم دون معلوم، فيجب أن يعلم جميع المعلومات، على كل الوجوه التي يصح أن تعلم عليها.

وهو سبحانه يعلم ما أجته الليل، وأضاء عليه النهار، ويعلم عدد قطر الأمطار، ومثاقيل البحار، ويعلم السرّ - وهو ما بين اثنين - وما هو أخفى - وهو ما لم يخرج من بين شفتين " - ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ [المجادلة: ٧] بعلمه لا يلاصقهم، وهو شاخص عنهم ولا يفارقهم].

(٤٧٩)

فصل [في أنّ الله تعالى حي]

فإن قيل: أربك حي، أم لا؟

فقل: بل حي، لأنه تعالى لو لم يكن حياً لم يكن قادراً، ولا عالماً، لأن الميت والجماد لا يفعلان فعلاً، ولا يحدثان صنعةً.

فصل [في أنّ الله تعالى قديم]

فإن قيل: أربك قديم، أم غير قديم؟

فقل: هو موجود لا أول لوجوده؛ لأنه لو كان لوجوده أولٌ لكان محدثاً، ولو كان محدثاً لاحتاج إلى محدث، إلى ما لا يتناهى، وذلك محال، فهو قديم، قادر، حي، عليم، لم يزل ولا يزال، ولا يخرج عن ذلك في حال من الأحوال، لأنه لو لم يكن كذلك لم يكن له بدٌّ من فاعل فعله، وجاعل - على صفات الكمال - جعله، أو يكون لعلّه، وقد ثبت أنه تعالى قديم؛ فلا يصح القول بشيء من ذلك.

فصل [في أنّ الله تعالى سميع بصير]

فإن قيل: أربك سميع بصير؟

فقل: أجل لأنه حيّ كما تقدم، ولا يعتره شيء من الآفات، لأن الآفات لا تجوز إلا على الأجسام، وهو تعالى ليس بجسم، لأنّ الأجسام محدثة كما تقدم، وهو تعالى قديم أيضاً.

(٤٨٠)

فصل [في أنّ الله تعالى لا يشبه الأشياء]

فإن قيل: أربك مشبه الأشياء؟

فقل: ربّي لا يشبه الأشياء؛ لأنّ الأشياء سواه: جوهر، وعرض، وجسم. ولا يجوز أن يكون جوهرًا، ولا عرضًا؛ لأنّهما غير حيين ولا قادرين،

وهو تعالى حي قادر، ولأنهما محدثان وهو قديم ولا يجوز أن يكون جسماً، لأننا قد بينا أنه خالق الأجسام، والشئ لا يخلق مثله، ولأن الجسم مؤلف مصنوع، يفترق ويجتمع، ويسكن ويتحرك، ويكون في الجهات، وتسبقة الأوقات، وكل ذلك شواهد الحدوث، وقد ثبت أنه تعالى قديم، فلا يجوز أن يكون محدثاً بل ليس كمثل شئ وهو السميع البصير.

وإذا لم يكن جوهراً ولا جسماً ولا عرضاً لم يوصف بالكيف، ولا- الأين، ولا الحيث، ولا البين، ولا الوجه، ولا الجنب، ولا اليدين، لم يقطعه بعد، ولم يسبقه قبل، ولم يجزئه بعض، ولا جمعه كل، ليس في الأرض ولا في السماء، ولا حل في متحيز أصلاً، ولا حده فوق ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا خلف، ولا أمام، ولا يجوز عليه المجيء ولا الذهاب، ولا الهبوط ولا الصعود. كان قبل خلق العالم ولا- مكان، ويكون بعد فناء العالم ولا مكان، وهو خالق المكان مستغن عن المكان، وخالق الزمان فلم يتقدمه زمان، ليس بنور ولا ظلام، لأن جميع ما ذكر فان في القدم.

ولأجل ذلك نقول: إنه لا- يجوز أن يقال: هو طويل، ولا قصير، ولا عريض ولا عميق، ولا شويه ولا مريح، ولا أن يقال: هو يستر أو يغتم، أو يظن أو يهتم، أو يعزم، أو يولم، أو يلتذ أو يشتهي، أو ينفز، لأن ذلك كله شواهد الوجود بعد العدم، ومناف لما هو عليه من صفات الكمال والعظمة والجلال.

(٤٨١)

فصل [في آيات الصفات]

فإن قيل: إنه قد ذكر في القرآن: "يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ (المائدة: ٦٤)، وَإِنَّ لَهُ جَنَابًا، وَعَيْنًا، وَأَعْيُنًا، وَنَفْسًا، وَأَيْدٍ، لِقَوْلِهِ: "مِمَّا عَمِلْتُهُ أُيْدِينَا" [يس: ٧١] ووجهاً.

فقل: يده نعمته، ويده قدرته، والأيدى هي: القدرة، والقوة أيضاً.

وجنباً في قوله تعالى: "يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ [الزمر: ٥٦]، أى: في طاعته.

ونفساً في قوله تعالى: "تَعَلَّمَ مِمَّا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [المائدة: ١١٦]، المراد به: تعلم سرى وغيبى، ولا- أعلم سرَكَ وغيبك.

ووجهه: ذاته، ونفسه: ذاته، وقوله تعالى: "فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ [البقرة: ١١٥]، أى الجهة التي وجهكم إليها.

وما ذكر من العين والأعين فالمراد به الحفظ والكلاءة والعلم.

وقوله: "اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف: ٥٤]، استواؤه: استيلاؤه بالقدرة والسلطان، ليس كمثل شئ، ولا يشبهه ميت ولا حي.

فصل [في أن الله تعالى غنى]

فإن قيل: أربك غنى أم لا؟

فقل: إنه غنى لم يزل ولا- يزال، ولا- تجوز عليه الحاجة في حال من الأحوال، لأن الحاجة لا- تجوز إلا- على من جازت عليه المنفعة والمضرة، واللذة والألم، وهذه الأمور لا تجوز إلا على من جازت عليه الشهوة والنفرة، وهما لا يجوزان إلا على الأجسام؛ فيستتر الجسم بإدراك ما يشتهي ويلتذ به، وينمو ويزداد بتناوله،

(٤٨٢)

ويغتم بإدراك ما ينفر عنه ويتضرر به، وينقص بتناوله. وقد ثبت أنه تعالى ليس بجسم، بل هو خالق الجسم، فكيف يخلق مثل ذاته، أو تشاركه الأجسام في صفاته؟! بل لا يجوز عليه شئ من ذلك.

فصل [في أن الله لا يرى بالأبصار]

فإن قيل: أربك يرى بالأبصار، أم لا يرى؟

فقل: هذه مقالة باطله عند أولى الأبصار، لأنه لو رئى في مكان لدل ذلك على حُدوثه، لأن ما حواه محدودٌ محدث.

فإن قيل: إنه يرى في غير مكان. فهذا لا يعقل، بل فيه نفى الروية، وقد قال تعالى: "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ [الأنعام: ١٠٣]، فنفي نفيًا عامًا لجميع المكلفين، و [لجميع] أوقات الدنيا والآخرة.

وقال الله تعالى لموسى - لما سأله الروية - "لَنْ تَرَانِي [الأعراف: ١٤٣]، ولم يسأل موسى - عليه السلام - الروية لنفسه، بل عن سؤال قومه، كما حكاها الله في قصص قومه: "فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرًا فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ [النساء: ١٥٣]، ولو سأله لنفسه لصعق معهم. ولما لم يقع منه خطيئة إلا سؤاله لهم الروية من دون إذن، قال لربه عز وجل: "أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا [الأعراف: ١٥٥]."

فصل [في أن الله تعالى واحد]

فإن قيل: أربك واحد لا ثاني له، أم لا؟

فقل: بلى هو واحد لا ثاني له في الجلال، متفرد هو بصفات الكمال؛ لأنه لو (٤٨٣)

كان معه إله ثان لوجب أن يشاركه في صفات الكمال على الحد الذي اختص بها، ولو كان كذلك لكان على ما قدر قادراً، ولو كان كذلك لجاز عليهما التشاجر والتنازع، ولصح بينهما التعارض والتمانع، ولو قدرنا هذا الجائر لآدى إلى اجتماع الضدين من الأفعال، أو عجز القديم عن المراد، وكل ذلك محال، تعالى عنه ذو الجلال؛ لقوله: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء: ٢٢]، ولقوله عز قائلاً: "أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [الرعد: ١٦] فتبين أن الخلق يشهد بإله واحد، وأنه ليس هناك خلق ثانٍ يشهد بإله ثانٍ، وهذا واضح؛ فإن هذا العالم دليل على إله واحد وهو الذي أرسل الرسل، وأوضح السبل.

ويدل على ذلك قوله عز وجل: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ [محمد: ١٩]، وقوله: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ [آل عمران: ١٨]، وقوله: "وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [الصمد: ١]. (العدل) [فصل في أن الله تعالى عدل حكيم]

فإن قيل: أربك عدل حكيم؟

فقل: أجل، فإنه لا يفعل القبح ولا يُخِلُّ بالواجب من جهة الحكمة، وأفعاله كلها حسنة.

وإنما قلنا: إنه لا يفعل القبيح لأنه إنما يقع ممن جهل قبحه، أو دعت حاجته إلى فعله وإن علم قبحه، وهو تعالى عالم بقبح القبائح؛ لأنها من جملة المعلومات

(٤٨٤)

وهو عالم بجميعها كما تقدم، وغنى عن فعلها كما تقدم أيضاً، وعالم باستغنائها عنها، وكل من كان بهذه الأوصاف فإنه لا يفعل القبيح، ألا- ترى أن من ملَّكه ألف فنطارٍ من الذهب؛ فإنه لا يسرق الدنانق، لعلمه بقبح السرقة، وغناه عن أخذ الدنانق، وعلمه باستغنائها عنه، وكذلك لو قيل للعاقل: إن صدقت أعطيناك درهماً، وإن كذبت أعطيناك درهماً، فإنه لا يختار الكذب - في هذه الحال - على الصدق، [وهما] على وتيرة واحدة، وطريقة مستمرة، ولا علة لذلك إلا ما ذكرناه.

فصل [في أن أفعال العباد منهم] (١)

فإن قيل: هل ربك خلق أفعال العباد؟

فقل: لا- يقول ذلك إلا أهل الضلال والعناد، كيف يأمرهم بفعل ما قد خلق وأمضى، أو ينهاهم عن فعل ما قد صور وقضى، ولأن الإنسان يلحقه حكم فعله من المدح والثناء، والذم والاستهزاء، والثواب والجزاء، فكيف يكون ذلك من العلى الأعلى؟! ولأنه يحصل بحسب قصده ودواعيه، وينتفى بحسب كراهته وصرفه على طريقة واحدة، ولأن الله تعالى قد أضاف أفعال العباد إليهم، فقال:

"يَكْفُرُونَ"، و"يَمْكُرُونَ"، و"يَفْعَلُونَ"، و"يَصْنَعُونَ"، و"يَكْفُرُونَ"، و"يَخْلُقُونَ إِفْكَاً"، ونحو ذلك في القرآن كثير، ولكنه تعالى أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، أقدّرهم على فعل الضدين، وهداهم النجدين، ومكّنهم في الحالين، لم يمنعهم عن فعل المعاصي جبراً، ولا قهرهم على فعل الطاعات قهراً _____،

(١) التعبير موهم للتفويض وهنا تفرق الزيدية عن الإمامية، فإن لأفعال العباد عند الإمامية نسبتين: نسبة إلى الله سبحانه، ونسبة إلى العبد، ولأجل وجود النسبة، فأفعالهم منسوبة إليهم بالباشرة وهم الفاعلون حقيقة، وإلى الله سبحانه بنحو من النسب إما بالتسبب، أو اللطف منها، ولأجل ذلك روى عن الأئمة _ عليهم السلام _ أنه: «لا جبر ولا تفويض».

(٤٨٥)

ولو شاء لفعل كما قال عز وجل: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً" [يونس: ٩٩] ج يريد به مشيئته الإجبار لا مشيئته الاختيار، لأنه لو أكرههم لم يكونوا مكلفين، ولبطل الغرض ببعثه المرسلين.

فصل [في أن الله لا يعذب أحداً إلا بذنبه]

فإن قيل: ربك يعذب أحداً بغير ذنبه؟

فقل: لا يعذب أحداً إلا بذنبه؛ لأن عقاب من لا ذنب له ظلم، والظلم قبيح، وهو تعالى لا يفعل القبيح، وقد قال تعالى: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى" [الأنعام: ١٦٤].

فصل [في أن الله لا يقضى إلا بالحق] (١)

فإن قيل: أربك يقضى بغير الحق؟

فقل: كلا، بل لا يقضى بالكفر والفساد، لما في ذلك من مخالفة الحكمة والسداد، لقوله تعالى: "وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ" [غافر: ٢٠]، فلا يجوز القول بأن المعاصي بقضاء الله تعالى وقدره بمعنى الخلق والأمر، لأنها باطل، ولأن إجماع المسلمين منعقد على أن الرضى بالمعاصي لا يجوز، وإجماعهم منعقد على أن الرضا بقضاء الله واجب، ولا مخلص إذاً من ذلك إلا بالقول بأن المعاصي ليست

(١) العنوان حسن جداً، لكن إخراج المعاصي عن مجال قضائه وإرادته سبحانه يستلزم التفويض الممقوت، فالحق أن كل ما يوجد في الكون من حسن وجميل، وإيمان وكفر، وطاعة وعصيان، ليس خارجاً عن قضائه وعلمه وإرادته لكن على وجه لا يستلزم الجبر ولا يسلب الاختيار. والتفصيل يطلب من محله.

(٤٨٦)

بقضاء الله؛ بمعنى أنه خلقها، ولا أنه أمر بها، وأمّا أنه تعالى عالم بها فهو تعالى عالم بها، لأنها من جملة المعلومات، وعلمه بها لم يحمل العبد على فعلها، ولم يجبره على صنعها كما تقدم.

فصل [في أن الله لا يكلف أحداً فوق طاقته]

فإن قيل: هل ربك يكلف أحداً فوق طاقته؟

فقل: لا، بل لا يكلف أحداً إلا ما يطيق؛ لأن تكليف ما لا يطاق قبيح، وهو تعالى لا يفعل القبيح، فقد قال تعالى: "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا" [البقرة: ٢٨٦]، والوسع: دون الطاقه، وقال: "إِلَّا مَا آتَاهَا" [الطلاق: ٧].

فصل [في أن الله لا يريد شيئاً من القبائح] (١)

فإن قيل: أربك يريد شيئاً من القبائح؟

فقل: إنه تعالى لا يريد شيئاً منها، فلا يريد الظلم، ولا يرضى الكفر، ولا يحب الفساد، لأن ذلك كله يرجع إلى إرادة القبيح، وإرادة القبيح هي قبيحه، وهو تعالى لا يفعل القبيح.

ألا ترى أنه لو أخبرنا مُخبرٌ ظاهره العدالة، بأنه يريد الزنا والظلم لسقطت عدالته، ونقصت منزلته، عند جميع العقلاء، ولا علةٌ لذلك إلا أنه أتى قبيحاً، وهو إرادة القبيح.

وقد قال تعالى: "وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ [البقرة: ٢٠٥]."

وقال: "وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ [الزمر: ٧١]."

وقال: "وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ [عافر: ٣١]."

(١) مضى الكلام فيه في التعليقة السابقة.

(٤٨٧)

فصل [في أن الله لا يفعل ما هو مفسدة]

فإن قيل: فهل ربك يفعل لعباده ما هو مفسدة؟

فقل: كلاً بل لا. يفعل إلا الصّلاح، ولا يبلوهم إلا بما يدعوهم إلى الفلاح، سواء كان ذلك محنة أو نعمة؛ لأنه تعالى لا يفعل إلا الصواب والحكمة كما تقدم، فإذا أمرضهم وابتلاهم أو امتحنهم بفوت ما أعطاهم، فلا بُدَّ من اعتبار المكلفين؛ ليخرج بذلك عن كونه عبثاً، وقد تبّه على ذلك بقوله تعالى: "أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا هُمْ يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ [التوبة: ١٢٦]، ولا بُدَّ من العوض الموفى على ذلك بأضعاف مضاعفة، ليخرج بذلك عن كونه ظلماً، وقد ورد ذلك في السنة كثيراً، والغرض الاختصار. (النبوة) فصل [في معرفة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم] -

فإن قيل: فقد أكملت معرفة ربك، فمن نبيك؟

فقل: محمد - صلى الله عليه وآله وسلم. -

فإن قيل: فما برهانك على ذلك؟

فقل: لأنه جاء بالمعجزة عقيب ادّعاء النبوة، وكل من كان كذلك فهو نبي صادق.

فإن قيل: فما برهانك على أنه جاء بالمعجزة عقيب ادّعاء النبوة؟

فقل: المعلوم ضرورة أنه كان في الدنيا قبيلة تُسمى قريش، وأن فيهم قبيلة تسمى: بنو هاشم، وأنه كان فيهم رجل اسمه: محمد بن عبد الله، والمعلوم ضرورة

(٤٨٨)

أنه ادّعى النبوة، وأنه جاء بالقرآن بعد ادّعاء النبوة، وأنه مشتمل على آيات التحدي، وأنه كان يتلوها على المشركين ويسمعونها وهم النّهاية في الفصاحة، والمعلوم ضرورة شدة عداوتهم له.

وإنما قلنا: بأنه معجز لأنه تحداهم على أن يأتيوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم على أن يأتيوا بسورة من مثله فلم يقدرُوا على ذلك؛ لأنهم لو قدرُوا على معارضته - مع شدة عداوتهم له وعلمهم بأن معارضته بمثل ما جاء به تبطل دعواه - لما عدلوا عنها إلى الشاق من محاربتة، التي لا تدل على بطلان دعواه، فدل ذلك على كونه معجزاً.

ولأنّ القرآن مشتمل على الإخبار بالغيوب المستقبلية، وعلى الإخبار عن الأمور الماضية، فكان الأمر على ما أخبر في الماضي والمستقبل، فدل ذلك على كونه معجزاً، لا يقدر عليه أحد من البشر.

وله معجزات كثيرة تقارب ألف معجزة، نحو: مجيء الشجرة إليه، وجريها على الماء كالسفينه، وسير الشجرة، وإحيائه الموتى، وتسيح الحصى في يده، ونحو ذلك كثير، وإنما قلنا بأن من كان كذلك فهو نبي صادق؛ لأن إظهار المعجز على أيدي الكذابين قبيح، وهو تعالى لا يفعله، وإذا ثبت صدقه وصحة نبوته، وجب تصديقه فيما أخبرنا به عن الأنبياء والمرسلين قبله، ووجب القضاء بصحة نبوتهم وتصديق رسالتهم، وهذا واضح.

فصل [في معرفة القرآن]

فإن قيل: فما اعتقادك في القرآن؟

فقل: اعتقادي أنه كلام الله تعالى، وأنه كلام مسموع محدث مخلوق.

فإن قيل: فما دليلك على ذلك؟

(٤٨٩)

فقل، أمّا قولي: إنه كلام الله تعالى، فلقوله تعالى: "وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ [التوبة: ٦]، المعلوم أن الكلام الذي سمعه المشركون ليس بشيء غير هذا القرآن، ولأن المعلوم ضرورة أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يدين ويخبر بذلك، وهو لا يدين إلا بالحق، ولا يخبر إلا بالصدق، لأن ظهور المعجز على يديه قد استأمن وقوع الخطأ فيما يدين به، وظهور الكذب فيما يخبر به.

وأما قولي: إنه مسموعٌ فذلك معلوم بالحسّ ولقوله تعالى: "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (الجن: ١) والمعلوم ضرورة أن ذلك المسموع هذا القرآن.

وأما قولي: إنه محدث؛ فلأنه فعل من أفعاله تعالى، والفاعل متقدم على فعله بالضرورة، وما يتقدمه غيره فهو محدث، ولأن بعضه متقدم على بعض، وذلك يدل على أنه محدث، ولقوله تعالى: "مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ [الأنبياء: ٢]. والذكر هو القرآن، لقوله تعالى: "وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ [الزخرف: ٤٤]، أي شرفٌ لك ولقومك.

وأما قولي: إنه مخلوق؛ فلأنه مرتبٌ منظومٌ على مقدارٍ معلومٍ موافقٍ للمصلحة. بهذه الصفة المنزلة جاز وصفه بأنه مخلوق، ولما رواه عمر بن الخطاب، عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «كان الله ولا شيء ثم خلق الذكر»، والذكر هو القرآن كما تقدم. ثم قل: وأعتقد أنه حق لا باطل فيه، لقوله تعالى: "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ [فصلت: ٤١ و ٤٢]. ثم قل: وأعتقد أنه لا تناقض فيه ولا تعارض ولا اختلاف"، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً [النساء: ٨٢].

(٤٩٠) (الإمامة) فصل [في إمامة الإمام علي - عليه السلام] - فإن قيل: من أول الأئمة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، وأولى الأمة بالخلافة بعده بلا فصل؟

فقل: ذلك أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب.

فإن قيل: هذه دعوى، فما برهانك؟

فقل: الكتاب، والسنة، وإجماع العترة.

أمّا الكتاب، فقله تعالى: "إِنَّمَا وَكَّلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [المائدة: ٥٥]، ولم يؤت الزكاة في حال ركوعه غير علي - عليه السلام -، وذلك أن سائلاً سأله على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في حال ركوع علي في الصلاة، وذلك في مسجد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فلم يعطه أحد شيئاً، فأشار إليه - عليه السلام - بخاتمه وهو راعع ونواه زكاة، فأخذ السائل، فنزل جبريل - عليه السلام - بهذه الآية على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الحال، فكانت في علي - عليه السلام - خاصة دون غيره من الأمة. وهي تفيد معنى الإمامة لأن الولي هو: المالك للتصرف، كما يقال هنا: ولي المرأة، وولي اليتيم، أي المالك للتصرف عليهما.

وأما السنة، فخير الغدير، وهو قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ألمست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، فقال له عمر: يخ بخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وروي عن المؤيد بالله بإسناده إلى الصادق جعفر بن محمد الباقر أنه سُئِلَ

(٤٩١)

عن معنى هذا الخير، فقال: سئل عنها - والله - رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: «الله مولاي أولى بي من نفسي لا أمر لي معه، وأنا ولي المؤمنين أولى بهم من أنفسهم لا- أمر لهم معي، ومن كنت مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معي، فعلى مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معه».

وإذا ثبت ذلك فإنه يفيد معنى الإمامة؛ لأننا لا نعى بقولنا: فلان إمام إلا أنه أولى بالتصرف في الأمة من أنفسهم، ولأن لفظ المولى لا يفهم منه [إلا] مالك بالتصرف، كما يقال: هذا مولى العبد، أى المالك للتصرف فيه، وهذا يفيد معنى الإمامة كما تقدم.

ومما يدل على ذلك من السنة: (خبر المتزلة) وهو معلوم كخبر الغدير، وهو قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلى: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لانبى بعدى»، فاستثنى النبوة، فدل ذلك على شموله لخصال الفضل كلها، ومن جملتها ملك التصرف على الأمة، وأنه أولى الخلق بالتصرف منهم، وذلك معنى الإمامة كما تقدم.

وأما الإجماع فإجماع العترة منعقد على ذلك.

فصل [في إمامة الحسين]

فإن قيل: لمن الإمامة بعد علي - عليه السلام؟ -

فقل: هي للحسن ولده من بعده، ثم هي للحسين من بعد أخيه - عليهما السلام -

فإن قيل: فما الدليل على إمامتهما؟

فقل: الخبر المعلوم، وهو قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم: «- الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، وأبوهما خير منهما»، وهذا نص جلي على إمامتهما،

(٤٩٢)

وفيه إشارة إلى إمامة أبيهما، لأنه لا يكون خيراً منه إلا إمام شاركه في خصال الإمامة وزاد عليه فيها، فيكون حينئذ خيراً منه، وهذا واضح، والإجماع منعقد على أنه لا ولاية لهما على الأمة في زمن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم، - ولا في زمن علي - عليه السلام - إلا عن أمرهما، وأنه لا ولاية للحسين في زمن أخيه الحسن إلا عن أمره، فبقيت الإمامة مخصوصة بالإجماع.

فصل [في الإمامة بعد الحسين] (١)

فإن قيل: لمن الإمامة بعدهما؟

فقل: هي محصورة في البطينين ومحظورة على من عدا أولاد السبطين، فهي لمن قام ودعا من أولاد من ينتمي نسبه من قبل أبيه إلى أحدهما، متى كان جامعاً لخصال الإمامة، من: العلم الباهر، والفضل الظاهر، والشجاعة، والسخاء، وجودة الرأي بلا امتراء، والقوة على تدبير الأمور، والورع المشهور.

فإن قيل: ما الذى يدل على ذلك؟

فقل: أمّا الذى يدل على الحصر فهو أنّ العقل يقضى بقبح الإمامة، لأنها تقتضى التصرف فى أمور ضارة من القتل، والصّلب، ونحوهما، وقد انعقد إجماع المسلمين على جوازها فى أولاد فاطمة - عليها السلام، - ولا دليل يدل على جوازها فى غيرهم، فبقى من عداهم لا يصلح، ولأنّ العترة أجمعت على أنّها لا تجوز فى غيرهم، وإجماعهم حجّة.

وأما الذى يدل على اعتبار خصال الإمامة التى ذكرنا فهو إجماع المسلمين.

فإن قيل: فسروا لنا هذه الخصال.

فقل: أمّا العلم، فإنه يكون عارفاً بتوحيد الله وعدله، وما يدخل تحت ذلك _____،

(١) الإمامية قائلة بالنص بعدهما إلى الإمام الثاني عشر، فالمخالفة بين الطائفتين واضحة في هذا المقام.

(٤٩٣)

وأن يكون عارفاً بأصول الشرائع وكونها الأدلة، وهي أربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، والمراد بذلك أن يكون فهماً في معرفة أوامر القرآن والسنة ونواهيها، وعامتها، وخاصتها، ومجملتها، ومبينها، وناسخها، ومنسوخها، عارفاً بمواضع الوفاق، وطرق الخلاف في فروع الفقه، لئلا يجتهد في مواضع الإجماع، فيتحرى في معرفة القياس والاجتهاد، ليتمكن ردّ الفرع إلى أصله. وأما الفضل، فأن يكون أشهر أهل زمانه بالزيادة على غيره في خصال الإمامة أو كأشهرهم.

وأما الشجاعة، فإنه يكون بحيث لا يجبن عن لقاء أعداء الله، وأن يكون رابط الجأش وإن لم يكثُر قتله وقاتله.

وأما السخاء، فأن يكون سخياً بوضع الحقوق في مواضعها.

وأما جودة الرأي، فأن يكون بالمتزلة التي يُرَجَّع إليه عند التباس الأمور.

وأما القوة على تدبير الأمور، فلا يكون منه نقص في عقله، ولا آفة في جسمه، يضعف لأجل ذلك عن النظر في أمور الدين وإصلاح أحوال المسلمين.

وأما الورع، فأن يكون كافياً عن المقبحات، قائماً بالواجبات.

فرع [في طريق معرفة مواصفات الإمام]

فإن قيل: فما الطريق إلى إثبات كونه على هذه الخصال؟

فقل: أمّا كونه عالماً فيحصل العلم به للعلماء بالمباحثة والمناظرة، ويحصل لغيرهم من الأتباع العلم بكونه عالماً بوقوع الإطباق والإجماع على كونه كذلك.

وأمّا سائر الخصال فلا بد من حصول العلم بكونه عليها، وإن كان غائباً، فإنه يحصل العلم التواتري بذلك، وكذلك حكم العلم إذا كان غائباً، فإن طريق العلم به

(٤٩٤)

الأخبار المتواترة للعلماء وغيرهم، وإن كان حاضراً فلا بد من حصول العلم بكونه جامعاً لها، لأنها من أصول الدين، فلا يأخذ بالأمارات المقتضية للظن بكونه جامعاً لها.

فصل [الامر بالمعروف والنهي عن المنكر]

فإن قيل: فماذا تدين به في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

فقل: أدين الله تعالى أنه يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لقوله تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" [آل عمران: ١٠٤]، وإنما قلنا: إنه يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لإجماع المسلمين أنه لا يجب الأمر بالمعروف المندوب، فلم يبق إلا القضاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولأن المنكرات كلها قبائح فيجب النهي عنها ومعلوم خلاف ذلك، وقلنا: يجب النهي عن كل منكر لإجماع المسلمين على ذلك؛ ولأن المنكرات كلها قبائح فيجب النهي عنها جميعاً مع الإمكان، كما يلزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان. (المعاد) فصل [في الوعد والوعيد] فإن قيل: فماذا تدين به في الوعد والوعيد؟

فقل: أدين الله بأنه لا بد من الثواب للمؤمنين إذا ماتوا على الإيمان مستقيمين، ودخولهم جنات النعيم: "لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِمُخْرَجِينَ" [الحجر: ٤٨] "خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا".

(٤٩٥)

وأدين الله بصحة ما وعد به من سعة الجنة، وطيب مساكنها، وسرورها الموضوعه، وما كلها المستلذذة المستطابه، وفواكهها الكثيرة التي ليست بمقطوعة ولا ممنوعة، وأنهارها الجارية التي ليست بمستقدرة ولا آسنه، ولا متغيرة ولا آجنه، وملابسها الفاخرة، وزوجاتها

الحسان الطاهرة، والبهية الناضرة، ونحو ذلك مما بينه الله تعالى في كتابه المجيد، وهو حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأدين الله تعالى أنه لابد من عقاب الكافرين في جهنم بالعذاب الليم، وشراب الحميم، وشجرة الزقوم طعام الآثيم، وأنهم يخلدون فيها أبداً، ويلبسون ثياباً من نار، وسراويل من القطران، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وكل ذلك معلوم من ضرورة الدين.

فصل [في أهل الكبائر]

فإن قيل: ماذا تدين به في أهل الكبائر سوى أهل الكفر؟

فقل: أسميهم: فساقاً، ومجرمين، وطغاة، وظالمين، لإجماع الأمة على تسميتهم بذلك، ولا أسميهم كفاراً على الإطلاق، ولا مؤمنين (١) لفقد الدلالة على ذلك.

وأدين الله تعالى بأنهم متى ماتوا مُصْرِين على الكبائر فإنهم يدخلون نار جهنم، ويخلدون (٢) فيها أبداً، ولا يخرجون في حال من الأحوال، لقوله تعالى: _____:

(١) عند الإمامية أنهم مؤمنون وللايمان درجات ومراتب وقد أوضحنا الحال في الجزء الثالث من هذه الموسوعة عند الكلام عن الأصل الرابع للمعتزلة: المنزلة بين المنزلتين.

(٢) عند الإمامية أنهم غير مخلدين وقد أوضحنا الحال في الجزء الثاني عند الكلام في الوعد والوعيد عند المعتزلة.

(٤٩٦)

"إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [الزخرف: ٧٤]، والفساق عاص، كما أن الكافر عاص، فيجب حمل ذلك على عمومهم، إلا ما خصته دلالة. وقوله تعالى: "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً [الفرقان: ٦٨ - ٦٩]. وإجماع العترة على ذلك، وإجماعهم حجة.

فصل [في صفة المؤمن وما يجب في حقه]

فإن قيل: فمن المؤمن، وما يجب في حقه؟

فقل: المؤمن من أتى بالواجبات، واجتنب المُقْبَحَات، فمن كان كذلك؛ فإننا نسميه: مؤمناً، ومسلماً، وزكياً، وتقياً، وبراً، وولياً، وصالحاً، وذلك إجماع، ويجب: إجلاله، وتعظيمه، واحترامه، وتشميتته، وموالاته، ومودته، وتحريم: معاداته، وبُغْضه، وتحظر: نيمته، وغيبته، وهو إجماع أيضاً، ومضمون ذلك أن تُحِبَّ له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، وبذلك وردت السنة.

فصل [في صفة الكافر]

فإن قيل: فمن الكافر؟

فقل: من لم يعلم له خالقاً، أو لم يعلم شيئاً من صفاته التي يتميز بها عن غيره، من كونه قادراً لذاته، عالماً لذاته، حياً لذاته، ونحو ذلك من صفاته المتقدمة، فمن جحد شيئاً من ذلك أو شك أو قلد، أو اعتقد أنه في مكان دون مكان، أو أنه

(٤٩٧)

في كل مكان، أو شك في ذلك، أو اعتقد له شريكاً أو أنه يفعل المعاصي أو يُريد لها، أو يشك في شيء من ذلك، أو جحد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو رد ما علم من الدين ضرورة باضطراب أو شك في شيء من ذلك، فهو كافر بالإجماع، ويجوز أن نسميه: فاجراً، وفاسقاً وطاغياً، ومارقاً، ومجرماً، وضالماً، وآثماً، وغاشماً، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة من أفعاله بلا خلاف.

وإن كان يُظهر الإيمان ويبطن الكفر، جاز أن نسميه مع ذلك: منافقاً، بالإجماع.

ومن كانت هذه حاله - أعنى غير المنافق - جاز قتله وقتاله، وحصره، وأخذ ماله، وتجب معاملته بنقيض ما ذكرنا أنه يجب من حق

المؤمن، وقد ذكرنا أحكامه مفصلة في (ثمرات الأفكار في أحكام الكفار). فصل [في صفة الفاسق]

فإن قيل: فمن الفاسق وما حكمه؟

قلنا: أميا الفاسق فهو مُرْتَكِبُ الكبائر سوى الكفر، نحو الزاني، وشارب الخمر، والقاذف، ومن فرّ من زحف المسلمين غير متحرفٍ لقتال ولا متحيز إلى فئة، وتاركُ الجهاد بعد وجوبه عليه، وتاركُ الصلاة، والصيام، والحج، مع وجوب ذلك عليه، غيرُ مُستحلٍّ لتركه ولا مستخفٍّ، والسارق من سرق عشرة دراهم - أي قفلة - فما فوق بغير حق، ونحو ذلك من الكبائر، فمن فعل ذلك أو شيئاً منه، فإنه يجوز أن نسميه بالأسماء المتقدمة قبل هذه في الكافر، إلا لفظ: الكافر، والمنافق، فإن ما عداهما إجماع أنه يجوز تسميته به، وأما المنافق فلا بد من دلالة تدل على

(٤٩٨)

جواز إطلاقه عليه، وأما لفظ: الكافر، فمنعه كثير من العلماء، وأجاز إطلاقه جماعة مع التنبيه، فقالوا: هو كافر نعمه، وهو الصحيح؛ لأنه مروى عن علي - عليه السلام - وهو إجماع العترة، ولموافقة الكتاب.

وأما حكمه فحكم الكافر فيما تقدم إلا القتل والقتال، وأخذ الأموال فلا يجوز إلا بالحق، ولا يجوز قتله على الإطلاق، وكذلك حصره فلا يجوز بحال من الأحوال. فرع [في الفرق بين فعل الله وفعل العبد]

فإن قيل: ما الفرق بين فعل الله وبين فعل العبد؟

فقل: فعل الله جواهر وأعراض وأجسام، يعجز عن فعلها جملة الأنام، ومضمونه أن كلما وقف على قصد العبد واختياره تحقيقاً أو تقديرًا فهو فعله، ومالم يكن كذا فليس بفعله. فصل [في أنه لا بد من الموت والفناء]

ثم قل أيها الطالب للنجاة: وأدين الله تعالى بأنه لا بد من الموت والفناء، والإعادة بعد ذلك للحساب والجزاء، والنفخ في الصور، وبعثه القبور، والحشر للعرض المشهور، والإشهاد على الأعمال بغير زور، ووضع الموازين، وأخذ الكتب بالشمال واليمين، والبعث والسؤال للمكلفين، وأن ينقسموا فريق في الجنة وفريق في السعير، وكل ذلك معلوم من ضرورة الدين، وأنه لا بد من المناصفة بين المظلومين والظالمين، لدلالة العدل بيقين.

(٤٩٩)

فصل [في الشفاعة]

فإن قيل: ما تقول في الشفاعة؟

فقل: أدين الله تعالى بثبوتها يوم الدين، وإنما تكون خاصة للمؤمنين (١). - دون من مات مصرًا من المجرمين على الكبائر - ليزيدهم نعيمًا إلى نعيمهم، وسرورًا إلى سرورهم، ولمن ورد العرض وقد استوت حسناته وسيئاته، فيشفع له النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ؛ ليرقى درجة أعلى من درجة غير المكلفين من الصبيان والمجانين، وإنما قلنا: إنه لا بد من ثبوتها، لقوله تعالى: "عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا" [الإسراء: ٧٩]، قيل: هو الشفاعة، وقال - صلى الله عليه وآله وسلم: «من كذب بالشفاعة لم ينالها يوم القيامة». وأمّا أنها تكون لمن ذكرناها، فلقوله تعالى: "مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ" [غافر: ١٨]، "مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ" [البقرة: ٢٧٠]، وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم: «ليست شفاعةي لأهل الكبائر من أمتي»، وقوله تعالى: "وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى" [الأنبياء: ٢٨] كل ذلك يدل على ما قلنا.

وتم بذلك ما أردنا ذكره للمسترشدين، تعرّضًا منّا لثواب رب العالمين، ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. وصلّى اللّهُم على محمد صفيك وخاتم أنبيائك، وعلى آله سفن النجاة آمين. وتوفنا مسلمين آمين اللهم آمين.

(١) أراد بالمؤمنين العدول وعند الإمامية يعم العادل والفاسق وقد بينا الدليل في الجزء الثالث عند الكلام في الشفاعة عند المعتزلة. وهذه المواضع الثلاثة، هي من مواضع الاتفاق بين المعتزلة والزيدية.

(٥٠٠) مصباح العلوم في معرفة الحى القيوم وهناك رسالة أخرى في عقائد الزيدية باسم «مصباح العلوم في معرفة الحى القيوم» للعلامة أحمد بن الحسن الرصاص المتوفى عام ٦٠٠ - أو ٦٥٠ وعلى كل تقدير فالرسالة تنتمي إلى النصف الأول من القرن السابع كالرسالة السابقة وهي معروفة بالثلاثين مسألة، وقد حَقَّقها الدكتور محمد عبد السلام كفاي أستاذ الآداب الإسلامية بجامعة القاهرة وجامعة بيروت العربية وقوم نصَّها بالعثور على مخطوطات في مكتبة المتحف البريطاني بلندن، ولها نسخ في مكتبات أوروبا يقول المحقق: «والظاهر من كثرة عدد النسخ أن هذه الرسالة كانت ذائعة بين أتباع المذهب الزيدى ولا عجب في ذلك فهي تلخص معتقداتهم تلخيصاً وافياً في صفحات قليلة» (١)

إنَّ تعاصر المؤلفين وتقارب مضامين الرسالتين، ورغبة القراء إلى الاختصار حفزتنا إلى نشر الرسالة الأولى فقط.

١ - مصباح العلوم : المقدمة ٥.

(٥٠١)

الفصل العاشر في أمور متفرقة

الفصل العاشر في أمور متفرقة

الأول: حلقات المناظرة بين الإمامية والزيدية :

يشهد التاريخ على أنَّ حلقات المناظرة كانت تنعقد في الجامعات وبيوت الشخصيات في عصر الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣هـ) ويشارك فيها الإمامي والزيدى والمعتزلى وغيرهم، وكان الشيخ يناظر كل هذه الفرق، ببلاغة تثير إعجاب المشاركين.

وقد ذكر السيد المرتضى (٣٥٥ - ٤٦٣هـ) قسماً من هذه المناظرات في كتابه «الفصول المختارة» الذى اختاره من كتاب «العيون والمحاسن» لأستاذه الشيخ المفيد، وقد طبع الأول دون الثانى.

ونذكر هنا أجوبة الشيخ للاعتراضات الثلاثة التى طرحها أحد شيوخ الزيدية المعروف بالطبرانى ويدور الجميع على محاور ثلاثة.

إنَّ الإمامية حنبليَّة من جهات ثلاث:

١ - يعتمدون على المنامات كالحنبلة.

٢ - يدعون المعجزات لأكابرهم كالحنبلة.

٣ - يرون زيارة القبور مثلهم.

(٥٠٢)

وإليك الاعتراضات والأجوبة بنصهما.

قال الشيخ: كان يختلف إلى حدِّث من أولاد الأنصار ويتعلَّم الكلام فقال لى يوماً: اجتمعت البارحة مع الطبرانى شيخ من الزيدية، فقال لى: أأنتم يامعشر الإمامية حنبليَّة وأنتم تستهزئون بالحنبليَّة، فقلت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنَّ الحنبليَّة تعتمد على المنامات وأنتم كذلك، والحنبليَّة تدعى المعجزات لأكابرها وأنتم كذلك، والحنبليَّة ترى زيارة القبور والإعتكاف عندها وأنتم كذلك، فلم يكن عندي جواب أرطضيه، فما الجواب؟

الجواب على الاعتراض الأول:

قال الشيخ أدام الله عزَّه: فقلت له: أرجع فقل له: قد عرضتُ ما ألقيته إلى على فلانٍ، فقال لى: قل له إن كانت الإمامية حنبليَّة بما

وصفت أيها الشيخ فالمسلمون بأجمعهم حنبلية والقرآن ناطق بصحة الحنبلية وصواب مذاهب أهلها، وذلك أن الله تعالى يقول: "إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبتِ إنني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيُكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (يوسف: ٤ - ٥).

فأثبت الله جلَّ اسمه المنام وجعل له تأويلاً عرفه أوليائه _ عليهم السلام _ وأثبتته الأنبياء ودان به خلفاؤهم وأتباعهم من المؤمنين واعتمده في علم ما يكون وأجره مجرى الخبر مع اليقظة وكالعيان له.

وقال سبحانه: "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ" (يوسف - ٣٦).

فتبأهما _ عليه السلام _ بتأويله وذلك على تحقيق منه لحكم المنام، وكان سؤالا لهما له مع جهلهما بنبوته دليلاً على أن المنامات حق عندهم، والتأويل لأكثرها

(٥٠٣)

صحيح إذا وافق معناها، وقال عزَّ اسمه: "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَوَامٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرُ يُاسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ" (يوسف: ٤٣ - ٤٤) ثم فسرها يوسف _ عليه السلام _ وكان الأمر كما قال.

وقال تعالى في قصة إبراهيم وإسماعيل _ عليهما السلام: "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ" (الصافات: ١٠٢) فأثبتا _ عليهما السلام _ الرويا وأوجبا الحكم ولم يقل إسماعيل لأبيه _ عليه السلام _ يا أبت لا تسفك دمي برويا رأيتها فإن الرويا قد تكون من حديث النفس، وأخلط البدن وغلبه الطباع بعضها على بعض كما ذهبت إليه المعتزلة.

فقول الإمامية في هذا الباب ما نطق به القرآن، وقول هذا الشيخ هو قول الملا من أصحاب الملك حين قالوا: "أضغاث أحلام" ومع ذلك فإننا لسنا نثبت الأحكام الدينية من جهة المنامات وإنما نثبت من تأويلها ما جاء الأثر به عن ورثة الأنبياء _ عليهم السلام _ الجواب على الاعتراض الثاني:

فأمّا قولنا في المعجزات فهو كما قال الله تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" (القصص - ٧).

فضمّن هذا القولُ تصحيح المنام إذ كَانَ الْوَحْيُ إِلَيْهَا فِي الْمَنَامِ، وَضَمَّنَ الْمَعْجَزَ لَهَا لَعَلَّمَهَا بِمَا كَانَ قَبْلَ كَوْنِهِ.

وقال سبحانه في قصة مريم _ عليها السلام: "فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي

(٥٠٤)

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا" (مريم - ٢٩ - ٣١) فكان نطق المسيح _ عليه السلام _ معجزاً لمريم _ عليهما السلام _ إذ كان شاهداً ببراءة ساحتها. وأمّ موسى _ عليه السلام _ ومريم لم تكونا نبيين ولا مرسلين ولكنهما كانتا من عباد الله الصالحين. فعلى مذهب هذا الشيخ كتاب الله يصح الحنبلية.

الجواب على الاعتراض الثالث:

وأمّا زيارة القبور فقد أجمع المسلمون على وجوب زيارة رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم _ حتى رووا «من حجَّ ولم يزره متعمداً فقد جفاه _ صلى الله عليه وآله وسلم _ وثلم حجَّه بذلك الفعل»، وقد قال رسول الله _ صلى الله عليه وآله وسلم: «من سلّم عليّ من عند قبري سمعته، ومن سلّم عليّ من بعيد بلغته» سلام الله عليه ورحمته وبركاته وقال _ صلى الله عليه وآله وسلم _ للحسن -

عليه السلام - «من زارك بعد موتك أو زار أباك أو زار أخاك فله الجنة».

وقال أيضاً: في حديث له أول مشروح في غير هذا الكتاب: «تزوركم طائفة من أمتي تريد به بزي وصلتي فإذا كان يوم القيامة زرتها في الموقف فأخذت بأعضادها وأنجيتها من أهواله وشدائده».

ولا خلاف بين الأئمة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما فرغ من حجّة الوداع لاذ بقبر درس فقعد عنده طويلاً ثم استعبر فقيل له: يارسول الله ما هذا القبر؟ فقال: هذا قبر أُمّي آمنه بنت وهب سألت الله في زيارتها فأذن لي.

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - «قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا- فزورها وكنت نهيتكم عن ادّخار لحوم الأضاحي إلا فادخروها».

وقد كان أمر في حياته - صلى الله عليه وآله وسلم - بزيارة قبر حمزة - عليه السلام - وكان - عليه السلام - يلتمّ به وبالشهداء، ولم تزل فاطمة - عليها السلام - بعد وفاته - صلى الله عليه وآله وسلم - تغدو إلى قبره وتروح لزيارته وكان أهل بيته والمسلمون يشربون على زيارته وملازمة قبره - صلى الله عليه وآله وسلم - فإن كان ما تذهب إليه الإمامية من زيارة مشاهد الأئمة - عليهم السلام - حنبلية وسخفاً من

(٥٠٥)

الفعل، فالإسلام مبنى على الحنبلية ورأس الحنبلية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهذا قول متهافت جداً يدلّ على قلّة دين قائله وضعف رأيه وبصيرته.

ثم قال له: يجب أن تعلم أن الذي حكيت عنه قد حزف القول وقبحه ولم يأت به على وجهه، والذي نذهب إليه في الرويا أنها على أضرب: فضرب منه يبشر الله به عباده ويحذرهم. وضرب تهويل من الشيطان وكذب يخطر ببال النائم. وضرب من غلبه الطباع بعضها على بعض، ولسنا نعلم على المنامات كما حكاها لكننا نأنس بما نبشر به، ونتخوف مما نحذر منها ومن وصل إليه شيء من علمها عن ورثة الأنبياء - عليهم السلام - مَيّز بين حقّ تأويلها وباطله ومتى لم يصل إليه شيء من ذلك كان على الرجاء والخوف.

وهذا يسقط ما لعله سيتعلق به في منامات الأنبياء - عليهم السلام - من أنها وحى لأنّ تلك مقطوع بصحتها وهذه مشكوك فيها مع أنّ منها أشياء قد اتفق ذوو العادات على معرفته تأويلها حتى لم يختلفوا فيه ووجدوه حسناً.

وهذا الشيخ لم يقصد بكلامه الإمامية ولكنه قصد الأئمة ونصر البراهمة والملاحدة، مع أني أعجب من هذه الحكاية عنه وأنا أعرفه يميل إلى مذهب أبي هاشم ويعظمه ويختاره، وأبو هاشم يقول في كتابه «المسألة في الإمامة»: إنّ أبا بكر رأى في منام كان عليه ثوباً جديداً عليه رقمان ففسره على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال له: إن صدقت رويّاك تبشر بخير (فستخبر بولدين خ) وتلى الخلافة سنتين، فلم يرض شيخه أبو هاشم أن أثبت المنامات حتى أوجب بها الخلافة وجعلها دلالة على الإمامة. فيجب على قول هذا الشيخ الزيدي عند نفسه أن يكون أبو هاشم رئيس المعتزلة عنده حنبلية بل يكون عنده أبو بكر حنبلية بل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه صحح المنام وأوجب به الأحكام، وهذا من بهرج المقال (١)

(١) السيد المرتضى: الفصول المختارة: ١٢٨ - ١٣٢ .

(٥٠٦)

الثاني: وجود المزاملة بين الطائفتين:

إنّ السير في التاريخ يثبت بأنّ المزاملة العلمية والاجتماعية بين الشيعة الزيدية والشيعة الإمامية في الأعصار السابقة كانت وطيدة. وكانت كل طائفة تعرف ما عند الطائفة الأخرى من العقائد والأحكام، والأدب والشعر. وكانت المجالس المنعقدة في الجامعات والبيوت تحتفل بهما معاً. فكان يدور بينهما النقاش والإفادة والاستفادة، ويظهر ذلك من كتاب الشيخ المفيد أعني الفصول المختارة. كما يظهر أيضاً من الرجوع إلى كتابه أوائل المقالات على أنّ له رسالة خاصة في عقائد الجارودية من الزيدية.

كل ذلك يعرب عن صلة وثيقة بين الطائفتين. ولا إشكال أن الصلة كانت لصالحهما. ولكن لانعلم في أي عصر ضعفت هذه الصلة إلى أن كادت أن تنقطع.

فلاجل ذلك لانكاد نرى زيدياً في جامعة النجف الأشرف وسائر حوزات الشيعة الإمامية وبالعكس إلا نادراً. كما لا نرى أي صلة بين الطائفتين في الكتب المؤلفة في العصور الأخيرة من عصر ابن المرتضى إلى يومنا هذا. ولعلّ الأجواء والظروف السياسية قد أوجدت تلك الهوة ما بينهما فخرست الطائفتان علمياً وأدبياً إذ هما صنوان يقومان على جذور واحدة.

أسأله سبحانه أن يعيد الوحدة ما بين المسلمين عموماً، وبين الطائفتين خصوصاً.
(٥٠٧)

الثالث: نشر الثقافة الزيدية :

إنّ الزيدية - بحق - تركت ثروة علمية في جميع مجالات العلوم الإسلامية خصوصاً في الأدب والكلام والفقه، وتراثهم الباقي، وفهارس مكتباتهم يشهد على ذلك بوضوح. ولعل أحد العلل في تطور علومهم خصوصاً في الفقه عدم التزامهم بالأخذ بالمذاهب الفقهية المعروفة وإن كانوا متأثرين بالفقه الحنفي.

فوجود الاجتهاد واستمراره في حياتهم من عصر القاسم الرسي إلى يومنا هذا ضخم ثقافتهم، وأعطى لها أبعاداً كثيرة.

غير أن من المؤسف عليه عدم اطلاع المسلمين على تلك الثقافة لأنها صارت محصورة في اليمن وما والاها.

وقد قام العلامة البحاث السيد أحمد الحسيني دام علاه بفهرسة كتبهم بعد رحلتين إلى اليمن الخصب فجاء مجهوده مطبوعاً في أجزاء ثلاثة ذكر فيها أسماء (٣٣٤٦) من كتبهم المختلفة حسب الحروف الأبجدية وأردفها بالفهارس العامة أهمها فهرس أسماء المؤلفين فقد ذكر أسماء المؤلفات حين التعرض لأسماء المؤلفين وبذلك يغني الإنسان عن ملاحظة كل كتاب في محله. ومن حسن الحظ أنّ مكتبة الجامع الكبير بصنعاء تحفل بمخطوطات كثيرة للزيدية فعلى المهتمين بالتراث الإسلامي السعي في تصويرها قبل أن تندثر. وللتعرف على الشخصيات الزيدية وعلى ثقافتهم وكتبهم لا محيص من الرجوع إلى كتبهم المختلفة في التراجم والرجال والتاريخ. ومن هذه الكتب ما نذكره فيما يلي والكل مخطوط لم ير النور:

(٥٠٨)

١- نسمة السحر في ذكر من تشيع وشعر: تأليف يوسف بن يحيى الحسنى الصنعاني (١١٢١هـ) ترجم فيه لمائة وأربعة وتسعين من شعراء الشيعة المتقدمين والمتأخرين منهم.

٢- نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الآلف: تأليف السيد محمد بن محمد زبارة الحسنى الصنعاني ١٣٨٠ هـ ترجم لأعلام اليمن في القرون الأربعة بعد الآلف الهجرى إلى سنة ١٣٧٥ هـ وقد أسمى لكل قرن اسماً.

٣- مطلع البدور ومجمع البحور: تأليف القاضي أحمد بن صالح أبي الرجال الصنعاني (ت ١٠٩٢هـ) وهو في أربعة أجزاء تشتمل على أكثر من ١٣٦٠ ترجمة.

٤- نشر كتاب الحدائق الوردية: لحمد الدين المحلى نشرأً جديداً يناسب روح العصر.

إلى غير ذلك من الكتب التي تعرّف أئمة الزيدية وشخصياتهم.

نعم ألفت في العصور الأخيرة كتب في تاريخ اليمن لها قيمتها، وللمؤلفين أجرهم.

(٥٠٩)

الرابع: صيغة الحكومة الإسلامية لدى الزيدية:

إنّ للحكومة الإسلامية حسب ما يعطى الإمعان في الكتاب والسنة وسيرة المسلمين أسساً وأركاناً ثلاثة لكل شأنه ومكانته:

١ - السلطة التشريعية :

للسلطة التشريعية مراحل ثلاث بعضها بيد الله سبحانه، والبعض الآخر موكول إلى الأمة الإسلامية في ضمن شرائط:

١ - التشريع والتقنين لله خاصة بالأصالة فلا شارع ولا مقنن سواه ولا يحق لأحد - كان من كان وبلغ ما بلغ من العلم والثقافة والمكانة الفكرية والاجتماعية - أن يشرع حكماً أو يحلّ حلالاً أو يحرم حراماً فكل ذلك موكول إلى الله سبحانه، إذ الحكم، حكمان: إلهي وجاهلي ولا ثالث لهما فإذا لم يكن معزواً إليه، فهو حكم جاهلي قال سبحانه: "أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" (المائدة - ٥٠) .

نعم هناك مرحلتان: مفوضتان إلى فريق من الأمة لهم صلاحيات خاصة وهما:

١ - مرحلة التشخيص: أي استنباط الحكم الإلهي من الكتاب والسنة، فهي للفقهاء العدول، يبذلون جهدهم لفهم حكم الله واستخراجه من الأدلة الشرعية.

٢ - مرحلة التخطيط وتبيين برامج البلاد حسب الضوابط الإسلامية وهي للخبراء وذوى الإطلاع من الأمة وهذا ما يصطلح عليه اليوم بالمجلس النيابي.

والفرق بين صيغة الحكومة الإسلامية والأنظمة البشرية الغربية والشرقية، هو أن سلطة التشريع بيد الله سبحانه فيها دون تلك الأنظمة إذ فيها بيد وكلاء

(٥١٠)

الشعب فالمجلس النيابي عندهم مجلس التقنين والتشريع وعند المسلمين مجلس التخطيط والتنظيم في ضوء قوانين السماء.

٢ - السلطة التنفيذية :

المراد بالسلطة التنفيذية في مصطلح اليوم هو هيئة الوزراء وما يتبعها من دوائر ومديريات منتشرة في أنحاء البلاد ومهمتها تنفيذ ما يقرره مجلس الشورى من تصميمات وقرارات ومخططات في شتى حقول الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبالتالي يقع على عاتقها مهمة إدارة البلاد بصورة مباشرة، لها ألوان وصيغ في الأنظمة البشرية وأما لونها في الحكومة الإسلامية فليس إلا كون السلطة - إذا لم يكن هناك نص من الله سبحانه على شخص خاص - موضع رضا الأمة لأنها تتسلم زمام السلطة المباشرة على نفوس الناس وأموالهم وأرواحهم، ولولا الرضا لعاد إلى الاستبداد المبعوض عند الشرع والعقل وقد بسطنا الكلام حول السلطة التنفيذية وصلاحياتها من التخصص، والوثاقة، والزهد، والعدل، وكونها موضع رضا الأمة في كتابنا: «مفاهيم القرآن» (١)

٣ - السلطة القضائية:

إن القضاء يلعب دوراً كبيراً في تبديل الاختلاف إلى الوئام، والتنازع إلى التوافق وبالتالي ينشر العدل ويصون الحقوق والحرمانات، غير أنه لا يصلح ذلك المقام إلا لفريق من الشعب يتمتعون بالبلوغ والعقل والإيمان والعدالة وطهارة المولد والعلم بالقانون الإلهي والذكورة، سليم الذاكرة، وعندئذ يحقق القاضي أهدافه السامية _____.

(١) مفاهيم القرآن : ٢ | ٢٠٥ - ٢١٠ .

(٥١١)

لا استبداد في الحكومة الإسلامية :

وما ذكرناه يوقف الإنسان على صورة بسيطة من الحكومة الإسلامية المتجلية في نظرية الإمامة أو الخلافة وليس فيها أي استبداد وسلب الحريات، وأما تخصيص التشريع بالله سبحانه، فلأنه سبحانه أعرف بمصالح عباده، ولأن التقنين سلطة على الأموال والنفوس وهي فرع وجود الولاية عليهما، ولا ولاية لأحد على أحد إلا لله سبحانه، فلأجل ذلك خص التشريع به سبحانه، وأما المرحلتان الباقيتان أعنى الإفتاء والتخطيط، فيقوم به فريق منهم، لهم صلاحيات وقابليات. فالإفتاء وإن كان رهن شروط ولكنه لا يشترط فيه رضا

الأمّة، لأنّه مقام علمي، يتوقف على حيازته ويكفي ثبوت الصلاحية له، اقتترانه بتصديق الخبراء.

نعم التصدي للتخطيط، رهن رضا الأمّة وتحقيق الرضا وتجسيدها يتبع مصالح العصر وشعور الأمّة.

وأمرًا السلطّة التنفيذية، فلو كان الحاكم منصوباً من الله سبحانه، فهو المتبع، كما في مورد الرسول، والإمام المنصوص بعده، وإلا فالسلطّة لفريق من الأمّة، يتمتع بصفات وقابليات مذكورة في السنّة، أهمها كونها موضع رضا الأمّة، ويتجسد رضاهم بصورة مختلفة مذكورة في محلها.

ومثلها السلطّة القضائية فلا يصلح لها إلا فريق لهم صفات وموهلات، وتنتهي سلطته، إلى رضا الأمّة الذي يتجسد بصور شتى.

نظرية الإمامة لدى الزيدية :

إنّ المطروح لدى الزيدية من الإمامة غير ما ذكرنا ولو كان الملاك لتبيين مذهبهم ما ذكره كتاب العقائد من غيرهم، وابن المرتضى

من أنفسهم، فظام الإمامة في غير مورد المنصوص عليه عندهم، أمر لا يلائم روح الكتاب والسنّة ولا

(٥١٢)

متطلبات العصر، لأنهم القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن والحسين (بالتنصيب السماوي) وزيد بن علي وإمامة

كل فاطميّ دعا إلى نفسه وهو علي ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة وكانت بيعته على تجريد السيف للجهاد (١)

وقال الشهرستاني: إنهم (الزيدية) يعتبرون في نظام الإمامة أتباع كل فاطمي عالم، شجاع، سخي، خرج بالإمامة، سواء كان من أولاد

الحسن أو من أولاد الحسين _ عليهما السلام _ وربّما جؤزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال ويكون كل واحد

منهما واجب الطاعة (٢)

ويقول ابن المرتضى وتنعقد بالدعوة مع الكمال.

الإمعان في كتب الزيدية حول الإمامة أو ما حرروه بأقلامهم، يعرب عن أنّ دعائم الإمامة عندهم ثلاثة:

١- الوراثة: كون الداعي فاطميّاً.

٢- الدعوة إلى الإمامة.

٣- الخروج بالسيف.

ولكن باب المناقشة فيها مفتوح.

أمّا المبدأ الأوّل فإذا كان الإمام منصوباً من قبل الله فالمتبع أمره فاطميّاً كان أو لا، وإن كان أمره سبحانه في غير الإمام علي _ عليه

السلام _ منطبقاً عليه، لكن لا بملاك كونهم فاطميين بل بملاكات خاصة أهلتهم لأن يكونوا أولى الأمر، وواجبي الطاعة قال سبحانه:

"أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ" (النساء - ٥٩)

(١) المفيد أوائل المقالات: ٣٩، طبعه جماعة المدرسين.

(٢) ٢- الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ١٥٤ .

(٥١٣)

وإذا كان غير منصوص فاللازم كون الإمام ذا قابليات توّهله لاشغال منصب الإمامة سواء أكان فاطميّاً أم لا، فالإصرار على هذا المبدأ

خصوصاً فيما إذا كان غير الفاطمي أبصر وأعلم، وأتقى وأزهد وأوقع في القلوب، غير صحيح.

ثم إنّ المبدأ الثاني والثالث يثيران الرغبة والطمع في كل فاطمي يرى نفسه عادلاً، وعالمياً وشجاعاً فعند ذلك ينتهي الأمر إلى النزاع

والتشاجر وربما - لا سمح الله - إلى إراقة الدماء.

وحاصل الكلام: أنّ مكافحة الاستبداد ورفض ابتزاز أمر الأمّة بلا رضا منها، رهن أحد أمرين:

١ - أن يصدر من الله الرحمن الرحيم على عباده، الواقف على مصالحهم ومفاسدهم، تنصيب على ولاية أحد، كالنبي الأعظم وأئمّة

أهل البيت عند الشيعة.

٢- مشاركة الشعب في بناء النظام حتى يكون مورد رضاهم بنحو من الأنحاء ولاشئء ثالث، وإلا- فلو لم يكن هذا ولا ذاك كثر الطالب وزادت الدعوة وربما ينتهي إلى حروب دامية، وما ذكره الإمام يحيى بن الحسين لحسم النزاع لايفيد شيئاً حيث قال: إن تشابها في العلم فالإمامة لأورعهما وإن تشابها في الورع والعلم، فالإمامة لأزهدهما، وإن تشابها في ذلك كله فالإمامة لأسخاهما، وإن تشابها فلاشجعهما، فلارحمهما....

إنّ ما ذكره من الضابط لحسم مادة الخلاف لو كانت مفيدة فإنما تفيد في رفع النزاع في إمامة المسجد، لا في رفع النزاع في الزعامة الكبرى، إذ كل يزعم أنه، أعلم، وأورع، وأزهد، وأسخى، وأشجع، وربما يحلف عليه ويجمع الجموع... فلاجل ذلك المأزق الذي يواجه فكرة الإمامة لدى الزيدية عاد المفكرون

(٥١٤)

من متأخريهم إلى طرح الفكرة بشكل يلائم روح العصر ويقول أحد الكتاب:

أمّا الزيدية فلهم طريقان لاختيار الإمام بعد المنصوص عليهم:

١- ترشيح الشخص العارف من نفسه، الأهلية بواسطة منشور- الدعوة- يوضح فيه موجبات الدعوة وأهليته للقيام بالإمامة ومنهج عمله فيها.

وعند ذلك يجتمع العلماء والزملاء والمثقفون- رجال الحل والعقد- ويصلون لمناقشته واختياره ان كان غير معروف لديهم، ويتشاورون فيما بينهم في موضوع كفاءته ومكانته، فإذا ارتضوه بعد ذلك بايعوه وإلا عدلوا إلى غيره.

٢- يُرشح رجال الحل والعقد واحداً لمن يروونه صالحاً لهذا المنصب العظيم، وإذا وافقهم على ترشيحه بايعوه وإلا عدلوا إلى غيره (١)

ولعل هذه الأطروحة التي قدمها الفاضل المعاصر تزيح بعض النقاش حول النظرية، ويصوّرها تصويراً هادئاً قابلاً للتجسيد كما أنّ المعلق على البحر الزخار، طرح نظرية الإمامة بالشكل التالي معلقاً على قول ابن المرتضى «وتنقذ بالدعوة مع الكمال» قوله: مع عدم المنازع فيفوز بذلك أو بأن تحصل له البيعة من الأكثرية مع عدم وجود المنازع، كل ذلك بعد سبق ترشيحه من ذوى الحل والعقد لمعرفة حصوله على الشروط المؤهلة له

(٢)

إنّ ما نقلناه عن العلمين وإن كان يهوّن الخطب في مسألة الإمامة، لكن التاريخ يشهد على أنّ السيرة جرت على سيادة من غلب، ولم يكن ترشيح الشخص، أو ترشيح رجال الحل والعقد واحداً من الصلحاء إلا حبراً على ورق إلا

١- الزيدية نظرية وتطبيق: ١١٨.

(٢) ابن المرتضى: مقدمة البحر الزخار: ٩٢.

(٥١٥) في فترات قليلة.

هذا وما مثله أعطت حجة للوسائل الإعلامية أن تتهجم على نظام الإمامة بأنّه حكومة استبدادية تسلب فيها الحريات بإرادة الفرد السائس، ويرافق دائماً بالضغط على الشعب، وتثنى على الجمهوريّة بأنّ فيها ضمناً على الحريات المعقولة ولم تزل الحرب الإعلامية قائمة على قدم وساق تدعمها المعسكرات الغربية والشرقية المحاربة لكل نظام ديني قائم في أي قطر من أقطار العالم، إلى أن أُجج نار الحرب المبيرة لكل رطب ويابس، في بلد فقير كاليمن التي لا تملك إلا جمال الطبيعة وانتهت إلى انتصار المخالفين في ظل القوات المكتنفة التي كانت وراءها الجمهوريّة العربية المتحدة، في أيام جمال عبد الناصر فسقط نظام الإمامة سياسياً وحكومياً وإن كانت القلوب المؤمنة متبئته بها.

فالمرجو من الله سبحانه أن يوفق المسلمين لتوحيد الكلمة كما وفقهم لكلمة التوحيد، ويجمع شملهم، ويشير شعور المفكرين إلى واجبه تجاه الحكومة الإسلامية إنه بذلك قدير وبالإجابة جدير.

(٥١٦) الخامس: المحاربة بين الطائفتين من الشيعة:

إنّ الزيدية والإسماعيلية، من الفرق الشيعية، وبينهما مؤلفات ومفترقات، وقد اتفقت الطائفتان، على أنّ تحقيق القيادة الإسلامية بعد رحيل النبي الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - ليس بالبيعة والاختيار، ولا للأمة فيها حظ، ولا نصيب شأن كلّ مورد سبقت مشيئته على إرادة الأمة ومشيتها، قال سبحانه: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ" (الأحزاب - ٣٦) بل تحقيقها بالنص من الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - على فرد من آحاد الأمة وقد اتفقتا على أنّ النص صدر منه في علي - عليه السلام - وابنيه: الحسن والحسين - عليهما السلام، - غير أنّ الزيدية قالت باستمرارها بعد الحسين السبط - عليه السلام - بالخروج والدعوة وقد تمثلت الضابطة في بادئ بدئها بخروج الإمام زيد، ثم ابنه يحيى وهكذا، لكن الإسماعيلية قالت باستمرار النص الإلهي بعد الحسين على إمامة زين العابدين فابنه الإمام الباقر، فالإمام الصادق، وبعده ابنه إسماعيل الذي هو مهدي الأمة عندهم وسيوافيك تفاصيل عقائدهم في الجزء الثامن المختص بفرق الشيعة الباقية.

وطبيعة الحال كانت تقتضى سيادة الوئام والاتحام بين الفرقتين والتعايش الهادي في البيئات التي تحتضن كلتا الفرقتين، كاليمن الخصب وجنوب الجزيرة كحضر موت ونجران ولكن خاب الظن وخسر، لأنّ تاريخ اليمن دموي يحكى عن كون الحرب لم تزل بينهما سجلاً - تبيد البلاد والعباد وتهلك الحرث والنسل - قروناً كثيرة.

إنّ أئمة الزيدية وإن خرجوا بالسيف وأعلنوا الجهاد، ولكن لم يكن جهادهم مع المشركين والكافرين بل كانت مع إخوانهم الإسماعيلية (القرامطة) وهذا هو الإمام الهادي مؤسس الدولة الزيدية في اليمن في أواخر القرن الثالث،

(٥١٧) فقد قدم اليمن وقد غطتها القرامطة والباطنية فجرى له معهم نيف وثمانون وقعة (١) ثم بدت الحروب بين الطائفتين في زمن المتوكل على الله (المطهر بن يحيى) وبعده الإمام يحيى بن حمزة المويد بالله (٦٦٩ - ٧٦٩هـ) وكان الانتصار في أغلب الوقائع مع الزيدية، وفي النهاية لم تجد الإسماعيلية بداً من اللجوء إلى الجبال، والتحصن بها حفظاً لشؤونهم الدينية.

ومن جزاء هذه الفتن والحروب المدمرة، صارت حياة الطائفتين في أغلب العصور، حياة دموية تأكل الحرب أخضرهم ويابسهم وربما تشعل فتيل الحرب بين مدعين للإمامة من الزيدية، باعتضاد كل قبيلته وأسرته، وقد انتهت الخلافات القبلية إلى ظهور الجمهوريّة فأطاحت بالإمامة على الإطلاق وقالت: لا زيد ولا عمرو، ولا إبراهيم ولا إسماعيل.

"وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً" (الأنفال - ٢٥ - _____).

(١) التحف شرح الزلف: ٦٤.

(٥١٨)

السادس: في الصلة بين الزيدية والمعتزلة:

كانت الصلة العلمية بين الزيدية والمعتزلة موجودة، منذ ظهرت على صفحة الوجود، حيث إنّ كلتا الطائفتين يرون العدل والتوحيد من الأصول، ويكافحون الجبر والتشبيه، حتى أنّ الإمام «مانكديم» المستطهر بالله أحمد بن الحسين بن أبي هاشم المتوفى عام ٤٢٥هـ تتلمذ على القاضي عبد الجبار المعتزلي المتوفى عام ٤١٥هـ وكتب ما أملاه الأستاذ، حول الأصول الخمسة وقد طبع بهذا الاسم ولم يخالفه إلا فيما يرجع إلى الإمامة (١).

ولما قامت ملوك الغزاة وسلطين السلاجقة بتحريك الحنابلة والحشوية، بإبادة المعتزلة وقتلهم وتسعير النار في مكباتهم وآثارهم وفي عقر دارهم، عمد بعض الزيدية، بنقل ما أمكن من كتبهم من العراق إلى اليمن منهم القاضي عبد السلام (٥٥٠ - ٥٧٣هـ) فقد نقل المغنى للقاضي عبد الجبار، والأصول الخمسة، وغيرهما من الآثار الكلامية لهم من العراق إلى اليمن وكانت اليمن تحتضن بها إلى أن

نشرتها أخيراً البعثة العلمية المصرية بعد الفحص في مكتبات اليمن، وللزيدية فضل حفظ بعض تراث المعتزلة من الأندثار والانطاماس. ولولاهم لكانت مصيرها، مصير سائر الآثار للمعتزلة. قاتل الله العصبية العمياء _____.

(١) راجع مقدمة الأصول الخمسة بقلم محققها ص ٢٩ وقد ضبط وفاة «مانكديم» سنة ٤٢٥هـ والتحف شرح الزلف: ٨٨ (٥١٩)

السابع: عصاره من رساله أحد المعاصرين الزيديين:

إن السيد العلامة بدر الدين الحوثي الحسني اليماني، -الذي زار قم وزارنا في مؤسستنا، وهو الشخصية العلمية الفريدة للزيدية حالياً بعد السيد العلامة مجد الدين المويدي مؤلف التحف في شرح الزلف، نشر كتاباً باسم «الزيدية في اليمن» يبين فيه ملامح مذهب الزيدية وعقائدهم ومصادرهم الكبرى في مختلف العلوم، وقدم لها الأستاذ علي أحمد الرازحي وقد أهدى نسخة إلينا نقتبس منها ما يلي:

الزيدية عنوان لطائفة عظيمة من طوائف المسلمين كان لها حضورها الملموس في ميداني الفكر والبسالة تحت ظلال قائدها العظيم الإمام زيد بن علي شهيد الحق والعدل والكرامة.

ولئن كان لكل طائفة معالم بارزة تتميز بها وتعرف من خلالها، فإن للزيدية معالم بارزة يراها لها الموالف والمخالف الذي لم يُعم التعصب عين بصيرته:

أحدها: وهو أولها: المنزلة المنيفة التي يتبوأها العقل عندها حيث تجعله الحاكم الذي لا يتعقبه أي حاكم غيره، والحجة التي بها استحق الإنسان الخطاب من رب العالمين، ومن خلاله استوتحت أصول عقيدتها حين أقصاه الآخرون وصغروا عظيم منزلته.

ثانيهما: احترام آراء الآخرين من المخالفين لها في الأصول والفروع وعرضها عرضاً رقيقاً بعيداً عن أي تجريح أو تبديع أو تضليل حتى لكأن كتبها رياض غناء مما يخولها أن تكون تراثاً لكل الطوائف.

الثالث: صيحتها في وجه الظلم والاستبداد، والقهر، وسحق الكرامات حين

(٥٢٠)

تحوّلت الخلافة إلى ملك عضوض، وحين تغيرت وشوهت بعض مفاهيم الإسلام الناصعة على يدى حكام متسلطين لا يمتلكون أي شرعية (١)

يقول السيد بدر الدين: إن الحركات العلمية ظهرت في اليمن بفضل الإمامين الهادي وجده القاسم، وبما أن الزيدية لا يلتزمون التقليد للهادي بل كل من تمكن من الاجتهاد، عمل بالدليل، ظهر بعض الخلافات بينهم، كما ظهر من بعضهم الميل إلى المعتزلة في غير مسألة الإمامة وحصل من بعضهم إنكار ذلك لكن العقائد الأصلية الهامة لا يظهر بينهم فيه خلاف.

ثم إن المؤلف أتى بأصول عقائد الزيدية التي منها التوحيد، والعدل والنبوات وصيانة القرآن من التحريف، والإيمان بالآخرة والبعث بعد الموت والشفاعة التي هي زيادة خير إلى خير، لا إنقاذ أحد من النار والإمامة التنصيصية إلى السبط الشهيد، ثم جاء دور الدعوة والخروج وتحقق بزيد الثائر ومن سار على دربه...

وقد قام المؤلف بتعريف الكتب والمصادر وقال:

وأهم كتبهم: كتب الهادي والقاسم.

منها: كتاب الأحكام، والمنتخب والمجموعة الفاخرة التي تجمع عدّة رسائل للهادي، ومن محاسن الكتب وأنفعها كتب القاسم بن إبراهيم وهي كتب صغار بعضها في مجموع القاسم.

ومن مراجع الزيدية (في الفقه) شرح التجريد للإمام المويّد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المدفون بلنجا (٢) ومن مراجعهم في علم الكلام، حقائق _____

(١) الزيدية في اليمن، قسم المقدمة ٣ - ٥.

(٢) المعروف اليوم بلنكرود وقبره موجود هناك.

(٥٢١)

المعرفة للإمام أحمد بن سليمان وهو من أئمة الزيدية.

ومنها: كتاب الأساس للإمام القاسم بن محمد وهو من أئمة الزيدية. وقد طبع الكتاب.

ومن مراجع الزيدية في الأخير في الفقه شرح الأزهار وحواشيه.

ومن مراجع الزيدية في الحديث ما تضمنه شرح التجريد (للهاروني).

وكتاب أمالي أحمد بن عيسى ومجموع زيد بن علي، وأمالي أبي طالب المسمى بـ «تيسير المطالب»، وأمالي المرشد بالله وكتاب

الاعتصام للإمام القاسم بن محمد.

ومن مراجعهم في التاريخ: «بلوغ الأمانى» للسيد يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، ومن كتبهم في أسانيد الكتب بلوغ الأمانى في

إسناد كتب من آل من أنزلت عليه المثنى.

ومن كتبهم في الرد على المخالفين: الشافى للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة وهو كتاب عظيم مطبوع، وفرائد اللثالي في الرد

على المقبلين للمنصور بالله محمد بن عبد الله الوزير وهو مجلد ضخيم.

ومن مراجع الزيدية في أصول الفقه: كتاب بداية العقول شرح غاية السؤال تأليف الحسين بن الإمام القاسم بن محمد وهو مطبوع،

وشرح الكافل.

ومن مراجع الزيدية في التفسير: كتاب المصابيح، تفسير الشرقى وهو كبير غير مطبوع، ولهم مؤلفات في التفسير يتعسر تحصيلها فيميل

الطلاب لقراءة الكشاف.

ثم أشار السيد بدر الدين ببعض الفروع التي اتفقت فيها الزيدية مع الإمامية وقال:

ومن مذاهبيهم في الفقه أن مسح الخفين لا يجزى في الوضوء، ومسح

(٥٢٢)

الخمائر لا يجزى في الوضوء، وأن مس الذكر لا ينقض الوضوء، ومن مذاهبهم الأذان بحى على خير العمل ولا يقولون: الصلاة خير

من النوم ولا- يجعلون الكف على الكف في الصدر في الصلاة، ولا- يؤمنون بعد الفاتحة، وتثنية الأذان إلا التهليل في آخره وكذا

الإقامة. ومن مذاهبهم الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة في الفاتحة وفي السورة وأن الصلاة جماعة لا تصح بإمامة الفاسق،

ومن في حكمه، وأن لا- يعتدوا بجمعة الظلمة، وأن التكبير على الجنازة خمس، وأنه لا يصلّى على الميت الفاسق، والمذهب السائد

عندهم في الزكاة أنه لا يجوز تسليمها إلى الظلمة إلا كرها.

ومن مذاهب الزيدية استحباب صيام يوم الشك بنية مشروطة، ومن مذاهبه أنها لا تجب طاعة الظلمة ولا تجوز معاونتهم ولا موالاتهم،

ويجب عندهم اتباع أهل البيت - عليهم السلام - عملاً - بحديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا:

كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ومن مذاهبهم في الصحابة أن فيهم الصالحين ومنهم من غير وبدل، وفيهم منافقون فيجرح من ظهر فيه الجراح، ولا- يتزكون منزلة

المعصومين ولا يتبعون فيهم طريقة العامة الذين يقدسونهم على الإطلاق، والمذهب السائد في الزيدية هو اجتناب كتب العامة أو عدم

اعتمادها في الغالب اتهاماً لكثير من روايتهم من الفئة الباغية والخوارج والدعاة إلى بدعتهم ولكنهم يأخذون منها ما يوافق الحق

تأكيداً واحتجاجاً على المخالف، ومنهم من يرى قبول رواية كافر التأويل وفاسق التأويل ولكن لا يعتمد على ما في تلك الكتب على

حد اعتماد كتب أهل الحق (١)

(١) الزيدية في اليمن: ١٤ - ١٥.

(٥٢٣)

هذا هو كلام السيد بدر الدين وهو بكلامه هذا يفتح على الإمامية وكان لفيف من الزيدية عبر التاريخ على هذا الطريق، رحم الله الماضين من علمائنا وحفظ الله الباقيين منهم.

"قَبَشْرُ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ" (الزمر: ١٧-١٨). (٥٢٤)

الثامن: في طبقات رجال المذهب الزيدي:

وكما كان لكل مذهب، أعلام، فللمذهب الزيدي أيضاً أعلام منقسمة إلى الطبقات التالية:

١ - طبقة المؤسسين.

٢ - طبقة المخرجين.

٣ - طبقة المحصلين.

٤ - طبقة المذاكرين.

وقد اقتبسنا هذا التقسيم مما ذكره الكاتب المعاصر الزيدي علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين في كتابه: «الزيدية نظرية وتطبيق» فقد قسم أعلام المذهب الزيدي إلى الطبقات التالية:

طبقة المؤسسين: وتساوى هذه الطبقة إمام المذهب في نظر المذاهب الأخرى، ومن هذه الطبقة:

١ - الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - مات شهيداً سنة ١٢٢هـ

٢ - الإمام القاسم بن إبراهيم مات سنة ٢٤٢هـ

٣ - حفيده الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم وهو المؤسس للمذهب في اليمن مات سنة ٢٩٨هـ

٤ - الإمام الناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو المؤسس للمذهب الزيدي في خراسان مات سنة ٣٠٤هـ

(٥٢٥)

الطبقة الثانية: طبقة المخرجين للمذهب: وهم الذين استخرجوا من كلام الأئمة أو احتجاجاتهم بواسطة القياس أو المفهوم، أحكاماً لا تتعارض مع الكتاب والسنة لا جملة ولا تفصيلاً، ومن رجال هذه الطبقة:

١ - العلامة محمد بن منصور المرادي مات سنة ٢٠٠هـ ونيف وتسعين.

٢ - العلامة أبو العباس أحمد بن إبراهيم مات سنة ٣٥٣هـ

٣ - العلامة الإمام المويد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحسنى مات سنة ٤١٦هـ

٤ - العلامة الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون الحسنى مات سنة ٤٢٤هـ

٥ - العلامة علي بن بلال الأملى مولى الإمامين المويد بالله وأبى طالب.

٦ - العلامة أحمد بن محمد الأزرقى الهدوى.

والطبقة الثالثة: طبقة المحصلين: وهم الذين اهتموا بتحصيل أقوال الأئمة وما استخرج منها ونقلوها إلى تلامذتهم بطريق الرواية أو المناولة لمؤلفاتهم، ومن رجال هذه الطبقة:

١ - العلامة القاضي زيد بن محمد الكلاوى الجبلى الملقب بحافظ أقوال العترة وهو من أتباع المويد بالله.

٢ - العلامة السيد علي بن العباس بن إبراهيم راوى إجماعات أهل البيت، مات سنة ٣٤٠هـ تقريباً.

٣ - العلامة القاضي الحسن بن محمد بن أبي طاهر الرصاص، مات سنة ٥٨٤هـ

٤- العلامة الإمام الحسين بن بدر الدين، مات سنة ٦٦٢هـ

(٥٢٦)

٥- العلامة زيد بن علي بن الحسن بن علي البيهقي، مات في تهامة في عهد الإمام أحمد بن سليمان وهو في طريقه إلى مكة المكرمة.

٦- العلامة القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام البهلولي، مات سنة ٥٧٣هـ

٧- العلامة الإمام عبد الله بن حمزة، مات سنة ٦١٤هـ

والطبقة الرابعة، طبقه المذاكرين: وهم الذين راجعوا أقوال من تقدّمهم وبلغتهم بالرواية وفضوها سنداً وامتنا وعرضوها على أصول المذهب وقواعده المستمدة من صرائح الكتاب والسنة ثم أقرّوا ما توافق معها واعتبروه هو المذهب، وما لم يوافقها لم يعتبروه مذهباً للفرقة الزيدية، وكان في نظرهم رأياً خاصاً بصاحبه غير معاب عليه لاعتبار أن كل مجتهد في الفروع مصيب (١) ومن رجال هذه الطبقة:

١- العلامة القاضي محمد بن سليمان بن أبي الرجال الصعدي، مات سنة ٧٣٠هـ

٢- العلامة القاضي عبد الله بن زيد العنسي، مات سنة ٦٦٧هـ

٣- العلامة القاضي يحيى بن حسن البحيح، وقد عاصر الإمام يحيى بن حمزة.

٤- العلامة الإمام يحيى بن حمزة، مات سنة ٧٤٩هـ

٥- العلامة الإمام عز الدين بن الحسن المؤيدي، مات سنة ٩٠٠هـ

٦- العلامة القاضي محمد بن يحيى حنش، مات سنة ٧١٧هـ

٧- العلامة القاضي يوسف بن أحمد بن عثمان الثلاثي، مات سنة ٨٣٢هـ _____

(١) لعله يريد: أنه ماجور وإلا فالحق واحد فكيف يكون الكل مصيباً.

(٥٢٧)

٨- العلامة الإمام أحمد بن يحيى بن المرتضى، مات شهيداً بالطاعون سنة ٨٤٠هـ

ومعظم رجال طبقات المذهب الزيدي من العلماء المجتهدين. ولذلك فلا يصدق عليهم القول بأنهم في مستوى طبقه مجتهدى المذهب لأنّ هذه الطبقة لا تظهر دائماً إلا بين رجال المذاهب التي لا توجب الاجتهاد على المتمكن منه وليس كذلك المذهب الزيدي. وبالتجوز يمكن أن يوجد في طبقات المذهب من هو في درجة المجتهد المنتسب. أما الأكثر فهم في درجة المجتهد المطلق. وقد ظهر من هؤلاء بعد طبقه المذاكرين الكثير ومنهم: الإمام يحيى شرف الدين مات سنة ٩٦٥هـ والإمام القاسم بن محمد مات سنة ١٠٢٩هـ والإمام محمد بن إسماعيل الأمير مات سنة ١١٨٢هـ والإمام عبد القادر بن أحمد عبد القادر بن الناصر شرف الدين مات سنة ١٢٠٧هـ وغيرهم.

وكانت كل المؤلفات الزيدية لا تقتصر على ذكر القول المختار لديها، وإنما تجمع كل الأقوال المشهورة للأئمة والعلماء: أي أنّها مؤلفات أممية وموسوعات لما تولف فيه. لذلك فالقول المختار للمذهب إنّما كان يؤخذ من أفواه المشايخ ويتناقل بالرواية، حتى جاء القاضي حسن بن أحمد الشيبى رحمه الله مات سنة ١١٦٩هـ فوضع كلمة (مذهب) في كتابه شرح الأزهار على القول المختار للمذهب تمييزاً له عن سائر أقوال الأئمة والعلماء الزاخر بها كتاب شرح الأزهار المعروف واستحسن هذه العلامة سائر العلماء في عصره. ولمكانته في العلم والتقوى تلقفها عنه الطلاب، وصارت نسخته من أهم المراجع في ذلك عند الطلاب. كما ذكره المؤلف

المؤرخ السيد محمد زباره رحمه الله في ملحق البدر الطالع ص ٦٨ (١) _____

(١) على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين: الزيدية نظرية و تطبيق: ١٦ - ١٨.

(٥٢٨)

بلغ الكلام إلى هنا عشية يوم العشرين من ربيع الأول من شهر عام ١٣١٦ هجرية. بقي الكلام حول الفرق الباقية من الشيعة وأهمها: الإسماعيلية وبعدها الفطحية والواقفية والنصيرية وسنقوم - بإذن الله - بدراسة مذاهبهم في الجزء الثامن وبه تتم أجزاء هذه الموسوعة المباركة إن شاء الله. تم هذا الجزء بيد مؤلفه جعفر السبحاني ابن الفقيه الشيخ محمد حسين السبحاني التبريزي. وأرجو من الله سبحانه أن يجعله خير وسيلة للصلة بين الطائفتين المتمسكتين بالثقلين كتاب الله وأهل البيت آمين رب العالمين.

* * *

الجزء الثامن (إسماعيلية)

تمهيد

تمهيد بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين .
أما بعد فهذا هو الجزء الثامن من موسوعة «بحوث في الملل والنحل» نقدمه للقراء الكرام حول الإسماعيلية وغيرها من الفرق الشيعية وبه تنتهي سلسلة تلك البحوث نحمده سبحانه ونشكره أنه بذلك حقيق. تمهيد
الإسماعيلية فرقة من الشيعة القائلة بأن الإمامة بالتنصيب من النبي أو الإمام القائم مقامه، غير أن هناك خلافاً بين الزيدية والإمامية في عدد الأئمة ومفهوم التنصيب.

فالأئمة المنصوصة خلافتهم وإمامتهم بعد النبي عند الزيدية لا يتجاوز عن الثلاثة: علي أمير المؤمنين - عليه السلام - ، والسبطين الكريمين: الحسن والحسين - عليهم السلام - وبشهادة الأخير غلقت دائرة التنصيب، وجاءت مرحلة الانتخاب بالبيعة على تفصيل مر في الجزء السابع.

وأما الأئمة المنصوصون عند الإمامية فاثنا عشر إماماً، آخرهم غائبهم، يُظهره الله سبحانه عندما يشاء وقد حوّل أمر الأمة - في زمان غيبته - إلى الفقيه العارف بالأحكام والسنن، والواقف على مصالح المسلمين، على النحو المقرر في كتبهم وتآليفهم.

(٤)

وأما الإسماعيلية فقد افرقت إلى فرق مختلفة:

١. القرامطة: القائلة بإمامة محمد بن إسماعيل ابن الإمام الصادق وغيبته، ثم دخلت الإمامة في كهف الاستتار.
٢. الدرروز: وهم يسوقون الإمامة إلى الإمام الحادي عشر الحاكم بأمر الله، ثم يقولون بغيبته وينتظرون ظهوره.
٣. المستعلية: وهؤلاء يسوقون الإمامة إلى الإمام الثالث عشر المستنصر بالله، ويقولون بإمامة ابنه المستعلي بالله بعده، وهم المعروفون بالبهرة، وقد انقسمت المستعلية سنة ٩٩٩ هـ إلى فرقتين: داودية وسليمانية، سيوافيك بيانها.
٤. النزارية: وهؤلاء يسوقون الإمامة إلى المستنصر بالله، ثم يقولون بإمامة ابنه الآخر نزار بن معد، وقد انقسمت النزارية إلى: مومنية وقاسمية المعروفة بالأغاخانية، وسيأتي سبب الانقسام وزمانه والركب الإمامي منقطع عن السير عند الجميع إلا القاسمية حيث يقولون باستمرار الإمامة إلى العصر الحاضر.

هذا كله حول اختلافهم في استمرار الإمامة، وأما اختلافهم مع الزيدية والإمامية في مفهوم التنصيب، فإنه عند الفرقتين الأخيرتين يرجع إلى تعيين الإمام والقائم بالأمر باللفظ والشهاد، بخلاف الإسماعيلية فإنها تنتقل عندهم من الآباء إلى الأبناء، ويكون انتقالها عن طريق الميلاد الطبيعي، فيكون ذلك بمثابة نص من الأب بتعيين الابن، وإذا كان للآب عدة أبناء فهو بما أوتي من معرفة خارقة للعادة

يستطيع أن يعرف من هو الإمام الذي وقع عليه النص. فالقول بأن الإمامة عندهم بالوراثة أولى من القول بالتنصيب. وعلى كل تقدير فهذه الفرقة، منشقة عن الشيعة، معتقدة بإمامة إسماعيل ابن جعفر بعد الإمام الصادق - عليه السلام - وهي متواجدة في كثير من الأقطار، منها: الهند، وباكستان، واليمن ونواحيها، وسوريا، ولبنان وأفغانستان، وإفريقية وإيران ونحقق مذهبهم وفرقهم وآثارهم في ضمن فصول:

(٥)

الفصل الأول

الفصل الأول الخطوط العريضة للمذهب الإسماعيلي

(٦) (٧)

إن للمذهب الإسماعيلي آراءً وعقائدًا، ستوافيك تفاصيلها في الفصول الآتية نذكرها هنا على وجه الإيجاز: الأولى: إنتماؤهم إلى بيت الوحي والرسالة

كانت الدعوة الإسماعيلية يوم نشوئها دعوة بسيطة لا تتبني سوى: إمامة المسلمين، وخلافة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم -، واستلام الحكم من العباسيين بحجة ظلمهم وتعسفهم؛ غير أن دعوة بهذه السذاجة لا يكتب لها البقاء إلا باستخدام عوامل تضمن لها البقاء، وتستقطب أهواء الناس وميولهم.

ومن تلك العوامل التي لها رصيد شعبي كبير هو ادعاء انتماء أئمتهم إلى بيت الوحي والرسالة، وكونهم من ذرية الرسول وأبناء بنته الطاهرة فاطمة الزهراء - عليها السلام -، وكان المسلمون منذ عهد الرسول يتعاطفون مع أهل بيت النبي، وقد كانت محبتهم وموالاتهم شعار كل مسلم واع.

ومما يشير إلى ذلك أن الثورات التي نشبت ضد الأمويين كانت تحمل شعار حب أهل البيت - عليهم السلام - والاعتداء بهم والنفاني دونهم، ومن هذا المنطلق صارت الإسماعيلية تفتخر بانتماء أئمتهم إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى إذا تسلّموا مقاليد الحكم وقامت دولتهم، اشتهروا بالفاطميين، وكانت التسمية يومذاك تهزّ المشاعر وتجذب العواطف بحجة أن الأبناء يرثون ما للآباء من الفضائل والمآثر، وأنتكريم ذرية الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - تكريم له - صلى الله عليه وآله وسلم -، فستان ما بين بيت أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانه، وبيت أسس بنيانه على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم.

(٨) الثانية: تأويل الظواهر

إن تأويل الظواهر وإرجاعها إلى خلاف ما يتبادر منها في عرف المتشرّعة هي السمة البارزة الثانية للدعوة الإسماعيلية، وهي إحدى الدعائم الأساسية بحيث لو انسلخت الدعوة عن التأويل واكتفت بالظواهر، لم تتميز عن سائر الفرق الشيعية إلا بصرف الإمامة عن الإمام الكاظم - عليه السلام - إلى أخيه إسماعيل بن جعفر، وقد بنوا على هذه الدعامة مذهبهم في مجالى العقيدة والشريعة، وخصوصاً فيما يرجع إلى تفسير الإمامة وتصنيفها إلى أصناف، سيوافيك بيانه.

ولم يكن تأويل الظواهر أمراً مبتدعاً، بل سبقهم ثلثة من المندسّين في أصحاب الإمام الصادق - عليه السلام - الذين طردهم الإمام ولعنهم وحذر شيعته من الاختلاط بهم، لصيانتهم عن التأثير بآرائهم والانجراف في متاهاتهم كأبي منصور، وأبي الخطاب، والمغيرة بن سعيد، وغيرهم من ملاحدة عصره وزنادقة زمانه.

إن تأويل الظواهر والتلاعب بآيات الذكر الحكيم وتفسيرها بالأهواء والميول جعل المذهب الإسماعيلي يتطور مع تطور الزمان، ويتكيف بمكيفاته، ولا ترى الدعوة أمامها أي مانع من مماشاة المستجدات وإن كانت على خلاف الشرع أو الضرورة الدينية. الثالثة:

تطعيم مذهبهم بالمسائل الفلسفية

إنّ ظاهرة الجمود على النصوص والظواهر ورفض العقل في مجالات العقائد، كانت من أهمّ ميزات العصر العباسي حيث كانوا يرفضون كل بحثٍ عقلي خارج عن هذا الإطار خاصيةً في عهد المنصور والرشيد، فقد طردوا حماة البحث الحرّ والانفتاح الفكري وضيقوا عليهم.

إنّ هذه الظاهرة على خلاف الشريعة، التي تدعو إلى التفكير والتعقل. وكان

(٩)

الإمام علي - عليه السلام - أوّل من فتح باب الأبحاث العقلية على مصراعيه وبين الخطوط العريضة لكثير من العقائد على ضوء البرهان والدليل.

إنّ ظاهرة الجمود في أوساط العباسيين ولدت ردّ فعلٍ عند أئمة الإسماعيلية، فاجتروا في تيارات المسائل الفلسفية وجعلوها من صميم الدين وجذوره، وانقلب المذهب إلى منهج فلسفي يتطور مع تطوّر الزمن، ويتبنّى أصولاً لا تجد منها في الشريعة الإسلامية عيناً ولا أثراً.

يقول المؤرّخ الإسماعيلي المعاصر: إنّ كلمة «إسماعيلية» كانت في بادئ الأمر تدل على أنّها من إحدى الفرق الشيعية المعتدلة، لكنّها صارت مع تطور الزمن حركة عقلية تدلّ على أصحاب مذاهب دينية مختلفة، وأحزاب سياسية واجتماعية متعدّدة، وآراء فلسفية وعلمية متنوعة. (١) الرابعة: تنظيم الدعوة

ظهرت الدعوة الإسماعيلية في ظروف ساد فيها سلطان العباسيين شرق الأرض وغربها، ونشروا في كلّ بقعة جواسيس وعيوناً ينقلون الأخبار - خاصة أخبار مخالفيهم ومناوئهم - إلى مركز الخلافة الإسلامية، ففي مثل هذه الظروف العصيبة لا يكتب النجاح للدعوة تقوم ضد السلطة إلا إذا امتلكت تنظيماً وتخطيطاً متقناً يضمن استمرارها، ويصون دعواتها وأتباعها من حائل النظام الحاكم وكشف أسرارهم.

وقد وقف الدعاء على خطورة الموقف وأحسوا بلزوم إتقان التخطيط والتنظيم، وبلغوا فيه الذروة بحيث لو قورنت مع أحدث التنظيمات الحزبية العصرية، لفاقتها وكانت لهم القدح المعلى في هذا المضمار، وقد ابتكروا _____

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٤، والمؤلف سوري إسماعيلي وفي طليعة كتبهم.

(١٠)

أساليب دقيقة يقف عليها من سبر تراجعهم وقرأ تاريخهم، ولم يكتفوا بذلك فحسب بل جعلوا تنظيمات الدعوة من صميم العقيدة وفلسفتها.

يقول المؤرّخ الإسماعيلي المعاصر: وبالْحَقِيقَةُ لم توجه أية دولة من الدول، أو فرقة من الفرق، اهتماماً خاصاً بالدعاية وتنظيمها، كما اهتمت بها الإسماعيلية، فجعلت منها الوسيلة الرئيسية لتحقيق نجاح الحركة في دور الستر والتخفي، ودور الظهور والبناء معاً. ولقد أحدث التخطيط الدعوى المنظم تنظيمًا عجيباً لم يسبقهم إليه أحد في العالم، وابتكرت الأساليب المبنية على أسس مكيئة مستوحاة من عقيدتها الصميّة.

ولقد برعوا براعة لا توصف في تنظيم أجهزة الدعاية - على قِلمة الوسائل في ذلك العصر - واستطاعوا أن يشرفوا بسرعة فائقة على أقاصى بقاع البلدان الإسلامية، ويتنسمون أخبار أتباعهم في الأبعاد المتناهية. وذلك بما نظموا من أساليب وأحدثوا من وسائل. وقد كان للحمام الزاجل - الذي برع في استخدامه دعاة الإسماعيلية - أثره الفعّال في تنظيم نقل الأخبار والمراسلات السريّة الهامة. (١) الخامسة: إضفاء طابع القداسة على أئمتهم ودعاتهم

شعرت الدعوة الإسماعيلية أيام نشوئها بأنّه لا بقاء لها إلا إذا أضفت طابع القداسة على أئمتهم ودعاتهم بحيث توجب مخالفتهم مروقاً عن الدين وخروجاً عن طاعة الإمام «والجدير بالاهتمام أنّ الإمام الإسماعيلي - والذي يعتبر رئيساً للدعوة - جعل الدعاء من (حدود

الدين) إمعاناً منه في إسباغ الفضائل عليهم ليتمكنوا من نشر الدعوة وتوجيه الأتباع والمريدين دونما أئمة معارضة أو مخالفة،

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٧.

(١١)

لأنّ مخالفتهم ومعارضتهم تعتبر بالنسبة للإسماعيلية مروقاً عن الدين، وخروجاً عن طاعة الإمام نفسه، لأنّهم من صلب العقيدة وحدودها». (١)

إنّ الإمامة تحتل عند الإسماعيلية مركزاً مرموقاً ولها درجات ومقامات مختلفة - سيوافيك تفصيلها في مظانها - حتى أضحت من أبرز سمات المذهب الإسماعيلي فهم يعتقدون بالنطقاء الستة، وإنّ كلّ ناطق رسول يتلوه أئمة سبعة:

١. فآدم رسول ناطق تلتته أئمة سبعة بعده.

٢. فنوح رسول ناطق تلتته أئمة سبعة.

٣. إبراهيم رسول ناطق جاءت بعده أئمة سبعة.

٤. فموسى رسول ناطق تلتته أئمة سبعة.

٥. فعيسى رسول ناطق تلتته أئمة سبعة.

٦. فمحمّد رسول ناطق تلتته أئمة سبعة، وهم:

على بن أبي طالب، الحسن بن علي، الحسين بن علي، محمد بن علي الباقر، جعفر بن محمد الصادق، إسماعيل بن جعفر.

وبذلك يتم دور الأئمة السبعة ويكون التالي رسولاً ناطقاً سابعاً وناسخاً للشريعة السابقة وهو محمد بن إسماعيل وهذا ممّا يصادم عقائد جمهور المسلمين من أنّ نبي الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلّم - هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وشريعته خاتمة الشرائع، وكتابه خاتم الكتب.

فعند ذلك وقعت الإسماعيلية في مأزق كبير سيوافيك تفصيله في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى_____.

١. المصدر السابق: ٣٧.

(١٢) السادسة: تربية الفدائيين للدفاع عن المذهب

إنّ الأقلية المعارضة من أجل الحفاظ على كيائها لا مناص لها من تربية فدائيين مضحين بأنفسهم في سبيل الدعوة لصيانة أئمتهم ودعاتهم من تعرض الأعداء، فينتقون من العناصر المخلصة المعروفة بالتضحية والإقدام، والشجاعة النادرة، والجرأة الخارقة، ويكلفون بالتضحيات الجسدية، وتنفيذ أوامر الإمام أو نائبه، وإليك أحد النماذج المذكورة في التاريخ:

في سنة ٥٠٠ هجرية فكر فخر الملك بن نظام وزير السلطان سنجر، أن يشار لأبيه وهاجم قلاع الإسماعيلية، فأوفد إليه الحسن بن الصباح أحد فدائييه فقتله بطعنه خنجر، ولقد كانت قلاعه في حصار مستمر من قبل السلجوقيين.

وفي سنة ٥٠١ هـ حوصرت قلعة «آلموت» من قبل السلطان السلجوقي واشتد الحصار عليها، فأرسل السلطان رسولاً إلى الحسن بن الصباح يطلب منه الاستسلام، ويدعوه لطاعته، فنادى الحسن أحد فدائييه وقال له: ألقى بنفسك من هذا البرج ففعل، وقال للثاني: اطعن نفسك بهذا الخنجر ففعل، فقال للرسول: اذهب وقل لمولاك إنّه لدى سبعون ألفاً من الرجال الأمناء المخلصين أمثال هؤلاء الذين يبذلون دماءهم في سبيل عقيدتهم المثلى. (١)

وقد تفسّحت هذه الظاهرة بين أوساطهم، وآل أمر الأتباع إلى طاعة عمياء لأنتمهم ودعاتهم في كلّ حكم يصدر عن القيادة العامة، أو الدعاة الخاصين دون الإفصاح عن أسبابه، وبلغ بهم الأمر إطاعتهم لأنتمهم في رفع بعض الأحكام الإسلامية عن الجيل الإسماعيلي

بحجة أن العصر يضاده، ويشهد على ذلك ما كتبه المؤرخ الإسماعيلي إذ يقول عن إمام عصره آغا خان الثالث إنه قال: «إن الحجاب يتعارض والعقائد الإسماعيلية، وإنني أهيّب بكل إسماعيلية أن تنزع

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٦٣.

(١٣)

نقابها، وتنزل إلى معترك الحياة لتساهم مساهمة فعالة في بناء الهيكل الاجتماعي والديني للطائفة الإسماعيلية خاصّة وللعالم الإسلامي عامة، وأن تعمل جنباً إلى جنب مع الرجل في مختلف نواحي الحياة إسوةً بجميع النساء الإسماعيليات في العالم، وآمل في زيارتي القادمة أن لا أرى أثراً للحجاب بين النساء الإسماعيليات، وآمرك أن تبلغ ما سمعت لعموم الإسماعيليات بدون إبطاء». (١) السابعة: كتمان الوثائق

إن استعراض تاريخ الدعوات الباطنية السريّة وتنظيماتها رهن الوقوف على وثائقها ومصادرها التي تنير الدرب لاستجلاء كنهها، وكشف حقيقتها وما غمض من رموزها ومصطلحاتها، ولكن للأسف الشديد أن الإسماعيلية كتموا وثائقهم وكتاباتهم ومولفاتهم وكلّ شيء يعود لهم ولم يبذلوا لأحد سواهم، فصار البحث عن الإسماعيلية بطوائفها أمراً مستعصياً، إلا أن يستند الباحث إلى كتب خصومهم وما قيل فيهم، ومن المعلوم أن القضاء في حق طائفة استناداً إلى كلمات مخالفيهم، خارج عن أدب البحث النزيه.

وهذا ليس شيئاً عجباً إنما العجب أن المؤرخين المعاصرين من الإسماعيلية واجهوا نفس هذه المشكلة منذ زمن طويل، يقول مصطفى غالب وهو من طليعة كتّاب الإسماعيلية: «من المشاكل المستعصية التي يصعب على المؤرخ والباحث حلّها وسبر أغوارها، وهو يستعرض تاريخ الدعوات الباطنية السريّة، وتنظيماتها، حرص تلك الدعوات الشديد على كتمان وثائقهم ومصادرهم - إلى أن يقول: - والمعلومات التي تقدّمها للمهتمين بالدراسات الإسلامية مستقاة من الوثائق والمصادر الإسماعيلية السريّة». (٢)

١. المصدر السابق: ٢٦٥، الخطاب لمن رفع السؤال إليه وهو الكاتب مصطفى غالب السورّي.

٢. المصدر نفسه: ٣٥.

(١٤)

نعم كانت الدعوة الإسماعيلية محفوفة بالغموض والأسرار إلى أن جاء دور بعض المستشرقين فوقفوا على بعض تلك الوثائق ونشروها، وأول من طرق هذا الباب المستشرق الروسي الكبير البروفسور «ايفانوف» عضو جمعية الدراسات الإسلامية في «بومباي» وبعده البروفسور «لويس ماسينيون» المستشرق الفرنسي الشهير، ثم الدكتور «شتر وطمان» الألماني عميد معهد الدراسات الشرقية بجامعة هامبورغ، و«مسيو هانري كوربن» أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة طهران، والمستشرق الانكليزي «برنارد لويس».

يقول المؤرخ المعاصر: حتى سنة ١٩٢٢ ميلادية كانت المكتبات في جميع أنحاء العالم فقيرة بالكتب الإسماعيلية إلى أن قام المستشرق الألماني «ادوارد برون» بإنشاء مكتبة إسماعيلية ضخمة غايتها إظهار الآثار العلمية لطائفة كانت في مقدمة الطوائف الإسلامية في الناحية الفكرية والفلسفية والعلمية، ولم يقتصر نشاط أولئك المستشرقين عند حدود التأليف والنشر، بل تعداه إلى الدعاية المنتظمة سواء في المجلات العلمية الكبرى، كمجلة المتحف الآسيوية التي كانت تصدرها أكاديمية العلوم الروسية في مدينة «بطروسبورغ» ويشرف على تحريرها «ايفانوف» وبعض المستشرقين الروس أمثال «سامينوف» وغيره ممن دبّجوا المقالات الطوال عن العقيدة الإسماعيلية.

ففي سنة ١٩١٨ كتب المستشرق «سامينوف» مقاله الأول عن الدعوة الإسماعيلية وقد جمعه بنفسه ونشره في مجلته كما نقل إلى اللغة الإنكليزية عدداً ضخماً من الكتب الإسماعيلية المؤلفة باللغتين «الكجراتية» و«الأوردية» - إلى أن قال: - لقد أحدثت تلك الدراسات الهامة ثورة فكرية وانقلاباً عكسياً في العالم الإسلامي، حيث قام عدد من الأساتذة المصريين بنشر الآثار الإسماعيلية في العهود

الفاطمية، فأخرجوا إلى حيز الوجود عدداً لا بأس به من الكتب القيمة

(١٥)

وأظهروا للعالم أجمع آثار هذه الفرقة. (١)

وبالرغم مما ذكره المؤرخ المعاصر من أن المصريين أظهروا للعالم أجمع آثار هذه الفرقة، لكننا نرى أنه يعتمد في كتابه على وثائق خطية موجودة في مكتبته الخاصة، أو مكتبة دعاء مذهبه في سورية، ويكشف هذا عن وجود لفييف من المصادر مخبوءة لم تر النور لحد الآن. الثامنة: الأئمة المستورون إن الإسماعيلية أعطت للإمامة مركزاً شامخاً، وصنّفوا الإمامة إلى رتب ودرجات، وزوّدوها بصلاحيات واختصاصات واسعة، وسيوافيك بيان تلك الدرجات والرتب، غير أن المهم هنا الإشارة إلى تصنيفهم الإمام إلى مستور، دخل كهف الاستتار؛ وظاهر، يملك جاهاً وسلطاناً في المجتمع.

فالأئمة المستورون هم الأئمة الأربعة الأوائل الذين جاءوا بعد إسماعيل، ونشروا الدعوة سراً وكتماناً، وهم:

١. محمد بن إسماعيل الملقّب بـ«الحبيب»: ولد سنة ١٣٢هـ في المدينة المنورة، وتسلم شئون الإمامة واستتر عن الأنظار خشية وقوعه بيد الأعداء، ولقب بالإمام المكتوم، لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بسطها خفية، وتوفي عام ١٩٣هـ.
٢. عبد الله بن محمد بن إسماعيل الملقّب بـ«الوفى»: ولد عام ١٧٩هـ في مدينة محمود آباد، وتولّى الإمامة عام ١٩٣هـ بعد وفاة أبيه، وسكن السلمية عام ١٩٤هـ مصطحباً بعدد من أتباعه، وهو الذي نظم الدعوة تنظيمًا دقيقاً، توفي عام ٢١٢هـ.
٣. أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الملقّب بـ«التقى»: ولد عام _____

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٢-٢٣.

(١٦)

١٩٨، وتولّى الإمامة عام ٢١٢هـ سكن السلمية سراً حيث أصبحت مركزاً لنشر الدعوة، توفي فيها عام ٢٦٥هـ.

٤. الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل الملقّب بـ«الرضى»: ولد عام ٢١٢هـ وقيل ٢٢٨هـ وتولّى الإمامة عام ٢٦٥هـ ويقال أنه اتخذ عبد الله بن ميمون القداح حجة له وحجاباً عليه، توفي عام ٢٨٩هـ والمعروف بين الإسماعيلية أنعيد الله المهدي - الذي هاجر إلى المغرب وأسّس هناك الدولة الفاطمية - كان ابتداءً لعهد الأئمة الظاهرين الذين جهروا بالدعوة وأخرجوها عن الاستتار .

التاسعة: أنهم عرّفوا بالإسماعيلية تارة، والباطنية أخرى، والملاحدة ثالثاً، وبالسبعية رابعاً.

قال المحقق الطوسي: إنّما سُمّوا بالإسماعيلية لانتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

والباطنية لقولهم: كلّ ظاهر فله باطن، يكون ذلك الباطن مصدراً وذلك الظاهر مظهرًا له، ولا يكون ظاهر لا باطن له إلا ما هو مثل السراب، ولا باطن لا ظاهر له إلا خيال لا أصل له.

ولقبوا بالملاحدة لعدولهم من ظواهر الشريعة إلى بواطنها في بعض الأحوال. (١)

وأما تسميتهم بالسبعية، لأنهم قالوا: إنّما الأئمة تدور على سبعة سبعة، كأيام الأسبوع، والسموات السبع، والكواكب السبع. (٢) فدور الإمامة عندهم لا يتجاوز عن سبعة، ثم يأتي دور آخر على هذا الشكل _____.

١. كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد: ٣٠١.

٢. الشهرستاني: الملل والنحل: ١ | ٢٠٠.

(١٧)

ويقول أيضاً: قالوا الإمام في عهد رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان علياً - عليه السّلام -، وبعده كان ابنه الحسن إماماً

مستودعاً، وبعده الحسين إماماً مستقراً ولذلك لم تذهب الإمامة في ذرية الحسن - عليه السلام -، ثم نزلت الإمامة في ذرية الحسين، وانتهت بعده إلى علي ابنه، ثم إلى محمد ابنه، ثم إلى جعفر ابنه، ثم إلى إسماعيل ابنه وهو السابع. (١)
و معنى ذلك ان الدور تم بإسماعيل، وهو متم الدور، وان ابنه بادى للدور الآخر كالتالى:

١. محمد بن إسماعيل.
 ٢. عبد الله بن محمد بن إسماعيل الملقب بالرضى.
 ٣. أحمد بن عبد الله الملقب بالوفى.
 ٤. الحسين بن أحمد الملقب بالتقى.
 ٥. عبيد الله المهدي بن الحسين.
 ٦. القائم.
 ٧. المنصور، وبه يتم الدور وبيتدأ دور آخر بالإمام المعز لدين الله.
- ولو قلنا بخروج الحسن - عليه السلام - لكونه إماماً مستودعاً لا- مستقراً يتم الدور بمحمد بن إسماعيل. ويأتى الدور الجديد، وسيوافيك تفصيله فى بيان أدوار الإمامة.
- وعلى كتقدير فالسبعة عندهم لها مكانة خاصة، فلا يتجاوز دور الأئمة فى تمام مراحلها عن السبعة.
- العاشرة: ان المذهب الإسماعيلى لم يظهر على مسرح الحياة بصورة مذهب مدون متكامل، وإنما أخذ بالتكامل عبر العصور، وفى ظل احتكاك الدعاء بأصحاب الحركات الباطنية أولاً، وأصحاب الفلسفات ثانياً. وقد ظهر فى أول يوم _____

١. كشف الفوائد: ٣٠٣، المتن.

(١٨)

نشوءه بصورة عقيدة بسيطة، وهو أن الإمام بعد جعفر بن محمد ابنه إسماعيل، وأنه لم يمت بل غاب ويظهر حتى يملك الأرض وهو القائم، وهذه هى الإسماعيلية المحضة، ولم يخالط هذه العقيدة شىء آخر.

نعم لما كان قبولها محفوفاً بغموض، فرجع بعضهم عن حياة إسماعيل، وقالوا بإمامة ابنه محمد بن إسماعيل لظنهم ان الإمامة كانت فى أبيه، وأنا لابن أحق بمقام الإمامة من الآخر.

والظاهر من الشيخ المفيد أن الفرقة الأولى انقرضت ولم يبق منهم من يوماً إليه والفرقة الباقية إلى اليوم هى الإسماعيلية غير الخالصة.

(١) ثم صار المذهب الواحد مذاهب متشعبة ومختلفة. وقد كان للدعاء تأثير فى نضوج العقيدة الإسماعيلية وتكاملها مع اختلاف بينهم فى بعض الأصول فمثلاً الداعى النسفى (...٣٣١هـ) وضع كتابه «المحصول» فى فلسفة المذهب.

ثم جاء بعده أبو حاتم الرازى (٢٦٠-٣٢٢هـ) فوضع كتابه «الإصلاح» وخالف فيه أقوال من سبقه.

ثم جاء بعده أبو يعقوب السجستاني الذى كان حياً سنة (٣٦٠هـ) وكان أستاذاً للكرمانى فانتصر للنسفى وخالف أبا حاتم.

ثم جاء الكرمانى (٣٥٢-٤١١هـ) فألف كتاب «راحة العقل»، واستطاع أن يوفق بين آراء شيخه «السجستاني» وبين آراء «أبى حاتم الرازى».

أضف إلى ذلك أن تأويل الظواهر لا- يعتمد على ضابطة فكل يؤولها على ذوقه وسليقته، فتجد بينهم خلافاً شديداً فى المسائل التأويلية.

الحادية عشرة: الذى ظهر لى من التشيع فى كتب الإسماعيلية أن الفرقة المستعلية القاطنين فى اليمن والهند أقرب إلى الحقوعائد جمهور المسلمين من _____

١. المفيد: الإرشاد: ٢٨٥.

(١٩)

النزارية، فالطبقة الأولى متعديدون بالظواهر وتطبيق العمل على الشريعة بخلاف أغلب النزارية خصوصاً الدعاء المتأخرين منهم، فإنهم يواجهون الأحداث الطارئة والمستجدة بالتدخل في الشريعة (١) ويظهر ذلك من أبحاثنا الآتية.

وأخيراً فالمذهب الإسماعيلي اكتنفته غموض وأحاطه إبهام، فإصابة الحق في جميع المراحل أمر مشكل، نستعينه سبحانه أن يوفقنا لبيان الحق ويحفظنا عن العثرة أنه هو المجيب.

والذي يهم الباحث هو تبيين جذور المذهب وانه كيف نشأ؟ وهل كان هناك اتصال بين الإسماعيلية، والحركات الباطنية التي نشأت في عصر الصادق عليه السلام أو لا؟ وهذا هو الذي نظرته على طاوله البحث في الفصل القادم بعد المرور على كلمات أصحاب المعاجم في حقهم.

١. أعيان الشيعة: ١٠/٢٠٢-٢٤.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

الإسماعيلية

في

معاجم الملل والنحل

(٢٢) (٢٣)

إن للإسماعيلية ذكراً في كتب الملل والنحل لا يتجاوز عن ذكر تاريخ إمامهم الأول، إسماعيل بن جعفر الصادق، وشيء يسير عن عقيدتهم فيه، دون تبيين عقائدهم وأصولهم التي يعتقدون بها، والأحكام والفروع التي يصدرون عنها، وكل أخذ عن الآخر، وربما زاد شيئاً، لا يُسمن ولا يغنى من جوع، وإليك نصوصهم:

١. قال النوبختي: فلما توفي أبو عبد الله جعفر بن محمد - عليه السلام - افرقت شيعته بعده إلى ست فرق - إلى أن قال: - وفرقة زعمت أن الإمام بعد جعفر بن محمد، ابنه إسماعيل بن جعفر، وأنكرت موت إسماعيل في حياة أبيه، وقالوا كان ذلك على جهة التليس من أبيه على الناس، لأنه خاف فغيبه عنهم، وزعموا أن إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض، ويقوم بأمر الناس، وأنه هو القائم، لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده، وقادهم ذلك له، وأخبرهم أنه صاحبه؛ والإمام لا يقول إلا الحق، فلما ظهر موته علمنا أنه قد صدق، وأنه القائم، وأنه لم يموت، وهذه الفرقة هي «الإسماعيلية» الخالصة. وأم إسماعيل وعبد الله ابني جعفر بن محمد - عليه السلام - فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب - عليه السلام - وأمها أم حبيب بنت عمر بن علي بن أبي طالب - عليه السلام -، وأمها أسماء بنت عقيل بن أبي طالب - عليهم السلام -.

وفرقة ثالثة زعمت أن الإمام بعد جعفر بن محمد، محمد بن إسماعيل بن جعفر، وأمه أم ولد، وقالوا: إن الأمر كان لإسماعيل في حياة أبيه فلما توفي قبل أبيه جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن إسماعيل، وكان الحق له، ولا يجوز غير ذلك لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام، ولا تكون

(٢٤)

إلا في الأعقاب، ولم يكن لأخوي إسماعيل عبد الله وموسى في الإمامة حق، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حقم على بن الحسين؛ وأصحاب هذا القول يسمون «المباركية» برئيس لهم كان يسمى (المبارك) مولى إسماعيل بن جعفر. (١)

٢. قال الأشعري: والصنف السابع عشر من الرافضة يزعمون أن جعفر بن محمد مات وأن الإمام بعد جعفر، ابنه (إسماعيل)، وأنكروا أن

يكون إسماعيل مات في حياة أبيه، وقالوا: لا يموت حتى يملك، لأن أباه قد كان يخبر أنه وصيه والإمام بعده. والصنف الثامن عشر من الرافضة وهم «القرامطة» يزعمون أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نص على بن أبي طالب، وأنعلياً نصي على إمامة ابنه (الحسن)، وأنا الحسن بن علي نص على إمامة أخيه الحسين بن علي، وأنا الحسين بن علي نص على إمامة ابنه علي بن الحسين، وأن علي بن الحسين نص على إمامة ابنه محمد بن علي، ونص محمد بن علي، علي إمامة ابنه جعفر، ونص جعفر علي إمامة ابنه محمد بن إسماعيل، وزعموا أن «محمد بن إسماعيل» حتى إلى اليوم لم يموت ولا يموت حتى يملك الأرض، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به، واحتجوا في ذلك بأخبار رووها عن أسلافهم، يخبرون فيها أن سبع الأئمة قائمهم.

والصنف التاسع عشر من الرافضة يسوقون الإمامة من علي بن أبي طالب على سبيل ما حكينا عن «القرامطة» حتى ينتهوا (بها) إلى جعفر بن محمد، ويزعمون أن جعفر بن محمد جعلها لإسماعيل ابنه، دون سائر ولده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه صارت في ابنه محمد بن إسماعيل، وهذا الصنف يدعون، «المباركية» نُسبوا إلى رئيس لهم يقال له (المبارك) وزعموا أن محمد بن إسماعيل

١. النوبختي: فرق الشيعة: ٦٦-٦٩، وكلام النوبختي صلة سيوافيك عند التعرض لجذور المذهب الإسماعيلي.

(٢٥)

قد مات، وأنها في ولده من بعده. (١)

٣. وقال البغدادي: الإسماعيلية وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر، وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل، وافترق هؤلاء فرقتين:

فرقة: منتطرة لإسماعيل بن جعفر؛ مع اتفاق أصحاب التواريخ على موت إسماعيل في حياة أبيه.

وفرقة قالت: كان الإمام بعد جعفر، سبطه محمد بن إسماعيل بن جعفر، حيث إن جعفر نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه، علمنا أنه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل. (٢)

٤. وقال الاسفرائيني: وهم يزعمون أن الإمامة صارت من جعفر إلى ابنه إسماعيل، وكذبهم في هذه المقالة جميع أهل التواريخ، لما صح عندهم من موت إسماعيل قبل أبيه جعفر؛ وقوم من هذه الطائفة يقولون بإمامة محمد بن إسماعيل. وهذا مذهب الإسماعيلية من الباطنية. (٣)

٥. وقال الشهرستاني: الإسماعيلية الواقفية قالوا: إن الإمام بعد جعفر إسماعيل، نصاً عليه باتفاق من أولاده، إلا أنهم اختلفوا في موته في حال حياة أبيه. فمنهم من قال: لم يموت، إلا أنه أظهر موته تقيته من خلفاء بني العباس، وعقد محضراً وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة.

ومنهم من قال: الموت صحيح، والنص لا يرجع قهقري، والفائدة في النص بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه دون غيره. فالإمام بعد إسماعيل، محمد بن إسماعيل؛ وهؤلاء يقال لهم «المباركية». ثم منهم من وقف على محمد بن _____

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٢-٢٧، وكلام الأشعري صلة سيوافيك بيانها في محله.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٦٢.

٣. الاسفرائيني: التبصير: ٣٨.

(٢٦)

إسماعيل وقال برجعته بعد غيبته.

ومنهم من ساق الإمامة في المستورين منهم، ثم في الظاهرين القائمين من بعدهم، وهم «الباطنية».

وسنذكر مذاهبهم على الانفراد. وإنما مذهب هذه الفرقة الوقف على إسماعيل بن جعفر، ومحمد بن إسماعيل. والإسماعيلية المشهورة

في الفرق منهم هم «الباطنية التعليمية» الذين لهم مقالة مفردة. (١)

٦. وقال المفيد: ولما مات إسماعيل رحمه الله انصرف القول عن إمامته من كان يظن ذلك، فيعتقده من أصحاب أبيه، وأقام على حياته شردمه لم تكن من خاصة أبيه، ولا من الرواة عنه، وكانوا من الأبعد والأطراف.

فلما مات الصادق - عليه السلام - انتقل فريق منهم إلى القول بإمامة موسى بن جعفر عليمها السلام، وافترق الباقرين، فريق منهم رجعوا عن حياة إسماعيل، وقالوا: بإمامة ابنه محمد بن إسماعيل، لظنهم أن الإمامة كانت في أبيه، وأن الابن أحق بمقام الإمامة من الآخر.

وفريق ثبتوا على حياة إسماعيل، وهم اليوم شذاذ لا يعرف منهم أحد يومي إليه، وهذان الفريقان يسميان بالإسماعيلية، والمعروف منهم الآن من يزعم أن الإمامة بعد إسماعيل في ولده وولد ولده إلى آخر الزمان. (٢)

٧. وقال صاحب الأعيان: الإسماعيلية هم القائلون بإمامة إسماعيل هذا، ويدل كلام المفيد (الماضي) على أن هذا القول كان موجوداً من عصر الصادق - عليه السلام -، وأن شردمه اعتقدوا حياته، أو بعد موت أبيه بقي بعضهم على القول بحياة إسماعيل، وبعضهم قال: بإمامة ابنه محمد بن إسماعيل، ولقب الإسماعيلية بعم الفريقين، وأن الموجود منهم في عصر المفيد من يزعم أن الإمامة بعد إسماعيل

١. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٦٧-١٦٨.

٢. المفيد: الإرشاد: ٢٨٥.

(٢٧)

في ولده وولد ولده إلى آخر الزمان.

و يقال الإسماعيلية «السبعية» أيضاً باعتبار مخالفتهم للاثني عشرية في الإمام السابع. وفرقة من الإسماعيلية تدعى الباطنية وكان لها ذكر مستفيض في التاريخ وصارت لها قوة، وشدة، ووقائع عدّة مع الملوك والأمراء، كما فصلته كتب التاريخ.

وفي أنساب السمعاني: «الفرقة الإسماعيلية جماعة من الباطنية ينتسبون إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، لانتساب زعيمهم المغربي إلى محمد بن إسماعيل. وفي كتاب الشجرة أنه لم يعقب (انتهى).

و «الإسماعيلية» اليوم فرقتان: إحداهما: الآخانية

يسوقون الإمامة في ذرية إسماعيل، ويعدون فيهم جملة من خلفاء مصر، حتى ينتهوا إلى محمد شاه (الآخاخ الثالث) الموجود اليوم في بمبي، ويبعثون إليه بخمس أموالهم، ومنهم الذين بسلمية من بلاد حماة. والفرقة الثانية: البهرة

بضم الباء وسكون الهاء وفتح الراء، لفظ هندي، معناه الجد والعمل، وهم يسوقون الإمامة في ولد إسماعيل، حتى ينتهوا إلى شخص يقولون: إنه المهدي المنتظر، وإنه غائب. (١)

١. الأولى أن يقال: هم يسوقون الإمامة بعد المستنصر، إلى المستعلي، فالأمر بأحكام الله، فالحافظ لدين الله، فالظافر لدين الله، فالظاهر بأمر الله، فالفاضل، فالعاضد، عند ذلك دخلت الدعوة المستعلية في كهف الاستتار بل دخلت بعد وفاة الأمر بأحكام الله، وهؤلاء الأئمة الأربعة كانت دعاء، لأن الأمر بأحكام الله مات بلا عقب وربما يقال ولد له باسم الطيب، وثالثه بأن المولود كان أنثى.

(٢٨)

أما الذي يطلقون عليه اسم سلطان البهرة فالظاهر أنه من قبيل النائب عن الإمام الغائب، ويبلغ عدد البهرة في الهند واليمن وغيرها نحو أربعمئة ألف، وهم أهل جد وكسب، ولا يوجد بينهم فقير، والفقير منهم يُوجدون له عملاً من تجارة أو غيرها يكتفي به، ولهم ملاجى وتكايأ عامة في البلاد التي يقصدونها للحج والزيارة، في مكة، والمدينة، والنجف، وكربلاء، وغيرها. وهي مبان تامة المرافق ينزلونها ولا يحتاجون إلى النزول في فندق أو خلافة، وهم متمسكون بشرائع الدين. وكان خلفاء مصر الفاطميون على مذهب

الإسماعيلية، القائلين بانتقال الإمامة من الصادق - عليه السلام - إلى ولده إسماعيل، ثم في أولاده، وكانوا يقيمون شعائر الإسلام، ويحافظون على أحكامه، وما كان يذمهم أو بعضهم بعض المورخين إلا للعداوة المذهبية، ولا يمكن التصديق بما ينسبه بعض المورخين إلى بعضهم، بعد تأصل العداوة المذهبية في النفوس، كما أن جماعة من أهل هذا العصر يخلطون بين الفريقين جهلاً أو تجاهلاً. (١)

هذه الأقوال والآراء فيهم، توقفنا على أننا لولا لم يكن لهم موقف واحد تجاه سوق الإمامة بعد وفاة الإمام الصادق - عليه السلام - . فمنهم من أنكر الواضحات، وقال: بأن إسماعيل لم يمت، وإنه القائم، وهذه هي الإسماعيلية الخالصة. (٢) وأمياً اشهاد الإمام على موته فلم يكن إلا إظهاراً لموته تقيّة من خلفاء بني العباس، وأنه عقد محضراً، وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة. (٣)

وهذه الطائفة لا تسوق الإمامة بعد إسماعيل إلى غيره، وإنما تنتظر خروج

١. السيد الأمين: أعيان الشيعة: ٣/٣١٦.

٢. النوبختي: فرق الشيعة: ٦٠.

٣. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٦٧.

(٢٩)

قائمهم.

ومنهم من قال: إن موته صحيح، وإن الإمام الصادق لما نصّ على إمامته، والنص لا يرجع قهقري، ففائدة النص بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه دون غيرهم، فالإمام بعد إسماعيل، محمد بن إسماعيل، ثم إن هذه الطائفة على رأيين: فمنهم: من وقف على محمد بن إسماعيل، وقال: برجعته بعد غيبته؛ وهؤلاء القرامطة. ومنهم: من ساق الإمامة في المستورين منهم، ثم في الظاهرين القائمين من بعدهم. وقد سبقت الإشارة إلى نص الشيخ المفيد، وأنه لا يعرف من الواقفين على إسماعيل، أو ابنه محمد المنتظرين لرجعته أحداً؛ والمعروف هو سوق الإمامة في ولد إسماعيل إلى آخر الزمان. و سيوافيك الكلام في الأئمة المستورين والظاهرين إن شاء الله. هذا ما وقفنا عليه في معاجم الملل والنحل وهو - كما ترى - لا يغني الباحث، فليس فيها شيء من أصولهم وعقائدهم، ولا من فروعهم، وثوراتهم، ودولهم، وحضارتهم، وكتبهم وآثارهم العلمية. والمهم في المقام هو دراسة جذور المذهب وأنه كيف نشأ وهذا ما سنبحث عنه في الفصل القادم إن شاء الله. (٣٠) (٣١)

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الحركات الباطنية في

عصر الإمام الصادق - عليه السلام - (٣٢) (٣٣)

من المشاكل التي واجهت أئمة أهل البيت - عليهم السلام - هي الحركات الباطنية التي تزعمها الموالى والعناصر المستسلمة، المندسّة بين أصحاب أئمة أهل البيت - عليهم السلام - في عصر الصادقين عليهم السلام .

فقد سنحت الظروف للإمام الباقر والصادق عليهما السلام أن يؤسسوا جامعة إسلامية كبيرة دامت نصف قرن كان لها صدى كبير في العالم الإسلامي، فقاما بتربية نخبة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين البارزين، وحفظا بذلك السنة النبوية من الاندثار بعدما كان التحدّث بها وكتابتها أمراً محظوراً أو مكروهاً إلى عهد الخليفة العباسي المنصور الدوانيقي.

فأضحت تلك الجامعة شوكة في أعين خصومها، فقامت ثلث من العناصر الدخيلة بالانخراط في صفوف أصحاب الأئمة بغية التخريب والتضليل، وتشويه سمعة أئمة أهل البيت - عليهم السلام - أولاً، وهدم كيان الإسلام ثانياً. وقد شكّلت تلك العناصر فيما بعد اللبنة الأولى للحركات الباطنية التي جرّت الولايات على الإسلام والمسلمين، فاتخذ الإمام الصادق - عليه السلام - موقفاً حازماً أمامها تجنباً لآخطارها، فأعلن للملأ الإسلامي براءته من تلك الفئات المنحرفة عن الدين والإسلام وتكفيرها وإن عاقبتها النار.

و من جملة الذين أبدعوا الحركات الباطنية وأغروا جماعة من شيعة أئمة أهل البيت - عليهم السلام - هو محمد بن مقلص المعروف بأبي الخطاب الأسدي، وزملاؤه، نظير: المغيرة بن سعيد، وبشار الشعيري وغيرهم، فقد تبرأ منهم الإمام - عليه السلام - على رؤوس الأشهاد. وركز البحث هنا على رئيس الفرقة الباطنية، أعني: أبا زينب محمد بن مقلص الأسدي.

(٣٤)

ولعرض صورة صحيحة عن عقائد الخطابية، تأتي بنصوص علماء الفريقين ليتبين من خلالها جذور الدعوة الإسماعيلية، وأنها ليست سوى استمراراً لتلك الحركة الباطنية التي تزعمها أبو زينب: ١. الكشي والخطابية

إنّ الكشي أحد الرجالين الذي عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، ووضع كتابه في الرجال على أساس الروايات المروية عن أئمة أهل البيت في حقّ الرواة، فقال ما هذا نصّه:

١. روى أبو أسامة قال: قال رجل لأبي عبد الله - عليه السلام -: «أؤخر المغرب حتى تستبين النجوم؟ فقال: «خطابية؟! إن جبرئيل أنزلها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين سقط القرص».

٢. كتب أبو عبد الله إلى أبي الخطاب: «بلغني أنك تزعم أنالزنا رجل، وأنّ الخمر رجل، وأنّ الصلاة رجل، والصيام رجل، والفواحش رجل، وليس هو كما تقول، أنا أصل الحقّ وفروع الحقّ طاعة الله، وعدونا أصل الشر وفروعهم الفواحش، وكيف يطاع من لا يعرف وكيف يعرف من لا يطاع؟»

٣. قيل للإمام الصادق - عليه السلام - روى عنكم أنّ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجال، فقال: «ما كان الله عزّ وجلّ ليخاطب خلقه بما لا يعلمون».

٤. روى أبو بصير قال: قال لي أبو عبد الله - عليه السلام -: «يا أبا محمد: أبرأ ممّن يزعم أنا أرباب» قلت: برى الله منه، فقال: «أبرأ ممّن زعم أنا أنبياء» قلت: برى الله منه.

٥. روى عبد الصمد بن بشير عن مصادف قال: ما لبى القوم الذين لبوا بالكوفة - أي قالوا: ليبيك جعفر، وهؤلاء هم الغلاة فيه - دخلت على أبي عبد الله - عليه السلام - فأخبرته بذلك، فخرّ ساجداً ودقّ جوجوه بالأرض وبكى - إلى أن قال: - فندمت على إخباري إياه، فقلت: جعلت فداك وما عليك أنت من ذا، فقال:

(٣٥)

«إنّ عيسى لو سكت عمّا قالت النصارى فيه لكان حقاً على الله أن يصم سمعه ويعمى بصره، ولو سكت عمّا قال فيّ أبو الخطاب لكان حقاً على الله أن يصم سمعي ويعمى بصري».

٦. روى علي بن حسان عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله، قال: ذكر عنده جعفر بن واقد ونفر من أصحاب أبي الخطاب فقليل أنّه صار إلى ببرود، وقال فيهم وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله قال هو الإمام، فقال أبو عبد الله - عليه السلام -: «لا والله لا يأويني وإياه سقف بيت أبداً، هم شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، والله ما صغر عظمة الله تصغيرهم شيئاً قط، وإنّ

عزيزاً جال في صدره ما قالت اليهود فمحا الله اسمه من النبوة».

٧. روى الحسن الوشاء عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «من قال بآتنا أنبياء الله، فعليه لعنة الله».

٨. روى ابن مسكان عن حدّثه عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: سمعته يقول: «لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه ما بنا ومعادنا».

٩. عن حنان بن سدير، عن أبيه قال: قلت لأبي عبد الله: إن قوماً يزعمون أنكم آلهة يتلون علينا بذلك قرآناً: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنني بما تعملون عليم، قال: «يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، برى الله منهم ورسوله ما هؤلاء على ديني ودين آبائي». (١)

فلما نهض أبو الخطاب بدعوته الفاسدة، ووصلت إلى مسامع عامل الخليفة دعا عيسى بن موسى للقضاء عليها واجتثاث جذورها.

١. الروايات مأخوذة من رجال الكشي: ٢٤٦-٢٦٠، مؤسسه الأعلمي، بيروت. ولاحظ الوسائل، الجزء ٣ الباب ١٨ من أبواب المواقيت، فقد جاءت فيه روايات تدم عمل أبي الخطاب وتحذر الشيعة من اتباعه.

(٣٦)

١٠. كان سالم من أصحاب أبي الخطاب، وكان في المسجد يوم بعث عيسى ابن موسى بن علي بن عبد الله بن العباس - وكان عامل المنصور على الكوفة - إلى أبي الخطاب لئلا بلغه أنهم أظهروا الإباحات، ودعوا الناس إلى نبوة أبي الخطاب، وأنهم يجتمعون في المسجد ولزموا الأساطين يرون الناس أنهم قد لزموا للعبادة، وبعث إليهم رجلاً فقتلهم جميعاً لم يفلت منهم إلا رجل واحد أصابته جراحات فسقط بين القتلى يعدّ فيهم، فلمّا جثّ الليل خرج من بينهم فتخلص، وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبي خديجة. (١)

هذه نصوص عشرة توقفك على جليته الحال، وإن الحركة الباطنية أسست بيد الخطابية، وسيظهر أن أتباع أبي زينب تحولوا فيما بعد إلى جانب محمد بن إسماعيل ووجدوه مرتعاً خصباً، عندها تألق نجم ابن إسماعيل بعد انتمائهم له.

هذه الروايات التي رواها الكشي تعرب عن وجود القول بالالوهية والمقامات الغيبية للآئمة حتى أن الحلول في الآئمة كان من نتاج أفكار أبي زينب وأصحابه في أواسط القرن الثاني، حتى طردهم الإمام الصادق ولعنهم وتبرأ منهم، ونهى أصحابه عن مخالطتهم. ٢. الأشعري والخطابية

وليس الكشي ممن انفرد في نقل تلك العقائد، فقد نسبها إليهم الأشعري أيضاً في «مقالات الإسلاميين» وذكر ما هذا نصه:

الخطابية على خمس فرق: كلهم يزعمون أن الآئمة أنبياء محدثون، ورسل الله وحججه على خلقه لا يزال منهم رسولان: واحد ناطق والآخر صامت، فالناطق محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، والصامت على بن أبي طالب، فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق، يعلمون ما كان، وما هو كائن، وزعموا أن أبا الخطاب

١. رجال الكشي: ٣٠١. وقد اقتصرنا من الكثير بالقليل، ومن أراد التفصيل فليرجع إليه.

(٣٧)

نبي، وإن أولئك الرسل فرضوا عليهم طاعة أبي الخطاب، وقالوا: الآئمة آلهة، وقالوا في أنفسهم مثل ذلك، وقالوا: ولد الحسين أبناء الله وأحبوا، ثم قالوا ذلك في أنفسهم، وتأولوا قول الله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (١) قالوا: فهو آدم ونحن ولده، وعبدوا أبا الخطاب وزعموا أنه إله، وزعموا أن جعفر بن محمد إليهم أيضاً إلا أن أبا الخطاب أعظم منه، وأعظم من علي، وخرج أبو الخطاب على أبي جعفر فقتله عيسى بن موسى في سبخة الكوفة، وهم يتدبّون بشهادة الزور لموافقهم.

والفرقة الثانية من «الخطابية»: وهي الفرقة السابعة من الغالية يزعمون أن الإمام بعد أبي الخطاب رجل يقال له «معمّر» وعبدوه كما عبدوا

أبا الخطاب، وزعموا أن الدنيا لا تفنى، وأن الجنة ما يصيب الناس من الخير والنعمة والعافية، وأن النار ما يصيب الناس من خلاف ذلك، وقالوا بالتناسخ، وأنهم لا يموتون، ولكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم، واستحلوا الخمر والزنا واستحلوا سائر المحرمات، ودانوا بترك الصلاة، وهم يُسمون «المعمرية» ويقال أنهم يسمون «العمومية».

والفرقة الثالثة من «الخطابية»: وهي الثامنة من الغالية يقال لهم «البيغية» أصحاب «بيغ بن موسى» يزعمون أن جعفر بن محمد هو الله، وأنه ليس بالذي يرون، وأنه تشبه للناس بهذه الصورة، وزعموا أن كل ما يحدث في قلوبهم وحى، وأن كل مؤمن يوحى إليه وتأولوا في ذلك قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (٢) أَى بوحى من الله، وقوله: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (٣)" إذ أُوحيت إلى الحواريين (٤) وزعموا أن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل

١. ص: ٧٢.

٢. آل عمران: ١٤٥.

٣. النحل: ٦٨.

٤. المائدة: ١١١.

(٣٨)

ومحمد، وزعموا أنه لا يموت منهم أحد، وأن أحدهم إذا بلغت عبادته رُفع إلى الملكوت، وأدعوا معاينة أمواتهم، وزعموا أنهم يرونهم بكره وعشية.

والفرقة الرابعة من «الخطابية»: وهي التاسعة من الغالية يقال لهم «العميرية» أصحاب «عمير بن بيان العجلي» وهذه الفرقة تكذب من قال منهم أنهم لا يموتون، يزعمون أنهم يموتون، ولا يزال خلف منهم في الأرض أئمة أنبياء، وعبدوا جعفرًا كما عبده «اليعمريون»، وزعموا أنه ربهم، وقد كانوا ضربوا خيمة في كناسة الكوفة، ثم اجتمعوا إلى عبادة جعفر، فأخذ يزيد بن عمر ابن هبيرة، «عمير بن البيان» فقتله في الكناسة، وحبس بعضهم.

والفرقة الخامسة من «الخطابية»: وهي العاشرة من الغالية يقال لهم «المفضلية» لأن رئيسهم كان صيرفيًا يقال له «المفضل» يقولون بربوبية جعفر، كما قال غيرهم من أصناف الخطابية، وانتحلوا النبوة والرسالة وإنما خالفوا في البراءة من «أبي الخطاب» لأن جعفرًا أظهر البراءة منه. (١) ٣. النوبختي والخطابية

وقد ذكر النوبختي فرقتهم، وأضاف: إن الخطابية هم الذين خرجوا في حياة أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فحاربوا عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس، وكان عاملاً على الكوفة، فبلغه عنهم أنهم أظهروا الإباحات، ودعوا إلى نبوة أبي الخطاب، وأنهم مجتمعون في مسجد الكوفة، فبعث إليه فحاربوه وامتنعوا عليه، وكانوا سبعين رجلاً فقتلهم جميعاً، فلم يفلت منهم إلا رجل واحد أصابته جراحات فعد في القتلى، فتخلص، وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبي خديجة وكان يزعم أنه مات فرجع، فحاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين، لأنهم جعلوا القصب مكان الرماح

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١٠-١٣.

(٣٩)

وقد كان أبو الخطاب قال لهم: قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف، ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم لا تضركم ولا تخل فيكم، فقدّمهم عشرة عشرة للمحاربة، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً، قالوا له: ما ترى ما يحل بنا من القوم وما نرى قصبنا يعمل فيهم ولا يؤثر، وقد عمل سلاحهم فينا وقتل من ترى منهم، فذكر لهم ما رواه العامة أنه قال لهم: إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي، وقال لهم ما رواه الشيعة: يا قوم قد بليتتم وامتنعتم وأذن في قتلكم، فقاتلوا على دينكم وأحسابكم، ولا تعطوا بلدتكم، فتدلوا مع أنكم لا تتخلصون من القتل فموتوا كراماً، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وأسر أبو الخطاب فأتى به عيسى بن موسى فقتله في دار الرزق على

شاطى الفرات، وصلب مع جماعة منهم، ثم أمر بإحراقه فأحرقوا، وبعث برؤوسهم إلى المنصور فصلبها على باب مدينة بغداد ثلاثة أيام، ثم أحرقت. (١) ٤. الطبرى والحركات الباطنية

يظهر ممياً رواه الطبرى في تاريخه وابن الجوزى في منتظمه تفشى هذا النوع من الإلحاد عند غير الخطابية أيضاً، وإليك نص ابن الجوزى في هذا المقام:

خروج الراوندي، وهم قوم من أهل خراسان كانوا على رأى أبى مسلم، إلا أنهم يقولون بتناسخ الأرواح، ويدعون أن روح آدم - عليه السلام - فى عثمان بن نهيك، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل. وهؤلاء طائفة من الباطنية يسمون السبعية يقولون: الأرضون سبع، والسموات سبع، والأسبوع سبعة يدل على أن دور الأئمة يتم بسبعة. فعدوا: العباس، ثم ابنه عبد الله، ثم ابنه على، ثم محمد بن على، ثم إبراهيم، ثم السفاح _____،
١. النوبختى: فرق الشيعة: ٦٩-٧٠.

(٤٠)

ثم المنصور، فقالوا: هو السابع. وكانوا يطوفون حول قصر المنصور ويقولون: هذا قصر ربنا.

فأرسل المنصور، فحبس منهم مائتين - وكانوا ستمائة - فغضب أصحابهم الباقون ودخلوا السجن، فأخرجوهم وقصدوا نحو المنصور، فتنادى الناس، وغلقت أبواب المدينة، وخرج المنصور ماشياً ولم يكن عنده دابة، فمن ذلك الوقت ارتبط فرساً، فسمى: فرس النبوة، يكون معه فى قصره، فأتى بدابة فركبها وجاء معن بن زائدة فرمى بنفسه وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجعت، فأنى أخاف عليك. فلم يقبل وخرج، فاجتمع إليه الناس، وجاء عثمان بن نهيك فكلمهم، فرموه بنشابة وكانت سبب هلاكه، ثم حمل الناس عليهم فقتلوهم، وكان ذلك فى المدينة الهاشمية بالكوفة فى سنة إحدى وأربعين. (١) تحول الخطابية إلى الإسماعيلية
إن الخطابية بعد قتل زعيمهم توجهوا إلى محمد بن إسماعيل، وقد كان بعض الضالين يوم والده إسماعيل بن جعفر، ولكن الإمام الصادق - عليه السلام - آيسه من إضلاله.

روى الكشى عن حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله يقول للمفضل بن عمر الجعفى: «يا كافر، يا مشرك مالك ولابنى» - يعنى: إسماعيل بن جعفر - وكان منقطعاً إليه يقول فيه مع الخطابية، ثم رجع عنه. (٢)

والذى يدل على أن المذهب الإسماعيلى نشأ وترعرع فى أحضان الخطابية، وإن لم يتبنى كل ما تبنته الخطابية، هى النصوص التاريخية التى ستلونها عليك واحداً تلو الآخر _____:

١. ابن الجوزى: المنتظم: ٢٩/٨-٣٠، تاريخ الطبرى: ١٤٧/٦-١٤٨.

٢. الكشى: الرجال: ٣٢١ برقم ٥٨١، فى ترجمة المفضل بن عمر.

(٤١)

١. قال النوبختى: ثم خرج - بعد قتل أبى الخطاب - من قال بمقالته من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر بعد قتل أبى الخطاب، فقالوا بإمامته وأقاموا عليها.

و صنوف الغالية افرقوا بعده على مقالات كثيرة، إلى أن قال: فقالت فرقة منهم إن روح جعفر بن محمد جعلت فى أبى الخطاب، ثم تحولت بعد غيبة أبى الخطاب فى محمد بن إسماعيل بن جعفر وتشعبت منهم فرقة من المباركية ممن قال بهذه المقالة تسمى القرامطة. (١)

٢. إن تقسيم الإمام إلى صامت وناطق من صميم عقائد الإسماعيلية، ونرى نفس ذلك التقسيم لدى الخطابية، وقد مر تصريح الأشعري بذلك حينما قال:

منهم رسولان: واحد ناطق، والآخر صامت؛ فالناطق محمد، والصامت على ابن أبى طالب. (٢)

و يذكر ذلك التقسيم أيضاً البغدادي عند ذكره للخطابية حيث قال:

وأتباعه كانوا يقولون ينبغي أن يكون في كل وقت إمام ناطق وآخر ساكت، والأئمة يكونون آلهة، ويعرفون الغيب، ويقولون إن علياً في وقت النبي صامتاً، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ناطقاً، ثم صار على بعده ناطقاً. وهكذا يقولون في الأئمة بعد أن انتهى الأمر إلى جعفر، وكان أبو الخطاب في وقته إماماً صامتاً وصار بعده ناطقاً. (٣)

٣. قال المقرئ: إن أتباع أبي الخطاب متفقون على أن الأئمة مثل علي وأولاده كلهم أنبياء، وإنه لا بد من رسولين لكل أمة أحدهما ناطق والآخر صامت _____،

١. النوبختي: فرق الشيعة: ٧١.

٢. مقالات الإسلاميين: ١٠.

٣. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٤٧-٢٤٨.

(٤٢)

فكان محمد ناطقاً وعلى صامتاً، وإن جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - كان نبياً، ثم انتقلت النبوة إلى أبي الخطاب. (١)
٤. قد وقفت على ما نقلناه عن الكشي من أن الخطابية كانت تؤول الآيات إلى مفاهيم غير مفهومه من ظواهر الآيات، حتى أنه أول الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بأنها رجال، فلما بلغ التأويل إلى الإمام الصادق - عليه السلام - فقال رداً عليه: «ما كان الله عزوجل ليخاطب خلقه بما لا يعلمون». (٢)

ومن الواضح أن الإسماعيلية وضعت لكل ظاهر باطناً، واتخذت من التأويل ركناً أساسياً لها.

كما وذكر الشهرستاني والمقرئ شيئاً من تأويلات الخطابية. (٣)

قال الشهرستاني: زعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بالهبة جعفر بن محمد وإلهية آبائه وهم أبناء الله وأحبواؤه. وإلهية نور في النبوة، والنبوة نور في الإمامة، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار. وزعم أن جعفر هو الإله في زمانه، وليس هو المحسوس الذي يرونه، ولكن لما نزل إلى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها، ولما وقف عيسى بن موسى صاحب المنصور على خبث دعوته، قتله بسبخة الكوفة. (٤)

وقد عرفت أيضاً شيئاً من تأويلاتهم في كلام الكشي.

ومن خلال استعراض تلك النصوص نخرج بهذه النتيجة أن حقيقة التطرف المشاهد في المذهب الإسماعيلي طرأت عليه من قبل أصحاب أبي الخطاب الذين استغلوا إمامة محمد بن إسماعيل لبث آرائهم _____.

١. المقرئ: الخطط: ٢/٣٥٢.

٢. الكشي: ترجمة ابن الخطاب، برقم ١٣٥.

٣. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٥٩؛ المقرئ: الخطط: ٢/٢٥٢.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٥٩؛ المقرئ: الخطط: ٢/٢٥٢.

(٤٣)

إن للمذهب الإسماعيلي دعائم ثلاث:

الأول: التمسك بالتأويل، والقول بأن لكل ظاهر باطناً.

الثاني: أخذ الفلسفة اليونانية، بأبعادها المختلفة في الإلهيات والطبيعات والفلكيات سناداً وعماداً للمذهب كما سيظهر.

الثالث: الغلو في حق أئمتهم وتزويدهم بصلاحيات واختصاصات واسعة لا دليل عليها من العقل ولا الشرع. (١)

فخرجنا بهذه النتيجة: أن الإسماعيلية كانت فرقة واحدة، فانشقت إلى: قرامطة ودروز، وبهرة، ونزارية وسيوافيك تفصيلها في الفصول

السِّلام، وروى هو عن أبي عبد الله - عليه السِّلام -، وكان ثقةً. له كتب، منها: كتاب «مبعث النبي - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم - وأخباره»، وكتاب «صفة الجنة والنار» ثم ذكر سنده إلى كتبه. (٣)

وقال الشيخ الطوسي: عبد الله بن ميمون القداح له كتاب، ثم ذكر سنده إلى كتابه. (٤)

وقال الشيخ أيضاً: عبد الله بن ميمون القداح المكي، كان يبرى القداح، مولى بني مخزوم. (٥)

وذكر أباه في أصحاب علي بن الحسين عليهما السِّلام (٦) وذكره أيضاً في _____

١. رجال البرقي: ٢٢، طبعه جامعة طهران.

٢. الكشي: الرجال: برقم ١٢٤، وقد أتى بنفس النص تحت رقم ٢٤٧.

٣. النجاشي: الرجال: برقم ٥٥٥.

٤. الطوسي: الفهرست: ١٢٩ برقم ٤٤٣.

٥. الفهرست: أصحاب الإمام الصادق، باب العين برقم ٤٠.

٦. الرجال: أصحاب علي بن الحسين، باب الميم، برقم ١٠.

(٤٩)

أصحاب الإمام الباقر، وقال: ميمون القداح مولى بني مخزوم مكي. (١)

هذا ما في كتب الشيعة، وأما الكتب الرجالية لأهل السنة، فقد ذكره ابن حجر في «تهذيب التهذيب» وقال: عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي، مولاهم المكي.

روى عن: جعفر بن محمد، وإسماعيل بن أمية، ويحيى بن الأنصاري، وعثمان بن الأسود وغيرهم. (٢)

وقال في «تقريب التهذيب»: عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي، المكي، متروك من الثامنة. (٣)

و تتلخص مواصفاته التي ذكرت في الكتب الرجالية بالأمر التالي:

الأول: اسمه ونسبه: وهو عبد الله بن ميمون بن الأسود أو ابن داود.

الثاني: الوطن: فهو مكي من بني مخزوم، وقد عرفت عن الكشي أنّ أباه جعفر الباقر - عليه السِّلام - قال له: يا بن ميمون كم أنتم بمكة؟

الثالث: الولاء: أنّه مخزومي ولواءً كما قال النجاشي: مولى بني مخزوم. ومثله الشيخ في الفهرست.

الرابع: العصر: فقد عاصر والده الأئمة الثلاثة: زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق - عليهم السِّلام -.

وأما الولد فقد عاصر الإمامين: الباقر والصادق عليهما السِّلام و روى عنهما، كما في رواية الكشي أنّ أباه جعفر، قال: «يا بن ميمون كم

أنتم بمكة _____؟».

١. المصدر السابق: أصحاب الإمام الباقر، باب الجيم، برقم ١٣.

٢. ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٤٩/٦، وقد سمى جدّه «داود»، خلافاً للنجاشي حيث سماه «الأسود».

٣. ابن حجر: تقريب التهذيب: ٤٥٥/١، برقم ٦٧٩.

(٥٠)

وما في رجال النجاشي من أنّه روى عن أبي عبد الله محمول على كثرة رواياته عن أبي عبد الله وقتله عن أبي جعفر، وإلا فقد عرفت نقل الكشي روايته عن أبي جعفر مباشرة إلا أن يقال بسقوط الواسطة عن قلم الكشي.

وبما أنّ الولد صحب الأئمة الثلاثة:

١. الإمام زين العابدين - عليه السِّلام - (م ٩٤).

٢. الإمام الباقر - عليه السِّلام - (م ١١٤).

٣. الإمام الصادق - عليه السلام - (م ١٤٨).

و الولد صحب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام فقط ، ولم يرو شيئاً عن الإمام الكاظم - عليه السلام - ، وطبيعة الحال تقتضى أنالوالد توفي في حياة الإمام الصادق - عليه السلام - وتوفي الولد أواخر إمامته أو بعدها بقليل .
و يؤيد ذلك: أن أبا عبد الله البرقي والد صاحب المحاسن، وأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري كلاهما (١) مَمَّن لقا الرضا - عليه السلام - مع أنهما يرويان عن عبد الله بن ميمون بواسطة جعفر بن محمد بن عبيد الله ، فيكون عبد الله ، متأخراً عن جعفر ومعاصراً لتلامذة الإمام الصادق.

الخامس: وجه التلقيب: فقد لُقّب بـ «القداح»، لأنه كان يبرى القداح.

عبد الله بن ميمون الإسماعيلي

عبد الله بن ميمون الإسماعيلي

و إليك بيان ما يذكره أصحاب المقالات والمؤرخون حوله:

١. قال البغدادي في «الفرق بين الفرق»:

قال أصحاب المقالات إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة: منهم _____

١. لاحظ رجال النجاشي: برقم ٥٥٥، وفهرست الشيخ، أصحاب الإمام الصادق، باب العين، برقم ٤٠.

(٥١)

«ميمون بن ديصان» المعروف بالقداح، وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز، ومنهم: محمد بن الحسين الملقب بدنان، اجتمعوا كلهم مع ميمون ابن ديصان في سجن والى العراق، فأشسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدنان، وابتدأ بالدعوة في ناحية توز.

فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فقبل الأغباء ذلك منه على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب. (١)

٢. قال ابن النديم: إن عبد الله بن ميمون - ويعرف ميمون بالقداح - وكان من أهل قوزح العباس بقرب مدينة الأهواز، وأبوه ميمون الذى تنسب إليه الفرقة الميمونية التى أظهرت اتباع أبى الخطاب محمد بن أبى زينب الذى دعا إلى إلهية على بن أبى طالب، وكان ميمون وابنه ديصانيين، وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة، وكان يظهر الشعابيد، ويذكر أنالأرض تطوى له فيمضى إلى أين أحب فى أقرب مدة، وكان يخبر بالأحداث الكائنات فى البلدان الشاسعة، وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى المواضع الذى فيه بيت عبد الله، فيخبر من حضره بما يكون فيتموه ذلك عليهم.

إلى أن قال: وصار إلى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبى طالب، فكبس هناك، فهرب إلى سلمية بقرب حمص.

١. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٨٢.

(٥٢)

إلى أن قال: قد كان قبل بنى القداح قريب مَمَّن يتعصب للمجوس ودولتها، وكان مَمَّن واطأ عبد الله أمره رجل يعرف بمحمد بن

الحسين ويلقب بزيدان من ناحية الكرخ من كتاب أحمد بن عبد العزيز بن أبي دلف، وكان هذا الرجل متفلسفاً، حاذقاً بعلم النجوم، شعوبياً، شديد الغيظ من دولة الإسلام. (١)

٣. قال ابن الأثير: فلما ينس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعف العقول في دينهم بأمر قد ضبطها المحدثون وأفسدوا الصحيح بالتأويل. فكان أول من فعل ذلك: أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بنى أسد، وأبو شاعر بن ديسان صاحب كتاب الميزان في نصره الزندقه وغيرهما، فألقوا إلى من وثقوا به أنلكل شيء من العبادات باطناً، وأنالله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ولا حرم عليهم شيئاً وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات، وإنما هذه قيود للعامه ساقطة عن الخاصة.

وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة، وتفرق أصحابهم في البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه، فقتل أبو الخطاب وجماعه من أصحابه بالكوفة.

إلى أن قال: ونشأ لابن ديسان (أبو شاعر ميمون بن ديسان) ابن يقال له عبد الله القداح علمه الحيل وأطلعته على أسرار هذه النحلة فحذق وتقدم، إلى أن قال: وإنما لقب القداح لأنه كان يعالج العيون ويقدها، فلما توفي القداح (عبد الله) قام بعده ابنه أحمد مقامه، إلى آخر ما ذكر. (٢)

وإليك مواصفات الرجل حسب ما ذكره البغدادي، وغيره من المورخين فهي تختلف عما تعرفت عليه في الأول.

١. ابن النديم: الفهرست: ٢٧٨-٢٨١، نقله عن أبي عبد الله بن الرزاق وتبراً من صدق ما نقله وكذبه.

٢. الجزري: الكامل: ٨/٢٧-٢٩.

(٥٣)

الأول: اسمه ونسبه: عبد الله بن ميمون بن ديسان.

الثاني: الوطن: كان من الأهواز أو من الكوفة، فأنمحمد بن أبي زينب وأتباعه كانوا كوفيين. (١)

الثالث: الولاء: كان مولياً لجعفر بن محمد الصادق، والظاهر أن مراده هو حبه له.

الرابع: العصر: فالرجل حسب ما يذكره البغدادي ممن ذهب لناحية المغرب وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب هذا من

جانب، ومن جانب نرى أنالأئمة الإسماعيلية توجهوا إلى المغرب في أواسط القرن الثالث، لأن الإمام المستور الحسين بن أحمد

(٢١٩-٢٤٥هـ) التقى بالنجف الأشرف بالداعي أبي قاسم حسن بن فرح بن حوشب وعلى بن الفضل فأثر فيهما وأحضرهما إلى سلمية،

ثم جهزهما بعد ذلك إلى اليمن، وفي عهده تم إرسال أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب. (٢)

فيعلم من خلالها أن التمهيد لبسط نفوذهم في المغرب بدأ في أواسط القرن الثالث وأنميمون بن ديسان الوالد قصدها في تلك الآونة

وقد أرخ الكاتب الإسماعيلي مصطفى غالب في تقديمه لكتاب كثر الولد ان عبد الله بن ميمون القداح ولد سنة ١٩٠ وتوفي سنة

٢٧٠هـ (٣) فأين هو من عبد الله بن ميمون المعدود من أصحاب الباقر والصادقعليهما السلام، الذي توفي في أواسط القرن الثاني!؟

الخامس: وجه التلقب: أنه كان يقده العيون.

أضف إلى ذلك أنه من البعيد أن يروي المشايخ الكبار، كجعفر بن محمد الأشعري، والحسن بن علي بن فضال، وأحمد بن إسحاق

بن سعد، وحماد بن عيسى، وعبد الله بن المغيرة عن خدم الإسماعيلية وتأمر على الإمامية الاثني

١. الجزري: الكامل: ٨/٣٠.

(٢) ٢ الجزري: الكامل: ٨/٢٨.

٣. كثر الولد: ١٩، المقدمة.

(٥٤)

عشرية، ولو افترضنا أنهم أخذوا منه الرواية حين استقامته، لصرحوا به.

و ممن حَقَّق هذا الأمر تفصيلاً صاحب أعيان الشيعة، فلاحظ. (١)

لعب عبد الله بن ميمون القداح دوراً هاماً في نشر أفكار الخطابية وبتُّها في أتباع محمد بن إسماعيل، وكان حلقة وصل بين الخطابية والإسماعيلية، وأخيراً التحق بالإمام محمد بن إسماعيل وصار من دعائه، وكل الآفات التي أصابت العقيدة الإسماعيلية تعود إليه وإلى زميله محمد بن الحسين الملقب بـ«دندان» .

و يشهد كثير من النصوص التاريخية على ذلك، نكتفي منها بالقليل.

يقول ابن الأثير: يأس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة فأخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفه العقول في دينهم بأمر قد ضبطها المحدثون، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه.

فكان أول من فعل ذلك أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بنى أسد، وأبو شاعر ميمون بن ديسان صاحب كتاب «الميزان» فألقوا إلى من وثقوا به أن لكل شيء من العبادات باطناً، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ولا من عرف الأئمة والأبواب، صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك، ولا حرم عليهم شيئاً وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات، وإنما هذه قيود للعامة ساقطة عن الخاصة.

وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة، وتفترق أصحابهم في البلاد، فقتل أبو الخطاب وجماعته من أصحابه بالكوفة.

ونشأ لابن ديسان ابن يقال له عبد الله القداح، علمه الحيل وأطلعته على أسرار هذه النحلة. وكان بنواحي كرخ واصفهان رجل يعرف بمحمد بن الحسين ويلقب بـ«دندان» فسار إليه القداح وعرفه من ذلك ما زاد به محله. (٢)

١. الأمين: أعيان الشيعة: ٨/٨٤، وفي الذيل: أنالترجمه مما لم يكتبها المؤلف وإنما استدرکها الشيخ محمد مهدي شمس الدين.

٢. ابن الأثير: الكامل: ٨/٢٨-٢٩، حوادث عام ٢٩٦.

(٥٥)

و من طالع تاريخ الإسماعيلية و كتبهم يقف على أن لأبي عبد الله بن ميمون القداح وريبه القدح المعلّى في صياغة العقيدة الإسماعيلية.

فقد خرجنا بهذه النتيجة أنالخطابية وعلى حسب تعبير النوبختي «المباركية» هم جذور الإسماعيلية وأن ميمون بن ديسان، ثم ابنه عبد الله بن ميمون القداح، وزميلة المعروف بـ«دندان» هم حلقة الوصل بين الفرقتين.

ما روى عن عبد الله بن ميمون الإمامي في

ما روى عن عبد الله بن ميمون الإمامي في الجوامع الحديثية

إن لعبد الله بن ميمون بن الأسود المخزومي روايات في مختلف الأبواب قد نقلها أصحاب الكتب الأربعة في جوامعهم وهي تناهز ٤٩ حديثاً، وليس في رواياته أي شذوذ إلا في رواية واحدة. والتمعن فيها يوقف الإنسان على أنه كان فقيهاً متقناً في النقل. وإليك ما وقفنا عليه:

١. روى عبد الله بن ميمون، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: «جاء رجل من الأنصار إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقال: يا رسول الله أحب أن تشهد لي على نحل نحلتي ابني، قال: مالك ولد سواه؟ قال: نعم، قال: فنحلتي كما نحلته؟ قال: لا، قال:

فإننا معاشر الأنبياء لا نشهد على الجنف». (١)

٢. روى عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: «كان أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - يتبوك يعنون الماء، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : اشربوا في أيديكم، فإنها من خير آيتكم». (٢)
٣. روى عبد الله بن ميمون، عن جعفر بن محمد، عن أبيه - عليه السلام -، قال: «الركعتان يصلِّيهما متزوج أفضل من سبعين ركعة يصلِّيها أعزب». (٣)

١. الفقيه: ٣/٤٠، الحديث ١٣٤.

٢. الفقيه: ٣/٢٢٣، الحديث ١٠٣٦.

٣. الفقيه: ٣/٢٤٢، الحديث ١١٤٦.

(٥٦)

٤. روى عبد الله بن ميمون، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن آبائه - عليهم السلام - قال: «قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : الصبي والصبي، والصبي والصبي، والصبي والصبي يفرق بينهم في المضاجع لعشر سنين». (١)
٥. روى عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله - عليه السلام - عن أبيه - عليه السلام - قال: «أتى أمير المؤمنين - عليه السلام - برجل قد ضرب رجلاً حتى انتقص من بصره، فدعا برجال من أسنانه ثم أراهم شيئاً، فنظر ما انتقص من بصره، فأعطاه دية ما انتقص من بصره». (٢)

٦. عن عبد الله بن ميمون، عن جعفر، عن أبيه - عليه السلام - أن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - قال: «الرزق أسرع إلى من يطعم الطعام من السكين في السنام». (٣)

٧. عن أحمد بن إسحاق بن سعد، عن عبد الله بن ميمون، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه - عليه السلام - قال: «قال الفضل بن العباس: أهدى إلى رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم بغلة أهداها له كسرى أو قيصر، فركبها النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وجلّ من شعر وأردفني خلفه، ثم قال لي: يا غلام احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله عزّ وجلّ في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله عزّ وجلّ، فقد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بأمر لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضرّوك بأمر لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع، فاصبر، فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، واعلم أنّ الصبر مع النصر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً، أنّ مع العسر يسراً». (٤)

١. الفقيه: ٣/٢٧٦، الحديث ١٣١٠.

٢. الفقيه: ٤/٩٧، الحديث ٣٢١.

٣. الكافي: ٤/٥١، الحديث ١٠.

٤. الفقيه: ٤/٢٩٦، الحديث ٨٩٦.

(٥٧)

٨. علي بن حاتم، عن محمد بن جعفر، عن محمد بن عمرو، عن علي بن محمد، عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون، عن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد، عن علي بن الحسين، عن أمير المؤمنين - عليهم السلام - : «اللهم إنك أعلنت سيلاً من سبلك فجعلت فيه رضاك، وندبت إليه أولياءك وجعلته أشرف سبلك عندك ثواباً، وأكرمهم لديك مآباً وأحبها إليك مسلماً، ثم اشترت فيه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيلك فيقتلون ويقتلون وعداً عليك حقاً، فاجعلني ممن اشترى فيه منك نفسه، ثموفى لك ببيعه الذي بايعك عليه، غير ناكث، ولا ناقض عهداً، ولا مبدل تديلاً، إلا استنجازاً لموعودك، واستيجاباً لمحبتك،

وتقريباً به إليك، فصلّ على محمد وآله واجعله خاتمة عملي، وارزقني فيه لك وبك مشهداً توجب لي به الرضا، وتحط عني به الخطايا، اجعلني في الأحياء المرزوقين بأيدي العداة العصاة تحت لواء الحق وراية الهدى، ماض على نصرتهم قدماً غير مولّ دبراً، ولا محدث شكاً، وأعوذ بك عند ذلك من الذنب المحبط للأعمال». (١)

٩. عن الحسن بن علي، عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون، عن جعفر، عن أبيه - عليه السلام - قال: «كان رسول الله -

صلى الله عليه وآله وسلم - إذا خرج إلى الجمعة قعد على المنبر حتى يفرغ المودنون». (٢)

١٠. محمد بن علي بن محبوب، عن الحسن بن علي، عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام

قال: «كان المقام لازقاً بالبيت فحوّله عمر». (٣)

١١. الحسن بن علي الكرخي، عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن _____

١. التهذيب: ٣/٨١، الحديث ٢٣٧.

٢. التهذيب: ٣/٢٤٤، الحديث ٤٤٣.

٣. التهذيب: ٥/٤٥٤، الحديث ١٥٨٦.

(٥٨)

ميمون، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام: «كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يستهدى من ماء زمزم وهو بالمدينة». (١)

١٢. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «دخل أمير المؤمنين صلوات الله عليه

المسجد، فإذا هو برجل على باب المسجد، كئيب حزين، فقال له أمير المؤمنين - عليه السلام - مالك؟ قال: يا أمير المؤمنين أصبت

بأبي وأمي وأخي وأخشي أن أكون قد وجلت، فقال له أمير المؤمنين - عليه السلام -: عليك بتقوى الله والصبر تقدم عليه غداً؛

والصبر في الأمور بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور». (٢)

١٣. عن حماد، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: «زكاة الفطرة صاع من تمر، أو صاع من زبيب، أو

صاع من شعير، أو صاع من إقط عن كلابسان حرّ أو عبد، صغير أو كبير، وليس على من لا يجد ما يتصدق به حرج». (٣)

١٤. عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله - عليه السلام - أنعلياً صلوات الله عليه كان يقول إذا أصبح:

«سبحان الله الملك القدوس - ثلاثاً - اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحويل عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن درك

الشقاء، ومن شرّ ما سبق في الليل، اللهم إني أسألك بعزة ملكك، وشدة قوتك، وبِعظيم سلطانك، وبقدرتك على خلقك»، ثمسّل

حاجتك. (٤)

١٥. عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن ميمون، عن جعفر، عن أبيه _____

١. التهذيب: ٥/٤٧١، الحديث ١٦٥٧.

٢. الكافي: ٢/٩٠، الحديث ٩.

٣. التهذيب: ٤/٧٥، الحديث ٢١١.

٤. الكافي: ٢/٥٢٧، الحديث ١٦.

(٥٩)

عليهما السلام قال: «المحرمه لا تنتقب، لأنّ إحرام المرأة في وجهها، وإحرام الرجل في رأسه». (١)

١٦. عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن ميمون، قال: سمعت أبا عبد الله - عليه السلام -

يقول: «إنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقف بعرفات، فلمّا همّت الشمس أن تغيب قبل أن تندفع، قال: اللهم إني أعوذ

بك من الفقر، ومن تشّئت الأمر، ومن شر ما يحدث بالليل والنهار، أمسى ظلمي مستجيراً بعفوك، وأمسى خوفي مستجيراً بأمانك،

وأَمسى ذَلِيَّ مستَجيراً بعزِّكَ، وأمسى وجهي الفاني مستَجيراً بوجهك الباقي، يا خير من سئل، ويا أجود من أعطى جَللني برحمتك، وألبسني عافيتك، واصرف عني شرَّ جميع خلقك». (٢)

١٧. عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله - عليه السَّلام - قال: «للعبد أن يستثنى ما بينه وبين أربعين يوماً إذا نسي، أن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أتاه ناس من اليهود فسألوه عن أشياء، فقال لهم: تعالوا غداً أُحدِّثكم ولم يستثن، فاحتبس جبرئيل - عليه السَّلام - عنه أربعين يوماً ثمَّ أتاه وقال: "وَلَا تَقُولَنَّ لِشَائِيٍّ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا" * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ (٣)». (٤)

١٨. عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السَّلام قال: «ثلاثة لا يفطرن الصائم: القيء والاحتلام والحجامة، وقد احتجم النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو صائم، وكان لا يرى بأساً بالكحل للصائم». (٥)

١٩. عن حماد بن عيسى، عن عبد الله بن ميمون، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السَّلام يقول: «للعبد أن يستثنى ما بينه وبين أربعين يوماً إذا نسي». (٦)

١. الكافي: ٤/٣٤٥، الحديث ٧؛ الفقيه: ٢/٢١٩، الحديث ١٠٠٩.

٢. الكافي: ٤/٤٦٤، الحديث ٥.

٣. الكهف: ٢٣-٢٤.

٤. الفقيه: ٣/٢٢٩، الحديث ١٠٨١.

٥. التهذيب: ٤/٢٦٠، الحديث ٧٧٥.

٦. التهذيب: ٨/٢٨١، الحديث ١٠٢٩.

(٦٠)

٢٠. عن أحمد بن محمد، عن أبيه، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله - عليه السَّلام - قال: «كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: اللهمَّ إِنِّي أعوذ بك من الاحتلام، ومن سوء الأحلام، وأن يلعب بي الشيطان في اليقظة والمنام». (١)

٢١. علي بن الحسن بن فضال، عن محمد بن الحسن بن الجهم، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السَّلام قال: «قال علي - عليه السَّلام - : إذا طلق الرجل المرأة فهو أحقَّ بها ما لم تغتسل من الثالثة». (٢)

٢٢. روى عبد الله بن ميمون باسناده قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «إذا ضللت الطريق فتيامنوا». (٣)

٢٣. محمد بن أحمد بن يحيى، عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون قال: أتى علي - عليه السَّلام - بأسير يوم صفين فبايعه، فقال علي - عليه السَّلام - : «لا أقتلك أني أخاف الله ربَّ العالمين، فخلِّ سبيله، وأعطى سلبه الذي جاء به». (٤)

٢٤. عن ابن فضال، عن عبد الله بن ميمون القَدَّاح، عن أبي عبد الله - عليه السَّلام - قال: «حرَّمت الجنة على الديوث». (٥)

٢٥. عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن عبد الله بن ميمون القَدَّاح، عن أبي عبد الله - عليه السَّلام - قال: «قال يعقوب لابنه: يا بني لا تزن، فإنَّ الطائر لو زنا لتناثر ريشه». (٦)

١. الكافي: ٢/٥٣٦، الحديث ٥.

٢. التهذيب: ٨/١٢٥، الحديث ٤٣٢.

٣. الفقيه: ٢/١٩٧، الحديث ٨٩٦.

٤. التهذيب: ٦/١٥٣، الحديث ٢٦٩.

٥. الكافي: ٥/٥٣٧، الحديث ٨، باب الغيرة.

٦. الكافي: ٥/٥٤٢، الحديث ٨، باب الزاني؛ الفقيه: ٤/١٣، الحديث ١٣.

(٦١)

٢٦. عن سهل بن زياد، عن جعفر بن محمد الأشعري، عن ابن القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا شرب اللبن قال: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه». (١)

٢٧. عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن جعفر، عن أبيه - عليه السلام - قال: «قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تعاهدوا نعالكم عند أبواب مساجدكم، ونهى أن يتنعل الرجل وهو قائم». (٢)

٢٨. عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن جعفر، عن أبيه، عن آبائه - عليهم السلام -، قال: «انكسفت الشمس في زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فصلّى بالناس ركعتين، فطوّل حتى غشى على بعض القوم ممّن كان وراءه من طول القيام». (٣)

٢٩. عن جعفر بن محمد، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن جعفر، عن أبيه عليمها السلام أنّ علياً - عليه السلام - كان يقول: «من فاته صيام الثلاثة أيام في الحج، وهي قبل التروية بيوم ويوم التروية ويوم عرفه فليصم أيام التشريق، فقد أذن له». (٤)

٣٠. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح؛ وعلى ابن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وأنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر». (٥)

١. الكافي: ٦/٣٣٦، الحديث ٣.

٢. التهذيب: ٣/٢٥٥، الحديث ٧٠٩.

٣. التهذيب: ٣/٢٩٣، الحديث ٨٨٥.

٤. التهذيب: ٥/٢٢٩، الحديث ٧٧٨.

٥. الكافي: ١/٣٤، الحديث ١.

(٦٢)

٣١. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: قال: «إن هذا العلم عليه قفل ومفتاحه المسألة». (١)

٣٢. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - عن آبائه - عليهم السلام - قال: «جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الانصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: نشره». (٢)

٣٣. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: أفضل العبادة العفاف». (٣)

٣٤. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «قال أمير المؤمنين - عليه السلام -: المؤمن مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». (٤)

٣٥. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «من أطعم مومناً حتى يشبعه لم

يدر أحدٌ من خلق الله ماله من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا الله رب العالمين، ثم قال: من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان، ثم تلا قول الله عز وجل "أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ" (٥). (٦)

١. الكافي: ١/٤٠، الحديث ٣.

٢. الكافي: ١/٤٨، الحديث ٤.

٣. الكافي: ٢/٧٩، الحديث ٣.

٤. الكافي: ٢/١٠٢، الحديث ١٧.

٥. البلد: ١٤-١٦.

٦. الكافي: ٢/٢٠١، الحديث ٦.

(٦٣)

٣٦. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «ركعتان بالسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة». (١)

٣٧. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: «كان أمير المؤمنين - عليه السلام - إذا حضر أحداً من أهل بيته الموت، قال له: لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله رب السموات السبع ورب الأرضين السبع وما بينهما ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين فإذا قالها المريض، قال: اذهب فليس عليك بأس». (٢)

٣٨. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله، عن آبائه - عليهم السلام - قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء». (٣)

٣٩. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن جعفر، عن أبيه عليهما السلام: أن علياً صلوات الله عليه قال لرجل كبير لم يحج قط: «إن شئت أن تجهز رجلاً، ثم أبعثه أن يحج عنك». (٤)

٤٠. عن جعفر بن محمد الأشعري عن عبد الله بن ميمون القداح، عن جعفر - عليه السلام - : أن علياً - عليه السلام - كان لا يرى بأساً بعقد الثوب إذا قصر، ثم يصلى فيه وإن كان محرماً. (٥)

٤١. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله عن آبائه - عليهم السلام - قال: «قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ما استفاد امرؤ مسلم فائدة بعد الإسلام

١. الكافي: ٣/٢٢، الحديث ١.

٢. الكافي: ٣/١٢٤، الحديث ٧.

٣. الكافي: ٤/٢٨، الحديث ١.

٤. الكافي: ٤/٢٧٢، الحديث ١.

٥. الكافي: ٤/٣٤٧، الحديث ٣.

(٦٤)

أفضل من زوجة مسلمة تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله». (١)

٤٢. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله - عليه السلام - : إن علي بن الحسين عليهما السلام كان يتزوج وهو يتعرق عرقاً يأكل ما يزيد على أن يقول: الحمد لله وصلى الله على محمد وآله، ويستغفر الله عز وجل، وقد زوجناك

على شرط الله، ثم قال علي بن الحسين عليهما السلام: إذا حمد الله فقد خطب. (٢)

٤٣. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله، عن أبيه، عن آبائه - عليهم السلام - قال: «كان بالمدينة رجلان يسمّى أحدهما هيت والآخر مانع، فقالا لرجل ورسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يسمع: إذا افتتحت الطائف إن شاء الله فعليك بابنة غيلان الثقفية، فإنها شموع بخلاء مبتلة هيفاء شنباء، إذا جلست تثتت، وإذا تكلمت غنت، تقبل بأربع وتدبر بثمان بين رجلها مثل القدح، فقال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : لا أريكما من أولى الأربة من الرجال، فأمر بهما رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فغزب بهما إلى مكان يقال له: العرايا، وكانا يتسوّفان في كلّ جمعة». (٣)

٤٤. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: «للزاني ست خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، أما التي في الدنيا: فيذهب بنور الوجه، ويورث الفقر، ويعجل الفناء؛ وأما التي في الآخرة: فسخط الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار». (٤)

٤٥. عن الحسن بن عليّ، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الدعاء كهف الإجابة، كما أنّ السحاب كهف المطر». (٥)

١. الكافي: ٥/٣٢٧، الحديث ١؛ التهذيب: ٧/٢٤٠، الحديث ١٠٤٧.

٢. الكافي: ٥/٣٦٨، الحديث ٢.

٣. الكافي: ٥/٥٢٣، الحديث ٣.

٤. الكافي: ٥/٥٤١، الحديث ٣؛ الفقيه: ٣/٣٧٥، الحديث ١٧٧٤.

٥. الكافي: ٢/٤٧١، الحديث ١.

(٦٥)

٤٦. عن الحسن بن عليّ، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليّ - عليهم السلام - قال: «سجدتا السهو بعد التسليم وقبل الكلام».

(١)

٤٧. عن عبد الله بن المغيرة، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله، عن آبائه، عن عليّ - عليهم السلام - : أنه كان إذا خرج من الخلاء قال: «الحمد لله الذي رزقني لذته، وأبقى قوته في جسدي، وأخرج عني أذاه يا لها من نعمة».

(٢)

٤٨. عن محمد بن الحسن بن أبي الجهم، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبد الله، عن أبيه عليهما السلام قال: «جاء قنبر مولى عليّ - عليه السلام - ببطرة إليه قال: فجاء بجراب فيه سويق عليه خاتم قال: فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن هذا لهو البخل تختم عليّ طعامك!! قال: فضحك عليّ - عليه السلام - قال: ثم قال: أو غير ذلك؟ لا أحب أن يدخل بطني شيء إلا شيء أعرف سبيله، قال: ثم كسر الخاتم، فأخرج منه سويقاً، فجعل منه في قدح فأعطاه إياه، فأخذ القدح فلمّا أراد أن يشرب قال:

بسم الله اللهم لك صمنا، وعلى رزقك أظننا، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم».

(٣)

٤٩. عن جعفر بن محمد الأشعري، عن عبد الله بن ميمون القدّاح، عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر - عليه السلام - قال: «قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم».

(٤)

إنّ حامل تلك الدرر اللامعة وراويها، أجلّ من أن يكون موصوفاً بما وصف به عبد الله بن ميمون الإسماعيلي في كتب الملل والنحل أو في سائر المعاجم _____.

١. التهذيب: ٢|١٩٥، الحديث ٧٦٨.
 ٢. التهذيب: ١|٢٩، الحديث ٧٧؛ ص ٣٥١، الحديث ١٠٣٩.
 ٣. التهذيب: ٤|٢٠٠، الحديث ٥٧٨.
 ٤. الكافي: ٢|١٥٢، الحديث ١٥.
- (٦٦) (٦٧)

الفصل الخامس : في الأئمة المستورين

الفصل الخامس في الأئمة المستورين

الفصل الخامس في الأئمة المستورين

(٦٨) (٦٩)

يرجع نشوء الإسماعيلية وتكوّنهم، إلى القول بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق - عليه السّلام - و استمرارها في عقبه، فهو الإمام الأوّل، وقد تلتته أئمة :

١. إسماعيل بن جعفر.
 ٢. محمد بن إسماعيل.
 ٣. عبد الله بن محمد.
 ٤. أحمد بن عبد الله.
 ٥. الحسين بن أحمد.
 ٦. عبيد الله المهدي بن الحسين، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب.
 ٧. محمد القائم.
 ٨. إسماعيل بن محمد المنصور.
 ٩. معد بن إسماعيل «المعز».
 ١٠. نزار بن معد «العزير».
 ١١. الحسن بن نزار «الحاكم».
 ١٢. علي بن الحسن «الظاهر».
 ١٣. معد بن علي المستنصر.
- وهؤلاء هم الأئمة المتفق عليهم بين الفرق الإسماعيلية الثلاث: المستعلية، والنزارية المومنية، والنزارية القاسمية (الآخانية).
- (٧٠)

ثمّ اختلفوا إلى فرقتين، فذهبت المستعلية إلى أنّ الإمام القائم بالأمر بعد المستنصر عبارة عن كلّ من :

١. أحمد المستعلى.
٢. الأمر بأحكام الله.

٣. الطيب بن الأمر.

ثم جاء دور الستر فلا إمام ظاهر.

لكن النزارية بكلا فريقها قالوا باستمرار الإمامة بعد المستنصر، وقالوا: إن الإمام القائم بالأمر عبارة عن كل من:

١. نزار بن معد.

٢. حسن بن معد (جلال الدين).

٣. محمد بن حسن (علاء الدين).

٤. محمود بن محمد (ركن الدين).

٥. محمد بن محمود (شمس الدين).

ثم افرقت النزارية إلى فرقتين:

الف: النزارية المومنية.

ب: النزارية القاسمية الآخانية.

فكل ساقوا الإمامة بعد شمس الدين، بشكل خاص لا يلتقيان أبداً إلى العصر الحاضر. وستوافيك أسماؤهم.

و سنقوم بترجمة الأئمة المتفق عليهم بين جميع الفرق، الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة عشر إماماً آخرهم المستنصر. وقد عقدنا لبيان

فصلين مستقلين، أحدهما في الأئمة المستورين، والثاني في المتظاهرين بالإمامة. (٧١)

الإمام الأول (١)

الإمام الأول (١) إسماعيل بن جعفر الصادق (١١٠-١٤٥هـ) إن إسماعيل هو الإمام الأول والمؤسس للمذهب، فوالده الإمام الصادق -

عليه السلام - غنى عن التعريف، وفضله أشهر من أن يذكر، وُلد الإمام الصادق عام ٨٠هـ على قول و ٨٣ على قول آخر وتوفي عام ١٤٨

هـ وهو من عظماء أهل البيت - عليهم السلام - وساداتهم، ذو علوم جمة، وعبادة موفورة، وزهادة بينة، وتلاوة كثيرة... إلى غير ذلك

من فضائل ومآثر يقصر عنها القلم والبيان؛ وقد أنجب - عليه السلام - عشرة أولاد، هم إسماعيل ويليهِ عبد الله، وموسى الكاظم،

وإسحاق، ومحمد، والعباس وعلي، وأما الإناث، فأكبرهن أم فروة، ثم أسماء، وفاطمة.

لقد تزوج - عليه السلام - فاطمة بنت الحسين بن علي بن الحسين، فأنجب منها إسماعيل وعبد الله وأم فروة.

وكان إسماعيل أكبر الإخوة وكان أبو عبد الله - عليه السلام - شديد المحبة له والبر به والإشفاق عليه، مات في حياة أبيه - عليه

السلام - «بالعريض»، وحمل على رقاب الرجال إلى أبيه بالمدينة، حتى دفن بالبقيع (٢) _____

١. المبدأ في عد الأئمة للإسماعيلية، هو مؤسس الفرقة - حسب زعمهم - وإن كان هو الإمام السابع عندهم ثم إن الأقوال في ميلاد

ووفاء إسماعيل كثيرة وما ذكرناه أحد الأقوال.

٢. المفيد: الإرشاد: ٢٨٤.

(٧٢)

ولذلك كان من اللازم استعراض سيرته وسيرة بعض أولاده ممن كان لهم دور في نشوء هذه الفرقة فنقول:

عنوانه الشيخ في أصحاب رجال الصادق - عليه السلام - واقتصر على اسمه واسم آبائه، وقال: إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن

الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، المدني. (١)

وقال ابن عنبه: وأما إسماعيل بن جعفر الصادق - عليه السلام - ويكنى أبا محمد، وأمه فاطمة بنت الحسين الأثرم بن الحسن بن علي

بن أبي طالب - عليه السلام - ويعرف بإسماعيل الأعرج، وكان أكبر ولد أبيه، وأحبهم إليه، كان يحبّه حباً شديداً، وتوفي في حياة أبيه

«بالعريض»، فحمل على رقاب الرجال إلى البقيع، فدفن به سنة ثلاث وثلاثين ومائة، قبل وفاة الصادق - عليه السلام - بعشرين سنة، كذا قال أبو القاسم ابن خلدون نسبة المصريين. (٢)

وقال ابن خلدون: توفى قبل أبيه، وكان أبو جعفر المنصور طلبه، فشهد له عامل المدينة بأنه مات. (٣)

قال المفيد: لما توفي إسماعيل جزع أبو عبد الله عليه جزعاً شديداً، وحزن عليه حزناً عظيماً، وتقدم سريره بغير حذاء ولا رداء، وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مراراً، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه. (٤)

لم نقف في حياة إسماعيل على شيء سوى ما نقله ابن أبي الحديد حيث قال: كان القاسم بن محمد بن طلحة (٥) يلقب «أبا بعة»، ولى شرطة الكوفة _____،

١. الطوسي: الرجال: ١٤٩ برقم ٨١.

٢. ابن عنبه: عمدة الطالب: ٢٣٣، ولعل العشرين في العبارة مصحف خمس عشرة لأن الفاصل الزمني بين الوفايتين لا يتجاوز هذا المقدار على جميع الأقوال لأنها في حقه مختلفة فإنه مضافاً إلى ما ذكره من أنه توفي عام ١٣٨ وقيل توفي عام ١٤٣.

٣. تاريخ ابن خلدون: ٣٩/٤.

٤. المفيد: الإرشاد: ٢٨٤.

٥. هو طلحة بن عبيد الله التيمي المقتول بالجمل سنة ٣٦ هـ.

(٧٣)

لعيسى ابن موسى العباسي - فكلم إسماعيل بن جعفر الصادق بكلام خرجا فيه إلى المنافرة.

فقال القاسم: لم يزل فضلنا وإحساننا سابقاً عليكم يا بني هاشم، وعلى بني عبد مناف كافة.

فقال إسماعيل: أي فضل وإحسان أسديتموه إلى بني عبد مناف؟! أغضب أبوك جدى بقوله: «ليموتن محمد ولنجولن بين خلاخيل نسائه، كما جال بين خلاخيل نسائنا»، فأنزل الله تعالى مراغمه لأبيك: "وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا" (١) ومنع ابن عمك أمي من حقها في فدك، وغيرها من ميراث أبيها، وأجلب أبوك على عثمان، وحصره حتى قُتل، ونكث بيعه علي، وشام السيف في وجهه، وأفسد قلوب المسلمين عليه، فإن كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء، أسديتم إليهم إحساناً، فعزني من هم، جعلت فداك؟! (٢)

وروى الكشي بسنده عن عنبه العابد: كنت مع جعفر بن محمد بباب الخليفة أبي جعفر بالحيرة، حين أتى بسام، وإسماعيل بن جعفر بن محمد، فأدخلا - على أبي جعفر (٣) فأخرج بسام مقتولاً -، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد، قال: فرجع جعفر رأسه إليه، قال: أفلتها يا فاسق، أبشر بالنار. (٤)

قلت: الضمير في «إليه» يرجع إلى المنصور من باب خطاب الغائبين بما يقتضيه الحال.

والحديث يدل على أنه وشي عليهما لدى المنصور فطلبهما، فقتل بساماً _____

١. الأحزاب: ٥٣.

٢. ابن أبي الحديد: شرح النهج: ٣٢٣/٩.

٣. هو أبو جعفر المنصور الدوانيقي.

٤. الكشي: الرجال: ترجمه بسام بن عبد الله الصيرفي برقم ١٢١.

(٧٤)

وأطلق إسماعيل. ولعله ثبتت براءته مما نسب إليه .

وروى الكشي أيضاً في ترجمه عبد الله بن شريك العامري، عن أبي خديجة الجمال، قال: سمعت أبا عبد الله، يقول: إني سألت الله

في إسماعيل أن يُبقية بعدى فأبى، ولكنه قد أعطاني فيه منزلة أخرى، أنه يكون أول منشور في عشرة من أصحابه، ومنهم عبد الله بن شريك وهو صاحب لوائه. (١)

و الحديث يدل على أن الإمام الصادق - عليه السلام - كان يحبه كثيراً، ولعلّ إسماعيل مرض، فدعا أبوه الله تعالى أن يشفيه ولكن الله قدر موته، كما يدل على وثاقته أيضاً.

ويظهر ممّا رواه الكشي في ترجمته المفضل بن مزيد، أخى شعيب الكاتب، أنه كان مأموراً بدفع جوائز إلى بنى هاشم، وكان أسماء أصحاب الجوائز مكتوباً في كتاب، ناول الكتاب للإمام الصادق - عليه السلام - فلما رآه قال: ما أرى لإسماعيل هاهنا شيئاً، فأجاب المفضل: هذا الذي خرج إلينا. (٢)

ومن راجع الكتب الحديثية يرى أن هناك روايات يظهر منها جلاله منزلة إسماعيل، عند والده نذكر منها ما يلي: ١. الإمام الصادق - عليه السلام - يستأجر من يحجّ عن إسماعيل:

روى الكليني بسنده، عن عبد الله بن سنان، قال: كنت عند أبي عبد الله - عليه السلام - إذ دخل عليه رجل فأعطاه ثلاثين ديناراً يحجّ بها عن إسماعيل، ولم يترك شيئاً من العمرة إلى الحجّ إلا اشترط عليه أن يسعى في وادي مُحسّر، ثم قال: يا هذا، إذا أنت فعلت هذا كان لإسماعيل حجة بما أنفق من ماله، وكانت لك تسع بما أتعبت من بدنك. (٣)

١. الكشي: الرجال: ١٩٠، برقم ٩٧.

٢. الكشي: الرجال: ٣٢٠، برقم ٢٣٧.

٣. الوسائل: الجزء ٨، الباب ١ من أبواب النيابة في الحجّ، الحديث ١.

(٧٥) ٢. الإمام ينصحه من الائتمان بالفاسق:

روى الكليني بسنده، عن حريز بن عبد الله السجستاني، قال: كانت لإسماعيل بن أبي عبد الله - عليه السلام - دنانير وأراد رجل من قريش أن يخرج إلى اليمن، فقال إسماعيل: يا أبت إن فلاناً يريد الخروج إلى اليمن، وعندى كذا وكذا ديناراً، أفترى أن أدفعها إليه يتاع لي بها بضاعة من اليمن؟ فقال أبو عبد الله - عليه السلام -: يا بُني أما بلغك أنه يشرب الخمر؟ فقال إسماعيل: هكذا يقول الناس، فقال: يا بُني لا تفعل.

فعصى إسماعيل أباه ودفع إليه دنانيره فاستهلكها، ولم يأت به بشيء منها، فخرج إسماعيل وقضى أن أبا عبد الله - عليه السلام - حجّ وحجّ إسماعيل تلك السنة فجعل يطوف بالبيت، ويقول: اللهم أجرني واخلف عليّ فلحقه أبو عبد الله - عليه السلام - فهمزه بيده من خلفه، فقال له: مه يا بني فلا والله مالك على الله (هذا) حجة ولا لك أن يأجرك ولا يُخلف عليك، وقد بلغك أنه يشرب الخمر فائتمنته، فقال إسماعيل: يا أبت إنني لم أره يشرب الخمر، إنما سمعت الناس يقولون.

فقال: يا بُني إن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: "يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ" (١) يقول: يصدق الله ويصدق للمؤمنين فإذا شهد عندك المؤمنون فصدقهم ولا - تأتمن شارب الخمر، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: "وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ" (٢) فأى سفهه من شارب الخمر؟! إن شارب الخمر لا يزوّج إذا خطب، ولا يُشفع إذا شفع، ولا يُؤتمن على أمانه، فمن اتتمنه على أمانه فاستهلكها لم يكن للذي اتتمنه، على الله أن يأجره ولا يخلف عليه. (٣)

١. التوبة: ٦١.

٢. النساء: ٥.

٣. الكافي: ٥/٢٩٩.

(٧٦) قلّة رواياته

لم نجد في الجوامع الحديثية شيئاً يروى عنه، إلا الحديثين التاليين، ولعلّ قصر عمره وموته في حياة والده صاراً سبباً لقلّة الرواية عنه،

وإليك ما وقفنا عليه من رواياته:

١. روى الكليني بسنده، عن أبي أيوب الخزاز، قال: سألت إسماعيل بن جعفر، متى تجوز شهادة الغلام؟ فقال: إذا بلغ عشر سنين، قال: قلت: ويجوز أمره؟ قال: فقال: إن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - دخل بعائشة وهي بنت عشر سنين، وليس يدخل بالجارية حتى تكون امرأة، فإذا كان للغلام عشر سنين جاز أمره وجازت شهادته. (١)

٢. روى الشيخ الطوسي، عن داود بن فرقد، عن إسماعيل بن جعفر، قال: اختصم رجلان إلى داود - عليه السّلام - في بقرة فجاء هذا بيئته على أنها له، وجاء هذا بيئته على أنها له، قال: فدخل داود - عليه السّلام - المحراب فقال: يا رب إنه قد أعياني أن أحكم بين هذين، فكن أنت الذي تحكم، فأوحى الله عزوجل إليه اخرج فخذ البقرة من الذي في يده، فادفعها إلى الآخر، واضرب عنقه، قال: فضجت بنو إسرائيل من ذلك، وقالوا: جاء هذا بيئته وجاء هذا بيئته، وكان أحقهما بإعطائها الذي في يده، فأخذها منه، وضرب عنقه، فأعطاه هذا... قال: فدخل داود - عليه السّلام - المحراب فقال: يا رب قد ضجّت بنو إسرائيل ممّا حكمت، فأوحى إليه ربّه أن الذي كانت البقرة في يده لقي أب الآخر فقتله وأخذ البقرة منه، إذا جاءك مثل هذا فاحكم بينهم بما ترى ولا تسألني أن أحكم حتى الحساب. (٢)

١. الكافي: ٧/٣٨٨.

٢. التهذيب: ٦/٢٨٧، الحديث ٧٩٧.

(٧٧) وفاته

قد عرفت أن ابن عنبه ذكر أنه توفي عام (١٣٣هـ)، وقال صاحب تهذيب الكمال: إسماعيل إمام مات وهو صغير، ولم يرو عنه شيء من الحديث. (١)

و أرخ الزركلي في الأعلام وفاته سنة (١٤٣هـ) ولعله تبع صاحب دائرة المعارف الإسلامية حيث قال: توفي إسماعيل في المدينة سنة (١٤٣هـ) أي قبل وفاة أبيه بخمسة أعوام. (٢)

و القول الثاني أقرب للصواب، لأنه لو كان توفي سنة (١٣٣هـ) لكانت وفاته قبل وفاة أبيه بخمسة عشر عاماً، وهذا المقدار من الفاصل الزمني، يوجب انقطاع الناس عنه، ونسيانهم له عند وفاة أبيه.

وقال عارف تامر السورى من كتاب الإسماعيلية: إن إسماعيل ولد سنة ١٠١ في المدينة المنورة، وادعى والده الصادق أنه مات سنة ١٣٨هـ بموجب محضر أشهد عليه عامل الخليفة المنصور العباسي. (٣) استشهاد الإمام الصادق - عليه السّلام - على موته:

كان الإمام الصادق حريصاً على إفهام الشيعة بأن الإمامة لم تُكتب لإسماعيل، فليس هو من خلفاء الرسول الاثني عشر الذين كتبت لهم الخلافة والإمامة بأمر السماء وإبلاغ الرسول الأعظم.

و من الدواعي التي ساعدت على بثّ بذر الشبهة والشك في نفوس

١. الأعلام: ١/٣١١، نقلاً عن تهذيب الكمال.

٢. الزركلي: الأعلام: ١/٣١١.

٣. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨٠.

(٧٨)

الشيعة في ذلك اليوم، هو ما اشتهر من أن الإمامة للولد الأكبر. وكان إسماعيل أكبر أولاده فكانت أمانى الشيعة معقودة عليه - حسب الضابطة - صحت أم لم تصح، ولأجل ذلك تركزت جهود الإمام الصادق - عليه السّلام - على معالجة الوضع واجتثاث جذور تلك الشبهة وأن الإمامة لغيره، فتراه تارة ينصّ على ذلك، بقوله وكلامه، وأخرى بالاستشهاد على موت إسماعيل، وأنه قد انتقل إلى رحمة

الله، ولن يصلح للقيادة والإمامة.

وإليك نماذج تويد النهج الثاني الذي انتهجه الإمام - عليه السلام - لتحقيق غرضه في إزالة تلك الشبهة، وأما القسم الأول أي النصوص على إمامة أخيه فموكولة إلى محلها (١)

١. روى النعماني عن زرارة بن أعين، أنه قال: دخلت على أبي عبد الله - عليه السلام - وعند يمينه سيد ولدته موسى - عليه السلام -، وقدامه مرقد مغطى، فقال لي: «يا زرارة، جئني بداود بن كثير الرقي، وحرمان، وأبي بصير». ودخل عليه المفضل بن عمر، فخرجت فأحضرت من أمرني بإحضاره، ولم يزل الناس يدخلون واحداً إثر واحد، حتى صرنا في البيت ثلاثين رجلاً.

فلما حشد المجلس قال: «يا داودُ إكشف لي عن وجه إسماعيل»، فكشف عن وجهه فقال أبو عبد الله - عليه السلام - : «يا داود أحيى هو أم ميت؟» قال داود: يا مولاي هو ميت، فجعل يعرض ذلك على رجل رجل، حتى أتى على آخر من في المجلس، وانتهى عليهم بأسرهم وكل يقول: هو ميت يا مولاي، فقال: «اللهم اشهد»، ثم أمر بغمسه وحنوطه، وادراجه في أثوابه.

فلما فرغ منه قال للمفضل: «يا مفضل احسر عن وجهه»، فحسر عن وجهه، فقال: «أحيى هو أم ميت؟» فقال: ميت، قال: «اللهم اشهد عليهم»؛ ثم حمل إلى قبره، فلما وضع في لحدته قال: «يا مفضل اكشف عن وجهه» وقال _____

١. سوف يأتي شيء منه عند عرض الفطحية فلاحظ.

(٧٩)

للجماعة: «أحيى هو أم ميت؟» قلنا له: ميت فقال: «اللهم اشهد، واشهدوا، فإنه سيرتاب المبطلون، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم - ثم أوماً إلى موسى - والله متم نوره ولو كره المشركون»، ثم حثونا عليه التراب ثم أعاد علينا القول، فقال: «الميت، المحنط، المكفن، المدفون في هذا اللحد من هو؟» قلنا: إسماعيل، قال: «اللهم اشهد»، ثم أخذ بيد موسى - عليه السلام - وقال: «هو حق، والحق منه، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها». (١)

٢. روى الشيخ الطوسي بسنده عن أبي كهمس، قال: حضرت موت إسماعيل وأبو عبد الله - عليه السلام - جالس عنده فلما حضره الموت، شدّ لحييه وغمّضه، وغطى عليه الملحفة، ثم أمر بتهيئته، فلما فرغ من أمره، دعا بكفنه فكتب في حاشية الكفن: إسماعيل يشهد أن لا إله إلا الله. (٢)

٣. روى الصدوق بسنده عن أبي كهمس قال حضرت موت إسماعيل ورأيت أبا عبد الله - عليه السلام - وقد سجد سجدة فأطال السجود، ثم رفع رأسه فنظر إليه، ثم سجد سجدة أخرى أطول من الأولى ثم رفع رأسه، وقد حضره الموت فغمّضه وربط لحيته، وغطى عليه الملحفة، ثم قام، ورأيت وجهه وقد دخل منه شيء الله أعلم به، ثم قام فدخل منزله فمكث ساعة ثم خرج علينا مدنياً، مكتحلاً، عليه ثياب غير ثيابه التي كانت عليه، ووجهه غير الذي دخل به، فأمر ونهى في أمره، حتى إذا فرغ، دعا بكفنه، فكتب في حاشية الكفن: إسماعيل يشهد أن لا إله إلا الله. (٣)

وهذه الروايات و خاصية ما نقلناه عن أبي خديجة الجمال حاكية عن جلاله إسماعيل، ويؤكددها تقبيل الإمام له بعد موته مراراً.

١. النعماني: الغيبة: ٣٢٧، الحديث ٨، ولاحظ بحار الأنوار: ٤٨ | ٢١.

٢. الوسائل: الجزء ٢، الباب ٢٩ من أبواب التكفين، الحديث ١.

٣. الوسائل: الجزء ٢، الباب ٢٩ من أبواب التكفين، الحديث ٢.

(٨٠)

نعم هناك روايات تدل على ذمه ذكرها الكشي في ترجمة عدّه، مثل إبراهيم ابن أبي سمال، وعبد الرحمان بن سيابة، والفيض المختار، وقد ناقش السيد الخوئي، اسنادها فلاحظ. (١)

وقد أخطأ الكاتب الإسماعيلي، مصطفى غالب السورى فى فهم رأى الشيعة فى معرض كتابته عن إمامه، حيث قال: غير أن مَوْرخى الشيعة، والسنة، يذهبون فى إسماعيل مذهباً مختلفاً كل الاختلاف عمّا يقوله الإسماعيلية. فيقولون: إن إسماعيل لم يكن يصلح للإمامة، كونه كان يشرب الخمر، وأنه كان من أصدقاء أبى الخطاب المُلحد الذى تبرأ منه الإمام الصادق، وأن الصادق أظهر فرحه لموت ابنه إسماعيل، وعلى هذه الصورة اضطربت الروايات، واختلفت الأقاويل فى أمر إسماعيل، فأصبح أكثر الباحثين لا يدرون حقيقة أمره، ولا سيما أنه الإمام الذى تنسب إليه الحركة الإسماعيلية التى قامت بدور هام فى تاريخ العالم الإسلامى منذ ظهورها. (٢)

قد عرفت عقيدة الشيعة الإمامية فى حق إسماعيل وأنهم - عن بكره أبيهم - يذكرون إسماعيل بخير، اقتداء بإمامهم الصادق - عليه السلام - وأن رمية بشرب الخمر من صنيع أعداء أهل البيت - عليهم السلام - حيث كانوا لا يتمكنون من رمى أئمة الشيعة بالسفاسف فيوجهونها إلى أولادهم المظلومين المضطهدين. هل كان عمل الإمام تغطية لستره؟ إن الإسماعيلية تدعى أن ما قام به الإمام الصادق - عليه السلام - كان تغطية لستره عن أعين العباسيين، الذين كانوا يطاردونه بسبب نشاطه المتزايد فى نشر التعاليم

١. السيد الخوئي: معجم رجال الحديث: ٣/١٢٤-١٢٧، برقم ١٣٠٧.

٢. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسلامية: ١٦.

(٨١)

التي اعتبرتها الدولة العباسية منافية لقوانينها. والمعروف أنه توجه إلى «سلمية» ومنها إلى دمشق فعلم به عامل الخليفة، وهذا ما جعله يغادرها إلى البصرة ليعيش فيها مستتراً بقيه حياته.

مات فى البصرة سنة ١٤٣هـ وكان أخوه موسى بن جعفر «الكاظم» حجاباً عليه، أما ولى عهده محمد فكان له من العمر أربع عشرة سنة عند موته. (١)

وعلى ما ذكره القائل - خلافاً لأكثر الإسماعيلية - فقد مات فى حياة أبيه، فكيف يكون إماماً بعد أبيه وهو رهين التراب؟! اسطورة حياته بعد رحيل أبيه

غير أن بعضهم يجازفون فى القول، ويدعون أمراً خارقاً للعادة، ويقولون: والأمر الهام فى قضية إسماعيل وإمامته، هو أنه عاش بعد أبيه، وأثبت هذا الخبر كثيرون من المؤلفين المعاصرين له مما يدل على أن إسماعيل بقى بعد أبيه اثنتى عشرة سنة.

ولقد حكى أن إسماعيل حين ترك المدينة سراً، رُئى ثانية فى البصرة، حيث بلغ رفعة، بما أظهر من مقدره نادرة بشفاء المرضى والمعلولين، وخشية من اكتشاف الأمر، ترك البصرة ورحل إلى سوريا واستقر فيها، ولكن ليس بطمأنينة تامّة حيث حالما سمع الخليفة «المنصور» الذى كان يحكم الجزيرة العربية، بوجود إسماعيل، أمر واليه فى دمشق بإرساله إسماعيل تحت الحراسة إلى بلاطه، ولكنّ الوالى لم يكن يحترم الإمام إسماعيل فحسب، بل كان من أتباعه، وبناء عليه ولينقذ الوالى سيده الروحى، نصح الإمام أن يترك سوريا لعدّة أيام، وما أن ابتعد

١. عارف تامر: الإمامة فى الإسلام: ١٨٠.

(٨٢)

الإمام عن سوريا، حتى أعلن الوالى التفتيش الدقيق عنه، وكتب للخليفة أنه لم يجد لإسماعيل أثراً فى أى مكان. (١) أقول: ما ذكره أن كثيراً من المؤلفين المعاصرين لإسماعيل أثبتوا حياته بعد وفاة أبيه، شىء لم يدعمه بالدليل، فمن هؤلاء المؤلفون المعاصرون الذين أثبتوا حياته بعد الإمام الصادق، وما هى كتبهم؟! نعم أوعز الكاتب فى الهامش إلى عمدة الطالب، وتقدم نضّه (٢) وليس فيه أى إشارة إلى ذلك، فضلاً عن إشارته إلى كثير من المؤلفين المعاصرين للإمام إسماعيل، هكذا تحرف الحقائق بيد

العابثين اللاعبيين بتاريخ أمتنا المجيدة، أو بيد سماسرة الأهواء فيسيحون الكذب لدعم المذهب.

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكاتب الإسماعيلي عامر تامر حيث قال: هناك أقوال كثيرة لمؤرخين يؤكدون فيها أنه مات في عهد والده، وأن قصة ظهوره في البصرة أسطورة لا تقوم على حقيقة، ومهما يكن من أمر فالإسماعيليون اشتهروا بالتخفي والاستتار، والمحافظة على أئمتهم. لذلك ليس بعيداً أن تكون الرواية الأولى صحيحة. (٣)

إن تفسير قصة وفاة إسماعيل بالتمويه والتغطية فكره ورثها الجُدد من الإسماعيليين عن أسلافهم، قال مصطفى غالب: «ولكن أغلب مؤرخي الإسماعيلية يقولون: إن قصة وفاة إسماعيل في حياة أبيه كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق التمويه والتغطية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي كان يُطارده أئمة الشيعة في كل مكان، وتحت كل شمس، فخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفته إسماعيل، فادعى موته وأتى بشهود كتبوا المحضر إلى الخليفة _____

١. أ.س. بيكلي: مدخل إلى تاريخ الإسماعيلية: ٢٠.

٢. مرنّ نصّه ص ٧٢.

٣. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨٠-١٨١.

(٨٣)

العباسي، الذي أظهر سروراً وارتياحاً لوفاة إسماعيل الذي كان إليه أمر إمامة الشيعة، ثم شُهد إسماعيل بعد ذلك في البصرة، وفي بعض البلدان الفارسية. وعلى هذا الأساس لم تسقط الإمامة عن إسماعيل بالموت قبل أبيه لأنه مات بعد أبيه. (١)

ويقول في موضع آخر: ورأينا الأخير في هذا الموضوع بعد أن اطلعنا على جميع ما كتب حول إمامة إسماعيل، نقول: بأننا لإمام جعفر الصادق قد شعر بالأخطار التي تهدد حياة ابنه الإمام إسماعيل، بعد أن نصّ عليه، وأصبح ولياً للعهد، فأمره أن يستتر وكان ذلك عام ١٤٥هـ، خشية نعمة الخلفاء العباسيين وتدبر الأمر بأن كتب محضراً بوفاته، وشهد عليه عامل المنصور، الذي كان بدوره من الإسماعيليين.

وفوراً توجه إسماعيل إلى سلمية، ومنها إلى دمشق، وعلم المنصور بذلك، فكتب إلى عامله أن يلقي القبض على الإمام إسماعيل، ولكن عامله المذكور كان قد اعتنق المذهب الإسماعيلي، فعرض الكتاب على الإمام إسماعيل، الذي ترك البلاد نحو العراق حيث شُهد بالبصرة عام ١٥١هـ، وقد مرّ على مقعد فشفاه بإذن الله، ولبث الإمام إسماعيل عدّة سنوات يتنقل سراً بين أتباعه، حتى توفي بالبصرة عام ١٥٨هـ.

ويؤكد كتاب دستور المنجمين أن إسماعيل هو أول إمام مستور وكان بدء ستره سنة ١٤٥هـ ولم يمت إلا بعد سبع (٢) سنين. (٣)

ما ذكره أسطورة حاكتها يد الخيال، ولم يكن الإمام الصادق - عليه السلام - ولا _____

(١) ١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٦ ترى أن المؤرخ الأول الإسماعيلي يذكر موته في حياة أبيه وهذا يؤكد على موته بعده، فما هو الحق؟ وما هو المتوقع من مذهب حجر أساسه الريب والشك!!؟

٢. فيكون وفاته على هذا عام ١٥١، لا عام ١٥٨ كما ذكره قبل سطر.

٣. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٤٢-١٤٣.

(٨٤)

أصحابه الأجلاء، ممن تتلمذوا في مدرسة الحركات السرية، حتى يفتعل موت ابنه بمرأى ومسمع من الناس، وهو بعد حيّ يرزق، ولم يكن عامل الخليفة بالمدينة المنورة بليداً، يكتفي بالتنويه، حتى يتسلم المحضر ويبعث به إلى دار الخلافة العباسية.

والعجب أن الكاتب يذكر في كلامه الثاني أن عامل الخليفة في المدينة كان بدوره من الإسماعيليين، مع أنه لم يكن في ذلك اليوم أثر للإسماعيلية: «وكانت الإمامة لأبي الإمام الصادق - عليه السلام - فكيف يكون في حياة الصادق - عليه السلام - من الإسماعيلية؟!»

وأعجب منه أنه يعتمد في إثبات معتقده بدستور المنجمين، ثم يذكر له مصدراً في التعليق بالشكل التالي «بلوشيه ٥٧-٥٨ دي خويه ٢٠٣».

إن عقيدة إسلامية مبنية على تَبَوُّ المنجمين - وما أكثر أخطائهم - عقيدة منهارَةٌ وفاشلة.

و لو أن هؤلاء التجأوا في تصحيح إمامة ابنه، محمد بن إسماعيل إلى القول بعدم بطلان إمامة إسماعيل بموته في حياة والده، ولمَّا توفي الإمام الصادق تسلَّم عبد الله بن إسماعيل الإمامة من والده، لكان أرجح من اللجوء إلى بعض الأساطير التي لا قيمة علمية لها في مجالات البحوث التاريخية والعقائدية المبتنية على أسس علمية دقيقة.

والحقُّ أنه توفي أيام حياة أبيه، بشهادة الأخبار المتضاربة التي تعرفت عليها، وهل يمكن إغفال أمية كبيرة وفيهم جواسيس الخليفة وعمالها؟! وستر رحيل إسماعيل إلى البصرة بتمثيل جنازة بطريقه مسرحية يعلن بها موته فأنه منهج وأسلوب السياسيين المخادعين، المعروفين بالتخطيط والمؤامرة، ومن يريد تفسير فعل الإمام عن هذا الطريق فهو من هؤلاء الجماعة « وكلُّ إناء بالذي فيه ينضح ». وأين هذا من وضع الجنازة مرَّات وكشف وجهه والاستشهاد على موته وكتابه الشهادة على كفته!؟

(٨٥)

والتاريخ يشهد على أنه لم يكن لإسماعيل ولا لولده الإمام الثاني، أيَّة دعوة في زمان أبي جعفر المنصور ولا ولده، بشهادة أن المهدي العباسي الذي تسلَّم عرش الخلافة بعد المنصور العباسي ١٥٨-١٦٩هـ كان متشدداً على أصحاب الأهواء والفرق، وكتب له ابن المفضل صنوف الفرق صنفاً صنفاً، ثم قرأ الكتاب على الناس، فقال يونس: قد سمعت الكتاب يقرأ على الناس على باب الذهب بالمدينة، ومرَّة أخرى بمدينة الواضح، فقال: إن ابن المفضل صنف لهم صنوف الفرق فرقة فرقة حتى قال في كتابه: وفرقة يقال لهم الزرارية، وفرقة يقال لهم العمارية أصحاب عمار الساباطي، وفرقة يقال لهم اليعفورية، ومنهم فرقة أصحاب سليمان الأقطع، وفرقة يقال لهم الجواليقية. قال يونس: ولم يذكر يومئذ هشام بن الحكم ولا أصحابه. (١)

ترى أنه يذكر جميع الفرق المزعومة للشيعة، حتى يذكر العمارية المنسوبة إلى عمار الساباطي الذي لم يكن له يوم ذاك أيّ تابع إلا كونه فطحياً مومناً بإمامة عبد الله الأقطع، ولا يذكر الإسماعيلية؟! فلو كانت لإسماعيل دعوة سرية أيام المنصور، ثم لابنه محمد، حيث كانا ينتقلان من بلد إلى بلد، كان من المحتم مجيء اسمه في قائمة أصحاب الأهواء. كل ذلك يدل على أن المذهب قد نشأ بعد لآي من الدهر .

إلى هنا تمَّ البحث في الإمام الأوَّل، وكانت حصيلته هي:

أنَّ الرجل كان رجلاً - ثقته، محبوباً للوالد، وتوفى في حياة والده وهو عنه راض، ولم تكن له أيُّ دعوة للإمامة، ولم تظهر أيُّ دعوة باسمه أيام خلافة المهدي العباسي الذي توفي عام ١٦٩هـ وقد مضى على وفاة الإمام الصادق - عليه السلام - إحدى وعشرون سنة.

١. الكشي: الرجال: ٢٢٧.

(٨٦)

الإمام الثاني محمد بن إسماعيل

الإمام الثاني محمد بن إسماعيل (١٣٢-١٩٣هـ) محمد بن إسماعيل، هو الإمام الثاني للإسماعيلية، قال ابن عنبه: أعقب إسماعيل من محمد وعلي ابني إسماعيل، أمَّا محمد بن إسماعيل فقال شيخ الشرف العبدلي: هو إمام الميمونية وقبره ببغداد.

ويصفه الكاتب الإسماعيلي أنه ولد سنة ١٤١ في المدينة عندما توفي والده الإمام إسماعيل، اضطر لترك المدينة خوفاً من مراقبة الرشيد العباسي، الذي استطاع بنشاطه من إخماد كافة الثورات والدعوات الإمامية، فذهب إلى الكوفة، ومنها إلى فرغانة، ثم إلى

نيسابور، عمل على نشر دعوته بنشاط في الجزيرة العربية، وفي كافة البلدان الإسلامية، وقد استطاع التموية على الخلفاء العباسيين والإفلات من قبضتهم، وهم المهدي والهادي والرشيد.

إزداد تستراً بعد أن أعطى الرشيدُ أمراً بالقبض عليه، ثم إنه رَحَلَ إلى الرىّ ومنها إلى نهاوند، وفيها عقد زواجه على ابنة أميرها أبي المنصور بن جوشن، وبعد ذلك توجه إلى «تدمر» في سوريا حيث جعلها مركزاً لإقامته ونشر دعوته، وجّه الرشيد جيشاً لالقاء القبض عليه عندما كان في نهاوند، ولكن أتباعه تمكنوا من الانتصار على الجيش المذكور وردّوه خائباً.

يقال أنه هو الذي أرسل الداعيين: الحلواني وأبا سفيان إلى المغرب، توفى

(٨٧)

في مدينة «تدمر» و دفن في جبل واقع إلى الشمال الغربي منها، ويعرف حتى الآن بضريح محمد بن علي، وفاته سنة ١٩٣هـ.

يقال إن حجته هو ميمون القداح، والحقيقة أن الإمام محمد بن إسماعيل هو نفسه كان يحمل لقبى ميمون والقداح.

ترك عدداً من الأولاد ومنهم عبد الله الذي كان ولياً للعهد. (١)

أقول: للقارى الكريم أن ينظر إلى كلمات ذلك الكاتب بنظر الشك والريب، ويتفحص عن مآخذ كلامه ومصادر نقله، فإن ما وقفنا عليه في السير والآثار لا يدعم كلامه، وذلك للأسباب التالية:

١. إن شيخ الشرف العبيدلى قال: إنه توفى ببغداد، وقبره هناك، والكاتب يذكر أنه توفى ب«تدمر» بسوريا، وقبره هناك، وله ضريح معروف بضريح «محمد بن علي» ولكن من أين علم أنه ضريح محمد بن إسماعيل؟! وأنه حُرِّفَ اسم والده.

٢. الروايات المتضاربة من الفريقين تشهد على أنه كانت بينه وبين الرشيد صلة وكان موقفه منه، موقف العين، وقد أخبره بما جرى في أوساط العلويين، من جمع الأموال للثورة، والدعوة إلى الإمامة. ومن هذه الروايات التي وقفنا عليها:

روى ابن عنبه، عن أبي القاسم بن إسماعيل نسابه المصريين، أن موسى الكاظم - عليه السلام - كان يخاف ابن أخيه محمد بن إسماعيل، ويبرّه، وهو لا يترك السعى به إلى السلطان من بنى العباس.

وقال أبو نصر البخارى: كان محمد بن إسماعيل بن الصادق - عليه السلام - مع موسى الكاظم - عليه السلام - يكتب له السر إلى شيعته في الآفاق. فلما ورد الرشيد الحجاز، سعى (٢)

محمد بن إسماعيل بعمه إلى الرشيد. فقال: أعلمت أنفى الأرض خليفتين _____

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨١.

٢. ذكر الشيخ المفيد أن الساعى بعمه الكاظم - عليه السلام - إلى الرشيد هو على بن إسماعيل لا أخوه محمد. وذكر قصة السعاية أنظر (الإرشاد) باب ذكر السبب في وفاته - عليه السلام -.

(٨٨)

يجبى إليهما الخراج؟ فقال الرشيد: ويلك أنا ومن؟ قال: موسى بن جعفر. وأظهر أسرارَه فقبض الرشيد على موسى الكاظم - عليه السلام - وحبسه، وكان سبب هلاكه، وحظى محمد بن إسماعيل عند الرشيد، وخرج معه إلى العراق، ومات ببغداد، ودعا عليه موسى بن جعفر عليهما السلام بدعاء استجابه الله تعالى فيه وفي أولاده، ولما لئِمَ (١) موسى بن جعفر عليهما السلام في صلة محمد بن إسماعيل والاتصال مع سعيه به. قال: إنى حدثنى أبى، عن أبيه، عن جدّه، عن أبيه، عن جدّه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، الرحم إذا قُطِعَتْ فَوْصِلَتْ ثُمَّ قُطِعَتْ فَوْصِلَتْ ثُمَّ قُطِعَتْ قَطَعَهَا اللهُ تعالى، وإنما أردت أن يقطع الله رحمه من رحمى. (٢)

هذا ما رواه ابن عنبه من طرق أهل السنّة، كما رواه محدثوا الشيعة ونأتى بنصّ أفضلهم وأوسعهم اطلاعاً، أعنى: الشيخ الكلينى المتوفى عام ٣٢٩هـ فى الكافى.

روى الكليني بسند صحيح (٣) عن علي بن جعفر قال: جاءني محمد بن إسماعيل وقد اعتمرنا عمره رجب، ونحن يومئذ بمكة، فقال: يا عم إني أريد بغداد، وقد أحببت أن أودع عمي أبا الحسن - يعني موسى بن جعفر - عليه السلام - وأحبت أن تذهبمعي إليه، فخرجت معه نحو أخي، وهو في داره التي بالحوبة، وذلك بعد المغرب بقليل، فضربت الباب فأجابني أخي، فقال: من هذا؟ فقلت: علي، فقال: هو ذا أخرج - وكان بطيء الوضوء - فقلت: العجل، قال: واعجل فخرج وعليه ازار ممسوق (٤) قد عقده في عنقه حتى قعد تحت عتبة الباب، فقال علي بن جعفر: فانكببت عليه فقبلت رأسه، وقلت: قد جئتكم في أمر إن تره صواباً _____

١. فعل ماضى مجهول من اللوم.

٢. ابن عنبه: عمدة الطالب: ٢٣٣.

٣. رواه عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى العبيدي، عن موسى بن القاسم البجلي و هو نجل معاوية بن وهب البجلي، عن علي بن جعفر، والرواة ثقات والرواية صحيحة.

٤. أي مصبوغ بالمشق وهو الطين الأحمر.

(٨٩)

فالله وفق له، وإن يكن غير ذلك، فما أكثر ما نخطئ، قال: وما هو؟ قلت: هذا ابن أخيك يريد أن يودعك ويخرج إلى بغداد، فقال لي: أدعه، فدعوته وكان منتحياً، فدنا منه فقبل رأسه.

وقال: جعلت فداك أوصني فقال: أوصيك أن تتقى الله في دمي، فقال مجيئاً له: من أرادك بسوء فعل الله به، وجعل يدعو علي من يريده بسوء، ثم عاد فقبل رأسه، فقال: يا عم أوصني، فقال: أوصيك أن تتقى الله في دمي، فقال: من أرادك بسوء فعَلَّ الله به وفعل، ثم عاد فقبل رأسه، ثم قال: يا عم أوصني، فقال: أوصيك أن تتقى الله في دمي، فدعا علي من أراد به بسوء، ثم تتخى عنه، ومضيت معه، فقال لي أخي: يا علي مكائك فممت مكاني فدخل منزله، ثم دعاني فدخلت إليه، فتناول صرة فيها مائة دينار فأعطانيها. وقال: قل لابن أخيك يستعين بها على سفره، قال علي: فأخذتها فأدرجتها في حاشية رداي، ثم ناولني مائة أخرى وقال: أعطه أيضاً، ثمناولني صرة أخرى وقال: أعطه أيضاً.

فقلت: جعلت فداك، إذا كنت تخاف منه مثل الذي ذكرت، فلم تعينه على نفسك؟ فقال: إذا وصلته وقطعني قطع الله أجله، ثم تناول مخدّه أدم، فيها ثلاثة آلاف درهم وضح (١) وقال: أعطه هذه أيضاً قال: فخرجت إليه فأعطيته المائة الأولى ففرح بها فرحاً شديداً ودعا لعمه، ثم أعطيته الثانية والثالثة ففرح بها حتى ظننت أنه سيرجع ولا يخرج، ثم أعطيته الثالثة آلاف درهم فمضى علي وجهه حتى دخل علي هارون فسلم عليه بالخلافه، وقال: ما ظننت أنفي الأرض خليفتين، حتى رأيت عمي موسى بن جعفر يسلم عليه بالخلافه، فأرسل هارون إليه بمائة ألف درهم فرماه الله بالذبحه (٢) فما نظر منها إلى درهم ولا مسه. (٣)

١. الوضح: الدرهم الصحيح. لسان العرب: ٢|٦٣٥، مادة «وضح».

٢. الذبحه: وجع في الحلق، أو دم يخفق فيقتل. لسان العرب: ٢|٤٣٨، مادة «ذبح».

٣. الكليني: الكافي: ١|٤٨٥-٤٨٦.

(٩٠)

روى الكشي في رجاله، عن أبي جعفر محمد بن قولويه القمي، قال: حدثني بعض المشايخ، عن علي بن جعفر بن محمد عليهما السلام، قال: جاءني محمد بن إسماعيل ابن جعفر يسألني أن أسأل أبا لحسن موسى - عليه السلام -، أن يأذن له في الخروج إلى العراق، وأن يرضى عنه ويوصيه بوصية، قال: فتجبت حتى دخل المتوضي ... فلما خرج قلت له: إن ابن أخيك محمد بن إسماعيل، يسألك أن تأذن له في الخروج إلى العراق، وأن توصيه. فأذن له - عليه السلام -، فلما رجع إلى مجلسه قام محمد بن إسماعيل، وقال:

يا عم أحب أن توصيني. فقال: «أوصيك أن تتقى الله في دمي». فقال: لعن الله من يسعى في دمك. ثم قال: يا عم أوصني، فقال: «أوصيك أن تتقى الله في دمي». قال: ثم ناوله أبو الحسن - عليه السلام - صرة فيها مائة وخمسون ديناراً، فقبضها محمد، ثم ناوله أخرى فيها مائة وخمسون ديناراً، فقبضها، ثم أعطاه صرة أخرى فيها مائة وخمسون ديناراً، فقبضها ثم أمر له بألف وخمسمائة درهم كانت عنده. فقلت له في ذلك: استكثرته؟ فقال: «هذا ليكون أوكد لحجتي إذا قطعني ووصلته». قال: فخرج إلى العراق، فلما ورد حضرة هارون أتى باب هارون بثياب طريقه قبل أن ينزل، واستأذن على هارون وقال للحاجب: قل لأمير المؤمنين إن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بالباب. فقال الحاجب: انزل أولاً وغير ثياب طريقك وعُدْ لَدْخلك إليه بغير إذن فقد نام أمير المؤمنين في هذا الوقت. فقال: أعلم أمير المؤمنين أنني حضرت ولم تأذن لي، فدخل الحاجب وأعلم هارون قول محمد بن إسماعيل، فأمر بدخوله، فدخل قال: يا أمير المؤمنين خليفتان في الأرض موسى بن جعفر بالمدينة ينبغي له الخراج وأنت بالعراق ينبغي لك الخراج. فقال: والله؟! فقال: والله. فقال: والله؟! قال: فأمر له بمائة ألف درهم، فلما قبضها وحمل إلى منزله أخذته الريحه في جوف ليلته، فمات، وحول من الغد المال الذي حمل إليه. (١)

١. الكشي: الرجال: ٢٢٦، في ترجمة هشام بن الحكم.

(٩١)

و رواه ابن شهر آشوب في مناقبه. (١)

فلو صح ما ذكره فكيف تكون له ثورة أيام الرشيد وهو يتعامل معه، معاملة العيون والجواسيس، أو السعاة والوشاة. نعم نقل أبو الفرج الاصفهاني نفس القصة وتبعه الشيخ المفيد (٢) ولكن الساعي في كليهما هو علي بن إسماعيل أخو محمد بن إسماعيل، لكن السند قاصر، لأن الاصفهاني يروي عن أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة المتوفى عام ٣٣٢هـ عن شيخه: يحيى بن الحسن العلوي (٣) والرواية مرسله إذ لا- يتمكن ابن عقدة من نقل القصة بواسطة واحدة، كيف والإمام الكاظم قد أخذ في آخر السبعينات بعد المائة، وتوفي عام ١٨٣هـ (٤) ولأجل الإيماء إلى الإرسال أضاف المفيد بعد إنهاء السند قوله عن مشايخهم: فما نقله الكليني بسند صحيح هو المعتبر.

وما ذكره: «ويجيه الرشيد جيشاً لإلقاء القبض عليه عندما كان في نهاوند...» لم أقف على مصدره ولقد تصفحت حياة الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) في تاريخ الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، وكامل الجزري، فلم أجد فيها شيئاً من الحرب المزعومة وانتصار محمد بن إسماعيل على جيش الرشيد.

نعم نقل الجزري في حوادث سنة ٣١٢هـ: انه ظهر في الكوفة رجل ادعى أنه «محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو رئيس الإسماعيلية، وجمع جمعاً عظيماً من الأعراب وأهل السواد واستفحل أمره في شوال، فسير إليه جيش من بغداد، فقاتلوه وظفروا به وانهمز _____،

١. ابن شهر آشوب: المناقب: ٤/٣٢٦، قريباً مما نقله الكليني والكشي.

٢. المفيد: الإرشاد: ٢٩٨.

٣. في إرشاد المفيد: أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى عن مشايخهم.

٤. الجزري: الكامل: ٦/١٦٤، لاحظ حوادث سنة ١٨٣هـ

(٩٢)

وقتل كثير من أصحابه. (١)

قال مصطفى غالب: ويعتبر الإمام محمد بن إسماعيل أول الأئمة المستورين، و الناطق السابع و متم الدور، لأن إمامته كانت بداية دور جديد في تاريخ الدعوة الإسماعيلية، فقام بنسخ الشريعة التي سبقتها، وبذلك جمع بين النطق والإمامة، ورفع التكليف الظاهرة للشريعة، ونادى بالتأويل، واهتم بالباطن، ولذلك قال فيه الداعي إدريس: «وإنما خص محمد بن إسماعيل بذلك لانتظامه في سلك مقامات دور الستر، لأنك إذا عدت آدم ووصيه وأئمة دوره، كان خاتمهم الناطق، وهو نوح - عليه السلام - وإذا عدت عيسى ووصيه قائمه دوره، كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم مسلماً لمراتبهم، وهو الناطق خاتم للنطق، وكان وصيه - عليه السلام - بالفضل منفرداً به، وإذا عدت الأئمة في دوره كان محمد بن إسماعيل سابعهم، وللناظر قوة على من تقدمه، فلذلك صار ناطقاً وخاتماً للأسبوع، وقائماً وهو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها. (٢)

ولولا أنه في نسخ الشريعة ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها، كان المتبادر منه أنه كان صاحب شريعة ودين حديث وهو كما ترى.

ثم إن ظاهر كلامه أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان خاتماً للدور الثاني، وأن الدور الثالث يتبدأ بوصى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على أمير المؤمنين - عليه السلام - وبما أنهم لا يعدون الحسن بن علي في أئمتهم، يكون محمد بن إسماعيل هو سابع الأئمة وأفضلهم.

إن ما ذكره اعتبارات وتخييلات لم يقد عليها دليل، فما هو الدليل القاطع العقلي أو النقلى على هذا الدور، وإن كل سابع، خاتم له.

١. الجزرى: الكامل: ٨/١٥٧.

٢. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٤٨.

(٩٣)

الإمام الثالث عبد الله بن محمد بن إسماعيل

الإمام الثالث عبد الله بن محمد بن إسماعيل (١٧٩-٢١٢هـ) ولد في بلدة نيسابور عام ١٧٩ هـ من ألقابه: المستور، والرضى، والناصر، والعطار، وعبد الله الأكبر، كان كثير التنقل بين نهاوند والأهواز وطبرستان.

عرف أنه كان معاصراً للرشيد، وقد أدرك عصر المأمون. سمي جميع دعواته باسمه حتى لا يعرف. عندما خرج من فرغانة إلى الديلم، وكان يصحبه أخوه حسين. وفي الديلم تزوج فتاة علوية وولد له منها أحمد.

و ألف في سلمية رسائل «إخوان الصفاء وخلان الوفاء».

توفي سنة ٢١٢ هـ ودفن في سلمية (١) وضرريحه يعرف بالإمام إسماعيل. (٢)

إن من يدرس كتاب رسائل «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» يقف على أنه أثر لجنة علمية لا تأليف شاب لم يتجاوز عمره الثلاثين إلا قليلاً.

إن هذا الكتاب ألف في القرن الرابع الهجري، وقد قامت بتأليفه جماعة، وكان أبو حيان التوحيدى على معرفة بأحوال أحد أفرادها،

وقد وصفه لصمصام الدولة الذي ولى الأمر في سنة ٣٧٢ هـ (٣)

١. بليدة بالشام من أعمال حمص.

٢. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨٢.

٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٩/٢٢.

(٩٤)

ففي مقدمة المحقق : تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري، وكان موطنها البصرة، ولها فرع في بغداد، ولم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك... فليل إن أحدهم هو أبو سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، والآخر أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، ثم أبو أحمد المهرجاني، فأبو الحسن العوفي، فزيد بن رفاعه، ويؤخذ من كلام لابي حيان التوحيدى أثبتة أحمد زكي باشا في مقدمته لرسائل الإخوان أن زيد بن رفاعه كان متهماً بمذهبه، وأن الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة سأله عنه. (١)

١. رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء: ٥، المقدمة.

(٩٥)

الإمام الرابع أحمد بن عبد الله

الإمام الرابع أحمد بن عبد الله (١٩٨-٢٦٥هـ) عرفه الكاتب عارف تامر بقوله: ولد في سلمية سنة ١٩٨هـ واتخذ من هذه المدينة مقراً له ومركزاً لتوزيع الدعاة ونشر التعاليم في المناطق الأخرى. كان على جانب كبير من العلم، وإليه تنسب رسالة الجامعة لإخوان الصفاء وخلان الوفاء.

ولد له ولدان هما: الحسن وسعيد.

كان يتنقل بين الديلم والكوفة، وغيرهما في سبيل التجارة. والحقيقة أن ذلك لم يكن إلا في سبيل نشر الدعاية والأفكار الإسماعيلية. لقبه الوفي.

عاصر المؤمن واشترك في إثارة الناس عليه، إلى أن يقول: كان يقضى فصل الشتاء في سلمية، والصيف في مصياف. نشاط الدعاة في عصره بلغ الأوج خاصة في المجال العلمي.

مات في مصياف سنة ٢٦٥هـ عن ٦٧ عاماً، ودفن فيها في جبل مشهد.

(١)

و يقول المؤرخ المعاصر: ولقد تعرض الإمام أثناء وجوده في السلمية لمضايقات الخلفاء العباسيين المستمرة، لذلك وجد بأن السلمية لم تعد مكاناً صالحاً له، فغادرها سراً إلى الري حيث استقر فيها مدة طويلة عمل خلالها لنشر دعوته على نطاق واسع، فاعتنقها أكثر الملوك والأمراء، وقدموا جميع إمكانياتهم

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨٢.

(٩٦)

لمساعدة الدعاة في سبيل نشرها وتعميمها في جميع الأقطار الشرقية، والجدير بالذكر أن أكثر الحكام والولاة في العهد العباسي كانوا يتظاهرون بنقمتهم على الإسماعيلية، بينما كانوا يدينون بعقائدها في الباطن وينصرون الدعاة، ويعملون سراً على تقوية الدعوة وإنجاحها. (١)

وقد ذكر عارف تامر أن لقبه هو الوفي في حين أن مصطفى غالب قد لقبه بمحمد التقى، والظاهر أنهما لقبين لشخص واحد.

ولا يذهب عليك ما في كلامه من المبالغة من اعتناق أكثر الحكام والولاة لعقائد الإسماعيلية، فإن المؤرخين المعاصرين

(٢) قد اعتادا على المبالغة في الثناء وانتشار الدعوة من دون أن يذكر لكلامهما مصدراً.

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٦٧.

٢. عارف تامر، مصطفى غالب، والثاني أكثر مبالغة. (٩٧)

الإمام الخامس الحسين بن أحمد

الإمام الخامس الحسين بن أحمد (٢١٩-٢٨٩هـ) ولد في مصيف سنة ٢١٩هـ كان مركز إقامته في سلمية. اشتهر بثروته المالية الطائلة. من ألقابه: المرتضى، والمقتدى، والزكي، والهادي، والتقى. لخص رسالة الجامعة برسالة موجزة سماها جامعة الجامعة. كان على علاقات طيبة مع الهاشميين القاطنين في سلمية، التقى بالنجف الأشرف بالداعي أبي قاسم حسن بن فرح بن حوشب (منصور اليمن) وعلى بن الفضل حيث كانا يدعوان للحسن العسكري الاثنى عشرى فأثر فيهما وأحضرهما إلى سلمية، ثم جهزهما بعد ذلك إلى اليمن.

وفي عهده تم إرسال أبي عبد الله الشيعي (١)(٢) إلى المغرب.

في عصره دبّ الوهن إلى الدولة العباسية وأحدقت بها الثورات والاضطرابات، تولى ابن طولون في عهده شؤون مصر وأوكل إليه تنظيم بلاد الشام أيضاً. كانت الأموال الطائلة تحمل إليه من كافة الجهات حتى من آذربيجان _____.

١. والقرائن تشهد أن المراد منه، هو عبد الله بن ميمون القداح.

٢. وصار بعد ذلك داعية عبيد الله المهدي الإمام السادس، وسيوافيك تفصيله في ترجمه «عبيد الله».

(٩٨)

مات في سلمية ودفن في مقام جده عبد الله بن محمد وكان ذلك سنة ٢٦٥. (١)

ما ذكره من أنه توفي عام ٢٦٥هـ غير صحيح، لأنه عام وفاة والده ولعله تصحيف سنة ٢٨٩هـ وقد أُرّخ ميلاده ووفاته مؤلف تاريخ الدعوة الإسماعيلية كما ذكرنا وقال: وعهد بالإمامة من بعده لابنه محمد المهدي (٢) وقال له: إنك ستهاجر بعدى هجرة وتلقى محناً شديدة. (٣)

قد سبق وأن ذكرنا أن محمد بن إسماعيل - أي الإمام الثاني - أرسل الداعيين: الحلواني وأبا سفيان إلى المغرب، ولكن لم يحددا تاريخ البعث، فيما أن محمد بن إسماعيل استلم الإمامة - حسب رأى الإسماعيلية - عام ١٥٨هـ وتوفي عام ١٩٣هـ، فيكون إرسالهما بين الحدين.

كان الداعيان مهتمين بالتبليغ والدعوة في أيام الأئمة الثلاثة إلى أن استلم الإمام الحسين بن أحمد زمام الإمامة، ووقف بأن الدعوة في المغرب تتقدم باستمرار، فحينئذ طلب من الداعية الكبير أبي عبد الله الحسين أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي - الذي كان يدعو الناس إلى المذهب الإسماعيلي في البصرة - الذهاب إلى اليمن ويدرس هناك على ابن حوشب ويطيعه ويقتدى به، ثم يذهب بعد فراغه من الدراسة، إلى المغرب قاصداً بلدة «كتامة».

توجه أبو عبد الله إلى اليمن حيث شهد مجالس ابن حوشب وأصبح من كبار أصحابه، فلما أتى خبر وفاة الحلواني وأبي سفيان دعا المغرب إلى ابن حوشب قال لأبي عبد الله الشيعي: إنأرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فأنها موطأة ممهّدة لك _____.

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨٣.

٢. عبيد الله المهدي.

٣. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٧١. و لم يذكر مصدرراً لكلامه.

(٩٩)

فخرج أبو عبد الله إلى مكة وأعطاه ابن حوشب مالا وسير معه عبد الله بن أبي ملاحف، فلما قدم أبو عبد الله مكة سأل عن حجاج كتامة، فأرشد إليه، فاجتمع بهم، ولم يعرفهم قصده، وجلس قريبا منهم، فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك، وحدثهم بما لم يعلموه، فلما أراد القيام سأله أن يأذن لهم في زيارته والانبساط معه، فأذن لهم في ذلك، فسأله أين مقصده، فقال: أريد مصر، ففرحوا بصحبته.

وكان من رؤساء الكتاميين بمكة رجل اسمه «حريث الجميلي»، وآخر اسمه موسى بن مكاد فرحلوا وهو لا يخبرهم بغرضه، وأظهر لهم العبادة والزهد، فزادوا فيه رغبة وخدموه، وكان يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم وعن طاعتهم لسلطان إفريقية، فقالوا: ما له علينا طاعة، وبيننا وبينه عشرة أيام، قال: أفتحملون السلاح؟ قالوا: هو شغلنا، ولم يزل يتعرف أحوالهم حتى وصلوا إلى مصر، فلما أراد وداعهم قالوا له: أي شيء تطلب بمصر؟ قال: أطلب التعليم بها (١) قالوا: إذا كنت تقصد هذا فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك، ولم يزلوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم بعد الخضوع والسؤال، فسار معهم.

فلما قاربوا بلادهم لقيهم رجال من الشيعة فأخبروهم بخبره، فرغبوا في نزوله عندهم واقترعوا فيمن يضيفه منهم، ثم رحلوا حتى وصلوا إلى أرض كتامة منتصف شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين، فسأله قوم منهم أن ينزل عندهم حتى يقاتلوا دونه، فقال لهم: أين يكون فحج الأخياري؟ فتعجبوا من ذلك ولم يكونوا ذكروه له، فقالوا له: عند بني سليمان، فقال: إليه نقصد، ثم نأتى كل قوم منكم في ديارهم ونزورهم في بيوتهم، فأرضى بذلك الجميع.

وسار إلى جبل يقال له إنكجان، وفيه فحج الأخياري، فقال: هذا فحج الأخياري، وما سمي إلا بكم ولقد جاء في الآثار: أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان، ينصره _____

١. يريد تعليم مذهب أهل البيت - عليهم السلام - .

(١٠٠)

فيها الأخياري من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان، فإنهم كتامة وبخروجكم من هذا الفحج يسمى فحج الأخياري. ثم إنه قال للكتاميين: أنا صاحب البدر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني، فزادتهم محبتهم له وتعظيمهم لأمره. ثم إن الحسن بن هارون وهو من أكابر كتامة، فأخذ أبا عبد الله إليه، ودافع عنه، ومضيا إلى مدينة ناصرون فأتته القبائل من كل مكان وعظم شأنه، وصارت الرئاسة للحسن بن هارون، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة. ثم كان الأمر على ذلك حتى توفي الإمام الحسين بن أحمد عام ٢٨٩هـ وعهد بالإمامة من بعده لابنه محمد المهدي، وقال له: إنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة، وتلقى محنا شديدة، فلما قام عبيد الله بعد أبيه انتشرت دعوته، وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجلا من كتامة من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه وأنهم ينتظرونه. وهذا ما سذكروه في سيرة الإمام التالي الإمام عبيد الله المهدي. (١)

هؤلاء هم الأئمة المستورون عند الإسماعيلية، والذي يدل على ذلك أن القاضي النعمان وصفهم بالاستتار، وجعل مبدأ الظهور قيام عبد الله الإمام المهدي بالله، وإليك أبياته في أرجوزته يقول:

اشتدت المحنة بعد جعفر * فانصرف الأمر إلى التستر

وكان قد أقام بعض ولده * مقامه لما رأى من جلده

فجعل الأمر له في ستر * فلم يكن قالوا بذاك يدرى

لخوفه عليه من أعدائه * إلا ثقات محض أوليائه

كالحروب التي خاضها أبو عبد الله الشيعي.

(١٠١)

وأهل الذين قد كانوا معه * فقام بالامر، وقاموا أربعة
لما مضى كلهم لصلبه * مستترين بعده بحسبه
قد دخلوا في جملة الرعية * لشدة المحنة والرزية
وكلهم له دعاء تسرى * ودعوة في الناس كانت تجرى
يعرفهم في كل عصر وزمن * وكل حين وأوان، كل من
والاهم، وكل أوليائهم * يعلم ما علم من أسمائهم
ولم يكن يمنعني من ذكرهم * إلا احتفاظي بمصون سرهم (١)
وليس لي بأن أقول جهراً * ما كان قد أدى إلى سراً
وهم على الجملة كانوا استتروا * ولم يكونوا إذ تولوا ظهورا
بل دخلوا في جملة السواد * لخوفهم من سطوة الأعدى
حتى إذا انتهى الكتاب أجله * وصار أمر الله فيمن جعله

بمنه مفتاح قفل الدين * أيده بالنصر والتمكين (٢) و مما ينبغي إلفات القارى إليه ان القاضى فى كتابه «الأرجوزة المختارة» وإن ذكر
فى المقام استتار الأئمة بعد رحيل الإمام الصادق وهو يوافق عقيدة الإسماعيلية، لكنّه فى مقام الرد والنقد، رد على جميع الفرق الشيعية
ماعدا الإمامية الاثنى عشرية، فقد رد على مقالات الحريرية، الراوندية، الحصينية، الزيدية، الجارودية، البترية، المغيرية، الكيسانية،
الكربية، البيانية، المختارية، الحارثية _____،

١. لوصح ما ذكره يجب على سائر الدعاء سلوك مسلكه وعدم التنويه بأسمائهم، لكن المشهور خلافه، ولعل الاختلاف فى أسمائهم
وسائر خصوصياتهم دفعه إلى هذا الاعتذار.

٢. القاضى النعمان: الأرجوزة المختارة: ١٩١-١٩٢، والأرجوزة تبحث عن قضية الإمامة منذ وفاة الرسول، إلى عصره، والظاهر أنه ألفها
فى عهد الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله وكان حكمه من سنة ٣٢٢ إلى ٣٣٤ كما استظهر محقق الكتاب.

(١٠٢)

العباسية، الرزامية. ولم يرد على الإمامية بشيء فلو لم يكن المذهب الاثنا عشرى مرضياً عنده لما فاته التعرض عليه، كيف وهو من
أعظم فرق الشيعة؟!

وهذا يدل على أن المؤلف كان إمامياً اثني عشرياً - حسب رأى المحدث النورى - ويعيش فى حال التقية فى عصر الخليفة الفاطمى
المعزّ بدين الله فى القاهرة ويجاربه، وقد ألف دعائم الإسلام، الذى اعتمدت عليه الإسماعيلية والاثنا عشرية، وإنما المهم هو كتاب
«تأويل الدعائم» الذى انفرد المذهب الإسماعيلى فى الاعتماد عليه. ولعله كان هناك مبرر لتأليف هذا الكتاب وما مائله والله العالم.

ومع ذلك سيوافيك ما يخالف هذا الرأى فى الفصل الثالث عشر ضمن ترجمة أبى حنيفة النعمان.

إلى هنا تمت ترجمة سيرة الأئمة المستورين، فلوجعلنا إسماعيل بن جعفر أول الأئمة، فالأئمة المستورون خمسة وهم:

١. إسماعيل بن جعفر، وقد عرفت أنه لم تكن له أية دعوة، وإنما ذكرناه فى هذه القائمة مجاراة للقوم.

٢. محمد بن إسماعيل، ولم تثبت عندنا له دعوة، بل كان يتعاطى مع هارون الرشيد على ما عرفت.

٣. عبد الله بن إسماعيل، المعروف بالوفى.

٤. الإمام أحمد بن عبد الله، المعروف بالتقى.

٥. الحسين بن أحمد، المعروف بالرضي.

وعلى هذا فالإمام السادس أعنى عبيد الله المهدي - الذي خرج عن كهف الاستتار، وأسس دولة إسماعيلية بإفريقية - هو ابن الإمام السابق، أعنى: الحسين بن أحمد، وعلى ذلك جرى مؤرخو الإسماعيلية فيذكرونه ابناً للإمام السابق، ومع (١٠٣)

ذلك ففي نسبه خلاف كما سيوافيك تفصيله. تتمه

الموجود في كتب أنساب الطالبيين أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق لم يعقب إلا - من رجلين، ولم يتعرضوا لعبد الله بن محمد، فضلاً عن أحمد بن عبد الله وولده الحسين.

قال الرازي: ولمحمد بن إسماعيل هذا من الأولاد المعقنين اثنان: إسماعيل الثاني، وجعفر الأكبر السلامي. (١)

وقال أبو طالب الأزورقاني: وعقب محمد من رجلين: جعفر الأكبر السلامي، وإسماعيل الثاني. (٢)

وقال ابن عنبه: وأعقب محمد بن إسماعيل من رجلين: إسماعيل الثاني، وجعفر الشاعر «السلامي». (٣)

نعم ذكر الشهرستاني: أن ثلاثة من أولاد محمد بن إسماعيل بقوا مستورين لا وقوف لأحد عليهم: الرضي، والوفى، والتقى "قل ربي أعلم بعديهم ما يعلمهم إلا قليل" (٤) ثم ظهر المهدي بالمغرب وبنى المهديته. (٥) ولكن ما ذكره الشهرستاني رأى تفرّد به.

ولذلك نرى أن بعض علماء الأنساب جعل أئمة الإسماعيلية على الترتيب التالي _____:

١. الرازي: الشجرة المباركة: ١٠١.

٢. أبو طالب الأزورقاني: الفخرى في انساب الطالبيين: ٢٣.

٣. ابن عنبه: عمدة الطالب: ٢٣٤.

٤. الكهف: ٢٢.

٥. الرازي: الشجرة المباركة: ١٠٣.

(١٠٤)

١. إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق.

٢. محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، المعروف بالمكتوم.

٣. ابنه: جعفر بن محمد السلامي، المعروف بالمصدق.

٤. ابنه: محمد بن جعفر، المعروف بالحبيب. (١)

٥. ابنه: عبيد الله المهدي ابن محمد الحبيب، وعليه يكون المهدي الإمام الخامس.

وفي بعض الروايات أنه ابن جعفر بن الحسن بن الحسن، بن محمد بن جعفر الشاعر السلامي بن محمد بن إسماعيل. (٢)

١. ابن عنبه: عمدة الطالب: ٢٣٥-٢٣٦.

٢. أنظر تراجم محمد المكتوم، جعفر المصدق، محمد الحبيب في الأعلام: ٣٤|٦، ١٢٦|٢، ٧٠|٦ نقلاً عن اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.

(١٠٥)

الفصل السادس: في الأئمة الظاهرين

الإمام السادس عبيد الله المهدي

الإمام السادس عبيد الله المهدي (٢٦٠-٣٢٢هـ) الإمام عبيد الله الملقب بالمهدي، هو مؤسس الدولة الإسماعيلية في المغرب. ولد بسلمية التي هي بلدة بالشام من اعمال حمص عام ٢٦٠-٢٥٩ ودعى له بالخلافة على منابر: رقادة، والقيروان، يوم الجمعة لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ فخرجت بلاد المغرب عن ولاية بنى العباس، وبنى البلدة المعروفة بـ«المهديّة» وتوفى بها عام ٣٢٢هـ.

إذا سبرنا التاريخ نجد أنّ المورخين، وأصحاب المعاجم، لا يمسّون إسماعيل ولا الأئمة الذين تلوه بكلمة مشينه، وإنما يذكرونهم كسائر الفرق فلهم ما عليهم ما عليهم، فلما وصل الأمر إلى عبيد الله الذي أسس دولة شيعية في المغرب و تعاقب على حكمها خلفاء تمكنوا من إرساء دعائمها وتقوية مركزاتها، ثارت نائرة السنّة المعاندين، وأخذوا يصبّون عليهم قوارع الكلم، ويرمونهم بأفظع النسب والتهم، ممّا يندى لها الجبين، والذي دعاهم لذلك أمران:

الأول: عداؤهم السياسي، فهؤلاء الخلفاء أخرجوا المغرب ومصر والشامات من قبضة الخليفة ببغداد، مما حرض البلاط العباسي ووعاظ الخلفاء على سبهم والطعن في نسبهم، وأنّ نسب عبد الله المهدي لا يصل إلى آل علي، بل إلى مجوسى أو يهودى.

(١٠٨)

الثاني: بغضهم للشيعه، فلقد قام الخلفاء الفاطميون بتأسيس دولة إسلامية شيعية، لأول مرة في أقصاع كبيرة من الأرض وأشاعوا فيها التشيع، وحب أهل البيت، وأمروا بإدخال «حى على خير العمل» فى الأذان، وترك بعض البدع، كإقامة صلاة التراويح جماعة وغيرها، ممّا حدا بالمتعصبين من أهل السنّة كالذهبي، ومن لف لفه - الذى كان لا يقيم للأشاعرة من أهل العقائد ولا لغير الحنابلة من أهل الفقه وزناً ولا قيمة، فكيف للشيعه المنزهة لله سبحانه عن الجسم ولوآزمه - أن يسبهم ويتهمهم بتهم رخيصة، وأنهم من عناصر يهودية قلبوا الإسلام ظهراً لبطن.

فما نرى فى كتب التاريخ والمعاجم حول نسب عبيد الله المهدي، كـ«وفيات الأعيان» لابن خلكان، وسير أعلام النبلاء للذهبي وغيرهما لا يمكن الاعتماد عليها والثوق بها، لأنها وليدة أجواء العداة السياسي، والاختلاف المذهبي، اللذين يعميان ويصمان. نعم هناك من رد تلك التهم المشينه من المورخين برحابة صدر كابن خلدون فى مقدمته، والمقريزى فى خططه.

يقول ابن خلدون: أولهم عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق (١) بن محمد المكتوم بن (٢) جعفر الصادق، ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم وبالمحضر الذى ثبت ببغداد أيام القادر بالطعن فى نسبهم، وشهد فيه أعلام الأئمة، وقد مرّ ذكرهم. فإنّ كتاب المعتضد

١. هو جعفر الأكبر السلامى، ولد محمد بن إسماعيل ابن الإمام الصادق - عليه السلام - وربما يعبر عنه بالمصدق لتمييزه عن جدّه الإمام الصادق - عليه السلام - .

٢. سقط عن الطبع: ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، أنظر عمدة الطالب: ٢٣٥، وقد ذكر ابن خلدون نفسه فى مكان آخر نسبه وقال: لما توفى محمد الحبيب بن جعفر بن محمد بن إسماعيل الإمام عهد إلى ابنه عبيد الله وقال: أنت المهدي... التاريخ ٤/٤٤٤.

(١٠٩)

إلى ابن الأغب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسه يغريهم بالقبض عليه، لما سار إلى المغرب، شاهد بصحة نسبه، وشعر الشريف الرضى مسجل بذلك. والذين شهدوا فى المحضر فشهادتهم على السماع وهى ما علمت، وقد كان نسبهم ببغداد منكرًا عند أعدائهم شيعه بنى العباس منذ مائة سنة، فتلون الناس بمذهب أهل الدولة وجاءت شهادة عليه مع أنّها شهادة على النفس، مع أنّ طبيعة الوجود فى الانقياد إليهم، وظهور كلمتهم حتى فى مكة والمدينة أدل شىء على صحّة نسبهم.

وأما من يجعل نسبهم فى اليهودية والنصرانية ليعمون القدح وغيره، فكفاه ذلك إثماً و سفسفة. (١)

ثم إن تقي الدين المقریزی بعد ما نقل أقوال المخالفين في حق عبيد الله المهدي - حيث إنهم وصفوه تارة بأنه ابن مجوسى، وأخرى أنه ابن يهودى - أخذ بالقضاء العادل وقال:

وهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة، فإنبنى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة، فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى؟! فهذا مما لا يفعله أحد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف، وإنما جاء ذلك من قبل ضَعْفُه خلفاء بنى العباس عندما غصوا بمكان الفاطميين، فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحواً من مائتين وسبعين سنة، وملكوا من بنى العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن، وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة وعجزت عساكر بنى العباس عن مقاومتهم.

فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن فى نسبهم، وبث ذلك عنهم خلفاؤهم وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين كى يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معزة العجز عن مقاومتهم _____،
١. ابن خلدون: التاريخ ٤: ٤٠.

(١١٠)

و دفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر، والشام والحرمين حتى اشتهر ذلك ببغداد، وأسجل القضاء بنفيهم من نسب العلويين، وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم الشريفان الرضى والمرضى (١) وأبو حامد الاسفرائينى والقدرى فى عدة وافرة عندما جمعوا لذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة أيام القادر.

وكانت شهادة القوم فى ذلك على السماع لما اشتهر، وعرف بين الناس ببغداد وأهلها من شيعة بنى العباس، الطاعنون فى هذا النسب، والمتطيرون من بنى على بن أبى طالب، الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأفاعيل القبيحة، فنقل الأخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه، ورووه حسب ما تلقوه من غير تدبر، والحق من وراء هذا.

وكفاك بكتاب المعتضد من خلائف بنى العباس حجة، فإنه كتب فى شأن عبيد الله إلى ابن الأغب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة (٢) بالقبض على عبيد الله، ففتظن - أعزك الله - لصحة هذا الشاهد، فإن المعتضد لولا صحته نسب عبيد الله عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه، إذ القوم حينئذ لا يدعون لدعى البتة ولا يدعون له بوجه، وإنما ينقادون لمن كان علويًا، فخاف مما وقع، ولو كان عنده من الأدعاء، لما مر له بفكر ولا خافه على ضيعة من ضياع الأرض.

وإنما كان القوم، أعنى: بنى على بن أبى طالب، تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم فى كل وقت، وقصدهم إياهم دائماً بأنواع من العقاب، فصاروا ما بين طريد شريد، وبين خائف يترقب، ومع ذلك فإن لشيعتهم الكثيرة المنتشرة فى أقطارهم من المحبة لهم، والإقبال عليهم مالا مزيد عليه، وتكرر قيام _____

١. سيوافيك كلام الرضى الذى نقله ابن أبى الحديد فى شرحه.

٢. سجلماسة مدينة انشئت سنة ١٤٠هـ، وتقع فى محلة تافيلات اليوم فى طرف صحراء المغرب على بعد حوالى ٣٢٥ كلم إلى الجنوب الشرقى لمدينة فاس، عمرها بربر مكناسة، ولما تولأها اليسع بن سمغون المكناسى أحاطها بسور وبنى بها عدة مصانع وقصور، وقد استمر عمران هذه المدينة إلى القرن العاشر الهجرى. (دولة التشيع فى بلاد المغرب: ١٠٩).

(١١١)

الرجال منهم مرّة بعد مرّة والطلب عليهم من ورائهم، فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يُعرفون، حتى تسمى محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدي بالمكتوم، سماه بذلك الشيعة عند اتّفاقهم على إخفائه، حذراً من المتغلّبين عليهم، وكانت الشيعة فرقا.

فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه، وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالإسماعيلية من أجل أنّهم يرون أن الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل، وأن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم، وبعد ابنه محمد

المكتوم، ابنه جعفر الصادق (١) ومن بعد جعفر الصادق، ابنه محمد الحبيب، وكانوا أهل غلو في دعاويهم في هؤلاء الأئمة. وكان محمد بن جعفر هذا يَوْمَل ظهوره وأنه يصير له دولة، وكان باليمن من أهل هذا المذهب كثير بعدن وبإفريقية وفي كتامة و نفره، تلقوا ذلك من عهد جعفر الصادق، فقدم على محمد (الحبيب) بن جعفر والد عبيد الله رجل من شيعته باليمن فبعث معه الحسن بن حوشب في سنة ثمان وستين ومائتين، فأظهرا أمرهما باليمن، وأشهرا الدعوة في سنة سبعين، وصار لابن حوشب دولة بصنعاء، وبث الدعاء بأقطار الأرض، وكان من جملة دعواته أبو عبد الله الشيعي، فسيره إلى المغرب فلقى كتامة ودعاهم، فلما مات محمد (الحبيب) بن جعفر عهد لابنه عبيد الله فطلبه المكتفى العباسي وكان يسكن عسكر مكرم، فسار إلى الشام، ثم سار إلى المغرب فكان من أمره ما كان، وكانت رجال هذه الدولة الذين قاموا ببلاد المغرب وديار مصر أربعة عشر رجلاً.

هذه خلاصة أخبارهم في أنسابهم، فتفظن ولا تغتر بزخرف القول الذي لفقوه من الطعن فيهم، والله يهدي من يشاء. (٢)

١. كان التعبير بالمصدق.

٢. المقرئى: الخطط: ١/٣٤٨-٣٤٩.

(١١٢)

ولا- يظن القارى الكريم ان الكاتب بصدد الدفاع عن عقيدتهم وأصولهم، وما اقترفوه من الأعمال الشنيعة كسائر الخلفاء و الملوك، وإنما الهدف إيقاف القارى على بحس حملة الأقلام لحق هؤلاء، ولو كان لآل البيت حربة ولم يكن لهم اضطهاد لما التجأوا إلى ترك أوطانهم والهجرة إلى أقاصى البلاد هرباً مما يحيط بهم من الأخطار.

ونعم ما قال العزيز بالله أحد الخلفاء الفاطميين:

نحن بنو المصطفى ذوو مَحَن * أولنا مبتلى وخاتمتنا

عجيبه فى الأيام محنتنا * يجرعها فى الحياة كاظمتنا

يفرح هذا الورى بعيدهم * طرّاً وأعيادنا ماآمتنا (١) إن الباطل إذا خلص من شائبة الحق، لا يمكن أن يدوم ٢٧٢ سنة حاكماً، ٢٠٨ أعوام منها على مصر، وعلى مساحات شاسعة من المغرب والشام والعراق، فلم تكن الدعوة إلحادية، ولا مجوسية، ولا يهودية، بل دعوة إسلامية على نهج آل البيت، لكنهم ضلّوا فى الطريق، فأخذوا ببعض وتركوا بعضاً.

أضف إلى ذلك ان الناس بايعوا الحاكم بالله الإمام الحادى عشر وهو ابن خمس وستين سنة مما يدل على أن قلوب الأمة كانت تهوى إليهم لما شاهدوا بأم أعينهم من إشاعة للعدل وعمران للبلاد، وبسط للثقافة وأمن للطرق.

وأما ما نسب المقرئى إلى الشريف الرضى من أنه وافق القوم فى نفى انتسابهم إلى البيت العلوى فيصفه ابن أبى الحديد ويقول:

«ذكر أبو الحسن الصابى وابنه غرس النعمة محمد فى تاريخهما: أن القادر بالله عقد مجلساً أحضر فيه الطاهر أبأ أحمد الموسوى، وابنه أبأ القاسم المرتضى وجماعه من القضاة والشهود والفقهاء، وأبرز إليهم أبيات الرضى أبى الحسن التى

١. الذهبى: سير الأعلام: ١٥/١٦٧-١٦٨. وسيوافيك أيضاً فى ترجمته، فانتظر.

(١١٣)

أولها:

ما مقامى على الهوان وعندى * مقول صارم وأنف حمى

و إباء مخلق بى عن الضى * م كما زاع طائر وحشى

أى عذر له إلى المجد إن ذ * ل غلام فى غمده المشرفى

أحمل الضيم فى بلاد الأعادى * و بمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبي، ومولاه مولا * ي إذا ضامني البعيد القصي

لف عرقى بعرقه سيدا لنا * س جميعاً محمد وعلي وقال القادر للنقيب أبي أحمد: قل لولدك محمد: أي هوان قد أقام عليه عندنا؟! أي ضيم لقي من جهتنا؟! وأي دُلّ أصابه في مملكتنا؟! وما الذي يعمل معه صاحب مصر لو مضى إليه؟! أكان يصنع إليه أكثر من صنعنا؟! ألم نولّه النقابة؟! ألم نولّه المظالم؟! ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز، وجعلناه أمير الحجيج؟! فهل كان يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا؟! ما نظنه كان يكون لو حصل عنده إلا واحداً من أبناء الطالبين بمصر.

فقال النقيب أبو أحمد: أما هذا الشعر فمما لم نسمعه منه، ولا رأيناه بخطه، ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحله إياه، وعزاه إليه. فقال القادر: إن كان كذلك، فلتكتب الآن محضراً يتضمن القدر في أنساب ولاة مصر، ويكتب محمد خطه فيه. فكتب محضراً بذلك، شهد فيه جميع من حضر المجلس، منهم النقيب أبو أحمد، وابنه المرتضى، وحمل المحضر إلى الرضى ليكتب خطه فيه، حمّله أبوه وأخوه، فامتنع من سطر خطه، وقال: لا- أكتب وأخاف دعاء صاحب مصر، وأنكر الشعر، وكتب خطه وأقسم فيه أنه ليس بشعره، وأنه لا- يعرفه. فأجبره أبوه على أن يكتب خطه في المحضر، فلم يفعل، وقال: أخاف دعاء المصريين وغيلتهم لي فاتهم معروفون بذلك، فقال أبوه:

(١١٤)

يا عجباه، أتخاف من بينك وبينه ستمائة فرسخ، ولا تخاف من بينك وبينه مائة ذراع؟! وحلف ألا يكلمه، وكذلك المرتضى، فعلا ذلك تقيّة وخوفاً من القادر، وتسكيناً له.

ولما انتهى الأمر إلى القادر سكّت على سوء أضمّره، وبعد ذلك بأيام صرفه عن النقابة، وولّاه محمد بن عمر النهر السائسي. (١) ذهاب عبيد الله إلى إفريقية

لما تمكن أبو عبد الله واستقر أمره مهّد الطريق لإمامة عبيد الله المهدي، فبعث رجال من كتامة إلى سلمية في أرض الشام، فقدموا على عبيد الله وأخبروه بما فتح الله عليه، وكان قد اشتهر هناك أن الخليفة المكتفي طلبه، فخرج من سلمية فارّاً ومعه ابنه أبو القاسم نزار، ومعهما أهلها فأقاما بمصر مستقرين، ثمّ سار إلى طرابلس وقد سبق خبره إلى «زيادة الله» فسار إلى قسطلية فقدم كتاب «زيادة الله» ابن الأغلب إلى عامل طرابلس بأخذ عبيد الله وقد فاتهم، فلم يدر كوه، فرحل إلى سجلماسة وأقام بها، فوافى عامله على سجلماسة كتاب زيادة الله، بالقبض على عبيد الله فلم يجد بداً من أن قبض عليه وسجنه. فلما دخل شهر رمضان سار أبو عبد الله من رقادة في جيوش عظيمة يريد سجلماسة، فحاربه اليسع يوماً كاملاً إلى الليل ثمّ فر عاملها في خاصته، فدخل أبو عبد الله من الغد إلى البلد وأخرج عبيد الله وابنه ومشى في ركبهما بجميع رؤساء القبائل، وهو يقول للناس: هذا مولاكم، وهو يبكي من شدة الفرح حتى وصل بهما إلى فسطاط وأقاما فيها أربعين يوماً، ثمّ سار إلى إفريقية في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ونزل برقادة، وقسم على وجوه كتامة أعمال إفريقية. (٢)

١. شرح نهج البلاغة: ١/٣٧-٣٩.

(٢) ٢. المقرئ: الخطط المقرئية: ١/٣٥٠، دار صادر؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٢/١٩٢.

(١١٥)

ولكن العجب انّ عبيد الله جزى أبا عبد الله الشيعي جزاء السنمار، وذلك انّ المهدي لما استقامت له البلاد، ودانت له العباد، وباشر الأمور بنفسه وكف يد أبي عبد الله ويد أخيه أبي العباس، داخل أبا العباس الحسد وعظم عليه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء، فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ويتكلم فيه وأخوه ينهاه ولا يرضى فعله فلا يزيد ذلك إلا لجأجأ، ولم يزل حتى أثر في قلب أخيه وكلّ ذلك يصل إلى المهدي وهو يتغافل، ثمّ صار أبو العباس يقول: إنّ هذا ليس الذي كنّا نعتقد طاعته وندعو إليه،

لأنَّ المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة، فأخذ قوله بقلوب كثير من الناس، منهم إنسان في كتابته يقال له شيخ المشايخ، فواجه المهدي بذلك وقال: إن كنت المهدي، فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك، فقتله، فخافه أبو عبد الله و علم أنَّ المهدي قد تغير عليه واتفق هو وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند أبي زاكي وعزموا على قتل المهدي، واجتمع معهم قبائل كتابته إقليلاً منهم وكان معهم رجل يظهر أنه منهم وينقل ما يجري إلى المهدي.

فلما وقف المهدي على أمرهم حاربهم وأمر رجالاً معه أن يرصدوا أبا عبد الله وأخاه أبا العباس ويقتلوهما. (١)
ولكن الإسماعيلية تنكر ذلك، وتقول: وهذه الأقوال لا يقرها المنطق، ولا يمكن أن يصدقها العقل، فلو كان أبو عبد الله الشيعي يبغى الخلافة لنفسه لكان باستطاعته أن يحصل عليها قبل قدوم الإمام محمد المهدي إلى إفريقيا عندما كانت جيوشه يربو عددها على المائة ألف مقاتل بينما كان الإمام المهدي في الرملة بطريقه إليه.

ثم يقول: إنَّ أبا عبد الله الشيعي قضى آخر أيامه بقرب الإمام مخلصاً له _____
١. الجزري: الكامل في التاريخ: ٨ | ٥٣٥٠، دار صادر.

(١١٤)

حتى أدركته الوفاة، فدفن باحتفال مهيب وصلى عليه الإمام المهدي. (١)

ولكن فات الكاتب أنَّ أبا عبد الله الشيعي وإن كان لا يبغى الخلافة لنفسه لفقدانه الرصيد الشعبي، ومع ذلك كان يتطلع للمشاركة في الأمور، وقد حال المهدي دون ذلك، فعند ذلك ثارت ثائرتة. وتأمر على إمامه.

ثم إنَّ هناك نكتة أخرى هامة وهي أنَّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أخبر عن خروج المهدي في آخر الزمان، وأنه يملك الشرق والغرب، ويجري القسط والعدل بين الناس، فاتخذ المهدي هذا الخبر الذائع الصيت ذريعة لاستقطاب الناس حوله، وقد سمى نفسه محمداً، ولقب نفسه بالمهدي فتقمص أوصاف المهدي الذي أخبر به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، ليتخذها وسيلة لتحقيق مآربه وأنه مفترض الطاعة.

وقد مات عبيد الله في ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ بالمهدية في القيروان عن ثلاث وستين سنة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً، وقام بعده ابنه _____.

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٨٣.

(١١٧)

الإمام السابع القائم بأمر الله

الإمام السابع القائم بأمر الله (٢٨٠ - ٣٣٤هـ) ولد الإمام القائم بأمر الله، ابن الإمام عبيد الله المهدي، في محرم سنة ٢٨٠ هجرية «بالسلمية»، وارتحل مع أبيه الإمام محمد المهدي إلى المغرب، وعهد إليه بالإمامة من بعده حسب الأصول الإسماعيلية، فافتقى إثر أبيه وخطا خطاه، ونهج نهجه، وعمل جاهداً على تعزيز وازدهار الدعوة الإسماعيلية، وتعميمها في جميع البلدان والأقاليم، ووجه اهتمامه الزائد لتنظيم وتقوية البحرية الإسماعيلية، فشكل اسطولاً عظيماً، تمكن بواسطته من قهر العصابات البحرية المالطية، التي كانت تأتي بأعمال القرصنة لغزو البلاد الإسماعيلية، وقيامهم بأعمال النهب والسلب والتخريب. واحتلَّ الاسطول الإسماعيلي «جنوه» و«لونبارتي» و«غرناطة» وغيرها من البلاد الإيطالية التي كانت خاضعة لحكم الروم، كما فتح الإسماعيلية جزيرة «صقلية». (١)

يقول المقريري: كان اسمه بالمشرق عبد الرحمان فتسمى في بلاد المغرب بمحمد، فلما فرغ من جميع ما يريد وتمكن، أظهر موت أبيه، واستقل بالأمم وله سبع وأربعون سنة، وتبع سيرة أبيه، وثار عليه جماعة فظفر بهم، وبثَّ جيوشه في البرِّ والبحر فسبوا وغنموا من

بلد «جنوه» وبعث جيشاً إلى مصر فملكوا _____

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٨٤.

(١١٨)

الاسكندرية، والاشيد يومئذ أمير مصر، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خرج عليه أبو يزيد مخلد بن كندار النكاري الخارجي بإفريقية، واشتدت شوكته وكثرت أتباعه، وهزم جيش القائم غير مرة، وكان مذهبه تكفير أهل الملة، وإرافة دماهم ديانه، فملك «باجه» وحرّقها، وقتل الأطفال، وسبى النسوان، ثم ملك القيروان، فاضطرب القائم، وخاف الناس، وهموا بالنقله من «زويله» وقوى أمر أبي يزيد ونازل المهدي وحصر القائم بها، وكاد أن يغلب عليها، فلما بلغ المصلّي حيث أشار المهدي أنه يصل، هزمه أصحاب القائم وقتلوا كثيراً من أصحابه، وكانت له قصص وأنباء، إلى أن مات القائم لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، عن أربع وخمسين سنة وتسعة أشهر، ولم يرق منبراً، ولا ركب دابةً لصيد مدّة خلافته حتى مات، وصلى مرةً على جنازة، وصلى بالناس العيد مرةً واحدة، وكانت مدّة خلافته اثنتي عشرة سنة وستة أشهر وأياماً، وترك أبا الظاهر إسماعيل، وأبا عبد الله جعفر أو حمزة، وعدنان، وعدةً أخرى، وقام من بعده ابنه. (١)

يقول الجزري في حوادث سنة (٣٣٤): وفي هذه السنة توفي القائم بأمر الله، أبو القاسم محمد بن عبد الله المهدي العلوي صاحب إفريقية، لثلاث عشرة مضت من شوال، وقام بالأمر بعده ابنه إسماعيل، وتلقب المنصور بالله، وكنم موته (٢) خوفاً أن يعلم بذلك أبو يزيد، وهو بالقرب منه على «سوسة» وأبقى الأمور على حالها، ولم يتسم بالخليفة، ولم يغير السكة، ولا الخطبة، ولا البنود، وبقي على ذلك إلى أن فرغ من أمر أبي يزيد، فلما فرغ منه أظهر موته، وتسمى بالخلافة، وعمل آلات الحرب والمراكب، وكان شهماً شجاعاً، وضبط الملك والبلاد. (٣)

١. المقرزي: كتاب الخطط المقرزية: ٣٥١، دار صادر.

٢. كسيرة أبيه في حق المهدي.

٣. الجزري: الكامل في التاريخ: ٨/٤٥٥، دار صادر.

(١١٩)

وقد ذكره الذهبي السلفي وبالغ في ذمه، وسلك في ترجمته نفس ما سلكه في ترجمه أبيه، ولأجل ذلك تركنا النقل عنه، ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إلى كتابه. (١)

١. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٥/١٥١، مؤسسة الرسالة.

(١٢٠)

الإمام الثامن الإمام المنصور بالله

الإمام الثامن الإمام المنصور بالله (٣٠٣-٣٤٦هـ) ولد الإمام المنصور بالله، إسماعيل بن الإمام القائم بـ«المهدي» في أول جمادى الآخرة سنة ٣٠٣هـ وقيل: ولد بالقيروان سنة ٣٠٢هـ تسلّم شؤون الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ٣٣٤هـ وكان سياسياً عظيماً، ومحارباً قديراً، وخطيباً من أفصح الخطباء وأبلغهم. (١)

وقال المقرزي: جدّ في حرب أبي يزيد حتى ظفر به وحمل إليه فمات من جراحات كانت به، سلخ المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ولم يزل المنصور إلى أن مات سلخ شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة عن إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر، وكانت مدّة خلافته ثمان سنين وقيل سبع سنين وعشرة أيام، وقد اختلف في تاريخ ولادته فقيل: ولد أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ٣٠٣هـ بالمهدي، وقيل: بل ولد في سنة اثنتين وقيل: سنة إحدى وثلاثمائة، وكان خطيباً بليغاً يرتجل الخطبة لوقته شجاعاً عاقلاً، وقام من بعده

(٢). ابنه.

يقول المورخ المعاصر: وما زال أبو يزيد هارياً والجيش تلاحقه حتى التجأ إلى جبل البربر، وجمع خلقاً كثيراً لمقابله جيش الإمام المنصور، ولكنه هزم _____،

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٨٩.

٢. المقریزی: الخطط: ١/٣٥١، دار صادر.

(١٢١)

فأدرکه أحد الأمراء الإسماعيليين وقبض عليه وساقه إلى الإمام المنصور، وكان ذلك سنة ٣٣٦ هجرية، فقتله وأمر الإمام أن تبنى مدينة «المنصورية» تيمناً بذلك الانتصار العظيم، ثم عاد الإمام إلى المهديّة في شهر رمضان عام ٣٣٦ هجرية، فعهد بالإمامة من بعده لولده المعز لدين الله، وتوفي يوم الأحد في الثالث والعشرين من شوال سنة ٣٤٦ هجرية، ودفن جسده الطاهر في مدينة المنصورة، وقيل كانت وفاته سنة ٣٤٣ هجرية ودفن بالمهديّة. (١)

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٩٠.

(١٢٢)

الإمام التاسع المعز لدين الله

الإمام التاسع المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية في مصر (٣١٩-٣٦٥هـ) وهو أول خليفة فاطمي ملك مصر وخرج إليها، وكان مغرباً بالنجوم ويعمل بأقوال المنجمين، وكان المعز عالماً، فاضلاً، جواداً، شجاعاً، جارياً على منهاج أبيه في حسن السيرة، وإنصاف الرعية، وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة، ثم أظهره وأمر الدعاء بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حد يذم به. (١)

يقول المقریزی: المعز لدين الله أبو تميم، «معد» ولد للنصف من رمضان سنة ٣١٩هـ فانقاد إليه البربر وأحسن إليهم، فعظم أمره واختص من مواليه، «بجوهر» وكناه بأبي الحسين، وأعلى قدره، وسيّره في رتبة الوزارة، وعقد له على جيش كثيف، فدوّخ المغرب، وافتتح مدناً، وقهر عدّة أكابر وأسيرهم، حتى أتى البحر المحيط الذي لا عمارة بعده، ثم قدم غانماً مظفراً، فعظم قدره عند المعز، ولما وصل الخبر إلى المعز بموت كافور الإخشيدي صاحب مصر أخذ في تجهيز جوهر بالعساكر إلى أخذ ديار مصر حتى تهيأ أمره، وبرز للمسير، فلما ثبتت قدم جوهر بمصر، عزم المعز على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه في بلاد المغرب، فوقع اختياره على «يوسف بن زيري الصنهاجي»، وقال له: تأهب _____

١. الجزري: الكامل في التاريخ: ٨/٦٦٤.

(١٢٣)

لخلافه المغرب، فأكبر ذلك وقال: يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري؟! قتلتنى يا مولانا بغير سيف ولا رمح. فما زال به المعز حتى أجاب.

فلما ملك جوهر مصر بادر حسن بن جعفر الحسنی بالدعاء للمعز في مكه، وبعث إلى «جوهر» بالخبر، فسيّر إلى المعز يعرفه بإقامة الدعوة له بمكة، فأنفذ إليه بتقليده الحرم وأعماله، وسار المعز بعساكره من المغرب حتى نزل بالجزيرة، فعقد له جوهر جسراً جديداً عند المختار بالجزيرة، فسار إليه وقد زينت له مدينة الفسطاط فلم يشقها، ودخل إلى القاهرة بجميع أولاده وإخوته وسائر أولاد عبيد الله المهدي، وذلك لسبع خلون من رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فعندما دخل القصر صَلَّى ركعتين، وأمر فكتب في سائر مدن مصر: خير الناس بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأثبت اسم المعز لدين الله واسم أبيه

عبد الله الأمير، وجلس في القصر على سرير الذهب، وصلى بالناس صلاة عيد الفطر في المصلى، وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء وعمل عيد غددير خم. وقدمت القرامطة إلى مصر فسير إليهم الجيوش وهزموهم، وما زال إلى أن توفي من علته اعتلها بعد دخوله إلى القاهرة بستين وسبعة أشهر وعشرة أيام وعمره خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريباً، فإن مولده بالمهدية في حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة (١) ووفاته بالقاهرة لأربع عشرة خلت من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة، وكانت مدة خلافته بالمغرب وديار مصر ثلاثاً وعشرين سنة وعشرة أيام وهو أول الخلفاء الفاطميين بمصر وإليه تنسب القاهرة المعزية، لأن عبده «جوهراً» القائد بناها حسب ما رسم له.

وكان المعز عالماً، فاضلاً، جواداً، أحسن السيرة منصفاً للرعية، مغرمًا بالنجوم، أُقيمت له الدعوة بالمغرب كله وديار مصر والشام والحرمين وبعض _____

١. وقد أرخ ميلاده عارف تامر بـ٣٤٧ وهو خطأ واضح.

(١٢٤)

اعمال العراق، وقام من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار. (١)

يقول ابن خلكان: وكان المعز عاقلاً، حازماً، سرياً، أديباً، حسن النظر في النجامة، وينسب إليه من الشعر قوله:

لله ما صنعت بنا * تلك المحاجر في المعاجر

أمضى وأفضى في النفوس * س من الخناجر في الحناجر

ولقد تعبت بينكم * تعب المهاجر في الهواجر وينسب إليه أيضاً:

اطلع الحسن من جينك شمساً * فوق ورد في وجتتك اطلا

و كأن الجمال خاف على الور * د جفافاً فمد بالشعر ظلاً وهو معنى غريب بديع. (٢)

ويقول في موضع آخر: ملك المعز أبو تميم معد بن المنصور العبيدي الديار المصرية على يد القائد جوهر، وجاء المعز بعد ذلك من إفريقية، وكان يُطعن في نسبه، فلما قرب من البلد وخرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف، فقال له من بينهم ابن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلساً ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم، وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر، فسل عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسبي، ونثر عليهم ذهباً كثيراً _____،

١. وفيات الأعيان: ٥/٢٢٤. المقرئ: كتاب الخطط المقرئية: ١/٣٥٢-٣٥٤، دار صادر. ومن الغريب أن المقرئ ذكر ولادة المعز سنة ٣١٧ تارة وأخرى بسنة ٣١٩، وقد اعتمدنا في تعيين سنة ولادته على نقل ابن خلكان.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/٢٢٨.

(١٢٥)

وقال: هذا حسبي، فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. (١)

لا شك أن عصر المعز لدين الله من العصور الذهبية للإسماعيلية حيث أصبحت مصر داراً للخلافة، وأصبح الإمام المعز أول خليفة فاطمي فيها، فعمل على ترقية العلوم والثقافة، وأمر ببناء الجامع الأزهر، وجعله داراً للعلوم ومنهلاً للثقافة والفكر، وشجع العلماء، وخصص لهم المبالغ الطائلة، فوفدوا عليه من كل قطر حيث وجدوا المساعدات.

كما أشرف بنفسه على تأليف الكتب على غرار المذهب الإسماعيلي، فتقدمت الثقافة الإسماعيلية تقدماً باهراً، وازدهر في عصره فقهاء وشعراء وفلاسفة يشار إليهم بالبنان.

فمن فقهاء عصره: القاضي النعمان بن محمد بن منصور التميمي المغربي مؤلف كتاب «دعائم الإسلام»، توفي بالقاهرة في ٢٩ من

جمادى الثانية سنة ٣٦٣هـ وصلّى عليه الإمام المعز لدين الله.

خدم المهدي بالله مؤسس الدولة الفاطمية تسع سنوات، ثم ولى قضاء طرابلس في عهد القائم بأمر الله الخليفة الثاني للفاطميين، وفي عهد الخليفة الثالث المنصور بالله عين قاضياً للمنصورية، ووصل إلى أعلى المراتب في عهد المعز لدين الله الخليفة الرابع الفاطمي إذ رفعه إلى مرتبة قاضي القضاء وداعى الدعاء.

وقد نشر كتابه لأول مرة في مستدرک الوسائل للمحدّث النورى (١٢٥٤-١٣٢٠هـ) مبعّضاً وموزعاً أحاديثه على أبواب الكتب الفقهية كما تم طبعه مستقلاً بتحقيق آصف بن على أصغر فيضى في مصر عام ١٣٧٤هـ وطبع ثالثاً على الأُفست في بيروت عام ١٣٨٣هـ.

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/٨١.

(١٢٦)

ومن شعراء عصره ابن هانئ الأندلسى، وهو محمد بن هانئ الأندلسى من قرية اشبيلية، ولد عام ٣٢٠هـ ولقب بأبى القاسم، ولما اتهم بمذهب الإسماعيلية غادر الأندلس نازلاً إلى المغرب، واتصل بأميره، فبالغ في إكرامه وأحسن إليه، ولما وصل خبره إلى المعز طلبه من أمير المغرب، فأقام عنده حتى ارتحل الإمام المعز إلى مصر فلحق به فيها.

كان ابن هانئ من فحول الشعراء، ولكن قصائده تحكى عن غلوه في حقّ الأئمة الإسماعيلية حيث تفوح منها رائحة الإلحاد، وقد أعطى لهم ما للخالق من الأوصاف، وإليك مقتطفات من أشعاره:

قال:

ما شئت لا ماشاءت الأقدارُ * فاحكم فأنتالواحدُ القهار
وكأنما أنت النبي محمّد * وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذى كانت تبشّرنا به * فى كتبها الأحبار والأخبار
هذا إمام المتقين و من به * قد دوخ الطغيان والكفار
هذا الذى ترجى النجاة بحبّه * و به يُحطّ الإصر والأوزار
هذا الذى تجدى شفاعته غداً * حقاً وتخدم أن تراه النارُ

(١)

إنّ بيته الأوّل ينم عن غلوه غلواً يكسى صفه الخالق على المخلوق.

ومن العجب أنّ المورّخ الإسماعيلي المعاصر حاول تصحيح الأشعار، ودفع الفاسد بالآفسد، حيث قال فى تعليقه: إنّ العقيدة الإسماعيلية تنزه الخالق عن الصفات كالعالم والقادر والصانع و...، فإنّ إطلاق الصفات عليه يوجب الكثرة فى ذاته عندهم، وهم يروون عن الإمام الباقر محمد بن على زين العابدين

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٠٩.

(١٢٧)

قوله: «إنّ الله عالم على المعنى أنّه يوتى العلم من يشاء لا- على معنى أنّ العلم قائم بذاته، وأنّه تعالى قادر على معنى أنّ القدرة قائمة بذاتها».

ولمّا كان الإمام قائماً مقام الأمر والكلمة فى هذا العالم فجميع صفات البارى واقفة عليه، ومن هنا نجد أنّ إطلاق كلمة الواحد القهار على المعز إنّما هى حسب الاعتقاد.

(١)

عزب عن هذا المسكين أولاً: ان إطلاق الصفات عليه سبحانه لا توجب الكثرة في ذاته عند المحققين، وذلك لأن الأوصاف وإن كانت مختلفة مفهوماً لكنّها متحدة وجوداً، فذاته نفس العلم والقدرة والحياء، لا أنكل واحدة من هذه الصفات تمثل جزءاً من ذاته. وثانياً: أنه لو صح ما ذكره من التفسير في العالم والقادر بمعنى أنه سبحانه يعطى العلم والقدرة لا يصح ذلك في الواحد القهار، إذ معناه عندئذ ان الإمام يهب الوحدة والقهر من يشاء لكي يصح إطلاقها على الإمام، ولا شك ان في ما جاء به الشاعر غلواً واضحاً، عصمنا الله من غلو الغالين وإبطاء التالين _____.

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٠٩ الهامش.

الإمام العاشر العزيز بالله

الإمام العاشر العزيز بالله (٣٤٤ - ٣٨٦ هـ) (١) نزار بن معد، العزيز بالله، ولى العهد بمصر يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ واستقل بالأمر بعد وفاة أبيه، وكان يوم الجمعة حادى عشر الشهر المذكور وسُتِرت وفاة أبيه وسلّم عليه بالخلافة، وكان شجاعاً، حسن العفو عند المقدرة، ذكره أبو منصور الثعالبي في كتاب «يتيمة الدهر» وأورد له شعراً قاله في بعض الأعياد، وقد وافق موت بعض أولاده وعقد عليه المآتم وهو:

نحن بنو المصطفى ذوو محن * يجرعها في الحياة كاظمنا

عجيبه في الأنام محتنتنا * أولنا مبتلى وخاتمتنا

يفرح هذا الورى بعيدهم * طراً وأعيادنا مآتمنا وفتحت له حُمص وحماء وشَيْرَر، وحلب، والموصل، وخطب له باليمن ولم يزل في سلطانه وعظم شأنه إلى أن خرج إلى بلييس متوجهاً إلى الشام، فابتدأت به العلة في العشر الأخير من رجب سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ولم يزل مرضه يزيد حتى توفي في مسلخ الحمام في الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر رمضان _____

١. وقد أرخ عارف تامر تاريخ وفاته ٣٦٨ وهو خطأ.

(١٢٩)

سنة ست وثمانين و ثلاثمائة. (١) بمدينة بلييس وحمل إلى القاهرة.

وذكر ابن خلكان ان تاريخ وفاته في الثامن والعشرين من شهر رمضان، في حين انالمقرئى ذكره في الثامن والعشرين من رجب مع توافقهما في سنة وفاته.

قال ابن الأثير: في هذه السنة توفي العزيز أبو منصور نزار ابن المعز أبى تميم معد العلوى، صاحب مصر لليلتين بقيتا من رمضان وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر ونصف، بمدينة بلييس، وكان برز إليها لغزو الروم، فلحقه عدة أمراض، منها: النقرس، والحصا، والقولنج، فاتصلت به إلى الشامات.

وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً، ومولده بالمهدية من إفريقية. (٢)

قال الذهبي: وكان كريماً، شجاعاً، صفوحاً، أسمر، أصهب الشعر، أعين، أشهل، بعيد ما بين المنكبين، حسن الأخلاق، قريباً من الرعية، مغرى بالصيد، ويكثر من صيد السباع، ولا يؤثر سفك الدماء.

وفى سنة ٣٦٧ هـ جرت وقعات بين المصريين وهفتكين الأمير، وقتل خلق، وضرب المثل بشجاعة هفتكين وهزم الجيوش، وفر منه جوهر القائد، فسار لحره صاحب مصر العزيز بنفسه، فالتقوا بالرملة، وكان «هفتكين» على فرس أدهم يجول في الناس، فبعث إليه العزيز رسولاً يقول: أزعتنى وأحوجتنى لمباشرة الحرب، وأنا طالب للصلح، وأهب لك الشام كله.

قال: فات الأمر، ووقعت الحرب، فحمل العزيز بنفسه عليه في الأبطال، فانهم هفتكين ومن معه من القرامطة، واستحز بهم القتل.

وفى سنة ٣٧٧ هـ تهيأ العزيز لغزو الروم فأحرقت مراكبه، فغضب وقتل _____

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥ | ٣٧١-٣٧٤.

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٩ | ١١٦.

(١٣٠)

ماتت نفس اثمهم، ثم وصلت رسل طاغية الروم بهديّة، تطلب الهدنة، فأجاب بشرط أن لا يبقى في مملكتهم أسير، وبأن يخطبوا للعزير بقسطنطينية في جامعها، وعقدت سبعة أعوام. (١)

١. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٥ | ١٦٧-١٧٢.

(١٣١)

الإمام الحادى عشر الحاكم بأمر الله

الإمام الحادى عشر الحاكم بأمر الله (٣٧٥-٤١١هـ) هو منصور بن نزار (١) ولد يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ وبويع في اليوم الذى توفى فيه والده أى سنة ٣٦٨هـ وكان عمره أحد عشر عاماً ونصف العام وهو من الشخصيات القليلة التى لم تتجل شخصيته بوضوح، وقام بأعمال إصلاحية زعم مناوئوه أنها من البدع.

يقول الجزرى: وبنى الجامع براشدة، وأخرج إلى الجوامع والمساجد، من الآلات، والمصاحف، والستور والحصر ما لم ير الناس مثله، وحمل أهل الذمة على الإسلام، أو المسير إلى مأمئهم، أو لبس الغيار، فأسلم كثير منهم، ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقاه، ويقول له: إننى أريد العود إلى دينى، فيأذن له.

أظن أن إدخال الحصر إلى المساجد، لأجل أن المسجود عليه فى مذهب الشيعة يجب أن يكون إما أرضاً، أو ما أنبتته الأرض، فيما أن المساجد كانت مفروشة فحمل الحصر على ذلك.

و يقول أيضاً: ثم أمر فى سنة ٣٩٩هـ بترك صلاة التراويح، فاجتمع الناس بالجامع العتيق، وصلّى بهم إمام جميع رمضان، فأخذه وقتله، ولم يصل أحد

١. وأسماء فى «الإمامة فى الإسلام» بـ «الحسن بن نزار» ولكن فى الخطط، وتاريخ الدعوة الإسماعيلية حسب ما أثبتناه.

(١٣٢)

التراويح إلى سنة ٤٠٨هـ (١)

أقول: لقد قام الخليفة بمهمته، فإن صلاة التراويح كانت تقام فى عصر النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - والخليفة الأول بغير جماعة، وإنما أقيمت جماعة فى عصر الخليفة الثانى، واصفاً إياها بالبدعة الحسنة، ولما تسلّم الإمام أمير المؤمنين على - عليه السلام - زمام الخلافة نهى الناس عن إقامتها جماعة، فلما رأى إصرار الناس على إقامتها جماعة تركهم وما يهون.

وأما رميه بتهمته قتل الإمام بعد انقضاء شهر رمضان، فما لا يقبله العقل، إذ كان فى وسع الخليفة منعه من إقامتها أول الشهر فأى مصلحة كانت تكمن فى استمهاله إلى آخر الشهر واكتسابه مكانة فى القلوب ثم قتله؟!

يقول المقرئى: جامع الحاكم بنى خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة، وأول من أسسه أمير المؤمنين العزير بالله، نزار بن المعز لدين الله معد، وخطب فيه وصلّى بالناس الجمعة، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله، فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهرة، وجعل أبوابها حيث هى اليوم صار جامع الحاكم داخل القاهرة. (٢)

و ينقل أيضاً أن الحاكم بأمر الله أمر فى سنة ٣٩٣هـ أن يتم بناء الجامع الذى كان الوزير يعقوب بن كاس بدأ فى بنيانه عند باب الفتوح، فقدّر للنفقة عليه أربعون ألف دينار، فابتدأ بالعمل فيه وفى صفر سنة إحدى وأربعمئة زيد فى منارة جامع باب الفتوح وعمل

لها أركاناً، طول كل ركن مائة ذراع.

و في سنة ٤٠٣هـ أمر الحاكم بأمر الله بعمل تقدير ما يحتاج إليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل، فكان تكسير ما ذرع للحصر ٣٦ ألف ذراع، فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار_____.

١. الجزري: الكامل في التاريخ: ٣١٦-٣١٧.

٢. المقرئزي: الخطط: ٢/٢٧٧.

(١٣٣)

وتم بناء الجامع الجديد بباب الفتوح، وعلق على سائر أبوابه ستور ديبقية عملت له، وعلق فيه تنانير فضة عدتها أربع وكثير من قناديل فضة، وفرش جميعه بالحصر التي عملت له، ونصب فيه المنبر، وتكامل فرشته وتعليقه، وأذن في ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ثلاث وأربعمائة لمن بات في الجامع الأزهر أن يمضوا إليه، فمضوا وصار الناس طول ليلتهم يمشون من كل واحد من الجامعين إلى الآخر بغير مانع لهم ولا اعتراض من أحد من عسس القصر، ولا أصحاب الطوف إلى الصبح، وصلّى فيه الحاكم بأمر الله بالناس صلاة الجمعة، وهي أول صلاة أقيمت فيه بعد فراغه. (١)

ما ذكرنا من محاسن أعماله قد أخفاها أعداؤه، وبدل ذلك فقد نالوا منه وأكثروا في ذمه وذكر مساوي أعماله، حتى تجد ان الذهبي قد بالغ في ذمه ووصفه بقوله: «العبيدي، المصري، الرفضى بل الإسماعيلي الزنديق المدعى الربوبية».

ثم يقول في موضع آخر: وكان شيطاناً مريداً، جباراً عنيداً، كثير التلون، سفاكاً للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، جواداً ممدحاً، له شأن عجيب ونبا غريب، كان فرعون زمانه، يخترع كل وقت أحكاماً يلزم الرعية بها إلى آخر ما ذكر. (٢)

و على أي حال فهو من الشخصيات القلقة التي تجمع بين محاسن الأعمال ومساوئها.

ولولا ان الحاكم كان من الشيعة لما وجد الذهبي السلفى في نفسه مبرراً لصب هذه التقريرات.

وقد اكتفينا بذلك في ترجمته، لأن فيها أموراً متناقضة ومتضادة لا يمكن الإذعان بصحة واحد منها_____.

١. المقرئزي: الخطط: ٢/٢٧٧، دار صادر.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٥/١٧٤.

(١٣٤)

انشقاق الإسماعيلية

انشقاق الإسماعيلية

كانت الإسماعيلية فرقة واحدة، غير أنه طرأ عليهم الانشقاق، فقال قوم منهم: بالوهية الحاكم وغيبته، وهم المعروفون اليوم بـ «الدروز»، يقطنون لبنان.

فالدروز إسماعيلية محرّفة، وسيوافيك البحث عن هذه الفرقة وعقائدها في باب خاص، وهي أكثر غموضاً من سابقتها، فهم يمسون بكتبهم ووثائقهم عن الآخرين.

يقول المورخ المعاصر: وفي سنة ٤٠٨ استدعى الحاكم كبير دعائه، وأحد المقرئين إليه الموثوق بهم سيدنا «الحمزة بن علي» الفارسي الملقب بـ «الدرزي» وأمره أن يذهب إلى بلاد الشام ليتسلم رئاسة الدعوة الإسماعيلية فيها، ويجعل مقره «وادي التيم»، لأن الأخبار التي وردت إلى بيت الدعوة تفيد بأن إسماعيلية وادي التيم تسيطر عليهم التفرقة والاختلافات الداخلية، حول تولّى رئاسة الدعوة هناك ولقبه الإمام بـ «السند الهادي».

تمكّن الدرزي في وقت قليل من السيطرة على الموقف في وادي التيم وإعادة الهدوء والسكينة في البلاد، وعمل جاهداً لتوسيع وانتشار

الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد.

لبث الدرزي رئيساً للدعوة الإسماعيلية وكبيراً لدعاتها في بلاد الشام حتى أعلنت وفاة الإمام الحاكم وولاية ابنه الطاهر. لم يعترف الدرزي بوفاة الإمام الحاكم، مدعياً بأن وفاته لم تكن سوى نوع من الغيبة لتخليص أنفوس مريدي الإمام من الأدران، وبقي متمسكاً بإمامة الحاكم ومنتظراً عودته من تلك الغيبة، وبذلك أعلن انفصاله عن الإسماعيلية التي لا تعتقد بالغيبة، وتقول بفناء الجسم وبقاء سر الإمامة بالروح، فينتقل بموجب النص إلى إمام آخر وهو المنصوص عليه من قبل الإمام المتوفى، وسميت الفرقة (١٣٥)

التي تبعت الدرزي بالدرزية نسبة إليه.

وهكذا يتبين للقارى الكريم بأن الدرزية والإسماعيلية عقيدتان من أصل واحد. (١)

وأما عن مصير الحاكم فمجمّل القول فيه أنه فقد في سنة ٤١١هـ، ولم يعلم مصيره، وحامت حول كيفية اغتياله أساطير لا تتلاءم مع الحاكم المقتدر .

يقول الذهبي: وثم اليوم طائفة من طغام الإسماعيلية الذين يحلفون بغيبة الحاكم، وما يعتقدون إلا بأنه باق، وأنه سيظهر (٢)

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٣٨-٢٣٩.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٥/١٠٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ١١/٩.

(١٣٦)

الإمام الثاني عشر

الإمام الثاني عشر الظاهر لإعزاز دين الله علي بن منصور (١) (٣٩٥-٤٢٧هـ) هو علي بن منصور، ولد ليلة الأربعاء من شهر رمضان سنة ثلاثمائة وخمس وتسعين، وبويع بالخلافة وعمره ستة عشر عاماً يقول ابن خلكان: كانت ولايته بعد فقد أبيه بمدّة، لأنّ أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ، وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحقّقوا عدمه، فأقام ولده المذكور في يوم النحر من السنة المذكورة. (٢)

وقد أطنب المقرئ في سيرته وذكر حوادث حياته.

يقول المقرئ: مات الظاهر في النصف من شعبان سنة ٤٢٧هـ عن اثنين وثلاثين سنة إلا أياماً، وكانت مدّة خلافته ١٥ سنة وثمانية أشهر. (٣)

وذكر الذهبي فتنة القرامطة عام ٤١٣هـ فنقل عن محمد بن علي بن عبد الرحمان العلوي الكوفي أنه قال: لما صليت الجمعة والركب بعدبمنى، قام رجل _____،

١. سماه عارف تامر علي بن الحسن، وفي المقرئ وتاريخ الدعوة كما أثبتناه.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/٤٠٧، دار صادر.

٣. المقرئ: الخطط: ١/٣٥٥.

(١٣٧)

فضرب الحجر الأسود بدبوس ثلاثاً، وقال: إلى متى يُعبد الحجر فيمنعني محمد ممّا أفعله؟ فأني اليوم أهدم هذا البيت، فاتقاه الناس، وكاد يفلت، وكان أشقر، أحمر، جسيماً، تام القامة، وكان علي باب المسجد عشرة فرسان علي أن ينصروه، فاحتسب رجل، فوجأه بخنجر، وتكاثروا عليه، فأحرق، وقتل جماعة من أصحابه وثارَت الفتنة، فقتل نحو العشرين ونهب المصريون وقيل: أخذ أربعة من

أصحابه، فأقروا بأنهم مائة تابعوا على ذلك، فضربت أعناق الأربعة، وتهشم وجه الحجر، وتساقط منه شظايا وخرج مكسره أسمر إلى صفرة. (١)

ويقال أن الظاهر شن على الدروز حرباً محاولاً إرجاعهم إلى العقيدة الفاطمية الأصيلة، مدة خلافته كانت ستة عشر عاماً ... لم تنته هجمات الصليبيين عن الأراضي والنغور العائدة للدولة الفاطمية، وقّع هدنة مع الروم. (٢)

١. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٥ | ١٨٥-١٨٦، مؤسسه الرسالة.

٢. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٨٩.

(١٣٨)

الإمام الثالث عشر

الإمام الثالث عشر المستنصر بالله (٤٢٠ - ٤٨٧ هـ) (١) هو معد بن علي، ولد يوم الثلاثاء في الثالث عشر من شهر جمادى الآخر سنة ٤٢٠ هـ وبويع بالخلافة يوم الأحد في منتصف شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ وكان له من العمر سبعة أعوام، وقد ظل في الحكم ستين عاماً، وهي أطول مدة في تاريخ الخلافة الإسلامية.

يقول ابن خلكان: وجرى على أيامه ما لم يجر على أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره، منها:

١. قضية أبي الحارث أرسلان البساسيري، فإنه لما عظم أمره وكبر شأنه ببغداد، قطع خطبة الإمام القائم وخطب للمستنصر المذكور، وذلك في سنة خمسين وأربعمائة، ودعا له على منابرها مدة سنة.

٢. أنه ثار في أيامه على بن محمد الصليحي وملك بلاد اليمن، ودعا للمستنصر على منابرها بعد الخطبة.

٣. أنه أقام في الأمر ستين سنة، وهذا أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من بني العباس.

١. أرخ كل من الكاتيبين عارف تامر ومصطفى غالب تاريخ ولادته ٤٢٠ هـ.

(١٣٩)

٤. أنه ولي العهد وهو ابن سبع سنين.

٥. أن دعوتهم لم تزل قائمة بالمغرب منذ قام جددهم المهدي إلى أيام المعز، ولما توجه المعز إلى مصر واستخلف بلكين بن زيري كانت الخطبة في تلك النواحي جارية على عادتها لهذا البيت إلى أن قطعها المعز بن باديس في أيام المستنصر، وذلك في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

٦. أنه حدث في أيامه الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف - عليه السلام - حتى قيل أنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده، وكلّم مع من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع، وكان المستنصر يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الانشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته، وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع، وتفزق أهل مصر في البلاد وتشتتوا. (١)

وذكر الذهبي تفاصيل حياته بحسب السنين التي مرت عليه. (٢)

ولقى المستنصر شداً وأهوالاً، وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر أخرج فيها أمواله وذخائره إلى أن بقى لا يملك غير سجاده التي يجلس عليها، وهو مع هذا صابر غير خاشع. (٣)

وقد توفي في الثامن عشر من ذي الحجة، ودامت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

إلى هنا تمت ترجمة الأئمة الثلاثة عشر الذين اتفقت كلمة الإسماعيلية على إمامتهم وخلافتهم، ولم يشذ عنهم سوى الدروز الذين

انشقوا عن _____

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/٢٢٩-٢٣٠، دار صادر.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١/١٨٦-١٩٦.

٣. الجزري: الكامل: ١٠/٢٣٧.

(١٤٠)

الإسماعيلية في عهد خلافة الحاكم بأمر الله، وصار وفاة المستنصر بالله سبباً لانشقاق آخر وظهور طائفتين من الإسماعيلية بين: مستعلية تقول بإمامة أحمد المستعلي ابن المستنصر بالله، ونزارية تقول بإمامة نزار ابن المستنصر.

فالمستعلية هم المعروفون في هذه الأيام بالبهرة، وقد انقسموا إلى: سليمانيه وداودية؛ كما أن النزاريين هم القائلون بإمامة نزار ابن المستنصر، وانقسموا إلى: مؤمنة وقاسمية. وقد اتفقت الطائفتان الأخيرتان في بعض الأئمة، واختلفت في البعض الآخر، وسيوافيك تفصيل الجميع.

(١٤١)

الفصل السابع: في أئمة المستعلية

الإمام الأول

الإمام الأول المستعلي بالله (٤٦٧-٤٩٥هـ) قد ذكرنا - فيما سبق - أننا للمستنصر قد عهد في حياته بالخلافة لابنه «نزار» وقد بويع بعد وفاة أبيه، ولكن خلعه الأفضل وباع المستعلي بالله، وسبب خلعه أن الأفضل ركب مرة أيام المستنصر، ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً، و«نزار» خارج، والمجاز مظلم، فلم يره الأفضل، فصاح به نزار: انزل، يا أرمني، كلب، عن الفرس، ما أقل أدبك. فحقدتها عليه، فلما مات المستنصر خلعه خوفاً منه على نفسه، وباع المستعلي، فهرب نزار إلى الاسكندرية، وبها ناصر الدولة «افتكين»، فبايعه أهل الاسكندرية، وسموه المصطفى لدين الله، فخطب بالناس، ولعن الأفضل، وأعانه أيضاً القاضي جلال الدولة ابن عمار، قاضي الاسكندرية، فسار إليه الأفضل، وحاصره بالاسكندرية، وأخذ «افتكين» قتلته، وتسلم المستعلي نزاراً فبني عليه حائطاً فمات، وقتل القاضي جلال الدولة ابن عمار ومن أعانه. (١)

وحيث إنه لم يتم الاتفاق على إمامة هؤلاء فقد عقدنا لهم فصلاً مستقلاً.

يقول ابن خلكان: وكانت ولادة المستعلي (أحمد بن معد) لعشر ليال بقين من محرم سنة تسع وستين وأربعمائة، بالقاهرة وبويع في يوم عيد غدیر خم، وهو الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوفي بمصر يوم الثلاثاء _____

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ١٠/٢٣٧-٢٣٨، دار صادر.

(١٤٤)

لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وله من العمر ثمان وعشرون سنة وأيام (١) فكانت مدة ولايته سبع سنين وكسراً، وتولى بعده ولده أبو علي المنصور، الملقب بالأمر، وله من العمر خمس سنين وشهر وأربعة أيام، ولم يكن في من تسمى بالخلافة قط أصغر منه، ومن المستنصر، وكان المستنصر أكبر من هذا، ولم يقدر يركب وحده الفرس، وقام بتدبير دولته الأفضل ابن أمير الجيوش، أحسن قيام، إلى أن قتل. (٢)

الإمام الثاني

الإمام الثاني الأمر بأحكام الله (٤٩٠ - ٥٢٤هـ) هو منصور بن أحمد، ولد في القاهرة في الثالث عشر من محرم، وبويع بالخلافة يوم وفاة والده في الثالث عشر من صفر سنة ٤٩٥هـ وكان له من العمر خمس سنوات، وفي عهده سقطت مدينة «صور» بأيدي الصليبيين، وذلك بعد سقوط انطاكية وبيت المقدس وقيصريه وعكا وبنياص وطرابلس، وأكثرها كانت فاطميّة.

من آثاره العمرانية الجامع الأحمر في القاهرة، وتجديد قصر القرافة، وفتح مكتبة دار العلوم للمطالعة والتدريس، قتله النزاريون انتقاماً لإمامهم نزار، وكان في هودج يقوم بالنزهة بين الجزيرة والقاهرة، وقد حُمل إلى القصر، ولكنه لم يلبث

١. لو كان له من العمر ثمان وعشرون عاماً عند الوفاة لكانت ولادته عام ٤٦٧هـ، لا ما ذكره من أن ولادته ٤٦٩هـ.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان: دار صادر: ١٨٠ | ١.

(١٤٥)

أن فارق الحياة في الرابع عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ وكان عمره ٣٤ عاماً وتسعة أشهر وعشرين يوماً. (١)

قال ابن خلكان: ولما انقضت أيامه، خرج من القاهرة صبيحته يوم الثلاثاء في الثالث من ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ ونزل إلى مصر، وعدى على الجسر إلى الجزيرة التي قبالة مصر، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله في السكة التي يمر فيها، فلما مرّ بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسياهم، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة قليلة من غلمانته وبطانته وخاصته وشيعته، فحمل في النيل في زورق ولم يمت، وأدخل القاهرة وهو حيّ، وجرى به إلى القصر من ليلته، فمات ولم يعقب، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسجلماسة، إلى أن يقول: وكان ربعة، شديد الأدمة، جاحظ العينين، حسن الخط والمعرفة والعقل. (٢)

ومع هذا فيصفه بكونه «قبيح السيرة، ظلم الناس وأخذ أموالهم وسفك دماءهم، وارتكب المحذورات واستحسن القبائح المحظورات، فابتهج الناس بقتله». (٣)

س

ولا يخفى وجود التضاد بين الوصفين، فلو كان حسن المعرفة والعقل لما قبحت سيرته وما أخذ أموال الناس ولا أراق دماءهم. والله العالم.

وكان يطمع إلى عرش العباسيين في العراق، ولكن الأحداث الداخلية حالت بينه وبين أمنيته .

يقول المقرئزي: وكانت نفسه تحدّثه بالسفر والغارة على بغداد، ومن شعره في ذلك _____:

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٩٠-١٩١.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣٠١-٣٠٢، ولاحظ الخط المقيزي: ١ | ٣٥٧ و ٢ | ٢٩٠.

٣. وفيات الأعيان: ٣٠٢ | ٥.

(١٤٦)

دع اللوم عنى لست منى بموثق * فلا بد لي من صدمة المتحقق

وأسقى جياذى من فرات ودجله * وأجمع شمل الدين بعد التفرق وقال:

أما والذي حجت إلى ركن بيته * جراثيم ركبنا مقلدة شهباً

لاقتحمن الحرب حتى يقال لي * ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا

وينزل روح الله عيسى ابن مريم * فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحباً (١) والمهم في تاريخه، أنه قتل الأفضل الذي مهّد الطريق لآبيه المستعلى في زمانه، ويقال أنه قتل بأشارة أو مؤامرة الأمر بأحكام الله.

يقول المقرئزي: وفي يوم الثلاثاء، السابع عشر من صفر، سنة خمس وتسعين، أحضره الأفضل بن أمير الجيوش، وبايع له ونصبه مكان أبيه، ونعته بالآمر بأحكام الله، وركب الأفضل فرساً، وجعل في السيرج شيئاً، وأركبه عليه لينمو شخص الأمر، وصار ظهره في حجر

الأفضل، فلم يزل تحت حجره حتى قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة. (٢)
وقد مرّ آنفاً قول ابن خلكان بأنّ الأمر بأحكام الله مات ولم يعقب، وربّما يقال أنّ الأمر مات وامرأته حامل بالطيب، وربّما يقال بأنّ امرأته ولدت أنثى، فلاجل ذلك عهد الأمر بأحكام الله الخلافة إلى الحافظ، الظافر، الفائز، ثم إلى العاضد.
و سنتطرق إلى حياة الأئمة الأربعة الذين لم يكونوا من صلب الإمام السابق، بل كانوا من أبناء عمه، ولأجل ذلك لا تصح تسميتهم بالأئمة، وإتّما

١. المقریزی: الخطط: ١٩١/٢.

٢. المقریزی: الخطط: ٢٩٠/٢.

(١٤٧)

هم دعاء، حيث لم يكن في الساحة إمام، ودخلت الدعوة المستعلية بعد اختفاء الطيب بالستر، وما تزال تنتظر دعوته، وتوقفت عن السير وراء الركب الإمامي، واتبعت نظام الدعاء المطلقين. (١)

الإمام الثالث

الإمام الثالث الحافظ لدين الله (٤٦٧ - ٥٤٤هـ) ولد بعسقلان سنة ٤٦٧هـ عندما مات الأمر، وتوفي في الخامس من جمادى الأولى سنة ٥٤٤هـ فدامت دولته عشرين سنة سوى خمسة أشهر، وعاش سبع وسبعين سنة، وقام بعده ولده الظاهر. (٢)
عبد المجيد الملقب بالحافظ، ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر، بويح بالقاهرة يوم مقتل ابن عمه الأمر، بولاية العهد وتديير المملكة، حتى يظهر الحمل المخلف عن الأمر، فغلب عليه أبو علي أحمد بن الأفضل، في صبيحة يوم مبايعته، وكان الأمر لما قتل الأفضل اعتقل جميع أولاده وفيهم أبو علي المذكور، فأخرجه الجند من الاعتقال لما قتل الأمر، وبايعوه فسار إلى القصر، وقبض على الحافظ المذكور، واستقلّ بالأمر وقام به أحسن قيام، وردّ على المصادرين أموالهم، وأظهر مذهب الإمامية وتمسك بالائتية الاثنى عشر، ورفض الحافظ وأهل بيته، ودعا على المنابر للقائم في آخر الزمان المعروف بالإمام المنتظر على زعمهم، وكتب اسمه على السكة، ونهى أن يؤذن (حي على خير العمل) وأقام كذلك، إلى أن وثب عليه

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٩١.

٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/٢٣٦، دار صادر.

(١٤٨)

رجل من الخاصية بالبستان الكبير بظاهر القاهرة، في النصف من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة فقتله، وكان ذلك بتديير الحافظ، فبادر الأجناد بإخراج الحافظ، وبايعوه ولقبوه الحافظ، ودعى له على المنابر. (١)

الإمام الرابع

الإمام الرابع الظافر بأمر الله (٥٢٧ - ٥٤٩هـ) هو إسماعيل بن عبد المجيد ولد في القاهرة يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، واغتيل في منتصف محرم سنة ٥٤٩هـ بويح الظافر يوم مات أبوه، بوصية أبيه، وكان أصغر أولاد أبيه سنًا، ولى الأمر بعد أبيه وكان شابًا جميلًا.

وهو الذي انشأ الجامع المعروف بجامع الفاكهيين، قتله نصر بن عباس أحد أبناء وزرائه، وقد ذكر المورخون سبب قتله وتفصيله، فمن أراد فليراجع. (٢)

وعاش الظافر ٢٢ سنة

١. وفيات الأعيان: ٣|٢٣٥ - ٢٣٦، و سير أعلام النبلاء: ١٥|١٩٩.

٢. المقریزی: الخطط: ٢|٣٠ وذكره بايجاز ابن خلكان في وفيات الأعيان: ١|٢٣٧، والذهبي في سير أعلام النبلاء: ١٥|٢٠٤.
(١٤٩)

الإمام الخامس

الإمام الخامس الفائز بنصر الله (٥٤٤ - ٥٥٥هـ) هو عيسى بن إسماعيل ولد عام ٥٤٤هـ وتسلم الخلافة وله خمس سنين، وبقي على سدة الخلافة ست سنين، ولما أُغتيل أبوه، أقامه الوزير عباس مكان والده، تغطية لما ارتكبه ابنه من قتل الإمام الظافر، فلما قدم طلائع بن رزيك، والى الاشمونين بمجموعه إلى القاهرة، فرّ عباس، واستولى طلائع على الوزارة، وتلقب بالصالح، وقام بأمر الدولة، إلى أن مات الفائز لثلاثة عشرة بقيت من رجب سنة ٥٥٥هـ عن إحدى عشرة سنة وستة أشهر ويومين، منها في الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وأيام. (١)

الإمام السادس

الإمام السادس العاضد لدين الله (٥٤٦-٥٦٧هـ) هو عبد الله بن يوسف ولد عام ٥٤٦هـ وتوفي عام ٥٦٧هـ وهو عبد الله ابن يوسف بن عبد المجيد بن محمد بن المنتصر، أقامه طلائع بن رزيك، بعد الفائز، ولي المملكة بعد وفاة ابن عمه الفائز بنصر الله، وكان العاضد شديد التشيع، بويح وعمره آنذاك إحدى عشرة سنة، وقام الصالح بن رزيك، أخو طلائع بن رزيك، بتدبير الأمور، إلى أن قتل في رمضان سنة ٥٥٦هـ فقام من بعده

١. المقریزی: الخطط: ١|٣٥٧، لاحظ وفيات الأعيان: ٣|٢٩١، رقم الترجمة ٥١٤، والذهبي: سير اعلام النبلاء: ١٥|٢٠٧ رقم الترجمة ٧٨، وقصد فصل الأخيران الكلام في حياته.

(١٥٠)

ابنه رزيك بن طلائع، وحسنت سيرته.

يقول المقریزی: فلما قوى تمكّن الافرنج في القاهرة عام ٥٦٤هـ وجاروا في حكمهم بها، وركبوا المسلمين بأنواع الإهانة، فسار مرى ملك الافرنج يريد أخذ القاهرة، ونزل على مدينة بليس وأخذها عنوة، فكتب العاضد إلى نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام يستصرخه ويحثه على نجدة الإسلام وإنقاذ المسلمين من الافرنج، فجهز أسد الدين شيركوه في عسكر كثير، وسيرهم إلى مصر، فلما أطلع الافرنج على قدوم شيركوه، رحلوا عن القاهرة في السابع من ربيع الآخر، ونزل شيركوه بالقاهرة، فخلع عليه العاضد وأكرمه، وتقلد وزارة العاضد وقام بالدولة شهرين وخمسة أيام، ومات في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، ففوض العاضد الوزارة لصالح الدين يوسف بن أيوب، فساس الأمور ودبر لنفسه، فبذل الأموال وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من المال، فلم يزل أمره في ازدياد، وأمر العاضد في نقصان، واستبد بالأمور ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريد من إزالة الدولة، إلى أن كان من واقعة العبيد ما كان فأبادهم وأفناهم، ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة، وتتبع صلاح الدين جند العاضد، وأخذ دور الأمراء، وإقطاعاتهم، فوهبها لأصحابه، وبعث إلى أبيه وإخوته وأهله فقدموا من الشام عليه، وعزل قضاة مصر الشيعة، واختفى مذهب الشيعة إلى أن نسي من مصر، وقد زاد المضايقات على العاضد وأهل بيته، حتى مرض ومات، وعمره إحدى وعشرون سنة إلا عشرة أيام، وكان كريماً لئين الجانب مرّت به مخاوف وشدائد، وهو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت مدتهم بالمغرب، ومصر، منذ قام عيد الله المهدي إلى أن مات العاضد ٢٧٢ سنة، منها بالقاهرة ٢٠٨ سنين فسبحان الباقي. (١)

١. المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٨-٣٥٩ باختصار، وابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/ ١٠٩-١١٢، والذهبي: سير اعلام النبلاء: ١٥/ ٢٠٧-٢١٥.

(١٥١) جناية التاريخ على الفاطميين

إِنَّ لِكُلِّ دَوْلَةٍ أَجْلاً مَسْمُومًا، كَمَا أَنَّ لَطُلُوعِهَا وَنَشُوءِهَا عِلْلاً، كَذَلِكَ لَزَوَالِهَا وَإِبَادَتِهَا أَسْبَابٌ سَنَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي قَدْ كَتَبَ عَلَيَّ كَلَامَهُ أَمْرَ زَوَالِهَا وَفَنَائِهَا قَالَ سُبْحَانَهُ: "كُلُّ مَنْ عَلَيَّهَا فَإِنَّهُ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (١)" وَقَالَ سُبْحَانَهُ: "مَا جَعَلْنَا لِنَشْرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ إِفْأَن مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ . (٢)"

لا شك أن كل دولة يرأسها غير معصوم لا تخلو من أخطاء وهفوات، بل من جرائم وآثام، وربما تتناها بين آونة وأخرى حوادث وفتن، تضعف كيانها وتشرفها على الانهيار.

ومع ذلك فالدولة الفاطمية غير مستثناة عن هذا الخط السائد، فقد كانت لديهم زلات وعثرات ومآثم وجرائم كسائر الدول.

إلا أنهم قاموا بأعمال ومشاريع كبيرة لا تقوم بها إلا الدولة المومنة بالله سبحانه وشريعته، كالجامع الأزهر، الذي ظل عبر الدهور يُنير الدرب لأكثر من ألف سنة -، كما أنهم أنشأوا جوامع كبيرة، ومدارس عظيمة مذكورة في تاريخهم، وبذلك رفعوا الثقافة الإسلامية إلى مرتبة عالية، وتلك الأعمال جعلت لهم في قلوب الناس مكانة عالية.

ومما يدل على أن حكمهم لم يكن حكماً استبدادياً، ولم تكن سيرتهم على سفك الدماء، أن البعض منهم تسلموا الخلافة وهم بين خمس سنين إلى عشر سنين، فلو كانت حكومتهم ظالمة ومالكة للرقاب بالتعسف والظلم، لانهار ملكهم منذ أوائل خلافتهم، ولم يدم ثلاثة قرون، وسط عدوين شرسين، الخلافة العباسية من جانب، والافرنج من جانب آخر.

غير أننا نرى أن أكثر المؤرخين يصورونهم كالفراعنة، وأنهم فراعنة الأعصار

١. الرحمن: ٢٦-٢٧.

٢. الأنبياء: ٣٤.

(١٥٢)

الإسلامية، كالمقريزي الذي كانوا فراعنة أعصارهم، لا لم يكونوا بهذه المثابة، كما لم يكونوا نزيهين عن الآثام، خلطوا المحاسن بالمساوي، شأن كل ملك يحكم، وإن كانت محاسنهم أكثر من مساوئهم، فأظن أن ما كتبه أقلام السير والتاريخ كلها حدسيات وتخمينات أخذوها من رماة القول على عواهنه، فيجب على القارى دراسة سيرة الفاطميين من رأس وأخذها من معين صاف غير مشوب بالعداء.

والذى يدل على ذلك أن الفقيه عمارة اليمنى كتب إلى صلاح الدين قصيدة متضمنة شرح حاله وضرورته وسماها «شكاية المتظلم ونكاية المتألم» وهى بديعة ورثى أصحاب القصر عند زوال ملكهم، بقصيدة لامية أجاد فيها. (١)

وعلى كل تقدير، فبعد وفاة الطيب بن الأمر وخلافة الأئمة الأربعة المتأخرة، الحافظ، الظافر، الفائز ثم العاضد، دخلت الدعوة المستعلية بالستر وتوقفت عن السير وراء الركب الإمامى واتبعت نظام الدعوة مكان الأئمة.

إلى هنا تم بيان أئمة المستعلية، التى افتقرت بعد المستنصر بالله، وصارت فرقة عظيمة معروفة بالبهرة، ولهم اليوم فى الهند نشاطات، ومدارس ودعايات، وهم يمسون بكتبهم عن الغير ويخلون بها.

إن الإسماعيلية المستعلية انقسمت سنة ٩٩٩هـ إلى فرقتين: داودية، وسليمانية، وذلك بعد وفاة الداعي المطلق، داود بن عجب شاه، انتخب مستعلية كجرات داود بن قطب شاه خلفاً له، ولكن اليمانيين عارضوا ذلك وانتخبوا داعياً آخر، يدعى سليمان بن الحسن، ويقولون: إن داود قد أوصى له بموجب وثيقة ما تزال محفوظة.

إن الداعي المطلق، للفرقة الإسماعيلية المستعلية الداودية اليوم، هو طاهر سيف الدين، ويقوم فى بومباى - الهند - أما الداعي المطلق للفرقة المستعلية السليمانية، فهو على بن الحسين، ويقوم فى مقاطعة نجران بالحجاز. (٢)

١. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٤٣٤.
٢. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٦٢.

الفصل الثامن : في أئمة النزارية المؤمنية

اشاره

الفصل الثامن : في أئمة النزارية المؤمنية والآخانيه

قائمة الأئمة النزارية المؤمنية:

قائمة الأئمة النزارية المؤمنية:

١. نزار بن معد.
٢. حسن بن نزار.
٣. محمد بن الحسن.
٤. حسن بن محمد «جلال الدين».
٥. محمد بن الحسن «علاء الدين».
٦. محمود بن محمد «ركن الدين».
٧. محمد بن محمود «شمس الدين».
٨. مؤمن بن محمد.
٩. محمد بن مؤمن.
١٠. رضى الدين بن محمد.
١١. طاهر بن رضى الدين.
١٢. رضى الدين الثانى بن طاهر.
١٣. طاهر بن رضى الدين الثانى.
١٤. حيدر بن طاهر.
١٥. صدر الدين بن حيدر.
١٦. معين الدين بن صدر الدين.
١٧. عطية الله بن معين الدين.
١٨. عزيز بن عطية الله.
١٩. معين الدين الثانى بن عزيز.
٢٠. محمد بن معين الدين الثانى.
٢١. حيدر بن محمد.
٢٢. محمد بن حيدر (الأمير الباقر). (١)

ولد هذا الإمام الأخير في أورنك آباد عام ١١٧٩هـ لقبه محمد الباقر (وتوفي سنة ١٢١٠هـ)، كل ما عرف عنه حتى الآن، هو أنه آخر إمام من أسرة مؤمن، يحتفظ الإسماعيليون في سوريا بفرمان مرسل منه، من بلدة أورنك آباد بالهند، إلى الإسماعيليين في سوريا، وفي عهده توقف الفرع المؤمني النزاري عن الركب الإمامي، ولم يبق بين فرق الإسماعيليين سوى القاسمية - الآخانية - سائره على المنهج دون توقف. (٢)

١. الإمامة في الإسلام: ١٧٨.

٢. الإمامة في الإسلام: ٢١٤.

(١٥٧)

قائمة الأئمة النزاريه القاسمية - الآخانية:

قائمة الأئمة النزاريه القاسمية - الآخانية:

١. نزار بن معد.

٢. هادي.

٣. مهتدي.

٤. قاهر .

٥. حسن على ذكره السلام.

٦. أعلى محمد.

٧. جلال الدين حسن.

٨. علاء الدين محمد.

٩. ركن الدين خورشاه.

١٠. شمس الدين محمد.

١١. قاسم شاه.

١٢. اسلام شاه.

١٣. محمد بن اسلام.

١٤. المستنصر بالله الثاني.

١٥. عبد السلام.

١٦. غريب ميرزا.

١٧. أبو الذر على .

١٨. مراد ميرزا .

١٩. ذو الفقار على.

٢٠. نور الدين على.

٢١. خليل الله على.

٢٢. نزار على.

٢٣. السيد علي.

٢٤. حسن علي.

٢٥. قاسم علي.

٢٦. أبو الحسن علي.

٢٧. خليل الله علي.

٢٨. حسن علي.

٢٩. علي شاه.

٣٠. سلطان محمد شاه

٣١. كريم خان. (١)

فعدد الأئمة عند النزاريه المومنية بعد المستنصر يبلغ ٢٢ إماماً، وعند الآخانيه يبلغ ٣١ إماماً _____.

١. الإمامة في الإسلام: ١٧٨.

(١٥٨)

إن الاختلاف بدأ يدب بعد الإمام نزار ابن المستنصر، ففي الشجرة المومنية نرى إمامين بعد نزار، هما: حسن، ومحمد، ثم حسن جلال الدين، وفي الشجرة القاسمية نرى خمسة أئمة بعد نزار، هم: هادي، ومهتدي، وقاهر، وحسن علي ذكره السلام، وأعلى محمد، ثم يأتي جلال الدين حسن، هذا ويلاحظ أنه بعد هذا الالتقاء عند حسن جلال الدين، تعود الشجرتان إلى السير جنباً إلى جنب حتى محمد شمس الدين، فبعد وفاة هذا الأخير ظهر اختلاف من نوع جديد، فالمعلوم أنه كان للإمام محمد شمس الدين ثلاثة أولاد، هم: مؤمن شاه، وقاسم شاه، وكياشاه.

فالمومنية اعترفت بإمامة مؤمن شاه، وسارت وراءه، ووراء ولده من بعده حتى آخرهم أمير محمد باقر سنة ١٢١٠هـ والقاسمية سارت وراء قاسم شاه، وولده الذين هم أسرة آخاخان. (١)

ثم إن بسط الكلام في ترجمة هؤلاء الأئمة يحوجنا إلى تأليف كتاب مفرد، ولتقتصر على ترجمة الأئمة الذين حكموا قلعة آلموت من قلاع قزوين، التي دمرها هولوكو سنة ٦٥٤هـ وكان آخر الأئمة في تلك القلاع الإمام ركن الدين، الذي ولد عام ٦٢٥هـ وأسر بيد جيوش التتر، وقتل سنة ٦٥٤هـ عند ما كانت الجيوش التتريه تعبر نهر جيحون لتسليم الإمام والأسرى إلى هولوكو.

وأما الباقي فستترك ذكر سيرتهم، ومن أراد المزيد فليرجع إلى المصادر التالية:

١. الإمامة في الإسلام تأليف عارف تامر، ٢. تاريخ الدعوة الإسماعيلية لمصطفى غالب _____.

١. الإمامة في الإسلام: ١٧١.

(١٥٩)

الإمام الأول

الإمام الأول المصطفى بالله نزار بن معد المستنصر (٤٣٧ - ٤٩٠هـ) قد تعرفت على أنا المستنصر عهد بالولاية لابنه نزار إلا أن الأفضل رئيس الوزراء، سعى لخلعه، وبايع أخاه الأصغر أحمد المستعلي، وقد ذكرنا سبب هذا الخلاف، فغادر الإمام نزار القاهرة بصحبة عدة من رجال دعوته، ونزل الاسكندرية بدعوة من حاكمها، فسار إليه الأفضل على رأس جيش وحاصر الاسكندرية، وعندما اشتد الحصار عليها غادرها الإمام نزار مع أهل بيته متخفياً بزى التجار، نحو «سجلماسه» حيث مكث عند عمته هناك بضعة أشهر، حتى عادت إليه الرسل التي أوفدها لإبلاغ الحسن بن الصباح عن محل إقامته، فسار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقي معه من دعاة وخدمه،

حيث استقر بقلعة «آلموت» بين رجال دعوته المخلصين، وعمل مع الحسن بن الصباح على تأسيس الدولة النزارية، وبعد أن تم له ذلك أصابه مرض شديد استدعى على أثره دعواته ونص على إمامة ابنه (علي) وذلك سنة ٤٩٠هـ وتوفي في اليوم الثاني ودفن في قلعة الموت. (١)

هذا ما يذكره ذلك المورخ، ولكن غيره من المورخين يذكرون شيئاً آخر، وهو أن الأفضل لحق به ونشبت بينهم معارك ضارية انتهت بمقتل نزار، وقد انتقم _____

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٥٥.

(١٦٠)

النزاريون بمقتله فيما بعد بأن قتلوا الخليفة الفاطمي الأمر بن المستعلي، ورئيس الوزراء الأفضل نفسه. وعلى كالتقدير فقد توفي عام ٤٩٠هـ إما في الاسكندرية مقتولاً، أو في قلعة آلموت. (١)

وتجدر الإشارة إلى أن الحسن بن الصباح شيخ الجبل (٤٢٨ - ٥١٨هـ) هو المؤسس الواقعي للإمامة النزارية، ولولا بيعته لابن المستنصر لما كان للنزارية دولة.

إن ابن الصباح قصد المستنصر بالله في زيارته واجتمع به، وخاطبه في إقامة الدعوة له فأجاب الدعوة له في بلاد العجم، فعاد ودعا الناس إليه سراً، ثم أظهرها وملك قلاع آلموت.

يقول الجزري: وكان الحسن بن الصباح رجلاً شهماً، كافياً، عالماً بالهندسة، والحساب، والنجوم والسحر وغير ذلك؛ وكان رئيس الري إنسان يقال له أبو مسلم، وهو صهر نظام الملك، فاتهم الحسن بن الصباح بدخول جماعة من دعاء المصريين عليه، فخافه ابن الصباح، وكان نظام الملك يكرمه، وقال له يوماً من طريق الفراسة: عن قريب يضل هذا الرجل ضعفاء العوام، فلما هرب الحسن من أبي مسلم طلبه فلم يدركه، فطاف البلاد، ووصل إلى مصر ودخل على المستنصر صاحبها فأكرمه وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن: فمن الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار، وعاد من مصر إلى موطنه، فلما رأى قلعة آلموت واختبر أهل تلك النواحي، أقام عندهم وطمع في إغوائهم ودعاهم في السر، وأظهر الزهد، ولبس المسح، فتبعه أكثرهم، والعلوي صاحب القلعة حسن الظن فيه، يجلس إليه يتبرك به.

فلما أحكم الحسن أمره، دخل يوماً على العلوي بالقلعة، فقال له ابن الصباح: اخرج من هذه القلعة، فتبسم العلوي وظنه يمزح، فأمر ابن الصباح _____

١. وليعلم أن نزار بن معد المذكور في المقام غير نزار بن معد العزيز بالله الإمام العاشر للإسماعيلية.

(١٦١)

بعض أصحابه بإخراج العلوي، فأخرجوه إلى دامغان وأعطاه ماله وملك القلعة.

ولما بلغ الخبر إلى نظام الملك بعث عسكرياً إلى قلعة آلموت، فحصره فيها، وأخذوا عليه الطرق، فضاق ذرعه بالحصر، فأرسل من قتل نظام الملك، فلما قتل رجع العسكر عنها. (١)

وقال الذهبي: الحسن بن الصباح الملقب بالكيا صاحب الدعوة النزارية وجد أصحاب قلعة آلموت.

كان من كبار الزنادقة ومن دهاة العالم، وله أخبار يطول شرحها، إلى أن قال: وأصله من مرو، وقد أكثر التطواف ما بين مصر إلى بلد كاشغر، يغوى الخلق ويضل الجهلة، إلى أن صار منه ما صار، وكان قوى المشاركة في الفلسفة والهندسة وكثير المكر والحيل، بعيد الغور.

قال أبو حامد الغزالي: شاهدت قصة الحسن بن الصباح لما تزهد تحت حصون آلموت، فكان أهل الحصن يتمنون صعوده إليهم ويمتنع، ويقول: أما ترون المنكر كيف فشا وفسد الناس؟ فتبعه خلق، ثم خرج أمير الحصن يتصيد فنهض أصحابه وملكوا الحصن،

ثمكثرت قلاعهم. (٢)

واستعرض حسن الأمين في «دائرة المعارف الشيعية» تاريخ الإسماعيلية، والانشقاق الذي طرأ على الخلافة الفاطمية بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر، وانقسامها إلى فرقتين هي: المستعلية والنزارية وموقف الحسن بن الصباح منهما، حيث قال:

و كان الحسن بن الصباح من أشد الناس إنكاراً لخلافه أحمد المستعلي وأكثرهم تحمساً لنزار. ويضيف قائلاً: _____:

١. الكامل في التاريخ: ٣١٦-٣١٧.

٢. الذهبي: ميزان الاعتدال: ١/٥٠٠.

(١٦٢)

وثمة من يقول من النزاريين إن الحسن بن الصباح كان في مصر حين وقوع الخلاف على ولاية العهد، فلم يقر ما جرى، وكان ممن يرون أن المستنصر كان مكرهاً على تولية ولده أحمد، وأن الأمر هو لنزار لا لأحمد، ففر الحسن بن الصباح من مصر داعياً لنزار، ثم أرسل بعض فدائييه، فأحضروا ابناً لنزار إلى قلعة الموت.

وفي قول آخر: إنه لم يخرج من مصر حتى أخرج معه ابناً لنزار، واسمه في سلسلة الأئمة النزاريين على ولقبه الهادي، فأخفاه الحسن وستره.

ومهما يكن من أمر فقد أصبح الحسن بن الصباح الرجل الأول والموجه الفعلي للدعوة النزارية.

وبعد ذلك استعرض حسن الأمين الانحراف الخطير الذي طرأ على الدعوة النزارية وتخليها عن الإسلام كعقيدة وعمل، حيث قال:

توفي الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ فخلفه من خلفه في قيادة الدعوة النزارية دون أن يعلن هو أو غيره ممن خلفه عن عقيدة جديدة، حتى انتهى الأمر إلى الحسن الثاني بن محمد بن بزرك أميد سنة ٥٥٨هـ فإذا به يعلن التخلي عن الإسلام كعقيدة وعمل والأخذ بمفهوم جديد للدين يتعارض كل التعارض مع مفهوم الإسلام له.

و يصف المورخ علاء الدين عطاء الملك الجويني (م ٦٥٨هـ) هذا الأمر وتفصيله ويوم حدوثه، ثم يقول:

فأعلن - أي الحسن الثاني - أثر سألته قد جاءته من الإمام المستر مع دليل جديد.

ثم قال: «إن إمام وقتنا قد بعث إليكم صلواته ورحمته ودعاكم عباده المختارين، ولقد أعفاكم من أعباء تكاليف الشريعة وآل بكم إلى البعث.

ثم يقول الجويني: وأكد حسن بالتصريح بأنه كما في عصر الشريعة إذا لم

(١٦٣)

يطع إنسان ولم يعبد بل تبع حكم القيامة بحجة أنالطاعة والعبادة هما أمران روحيان كان ينكل به ويرجم ويقتل، كذلك الآن في عصر القيامة إذا تقيد إنسان بحرفية الشريعة وواظب على العبادة الجسدية والشعائر فإن ذلك تعصب ينكل به ويرجم ويقتل من أجله.

ثم أكمل حسن كلامه قائلاً: لقد أعفى الناس من تكاليف الشريعة، لأن عليهم في فترة القيامة هذه أن يتوجهوا بكل جوارحهم نحو الله، ويهجروا كل الشعائر الدينية وجميع العبادات القائمة. فقد وضع في الشريعة بأن على الناس عبادة الله خمس مرات في اليوم وأن يكونوا معه. وهذا التكليف كان ظاهرياً فقط. ولكن الآن في أيام القيامة عليهم أن يكونوا دائماً مع الله في قلوبهم، وأن يبقوا نفوسهم متوجهة دائماً نحو الحضرة الإلهية، فإنها الصلاة الحقيقية. انتهى.

وقد أثر كلامه في الجموع المحتشدة تحت منبره يقول المورخ الجويني:

وفي ذلك اليوم الذي اقترفت فيه هذه القبائح وأفشيت فيه تلك المساوي في «مأمون آباد» عش الكفر، لعب الجميع على الجنك والرباب، وشربوا الخمر بشكل مكشوف على نفس درجات ذلك المنبر وفي مكان جلوس الخطيب.

نعم كان بين المؤمنين بالمذهب من أنكر عليهم ذلك، فنرى أن يوم الأحد السادس من ربيع الأول سنة ٥٦١هـ قام شقيق زوجته الحسن

بطعنه في قلعة (لمسر) فمضى المفترى من هذه الدنيا إلى نار الله الموقدة، ولكن الانحراف لم ينته باغتيال أصله، بل بقي مستمراً على عهد خليفته ابنه «علاء محمد» الذي تولى بعد أبيه وهو في التاسعة عشرة من عمره وتوفي سنة ٦٠٧ هـ كما كانت المعارضة الشديدة مستمرة، وإذا كان قد تزعمها في عهد حسن، شقيق زوجته، فقد تزعمها الآن حفيد حسن وسميه جلال الدين حسن، إذ كان على خلاف أبيه وجدّه في العقيدة متشدداً في خلافه لهما كل التشدد.

وقام بإصلاحات كبيرة، فقد اتصل بحكام الأقطار الإسلامية يعلنهم

(١٦٤)

العودة إلى الإسلام ليوثق الصلات بهم وبجمهور المسلمين بعد الذي شاع عن انحراف جدّه وما أعلنه من خروج على الشريعة، فراسل الخليفة في بغداد «الناصر لدين الله» وغيره من الملوك والأمراء، كما أرسل والدته وزوجته إلى الحجّ وأمر ببناء المساجد وقرب إليه الفقهاء والقراء.

و من البديهي أن لا يكون «جلال الدين حسن» قد استطاع استئصال جذور الانحراف، وأن يظل للانحراف أتباعه الآخذون به شأن جميع الدعوات في كل زمان ومكان.

على أن أمر دولة هولاة النزاريين لم يطل كثيراً بعد جلال الدين، فقد انتهى ملكهم على يد هولاكو سنة ٦٥٤ هـ لكن من أخذوا بأقوال الحسن الثاني بن محمد وانحرفه لم ينتهوا، بل ظل للدعوة من يحملها من جيل إلى جيل حتى هذا الجيل وهم اليوم أتباع آغاخان وظلوا هم وحدهم منفردين باسم الإسماعيليين بعد أن تبرأ من هذا الاسم أصحابه الحقيقيين وتسموا باسم البهرة. (١)

١. حسن الأمين: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ٧٣-٧٥.

(١٦٥)

الإمام الثاني

الإمام الثاني على الهادي بن الإمام نزار (٤٧٠ - ٥٣٠ هـ) ولد الإمام على الهادي بن الإمام نزار سنة ٤٧٠ هـ وارتحل مع والده الإمام نزار إلى قلعة ألموت، ولما توفي أبوه عام ٤٩٠ هـ أصبح إماماً للإسماعيلية ولم يتجاوز عمره عن عشرين سنة.

وقد انتشر المذهب الإسماعيلي في عهده على يد داعيته الحسن بن الصباح، شيخ الجبل، المعروف بالمقدرة والبطش.

عمد الإمام إلى تأليف جيش قوى من الإسماعيلية، قسمه إلى فرقتين، الفرقة الأولى أسماها (الفدائية)، وهي المكلفة ببذل التضحيات السريعة المستعجلة، وتنفيذ الأوامر السرية الهامة، ولقد تدرّب أفراد تلك الفرقة أعظم تدريب على استعمال كافة أنواع الأسلحة، وعلى الفروسيه، كما لقنوا مختلف العلوم الفلسفية، وأتقنوا أغلب لغات أهالي تلك البلاد. أما الفرقة الثانية سميت بـ(الرفقاء) وهم المكلفون بنشر الدعوة الإسماعيلية بأسلوبهم الخاص في مختلف الأقطار والأقاليم، وهم المدافعون عن مذهبهم بالعلم والفلسفة، وعلى الغالب كانوا يتولون الوظائف الإدارية في البلاد التي يوفدون إليها لنشر الدعوة.

وفي سنة ٥٣٠ هـ توفى الإمام على الهادي، بعد أن مكث في الإمامة أربعين عاماً، ودفن في قلعة «لامستر» بعد أن نصّ على إمامة

ولده محمد المهتدي. (١)

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٥٧-٢٦٢.

(١٦٦)

الإمام الثالث

الإمام الثالث محمد المهتدي بن الإمام علي (٥٠٠ - ٥٥٢هـ) ولد الإمام محمد بن علي بن الإمام نزار الملقب بالمهتدي سنة ٥٠٠ هـ في قلعة «لامستر»، وأصبح إماماً للإسماعيلية بعد وفاة أبيه الإمام علي الهادي سنة ٥٣٠ هـ. كان أول عمل قام به أن نقل مقره إلى قلعة آلموت، ووجه إهتمامه لبعث الجيش الإسماعيلي (الفدائية) من جديد، وتدريبه تدريباً كاملاً ليستطيع الدفاع عن القلاع والحصون الإسماعيلية. وقد وجه عنايته أيضاً لتنظيم الدعوة، وتلقينهم أصول العقائد الإسماعيلية، وتدريبهم على المباحث والمناقشة في الفلسفة، والفقہ الإسلامي والعقائد الإسلامية، كما أوجد بينهم نظام الشيفرة ليستعملوه في اتصالاتهم الداخلية والخارجية فاستعملوا الأعداد للدلالة على الأحرف الأبجدية، وتعرضت الإسماعيلية أيضاً لكثير من الهجمات الداخلية والغزوات الخارجية. وفي سنة ٥٥٢ هـ توفي الإمام المهتدي ودفن في قلعة آلموت بعد أن نصَّ علي إمامه ولده حسن. (١)

١. المصدر السابق: ٢٦٦.

(١٦٧)

الإمام الرابع

الإمام الرابع القاهر بقوة الله حسن بن محمد بن علي بن نزار (٥٢٠ - ٥٥٧هـ) ولد سنة ٥٢٠ هـ في قلعة آلموت، وأصبح بعد وفاة أبيه ٥٥٢ هـ إماماً بموجب النص، وكان عمره آنذاك ٢٨ سنة، وعين الداعي محمد كيا بزرك آميد نائباً عنه وكبيراً لدعائه. عمل الداعي بكل إخلاص ووزع الدعوة الأكفاء على جميع المناطق، ووجه عناية خاصة للفرقة الفدائية، التي كانت تحتل المكان الأول في الجيش الإسماعيلي، وأنشأ مدرسة خاصة لتتقيد الفدائية وتدريبهم التدريب الكامل على استعمال الأسلحة، وتلقينهم أغلب اللغات المستعملة في ذلك الوقت.

توفي سنة ٥٥٧ هـ ودفن في قلعة آلموت بعد أن نصَّ علي إمامه ولده الحسن علي. (١)

١. المصدر نفسه: ٢٧٢.

(١٦٨)

الإمام الخامس

الإمام الخامس الإمام الحسن علي بن الإمام حسن القاهر (٥٣٩ - ٥٦١هـ) ولد الإمام حسن علي بن الحسن بن محمد بن علي بن نزار سنة ٥٣٩ هـ في قلعة آلموت، وتولَّى الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٧ هـ. وقام بتنظيم الدعوة الإسماعيلية فوزع الدعوة الأكفاء على الأقاليم الخاضعة للنفوذ الإسماعيلي. توفي في السادس من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ ودفن في قلعة آلموت. (١)

الإمام السادس

الإمام السادس الإمام أعلى محمد بن الإمام الحسن علي (٥٥٣ - ٦٠٧هـ) ولد الإمام أعلى محمد سنة ٥٥٣ هـ في قلعة آلموت، وتولَّى الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ٥٦١ هـ وهو في الثامنة من عمره. ووجه عناية خاصة (للمناظرات العلمية) فخصص يوماً واحداً من كل أسبوع لإجراء المناظرات الفلسفية، والفقهيّة بين الدعوة، يحضرها بنفسه ليحكم بين المتناظرين فيعليهم ويرقيهم في مراتب الدعوة، حسب ما يظهوره من كفاءة

١. المصدر نفسه: ٢٧٥.

(١٦٩)

علمية، وهذا ما ساعد الدعوة على تفهم أصول المذهب الإسماعيلي.

توفي الإمام أعلى محمد سنة ٦٠٧هـ ودفن في قلعة آلموت بعد أن نصّ على ولاية ابنه جلال الدين، واستمرت إمامته ٤٦ سنة. (١)

الإمام السابع

الإمام السابع الإمام جلال الدين حسن بن أعلى محمد (٥٨٢-٦١٨هـ) ولد الإمام حسن بن أعلى، الملقب بجلال الدين سنة ٥٨٢هـ في قلعة آلموت، وأصبح إماماً بعد وفاة أبيه سنة ٦٠٧هـ.

عمل على توثيق عرى الصداقة بين الإسماعيلية والعالم الإسلامي، ولهذا لقبوه بـ«المسلم الجديد» كما أن علاقاته بالعباسيين زادت وثوقاً، وخاصةً مع الخليفة الناصر لدين الله.

تنقل كثيراً في سوريا والعراق وآذربيجان، وأدى فريضة الحج مع عائلته مرتين، تحالف مع جلال الدين خوارزمشاه، عندما غزا چنگيز خان إيران، وذلك انقاذاً لمعاقله ولأتباعه. قتل بمؤامرة من النساء بالسُّم سنة ٦١٨هـ وخلف ولداً هو محمد بن الحسن «علاء الدين». (٢)

١. المصدر نفسه: ٢٧٧.

٢. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٩٢؛ تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٨٤.

(١٧٠)

الإمام الثامن

الإمام الثامن علاء الدين محمد بن الحسن (٦٠٨-٦٥٣هـ) ولد الإمام علاء الدين محمد بن الإمام جلال الدين سنة ٦٠٨هـ في قلعة آلموت، وجلس على أريكة الإمامة الإسماعيلية سنة ٦١٨هـ وهو في العاشرة من عمره، ودامت إمامته ٣٥ عاماً.

ومن العجب أن المورخ المعاصر مصطفى غالب ذكر سقوط مدينة بغداد في عصر هذا الإمام مع أن سقوط بغداد تم بعد تدمير قلاع الإسماعيلية، لأن مسير التتر كان من قزوین ثم همدان ثم بغداد.

و توفي عام ٦٥٣هـ ودفن في آلموت. (١)

الإمام التاسع

الإمام التاسع ركن الدين خورشاه بن الإمام علاء الدين (٦٢٩-٦٥٤هـ) ولد الإمام ركن الدين خورشاه بن الإمام علاء الدين محمد سنة ٦٢٩هـ في قلعة آلموت، وأصبح إماماً بعد وفاة أبيه سنة ٦٥٣هـ وأرسل هولاء-كو التتري جيشاً بقيادة بوكيان التتري لأطراف

كوهستان لمحاربة الأمير ناصر الدين أمير

١. تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٨٦.

(١٧١)

تلك المقاطعة الذي كان يقيم في قلعة (سرخوست).

و أرسل جيشاً آخر لحصار بقية القلاع الإسماعيلية، ولقد استمر ذلك الحصار مدة ستة أشهر، نفذت بعدها مؤونة الإسماعيليين، ففتحوا

أبواب قلاعهم واشتبكوا مع التتر في معارك قويّة طاحنة، قتل فيها اثنا عشر ألف إسماعيلي وثلاثون ألف تترى، واحتلت الجيوش الغازية جميع القلاع الإسماعيلية ودمرتها عن بكرة أبيها فجعلتها قاعاً صفصفاً، وألقى القبض على الإمام ركن الدين خورشاه مع ولده الأصغر مظفر الدين، وابن أخيه سيف الدين، وبعض دعائه، وأخذوهم إلى الخليفة في بغداد.

و في طريق العودة بينما كانت الجيوش التترية تعبر نهر (جيحون) توفي الإمام ركن الدين خورشاه وكانت وفاته سنة ٦٥٤هـ ودفن على ضفة ذلك النهر اليمنى.

أمّا بقية الأسرى فسلموا لهولاكو الذي أمر بإعدامهم جميعاً، والتمثيل بجثثهم، ولم تستمر إمامة ركن الدين سوى عاماً واحداً، قضاه في الحروب والحصار، وبانتهاء عهده ودعت الأئمة الإسماعيلية بلاد آلموت لتستقر في آذربيجان بعد أن دام حكمهم فيها ما يقارب ٢١٤ عام. (١)

إلى هنا وقفت على أئمة النزاريه، من الإسماعيلية وأما غيرهم من الأئمة الباقية الذين تسلموا مسند الإمامة بعد تدمير قلاع آلموت فيحتاج إلى تأليف مفرد.

إنّ الكتب الإسماعيلية التاريخية المخطوطة والمصادر الصوريّة القديمة، منذ عام ٧١٠هـ حتى سنة ١٢١٠هـ جاءت حافلة بذكر أسرة مؤمن شاه وحدها _____،

١. تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٨٩-٢٩٠.

(١٧٢)

وبعد سنة ١٢١٠هـ انطلقاً وخباً كلُّ نشاط علمي من جانب هذه الفرقة (المومنية) وقامت الأسرة الثانية (القاسمية) تحتل مركزها وتبرز على مسرح الإسماعيلية النزاريه وبما أنّ الأسرة الآغاخانية تزعمت الإسماعيلية النزاريه ما يربو عن القرنين، فلذلك خصصنا الفصل التالي لبيان حياة تلك الأسرة.

إنّ الفرقة الإسماعيلية النزاريه المومنية تقطن في عهدنا الحاضر في بلدتي «القدموس» و«مصيف» السوريتين وفي بعض قرى سلمية وفي سلمية نفسها، وأما الفرقة القاسمية النزاريه الآغاخانية فتقطن في سلمية، وما يتبعها من القرى، وفي نهر الخوابي قرب طرطوس، كما تقطن في إيران، والهند، وباكستان، وبورما، والصين، وإفريقيه الشرقيه، و الكونغو ومدغشقر و زنجبار وغيرها. (١)

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٧٠.

(١٧٣)

الفصل التاسع

الفصل التاسع في الأسرة الآغاخانية

(١٧٤) (١٧٥)

قد عرفت أنّ النزاريه انقسمت إلى طائفتين: «مومنية» و«قاسمية» ويطلق على «القاسمية» في الآونة الأخيرة «الآغاخانية» واشتهروا في هذه الأعصار باللقب الأخير وأئمة هذه الأسرة هم:

١. حسن على شاه.

٢. علي شاه.

٣. سلطان محمد شاه.

٤. كريم خان. ١. حسن علي شاه: (١٢١٩-١٢٩٨هـ)

ولد في بلدة محلات سنة ١٢١٩ هـ وهو أول من لقب بـ «آغا خان» كان معاصراً للشاه «محمد القاجاري» وفي عهده قُتل الشاه القاجاري وجلس مكانه فتح علي شاه، وقد عامل الإسماعيليين معاملة طيبة، وزوج حسن علي شاه من كريمته، ولكن حياته لم تطل فمات، واستلم مكانه «علي محمد شاه».

فلاحظ أن مركز الإمام حسن علي شاه قد أصبح قوياً وخطيراً، فاعتبره خطراً على شؤون المملكة، وأمر بإبعاده عن إيران، فذهب إلى السند، واستقر بين أتباعه الكثيرين في كراتشي يُنظم أمورهم ويصلح أحوالهم، ويقرب وجهات النظر بين ملوك السند والبريطانيين، وأخيراً انتقل إلى الهند.

وتوفي سنة ١٢٩٨ هـ ودفن في محلة «مجاكثون» أو «حسن آباد» عن أربعة أولاد، هم: آغا علي شاه، وآغا جهانگیر شاه، وآغا جنكي شاه، وآغا جلال شاه،

(١٧٤)

وكان علي هو وصيه ووريث الإمامة. (١)

يقول المؤرخ المعاصر مصطفى غالب: دخل الإمام حسن علي شاه مدينة «بومباي» واشتغل من قبل حاكم تلك المدينة ورجال السلك السياسي وممثلي الدول ومختلف طبقات الشعب، ومنحته المملكة البريطانية لقب صاحب السمو، وأرفع وسام للسلام في المملكة. (٢)

ولعل مغادرته لإيران وإقامته في بومباي هيأت له أرضية الاتصال بالبلاط البريطاني، وتوثقت عرى الصداقة بينهما عبر العصور، فلم تزل أئمة الطائفة بعده متهمين بالعمالة للبريطانيين. ٢. علي شاه: (١٢٤٦-١٣٠٢هـ)

ولد عام ١٢٤٦ هـ في بلدة محلات، وجلس علي مسند الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٩٨ هـ واشتهر بـ «آغا خان الثاني» والدته هي كريمه فتح علي شاه القاجاري.

يذكر أنه كان مولعاً بصيد الأسود والرماية، وقوة الساعد والرجولة. تزوج شمس الملوك ابنة ميرزا علي خان الإيرانية.

أنجب ثلاثة أولاد، هم: سلطان محمد شاه، وشهاب الدين شاه، ونور شاه، وولي عهده هو السلطان محمد شاه آغا خان الثالث.

وفي احتفال مهيب ضم آلاف الإسماعيليين الذين قدموا لتقديم الزكاة والخمس للإمام، أعلن الإمام علي شاه بأن نجله الأكبر سلطان محمد شاه قد أصبح ولياً للعهد، وسيكون إماماً من بعده.

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ٢٢٨.

٢. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٣٦.

(١٧٧)

قدم إليه وفد من إسماعيليين سوريا، وطلبوا من الإمام رفع مشاكلهم وأن يدفع إليهم السلطان العثماني مكاناً يقطنون فيه بعد أن ضاقت بهم معاقلمهم، فقام الإمام بتنفيذ طلبهم واتصل بالسلطان العثماني إلى أن أصدر السلطان أمره إلى والي دمشق ليسمح للإسماعيليين بأن يختاروا مكاناً ليشيدوا فيه مساكن لهم، شريطة أن يعفوا من الضرائب والجندية، تجتمع الإسماعيليون بزعامه الأمير إسماعيل، وذهبوا باتجاه المنطقة الشرقية حتى وصلوا إلى سهول السلمية فقرروا أن يعيدوا تأسيس مدينة «السلمية» التاريخية، بعد أن دمرتها الحروب.

توفي الإمام علي شاه سنة ١٣٠٢ هـ ونقل جسده إلى مدينة كربلاء ودفن هناك.

(١) ٣. سلطان محمد شاه «آغا خان الثالث»: (١٢٩٤-١٣٨٠هـ)

ولد «محمد سلطان الحسيني» المعروف بآغا خان الثالث عام ١٢٩٤ هـ في محلة «شهر العسل» بكراتشي، وفي الثامنة من عمره اجتمع به رجال الدعوة الإسماعيلية في الهند وسلّموه شؤون الإمامة باحتفال مهيب، وتزوج في سن العشرين ابنه عمه «شاه زاده» وزار الغرب

لأول مرة واصلًا إلى لندن، فمنح لقب «كوماندور» للامبراطورية الهندية. كما زار ألمانيا وفرنسا وإيران وتركيا ومناطق عديدة من العالم، وتزوج عدة مرات، وساهم بإنشاء جامعة عليكرة، وبارسال بعثة إسلامية لتدريس الدين الإسلامي في اليابان. وفي حياته نقاط جديرة بالمطالعة، منها:

١. يقول عارف تامر: ورأيت في القاهرة سنة ١٩٥٦م يقول لاتباعه الذين جاءوا لزيارته: علموا أولادكم العلوم العملية، وأبعدوهم عن العلوم النظرية _____،

١. الإمامة في الإسلام: ٢٢٨ - ٢٢٩؛ وتاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٣٩ - ٣٤١.

(١٧٨)

فالعالم قادم على انقلاب خطير وتطور سريع في ميدان الاستنباط والاختراع. (١)

أقول: ماذا يقصد من العلوم النظرية؟ وهل تختص بالعلوم الدينية، أعني: الكلام والتفسير والفقه، أو تشمل سائر العلوم الإنسانية الأخرى كعرفه النفس وعلم الاجتماع والقانون؟ وعلى أية حال فإن شاداته لا اعتبار بها، وكان الأفضل أن يرشدهم بالقول: علموا أولادكم الصناعات الحديثة والعلوم العملية إلى جانب سائر العلوم، يقول سبحانه: "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ"

(٢) فإتترويد البشر بالصناعات الحديثة دون الإيمان كتزويد المجنون بالسلاح، والذي يكبح جماح البشر عن استخدامه لتلك الصناعات الحديثة من سبيل الشر، هو الإيمان بالله، والاعتقاد بالمبدأ والمعاد، التي تتكفل العلوم النظرية بيانه.

٢. يقول - للوفد الإسلامي الذي جاء يطالبه بالمساهمة ببناء كلية إسلامية في مدينة «منبسا» كينيا: إنني لا أساهم إلا بإنشاء مدرسة صناعية كبرى لتعليم الصناعات المختلفة، والمهن الحرّة، فقد كفانا نومًا وركضًا وراء الخيالات والأحلام.

(٣)

أقول: ماذا يريد بقوله: كفانا نومًا وركضًا وراء الخيالات والأحلام؟! فهل مقصوده أن العلوم الدينيّة هي منبع للخيالات والأحلام؟! فحينئذ ستكون قيادته مبتيّة على الأوهام والخيالات، فما أشبه كلامه بفعل من تسلق الشجرة وأخذ يقطع ما تحته. بل إن كلامه هذا تفرغ واضح وصريح لحالة القداسة الدينية التي طالما حاول أن يظهر بها أمام المسلمين عامة واتباعه بصورة خاصة.

٣. يقول المورّخ المعاصر مصطفى غالب: سمو آغا خان يملك قصوراً كثيرة في جميع أنحاء العالم، وطائرات حديثة من أفخر طراز، وعددًا كبيراً من _____

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ٢٣١.

٢. الروم: ٥٦.

٣. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ٢٣٣.

(١٧٩)

أحدث اصطبلات الجياد في العالم، ويحتفظ بفصيحة جياد (هاراث) التي تملكها أسرته منذ زمن بعيد، ومنها ينتج أحسن خيول السباق المعروفة، وقد ربحت هذه الخيول أكبر الجوائز العالمية لسباق (دربي).

والإمام آغا خان يُعد من أغنى أغنياء العالم، إذ يُقدّر إيراده السنوي بمبلغ يتراوح بين ٦٠٠ ألف و ١٠ ملايين دولار، وقد قُدّرت مجموعته الجواهر التي يملكها بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار.

(١)

لا شك أن حياة البذخ التي عاشها الإمام آغا خان ليست نتيجة كد عمله ومحصول جهده إنّما هي أموال شرعية باسم الزكاة والخمس قدمتها إليه الطائفة الإسماعيلية المتشكلة من الفلاحين والعمال وأصحاب المكاسب الحرّة، لا أنّها أموال شخصية للإمام، بل ملك لمنصب الإمامة يصرفها في المشاريع الخيرية، فأين حياة البذخ هذه ممّا كان عليه الإمام أمير المؤمنين ذلك الأسوة الحسنة لعامة البشر

والمسلمين خاصة حيث يكتب إلى عامله بالبصرة عثمان بن حنيف: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدى به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، إلى أن يقول: ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له بالقرص، ولا عهد له بالشعب، أو أبيت مبطاناً وحولى بطون غرثى، وأكباد حزى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنه * وحولك أكباد تحن إلى القدأ أقنع من نفسى بأن يقال هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم فى مكاره الدهر، أو أكون أسوء لهم فى جشوبه العيش، فما خلقت ليشغلنى أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسله شغلها تقمها».

(٢)

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٦٦.

٢. نهج البلاغة: قسم الرسائل، رقم ٤٥، تعليق صبحى الصالح. (١٨٠)

٤. يقول: ويجب أن لا- يغرب عن بالكم، بأن هذه المشاريع لا يمكن أن تتحقق، ولا يكتب النجاح لهذه النهضة الإصلاحية إلا إذا دفعت ضريبة العشر، والعشر هذا تضحية جزئية واجبة على كل إسماعيلي يعتقد ولايتنا ويخلص لنا.

(١)

ويلاحظ عليه: بأن الفريضة مختلفة فى الزكاة، وليست مبعضة بالعشر كما هو واضح، لمن له أدنى إمام بالفقه الإسلامى من سنة وشيعه، كما أن الواجب فى المعادن، والركائز، وأرباح المكاسب، هو الخمس، لا العشر، فالتركيز على العشر، وحذف المعايير الأخر إبطال للشريعة.

٥. ومن نصائحه لاتباعه أنه أمرهم بالزهد، ويقول: لا- تسرفوا شيئاً على طقوس الأموات والزواج، وازهدوا فى لذائذ الحياة الدنيا، وادخروا شيئاً من نفقاتكم الشهرية، وابتاعوا بها سندات شركات التأمين وأوراق الدولة المالية.

(٢)

إن هذه النصيحة ممزوجة بالحق والباطل، فهو يأمر أتباعه بالزهد، بينما يعيش هو حياة البذخ والإسراف، أتقولون مالا تفعلون؟! ٦. قال لزوجته الفرنسية فى صباح اليوم الذى قرّر أن تتم به حفلة زواجهما:

ابنتى العزيزة!!!...

أنت لا تجهلين ولا ريب بأنى أمير شرقى كبير وأعتقد بأنك تجهلين بأن آلاف وآلاف من البشر يعتقدون بأن الإله متجسم فى تقريباً.

(٣)

أقول: يبدو بأنه إما يصحح عقيدة أتباعه فى حقه، أو يخطئهم، فعلى الوجه الأول هو إله متجسم حسب عقيدته، وعلى الوجه الثانى مقصر فى إضفاء الشرعية على عقيدة قومه، وعدم تخطئتهم، وإرشادهم إلى الحق.

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٦٥.

٢. المصدر السابق: ٣٦٨.

٣. المصدر السابق: ٣٧٢. (١٨١) الإمام يتعلم على يد مأمومه

قال المؤرخ الإسماعيلي المعاصر مصطفى غالب: وسموه يجيد اللغات الشرقية والغربية من الهندية والفارسية والعربية والتركية، والانكليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية، وغيرها من اللغات العديدة، كل هذا بدون أن يدخل أى مدرسة أو يتلقى علومه فى أى معهد، وقد تلقى تعليمه الأول على أيدى والدته التى علمته تعليماً صحيحاً، فجعلته يتقن اللغات الأوروبية والعربية والفارسية. (١)

وقال عارف تامر: وتوفي والده على شاه، وهو في الثامنة من عمره، فاجتمع به رجال الدعوة الإسماعيلية في الهند، وسلموه شون الإمامة باحتفال مهيب. وكان هذا من الأسباب التي حفزت والدته على مضاعفة السهر على حياته، وإحضار المرين الاختصاصيين، والأساتذة الماهرين، عملوا على تدريسه اللغات الأجنبية والفارسية والعربية. (٢)

وهنا نقطة جديرة بالإمعان وهي أن الثابت في عقيدتهم أن الإمام منصوص لا يتلقى العلم إلا عن الغيب فعلمه لدني. فلا أدري ما هذا الإمام الذي يتلقى العلم عن مأمومه، وهل الإمام ذو العلم اللدني بحاجة إلى دخول المدارس البشرية، وتعلم اللغات والعلوم وغير ذلك.

وفي يوم الخميس الساعة الثانية ظهراً الحادي عشر من تموز سنة ١٩٥٧م الموافق (١٣٧٧هـ) توفي الآغا خان في قصره بسويسرا، ونقل جثمانه جواً إلى أسوان بمصر. ودفن في المقبرة التي شرع بتشيدتها على رأس ربوة الجبل الأصفر غرب مدينة أسوان في مصر. (٣)

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٥١.

٢. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ٢٣٤.

٣. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٩٢.

(١٨٢)

ولما توفي آغا خان الثالث في سويسرا توجه زعماء الإسماعيلية من مختلف أنحاء العالم إلى مقر الآغا خان في قصر بركان، حيث حضروا فتح وصية الإمام الراحل التي كانت مودعة في بنك (لويدز) في بريطانيا.

واستناداً إلى هذه الوصية فقد تم إعلان إمامة كريم بن علي شاه الحسيني، ولقب بآغا خان الرابع. (١)

ومن الطريف بالذكر هو أن الإمام آغا خان الثالث قد عهد بالإمامة لابنه الأمير علي خان في حياته، يقول مصطفى غالب: أصبح الأمير علي خان ولياً لعهد الإمامة الإسماعيلية في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٧ ميلادية وجرت احتفالات عظيمة بهذه المناسبة، عمت جميع البلدان الإسماعيلية. (٢)

وقد خاب أمل الأمير علي خان لما فتحت وصية والده التي كانت مودعة في بنك (لويدز) في بريطانيا والتي تنص على إمامة حفيده كريم بن علي شاه الحسيني (آغا خان الرابع)، ولا أجد تفسيراً لها إلا بنشوب الخلافات بينهما. ومما جاء في وصيته التي أبطل بها إمامة ابنه:

ونظراً إلى الظروف التي تغيرت تغييراً أساسياً في العالم في السنوات الأخيرة، ونظراً للتغيرات الكبرى التي وقعت، ومن بينها اكتشاف العلوم الذرية، فإني على يقين أن مصلحة الطائفة الإسماعيلية تقتضي أن يخلفني شاب نشأ وترعرع في السنوات الأخيرة وسط هذا العصر الحديث، وأن تكون له نظرة جديدة للحياة عند تولي زعامة الطائفة الإسماعيلية، لذلك أختار حفيدي كريم خان، ليكون خليفه لي وزعيماً للطائفة من بعدي. (٣)

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٤٠٢-٤٠٣.

٢. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٣٩٣.

٣. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٤٠٢.

(١٨٣)

وقد توفي ولده علي خان المعزول في الخامس عشر من ذي القعدة سنة ١٣٨٠ هجرية، بحادث اصطدام سيارته التي كان يقودها بنفسه، ودفن جثمانه مؤقتاً في قصره الخاص في نوبللي بفرنسا، ريثما يتم نقله إلى مقره الأخير في سلمية سوريا لتنفيذ الوصية.

فالإمام الحاضر للإسماعيلية هو كريم حفيد (آغا خان الثالث) لا ولده. كريم بن علي بن محمد آغا خان الرابع ولد سنة ١٩٣٨ م في مدينة جنيف بسويسرا، والده هو الأمير علي خان الذي أقصى عن مركز الإمامة بموجب وصية والده سلطان محمد شاه (آغا خان الثالث)، وأمه هي الأميرة البريطانية (جون بربارا يولد) ابنة اللورد تشارستون، تلقى علومه الأولى في مدارس سويسرا، فأتقن الانكليزية والفرنسية والإسبانية، كما درس اللغة العربية، وبعد أن أكمل تحصيله في سويسرا انتسب إلى جامعة (هارفرد الأميركية).

كان كثير التنقل والأسفار، يمارس الرياضة الصعبة، وقد نجا مرتين من حادثتي اصطدام مروعتين، ويولي الشؤون الاقتصادية والمالية اهتمامه، ويتجنب الخوض ببحر السياسة. كما ويقوم بزيارة لإفريقية وسوريا ولبنان وإيران في العام، لتفقد شؤون أتباعه ومعالجة قضاياهم. وهو لا يزال حياً يرزق. (١)

هؤلاء أئمة النزارية القاسمية الآخانية، وهم الفرقة المنحصرة باستمرار الإمامة في أولاد إسماعيل، وفق المذهب الإسماعيلي، فالله سبحانه يعلم هل تستمر الإمامة بعد رحيله أو تدخل في كهف الغيبة _____.

١. الإمامة في الإسلام: ٢٣٧؛ وتاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٤٠٣.

(١٨٤) (١٨٥)

الفصل العاشر: في الإسماعيلية والأصول

إشاره

الفصل العاشر: في الإسماعيلية والأصول الخمسة

عقيدتهم في التوحيد

١. عقيدتهم في توحيد سبحانه، أنه واحد لا مثل

١. عقيدتهم في توحيد سبحانه، أنه واحد لا مثل له ولا ضد:

يقول الكرمانى فى المشرع الخامس: إنه تعالى لا ضد له ولا مثل (١) ثم يستدل عليه.

ويقول على بن محمد الوليد (الداعى الإسماعيلي اليمنى): إنه تعالى واحد لا- من عدد، ولا- يُعتقد فيه كثرة، أو ازدواج أشكال المخلوقات، واختلاف البسائط والمركبات (٢) ثم يستدل عليه.

و يقول أحد الدعاء الإسماعيلية فى قصيدة له فى العقائد:

الحمد لله القديم الأزلى * المبدع العالى معلّ العلل

بارى البرايا الدائم الفرد الصمد * والجاعل الواحد أصلاً للعدد (٣) _____

١. راحة العقل: ٤٧.

٢. على بن محمد الوليد: تاج العقائد ومعدن الفوائد: ٢١.

٣. القصيدة الشافية: ١.

(١٩٢)

٢. أنه سبحانه ليس أيسا:

٢. أنه سبحانه ليس أيساً:

إنَّالآيس بمعنى الوجود، ولعلَّ أوَّل من استعمله هو الفيلسوف الكندي، وقد اشتهر في الفلسفة الإسلاميَّة أنَّالممكن من ذاته أن يكون ليس، ومن علته أن يكون أيس، وإن كانت هذه الكلمة في التعبير عن مكانة الممكن تعبيراً غير دقيق، لأنَّ معناه، أنَّالممكن من ذاته يقتضى العدم، وهذه علامة الممتنع لا الممكن، فالممكن لا يقتضى من صميم ذاته أحد الشئين، الأيس والليس. وعلى كلِّ تقدير فهولاء يستنكرون وصفه سبحانه بالأيس، المرادف للوجود.

وقد استدل عليه الداعي الكرمانى بوجه مبسَّط نأخذ منه ماله صلته بصميم الموضوع، وحاصل ما ذكره يرجع إلى أمرين: الأوَّل: لَمَّا كان الأيس - فى كونه أيساً - محتاجاً إلى ما يستند إليه فى الوجود، وكان هو - عزَّ كبرياؤه - متعالياً عن الحاجة فيما هو هو إلى غير، به يتعلَّق، مابه هو هو، كان من ذلك الحكم، بأنَّه تعالى خارج عن أن يكون أيساً، لتعلُّق كون الأيس أيساً بالذى يتأوَّل عليه الذى جعله أيساً، واستحالة الأمر فى أن يكون هو تعالى أيساً، ولا هو يحتاج فيما هو هو إلى غير به هو هو، فيستند إليه، تكبر عن ذلك وتعزَّز وتعالى علوًّا كبيراً.

فإذا كان هو عزَّوعلا غير محتاج فيما هو هو إلى غير، به يتعلَّق، ما به هو هو، فمحال كونه أيساً. وحاصل هذا الوجه مع تعقيدته فى التعبير، يرجع إلى أمر واضح، وهو أنَّه لو كان موصوفاً بالوجود، فيما أنَّالصفة غير الموصوف، يحتاج فى وصفه به إلى الغير، وهو تعالى غنى عمَّا سواه.

ولو كان ما جاء به الكرمانى مذهباً للإسماعيلية فهو يُعرب عن عدم نضوج الفلسفة اليونانية فى أوساطهم، فهولاء يتصوِّرون أنَّ الوجود أمر عارض على (١٩٣)

الواجب، فيبحثون عن مسبب العروض، مع أنَّه إذا كان ماهيته اثبتته، وكان تقدَّست أسماؤه عين الوجود، فالاستدلال ساقط من رأسه، والمسألة مطروحة فى الفلسفة الإسلاميَّة على وجه مبسط، وفى ذلك الصدد يقول الحكيم السبزواري: والحقَّ ماهيته إيَّته * إذ مقتضى العروض معلوليته فمن أراد التفصيل فليرجع إلى المصدرين فى الهامش. (١) الثانى: أنَّ الله تعالى إن كان أيساً، فلا يخلو أن يكون إمَّا جوهرًا، وإمَّا عرضًا. فإن كان جوهرًا، فلا يخلو أن يكون إمَّا جسمًا أو لا جسمًا (المجرد).

فإن كان جسمًا، فانقسام ذاته إلى ما به وجودها، يقتضى وجود ما يتقدم عليه بكون كلِّ متكثر مسبقاً متأوِّلاً - عليه، وهو يتعالى بسببانيته عن أن يتأوَّل عليه غيره.

وإن كان لا جسمًا، فلا يخلو أن يكون إمَّا قائماً بالقوة مثل الأنفس، أو قائماً بالفعل مثل العقول. فإن كان قائماً بالقوة، فحاجته إلى ما به يخرج إلى الفعل تقتضى ما يتقدم عليه، وهو يتعالى عن ذلك. وإن كان قائماً بالفعل، فلا يخلو من أن يكون إمَّا فاعلاً فى ذاته من غير حاجة إلى غير به يتم فعله، أو فاعلاً فى غير به يتم فعله. فإن كان فاعلاً فى غير به يتم فعله، فلنقصانه فى فعله وحاجته إلى ما يتم به فعله، تقتضى ما يتأوَّل عليه، وهو يتعالى عن ذلك. وإن كان فاعلاً - فى ذاته، من غير حاجة إلى غير به يتم فعله، فلاستيعاب ذاته النسب المختلفة بكثره المعانى المتغايرة، بكونه فى ذاته فاعلاً ومفعولاً بذاته _____،

١. راجع الأسفار لصدر المتألهين: ١|٩٦، باب فى أن الحق تعالى إيَّته صرفه؛ وشرح المنظومة للحكيم السبزواري: ٢|٩٦.

(١٩٤)

يقتضى ما عنه وجوده الذى لا تكون فيه كثرة ولا قلة بهذه النسب، وهو يتعالى عن ذلك.

وإن كان عرضاً، وكان وجود العرض مستنداً إلى وجود ما يتقدم عليه من الجوهر، الذى به وجوده، وهو يتعالى ويتكبر عن أن تتعلَّق

هويته بما يتأول عليه، بطل أن يكون عرضاً. (١)

وحاصل هذا الوجه أن كونه سبحانه موصوفاً بالآيس، لا يخلو من صور أربع:

أ: أن يكون جوهرًا جسمانيًا.

ب: أن يكون عرضاً.

ج: أن يكون جوهرًا مجرداً، قائماً بالقوة، مثل الأنفس.

د: أن يكون جوهرًا مجرداً قائماً بالفعل، مثل العقول.

الصورة الأولى: تستلزم أن يكون مؤلفاً من أجزاء، والأجزاء متقدمة على الكل، فيكون محتاجاً إلى غيره.

ومثلها الصورة الثانية: لحاجة العرض إلى وجود موضوع متقدم عليه.

ومثلها الثالثة: لأنه إذا كان قائماً بالقوة، فيحتاج إلى من يخرج به إلى الفعل، وأن يكون المخرج متقدماً عليه، وهو سبحانه غني.

وأما الصورة الرابعة: فقد فصل فيها الكلام ولها شقان:

الأول: أن يكون فاعلاً في ذاته، من غير حاجة إلى غير به يتم فعله، فهذا يستلزم اجتماع النسب المختلفة في ذاته.

الثاني: أن يكون فاعلاً في غير به يتم فعله، فهو يستلزم حاجته إلى ما يتم به فعله، وهو غني على الإطلاق.

١. راحة العقل: ٣٩-٤٠.

(١٩٥)

والاستدلال مبني على أنه صور للواجب ماهية بين كونها جوهرًا أو عرضاً، والجوهر جسماني أو نفساني، أو عقلائي، والفروض كلها

باطلة، لأن القائل بكونه وجوداً، وأيساً، يقول: هو والوجود متساويان؛ الواجب = الوجود.

ولا يذهب عليك أن الفرض الرابع، وهو كونه موجوداً بالفعل مردداً بين كونه فاعلاً في ذاته، أو فاعلاً في غير، لا يخلو عن تعقيد

وغموض.

ثم إن الداعي ذكر وجهاً ثالثاً لعدم كونه سبحانه أيساً، ليس له قيمة تذكر، فمن أراد فليرجع إليه. (١)

٣. في نفي التسمية عنه:

٣. في نفي التسمية عنه:

يقول الداعي الإسماعيلي علي بن محمد الوليد: إنوضع التسمية عليه محال، إذ كانت التسمية إنما جعلت وسمًا يوسم بها المخلوقات،

ليكون الخلق بها فصولاً-فصولاً، يتميز بها كل صورة عن الصورة الأخرى، حتى ينحفظ كل صنف منها، ويمكن للعقل الحكاية عنها

إذا دعت الحاجة إليها، فيكون بذلك ظهور أشكال العالم في أي تسمية وسم بها، وهو متعال، ليس له صورة نفسانية، ولا عقلية، ولا

طبيعية، ولا-صناعية، بل يتعالى بعظيم شأنه، وقوة سلطانه عن أن يوسم بما يوسم به أسباب خلقته، وفنون بريته، وقد اتفقت فحول

العلماء على أنه تعالى لم يزل ولا شيء معه، لا جوهرًا ولا عرضاً. (٢)

ولا يذهب عليك، أن عنوان البحث غير منطبق على ما جاء فيه، فلو كان العنوان من جانب المؤلف، وإلا فالعنوان يهدف إلى شيء، وما

ورد فيه إلى شيء آخر، فإن تسمية الله سبحانه أمر اتفق عليه كافة أهل التوحيد، ومراده هو نفي

١. راحة العقل: ٤٠.

٢. علي بن محمد الوليد: تاج العقائد ومعدن الفوائد: ٢٦.

(١٩٦)

الماهية، كالجوهريّة والعرضية.

كما أنمراده في بحث آخر في الكتاب، تحت عنوان «في نفى الحدّ عنه» هو نفى كونه متناهيًا.

٤. نفى الصفات عنه:

٤. نفى الصفات عنه:

إنّ نفى الصفات عنه سبحانه، مما اشتهر عن الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - في خطبه، وعنه أخذت المعتزلة، قال - عليه السلام - : «أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه، بشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزّاه، ومن جزّاه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال: «فيم» فقد ضمّنه، ومن قال: «علام؟» فقد أخلى منه». (١)

وقد ذهبت الإمامية، وقسم من المعتزلة، تبعاً للدلالة العقلية، التي أشار إليها الإمام في كلامه، بأنّ المراد نفى الصفات الزائدة عليه، لا نفى الصفات على الإطلاق، فالله سبحانه علّم كلّ، قدرة كلّ، حياة كلّ، وهكذا، لا أنّه شيء، وعلمه شيء آخر؛ خلافاً للشاعرة، فقد ذهبوا إلى زيادة الصفات على الذات مع كونها قديمة، فأورد عليهم باستلزامه القول بالقدماء الثمانية. ولكن الإسماعيلية ذهبت إلى نفى الصفات عنه على الإطلاق، واكتفت في مقام معرفته سبحانه بالقول بهويته وذاته دون وصفه بصفات، حتى الصفات الجمالية والكمالية، ولهذا نرى أنّ الداعي الكرمانى يعترض على المعتزلة الذين

١. نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

(١٩٧)

قالوا بنفى الصفات قائلاً:

إنّ المتأمل المنصف، إذا فحص عن ذلك بفكره، علم أنّ كلّاً من المخالفين قد زين مذهبه، بأن عمد في توحيده لمعبوده ما عمدناه، وقصد ما قصدناه، في استعمال حرف (لا) في نفى (١) ما يستحق الغير عن الله تعالى، خاصية المعتزلة الذين صدّروا كتبهم، وزينوها بقولهم في أصول مذهبهم: بأنّ الله تعالى لا يوصف بصفات المخلوقين... وهذا من قولهم، هو أصل مذهبنا، وعليه قاعدة دعوتنا، بأننا لا نقول على الله تعالى، ما يقال على المخلوقين، وهو المعتمد في توحيد معبودنا، والمقصود في أنحاء كلامنا، لكن المعتزلة قالوا بأفواههم قول الموحدين، واعتقدوا بأفئدتهم اعتقاد الملحدين، بنقضهم قولهم أولاً بأنّ الله لا يوصف بصفات المخلوقين، بإطلاقهم على الله سبحانه وتعالى ما يستحقه غير الله تعالى، من الصفات من القول بأنّه حيّ قادر، عالم، وسائر الصفات، نعوذ بالله. (٢)

ويقول على بن محمد الوليد: إنّ نفى الصفات عنه معتقد صحيح، لا يسوغ تركه، لأنّ الصفات تلحق الجوهر، إمّا في الأجسام وإمّا في النفوس، ويكون في الأجسام كيفيات من خارجها، كالأقدار، والألوان، وما يجرى مجراها، وفي النفوس كيفيات من داخلها، كالعلم، والجهل، وما يجرى هذا المجرى، وهو يتعالى عن أن يكون له داخل أو خارج.

ومما تقرر عند كل ذي عقل أنّ الصفات تلحق الموصوف من غيره، لا من ذاته، ألا ترى أنّ صفات الأجسام التي هي لها، تأتي من خارجها كالأقدار والألوان، وما يجرى مجراها، وفي النفوس كيفيات من داخلها، كالعلم، والجهل وما يجرى هذا المجرى، وهو يتعالى أن يكون له داخلًا أو خارجًا، ومما تقرر عند كل ذي عقل أنّ الصفات تلحق الموصوف من غيره لا من ذاته. (٣)

١. وفي المصدر (النفى)؛ راحة العقل: ٥٢.

٢. راحة العقل: ٥٢-٥٣.

٣. على بن محمد الوليد: تاج العقائد ومعدن الفوائد: ٢٧.

٥. الصّادر الأوّل هو الموصوف بالصفات العليا:

٥. الصّادر الأوّل هو الموصوف بالصفات العليا:

لما ذهبت الإسماعيلية إلى نفى الصفات عنه سبحانه، مع أنّ الكتاب والسنة مليئان بهما، لم يكن لهم بُد من إرجاع تلك الصفات إلى المبدع الأوّل، الذي هو الموجود الأوّل، وإليه تنتهي الموجودات، وهو الصادر عنه سبحانه بالإبداع، لا بالفيض والإشراق، كما عليه إخوان الصفا. (١)

قال الداعي على بن محمد الوليد: إنّ الباري تعالى وتقدّس لما تعاضم عن أن يُنال بصفه توجد في الموجودات، لقصور الموجودات عن وصفه بما تستحقه الإلهية، جعل موجوداً أولاً تتعلّق الصفات به، عطفاً ورحمةً ومنه على عقول عباده أن تهلك وتضل، إذا لم تستند إلى ما تقف عنده، فتوقع الصفات عليه، فجعل للعالم مبدأ مبدعاً، وهو الأوّل في الوجود من مراتب الموجودات، وكان المبدع حق لوجوده عن المتعالي سبحانه، غايةً تنتهي إليها الموجودات.

ثمّ إنّه أفاض الكلام في صفاته، وعرفه بكونه: موجوداً حقاً واحداً، تاماً، باقياً، عاقلاً، عالماً، قادراً، حياً، فاعلاً.

ثمّ قال: الحياة ذات جامعة لهذه الأمور وبها هي فاعلة. (٢)

وقال الداعي الكرمانى في هذا الصدد:

«الإبداع هو الحقّ والحقيقة، وهو الوجود الأوّل، وهو الموجود الأوّل، وهو الوحدة، وهو الواحد، وهو الأزل، وهو الأزلى، وهو العقل الأوّل، وهو المعقول الأوّل، وهو العلم، وهو العالم الأوّل، وهو القدرة، وهو القادر الأوّل، وهو الحياة، وهو الحيّ الأوّل، ذات واحدة، تلحقها هذه الصفات، يستحق بعضها لذاته، وبعضها بإضافةٍ إلى غيره، من غير أن تكون هناك كثرة بالذات _____»

١. رسائل اخوان الصفا: ٣/١٨٩، طبعة بيروت.

٢. على بن محمد الوليد: تاج العقائد ومعدن الفوائد: ٤٠-٤١.

إلى أن قال: وهذه الأمور وجودها له ضرورى، لكونه أولاً في الوجود الواجب، احتوائه على أشرف الكمالات وأشرف الموجودات. إلى أن يقول: وجوهر هذا الإبداع جوهر الحياة، وعينه عين الحياة، والحياة متقدمة على سائر هذه الصفات، ولذلك قدّم الله تعالى عند وصفه سمة الحياة في قوله تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (١)" فهو متوحد من جهة كونه إبداعاً وشيئاً واحداً، ومتكثراً من جهة الموجود فيه من الصفات، على ما بيّناه. (٢)

أقول: إنّ المبدع الأوّل حسب ما يذكرونه هو الإله الثانى، غير أنّه يفارقه بأنّه المبدع بإبداعه سبحانه، وبذلك يفترق عن إله العالمين.

وأعجب منه أنّ الكرمانى يصفه بأنّه أزلى، ولعلّ المراد أنّه قديم زماناً وحادثاً ذاتاً.

على أنّ هذا الكلام باطلٌ من أصله، وذلك: لا يمكن وصفه سبحانه بالأوصاف الجمالية، والكمالية، من دون أن يطرأ على ذاته وصمة النقص، وذلك بحذف المبادى، والأخذ بالغايات، فهو سبحانه علم، لا بما أنّه كيف، بل بما هو وجود بحت، وأنّ الوصف ربّما يكون له من الكمال على حدّ يكون قائماً بذاته لا طارئاً على الذات، وما يلاحظ من المباينة بين الوصف والموصوف، فإنّما هو من خصوصيات المورد أى الممكنات، ولا يجب أن يكون كلّ وصف كذلك _____.

١. البقرة: ٢٥٥.

٢. راحة العقل: ٨٣، طبعة القاهرة.

عقيدتهم في العدل

عقيدتهم في العدل

عقيدتهم في العدل قد تعرّفت في البحث السابق على أنّهم لا يصفونه سبحانه بوصف، ويعتقدون أنّه فوق الوصف، وأنّ غاية التوحيد نفى الوصف، وإثبات الهويّة، ولهذا لا تجد عنواناً لهذا الفصل في كتبهم حسب ما وصل بأيدينا، ولكن يمكن استكشاف عقيدتهم في عدله سبحانه من خلال دراستهم لفعل الإنسان، وهل هو إنسان مسير أو مختير؟

١. الإنسان مختير لا مسير

١. الإنسان مختير لا مسير

يقول الداعي علي بن محمد الوليد: الإنسان مجبور في حال تركيبه، ورزقه، ومدّته، وحركات طبائعه، والكيان بنشوته، وما يحدث عليه مقهور عليه مغيب عن إدراكه وعيانه، ليكون مفتقراً بالدعاء والتضرّع إلى خالقه، إذ لو كشف له لفسد حاله. و مختير غير مجبور فيما يعتقد لنفسه، من علومه، وصناعاته، ومذاهبه، ومعتقداته. إلى أن قال: ولولا ذلك لما كانت لها منفعة بإرسال الرسل، وقبول العلم، وتلقى الفوائد والانصياع لأوامر الله تعالى، إذ لو كانت مجبورة لاستغنت عن كلّ شيء تستفيده. ثم استدلّ بآيات منها قوله تعالى: "وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (١)" إلى غير ذلك من الآيات. (٢)

_____ ١. النجم: ٣٩-٤٠. ٢. تاج العقائد: ١٦٦-١٦٨.

(٢٠١)

٢. القضاء والقدر لا يسلبان الاختيار

٢. القضاء والقدر لا يسلبان الاختيار

إنّ القضاء والقدر من العقائد الإسلاميّة التي لا محيص لمسلم عن الاعتقاد بهما، غير أنّ البحث فيهما ينصبّ على نكتة مهمّة وهي هل أنّهما يسلبان الاختيار أو لا؟ فالظاهر من أهل السنّة، إلّا من شدّد، تفسيرهما على وجه يسلبان الاختيار، على خلاف ما ذهبت إليه العدليّة. والإسماعيليّة ثبتت القضاء والقدر حقيقة لا مجازاً، ولكنها تُنفى كونهما سالبين للاختيار. يقول الداعي علي بن محمد الوليد: القضاء والقدر حقيقة لا مجاز، ولهما في الخلق أحوال على ما رتب الفاعل سبحانه، من غير جبر يلزم النفوس الآدمية الدخول إلى النار أو الجنة. إلى أن قال: إذ لو كان كذلك لذهبت النبوت والأوامر المسطورات في الكتب المنزلة، في ذم قوم على ما اقترفوه، ومدح قوم على ما فعلوه. ثمّ إنّهُ فسّر القضاء بمعنى الفراغ، والأمر، والخبر، والفعل، والوصيّة، وأرجع الجميع إلى معنى الفراغ. وأمّا القدر: فقد فسّره بأنّه من المقدار، والتقدير، والترتيب، ثمّ جعل له تفاسير ثمانية، ومن أراد فليرجع إليه. (١) وقد نقل في آخر الفصل رسالة الحسن البصري إلى الحسين بن عليّ عليمها السلام يسأله عن القضاء والقدر، كما نقل جواب الإمام إليه، وقد جاءت هذه الرسالة أيضاً في كتاب «تحف العقول» للحلبي الحراني مع اختلاف يسير.

_____ ١. تاج العقائد: ١٧٩.

(٢٠٢)

١. النبوة أعلى درجات البشر

١. النبوة أعلى درجات البشر

النبوة: عبارة عن ارتقاء النفس إلى مرتبة تصلح لأن يتحمل الوحي.

يقول الداعي علي بن محمد الوليد: إن الرسول الحائز لرتبة الرسالة، لا ينبغي أن يكون كمالاً يفوق كماله ولا علماً يخرج عن علمه، وأنه الذي به تكون سعادة أهل الدور من أوله إلى آخره، وأن السعادة الفلكية، والأشخاص العاليتين، والمؤثرات، خدم له في زمانه. والوجود مكشوف له، وبين يديه، فنظره ثاقب، وإحاطته كليّة، وحدود أوضاعه مبرّأة من النقص، وجميع ما يأتي به محرر، لا يحتاج إلى زيادة، وأقواله لا تردّ، ولا يوجد فيما ينطق به خلل، وجوهره المقدّس نهاية في الشرف، وأن القوة الملكية عليه أغلب وحواسه خادمة لنفسه، وعقله لا ينظر إلا إلى أوامر الله تعالى خالقه، وأنه في نهاية من المنازل من مولودات العالم في حسنه. (١)

٢. الرسالة الخاصة والعامة

٢. الرسالة الخاصة والعامة

إنّ الرسالة على ضربين: خاصّة، وعامة _____.

١. تاج العقائد: ٥٧-٥٨.

(٢٠٣)

فالرسالة العامّة شاملة طبعاً، وعقلاً، ولولا الرسالة الأولى العامّة، لن تُقبل الرسالة الخاصّة، وذلك لأنّه تعالى خلق الصورة الآدميّة، وأكمل منافعها، وسوّاها على أحسن هيئة، ووضع فيها العقل الغريزي، الذي إليه ترجع أحوال الصورة لنيل منافعها، فهو الرسول الأوّل المُعدّد لقبول أمر الرسول الثاني، الخاص لمنافع النفس في الآخرة، مثلما كان الأوّل لمنافع الدنيا، وعلى الأوّل يعول في الاعتداء، وطلب المصالح بغير ثواب ولا عقاب، إذ هو أمرٌ بديهى لمنافع الصورة، وعلى الثاني يكون الحساب والعقاب، إذ هو أمرٌ ربّانيّ، يدعو إلى دار غير دار الطبيعة.

إلى أن قال:

فإذا أظهر الرسول الرسالة، كانت الفضيلة على المستضيء المنتفع بها، وذلك القادح هو الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلّم - إلى الخلق وحبّته على أهل زمانه، وهو لسانه فيهم، وترجمانه في العالم السفلى بأسره، والمنتبّح أبداً في الحكمة. (١)
أقول: إنّ تسمية العقل الإنسانيّ بالرسول لا يخلو من شيء، والأولى تسميته بالحبّجة الباطنة، في مقابل الحبّجة الظاهرة، الذي هو النبي.

٣. الوحي

٣. الوحي

إنّ الوحي: إلهام خاص بالأنبياء والمرسلين، إذا كانت لغاية التشريع، وتبيين الوظائف لمن بعثوا إليهم، وله طرق ثلاثة، جاء في الذكر الحكيم، قال سبحانه:

"وَمَا كَانُوا بِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسَلُ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ." (٢)

١. تاج العقائد: ٤٨-٥٠.

٢. الشورى: ٥١.

(٢٠٤)

وأما الوحي عند الإسماعيلية، فيقول الداعي على بن محمد الوليد: إنَّ الوحي: هو ما قبلته نفس الرسول من العقل، وقبله العقل من أمر باريه، ولم يخالفه علم تألفه النفس الناطقة، بقواها، ثم تتأمل منه النفس ما ليس لها استنباطاً بذاتها، ولا تستخرجه بفكرها، وتكون فيه غاية لسداد قصدها، ومصلحة لجميع أمرها.

إلى أن قال: والفرق بين الوحي وغيره من سائر العلوم، أنَّ الوحي يرد على من يوحى إليه مفروغاً منه، قد استغنى عن الزيادة فيه والنقصان منه، كما يقع الصحيح للمستمع من المتكلم، وصفه ومعناه خارجين عن قدرة من جاء به، وليس كذلك العلوم، لأنها تكون بالمقاييس، وكثرة الدُّوب فيها، وإعمال الفكر و الزوية والتأليف والتحرير. (١)

ثم للداعي الكرمانى كلام مفصّل في الوحي لا يخلو من تعقيد. أعرضنا عن نقله . (٢)

٤. في أنالانباء لا يولدون من سفاح

٤. في أنالانباء لا يولدون من سفاح

يقول على بن محمد الوليد: إنَّ الأنبياء والأئمّة - عليهم السلام - لا يلداهم الكفّار ، ولا يولدون من سفاح، ثم استدلّ ببعض الآيات، وما جاء في التاريخ في حقّ عبد المطلب وأبى طالب. (٣)

٥. في صفات الأنبياء

٥. في صفات الأنبياء

يقول الداعي الكرمانى: المويّد المبعوث مجمع الفضائل الطبيعيّة، التى هى _____

١. تاج العقائد: ٤٧-٤٨.

٢. راجع راحة العقل: ٤٠٩-٤١٠.

٣. تاج العقائد: ٥١.

(٢٠٥)

أسباب في نيل السعادة الأبدية، وهو فيها على أمر يكون به على النهاية في جميعها، من جودة الفهم والتصور لما يشار إليه ويوماً، ومن جودة الحفظ لما يراه الخاطر والعين على تباينه، ويدركه السمع من الصوت على اختلافه، ومن جودة الفطنة والذكاء والتوقّد فيهما، ومن جودة الذكر، ومن جودة الأعضاء وسلامتها، والقدرة على التأنى بمعاناة أمور الحرب ومباشرتها والصبر عليها، ومن جودة الفطرة والطبع، ومن جودة النحيضة (الخير) فى السلامة والانقياد لكلّ خير، فيكون خالياً من الرذائل، التى هى الشره والطمع والرغبة فى المأكول والمشروب والمنكوح زيادة على الحاجة، واللعب واللهو، وعاطلاً فى الجملة، من الأمور التى تعوق على النفس سعادتها.

ويكون عظيم النفس كريماً، محبباً للعدل، مبغضاً للظلم والجور، مؤثراً لما يعود على النفس منفعته من العبادة، مقداماً فى الأمور، جسوراً عليها، لا يروعه أمر فى جنب ما يراه صواباً بجوهره. (١)

٦. الرسول الناطق

٦. الرسول الناطق

الرسول الناطق، هو الأصل الذي يصدر عنه الدين بما فيه من علم وعمل، وبمن فيه من أئمة يدعون إلى التحقق بكمال العلم عن طريق العبادة الظاهرة.

(٢)

وفي الحقيقة، الرسول الناطق عندهم، عبارة عن أولى العزم من الرُّسل، غير أنهم يعدون آدم منهم، والمشهور عند سائر المسلمين أنه ليس منهم، ويضيفون إليهم محمد بن إسماعيل باسم القائم؛ وإليك أسماءهم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، القائم.

١. راحة العقل: ٤٢١-٤٢٢.

٢. مصطفى غالب: في مقدمة كتاب الينابيع: ١٧.

(٢٠٦)

وكل واحد منهم رسول ناطق، يتقدمه إمام مقيم ويتلوهُ الأئمة الأساس - المتمم - المستقر - المستودع - وهم يتعاملون مع القائم الذي يبدأ به الدور، أعني: محمد بن إسماعيل، معاملة الرسول الناطق، ولا يشترط أن يكون في كلدور إمام مستودع، فإنه إنما يتسلم شؤون الإمامة في الظروف الاستثنائية، وكأنه ينوب عن الإمام المستقر كما سيتضح معنى ذلك.

ولا يخفى أن في صميم العقائد الإسماعيلية تناقضاً وتعارضاً، فمن جانب نراهم يصرحون بخاتمية النبوة والرسالة، وأن القرآن حجة خالدة إلى يوم القيامة، وأنه لا ينسخ القرآن إلا بالقرآن.

(١)

ومع ذلك فمحمد بن إسماعيل، المعبر عنه بالقائم عندهم من النطاق

(٢)

ولأجل إيضاح ذلك سوف نبحت عن عقيدتهم في الإمامة إن شاء الله.

٧. في المعجزات التي يأتي بها الرسل

٧. في المعجزات التي يأتي بها الرسل

قال علي بن محمد الوليد: إن المعجزات التي ترد وقت إظهار الشرائع من الرسول حقيقية، وإنها على ثلاثة أقسام: الأولى: خرق العادة في تكوين العالم بظهور ما يعجز العقل عن وجوده من الأمور الطبيعية، من رد ما في الطبيعة عن قانونه المعهود لقهر العقول، ودخولها تحت أمر المعقولات، ومن أجله يعلم أنه متصل بالفاعل، الذي لا يتعدّر عليه متى أراد، إذ كلما في العالم لا يتحرك إلا بمادته وتديره.

الثاني: ما يأتي به الشخص المبعوث من النطق المنسوب إلى من أظهر له المعجزات، وأعجز كافة أهل الدور عن الإتيان بمثله.

١. تاج العقائد: ٩٨.

٢. وقد مرّ كلامهم في ذلك ص ٩٢. وما علقنا عليه فلاحظ.

(٢٠٧)

الثالث: جميع الفضائل الموجودة في أشخاص العالم فيه حتى لا يوجد فوق كماله كمال في وقته.

(١)

أقول: إن القسم الثاني الذي يريد به القرآن الكريم داخل تحت القسم الأول، فلا وجه لعدّه قسماً ثانياً.

والقسم الثالث: كمالات النبي، ولا تعدّ معجزة.

٨. في أن الرسول الخاتم أفضل الرسل

٨. في أن الرسول الخاتم أفضل الرسل
يُفَضَّلُ رسول الله على سائر الرسل والأنبياء من وجوه، أفضلها الوجوه التالية:
أ: هو أنه سبحانه جعل شريعته مويّدة لا تُنسخ أبداً، وجعل الإمامة في ذريته إلى قيام الساعة، ولم يُقدّر ذلك لغيره.
ب: أن الله عزّ وجلّ أعطاه الشفاعة في الخلق. ولم يعطها إلى نبي قبله.
ج: أن الأنبياء قبله بطلت معجزاتهم من بعدهم، ومعجزة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهي «القرآن» ثابتة مويّدة لا تفنى أبداً إلى حين زوال أحكام الدنيا.
(٢)

٩. في أن الشريعة موافقة للحكمة

٩. في أن الشريعة موافقة للحكمة
إنّ الحكمة والفلسفة العقلية، هي والحكمة الشرعية سواء، لأنّ الله سبحانه خلق في عباده حكماً، وعقلاء، ومحال أن يشرع لهم شرعاً غير محكم وغير معقول، ولا يبعث برسالته وشرعه إلاّ حكيماً عاقلاً مدرّكاً مبيّناً لما تحتاجه العقول، ويكلف لها بما يسعدها ويقوى نورها ويعظم خطرها.
(٣)

١. تاج العقائد: ٩٧.

٢. تاج العقائد: ٥٩-٦٠.

٣. المصدر نفسه: ١٠١.

(٢٠٨)

١٠. في أن الشريعة لها ظاهر وباطن

١٠. في أن الشريعة لها ظاهر وباطن
يقول علي بن محمد الوليد: إنّ الشارع قد وضع أحكام شريعته وعباداتها من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحجّ وغير ذلك، مضمّنة للأُمور العقلية والأحكام والمعاني الإلهية، وما يتخصّص منها من الأُمور الظاهرة المشاكلة لظاهر الجسم، والأُمور الباطنة المشاكلة للعقل، والنفس، وكلّ من حقق ذلك كانت معتقداته سالمة.
(١)

أقول: هذا المقام هو المزلقة الكبرى للإسماعيلية المويّلة، إذ كلّ إمام وداع، يسرح بخياله فيضع لكلّ ظاهر باطناً ولكلّ واجب حقيقة، يسمى أحدهما بالشريعة الظاهرية والآخر بالباطنية من دون أن يدلّ عليه بدليل من عقل أو نقل، فكلّ ما يذكرونه من البواطن للشريعة ذوقيات، أشبه بذوقيات العرفاء في تأويل الأسماء والصفات وغير ذلك، وكأنّ الجميع فروع من شجرة واحدة. وستوافيك نظرية المثل

والممثل في فصل خاص، وتقف على تأويلاتهم.....

١. تاج العقائد: ١٠١.

عقيدتهم في الإمامة

عقيدتهم في الإمامة

عقيدتهم في الإمامة تحتل الإمامة عند الإسماعيلية مركزاً مرموقاً حيث جعلوها على درجات ومقامات وزودوا الأئمة بصلاحيات واختصاصات، ولتسليط الضوء على عقيدتهم فيها نبحت في مقامين:

المقام الأول: الإمامة المطلقة

المقام الأول: الإمامة المطلقة

إن درجات الأئمة ورتبهم لا تتجاوز عن الخمسة من دون أن تختص بالشريعة الإسلامية، بل تعم الشرائع السماوية كلها، وبما أنمذهب الإسماعيلية أحيط بهالة من الغموض عبر القرون لم يكن من الممكن أن يقف أحداً عليها إلا طبقة خاصة من علمائهم، وكانوا يبخلون بآرائهم وكتبهم على الغير، غير أن الأحوال الحاضرة رفعت الستر عن كتبهم ومنشوراتهم، فقام المستشرقون وفي مقدمتهم «إيفانوف» الروسي وتبعه عدد آخر من المحققين بنشر آثارهم، وعند ذلك تجلت الحقيقة بوجهها الناصع، كما قام الكاتبان الإسماعيليان عارف تامر ومصطفى غالب ببذل الجهود الحثيثة في نشر آثار تلك الطائفة، فكشفا النقاب عن وجه العقيدة الإسماعيلية وبينها بوجه واضح خالياً من الغموض والتعقيد الموجودين في عامة كتب الإسماعيلية وإن كان بين الكاتبين اختلاف في بعض (٢١٠)

الموارد، ونحن نعلم في تفسير درجات الإمامة على كتاب «الإمامة في الإسلام» للكاتب عارف تامر، وإليك بيانه:
درجات الإمامة خمس وهي:

١. الإمام المقيم.

٢. الإمام الأساس.

٣. الإمام المتم.

٤. الإمام المستقر.

٥. الإمام المستودع.

و ربما يضاف إليها رتبتان الإمام القائم بالقوة، والإمام القائم بالفعل.

فالمهم هو الوقوف على هذه الدرجات.

يعتقد عارف تامر في كتابه «الإمامة في الإسلام» أن هذه الدرجات ظلت حقبه طويلاً من الزمن مجهولة لدى الباحثين إلا طبقة خاصة من العلماء، أو لا أقل في التقيّة والاستتار والكتمان. ١. الإمام المقيم

هو الذي يقيم الرسول الناطق ويعلمه ويربّه ويدرجه في مراتب رسالة النطق، وينعم عليه بالإمدادات وأحياناً يطلقون عليه اسم «رب الوقت» و«صاحب العصر»، وتعتبر هذه الرتبة أعلى مراتب الإمامة وأرفعها وأكثرها دقة وسريّة. ٢. الإمام الأساس هو الذي يرافق الناطق في كافة مراحل حياته، ويكون ساعده الأيمن،

(٢١١)

وأمين سره، والقائم بأعمال الرسالة الكبرى، والمنفذ للأوامر العليا، فمنه تتسلسل الأئمة المستقرون في الأدوار الزمنية، وهو المسؤول عن شؤون الدعوة الباطنية القائمة على الطبقة الخاصة ممن عرفوا «التأويل» ووصلوا إلى العلوم الإلهية العليا. ٣. الإمام المتمم هو الذي يتم أداء الرسالة في نهاية الدور، والدور كما هو معروف أصلاً يقوم به سبعة من الأئمة، فالإمام المتمم يكون سابقاً ومتماً لرسالة الدور، وأن قوته تكون معادلة لقوة الأئمة الستة الذين سبقوه في الدور نفسه بمجموعهم. ومن جهة ثانية يطلق عليه اسم ناطق الدور أيضاً، أي أن وجوده يشبه وجود الناطق بالنسبة للدوار. أما الإمام الذي يأتي بعده فيكون قائماً بدور جديد، وموسساً لبنيان حديث. ٤. الإمام المستقر

هو الذي يملك صلاحية توريث الإمامة لولده، كما أنه صاحب النص على الإمام الذي يأتي بعده، ويسمونه أيضاً الإمام بجوهر والمتسلم شؤون الإمامة بعد الناطق مباشرة، والقائم بأعباء الإمامة أصالة. ٥. الإمام المستودع هو الذي يتسلم شؤون الإمامة في الظروف والأدوار الاستثنائية، وهو الذي يقوم بمهامها نيابة عن الإمام المستقر بنفس الصلاحيات المستقرة للإمام المستقر، ومن الواضح أنه لا يستطيع أن يورث الإمامة لأحد من ولده، كما أنهم يطلقون عليه (نائب غيبة). (١)

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٤٣-١٤٤.

(٢١٢)

والعجب أنهم عندما بحثوا موضوع الإمامة لم يجعلوا تسلسلها من إسماعيل ابن جعفر الصادق فحسب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، وحجتهم أن الإمامة إذا كانت قد بدأت من هذا العهد المبكر فتكون محدثة ولا يقوم وجودها على أساس (١)، فذهبوا إلى عهد بدء الخليقة المعروف من عصر آدم إلى يومنا هذا، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم بالأدوار والآكوار، فقد جعلوا كل دور يتألف من إمام مقيم ورسول ناطق أو أساس له، ومن سبعة أئمة يكون سابعهم متم الدور، ويمكن أن يزيد عدد الأئمة عن سبعة في ظروف أخرى وفي فترات استثنائية، وهذه الزيادة تحصل في عداد الأئمة المستودعين دون الأئمة المستقرين، أما الدور فيكون عادة صغيراً وكبيراً، فالدور الصغير هو الفترة التي تقع بين كل ناطق وناطق يقوم فيها سبعة أئمة. أما الدور الكبير فيبتدى من عهد آدم إلى القائم المنتظر الذي يسمى دوره الدور السابع، ويكون بالوقت ذاته متماً لعدد النطقاء الستة.

فلاجل عرض صورة عن عقائدهم في مجال تسلسل الإمامة من عصر أبينا آدم إلى يومنا هذا سوف نأتي بالجداول التي استخرجها، عارف تامر في كتاب «الإمامة» ومصطفى غالب في كتاب «تاريخ الدعوة الإسماعيلية».

يقول عارف تامر: إن هذا الموضوع من أدق المواضيع وأصعبها، بل هو بالحقيقة من الدعائم المتينة في عقائد الإسماعيلية، وقد يبدو لكل باحث فيها أن دعائها حافظوا على سرية التامة طيلة العصور الماضية وجعلوا معرفته مقتصرة على طبقة خاصة من العلماء والدعاة. (٢)

و سوف توافيك تلك الجداول تحت عنوان «شجرة الإمامة الإسماعيلية» في الفصل الحادي عشر فانتظر_____.

١. ماذا يعنون من هذه الجملة، هل الإمامة أمر أزلي، أو الإمام موجود قديم مع تضايف البراهين على حدوث ما سوى الله سبحانه؟!.

٢. الإمامة في الإسلام: ١٤١.

(٢١٣)

المقام الثاني: في الإمامة الخاصة

المقام الثاني: في الإمامة الخاصة

قد تعرفت على نظام الإمامة في مذهب الإسماعيلية ولكن المهم هو الوقوف على ملامح الإمامة عندهم بصورة عامة، وقد تصدى

لذكرها الداعي اليمنى على ابن محمد الوليد في كتابه «تاج العقائد» ونحن نقل منه ما يبين عقيدتهم في ذلك: ١. صاحب الوصية أفضل العالم بعد النبي في الدور

إنَّ صاحب الوصية هو الذى جوهره لاحق بجوهره، وكماله مشتق من كماله، وإنَّ معانى أقواله ورموز شريعته وأسرار ملته وحقائق دينه توجد عنده، ولا تتعداه، ولا تؤخذ إلاَّ منه، وأنه المبرهن عن أغراضه، والمفصح لأقواله، المبين لأفعاله، القائم بالهداية بعده لمن قصد المعرفة لما جاء به، والحافظ لشريعته من الآراء المختلفة، وبذلك كان وصياً، ولا يوجد فى الأصحاب من يقوم مقامه، ولا يسد مسده فى حفظ معانى تكليفه الذى أخذه عن باريه مع ما يوجد فيه من الطهارة، وصدق القول، وزكاة النفس، والاحتواء على العلوم، والقربة منه فى الطبع، والجوهر، والسابقة، والصحبة، والأصل. (١) ٢. فى أن الإمامة فى آل بيت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يُعْتَقَدُ أَنَّ الإمامة فى آل بيت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من نسل على وفاطمة فرض من الله سبحانه أكمل به الدين فلا يتم الدين إلاَّ به، ولا يصحَّ الإيمان بالله والرسول إلاَّ بالإيمان بالإمام والحقية، ويدل على فرض الإمامة إجماع الأمة على أن الدين والشريعة لا يقومان ولا يصابان إلاَّ بالإمام، وهذا حقٌّ لأنَّه سبحانه لا

١. تاج العقائد: ٦٥.

(٢١٤)

يترك الخلق سدى. ولا يمنعهم هذه الفريضة التى لا تسوغ الهداية إلاَّ بها. وإنَّ الرسول نص على ذلك نصاً تشهد به الأمة كافة بقوله: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا، وأبوهما خير منهما»، ولم يحوج الأمة إلى اختيارها فى تنصيب الإمام، بل نص عليها بهذا لأنَّ بالإمامة كمال الدين. فلو أن الرسول تركها حتى تكون الأمة هى التى تفعلها ويتم بما فعلوه (فى) دين الله بقولهم أن الرسول لم ينص على الوصية ولا استخلف أحداً لخرجت الإمامة عن أن تكون فرضاً على الأمة، وكان سبيلها سبيل الولاية فى كلِّ زمان، القائمين بأمر الناس. إلى أن قال: وقد اعترف المخالفون أن إمامة الثلاثة ليست بنص، لأنَّهم قد جحدوا النص والوصية وفيما جرى فى السقيفة من الأصول ما يجب للعاقل أن يفكر فيه وغير معيوب على المتخلف عن بيعتهم والخلاف لهم فيها إذ كان الحال فيما تقرّر مشهوراً غير مستور، والعودة إلى الحقائق أولى لمن يعتمد عليها إذا كان طالباً للهداية مع ترك التعصب. (١) ٣. فى أن الإمامة وارثة النبوة والوصاية الإمام يرث من النبوة الظواهر والأحكام وجرى الأمور على ما علمه من النظام. ويرث من صاحب الوصاية المعانى التى ورثها عن النبوة، ليكون الكمال موجوداً لقاوده، ومسلماً فى شريعته التى جعلها عصمة لمن التجأ إليها، وطهارة لمن التزم قوانينها وسار على محجَّتها، فتسلم له دنياه ويفوز فى عقبه بالتجائه إلى من عنده علم النجاة وحقيقة الشريعة السالمة من كلِّ تغيير وتمويه مع سلامة

١. المصدر نفسه: ٦٥-٦٦.

(٢١٥)

توحيد لباريه. (١)

أقول: ولا- يذهب عليك أن الإمام على هذا أفضل من النبي كما هو أفضل من الوصى، لأنَّ الإمام جامع للمنتقبتين ظاهر الشريعة وباطنها، إلاَّ- إذا كان النبي رسولاً فهو جامع أيضاً للمنتقبتين، ولا أدري من أين لهم هذه الضوابط والقواعد، وما هو الدليل على هذا التقسيم؟! ٤. فى انقطاع الوصاية بعد ذهاب الوصى

يُعْتَقَدُ أَنَّ الوصى إنَّما يوصيه الرسول على معالم شريعته، وأسرار ملته، وعيون هدايته، وحقيقته أقواله، وحفظ أسرارهِ، فإذا قام بها ومضى إلى دار كرامته استحال قيام وصى ثان بعده، لأنَّ الشريعة لم تتغير، ولا ذهبت فتأتى أوامر جديدة تحتاج إلى من يوصى بحفظها والقيام بمعانيها وضبط أحوالها، فلهذا كان انقطاع الوصية بعد مضى الوصى الذى خلفه الرسول فى العالم. (٢) ٥. فى استمرار

الإمامة في العالم دون النبوة والوصاية

يُعتقد: أن الإمامة مستمرة الوجود في الأدوار جميعها، من أولها إلى آخرها، لأن الإمام هو الوارث لما جاء به النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - من الشرع والوصى على البيان، لكونه حافظاً في الأمة على الهداية التي ورثها منهما، ولما كان أمر الرسول والوصى جارياً على أهل الدور من أوله إلى آخره، كان من ذلك حفظ درجة الإمامة على الدور بالاستمرار، والتوالي، إذ لم يبق زيادة تستجد فتنحتاج إلى منزلة مستجدة، فكانت هداية موروثه منسوبة إلى أصل الدور، ومعلم الشريعة والبيان، فلا تزال هذه _____

١. تاج العقائد: ٦٦.

٢. المصدر نفسه: ٦٨.

(٢١٦)

الحالة مستمرة إلى حين تأذن الحكمة الإلهية بتجديد شريعة ثانية، وأمر يحتاج العالم إليه لحفظ نظامه، ولما كانت هذه الشريعة، أي شريعة محمد، لا تتسخ، ولا يفقد حكمها حتى قيام الساعة، بقيت الإمامة فيها موجودة، ومحفوظة إلى حين قيام الأشهاد، ويوم التناد، فلماذا استمرت الإمامة في العالم دون النبوة، والوصاية. (١)

وعلى هذا فكل إمام غائب أو حاضر بعد الإمام الصادق يساوي في الفضل والعلم والكمال الإمام المنصوص في يوم الدار ويوم الغدير، فالإمام الحاضر، أعني به: كريم آغا خان، تساوى كفته في معالي الأمور كفة الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - فيقوم بنفس ما يقوم به الإمام.

يأتري ما هذا الجور في القضاء والاعتساف في الحكم، فكيف يكون الإمام المذكور إماماً عالمياً محيطاً بالشريعة وواقفاً على أسرارها مع أنه تلقى علومه الأولى في مدارس سويسرا فأثقت الانكليزية والفرنسية والإسبانية كما درس اللغة العربية وبعد أن أكمل تحصيله في سويسرا انتسب إلى جامعة هارفرد الأمريكية!! (٢)

والإمام الذي يتلقى العلوم الظاهرية في المدارس والجامعات كيف يكون واسطة في الفيض، واقفاً على الأسرار، وإماماً يعادل في التقى والعصمة والعلم والفضل الأئمة المعصومين المنصوبين من قبل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -؟! وكأني بابن المعرفة يقول:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة * ويا جد جدي ان سعيك هازل

١. تاج العقائد: ٦٩.

٢. راجع تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٤٠٣.

(٢١٧) ٦. في أن الإمام لا تجوز غيبته من الأرض

إن الإمام لا تجوز غيبته عن الأمة بوجه، ولا بسبب، وإن حدثت فترة فتكون خواص شيعته على اتصال به ويعرفون مقامه، ويدلون من خلصت نيته إلى مقره.

والغيبه لا تخلو من ثلاث خصال:

١. أن تكون غيبته من قبل الله.

٢. أن تكون من قبل نفسه.

٣. أن تكون من قبل الناس وخيفة من أعدائه.

فباطل أن تكون الغيبه من قبل الله، لأن ذلك لا يليق بالحكيم العادل.

وإذا رجعنا إلى نفسه فلا نجد لها من قبلها، لأنه معصوم من الخطايا وفرض ولايته يوجب حضوره .

وإن كان من قبل الناس، فقد شك في دين الله، لأن الله نصبه وتكفل بإصال الهداية إلى الأمة به، وعرفه أنه لا يخرج من العالم حتى يورث مقامه هادياً مثله.

إذن فليس لخوفه من الناس وجه.

إلى أن قال: والإمام هو الحاكم بين عباد الله، الموهوب له الحكم من الحكيم الخبير والنائب في خلافته على الخلق، الوارث الأرض، والمتصرف بأحكامها ولا يجب زواله ولا عدمه بوجه من الوجوه. (١)

أقول: إن المراد من الغيبة ليس هو الغيبة عن عالم الوجود كما تصوّره ذلك الكاتب، بل المراد من الغيبة هو الغيبة عن أعين الناس، فهو يبعث بين الناس فيعرفهم ولا يعرفونه، لا أنه يخرج من الدنيا ويعيش في عالم آخر يبين ذلك _____

١. تاج العقائد: ٦٩-٧٠.

(٢١٨)

العالم، وهذا يعرب عن أنالداعي لم يرجع إلى كتب الإمامية الاثني عشرية، وهو مع ذلك يتصرف في الأمور حسب مصالح الناس وإن كان الناس لا يعرفونه، ويتشرف بحضوره ويتمتع بلقائه من هو أهل لذلك وإن كان يكتمه ولا يظهره إلا للخاصة من الناس.

هذا هو القرآن الكريم يعرف لنا ولياً من أوليائه سبحانه، كان يعيش بين الناس ويركب سفينتهم ويتصرف فيها أمام أعينهم وهم لا يعرفونه ويتصرف في أمور أشد من ذلك يقتل غلاماً معصوماً بإذن من الله ولا يلاحق، ويبنى جداراً في حال الانقضاء تحتته كنز ليتيمين لغاية الستر عليه حتى يستخرجا كنزهما رحمة من ربه يقول سبحانه:

"أَمَّا السِّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا* وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا* وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ . (١)"

وقد غاب عن أعين الناس على وجه لم يكن الرسول موسى - عليه السلام - عارفاً به، وإنما عرفه بتعريف من الله سبحانه.

فلماذا لا تكون غيبة الإمام بهذه الصورة، أي يكون غائباً عن أعين الناس ولكن متصرفاً في مصالحهم ويلتقي مع خيار أمته؟

هذا وإن لأصحابنا كتباً ورسالات حول غيبة الإمام الثاني عشر كشفوا فيها علل الغيبة ومصالحها وفوائدها، فمن أراد فليرجع إليها. (٢)

١. الكهف: ٧٩-٨٢.

٢. لاحظ، كمال الدين للشيخ الصدوق، الغيبة للشيخ الطوسي، ومنتخب الأثر للعلامة الصافي.

(٢١٩) ٧. في الوصية بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الوصي

يعتقد بوصية الرسول إلى علي بن أبي طالب - عليه السلام - من اثني عشر وجهاً، منها:

١. قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : « لا يحل لامرئ مسلم أن يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه».

٢. إجماعنا على أن الرسول استخلف على في المدينة في غزوة تبوك مقتدياً باستخلاف موسى لأخيه هارون عند مضيه لميقات ربه، وفي هذا الاستخلاف قال له: « يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

٣. حديث الدار والإنذار وقد ذكره المفسرون في تفسير قوله سبحانه: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (١)". (٢)

أقول: والعجب أنه لم يذكر حديث الغدير الذي اتفقت الأمة على نقله!! ٨. في قعود علي عن الخلافة

ويعتقد أن قعود الوصي بعد الوصية لم يكن عن عجز، ولا تفریط، وذلك لأن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قد أعلمه عن دولة المتغلبين، وعقوبة الله عز وجل لهم في ذلك بقوله: «إن لك يا علي في أمتي من بعدى أمر، فإن ولوك في عافية، وأجمعوا عليك في رضى، فقم بأمرهم، وإن اختلفوا واتبعوا غيرك، فدعهم وما هم فيه، فإن الله سيجعل لك مخرجاً».

فلما قام أمير المؤمنين في يوم الجمل وصفين والنهروان قام في الوصية أيضاً لقول الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «يا على تقاتل بعدى الناكثين والمارقين والقاسطين».

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. تاج العقائد: ٦٠-٦٤.

(٢٢٠)

فليت شعري من هؤلاء الذين نكثوا ومرقوا وقسطوا حتى قاتلهم، هل هم غير أمية محمد الذين نكثوا بيعه وصيه ومرقوا عن أمره، وقسطوا وأظهروا الأحقاد الكامنة له ولأهل بيته بالرغم من أوامر الرسول إليهم. (١) ٩. في فساد إمامة المفضول يعتقد فساد إمامة المفضول وإبطال إمامة المشرك الناقض لقوله عز وجل: "وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . (٢)"

فجلناؤه وتقدست أسماؤه بين أن عهد الإمامة وخلافة الله تعالى لا تلحق من أشرك بالله طرفه عين، وإنما يكون ميراثها في الطاهرين المصطفين العلماء، لقوله تعالى: "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . (٣)"

وقوله: "أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (٤)"

وقد ثبت أن كل من دخل في الإسلام من الجاهلية فقد عبد الأصنام وتدنس بالشرك مع ما كانوا يفعلون برسول الله أيام حياته مما هو مشهور غير خفي.

و توقف كل واحد منهم بعده وحاجتهم إلى علم على مع طهارته واصطفائه عليهم في حالتى العلم والجسم، وكونه لم يسجد لصنم، ولا- توقف عن أمر محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ولا- كانت له سابقة في الجاهلية، ولا- أشرك في الله طرفه عين، ولا

١. المصدر نفسه: ٧٢.

٢. البقرة: ١٢٤.

٣. فاطر: ٣٢.

٤. يونس: ٣٥.

(٢٢١)

تحليل، ولا- كذب، ولا- داهن، ولا- مال إلى مفضول، بالرغم من ميل الغير عنه إلى كل مفضول، مع إقرار المفضول على نفسه بقوله: «وليت عليكم ولست بخيركم» وغير ذلك من قوله: «فإن غلطت فردوني، وإن اعوججت فقوموني، فإن لى شيطاناً يغرينى».

فليت شعري على أى شيء اعتمدوا بتقديم من قدموه دون نص، أو وصية». (١) ١٠. في إبطال اختيار الأمة للإمام

ويعتقد أن اختيار الأمة لنفسها الإمام غير جائز، لأن إقامة الحدود على الأمة هي للإمام، ففيها بعض رسوم الشريعة المبسوطة إلى الإمام، من دون الأمة، فإقامة الإمام الذى تتعلق به كل أمور الشريعة، لأنه صاحب المقام العظيم، والمستخلف أولى أن يكون بأمر الله، وإذا كان إقامة الإمام بأمر الله كان من ذلك الإيجاب بأن الاختيار من الأمة باطل.

وإن صحة العلم أن المختار للإمامة لا يكون إلا بعد الإحاطة بجميع ما يحتاج إليه فى الإمامة من علم الشريعة والكتاب والأحكام، ثم العلم بأن ما عرف ميا يحتاج إليه فى الإمامة موجود فيمن يختاره هو كاف فيه. (٢) ١١. فى أن كل متوثب على مرتبة الإمام فهو طاغوت

ويعتقد أن كل من دفع الإمام عن مقامه ومنزلته وعانده بعد وصية النبى له فى كل عصر وزمان، إنما هو المشار إليه باسم الطاغوت،

وهو رئيس الجائرين

١. تاج العقائد: ٧٥-٧٦.

٢. تاج العقائد: ٧٦.

(٢٢٢)

الحائدين عن أمر الرسول، المعنى بالظالم، الذي توجهت إليه الإشارة وإلى أمثاله في كل دور: " وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . (١)" إلى قوله تعالى: " لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا . (٢)" فالطاغوت هو رئيس الجائرين المعتدى على المنصوص عليه، والشيطان معاضده على الباطل القائم في نصرته المنمق للأحاديث الكاذبة ليصرف وجوه الناس إليه، ويصدّهم عن أمر الله ورسوله بالكون معه، والطاعة له، وإذا نظروا إلى ما تضمنته الشريعة، يتبين لهم الأمر على جلّيته، وتفتح لهم طرق الهداية ويقع الانتباه ويزول الهوى ويشملهم التوفيق في قصدهم. (٣) ١٢. في أن الأرض لا تخلو من حجة لله فيها

يعتقد أن الأرض لا تخلو من حجة لله فيها: من نبي، أو وصي، أو إمام يقوم المسائل، ويقيم الحدود، ويحفظ المراسيم، ويمنع الفساد في الشرع، ويقبل الأعمال، ويزكي الأفعال، وتقام به الحجة على الطالب، ويزيل المشكلات إذا حلت على المتعلمين، ويركز الأمة بعد غيبة نبيها، إذا كان شخصه غير مستقر البقاء في العالم، محفوظ النسب، معروف الولادة، متبع دين آبائه، لا يرجع عن أقوالهم، ولا يقدم غيرهم، ولا يكون مأمون خلاف غيره، ولا مشير في الفضيلة إلى سواه، متبوع لا تابع، مقصود لا قاصد، مرغوب في حكمه، وصحة أفعاله، وتعاليمه، وهداياته، لأن الرسول جعله دليلاً للمتعلم، ونجاة للحائر. (٤)

١. الفرقان: ٢٧.

٢. الفرقان: ٢٩.

٣. تاج العقائد: ٧٨-٧٩.

٤. تاج العقائد: ٧٠-٧١.

(٢٢٣)

أقول: إن ما ذكره من أن الأرض لا تخلو من حجة لله حق، ولكن السبب ليس ما جاء في كلامه من إقامة الحدود، وحفظ المراسم، ومنع الفساد؛ فإن ذلك يقوم به سائر الولاة أيضاً، وإنما الوجه أنه الإنسان الكامل وهو الغاية القصوى في الخلقة ويترتب على وجود ذلك الإنسان الكامل بقاء العالم بإذن الله سبحانه وآخره لحصول الغاية وإلى ذلك يشير الحديث النبوي:

«أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض». (١)

وقوله: - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلى - عليه السلام - : «إني وأحد عشر من ولدي وأنت يا علي رزّ الأرض - أعني أوتادها وجبالها - بنا أوتد الله الأرض أن تُسيخ بأهلها فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم ينظروا». (٢)

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «أهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا هلك أهل بيتي جاء أهل الأرض من الآيات ما كانوا يوعدون». (٣)

وقال الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - : «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً». (٤) ١٣.

منع المبتدى عن الكلام

ويعتقد أن منع المبتدى عن الكلام في الدين، صفات، واقتداء بأفعال الله، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الطفل يتكلم عند خروجه وولادته، وإنما تأخر عن الكلام لحكمته أو جبرها لتكون لأبويه عنده فضيلة التنطيق، والتلقين، والتعليم، وكذلك

المبتدى يمنع من المجادلة، والنطق بما يشق على _____

١. الشريف الحضرمي: رشفة الصادى: ٧٨، الصواعق المحرقة: ٢٣٣-٢٣٤.

٢. الغيبة: ٩٩، عنه البحار: ٣٦/٢٥٩ ح ٧٩.

٣. الصواعق المحرقة: ١٥٠.

(٤) ٤. نهج البلاغه: ٤٩٧، قسم الحكم، الحكمة رقم ١٤٧.

(٢٢٤)

غيره، ومتى تعلم من شيخه أو معلّمه القائم له مقام الصورة، فيعلمه الأصول التي يجب الاحتياط بها نموذجاً يحتذى عليه في خطابه، وكلامه فيما يجب الاحتياط له. (١) ١٤. في أنالقرآن لا ينسخه إلأقرآن مثله

ويعتقد ان القرآن لا ينسخه إلأقرآن مثله، والدلالة على ذلك موافقة السنة للكتاب، قال الله تعالى: "وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . ("٢) قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في خطبة الوداع: «لا يقولنّ عليّ أحد منكم مالم أقله، فيأني لم أحلّل إلأ- ما أحله الله في كتابه، وكيف أخالف كتاب الله وبه هدايتي؟ وكيف أخالف كتاب الله وبه هدايتي؟» (٣) ١٥. في تخطئه القياس والاستحسان

لا- ترخص الشيعة قاطبة القضاء والافتاء بالقياس والاستحسان، والرأى غير المستنبط من الكتاب والسنة ويظهر من الداعي على بن محمد الوليد، اتفاق الإسماعيلية على منع العمل به قال:

إِنَّ الْخَطَأَ، الْقَوْلَ بِالرَّأْيِ، وَالْقِيَاسَ، وَالْاجْتِهَادَ وَالِاسْتِحْسَانَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: "وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . ("٤) وقال الله عزوجل: "وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ _____

١. تاج العقائد: ١٨١.

٢. النحل: ١٠١.

٣. تاج العقائد: ٩٨.

٤. النحل: ١١٦.

(٢٢٥)

اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . ("١) فالقائل في الدين برأيه واجتهاده قائل عن الله ما لا يعلم.

قال النبي: «اتبعوا ولا تبدعوا، فإن البدعة رأس كل ضلالة، وكل ضلالة في النار».

وقال عبد الله بن جعفر بن محمد: «إياك وخصلتان فيهما هلك من هلك، إياك أن تكتفى برأيك، أو تدين بما لا تعلم».

وقال - عليه السلام - : «إياك والقياس، فإن أول من قاس إبليس فأخطأ في قوله: " قال ما منعك ألا تشي جدي إذ أمرتك قال أنا خير منه خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ("٢) ».

فالدين لا يصح إلأ بالافتاء والاتباع للكتاب والسنة، والرضا، والتسليم، إلى الهادى الذى عرفناه، ورضينا من غير ابتداع، ولا قول برأى ولا قياس، ولا تقليد سلف.

قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «الأمر ثلاثة: أمر قد بان لك رشده فاتبعه، وأمر بان لك غيّه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فردّه إلى أهله».

وقال الإمام جعفر بن محمد لأبى حنيفه النعمان القائل بالرأى والقياس: «يا نعمان بلغنى أنّك تعمل بالقياس، فأخبرنى إن كنت مصيباً: لم جعلت العين مالحة، والمنخران رطبان، والأذنان مرتان، واللسان عذب؟» قال: لا أدرى، فأخبرنى جعلت فداك؟ فقال الصادق:

«العين مالحة لأنها شحمة، ولا تصلحها إلا الملوحة؛ والأنف رطب لأنه مجرى الدماغ والنفس؛ والأذن مزة لقتل الدواب، متى دخلتها؛ وجعل اللسان عذب ليعرف به طعوم الأشياء. يا نعمان إذا لم تعرف _____»

١. البقرة: ٨٠.

٢. الأعراف: ١٢.

(٢٢٤)

ما جعله الله في بنيتك، وأحكمه في صورتك لتمام منافعك، فكيف تقيس على دين الله عز وجل؟! فقال: أخبرني جعلت فداك، لم تقضى الحائض الصيام دون الصلاة؟ فقال - عليه السلام - : «لأن الصلاة تكرر» قال: أخبرني لم وجب الغسل من الجنابة، والوضوء من الغائط؟ قال: «لأن الجنابة تخرج من جميع الجسد، بينما الغائط من مكان واحد» قال: أخبرني لم فضل الرجل في الفرائض على المرأة مع ضعفها، وقوته؟ قال: «لأن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء، ينفقون عليهن»، فقال أبو حنيفة: "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . (١)"

فترك القياس سعادة للمكلف، وضبط له عن الخوض في دين الله برأى النفس، والهوى الغالب، فإن أصل الشريعة ليس بقياس، لأنه أخذ عن الله تعالى بتعليم الملك، وأخذ من الرسول بتعليم دون قياس، وأخذ من الوصى بتعليم النبي، وأخذ من الإمام بتعليم الوصى، وأخذ الرجال بتعليم الإمام دون رأى من يرى، وقياس من قاس، واجتهاد من اجتهد، بالظنون الكاذبة، والرأى، والآراء المتناقضة. (٢)

١. الأنعام: ١٢٤.

٢. تاج العقائد ومعدن الفوائد: ٨٢-٨٤.

(٢٢٧)

عقيدتهم في المعاد وما يرتبط به

عقيدتهم في المعاد وما يرتبط به

عقيدتهم في المعاد وما يرتبط به المعاد بمعنى عود الإنسان إلى الحياة الجديدة من أسس الشرائع السماوية وهي حقيقة لا تنفك عن الإيمان بالله، لذا نرى أن أصحاب الشرائع اتفقوا على وجود المعاد بعد الموت: "وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ . (١)" ولولا القول بالمعاد لما قام للدين عمود، ولا اخضر له عود.

نعم، اختلفوا في كونه جسمانياً أو روحانياً وعلى فرض كونه جسمانياً فهل الجسم المعاد جسم لطيف برزخى أو جسم عنصري؟ والإمعان في الآيات الواردة حول المعاد يثبت الأخير بلا شك، فهلم معي ندرس عقيدة الإسماعيلية في المعاد وكيفيته.

١. في أن المعاد روحاني لا جسماني

١. في أن المعاد روحاني لا جسماني

قال الكرمانى - بعد بيان النشأة الأولى في الدنيا - : ثم الله ينشأ النشأة الآخرة، بقوله تعالى: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى - التي هي خلق أجسامكم من قبيل جسمكم - فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٢)" فهلا- تتفكرون وتوازنون وتعلمون ان النظام في الخلق والبعث واحد، وان النشأة الآخرة هي خلق الأرواح وإحيائها بروح _____

١. الحج: ٧.

٢. الواقعة: ٦٢.

(٢٢٨)

القدس على مثال النشأة الأولى. ثم إنه أفاض في الكلام ومحضه له: كما أن الإنسان في عالم الاحشاء يكتسب آلات ليحس بها الكمالات عند مصيره إلى عالم الدنيا، فهكذا هو في عالم الجسم والدنيا يكتسب آلات ليلتذ بها عند مسيره إلى عالم الآخرة، فكما أنه يستغنى عند مسيره من عالم الاحشاء إلى عالم الحس عما فيها، فهكذا عند مسيره من عالم الحس إلى عالم الآخرة وإليك عبارته: ولما كان الأمر في وجود النفس وكمالها كالأمر في جسمها كما نطق به الكتاب الكريم، فالإنسان ينتقل من رتبة النطفية إلى رتبة العلقية، و من رتبة العلقية إلى رتبة المضغية ومن رتبة المضغية كذلك أن يحصل له الآلات من عين وأذن ويد ورجل وأنف ولسان وغير ذلك من الأمور ليقوم بالفعل بها عند مصيره إلى عالم الحس إذ كان وجودها له في تلك الظلمات وضيق الأحشاء لا لها، بل لفسحة الدنيا وما فيها فيكون ما يلتذ به أو يألم بحسب ما اكتسب في الأحشاء من الآلات، فهكذا وجودها في جسمها لا له بل لذاتها التي تليق بعالم آخر إليه مصيرها وعند مفارقة الجسم من جسمها مصيراً إلى الآخرة التي إليها إنهاؤها كمفارقة جسمها الأحشاء مصيراً إلى عالم الحس الذي إليه وروده وتكون ذاتها في آخرتها لذاتها آله تجدها الملاذ كالجسم الذي هو لها في دنياها آله تجدها الملاذ، وما يحصل لها من روح القدس في ذلك العالم كالروح الحسى الذي يحصل للجسم في هذا العالم. (١)

ومن تأمل فيما أفاض يذعن بأن المعاد عندهم روحاني لا جسماني، وقد صرح بذلك أيضاً الداعي على بن محمد الوليد، وقال: ويعتقد أن الله تعالى دعانا على ألسنة وسائطه بقبول أمره، إلى دار غير هذه الدار فهذه الدار صورية وتلك مادية وما بينهما صوري ومادى. (٢)

١. راحة العقل: ٣٦١، المشرع ١٣.

٢. تاج العقائد: ١٦٥.

(٢٢٩)

٢. في التناسخ

٢. في التناسخ

وهو عود الروح بعد مفارقة البدن إلى الدنيا عن طريق تعلقها ببدن آخر كتعلقها بالجنين عند استعدادها لإفاضة الروح وله أقسام مذكورة في محلها. (١)

وربما ينسب القول بالتناسخ إلى الإسماعيلية، ولكن النسبة في غير محلها.

يقول الداعي الكرمانى: وأما من يرى الجزاء، مثل محمد بن زكريا والغلاة وأهل التناسخ، وأنه يكون في الدنيا، فمن اعتقادهم أنه هذه الأنفس لها وجود قبل أشخاصها بخلاف اعتقاد الدهرية وأمثالها ممن ينحون نحوهم الذين يقولون أنّ وجودها بوجود أشخاصها، ويقولون: إنها جوهر تتردد في الهياكل بحسب اكتسابها إلى أن تصفو وتعود، فقد (٢) أوردنا في كتابنا المعروف بـ«الرياض» و«ميزان العقل» وغيرهما من رسائلنا في فساد قولهم ما يغنى سيمًا ما يختص بذلك في كتابنا المعروف بـ«المقاييس» رداً على الغلاة وأشباههم. (٣)

يقول الكاتب الإسماعيلي مصطفى غالب: ويذهب أكثر الذين كتبوا عن عقائد الإسماعيلية من القدماء والمحدثين بأن الإسماعيلية يقولون بتناسخ الأرواح، أى أن الروح بعد الموت تنتقل إلى إنسان آخر أو إلى حيوان أو نبات على نحو ما نراه في العقيدة البوذية أو النصرانية مثلاً، ويمكننا بعد أن درسنا كتب الإسماعيلية السرية والعلنية دراسة دقيقة، أن نقول بأنهم لا يدينون مطلقاً بالتناسخ، بل ذهبوا

إلى أن الإنسان بعد موته يستحيل عنصره الترابي (جسمه) إلى ما يجانسه من التراب، وينتقل عنصره الروحي (الروح) إلى الملاً الأعلى، فإن كان الإنسان في حياته مؤمناً بالإمام فهي تحشر في زمرة الصالحين وتصبح ملكاً مدبراً _____،

١. لاحظ شرح المنظومة للحكيم السبزواري: ٣١٢.

٢. جواب لقوله: أما.

٣. راحة العقل: ٣٦٤.

(٢٣٠)

وإن كان شريراً عاصياً لإمامه حشرت مع الأبالسة والشياطين وهم أعداء الإمام.

والإمام نفسه يجرى على جسده مثلما يجرى على سائر الأجساد بعد الموت، حيث يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه، فالجسم الترابي يعود إلى التراب، والنفس الشريفة تعود إلى ما يجانسها ويناسبها، فتصبح نفس الإمام عقلاً من العقول المدبرة للعالم، فلا تتناسخ ولا تتلاشى أى تتقمص.

(١)

٣. في الحساب

٣. في الحساب

والحساب تابع للبعث وهو فعل يحدث عنه من النفس للنفس الثواب الذي هو الملاذ والمسار، والعقاب الذي هو الألم والعذاب والغم، وينقسم هذا الفعل إلى ما يكون وجوده في الدنيا، وإلى ما يكون وجوده في الآخرة. فأما ما يكون وجوده في الدنيا فينقسم قسمين. ثم أفاض الكلام في القسمين.

(٢)

٤. في الجنة

٤. في الجنة

يقول الكرماني: إنها موصوفة بالسرمد والأبد ووجود الملاذ فيها أجمع، وأنها لا تستحيل، ولا تتغير، ولا يطرأ عليها حال، ولا تتبدل، والذي بهذه الصفة هو النهاية الأولى من الموجودات عن المتعالي سبحانه عن الموصوفات والصفات إبداعاً خارج الصفحة العليا من السماوات المعرب عنها بسدره المنتهى الذي هو المبدع الأول.

(٣)

١. مصطفى غالب: في مقدمة كتاب الينابيع: ١٦.

٢. راحة العقل: ٣٦٩.

٣. راحة العقل: ٣٧٩.

(٢٣١)

٥. في الملائكة

٥. في الملائكة

إنّ الملائكة على ضروب وكلّهم قد أهلوا المنافع الخليقة، فلا يتعدى أحد منهم بغير ما وكلّ به، كما قال وأخبر عنهم: "وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ"

(١)

والجوهر فيهم واحد، وإنّما اختلفت أسماؤهم لأجل ما وكلوا به فمنهم من هو في العالم العقلي، ومنهم من هو في العالم الفلكي، ومنهم من هو في العالم الطبيعي لحفظ أرجائه، ثم استدل بالآيات القرآنية.

منها قوله: "فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ"

(٢) يعنى الملائكة الذين قد أخفى سبحانه ذواتهم عن النظر، وجعل المخلوق عن الطبائع محجوباً عنهم لا يراهم حتى يصير إماماً في منزلة النبي أو يخلص القبول من النبي بقرب الدرجة منه. (٣)

٦. في الجن

٦. في الجن

ويعتقد أنّ في الجن ذوات أرواح نارية وهوائية ومائية وترابية، ويعتقد أنّ الجن صحيح لا-ريب فيه وهم على ضروب في البقاع والمصالح والمنافع والفساد والضرر، إلى أن قال: فمنهم من هو في أرجاء العالم ممنوع عن مخالطة بني آدم، ومنهم من هو مخالط لبني آدم في أماكنهم.

(٤) _____

١. الصفات: ١٦٤.

٢. الحاقة: ٣٨-٣٩.

٣. تاج العقائد: ٤٥.

الفصل الحادى عشر

الفصل الحادى عشر

في شجرة الإمامة الإسماعيلية (٢٣٤) (٢٣٥)

تدعى الإسماعيلية أنّ شجرة الإمامة تبدأ من حين هبوط آدم إلى يومنا هذا، ولم يجعلوا تسلسلها من إسماعيل بن جعفر الصادق، بل ذهبوا إلى عهد بدء الخليقة، فطبقوا قواعدهم الإمامية، وسلسلوا الإمامة تسلسلاً مستمراً إلى العصر الحاضر.

ثمّ أضافوا إلى ذلك قولهم بالأدوار، والأكوار، وقد جعلوا كلّ دور يتألف من إمام مقيم، ورسول ناطق، أو أساس له ومن سبعة أئمة يكون سابعهم متّمّ الدّور، ويمكن أن يزيد عدد الأئمة عن سبعة في ظروف أخرى وفي فترات استثنائية، وهذه الزيادة تحصل في عداد الأئمة المستودعين، وليس في الأئمة المستقرين.

أمّا الدّور فيكون عبادة صغيراً أو كبيراً، فالدور الصغير هو الفترة التي تقع بين كلّ ناطق وناطق، ويقوم فيها سبعة أئمة، أمّا الدّور الكبير فيبتدأ من عهد آدم إلى القائم المنتظر، الذي يُسمى دوره، الدور السابع، ويكون في الوقت ذاته متماً لعدد النطقاء الستة.

وفي الصفحات التالية تظهر الشجرة الإسماعيلية، وتفرعاتها، وقد أخذناها من كتاب «الإمامة في الإسلام»، تأليف الكاتب الإسماعيلي عارف تامر (١) الذي يقول: إنّ شجرة الإمامة عند الإسماعيلية ظلّت حقه طويلاً مجهولة لدى الباحثين، ومقصورة على طبقة خاصّة من العلماء، أو قلّ في التقيّة والاستتار والكتمان.

وقد أفرد الأستاذ أيضاً في كتاب خاص أسماء «فروع الشجرة الإسماعيلية الإمامية» نشرته المطبعة الكاثوليكية، في بيروت عام ١٩٥٧م.

١. الإمامة في الإسلام: ١٤٥-١٦١.

(٢٣٦) شجرة الإمامة الإسماعيلية منذ أقدم العصور الدور الأول:

(وبتدئ من وقت هبوط آدم حتى ابتداء الطوفان، ومدته ألفان وثمانون عاماً وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً). العدد الإمام المقيم

الرسول الناطق أساس الدور الإمام المتم الإمام المستقر

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

هُنيد آدم هايل ١٣٠ -

٢٢٥

شيث

٢٣٠ - ١١٤٤

لامك بن متوشالح أنوش بن (١) شيث ٥٣٤ - ٥٨٣١

قينان بن أنوش ٦٢٥ - ١٥٣٥

مهليل بن قينان ٧٩٥ - ١٦٩٠

يارد بن مهليل ٩٦٠ - ١٩٢٢

أخنوخ بن يارد ١١٢٢ - ١٤٨٧

متوشالح بن اخنوخ ١٢٨٧ - ٢٢٤٢.

لامك بن متوشالح ١٤٥٤ - ٢٣٤٦

١. وفي المصدر بنت، وما أثبتناه هو الصحيح.

(٢٣٧) التعليقات:

في هذا الدور يظهر لنا أن هُنيد (١) هو الإمام المقيم، الذي ربّي وتعهّد، وأقام الرسول الناطق آدم، وفي هذا الدور أيضاً يظهر لآدم أساسان هما: هايل وشيث، الأول قتل بيد أخيه «قاييل» فاستلم منصبه بعد وفاته «شيث». ويظهر أن متمّ الدور هو الإمام السابع لامك بن متوشالح.

المعروف تاريخياً أنهبوط آدم كان في عدن، وأن وفاته كانت في موقع غار أبي قبيس في أرض الكعبة، ويُقال: أن نوحاً بعد الطوفان استخرج جثته، ودفنها في النجف الأشرف، إن الأرقام التاريخية المذكورة أعلاه اعتبرناها في بدء ظهور آدم صفرأحتي طوفان نوح. ولهذا يكون آدم قد عمّر ٩٣٠ عاماً، وشيث تسعمائة واثنى عشر ٩١٢، وأنوش هو أول من غرس النخل ٩٥٠ عاماً، وقينان ٩١٠ أعوام، ومهليل ٨٩٥ عاماً، ويارد ٩٦٢ عاماً واخنوخ ٣٦٥ عاماً، ومتوشالح ٩٥٥ عاماً، ولامك ٨٩١ عاماً.

في المصادر التاريخية أنّ الإمام الخامس أخنوخ هو إدريس أو هرمس المثلث، وهو أول من خط بالقلم، وكان مسكنه في الكوفة، وقد ولد قبل الطوفان بمدة يسيرة، أما ابتداء الطوفان فكان سنة ٢٢٤٢. أنالكتاب السماوي المتداول في الدور الأول هو «الصحف» وتنسب إلى آدم_____.

١. قال العلامة الروحاني: ولم يعلم أنّ هُنَيْد مربي آدم وهو الإمام المقيم هل هو من جنس آدم أو ملك أو جنّ أو غيرها. أقول: من العجب أنّه لم يأت اسمه في الذكر الحكيم، ولو كان له ذلك المقام الشامخ، فأولى أن يكون معلّم الملائكة، لا آدم ثم إنّ المذهب المبني على هذه الحدسيات التي لا تقوم على أساس قطعي لا يكتسب صبغته علمية قطعية. (٢٣٨) الدور الثاني:

«و يبتدى من وقت الطوفان سنة ٢٢٤٢، حتى ولادة إبراهيم الخليل، ومدّته تسعمائة واثنان وسبعون سنة وستة أشهر وخمسة عشر يوماً. العدد الإمام المقيم الرسول الناطق أساس الدور الإمام المتم الإمام المستقر

١
٢
٣
٤
٥
٦
٧

هود نوح
١٦٤٢ -
٣٥٠ سام
٢١٤٢ -
٥٠٠٠

ناحور بن سروج أرفكشاد بن سام «٢» بعد الطوفان -٤٦٧

شالغ بن قينان بن أرفكشاد (١) ٦٧٢ - ٧٦٥

عابر بن شالغ ٤٦٦ - ٩٣٠

فالج بن عابر ٥٤٠ - ٨٧٩

رعوا بن فالج ٦٧٠ - ١٠٠٩

سروج بن رعوا ٨٠٢ - ١١٣٢

ناحور بن سروج ٩٣٢ - ١١٤٠

التعليقات:

في هذا الدور يظهر أنّ هوداً (٢) هو الإمام الذي أقام و أنعم و ربّى الرسول

١. كذا في المصدر .

٢. قال العلامة الروحاني: إنّ ظاهر الكتاب العزيز،. أنّ نوحاً - عليه السّلام - أقدم من هود عليه السّلام ، قال سبحانه: (وقوم نوح من قبل

إنهم كانوا هم أظلم وأظغى) (النجم | ٥٢) فكيف يمكن للمتأخر زماناً أن يربى المتقدم؟! (٢٣٩)

الناطق نوح، وأن نوحاً هو صاحب رسالة النطق، وأن ساماً هو أساس الدور، ويظهر أنه سقط من الشجرة اسم «قينان بن أرفكشاد» والد شالخ. وقينان هذا أبعد عن الإمامة وأسقط اسمه من الشجرة الإمامية لأنه كان يتعاطى السحر، فوصية أرفكشاد تجاوزته إلى ولده شالخ. ويلاحظ أن هناك أكثر من مصدر تاريخي يؤكد أن عابر بن شالخ هو «هود»، وبعض المصادر تؤكد أن فالج هو ذو القرنين، أو هود، على اختلاف الروايات. ويلاحظ أن ناحور هو الإمام المتم للدور الثاني.

إن نوحاً ولد سنة ١٦٤٢ من ولادة آدم، وعندما بلغ من العمر ٦٠٠ عاماً جرى الطوفان الذي ابتدأ في العاشر من شهر رجب سنة ٢٢٤٢ من هبوط آدم، وقد دام الطوفان ستة أشهر، وانتهى في العاشر من شهر محرم سنة ٢٢٤٣. توفي نوح سنة ٣٥٠ بعد الطوفان وعاش ٩٥٠ عاماً، ودفن على جبل الجودي، من أعمال الموصل. وقد استوطن في مدته حياته الكوفة.

أما أساس الدور سام، فقد عاش ٦٠٠ عاماً. من الواضح أن أرفكشاد عاش ٤٦٥ عاماً، وشالخ ٤٦٤ عاماً، وعابر ٤٦٠ عاماً، وفالج ٣٣٩ عاماً، وسروج ٣٣٠ عاماً، وناحور ٢٠٥ أعوام. الدور الثالث:

«و يبتدى من وقت ولادة إبراهيم حتى ظهور موسى، ومدته ألف و مائة و خمسون عاماً وسبعة أشهر و ثمانية أيام».

(٢٤٠) العدد الإمام المقيم الرسول الناطق أساس الدور المستقر أساس الدور المستودع الإمام المتم الإمام المستودع الإمام المستقر

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧ تاريخ

١٠١١ - ١٣١٦ إبراهيم

١٠٨١ - ١٢٥٦ إسماعيل

٨٦ - ٢٢٧ إسحاق

١٠٠ - ٢٨٠

شعيب يعقوب بن إسحاق ٣٠٧-١٦٠

يوسف بن يعقوب ٣٦١-٢٥٠

افرايم بن يوسف ٢٨٠

رازح بن عيص

أيوب بن موص

يونان بن أيوب

شعيب بن صيفون

قيذار بن إسماعيل

سلامان بن قيذار

بنت بن سلامان
 الهميسع بن بنت
 يقدم بن الهميسع
 يقداد بن يقدم

أود بن يقداد (٢٤١) التعليقات:

في هذا الدور يبدو أنه ظهر تطور جديد على قصة الإمامة، فالأئمة المستقرّون من ولد إسماعيل بن إبراهيم، يدخلون كهف التقيّة والاستتار و يحل محلّهم الأئمة المستودعون، الذين هم من ولد إسحاق بن إبراهيم، وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى ظهور الناطق السادس محمد، الذي ينحدر من أسرة الإمام المستقرّ إسماعيل، بينما الرسولان الناطقان، موسى و عيسى، ينحدران من أسرة إسحاق بن إبراهيم الخليل، و من الواضح أنه في عهد محمد ينتهي دور الاستيداع، وتعود الإمامة إلى الأئمة المستقرّين.

مما يجدر ذكره أنّ الرسول الناطق إبراهيم، ولد في الأهواز، و منها جاء إلى حوران، حيث اتخذها دار هجرة، و دفن في بيت المقدس، و قد عاش ١١٣ عاماً، أمّا ولده الأكبر إسماعيل، فوالدته هاجر و قد عاش ١٣٧ عاماً، و دفن في بيت الله الحرام، و أمّا إسحاق الابن الثاني، فوالدته سارة، و كان يقيم بين الشام و القدس، و قد عاش ٢٨٠ عاماً و دفن في بيت المقدس، و يأتي بعده ولده الذي عاش ٣٠٧ أعوام، و قد دفن في القدس. و بعده يأتي أيضاً يوسف فقد عاش ١١٠ أعوام، و دفن في مصر. أمّا أيوب، وهو الإمام الخامس فقد توفي في (مسكنه) و عاش ٩٣ عاماً، و يأتي بعده ابنه يونان، و هو يونس أو ذو النون، كما هو معروف، و مقامه في نينوى، قرب الموصل، على هذه الصفحة نلاحظ أنّ شعيب هو الإمام المستودع المتمّ للدور الثالث، و كان يقيم في مدين.

(٢٤٢) الدور الرابع: العدد الإمام المقيم الرسول الناطق أساس الدور المستقر أساس الدور المستودع الإمام المتمّ الإمام المستودع

الإمام المستقر

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧ أد موسى

٤٢٥ - ٥٤٥ هارون ٤٤٢ يوشع بن النون

٤٣٦ - ٢٨

زكريا أيليا بن بسباس

أليسع بن أخطف

صموئيل الرائي ٤٤٢-٢٤٩٤

داود بن بسى ٤١٩-٥٣٥

سليمان بن داود ٥٢٣-٥٧٥

عمران بن ماثان

زكريا بن برخيا ١٤١٦-١٧١٦

عدنان بن أد

معد بن عدنان

نزار بن معد

مضر بن نزار

الياس بن مضر

مدركة بن الياس

خزيمة بن مدركة

(٢٤٣) التعليقات:

يلاحظ أنه في هذا الدور لا يوجد أساس مستودع، وأنا للأساس المستقر هو هارون أخو موسى. و يبدو أنه بعد وفاته تسلّم يوشع بن نون رتبته الأساسيّة. من الواضح أنّ إيليا بن بسباس هو «إيليا النبي»، و أنّ عمران بن ماثان هو «روبييل» وأنّ زكريا هو الإمام السابع المستودع المتمّ للدور الرابع. في المصادر التاريخيّة أنّ موسى عاش ١٢٠ عاماً و نقل جثمانه من صحراء سيناء إلى القدس، وولادته كانت في السابع من آذار سنة ٤٢٥، وأنّ صموئيل الرائي عاش ٥٣ عاماً، وأنّ داود بن بسى عاش ١١٦ عاماً، وأنّ سليمان بن داود عاش ٥٢ عاماً، وأنّ زكرياء عاش ١٠٠ عام.

(٢٤٤) الدور الخامس:

«ويبتدى من وقت ولادة عيسى حتى ظهور محمّد، و مدّته ستمائة و سبعون سنة و ستّة عشر يوماً». العدد الإمام المقيم الرسول الناطق أساس الدور المستقر أساس الدور المستودع الإمام المتمّ الإمام المستودع الإمام المستقر

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

٨

٩

١٠

١١

١٢

١٣

١٤ خزيمة عيسى يحيى ١٧١٥ - ٣٠

شمعون الصفا ١٧١٦ - ٣٣

جرس بحيرا

مرقص أو عبد المسيح فيلبس اسطفانس هرقل أرميا مروء الراهب جرجس - بحيرا كنانة بن خزيمة

النضر بن كنانة

مالك بن النضر فهر بن مالك

غالب بن فهر

لوى بن غالب

كعب بن لوى

مرة بن كعب

كلاب بن مرة

قصي بن كلاب

عبد مناف بن قصي

هاشم بن عبد مناف

عبد المطلب بن هاشم

عبد الله بن عبد الله (٢٤٥) التعليقات:

في هذا الدور يظهر على المسرح أربعة عشر إماماً مستقراً، يقابلهم سبعة أئمة مستودعين، أى أن كل إمام مستودع كان معاصراً لإمامين مستقرين، ولم يجر مثل هذا في الأدوار السابقة. ويلاحظ أن ولادة عيسى كانت سنة ١٧١٦ موسوية، أى بعد وفاة موسى، وقد قتل صلباً (١) سنة ٩٤٧١، وعمر ثلاثة وثلاثين عاماً، أما أساس الدور المستقر فكان يحيى، وهو الذى ولد قبل ولادة عيسى بستة أشهر، وهو يوحنا المعمدان نفسه، ومن المعروف أن هيرودس الرومانى قتله سنة ١٧٤٦، وأن الأساس الثانى المستقر للدور الخامس الذى سلم إليه هو «شمعون الصفا» أو سمعان بن يونس، أو بطرس الراهب، ويعتبر مربى عيسى وحجة عمران بن ماثان الذى ورد ترتيبه، الإمام السادس المستودع فى الدور الرابع.

ويلاحظ أن جرجس أو بحيرا الراهب هو الإمام السابع المستودع المتم للدور الخامس، وكان دعائه فى الجزيرة العربية هم: عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمران، وهو الذى سلم وراثته الأنبياء المستودعين، للإمام المستقر المقيم أبو طالب، يوم جاء إليه من الجزيرة العربية إلى دير بصرى الشام مع النبى محمد. ويلاحظ أن الإمام المستقر النضر بن كنانة، وكان يسمى قيس، ولقب النضر لنصارتة، وأن الإمام المستقر هو فهر بن مالك، كان لقبه مجمع قريش، وأن كلاب بن مرة كان يلقب بالحكيم، أو عروء، وأن قصي بن كلاب هو زيد، وسمى قصي لأنه أقصى عن عشيرته، وأن عبد مناف بن قصي اسمه المغيرة، وأن هاشم بن عبد المناف اسمه عمران، وأن عبد المطلب بن هاشم اسمه «شيبه الحمد».

١. هذا الكلام تفننه الآية الشريفة: (وما قتلوه وما صلّبوه ولكن شُبّه لهم ...) (النساء | ١٥٧).

(٢٤٦) الدور السادس:

« يتبدى من تاريخ الهجرة المحمدية و ينتهى بظهور القائم المنتظر، ولا يمكن تحديد مدته. إن الدور الكبير قد أصبح مقسماً إلى أدوار صغيرة». العدد الإمام المقيم الرسول الناطق أساس الدور الإمام المتم الإمام المستقر

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

عمران

أبو طالب محمد

م ٥٧١ -

٦٣٤ على بن أبى طالب

محمد بن إسماعيل على بن أبى طالب

الحسين بن على

على بن الحسين «زين العابدين»

محمد بن على «الباقر»

جعفر بن محمد «الصادق»

إسماعيل بن جعفر

محمد بن إسماعيل

التعليقات:

فى هذا الدور يظهر أنّ عمران أبا طالب، هو الإمام المقيم فى عهد الرسول الناطق محمد، و أنّ الإمام محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع المتم. و يلاحظ أنّ الإمام الحسن بن على لم يذكر فى شجرة النسب لأنه يعتبر إماماً مستودعاً لدى الإسماعيليين، و هكذا محمد بن الحنفية، و موسى بن جعفر (الكاظم).

(٢٤٧) تتمه الدور السادس:

«ويتبدى من عهد معد بن إسماعيل «المعز لدين الله»، ولا يمكن بعد الآن الحكم على الأئمة المتمين بعد أن ظهر الاختلاف و تشعبت الشجرات». العدد العدد المتسلسل الإمام المتم الإمام المستقر

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

١٥

١٦

١٧

١٨

١٩

٢٠

٢١ نزار بن معد «العزیز بالله»
الحسین بن نزار «الحاکم بأمر الله»
علی بن الحسن «الظاهر لإعزاز دین الله»
معد بن علی «المستنصر بالله»
الإسماعیلیة، الإسماعیلیة، الإسماعیلیة
المستعلیة المؤمنیة القاسمیة - الآخانیة
أحمد المستعلی نزار بن معد نزار بن معد
الآمر بأحكام الله حسن بن نزار هادی
الطیب بن الأمر محمد بن الحسن مهتدی
التعليقات:

من الملاحظ هنا أن الإسماعيليين قد افترقوا بعد الإمام الثامن عشر المستنصر بالله، إلى ثلاث فرق هي: النزاريّة «القاسميّة» الآخانيّة، و النزاريّة الإسماعيليّة المؤمنيّة، والإسماعيليّة المستعلية، و يلاحظ أن الفرقة المستعلية قد توقفت عند الطيب بن الأمر الإمام الحادي و العشرين، الذي دخل كهف التقيّة و الاستتار، كما يلاحظ أن الفرقة الدرزية قد توقفت عند الإمام السادس عشر الحاکم بأمر الله، و من الواضح أن النزاريّة نفسها قد انقسمت إلى فرقتين هما: المؤمنيّة، والقاسميّة (الآخانيّة)، كما سيظهر في الصفحات التالية.
(٢٤٨) تتمّة الدور السادس

«و يبتدى من الإمام النزاري المؤمنى حسن بن محمد، و ينتهى برضى الدين ابن محمد، وبقاهر النزاري القاسمى، و ينتهى بشمس الدين محمد و هو الإمام المتم السابع». العدد العدد المتسلسل أئمة النزاريّة المؤمنيّة أئمة النزاريّة القاسميّة _ الآخانيّة

١

٢

٣

٤

٥

٦

٢٢٧

٢٣

٢٤

٢٥

٢٦

٢٧

٢٨ حسن بن محمد «جلال الدين»

محمد بن الحسن «علاء الدين»

محمود بن محمد «رکن الدين»

محمد بن محمود «شمس الدين»

مؤمن شاه بن محمد «علاء الدين»

محمد بن مؤمن «خداوند»

رضى الدين بن محمد «ضياء الدين»

قاهر

حسن على ذكره السلام

أعلى محمد

جلال الدين حسن

علاء الدين محمد

ركن الدين خير شاه

شمس الدين محمد التعليقات:

يظهر أن الاختلاف لدى النزاريّة قد بدأ منذ عهد نزار بن المستنصر بالله الفاطمي، ثم يظهر أن الفرقتين عادتا إلى الالتقاء مع أربعة أئمة هم: حسن بن محمد و «جلال الدين» و محمد بن الحسن و «علاء الدين» و محمود بن محمد «ركن الدين» و محمود بن محمد بن محمود «شمس الدين» و هؤلاء يشكّلون الأرقام: ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥. أما لدى النزاريّة القاسمية الآخانية فيشكّلون الأرقام ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨.

وبعد الإمام محمد شمس الدين انقسمت النزاريّة انقساماً فعلياً إلى فرقتين:

فالمؤمنية ساقطت الإمامة بمؤمن «الابن الأكبر»، و القاسمية ساقطتها بقاسم «الابن الأصغر»، و كلّهذا جاء مفصلاً فى الصفحات التالية:

(٢٤٩) تتمّة الدور السادس

«و يبتدى من طاهر بن رضى الدين، و ينتهى بعطية الله، و هو الخامس و الثلاثون فى شجرة المؤمنة، أما لدى القاسمية فيبتدى بقاسم شاه و رقمه ٢٩، و ينتهى بالإمام أبى الذر على، و هو الإمام الخامس و الثلاثون من شجرة قاسم». العدد العدد المتسلسل أئمة النزاريّة المؤمنة أئمة النزاريّة القاسمية _ الآخانية

١

٢

٣

٤

٥

٦

٢٩٧

٣٠

٣١

٣٢

٣٣

٣٤

٣٥ طاهر بن رضى الدين «العزیز»

رضى الدين الثانى بن طاهر «شمس الدين»

طاهر شاه بن رضى الدين الثانى «حجة الله»

حيدر بن طاهر «خداوند»

صدر الدين بن حيدر «معز الدين»

معين الدين بن صدر الدين «قاهر»

عطية الله بن معين الدين «خدای بخش»

قاسم شاه

إسلام شاه

محمد بن إسلام

المستنصر بالله الثانى

عبد السلام

غريب ميرزا

أبو الذر على التعليقات:

ما تزال الشجرتان النزاريتان قائمتين هنا، و هما الوحيدتان بين فرق الشيعة الإمامية اللتان ظلتا سائرتين على النهج الإمامى.

(٢٥٠) تتمه الدور السادس:

«و يبتدى من عزيز بن عطية الله و رقمه ٣٦، و ينتهى بالإمام محمد بن حيدر «الأمير الباقر» و هو الإمام الخامس لدى الفرقة المومنية، و بعده انقطعت الفرقة المومنية عن الاتصال، أما لدى القاسمية فيبتدى من الإمام مراد ميرزا، و ينتهى بحسن على و هو متمم و سابع.

العدد العدد المتسلسل أئمة النزارية المومنية أئمة النزارية القاسمية _ الآخانية

١

٢

٣

٤

٥

٦

٣٦٧

٣٧

٣٨

٣٩

٤٠

٤١

٤٢ عزيز بن عطية الله «الشاه»

معين الدين الثانى بن عزيز «خليل الله»

محمد بن معين الدين «الأمير المشرف»

حيدر بن محمد «المطهر»

محمد بن حيدر «الأمير محمد الباقر»

؟

؟

مراد ميرزا

ذو الفقار على

نور الدين على

خليل الله على

نزار على

السيد على

حسن على التعليقات:

يظهر أن الفرقة المومنية النزارية توقفت عن السير الإمامي في عهد الإمام محمد بن حيدر الأمير الباقر، رقم ٤٠، وذلك سنة ١٢١٠هـ. أما شقيقتها القاسمية. فظلت سائرة على المنهج الإمامي حتى عهدنا الحاضر.

(٢٥١) تتمه الدور السادس:

و يتسدى من الإمام قاسم على، و ينتهى بالإمام «كريم على خان»، و ترتيبه التاسع والأربعون، و هو متمم للدور و سابع. العدد العدد المتسلسل أئمة النزارية القاسمية _ الآغاخانية

١

٢

٣

٤

٥

٦

٤٣٧

٤٤

٤٥

٤٦

٤٧

٤٨

٤٩ قاسم على

أبو الحسن على

خليل الله على

حسن على «آغا خان الأول»

« » « » « » « » « » « »

سلطان محمد شاه « » « » « » « » « » « »

مستقراً منتظرين المزيد من المعلومات والمصادر والاكتشافات التاريخية.(١)

١. عارف تامر، الإمامة في الإسلام: ١٤٥ - ١٦١، و التعليقات كلها له.

(٢٥٣) تأملات في أدوار الإمامة

إن ما ذكره الكاتب الإسماعيلي، لا يخلو من تأملات، وإشكالات، نشير إليها:

الأول: إن ما ذكره من الأدوار الستة للإمامة و إن كل رسول ناطق تتلوه أئمة سبعة، على النحو السابق، أمر مبنئ على الظن و التخمين، لا على القطع واليقين، فإنَّ التحدُّث عن الأئمة الذين قاموا بالأمر، بعد الرسول الناطق، آدم، فنوح، إبراهيم، موسى، عيسى، فمحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ - عليهم السَّلام - - بيتني على أساطير، لا يمكن الإذعان بها، ولا أدري أنَّ الكاتب إلى أيِّ كتاب، و سند قطعي اعتمد عليه في استخراج هذه القوائم، مع أنَّه - حسب اعتراف الكاتب - يعترف بأنَّ هذه الدرجات بالتفصيل ظلت مجهولة لدى الباحثين، ومقصورة على طبقة خاصة من العلماء.(١)

الثاني: أن تفسير الإمام المقيم، بأنَّه هو الذي يقيم الرسول الناطق، ويعلمه و يريه، ويدرجة في مراتب رسالة النطق، و ينعم عليه بالإمدادات، وأحياناً يطلقون عليه اسم «ربّ الوقت» و «صاحب العصر» و تعتبر هذه الرتبة أعلى مراتب الإمامة و أرفعها، وأكثرها دقَّة و سرِّيَّة(٢) و على ما ذكره «هنيدي» إمام مقيم لآدم، و هود لنوح، و تارح لإبراهيم، و «أد» لموسى و خزيمه لعيسى، و أبو طالب لمحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - . و معنى ذلك أنَّهؤلاء أفضل من النطقاء الستة، الذين هم أولو العزم من الرسل.

وهل «هنيدي» أفضل من آدم الذي اختاره الله سبحانه بتعليم الأسماء؟! أو أنَّ هود أفضل من شيخ الأنبياء نوح، وهو الذي بُدئت به الشرائع؟! وهل تارح

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٤٢.

٢. المصدر السابق: ١٤٣.

(٢٥٤)

أفضل من إبراهيم، الذي وصفه الله سبحانه بصفات عظيمة في القرآن الكريم و لم يصف بها غيره؟! وبالتالي يلزم أن يكون أبو طالب - عليه السَّلام - أفضل من محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - !!

الثالث: إنَّ الإمام المتمم هو الإمام السابع، المتمم لرسالة الدور، و أنَّ قوته تكون معادله لقوة الأئمة الستة الذين سبقوه في الدور نفسه بمجموعهم، و من جهة ثالثة يطلق عليه اسم ناطق الدور أي أنَّ وجوده يشبه وجود الناطق بالنسبة للدور.

ومعنى ذلك أن يكون إسماعيل بن جعفر - عليه السَّلام - أو محمد بن إسماعيل - على القول بأنَّه متمم الدور - أفضل من خاتم النبيين الذي هو أفضل الخليقة باعتراف الفريقين.

الرابع: أنَّ الكاتب أخرج الحسن بن علي عليمها السَّلام عن قائمة الإمامة، بحجَّة أنَّه لم يكن إماماً مستقراً، بل إماماً مستودعاً، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ الأئمة الذين جاءوا بعد كلِّ رسول ناطق من زمان آدم إلى زمان الخاتم، كانوا أئمة مستقرين، وليس للكاتب دليل على ذلك، مع أنَّ إخراجة يناهض قول الرسول الذي نقلته الإسماعيلية في كتبهم من قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، و معنى كلامه أنَّهما صنوان لا يتفاوتان.

الخامس: أنَّ الكاتب بإخراجة الحسن بن علي عليمها السَّلام عن قائمة الإمامة، جعل محمداً بن إسماعيل هو الإمام السابع الذي به يتم الدور مع أنَّ الإسماعيلية يعتبرونه رسولاً ناطقاً، و المتمم في الأدوار السابقة من زمان آدم إلى زمان نبي الإسلام، لم يكن رسولاً ناطقاً. والكاتب في الوقت نفسه جعله بادئاً للدور حيث قال في ص ١٥٦: هذا الدور الصغير بيتدي من الإمام محمد بن إسماعيل، حتى عهد الإمام معد بن إسماعيل «المعز لدين الله»، ولو كان الميزان هو الأدوار السابقة، لا يكون متمم الدور، بادئ الدور باسم الرسول الناطق.

(٢٥٥)

وبالجملة أن جعل محمد بن إسماعيل متمياً للدور من جانب، وناطقاً سابغاً، ناسخاً للشريعة، التي سبقته من جانب آخر، أمران متناقضان، إذا كان الميزان هو الأدوار السابقة.

لكن الظاهر من كلام مصطفى غالب، في كتابه «تاريخ الدعوة الإسماعيلية» غير ذلك، وأن متمّ الدور في الأدوار السابقة أيضاً، هو الرسول الناطق، وأن نوحاً كان متمّ الدور، وفي الوقت نفسه رسولاً ناطقاً، وأن محمداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كان متمّ الدور وفي الوقت نفسه رسولاً ناطقاً. وقد استشهد على ما ذكره بكلام الداعي إدريس في كتابه «زهر المعاني» و إليك نصهما:

ويعتبر الإمام محمد بن إسماعيل أول الأئمة المستورين، والناطق السابع، و متمّ الدور، فقام بنسخ الشريعة التي سبقته، وبذلك جمع بين النطق و الإمامة، و رفع التكليف الظاهرة للشريعة، و نادى بالتأويل، و اهتمّ بالباطن.

و لذلك قال فيه الداعي إدريس في كتابه «زهر المعاني» ص ٥٦: «إنما خصّ محمد بن إسماعيل بذلك لانتظامه في سلك مقامات دور الستر، لأنك إذا عددت آدم و وصيّه و أئمة دوره، كان خاتمهم الناطق و هو نوح - عليه السلام - ... و إذا عددت عيسى و وصيّه و أئمة دوره، كان محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - متسلماً لمراتبهم، و هو الناطق خاتم للنطقاء، و كان وصيّه - عليه السلام - بالفضل منفرداً به، و إذا عددت الأئمة في دوره كان محمد بن إسماعيل سابغهم، و للسابع قوّة على من تقدّمه، فلذلك صار ناطقاً و خاتماً للأسبوع، و قائماً، و هو ناسخ شريعة صاحب الدور السادس، ببيان معانيها، و إظهار باطنها المبطن فيها. (١)

فهذان الكاتبان اللذان قاما في عصرنا هذا بنشر آثار الإسماعيلية، و تبين عقائدها، قد صوّرا الأدوار السابقة بصورتين متناقضتين.

فعارف تامر يصور الأئمة سبعة سابغهم متممهم، و يتلوه الرسول الناطق _____

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٤٨.

(٢٥٦)

بادى الدور الجديد؛ و مصطفى غالب يصورهم سبعة، سابغهم متممهم، و في الوقت نفسه الرسول الناطق.

وهناك وجه آخر، و هو أن يختلف حكم الأدوار الستة، مع الدور السابع، فيكون الإمام المتمم في الدور الأخير متمماً و رسولاً ناطقاً على خلاف الأدوار الستة، و وجه ذلك أن هذا الدور ليس دوراً مستقلاً، بل تتمّة للدور السادس، و لذلك يقول عارف تامر في التعريف بهذا الدور بالشكل التالي: تتمّة الدور السادس

وهذا الدور الصغير يبتدى من الإمام محمد بن إسماعيل حتى عهد الإمام «معد بن إسماعيل» المعز لدين الله، و يعتبر جزءاً من الدور الكبير الذى يبتدى من عهد «محمد» حتى القائم المنتظر. (١)

وما ذكرنا من الوجه هو الظاهر من الحامدى في كتابه «كنز الولد» و سوافيك نصّه في الفصل الخاص بترجمة أعلام الإسماعيلية.

السادس: أنالمعروف بين الإسماعيلية في العصور الأولى، أن محمد بن إسماعيل هو الرسول الناطق، و هو ناسخ للشريعة، و قد نسبة النويختى إلى طائفة من الإسماعيلية باسم القرامطة و قال: وزعموا أنمحمد بن إسماعيل حتى لم يمت وأنه في بلاد الروم، وأنه القائم المهدي؛ و معنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة و بشريعة جديدة، ينسخ بها شريعة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، و أن محمد بن إسماعيل من أولو العزم، و أولو العزم عندهم سبعة: نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمد، و على، و محمد بن إسماعيل. (٢)

ولما كان القول بذلك يصادم إتفاق جمهور المسلمين على أن شريعة الإسلام هي الشريعة الخاتمة، و نبياها هو النبي الخاتم، و كتابه خاتم الكتب، تجد _____

١. الإمامة في الإسلام: ١٥٦.

٢. النويختى: الفرق بين الفرق: ٧٣.

(٢٥٧)

أن مصطفى غالب، ينقل عن الداعي إدريس «عماد الدين» في كتابه «زهر المعاني» أن المراد أنه يبين معاني الشريعة، ويظهر باطنها المبطن فيها. (١)

ولكنه تصرف في العقيدة، فإن الظاهر من عطف محمد بن إسماعيل على سائر النطقاء، كنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، أنه ناسخ بالحقيقة، وإلا يلزم الاختلاف في معنى النسخ.

السابع: قد عرفت أن لازم القاعدة التي استنبطها الكاتب من بطون التاريخ، في أدوار الإمامة أن تكون شريعة كل رسول منتهية بظهور الإمام السابع، ويكون الإمام اللاحق بادئاً للدور الجديد، مع أنه يرى انتقاص القاعدة في ظهور محمد بن إسماعيل، حيث جعل الكاتب عارف تامر دوره متمماً للدور السادس لا بادئاً للدور الجديد، وأضاف بأنه ينتهي بظهور الإمام القائم المنتظر، ولا يمكن تحديده مدته.

يلاحظ عليه: أن إدراج القائم المنتظر، الذي هو من صميم عقائد الإمامية الاثني عشرية في عقائد الإسماعيلية غريب جداً من وجهين: ١. إخراج محمد بن إسماعيل عن مقامه العظيم في العقيدة الإسماعيلية، وجعل الأدوار التالية حتى دور محمد بن إسماعيل من توابع دور محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

٢. إنتظار الإسماعيلية للقائم المنتظر، فإن القائم المنتظر في عقيدة الشيعة الإمامية أقل بكثير من صاحب الدور عند الإسماعيلية. وأظن أن جعل الدور الذي بدأ به محمد بن إسماعيل جزءاً من الدور السادس، لا دوراً مستقلاً لأجل استقطاب نظر جمهور المسلمين إلى أنفسهم حتى ينسلخوا في عداد المسلمين. (٢)

كل ذلك يُعرب عن عدم وجود نظام عقائدي منسق عندهم _____.

١. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٤٨، نقلاً عن زهر المعاني: ٥٦.

٢. الأشكال السابع من إفادات العلامة الروحاني - دام ظلّه -

الفصل الثاني عشر

الفصل الثاني عشر في

نظرية المثل والممثل

أو

تأويلات الإسماعيلية (٢٦٠) (٢٦١)

إن نظرية المثل والممثل تُعدُّ الحجر الأساس لعامة عقائد الإسماعيلية، التي جعلت لكل ظاهر باطناً، وسموا الأول مثلاً، والثاني ممثلاً - وعليه تبنت نظرية التأويل الدينيّة الفلسفية، فتذهب إلى أن الله تعالى جعل كل معاني الدين في الموجودات، لذا يجب أن يُستدل بما في الطبيعة على إدراك حقيقة الدين، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العمليّة، التي بينها القرآن معاني يفهمها العامة، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلاً باطنياً، لا يعلمه إلا الأئمة، وكبار حججهم وأبوابهم ودعاتهم. (١)

يقول الداعي المويّد في الدين الشيرازي: خلق الله أمثالاً ومثولات، فجسم الإنسان مثل، ونفسه ممثول، والدنيا مثل والآخرة ممثول، وإن هذه الأعلام التي خلقها الله تعالى، وجعل قوام الحياة بها، من الشمس والقمر، والنجوم، لها ذوات قائمة، يحل منها محل المثل وأنقواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات، هي ممثول تلك الأمثال.

وقال صاحب المجالس المستنصرية: معشر المؤمنين إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال جملاً وتفصيلاً، ولم يستح من صغر المثال إذا بين به ممثلاً، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلاً، ومن قصيدة المويّد للدين يقول فيها:

أقصد حمى ممثوله دون المثل * ذا أبرُّ النحل (٢) وهذا كالعسل

١. مصطفى غالب: في مقدمة الينابيع: ١٣.

٢. ابر النحل: لدعته.

(٢٦٢)

واستناداً إلى نظرية المثل والممثل يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني الباطن. (١) ١. العقول العشرة

إن الإسماعيلية استخدمت في تطبيق تلك النظرية، على ما تبناه من تطبيق الدعوة الديتية على عالم التكوين نظرية الفيلسوف اليونانية في كيفية حصول الكثرة في العالم، ولم يكن الهدف في استخدام نظريتهم، في بيان صدور الكثرات من الواحد البسيط، إلا تطبيقها على الدعوة الديتية، حتى يكون لكل ظاهر باطن.

توضيحه: أثبت البراهين الفلسفية أنه سبحانه واحد، بسيط من جميع الجهات، لا كثرة فيه، لا خارجاً ولا عقلاً، ولا وهماً ثم إنهم بعد البرهنة على تلك القاعدة، وقعوا في مأزق وهو أنه كيف صدرت من الواحد البسيط - الذي لا يصدر عنه إلا الواحد - هذه الكثرات في عالم العقول، والأفلاك، والأجسام؟

ذهب أرسطو وتلاميذه، ومن تبعهم من المسلمين كالفارابي والشيخ الرئيس، إلى أن المصادر منه سبحانه واحد، وهو: العقل الأول، وهو مشتمل على جهتين:

جهة لعقله لمبدئه، وجهة إضافته إلى ماهيته.

فبالنظر إلى الجهة الأولى صدر العقل الثاني، وبالنظر إلى الجهة الثانية صدر الفلك الأول ونفسه، الذي هو الفلك الأقصى.

وصدر من العقل الثاني لهاتين الجهتين، العقل الثالث، والفلك الثاني مع نفسه، الذي هو فلك الثوابت _____.

١. مصطفى غالب: في مقدمة الينابيع: ١٣.

(٢٦٣)

ثم صدر من العقل الثالث لهاتين الجهتين، العقل الرابع، والفلك الثالث مع نفسه، الذي هو فلك زحل.

وبهذا الترتيب، صدر العقل الخامس والفلك الرابع، الذي هو فلك المشتري، إلى أن وصل عدد العقول إلى عشرة، وعدد الأفلاك مع نفوسها تسعة.

وتبني المذهب الإسماعيلي، الذي هو مذهب ذو صبغة فلسفية يونانية هذه النظرية مع اختلاف يسير في التعبير لا غير، والفكرة الرئيسية عندهم واحدة.

فمثلاً يعبر الداعي الكرمانى عن العقل الأول بالمبدع، كما يعبر عن العقل الثاني بالمنبعث الأول، وكلا المسلكين يشتركان في أنه يتبدى الصدور بالعقل الأول، الذي تسميه فلسفة المشاء بالعقل الأول، والمذهب الإسماعيلي بالمبدع الأول، وتنتهى بالعقل الفعّال، ويتوسط بين العقل الأول والعقل الفعّال سلسلة العقول، والأفلاك الأخرى.

يقول الداعي الكرمانى:

والعقل الأول مركز لعالم العقول إلى العقل الفعّال، والعقل الفعّال عاقل لكل، وهو مركز لعالم الجسم، من الأجسام العالية الثابتة (الأفلاك) إلى الأجسام المستحيلة المسماة عالم الكون والفساد (العناصر الأربعة). (١)

يقول الحكيم السيزوارى في بيان تلك النظرية:

فالعقل الأول لدى المشاء * وجوبه مبدأ ثان جاء

وعقله لذاته للفلك * دان لدان سامك لسامك

وهكذا حتى لعاشر وصل * والفيض منه في العناصر حصل

بالفقر معط لهيولي العنصر* و بالوجوب لنفوس صور

فللهيولي كثرة استعداد* بحركات السبعة الشداد (٢) _____

١. راحة العقل: ١٢٧-١٢٩.

٢. السبزواري: شرح المنظومة: ١٨٥.

(٢٦٤)

ثم إن المهم تطبيق هذه الدرجات الكونية على درجات الدعوة الديتية عند الإسماعيلية، فقد جعلوا لكل ظاهر باطناً، ولكل درجة

كونية درجة ديتية، و إليك جدولاً يوضح ذلك:

١. العقل الأول = الناطق.

٢. العقل الثاني = الفلك الأقصى = الأساس.

٣. العقل الثالث = فلك الثوابت = الإمام.

٤. العقل الرابع = فلك زحل = الباب.

٥. العقل الخامس = فلك المشتري = الحجّة.

٦. العقل السادس = فلك المريخ = داعي البلاغ.

٧. العقل السابع = فلك الشمس = الداعي المطلق.

٨. العقل الثامن = فلك زهرة = الداعي المحدود.

٩. العقل التاسع = فلك عطارد = المأذون المطلق.

١٠. العقل العاشر = فلك القمر = المأذون المحدود، وربما يُطلق عليه المكاسر والمكالب. (١)

هذا عرض موجز عن الدرجات الديتية للدعوة، وأما تفسيرها فإليك بيانها إجمالاً:

١. الناطق: وله رتبة التنزيل.

٢. الأساس: وله رتبة التأويل.

٣. الإمام: وله رتبة الأمر.

٤. الباب: وله رتبة فصل الخطاب _____.

١. إن محققى كتاب راحة العقل لم يذكروا فلك الثوابت، ولهذا صار العقل ممثلاً لما دون القمر، وجعلوا فلك الأفلاك والمحيط.

فلكين مستقلين، مع أنّهما في هيئة بطليموس، فلك واحد، إلا أن يختلف ترتيب العوالم العلوية عند الإسماعيلية مع ما هو الثابت في

علم الهيئة (لاحظ راحة العقل، ص ٢٥).

(٢٦٥)

٥. الحجّة: وله رتبة الحكم فيما كان حقاً أو باطلاً.

٦. داعي البلاغ: وله رتبة الاحتجاج، وتعريف المعاد.

٧. الداعي المطلق: وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية.

٨. الداعي المحصور، أو المحدود: وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة.

٩. المأذون المطلق: وله رتبة أخذ العهد والميثاق.

١٠. المأذون المحدود: وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة، وهو المكاسر. (١) ٢. النطقاء السبعة وأمثالها:

وربما يعبرون عنها بالحروف السبعة (آ، ن، إ، م، ع، م، ق) وهى الحروف الأولى من أسماء النطقاء السبعة، وهم: آدم، نوح، إبراهيم،

موسى، عيسى، محمد، قائم (٢) مع أسسهم ممثلين للأفلاك السبعة بالشكل التالي: المثل الممثل أساسه

١. زحل

٢. المشتري

٣. المريخ

٤. الشمس

٥. الزهرة

٦. عطارد

٧. القمر

آدم

نوح

إبراهيم

موسى

عيسى

محمد

القائم

شيث

سام

إسماعيل

يوشع

شمعون

على

مهدى (٣) _____

١. مصطفى غالب: في مقدمة كتاب الينابيع ٢٣.

٢. يريدون به محمد بن إسماعيل، لأنّ والده توفي في حياة أبيه، فانتقلت الإمامة إليه، وهو القائم والإمام المستقر، وأمّا الإمام الكاظم - عليه السلام - فقد كان إماماً مستودعاً.

٣. القصيدة الشافية: ٣٨، قسم التعليقه .

(٢٦٦) ٣. الأنوار الخمسة وأمثالها:

الأنوار الخمسة، عبارة عن أولى الموجودات في العالم، وهي: السابق، والتالي، والجد، والفتح، والخيال، وكلّها ممثولات، ولها أمثلة في

الحدود العلوية، وفي عالم الدين، وعالم المادة بالشكل التالي: المثل المثل في العالم العلوي الممثل في عالم الدين

المثل في عالم الجسم

١. السابق

٢. التالي

٣. الجد

٤. الفتح

٥. الخيال العقل الكلى

النفس الكلى

إسرافيل

ميكائيل

جبرائيل

النبي

الإمام

الوصى

الحجّة

الداعى السماء

الأرض

المعدن

النبات

الحيوان

وكلُّ يأخذ الفيض من السابق، ويفيضة إلى التالى. (١)

وإلى هذه الأنوار الخمسة يشير الداعى فى قصيدته الشافية عند ذكر توبه آدم وتوسله بها قائلاً:

وعاد لله بحسن التوبه * آدم كى يغفر تلك الحوبه

وقال يا ربى إنى أسأل * وإننى عن زلتى منفصل

مُبتهلاً بالخمسة الأنوار * أول ما أبدعته فى الدار

من سابق كان بلا مثال * ولاحق يتلوه بالكمال

والجد ثم الفتح والخيال * وبالحروف السبعة الأشكال (٢ _____)

١. القصيدة الشافية: ٣٧، قسم التعليقه؛ ناصر خسرو: خوان الإخوان: ١٩٩.

٢. القصيدة الشافية: ٣٧.

(٢٦٧) نماذج من تأويلاتهم الفقيهه

لما كان القول بالمثل والممثل أساساً للتأويل، نذكر فى المقام بعض تأويلاتهم فى الشريعة.

قالت الإسماعيلية: إن لكل ظاهر فى الشريعة، كالوضوء، والصلاة، والزكاة، والجهاد، والحج، والولاية، وغيرها باطناً، يجب الإيمان به.

وقد كتب كثير من الفاطميين كتباً فى التأويل، غير أن قاضى القضاة، النعمان بن محمد، قام بأمرين:

الأول: ألف كتاباً باسم «دعائم الإسلام» وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وطبع الكتاب فى جزءين وهو يشتمل على الكتب

التالية:

١. كتاب الولاية.

٢. كتاب الطهارة.

٣. كتاب الصلاة.

٤. كتاب الزكاة.
 ٥. كتاب الصوم والاعتكاف.
 ٦. كتاب الحج.
 ٧. كتاب الجهاد.
 ٨. كتاب البيوع والأحكام.
 ٩. كتاب الأيمان والندور.
 ١٠. كتاب الأشربة.
 ١١. كتاب الأطعمة.
 ١٢. كتاب الطب.
 ١٣. كتاب اللباس والطبيب.
 ١٤. كتاب الصيد.
 ١٥. كتاب الذبائح.
 ١٦. كتاب الضحايا والعقائ.
 ١٧. كتاب النكاح.
 ١٨. كتاب الطلاق.
 ١٩. كتاب العتق.
 ٢٠. كتاب العطايا.
 ٢١. كتاب الوصايا.
 ٢٢. كتاب الفرائض.
 ٢٣. كتاب الدييات.
 ٢٤. كتاب الحدود.
 ٢٥. كتاب الشُّراق والمحاربيين.
 ٢٦. كتاب الردة والبدعة.
 ٢٧. كتاب الغصب والتعدى.
 ٢٨. كتاب العارية والوديعة.
 ٢٩. كتاب اللفظة واللقية والآبق.
 ٣٠. كتاب القسمة والبنيان.
 ٣١. كتاب الشهادات.
 ٣٢. كتاب الدعوى والبينات.
 ٣٣. كتاب آداب القضاء.
- وهو فى الحقيقة يحتوى على ظواهر الشريعة.

(٢٦٨)

الثانى: أَلْفَ كتاباً، حاولَ فيه أن يبين التاويل الباطنى لجميع الأحكام، أسماه بـ«تاويل الدعائم» واستطاع أن يُنهي تأليف الجزء الأول

منه، والذي يشمل على كتاب الولاية، والطهارة، والصلاة، ولكن المتية حالت دون إتمامه لتأويل بقية الأبواب الفقهية. ولذا نقتصر في المقام على ما جاء في هذا الكتاب، بوجه موجز، وهدفنا ذكر نماذج، منها فقط، لأننا لا نروم التفصيل والاستقصاء في هذا البحث.

وليعلم أن للفاطميين كتباً كثيرة في التأويل، وقد وعِدَ محقق كتاب «تأويل الدعائم» محمد حسن الأعظمي أن ينشر بعضها في المستقبل. (١)

لما كان التأويل أمراً شخصياً، يختلف باختلاف الداعي، واختلاف ذوقه، اختلفت كلمة الدعاء أشد الاختلاف، في مسائل كثيرة، يقول محقق كتاب راحة العقل، ما هذا لفظه:

الداعي النخشي وضع كتابه المحصول في فلسفة المذهب. وجاء بعده أبو حاتم الرازي، فوضع كتابه الإصلاح، وخالف فيه أقوال من سبقه، ثم جاء أبو يعقوب السجستاني، أستاذ الكرمانى، فانتصر للنخشي، وخالف أبا حاتم، ثم جاء الكرمانى الذى استطاع أن يوفق بين آراء شيخه وآراء أبي حاتم. (٢)

إن المواضع المقتطفة من كتاب «تأويل الدعائم» يعرب عن أمرين:
الاول: أن جميع التأويلات مبنية على: أسس فلسفية ذوقية، لا تتمتع بالبرهان كأكثر تأويلات الصوفية.
الثاني: أن غالب التأويلات مبنية على ثبوت مقامات غيبية لأنتمتهم. ومن أجل أن يقف القارى بنفسه، ويتيقن من صحة الدعوى التى ذكرناها هنا، سوف نستعرض مجموعة من النماذج لآرائهم، وهى: _____:

١. تأويل الدعائم: ٣٥، قسم المقدمة.

٢. راحة العقل: ١٧، مقدمة المحققين.

(٢٦٩) كتاب الولاية (الدعامة الأولى)

جاء فى كتاب تأويل الدعائم: عن الباقر - عليه السلام - : «بنى الإسلام على سبع دعائم: (١) الولاية: وهى أفضل وبها وبالولوى ينتهى إلى معرفتها، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج والجهاد»، فهذه كما قال - عليه السلام - : دعائم الإسلام قواعد، وأصوله التى افترضها الله على عباده.

ولها فى التأويل الباطنى أمثال، فالولاية مثلها مثل آدم (ص) لأنه أول من افترض الله عزوجل ولايته، وأمر الملائكة بالسجود له، والسجود: الطاعة، وهى الولاية، ولم يكلفهم غير ذلك فسجدوا إلا إبليس، كما أخبر تعالى، فكانت المحنة بآدم (ص) الولاية، وكان آدم مثلها، ولا بد لجميع الخلق من اعتقاد ولايته، ومن لم يتولّه، لم تنفعه ولاية من تولاه من بعده، إذا لم يدن بولايته ويعترف بحقه، وبأنه أصل من أوجب الله ولايته من رسله وأنبيائه وأئمة دينه، وهو أولهم وأبوهم.

والطهارة: مثلها مثل نوح - عليه السلام -، وهو أول مبعوث ومرسل من قبل الله، لتطهير العباد من المعاصى والذنوب التى اقترفوها، ووقعوا فيها من بعد آدم (ص)، وهو أول ناطق من بعده، وأول أولى العزم من الرسل، أصحاب الشرائع، وجعل الله آيته التى جاء بها، الماء، الذى جعله للطهارة وسماه طهوراً.

والصلاة: مثلها مثل إبراهيم (ص) وهو الذى بنى البيت الحرام، ونصب المقام، فجعل الله البيت قبله، والمقام مصلى.
والزكاة: مثلها مثل موسى، وهو أول من دعا إليها، وأرسل بها، قال تعالى: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . (٢)"

١. المروى عن طرقتنا: بنى الإسلام على خمس.

٢. النازعات: ١٥- ١٨.

(٢٧٠)

والصوم: مثله مثل عيسى - عليه السلام - وهو (١) أول ما خاطب به أمه، أن تقول لِمَنْ رَأَتْهُ مِنَ الْبَشَرِ، وهو قوله الذي حكاه تعالى عنه لها: "فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا." (٢) وكان هو كذلك يصوم دهره، ولم يكن يأتي النساء، كما لا يجوز للصائم أن يأتيهن في حال صومه.

والحج: مثله مثل محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وهو أول من أقام مناسك الحج، وسنَّ سنته، وكانت العرب وغيرها من الأمم، تحج البيت في الجاهلية ولا تقيم شيئاً من مناسكه، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديةً." (٣)

وكانوا يطوفون به عراً، فكان أول شيء نهاهم عنه ذلك فقال، في العمرة التي اعتمرها، قبل فتح مكة، بعد أن وادع أهلها، وهم مشركون: «لا يطوفن بعد هذا بالبيت عريان، ولا عريانة»، وكانوا قد نصبوا حول البيت أصناماً لهم يعبدونها، فلما فتح الله مكة كسرها، وأزالتها، وسنَّ لهم سنن الحج، ومناسكه، وأقام لهم بأمر الله معالمه. وافترض فرائضه. وكان الحج خاتمة الأعمال المفروضة، وكان هو - صلى الله عليه وآله وسلم - خاتم النبيين، فلم يبق بعد الحج من دعائم الإسلام غير الجهاد، وهو مثل سابع الأئمة، الذي يكون سابع اسبوعهم الأخير، الذي هو صاحب القيامة. (٤)

١. الظاهر أن ضمير الفاعل يرجع إلى روح الأمين.

٢. مريم: ٢٦.

٣. الأنفال: ٣٥.

٤. النعمان: تأويل الدعائم: ١ | ٥٢-٥١.

(٢٧١) كتاب الطهارة (الدعامة الثانية)

قال صاحب تأويل الدعائم: لا يجزى في الظاهر صلاة بغير طهارة، ومن صلى بغير طهارة لم تجزه صلاته، وعليه أن يتطهر، وكذلك (في الباطن) لا تجزى ولا تنفع دعوة مستجيب يدعى، ويؤخذ عليه عهد أولياء الله حتى يتطهر من الذنوب، ويتبرأ من الباطل كله، ومن جميع أهله، وإن تبرأ من الباطل بلسانه، مقيم على ذلك، لم تنفعه الدعوة، ولم يكن من أهلها، حتى يتوب ويتبرأ مما تجب البراءة منه، فيكون طاهراً من ذلك، كما قال تعالى: "وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ" (١). (٢)

ويقول: إن الأحداث التي توجب الطهارة لها في الباطن أمثال، يجب التطهر منه بالعلم، كما وجب التطهر في الظاهر من هذه بالماء، فمثل الغائط مثل الكفر، والذي يطهر منه من العلم الإيمان بالله، ومثل البول مثل الشرك وهو درجات ومنازل، والذي يطهر منه من العلم توحيد الله، ونفى الأضداد والأشباه، والشركاء عنه، ومثل الريح تخرج من الدبر، مثل النفاق، والذي يطهر منه من العلم التوبة والإقلاع عنه، واليقين والإخلاص والتصديق بالله، وأنبيائه وأوليائه، وأئمة دينه. (٣)

أما غسل الوجه ففيه سبعة منافذ: العينان، والأذنان، والمنخران، والفم.

وأن أمثالهم في الباطن، أمثال السبعة النطقاء الذين هم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - عليهم السلام - و محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وخاتم الأئمة من ذريته صاحب القيامة (ص)، ولا يُدَّ للمستجيب بعد البراءة، من الكفر والشرك والنفاق، من

١. الأنعام: ١٢٠.

٢. تأويل الدعائم: ١ | ٧٦.

٣. تأويل الدعائم: ١ | ٧٩.

(٢٧٢)

العلم والإيمان والتصديق بمحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ووصيته على ومن الإيمان والتصديق بالنطقاء الستة، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وبخاتم الأئمة صاحب القيامة (ص) وهو اليوم الآخر الذي ذكره الله في غير موضع من كتابه، وجعل الأيام السبعة أمثالا لهم، فالأحد مثل آدم - عليه السلام - والاثنين مثل نوح - عليه السلام - ، والثلاثاء مثل إبراهيم، والأربعاء مثل موسى - عليه السلام - ، والخميس مثل عيسى - عليه السلام - ، والجمعة مثل محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - جمع الله له علم النبيين، وفضلهم وأكملهم به، وجعله خاتمهم، وفضله بأن جعل السابع من ذريته، ومن أهل دعوته. فكان غُسل الوجه مثلاً على الإقرار بهذه الأسابيع وطاعتهم. (١) في التيمم:

يقول: التيمم وضوء الضرورة، هذا من ظاهر الدين، وأما باطن التيمم لِمَنْ عُدِمَ الماء وأنه في التأويل طهارة من أحدث حدثاً في الدين من المستضعفين، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَفِيداً لِلْعِلْمِ ، مِمَّا يَحْدُثُونَهُ عِنْدَ ذَوِي الْعَدَالَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ظَاهِرِ عِلْمِ الْأَئِمَّةِ الصَّادِقِينَ إِلَى أَنْ يَجِدَ مَفِيداً مِنَ الْمُطْلَقِينَ.

إلى أن قال: ولا ينبغي أن يتيمم من لم يجد الماء إلا في آخر الوقت، بعد أن يطلب الماء.

وذلك في الباطن من اقتراف ما يوجب عليه الطهارة بالعلم الحقيقي، فعليه أن يطلبه، ولا يُعَجَّلَ بالقصد إلى غير مطلق، يأخذ عنه ما يطهره من العلم الظاهر، حتى يجتهد في طلب مفيد مطلق، فإذا بلغ في الطلب استطاعته وانتهى إلى آخر وقت، يعلم أنه لا يجد ذلك، فحينئذٍ يقصد إلى من يفيد من المؤمنين، أهل الطهارة من ظاهر علم أولياء الله، ما يزيل عنه شك ما اقترفه وباطله.

إلى أن قال: قال الصادق (ص) في ذلك: إنه إن وجد الماء وقد تيمم وصلى _____

١. تأويل الدعائم: ١/ ١٠١ - ١٠٢.

(٢٧٣)

بتيممه ذلك، أجزاءه وعليه أن يتطهر بالماء أو يتيمم، إن لم يجد الماء، لما يستقبله من الصلاة.

باطن ذلك أنه إن فعل ما ذكرناه في دعوة إمام أو حدّ من حدوده، ثم دخلت على تلك الدعوة دعوة أخرى، ولم يجد مفيداً، فهو على ما كان عليه، وإن وجده كان على ما وصفنا، وليس عليه شيء لما مضى. (١) في ذكر التنظف يقول: الحيض علته تُصيب النساء في الظاهر، وأمثال النساء - كما ذكرنا في الباطن - أمثال المستجيبين.

فتأويل جملة القول في الحيض في الباطن، أنه علته وفساد، يدخل على المستجيب في دينه، يحرم عليه من أجلها سماع الحكمة، والكون في جماعة أهل الدعوة، كما لا يحل في الظاهر للمرأة إذا حاضت أن تصلّي، ولا تدخل المسجد، وكذلك لا يحل لمفيد ذلك المستجيب، أن يفيد شيئاً من العلم إذا أحدث ذلك الحدث، حتى يتطهر منه، بالتوبة والنزوع عنه، والإقلاع، وينقطع عنه ما عرض من ذلك الفساد في دينه. (٢)

ويقول أيضاً: قال الصادق - عليه السلام - : إذا طهرت المرأة من حيضها في وقت صلاة، فضيحت الغسل، كان عليها قضاء تلك الصلاة.

تأويله: أن المقترِفَ إذا تاب وانتصل ممّا اقترفه، ولم يتطهر في ذلك بالعلم، كما وصفنا، كان عليه أن يتطهر، وأن يسعى في إفادة ما فاته من الحكمة، بعد إقلاعه عمّا اقترفه.

فافهموا معشر المؤمنين ما تعبدكم الله به ظاهراً وباطناً، فإن ذلك مرتبط _____

١. تأويل الدعائم: ١/ ١٢٣ - ١٢٤.

٢. تأويل الدعائم: ١/ ١٦١.

(٢٧٤)

بعضه ببعض، يشهد كل شيء منه لصاحبه، ويطابقه ويوافقه فما وجب في الظاهر، وجب كذلك مثله ونظيره في الباطن، لا يجزى إقامة أحدهما دون الآخر، ولا يحل في الظاهر ما حُرّم في الباطن، ولا في الباطن ما حُرّم في الظاهر، وإياكم أن يستميلكم عن ذلك، تحريف المحرّفين، ولا شبهات الشياطين، فإن الله عزّوجلّ يقول: "وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ (١)" وقال: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ (٢)" وقال: "وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٣)". (٤) كتاب الصلاة (الدعامة الثالثة)

يقول: الصلاة في الظاهر ما تعبد الله عباده المؤمنين به، لئيبهم عليه، وذلك مما أنعم الله عزّوجلّ به عليهم، وقد أخبر تعالى أنه "أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" فظاهر النعمة في الصلاة إقامتها في الظاهر، بتمام ركوعها وسجودها وفروضها ومسنونها، وباطن النعمة كذلك في إقامة دعوة الحق في كل عصر كما هو في ظاهر الصلاة. (٥)

ويقول أيضاً: افترض الله خمس صلوات في الليل والنهار سمّاها في كتابه. وتأويل ذلك أن الخمس الصلوات في الليل والنهار في كل يوم وليلة مثلها في الباطن مثل الخمس الدعوات لأولى العزم من الرسل الذين صبروا على ما أمروا به، ودعوا إليه.

فصلاة الظهر وهي الصلاة الأولى مثل لدعوة نوح (ص)، وهي الدعوة _____

١. الأنعام: ١٢٠.

٢. الأعراف: ٣٣.

٣. لقمان: ٢٠.

٤. تأويل الدعائم: ١/١٦٧.

٥. تأويل الدعائم: ١/١٧٧.

(٢٧٥)

الأولى، وهو أول أولى العزم من الرسل.

والعصر مثل لدعوة إبراهيم (ص) وهو ثاني أولى العزم، وهي الصلاة الثانية.

والمغرب وهي الصلاة الثالثة مثل لدعوة موسى (ص) وهي الدعوة الثالثة، وهو ثالث أولى العزم.

والعشاء الآخرة مثل لدعوة عيسى (ص) وهي الدعوة الرابعة، وهو الرابع من أولى العزم، وهي الصلاة الرابعة.

والفجر وهي الصلاة الخامسة مثل لدعوة محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وهي الدعوة الخامسة، وهو خامس أولى العزم، فأمره

الله بأن يُقيم الصلاة ظاهراً وباطناً... وأن يدعو فيها إلى مثل ما دعا أولوا العزم من قبله. (١) في عدد الصلاة

يقول: ويتلو ذلك ذكر عدد ما في كل صلاة، من الركوع، وما يُجهر فيه منها بالقراءة، وما يُخافت فيه منها.

تأويل ذلك: أن جملة عدد الركعات للخمس الصلوات في اليوم واللييلة، الفرض من ذلك سبع عشرة ركعة والسنة مثلاً الفريضة (أربع

وثلاثون ركعة) والصلاة على سبعة أضرب، هذا ضرب منها.

والثاني: صلاة الكسوف، على خلاف صفة هذه، لأنها ركعتان، في كل ركعة خمس ركوع.

والثالث: صلاة العليل، والعريان، يصلّيان جالسين، وإذا لم يستطع العليل الصلاة، جالساً، صَلَّى مستلقياً أو مضطجعاً، وإذا لم يستطع

الركوع والسجود _____،

١. تأويل الدعائم: ١/١٧٨-١٨٠.

(٢٧٦)

يومي أي إيماء برأسه أو ببصره، إذا لم يستطع أن يومي برأسه.

والرابع: صلاة الخوف، تصلى على معنى غير معنى الصلاة في الأمن، وتجزى على ركعة منها تكبيراً عند الموافقة والمسائفة.

والخامس: صلاة الاستسقاء، والأعياد، والجمع، لها حد غير حد الصلاة في غير ذلك.

والسادس: صلاة الجنائز، ليس فيها ركوع ولا سجود.

والسابع: الصلاة على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، وهي لفظ باللسان بلا عمل بالأركان.

فأمثال الستة الأضرب من الصلاة أمثال الدعوة الستة النطقاء، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - عليه السلام - و محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ... والصلاة السابعة التي هي الصلاة على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهي قول بلا- عمل، مثل لدعوة آخر الأئمة وخاتمهم، وهو صاحب عصر القيامة، لأنه إذا قام رفع العمل، وقامت القيامة. (١) في وقت الصلاة يقول: أول وقت الظهر زوال الشمس.

وتأويل ذلك: أن الشمس في الباطن مثلها مثل ولي الزمان من كانبى أو إمام، ومثل طلوعها مثل قيام ذلك الولي و ظهوره، ومثل غروبها مثل نقلته وانقضاء أمره، وكان رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في وقته مثل الشمس، من وقت بعثه الله تعالى فيه إلى أن أكمل دينه الذي ابتعته لإقامته، وإكماله بإقامته وصيه، وذلك قول الله تعالى الذي أنزل عليه في اليوم الذي قام فيه بولاية على (ص) بغدير خم: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ" _____ "

١. تأويل الدعائم: ١/ ١٨٢.

(٢٧٧)

ديناً ("١")،

ل فلما فعل ذلك (ص) مال إلى النقلة عن دار الدنيا إلى معاده، فكان بين ذلك وبين وفاته سبعون ليلة.

وكان ذلك في التأويل مثل الزوال على رأس سبع ساعات، كما ذكرنا من النهار، التي جاء أن مثل عددها مثل عدد حروف اسمه واسم وصيه (ص)، وذلك سبعة أحرف، محمداً أربعة أحرف، وعلئ ثلاثة أحرف، فذلك سبعة، مثل لسبع ساعات، التي تزول الشمس عندها التي مثلها مثله (ص)، ومثل زوالها زواله، وانتقاله إلى معاده، الذي أعد الله له فيه الكرامة لديه.

(٢) في الأذان والإقامة

يقول: إن الأذان مثله مثل الدعاء إلى ولاية الناطق، وهو النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - في وقته، والإمام في عصره.

والإقامة مثلها مثل الدعاء إلى حجته، وهو ولي أمر الأمة من بعده، الذي يُقيمه لذلك في حياته، ويصير مقامه له بعد وفاته، فالأذان ثمانى عشرة كلمة... ومثل الأذان، مثل الدعاء إلى دعوة الحق، وذلك مثل الدعاء إلى الستة النطقاء، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى - عليهم السلام - ومحمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ، والدعاء إلى دعوة الحجج الاثنى عشر وهم أكابر الدعاء أصحاب الجزائر، التي هي جزائر الأرض الاثنى عشرة جزيرة، بكل جزيرة منها داع، يدعو إلى دعوة الحق، فدعوة الحق تشتمل على هذه الدعوات، وتؤكد أمرها، وتوجب الإقرار بأصحابها، وكان ذلك مثل عدد كلمات الأذان لكل دعوة منها كلمة؛ والإقامة تسع عشرة كلمة... والإقامة - كما ذكرنا - مثل النداء إلى الحجّة فمثل الكلمة الزائدة فيها، مثل الدعوة إلى الحجّة، الذي هو أساس الناطق، فأما الدعاء إلى الأئمة وحججهم، فيدخل ذلك في دعوة أصحاب الجزائر، لأن دعوتهم إلى كل إمام في وقته وحجته.

(٣)

١. المائدة: ٣.

٢. تأويل الدعائم: ١/ ١٩٩.

٣. تأويل الدعائم: ١/ ٢١٤.

(٢٧٨) في ذكر المساجد

يقول: فالمساجد في الظاهر البيوت التي يجتمع الناس إليها، للصلاة فيها، وهي على طبقات، ودرجات فأعلاها المسجد الحرام. ومثله مثل صاحب الزمان مَنْ كان من نبي أو إمام.

ومثل الأمر بالحج والسعي إليه من أقطار الأرض، مثل واجب ذلك على الناس، لولى زمانهم أن يأتوه من كل أفق من الآفاق.

ومثل مسجد الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مثل الحجَّة وكذلك، على الناس أن يأتوه كما يأتون المسجد الحرام.

ومثل مسجد بيت المقدس مثل بابه، أكبر الدعاء وبابهم، ويسمى باب الأبواب.

وجوامع الأمصار أمثالها أمثال النقباء وهم أكابر الدعاء أصحاب الجزائر.

ومساجد القبائل أمثالها أمثال دعاة القبائل على مقاديرهم، كمثل المساجد في فضلها، وفضل بعضها على بعض، وسعتها، وضيقها،

كذلك الدعاء منهم مشهورون بالفضل، وبعضهم أفضل من بعض وأوسع علماً.

(١) في تكبيرة الإفتتاح

يقول: إذا افتتحت الصلاة فارفع يديك، ولا تجاوز بهما أذنيك، وأبسطهما بسطاً، ثم كبر، فهذه التكبيرة التي تكون في أول الصلاة،

هي تكبيرة الإفتتاح، ورفع اليدين فيهما واجب عند أكثر الناس، إلا أنهم يختلفون في منتهى حد ذلك، والثابت عن أهل البيت -

عليهم السلام - ما جاء في هذه الرواية عن الصادق - عليه السلام - أنه لا يجاوز _____

١. تأويل الدعائم: ١/ ٢٢٥.

(٢٧٩)

بهما الأذنين، والذي يَوْمَر به في ذلك أن يحاذى بأطراف الأصابع من اليدين أعلى الأذنين، ويحاذى بأسفل الكفين أسفل الذقن،

فتكونُ اليدان قد حاذتا ما في الوجه من المنافذ السبعة، وهي: الفم، والمنخران، والعينان، والأذنان.

وتأويل ذلك أن مثل اليدين مثل الإمام والحجَّة، ومثل هذه المنافذ السبعة، مثل النطقاء السبعة، فمثل رفع اليدين إلى أن يحاذيهما،

مثل الإقرار في أول دعوة الحق بالإمام والحجَّة والنطقاء السبعة أعنى: إمام الزمان وحجَّته، وأن لا يفرق بين أحدٍ منهم، ومثل قوله: «اللَّهُ

أكبر» أنه شهادة وإقرار واعتقاد بأنَّ الله أكبر وأجل وأعظم من كلِّ شيء وأنَّ النطقاء والأئمة والحجج - وإن قرن الله طاعتهم بطاعته -

عباد من عباده مرربوبون.

(١) في القراءة

يقول: يقرأ في الصلاة في كلِّ ركعة بعد بسم الله الرحمن الرحيم، بفاتحة الكتاب، وفي الركعتين الأوليين، بعد فاتحة الكتاب بسورة،

ونهى عن أن يُقال «آمين» بعد فراغ فاتحة الكتاب، كما تقول ذلك العامَّة.

تأويل ذلك أن بسم الله الرحمن الرحيم تسعة عشر حرفاً، بسم الله سبعة أحرف، وهي مثل النطقاء السبعة، والسبعة الأئمة الذين

يتعاقبون الإمامة بين كل ناطقين، الرحمن الرحيم اثني عشر حرفاً مثل النقباء الاثني عشر.

وتأويل قراءته في كلِّ ركعة بفاتحة الكتاب، من أنها سبع آيات وأنه جاء في التفسير أنها السبع المثاني، لأنها تثني في كلِّ ركعة، وإنَّ

مثَّلها ومثل قراءتها في الصلاة مثل الإقرار بالسبعة الأئمة الذين يتعاقبون الإمامة بين كلِّ ناطقين، وإنَّ ذلك هو قول الله تعالى لمحمد

نبيه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - " :وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي "

(٢) وتأويله _____

١. تأويل الدعائم: ١/ ٢٥٩.

٢. الحجر: ٨٧.

(٢٨٠)

أنَّه جعل في ذريته سبعة أئمة يثنى منهم اسبوع بعد اسبوع، كما يثنى أيام الجمعة إلى أن تقوم الساعة وأنه جمع له علم النطقاء والأئمة

من قبله والقرآن العظيم، ومثله في التأويل مثل أساس دعوته وأئمتته وهو وصيه علي (ص).

وأما قراءة فاتحة الكتاب وسورة في كل ركعة تقرنان فيها فمثل ذلك في التأويل، مثل الإقرار في دعوة الحق بإمام الزمان وحبته وقول العامة بعد فراغ سورة الحمد آمين زيادة فيها فنهى عن ذلك كما ينهى عن إدخال غير أولياء الله في جملتهم، وعن زيادة غيرهم فيهم. (١) في صلاة العيدين

يقول: ليس في العيدين أذان ولا إقامة، ولا نافله، ويبدأ فيهما بالصلاة قبل الخطبة، خلاف الجمعة؛ وصلاة العيدين ركعتان يُجهر فيهما بالقراءة.

تأويل ذلك: أن مثل الخروج إلى العيدين مثل الخروج إلى جهاد الأعداء، وأمثل الأذان مثل الدعوة والخروج إلى العدو، وليست تقام له دعوة، إذ تقدم في دعوة الحق الأمر به، وإنما يلزم الناس أن ينفروا ويخرجوا إليه، كما أوجب الله ذلك عليهم في كتابه. ومعنى البدء في الصلاة يوم العيدين قبل الخطبة، خلاف الجمعة، أن الخروج إلى العيدين مثل الخروج إلى جهاد العدو، واستقبال القبلة في الصلاة مثل استقبال الإمام بالطاعة والسمع له وذكرنا أن مثل الخطبة من الخطيب مثل التوقيف من الداعي من يدعو على ما يأمره به، فكان مثل الإبداء بالصلاة في العيدين مثل إقبال الخارجين إلى جهاد الأعداء في حين خروجهم على إمامهم، والسمع منهم والطاعة لما به يأمرهم، وما عليه يرتبهم ويقيمهم وفي مقاماتهم، فذلك مثل الصلاة وبه يتدنى، ومثل الخطبة بعد ذلك مثل تحريض الإمام

١. المصدر نفسه: ٢٦٩.

(٢٨١)

المؤمنين على الجهاد، وأمره ونهيه إياهم في ذلك، بما يأمرهم به، وينهاهم عنه، ولذلك كان في خطبة العيدين الأمر بالجهاد وبطاعة الإمام، والتوبيخ على التقصير في العمل. (١)

هذه نماذج من تأويلات الإسماعيلية، في مجال الأحكام الشرعية، ومن أراد الاستقصاء فعليه الرجوع - مضافاً إلى كتاب تأويل الدعائم - إلى كتاب «وجه دين» للحالة ناصر خسرو (٣٩٤-٤٧١ أو ٤٨١هـ)، فقد قام بتأويل ما جاء من الأحكام في غير واحد من الأبواب، حتى الحدود والديات، والنكاح، والسفاح، ولكنه ألفه بلغة فارسية قديمة، فعلى من يريد المزيد من الاطلاع فليرجع إلى ذلك الكتاب، وقد طبع عام ١٣٩٧هـ طبعه أنيقة.

١. تأويل الدعائم: ١/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

الفصل الثالث عشر

الفصل الثالث عشر في أعلام الفكر الإسماعيلي

(٢٨٤) (٢٨٥)

ظهر المذهب الإسماعيلي على الساحة الإسلامية بطابع ديني بحت، مدعياً استمرار الإمامة، المتجسدة في إسماعيل بن جعفر، ومحمد بن إسماعيل، ولما اشتد سلطانهم بقيام دولة لهم في شمال إفريقيا، في بلاد المغرب، ومصر، ظهرت بينهم شخصيات بارزة في حقول السياسة والفلسفة والفقه والحديث والأدب وغيرها، وبما أن دراسة سيرتهم وما قدموه من تراث للمجتمع الإسلامي خارج عن موضوع كتابنا، لأنّه رهن دراسة تاريخ الدولة الفاطمية؛ فلنقتصر على ترجمة لفييف من أعلامهم ومفكرهم، ممن كان لهم دور في نضج المذهب وتكامله وانتشاره. ١ أحمد بن حمدان بن أحمد الورثياني (أبو حاتم الرازي) (٢٦٠-٣٢٢هـ) أحمد بن حمدان بن أحمد الورثياني الليثي (أبو حاتم الرازي) من زعماء الإسماعيلية وكتابهم، أول من ترجمه هو الصدوق في «تاريخ الري» حسب ما نقله ابن

حجر في «لسان الميزان»، قال:

ذكره أبو الحسن ابن بابويه في «تاريخ الري»، وقال: كان من أهل الفضل والأدب، والمعرفة باللغّة، وسمع الحديث كثيراً، وله تصانيف؛ ثم أظهر القول بالإلحاد وصار من دعاة الإسماعيلية، وأضل جماعة من الأكابر ومات في سنة (٢٨٤)

٣٢٢هـ (١)

و نقل صاحب الأعيان عن الرياض ما هذا لفظه: كان من القدماء المعاصرين للصدوق، له كتاب الرد على محمد بن زكريا الطبيب الرازي في الإلحاد وإنكار النبوة. (٢)

وقال مصطفى غالب: كان داعياً كبيراً لبلاد الري وطبرستان وآذربيجان، وقد استطاع أن يدخل أمير الري في المذهب الإسماعيلي وكان من كبار دعاة القائم بأمر الله، ونوّد أنه لعب دوراً عظيماً في شؤون طهران والديلم والري، السياسية، فاستجاب لدعوته أعظم رجالات تلك البلاد، وله مؤلفات عظيمة منها:

١. كتاب «الزينة»: كتاب في الفقه والفلسفة الإسماعيلية.

٢. «أعلام النبوة»: كتاب يبحث في الفلسفة الإسماعيلية.

٣. «الإصلاح»: كتاب يبحث في التأويل.

٤. «الجامع» كتاب في الفقه الإسماعيلي. (٣)

والحقيقة فإنّ أبا حاتم الرازي كان علماً من أعلام النهضة العلمية عند الإسماعيلية، وقد ساهم بنشر التعاليم الفلسفية في كافة الأقطار الشرقية، وخاصة في محيط الثقافة الإسلامية العامة، وبالرغم من كلّ هذا فإنه لم يسلم من اضطهاد الأعداء في الديلم، وقد اضطر إلى الاختفاء في أواخر سني حياته، ومات سنة ٣٢٢هـ بعد تولية القائم الفاطمي شؤون الإمامة الإسماعيلية، في بلاد المغرب، وقد عمّر اثنين وستين عاماً، كما قال بعض المؤرخين.

كان معاصراً لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور، وصاحب _____

١. لسان الميزان: ١/١٦٤.

٢. الأمين العاملي: أعيان الشيعة: ٢/٥٨٣، ولم نعثر على النص في رياض العلماء المطبوع.

٣. مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٨٦.

(٢٨٧)

الآراء الفلسفية المعروفة، التي خرج فيها على كثير من نظريات أرسطو الطبيعية والميتا فيزيائية، منكرًا التوفيق بين الفلسفة والدين، معتقداً بأنّ الفلسفة هي الطريق الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع.

وقد دارت بينهما (أي بين الرازيين) مناقشات عنيفة ومتعددة، حضرها بعض العلماء والرؤساء السياسيين، وقد دون أبو حاتم هذه المناقشات في كتابه «أعلام النبوة». (١)

وإليك كلاماً حول كتابه «أعلام النبوة»، فالكتاب يصوّر لنا معركة فكرية عقائدية بين رازيين، هما: أبو حاتم الداعي المتكلم الإسماعيلي، ومحمد بن زكريا الطبيب المتفلسف حيث تعددت اللقاءات بينهما، ودار النقاش حول مواضيع شتى في جوانب الثقافة الإسلامية، من عقائد فلسفية وكلام وطب وصيدلة وهيئة، وما إلى ذلك.

إنّ اختلاف الرأي بين الرجلين في هذه الجوانب لم يكن إلاّ مظاهر متعددة لاختلاف أساسي واحد بينهما في الرأي حول العقل الإنساني، وتكليفه وحدود إمكانه من جانب، والنبوة والضرورة إليها من جانب آخر. (٢)

والكتاب جدير بالمطالعة وقد بدأ المؤلف كتابه بقوله:

ناظرني «الملحد» في أمر النبوة وأورد كلاماً نحو ما رسمه في كتابه الذي قد ذكرناه فقال:

«من أين أوجبتم أن الله اختصّ قوماً بالنبوة دون قوم، وفضلهم على الناس، وجعلهم أدلّة لهم، وأحوج الناس إليهم؟ ومن أين أجزتم في حكمه الحكيم أن يختار لهم ذلك ويشلي بعضهم على بعض، ويؤكد بينهم العداوات _____»

١. كتاب الرياض: ٨-٩ المقدمة بقلم عارف تامر.

٢. أبو حاتم الرازي: أعلام النبوة: ٤، المقدمة بقلم صلاح الصاوي.

(٢٨٨)

ويكسر المحاربات ويهلك بذلك الناس؟!». (١)

ثم ذكر المناظرة.

وترجمه ابن النديم في «الفهرست»، وقال: وله من الكتب «كتاب الزينة» نحو ٤٠٠ ورقة وكتاب «الجامع» وفيه فقه. (٢) ٢ محمد بن أحمد النسفي البردغي (النجشبي) (... - ٣٣١هـ) كان كبير دُعاة خراسان وتركستان، استطاع أن يدخل في المذهب الإسماعيلي الكثيرين، من أهل تلك البلاد، اشتهر في تعمقه بدراسة فلسفة المذهب الإسماعيلي؛ ومن أشهر مؤلفاته:

١. كتاب «المحصول» يتألف من ٤٠٠ صفحة جلّها في الفلسفة الإسماعيلية.

٢. «كون العالم».

٣. كتاب «الدعوة الناجية».

٤. كتاب «أصول الشرع» يبحث في الفقه الإسماعيلي، وفلسفه ما وراء الطبيعة.

توفي هذا الداعي سنة ٣٣١هـ (٣ _____)

١. أبو حاتم الرازي: أعلام النبوة: ١، وطبع الكتاب في طهران عام ١٣٩٧هـ وترجمه خير الدين الزركلي و لم يأتي بشيء يذكر لاحظ الأعلام: ١/١١٩.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٨٢.

٣. تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٨٦-١٨٧، وقد ذكره باسم عبد الله بن أحمد النسفي البردغي، وجاء في مقدمه كتاب الرياض، للكرمانى، باسم محمد بن أحمد النسفي، والمقدمة لعارف تامر.

(٢٨٩)

يقول عارف تامر: إنَّ أوَّلَ حَدِّدٍ فَتَحَ لِلإِسْمَاعِيلِيَّةِ الآفاقَ الجديده، ظهورُ كتاب «المحصول»، وهذا الكتاب وضع موضع التداول في بداية القرن الرابع الهجري، وينسب إلى الداعي السوري الأكبر «محمد بن أحمد النسفي» الذي كان له الفضل بتحويل مذهب الدولة السامانية في آذربيجان إلى الإسماعيلية، وقد أُعدم سنة ٣٣١ هـ كما جاء في كتاب «الفرق بين الفرق» لمؤلفه عبد القاهر البغدادي. (١)

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست أنَّ النسفي خلف، الحسين بن علي المروزي في خراسان، الذي مات في حبس نصر بن أحمد، واستغوى نصر بن أحمد وأدخله في الدعوة الإسماعيلية، وأغرمه دية المروزي، وزعم أنه ينفذها إلى صاحب المغرب القيم بالامر. فلحق نصر سقّم طرحه على فراشه، وندم على إجابته للنسفي، فأظهر ذلك ومات.

فجمع ابنه نوح بن نصر الفقهاء وأحضر النسفي، فناظروه وهتكوه وفضحوه، فقتل النسفي، وروساء الدعاة ووجوهها من قواد نصر، ممن دخل في الدعوة ومزقهم كل ممزق. (٢) ٣ أبو يعقوب السجستاني

(٢٧١ - وكان حياً عام ٣٦٠هـ) أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزي أو السجستاني، ولد عام ٢٧١ هـ في سجستان، وهي مقاطعة في جنوب خراسان يمتُّ بصلته النسب إلى أسرة فارسية _____،

١. عارف تامر: كتاب الرياض: ٦، قسم المقدمة.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٣٩.

(٢٩٠)

وقيل أنه من أصل عربي، جاء جده من الكوفة، وقطن في سجستان.

نشأ السجستاني في مدارس الدعوة الإسماعيلية في اليمن، وأسهم مساهمة فعّالة في المناظرات العلمية التي كانت تجرى في ذلك العصر. (١)

يقول عنه الكاتب الإسماعيلي عارف تامر: يعتبر أبو يعقوب إسحاق السجستاني (السجزي) في طليعة العلماء الذين كرسوا أنفسهم لوضع قواعد فلسفية كونيّة قائمة على دعائم فكرية عقائدية إسماعيلية، ونشرها وتعميمها في الأقطار الأخرى، حتى اتهم في أواخر حياته، بالكفر والإلحاد، من الجمهور، ثم قتل أخيراً.

وقد لعب السجستاني دوراً هاماً في مجال الفلسفة في القرن الثالث للهجرة، وقد ظهر أثره الفكري في تلميذه حميد الدين الكرمانى (حجة العراقيين) الذي سار على مناهجه، ودعا إلى تعاليمه.

عاصر الدعوة الإسماعيلية الباطنية في عصر الظهور أي إبان ازدهار الدولة الفاطمية وظهورها كدولة إسلامية ذات كيان حضارى، وعلمى، واجتماعى، وسياسى. (٢)

كتب كتاب «النصرة» الذي عارض فيه كتاب «الإصلاح» الذي وضعه أبو حاتم الرازى في الرد على آراء النسفى التي وردت في كتابه «المحصول» وبذلك انتصر للنسفى على الرازى.

وقام الكرمانى إلى تأليف كتابه «الرياض» بتقريب وجهات النظر بين الدعاة المتجادلين (النسفى، الرازى، السجستاني).

ترك السجستاني بعده مؤلفات علمية فلسفية عددها ينوف على الثلاثين _____

١. مصطفى غالب: مقدمة الينابيع: ٤٦.

٢. عارف تامر: مقدمة كتاب الرياض: ١٠، نقل بتصرف.

(٢٩١)

ولعل أشهر كتبه:

١. كتاب النصره، ٢. كتاب الافتخار، ٣. كتاب المقاليد، ٤. كتاب مسيله الأحران، ٥. كتاب سلم النجاه، ٦. كتاب سرائر المعاد والمعاش، ٧. كتاب كشف المحجوب، ٨. كتاب الوعظ، ٩. كتاب أسس البقاء، ١٠، كتاب خزانه الأدله، ١١. كتاب تآلف الأرواح،

١٢. كتاب تأويل الشريعة، ١٣. كتاب أساس الدعوة، ١٤. رساله تحفه المستجيبين، ١٥. كتاب الينابيع (١)

وقد وقفنا من كتبه على كتاب ورساله فالكتاب تحت عنوان «الينابيع» بتقديم وتحقيق مصطفى غالب، نشره المكتب التجارى للطباعة في لبنان - بيروت عام ١٩٦٥ م.

وقد قسم السجستاني يناعيه إلى أربعين ينبوعاً، جعل كل ينبوع مشابهاً لحد من الحدود الدينيه، المعروفه بالنظام الإسماعيلي. ويظهر أنه قد وضعه لطبقه خاصه من الدعاة، وأصحاب المراتب العليا في الدعوة، وإلى الذين وصلوا في دراساتهم الفلسفيه إلى الدروره.

و أما الرساله فهى رساله «تحفه المستجيبين» طبعت ضمن خمس رسائل إسماعيلية بتحقيق وتقديم عارف تامر عام ١٣٧٥هـ كتبها لطبقه المستجيبين والطلاب الذين يرغبون فى الاطلاع على الفلسفه الإسماعيلية، أو الدخول فى الدعوة الهاديه.

وقد ترجم له مصطفى غالب أيضاً فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ١٨٧. ولادته ووفاته

ذكر مصطفى غالب أنه ولد سنة ٢٧١هـ فى سجستان، ثم قال: وبعد اضطهاد مرير، قُتل فى تركستان عام ٣٣١هـ _____

١. مقدمة الينابيع: ٤٧.

(٢٩٢)

غير أن الكاتب الإسماعيلي عارف تامر يذكر خلاف ذلك ويقول: يذهب «ماسينيون» و«و.ايفانوف» إلى القول أنه مات سنة ٣٣١هـ ولكني أخالفهما في ذلك فالمعروف عن السجستاني أنه كان أستاذاً للكرمانى، والكرمانى ظل عائشاً حتى سنة ٤١١هـ إذن متى أخذ الكرمانى عنه علوم الدعوة؟ وهناك نص صريح فى كتاب «الافتخار» للسجستاني يذكر فيه أنه وضعه سنة ٣٦٠هـ وقد ورد ذكر كتاب «الافتخار» فى كتاب «الرياض» للسجستاني نفسه، أى أنالسجستاني وضع كتاب «الرياض» بعد كتاب «الافتخار» أى سنة ٣٦٠هـ وهذا يجعلنا نقول بل نؤكد: إن السجستاني كان داعياً فى منطقته بخارى أيام إمامة المعز لدين الله الفاطمى، أى أنه كان معاصراً لجعفر بن منصور اليمنى، وللقاضى النعمان وغيرهما، من كبار المؤلفين وعلماء الدعوة فى ذلك العصر العلمى الزاهر. (١)

وقال البغدادي عند البحث عن الباطنية: وظهر بنيسابور داعية لهم يعرف بالشعرانى، وقتل بها فى ولاية أبى بكر بن الحجاج عليها، وكان الشعرانى قد دعا الحسين بن على المروزى، وقام بدعوته بعده محمد بن أحمد النسفى داعية أهل ماوراء النهر، وأبو يعقوب السجزي المعروف بـ«بندانه» وصنف النسفى لهم كتاب «المحصول» وصنف لهم أبو يعقوب كتاب «أساس الدعوة» وكتاب «تأويل الشرائع» و«كشف الأسرار» وقتل النسفى والمعروف بـ«بندانه» على ضالتهما. (٢)

وقال خير الدين الزركلى: إسحاق بن أحمد السجزي أو السجستاني أبو يعقوب، من علماء الإسماعيلية ودعاتهم يمانى، اشتهر فى سجستان، وقتل فى تركستان، له تصانيف منها «الينابيع» قالوا: إنه أهم كتبهم. (٣)

١. عارف تامر: مقدمة خمس رسائل إسماعيلية: ١٥-١٦.

٢. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٢٨٣.

٣. خير الدين الزركلى: الأعلام: ١/٢٩٣.

(٢٩٣) ٤ أبو حنيفة النعمان

(...٣٦٣هـ) قاضى القضاة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد التميمى، واختلف فى تاريخ ولادته، فقال بعضهم: إنها سنة ٢٥٩هـ وقال آخرون: إنه ولد فى العشر الأخيرة من القرن الثالث.

تصل فى أول عهده بمؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله المهدي، ورافق الدولة الجديدة خطوةً بخطوة، وبعد وفاة المهدي ولأه «القائم بأمر الله» قضاء طرابلس الغرب، وفى عهد المنصور تولى قضاء المنصورية، وكان قضاؤه يشمل سائر المدن الإفريقية، مرجعاً لجميع القضاة حتى عهد المعز لدين الله الذى قرّبه إليه، وأدناه من مجلسه، فوضع فيه كتاب «المجالس والمسامرات».

ولما دخل المعز مصر، كان معه «النعمان» وكان قاضياً للجيش، فأصبح فى مصر قاضياً للقضاة. (١)

وكان محط ثقة المعز لدين الله، جعله مستشاراً قضائياً له، وساعد المعز فى المسائل الخاصة بالدعوة، فقد وضع أسس القانون الفاطمى، وينظر إليه على أنه المشرع الأكبر للفاطميين. يقول رواة الفاطميين: إنه لم يولف شيئاً دون الرجوع إلى المعز لدين الله، ويعتبر أقوم كتبه كتاب «دعائم الإسلام» أنه من عمل المعز نفسه، وليس من عمل قاضيه الأكبر، ولهذا كان هذا الكتاب هو القانون الرسمى منذ عهد المعز حتى نهاية الدولة الفاطمية، كما يتضح ذلك من رسالته كتبها الحاكم بأمر

١. أعيان الشيعة: ١٠/٢٢٣.

(٢٩٤)

الله إلى داعيه باليمن، بل لا يزال هذا الكتاب هو الوحيد الذى يسيطر على حياة طائفة البهرة فى الهند، وعليه المعول فى أحوالهم الشخصية. (١)

توفى النعمان أول رجب سنة ٣٦٣هـ فخرج المعز بين الحزن عليه، وصلّى عليه، وأضجعه فى التابوت، ودفن فى داره بالقاهرة (٢) وذكر

أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغانى فى «سيرة القائد جوهر» أنه توفى فى ليلة الجمعة سلخ جمادى الآخرة من السنة. (٣) بلغت مؤلفاته نحواً من سبعة وأربعين كتاباً، جمعت ألواناً شتى من العلوم فى فقهه، وتأويل وتفسير، وأخبار، وفيما نقل ابن خلكان عن ابن زولاق: «أنه ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف». وهذه المؤلفات بعضها محفوظ، وبعضها لا يوجد إلا بعض أجزائه وبعضها فقد فلا يعرف إلا اسمه، وإليك أسماء بعض تلك المؤلفات:

١. جزء من كتاب شرح الأخبار، فى مكتبة برلين.
 ٢. دعائم الإسلام، وهذا الكتاب من أهم كتبه، مطبوع.
 ٣. تأويل دعائم الإسلام، مطبوع.
 ٤. أساس التأويل، مطبوع.
 ٥. جزء من كتاب المجالس والمسافرات.
 ٦. كتاب الهممة فى اتباع الأئمة.
 ٧. افتتاح الدعوة، مطبوع.
 ٨. الأرجوزة المختارة، مطبوع.
 ٩. الطهارة _____.
 ١. دعائم الإسلام: ١/١٢، قسم ١ لمقدمة.
 ٢. اتعاظ الحنفاء: ١/١٤٩.
 ٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/٤١٦.
 - (٢٩٥)
 ١٠. التوحيد والإمامة. (١)
 ١١. كتاب «الاقتصار» فى الفقه، مطبوع.
 ١٢. كتاب «الأخبار» فى الفقه أيضاً.
 ١٣. ابتداء الدعوة للعبدين، مطبوع فى جزء.
- وقال عنه ابن زولاق فى كتاب «أخبار قضاء مصر»: «إنه كان عالماً بوجوه الفقه، وعلم اختلاف الفقهاء، واللغة والشعر، والمعرفة بأيام الناس.
- إلى أن قال: وله ردود على المخالفين: له رد على أبى حنيفة، وعلى مالك، والشافعى، وعلى ابن سريج، وكتاب «اختلاف الفقهاء» ينتصر فيه لأهل البيت، وله العقيدة الفقهية لقبها بـ «المنتخب». (٢) النعمان إسماعيلى لا اثنى عشرى وقعت الشكوك حول مذهب النعمان وهل هو إسماعيلى أو اثنا عشرى؟ وبعد التتبع والإمعان فى الكتب التى تحت متناول أيدينا من آثار المؤلف، وهى:
١. الدعائم.
 ٢. تأويل الدعائم.
 ٣. الأرجوزة المختارة.
 ٤. أساس التأويل.
 ٥. كتاب الاقتصار فى الفقه _____.

١. أعيان الشيعة: ١٠/٢٢٣.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/٤١٦. ومن أراد المزيد فليراجع المصادر التالية: معالم العلماء: ١٢٦؛ العبر: ٢/١١٧؛ دول الإسلام: ١/٢٢٤؛ سير اعلام النبلاء: ١٦/١٥٠؛ تعاض الحنفاء: ١٤٩؛ لسان الميزان: ٦/١٦٧؛ شذرات الذهب: ٣/٤٧؛ رياض العلماء: ٤/٣٧٥؛ ريحانة الأدب: ٧/٧٣؛ روضات الجنات: ٨/١٤٧.

(٢٩٤)

٦. رسالة افتتاح الدعوة.

٧. الرسالة المذهبية.

اتضح أن الرجل إسماعيلي لا اثنا عشري، وإن كان محباً لأهل البيت كثيراً، ويتزّه عن بعض العقائد المنحرفة عند الإسماعيلية. وقد ذكر في باب «ذكر منازل الأئمة» شيئاً عن أحوال الغلاة كما وذكر معاملته على معهم بالإحراق، إلى أن يقول: وكان في أعصار الأئمة من ولد على مثل ذلك ما يطول الخبر بذكرهم، كالمغيرة بن سعيد (لعنه الله) وكان من أصحاب أبي جعفر محمد بن علي ودعاه. إلى أن قال: ولعن أبو جعفر، المغيرة وأصحابه، ثم ذكر «أبا الخطاب» وعقيدتهم الإباحية، وأنّ أبا جعفر لعنه كل ذلك يدل على سلامة عقيدته في حق الأئمة (١).

ومع ذلك كله فهو فقيه إسماعيلي اعتنق ذلك المذهب بعدما كان سنياً، ولم يكن إمامياً اثني عشرياً.

نعم ذكر المحدث النوري، أن الرجل كان إمامياً اثني عشرياً، وأنّ اقتضاره على الحديث عن الأئمة الست، لأجل ستر الأمر وكتمان السر، واستشهد على ذلك بوجوه غير مجدية نشير إلى بعضها:

الأول: قال ابن خلكان: كان من أهل العلم والفقه والدين والنبيل، على مالا يزيد عليه، وله عدّة تصانيف - إلى أن قال -: وكان مالكي المذهب ثم انتقل إلى مذهب الإمامية وصنف كتاب «ابتداء الدعوة للبيدين». (٢)

أقول: إن المراد من الإمامية من يعتقد بإمامة علي وأولاده، سواء كان زيدياً أو إسماعيلياً أو اثني عشرياً، والإسماعيلية يصفون أنفسهم بالإمامية لقولهم بإمامة _____

١. لاحظ دعائم الإسلام: ١/٤٥، باب ذكر منازل الأئمة.

٢. وفيات الأعيان: ٥/٤١٥ برقم ٧٦٦.

(٢٩٧)

المنصوص عليهم؛ والذي يدل على ذلك أن ابن خلكان يذكر بعد قوله: «ثم انتقل إلى مذهب الإمامية» وصنف كتاب «ابتداء الدعوة للبيدين» والمراد منه الدعوة «لعبدالله المهدي» مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ومصر.

وأما ما نقله ابن خلكان عن ابن زولاق، أنه قال: وللقاضى كتاب: «اختلاف الفقهاء» ينتصر فيه لأهل البيت فليس دليلاً على ما يتبناه لأن الفرق الثلاث كلهم ينتمون إلى أهل البيت - عليهم السلام -.

الثاني:

١. روايته عن أبي جعفر الثاني «الإمام الجواد» - عليه السلام -، والرضا - عليه السلام - ففي كتاب الوصايا عن ابن أبي عمير أنه قال: كنت جالساً على باب أبي جعفر - عليه السلام - إذ أقبلت امرأة، فقالت: استأذن لى على أبي جعفر - عليه السلام -، فقيل لها: وما تريد مني منه؟ قالت: أردت أن أسأله عن مسألة، قيل لها: هذا الحكم، فقيه أهل العراق فأسأله.

قالت: إن زوجي هلك وترك ألف درهم، وكان لى عليه من صدق خمسمائة درهم، فأخذت صدقي، وأخذت ميراثي، ثم جاء رجل فقال لى: عليه ألف درهم وكنت أعرف له ذلك، فشهدت بها.

فقال الحكم: اصبرى حتى أتدبر فى مسألتك وأحسبها وجعل يحسب، فخرج إليه أبو جعفر - عليه السلام - وهو على ذلك، فقال: ما

هذا الذي تحرك أصابعك يا حكم؟ فأخبره فما أتم الكلام حتى قال أبو جعفر - عليه السلام - : أقرت له بثلاثي ما بيديها، ولا ميراث له حتى تقضى.

ثم ذكر المحدث النوري: أن المراد من أبي جعفر هو الإمام الجواد، لأن ابن أبي عمير لم يدرك الصادق فضلاً عن الباقر - عليه السلام - . (١)

١. النوري: المستدرک: ٣/٣١٤، الفائدة الثانية.

(٢٩٨)

أقول: إن النسخة الموجودة عند المحدث النوري كانت مغلوطة محرّفة، وقد جاءت الرواية في كتاب دعائم الإسلام في مصر بتحقيق آصف بن علي أصغر فيضى، بالنحو التالي: عن الحكم بن عتيبة (١) قال: كنت جالساً على باب أبي جعفر وذكر الحديث (٢) والشاهد على أن الجالس كان هو الحكم بن عتيبة لا ابن أبي عمير ما في متن الرواية حيث قيل لها: هذا الحكم فقيه أهل العراق.

٢. أنه روى في كتاب الميراث عن حذيفة بن منصور قال: مات أخ لي وترك ابنته فأمرت إسماعيل بن جابر أن يسأل أبا الحسن علياً - صلوات الله عليه - عن ذلك فسأله فقال: المال كله للابنة. (٣) وقد تصفحنا كتاب الفرائض من الدعائم المطبوع بمصر فلم نعثر على الحديث. (٤)

٣. روى في كتاب الوقوف عن أبي جعفر محمد بن علي عليمها السلام أتبع بعض أصحابه كتب إليه أن فلاناً ابتاع ضيعة وجعل لك في الوقف الخمس الخ.

وهذا الخبر مروى في الكافي و التهذيب والفقيه مسنداً عن علي بن مهزيار قال: كتبت إلى أبي جعفر الخ، وعلي بن مهزيار من أصحاب الجواد والرضا عليمها السلام لم يدرك قبلهما من الأئمة أحداً. (٥) ما نقله عن علي بن مهزيار، و رواه الكليني في كتاب الوصايا (٦) ورواه

١. الصحيح، الحكم بن عتيبة، (٤٧ - ١١٥ هـ) وهو من مشاهير فقهاء عصر أبي جعفر الباقر - عليه السلام - . راجع رجال الكشي: ١٧٧، ورجال الطوسي: ٨٦ برقم ٦.

٢. دعائم الإسلام: ٢/٣٦٠ برقم ١٣٠٩.

٣. المستدرک: ٣/٣١٤.

٤. لاحظ الدعائم: ٢/٣٦٥-٤٠٠.

٥. المستدرک: ٣/٣١٤.

٦. الكافي: ٧/٣٦ برقم ٣٠.

(٢٩٩)

الشيخ في التهذيب (١) ورواه الصدوق في الفقيه. (٢)

هذا في كتبنا وأما الدعائم، فقد رواه في كتاب الصدقة، بالنحو التالي:

عن أبي جعفر محمد بن علي عليمها السلام ، أنه قال: تصدق الحسين بن علي بدار، فقال له الحسن بن علي: تحوّل عنها.

وعنه أن بعض أصحابه كتب إليه: أنفلاناً ابتاع ضيعة فأوقفها، وجعل لك في الوقف الخمس ... (٣)

غير أن المتبادر من أبي جعفر بقرينه مضمون الحديث حيث يحكى فعل الحسن بن علي هو الإمام الباقر - عليه السلام - ، وهو في كتابه يكرر النقل عن أبي جعفر ويذكر اسمه بعده، ويقول: محمد بن علي، ومراده الإمام الباقر - عليه السلام - .

وعلى ذلك فالضمير في الحديث الثاني يرجع إلى الإمام الباقر.

نعم بقي هنا شيء وهو تقارب ما روى في الدعائم مع ما روى في جوامعنا في مضمون الخبر، وهو قابل للتأمل.

٤. ذكر في الدعاء بعد الصلاة: وروينا عن الأئمة، أنهم أمروا بالتقرب بعد كل صلاة فريضة، إذا سلم المصلي بسط يديه ورفع باطنهما، ثم قال: اللهم إني أتقرب إليك بمحمد رسولك ونبيك، وبوصية علي وليك، وبالأئمة من ولده الطاهرين، الحسن، والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد ويسمى الأئمة إماماً إماماً إلى أن ينتهي لإمام عصره.

ثم يقول: اللهم إني أتقرب إليك بهم. (٤)

(١) ١. التهذيب: ٩/١٣٠ برقم ٤.

٢. الفقيه: ٤/١٧٨ برقم ٦٢٨.

٣. دعائم الإسلام: ٢/٣٤٤.

٤. دعائم الإسلام: ١/١٧١.

(٣٠٠)

قال النوري: غير خفي على المنصف أنه لو كان إسماعيلياً، لذكر بعده إسماعيل بن جعفر بن محمد بن إسماعيل إلى إمام عصره المنصور بالله والمهدي بالله. (١)

أقول: إنه لم يذكر أسماءهم إما لكثرتهم، أو لإخفاء سرهم كما ذكره في منظومته، فيقول:

ولم يكن ينعني من ذكرهم * إلا احتفاظي بمصون سرهم

وليس لي بأن أقول جهراً * ما كان قد أدى إلى سراً

وهم على الجملة كانوا استتروا * ولم يكونوا إذ تولوا ظهورا

بل دخلوا في جملة السواد * لخوفهم من سطوة الأعدا

حتى إذا انتهى الكتاب أجله * وصار أمر الله فيمن جعله

بمنه مفتاح قفل الدين * أيده بالنصر والتمكين

فقام عبد الله وهو الصادق * مهدينا صلى عليه الخالق (٢) إلى آخر ما ذكره، ومراده من المهدي، هو عبيد الله المهدي.

إلى هنا تبين أنه لا دليل على كون الرجل اثني عشرياً إلى آخر عمره، أو كان اثني عشرياً، وعدل عنها إلى الإسماعيلية.

نعم بقي هنا شيء وهو أنه ذكر في كتاب «الارجوزة المختارة» فرق الشيعة، ورد على الروندي، والزبيدي، والجارودي، والبتري،

والمغبري، والكيساني، والكربيني، والبياتي، والمختارية والحارثية، والعباسية، والرزامية، ولم يذكر شيئاً ما عن الإمامية الاثني عشرية.

١. المستدرک: ٣/٣١٧.

٢. الارجوزة المختارة: ١٩٢.

(٣٠١)

و يقول:

وهذه أصول قول الشيعة * ولو حكيت معها فروعه

لا تسع القول بغير فائدة * وكانت الحجة فيه واحدة (١) وهذا من العجب، مع أن الاثني عشرية، من أشهر الفرق، وهذا يدفعنا إلى القول،

بأنه كان يميل إليها بعض الميل، والله العالم. نظرة في كتاب الدعائم

نرى في كتاب الدعائم أنقاض القضاة حفظ السنة المروية عن طريق أئمة أهل البيت، وأنه أكثر الرواية عن الصادقين عليمها السلام،

غير أنه لم تكن له صلة بعلماء المذهب الاثني عشري، ولذلك خالفهم في نفس كتاب الإرث في موارد عديده:
١. مما روى عن علي أنه قضى في رجل هلك، ولم يخلف وارثاً غير امرأته، فقضى لها بالميراث كله. وفي امرأة هلكت ولم تدع وارثاً غير زوج لها، فقضى له بالميراث كله.

فزعم أنه يخالف ظاهر نص الكتاب، وثابت السنة. (٢)

٢. ما روى عن أبي جعفر وأبي عبد الله، أنهما قالوا: لا يرث النساء من الأرض شيئاً، وإنما تعطى المرأة قيمة النقص.

قال: فهذا أيضاً لو حمل على ظاهره وعلى العموم، لكان يخالف كتاب الله _____

١. الأرجوزة المختارة: ٢٣٦.

٢. دعائم الإسلام: ٢/٣٩٣.

(٣٠٢)

جلد ذكره، والسنة وإجماع الأئمة والأمة. (١)

وما روى عن أئمة أهل البيت، في عدم إرث النساء من الأرض، مُخصص للقرآن والسنة، وليس مخالفاً والمخالف هو المتباين.
كما أن الردّ مازاد على الثمن والربع، في الفرع الأول إلى الزوج والزوجة، لا يُعدّ مخالفاً للكتاب، لأن الكتاب ساكت عن حكم مازاد على الفريضة.

نعم نسب إليه المحدث النوري، أنه ممن يُحرّم المتعة ولكن الوارد في النسخة المطبوعة خلافه، قال القاضي: عن جعفر بن محمد، أنه قال: إذا تزوّج الرجل المرأة بصدّاق إلى أجل، فالنكاح جائز، ولكن لا بدّ أن يعطيها شيئاً قبل أن يدخل بها، فيحل له نكاحها، ولو أن يعطيها ثوباً أو شيئاً يسيراً، فإن لم يجد شيئاً، فلا شيء عليه، وله أن يدخل بها، ويبقى الصداق ديناً عليه.

(٢)

وفي خاتمة المطاف: من طالع كتبه التي أو ماناً إليها، يقف على أنّ الرجل فقيه إسماعيلي، يدافع عن المذهب، وخلافه الخلفاء الفاطميين بحماس، خصوصاً في كتابه «افتتاح الدعوة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية». ٥ أحمد بن حميد الدين بن عبد الله الكرمانى

(٣٥٢- كان حياً سنة ٤١١هـ) حميد الدين ، أحمد بن عبد الله الكرمانى الداعى فى عهد الحاكم بالله (٣٧٥-٤١١هـ) والملقب بحجّة العراقين، وكبير دعاة الإسماعيلية فى جزيرة _____

١. دعائم الإسلام: ٢/٣٩٦.

٢. دعائم الإسلام: ٢/٢٢٥ برقم ٨٤٤.

(٣٠٣)

العراق، وصاحب التآليف العديدة فى المذهب الإسماعيلي وإثبات الإمامة للفاطميين، والردّ على مخالفيهم.

«ظهر أثره وعظم شأنه فى عهد الخليفة الفاطمى «الحاكم بأمر الله» وكان لقبه المشهور «حجّة العراقين» أى أنه كان مسؤولاً عن شؤون الدعوة الثقافية فى فارس والعراق، وفى القاهرة كان مركزه كمقام (حجّة جزيرة) فهو أحد الحجج الاثني عشر، المكلفين بإدارة شؤون الدعوة الإسماعيلية فى العالم، ثمّ استخدم بعد ذلك كرئيس لدار الحكمة فى القاهرة، وهى المؤسسة الثقافية التى نستطيع أن نقول عنها: إنّها أول جامعة انشئت فى العالم.

وفد على القاهرة سنة ٤٠٨هـ بناءً على طلب المأمون افتكين الضيف داعى دعاة الدولة الفاطمية فى عهد الحاكم بأمر الله، عندما حوى وطيس المعارك الدينيّة، وقامت الدعوات الجديدة وراج سوق البدع التى كانت تهدف إلى الغلو والانحراف عن واقع وأسس الدعوة.

ألّف كثيراً من الكتب أشهرها: «الرسالة الواعظة» في الردّ على الحسن الفرغاني، القائل بالوهيئة الحاكم بأمر الله، و«البشارات» و«المصاييح» و«الرسالة المضيئة» و«المصاييح في إثبات الإمامة» و«تنبيه الهادي والمستهدي» و«راحة العقل» و«الرسالة الدرّية» و«رسالة التوحيد في المعاد» و«الأقوال الذهبية» و«تاج العقول» و«ميزان العقل» و«رسالة المعاد».

(١) وكتاب «الرياض في الحكم بين (الصادقين) صاحبى الإصلاح والنصرة» مطبوع، إلى غيرها من المؤلفات.

وقد ظلت سنة وفاته مجهولة بالرغم من وصول أكثر مؤلفاته وآثاره إلينا.

يقول الكرمانى عن نفسه فى مقدمة كتابه «راحة العقل»: ومولفه حميد الدين، أحمد بن عبد الله الداعى فى جزيرة العراق وما وليها،

من جهة الإمام _____

١. عارف تامر: مقدمة كتاب الرياض: ١٦-٢١.

(٣٠٤)

الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، المنصوص عليه من جهة القائمين مقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على ما بيناه فى كتبنا المعروفة بكتاب «المصاييح فى الإمامة» و«مباسم البشارات» و«الرسالة الكافية» وكتاب «تنبيه الهادي والمستهدي». ألّفه فى سنة إحدى عشرة وأربعمائة (٤١١) فى ديار العراق. (١)

وهذا النص يدل على أنه كان حياً فى تلك السنة.

فما ذكره ايفانوف، من أنه توفى بعد سنة ٤٠٨ بقليل ليس تاماً.

وكتابه «راحة العقل»، من أشهر مؤلفاته، وقد حاول فيه أن يوفق بين الفلسفة اليونانية وما دانت به الإسماعيلية. وقد ذكرنا شيئاً من خصوصيات كتابه عند البحث عن عقائد الإسماعيلية.

يقول محقق الكتاب: يُعد الكرمانى بحق شيخ فلاسفة الإسماعيلية فنحن نعلم أنّ الدعاة قبله كانوا مختلفين أشدّ الاختلاف فى مسائل كثيرة، فالداعى النخشبى وضع كتابه «المحصول» فى فلسفة المذهب، وجاء بعده أبو حاتم الرازى فوضع كتاب «الإصلاح» وخالف فيه أقوال من سبقه، ثمّ جاء أبو يعقوب السجستاني أستاذ الكرمانى فانتصر للنخشبى، وخالف أبا حاتم، ثمّ جاء الكرمانى الذى استطاع أن يوفق بين آراء شيخه، وبين آراء أبي حاتم، ولا نكاد نجد خلافاً يُذكر بين علماء الدعوة الإسماعيلية فى فلسفة المذهب، بعد أقوال الكرمانى، وإن كُنّا نجد خلافاً شديداً بينهم فى المسائل التأويلية، لأنّ التأويل شخصى يختلف باختلاف الداعى، وكل كتب الدعاة بعد الكرمانى تتفق مع ما ورد فى كتاب «راحة العقل».

(٢)

وقد ترجمه مصطفى غالب فى كتابه «تاريخ الدعوة الإسماعيلية» ضمن ترجمته سيرة الحاكم بالله، وأنهى كتبه إلى ٣٣ كتاباً، وذكر منها كتاب «الإصابة فى _____»

١. راحة العقل: ٢٠، مقدمة التحقيق للدكتور كامل حسين، ومحمد مصطفى حلمى.

٢. المصدر السابق: ١٧.

(٣٠٥)

تفضيل على على الصحابة». (١)

كما وترجمه خير الدين الزركلى، ولم يأت بشيء جديد.

(٢) ٦ المويّد فى الدين (حدود ٣٩٠-٤٧٠هـ) هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى، المويّد فى الدين، داعى الدعوة من زعماء الإسماعيلية. ولد بشيراز سنة ٣٩٠هـ ونشأ وتعلّم فيها، وكان له ولأبيه دور هامّ فى بث الدعوة الفاطمية.

وغادر مدينته خوفاً من السلطان أبى كالجار فخرج متنكراً إلى الأهواز سنة (٣٢٩هـ) ثمّ توجه إلى حامة منصور بن الحسين الأسدى.

وتوجه إلى مصر، فخدم المستنصر الفاطمي، في ديوان الإنشاء وتقدم إلى أن صار إليه أمر الدعوة الفاطمية (سنة ٤٥٠هـ) ولقب بداعي الدعوة، وباب الأبواب. ثم نحي وأبعد إلى الشام، وعاد إلى مصر فتوفي بها، عن نحو ثمانين عاماً، وصلى عليه المستنصر. وقيل: إنه استطاع أن يدخل الملك أبي كالجار في المذهب الإسماعيلي، كما أدخل غيره من الوزراء و الأمراء، وكان يفهمهم ويقنعهم بغزارة علمه، وشدة معرفته، في أصول العقائد الإسماعيلية، وخاصة نبوغه في علم التأويل الذي تركز عليه العقائد الفلسفية الإسماعيلية.

عظم أمر المويدي، في تلك البلاد فسارت سيرته في الآفاق، ولقد استدعى إلى بيت الدعوة في مصر، نحو عام ٤٣٨، ليلقى بعض المجالس التأويلية _____،

١. تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٤١-٢٤٣.

٢. خير الدين الزركلي: الأعلام: ١/١٥٦.

(٣٠٦)

وليتدرّب التدريب النهائي على يدي الإمام، فوصل القاهرة ودخل القصر معزراً مكرماً. (١)

و له تصانيف عديدة منها:

١. المرشد إلى أدب الإسماعيلية.

٢. المجالس المويديّة.

٣. السيرة المويديّة.

٤. ديوان المويدي في الدين.

٥. أساس التأويل، كتبه بالفارسيّة ترجمه عن العربيّة، وأصل الكتاب للقاضي النعمان.

(٢) ٦. شرح العماد.

٧. جامع الحقائق في تحريم اللحوم والألبان.

٨. القصيدة الاسكندرية.

٩. تأويل الأرواح.

١٠. نهج العبادة.

وله قصيدة يذكر فيها حديث غدير خم نقطف منها هذه الآيات:

لو أرادوا حقيقة الدين كانوا * تبعاً للذي أقام الرسول

و أتت فيه آية النصّ بلغ * يوم «خم» لما أتى جبريل

ذاكم المرتضى عليّ بحق * فبعليه ينطق التنزيل

أهل بيت عليهم نزل الذكر * وفيه التحريم والتحليل

هم أمان من العمى وصراف * مستقيم لنا وظل ظليل _____

١. تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٥٠.

٢. خير الدين الزركلي: الأعلام: ٨/٧٥.

(٣٠٧)

كما وتوجد ترجمته له بقلمه، في كتاب أفرده في سيرته بين سنة ٤٢٩ وسنة ٤٥٠، وهو المصدر الوحيد للباحثين عن ترجمته، طبع بمصر في ١٨٤ صفحة. وللأستاذ محمد كامل حسين المصري، بكلية الآداب، دراسة ضافية حول حياة المترجم، بحث عنها من شتى النواحي

في ١٨٦ صفحة، وجعلها مقدمة لديوانه المطبوع بمصر، ففي الكتابين غنى، وكفاية عن التبسط في ترجمة المويد.

(١) ناصر خسرو (الرحالة المعروف)

(٣٩٤ - ٤٨١هـ) ناصر بن خسرو، من أحفاد الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام -، ولد في ذي القعدة عام ٣٩٤هـ في قصبه (قباديان) من أعمال بلخ، وتوفي عام ٤٨١هـ وهو خراساني الأصل، بلخي المنشأ.

و كانت أسرته من الأسر الغنيّة، وقد اهتمّ والد المترجم بتربية ابنه وتعليمه، فحفظ القرآن وهو لم يبلغ بعد التاسعة من العمر، ودرس اللغة العربيّة وآدابها، والعلوم الإسلاميّة، وعلوم النجوم والفلك والحساب والهندسة والجبر وتضلع في الفلسفة، إلى أن أُطلق عليه الحكيم.

وكان شاعراً فحلاً في اللغة الفارسيّة، وكان رحّالاً، ترك الإقامة في موطنه واعتزم القيام برحلات في بعض الأمصار، قاصداً فيها مكّة، يرافقه أخوه أبو سعيد خسرو العلوي، وغلّام هندي، فقد شرع برحلته في شهر شعبان عام ٤٣٧هـ فترك مرو وسافر إلى إقليم آذربيجان ماراً بنيسابور، فدماغان، فسمنان، فالري، فقزوين،

١. الأميني: الغدير: ٣١٢-٣٠٤/٤.

(٣٠٨)

ثم تبريز، وقد وصلها في عشرين صفر عام ٤٣٨هـ وبعد أن أتمّ رحلته عام ٤٤٤هـ وقد بلغ من العمر ٥٠ عاماً، وقطع في رحلته هذه التي طالت سبع سنوات، مسافة ٢٢٢٠ فرسخاً - وبعد أن - ساقه القضاء إلى مصر، وتوطدت الصلة بينه وبين الخليفة الفاطمي بمصر، المستنصر بالله، أبو تميم معد بن علي، الذي حكم مصر من سنة ٤٢٧هـ إلى سنة ٤٧٨هـ وقد أثرت فيه دعوتهم له، فاعتنق مذهبهم علي يد أحد حُجّاب الدعوة في القاهرة، وسماه بالباب واجتاز المقامات، والدرجات الخاصّة بكبار قادة هذا المذهب، حتى بلغ درجة الحُجّة، واعتبر أحد الحجج الاثني عشر، في إحدى الجزر الاثني عشر، حسب تقسيمات الفاطميين.

وعاد إلى بلخ، وصار بينه وبين علماء المذهب السني نقاش ومعارضة، إلى أن هرب من بلخ قبيل سنة (٤٥٣هـ)، فلم يزل ينتقل من مدينة إلى مدينة، إلى أن انتهى به المطاف سنة (٤٥٦هـ) إلى مدينة «غاريمكان» الواقعة قرب مدينة بدخشان، وأقام فيها مختفياً إلى أن وافاه الأجل عام (٤٨١هـ) فدفن هناك، وقبره اليوم مزار للإسماعيليين. وقد ترك آثاراً كثيرةً نشير إلى بعضها:

١. «زاد المسافرين» الذي انتهى منه في سنة ٤٥٣هـ وهو من أضخم مؤلفاته.

٢. «وجه دين» في عقائد الإسماعليّة.

٣. «خوان اخوان».

٤. «دليل المتحيرين» الذي أراد أن يثبت فيه أحقيّة المذهب الفاطمي.

٥. إكسير أعظم في المنطق، أو الفلسفة.

٦. «رسالة المستوفى» في الفقه الإسماعيلي.

(١)

١. أعيان الشيعة: ١٠/٢٠٢ - ٢٠٤، من أراد المزيد فليراجع المصادر التالية؛ رياض العلماء: ٥/٢٣٢؛ مستدركات علم رجال الحديث: ٨/٥٥؛ طبقات أعلام الشيعة: ٢/١٩٨؛ الذريعة: ٢١/١٥؛ معجم المؤلفين: ١٣/٧٠. (٣٠٩) محمد بن علي بن حسن الصوري من علماء القرن الخامس

ولد في مدينة صور، وعاش رَدْحاً من الزمن في مدينة طرابلس، داعياً للفاطميين. هبط القاهرة في عهد الإمام المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ).

صنّف قصائد كثيرة ورسائل عديدة، أشهرها «التحفّة الظاهرة» و«نفحات الأئمّة» وقد رَجَّح عارف تامر، أنّه مات في حصون الدعوة الإسماعيلية الصوريّة بجبال «السماق» بعد تعيينه داعية للمذهب الإسماعيلي فيها من قبل الإمام «المستنصر بالله». و من أبرز تأليفاته، القصيدة الصوريّة، وقد ألّفها في عصر ازدهر فيه الأدب، وبرز إلى ميدان العلم والأدب ثلّة من العلماء والأدباء، الذين قدّموا للمكتبة الإسلامية العديد من المؤلفات، وجادت قرائح الشعراء بالشعر العربي الفاطمي، الذي كان في ذلك العصر وسيلة من وسائل الدعاية الدينيّة، وداعياً للتعبير عن التعاليم الفلسفيّة وتعدّد القصيدة الصوريّة من أقدم المصادر عن الإسماعيليّة، ومن أهم الرسائل المعبّرة عن العقائد الإسماعيليّة، أو بالأحرى، من الرسائل التي تُشكّل عنصراً هاماً في العقائد الباطنيّة، ومرجعاً يرجع إليه عند اختلاف وجهات النظر، ولذلك فقد تناقلتها الدعوة وحافظوا على سرّيّتها وعدم تسرّبها.

وإليك مقاطع من قصيدته يشير فيها إلى تلك العقائد الباطنيّة، منها:

١. إنّ الأسماء والصفات ليس لله سبحانه، بل للمبدأ الأوّل:

(٣١٠)

والعلم بالتوحيد أسمى العلم * فاصغ لما قد نال منه فهمي

فكلّما يجري على اللسان * من سائر الأفكار والأديان

وسائر الأسماء والصفات * للمُبدع الأوّل لا للذات ٢. توحيد سبحانه:

وسائل يسأل هل هو واحد * أم أحد حتى يصحّ الشاهد

قلنا له الواحد مبدأ للعدد * والأحد المبدى له الفرد الصمد

والأحد المبدع وهو الأزل * والواحد المبدع وهو الأوّل

أوّل من قام بتوحيد الأحاد * ودلّ بالعلم عليه من جحد

وصار للأعداد أصلاً صدرت * عنه ومنه انبجست إذ ظهرت (١) ٩

إبراهيم بن الحسين الحامدي (... - ٥٥٥٧هـ) إبراهيم بن الحسين الهمداني الحامدي: من دعاة الإسماعيليّة وعلمائهم في اليمن، عاصر الدّولة الصليحيّة حينما قرّرت السيدة الحرّة أروى - من أميرات الدّولة الصليحيّة - أن تُفصل الدعوة عن الدّولة فصلاً تاماً، عقدت مؤتمراً لكبار السلاطين والدّعاة لانتخاب من يتولّى رئاسة الدّعوة، فوقع الاختيار على الداعي الذّويب بن موسى الوداعي الهمداني (٥٢٠ - ٥٣٦هـ) (٢) ليتولّى هذه المهمة _____.

١. القصيدة الصوريّة: ١٧، قسم المقدمة.

٢. كذا في المصدر، ولعلّ في التاريخ تصحيف.

(٣١١)

وبعد أفول نجم الدّولة الصليحيّة بوفاء السيّد الحرّة. أصبحت الدّعوة منظمّة دينيّة بحتة يرأسها الداعي ذّويب بن موسى، ومن الطبيعيّ حسب ترتيبات الدّعوة الإسماعيليّة أن يختار من بين الدعاة داعياً مأذوناً له يساعده في أعماله، فاختر إبراهيم بن الحسين بن أبي السعود الحامدي الهمداني، وهو من كبار الدعاة العلماء الذين أوجدتهم مدارس الدّعوة الإسماعيليّة المستعيلة الطيبية في اليمن.

ولما توفي الذّويب خلفه مأذونه إبراهيم داعياً مطلقاً للإمام المستور، الطيب ابن الأمر في اليمن وما جاورها من البلاد والهند والسند وذلك سنة ٥٣٦هـ وجعل الشيخ علي بن الحسين بن جعفر الانف القرشي العبشمي، مأذوناً له، فكان له معاضداً على أمره، قائماً بنشر الدّعوة في سرّه وجهره، ولم يعمر علي بن الحسين طويلاً فقد وافته المنية في سنة ٥٥٤هـ فاستعان الحامدي بابنه حاتم، حيث اتخذه مأذوناً له، ونقل مقرّه إلى صِنعاء، ثمّ أعلن عدم تدخله في سياسة الدّولة، وواظب على دراسة العلوم، ونقل التراث العلميّ الإسماعيلي، وجمعه وتدرّسه للدعاة التابعين لمدرسته، ووزّع الدعاة في بلاد اليمن والهند والسند، وفيه يقول الشاعر الحارثي:

أبا حسن أنقذت بالعلم انفسا * وأمنتها من طارق الحدثان

فجوزيت بالحسنى وكوفيت بالمنى * ودمت سعيداً في أعز مكان

عمرت بصنعا دعوة طيبة * جعلت لها أشأ وشُمدت مباني من كتبه: «كنز الولد» و«الابتداء والانتها» و«كتاب تسع وتسعين مسألة في الحقائق» و«الرسائل الشريفة في المعاني اللطيفة».

وفي عهد هذا الداعي الأجل تعرضت الدعوة المستعليّة الطيبية إلى هزات عنيفة قاسية، لأن ملوك آل زريع في عدن مالوا إلى الدعوة المستعليّة المجديّة،

(٣١٢)

التي أخذت تنتشر بقوة في أنحاء اليمن حتى أصبح لها دعاة نشيطون في قلب تنظيمات الدعوة الطيبية، وفي معاقلها، كحراز، ونجران، واليمن الأسفل، وكذلك أعلن ملوك همدان الياميون في صنعاء، وبلاد همدان، عن تنصلهم من جميع الدعاوات والمذاهب.

ومع كل هذا فقد ظلّ الداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي، على إخلاصه للدعوة الطيبية، مواصلاً نشاطه حتى توفاه الله في صنعاء، في شهر شعبان سنة ٥٥٧هـ هجرية. (١)

وقد طبع للمترجم له كتاب «كنز الولد» بتحقيق مصطفى غالب عام ١٣٩١ هـ نشرته جمعية المستشرقين الألمانية، والكتاب يتألف من أربعة عشر باباً، وقد استهل المقدمة على عادة كتاب العصر، بالاستعانة والتوكل، والشهادة، والسلام، ثم يذكر موضوع الكتاب والأسباب الداعية لتأليفه.

قال: واعلم هداك الله لأوضح المسالك ونجاك عن المهالك، أن لكل رابع من الاتماء قوة وتأييداً، واستطالة وتشديداً. ولكل سابع، أعظم وأعلى وأقوم، يقوم مقام النطق، ونحن في دور سابع الأشهاد، المتوجه نحوه ملاحم آباءه وأجداده، والاشارات والرموز في أسانيدهم. والبيارات الموصوفة بالبركات والنعم والخيرات بظهور العلوم والمعجزات، وإشراق النور، ونبوع الأنهار، وأزهار الأشجار، بالخضرة والنور، حتى تتصل أنواره بنور القائم - عليه السلام - على أتم تمام وأحسن نظام. (٢)

ويظهر منه أن الإمام السابع يقوم مقام النطق، أي يكون مع كونه إماماً، رسولاً ناطقاً فعليه يكون محمد بن إسماعيل مع كونه إماماً سابعاً، رسولاً ناطقاً، بادئاً للدور السابع، وأما عدّ نفسه بأنه في دور سابع الأشهاد، مع أنه كان في

١. مصطفى غالب: كنز الولد: ٣١-٣٣، قسم المقدمة؛ الزركلي: الأعلام: ١/٣٦.

٢. الحامدي: كنز الولد: ٥.

(٣١٣)

الدور الثامن، لأنّ الدور السابع ليس لمدته أمد محدود، كما صرح به في كتاب «الإمامة في الإسلام». (١) وأما فهرس أبواب كتابه هذا، فهي:

الباب الأول: في القول على التوحيد، من غير تشبيه ولا تعطيل.

الباب الثاني: في القول على الإبداع الذي هو المبدع الأول.

الباب الثالث: في القول على المنبعثين عن المبدع الأول معاً، وتباينهما.

الباب الرابع: في القول على المنبعث الأول القائم بالفعل. وما ذلك الفعل؟

الباب الخامس: في القول على المنبعث الثاني القائم بالقوة. وما سبب ذلك؟

الباب السادس: في القول على الهيولى والصورة وما هما في ذاتهما، وسبب تكثفهما وامتزاجهما؟

الباب السابع: في القول على ظهور المواليث الثلاثة: المعدن، والنبات، والحيوان.

الباب الثامن: في القول على ظهور الشخص البشري أولاً، وفي كل ظهور بعد وفاء الكور.

الباب التاسع: في القول على ظهور الشخص الفاضل من تحت خط الاعتدال.

الباب العاشر: في القول على الارتقاء والصعود إلى دار المعاد إن شاء الله تعالى.

الباب الحادي عشر: في القول على معرفة الحدود العلوية والسفلية.

الباب الثاني عشر: في القول على الثواب والارتقاء في الدرج إلى الجنة الدانية والعالية، إن شاء الله.

الباب الثالث عشر: في القول على اتصال المستفيد بالمفيد وارتقائه إليه واتصاله به.

الباب الرابع عشر: في القول على العذاب بحقيقته وكيفيته نعوذ بالله منه _____.

١. عارف تامر: الإمامة في الإسلام: ١٥٥.

(٣١٤) ١٠ على بن محمد الوليد (٥٢٢-٦١٢هـ) «على بن محمد الوليد الأنف العبشي القرشي» الداعي المطلق الخامس للإسماعيلية المستعالية في اليمن، المولود سنة ٥٢٢ هـ والمتوفى سنة ٦١٢ هـ، والمنحدر من أسرة عريضة عريقة، كان لها شأن في مجالات الأدب والفلسفة، وقد لعب دوراً أدبياً فلسفياً هاماً، في القرن السادس الهجري، وبالرغم من المصادر القليلة عن تاريخ حياته، إلا أنه يمكننا القول بأنه ينحدر من أسرة معروفة بإخلاصها للأئمة الفاطميين. يدلنا على ذلك والده الذي كان يلقب (بالأنف) تيمناً بأبرز عضو في وجه الإنسان.

ولقد كان الداعي يتمتع بسمعة طيبة وعلم وافر فقد تحسنت أمور الاتباع وأقبلوا عليه من كل حذب وصوب لسماع محاضراته والتزود من علومه والدراسة عليه وأيده السلاطين والأمراء من همدان وجعل مقره مدينة صنعاء حيث اعتكف على الدراسة والتصنيف وكتابة الكتب والرسائل والمقالات التي يدافع فيها عن الدعوة ويشرح عقائدها ومعارفها الفكرية

وكان على بن الوليد أيضاً من الشعراء البارزين، ففي ديوانه القوافي العذبة والتأملات، التي تدل على عراقته بفن الشعر:

ما العمر إن طال للإنسان أو قصراً * بنافع في غد أو دافع ضرراً

ولا حياة الفتى تُغنى إذا هو لم * يكن بها قاضياً في دينه وطرا

فإن يمت جاهلاً ماذا أريد به * فبالحقيقة في الدارين قد خسرا (٣١٥)

أما مؤلفاته فنشير إلى بعض منها:

١. «تاج العقائد ومعدن الفوائد». يتضمن مائة مسألة في معتقدات مذهب الإسماعيلية.

٢. «دافع الباطل وحتف المناضل» ألفه رداً على كتاب «المستظهرى». وهو أول كتاب رد للغزالي على الباطنية.

٣. «مختصر الأصول» ويشمل شرح المقالات وكيفية انقسامها والرد على الفلاسفة وبعض الفرق.

٤. رسالة «نظام الوجود في ترتيب الحدود».

٥. رسالة «الإيضاح والتبيين في كيفية تسلسل ولادتي الجسم والدين».

٦. رسالة «تحفة المرتاد وغصة الأضداد» في الرد على الفرقة المجيدية وإثبات إمامة الطيب بن الأمر وذكر تسلسل الإمامة.

٧. «لبّ الفوائد وصفو العقائد» في المبدأ والمعاد. (١)

٨. ديوان شعر وفيه أشعاره في الرد على المخالفين وفي مدائح الأئمة.

و كان وفاة هذا الداعي يوم الأحد السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٦١٢ هـ عن عمر ناهز التسعين عاماً ودامت أيام دعوته ست سنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وقد أخذنا شيئاً من عقائدهم من كتاب «تاج العقائد» الذي يُعد أوضح كتاب وضع في بيان عقائد تلك الطائفة، والكتاب واضح العبارة جداً، بعيد عن الانحراف والاعتساف، إلا ما ندر، وهو يدل على أن طائفة الإسماعيلية القاطنة في اليمن كانوا بمعزل عن كثير من الزلات المشاهدة عند غيرهم _____.

١. تاج العقائد ومعدن الفوائد: ٧-٩، المقدمة، تحقيق عارف تامر.

(٣١٦) (٣١٧)

الفصل الرابع عشر

الفصل الرابع عشر

في

التنظيمات السرية الإسماعيلية

(٣١٨) (٣١٩) التنظيمات السرية الإسماعيلية إن طابع الأقلية يستدعي امتلاك تنظيمات سرية يسودها التكتاف والتعاون لتصمد أمام العواصف التي تهددهم من جانب الأكثرية، ولولا ذلك لتفككت وانفصمت عرى حياتهم ولانصهر كيانهم المستقل. ظهرت الإسماعيلية على مسرح الحياة في زمان سادته روح العداء لأهل البيت - عليهم السلام - وأتباعهم، وكانت الشيعة قذى في عيون الخلافة العباسية، لما يسودها من روح العصيان على السلطة والخروج عليها. هذا وما شابهه صار سبباً لدخول أئمتهم في كهف الاستتار والتقية وإحداث تنظيمات سرية في مختلف الأدوار لتكون حصناً حصيناً لهم ولأتباعهم، وقد ذكر التاريخ شيئاً كثيراً من تنظيماتهم ومخططاتهم المبتكرة والتي قلما يشهد التاريخ لها من مثل. وهذا الكاتب الإسماعيلي مصطفى غالب يشرح لنا الصورة الدقيقة عن التنظيمات السرية في أدوار الستر وفي عهد الدولة الإسماعيلية في مصر والمغرب حيث يقول:

إذا أردنا أن نقارن تلك التنظيمات مع أحدث التنظيمات والتخطيطات الدعاوية العصرية المعروفة اليوم، لتبين لنا أن الإسماعيليين كان لهم القدر المعلى في هذا المضمار، من حيث ابتكار الأساليب المبنية على أسس مكيئة مستوحاة من عقائدهم الصميمة، وتظهر عبقريتهم بوضوح من جهة البراعة في تنظيم أجهزتهم الدعاوية - في قلبه الوسائل في تلك الأيام - مما جعلهم يستطيعون الإشراف بسرعة فائقة على تنسم أخبار أتباعهم في الأبعاد المتناهية، وذلك بما

(٣٢٠)

ابتكروا من أساليب وأحدثوا من وسائل، وقد كان للحمام الزاجل الذي برع في استخدامه الدعاة، أثره الفعّال في نقل الأخبار والمراسلات السرية الهامة.

ولقد كان الإمام الإسماعيلي الذي يعتبر رئيس الدعوة قد وفق بين جهاز الدعاية الذي نظمته خير تنظيم، وبين نظام الفلك ودورته، وجعل العالم الذي كان معروفاً في تلك الأيام مثل السنة الزمنية، فالسنة كما هو معروف مقسمة إلى اثني عشر شهراً، ولذلك يجب أن يقسم العالم إلى اثني عشر قسماً، أطلق على كل قسم اسم (جزيرة) وجعل على كل جزيرة من هذه الجزر داعياً، هو المسؤول الأول عن الدعاية فيها، ولقب ب(داعي دعاة الجزيرة) أو ب(حجة الجزيرة). وقال: إن الدعوة لا يمكن استقامتها إلا باثني عشر داعياً يتولون إدارتها، فكان الإمام ينتخب الدعاة من ذوى المواهب الخارقة، والقدرة الفائقة في بث الدعوة والعمل على نشرها بين مختلف الطبقات وقد جعل الدعاة من (حدود الدين) إمعاناً في إسباغ الفضائل عليهم، ليتمكنوا من نشر الدعوة وتوجيه الأتباع دونما أية معارضة أو مخالفة، لأن مخالفتهم ومعارضتهم تعتبر بنظر الإمام مروفاً عن الدين، وخروجاً عن طاعة الإمام نفسه، لأنهم من صلب العقيدة وحدودها.

ولما كان الشهر ثلاثون يوماً لذلك كان لكل داعي جزيرة ثلاثون داعياً نقيباً لمساعدته في نشر الدعوة، وهم قوته التي يستعين بها في مجابهة الخصوم، وهم عيونه التي بها يعرف أسرار الخاصة والعامة، فكانوا بمثابة وزارته ومستشاريه في كل ما يتعلق بجزيرته.

ولما كان اليوم أربع وعشرين ساعة، اثنتي عشر ساعة بالليل، واثنى عشر ساعة بالنهار، وجب لكل داع نقيب أربعة وعشرين داعياً،

منهم اثني عشر داعياً ظاهراً كظهور الشمس بالنهار، واثني عشر داعياً محجوباً مستتراً استتار الشمس بالليل. وبعملية حسابية بسيطة نجد أن عدد الدعاة الذين بثهم الإمام الإسماعيلي في العالم كان حوالي ٨٦٤٠ داعياً في وقت واحد.

(٣٢١) التنظيمات السرية للدعوة الإسماعيلية النزارية

ولما انتقلت الدعوة الإسماعيلية النزارية إلى فارس، أجرى الإمام النزارى بعض التعديلات، وأوجد تنظيمات تناسب مع ظروفه وعصره وهي على قسمين:

١. القسم الخاص بالدعاية الدينية والذي ظل قريب الشبه من النظام السابق، ولو ان عدد الدعاة تقلص ونقص، لأن الإمام النزارى جعل رتبة (الشيخ) في دعوته بدلاً من رتبة (داعى الدعوة) وعين في كل منطقة من المناطق الإسماعيلية له نواباً، وألحق بهؤلاء النواب عدداً غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للمذهب الإسماعيلي النزارى.

٢. أمياً القسم الثانى فهو خاص بالفدائية والجيش، وهؤلاء كانوا يتبعون مباشرة مركز الإمامة أو نائب الإمام في قطره، ويتلقون الأوامر والمهمات السرية منه مباشرة.

وكانت الفدائية على ثلاث درجات:

أولاً: الرفاق أو المقدمون: وهم قادة الجيش والفدائية ولهم مهمة الإشراف على التدريب، والسهر على تنفيذ المهمات العسكرية وغير العسكرية.

ثانياً: مرتبة الفدائيين الذين ينتقون من العناصر المخلصه المعروفة بالتضحية والإقدام والشجاعة النادرة، والجرأة الخارقة فيكفون بالتضحيات الجسدية، وبتنفيذ أوامر الإمام أو نائبه.

ثالثاً: المستجيبون: وهم الذين يقضون دور التدريب والتعليم، وهؤلاء يدخلون مدارس الفدائية، وهم فى سن مبكرة ويتلقون التدريب والتعليم فى المدارس الخاصة بهم، على أيدي كبار المقدمين. ويسهر الإمام نفسه أو نائبه الشيخ على تدريبهم وتعليمهم. (١)

١. مصطفى غالب: فى مقدمه كتاب الينايع: ٢١ - ٢٤.

(٣٢٢) (٣٢٣)

الفصل الخامس عشر

الفصل الخامس عشر فى القرامطة

(٣٢٤) (٣٢٥)

لقد ذكرنا فى الفصل الثانى من هذا الكتاب أن الحركات الباطنية نشطت فى أواسط القرن الثانى، وكان زعيمها هو أبو الخطاب، محمد بن مقلص، فلما قتل انتهى أمرهم - بعد فترة - إلى الاجتماع حول محمد بن إسماعيل، ووجدوه مرتعاً خصباً لنشر أفكارهم. فارتكزت الدعوة الإسماعيلية على تلك الأفكار فى بادى الأمر. وكان من نتيجة ذلك التحرك أن:

١. اتخذ الأئمة المستورون سوريا، وأخص بالذكر «السلمية» وما حولها مركزاً للدعوة، ومنها انتشرت إلى سائر الأمصار.

٢. انتشرت الدعوة فى اليمن بزعامه ابن حوشب «منصور اليمن».

٣. أرسل ابن حوشب، أباً عبد الله الشيعى إلى إفريقية حيث آلت الأحداث بعدها إلى تأسيس الخلافة الفاطمية.

٤. ظهور حركة القرامطة، وهذا ما سنبحثه فى هذا الفصل.

إن من الإسماعيلية فرقة باسم المباركية قالوا بإمامه محمد بن إسماعيل، بدل إسماعيل، وقد تشعبت منهم فرقة باسم القرامطة، كان لهم دور مهم على الساحة السياسية والعقائدية أيام عبيد الله المهدي، حسب ما يذكره التاريخ وما يزال الغموض يكتنف عقائدهم،

وتاريخهم والجرائم التي قاموا بها، في أواخر القرن الثالث. ومن أجل تسليط الضوء على جانب من جوانب عقائدهم نستعرض ما ذكره أصحاب المقالات:

١. قال النوبختي: إنَّما سُمِّيت بهذا لرئيس لهم من أهل السواد من أهل الأنباط كان يلقب «قرمطويه» وكانوا في الأصل على مقالة المباركية، ثم خالفوهم، (٣٢٦)

فقالوا لا يكون بعد محمد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا سَبْعَةُ أُمَّةٍ، عَلَى بَنِ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ إِمَامٌ رَسُولٌ، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَعَلِيُّ بِنِ الْحُسَيْنِ، وَمُحَمَّدُ بِنِ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرُ بِنِ مُحَمَّدٍ، وَمُحَمَّدُ بِنِ إِسْمَاعِيلِ بِنِ جَعْفَرٍ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ، وَهُوَ رَسُولٌ. وَزَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - انْقَطَعَتْ عَنْهُ الرِّسَالَةُ فِي حَيَاتِهِ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي أُمِرَ فِيهِ بِنَصْبِ عَلِيٍّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِلنَّاسِ بِغَدِيرِ خَمٍّ، فَصَارَتِ الرِّسَالَةُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي عَلِيٍّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ، وَاعْتَلَوْا فِي ذَلِكَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيٌّْ مَوْلَاهُ» وَأَنَّهُذَا الْقَوْلُ مِنْهُ خَرُوجٌ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ، وَتَسْلِيمٌ مِنْهُ فِي ذَلِكَ لِعَلِيِّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ، بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ مَأْمُومًا لِعَلِيٍِّّ، مُحْجُوجًا بِهِ، فَلَمَّا مَضَى عَلِيٌُّّ صَارَتِ الْإِمَامَةُ فِي الْحَسَنِ، كَمَا صَارَتْ مِنَ الْحَسَنِ فِي الْحُسَيْنِ ثُمَّ فِي عَلِيٍّ بِنِ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ فِي مُحَمَّدِ بِنِ عَلِيٍّ، ثُمَّ كَانَتْ فِي جَعْفَرِ بِنِ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنْ جَعْفَرٍ فِي حَيَاتِهِ، فَصَارَتْ فِي إِسْمَاعِيلِ بِنِ جَعْفَرٍ، كَمَا انْقَطَعَتْ الرِّسَالَةُ عَنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فِي حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَدَّلَهُ فِي إِمَامَةِ جَعْفَرٍ، وَإِسْمَاعِيلِ، فَصَيَّرَهَا فِي مُحَمَّدِ بِنِ إِسْمَاعِيلِ، إِلَى أَنْ قَالَ:

و زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدَ بِنِ إِسْمَاعِيلِ حَيٌّ، لَمْ يَمُتْ، وَأَنَّهُ فِي بِلَادِ الرُّومِ، وَأَنَّهُ الْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ، وَمَعْنَى الْقَائِمِ عِنْدَهُمْ، أَنَّهُ يَبْعَثُ بِالرِّسَالَةِ وَبشريعةٍ جديدةٍ، يَنْسَخُ بِهَا شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدَ بِنِ إِسْمَاعِيلِ مِنْ أَوْلَى الْعِزْمِ، وَأَوْلَى الْعِزْمِ عِنْدَهُمْ سَبْعَةٌ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَعَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَمُحَمَّدُ بِنِ إِسْمَاعِيلِ، عَلَى مَعْنَى. قَالَ: إِنَّا لَسَمَاوَاتٍ سَبْعٌ وَإِنَّا لَأَرْضِينَ سَبْعٌ وَإِنَّ الْإِنْسَانَ بَدَنُهُ سَبْعٌ: يَدَاهُ، وَرِجْلَاهُ، وَظَهْرُهُ، وَبَطْنُهُ، وَقَلْبُهُ، وَإِنَّ رَأْسَهُ سَبْعٌ: عَيْنَاهُ، أُذُنَاهُ، مَنْخَرَاهُ، وَفَمُهُ، وَفِيهِ لِسَانُهُ، كَصَدْرِهِ الَّذِي فِيهِ قَلْبُهُ، وَإِنَّ الْأَثْمَةَ كَذَلِكَ، وَقَلْبُهُمْ مُحَمَّدُ بِنِ إِسْمَاعِيلِ وَاعْتَلَوْا فِي نَسْخِهِ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَتَبْدِيلِهَا، بِأَخْبَارٍ، رَوَاهَا عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ ابْنِ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ: لَوْ قَامَ قَائِمُنَا عَلِمْتُمْ بِالْقُرْآنِ جَدِيدًا، وَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ (٣٢٧)

الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، ونحو ذلك من أخبار القائم.

وإنَّ الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم (ص) ومعناها عندهم الإباحة للمحارم، وجميع ما خلق في الدنيا، وهو قول الله عز وجل: "وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ" (١) أي موسى بن جعفر بن محمد، وولده من بعده من ادعى منهم الإمامة. وزعموا أنَّ محمد بن إسماعيل، هو خاتم النبيين، الذي حكاها الله عز وجل في كتابه، وأنَّ الدُّنْيَا اثْنَا عَشَرَ جَزِيرَةً، فِي كُلِّ جَزِيرَةٍ حُجَّةٌ وَأَنَّ الْحُجَّجَ اثْنَا عَشَرَ، وَلِكُلِّ حُجَّةٍ دَاعِيَةٌ. وَلِكُلِّ دَاعِيَةٍ يَدٌ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ الْيَدَ رَجُلٌ لَهُ دَلَائِلٌ وَبِرَاهِينٌ يَقِيمُهَا، وَيُسَمُّونَ الْحُجَّةَ الْآبَ، وَالِدَاعِيَةَ الْأُمَّ، وَالْيَدَ الْآبَنَ، يَضَاهُونَ قَوْلَ النَّصَارَى فِي ثَلَاثِ ثَلَاثَةٍ، إِنَّ اللَّهَ الْآبَ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالْمَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْآبَنُ، وَأُمُّهُ مَرْيَمُ، وَالْحُجَّةُ الْآكْبَرُ هُوَ الرَّبُّ وَهُوَ الْآبُ وَالِدَاعِيَةُ هِيَ الْأُمَّ، وَالْيَدُ هُوَ الْآبَنُ.

وزعموا أنَّ جميع الأشياء التي فرض الله تعالى على عباده وسنَّها نبيِّه (ص) وأمر بها، لها ظاهر وباطن، وأنَّ جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة، أمثال مضروبةٍ وتحتها معانٍ هي بطونها، وعليه العمل وفيه النجاة، وأنَّ ما ظهر منها ففى استعماله الهلاك والشقاء، وهي جزء من العقاب الآدني، عدَّب الله به قوماً إذ لم يعرفوا الحقَّ ولم يقولوا به، وهذا أيضاً مذهب عامية أصحاب أبي الخطاب، واستحلُّوا استعراض النَّاسِ بالسيف وقتلهم على مذهب الخوارج في قتل أهل القبلة، وأخذ أموالهم، والشهادة عليهم بالكفر،

واعتلوا في ذلك بقول الله عزوجل: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (٢)" ورأوا سبي النساء وقتل الأطفال، واعتلوا في ذلك بقول الله تبارك وتعالى: "لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . (٣)"

١. البقرة: ٣٥.

٢. التوبة: ٥.

٣. نوح: ٢٦.

(٣٢٨)

وزعموا أنه يجب عليهم أن يبدأوا بقتل مَنْ قال بالإمامة مِمَّنْ ليس على قولهم، وخاصية من قال بإمامة موسى بن جعفر، وولده من بعده؛ وتأولوا في ذلك قول الله تعالى: " قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً (١)" فالواجب أن يُبدأ بهؤلاء، ثم بسائر الناس؛ وعددهم كثير، إلا أنه لا شوكة لهم ولا قوة، وهم بسواد الكوفة واليمن أكثر ولعلمهم أن يكونوا زهاء مائة ألف. (٢)

أقول: إن النوبختي أقدم من كتب عنهم من أصحاب المقالات، وقد عاصروهم، حيث إن القرامطة ظهرت سنة ٢٦٧هـ وتوفي النوبختي في أوائل القرن الرابع حوالي سنة ٣١٠هـ، فما ذكره عنهم أدقماً ذكره غيره.

٢. وقال الأشعري: القرامطة يزعمون أن النبي نَصَّ على إمامة ابنه الحسن - وهكذا ينقل نص كل إمام على الإمام المتأخر - حتى وصلت النبوة إلى نص جعفر عليا إمامه ابن ابنه محمد بن إسماعيل.

و زعموا أن محمد بن إسماعيل حيَّ إلى اليوم، ولم يموت ولا - يموت حتى يملك الأرض، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به، واحتجوا في ذلك بأخبار رووها عن أسلافهم يخبرون فيها أن سابع الأئمة قائمهم. (٣)

٣. وأما عبد القاهر البغدادي فلم يذكر القرامطة بالاسم، لكن نقل ما ذكره الإمام الأشعري في المقالات وقال: «فرقة قالت كان الإمام بعد جعفر سبطه محمد بن إسماعيل بن جعفر، حيث إن جعفرًا نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، فلما مات إسماعيل في حياة أبيه، علمنا أنه إنما نصب ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد بن إسماعيل. (٤)

١. التوبة: ١٢٣.

٢. النوبختي: فرق الشيعة: ٧٢-٧٦.

٣. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٦.

٤. عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق: ٦٣.

(٣٢٩)

يظهر ممَّا ذكره النوبختي في فرق الشيعة أنهم كانوا يكفرون جميع المسلمين حسب عقيدتهم، ولاجله قاموا بقتل حجاج بيت الله الحرام عام ٣١٧هـ في عهد المقتدر بالله.

ذكر ابن الأثير أنه حج بالناس في هذه السنة (٣١٧هـ) المنصور الديلمي، و صار بهم من بغداد إلى مكة فسلموا في الطريق فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة، يوم التروية، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود ونفذه إلى هجر فخرج إليه ابن محلب، أمير مكة في جماعة من الأشراف، فسأله في أموالهم فلم يشفعهم، فقاتلوه فقتلهم أجمعين، وقلع باب البيت وأصعد رجلاً ليقلع الميزاب فسقط فمات.

وطرح القتلى في بئر زمزم، ودفن الباقين في المسجد الحرام، حيث قُتلوا بغير كفن ولا غسل، ولا صلى على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت، فقسَّمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة.

فلما بلغ ذلك المهدي أبا محمد عبيد الله العلوي بإفريقيه، كتب إليه، يُنكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة، ويقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفرو الإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد على أهل مكّة وعلى الحجاج وغيرهم، ما أخذت منهم، وتردّ الحجر الأسود إلى مكانه، وتردّ كسوة الكعبة، فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة.

فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود، واستعاد ما أمكنه من الأموال من أهل مكّة فردّه، وقال: إنّ الناس اقتسموا كسوة الكعبة، وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم. (١)

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٨/٢٠٧-٢٠٨.

(٣٣٠)

من هذا المقطع الذي ذكرناه من كلام ابن الأثير يظهر أنّ عبيد الله المهدي ينكر عليهم ما ارتكبه من جرائم شيعة، وأنهم بأعمالهم الوحشية هذه مهّدوا الطريق للأعداء، ليتهمّوهم بالإلحاد، والخروج عن الدين. وهذا ممّا يوجب على الباحث العلمي إذا أراد أن يخرج بنتيجة إيجابية أن يجعل للقرامطة حساباً خاصاً وأن يدرسهم دراسة موضوعية تتسم بالعلمية وعدم الخلط.

وللإسماعيلية التي كانت الخلافة الفاطمية في مصر تتبناها حساباً آخر ولا يضرّهما بسهم واحد. (٣٣١) الملامح العامّة للقرامطة قد تعرّفت على الفرق الإسماعيلية، وإنّ منها القرامطة الذين قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل وغيبته، وبذلك عطّلوا الإمامة، وانقطعوا عن الركب الإمامي، وحيث إنّه كان لهم دور في الأعصار الغابرة لا بأس بذكر ملامحهم العامّة، وفرقهم، وعقائدهم، وما قاموا به من الأحداث الإرهابية، وقد وجدنا أنّ ما كتبه «طه ولى» حول تلك الفرقة في كتابه «القرامطة أوّل حركة اشتراكية في الإسلام» هو أبسط ما كتب عنهم، فقمنا بتلخيص ما جاء في هذا الكتاب من المواضيع الهامة.

القرامطة من إحدى الفرق الباطنية التي شغلت السلطات العباسية قرابة قرن من الزمن، وأشاعت الاضطراب والقلق في الشرق العربي، بما خلّفته من أفكار ثورية، ما تزال آثارها باقية إلى أيامنا الحاضرة، عبر الطوائف الدينية التي تحمل أسماء مختلفة.

إنّ القرامطة جاءت من معنى لغويّ وهو قرمط الرجل في خطّوه، إذا قارب بين السطور في كتابته، ويقال: إنّ حمدان بن الأشعث مؤسس هذه الفرقة سُمي قرمط لقصر قامته ورجليه.

أسباب نشوء الحركة القرمطية ومؤسّسها:

إنّ كلمة قرمط بدأت بحمدان بن الأشعث، وهو الذي نزل عنده الداعي المؤسس لهذه الفرقة: الحسين الأهوازي، الذي جاء من ناحية خوزستان، وهذه التسمية - أي القرامطة - لم تتخذها هذه الفرقة الباطنية لنفسها، وإنما أطلقها أعداؤها عليها في العهود المبكرة لقيامها.

(٣٣٢)

والحديث عن العوامل التي أدّت إلى نشوء الحركة القرمطية، وقيام دولة القرامطة، ذو شجون، والخوض فيه يحتاج إلى تفصيلات، لا يتسع لها مجال هذه الدراسة، التي قصدنا بها التعريف بالقرامطة، وحركتهم بأكثر ما أمكننا من الإيجاز، دون الدخول في التناقضات التي تميّزت بها أقوال المحققين.

كان المجتمع الإسلامي، في أواخر العهد الأموي يسير في طريق مظلم، وأنّ الدولة الأموية الحاكمة، العربية النزعة والطابع، كما هو جليّ وواضح في تاريخها لم تكن تعتمد إلا على العناصر الخالصة التي تنحدر من أصل عربي فلم يُعزّ بنو أمية بغير قومهم العرب، فمنهم الولاة والقواد، وروساء الدولة، والعمال وحكام الأقاليم، والمقاطعات، فضلاً عن أنّ زمام الأسواق التجارية والمهتية والزراعية، والنفوذ والجاه، كان أيضاً بأيديهم، وبأيدي أنصارهم، ولهذا كره الموالي (غير العرب) حكمهم، وعملوا على إسقاطهم وكانوا معاول هدم في كيان الدولة الأموية.

إنّ المجتمع الأموي كان يقوم على سيادة العنصر العربي، فكان لا يتمكن أيّ إنسان من الانتساب إلى صفوفه إلا بطريق الولادة، ولم يكن أفراد يدفعون الضرائب عن أراضيهم، وكانوا وحدهم أصحاب الحقّ، بأن يتجنّدوا في الأمصار، ويقبضوا الرواتب الشهرية

المغرية، فضلاً عن حقهم بالأعطية من غنائم الفتوح، ولم يكن حلول العباسيين محللاً لمؤمنين أكثر من مجرد تغيير الأسر الحاكمة. وبذلك تبين أن الأسباب التي أدت إلى قيام الحركة القرمطية كانت هي أيضاً في جوهرها حركة قومية إقليمية وإقتصادية واجتماعية، ولعلنا لا نأتي بجديد حين نقول: إنَّ الأُمويين بسياستهم هذه: قد مهّدوا الطريق لمن يريد ضرب الدولة الإسلامية، وكان أفضل وسيلة للمنفعلين بهذه الأسباب أن اتخذوا من الصراع العقائدي بين بني أمية وبين بني هاشم، ذريعة لتقويض الحكم العربي العنصري، ونقض التعاليم الإسلامية، وذلك بادعائهم الولاء للهاشميين في مطالبتهم

(٣٣٣)

بحقهم بالخلافة دون الأمويين.

وهكذا تكون كل الحركات الباطنية توسلت بشعار الولاء لآل البيت النبوي، من أجل الوصول إلى هدف واحد وهو الثأر من حكام الوقت الذين أشاعوا البدع الجاهلية، تحت غطاء الإسلام، ومنها التركيز على العنصر العربي، والحط من الموالى المسلمين. كان ابتداء الدعوة القرمطية في البحرين عن طريق رجل يُعرف بيحيى بن المهدي، الذي قصد بلدة القطيف، وحل فيها ضيفاً على رجل يُعرف بعلي بن المعلى بن حمدان، مولى الزيدانيين، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وكان ذلك في سنة ٢٨١هـ وذكر أنه خرج إلى شيعته في البلاد، يدعوهم إلى أمره وأن ظهوره قد قُرب، فأخبر علي بن المعلى، الشيعة من أهل القطيف، وقرأ عليهم الكتاب، الذي مع يحيى بن المهدي، المرسل إليهم من المهدي، فأجابوه، وأنهم خارجون معه، إذا ظهر أمره. ووجه إلى سائر قرى البحرين بمثل ذلك، فأجابوه وكان أبو سعيد الجنابي يبيع للناس الطعامو يحسب لهم بيعهم. ويقول مؤلف «البحرين عبر التاريخ»: إنَّ حمدان قرمط ابن الأشعث، هو مؤسس حركة القرمطيين في واسط بين الكوفة والبصرة - حيث أنشأ داراً للهجرة، وجعلها مركزاً لبث الدعوة، ثم كلف دعائه بإنشاء فروع للحركة، أهمها على الإطلاق فرع البحرين الذي أقامه أبو سعيد الجنابي. فرق القرامطة:

القرامطة توزعوا في أيام ظهورهم إلى ثلاث فرق، ومروا في ثلاث مراحل، وتقلّبوا في ثلاثة أدوار: الفرقة الأولى: وهي قرامطة السواد - أي سواد العراق - وقد أطلق لفظ السواد على هذه المنطقة لكثرة النخيل الذي يُغطى أرضها، ويطلق على هذه الفرقة

(٣٣٤)

كذلك، اسم قرامطة الشمال، وأبرز دعائهم «داندان» و«حمدان» و«عبادان» و«آل مهرويه».

الفرقة الثانية: قرامطة البحرين أو الخليج في شطه الغربي، وأبرز دعائهم آل الجنابي.

الفرقة الثالثة: قرامطة القطيف وجنوبي البصرة، وأبرز دعائهم أبو حاتم البوراني، وأبو الفوارس، وهذا يُعد من كبارهم، وله مع الخليفة العباسي «المعتضد» محاوره مشهورة، ويُعتبر من أقوى الدعاة الذين عرفهم القرامطة في تاريخهم. انقسام القرامطة إلى حركتين بعدما كانت حركة واحدة

عندما هلك سليمان بن الحسن الجنابي «أبو طاهر»، زعيم الدولة القرمطية في البحرين، الذي هتك حرمة الكعبة، وقتل الكثير من الحجاج، ترك أولاداً غير أكفاء لخلافته في الزعامة، فتنافس أخواه سعيد وأحمد على الولاية، وأدى هذا التنافس إلى انقسام جماعة القرامطة إلى حركتين متعاديتين بعد أن كانوا حركة واحدة متجانسة، وكان على رأس إحدى هاتين الحركتين أبناء سليمان (أبو طاهر الجنابي) ومعهم سابور، وعمه أحمد، وانضم إليهم كبار هذه الطائفة، وكان هؤلاء خاضعين للعبديين في المغرب يتلقون منهم التوجيه وينفذون تعاليمهم، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم «الفرقة العقدانية» أي أصحاب العقيدة.

وعلى رأس الحركة الثانية، سعيد المذكور الذي رفض التبعية للعبديين وآثر الاستقلال بشؤونهم، ولأجل تقوية مركزه ضد العبديين، الذين لم يعترفوا به، اتجه لمصانعة العباسيين الذين سارعوا لموازرتة بهدف تعميق الانقسام في صفوف هؤلاء القرامطة، لكي يسهل

التخلص منهم جميعاً، وقد أدى هذا الانقسام الذي رافقته حروب دامية بين الحركتين إلى التعجيل بنهاية القرامطة كقوة سياسية ومذهبية.

(٣٣٥) عقائد القرامطة

إن عقائد القرامطة ، هي مزيج من الحق والباطل شأن كل فرقة زائفة، فأخذت بتبني الإمامة لأئمة أهل البيت وإظهار الإخلاص لهم، ورفض الحكومات الأموية والعباسية المخالفة للقرآن والسنة والسيره النبوية .و إليك بعض عقائدهم بشكل موجز: ١. نظرية الحلول عند القرامطة

والقرامطة ، قالوا بنظرية الحلول أو ما يسمى عند بعض الطوائف المعاصرة باسم حلول اللاهوت بالناسوت، فذهبوا إلى أنائمهم حلت فيهم شخصيات الأنبياء السابقين الذين بعثهم الله في الأمم الغابرة ابتداءً من آدم وانتهاءً بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بل أنهم تجاوزوا الأنبياء.

لما دخل عبيد الله المهدي إلى رقادة بالمغرب مدحه محمد البديل، أحد موظفي الديوان عند أبي قضاة بقوله:

حل بقرادة المسيح * حل بها آدم ونوح

حل بها أحمد المصفي * حل بها الكيش والذبيح

حل بها ذو المعالي * و كل شيء سواه ربح ٢. الغلو عند القرامطة

تعتقد القرامطة أن الإمام القائم هو محمد بن إسماعيل الذي يبعث بالرسول، ويسن شريعة جديدة ينسخ بها شريعة النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

كما يعتقد القرامطة بأن روح الله تعالى تحل في أجساد أئمتهم فتعصمهم

(٣٣٦)

من الزلل وترشدهم إلى صالح العمل.

وهم يعتقدون أيضاً أن أئمتهم السبعة هم السبع المثاني الذين أشار القرآن الكريم إليهم، ورفعوهم إلى حد المغالاة. ٣. التأويل الباطني في تفسير القرآن

تفردت الباطنية بتفسير القرآن الكريم على طريقة التأويل الباطني، وهو أن يتجاوز الإنسان المعنى الظاهري للآية ويتجه إلى فهمها عن طريق تفسير كلماتها بما يخيل إليه أنه المقصود الحقيقي من كلام الله، ومن الطبيعي أن يعتمد الباطنيون هذه الطريقة لتحميل الآيات المعنى الذي يؤيد وجهة نظرهم وأفكارهم المذهبية.

إن التأويل بمعناه الواقعي لدى الإسماعيليين يختلف عن التفسير المعمول به لدى عامة الفرق الإسلامية الأخرى، والتفسير بمعناه جلاء المعنى لكل كلمة غامضة لا يفهم معناها القاري والتأويل باطن المعنى أو رمزه أو جوهره وهو حقيقة مستتره وراء لفظه لا تدل عليها، ومن هنا أعطى النظام الإسماعيلي - ومثله القرمطي - الفكرى صلاحية التفسير للناطق ووهب صلاحية التأويل للإمام، فالناطق اعتبر ممثلاً للشريعة والأحكام والفقه والقانون الظاهر، والإمام اعتبر ممثلاً للحقيقة والتأويل، والفلسفة والباطن، ومن الواضح أن أول منهاج دعوا إليه هو نظام التأويل، فإنهم هدبوه وصقلوه بأفكارهم وأدخلوا فيه النظرية العقلية التي تشذب الفعل والتسليم لثبتوا للعالم الإسلامي أنهم من العريقين في فهم الأصول الإسلامية، فقالوا بالباطن وضرورته كما قالوا بالظاهر إلى جانبه، فلا يقبل الظاهر دون الباطن، ولا ينفع الباطن دون الظاهر، لأن الباطن والظاهر كالجسد والروح تولد في اجتماعهما الفوائد ومعرفة المقاصد.

إن للقرآن مدلولاً، ظاهرياً وباطنياً، فالمعنى الظاهري واللغوي ليس هو المقصود بالذات والتمسك بهذا المعنى يوجب العذاب والمشقة، أما الأخذ

(٣٣٧)

بالمعنى الباطني فهو يوجب الانسراح والسعادة، لأنه يقضى بترك التكاليف والأعمال الظاهرة وكان ابن ميمون يدس هذه الفكرة بصورة خفية وباطنة وما كان يتظاهر بها تجاه غير الإسماعيليين - القرامطة - ولذلك كانت هذه الطريقة مبالغ فيها. نهاية القرامطة سياسياً وعسكرياً

في منتصف القرن الرابع الهجري دخل القرامطة النهاية لأسباب ذاتية وأخرى خارجية، وما لبثوا أن زالوا عن مسرح الصراع في المشرق العربي من الناحيتين السياسية والعسكرية. الأسباب الذاتية

من الواضح أن الحركة القرمطية لم تستطع إخفاء مقاصدها الحقيقية في محاربة العقيدة الإسلامية الصحيحة لا سيما بعد الانتصارات المحلية لبعض زعمائها على السلطة العباسية، فقد أساء المتأخرون من هؤلاء الزعماء التصرف بالنسبة للمجتمع الإسلامي آنذاك، حتى أن العبيديين وهم على منوالهم في الاتجاه السياسي والعقائدي اضطروا إلى أن يتبرأوا منهم وأن يهاجموهم عسكرياً في أماكن تواجدهم، حيث أوعزوا إلى قائدهم العسكري «جوه الصقلي» بأن يذيع بياناً يستنكر فيه أعمال القرامطة ويتبرأ من تصرفاتهم المغايرة للإسلام والضارة بالمسلمين، على أن جوه لم يكتف بهذا البيان بل حاربهم فعلاً على أرض فلسطين في الرملة (سنة ٣٦٨هـ) وكانت هذه المعركة بداية النهاية بالنسبة للحركة القرمطية ولأتباعها على مختلف المستويات وفي جميع البلدان التي انتشروا فيها بقوة الدعاية التبشيرية أو بقوة السلاح والأرهاب.

وإنه يمكن القول بأن حادثة العدوان الذي قام به القرامطة على مكة

(٣٣٨)

المكرمة بقيادة أبي طاهر الجنابي، وما رافق ذلك من قتل الحجاج، واقتلاع الحجر الأسود من مكانه، وأخذه إلى هجر، إن هذه الحادثة كانت بمثابة القنبلة الموقوتة التي انفجرت بعد حين ودمرت الكيان القرامطي من أساسه، حتى أن أبا محمد عبيد الله الذي أسس الدولة العبيدية وكان هو نفسه قرمطي العقيدة استهول هذه الحادثة وأفزعت مضاعفاتها السلبية في الأوساط الإسلامية، فأرسل كتاباً لنظرائه قرامطة البحرين ينكر فيه عليهم فعلتهم الشنيعة ويلوم أبا طاهر المذكور ويلعنه ويقيم عليه القيامة، بقوله: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى غيرهم من الحجاج ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة.

وهذه الحادثة المشؤومة كانت (سنة ٣١٧هـ) و هنا فإننا نرى من الفائدة تسجيل وجهة نظر القرامطة في هذه الحادثة كما عبر عنها أبو طاهر القرمطي الذي اقترف هذه الجريمة النكراء، وذلك من خلال الشعر الذي قاله في هذه المناسبة، والرد الذي أرسله إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله.

قال أبو طاهر في تبرير اقتلاع الحجر الأسود والعدوان على البيت الحرام:

فلو كان هذا البيت لله ربنا * لصب علينا النار من فوقنا صبا

لأنا حججنا حجة جاهلية * مجللة لم تبق شرقاً ولا غرباً

و أنا تركنا بين زمزم والصفاء * كتائب، لا تبغى سوى ربها ربا

ولكن رب العرش جل جلاله * لم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجبا ومن العوامل الذاتية الأخرى التي أضعفت القرامطة وأدت إلى ذهاب ريحهم واضمحلال شوكتهم، الانقسام الذي فرّق أمرهم فيما بينهم، وخاصة بعد موت أبي طاهر سليمان مما اضطرتهم إلى تعديل نظام (مجلس العقدانية) وتحويله (إلى مجلس السادة) الذي أوهن قيادتهم المركزية، والحروب التي شنها بعضهم على

(٣٣٩)

بعض في عهد أبي طاهر والاعلم خارج مركز قوتهم (البحرين) مما كبدهم أموالاً طائلة، وأضعف مواقفهم بعد كل معركة، وأدى إلى قيام حركات انفصالية داخل مجموعتهم لا سيما في عمان واليمن. الأسباب الخارجية

أما الأسباب الخارجية التي أدت إلى زوال الحركة كدولة ونظام ومجتمع، فإنَّ المورخين يردون ذلك إلى الظواهر السلبية التي عانوا منها في أخريات أيامهم وهي التالية:

١. ظهور دولة بنى بويه المناوئة للقرامطة التي نجحت في جرهم إلى حروب جانبية خلقت لهم أعداء من كلِّ جانب، وخاصة من الدولة العبيدية المصرية.

٢. قلة الأموال التي كانت بحوزتهم، فلم يعودوا يتمكنون من الاستمرار في صرف المعتاد من العطايا على البدو مما أضعف موالة هؤلاء لهم، وتحوّلوا عنهم إلى العباسيين لهذا السبب.

٣. انقلاب قبائل إقليم البحرين نفسها عليهم، مثل: بنى عقيل وبنى تغلب، ونجاح هذه القبائل بالتغلب على بعض أطراف الدولة القرمطية مثل القطيف وما جاورها.

٤. ومن العوامل الخارجية الأخرى التي قادت القرامطة إلى نهايتهم وتلاشيهم أن أسيادهم وحلفاءهم ورفاقهم في الاتجاه المذهبي والمبادئ العقائدية، نعى: العبيديين حكام القاهرة، انقلبوا عليهم بعد أن ضاقوا ذرعاً بتأرجحهم بين الولاء لبغداد وبين الاستسلام للقاهرة، وبخروجهم عن كَلحد، وزاد غيهم وسفكهم للدماء وغزوا مكة وفتكوا بالحاج واقتحموا البيت الحرام، ولما ذهبوا في جرأتهم إلى مهاجمة الدولة الفاطمية ذاتها في الشام وانتزعوا منها دمشق وهاجموها في مصر منزلها الجديد، تنكرت لهم وأنكرت ثورتهم وتبرأت منهم.

(٣٤٠) نهاية القرامطة

وقد مرت نهاية القرامطة في مرحلتين:

الأولى: يوم طردوا من جزيرة أوال في البحرين

ففي سنة ٤٥٨هـ خرجت الجزيرة المذكورة عن طاعتهم ووالت العباسيين بعد سلسلة الحروب الداخلية التي خاضها المسلمون والمجاعة في هذه الجزيرة، فقد بنى أهل البحرين مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم، ولما فرغوا من بناء هذا المسجد آل أمر الجزيرة إلى العباسيين.

الثانية: استئصال شأفتهم نهائياً من هذه البلاد

كانت هزيمة القرامطة في جزيرة أوال ذات أثر سلبي كبير عليهم، إذ عمد سكان الجزيرة إلى الاتصال بالسلاجقة والعباسيين في العراق وفي سنة ٤٦٢هـ بعثت بغداد بجيوش ألحقت الهزيمة تلو الهزيمة بالقرامطة، فاضطروا للارتداد إلى الأحساء، فلحقت بهم إلى الأحساء وحرصوا عليهم السكان بالمنشورات التي يستحثونهم فيها على الانضواء تحت لواء العباسيين في جهاد المبطلين القرامطة الملحدين، وفي استئصال ذكرهم، وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم.

فاستجاب أهالي البلاد لهذه الإثارة وانضموا إلى العساكر العباسية، وأصبح القرامطة محاطين بأعدائهم في شمالي الأحساء الذين انتصروا عليهم في معركة الخندق سنة ٤٧٠هـ

وتعد هذه الواقعة من الوقائع الحاسمة في تاريخ الحركة القرمطية، لأنها قضت على دولة القرامطة وألغت وجودها نهائياً من خارطة العالم الإسلامي.

هذا وقد لخصنا هذا المقال من كتاب طه ولي بتصرف يسير لما لمسنا منه من تطرف للحكم العربي المتمثل في الدولة الأموية والعباسية حيث رأى أنّهما يمثلان الدولة الإسلامية الشرعية المجسدة لأهداف النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وآماله.

الفصل السادس عشر في فرقة الدرور

(٣٤٢) (٣٤٣)

الدرور هي جمع الدرزي، والعامّة تتكلم بضم الدال، والصحيح هو فتحها. والظاهر أنّ الكلمة تركية بمعنى الخياط، وهي من الكلمات الدخيلة على العربية حتى يقال: درز يدرز درزاً، الثوب، خاطه، والدرزي: الخياط.

والدرور فرقة من الباطنية لهم عقائد سرية متفرون بين جبال لبنان و حوران و الجبل الأعلى من أعمال حلب.

ولم يكتب عن الدرور شيء يصح الاعتماد عليه ولا هم من الطوائف التي تنشر عقائدها حتى يجد الباحث ما يعتمد عليه من الوثائق. نعم كتب عنهم المستشرقون أشياء لا يمكن الاعتماد عليها، وقد سبق منا في ترجمة الإمام الحادي عشر الحاكم بالله أنالإسماعيلية كانت فرقة واحدة وطراً عليهم الانشقاق بالقول بالوهية الحاكم وغيته وهم اليوم معروفون بالدرور، وقلنا: إنّ الحاكم استدعى الحمزة بن علي الفارسي الملقب بالدرزي وأمره أن يذهب إلى بلاد الشام ليتسلم رئاسة الدعوة الإسماعيلية فيها، ويجعل مقره «وادي التيم»، ولقبه الإمام بالسيد الهادي، وتمكن الدرزي في وقت قليل من نشر الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد إلى أن وصلت إليه وفاة الإمام الحاكم وتصدى ابنه الظاهر لمقام الولاية، ولكن الدرزي لم يعترف بوفاء الإمام الحاكم بل ادعى أنه غاب وبقي متمسكاً بإمامته ومنتظراً لعودته، وبذلك انفصلت الدرزية عن الإسماعيلية وكان ذلك الانشقاق عام ٤١١ هـ. (١)

١. لاحظ تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٣٨.

(٣٤٤) الدرور في موسوعات دائرة المعارف

إنّ الدرور من الفرق الباطنية التي يصعب الاطلاع على عقائدهم لأنهم راعوا جانب الحذر والتكتم عليها، ومع ذلك فقد نقل أصحاب دوائر المعارف أموراً عنهم، ونحن نقطف مما جاء فيها: ١. الدرور في دائرة المعارف البستاني (١)

بعد أن ذكرت الموسوعة مراكز توطنهم وعدد نفوسهم وشيئاً من أحوالهم السياسيّة والآداب الاجتماعيّة و ما يزاووه من المهن كالزراعة والتجارة، والحروب التي نشبت بينهم وبين غيرهم من الطوائف، قالت عن عقيدتهم ما هذا نصّه:

و إيمان الدرور، أنّ الله واحد، أحد، لا بدء له ولا نهاية، وأنّ النفوس مخلّدة تتقمّص بالأجساد البشريّة (التناسخ) ولا بدّ لها من ثواب وعقاب يوم المعاد بحسب أفعالها، وأنّ الدنيا تكونت بقوله تعالى كوني فكانت، والأعمار مقدّرة بقوله: "وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا" (٢) وأنّ الله عارف بكل شيء، وهم يكرمون الأنبياء المذكورين في الكتب المنزلة، ويؤمنون بالسيد المسيح ولكنهم ينفون عنه الإلوهية والصلب، وأسماء بعض الأنبياء عندهم كأسمائهم في تلك الكتب، ول بعضهم أسماء أخرى كالقديس جرجس، فإنّه عندهم الخضر، وأسماء أنبيائهم شعيب وسليمان وسلمان الفارسي ولقمان ويحيى، وعندهم أنّه لا بدّ من العرض والحساب يوم الحشر والنشر. وتنقسم هذه الطائفة إلى: عقّال وجّهّال. فالعقال هم عمدة الطائفة، ولهم رئيسان دينيان يسميان بشيخي العقّال، والأحكام الدينيّة مفوضة إليهم.

١. وقد طبع الجزء الذي نقلنا الترجمة عنه عام ١٨٨٣ م ، أي ما يعادل عام ١٣٠١ هـ.

٢. المنافقون: ١١.

(٣٤٥)

وعندهم للوصية نفوذ تام، فإنّ الإنسان مختار أن يوصى قبل موته بأملاكه لمن يشاء، قريباً كان أم غريباً. ولذلك قد منحهم الدولة العلية منذ القديم قاضي مذهب لدعاوى الوصايا.

وقد أمر عقّالهم بتجنّب الشك، والشرك، والكذب، والقتل، والفسق، والزنا، والسرقه، والكبرياء، والرياء، والغش، والغضب، والحقد، والنميمة، والفساد، والخبث، والحسد، وشرب الخمر، والطمع، والغيبة، وجميع الشهوات والمحرمات والشبهات، ورفض كلّ منكر من

المآكل والمشارب، ومجانبة التدخين، والهزل والمساخر والهزاء والمضحكات، وجميع الأفعال المغايرة لإرادته تعالى، وترك الحلف بالله صدقاً أو كذباً، والسب، والقذف، والدعاء بما فيه ضرر الناس.

وعندهم أنه على كل مؤمن التحلي بالعفاف، والطهارة، والفعل الجميل، والكرم بالعلم، والمال، وخوف الله وطاعته، والرصانة، وصيانة العرض، وصدق اللسان، وصونه من الإفك والإثم والزور والبهتان مع استمرار ذكر الله وتسبيحه وتقديمه، وتقديم الصلوات والتضرعات والتوسلات لعزته تعالى.

ولا يجوز لعاقل أن يخلو بامرأة، ولا أن يرد تحيتها ما لم يكن بينهما ثالث.

وشأنهم التهذيب وكره الزيف والترف. وكل عاقل ارتكب القتل أو الزنا أو السرقة أو غيرها من الآثام يطرد من مجلس العقال الذين يجلسون فيه للقيام بالفروض الدينية ويبقى مطروداً إلى أن تتحقق ندامته وتوبته.

ومن شأن الدرّوز إكرام الضيف، والشجاعة، والاقتصاد بالمعيشة.

ويسكنون الآن في جبل لبنان وقضاء «راشيا» وقضاء «حاصيا» وإقليم البلان والغوطة والشام وجبل حوران وجبل الكرامل والجبل الأعلى ومرعش وحلب والحلة والكوفة، ومنهم عشيرة بني لام في العراق، وفي الغرب والهند.

(٣٤٤)

وتناولنا من أحد أدبائهم جملة أخرى هذا ملخصها:

يؤمن الدرّوز بأن الدنيا حادثه وبوجود الله وان لا خالق سواه. وأنه قديم أزلي، أبدى، عادل، لا غرض لفعله، غنى لا يحتاج، وحاكم قادر لا يجب عليه شيء، إن أتاب بفضله وإن عاقب فبعده، غير متبعض، ولا له حد ولا نهاية، ويعتقدون القرآن الشريف اعتقاد السنية إلا أنهم يخالفونهم في تفسير بعض آياته الكريمة. ويعتقدون أيضاً أقوال حمزة وتعاليمه ويسمونها كتب الحكمة؛ وتتضمن علم التوحيد، وكيفية خلق العالم وأسبابه وعلله، وذكر الأنبياء، وأسمائهم وفضائلهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يجب على الإنسان وما لا يجب عليه، وإثبات المعاد والحساب والعقاب واعتقاد التناسخ، وكون النفوس معدودة محدودة لا تزيد ولا تنقص باقية أزلية لا تفنى، مستقرة في أمكنتها غارقة في بحر عظمة اللاهوت، تفنى الأجساد القائمة بها وتتلاشى وهي باقية إلى الأبد لا تفنى ولا تتغير.

وهم ينقسمون باعتبار الطريقة المذهبية إلى قسمين:

طائعون ويعرفون بالعقال، وهم السالكون بمقتضى الطريقة المذهبية، كالامتناع عن التدخين وسائر المشروبات الروحية والابتعاد عن التأتق في المأكولات والملبوسات وسائر اللذات الدنيوية والاقتصار على التقشف في المعيشة.

وشراحون ويعرفون بالجهال، وهم المخالفون للعقال في الامتناع عن التدخين والمشروبات الروحية وعن الترفه في المعيشة والتنعم باللذات الدنيوية، ولذلك لا يسوغ لهم مطالعة القرآن الشريف، ولا متون الحكمة خلافاً للعقال، لأنّ عندهم كتباً مقدسة لا يمسها إلا الطاهرون. والطهارة عندهم الامتناع عن سائر المحرمات والممنوعات، وإنما يسوغ لهم تلاوة بعض شروح كتب دينية، ولهذا يقال لهم شراحون.

(٣٤٧)

و يمتاز العقال عن الجهلاء بكونهم يتعممون بعمامة بيضاء ويلبسون الملابس البسيطة كالقباة والعباءة، ونسبه هؤلاء العقال إلى الجهال عدداً أكثر من ثلاثة أرباع.

أما شعائرتهم في ختان الأولاد والزواج والطلاق والصلاة على الجنازة فهي طبق الشعائر الإسلامية غير أنه ليس من عوائدهم أن يتزوج أحدهم بغير امرأة واحدة، لا يسوغ التزوج بها ثانية بعد الطلاق على الطريقة المعروفة بالرجعة، ولهم عيدان: عيد رمضان ويسمونه بالعيد الصغير، وعيد الأضحى ويسمونه بالكبير، ولهم معابد كثيرة معدة للصلوات يجتمعون فيها كل ليلة جمعة، ولأكثر هذه المعابد

أوقاف مخصوصة تنفق حاصلاتها على لوازم تلك المعابد. ولهم أيضاً معابد أخرى معدة للأشخاص الذين يفرغون أوقاتهم لعبادة الله تعالى. وتسمى هذه المعابد بـ «الخلوات» وهي كالآديرة عند المسيحيين عددها ٤٠ في الجبل وخلافه. (١) ٢. الدرور في دائرة المعارف المصرية (٢)

هذا ما يذكره بطرس البستاني ويصور لهم صورة بيضاء ناصعة ويظهرهم عن كل ما ينسب إليهم من المنكرات، وفي الوقت نفسه يصور لنا الكاتب محمد فريد وجدى صورة مشوهة عنهم حينما قال:

ظلت معتقدات الدرور في طي الخفاء حتى استولى إبراهيم باشا بن محمد على على معابدهم في جبل «حاصبيا» ووجد في كتبهم كنه مذهبهم تفصيلاً منها كلمة الشهادة عندهم: (ليس في السماء إله موجود ولا على الأرض رب معبود إلا الحاكم بأمره).

من معتقداتهم أن الحاكم بأمر الله هو الله نفسه وقد ظهر على الأرض عشر _____

١. البستاني: دائرة المعارف: ٧/٦٧٥-٦٧٧.

٢. طبع سنة ١٣٨٦ هجرى، ١٩٦٧ ميلادى.

(٣٤٨)

مرات أولها في العلى، ثم في البارز إلى أن ظهر عاشر مرة في الحاكم بأمر الله، وأن الحاكم لم يمت بل اختفى حتى إذا خرج بأجوج ومأجوج - ويسمونهم القوم الكرام - تجلى الحاكم على الركن اليماني من البيت بمكة ودفع إلى حمزة سيفه المذهب فقتل به إبليس والشيطان، ثم يهدمون الكعبة ويفتكون بالنصارى والمسلمين ويملكون الأرض كلها إلى الأبد.

ويعتقدون أن إبليس ظهر في جسم آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد، وأن الشيطان ظهر في جسم ابن آدم، ثم في جسم سام، ثم في إسماعيل، ثم في يوشع، ثم في شمعون الصفا، ثم في على بن أبى طالب، ثم في قداح صاحب الدعوة القرمطية. ويعتقدون بأن عدد الأرواح محدود، فالروح التي تخرج من جسد الميت تعود إلى الدنيا في جسد طفل جديد.

وهم يسبون جميع الأنبياء، يقولون: إن الفحشاء والمنكر هما أبوبكر وعمر، ويقولون: إن قوله تعالى: "إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ" (١) يراد به الأئمة الأربعة وأنهم من عمل محمد.

ويعتقدون بالإنجيل والقرآن، فيختارون منهما ما يستطيعون تأويله ويتركون ما عداه، ويقولون: إن القرآن أوحى إلى سلمان الفارسي فأخذه محمد ونسبه لنفسه ويسمونه في كتبهم المسطور المبين.

ويعتقدون أن الحاكم بأمر الله تجلى لهم في أول سنة (٤٠٨هـ) فأسقط عنهم التكليف من صلاة وصيام وزكاة وحج وجاهد وولاية وشهادة.

لدى الدرور طبقة تعرف بالمنزهين وهم عباد أهل ورع وزهد، ومنهم من لا يتزوج، ومن يصوم الدهر، ومن لا يذوق اللحم، ولا يشرب الخمر. (٢) _____

١. المائدة: ٩٠.

٢. محمد فريد وجدى: دائرة المعارف: ٤/٢٦-٢٨.

(٣٤٩) عقائد الدرور

وقد تناولت دائرة المعارف الإسلامية - بعد أن استعرضت شيئاً من أحوالهم ومواطنهم وعاداتهم وحرفهم - جانباً من أبرز جوانب عقيدتهم، وهو اعتقادهم بالوهية الحاكم، ما هذا نصه: ١. اعتقادهم بالوهية الحاكم

وقد قام مذهب الدرور على فكرة أن الله قد تجسد في الإنسان في جميع الأزمان وهم يتصورون أن الله ذاته أو على الأقل القوة الخالقة تتكون من مبادئ متكررة يصدر الواحد منها عن الآخر ويتجسد مبدأ من هذه المبادئ في الإنسان.

فالخليفة الحاكم وفقاً لهذه العقيدة يمثل الله في وحدانيته وهذا هو السبب في أن حمزة قد أطلق على مذهبه اسم مذهب «التوحيد»

وهم يعبدون الحاكم ويسمونه «ربنا» ويفسرون متناقضاته وقسوته تفسيراً رمزياً، فهو آخر من تجسد فيهم الله. وهم ينكرون وفاته ويقولون إنه إنما استتر وسيظهر في يوم ما وفقاً للعقيدة المهدوية.

ويلى الحاكم في المرتبة خمسة أئمة كبار تتجسد فيهم المبادئ التي صدرت عن الله:

فالأول: تجسيد للعقل الكلى، وهو حمزة بن علي بن أحمد الزوزنى الملقب بـ«العقل» ويرمز له بـ«الأخضر» وهو الإمام الأعظم وآدم الحقيقي.

والثاني: تجسيد للنفس الكليّة وهو إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي الملقب بـ«النفس» ويرمز له بـ«الأزرق» وهو صهر حمزة ووكيله في الدين.

والثالث: تجسيد للكلمة التي خرجت من النفس عن طريق العقل، وهو محمد بن وهب القرشي الملقب بـ«الكلمة» ويرمز له بـ«الأحمر» وهو سفير

(٣٥٠)

القدرة والشيخ الرضى.

والرابع: السابق وهو سلامة بن عبد الوهاب السمرى الملقب بـ«السابق» ويرمز له بـ«الأصفر» أو «الجناح الأيمن».

الخامس: التالي وهو بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموكي الملقب بـ«التالي» أو «الجناح الأيسر» ويرمز له بـ«البنفسجى» وهو آخر الحدود الخمسة وبه انغلقت الدعوة الدرزية وصارت سرية لا علنية.

ويلى هؤلاء الأئمة الكبار آخرون أدنى منهم مرتبة موزعون على ثلاث طبقات وهم: الداعى، والمأذون، والمكاسر ويعرف أيضاً بالنقيب. ويعرف الداعى كذلك بالعمل، والمأذون بالفتاح.

ومعرفة ذات الله وصفاته وتجلياته في سلسلة المبادئ المتجسدة في الأئمة وهى عقائد هذا المذهب. وتتلخص آدابه فى سبعة أركان تقوم مقام أركان الإسلام وهى:

١. حب الحق (بين المؤمنين دون غيرهم).

٢. حفظ الإخوان (الدروز).

٣. التبرؤ من العقيدة التي كان يدين بها الدرزي من قبل.

٤. الابتعاد عن الشيطان وعن الضالين والأبالسة.

٥. التوحيد للحاكم فى كل عصر ومكان.

٦. الرضا عن أفعال «ربنا» الحاكم أياً كانت.

٧. الخضوع التام لإرادته كما تتجلى فى أئمة على ما هو مفهوم.

وهذه القواعد واجبة الطاعة على كل درزي رجلاً كان أو امرأة. (١)

وقد قام بعض الباحثين بتأليف رسالة خاصة بعقائدهم أشار فيها إلى جوانب أخرى منها - غير ما نقلناه آنفاً - وإليك نصّ المقال بتلخيص وتصرف _____:

١. دائرة المعارف الإسلامية: ٩/ ٢١٧-٢١٨.

(٣٥١) ٢. التحريف الواضح للقرآن وأن الأنبياء أبالسة جاءوا للظاهر

كانت عقيدة الدرروز بادى بدء تؤمن بالقرآن وأنه من العلى الأعلى كما تؤمن بالنبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وبقيه الأنبياء كموسى وعيسى وإبراهيم - عليهم السلام - و تجلّهم كثيراً، لكن بعد ذلك صارت هذه العقيدة لا تؤمن بالله إلا بالحاكم ولا بالأنبياء بل تعددهم أصل الظاهر يحرفون الناس عن الباطن والحقيقة، واستطاع (حمزة بن علي) أن يجمع من متفرقات كثيرة حتى يكتب

(المصحف المنفرد بذاته) أو كثيراً من رسائل الحكمة والتي صارت فيما بعد العقيدة الدرزية.

و يتظاهرون في المجتمع الإسلامي بأنهم مسلمون وينسبون أنفسهم إلى الإسلام وقد يحفظون بعض آيات القرآن والتي وردت في «المصحف المنفرد بذاته» ويتظاهرون بإيمانهم بالقرآن والأنبياء، وقد يعطون الرسائل الأربعة الأولى لرسائل الحكمة التي وجدت على قبر الحاكم بأمر الله الفاطمي وذلك للتمويه والتظاهر بانتسابهم إلى الإسلام.

لكنهم يؤولون ما جاء في ذلك إلى مبنى مباين ومغاير تماماً فالمسيح الحق هو حمزة، وبسم الله الرحمن الرحيم هي حدود حمزة، والجنه التوحيد، والنار هي الشرك، والصدق هم أنبياء الحق، والكذب هم الأبالسة ويقصدون بهم الأنبياء: آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد. ٣. إيمانهم بالتناسخ واعتباره مبدأ أساسياً في عقيدتهم

يؤمنون بالتقمص حيث تنتقل روح الإنسان بعد موته إلى شخص آخر جديد وهكذا، ويتمسكون بكون أمام المسلمين بقوله تعالى: "تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" (١)، "أَمْتَنَا اثْنَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَيْنِ" (٢) ويوجد في _____

١. آل عمران: ٢٧.

٢. غافر: ١١.

(٣٥٢)

«المصحف المنفرد بذاته»:

«لقد كبرت فريه تخرج من أفواه الذين جحدوا إذ قالوا لن نرجع إلى خلق جديد حتى يوم الحاقه قل احسأوا في تقلباتكم إن تقولون إلا كذباً».

ويعتبرون هذه الحالة وسيلة لوصول كل روح إلى درزي، ويتحقق بذلك المجتمع التوحيدي: إذ يعتقدون بمحدودية عدد الأرواح، وشرار الأرواح تتقمص أجسام الكلاب.

و من هنا ينطلق الدرور في الإيمان بأن الجسد هو الذي يموت بينما النفس تبقى خالدهً والتقمص في نظر الموحدين هو انتقال النفس بعد الموت مباشرة من جسد إنسان إلى جسد إنسان آخر وهذا القميص هو الذي يتغير عند الوفاة منتقلة إلى جسد إنسان آخر. (١)

يقول الشاعر الدرزي:

نحن الألى هان الممات عليهم * الروح تبقى، والقميص يُمزق ٤. إسقاط التكاليف

أما الصلاة فهي ساقطة عنهم، والمقصود بها هي الصلة للقلوب مع مولاها الحاكم.

وأما الزكاة فتعني: توحيد المولى الحاكم وتزكية القلوب وتطهيرها.

وأما الصوم فباطنه الصمت لقوله لمريم: "فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا" (٢) والصوم الحقيقي هو صيانة القلوب بتوحيد المولى الحاكم.

١. محمد كرد علي: خطط الشام: ٦/٢٦٥.

٢. مريم: ٢٦.

(٣٥٣)

أما الحج فهو معرفة المولى الحاكم والبيت هو توحيد المولى، ويذكرون قول المنصور:

هلم اريك البيت توقن أنه * هو البيت بيت الله لا ما توهمنا

أبيت من الأحجار، أعظم حرمة * أم المصطفى الهادي الذي نصب البينا ويقصدون بالبيت هو توحيد الحاكم.

وأما الولاية فيقولون: إن الحاكم نسخها بقوله: (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا للذي خلقهن) أي لا تسجدوا لعلی أو محمد،

بل للحاكم وهو المشيئة إن كنتم إياه تعبدون.

كما أنهم من القائلين بجواز الزواج من المحارم كالأخت وبتعدد الزوجات وحلية شرب الخمر. ٥. تفسير الشهادتين إن شهادة (أن لا إله إلا الله) كلمتان دليل على السابق والتالي.

وهي أربعة فصول دليل على الأصليين والأساسين.

وهي سبع قطع دليل على النطقاء السبعة والأوصياء السبعة والأيام السبعة والسموات السبعة والأرضين السبعة والجبال السبعة والأفلاك السبعة.

وهي ١٢ حرفاً دليل على ١٢ حجة أساسية.

وأما شهادة: (محمد رسول الله) فهي ٣ كلمات دليل على ٣ حدود: الناطق والتالي فوجه والسابق فوق الكل، وهي ٦ قطع دليل على ٦ نطقاء، وهي ١٢ حرفاً دليل على ١٢ حجة، وكذلك السماء ١٢ برجاً و ١٢ جزيرة.

(٣٥٤) ٦. تقديسهم للعجل وإظهاره في مراسمهم واحتفالاتهم

يدعى الكثير بأنهم من عبدة العجل، والواضح في مراسمهم واحتفالاتهم ظهور صورة العجل، وفي خلواتهم يذكرون العجل بشيء من التقديس والإجلال، كما أنهم يحرمون قتله وأكله. ٧. تأويل غريب ومنحرف للحديث الإسلامي

كما أنهم يذكرون روايات على بن أبي طالب - عليه السلام - حول المهدي ويقولون في تأويلها المقصود به المهدي بالله (أول خلفاء الدولة الفاطمية).

ويدعون أن الحاكم سيرجع في آخر الزمان ليدين العالم ويبدد أعداءه من أمام وجهه، ويبسط ملكه على العالم، وتسبق رجعة الحاكم رجعة حمزة ليعد لمجيء الإله الحاكم ويحطم الأضداد والأبالسة المرتدين ويكسر الصلبان، ويهدم الكعبة التي يعتبرونها «مقطرة الكفرة» يقتل علوج الضلال وقود الزنج في الأغلال ونسخ الشرائع والطرائق، وظهور الحقائق وسبى النساء والأطفال وذبح الرجال بسيف الحاكم على يد عبده القائم الناطق حمزة بن علي، فينصر مستجيبه بعساكره الجرارة فيحيى كل البشر تحت رايته.

هذه هي أبرز سمات عقيدة الدرروز والتي تعتبر السرية ركناً أساسياً لها خوفاً من المتطفلين كما أن كشفها قد يعرضها إلى إساءة فهمها ثم الاستهزاء بها وهذا يجر صاحبها إلى الهلكة.

كما أنلهذه الفرقة طقوساً خاصة بهم.

منها: الميثاق: وهو أن كل من يكتمل ويصل لسن الأربعين عليه أن يعرض دينه بحضور شاهدين ويقسم ومما يقوله:

(٣٥٥)

«آمنت بالله ربّي الحاكم... وجميع الحدود... وقد سلمت نفسي وذواتي ظاهراً وباطناً، علماً وعملاً، وأنا أجاهد في سبيل مولانا سراً وعلانية بنفسى ومالى وولدى، وأشهد مولاي هادى المستجيبين المنتقم من المشركين المرتدين حمزة بن علي بن أحمد من به أشرفت الشمس الأزلية ونطقت فيه وله السحب الفضلية أنني قد تبرأت وخرجت من جميع الأديان والمذاهب والمقالات والاعتقادات قديمها وحديثها، وآمنت بما أمر به مولانا الحاكم وأقر بأنك أنت الحاكم الإله الحقيقي المعبود والإمام الموجود جلدكرك». (١)

ومنها: الخلو: وهي أماكن اجتماعهم في جلساتهم الدينية في ليالى الجمع ويحضرها كبارهم العقال فقط ويقودها شيخ العقل أو أكبرهم علماً. (٢)

ولعل ما نقلناه عن الباحثين سلط ضوءاً على جوانب من حياتهم وآدابهم وعقائدهم غير أن الكاتب خير الدين الزركلى ذكر في كتابه «الاعلام» اتصاله ببعض المثقفين من الدرروز وأخذ عنهم شيئاً من عقائدهم ولإكمال الفائدة نقل ما جاء في موسوعته، قال:

كنت قد جمعت طائفة من النصوص والمصادر للرجوع إليها عند كتابة هذه الترجمة، ومنها ما جاء في دائرة المعارف البريطانية ٦٠٣: ٨-٦٠٦ مادة «درروز» ودائرة البستاني «درروز» وعرضتها على صديقى الشهيد «فؤاد سليم» وهو من مثقفي المنسويين إلى المذهب

الدرزى، فقال: إن في الدائرتين البريطانية والبستانية أغلاطاً، وصحح ما أخذته عنهما منها. وأضاف من عنده زيادات مما اشتملت عليه الحاشية السابقة. و أطلعت بعد ذلك صديقي أيضاً «فؤاد حمزة» وهو من أسرة درزية معروفة في لبنان، وكان يومئذ في الرياض - بنجد - وانقطعت صلته بالعقيدة التي نشأ عليها، كما ذكر لي مراراً، وسألته عن رأيه في الترجمة _____

١. رسائل الحكمة: ١/ ٤٧، الرسالة رقم ٥.

٢. نقل بتصرف من رسالة فرقة الدروز، للسيد نبيل الحيدري.

(٣٥٤)

والحاشية، فكتب لي: «هذا أصح ما كتب في الموضوع حتى الآن، وهو في الحقيقة ما يذهب إليه الجماعة» ثمقال في رسالة أخرى: «إن بعض الرسائل المقول إنها لحمزة هي لغيره. وأكثر ما كتب هو من قلم علي بن أحمد السموقى الملقب بهاء الدين. وكتب الدروز الستة هي من وضع أربعة أشخاص:

الأول: الحاكم نفسه، وعدد رسائله قليل، منها «الميثاق» و«السجل» الذي وجد معلقاً على المساجد.

والثاني: حمزة، والرسائل التي تركها غير كثيرة.

والثالث: إسماعيل بن محمد التميمي الداعي المكنى بصفوة المستجيبين وبالنفس، فله بعض الرسائل ومنها شعر اسمه «شعر النفس» وهو كملحمة.

والرابع: بهاء الدين الصابري أى علي بن أحمد السموقى، وله معظم الرسائل، وهو الذى نشر الدعوة ووطد أركانها أكثر ممن سبقه. وقال في رسالة ثالثة: «لا شك في أن الحسن بن هانى كان من كبار الباطنيين، ولكنه باطنى في مبتدأ نشوء الدعوة قبل أن تدرك مبلغها الذى عرفت به فى عصر الحاكم الفاطمى. و من الواضح أن الحاكميين كانوا آخر من انشق عن الإسماعيلية ولذلك تجد فى كتابات الفريقين مصطلحات واحدة، كالناطق، والأساس، وداعى الدعاء، والنقباء، والمكاسرين، والعقل، والنفس الخ البانثيون الباطنى». وقال فى رسالة رابعة: «لقد كثر الكتاب فى موضوع الإسماعيلية والفرق الباطنية كما كثر فيه الخلط من جانب الذين كتبوا.

والموضوع من الوجهة التاريخية جدير بالناية لأن هذه الفرق الباطنية هى التى أعملت معولها فى ببيان الإسلام تحت ستار من الغيرة الدينية. وقد قرأت عن ذلك الكثير ولكن معظم الكتاب لم يتمكنوا من بلوغ الهدف. إذ أن معرفة حقائق

(٣٥٧)

الدعوات الباطنية لا تيسر إلا لمن كان مطلعاً على التاريخ الإسلامى بوقائعه الظاهرة وكان فى نفس الوقت من جماعة الداخلين فى العملية. وقد تكون كتابات بطرس البستاني وكتاباته دائرة المعارف البريطانية مهمة ولكن كما ذكرت لك يصعب على من كتب أن يتفقه كنه الدعوة مادام لا يعرف حقيقتها السرية وتفسيراتها الداخلية. (١)

١. الأعلام: ٢/ ٢٧٩.

(٣٥٨) أعلام الدروز حمزة بن علي

(٣٧٥ - ٤٣٣هـ) حمزة بن علي بن أحمد الفارسى الحاكمى الدرزى، من كبار الباطنية، ومن مؤسسى المذهب الدرزى، فارسى الأصل، من مقاطعة زوزن، كان قزاقاً أو لباداً، وتأدب بالعربية وانتقل إلى القاهرة واتصل برجال الدعوة السرية من شيعة الحاكم بأمر الله الفاطمى، فأصبح من أركانها واستمر يعمل لها فى الخفاء ويواصل رفع كتبه إلى الحاكم، حتى سنة ٤٠٨ هـ فأظهر الدعوة وجاهر بتأليه الحاكم، وقال: إنه رسوله، وجعله الحاكم داعى الدعاء ولما هلك الحاكم وحل ابنه (الظاهر لإعزاز دين الله) محلّه سنة ٤١١ هـ ففترت الدعوة ثم طوردت بعد براءة الظاهر منها سنة ٤١٤ هـ، فاضطر حمزة إلى الرحيل ولحق به بعض أتباعه إلى بلاد الشام، واستقر أكثرهم فى المقاطعة التى سميت بعد ذلك «جبل الدروز» فى سوريه وسمّوا بالدروز. وحمزة عندهم أول الحدود الخمسة المعصومين،

ويكتون عنه بالعقل. وله رسائل في مذهبهم والدعوة إلى الحاكم والرد على مخالفيهم منها:

١. «الواقعة» في الرد على الفاسق النصيري.
٢. «الرضا والتسليم» وفيها ذكر الدرزي محمد بن إسماعيل وعصيانه.
٣. «التنزيه» لإظهار تنزيه الإله عن كلوصف وإدراك، وفيها ذكر وزراء الدين ومضاديههم (أبالستهم) الخمسة.
٤. «رسالة النساء».
٥. «الصحة الكائنة».
- (٣٥٩)
٦. «نسخة سجل المجتبي».
٧. «تقليد الرضى سفير القدرة».
٨. «تقليد المقتنى».
٩. «مكاتبة أهل الكدية البيضاء».
١٠. «شرط الإمام صاحب الكشف».
١١. «التحذير والتنبيه».
١٢. «البلاغ والنهاية».
١٣. «سبب الأسباب والكنز لمن أيقن واستجاب».

وقد انقطع حمزة عن الكتابة بعد رحيله إلى الشام وانقطاع الصلة بينه وبين شيعته الحاكم في مصر. (١) توفي عام ٣٣٤هـ (٢) جمال الدين عبد الله التنوخي (٨٢٠ - ٨٨٤ هـ) هو أكبر شخصية علمية بين الدرزي، ولد في عيبه سنة ٨٢٠ هـ، وتوفي فيها في جمادى الآخرة سنة ٨٨٤ هـ، تتلمذ على يد الشيخ أبي علي مرعي زهر الدين، وانتقل إلى دمشق طمعا في مزيد من العلم اثنتي عشرة سنة وبعدها عاد إلى عيبه، يمضى وقته في التدريس والعبادة حتى أقبل عليه التلاميذ من مختلف نواحي البلاد الدرزية، واشتهر أمره وصارت له مكانة عالية بين أكابر البلاد ومشايخها وأصبح المرجع الدرزي الوحيد لأهل عصره _____.

١. الزركلى: الأعلام: ٢/ ٢٧٨-٢٧٩، نقل بتصرف.
٢. وقد ادعى الكاتب الدرزي صالح زهر الدين في كتابه «تاريخ الدرروز»: ٣٨، أنحمزة اختفى بعد غيبة الحاكم بوقت قصير في نهاية عام ٤١١هـ.

(٣٦٠)

و يعده الدرروز اليوم قطبا من أقطاب المذهب الدرزي، وإن شروحه على بعض رسائل الدرروز أو رسائل الحكمة الدرزية كما يطلق عليها تنال عناية وافرة لدى شيوخ العقل الدرروز. وله مصنفات كثيرة، منها:

١. «اللغة العرباء» وهو معجم في اللغة العربية على غرار «الصحاح» للجوهري.
 ٢. «سياسة الأخيار في شرح كمالات النبي المختار».
 ٣. «شروحات الأمير السيد» وهي مجموعة شروح على بعض الرسائل التوحيدية.
 ٤. رسالة من بين رسائل الدرروز المائة وحدى عشرة (١) قام بطبعها الكاتب الدرزي عجاج يوسف نويهض، ضمن كتابه الموسوم باسم «التنوخي الأمير عبد الله والشيخ محمد أبو هلال».
- والفصول التي طبعت هي في الموضوعات التالية:

١. في تحريم الخمر وكل مسكر.
٢. في طلب الاستفادة والمرشد الأمين.
٣. في النهي عن الغضب ومحقه بالاعتصام بحبل الله .
٤. في آداب جوارح البدن: اللسان، العين، الأذن، اليد، الرجل، البطن.
٥. في اختلاف ألوان الأطعمة.
٦. في الحركة والرياضة قبل الطعام.
٧. في آداب الزواج.
٨. في ادخار المال وإنفاقه _____.
٩. عبد الرحمان البدوي، مذاهب الإسلاميين: ٦٤٤-٦٤٩، نقل بتصريف؛ وله ترجمة في تاريخ الدروز للدكتور صالح زهر الدين: ٢٦٨. (٣٦١)
٩. في النهي عن الاحتكار.
١٠. في الغنى نحو الله ونفسه والمحتاجين.
١١. في معاملات البيع والشراء والقرض والوديعة.
١٢. في واجبات الدائن والمدين.
١٣. في الوصية.
١٤. في تربية الولد.
١٥. شذرات من أقوال التنوخي واختياره. (١) يوسف الكفرقوقي هو الشيخ يوسف سعيد برّو ، من كفرقوق في راشيا ، وعرف بهذا الاسم (الكفرقوقي) نسبة لقريته. كان شاعراً دينياً ومن كبار علماء الدروز، له كتاب ضخّم اسمه «دور النحو في التوبة إلى الملك الغفور» توفي في قرية «ينطا» بعد عودته من دمشق، ودفن فيها. (٢) محمد أبو هلال المعروف بـ«الشيخ الفاضل» (١٠٠٥-١٠٥٠ هـ) ولد في قرية صغيرة من جبل الشيخ تدعى «الشعيرة»، انكب على القراءة والمطالعة، وبدأ نجمه يلمع ويتألق حتى توصل لمرتبة شيخ عقل الدروز كافة _____،
١. عجاج نويهض: التنوخي الأمير عبد الله والشيخ محمد أبو هلال: الطبعة الثانية، بيروت-١٩٦٣ م.
٢. صالح زهر الدين: تاريخ الدروز : ٢٦٩؛ توفيق سلمان: أضواء على تاريخ مذهب التوحيد: ١٦٢-١٦٣، بيروت - ١٩٦٣ م. (٣٦٢)
- ونال ثقتهم حتى أصبحوا يطلقون عليه اسم «الشيخ الفاضل»، وبرع في شعره براءة فائقة، وجميع الدروز يرددون شعره في اجتماعاتهم الدينية وطقوسهم، لأنها تمجيد للخالق والمآثر الدينية الحميدة، هذا وقد كتب عنه وعن آدابه أحد تلاميذه ويدعى أبو علي عبد الملك، ضمن كتاب اسمه «آداب الشيخ الفاضل» وفيه وصف لسيرة شيخه الفاضل في مرحلة تدينه، وهي المرحلة التي كتب فيها الشعر حيث كان يبلغ من العمر الأربعين أو خمسة وأربعين عاماً. توفي في بلدة عين عطا، ودفن فيها عام ١٠٥٠هـ (١)

١. عارف أبو شقرا: ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف: ٨٢؛ عبد الرحمان بدوي: مذاهب الإسلاميين: ٦٥٣-٦٥٧؛ الدكتور صالح زهر الدين: تاريخ الدروز : ٢٦٩-٢٧٠.

الفصل السابع عشر

في الفطحية (٣٦٤) (٣٦٥)

الفطحية: هم القائلون بإمامة الأئمة الاثني عشر مع عبد الله الأفطح ابن الإمام الصادق - عليه السلام - يدخلونه بين أبيه الصادق وأخيه الكاظمعليهما السلام وقد كان عبد الله أفطح الرأس.

والأفطح كما في اللسان: عريض الرأس، ورأس أفطح ومفطح: عريض. (١)

وقال الطريحي: أفطح الرجلين: عريضهما (٢) وربما يفسر باعوجاج في الرجل.

كان عبد الله بن جعفر الصادق - عليه السلام - قد ادعى الإمامة والوصاية، بعد رحيل أبيه، وكان هو أكبر أولاد الإمام بعد إسماعيل المتوفى في حياته، فتمسك القائلون بإمامته بحديث روه عن الإمام أنه قال: «الإمامة في الأكبر من ولد الإمام» ولم يكن حظّه من الدنيا بعد رحيل أبيه إلا سبعين يوماً، فقد توفي أبوه الصادق - عليه السلام - في الخامس والعشرين من شهر شوال عام ١٤٨ هـ فيكون قد توفي في خامس شهر ذي الحجة الحرام من نفس السنة وبرحيله عاد القائلون بإمامته إلى إمامة الإمام موسى الكاظم - عليه السلام -. ولقد ظهرت منه أشياء لا ينبغي أن تظهر من الإمام لما امتحنوه بمسائل من الحلال والحرام ولم يكن عنده جواب، وإليك ما وقفنا عليه من النصوص:

١. قال الحسن بن موسى النوبختي: قالت الفطحية: الإمامة بعد جعفر في ابنه عبد الله بن جعفر الأفطح، وذلك أنه كان عند مضي جعفر، أكبر ولده سنًا و جلس مجلس أبيه وادعى الإمامة ووصية أبيه، واعتلوا بحديث يروونه عن أبي _____

١. ابن منظور: لسان العرب: ٢ | ٥٤٥، مادة «فطح».

٢. الطريحي: مجمع البحرين: ٢ | ٤٠٠، مادة «فطح».

(٣٦٤)

عبد الله جعفر بن محمد أنه قال: الإمامة في الأكبر من ولد الإمام، فمال إلى عبد الله والقول بإمامته جُلّ من قال بإمامة أبيه جعفر بن محمد غير نفر يسير عرفوا الحق فامتنحوا عبد الله بمسائل في الحلال والحرام من الصلاة والزكاة وغير ذلك فلم يجدوا عنده علماء، وهذه الفرقة القائلة بإمامة عبد الله بن جعفر هي «الفطحية» وسيموا بذلك لأن عبد الله كان أفطح الرأس، وقال بعضهم: كان أفطح الرجلين، وقال بعض الرواة: نَسَبُوا إلى رئيس لهم من أهل الكوفة يقال له عبد الله بن فطيح، ومال إلى هذه الفرقة جُلّ مشايخ الشيعة وفقهائها ولم يشكوا في أن الإمامة في «عبد الله بن جعفر» وفي ولده من بعده، فمات عبد الله ولم يخلف ذكراً، فرجع عامة الفطحية عن القول بإمامته - سوى قليل منهم - إلى القول بإمامة «موسى بن جعفر»، وقد كان رجح جماعة منهم في حياة عبد الله إلى موسى بن جعفر عليهما السلام، ثم رجح عاقتهم بعد وفاته عن القول به، وبقي بعضهم على القول بإمامته ثم إمامة موسى بن جعفر من بعده، وعاش عبد الله بن جعفر بعد أبيه سبعين يوماً ونحوها. (١)

٢. وقال الكشي: هم القائلون بإمامة عبد الله بن جعفر بن محمد، وسيموا بذلك لأنه قيل إنه كان أفطح الرأس، وقال بعضهم: كان أفطح الرجلين، وقال بعضهم: إنهم نسبوا إلى رئيس من أهل الكوفة يقال له «عبد الله بن فطيح» والذين قالوا بإمامته عامة مشايخ العصابة وفقهائها، مالوا إلى هذه المقالة فدخلت عليهم الشبهة لما روى عنهم - عليهم السلام - أنهم قالوا: الإمامة في الأكبر من ولد الإمام إذا مضى إمام. ثم منهم من رجح عن القول بإمامته لما امتحنه بمسائل من الحلال والحرام لم يكن عنده فيها جواب، ولما ظهر منه من الأشياء التي لا ينبغي أن يظهر من الإمام.

ثم إن عبد الله مات بعد أبيه بسبعين يوماً، فرجع الباقيون إلا شاذاً منهم عن _____

١. الحسن بن موسى النوبختي: فرق الشيعة: ٧٧-٧٨.

(٣٦٧)

القول بإمامته إلى القول بإمامة أبي الحسن موسى - عليه السلام - ورجعوا إلى الخبر الذي روى: أن الإمامة لا تكون في الآخرين بعد الحسن والحسين عليهما السلام وبقى شذاذ منهم على القول بإمامته، وبعد أن مات قال بإمامة أبي الحسن موسى - عليه السلام - .
وروى عن أبي عبد الله - عليه السلام - أنه قال لموسى: «يا بني إن أخاك سيجلس مجلسي، ويدعى الإمامة بعدى، فلا تنازعه بكلمة، فإنه أول أهلي لحوقاً بي». (١)

٣. ونقل في ترجمته «هشام بن سالم الجواليقي» أنه قال: كُنَّا بالمدينة بعد وفاة أبي عبد الله - عليه السلام - أنا ومومن الطاق أبو جعفر، والناس مجتمعون على أن عبد الله صاحب الأمر بعد أبيه، فدخلنا عليه أنا وصاحب الطاق، والناس مجتمعون عند عبد الله وذلك أنهم رَووا عن أبي عبد الله - عليه السلام - أن الأمر في الكبير مالم يكن به عاهة، فدخلنا نسأله عما كُنَّا نسأل عنه أباه، فسألناه عن الزكاة في كم تجب؟ قال: في مائتين خمسة. قلنا: ففي مائة؟ قال: درهمان ونصف درهم. قلنا له: والله ما تقول في المرجئة هذا؟! فرفع يده إلى السماء فقال: لا والله ما أدري ما تقول المرجئة. قال: فخرجنا من عنده ضللاً لا ندري إلى أين نتوجه أنا وأبو جعفر الأحول، ففقدنا في بعض أزقة المدينة باكين حيارى لا ندري إلى من نقصد، وإلى من نتوجه، نقول: إلى المرجئة، إلى القدرية، إلى الزيدية، إلى المعتزلة، إلى الخوارج.

قال: فنحن كذلك إذ رأيت رجلاً شيخاً لا أعرفه يومى إلى بيده، فخفت أن يكون عيناً من عيون أبي جعفر (٢) وذلك أنه كان له بالمدينة جواسيس ينظرون على من اتفق من شيعة جعفر فيضربون عنقه، فخفت أن يكون منهم، فقلت لأبي جعفر: تنح فإني خائف على نفسي وعليك، وإنما يريدني ليس يريدك، فتنح عنى لا تهلك وتعين على نفسك. فتنحى غير بعيد وتبع الشيخ وذلك أنني ظننت أنني _____

١. الكشي: الرجال: ٢١٩.

٢. المراد أبو جعفر المنصور العباسي.

(٣٦٨)

لا أقدر على التخلص منه، فمازلت أتبعه حتى ورد بي على باب أبي الحسن موسى - عليه السلام - ثم خللاني ومضى، فإذا خادم بالباب، فقال لي: أدخل رحمك الله.

قال: فدخلت فإذا أبو الحسن - عليه السلام - فقال لي ابتداءً: «لا إلى المرجئة ولا إلى القدرية، ولا إلى الزيدية، ولا إلى المعتزلة، ولا إلى الخوارج، إلىي إلىي». قال: فقلت له: جعلت فداك مضى أبوك؟ قال: «نعم». قال: قلت: جعلت فداك مضى في موت؟ قال: «نعم». قلت: جعلت فداك فمن لنا بعده؟ فقال: «إن شاء الله أن يهديك، هداك». قلت: جعلت فداك إن عبد الله يزعم أنه من بعد أبيه؟ فقال: «يريد عبد الله أن لا يُعبد الله». قال: قلت: جعلت فداك فمن لنا بعده؟ فقال: «إن شاء الله أن يهديك هداك» أيضاً. قلت: جعلت فداك أنت هو؟ قال: «ما أقول ذلك»، قلت في نفسي: لم أصب طريق المسألة. قال: قلت: جعلت فداك عليك إمام؟ قال: «لا». قال: فدخلني شيء لا يعلمه إلا الله إعظماً له، وهيبه أكثر ما كان يحل بي من أبيه إذا دخلت عليه، قلت: جعلت فداك أسألك عما كان يسأل أبوك؟ قال: «سل تُخبر، ولا تُدع، فإن أذعت فهو الذبح». قال: فسألته فإذا هو بحر .

قال: قلت: جعلت فداك شيعتك وشيعه أبيك ضلال فألقى إليهم وأدعهم إليك فقد أخذت علي بالكتمان؟ فقال: «من آنست منهم رشداً فالتق عليهم، وخذ عليهم بالكتمان، فإن أذعوا فهو الذبح - وأشار بيده إلى حلقه - قال: فخرجت من عنده فلقيت أبا جعفر، فقال لي: ما وراك؟ قال: قلت: الهدى. قال: فحدثته بالقصة، ثم لقيت المفضل بن عمر وأبا بصير. قال: فدخلوا عليه وسلموا وسمعوا كلامه وسألوه. قال: ثم قطعوا عليه، قال: ثم لقينا الناس أفواجا. قال: وكان كل من دخل عليه قطع عليه إلا طائفة مثل عمار وأصحابه، فبقى عبد الله لا يدخل عليه أحد إلا قليلاً من الناس. قال: فلما رأى ذلك وسأل عن حال الناس؟ قال: فأخبر أن هشام بن سالم صد عنه الناس. قال: فقال هشام: فأفعد لي بالمدينة

(٣٦٩)

غير واحد ليضربونى. (١)

٤. وقال الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ) عند عدّ فرق الشيعة: ومنهم من يزعم أنّ الإمام بعد جعفر ابنه «عبد الله بن جعفر» وكان أكبر من خلف من ولده وهى فى ولده، وأصحاب هذه المقالة يدعون العمّاريّة، نُسبوا إلى رئيس لهم يعرف بـ«عمّار»، ويدعون الفطحية، لأنّ عبد الله بن جعفر كان أفتح الرجلين، وأهل هذه المقالة يرجعون إلى عدد كثير.

فأما زرارة فإنّ جماعته من العمّاريّة تدعى أنّه كان على مقالتها، وأنّه لم يرجع عنها، وزعم بعضهم أنّه رجع إلى ذلك حين سأل «عبد الله بن جعفر» عن مسائل لم يجد عنده جوابها، وصار إلى الائتمام بموسى بن جعفر بن محمد، وأصحاب زرارة يدعون «الزراريّة» ويدعون «التميمية». (٢)

٥. و تبعه البغدادي ولخصّ كلامه قائلاً: العمّاريّة وهم منسوبون إلى زعيم منهم يسمّى عمّاراً، وهم يسوقون الإمامة إلى جعفر الصادق، ثمّ زعموا أنّ الإمام بعده ولده عبد الله، وكان أكبر أولاده، وكان أفتح الرجلين، ولهذا قيل لأتباعه «الفطحية». (٣)

وقد خبط الرجلان فاخترعا فرقة باسم العمّاريّة نسبة إلى عمار بن موسى الساباطي، مع أنّه رجل من أتباع «عبد الله» وأكثر ما يمكن أن يقال أنّه كان داعياً، لا صاحب مذهب.

وأما اتّهام الأشعري زرارة بن أعين بأنّه كان من الفطحية مدّة ثمّ رجع عنها، فليس له سند إلاّ روايات ضعاف، كأكثر ما ورد فى حقّ زرارة من الروايات

١. الكشي: الرجال: ٢٣٩-٢٤١.

٢. الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: ١/٢٧، تصحيح هلموت ريز.

٣. الفرق بين الفرق: ٦٢ برقم ٥٩.

(٣٧٠)

الذامّة. (١)

مع أنّ الصحيح فى حقّه ما نقله الصدوق فى «كمال الدين» عن إبراهيم بن محمد الهمداني - رضى الله عنه - قال: قلت للرضا - عليه السّلام - يابن رسول الله أخبرنى عن زرارة، هل كان يعرف حقّ أبيك؟ فقال - عليه السّلام - «نعم»، فقلت له: فلمّ بعث ابنه عبيداً ليتعرف الخبر إلى من أوصى الصادق جعفر بن محمد - عليه السّلام -؟ فقال: «إنّ زرارة كان يعرف أمر أبى - عليه السّلام - ونصّ أبيه عليه، وإنّما بعث ابنه ليتعرف من أبى هل يجوز له أن يرفع التقيّة فى إظهار أمره، ونصّ أبيه عليه؟ وإنّه لما أبطأ عنه طُلب بإظهار قوله فى أبى - عليه السّلام -، فلمّ يحب أن يقدم على ذلك دون أمره فرفع المصحف، وقال: اللهمّ إنّ إمامى من أثبت هذا المصحف إمامته من ولد جعفر بن محمد - عليه السّلام -». (٢)

٦. وقال الشهرستاني: «الفطحية قالوا بانتقال الإمامة من الصادق إلى ابنه عبد الله الأفتح، وهو أخو إسماعيل من أبيه وأمه، وأمهما فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن على، وكان أسن أولاد الصادق.

زعموا أنّه قال: الإمامة فى أكبر أولاد الإمام. وقال: الإمام من يجلس مجلسى، وهو الذى جلس مجلسه. والإمام لا يعسّله، ولا يصلّى عليه، ولا يأخذ خاتمه، ولا يواريه إلاّ الإمام. وهو الذى تولّى ذلك كلّ. ودفع الصادق وديعته إلى بعض

١. نقل الكشي الروايات الحاكية عن أنّ زرارة كان شاكاً فى إمامة الكاظم - عليه السّلام - وإنّه لما توفى الصادق - عليه السّلام - بعث ابنه «عبيد» للتحقيق عن أمر الإمامة وإنّه لعبد الله أو للكاظم عليهما السّلام، ثمّ إنّ زرارة مات قبل أن يرجع إليه عبيد، ونقلها السيد الخوئي قدس سيّره فى معجمه، معجم رجال الحديث: ٧/٢٣٠ - ٢٣٤، وناقش فى اسنادها وأثبت أنّها، ضعاف، ونحن نجّل زرارة بن أعين الذى عاش مع الإمامين أبى جعفر الباقر وأبى عبد الصادق عليهما السّلام قرابة نصف قرن، عن هذه الوصمة.

٢. الصدوق: كمال الدين: ٧٥، ط مؤسسة النشر الإسلامي.

(٣٧١)

أصحابه وأمره أن يدفعها إلى من يطلبها منه وأن يتخذها إماماً. وما طلبها منه أحد إلا عبد الله، ومع ذلك ما عاش بعد أبيه إلا سبعين يوماً ومات ولم يعقب ولداً ذكراً. (١)

لقد غاب عن الشهرستاني مفاد قوله - عليه السلام - : «الإمام من يجلس مجلسي»، فلو صدر منه ذلك القول، فالمراد منه ما يقوم بمثل ما كان الإمام يقوم به في مجال بيان الأصول والفروع، وملء الفراغ الحاصل من رحيله، لا مجرد جلوسه في مكانه وإن كان جاهلاً بأبسط المسائل.

كما أنه لم يثبت أن عبد الله تولى غسل الإمام والصلاة عليه. وقد روى ابن شهر آشوب عن أبي بصير، عن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال: «فيما أوصاني به أبي أن قال: يا بني إذا أنا مت فلا يغسلني أحد غيرك، فإن الإمام لا يغسله إلا إمام، واعلم أن «عبد الله» أخاك سيدعو الناس إلى نفسه فدعه، فإن عمره قصير. فلما أن مضى غسلته...». (٢)

٧. وقال الصدوق: قال الصادق لأصحابه في ابنه عبد الله: «إنه ليس على شيء فيما أنتم عليه واني أبرأ منه، يرى الله منه». (٣)

٨. قال المفيد: وكان عبد الله بن جعفر أكبر إخوته بعد إسماعيل، ولم تكن منزلته عند أبيه كمنزلة غيره من ولده في الإكرام، وكان متهماً بالخلاف على أبيه في الاعتقاد. ويقال أنه كان يخالط الحشوية ويميل إلى مذاهب المرجئة، وأدعى بعد أبيه الإمامة، واحتج بأنه أكبر إخوته الباقين، فاتبعه على قوله جماعة من أصحاب أبي عبد الله - عليه السلام -، ثم رجع أكثرهم بعد ذلك إلى القول بإمامة أخيه موسى - عليه السلام -، لثبوت تبيينوا ضعف دعواه وقوة أمر أبي الحسن - عليه السلام - ودلالة حقه وبراهين إمامته، وأقام نفر

١. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/١٦٧. ولاحظ التبصير للإسفرائيني: ٣٨.

٢. ابن شهر آشوب: المناقب: ٤/٢٢٤.

٣. اعتقادات الصدوق، المطبوع ضمن مصنفات المفيد: ١١٣.

(٣٧٢)

يسير منهم على أمرهم ودانوا بإمامة عبد الله وهم الطائفة الملقبة بالفطحية، وإنما لزمهم هذا اللقب لقولهم بإمامة عبد الله وكان أفتح الرجلين، ويقال أنهم لقبوا بذلك لأن داعيهم إلى إمامة عبد الله كان يقال له عبد الله بن الأفتح. (١)

وقال أيضاً: وأما الفطحية فإن أمرها أيضاً واضح، وفساد قولها غير خاف ولا مستور عمن تأمله، وذلك أنهم لم يدعوا نصاً من أبي عبد الله - عليه السلام - على عبد الله، وإنما عملوا على ما رووه من أن الإمامة تكون في الأكبر، وهذا حديث لم يرو قط إلا مشروطاً، وهو أنه قد ورد أن الإمامة تكون في الأكبر مالم تكن به عاهة، وأهل الإمامة القائلون بإمامة موسى بن جعفر - عليه السلام - متواترون بأن عبد الله كان به عاهة بالدين، لأنه كان يذهب إلى مذاهب المرجئة الذين يقعون في علي - عليه السلام - وعثمان، وأتابا عبد الله - عليه السلام - قال وقد خرج من عنده: «عبد الله هذا مرجئ كبير» وأنه دخل عليه عبد الله يوماً وهو يحدث أصحابه، فلما رآه سكت حتى خرج، فسئل عن ذلك؟ فقال: «أو ما علمتم أنه من المرجئة» هذا مع أنه لم يكن له من العلم بما يتخصص به من العامة، ولا روى عنه شيء من الحلال والحرام، ولا كان بمنزلة من يستفتى في الأحكام، وقد ادعى الإمامة بعد أبيه، فامتحن بمسائل صغار فلم يجب عنها وما أتى بالجواب، فأى علمه مما ذكرناه تمنع من إمامة هذا الرجل، مع أنه لو لم تكن علة تمنع من إمامته، لما جاز من أبيه صرف النص عنه، ولو لم يكن صرفه عنه لأظهره فيه، ولو أظهره لنقل وكان معروفاً في أصحابه، وفي عجز القوم عن التعلق بالنص عليه دليل على بطلان ما ذهبوا إليه. (٢)

بقيت هنا أمور :

الأول: الظاهر مما ذكرنا أن أكثر القائلين بإمامة عبد الله بن جعفر عدلوا عن _____

١. المفيد: الإرشاد: ٢٨٥-٢٨٦.

٢. العيون والمحاسن: ٢٥٣.

(٣٧٣)

رأيهم، وقالوا بإمامة أخيه موسى بن جعفر بعد إمامة أبيه جعفر الصادق، وأما القليل منهم فقال بإمامة موسى بن جعفر بعد الأفتح، فصار عبد الله الإمام السابع، وأخوه موسى الإمام الثامن، وبذلك يتجاوز عدد الأئمة عن الاثنى عشر، ولا أظن أنهم وقفوا على عبد الله من دون الاعتقاد بإمامة الآخرين، وإلا كانوا واقفة لا فطحية، وسيوافيك الكلام في المذهب الواقفي عن قريب إن شاء الله.

الثاني: الظاهر مما نقله الصدوق عن بعضهم أن القائلين بإمامة عبد الله كانوا معروفين بالشمطية كما أن بعض الفطحية قال بإمامة إسماعيل بن جعفر بعد رحيل عبد الله، وإليك نص الصدوق ناقلاً عن بعضهم:

قال: قال صاحب الكتاب: وهذه الشمطية تدعى إمامة عبد الله بن جعفر بن محمد من أبيه بالوراثه والوصية، وهذه الفطحية تدعى إمامة إسماعيل ابن جعفر عن أبيه بالوراثه والوصية وقبل ذلك إنما قالوا بإمامة عبد الله بن جعفر ويسمّون اليوم إسماعيلية. لأنه لم يبق للقائلين بإمامة عبد الله بن جعفر خلف ولا بقية، وفرقة من الفطحية يقال لهم القرامطة، قالوا بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر بالوراثه والوصية، وهذه الواقفة على موسى بن جعفر تدعى الإمامة لموسى وترتقب لرجعته. (١)

الثالث: بما أن أكثر القائلين بإمامة الأفتح رجعوا عن رأيهم بعد ظهور الحق، فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً لجرهم، نعم من بقي منهم على عقيدته، وآمن بإمامة موسى بن جعفر أو إسماعيل بن جعفر حكمهم حكم سائر فرق الشيعة إذا كانوا متبئين في القول، فيؤخذ برواياتهم، وإلا فلا.

الرابع: أعد الفطحية مذهباً ونحلة، أمر غير صحيح لوجهين:

أحدهما: أن القول بإمامة عبد الله نشأ عن شبهة، دخلت في أذهانهم، ثم _____

١. الصدوق: كمال الدين: ١٠١-١٠٢.

(٣٧٤)

زالت الشبهة، ولم يبق إلا القليل.

وثانيهما: أن النحلة عبارة عن آراء في الأصول والعقائد أو في الفروع والأحكام تكون سبباً لتمييز طائفة عن أخرى، وأما الاتفاق في عامة الأصول مع اختلاف في أمر واحد، كالاتقاد بإمامة عبد الله، فهذا مالا يبرر عد القول به نحلة، والقائلون به فرقة.

نعم، من يريد تكثير النحل، وزيادة عدد الفرق، يصح له ذكرهم فرقة من الفرق.

الخامس: إن الفطحية وإن اشتركت مع الواقفية في مسألة عدم الاعتراف بالإمام الحقيقي، ولكن الطائفة الأولى كانت أقل تعصباً من الأخرى بدليل أنهم اعترفوا بإمامة موسى الكاظم - عليه السلام - بعد رحيل إمامهم الأفتح، لكن بين مخطئ نفسه في الاعتقاد بإمامة الأفتح، وبين مصوب إمامته مع إمامة الكاظم - عليه السلام - إلا أن الواقفية كانت متعصبه جداً حيث وقفت على إمامة موسى الكاظم - عليه السلام - ولم تتجاوزها، وجرت مناظرات بينهم وبين القطعية الذين قطعوا بإمامة ابن الكاظم، على بن موسى الرضا عليمها السلام .

يقول المجلسي الأول: واعلم أن الفطحية كانوا أقرب إلى الحق من الواقفية، أو هم أبعد عن الحق من الفطحية، لأن الفطحية لا ينكرون بقية الأئمة - عليهم السلام - وكانوا يقولون بإمامتهم، ولهذا شُبّهوا بالحمير، بخلاف الواقفة، فإنهم شُبّهوا بالكلاب الممطورة، والشيخ

ذكر الواقفية في كتاب الغيبة وأبطل مذهبهم بالأخبار التي نقلوها. (١)

وقال العلامة المامقاني: لا يخفى عليك أن القول بالفطحية أقرب مذاهب

١. المجلسي الأول (محمد تقي): روضة المتقين: ١٤ | ٣٩٥.

(٣٧٥)

الشيعة إلى الحق من وجهين:

أحدهما: إن كل مذهب من المذاهب الفاسدة يتضمن إنكار بعض الأئمة - عليهم السلام -، ومن المعلوم بالنصوص القطعية، أن من أنكر واحداً منهم كان كمن أنكر جميعهم، والفطحي يقول بإمامة الاثني عشر جميعاً ويضيف عبد الله بين الصادق والكاظم عليهما السلام، فهو يقول بإمامة ثلاثة عشر، ويحمل أخبار الاثني عشر إماماً على الاثني عشر من ولد أمير المؤمنين - عليهم السلام -، فلا يموت الفطحي إلا عارفاً بإمام زمانه بخلاف من مات من أهل سائر المذاهب فإنه يموت جاهلاً بإمام زمانه.

نعم من مات من الفطحية في السبعين يوماً زمان حياة عبد الله بعد أبيه مات غير عارف لإمام زمانه فمات ميتة جاهلية بخلاف من مات بعد وفاة عبد الله.

ثانيهما: أنكأذي مذهب من المذاهب الفاسدة قد تلقى ممن يعتقد إماماً من غير الاثني عشر فروعاً مخالفة لفروعنا بخلاف الفطحية فإن عبد الله لم يبق إلا سبعين ولم يتلقوا منه حكماً فرعياً وإنما يعملون في الفروع بما تلقوه من الأئمة الاثني عشر، والفطحية قائلون بالاثني عشر، عاملون بما تلقوه من الاثني عشر، فليس خطأهم إلا زيادة عبد الله سبعين يوماً بين الصادق والكاظم عليهما السلام، وإيراث ذلك الفسق محللاً. (١)

يلاحظ على الثاني: بأن الواقفية أيضاً مثل الفطحية لم يتلقوا فروعاً من غير الأئمة، نعم إن الفطحية أخذوا منهم جميعاً والواقفية اقتضرت على الأئمة السبعة، فما ذكره من الوجه الثاني لا يعد فرقاً بين الطائفتين.

١. عبد الله المامقاني: تنقيح المقال: ١ | ١٩٣، الفائدة السابعة.

(٣٧٦) مشاهير الفطحية

إن هناك لفيماً من رواة الشيعة وُصفوا بالفطحية، وهم بين من ثبت على القول بإمامة الأفتح ومن رجع عنه، وإليك أسماءهم المستخرجة من كتب الرجال:

١. أحمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن فضال بن عمر بن أيمن.

٢. إسحاق بن عمار بن حيان، مولى بني تغلب، أبو يعقوب الصيرفي الساباطي.

٣. الحسن بن علي بن فضال.

٤. عبد الله بن بكير بن أعين بن سنسن الشيباني الأصبحي المدني.

٥. عبد الله بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليه السلام -.

٦. علي بن أسباط بن سالم بياع الزطى المقرئ.

٧. الأزدي الساباطي (كوفي).

٨. علي بن الحسن بن علي بن فضال.

٩. عمار بن موسى الساباطي.

١٠. محمد بن الحسن بن علي بن فضال.

١١. محمد بن سالم بن عبد الحميد.

١٢. مصدق بن صدقة المدائني. (٣٧٧)

الفصل الثامن عشر في الواقفية

(٣٧٨) (٣٧٩)

التوقف عند إمامة شخص بعد رحيل إمام ما، ظاهرة برزت عند الشيعة بين آونه وأخرى، ولذلك صار لها إطلاقان: الأول: التوقف بالمعنى العام من غير اختصاصه بالتوقف على إمام خاص، فإن هناك طائفة توقفت عند إمامة الحسين - عليه السلام - ولم تتجاوز عنه وهم المعروفون بالكيسانية، كما أن هناك من توقف عند إمامة الإمام الباقر - عليه السلام - ولم تتجاوز عنه - عليه السلام - وهي المعروفة بالمنصورية أو المغيرية وهناك من توقف عند إمامة الإمام الصادق ولم يتجاوز عنه كالإسماعيلية، وهذه الفرق حتى الزيدية من الواقفية الذين لم يعترفوا بإمامة الأئمة الاثني عشر قاطبة وتوقفوا أثناء الطريق، ومع ذلك كله فلا يطلق عليهم الواقفية في كتب الرجال ولا في الملل والنحل، وإنما يطلق عليهم نفس أسمائهم، وقد مر في الجزء السابع أن بعض هذه الفرق غلاة كفار لا يعترف بهم.

الثاني: الطائفة المتوقفة عند إمامة الإمام موسى الكاظم - عليه السلام - غير المعترفة بإمامة ابنه علي بن موسى الرضا - عليه السلام - وهؤلاء المعروفون بالواقفية. وقد اقتصت بهم هذه التسمية، فلا تتبادر من هذه التسمية إلا تلك الطائفة. قال المحقق البهبهاني: اعلم أن الواقفة هم الذين وقفوا على الكاظم - عليه السلام -، وربما يطلق الوقف على من وقف على غير الكاظم - عليه السلام - من الأئمة... ولكن عند الإطلاق ينصرف إلى من وقف على الإمام الكاظم - عليه السلام - ولا ينصرف إلى غيرهم إلا بالقرينة، ولعل من جملتها عدم دركه للكاظم - عليه السلام - وموته قبله أو في زمانه، مثل سماعه بن مهرا ن وعلي بن حيان ويحيى بن القاسم. (١)

١. البهبهاني: الفوائد الرجالية: ٤٠.

(٣٨٠) سبب ظاهرة التوقف

إن السبب الغالب لبروز فكرة التوقف بين طائفة من الشيعة هو أنها رزحت تحت نير الحكم الأموي والعباسي ولولا لجوئها إلى التقية واتخاذها سلاحاً لما كتب لها البقاء، حتى أن الاتهام بالزندقة والإلحاد كان أخف وطأً من الاتهام بالتشيع في فترة خلافة عبد الملك بن مروان وإمارة الحجاج على العراق، فكان الأئمة لا ييؤحون بأسرارهم إلا لخاصتهم، حتى نرى أن رحيل كل إمام تعقبه هوة بين الشيعة برهه من الزمن إلى أن يستقر الرأي على الحق.

هذا هو السبب الغالب لشوء بعض الفرق بين الشيعة الذين لم يكن لديهم أي اختلاف في الأصول والفروع إلا في القيادة والإمامة. إن عصر هارون الرشيد كان عصر القمع والكبت والتضييق على الشيعة وإمامهم، وكانت سياسته على غرار سياسة أبي جعفر الدوانيقي، والتاريخ يحدثنا عن السياسة التي اتبعها مع الإمام موسى الكاظم - عليه السلام -.

كان الإمام مهوى قلوب الشيعة، يتلقون عنه أحكام الدين وأصول المذهب، وربما تحمل إليه الأموال من المشرق ومن المغرب فشق على هارون لما أخبره بعض جواسيسه بهذا الأمر، ولأجل معالجة هذا الموقف الذي أشغل فكره، حج في تلك السنة وزار قبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال: يا رسول الله إنني أعتذر إليك من شيء أريد أن أفعله، أريد أن أحبس موسى بن جعفر، فإنه يريد التشيت بأمتك وسفك دمائها. ثم أمر به فأخذ من المسجد فأدخل إليه فقيدته، وأخرج من داره بغلان عليهما قبتان مغطتان هو - عليه السلام - في إحداهما، ووجه مع كل واحدة منهما خيلاً، فأخذ بواحدة على طريق البصرة، والأخرى على طريق الكوفة، ليعمى على الناس أمره، وكان في التي مضت إلى البصرة.

وأمر الرسول أن يسلمه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور، وكان على البصرة

(٣٨١)

حينئذٍ، فمضى به، فحبسه عنده سنة. ثم كتب إلى الرشيد أن خذه مني و سلمه إلى من شئت وإلا خليت سبيله، فقد اجتهدت بأن أجد عليه حجة، فما أقدر على ذلك، حتى أتى لاتسمع عليه إذا دعا لعله يدعو علي أو عليك، فما أسمعته يدعو إلا لنفسه يسأل الرحمة والمغفرة. فوجه من تسلّمه منه، وحبسه عند الفضل بن الربيع ببغداد فبقى عنده مدة طويلة وأراد الرشيد على شيء من أمره فأبى. فكتب بتسليمه إلى الفضل بن يحيى فتسلّمه منه، وأراد ذلك منه فلم يفعل. وبلغه أنه عنده في رفاهية وسعة، وهو حينئذ بالرقعة.

وقد أثار هذا الأمر غضب الرشيد إلى ان انتهى الأمر بتجريد الفضل بن يحيى وضربه بسياط وعقابين. (١) هذا هو موقف الرشيد مع الرجل الذي كان يحترمه جلّ المسلمين وينظرون إليه بأنه من أئمة أهل البيت، فكيف الحال مع سواد الناس إذا اتهموا بالشيعة وموالاته الإمام - عليه السلام -؟!

قال ابن كثير: فلما طال سجن الإمام الكاظم - عليه السلام - كتب إلى الرشيد: «أما بعد يا أمير المؤمنين أنه لم ينقض عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضى بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون». (٢) ولم يزل الإمام ينقل من سجن إلى سجن حتى انتهى به الأمر إلى سجن السندي بن شاهك، فغال في سجن الإمام وزاد في تقييده، حتى جاء أمر الرشيد بدس السم للكاظم فانبرى السندي إلى تنفيذ هذا الأمر، وكانت نهاية حياة الإمام الطاهر على يده الفاجرة.

١. الطوسي: الغيبة: ٢٨-٣٠ بتلخيص.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية: ١٠ | ١٩٠.

(٣٨٢)

قال أبو الفرج الاصفهاني: لما توفي الإمام مسموماً خشى الرشيد ردة فعل المسلمين عند انتشار خبر موته، فأدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد وفيهم الهيثم بن علي وغيره ليشهدوا على أنه مات حتف أنفه دون فعل من الرشيد وجلالته، ولما شهدوا على ذلك اخرج بجثمانه الطاهر، ووضع على الجسر ببغداد، ونودي بوفاته. (١)

هذه لمحّة خاطفة عن حياة الإمام موسى الكاظم - عليه السلام - توقفك على الوضع السياسي السائد آنذاك في العراق والحجاز، وموقف الحكومة تجاه إمام الشيعة، أفهل يمكن للإمام التصريح بالقائد من بعده؟!

ومع ذلك كله فإن الإمام الكاظم له تنبؤات عن المستقبل المظلم الذي ينتظره بعض الشيعة، وإليك بعض ما روى في ذلك: روى عن ابن سنان قال: دخلت على أبي الحسن موسى الكاظم من قبل أن يقدم العراق بسنة، وعلي ابنه جالس بين يديه، فنظر إلي وقال: «يا محمد أما إنّه ستكون في هذه السنة حركة، فلا تجزع لذلك» قال: قلت: وما يكون جعلني الله فداك فقد أقلتني؟ قال: «أصير إلى هذا الطاغية، (٢) أما إنّه لا يبدأني منه سوء ومن الذي يكون بعده» (٣) قال: قلت: وما يكون جعلني الله فداك؟ قال: «يضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء». قال: قلت: وما ذلك جعلني الله فداك؟ قال: «من ظلم ابني هذا حقّه، وجحدته إمامته من بعدى كان كمن ظلم علي بن أبي طالب - عليه السلام - إمامته وجحدته حقّه بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -» قال: قلت: والله لئن مدّ الله لي في العمر لأسلمن له حقّه، ولأقرن بإمامته.

قال: «صدقت يا محمد يمدّ الله في عمرك وتسلم له حقّه - عليه السلام - وتقرّله بإمامته وإمامة من يكون بعده»، قال: قلت: ومن ذاك؟ قال: «ابن محمد»، قال: _____:

١. أبو الفرج الاصفهاني: مقاتل الطالبين: ٥٠٤.

٢. يريد به المهدي العباسي.

٣. يريد به موسى بن المهدي.

(٣٨٣)

قلت: له الرضا والتسليم. (١)

روى الكشي عن الحكم بن عيص، قال: دخلت مع خالي سليمان بن خالد على أبي عبد الله - عليه السلام - فقال: «يا سليمان من هذا الغلام؟» فقال: ابن اختي، فقال: «هل يعرف هذا الأمر؟» فقال: نعم، فقال: «الحمد لله الذي لم يخلقه شيطاناً - ثم قال: - يا سليمان عوذ بالله ولدك من فتنة شيعتنا» فقلت: جعلت فداك وما تلك الفتنة؟! قال: «إنكارهم الأئمة - عليهم السلام - ووقوفهم على ابني موسى - عليه السلام -، قال: ينكرون موته ويزعمون أن لا إمام بعده، أولئك شر الخلق». (٢)

إلى غير ذلك من الروايات التي جمعها الشيخ الطوسي في كتاب «الغيبه» مما تدل على تنصيب الإمام الكاظم - عليه السلام - على إمامة ولده علي بن موسى الرضا - عليه السلام - غير أن حب المال آل بالبعض إلى إنكار إمامته، وقد رويت في ذلك روايات نذكر بعضها:

روى الطوسي في «الغيبه» بسنده عن يعقوب بن يزيد الأنباري، عن بعض أصحابه، قال: مضى أبو إبراهيم - عليه السلام - وعند زياد القندي سبعون ألف دينار، وعند عثمان بن عيسى الرواسي ثلاثون ألف دينار وخمس جوار، ومسكنه بمصر. فبعث إليهم أبو الحسن الرضا - عليه السلام - أن احموا ما قبلكم من المال، وما كان اجتمع لأبي عندكم من أثاث وجوار، فأني وارثه وقائم مقامه، وقد اقتسمنا ميراثه ولا عذر لكم في حبس ما قد اجتمع لي ولوارثه، قبلكم، وكلام يشبه هذا. فأما ابن أبي حمزة فإنه أنكره ولم يعترف بما عنده، وكذلك زياد القندي.

وأما عثمان بن عيسى فإنه كتب إليه إن أباك - صلوات الله عليه - لم يمت وهو حي قائم، ومن ذكر أنه مات فهو مبطل، واعمل على أنه قد مضى كما تقول: فلم يأمرني بدفع شيء إليك، وأما الجوارى فقد اعتقتهن وتزوجت بهن. (٣)

١. الطوسي: الغيبه: ٣٣-٣٤.

٢. الكشي: الرجال: ٣٨٩، البحار: ٤٨|٢٦٥، الحديث ٢٤.

٣. الطوسي: الغيبه: ٦٤-٦٥، الحديث ٦٧.

(٣٨٤)

روى الكشي، عن يونس بن عبد الرحمان، قال: مات أبو الحسن وليس من قوامه أحد إلا - وعنده المال الكثير، فكان ذلك سبب ووقوفهم وجحودهم موته، وكان عند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار. (١)

روى الصدوق في «العلل» عن يونس بن عبد الرحمان قال: مات أبو الحسن - عليه السلام - وليس من قوامه أحد إلا وعنده المال الكثير، فكان ذلك سبب ووقوفهم وجحودهم لموته، وكان عند زياد القندي سبعون ألف دينار، وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار، قال: فلما رأيت ذلك وتبين الحق وعرفت من أمر أبي الحسن الرضا - عليه السلام - ما علمت تكلمت ودعوت الناس إليه، قال: فبعثنا إلي، وقالوا: ما يدعوك إلى هذا؟ إن كنت تريد المال فنحن نغنيك وضمننا لك عشرة آلاف دينار، وقالوا لي: كف، فأبيت وقلت لهم: إنا زوينا عن الصادقين - عليهم السلام - أنهم قالوا: إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سلب منه نور الإيمان، وما كنت لأدع الجهاد في أمر الله على كل حال، فناصباني وأضمرنا لي العداوة.

وروى أيضاً عن أحمد بن حماد قال: أحد القوام، عثمان بن عيسى الرواسي، وكان يكون بمصر، وكان عنده مال كثير وست جوارى، قال: فبعث إليه أبو الحسن الرضا - عليه السلام - فيهن وفي المال، قال: فكتب إليه أن أباك لم يمت، قال: فكتب إليه: إن أبي قد مات، وقد اقتسمنا ميراثه، وقد صحت الأخبار بموته، واحتج عليه فيه، قال: فكتب إليه: إن لم يكن أبوك مات، فليس لك من ذلك

شيء، وإن كان قد مات على ما تحكى، فلم يأمرني بدفع شيء إليك، وقد اعتقت الجوارى وتزوجتهن. (٢)

إلى غيرها من الروايات الدالة على أن سبب التوقف كان حبّ الجاه والمال _____ .

١. الكشي: الرجال: ٣٤٥.

٢. الصدوق: علل الشرائع: ٢٣٥.

(٣٨٥) الواقفية في كتب الملل والنحل

جاءت الواقفية في كتب الملل والنحل على وجه الإجمال، وهذا يعرب عن عدم وجود دور بارز لهم في عصر الغيبة، وستوافيك القائمة التي ذكرنا فيها بعض أسماء الرواة من الواقفية.

قال النوبختي - بعدما بين أن الشيعة انقسمت بعد رحيل الإمام الكاظم - عليه السلام - إلى فرقتين، وبين الفرقة الثانية بالبيان التالي :-
١. وقالت الفرقة الثانية: إن موسى بن جعفر لم يمت، وإنه حيّ، ولا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها، ويملاها كلها عدلاً كما ملئت جوراً، وإنه القائم المهدي، وزعموا أنه خرج من الحبس ولم يره أحد نهاراً ولم يعلم به، وأن السلطان وأصحابه ادّعوا موته، وموهوا على الناس وكذبوا، وأنه غاب عن الناس واختفى، ورووا في ذلك روايات عن أبيه جعفر بن محمد عليمها السلام أنه قال: هو القائم المهدي فإن يدهده رأسه عليكم من جبل فلا تصدقوا فإنه القائم.

وقال بعضهم: إنه القائم وقد مات، ولا تكون الإمامة لغيره حتى يرجع، فيقوم ويظهر، وزعموا أنه قد رجع بعد موته إلا أنه مختف في موضع من المواضع حتى يأمر وينهى، وأن أصحابه يلقونه ويرونه، واعتلوا في ذلك بروايات عن أبيه، أنه قال: سمى القائم قائماً، لأنه يقوم بعدما يموت.

وقال بعضهم: إنه قد مات، وإنه القائم، وإن فيه شبهاً من عيسى بن مريم - صلى الله عليه - وأنه لم يرجع، ولكنّه يرجع في وقت قيامه فيملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وإن أباه قال: إن فيه شبهاً من عيسى بن مريم، وإنه يقتل في يدي ولد العباس فقد قتل. وأنكر بعضهم قتله، وقالوا: مات ورفع الله إليه، وأنه يرده عند قيامه، فسموا هؤلاء جميعاً الواقفية لوقوفهم على موسى بن جعفر على أنه الإمام القائم،

(٣٨٦)

ولم يأتوا بعده بإمام ولم يتجاوزوه إلى غيره.

وقد قال بعضهم ممن ذكر أنه حي: إن الرضا - عليه السلام - و من قام بعده ليسوا بأنتمية، ولكنهم خلفاؤه واحداً بعد واحد إلى أوان خروجه، وإن على الناس القبول منهم والانتهاة إلى أمرهم.

وقد لقب الواقفة بعض مخالفيها ممن قال بإمامة علي بن موسى «الممطورة» وغلب عليها هذا الاسم وشاع لها، وكان سبب ذلك أنعليين إسماعيل الميثمي ويونس بن عبد الرحمان ناظرا بعضهم، فقال له علي بن إسماعيل وقد اشتد الكلام بينهم: ما أنتم إلا كلاب ممطورة، أراد أنكم أنتم من جيف، لأن الكلاب إذا أصابها المطر فهي أنتم من الجيف، فلزمهم هذا اللقب فهم يعرفون به اليوم، لأنه إذا قيل للرجل أنه ممطور فقد عرف أنه من الواقفة على موسى بن جعفر خاصة، لأن كل من مضى منهم فله واقفة قد وقفت عليه، وهذا اللقب لأصحاب موسى. (١)

٢. وقال الشيخ الأشعري ملخصاً لما قاله النوبختي ما هذا نصه:

الصنف الثاني والعشرون من الرافضة يسوقون الإمامة حتى ينتهوا إلى جعفر بن محمد ويزعمون أنجعفر بن محمد نصّ على إمامة ابنه موسى بن جعفر، وأن موسى بن جعفر حيلم يمت ولا يموت حتى يملك شرقاً لأرض وغربها، حتى يملا الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وهذا الصنف يدعون «الواقفة» لأنهم وقفوا على «موسى بن جعفر» ولم يتجاوزوه إلى غيره، وبعض مخالفي هذه الفرقة يدعوه «الممطورة» وذلك أترجلاً منهم ناظر «يونس بن عبد الرحمان» ويونس من القطعية الذين قطعوا على موت موسى بن

جعفر، فقال له يونس: أنتم أهون عليّ من الكلاب الممطورة، فلزمهم هذا النبز. (٢)

١. النوبختي: فرق الشيعة: ٨٠-٨٢، وفي ذيل كلامه إشارة إلى القسمين من الوقف كما ذكرناه.

٢. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ٢٨-٢٩.

(٣٨٧)

٣. وقال البغدادي معبراً عن الواقعة بالموسوية: هؤلاء الذين ساقوا الإمامة إلى جعفر، ثمّزعموا أنّ الإمام بعد جعفر، كان ابنه موسى بن جعفر، وزعموا أنّ موسى بن جعفر حتى لم يمّت وأنه هو المهدي المنتظر، وقالوا إنّ دخل دار الرشيد ولم يخرج منها، وقد علمنا إمامته وشككنا في موته فلا نحكم في موته إلاّ بيقين.

ف قيل لهذه الفرقة الموسوية: إذا شككتم في حياته وموته، فشككوا في إمامته ولا تقطعوا القول بأنّه باق وأنه هو المهدي المنتظر، هذا مع علمكم بأنّ مشهد موسى بن جعفر معروف في الجانب الغربي من بغداد ويزار. ويقال لهذه الفرقة موسوية لا تنتظارها موسى بن جعفر.

ويقال لها الممطورة أيضاً، لأنّ يونس بن عبد الرحمان القمي كان من القطعية (الذين قطعوا على موت موسى بن جعفر) وناظر بعض الموسوية فقال في بعض كلامه: أنتم أهون على عيني من الكلاب الممطورة. (١)

٤. وقال الشهرستاني - بعد أن ذكر الإمام موسى بن جعفر وأنه دفن في مقابر قريش ببغداد - اختلفت الشيعة بعده...

فمنهم من توقّف في موته، وقال: لا ندرى أمات أم لم يمّت؟ ويقال لهم الممطورة، سمّاهم بذلك على بن إسماعيل فقال: ما أنتم إلاّ كلاباً ممطورة.

و منهم من قطع بموته ويقال لهم القطعية.

و منهم من توقّف عليه، وقال: إنّ لم يمّت، وسيخرج بعد الغيبة، ويقال لهم الواقعة. (٢)

إنّ ظاهرة الوقف بعد رحيل الإمام الكاظم - عليه السلام - كانت أمراً خطيراً يهدّد

١. البغدادي: الفرق بين الفرق: ٦٣.

٢. الشهرستاني: الملل والنحل: ١٦٩، ولاحظ التبصير للاسفرائيني: ٣٨، حيث عبّر عنهم بالموسوية.

(٣٨٨)

كيان الشيعة، وتماسكها وانسجامها، وقد كانت الواقعة تتمسك بشبهه، ربما تغرى البسطاء من الشيعة، وتصدّهم عن القول بامتداد الإمامة إلى عصر الإمام المنتظر. ولعلّه لأجل خطورة الوقف، ربما نرى وجود الحث المتزايد على زيارة الإمام الرضا - عليه السلام - من النبي والوصي والصادق والكاظم - عليهم السلام - ليلفتوا نظر الشيعة إليه ولا يغفلوا عنه.

فقد روى عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أنّه قال: «ستدفن بضعة منّي بأرض خراسان، لا يزورها مؤمن إلاّ أوجب الله له الجنّة، وحزّم جسده على النار». (١)

كما توجد روايات كثيرة عن أنّهم أهل البيت - عليهم السلام - تؤكد وتحث على زيارة الإمام الرضا - عليه السلام - وتبيّن فضلها. (٢) ولعلّ تلك الروايات تهدف إلى رفع الشبهات التي أوجدتها الواقعة في ذلك العصر، ولولا أنّ الرضا هو الإمام القائد بعد أبيه، لما كان لهذا الحث وجه، وقد جابه الإمام الرضا تلك الزوبعة بغضات بالغة، ومناظرات قيّمة، قام فيها بإزالة الالتباس عن شبههم.

وقد جمعها العالم الحجة الشيخ رياض محمد حبيب الناصري في كتابه «الواقفية»، حيث بلغت ثمانى مناظرات. و من أراد الوقوف على مضامينها فعليه الرجوع إلى ذلك الكتاب القيم الذي طرح فيه الواقفية ودرسها دراسة تحليلية رائعة. (٣)

١. الصدوق: الفقيه: ٢| ٣٥١، الحديث ٣٦.
 ٢. راجع الكافي: ٤| ٥٨٤؛ والفقيه: ٢| ٣٤٨-٣٥١؛ والتهذيب: ٦| ٨٤.
 ٣. الواقفية: ١| ١٥١-١٦٣، ولقد رجعنا إلى ذلك الكتاب في دراسة هذه الطائفة فشكر الله مساعيه. (٣٨٩) مشاهير الواقفية
- يظهر من مراجعة الكتب الرجالية، أن عدد الواقفية لم يكن قليلاً وقد ذكر الشيخ الطوسي فيهم حوالي أربعة وستين شخصاً، فمن مشاهيرهم:
١. سماعه بن مهران.
 ٢. جعفر بن سماعه.
 ٣. الحسن بن محمد بن سماعه.
 ٤. زرعة بن محمد الحضرمي.
 ٥. زياد بن مروان القندي.
 ٦. داود بن الحصين.
 ٧. درست بن أبي منصور.
 ٨. عثمان بن عيسى الرواسي.
 ٩. علي بن أبي حمزة البطائني.
 ١٠. علي بن الحسن الطاطري.
 ١١. حنان بن سدير الصيرفي.
 ١٢. يحيى بن القاسم الحذاء.
 ١٣. يحيى بن الحسين بن زيد.
 ١٤. سعد بن خلف.
- (١)

١. وقد استخرج محقق رجال الطوسي، أسماء الذين وصفوا بالوقف فيه، تحت فهرست المنسويين إلى المذاهب الفاسدة. رجال الطوسي: ٥٨٩-٥٩١. (٣٩٠)

ثم إن هناك لفيماً آخر من الواقفية ذكرهم النجاشي في رجاله، وليس فيهم اسم سماعه بن مهران، ولا ولده جعفر، ولا سبطه محمد، و ربما تردّد بعضهم في عدّ سماعه من الواقفية، إذ لو كان كذلك لما خفى على مثل النجاشي، ولا على ابن الغضائري. وقد جمع الشيخ الناصري أسماء الموصوفين بالوقف من الكتب الرجالية وغيرها، غير أنّ كثيراً منهم رجعوا عن الوقف. ومن العجب العجيب أنسبعة أشخاص من أصحاب الإجماع، رُموا بالوقف، وهؤلاء هم:

١. أحمد بن محمد بن أبي نصر.
٢. جميل بن دراج.
٣. حماد بن عيسى.
٤. صفوان بن يحيى.

٥. عثمان بن عيسى.
 ٦. يونس بن عبد الرحمان.
 ٧. عبد الله بن المغيرة.
 و أظن أنّاتهمهم بالوقف ربما يعود إلى فحصهم وتريتهم في الإمام الذي يعقب الإمام الكاظم - عليه السلام - بعد رحيله. ولو كان هذا هو المنطلق لوصفهم بالوقف فلا يوجد أي مبرر لهذا الرمي والوصف، وعلى أية حال فإنهم رجعوا عن الوقف، حتى أنّ يونس بن عبد الرحمان كان في الصف المقدم لمكافحة الوقف وهو الذي وصف الواقية بالكلاب الممطورة كما في بعض الروايات، وهذا ما يثير الشكوك حول وصفه وزملائه بالوقف.

(٣٩١)

ثم إن هناك ردوداً بين الطائفتين ذكرها الطوسي في «الفهرست» و«الغيبة» فمن الكتب المولفة في نصره الواقية:
 ١. «نصرة الواقية» لعلی بن أحمد العلوی الموسوی، ذكره الشيخ.

(١)

٢. «الصفة في الغيبة على مذهب الواقية» لعبد الله بن جبلة.

(٢)

٣. رسالة لعلی بن الحسن الطاطری في نصره مذهب.

(٣)

وهناك ردود من الأصحاب على تلك المولفات، ذكرها النجاشي في رجاله، نذكر منها ما يلي:

١. الرد على الواقية لإسماعيل بن علی بن إسحاق بن سهل بن نوبخت.

(٤)

٢. الرد على الواقية للحسن بن موسى الخشاب.

(٥)

٣. الرد على الواقية للحسين بن علی البروفري.

(٦)

٤. الرد على الواقية لفارس بن حاتم بن ماهويه القزويني.

(٧)

بقي الكلام في رجال الواقية الذين وردت أسماءهم في الكتب الرجالية، وكان لهم دور في نقل الحديث وتدوينه، فإليك فهرس أسمائهم، وأما الكلام عن تراجمهم وحالاتهم فمذكور إلى محله _____.

١. الطوسي: الغيبة: ٢٩.

٢. النجاشي: الرجال: ١٣/٢ برقم ٥٦١.

٣. الطوسي: الفهرست: ١١٨ برقم ٣٩٢.

٤. النجاشي: الرجال: ١٢١/١ برقم ٦٧.

٥. النجاشي: الرجال: ١٤٣/١ برقم ٨٤.

٦. النجاشي: الرجال: ١٨٨/١ برقم ١٦٠.

(٧) ٧. النجاشي: الرجال: ١٧٤/٢ برقم ٨٤٦.

(٣٩٢)

١. إبراهيم .٢. أبو جيل.
٣. أبو جعدة. ٤. أبو جنادة الأعمى.
٥. أحمد بن أبي بشر السراج. ٦. أحمد بن الحارث.
٧. أحمد بن الحسن بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار.
٨. أحمد بن زياد الخزاز. ٩. أحمد بن السرى.
١٠. أحمد بن الفضل الخزاعي.
١١. أحمد بن محمد بن على بن عمر بن رباح بن قيس بن سالم القلاء السواق.
١٢. إدريس بن الفضل بن سليمان الخولاني.
١٣. إسحاق بن جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي الكوفي.
١٤. إسماعيل بن أبي بكر محمد بن الربيع بن أبي السمّال الأسدي.
١٥. إسماعيل بن عمر بن أبان الكلبي.
١٦. أمية بن عمرو الشعيري. ١٧. بكر بن محمد بن جناح.
١٨. جعفر بن المثنى الخطيب.
١٩. جعفر بن محمد بن سماعه بن موسى بن رويد.
٢٠. جندب بن أيوب. ٢١. جهم بن جعفر بن حيان.
٢٢. الحسن بن على بن أبي حمزة سالم البطائني.
٢٣. الحسن بن محمد بن سماعه، أبو محمد الكندي الصيرفي الكوفي.
٢٤. الحسين (من أصحاب الإمام الكاظم - عليه السلام -).
٢٥. الحسين بن أبي سعيد هاشم بن حيان المكارى.
٢٦. الحسين بن قياما. ٢٧. الحسين بن كيسان.
٢٨. الحسين بن المختار، أبو عبد الله القلانسي.

(٣٩٣)

٢٩. الحسين بن مهران بن محمد، أبو نصر السكوني.
٣٠. الحسين بن موسى.
٣١. حصين بن المخارق بن عبد الرحمان بن ورقاء بن حبشى بن جنادة.
٣٢. حميد بن زياد بن حماد بن حماد بن زياد هوار الدهقان.
٣٣. حنان بن سدير بن حكيم بن صهيب الصيرفي.
٣٤. داود بن الحصين الأسدي.
٣٥. درست بن أبي منصور محمد الواسطي.
٣٦. زرعة بن محمد الحضرمي.
٣٧. زكريا بن محمد، أبو عبد الله المؤمن.
٣٨. زياد بن مروان الأنباري القندي.

٣٩. زيد بن موسى. ٤٠. سعد بن أبي عمران الأنصاري.
٤١. سعد بن خلف. ٤٢. سلمة بن حيان.
٤٣. سماعة بن مهران بن عبد الرحمان الحضرمي.
٤٤. عبد الله بن جبلة بن حيان بن أبحر الكناني.
٤٥. عبد الله بن عثمان الحنّاط. ٤٦. عبد الله بن القاسم الحضرمي.
٤٧. عبد الله بن القصير. ٤٨. عبد الله النخّاس.
٤٩. عبد الكريم بن عمرو بن صالح الخثعمي.
٥٠. عبيد الله بن أبي زيد أحمد بن عبيد الله بن محمد الانباري.
٥١. عثمان بن عيسى، أبو عمرو العامري الكلابي الرواسي.
٥٢. عثمان بن عيسى الكلابي، مولى لبني عامر، وليس بالرواسي.
٥٣. علي بن أبي حمزة البطائني.
- (٣٩٤)
٥٤. علي بن جعفر بن العباس الخزاعي المروزي.
٥٥. علي بن الحسن بن محمد الطائي الجرمي المعروف بالطاطري.
٥٦. علي بن الخطّاب. ٥٧. علي بن سعيد المكارى.
٥٨. علي بن عمر الأعرج الكوفي.
٥٩. علي بن محمد بن علي بن عمر بن رباح السوّاق، ويقال: القلاء.
٦٠. علي بن وهبان. ٦١. عمر بن رباح الزهري القلاء.
٦٢. عنبسة بن مصعب العجلي.
٦٣. عيسى بن عيسى الكلابي مولى بني عامر - وليس بالرواسي -
٦٤. غالب بن عثمان. ٦٥. الفضل بن يونس الكاتب البغدادي.
٦٦. القاسم بن إسماعيل القرشي، أبو محمد المنذر.
٦٧. القاسم بن محمد الجوهري. ٦٨. محمد بن بكر بن جناح.
٦٩. محمد بن الحسن بن شّمون. ٧٠. محمد بن عبد الله الجلاب البصري.
٧١. محمد بن عبد الله بن غالب الأنصاري البزاز.
٧٢. محمد بن عبيد بن صاعد. ٧٣. محمد بن عمر.
٧٤. محمد بن محمد بن علي بن عمرو بن رباح.
٧٥. مقاتل بن مقاتل بن قياما. ٧٦. منصور بن يونس بزرج.
٧٧. موسى بن بكر الواسطي. ٧٨. موسى بن حماد الطيالسي الذرّاع.
٧٩. هاشم بن حيان، أبو سعيد المكارى.
٨٠. وهيب بن حفص، أبو علي الجريري.
٨١. يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين - عليه السّلام -.
٨٢. يزيد بن خليفة الحارثي. ٨٣. يوسف بن يعقوب.

خاتمة المطاف

خاتمة المطاف في النصيرية

(٣٩٦) (٣٩٧)

الكتابة عن النصيرية كسائر الفرق الشيعية أمر صعب لا سيما وأنهم اضطروا إلى التخفي والانطواء على أنفسهم، وعاشوا في ظل التقيّة، ومن يتصفّح التاريخ يجد أنه لا مندوحة لهم من التكتّم والتحفّظ في عقائدهم، فمعاجم الفرق مليئة بدمهم وتفسيقهم وتكفيرهم، وقد أخذ بعضهم عن بعض، ولا يمكن الاعتماد على ما نقلوه عنهم إلا بالرجوع إلى كتب تلك الفرقة أو التعايش معهم في أوطانهم حتى ينجلي الحق ليقف الإنسان على مكان عقائدهم وخفايا أصولهم، ونحن نسرد قبل كلّ شيء ما ذكرته معاجم الفرق في هذا المقام من دون أيّ تعليق مسهب. النصيرية في معاجم الملل والنحل

١. ولعلّ أوّل من ذكرهم من أصحاب المقالات هو الشيخ الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث، ويظهر منه أنّها نشأت بعد وفاة الإمام الهادي - عليه السلام - عام ٢٥٤هـ، فقال:

وقد شدّت فرقة من القائلين بإمامة علي بن محمد في حياته، فقالت بنبوّة رجل يقال له محمد بن نصير النميري، وكان يدّعي أنّه نبي، بعثه أبو الحسن العسكري - عليه السلام -، وكان يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن، ويقول فيه بالربوبية، ويقول بالإباحة للمحارم ويحلّل نكاح الرجال بعضهم بعضاً في أدبارهم، ويزعم أنّ ذلك من التواضع والتذلل، وأنّها إحدى الشهوات والطيبات، وأنّ الله عزّ وجلّ لم يحزّم شيئاً من ذلك، وكان يقوى أسباب هذا النميري، محمد بن موسى بن

(٣٩٨)

الحسن بن الفرات. (١)

أقول: ما ورد من النسب في هذا الكلام ممّا يستبعده العقل جداً، إذ كيف يمكن أن يتبنى أحد في حاضرة الخلافة الإسلامية هذه المنكرات التي لا يرتضيها أيّ إنسان ساذج؟! ولو كان داعياً إلى هذه الأمور في أجواء نائية بعيدة ربّما يسهل تصديقه.

٢. وقال الكشي (من أعلام القرن الرابع): وقالت فرقة بنبوّة محمد بن نصير الفهري النميري، وذلك أنّه، ادّعى أنّه نبي، وأنّ علي بن محمد العسكري أرسله، وكان يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن، ويقول فيه بالربوبية، ويقول بإباحة المحارم ويحلّل نكاح الرجال بعضهم بعضاً في أدبارهم، ويقول: إنّ من الفاعل والمفعول به أحد الشهوات والطيبات، وإنّ الله لم يحزّم شيئاً من ذلك. وكان محمد ابن موسى بن الحسن بن فرات يقوى أسبابه ويعضده، وذكر أنّه رأى بعض الناس محمد بن نصير عياناً وغلام له على ظهره، فرآه على ذلك، فقال: إنّ هذا من اللذات وهو من التواضع لله وترك التجبّر، وافترق الناس فيه بعده فرقاً. (٢)

٣. وقد ذكر الأشعري المتوفى (٣٢٤هـ) من أصناف الغالية، أصحاب الشريعي، وقال: يزعمون أنّ الله حلّ في خمسة أشخاص، ثمّ انتقل منه إلى ذكر النميرية، وقال: إنّ فرقة من الرافضة يقال لهم النميرية أصحاب النميري يقولون إنّ الباري كان حالاً في النميري.

(٣)

٤. وقال البغدادي المتوفى (٤٢٩هـ)، في فصل عقده لبيان الفرقة الشريعية أتباع الشريعي والنميرية أتباع محمد بن نصير النميري، ونقل نفس ما نقله الأشعري في حقّ الرجلين و لم يزد عليه شيئاً _____.

١. فرق الشيعة: ٩٣.

٢. رجال الكشي: ٤٣٨.

٣. مقالات الإسلاميين: ١ | ١٥.

(٣٩٩)

ومن قارن كتاب الفرق بين الفرق مع كتاب مقالات الإسلاميين يجد أنه صورة ملخصة من الثاني، غير أنه زاد في بيان الفرق سبباً و ذمماً غير لائق بشأن الكاتب. (١)

٥. وقد عقد الشيخ الطوسي المتوفى (٤٦٠هـ) فصلاً لمدعى البابية عد منها الشريعي، ومحمد بن نصير النميري.

قال: كان محمد بن نصير النميري من أصحاب أبي محمد الحسن بن علي عليمها السلام فلما توفي أبو محمد، ادعى مقام أبي جعفر محمد بن عثمان أنه صاحب إمام الزمان، وادعى له البابية، وفضحه الله تعالى بما ظهر منه من الإلحاد والجهل، ولعن أبي جعفر محمد بن عثمان له وتبرأه منه، واحتجابه عنه وادعى ذلك الأمر بعد الشريعي.

ثم قال: قال أبو طالب الأنباري: لما ظهر محمد بن نصير بما ظهر لعنه أبو جعفر (رض) وتبرأ منه فبلغه ذلك، فقصد أبا جعفر (رض) ليعطف بقلبه عليه، أو يعتذر إليه، فلم يأذن له وحجبه وردّه خائباً.

ثم نقل عن سعد بن أبي عبد الله ما نقلناه آنفاً عن النوبختي.

ثم قال: فلما اعتل محمد بن نصير العلة التي توفي فيها، قيل له وهو مثقل اللسان: لمن هذا الأمر من بعدك؟ فقال بلسان ضعيف ملجلج: أحمد، فلم يدروا من هو؟ فافترقوا بعده ثلاث فرق، قالت فرقة: إنه أحمد ابنه، وفرقة قالت: هو أحمد ابن محمد بن موسى بن

الفرات، وفرقة قالت: إنه أحمد بن أبي الحسين بن بشر بن يزيد، ففترقوا فلا يرجعون إلى شيء. (٢)

ثم إن الشيخ أخرج في أسماء أصحاب الهادي - عليه السلام -، محمد بن حسين _____

١. انظر الفرق بين الفرق: ٢٥٢.

٢. الطوسي: الغيبة: ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٤٠٠)

الفهري، وقال: ملعون ولعله محمد بن نصير، فالحصين تصحيف لنصير. (١)

وأخرج في أصحاب الإمام العسكري محمد بن موسى الصريعي، وقال المعلق: وفي بعض النسخ الشريعي، وهو أول من ادعى البابية حسب تنصيب الشيخ الطوسي في الغيبة، ولم يذكر في أصحاب العسكري محمد بن نصير النميري. (٢)

٦. وقال الاسفرايني المتوفى (٤٧١هـ): الفرقة التاسعة منهم الشريعية والنميرية، والشريعية أتباع رجل كان يدعى شريعاً، وكان يقول: إن الله تعالى حل في خمسة أشخاص في محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن والحسين، وكانوا يقولون: إن هؤلاء آلهة ولهؤلاء الخمسة خمسة أضداد، إلى أن قال: وكان النميري، خليفته وكان يدعى لنفسه مثله بعده وجملته النميرية والشريعية والخطابية وكانوا يدعون إلهية جعفر الصادق. (٣)

ولا يخفى وجود التناقض في كلامه حيث فسر الشريعية بالاعتقاد بالألوهية في الخمسة الطاهرة آخريهم الحسين - عليه السلام - وقال في ذيل كلامه: إن الطوائف الثلاث: النميرية - الشريعية - الخطابية كانوا يدعون إلهية جعفر الصادق.

ومع ذلك كله فما ذكره مأخوذ من الفرق بين الفرق والمقالات وكان الجميع عيال على الأشعري.

٨. وقال ابن أبي الحديد المتوفى (٦٥٥هـ) في فصل عقده لذكر الغلاة من الشيعة والنصيرية وغيرهم: إن النصيرية: فرقة أحدثها محمد بن نصير النميري، وكان من أصحاب الحسن العسكري - عليه السلام -، إلى أن قال: وكان محمد بن نصير من _____

١. الطوسي: الرجال: أصحاب الإمام الهادي - عليه السلام - برقم ٣٩.

٢. الطوسي: الرجال: أصحاب الإمام العسكري - عليه السلام - برقم ١٩.

٣. التبصير في الدين: ١٢٩.

(٤٠١)

أصحاب الحسن بن علي بن محمد بن الرضا، فلما مات ادعى وكالة لابن الحسن الذي تقول الإمامية بإمامته ففضحه الله تعالى بما

أظهره من الإلحاد والغلو، والقول بالتناسخ، ثم ادعى أنه رسول ونبي من قبل الله تعالى، وأنه أرسله على بن محمد ابن الرضا، ووجد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه، وادعى بعد ذلك الربوبية وقال بإباحة المحارم. (١)

٩. وقد بسط الكلام الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ) في النصيرية والإسحاقية وعدّهم من جملة غلاة الشيعة وقال: لهم جماعة ينصرون مذهبهم ويذبّون عن أصحاب مقالاتهم، وبينهم خلاف في كيفية إطلاق اسم الإلهية على الأئمة من أهل البيت - إلى أن قال -: «قالوا ولم يكن بعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - شخص أفضل من علي (رضي الله عنه)، وبعده أولاده المعصومون وهم خير البرية، فظهر الحقّ بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم، فعن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم.

وإنما أثبتنا هذا الاختصاص «لعلّي» رضي الله عنه دون غيره لأنّه كان مخصوصاً بتأييد إلهي من عند الله تعالى، فيما يتعلق بباطن الأسرار. قال النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم: «أنا أحكم بالظاهر، والله يتولّى السرائر» وعن هذا كان قتال المشركين إلى النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقاتل المنافقين إلى علي رضي الله عنه.

وعن هذا شبهه بعيسى بن مريم - عليه السلام -، فقال - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : «لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى بن مريم - عليه السلام -، لقلت فيك مقالاً». (٢)

١٠. وقال العلامة الحلّي (٦٤٨-٧٢٦هـ): محمد بن الحصين الفهري من أصحاب أبي الحسن الثالث الهادي - عليه السلام - كان ضعيفاً ملعوناً. (٣)

١. شرح نهج البلاغة: ٨/١٢٢، ولا يخفى أنّ ابن أبي الحديد تفرد بإنكار النيمري إمامة الحسن العسكري - عليه السلام - وإمامة ابنه مع أنّه كان يدعى البابية لابن العسكري سلام الله عليهم.

٢. الملل والنحل: ١/١٦٨-١٦٩.

٣. الخلاصة: ٢/٢٥٢ برقم ٢٢.

(٤٠٢)

والعجب أنّه عنوانه تارة أخرى، وقال: محمد بن نصير بالنون المضمومة والصاد المهملة، قال ابن الغضائري: قال لي أبو محمد بن طلحة بن علي بن عبد الله بن غلاله، قال لنا أبو بكر بن الجعابي: كان محمد بن نصير من أفاضل أهل البصرة علماً وكان ضعيفاً بدو النصيرية وإليه ينسبون. (١)

ولعلهما شخصان مختلفان.

١١. وقال الجرجاني المتوفّى (٨١٦هـ): النصيرية الذين قالوا إنّ الله حلّ في علي (رض). (٢)

والباحث في كتب الرجال لأصحابنا يجد أنّها تعج بما رواه الشيخ في كتاب الغيبة، والكشي في رجاله. (٣) النصيرية فرقة بائدة إذا كانت النصيرية هي التي عزّفها أصحاب المعاجم وغيرهم، فهذه الفرقة قد بادت لا تجد أحداً يتبنّى أفكارها بين المسلمين، إلا إذا كان مغفلاً أو مغرضاً، وربما تكون بعض هذه النسب ممّا لا أصل له في الواقع، وإنّما اتهمت بها بعض فرق الشيعة من قبل أعدائهم، فإنّ خصومهم من العباسيين شنّوا حملة شعواء ودعايات مزيفة ومضلّلة ضدّهم، حتى يجد الباحث أنّ الكتاب والمؤلّفين المدعومين من قبل السلطات لا يألون جهداً في اتهامهم بأرخص التهم في العقيدة والعمل حتى صارت حقائق راهنة في حقّ هؤلاء، وتبعهم غير واحد من أصحابنا لحسن ظنّهم بما كتب حولهم.

١. الخلاصة: ٢/٢٥٧ برقم ٦١.

٢. التعريفات: ١٠٦.

٣. انظر تنقيح المقال: ٣/١٩٥.

(٤٠٣) محمد بن نصير النميري شخصيته قلقة

الحق أن يقال إن ابن نصير شخصيته قلقة، يكتنفها كثير من الغموض، فتارة يعدونه من أفاضل أهل البصرة علماً وأنه ضعيف (١) وأخرى من أصحاب الإمام الجواد - عليه السلام - (٢) وأخرى أنه من أصحاب الإمام العسكري - عليه السلام - وأنه غال (٣) وطوراً عدوه فهيرياً بصرياً مع أن هذين لا يجتمعان. (٤)

وأخيراً تحيروا في أمر هذا الرجل ووضعوا اسمه في قائمة المشتركات. (٥)

ثم إن كتاب الفرق ذكروا رجالاً كان لهم دور في حياة ذلك الرجل، منهم:

الشريعي أبو محمد، وقد عرفت ما قيل حوله؛ وابن فرات، وهو الذي ذكر النوبختي أنه كان يقوى عضد محمد بن نصير، ومن المؤكد أن هذا الرجل ينتمي إلى أسرة شيعية عريقة كان لها مركز ونفوذ في البلاط العباسي. وتقلد جمع منهم الوزارة، منهم:

١. أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات تسلم عرش الوزارة ثلاث مرات، خلع وحبس خلالها، فقد تسلم الوزارة بين سنة ٢٩٦ و٢٩٩ هـ، ثم في سنة ٣٠٤، وثالثه في سنة ٣١١-٣١٣ هـ وقد اتهموه بموازرة الأعراب البوادي الذين نهبوا بغداد، وكذلك اتهم بالزندقة وصودرت أمواله وذلك أيام المقتدى بالله

١. المامقاني: تنقيح المقال: ٣/١٩٥.

٢. الطوسي: الرجال: أصحاب الإمام الجواد برقم ١٠ و ٢٦.

٣. الطوسي: الرجال: أصحاب الإمام العسكري - عليه السلام - برقم ٢٠.

٤. الكشي: الرجال: برقم ٣٨٣.

٥. المامقاني: تنقيح المقال: ٣/١٩٦.

(٤٠٤)

العباسي. (١)

٢. أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات وزير الرضا بالله العباسي.

٣. أبو أحمد المحسن بن الوزير أبي الحسن.

٤. جعفر بن محمد أخو الوزير علي بن محمد. (٢)

هذه هي النصيرية وهذه هي كلمات أصحاب المعاجم في حقها ونحن على شك في صدق هذه النسب، لأن أكثر من كتب عنهم يعدون خصوصاً لهم، ومن كتب عنهم من غير خصوصهم لم يعتمد على أصل صحيح، فلا يبعد أن تكون هذه الفرقة على فرض وجودها في عصرها من الفرق البائدة التي عبث بها الزمان. العلويون وأصل التسمية بالنصيرية إن هناك أقلماً مغرضة حاولت أن تنسب العلويين المنتشرين في الشام والعراق وتركيا وإيران إلى فرقة النصيرية البائدة اعتماداً على أمور ينكرها العلويون اليوم قاطبة.

وأظن أن السبب في ذلك هو جور السلطات الظالمة التي أخذت تشوه صحيفة العلويين وتسودها، فأقامت فيهم السيف والقتل والفتك والتشريد، ولم تكتف بل أخذت بالافتراء عليهم لتنفّر الناس من الاختلاط بهم، وأنهم زمرة وحشية هجمية، مما زاد في انكماش هذه الطائفة على نفسها، لذا نجد من المناسب الكتابة عنهم حسب ما كتبوه عن أنفسهم.

أما سبب تسمية العلويين بالنصيرية لأنه لما فتحت جهات بعلبك وحمص استمد أبو عبيدة الجراح نجدة، فأتاه من العراق خالد بن الوليد، ومن مصر عمرو

١. الصابي: كتاب الوزراء: ٢٤٧.

٢. الصابي: كتاب الوزراء: ٢٤٧.

(٤٠٥)

ابن العاص، وأتاه من المدينة جماعة من أتباع علي - عليه السلام - وهم ممن حضروا بيعة غدير خم، وهم من الأنصار، وعددهم يزيد عن أربعمائة وخمسين، فسُميت هذه القوة الصغيرة، نصيرية، إذ كان من قواعد الجهاد تملك الأرض التي يفتحها الجيش لذلك الجيش نفسه، فقد سميت الأراضي التي امتلكها جماعة النصيرية: جبل النصيرية، وهو عبارة عن جهات جبل الحلو وبعض قضاء العمرانية المعروف الآن ثم أصبح هذا الاسم علماً خاصاً لكل جبال العلويين من جبل لبنان إلى أنطاكية. (١)

وهذا الرأي أقرب إلى الصواب، ذلك أن المورخين الصليبيين أطلقوا على هذا الجبل اسم «النصيرة» ويبدو أن هذا الاسم قد حُرف إلى نصيرية والذي يعزز القناعة بصحة هذا الرأي هو أن إطلاق اسم نصيرية على هذا الجبل، لم يظهر إلا أثناء الحملات الصليبية، أي بعد عام ٤٩٨هـ، وإذا كان معنى ذلك أن اسم نصيرية قد تغلب على اسم الجبل في زمن الشهرستاني.

وثمة آراء أخرى قليلة ترى أن تسمية نصيرية نسبة إلى نصير غلام الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - ويبدو لنا خطأ هذه الآراء، خاصة وأن التاريخ لم يذكر أن للإمام علي غلاماً يدعى نصيراً. (٢)

أهم عقائدهم

حسب المصادر المطلعة على حالهم، فإن عقائد العلويين لا تختلف عن عقائد الشيعة الاثنا عشرية الإمامية، وهي معروفة مسجلة. (٣)

١. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٨٧-٨٨.

٢. هاشم عثمان: العلويون بين الأسطورة والحقيقة: ٣٥-٣٦.

٣. علي عزيز آل إبراهيم: العلويون والتشيع: ٩١-٩٧، الدار الإسلامية، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٩٢م؛ وراجع العلويون بين الأسطورة والحقيقة لهاشم عثمان، وعقيدتنا وواقعنا لعبد الرحمان الخير.

(٤٠٦)

وما يوجب السكون والاطمئنان في ذلك أن جميع المؤلفين وأرباب كتب الفرق والمذاهب عدّوهم من الشيعة الإمامية الاثنا عشرية على الرغم مما نسبوا إليهم ورموهم بالغلو والتطرف والباطنية وأمثال ذلك مما ستأتي الإشارة إليه.

فالعلويون يؤمنون برسالة محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا يشكّون بإمامة ابن عمه علي بن أبي طالب والأئمة الأحد عشر من صلبه - عليهم السلام - وينطقون بالشهادتين عن إيمان فحسبهم شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والموالاتة لآل بيته والصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله والمعاد في اليوم الآخر، وكتابهم القرآن، ما زاغوا عن هواه ولا نهجوا منهجاً غير شريعته، ولهم مراجع دينية عرفوا بتمسكهم بالدين وإقامة شعائرهم الدينية الإسلامية، ويطرحون كل حديث لم يشر إليه القرآن وجاء مخالفاً له، كما وأنهم لا يؤيدون قول من يقول بصحة تأويل الآيات التي بحق محمد وآل محمد - عليهم السلام -، ويحترمون كل الشرائع السماوية، ويقدمون كل الأنبياء، ولا يشكّون بصحة ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى والنبون من ربهم، وهم لله مسلمون، ولم يعصوا الرسول في عمل ولم يخالفوه في قول، ويحصرّون كلمة العلم الكاملة بأهل البيت، ويعتمدون على جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - في أبحاثهم الدينية وتأويل القرآن والفقه والفتوى، فلا شافعي ولا حنبلي ولا مالكي ولا حنفي عندهم، وكلهم لله حنفاء متبعون ملّة أبيهم إبراهيم، وهو الذي سمّاهم المسلمين ويعبدون الله تعالى لا يشركون في عبادته حداً. (١)

ونترك الحديث إلى أحد كتابهم وهو الشيخ عبد الرحمان الخير يتحدث عن عقيدتهم في أصول الدين وفروعه، حيث يقول:

أصول الدين خمسة، وهي:

التوحيد و العدل والنبوة والإمامة والمعاد .

١. أحمد زكي تفاحة: أصل العلويين وعقيدتهم: ٤٧-٤٨.

(٤٠٧)

التوحيد: نعتقد بوجود إله واحد خالق للعالم المرئي وغير المرئي، لا شريك له في الملك متصف بصفات الكمال، منزّه عن صفات النقص والمحال: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" (الشورى | ١١).

العدل: نعتقد بأن الله تعالى عادل منزّه عن الظلم، وعن فعل القبيح والبعث، لا يكلف البشر غير ما هو في وسعهم وطاقتهم ولا يأمرهم إلا بما فيه صلاحهم ولا ينهاهم إلا عما فيه فسادهم ولو جهل كثير من العباد وجه الصلاح والفساد في أمره ونهيه سبحانه. النبوة: نعتقد بأن الله سبحانه يصطفى من خيرة عباده الصالحين رسلاً لإبلاغ رسالاته إلى الناس، ليرشداهم إلى ما فيه صلاحهم ويحذروهم عما فيه فسادهم في الدنيا والآخرة.

ونعتقد بأن الأنبياء كثيرون، ذكر منهم في القرآن الكريم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً، أولهم سيدنا آدم - عليه السلام - وآخرهم سيدنا محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وشريعته هي آخر الشرائع الإلهية وأكملها، ونعتقد بأنها صالحة لكل زمان و مكان.

ونعتقد بعصمة جميع الأنبياء من السهو والنسيان، وارتكاب الذنوب عمداً وخطأ قبل البعثة، وبعدها، وأنهم منزّهون عن جميع العيوب والنقائص، وأنهم أكمل أهل زمانهم وأفضلهم وأجمعهم للصفات الحميدة، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الإمامة: نعتقد بأن الإمامة منصب تقتضيه الحكمة الإلهية لمصلحة البشر في موازنة الأنبياء بنشر الدعوة الإلهية، وفي القيام بعدهم بالمحافظة على تطبيق أحكامها بين الناس وبصون التشريع من التغيير والتحريف والتفسيرات الخاطئة.

ولذلك نعتقد اقتضاء اللطف الإلهي بأن يكون الإمام معيّناً بنص إلهي وأن يكون معصوماً مثل النبي سواء بسواء ليضمن المومنون إلى الاقتداء به في جميع أعماله وأقواله.

(٤٠٨)

ونعتقد بأن الإمام بعد نبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - هو سيدنا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن بعده ابنه الحسن والحسين، ثم تسعة من ذرية الحسين - عليه السلام -، آخرهم المهدي عجل الله فرجه، وعجل به فرج المومنين.

المعاد: نعتقد بأن الله سبحانه يعيد الناس بعد الموت للحساب، فيجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

كما ونؤمن بكل ما جاء في القرآن الكريم، وبما حدث به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من أخبار يوم البعث والنشور والجنة والنار والعذاب والنعيم والصراف والميزان وغير ذلك مما أثبتته كتاب الله وحديث رسوله الصحيح.

وأما فروع الدين: فكثيرة أهمها الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد. (١) الجبر والاختيار والتفويض

يقول أحد كتابهم في هذا الصدد:

عقيدة المسلمين العلويين في هذه المسألة هي طبق ما جاء عن الإمام أمير المومنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - وهو ينفي الجبر والإهمال، وقد منح الله العباد القوة على أفعالهم وأوكلهم فيها إلى نفوسهم فعلاً وتركاً بعد الوعد والوعيد، قال - عليه السلام - في نهج البلاغة: «إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً ولم ينزل الكتاب عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار».

وقد شنع الأمير الشاعر المكزون السنجاري على القائلين بالجبر ووصفهم بأن عبيد اللات خير منهم قال _____:

١. عبد الله الخير: عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين العلويين: ٢٠-٢٣، نقل بتلخيص.

(٤٠٩)

عيد اللات فيما جاء عنهم * يستون الاله بغير علم
وأما المجبرون فعن يقين * يستون الاله بكل ظلم ويقول أيضاً:
إذا كان فعلى له مرادا * فلم بما قد أراد يعصى
ولم دعاني إلى أمور * منى لها الخلف ليس يحصى ومن احتججه على القائلين بالجبر قوله:
قل لمن قال إن باري البرايا * ليس في خلقه مرید سواه
من ترى ان أراد بالعبد سوءاً * راح في العبد كارهاً ما قضاه
اتقوا الله ذاك أمر محال * أن يرى ساخطاً رضاه رضاه
وإذا لم يكن فقد ثبت القو * ل لعبد ومان في مدعاه. (١) ما حيك حولهم
وفي غياب المصادر الموثوقة، نسب مناوئوهم عقائد وآراء شتى إلى العلويين نشير في ما يلي إلى بعضها:
١. الاعتقاد بالحلول والغلو في حق الأئمة سيما الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. (٢)
٢. التناسخ. (٣)
٣. نبوة النميري محمد بن نصير. (٤)

١. على عزيز الإبراهيم: العلويون والتشييع: ٧٦-٨٣.
٢. الشهرستاني: الملل والنحل: ٢|٢٥، ٢٦، سليمان الاذني: الباكورة السليمانية: ٨٧.
٣. النوبختي: فرق الشيعة: ٩٣ - ٩٤.
٤. نفس المصدر .
(٤١٠)
٤. شركة الإمام علي مع رسول الله في نبوته. (١)
٥. إباحة المحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضاً. (٢)
٦. افتراقهم إلى ثلاث فرق في خلافة محمد بن نصير النميري. (٣)
٧. عبادة السماء والشمس والقمر على تقاليد الفينيقيين والاعتقاد بوجود الأئمة - عليهم السلام - فيها. (٤)
وهذه الافتراءات والتهم إنما تهدف إلى شيء واحد وهو تأليب الناس عليهم دون أن تستند إلى مصدر أو مستند أو وثيقة. ودون أن يتجشم المؤلفون لتحقيقها، فإن مؤلفي الفرق والملل والنحل كان هم أكثرهم توسيع رقعة الخلاف، وخلق أكبر عدد ممكن من الفرق وطرح أشياء غريبة عجيبة وغير معقولة ولا مشروعة. رميهم بالغلو والتطرف
أم الاتهامات ضدّهم هي تهمة الغلو وتأليه الإمام علي - عليه السلام - حيث يكرره المؤلفون من قديم وجديد. (٥)
ويرآى أن رميهم بالغلو والتطرف كان رد فعل من مناوئتهم حيث كان يرميهم هؤلاء بالتقصير في حق علي بن أبي طالب - عليه السلام - أو عدم الإيمان بفضائله وأفضليته من سائر الصحابة، حتى عدائهم له بتحريض من خلفاء الأمويين _____،
١. المصدر نفسه.

٢. الشهرستاني: الملل والنحل: ٢|٢٥-٢٦.

٣. النوبختي: فرق الشيعة: ١١٥-١١٦، الرازي فخر الدين: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: ٦١.

٤. النوبختي: فرق الشيعة: ١١٥-١١٦، وراجع: القلقشندي: صبح الأعشى: ١٣|٢٢٢-٢٥٣.

٥. الدكتور عبد الرحمان بدوي: مذاهب الإسلاميين: ٢|٤٢٥، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٣م.

(٤١١)

فقابلوا تهمةً بتهمة. ولا غرو في ذلك فإنّ النزاع السياسي والعسكري بين العشائر العلوية وخصومهم من الأمويين والعباسيين والعثمانيين الذين كانوا يتمتعون بالسلطة الرسمية تسبب في شن حرب إعلامية نفسية ضدّهم وسلب الشرعية عنهم حتى يبرّر ذلك التنكيل بهم والفتك الذريع بحقهم، وقد أجاد شاعرهم الأمير حسن المكزون السنجاري حينما أنشد:

قد بدت البغضاء منهم لنا * كما منالهم بدا الحب

وما لنا إلّا - موالاتنا * لآل طه عندهم ذنب أعود للحديث عن عقيدة العلويين، فأقول ليس للعلويين مذهب خاصّ بهم يختلف عن مذهب أهل البيت - عليهم السّلام - كما يحاول أن يصوّر ذلك بعض الجهّال السّدج، وإنّما هم شيعة إمامية اثنا عشرية يتمذهبون بمذهب أهل البيت - عليهم السّلام - ويعولون عليه في أحكامهم ومعاملاتهم، إلّا أنّ ثمة معتقدات علوية متميزة سوف أحاول التركيز عليها باختصار.

أ. الطريقة الجنبلائية

يقال أحدثها في الشيعة العلويين رجل اسمه أبو محمد عبد الله الجنبلائي المعروف بالجنّان، ويعتقد بعض العلويين أنّه من رسائهم الكبار، ومن أعلم أهل عصره في التصوّف، وكان يقيم في العراق العجمي في بلدة جنبلا، ومن هنا اشتهر بالفارسي، ويقال إنّ سافر إلى مصر وهناك أدخل الحسين بن حمدان الخصيبي في طريقته، وقد تبعه الأخير إلى جنبلا عند عودته فأخذ عنه الأحكام الصوفية والفلسفية وعلوم النجوم والهيئة وبقية العلوم العصرية. (١)

والخصيبي أحد مشايخ العلويين الكبار وقد خلّف الجنبلائي في رئاسته _____

١. على عزيز إبراهيم العلوي: العلويون فدائيو الشيعة المجهولون: ٢٨-٢٩.

(٤١٢)

مشيخة الطريقة وعنه يقول صاحب كتاب تاريخ العلويين:

كان دأب السيد حسين بن حمدان الخصيبي ووكلاؤه في الدين إرشاد بعض أفراد بقية الأديان إلى دين الإسلام، وهؤلاء يقون بصفة أفراد مسلمين شيعة أي جعفرية، والذين يشاهد فيهم الكفاءة يدخلهم في الطريقة الجنبلائية. (١)

من هنا نعلم أنّ الرجل كانت غايته أن يدعو الناس إلى مذهب أهل البيت كما هو ظاهر، وأنّ الطريقة الجنبلائية ليست سوى معتقد صوفي كبقية المعتقدات الصوفية المكتومة لدى أكثر فرق المسلمين. ب. العقيدة في الباب

يرى العلويون أنّ الأئمة - عليهم السّلام - هم أوصياء الرسول - صلّى الله عليه وآله وسلّم - ولما كانت الأئمة - عليهم السّلام - يحصون علوم الأولين والآخرين كان لابدّ لهم من باب يؤخذ فيه عنهم مصداقاً، ولذلك اتبعوا الأثر فأتخذوا باباً لكلّ منهم، والآبواب هم:

١. الإمام علي بن أبي طالب - عليه السّلام - باب مدينة العلم التي هي النبي، وبابه سلمان الفارسي.

٢. الإمام الحسن المجتبي - عليه السّلام - بابه قيس بن ورقة المعروف بالسفيّنة.

٣. الإمام الحسين الشهيد - عليه السّلام - بابه رشيد الهجري.

٤. الإمام علي زين العابدين - عليه السّلام - بابه عبد الله الغالب الكابلي.

٥. الإمام محمد الباقر - عليه السّلام - بابه يحيى بن معمر بن أمّ الطويل الشمالي.

٦. الإمام جعفر الصادق - عليه السّلام - بابه جابر بن يزيد الجعفي.

٧. الإمام موسى الكاظم - عليه السّلام - بابه محمد بن أبي زينب الكاهلي.

٨. الإمام علي الرضا - عليه السّلام - بابه المفضل بن عمر.

٩. الإمام محمد الجواد - عليه السلام - باهه محمد بن مفضل بن عمر _____.

١. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٢٠٨.

(٤١٣)

١٠. الإمام علي الهادي - عليه السلام - باهه عمر بن الفرات، المشهور بالكاتب.

١١. الإمام حسن العسكري - عليه السلام - باهه أبو شعيب محمد بن نصير النميري.

١٢. الإمام الحجّة محمد المهدي - عليه السلام - فلم يكن له باب. المحنة والاضطهاد المتواصل

الشيعة عموماً كانوا يعتقدون عدم استحقاق الحكام العباسيين الذين استندوا إلى وسادة الخلافة، وكانوا يضطهدون الشعوب الإسلامية باسم الدين، ومن جملة هؤلاء العلويون، فعمدت السلطة إلى قمعهم وتشريدهم وتعذيبهم، ونشير فيما يلي إلى بعض محنتهم ومعاناتهم:

١. أيام المتوكل العباسي اشتد الضغط على أتباع أهل البيت - عليهم السلام -، فهاجر جمع غفير منهم إلى أقاصى البلاد كبلاد خراسان وبلاد الأكراد، وذلك عام ٢٣٦هـ، حيث أمر باستحضر أئمة أهل البيت - عليهم السلام - إلى العراق. وفي القرون التالية، هجم الجيش العباسي بمعاونة جماعة من المتعصبين من حى الرصافة ببغداد على حى آخر يسمى الكرخ، فنهبوا الدور، وأحرقوا المكتبات و المحلات التجارية والبيوت (١)

حيث أمر الخليفة المنتصر بقتل الشيع ضحيتها أربعون ألفاً.

٢. أيام السلطان المملوكى محمد بن قلاوون فى عام ١٣٠٥م أمر بتسيير حملة عسكرية عظيمة إلى جبال كسروان (جونه حالياً بقرب بيروت) فى لبنان لإبادة الطوائف الشيعية هناك، ومن جملة من فتك بهم العرب العلويون الذين كانوا فى شمال لبنان، ولا سيما فى القنيطرة و العاقورة ونواحي البترون وعكا ثم امتدوا إلى كسروان، والذين تخلّصوا من الموت رحلوا إلى الشمال، أى جهات

١. أحمد على حسن: المسلمون العلويون فى لبنان: ٣٠، ط ١، ١٩٨٩م، بيروت؛ الشيخ محمود صالح: النبأ اليقين عن العلويين: ١٥٤، مؤسسة البلاغ، بيروت - ١٩٨٧م.

(٤١٤)

اللاذقية وانطاكية. (١)

٣. أيام السلطان سليم العثمانى صدرت فتوى بطلب السلطان، اشتهرت بالفتوى الحامدية، فقتل على إثرها عدد كثير من الشيعة فى حلب وجبال العلويين (٢) ذى هذا بالإضافة إلى تعذيبهم، وكان ذلك بعد انتصار ١٥١٦م فى معركة مرج دابق، فزج السلطان بنصف مليون من الشعب التركى لمواجهة العلويين.

٤. حوالى نهاية القرن الثامن عشر وعلى أثر مقتل طبيب انكليزى استحضر سليمان باشا وتسلم ولاية طرابلس فقتل من قتل من العلويين.

(٣)

٥. أيام ثورة الشيخ صالح العلى، فى شهر ايار عام ١٩٢١م قام الفرنسيون بحرب دون هوادة ضد الشعب العلوى وقتلوا جمعاً غفيراً منهم، وانتهت المعارك بانتصار الفرنسيين، وقيام الحكم الانتدابى فى البلاد. (٤)

هذا مع غض النظر عن المعارك الدامية بينهم وبين الفرنج الصليبيين والقراصنة الذين كانوا يهاجمون الساحل الشامى وحدود الأراضى الإسلامية منذ القرن الثانى إلى أواخر أيام العثمانيين فيأخذون ضحايا من العلويين. (٥) وإضافة إلى المعارك الداخلية والحروب الأهلية الطائفية التى كانت تتأجج نيرانها بدسائس أصحاب السلطة أو المستعمرين والصليبيين؛ كما نشاهد فى حروب العلويين والإسماعيلية، والحروب القبلية بين العشائر العلوية. (٦)

١. المصادر نفسها.

٢. عبد الحسين شرف الدين: الفصول المهمة في تأليف الأئمة: المقدمة؛ على عزيز إبراهيم: العلويون والتشييع: ٤٣؛ محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٣٩٦-٤٠٢ و ٤٤٥.

٣. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٤٤٥.

٤. الشيخ محمود الصالح: النبأ اليقين عن العلويين: ١٦٩.

٥. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٤٢٣-٤٢٦ و ص ٣٠٨.

٦. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٤٢٣-٤٢٦ و ص ٣٠٨.

(٤١٥) الخلط بين العلويين و الإسماعيليين والقرامطة

هذا الاشتباه والخلط حصل لكثير من الباحثين منهم ابن تيمية في فتواه المشهورة حيث رمى الجميع بنبل واحد (١) مدعياً أن الملاحظة الإسماعيلية والقرامطة والباطنية والخرمية والمحمدة أسماء لطائفة واحدة. (٢)

على الرغم من أن الخلافات العقائدية والمناوشات العسكرية لم تترك مجالاً للخلط والاشتباه، فنذكر فيما يلي الحروب الطاحنة التي قامت بين العلويين والإسماعيلية على سبيل الإيجاز:

١. في أيام حسن الصباح سكنت قوى الإسماعيليين جبل القصيرة واستأجرت قلعة القدموس حتى استولوا على قلاع العلويين في مصياف والعليقة والخوابي وأبو قيس وصهيون، وفي عام ٥٢٠هـ استولوا على قلعة بانياس، ولما هجم عليهم المسلمون من كل ناحية عندما رأوا عدم مساعدتهم، حالف الإسماعيليون الصليبيين وسلموهم قلعة بانياس عام ٥٢٣هـ.

٢. تداوم العداء بعد ذلك بين العلويين والإسماعيليين حتى سنة ٩٧٧هـ حيث هجم عليهم العلويون واستولوا على قلاعهم ولكن سرعان ما أنجحت الحكومة العثمانية الإسماعيليين وأعدت لهم مواقعهم.

٣. في خلال سنة ١١١٥هـ جاءت عشيرة بني رسلان واستولت على قلعة مصياف، وقتلت جميع الذكور الكبار، وسكنت مدة ثمان سنين، وهذه العشيرة من العشائر العلوية.

١. راجع نصّالفتوى في رسائل ابن تيمية؛ وتجدها كاملة في مذاهب الإسلاميين لعبد الرحمان بدوي: ٢ | ٤٤٥.

٢. نفس المصدر: ٤٥١.

(٤١٦)

٤. ثم هاجمت بعض القوات العثمانية القلاع لنجدة الإسماعيليين وقذفوهم بالمدافع وسلموا القلعة للإسماعيليين.

٥. تكررت هذه المناوشات حتى لم يبق للإسماعيليين سوى القدموس.

(١)

وممن شهد بذلك من المحققين، الدكتور عارف تامر في كتابيه القرامطة، ومعجم الفرق الإسلامية.

(٢)

٦. كانت هناك محاولات للتقريب بين عقائد الإسماعيلية والعلويين باءت بالفشل بمساعي مشايخ العلويين العلماء على رأسهم حاتم الطوياني سنة ٧٤٥هـ.

(٣)

أهم العشائر العلوية

العشائر العلوية الرئيسة أربع: الحداديون والنميليون والرشاونة والخياطيون، وتقسم كل واحدة من هذه العشائر إلى أفخاذ وبطون، وترجع الثلاث الأولى منها إلى عشيرة المحارزة البشازعة التي هي أقدم العشائر جميعاً.

(٤)

ومن عشائريهم نواصرة وقراحلة ورشاونة ورسالنة، جروية باشوطية ومقاورة، ومهالبة.

فهم يرجعون في نسبهم إلى فرعين رئيسيين: _____:

١) محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٣٣٨-٣٤٠.

٢. عارف تامر: معجم الفرق الإسلامية: ١٢٨ فما بعد.

٣. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٣٧٨.

٤. الدكتور وجيه محي الدين: مجلة النهضة العلوية؛ أحمد زكي تفاحة: أصل العلويين وعقيدتهم: ٢٤-٢٥، المطبعة العلمية، النجف الأشرف - ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

(٤١٧)

١. فرع القبائل اليمينية (العرب القحطانيين) من همدان وكندة.

(١)

٢. فرع القبائل الشامية والعراقية من غسان وبهرا وتنوخ.

(٢)

الذين اعتنقوا المذهب الشيعي في وقت مبكر. بعض قبائلهم كالمحارزة يدعون أنهم هاشميون، وبعضهم ازداد عددهم بهجرة قبائل طي (نهاية القرن الثالث الهجري) وغسان الذين دفعتهم الحروب الصليبية ومعهم الأمير حسن بن المكزون (ت ٦٣٨هـ) من جبل سنجان في العراق إلى منطقة الشام في المنطقة الممتدة من طبرية وجبل عامل حتى حلب.

(٣)

العشائر العلوية كانوا يسكنون بادية الشام أولاً ثم نزحوا إلى ديار ربيعة في الجزيرة الفراتية، وفي العهد العثماني تركوا بلادهم وسكنوا بيلان، اضنه وانطاكية وقسم منهم سكنوا منطقة الكليية بقرب اللاذقية في سوريا وقسم آخر منهم في جبال البهرة مع الإسماعيليين، وتسمى جبال لكام، وقسم آخر منهم في جند الأردن وطبريا بالقدس المحتلة.

ومعظم العلويين يحتشدون في سلسلة الجبال الممتدة من عكار

(٤) جنوباً إلى طوروس شمالاً، ويتوزع بعضهم في محافظات حمص، حماة ودمشق وحوارن كيليكيا ولواء الاسكندرون في سوريا،

ويوجد في المهاجر الأمريكية أكثر من ربع مليون علوي فضلاً عن الموجود منهم في لبنان والعراق وفلسطين وإيران. (٥)

وكذلك في أوروبا من تركيا واليونان وبلغاريا إلى ألبانيا السفلى.

(٦)

١. تاريخ اليعقوبي: ٣٢٤، طبع ليدن.

٢. الهمداني: صفة جزيرة العرب: ١٣٢، وراجع تاريخ العلويين: لمحمد أمين غالب الطويل: ٣٤٩-٣٥٦.

٣. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ٣٥٦.

٤. في لبنان وكذلك يتواجدون في وادي التيم، وفي جبال الظنين (راجع لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني للدكتور محمد علي ملي).

٥. عبد اللطيف يونس: الثورة العلوية؛ الدكتور سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام.

٦. هاشم عثمان: العلويون بين الأسطورة والحقيقة: ٤٠-٤١.

(٤١٨) أعلام العلويين ١. إسحاق الأحمر (... - ٢٨٦هـ) إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان النخعي، أبو يعقوب، الملقب بالأحمر، من أهل الكوفة، رئيس الطائفة الإِسحاقية، وإليه نسبتهم وكانوا بالمدائن على نحلة النصيرية، وكان إسحاق يطلى بصره بما يغيره فسمى الأحمر، وقيل: لبرص فيه. ذكره الذهبي في رجال الحديث وطعن به وبالغ في ذمه، عمل كتاباً في التوحيد سماه «الصراط».

(١) ٢. المنتجب العاني (٣٣٠-٤٠٠هـ) محمد بن الحسن العاني الخديجي المضرى، أبو الفضل، المنتجب، ولد في عانة عام ٣٣٠هـ وإليها نسبه، ونشأ فيها وفي بغداد حيث استقر مدّة، ثم انتقل إلى حلب وسكنها ثم غادرها إلى جبال اللاذقية واتصل بحسين بن حمدان الخصبي وتلقى عنه العقيدة والطريقة وأصبح من دعائها، وله ديوان شعر كان شاعراً وجدانياً غزير المعاني باطنياً.

(٢)

١. ميزان الاعتدال: ١/١٩٦ برقم ٧٨٤؛ البداية والنهاية: ١١/٨٢؛ لسان الميزان: ١/٣٧٠؛ تاريخ بغداد: ٣/٢٩٠ و٦/٣٧٨؛ الأعلام: ١/٢٩٥.

٢. الزركلى: الأعلام: ٦/٨٢؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي: ٣/٣٥٨؛ الدكتور أسعد أحمد على: فن المنتجب العاني وعرفانه: ٣٧، دار النعمان، بيروت - ١٩٦٨م.

(٤١٩) ٣. الحسين بن حمدان الخصبي (٢٦٠-٣٥٨هـ) ومن أعظم رجالات العلويين وعلمائهم الحسين بن حمدان الخصبي الجنبلائي

(١) وكنيته أبو عبد الله، ولد في جنبل سنة ٥٦ سبع سنين، وحفظه وهو ابن عشر، وحج وهو ابن عشرين، وأتى حلب سنة ٣١٥هـ وتوفى فيها عام ٣٥٨هـ وقبره يعرف بالشيخ بندق. (٢)

وشهد وفاته بعض تلامذته ومريديه، منهم: أبو محمد القيس البديعي، وأبو محمد الحسن بن محمد الاعزازي، وأبو الحسن محمد بن علي الجلي.

وأقوال المورخين المعاصرين عنه كثيرة بين متحامل عليه وحاقده، وبين ملتزم في الصمت، منهم: النجاشي، وابن الغضائري، وصاحب الخلاصة من المتحاملين عليه.

وفي الفهرست لابن النديم: الحسين بن حمدان الخصبي الجنبلائي يكنى أبا عبد الله، روى عنه التلعكبري وسمع منه في داره بالكوفة سنة ٣٣٤هـ وله فيه إجازة.

وفي لسان الميزان: الحسين بن حمدان بن خصيب الخصبي أحد المصنفين في فقه الإمامية، روى عنه أبو العباس بن عقدة وأثنى عليه وأطراه وامتدحه، كان يوم سيف الدولة ابن حمدان في حلب.

(٣)

وفي أعيان الشيعة للعلامة السيد محسن الأمين العاملي ترجمة للخصبي

١. جنبل محدوداً بضميتين وثانية ساكنة، كورة ومنزل بين واسط والكوفة في العراق.

٢. محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين: ١٩٨؛ الطبرسي النوري: نفس الرحمن: ١٤٢-١٤٤.

٣. علي عزيز الأبراهيم: العلويون والتشيع: ١٢٩.

(٤٢٠)

مفادها امتداحه والثناء عليه وكل ما نسب إليه من معاصريه وغيرهم لا أصل له ولا صحه وإنما كان طاهر السريرة والجيب وصحيح العقيدة. (١)

ومن أهم مصنفاته:

١. كتاب الهداية الكبرى في تاريخ النبي والأئمة ومعجزاتهم وقد قدم كتابه هذا إلى سيف الدولة الحمداني.

(٢)

وهذا الكتاب يشتمل على أربعة عشر باباً في مناقب الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأهل بيته، أولها باب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وثانيها باب السيدة الزهراء - عَلَيْهَا السَّلَام -، وثالثها باب لكل إمام منهم باب من علي إلى المهدي - عَلَيْهِمُ السَّلَام -، غير أنه توسع في باب المهدي (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ). وقد عدَّ في هذا الكتاب أسماء رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، وأسماء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عَلَيْهِ السَّلَام -، وأسماء فاطمة الزهراء والحسن والحسين والأئمة التسعة من ذرية الحسين - عَلَيْهِمُ السَّلَام - في السرياني والعبراني والعربي وجميع اللغات المختلفة بجميع أسمائهم وكناهم والخاص والعام منهم، وأسماء أمهاتهم ومواليدهم وأولادهم ودلائلهم وبراهينهم في الأوقات، ووفراً من كلامهم وشاهدتهم وأبوابهم والدلالة من كتاب الله عزَّ وجلَّ والأخبار المروية الماثورة بالأسانيد الصحيحة، وفضل شيعتهم.

٢. الإخوان ٣. المسائل ٤. تاريخ الأئمة ٥. الرسالة ٦. أسماء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وأسماء الأئمة. (٣)

١. محسن الأمين العاملي: أعيان الشيعة: ٥/٤٩٠-٤٩١.

٢. الذريعة: ٢٥/١٦٤؛ أحمد زكي تفاعاً: أصل العلويين وعقيدتهم: ٥٥؛ المامقاني: تنقيح المقال: ١/٣٢٦.

٣. أعيان الشيعة: ٥/٤٩١.

(٢١) ٤. الميمون الطبراني (٣٥٨ - ٤٢٦هـ) سرور بن القاسم الطبراني، أبو سعيد، الملقب بالميمون شيخ العلويين في اللاذقية، ورئيس الطريقة المعروفة عندهم بالجنبلانية، ولد في طبريا وإليها نسبه، وانتقل إلى حلب فتفقه بفقه العلويين أصحاب الخصيبي والجنبلاني، وصنف كتاباً في مذهبهم، ثم رحل إلى اللاذقية والتف حوله من فيها منهم واستمر إلى أن توفي ودفن بها على شاطئ البحر في مسجد الشعراني.

(١) ٥. الحسن بن مكزون السنجاري (٥٨٣ - ٦٣٨هـ) هو الأمير حسن بن يوسف مكزون ابن خضر، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة الأنزدي ولد عام ٥٨٣هـ في سنجار العراق، يعدّه العلويون في سورية من كبار رجالهم، كان مقامه في سنجار أميراً عليها، واستنجد به علويو اللاذقية ليدفع عنهم شرور الإسماعيلية سنة ٦١٧هـ فزحف إليهم سنة ٦٢٠هـ وأزال نفوذهم، ثم تصوّف وانصرف إلى العبادة، ومات في قرية «كفر سوسة» عام ٦٣٨هـ بقرب دمشق، وقبره معروف فيها.

(٢)

له ديوان شعر، وكتاب تزكية النفس في العبادات الخمس، وهو صاحب _____

١. الزركلي: الأعلام: ٣/٨١؛ ترماني: أحداث التاريخ الإسلامي: ٢/١١٣٢.

٢. الزركلي: الأعلام: ٢/٢٢٧.

(٢٢٢)

نزعة فلسفية روحية تميل نحو فلسفة محي الدين العربي في تفسير القرآن على رأي المتصوفين، وأنه يعارض ابن الفارض في تائيته في جملة قصائده التي مطلعها:

ليت لما دعنتي ربّة الحجب * وغبت عنى بها في شدّة الطرب

(١)

إلى غير ذلك من الشخصيات التي ذكرها أصحاب التراجم.

تم الجزء الثامن من

«موسوعة بحوث في الملل والنحل»

ولاح بدر تمامه في اليوم

الثاني من شهر رمضان المبارك

من شهور عام ١٤١٨

على يد الفقير إلى الله جعفر السبحاني

ابن الفقيه محمد حسين الخياباني التبريزي تغمده الله بواسع رحمته

حامداً لله ومصلياً على النبي والآل

راجياً غفو ربّه وغفرانه

يوم المساق يوم تلتف الساق بالساق _____

١. أحمد زكي تفاعه: أصل العلويين وعقيدتهم: ٢٩-٣٠؛ يونس رمضان: تاريخ المكزون: ٢ | ٣٤٠-٣٤١؛ أسعد أحمد علي: معرفة الله، و المكزون السنجاري: ١ | ٥١٠-٥١١، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٢م.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموركم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رحم الله عبداً أحيا أمرنا... يتعلم علمنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا (ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رحمه الله - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة كم ينطفي مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبي - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشئته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسايل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

- (ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول
- (ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...
- (د) إبداع الموقع الانترنتى " القائمية " www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أحر
- (ه) إنتاج المنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية
- (و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
- (ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيرة SMS
- (ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رمضان " و "مفترق" و "فانى" / "بنايه" القائمية " تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبية، تبرعية، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الديتية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - فى حد التمكن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

